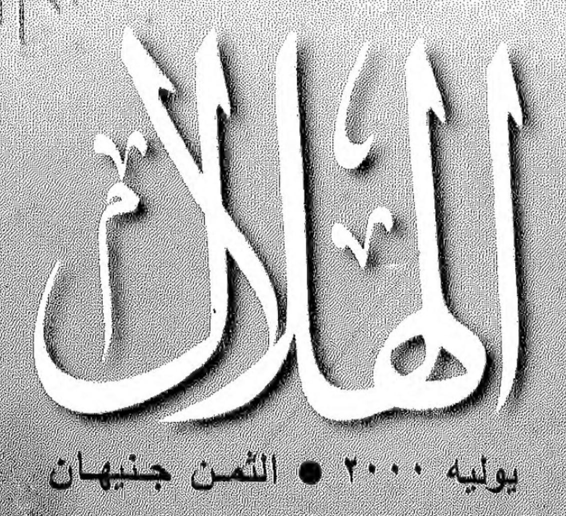


أحوال مصر في مطلع القرن العشرين

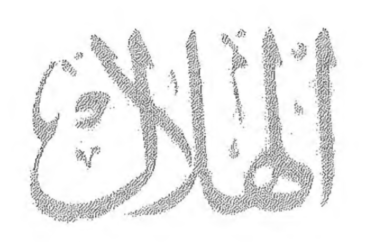
يوليه ٢٠٠٠ • الثمن جنيهان

أصل الإنسان بين داروين وعبد الصبور

القصة الكاملة ليهود الجزائر

أزمة اليسار المصرى


مزايا كبيرة ينفرد بتقديمها بنك مصر
من خلال دفتر التوفير
العادى وذو الجوائز بالجنيه المصرى
● يمكن فتح الدفتر بأى مبلغ وبدون حد أقصى
● للعميل حرية السحب والإيداع من أى فرع لبنك مصر
● للعميل دفتر يبين به حركة حسابه ورصيده
دفتر توفير ذو الجوائز
● يفتح الدفتر بمبلغ ١٠ جنيهات.
● يحتسب عائد سنوى بالإضافة إلى الاشتراك فى السحوبات الشهرية
جائزة أولى ٥٠٠٠ جنيه ترتفع إلى ١٠٠٠٠ جنيه
فى شهرى مايو وأكتوبر
● سحب إضافى لفروع المحافظات بعدد ٦ جوائز
● يمكن فتح دفتر توفير باسم القاصر والصبى المميز
● يمكن فتح دفتر توفير مشترك للزوج والزوجة والأبناء
● يمكن فتح دفتر توفير للقاصر بإيداعات من الأم أو الغير الذى له الحق فى السحب والإيداع حتى بلوغ القاصر سن الرشد
بنك مصر
هكذا يكون البنك



مـجلة ثقـافيـة تصـدرها دار الهـلال

أسـسـهـا جـرجـى زيدان عــام ١٨٩٢

العام الثامن بعد المائة

يوليه ٢٠٠٠م ● ربيع الأول ١٤٢١ هـ

الإدارة القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) . المكاتبات : ص.ب. ٦١ - العتبة - الرقم البريدى : ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج. م. ع. مجلة الهلال ت ٣٦٢٥٤٨١ - تلكس Hilal un 92703 فاكس FAX : ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكترونى : darhilal@idsc . gov . eg

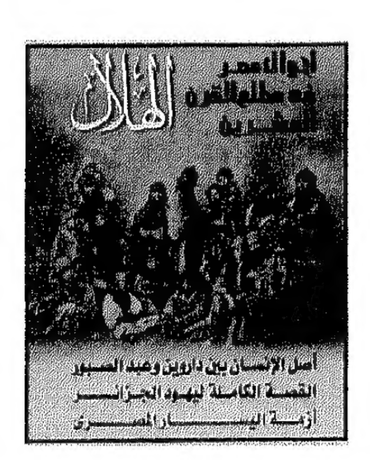
ثمن النسخة سوريا ٦٠ ليرة - لبنان ٣٠٠٠ ليرة - الأردن ١٢٠٠ فلس - الكويت ٧٥٠ فلسا، السعودية ١٠ ريالات - تونس ١.٧٥٠ دينار - المغرب ١٥ درهماً - البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبى/ أبو ظبى ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال - الجمهورية اليمنية ١٢٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ١ دولار - إيطاليا ٤٥٠٠ ليرة - المملكة المتحدة ٢.٥ جنيه

الاشتراكات قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عدداً) ٢٤ جنيها داخل ج.م.ع. تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٢٠ دولارا . أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولاراً . باقى دول العالم ٤٥ دولاراً

● وكيل الإشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيونى زغلول - ص ب رقم ٢١٨٣٣ - الصفاة - الكويت - ت/ 13079 ٤٧٤١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويُرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

هذا العدد



تصميم الغلاف
للفنان
محمد أبوطالب

فكر وثقافة

دائرة حوار

فـــنـــون

التكوين

شعر وقصة

عزيزى القارئ

المثلث الذهبى

عزيزى القارىء

المدخل الطبيعى للنهضة يبدأ بالمثلث الذهبى المتمثل فى الأضلاع الثلاثة التربية والتعليم وفى الثقافة وفى الاعلام..

والعالم من حولنا يشهد تغيرات واسعة تتناول كافة جوانب الحياة، وتتنافس دول العالم فى القدرة على تطوير هذه المجالات الثلاث، وهى المجالات التى لايجوز فيها أى تهاون أو تقصير..

وتبذل جهود كبيرة فى هذه المجالات، ولكنها غير كافية.

ونجد فى مجال التربية والتعليم بلداً مثل كندا تشهد ظاهرة أطفال الكمبيوتر، يقوم فيه أطفال وصبية بعمل برمجيات تتخاطفها الشركات العالمية، وقد حقق صبى لايتجاوز عمره ثمانية عشر ربيعاً من بيع البرمجيات ما قيمته عشرة ملايين دولار، وذلك أحد نتائج نظام التعليم الذى أدخل تعليم الكمبيوتر فى المراحل الأولى.

وأقيمت خمسة معاهد تكنولوجية فى الهند على غرار جامعة «إم.أى.تى» الأمريكية، مما مكنها أن تصبح من أكبر المصدرين للبرمجيات فى العالم، وأصبحت الشركات العالمية الكبرى ترسل عبر البريد الالكترونى حساباتها لكى يتم عمل قوائم الحسابات فى الهند بأرخص وأسرع وأكفأ الأساليب.

وتتنافس الدول جميعا فى تطوير وتحديث برامج التربية والتعليم، والحديث عن التعليم اليوم يتناول التعليم الدائم والمستمر ، لتوسيع وتجديد المعرفة ، ومتابعة التغيرات العالمية والمحلية ، ومتابعة المعارف العلمية والانجازات التكنولوجية.

وهو مجال علينا أن نبذل فيه الجهود المتواصلة..

أما الثقافة فهى التى تصنع الوجدان العام، وهى التى توحد الأمة حول أهداف وبرامج محددة، وهى التى تحافظ على ذاكرة الوطن، وتساهم فى كشف المخاطر التى تهدده.. وهى التى لاتجعل المجتمع جالسا ينتظر ، ولكنها تضىء له الطريق، وتقدم له

البدائل التى تساعده على النهوض ، وهى أيضا التى ترتقى بالذوق العام، وتجعل حياة الناس أكثر جمالاً ، وهى التى تكسب المجتمع القدرة على التعامل مع التكنولوجيا الجديدة ، ولاتكتفى بمجرد الحديث عنها ، ولكن العمل على استيعاب المناسب منها. والثقافة هى التى تطلق طاقات الإبداع، فالابداع هو رؤية ما يجرى فى مناطق التماس بين التخصصات المختلفة ، والرؤية عبر كل التخصصات لترى أفق المستقبل.

والشرط اللازم لتحقيق ذلك هو الحرية والتسامح.

ونصل إلى الإعلام وتأثيره المباشر على الرأى العام، وهو الغذاء اليومى للمتلقى والذى يضم الصحافة والإذاعة والتليفزيون، والحرية والمصداقية هما الركيزتان الأساسيتان لازدهار الاعلام ، والحرية لا تعنى العاملين فى الإعلام وحدهم ، بل هى حق المواطن فى المعرفة وحقه فى الاختيار.

والمشهد الإعلامى الراهن يحتاج إلى مزيد من الجهد ، فحجم قراء الصحف فى مصر ثابت رغم زيادة السكان وزيادة عدد الجامعات كما أن أسعار الصحف فى زيادة مستمرة، وكثيرا ما تغيب الصحف المصرية عن كثير من الأحداث العالمية المهمة، ولم تعد كما كانت منتشرة ومؤثرة فى البلدان العربية.

ويجرى تنافس بين الصحافة والتليفزيون ، رغم ذوبان الحدود الفاصلة بين الوسائل ، فيما يطلق عليه الوسائط المتعددة MELTI MEdia، وهى دمج الإذاعة والتليفزيون والصحافة، والتى تقدم المادة الإعلامية بشكل سمعى بصرى متحرك، مع تكنولوجيا البث الرقمى . مما يؤدى بالضرورة إلى تعاون هذه الوسائط بدلا من التضارب والمنافسة .

وكثيرا ما يخسر التليفزيون السباق مع الفضائيات العربية والدولية، فى ظل هذا التطور التكنولوجى الضخم ، ومع ثورة المعلومات والاتصالات خلال العقدين الأخيرين، خاصة ما أخدثته وسائل الإعلام المطبوعة والمسموعة والمرئية من تحولات.

وهذا كله يحتاج إلى كفاءات ومهارات عالية ورغم ذلك فما ينفق على العدد والآلات وشراء التكنولوجيا الحديثة لايقارن بتدنى ما ينفق على إعداد وتدريب الإعلاميين.

وتحجب المعلومات - أحيانا - رغم فيض المعلومات التى تتدفق عبر الانترنت، والتى تحتاج إلى قدرة خاصة على قراءتها وتصنيفها والاستفادة منها.

ولايؤدى ذلك سوى إلى الانصراف عن الوسائط المصرية إلى غيرها، وقد ذكرت بعض الدراسات أنه فى فترة الأزمات تتراجع أهمية الصحف والإذاعة والتليفزيون ، ويتجه الكثيرون من المتلقين إلى الوسائط الأجنبية !.

إن معالجة القصور فى أضلاع المثلث الذهبى هو المدخل الطبيعى للقرن الحادى والعشرين.

المحـــــرر

القصة الكاملة

بقلم : مصطفى نبيل

دعا رئيس الوزراء الاسرائيلى ايهود باراك وفدا صحفيا يضم عدداً من رؤساء تحرير الصحف الجزائرية لزيارة إسرائيل، يوم ٢٥ يونيو الماضى.

وقامت سفارة إسرائيل فى باريس بترتيب هذه الدعوة.

وتأتى هذه الدعوة نتيجة لجهود طويلة، يمكن الإمساك بخيوطها بعد معرفة القصة الكاملة ليهود الجزائر.

أسرة يهودية عاشت فى الجزائر حيث جاء اليهود إلى الجزائر فى عصر البربر

ليهود الجزائر

لايوجد كتاب أو دراسة باللغة العربية تروي قصة يهود الجزائر ، عدا بعض الدراسات الأكاديمية القليلة وبعض الفقرات والجمل في كتابات المؤرخين المعاصرين، مما يعني فراغا كبيراً في المكتبة العربية ، وتستغل الصهيونية ذلك الفراغ لترويج مغالطاتها وإدعاءاتها.

وزادت أهمية المسألة بعد تدفق كتابات رموز الثقافة الصهيونية من يهود الجزائر الذين رحلوا إلي فرنسا، ونشر العديد من مقالاتهم في الصحافة الجزائرية، كأعمال الكاتب الصهيوني جاك ديريدا وحاييم الزعفراني والمؤرخ بنيامين ستورا الذي يكتب وكأنه الناطق باسم تاريخ الجزائر..

وغدا الجزائريون معرضين لكي يصبحوا من جديد ضحية تشويه الحقيقة واللعب بالتاريخ ..!

ومن هنا جاءت أهمية كتاب «يهود الجزائر» لصاحبه فوزي سعد الله الذي صدر أخيراً فى الجزائر ويكفي أن ينبه هذا الكتاب القاريء عن الخطر المقبل.

فبعد أن برزت على السطح قصة «يهود الجزائر» وأخذ كل طرف يقدم رؤيته الخاصة وتدفق على الجزائر اليهود الذين سبق ورحلوا طوعاً من الجزائر إلى فرنسا ، عند حصول الجزائر على إستقلالها سنة ١٩٦٢، وزار الجزائر من رجال الفن وحدهم أربعون شخصية يهودية، بالاضافة إلى عشرات من رجال الأعمال اليهود، ولم تقتصر زيارتهم على المعالم السياحية، بل أظهروا مشاعر الحنين إلى أيام ومرتع طفولتهم وصباهم.

وظهرت نوعية جديدة من الكتابات فى بعض الصحف الجزائرية ، تعالج مستقبل العلاقات بين الجزائر وإسرائيل ، وتطالب السياسة الجزائرية بالواقعية فى ظل موازين القوى الجديدة، وجاء فى إحدى هذه الصحف: «إن الظروف الراهنة لا تسمح بنبش الوجه السلبى

لليهود» ، وتسللت لهذه الصحف وجهة النظر الإسرائيلية، فهذا حديث للأمين العام لوزارة الخارجية الإسرائيلية وحديث آخر مع السفير الإسرائيلى فى باريس، وثالث مع شيمون بيريز، وآخرهم نشرته صحيفة الخبر- أكثر الصحف توزيعاً - وهو حديث مع باراك رئيس الوزراء الإسرائيلى يطالب فيه الجزائر بالتعامل مع إسرائيل مباشرة دون المرور على أمريكا «!» ، وأنكر ما يتردد من رغبة إسرائيل الهيمنة الثقافية على المنطقة العربية فكيف لها أن تسيطر فى ظل العولمة!.

وأوفدت صحيفة الوطن الجزائرية لأول مرة صحفيا جزائريا لزيارة الأراضى المحتلة،.وطالب رجل الجزائر القوى خالد نزار بضرورة تهيئة الجو للتطبيع مع إسرائيل، وتوقع نزار أن تقيم الجزائر علاقات مع إسرائيل قريبا. وانتقد استمرار الجزائر الإلتزام بمبادىء جامدة ، وغير مواكبة للتطورات.

وقامت الدنيا ولم تقعد فى الجزائر. عندما دعت مؤسسة «رياض الفتح» المغنى الفرنسى اليهودى، والجزائرى الأصل أنديكو ما سياس لزيارة الجزائر، ونجحت لجنة مقاومة التطبيع فى تأجيلها أو إلغائها، وهى اللجنة الوطنية التى تشكلت لمواجهة الصهيونية التى يرأسها أحد الشخصيات الوطنية المرموقة وهو عبدالعزيز بلخادم رئيس البرلمان الجزائرى السابق، وتضم هذه اللجنة عدداً من الشخصيات التاريخية مثل عبدالحميد مهدى.

وتأتى - عادة - الطليعة المتقدمة من أجل التطبيع مع إسرائيل من يهود البلد المستهدف، وهذا ما تشهده كل من اليمن والمغرب وتونس ، وجاء الدور على الجزائر.

ويهود الجزائر مرشحون للعب دور بارز فى تطبيع العلاقات مع إسرائيل !.

الرمال العربية !

ويحذر فوزى سعد الله من أن الخطر يتمثل فى أن السلطة بدأت تفتح ذراعيها أمام الكتابات والرؤى الصهيونية الفرنسية المصدر ، فمثلا ينشر بن سسان الأستاذ بجامعة رينيه بعض ذكرياته في الجزائر ، وما حفظه عن أمه عائشة من أمثال .. «المسلم خونا من الطين، وعدونا من الدين»، ولدى زيارته للجزائر عام ١٩٨٢ كتب يقول .. «رأيت بعد عشرين عاما ، الجزائر ميتة، .. وحتى الموت يبدو لى ميتا، لقد انفصلت الجزائر ، واختفت بعيدا عن ضفاف البحر المتوسط الفرنكفونى، والتحقت وغاصت بالرمال العربية!» .

وسعى فوزى سعد الله إلى رصد ما يجرى ، فلأول مرة ، تكتشف الجزائر منذ الاستقلال ، بدهشة واستغراب موضوع يهود الجزائر، فيعرف يهود الجزائر كل شىء عن الجزائر ، ولاتعرف الجزائر أى شىء عن هؤلاء اليهود ، فثلاثة أرباع الشعب الجزائرى ولد بعد الاستقلال ،

ولايعرفون تفاصيل وقائع الثورة، هذا رغم أن قصة يهود الجزائر تستحق أن تروى.

ونتوقف قليلا عن المشهد الكاشف الذى يلخص الحكاية كلها.. فعند إعلان الاستقلال سنة ١٩٦٢ ، عمت الفرحة «الشعب الجزائرى» أما اليهود الذين ربطوا مصيرهم بقوات الإحتلال الفرنسي وبالكولون وبالمستوطنين الفرنسيين. فأخذوا يجمعون حاجياتهم ويبيعون ممتلكاتهم لكى يرحلوا مع قوات الاحتلال.

ولايعرف الجيل الجديد أن أغلبية اليهود اختارت الرحيل إلى فرنسا، ولابد هنا لمن يقلب تاريخ الثورة الجزائرية أن يتوقف طويلاً عند البيان الذى أصدرته الثورة الجزائرية ، تطلب خلاله من اليهود عدم الرحيل والبقاء والمشاركة فى بناء الجزائر الجديدة . هذا رغم تورط عدد كبير من اليهود مع إرهابيّ المنظمة المسلحة السرية الأقدام السوداء «OAS» ، وعزمت الثورة رغم ذلك على فتح صفحة جديدة ، وطالبت اليهود بالبقاء باعتبارهم مواطنين جزائريين من أبنائها.

ولم يستجب لنداء الثورة سوى عدد قليل من العائلات لا يتعدى ألف نسمة معظمهم من الشيوخ مثل عائلات بلعيش وأبو الخير وطوبيانا وسلمون كوهين.

وقبلها وعند قيام الثورة دعت جبهة التحرير يهود الجزائر «إلى الالتحاق بالثورة فى رسالة مؤرخة يوم ٢ مايو ١٩٥٦، ووصفتهم الرسالة بالمواطنين الأعزاء، وذكرتهم بأن الجزائر التي لا ولم تعتبر اليهود «أقل من الحيوان» كما فعلت فرنسا ، بل كانت مأوى لجميع يهود العالم على طول التاريخ ، يفرون إليها من القمع والاضطهاد ، وناشدتهم اختيار الجنسية الجزائرية والتمسك بها».

ورغم هذا النداء تبنى اليهود المطالبة بإبقاء الجزائر تحت سيطرة فرنسا .

ويفسر المؤرخ الإسرائيلى صموئيل أتبنجر هذا الموقف بقوله ..«عندما نشبت المواجهة بين السكان والسلطة الإستعمارية- ويتجنب لفظ الثورة- عقد اليهود آمالهم على حماية فرنسا ، الأمر الذى أدى إلى تدهور علاقاتهم بالثورة..» ويضيف .. كان حصول يهود الجزائر على حقوق المواطنة الفرنسية ، عملا بما يطلق عليه «قانون كرمية» من بين أسباب إرتباط اليهود بالاستعمار الفرنسى وجوداً وعدما. فحصول اليهود على حقوق المواطنة كان أحد أسباب ظهور التباعد والجفوة مع الاهالى، ولعل هجرة الغالبية العظمى من يهود الجزائر إلى فرنسا خير دليل على صحة هذا الحكم – والكلام هنا للمؤرخ الإسرائيلى.

فما هو هذا القانون ..؟ .. أعطى هذا القانون حق المواطنة الفرنسية ليهود الجزائر ، وقد صدر عام ١٨٧٠ ، بشرط أن يأخذ يهود الجزائر بالثقافة الفرنسية، وعندما أصدر أدولف كرمية هذا المرسوم ، حصل بمقتضاه ٤٠ ألف يهودى على

الجنسية الفرنسية، يجندون في الجيش الفرنسي ، ويشاركون في الانتخابات ويتمتعون بكل إمتيازات المستعمر.

ورفع هذا المرسوم الكثير من يهود المغرب وتونس إلى الانتقال إلى الجزائر والحصول على حق المواطنة، وزاد عدد اليهود في الجزائر بين احتلال فرنسا للجزائر ونهاية الحرب العالمية الثانية زيادة كبيرة، وبلغت هذه الزيادة بين عامي ١٨٣٠ و١٩٤١ سبعة أضعاف ما كانت عليه، وتقول الأرقام أنه عند احتلال فرنسا، كان سكان العاصمة ٣٢ ألف نسمة، منهم ١٩ ألف جزائري، و٤ آلاف تركي و٥ آلاف يهودي.

ومنذ بداية الثورة ، انضم العشرات من يهود الجزائر إلى قوافل الرحيل ، سواء إلى إسرائيل أو إلى فرنسا..

ويروي الرئيسي الجزائري السابق علي كافي وأحد قادة الثورة في الداخل .. الدور الذي لعبه اليهود ضد الثورة ، عندما «بدأ عدد من اليهود يغادرون قسنطينة، وطلب خمسون منهم من السلطات جوازات سفر للتوجه إلى إسرائيل ، وأخذت ٧٨ حالة تتنازل عن الحق في البنايات ذات الملكية المشتركة.....» «ص ١٩٦ مذكرات علي كافي».

الغزو الفرنسي

وربما يعود سبب الرحيل الكبير ليهود الجزائر إلي أيام الحملة العسكرية الفرنسية عام١٨٣٠ ، فكما هو معروف جاء الاحتلال الفرنسي، بسبب ما عرف بقضية بكري وبوشناق ، وبكري هذا ، كان أحد اليهود الذي لديه ديون عند فرنسا . حينما كان وسيطا في تصدير القمح إليها، وعندما طالب «الداي» بهذه الديون لم يتلق إجابة مرضية ، لذا ضرب «الداي» القنصل الفرنسي بالمروحة وأدت هذه الحادثة إلى الحرب ، فلم يعد الشرق يشكل أي قوة من شأنها ردع الغرب.

وتبين بعد ذلك ، «أن جزءا كبيرا من الديون سبق دفعها ، دون إعلام بكري للداي بذلك بل وحصل اليهوديان على المبلغ المستحق لخزينة الجزائر، وهرب بوشناق إلى إيطاليا، بينما التحق بكري بفرنسا «تاريخ الجزائر د. عمار يوجوش» وساءت العلاقات بين البلدين بعد أن عجزت فرنسا عن الرد بعد التغيرات التي طرأت على تسديد الديون المتراكمة.

وكتب أحد رجال الحملة الفرنسية على الجزائر قائلا : «.. خرج اليهود يطوفون الشوارع فرحين، وكانت الآلاف تسير خلفهم ، وكان في مقدمة اليهود يعقوب بكري ومنافسه دوران اللذان قدما للقائد الأعلى هدايا فاخرة.. وأصبح يعقوب بكري ودوران من أقرب مستشاري القائد العام الفرنسي...»

ويورد المؤرخ الإسرائيلي صموئيل اتبنجر شهادات بعض القادة الفرنسيين التي تؤكد أن يهود الجزائر كانوا من أوائل الذين رحبوا بالجنود الفرنسيين ،



توزيع الأرض على المستوطنين





دخول الفرنسيين مدينة الجزائر

وتنفسوا الصعداء عن هزيمة القوات الجزائرية ، كما اعتبروا يوم الاحتلال الفرنسي للجزائر عيدا لهم.

اختار اليهود الانحياز الكامل إلى قوات الاحتلال ، رغم ما صرح به حاخام اليهود الأكبر موريس إيزينث ، والذى احتل منصب الحاخام الأكبر من الثلاثينيات حتى الخمسينيات والذى يقول «... لم يكن اليهود ضحايا لأى صورة من صور القمع أو أى معاملات لستثنائية، بل كانوا يتنفسون بحرية، وكان بإمكانهم التنقل بكل أمان، فعاشوا فى سلام، ينعمون بحياتهم الخاصة ويسيرون أعمالهم، ويقدسون الرب ، سواء فى حاراتهم أو مختلطين بالمسلمين ..»

وأصبح اليهود اليوم بعد كل هذه التجارب مكونا رئيسيا فى العلاقات الفرنسية الجزائرية ، ويقدر عدد يهود المغرب فى فرنسا بسبعمائة وخمسين ألف نسمة، ويكاد يكون قد تم نقل كل أبناء الطائفة اليهودية بالجزائر بكل مؤسساتها إلى فرنسا ، كما انتقل عدد قليل منهم إلى إسرائيل.

وتبنى يهود الجزائر منذ وصولهم إلى فرنسا سياسة ثابتة معارضة للنظام الفرنسى الذى منح الاستقلال للجزائر، ويدعون إلى عودة السيطرة الاستعمارية بأشكالها الجديدة، وترى فى الدعوة الفرانكفونية حلاً مقبولاً.

وطوال التاريخ ، أقام اليهود مثلثا ذهبيا بين ايطاليا «ليفورن» ومدينة الجزائر ومرسيليا فى فرنسا للتبادل بين شمال وجنوب البحر الأبيض.

فكان اليهود واسطة العقد بين الجنوب الأوروبى و الشمال الافريقى، وصلة الوصل ينتحلون أسماء أوربية فى أوروبا، وعربية فى شمال أفريقيا، وأحياناً يتظاهرون بالمسيحية فى الضفة الشمالية من المتوسط، ويتظاهرون بالإسلام فى ضفته الجنوبية.

ولدى زيارتى الأخيرة للجزائر ، سمعت أكثر من حكاية حول وجود عائلات يهودية ، تتكتم ديانتها، ويحملون أسماء عربية، مثل مليحة وخديجة وعيوشة ويكرى.

الكاهنة

أما الأفكار التى تقوم عليها الحملة الصهيونية الجديدة ، فهى السعى إلى خلق هوية جديدة، تمتزج فيها الديانة اليهودية مع البربر، وتقول إن البربر كانوا يعتنقون الديانة اليهودية قبل دخول الإسلام، وتدعى أن الصراع الذى قام بين الفاتحين العرب وبين قوات «الكاهنة» كان صراعاً بين الإسلام واليهودية، كل ذلك من أجل صنع صورة متخيلة يستحيل معها التمييز بين اليهودى والبربرى ! .

وترجح هذه الكتابات ذوبان البربر مع اليهود، رغم ما فى ذلك من نفي للنظرية

الصهيونية التى ترى أن اليهودية ليست ديانة فحسب بل هى قومية أيضا، وهذا ، ما تسلط عليه الأضواء فى كافة المعاهد العبرية.

ويصل الأمر بريتشارد آيون وبرنارد كوهين إلى التأكيد أن أبا عبدالله المهدى الفاطمى، الذى انطلقت دعوته لإقامة الدولة الفاطمية له أصول يهودية.

ويعتمدون أيضا على حكاية الكاهنة وأن هناك علاقة تاريخية بين اليهود والبربر فى الفترة السابقة على دخول الاسلام، ويعتبرون «الكاهنة» هى الشخصية المحورية للتداخل والامتزاج بين البربر واليهود، ويجعلون «الكاهنة» رمزا لهوية مشتركة ، ويسعى المؤرخون اليهود إلى تضخيم عدد اليهود ، وأن أغلبية البربر كانت تدين باليهودية!.

ففى زمن الخليفة عبدالله بن مروان ، قام حسان بن النعمان بالدخول إلى تبسه وتوجه إلى الأوراس ، ووقعت معركة كبيرة بين جيشها المنهك وبين الملكة البربرية «الكاهنة» ، وتمكنت الكاهنة من هزيمة جيش حسان بن النعمان، وعاد حسان بن النعمان سنة ٧٠٠م ووقعت معركة فاصلة قتلت فيها «الكاهنة»، وتتحول الكاهنة فى الخطاب الصهيونى إلى أسطورة! .

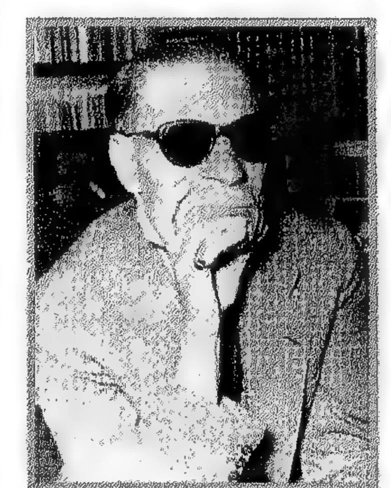
معاداة السامية

ويبقى الترويج لفكرة أن اليهود تعرضوا للكثير من ألوان الاضطهاد طوال إقامتهم فى الجزائر، وهذه الدعوة علاوة على أنها تقيم أحداث القرون الوسطى بمعايير العصر الحديث، إلا أنها تتجاهل عصور ذهبية طويلة عاشها اليهود فى المغرب العربى بل لقد سيطر اليهود يوما على دروب الصحراء ، عندما كانوا التجار الوحيدين بين شمال الصحراء وجنوبها وتتجاهل هذه الفكرة الكثير من الحقائق ، فعندما سقطت الأندلس تدفق اليهود على شمال أفريقيا حيث يجدون الأمن والازدهار ، وعاش يهود الجزائر يتمتعون بكافة الحقوق بعد إضطهادهم على الجانب الآخر من البحر.

أما الجزائر العثمانية ، فلعل الخط «الهمايونى» الصادر عام ١٨٥٦ يؤكد حقوق الأديان والطوائف والأعراق ، يقول .. «إن جميع رعايا الدولة العلية ، بغض النظر عن إنتماءاتهم الدينية أو الطائفية أو العرقية ، يعملون فى إدارة الدولة حسب قدراتهم وكفاءتهم وحدها».

وأخيرا :

رأينا كيف تستغل إسرائيل عمليات الإرهاب الأسود الذى تشهده الجزائر، وتسعى لتوظيفه والإستفادة القصوى منه فهل تكشف قصة يهود الجزائر ، أحد أبعاد وخفايا ما تشهده الجزائر اليوم فهم يعرفون كل شىء عن الجزائر ولاتعرف الجزائر شيئا عنهم! .



طه حسين



عباس العقاد





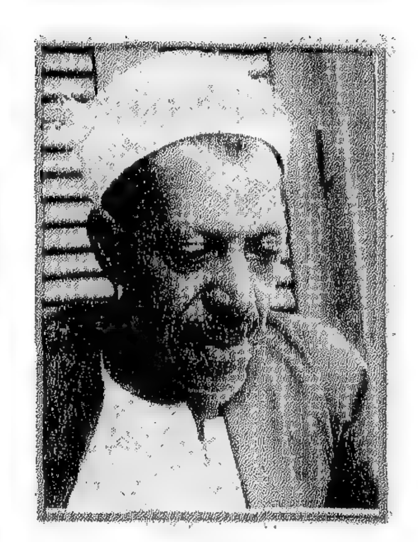
المازنى

أين المقال

الأدبى الذاتى؟

بقلم : د.محمد رجب البيومى

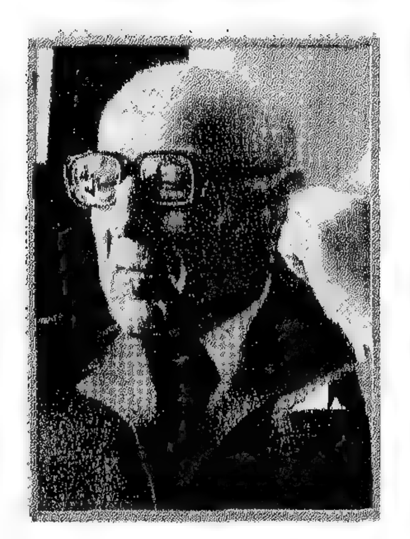
كثرت الصحف والمجلات كثرة مستفيضة، وقد حفلت بشتى أنواع القول، ولكنك لاتكاد تقرأ بها مقالة أدبية كالتى كنا نعهدها من قبل، وكان يحررها العقاد وطه حسين والمازنى والبشرى والزيات وزكى نجيب محمود .



عبدالعزيز البشرى



أحمد حسن الزيات





زكى نجيب محمود

ولن أتحدث للقارىء هنا عن معنى المقالة، بما يتحدث به أساتذة النقد، فلست من هؤلاء، ولكنى أتحدث كقارىء كان يجد فى صباه طعاما شهيا يستمرئه ويستحليه، ثم مضى الزمن فإذا الطعام ضائع مفقود، وإذا الشهوة إلى التهامه لاتزال قوية دافعة، ويزيد فى الأسف أن المقالات العلمية أو الأقرب إلى العلمية تنهمر انهمار السيل وليس فى أكثرها ما يفيد، لأن أصحاب الصحف قد حددوا أسماء وأياما، لكل اسم يوم لابد أن يظهر فيه المقال ممهورا باسم صاحبه وكثيرا ما يلجئه الموقف إلى الافتعال والاجترار، إذ المهم أن يكتب لا أن يفيد، والعمل هين ميسور، لأن المقال مجموعة معلومات تتراص، وتتزاحم، وقد ينكر بعضها بعضا ولكن ذلك لا يمنع النشر، فاليوم محدد والاسم معروف.

وكيلا نضل فى شعاب ملتوية، أحدد ما أعنيه بالمقالة الأدبية وقد نقل الأستاذ عباس محمود العقاد قول فرانسيس باكون «إن المقالة تكتب على نمط المناجاة والأسمار، وأن يكون فيها لون من ألوان الثرثرة، والإفضاء بالتجارب الخاصة والأذواق الشخصية» . وقال غير باكون «إنها تدور حول شىء مما أبصره الكاتب أو سمعه أو شمّه أو تصوره، والعبرة دائما بأن يحس الكاتب إحساسا قويا بموضوعه وأن يعبر عنه بعبارة قوية رائعة» .

وخلاصة هذين القولين، أن المقالة الأدبية ذاتية، تعبر عن عواطف الانسان فى أسلوب جميل مؤثر فالكاتب يستمد عناصر مقاله من إحساسه الذاتى، سواء كان هذا الإحساس خاصا بهواتفه وآماله وآلامه، داخليا أو منتقلا إلى مشاهد الحياة وانطباعها فى نفسه خارجيا، فنفسه هى البئر التى تمتاح منها خواطره، وأنفاسه هى التى تتردد فى كل سطر، والأسلوب المشرق وعاء شفاف لهذه الخواطر الإنسانية! هذا ما أعنيه بالمقال الأدبى المفقود، لاننا لانجد فى السيل المتراكب بالصحف والمجلات بعض ما كنا نقرأ من هذا اللون الممتاز، وقد تحدثت فى ندوة أدبية عن ضياع هذا الفن، وأسفت لفقده، ففاجأنى أستاذ كبير بلقبه ، ومنصبه فقط يقول فى تأفف: إنك تريد أن ترجع إلى عهد المنفلوطى فى زمن الاحتلال والاقطاع! والدنيا قد تغيرت، وأشد ما آلمنى أن يذكر المنفلوطى رحمه الله مقرونا بعهد الاقطاع، إذ لم يبك أحد على ضحايا الاقطاع كما بكى المنفلوطى حتى قال شوقى فى رثائه :

من شوه الدنيا إليك فلم تجد
فى الملك غير معذبين جياع

واختلاط المسائل السياسية بالقضايا الأدبية مما يهرع إليه أدعياء النقد حين لايجدون ما يقولون، وقد رأيناهم فى مجال النقد القصصى يتحدثون عن كاتب ما بأنه ربيب عهد النكسة، وعن الثانى بأنه ربيب عهد الانفتاح، وعن الثالث بأنه من طلائع عهد العولمة، أما فن الكاتب ومدى توفيقه، وموضع تعثره فلا شىء ومن ذكرياتى الحبيبة مع أخى الأديب الفنان الاستاذ كمال النجمى رحمه

الله أنى أرسلت له مقالا عن (الحب الصامت) فحدثنى تليفونيا أنه سيجازف بنشر هذا اللون، وقد تفضل فنشر المقال مشكورا، (فى عدد الهلال أكتوبر ١٩٨٣ تحت عنوان من أوراق الورد - الحب الصامت). ولكنى امتنعت أن أسترسل فى هذا المنحى كيلا تكون هناك مجازفة أخرى، وأكبر الظن أنه خاف علىّ إذ أتحدث عن الحب، وأنا عالم أزهرى، ولكنه يدرى أيضا أن كبار علماء الإسلام من أمثال ابن داود الظاهرى وابن حزم وابن الجوزى وابن القيم قد وضعوا كتبا مستقلة فى الحب وضعوا كتبا مستقلة لا مقالات طائرة، وهم خاضعون لإلحاح عنيف عبر عنه الشاعر أحمد محرم حين قال :

مايصنع القلب الطروب إذا الهوى

بلغ القرار وجال فى الأعماق؟

وقد يقال - وقيل فعلا - إن ازدهار الرواية وانتشارها بين العامة والخاصة، قد صرف الناس عن المقال الأدبى فهى تتسع لما يتضمنه المقال الادبى من تشريح للعواطف، وتفسير للخوالج، وترصد لأخفى الخوافى من همسات النفس وقيل هذا أيضا عن الشعر، وهو قول واهم، لأن جنسا أدبيا مهما ازدهر وانتشر لايغنى عن جنس آخر، وتوفيق الحكيم ومحمود تيمور من أكبر روائيى هذا العصر. وقد كتبا المقالة الأدبية جوار فنهما الذائع إذ أحسا ضرورة ملزمة تلجئهما للحديث فى صورة المقال، وقد جمعت مقالاتهما فى كتب خاصة، فصادفت ما صادفته القصة من رواج، ثم إن التحليل القصصى الذى قيل عنه أنه أصبح بديلا عن المقال. قد يكون من أسباب إخفاق الرواية إذا زاد عن حده، فهو يصيب الحركة المسرحية بالشلل، وهو يحول بعض القصص إلى خطب!! وأسرار النفوس أعظم وأكبر من أن تندرج تحت لواء واحد. وإذا كانت هذه الأسرار ترى فى البسمة واللفتة والايماءة، كما تتضح فى الفن التشكيلى فى مختلف فروعه، فكيف يقال إن المقال قد ضاق بها، وضاقت به، إن استرسال كاتب المقال الأصيل فى نفض خوالجه، والتفاته إلى الفتات المبعثر من زاد الحياة ليجمعه فى طبق شهى، مما يقدم للقارىء متعة ترتفع به كثيرا عن واقعه المعيشى فينسى هموم الحياة الى مدى، وهى حالة يعرفها

القراء حين يطالعون نفثات ميّ والعقاد وجبران والريحاني ونعيمة والمازني والبشري والزيات مع انفراد كل منهم بطابع خاص، أما الرافعي بسبحاته الطائرة في كتاب وحي القلم فلن يلحق به لاحق وقد ظل مكانه خاليا! .

الشعر .. ترجمة العواطف

وقد قيل إن كاتب المقال الأدبي يعطي القارىء المثقف المستنير ما في نفسه وقلما يزيد، فهو يشرح معاني يحسها هذا المثقف المستنير في أعماقه، وأنا أقول وهل الشعر إلا ترجمة عن العواطف وكشف للخوالج، وبهذا الافصاح وجد قارىء الشعر صورة نفسه فيما يقرأ فاستجاد واستعاد، إن القارىء يشعر براحة نفسية حين يجد ما أكنه في أعماقه قد كشفه سواه، بل قد يستشعر خجلا لبعض مايعتاده من النوازع النفسية ويظن نفسه غريبا شاذا فيما يحس ويعاني، فإذا وجد من يشاطره شجونه على نحو كاشف محلل، شعر بما يشعر به المحرور اللاغب حين يهب عليه نسيم عاطر فينعشه شذاه، وفرق بين التحليل النفسي يقوم به كاتب أديب تارة، ويقوم به عالم نفسي تارة أخرى، فالأول طليق يرصد تيارات نفسه كما تجيء فيجلوها سافرة زاهية في مرآى نضير ، والثاني يجمع قواعد علمه ليدرج الجزئيات في كليات ثم يصدر الحكم وقد لا يصيب، فالمتعة التي يجدها قارىء المقال الأدبي حقيقة واقعة. وغياب هذا الفن الرفيع مصدر ألم كبير .

ولو بقي لنا المقال الأدبي كعهده السابق منذ برع فيه المنفلوطي فكان فجرا وضيئا لضحى مشرق، لو بقي لنا هذا اللون الأدبي الممتاز لما سمعنا اليوم بحديث (قصيدة النثر) وهو حديث يضحك ويبكي ، لأن قائليه والداعين إليه معا لا يحسنون شيئا من أمره. فالقائل ضعيف ساذج لا يدري شيئا عن تراث أدبه في القديم والحديث. والداعي المصفق يريد أن يجد له مكانا في دنيا النقد، وليس له زاد الناقد ولا موهبته فآثر التصفيق والهتاف. والتقى الصاحبان على ضعف مخجل، وضحالة هشة ، فتبادلا الثناء وعقدت لهما الندوات! وكم ذا بمصر من المضحكات !

تنوعت المقالة الأدبية فمنها

الزاجرة الناهية ، ومنها المعلمة المربية، ومنها الواصفة المحللة وليس هناك فاصل حاسم يمنع تداخل هذه الأنواع، وتلاحمها تلاحما عضويا لدى الكاتب الكبير ، ولكن أصدق هذه الأنواع هى المقالة الساخرة، الرحيمة معا، وأعنى بالساخرة، التى تنقد مظاهر الشذوذ فيما حولنا نقدا خفيفا يبتعد عن الضجيج الصاخب، وأعنى بالرحيمة تلك التى تتسع فيها نفس الكاتب حتى تشمل بالصفح بعض الذنوب، وتعد النقص فى الكائن البشرى أمرا لا حيلة له فيه، وقصارى أمر الكاتب أن يشذ به من نواحيه ، وأن يعين على تلافى أسبابه، وأن يمتد بالقارىء الى مدى أوسع مما ألف وعهد هنا يكون الكاتب صديق القارىء، لا أستاذه، لأن استعلاء الأستاذ مصدر نفور القارىء يمل ربما جعله ناقدا للكاتب يهجنه ويستعلى عليه . مع أن المقصود الأول أن يكون معجبا بما قال ، عاملاً على الاستضاءة بهديه ، إن صاحب المقال الأدبى يحب قبل كل شىء أن يكون صديق القارىء وسميره، وأن يفكر فى الأسلوب الذى يدخل به إلى قلبه من أقرب طريق، وكتاب المقالات اليوم فى مجموعهم لا فى جميعهم (ففيهم قلة نابهة مرموقة) لا يفرقون بين كتابة مقال فى صحيفة وكتابة فصل فى كتاب ، فأنت تقرأ المقال الصحفى الطويل، فلا تشعر إطلاقا أنك تقرأ مقالا فى جريدة ولكن تشعر أنك تقرأ فى كتاب متعدد الفصول . وقد تفاجأ بمصطلحات أجنبية وبحروف لاتينية تتكاثر وفى ظن الكاتب أنه يمتع قارئه بتعالمه وما درى أنه يصرفه عنه إلى غير عودة ، وقد يترك القارىء بعض السطور إلى مابعدها فلا يحس أنه فقد شيئا، أو أن هناك سياقا قد انبتر لأن منهج الكاتب أن يحشد ويجمع لا أن يحلل ويستنبط ، وبعض الناس يفهمون المقال الثقافى فى أضيق حدوده فهم يحصرونه فى المقال العلمي الخاص بشئون السياسة والتربية والاجتماع، وكل مايتصل الى العلم بسبب، وقد نسوا أن المقال الأدبى الخاص بالعواطف الذاتية مقال ثقافى ، لأن الكاتب حين يتحدث عن تجربة شخصية مرت به ، أو عن إحساس خاص نحو شأن من شئون مجتمعه إنما يعطى للقارىء نموذجا

حيا من نماذج الحياة تقتدى به إذا كان مصدر خير ، ويتحاشاه إذا كان مثار ضرر، كما أنه فى وصفه مظاهر الكون فى شتى مجالى الطبيعة إنما يفسح من آفاق قارئه، ويقفه على ما لا يعرف من مناحى الجمال والخير، فإذا تحدث عن نوازع البغض والحب، وعوامل الشقاق والخلاف، وهواتف الاحلام والآمال، ومخاوف الآلام والنزوات، فذلك فى صميمه نوع من التوجيه الجاد ، لم يهتف به واعظ فى منبر إنما غرد به قلم كاتب فنان .

وبالمقارنة بين ازدهار المقال الأدبى بالامس وانحساره اليوم، أقدم من «مختارات الهلال» التى صدرت فى سنة ١٩٤٧ مجموعة مصطفاه مما نشرته مجلات دار الهلال لكبار الكتاب فى مصر والعالم العربى، فهذه المجموعة تجمع المقال الأدبى محاذيا للمقال العلمى ، وإن شئت فقل تجمع المقال الذاتى محاذيا للمقال الموضوعى، فينتقل القارئ بين الاتجاهين كما ينتقل الطائر من فنن الى فنن فإذا أمتع عقله مايجده من ثمار الفكر فقد أشبع وجدانه بما ينعشه من أريج الوجدان، ولا صلة لى بما ضمته المختارات من المقالات الموضوعية ، إنما أشير الى جانب من المقالات الذاتية التى نفتقدها الآن .

وأول مانشير إليه ما جاء عن عالم النفس ، حيث اتسعت المختارات لمقالات جيدة منها مقالة جبران خليل جبران ، التى تحدثت عن الوحدة الماثلة فى حياة الإنسان ، مهما اتصل بالناس فهو يقضى بينهم بعض الوقت لينصرف إلى انفراد شامل يطول الحديث فيه بينه وبين نفسه لأن الحياة فى رأيه جزيرة منفصلة عن جميع الجزر والأقاليم ، ومهما سارت الزوارق اليها على فترات، ومهما بلغتها الاساطيل المزدحمة فإنها بعد رحيل الزوارق والاساطيل تظل منفردة، فالانسان هو الجزيرة المنفردة بآلامها ، المستوحدة بأفراحها المجهولة بأسرارها وخفاياها .

وللكاتب فى هذا التصوير هدف يرمى إليه هو أن يستغل الإنسان وحدته فلا يأسى عليها قدر مايحاول الانتفاع بها وقد أجاد التصوير المشخص حين قال :

«حياتك يا أخى منزل منفرد عن جميع المنازل والاحياء ، حياتك

المعنوية نزل بعيد عن سبيل الظواهر والمظاهر التي يدعوها الناس باسمك، فإن كان هذا المنزل مظلما فأنت لاتقدر أن تنيره بسراج قريبك ، وإن كان خاليا فأنت لاتستطيع أن تملأ من خيرات جارك، وإن كان في صحراء فأنت لا تقدر أن تنقله إلى حديقة غرسها سواك ، وإن كان منتصبا على قمة جبل ، فأنت لا تستطيع أن تهبط به إلى واد وطئته أقدام غيرك » ..

عالم الشباب والمرأة

بعد هذا التصوير الخيالي المؤثر ننتقل إلى التحليل الواقعي الملموس فى مقال للأستاذ عباس محمود العقاد كتبه عن الخمسين في عمر الانسان، وهي شباب الشيخوخة في رأيه. لأن ذا الخمسين شاب بين الذين نيفوا على السبعين أو الثمانين يشعر بهذا كما يشعرون به وإن لم يتعمدوه ، فإذا اجتمع مجلس من المجالس التي يختار لها الأعضاء ممن جاوزوا الأربعين، رأيتهم يتصرفون فى التقديم والتأخير تصرف الآباء، مع الأبناء في الأدب والمعاملة ورأيت أبناء الخمسين ربما بدت منهم شيطنة التلاميذ فى معاملة الاساتذة الذين يوقرونهم ويحيونهم ولايخلونهم من فلتات الشيطنة إذ ذاك .

وتخلص العقاد من مقاله التحليلي الطريف إلى قوله (ومهما يختلف المختلفون في جمال الشباب، وجمال كل عمر من الأعمار، فالحقيقة التي لاخلاف عليها أن تقدير الجمال لاينتهي بانتهاء عهد الشباب وأن القدرة على التعبير لا تنقص بنقصان الشباب بل لعلها تزيد .

وللمازنى وأحمد أمين ، وأمير بقطر مقالات نفيسة رائعة أكتفي بالاشارة اليها هذا عن عالم النفس. أما عالم المرأة فقد حفل بمقالات رائعة مابين شرقية وغربية، فالكاتب الفرنسى ماكس رينال يقول عن المرأة (يكفى ان تسمع فقط رنين ضحك المرأة التى اجتذبتك لتحدث فيك جلجلة الضحك أو رخامة الصوت ، ذلك التأثير الشعرى الذى يولد عاطفة الحب فى نفسك وحيث أن العاطفة لاتعيش بدون تفكير فعقلنا هو الذى يخلق الحب، وخيالنا هو الذى يتعهده، وتصورنا هو الذى يغذيه لأن المحب يطلب ما يجب أن يكون لا ماهو كائن ، ويوازن الكاتب بين المرأة والرجل فى الحب موازنة

نفسية يضيق المقام عن تلخيصها ، وهى جديرة بالتأمل لعمق النظرة، وبراعة التحليل

أما مصطفى صادق الرافعى فيتحدث عن صورة المرأة الحبيبة فى رسالة كتبها إليها فيقول : أرانى كالمصور غير أنى أنقل عن عالمى الداخلى، ورسمك يملأ عينى، فيضيف إلى عالمى المضطرب عالما من الجمال الصافى، هو كالسماء فوق الأرض تحييها بالشمس والقمر، وهو كالآخرة وراء الدنيا تطمعها بالجنة والخلد . وهل فى الحسن أحسن من هذا الوجه الذى يرف على القلب بأندائه . ويتلألأ بنضرته حتى لكأنه خلق من نور الفجر وكأن علامة الفجر فيه إنما هى هذا الروح الذى يحيط القلب بمعان من وجهك كنسمات الصبح «عليلة، شديدة الرقة، ذابلة بين فرط الجمال.. مملوءة من روح الندى مما يجعلها حول النفس كأنها جو من الفرح لا من نسمات الجو. والمقال بديع ناضر كقطعة من زهور الروض ، والآنسة مى تكتب عن العيون فى ألوانها المختلفة . ثم تتحدث عن لغة العيون ، فتنقل عن التى تقول فى شموخ أنت عبدى، والتى تصرخ من الألم فتقول أعبدك ، والتى تتجاهل فتقول : ألا تعرفنى؟ والتى تجد فيها انجذاب الصلاة وروعة المصلى، والمتكبرة التى تقول : أنا مستبدة ، أريد أن أقتل، أين ضحيتى ، والتى تقول من أنت ؟ ثم لا تزيد ..

ومقالات المرأة كثيرة فكيف أحصرها ؟ .

أما ما أسميه بحديث الأسرة فقد احتل حيزا ممتازا ، حيث خاض فيه أعلام كبار من أمثال طه حسين، وعبد العزيز البشرى ومنصور فهمي وابراهيم المازنى ومحمد حسين هيكل فكيف أختار من هؤلاء جميعا أجتزىء إجتزاء مخلا ، فأنقل عن البشرى قوله:

«إذا ألمت بالولد وعكة استحالت فى قلب الوالد علة ، وإذا ضربته العلة مات أبوه كل يوم عشرين موتة ضارعا الى الله فى صدق وإخلاص أن يحول مابولده إليه إن لم يكن من الفدية مناص، ولقد أرى الصحيح معافى، ما به أثر من جهد أو وعك ، ولكن نفسى لا تستريح إلا إذا أكثرت

من جسده وعد نبضات عروقه، ولقد يخرج إلى الطريق لبعض شأنه فأحس قلبى يتمشى فى صدرى ويمثل لى الشيطان أن مكروها أصابه. أحب أولادى لأنى أحب نفسي، وأتمنى لو يكتب لها الخلود فى الدنيا، وإذا كان الموت حقيقة لا مناص منه أبدا، فأولادى هم واصلو حياتى ومطيلو أجلى واسمى من يوم أموت، لا يرد على خاطر أحدهم إلا بادر فسأل الله لى الرحمة وسكنى الجنان .

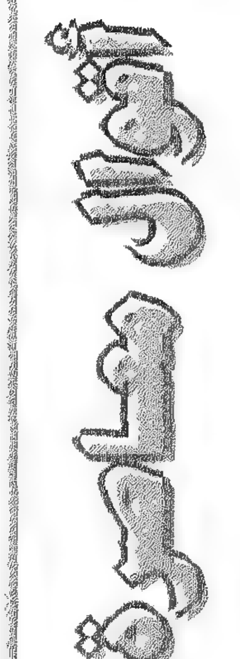
والمازنى يطيل الحديث فى مقال صادق مؤثر عن والدته وكيف قامت برعاية الأسرة بعد وفاة أبيه، وكيف قابلت الشدائد بحزم» كانت تكتفى بالنظرة الأولى إذا أمكن أن تستغنى عن الكلمة، فكنا نتفاهم بالعيون، والذين حولنا غافلون لايفطنون إلى شيء . وكانت تتوخى أن تعفينى من المنغصات وتتجنب أن تحملنى الهموم فتستقل بها دونى ، وكانت ذاكرتها قوية فإذا جلست للسمر تتدفق بأحاديث الأيام السوالف ، وكأنها تحياها من جديد، فلا يغيب عنها حرف، ولايفوتها لون فهى لقوة ذاكرتها سجل عام للأهل والصواحب».

وحديث طه حسين عن الأسرة ممتاز، وفى كتاب الأيام صور خالبة منه، وهو ذائع مشتهر، ولو جمع ماكتب عن الأسرة بأبنائها ورجالها وأمهاتها فى مختارات الهلال وحدها تقدم سجلا بارعا للحياة الاجتماعية فى الجيل الماضى ، سجل لم يكتب بالأرقام والإحصائيات ، ولكنه كتب بنبض العروق وخفق القلوب ! .

ولابد أن أشير إلى الذكريات البارعة التى كتبها سعد زغلول ، وعلى ابراهيم، ومحمد حسين هيكل، وأحمد نجيب الهلالى ومحمد كامل البندارى، وأم كلثوم وعبد الوهاب، وشريف صبرى، وحسن نشأت فكلها نمط حى من المقال الأدبى الذى أعنيه.

ولعلى بما قدمت من النماذج الراقية مستشهدا بالقليل منها لينبىء عن الكثير، لعلى بذلك أدعو أصحاب العواطف الجياشة من حملة القلم ألا يهملوا هذا الجنس من البيان ، إذ أدى رسالته فيما قبل فلا غرابة فى أن يؤديها الآن وفيما بعد ..

منى إن تكن حقا تكن أعذب المنى
وإلا فقد عشنا بها زمنا رغدا



● «تراثنا يفتقر إلى نظرية نقدية متكاملة ، ويقتصر على إتجاه جمالى عام» .

المفكر الفلسطينى إحسان عباس

● «حان الوقت كى يتخلص المصريون من عقدة الامتياز».

الفنانة المغربية فاطمة خير

● «عالمنا العربى مقبرة تفخر بوأد مبدعيها» .

الروائى السعودى عبده خال

● «الممثلة ليست آلة جنس ، بل آلة موسيقية حقيقية ، يلعب عليها الفنان ، حتى تتعب أصابعه» .

النجمة ميريل ستريب
الفائزة بأوسكار أفضل ممثلة مرتين

● «النخبة الفكرية عليها أن تعكف على إعادة ترتيب بيتها الذهنى ، حتى تعدل ساعتها الثقافية ، وفق التوقيت الإنسانى الجديد» .

المفكر التونسى عبدالسلام المسدى

● «ما نفعله فى الحياة ، نجد صداه فى الآخرة» .

المخرج الإيطالي ريدلى سكوت

● العصر الذهبى لهوليوود ولى من زمان» .

المخرج الأمريكي بريان دى بالما

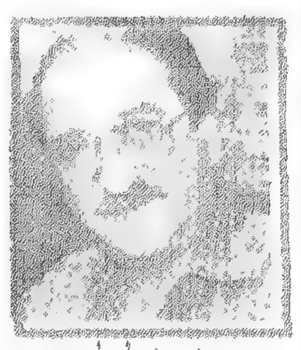
● «القضايا المصيرية الكبرى لم تعد فى دائرة اهتمام المواطن ، رغيف الخبز الذى قطره خمسة عشر سنتيمترا ، أصبح قطره عشرة آلاف كيلومتر» .

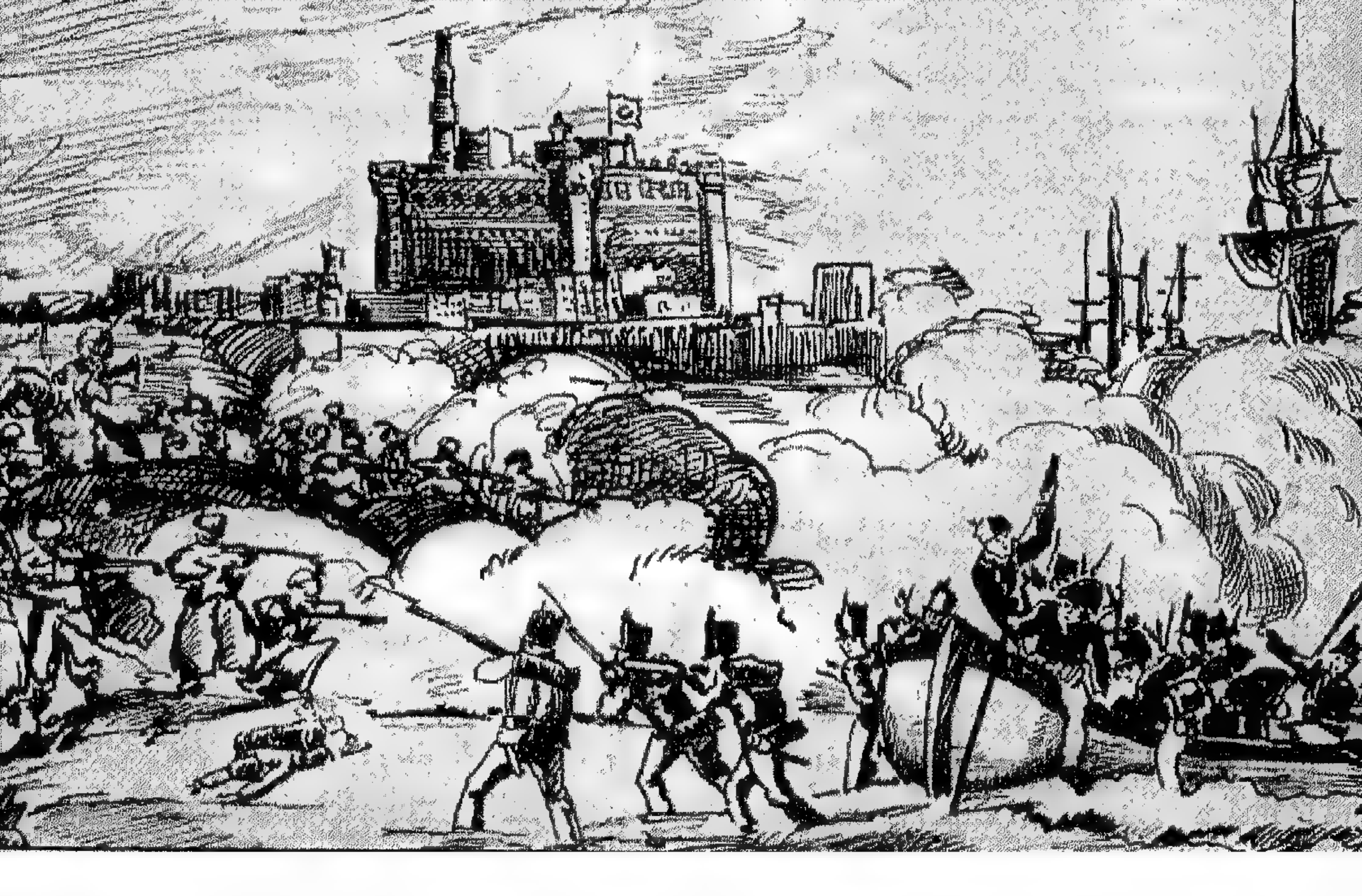
الفنان السورى دريد لحام

● «الفنان الحقيقى هو ذاك الذى يتمتع بأداء أى دور يقتنع به ، حتى لو لم يظهر فيه على الشاشة سوى بضع دقائق» .

نجمة السينما الفرنسية كاترين دى نيف


كاترين دى نيف


دريد لحام



شهر «يوليو» فى أواخر القرن

بقلم : عبدالرحمن شاكر

●● هذا آخر شهور «يوليو» في القرن العشرين ، ومع حلوله تعودنا الذكريات ، ونعود لنسأل أنفسنا ماذا حدث ولماذا حدث، وكيف يكون المصير ؟ نعنى بذلك ثورة ٢٣ يوليو منذ ثمانية وأربعين عاما، وقبلها «يوليو» آخر وثيق الصلة بها ، وهو يوم ١١ يوليو عام ١٨٨٢ ، قبلها بسبعين عاما ، يوم قصف الأسطول البريطانى فى البحر الأبيض المتوسط ، الاسكندرية بدك طوابيها تمهيدا للاحتلال البريطانى لمصر ●●

أما الصلة فأهم جوانبها أن ثورة ١٩٥٢ قامت أساسا لطرد هذا الاحتلال من مصر ، وأن الثورة أزالت حكم أسرة محمد على التى وقع الاحتلال البريطانى بدعوى حماية «حقها» فى البقاء على عرش مصر ، فى مواجهة ثورة قامت بها القوات المسلحة أيضا ، مثل ثورة يوليو ١٩٥٢، وهى الثورة العرابية ، التى بدأت بالتمرد على تسلط «الجراكسة» على مقدرات الجيش المصرى ، ثم احتضنت مطالب الحزب الوطنى الأولى الموالى لها فى دعم الحياة النيابية وإنصاف الفلاحين وترقية التعليم والصناعة ، وراودتها أحلام أولى عن إعلان الجمهورية والتوحد مع طائفة من البلدان العربية المجاورة !

وفشلت الثورة العسكرية الأولى التى قمعها الاحتلال البريطانى ، ورغم ادعاء هذا الاحتلال أنه لم يأت إلا لدعم «الشرعية» المتمثلة فى الخديو توفيق المعين حاكما لمصر من قبل السلطان العثمانى ، إلا أن هذا الاحتلال دام سبعين عاما ، لم يتردد فى أواسطها ، وفى عام ١٩١٤ بالتحديد ، فى خلع الخديو عباس حلمى ، ابن توفيق ، وسلخ مصر من التبعية العثمانية ، وإعلان الحماية البريطانية عليها !

ونجحت ثورة ٥٢ فى طرد الاحتلال والعرش معا ، وسعت لتحرير كل بلاد العرب وتوحيدها أيضا ، بل وإفريقيا وسائر بلدان ما أصبح يسمى بالعالم الثالث ، ولكن واجهها عدو جديد ، بعد أن زالت الدولة العثمانية والامبراطورية البريطانية والفرنسية أيضا ، وذلك هو الكيان الصهيونى ، الذى زرعته على أرض الشقيقة فلسطين قوى الاستعمار العالمى ورسخت جذوره إبان الانتداب البريطانى عليها فى الفترة ما بين الحربين العالميتين، وبعد الحرب الثانية احتضنته الولايات المتحدة الأمريكية بكل أطماعها ومصالحها فى الأرض العربية الغنية بالبترول ، وألقت وراءه بكل ثقلها السياسى وجبروتها الاقتصادى والعسكرى والتكنولوچى ، ساعية جهدها لكى تجعل من هذا الكيان ، القوة الأولى ، أو الدولة المهيمنة ، فى المنطقة العربية، ليصبح مواطنوها من العرب إما اتباعا مطيعين ، أو ضحايا للبطش العنيف !

كان فى مقدمة الأسباب المعلنة

لثورة ٢٣ يوليو ، أن فساد الحكم قد تسبب في هزيمة الجيش المصرى في حرب فلسطين عام ١٩٤٨ ، ولكن هذا الجيش كان عليه أن يواجه في عهد الثورة مشاركة الكيان الصهيوني في العدوان الثلاثي على مصر، مع كل من انجلترا وفرنسا ، لأن مصر الثورة قد أقدمت على تأميم قناة السويس المصرية ! ثم عدوانا آخر واسع النطاق في عام ١٩٦٧ ، احتل فيها الكيان الصهيوني أرض سيناء المصرية ، ورغم الأداء العسكرى الناجح للقوات المسلحة المصرية في حرب ١٩٧٣ ، إلا أن المساندة الأمريكية الهائلة للكيان الصهيوني لم تسمح بأن يتم الجلاء عن سيناء إلا عبر التفاوض مع العدو والتصالح معه على شروط !

الكفاية والعدل

بالرغم من الأعباء التى فرضتها الحروب المتلاحقة على الاقتصاد المصرى ، إلا أن الثورة عملت على تنمية هذا الاقتصاد ، وجعل توزيع عائده أكثر عدلا من ذى قبل ، بل إن بعض الحروب التى فرضت عليها كانت بسبب جهودها الاقتصادية والعمرانية، فالعدوان الثلاثي جاء بعد تأميم قناة السويس بغرض استخدام عائداتها في بناء السد العالى ، بعد أن سحب البنك الدولي بضغط امريكى عرض تمويله ، وهذا السد هو الذى جنب مصر ويلات الجفاف الأفريقي الذى حدث بعد بنائه بسنوات ، وكان القصد منه توسيع الرقعة الزراعية التى ضاقت بسكان مصر ، وتوفير الكهرباء لإمداد المشروعات الصناعية الجديدة بالطاقة اللازمة ، وكانت للصناعة أهميتها الخاصة لتوفير احتياجات القوات المسلحة من ناحية وإيجاد فرص عمل جديدة للأجيال الشابة ، التى التزمت الثورة بتعليمها بالمجان وتوظيفها أيضا، وكان من أهداف الاصلاح الزراعى فضلا عن إنصاف الفلاحين توفير الاستثمارات الجديدة للصناعة وخلق سوق لاستهلاك المنتجات الصناعية وإمداد الصناعة ببعض متطلباتها ، ومن أجل التنمية الصناعية كان تمصير الشركات والبنوك الاجنبية، ثم التأميم في عام ١٩٦١ وإعلان الأخذ بالمبادئ الاشتراكية . ورغم كل ما رمى به القطاع العام من عيوب إلا أنه قد نجح في توفير كثير من متطلبات القوات المسلحة قبل حرب ١٩٧٣ ،

بما فى ذلك بناء قواعد الصواريخ . وكانت سياسة العمالة الكاملة ، -رغم ما شابهما من أخطاء- تحصينا للشباب دون الانحرافات الخطيرة بما فيها الوقوع فى قبضة منظمات الارهاب ! وتحت شعار «الكفاية والعدل» ، كان هناك صراع مع الزمن ، لأن زيادة الخدمات الصحية المجانية فى الريف ، قد عملت على تقليل وفيات الأطفال ، وزيادة الكثافة السكانية بما يعنى الحاجة إلى مزيد من توسيع الرقعة الزراعية وطاقات الانتاج الصناعى وزيادة الدخل القومى .

وإذا كان التفوق التكنولوچى الذى تحقق فى الغرب ، قد أملى على الاقتصاد المصرى أن يتحول إلى اقتصاد السوق ، كما حدث فى المعسكر الاشتراكى ذاته ، فإن الإحساس بالمسئولية الاجتماعية لايزال قائما ، ولا يزال مطلب العدل الاجتماعى يمثل هاجسا إنسانيا لا مفر من ملاقاته . (أنظر مقالنا «الثورة على الرأسمالية المتوحشة» فى «الهلال» عدد يونيو الفائت) .

بالرغم من أن «إقامة حياة نيابية سليمة» كان واحدا من شعارات ثورة ٢٣ يوليو ، إلا أن هذا المطلب قد تعطل كثيرا جدا ! وقد احتمل الشعب المصرى طويلا الطابع العسكرى للحكم لأن البلاد كانت تترقب حربا مع العدو الصهيونى من كل وقت . كما أن المناورات الرخيصة من جانب أحزاب ما قبل الثورة وسعى بعض عناصرها للتآمر مع العدو الخارجى على اسقاط الثورة كانت أهم أسباب تعطيل الحياة النيابية طويلا ، أو اتخاذها صورة شكلية لا تخفى براثن السلطة العسكرية وراءها .

قضية الديمقراطية

وكان فقدان الديمقراطية سببا لظهور ما سمى فى أكثر من مرحلة من مراحل الثورة باسم «مراكز القوى» ، التى اعتبرت مسئولة عن الهزيمة المنكرة فى عام ١٩٦٧ ، وتجريد شعار العدل الاجتماعى من مضمونه ، حيث سخرت اقتصاد البلاد لأغراضها الخاصة ولتكوين «طبقة جديدة» من أقربائها ومحاسيبها ، وتلك ظاهرة عرفتها بلدان المعسكر الاشتراكى العالمى ذاته، وأطلق على عناصرها اسم «القطط السمينة» وكانت من أهم أسباب

تقـوض الاشـتراكـيـة على النطاق العالمي.

والآن تسـتـرد الديمقـراطيـة اعـتـبـارها، وان لم يكن بشكل كـامل لظروف من أهمـهـا مـواجـهـة الإرهاب كمـا يذهب المدافـعون عن استـمـرار العـمل بقـانون الطوارئ ، فى وجـه معارضة جـديدة قد أصبح مسموحا بها ، وتستميت جميع فصائلها في المطالبـة بإلغـاء العـمـل بـهـذا القـانون ، وتعـديل قـانون الاحـزاب ليصـبح أكـثـر مـرونة وأقـل قـيودا على حـرية إنشـاء الأحـزاب ، لكى تسـتـوعب كل التـيـارات السـيـاسـية الموجود بعضـها بالفعل والتى قد تنشـأ فى المستقبل .

ولا يقـتـصـر الوعى الديمقـراطى المتصاعد على مصر وحدها ، بل يمتد إلى سـائر أرجاء الوطن العربي ، وقـد شـرعت بعض الأنظمـة العـربيـة من خـلال خطوة هنا أو خطوات هناك فى إكسـاب حـيـاتها السـيـاسـية مظهـر الديمقـراطيـة . بيـد أن أهم مـا فى الموضـوع هـو الربط بين الديمقـراطيـة والوعى القـومى العائد من جـديد ، بعد الكارثة الجـديدة التي حـاقت بـالمنطقـة العـربيـة ، منذ عشـر سنوات ، حـينمـا أقدم العـراق على غزو الكويت ، وأتاح للقـوات الأجنبية وخـاصـة الأمريكيـة أن تعـود إلى المنطقـة وتنشئ وجـودا دائمـا لهـا فى الخليـج ، وقـواعـد تضـرب منها العراق بين حـين وآخـر فـضـلا عن الحصـار والتـجـويع الذى تفرضه على شعبه ، وأصبـح المشرق العـربى مـحـصـورا مـا بين القـواعـد الأمـريكيـة فى شـرقـه والكـيـان الصهيونى فى غربه .

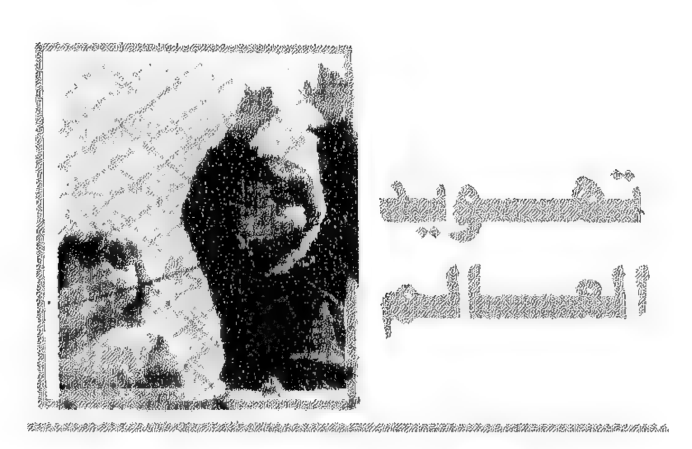
إن ثورة عـارمـة تعـتـمل الآن فى صـدور الشـارع العـربى على هذا الوضع المذل المهين ، وإذا كانت تجربة جنوب لبنان مـؤخـرا قـد أثبـتت أن احـتـمـال الآلام والتـضـحـيات التى يتطلبـهـا النضـال الوطنى من أجل التـحـرر ، قـادرة على أن تجـبـر العـدو على التراجع ، فإن آمـال الأمة العربية قد أصبحت معلقة على مطلب توحدها بطريقة ديمقراطية ، على نحو يكفل لها توحـيـد جـهـودها من أجل التـحـرر من كـافـة أشكال الهيمنة الأجنبـية ، وبناء سوقـهـا المشـتركة ومحـاولة اللحاق بما فـاتهـا من ركب الحـضـارة والتـقـدم العلمى والتكنولوچى ، وفى مـواجـهـة الكيـان الدخيل الذى فرض على بلادنا أن تخوض معه صراع المصير .



تهويد العالم في الخيال الإسرائيلي

بقلم : جميل مطر

لسنا وحدنا المنشغلين بقضية ما بعد .. فالإسرائيليون يتحدثون عن «ما بعد السلام»، انطلاقاً من مفهوم للسلام يختلف بشكل جذري عن مفهوم السلام عند العرب. ولذلك يستحيل أن يلتقي الإسرائيليون والعرب في مستقبل واحد، إلا في إطار صراعي، بمعني في إطار أشكال أخري من الصراع العربي الإسرائيلي، هنا يبدو منطقياً الافتراض أن إسرائيل تفضل، أن يبدأ العرب من الآن فى مناقشة قضايا «ما بعد السلام»، لأنهم حتماً مجبرون، علي مناقشتها علي أساس مفهوم «ما بعد التسوية»، أي علي أساس الحاضر المستقبل، المنطقي أيضا أن يحاول الإسرائيليون استدراج العرب إلي الدخول الفوري في حلبة المستقبل، وعدم انتظار المستقبل، لأنهم في المستقبل سيكتشفون أن سلاماً قد تحقق، أي سيكتشفون وهم ما بعد السلام، وسيكون صعباً عليهم الاشتراك في صنع أو وضع أنماط تفاعلات وتحالفات لحالة سلام غير قائم.



تخيلات إسرائيلية .. مستقبل الصهيونية

انشغلنا كثيراً بالصراع العربي الإسرائيلي من ناحيتين، ناحيته العربية أي علاقات العرب بالعرب، والفلسطينيين بالعرب ومن حيث تأثير هذه العلاقات على مسار الصراع أو من حيث تأثيرها هي بهذا المسار، وانشغلنا كذلك بناحيته الثنائية، أي بالصراع ذاته، بحروبه، ومفاوضاته، وبتسويته، ولكنها، وهنا أتحدث عن كثيرين من المحللين السياسيين العرب وبشكل خاص عن نفسي، لم ننشغل كثيراً بناحيته الثالثة، أي بإسرائيل ذاتها، وعلاقاتها بيهود الشتات، أعتقد أنه سيكون مفيداً لو حاولنا تخيل ما يتخيله السياسيون الإسرائيليون. أي أن نغوص في خيالهم وأحلامهم ولكن دون أن نبتعد كثيراً عن واقعهم، خاصة ولأننا - بعد خبرة طويلة من التعامل معهم - صرنا نعرف أنهم واقعيون، وهذا على غير ما كنا نردد، فقد تصورنا دائماً أن الأيديولوجية تهيمن ولا تسمح لمسئول إسرائيلي أن يتصرف القرن أحيانا ببراجماتية.

نعرف أيضا أن خلال القرن ونصف القرن الأخيرين في التاريخ اليهودي، حدث تمايز واضح بين الوظائف داخل عالم اليهود، فقد ولدت الصهيونية ومعها وظيفة ولليهودية وظيفة مختلفة ثم نشأت إسرائيل ومعها وظيفة ثالثة. أما وظيفة الصهيونية فكانت - ومازالت إلى حد متناقص باستمرار المخلص والمحرر والمفكر السياسي قبل أن تصبح - الذراع أو الأداة. وكانت وظيفة اليهودية أن تفرخ أو تقدم يهوداً حتى صارت تعرف بالوعاء. أما إسرئيل، فنشأت لها مع نشأتها وظيفة العقل. ويعود الفضل في استلاب هذه الوظيفة من الصهيونية إلى دافيد بن جوريون.

كانت اليهودية في القرنين السابع عشر والثامن عشر الوعاء الزاخر الممتلئ دائماً ببشر غالباً مضطهد، سواء كان مصدر الاضطهاد الذات أم

الغير، وكان هذا البشر جاهزاً للتحرير أو جاهزاً للهجرة. أما التحرير فقد بدأ مسيرته مبكراً، فى بدايات القرن التاسع عشر مع التطور الهائل الذى أحدثته الثورة الصناعية، وهى الثورة التى دمرت كثيراً من الأسوار المقامة حول مواقع سكن اليهود. أسوار أقامها اليهود بأنفسهم، أو أقامها السكان المحليين حول مجموعة من الناس تريد أن تؤكد أنها مختلفة، إذ تعهد اليهود على مدى تاريخهم أن يرتدوا ملابس مختلفة، ويتحدثوا بلغة مختلفة ويعملوا فى حرف ومهن مختلفة.

***

ومع تقدم القرن التاسع عشر ظهرت الصهيونية على أيدى البورجوازية اليهودية أحد أهم إفرازات الثورة الصناعية، والتى استطاعت بنجاح أن تحرر نفسها من سيطرة الزعامات الدينية والاضطهاد الذى يمارسونه داخل أحياء اليهود على اليهود بحجة حماية الفرد اليهودى من إغراء الاندماج فى المجتمع الأكبر خارج الأسوار.

لعبت الصهيونية أكبر الأدوار فى حياة اليهود خلال هذه المرحلة من تاريخهم. وفى الواقع ما كان يمكن بدونها أن يتبوأ اليهود المكانة التى يحتلونها اليوم، وما كان يمكن أن تكون لهم دولة فى فلسطين. كانت الصهيونية الأداة التى جعلت اليهودية تتحول من دين فحسب إلى دين وسياسة فى جميع مجتمعات أوروبا والشرق الأوسط وأمريكا الشمالية، وكانت بداية التحول فى أوروبا.

من ناحية أخرى نجحت الصهيونية فى نقل اليهود من عصر القبلية إلى عصر الأمة والقومية، ونقلتهم من الجاهلية إلى التنوير، كل هذا دون أن تخل بالوظائف الأساسية لرجال الدين اليهود وهى المحافظة على التراث والمحافظة على الدين والمحافظة على اللغة، ولكنها حلت محل رجال الدين فى أداء وظيفة صنع الآخر.. ولعلها الوظيفة الأهم فى كل التاريخ اليهودى، والتى يطلق عليها أحياناً عملية «صنع اليهود» أو «الصناعة اليهودية»، كان ضرورياً على امتداد التاريخ، اليهودى طبعاً، أن يبقى رجال الدين على الشعور بالاضطهاد حياً، إيمانا بقاعدة أنه لا تكاثر يهودى بدون اضطهاد، أو بقاعدة اشد بؤساً، وهى أنه لا يهود بالمرة بدون اضطهاد. وكانت وظيفة رجال الدين فى حال غياب الاضطهاد، أى عدم وجوده موضوعياً بمعنى خلو الساحة المحيطة من مشاعر لا سامية، ابقاء اليهودى فى حال توقع دائم لاضطهاد من نوع أو آخر، أى

العبودية بالاختيار. فبدون هذا الشعور بالاضطهاد - وبدون تمايزهم عن غيرهم من الشعوب - لذاب أو اندمج أغلب اليهود فى المجتمعات المسالمة والمسامحة التى عاشوا فى ظلها. لذلك أجد صعوبة شديدة فى كل مرة أحاول فيها تصور اليهود وقد قبلوا فعلا وحقيقة التعايش مع «الآخر» العربى إلى حد المخاطرة بالاندماج أو الذوبان فى الشرق الأوسط. ولكن أجد سهولة أيضاً شديدة فى كل مرة أحاول فيها تصور زعماء اليهود وقد استمروا يثيرون الحقد والمشكلات لكى لا تنطفى جذوة الاضطهاد - الذاتى أو الموضوعى على حد سواء.

ويعود للصهيونية كثير من الفضل فى تخليص اليهودية من براثن المهن التقليدية التى توارثها اليهود عبر الأجيال وساهمت فى تكوين الشعور بالاستعباد أو الاضطهاد الذاتى، مثل المضاربة والرهونات والتجارة فى المال، وأن أضيف إليها فى مرحلة مبكرة مهنة الفكر والكتابة. لذلك كان شرطاً من شروط تحرير اليهودى فكرة تحقيق «خلاص» اليهود، أى خلاص أرواحهم المضطهدة وخلاص أجسادهم عن طريق دفعهم للعمل فى الأرض بالزراعة. وكان التعبير الشائع بين الاشتراكيين فى ذلك الوقت عن هذا النوع من تحرير الذات هو «نارودنيك». وهكذا بدأت عملية تشجيع الاستيطان فى فلسطين وفى مناطق أبعد ما تكون عن المدن حرصاً من القادة الصهاينة على منع المهاجرين اليهود من التسلل إلى المدن مثل يافا وحيفا فيعودوا إلى المضاربة وغيرها من أعمال المال والتجارة.

هذه الوظيفة من وظائف الصهيونية فقدت الآن الكثير من أهميتها مع التغيرات الحضرية الواسعة فى المجتمع اليهودى فى فلسطين وبعد إقامة الدولة، وبخاصة فى أعقاب موجات الوافدين الجدد من يهود شرق أوروبا الذين خلصتهم الشيوعية - أكثر من الصهيونية - من عبودية الجيتو والمهن الاضطهادية، هؤلاء وغيرهم يستوطنون الآن مواقع هى فى الواقع نتوءات مدن قائمة، يعملون صباحاً فى المدن ويعودون إلى المستوطنات للنوم.

وظيفة أخرى من وظائف الصهيونية فقدت سبب وجودها، وهى وظيفة إقامة الدولة. فالدولة قامت وانتهت الوظيفة، وظلت الصهيونية تحاول أن تفرض على الدولة الاقتناع بأنها ضرورية لحشد الطاقات والدعم فى الخارج. ولكن الدولة أرادت أن تكون الصهيونية ذراعاً ليس أكثر . بينما أرادت المنظمة الصهيونية أن تكون العقل ليس أقل. وانتصرت الدولة، وخاصة بعد أن وجدت

أنصارا لها في يهود الشتات الذين خافوا على مصالحهم فى الدول التى يعيشون فيها من تدخل المنظمة الصهيونية فى شئونهم. ولم يكن ما حدث خلال الحملة التى شنتها المنظمة الصهيونية ووكالتها اليهودية على حكومة النمسا إلا دليلاً جديداً على الرفض المتزايد من جانب يهود الشتات لتدخل قادة الصهيونية فى شئونهم. إذ تعمد يهود النمسا إعلان غضبهم وضغطوا على إسرائيل لتتوقف الحملة الصهيونية وحشدوا اليهود فى سويسرا وألمانيا وغيرهما للاحتجاج على تصرفات المنظمة الصهيونية.

***

من هنا، أعتقد أن النخبة الحاكمة فى إسرائيل حين تحاول أن تتخيل المستقبل، فإن أول ما سيتراءى لها هو مستقبل تنحسر فيه الصهيونية كعقيدة سياسية لليهود وتنحسر فيه كهوية، أى كضلع من أضلاع مثلث الهويات اليهودية، ولكن انحسار الصهيونية لا يعنى أن مضمونها انتهى. صحيح أن وظائف متعددة للصهيونية لم تعد مطلوبة، كما ذكرت وصحيح أن وظائف أخرى آلت إلى الدولة باعتبارها الوريث الشرعى والثمرة التى أثمرتها شجرة الصهيونية، صحيح أن سلم الأولويات عند المواطنين فى الغرب، ومنهم يهود، ارتبكت أولوياته بسبب موقع الصدارة التى تحتله العولمة، وباعتبارها – أى العولمة – «الضد المنطقى»، لأى هوية كبرى، مثل الدين والأيديولوجية «كالصهيونية» والوطنية، صحيح كل هذا، ولكن ستظل النخبة السياسية الإسرائيلية تبحث عن صيغة أخرى تحتوى مضمون العقيدة الصهيونية، وتنشئ مؤسسات خاضعة لها إلى جانب المنظمات الصهيونية تقوم بمهمة حشد طاقة يهود الشتات للدفاع عن إسرائيل سياسياً واقتصاديا وإعلامياً، بحيث يظل العقل السياسى موجوداً فى مكان واحد وهو إسرائيل.

ولكن أتصور أن النخبة الإسرائيلية لن تتوقف طويلاً فى خيالاتها عند قضية انحسار الصهيونية والاستعداد لذلك، إذ أنها تتخيل فى نفس الوقت وقوع انحسار مماثل فى الضلع الثانى من أضلاع مثلث الهويات الإسرائيلى، وهو اليهودية ذاتها. لقد بدأ فعلاً الحديث عن مستقبل يصعب فيه العثور على أعداد كافية من اليهود ضرورية لاستمرارية الدولة وأمنها.

***

مستقبل اليهودية .. تخيلات إسرائيلية

أحد أهم وظائف اليهودية فى إطار الصراع العربى الإسرائيلى هو أنها



تهويد العالم

الوعاء الطبيعى الذى اعتمدت عليه الصهيونية عندما بدأت عملية اطلاق إمكانات اليهود فى جميع المجالات بعد إخراجهم من الجيتو، أى إخراجهم باعداد غفيرة إلى مختلف مجالات الانتاج والتأثير. وكذلك اعتمدت على هذا الوعاء عندما قررت استيطان فلسطين، ثم فى كل مرة تقرر توسيع رقعة الدولة، والمؤكد على كل حال أن يهود شرق ووسط أوروبا لعبوا الدور الحاسم فى قيام إسرائيلى ونهضتها مرتين، مرة قبل وعند النشأة، ومرة أخرى عندما لاحت نهاية الاتحاد السوفيتي وبلغ عددهم فى هذه المرة المليون مهاجر، وصل آخر واحد فيهم منذ أيام قليلة ويجرى الاستعداد الآن لاستقبال مليون يهودى آخر من دول الانفراط السوفيتى، بعد أن تجاوزت إسرائيل بنجاح صعوبات استيعاب الموجة الأولى.

باستثناء هذا المليون القادم، ويبدو أن الإسرائيليين يستعدون لمستقبل يجف فيه الوعاء، أو على الأقل تجف نوعية معينة من اليهود، هى الأهم بالنسبة للذهنية الحاكمة فى إسرائيل، وهى نوعية يهود شرق ووسط أوروبا. بمعنى آخر سيتعين على إسرائيل بعد ذلك البحث عن مصادر غير تقليدية للهجرة إلى إسرائيل. تماماً كما فعلت عندما توقف التدفق من شرق ووسط أوروبا فى الخمسينيات بعد عودة السلام فى ربوع أوروبا وبعد هزيمة النازيين وتحسن الأوضاع الاقتصادية، عندئذ لجأت إسرائيل إلى مصدر غير تقليدى وكان فى ذلك الحين يهود الدول العربية. هؤلاء لم يكونوا ضروريين عند ارساء قواعد الدولة وقوانينها وأحزابها. ثم أصبحوا ضروريين لاستمرار الدولة وللدفاع عنها. لذلك فهم يتحدثون فى إسرائيل الآن عن الحاجة إلى «مرونة» أكثر فى تعريف من هو اليهودى، خاصة بعد أن تأكد أن عدداً كبيراً جداً من المهاجرين القادمين من روسيا ودول الانفراط السوفيتى ليسوا من اليهود

حسب التعريف المتشدد، ولا حتى التعريف المعتدل لمن هو اليهودى، ويبدو أن أحد الاتجاهات ينادى بأن تصل المرونة إلى حد القبول بدون تردد كبير بادعاء المهاجر أنه من أصول يهودية وإن أعلن عجزه عن اثبات ذلك.

بمعنى آخر يكفى فى المستقبل أن يقول إنسان أنه يهودى أو يريد أن يكون يهودياً ليصبح فى نظر إسرائيل يهودياً، وينسجم هذا التطرف فى المرونة مع اتجاه آخر يطلق عليه «التهويد العلمانى»، ويعنى السماح للأغيار بالانتماء إلى الشعب اليهودى وليس إلى الديانة اليهودية، استناداً إلى قاعدة أن اليهودية دين «أو» قومية وليس إلى قاعدة أن اليهودية دين وقومية فى آن واحد.

يتحدثون أيضاً عن خمسين مليون يهودى مبعثرين فى أفريقيا وآسيا، وعن وجود جماعات فى هاتين القارتين تطالب بالسماح لها بالهجرة إلى إسرائيل باعتبار أصولها اليهودية التاريخية، وسواء كانت الأنباء عن هذه الجماعات صحيحة أم زائفة، فأغلب الظن أن مجرد طرحها للنقاش يعنى أن مؤسسة الحكم فى إسرائيل لن تتوقف عند حد أخلاقى أو دينى أو قومى إذا تأكد الاحتمال بأن الوعاء – الذى يضمن استمرار الدولة وأمنها – بدأ يجف . وإن أضفنا إلى هذا الاحتمال انحسار الصهيونية كعقيدة مقابل صعود اليهودية كشعب أو دين، وانحسار الصهيونية كوظائف ومؤسسات مقابل صعود دور المؤسسة الحاكمة فى إسرائيل يصبح جائزاً أن نتصور أن تتحول إسرائيل إلى مجتمع متعدد الأعراق على النمط الأمريكى، بهوية – جديدة قديمة – وهى اليهودية العلمانية. ويعتقد بعض المفكرين فى إسرائيل أن اليهودية العلمانية قد تساعد فى حل مشكلة تصاعد نفوذ المتدينين اليهود أى الهوية اليهودية ذات الطابع الدينى المتطرف. بمعنى آخر فإن اليهودية العلمانية – كما يتخيلها هذا البعض – تبنى مجتمعاً جديداً، يهودياً فى الاسم.. «عالميا» فى الواقع.

يزيد من أهمية هذا الاحتمال الاتجاه المتزايد نحو «تهويد العالم». والمقصود بهذا التعبير هو المحاولات التى تجرى حالياً لاجبار الرأى العالم العالمى على التفكير «بذهنية يهودية» أو التمرد على «الهيمنة اليهودية». وكلاهما يصب فى خانة تهويد العالم. المهم أن يشعر العالم بوجود اليهود فى كل مكان، وبأكبر من حجمهم الحقيقى، وبأكثر من عددهم، وبأقوى من قوتهم. يدخل ضمن هذه المحاولات، قضايا وحملات التعويضات لضحايا المحرقة النازية، والعمل القسرى، وودائع البنوك ومنقولات البيوت والقصور اليهودية التى صودرت فى عهد النازى، يدخل أيضاً ضمن هذه المحاولات اصدار

التشريعات المتنوعة والمتعددة فى جميع دول أوروبا وأمريكا ضد حرية التفكير فى تاريخ اليهود وسلوكياتهم وسياساتهم وقوتهم وأعدادهم، ويدخل فيها أيضاً تضخيم مكانة اليهودية كدين بين الأديان الأخرى أو كشعب بين الشعوب الأخرى، وبالتدريج تتوسع التشريعات لتغطى جميع اتجاهات الفكر الناقد لتصرفات الدولة اليهودية مثل التجسس على دول أخرى، يحدث شئ من هذا أو سيحدث بشكل أكبر، فى منطقتنا العربية. إذ أنه حين نطالب أنفسنا بأن نفكر مثل اليهود، أو نعمل مثل اليهود، فإننا فى حقيقة الأمر نعمل على تهويد أنفسنا دون أن نشعر، أو ربما نشعر. ولكننا نستهين بخطورة ما نفعل وهول ما نستحسن. لا احد يطالب اليهود، ولا هم يطالبون أنفسهم بأن يفكروا مثلما نفكر أو يعملوا مثلما نعمل، البعض فى إسرائيل يطرح التفكير فى ضرورة أو احتمال أن تصبح إسرائيل دولة شرق أوسطية، ولكن لا أحد فيما أعلم باستثناء بعض القيادات العسكرية يؤمن بهذا الخيار، وحتى هذه فبشروط وتحفظات كثيرة.

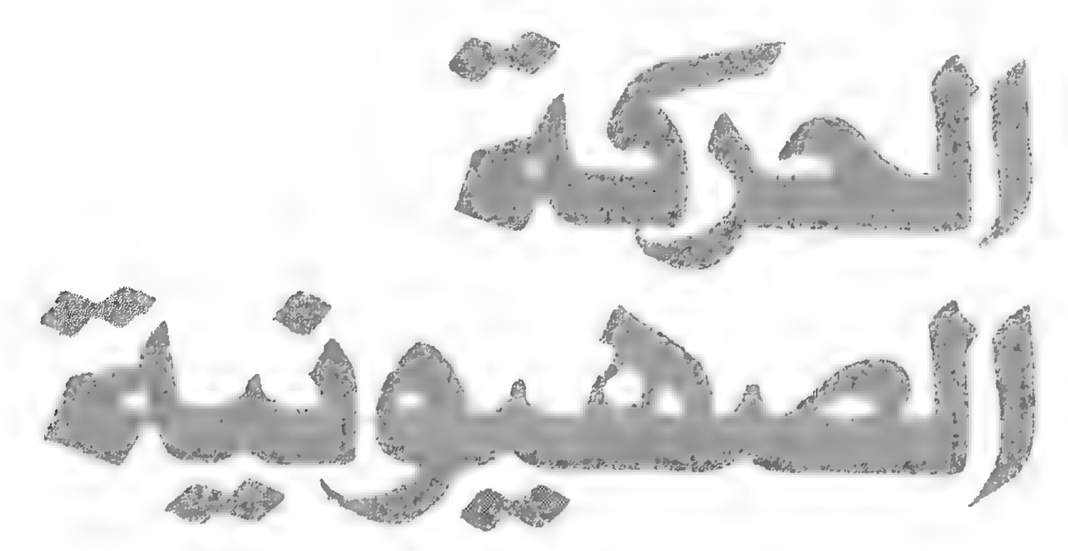
وحين أتحدث عن تهويد العالم لا أتحدث عن ميول أمبراطورية، أو استراتيجية لفرض هيمنة سياسية يهودية.. وإن كنت لا أرفض قطعياً هذا الاحتمال باعتباره أمراً وارداً وجائزاً وحقاً مارسته شعوب كثيرة على مر التاريخ. ولكنى أتحدث عن «رغبة كامنة أو معلنة لدى حضارة معينة فى أن تصبح هى الرائدة، أن تصبح المرجع الحضارى الأول والأهم، وفى أن تصبح الاطار الحضارى العام بحيث يكون شاذاً أو خارجاً عن سياق التفكير خارج هذا الاطار بالتناقض معه أو بالتشكيك فيه».

أتصور مثلاً أن تهويد أمريكا قد حقق خطوات متقدمة جداً، وكذلك بريطانيا، وتجرى محاولات مكثفة فى ألمانيا بوسائل مختلفة جداً. ففى عديد من القضايا تتخذ الولايات المتحدة قراراتها فى إطار تحرص أن لا يكون متناقضاً مع الطروحات اليهودية، والنماذج كثيرة ابتداء من أفكار الكنائس المسيحية الأصولية الجديدة وممارساتها وانتهاء بتفاصيل السياسات الخارجية مع دول أفريقية وأسيوية وعربية. وتصدر الآن القوانين والتشريعات الأوروبية والأمريكية مراعية جميع حساسيات اليهود، ليس فقط يهود أمريكا، بل يهود العالم بأسره. وقد لاحظنا كيف تصرفت ولايات أمريكية، أى حكومات اقليمية أمريكية، مع دول اجنبية مثل سويسرا، واستخدمت ضدها سلاح المقاطعة الاقتصادية والتشهير الإعلامى لمجرد أنها لم تخضع لمطالب المنظمات اليهودية

العالمية فى شأن التعويضات. وفى أحوال أخرى قام وزراء أمريكيون بالتفاوض مع دول أخرى نيابة عن «اليهود» مستخدمين نفوذ الدولة الأعظم فى العالم. هذا الموضوع كأى موضوع يتعلق باليهود، يظل موضوعاً شائكاً، يظل فوق مهمة التدقيق والبحث، ويظل خاضعاً لضغوط وعوامل ردع كثيرة تهدد من يقترب باسم الحقيقة أو العلم إلى أمور غير جائز النقاش فيها إلا إذا قرر اليهود أنفسهم رفع الحظر والسماح بالمناقشة، والأمثلة على قيام اليهود أنفسهم برفع الحظر غير كثيرة ولكنها بارزة، وهى على سبيل الحصر كتابات المؤرخين الجدد عن المذابح فى فلسطين قبل قيام الدولة، وبعض الكتابات الجديدة عن هنا آرندت الفيلسوفة اليهودية صاحبة الموقف الشهير من قضية محاكمة أيخمان.

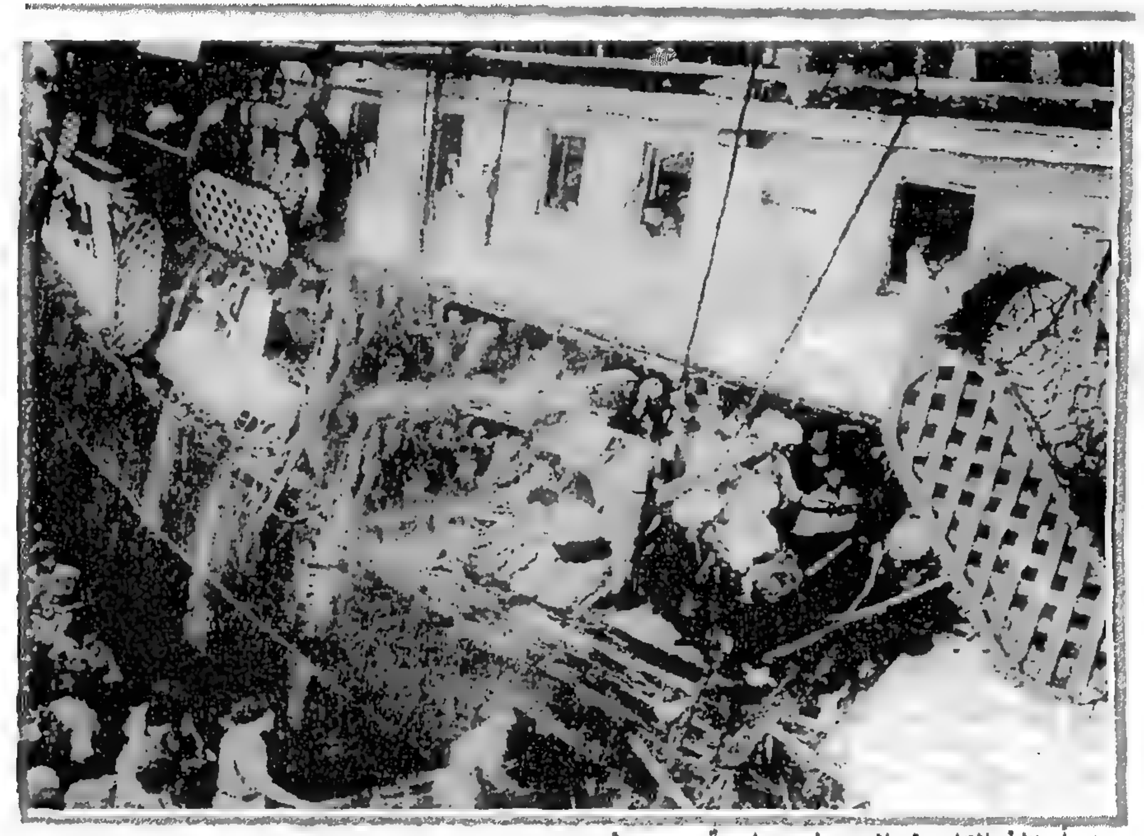
***

خاطرت مرتين فى هذا المقال، مرة وأنا أحاول استخلاص اتجاهات جديدة فى الفكر اليهودى لم تزل خجولة، وغير صريحة. ومرة وأنا أتصور بعض جوانب المستقبل من خلال دينامية سباق أو صراع أضلاع مثلث الهويات فى المجتمع الإسرائيلى، حاولت قراءة ما يدور فى خيال المؤسسة الحاكمة فى إسرائيل عن المستقبل. وهنا فى هذه المخاطرة الثانية شعرت باقترابى من مناطق محظورة فى الفكر السياسى العربى - إن وجد شئ بهذا المعنى، وفى الفكر السياسى اليهودى، إذ أنه حين تقرأ فى سلوك الحاكمين اليهود ما يشير إلى رغبة فى تهويد العالم فأنت فى الواقع تلمح إلى أن هؤلاء الناس يفكرون ويعملون للتأثير على مستقبل الحضارة. وقد يتردد الكثيرون - حتى فى مجرد التفكير - فى هذا الاحتمال، أى احتمال أن يكون سعى اليهود فى المرحلة الراهنة بهدف فرض «الحضارة اليهودية» كحضارة اسمى أو المرجعية الحضارية للمستقبل فى وقت لن يزيد عدد اليهود فى العالم عن ١٦ مليوناً، أو حتى عن سبعين مليونا كما يقال، وستظل المقارنة قائمة بين شعب بهذا العدد، وشعب المليار وربع فى الصين أو المليار فى الهند، وبالتالى سيصر الكثيرون على استحالة أن تنجح اليهودية فى فرض نفسها مرجعية حضارية، أو حضارة أسمى، فى عالم فيه شعب صينى وشعب هندى وأمة إسلامية بأعداد غفيرة من البشر. ويبقى آخرون مصريين على أن العبر كانت دائماً ومازالت بالنوع ولم تكن اطلاقا، إلا فى صراعات البرابرة، بالعدد.



خلال القرن العشرين

بقلم : د. عادل غنيم ★



★ أستاذ التاريخ الحديث بجامعة عين شمس

66

مضى قرن على الحركة الصهيونية التى بدأت رسميا مع المؤتمر الصهيونى الأول الذى عقد فى أغسطس ١٨٩٧ فى مدينة بال بسويسرا، وقرر إنشاء وطن قومى للشعب اليهودى فى فلسطين يضمنه القانون العام .

ورغم أن النشاط الصهيونى الرسمى بدأ فعلا منذ هذا التاريخ، فإن جذور هذا النشاط تعود قبل ذلك إلى واقعتين محددتين :

الحدث الأول : الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨ م ومحاولة نابليون إقامة إمبراطورية فرنسية فى الشرق، وتوجيهه بيانا ليهود أسيا وافريقيا أثناء محاصرته لمدينة عكا محاولا استمالتهم لمساعدته فى تحقيق أهدافه الاستعمارية، حيث وعدهم بأن يعيدهم الى القدس وأن يساعدهم فى بناء هيكل سليمان .

وقد كان لهذه الخطوة من جانب نابليون أثران : الأول لدى اليهود والآخر لدى بريطانيا. فبالنسبة لليهود يعتقد أن بيان نابليون الى اليهود هو الذى نبه ثيودور هرتسل منشىء الحركة الصهيونية الى إمكانية استفادة اليهود من القوى الاستعمارية لتحقيق احلامهم فى إنشاء دولة لهم فى فلسطين، وأما عن أثر نداء نابليون لدى بريطانيا، فقد أثار ذلك كوامنها الاستعمارية، ونبهها الى أهمية السيطرة على هذه المنطقة خاصة مصر ، وإنشاء دولة يهودية فى فلسطين تكون أداة فى يد بريطانيا لتحقيق أهدافها الاستعمارية .

أما الحدث الثاني : فهو توسع محمد على الى الشام فى محاولته إقامة دولة عربية كبرى خلال الثلاثينات من القرن التاسع عشر (من ١٨٣١ ـ ١٨٤٠) مما نبه بريطانيا للمرة الثانية الى ضرورة السيطرة على هذه المنطقة، والاستفادة من اليهود من أجل تحقيق أهدافها الاستعمارية .

ولذلك نرى أن بريطانيا منذ الثلاثينات من القرن الماضى تهتم بفلسطين وبالقدس بشكل خاص، ومن هذا الاهتمام أن بريطانيا أنشأت أول قنصلية أوربية فى القدس عام ١٨٣٨ م ، كما كتب رئيس الوزراء البريطانى الى سفيره فى القسطنطينية فى نفس اليوم الذى انسحبت فيه قوات محمد على من سوريا، ينبهه الى أهمية موافقة السلطان العثمانى على هجرة اليهود الى فلسطين،

وبدأت شخصيات بريطانية تعطى اهتماما لموضوع الاستفادة من اليهود لفرض السيطرة البريطانية على هذه المنطقة فى الوقت المناسب .

الحركة الصهيونية فى بريطانيا

وتلقف المفكرون الصهاينة هذا الاهتمام من جانب بريطانيا لتهجير اليهود الى فلسطين وتوطينهم فيها، فبدأوا يطرحون فكرة الارتباط ببريطانيا من أجل تحقيق أحلام اليهود وآمالهم، ويعترفون صراحة بأهمية العلاقة التى تربط الفكرة الصهيونية بالمصالح البريطانية. وقدم المفكرون الصهاينة أفكارا مختلفة من أجل حل المشكلة اليهودية وإنقاذ اليهود - خاصة فى أوربا الشرقية - من ذلك الاضطهاد الذى كانوا يلاقونه، لكن ثيودور هرتسل هو المفكر الصهيونى الذى استطاع أن يبلور أحلام اليهود وآمالهم وأهدافهم الأساسية فى وثيقة محددة وواضحة هى كتاب «الدولة اليهودية» الذى نشره عام ١٨٩٦م ، والذى يعتبر دستور الحركة الصهيونية وميثاقها، ووجد اليهود أمامهم ولأول مرة دليل عمل للحركة الصهيونية يحدد لهم معالم الطرق، ويوضح لهم المشكلات، ويضع لهم الحلول، وينقل المسألة اليهودية من قضية محلية الى قضية عالمية. ويتحدث عن كيفية احتلال الأراضى وليس استعادتها كما يردد زعماء اليهود الآن، كما يعترف صراحة بأن الدولة اليهودية المنتظرة سوف تكون رأس حربة لأوربا نظير حماية أوربا لوجودها .

ولن أستطيع بطبيعة الحال متابعة الحركة الصهيونية بالتفصيل منذ نشر الكتاب «الدولة اليهودية» عام ١٨٩٦ م وانعقاد المؤتمر الأول عام ١٨٩٧ م ، لكننى سوف أركز حديثى فى إيجاز شديد بحثا عن الدروس والعبر التى يمكن أن تستخلص من متابعة الحركة الصهيونية على مدى قرن من الزمان .

أولا : أن جزءا من أسباب نجاح الحركة الصهيونية يرجع الى أنها حددت استراتيجيتها ، ووضعت دليل عملها، واختارت الوسائل الكفيلة بتحقيق أهدافها، سواء بعقد المؤتمرات السياسية بانتظام لمتابعة ما تم والتخطيط لما هو قادم، أو بإنشاء الشركات والبنوك والمستوطنات، أو بتكوين القوات العسكرية المختلفة، أو بإنشاء الجامعات والمعاهد العلمية المتخصصة، حتى أنهم وضعوا أساس الجامعة العبرية فى القدس قبل أن تنتهى الحرب العالمية الأولى، إدراكا منهم لأهمية الجامعة فى بناء الدولة .

ثانيا : أن الحركة الصهيونية قد أحسنت ـ خاصة فى مراحلها الأولى ـ اختيار القيادات التى أخلصت للحركة ، ووضعت كل إمكاناتها فى خدمتها . وهناك أربع شخصيات بالتحديد كان لها دورها الكبير فى تحقيق أهداف الحركة :

ثيودور هرتسل منشىء الحركة الصهيونية، وحاييم وايزمان الذى قاد الحركة منذ الحرب العالمية الأولى وكان أول رئيس لدولة اسرائيل، ثم بن جوريون صاحب مبدأ أن العرب لايفهمون إلا لغة القوة وأخيرا مناحم بيجين .

ومن يتابع تحركات هرتسل خلال السنوات الثمانى التى عاشها بعد تأليف كتابه «الدولة اليهودية» سوف يرى نموذجا للتحرك الواعى والقيادة المصممة على تحقيق أهدافها .

ثالثا : أن الاستعمار كان له دور أساسى فى تحقيق الأهداف الصهيونية، وأهمها إقامة دولة اسرائيل، فقد تحملت بريطانيا مسئولية إقامة الوطن القومى اليهودى منذ الحرب العالمية الأولى حتى الحرب العالمية الثانية ، وتحملت الولايات المتحدة الأمريكية مسئولية إقامة دولة اسرائيل منذ الحرب العالمية الثانية ودعم دولة اسرائيل حتى الآن، ولم يكن بإمكان اسرائيل وحدها دون دعم من الاستعمار العالمى مهما أوتيت من أسباب التنظيم والقوة، لم يكن بإمكانها أن تصنع دولة دون سند من الاستعمار، ولذلك فإن أحد الدروس المستفادة هو أن عدونا الأساسى هو الاستعمار، وأن الصهيونية مهما كانت خطورتها فهى ليست سوى خطر ثانوى .

وقد يردد البعض أحيانا أن دولة إسرائيل هى التى تتحكم فى السياسة الأمريكية، أو أن اللوبى الصهيونى فى أمريكا هو الذى يوجه السياسة الأمريكية، وهذا فى رأيى كلام غير دقيق. فاللوبى الصهيونى فى أمريكا له أثر من غير شك، لكن ليس هو الذى يوجه السياسة الأمريكية فما أراه هو أن الولايات المتحدة تفعل ما تفعله من هذا الدعم المتناهى لاسرائيل، وهذه الحماية الكاملة لها، لأن الولايات المتحدة ترى فى ذلك مصلحة دائمة لها باعتبار أن اسرائيل هى أداتها فى المنطقة، وهى المدافعة عن مصالحها، أما بالنسبة لعلاقة البلدان العربية بالولايات المتحدة، فرغم أهميتها الكبيرة فهى تمثل بالنسبة للولايات المتحدة مصالح مؤقتة، قد تستمر سنين عديدة لكنها ليست ثابتة كما أنها غير مأمونة العواقب.

رابعا : أن القوتين الأساسيتين فى

اسرائيل وهما :

العمل والليكود ليسا سوى وجهين لعملة واحدة وأنهما يتفقان فى الخطوط الأساسية، لكنهما يختلفان فى الأساليب وطريقة التعامل مع العرب، وكل القيادات الاسرائيلية التى تولت الحكم منذ عام ١٩٤٨م تعتبر الأرض ملكا لاسرائيل كما تعتبر القدس عاصمة أبدية لها، ويتضح لنا ذلك من اتفاق حزبى الليكود والعمل على النقاط الأساسية بالنسبة للقضايا المؤجلة للمرحلة الأخيرة من التسوية مع العرب، وهى قضايا القدس والمستوطنات واللاجئين والحدود.

خامسا : أن يهود العالم - رغم أن نسبتهم الضئيلة لا تذكر بالنسبة للمسلمين الذين يتجاوز عددهم الآن المليار وربع المليار نسمة - قد قدموا للقضية الصهيونية أكثر مما قدم المسلمون لقضية فلسطين سواء بالدعم الأدبى أو الدعم المادى ؛ فجالياتهم خاصة فى أوربا وأمريكا تسخر كل امكاناتها من أجل خدمة القضية الصهيونية، كما أن المنظمة الصهيونية العالمية أو قيادات اسرائيل هى التى تحدد سنويا المبالغ أو الملايين التى ينبغى جمعها من يهود العالم، بينما لا يقدم مسلمو العالم لقضية فلسطين إلا كثيرا من التصريحات والقرارات المؤيدة، وقليلا من الدعم المادى الذى لا يمكن فى واقع الأمر من الصمود فى مواجهة تلك الغزوة الصهيونية ، وليس هذا بالأمر الجديد ، فاليهود منذ الحرب العالمية الأولى حتى الآن يجمعون سنويا مبالغ كبيرة يدعمون بها الكيان الصهيونى، وعلى سبيل المثال فبعد انتفاضة البراق التى حدثت عام ١٩٢٩ قدم مسلمو العالم لأهل فلسطين ١٣ ألف جنيه، بينما قدم يهود العالم ليهود فلسطين أكثر من مليون جنيه وقد تابعوا هذا السخاء فى كل المناسبات.

سادسا : أن الدولة الصهيونية لا تقصد فى الحقيقة تحقيق سلام حقيقى مع العرب، لأن إحدى الفلسفات الأساسية للدولة الصهيونية تقوم على العدوان والتوسع والعنف والسيطرة، والسلام الحقيقى لن يحقق لهم التوسع الذى يرغبون فيه، لكنهم أرادوا من السلام تحقيق الاعتراف بوجودهم وشرعيتهم، وجعل السلطة الفلسطينية تحت سلطانهم، والتلويح لها بين وقت وآخر بشىء من الحكم الذاتى، وتأجيل القضايا الكبرى وعلى رأسها القدس بحيث يمكن التباحث حولها لسنوات، سوف تمتد على الأغلب أكثر من الوقت المحدد لها على أن تتم خلال ذلك زيادة الحصار حول السلطة

الفلسطينية، وتحويل القدس الى مدينة صهيونية، بحيث يفرض الأمر الواقع على العرب، ويستسلمون فى النهاية لما تطلبه اسرائيل .

سابعا : أن من أهم ما يساعد الدولة الصهيونية على الاستمرار فى سياسة العدوان والتوسع والعنف والغطرسة. هذا الضعف العربي والاسلامي المهين، وهذا الاستسلام الذى بلغ أقصى درجاته، وعدم وجود استراتيجية للعرب المستقبل، ومن يتابع الحروب التى حدثت بين الدولة العربية واسرائيل سوف يجد أن العرب - باستثناء حرب العاشر من رمضان - لم يحسنوا الاستعداد لتلك الحروب، واذا أخذنا حرب ١٩٤٨ كنموذج على أساس أن بعض وثائق تلك الحرب أصبح متاحا للباحثين ، فيكفى أن أقول فى إيجاز إنه لم يكن هناك أى استعداد عسكرى جاد لخوض هذه الحرب، وأن عدد القوات اليهودية كان حوالى ثلاثة أضعاف القوات العربية، وان القائد الأعلى للقوات العربية المسلحة الملك عبدالله قد التقى سرا قبل الحرب بأيام مع جولدا مائير ممثلة الوكالة اليهودية وأن رئيس وزراء الأردن سلم الى الانجليز الخطة العسكرية السرية للجيوش العربية والتى يعتقد أنها قد وصلت بدورها الى اليهود، الى غير ذلك من الخيانات التى تكشفها لنا الوثائق الانجليزية والامريكية يوما بعد يوم، ويعنى ذلك كله أن البلاد العربية لم تستطع طوال المائة عام السابقة مواجهة الدولة الصهيونية مواجهة حقيقية .

ولعل ذلك يطرح سؤالا : هل تستطيع البلاد العربية والاسلامية فى ظروفها الراهنة أن تواجه الدولة الصهيونية فى المستقبل القريب .

قناعتى وفهمى لأوضاع أمتنا العربية والاسلامية واستقراء دروس التاريخ يوضح لنا، أن الأمة العربية والاسلامية غير قادرة فى ظروفها الراهنة على مواجهة تلك الغزوة الصهيونية الاستعمارية، وان الحلول الرسمية الحالية سوف تحقق بعض النتائج، لكنها لن تحقق للعرب والمسلمين ما يأملون، ولن تستطيع هذه السياسة انقاذ فلسطين والمسجد الأقصى، وأن الحل الناجح فيما أعتقد هو اعلان الجهاد فى الوقت المناسب، وأن يهيئ الله لهذه الأمة شخصية مثل صلاح الدين الأيوبى، يلم شمل الأمة ، ويجدد ايمانها، ويبعث فيها روح النضال، ويحسن التخطيط والتنظيم وتحديد الأهداف .

أزمة اليسار
وتسجيل تاريخ الحركة الشيوعية فى مصر

فى أكثر من ألف صفحة من القطع الكبير (١١٤٨ صفحة) حاول أبو سيف يوسف الاحاطة بتاريخ منظمة طليعة العمال احاطة كاملة من خلال جهد جماعى لعناصر مختارة من المنظمة أنفقت سنوات من العمل الشاق لتجميع وثائق تصلح لتكون مادة أساسية لكتابة تاريخ المنظمة، وقام أبو سيف بدور المحرر للمادة الوثائقية، وصدر العمل في يناير من هذا العام.

وأبو سيف يوسف فى زمن نشاط المنظمة التى يؤرخ لها، كان ممن شاركوا فى العمل التمهيدى الذى سبق اعلانها، وتولى سكرتارية تحرير «الفجر الجديد» (١٩٤٥ - ١٩٤٦) إحدى إصدارات المنظمة، ثم كلفته المنظمة فى عام ١٩٤٨ بالعمل السرى الذى استمر فيه حتى اعتقاله عام ١٩٦٠، وفى ١٩٥٨ أسهم فى عملية انشاء الحزب الشيوعى المصرى بتوحيد المنظمات الرئيسية الشيوعية الثلاثة ممثلا لطليعة العمال التى كانت قد انتخبته فى ١٩٥٦ من خلال مؤتمرها العام مسئولا سياسيا، وأثناء عمله فى تحرير الفجر الجديد، أصدر كتابه «حول الفلسفة الماركسية: رد على العقاد» وكان فى الأصل مجموعة مقالات بالمجلة .



أما المنظمة نفسها فقد تأسست على مرحلتين: الأولى بين عامى ١٩٤١ – ١٩٤٥، وهى فترة استغرقت فى دراسة المجتمع المصرى عن قرب، ومن هنا نفهم دلالة اختيار عام ١٩٤١ للتوثيق، أما المرحلة الثانية فتبدأ بإعلان المنظمة فى سبتمبر ١٩٤٦ باسم «الطليعة الشعبية للتحرر» وفى ١٩٤٩ اتحدت مع منظمة «حركة تحرير الشعب» (حتش)، وهى مجموعة لم تنضم إلى منظمة حدتو، واتخذت المنظمة الجديدة الموحدة اسم الديمقراطية الشعبية «د.ش»وفى مطلع الخمسينات أخذت اسم «طليعة العمال» وهو اسم كانت قيادات عمال نسيج شبرا الخيمة تستخدمه فى بياناتها، وفى ١٩٥٧ اختار المؤتمر العام للمنظمة اسما جديدا لها هو «حزب العمال والفلاحين الشيوعى المصرى» (ع.ف) والمنظمة فى كل الأحوال أحد فصائل النشاط اليسارى فى مصر فى الفترة الوسيطة المتعارف عليها فى الأدبيات اليسارية التى تقع بين عامى ١٩٤٠ – ١٩٥٨.

شهادات الأحياء

وتضم فصول الكتاب وعددها سبعة وثلاثون فصلا كل مايتعلق بنشاط طليعة العمال فى مراحلها المختلفة من خلال ما أمكن جمعه من وثائق أصلية فى القليل جدا، ومن تقارير تتضمن بعض الوثائق الأصلية بما فى ذلك شهادات الأحياء من الأعضاء، وعلى هذا فإن فصول الكتاب تتضمن نشأة المنظمة، والاتجاهات الفكرية التي حكمت خطها السياسى، وتفاصيل النشاط السياسى طوال عشرة أعوام ابتداء من عام ١٩٤٧ إلى ١٩٥٧، كل عام فى فصل قائم بذاته

فيما عدا عاما ١٩٥٠/١٩٥١ اللذين جاءا فى فصل واحد، وكذا القضايا السياسية والاقتصادية التى انشغلت بها المنظمة ومواقفها فى هذا الخصوص. وقد استغرق هذا الجانب نصف الكتاب تقريبا (١٧ فصلا فى ٥٠٠ صفحة) .

أما بقية فصول الكتاب فقد خصصها المحرر للجوانب التنظيمية التى تتعلق بأسس التنظيم الداخلى وهياكله، والخصوصية السرية التى اتصفت بها، والشئون المالية، ورؤية المنظمة لمسألة الوحدة بين المنظمات الشيوعية، والعمل الجماهيرى على الصعيد السياسى من نوع الدور فى الانتخابات البرلمانية ١٩٤٥ - ١٩٥٧، ولجنة العمال الطلبة ١٩٤٦، وأحداث مارس ١٩٥٤، وعلى الصعيد الاقتصادى، والعمل فى صفوف الطلاب، وفى النقابات العمالية والاتحادات المهنية، والعمل فى الأقاليم، والعمل فى النشاط النسائى الجماهيرى، والعمل من أجل السلام (جماعة أنصار السلام)، وأخيرا استعراض المجلات الفكرية التى أصدرتها المنظمة وعددها ثمانية أشهرها مجلة شبرا (١٩٤٢) والفجر الجديد (١٩٤٥ - ١٩٤٦) والضمير (١٩٤٥)، وكذلك دور النشر التى أسستها المنظمة وعددها ستة بين ١٩٤٣ - ١٩٥٧ مع استعراض بعض المواد المنشورة، وكذا الإصدارات السرية بين ١٩٤٧ -١٩٥٧ وأشهرها كفاح الشعب والهدف، ولم يفت المحرر أن يسجل الاسهامات الفكرية لعناصر المنظمة فى المجلات العامة .

ولاشك فى أن هذا العمل بكل المقاييس جهد ضخم لايقدر عليه إلا أولو العزم والقدرة من الرجال الذين نشأوا مناضلين، وتحملوا الكثير فى سبيل ما أعتقدوا أنه الحق والعدل ولم يتنازلوا، وقد وقفوا على يسار الحكم القائم سواء قبل ١٩٥٢ حين كانت طبقة كبار ملاك الأراضى الزراعية وأصحاب الشركات الصناعية والتجارية يحكمون، أو بعد ١٩٥٢ حين كان الضباط الأحرار يمثلون تيارا وسطا فى الأول والأخير لا يود الانجراف يمينا أو يسارا، بل ويعادى أصحاب كل من الاتجاهين بقوة ملحوظة. وهكذا نالوا تقدير أعدائهم قبل أصدقائهم، واكتسبوا احترام الطبقة الاجتماعية التى بذلوا الكثير من أجل النهوض بأحوالها .

الحياد والموضوعية

على أن هذا العمل بالشكل الذى

صدر به يثير جملة اشكالات منهجية تتعلق بالفرق بين التأريخ لأى حركة سياسية أى مجرد نشر وثائقها، وبين كتابة تاريخ الحركة أى البحث فى الدوافع وتفسير النتائج، كما يثير اشكالية من يكتب تاريخ المنظمة السياسية؟.. هل لأحد أعضائها الحق فى ذلك بصرف النظر عن قدرته، أم ينبغى أن يكتبه شخص آخر غير متورط فى حركة المنظمة بدرجة أو بأخرى، والإجابة على مثل هذه الأسئلة المنهجية تثير اشكالات أخرى تتعلق بالحياد والموضوعية فى كتابة التاريخ، ومتى يكون الحياد وهما، ومتى يكون أشد وهما وخرافة .. وهل حقيقة الموضوعية أن يكشف المرء عن ذاتيته أم أنها ممكنة بتوفير القدر الأكبر من المعلومات الموثقة والارتفاع فوق الذات قدر الامكان.

إن هذا العمل فى حقيقته يخلط منهجيا بين التوثيق وبين الذكريات وبين الرؤية الخاصة للمحرر فى نهاية الأمر بحيث يصعب على القارىء غير المتخصص أن يميز بين ماهو وثائقى، وبين ماهو مستخرج من قاع الذاكرة، وبين مجموعة الرؤى هنا وهناك.

ويبدو واضحا أن «أبو سيف يوسف» الذى كان عضوا أساسيا فى المنظمة أدرك صعوبة أن يكون مؤرخا وباحثا فى آن واحد دون أن يتهم بالتقصير فى كل من المهتمين حين تأتى إحداهما على حساب الأخرى، ودون أن يحاكم بتهمة جديدة وهى ارتكاب اثم الالتزام دون الموضوعية، فنراه يؤكد فى أول سطر من المقدمة على أن «غاية هذا الكتاب أن يقدم للقارىء مادة لكتابة تاريخ الحركة الشيوعية فى مصر فهذا هو الهدف النهائى من إعداده» ذلك أن باحثين ومؤرخين للحركة الشيوعية «يبدأون كتاباتهم بالشكوى المريرة من نقص المادة التاريخية فى مصادرها الأصلية». ثم يقول – تحاشيا للنقد – أنه يكتب «للمعرفة والفهم والعبرة وللمساعدة على تأصيل مالم يتم تأصيله وخدمة للحقيقة التى هى ضالة العلماء والباحثين»، ثم يضع أمام القارىء الصعوبات التى تحول دون توثيق الحركة الشيوعية فى مصر توثيقا كاملا، وفى باله الذين سوف يتابعونه من عناصر المنظمات الشيوعية الأخرى. ومن هذه الصعوبات طابع السرية الذى لازم النشاط اليسارى فى مصر، وتعرض الوثائق للضياع أو المصادرة، وتوزعها فى بلاد كثيرة متفرقة بالخارج حملها

من غادر مصر طوعا أو كرها، ومن ذلك أيضا تعدد النشاط اليساري (عشرون منظمة في مطلع الأربعينات)، والانقسامات الكثيرة التي تجعل من الصعوبة بمكان رسم خريطة تنظيمية لحركة المنظمات.

مفردات الخطاب السياسي

ويعد هذه الصعوبات التي يقدمها المحرر التي لاخلاف بشأنها، ينتقل إلى صعوبة أخرى محل جدل حين يقول أنه من الضروري على الباحث في تاريخ الحركة الشيوعية بشكل عام وطليعة العمال بشكل خاص أن يتعرف على «تجليات الفكر الماركسي في مجتمع بعينه في جوانبه النظرية والتنظيمية والعملية» قبل أن يكتب عن الحركة، بمعنى هل تكون الماركسية اللينينية في حقبة ستالين هي الإطار المرجعي، أم الماركسية الماوية بعد ثورة الصين ١٩٤٩ .. وماهي حقيقة مفردات الخطاب السياسي للمنظمات الشيوعية في ضوء الظروف الموضوعية، وما مدى انعكاس فكر التنظيم ومنهجه في العمل الجماهيري. وكلها صعوبات تقيد أبوسيف يوسف مثلما تقيد غيره من الذين يقدمون على مثل هذا العمل، ولايعني ذكرها من جانبه أنه قد تجاوزها حقيقة .

على كل حال .. ففي طيات هذه الصعوبات يذكر المحرر أن هناك قدرا مهما من الوثائق السرية لطليعة العمال ضاعت خلال عام ١٩٥٩ بما فيها وثائق التأسيس. لكنه - كما يقول - استقى مادتها من خلال ست محاضرات أعدت خصيصا لتثقيف الأعضاء وهي الرسالة السياسية والنقابية والتنظيمية، ومن هنا اضطرار الباحثين في تاريخ الحركة الشيوعية المصرية لكي يتعرفوا على تاريخ المنظمة الى اللجوء لترتيب لقاءات شخصية مع عناصر الحركة من الأحياء وتسجيلها ونشرها كوثائق، وهذه إشارة غير مباشرة من أبوسيف يوسف إلى رفعت السعيد وغيره ممن اعتمدوا هذا الأسلوب. غير أن أبو سيف ينتقد هذا الأسلوب في التوثيق رغم اعترافه بأهميته وذلك بحجة أنه لايكفي من ناحية، ولأن غالبية اللقاءات تمت في أواخر السبعينات والثمانينات مع أعضاء تجاوزوا الستين من العمر، وقد يوحي هذا بأن المحرر غير راض عن تلك الأعمال وفي مقدمتها كتابات رفعت السعيد، ورسالة الدكتوراه للباحثة الأمريكية سيلما بوتمان عن الحركة الشيوعية ١٩٣٨ - ١٩٥٤، وقد شغل نفسه بنقد هذه الأعمال في

المقدمة حول ماهو تاريخى أى المعلومات والوقائع، وماهو منطقى أى المفاهيم المستخدمة فى البحث، وينتهى إلى القول بأن هذه البحوث تورطت فى خطر ما أسماه توطيد الخطأ أى تحويل خطأ فى كتابة تاريخ ما إلى مسلمة يتداولها الباحثون.

وكنت أود حقيقة لأبوسيف ألا يشغل نفسه بنقد جهود الآخرين خاصة وأنه يقدم كما يقول مادة لكتابة تاريخ الحركة الشيوعية ويترك هذه المهمة لغيره، ذلك أنه وقع فيما حذر من الوقوع فيه فى بعض الأحيان، إذ نراه فى تأريخه لأجزاء غير قليلة يعتمد على شهادات ولقاءات وتقارير سبق تقديمها من عناصر فى المنظمة ونشرت متفرقة، وهناك وثائق باعترافه أعيد ترجمتها من الفرنسية إلى العربية نظرا لضياع الأصل العربى، ولايخفى تأثير ذلك على الفهم الحقيقى للوثيقة فى سياق لغتها الأصلية.

والحقيقة أن أبو سيف لم يقدم مادة مستقلة لكتابة تاريخ الحركة، بل قدم مادة مشوبة بالرأى، ويتضح هذا فى تقديمه لكل فصل، وفى تبويبه المادة وفق خطة استهدفت فيما يبدو ابراز هوية المنظمة ونشاطها السياسى والتنظيمى والفكرى، كما يتضح أيضا من العناوين التى اختارها لأبواب الكتاب وفصوله على حين أن الوثيقة كما هو معروف تصدرها أى منظمة سياسية بناء على حدث سياسى، دون أن تصنفها فى جانب معين من النشاط. لكن استخدام الباحثين للوثيقة فيما بعد هو الذى يضفى عليها أهمية سياسية أو اقتصادية أو تنظيمية أو فكرية .. الخ، والمحرر يعترف فى التقديم بأنه قام بتصنيف الوقائع وفقا لمضمونها السياسى والاقتصادى والانسانى العام، ومن ثم فقد فرض قراءته للوثيقة على غيره، وفى هذا الخصوص وعلى سبيل المثال يذكر أنه فى توثيقه لنشاط المنظمة عام ١٩٥٣ (الفصل السادس من الباب الثالث) استند إلى تقرير سياسى من عشر صفحات، وقال أنه يعرضه هنا باختصار بشأن المقاومة الشعبية، وأنه لم يعرض الفقرة الرابعة منه عن الكفاح المسلح لأنه سوف يعرضها فى الباب الرابع الذى اختار له عنوان «قضايا ومواقف فى السياسة والاقتصاد»، وهذا تصرف فى الوثيقة من جانبه غير محمود .

وأكثر من هذا فإن أبوسيف لم ينشر الوثائق كما هى فى أصلها، وإنما حرص على أن يضع عناوين

فرعية من عنده بين فقرة وأخرى للفت نظر القارىء مثلما يفعل المحرر فى المجلات الثقافية فى المقالات التى ترد إليه من أصحابها، وعلى سبيل المثال فقط أنه فى حديثه عن نشاط الحركة اليسارية عام ١٩٥٠/١٩٥١ (الفصل الرابع من الباب الثالث) وفيما يتعلق بالموقف السياسى فى ١٩٥١، يضع المحرر عنوانا جانبيا: عجز القيادة الوفدية وشبح الانقلاب القادم، والمقصود طبعا انقلاب يوليو ١٩٥٢، مما يوحى بأن المنظمة كانت تقرأ المستقبل وهذا غير صحيح فضلا عن أن التقرير يخلو من أي شىء فى هذا الاتجاه، وفى نشاط المنظمة عام ١٩٥٣ يكتب المحرر عنوانا: المواجهة تشتد بين نظام يوليو وقوى المعارضة، على حين أن نص التقرير السياسى المنشور يخلو من كلمة «نظام» ويستخدم «العصبة العسكرية والدكتاتورية العسكرية» والمعروف أن كلمة نظام هذه شاع استخدامها منذ أواخر السبعينات بمعرفة مثقفى الطبقة الاجتماعية القديمة، والكتاب يحفل بنماذج كثيرة من هذا النوع تكشف كثيرا من المفارقات .

بريق الاسم!

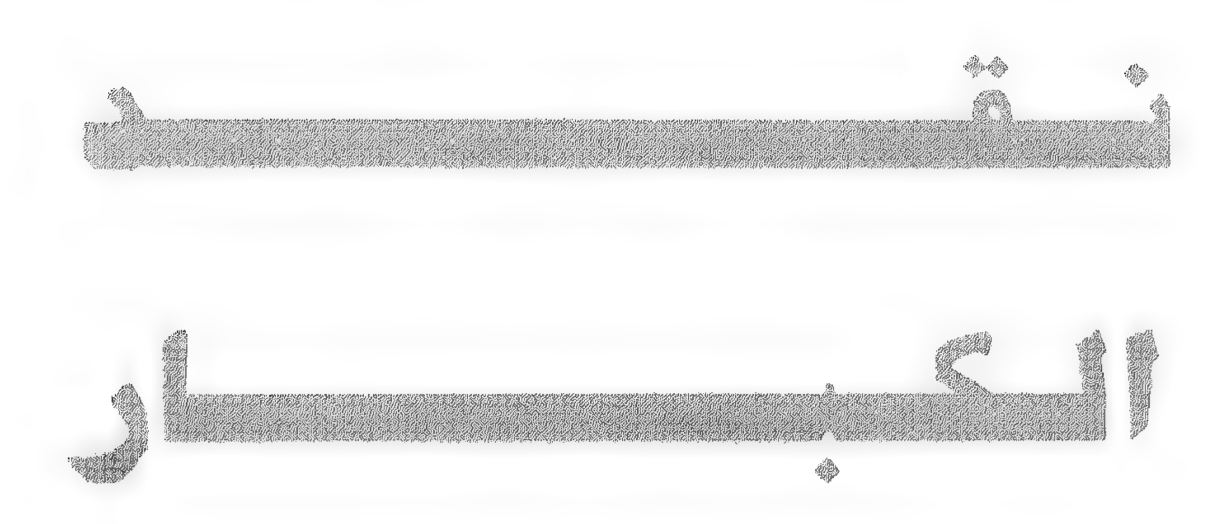
وعلى هذا فإن أسلوب المحرر فى عرض وثائق منظمة طليعة العمال ومواقفها من شأنه أن يسيطر على ذهن القارىء ويوجهه إلى مايريده المحرر الذى لايعطى الحرية للقارىء لكى يكشف بنفسه قدرة المنظمة ورجاحة خطها السياسى، وقيمة أعمالها إذا شاء المقارنة. الأمر الذي يجعلنا نقول فى النهاية أن أبو سيف لم يقدم مادة لكتابة تاريخ المنظمة بقدر ما قدم تاريخها. ومن غير المفهوم أن يصدر هذا العمل الضخم باسم طليعة العمال مع أن هذه المنظمة اكتسبت أربعة أسماء منذ سبتمبر ١٩٤٦، وكانت الطليعة هى الاسم الثالث الذى خلع عليها فى مطلع الخمسينات .. هل لأن مرحلة الطليعة كانت أطول من مراحل الأسماء الثلاثة الأخرى؟.. أم لأن نسبة العمال فى المنظمة كانت أكثر؟.. أم لأنه اسم أكثر بريقا من الأسماء الأخرى. كما لم يذكر لنا المؤلف شيئا عن أساس تجمع العناصر التى كانت تحضر للمنظمة بين عامى ١٩٤١ - ١٩٤٦، وهل كانوا عناصر جديدة كلية ومنبتة الصلة عن سائر فصائل اليسار المصرى آنذاك، أم أنهم كانوا فى تنظيم معين أو أكثر من تنظيم وقرروا الخروج وتشكيل منظمة مستقلة .. الخ .

وليس من المفهوم أيضا لماذا تغيرت خطة هذا السفر الضخم من الإعداد الوثائقى الى حد ما بمعرفة أبوسيف يوسف لكل الأبواب فيما عدا البابين الخامس والسادس اللذين كتبهما نبيل صبحى .. فالباب الخامس يختص بجوانب التنظيم والنظرية والتطبيق وهو نموذج للتأليف وليس التوثيق اعتمد على مختلف المصادر. والباب السادس خاص بمسألة الوحدة بين المنظمات الشيوعية مع أن أبو سيف نفسه هو الذى كان يمثل طليعة العمال فى مباحثات الوحدة كما سبقت الإشارة. أما فى الباب السابع الخاص بالعمل الجماهيرى فيكتب نسيم يوسف الجزء الخاص بلجنة العمال والطلبة ١٩٤٦، وكذا جزء اتحاد عام الطلاب المصريين ١٩٥٣، ويكتب نبيل زكى باقى العمل الطلابى من واقع تقرير له سبق إعداده فى مناسبة معينة .

ورغم أن الأخطاء المطبعية فى أى كتاب منشور أمر وارد ويحدث فى كل المطبوعات وبالتالى لايصح التوقف عندها واعتبارها من المآخذ، إلا أن هناك خطأ مطبعيا لايجب إغفاله لأهميته وهو يتعلق «بالرسالة السياسية الجديدة للمنظمة» (الفصل الثالث من الباب الثانى) إذ يذكر الكتاب أنها من مطبوعات طليعة العمال فى يناير ١٩٥٢، على حين أن مضمونها يتعلق بالموقف السياسى بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ لأنها تستخدم عبارة «الحركة الثورية المصرية – وأن الطبقة العاملة هى القوة الأساسية الحالية للثورة فى مصر .. وأن ذهاب الملك فاروق ومجىء محمد نجيب لايحدد مجىء مرحلة جديدة» .. ولابد أن يكون العام ١٩٥٣ وليس ١٩٥٢ إذ لا يحقل أن تشير الرسالة إلى ذهاب فاروق فى يناير ١٩٥٢؟.



وأخيرا .. لو أن المحرر ابتعد عن أن يكون مؤلفا، واكتفى بنشر ما تم العثور عليه من وثائق المنظمة (بيانات وتقارير ومنشورات .. الخ) كما هى مرتبة وفق تاريخ صدورها مع تحقيق فى الهامش لبعض ما يرى أنه بحاجة إلى توضيح وشرح لقدم خدمة جليلة للباحثين. لكنه آثر أن يحيط بقارىء تاريخ منظمته من كل جانب ويحدد مساره ولايترك له فرصة الاستمتاع بتاريخ المنظمة حين يقرأ وثائقها فى سياق حركة التاريخ، وقد أثبت المحرر بهذا الأسلوب أنه من منظمة عاشت وراء ستار حديدى واشتهرت بين سائر المنظمات بالغموض والتكتم الشديدين! .



نقد الكبار

لقد أثار الاخ الدكتور جلال أمين قضية نقاشية مهمة جدا على صفحات مجلة الهلال العريقة ، العدد (٣) الصادر فى شهر مارس ٢٠٠٠ ضمن مقالته «بين أم كلثوم والقصبجى» ، والتى تمتعت بقراءتها كثيرا، وأثارتنى كى أكتب مقالتى هذه التى تتضمن بعض تعليقاتى التى أزعم انها مهمة وربما تستكمل الصورة التى رسمها صاحبنا العزيز، خصوصا وأنه كتب بعض «الافكار» المهمة التى لابد أن يعتنى بها تفكيرنا العربى المعاصر بعد أن إختتم العرب صفحاتهم التاريخية فى القرن العشرين ، ودخلوا سلسلة جديدة من تكوين تاريخى أعتقد أنه سيختلف اختلافا كبيرا عما عاشته الأجيال الثلاثة الماضية فى القرن العشرين .

أين نحن من نقد الكبار ؟

ثمة سلوك توارثناه نحن العرب عن آبائنا وأجدادنا الذين مضوا منذ القدم لم ينفكوا عنه برغم محاولات تربوية وعلمية ومعرفية وفلسفية جادة برزت فى القرن العشرين .. ذلك هو الإحجام عن النقد

بقلم : د. سيّار الجميل

والقصبجى

بقلم: د. جلال أمين

الدكتورة رتيبة الحفنى فنانة كبيرة وشخصية مرموقة فى الحياة العامة المصرية. فهى فضلا عن تألقها كمغنية أوبرا كاتبة و[illegible] الموسيقى، وكانت مديرة ناجحة [illegible] الأوبرا، وتنتمى إلى أسرة [illegible] الموسيقى.

والتوقف عن ممارسة الحوار وفقدان احترام الرأى الآخر ، خصوصا عندما تصل درجة الاعجاب والانبهار باشخاص معينين الى مرتبة التقديس ، أو رسم هالة عريضة من المفاخرات والتمجيد والثناء .. بعيدا عن أية نزعة نقدية فى اعطاء كل ذى حق حقه!. ويعزو د . جلال أمين ذلك إلى نزعة الخوف من النقد وخصوصا نقد الكبار، متخذا من أم كلثوم فى حياتها أو حتى بعد قرابة ربع قرن على رحيلها نموذجا ليس لما كتبته د . رتيبة الحفنى عن تلك الشخصية الاسطورية فى حياتنا الفنية العربية ، بل ما برز بشكل واضح فى المسلسل التليفزيونى عنها والذى نال شهرة واسعة أكثر من أى مسلسل تليفزيونى آخر .. ليس لأى سبب الا بسبب مكانة أم كلثوم وشهرتها فى المجتمع العربى المعاصر .

ويثير د . جلال أمين نقطة فى غاية الأهمية – هنا – هى ظاهرة الخوف من النقد . ويقصد به – كما هو قصدى أيضا– : ظاهرة الخوف من نقد الكبار فى حياتنا الفنية والأدبية عندما يقول : «هو نفسه الخوف الذى يسيطر على حياتنا الفنية والأدبية كلها من نقد أى فنان أو كاتب شهير ، وهو نفسه الخوف الذى يسيطر على حياتنا السياسية » (ص ٥٥ – ٥٦) . نعم إنه الخوف الذى يتلبس

أغلب الكتاب والمفكرين العرب من نقد (الكبار) ، علما بأن النقد لا علاقة له بما نفتتن به أو نعشقه ، فليس هناك من لم يفتتن بصوت أم كلثوم الا الندرة من الناس، وليس هناك من لم يعترف بأعمال العمالقة العرب من المبدعين فى القرن العشرين .

لماذا الخوف ؟

لم يكن العرب فى تاريخ نهضتهم الحديثة ملأى بالخوف .. أو أنهم كانوا أصحاب سايكلوجية للخوف، والتى أفرزت فى بعض مجتمعاتنا العربية المعاصرة حالات من الرعب الا فى الخمسين سنة الأخيرة أو فى حياتنا خلال النصف الثانى من القرن العشرين وعند جيلين عربيين ، وبالتحديد أثر قيام الانظمة السياسية الشمولية ، اذ تبلورت سايكلوجية الخوف السياسى أولا ، ثم أثرت تأثيرا مباشرا وبالغا فى التفكير العربى المعاصر .. مقارنة بما كان عليه الحال لدى جيلين عربيين سابقين كالذى كان عليه جيل الاستنارة الفكرية المخضرم بين قرنين التاسع عشر والعشرين.. وجيل الاستقلالية الوطنية الذى عاش بين الحربين العالميتين الاولى والثانية ! وعليه ، فقد قامت معارك فكرية ونقدية وفى مصر بالذات أغنت جميعها التفكير العربى، وأثرت مضامينها المعرفة العربية، ورفدت نتائجها حياتنا النهوضية العربية الحديثة.

لقد نشرت نقدات صارخة وملاحظات رصينة وتحديات قوية عن معظم الاسماء القوية والكبيرة ، أمثال : طه حسين وأحمد أمين وعلى عبد الرازق واسماعيل مظهر ومصطفى صادق الرافعى وعباس محمود العقاد وغيرهم .. كما كانت أم كلثوم نفسها قد انتقدت عدة مرات وقت ذاك .. ولم يكن هناك أى خوف من اسمها ، علما بأن اسمها كان كبيرا وكانت بشدوها وغنائها قد وصلت ذروة العطاء عند الاربعينيات .. وهى مرحلة متميزة بالشجاعة الفكرية والسياسية والنقدية ، اذ كان قلم طه حسين يلهب التفكير ، وكان صوت العقاد يدوى فى قاعة البرلمان، وكانت آراء عبد الرازق تصطدم بالازهر ، وكان الرافعى يدافع بشراسة عن الموروث .. وهكذا كان شوقى وحافظ ومطران ومحمد فريد ومحمد حسين هيكل وزكى مبارك والمازنى والزيات .. وقافلة من المثقفين اللامعين ، الذين يتهمهم الجيل الحالى بتهمة رخيصة شائعة على الافواه منذ خمسين سنة .. ذلك انهم من المنبهرين بالحضارة أو الثقافة الاوربية ، دون التعمق قليلا فى قوة ما انتجوه وفعالية ما أبدعوا فيه .

لقد تغيرت الأدوات والوسائل بتغير أساليب التفكير .. ذلك لأن ممارسة النقد

مـهـمـا كـان كـاسـحـا لا تقلل من شـأن العـمـالقـة فى شـيء ، بل تزيدهم مكانة وقوة.. وكم كـان الفكر المصـرى المعاصـر بحـاجـة الى تطوير مـا كـانت عليـه تلك الأدوات والوسـائل من أجل الارتفـاع بالاسـاليب فى التـفكيـر على امـتـداد الخـمـسـين سنة الأخـيـرة من القـرن العشرين؟، وكم كان حريا بالنقد أن يزدهر دون أى روادع سياسية أو أيديولوجية من أجل فسح المجال لولادة مبدعين آخرين وكم كانت الحاجة ماسة ألا يكتفى العرب بأسماء قليلة يقدسونها ، بل وينصبونها عليهم بمثابة زعمـاء وأوصيـاء على هذا الحقل أو ذاك المجال .

لا قدسية في الفكر والفن والسياسة !

لقـد صنعت الحـيـاة الفكرية والنقـدية العربى فى الخمسين سنة الأولى من القرن العشرين عددا كبيرا من المتميـزين فى حقول معرفية وفكرية وأدبية وفنية عديدة ، نظرا لتوافر التربة الخصبة التى نبتوا فيها ، وأطلقوا أنفسـهم فى خضمـهـا.. دون أن تكون هنـاك أية قـدسـيـة لأحـدهم، ولكن تبدلت تلك «الحـيـاة» بحياة من نوع آخر ، إذ وجد الفكر والتفكير معا والفن والمعرفة معـا أمـام مـحـددات سلطوية وخطوط أيديولوجيـة وموانع أمنيـة .. لكى تنقـاد الملايين الى الأصـوات الواحـدة والزعـمـاء الاحـاديين والكتّـاب الاحـاديين .. وأصـبح لكل مـجـال أو حـقل عملاق مصنوع، ورمز معلوم ، وإسم يطير لوحده على الافواه ! وكان للدعاية الحكومية واعلاميات الدولة فى كل من صحافتها واذاعاتها ادوارها فى بلورة نمطين من التفكير : سايكلوجية الخوف أولا وصناعة الرموز ثانيا .. وبرغم اننى لا أقلل ابدا من شأن الرموز ، الا أن تلك الرمـوز من الخطأ الكبـيـر ان تصـبح مقدسة تحيطها هالة تعظيمية لا يمسسها النقـد ولا يجرؤ احـد على الحـوار النقدى معهـا ! وعليه ، فإن الحياة العربية كان لابد لهـا ان تزدهر أكثـر بكثـيـر مما آلت اليـه لولا العـقـم والرتابة من جـانب أو الدعاية وصناعة الابطال والقديسين من جانب آخرا.

أزمة المثقفين !

هذا عنوان كتاب نشره الاستاذ محمد حسنين هيكل عام ١٩٦١ ، وقد غدا هذا الرجل أحـد الاقطاب أو الرمـوز من الصحفيين المصريين الكبار الذى يصفه البـعض بالاسطورة .. وقـد طبع هذا الكتاب طبـعة يتيمة واحدة ببيروت وهو يعالج أزمة المثقفين المصريين التى ظهرت فى الخمسينيات من القرن العشرين .. ولقد كتب غالى شكرى فى كتابه : النهضة والسـقـوط فى الفكر المصـرى الحـديث يصف كتاب «أزمة المثقفين» قائلا بأنه :

«الوثيقة الثانية - بعد كتاب فلسفة الثورة للرئيس الراحل جمال عبد الناصر عام ١٩٥٣ فى طبعته الأولى عام ١٩٥٣ وطبعته الاخرى عام ١٩٥٧ - كانت مقالات هيكل التى جمعها فى كتاب عنوانه «أزمة المثقفين» ، وهو يبرر موقفا يتصور انه (الوسط) بين اليمين واليسار، فهو يمهد ويؤيد الاجراءات الاقتصادية الجديدة، ولكنه ينظر ويؤصل لفكرة التنظيم السياسى الواحد ، الجامع المانع . وهو تأصيل يعتمد على الوقائع الجزئية ، ولا يعبأ كثيرا بالفكر المبدئى لمسألة الديمقراطية .. » (ص ٨٠) . ومن أبرز الأمثلة التى يضربها غالى شكرى ان المفكر المعروف خالد محمد خالد أنهى علاقته بالاهرام عام ١٩٥٧ لأن محمد حسنين هيكل نفسه لم ينشر رد خالد محمد خالد على مقالاته فى الأهرام !

لقد تبلورت الأزمة ليس فى مصر وحدها ، بل فى أغلب البلدان العربية التى انتفت فيها الديمقراطية .. فدخل المثقفون العرب وكان المصريون فى مقدمتهم أزمة صعبة جدا ، اذ انقطع النقد وتقوقع الجدل وسادت الاحادية .. علما بأن كلا من عقدى الخمسينيات والستينيات قد شهدا ولادة جملة رائعة من المثقفين والمبدعين سواء كانوا من اليمين أو من اليسار أو الوسط .. وتكرست ظاهرة الاحادية التى قتلت المواهب او غمرتها او همشتها ، فضلا عن ولادة سايكلوجية الخوف وتبلورها .. أنها الأزمة التى خلقها المأزق السياسى العربى الذى اعترف بأزمة المثقفين ، ولكنه تناسى العلل الحقيقية التى قادت اليها ! فالمثقف هو الذى ينبغى ان يقود السياسى ، لا أن يهيمن السياسى على أنفاس المثقف!.

من الذي يحرك الناس ويخلق أذواقهم ؟!

اننى أشارك الاخ د . جلال أمين ما قاله فى نقد كلمات الثناء والمديح التى كانت ولم تزل تزجى لهذا أو تمنح لذاك دون أى كلمة نقد تقال فى حقهما ! واذا كان الرجل قد ذكر أم كلثوم وعبد الوهاب وعبد الحليم حافظ ونجيب محفوظ ويوسف شاهين وفاتن حمامة وصولا إلى أحمد زويل.. فليس معنى ذلك ان هؤلاء كانوا معصومين عن الخطأ . وان الهالة التى يتمتعوا بها عن جدارة ومازالوا ضمن دائرتها هى من حقهم ، ولكن الانسان مهما كان مبدعا وعملاقا فهو فى حاجة لكلمة حق تقال فيه ، وهو بحاجة الى اشعاره بأن الزمن كفيل ان يبقيه حيا على امتداد التاريخ، أو يغمره أيضا .. ولكن من حق الآخرين عليه أن يجعلهم يتنفسوا قليلا فى جو خال من الخوف أولا (وبالاخص : خوف الكبار) .. فضلا عن

أرضية خصبة يتحرك عليها الجميع بكل عدالة ، وهذا ما يسمى بـ «تكافؤ الفرص» في كل ميادين الحياة .

ان منح الناس شهادة حسن سلوك في الذوق والاختيار لما يسمونه بـ «الافضل» عملية ذو غمائية بحتة في محيطنا العربي بشكل خاص ، ذلك ان التجربة والتجربة الاعلامية العربية بالذات قد اثبتت بما لا يقبل مجالا للشك ان للناس مذاهب في ما تعشق وتهوى، ولكنها تنقاد اعلاميا ودعائيا وخطابيا لتأليه من لا يجوز تأليهه .. ولا أعتقد انها ظاهرة «فرعونية» - كما وصفها الاخ جلال أمين - (ص٥٧) ، اذ انها موجودة في أمكنة عدة سواء في محيطنا العربي ام غيره .. وصحيح ان تسليط الاضواء ومنح البعض فرصا لم تمنح لغيرهم ولكن ضمن آليات وأسباب منها ما هو معروف ومنها ما هو خاف، وخصوصا في العالم الغربي الذي يزدحم بالمبدعين الذين يتنافسون جميعا من أجل الاحسن وفي عالم لا يغيب عنه النقد والحوار والجدل والديمقراطية! واذا كان الغرب متفوقا بذلك في القرن العشرين، فهو قابل لأن يستوعب الآلاف المؤلفة من المبدعين في شتى المجالات .

نموذج من عشرات النماذج :

برغم بروز ظاهرة عبد الحليم حافظ في غناء الستينيات .. مع شغفي كبقية اقراني العرب بأغنيات الراحل الجميلة ، الا أن صوته اعلاميا وإذاعيا .. دعائيا وصحافيا أسكت عن عمد وعن سبق اصرار وترصد أصوات مصرية رائعة نحس بقيمتها اليوم نحن الثلة القليلة من المثقفين العرب . نعم!. لقد ضاعت أصوات رائعة كان يصدح بها : كارم محمود وعبد الغني السيد وعبد العزيز محمود ومحمد رشدي ومحمد قنديل ومحرم فؤاد وغيرهم من قافلة المبدعين الذين لم تعرفهم اليوم الاجيال الجديدة مع الاسف ... لماذا؟.

ليس لأن هؤلاء ما كانوا بمبدعين؟ وليس لأن هؤلاء ما كانوا بوطنيين ؟ وليس لأن صوت عبد الحليم أفضل منهم ؟ وليس لأن عبد الحليم غنى لمصر وثورتها وهو لم يغنوا لمصر وثورتها ؟؟ بل لأن دعاية محددة في الصحافة والراديو والسينما قد نجحت في رسم هالة واسعة حول اسمه ، ثم تبعتها آيات تبجيل وتعظيم.. وما ينطبق على الفن والغناء، ينطبق على كل مجالات الابداع ليس في مصر وحدها .. بل على امتداد رقعتنا العربية! وقد يعجب القارىء الكريم انني اليوم اصغي مليا لاغنيات الفنانين الذي غبن حقهم .. اسمعهم أوقات الليل أو في اطراف النهار.

صناعة المبدعين :

ان صناعة المبدعين عملية ليست صعبة ابدا اذا ما توفرت الارضية النقدية

والفكرية الخصبة في تقويم الاداء واعطاء كل ذي حق حقه من دون خوف من أولئك الكبار في حياتهم ، ولكن الانكى من ذلك ان تبقى سايكولوجية الخوف تفعل فعلها حتى بعد رحيلهم .. وهذه الظاهرة التى عالجها الاخ جلال أمين لابد أن تثرى بالمزيد من الآراء والافكار بعيدا عن تفضيل عهد سياسى على آخر ، لأن المؤرخ في المستقبل سوف يكون له شأن آخر غير هذا المألوف الذى عشناه على امتداد النصف الثانى من القرن العشرين.

ان الصورة الواضحة ستبرز أمامه لتقول بأن مصر كانت من أعرق البلدان الشرقية في ولادة نهضتها الحديثة وفي وسائل الاعلام والصحافة في مقدمتها على امتداد قرنين من الزمن .. وعندما سيقرأ مؤرخنا في المستقبل تاريخ المبدعين النهضويين المصريين على امتداد القرن العشرين، سيقف منذهلا عما كانت عليه لدى نخبها المبدعة في نصفه الأول، وما آلت إليه لدى بعض أسمائها في نصفه الثانى ! وخصوصا بعد سيطرة الدولة على كل المرافق الاعلامية الحيوية ! فالمشكلة ليست فى أذواق الجمهور ، أو هكذا يريد الناس ، ولكن المشكلة في من يسيطر على تحريك العواطف واحياء أو اماتة الاذواق لدى ابناء المجتمع، وهو عمل سياسى بالدرجة الاولى تتحمل مسئوليته الدولة على امتداد جيل كامل، وبطبيعة الحال عندما يأتى جيل جديد يكون الخواء قد حصل لا محالة ! .

القصبجي مثلا ساطعا !

لولا مسلسل أم كلثوم الذى بث مؤخرا على القنوات الفضائية العربية ، ونال أيضا من الاعلام ما لم ينله أى مسلسل تليفزيونى آخر على الاطلاق !! لما كان الناس في الاعم الاغلب بعارفين من هو محمد القصبجى ! ولماذا غاب اسمه طويلا على مدى خمسين سنة أو أكثر سواء فى حياته أو من بعد مماته .. ويرز اسمه فجأة من خلال هذا المسلسل التلفزيونى الذى لم يكن بطله ، بل كانت كوكب الشرق أم كلثوم بطلته ؟ ببساطة متناهية : كان القصبجى كفنان متميز قد غمط حقه وتاريخه وابداعه طويلا على امتداد خمسين سنة .. وأن فرصته التى وجد موهبته وابداعاته فيها قد اختفت عن المسرح الثقافى منذ اختفى ذلك العصر الليبرالى الخصب الذى ازدحمت فيه الطاقات والممارسات والمنتجات الرائعة ، ليس عند اسم معين أو اسماء محددة ، بل عند نخب عدة كانت لها خصالها المتميزة فى كل مجالات حياة النهضة والابداع .

إن قريحة القصبجى لم تنضب ابدا ، كما يريد البعض من المحللين أن يقول ،

ولكن الحياة التى كان القصبجى يعايشها قد نضبت ! لقد وجد الرجل نفسه فجأة على أرضية هى غير تلك التى كان يتحرك فوقها فى الخمسين سنة الاولى من القرن العشرين ! واذا قال قائل : إن غيره بقى مستمرا فى عطائه وابداعه أمثال : رياض السنباطى ومحمد عبد الوهاب وفريد الاطرش وغيرهم ، فاننا نقول : إن من يتوغل فى أعماق القصبجى ، سيجده مختلفا جدا عن أقرانه فى التفكير الموسيقى، اذ لا يمكن للرجل البقاء ضمن حيز واحد فقط من مقامات السلم الموسيقى الشرقى على غرار ما فعله السنباطى الذى كان ينوع ألحانه ضمن حيز مقام واحد من ذلك السلم .. فضلا عن أن القصبجى لم يقتبس أى لوازم موسيقية عن غيره من المؤلفين الموسيقيين العالميين كما فعل الموسيقار عبد الوهاب والموسيقار فريد .. لم يفعل القصبجى ذلك ليسخرها عربيا ، فتذيع وتنتشر اعلامية وابداعيا .

ذروة فى الأعماق :

كان القصبجى وأعماله شاهدة على مقدرته العليا على صياغة لوازم موسيقية أصيلة، وقوية، وصعبة .. فضلا عن ابداعه فى بناء جملة ألحان جديدة ومتماسكة مطورا فى الالحان العربية ومجددا فى الموسيقى الشرقية . واعتقد أنه الوحيد الذى طور الموسيقى العربية بأصالة واقتدار .. وكان من قبله الموسيقار سيد درويش الذى سبقه بجيل ! فالقصبجى فى موسيقاه من الصعوبة بمكان أن يجد الأصوات التى يمكنها أن تصدح بها ، واذا كان الرجل قد وصل ذروته مع أم كلثوم فى رائعة «رق الحبيب» فقد كان ذروته ايضا مع اسمهان فى رائعة «يا طيور» .. ولقد أبدعت كل منهما فى ترجمة التفكير الموسيقى الخصب للقصبجى .. ولما رحلت اسمهان ذات الصوت الاوبرالى الواسع الى السماء قبل أن يبدأ النصف الثانى من القرن العشرين صفحاته ، فإن القصبجى رحل بموهبته الخصبة فى أعماقه والتى لم تستطع أم كلثوم أن تنتشلها كى تترجمها بفعل تأقلمها مع الصفحات الجديدة التى سببت محنة نفسية وإبداعية حقيقية للقصبجى .. فماذا حدث؟.

لقد بقى جسمه شاخصا أمامنا مع كل معاناته ، ولكنه أبقى نفسه عن عمد وسبق اصرار عظيما ، ولم يهمه أبدا أن يجلس عازفا على عوده فى فرقة الست على امتداد السنوات المتبقية من حياته ! ولا ندرى كيف كان يفكر موسيقيا فى تلك المرحلة الأخيرة من حياته ، وهو يعزف بهدوء على أوتار عوده تلك الألحان الشجية التى كان يضعها زميله رياض

السنباطي أو تلك التي وضعها عبدالوهاب ؟؟ نعم ، كان يتقبلها ليس على مضض بل على استحياء كونه احتفظ لنفسه بموهبته وقريحته في أعماقه وربما كان الرجل يبكي في أعماقه ليس على ما يسمع من شدو الست الكبيرة أمامه ، بل على ما حدث من انقلاب فاضح في مفاصل الحياة كاملة!، ولكن كان من السهل عليه أن يتقبل الجمل اللحنية والموسيقية التي كان ينسجها غير السنباطي ؟ وإذا كان يتقبل كلمات شوقي وبيرم ورامي وأخيرهم ناجي في القصائد الرائعة التي شدت الست بها فهل كان يتقبل منها كلمات بقية أغانيها بكل تجرد؟.

الافتراق عند طريقين !

إنني اعتقد بأن الرجل كان يكظم آلامه في أعماقه ليخزنها إلى جانب ما كان يخزنه من الإحن ! وأقول : حسناً جاء رحيله قبل رحيل الست أم كلثوم بسنوات عدة ، لأنه لن يسمع أغنياتها الأخيرة التي غنتها بعد الاطلال !! كما واعتقد أن الرجل كان يتمنى في محنته السايكلوچية لو توقفت الست واحتفظت بموهبتها في أعماقها أيضا منذ سنوات على رحيله ؟ أو بالاحرى ، أنها رحلت في أعماقها بعد رحيله هو نفسه في أعماقه .. ولكن ليس في اليد حيلة ، مادام الأمر يتوقف على رزقه الذي يقوم بسد متطلبات حياته وأسرته !

إن الفرق المدهش بين هذا الرجل وهذه المرأة أنهما مختلفان في تفكيرهما حقا ! لقد كان يريد لنفسه من خلال موهبته أن تسمو متجلية في الاعالي فيسبح من يسمع موسيقاه في عالم ملكوتي صعب غير موجود .. في حين أرادت الست لنفسها أن تنزل من عليائها التي كانت عليها في الاربعينيات لتسيطر على عالم سهل موجود فعلا كالذي توفر عندها ببساطة وبين يديها في الخمسينيات والستينيات ! لقد أراد القصبجي أن يبقى مجده معلقا في السماء .. في حين أن أم كلثوم أرادت أن تبقى مجدها على الأرض فتسيطر على الاخضر واليابس ! ولا اعتقد بأن القصبجي الموسيقار قد سبق عصره - كما ذكر ذلك الأخ جلال أمين نقلا عن فكتور سحاب نقلا عن توصيف الست للرجل ، بل اعتقد أن القصبجي كان ضحية تاريخ جديد فالعصر هو الذي سبقه ولم يكن هو الذي سبق عصره .. ذلك لأن ما استجد لاحقا في الخمسين سنة الثانية من القرن العشرين كان متدنيا مقارنة بما كان عليه الإبداع الموسيقي المصري في النصف الأول منه !

أجمل ما في التاريخ !

إن أجمل ما في التاريخ أن يكشف لنا

عن حقائق جديدة ، بل ويزيل الغشاوة عن أدوار العمالقة الذين غيبهم العصر المنكود باعلامياته الكاذبة وآلياته التعيسة باسم التقدمية والتطلعات الثورية .. وأعود لأقول : بأنها ليست ظاهرة فرعونية يا عزيزى دكتور جلال.. فلقد كان جيل الاستنارة الحقيقية: مصطفى كامل وقاسم أمين وأحمد لطفى السيد وأحمد شوقى وولى الدين يكن وسيد درويش وسعد زغلول وجرجى زيدان ومحمد عبده وطلعت حرب.. وصولا الى طه حسين وأحمد أمين ومصطفى صادق الرافعى ومحمد فريد بك ومصطفى عبد الرازق واسماعيل مظهر وسلامه موسى وعباس محمود العقاد وأحمد حسن الزيات ومحمد القصبجى واسمهان وعبد الرازق السنهورى ومحمد شفيق غربال وزكى مبارك ومحمد على مشرفه.. وقافلة نخبوية من غيرهم بمعيتهم .. يأخذون ويعطون ، ينقدون وينتقدون ، يسمعون ويتكلمون ، يكتبون ويخطبون ، يمتحنون ويمتحنون ، ويهاجمون ويدافعون ، يتعالون ويتواضعون ، يفكرون ويبدعون ... صحيح غدا للادب العربى عميده لكنه لم يكن فرعونا .. وصحيح كان للشعر العربى أميره ، لكنه لم يكن فرعونا ، وصحيح كان للاجيال استاذها ، لكنه لم يكن فرعونا .. وهكذا كان لمنشىء الهلال وشاعر الشباب وشاعر القطرين وعميد المسرح وصاحب العبقريات ... وغيرهم من الذين لم تصنعهم اعلاميات دولة أولا فيغدون فراعنة مجتمع ثانيا!.

إن ظاهرة الخوف من نقد الكبار ليست فرعونية تاريخية – كما قال الاخ جلال أمين – بقدر ما هى سياسة مرحلية . صحيح أن وجودها آتى على مستوى جيل ، وأن تأثيرها سوف يستمر على مدى جيل أو جيلين .. ولكن أى محاولات نقدية ومكاشفات صريحة على أعمال الكبار ، فثمة وعى جديد سيولد، وثمة تفكير جديد سيعمل ، وثمة فهم جديد سيرسخ فى الحياة ليس المصرية حسب ، بل العربية كلها .. ولكن ضمن اشتراطات أساسية كالتى نادى بها وعمل بمضامينها رجالات الاستنارة من النهضويين العرب : احياء للتنوعات ، وممارسة للحريات ، واشاعة الشجاعة الادبية ، والحفاظ على الامانة العلمية والابداعية ، وخلق المعارك النظيفة بعيدا عن المهاترات والمحاكمات الشخصية ، واحترام للرأى الآخر والدفاع عنه.. والتخلص من التمجيدات والمفاخرات والتقريضات باحلال بدائل النقد وخصال الاختلافات والتعددية بمنتهى الشفافية .. بعيدا عن التخوين كما كان يجرى فى الأمس القريب ، أو التكفير كما هو جارى اليوم .. عند ذاك سيكون الخلاص من سايكلوجية الخوف التى لازمت الفكر العربى والثقافة العربية طوال عقود النصف الثانى من القرن العشرين .

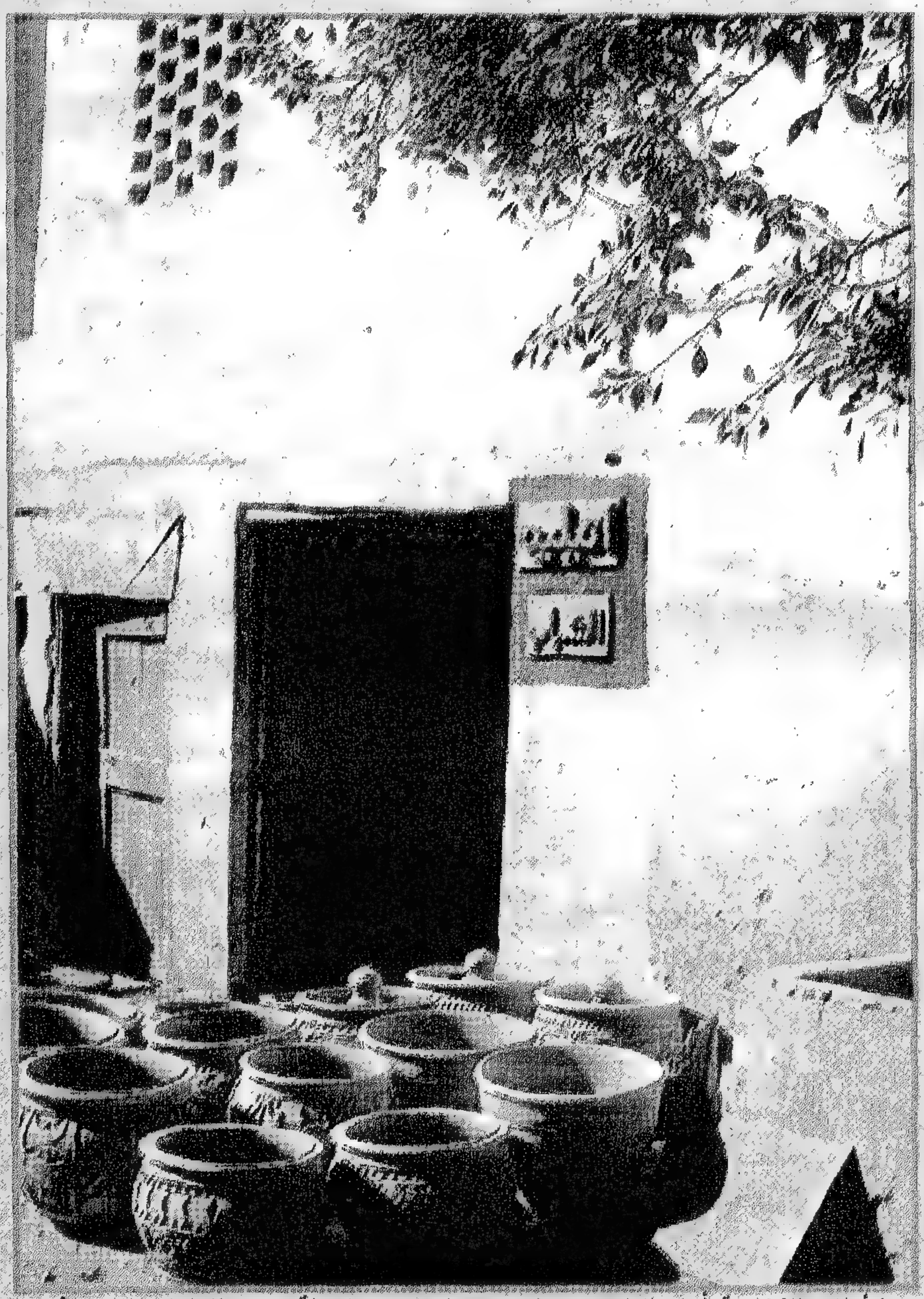
الفسطاط

مدينة الفواخير والخزف

هل يستوعب مركز الفنون فنانى الخزف ؟ !

بقلم : نجوى صالح

تكتسب مدينة الفسطاط عراقة مميزة، لأنها المدينة التى أسسها عمرو بن العاص سنة ٦٤٠م (٤١ هـ) حيث بناها فى ذلك الفضاء المتسع الذى كان قائما بين النيل وتلال المقطم، بالقرب من حصن بابليون، وقد بنى فيها أول مسجد فى مصر، يعرف باسم «مسجد عمرو بن العاص» (في منطقة مصر القديمة حاليا) وكانت منازل الفسطاط فى أول الأمر من طابق واحد، ثم ازداد ارتفاعها وتعددت طوابقها، وكأن يوجد فى معظم البيوت آبار وصهاريج للماء العذب، وبركة أو نافورة، وقد بلغت مستوى عاليا من العمران، وعندما بنى الفاطميون القاهرة، فى نهاية القرن العاشر الميلادى، تدهور حال الفسطاط، وأخذ سلطانها في الانتقال إلى القاهرة وماحولها، ثم لم يلبث أن أمر الوزير «شكور» باحراقها سنة ١١٦٩م خوفا من أن تقع في يد الصليبيين، الذين كانوا يحاولون غزو مصر فى ذلك الوقت .



الأوانى الفخارية أمام أتيليه رمضان وعصام تستعد لرحلة وضع الجليز.. الفرن فى المبنى المقابل

هذه المدينة العريقة التى تضم أعظم المناطق الأثرية والدينية والتى تضم بين جنباتها: جامع عمرو بن العاص، المتحف القبطى، كنيسة أبو سرجة، والست بربارة، وكنيسة قصرية الريحان، والمعبد اليهودى حتى سميت بحق «مجمع الأديان» .

واستثمارا لهذا الموقع الأثرى الفريد فى هذه المدينة العريضة جاءت فكرة إنشاء مدينة للفنون بها، لتصبح من المجمعات الإشعاعية الجديدة للفن فى مصر، فقد استوطنها منذ الستينيات شيخ الخزافين «سعيد الصدر» وأقام بها «أتيليه صغير» وفرن لحرق الخزف، وذلك لتدريب الصبية الفقراء فى هذه المنطقة على فن الخزف، حتى تتواصل الأجيال، للحفاظ على هذا الفن النادر من الاندثار .

وقد انضم بعض طلبة الفنون الجميلة لهذا الإتيليه الصغير، وأصبحوا فنانين كبارا فى هذا المجال، منهم نبيل درويش، محمد مندور، محيى الدين حسين، وغيرهم كثير ممن أثروا فن الخزف فى مصر. وفى أواخر التسعينيات كانت فكرة إقامة مشروع لاعادة الحياة الفنية لهذه المنطقة، وذلك باقامة «مجمع للفنون» ليكون فى الوقت نفسه أحد المراكز الحرفية التى تتبناها وزارة الثقافة، مثل دار النسجيات بحلوان ومركز الفن والحياة بيت السنارى .

مركز إشعاع فنى

وكان الهدف من إنشاء هذا المركز أن يطور هذا المكان العتيق بالفسطاط، لانشاء مركز فنى للخزف أساسا، ويؤدى خدمات ثقافية وحرفية للخزافين بالمنطقة بجانب أماكن عرض متحفى وفنى، وفى الوقت نفسه إقامة منافذ لبيع المنتجات الخزفية التى يتم انتاجها .

وهناك مرحلة ثانية لتطوير هذا المركز وعمل توسعة وامتدادات له، حتى يستوعب «مراسم» للفنانين التشكيليين، والنحاتين، بالاضافة إلى متحف للخزاف «سعيد الصدر» صاحب هذه الفكرة ومؤسس هذا المعهد .

وقد صمم هذا المركز المهندس المعمارى «جمال عامر» أحد الأبناء الروحيين لشيخ المهندسين حسن فتحى، حيث استخدم الفنان الشاب فى تصميمه للمركز مجموعة مفردات معمارية مثل القبة المفطوسة، والعقود

المخمسة، والقباب المحمولة على خناصر، والقبوات المتقاطعة، وكلها عناصر معمارية، أثرت العمارة المصرية منذ الدولة البيزنطية والقبطية والإسلامية، وقد راعى فى تصميم هذا المبنى العربى الأصيل، وجود صحن أو أكثر حتى ينفتح عليه المبنى من الداخل مما يكون له تأثير كبير فى وجود تيار هوائى يلطف حرارة الجو فى الصيف الحار .

أما بالنسبة للخدمات المتاحة فى هذا المركز للفنانين المنتمين للمركز أو للزائرين ، فقد أقيمت أماكن لأعداد «الطينة» ودواليب الفخار وتسمى «الفاخورة» وأماكن تهوية وأفران لحرق «الجليز» ثم أماكن للعرض، وهى تتمثل فى قاعة كبيرة متعددة الأغراض، لعرض أعمال الفنانين الخاصة بجانب متحف صغير يضم المجموعات الفنية المتميزة، التى تم إنتاجها.

بجانب ذلك كله توجد قاعة للاحتفالات، والندوات الثقافية، وتشغل مساحة مغطاة بالقبة الرئيسية كما توجد أماكن لاستضافة الفنانين الأجانب فى حالة إقامة سومبوزيوم للخزف بالمكان يحتوى على سبع غرف، كما توجد حجرات للإدارة والكمبيوتر، ومكتبة خاصة بالخزف، بحيث يساعد ذلك فى إجراء البحوث العلمية للخزافين .

معنى العمارة الإسلامية

ويرى مصمم هذا المركز المهندس جمال عامر أنه يجب أن يطلق على مثل هذا المبنى تعبير عمارة المجتمعات الإسلامية، فلايوجد عمارة اسلامية وعمارة مسيحية وعمارة يهودية وإنما يوجد عمارة المجتمعات الاسلامية، فإذا ذهبنا إلى كازاخستان مثلا نجد عمارتها مختلفة عن العمارة فى تركيا أو الأندلس أو المغرب أو مصر وهكذا، وبالتالى فإن الفن الإسلامى هو أحد العناصر التى تشكل العمارة الإسلامية فى كل مجتمع، حيث تشكل البيئة، والمناخ، والتراث، والثقافة، والموروث عمارة كل مجتمع على حدة .

وعلى سبيل المثال، فكرة القبة المفطوسة التي ظهرت فى مصر منذ عصر الجريك رومان، وتلاه العصر البيزنطى، وبعد ذلك استخدمها المعمارى المسلم فى شكلها الحالى، وهى القبة المنتشرة الآن فى المساجد والمنازل، وهناك مثل آخر يتمثل فى «القبو النوبى» وهو الموجود منذ الأسرة المصرية القديمة، حيث توجد



القبة الرئيسية فى مجمع الفسطاط وهو أحد المفردات المعمارية.. التى صممها المهندس «جمال عامر»



الدولاب.. يدور بالآلية منذ مئات السنين.. يشكل عليه «الفخرانى» محمد الطوسى تشكيلاته الفنية.. والتى يوجهه فيها الفنانون



جزء من أتيليه محل نصرالدين وهو من أمهر الخزافين فى مدينة الفسطاط القديمة .. هل يذهب الى سوق اللعبان؟



الخـــزاف عبدالحكيم سيد .. بين إبداعاته الخزفية التى انتجها فى ذات المكان منذ خمسة عشر عاما

بعض هذه الأقبية المبنية بالطين، بجانب معبد الرامسيوم، وهو معبد رمسيس الثانى فى البر الغربى، وتطورت قليلا ولكنها بقيت تستعمل فى المساكن النوبية إلى يومنا هذا.

ويجد الفنان جمال أن هذه العناصر المعمارية قد تم تطويرها على مر التاريخ وفى مختلف الحقب التاريخية المختلفة حتى أصبحت عمارة عصرية خالصة ولذلك جاء تصميمه لمركز الفنون بمدينة الفسطاط من هذا المنطلق الفني.

مدينة الفواخير

وتزخر منطقة الفسطاط بالفواخير، وهى جمع «فاخورة» وهى عبارة عن فرن يدوى مصنوع من الطين لحرق الخزف، وتستخدم فيه المواد البسيطة للحرق مثل القمامة، والأعشاب، والورق وتوجد فواخير قديمة جدا من عمر المنطقة ذاتها، أى أكثر من ستمائة سنة، ويعاد ترميمها وتجديدها كلما أحرقت فيها الأعمال الخزفية.

وقد اكتسبت هذه المنطقة شهرة واسعة بأعمالها الخزفية حتى كانت مقصداً للسياح والمصريين، بل وصلت سمعة بعض العاملين فى هذا المجال للعالمية حتى أنهم يصدرون أعمالهم الفنية للخارج بكميات كبيرة!.

هل تؤثر الفواخير على البيئة ؟

إن هذا المكان المتفرد التاريخى، الأثرى، يوجد به كثير من الفنانين الخلاقين الذين يحتفظون بأماكنهم - الأتيلييهات - القديمة كما هى .. بل ويتمسكون بها.

منهم الخزاف محمد مندور، وعبدالحكيم، وحمدى عطية الحائز على الجائزة الكبرى فى بينالى فينيسيا، ونبيل درويش الذى نال جائزة عن قطعة خزفية اقتنتها ملكة النرويج .. ومعتز نصر، وڤاهان، وأرمنى وحازمنى .. خزافان أرمانيان، ومحمد شمس.

وحدث أن فكرت المحافظة بالتعاون مع وزارة البيئة، وقامت بإزالة أماكن هؤلاء الفنانين..!

بدلا من تطوير أوضاعهم .. رغم أنهم أنجزوا كمية من الأفران منفذة بطريقة لاتحدث أى تلوث، وصديقة للبيئة، ومع هذا أصرت محافظة القاهرة على إزالة أماكنهم، وإرسالهم إلى منطقة شق الثعبان، بالقطامية بالقرب من جبل طرة .. وتجاهلت الجهات المسئولة، الخسارة الفادحة، التى ستخسرها المنطقة ثقافيا، وفنيا

وسياحيا..؟! .

إذا كانت هذه المنطقة وحدة متكاملة من الترابط والتعاون الفنى للخزف فهناك من يجلس على الدولاب، والآخر يلون، ومنهم من يكمل لزميله بالحفر على الخزف ..

استرجاع .. البريق

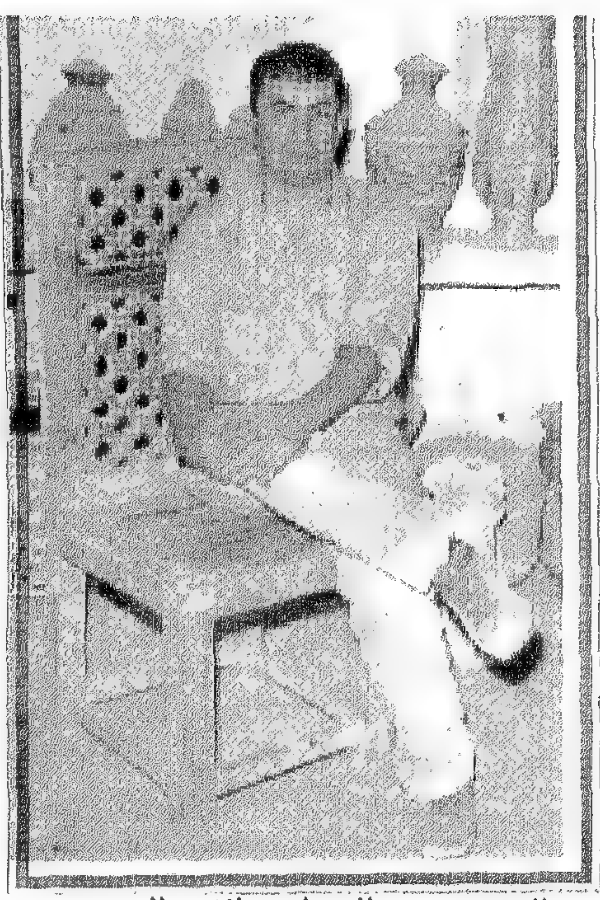
ومن امنيات المعمارى جمال عامر، أن يستوعب هذا المركز فى المستقبل القريب جميع هؤلاء الفنانين الذين قامت بتهجيرهم محافظة القاهرة .

ويتطلع لأن تنقلب كل هذه المنطقة .. وتصبح نواة ثقافية لمصر ..

طموحات فنية

ويقول المعمارى جمال عامر: «لقد كانت هذه المنطقة تشغل جزءاً من قلبى .. وتشاء الصدف أن أعود وابنى، وأعمر، فى نفس المكان الذى اخترته أيام دراستى فى كلية الهندسة .. وكان مشروعى الذى تقدمت به .. وهو نشأة العمارة العربية فى مصر، ومدى تأثر هذه النشأة بالعمارة البيزنطية، والمسيحية .

وبالنسبة لطموحات هذا المعمارى أن تتحول منطقة الفسطاط الى ملتقى ثقافى عالمى، مثل «اڤينيون» فى فرنسا، وأصيلة فى المغرب، وجارش فى الأردن، ويصبح المكان قبلة للمثقفين، والفنانين ، لأن هذه القطعة



المهندس .. جمال عامر، الابن الروحى للمهندس الراحل حسن فتحى والمعمارى الذى صمم مبنى مجمع الفنانين بالفسطاط..

من أرض مصر أفرزت العديد من الفنانين المرتبطين بها عاطفيا، وثقافيا، لذلك، وضع تصميم لمسرح مكشوف، وضخم فى الساحة الرئيسية، أمام المبنى .. حتى يمكن إقامة المهرجانات الفنية المختلفة، وكان لتجمع الفنانين مثل المقهى الفنى والثقافى. هذه المدينة كان لها باعا ثقافيا عميق الجذور فى الماضى .. لماذا لا نسترجع هذا البريق، لما لها من اسم وإشعاع فنى وثقافى على مدى التاريخ ؟.

أحوال مصر في مطلع القرن العشرين

بقلم:
د. فتحي صالح



محطة مصر في أوائل عام ١٩٠٠م وترى وسائل المواصلات السائدة .. الترام وعربات الكارو

قامت الحملة الفرنسية فى أوائل القرن التاسع عشر بنشر مؤلف ضخم ظهر فى عدة مجلدات تحت عنوان «وصف مصر» قدمت فيه ما يزيد عن ثمانمائة لوحة ليتوجرافية، مقسمة إلى ثلاث مجموعات تمثل أوجه الحياة المختلفة فى مصر: المجموعة الأولى تمثل مصر القديمة وتحتوى على لوحات للآثار الفرعونية على امتداد الوادى، والمجموعة الثانية تمثل مصر المعاصرة (لتلك الفترة) بما فيه تصوير للأماكن العامة والخاصة والحياة اليومية والحرف والمهن المختلفة، أما المجموعة الثالثة فتمثل الحياة الطبيعية فى مصر من حيوانات وطيور وزواحف ونباتات. ويعتبر هذا الكتاب بحق من اعظم الكتب التى ظهرت فى القرن التاسع عشر ويعتبر عملا فريداً فى توصيف بلد كمصر لم يتم مثيل له فى أى دولة أخرى.



وفى خلال عمل كاتب هذه السطور فى باريس كسفير لمصر باليونسكو تم العثور على مجموعة من البطاقات البريدية (كروت بوستال) بقسم الآثار المصرية بمتحف اللوفر - كانت تقتنيها سيدة فرنسية تعيش فى مصر فى أوائل القرن العشرين - يبلغ عددها حوالى ١٤٠٠ كارت، لها نفس خصوصية كتاب وصف مصر من حيث أنها تقدم توصيفا مصورا لجوانب الحياة المختلفة فى مصر فى تلك الفترة، كما تصور ما كانت عليه الأماكن العامة والمواقع الأثرية سواء الفرعونية أو الإسلامية أو القبطية، مما بعث فى خلده فكرة إنتاج أسطوانة ضوئية (سى - دى - روم) تقوم على هذه المجموعة، فتم عرض الموضوع على فيدريكو مايور مدير عام اليونسكو آنذاك الذى وافق على الفور بأن يقوم مشروع «ذاكرة العالم» باليونسكو بإنتاج هذه الأسطوانة وأن تضاف هذه الأسطوانة إلى «قائمة ذاكرة العالم» فكان إنتاج هذا العمل.

قصة العائلة ديراسي

أهدى السيد هنرى بونينى مجموعة الكروت المذكورة منذ بضع سنوات إلى قسم الآثار المصرية بمتحف اللوفر إحياء لذكرى خالته مارى كرينى التى ولدت فى فرنسا فى ٢٧ إبريل ١٨٦٨م وتوفيت فى ٢٧ فبراير ١٩٤٠وكانت متزوجة من عالم المصريات الفرنسى الشهير جورج اميل ديراسى.

وقد عين زوجها عالم المصريات الشهير جورج اميل ديراسى Emile Daressy ، نائبا لأمين متحف بولاق بالقاهرة عام ١٨٨٧م وآلت إليه مسئولية المحافظة على مجموعات آثار المتحف الفرعونية خلال تنقلاتها المختلفة، من متحف بولاق إلى قصر إسماعيل باشا فى الجيزة عام ١٨٩١م، ومن الجيزة إلى المتحف الذى أقيم فى ميدان التحرير عام ١٩٠٣م.

لم يقتصر عمل ديراسى على ضمان سلامة تلك القطع الأثرية، ولكنه تفرغ أيضا لاستكمال فك رموز ساحة معبد الأقصر التى بدأها ماسبيرو عام ١٨٨٥م، كما شارك فى الكشف عن مخبأ موميات كهنة آمون للأسرة الحادية والعشرين وذلك عام ١٨٩١م. وقد ساهم فى عام ١٨٩٢م فى حفريات شمال شرق معبد رمسيس الثالث فى مدينة هابو كما أعاد الحياة لتمثال أمنحتب الثالث وزوجته تى الذى تم ترميمه، وهى المجموعة التى مازالت حتى الآن تحتل بهو المتحف المصرى بالقاهرة.

نشر جورج اميل ديراسى أكثر من مائة وخمسين مقالة فى مجموعة مصنفات أعمال ماسبيرو، وفى نشرة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية، وفى السجلات السنوية الصادرة عن مصلحة الآثار وفى نشرة المعهد المصرى، وكذلك خمس مطبوعات مفهرسة لمحتويات المتحف المصرى وغيرها. وقد عين ديراسى أمينا



كارت بوستال كان يرسله صاحبه الى نفسه للذكرى هذا هو فندق شبرد الذى احرق فى يناير ١٩٥٢

العمارة والأزياء فى أحد الاحتفالات فى مطلع القرن العشرين





احدى الفلاحات المصريات يوم كان الكارت بوستال الوسيلة الوحيدة للذكرى







عاما لمصلحة الآثار المصرية عند نشوب الحرب العالمية الأولى وحتى إحالته إلى المعاش عام ١٩٢٣م، ثم غادرها إلى فرنسا حيث توفى عام ١٩٣٧م.

مجموعة الكروت البريدية

احتفظت مارى ديراسى بمجموعة من الكروت البريدية التى قامت باقتنائها هى وعائلتها أثناء إقامتها فى مصر وبقيت معها ثم آلت للعائلة بعد وفاتها، فقد كانت تلك المجموعة إلى جانب بعض أوراق الورد الجافة تمثل لها ذكرى جميلة للأيام السعيدة التى قضتها فى مصر.

وقد أثبتت الدراسة التى تمت على هذه المجموعة أن مارى ديراسى كانت شغوفة بجمع الكروت البريدية وبقدر سعادتها بتلقى تلك الكروت بقدر ما كانت تسر أيضا بإرسال الكروت البريدية لنفسها، فقد تم حصر عدد ستة وثلاثين كارتا بريديا كانت قد أرسلتهم باسمها من الإسكندرية فى ٢ ديسمبر عام ١٩٠٢، وكان بعضها يحمل توقيع مارى ديراسى، والبعض الآخر موقع عليه بأحرف اسمها الأولى (م. د.) والباقى مدون عليه فقط مكان وتاريخ الإرسال. وتحمل معظم كروت تلك المجموعة الختم البريدى ويتراوح التاريخ المدون عليها ما بين عام ١٩٠٠م إلى ١٩١٤م، وتتضمن بعض الكروت رسومات منقوشة أو ملونة بالشف (ستنسيل)، وقد طبع واستنسخ معظمها بطريقة طبع النموذج وشفه باستعمال الأحبار الثقيلة، والبعض منها يمثل صورا فوتوغرافية.

كيف نشأت فكرة الكروت البريدية (الكارت بوستال) ؟!

بدأ فن التصوير الفوتوغرافى فى منتصف القرن التاسع عشر وبدأ تسويق الصور الفوتوغرافية وتطور مع انتعاش الحركة السياحية وخاصة إلى الشرق بسحره الخلاب.

ففى عام ١٨٦٢ على سبيل المثال عينت الملكة فيكتوريا المصور المشهور دى فرانسيس بدفورد ليلتقط اللحظات الهامة لرحلة أمير ويلز فى مصر، وفى عام ١٨٩٦ أمكن تخليد الرحلة السياحية التى قام بها إمبراطور النمسا إلى مصر بفضل التصوير الفوتوغرافى.

وقد اكتفى الأثرياء فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر بشراء صور فوتوغرافية، للمواقع التى يقومون بزيارتها ملتصقة على ورق مقوى قام بالتقاطها مصورون مشهورون ليقوموا بجمعها بعد ذلك فى ألبوم جميل مجلد بالجلد، يحمل الأحرف الأولى لأسمائهم، وتاريخ الرحلة ومطبوعة بحروف بارزة من الذهب الخالص.

ثم بدأت الكروت البريدية فى الظهور فى نهاية القرن وبدأ معها الاستعانة بالتصوير الفوتوغرافى كمادة لإنتاج هذه الكروت، وفى واقع الأمر ليس الكارت البريدى نصا نكتبه ونحن نفكر فى



بائع العرقسوس الذى كان منتشرا فى شوارع القاهرة ايام الصيف الحارة

تشكيل فى فراغ السقايين يملأون قربهم وزلعهم لارواء سكان القاهرة قبل دخول شبكة المياه





جمال الفن المعمارى الذى يظهر فى اجمل اشكاله فى
سبيل أم عباس، فى شارع الصليبة بالخليفة يوم كان بناء
السبيل لرى العطش يسعى للقيام به الأغنياء فى القاهرة

الآخرين، وإنما هو شئ يتم اختياره ويحتوى على أشياء مسجلة نحبها فيؤدى بذلك دور الرسول، وفى بعض الأحيان لا تكون تلك الكروت ذكرى لمكان أو لمشهد أو للحظة سعادة فقط: وإنما هى أيضا شاهدة بلا شك على العصر الذى صدرت فيه وهى ليست دعما لتزيين أو لرسم ولكنها تكاد تكون مرآة لأنفسنا، ولرغباتنا وخيالاتنا فتبدو وكأنها مراسلة ورسالة فى آن واحد.

فالكروت البريدية خلق لإبداع حر وشعبى متعدد الاستحضارات والإمكانيات ظهرت فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر فهى كالذياع والهاتف تصل الناس بعضهم ببعض كالإنترنت فى أيامنا هذه.

إن تاريخ أول الكروت البريدية غير معلوم بالتحديد، ولكنه يرجع إلى ما قبل عام ١٨٥٦م، حيث بدأ ظهور اتجاه عام لاستعمالها. وانتشرت ظاهرة استخدام الكروت، وبدا استخدامها فى بريطانيا العظمى وفى الولايات المتحدة الأمريكية وفى ألمانيا فلم تكن المسألة مجرد إنتاج الصور الفوتوغرافية، وإنما كانت عملية تقوم على تزيين الرسالة بالرسوم واللجوء للطباعة الليتوجرافية وكذلك استعمال الألوان والأصباغ فى إنتاج هذه الكروت.

وفى عام ١٩٠٠م انتشر استعمال الكروت البريدية انتشارا واسعا وبدأ العصر الذهبى لها. ففى فرنسا وحدها بلغ عدد الرسائل بطريق الكروت حوالى مائة ألف كارت بريدى، وانتشرت الكروت البريدية المزينة بمشاهد ومناظر من مصر فى كل الأنحاء حتى فى فرنسا، كما يوضح ذلك الكارت الذى أرسلته السيدة/ باراز إلى مارى ديراسى يوم ٣ يونيو عام ١٩٠٤م ضمن مجموعة الكروت، الذى كتبت فيه: «عزيزتى مارى: هل تعرفت على هذا الكارت (عن مصر)؟ وهل تتصورين أنه يباع بمدينة روى بفرنسا.

مشروع إنتاج «وصف مصر فى أوائل القرن العشرين»

بدأت فكرة إنتاج اسطوانة ضوئية تحتوى على هذه الكروت بعد أن ألقت السيدة/ ديان صاروفيم هارليه، عالمة المصريات بقسم الآثار المصرية بمتحف اللوفر، محاضرة عن مجموعة الكروت البريدية المذكورة والتى تتولى مسئولية حفظها بالمتحف، وقد ألقت هذه المحاضرة فى المركز الثقافى المصرى فى باريس ومن ثم فقد رأى كاتب هذا المقال مندوب جمهورية مصر العربية الدائم لدى منظمة اليونسكو آنذاك، أن تلك المجموعة تمثل قيمة تاريخية وتراثية كبيرة وذلك نظرا لما تحتويه من وصف مصور لمصر فى بدايات القرن العشرين، وتظهر بوضوح تشابها مع الوصف الذى جاء من قبل فى بداية القرن التاسع عشر تحت عنوان «وصف مصر» لحملة نابليون.. وهو ما يفسر إعادة استخدام العنوان ذاته للعمل

الجديد، وتخصيص باب خاص للوصف المقارن لمصر من خلال مجموعة من الكروت يرجع تاريخها إلى ما قبل قرن من الزمان، بينما يرجع الوصف الأصلي لما تتضمنه هذه الكروت إلى ما يقرب من مائتى عام فتم تنفيذ الفكرة فى إطار برنامج «ذاكرة العالم».

ويهدف برنامج «ذاكرة العالم» بمنظمة اليونسكو إلى الحفاظ على التراث الوثائقى العالمى ليصبح فى متناول يد الجميع وبلا تفرقة، ويهدف كذلك إلى إيقاظ الوعى بأهمية هذا التراث وضرورة المحافظة عليه هذا إلى جانب أهداف تكميلية لا تقل أهمية عن الأهداف السابقة وهى:

* تسهيل حفظ التراث الوثائقى العالمى بالتقنيات الملائمة.

* العمل على أن يكون الوصول إلى التراث الوثائقى مكفول للجميع بدون أى تفرقة أو تحيز لمستعمل، أيا كان على حساب الآخر.

* العمل على إيقاظ الوعى فى جميع أنحاء العالم بوجود هذا التراث وبأهميته وبضرورة المحافظة عليه.

* تحسين الأنشطة والمنتجات التى يقدمها لأعرض قاعدة ممكنة والعمل على تطويرها.

ويحدد برنامج «ذاكرة العالم» عناصر التراث الوثائقى ذات الأهمية العالمية والإقليمية والقومية كما يحدد قائمة الوثائق والمستندات التى تحتوى على جزء من الذاكرة الجماعية للعالم ويحرص على تحديثها باستمرار وإيجاد علامة مميزة لذاكرة العالم يمكن استعمالها لتعريف تلك الوثائق، كما يقوم برنامج «ذاكرة العالم» بحملات قوية لتوعية الحكومات والجمهور العريض وتنبيههم إلى أهمية التراث العالمى وضرورة الحفاظ عليه.

محتويات مجموعة الكروت البريدية

عند بدأ فحص هذه المجموعة من الكروت كانت هناك صعوبة فى كيفية التعامل معها وتصنيفها. ولكن كما ذكرنا سالفا فإنه نظرا لوجود تشابه فى الفكرة بينها وبين ما جاء فى كتاب «وصف مصر» لحملة نابليون فقد تم الاستعانة بصفة مبدئية بطريقة التبويب التى جاءت فى هذا الكتاب. ومن ثم فقد تم تبويب هذه المجموعة من الكروت بتقسيمها إلى خمس مجموعات رئيسية.

المجموعة الأولى: المهن والحرف والأفراد:

ويدخل تحت هذا الباب مجموعات عن كل من الحرف المختلفة الواردة فى هذه الكروت مثل البائعين والحلاقين والسقايين والسياس والحمارين والجمالين وخلافه، وكذلك صوراً مختلفة للرجال وصورا مختلفة للسيدات من حاملات البلاص، ولسيدات قبائل البشارية، ولسيدات بدويات إلى آخره.

المجموعة الثانية: صور الآثار الفرعونية:

فتاة بدوية يمتلئ وجهها بالتحدى



وهى مقسمة إلى ستة موضوعات. الأهرامات والمعابد والمقابر والأبراج والشواهد والتماثيل الفرعونية.

المجموعة الثالثة: صور الآثار الإسلامية والقبطية

وهى مقسمة إلى ثمانية موضوعات: المساجد والكنائس والاسبلة والبوابات والبيوت والمدارس والقلاع الإسلامية ومقياس النيل.

المجموعة الرابعة صور المبانى العامة

وهى مقسمة إلى تسعة موضوعات: المبانى العامة والمتاحف والثكنات العسكرية والقلاع والمدارس ومحطات السكك الحديدية والفنادق والقصور والتماثيل العامة.

والمجموعة الخامسة وهى الأماكن العامة :

وهى مقسمة إلى ثمانية موضوعات الميادين العامة والأسواق والقرى والكبارى والمقابر والحدائق العامة والأنهار والمناظر العامة البانورامية.

وفى الواقع فإن التجوال فى هذه المجموعة الفريدة يعود بالمشاهد على الفور إلى عصور قديمة جميلة وتثير العديد من الشجون وخاصة صور الميادين والأماكن العامة، فهذه صورة ميدان الأوبرا حيث يقف تمثال إبراهيم باشا وخلفه دار الأوبرا القديمة وهذا فندق شبرد القديم الذى عاصر العديد من الأحداث التاريخية ثم ذلك فندق سميراميس حيث قضينا شبابنا بين كافتيريا «نايت اند داى» وبين سطوحه الجميل الذى يطل على النيل، وهذا شارع الهرم خاليا من المبانى ومحاطا بالمزارع ويسير فيه الترام وعن بعد تظهر الأهرامات شامخة.

وهذه ثكنات قصر النيل آخر معقل للإنجليز فى القاهرة وهذا كوبرى قصر النيل القديم وعلى مدخله أيضا الأسدان الشهيران وهذا مسجد السلطان حسن وليس بجواره مسجد الرفاعى وهلم جرا.

وأما صور المبانى الأثرية الفرعونية فهى دراسة حقيقية لتطورها على مر العصور خصوصا ما جاء منها فى كتاب وصف مصر ثم ما ظهر من نفس المبانى فى هذه الكروت، وأخيرا صورة هذه المبانى اليوم وأكبر مثل عملى على ذلك هى صورة أبو الهول فى كتاب وصف مصر وهو مغطى تماما بالرمال ماعدا رأسه ثم يظهر فى هذه الكروت فى أوائل القرن الماضى وقد أزيلت الرمال من مقدمته حتى بدأت تظهر يديه ولكن بقيت الرمال حول جسمه، وصورته اليوم وهو خال من الرمال من جميع الجهات، وكذلك صورة معبد الأقصر فى كتاب وصف مصر وقد ظهرت على جانبيه المسلتين الشهيرتين لرمسيس الثانى ثم اختفت إحدى هاتين المسلتين فى كروت أول القرن الماضى بعد أن تم نقل المسلة اليمنى إلى

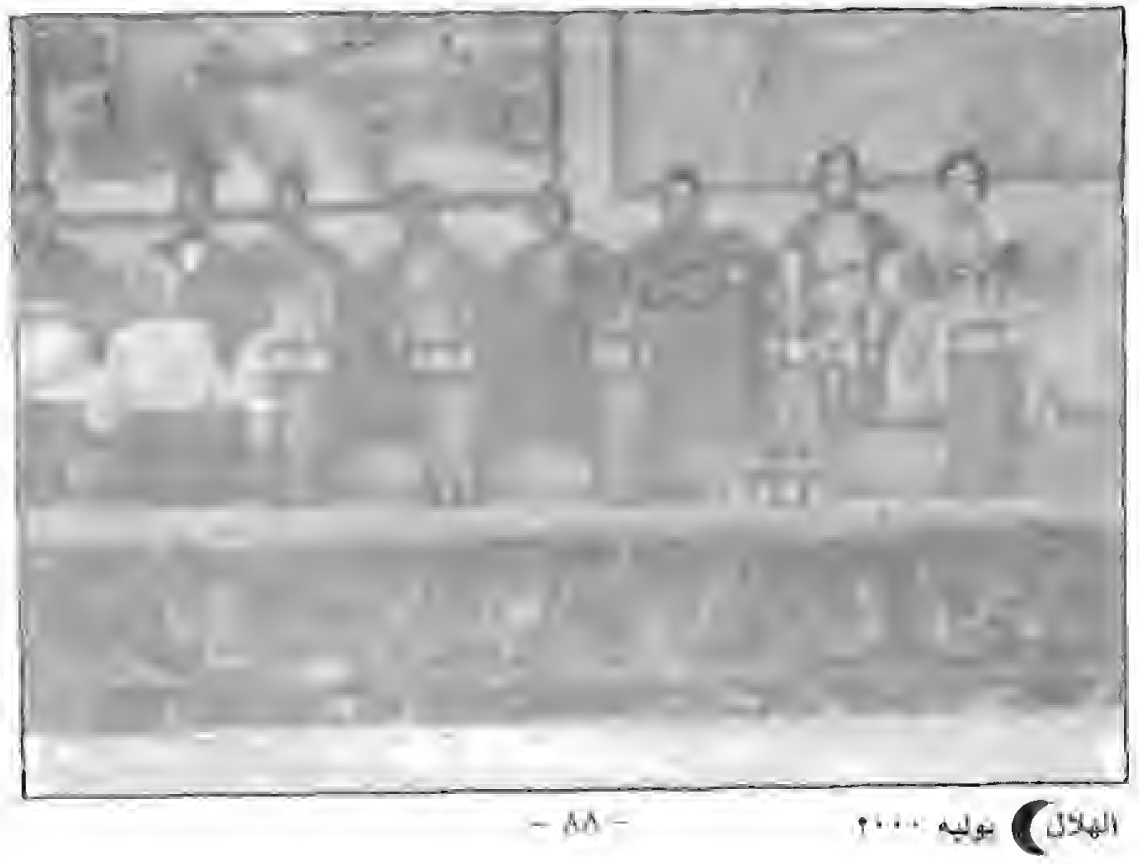


بائع الفوانيس التى تنتشر فى حوارى القاهرة بين ايدى الأطفال فى شهر رمضان المعظم

بائع الفخار احد الأعمال الفنية الجميلة الذى يظهر فيه المصريون ميولهم الفنية



بعض الأعمال الفنية التي تمكنت بها المرأة المصرية في ممارسة العزف والغناء





هل تصدق.. هكذا كانت أزياء بعض النساء المصريات فى مطلع القرن، وهى ذاتها اليوم الموضة فى بعض العواصم الأوربية ؟

ميدان الكونكورد بباريس ثم صورة المعبد اليوم وقد تم ترميم أجزاء كثيرة منه.

وأما الوجوه المصرية فى مجموعة الكروت فهى بحق دراسة حقيقية للشخصية المصرية فى أوضاع مختلفة من بائعين إلى مدرسين كتّاب إلى أفراد مهن مختلفة من سقايين وحمارين ونجارين وخلافه إلى حتفالات الزواج والمحمل والموالد وخلافه، إنها بحق مجموعة ممتعة من الكروت البريدية تمثل وصفا لنواحى الحياة المختلفة فى مصر منذ قرن من الزمان، كما تعكس أيضا عشقا لصاحبى هذه المجموعة للبلد التى قضوا فيها حوالى عشرين سنة من حياتهم وولعوا بها شأنهم شأن أى زائر أجنبى عاش بها لفترة وشرب من نيلها وفتن بسحرها.

أحد المعجبين

شعر : فريد قرنى

أحد المعجبين.. قد تعجبينا		وحده في الهوى بهم أجمعينا
قد ترامت نحوى شباكك إيذانا		بسيرى في موكب العاشقينا
قلبه مفعم بحبك عطشان		يلوك الأسى.. ويزجي الأنينا
لوعة الوجد ومعها يكتم الأنفاس		يمضى فى أضلعى سكّينا
كله.. كله شغوف يعانى		من سياط الجوى.. فيذوى حنينا
عينه دائما تحوم حواليك		تذود الأنظار والناظرينا
راغب فى الوصال.. يدفعه الإعجاب		تأبى شكواه أن تستكينا
متعة أن أراك يا تحفة تمشى		فأجنى من خطوها الياسمينا
وأصيد المنى العذاب اصطيادا		من شباك الدلال إذ تخطرينا
وألم السنا يبعثر عفوا		فى دروب الغادين والرائحينا
سكر.. بسمة الشفاه إذا		افترت.. لتسبى بها نهى الوالهينا
روعة قالب الرشاقة إنذهل		ليذكى مشاعر العابرينا
فتنة لوحة الوسامة إذ تختال		تروى روافد الوجد فينا
وأنا سارح شغوف لهوف		إن يسارا لمحتها.. أو يمينا
بالجمال الفذ الذى يسكب النور		فيهدى مسالك الحائرينا
بالحنان الريان يحتضن الروح		ويثرى مشاعر الملهمينا
أنا صنف من المحبين وحدى		أتحدى جميع من تعرفينا
صادق فى هواك جن جنونا		وشأى السابقين واللاحقينا
فصلى واحدا من المعجبينا		وحده فى الهوى بهم أجمعينا

حول أصل الإنسان كما جاء في كتاب «أبى آدم»



بقلم : د. محمد بلتاجي *

في بداية صيف ١٩٩٨ تفضل الصديق الأستاذ الدكتور عبدالصبور شاهين - كعادته الكريمة منذ نحو أربعين عاماً - فأهداني نسخة من كتابه الجديد (أبى آدم: قصة الخليقة بين الأسطورة والحقيقة)، وقال : هذه أول نسخة أهديها إلى صديق، وقد أمضيت قرابة ربع قرن من الزمن أحقق فكرة الكتاب حتى انتهيت إلى ما تحتويه هذه النسخة المهداة، وأنه يرجو أن أقرأه بعناية ثم أكتب عنه.

وكان في كلامه ما أشعرني بأن مضمون الكتاب يحتوى (شيئاً خاصا) أو (فكرة جديدة على نحو ما)، وأنه يستحق قراءة متفحصة مدققة. فوعدته بأن أحتشد لقراءته في أقرب وقت ممكن.

بيد أن مشاغل الحياة المتتابعة التي تمسك بخناق الزمن لم تفسح لي مجالا لقراءته إلا بعد سبعة شهور كان الكتاب قد أحدث فيها في الأوساط الثقافية دويا كبيراً معارضا في مجموعه لمؤلفه - على مستويات مختلفة من المعارضة - فهناك من رأى أن الدكتور عبد الصبور (يُستتاب) بسبب كتابه هذا، وهناك من أعلن أنه سيرفع (دعوى تفريق) بينه وبين زوجه! وهناك من اقتصد شيئاً ما في رد

* أستاذ بكلية دار العلوم (جامعة القاهرة).

فعله تجاه الكتاب فرأى أن مؤلفه (أخطأ) فى الاستنباط وأنه ينبغى أن يبصر ويقوم، وهناك من رأى أن المجال متسع للشماتة فى الدكتور عبد الصبور حيث (وقع) - فيما يرى الشامت - فيما سبق أن أخذه على الدكتور نصر أبو زيد فى القصة المشهورة التى حدثت سنة ١٩٩٣ ، وبعض هؤلاء وجدوها فرصة مناسبة للكلام عن انقسام (جبهة التكفير) التى يزعمون أن الدكتور عبد الصبور كان من زعمائها!.

وكان لابد عندئذ من قراءة الكتاب وأثارت قراء ته عندى (مخالفات واضحة) بين بعض محتواه وبعض آيات القرآن الكريم وبعض أحاديث السنة الصحيحة، ورأيت عندئذ أن أعرض ملاحظاتى هذه على الدكتور عبد الصبور، ورحب بذلك، والتقينا فى مارس ١٩٩٩ بمدرج على باشا مبارك (أكبر مدرجات كليتنا دار العلوم) وحضر اللقاء عدة آلاف من الطلاب والمهتمين فى تزاحم نادر المثال أكد أهمية القضية بالنسبة للمثقفين ، وقد التزم الحاضرون بما فرضناه عليهم من عدم الاسهام (على أى نحو) فى الحوار الدائر بينى وبينه ، والاكتفاء بالمتابعة الصامتة.

وعرضت عليه ما رأيت أنه (مخالفات قطعية) بين بعض ما تضمنه كتابه وما نصت عليه آيات القرآن وأحاديث السنة فوعد بأن يفكر فيها بأناة ، وطلب إنهاء اللقاء لإحساسه بالتعب .. وانتهى اللقاء يومها عند هذا الحد.

وبعد عدة شهور عرضت علىّ إحدى القنوات الفضائية العربية أن ألتقى مع الدكتور عبد الصبور شاهين فى أحد برامجها الشهيرة للمناظرة على الهواء حول الكتاب ، بيد أننى لم أتحمس للاستجابة لذلك لما تشتهر به هذه القناة من ميل كبير للإثارة على حساب الموضوعية، ولأنها ليست عادلة (على وجه العموم) فى عرض القضايا المتصلة بمصر خاصة.

ثم تلقيت الدعوة الكريمة من (الهلال) لتناول الموضوع.

السجود لآدم

تدور الفكرة الرئيسية فى الكتاب على الزعم بأن الله تعالى خلق أولاً بشراً من طين ، وهؤلاء البشر قوم همج كانوا غير مكلفين أو مخاطبين بالوحى ، ثم أجرى الله على هؤلاء البشر من التسوية والنفخ فيه من روح الله ما جعل نسلهم (إنساناً سوياً) هو الذى أمرت الملائكة بالسجود له، وهو الذى أبى إبليس أن يسجد له ، وهو الذى زوده الله ما يحتاج إليه من أدوات الكمال والتكليف التى بها تحول البشر إلى (إنسان سوى) وهى العقل ، واللغة ، والدين «فقبل التسوية لم يكن المخلوق البشرى إنساناً .. بل

كان مشروع إنسان فى حيز القوة ، قبل أن يكون إنساناً فى حيز الفعل» . ص٨٨.

ويزعم أن هذه التسوية التى انتهت بالبشر إلى إنسان والتى أشار إليها قوله تعالى (.. فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين) ، (سورة ص آية٧٢) قد استغرقت ملايين السنين .. يقول «لقد خلق الله البشر أطفالاً أو كالأطفال .. بلا أسماع ولا أبصار ولا عقول ، ثم جعل لهم هذه الأدوات فى مراحل التسوية المتطاولة ، حين شاءت القدرة أن تزود هذا المخلوق البشرى بما يحتاج إليه من أدوات الكمال» ، (ص٩١ – ٩٢).

ومن ثم يقول: «حقيقة لاريب لدينا فيها هى أن بين (البشر) و(الإنسان) عموماً وخصوصاً مطلقا ؛ فـ (البشر) لفظ عام فى كل مخلوق ظهر على سطح الأرض، يسير على قدمين ، منتصب القامة ، و(الإنسان) لفظ خاص بكل من كان من البشر مكلفا بمعرفة الله وعبادته ، فكل إنسان بشر، وليس كل بشر إنسانا، والمقصود هو طبعاً المعنى الأول الذى استعملت فيه الكلمة (بشر) فى آيات القرآن : وهو الظاهر أو المتحرك مع حسن وجمال» .. (ص ٩٧).

وينبنى على هذا التفريق عنده أن لفظ (إنسان) «لايطلق بمفهوم القرآن إلا على ذلك المخلوق المكلف بالتوحيد والعبادة لاغير، وهو الذى يبدأ بوجود آدم عليه السلام ، وآدم على هذا هو (أبو الإنسان) وليس (أبو البشر) ولا علاقة بين ادم والبشر الذين بادوا قبله تمهيدا لظهور ذلك النسل الآدمى الجديد ، اللهم إلا تلك العلاقة العامة أو التذكارية ، باعتباره من نسلهم » ، (ص ٩٨) .. «ومقتضى هذا أن النوع البشرى قد انقرض ليحل محله رتبة أرقى هى رتبة (الانسان) باعتباره الطور المحسن من أطوار البشر ، والجيل المختار للمسيرة الجديدة على طريق التوحيد ومعرفة الله ، ثم أطلق على أفراده هذه الرتبة : بنو آدم» .. (ص ١٠٩ -- ١١٠).

وقد بنى الدكتور عبد الصبور على هذا التصور أمرين ..

الأول : أنه يتصور أن أدم « جاء مولودا لأبوين، وأن حواء جاءت كذلك على الرغم مما سوف يلقى هذا التصور من معارضة تلقائية ورفض عنيف !! وبلا تفكير.

أن هذا التصور لا يتصادم فى رأينا مع حقيقة خلق الإنسان من طين ، ذلك ان المشروع الذى بدأ منذ ملايين السنين بالجسد الطينى – كان هدفه النهائى والوحيد خلق (آدم) وكل ما مضى من أحداث بين التاريخين – إن كان ثمة تاريخ – إنما هو وقائع بناء جسد آدم وعقله وروحه وملكاته وخصائصه.

وقد تم ذلك كله فى غيبوية الزمان ، حيث استوى الصفر والمليون ، فما هى إلا سنة استمرت بضعة ملايين من السنين حتى استوى الإنسان .. (آدم) الذى نبت فى التراب وانبثق من الأرض .. (ص ١١٧).

هذا عن آدم ، أما حواء فيقول عنها : «غير ان خلق زوج آدم من نفسه مشكل فهل حواء من ضلع آدم كما وردت بذلك آثار؟ أو ان حواء خلقت خلقاً مستقلا، كما هو شأن آدم؟».

رمز لطبيعة المرأة

الاحتمال الأخير هو الراجح فى نظرنا لأمرين : أولهما : أن كثيراً من العلماء اعتبروا مسألة الضلع مجرد رمز لطبيعة المرأة وفطرتها .

ثانيهما : ان خلق حواء من نفس آدم مؤول على أنها من نوعه وجنسه ، وقد جاء ذلك بالنسبة إلى كل زوج فى قوله تعالى (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها) (الروم ٢١) (ص ٧٦ – ٧٧).

والثانى : أنه يزعم أن القرآن الكريم «لم يوجه خطابه مطلقا إلى البشر .. بل إلى الإنسان ، وبدهى أن نعرف أننا جميعاً منتمون لآدم ، كما قال رسول الله ﷺ (كلكم لآدم) (ص٧٦) ويقول «ولأمر ما وجدنا أن القرآن لايخاطب البشر .. بل يخاطب الإنسان ، والتكليف الدينى منوط بصفة (الإنسانية) ، لا بصفة (البشرية) (ص ٩٨) ، ثم يزعم «ولقد نجد فى القرآن دليلاً قاطعاً على صحة هذا المذهب ، حين نجده محتفياً بالإنسان ، متابعاً لوصف كل أحواله فى ثلاثة وثلاثين موضعاً ، على حين أنه لم يذكر (البشر) بوصف واحد» (ص ١١٠).

.. بقى أن نقول إن الدكتور عبدالصبور يزعم أن «المعنى الصحيح للسجود لآدم هو موالاة آدم وذريته إلى يوم القيامة » وقد أدركت ذلك الملائكة ، وغاب هذا المعنى عن إبليس لغبائه (ص ١٤٩).

.. وبعد فهذه هى (نظرية) الدكتور عبدالصبور شاهين الجديدة فى أصل الخليقة .

ونحن لن نحاكمه إلا إلى المعيار الذى قبله صراحة فى مفتتح كتابه هذا وهو : مراعاة قداسة النصوص المنزلة ، وعدم مخالفة معلوم من الدين بالضرورة (ص١٠) واستنطاق آيات القرآن الكريم «باعتبارها المصدر الأول والأوثق الذى ينبغى اعتماده فى هذا المجال» كذلك الاستعانة ببعض من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم مما يساعد على جلاء المعنى القرانى (ص ١٢).

ثم يؤكد ذلك (فى صفحة ٤٢) حينما يقارن بين معطيات العلم البشرى النسبية وبين عصمة القرآن الكريم « الكلمة

الإلهية النهائية فى الخطاب ما بين السماء والأرض ، أو ما بين الأعلى والأدنى - فإنه ولا شك يقدم للعقل الإنسانى الحقائق النهائية فى الموضوع».

وحين حاكمنا كتابه إلى هذا المعيار - المحكم تهاوت (نظريته) وسقطت مقولاتها واحدة بعد أخرى ، حسب التفصيل الآتى .

القرآن والسنة ينقضان نظرية الدكتور عبد الصبور

أولاً : يزعم الدكتور عبد الصبور أن القرآن الكريم لم يوجه خطابه (مطلقا) إلى البشر .. إلخ.

وفى القرآن الكريم آيات كثيرة وجّه فيها الخطاب التكليفى إلى (البشر) ، ومنه قوله تعالى (ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس: كونوا عباداً لى من دون الله ، ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون) ، (آل عمران: ٧٩).

وقوله للنبى صلى الله عليه وسلم (قل: إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ إنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) (الكهف ١١٠).

وقوله (قالت لهم رسلهم : إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمنّ على من يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون) (إبراهيم ١١ وراجع أيضاً الآية السابقة).

وقوله لرسوله صلى الله عليه وسلم (قل : إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين . الذين لايؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون) (فصلت ٦ - ٧) وأليس هذا هو التكليف ؟

وقوله (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء إنه علىّ حكيم) (الشورى ٥١) .. وآيات أخرى عديدة قاطعة فى أن الله تعالى أوحى للبشر، وخاطبهم الخطاب التكليفى ، وأرسل منهم الرسل .

ثم ، ألم يكن البشر الذين عاشوا ملايين السنين (أمة من الأمم) ؟ فماذا يفعل الدكتور عبدالصبور فى قوله تعالى (وإن من أمة إلا خلا فيها نذير) (فاطر ٢٤)، لقد عاش البشر ملايين السنين - كما يقول الدكتور عبد الصبور - هملا لا نذير لهم ولا نبوة ، لكن القرآن الكريم ينقض ذلك وتنطق آياته فى غاية الوضوح بإرسال الأنبياء إلى البشر ، والوحى إليهم، وتكليفهم .

وأنكر أنه حين نطقت الآيات السابقة مكذبة مقولة الدكتور عبد الصبور (فى

الحوار الذى دار بينى وبينه) ، وضاقت عليه المسالك – لجأ إلى (حيلة ساذجة) لاتغنى عنه شيئاً ، إذ قال عندئذ : الوحى فى هذه الآيات والنبوات والتكليف للبشر الذين تحولوا بعد خلق آدم إلى مرحلة (الإنسان) ، فهو وحى إلى الإنسان الذى كان بشراً من قبل من ملايين السنين ! ونسى الدكتور عبد الصبور أنه قال بالحرف الواحد : «ولا علاقة بين آدم والبشر الذين بادوا قبله تمهيداً لظهور ذلك النسل الآدمى الجديد ، اللهم إلا تلك العلاقة العامة أو التذكارية باعتباره من نسلهم» (ص ٩٨) ، «ومقتضى هذا أن النوع البشرى قد انقرض ليحل محله رتبة أرقى هى رتبة (الإنسان) » (ص١٠٩) .. فكيف يخاطب القرآن ، ويرسل الرسل، ويكلف من انقرض منذ ملايين السنين ؟! ولماذا إذن لم يكلف (الطين) الذى خلق منه البشر ، كما كلف (البشر) الذين انحدر منهم (الإنسان) الذى هو عند الدكتور عبد الصبور المنفرد بالتكليف والمستحق له؟!.

ولن ينفع الدكتور عبد الصبور هنا زعمه (الذى لا دليل عليه إطلاقاً ، بل تكذبه النصوص القرآنية المعصومة) الذى ادعى فيه أن بين البشر والإنسان عموماً وخصوصاً مطلقاً ، لأنه يقول فى النص السابق الذى قرر فيه ذلك (ص ٩٧) إن التكليف الشرعى مختص بلفظ (الإنسان) «الذى يطلق بمفهوم القرآن على ذلك المخلوق المكلف بالتوحيد والعبادة .. لاغيره، وهو الذى يبدأ بوجود آدم عليه السلام (أبو الانسان) ، لا «أبو البشر» (ص ١٠٩).

وخلاصة هذا كله أن القرآن الكريم يكذّب قول الدكتور عبد الصبور : إن القرآن الكريم لم يوجه خطابه (مطلقا) إلى البشر ، وينقضه من أساسه على النحو السابق .

ثانياً : ومثل هذا يقال فى زعمه أن التكليف الدينى منوط بصفة (الإنسانية) لابصفة (البشرية) فلم يعد للبشر وجود منذ ظهر آدم عليه السلام) (ص٩٨) .

وفى القرآن الكريم عشرات النصوص المكذّبة لذلك بغاية الوضوح والبيان:

فإلى جانب النصوص التى أوردناها فيما سبق أطلق الله تعالى على اليهود والنصارى أنهم بشر ممن خلق ، قال تعالى (وقالت اليهود والنصارى : نحن أبناء الله وأحباؤه ، قل : فلم يعذبكم بذنوبكم ، بل أنتم بشر ممن خلق ، يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ..) (المائدة ١٨) والآية التى بعدها تخاطبهم بأن الله تعالى أرسل إليهم بعد فترة من الرسل رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم .. وهم (بشر) ممن خلق ، فماذا يفعل

الدكتور فى هذا التناقض القطعى؟.

بل إن فى القـــرآن الكريم آيتين متتاليتين لو تأملهما الدكتور عبدالصبور جيدا حق تأملهما لانخلع سريعا من زعمه هذا لأنهما نص قاطع كأنه نزل أصلا فى دعواه ، وقد جعلها الله تعالى من-(دعاوى الكافرين ومزاعمهم) ورد عليها، وأعنى قوله تعالى (وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا : ما أنزل الله على بشر من شىء) ، (أو لم يقل الدكـــتـــور عبدالصبور ذلك نصاً؟) فكيف رد القرآن على قائل ذلك (قل : من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل: الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون . وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون» (الأنعام : ٩١ - ٩٢).

وأيضاً فمن مقولات الكافرين الجاحدين للنبوّات (فيما يحكيه القرآن الكريم) ، ما ورد من قوله تعالى : (وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا : أبعث الله بشراً رسولا . قل : لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزّلنا عليهم من السماء ملكا رسولا) (الاسراء ٩٤ - ٩٥).

.. فهذه آيات قاطعة الدلالة فى أن الله تعالى بعث إلى البشر رسلا منهم .. ومثلها آيات أخرى كثيرة (راجع مثلا التغابن ٦، والمؤمنون ٤٧ وإبراهيم ١٠ .. وغيرها) ، (فهل يسع الدكتور عبدالصبور بعد هذا كله أن يردد (ولو فى سياق آخر لنظريته الباطلة) مقولة الكافرين : ما أنزل الله على بشر من شىء؟ وهل فعله هذا موافق للمعلوم من الدين بالضرورة؟

وبهذه الآيات القاطعة وأمثالها أيضاً يبطل زعم الدكتور عبدالصبور ان «القرآن الكريم لم يذكر (البشر) بوصف واحد (ص ١١٠) فماذا يفعل بالأوصاف التى ملئت بها الآيات السابقة وأشرفها الوحى والتكليف ونزول الكتب المقدسة بالبينات والميزان؟!

ثالثاً : ما يزعمه الدكتور عبد الصبور من أن الله تعالى حينما خلق البشر لم يأمر الملائكة وإبليس بالسجود لهم ، إنما اختص (الانسان) بهذا الأمر بعد أن سواه ونفخ فيه من روحه وهيأه للتكليف - فهو كبقية مزاعمه دعوى باطلة تكذبها فى صراحة وقطع آيات القرآن الكريم .. ومنها قوله تعالى (قال : يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين ؟ قال : لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون). (الحجر ٣٢ - ٣٣) لكن الدكتور عبد الصبور يدعى أنه يعرف وصف آدم

عليه السلام أفضل مما كان يعرفه إبليس!

لكن ، ماذا يفعل في الآيات التي وصفت البشر بأنه (سوى) ثم سوت في التعبير تماماً بينه وبين (الإنسان) ، (راجع الآيات (١٦ - ٢٦ من سورة مريم) وفيها (فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً) وفيها «..فإما ترين من البشر أحدا فقولي : إني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسياً).

وأين ظلالات الهمجية وانعدام العقل والتكليف في تمثل الملك بشرا سويا؟

وماذا يفعل الدكتور عبد الصبور في قوله تعالى : « .. إنما يعلمه بشر» (النحل ١٠٣) ولم يقل (إنسان) وهو المدعي عليه أنه يعلم النبي؟

وماذا يفعل في قوله (ومن اياته ان خلقكم من تراب ثم إذا انتم بشر تنتشرون) (الروم ٢٠)، هل يرى في هذا كله آية ظلال لمعنى التفريق بين (البشر) و(الإنسان) مما يزعمه؟!.

مجازفة خطيرة!

رابعاً : أما ما يقوله من أن آدم عليه السلام جاء مولودا لأبوين من البشر فهو مجازفة خطيرة وإبحار بغير هدى في عوالم الغيب ، ويكفى في نقضه التأمل الواعي في قوله تعالى: (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له: كن فيكون) (آل عمران ٥٩) فلماذا ضرب الله تعالى: المثل بآدم لعيسى عليهما السلام؟ إن الخلاف الأساسي (الذى أدى إلى ضرب المثل، كما هو واضح من سياق الآية ومن سبب نزولها) هو الخلاف حول طبيعة عيسى عليه السلام ، لأنه ولد من أم بدون أب، فزعم عابدوه أنه ابن الله - تعالى - وأنه ورث عنه صفاته الالهية ، فضرب القرآن لهم المثل بآدم عليه السلام في قياس بالأولى، لأن آدم ولد دون أب أو أم ، فلو كان هذا الوصف مؤهلا لوصفه بأنه ابن الله تعالى وبالألوهية لكان المستحق له بالأولى آدم لأنه اشترك مع المسيح في كونهما ولدا دون أب ، وزاد آدم أنه أيضاً دون أم ، فهو مشترك في وصف المسيح وزائد عليه ، ولم يقل أحد أنه بهذا إله أو ابن الله ، ومن هنا صح ضرب المثل في قياس بالأولى .

وكما يقول ابن كثير في تفسيره : «ان مثل عيسى عند الله» في قدرة الله تعالى حيث خلقه من غير أب «كمثل آدم» فإن الله تعالى خلقه من غير أب ولا أم ، بل (خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون) والذى خلق آدم قادر على خلق عيسى بالطريق الأولى والأحرى ، وإن جاز ادعاء النبوة في عيسى بكونه مخلوقاً من غير أب فجواز ذلك في آدم بالطريق الأولى. ومعلوم بالاتفاق أن ذلك باطل، فدعواها

فى عيسى أشد بطلانا وأظهر فسادا، ولكن الرب عز وجل أراد أن يظهر قدرته لخلقه : حين خلق آدم لا من ذكر ولا من أنثى ، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر ، كما خلق بقية البرية من ذكر وأنثى ، ولهذا قال تعالى فى سورة مريم (ولنجعله آية للناس) ، (مريم ٢١)، وقال ههنا (الحق من ربك فلا تكن من الممترين) أى : هذا القول الحق فى عيسى الذى لا محيد عنه ولا صحيح سواه ، وماذا بعد الحق إلا الضلال .. ثم يروى فى سبب نزولها أن وفد نصارى نجران حينما قدموا على النبى صلى الله عليه وسلم يحاجون فى عيسى ويزعمون بنوته وألوهيته ، ويستدلون بولادته من غير أب نزلت الآيات بقياسه على آدم .. (تفسير ابن كثير) ، (٢ / ٤٠).

تكذيب

فسياق الآية وسبب نزولها قاطعان بتكذيب دعوى أن آدم عليه السلام ولد لأبوين من البشر كما يقول الدكتور عبدالصبور ، ولولا ولادته دون أبوين لما صح ضرب المثل القرآنى المحكم ولما صحّ الاحتجاج على دعوى نصارى نجران فى عيسى عليه السلام .

خامساً : أما ما يذهب إليه الدكتور عبدالصبور من أن حواء أيضاً ولدت كذلك لأبوين من البشر فهو تكذيب أعمى لحديث نبوى صحيح رواه البخارى ومسلم والترمذى وغيرهم (راجع مثلا : كتابنا (مكانة المرأة فى القرآن الكريم والسنة الصحيحة ط ٢ ص ٣١٤ - ٣١٨) والحديث بجميع رواياته صريح ، والقاعدة المقررة فى التعامل مع النص العربى تقضى بحمل الكلام على حقيقته حتى يقوم الدليل على أن الحقيقة غير مراده ، وان المجاز هو المراد ، ولا دليل فى جميع روايات الحديث على شىء من ذلك إطلاقا .. والتفسير الذى قبلناه فى الحديث يجمع بين قبول ظاهره وحقيقته مع قبول الرمز فيه لطبيعة المرأة وفطرتها الخاصة (انظر : السابق) فلا تعارض إطلاقا بين الأمرين ، بل إن الحقيقة تتضمن الرمز بداخلها .. وهذا هو المتفق مع قوله تعالى فى مفتتح سورة النساء (ياأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة (آدم) وخلق منها زوجها (حواء التى خلقها الله تعالى من ضلعه) وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء). وهو ما ورد أيضاً فى (الاصحاح) الثانى من (سفر التكوين) .. ومن الذى قال ان كافة ما عند اليهود والنصارى من نصوص قد حُرِّف؟ ومن هنا جاء القرآن الكريم بالحق (مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه) (المائدة : ٤٨) .. وجاءت على هذا النحو سنة النبى صلى الله عليه وسلم الصحيحة.

ومن العجب ان الدكتور عبد الصبور (بعد هذا التاريخ الطويل مع العلوم الاسلامية) يطلق على الحديث الصحيح «كما وردت بذلك آثار» (ص ٧٦) ولم يعرف العلم الصحيح بالحديث اطلاق كلمة (آثار) بهذا التنكير على الحديث الصحيح، لكن كتابه هذا ينبيء في وضوح بأنه قليل العلم جداً بعلوم السنة، حيث صدّره بما ذكره كحديث قدسي هو (كنت كنزا مخفياً فأردت ان اعرف فخلقت الخلق فبي عرفوني) ، (ص٥) وهو كلام يقول عنه ابن تيمية «ليس من كلام النبي صلى الله عليه وسلم ولا يعرف له سند صحيح ولا ضعيف ، وتبعه الزركشي والحافظ ابن حجر في (اللآلىء) والسيوطي .. وغيرهم) كشف الخفا للعجلوني ١٩١/٢).

ويبدو أن الدكتور عبدالصبور حفظ الحديث في صغره (كما يقول في ٥) في حلقة قليلة العلم بالسنة الصحيحة، ثم لم يعد إليه بعد بتحقيق!.

حمل اللفظ على غير معناه

سادساً : أما ما يزعمه الدكتور عبدالصبور من أن المعنى الصحيح للسجود لآدم هو موالاة آدم وذريته إلى يوم القيامة ، وقد أدركت ذلك الملائكة فأطاعت، وغاب هذا المعنى عن إبليس لغبائه .. (ص ١٤٩) فهو حمل اللفظ على غير معناه الظاهر دون دليل ، مما يخالف القاعدة المقررة في التعامل مع النص العربي .. وما المانع من أن يكون معنى السجود الذي وردت به الآيات هو المعنى الحقيقي ؟ ليس هناك مانع إطلاقا من ذلك ، بل إنه المتبادر إلى الذهن الذي فهمته العقول العربية حين نزلت الآيات ولو قبلنا نقل معاني الكلمات المنزلة عن حقيقتها لغير دليل (سوى أهواء العقول غير المعصومة) لهدم النص القرآني شيئاً فشيئاً .. ولما كان هناك ضابط أو معيار صحيح للقول في معناه، فالسجود إذن في القصة هو حقيقة السجود ، وليس شيئاً آخر، هذا هو مقتضى البيان العربي الصحيح .

إن التأويل والاسراف فيه دون مقتضى صحيح مزلقة للفكر خطيرة وأي مزلقة!.

خاتمة

وبعد فقد حاكمنا كتاب الدكتور عبدالصبور إلى المعيار الذي قبله، فتهاوت مقولاته واحدة بعد الأخرى حسب التفصيل السابق .

وصدق الله تعالى (ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضداً) (الكهف ٥١) فهل يعيد الدكتور عبد الصبور النظر في مقولات كتابه على ضوء ما فصلناه؟ نرجو ونأمل..

الابتلاء بالكتابة

بقلم :صافى ناز كاظم

●● الكتابة : أصعب الأمور. الكتابة : أسهل الأمور . الكتابة : خلاص من المتراكم على الصدر. الكتابة : هم ثقيل على الكتفين. الكتابة : لابد أن تظل هواية، فالالتزام بضرورة الكتابة لأنها مهنة مرتبطة بمرتب أو مكافأة منتظرة لا يمكن الاستغناء عنها : إذلال رهيب يدفعك إلى التوقف. قوة الاستغناء : قدرة ذهبية هنيئا لمن يملكها. أعتقد أننى أملكها، لأننى أملك الصوم، والإفطار على بصلة ●●

هذه المقدمة تعكس حالتى الغاضبة الآن. غاضبة من ابنتى، ومن رئيس التحرير، ومن رئيس مجلس الادارة. لدى نزعة هائلة للاستقالة، وهى نزعة تولدت معى منذ بدأت العمل بالصحافة. ضحك منها رؤسائى كلهم، وسألنى الأستاذ على أمين مرة من المرات: صافى ناز لماذا لم تصلنى استقالة اليوم؟. أهتم بابنتى فتتهمنى بالسيطرة والتحكم. آخذ من قلبى لأعطى المجلة التى أحبها - الهلال - فيتهمنى. رئيس التحرير بأننى استسهل الكتابة من الأوراق القديمة. أبتعد عن الشحناء وأنتقل من موقع الى موقع يشفينى من التوتر، فيتهمنى رئيس مجلس الادارة بأننى أهرب لألهو وألعب. لولا أننى ملتزمة بقرارى الذى أخذته على نفسى عند بلوغى الستين بأن «أغتبط» مهما حدث، لكنت الآن فى غاية النكد. لكننى لا أحب أن أقع فى هذه البئر. إننى أجذب نفسى الى شاطىء البحر على الرمل الأصفر - الذى لم يعد موجودا فى الواقع المادى - ، وأخذ بيدى الى الإطلالة على النهر - الذى كان النيل من أطول أنهار الدنيا وأكثرها نفعا سابقا - ، وأفرد

خطوى على أبسطة الاخضرار أينما تخيلتها. مغتبطة جدا أنا. فرحانة. أعرف كيف أضحك، لأننى أعرف مكمن المثير للضحك في كل الابتلاءات والمحن. الحمد لله. الحمد لله، الحمد لله. الذى لا أحمد سواه .

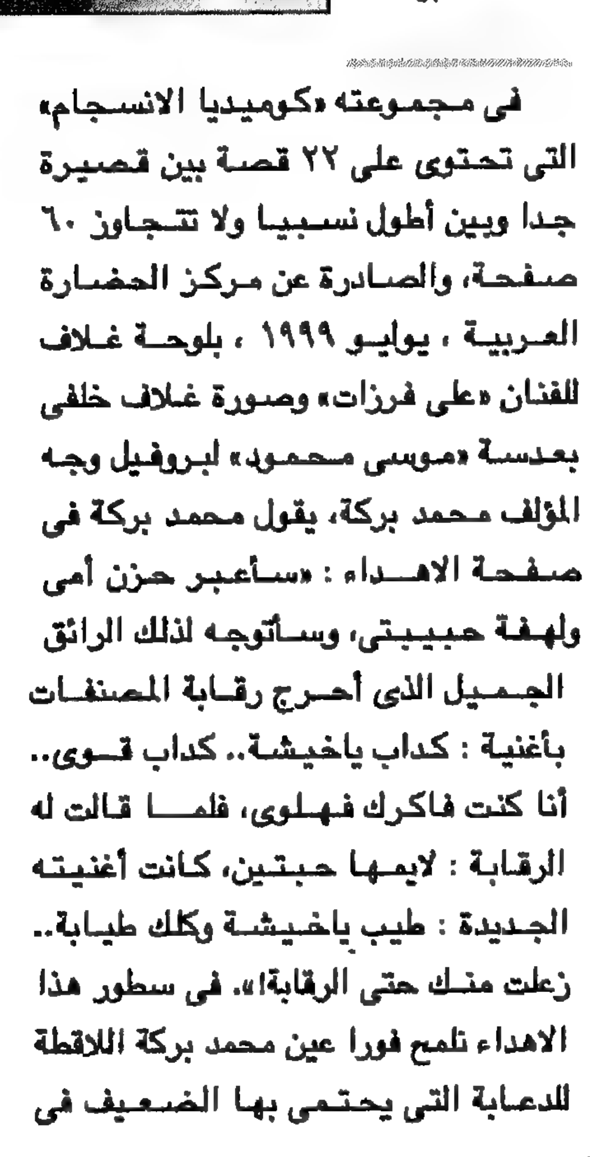


«محمد بركة» كاتب قصة شاب، يشبه بطل الفيلم الذى لم يعجبنى : «الجمال الأمريكى». لم يعجبنى الفيلم لأنه تنويعات رديئة ركيكة على أفلام ومسرحيات الأزمات العائلية الأمريكية التى أغرقتنا بها هوليوود فى الخمسينيات من تأليف تنيسى وليامز ووليام انج. لكن «محمد بركة» لا ذنب له فى هذا الشبه الخارجى لبطل الفيلم الشاب الذى أدى دور الإبن المقهور من أبيه. «محمد بركة» من قرية صغيرة فى محافظة دمياط، هادئ، مهذب، خفيض الصوت، يمارس عمله الصحفى كأنه كل شأنه فى الحياة، حتى تكتشف بمحض الصدفة أن شأنه الحقيقى هو «فن الكتابة» يكتب أصعب أشكال «فن الكتابة» ، لا .. ليس الشعر، ولا.. ليست الرواية ، بل هى نعم «القصة القصيرة» : اللقطة المكثفة البطيئة السريعة الجهمة التى تغرقك فى الضحك، وبعد الضحك تتأمل نفسك وتتساءل : ماذا يفعل الفن بالآلام؟.





محمد بركة



فى مجموعته «كوميديا الانسجام» التى تحتوى على ٢٢ قصة بين قصيرة جدا وبين أطول نسبيا ولا تتجاوز ٦٠ صفحة، والصادرة عن مركز الحضارة العربية ، يوليو ١٩٩٩ ، بلوحة غلاف للفنان «على فرزات» وصورة غلاف خلفى بعدسة «موسى محمود» لبروفيل وجه المؤلف محمد بركة، يقول محمد بركة فى صفحة الاهداء : «سأعبر حزن أمى ولهفة حبيبتى، وسأتوجه لذلك الرائق الجميل الذى أحرج رقابة المصنفات بأغنية : كداب ياخيشة.. كداب قوى.. أنا كنت فاكرك فهلوى، فلما قالت له الرقابة : لايمها حبتين، كانت أغنيته الجديدة : طيب ياخيشة وكلك طيابة.. زعلت منك حتى الرقابة!». فى سطور هذا الاهداء تلمح فورا عين محمد بركة اللاقطة للدعابة التى يحتمى بها الضعيف فى

مـواجـهـتـه للأقـوى، ويكون اصطيـاده المسـتـمـر لهذه «الدعابة» هو حيـثـيـاته لتسجيل «بطولة» ذلك الضعيف، ودعمها بالانحـيـاز لهـا. في لقطة تحت عنوان «طارق» نقرأ فـيـمـا لا يتـجـاوز ثمـانيـة أسطر: «أذكر أنه كان يوم الاحتفال بمولد النبي، أي يوم الحلاوة ودكر البط الشيني، والبهجة الموسمية التي تترقبها عزبة نائية لم يكن بطل الحرب والسلام يعرف عنها شيئا. كان الحر كالهم الثقيل والترعة تجـرى بماء صاف، وحين تحلقوا حـول الطبليـة، لاحظوا غيـاب طارق. ودون أن أثقل عليكم - وعليّ - بالتفاصيل - طارق كان نائما على بطنه، والتيار الناعم يجرفه في هدوء حتى اعترضه أخيرا فرع كافور، ودفعـتـه التـيـارات الصـغـرى برفق نـحـو الشـاطـئ وتكاثرت عيدان الحطب وأوراق الصفصاف الجافة وتجمع الزبد حول جثة أخي التي تبدو الآن منتـفـخـة قليلا..» . تنتـهـى هـذه اللقطة المفعمة بالبسـاطة وغور الألم الذي يشبـه تحول الحديد الى اللون الأبيض حين تشتد فيه النار ويكون قد قـارب السـيـولة والهشـاشـة ، لتـأتي بعـدها لقطة بعنوان (......) - أي عنوان مـحـذوف في بطن الكاتب - كـأنـهـا ملحق تفسيري يدون ماذا حدث بعد ذلك الحادث المفـجـع في سطور قليلة مماثلة : «حـين غرق أخي في الترعة، قضم الحزن قطعة من قلب أمي التي كانت آنذاك وردة جميلة تتفتح. ونخر السـوس أعصـاب أبي حين وصلته الرسالة المشئومة وهو في الغربة يعـمـر بلاد : روح يامـصـرى، تعـال يامصري. أمي كفت عن ارتداء الملون، ولم تعـد تقف أمام المرآه. وأبي سـخط على صديق عمـره الذي تلاعب بأعصـابه في المقدمة الطويلة المليئة بعبارات من نوع، نحـسـبك صـبـورا ونثق في إيمـانك بالله، وتمنى أن لو كان قد ألقى اليه بالخبر في هدوء وبسـاطة. أمي قـالت : مـاعـدلناش قـعـاد في البلد دى، وأبي عـاد في نفس الأسـبـوع وقـال : اللي تشـوفـيـه. وانتـقلنا نحن الثلاثة الى مدينة صغيرة يزحف فيها النيل على بطنه، وتجـر عـربـاتهـا الكارو أحـصـنة عـجـوز، ويحب حـريمـهـا الجـارة الجديدة أم طارق وينادين ابنهـا الوحـيـد حـسـب هذا الاسم دون أن يعـرفن أن اسمى مـحـمـد، وأن طارق هـو اسم أخي الكبـيـر الذي رأيت جـثـتـه طافـيـة وسط العيدان وأوراق الشجر» .

يقول محمد بركة كل شيء «في هدوء وبساطة»، من أرشيف الذاكرة، من لوحات حـركـة الناس : تعـمـل ، تجـرى، تتكلم، صـوابا أو خطأ، بمنطق أو بلا منطق، حقيقة أو وهما. هو جالس ساكت «شايل طاجن سـتـه»- يبدو وقـورا جـادا، وعينه اللاقطة لا تكف عن البـحـث عن زاوية

الهزل فى أركان وقواعد الجدية. هو شكل من أشكال الحزن الجديد لما أسماه جيل مابين «١٩٦٧ ـ ١٩٧٣» : «.. لكن من أين لنا بالانفعال، نحن الذين ولدوا فى السنوات القليلة الساخنة بين ١٩٦٧ ـ ١٩٧٣ ، نظل نعيد قراءة بيانات كوبون الاشتراك، نتأمل شروط هذه المسابقة السنوية ، وأبدا لا يضطرب فينا الهدوء..» ـ من قصته عن الجرىء والجميلة، ص ٤١ – انه جيل حزين بالميراث النفسى الذى ورثه عن آباء اكتأبوا طويلا. تأخذ كتابته فى قطع قصيرة جدا، لا تتعدى أربعة أسطر، ايقاع البريد الاليكترونى : «بالأمس لم تكن القاهرة غولا يفح الصهد ويأكل الأسمنت. القاهرة بالأمس لم تكن غولا يفح ويأكل الأسمنت . يا أخواتي قاهرتكم لم تكن غولا يفح بالصهد ويأكل الأسمنت أمس.. ياماري أنا لست نبيا. ياوائل.. أنا لا تعنيني الحداثة فى شيء» .

هذا الشكل من التعبير، الذى قد يراه البعض، غير مفهوم أو هذرا لا معنى له، يعجبنى جدا وأجده أكثر احتشادا بالدلالات والمعانى من صفحات مكدسة بالكلام غير المخفوق جيدا . هذا هو الشكل الذى تطور اليه نجيب محفوظ فى انتاجه الأخير الذى ينشره بانتظام فى مجلة نصف الدنيا. لكن تهويمات شاب لم يبلغ الثلاثين مثل «محمد بركة» ، تختلف تماما فى مضمون بثها عن شيخ فى الثامنة والثمانين. يكتب محمد بركة «هكذا كالحلم»، ويغمس نجيب محفوظ من بئر أحلامه التى لم تعد تفارقه، لكن الحلم هنا ليس الحلم هنا. يشف «محمد بركة» فى قطع مثل «ثلاث غيمات»، و«حنان مدفوع الأجر»، و«اسمها مارى» ، و«هكذا كالحلم» وأجده محلقا كتماوج العطر المحسوس غير الملموس، لكنى فى قطع أخرى أتوقف متوجسة حتى لا أدخل فى أزقة أحسبها موحلة . لا أصادر عليه، لكننى لا أحب تلك الساحات الغامضة فى «هوامش بالرصاص» و«أبو بخيت»، التى أعجبنى فيها تعبير: «الجوع كافر لكن العطش ملحد».



لا أطالب «محمد بركة» بأى شيء سوى أن يظل كاتبا بفن، بعيدا عن التزامات لقمة العيش ، ذلك طالما أنه صار واحدا ممن تورطوا فى «ابتلاء الكتابة» .



وضعت قطعة اللحم لقطتى «فيفيان لى» بعيدا عن أوراقى التى أكتب الآن عليها، التقطت قطعة اللحم وجاءت محددة الاتجاه لتلتهمها فوق كتابتى تماما. هل يعنى هذا أن كتابتى قابلة للالتهام؟.

لمسة مشجعة من قطتى العزيزة، بعد أن تم التكاتف لصد نفسى عن الكتابة.

غــداً سأبدأ

بقلم: حسن سليمان

كنت محتاجاً إلى أن أقابله فى هذا الغروب .... مصيبتى كانت أكبر من أن أحتملها .... كنت محتاجاً إلى إنسان . يتعاطف معى، ويحس بى. ولم يكن الصعود إلى المقهى فى «السيدة نفيسة» سهلا . حيث كنت أرتاده مع أستاذى «بيبى مارتان» للرسم الحجارين وهم يلعبون «الدومينو» . الحجارون صامتون دائماً قليلو الكلام. وإن تحدثوا فهم دائما يتحدثون عن خبرة، أو عن مشاكل فى صنعتهم تضيف الكثير إلى أى غريب . كانوا يجدون واحدا منهم ذهب بصره، يقولون عنه إنه آخر الحفارين العظام فى الحجر . كان يحفر الرسوم الإسلامية باشتقاقاتها والخط العربى . ويتداولون دائماً أن «طلعت حرب باشا» كان يتخذه مستشارا له . لم يخبرنى الرجل أبدا أنه صوفى، كما أنه لم يخبرنى بالطريقة التى يتبعها .

لكن من ترديده اصطلاحات صوفية دون أن يدرى أدركت هذا.

قالوا «إن بصره ذهب عنه رويدا ... رويدا من انكفائه الدائم على الحجر ، والمطرقة فى يده» . اتخذته أستاذاً أكثر من صديق . آوى اليه كلما ألمت بى غمة . أجلس بجانبه . لا يرى الرسم فى يدى ، بل يتبع صرير القلم فى احتكاكه بالورق.

فجأة .. ذات مرة وأنا أرسم صرخ صديقى الحجار الأعمى، أو دعنى أقول عنه فخوراً أستاذى الصوفى الذى كشف الله عن بصيرته ، «لقد كنت ترسم جيدا. لماذا هربت منك الخطوط؟ إنك عصبى يضيع منك الانضباط ، ولافن دون

انضباط . إن الفن نوع من ذكر الله ولا يمكن أن تذكر الله دون استغراق فى الانضباط. دع كل شىء يابنى وركز فى فنك .... والباقى كله سيأتى إليك». فجأة.. تحسس بجانبه لفافة بها ملابس داخلية أحضرتها له ولم أخبره بها. قال لى : «أهذه الأشياء لى أنا؟».

قلت له : «أجل». أجابنى : «لست فى حاجة لها خاصة أنها بالتأكيد من شركاتهم الاستثمارية .... أين ذهبت أيام «طلعت حرب»، و«عبود باشا» . حينما كان يريد أن يجمع قمامة مصر كلها . ليصنع منها السماد . جمع رأسمال الشركة كلها بسندات فى أسبوع واحد . ظل المصنع الضخم جدا فى مدخل «بنها» شاغراً . تتراهن الصبية على قذف نوافذه الزجاجية بالحجارة ..... ولا ندرى ماذا حدث له الآن؟!».

نظر إلىّ بعينين خابيتين، ولكنهما ينفذان إلى داخلى. تطلع إلىّ قائلاً فى هدوء : «هل تظن يابنى أنها تفرق عند الله لو قابلته «بفانلة» جديدة أو ممزقة؟» . نظرت إلى صديريته الممزقة تحت جلبابه الذى لم يفارقه أبداً منذ سنوات . أحسست بسكينة نفسية ، وقلت : «أبداً لاتفرق، وأنا أتمنى أن أقابل ربى عاريا حتى فى سريرتى».

همس الرجل : «سيذهب الله غمتك قريباً».

★★★

انصرفت ... وفجأة وجدت نوبة من الضحك تنتابنى بصوت عال . لقد احترقت شقتى تماماً . ومع احتراق الشقة وجدتها هى التى كم المتنى تحترق بداخلى ، كما كانت العروس الورقية تحترق فى يد جدتى، وهى تدعو لى بالشفاء وأنا مريض.

★★★

حينما وصلت إلى قرب مرسمى . وجدت رجلا حافى القدمين ، رث الملابس، يحمل سيفا خشبياً أخضر . وفى مؤخرة «جاكتة بيچامته» علق بالدبابيس أعلاما أمريكية ورقية . تتسل فى الأرض خلفه كأن لا نهاية لها ..... أعجبتنى هذه الصورة جداً ولا أدرى لماذا . وجدت أن الرجل قد حل جميع مشاكله . لاشقة احترقت بكل مايملك ، ولا حبيبة نافرة، ولا مسئولية اجتماعية تؤرقه . ذهبت إليه ضاحكا ودودا . أعطيته لفافة الملابس الداخلية التى رفض صديقى الصوفى أخذها . قلت له : (أمريكا قد أرسلت لك هذه الهدية) أخذ الهدية وكأن الأمر لايعنيه فى شئ . لكنه صاح ملوحا بسيفه فى الهواء . وقد جحظت عيناه صارخا : «أنظر .... أنظر .... انظر لولا هذا السيف ما أرسلت إلى أمريكا مثل هذه الهدية .. اسمع لابد أن يكون لك حلم كى ترتاح». همست له : «صدقت» . وأكملت لنفسى: على أن أرفع الحلم ليتحقق إلى فعل.

★★★

أذكـر ..... أني كنت في وفـد لزيارة منازل النوبة، قبل أن تغرقـهـا مـيـاه السد العـالي . قلقت ذات ليلة ، ومع نسـمـات الفـجـر وارتطام الموج الهـادئ، بجـانب السـفـينة . وجـدت رجلا هرما ... يصـعـد التل ويسعى وراءه طفل صـغـيـر . يحـمل الرجل الهرم «شتلة» صغيرة لنخلة وفأسا. وبدأ يعلم الصبي الصغير . كيف يحفر ليضع الشتلة في الأرض . وتعجبت!!.

إذ إن المياه ستغمر هذه الجزيرة كلية بعد يوم أو اثنين.

هرولت بسرعة نازلا درجات السفينة . صعدت التل إلى الرجل .

قلت له : «ألا تعلم أن هـذه الجـزيرة ستغرق كلية».

أجـابني بهـدوء : «أجل. لكن جـدي في مـثل هـذه الأيام من السنة، علمني كـيف أزرع نخلة . كـذلك فـعل أجـدادي. نحن تعلمنا أن نبني الحياة . وإن هدم، أو أغرق غيرنا الحياة فهذا ليس شأننا». وانصرف عني كلية . دون أن يعيرني التفاتا .

فانصرفت في خجل .

★★★

احترقت شقتي تماماً ، ولم تعد سوى رماد أسود ارتفاعه نصف المتر : وجدران سوداء فاحمة .

أذكـر أنه منذ سنوات .... قـرأت في كـتـاب للكاتب النمـسـاوي الشـهـيـر - «استـيفان زفـايج» عن حياته زمن هتلر ، قـال فـيـهـا : إن الجـسـتـابو أخـذه إلى السجن، دون أن يدري لماذا، اللهم أنه كان لايؤيد الكثـير من التصرفـات التي تحدث حوله، وحين أفرج عنه رجع إلى منزله. فلم يجد له أي معالم .... بل حطام ... أنقاض فوق بعضـهـا وحرائق مشتعلة . وجد نفسه بلا مـأوى، ولا حـتـى صـديق سـوى قطة ضـالة سـارت بجـانبـه . اندفع يبكي ، ويصـرخ ويضـحك في آن واحد . وسرعان مـاتماسك . وقـرر أن يبـدأ، مـهـمـا كـانت البداية صعبة . وكل بداية صعبة . ومضت السنوات. و«استـيـفـان زفـايج» يبني من جديد حياته ومجده الأزلي ، ومنزله وكتبه، وأشياءه الثمينة .

★★★

قلت «لإحسـان عبد الغفار» سأبدأ من جديد . أجابت :

«من الصعب على من كان في عمرنا أن يبـدأ من جـديد» . صـرخت في حـدة : «سـأبدأ وإن مت قـبل أن أنتـهـي مما أريد بناءه، فيكفي أنني بدأت . حتى لا أشـعـر بالهزيمة يوما ما في أعماقي».

وبينما أنا أسرع إلى مرسمي. وجدت على الأرض أمـامـي قـارورة مـثـقـوبة ، بلا ظل يمتد أمامـهـا . فجأة ... قذفتها بقدمي محطما إياها ، صارخا في طفولة : «رفقا بالقـوارير» . ثـم قلت في نـفـسـي : «وإن كانت القوارير مثقوبة ، فالأفـضل أن يلهو بها الأطفال ويتقاذفونها في الطرقات».

لطيفة الزيات

شجرة العشق !

مها محمود صالح

يولد الإنسان ... ليموت !

وما بين الموت والحياة تتعدد التجارب الدالة الكاشفة .. يولد من خلالها الإنسان من جديد أو يموت وهو حى ! وتكتسب حياة الإنسان قيمتها من وعيه بلحظات التحول تلك ومواجهة ذاته بشجاعة لتخطى لحظات الهزيمة وتجاوزها ، بل تحويلها إلى بداية انتصار جديد.

وقد سجلت د. لطيفة الزيات تجربتها الفريدة فى كتابها (حملة تفتيش: أوراق شخصية) . وهو كتاب صغير الحجم عميق التأثير، قرأته عدة مرات وفى كل مرة تنتابنى نفس الدهشة ويستحوذ علىّ نفس الإعجاب !

تدهشنى قدرة د. لطيفة الزيات على النبش فى دهاليز ذاكرتها ، حتى تستخرج من ماضيها القريب والبعيد الأحداث والتفاصيل ذات الدلالة، وتعجبنى تلك البصيرة النفاذة التى تنظر بها إلى تفاصيل وأحداث حياتها، فتعبر من الظاهر إلى الباطن وتنفذ من الحدث الواضح إلى الدلالة الخفية، وهكذا تتحول عشرات التفاصيل المتناثرة على مدى العمر إلى خطوط واضحة ترصد تطور أفكارها ومشاعرها واختياراتها.

يأخذ الكتاب شكلاً متميزاً يجمع بين الرواية والسيرة الذاتية، وهو ينقسم إلى جزءين يبدأ كل منهما بحدث مهم فى حياة المؤلفة . الحدث الأول هو احتضار أخيها عبدالفتاح فى مارس ١٩٧٣ حتى وفاته فى مايو ١٩٧٣ ، أما الثانى فهو القبض على المؤلفة كواحدة من المتحفظ عليهم فى قائمة السادات الشهيرة فى سبتمبر ١٩٨١ .



ولدت لطيفة الزيات في دمياط ١٩٢٣ وتوالت عليها التجارب الدالة الكاشفة، فتقلبت بين الانتصارات والانكسارات حتى رحلت عن عالمنا منذ أعوام قليلة .

كانت البداية في مرحلة مبكرة من عمرها ! ففي الحادية عشرة من عمرها واجهت الطفلة لطيفة ، لأول مرة ، الشر مجسداً على مستوى الدولة . كان ذلك في المنصورة عندما رأت من شرفة منزلها رصاص البوليس، يحصد بلا رحمة أربعة عشر قتيلاً من المتظاهرين تأييداً لمصطفى النحاس زعيم الأغلبية الذي كان يزود المنصورة آنذاك .

في تلك اللحظة ولد حس الانتماء القومي في نفس الطفلة ، ثم اتخذ شكلاً أكثر التزاماً عند التحاق الفتاة بالجامعة ، بعد ذلك بسنوات . لقد تحولت لطيفة من فتاة تقليدية تستشعر الخجل من جسدها الأنثوي إلى «فتاة منطلقة صلبة قوية الحجة» تناقش زملاءها الطلبة وتقنعهم بالانضمام إلى صفوف الحركة الوطنية ، وكان ذلك التحول نتيجة لذوبان ذاتها الفردية في الذات الجماهيرية الواسعة . أي ذوبان «أنا» في «نحن» .

وفي عام ١٩٤٦ يعذب لطيفة مرة أخرى إحساسها بالعجز عن الفعل الإيجابي في مواجهة شرور السلطة ، التي فتحت كوبري عباس تحت أقدام المتظاهرين ليسقط العشرات منهم في النيل ، لم يتح لها آنذاك إلا أن تجلس صامتة على ضفة النهر تنتظر خروج الجثث واحدة بعد الأخرى لتلف كلا منهم بعلم مصر الأخضر .

العمل السياسي

لكن العجز يتحول إلى محاولة للفعل ، إذ تنخرط لطيفة بعد التخرج في العمل السياسي السري . وبعدها ترتبط بالزواج، ليس بالرجل الذي أحبته ، وإنما برفيق الكفاح الذي اعتقدت أن زواجها منه سيخدم أهداف الكفاح . لم تدرك وقتها أن ذلك الزواج كان يحمل بذور انهياره ، لأنه كان تكريساً لما درجت عليه منذ بداية انخراطها في العمل السياسي من تجاهل بل ووأد للأنثى بداخلها . وفي أسلوب رومانسي تحدثنا المؤلفة عن منزلها في

سيدى بشر الذى شهد حياتها مع زوجها الأول حيث : حوض الماء يستحيل فى الليالى المقمرة إلى سبيكة فضية ، تتراقص فيه الأسماك الملونة كألسنة قوس قزح . والقمر يتأرجح متوجاً على وسط البحيرة تحتضنه فى حنان فروع أشجار الحديقة ، وحيث توجد شجرة مشمش تنبثق زهورها ناصعة البياض بالغة النعومة من عيدان عارية خشنة مليئة بالعقد . (ص٢٩) .

وتنجح السلطة فى طى صفحة تلك المرحلة من حياة لطيفة ، فيلقى القبض عليها وعلى زوجها عام ١٩٤٩ حيث يحكم عليه بالسجن لعدة سنوات ، أما هى فتخرج بعد شهور من سجن الحضرة بالإسكندرية معتقدة أنها قد صمدت للتجربة وانتصرت عليها . لم تستطع عندئذ أن تلمح بوادر تحولها إلى النقيض والذى تمثل فى إقدامها على الزواج للمرة الثانية عام ١٩٥٢ . وفى الزواج الثانى انبعثت بداخلها الأنثى التى وأدتها طويلاً ، فباتت السعادة الشخصية حلماً أو على الأصح وهماً لاتنى تطارده وتتنازل فى سبيله عن الكثير من حريتها وقدرتها على الاختيار ، لكنها أبداً لا تصل إليه !

تدرك لطيفة بعد سنوات أنها تدور فى المدار الخطأ ، ويقتضى الأمر منها سنوات أخرى حتى تستطيع أن تستعيد قدرتها على الفعل الحر فتنفصل عن زوجها الثانى عام ١٩٦٥ . وقبل أن تبرأ تماماً من آثار زيجتها الثانية تداهمها هزيمة ٦٧ المروعة، ومعها إحساس مرير بالمسئولية : «كل واحد منا مسئول عن هذه الهزيمة ، لو قلنا لا للخطأ كلما وقع خطأ ما حلت بنا الهزيمة» . (ص٧٤) .

وتتداعى د. لطيفة تحت وطأة الموت الذى يبدو وكأنه يحاصرها : يموت عبدالناصر . وبعده يموت زوج أختها فجأة، ثم أخوها عبدالفتاح ، بعد صراع مع المرض . ولا تتخلص د. لطيفة من ذلك الحصار إلا أثناء حرب أكتوبر ٧٣ حين تستعيد رغبتها وقدرتها على الوجود مع الناس والاندماج معهم . لكن النصر العسكرى اتخذ منعطفاً جديداً كاد يحوله إلى ما اعتبرته د. لطيفة هزيمة سياسية ، وهكذا بدأ نشاطها فى لجنة الدفاع عن الثقافة القومية بعد توقيع معاهدة السلام عام ١٩٧٩ .

وفى عام ١٩٨١ ، وهى فى الثامنة والخمسين من عمرها ، تعود د. لطيفة الزيات إلى السجن ضمن قائمة ضمت ١٥٠٠ من معارضى كامب دافيد .

تجربة السجن

وتركب د. لطيفة سيارة الشرطة فى طريقها إلى سجن القناطر مسترخية ومكتفية بذاتها «نشوى بإدراك أنى أملح حريتى كاملة غير منقوصة فى آخر الطريق ... وما من أحد يملك أن يسجننى» . ص١١٦ .

نعم لم يعد أحد يملك أن يسجنها بعد تجربة حياتية خصبة ضلت خلالها الطريق شابة ، ثم استعادته بعد كفاح واستردت معه صوتها الذى كانت قد فقدته خلال سنوات انصرفت فيها إلى العمل الأكاديمى خوفاً من الصدام . لم يعد أحد يملك أن يسجنها وقد تحقق فى السجن امتزاجها بالكل .. بزميلاتها السجينات اللاتى لا تعرفهن فى الزنازين الأخرى ، وبرفيقات الزنزانة ومنهن من يقاسمنها توجهاتها الفكرية ومنهن من يختلفن معها. لقد تجاوزن جميعاً بدايات الصدام الأولى وتوحدن فى مواجهة إدارة السجن التى عولت على صدامهن المتوقع .

لم يعد أحد يملك أن يسجنها وقد توحدت ذاتها المنقسمة بعد طول تشتت . ها هى الطفلة التى عذبها عجزها عن الفعل فى مواجهة السلطة ، والمرأة التى هربت من الصدام فى منتصف العمر ، ها هى فى شيخوختها أمام مأمور السجن ، قوية بزميلاتها وبتوحدها الداخلى فتقول له: «بلها واشرب ميتها» مشيرة إلى الخطابات التى أسفر عنها التفتيش الذاتى لزميلتها فى الزنزانة د. أمينة رشيد . ص١٦٣.

وفى السجن اكتمل للطيفة الزيات شعور التحقق الذى غاب عنها فى طفولتها فى البيت القديم ، شاهد التغير وقرين الموت ، والذى عرفته منقوصاً فى بيتها بسيدى بشر أثناء زواجها الأول .

فى السجن توحدت لطيفة مع الشجرة الضخمة التى تتوسط ساحة السجن الداخلية . الشجرة التى «ترتفع على كل الأسوار وجذورها تضرب ممتدة كلما لفظتها أعماق الأرض إلى أعماق الأرض». ص١١٧ .

هذه الشجرة هى رمز الخصوبة والديمومة فى مقابل شجرة الجوافة العاقر، التى شهدتها فى البيت القديم ، وشجرة المشمش ، التى ظلت تحلم بازدهارها حتى زالت مع زوال بيتها فى سيدى بشر .

وقد تأكدت حريتها بممارسة الكتابة رغم وطأة السجن ، إذ كانت الكتابة دائماً بلورة لحريتها وتعبيراً عنها فى آن .

●●●

وفى سبتمبر ١٩٩٦ تكتمل دورة تلك الحياة الخصبة . نقول تكتمل لأن الموت على حد تعبير د. لطيفة ليس وارداً فى قاموس العشاق والصوفيين : «فشجرة العشق هى العاشق والمعشوق معاً . وشجرة العشق لا تموت . والموت ليس بطرف فى معركة . العاشق يعيش فى جلد الناس ويعيشون فى جلده ، ومن ثم فهو لا ينتصر على الموت ولا ينهزم ، وهو يتناهى إلى لحظة التوحد ، لحظة تستحيل ورقة الشجرة إلى الشجرة» . ص١٠٩ .

ولقد كانت لطيفة الزيات عاشقة !



صوت شعرى ..

يجمع بين التراث والرؤية الحداثية

بقلم : محمد إبراهيم أبو سنه ..

يجىء ديوان الشاعر أحمد بخيت «ليلى شهد العزلة» مبشرا بحداثة تنبثق من رحم الأصالة والتقاليد الشعرية التاريخية . وليس هذا الديوان باكورة كتاباته الشعرية فهو يكتب منذ منتصف الثمانينيات وقد فاز ببعض الجوائز الشعرية. والشاعر فى ديوانه الجديد يبرهن على أن الأصالة تعنى القدرة على السيطرة بواسطة الموهبة على أدوات التعبير الشعرية وتوجيهها نحو تجسيد تجربة أو رؤية تجمع بين الأصالة والمعاصرة، والديوان يضم مجموعة متناسقة من المقطوعات الشعرية هى أشبه بالعناقيد التى تشكل فى النهاية شكلا فنيا مركبا. فكل مقطوعة شعرية تكاد تكون قصيدة قصيرة تتمثل معنى أو إحساسا أو تأملا أو تجربة أو ذكرى، وهى تتآزر فى مجموعها لتقدم لنا سيرة شعرية متفجرة بالأحزان والحقائق الدامعة والأحلام المحبطة والطفولة المعذبة. وربما كان الإيقاع بتدفقه وتلقائيته معبرا عن جوهر هذه الشاعرية التى تبدع شعرها بنظرة واعية بذاتها مؤكدا أن الشاعر الحقيقى يولد مفطورا على نسق موسيقى.



ثمة جدل بين عالم الشاعر الذى يرتكز على إحساسه العميق بدور أسرته فى نشأته خاصة الأم والأب وبين العالم الخارجى المفعم بالبؤس والظلم والقهر. ورغم أن عناقيده الشعرية تكثف دلالتها حول ذاتية وجود الشاعر فى أسرة وبيئة ومناخ فإننا نلمح ملامح عالم مثقل بالواقعية والغنائية والدرامية أيضا، قد يبدو الشكل الذى اختاره الشاعر ليسكب فيه أحلامه الشعرية موحيا بالإحكام ولكن ما يثير المفارقة أن قدرة الشاعر على الصياغة تجعلنا نحس بالتلقائية الشعرية ويتوارى الإحكام الفنى الذى يشير إلى عمل العقل لا الوجدان، ثمة مزيج من الدهشة والبكارة تتدفق فى ثنايا عمله وهو ينطلق مثقلا وخفيفا حرا ومقيدا محكما وفطريا فى آن .. وتجربة الشاعر وجودية فى أساسها فهو معنى بتأمل هذا العالم الذى يعبره وكأنه لا يعنيه وإذا كانت الموسيقى بتدفقها تعد عصب الشكل الفنى فإن القافية التى تأتى حتمية وكأنها هى التى اختارت مواقعها فى نهايات الأبيات تمثل تجانسا مع هذا الشكل. الذى يعتدل بين تقاليد الشعر العريقة والطموح إلى رؤية حداثية بكل ما تمثله هذه الرؤية من إحساس حاد بالمفارقة ومن تنوع وجدل وتطور وعزلة واندماج . وتأتى المقطوعات الشعرية وكأنها مغالبة لهذا الوجود الذى يهدده العدو المتمثل فى الصمت والنسيان ولهذا يجىء هذا الشعر لتخليد بستان الحياة يقول فى مطلع ديوانه:

رأيت الصمت والنسيان
يجتهدان دون ضجيج
وأبوابا بلا معني
دخول مرة وخروج
فقلت أخلد البستان باليلي / ببعض أريج
وقلت أعلم الفخار شيئا من ذكاء الماء
وأوقظ غفلة الأشياء. كي تتكلم الأشياء
لعل زجاجة المصباح تحفظ حكمة الأضواء
أنا ضيف علي الدنيا وأوشك أن أودعها.
ولدت بحضن قافية وأختم رحلتي معها.
وغاية شهوة الكلمات أن تغتال

مبدعها.

أراوغ شهوتى للموت منذ صرخت فى الميلاد
وأعبر برزخى وأعود منتصرا على الأبعاد
لكى اصطاد خلد الروح قبل تحلل الأجساد

يوحى الشاعر من البداية أنه يحاول بشعره أن يمنح الخلود لهذا البستان الذى قد يكون بستان الحياة أو الحب أو الجمال أو الربيع وكأن الشعر ليس الا رائحة زكية والرائحة التى هى الشعر الذى يكتبه يبدو مستلهما من البستان نفسه ولكنه أعجز من أن يقوم بهذا الدور الهائل الذى يحاول الشاعر أن يكلفه به. إذا كانت الرائحة هى عطر البستان فكيف تطمح أن تخلده ولا بقاء لها بعده بل إنها تستمد وجودها من وجوده لنقل إن شعر الشاعر هو عطر البستان الذى يأمل الشاعر أن يبقى ويبقى على الحياة بداخله ويشير إلى عمله كشاعر فهو يوحى بقدرته على الخلق والتشكيل فهو يعلم الفخار بعض ذكاء الماء والفخار هو الطين المحترق وكان الأولى أن يعلم الطين بعض ذكاء الماء حتى يصير فخارا أى إناء له شكل وهيئة بل يطمح إلى أن ينطق الأشياء وأن يساعد المصباح على الحفاظ على نوره. إنها رسالة الشاعر. ويلتفت الشاعر إلي ذاته فإذا به يرى الحياة برهة قصيرة من الزمن ويعلن اختياره لشكل وجوده فإذا بالشعر هو المبتدأ والختام وهو يراوغ شهوته للموت منذ مجيئه إلى العالم، وكأنه يذكرنا بأبى العلاء المعرى الذى يرى النهاية فى البداية كما يذكر بالفيلسوف الألمانى هايدجر الذى يرى الميلاد بداية الاتجاه نحو الموت.

ولكن الشاعر بإيمانه العميق يحاول اصطياد خلود الروح قبل أن تتحلل الأجساد. إنه يطمح إلى الخلود عبر هذا الشعر الذي اختاره إطارا جامعا لحياته . وإذا كان الشعر ملاذا فهو في نظر أمه التى تفتقده بعد أن أخذه منها هاتف الشعر ليس إلا منفي :

وأمي في صلاة الفجر ترفع وجهها لله
ليرجع طفلها المخطوف يوماً واحداً لتراه.
فمنذ رأي عروس البحر أصبح شعره منفاه
لقد ندهته جنياته فانساح في الملكوت
ومسته الرؤى فاختار وعد النار للكبريت
إذا هجرته نار الشعر . مات وإن دعته يموت
أنا قنينة الفوضى. ولا ترتيب للصعلوك
ولا أحد سيجعلنى أقدم بيعة المملوك
حديثى نصف سوقى ولكن الجراح ملوك

يلتفت الشاعر إلي ذاته وقد أعطي لعلاقته بالشعر بعدا أسطوريا بعد أن ندهته جنيات الشعر .. لقد اختار الحرية التى يسميها الفوضى وهجر ترتيب الأشياء إنه يحلم بالعفوية والانطلاق ولن يقدر أحد أن يدفعه إلى الاذعان والعبودية .. هكذا تبرز القيم الأولى فى حياته الشعر والحرية.. يتحدث الشاعر عن ميلاده وعن أمه وعن أبيه والجنوب الذى انحدرت منه الأسرة وهى فى سعيها من أجل الخبز والحرية..

وأتينا من صعيد الشوق أفئدة جنوبية
تفتش تحت وجه الشمس عن خبز وحرية
وعن بيت نربي فيه لهجتنا الصعيدية
أتينا طيبة الغرباء من أبوابها السبعة
فراشا صاعدا للكشف فى صوفية الشمعة
فكانت طيبة أنثي تلخص عمرها دمعة

جاءت أسرته من الصعيد إلى المدينة التى يسميها طيبة.. إنه يجسد رمزا تاريخيا باقيا فى وجدانه فهو والأسرة قد جاءوا إلى عاصمة مصر أشبه بالفراش الذى يسعى للكشف عن حقائق الروح فى صوفية الضوء، وإذا هو يجد العاصمة تلخص وجودها وحياتها وعمرها فى دمعة وهذه الدمعة مجرد رمز ضئيل للحزن والشقاء الذى تعيشه طيبة.. وربما طيبة الخاصة به أو المكان الذى أوى إليه من طيبة حيث الحوارى والبيوت البائسة غير اليائسة:

بيوت لا تراها الشمس لا تنسي ولا تنسى
وأحزان معتقة وصبر يهزم البؤسا
وآمال مؤجلة ولم تتعلم اليأسا
«حوارى» مصر حانية علي الفقراء كالسكين
تدس خشونة الأيام في أبنائها الماشين
وتشبع جوع «توريتي» وتجعلهم حواريين

والشاعر يتلاعب بشكل فنى جميل بكلمة حواريين نسبة إلى الحوارى أو إلى المعنى الآخر وهم الأصفياء المتوادون..

ثم يلتفت إلي ذاته مرة أخرى:

أنا ذلك الولد المصاب بكبرياء الريح
كثيرا ما يُري خشنا وممتلئا أسيً وجموح
فإن أبحرتَ داخلَه تكشّفَ عن حنَان مسيح

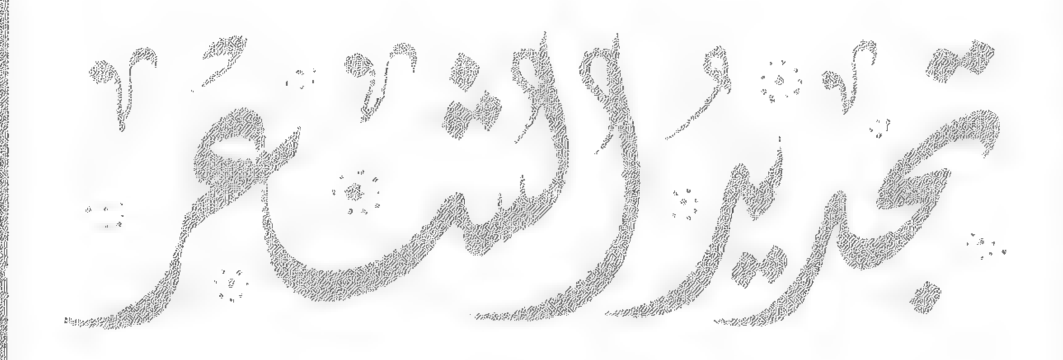
ثم يلتفت إلى الفقراء وهم يخوضون حرب الخبز فيهتز:

رأيت إرادة الفقراء وهي تخوض حرب الخبز
وتنزف دون فلسفة ودون بلاغة أو عجزا
رأيت صلاة دمعتهم فكيف أري ولا أهتز

ويجسد الشاعر مأساوية هذا الوجود كله في قوله:

رأيت زواج عصفور الصباح بطلقة الصياد
ونايا صادقا كالموت يعزف كذبة الميلاد
وحقلا بامتداد العمر يشكر منجل الصياد
ولكنه يصر علي الحياة
سنمشي سر معي في الدرب حسبك أننا سرنا
سنمشي ربما وصل الكلام لشاطيء المعني
سنلعب لعبة الدنيا لآخرها وآخرنا

إن أحمد بخيت ينطوى على صوت شعرى يضىء مساحة جديدة من الخارطة الشعرية لأبناء جيله تُميِّزه وتُميزها على السواء



بقلم : أحمد حسين الطماوى

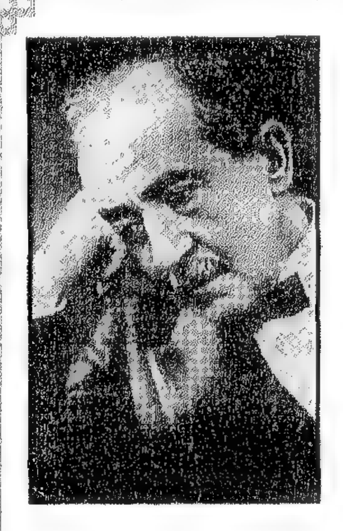
صدرت «المجلة المصرية» في مطالع القرن العشرين ، وناشدت الشعراء التجديد، في زمن تعالت فيه صيحات التغيير ، ونشط فيه العراك بين القديم والجديد ، وبالرغم من تعاظم فريق المحافظين ، فإن المجتمع كان يتحول تدريجيا ، ففي تلك الآونة كانت الدعوة إلي تحرير المرأة واصلاح الازهر ، وانتشار الكتب والروايات الأوروبية المترجمة ، ونهوض الفرق المسرحية ، وتعدد المدارس الأجنبية ، وشيوع الجرائد والمجلات وتنوع مشاربها ومخاطبتها الجمهور في حرية ، وغير ذلك مما استجد علي مصر وحفلت به الفترة الأخيرة من القرن التاسع عشر ، ودعوة «المجلة المصرية» الي تجديد الشعر ينسجم مع تيار التغيير الذي طرأ علي مصر في ذلك الوقت .



خليل مطران



محمود سامى



أحمد شوقى

على أن «المجلة المصرية» ليست المجلة الأولى السابقة فى الدعوة والتطبيق ، فثمة إرهاصات سالفة ، نذكر منها أرجوزة نشرتها مجلة «المنظوم» (ابريل ١٨٩٣) ، توصى الشاعر بأن ينشد الحقيقة والصدق، ويكون شعره «فى غاية الرقة والسلاسة» مع سلامة الذوق «واسع الى الذوق السليم واجتهد» والاقتصاد فى النظم مع عدم الاخلال أو الاطالة دون إملال ، وتتحدث عن «تناسب الأعضاء» فى البيت، وتحث الشاعر على عدم الخروج عن موضوعه .

وشاعر يخرج عن موضوعه
يجبره الفن على رجوعه

وتشير الى ترتيب الأبيات فى القصيدة «ويحسن الأبيات فى الترتيب» وتتوالى التنبيهات والوصايا ليكثر الشاعر من التفنن والوصف . وهذه الأرجوزة النقدية لا تخلو من جديد فالقول بتناسب الأعضاء وترتيب الأبيات فى القصيدة يعد ارهاصا بما قيل فيما بعد على نحو ما سنذكر، وتنبيه الأرجوزة الى مراعاة عدم خروج الشاعر عن موضوعه يعد إرهاصا آخر بوحدة الموضوع فى القصيدة كما أن حديث الراجز عن الاقتصار فى القول مع عدم الإخلال أو الإطالة دون إملال يعنى الصدق النفسى والجمال الفنى جميعا ، فلا يكلف الشاعر نفسه مشقة الإطالة دون أن يلبى طبعه ذلك ، وهى دعوة صريحة للإتقان الفنى ، والصدق النفسى مبدأ نقدى ردده المجددون كثيرا ، ويزداد إلحاح الراجز على الإتقان الفنى بحديثه عن سلامة الذوق وورود المعنى فى رقة وسلاسة أى فى تعبير جميل . وهو مبدأ نقدى ، وقد عرف العقاد الشعر بقوله : «التعبير الجميل عن الشعور الصادق» . ونظرات الأرجوزة النقدية تعمل على تعديل

القصيدة وتثقيف ذوق الشاعر .

وفي سنة ١٨٩٧ نشر لجيب الحداد مقالا في مجلة «البيان» وازن فيه بين الشعر العربي والشعر الأوربي يعنينا منه أن الإفرنج أولوا الروايات الشعرية اهتمامهم . وفي مجلة «أنيس الجليس» (١٨٩٨ - ١٩٠٧) لجد فيها قصصا شعرية قبل صدور «المجلة المصرية» لأمثال خليل مطران وأحمد الكاشف وغيرهما ، إضافة إلى أن «الأنيس» ترجمت عن مجلة أمريكية وصفها للشعر بأنه «مفاتيح لمغالق الطبيعة تبدو به محاسن التصورات وتلوح منه خفايا الكون المحجبات ، وأن الدنيا مملوءة بمحاسن الصور والتصور وكثير منها يبدو في الظاهر قبيحا ولكن ليس غير الشعر كفيلا بالغوص فيما وراء ذلك القبح واستخراج الحسن منه أو تحويله» (أنيس الجليس يونيه ١٨٩٩) وهو تعريف جديد للشعر في ذلك الوقت يوافق المذهب الرومانسي .

ولا يعني كل هذا أن الشعر العربي تجدد، أو تكون حزب كبير من الشعراء المجددين ، فما ذكرناه وغيره ليس إلا ومضات تبرق وتنطفيء ، فقد كان الشعر التقليدي بكل أبعاده وأعلامه مسيطرا على الساحة ، وله نفوذه القوي في الدوريات وفي نفوس القراء . ومن هنا لم يكن في وسع «المجلة المصرية» أن تمثل الشعر الجديد فقط وتقود حملة نقدية على التيار الكلاسيكي، وتتعاجب بشعرها وتتخايل على شعراء زمنها ، كما أن مطران الهادىء الوديع ليس من سجاياه أن ينازل ويعارك من أجل تثبيت مبدأ ارتآه ، وانما حسبه أن يقول رأيه ويمثل له ، ويترك الأمور تجري في أعنتها .

المجلة المصرية

صدرت المجلة المصرية نصف شهرية في أول يونيه عام ١٩٠٠ في أربعين صفحة لصاحبها خليل مطران ، ومدير تحريرها محمد مسعود ، واستمرت في الصدور حتى آخر مايو ١٩٠٢ ، ثم توقفت لانشغال مطران في اصدار «الجوائب المصرية» ثم عادت للظهور مرة أخرى عام ١٩٠٩ واحتجبت نهائيا عام ١٩١٠ .

والمجلة مزيج من الأدب والتاريخ والعاديات والقضاء والزراعة والاقتصاد والفلسفة والعلوم ، مع تعريب بعض الفصول التي كتبها علماء الغرب عن الشرق مما لم يسبق نشره ، وتلخيص كتب مهمة صدرت في الشرق أو في الغرب.. ولكن بالرغم من هذا التنويع فإن المادة الأدبية أوفر وبخاصة في السنة الثانية عندما زاد عدد صفحاتها وادمجت أبواب في أبواب .

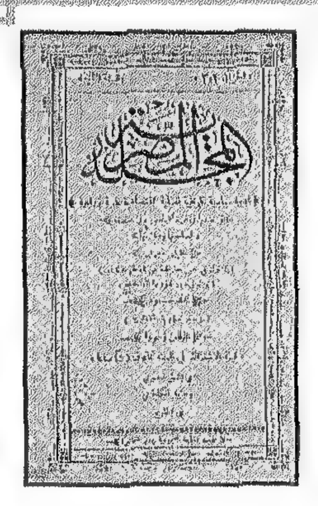
أما نهجها ، فقد أعرب عنه مطران في العدد الأول بقوله : «أما الخطة التي آثرناها فإنها غير داخلة في حكم شرعة معلومة ، ولا منتهجة مذهبا من المذاهب المرسومة ، ومن قواعدها الأساسية اجتناب البحث في الدين والسياسة



حافظ ابراهيم



أحمد محرم



واطراح مبتذل القول ومطروق المعانى .. »

وقد سارت المجلة على هذا النهج ، فلم يكن لهـا اتجاه معلوم ، ولا مذهب أدبى محدد ، لذلك تجد على صفحاتها شعر البارودي ، واسماعيل صبرى ، وأحمد شوقي، وحافظ إبراهيم ، وغيرهم من زعماء الشعر التقليدى الى جانب أحمد الكاشف وأحمد رمزى والكاظمى ومحمد ابراهيم هلال وجميعهم من الشعراء التقليديين ، ويقف بين هؤلاء الشاعر الناقد خليل مطران ، وكان أحمد شوقي أكثر الشعراء حضورا فى المجلة ، إذ حفلت معظم الاعداد بشعره ونثره.

انتقاد الشعر القديم

ويبدو أن خليل مطران كان مستعدا لبدء دعوته للتجديد ، فمنذ العدد الثاني أخذ ينتقد أغراض القصيدة العربية القديمة ، ويرميها بالتفكك ، وتعدد الموضوعات ، وتدابر الأجزاء يقول «أخنى على الشعر تحوله عن الغاية الشريفة التى خلق لها إلى أمور خاصة كالمدح والتشبيب والفخر والهجو وأمثال هذه الأغراض في قصائد لا ارتباط بين معانيها ، ولا تلاحم بين أجزائها ، ولا مقاصد عامة تقام عليها أبنيتها ، وتوطد أركانها ، وربما اجتمع في الواحدة منها ما يجتمع فى أحد المتاحف من النفائس ، ولكن بلا صلة ولا تسلسل، وناهيك عما في الغزل والثناء وشكوى الدهر ووصف الجواد والناقة ، وميادين الحرب وضرب الأمثال وإرسال الحكم من المواضيع التى لا يضمها موضع الا تتشاتم وتتلاكم وتتناهب ذهن القارىء ذاهبة به كل مذهب بين السماء والأرض» (١٩٠٠/٦/١٦) .

ودلل على ما يقول بأبيات للمتنبى لا تناسق بينها ، ولا تواصل بين

معانيها ، فمطلع القصيدة فى شكوى الغرام، ومقاطعها فى وصف الحبيبة والتطلع الى النجوم، والفخر بالشجاعة والشاعرية ثم أخيرا مدح ابن عبد الله وهو الموضوع الرئيسى الذى نظمت القصيدة من أجله . وقد أصاب سهم مطران القصيدة العربية ، والخروج من موضوع الى موضوع كان تقليدا فى الشعر القديم واستمر الى العصر الحديث ، فكان أحمد شوقي يستهل بعض قصائده بالتشبيب أو النسيب ثم يتخلص الى المديح ، وعندما هنأ الخديو عباس بنشان آل خندان ، كان مطلع قصيدة : «علموه كيف يجفو فجفا ...» واستمر على هذا النحو تسعة أبيات ثم تناول النشان ، ولم يجرؤ مطران على انتقاد شوقى، ورجع القهقرى إلى القرن الرابع الهجرى واختار المتنبى ، ولكن «الكلام اليك يا جارة» . وغاية ما يريدهُ مطران من حديثه النقدى أن تتماسك القصيدة وتتلاءم معانيها ، ووضح مراده فى مقدمة ديوانه الصادر عام ١٩٠٨ عندما قال إنه «ينظر إلى جمال البيت فى ذاته وفى موضعه وإلى جملة القصيدة فى تركيبها وفى ترتيبها وفى تناسق معانيها وتوافقها مع ندور التصور، وغرابة الموضوع ومطابقة كل ذلك للحقيقة وشغوفه عن الشعور الحر ، وتحرى دقة الوصف، واستيفائه فيه على قدر » . وقد انشغل مطران بترتيب الأبيات ، لأن العرب كانوا ينظرون الى وحدة البيت، أى أن كل بيت يستقل بمعنى، وترتيب الأبيات يعنى تسلسل المشاعر والخواطر ، وهذا من شأنه يجعل القصيدة أوفر فنا وأكثر إفصاحا عن الشاعر ، فضلا عن تآلف المعانى وهو الاتجاه الحديث فى الشعر.

وهناك شق آخر فى نص مطران السابق وهو اشارته الى تحول الشعر إلى «أمور خاصة» كالمدح والتشبيب والرثاء، ويقصد بذلك «الشعر الغنائى» أو الذاتى الذى يظهر فيه الشاعر أحاسيسه الشخصية ، ويترجم عن ذاته ، ويرمى مطران من وراء هذا الانتقاد إلى الموضوعية أو قول الشعر فى الموضوعات الحكائية لتتماسك القصيدة ، وتكون أعم فائدة . وقد ساير حافظ إبراهيم دعوة مطران ونظم قصيدة ينتقد فيها الشعر التقليدى ويتحسر على ضياعه وإهانته بين شعراء النسيب والمدح والهجاء ، قال : (المجلة المصرية ١٥/١٢/١٩٠٠) .

ضعت بين النهى وبين الخيال
يا حكيم النفوس يا ابن المعالى
قد أذالوك بين أنس وكأس
وغرام بظبية أو غزال
ونسيب ومدحة وهجاء
ورثاء وفتنة وضلال

آن يا شعـــر أن تفـــك قيـــودا
قـيـــدتنـــا بهـــا دعـــاة المـــحـــال
فـــارفعـــوا هـــذه الكمـــائم عنـــا
ودعـــونـــا نشـــم ريـــح الـشـــمـــال

ولعل ريح الشمال كناية عن أوربا وآدابها التى تنتهج نهجا غير نهجنا ، وبالرغم من قول حافظ هذا ، فإنه كان من زعماء الشعر التقليدى، وقد نظم الشعر بين النهى والخيال وقاله فى المدح والهجاء والرثاء . ولكن لا نعدم جديدا فى شعره مثل قصيدته فى ضرب الطليان لبيروت سنة ١٩١٢ لأنها تشبه الدراما الشعرية .

وقد كانت معظم القصائد التى نشرها مطران فى مجلته رومانسية الطابع، إذ استرسلت فيها عواطفه ونشطت مخيلته ، وران الحزن على بعضها مثل «المنديل» «المرآة الناظرة» «بدرى وبدر السماء» وهذه القصائد تظهر رهف العواطف ، وزخم المشاعر ، واستفاضة الوجدان ، مع التمهر فى الوصف الفنى والتصوير ، وترابط أبيات القصيدة ووحدة موضوعها . والاتجاه الوجدانى ، كان خطوة واسعة فى سبيل تجديد الشعر ، لأن الشاعر يستظهر فيه باطنه، ويستملى من داخله ، وينقل مشاعر فياضة . ومن مظاهر رومانسية مطران قصيدة «الوردة والزنبقة» (فبراير ١٩٠١) وهى كتاب من ليلى إلى عزيز ، وقد كانا جارين متحابين ، فلما وقع النوى احتجب المحب ، وتصور ليلى برح الهوى وشقاءها ، بعد أن ذوى أهلها وهبط بها اليأس الي الهاوية ، وانعكاس ذلك على كل شيء، حتى الازهار ، فعندما تفقدت روضة ألفت وردة مستكينة حزينة ، وبجانبها زنبق له قامة كالرمح كلما استمالته اليها نفر واستكبر وتحول عنها وكانا من قبل حبيبين .

فكان إذا مرت به نسم الصبا
يميـل إليهـا عـاشقـا يتغزل
يداعبها جهد الصبابة والهوي
ويعـرض عنهـا لاعبـا ثم يقبل
ويرشف كل من جبين حبيبه
دموع الندي خمرا رحيقا فيثمل
ولكنه لم يلبث العود أن قسا
فـلم تثن عطـفيه جنوب وشمـــأل

فشق عليها بينه وهو جارها

وباتت لفرط الحزن تذوي وتنحل

ولما جفا الزنبق ذوى جمال الوردة ، وعما قريب يموت العاشقان من الجوى، ثم يبين الشاعر على لسان ليلى أن العاشقة وحبيبها النافر مآلهما كالوردة والزنبقة الى الذبول والفناء والقصيدة زاخرة بالصور والأحاسيس ، ومشاهد الطبيعة التى استقراها الشاعر وعبر عنها فى إطار فنى ، وأسبغ عليها ما يناسب روح المحبوبة الحزين الأسيان ، أو اسقط عليها حالتها .

ومن هنا أدركت ليلى سر الوردة الذابلة ، والقصيدة فى هذا الاطار الفنى تعد من الأعمال الرومانسية المبكرة .

وأخذ مطران يعمق الاتجاه الرومانسي بما أبدعه ، وما قاله ، وما ترجمه ، فقد ترجم قصيدة عن الفرنسية للشاعر الايطالى «مارتينى» لا تخلو من الرمز، وبترجمته لفكتور هوجو أحد رموز الرومانسية «الذى أحدث المذهب الكتابى المعروف بالمذهب الروائى ايكول رومانتيك فأطلق فيه الكلم من عقاله القديم، ووسع نطاق التصور .. بحيث انحلت القيود التى كان يرسف فيها الفكر وسقط الحجاب الذى كان حائلا دون الابتكار ، وانفتح الباب رحيبا فى وجه كل مبتدع ومتفنن على حسب ما توحى اليه غريزته الخاصة به » (١٩٠٢/٢/١) .

وهذه الكلمات دعاية للرومانسية ، وتعريف بها ، ودعوة لاعتناق مبادئها ، والتفنن على طرائقها ، من حيث الاستجابة للطبع فى العملية الابداعية ، واطلاق الخيال لابداع صور جديدة .

القصص الشعرية

وأكثر ما أقدم عليه مطران فى هذا الطور ومارسه هو القص الشعرى، والقص الشعرى قديم فى العربية، ونظم فيه الشعراء المحدثون مثل محمد عثمان جلال الذى ترجم حكم ايشوب فى «العيون اليواقظ فى الأمثال والمواعظ» وابراهيم العرب وأحمد شوقي وغيرهم . ولكن الشعر الذاتى غلب على الشعر الموضوعى فى جميع عصور الأدب العربى. والشعر الموضوعى يغلب عليه القص والحكي . ويتغير مضمونه وأخيلته عن مضمون وأخيلة الشعر الغنائى ، ففى الشعر الغنائى يترجم الشاعر عن ذاته ، ويردد هواتف نفسه ، ويذكر مراثيه، أما الشاعر الموضوعى فيعنى بالحياة الانسانية ، ويسرد أحداثا تتنامى ، ويحلل عواطف وسجايا ، ويتناول واقعات تاريخية وبطولات ، وحكايات شعبية وخرافات، ويحكى على لسان الزهر والحيوان، مما يبين أن الشعر الموضوعى

مستقل عن الأدب الغنائى حتى وإن كان الأديب يستند فى بعض ما يحكيه الى تجاربه الخاصة .

وقد فطن مطران إلى القص الشعري وأدرك مزاياه فقال : «قلما عنى العرب بايراد القصص فى الشعر لكراهتهم أن يتقيدوا فيه بمعنى متصل، ولتجنبهم ما فى ذلك من صعوبة إجادة النظم ، وإحكام الروى بخلاف الافرنج فإنهم جعلوا القصة أساس شعرهم ثم توسعوا فيه فتناولوا ما شاء الله من الأغراض، ولم يفتهم أن يربطوا أول الكلام بآخره » (١٩٠٢/٣/١٥) .

وانطلاقا من هذه الرؤية، إضافة الى ما تمتع به مطران من دقة الملاحظة ، وقدرة على التصور والتصوير ، أبدع عددا من القصص الشعرية ونشرها فى المجلة المصرية مثل «فنجان قهوة» «الحمامتان» «سور الصين» «برتقال يوسف» «العصفور»... ، وفى قصته «وفاء» يحدثنا عن فتى ثرى راقته فتاة فقيرة جميلة عليلة تتسول بالموسيقى، وحاول شراء عفافها بالمال فتمسكت بالفضيلة ، مما زاد من عشقه لها ، وعرضه عليها الاقتران بها فقالت :

وقالت له إني فتاة عليلة
قريبة ميعاد الردي المتوقع
واني كما تدري فتاة وضيعة
ومثلك أن يقرن بمثلي يوضع
فقال لها بل يشهد الله بيننا
وأسقام قلبي الواله المتوجع
بأني لا أبغي سواك حليلة
ومهما تسمني صبوتي فيك أخضع
لعينيك أرضي بالحياة بغيضة
على فان عوجلت بالبين أتبع

وفى البيت الأخير هنا يعاهدها على أن يتبعها إذا هى ماتت، ويعيش الزوجان نحو عام ينال المرض فيه من الزوجة المسلولة ، حتى إذا كانت على فراش الموت ذكرته بعهده ، وبرأته منه ، أى لا يلحق بها ، وتضرعت إليه ليذكرها بعد رحيلها ، واشتد تأثير كلامها عليه حتى إذا فارقت الحياة ، أصاب سهم الموت قلب الزوج فقضى (١٩٠٠/١١/١٥) . والقصة اجتماعية غرامية فاجعة ، وقد قال مطران إنه سمعها فصاغها ، ولكنها تساير مزاجه النفسى وأحداثها فيها ملامح من قصة حب مطران التى انتهت بموت حبيبته المريضة ،

وظل هو عزبا طيلة حياته، والقصة تماشى طابعه الفنى الرومانسى ، ذلك أن الرومانسيين يربطون فى أدبهم بين الحب والفضيلة ، ويسمون بالعواطف، ويميلون إلى الحكايات المأسوية ويسعون إلى المثال والكمال .

والقصة الشعرية أفعل فى النفوس وأبقى من شعر تهنئة وفخر ومديح يعتمد على المغالطة والمبالغة ، فالقارىء يشعر أن أحداث القصة متصلة بحياته أو بطرف منها ، وقد يجد تفسير البعض واقعات جرت له فى مواقفها ، والقصة الشعرية تعالج موضوعات مختلفة غرامية وتاريخية ونفسية واجتماعية ، أى أنها معرض للحياة وألوان النفوس، ومن هنا يأتى وجه أهميتها ، هذا الى جانب أن القصة حفيلة بالغرائب والمفاجآت والمفارقات مما يشوق إلى المتابعة والقراءة .

لذلك تبنت المجلة المصرية هذا الاتجاه ، واعتبرته تجديدا فى الشعر ، ونشرت عددا من القصائد القصصية مثل «سيرة يوسف الصديق» وهى سيرة طويلة وردت فى مقاطع كثيرة ، متنوعة القوافى وضعها ابراهيم رمزى (الفيومى) و «عرس فى معركة» لنقولا رزق الله ، وقسم من الياذة هوميروس التى ترجمها سليمان البستانى، وغيرها ، وقد قدم مطران لهذه القصص وزكاها وحث على قراءتها والنسج على غرارها .

ولأحمد شوقى عدة حكايات تجمع بين الخرافة والرمز والواقع، منها المترجم ، ومنها المؤلف، مثل «خلق المرأة فى الهند» وهى خرافية يظهر فيها أن المرأة شر ولكن لا غنى عنها ، و«الهمشرى» وتبين أن الناس لا يحترمون إلا الغالب، و«أذن الظالم» وتظهر أن تقبيل أقدام الطاغية هو الطريق الى أذنه ليستجيب الى شكوى المظلوم، أما أقصوصة «دولة السوء» فيعرض فيها الرجل يملك كلبا وقردا وحمارا ، ويذل جهدا فى سبيل تعليمها ، وبينما هو يغط فى نومه ، جاءته وايقظته ، فقال لها : ما طلب الجماعة ؟

قال له القرد طلبت المملكة … تكون لي وحدي بغير شركه
قال الحمار وأنا الوزير … والصدر في الدولة والمشير
والكلب قال قد سألت الباريا … يجعلني في ملك هذا قاضيا

فأنكر الرجل مطالبها وقال : «الموت ولا ذى الدولة» (٣١/٧/ : ١٩٠٠) .

والأقصوصة خفيفة طريفة ترمز إلى هؤلاء الذين أوتوا من العلم قليلا ، وأطماعهم واسعة ، وطموحهم أبعد من امكاناتهم ، وقصد شوقى أن الجهال إذا قبضوا على نواصى الأمور فإن الدولة تصير «دولة سوء» .

●●●

تلك هي الخطوط الرئيسية في مجال تجديد الشعر التي وقفت عندها «المجلة المصرية» وهي خطوط كان بعضها معروفا من قبل على نحو ما أشرنا في مستهل المقال ، ولكن هذه الخطوط لم تكن واضحة بالشكل الذي قدمته المجلة ، فقد أظهرتها وعمقتها ، وأضافت اليها . وقد انفردت المجلة المصرية بنشر نماذج من الألياذة وهي عمل ملحمي خارق وتعد من الأعمال الأدبية الكبرى، وقدمت نماذج وصفية خالصة تعد بمنزلة موضوعات قائمة بذاتها ، ومزجت الشعر بالنقد أو التنظير بالتطبيق . وكل هذا يحسب لها ، ولمطران جملة آراء في شعراء عصره من أمثال اسماعيل صبري وشوقي وحافظ واليازجي والياس فياض والبارودي وأحمد محرم وأحمد الكاشف نشرها في مجلته في الفترة من مارس الى يونيه ١٩٠٩ تظهر كيف يقرضون الشعر ، وتكشف عن مواهبهم الفنية ، وتتضمن أحكاما نقدية ، وتبين قدرة مطران على التمييز بين قرائح الشعراء .

ولكن ما قاله مطران في النقد لا يكفي لايضاح مذهب جديد في الشعر، فقد أعوزه المصطلح النقدي ، والذين جاءوا بعده كانوا أدل على كلامهم بابتداع مصطلحات ، والمصطلح تتجمع فيه رؤية ، ويتبلور فيه اتجاه ، وبعد إدراك مغزاه يغني عن تكرير الكلام . فمطران تحدث عن تنقل الشاعر من موضوع إلى آخر في القصيدة ، وتشاتم معانيها ، وقد عبر عبد الرحمن شكري عن ذلك بمصطلح «وحدة القصيدة» (مقدمة ديوان الخطرات ١٩١٦) وتكلم مطران أكثر من مرة عن ترتيب الأبيات وربط أول الكلام بآخره ، وعبر العقاد عن ذلك بمصطلح «الوحدة العضوية» (الديوان في الأدب والنقد ١٩٢١) .

ولا تجد عنده كلاما شافيا وافيا عن الخيال والجمال والمعاني الشعرية والطبيعة الفنية ، وما الى ذلك مما يجب على صاحب دعوة جديدة أن يوضحه ويلح عليه ويمثل له ، وإذا كان الخليل قد هاجم الشعر القديم لتحوله عن «الغاية الشريفة التي خلق لها إلى أمور خاصة» كالمدح والهجاء والفخر وبقية الأغراض فإنه سلك نفس المسلك ، وديوانه الضخم بأجزائه الأربعة مفعم بقصائد الرثاء والتعزية والتحيات والتهنئات بجميع أنواعها والمدائح وغير ذلك من شعر المناسبات وكان عليه أن يستمر في تجديده ويعزف عن الأغراض التقليدية .

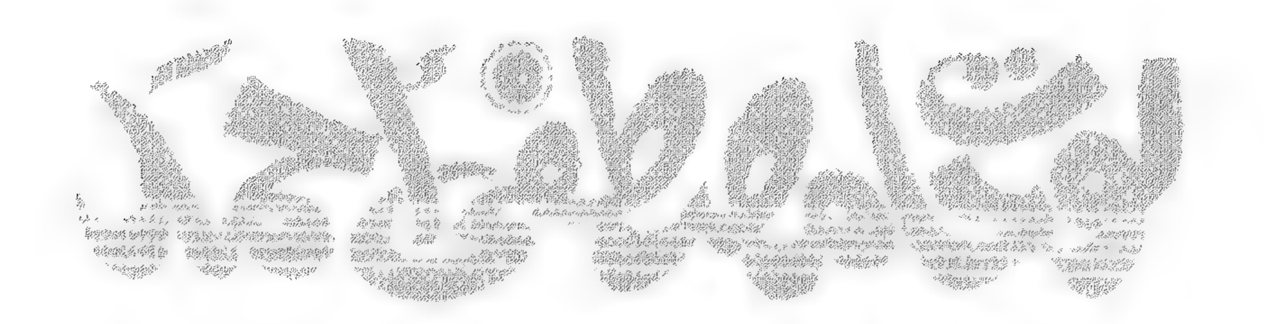
ومهما يكن من أمر فإن لمطران ريادة في الشعر غير منكورة ، وللمجلة المصرية دورها في التثقيف والتوجيه والتجديد فضلا عما تركته من آثار باقية في الشعر الجديد والنثر البليغ ، فمطران الشاعر مثل مطران الناثر كما قيل .

أمام البحر

شعر : سليم الرافعى



ظمئى إليك يفيض لا يترفق   بالبحر أسكر لا بكأس تدهق
وإذا مددت يدى إلى دن غفا   أحسسته من كرمة يترقرق
وإذا غمست فمى أفقت من الكرى   وصحوت بالملح الذى أتنشق
نادمت موجك وهو مما ينتشى   ثمل .. كأن إرادة تتمزق
جهل الندامى أنهم من كأسهم   كذبوا .. وإن يسقوا بكاسك يصدقوا
فى حانة أزلية أبدية   كم ربع منها المدمن المتعمق
جسدى على الماء الموسوس قصة   أبطالها البشر الذين تخلقوا
عقلى إلى المجهول فى جبروته   لكن قلبى للشواطئ يخفق
ألقيت بينهما الزمام فعقنى   ورثيت للحكماء حين تفرقوا
إن يبحروا فى الموج فهو قصيدة   أبدا تغنى بالكنوز وتبرق
تتضاحك الحيتان بين كهوفها   والسرمدية تستفيض وتطبق
أعزز على بأن أعابث ماردا   قاعاته الآفاق لا تتحرق
من يحتوى البحر المؤجج باللظى   كم موقدا فى لجه يتحرق ؟
النار فيه تحطمت .. وتناثرت   ومن العواطف جمرة لا تغرق
هل ماج فى دمنا وحدث أننا   نرغى ونزيد .. أو .. نحن ونشفق ؟
يا بحر لا تسخر فلست مؤرخا   يا بحر لا تشمت فلست أعلق
لكننى الطفل الذى رضع الهوى   وبكى وغنى حين شاب المفرق
لم أنس أنك فى دمى أو فى فمى   لم أنس أنى الصوت حين أحلق
بعضى يموج ببعض ما أضمرته   أعلنت أم أسررت ... كيف أحقق ؟
الفيتنى جسدا أمامك زاخرا   بالعطف أو بالخوف باسمك أنطق
دعنى أقبل موجة معشوقة   دعنى أعانقها .. أليست تعشق ؟
شفتاى من ماء وطين شاعتا   فى البحر أو فى الكون حين أحدق
لى قبلة بيضاء فى أحشائه   طهرت وعزت فهى منه تورق
من عبقريته استجارت عندما   مر الجمال الفظ وهو يصفق
هل آمن البحر الفظيع بقبلة   مجبولة بدمائنا تتألق ؟
ملنا إليه .. وماج فى غلوائه   متكبرا بصفو .. ولا يتملق
عش فى الهوى يا بحر عش فى ساحة   تحمى جوار من استجار وترزق
من موجك الرجراج دين مؤمن   ومن الجنون سكينة تتدفق
إنى سرقت الموج منك قصيدة   ما أبخل البحر الذى لا يسرق



وعوالمها الجُوّانيّة

بقلم : محمود بقشيش

حَصَد الموت فى أسابيع متقاربة - من نهايات القرن العشرين إلى بدايات القرن الواحد والعشرين - مجموعةً من أبرز المواهب المصرية فى مجال الفنون التشكيلية: «منير كنعان»، «عبد الرحمن النشار» و«مصطفى أحمد مصطفى» الذى نقدّمه لقارىء الهلال هذا الشهر. وهم على ما بينهم من اختلافات عميقة فى الأسلوب الفنى وفى الألَق الإعلامى فإنَّ كلَّ موهبةٍ من تلك المواهب تستحق أن تُقَدَّم للتاريخ بالتقدير اللائق بها، قبل أن تتكاثف عليها طبقات الإهمال، وما أقساه!.. ولا نريد أن يحدث لهم ما حدث لأحد عباقرة القرن السابع عشر وهو «چورچ دى لاتور» عندما تاه فى سراديب النسيان ولم يذكره أحد من مؤرخى الفن ونقاده قرابة ثلاثة قرون، إلى أن استيقظ ضمير ناقد ومؤرخ كبير فى العقد الثانى من القرن العشرين وتوالت الكشوف عن تلك الجوهرة إلى أن أصبح صاحبها مفخرة التصوير الفرنسى ووصل سعر إحدى لوحاته إلى ما يوازى مليار فرنك! .

الحصاد للفنان مصطفى أحمد

ولد بالقاهرة سنة ١٩٣٠ وتوفى بها سنة ١٩٩٩، تخرج فى كلية الفنون الجميلة «قسم التصوير» سنة ١٩٥٤، عمل فى مجالات التربية الفنية، منذ تخرجه، مدرساً وموجهاً ثم مستشاراً بالمعاهد الأزهرية وأستاذاً للتصوير بكليات التربية النوعية، حصل على منحة التفرغ من وزارة الثقافة سنة ١٩٦٤ لمدة ثلاث سنوات متصلة، نال عدداً من الجوائز المحلية. وكان لى شرف الإشتراك فى لجنة تحكيم مسابقة «الأعمال المنمنمة» التى منحته الجائزة الأولى سنة ١٩٩٧.

التمسك بالجوّانيات

تمثّل رحلة «مصطفى أحمد» الإبداعية تمسكاً بثوابت ظاهرة على السطح وأخرى فى الفكر والتوجه، تحتفظ لنفسها بشخصية لا تحتاج معها إلى توقيع الفنان لنعرف أنه مبدعها. وليس هذا الأمر بمستغرب لدى كبار فنانى عصرنا - على الأقل - فلسنا فى حاجة إلى مطالعة توقيع «بيكاسو» أو «ماتيس» أو «محمود سعيد» (إلخ) على لوحاتهم لنعرف أنها تنتسب إليهم. السطح عند «مصطفى أحمد» مفعم بالعجائن الكثيفة، بلون الطمى، يشبه فى هذا ابن جيله الفنان الكبير «حسن سليمان». ويبدو أنّ كلّ خرّيج موهوب فى كلية الفنون الجميلة تكون مهمته الإبداعية الأولى هى العمل على التخلص من آثار المحاكاة المحايدة التى كان يتلقاها (ومايزال) طالب الفنون. وعلى الرغم من أن «مصطفى أحمد» كان يتقن تلك المحاكاة وكان أول دفعته فقد اعترف للناقد «نعيم عطية» (فى كتابه العين العاشقة) بقوله: مرّت بى فترة طويلة من القلق والتمرد مع الاسلوب الاكاديمى الذى عشت فيه طوال فترة الدراسة بالكلية. وقد انطوى مشروعى للدبلوم سنة ١٩٥٤ على البذرة الأولى لوجهة نظرى الفنية التى مضت تتطور بعد تخرجى، متحرّرة من الجمود الأكاديمى، أسير الواقع البصرى» نَبَذ «مصطفى أحمد» ذلك الحياد البارد الذى لايعترف بالدغل الوجدانى

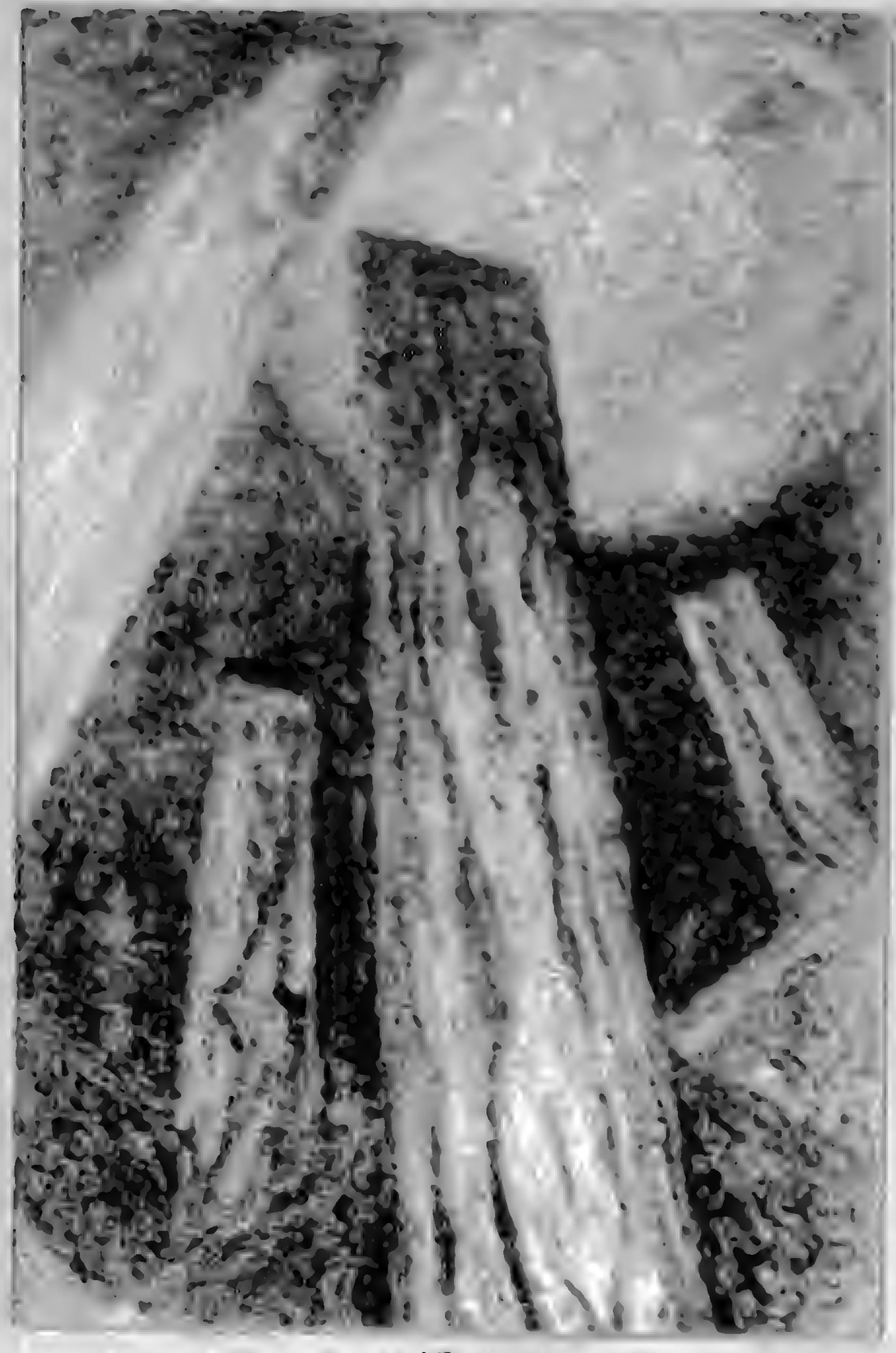
المشتعل داخله. لهذا كان الملاذ الأقرب الذى لاذ به هو «التعبيرية الألمانية» وفنانها البارز «مونش» - على وجه الخصوص (١٨٦٣ - ١٩٤٤) ، ولم تكن لوحته الشهيرة المسماة (الصرخة) ملهمةً لجيل «مصطفى أحمد» وحافزةً له على التمرد على الجمود الأكاديمى وعلى الأوضاع الاجتماعية على السواء بل كانت ملهمةً للجيل الذى أنتمى إليه وقد تخرجتُ فى نفس الكلية ونفس القسم، بعده بتسع سنوات. ولا أستبعد أن تكون لوحة «الحصاد» التى رسمها سنة ١٩٧٢ بتأثير من صرخة «مونش» ففى لوحة «مصطفى أحمد» تظهر مداخل أكواخه الريفية فى صورةٍ أشبه بالأفواه العاوية.

الملاذ الثاني

وكان ملاذه الثانى عند الاسلوب «الميتافيزيقى» مُمَثَّلاً فى لوحات رائده المصور الإيطالى «دى كريكو» De chirico بعد أن نَبَذه السيرياليون وكان «دى كريكو» نفسه قد تمسك بآثار «الكلاسيكية الجديدة». وظهرت تلك الآثار فى مدائنه الصحراوية الموحشة التى تبدو رغم وحشتها وكآبتها نظيفة وأنيقة، أضواؤها ساطعةٌ وصريحة وظلالها قاتمةٌ، ثقيلةٌ، لها وقع الصفعة فى النفس. وإذا كانت مدن «دى كريكو» المهجورة أو بالأحرى مسرح لوحاته قد استلهمه من أبنية مدينة «فيرارا» - كما لاحظ ذلك الناقد داود عزيز - فإن مبانى «مصطفى أحمد» قد تناسلت من العمارة الفطرية فى الريف المصرى (قبل الثورة). وإذا كان «الإنسان» عند «دى كريكو» له أصل فى الآثار الرومانية فإنسان «مصطفى أحمد» إنسانٌ مُتَخيل، لا نظير له، وإن رَمَز إليهم وعَبَّر عن ضياعهم. وهو يشارك «دى كريكو» اكتئابه وإن اختلف عنه فى درجة القتامة فـ «دى كريكو» لم يفتقد تماماً روح الدعابة، حيث نلتقى أحياناً وسط فضاءاته الموحشة بما يؤنسنا ويجدد فينا الأمل، بمفاجآتٍ مدهشة، مثل ظهور طفلة تلهو بطوقٍ غير عابئةٍ بما يحيط بها من جهامة، كما فى لوحته

انعكاس النور





المسماة (سِرٌ وكِتَابَةٌ فى شارع) أمَّا الكآبة فى لوحات «مصطفى أحمد» فوطأتها أشد لأنها تتناسل من طبائع المصريين مع حالة الحزن. قد يفاجئنا أحيانا ببصيص من الأمل سرعان ما نكتشف استحالته، كما فى لوحة (صعود القمر) التى رسمها سنة ١٩٨١. وهى متاهة معمارية لا سبيل إلى اقتحام حواجزها المنيعة أو الإفلات منها. وعلى غير توقع يفاجئنا بمقدمات دائرةٍ قمرية مضيئةٍ نعلم مقدماً استحالة الوصول إليها. وإذا جاز لنا أن نحلم بالقمر وبرحلته الكونية فلم يُتح لنا الفنان خلاءً واسعاً مثلما فعل «دى كريكو» بل خنقنا بمتاهته بالغة الضيق. إن الإنسان المتُخيل الذى يبدعه «مصطفى أحمد» كيانٌ ملغز، يصفه الفنان الناقد «بيكار» بقوله: «إنسان بلا ملامح، شبح مرمرى، ينساب فى عوالم شاعرية حالمة، مرتدياً إزاراً تتناغم فوقه الثنايا كما تتناغم فوق أسطح قطعة نحت بارز.» فى لوحته المسماة «سيدات» تتجلى شخوصٌ ذات هياكل أقرب إلى الصروح المعمارية النحتية، أكّدها ملمسٌ حجرىٌ، بلونه المفضّل: لون الطمى.

الرحيل

كان من الطبيعى أن تنتقل تلك الحجارة البشرية وأجوائها الجنائزية لتتجلىّ فى موضوعها المناسب وهو: «الرحيل عن النوبة». رسم حول هذا الموضوع أربعاً وعشرين لوحة، شارك بها فى معرض المتفرغين الأول سنة ١٩٦٦. ويرى الناقد «نعيم عطية» أنّ فى رسوخ كتل شخوصه وثقلها ما يتسق مع طابع الجهامة التى تميزها. واللافت للنظر أن الفنانة «تحية حليم» قد كانت ضمن وفد الفنانين الذين دعاهم الدكتور ثروت عكاشة لزيارة النوبة القديمة قبل الغرق. واستلهمت من البيئة النوبية واحدة من أهم لوحاتها وهى «الخبز الحجرى» وإن اختلفت دلالة رمز الحجارة عند الفنانين، فهى عند «تحية حليم» ذات بعدٍ اجتماعى كاشف عما يعانيه

إنسـان النوبة من عَوَز فـيمـا تُدخلنا لوحات «مـصطفى أحـمـد» إلى دغل من المجاهيل والألغاز التى لا تنتظر إجابة. ولا أستبعد أن يكون للمؤسسة الدينية التى عمل بها طويلاً تأثيرٌ فى رؤيتـه الفنية وفى اختياره الأردية الكَفَنيّة التى يُدثّر بها نسـاءه، حتى يختـفين عن العيون اختفاءً كلياً وينصرف بأشكاله عن المشـابهة بالواقع. لهـذا كـان من الطبيعى أن يلجأ إلى السيريالى «رينيه ماجريت» يستلهم منه آخر لوحاته التى قُدِّر لها أن تفوز فى معرض «القطعة الصـغيرة». ولوحة «مـاجريت» تصـور العلاقة بين الوهم والحقيقة – أو بدقة – وحدة الوهم والحقيقة. والوهم الذى أراده «مـاجـريت» وتبنّاه «مـصطفى أحمد» هو «لوحة تمثل منظراً خلوياً لا يفصلها عن المنظر الحقيقى إلا إطار اللوحـة تأكـيـداً للوحـدة بين الوهم والحقيقة – الجديد فى تلك الإستعارة أنهـا أغـوت «مـصطفى» أحـمـد – ولو بصورة مؤقتة – بالتخفف من العجائن الكثـيـفـة والألوان القـاتمة إلى ألوان مشرقة وصريحة. وفى ظنى أن لوحته الأخيرة كانت بداية طريق جديد نحو الشـفـافـيـة والصـفـاءَ اللونى.. أم أن الشـفـافـيـة والصـفـاء قد ظهرا عند الشعور بدنو الأجل ولقاء الله؟! .

انسكاب النور

هو عنوان اللوحـة التى رسـمـهـا «مـصطفى أحـمـد» سنة ١٩٦٢ تعـبـيـراً عن حالة صوفية، يرى فيها الفنان أن طريق الراحـة الروحـيـة للإنسـان هو طريق الإيمـان. وربما يكون «مـصطفى أحمد» قد رسمها ليواجه بها «صرخة مـونش». ومـثلمـا ارتجّ الجـو المحـيط بعـابر الكوبرى الهلوع نرى فى لوحـة «انسكاب النور» حالة تعبيرية مناقضة، فـقـد ارتجّ الكون كله لتـهـبط شـلالات النور من كل صوب إستجابةً لتوسلات اثنين من البشر الأتقياء، حَرِصَ الفنان أن يُظهرهما بهيئتهما الإنسانية المألوفة وإن بديا أشبه بذرّتين فى فضاءٍ لاحدّ له. إنّ هذه اللوحة – فى تقديرى – هى مـفـتـاح شـخـصـيـة «مـصطفى أحـمـد» (الإنسـان والمبدع) وفى اللوحـة إجـابة شخصية من الفنان على نقاده – وأنا واحد منهم – الذين اتهموه بالجـهـامة والدعوة إلى اليأس!.



قصة قصيرة

بقلم :
مصطفى نصر

بريشة
الفنانة :
سميحة حسنين

عاد رئيسى فى العمل حاملا ملفا أزرق اللون، وضعه فوق مكتبى وجلس أمامى، بدا متعبا ومنهكا، قلت:

- ماذا بك ؟

- عملت كثيرا، كنت أتدارس بعض

الموضوعات مع رئيس الشركة، ولم يتبق سوى موضوع أوراقه موجودة فى هذا الملف.

وأشار إلى الملف الأزرق، ثم أكمل:

- قال سيادته أن أبقيه إلى بعد الغد.

- أراك متعبا ، هل أطلب لك قهوة ؟

لكنه وقف قائلا :

- لا . سأعود إلى البيت الآن ، وأرجو أن تحتفظ بهذا الملف إلى حين يطلبه رئيس الشركة.

وقفت لأودعه . فسار إلى الباب ثم التفت إلىّ وقال:

- اهتم به، فرئيس الشركة سيطلبه بعد الغد فور وصوله.

أومأت برأسى، وأمسكت الملف الصغير وشردت.

بعد تخرجى من الجامعة مباشرة عينت فى الشركة، موظفا فى مكتب سكرتارية رئيس القطاع المالى، وبعد أقل من عام أوكل إلىّ - الرجل - إدارة مكتبه، فأصبحت سكرتيره الخاص، أقوم بكل أعماله.

تحدث الكثير معه بشأنى :

- كيف تضع ثقتك ومكتبك فى يد شاب صغير مثل هذا، ليست له تجربة كبيرة فى العمل ؟!

وكان يجيبهم مبتسما :

- إنه شاب نابه ونشيط .

حذرنى البعض من أن أخل بواجباتى أو أظهر فى صورة أقل مما يظنها رئيسى فىّ.

لم أنتبه إلا والموظفون يخرجون من مكاتبهم إلى بيوتهم ، فقد انقضى الوقت دون أن أحس به من كثرة الأعمال التى قمت بها .

ليس مهما. فاليوم الخميس، والغد جمعة أجازة. سأستريح وسأنام معظم الوقت لأعوض ذلك التعب.

سرت فى الشارع والموظفون يحيوننى من بعيد. يحسدننى البعض لمكانتى فى الشركة رغم صغر سنى ومدتى القصيرة بها.

في الغد وأنا مستلق فى الفراش، متلذذا بالاسترخاء الذى لا أستطيعه إلاّ يوم الجمعة، تذكرت الملف الأزرق. إننى لا أذكر مكانه. كل ما أذكره أن رئيسى قد نبهنى لأهميته، وأبلغنى بأن رئيس الشركة سيطلبه فور وصوله يوم السبت. بعدها لا أذكر شيئا .

قد أكون قد تركته فوق المكتب كما هو فور اكتشافى بحلول موعد الانصراف فجأة ، وقد يعبث به السعاة الذين ينظفون المكتب بعد الظهر. أو أن يقع على الأرض ويضيع وسط الأوراق المهملة .

وقفت فزعا . . أرتديت ملابسى مسرعا وذهبت إلى الشركة (فأحيانا أذهب إليها أيام الجمعة لانهاء بعض الأعمال المستعجلة).

فتحت باب الحجرة وأسرعت إلى المكتب. لم أجد الملف فوقه. جلست على مقعدى وفتحت الأدراج بمفتاحى، وأخذت

أبحث دون فائدة .

شعرت بأن جسدى قد تراخى، وأننى لم أعد أستطيع حتى القيام من مكانى. فذلك الملف مرتبط بمستقبلى. فلو ضاع ضعت معه . وضاعت معه مكانتى فى الشركة.

نعم، فرئيس الشركة سيعلم، والملف به أوراق مهمة ستكلف الشركة الكثير لو ضاعت.

أعدت البحث ثانية وثالثة، أخرجت الملفات كلها فوق المكتب، لاشك أن السعاة رموه مع الأوراق المهملة وهم ينظفون الحجرة.

عدت إلى البيت وأنا فى حالة غير التى جئت بها إلى الشركة. فقد كنت أسير مسرعا وقت حضورى متلهفا إلى وجود الملف فى المكتب، وممنيا نفسى بذلك. لكن الآن الأمل ضاع. ورئيسى سيحولنى إلى التحقيق لاشك. ولن يثق بى كما كان يفعل دائما. لا ، لن أجعلها تصل إلى هذا أبدا، سأقدم استقالتى بدلا من أن استمع إلى التقريع واللوم. كما أن النتيجة واحدة . فهى الفصل فى الحالتين.

أغلقت باب حجرتى خلفى. ونمت فوق الفراش بملابسى التى جئت بها . لابد أن أتصرف بحكمة.

سأذهب فى الغد إلى رئيسى فور وصوله أحكى له عما حدث. والرجل سيقدر موقفى. وقد ينصحنى بالطريقة السليمة التى أتخذها لأنجو بها.

نعم ، هذا هو الحل.

●●●

لم أشعر إلاّ والليل قد حل - فنمت وصحوت فجأة بعد منتصف الليل بقليل. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. نظرت فى ساعتى ، ساعات قليلة جدا ويجيىء الصباح. من شدة تفكيرى فى ذلك الموضوع حلمت به رأيت أبى - رحمة الله عليه - يجلس فوق مكتبه - كما كان يفعل قبل أن يموت - وطلبنى عن طريق أخى الصغير. فجئت إليه حزينا مهموما ، قال:

- أعلم أنك متحير لضياع الملف الأزرق منك.

- نعم .

- لا تقلق . عندما تذهب إلى عملك فى الصباح ستجده. افتح الدرج الأوسط على اليمين ستجده داخل ملف المقاولات الكبير.

أيمكن أن يحدث هذا . لكنه حلم لا أكثر . لو كان أبى موجودا - حقا - لحكيت له عما حدث. وكان سيدلنى عن الرأى الصواب للخروج من هذه الأزمة.

لم أنم. ظللت مستيقظا حتى الصباح.

أسرعت إلى مكتبى، ورغم عدم ثقتى الكاملة فى جدية الحلم. الاّ أنى فتحت الدرج الأوسط على اليمين وأخرجت ملف المقاولات الكبير والممتلىء بالأوراق. وعندما فتحته وجدت الملف الأزرق أمامى يطل برأسه لى. فأمسكته فرحا وقلت: الله يرحمك ياأبى. قلق من أجلى حتى بعد موتك.



هوليوود تركب موجة
محاربة فساد الاحتكارات

بقلم : مصطفي درويش

«الدخيل» و«تحدى امرأة» فيلمان يعيدان الثقة فى فن السينما، ويردّان بعض الاعتبار إلى منهج مصنع الأحلام فى انتاج الأفلام.

والحق، أننى لم أفاجأ بالقدر الكبير من الجدّية والجرأة اللذين إنطوى عليهما الدخيل.

فما أكثر ما كتب عنه بمناسبة ترشيحه لسبع جوائز أوسكار، أذكر من بينها أوسكار أفضل فيلم وإخراج «مايكيل مان»، ممثل رئيسى «راسيل كرو»، توليف وتصوير. ما أفجأنى حقا، هو «تحدى امرأة»، واسمه بالانجليزية «ايرين بروكوفيتش».

أما لماذا كان مفاجئا، فذلك لأن «ايرين بروكوفيتش» بداية لا يصلح أن يكون اسما لفيلم، يجذب برنينه الجماهير هذا إلى أنه لم تسبقه، عندنا على الأقل، دعاية تصم الآذان، مثل الدعاية التى سبقت ثم صاحبت «الجمال الأمريكى» و«أسطورة الفارس الغامض»، وتصاحب حالياً «المصارع» رائعة «ريدلى سكوت» المخرج البريطانى الذائع الصيت.

العجب العجاب

والأغرب بالنسبة لى أن أفاجأ به، ونجمته التى تدور حولها الأحداث وجودا وعدما، ليست إلا «جوليا روبرتس» أكثر ممثلات هوليوود شهرة، وأعلاهن أجرا.

ومن الغرائب الأخرى أن يتصدى لاخراجه «ستيفن سودربرج».

ووجه الغرابة، أنه وحيد نوعه بين صانعى أفلام مصنع الأحلام، فبدءا من فيلمه الأول «جنس، أكاذيب وشريط تسجيل»، المتوج عام ١٩٨٩ بجائزة مهرجان «كان» الكبرى «السعفة الذهبية»، وهو أبدا لا يحيد عن طريق إبداع أفلام، خارجة عن المألوف فى إنتاج ذلك المصنع المهيمن على السينما عالميا.

ولعل ذلك أحد أسباب عدم نجاح أى من أفلامه نجاحا جماهيريا.

وأعود إلى فيلمه الأخير «ايرين بروكوفيتش» لأقول: إن الاسم المختار له ليس اسما لكائن من صنع الخيال.

إنه اسم لامرأة أمريكية حقيقية، من لحم ودم، عاشت، ولاتزال تعيش فى ولاية كاليفورنيا، وهى الآن من مشاهير النساء، ولعلها قاب قوسين أو أدنى من الفوز بلقب امرأة العام فى الولايات المتحدة، ذلك اللقب العزيز، الذى تنفرد بالفوز به امرأة واحدة فى كل عام.

وشخصية تلك المرأة، تقمصتها بجدارة سينمائيا «جوليا روبرتس».

ومن الأكيد أنها تفوقت فى تقمصها هذا، وعلى نحو لا يستبعد معه ترشيحها، بعد بضعة شهور، لأوسكار أفضل ممثلة رئيسية، وربما فوزها بها فى نهاية المطاف.

صمود وتحد

والسؤال ما الذى فعلته «بروكوفيتش»، حتى يجرى ترشيحها للقب امرأة العام، وقد تكون قد فازت به فعلا، وحتى تهرع هوليوود إلى صنع فيلم باسمها، يعرض إلى سيرتها بالتمجيد، وإلى ما خاصمت وجاهدت من أجله بالتقدير الشديد.

«بروكوفيتش» امرأة عادية من عامة الناس، عاطلة عن العمل، مطلقة أكثر من مرة، وتعول ثلاثة أولاد صغار، أحدهم طفل رضيع.

ليس عندها من متاع الحياة الدنيا، رغم أنها كانت ملكة جمال سابقة، سوى لباسها اللافت للأنظار، ولسانها السليط.

والفيلم، حسب رسم سيناريو «سوزانا

جرانت» لشخصيتها، يبدأ بها مهمومة، تبحث عن عمل، دون جدوى.

وما هى إلا بضع لقطات، حتى يقع لها حادث تصادم مع سيارة فارهة، كلفها علاج آثاره الكثير.

ورغم أنها الضحية، فإنها خسرت القضية بسبب عبارات استفزازية، فاهت بها، أثناء إدلائها بأقوالها أمام القاضى والمحلفين.

عناد وإصرار

وكعادتها لم ترجع فشلها في الحصول على حكم عادل بالتعويض، إلى خطأ ارتكبته فى حق نفسها، وإنما أرجعته إلى تقاعس محاميها «ادماسرى»، يؤدى دوره «ألبرت فينى» - فى القيام بواجبه، أثناء نظر دعواها أمام القضاء.

ولأنها كانت على شفا هاوية الافلاس، ليس لديها رصيد فى المصرف سوى بضعة دولارات، ألحت على «اد» فى طلب الحاقها بإحدى الوظائف بمكتبه القانونى، ولو بأجر زهيد.

وبعد تردد شديد، استجاب إلى إلحاحها.

وبدءاً من لحظة التحاقها بالمكتب، انعطف مسار حياتها، على نحو لم يكن فى الحسبان.

فمصادفة، وبينما هى تطلع على أوراق ملف إحدى قضايا المكتب، استرعى انتباهها أن شركة الباسيفيك للجاز والكهرباء، تسعى إلى شراء مسكن عائلة فى مدينة «هنكلى» الصحراوية بولاية كاليفورنيا.

ثم تبين لها أن هذا السعى قد تكرر بالنسبة لمساكن أخرى تقع فى دائرة تلك المدينة الصغيرة.

جريمة العصر

أما لماذا تسعى الشركة العملاقة إلى الشراء، فذلك لإخفاء معالم جريمة، حاصلها استعمال عنصر الكروميوم السام، على نحو أدى إلى تلويث تربة المنطقة المحيطة بتلك المدينة، الأمر الذى ترتب عليه تلويث المياه، وإصابة الكثير من السكان بمرض السرطان، أو بأمراض أخرى، بعضها أشدّ هولا ومع هذا الاكتشاف، نشب صراع مرير بين «بروكوفيتش» والشركة التى حاولت طمس الحقيقة، بالوعد والوعيد.

ومرة أخرى، تكررت أسطورة داود وجوليات، انتصرت «بروكوفيتش»، على الشركة القوية، الغنية صدر حكم بتعويض ضحايا تلك الشركة بمبلغ قدر بثلاثمائة وثلاثة وثلاثين مليون دولار، وهو أكبر مبلغ تعويض، حكم به فى تاريخ بلاد العم سام.

وكان نصيب «بروكوفيتش» من ذلك التعويض مليونين من عزيز الدولارات.

وبفضل هذا الانتصار المؤزر، أصبحت من المشاهير، يجرى اسمها الصعب على كل لسان، بطول وعرض البلاد، ويصير عنوانا لفيلم من أصدق الأفلام.

تميز الأداء

وهنا لا يفوتنى، أن أشير مرة أخرى إلى أداء «جوليا روبرتس»، كيف أقنعتنا، وهى تحمل طفلتها الرضيع، بأنها أم عطوف.

وكيف هزت قلوبنا، ونحن نرى عيونها تدمع فرحا تارة، وتأثرا تارة أخرى، عندما سمعت على الهاتف من عشيقها «جورج» (آرون ايكهارت) أن صغيرتها نطقت فى غيابها، ولأول مرة، ببضع كلمات.

وكيف جنحت بنا إلى الوقوف معها مؤيدين لنضالها ضد الشركة الملوثة للبيئة، حتى لحظة النصر المبين.

حقا إنها ممثلة متعددة المواهب.

وليس من شك فى أنها تستحق الأجر الذى حصلت عليه مقابل قيامها بتقمص شخصية «بروكوفيتش»، وهو عشرون مليون دولار بالتمام.

المواطن ويجاند

وأعود إلى مبلغ التعويض الذى صدر به حكم لصالح الضحايا من سكان «هنكلى»، وذلك بفضل نضال «بروكوفيتش»، لأقول: إنه رغم ضخامته غير المسبوقة، إلا أنه، فى حقيقة الأمر، يعتبر مبلغا تافها، فيما لو جرت مقارنة بينه وبين تعويضات تقدر بآلاف ملايين الدولارات، قد يحكم بها القضاء الأمريكى لصالح ضحايا التدخين، نتيجة شهادة أدلى بها مواطن عادى آخر، كان يشغل مركز مدير إدارة البحث والتطوير فى «ويليمسون ويراون» إحدى شركات التبغ الكبرى، بل لعلها واحدة من أضخم الاحتكارات، المتلاعبة، دون رحمة، بأرواح ملايين البشر.

هذا المواطن، واسمه «جيفرى ويجاند» - يؤدى دوره النجم «راسيل كرو»، لا يختلف عن «بروكوفيتش» فى شىء، سوى أنه عالم فى الكيمياء، هادىء الطبع، شديد الحياء.

وقصة نضاله، وكيف أذيعت شهادته ضد تلك الشركة الجبارة على الملأ، بواسطة برنامج تليفزيونى أخبارى مدته وعنوانه «ستون دقيقة»، تبثه، فى ساعة الذروة، شبكة «سى.بى.إس»، وهى من هى فى عالم وسائط الاعلام، تلك القصة شارك فى حكايتها المخرج «مايكيل مان» مع الكاتب «اريك روث» فى سيناريو استوحيا وقائعه من مقال «لمارى برينر»، جرى نشره فى مجلة «ڤاينتى فير»، تحت عنوان «الرجل الذى عرف الكثير».

أرض الأحلام

والحق أن السيناريو جاء محكم البناء، يحكى من بين ما يحكى، كيف تورط «ويجاند» فى الشهادة، وأقول تورط، لأنه رب أسرة، يعيش مع زوجته وذريته، مثلما يعيش ملايين الأمريكيين، حياة توافرت لها كل أسباب السعادة، ولو شكلا فمسكنه فسيح، تحيط به حديقة غناء،

ورياضته المفضلة لعبة الجولف، وأقساط التأمين الصحى تدفع بانتظام.

وطبعا يملك أكثر من سيارة فارهة.

ولكن ما أن شرع فى الشهادة، حتى أخذ كل ما بناه على مرّ الأعوام، ينهار شيئاً فشيئاً.

ومع اقتراب يوم الإدلاء بالشهادة، وما صاحب ذلك من تهديد ووعيد، إذا بالأرض تزلزل زلزالها، وإذا بكل شىء ينهار، وينتهى به الأمر وحيدا، وقد تخلّت عنه شريكة حياته، ومعها الأولاد.

ونحن لا نعرف عن تفاصيل حياته، قبل عام ١٩٩٥، شيئاً.

من هنا نبدأ

فأحداث «الدخيل»، وصحة اسمه لو أحسن ترجمته «المطلع»، لا تبدأ إلا من ذلك العام، غير البعيد، وبالتحديد من لحظة اخطاره بالفصل من قبل إدارة شركة «ويليمسون وبراون»، لا لسبب سوى انه أبدى اعتراضا على إضافة مادة ضارة إلى التبغ، وبنى اعتراضه على أساس أن إضافتها يزيد من احتمالات وقوع المدخنين فى براثن الإدمان، ومن احتمالات اصابتهم بالسرطان.

وفى هذه الأثناء جاءت «لوديل برجمان» (آل باشينو) صاحب البرنامج المسمى «ستون دقيقة» وثائق من مصدر مجهول، خاصة بأبحاث متصلة بالتبغ.

ومن أجل حل طلاسم تلك الأبحاث اتصل «بويجاند».

هذا إلى أنه أدرك، بحسه الصحفى، أنه لديه حكاية تغذى برنامجه بما يثير ويفيد.

وفعلا كان «ويجاند» عند حسن ظن «برجمان».

أسرار وأكاذيب

كان مستودعا لأسرار قلب إفشاؤها كل الموازين.

وفى البداية لم يكن افشاؤها أمرا يسيرا فثمة تعهد منه، يلزمه بعدم افشاء أسرار العمل، وإلا كان الحساب عسيرا.

وبطبيعة الحال، لجأت الشركة إلى كل الوسائل المشروعة، وغير المشروعة، للحيلولة بينه وبين الإدلاء بشهادته أولا أمام القضاء، وثانيا أمام الملأ على الشاشات فكان أن هددته بالقتل وشوهت سمعته على نحو دفعه إلى التفكير فى الانتحار.

وفوق هذا عملت على تهديد شبكة «سى.بى.اس» برفع دعوى ضدها، مطالبة فيها بتعويض قدره ألف مليون دولار.

ولأن الشبكة كانت تعانى من ضائقة مالية، وتسعى إلى الإندماج مع شركة «وستنجهاوس» فقد أذعنت للتهديد.

النصر لماذا؟

ومع ذلك، انتهت أحداث الفيلم، كما انتهت فى الواقع، بويجاند مدليا بشهادته المنتصرة للحقيقة، المكذبة لشهادة رؤساء مجلس إدارة أكبر سبع شركات تعمل فى



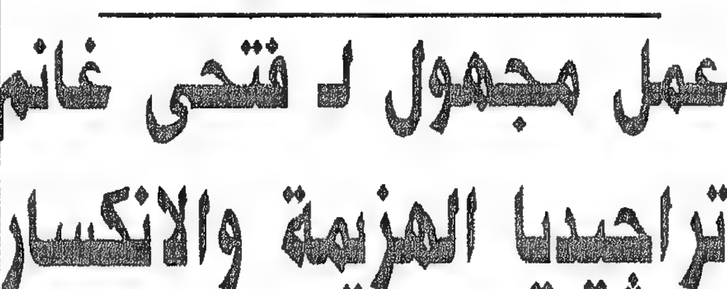
آل باشينو صاحب برنامج تليفزيونى فى المطلع

صناعة التبغ، بينها شهادة «توماس ساندفور» وأين؟

أمام إحدى لجان الكونجرس، حيث قالوا، بعد القسم: إنهم لا يعتقدون أن النيكوتين يحتوى مادة تؤدى إلى الإدمان، وذلك رغم أنهم كانوا يعلمون علم اليقين أنهم غير صادقين.

وكم كان صاحب الفيلم موفقا عندما اظهرهم أكثر من مرة، لعلها خمس مرات، فى لقطة تسجيلية لهم وهم يدلون، بعد القسم، بشهادتهم كذبا.

أما لماذا انتصر الحق، وزهق الباطل، فى قصتى «بروكوفيتش» و«ويجاند»، فذلك لحضور الشفافية الكاشفة للاستبداد، الفاضحة للفساد.



من أين ؟!

عمل مجهول لـ فتحى غانم
تراجيديا الهزيمة والانكسار

بقلم : د. فهمي عبدالسلام

«إن كل ماله معنى أو مغزى أعمق فى هذه الحياة، إنما هو وثيق الصلة بالنصر أو بالهزيمة».
تدهور الغرب - إشبنجلر

(١)

عمل مجهول رائع للروائى الراحل فتحى غانم، صدر عام ٥٩ عن سلسلة الكتاب الذهبى بعنوان «من أين ؟» ، وأغلب الظن أن هذه الرواية الرائعة كانت العمل الثانى للراحل الكبير بعد رائعته الأولى «الجبل» . فى هذه المغامرة الإبداعية المبكرة يطرح فتحى غانم الهموم نفسها التى ستظل تلح عليه طيلة مسيرته الإبداعية الرائعة. فكل إنتاج الفنان كما يقول جوتيه ، ماهو إلا اعتراف عظيم واحد . فى رواية «من أين؟» سنجد شغف فتحى غانم المبكر بعالم الصحافة، وسنجد انحيازه للمهزومين ورثاءه لمن سحقتهم الأيام وغلبتهم على أمرهم . كذلك سنجد فكرة «المصير» الذى يحيق بالإنسان ، تلك الفكرة التى تأثر بها كاتبنا من فلسفة المصير عند أوزوالد إشبنجلر، وسنجد كذلك تأثر كاتبنا بنبى الرواية ديستويفسكى العظيم ، تلك التأثرات الصحية العذبة ، التى صعدت بها موهبة فتحى غانم الكبيرة، وحلقت بها عاليا عاليا ، فوصلت بها إلى ذرى رفيعة من ذرى الفن الجميل ، سنجد إرهاصاتها العذبة المبكرة فى رواية «من أين ؟» .

زمن الرواية هو عـــام ١٩٥٩ ، وهـذا التـاريخ له أهمـيـة فى قـراءة هذا العـمل الجميل، ففى عـام ٥٩ كـانت الأمـور قـد استتبت لثوار يوليو، وكانت هزيمة العالم القديم قد ترسـخت بشكل نهائى، فـالعالم القديم، عالم الملكية وملحقاته من الاقطاع والاحزاب والطرابيش والألقاب والباشوات ووزارات بولكلى، كان فى عام ٥٩ قد تمت هزيمتـه هزيمة نكراء ، سلطة قـديمة قـد هوت ، وسلطة جديدة حلت مكانها ، نصر هنا وهزيمة هناك ، والصـراع ملمح هام فى إبداع فـتـحى غـانم ، فـالحـيـاة هى الصـراع ، وفى أى صـراع هناك منتصر وهناك المهـزوم ، ومـا من شئ فى هـذه الحـيـاة . له مـعنى أعـمق أو مـغـزى ، إلا وكـان وثيق الصلة بالنصـر أو بالهـزيمة، فالهزيمة انكسار وإذعان وتسليم، ومنطقة الهـزيمة ورصـدها عند المهـزوم، كـانت ومازالت منطقة أثيرة للفن الجميل، وواحدة من أهم الأهداف الكبـرى للفن الراقى ، وفى رواية «من أين؟» ، يرصد فتحى غانم بعين الفنان القدير ، قدر المهزومين وعالمهم البـاطن ، فـبطل الرواية المحـورى هو الإقطاعى السـابق يوسف مكى، الذى هزمته الثورة وغلبته الأيام على أمره .

الصـورة التى يقدم بها فـتـحى غـانم بطله يوسف مكى ، ليـست فى صـالحـه كـثـيرا ، فـقـبل الثـورة عـاش يوسف مكى الاقطاعى الكبير نجما من نجوم المجتمع ، سـيـاسـيـا مـحـتـرفـا ينتـمى إلى حـزب السعديين ، وعضوا دائما فى البرلمان ، له دائرته الانتخابية المغلقة والتى لا يتجاسر الناخبون فيها على انتخاب أحد غيره ، مـقـامـرا مـحـتـرفا تنشر عنه الأخبار فى صفحات المجتمع أنه خسر ألف جنيه أو أنه ربح ثلاثة آلاف جنيـه ، وفى أحـيـان أخرى تظهر له صورة وهو يربت بيده على رقبة جواد يملكه فاز فى السباق، أو خبر صـغير عن ترشيحه للوزارة . وقامت ثورة يوليـو ٥٢ ، وفى عـام ٥٣ صـدرت قـوانين الإصـلاح الزراعى ، فـصـادرت السلطة الثـورية عـشـرة آلاف فـدان من أمـلاكـه ، تاركة له مائتى فدان ، فراح يوسف يهاجم الثورة فى السر وفى العلن ، منددا بالحكم الذى يتجه إلى الشيوعية . ويسافر يوسف مكى إلى لندن فيقضى هناك عدة شـهور، يعود بعدها إلى مصر ، فيتم اعتقاله بتهمة الاتصال بالانجليز وتدبير مـؤامـرة لـعودة الملكيـة إلى مـصـر، وبعـد عـدة شـــهـور يطـلق سراحـه دون أن تثبت عليه تهمـة محددة .

فى عام ٥٩، تبدو صورة يوسف مكى منفـرة لا تدعـو للاحـتـرام أو التـعـاطف، عجوزا متصابيا تجاوز الخمسين ، سكيرا مـدمنا ويطارد الفتـيـات الصـغـيـرات بلا احـتـشـام تفـرضـه برودة الدم وحـكمـة السنين، وفضـائحـه النسـائيـة لا تثـير إلا الازدراء ، والأسـوأ أن زوجتـه عـايدة التى تخطت الأربعين والتى لم تنجب ، ترتبط بعلاقة جنسية فاضحة هى الأخرى ، مع منير الشـاب التافه الراضى عن نفسه كل الرضـا ، والذى يصـغرها بخمسة عشـر عاما أو أكثر، الأدهى والأمر ، أن يوسف مكى يعلم بعـلاقـة منيـر وعـايدة . بل

ويستقبله يوسف في ود، ويظهر ثلاثتهم معا ، صورة منفرة لرجل متحلل لا يغضب ولا يثور لشرفه ، وزوجة خائنة في العلن ، وعلى عينك يا تاجر، هكذا يقدم لنا فتحي غانم صورة بطله يوسف مكي .

الشخصية المحورية الثانية في العمل، تنتمي إلى الطبقة المنتصرة الصاعدة ، الصحفي الشاب مصطفى حمدي، شخصية ساقطة أخرى ، وغد بلا خلاق ، انتهازي وكاذب ومنافق أصيل ، لا يشغله شئ سوى الصعود والصعود ولو على جثث الضحايا وأشلائهم، وفي قصة تعارف مصطفى حمدي على الاقطاعي السابق، يكشف فتحي غانم عن مدى الانحطاط الذى هبط إليه مصطفى حمدي. كان اللقاء الأول بينهما بعد خروج يوسف من المعتقل بفترة وجيزة، وكان مصطفى يجلس مع مجموعة في نادي الجزيرة ، للحصول على معلومات ما سيقوم بنشرها، وهبط يوسف على المجموعة التى استقبلته في برود ، وبعد قليل تنصرف المجموعة كلها إلا يوسف مكي والصحفي الشاب اللذين لا يعرفان بعضهما البعض، فيدعوه يوسف على الشاى ، فيقبل مصطفى الدعوة ، ويتحدث يوسف ويثرثر عن نفسه ، ويخفى مصطفى احتقاره ليوسف وشماتته فيه ، فيتظاهر بالانبهار الشديد به وبحديثه ، يبتسم مصطفى إذا ما ابتسم يوسف ، ويضع دهشة الدنيا كلها على وجهه إذا ما حاول يوسف أن يدهشه ، ويصيح برافو مستحيل مش معقول ، ويتظاهر مصطفى بأنه ذاهب إلى دورة المياه ، ليذهب إلى التليفون ليتصل بالجريدة ويملي الأخبار والشائعات والأسرار التى سمعها من يوسف ، ومن نادى الجزيرة يذهبان معا إلى السينما ، وبعد السينما يدعوه يوسف إلى قضاء السهرة في بيته ، حيث يقدم له يوسف الويسكى ، يقضيان السهرة ، ويحدثه يوسف عن زوجته عايدة الغاضبة عند أهلها وتريد الطلاق، وفي الثالثة صباحا يتلقى يوسف مكالمة نسسائية ، ويحدد موعدا غراميا في الخامسة عصر اليوم التالي في جرسونيرة يوسف ، وينتبه يوسف أنه لم يعرف مهنة مصطفى، وفيما يعلم أن مصطفى صحفى ، يتماسك يوسف ولا يفقد رباطة الجأش ، ويطلب من مصطفى أن ما سمعه منه اليوم ليس للنشر ، فيؤكد له مصطفى أن يعتمد عليه كصديق وأن يأتمنه .

مدن لا تعرف الصداقة

الصداقة الحقيقية تنتمي كما يقول اشبنجلر إلى أزمنة أخرى ، أزمنة الدين والفن والشعر ، أما شتاء المدينة ، في مرحلة الكوزمو بوليتان ، مرحلة المدن العالمية الكبرى مثل القاهرة وبيروت ولندن وباريس ، فهي مدن لا تعرف الصداقة ، مدن يسكنها جمهور مائع من الأذكياء المرتابين الواقعيين العمليين اللادينيين، وابن الكوزموبوليتان في حاجة إلى نديم ، ومصطفى حمدى كونه صحفيا فهو ابن أصيل للكوزموبوليتانية ، يذهب في الخامسة عصر اليوم التالي أمام جرسونيرة يوسف مكي ليعرف من هي



العشيقة ، التي لم تكن سوى سعاد وهبي، «الأرملة الطروب» الشهيرة بفضائحها ، وفي اليوم التالي يفاجأ يوسف مكي ، بتحقيق مثير عن الاقطاعي المنحل وفضائحه وعلاقته بالأرملة الطروب، كتبه مصطفى حمدى ، وتحامل فيه على يوسف مكي ، ونشر كل الأسرار التي إئتمنه عليها منذ ساعات قليلة ، فمصطفى حمدى النديم النموذجي، هو خائن نموذجي كذلك. ويطلب يوسف في التليفون بصوت مؤدب مقابلة مصطفى ، الذي يرتاب في أدب يوسف. فمصطفى (ابن الكوزموبوليتان) شكاك مرتاب بطبيعته ، يظن أن أدب يوسف يغطي به مكيدة يدبرها للانتقام منه ، ويتغلب مصطفى على هواجسه وشكوكه ويذهب إلى يوسف في بيته ، ويحتسيان الويسكي والساعات تمر ويوسف يثرثر ، والموضوع المعلق بينهما لا يتطرق إليه يوسف . وفي الثالثة صباحا يقول يوسف في أدب وحزن : «أنا عاتب عليك علشان اللى كتبته عني وأنت واعدني أن الكلام مش للنشر»

فيضحك مصطفى ضحكة بلا معنى ويقول : « الصحافة كده (!!) » بدلا من أن يتلقى مصطفى اللوم والتقريع والتوبيخ، حتى العتاب الرقيق الذى وجهه له يوسف ، إذا به يتراجع ويعتذر عنه بسرعة فيقول لمصطفى : «عموما أنا مش زعلان منك، أنت شاب لطيف.. وأنا بأحب أقعد معاك .. أنا لى أصحاب كتير».. نكتشف أن يوسف بالرغم من كل شئ إنسان مسكين وحيد، يخجل من الاعتراف بوحدته ، وأن يوسف ابتلع الإهانة وتجاهل الإساءة ، كى يتخلص من وحدته .

(٢)

.. يقدم لنا فتحى غانم مصطفى حمدى الصحفى الوغد الصغير، الساقط أخلاقيا ، ولكن بمرور الأحداث نتعرف على الصورة أكثر فأكثر ، الوجه الآخر لسقوط مصطفى حمدى ، ذلك السقوط الذى يرتبط ارتباطا وثيقا بالصحافة ، لم يكن أمام مصطفى مخرج آخر، مات والده وهو مازال طالبا ، لم يكن لديه الوقت الكافى كى يلتحق بالجامعة ويحصل على الوظيفة والمرتب ، كان عليه أن يجازف بكل شئ ، أن ينجح بسرعة وأن يحصل على النقود بسرعة، فالمال كما يقول اشبنجلر ، شيطان المدينة وربها الأعلى، كان الفقر يحاصر مصطفى ، وكان يرى ابتسامة أمه الحزينة تعلو شفتيها كالطفح الجلدى ، وهى تبيع آخر قطة ذهب تملكها، كان يرى هذه الابتسامة وهو يعلم أنها عقدت العزم على أن تستسلم، وكان يسأل نفسه متى ستستسلم، وكيف ستستسلم، كان يسأل نفسه هذا السؤال ويفكر فى اللحظة التى سيقتل أمه فيها ثم ينتحر، وكانت الصحافة ، وكان الخبر المثير بنصف ريال ، نصف الريال كان يؤجل سقوط الأم ، دخل مصطفى غابة الصحافة ولا تعنيه كلمات من نوع شرف المهنة أو تقاليد الصحافة أو الخير أو الأخلاق ، فالمسألة حياة أو موت ، فلابد من الحصول على الخبر المثير، ولابد أن يصعد وأن يلمع ، خاض المعارك بالأنياب والمخالب ونهش وعقر، كذب ونافق وافترس الخصوم بلا رحمة وصعد على جثث الضحايا وفوق أشلائهم ، لم يكن أمامه بديل عن الصعود والصعود ، قطار وضع فوق القضبان فلابد أن يطوى المسافات طيا ، كى يحمى امرأة مسنة لتحتفظ بشرفها ، وتصلى على سجادة الصلاة وتدعو له بالفلاح والنجاح ، وكان السقوط الأخلاقى هو ثمن الصعود فى عالم الصحافة، التى هى إحدى تجليات المدن الكبرى ، تلك المدن العملاقة الجميلة ، ذلك الجمال الذى يصفه أوزوالد اشبنجلر ، بالجمال الغارق فى الإثم ، إذ ليس مصطفى حمدى الصحفى الوغد، لكنها الحياة المعدومة الضمير .

هكذا يظهر تأثر فتحى غانم باشبنجلر ذلك التأثر الذى يتبدى فى رؤى اشبنجلر الشجية لمأساة الإنسان المنسحق فى متاهة الكوزموبوليتان، لكنها ليست التأثيرات الوحيدة التى شكلت وجدان كاتبنا الكبير ، فكما تأثر فتحى غانم



باشبنجلر ورؤاه التي تفيض شعرا وشجنا خالصا ، تأثر كذلك بنبي الرواية المعاصرة فيدور ديستويفسكي العظيم ، وهل أفلت روائي كبير من ديستويفسكي العظيم ؟!

يظهر تأثر فتحي غانم في ، رواية «من أين ؟» في شخصية علياء منصور، ففي رواية الاخوة كرامازوف ، يتخيل ايفان كرامازوف في مسرحية من تأليفه ، هبوط السيد المسيح بهيئته البشرية إلى الأرض، في اسبانيا إبان محاكم التفتيش ، هبط لهداية الجمهور المزعزع العقيدة ، وديستويفسكي يهدف بهذا المسرحية ، إلى طرح هذا السؤال الميتافيزيقي العميق (لم تكن ابداعات ديستويفسكي سوى ابداعات دينية) ، هل يحتمل عالمنا الأرضي الوداعة والمحبة والتسامح والغفران؟ وكيف سيكون اللقاء بين عالمنا الوحشي الضاري، والوداعة المجسدة في شخص المسيح ، ويجيب ديستويفسكي على السؤال إجابة عملية حاسمة ، باعتقال السيد المسيح نفسه ، وبإلقائه في زنزانة موحشة تمهيدا لحرقه كهرطيق جاء ليضلل الناس ويهدف إلى انتزاع السلطة من الكاردينال الأكبر (!!) فالحياة على الأرض لابد وأن تغتال البراءة فلا مكان للودعاء على هذه الأرض.

في رواية «من أين؟ » يعمد فتحي غانم إلى الحيلة الخيالية نفسها (ولن نقول فانتازيا لأنها كلمة ابتذلت بشكل غير معقول)، التي لجأ إليها ديستويفسكي العظيم، فإذا كان ديستويفسكي جعل المسيح يهبط على الأرض ، يبعث فتحي غانم بأنثى فاتنة في عمر الورود لها نفس طفل برئ لا يعرف شرورنا ومكرنا وتشوهاتنا ، علياء منصور الجميلة ابنة القمر الموفدة من كوكب آخر ، كي تتعرف عن قرب على حياة أهل الأرض ، وتعرفت علياء على عالمنا ، عالم هرم ومريض ، ورأت قبحا ووحشية أبكتها على شقاء أهل الأرض، شقائهم بحياتهم وبنقودهم وطبقاتهم اللا إنسانية ، وكما تم إيداع مسيح ديستويفسكي في السجن ، لم تمر أربعة أيام على وجود علياء بالاسكندرية حتى أصبحت مطاردة من الشرطة ، فتهرب ثانية إلى القمر قبل القبض عليها ، ومحاكمتها بتهم كانت ستؤدي بعنقها الجميل إلى حبل المشنقة .

تهبط علياء منصور إلى الاسكندرية في صباح مبكر من صباحات أغسطس ، فتسوقها المصادفة أن تلتقي بالصحافي

الشاب مصطفى حمدى والارستقراطى المهزوم يوسف مكى ، وتختلف نظرة كل منهما إلى علياء منصور الجميلة الغامضة، فمصطفى الصحفى الشكاك المرتاب الانتهازى ، لا يشغله شئ سوى أن يعرف اجابة ذلك السؤال : من أين ؟ (اسم الرواية) فكل أحوالها تثير شكوكه ومخاوفه ، إذ يكتشف أنها تحمل فى حقيبة يدها عملات تقدر بالملايين ومن كل نوع ، دولارات وفرنكات واسترلينى ومصرى، وتتحدث بالفصحى ، وعندما يتلصص على غرفتها فى غيابها ليكشف سرها، يزداد هلعا عندما يرى جوازات السفر العديدة ، والتى كلها تحمل تأشيرات دخول سليمة، جوازات سويسرية وايطالية وفرنسية .. ويظل هم مصطفى الأوحد وشغله الشاغل أن ينالها وأن ينال سرها .

(٣)

إذا كان هم مصطفى حمدى هو اكتشاف سر علياء ، فإن هذه المسألة لا تشغل يوسف مكى من قريب أو من بعيد ، وخلال علاقة يوسف مكى بعلياء منصور ، يقدم لنا فتحى غانم الجانب المأساوى لهذا العجوز الثقيل المتحلل، فيقدم لنا صورة حزينة تدعو إلى الشفقة والرثاء ، حينما اتصلت به علياء فى التليفون، وكانت قد عرفت الرقم بطريقة ما، وكان يوسف قد رآها تقف مع مصطفى فى الصباح على رصيف الوندسور، وقالت علياء ليوسف عبر التليفون «أريد أن أعرفك» غمر يوسف شعور غريب أن هذه الفتاة الجميلة سيكون لها شأن كبير فى حياته (فكرة أن مصير ما يحيق بالإنسان) .

كان يوسف خلال السنوات الأخيرة يعيش والناس تتهرب منه ، وكان يتصل بمصطفى كى يحظى بلقائه ، ويغريه يوسف بما لديه من أخبار وشائعات وفضائح ، ليتخلص من وحدته ، كان يوسف لسنوات طويلة يعيش منبوذا مشبوها بلا قيمة ، الجميع يهربون منه، والنساء اللاتى عرفهن يوسف كان يلهث خلفهن، لكنه فوجئ بهذه الفاتنة التى لم تره ، تتصل به وتقول له «أريد أن أعرفك» وشعر أن السنوات المملة الكئيبة التى تنوب فيها أيامه بدأت تتغير ، ومنذ أن خرج من المعتقل ويوسف يحلم بفتاة صغيرة تحبه وتموت فى حبه ، رغبة جامحة سيطرت عليه أن يجد الحب الكبير الأخير ينهى به أيامه ، بعد المكالمة قفزت إلى خيال يوسف صورة الحب الكبير الذى ينتظره مع علياء ، هذا الحلم هو آخر ما تبقى له بعد أن فقد مجده السياسى، انتهت أيامه وأصبح مشبوها، يشعر بالوحدة تخيم على حياته ، لا يجد معنى لشئ ولا طعم لشئ يجلس الساعات على مقهى ميرامار على شاطئ البحر، يتلفت يمينا وشمالا دون أن يحدثه أحد، وبين وقت وآخر ، يدخل أحد ممن كان يعرفهم ، فيهم يوسف بتحيته ، لكنه يفاجأ به يدير رأسه ويبتعد عنه، فيقف أمامه الحاوى الذى يتنبأ بالحظ عن طريق فأر مدرب ، فيقف الفأر أمام يوسف فى ثبات ، يأخذ النقود بأسنانه ولا يفر ، ويقدم له الفأر

قرطاس الحظ فى ثبات ، لم يهرب الفأر منه ، فشعر يوسف بحنان غامر حيال هذا الفأر الذى لم يهرب منه، فاشتراه بعشرة جنيهات من الحاوى .

(٤)

كان الاقطاعى السابق ونجم المجتمع المتألق يجتر الأيام المملة، لا معنى لشئ ولا طعم لشئ ، يعلم أن عايدة لها عشيق فلا يهتم ، ويسأل نفسه لماذا لا يكون لها عشيق ولماذا لا يكون له عشيقة، هل يحبس نفسه معها ويختنق بها، هل يقضى كل لياليه فى البيت يلوكان نفس الكلام ويتعفنان على مهل ، إنه يعرف كيف ينتقم من هذه الدنيا التى غلبته على أمره ، سيخرج على قوانينها وسيتمرد على عرفها وتقاليدها ، سيتحرر من كل القيود، ماذا يريدون منه ؟ أمواله؟ .. أخذوها ، أصدقاءه؟ أين هم ، لم يبق له إلا نفسه، والخراب يحيط به من كل جانب ، وكل ما فى الدنيا خراب ، والناس ليسوا ناسا ، إنهم وحوش مفترسة، وهو وحده، وحده يعيش فى هذه الأرض الخراب، له أن يفعل ما يشاء فى أى وقت يشاء ، إذ ليس للخراب تقاليد أو قوانين .

هكذا يسترسل يوسف فى أوهامه بحب علياء له ، لكن صوتا باطنيا يقول له إنها تريده لشئ آخر غير الحب، فهى فى البداية وهو فى النهاية، ولكن ها هى الأحلام تتحقق ، إذ تهرب علياء من الوندسور ومن صحبة مصطفى لتذهب إلى يوسف مكى، وحينما يراها يوسف لا يملك نفسه ، وعندما تؤكد له أنها تحبه ولن تتركه، يبكى يوسف ، ويقدم لها سره وروحه ، من خلف مدفئة قديمة يخرج يوسف أوراقا لو اطلع عليها أحد لتم تعليقه فى حبل المشنقة، إنها الأوراق التى تثبت اتصالاته بالانجليز والتى ذهب من أجلها إلى لندن . يقدمها يوسف إلى علياء ليبرهن لها على حبه الكبير لها ، لأنه الآن لا يخاف من حبل المشنقة لا يخاف سوى من أن تتركه علياء ليعود إلى حياته الخاوية المملة ، فإذا ما تركته فالموت أهون، ولم تمر عدة ساعات حتى كان الصوت الباطنى الذى يتردد فى أعماق يوسف يتحقق، فحينما أدركت علياء أن يوسف يبحث عن حب جسدى وعشق نارى ملتاث ومجنون ، هربت منه وقد اشمئزت من مقاصده ، وحينما تأكد يوسف أن علياء لن تعود إليه، وأن حياة الخراب ستحاصره مرة أخرى ، ألهب المسكين رأسه بالرصاص .

ومع فتحى غانم نكتشف أن عايدة الزوجة الخائنة ، ليست أقل شقاء من يوسف ، فبعد الجراحة الاجتماعية التى قامت بها السلطة الثورية ، وبعد اعتقال يوسف وتدهوره ، سرى على عايدة قانون الخراب هى الأخرى وطالها ، فحينما تم اعتقال يوسف، كلفت عايدة أربعة من أكبر المحامين للدفاع عنه ، وأظهرت الشجاعة والاخلاص ، ورفضت أن تتزين أو أن تضع الروج أو البودرة على وجهها ، هجرت عايدة المجتمع والحفلات والأندية، ولم تذهب إلى السينما أو إلى الكوافير مرة واحدة ، وكانت مثل المجنونة تهذى لا

تأكل ولا تنام، وحينما خرج يوسف من المعتقل لم تتذكر أمامه شيئا مما عانته وتظاهرت بالمرح والسعادة ، وكانت تشعر بالفعل بالمرح وبالسعادة .

وفوجئت عايدة بتدهور حالة زوجها الذى تحبه، الذى كان قد يأس من عودة أمجاده ، فأصبح أى شئ عنده يساوى أى شئ ، كانت عايدة تصبر نفسها وفضائح يوسف تترامى إليها ، وتقول لنفسها ماذا سيقدم يوسف لهذه أو تلك، هل سيحبها كما أحب عايدة ، هل سيعطيها أجمل أيامه كما أعطى لعايدة ، هل سينالها كما نال عايدة ، وسرى قانون الخراب على عايدة كما سرى على يوسف قبلها ، قانون دبرته الأقدار حينما قامت الثورة فقلبتهما على أمرهما، فكان العشيق التافه الذى يصغرها بخمسة عشر عاما ، ولم يطلقها يوسف لأنه يعلم أنها تحبه وهى لم تصر على الطلاق لأنها تحب زوجها .

بعد انتحار يوسف وصعود علياء إلى القمر ، تترك علياء إلى مصطفى رسالة ، فى هذه الرسالة تظهر تأثيرات اشبنجلر العذبة ورؤاه الشجية على كاتبنا الكبير. الرسالة فى مجملها انتقاد قاس حاد ، ورؤية نافذة شجية إلى تشوهات حياتنا المعاصرة التى بلغت درجة هائلة من التشويه فالأوراق الملونة (وهى ألفاظ اشبنجلر نفسها) يأكل الإنسان بها ويتمتع بالحياة بها ، وإذا ما فقدها فهو مستعد لأن يفقد حياته ولا يفقدها وتتعجب علياء أن تجد إنسانا دوره هو القيام بدور الخادم عند إنسان آخر. (هذا الشغف ظهر فيما بعد فى شخصية مبروكة فى الرجل الذى فقد ظله) . وحينما حاولت علياء أن تجعل الخادم محمود يعيش مثل السادة وأعطته الأوراق الملونة، شقى الخادم بحياته الجديدة ، وارتاب هو وزوجته فى الوضع الجديد، وتوسل إلى مصطفى وعلياء أن يتوسطا لديه كى يعود خادما عند يوسف مكى مرة أخرى !! أوضاع ترفضها الفطرة السليمة ولا يفهمها الأبرياء والأنقياء ، أوضاع مدينة شائهة كالحة شهباء اللون ، يخلقها الإنسان عندما يخلق المدينة ، وبعد أن يخلقها اختلاقا ، يقع أخيرا فى قبضتها، فى قبضة إنجازه الخاص الجميل ، ذلك الجمال الغارق فى الإثم .

«من أين؟» عمل جميل رائع ، يحلق بنا خلاله فتحى غانم ، مهتديا برؤى اشبنجلر وديستويفسكى ، ويحلق بتلك الرؤى الشعرية عاليا عاليا، فيلتمس الأعذار للأوغاد وللساقطين والمهزومين ، ويجعلنا نحن القراء ، أكثر رقة وأكثر إنسانية ، عبر رؤاه المليئة بالشجن .

«هرمان هسه»

ونماذج من فكره

بقلم : د. السيد أمين شلبى

هرمان هسه (١٨٧٧ - ١٩٦٢) هو الكاتب الألمانى الشهير صاحب الأعمال الروائية «ستة مجلدات» والعديد من الدواوين الشعرية والكتابات والتأملات الذاتية والفلسفية ، والحائز على جائزة نوبل للأدب وجائزة جوته . وقد نال جائزة نوبل عن روايته :
Magister Lud, The Glass brerd Game «والتى ترجمها إلى العربية فى ترجمة رصينة الدكتور مصطفى ماهر تحت عنوان «لعبة الكرات الزجاجية» وأودع فيها هسة خلاصة فكره وفلسفته ورؤيته للعالم ، ووصفها «توماس مان» بأنها عمل جليل ومهيب ، وبلورت صورته التى أثرت فى أجيال معاصريه كقوة روحية تتصل بالشرق وصوفيته وما تمثله من إيمان بالحياة الفردية التى يجب أن نداقع عنها ضد أساليب العالم الحديث .

وقد تركت نشأة هسة وتربيته وبيئته المنزلية وبيئته الطبيعية التى نشأ فيها أثرا كبيرا على اتجاهاته الفكرية والفلسفية ، كما شهدت فترات حياته وشبابه المبكرة أزمته الدينية التى أدت به أن يهجر المعهد الدينى الذى كان يدرس فيه عام ١٩٨٢ ومحاولته الانتحار . وقد انعكست هذه الفترة المبكرة بتوتراتها وحساسيتها فى عدد من أعماله الأولى مثل : Beneath the wheel, Beter Comenzind «والتى ترجمها المرحوم الأستاذ فؤاد كامل لروايات الهلال فى ترجمة ناصعة تحت



الكاتب : هرمان هسه

عنوان «الطفل الموهوب» .

السيرة الذاتية

غير أن ما يوازى أعمال هسة الروائية هو إنتاجه الشعرى وكتاباته النثرية التى قدمت أساسا لسيرته الذاتية كما بدت فى مجموعاته : Auto biogreaphical writings, Reflections, Apictorial Biogvaphy, My Belief . ومن هذه السيرة الذاتية نستطيع أن ندرك أن عددا من أعماله الروائية واتجاهاته الفكرية والفلسفية قد تأثرت إلى حد كبير بنشأته العائلية والدينية وبأفراد أسرته خاصة جده لأبيه وأمه وما تفتحت عليه عيناه فى منزل جده وأسرته من رموز شرقية وآسيوية وأجواء وأشباح اسطورية جعلت السحر والقوى الغامضة تستولى عليه ، بل ولكى يستعيدها فى المستقبل فى رغبته الملحة لتغيير الواقع وتحويله والارتقاء به ، ولكى يجعله يرى كل شئ مملوءا . بالواقع ومملوءا بالسحر . وفى روايته لسيرته الذاتية يستعيد هسة بشكل عاطفى أيام طفولته ونشأته وانجذابه فى أيامه الأولى إلى الإله «بان» الذى يطل عليه من الدولاب الزجاجى فى مكتبة جده متخفيا فى شكل وثن وهى المشاهد «التى سلبت لبى فى سنوات طفولتى» وقبل أن يقرأ ويكتب امتلأت نفسه «بالصور الشرقية القديمة والأفكار التى تدور حولها ، وحين تقابلك ملحمة هندية أو صينية ، يبدو الأمر وكأن شملى قد التم على من يعرفه وأكون كمن يعود إلى وطنه» . هذا التأثر بالعالم الشرقي ورموزه وما يحيط به من أسرار وغموض هو الذى جعله يود أن يصبح ساحرا ، وهى الرغبة التى انبثقت من عدم اقتناعه بالواقع الذى رآه كمؤامرة شخصية من الكبار وشعر نحوه بالازدراء والفزع وانتابته رغبة ملحة لتغييره والارتقاء به عن طريق السحر ، هذه الأجواء والرموز الشرقية التى رآها فى مكتبة جده وترسبت فى وجدانه هى التى سوف تجذبه إلى عالم الشرق والتي سوف يراها حية وواقعية عندما قام برحلته إلى الهند عام ١٩١١ وهى الرحلة التى اعتبرها «الزيارة الحلم إلى الأسلاف البعيدين وتجربة الرجوع إلى الطفولة الأسطورية للبشرية والشعور بالرهبة العميقة لروح الشرق وكانت منبعا للإلهام» وفى خلال هذه الرحلة اكتشف أن تصوره للبشر من خلال الرموز ، التى كانت «مكتبة جده مماثلا لما رآه فى الواقع خلال هذه الزيارة للشرق» فهى نفس الطريقة الحالمة التي يمشى بها الهندوس ، ونظرة السنهالى بدمثه الدقيقة التي شعر بها للنظرة الغزال ، وبياض مقلتى العينين الذى يخطف الأبصار فى وجوه الحمالين التاميليين السوداء البرونزية ، وابتسامة الصينى المميزة» .

رباط الشرق والغرب

غير أنه مع هذه الخصائص الشرقية المميزة لما حلم به وتصوره عن أبناء

الشرق وما رآه فى زيارته له إلا أنه وجد ثمة رباط يربط الشرق والغرب أبعد واسمى وهو الإنسانية . وهو الرباط الذى جعله يرى فى تلك العيون المتلهفة الغامضة اللوزية الشكل «موضوعا للفضول وإنسانية متماثلة وواحة جديرة بالحب» ، ورغم أنه لا يمكن الحديث مع هؤلاء البشر، إلا أنه وجد «أن أرواحهم تشبه أرواحنا تماما ، وهم يتعلقون بأحلام ورغبات خلال صلواتهم لا تختلف عن أحلامنا ورغباتنا بأكثر مما تختلف أوراق الشجر عن بعضها البعض» ، لذلك لم يكن غريبا مع هذا التأثر بل والافتتان منذ الطفولة بالشرق ورموزه وأجوانه أن تنعكس فى كتابات هسة وإنتاجه الروائى منذ أن أصدر «ذئب البرارى» Nareissus and Goldmul التى اعتبرت واحدة من الأعمال السحرية التى نشرت فى عصرنا وتعالج الصداقة بين قسين من العصور الوسطى قنع أحدهما بعقيدته وتحول الآخر بلا نهاية بحثا عن السلام والتحرر ، ومثل هذا الصراع بين الروح والجسد ، بين الإنسان العاطفى والإنسان المتأمل والمفكر هو ما سوف يظل يشغل هسة طوال حياته . كذلك سوف تبدو خبرته الشرقية وانجذابه نحو الشرق بوضوح فى روايته «سيدهارتا» (ترجمها إلى العربية كذلك الأستاذ «فؤاد كامل») والتى تجرى فى أجواء الهند وتصور قصة بطلها ورحلته الروحية التى يمر بها وانتقاله من حياة التأمل فيما حوله وعدم رضاه عما يحيط به إلا أنه لا يلبث أن يتخلى عن هذه الحياة ويستجيب لرغبات الجسد والإغراءات الدنيوية غير أن الملل يصيبه من هذه الحياة لكى يتحول من جديد إلى حياة المعاناة التى تقوده فى النهاية إلى السلام والحكمة .

وكما سبق وأشرنا فإن مكانة هسة لا ترتبط فحسب بأعماله الروائية وإنما كذلك بمجموعاته الشعرية فى الحياة والكون والإنسان والتى تخللت سيرته الذاتية وكذلك فى مجموعة مقالاته عن الفن والحياة والتى ظهرت تحت عنوان My Belief والتى نختار منها هذه النماذج المعبرة عن فكره :

عن العمر المتقدم

إن العمر المتقدم هو رحلة فى حياتنا ، وشأن كل المراحل الأخرى لها وجه خاص بها ، وكذلك مناخها ، ودرجة حرارتها وأفراحها وأحزانها ، ونحن متقدمى السن لدينا ما نؤديه مما يعطى معنى لحياتنا ، بل حتى من هو مشرف على الموت له هدفه وشئ مهم وضرورى لكى يحققه ، وأن يكون المرء متقدما فى السن لهو شئ جميل ومقدس ، مثلما يكون شابا ، والإنسان الذى يكره أن يكون متقدما فى السن ويخشى الاقتراب من الموت لم يعد يستحق أن يكون ممثلا لمرحلته فى الحياة تماما مثل الشاب القوى الذى يكره ويحاول أن يتهرب من أعماله اليومية ، وباختصار فلكى نحقق معنى العمر وأن نقوم بواجبنا فإن المرء يجب أن يتصالح مع العمر المتقدم ، وأن يقول نعم ويتقبل كل شئ يأتى به ، وبدون نعم هذه ، وبدون

الخضوع لما تتطلبه الطبيعة منا فإن قيمة ومعنى أيامنا سواء كنا شيوخا أو شبابا سوف تفقد وسوف نخون حياتنا . ومع العمر المتقدم على الإنسان العاقل أن يدرك ويتقبل عدة حقائق : أن العمر المتقدم يحمل معه العجز والوهن وأنه فى النهاية يطل الموت ، وأنه عاما بعد عام فإن الإنسان عليه أن يقدم التضحيات ، ويتحمل ضروبا من المنكرات ، وعليه أن يتعلم أن لا يثق فى حواسه وقواه وأن الطريق الذى كان منذ وقت قصير ونزهة قصيرة يصبح طويلا مرهقا ويوما ما لن نستطيع أن نسيره ، وعلينا أن ننسى بعضا من الطعام الذى اعتدنا أن نستمتع به فى مراحل حياتنا السابقة ، وتصبح المسرات الجسدية نادرة ويدفع فيها ثمنا أغلى . إنه واقع مرير ، غير أنه سيكون من الحزن ومن وضاعة الروح أن نستسلم لهذا التدهور ، وأن لا نرى أن العمر المتقدم له جانبه الطيب وبهجته الخاصة .

فحين يلتقى اثنان متقدما العمر فإنهما يجب أن لا يتحدثا عن آلامهما الجسدية ومعاناتهما وإنما يجب أن يتحدثا أكثر عن أكثر تجاربهما بهجة وراحة وعن مغامراتهما ولابد أن هناك الكثير منها ، وفى تذكر الجانب الايجابى والجميل من العمر المتقدم فإننا يجب أن نتذكر أننا نملك مصادر القوة والصبر والبهجة التى قد تلعب دورا فى حياة الشاب . من هذه المصادر كنز الصور التى يحملها الإنسان فى ذاكرته بعد عمر طويل ، إن شخصيات ووجوها بشرية لم تعد تعيش بيننا ، إنما نستمد فى وجودها معنا أنها تنتمى إلينا ، وتمدنا بالرفقة وتتطلع إلينا من عيون حية ومن خلال هذه الصور نرى البيوت والحدائق والمدن التى اختفت أو تغيرت تماما كما كانت من قبل ، كما نجد الجبال البعيدة وسواحل البحر التى زرناها فى رحلات من حقب مضت ، نجدها صحوة وملونة فى كتاب صورنا ، وحين نقلب اليوم بشكل حذر هذه الصفحات من كتاب حياتنا حيث كنا نندفع كالعاصفة مدفوعين بالرغبات والأحلام والعواطف وفقدان الصبر والتوتر والتوقع ويستثيرنا بشكل كبير الإنجاز والإحباط ، فإننا نشعر بالدهشة كم هو جميل وطيب أن هربنا من هذا التعب والمطاردة ، ووصلنا إلى حياة التأمل ، وحيث فى حديقة العمر المتقدم تزدهر العديد من الأزهار التى لا نعطيها إلا القليل من التفكير والتأمل ولم نتعهدها بالفلاحة والعناية . هنا تزدهر زهرة الصبر وهو ازدهار نبيل. وحيث نصبح أكثر استرخاء ومراعاة لمشاعر الآخرين ، وكلما قلت مطالبنا للمشاركة والاندراج فى العمل نحطم نمو قدرتنا على التأمل والاستمتاع بحياة الطبيعة وزملائنا من البشر وأن ندع تيار الحياة يعبر بنا دون نقد ويدهشة متجددة بتنوعها أحيانا بالقلق والرثاء الهادئ وأحيانا بالضحك والبهجة والفرح الخالص والدعابة .

عن المسرات الصغيرة

أعداد ضخمة من الناس تعيش حياتها هذه الأيام فى سبات وغيبوبة كئيبة لا حب فيها ، ويجد الناس ذوو الحساسية

خلو حياتنا من الفن الحقيقي مؤلمة وشديدة الوطأة ولذلك ينسحبون . ويقول رجال الدين والمؤسسات الدينية إن ما نفتقده اليوم هو الدين ، ويقول آخرون إنه الفن . وقد يكونون على حق ، ولكن أعتقد أن ما نفتقده هو الفرح والبهجة .

إن القيمة العليا التى نعطيها لكل دقيقة وقت ، وفكرة السرعة والهرولة كأكثر وأهم أهداف الحياة هى من غير شك أكثر أعداء الفرح والبهجة خطورة . حين كنت أقرأ مرثية فردريك عن الكسل لم أستطع إلا أن أتساءل : كم كان يستحب إذا ما كان عليه أن يعمل بشكل شاق كما نفعل اليوم . ومن سوء الحظ أن السرعة المتزايدة للحياة الحديثة قد أضاعت ما كنا نتملكه من الفراغ القليل . إن طريقة امتاع أنفسنا ليست أقل إثارة للسخط وللأعصاب من ضغوط عملنا فالشعار قد أصبح «بأكثر وأكثر ما تستطيع وبأسرع ما يمكن» الأمر الذى جعل هناك الكثير جدا من التسلية ولكن القليل من البهجة والفرح . وكل من شاهد احتفالا كبيرا فى مدينة أو فى مواقع التسلية فى العواصم الحديثة سوف يحتفظ بانطباع مؤلم وغير سار لهذه الوجوه المحمومة المشوهة بعيونها الجشعة وهذا البحث المريض عن المتعة وهو ما نجده أيضا فى المسارح ودور الأوبرا وقاعات الموسيقى ومعارض الفن ، فإن تزور معرضا حديثا للفن لم يعد أبدا شيئا سارا ومشبعا أو يبعث على الابتهاج والمتعة . ولا أملك وصفة كاملة ومؤكدة النجاح ضد هذه المساوئ ولكن بكل بساطة أريد أن أستعيد صيغة قديمة، ولكن لسوء الحظ غير عصرية، إن المتعة المعتدلة هى متعة مضاعفة ، فلا تستخف بالمسرات الصغيرة . إنه الاعتدال، ففى بعض الأوساط يتطلب الأمر شجاعة أن يفوت المرء حفل افتتاح ، وفى دوائر أوسع تحتاج شجاعة أن لا تقرأ اصدارا جديدا بعد عدة أسابيع من صدوره ، كى يصبح الأمر موضعا للسخرية إن لم يكن المرء قد قرأ الجريدة اليومية ، ولكنى أعرف أناسا لا يشعرون بأى أسف إذ ما فاتهم كل هذا. فلنجعل الشخص الذى يحرص على الاشتراك فى مسلسل أسبوعى لا يشعر أنه يفقد شيئا إذا ما تابعه كل أسبوعين وأضمن له أنه سيكون هو الفائز ، ولنجعل أى شخص تعود على النظر إلى عدد كبير من الصور فى معرض أن يحاول أن يمضى ساعة أو أكثر أمام رائعة واحدة ويقنع بذلك فى هذا اليوم . ودع أى إنسان أن يحاول الذهاب إلى النوم الساعة العاشرة على الأقل مرة فى الأسبوع وسوف يندهش كيف ستفاجئه هذه التضحية الصغيرة بالوقت . إن القدرة على التعلق بالمسرات الصغيرة والاستمتاع بها إنما يرتبط بشكل حميم بعادة الاعتدال ، إن مثل هذه القدرة إنما تفترض ابتداء عدة أشياء فقدت أو بهتت فى الحياة الحديثة ولكنها أساسا مقياس للبهجة والحب والشعر . هذه المسرات الصغيرة التى وهبت خاصة للفقراء تبدو غير واضحة ومشتتة فى حياتنا اليومية

بحيث أن العقول المتبلدة والغبية لا تلاحظها . إنها مسرات غير بارزة ولا يعلن عنها وهى لا تكلف مالا . من بين هذه المسرات تلك التى يمنحها لنا اتصالنا بالطبيعة، إن عيوننا والتى يساء استخدامها يمكن أن تكون إذا كنا فقط مستعدين مصدرا لا ينفد من المتعة ، عود نفسك كل صباح أن تنظر لحظة إلى الشمس وفجأة سوف تشعر بالهواء حولك ورائحة بكارة الصباح ، وسوف تكتشف كل يوم أن الجانب الأعلى من كل منزل له طابعه الخاص وضوؤه . اعط ذلك بعض الاهتمام وسوف تحصل بقية اليوم على الرضا ولمسة من التعايش مع الطبيعة ، وبالتدريج سوف تدرب العين نفسها على أن تستجيب للمباهج الصغيرة وعلى أن تتأمل الطبيعة وأن تقدر المرح الذى لا ينفد للحياة اليومية . المهم هو البداية وتفتح العينين . إن السماء الممتدة ، والحدائق الغاصة بالخضرة ، والحصان القوى ، والكلب الجميل ، ومجموعة الأطفال ، والوجه الجميل ، لماذا نسمح لأنفسنا أن نحرم من كل هذه المتع الصغيرة ؟ إن الإنسان الذى التقط وردة صغيرة لكى تكون قريبة منه وهو يعمل قد قام بخطوة نحو الفرح فى الحياة . كان هناك حديقة فتيات مقابلة للمنزل الذى أعمل فيه ، وكان هناك فصل للبنات الصغيرات لهن ملعبهن فى جانب المبنى الذى أعمل فيه ، وفى بعض الأحيان كنت أعانى من ضجة البنات وهن يلعبن ، ولكن كمية الفرح وشهوة الحياة التى منحتها لى نظرة واحدة على الملعب كانت أعظم ما أستطيع أن أعبر عنه . هذه الملابس الزاهية ، هذه العيون المليئة بالحيوية والبهجة ، هذه الحركات المرنة الطيعة والقوية ، فى الوقت نفسه ضاعفت من بهجتى بالحياة . وقد يذكر القراء عددا آخر من الأفراح الصغيرة وربما أكثر بهجة : شم الإنسان لوردة أو حبة فاكهة أو استمتاع الإنسان بصوته أو صوت الآخرين أو الإصغاء لثرثرة وهذر الأطفال أو نغمة يدندن بها طفل ، وآلاف الأشياء الصغيرة التى يستطيع الإنسان أن ينسج بها عقدا من المسرات الصغيرة فى حياته . ونصيحتى للإنسان الذى يعانى من فتور فى الشعور هى : ابحث كل يوم عن أكبر قدر من المسرات الصغيرة ، إنها المسرات الصغيرة قبل كل شئ ، وليست المسرات الكبيرة التى تمنح لنا الاستجمام والراحة اليومية والتخلص من الأعباء .

إن الإنسان بالطريقة التى صاغه بها الله قد خلق لديه قدرة الاستمتاع بأشياء حتى ولو لم تكن مفيدة له وبإحساس بالجمال . وطالما كان الناس قادرين وسط ضغوط وأخطار حياتهم على الابتهاج بأشياء كثيرة : الألوان فى الطبيعة والرسوم ، نداء الأصوات الصادرة عن البحر والعاصفة ، الموسيقى التى صاغها الإنسان ، العيون المؤثرة لكلب تراجيديا المشاعر وتأملاتها التى يستمد المستمع من لغتها الخالدة المتدفقة البهجة والحكمة ،

طالما كان الإنسان قادرا على هذا فإنه سوف يصبح قادرا على أن يضفي المعنى على وجوده . فالمعنى - تحديدا - هو وحدة التصور الوافر في العناصر الظاهرة ، أو هو قدرة الروح على أن ترى وتتصور الاضطراب والفوضى في العالم كوحدة وتناسق ، بالنسبة للإنسان الحقيقي الذي لم يفسد ويضعف فإن العالم يتبدى له ، ويعبر الله عن نفسه عبر هذه البدائع : برودة المساء ، انتهاء يوم العمل ، احمرار سماء المساء ، الانتقال المتدرج من الوردى إلى البنفسجي ، وتحولات وجه الانسان ، وأشياء مثل مساحات ونوافذ الكاتدرائيات وآلة الفيولين المصنوعة من ألواح خشبية صغيرة . وثمة شئ غير مفهوم ورقيق يولد من العقل والطبيعة ، عقلاني ولكنه في الوقت نفسه طفولي ويفوق العقل مثل الكلام والقدرة عليه .

من هذا الجانب الطبيعي والحسي ، واتجاهي نحو كلمة سعادة لم يتغير فحتى عبورات منتصف العمر كانت عندما تذكر هذه الكلمات وأفكر فيها كما يفكر الآخرون يتجه التفكير إلى المولد الطيب ، والتعليم الجيد ، والحياة العملية الناجحة ، والإخاء في الأسرة ، واحترام الآخرين ، ووفرة المال ، والآن أحاول أن أصيغ ماذا تعني كلمة سعادة بالنسبة لي ؟ ، فاليوم أعني بالسعادة شيئا موضوعيا تماما : أن تعقل وتدرك الوحدة الكاملة والوجود الخالد والتناسق الأبدى للعالم ذلك الذى أسماه ووصفه آخرون في وقت ما بموسيقى العالم أو ابتسامة الله . هذه الصورة المصغرة ، هذا المثال ، هذه الموسيقى التي لا تتوقف ، هذه الأبدية الذهبية الباهرة هي وقع نقي ومطلق وهي لا تعرف زمنا ولا تاريخا ، إن محيا وجه العالم يضئ ويتألق ويضحك ، والبشر والأجيال والأمم والامبراطوريات تصعد وتزدهر ثم تغيب عن البصر . وبشكل أبدى تعزف الحياة موسيقاها وترقص أغانيها وقصائدها ، هذه هي الأهمية شاملة العالمية والمقدس التي حملتها كلمة سعادة بالنسبة لي وفي مجرى حياتي ، وربما كان ضروريا أن أقول للشباب من قرائي أني هنا لا أتحدث كعالم لغة ، ولكني أذكر جزءا صغيرا من تاريخ روحي ، وأنه أبعد عن قصدى أن أحثهم على أن يعطوا هذا المعنى المقدس لكلمة سعادة في أحاديثهم اليومية وكتاباتهم ، ولكن ما أردت تأكيده هو أنه حول هذه الكلمة الذهبية المحببة القصيرة المتوهجة يتجمع كل شئ شعرت به حول معناها من أيام طفولتي ، عندئذ كان الشعور أقوى ، وكانت استجابة كل الحواس الحسية ونداء وجاذبية الكلمة أكثر حدة رغم أن الكلمة لم تكن وقتها بهذا العمق وهذا الاحتضان للعالم ، وهكذا تبدو السعادة وقد اختبرت فقط في الطفولة وفي لحظات أصبح من الصعب جدا أن تتحقق مرة أخرى ، وإن كان هذا لا يعني أن خبراتي مع السعادة كانت قليلة وحتى أيامي المتأخرة وعمرى المتقدم .

نكروما مات مسموما

بقلم :عايدة العزب موسى



نكروما

●● كتاب مثير صدر حديثا عن «كوامى نكروما» الزعيم الأفريقى العظيم ، أول من دعا للجامعة الأفريقية وإنشاء حكومة موحدة لأفريقيا ، منذ مطلع الأربعينات قبل استقلال القارة الأفريقية بسنوات عديدة، وهذه الأفكار التى آمن بها منذ الصغر وعمل على تحقيقها بعد أن أصبح أول رئيس لغانا هى التى جعلت الغرب يكرهه ، وجعلت رفاقه الزعماء الأفارقة يخشونه ، وهى أيضا التى عجلت بنهايته ، فلم يقبلها المستعمر الأجنبى ولم يرحب بها الرؤساء المحليون ●●

الكتاب يحمل عنوان «كوامي نكروما سيرة جديدة» ، كتبته «چان ميلن» الباحثة الأسترالية المولد البريطانية الجنسية التي صاحبت نكروما على مدى خمسة وعشرين عاما منذ أن قابلته عام ١٩٥٧ حتى وفاته عام ١٩٧٢ ، وظلت تعمل قريبة جداً منه باعتبارها مساعد باحث له ثم ناشرا لكتبه .

تبدأ «چان ميلن» الكتاب فور وصول الرئيس الغاني إلى بكين عاصمة الصين في ٢٤ فبراير سنة ١٩٦٦ ، بعد رحلة طيران طويلة من بانجون (في بورما) ، حيث استقبله في المطار السفير الصيني في اكرا وقال له : «سيدي الرئيس لدى أخبار سيئة لقد حدث انقلاب في غانا» . وكان نكروما حينذاك يقوم ببعثة سلام لهانوي بدعوة من الرئيس الفيتنامي «هوشي منة» الذي كان ينشد طريقا للسلام يخرجه من الحرب مع أمريكا ، في البداية ظن نكروما أنه أخطأ السمع ثم تأكدت له الحقيقة .

كان هذا أول انقلاب وأكثر دموية يحدث في تاريخ غانا . ولا أحد يعرف عدد من قتل من الجانبين ، ولكن يقدر العدد بنحو ١٦٠٠ قتيل ، فضلا عن بضع مئات من الجرحى . ورغم أن الانقلاب كان مفاجأة لنكروما فإن سحبه ظلت تتجمع لمدة طويلة قبل أن يترك أكرا . ولعل اقتناع نكروما بالاشتراكية وراديكاليته في الدعوة للجامعة الأفريقية كانا من أهم الأسباب التي عجلت بالإطاحة به .

والحقيقة أن نكروما لم يكن وحده من الزعماء الأفارقة من آمن بالاشتراكية وقتها ، خاصة قبل أن تتكشف أخطاؤها بعد سقوط برلين وتفكك الاتحاد السوفييتي ، إن الآباء المؤسسين لأفريقيا تصوروا أن الخلاص يكمن في الاشتراكية بالنظر إلى ما شاهدوه أيامها من أن الاتحاد السوفييتي قد انتقل بالاشتراكية إلى أن يصير قوة عظمى بعد ٤٠ سنة فقط من الثورة الروسية منذ عام ١٩١٧ .. كان للأفارقة العذر في هذا الاعتقاد في ذلك الوقت .

وكانت الجريرة الأخرى لنكروما هي اتجاهه نحو حكومة موحدة لأفريقيا، وإتاحته فرصا لتدريب الثوار داخل بلده وانشاءه قواعد لإعداد المقاتلين الأفريقيين من أجل الحرية واستضافته اللاجئين السياسيين من جنوب أفريقيا وموزمبيق وروديسيا وانجولا وغينيا بيساو .. الخ وهي الجهود التي أفرزت القادة الوطنيين أمثال سام نجوما في ناميبيا وروبرت موجابي في زيمبابوي وكنيث كوندا في زامبيا وكاموزو باندا في مالاوي وفرانس فانون في الجزائر .

وقد كتب نكروما بنفسه بعد الإطاحة به «إنهم يريدون أن يحطمونى أنا وغانا ، لأننا نقف فى مقدمة الصراع الأفريقى من أجل التحرر» . ولكن آخر ما كشفت عنه «چان ميلن» هو أن نشر نكروما عام ١٩٦٥ كتابه «الاستعمار الجديد آخر مراحل الاستعمار» الذى كشف فيه عن أعمال المؤسسات الدولية المالية الاحتكار أغضب حكومة الولايات المتحدة ورأت فى هذا الكتاب خطرا ، وتسبب فى قطع المعونة عن غانا التى كانت تبلغ ٢٥ مليون دولار ، وتعلق «چان ميلن» قائلة : منذ هذا التاريخ صارت أيام نكروما معدودة فى الحكم .

وطبقا للشهادات التى وردت فى كتب حررها مسئولون فى وكالة المخابرات الامريكية فإن ميزانية المخابرات الامريكية بالنسبة لأكرا زادت وذلك من أجل الاطاحة السريعة بنكروما . بدأوا بتغيير السفير الأمريكى الأبيض فى أكرا وأتوا بدلا منه بسفير أمريكى أفريقى هو فرانكلين وليامز الذى كان رفيقا لنكروما فى جامعة لنكولن سنة ١٩٤١ ، وبعد الانقلاب كتب نكروما فى كتابه «الأيام السوداء فى غانا» عن خيانة رفيق دراسته له وهو اتهام ازعج السفير وليامز ازعاجا شديدا .

وقد حاول د . مارفين ووتسن الذى كان رئيسا لجامعة لنكولن أن يبرىء هذا السفير الأمريكى وهو على أبواب الخروج من عمله .

وقد ذكرت «چان ميلن» فى كتابها أنه بات مقبولا الآن بشكل عام أن وكالة المخابرات الامريكية هى التى خططت للانقلاب ، وتأكد هذا الاشتراك فى كتاب «البحث عن اعداء» الذى كتبه عضو سابق فى المخابرات الأمريكية هو جون ستوكويل ونشر عام ١٩٧٨ ، كشف أن مقر وكالة المخابرات الامريكية فى أكرا أعطى ميزانية كبيرة ، واستبقى علاقات وطيدة مع المتآمرين فى الانقلاب ، وفى داخل رئاسة وكالة المخابرات فى أمريكا فإن مقر أكرا أعطى صلاحيات كاملة ، وإن رئيس هذا المقر «هواردبن» كوفىء على نجاح الانقلاب بأن رقى إلى منصب رئاسى فى الوكالة .

كيف حدث الانقلاب ؟

اعتمد نجاح الانقلاب على وجود نكروما بعيدا عن غانا ، وكانت بعثة السلام لهانوى فرصة ممتازة ، أيد البعثة فى البداية مؤتمر رؤساء وزارات الكومنولث عام ١٩٦٥ ولكنها أجلت بسبب أن هارولد ولسون رئيس الوزراء البريطانى كان يريد أن يرأس البعثة فى حين أن هانوى لم تقبل إلا نكروما .

وقد أرسل الرئيس «هوشى منة» دعوة شخصية لنكروما ليرأس وفدا آخرا ، وكان نكروما حينذاك يخطط لموضوعات تتعلق بالتفرقة العنصرية لجنوب افريقيا ولطرد جنوب افريقيا من الكومنولث ، كان رصيده العالمى كبيرا جدا فى هذا الوقت .

وبينما كان نكروما يستعد للذهاب إلى فيتنام فى يوليو ١٩٦٥ أبلغه «هوشى منة»

أن تأمينه في هانوي لا يمكن ضمانه إلا إذا أوقف الامريكيون قصفهم لفيتنام . فأرسل نكروما وزير خارجيته إلى واشنطن ليطلب من الرئيس الأمريكي لندون جونسون أن توقف أمريكا قصفها لهانوي ليستطيع الذهاب إليها ، (وهذا يشبه طلب صدام حسين الإذن الامريكي لغزو الكويت) ، وقد وجدت المخابرات الامريكية في هذا الطلب فرصة ذهبية لاخراج نكروما من أكرا فأكد له الرئيس جونسون أنه سيكون مؤمنا تماما في هانوي وأن «هوشي منة» إنما يخلق الأعذار ، وقبل ثلاثة أسابيع من مغادرة نكروما لأكرا طبقا لما تذكره «جان ميلن» فإن الرئيس جونسون أرسل مبعوثا هو «مينون وليام» إلى أكرا ليشجع نكروما على الذهاب ، حتى تحقق وكالة المخابرات الامريكية خططها التي كانت تعتمد على وجود نكروما خارج غانا .

وهكذا ذهب نكروما في ٢١ فبراير سنة ١٩٦٦ وبعدها حدث الانقلاب ، وبعد أشهر قليلة نشرت صحيفة إيجبشان جازيت القاهرية أن واحدا من قبيلة نكروما «قبيلة انزيما» الذي كان همزة الوصل بين المخابرات الامريكية وبين رجال الانقلاب المحليين قد قتل لأنه يعرف كثيرا عن وقائع الانقلاب ، وكان اسم هذا القتيل «أمهيا» .

وفي ٢ نوفمبر سنة ١٩٦٨ كتب نكروما إلى شيرلي دي بوا زوجة دي بوا التي كانت أرسلت له قصاصة الصحيفة المصرية (ايجبشان جازيت) والتي ذكرت أن «أمهيا» قتل حتى لا يتكلم ، كتب لها نكروما إن لديه معلومات من مصادر موثوق بها أن «أمهيا» قتل لهذا السبب .

وبعد ذلك بعام عندما ذهب رئيس توجو «أيا ديما» ليزور حكومة الانقلاب في غانا كتبت «جون ميلن» تقول إنه زار سد فولتا والمصانع في أكرا وتساءل «من فعل كل ذلك ؟ .. فذكر له الموجودون أنه نكروما فرد عليهم رئيس «توجو ولماذا قمتم بالانقلاب عليه فلم تكن هناك حاجة للانقلاب ؟!» ، وبسبب هذا التعليق ساءت العلاقات وألغي حفل العشاء الذي كان سيقام على شرفه .

نكروما يذهب إلى غينيا

من بكين تلقى نكروما دعوة من الرئيس سيكوتوري – زعيم حركة الاستقلال في غينيا ورئيسها – ليأتي ويعيش في كوناكري ، كما تلقى دعوات مماثلة من رئيس تانزانيا جوليوس نيريري ورئيس مالي موديبوكيتا والرئيس عبد الناصر . واختار نكروما كوناكري لقربها من غانا لأنه كان يأمل في أن يعود سريعا إلى السلطة في بلده .

كتبت «جان ميلن» تقول : «ذهب نكروما إلى كوناكري بأرصدة قدمها له الروس عندما ذهب إلى موسكو في طريقه من هانوي إلى كوناكري ، كما قدم له الصينيون بعض المعونات ، وأرسل له رئيس أوغندا ملتون أوبوتي والرئيس نيريري مبعوثين يحملون حقائب

دبلوماسية تحتوى على نقود فقد كان كل منهم يريد أن يعود نكروما إلى أكرا ، وكانوا واقعيين إلى حد إدراكهم أن أمرا كهذا لن ينجز بغير المال .

لم تكن لنكروما أرصدة فى بنوك أجنبية وحسابه فى بنك باركليز فى أكرا الذى كان يدفع فيه راتبه عندما كان رئيسا للدولة ، هذا الحساب جمدته حكومة الانقلاب ، لذلك كان فى حالة اعتماد مطلق على كرم أصدقائه السياسيين .

ويصرف النظر عن هؤلاء الذين يطلبون المال لينفذوا مخطط العودة إلى الحكم فقد واجه نكروما نفقات تتعلق باحتياجات انصاره الذين كانوا معه ، فكان نكروما يؤدى لهؤلاء الغانيين راتبا أسبوعيا يمثل نصف ما كانوا يحصلون عليه فى غانا ، على أساس أنهم سيحصلون على النصف الآخر عندما يعود نكروما إلى غانا .

ولكن لم يحدث هذا ، فعندما ذهب نكروما إلى كوناكرى جذب انتباه وكالات الانباء الغربية إلى مكانه ، وكانت رسائله يطلع عليها الجواسيس واقتحم مقر اقامته فى كوناكرى بغزاة من البرتغال واخترقوا الأشخاص المحيطين به، ولكن نكروما عاش فى أمان حتى مات الطاهى الخاص الوفى له «آموه» فى ٢٠ يوليو ١٩٦٧ .

عندما مات «آموه» صار من الواضح أن نكروما سيتعرض لخطر شخصى كبير، حتى أن مدام سيكوتورى طلبت أن يحل طاه معين محل «آموه» ولكن حل محله طهاة آخرون ، تقول «چان ميلن» : «عندما ذهبت إلى المطبخ تحقق لى أنه لا أمل من التأكد مائة فى المائة أن طعام نكروما مأمون ، ويصرف النظر عن الطاهى فقد كان هناك أشخاص كثيرون موجودون فى المطبخ وآخرون يذهبون ويجيئون ، وعندما بدأ نكروما يشكو فى مشاكل فى المعدة بدأت أخشى على صحته» .

وكتبت أيضا «فى نهاية واحدة من زياراتى لكوناكرى ، وعندما كنت أشارك نكروما فى وجباته عانيت من آلام حادة فى المعدة مع ارتفاع فى الحرارة لمدة ستة أسابيع بعد عودتى إلى لندن . كنت مريضة بشكل خطير وتنتابنى أعراض تشبه أعراض مرض التيفويد ، وخضعت لفحوص مكثفة فى مدرسة لندن لطب الأمراض الاستوائية ، وفشلت هذه الفحوص فى بيان حقيقة المسألة أو تفسيرها ، حتى الأطباء الذين زاروا منزلى وفحصوا الأشياء التى استعملها فشلوا فى معرفة السبب» .

ثم انهارت صحة نكروما بالتدريج ، فى البداية عالجه طبيب روسى ذكر أن نكروما يشكو من اللومباجو وهو مرض يسبب آلاما فى أسفل الظهر ، وقد حاول سيكوتورى وعدد من الأصدقاء اقناع نكروما بأن يسافر للعلاج فى الخارج ولكنه لم يكن متحمسا حتى لا يسبب سفره تكاسل الغانيين واسترخاءهم فى العمل للعودة إلى السلطة .

ولكن بعد ذلك في عامي ٦٩/ ١٩٧٠ عندما ساءت صحته طلب نكروما من السوفييت مرتين أن يذهب لتلقى العلاج عندهم فلم يسمحوا له بذلك ، وبدلا من استضافته أرسلوا إليه اثنين من الاخصائيين فى كوناكرى ليفحصاه ، ونصحاه بأنه لا يوجد سبب يستدعي السفر ، وأنه من الناحية السياسية فالوقت غير مناسب لأن يترك غينيا .

وتذكر «چان ميلن» : «لم أكن في كوناكرى عندما وصل الطبيبان الاخصائيان ، ولكن نكروما كتب يوم سفرها يذكر لى نتيجة زيارتهما ، سواء نصح الاخصائيان أم لم ينصحا فأنا لا أدرى ، ولكنهما اتبعا العلاج الذى أوصى به الطبيب البلغارى الذى فحصنى قبلهم» .

إن طبيعة العلاج لم تكن واضحة ولكن فى عام ١٩٧١ عندما كان نكروما فى بوخارست فى رومانيا ، فإن الطبيب الاستشارى «مادرجاك» ذكر «لچان ميلن» أن نكروما عولج بالضبط بعكس ما كانت تتطلبه حاجته ، لم يذكر اسم المرض ولكنه قال إنه انتشر فى جسمه . وقالت «چان ميلن» إن ابن نكروما الأول فرانسيس ، وهو طبيب على تأهل عال ، ذكر لها عندما زارته زيارة قصيرة عام ١٩٧٢ أنه كان هناك اهمال فى علاج والده فى غينيا .

وتضيف «چان ميلن» أنه من غير المقنع أو المتصور ألا يعرف الاخصائيان الروسيان بمرضه الخطير بعد أن فحصاه عام ١٩٧٠، وأشك فى ذلك ، أنهم كانوا لا يريدون أن يعادوا النظام الانقلابى فى غانا ، كما كانوا لا يوافقون على خطط نكروما الثورية ولا على أفكاره بالنسبة للكفاح المسلح حتى قبل عام ١٩٦٦ إذ كان نكروما يتجه أكثر فأكثر للاعتماد على الصينيين والفيتناميين ، وكان ثمة توتر بين الاتحاد السوفييتى والصين فى ذلك الوقت .

وفاته

أخيرا استمع نكروما لنصيحة اصدقائه القريبين ، أن يترك كوناكرى - التى أقام بها منذ أن أطيح به فى ٢٤ فبراير سنة ١٩٦٦ - يتركها ، لينشد العلاج الطبى فى الخارج . كان يتوقع أن يذهب إلى موسكو ولكن اصدقاءه فى الحكومة السوفييتيه نصحوه بعدم الحضور إليهم .

وأخيرا فى منتصف أغسطس سنة ١٩٧١ هبطت طائرة تحمل نكروما لبوخارست فى رومانيا ، وتقول «چان ميلن» إنها اتصلت بطبيب انجليزى عندما عادت إلى انجلترا ، وعندما سمع الطبيب بوصف حالة نكروما توقع أنه يعانى من سرطان فى العمود الفقرى الذى انتشر فى البروستاتا والدم ، وأخبرها بأنه إذا كان هذا التشخيص صحيحا فإنه يتوقع له حياة لا تزيد على ستة أشهر .

تقول «چان ميلن» إنها وصلت إلى بوخارست فى ١٢ أكتوبر سنة ١٩٧١ ،

كان منظر نكروما في المستشفى يبعث على الحزن ، كان يجلس على كرسى كبير وظهره إلى الضوء ينظر بأسى ، لم يكن يستطيع الحركة ليترك الكرسى ، وبقى جالسا عليه ستة أسابيع ، كان شعره رماديا وكل شيء فيه رمادى ، قدماه وساقاه نحيفة من طول الجلوس وكان بياض عينيه ناصعا ويداه وجلد بشرته شاحبا ، وذكر لها أنه مر عبر الجحيم في الأشهر القليلة الماضية .. كان كل هذا يعطى انطباعا بأنه ذاهب بعيدا .

وأتت النهاية في الساعة ٨,٤٥ صباح ٢٧ أبريل سنة ١٩٧٢ ، الرجل الذى كان فى صحة جيدة ويزيد على ٧٥ كيلو جراما ، تناقص وزنه حتى صار ٥٧ كيلو وتوفى .. وهكذا مات نكروما فى أرض غريبة وعاش فى أرض غريبة أيضا ست سنوات قبل وفاته .

نكروما المتمرد

رغم أن نكروما يرقد فى قبره منذ ٢٨ عاما ، فإنه اليوم صار أكبر فى تقدير المواطنين فى غانا وأفريقيا ، كما صار أكبر فى أعين العالم الغربى الذى كان يخاصم كل مشروعاته ويعمل على إفسادها .

كانت لنكروما آمال كبيرة لغانا ولكل افريقيا ، كان يبغى أن يبنى بلدا نموذجيا تستهدى به أفريقيا والأفريقيون ويثير الإلهام لديهم . كان لديه المال وكانت غانا بلدا غنيا ، وكانت بريطانيا تكسب من ورائها قبل الاستقلال ، وإذا عدنا إلى الوراء سنة ١٩٤٦ طبقا للسجلات البريطانية فإن غانا التى كانت تسمى ساحل الذهب كانت لديها أرصدة فى بريطانيا تبلغ ١٠٠ مليون دولار .

وبين عامى ٤٧ - ١٩٤٨ تظهر البيانات أن بريطانيا حصلت على ٧٢ مليون دولار من تصدير كاكاو غانا إلى الولايات المتحدة ، وكان الكاكاو واحدا من المنتجات الكثيرة التى كانت تصدرها بريطانيا ومن هذه المنتجات البوكسيد والنحاس والذهب والماس ، وإذا كانت بريطانيا قد كسبت ٧٢ مليون دولار من تصدير الكاكاو وحده ، فكم كانت تحصل لندن من تصدير المنتجات الأخرى وخاصة الذهب (ولم يكن اسم ساحل الذهب قد اطلق على غانا بغير سبب) .

ونفس السؤال يمكن أن يوجه إلى فرنسا والبرتغال وايطاليا . كم كانت تحصل عليه من مستعمراتها ، وهذا مما نعلم منه لماذا لم يكن نكروما محبوبا من الغرب ، إن كفاحه من أجل استقلال غانا وافريقيا أفقد السادة الاستعماريين فجأة مكاسب مالية ضخمة كانت تذهب من المستعمرات الافريقية إلى أوربا مباشرة .

وإن خططه الماركسية جلبت له الأسوأ من ناحية الغرب ، فكانت بريطانيا وأمريكا تشكان دائما فى أنه ماركسى ، وفى خضم الحرب الباردة بين الغرب والسوفييت رأى الغرب أنه لابد من كسر أجنحة نكروما وأن تكسر أجنحته بسرعة قبل أن يحلق فى أجواء افريقيا .

وعمل الغرب ترتيبه لإفشال خطط نكروما السياسية والاقتصادية ، وكان

يعلم أن غانا هي نجم افريقيا في ذلك الوقت فإذا سمح لنكروما بأن يحقق طموحاته في خطط التنمية التي كان من شأنها أن تحول غانا في بداية السبعينات إلى بلد مصنع أو نمر اقتصادي ، ساعتها ستتبعه افريقيا كلها في طريقه ، وهذا مما كان سيهدد مصالح الغرب السياسية والاقتصادية في القارة الأفريقية وسيصبح صندوق النقد الدولي والبنك الدولي بغير مصداقية وقتها .

النهاية

مع اشتداد المعارضة لنكروما داخل بلاده والعداء الغربي له ، أصبحت الأمور صعبة بالنسبة له فشدد أكثر من قبضته واستخدم قانون الاشتباه ضد خصومه ومؤيديه على السواء . خاف الشعب من قائده وأتت الإطاحة به في ٢٤ فبراير سنة ١٩٦٦ بمثابة انفراجة للغانين الذين لم يكونوا يدركون الضغوط العالمية التي كان يواجهها نكروما ، ومن ثم بدأت عملية الهدم لذكراه فحل حزبه وأبيدت كتبه وكل شيء ينتمي إليه .

ورغم ما قيل عنه وعن فترة حكمه التي لم تستمر سوى تسع سنوات ، فإن نكروما سقط وغانا من أكبر الدول الصناعية في غرب افريقيا . رغم أنه تجاورها نيجيريا ، و«ساحل العاج» كوت ديفوار الآن ، وهما نموذج للمنط الرأسمالي في التنمية . كما كانت غانا تتمتع بأكبر مستوى لدخل الفرد وأولى الدول المنتجة للكاكاو في افريقيا ، وصاحبه مشروع سد الفولتا .

كذلك لم يكن سقوط نكروما مخلصا لغانا ، فرغم تعدد الحكومات العسكرية ومحاولات الحكم المدني على النمط الغربي، فإن النتائج الاقتصادية كانت عكسية تماما فقد بلغ ارتفاع الأسعار في غانا حدا لم تشهده كل دول العالم ، وصل التضخم إلى ٣٠٠٪ وبلغت ديون غانا للدول الرأسمالية ملايين الدولارات ، وعقد الدائنون حلقات خاصة لمعالجة الموقف في لندن وباريس دون جدوى ، وترك الأمر لصندوق النقد الدولي ليفرض شروطه على الحكومة .

ظل نكروما يردد - وهو في منفاه بكوناكري بغينيا - أن المخابرات الامريكية والبريطانية والألمانية والاسرائيلية هي التي خططت للانقلاب ، ولم يصدقه أحد حتى تكشفت الشواهد من وكلاء المخابرات الامريكية أنفسهم الذين اعترفوا بأن نكروما أطيح به بموجب خطة رسمها الامريكيون وساهم فيها بنو عمومتهم في أوربا ، وأن أهم أسباب الاطاحة به أن الغرب كان يعارض توجه نكروما إلى توحيد افريقيا ، فهم يدركون أن هذه الوحدة تهدد سيطرة الغرب الاقتصادية والسياسية على افريقيا، لذلك كان لابد أن يذهب نكروما المدافع الرئيسي عن وحدة افريقيا .

أوروبا ترفض الأغذية المعدلة وراثيا !

بقلم : مجدى شرشر



□ معارضة قوية ضد هيمنة الثقافة الأمريكية حتي في الغذاء.

□ الأمير تشارلز ولي عهد بريطانيا ينضم لحملة الأغذية المهندسة وراثيا.

□ مطاعم الوجبات السريعة في أوروبا تتعهد بعدم استخدام هذه الأجهزة كلما أمكن.

على مدى عشرة آلاف عام لم تثر المعالجة الجينية للنبات والحيوان من خلال التدجين والتربية المسيطر عليها سوى القليل من الجدل ، لكن ومنذ عام ١٩٧٣ بات هذا النوع من الهندسة الوراثية أو عبر الجينات طريقة اكثر قوة ودقة فى تغيير وجه الحياة. فالجينات التى تحمل سمات محددة يمكن نقلها باستخدام «قاذفات جينية» بين الأنواع التى لا يمكن بطبيعتها أن تتبادل المواد الجينية فيما بينها.

وبعد أن كفلت المحكمة العليا الأمريكية الحماية لهذا النوع الجديد من الملكية الفكرية عام ١٩٨٠ بدأت الشركات الاستثمارية الكبرى فى ضخ استثمارات قوية لتطوير تطبيقات تجارية للمحاصيل المهندسة وراثيا مثل البذور وزراعة الأنسجة والجينات. وبعد هذا التطور توالى إنفاق تلك الشركات وقدمت الاستثمار الجوهرى لتطوير المحاصيل عبر الجينية لأغراض تجارية.

واستهدفت المحاصيل المهندسة وراثيا فى بادىء الأمر حل مشكلات مهمة مثل السيطرة على الآفات والأعشاب وحماية التربة من استخدام المبيدات والأسمدة. وأخيرا بدأ المزارعون الأمريكيون عام ١٩٩٦ زراعة المحاصيل الحقلية المهندسة وراثيا على نطاق تجارى بعد سنوات من البحوث المعملية والتجارب الحقلية لرصد المخاطر التى قد تنجم بالنسبة للمحاصيل الأخرى وعلى الحيوانات والبيئة وعلى صحة الإنسان - وبمجرد أن وافقت وكالة حماية البيئة وهيئة الأغذية والعقاقير ووزارة الزراعة على البذور المهندسة وراثيا شرع المزارعون الأمريكيون فى التجارب على زراعتها وأعجبتهم النتائج وراقت لهم على الفور، وبحلول عام ١٩٩٩ كان نحو نصف إنتاج فول الصويا وثلث إنتاج الذرة فى الولايات المتحدة مهندسا وراثيا.

وجنت شركات البذور الأمريكية اموالا طائلة وكان المزارعون الأمريكيون من اكبر الفائزين وحققت لهم التكنولوجيا الجديدة نصف الأرباح الاقتصادية الاجمالية تقريبا.

ولا يستعصى فهم التحمس الكبير للأغذية المهندسة وراثيا بين المزارعين الأمريكيين فى ضوء تراجع الحاجة الى المبيدات الكيماوية وتغير أسلوب التعامل مع التربة، فمعظم المزارعين الذين يزرعون فول الصويا استغنوا عن رش المبيدات إلا لمرة واحدة مما ادى الى تخفيض التكلفة بنسبة تتراوح ما بين عشرة إلى أربعين فى المائة. وأصبح القطن عبر الجينى لا يحتاج إلى رش المبيدات على الاطلاق بينما كان يحتاج فى الماضى لما يتراوح بين أربع الى ست رشات الأمر الذى قلل تكلفة الهكتار الواحد بنسبة ستين إلى ١٢٠ فى المائة.

ومع هذا فإن ثلاث دول فقط تستأثر بالازدهار الذى تحقق فى مجال البذور المهندسة وراثيا .

ففى عام ١٩٩٩ استأثرت الولايات المتحدة بنسبة «٧٢» فى المائة من كافة الأراضى المزروعة بمحاصيل عبر جينية فى جميع انحاء العالم تلتها الأرجنتين بنسبة «١٧» فى المائة ثم كندا بنسبة «١٠» فى المائة.

وتقاسمت نسبة الواحد فى المائة الباقية تسع دول تقوم على الأقل بزراعة

نوع ما من المحاصيل المهندسة وراثيا وهى الصين واستراليا وجنوب افريقيا والمكسيك واسبانيا وفرنسا والبرتغال ورومانيا واوكرانيا.

أوروبا ضد أمريكا

إذا كان التركيز قد انصب فى البداية على المحاصيل المتأقلمة مناخيا كفول الصويا و الذرة يفسر الى حد ما عزوف وضعف مشاركة الدول المدارية فى زراعة المحاصيل المهندسة وراثيا فكيف يمكن تفسير ضعف حماس مزارعى أوروبا الغربية، فليس هناك ما يحول دون زراعتهم لمثل تلك المحاصيل؟ فقد حاولت شركات البذور الأمريكية تسويق البذور عبر الجينية فى أوروبا كما أن بعض الشركات التى تتخذ من أوربا مقرا لها قد طورت ووفرت الحماية للملكية الفكرية لبعض المحاصيل المهندسة وراثيا. لكن تلك التكنولوجيا الجديدة ليس لها باع طويل فى أوروبا الأمر الذى يتضح من قلة عدد المزارع التى تزرع المحاصيل عبر الجينية فى أسبانيا وفرنسا والبرتغال فى عام ١٩٩٩.

معارضة من المستهلكين

ويفسر روبرت بار لبيرج فى مجلة فورين أفيرز بابتعاد الأوروبيين عن المحاصيل عبر الجينية بقدر كبير بخوف الأوروبيين من تناول تلك المحاصيل. فالمستهلكون الأوروبيون يتصدرون الآن صفوف المعارضين للأغذية المهندسة وراثيا رغم عدم تسجيل أى أخطار موثقة فى السوق فى أوروبا أو غيرها. فقد نشر مجلس نوفيلد للبيوتكنولوجيا ومقره بريطانيا النتيجة التالية فى مايو ١٩٩٩.

لم نتوصل إلى أى أدلة عن حدوث أضرار ـ إننا نشهد بقيام السلطات المعنية بمراجعة قوية للمنتجات المعروضة بالأسواق حاليا وسيستمر خضوعها للمراقبة ولم يتم رصد أى أدلة على وجود أضرار. ونخلص إلى أن الأغذية المهندسة وراثيا والمطروحة حتى الآن فى السوق البريطانى أغذية آمنة للاستهلاك.

لكن المستهلكين الأوروبيين لا يثقون بمثل تلك التطمينات بعد أن رسخت فى أذهانهم أزمة «جنون البقر» التى هزت ثقة المستهلك فى آراء الخبراء بعد ثبوت عدم صحة التطمينات التى قدمها مسئولو الصحة فى المملكة المتحدة بعدم وجود مخاطر فى تناول لحوم الأبقار المصابة بمرض جنون البقر، ورغم عدم وجود علاقة بين هذا المرض والأغذية المعالجة وراثيا إلا أن موجة جديدة من القلق تولدت لدى المستهلكين الأوروبيين فى اللحظة التى رخص فيها باستيراد فول الصويا المهندس وراثيا فى أمريكا عام ١٩٩٦ الى الاتحاد الأوروبى.

وثم بعد آخر هو رفض نمط الحياة

الأمريكي وكل مؤشرات هيمنة الثقافة الأمريكية حتى فى الغذاء كما يتبدى فى بعض الدول الأوروبية كفرنسا على سبيل المثال.

وفى هذه الأجواء القلقة سارعت أطراف ثالثة منها منظمات غير حكومية إلى تصعيد هذا الخوف وتكريسه، وأججت منظمة جرنيبيس ومنظمات نشطة أخرى كافحت من قبل ضد الطاقة النووية واستخدام الكيماويات حفيظة ومشاعر المستهلكين الأوروبيين.

وانضم إلى الحملة ولى العهد البريطانى الأمير تشارلز.

وفى فرنسا تشكل تحالف موسع ضم المزارعين والنقابات وأنصار البيئة والشيوعيين وبادروا بشن هجمات عنيفة ليس فقط ضد الأغذية المهندسة وراثيا بل أيضا ضد مشروب الكوكاكولا وأغذية ماكدونالدز ولحوم البيف التى استخدمت الهرمونات فى إنتاجها. وفى ألمانيا ذهبت حملة مناهضة تلك الأغذية إلى حد عقد مقارنة بين التلاعب فى الجينات البشرية وما عانته البلاد من ويلات بسبب الإعتقاد بالسمو المعرفى.

وأتت تلك الحملات ثمارها وانتزعت تنازلات مهمة من شركات وحكومات كبرى.

فقد وافق الاتحاد الأوروبى فى أبريل ١٩٩٨ على وقف الموافقة على أى أغذية جديدة مهندسة وراثيا سواء للاستهلاك أو الاستيراد لدول الاتحاد الأوروبى - دون أى دليل علمي كما يرى البعض.

ويعنى هذا حظراً فعليا بحكم الأمر الواقع على جميع واردات الذرة من الولايات المتحدة التى تبلغ نحو مائتى مليون دولار سنويا تقريبا . كما سن الاتحاد الأوروبى عام ١٩٩٨ شرطا بقيام دولة الخمس عشرة بتوسيم الأغذية المغلفة التى تحتوى على الذرة أو فول الصويا المهندس وراثيا

وذهبت المملكة المتحدة مدى أبعد بإلزام المتاجر والمطاعم بإعلان قوائم بالأغذية المهندسة وراثيا وإلا تعرضت لغرامة تصل إلى ٨٤٠٠ دولار أمريكى، وفى محاولة لتفادى مقاطعة المستهلكين والقضايا التى اقامتها بالفعل المنظمات النشطة المدافعة عن البيئة والمستهلكين تعهدت مطاعم الوجبات السريعة فى أوروبا بعدم استخدام الأغذية المهندسة وراثيا كلما أمكن.

وامتد هذا عام ١٩٩٩ إلى دول تستورد الغذاء من خارج أوروبا حيث وضعت دول مثل اليابان وكوريا الجنوبية واستراليا ونيوزيلندا خططا للبدء بتوسيم «أى وضع علامات مميزة» ملزم لبعض الأغذية عبر الجينية.

بما فى ذلك فول الصويا والذرة إذا كانت مخصصة للاستهلاك الآدمى.

وتشكل اليابان وكوريا الجنوبية سوقا تستوعب ما قيمته ١١.٣ مليار دولار سنويا من منتجات الزراعة الأمريكية.

ويخشى المسئولون الأمريكيون وقطاع الزراعة الأمريكي من أن تكون هناك مصالح زراعية حمائية وراء تحركات توسيم الواردات . لكن العنصر الأهم فى القضية هو قلق وخوف المستهلك.

وإن كانت موجات المعارضة الأولى للأغذية المهندسة وراثيا تستهدف الشركات العابرة للقوميات مثل مونسانتو إلا أن موجة المقاومة الجديدة تخلق مشكلات جديدة لمصدرى الأغذية المهندسة وراثيا فى الولايات المتحدة وللباحثين الذين انفقوا ملايين الدولارات للتوصل إلى علاج للأمراض وقضايا الإنتاج.

ونتيجة لهذه المقاومة الأوربية وجد المسئولون الأمريكيون أنفسهم فى موقف حرج. فالولايات المتحدة تحث أوروبا واليابان لتبنى توجهات السوق فى سياساتها الغذائية والزراعية، والآن فقد أجبرت قوى السوق التى يحكمها الاستهلاك الولايات المتحدة على التكيف . وقد عارضت الولايات المتحدة التوسيم الاجبارى للأغذية المهندسة وراثيا لكن ولأن القطاع الزراعى الأمريكى قطاع تصديرى فى الاساس فقد أدى الضغط الخارجى الى ظهور تحرك غير رسمى فى الإتجاه الآخر.

ملاحظة : يصدر قطاع الزراعة الامريكى ٢٥ فى المائة من انتاج الذرة وفول الصويا والقطن واكثر من ٥٠ فى المائة من القمح والأرز، وفى هذا الاتجاه أعلنت شركة «أرشر دانيلز ميدلاند» الأمريكية الكبرى عام ١٩٩٩ أنها منذ ذلك التاريخ وصاعدا ستطلب من مزارعيها تسليم إنتاجها المهندس وراثيا من فول الصويا وغير المهندس منه بشكل منفصل حتى يتسنى للشركة تقديم منتجات خالية من الأغذية المهندسة وراثيا للمستهلكين فى أوروبا واليابان.

وصدر إعلان مماثل من شركة هاينز عن تحولها إلى المنتجات غير المهندسة وراثيا.

وسيكون توسيم الأغذية المهندسة وراثيا عنصرا مكلفا للمزارعين الأمريكيين والمستهلكين وسيتطلب فصلا تاما بين النوعين المهندس وراثيا وغير المهندس من المزرعة حتى المستهلك .

وتشير التقديرات الى أن تكلفة المنتج قد تزيد فى هذه الحالة بما يتراوح بين «١٠ الى ٣٠» فى المائة.

وقد تتسبب المقاومة الاوروبية للأغذية المهندسة وراثيا فى حدوث صراعات بين أوروبا والولايات المتحدة فى عدد من المنظمات الدولية مثل منظمة التجارة العالمية وفى معاهدة التنوع البيولوجى .

وفى اطار منظمة التجارة العالمية تسمح اتفاقية صحة وسلامة النبات «اس . بى اس» للدول برفض الواردات بدعوى الحماية الصحية او الحماية البيئية لكن هناك سؤالا فى حاجة لاجابة هل تستطيع الحكومات ان ترفض الواردات بدعوى عدم اليقين العلمى ؟ على اساس تحوطى؟

وهذه الاتفاقية تتيح فرض قيود على الواردات على أساس مؤقت بينما تسعى الحكومات الى الحصول على مزيد من المعلومات.

ويسعى الاتحاد الأوروبى إلى اضعاف هذا المطلب من جانب منظمة التجارة العالمية فقد تمكن فى يناير ٢٠٠٠ من ادراج نص يؤيد مبدأه التحوطى فى البروتوكول الجديد حول السلامة البيولوجية لمعاهدة التنوع البيولوجى. وينص البرتوكول الذى أعده البيئيون لا التجاريون على أن قصور اليقين العلمى نتيجة المعلومات والمعرفة غير الكافية يجب ألا يمنع الدول من اتخاذ إجراءات تحوطية بشأن الاستيراد.

وقد سعت الولايات المتحدة إلى صياغة تحيل هذا الأمر لسلطة المنظمة وقواعدها لكن محاولتها اجهضت بسبب تحركات الاتحاد الاوروبى والدول النامية وقبل مسئولو الخارجية الامريكية صياغة البروتوكول فى شكله النهائى ربما من منطلق الحرص على تبديد مخاوف المستهلكين والمستوردين اذا ما ظهرت امريكا مع الاتحاد الأوروبى فى صورة المتفقين حول القضية.

وربما تستمر مثل تلك الخلافات بين الولايات المتحدة وأوروبا حول الأغذية المهندسة وراثيا فى التصاعد خلال الاشهر بل والسنوات القادمة المهندسة وراثيا حتى تقضى على جوع العالم الثالث؟

رغم أن الخلاف بين الولايات المتحدة وأوروبا حول الأغذية المهندسة وراثيا يبدو فى ظاهره صراعا بين الأغنياء إلا أن الطرف الغائب الحاضر بقوة فى المعركة هو دول العالم الثالث. ويعتقد بار لبيرج أن الأغذية المهندسة وراثيا لو أستغلت الاستغلال المناسب فسوف تنتج اثارا تغير وجه الحياة بل وتنقذ أرواح البشر فى العالم الثالث. ويرى أن الحاجة للغذاء تتزايد بسرعة رهيبة فى دول آسيا وأفريقيا الفقيرة بسبب ارتفاع معدل النمو السكانى كما أن الزراعة تتخلف، وانتاجها يتدنى، بسبب ضعف التربة والحرارة والجفاف والحشرات وامراض النبات ويقدر أن هؤلاء المزارعين الفقراء يفقدون نحو «٣٠» فى المائة من محصولهم لصالح الحشرات وأمراض النبات ويؤيد هذا الرأى أيضا فورد رونجى وبنيامين سيناور فى مقال لهما بمجلة فورين افيرز

ويشيران الى انه رغم الفائض الحالى وتراجع اسعار السلع فقد يواجه العالم أزمة فى القرن الحادى والعشرين وقد يصبح اقل قدرة على إطعام نفسه. وتوضح تقديرات معهد ابحاث السياسة الغذائية الدولى أن العالم سيشهد مولد «٧٣» مليون نسمة ، كل عام فى الفترة من «١٩٩٥ الى عام ٢٠٢٠» بزيادة بواقع ٣٢ فى المائة ليصل سكان العالم الى «٧,٥» مليار نسمة وستكون النسبة الاكبر للنمو السكاني من نصيب دول العالم الثالث الذى سيشهد ايضا زيادة فى نصيب الفرد من الناتج القومى، ولمواجهة هذه الزيادة السكانية وفى الدخل سيتعين على العالم زيادة انتاجه من الحبوب بنسبة ٤٠ فى المائه عام ٢٠٢٠ ومن رأيهما فإن التغلب على هذه الفجوة التى تعانيها دول العالم الثالث يقتضى تحرير التجارة حتى تستطيع اطعام نفسها ناهيك عما يمكن ان تساهم به التكنولوجيا عبر الجينية فى زيادة الناتج الزراعى بتعزيز مقاومة النبات والحيوان للامراض والحشرات . فعلى سبيل المثال تخسر كينيا الآن نحو ١٥ الى ٤٥ فى المائة من محصول الذرة بسبب الحشرات والآفات، ولو استخدمت بذور مهندسة وراثيا لاستطاعت زيادة الانتاج من دون تلك الخسارة والشيء نفسه ينطبق على مزارعى البطاطس فى المكسيك ، وتشير توقعات البنك الدولى إلى أنه يمكن زيادة انتاج الأرز فى اسيا بنسبة تتراوح بين «١٠» الى «٢٥» فى المائة خلال العقد القادم وبدون هذه الزيادة فقد تصل اسعار الارز الى مستويات تفوق متناول الفقراء.

والاسهام الآخر الذى تستطيع الأغذية المهندسة وراثيا ان تقدمه - ومن وجهة نظر المتفائلين - هو القضاء على سوء التغذية فى دول العالم الثالث فمنظمة الامم المتحدة للاغذية والزراعة «الفاو» أوضحت أخيرا ان شخصا من بين كل خمسة اشخاص من سكان العالم النامى يبلغ عددهم ٨٢٨ مليون نسمة اجمالا لايزالون يعانون من سوء التغذية المزمنة، وأحد اسباب سوء التغذية هو قصور الانتاج الزراعى فى بعض المناطق الفقيرة رغم الابتكارات السابقة فيما سمى بالثورة الخضراء . فقد تجاوزت المكاسب الجذرية التى أحدثتها الطفرات الهائلة للتربية التقليدية للنبات فى الستينات والسبعينات تجاوزت مزارعى افريقيا بكثير. وفى الفترة من ١٩٧٠ حتى ١٩٨٣ انتشرت انواع جديدة للأرز لنحو ٥٠ فى المائة من أراضى زراعة الأرز فى آسيا وبينما لم تنتشر إلا لنحو ١٥٪ من أراضى أفريقيا جنوب الصحراء، وحدث شيء مماثل بالنسبة للقمح الذى انتقل ليزرع في

٩٠ في المائه من أراضى آسيا وأمريكا اللاتينية التى تزرع بالقمح مقابل ٥٩ فى المائة فى افريقيا لتصبح نسبة المصابين بسوء التغذية فى افريقيا جنوب الصحراء نحو ٣٩ فى المائة. والسبب صعوبة حصول الأفارقة على تكنولوجيا الثورة الخضراء

لكن ستيفن نوتنجهام فى كتابه EAT Yourgenes يشير الى انه من المؤكد ان الشركات عابرة القوميات تعتقد بصحة هذه المقولة. وتروج بها لمحاصيلها عبر الجينية موضحا ان بعض المنتقدين يردون بان هذه المقولات تغفل الاسباب الحقيقية للجوع ويرون ان زيادة الطعام ليست هى بالضرورة الحل الامثل للجوع وسوء التغذية. فسوء التغذية يعود اساسا الى الفقر الناجم بدوره عن مزيد معقد من الاسباب السياسية والاجتماعية وفى هذا الاطار تصبح المحاصيل عبر الجينية هى جزء من مشكلة الفقر فى العالم النامى وليست الحل. فالسياسات الزراعية غالبا هى السبب الرئيسى للجوع خاصة فى أفريقيا.

ويضيف إلى هذا ان الشركات عابرة القوميات تسعى لزراعة مساحات واسعة بالمحاصيل عبر الجينية فى العالم الثالث مثل الطماطم والبطاطس التى تلبى احتياجات سلسلة المطاعم السريعة ونادرا ما تهتم بمحاصيل الغذاء المحلى فى الدول النامية.

ناهيك حتى فى حالة إفادة الدول النامية بالهندسة الوراثية فمن الصعب نقلها دون النيل من بعض جوانب استقلالية الدول النامية.

ويخشى المنتقدون ايضا من الاضرار بالبيئة نتيجة الزراعة عبر الجينية التى قد تصبح حشائش متوطنة او تنتقل الجينات منها الى اقاربها البرية.،

وهكذا لم تشارك دول العالم الثالث فى ازدهار الاغذية المهندسة وراثيا لأسباب عدة من بينها سعى شركات البذور للاستثمار الاكبر فى التكنولوجيا الجديدة تحركها دواعى الكسب اكثر من اى شىء آخر. فتلك الشركات تتجاهل مزارعى الدول المدارية الفقيرة لعدم امتلاكهم القدرة الشرائية لشراء منتجاتها ويشار أيضا الى ضعف حماية الملكية الفكرية لبراءات الاختراع لتلك المنتجات فى الدول النامية الامر الذى يثير قلق وتحفظ تلك الشركات.

ما العمل. هل تقدم الهند النموذج؟

وفق رؤية فورد رونجى وبنيامين سيناور فإن تصور الحكومة للمصلحة الوطنية غالبا ما يدفعها الى تكديس

المخزون الغذائي وتشجيع الانتاج بشكل مصطنع بدعوى حماية المستهلك من نقص الغذاء وزيادة الاسعار. وحتى رغم ان السوق العالمية قد تقدم مصدرا للسلعة بسعر ارخص الا ان الاعتماد على مصدر خارجي يعتبر لعنة ورجزا من الشيطان لدى الكثير من السياسيين وشعوبهم في الشمال وفي الجنوب. وهنا يصير الاعتماد على الذات في توفير الغذاء من وجهة نظر الكاتبين حتى بأسعار مرتفعة شكلا ومظهرا قويا من مظاهر القومية. وليس من المستغرب وجود برامج حمائية لعدد من السلع حتى وان كانت الدولة مصدرا بارزا لعدد اخر من السلع كما في الولايات المتحدة التي تحمي السكر والصوف.

ومن بين الدول النامية تمثل الهند حالة خاصة للاعتماد على النفس فقد سيطرت زيادة انتاج الغذاء وتقليل الاعتماد على الخارج في الواردات على برامج كل الحكومات الهندية منذ الاستقلال عام ١٩٤٧. ونتيجة الدعم الكبير الذي قدمته الحكومة للقمح والأرز بلغ انتاج الهند الآن عشرة اضعاف ما كانت تنتجه عام ١٩٤٧ . واصبحت الهند الآن ثاني اكبر منتج للأرز وثاني اكبر منتج للقمح وخفضت وارداتها من الغذاء من «١٠.٥» في المائة عام ١٩٦٥ الى لا شيء عام تقريبا الآن بل أصبحت مصدرا لبعض السلع مثل الارز. ولكن الكاتبين يرصدان توجهات تدعو للانزعاج خلف تلك الانجازات فقد انخفض انتاج واستهلاك الاغذية المهمة الغنية بالبروتينات مثل الدجاج والحمام والبقوليات وفي الحقيقة فانه في الفترة من ١٩٦٠ حتى ١٩٩٥ ارتفع نصيب الفرد في الهند من البروتين النباتي بنسبة طفيفة من ٤٧,٨ الى ٤٨.٧ جرام يوميا بينما انخفضت حصته من البروتين الذي يحتوى على الاحماض الامينية وهو البروتين الاكثر اهمية من ٩.٣٨٤ ملليجرام الى ٨.٧٩٠ ملليجرام.

ونتيجة لهذا فان اكثر من نصف سكان الهند لا يحصلون على احتياجاتهم الضرورية من الطاقة فيما لايحصل ثلاثة ارباع سكان الهند على الحد الادنى اللازم من البروتين فلايزال ٦٢٤ مليون هندي يعانون من سوء التغذية.

وانطلاقا من رؤيتهما ينصحان الهند بأنها لو كانت تريد حقيقة ان توفر الغذاء لمواطنيها على الوجه الاكمل فعليها ان تقبل واردات الغذاء من الخارج باختصار فإن تحرير التجارة هو الحل وهو السبيل لاستقرار الامن الغذائي والاعتماد على الذات وهو طريق زعزعة هذا الأمن.

من سراديب الذاكرة

بقلم : وديع فلسطين

- الروضـــــة يوم كـــــانت جــــزيرة
- ديوان الزهاوى المفــــــقـــــود ...
- لقاء مع ويل ديورانت صاحب قصة الحضارة

للذاكرة سراديب تختزن فيها مرائى من الماضى القريب والماضى البعيد، فتنسحب ذيول النسيان على بعض تلك المرائى، ويظل البعض الآخر حيا، وكأنه حدث أول من أمس، وفى هذه السطور مرويات من سراديب الذاكرة طفت على السطح، ولم أشأ أن أكتمها .

جزيرة الروضة

لم يعد يشار إلى حى الروضة بوصفه «جزيرة»، ربما لأنه أصبح فى واقع الأمر الجغرافى «شبه جزيرة» بل صار يعتبر امتدادا لحى منيل الروضة الذى صار يشار إليه بدوره باسم «المنيل» مع تجريده من صفة «الروضة».

ولأننى كنت على مدى أكثر من ثلاثين عاما أقيم فى حى الجيزة وطريق الأهرام، فقد كانت «جزيرة الروضة» تمثل طريقى اليومى إلى مدرستى ثم إلى جامعتى ثم إلى عملى، وكان الترام رقم ١٥ وسيلة


سلامة موسى


عبد الرزاق السنهوري


شوقي ضيف

مواصلات كريمة يقطع الجزيرة من نهاية كوبرى عباس إلى بداية كوبرى الملك الصالح فألتقى فيه بوجوه أعرف بعضها وأسمع عن بعضها الآخر. وقد احتشدت جزيرة الروضة عندما كانت جزيرة غناء بعدد غير قليل من الأدباء ورجال الفكر، يقيم أغلبهم فى بيوت مستقلة «فيلات» أو «دارات» بتعبير صاحب «الرسالة» أحمد حسن الزيات، وقد عرفت معظم هؤلاء «الروضويين» على الرغم من أننى لم أكن «شيخ حارة» فى هذه الجزيرة الوارفة الظلال.

ومن هؤلاء «الروضويين» الشاعر على الجارم بك والعلامة أحمد الشايب والعلامة خير الدين الزركلى صاحب معجم «الأعلام» وأستاذنا الدكتور شوقى ضيف (قبل أن ينتقل إلى حى الدقى) وأستاذنا الدكتور محمد مندور، والمجاهد محب الدين الخطيب (صاحب دار الفتح) والشاعر عبدالرحمن صدقى (قبل أن ينتقل إلى مصر الجديدة) ودرينى خشبة المتخصص فى الأدب المسرحى، والدكتور محمد كامل حسين المتخصص فى الأدب الفاطمى، وخالد محمد خالد (قبل أن ينتقل إلى جبل المقطم) وعالم الروح أحمد فهمى أبو الخير والقاص محمد عبدالحليم عبدالله، ومنوسى حقى شقيق يحيى حقى وكان مديرا لاستوديو مصر، والأديب السورى الدكتور زكى المحاسنى وزوجته الأديبة وداد سكاكينى وقد سكنا جزيرة الروضة عندما كان المحاسنى يعد رسالتى الماجستير والدكتوراه ثم عندما عاد إلى القاهرة ملحقا ثقافيا فى السفارة السورية، وزعيم حزب مصر الفتاة

أحمد حسين والصحفيان مصطفى وعلى أمين (قبل أن ينتقلا إلى الزمالك) .

أما حى المنيل فكان يقيم فيه أحمد حسن الزيات والأديب على أحمد باكثير والشاعر الزجال محمود رمزى نظيم (المكنى بأبى الوفاء) والدكتور حسن باشا والأديب التونسى محمد العيساوى الجمنى الذى اختير وزيرا للتعليم فى أول وزارة لثورة الفاتح فى ليبيا ظنا بأنه ليبى، وبدل اسمه إلى محمد العيساوى الشتوى.

سقت هذه المقدمة الطويلة كتوطئة إلى زيارة صحفية قمت بها إلى بيت من بيوتها سرى عليه بعد ذلك ناموس الهدم لتنتصب فى مكانه بناية شامخة تنظر إلى التاريخ نظرة زراية.

أما البيت فهو بيت محمد أمين يوسف بك والد الصحفيين مصطفى وعلى أمين، وكان يحتل زاوية بين شارع الإخشيد وشارع الروضة، وقد شممت فيه عبق التاريخ وأنا أحتل مقعدا فى غرفة الاستقبال الرحيبة فيه.

ومحمد أمين يوسف بك محام من دمياط عمل فى وظائف حكومية مختلفة وشارك فى إنشاء الجمعيات التعاونية، وعين خبيرا مصريا فى السودان أيام الحكم الثنائى المصرى البريطانى، واختير وزيرا مفوضا لمصر فى واشنطن قبل رفع درجة التمثيل الدبلوماسى إلى مرتبة سفارة، وله كتاب كبير باللغة الإنجليزية طبعه فى لندن فى عام ١٩٤٠ بعنوان «مصر المستقلة» وكتب مقدمته الصحفى البريطانى الشهير ويكهام ستيد.

كنت فى مكتبى فى الجريدة التى أعمل بها عندما زارنى محمد أمين يوسف بك على غير معرفة سابقة، وإن كنت عرفت ابنه مصطفى أمين من قبل وعرفت على أمين فى مرحلة تالية. وقال إنه يريد أن يفضى إلى بحديث عن الشئون العامة فى مصر لكى أنشره فى الجريدة، ولكنه رغب فى أن أزوره فى بيته لكى يملى علىّ نص الحديث دون أن يقطع حبل تفكيره شىء، واستأذنت رئيس التحرير الذى رحب بما طلبه أمين يوسف بك وفى الساعة المتفق عليها دققت جرس الباب فاستقبلنى رب البيت واقتادنى إلى غرفة الصالون الفسيحة وقد رصت على جانبيها الأرائك المريحة،

وقبل أن يشرع في إملاء الحديث، واضعا بنفسه الأسئلة، عنّ له أن يعرفني بالقيمة التاريخية للقاعة التي أجلس فيها، فأشار إلى مقعد وقال إن الزعيم سعد زغلول باشا كان يجلس فيه، ثم أشار إلى مقعد آخر قائلا إن الزعيم مصطفى النحاس باشا كان يجلس فيه، وأشار إلى ثالث قائلا إن مكرم عبيد باشا كان يؤثر الجلوس فيه، وسرد أسماء جميع رجالات مصر الذين أمّوا هذه القاعة، وكم أسعدني أن أجد نفسي جالسا في غرفة جمعت كل هذه الزعامات، وأن أحتل واحدا من مقاعدها كان مخصصا لكبير من كبراء الأمة. ثم أخذ أمين يوسف بك يذرع الغرفة جيئة وذهابا، وهو يملي عليّ تفاصيل الحديث الذي أجراه معي، وقد نشرته في الجريدة في حينه ونسيت معظمه، ولكن استوقفني من حديثه قوله إنه أنقذ مصر من مجاعة مروعة أصابتها في عام ١٩٣١ أيام الأزمة الاقتصادية العالمية، فارتفعت أسعار المواد الغذائية ارتفاعا مفاجئا شاهقا تجاوز طاقة سواد الشعب، واستحكمت الأزمة بسبب تلاعب التجار مستغلين النقص في غلة الأرض التي كانت المصدر الأساسي لقوت الشعب، ورغب اسماعيل صدقي باشا، رئيس الوزراء في ذلك الوقت في مواجهة هذه الأزمة، فاستعان بمحمد أمين يوسف بك على الرغم من أنه لم يكن من أصدقائه، وكلفه بمواجهة هذا الطارىء مسندا إليه منصب «مدير مكافحة ارتفاع اسعار المعيشة»، وانحصرت مهمته في السيطرة على أسعار الحاجيات الضرورية، فاستطاع في أقل من ثلاثة أشهر أن يخفض الأسعار بنسب تتفاوت بين عشرين وأربعين في المائة .

وأضاف محمد أمين يوسف بك أن الشاعر أحمد شوقي أبدى إعجابه الشديد بنجاحه في اتقاء المجاعة، ونظم بضعة أبيات قارن فيها بين يوسف الصديق الذي أنقذ مصر الفرعونية من السنوات العجاف، وبين يوسف بك الذي أنقذها من المخاطر المنذرة بالمجاعة، وأملى على هذه الأبيات التي سجلتها في الحديث وإن كنت نسيتها، وعندما بحثت عنها في ديوان «الشوقيات» بأجزائه الأربعة، وفي كتاب «الشوقيات المجهولة» بجزئيه الذي وضعه الدكتور محمد صبري

السوربونى، لم أعثر لهذه الأبيات على أثر، ولعل شوقى ارتجلها ولم يسجلها.

حكاية الديوان المفقود للزهاوى

جميل صدقى الزهاوى (١٨٦٣ - ١٩٣٦) من أكبر شعراء العراق، وقد تفرّد عن غيره من معاصريه باهتماماته الفلسفية والعلمية والفيزيائية، وتأليفه كتبا عن الجاذبية وعن الخيل وسباقها، وعن لعبة الدامة، وعن الكائنات الحيوانية والنباتية، وعن علم الفلك، كما خاض فى جدل واسع مع أعلام عصره فى العراق وفى مصر كالعقاد .

ومن دواوينه المنشورة «الكلم المنظوم» و«ديوان الزهاوى» و«الرباعيات» و«اللباب» و«الأوشال»، و«الثمالة» و«ثورة فى الجحيم» عدا أنه ترجم رباعيات عن الخيام ونشر تمثيلية عنوانها «ليلى وسمير».

وقد عرف الزهاوى بشطحاته التى تجلت بصورة خاصة فى ديوان صغير له أطلق عليه عنوان «النزغات» لم يستطع نشره فى العراق، فانتهز فرصة إحدى زياراته للقاهرة واستأمن عليه صديقه سلامة موسى عساه يتمكن من نشره، وكان سلامة موسى مستهدفا بصورة دورية من إغارات رجال الشرطة على بيته ومكتبه، وفى كل إغارة تصادر الحملة ما تصادفه من كتبه وأوراقه، فخشى على ديوان «النزغات» من أن يفقد فى هذه الحملات البوليسية، وأودعه لدى صديقه الشاعر الدكتور أحمد زكى أبى شادى رائد جماعة أبوللو .وفى عام ١٩٤٦ قرر أبو شادى الهجرة إلى الولايات المتحدة بعدما توافرت للمدنييّن أماكن فى السفن نتيجة لانتهاء الحرب العالمية الثانية فى عام ١٩٤٥، وكان سبب هجرته هو أنه ضاق بكثير من الدسائس التى تحاك حوله، فعبأ كتبه الشخصية - وهى آلاف - فى صناديق بغية نقلها معه على نفس الباخرة المتجهة إلى أمريكا بصحبة أبنائه صفية ورمزى وهدى. ولكن سلطات الجمارك اعترضت على شحن هذه الكتب ظنا منها بأنها عملية تجارية، واستكثرت أن يكون لدى شاعر أديب باحث كتب شخصية بهذا المقدار، فاضطر أبو شادى إلى تخزين هذه الصناديق فى مخازن «البوندد» فى ميناء الإسكندرية، وكلف صديقا له بمتابعة إجراءات الشحن مع السلطات المختصة.

وانقضت سنة بعد أخرى وثالثة دون أن تتحرك هذه الصناديق من مكانها، وتعرضت لكل أنواء البحر وأمطار الإسكندرية وعوامل التعرية التي أتلفت كثيرا من محتوياتها. فكتب إليّ أبو شادى - وهو يائس تماما - راجيا أن أثير هذه القضية في الصحف، ولكنني استصوبت أن أخاطب في هذا الشأن صديقي الدكتور محمد توفيق يونس وكيل وزارة المالية - ولم يكن لكل الوزارات في ذلك الوقت إلا وكيل واحد، ثم اختير وكيل ثان ليكون وكيلا برلمانيا ينوب عن الوزير في حضور جلسات مجلسي النواب والشيوخ. فبعثت برسالة شخصية بالبريد العادى دون طابع دمغة أو أختام رسمية، بل دون أن أحمل توكيلا رسميا من أبى شادى، إلى الدكتور يونس ناشدت فيها أريحته لكى يذلل العقبات التى تعترض شحن هذه المكتبة الشخصية إلى صاحبها ، ولا سيما لأن أبا شادى كان يكتب في الصحف ويذيع في الإذاعات الأمريكية دفاعا عن قضايا مصر والعروبة وعن التراث العربى، وبمجرد وصول هذه الرسالة الشخصية إلى يونس بك (الذى أصبح فيما بعد رئيسا لديوان المحاسبة، وهو شقيق عبدالحميد يونس أول مدير للتليفزيون المصرى ونبيه يونس عضو مجلس إدارة هيئة قناة السويس بعد تأميمها) هاتفنى قائلا إنه أشّر على الطلب المقدم منى بالموافقة على شحن هذه الكتب فورا، ولكن بعد عرضها على الرقيب، وقال إنه يملك سلطة الموافقة على الشحن، أما الرقابة فلها سلطتها المستقلة. فكتبت إلى وكيل أبى شادى فى الإسكندرية منبها إياه إلى صدور الموافقة على الشحن. ولكن عليه أن يحصل على موافقة الرقيب. وقلت له إن الصناديق تضم أكثر من عشرة آلاف كتاب، وإن قراءتها جميعا من قبل الرقيب تحتاج إلى سنوات، ورجوته استعجال الرقيب فى قراءة هذا الكم الضخم من الكتب! ولكن لما كان الرقيب مجرد موظف لا جلد له على قراءة عشرة آلاف كتاب، فطلب الأوراق، ووقع عليها دون أن يفحص صندوقا واحدا .

وشحنت الكتب إلى أبى شادى على عنوانه فى نيويورك، ولم يكن قد انتقل بعد إلى واشنطن، فلما بلغته تنفس الصعداء، ولكنه حزن شديد الحزن على التلف الذى أصاب غير

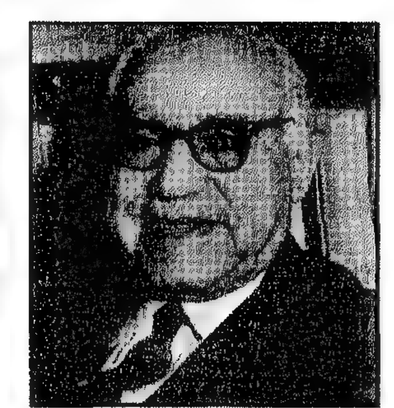
قليل من الكتب، كما أبدى لى أسفه الشديد على ضياع ديوان «النزغات» للزهاوى الذى كان فى عهدته. وإلى وفاة أبى شادى فى عام ١٩٥٥ كان يعتقد أن هذا الديوان قد فقد لتعذر الاهتداء إليه بين كتبه.

وفى عام ١٩٦٢ زارنى الشاعر العراقى هلال ناجى، وكان لاجئا سياسيا فى مصر، وقال إنه يعد دراسة كبيرة عن الزهاوى وإنه لاحظ أن سلامة موسى أشار فى كتابه «تربية سلامة موسى» إلى أنه تسلم ديوان «النزغات» من الزهاوى وأعطاه إلى أبى شادى، ورجانى أن أسعى لدى أسرة أبى شادى فى أمريكا فى سبيل الحصول على هذا الديوان، وعندما كتبت إلى صفية أبى شادى - وهى الحارسة لتراث أبيها - جاوبتنى بأنها إذْ كانت تقلب فى كتب أبيها عثرت على مخطوطة هذا الديوان الصغير مندسة بين صفحات واحد من الكتب، فقامت باستنساخها وإرسالها إلى طالبة ألا أتصرف فيها أو أعمل على نشرها لأن أسرة أبى شادى لاتملك أى حق فيها، وتكتمت الأمر بعدما تسلمت صورة المخطوطة، ولم أبح بها إلى الشاعر العراقى نزولا على الوعد الذي قطعته بعدم التصرف فيها، ولكن زيارات الشاعر تواترت وإلحاحه اشتد، فقلت له إن صورة المخطوطة عندى، ولكننى وعدت بعدم إطلاع أحد عليها أو التصرف فيها، فأقسم بأنه إنما يريد الاسترشاد بها فى دراسته وأنه سيعيدها إلىّ سالمة.

فوافقت إزاء إلحاحه المزعج على إعطائه المخطوطة مادام قد وعد بالاكتفاء بالاطلاع عليها.

وبعد أيام أعاد إلىّ المخطوطة. وبعد أسابيع زارنى ومعه نسختان من كتاب «الزهاوى وديوانه المفقود» وكتب على إحداهما إهداء لى وعلى الثانية إهداء لصفية أبى شادى، وقال إنه إنما نشر نص ديوان «النزغات» لأن من الظلم للشاعر الزهاوى أن يضيع ديوانه!، وساق لى ولابنة أبى شادى فى مقدمة الديوان ثناء عطرا لأننا هيأنا له فرصة الحصول على هذه المخطوطة. وتحملت وحدى عتابا شديدا بل لوما قارسا لأننى أخلفت الوعد وتصرفت هذا التصرف المعيب .

ثم رغبت فى معرفة حقيقة نسبة هذا الديوان إلى الزهاوى، كما أردت



احمد حسن الزيات




عبد الرحمن صدقى

على الجارم

- برغم تصرفات هلال ناجي - أن أجامله لأنه لاجيء سياسي ثم لأنه صديق ، فرجوت أستاذنا العقاد أن يتناول هذا الكتاب في مقال قمت بنشره في مجلة «قافلة الزيت» السعودية التى كنت أمثلها فى مصر فى عدد مايو/يونيو ١٩٦٣ قال فيه «إن الشواهد والقرائن التى تدل على صحة هذه النسبة كلها مقنعة بل قاطعة فى إثبات نظم الشاعر لجملة القصائد والمقطوعات التى احتواها ديوان «النزغات» بغير زيادة فيه». وقال «إننا نستطيع أن نصحح نسبة النظم فى هذا الديوان إلى الزهاوى من الدليل الداخلى فى أسلوب الشاعر النظمي كما يقول النقاد، وأظهر مافى هذا الدليل الداخلى أن أبيات القصائد والمقطوعات تشتمل على كثير من ذلك الشدّ والفتل الذى يطوّع به الشاعر كلماته لأوزان العروض».

صاحب كتاب «قصة الحضارة»

زار القاهرة فى عام ١٩٤٨ العالم البريطانى ألدوس هكسلى (١٨٩٤ - ١٩٦٤) موفدا من منظمة اليونسكو، وألقى محاضرة فى الجمعية الجغرافية الملكية كنت من شهودها، وارتأى وزير المعارف الدكتور عبدالرزاق أحمد السنهورى باشا أن يحتفى بهذا العالم، فأقام حفل استقبال كبير له فى فندق شبرد القديم الذى راح طعمة للنيران فى حرائق القاهرة فى يناير ١٩٥٢. وحضرت هذا الحفل مندوبا عن الجريدة التي كنت أعمل فيها، وهناك التقيت بأستاذى فؤاد صروف محرر مجلة «المقتطف» وكان يتحدث مع صديقى الأديب على أدهم، فانضممت إليهما فى هذا الحديث الجانبى، وفجأة التفت صروف خلفه ورأى رجلا أجنبيا قصير القامة ضئيل

الجسم أشيب الشعر، فهمس فى أذن على أدهم قائلا: مؤكد أنه المؤرخ الأمريكى ويل ديورانت (١٨٨٥ - ١٩٨١)، وهو ما وافقه عليه على أدهم من واقع صوره المنشورة على أغلفة كتبه .

وأشار على صروف أن أحاول مقابلته وإجراء حديث معه، فاقتربت من ديورانت وقلت له: أظنك المؤرخ الكبير ويل ديورانت؟ فأجاب نعم: فقلت له إننى صحفى ويسعدنى أن أجرى معك حديثا للجريدة التى أعمل فيها، فرحب بذلك ثم قال: الأفضل أن نصعد إلى غرفتى فى الفندق نفسه .

وعندما جلسنا فى الغرفة، فتح حقيبته وأخرج منها مخطوطة جزء من أجزاء كتابه الضخم «قصة الحضارة» وهو الكتاب الذى احتفت به الإدارة الثقافية للجامعة العربية فكلفت المترجم محمد بدران بأن يتوفر على ترجمة أجزائه، وبعد وفاته استكمل الترجمة الدكتور زكى نجيب محمود .

وطلبت من ويل ديورانت أن يشرح لى منهاجه فى كتابة تاريخ الحضارة من أقدم العصور فقال: من الخلال البارزة فى عصرنا الحالى أننا نعنى عناية قصوى بدراسة ماحدث البارحة، ولنا من وسائل تحقيق هذا البحث أساليب باهرة. غير أن ماحدث من ستة آلاف عام يفتقر أشد الافتقار إلى عناية منا، حتى ليصح لنا القول بأننا متخمون بالأنباء اليومية متضورون جوعا الى التاريخ، وبعبارة أخرى، أننا لانملك أساسا نستطيع به أن نحكم على الأخبار الجارية وندرك كنهها حق إدراك، وهذا يفسر لنا الموجات الفكرية التى تجتاح بلادا مدة من الزمن ثم تنجاب عنها، كموجة «السلوكية» التى ظهرت فى الولايات المتحدة أشهرا ثم اختفت.

وقال ديورانت إن دراسة التاريخ هى فى جلية الأمر خير فلسفة يتزود بها الباحث، ومن التاريخ نروم أن نعرف لاكيف كان يتعين على المرء أن يتصرف، بل كيف تصرف فعلا، وفى وسعى القول أن الرجل ذا الإلمام بالتاريخ يستطيع أن يتكهن بأحداث الغد قبل أن تقع ، لأن بوادر الثورة الروسية كان يمكن التكهن بها قبل حدوثها بسنين وسنين لكل من درس التاريخ دراسة إمعان وتدبر. وآية ذلك أن شبنجلر تكهن فى كتابه « ردة الغرب» الذى أصدره عام ١٩٢١ بالموقف العالمى الحالى (أى فى عام ١٩٤٨) .

وقال المؤرخ الكبير إن السبب فى

إغفال دراسة التاريخ هو أن المؤرخين يعرضون أحداثه بكيفية تدل بداهة على مجافاة الواقع مجافاة تامة، فهم يتخيرون مناحي معينة من النشاط الإنساني - كنشاط الحكومة أو الاقتصاد أو الدين أو العلم أو الفن أو الموسيقى أو الفلسفة أو الأخلاق - ثم يكتبون تاريخ أمر واحد مجرد من هذه الأمور، ويسوقونه مستقلا عن العوامل الأخرى، والواقع أن المرء يحيا بجميع هذه العوامل فى وقت واحد، وكل عنصر من هذه العناصر يؤثر تأثيرا أساسيا فى العناصر الأخرى فى كل جيل من الأجيال .

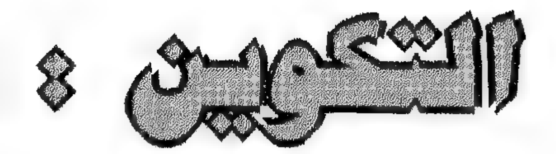
والمؤرخ ويل ديورانت معنى بكتابة التاريخ طبقا للكيفية التى بها عاش الأفراد الذين يصنع منهم هذا التاريخ، وهو مايحتم عليه أن يلم إلماما شاملا بجميع نواحى النشاط الإنسانى لتصبح للرواية التاريخية وحدتها وسلسالها .

ومما قال ديورانت : ربما كانت حضارة الغرب عاجزة عن حل معضلة «العقل» فإذا ثبت ذلك ، صدقت تنبؤات شبنجلر عن ردة الغرب واندحاره، وأصبحت الحقب القادمة مدينة بنهضتها للشرق، كما كان الحال من ألف عام .

وقال إن مصر تجد فى إيران مزاحما قويا فى الشؤون الثقافية الإسلامية، وإنه يرجو أن تستمر هذه المزاحمة لمصلحة النهضة الفكرية العربية .

واستعرض ويل ديورانت موضوعات الأجزاء الستة من موسوعته عن تاريخ الحضارة وكان وقتها قد أنجز ثلاثة أجزاء منها وقال إنه سيخصص الجزء الرابع لدراسة «عصر الإيمان» الذى خصص ثلثه تقريبا للحديث عن الحضارة الإسلامية التى تحتاج وحدها إلى مجلدات، وقال إنه لايجاملنى إذ يعتقد أن القراء المسيحيين لهذا السفر ستدهشهم إفاضته فى الحديث عن الحضارة الإسلامية، بينما طلاب الدراسات الإسلامية ستصدمهم وجازته، وقال إن موعد صدور السفر الخاص بالحضارة الإسلامية هو عام ١٩٥٠ .

ومن تصاريف القدر أن ويل ديورانت عاش حتى عام ١٩٨١ بالغا من العمر ستة وتسعين عاما فاستطاع أن ينجز مشروع «قصة الحضارة» وفقا لمنهاجه المرسوم، وهو وجورج سارطون من أكبر المنصفين للعرب وإسهامهم فى حضارة العالم .



الإرادة والـــواقـــع

رأيت في حركة الجيش إجهاضاً للحركة الوطنية

مصطفى سويف

طرد خمسين أستاذاً جامعياً عدوان صارخ على القيم ..

للحياة الإنسانية واجهات متعددة ، ومن هذه الواجهات أنها صراع متجدد بين الإرادة والواقع ، يحدث هذا بالنسبة لنا كأفراد ، ويحدث للعالم من حولنا جملة وتفصيلا .. كانت سنة ١٩٥٠ فيصلاً بين عهدين بالنسبة لى ، ولمصر ، وللعالم من حولنا . أما أنا فقد جاء تعيينى معيدا بكلية الآداب (جامعة القاهرة) فى نوفمبر سنة ١٩٥٠ تبلوراً حاداً للدور الذى أردته لنفسى قبل ذلك بخمس سنوات، وهو أن أصير مفكرا وباحثا ، ولكنى لم أخطط للتعيين فى الجامعة ؛ فلما جاء التبلور على هذا النمو أدركت ما فيه من جدة وبدأت أستعد للتعامل مع معطياته .

وأما فى حالة مصر فقد جاء وصول حزب الوفد إلى الحكم فى يناير سنة ١٩٥٠ وإعلانه بعد قليل إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ مع بريطانيا ممثلا لمستوى جديد فى الجهاد الوطنى لاستكمال الاستقلال ، وبدا عندئذ أن معظم القوى الفاعلة فى الميدان أدركت أن ما حدث يعتبر دفعة حادة لتفاعلات المخاض التى جرت فى البلاد أواخر الأربعينيات ، وأخذت كل قوة تعد عدتها للتعامل مع هذه الدفعة حسب دلالتها كما قرأتها هذه القوة . وأما فيما يتعلق بالعالم فقد بدا إندلاع الحرب الكورية فى منتصف سنة ١٩٥٠ أخطر إنذار بتصعيد الحرب الباردة بين المعسكرين الشرقى والغربى إلى مستوى حافة الهاوية ، وبدأ الكلام فعلا عن احتمال قيام حرب عالمية ثالثة .

انطلاقا من الجامعة :

أثار تعيينى معيدا فى الجامعة انقساما حادا فى وعيى بذاتى ؛ فأنا لم أشعر بأنه أضاف مكونا جوهريا جديدا إلى كيانى ؛ كانت مكوناتى الرئيسية مستقرة الجوهر والمعالم عند مجيء التعيين ؛ كانت ثلاثة مكونات : المفكر ، والباحث ، والإنسان الملتزم . ولم يضف التعيين شيئا إلى هذا الثالوث . ومع ذلك فقد كنت واثقاً من أن جديداً ما حل بى . وشيئا فشيئا بدأت تتكشف الحقيقة أمامى ، إذ بدأ القديم يستوعب الجديد ؛ فإذا هذا الجديد شحنة طاقة جديدة تتلبس بكيان الثالوث كما أحمله . وقرأت هذه الشحنة على أنه اعتراف اجتماعى يخوّل لى صلاحية أن أن أوظف حياتى كاملة فى خدمة القراءة والكتابة والعمل البحثى وهو ما كنت أحاول أن أقترب منه من قبل ولكن على استحياء ، ذلك لما كنت ألمسه من معظم المحيطين بى (من أقارب وزملاء فى وظيفتى الحكومية السابقة) . إذ كانوا يعبرون عن ضيقهم الشديد بانصرافى عن

أشكال الحياة الاجتماعية اليومية كما يحيونها ، وكنت ألقى منهم فى هذا الصدد عنتا شديداً . وكنت أبادلهم ضيقا بضيق وازوراراً بازورار ، لكن هذا السخف كله كان يضيف إلى أعبائى عبئاً لا قيمة له ويرهقنى رغم ذلك أيما إرهاق . جاء التعيين فى الجامعة فأضفى دعما معنويا على توجهاتى لا سبيل إلى إغفاله ، وبالمكيال نفسه أصاب معنوياتهم حتى خيِّل إلىَّ أنه قضى عليها أو كاد .

ومضيت فى طريقى ؛ وكانت تقتسم الطريق روافد أربعة : أحدها يخص العمل الأكاديمى ، ويضم التدريس والعمل البحثى فى الدكتوراه والكتابة المتخصصة فى دورية علم النفس . والرافد الثانى يخص الكتابة العامة (فى مجلة الفصول) والاهتمام العام ، وكان هذا الاهتمام العام يمتد إلى رصد ما يجرى فى مصر وحول مصر من أحداث طلبا للفهم أساسا ، وللتنبؤ أحيانا ، وربما شاركت بحديث هنا أو حوار هناك . أما الرافد الثالث فكانت تشغله اهتماماتى بأسرتى الصغيرة ، أنا والزوجة والكريمة . وأخيراً يأتى دور الرافد الرابع ويضم عالم الصداقة مع الأدباء الحقوقيين الثلاثة عبد الرحمن الشرقاوى ، وفتحى غانم ، وأحمد بهاء الدين ؛ والأدباء المتفلسفين الثلاثة محمود العالم ، ويوسف الشارونى ، وعباس أحمد؛ والفنانين التشكيليين وفى مقدمتهم محمد عويس ، ونبيه عثمان . وكانت الروافد الأربعة واضحة المعالم لكل منها هويته المميزة ، وكانت مع ذلك متناغمة ومتجاذبة ، وكان هذا التجاذب يصل أحيانا إلى حد التلاقى والتداخل ؛ وكان من أمتع مظاهر التداخل ما كنا نعيشه أحيانا لنقرأ ونناقش فى إطار الصداقة بعض كتاباتنا العامة ، وعلى هذا النحو نعمنا بفاتحة قصائد عبد الرحمن الشرقاوى فى طريق شعر التفعيلة «رسالة من أب مصرى إلى الرئيس ترومان» ، وكان قد كتبها متأثرا بأنباء الحرب الكورية . واستمتعنا برواية «الجبل» عندما فاجأنا بها فتحى غانم وكان قد كتبها تحت وطأة خبراته كمفتش تحقيقات فى وزارة المعارف العمومية حيث امتد عمله ليشمل ما يجرى فى مصلحة الآثار . ولكنى أعترف بأن هذا الإمتاع لم يكن يدانى فى الوزن ولا فى الدلالة ما كان يغمرنى من مشاعر تقع عند بعض مواطن التداخل بين اهتماماتى الأكاديمية وحياتى الأسرية ؛ يحدث ذلك عندما كنت أتوجه إلى طفلتى بعين الباحث العلمى لأرصد بعض وقائع سلوكها فى مواقف معينة لأضيف نتائج هذا الرصد والتحليل كمادة علمية فى فصول رسالتى للدكتوراه . وكان هذا الإجراء البحثى أمراً معترفا به من أساتذة التخصص حينئذ . وقد استخدمه فعلا عدد من أئمة الميدان من أمثال چان بياچيه ، وهنرى ڤالون ، وشارلوت بوهلر . وكانت أوجه المتعة عندى فى هذا الشأن متعددة ؛ منها هذا التوحد الذى كان يتلبَّس بى بين الأب والعالم ، ومنها حدسى بأن هذا الطريق يضمن لى الأصالة لكونى أجرى البحث على مادة جديدة هى هذه الطفلة التى لم يقترب منها باحث قبلى ، ومنها يقينى بأن ملاحظاتى على سلوكيات

الطفلة سوف تقدم عنصرا حضارياً مصريا يضاف إلى العناصر الغربية التى يزخر بها تراث دراسات الارتقاء النفسى الاجتماعي للطفل . ومنها كذلك تنبهى إلى أننى كنت بهذا المنحى البحثى أكرر ما أقدمت عليه من قبل ووفقت فيه أثناء دراستى لدرجة الماجستير ، فقد أجريت عددا من مشاهداتى عندئذ على مسودات الشعر عند عدد محدود من الشعراء المصريين ، وعلى بعض السير لعدد محدود من الشعراء العرب ، واستطعت أن أخرج منها بنتائج التقت فيما بعد مع نتائج باحثين أجانب متميزين فى مقدمتهم كاترين باتريك .

كنت أعيش فى ذلك الوقت هذه الأنواع من المتعة الراقية ، وكنت أعايش من خلالها أدوارى كما تمثلت فى الروافد الأربعة التى تقاسمت طريقى فيما بينها وكنت أعى من خلال ذلك كله أن أولويات الأدوار أضحت بالنسبة لى محددة كما لو كانت مثبتة برسمها فى اللوح المحفوظ . وكنت أعى بوجه خاص مقتضيات دورى كمواطن ، متمثلا فى الاهتمام العام إذ كان يشدنى بقوة إلى الاهتمام بالواقع (أو الخارج) السياسى ، بينما أنا مشدود بقوة أيضا إلى الداخل الفكرى / البحثى . وكنت أتقبل وطأة ما ينجم عن هذين الشدين لأننى أنا الذى أردت ذلك . وكنت رغم معاناتى التى كانت تزداد بزيادة الاضطراب فى أى من الجبهتين وخاصة فى الجبهة الخارجية (حيث مخاض مصر) كنت رغم ذلك لا أحمل أى تشاؤم نحو ما كان يجرى فى مصر حينئذ من أحداث تتضح بالعنف كالمظاهرات الطلابية وما تخللها من صدامات . صحيح أننى انزعجت بعض الشىء مما دب فيها من انشقاق بين زعامتين إحداهما وفدية (زعامة مصطفى موسى) والأخرى إخوانية (زعامة مصطفى مؤمن) ، لكن بقى انزعاجى محدودا لأننى لم أر فى ذلك ما يهدد مستقبل المخاض الوطنى ، وصحيح كذلك أننى توجست خيفة من عواقب الإعلان المفاجىء عن إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ من جانبنا واعتبرته قراراً أملته على الوفد ضرورات المزايدة السياسية على الأحزاب الأخرى وقرأت فيه مغامرة غير محسوبة ، ومع ذلك لم أر فيه تهديدا خطيرا لمستقبل المخاض .

حريق القاهرة

أما حريق القاهرة (فى ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢) فقد رأيت فيه ما يدعو إلى التشاؤم فعلا ، لأننى قرأت فى معالمه بداية محسوبة لإجهاض المخاض . فى ذلك اليوم خرجت أتجول فى أنحاء القاهرة ؛ ميدان الاسماعيلية (التحرير الآن) . وشارع قصر النيل ، وميدان الأوبرا ، وشارع ابراهيم باشا (الجمهورية الآن) .. تجولت لأشهد الحرائق بنفسى وما صحبها من نهب وسلب وتدمير لكثير من المحال التجارية ، ومحاولات للاعتداء على بعض البنوك . وفى ذلك اليوم نفسه قلت لأحد الأصدقاء إنى أتوقع أن يعلن النحاس باشا الأحكام العرفية ، وأتوقع أن ينتهز الملك الفرصة ويعلن إقالة النحاس . وقلت إنى لأقرأ فى الأحداث ما يشير إلى أن البلد يوشك أن يقع فى

قبضة حكم دكتاتورى سافر . كنت أقول ما أقول على أساس حدسى ، كانت عندى مفردات محدودة ، ولكنى كنت شبه واثق من صدق تنبؤاتى . وحدث فعلا ما توقعت. وعلى امتداد الشهور الستة من ٢٦ يناير إلى ٢٣ يوليه سنة ١٩٥٢ توالت على مصر عدة وزارات ، وبدا المشهد السياسى وكأنه فصول فى مسرحية كوميدية تجنح إلى الإسفاف . وكان أسخف ما فى هذه المسرحية الأسلوب الذى جرى به التحقيق فى أحداث الحريق، فقد قبض على أفراد من حزب مصر الفتاة ، وعلى كثيرين من الصبية أولاد الشوارع ، وانتهى الأمر إلى تعتيم إعلامى تام على المحركين الحقيقيين لأحداث الجريمة .

٢٣ يوليه سنة ١٩٥٢

فى الصباح أذاع الراديو بيانا غامضا ، يلوم الفساد الذى شاب حكم البلاد . وظل البيان يذاع من حين لآخر . ومع سماعنا البيان بدأنا نرى الدبابات والسيارات المصفحة تجوب الشوارع محملة بجنود القوات المسلحة المصرية ، وهلل الناس وصفقوا فى الشوارع كعادتهم عندما يصفقون للمواكب الرسمية. وشعرت حينئذ أننا نبدأ مرحلة جديدة فى إدارة شئون البلاد . وقرأت فى مجموع الإشارات التى توالت أمامى فى اليوم الأول نفسه أنها ستكون مرحلة حكم عسكرى مباشر . ولكننى لم أدرك فى ذلك الوقت المبكر إلى أين يصل مداها ، كمًا أو كيفا . وتوالت أحداث كثيرة بسرعات تفوق ما اعتدناه من قبل . وكان أبرز هذه الأحداث خلع الملك فاروق يوم ٢٦ يوليه ، وبروز اسم على ماهر ليتولى رئاسة الحكومة ، وظهور اسم اللواء محمد نجيب قائداً لمجموعة الضباط القائمين بهذه الحركة ، وإعلان الجمهورية فى ١٨ يونيه سنة ١٩٥٣ . واسترعى انتباهى إلى جانب مفردات الوقائع ما أخذ يطرأ من تغير مفاجىء على طبيعة الإعلام وما خلقته هذه الطبيعة من مناخ نفسى اجتماعى شمل الناس وما بينهم : امتلأت الإذاعة بالبيانات الصادرة عما سمّى مجلس قيادة الثورة ، وكانت هذه تذاع مثنى وثلاث ورباع ، وكانت لغة هذه البيانات مليئة بالتهديد والوعيد ، وفيما بين البيانات كانت تذاع الأناشيد الحماسية ، وكانت تذاع كذلك برقيات تأييد تلقاها الضباط من مواطنين مختلفين ، وكانت تذاع أيضا خطابات أرسلها مرسلوها يشكون ظلما حاق بهم على أيدى الحكام السابقين ويطلبون القصاص لهم ، وراح المذيعون يتنافسون فيما بينهم فى التجويد عند قراءة هذه الخطابات : من يستطيع أن يحوز قصب السبق فى القراءة الميلودرامية الصارخة الباكية ... وكانت حصيلة ذلك كله مناخا نفسيا / اجتماعيا / سياسيا أمكن الاحتفاظ به على درجة عالية من الالتهاب على مر الأيام والأسابيع والشهور . وبدا بمرور الوقت أن المناخ الملتهب أريد له أن يبقى على مستوى التهابه بينما كانت المضامين تتغير . وكان الالتهاب يتركز فى المعانى المبثوثة فيما يذاع ، وهى معانٍ يراد بها استثارة انفعالات بعينها . كالغضب ، أو



حريق القاهرة - يناير ١٩٥٢

السخط ، أو النفور ، أو التحقير ... الخ . وإلى جانب ذلك تخلقت للمناخ خواص أخرى ، منها الجلبة أو الضوضاء ، ومنها كذلك تسارع الرسائل ذات المعانى المتباينة أو المتعارضة . ووسط هذه الأحداث والأصوات الصاخبة ، ومثيرات الخواطر الملتهبة كانت تترامى إلى المواطنين شائعات لا أول لها ولا آخر ، ولما لم تكن مرجعية يمكن الرجوع إليها لمعرفة الحقيقة فقد أصبحت الشائعات تعامل كأنها حقائق ، وأضحى الخوف من المجهول سمة تضاف إلى سمات المناخ العام وتغلّف النفوس والعلاقات جميعا .

وفيما كنت أرصد هذه السمات الرئيسية لرسائل الحكام الجدد أذكر أننى كنت أشاهد وأسجل خصالاً كانت تظهر فى مقابلها على سلوكيات المواطنين ، كان بعض هذه الخصال تحقيقا مباشرا لما حملته رسائل الحكام (التخويف يثير الخوف مثلا) . وكان البعض الآخر ناتجا غير مباشر لرسائل الحكام ؛ وقد سجلت من بين ما سجلت الدهشة والحيرة المبطنة بالقلق . وأفاق الناس العابيون الأبرياء على أن الأيام المبكرة التى صفقوا فيها لظهور الدبابات والسيارات المصفحة فى الشوارع قد انتهت ، وكان لسان حالهم يردد المثل الشعبى .

عندئذ راحت السكرة وجاءت الفكرة .

وعندما وصلنا إلى منتصف الخمسينيات كان الناس قد تم ترويضهم

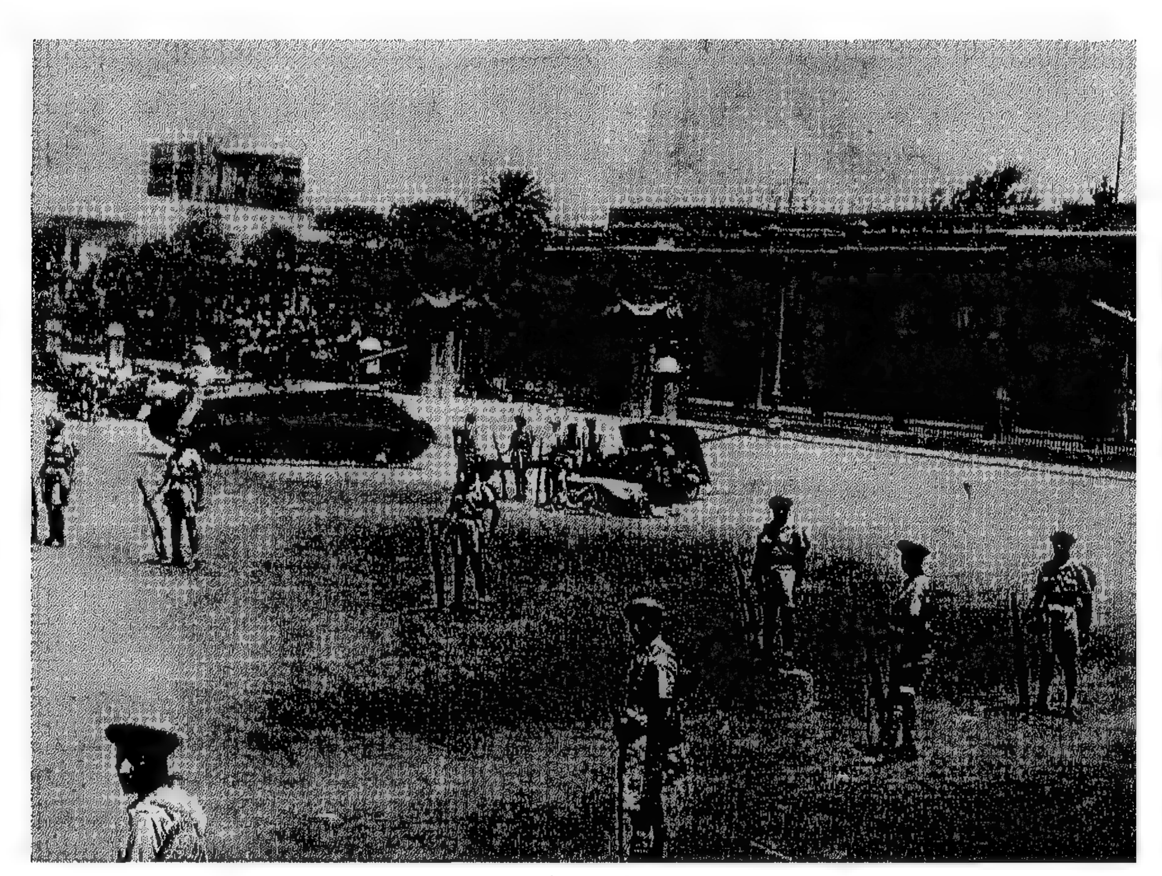
لمسالة النظام الجديد ؛ فقد عاشروه ثلاث سنوات، وتعرضوا لأحداث جسام جرت فى ظله، واعتبروا هذه الأحداث عينة فيها الكفاية تهديهم إلى تكوين صيغة نفسية للتعايش من خلالها مع هذا النظام . وكان من أهم ما توصلوا إليه فى شأن هذه الصيغة مسألة كيفية ممالأته كلٌ حسب موقعه واجتهاده . وكانت هذه الممالأة تأخذ أحيانا شكل الطاعة العمياء بغض النظر عن الإيمان بأى شىء وراء كل ما يقال من أسماء وما يطلق من شعارات . وأحيانا أخرى كانت الممالأة تأخذ شكل استجداء الرضا ، وأحيانا ثالثة تتجه لى المزايدة على الغير فتقدم الوشاية والافتراء والغدر .. الخ . وفى هذا السياق بدا إلىّ أن هذه الصيغة التوافقية جاءت كنتيجة طبيعية للإعلام بخصائصه المرصودة مضافا إليه سير وقائع الحكم وخاصة ما كان منها يصنف تحت فئة الأحداث الجسام ، وقد عرفنا على امتداد الفترة الزمنية التى أتحدث عنها أحداثا كثيرة ، بدءاً بمحاكمة عمال المصانع فى كفر الدوار . وقد وقع الاختيار فى هذه المحاكمة على العاملين خميس والبقرى وصدر الحكم بإعدامهما ليؤديا دور رأس الذئب الطائر . ثم جاءت بعد ذلك وقائع الإطاحة باللواء محمد نجيب من منصب رئاسة الدولة ، وضرب رئيس مجلس الدولة داخل مجلس الدولة ، ووقائع محاكمات الاخوان المسلمين ، وطرد خمسين (أو أربعين كما قيل بعد ذلك) من أساتذة الجامعات بقرار من وزير التربية والتعليم (باسم مجلس قيادة الثورة) . فى هذا المقام أرجو أن يدرك القارىء المعنى الذى قصدت إليه وأنا أخص بالذكر هذه الأحداث باعتبارها ممثلة لفئة الأحداث الجسام ، فأنا لا يعنينى فى هذا المقام هوية الأشخاص الذين شاركوا فى هذه الأحداث كجناة أو كضحايا رغم أن معظم الأسماء حاضرة فى ذاكرتى ، لكن ما يعنينى هو ما انطوت عليه هذه الأحداث من عدوان صارخ على منظومات قيمية معينة ، تحتل مواقع بالغة الخطر فى المنظومة القيمية الكبرى التى نستظل بها فى مجتمعنا المصرى (فنتعامل من خلالها ، ونترابط ونتكامل بفضلها) ، وما يترتب على هذا العدوان من تداعيات فكرية ووجدانية تهون على نفوس أصحابها الانزلاق إلى الاستخفاف (ولو على مستوى التصور أولا) بكل ما يربط الفرد بالآخر فى المنظومة الاجتماعية ، ثم من الاستخفاف المتصور إلى الاستهانة المنطوقة ، ومن هذه إلى مستوى الفعل فى الخفاء ، ومنه إلى الفعل المصحوب بالتحدى ، ثم إلى مستوى التحريض ، ومن حصيلة ذلك كله تحدث الشقوق فى بنيان المجتمع ، وإذا نحن نتكلم عن درجات من التخلخل أو التفكك الاجتماعى لا سبيل إلى درء أخطارها بأى علاج مباشر ؛ وهو ما وصلنا إليه فى الوقت الحاضر . ولا يعنى حديثى هذا أن كل ما نعانى منه الآن من من مظاهر التخلخل الاجتماعى إنما يرجع إلى أحداث تلك الأيام التى أتناولها بشهادتى هذه . ولكن

يعنى أن تلك الأحداث أسهمت إسهامات خطيرة فى هذا الاتجاه . يوما من الأيام ينبغى لأهل الاختصاص من مواطنينا أن يكتبوا عن الإطار العلمى الذى يوضح ويفسر الصلة الوثيقة بين نظم الحكم المختلفة وأنماط الأخلاق العملية التى تسود بين المواطنين فى ظل كل منها ، ثم عما يترتب على ذلك من آثار بعيدة المدى فى منظومات القيم التى تحفظ على المجتمع تماسكه من خلال تكامله .

العالم الكبير فى أوائل الخمسينيات

كانت هناك أوجه شبه لا يمكن تجاهلها بين الخصائص العامة للمناخ السياسى الذى ساد فى مصر . وفى العالم من حولها على امتداد الخمسينيات المبكرة ، وكانت هذه التشابهات تثير تساؤلاتى : كان الالتهاب فى الداخل وفى الخارج ، وكانت الضوضاء هنا وهناك . وكان كذلك تسارع الأحداث مع أقدار من التعارض فيما بينها ، وتعالى النغمة العدوانية ، ومعاناة سواد الناس مما يمكن وصفه بأنه بطانة من الخوف الغامض نحو ما قد يتكشف عنه الغد . وكانت تساؤلاتى تدور حول مصدر هذا التشابه ، هل جرت عملية تعلم وتدريب ، فتعلّم أحد الطرفين (وهو الداخل غالبا) على يد الطرف الآخر؟ أم تعلّم الكل من المدرسة النازية وما كانت تفعله أيام الحرب ، وقد سمعت بنفسى محمد نجيب وهو يخطب ذات مرة فى ميدان الاسماعيلية (التحرير) فيضرب المثل بهتلر ونظامه . ويقول كان هتلر إذا وقف ليخطب فى الناس ساد صمت تسمع فيه رنة الإبرة . سمعت ذلك بنفسى وهو قول يوحى بالاستعداد للتعلم من النموذج المذكور ، أم أن المسألة كانت أعقد من ذلك ، فالكل كان يسهم بما تجود به قريحته والكل كان يتعلم من الكل ؟ على أية حال لم أجد بدا من إثبات هذا التشابه اللافت للنظر !.

كان العالم لا يزال يعيد ترتيب أولوياته بعد الخروج من الحرب ، وكان ترتيب الأولويات يتم فى إطار من تزايد الاستقطاب بين غرب تقوده أمريكا ، وشرق يقوده الاتحاد السوفييتى ، ولأسباب مفهومة ولا محل لمناقشتها هنا كانت أنباء القرارات والأحداث تنهمر علينا من الغرب أكثر مما تنهمر من الشرق . وبدا بوضوح أن معظم الزعامات فى العالم فى عجلة من أمرها ؛ وكنت أتساءل حينئذ : وهل الشعوب كذلك كانت فى عجلة من أمرها ؟ أم أن هذا التعجل كان مزاجا خاصا بالزعماء المتعجلين ؟ وكنت أقرب إلى الإجابة بأن التعجل كان وقفاً على الزعامات ومن لاذ بها ؛ ولماذا ؟ هل لأن هذه الزعامات كانت ترى نفسها فى حالة سباق مع معارضيها (أو أعدائها الحقيقيين أو الوهميين) ؟ أم أن المسألة تتم بصورة مغايرة لما نرى ، وأن الأتباع هم الذين يغرون الزعامات ويدفعونها دفعاً إلى هذه العجلة لأن لهم فى ذلك مآرب أخرى ؟ كانت هذه الأسئلة جميعا تدور فى ذهنى وتمتد فى مجال تطبيقاتها لتشمل الداخل والخارج .



الدبابات تحاصر قصر عابدين

وعندما كنت أولّى وجهى شطر الخارج كنت أرى حكومة الولايات المتحدة الأمريكية تحاول الهيمنة على كل صغيرة وكبيرة فى حياة الشعب الأمريكى وشعوب المنطقة التى يمكن أن تمتد إليها ذراعها . وقد أشاعت مفهومين محوريين للتعامل على أساسهما مع الجميع : «الأمن القومى الأمريكى» ، و«طراز الحياة الأمريكية» ؛ الأخير لضبط إيقاع الشعب الأمريكى أولا ثم شعوب العالم من بعده ، والأول لضبط الإيقاع فى دائرة النفوذ الخارجى أولا . ثم فى الدائرة الداخلية بعد ذلك . وكانت أعلى صيحة للضبط فى الداخل هى ما عرف بالصيحة المكارثية ، (نسبة إلى چون مكارثِى عضو مجلس الشيوخ الأمريكى والمتزعم لحركة التحقق من صدق الولاء لطراز الحياة الأمريكية» . أما الضبط فى الخارج فكانت له أدوات متعددة : منها ما هو خشن عنيف ، وما هو ناعم رقيق . كان فى مقدمة أدواتها الخشنة نموذج الحرب الكورية الذى ساقت إليه معظم أعضاء الأمم المتحدة ومعهم علم المنظمة ولكن تحت القيادة الأمريكية ، ومنها الأحلاف العسكرية ، وفى ذلك الوقت كانت تسوق بكل المغريات حلف بغداد (ليربط بين بغداد ، وايران ، وباكستان، وكانت تدفع مصر دفعاً للانضمام إليه) ، ومنها الاشتراك فيما سمى بعد ذلك بالأعمال القذرة ، والمثال النمونجى لهذه الأعمال نزول الأمريكيين

أنفسهم (بقيادة كيم روزفلت) إلى الشارع الإيراني لضرب محاولة مصدق لتأميم البترول الإيراني .. الخ أما الأدوات الناعمة الرقيقة ، فمنها تصدير السلع الترفيهية التي يقرها الذوق الأمريكي الحائز للرضا ، وفي مقدمة هذه السلع مارلين مونرو للمتعة المشوبة بالجنس ، وإلفيس بريزلي للمتعة المشوبة بالمخدرات وجيمس دين للمتعة المشوبة بالعنف . ولا بأس من تصدير سلع تثقيفية كذلك مثل مؤسسة الفرانكلين للطبع والنشر لأنها في نهاية الأمر سوف تمسك بمفاتيح كثيرة .

ولم تكن الرسائل الواردة من المعسكر الشرقي حينئذ تفضل رسائل الغرب كثيرا من حيث خصائص الالتهاب ، والضوضاء، والعدوانية ، والتناقض ... الخ . فقد تفجرت الخلافات بين الاتحاد السوفييتي ويوغوسلافيا واتهم تيتو بالمروق إلى اليمين عندما اختلف مع فكر ستالين ، وتمزق التحالف بين الاتحاد السوفييتي والصين ولكن دون أن تتعرض الصين للإهانات التي تعرضت لها يوغوسلافيا (وذلك عملا بمبدأ الانتهازية في العلاقات الدولية الذي لا يزال سائدا حتى يومنا هذا) ، وفي تشيكوسلوفاكيا أعلن عن اكتشاف مؤامرة سميت مؤامرة سلانسكي وصدرت أحكام بالإعدام على من اعتبروا متآمرين ، وفي الاتحاد السوفييتي أعلن عن اكتشاف مؤامرة شارك فيها أكثر من عشرة من الأطباء اليهود ، وبعد أربعة شهور أعلنت براءتهم ، وفي هذه الأثناء كان ستالين قد توفي وتولى بعده نيكيتا خروشتشيف السكرتارية العامة للحزب .

وبعد بضعة شهور أعلن عن تجريم بيريا رئيس المخابرات السوفيتية وتم إعدامه في ديسمبر سنة ١٩٥٣ . ثم بعد قليل أعلن عن زيارة خروشتشيف ليوغوسلافيا ورد الاعتبار إلى زعيمها تيتو .

أما بعد

فهكذا كانت الرسائل الواردة من الغرب والشرق ، في تلك الفترة ، تنطق كلها بخصائص المناخ السياسي الذي ساد العالم : الالتهاب ، والضوضاء ، والتناقض ، والعدوانية وبث الخوف المبهم في نفوس الناس البسطاء ، الذين يشعرون بما يجري حولهم ، ولكن لا يفهمون لماذا . وكذلك كانت الأمور تجري في مصر في الفترة نفسها ، والبسطاء بسطاء في كل مكان ، يشعرون ولكن لا يفهمون .

ومع الاقتراب من منتصف الخمسينيات بدأت الدعوة إلى «الحياد الإيجابي» في السياسة العالمية ، بدأت بصوت خفيض ، لكنه ينطوي على قدر معقول من الحكمة ، وبدأت أصداء هذا الصوت تتردد عندنا في مصر . وفي ذلك الوقت كنت قد أنجزت رسالة الدكتوراه ، ورأيت رغم جنون العالم من حولي ، ووقوفا في وجه هذا الجنون ، أن أدبر للسفر إلى أحد مراكز العلم المتقدم في الخارج لأرقى بعلمي وأؤدي رسالتي .

أنت والهلال

خطابات كثيرة تلقيناها من أصدقاء الهلال... تتناول بالتعقيب مقالات نشرت فى أعداد إبريل ومايو ويونيه من هذا العام، وكل يتناول موضوعا أعجبه، أو معلقا على ماجاء به.. وهذا التفاعل من جانب قراء الهلال يجعلنا نبذل المزيد من الجهد لنحقق الهدف المنشود.

اكتشاف الموسيقى فى العصر الفرعونى

يقول عادل شافعى الخطيب: بعد قراءتى للموضوع الذى كتبه د. فتحى صالح فى عدد يونيه الماضى..

إذا كانت التجربة التى تحدث عنها د. فتحى صالح قد أثبتت أن الموسيقى الفرعونية قد استخدمت الربع تون، فمن باب أولى أن تكون قد عرفت أيضا النصف تون.

وإذا كانت بعض الرسومات والنقوش على الآثار المصرية توضح أن المغنين الفراعنة كانوا يضعون أيديهم على آذانهم أثناء الغناء، فإن هذا قد يعطى مؤشرا بأن الموسيقى الفرعونية قد عرفت الموال أيضا، وبهذا تسقط المقولة التى تذكر أن البرامكة هم أول من تغنوا بالموال.

وإن وجود حضارة متقدمة فى عصر من العصور، يعد دليلا على وجود موسيقى راقية.

وتأكلون التراث أكلا لما

يعلق نبيل عبدالرحمن دربك على مقال الدكتور محمد رجب البيومى المنشور فى عدد مايو، وأرسل رسالتين فى هذا الصدد بقوله: إذا كان الهدف من اتخاذ هذا العنوان «وتأكلون التراث أكلا لما» هو الاستعارة أو الاقتباس من الأسلوب القرآنى، فيجب ألا توضع الآية كاملة، وإنما يحذف منها كلمة أو حرف لتكون مثلا «تأكلون التراث أكلا لما» فحذف حرف الواو وحده يخرج العبارة عن كونها قرآنا، ذلك لأن التأويل الصحيح يقع عندما يظهر فى كلام الله تعالى معنى، يستحيل أن يكون مرادا لله عز وجل، مثل قوله تعالى: «أمرنا مترفيها ففسقوا فيها» ولأن الله تعالى لا يأمر بالفسق، لذا يجب صرف المعنى فى (أمرْنا) إلى أحد مجازات الكلمة وهو «أكثرنا عددهم».

عدد رائع

ويتناول فيصل حجاج عدد مايو ٢٠٠٠ مشيرا إلى إعجابه بموضوع التغريب فى الجزائر، وأنه حقق لديه متعة وإضافة إلى معارفه ، كما أشاد بالجزء الخاص عن العالم د. رشدى سعيد، ولأن فيصل يعمل مذيعا بإذاعة الإسكندرية، فقد قال إنه سوف يتناول شخصية د. رشدى سعيد من خلال برنامجه الإذاعى «لمسة وفاء» وفى حلقة خاصة.

ولم ينس أن يتحدث عن مقال الزميلة الأستاذة صافى ناز كاظم ، وماكتبته عن الشاعر الرقيق محمد إبراهيم أبو سنة ، ومقال د. رجب البيومى «من واقعنا الثقافى» ، وأيضا مقال د. عبداللطيف عبدالحليم ، والشاعر اليمنى درهم الجبارى، واختتم رسالته بقوله: أتمنى للهلال، منبع الثقافة الأصيلة فى العالم العربى أن تزداد نجاحا على نجاحها، وأن تظل تمتعنا على الدوام بما تقدمه من ثقافة رفيعة.

وليمة لأعشاب البحر

ومن المنشأة ـ سوهاج ـ قال الصديق قدرى صابر توفيق: أين الهلال من هذه المعركة الثقافية حول «رواية حيدر حيدر :وليمة لأعشاب البحر»..

وردا على هذا التساؤل نرجو من الصديق أن يقرأ افتتاحية الهلال عدد يونيو الماضى، وفى كلمات محددة جاء رأى الهلال التى ترفض أن نعود إلى «تفكيك ثقافتنا الوطنية والنيل منها، فلا يمكن لأحد أن يتخيل أن مجموعة شديدة التعصب تعتنق مناطق التفتيش، وتتصور أنها وحدها تملك الحقيقة، وتجعل من نفسها حكما على الإنتاج الأدبى والفنى، وتستبدل الإرهاب الفكرى بالحوار الهادىء، وكأننا نعود سريعا إلى عصر الدجالين والجهلاء، ونفتش فى تلافيف العقل والضمير».

ونؤكد للصديق أننا نكن الحب والتقدير لكل الكتاب الذين يرشحهم للكتابة فى الهلال، وفى مقدمتهم الصديق الكبير الدكتور حسن فتح الباب.

●● إلى عبدالحميد الصراف ـ أحد مشتركى مجلة الهلال والذى يعيش فى كاردف ـ ويلز ـ المملكة المتحدة.

ملاحظتك مهمة للغاية، ولكننا فى «الهلال» نشير أحيانا إلى بعض التجاوزات التى تطلقها بعض الشخصيات، لكى نتوقف عندها ونحترس مما يحاك ضدنا فى الظلام، أو فى العلن، ومن هذا المنطلق نشرنا رأى مادلين أوليرايت، والتى تزعم أن العالم فى حاجة إلى زعامة الاستعمار الجديد!.

نشيد مصر

نخيل جنب شطان ... ونيل يروى ظمآن

وورد فاتح اللون ... ونرجس حلو وسنان

وبستان كما الجنة ... وعصفور وكروان

وأمواج لنا تهتف ... فلا عيش لكسلان

فأبنائى لهم مجد ... لهم فضل وإحسان

وأهرام حضارات ... لها الأديان بنيان

وعلم ذاخر يجرى ... يسرى بين وديان

فأزهرنا لنا يشهد ... لنا ينطق بعرفان

فكم ضاء من الدنيا ... وكم جاهدت طغيان

لك الأخلاق باقية ... ومجدك عالى الشان

فما يسبقه أمجاد ... وماينساه إنسان

أحمد نادى بهلول
ديروط - نادى الأدب

هل يمكن إنتاج العباقرة؟

العباقرة لايصنعون، بل يبرزون بإرادتهم الذاتية ، والمجتمع قد يحميهم ويشجعهم وقد يهدمهم أيضا.. وبذلك يكون المستفيد الأول من وجودهم كما يكون الخاسر الأكبر عند فشل ظهورهم، فليس العبرة باختيار مجموعات من البشر على أمل اكتشاف وتنمية العباقرة، فذلك تبذير كبير ورعاية زائدة في غير فائدة، وقد يدخلها تحيز فى غير موضعه.

كما وأن هؤلاء المختارين حتما يصيبهم الغرور، والعبرة تكون برعاية التعليم ككل وليس رعاية مجموعات بعينها، والأهم هو الاتجاه إلى إصلاح ردود أفعال المجتمع بجميع عناصره وطوائفه الإدارية والتعليمية والإعلامية والمجتمعية.

وعندما يقل صراع العباقرة مع مجتمعهم، تتاح الفرصة لأكبر عدد منهم فى

النجاح بإنتاجهم، وبدلا من ظهور عدد محدود لا يجدون الفرصة أمامهم وحولهم ويفزعون عدوا إلى مجتمعات أخرى خارجية ، تكون صالحة لنمو أفكارهم ولتحقيق طموحاتهم، تكون أعداد النوابغ فى ازدياد وتكون أسرع ظهورا فى مجتمعنا.

فإنهم فى الواقع عدة المستقبل، ونتاجهم الفكرى والتطبيقى يثرى المجتمع ويعود على أفراده بالخير والرفاهية..

مهندس/ رستم غالب عباس
صديق الهلال

وحدة الأرض

زغردى واسعدى بكل الأماسى	واملئى الأرض بهجة ياحواسى
فأنا اليوم أحتفى ببلادى	وبلادى جديرة بحماسى
قد يكون البعاد عنها مريرا	وعذابا، وإنما لست آسى
فهى فى خلد مهجتى حيث كنت	وهواها يدوم عزى وبأسى
تلك أرضى حملتها فى جنانى	رسخت فيه كالجبال الرواسى

★ ★ ★

هيه ياناظر العيون لكم ذا	ذبت من هجرك وكم كان قاسى
ولكم زقزقت عصافير قلبى	حينما التم شمل أهلى وناسى
موطن العرب كان يحلم فيها	هى للجمع والوئام الأساسى

درهم جبارى
سان فرانسيسكو - كاليفورنيا

الرواية البوليسية .. والأدب الرفيع

لكل من الرواية البوليسية والرواية الأدبية صفاتها وخصائصها الخاصة التى تحدد قيمتها، فنجد أن القيمة الأدبية بينهما مختلفة اختلافا كبيرا.. فبينما للرواية البوليسية قيمتها الأدبية المتواضعة، نجد أن الرواية الأدبية على العكس من ذلك، فهى ذات قيمة

أدبية وفنية عالية، وقد تصل إلى مستوى «الأدب الرفيع» فى بعض الأحيان، وهناك مفارقة غريبة، فمن بين مؤلفى الروايات البوليسية من حقق شهرة ومجدا وصيتا ومالا لم يحققه أى كاتب روائى عالمى، ويتجلى هذا فى أعمال «سير آرثر كونان دويل» مبتكر شخصية مفتش المباحث «شرلوك هولمز» الذى كتب مئات الروايات البوليسية التى ترجمت إلى كل لغات العالم تقريبا، وماينطبق عليه وعلى أعماله ينطبق على الروائية البوليسية البريطانية «أجاثا كريستى» وعلى أعمالها أيضا، ثم المؤلف والمخرج السينمائى والتليفزيونى الأمريكى الجنسية البريطانى الأصل «الفريد هيتشكوك».. ومن الملاحظ أن هناك من بين كتاب الرواية الأدبية كتاب اتسمت بعض رواياتهم بطابع بوليسى، أذكر منهم: الجريمة والعقاب لديستويفسكى، والقاضى وجلاده للكاتب السويسرى فريدريش دورنمات ..

والرواية الأدبية دائما ماتكون موضع المحافظة عليها ممن يقرؤنها، ويرجع الفرق فى القيمة الأدبية والتراثية بين الرواية البوليسية والرواية الأدبية إلى عاملين:

١ ـ تعتمد الرواية الأدبية على عرض فكرة أو أفكار إنسانية بين طياتها، بينما لايتوافر هذا الركن فى الرواية البوليسية؛ حيث يقتصر السرد والوصف والحوار على مايخدم فنية العرض والحبكة الروائية فقط من حيث إبراز العقدة أو اللغز أو التوصل إلى كشفه.

٢ – ويستتبع هذا بالضرورة أن يكون هناك فرق فى كيفية استخدام الألفاظ.

يحيى محمود حسين
القاهرة ـ مصرالجديدة

عندما يفوح الكبرياء

يازهرة المروج كم سقاك نهر من ضياء
خلناك فى الربا خمائلا تفوح بالنماء
عشنا على ذكراك نهفو بالأمانى والغناء
نذوب شوقا فى المدى بين النسيم والرجاء
راح الندى يغشى غصوننا آلته بازدراء
ثم ارتوى أطياف عشق بالمنى وبالحياء
ماذا أقول، إن طيوفى عاتبتنى فى جفاء؟!

عن الرؤى، عن الصبا، عن الحنين والصفاء
ماذا أقص للفراش حين يدنو للمساء؟!
عن أغنيات احتوتنا بالجوى عند اللقاء
إن اللحون عاودتني باللهيب والنداء
مهما أشحت العطر عني ـ مهجتي ـ في كبرياء
دوما سأسخو في الظما، أنهار فيض بالبهاء
دوما سأرقب الصدى ـ صبابة ـ بلا انتهاء.

عبدالناصر أحمد الجوهرى
نادى أدب المنصورة

قصة قصيرة

أسرع يمد الخطى.. يخترق الصفوف.. يتفحص أوجه المارة.. يبحث عنها.. لقد اعتادت المرور من هنا..

الساعة تقترب من الثانية ظهرا.. حان موعد عودتها.. تسارع خفقان قلبه.. بدا عليه الارتباك.. تأهب لمقابلتها.. بدأ يحادث نفسه:

ـ هذه المرة سأكون شجاعا.. سأتحدث إليها أو أخبرها بمقدار حبي لها وإعجابي بها.. لاً.. لا.. لن أقول هذا من المرة الأولى.. نظرة.. فابتسامة.. سأكتفي اليوم بلفت نظرها.. لكن.. أين هي؟!.. لم لم تظهر بعد؟!.. لقد تأخرت.. أأكون وصلت بعد فوات الأوان؟!.. كلا.. مايزال الوقت مبكرا.. قد تكون مريضة..!

أيقظه مما هو فيه صوت بائع الصحف.. الناس ملتفون حوله.. يرمقونه بنظرات غريبة كما لو أصابه مس من الجنون.

سمع كلمات متطايرة لم يتبين صاحبها:

ـ لاحول ولا قوة إلا بالله.. يامثبت العقل والدين.

اشترى صحيفة.. شرع في تقليب صفحاتها متظاهرا بالانشغال بها.. وعيناه مركزتان على الطريق.. اشتدت الحرارة.. العرق يتصبب على وجهه.. أحس مشاعره تسيح في هذا القيظ وتنساب أمامه..

ـ ماذا حدث لها؟!..

تعب من الوقــوف .. مـل الانتظـار.. شعـر أن قـدميه قـد تصلبـتا.. افتـرش الصـحيـفـة.. وجلس يرقب المارة مـوزعا نظراته بين الطريق وعـقـارب الساعة.

ـ لماذا لم تأت بعد؟!.. هل حلت عليها اللعنة؟!..

تنبه فجأة إلى طفل يمد يده إليه.. حدق فيه بدهشة.. قال الصغير:

ـ لو كنت أملك غيرها لأعطيتك أكثر.

صرخ فى وجه الصبى صرخة أفزعته:

ـ ما هذا اليوم المليء بالحمقى والمجانين؟!..

نهض.. نثر الغبار عن ملابسه ، اندفع نحو الشارع على غير هدى.. فتح عينيه.. الدم يسيل من رأسه.. أحدهم يقول:

ـ أنا آسف.. لم أنتبه أثناء عبورك الشارع.

تبادر إلى سمعه فى تلك اللحظة.. صوت أنثوى رقيق:

ـ دعنا نذهب به إلى المستشفى ياحبيبى..

نظر باتجاه الصوت.. وفى السيارة كانت المفاجأة!!

عادل فرج عبدالعال
كفرشكر

أحبك

أحبك حبا يفوق احتمالى ... أحبك حبا بعيد المدى

ومهما أخضب ليلى خشوعا ... تضيع ابتهالات ليلى سدى

ومهما قطفت النجوم السهارى ... وسحب الأمانى وغيث الندى

وسقت حنينى إلى منتهاكا ... وسقت أنينى إلى المبتدا

وأترعت كأسى بلحن هواك ... وأبدلت نفسى ضلالا هدى

إيمان محمد العطيفى
الشيخ شبل ـ المراغة ـ سوهاج

توصيات مهمة لمجمع اللغة العربية

جاء من بين توصيات مؤتمر المجمع اللغوى فى دورته الأخيرة ، العناية بتعليم اللغة العربية واللغات الأجنبية فى التعليم الجامعى والعالى وفى جميع مراحل التعليم.

كما رحب المؤتمر بالمنهجية التى أعدها اتحاد المجامع اللغوية، لصوغ المصطلحات العلمية بالفصحى.

وأن تضبط كتب التعليم جميعا بالشكل الدقيق، حتى ترسخ الفصحى ونطقها السليم فى نفوس الطلاب.

وأن يستحدث المجمع لجنة للغة والإعلام، تكون مهمتها الأساسية متابعة ما يذاع من البرامج والمسلسلات والنشرات، وتسجيل أخطائها وتصحيحها والتعليق اللغوى عليها، حفاظا على الفصحى فى ألسنة الإذاعتين «التليفزيون والإذاعة» وحماية لها من التحريفات.

اغتيال قلب

وردتى قلبى أسير فى جواه
كم تلظى فى بواكير صباه
كان عصفورا يغنى فى ضلوعى
ثم أمسى نائحا خارت قواه
لم يدع فى الأرض شبرا دون شجو
تائها يرنو إلى شط النجاة
قد تناسى كل حب لايبالى
أن جرح القلب يغتال الحياة
هكذا الإنسان فى الدنيا ضليلا
لايرى إلا سرابا فى فلاه

حاتم عبدالمحسن غيث
طلخا

الكلمة الأخيرة



النساء يغزلن السلام

فـــوزية مـــهـــران

أعظم تجمع للنساء فى التاريخ وقع فى المؤتمر الرابع للمرأة فى بيجين ١٩٩٥.

قالت «جيرترود مونچيلا» سكرتير عام المؤتمر «ها نحن أخيرا.معا»

– جئنا من كل بقاع العالم – ركبنا البحر والطائرة والقطار لنكون معا – ربما نتكلم لغات شتى – نعيش فى نظم اجتماعية وسياسية وثقافية مختلفة ومع ذلك – لسنا هنا لنفسح مجال الخلاف – ولكن لنتبادل التجارب والخبرات ولننظر فيما لدينا والمشترك بيننا – نحاول أن نزيح المعوقات – نسمع صوتنا للعالم .. ونعمل من أجل تحقيق «المساواة – التطور – السلام» وهو شعار المؤتمر .

– كانت رسالة المؤتمر حقا ضرورة أن يعيش الإنسان بكرامة وتوافق وسلام. معناه عزم النساء على التضامن والمساندة وتوحيد الجهود والعمل لإنقاذ العالم – والقضاء على كل أشكال التمييز ضد المرأة .. وضرورة مشاركتها فى تقرير مصير الحياة .

قضية المرأة هى قضية شعوب وحرية وحقوق الإنسان. قضية الأغلبية الصامتة التى تساق إلى مآسى الحروب والقتال والعذاب والفقر والاستغلال .

نعرف أن الطريق طويل وعسير لكن أشواق الحرية والعدل والتقدم لاتخبو أبدا – والمؤتمر فرصة لتوحيد الجهود، ولدفع قوى جديدة ورؤية حديثة وخلق أسباب أفضل للحوار والتفاهم وصياغة العالم .

أسفر المؤتمر عن قوة جديدة فى العالم – قوة النساء.

(ليست قوة ضاغطة بل فاعلة ودافعة) قوة دفع إلى الأمام.. تنطلق من أجل عالم أفضل للجميع .

كان مشهدا فريدا والنساء يحملن شريطا من قطع السجاد – أحكمت خياطتها معا – لوحات حية ومن التراث صنعت على أعين النساء ومن خلال هدهدة الصغار – نسيج حب واتقان وجمال وإيمان – النساء يغزلن حنايا العالم معا .

مسيرة طويلة جديدة تعلن أن بإمكاننا تدفئة العالم ولف الأرض بدعائم الاستقرار والأمان .

يرتفع الغناء للسلام – موثق النظر بقوة إلى أمام – تصاعد الترتيل والنشيد مع موسيقى بتهوفن وحلقت الآمال .

وجاءت دورة الجمعية العامة الاستثنائية – نيويورك ٢٠٠٠ لمتابعة تنفيذ مؤتمر بيجين.

يعلن كوفى عنان أن قضية المرأة ترتبط بكل قضايا الأمم المتحدة وتتداخل فيها – وأن للمرأة دورا أساسيا لتحقيق السلام والأمن وحقوق الإنسان.

هيا نساء العالم – توجهن إلى منطقة القلب – إلى الشرق الأوسط – من هنا نبدأ – لنقيم السلام «الحقيقى» وكرامة الإنسان .

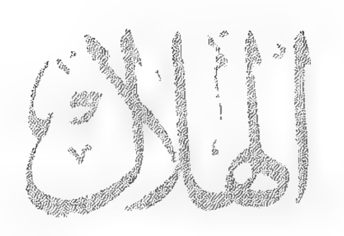


أغسطس ٢٠٠٠ • الثمن جنيهان

ابن رشد وابن حزم في شوارع قرطبة

مذكرات علي عبد الرازق حول كتاب «الإسلام وأصول الحكم»

حاضر الشعر ومستقبله



مجلة ثقافية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجى زيدان عام ١٨٩٢
العام الثامن بعد المائة

أغسطس ٢٠٠٠م ● جماد أول ١٤٢١ هـ

الإدارة القاهرة – ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت . ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) . المكاتبات : ص.ب . ٦١ – العتبة – الرقم البريدى: ١١٥١١ – تلغرافيا – المصور – القاهرة ج. م. ع. مجلة الهلال ت ٣٦٢٥٤٨١ – تلكس . 92703 Hilal un فاكس . FAX ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكترونى : darhilal@idsc . gov . eg

ثمن النسخة سوريا ٦٠ ليرة – لبنان ٣٠٠٠ ليرة – الأردن ١٢٠٠ فلس – الكويت ٧٥٠ فلسا، السعودية ١٠ ريالات – تونس ١.٧٥٠ دينار – المغرب ١٥ درهماً – البحرين ١ دينار – قطر ١٠ ريالات – دبى/ أبو ظبى ١٠ دراهم – سلطنة عمان ١ ريال – الجمهورية اليمنية ١٢٠ ريال – غزة/ الضفة/ القدس ١ دولار – إيطاليا ٤٥٠٠ ليرة – المملكة المتحدة ٢.٥ جك

الاشتراكات قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عدداً) ٢٤ جنيها داخل ج.م. تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية – البلاد العربية ٢٠ دولارا. أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولاراً. باقى دول العالم ٤٥ دولاراً

●وكيل الإشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيونى زغلول – ص ب رقم ٢١٨٣٣ – الصفاة – الكويت – ت/ 13079 ٤٧٤١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم أرسال عملات نقدية بالبريد .



فكر وثقافة

حاضر الشعر ومستقبله



تصميم الغلاف
الفنان
محمد أبو طالب

جوائز الدولة

فنـــون

القصـــة

دائرة حوار

التكوين

الأبـــواب الثـــابتة

مازالوا يحجبون الجوائز!

عزيزي القاريء ...

فى كل عام تثور مشكلات كثيرة حول جوائز الدولة، وتكثر الشائعات والأقاويل قبل اعلان أسماء الفائزين بالجوائز، وكأنها مباراة محتدمة بين مثقفى مصر وفنانيها ومفكريها، والذين يتوقف ابداعهم فى هذه الفترة من كل عام، وربما قبلها بعدة شهور فى انتظار الحصول على الجائزة، وكأنها جواز المرور، أو شهادة ميلاد تثبت فعلا أنهم أدباء أو فنانون يشار اليهم بالبنان .

ففى الوقت الذى تعمل فيه اللجان بالمجلس الأعلى للثقافة كانت التصريحات تملأ الأسماع، حول من يستحق أو لا يستحق الجائزة، وتبدأ حيثيات الجدارة بها تنطلق من هنا وهناك تشايع هذا الأديب أو الناقد أو الفنان، وتخرج التكهنات التى توضح الصراع بين هذا الأديب، أو ذاك الكاتب، ومن الذى ينبغى أن يفوز؟!

فبعض الناس يجرون وراء الجوائز، وبعضهم الآخر تجرى الجوائز خلفه، وهو الذى يستحق منا التقدير والاحترام، لأن العبرة بالعطاء.

ولا ندرى الى متى يحدث ذلك؟!.. فمنذ بدايات الجائزة فى عام ١٩٥٩ وحتى الآن، لا يمر عام بدون أن تحدث هذه الضجة الكبرى! بدءا من ترشيحات الوزراء والحصول على الجائزة ومرورا باعتصام الأدباء داخل المجلس الأعلى للثقافة، احتجاجا على عدم حصولهم على الجائزة، بعد أن تسربت أقاويل من هنا وهناك حول التصويت، والانتصار لأديب دون آخر!

ونتوقف هنا طويلا لنتساءل : كيف لا يحصل الدكتور شوقى ضيف بكل انتاجه الضخم الأدبى والفكرى واللغوى على الجائزة، وكيف لا يعاد الاقتراع مرة ومرات، اذا كان هناك تعادل فى الأصوات مع منافسيه؟!

وعلى الرغم من أن الدكتور ضيف لم يعلق على ماحدث، لأنه لا ينتظر هذه الجوائز ،

الا أن هناك علامة استفهام أمام هذا الموقف الجائر والغريب لواحد من أكبر مفكرى هذه الأمة فى الأدب واللغة، وراجعوا انتاجه الأدبى ان كنتم لا تعلمون!

صحيح أن من فاز بالجائزة يستحقها ونبارك له، ومن فاته الدور، فلينتظر، ولكن يثور سؤال محير بحجب عدد كبير من الجوائز لم ينل عنها أحد الجائزة ولا ندرى سببا لذلك فقد حجبت جائزة مبارك للآداب، وكان مرشحا لها ثلاثة، وحجبت جائزة مبارك فى العلوم الاجتماعية، وكان مرشحا لها ١١ شخصا، وفى جوائز الدولة التقديرية حجبت جائزتان كما تم حجب ١٩ جائزة من جوائز الدولة التشجيعية.

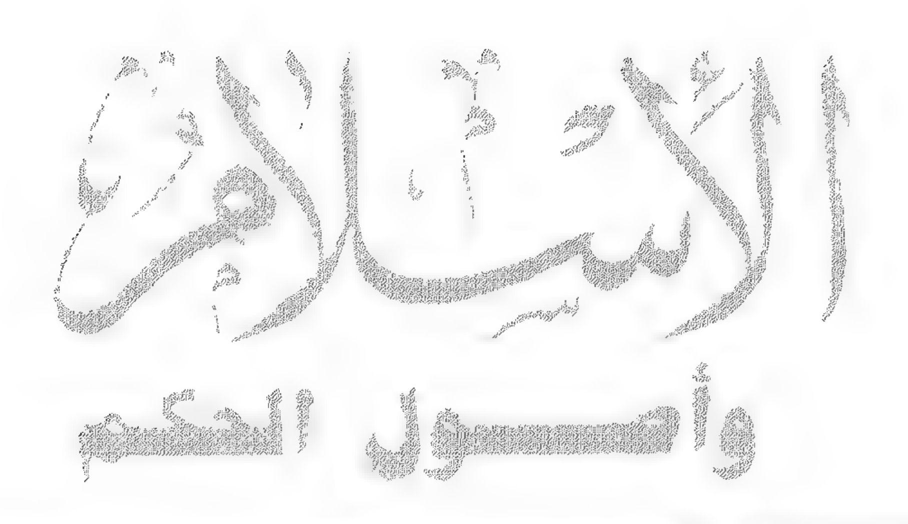
فلماذا تحجب جوائز الدولة فى عام عن متسابق، وتعطى له فى عام آخر؟!

لاشك أن جهودا كثيرة تبذل من خلال اللجان، لكن لا ينبغى أن ننتظر كل عام هذا الكم الكبير من الغموض حول حجب الجوائز، أو ابتعاد من يستحقها بحجج غير موضوعية، ولابد من لجنة عليا تُشكّل للاشراف على أعمال هذه اللجان، لتقوم بالتحكيم فيما يصادف اللجان من معوقات، بحيث يحصل كل أديب أو فنان أو كاتب مبدع على حقه .

لقد كانت مصر تعانى من ضعف قيمة الجائزة المادية وانصرف أدباء مصر الى جوائز أغنياء العرب، وانتظرنا طويلا الى الوقت الذى يجد فيه الأديب المصرى التكريم من بلده أولا، وبالفعل وصلت قيمة الجائزة الى المستوى المعقول، وبدأنا نسترد ما ضاع منا لسنوات طويلة، وعادت الثقة من جديد فى تقدير المبدعين.

والآن بقى أن نعيد النظر فى اعطاء كل ذى حق حقه، حتى لا يشعر مبدع أو أديب خلاق أضاع عمره فى البحث والابداع.. وفى النهاية لم ينصفه الآخرون!!

وفى هذا العدد نقدم بعض الشخصيات التى كرمت بالحصول على الجائزة، كما نعتذر عن عدم تقديم كل الفائزين، مع كل الأمنيات والتهنئة لأدبائنا وفنانينا الكبار .

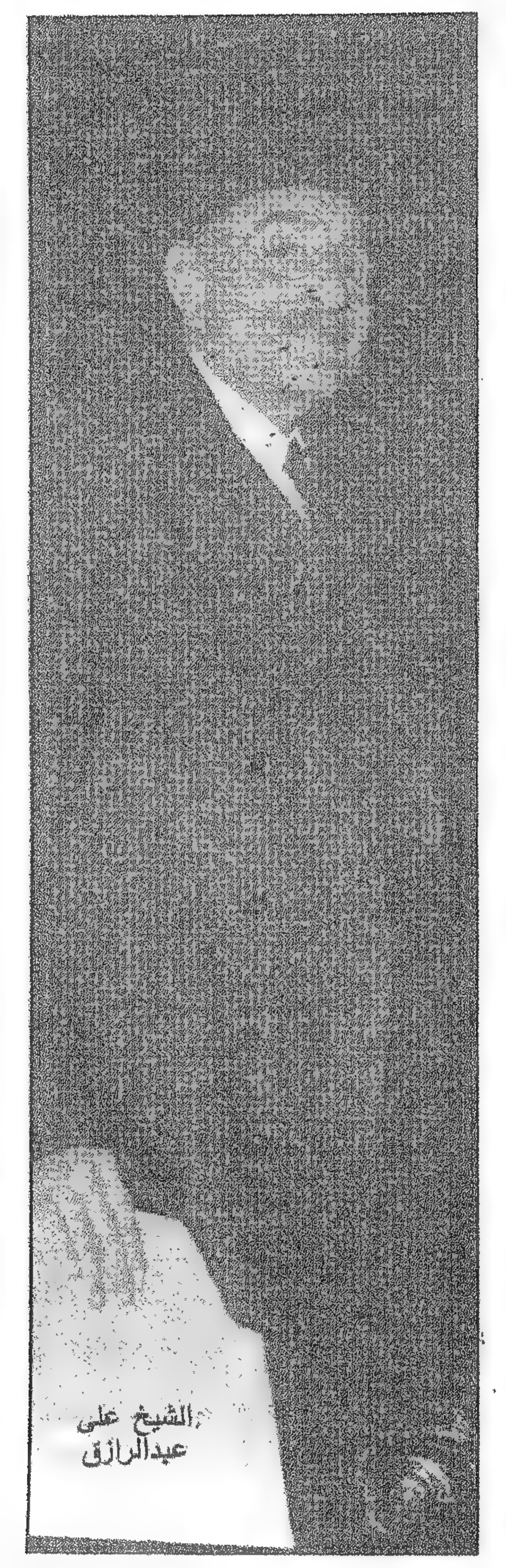


ومذكرات الشيخ على عبدالرازق

بقلم : السفير/ ممدوح عبد الرازق

لأول مرة تظهر مذكرات الشيخ على عبد الرازق حول كتاب «الإسلام وأصول الحكم» ، وتكشف الظروف والملابسات التي كتب فيها الكتاب ، يقدمها ابن أخيه السفير ممدوح عبد الرازق .

إن موقعى من المؤلف على عبد الرازق يجمع بين موقع الابن من أبيه وموقع الطالب من أستاذه ومربيه فى الوقت نفسه، وتأصيل ذلك أن أبى مصطفى عبد الرازق رحمه الله توفى ولم أجاوز من العمر خمسة عشر ربيعا، فكفلنى وأخوتى شقيقه على عبدالرازق فنشأنا فى كنفه لا يفرق بيننا وبين أولاده وبناته شىء فى المعاملة أو القرب منه أشد الاقتراب، حتى أننا لا يمر بخاطرنا إلى اليوم ذكر الوالدين طيب الله ثراهما ، وما أكثر ما يمر، إلا وترحمنا على مصطفى وعلى معا، فكلاهما ، وقد كانا أشقاء بالروح فوق رابطة الأخوة، له فى تنشئتنا ، وفى أدق مراحل التكوين ، أثر ونصيب وفضل غير منكور.



ولا أدعى أن فى ذلك وحده ما يرفعنى دون غيرى درجات إلى مرتبة الأهلية لتقديم كتاب لا أحسبنى مبالغا إذا عددته من بين العلامات البارزة على طريق تطور الفكر العربى والإسلامى، إلا وأن يكون لدى جديد، في المنهج والمضمون جميعا يمكن أن يضيف إلى مغزى إعادة طبع الكتاب فى شكل وإخراج يتناسب ومرور خمسة وسبعين عاما كاملة على صدور طبعته الأولى.

ولا أعد نفسى فى موقف الدفاع عن أحد ولا المواجهة مع أحد، فلم تكن هناك فى الحقيقة معركة أصلا بين على عبد الرازق وكتابه «الاسلام وأصول الحكم» وبين أحد إلاّ الذين كان يهمهم لاعتبارات سياسية ودنيوية خالصة - كما سنبين فيما بعد - أن يدعموا عروشهم بسلطان الدين تحسبا لتداعيات حركة التحرر الوطنى والتى كانت نذرها قد بدأت وبدايات القرن العشرين، ولجأوا فى سبيل ذلك ، وبالتحديد من أيام الخديو عباس حلمى الثانى إلى تشديد قبضتهم على الأزهر وخنق أية حركة للإصلاح والتجديد داخله مثل تلك التى قادها الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده وأبناء مدرسته من بعده، ومن بينهم الشقيقان مصطفى وعلى عبدالرازق.

وقد كان المؤلف ذاته واعيا منذ صدور كتابه إلى هذه النوعية من القراء التى سوف يستشكل عليها فهم حقيقة أن هذا

الكتاب المحدود فى عدد صفحاته مثل السهم النافذ الموجه إلى هدف معين فى توقيت معين، ولهذا نجده يكتب فى مقدمة الكتاب «بل قد أكون اكتفيت أحيانا بإشارات ربما خفيت على صنف من القارئين جهتها، وبتلويحات قد تفوتهم دلالاتها، وبكنايات توشك أن تسير عليهم ألغازا، وبمجاز ربما حسبوه حقيقة وحقيقة ربما حسبوها مجازا».

ولا أريد أن أوحى للقارىء منذ الآن بما أريده أن يستخلصه بنفسه ولنفسه عن مرامى الحملة التى واجهت كتاب «الإسلام وأصول الحكم» والمؤلف وقت صدوره، وعما إذا كانت بتدبير سياسى ومن عساه كان وراء هذا التدبير والذى ربما يتضح بشكل أكبر مما خطه المؤلف رحمه الله بيده بعد مرور السنين فى وريقات لم تكتمل ولم تنشر ومن السهل حساب تاريخها من مقدمتها ذاتها فيقول:

«ظهر هذا الكتاب منذ نيف وثلاثين عاما، وكان الجزء الذى صدر منه مختصا بالبحث فى الخلافة والحكومة فى الإسلام.

وذلك بحث يبدو لأكثر الناس أنه متصل بالإسلام من قرب فى عقيدته وشريعته ، وهو مع ذلك يتصل اتصالا وثيقا بالسياسة ونظام الحكم.

وكثير من الناس فى كل عصر وكل دولة قد نصبوا أنفسهم خداما لسلطان السياسة وسلطان الدين، وقد ظن أولئك وأشباههم أنهم قد وقعوا من هذا الكتاب على مكان دعوة تهدد كلا من الدين والسياسة بخطر كبير وشر مستطير فهبوا يستصرخون المسلمين إلى محاذر هذا الكتاب وما به من دعوة ضد الدين ترمى إلى نسف بنانه وتضليل أبنائه.

ولتفصيل ما أورده المؤلف مجملا فى الفقرة السابقة لجأت إلى بعض ما قيده من مذكرات عن هذه الفترة وبتاريخ السبت ١٩٢٥/٦/١٠ حيث يكتب «كان الهجوم قويا لم يترك مدبروه ثغرة يمكن مدافعتهم منها بل أحكموه إحكاما ونشطوا فى إمداده بكل أنواع الحيلة ووسائل الرغبة والرهبة حتى خشى معارفنا أن يزورونا فى البيت وصاروا يحسبون الاقتراب منا أو من البيت عصيانا للملك وخروجا عليه».

ثم هو يضيف بتفصيل ووضوح أكثر «وما كان المهيجون ليفعلوا بعض الذى فعلوا لولا أن الملك فؤاد أراد ذلك فأمرهم عن طريق حسن نشأت باشا ففعلوا».

وكذلك أراد الملك أن تتحرك العامة ضدى فاندس من العلماء بينهم من يحرضهم على كتابة التلغرافات للجرائد فظهرت المطالبات بمصادرة الكتاب ومحاكمتى .

وسوف نحاول أن نوضح الصورة أكثر أمام القارىء المعاصر وسوف نلجأ فى سبيل ذلك إلى ما لم ينشر من قبل من مذكرات شخصية لا نعتمد على ما جاء بها لولا أننا مطمئنون إلى ثقة هؤلاء الذين مازالوا يعرفون أقدار الرجال، فى صدق ومصداقية من تركوها وراءهم ، شاهدا

على العصر بوقائعه وأشخاصه.

وبما أن شخصية الأمير أحمد فؤاد، سلطان مصر منذ ١٩١٧، ثم أول ملوكها في العصر الحديث وبعد صدور تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ الذي استردت به مصر أهليتها الدولية واستقلالها وإن كان منقوصا يومئذ، تبدو الشخصية المحورية فيما جرى حول كتاب «الإسلام وأصول الحكم» سواء فيما خطه قلم المؤلف نفسه تسجيلا لوقائع هذه الفترة أو ما كتبه عنها غيره في مراحل لاحقة وهو مازال متصلا وكثيرا، فسنحاول أن نتلمس مَلامح هذه الشخصية ودوافعها وطموحاتها حتى قبل أن تعتلي مقعد الإمارة أو السلطنة، وسنلجأ في سبيل ذلك إلى المذكرات الشخصية لشقيق علي، مصطفى عبدالرازق والذي كانت تجمعه بالأمير علاقة طيبة منذ عام ١٩١٥ حيث ورد بالمذكرات تسجيل لأول لقاء بين الاثنين بتاريخ ١٦ إبريل ١٩١٥ فيقول: «لقينا الأمير بحفاوة وأخذ يحدثنا عن وجوه الإصلاح العلمي الذي تحتاجه البلاد حديثا طويلا، ويظهر أنه ميال إلى بعث نهضة علمية وبخاصة في الأدبيات وأنه من أنصار تحرير المرأة».

تكلم معنا أخو السلطان ساعة بلسان عربي تشوب لهجته عجمة لا تكاد تخلو منها لهجة أمير من أمرائنا، وقد لا يكون الحكم علي الأمير فؤاد ميسورا في أول زيارة لأن الزائر مضطر بحكم التقاليد أن يتجنب المناقشات ولأن المضيف يتحرى أحاديث مختارة موضوعاتها.

لكن الذي وقع في نفسي من أثر هذه الزيارة هو أنه رجل بسيط صريح فيه نشاط وعزيمة وإن كان ذا ذكاء متوسط إلاّ أنه يفهم على وجه صحيح كثيرا من حاجاتنا الاجتماعية».

أما الفقرتان التاليتان من المذكرات فهما اللتان تستحقان التوقف عندهما والتأمل في مدلولهما، بعد أن مهدنا لهما بالفقرة السابقة التي تبين نشأة العلاقة بين مصطفى عبدالرازق والأمير أحمد فؤاد.

وأولهما بتاريخ السبت ١٧ فبراير ١٩١٧، أي بعد مرور ما يقرب من عامين من نشوء هذه العلاقة، ويرد بها «رجاني الأمير فؤاد من مدة أن أعينه على جمع ملخص لما كان يدعى به للملوك والسلاطين في خطبة الجمعة في أدوار التاريخ الإسلامي وقد بحثت الموضوع وجمعت خلاصة منه، ووددت لو أني وفيت البحث بعد ذلك خدمة للتاريخ والعلم.

ثم لا تمضي سوى أيام ثم نجد بتاريخ ٢٠ فبراير ١٩١٧ ما نصه «سلمت الأمير فؤاد ما جمعت من موضوع الدعاء للملوك في خطبة الجمعة وقد فهمت من حديثه معي أنه يأخذ أهبته بمثل هذا البحث للمفاوضة المنتظرة في أمر الخلافة وكأنه يأمل أن تنال مصر استقلالها فيكون واليها خليفة وأن إنجلترا سوف

تساعدها على الاستقلال فتصبح لها الخلافة ثم تنتفع (إنجلترا) باستقلالها وخلافتها».

ويعلق صاحب المذكرات «قد لا يهمنا أمر الخلافة بالقدر الذى يهم الأمير، ولكن استقلال مصر أمنية يهمنا أن نسلك إليها كل سبيل».

صاحب المذكرات صادق فيما يقول

هذا الحديث جرى قبل شهور معدودات من وفاة السلطان حسين كامل يوم ٩ أكتوبر ١٩١٧، وتولى أخيه أحمد فؤاد خلفا له فى مقعد السلطنة، ولا أحسب إلا أن صاحب المذكرات كان صادقا فيما يقوله ورغم إيجازه إلا أنه يكفى لتوضيح أن فكرة انتقال الخلافة من الآستانة إلى القاهرة كانت مختمرة فى ذهن أحمد فؤاد حتى قبل أن يتولى العرش، والجديد فى ذلك أيضا أنه كانت ثمة مفاوضات منتظرة أو تجرى فى الخفاء مع بريطانيا حول هذا الموضوع، الذى لم يعد إليه صاحب المذكرات مرة أخرى ، وهى تتوقف على كل حال عند عام ١٩٢٢، أى قبل أن يأخذ التحرك حول موضع الخلافة شكلا حاسما.

ورغم أن الأحداث فى دولة الخلافة العثمانية وقت كتابة هذه الفقرات من المذكرات، عام ١٩١٧، لم تكن قد بلغت ذروتها، إلاّ أنه كان قد بات من الواضح تخلخل قبضة الحكومة العثمانية على زمام الأمور، وخاصة خلال السنة الأخيرة من الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ - ١٩١٨ (وقد انحازت تركيا فى هذه الحرب إلى جانب ألمانيا كما هو معروف) وقد توالت خلال تلك السنة هزائم الجيوش العثمانية، مما دفع الإنجليز إلى التفكير فى البحث عن بديل، بعد انتهاء الحرب، للنظام الإقليمى السائد فى منطقة الشرق الأوسط والتى كانت الخلافة العثمانية حتى ذلك الوقت قطبه ومركزه».

وأعود مرة أخرى إلى مذكرات الشيخ مصطفى عبدالرازق لاستعين ببعض ما ورد فيها على تصوير سياسة أحمد فؤاد الأول بعد أن صار ملكا لمصر والأساليب التى كان يلجأ إليها لتشديد قبضته على الأزهر من جانب ، ولإجهاض أية محاولة لتقييد حقوقه وسلطاته المطلقة فى الدستور الجديد، من جانب آخر.

فنجد فى المذكرات بتاريخ مايو ١٩٢١ فقرة تصور تدخلات القصر فى شئون الأزهر على النحو التالى «زارنى شيخ الجامع (الأزهر) الليلة فسألته عما يجرى على الألسن من تغيير فى بغض رجال المعاهد، وظهر لى أنه يجهل حتى أن هناك شائعات فى هذا المعنى وأخذ يفضى إلى بآلامه لأن الأمور تصرف بهوى باشا (ناظر الخاصة الملكية) على يد إمام الملك ومدير المعاهد حتى أن مذكرات المسائل التى تعرض على المجلس الأعلى للأزهر لا تحرر إلا باشراف رجال القصر وأذنابه.

واشتكى إلى الأستاذ الأكبر أن الملك دعا إليه مدير المعاهد لمقابلة لا يدرى ما

الذى دار فيها، إعلانا عن عدم رضائه عن شيخ الأزهر... هذا وشيوخ الأزهر لا ينصرونه إلا لمزا بألسنتهم فى المجالس.

وختم الشيخ حديثه بترقب الحياة الدستورية لتضع حدا لهذا الاضطراب الاستبدادى.

هذا ما كان من أمر الملك مع الأزهر، أما أمره مع اللجنة التى شرعت منذ صدور تصريح ٢٢ فبراير ١٩٢٢ فى إعداد أول دستور لمصر المستقلة، فنجد فقرة فى المذكرات بتاريخ ٤ أكتوبر ١٩٢٢، نصها «نشرت الجرائد الليلة تعديلا لبعض المواد فى قانون العقوبات المصرى كلها خاصة بعقاب من يعتدى على الملك أو يتعرض له بنقد أو لوم، وقبل هذا صدر قانون الوراثة وقانون مجلس البلاط ويظهر أن الملك كان مهتما بإصدار هذه القوانين توطيدا لمركزه ومركز ذريته واحتفاظا لنفسه بكل ما يستطيع الاحتفاظ به من الجلال والسلطان مخافة أن يحيف الدستور على حقوقه .

وقد حاول القصر أن يحتفظ فى الدستور الجديد بحقوق للعرش لا يحتملها النظام الدستورى، فلم يجد عونا من الوزارة، وعجز أعوانه فى لجنة الدستور عن تحقيق ما سخروا له، ويقال أن القصر يعمل بكلتا يديه على تعويق مداولات اللجنة وإحباط عملها.

ومن الغريب أن حجة دعاة جعل السيطرة على شئون الحكم للعرش هى أن الأمة ضعيفة عن فهم مصالحها وحسن النظر فيها، فى حين أن انصراف همة القصر إلى استصدار مثل هذه القوانين لا يؤيد حجتهم ولكنه على العكس يدل على أن القصر يفهم كل الفهم مصلحته ولا ينظر إلا إليها.

وأتمنى أن أكون قد نجحت بهذا القدر أن أوضح للقارىء طموحات الجالس على عرش مصر يومئذ وأساليبه لتحقيق هذه الطموحات، ولم تبق لى إلا إضافة من مذكرات مصطفى عبد الرازق تكمل الصورة من جانب المؤلف فى مرحلة إعداد بحثه، إذ يرد بها ذكر البحث الذى كان على عبدالرازق عاكفا على إعداده منذ سنوات سابقة، فنجد فى المذكرات بتاريخ الأحد ٦ نوفمبر ١٩٢١ ما نصه «قرأ لى أخى على الذى عاد مساء اليوم إلى المنصورة فصولا من البحث الذى يدونه فى الحكومة الإسلامية تمهيدا لدرس تاريخ القضاء فى الإسلام».

فوجدت موضوعات طريفة تدل على حسن التفكير وحسن الدرس وتدل على الجد العلمى من رجل له مشاغل منصبه ما يجعل وقت فراغه خلسا.

وقد أحيا مثل أخى الصغير فى نفسى حسرة على ما يضيع من زمنى ومن قوتى هدرا.

وكم بين يدى من موضوعات أريد درسها ثم تصرفنى عنها صوارف لا تبرر لامرىء مثلى أن تكون حياته مجدبة».

ولعله قد اتضح للقارىء الآن أنه لم يكن شيء مما يجرى مصادفة فقد استمر الملك في محاولاته لوضع العراقيل في وجه الحكم الدستورى طبقا للدستور الذى صدر عام ١٩٢٣، ولا كانت مصادفة أن تبدأ الترتيبات لعقد مؤتمر للخلافة بالقاهرة عام ١٩٢٥، أى بعد أقل من عام من إلغاء منصب الخليفة العثمانى فى تركيا ١٩٢٤، ولا مصادفة إذن فى أن يصدر كتاب «الإسلام وأصول الحكم» فى العام نفسه وترتيبات عقد هذا المؤتمر قد بلغت مراحلها النهائية .

وإذا كانت الأمور تقاس بنتائجها وتقاس فى الوقت نفسه بمعايير المجال الذى جرت داخله، فإن كتاب «الإسلام وأصول الحكم»، يعد «ضربة حاذق» من حيث التوقيت والمضمون والأثر السياسى، فقد أدى صدوره والتداعيات السياسية التى ترتبت عليه إلى تبديد حلم الملك فؤاد الذى أمضى سنوات طويلة يخطط لتحقيقه ويعد الواقع السياسى الداخلى والخارجى لتقبله، وإلى حرق الورقة الرئيسية التى كان يعول عليها فى التخلص من قيود الحياة الدستورية بالاحتماء بجلال منصب الخليفة وقدسيته .

فقد نشبت أزمة وزارية أدت إلى سقوط الوزارة القائمة ونقض الائتلاف الذى كان قائما داخلها بين حزب الاتحاد (حزب القصر) وبين حزب الأحرار الدستوريين، ولسنا بحاجة هنا للخوض فى مزيد من تفصيلات الأزمة السياسية التى أدى إليها صدور الكتاب ،.فما كتب عنها تضيق به مجلدات لمن شاء أن يرجع إليها، ولكنه يبقى من المفيد الإشارة إلى أن بعض التداعيات المعاكسة لمخططات الملك وحزبه، سببها الاندفاع والنزعة الاستبدادية التى صاحبت ردود فعل السلطة ، وأولها الطريقة التى جرت بها محاكمة المؤلف الأزهرى الشاب الذى لم يكن قد بلغ الثلاثين من عمره فى ذلك الوقت، والطريقة التى صدر بها الحكم والأسباب التى بنى عليها ، ثم الحملة الصاخبة ضد المؤلف والتى كانت يد السلطة فى التدبير والتنفيذ من ورائها واضحة لكل ذى عينين.

يكتب على عبدالرازق فى مذكراته وصفا مختصرا لمحاكمته بتاريخ ١٦ ديسمبر ١٩٢٥ «ذهبت يوم ١٢ أغسطس أمام هيئة كبار العلماء فتلا على شيخ الجامع بيان التهم السبع وبعد مناقشة وجيزة فى أن هيئة كبار العلماء تملك محاكمتى أم لا تلوت عليهم مذكرة بالرد على التهم ثم انصرفت أنا وأصدروا هم قرارهم يومئذ بإخراجى من هيئة كبار العلماء.

كثرة الطلب على الكتاب

كان لهذا الحكم دوى شديد فى مصر وفى الخارج وكان له تأثير كبير فى تحول الرأى العام المتنور إلى العطف علىّ وتشجيعى كما أنه جعل اسمى معروفا تتداوله الجرائد فى جميع جوانب العالم وتواردت علىّ رسائل العطف من شتى

البلاد وكثر الطلب على الكتاب حتى نفدت نسخه في الأسابيع الأولى فأعيد طبعه ثانية فى أغسطس، طبعت ألفى نسخة فنفدت فى أيام ثم طبع ثالث مرة بعد ذلك فى أوائل سبتمبر ثلاثة آلاف نسخة نفدت هى الأخرى.

بل ومما يحسب لهذا الكتاب وتوقيت صدوره أنه نبه الحزبين السياسيين الرئيسيين على الساحة السياسية المصرية يومئذ من غفلتهما النابعة من الاستغراق فى جو المناورات السياسية والحزبية الضيقة فى مناخ الديمقراطية الوليدة التى جاء بها الدستور الجديد.

فمن جانب الأحرار الدستوريين أدت الأزمة إلى تنبههم إلى حقيقة الدور الذى كان الملك قد استدرجهم إليه ليؤدوه بائتلافهم مع حزب الاتحاد (حزب القصر) فى الوزارة القائمة التى كانت إجراءات عقد مؤتمر الخلافة تجرى فى عهدها.

ويشيد على عبدالرازق بدور جريدة السياسة، لسان حال الأحرار الدستوريين، فى مناصرته بعد أن استقال الوزراء الدستوريون من الوزارة وانفض الائتلاف.

وأما حزب الوفد ، أو السعديون كما كان يطلق عليهم أيضا، فقد انطلقوا أول الأمر فى انتقاد الكتاب والمؤلف باعتبار أن ذلك يحرج الأحرار الدستوريين خصومهم السياسيين المشاركين فى الحكومة القائمة، ثم لم تلبث استقالة الأحرار الدستوريين من الوزارة، وارتفاع الأصوات المدافعة عن المؤلف وعن حرية الفكر والتعبير وعن الدستور ، أن فتحت عيون الوفديين على حقيقة ما يجرى وخطورته فبدلوا من مواقفهم وظهر ذلك واضحا بداية من عام ١٩٢٦ وانطلقت صحافتهم تدعو إلى توحيد المواقف فى وجه نزعات الملك الاستبدادية، ولعل فيما كتبه أحمد حافظ عوض في جريدة «كوكب الشرق» الوفدية عام ١٩٢٦ أبلغ تعبير عن هذه الروح الجديدة إذ يقول «كنا نستطيع أن نستغل ذلك الحادث كسعديين مخالفين لهم (الأحرار الدستوريين) عدا ما فى هذا الاستغلال من الضرب على وتر الدين الحساس وتنفير الأزهر وعلمائه من الأحرار الدستوريين».

فعلى عبد الرازق لم يؤلف كتابه وينشره فى ذلك الوقت بوصفه رجل سياسة أو منتميا إلى حزب سياسى، وإن كان تكوينه وظروف نشأته جعلته لا يخلو بالضرورة من حاسة سياسية مرهفة ، وإنما كأزهرى من المنتمين بالروح والفعل إلى مدرسة الشيخ محمد عبده والمتأثرين بمناهجه الإصلاحية.

ولعلى عبدالرازق تعريف بمدرسة الأستاذ الإمام أورده فى مقدمته لكتاب «من آثار مصطفى عبدالرازق» يقول فيه «فدعوة الأستاذ الإمام كما ترى دعوة عامة ومدرسته كما ترى ليست مدرسة يحدها مكان ولا زمان ولا أشخاص،

ولكنها مدرسة تتلاقى فيها الأرواح جنودا مجندة، فما تعارف منها إئتلف وما تناكر منها اختلف».

فالشيخ على عبد الرازق قد نشأ ولا شك فى بيئة عائلية وسياسية وثقافية واجتماعية مميزة تركت آثارها واضحة فى فكره وشخصيته ونزعاته السياسية إلى آخر أيام حياته ، بل وتركت آثارها فى أشقائه الآخرين بدرجات متفاوتة وفى مناحى متفرقة فلا تجد واحدا منهم إلا وله أثر وذكر فى جانب من جوانب الحياة العامة فى مصر والقرن العشرين.

وقد لمست بنفسي تأصل مقومات التميز فى هذه الشخصية دون تكلف أو اصطناع بطول معاشرتى لصاحبها طيب الله ثراه، واحتفظت إلى اليوم بخطاب بعثه إلىّ وأنا غائب بحكم أقدار المهنة فى اليابان كتبه بتاريخ ٢٦ أغسطس ١٩٦٣، ربما يلقى الضوء على جوانب كثيرة من منطلقاته الدينية والفكرية والسياسية فيقول «وما أظن أن فى هذه الحياة الدنيا عروة أوثق ولا أبقى على طول الدهر من الكفر بالطاغوت والإيمان بالله كما فى القرآن الكريم بنص صريح، ثم من التشبث بموروث الدين والأدب والفضيلة الذى تلقته البشرية منذ أقدم تاريخ عرفناه لها جيلا عن جيل وأمة عن أمة وآباء عن أجداد.

سلامة الحكم

ثم يمضى فى خطابه ليفصل القول فيكتب «ذلك هو منهجنا السياسى منذ أيام عباس وفؤاد وفاروق وهو منهجنا إلى اليوم لا نتأثر باعتبارات شخصية ولا نبنى عليها منهجنا السياسى وإنما نريد سلامة الحكم من شرور الاستبداد ومفاسد الطغيان.

ولقد تعرضنا لغضب عباس (الخديو عباس حلمى الثانى) يوم قمنا ندافع عن الأزهر الذى أراد أن يعبث بمصالحه ويوجهه توجيها سياسيا لا خير فيه ويوم سلط علينا وزراءه ومستخدميه يضربون الأزهريين بالسياط ويوعدون ويتهددون.

وكان فؤاد أشد بأسا وأشد تنكيلا من عباس وقد سلط علينا وزاراته وكثيرا من أشياعه فما منعنا ذلك من أن نرفع صوتنا بمعارضة أساليبه فى الحكم. والغريب أن هذا الموقف السياسى الذى سلكناه فى عصرنا الحاضر هو بعينه الموقف السياسى الذى سلكه آباؤنا وأجدادنا من قبل فى أيام إسماعيل ومن قبله أيام محمد على.

وإذا أذنت لمخيلتى مرة أخرى أن تجرفنى بعيدا عن السياق الأصلى إلى قضية فرعية أثارها خصوم على عبدالرازق كنوع من التجريح الشخصى، ألا وهى أنه لا يعرف له نتاج فكرى آخر على مستوى كتاب «الإسلام وأصول الحكم».

وصدق الأستاذ الدكتور عثمان أمين أستاذ الفلسفة والمفكر المعروف رحمه الله إذ عرف كتاب على عبدالرازق وما أثاره بانه «ثورة فكرية .. وكفى»..

وإذا كانت الأمم لا تحتمل الا ثورة فكرية واحدة كل مائة عام من عمرها، فهل يحتمل بشر إلا عبء ثورة فكرية واحدة على مدى العمر؟!

وأرجو أن أكون قد بينت للقارئ، فيما أسلفت، وبما فيه الكفاية كيف كانت الحملة مدبرة والنية منعقدة من البداية على رمى المؤلف بالإلحاد حتى يتسنى اتخاذ الاجراءات السياسية والدعائية التى لجأ إليها أصحاب السلطان والنفوذ لإسكات صوت هذا العالم الأزهرى الشاب وإرهاب من تسول له نفسه الوقوف إلى جانبه.

وجوهر القضية فى تقديرى إذا عريناها من كل ماهو ثانوى ومن كل التراكمات التى تجمعت حولها بفعل أزمان أخرى وأغراض أخرى وعقليات أخرى، يبقى صحيحا اليوم مثلما كان صحيحا بالأمس، واضحا كالشمس فى كلمات تلك الخلاصة التى ختم بها على عبد الرازق كتابه بأسلوبه الواضح المباشر والذى يتميز بصراحة لاتشوبها مماراة، يتمشى فى نفس الوقت مع فهمه لمنهج أستاذه الإمام الشيخ محمد عبده والذى يصفه بأنه . وهو فى مذاهبه الإصلاحية لا يفعل شيئا أكثر من أن يتجه وجهة الإصلاح كما يجب أن يكون الإصلاح، فهو يدعو إلى الإصلاح بالعمل أولا ثم بالقول الصريح يصدع به أنى كان، فى المحافل العامة وفى مجالسه الخاصة، وفيما يؤلف من كتب وأبحاث وفيما ينشر فى المجلات والجرائد، وفى رسائله العامة والخاصة.



محنة اليسار المصرى

بقلم :عبدالرحمن شاكر

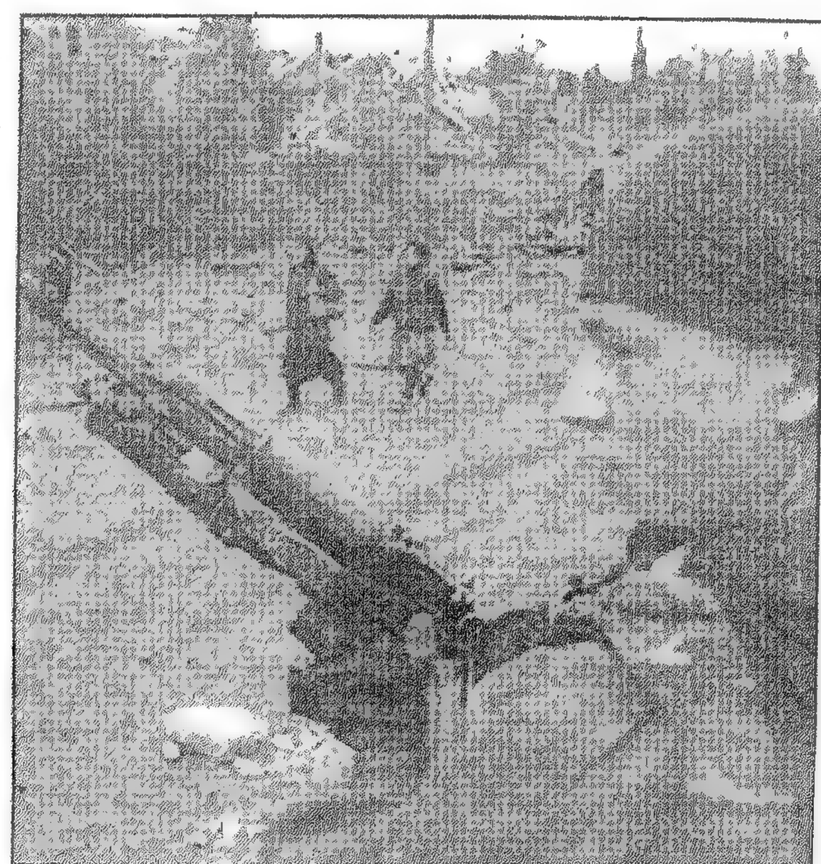
السفر الضخم الذين أصدره «الرفيق» أبو سيف يوسف بعنوان «وثائق ومواقف من تاريخ اليسار المصرى» هو بالفعل مرجع شديد الأهمية لجانب من التاريخ السياسى المصرى. وإذا كان الهدف منه هو بيان الدور الذى اضطلعت به منظمة «طليعة العمال ، وتسجيل ما أغفلته مراجع أخرى عن تاريخ الحركة اليسارية المصرية، فى مقدمتها كتاب الدكتور رفعت السعيد عن تاريخ الحركة الشيوعية المصرية، أو الرد على بعض ما ارتآه أبو سيف يوسف ورفاقه من أعضاء المنظمة المذكورة إجحافا بها، فإن صدور الكتاب على هذا النحو إنما يعكس جانبا من المحنة الأساسية التى ابتليت بها الحركة الشيوعية المصرية فى معظم أطوارها، وهى ظاهرة التشرذم، أو التعددية كما يسميها محرر الكتاب فى مقدمته، حتى بلغ عدد المنظمات الشيوعية فى حقبة الأربعينات عشرين منظمة !

ويعود السبب فى تلك الظاهرة إلى العقيدة السياسية التى أخذت بها كل تلك المنظمات، المتضاربة حتى اليوم وهى تسجل تاريخها الذى طواه الزمن. تلك العقيدة كما حددها أبو سيف يوسف فى كتابه بأنها «الماركسية اللينينية الستالينية»! وهذه الصيغة تتضمن الأطوار التى مرت بها تلك العقيدة. فقد بدأت بكارل ماركس ورفيقه فردريك إنجلز في القرن التاسع عشر.

ولقد كان ماركس يؤمن بالديمقراطية الحزبية، وفى الدولية الاشتراكية الأولى احتشد كل من يؤمن

كارل ماركس

لينين




لقطة من حرب الشيشان

بالعدل الاجتماعى على أية صورة من الصور، سواء كان يؤيد كارل ماركس فى فلسفته التى سماها الاشتراكية العلمية أو يعارضها، بمن فيهم فوضويون من أتباع برودون وباكونين وغيرهما. وسمى الحزب الذى أسسه ماركس بالحزب الاشتراكى الديمقراطى الألمانى، وكان الحزب الماركسى فى روسيا كما فى سواها من أحزاب الدولية الثانية يحمل نفس الاسم «الاشتراكى الديمقراطى»، إلى أن انتصرت الثورة الاشتراكية فى روسيا عام ١٩١٧، بقيادة الجناح البلشفى الذى كان يتزعمه لينين من الحزب الاشتراكى الديمقراطى الروسى. فلما أقدم لينين على حل الجمعية التأسيسية التى انتخبت بعد الثورة على القيصرية، ودعا إلى أن تكون «كل السلطة للسوفيتات» أى مجالس العمال والجنود الثورية، أدانت الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية فى الدولية الثانية هذا التصرف المجافى للديمقراطية، التى كانت تراها هى الأساس فى عقيدتها السياسية، وأن

الاشتراكية هى التوسع فى الديمقراطية لتشمل الجانب الاقتصادى فى حياة المجتمع إلى جوار الجانب السياسى وقد رد لينين على هذا الموقف بدعوة الثوريين الحقيقيين فى الأحزاب الاشتراكية إلى الانشقاق عن الانتهازيين من زعماء الدولية الثانية الذين خانوا قضية الاشتراكية حينما ايدوا اشتراك بلادهم فى الحرب العالمية الأولى وسمحوا بأن يذبح العمال بعضهم بعضا دفاعا عن المصالح الامبريالية فى بلادهم . وطالب هؤلاء الثوريون بتشكيل أحزاب جديدة عرفت باسم الأحزاب الشيوعية، وضمها تنظيم عالمى جديدة عرف باسم «الدولية الثالثة» أو «الكومنترن».

وقد مارس الحزب الشيوعى الروسى أو السوفييتى السلطة المطلقة من خلال مجالس السوفييت، وألغى كل الأحزاب الأخرى بما فى ذلك أقربهم إليه وهو حزب «الاشتراكيين الثوريين»!

ورغم أن لينين قد دعا إلى الأخذ بالديمقراطية المركزية داخل الحزب، بمعنى خضوع الأقلية للأغلبية، والمستوى الأدنى للمستوى الأعلى، فإن الاستبداد الذى شمل المجتمع السوفييتى باسم ديكتاتورية البروليتاريا، قد امتد إلى الحياة الحزبية ذاتها فى عهد ستالين، فأصبح كل من يعارض ستالين أو يختلف معه بدءا من تروتسكى الذى كان ثالث ثلاثة قادوا الثورة البلشفية إلى جوار لينين وستالين، يعتبر خائنا للثورة يستحق الطرد من الحزب، بل الاعدام، تروتسكى ذاته سمح له بالخروج من البلاد حيا فى عام ١٩٢٤ بعد وفاة لينين مباشرة، ولكن ستالين أرسل إليه من يقتله فى منفاه عام ١٩٤٠ !

على هذا المبدأ - نفى المختلفين فى الرأى مع زعماء المنظمات الشيوعية أو قتلهم إن أمكن - تأسست عشرات المنظمات الشيوعية فى مصر فى الحقبة المذكورة - زعيم كل منظمة كان يتصور نفسه «ستالينا» آخر، ولكونها لم تكن فى السلطة بل كانت مجرد منظمات سرية تتعرض جميعها للبطش من جانب السلطة، إلا أن الخصومة فيما بينها كانت تفوق أحيانا خصومتها مع القوى السياسية المعادية للشيوعية! واستهلكت جانبا من طاقاتها فى هذا الصراع. إحدى هذه المنظمات وهى «المنظمة الشيوعية المصرية» أو م. ش.م، كانت تحرم على أعضائها مجرد التكلم مع أحد من منظمة أخرى حتى ولو ضمهما سجن واحد !

ولكن ذروة محنة الخضوع للستالينية في المنظمات الشيوعية المصرية، كان في موقفها من قضية فلسطين. فمن يطالع كتاب أبو سيف يوسف عن منظمته طليعة العمال، يعرف أن هذه المنظمة قد أسسها ثلاثة من اليهود المصريين أو المتمصرين، هم يوسف درويش وريمون دويك، وأحمد صادق سعد (الذى أضاف اسم «أحمد» الاسلامى إلى اسمه!) وأن هؤلاء الثلاثة كانوا يدينون الصهيونية ويعتبرونها حركة عنصرية استعمارية، ويدينون هجرة اليهود إلى فلسطين، ويطالبون بأن تقوم في فلسطين دولة علمانية ديمقراطية تضم سكانها من العرب واليهود على قدم المساواة، وكان ذلك هو مبدأ جميع الاشتراكيين في العالم إلا الذين في قلوبهم مرض من دعاة الصهيونية أدعياء الاشتراكية، ومنهم من حاربهم هؤلاء الثلاثة! ولكن بعد أن وافق الاتحاد السوفييتي على مشروع تقسيم فلسطين الصادر عن الأمم المتحدة في عام ١٩٤٧، واعترف في العام التالى بدولة «اسرائيل» عند إعلانها لم يجد الشيوعيون المصريون بدا من تأييد هذا الموقف» لأن الخواجه ستالين عايز كده..!! على حد تعبير أحد «رفاقنا» الظرفاء الحزانى فى ذلك الحين!

بالطبع لم يكن في مقدور منظمات شيوعية يقود معظمها عناصر يهودية أن تتخذ موقفا مبدئيا صلبا كالذى اتخذه الحزب الشيوعى العراقى، الذى أعدم زعماؤه على يد نورى السعيد. رفض هذا الحزب الموافقة على قرار التقسيم الذى اتخذ تحت تأثير العناصر الصهيونية فى الأحزاب الشيوعية الحاكمة فى شرق أوربا، وهى التى كان يتدفق منها اليهود الخزر إلى فلسطين! فهذا القرار كان خيانة عظمى للمبادىء الاشتراكية التى تقدم على العلمانية وفصل الدين عن الدولة، وكان من غير المعقول أن يوافق الشيوعيون الذين فرحوا عام ١٩٢٤ بإلغاء الخلافة العثمانية رغم تسامحها مع المخالفين فى العقيدة، على قيام دولة جديدة فى المنطقة على أساس من الدين تعلنها أقلية معظمها من المهاجرين اليهود، وتتخذ اسم أحد الأنبياء علما عليها !

وقد كلف خضوع المنظمات الشيوعية للقرار الستالينى فى قضية فلسطين الكثير من سمعتها، واضطر أحمد رشدى صالح، الذى يورد الكتاب الذى بين أيدينا كثيرا من

أعماله حينما كان مسئولا عن تحرير مجلة «الفجر الجديد» أحد المعالم الكبرى في سجل أعمال المنظمة والفكر اليسارى عموما، اضطر رشدى صالح إلى تأليف كتاب يعلن فيه تبرأه من الشيوعية التى صارت تحمل وصمة الولاء للصهيونية !! وذلك بعد أن كانت المنظمات الشيوعية قد نجحت فى فرض فكرة الاشتراكية والعدل الاجتماعى على الحياة السياسية المصرية، وخاصة من خلال نشاطها فى صفوف لجان حزب الأغلبية، وهو حزب الوفد الذى آلت إليه قيادة الحركة الوطنية، حتى أصبح فى داخل هذا الحزب تيار يسارى واضح يحمل اسم «الطليعة الوفدية» وقد تغلغل هذا التيار فى الوفد حتى ضم إليه عناصر قريبة جدا من قيادة الوفد، على رأسهم كان «عزيز فهمى» ابن أحد أقطاب الوفد وهو عبدالسلام فهى جمعة رئيس مجلس النواب الأسبق. وقد أتاحت هذه الصلة مع الوفد غطاء مشروعا لنشر الأفكار اليسارية ، وأذكر أن أول ما قرأته عن الاشتراكية، كان كتيبا صغيرا بعنوان «تطور المجتمع» موسوم صدره بعبارة «الوفد المصرى» باعتباره الجهة الصادر عنها هذا الكتيب واسم مؤلفه هو «مصطفى عبدالرحمن» وهو اسم ملفق من اسم شخصين كانا ينتميان إلى منظمة صغيرة، كانت تعرف باسم «منظمة القلعة» نسبة إلى الحى الشعبى المعروف !

الحريق العالمى

لم يورد أبو سيف يوسف فى كتابه إلا أقل القليل عن الحريق الهائل الذى شرع يشب في بيت اليسار العالمى بدءا من المؤتمر العشرين للحزب البلشفى عام ١٩٥٦، الذى أدان فيه خروشوف سكرتير الحزب آنذاك سياسة عبادة الفرد التى كانت متبعة فى عهد ستالين، وكشف الكثير من مظالمه ومخازيه! واكتفي محرر الكتاب بذكر أن القرار الذى اتخذته منظمته فى ذلك الحين، هو أن كل حزب شيوعى مسئول بمفرده عن وضع الاستراتيجية الخاصة بالوصول ببلاده إلى الاشتراكية ، وقد ترتب على سقوط الستالينية على هذا النحو المدوى أن كفكف كل «ستالين» صغير من زعماء المنظمات الشيوعية المصرية من غلوائه وتعجرفه، وقبلوا أن يجلسوا مع بعضهم البعض على مائدة واحدة يتم فيها توحيد المنظمات المتشرذمة فى حزب شيوعى واحد! ولكن ذلك كان بعد فوات الأوان، حيث كان جمال

عبدالناصر يستعد لسحب البساط من تحت أقدامهم. كما جاء فى التعبير الذى نقل عنه، وأعلن من جانبه تطبيق الاشتراكية على طريقته الخاصة فى عام ١٩٦١، واشترط على من كان يسميهم «جنرالات بلا جيوش» من زعماء المنظمات الشيوعية أن يحلوا منظماتهم وينضموا إلى تنظيمه السياسى الواحد كأفراد، وذلك إذا أرادوا أن يخرجوا من السجن وأن يكون لهم دور فى الحياة السياسية الجديدة لمصر «الاشتراكية»، وذلك ما تم فى عام ١٩٦٤.

والآن، وقد تبدلت الدنيا، وأصبح الحال غير الحال، وأتى الحريق العالمى الذى أشرنا إليه على كبرى قلاع الاشتراكية فى العالم، فانهار الاتحاد السوفييتى وانحل وانهارت معه وقبله الأنظمة الاشتراكية فى شرق أوربا، وأصبحنا فى عصر الرأسمالية المتوحشة، التى شرعت تتشكل ضدها ثورة عالمية جديدة، لليسار أو لبقاياه دور مؤكد فيها، وأصبح القابع فى الكرملين، ليس زعيما شيوعيا مثل لينين أو حتى ستالين، بل ضابط سابق فى المخابرات السوفييتية، يقول الآن بعد أن دوخ المقاتلون الشيشان جيشه وحكومته ودولته بأسرها «إن الارهابيين الاسلاميين يحملون أفكارا شيوعية ! وأن السبب في ذلك سوء الأحوال الاقتصادية في البلدان التى يمارسون فيها نشاطهم من أول الفلبين إلى كوسوفا، ويحلمون بإقامة اتحاد اسلامى فيها، وأن العلاج هو رفع مستوى الشعوب الاسلامية، وفى مقابله يقول «زيوجانوف» زعيم الحزب الشيوعى الروسى» إن أحدا لن يفهم الشيشانيين، إلا إذا كان قد قرأ القرآن الكريم، وأنه هو نفسه قد قرأه، وأن معظم أهل الشيشان المسلمين يصوتون فى الانتخابات العامة إلى جانب حزبه الشيوعى، الذى لم يعد يعادى الدين، بل يضم فى صفوفه كثيرا من المتدينين بديانات مختلفة، يتفقون على الايمان بحق البشر جميعا فى الحرية والمساواة والحياة الكريمة.

أقول فى هذا الوقت، على بقايا اليسار المصرى على مختلف صوره أن تطرح ترهاتها ومهاتراتها القديمة ، وتنظر من جديد إلى مواقع أقدامها على خريطة سياسية جديدة فى بلادنا وفى العالم بأسره .

المرأة فى مؤتمر نيويورك

بقلم : د.محمد رجب البيومى

«ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولايزالون مختلفين»
«قرآن كريم»

لو أرادت مجموعة من القرى المتجاورة فى مركز من مراكز الجمهورية أن تتعاون فى سبيل العمل المثمر، فاجتمع ذوو الرأى فيها، يقدم كل واحد منهم أنفع ماتم فى قريته من تجربة زراعية أو صناعية أو تجارية أو تعليمية، فماذا ينتظر من نتيجة هذا الاجتماع ؟!

إن المتوقع المنتظر، أن يعرض على بساط البحث كل جليل مثمر صدقت تجربته، حين أدت إلى نفع مشهود وأن تتكون من ذلك خلاصة لما يتفق عليه من التجاريب الناجحة فتصبح موضع التنفيذ!

ولكن ماذا يكون الوضع إذا عرضت بعض القرى تجربة فاشلة أدت إلى ضياع مادى وأدبى معا، وحاولت أن تكون نمطا يحتذى، وكان لهذه القرية وجاهة مادية أو معنوية نظرا لسطوة من يمثلها فى هذا الاجتماع! أفيمكن لهذه التجربة الفاشلة - وقد تكون مخزية فاضحة يندى لها الجبين - أن تكون موضع ترحيب واحتفاء؟

إن المجتمعين من ممثلي القرى المجاورة، سيفغرون أفواههم دهشة، لما يرون ويسمعون، وأقل مايأتونه من الأعمال أن يعلنوا انسحابهم من الاجتماع، فينفض إلى غير رجعة، وهم بعد قرويون مسالمون، لايهديهم إلى الخير سوى الفطرة الطيبة والخلق القويم.

ثم ماذا سيكون من أمر القرية ذات التوجيه المنحرف، أبصر عقلاؤها على مالديهم من الانحراف، فيتحمسوا له، ويحاولوا تثبيته فى اجتماع ثان وثالث ورابع إلى غير ماحد: هذا غير معقول، ولكنه الذى كان!

لقد جاء الغرب في مؤتمر المرأة ليعالج أمراضا تخصه وحده، وليس للشرق بحمد الله أدنى صلة بجراثيمها البغيضة فهو منها بمنجاة أية منجاة، وبدلا من أن يبحث فى حيدة عن السبب في نجاة الشرق من هذه الأمراض القاتلة ليحذو حذوه، وينهج نهجه، أخذ يصر فى استماتة على أن ينقل هذه الجراثيم الى الشرق، ليكون البلاء مشتركا مابين مشرق ومغرب! وذلك معنى من معانى العولة التى يجب أن تشمل الكون بشرها الماحق وخطرها المبيد!

الشرق لايعرف الأسرة التي تتكون من رجل ورجل أو من امرأة وامرأة ويرى ذلك مدعاة سقوط شائن تتجنبه الحيوانات فضلا عن الأناسي! وبدلا من أن يستحيي المروجون لهذا الوضع البغيض وبدلا من أن يتساءلوا كيف نجا الشرق من هذا الخزى الفاضح؟ فإنهم يحاولون أن يكون شيئا طبيعيا يجب أن يلتزم به الشرق لتكون الفضيحة عالمية لاتقتصر على مكان دون مكان!

الشرق لايعرف التلاحم الجنسى بين الفتى والفتاة قبل الزفاف، وقد حفظ بذلك كيان المجتمع أفرادا وأسرا وانتظمت به العلائق على نحو طاهر لايريب ولكن الغرب قد أباح التعارف الجنسى قبل الزواج بين الفتاة والفتى، وترتب على ذلك ماترتب من الاجهاض والشذوذ والانتحار، وبدلا من أن يستحيى المروجون لهذه المخزيات المدمرة، وبدلا من أن يتساءلوا كيف نجا الشرق من هذا الخزى الفاضح، فإنهم يحاولون أن يصبح الأمر طبيعيا ، يجب أن يلتزم به الشرق، لتكون الفضائح عالمية لايختص بها مكان دون مكان!

الشرق يحتقر الشذوذ الجنسى ويزدريه، وإذا وجد لدى أفراد معدودين أعدت له وسائل العلاج، وقام الأطباء البشريون والنفسيون بمحاصرته، ووضعت الحقائق الاجتماعية والخلقية والنفسية لتقف بقواعدها الرصينة حائلا دون انتشاره، وبدلا من أن يتساءل الغرب عن نجاة الشرق من هذا الخزى الفاضح فإنه يحاول أن

المـــرأة في مؤتمر نيويورك

يجعله أمرا مشروعا لاضرر منه، كما يحب أن ينقل إلى الشرق ذلك، ليكون الخزى عالميا لايقتصر على مكان دون مكان!

الإباحية المدمرة!

كان الغرب فيما قبل هذه المؤتمرات يصف المرأة الشرقية بالتخلف وبأنها سجينة المنزل، وبأن الحجاب قد عاقها عن التعليم فهي جاهلة أمية، لذلك أخذ ينادي بحرية المرأة وسفورها، ومشاركة الرجل فى الأعمال، وتسنمها أرقى الوظائف، وتقدم الزمن فجعل للمرأة أن تتمتع بكل حقوقها، وأن تشارك فى شتى الميادين وأن تبلغ منصة الوزارة، وأن تكون مبرزة كل التبريز فى شئون الطب والتعليم والهندسة والتجارة والزراعة والمحاماة! وبذلك أصبحت المرأة الشرقية عضوا عاملا فى محيطها الاجتماعى! وكان من المنتظر بعد أن تحقق ذلك أن ينظر الغرب فى مؤتمراته إلى ما لايزال يعوق تقدم المرأة، ومكمنه هو الوضع الاقتصادى للدول الفقيرة المبتلاة بالبطالة وكثرة الديون ذات الأرباح الربوية المكتسحة وتفاقم عمليات الابتزاز المادى من بيع للسلاح، وتشجيع على انتشار المخدرات، واحتياج المطلقات والأرامل إلى تكافل اجتماعى مجز، ورعاية اليتامى من الأطفال، وتحريم اشتغالهم فى سن الطفولة، وتنظيم أوقات العمل الخاصة بالمرأة، وتحديد الإجازات القهرية التى تتطلبها طبيعة المرأة بقانون يضمن لها الراحة المعنوية والحسية معا، كان المنتظر من المؤتمرات النسوية أن تبحث هذه المعاضل القاتلة، وأن تصدر الاقتراحات العملية ذات الجد الملزم، وإذ ذاك فلن تجد تيارا يخالف منهج الإصلاح! ولكن مؤتمرات المرأة المتعاقبة تركت المسائل الاقتصادية جانبا ، وهى حجر الزاوية فى الإصلاح النسوى، واتجهت إلى المسائل الأسرية فجعلتها فى بؤرة النقاش، حتى كادت تكون كل شىء! وماهى المسائل الأسرية التي اتجهت إليها؟ إنها المصائب التي ارتطمت فيها دول الغرب وحدها، إنها الإباحية المدمرة القاتلة! تلك التى أزعجت الشرفاء والشريفات من المؤتمرين والمؤتمرات، ومع أن هذا الأمر قد فرغ منه فى مؤتمر بكين، فكان من الواجب ألا يثار إطلاقا فى مؤتمر نيويورك وتسائل عن الإصرار على إثارته مرة ثانية فلا تجد جوابا يريح!

إن الفكرة التي تسيطر على الغربيين بعامة، أنهم بارتقائهم الصناعى، وتقدمهم العلمى قد أصبحوا ذوى التوجيه لمن لم يبلغ مبلغهم فى

هذا المجال، ولكنهم نسوا شيئا مهما أنهم لم يتقدموا في السلوك الخلقي، والتعامل الإنساني كما يتوهمون، فالمساواة والإخاء والحرية وغيرها مما يتباهون به، لاتجد تطبيقها إلا في دولهم الغربية وحدها، والأوربي المتحضر الذي يذوب رقة أمام مواطنه كان يسير في جيش مدجج ليقتل آلاف الزنوج العزل في ساعة واحدة بما يسلطه من القاذفات المبيدة، ثم هو يستعمر الأرض ليحمل ذخائرها الكثيرة إلى مواطنيه، ولايترك للكادحين غير الفتات! وله تغطرس شامخ في معاملة من يخدمونه من أبناء الشعوب التي لاتحمل السلاح! فأين هي مبادىء الحرية والإخاء والمساواة؟! إن ذلك يذكرني بإحدى سيدات المجتمع منذ ربع قرن ممن ملأن الأندية والصحف والمجلات بأحاديثها عن تقدم المرأة ونضالها، وقد تبنت كلبا مدللا جعلت تلاطفه وتعد ذلك مظهرا من مظاهر شفقتها على الحيوان فهو يأكل أطيب المآكل، ويذهب إلى الطبيب لأي عارض متوهم، وينام في مكان دافىء مريح، وإنها الشفقة الحانية التي جعلتها تبذل في سبيله ما تبذل، ثم رأت ذات مرة قطة هزيلة تسربت إلى مطبخها، فحملت الماء الساخن الملتهب، وصبته عليها ليشوي جسمها شيا رهيبا، وحين أنكرت إحدى زميلاتها ما صنعت وكانت تزورها حينئذ قالت تبرر جريمتها أنها ليست قطتي إنها قطة الشارع الملوث، ولم تخجل لحظة من قسوتها الآثيمة! وهي بعد من سيدات المجتمع ذات الشفقة المفرطة على الكلب الضعيف! ولايفترق موقف هذه السيدة عن موقف الأوربي الذي يتشدق بمبادىء الحرية والإخاء، ثم يبيد المئات من العزل الأبرياء بمدفع غدار! أهذا ارتفاع أم انحطاط؟

الشرق شرق .. والغرب غرب!

وإذن فالظن بأن الارتقاء العلمي يسير مع الارتقاء الخلقي ظن يكذبه الواقع، ولو كان ذلك صحيحا لما قامت حربان عالميتان مدمرتان في أقل من ربع قرن! حربان حصدتا ملايين الأرواح، ودكتا دولا، وأبادتا شعوبا وجيوشا مابين شرق وغرب! والقائمون على هذه الزلازل الناسفة قوم متحضرون يباهون الأمم الشرقية بتقدمهم المادي، وينظرون إليهم من الأوج الشاهق نظرة الغرور والكبرياء! ونحن نعرف ماقاله الشاعر الانجليزي الكبير «كبلنج» «الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا» قال ذلك مفتونا بسيطرة الدولة التي كانت الشمس لاتغيب عن ممتلكاتها حينا من الدهر، وفي ظنه أن الغرب شامخ برقيه، وعلى الشرق أن يستجيب لنفوذه، وقد نسي أن الشرق هو الذي أهدى للبشرية موسى وعيسى ومحمدا وأن تعاليم

المرأة في مؤتمر نيويورك

هؤلاء العظام حقا هى التي أخرجت البشرية من الظلمات إلى النور، وأن أكبر عبقرى أنجبه الغرب لن يبلغ فى تأثيره مبلغ واحد من هؤلاء ، ولأضرب المثل بأرسطو سيد المنطق والمناطقة أليس هو الذى جعل الناس قسمين سادة وعبيدا ، فوضع بذور التكبر والاستعلاء!

ونعود إلى موضوع المرأة فنقول :

إن الذين يحاولون نقل تقاليدهم الى المرأة الشرقية - والمسلمة بنوع خاص - ينسون تجاريب كثيرة مرت بهم فى هذا المجال، وكان أقربها الى الخيبة ما ظنوه موضع النجاح، إذ جعلوا حقل تجاريبهم هو الأسر المسلمة التى قدر لها ان تعيش فى أوربا وأمريكا، فقد توقعوا بدءا أنها ستسارع إلى اعتناق المبادىء الغربية، وستكون داعية لها فى كل مكان حين تشهد من مظاهر تحرر زميلتها الأوربية أو الأمريكية ما يخلب لبها ويسرع بها إلى المحاكاة، توقعوا ذلك بل اعتقدوه. وعملوا على سرعة تنفيذه، فكتبوا الكتب التى تشيد بالمرأة الغربية وتذكر من مظاهر رقيها الشيء الكثير، ووزعوا هذه الكتب على الاندية الشرقية فى الغرب التى تجمع عائلات الدول الإسلامية ليكون ما يقرأ هؤلاء السيدات والآنسات منبها يقظا إلى سرعة الاندماج فى الوسط الأوربى، والى ضرورة المناداة بمحاكاة الأوربية فيما تأخذ وتدع من اساليب الحياة، ولكن الأيام تمر والسنين تتعاقب، ولا يجد هؤلاء المتشوقون إلى سرعة الاندماج بارقة أمل توحى بتحقيق الرجاء، بل وجدوا فى الأكثر من المرأة المسلمة عزوفا عن التبذل الأوربى او شدة معارضة لمن يحاول أن يفسح امامها طريق التمدن الموهوم. ولا ينكر ان القليل منهن قد انجذبن الى التقليد حينا قصرأو طال. ولكن الكثرة قد احتفظت بتقاليدها فى إصرار.

ولم يسكت رجال الاجتماع هناك عن تشخيص هذه الظاهرة، فذهب اكثرهم الى عامل الدين وحده اذ هو مدعاة التأخر كما جاهر نظراؤهم من قبل بأن الدين أيضا هو عامل التأخر فى كافة فروع الحياة بالمجتمع الإسلامى. فلم يأتوا بجديد، وللدين الإسلامى مناعة فى نفوس معتنقيه، وهذا ما جهله الباحثون هناك أمدا طويلا فتنادلوا الضرب الدائب على هذا الوتر، ثم اتضح لهم أنهم يضربون فى حديد بارد، فاتجهوا الى ما حسبوه مساوئ تلصق بالدين فى محيط المرأة، وأظهر ما تحدثوا عنه فى محيط المرأة من شئون الدين هو الطلاق، وتعدد الزوجات، والميراث، وهى موضوعات

يجيد الحديث عنها محترفو التبشير، ويكررونها ملحين، ولكنها كانت تصطدم بمعارضات يقوم بها نفر من صفوة مفكرى الغرب أنفسهم اذ يؤيدون حق المرأة في الانفصال، وحق الرجل في تعدد الزوجات، وتتوالى الردود جذبا ودفعا، واذا كان الإسلام هو دين الفطرة، فطرة أى كائن حى إذا أخلص التفكير المستقيم بينه وبين نفسه، فإن بواعث الطلاق والتعدد فى ظروفها الخاصة تجد الموافقة التلقائية من كل مفكر يتخذ الموضوعية مرتكزا لبحثه، ولعل الشاعر الانجليزى الكبير جون ملتون كان طليعة هؤلاء الذين نادوا بإباحة الطلاق فى مجتمع انجليزى شديد المحافظة، ولم يكن ذلك نزوة عابرة، بل كان تصميما اكيدا، جعله يصدر عدة طبعات من كتابه، وفى كل طبعة يفند ما دار حول الطبعة السابقة من نقاش. حتى لتوشك ان تكون كتابا مستقلا ومن انفس ما قال:

«كيف يتسنى الاختلاط الجسدى الوثيق بين زوجين يكره احدهما الآخر كرها شديدا فعالا، ويود ان يعتزله أبد الدهر، وهل فتح الله باب الزواج ليغلقه نهائيا كما يغلق باب المقبرة على الميت الدفين، وهل يأمن عاقل أن يزل فى الخطيئة حين يجد متنفسا آخر مع حليلة تشاركه هذه العاطفة عن محبة وانجذاب، وقد تكون هذه الحليلة زوجة بغيضة الى قرين تعيس يكن لها ما تكن من العداوة والشحناء وماصورة مجتمع تتعدد فيه هذه الفظائع الدامية دون ان يستطيع رجاله حلا لما يوثق، أعناقهم من الاغلال ان الشاب قبل الزواج لا يعلم ما بداخل الباب الحديدى، فاذا ولج الحاجز اليه فقد يجد ما يريحه ويرضيه، وهنا تكون السعادة ذات جناحين يرفرفان فوق المضجع، واذا كانت الثانية رأى الزوجان ثعبانا يلدغ، وافعى تطل برأسها فوق الوسادة فكيف يصبران على سم قاتل سيسرى فى العروق سريان الموت عن قريب!».

هذا نمط رائع مما جاء فى كتاب ملتون ولا يقرؤه منصف دون ان يفكر فيه طويلا، اما تعدد الزوجات فلن أؤيده بماكتبه علماء الاسلام من براهين، فذلك كله متعارف متعالم. ولكنى انقل كلاما طريفا للمستشرق الفرنسى «آتيين دينيه» وقد أقام بالجزائر امدا طويلا، وادرك عهدين، عهد اباحة التعدد، وعهد تحريمه فقال: «حينما منع التعدد، وجدت ظواهر لم تكن موجودة من قبل هذه الظواهر هى

١ ـ كثرة العوانس

٢ ـ كثرة اللقطاء

٣ ـ كثرة الأمراض السرية.

ولم يكن «آتيين دينيه» داعية واعظا، ولكنه شاهد فأقر!

والميراث ، ميراث المرأة، يرد على من يعترض بنوالها النصف، بأنها حين

المرأة في مؤتمر نيويورك

تكون زوجة ستجد من ينفق عليها ملزما ،وهو الزوج الذى أخذ الضعف ليكفيهما معا، فاذا كان الرجل يقوم بعبئين ملزما، وليست زوجته ملزمة بعبء واحد! الا تكون هو الغانمة ؟! أجل والله.

الأسرة الجديدة!

وأعود مرة ثانية إلى الحديث عن تكرار المؤتمرات الخاصة بالمرأة ، دون اهتمام بما يتمخض عنه النقاش، ودون استماع ما الى الرأى المخالف، ففى اللجنة التمهيدية للمؤتمر الذى انعقد فى ١٥ مارس الى ١٤ ابريل سنة ١٩٩٥ بنيويورك كانت مسألة الأسرة الجديدة المكونة من رجلين. او امرأتين مجال نقاش قوبل بالرفض، وكان الموضوع قد عرض من قبل فى مؤتمر القاهرة الذى عقد فى سبتمبر ١٩٩٤، وأحدث دويا صارخا نتج عنه الرفض الحاسم من الدول الملتزمة بشرعة الطهارة والعفاف! لقد كان فى هذا الاحتجاج المؤيد بالشواهد ما يوجب حذف الموضوع نهائيا دون محاولة للإثارة والاستفزاز، ولكن الإصرار المستميت على تحقيق هذا الفساد الموبق قد عاد بالموضوع مرة ثالثة الى مؤتمر بكين «سبتمبر ١٩٩٥ الذى انعقد بعد خمسة اشهر من انعقاد اللجنة التاسعة والثلاثين فى مؤتمر نيويورك ، وقد أشرت اليه من قبل. ليدفع انصاره بقوة مستميتة مواده الى الاقرار بها وها نحن أولاء فى سنة ٢٠٠٠ نرى مؤتمر نيويورك يناقش الموضوع، وكأنه امر جديد يعرض لأول مرة . وانى لأتساءل ما جدوى هذه المؤتمرات اذا كانت تبدى وتعيد فى مسائل منكرة ثم ينتهى الأمر بالفشل المحقق. لا لتدرج المسألة فى أكفانها. بل لابد ان تدور الساقية ليبحث الامر من جديد! فأى إصرار هذا الذى تتجمع خلفه القوى المريضة لتهد دعائم الاستقرار، وكأنها تجاهد فى ميدان شريف!

وكما هو متوقع دائما بدا للعيان ان بعض القائمات على الدعوة الى انهيار الاسرة بمفهومها المتعارف هن اللاتى تورطن فى زواج الأنثيين . فهن حين يبذلن هذا الجهد المستميت فى الدفاع عن وضع شاذ مريض يحاولن ان يجدن لسلوكهن الشائن مبررا قانونيا أمام الجمهور الملتزم. وقد نسين ان يعرضن لشىء مهم فى هذا المجال، فقد أثبتت الاحصائيات الرسمية ان المنتحرات منهن قد جاوزن كل حد معقول، كما أثبتت هذه الاحصائيات ان الذين عقدوا الصلات الأثمة قبل

الزواج كانوا السبب فى دمار محقق، حيث فقدت الفتاة سمعتها وطاردتها الأقاويل، ورأت فيما سمته خيانة «الحبيب» أو الزوج المرتقب، ما سود عيشها فاندفعت الى نهاية لا تحسد عليها! فإذا كان هذا التدمير المريع قد لحق بالمجتمع الاباحى قبل أن يفرض له قانون يجيزه، وقبل ان يصبح شيئا طبيعيا لا نشاز فيه ، فكيف إذا تم الأمر على ما يريدون، واتسعت شقة الإباحة فشملت جمهرة الشباب .. ترى كم يكون عدد المنتحرين والمنتحرات اذ ذاك؟! ومن اللافت للنظر ان يعد هؤلاء سيطرة الدين على التربية الاسرية حجرا مفروضا يجب التحلل منه، ولا يعدون فرض آرائهم الشاذة حجرا على الناس، وترويجا لفاحشة تأنف منها الكثرة الكاثرة، أفتكون الحرية حقا مشروعا للآثم يفرض رأيه المشبوه دون إنكار ، ولا يكون للدين حرمته فى إقرار التشريع الواقى، وقد مرت القرون خلف القرون فأثبتت صلاحية هذا التشريع. فحقق للمجتمع سعادة شاملة نحاول الآن أن نعمل.فيها معاول الهدم، ليشيع الفساد فى البر والبحر بما كسبت ايدى الناس، ثم لماذا لا يتحدث هؤلاء الا عن حقوق المرأة ولا يشيرون اشارة ما الى واجباتها ! نعم نعرف أن للمرأة حقوقا أشرنا اليها من قبل، وندعو جاهدين الى تحقيقها.

ولانفصل في هذا الموضوع بين المرأة والطفل، فالطفل لا راحة له فى غير رعاية أمه، والأمومة كالطفولة فى حاجة إلى اعتناء تام تسانده القوانين الملزمة! وأكثر الأسر فى الشعوب النامية فى حاجة إلى العون المادى الذى يجب أن تفرض له القوانين. وكم يكون حسنا من المؤتمر أن يولى ذلك عنايته الحريصة، بدل أن يحصر الأمر، فى تمثيل المرأة بالمجالس النيابية، واللجان الشعبية، والمناصب القضائية! لقد اغتصبت النساء كرها فى يوغسلافيا والشيشان وأفريقيا، ولم نسمع صوتا واحدا بالمؤتمر يندد بهذا الهول المريع ! ثم ان ارتقاء المجتمع لا يتم الا بارتقاء الرجل والمرأة معا، وأول عوامل الارتقاء تحسين الوضع الاقتصادى للأسرة ! فليكن نشاط المؤتمرات النسائية موجها إلى هذه الضرورات المعاشية ولتنفرج العقول المفكرة عن حلول اقتصادية تفرض معونات الدول الثرية للدول الفقيرة وهنا يستحق المؤتمر أن يعقد، وان تتطلع إليه الأنظار أما أن يعيش القائمون على المؤتمر فى أوهام «العالم الواحد» فهذا ما لا يمكن أن يكون، تصديقا لقول الله عز وجل «ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة، ولا يزالون مختلفين».

بقلم : د. محمد عمارة



الإسلام وصياغة النموذج الثقافى

●● على المستوى الإنسانى، وفى مختلف الميادين، ينهض «النموذج» بدور محورى فى تحديد «الأسوة .. والقدوة» التى تنهض بدور «البوصلة» المحددة والمرشحة لتوجهات الإنسان فى مختلف ميادين الحياة.

ففى الأسرة «نموذج الأب» .. وفى الأمة «نموذج البطل» .. وفى التاريخ «نماذج الانتصارات» .. وفى العلاقات الدولية والإقليمية «نموذج الوطن» .. وفى العقائد والأيديولوجيات «نموذج الدين» .. إلى آخر «النماذج» التى تأسر الإنسان على توجّه بعينه وطريق بذاته عند مفترق الطرق، وتعدد الخيارات .. وفى اللحظة التى يتم فيها اختيار «النموذج»، يحدث الإفصاح والإعلان عن انتماء «الذات»، ومن ثم تميزها عن «الآخر»، الذى عدلت عن اختياره «نموذجا» فى هذا الميدان من ميادين الاختيار. ●●



رفاعة رافع الطهطاوى — محمد على — الخديو عباس

والميدان الثقافى ليس فقد مجرد واحد من هذه الميادين التى يتم فيها اختيار الإنسان «نموذجا» دون الآخر.. بل إن «النموذج الثقافى» يكاد أن يكون، بعد اختياره ، والانتماء إليه، والولاء له، المعيار الذى يحدد ويرجح «النماذج» التى يختارها الإنسان فى العديد من المجالات والكثير من الميادين.. فالثقافة التى صنعت هوية الإنسان، هى الموجّه لاختياراته لنماذج الأسوة ومناهج القدوة والمثل والمعالم التى تجعله يوالى هذا ويعادى ذاك، وينشط لهذا المقصد ويعدل عن سواه، ويضحى فى هذا السبيل ولا يلتفت إلى ما عداه.. و«النموذج الثقافى» هو المحدد «لنموذج المستقبل» الذى يسعى الإنسان لصنعه، وتحقيقه فى الواقع الاجتماعى الذى يعيش فيه.

الذات .. والآخر .. ثقافيا

وإذا كان الله، سبحانه وتعالى، قد خلق الناس جميعا من نفس واحدة، فقد اقتضت حكمته، وحتى يتم استباق الناس على طرق الاستعمار للأرض، وتنافسهم فى تحصيل المنافع، وتدافعهم لحيازة الخيرات المادية والمعنوية.. شاء، سبحانه، أن تتوزع البشرية إلى تعددية فى الشعوب والقبائل والأمم والألسن والألوان والمناهج والشرائع، ومن ثم فى القوميات والثقافات..

وإذا كانت «الذات» إنما تعرف بالسمات الثوابت التى تميزها عن «الآخر»، وليس بالمشترك الذى يجمعها بهذا «الآخر»..

وبما أن واقع أمتنا العربية الإسلامية، الحديث والمعاصر، هو واقع الاحتكاك والتدافع الثقافى والحضارى مع النموذج الغربى تحديدا، ودون أى «آخر» سواه.. فإن الحديث عن «الذات» و«الآخر»، ثقافيا، لابد أن يقود إلى تحديد المعالم المميزة للنموذج الثقافى الإسلامى - عن النموذج الغربى - دون أن يعنى ذلك إنكار ميادين المشترك الإنسانى العام فى العديد من العلوم والمعارف التى لا تدخل حقائقها وقوانينها وثمرات معارفها وتجاربها فى «المميز للذات الثقافية»، وإنما تدخل فى «الجامع» الذى تتفاعل فيه وتتشارك «الذوات الثقافية» للإنسانية جمعاء ..

فالإسلام هو المكون لذاتيتنا الثقافية، والمحدد لمعالم نموذجنا الثقافى، وتميزنا عن «الآخر» الغربى قائم فقط حيث يكون التميز والافتراق.. الأمر الذى يجعل علاقة نموذجنا الثقافى - الذات الثقافية - بالآخر هى علاقة «التميز .. والتفاعل» ، التى هى وسط عدل متوازن بين غلوّين: غلو الإفراط ، الذى يرى هذه العلاقة علاقة «قطيعة.. وتضاد».. وغلو التفريط، الذى يراها علاقة «مماثلة .. ومحاكاة» !

فكما تميز «البصمة» الإنسان عن بنى جنسه ، مع اشتراكه معهم فى جنس الإنسان ، كذلك تتميز الذات الثقافية للأمة عن الذوات الثقافية الأخرى، بتميز النماذج التى يجمع كل منها معالم المغايرة والسمات الفارقة لنموذج ثقافى عن سواه، وذلك دون إنكار أو إغفال لميادين الاشتراك الإنسانى فى كثير من حقائق وقوانين الكثير من التجارب والخبرات والعلم والفنون ..

★★★

وهذه الحقيقة من حقائق علاقة «الذات الثقافية» بـ «الآخر الثقافى» - علاقة «التميز .. والتفاعل» - لا «القطيعة .. والتضاد» .. ولا «المماثلة.. والمحاكاة» - قد غدت، عبر التاريخ، قانونا حكم التقاء واحتكاك وتدافع الثقافات فى سياق تدافع الحضارات.

فالإغريق انفتحوا على المصريين القدماء، لكن تأثرهم وقف عند ثمرات «العقل» دون أن يتجاوزها إلى عالم «الروح» و«الوجدان» ..

والمسلمون انفتحوا على الحضارة الهندية، لكنهم أخذوا عن الهنود الفلك والحساب، دون الفلسفات والثقافات.. وكذلك صنعوا فى انفتاحهم على الفرس، عندما أخذوا عنهم التراتيب الإدارية، ورفضوا مذاهبهم الفلسفية وعقائدهم الدينية.. وعن الرومان البيزنطيين أخذوا تدوين الدواوين، ولم يأخذوا القانون

الرومانى.. وكذلك الحال فى الانفتاح على تراث الإغريق، فلقد أخذ المسلمون العلوم التجريبية التطبيقية المحايدة، وأهملوا النظر فى إلهيات اليونان، بل وأهملوا النظر فى الآداب الإغريقية لما حملت من أساطير وثنيتهم ولما جسدت من روح الوثنية فى ذلك التراث.

وذات القانون نراه فاعلا إبان انفتاح النهضة الأوربية على تراثنا الإسلامى، فلقد أخذوا العلوم التجريبية، التى طورها المسلمون، وأخذوا إبداع أسلافنا فى المنهج التجريبى والملاحظة والاستقراء - وهو الذى فتح به المسلمون باب التجاوز للقياس الأرسطى - .. لكنهم - الأوربيين - لم يأخذوا نموذجنا الثقافى الإسلامى، بل لقد أحيوا النموذج الإغريقى مع استلهامهم من تراثنا العلوم الطبيعية والمنهج التجريبى، فنهضوا كامتداد متطور للإغريق والرومان، ولم يقفوا من نموذجنا الثقافى الإسلامى موقف المحاكاة.. بل لقد كان تعامل النهضة الأوربية مع فيلسوفنا أبى الوليد ابن رشد - الحفيد - (٥٢٠ - ٥٩٥ هـ ١١٢٦ - ١١٩٨م) نموذجا لإعمال هذا القانون الذى حكم العلاقة الصحية والطبيعية بين النماذج الثقافية المتميزة للأمم المختلفة.. فأخذوا «ابن رشد: الشارح لأرسطو» - لأن هذه بضاعتهم ردت إليهم - ورفضوا - بل وأصدروا مراسيم التحريم - على «ابن رشد: الموفق بين الحكمة الإنسانية وبين الشريعة الإسلامية» .. و«المتكلم، الذى أقام العقيدة الدينية على العقلانية المؤمنة» و«الفقيه الذى كان يقضى بين الناس بشريعة الإسلام وفقهها» .. لأن هذا النموذج الثقافى الإسلامى - أو «الرشدية الإسلامية» - كان مغايرا للنموذج الثقافى «للرشدية اللاتينية» ، تلك التى استبدلت العلمانية باللاهوت، وألهت العقل،عندما أصبحت عبارة: «لا سلطان على العقل إلا للعقل» هى شعار فلسفة وفلاسفة التنوير!..

بل إن بواكير نهضتنا الحديثة - وخاصة تجربة مصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادى - تحت حكم محمد على باشا الكبير (١١٨٤ - ١٢٦٥هـ ١٧٧٠ - ١٨٤٩م) - قد جسدت إعمال هذا القانون فى علاقة الذات الثقافية ونموذجها بالآخر الثقافى ونموذجه.

فرفاعة رافع الطهطاوى (١٢١٦ - ١٢٩٠ هـ ١٨٠١ - ١٨٧٣م) هو الذى دعا إلى التتلمذ على أوربا فى «العلوم الحِكْمية العملية.. والمعارف البشرية المدنية التى لها مدخل فى تقدم الوطنية، لأنها - وإن ظهر

الآن أنها أجنبية - هي علوم إسلامية، نقلها الأجانب إلى لغاتهم من الكتب العربية، ولم تزل كتبها إلى الآن في خزائن ملوك الإسلام كالذخيرة»! .. فدعا الطهطاوي إلى التفاعل مع معارف وحقائق هذه العلوم مع إحياء النموذج الثقافي الإسلامي، «بنشر السنة الشريفة، ورفع أعلام الشريعة المنيفة».

بل لقد أكد الطهطاوي تميز النموذج الثقافي الإسلامي عن النموذج الأوربي، عندما قال إن لهم في «الفلسفة حشوات ضلالية مخالفة لسائر الكتب السماوية.. وهم من الفرق المحسّنة والمقبّحة بالعقل والنواميس الطبيعية وحدهما.. أما نحن المسلمين فليس لنا أن نعتمد على ما يحسنه العقل أو يُقَبِّحهُ إلا إذا ورد الشرع بتحسينه أو تقبيحه.. فتحسين النواميس الطبيعية لا يعتد به إلا إذا قرره الشرع»(١)

فعندما تكون العلاقة صحية، وقائمة على الاختيار الحر، وعلى التكافؤ، بين الحضارات، ينهض النموذج الثقافي بدور المعيار الذي يحدد نطاق «التفاعل.. والاستلهام» وحدود «التمايز.. والخصوصية»، فتكون العلاقة الصحية والطبيعية بين «الذات» وبين «الآخر» في الميدان الثقافي .

ولهذا الوضوح ، في تميز النموذج الثقافي الإسلامي عن النموذج الأوربي، عند الطهطاوي، وفي تجربة مصر على عهد محمد علي باشا الكبير، رأينا الطهطاوي عقب عودته من باريس سنة ١٨٣١ م يقدم إلى المطبعة مشروعين لقائمتين من الكتب: مشروع لإحياء أمهات كتب التراث الإسلامي.. ومشروع لترجمة معارف وعلوم التمدن المدني الأوربي الحديث..

ووجدنا ، كذلك ، جميع المبعوثين الذين ابتعثتهم الدولة إلى أوربا - في عهود محمد علي وعباس وسعيد - يذهبون للتخصص في العلوم الطبيعية التي تغير الواقع، ولم يذهب منهم مبعوث واحد ليدرس الإلهيات أو الآداب والفنون أو الإنسانيات التي تصوغ وجدان الإنسان وتشكل عمران النفس الإنسانية، لأن هذه المهمة هي اختصاص النموذج الثقافي الإسلامي دون سواه ! (٢) .

فلما انتكست التجربة، وهيمن الاستعمار، انعكست الآية.. فحرمنا من العلم الأوربي الذي نحتاج، وأمطرنا بألوان النموذج الثقافي «الآخر» بدلا من نموذج «الذات» !..

● «النموذج» : هو «التصور» و«المثال» الذي يتحول إلى «معيار» فارق

ومميز – في النسق الفكرى – لمنظومة فكرية أو عقدية أو حضارية أو ثقافية عن غيرها من المنظومات المتميزة في «النموذج» و«التصور» و«المثال».

● و«الثقافى» هو جماع ما يعمر النفس الإنسانية ويصوغها ويهذبها، من سائر ألوان الإبداع والعطاء.. إبداع الإنسان وعطاء المحيط.. وهو – «الثقافى» – مع «المدنى» – الذى هو جماع ما يتمدن ويعمر به الواقع المادى، ويرتقى ويتهذب يمثلان جماع «الحضارة.. والعمران» .. فالثقافة عمران النفس الانسانية، والتمدن عمران الواقع المادى.. ولذلك كان «الاشتراك الإنسانى» في «التمدن» – عمران الواقع المادى – أكثر مما هو في «الثقافة»، التى هى عمران النفس الإنسانية، إذ فيها تتجلى الخصوصيات بين الأمم والحضارات، لاستعصاء النفس، ومن ثم مقومات تهذيبها وعمرانها على النمطية والقولبة والتكرار الوارد في عمران الواقع المادى..

● ولأن الإسلام – كمنظومة عقدية، تكون من حولها نسق فكرى – قد مثل «الرحم» الذى ولدت منه الأمة الواحدة.. والدولة الواحدة.. والدار الواحدة.. والصبغة التى صبغت حضارة الأمة وميزتها، عبر الزمان والمكان.. وذلك فضلا عن الوحدة في العقيدة والشريعة، حتى لكأنما قد خرجت أمته من بين دفتى قرآنه الكريم .. لأن هذه هى المكانة المحورية للإسلام في حياة الأمة ، فلقد صاغ إنسانها، وحدد له معالم الطريق لبناء العمران الدنيوى، ولضمان النجاة الأخروية.. صاغ الإسلام لإنسانه وأمته المعايير التى لونت الثقافة التى نهضت بمهام العمران والتهذيب للإنسان المسلم، إن في لحظات التزامه بالنموذج والمعيار والمثال والتصور، أو حتى في لحظات انحرافه عنه، لأن «الضمير» الذى صاغه النموذج الإسلامى يظل واعيا بأن الانحراف عن هذا النموذج هو الاستثناء الشاذ، والحرام الذى ينتقص من تهذيب النفس وعمرانها، أى من ثقافتها، التى لابد وأن تلتزم التصور وتتغيا المثال.. تلك هى مكانة الإسلام في صياغة النموذج الثقافى للأمة ..

ولعل الإسلام قد بلغ على هذا الدرب – صياغة النموذج الثقافى .. وصبغه بصبغته – أكثر من المنظومات العقدية والفكرية الأخرى، دينية كانت أو وضعية، لأن الدينى من تلك المنظومات قد وقف في الغالب عند مهام «خلاص الروح.. ومملكة السماء» ، بينما توجه الوضعى من هذه المنظومات الفكرية إلى «شئون الدنيا» دون سواها.. أما الإسلام، الذى مثل منهاجا

شاملا وجامعا للروح والجسد، للفكر والمادة، للدين والدولة، لعالم الغيب وعالم الشهادة، للدنيا والآخرة، للذات والآخر ، للفرد والطبقة والأمة، للتكاليف الفردية والكفائية «الاجتماعية»، حتى لقد جعل الاستمتاع الحلال بزينة الدنيا وطيبات الحياة عبادة لله، وصنف إماطة الأذى عن الطريق فى شعب الإيمان!.. إن الإسلام ، الذى مثل بمنهاجه الشامل هذا: الروح السارية فى الحياة الإنسانية، وفى محيطها الطبيعى ، وفيما وراء الحياة والطبيعة ، قد بلغ فى صبغ الثقافة الإسلامية بصبغته المتميزة الدرجات التى لم تبلغها المنظومات العقدية الأخرى .. لقد صاغ النموذج والمثال والتصور والمعيار، الذى كان التزامه من قبل الإنسان المسلم السبيل لأسلمة الثقافة، التى صاغت النفس المسلمة..

وحتى الأعراف – التى لم يصنعها الإسلام – رأيناه يضبطها، ثم يجعلها مصدرا من مصادر التشريع.. وحتى «الحكمة»، التى هى الصواب البشرى، الذى يصل إليه العقل الإنسانى، رأينا الإسلام يجعلها مناطا للتكليف الشرعى، ويحدثنا عن أنها – كالكتاب – كلاهما تنزيل إلهى (كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون)(٣).

لقد كانت الصناعة الثقيلة للإسلام هى تغيير النفس الانسانية وصياغتها صياغة إسلامية، وذلك لتصوغ واقعها صياغة إسلامية كذلك، أى ليقوم العمران الإسلامى، فى النفس والواقع ، فتحقق المقاصد الإلهية من وراء خلق الإنسان واستخلافه فى الأرض لاستعمارها (وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة) (٤) .. (هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها..) (٥).

تلك هى مكانة الإسلام فى صياغة النموذج الثقافى للأمة الإسلامية.

---

١ – أنظر فى ذلك (الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى) جـ ١ ص ٥٣٣، ٥٣٤، ١١٤، ١١٥ . وجـ ٢ ص ١٥٩، ٧٩. دراسة وتحقيق دكتور محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٧٣م.

٢ – أنظر : عمر طوسون (البعثات العلمية فى عهد محمد على وعباس وسعيد) ص٢٣، ٢٤، ٢١٩، ١١، ١٦٢، ١٦٣، طبعة القاهرة سنة ١٩٣٤م.

٣ – البقرة : ١٥١ .

٤ – البقرة : ٣٠ .

٥ – هود : ٦١ .

«العالم العربى هو البقعة الوحيدة على الكرة الأرضية التى تبدو وكأنها خارج الزمان والمكان»

المفكر الفلسطينى ادوارد سعيد

«النقاش العقيم الذى يجرى فى مصر الآن حول قضية نقل الأعضاء هو الهزل بعينه، حيث لا مكان للهزل»

العالم والجراح د. محمد غنيم

رئيس المركز الطبى بالمنصورة

«حياتى صنعت كى أطلق النكتة أضحك بها الآخرين»

نجم الكوميديا الإيطالى البرتو سوردى

«حين يتحول الفنان إلى صنم يكرّم، نادرا ما يتمكن من أن يتابع مسيرته الفنية»

المخرج المصرى توفيق صالح

«اكتشفت بالتجربة ان ما اكتبه لنفسى يعنى الآخرين أيضا»

الأديب السعودى عبد الرحمن منيف

«ليتنى تعلمت صنعة مفيدة، واشتغلت نجارا، ولم تصبنى لعنة الأدب والكتابة»

الأديب السودانى الطيب صالح

«شعرى لا يناهض السلطة، الااذا كانت تناهض الشعب!!

الشاعر أحمد فؤاد نجم

«كلما نقص شعور المرء بالأمان والاطمئنان زاد تحامله وظلمه»

الممثل والمخرج الامريكى كلنت ايستوود

«لا يغلق فى وجهى باب، الا وكان وراءه الشيطان»

المفكر الإسلامي د. عبد الصبور شاهين

«يمكنكم نزع السلاح من يدى عندما تصبح ميتة»

شارلتون هستون

الممثل ورئيس الاتحاد

الوطنى للسلاح

دفاعا عن حرية حمل السلاح فى الولايات المتحدة



ادوارد سعيد



د. محمد غنيم



المخرج توفيق صالح

شكرى عياد والتحرر من السياسة

بقلم : د. عاصم الدسوقى



فى الرابع والعشرين من يوليو ١٩٩٩ رحل عن عالمنا شيخ المفكرين والنقاد الأستاذ الدكتور شكرى عياد، والذى أثرى حياتنا بآرائه وفكره المستنير .

لقد افتقدناه على صفحات «الهلال» التى أحبها وأعطاها كل ما جادت به قريحته فى السنوات العشرين الأخيرة من عمره.. وننشر هذا الموضوع فى ذكرى رحيله .

لم يكن شكرى عياد سياسيا، ولم يتمن أن يكون كذلك يوما ما. ولم يكن محبا للسياسة، فقد نأى بنفسه عنها اختيارا واحتراما لذاته. وظل ناقدا أديبا أكثر منه أديبا مجازفا يبحر بأفكاره الخاصة وسط أنواء الابداع، تتلقى شراعه سهام النقد من كل حدب وصوب . وآثر أن يكون ناقدا للآخرين لا منتقدا منهم. ولم يكن مؤمنا بالتاريخ كما يكتب، وهو حجر الزاوية فى الوعى بالسياسة، ولكن كانت له رؤاه الخاصة فيما عاصر من أحداث حينما كان تلميذا بالمرحلة الثانوية، ثم طالبا بالجامعة يدرس الأدب ويرى السياسة من خلال شخصيات ما يقرأ من روايات تقوم على وقائع فى التاريخ.

والقارىء لبعض ذكرياته فى «العيش على الحافة» (نشرها عام ١٩٩٨)، يخرج بهذا الانطباع العام بعد جهد مضنى فى اكتشاف ماوراء السطور، حيث الغموض يكتنف ما يتعلق بالتاريخ السياسى، فى مقابل الوضوح التام والصراحة الصارخة فى موضوعات الحياة العامة والشخصية على وجه الخصوص، وحتى لا يفتح عليه باب النقد فيما يتعلق برؤاه السياسية، فانه يكرر عبارة «انه يتناول تاريخ ما أهمله التاريخ أو أن التاريخ ليس صناعته..» وقد كان قلقا وحائراً بين أن يتمثل بالشعراء والأدباء الذين يقرأ عنهم ولهم ليكون واحدا منهم، وبين أن يتمثل بالزعامات السياسية التى قلبت أوضاع بلادها وأسمعت الدنيا، حائرا بين «فرديته الفظيعة» وأحلامها، وبين الحلم الجماعى الذى مثلته حركات كبيرة فى التاريخ مثل ثورة كرومويل فى انجلترا، والثورة الفرنسية، ومبادئ الاشتراكية كما بشر بها الرعيل الأول من الماركسيين فى مصر، ثم أحمد عرابى فى مصر، وموسولينى فى ايطاليا، وهتلر فى المانيا.

غير أن قراءاته لأعمال محمد حسين هيكل حولته فى النهاية من البحث وراء قادة الجيوش ومؤسسى الدول الى قراءة تراجم الأدباء من الشعراء والمفكرين. وبعد أن كان يتمثل كرومويل، أصبح يحلم بأن يكون شاعرا مثل شلى. أما أفكار الثورة الاجتماعية والسياسية فقد اكتفى بأن يعيشها «فى الأحلام» لتداعب خياله الخصب اليقظ .

كانت الثلاثينيات هى فترة تكوينه الفكرى واستقراره الوجدانى حيث مرحلة الدراسة الثانوية والجامعية. وكانت الثلاثينيات فى مصر هى فترة المفاوضات السياسية بين الحكومات المصرية المتعاقبة والحكومة البريطانية حول المسائل المعلقة من تصريح فبراير ١٩٢٢ الخاص باستقلال مصر، وهى مفاوضات كانت تنتهى مع كل حكومة بالاخفاق، ومن ثم بالاستقالة لتدور الدائرة على الوزارة التالية وهكذا.. وهى الفترة التى شهدت قيام اسماعيل صدقى بالغاء دستور ١٩٢٣ وفرض دستور ١٩٣٠ يعطى للملك سلطات مطلقة أكثر مما كانت له فى



دستور ١٩٢٣، وهى الفترة ايضا التى شهدت نشاط جماعة الاخوان المسلمين، وجمعية مصر الفتاة، واحياء النشاط الشيوعى بعد فترة كمون قصيرة فى أعقاب ضرب وزارة سعد زغلول للحرب الشيوعى فى عام ١٩٢٤.

وعلى هذا كانت ساحة العمل السياسى الوطنى آنذاك تشهد أمواجا متلاطمة دون استقرار على يقين، وتشهد صراعا حادا بين قوى سياسية مختلفة بعضها أصيل وبعضها واجهة لقوى أخرى. وتشهد ملاحقة السلطات لعناصر المعارضة من كل نوع ومطاردتها حيثما تكون. ومثل هذه التنويعات بتناقضاتها تزيد من حيرة الانسان فى تبين الصواب لاختيار الانتماء، فما بالنا بصبية المدرسة وشباب الجامعة.

ولقد أدى تدافع أحداث الفترة وزخمها واختلال المعايير التى تقاس بها الحركة، الى أن يعتقد شكرى عياد ونفر من زملائه ان مستقبلهم يتحدد بين اختيارين لا ثالث لهما .. اما ان يصبح الواحد منهم ضابطا، واما ان يكون معتقلا. ولعل «الضابط» هنا اشارة إلى السلطة السياسية، و«المعتقل» كناية غن المعارضة السياسية التى تفضى إلى السجون.

التوجه إلى النازية

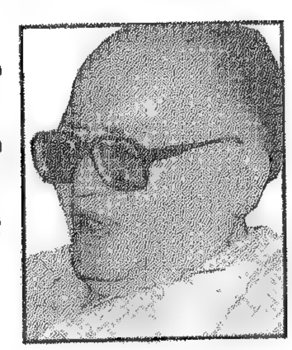
وآنذاك كان هتلر وموسولينى فى أوج مجدهما كما يقول شكرى عياد، ولم يكن يرى فيهما شأن كثيرين من أقرانه «الا أنهما زعيمان وطنيان يتحديان دولتى الاستعمار (فرنسا وانجلترا)، وعلى حين كان موسولينى غير محبوب «لتاريخه الأسود فى ليبيا والحبشة» كان هتلر محترما لأنه «صافح خضر التونى فى أوليمبياد برلين والتقى به أحمد حسين». وقد رأى شكرى عياد أن التوجه الى النازية يعبر عن طموح الجيل الجديد لتحقيق الاستقلال التام ومع ان جمعية مصر الفتاة، ومؤسسها أحمد حسين، الممثلة للتوجه النازى، اكتسبت شعبية بفضل مشروع القرش الذى جمع حوالى

ثمانية عشر ألف جنيه رغم الازمة الاقتصادية، الا ان شكرى عياد رأى فى بداية المشروع بمصنع الطرابيش طفولة فى التفكير»، لأن الطربوش «أثرا من الاحتلال التركى.. رغم انه كان يلقب بتاج الوطنية».

هل مثل هذه الملاحظات والاختيارات عند شكرى عياد تعود إلى تأثير مدرسى التاريخ والجغرافيا فى المدرسة؟.. لم يكن الأمر كذلك كلية، فإنه يؤكد فى أكثر من موضع بأن هؤلاد الأساتذة لم يكونوا «يتكلمون فى السياسة» ، ولكنهم من خلال الدروس كانوا يملأون التلاميذ «اعتزازا بتاريخ مصر وكفاح الشعب، وثروة مصر الطبيعية التى يسرقها الأجانب». وهو يبرىء أساتذة المدرسة اولئك من الميول النازية حتى ولو بطريق غير مباشر من خلال الدروس، ذلك أنهم فى رأيه كانوا من الجيل الذى شهد ثورة ١٩١٩ والمعركة حول الدستور، وان كان هذا فى تقديرى ليس شرطا، لأن الجيل العمرى الواحد لا يكون بنمط فكرى واحد ، فالجيل الذى شهد ثورة ١٩١٩ انشطر بين أفكار وتوجهات سياسية متناثرة بين يمين ويسار .. الخ.

هل تعود هذه الملاحظات الى مادة التربية الوطنية التى كان يدرسها فى الثالثة ثانوى.. ربما.. ولكن هذه المادة كما قدمها شكرى عياد فى ذكرياته عمادها دستور ١٩٢٣ مذيلا بدستور ١٩٣٠ باعتباره تعديلات على الدستور الأصلى، وهو نفسه قد رأى فى هذا التذييل ايهاماً بأن قيود دستور ١٩٣٠ مجرد تعديلات لدستور ١٩٢٣ ولست الغاء له. مع ان نصوص دستور ١٩٢٣ جملة وتفصيلا وضعت فى صالح الصفوة الاجتماعية الحاكمة آنذاك من جماعة كبار ملاك الأراضى الزراعية والعقارات. وأصحاب رءوس الأموال التجارية والصناعية.

على أن فضيلة الاعتزاز بالوطن الذى امتلأ به شكرى عياد مع أقرانه من دروس التاريخ والجغرافيا، يعود الى مؤثر اخر كما نلمسه من ذكرياته، ويتمثل فى بعض أساتذة المدرسة فى سنة خامسة ثانوى من الانجليز ذوى الأصول الاسكتلندية والايرلندية الذين كانوا يكرهون الانجليز



بل ويحـــاربونهم، ولـم يكـن الـدرس يــخـلــو مــن اسقاطات سياسية هـنا وهـناك على الوجود الانجليزى فى مصر .

واذا كانت مشروعات مصر الفتاة عند شكرى عـيـاد تمثل «طفـولة فى التفكير» على نحو ما سبقت الاشارة، فـان العنف عنده أيضـا أمـر «يصاحب تحولات المراهقة»، وأكثر من هذا فانه مع المراهقـة «يصبح الدافع الوطنى أو مـا يشبهه مجرد مبرر لظهور نزعة العنف»، حتى أن شكرى عياد الذى لم يقتل فى حياته دجاجة (اعترف بأنه قتل فأرين)، كان يضع تحت مخدته خنجرا، وكان ذلك أثناء الحرب العالمية الثانية عندما تكونت «عصابات» لاغتيال الجنود الانجليز هل يريد أن يقـول لنا ان العـمل الوطنى المصحوب بالعنف نوع من المراهقة؟!.

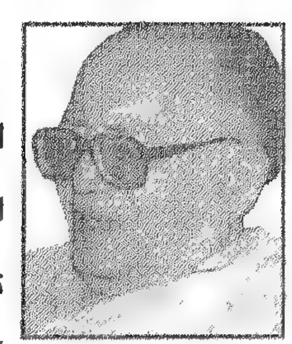
وتكشف الذكريات ان الوعى بعدم جدوى العنف أو عدم بصيرته، نشأ عند شكرى عياد مبكرا، اذ أنه لم يشترك طوال حياته الا فى مظاهرة واحدة عندما كان تلميذا فى مدرسة أشمون الابتدائية ضد وزارة محمد محمود عام ١٩٢٨ - ١٩٢٩ ، المعروفة فى تاريخ مصر بحكومة اليد الحديدية حين تعطل البرلمان، وعاد الى منزله بعد المظاهرة وقد انحبس صوته لا يستطيع ان يخرج حرفا سليما. وعندما كان فى التوجيهية كان زملاؤه فى فصل خامسة أدبى يتزعمون المظاهرات ليس فى مدرسة شبين الكوم فقط، وانما فى مدينة شبين كلها. ولكنه حتى لا يبدو شاذا بين اقرانه فى الفصل حدد لنفسه دوراً محدوداً بحيث يبدو مشاركا أصيلا أمام الغير، . وغير متورط فعليا امام نفسه. اذ كان يلتقى عصر كل يوم مع زملائه عند مكتب البريد قرب السوق لترتيب ما سيفعلونه فى الصباح، وبعد أن يقوم بدوره المحدود وتنطلق المظاهرة يذهب عائدا الى بيته .

هكذا كان موقف شكرى عياد مبكرا من السياسة والعمل السياسى، فهو لا يمكنه كما يقول أن يفخر بأنه جرح فى مظاهرة، أو حجز يوما فى قسم البوليس، أو استدعى لتحقيق سياسى أو سجن أو

اعتقل .

اعجاب بقصة مدينتين

ومنذ البداية نراه غير مقتنع بدور الفرد البطل فى التاريخ وأنه محور حركة الحوادث . ففى المدرسة كان يردد درس التاريخ وراء المدرس، ويحفظه عن ظهر قلب، ويعيده على نفسه فى الليل وقت المذاكرة. ولكن دون اقتناع حقيقى ببطولة رمسيس فى موقعة مجدو، ويعلق على ترديده للدرس قائلا «ولا يخطر ببالى ان الحكاية كلها نخع (اى مبالغات شديدة)، وأن أبطال هذه المعركة الحقيقيين كانوا أناسا بسطاء من شعب مصر ». وكان يضجره تقديم وقائع التاريخ بوجهة نظر راويها.. فالثورة الفرنسية فى رواية انجليزية مقررة للروائية الانجليزية «البارونس أوركزى»، وكانت شخصية معادية للثورة الفرنسية «قصة جميلة لم تتعقد الا حين تعقدت الأمور بين مارا وروبسبيير (عهد الارهاب)، ودخل فيها الزنبقة الحمراء» وهو نبيل انجليزى يمثل دور الأبله أدخلته الكاتبة فى الرواية لكى ينقذ الأرستقراطية الفرنسية المعذبة». ثم تعقدت المشكلة أكثر أمام التلميذ شكرى عياد على يد كاربليو استاذ اللغة الانجليزية الذى يشرح الرواية، لأنه من اصل ايطالى ويحقد على الارستقراطية الانجليزية الفرنسية، ويبغض تلك الروائية أشد البغض ويسخر من خيالها السقيم الذى يجعل نبيل انجليزى ينقذ الارستقراطية الفرنسية. ولكن هذه الرواية ذاتها أعجبت جمال عبدالناصر (لم يذكره شكرى عياد صراحة ولست أدرى لماذا!!)، وهو طالب بمدرسة العباسية الثانوية بالأسكندرية، واستوحى منها رواية عن معركة رشيد أسماها «فى سبيل الحرية»، مع أن الرواية الانجليزية كما يلفت نظرنا شكرى عياد ضد الثورة الفرنسية. ولكن التلميذ شكرى عياد يستحسن رواية «قصة مدينتين» لتشارلز دكنز، وهى رواية كانت مقررة أيضا عليه فى التوجيهية.. لماذا؟ لأن الروائى لم يتحيز لفريق دون آخر، فقد كان فيها شيء من وصف الباستيل (اشارة لفرنسا قبل الثورة)، وكثير من وصف حفلات الجيلوتين (اشارة الى فرنسا الثورة).



أما بالنسبة لتاريخ مصر المعاصرة فقد توقف شكرى عياد كثيرا أمام الفترة بين عامى ١٩٣٥ ـ ١٩٤٢، وهى سنوات الجبهة الوطنية وعقد معاهدة ١٩٣٦ ، وإقصاء الوفد عن الحكم وتربع حكومات القصر، واندلاع الحرب العالمية الثانية. وهى ايضا سنوات دراسته بالجامعة شابا يافعا. لكننا نراه وقد امتنع عن المشاركة السياسية،. وأخذ دور المراقب ربما ليتثبت من فروضه فى شأن التاريخ وتفسيره. وعنده ان معاهدة ١٩٣٦ التى كانت وراءها الجبهة الوطنية التى صنعها الطلاب بمظاهرات نوفمبر ١٩٣٥ قد «تحمس لها محبو الانجليز، وسخرت منها براعم النازية التى أخذت تلتف حول القصر، ولكن الرأى العام رأى فيها انتصارا للحركة الوطنية وخصوصا حين تبعها الغاء الامتيازات الأجنبية ١٩٣٧».

ورغم أن الوفد كان القوة الكبرى فى عقد المعاهدة، الا أن رجال القصر كما استشف شكرى عياد، كانوا «يريدون تنحيته عن الحكم بعد أن خرج الانجليز من اللعبة» (بعقد المعاهدة) ، وان الطلاب الذين اشعلوا شرارة الحركة الوطنية وقاموا بدور مهم فى جمع الاحزاب «أصبحوا مجرد أبواق مستأجرة، للايهام بان هناك حركة شعبية ضد الوفد، بينما كانت هناك قوى أخرى تحرك الأحداث».

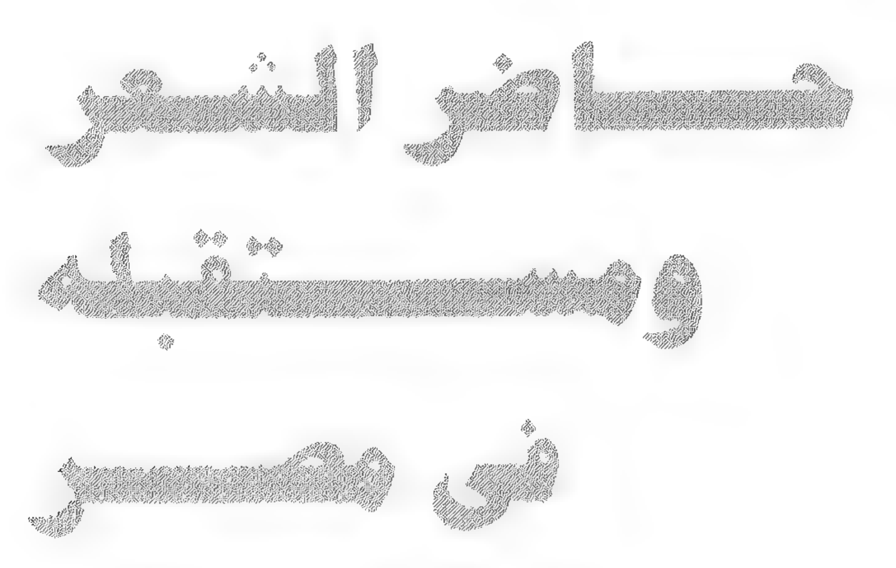
وفى هذا يقول شكرى عياد أن قوة الأحزاب كانت تتراجع بدليل «إن إقالة حكومة الوفد فى ١٩٣٧ وحل البرلمان، لم يحدث هزة فى البلاد، وأن البرلمان الجديد الذى دخلته أقلية وفدية لم يكن له صوت مخالف لصوت الوزارة التى كان القصر يؤلفها ويقيلها كما يشاء»، وهو أمر جعله على يقين مبكر من أن القصر كان هو الذى يحكم. وتساءل بينه وبين نفسه قائلا: اذا لم يكن الملك الذى يلتف حوله رجاله قويا، يختل نظام الحكم ذلك أن الأوتوقراطية الملكية أيضا لها نظامها وشروطها. ومن هنا كان لابد من اعتماد القصر ورجاله على قوى جديدة تساعد على استقرار النظام. وكان الجيش فى مقدمة هذه القوى حتى لقد «اخترع عيدا قوميا سمى يوم الجيش، وتحول شعار

الجيش من : «الله ـ الوطن ـ الملك الى : «الله ـ الملك ـ الوطن» . وكان الأزهر ـ كما رأى شكرى ـ يمثل حليفا تقليديا للقصر فى صراعه مع الوفد ، لكن جماعة الاخوان المسلمين كانت قد بدأت تستقطب الجماهير، فحاول القصر احتواءها. وكانت القوة الثالثة هى قوة الدعاية التى أظهرت النازية أهميتها فى صورة جوبلز وزير الدعاية خصوصا ان الاذاعة فى مصر اصبحت تحت سيطرة الدولة.

وقد [illegible] شكرى عياد الى ان الفترة من ٧ [illegible] ـ ١٩٤٢ من تاريخ مصر اثبت فيها رجال الأحزاب عدم ايمانهم بالديمقراطية ، وسيطرت فيها الدعاية على أذهان الناس، وأصبحت القوة الغاشمة وحدها هى وسيلة الحفاظ على الحكم وفى الوصول اليه. وفى صيف ١٩٣٩ قال شكرى عياد لزميله محمود الشنيطى تعليقا على الموقف السياسى «أنه لم يعد للملك الا بنادق الجيش كى تحميه وسيكتشف الجيش يوما ما انه يمكنه ان يحول فوهات هذه البنادق إليه». وكانت تلك نبوءة مستقبلية من انسان مراقب للحوادث، غير متورط فى السياسة، وغير مهموم الا بالحرية التى عشقها وظل يحلم بها. ويراها منيعة حتى «صار أقرب الناس اليه كما لو كانوا هم ألد أعدائه».

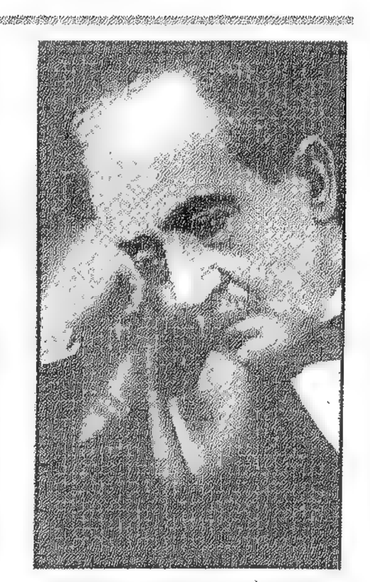
لماذا لم يتورط شكرى عياد فى السياسة شأن أغلب شباب جيله، وينتمى الى أى تيار سياسى يمينا أو يسارا؟!. هل هذا يعود الى توبيخ والده له أمام ناظر المدرسة وهو فى التوجيهية وصفعه بشدة على وجهه بسبب الفوضى التى عمت المدرسة واحراق معمل الطبيعة والكيمياء ومسئولية فصل خامس أدبى عن هذا العمل وهو أحد طلابه واستدعاء الناظر لأولياء أمور الطلاب؟!. أم أنه يعود الى كراهية شكرى عياد للنمطية فى أى صورة من صورها، وعدم حبه لأن يكون نسخة من آلاف نسخه أو مئاتها أو حتى عشراتها. ومن هنا كان لا يهتف اذا هتف الناس، ولا يصفق إذا صفقوا الا رعاية للمظهر، ولا يقول آمين وراء الامام فى الجامع الا لتصح صلاته !

غير أن هذه الفردية أو هذا التفرد لم يكن يرمى من ورائه الى حب الظهور على طريقة خالف تعرف، ولكنه «الحياء الشديد حتى لقد كان يشعر بتفاهة شخصه». وكان شكرى عياد فى هذا غاية فى القسوة على نفسه والشدة معها. مع انه فعل الكثير الذى يجعله فى موضع الفخر بنفسه، ومحل التقدير من الآخرين.



بقلم : د. الطاهر أحمد مكى

دون مواربة ولا مجاملة، خفت صوت الشعر فى مصر، وكاد الناس ينسون هذا الفن الجميل، ولم تعد له تلك النشوة التى كانت، حين يعبر عن ذات قائله، أو يترجم عن معاناة قومه، وما أكثر ما نعانى فى شتى مجالات الحياة الآن، داخليا وخارجيا، سياسيا واجتماعيا واقتصاديا، على مستوى الفرد ومستوى الجماعة ، وطنيا وقوميا، ونفتش عن بيت شعر معاصر نترنم به لحظات الضيق، عله يخفف مما نعانى، ويهدهد من قسوة الاحساس بالألم والمأساة، فلا نجد غير ما قال المتنبى أو شوقى وحافظ، أو الجواهرى أو عبدالله البردونى.





أحمد شوقى



محمود سامى البارودى



حافظ ابراهيم

تصحر وادى الشعر، وخلا من الأشجار الباسقة المظلة، نتفيؤها ساعات القيلولة ، إلا من شجيرات مبعثرة هنا وهناك، تعانى لفح الإهمال، وجفاف الحصار، ومن نبيتات واعدة، تحاول أن تشق طريقها وسط الصخور، رهينة الحظ والصدفة، قدْ يواتيها الغيث فتشتد وتقوى وتثمر ، وربما وأدتها عوادى الإهمال والغيرة فجفت ولما تعط من ثمارها إلا أقل القليل.

اختلطت الأمور

ما الذى انتهى بنا إلى هذه الحال؟

يقول علماء الاقتصاد، العملة الزائفة تطرد العملة الصحيحة من السوق، ولا تحتاج إلى جهد كبير لتدرك أن الساحة خلت من الشعراء الكبار، الذين ينشدون ويمتعون ويخلد قولهم، وبقى فيها أناس بلا تاريخ ولا حاضر وأشك فى أن لهم مستقبلا ، يرفعون شعارات عريضة لا يعرف أحد غيرهم ماذا تعنى ، واختلطت الأمور على المبدع والمتلقى والناقد فيما أحسب، فلم يعد لها مفهوم واضح .. ما الشعر وما النثر، ما الرواية وما التاريخ، ما القصة وما الحكاية. وكلها فنون تستخدم الكلمة، وأى إنسان يجيد القراءة يخط كلاما كيف ما اتفق، ويختار له العنوان الذى يحب، ويصنفه فى النوع الأدبى الذى يعجبه. فإن لم يجد فلا بأس أن يخترع لنفسه نوعا أدبيا جديدا، وهكذا أصبح النثر شعرا، والزجل شعرا، والتاريخ رواية، والحدوتة قصة. وفى زحمة الإدعاء وغلبة المغالطة، غابت تماما حقيقة هامة، كانت وراء تعلق كثيرين بأذيال

الشعر، حتى ولو كان الكلام الذى ينظمونه سخيفا سمجا، يفتقد الموسيقا والتصوير والمعنى، وهى: أن النثر ليس بأقل قدرا ولا قيمة ولا فنا، وأن الناثر المتميز كالشاعر المتميز ، وأن النثر الممتاز يغرى بالقراءة أيضا، ويفرض نفسه على ذاكرة الزمن، وكل ما فى الأمر أنه يحتاج إلى عقل أمضى، وفكر أوسع، وتمكنا لغويا أثرى، وليس فيه وسط يصبح أدبا، على حين أن ساقط الشعر وغثه وأرذله لا يكلفك إلا بعض جمل تكتبها رأسيا، ولا بأس أن تشغل النقاط وعلامات التعجب والاستفهام أوسع مساحة فيها، وأنت محصن وراء التجديد والغموض والرمز، ومن لا يفهمك، ويؤمن بك، فهو جاهل متخلف، أو تراثى متأخر، ومثل هذا لا يتاح فى النثر، لأنه أداتنا جميعا فى التعبير.

إن أبا العلاء المعرى ناثرا ليس بأقل منه شاعرا، والمتنبى ليس بأخلد من أبى حيان التوحيدى أو الجاحظ ، وشوقى أمير شعراء العصر الحديث ليس بأوسع شهرة من معاصره لطفى المنفلوطى، فى حياتيهما وبعدها، وديوان شوقى، على كثرة ما يطبع منه الآن، ليس بأكثر رواجا وتداولا من «العبرات» «والنظرات» للمنفلوطى، وجائزة نوبل العالمية لم ينلها شاعر عربى، وإنما نالها ناثر روائى، أعنى بالطبع نجيب محفوظ.

إن مبدعى هذا الزمان، فى جملتهم يريدون أن يكتبوا قبل أن يقرأوا، وأن ينظروا قبل أن يدعوا وهذه مهمة الناقد، وقصارى ما يقرأون صحيفة يومية، أو مجلة أسبوعية، أو كتابا من هذه السلاسل التى تصدرها الثقافة الجماهيرية، أو هيئة الكتاب، وفيها القليل المفيد، وأغلبها يورث البلادة والتسطيح. كان محمود سامى البارودى شاعر الاحياء يحفظ من الذاكرة، وينسخ بخط يده فى عصر لم تكن فيه المطبوعات شاعت، دواوين معظم كبار شعراء العربية فى أزهى عصورها ، وترك لنا مجموعة ما قرأ وحفظ ونسخ فى كتاب من ثلاثة أجزاء، يحمل اسم «مختارات البارودى» ، وكان أمير الشعراء شوقى متمثلا لروائع الشعر العربى فى مختلف عصوره، متمكنا من دقائق اللغة وغريبها ، مميزا بين طرائق تعبيرها، وهو أمر لا يتأتى إلا لإنسان حفظ ووعى خير ما فى لغة أمته فى أشد عصورها ازدهارا وشموخا.

وهناك رافدان ثقافيان آخران مهمان إلى جانب التراث، يصقلان التجربة ، ويعمقان الإبداع ، ويضفيان على الفكرة بعدا إنسانيا شاملا، وهما: كتاب الحياة، والثقافة الأجنبية. وأحدهما إذا عظم قد يعوض الآخر ، والجمع بينهما يبلغ

بصاحبه القمة، ولكن افتقادهما يجعل تجربته مسطحة بعيدة الغور.

أعني بكتاب الحياة الغوص فيها بكل أبعادها وجهاتها ، والمشاركة في أحداثها والاحساس بهموم الآخرين حوله، وأن يعد نفسه واحدا من كل، وهو ما يعبر عنه الشاعر العظيم عبدالله البردوني في شفافية بالغة الجمال:

وأنا يا قلب أبكي إن بكت
مقلة، كانت بقربي أو ببعدي
وأنا أكدي الوري عيشا على
أني أبكي لبلوى كل مكد
حين يشقي الناس أشقى معهم
وأنا أشقي كما يشقون وحدي
وأنا أخلو بنفسي والوري
كلهم عندي، ومالي أي عندي

الروافد الثقافية

والرافد الآخر: الثقافة الأجنبية، ومفتاحها التمكن من إحدى لغاتها، وأي واحدة منها تكفي ، وإن تعددت أفضل، وهو أمر خاص بكل إبداع ، وليس بالشعر وحده، والترجمات في هذه الحالة تعين ولا تكفي، ولا تغني عن قراءة الأصل، وليس صدفة أن شعراءنا العظام كانوا على صلة بأكثر من رافد ثقافي. كان البارودي يجيد الفارسية والتركية ويشعر فيهما. وكان شوقي يجيد الفرنسية والانجليزية ويلم بالتركية، وهذا القول نفسه يصدق على إبراهيم ناجي وحافظ إبراهيم وعلى محمود طه وأحمد زكي أبو شادي وخليل مطران ونزار قباني وعمرأبو ريشة وعبدالرحمن شكري، وآخرين كثيرين.

والأمر ليس وقفا على الشعر وحده، وانما يتجاوزه الى الرواية والقصة والمسرح والنقد، وهو ما يفسر لك سبب تفوق الحكيم ، وإحسان عبدالقدوس ويوسف إدريس و غادة السمان ومحمود تيمور، وغيرهم ، على حين ظل آخرون ممن لا يحسنون كتابة أسمائهم بالحرف اللاتيني يجترون جملا إنشائية بليغة، ويرددون حكايات تاريخية مملة، وبعد مرور نصف قرن على ابداعهم الأول، لايزالون عند النقطة التي انطلقوا منها، وأحسب إنهم لن يتجاوزوها مستقبلا.

والأمر في ساحة النقد ليس بأفضل منه في ساحة الإبداع، فنحن نفتقد الناقد الصلب الذي نعرفه في شخصية العقاد، صاحب مذهب وموقف، في الفن وفي السياسة، لا يداهن ولا يداجي ولا يجامل، يدافع عما يؤمن به، ويقرر ما يراه حقا ، لا يهن ولا يضعف ولا يساوم، مهما كانت المغريات والضغوط، والسبب فيما أرى أن العقاد كان مثقفا حقيقيا ، يرتكز في حركته على دعائم قوية من استيعاب التراث في شتى فنونه، وتمثل الجديد في مختلف روافده. وعنده جواب لكل سؤال ،

وليس طامعا فى جاه كاذب، أو شهرة خادعة، الطريق إليهما مفروش بالمجاملة والنفاق. لقد جعل، كما يقول هو نفسه، الثقافة شيئا مستقلا، قائما بنفسه لا حاجة لصاحبها بلقب أو شهادة او منصب، يكفيه أن يكون مثقفا.

أديب يصنعه الإعلام!

ودور الإعلام بالغ الخطورة فى تلميع الواقع الثقافى، وإظهاره فى صورة لا تنطبق على الواقع، حين يزكى الخامل، ويجلو الصدىء. ويركز الأضواء على من لا مواهب لهم . فيملأ الأفق بإبداع نتاج لحظة خادعة، ما أن تتخلى عنه ابواق الدعاية حتى يجد نفسه فى زوايا المهملين، وكان العالم الجليل الدكتور زكى نجيب محمود يقول عن أمثال هؤلاء: «هذا أديب صنعته وسائل الإعلام»، يعنى دعك منه، لا تعطه من الأهمية إلا ما تعطيه لإعلان مأجور تقرؤه أو تسمعه، وأدى ذلك الى تلاشى الحدود الفاصلة بين طبقات المبدعين والنقاد فأصبحوا كلهم سواء: الشاعر العظيم والناقد الموضوعى والروائى العالمى، والشعرور والثرثار والدعى ، والراقص على كل الانغام، وحين يستوى الخبيث والطيب، فى مجتمع ما ، تخمد جذوة الاجادة، وتموت روح المنافسة، ويصبح الامر كما يقول مثلنا العامى «كله عند العرب صابون»!.

الخروج من ظلمة النفق!

هل معنى هذا أنه : «مفيش فايدة»؟

أعوذ بالله ان أكون من المتشائمين ، ولكن معناه ان الأمر جد لا هزل فيه ، وأن الخروج من ظلمة هذا النفق يتطلب جهدا جادا مضنيا، لا تخرجنا منه عشرات المؤتمرات ذات الصبغة العالمية، يرتادها عادة مجموعة من المحترفين فى اقتناص هذه الفرص، وننفق عليها عشرات الملايين من الجنيهات، ثم ينفض السامر عن لا شىء ، ولا مئات الندوات تقام كل ساعة على امتداد أيام الأسبوع لا يقبل عليها أحد، لأن الناس فقدوا الثقة فى أى تجمع رسمى، وانما الطريق اليها ان ندرك بوعى ان الفن لا يسير فى خط مستقيم صعودا او هبوطا، وإنما يعرف ما يسمى بمراحل التحول. وطريقنا إلى النهضة أن نعى تخلفنا جيدا، أسبابه وظواهره وللنهضات قوانينها التى لا تتخلف . ويعرفها العالم أجمع ، رغم اختلاف البيئات وتطور وسائل المعرفة، وتقدم أدواتها ووسائلها، ولكن القاعدة تظل ثابتة دواما. ورغم ما حققناه من إنجازات ومن تقدم هائل فى حياتنا ، لا يمكن القول بأن الذكاء قد زاد عما كان عليه منذ خمسة آلاف عام، وبأننا أذكى مما كان عليه المهندسون فى مصر الفرعونية، او فلاسفة اليونان، او الشعراء

العرب فى عصر الجاهلية، وانما يعود الى تقدم العلوم نفسها، فقد حلت مسائل كثيرة، واكتشفت مبادىء جديدة، واتضحت المناهج، وازدادت سهولة، وهى تسمح بالبدء من نقطة متقدمة والسير على طريق اكثر امنا، لان كثيرا من النظريات والفروض أصبحت حقائق.

تتميز عصور الصحوة، او النهضة اذا شئت بالفضول البالغ لمعرفة كل الأشياء المتصلة بالإنسان والكون، والرغبة العارمة فى بعث التراث، بالعودة الى ما كان منه مخطوطا ونخله وتحقيقه، ونشره ودرسه، وتيسيره للناس كافة، واستيعابه وتمثله، ونسخ الرائع من آثار الماضى وحفظها، وتصبح دراسة القديم مظهرا للرقى، وهدفا لمثقفى المجتمع، ومعها تنتشر المكتبات والمتاحف.

والجانب الثانى النهم الى معرفة ما عند الآخرين، فتنشط الترجمة الى لغتنا «وليس منها» من كل اللغات، وفى كل الفنون وبهما معا تشعر الامة بذاتها، ويتنازعها عاملان فاعلان كلاهما مفيد: القومية ممثلة فى التراث والعالمية ممثلة فى الترجمة، ومن تفاعل القوتين تولد النهضة. حدث هذا فى النهضة العربية الإسلامية التى بلغت أوجها فى القرن الرابع الهجرى، العاشر الميلادى، وفى النهضة الاوربية التى ظهرت طلائعها فى ايطاليا فى القرن الخامس عشر الميلادى. وفى نهضتنا الحديثة، التى شغلت القرن التاسع عشر الميلادى.

أين نحن من الماضى الجميل ؟!

فى مطلع القرن العشرين كانت المدارس الالزامية تحفظ تلاميذها اجزاء من القرآن الكريم «لا صلة لذلك بالكتّاب» وتصرف للفرق المتأخرة كتابا يحمل عنوان «مجموعة النظم والنثر» يضم قصائد لشعراء من مختلف عصور العربية، اذكر من بينهم : لامية الطغرائى، وقصيدة لعبد الله باشا فكرى، ووصية ابن سعيد المغربى لابنه حين اعتزم الرحلة، ورسالة عمر بن الخطاب لابى موسى الاشعرى فى القضاء، ونصوصا اخرى شعرية ونثرية.

وكان تلاميذ المدارس الثانوية ، ولا احدثك عن طلاب المعاهد العليا والكليات، يدرسون فضلا عن الكتب المقررة: كتاب المكافأة لابن الداية ، والبخلاء للجاحظ ، ومهذب رحلة ابن بطوطة، ومقدمة ابن خلدون، ومهذب الأغانى وعدد لا بأس به من قصائد شوقى تحمل عنوان : «الشوقيات للمدارس الثانوية» و«المنتخب من أشعار العرب» فى جزءين كبيرين وهو موسوعة تضم روائع ما أبدعه شعراء العربية فى عصورها المختلفة وكان يصرف لكل تلاميذ المرحلة الثانوية وما فى

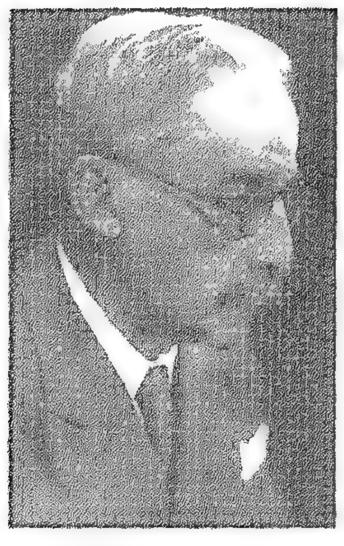




علي محمود طه



ابراهيم ناجي



خليل مطران

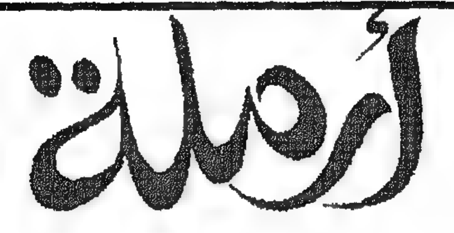
مستواها، وقد توقف منذ زمن بعيد صرف الكتاب للتلاميذ، وتوقف طبعه في مصر، وتنوسى الكتاب تماما، ولكن الوراقين فى الخارج يعاودون طبعة وتوزيعه ويجنون من وراء ذلك ارباحا طائلة.

بداهة لم تكن هذه الكتب مقررة كلها، ولكنها تربى فى الناشئة روح الفضول، وتعودهم على ان يكونوا لانفسهم ذوقا خاصا بهم، واختيارا وليد رغباتهم ، فالغاية من المنهج والكتاب ان يضعهم على اول الطريق.

وماذا بعد؟

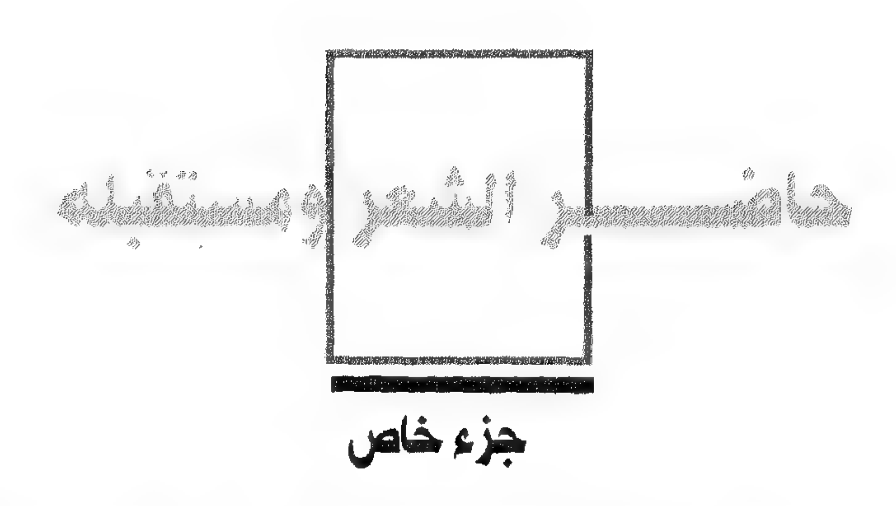
هناك حقائق اجتماعية وبيئية طارئة، علينا ان نكيف حاضرنا معها، وان نأخذها فى الحسبان، وهو ان العاصمة ، مركز الثقل فى حياتنا الثقافية، تعانى من فساد فى الهواء والغذاء والفطرة، وازدحام خانق للروح والعقل والفكر، وتدهور ملحوظ فى الذكاء والموهبة، ومع الاخذ بكل اسباب الصحوة التى أومأنا اليها. يبقى الامل معلقا بالقرية، والريف، هناك الطبيعة البشرية على فطرتها وفى نقائها، إذا هيأنا لها الاسباب أينعت وأزهرت. واذا راعينا الله والوطن فيهم. وقبلنا ابداعهم كما تصوغه قرائحهم، فى فطرتهم السليمة، فلم نحملهم على غير ما يحبون، ولم نغلق فى وجوههم ابواب الامل، كان لنا منهم كوكبة خبرة، من شعراء واعدين، وقد نصحوا معهم على غير موعد على عبقرية فى قامة شوقى، تعيد لنا عصره وامجاده، وتدفعنا فى غد غير بعيد الى عصر مجيد.

قبل ذلك لا، إن العدم المنفوخ والصخب لا يبنيان نهضة، ولا يبعثان امة، وقصارى ما يحققان : دوار تفقد معه الرأس اتزانها، وغشاوة تضل معها البصيرة طريقها!.



شعر : عزت الطيرى

ولا مست قميصها الوردى
لحظة
واسترجعت
مواسم الأمطار!!
تنفست بكفها
بقية من عطره
وعطرها..
تحسست آثار قُبلتيه
فوق ثغرها
ونحرها..!!
وابتسمت لخبثه
ورقة احتياله
وداعبت بوجدها
صورته التى تموء
فوق دهشة الجدار
وقد نمت على اطارها
طحالب الغبار
واسترسلت فى خوفها
تنهدت
وسافرت
فى حزنها الثرثار
وانتبهت
وهرولت
وعلقت قميصها
على المسمار!!



جزء خاص

من هو خليفة شوقى أمير شعراء العصر الحالى ؟!

ومن يستحق أن يحمل لقب الشاعر ؟!

بقلم د : أحمد درويش

السؤال المثير الذى يحمله عنوان هذا المقال ليس مطروحاً منى وإنما هو مطروح علىّ ، طرحه المسئولون عن تنظيم ملف عن الشعر، والذى يتضمنه هذا العدد الخاص من مجلة «الهلال» . وأعترف بأن السؤال فاجأنى ، وهممت بالاعتذار عن الإجابة عنه خاصة أمام الوقت القصير المتاح ، والسؤال الوحيد المطروح ، وكدت أسلم ورقة الإجابة «بيضاء» !.

غير أننى فهمت أن محاولة تقليب جوانب السؤال ، وإعادة إثارة أسئلة مشابهة طرحتها الأجيال السابقة ، والانتهاء بإثارة أسئلة أخرى ، يعد جزءا من الإجابة المتوقعة. وكان رد الفعل المباشر الأول لدى هو التأمل فى قضية البحث عن «خليفة لشوقى» منذ نحو سبعين عاما ، وكنا قبل هذه السنوات بنحو عقد من الزمان قد بدأ طريقنا فى



البحث عن «خليفة» آخر ، يملأ الفراغ الذى تركه «الخليفة» العثمانى الذى حلت محله الدولة الحديثة فى تركيا ، ومن اللافت للنظر أن البحث لم يتوقف فى الميدانين ، وأن «اللواء» يعقد بين الحين والحين «لأمير المؤمنين هناك» أو «أمير الشعراء هنا» ، لكن دون أن يحظى بالإجماع الذى كان يحظى به السلطان عبدالحميد ، أو الأمير «أحمد شوقى» فهل يرجع السبب فى ذلك إلى تصدع هيكل الإمارة ، أم إلى عدم توافر الشروط الملائمة فى المرشحين لمنصب «الأمير» ؟.

وقد يكون ملاحظة تصدع الهيكل فى الإمارات الحسية أيسر ، فهنالك جيوش تهزم ، أو مناطق تنفصل ، أو جنود يتمردون ، فتغدوا الإمارة التى كانت متماسكة بالأمس ، متداعية أو متهاوية ، ويختفى الأمير ، دون أن يمنع ذلك نفرا من المطالبين بالعرش ، أو الساعين إلى إعادة البناء من بذل المحاولات التى قد تطول أو تقصر وتنجح أو تخفق تبعا لصلابة العزم وتوفر ماء الحياة فى الأجزاء الباقية المتناثرة . لكن الحديث عن قدر التماسك المتاح فى الأجزاء الباقية بعد تصدع إمارة الشعر ، ربما يكون فى حاجة إلى تأمل أدق وأصعب لمعرفة الفروق بين المساحات التى كانت تفصل بين الوحدات المختلفة التى كانت تدعى الانتماء إلى مملكة الشعر فى عام ١٩٣٢

والمساحات التى تفصل بين الوحدات المتباعدة والمتباينة والمتنافرة أحيانا ، والتى لا يدعى كل منها اليوم أحقية الانتماء إلى مملكة الشعر فحسب ، وانما يدعى أنه وحده صاحب الحق فى الانتماء ، وأن على الآخرين الذهاب إلى ممالك «النظم» أو ممالك «النثر» فى حالة الرأفة بهم ، أو البعد عن كل ممالك الأدب عندما يشتد النزاع .

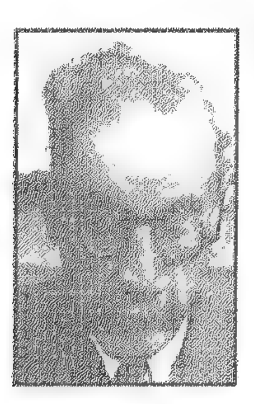
وإذا تركنا مسألة تصدع هيكل الإمارة إلى البحث عن الشروط الملائمة للأمير فقد نجد الصعوبة والسهولة تتبادلان مواقعهما ، فليس من الضرورى أن يكون أمير المملكة الحسية أكثر أبنائها كفاءة أو أوسعهم مدارك ، وليس من الضرورى لكى ينعقد له اللواء أن تكون مبايعة الرعية له تامة ، وانما يتحكم فى ذلك شروط تمليها ظروف خارجية تتحدث عنها كتب التاريخ والسياسة ويصبح معها التنصيب الشكلى أو العزل الشكلى هما محور الفصل ، على عكس ما يتاح فى إمارة الشعر التى يصعب أن يتم الاستيلاء عليها بالانقلاب أو تزييف الأصوات أو حتى مساندة الأحزاب والهيئات وأجهزة الإعلام التى قد تنجح فى الاحتفاء أو الإعلاء أو الترويج لفكرة ما أو لشخص ما بعض الوقت ولكن الإحساس الجماعى الأدبى تكفل بطى كثير من الصفحات التى بدت فى حينها وقد سلط عليها الضوء الباهر ، وهو كفيل أيضا أن يفعل ذلك مع بعض الصفحات التى تخايل أعيننا اليوم ، وتثبت بالصوت العالى والضوء الباهر أن لها مساحة أكثر مما تستحق .

أشعر العرب

غير أن لقب أمير الشعراء قد يختلف عن الألقاب المماثلة التى يدور حولها الحوار فى أنه من حيث التسمية على الأقل لم يكتسب بعدا تاريخيا يتردد من خلاله جيلا بعد جيل حتى يحدث انقطاعه فراغا ينبغى أن يملأ فالشعراء السابقون لم يتفقوا على «أمير» والنقاد الأقدمون لم يمنحوا هذا اللقب لكبار الشعراء ، واكتفوا بإطلاق «أفعل» التفضيل من مادة الشعر مضافة إلى الشاعر فقيل : «أشعر العرب»، و«أشعر الناس» وكان يتم توزيع هذه الصفة على أكثر من شاعر متعاقبين أو متعاصرين تبعا للمجال الذى أجاد فيه الشاعر ، فيقال «هذا أشعر الناس إذا غضب ، وذلك أشعر الناس إذا رغب ، وآخر أشعر الناس إذا شرب» ... الخ .

وعندما تجاوز النقد القديم مراحل الألقاب الانطباعية إلى مرحلة الأحكام التحليلية ، لم تتجه ألقاب «الإمارة» أو التفرد على القمة لشاعر بعينه ، بل كان ابن المعتز مثلا يعد صفات المحدثين ليدرج فيهم بشار بن برد ومسلم بن الوليد وأبا نواس وليجعل أبا تمام أكثرهم إيغالا فى الاتجاه والآمدى يوازن بين الطائيين أبى تمام والبحترى والقاضى الجرجانى يتوسط بين المتنبى وخصومه ، دون أن تؤدى الموازنة أو الوساطة إلى الإمارة


حافظ إبراهيم


خليل مطران

، وحتى الشعراء أنفسهم ماكانوا يسعون إلى إمارة الشعر بقدر ما كانوا يسعون إلى إمارة الحكم ، ولقد مات المتنبى بحسرة الإمارة المفقودة على أى إقليم أو مدينة ، وقتل أبوفراس وهو يحاول خلافة سيف الدولة على إمارة الحمدانيين بالشام . ولكن أدباء العصر الحديث تبادلوا منح الألقاب الأدبية ، فأصبح لكل واحد من البارزين لقب يميزه ، فالبارودى «رب السيف والقلم» وخليل مطران يبايع فى مرحلة مبكرة «شاعر القطرين» وحافظ إبراهيم يذهب بلقب «شاعر النيل» وسوف يصبح أحمد رامى فيما بعد «شاعر الشباب» أما شكيب ارسلان فهو «أمير البيان» وقد وجدوا لطه حسين أثناء عمادته لكلية الآداب بجامعة القاهرة لقبا مناسبا وصار «عميد الأدب العربى» وجرت محاولات للبحث لتوفيق الحكيم عن لقب ، وفى هذا المناخ جاء لقب شوقى الذى كان قد شاع عنه فى البدء أنه «شاعر الأمير» ولكنه بعد معاناة النفى ، والاتجاه إلى القضايا القومية والدينية فى شعره ، ونضوج التألق البيانى فى فنه ، التقت الآراء على أن يحمل لقب «أمير الشعراء» وتنادى الشعراء من أرجاء الوطن العربى وتحدث النقاد والخطباء ووجد اللقب فيما يبدو هوى من الناس فظلت ألسنتهم تردده حتى اليوم بالرغم من الحملات القوية ضد شوقى والتى كان اشهرها حملة العقاد فى «الديوان» وقد نالت بعض قصائد شوقى ، ومنها قصيدته التى ألقاها فى حفلة تنصيبه أميرا :

مرحبا بالربيع فى ريعانه
وبأنواره وطيب زمانه
رفت الأرض فى مواكب «أذا
ر» وشب الزمان فى مهرجانه
نزل السهل ضاحك البشر يمشى
فيه مشى الأمير فى بستانه

نالت القصيدة حظها من نقد العقاد الحاد وتهكم على صورة الأمير الذى يمشى فى بستانه ، وعلى كل الأمراء بمن فيهم أمير الشعراء .

***

غير أنه لم يكد يرحل أمير الشعراء أحمد شوقى عام ١٩٣٢ حتى بدأ كبار شعراء العصر يتطلعون إلى كرسى «الإمارة» الشاغر، كان فى العصر شعراء بارزون مثل خليل

مطران ثالث الثلاثة (حافظ وشوقى) ومصطفى صادق الرافعى ، وعباس محمود العقاد وأحمد محرم وأحمد زكى أبوشادى الذى خلف شوقى فى رئاسته تحرير مجلة «أبوللو» وغيرهم ، وكان كل واحد يتحين الفرصة الملائمة أو يستميل الأصوات اللازمة . وجاءت فرصة الإعلان عن مسابقة لتأليف النشيد القومى لمصر عام ١٩٤٣ واشترك فيها كثير من الشعراء ، وفازت قصيدة العقاد التى كان مطلعها :

قد رفعنا العلم للعلى والفدى

فى ضمان السماء

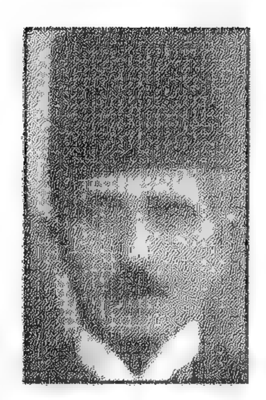
حى أرض الهرم حي مهد الهدى

حى أم البقاء

وقد وجد حزب الوفد فوز العقاد فرصة مواتية لتنظيم حفل يكرم فيه ويقعد له لواء الشعر فيبايع أميرا للشعراء ، وكان أن عقد الحفل فى مسرح الازبكية فى ربيع عام ١٩٤٣ (٢٧ أبريل) وانشد مئات الشباب نشيد العقاد ملحنا وتكلم كثير من الخطباء ، وكان أبرزهم الدكتور طه حسين الذى أشاد بعطاء العقاد عامة وبشعره خاصة قائلا : «إننى لا أؤمن فى هذا العصر الحديث بشاعر عربى كما أؤمن بالعقاد ، لانى أجد عند العقاد ما لا أجده عند غيره من الشعراء .. وهو يصور لى هذا المثل الأعلى فى الشعر الذى أحببته وتمنيت وجاهدت فى أن يحبه الشباب . هذا المثل الأعلى الذى يجمع بين جمال العربى القديم وأمل المصرى الحديث .. ثم إننى إذا قرأت شعر العقاد لم استطع أن أقول لنفسى : قد قرأت هذا الكلام من قبل .. فى شعر البحترى أو عند أبى تمام أو أبى نواس .. إنما تقرءون العقاد فتقرءونه وحده لأن العقاد ليس مقلدا ولا يستطيع أن يقلد .. ولأن المثل الأعلى له فى الأدب يرفعه عن الأغراض التقليدية ويجعل شعره لا أقول واسعا فسيحا ولكنى أقول كما يقول العقاد نفسه – يجعل شعره مطابقا للحياة ليس غيرً – ويشير طه حسين إلى خاصية التمرد فى شعر العقاد التى لفتت نظر ناقد فرنسى فكتب يقول : «إن شعر العقاد أشبه بالهواء الطلق ويعقب عليه بقوله : «هذا التمرد .. هذه الريح العاصفة هى التى تعجبنى لأنها صورة من الحرية ، من حرية الفن التى لا تعرف حدا ولا أحدا ولا غاية» ثم يتناول بالتحليل والإشادة قصيدة «ترجمة شيطان» التى يعلن أنه يقرؤها عشرين أو ثلاثين مرة دون أن ينقضى إعجابه بها وأنها «لا شبيه لها فى الشعر القديم» . وينتهى من ذلك إلى أن العقاد «خلق لنفسه قوة شاعرة لا تجد لها نظيرا إلا فى أوربا ، حيث يلتمس الشعراء الفن لا فى الأدب وحده بل فى العلم وفى كل شىء آخر .



عباس محمود العقاد



بشارة الخوري

ويصل الدكتور طه إلى الهدف الرئيسى الذى أعد من أجله الاحتفال والقيت الكلمات وهو إعلان أن الأوان قد آن لسد الفراغ الذى أحدثه رحيل شوقى وحافظ : «كنا نشفق على الشعر العربى وكنا نخاف عليه أن يرتحل سلطانه عن مصر؛ وكنا نتحدث حين مات الشاعران العظيمان شوقى وحافظ ، كنا نتحدث عن علم الشعر العربى المصرى أين يكون ؟ ومن يرفعه للشعراء والأدباء يستظلون به ؟.. هل آن للشعر القديم المحافظ المسرف فى المحافظة أن يستقر وأن يحتفظ بمجده ؟ وهل آن للشعر الجديد أن ينشط ويقوى ؟ انتظرت فلم أجد للمقلدين حركة أو نشاطا فإذا المدرسة القديمة قد ماتت بموت حافظ وشوقى وإذا المدرسة الجديدة قد أخذت تؤدى حقها وتنهض بواجبها فترضى المصريين والعرب جميعا .

ثم يكون نداء الختام عند طه حسين «ضعوا لواء الشعر فى يد العقاد وقولوا للأدباء والشعراء : أسرعوا واستظلوا بهذا اللواء» .

كانت تلك البيعة هى أبرز دعوات المبايعة لإمارة الشعر فى النصف الأول من القرن العشرين بعد مبايعة شوقى ، وقد اكتسبت ثقلها السياسى من حزب الوفد ، وثقلها الأدبى من مساندة طه حسين على نحو خاص ، وألقى العقاد فى نهاية الحفل قصيدة لاتعد من روائع شعره ، وفى شعره دون شك روائع ، وقد جاء فى مطلعها :

بالنظم أحمد مكرمى نظمى
ومن السلاف تحية الكرم

هذا النشيد ، ففيم يشكرنى
قومى وقد غنى به قومى

إن تقبلوه فتلك مكرمة
عظمى فقد وفيتم سهمى

ولقد يلاحظ على هذه المبايعة غياب البعد القومى العربى ، وكثرة المعارضين لها فقد سارع مصطفى صادق الرافعى بإثارة المسألة فى جريدة الأسبوع فى شهر مايو عام ١٩٣٤ عقب البيعة مفندا رأى طه حسين فى ترشيح العقاد لإمارة الشعر وبعد ذلك احتج خليل مطران فى جريدة الفصول فى شهر يوليو عام ١٩٣٦ على هذه المبايعة ،

وتساءل آخرون عن مكانة أحمد محرم ، وتناقص دوى المبايعة شيئا فشيئا وطغت عليها شهرة العقاد نفسه فى مجالات الفكر والبحث العلمي والنشاط السياسى ، حتى أصبحت قصة إمارته للشعر تحتاج دائما إلى تذكير بوقائعها التى جرت فى ربيع عام ١٩٣٤ .

***

بعد مضى ثلاثة عقود على مبايعة العقاد وأثناء حياة العقاد نفسه ، انعقد مهرجان آخر فى صيف عام ١٩٦١ لكى يبايع فى لبنان الشاعر بشارة الخورى الأخطل الصغير أميرا للشعراء وتداعى إلى هذا المهرجان كثير من الشعراء والنقاد المرموقين فى العالم كان من بينهم الشاعر السورى عمر أبوريشة ، الذى كان بعض الصحفيين النقاد قد دعوا قبل ذلك بسنوات إلى مبايعته أميرا للشعراء لكن الدعوة لم تبلغ مداها . كما كان من بينهم الجواهرى وأمين نخلة وصالح جودت وأدونيس وانسى الحاج وجبران خورى وأنور المعداوى واحسان عباس والقيت الدراسات وانشدت القصائد وكان منها من يرفع لواء الامارة دون مواربة . كما قال صالح جودت فى مستهل قصيدته :

همسة فى حديث جار وجارة
رنــة حـلوة عــلي قيــثارة
قطــرة عــذبة عــلى نوارة
زهــرة كلها شذى ونضــارة
كـل هذه المـعادن المختارة
صــاغ منــها حبيبنا أوتــاره
وجلا من خــيوطها أشــعاره
فعقدنا لـــه لــواء الامــارة

أو من يبارك ما صنعه الآخرون من وضع إكليل من الزهر فى عنق الشاعر كما قال عمر أبو ريشة :

لبنان مـا خبأت عنك نوازعــى
أتراك فيها عــاذلى أم عــاذرى
يغنيك عــنى أخـــوة ما غــردوا
إلا ومـــلء رباك ذوب حناجرى
جمعتهم شيم الــوفــاء لمــارد
فى الشعر جواب الأعــالي قاهر
ضفروا له من روح ارزك غارة
أكـرم بمضفــور له وبضــافــر

ومنهم من تكاد تمر قصيدته دون إشارة إلى مناسبة المبايعة كالشأن فى قصيدة الجواهرى التى حومت فى كثير من الآفاق واشارت إشارة عارضة إلى «غار القلوب» الذى يحمله الشاعر للمكرم :





أبشارة أنذا لديك

محملا غار القلوب

ومنهم من ينفى عن نفسه تهمة أن يكون حاسدا له على المبايعة أو أن يظن أنه كان يرى نفسه أولى منه كما جاء فى قصيدة أمين نخلة :

ياخي الابلج الكريم على الود
زهانى بما زهاك السرور
فكاني الذي هتفوا باسمى
وعج المنظوم والمنثور
لا وحبيك ما أنا الحاسد الشانىء
أو طامع حداه الغرور

والى جانب ذلك أشارت كثير من الكلمات التى دارت حول الاخطل الصغير سواء تلك التى قيلت فى المناسبة أو قبلها أو بعدها إلى أن معين الشعر عنده كان قد نضب منذ زمن طويل وكان كما يقول إلياس أبوشبكة «قد ورم كيسه فلم يعد يحفل بالشعر إلى جانب انك لا تقع على قصيدة من قصائده برئت من قصائد الفرنجة كموسيه ولا مرتين وبول فرلين ، فهو من الناحية أكبر مقتبس عرفته العرب» كما يقول أنسى الحاج «بعد عهد طويل من الدفق جف الينبوع ولم يفتعل الاخطل العطاء» بل إن الاخطل نفسه عندما شكر مكرميه فى هذا المهرجان اشار إلى أن عوده قد أصبح بلا أوتار :

ايوم أصبحت لا شمسى ولا قمرى
من ذا يغنى على عود بلا وتر
ما للقوافى إذا جاذبتها نفرت
رعت شبابى وخانتنى على كبرى
كأنها ما ارتوت من مدمعى ودمى
ولا غذتها ليالي الوجد والسهر

ولقد كان من مزايا مهرجان الخورى أن صاحبته كثير من الدراسات والآراء النقدية المتصلة بشعر الاخطل الصغير ، وقد جاء بعض هذه الآراء فى شكل انطباعات سريعة كما جاء فى كلمة أدونيس الذى يرى أن «الأخطل يمثل طليعة الانتقال من الشعر الذى يرتبط بكتب الأدب وقواميس اللغة والذى عممه رجال عهد سميناه خطأ عهد النهضة .. إلى الشعر الذى يرتبط بالحياة اليومية وأشياء القلب» .

لكن هناك دراسات أخرى وقفت بالتفصيل أمام شعر الاخطل الصغير ووجهت له نقدا غير هين ، ومنها دراسة الدكتور احسان عباس حول «دور الاخطل الصغير فى الشعر العربى المعاصر» التى تأخذ على الشاعر انه يقع ضحية مبالغات المجاز فتنفلت منه الغايات الفنية والخلقية لبناء القصيدة ويندفع إلى المبالغة التى تجعل الشاعر كلما تغزل ولو غير صادق زعم انه أصبح على حافة القبر ، وقد تغلغلت هذه اللغة فى شعر الاخطل الصغير كثيرا حتى أفقدته عذوبة الغناء الجديد فى بعض الأحيان وجعلته وكأنه شاعر من شعراء العصور السالفة، ويلاحظ الناقد أن شعر الاخطل - وهو الذى يجذبنا بحلاوته العامة ورونقه الجميل لا يمكن أن يخضع لمبدأ «وحدة القصيدة» لأن هذا الشعر «لا يستند إلى الوحدة بل لعله فى محاولته لابراز الألق الخالب يسهو أحيانا فيتورط فى ضروب من التناقض» حتى أن أكثر مراثيه انحياز عن طبيعة الموضوع عن الرثاء نفسه إلى أمور جانبية وهى طريقة يعتمدها فى قصصه إذ يترك القصص إلى التأمل والحكمة ويطيل فى ذلك حتى يخيل إلينا أنه نسى القصة الأصلية وينتهى الدكتور احسان عباس إلى القول بأن انعدام الوحدة والنظرة الشاملة إلى العمل الفنى ، جعل شعر الاخطل يتحول إلى دفقات وومضات : «ولكن عيب هذا الاتجاه فى شعر الاخطل أن يكون خطرات تقتضيها المناسبات ، وأن يظل منبعه راكدا حتى يثيره حادث هنا وحادث هناك

ويبدو أن النظرة الجمالية المجردة ، تجنى أو جنت على هذا النبع حتى غدا شعر الاخطل الصغير إذا أنت مثلته لنفسك كالكأس البلورية المكسورة فى أكثر من موضع ، وأصبح القدم إحدى خصائصها وإن لم يفقد فى بعض جوانبها شيئا من البريق والتلاميع» .

أما أنور المعداوى فتركز دراسته على مقولة رئيسية : «أن بشارة الخورى هو شاعر اللوحة وليس شاعر التجربة» وأنه من خلال رسم اللوحة ومع عذوبة الصور وجمال

الألفـاظ – يفـتـقـد أحـيـانا ذلك النضج التكنيكي الذى يتـيح لمراحل التـجـربة أن تكون خيوطا حيـة لنسيج عضوى موحـد فبدل أن يهيىء الشاعر للمراحل أن تتابع فى خط سـير نموها الاطرادى دون حـركـة انفصـال معوقة نراه يقطع خط السير فى بعض الموضوعات ليفسر موقـفا أو يعلق


أحمد محرم — أحمد زكي أبوشادي

على حدث ومن الطبيعى أن ينتج عن هذا التدخل المتكرر أن تظهر الفجوات فى البناء العضوى للتجربة لتحول بين خيوطها الناسجة وبين وحدة التماسك .

وهذا النشاط النقدى المكثف لم يصاحب مهرجانات عقد لواء الإمارة فى المرات السابقة عند شوقى والعقاد – ولعله فى ذاته يشكل دليلا على اتساع حركة تعدد الآراء وتفاوتها وتنوعها مما يزيد من صعوبة الانطواء تحت لواء أمير واحد ، ومما يفسر هدوء الدعوات إلى عقد مهرجانات أخرى للإمارة رغم أن الأمير المبايع فى المهرجان الأخير قد رحل عام ١٩٦٩ ، ورغم مضى أربعة عقود على البيعة الأخيرة .

●●●

ويبقى السؤال مثارا :

هل لابد من بحث عن خليفة لشوقى وتعيين أبنائه وتعميد أحفاده ؟

إن شوقى يمثل دون شك قيمة تاريخية فى حركة الشعر العربى ، وهى قيمة لا تلغيها القيم التالية لها حتى وإن تجاوزتها أو خالفتها ، ولكن ميراث هذه القيمة ليس من الضرورى أن يكون فى يد وارث واحد بل قد يتوزع بين كثير من الأبناء والأحفاد ، وقد يمتد إلى أبناء الأعمام ، ولا اعتقد أن الاتجاه الشعرى فى الأعمال الروائية والقصصية بعد شوقى ، قد حرم نصيبه من الميراث ، لكن مملكة الشعر بالمعنى الذى عرفه شوقى قد اتسعت أحياؤها ، وانضمت إليها مدن منظمة فى بعض الأحيان ومدن عشوائية كثيرة ، يصاحبها نمو سرطانى فى أحايين أخرى ، وفى وسط هذا الزحام الكبير لم يعد السؤال المثار : من الذى يستحق أن يحمل لقب أمير الشعراء ؟ ولكن : من الذى يستحق أن يحمل لقب الشاعر ؟.

حاضر الشعر ومستقبله

جزء خاص

نِزار قبّاني

الشاعر الذى تزوج الحرية

بقلم :

محمد إبراهيم أبو سنة



❝

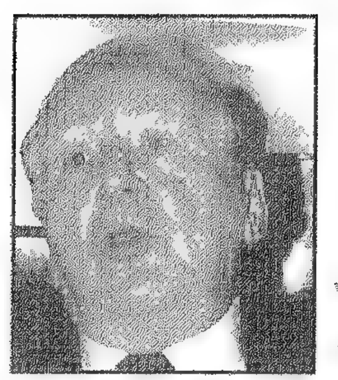
مرت الذكرى الثانية لرحيل الشاعر نزار قبانى وصوته الشعرى يملأ الآفاق ويحتفظ بالدوى الذى ظل مقترنا به طوال حياته، نذر نزار قبانى حياته للشعر والحرية وهو تكريس يؤكد روح المخاطرة التى عشقها وكانت منهجا لحياته العاصفة ، والذى يخاطر من أجل الشعر يعرف أن الشعر فن مراوغ قد يأخذ كل شىء ولا يهب أى شىء ، ولكن نزار قبانى كان منذ تفتحت بواكيره الشعرية والتى بدأت بديوان «قالت لى السمراء» فى سبتمبر من عام ١٩٤٤ يعرف أن الشعر لن يخذله كما يعرف أن الحرية تتطلب ثمنا قد يكون فادحا ممن يعتنقها .

خاطر نزار وكسب الشعر وربما خسر الاستقرار فى الوطن بسبب هذه الحرية التى أعلن أنه تزوجها فى ديوانه الذى صدر فى عام ١٩٩٣ تحت عنوان.. «تزوجتك أيتها الحرية» ونلحظ فى هذا الديوان تفجر شاعريته وكأنها فى عنفوانها الأول فاللغة طيعة والخواطر الجامحة تسقى أوردة القصيدة بالغضب والحزن والثورة. أصدر نزار قبانى عشرات الدواوين الشعرية وربما ظلت ديباجته محتفظة بخصائصها الفنية على مدار خمسين عاما ، فهو قد اختار لغة ترتوى من التجربة اليومية وتومىء فى الوقت نفسه إلى تراث شعرى طويل يمتد خلف مفرداتها وخلف تكويناتها كما استطاع أن يبتكر صورة من أدوات الفعل اليومى عبر مساحة متنوعة من الاهتمامات العاطفية والسياسية والقومية والذاتية وربما النرجسية بمعنى أعمق، تزوج نزار الحرية لأنه يعرف أن لا حياة بدونها وأن الشعر الذى يتخلى عن الحرية مثل الحديقة التى لايرويها الماء ، ونزار يوقع أنغامه الشعرية داخل البحور البسيطة ولكنه يدهشنا بقدرته على العزف إلا أن تفجر روح الشاعر بالمخاطرة تجعل من كل قصيدة جديدة له وكأنها بداية لم تتكرر .

يقول نزار متحدثا عن اختياره للحرية التى جعلها امرأة على طريقته فى تجسيد دلالات تجاربه ورموزه الشعرية فى قصيدة بعنوان «تزوجتك أيتها الحرية» حاسما قراره النهائى بهذا الاختيار .

(كان لديّ بلاط نساء، فيه جميلات الدنيا، فالعربية، والرومية،

والتــركــيـــة، والكردية، كــان بقصري لعب صنعت في باريس وجيش من قطط شامية، كان هنالك ألف امــرأة في تاريخي، إلا أني لم أتزوج من بين نساء العالم إلا الحرية).



نـــزار قـبـانـي

هذا الإيهـــام الفنى هو عــصـب أساسى فى هيكل الرؤية النزارية للعالم إنه بهـذا الإيهـام يفـرض رؤيتـه على العالم ويفترض أننا معه فى قناعته المفترضة والتى تدور حول الحرية المرأة، إن ذات الشاعر التى تكمن وراء مبالغاته تغرقنا فى حالة من الإيهام الشعرى الذى يجردنا تحت وقع صواعقه الشعرية من استعادة الوعى العقلانى بالتجربة إلا بعد معاودة مستمرة للقراءة . هذه الذات المهيمنة الممتلئة ثقة بنفسها تتقنع بجرأتها وتجابهنا بلون من التحدى فنقع نحن فى أسر وهم الاقتناع غير أن الصاعقة الشعرية التى يحدثها التعبير تكون قد أخذت دهشتنا وطرحتها فوق أرضه الشعرية ، ولانكاد نفيق حتى يبغتنا مطر جديد وعاصفة أشد ولا يمل نزار قبانى من الحديث عن نفسه وبصيغة المتكلم «أنا» ولكننا دائما صرعى الإيهام الشعرى مع نزار يقول فى قصيدة سلالات :

من سلالات العصافير أنا. لاسلالات الشجر
وشراييني امتداد لشرايين القمر
إنني أخزن كالأسماك في عيني ألوان الصواري
ومواقيت السفر/ أنا لا أشبه إلا صورتي / فلماذا شبهوني بعمر

وهو يقصد الشاعر الأموي عمر بن أبى ربيعة ويتحدث عن تفرده فيقول :

ما تتلمذت علي شعر المعري
ولم أقرأ تعاليم سليمان الحكيم
إنني في الشعر لا آباء لي
فلقد ألقيت آبائي جميعا في الجحيم
من هو الشاعر ياسيدتي؟
إن مشى فوق الطريق المستقيم

إن التمرد على آبائه الشعريين ليس نوعا من العقوق بل هو ولع بالمناطحة والتجاوز وامتلاء الذات بحضورها الكثيف على مستوى الوسائل الحديثة للاتصال ، والتى لم تتح من قبل لعمر بن أبى ربيعة أو المتنبى أو أبى العلاء المعرى .

وقضية الشاعر العربى عند نزار هى جزء من قضية الحرية ولكنها تبدو حرية وجودية أكثر منها حرية ثورية حيث يقول فى مقارنة بين الشاعر الغربى والشاعر

العربى مطلقا مقولاته بعيدا عن المنطق: «**في بلاد الغرب سيدتي/ يولد الشاعر حرا/ مثلما الأسماك في عرض البحار/ ويغني بين أحضان البحيرات وأجراس المراعي وحقول الجلنار**» ، ثم يتحدث عن الشاعر العربى.

ولدينا يولد الشاعر في كيس غبار/ ويغني لملوك من غبار/ وخيول من غبار/ وسيوف من غبار
إنها معجزة لأن يصنع الشعر من الليل نهار
إنها معجزة أن نزرع الأزهار مابين حصار وحصار

ويتجلى صوته مشيعا برسالته الرائعة التى نذر نفسه لها حين يتشبث بموقفه وبتاريخه وبذاتيته فى هذه القصيدة «تشبث»

ليس في وسعك ياسيدتي أن تصلحيني ، فلقد فات القطار
إنني قررت أن أدخل في حرب مع القبح. ولارجعة عن هذا القرار
فإذا لم أستطع إيقاف جيش الردم أو زحف التتار، وإذا لم استطع أن أقتل الوحش فحسبي أنني أحدثت ثقبا في الجدار

وتلهمه الحرية التى تزوجها معنى يتخطى الكينونة الساكنة الهائجة بل يتخطى الوجود الانساني إلى وجود كونى حين يقول فى قصيدته، «حزب المطر» :

أنا لا أسكن في أي مكان
إن عنواني هو اللا منتظر
مبحرا كالسمك الوحشي في هذا المدي
في دمي نار وفي عيني شرر
ذاهبا أبحث عن حرية الريح
التي يتقيها كل الغجر
راكضا خلف غمام أخضر/ شاربا بالعين آلاف الصور
ذاهباً حتى نهايات السفر

وتبرق فى سماء شعره رغم اعتكار الليل حول فكرة القومية العربية التى أحالها البعض إلى متاحف التاريخ لكى نتحول إلى ذكرى تبرق الأحلام المضيئة بعودة الوحدة والتضامن والحب بين العرب وهو حلم لاينجو من عنكبوتية الإيهام الشعرى عنده.

يقول نزار محولا الفكرية القومية إلى شىء حميم

مازلت برغم صراع الإخوة .. أخترع الأحلام
وأقول بأن الله سيجمع يوما بين الأرحام
جسدى يشتاق إلى بغداد
وقلبى عند نساء الشام

وفى الشتات أو المنفى الذي لجأ إليه نزار فى سنواته الأخيرة تطويه الحسرة وتنشره ، وهو يتحرق شوقا إلى وطنه الذى وصله مدرجا فى الأكفان فى الثلاثين

نـزار قبانى

من شـهـر أبريل من عـام ١٩٩٨ يقـول الشاعر نزار قبانى :

ياسيدتى، إن النملة تملك وطنا
إن الدودة تملك وطنا
إن الضفدع يملك وطنا
إن الفأرة تملك وطنا
إن الأرنب يملك وطنا
والسحلية والصرصار
وأنا ما ملكنى أحد وطنا
ولذا أسكن ياسيدتى وطنا بالإيجار

ثم يتحدث عن المشكلة الحقيقية فى حياته إنها الحرية .

ياسائلى عن حاجتى
الحمد لله على الصحة والرغيف
وما تقول الصحف اليومية
عندى صغار يملأون البيت
وزوجة وفية
وفى الخوابى حنطة وزيت
لكنما مشكلتى
ليست مع الخبز الذى آكله
ولا مع الماء الذى أشربه
مشكلتى الأولى هى الحرية

إن هدف الشـاعـر هو بناء دولة الإنسـان وهـو هدف الشـعـراء على امـتـداد القرون. يقول نزار قبانى :

لاتسألينى من أنا ؟
وما الذى أفعله / كى أتحدى الموت والزمان
أنا الذى أسقطت ألف دولة ودولة
لكى أقيم دولة الانسان

مرة أخرى نواجه الإيهام الشعرى الذى يلف خمسين عاما من القصائد التى كتبها نزار قبانى ولكنها تقرعنا بزلازلها الشعرية الغاضبة، ذهب نزار وجاءت ذكراه وتقدمت قصيدته إلى محكمة التاريخ تعلن من جديد أن القيم التى نذر الشاعر نفسه لها لن تموت وفى مقدمة هذه القيم الحرية التى مات الشاعر وهى زوجته الوحيدة! .

قف على الشط

شعر: سليم الرافعي - لبنان

لا تغب فى الخباء خلف الغيوم يا حبيبى.. أعد ضياء النجوم
فى السماوات أنت تحجب قلبى خيمة مستثارة من نسيم
لم ينم قلب عاشق فى سماء سر على الأرض فى دمى وصميمى
واسمع الناى من شرايين ورد غمس الورد شوكه بالكلوم
كلا هذا الوجود همسة وعد شهقت فى عناقها المكتوم
من صحارى ومن بحار تغنى أنت لى - أنت لى - بصوت رخيم
يتثنى غصن ويبغم ظبى ويناجيك بلبل من نظيم

●●●

يا حبيبى.. من عرى فجرك ثوب ومن الليل كسوة لليتيم
ليس لى غير وردتيك وساد حمرة الورد من حطام جحيم
هذه القبلة الأبية تشكو كبرياء الشفاة شكوى غريم
تتندى من دمع نهر سجين بين شطين غارق فى وجوم
قف على الشط أيها الحب واسمع جمرة فى انهيار شوق كظيم
يسكب النهر وجده فى زجاج سرمدى التكسير والتحطيم
هدر الموج من صدود حبيب واحتسى الشط لوعة من كريم
عانق العاشق القديم ترابا قبلة العاشق اخضرار كروم
آية الزهر آية النهر.. تحيا فى شكول من الشجا ورسوم
من عتاب يرتاع من خطرات حين ينهار فى هواه القديم



جزء خاص:

شعر المناسبات ليس كله ارتزاقاً ونفاقا!

بقلم : د. حسن فتح الباب

فى سنوات الأربعينات من القرن الميلادى المنصرم ، دارت رحى حرب أدبية ضروس بين كاتبين كبيرين حول قضية شعر المناسبات. وقد دارت هذه الحرب على صفحات مجلتى الثقافة والرسالة اللتين كانتا أبرز المجلات الثقافية فى تلك الحقبة. واشتعلت هذه المعركة حين كتب الباحث والناقد العالم الأستاذ أحمد أمين سلسلة مقالات بالمجلة الأولى بعنوان (الأدب العربى أدب معدة) ، مسددا سهامه إلى شعر المناسبات ومن يقرضونه من الشعراء، باعتبارهم من وجهة نظره مرتزقة كل همهم هو الثراء من طريق غير مشروع، وهو مديح الخلفاء والولاة والأمراء بما ليس فيهم حتى يحصلوا على رضاهم ويثابوا عن مدائحهم بأكياس الذهب والفضة والجوارى والاماء والخيل والإبل، مما يزيدهم إيغالا فى استعمال موهبتهم فى النظم أداة لتحقيق مطامعهم بغض النظر عما ينبغى أن يكون عليه فن العربية الأول من صدق مع النفس ومع الآخرين.

وتصدى الدكتور زكي مبارك للأستاذ أحمد أمين بعدة مقالات نشرها على حلقات بمجلة الرسالة، وكان عنوانها (جناية أحمد أمين على الأدب العربى)، وعلى الرغم من أن تلك الملاحاة قد ذكّرت القراء بهجائيات الفرزدق وجرير التى سميت بالنقائض، وما أثارته من غبار تحت سنابك فرسان المعركة، فإنها استقطبت اهتمام الأدباء والنقاد والباحثين فأدلى كثير منهم بدلوه فيها. وأسفر السجال عن جلاء قيم نقدية جديدة أثرت عالم الأدب، فى حين سقط كثير من غبار الحرب التى أشعلها القطبان المتنافسان.

ولم يكن العلامة الأديب أحمد أمين هو أول من انتقد شعراء المناسبات، بل سبقته إلى ذلك جماعة الديوان التى أسسها عبدالرحمن شكري وعباس محمود العقاد وإبراهيم عبدالقادر المازنى فى العشرينات من القرن العشرين. وقد شنوا حملة شعواء على أمير الشعراء أحمد شوقى وسائر شعراء المدرسة الكلاسيكية الجديدة الذين اتبعوا شاعر السيف والقلم محمود سامى البارودى فى إحياء التراث الشعرى القديم بالنسج على منواله.

وكان نقد الديوانيين لشوقى حادا وقاسيا بلغ درجة التجريح الشخصى أحيانا، ولكن الذى بقى منه هو صحة بعض ما ذهبوا إليه وهو ضرورة تعبير الشاعر عما يخالج نفسه من أحاسيس، فالشعر عندهم هو الذي ينبع من الوجدان. وكان شعارهم بيت العقاد:

والشعر من نفس الرحمن مقتبس

والشاعر الفذّ بعد الله رحمن

وقد تأثروا فى ذلك بالشعر الانجليزى إذ كانوا يتقنون لغته ويستوعبون تقنياته، وكانوا بذلك روادا للأدب الرومانسى فى مصر وسائر البلدان العربية. ومن ثم أخذوا على شوقى مدائحه للخديو وللسلطان العثمانى وانتهازه المناسبات الوطنية والقومية والدينية ليصوغ أبياتا تعبر عن الموضوع لا عن الذات، وتتسم بالاصطناع والتكلف وتكرار المعانى والصيغ المألوفة. ولم يلتفتوا إلى ما أبدعه شوقى من شعر غزلي رقيق ومن صور وتعبيرات جديدة فى الأغراض الأخرى. كما غضوا النظر عن ريادته للشعر المسرحى الذى فتح به بابا جديدا فى الإبداع الشعرى العربى.

فيصل التفرقة بين جيد المديح ورديئه

إن النظرة المتأنية والعميقة لمسيرة تراثنا الشعرى التى بلغت أكثر من ألف وخمسمائة عام والأغراض التى تناولها الشعراء وأثر إبداعهم فى النفس العربية، تبين لنا أن نقد فن المديح فى كل تجلياته يتسم بالمبالغة وتعتوره آفة التعميم. فهذا الفن يشغل مساحة كبيرة فى خريطة الشعر، ومن ثم فإن اعتباره فنا رديئا يعنى إسقاط جزء عزيز من تراث الأمة العربية. فإذا عددنا الهجاء والرثاء من شعر المناسبات أيضا فماذا يبقى

لنا من هذا التراث العريق الذى يفخر به العرب ويعد ديوانهم؟

إن قصائد المدح ليست كلها من قبيل الصنعة الشكلية الخالية من صدق التعبير، بل إن كثيرا منها يرقى إلى مستوى رفيع من الإبداع الذى تتوافر فيه شروط الصدق الواقعى والصدق الفنى. والمديح والفخر والرثاء والهجاء هى نَضْح للأوضاع الاجتماعية والمرحلة الحضارية التى عاش فى ظلها الشاعر القديم، فكان من الطبيعى أن تنعكس على إنتاجه وتفرض نفسها عليه.

فليست المدائح فى مجملها وصمة تشين أصحابها إذا نظرنا إليها فى ضوء الأعراف الاجتماعية والتقاليد الأدبية السائدة . بل إن من هذه المدائح ما يدرج فى دائرة الشعر بمضمونه الإنسانى الذى يُبقى على الأعمال الأدبية القيمة التى تخلد فى ذاكرة التاريخ وتستعصى على النسيان، وذلك حين يكون المدح تمجيدا لبطل قومى مثل قصائد أبي الطيب المتنبى فى مديح سيف الدولة قاهر البيزنطيين الذين كانوا يغيرون على الأراضى العربية الإسلامية ، وقبل المتنبي مدح زهير بن أبى سلمى في عصر الجاهلية هرم بن سنان الذبياني، لحسن سعيه هو والحارث بن عوف فى الصلح بين عبس وذبيان فى حرب داحس والغبراء بتحملهما ديات القتلى.

ومن عيون شعر المديح ما جادت به قرائح شعراء الرسول فى التغنى بفضائله ومآثره وعلى رأسهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك وكعب بن زهير.. وتحفل صفحات ديوان العرب بالمدائح التى استلهمها الشعراء من القادة والحكام الذين كانوا أبطالا فى زمانهم. ومن ذا الذى ينسى قصائد البحترى فى الخليفة المعتصم الذى شن حربا على الروم تلبية لاستغاثة امرأة عربية عبث جندى منهم بردائها ، وبعض قصائد ابن هانىء الأندلسى فى مدح الخليفة المعز لدين الله الفاطمى. فليس من شعر المناسبات ما يفصح فيه قائله عما يؤمن به من قيم الحق والعدل التى رآها تتمثل فى ممدوحه، فجعله نموذجا للمثل العليا واتخذ من أفعاله وأقواله الحميدة صورة فنية تجسدها . ولكن الذى يؤخذ على الشاعر هو المبالغة والخروج على الدين والآداب الاجتماعية مثل قول أحدهم:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار

فاحكم فأنت الواحد القهار !!

أما المدح فلا يعد بذاته غرضا ممجوجا ما دام يعبر عن اقتناع الشاعر بما يخلعه على ممدوحه من صفات ، وعن تمثيله بذلك للوعى الجمعى بالإضافة إلى اكتسابه للوعى الجمالى. ومن ثم قال أبو تمام عن دور الشعر فى نشر المثل العليا والتوعية بها :

ولولا خلال سنّها الشعر ما درى

بناة العلا من أين تُؤتى المكارمُ

وما يقال عن المديح فى هذا المقام يصدق إلى حد ما على نقيضه وهو الهجاء فى نماذجه التى تنأى عن الابتذال والفحش، وإنما يقصد بها التنفير من القبح والشر والخسة والجبن وغيرها من الآفات الخلقية، وذلك من خلال صيغ جمالية فنية من حيث الدلالات والدوال. وسواء أكان المهجو يستحق الذم الذى ناله من الشاعر أم كان بريئا من بعض النقائص التى وصمه بها، فإن الجيل الذى قرأ الهجاء والأجيال اللاحقة لا تعنيها هذه القضية، وإنما يؤثر فيها تعبير الشاعر عن قبح الصفات التى نعت بها من يهجوه، وما ينطوى عليه هذا التعبير – بمفهوم المخالفة – من إعلاء النعوت المناقضة . فإذا ذم البخل فإنه يمتدح الكرم فى الوقت ذاته، وإذا أدان الجبن فهو يثنى على الشجاعة. وقد كان الرسول عليه السلام يحث حسان بن ثابت على هجاء المشركين الذين تطاولوا عليه ، ويقول له: اهجهم . كما يقول عن شعر حسان: إنه لأشد وقعا عليهم من السهام.

وإذا كان تاريخنا الأدبي قد حفظ كثيرا من قصائد المديح وبعض قصائد الهجاء، وأسقط أخرى لصدورها عن شعراء أسفُّوا بفن القريض إلى مهاوى الارتزاق، فلقد أبقى على أكثر شعر الرثاء، ولم يُسقط منه إلا ما جرى مجرى التزلف إلى الأمراء وأهل السراوة والنعمة استدرارا لعطفهم واستجداء لنوالهم. فمثل هذا الرثاء لا يختلف عن المديح الزائف فى جوهره ودوافعه ولا عن الهجاء المقذع الذى يحيل الحق باطلا والباطل حقا. بل إنه لا فارق كبيرا بين المدح الكاذب والرثاء المغرض حتى فى أساليب الصياغة والأشكال الفنية، إذ لا يعدو الرثاء المصطنع أن يكون خلعا لصفات مبالغ فيها أو غير صادقة على الأموات . ولكن ثمة فارقا بين المدح والرثاء وهو غلبة الصدق على الثانى ، لأنه لم يكن ضريبة يؤديها الشاعر لأمير أو سرىّ فقد واحدا من أهله برثاء الفقيد كما كان يطالب بأداء واجب المديح. ولم يكن الرثاء فى الأعم الأغلب سببا من أسباب الكسب، فالدنانير والدراهم والجوارى والدواب مكافأة من نصيب المادحين لا الراثين. فكان الشاعر العفّ يربأ بنفسه عن اتخاذ الرثاء «الرسمى» وسيلة للترخص والتزلف فى سبيل نيل الحظوة ، وحسبه أن ما أنشده من مدائح الأحياء قد وقاه شر التضوّر جوعا وأعفاه بذلك من مدح الأموات.

ومجمل القول أن قصائد المدح والرثاء ليست كلها ضربا من الارتزاق أو النفاق، بل إن كثيرا منها يصدر عن صدق واقعى وصدق فنى. وهى بذلك لا تعد من شعر المناسبات. والقول بغير ذلك إهدار لكنز ثمين من تراثنا العربى شهد بقيمته الإنسانية والفنية كثير من المستشرقين والمستعربين.

إن كنت في عجلة من أمرك فعليك بسمسار!

بقلم : حسن سليمان

انطلقت بنا العربة فى طريقها إلى الاسكندرية. فجأة سمعت سيدتين تتحدثان بالفرنسية خلفى. تطلعت إليهما. إنهما فى منتصف العمر. كل شىء يدل على أنهما من الطبقة المتوسطة العليا. عليهما مسحة من جمال. قالت إحداهما للأخرى: «سميحة» وقعت أخيراً على رجل يعوضها عن الرجل الأول، لامثيل له فى كل شىء».

أطرقت السمع جيداً لأسمع مميزات الرجل الذى لامثيل له، ولا يقارن به رجل آخر. فإذا بها تتم الحديث قائلة: «إنه كالخاتم فى إصبعها» !!.

اندهشت فقد كنت أظن أنه رجل مرموق، أو على خصالٍ حميدة. فإذا كل ما يمتاز به. أنه كالخاتم في إصبعها.

علمت إذن .. لماذا أنا فاشل مع نساء وقتنا الزاهر؟!

فأنا لا أستطيع ولا أملك القدرة على أن أكون خاتماً فى إصبع امرأة.

المرأة مع الضغط العصبى فى هذا المجتمع محتاجة إلى الرجل المزيح!

الحديث يذهب بعيداً بى إلى أشياء أخرى ارتبطت بتكوين المجتمعات واقتصادها فى القرن التاسع عشر.

حينما نظر «فلوبير» إلى السيدات اللاتى حضرن محاكمته على قصته «مدام دى بوفارى» أشار بيده بحّدة إليهن صائحاً: «كلكن مدام دى بوفارى» ، وقال شاعر، أظنه الشاعر الفرنسى «سابرول»: عامل السيدة على أنها عاهرة فهذا ماتفتقده، وعامل الخادمة على أنها سيدة. أظن أن هذا كان رأى «دى.إتش. لورانس» أيضا. كذلك كانت خيبة أمل «شاتو بريان» حينما خدع فى سيدة يحبّها. فخبأته الخادمة التى أحبته - لأنه يحترمها - فى صوان ضخم ليسمع ما تقوله السيدة عنه لعشيقها الحقيقى: «كم أشعرنا «شاتو بريان» فى الجزء الأول من مذكراته بالملل»، ونحن نقرأ فى نهاية كل صفحة جملته التى يكررها دائماً: لقد اكتشفت أنى فى حب. وأخيراً مع اختفائه فى الصوان. سمع رأيها الصحيح فيه لعشيقها. رأى وسمع كيف تعامل عشيقها. فإذا به وهو منصرف على ظهر حصانه تنتابه نوبة من الضحك. لشعوره بالخديعة طيلة هذا الوقت.

«شاتو بريان» العظيم لعبة فى يد امرأة لعوب تحب رجلاً دون مميزات. وإذا بمذكراته بعد ذلك خالية تماماً من ذكرها.

الويل للفنان إن ركع أمام المرأة. إنها تريده دائماً راكعاً أمامها. إنها لذتها الكبرى. أن يشله جفاؤها. أن يشلة غضبها منه.. أن ينكمش كلية بدونها.

وقعت فى يدى خطابات. أظنها بأسماء مستعارة. فى الهامش أسفل الصفحة كتب (إنها الخطابات المتبادلة بين «فلوبير» و«چورچ صاند»). هذه الخطابات أتمنى أن يسمح لى العمر أن أترجمها. فهى على مستوى عال من الثقافة والفهم العميق، والأدب القديم، والميثولوچيا. إن المرء لا يملها.

المضمون ينحصر فى شىء واحد. هو يتحدث فى شىء، وهى تتحدث فى شىء آخر. هو يتحدث فى أنها جعلته يتكامل مع نفسه. يكتب حتى وهو بعيد.. يفكر وهو يتذكرها.. يقرأ متذكراً إياها.. مستشهداً فى كل ذلك بكلمات من الفكر القديم والأدب القديم. هى ترد عليه بنفس المستوى لكنها مصرة على أنها تريده هو، تريده أن يلمسها، أن تكون بين أحضانه،

أن ترى عينيه، أن يتجاذبا الحديث، أن يتنزها معا، ولا وقت ولا حاجة عنده لهذا. لأنه صاحب مقولة « لا يوم بدون سطر». لم تكن رغبة «چورچ صاند» غير شيء واحد. هو السيطرة على «فلوبير»، وأن تنجح في أن يكون خاتماً في إصبعها. لكن «فلوبير» اختار هو و «ديلاكروا» طريقاً غير الذي اختاره كل من «الفونس دوديه» و«شوبان». كلهم عظماء. لكنني مع «فلوبير» و«ديلاكروا».

الحقيقة تنحصر في أبيات لاتينية ضمن أبيات «كرمينا بورانا» الأصلية. التي يقال فيها: «إن فارسك سيرجع لك بالتأكيد» الفارس يفي بوعده دائماً، وستركعان أمام المذبح، ويضع خاتمه في إصبعك. لكن إن كنت في عجلة من أمرك فعليك بسمسار أو تاجر نبيذ غشاش. ربما شعرت بطمأنينة بجانبه. لكنك ستفتقدين دوماً معنى الفارس في حياتك.

★★★

اعتدت طيلة السنوات الماضية أن أطلب أصدقائي تليفونياً كل عيد. في هذه السنة جاء العيد الصغير. طلبتهم واحداً.. واحداً لم أجد أحداً. فكلهم ذهبوا إلى القرى والمنتجعات السياحية في البحر الأحمر والساحل الشمالي. تعجبت!! وصحت: أين بهجة العيد؟! أين ما اعتدنا عليه في منزلنا.. أين الستائر التي تخرج خصيصاً في ليلة العيد، المفارش، الآنية المخصصة للحلوى والكعك. التي كانت توضع وتغطى على المائدة، أين فرحة الأولاد بالملابس الجديدة، والعيدية، والزيارات المتبادلة، وجاء العيد الكبير، وأخذ التليفون يرن في منازلهم، ولا أحد يجيب، وتساءلت: «أين فرحة العيد الكبير، وخروف العيد، والصباح الباكر، والشواء الساخن، ودعوة الأصدقاء والعائلة أيام العيد الأربعة، وارتباط العائلة».. هل ضاع ارتباطنا العائلي؟ الذي قد يكون ضياعه سبباً في تحلل المجتمع كله.

أتى شم النسيم كذلك وإذا بالتجربة تتكرر، وتذكرت شم النسيم والزينة التي كنا نعلقها من الورق المقوى التي تمثل دجاجاً، وبيضاً. يتحرك في الهواء «بسوستة» رفيعة جداً. تذكرت البيض الذي كنا نلونه مساء شم النسيم، ونتفنن في تلوينه. ثم يوضع في وعاء على شكل حمامة ضخمة مجوفة بيضاء. مَرَحْنا، وتكسير قشر البيض على جباهنا، قرش الصاغ المخبأ في الرغيف المضفر، والمحلي بالسكر.

ليلة شم النسيم كانت لها طقوس. فلابد أن نستحم كلنا أطفال العائلة «حمام الشمامة». نضع على وسائدنا الورود، وطيلة الليل نستمع إلى الشباب وهم يغنون: «يا نايم ياخمّ النوم.. يا نايم.. يا نايم قوم صحّ النوم». الاحتفال بيوم شم النسيم بطهو الملوخية وورق العنب وأكل الفسيخ.

وأخيراً تجرأت وسألت كلاً من

أصدقائى عن هذا التقليد الجديد. الإجابة كانت واحدة. ضغط من الزوجة لكى تستريح من القاهرة، وتستنشق هواءً نقياً، ويلهو الأطفال فى جو صحى. سألت: هل ارتحتم.. هل استفاد أطفالكم؟.

- فى معظم الأوقات الرحلة تنهكنا، والحجرة إن لم تكن متسعة وعلى البحر تسجنا، والرطوبة والذباب تتلف أعصابنا، غالباً ما نرجع مجهدين، وكأننا نريد إجازة أخرى من الإجازة. قلت: ولماذا وافقتم؟ قيل لى: نريد أن نريح أعصابنا المجهدة من إصرار الزوجات، وإزعاجهن المستمر لتحقيق هذه الرغبة. هذا الإصرار يفقد الأعصاب.

هل تعلم أن هذه الرحلات رغم قولهم عن التخفيضات. ترهقنا مادياً إلى درجة الدين. أقول: أليس هذا استهلاكا دون معنى، وتحطيما لترابط المجتمع. ما الدافع لإصرارهن على هذا؟.

الإجابة أنهن يقلن : إن كل من حولنا من العائلة يفعل هذا فهل نحن أقل منهم؟!

إن الأمر قد يبدو بسيطاً. لكن بتفكير بسيط نستطيع أن نصل إلى أنه المجتمع الاستهلاكى الخاضع للإعلانات فى التليفزيون والصحف . وبسؤال ذوى العلم. نستطيع أن نصل إلى أن هذه القرى والمنتجعات كلها فى أيدى عائلات قليلة. تسيطر على اقتصاد البلد. ومعظم المجالات الأخرى مما قد يخرب اقتصاد البلد كلية.

مع نهاية الحرب وسيطرة حكومة «ديجول» على الحكم. وجد «ديجول» أن من يسيطر على اقتصاد فرنسا بضع عائلات. يملكون معظم أدوات الإنتاج. ثار «ديجول» واخترع لفظاً أدخل فى الفرنسية بعد ذلك. إذ قال لهم: «أنتم تتبرزون على أنفسكم». ولن أسمح لكم بهذا. سوف أحاربكم بأقصى ما أملك من قوة. فلابد أن يكون التنافس حراً بين رؤوس الأموال الصغيرة والكبيرة. سأحارب أى تلاعب يمس الاقتصاد. لن أدع للسمسرة القذرة سيطرة على اقتصادنا. كان «ديجول فى قوته فارساً». فهو حفيد الفارس الذى كان ممسكاً بلجام «چان دارك» وهى تحاول تحرير فرنسا وتوحيدها.

★★★

فى السنوات الأخيرة وجدت إعلاناً يتكرر يومياً « انسفى حمامك القديم». رجع وكيل وزارة إحدى الوزارات إلى منزله. رأى عمالاً . رأى قيشانى حمامه قد تحطم كلية. سأل زوجته: ما هذا؟!

قالت له: لقد أعجبنى الحمام الذى فى إعلان التليفزيون. رأيته بالتقسيط المريح. بعد أن قالوا: «انسفى حمامك الآن». قال لها: «ولكن لن يتبقى معنا من المرتب شئ لندفعه للأقساط. إن كل شىء محسوب». قالت: «عليك أن تتدبر الأمر».

كثير من نساء اليوم يفضلن الرجل السمسار. فنحن في وقت الصدارة فيه للسمسار، والسماسرة أنواع. حدث أن الدولة أعطت ذات مرة جائزة الدولة التقديرية لسمسار. على أنه أعظم كاتب، وهو لم يكتب سطراً واحداً في حياته. بعد أشهر أعلنت في جرائدها الرسمية أنه قوّاد. نحن في عصر تتحقق فيه المقولة اليونانية: «الذهب ليست له رائحة». إن السمسرة أنواع . تبدأ من مكاتب الاستثمار، وأوراق البورصة، وتنتهي إلى سمسرة الشقق المفروشة والدعارة. لكن السمسرة هي السمرة . مع سيطرة السمسرة على السوق وجرى الشباب إليها. فالشاب الذي يعمل في مثل هذه المكاتب حتى – ولو كانت وهمية – هو الذي تجري وراءه المرأة ليكون خاتما في إصبعها – إن أكثر نساء اليوم يجرين وراء السمسار، بطبيعته الخانعة الخادعة، سعياً لمستوى معيشي أفضل، وهكذا ذهبت تقاليدنا وأعرافنا وقيمنا مع الرياح.

كان هناك فيلسوف يوناني من المدرسة الكلبية . نسيت اسمه. لكني أظنه كان «ديمتريدس». وقف في ميدان السوق. خلع ملابسه. رفع يديه. صاح: «ديمتريدس يبيع نفسه» وإذا «بأيبيرخيا» ذات الحسب والنسب والجمال. تلتقط أسماله البالية وتحضنها. «أيبيرخيا» تطلق على الفتاة بنت قائد الفرسان، وكان أخوها كذلك قائداً للفرسان. احتضنت ملابسه طائعة مؤمنة به وتبعته إلى كهفه، ولم يصبح أبداً خاتماً في إصبعها.

أذكر أن في جيلي كثيرا من الشعراء الكبار والصحفيين والفنانين. أحبتهم وتزوجتهم فتيات ذوات حسب ونسب، كن يفخرن حتى بذهابهم إلى السجن. أما فتيات الآن فهن يسعين وراء مغنٍ رقيع. أو لاعب كرة. لأن الصدارة لم تعد لشرف الموقف، أو لشرف الكلمة.

في وحدتي الآن أرددٍ دائماً كلمات «بول ڤاليري»: «أعط المرأة أي شيء تريده.. إلا وقتك وروحك».

ذات مرّة.. أحبتني امرأة. فتحت إحدى أعداد «مجلة الكاتب». قرأت في مقال ليّ جملة: «ما يضير الإله إن ركع طالما هو يملك القدرة على النهوض ثانية». فإذا بوجهها يتغير كلية، وملامحها تتقلص، وتقول: «لو قرأت هذه الجملة لك من قبل ما سعيت لمعرفتك». نظرت إليها متعجباً. فما علاقة موقف الفنان بالنسبة للفن والمجتمع وعلاقته بالمرأة؟!

لم يكن في الإمكان أن يقال عن خال أمي إنه رجل صوفي، ولكنه أقرب إلى تلك الفئة التي يطلق عليها «المجاذيب». إذ كان يردد كلمات لا معنى لها. أقرب إلى الترجمات السيئة بالعربية للشعر الأوربي الحديث أو السريالي. كان عندنا في اليوم السابق لعيد الأضحى، وهو يترنم بأوراده، وفجأة صرخ في وجوهنا: «ضحكوا عليكم وأرسلوا لكم نعجة»، اندهشت أمي قائلة

له: وكيف عرفت؟ . أجاب: إصرارها على ارتطام قرنيها بمكان ثابت من سطح الباب. أما الكبش فهو أهوج. يندفع مرة ذات اليمين ومرة ذات اليسار بعكس النعجة. فهى تصر بهدوء وتركيز على مكان ثابت. فتحت أمى باب الحمام فوجدته يكاد يثقب، وبعد التحرى اكتشفنا أنها نعجة، وصحنا جميعاً فى وقتٍ واحد: ماذا سنفعل بالنعجة؟

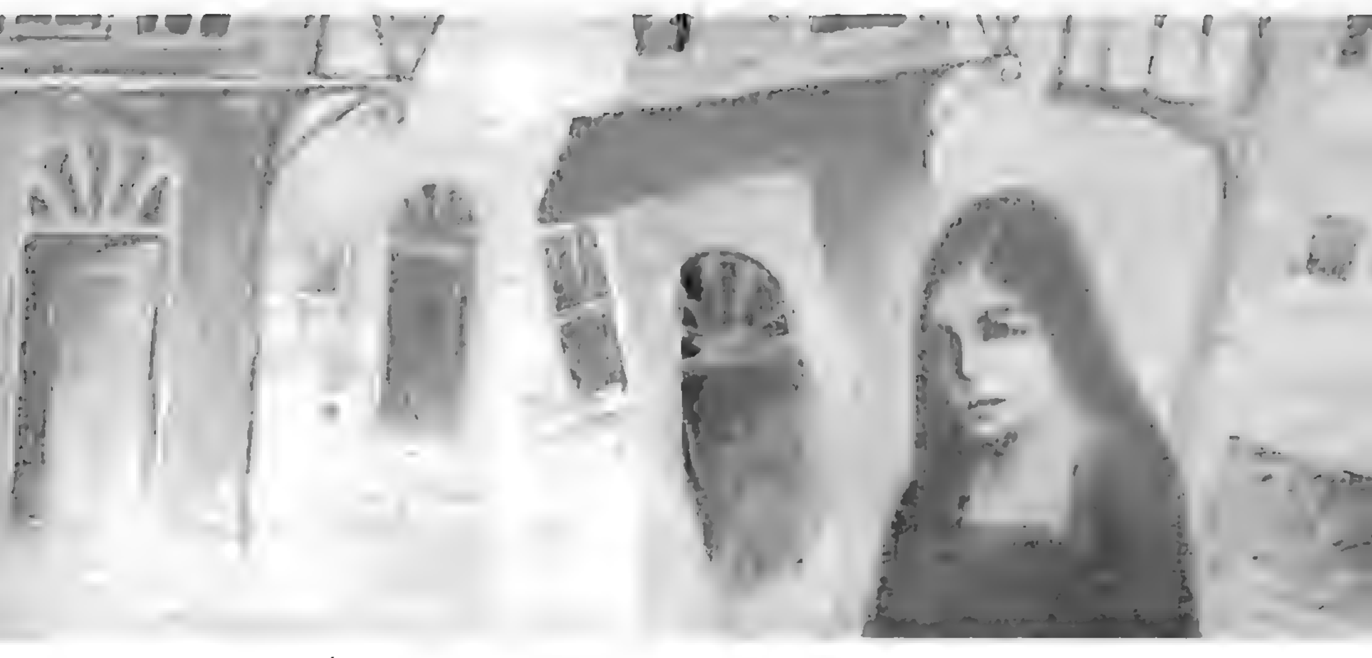
أخذ خال أمى يضرب كفاً بكف قائلاً: أهل مصر المثقفون لايدرون ماذا يفعلون بالنعجة ويكررها متعجباً!!، وأخيراً هتف: «النعجة يُقصّر لها الحبل». فى ذلك الحين كنت فى السابعة عشرة، وأعجبتنى تلك الكلمات كثيرا، ووضعتها حلقة فى أذنى حاولت أن أطبقها مع المرأة فى مراحل حياتى لكنى فشلت. لو قصرت لها الحبل ثارت وهاجت وماجت. بكت وشدت شعرها، أو حاولت ضربى، ولو تركت لها الحبل. طلبت المزيد من السيطرة والتحكم وفرض الرأى وفعل ما تريد دون أن يكون لىّ الحق فى فعل شىء. قال الدكتور سعيد دراز الجراح المشهور لابد أن يكون قد حدث تغير ما، ففى شبابى كانت الكتب كلها عن كيف تعاملين زوجك، وكيف تجعلينه يحبك وكلها تخاطب المرأة، وكان عليها أن تخطب ود الرجل. أما الآن فالوضع اختلف. حولى عدة كتب كذلك معظم واجهات المكتبات التى زرتها. كتب كلها عن كيف يعامل الرجل المرأة، وكيف يفهمها، وكيف يجعلها ترضى عنه، وكأنها كائن غريب من المريخ. على الرغم من أن الإثنين كائن بيولوچى، ولا فرق بينهما ككائن بشرى. لقد فشلت حتى كدت أجزم أن العيب هو عيب الرجل.

ذات مرة رأى عندى الدكتور فاروق فريد أستاذ الكلاسيكيات بجامعة القاهرة ثم بجامعة أثينا - رأى فتاة جميلة. فقال لىّ: اقفل بابك جيداً ستمزقك فتيات «آرت ميس» إرباً إربا. لأنهن قد اعتدن على اصطياد الأرانب البرية. لم أسمع كلامه. ليتنى سمعت كلامه، والان أنا راقد على رماد شقتى المحترقة، وحولى فتيات «آرت ميس» يرقصن طرباً وقد عقصن شعورهن بزهور الغابات البرية.

سأظل راقداً وسط الرماد حتى يفقدن الشهية كلية فى تمزيقى، ويبعدن عنى، أنهض متثاقلاً، ألملم شتات نفسى، ويكون لى غد وبداية.

★★★

ما قلته عن النساء لا ينطبق على السواد الأعظم من النساء الواقفات مع أزواجهن، لكنه يمس شريحة من النساء تعرفها جيداً باقى النساء.



المكان فى الرواية والقصة

بقلم : أبو المعاطى أبو النجا

الهدار.. وليالى الصيف الجميلة

بريشة الفنان : جودة خليفة

المكان هو مادة الوجود الأولى، وحركته هى صانعة الزمان وفى اطار من المكان والزمان وجدت التجربة الانسانية ولا توجد تجربة انسانية بعيدة عن التأثر بهذا الإطار. ولكن درجات التأثر هى التى تختلف من انسان لآخر ومن تجربة لأخرى، فأحيانا يكون المكان أو الزمان عنصرا فاعلا فى التجربة الانسانية، وذلك بقدر ما يترك من أثر فى الفكر أو الشعور أو الخيال أو الاتجاه أو الموقف الانسانى، وأحيانا يكون الزمان أو المكان مجرد خلفية تترك بالضرورة أثرا ما لكن ليس بهذه الفاعلية.



والتجربة الانسانية هى مادة الأدب الأولى، أيا كان جنسه أو نوعه، قصة أو رواية أو شعراً أو مسرحية وفى الأدب القصصى كما فى الحياة، تختلف أيضا أهمية المكان باختلاف دور المكان فى الرواية أو فى القصة فكلما تجاوز المكان دوره كمجرد خلفية وكلما كان له تأثير فى الفكر أو الشعور أو الخيال أو الاتجاه أو الموقف، كان عنصرا فاعلا فى القصة أو الرواية على أننا ينبغى أن نفرق بين دور المكان فى الواقع الخارجى وبين دوره فى العمل الروائى، فقد يكون للمكان فى الواقع الخارجى وظيفة معروفة اجتماعيا وعمليا مثل المقهى أو الحقل أو المصنع، أو محطة السكة الحديد أو المطار أو المدرسة أو المؤسسة، وقد يستخدمه الروائى ليقوم بهذا الدور فى العمل الروائى، ولكن ذلك قد يكون مجرد بداية ، ففى العمل الروائى يمكن للكاتب أن ينطلق من هذه الوظائف المعروفة لهذه الأماكن لينيط بها أدوارا ووظائف أخرى فى عمله الروائى، لم تكن لها فى الواقع الخارجى، وربما تتجلى هذه الأماكن من خلال رؤى أبطال القصة أو الرواية بصور مختلفة ومبتكرة نتعرف من خلالها على شخصيات الأبطال، ونوعية التأثير الذى تركته فيهم هذه الأماكن، كما نتعرف على شخصيات الأماكن كما يراها هؤلاء الأبطال.

صمود عنصر المكان

خصيصة أخرى للمكان سواء فى التجربة الانسانية أو فى العمل الروائى هى أنه الملمح الذى يبقى فى الذاكرة الانسانية حين تبهت بقية ملامح التجربة فى الأدب أو فى الحياة وكلاهما تجربة انسانية!

فالزمن يمكن أن يمسح بأذياله على الأفكار والمشاعر والاتجاهات التى ترتبط بالتجارب فى الحياة أو فى الأدب ولكن عنصر المكان فى هذه التجارب يبقى وحده صامدا لفعل الزمن تحتمى به العناصر الباقية لترسل من بعيد وهجا خافتا أو نبضا واهنا من الأفكار والمشاعر التى ترتبط بالمكان فى هذه التجارب ، ففى رواية «جسر على نهر درينا» للكاتب

اليوغسلافي «ايفو اندرتش» الحائز على جائزة نوبل، فى هذه الرواية العظيمة وفى غيرها، قد ينسى القارىء الكثير من تفصيلات هذه الرواية الضخمة والشائقة ولكن صورة الجسد كما أبدعها الكاتب، والأحداث التى وقعت من حوله، أو الشخصيات التى بحوزته أو تلاقت عنده، أو تحددت مصائرها بسببه أو على حافته هى وحدها التى تبقى فى ذاكرة القارىء حين يبدو أن كل شىء يمكن أن يصير إلى زوال .

ربما كانت هذه المقدمة العامة لها ما يبررها قبل أن أتحدث عن عنصر «المكان» كما تعاملت معه فى بعض ما كتبت من قصص أو روايات، ومن الطبيعى فى اطار هذا المقال أن أكتفى بايراد مثالين أو اكثر من هذا التعامل وحديثى هنا عما كنت أفكر فيه وأشعر به وأنا أتعامل مع هذا العنصر لا يعنى بالضرورة اننى نجحت فى توصيل ما كنت أنتويه الى القارىء فهذا الأمر متروك له، إنه فقط مجرد اعتراف!.

الهدَّار

القارىء الذى عاش فى القرية المصرية، يعرف الترع الصغيرة المنبثقة من فرعى النيل الكبير من «فرع رشيد» وفرع دمياط، ويعرف ان هذه الترع تنتشر فى دلتا النيل كما تنتشر الشرايين والأوردة فى الجسم، تبدأ فى مجارى واسعة نوعا ثم تتدرج فى الضيق كلما تفرعت يمينا أو يسارا من المجرى الواسع. وعند نقطة التفرع هذه يوجد ذلك الجسر الذى يسمى «بالهدار» انه الجسر الذى يتحكم فى المياه من خلال سدود خشبية أو حديدية يتم فتحها واغلاقها لتسمح بتقسيم عادل ومنتظم لحصص المياه، المهم فى هذا كله انه فوق هذا الجسر، وعلى الطريق الزراعى المؤدى إليه من قريتنا التى استوحيت جوانب من حياتها فى روايتى «ضد مجهول»، كان بعض شباب القرية الذين أتيحت لهم فرص التعليم، والذين يعودون إلى قريتهم فى الاجازة الصيفية يلتقون فى ليالى الصيف الجميلة عند هذا «الهدار» حيث لا تتسع بيوتهم للقائهم بحرية، يجتذبهم سحر المياه المحتدمة خلف السد، فى دوامات لا تنقطع، تستمر مياه الترعة فى تدفقها، وتتابع أجيال من الشباب، ودائما يكون لقاؤهم حول «الهدار» شباب فى سن المراهقة أو بعدها بقليل، يتحاورون



بروح الشباب المرح أو المهموم تختلف آراؤهم ورؤاهم وظروفهم، ولكن احتدام الشباب وقلقه وتطلعه ورغبته فى تجاوز كل العوائق والمحبطات هو ما يجمعهم ثم يتفرقون بعد هذه المرحلة، وقد لا يلتقون أبدا ، كما تتفرق المياه المحتجزة خلف السدود، بعد اجتيازها.

لقد استخدمت هذا المكان فى روايتى «ضد مجهول» وكنت اشعر بقوة بذلك التشابه العميق بين الدور الذى يقوم به «الهدار» فى حياة المجرى المائى الدائم، وبين الدور الذى صنعه التجمع الشبابى حول «الهدار» فى حياة القرية فى ذلك الصيف، وقبل ان تتفرق بهم سبل الحياة، لم يكن المكان هنا مجرد خلفية بل كان مثلف المرآة التى تعكس الصورة، وفى هذه المرآة يتجلى تياران، تيار الزمن فى حياة هؤلاء الشباب وتيار المياه فى حياة هذا المكان فى هذه الأرض الطيبة، أظن أننى حاولت فى كتابة هذه الرواية أن أصور بكل الوسائل الفنية الممكنة، وبطريقة ناعمة وغير مباشرة هذا التقابل بين تيار الزمن فى حياة الشباب وتيار الماء فى حياة المكان، الى أى مدى وفقت فى ذلك؟ إلى اى مدى شعر به القارىء؟ لا أزعم أننى هنا أحاول الاجابة عن هذا السؤال، انما فقط أعبر عما كنت أفكر به وأنتويه!.

وقت الزوال

فى قصة قصيرة لى بهذا العنوان «وقت الزوال» كنت استخدم ذات المكان المجرى المائى خلف الهدار كان بطل القصة صبى فى مرحلة ما قبل المراهقة، وحيد ابويه، يذهب الى المدرسة، وحين يتبارى الأولاد فى مثل سنه فى عبور الترعة سباحة من خلف الهدار، من أوسع مكان فى الترعة، حيث يتجسد خطر الدوامات المهلكة، كان هو يكتفى بحراسة ملابسهم على الشاطىء، تقيده تحذيرات ابويه من الموت غرقا فى الترعة، مفتونا بالسطح الساكن للمياه، وبصورة الأولاد وشجاعتهم وهم يشقون بحركاتهم

الرشيقة. ذلك السطح الساكن عابرين الى الشاطىء الآخر، محتملا معايرة الأولاد له بالخوف والجبن، ولا يحتمل الصبى طويلا هذه المعايرة، فينزل إلى الماء ويواجه الموت غرقا، وتكشف له تجربة الغرق هذه عن العلاقة الغامضة بين الموت والحياة، فالهدار الذى يهب الحياة إلى الأرض والناس والحيوان هو الذى يهب الموت أيضا، ولكنه من خلال هذه التجربة فى مواجهة الموت غرقا يفتح الباب السرى لمواجهة الحياة الحقة حين يبدأ فى التخلص من مخاوفه الكامنة بتعلم السباحة. وفى هذه القصة استخدام آخر للمكان ذاته لاكتشاف دلالات جديدة لنفس المكان!

قرية أم محمد

فى قصة قصيرة لى بهذا العنوان، تبدأ القصة وتنتهى عند مكان بعينه موجود فى كل القرى على حافة الترع الصغيرة المتفرقة من الهدار. هذا المكان يسمى «الموردة» تتجمع عنده نساء القرية، يغسلن الملابس المتسخة والأوانى، ويملأن الجرار، وأهم من هذا كله، يجتمعن، ويثرثرن، ويتبادلن الحكايات والأسرار، ويرجعن إلى بيوتهن، الملابس والأوانى التى كانت متسخة يعدن بها نظيفة لامعة، وصدورهن التى كانت تضيق بأفراحها أو أحزانها أو أسرارها أو فضولها، تعود هى الأخرى مغسولة بما باحت به، بما سمعته، من خلال هذه الوظيفة التى تقوم بها «الموردة» فى حياة القرية، استخدمت هذا المكان لأروى قصة قرية «أم محمد» من الموردة، ومن خلال أحاديث النساء قدمت قصة حياة «أحمد أبو المكاوى» ابن الليل الذى دوخ الحكومة كما دوخ بعض العائلات الكبيرة فى القرية فى فترة من حياتها، حين عاد إلى القرية بعد غيبة طويلة.

من الموردة بدأت اسئلة النساء عن سر عودته وحملت اجاباتهن توقعات كثيرة، وحين لقى احمد ابو المكاوى مصيره الفاجع فى القصة انهيت القصة فى المكان نفسه الذى بدأت منه عند الموردة حيث كانت اسئلة النساء أيضا عن السر الغامض لهذا المصير.

ومن البداية والنهاية وضح جليا ان «للموردة» دور أخطر من مجرد غسل الملابس والصحون.

كوبرى أبو العلا وهل بناه إيفيل ؟ !

مشروع الحفاظ على ذاكرة مصر الهندسية

بقلم : د. فتحى صالح

مدير المركز القومى لتوثيق التراث الحضارى والطبيعى

فى مغامرة لامثيل لها فى البحث عن أصل كوبرى أبوالعلا والوصول إلى حقيقة من الذى قام بتصميمه وبنائه، وما إذا كانت هناك علاقة بالمهندس جوستاف إيفيل الذى بنى برج إيفيل، يتوصل كاتب هذا المقال بالاشتراك مع آخرين إلى العثور على كنز هندسى بدار الارشيفات الهندسية بمدينة ليون بفرنسا به حوالى ٦٠٠ لوحة هندسية أصلية لستة كبارى بمصر أنشئت فى أوائل القرن منها كوبرى أبوالعلا ويجيب هذا الاكتشاف بشكل قاطع على كل هذه التساؤلات.



كوبرى أبو العلا يوم افتتاحه

البحث عن كوبرى أبوالعلا (الحقيقة والخيال):

منذ كنت طالبا في الستينات أعد رسالة الدكتوراه في باريس وأنا شغوف باستكشاف المعالم المختلفة بباريس، وكان أحد هذه المعالم التى تعتبر رمزا لباريس هو هذا البرج العالى الذى بناه المهندس الفرنسى المشهور جوستاف إيفيل فى أواخر القرن الماضى، وذلك بمناسبة احتفالات مرور مائة سنة على الثورة الفرنسية وكذلك بمناسبة المعرض الدولى المقام بباريس فى حدائق مارس أمام المدرسة الحربية، وعند زيارة هذا البرج من أى مواطن مصرى فإنه يتبادر إلى ذهنه علاقة هذا البرج بكوبرى أبوالعلا فى مصر والأسطورة التى تقول: إن الذى بنى أو صمم هذا الكوبرى هو المهندس إيفيل وأنه عندما فشل فى فتح الكوبرى أقدم على الانتحار، ولكن أول ما يسترعى النظر عند زيارة برج إيفيل بباريس هو وجود هذا التمثال النصفى للمهندس إيفيل بجوار البرج، وكعادة الفرنسيين عندما يضعون تمثالا كهذا يضعون تحته بعض المعلومات والتى تفصح فى هذه الحالة عن اسم صاحب التمثال وتاريخ ميلاده وتاريخ ووفاته، ويا للمفاجأة بالنسبة لى عندما شاهدت هذا التمثال، تقول المعلومات المصاحبة له : إن إيفيل ولد عام ١٨٣٢ وتوفى عام ١٩٢٣ أى أنه عاش ٩١ عاما، السؤال الذى تبادر فى ذهنى فى ذلك الوقت هل يمكن لمهندس عمره ٩١ عاما أن تطلب منه دولة أن يقوم بتصميم كوبرى وأن يفشل وأن ينتحر؟؟ علما بأن هذا الكوبرى تم إنشاؤه فى الفترة من سنة ١٩٠٨ إلى سنة ١٩١٣ .

وظل هذا السؤال فى ذهنى منذ ذلك الوقت إلى أن عدت إلى باريس بعد ثلاثين عاما فى التسعينات كمستشار ثقافى وجاءت الفرصة عندما اتصل بى صديقى المهندس إبراهيم محلب نائب رئيس مجلس إدارة شركة المقاولون العرب والتى كلفت بإنشاء كوبرى جديد ليحل محل كوبرى أبوالعلا وكذلك القيام بفك كوبرى أبوالعلا، وصارت تساؤلات كثيرة مرة ثانية.

- هل هذا الكوبرى بناه حقا جوستاف إيفيل؟.

- هل هذا الكوبرى له قيمة تاريخية خاصة؟.

إتصل المهندس إبراهيم محلب ليطلب منى مساعدتهم فى الرد على هذا التساؤل ومن هنا بدأت القصة.

قصة ثلاث مدن (باريس - ليل - ليون):

عندما اتصل بى المهندس إبراهيم محلب نائب رئيس مجلس إدارة شركة المقاولون العرب وكان ذلك فى شهر أكتوبر ١٩٩٦ لمساعدتهم فى الرد على هذه التساؤلات بخصوص كوبرى أبوالعلا طلبت منه أن يمدنى بأية معلومات أو خيوط أبدأ منها البحث فى هذا المجال، فأفادنى بأنه أثناء تفتيش أعمدة الكوبرى

المذكور، وجد على أحد الأعمدة علامة مكتوب عليها «فيف ليل - Fives - Lille» وكان أول احتمال تعطيه هذه الكلمة أنها ربما لها علاقة بمدينة «ليل Lille» التى تقع فى شمال باريس بحوالى ٢٠٠ كيلومتر وهى منطقة صناعية اشتهرت فى أوائل القرن الحالى بصناعة المنشآت المعدنية وخاصة الحديدية، ولما كنت على اتصال بالسيدة دمينيك فالبيل Dominiquee Valbelle أستاذة المصريات فى جامعة (ليل - ٣) فقد انتهزت فرصة دعوتى لحضور معرض ومؤتمر عن حفريات شمال سيناء بجامعتها لأطلب منها مساعدتى فى موضوع كوبرى أبوالعلا فكلفت مساعدتها السيدة/ بريجيت جراتيان Bregitte GRATIEN بإجراء الاتصالات اللازمة فى هذا الموضوع فقامت السيدة بريجيت بإجراء لبعض الاتصالات لتصل إلى الشخص المسئول عن مثل هذه المعلومات وهى مدام Debove وأنها عندها معلومات عن بيانات كوبرى أبوالعلا المنشود وقامت بتوجيه خطاب لى بهذا المعنى بتاريخ ٢٥ نوفمبر ٩٦ والذى يفيد بالتالى:

- أن هناك شركة كانت قائمة فى هذه المنطقة فى أوائل القرن باسم فيف ليل Fives - Lille

- أن هذه الشركة انتهت أعمالها منذ وقت وتم تصفيتها لتصبح جزءا من شركة أخرى تحت اسم - Fives - Cail Babcock فيف - كاى - بابكوك.

- أن الأرشيفات الهندسية للشركة التى تم تصفيتها آلت إلى أرشيفين، عامين الأول - Centre d,Archives du) (Monde de Travail CRoubaix مركز أرشيفات أماكن العمل بروبية.

والثانى - Archives departe-mentales du Rhone - Lyon الأرشيف المحلى لمنطقة الرون/ ليون.

وروبية هذه مدينة قريبة من «ليل» بينما ليون Lyon مدينة فى الجنوب الشرقى من باريس على بعد حوالى ٥٠٠ كيلومتر.

إن الأرشيف يحتوى ليس فقط على لوحات كوبرى أبوالعلا وإنما على كبارى أخرى بالقاهرة.

فقمنا بمراسلة السيدة Debove والتى ردت علينا بخطاب ومرفق معه بعض المستندات والتى مؤداها:

- أن هناك دراسة تمت حديثا فى عام ١٩٨٩ قامت بها الآنسة Catherine LONGET وذلك كجزء من تدريبها على تصنيف الأرشيفات الهندسية وأرفقت جزءا من الدراسة والتى تخص كبارى القاهرة والتى تبين منها أن الأرشيف يحتوى على رسومات الهندسية الخاصة بكل من:

- كوبرى أبوالعلا.
- كوبرى الزمالك (امتداد أبوالعلا).
- مشروع كوبرى قصرالنيل.
- مشروع كوبرى الجلاء (الكوبرى

الأعـــــــمى) Pont prov BAHR AAMA.

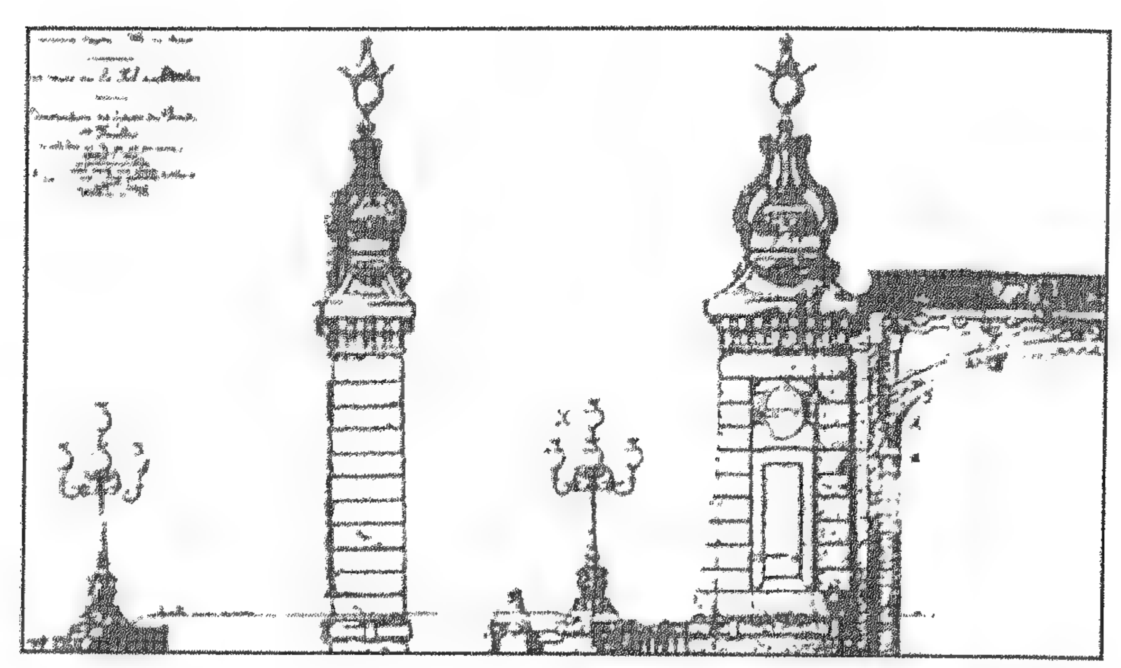
- تعلية كوبرى السكة الحديد بإمبابة EMBABEH.

- كوبرى المنصورة.

بناء على هذه المعلومات، قمنا بمراسلة الهيئتين المذكورتين فكان الرد من الهيئة الأولى بأنه ما يوجد عندهم هو سجلات فقط للرسومات الهندسية لهذه الكبارى وأرسلوا لنا صورة ضوئية لهذه السجلات وكان رد الهيئة الثانية بمدينة ليون بأن عندهم الرسومات الهندسية الأصلية وإنه يمكن الإطلاع عليها طرفهم.

الزيارة: (الكنز المفقود):

مدينة ليون تعتبر إحدى المدن الكبرى فى فرنسا بعد باريس وهى تعتبر عاصمة المنطقة الشرقية، وتوجد فيها جامعة عريقة وهى جامعة ليون وبها قسم مشهور للدراسات الشرقية والإسلامية وكذلك بها قسم لعلوم المصريات يرأسه العالم الأثرى الكبير جويون GOYON، وتصادف أن دعانى البروفيسور جويون لحضور مناقشة رسالة عنده بالجامعة فالتقيت به وبإحدى الدارسات المصريات المتوعدات فى علم الآثار، وتدعى جيهان زكى وهى تقوم بإعداد رسالة الدكتوراه تحت إشرافه وإشراف الأستاذ الأثرى العظيم الدكتور/ جمال مختار وهى أم لطفلتين وتقوم بمساعدة كل زملائها من الدارسين المصريين بمدينة ليون فى حل مشكلاتهم نظرا لتمكنها من اللغة الفرنسية واتصالاتها العديدة، استأذنت السيدة جيهان للحضور معى للأرشيف المحلى لمدينة ليون نظرا لمعرفتها للطرق بمدينة ليون ولعلاقتها بالأشخاص هناك، وذهبنا إلى مبنى الأرشيف معا وهو يقع فى حوارى ضيقة فى منطقة جبلية فى ضواحى ليون تكاد تمر بها السيارة بصعوبة كبيرة، ووصلنا إلي الأرشيف وطلبنا من المسئولين الإطلاع على الأرشيف الخاص بشركة Fives - Lille والخاص بكبارى القاهرة فأعطونا اهتماما خاصا وقاموا بتجهيز صالة بمنضدة كبيرة وضعوا عليها الألبومات التى تحتوى الرسومات الهندسية، ولا يستطيع أحد أن يصف شعورنا عندما وجدنا هذا الكنز الكبير - مئات من اللوحات الهندسية فى حجم يتراوح بين (٥٠ سم × ٧٠ سم) حتى (١,٠٠م × ١,٥٠م) داخل ألبومات قديمة مربوطة بشرائط من ثلاثة جوانب، وتقول جيهان: إن إحساسها وهى تقوم بفك هذه الشرائط يشبه جدا إحساسها وهى تتعامل مع أربطة الموميات، نفس الإحساس الأثرى، بدأنا نطلع على الرسومات، إنها حقا مقبرة توت عنخ آمون الهندسية، لوحات عليها كلها ختم شركة Fives - Lille وموقع عليها من المسئولين بمصر فى هذا الوقت، وكل لوحة مؤرخة بتاريخ رسمها وهى تقع كلها فى العقدين الأولين من القرن العشرين، والرسومات غاية من الدقة وغاية من



تفاصيل لأعمدة مدخل كوبرى أبو العلا

التفصيل، منها حوالى ٣٠٠ لوحة لكوبرى أبوالعلا وحده.

وقد نتج من فحص هذه اللوحات مفاجآت عديدة، فالمفاجأة الأولى أن الذى صمم كوبرى أبوالعلا هى شركة «فيف ليل» وليس المهندس جوستاف ايفيل ولكن أكثر من ذلك وهو أن الجزء المتحرك من هذا الكوبرى والذى تدور الشائعات بأن المهندس إيفيل عندما فشل فى إدارته أقدم على الانتحار فإن هذه الشائعات غير صحيحة حيث أنه ثبت من خلال فحص اللوحات المذكورة أن شركة فيف ليل لم تقم بتصميم هذا الجزء، وإنما أوكلت التصميم إلى شركة أخرى وهى شركة «شيرزر» الأمريكية ومقرها مدينة شيكاغو.

كما كانت المفاجأة الثالثة أن العديد من هذه اللوحات يحمل إمضاءات من الجانب المصرى لشخصيات مصرية مرموقة على رأسها إسماعيل باشا سرى الذى ظهر إمضاءه على لوحات كوبرى الزمالك وكذلك توقيعات رئيس هيئة الطرق والكبارى على لوحات كوبرى إمبابة.

وبعد قضاء حوالى ثلاث ساعات مع هذا الكنز قمنا بتسجيل ملاحظاتنا العامة على هذا الكنز الهندسى.

وعدت إلى باريس لأقوم بالاتصال بصديقى المهندس إبراهيم محلب لإخباره بما وجدناه والذى قام بدوره بالاتصال بالمهندس إسماعيل عثمان رئيس مجلس إدارة الشركة لإخباره بالنتائج والذى بدون تردد طلب منا الحصول على هذا



صورة من امضاء اسماعيل باشا سرى وزير الأشغال فى ذلك الوقت.

الكنز أو هذه الذاكرة الهندسية لمصر بأى ثمن.

فعاودنا الاتصال بالأرشيف المحلى بمدينة ليون لدراسة إمكانية تصوير هذا الأرشيف، ولكن الأرشيف اعتذر عن تنفيذ هذه الرغبة نظرا لأن اللوحات فى حالة واهية وأن حجمها أكبر بكثير من أن تستعمل بماكينات التصوير الفوتوكوبى، ولكنهم اقترحوا علينا بدلا من ذلك اسم شركتين عندهم إمكانيات تصويرية خاصة يمكن استخدامها فى تصوير مثل هذه المستندات الهندسية.

مصر - التكنولوجيا:

وقد قمت بالاتصال بهاتين الشركتين وقمنا بمباحثات فنية معهم وهى شركات تستعمل وسائل تصوير فوتوغرافية خاصة يمكن عن طريقها تصوير الخرائط الكبيرة بأجهزة تصوير دقيقة خاصة على نيجاتيف كبير فى حجم الفولسكاب بحيث يحافظ على دقة المعلومات كما يمكن أيضا ترميم اللوح فوتوغرافيا بإزالة التغييرات التى طرأت عليها نتيجة الأتربة والتهالك مع الوقت.

وقد طلبنا من الشركات عمل عينات من الصور للإطلاع على النتائج وبعد بحث هذه النتائج تبين أن إحدى هاتين الشركتين تفوق تكنولوجيا على الأخرى.

وبعد مباحثات مالية وفنية مع الشركة المتفوقة تم الاتفاق على أن يتم التصوير والطبع على ورق رسم بالحجم الطبيعى وكذلك على ورق كالك (بوليستر) وكذلك على ميكروفيش مفهرس وكذلك على اسطوانة ضوئية CD- ROM وهذه الأخيرة تعنى أن توضع جميع هذه

الرسومات الهندسية (٦٢٥ لوحة) على اسطوانة واحدة يمكن مشاهدتها على الحاسب الآلى والطباعة منها أيضا.

وسبب اختيار هذه الأوسطة المتعددة هو الآتى:

ورق الرسم العادى يسمح بالرؤية المباشرة لهذه اللوحات.

ولكن عمرها الافتراضى قصير (عشرات السنين).

ـ الكالك (بوليستر) يسمح بإعادة الطبع بالحجم الطبيعى على ورق مرة ثانية وعمرها الافتراضى أطول من الورق العادى بكثير.

ـ الميكروفيش يسمح بتخزين كل هذا الأرشيف فى حيز ضيق جدا ولكن ميزته الكبرى هى العمر الافتراضى الطويل جدا (حوالى مائة سنة).

وأما الأسطوانة الضوئية - CD ROM فهى أحدث الوسائل والتى تسمح بالتعامل بسهولة ويسر مع كل اللوحات فى آن واحد باستخدام الحاسب الآلى وهى تعتبر معجزة العقد الأخير من القرن العشرين، ولكن هناك تساؤلا عن عمر هذا الوسيط حيث أن قراءته غير مباشرة وإنما عن طريق جهاز الحاسب الآلى وأجهزة الحاسب الآلى تتغير مواصفاتها بسرعة كبيرة (فمثلا الأقراص المغناطيسية قطر ٥ بوصات التى كانت تستعمل منذ عشر سنوات اختفت الآن).

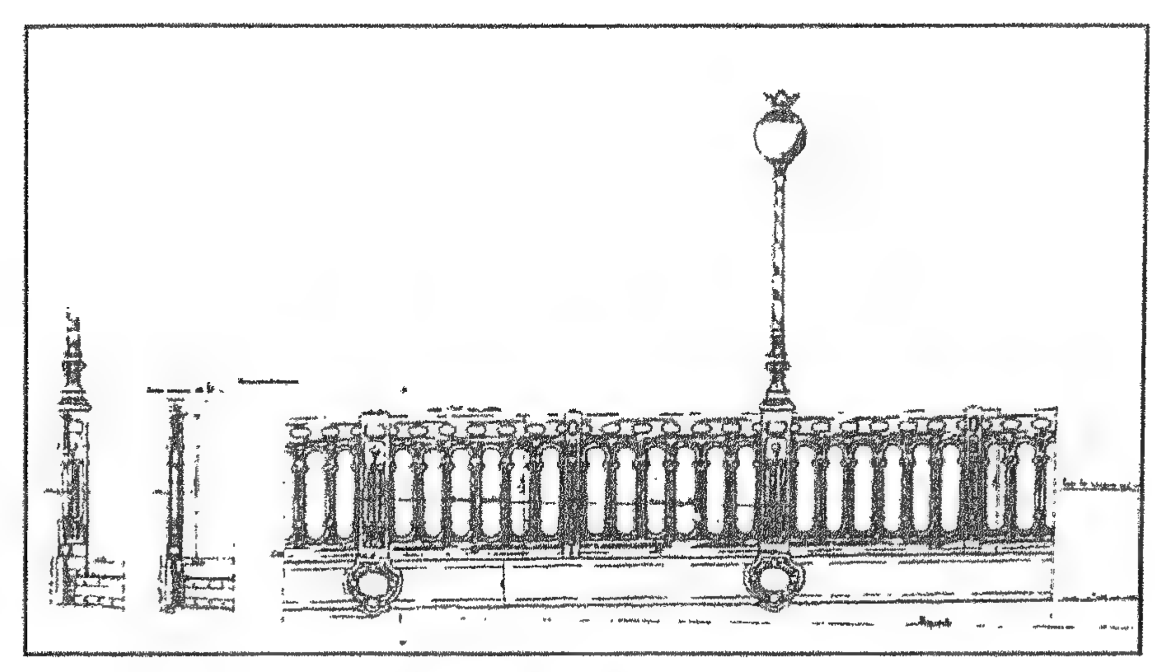
وقد أصبح هذا المشروع بتوصيفه بهذه الطريقة أول مشروع من نوعه فى فرنسا يستخدم كل هذه الوسائل لتسجيل أرشيف من هذه النوعية من الرسومات الهندسية وبهذا الحجم.

وبناء على هذا التوصيف قمنا بالاتصال بشركة المقاولون العرب لأخذ موافقتها على تنفيذ المشروع بالتكاليف وبالطريقة المقترحة والتى لم تتردد لحظة فى قبولها:

وفى تاريخ ١٢ أغسطس ١٩٩٧ تم إعطاء الأمر لشركة سيجريم لتنفيذ العمل بالصورة المطلوبة على أن يتم تسليمه فى خلال شهرين، والتى قامت بالفعل بتنفيذ العمل المطلوب على أكمل وجه.

دور الإعلام فى هذا المشروع:

وقد كان للدور الذى لعبه الدكتور أحمد يوسف الصحفى بمكتب الأهرام بباريس كبير العون فى تشجيع هذا المشروع والتعريف به أثناء فترة تنفيذه فقد قام بنشر خبر عنه فى الصفحة الأخيرة من الأهرام بتاريخ ٩٧/٨/٣، وكان لهذا النشر الجيد أن لفت نظر الكاتب الصحفى الكبير أنيس منصور الذى كان بباريس فطلب مقابلتى وعندما قابلته وسردت له القصة وعرضت عليه بعض العينات من الرسومات الهندسية لهذا الأرشيف قام بنشر الموضوع فى

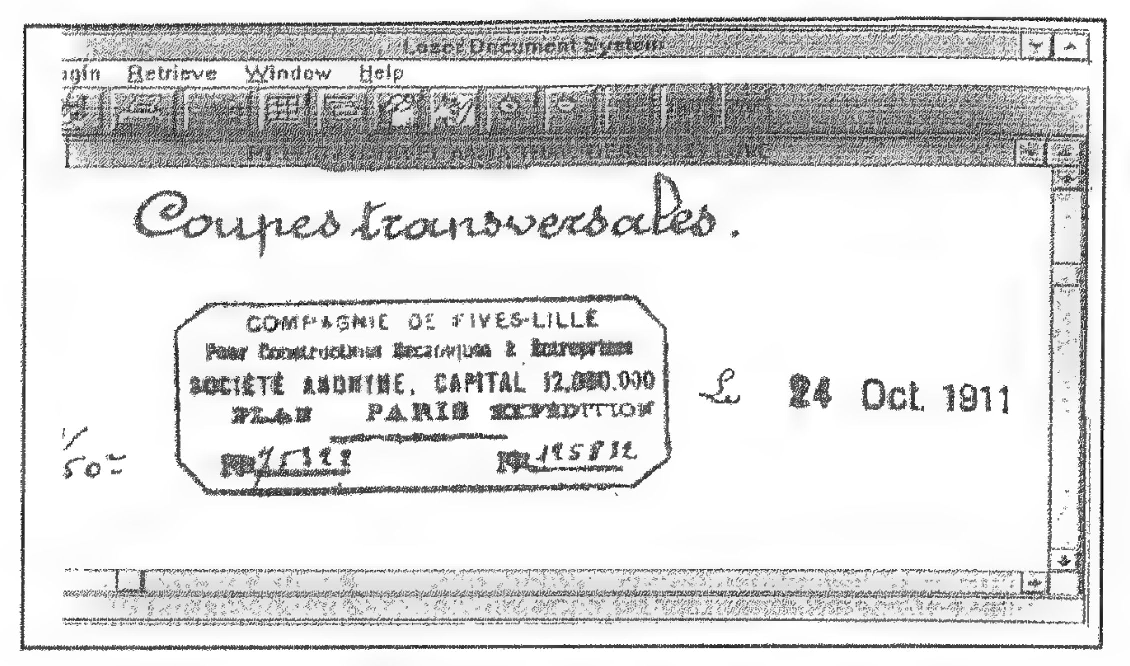


تفاصيل لسور كوبرى الجزيرة

عموده اليومى بتاريخ ٩٨/٨/١٨ كما قام بحث وتشجيع شركة المقاولون على اقتناء الأرشيف بأى ثمن، كما أنه قام فى الوقت نفسه من ناحيته باستكمال البحث فى الموضوع عن طريق اقتناء كتب عن حياة جوستاف إيفيل والتى استدل منها على أنه توفى على سريره ولم ينتحر وأنه لم تكن له أى صلة بمصر مع العلم بأن أعماله الهندسية مذكورة بالتفاصيل فى هذه الكتب، والأستاذ/ أنيس منصور يرى أن الخلط جاء من التشابه الكبير بين اسم الشركة فيف ـ ليل واسم المهندس ايفيل.

ثم قام مرة أخرى بنشر خطابى الموجه له بتاريخ ٩٧/١٢/٢٦ بعد انتهاء المشروع وتسليمه إلى شركة المقاولون العرب.

وأثناء وجودى بمصر لمرافقة السيد فيدريكو مايور مدير عام اليونسكو فى افتتاح متحف النوبة بصفتى مندوب مصر الدائم لدى منظمة اليونسكو انتهزت هذه الفرصة وقمت بتاريخ ٩٧/١١/٢٩ بلقاء السيد المهندس عادل أيوب النائب الأول لرئيس مجلس إدارة شركة المقاولون العرب والمهندس إبراهيم محلب نائب رئيس مجلس الإدارة وعدد من أعضاء الشركة حيث قمت بتسليمهم الأرشيف بالكامل مع عرض لمقتطفات منه على الحاسب الآلى وتم ذلك فى احتفال متواضع وتكلمنا أثناء اللقاء عن حلمنا بأن يصبح ذلك الأرشيف نواة لذاكرة مصر الهندسية وأن يقام على جانبه



صورة من ختم شركة فيف - ليل - المنفذة لكوبرى أبو العلا

مؤتمرات وندوات للتوعية بمحتوياته.

الدروس المستفادة:

الدرس المستفاد من ذلك أن يثار يوم ما سؤال فى مصر على كل المستويات (هل الذى بنى كوبرى أبوالعلا المهندس إيفيل أم لا) ولانجد فى البلد صاحب هذا الكوبرى أى مستند يجيب عن هذا السؤال ثم نجد فى البلد الصانعة وفى شركة انتهت وقفلت أبوابها منذ خمسين عاما ولكن أرشيفها الهندسى يتم الاحتفاظ به فى الأرشيفات العامة للدولة حتى يأتى فريق عمل من مصر بعد حوالى ٨٠ سنة ليطلع على هذا الأرشيف ويتحقق عن طريقه من معلومة، ويستطيع أن يجيب عن السؤال الحائر (هل قام المهندس إيفيل ببناء الكوبرى أم لا وهل انتحر عندما فشل فى تشغيله) والإجابة:

أولا: لا ـ ليس هناك علاقة بين إيفيل وهذا الكوبرى.

ثانيا: إن الذى صمم هذا الكوبرى شركة تدعى فيف ـ ليل.

ثالثا: إن الذى صمم الجزء المتحرك من الكوبرى (بتكليف من شركة فيف ـ ليل) هى شركة شرزر الأمريكية ومقرها فى شيكاغو.

وربما يكون فى هذا الحدث مغزى لايقاذ ضميرنا فى اتجاه الحفاظ على ذاكرتنا بصفة عامة وذاكرتنا الهندسية بصفة خاصة.



وحلم الأندلس !

بقلم : محمود أحمد

تختلف اسبانيا عن كل دول أوروبا الأخرى، على نحو يدركه المرء ويكاد يراه متجسدا أمامه. وهو اختلاف يعرفه جيدا أبناء البلدان الأوروبية الأخرى، المولعون باسبانيا إلى حد الافتتان والذين تنقل الطائرات عشرات الملايين منهم سنويا من شتى أنحاء أوروبا الباردة إلى المنتجعات الاسبانية الدافئة والمنتشرة شمالا وجنوبا وعلى امتداد شواطىء شبه الجزيرة الأيبيرية وفوق الجزر القريبة منها .

أما نحن، أبناء المشرق العربى، فإننا نتعرف على هذا الاختلاف بصورة أخرى.. هى بالتأكيد أكثر عمقا وحميمية. فرغم كل المظاهر «الإفرنجية» التى تصادف الزائر العربى فى إسبانيا، فإنه لن يخطىء أبدا ذلك الجوهر الكامن فى الأعماق الإسبانية والذى ترسب وبقى فى تراث هذه البلاد الجميلة التى استقبلت - ولا نقول خضعت - العرب الذين تركوا فيها قبساً لا يخبو .. رغم مرور ما يزيد على خمسة قرون.

وربما تكون «قرطبة» هى خير تجسيد لهذا المعنى، وأفضل تعبير عنه.

روعة العمارة الإسلامية داخل جامع قرطبة.. والمحراب الذى يعد آية معمارية ◀



ولا تبعد قرطبة عن العاصمة الاسبانية مدريد بأكثر من أربعمائة كيلو متر، يقطعها القطار الحديث السريع (AVE) في أقل من ساعتين والقطار صناعة اسبانية بحتة، ويعمل على خط مكهرب، بتكنولوجيا ابتكرتها اسبانيا وحققت فيها شهرة جذبت «زبائن» حتى في الولايات المتحدة ذاتها (تجرى حاليا دراسة مع مصر لإنشاء خط سريع يستخدم هذا النوع من القطارات ويربط الاسكندرية والقاهرة وأسوان).

أيضا، ليست هناك «فجوة حضارية» بين قرطبة وسائر المدن الاسبانية الكبيرة.. بما في ذلك مدريد نفسها. ليس فقط لأن قرطبة الصغيرة الوادعة، التي يقطنها اليوم ثلاثمائة ألف نسمة، تعتبر من أهم مراكز الجذب السياحي وترتادها - بالتالي - أفواج لا تنقطع من الزوار، وانما أيضا لأن الزائر يجد فيها المستوى ذاته من العناية بالنظافة والنظام والأناقة التي تميز المدن الكبيرة.. بل إن محلاتها تسجل أسعار السلع بالعملة الأوربية الموحدة (اليورو) إلى جانب البيزيتا الاسبانية.. كما هو متبع في كل مدن اسبانيا الكبيرة.

لكن الزائر «العربي» لن يملك إلا أن يتجاوز هذه المظاهر، السطحية نوعا ما، وأن يمد البصر والوجدان عميقا عبر القرون، استجابة لنداء أو دافع غامض، محاولا أن يصل إلى صورة - ولو متخيلة - لقرطبة التي كانت عاصمة مزدهرة للدولة الأندلسية التي يطلق عليها الاسبان اليوم «الامبراطورية الإسلامية الغربية». قرطبة تلك ، كانت تضم نصف مليون من البشر، وكانت تعد «أهم عاصمة في أوروبا على الاطلاق» كما تؤكد المعلومات التي توزع على الزوار والسائحين وخلال ذلك العصر الزاهي، كان هناك إجماع على الاعتراف بأهمية قرطبة، وبما بلغته في مدارج الرقي الاجتماعي والعلمي والثقافي ، وما حققته من مستوى في «التحضّر»، حتى أن ملوك أوروبا كانوا يرسلون أبناءهم وبناتهم للإقامة في بلاط أمراء قرطبة لكي يدرسوا ويتقنوا قواعد السلوك و«الاتيكيت» الذي كانت تفتقده قصور الملوك والأباطرة الأوروبيين.

اضافة إلى ذلك، فإن هناك نغمة لن تخطئها الأذن «العربية» في الخطاب الاسباني المعاصر تجاه الماضي الأندلسي العريق وهي نغمة دالة، تحمل في طياتها ما يشبه الاعتذار عن الطريقة التي استخدمت في طرد العرب المسلمين (واليهود) من الأندلس، وما رافق حملات الطرد من قسوة ووحشية. وربما استمع الزائر العربي، في هذا السياق، إلى مسئول إسباني وهو يردد أن «أجدادنا لم يكونوا على درجة معقولة من التسامح» ..

إلى جانب اعترافات أخرى ربما تكون لها – اليوم – دوافع براجماتية نظرا للمصالح الواسعة لإسبانيا مع العالم العربى، كما يرى بعض الدبلوماسيين العرب فى مدريد، خاصة وأن ما فات قد انتهى وأصبح تاريخا لن يعيد نفسه !.

أعلام قرطبة .. وعلماؤها

غير أنه قد يكون الأهم من ذلك أن هناك حرصا واضحا، فى الخطاب الاسبانى على تأكيد الاعتزاز بالعلماء والفلاسفة والمفكرين الذين أنجبتهم الأندلس فى تلك الحقبة.. وبالأخص أبناء قرطبة الذين تزين تماثيلهم الأماكن العامة فى المدينة وينتشر الحديث عنهم وعن انتاجهم وانجازاتهم فى الأدبيات الاسبانية باعتبارها تراثا اسبانيا جليلا.. تماما كما ينظر العرب إلى هؤلاء كأعلام فى تراثهم الثقافى أيضا :

ابن منسرة القرطبى (٨٨٣ – ٩٣١م)، وابن حزم (٩٩٤ – ١٠٦٤م) صاحب المؤلفات الشهيرة: «طوق الحمامة» فى الحب ، و«الابطال» و«المحلى» عن الحق فى الإسلام وكتاب «الفصل فى الملل والأهواء والنحل» ويركز بحثه فيه على تاريخ الأديان المقارن، وابن جبيرول (١٠٢٠ – – ١٠٧٠) صاحب «ينبوع الحياة» وهو من أعلام شعراء الأندلس، وابن باجة (١٠٩٠ – –١١٣٩) الذى أصل الفلسفة الإسلامية وحدد منهجها وتركت دراساته أثرا باقيا فى علم الاجتماع والأخلاق، وابن طفيل القادشى (١١٠٠ – ١١٨٥) صاحب الرواية الفلسفية المعروفة «حى بن يقظان» وبعد كل هؤلاء يأتى ابن رشد (١١٢٦ – ١١٩٨) الذى أطلق عليه الاسبان اسم Averroés والذى كان كبير القضاة فى قرطبة ولايزال تاريخه وانجازاته العلمية والفكرية موضع تقدير العرب والاسبان جميعا.

ولعله من المهم أن ننبه هنا إلى نقطة مهمة وهى أن هؤلاء الأعلام الأندلسيين لم يقصروا اهتمامهم على البحث الفلسفى والفقهى، ولم يتوقفوا عند دراسة الاجتماع والمذاهب الدينية والانشغال بأعمال التدريس والقضاء فقط، وإنما امتد نشاطهم العلمى والفكرى إلى «العلوم التجريبية» أيضا.. مع العناية بالبعد الأخلاقى و«الإيمانى» بالعلوم وتطبيقاتها.

يقول المؤرخ والمفكر الإسلامى المعاصر «روجيه جارودى» إنه عندما كانت قرطبة عاصمة الأندلس «أكبر مدينة فى العالم»، فيما بين القرن التاسع والقرن الثالث عشر الميلادى، وكانت بمثابة قلب العالم النابض، نشأت نظرة إلى العالم والإنسان والله مبنية على تطور شامل للعقل.. وهو ما انبثق عنه «العلم التجريبى» الذى نشر إشعاعه على أوروبا بأكملها فيما بعد





برج الكاتدرائية ـ محيط بالمئذنة

باعتراف روجيه بيكون. ويؤكد جارودى أن هذا العلم لم يكن منفصلا عن «الحكمة» - أى التفكير فى غايات البحث - ولا عن «الإيمان».. فقد كان هؤلاء على قناعة كاملة بأن الإيمان الذى ينطوى على الاعتراف بحدود العلم وبمسلماته، هو صنو العقل الذى لا تحده حدود. وينبه جارودى فى هذا الصدد، إلى أن العلم المنفصل عن الحكمة وعن الإيمان تحول ليصبح غاية فى حد ذاته، لأنه سيعتمد فى تطوره فقط على النزعة الموضعية Positi-vism .. وهى التى يصفها بأنها «رؤية مبتورة من العقل» مما يهدد بانزلاق العلم إلى مخاطر - كما حدث عند إلقاء القنبلة الذرية على هيروشيما - تقود الانسانية جمعاء إلى الانتحار !.

ويؤكد جارودى أن هذا المنحى الذى اتخذته المدارس الفكرية المتصل بعضها ببعض، والنابع من ذلك «الفهم» للإسلام فى الأندلس هو الذى أنتج ثمارا حملت قرطبة أفضلها وأروعها. ولذلك ، فإنه عندما أنجبت قرطبة والأندلس علماء، تجريبيين، فإن هؤلاء جاءوا من طراز يختلف: الزرقالى Azerquil فى الفلك الذى سبق كبلر Kepler فى وصف الكواكب ومهد له ، وأبو القاسم الزهراوى Abulcasis فى الطب والذى عرفه الغرب بإنجازاته فى الجراحة والصيدلة، وغيرهما.

الجامع الكبير

يهيمن وجود «الجامع الكبير» فى قرطبة على الطابع العام للمدينة حتى اليوم. ولا تكتمل لأى زائر للمدينة متعة الزيارة، إلا بارتياد جامع قرطبة الذى يربو عمره اليوم على الألف ومائة عام، والذى يعد من أندر تحف العمارة الإسلامية فى العالم.

وطوال تاريخه، ظل جامع قرطبة الكبير يقوم بدوره، ليس فقط كمجمع دينى، وإنما كجامعة يقصدها طلاب العلم وكمنارة ثقافية يصل إشعاعها إلى جميع أرجاء العالم القديم. وتذكّرنا كتب التاريخ بأن القسم الأساسى من البناء اكتمل على أيدى عبدالرحمن الأول «الداخل»، فى حوالى عام ٧٨٥م، فجاء استجابة لحنين دفين إلى المسجد الأموى بدمشق الذى خلفه وراءه آخر أمراء الأمويين عندما نجح فى الوصول إلى الأندلس ناجيا بنفسه من المذبحة التى أوقعها العباسيون بآخر جيل أموى. وظل هذا الحنين أو الحلم يشغل بال الحاكم الأموى إلى أن استطاع أن يجسده ببناء جامع قرطبة - أو القسم الأول منه - ثم قام خليفته عبدالرحمن الثانى بتوسيعه فيما بين عامى ٨٣٢ و٨٤٨، إلى أن جاءت التوسعة الرئيسية فى عام ٩٦١ على يد الحكم الثانى الذى ضاعف مساحة المسجد

بإضافة قسم جديد تميز بصورة خاصة ببناء قبة المسجد ومحرابه العجيب الذى يعتبر آية فى العمارة الإسلامية. أما التوسعة المهمة الأخيرة، فقد أتمها الوزير المنصور الذى تولى مقاليد الحكم فى قرطبة عندما آلت الخلافة إلى صبى تحت وصاية والدته .. وأنجزت هذه المرحلة فى عام ٩٨٧م واشتملت على اضافة ما يقرب من ستمائة عمود لرفع البناء.

تذكر كتب التاريخ أيضا أن مجموع أعمدة المسجد فى الأقسام الأساسية والاضافية بلغ عند اكتمال البناء ١٠١٣ عمودا، أخذ معظمها من معابد وآثار رومانية قديمة وأجريت عليها عمليات صقل وركبت لها التيجان لتناسب وظيفتها الجديدة في رفع الأسقف ذات المساحة الهائلة. ويبدو أن رفع هذه الأسقف كان بمثابة مشكلة هندسية واجهت المهندس الأول الذى نفذ البناء وزملاءه الذين أضافوا إليه بعد ذلك. فلم يكن من اليسير رفع السقف إلى علو متناسب مع سعة البناء وتجنب الإحساس بالضغط أو «الانسحاق» لدى من يرتاد المبنى . وقد لجأ المهندسون إلى ذات الطريقة التى اتبعت فى بناء المسجد الأموى فى دمشق: الاعتماد على أعمدة رخامية لا يتجاوز ارتفاع كل منها الأربعة أمتار، ثم اللجوء إلى طريقة «الكمرات» المتراكبة.. ولكن مع تجاوز هندسة جامع دمشق بوضع دعامات قائمة الزوايا فوق الأعمدة ثم وصلها - على الطريقة الدمشقية - بالأقواس كاملة العقد، ويؤكد المعماريون أن هذه الطريقة لم تتكرر قط بعد جامع قرطبة.

ولكن جامع قرطبة تعرض لتشويه معمارى مازال قائما حتى الآن . ذلك أنه بعد رحيل آخر الأمراء المسلمين عن المدينة، ودخول فرديناند القشتالى إليها عام ١٢٣٦ م ظهرت الدعوات المعادية لوجود هذا الأثر الإسلامى الكبير والتى تصاعدت حتى انتهت بقرار مجلس الكهنة فى عام ١٥٢٣ ببناء «كاتدرائية» فى قلب الجامع نفسه .. وهكذا كان !

ولم يقتصر التشويه المعمارى الذى لحق جامع قرطبة على البناء الرئيسى وحده، وانما امتد أيضا إلى المئذنة التى تركت على حالها ولكن بنى حولها «برج» يماثل أبراج الكنائس بطرازها المعمارى الذى كان سائدا في ذلك العصر.. ولايزال البرج قائما ، والمئذنة داخل تجويفه، حتى الآن .

ومع ذلك ، بقى الجامع قائما وصامدا إلى اليوم. ولكن أعمدته تناقصت إلى ٨٦٥ عمودا، بينما ظلت الكاتدرائية تحتل موقعها فى قلبه، وواجهت منظمة اليونسكو معارضة متكررة ورفضا عنيدا لمشروع



الكاندرائية واعمدة المسجد من ورائها



تمثال ابن رشد فى قرطبة



٨٦٥ عمودا بقيت تجسد الابداع المعمارى الاسلامى



المسجد والكنيسة فى قرطبة

أعدته لنقل هذه الكاتدرائية دون المساس بأى من تفاصيلها أو الإضرار بالبناء ليعود إليه شكله التاريخي دون تشويه. وكان هذا المشروع قد ظهر إلى الوجود، اعتمادا على الاستفادة من التجربة التى اكتسبت فى نقل آثار النوبة فى مصر عند بناء السد العالى، ولكنه بقى مجمدا حتى الآن. وربما يستمع بعض الزوار ما يشبه الاعتذار عن هذا التشويه على ألسنة بعض المسئولين الأسبان الحاليين في قرطبة.. ومضمونه أنه ربما كان هناك جانب إيجابى فى إقحام الكاتدرائية والبرج على مبنى جامع قرطبة، حيث ظل «بفضل» هذا التشويه قائما لا تمتد إليه أيدى التعصب بالهدم كما جرى لغيره من مساجد قرطبة التى كان عددها يربو على الثلاثمائة مسجد.. هدمت جميعها خلال فترة وجيزة بعد انحسار الحكم الإسلامى.

الكازار .. فييخو

من الطبيعى أن جامع قرطبة يقع فى الشطر القديم من قرطبة فى صورتها الراهنة، والتى امتد العمران فيها عبر نهر «جوادا لكويفر» فضاعف من مساحتها وإن انخفض عدد سكانها اليوم إلى نصف ما كان عليه فى أوج عزها ومجدها. ورغم التبدل الذى طرأ على المدينة فإن هذا الشطر القديم الذى يهيمن عليه وجود الجامع الكبير قائما فى قلبه، لايزال يمثل منطقة الجذب السياحى الكبير الذى تحظى به قرطبة حيث لا تنقطع أفواج السياح ليلا ونهارا، خاصة فى موسم الصيف الذى تتجاوز فيه الحرارة ٣٥ درجة مئوية فى معظم الأيام ولكن الزائر يرتاح إلى الهدوء الذى تتميز به المدينة التاريخية، والنظافة البادية حتى فى حواريها القديمة الضيقة، والتجانس المعمارى والحضرى الذى يتناغم فيه القديم والحديث فى غير تنافر أو نشاز.

ولا تزال بقايا سور قرطبة القديم قائمة تمتد فى بعض شوارع المدينة وتنال العناية الواجبة. ويمر السور ، فى أجزاء ظاهرة منه، بتمثالين أقيما حديثا.. أحدهما لابن رشد، والآخر لابن حزم ، باعتبارهما من أبناء قرطبة الأعلام الذين تعتز المدينة بهم .

ولكن جولاتنا فى قرطبة - والتى نظمت هذا الصيف أثناء حضور مؤتمر لوكالات أنباء البحر الأبيض استضافته المدينة - أخذتنا إلى واحد من المعالم القديمة التى حرص المسئولون هناك على إدراجه فى برنامج الزيارة. اجتزنا السور القديم، مارّين بتمثال ابن حزم، إلى حى كان يقع خارج المدينة بحدودها الأصلية التى يطوقها السور. ويحتفظ هذا الحى، حتى اليوم، باسمه القديم «الكازار فييخو» - أى القصر القديم - وهو يعود إلى عام



الكازار فييخو

١٣٩٩ م حيث كان قد صدر أمر ببنائه من الملك القشتيلي جون الثاني ضمن خطة لتعزيز الدفاعات العسكرية عن قرطبة بإحاطتها بأحياء سكنية خارج سورها وأبوابها القديمة . ويعتبر حي الكازار فييخو أول حي سكني مسيحي كامل يقام بعد انحسار الحكم الإسلامي عن قرطبة .. ولايزال حتى اليوم يحتفظ بتخطيطه وملامحه القديمة، فتتقاطع عبره الحوارى الحجرية القصيرة والضيقة والتى تتميز بيوتها البيضاء الناصعة والتى يلفها هدوء شديد ويخيم عليها الصمت حتى ليخيل للزائر أن الحى قد هجر بأكمله.

ولاتزال سلالات الأسر القديمة من أبناء هذا الحي تقطن البيوت ذاتها حتى اليوم وتتوارثها جيلا بعد جيل . ولأنها لم تكن عائلات موسرة فى يوم من الأيام، فقد ظلت البيوت على حالها دون تطوير: فناء داخلى مكشوف تتوسطه بئر ماء، ويصعد من منتصفه درج إلى طابق علوى واحد.. وتحيط بالفناء بطابقيه غرف منفصلة متجاورة يقطن صاحب البيت فى إحداها ويشغل بقيتها أبناؤه وأحفاده .. لكل ابن منهم غرفة له ولأسرته. والبيت مطلى باللون الأبيض من الخارج والداخل، بينما طليت الأبواب والأفاريز باللون البنى الغامق. وفى الداخل، تعلق إصص الورود والزهور على كل الجدران فتكون لوحة بديعة .. تزداد جمالا فى فصل الربيع عندما تتفتح كل الأزهار وتفوح روائحها .



حسين بيكار

فنان القيم النبيلة

بقلم : د. صبري منصور



بيكار في مرسمه

ظل بيكار يمثل للحركة الفنية التشكيلية فى مصر نموذجا فريدا قل أن يتكرر له مثيل، وقد أهلته الجوانب الفنية المتعددة التى يتمتع بها لأن يكون ظاهرة فنية وثقافية جديرة بالاحترام والتقدير، فهو لم يكتف بدوره كفنان حباه الله بالإحساس الفنى المرهف، بل امتد عطاؤه ليشمل جوانب ثقافية وفنية أخرى كان له فيها فضل السبق والريادة.

بيكار المصور الموهوب

وقد تتلمذ بيكار حين التحق بالفنون الجميلة عام ١٩٢٨ على يد الفنان الرائد أحمد صبري، ذلك الأستاذ الأكاديمي البارع، وظل مخلصا لأسلوب أستاذه فترة طويلة، ووظف هذا الأسلوب في معالجة الصور الشخصية التي أصبح أحد نجومها الكبار، وقد عكست هذه الصور بعضا من ملامح شخصية الفنان حين كان يميل إلى اختيار أوضاع بسيطة وغير مفتعلة لشخصياته، مع انتقالات هادئة للظلال والأضواء، وخلفيات لا تصرف النظر عن ملامح الوجه، أما نظرات العينين وقسمات الوجه المرسوم فكانت في معظمها محملة بالوداعة والسلام، وتشي ببعض الشجن والحزن الرهيف الذي ربما انتقل إليها من خلال روح بيكار نفسه.

ولم يمنع الإخلاص للأسلوب الأكاديمي واتباعه بدقة فناننا بيكار من الطواف ببعض الأساليب الفنية الأخرى، فقد مكنه اتساع أفقه وثقافته التي لا ترفض مبدأ التجريب من أن يكون أول من يخوض غمار المذهب التجريدي في بداية معرفته في مصر، ومع أنه لم ينفذ لوحات تجريدية كثيرة إلا أنه قد استفاد من التجريد في تخليق أسلوب فني متميز ظل بعد ذلك عنوانا عليه، واعتمد فيه على مبدأ الاختزال والتبسيط في الأشكال، وتحوير النسب الطبيعية ليضفي مزيدا من الرقة والرشاقة على العناصر المرسومة، وتجد كل ذلك واضحا في مجموعة لوحاته الشهيرة عن النوبة، ومناظر القرية المصرية المتنوعة وكذلك في التكوينات الفنية التي تتناول موضوعات مختلفة، وقد بدأ بيكار في أعماله الأخيرة ينحو منحى رمزيا معبرا، ولعل أشهرها صورته الشخصية التي جمع فيها بمهارة بين براعته في الأداء الأكاديمي في رسم ملامح الوجه وبين الحلول التشكيلية التي تقترب من التجريد الرمزي في تحليل الخلفية.

رائد فن الرسوم التوضيحية

ومن خلال رسومه التي نفذها بيكار لمجلات وكتب الأطفال وللصحافة بشكل عام فإنه قد أضفى قيمة فنية على تلك النوعية من الرسوم التي كان ينظر إليها باعتبارها تحتل درجة أدنى في القيمة الفنية، مما أدى إلى أن يعزف عنها كبار الفنانين الذين لا يريدون أن يأتي رسمهم شارحا وموضحا لأي نص مما يفقده قيمته الجمالية الذاتية، ولكن بيكار الذي كان يشغله دائما العمل على تضييق الفجوة بين الفنان والجمهور اتخذ من إبداعه لتلك الرسوم معبرا لفنه إلى الجمهور العريض، ووسيلة لتقريب الفن التشكيلي وقيمه الرفيعة لأذهان الناس البسطاء.

أما عالم الطفل الذي ولجه بيكار بحب وإيمان باعتباره رسالة ثقافية ووطنية فلقد كان فيه صاحب مدرسة فنية انضم إليها فيما بعد أجيال عديدة من الفنانين، ولقد كانت رسومه في مجلات وكتب الأطفال

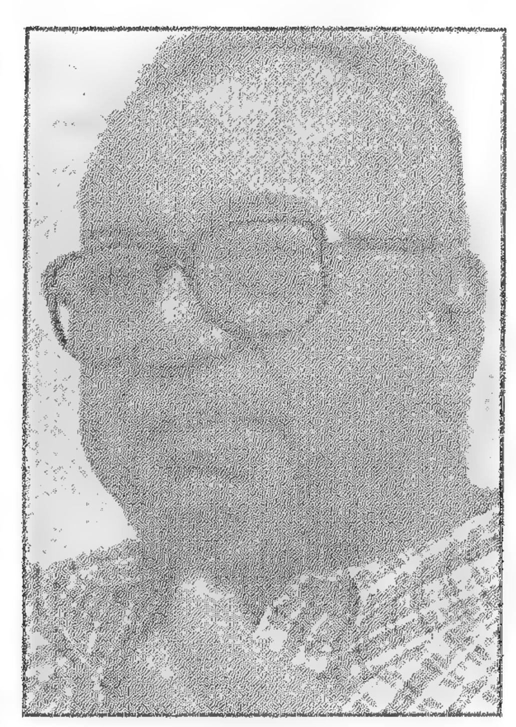
ولاسيما مجلة «سندباد» سببا عند العديد من أجيال الفنانين اللاحقة للانجذاب نحو حب الفن إبداعا وتذوقا، فخطوطه المميزة التي تتمتع بالرقة والبساطة كانت تجسد لهؤلاء عالما سحريا أخاذا يثير الخيال.

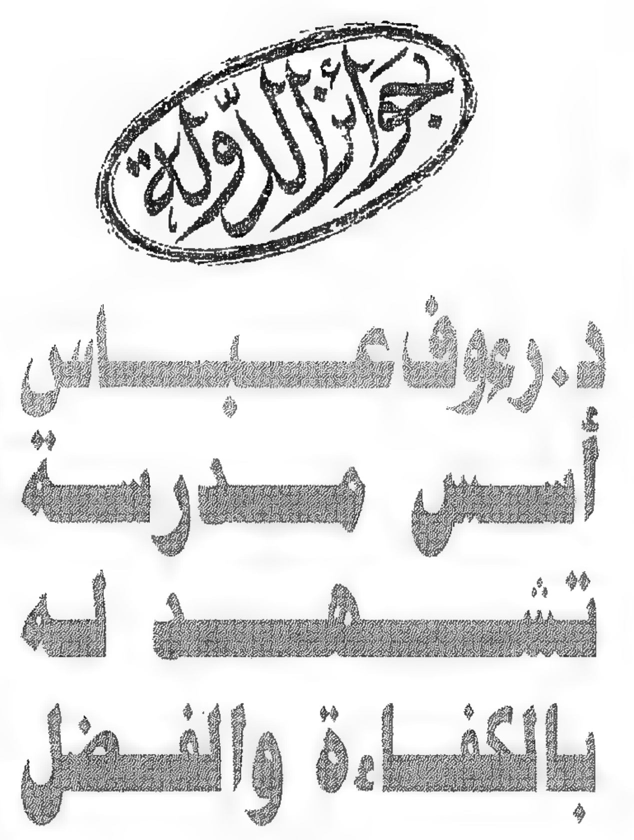
ألوان وظلال

وذلك كان عنوان الركن الشهير بجريدة الأخبار والذي واظب بيكار على تحريره يوم الجمعة من كل أسبوع، واتخذ منه منبرا يمارس من خلاله عدة أدوار، أولها دور المعلم الناصح والمرشد الأمين والناقد النزيه، وثانيها لكي يتواصل من خلاله مع الإنسان العادي أو الجمهور البسيط وقارئ الجريدة اليومية، فيمنحه جرعة ثقافية مبسطة في مجال مبهم، وغامض، ويستغلق فهمه على العديدين، وتلك رسالة نبيلة تبناها بيكار مؤمنا بأنها من أهم الوسائل لتربية ذوق الانسان العادي وجذبه نحو عالم الفن التشكيلي فيزداد تبعا لذلك جمهور هذا الفن الذي يعاني من انصراف الناس عنه، وثالث الأدوار هو دور الأديب الذي يملك ناصية اللغة والتعبير الأدبي البليغ، فلغة بيكار لغة شاعرية وكلماته ذات إيقاع وجرس موسيقيين، وقد أحسن بيكار اختيارها وتوظيفها في التعبير عن فن يصعب شرحه بالكلمات.

ولقد ظل بيكار حريصا على تحرير هذا الركن لسنوات طويلة، مواكبا لأحداث الحركة الفنية التشكيلية في مصر والعالم، متناولا بالنقد والتحليل المعارض التي تقام أسبوعيا، مقدما لأصحابها شارحا لأساليبهم الفنية للجمهور العادي، وكان الفنانون حريصين على متابعة مقالات بيكار الأسبوعية، ويندر أن تجد فنانا ظهر خلال العشرين سنة الماضية دون أن يكون قلم بيكار قد تناول أعماله . وقد تميز نقده وتحليله بالعمق والموضوعية والنزاهة، فلم تكن له يوما مجموعة بعينها يتعصب لها، أو أسلوب فني معين يتبنى الدعوة له وحده متجاهلا بقية الأساليب والاتجاهات، فقد كان حماسه للقيمة الرفيعة حين تتحقق من خلال أي اتجاه، كما كان أسلوبه المشجع وكلماته الحانية تأتي بلسما للعديد من الفنانين الذين كانوا يشعرون بالمرارة من تجاهل الوسط الثقافي المصري لإنتاجهم، كما كان عاملا من عوامل التشجيع على استمرار التجربة والعطاء الفني.

لقد جاء بيكار إبنا لجيل أحب بلاده وأخلص لها، كما كان نتاجا طبيعيا لفترة خصبة من تاريخ مصر الفني والثقافي، تلك الفترة التي سادتها الرغبة في تحديث البلاد وتطويرها وإلحاقها بركب العالم المتحضر كي تواكب أمما أخرى سبقتنا على طريق التقدم، ولقد أبلى الإبن البلاء الحسن، وقدم النموذج الرائع للفنان المثقف الذي يجب أن يكون قدوة تحتذى ، ومنارة تنير الطريق لمن يريد أن يضع لبنة في بناء التقدم والنهضة لبلدنا.





د. رءوف عباس أسس مدرسة تشهد له بالكفاءة والفضل

بقلم : د. سعيد عبد الفتاح عاشور

من بين الذين حصلوا على جوائز الدولة التقديرية هذا العام، برز اسم الأستاذ الدكتور رءوف عباس حامد، أستاذ التاريخ الحديث بكلية الآداب بجامعة القاهرة، ورئيس مجلس إدارة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية.

والدكتور رءوف من مواليد مدينة بورسعيد سنة تسع وثلاثين. شق طريقه فى الحياة الدراسية حتى حصل على درجة الليسانس فى الآداب بجامعة عين شمس سنة إحدى وستين، ثم على درجة الماجستير سنة ستة وستين، ثم على درجة الدكتوراه سنة واحد وسبعين. والملاحظ فى دراسته العليا أنه اختار جوانب من الحياة الاجتماعية فى تاريخ مصر الحديث لتكون موضوعات لدراسته، فكان موضوع الرسالة التى حصل بها على درجة الماجستير: الحركة العمالية فى مصر بين سنتى ١٨٩٩، ١٩٥٢، فى حين كان موضوع الرسالة التى حصل بها على درجة الدكتوراه (النظام الاجتماعى فى مصر فى ظل الملكيات الزراعية الكبيرة

بين سنتي ١٨٣٨، ١٩١٤).

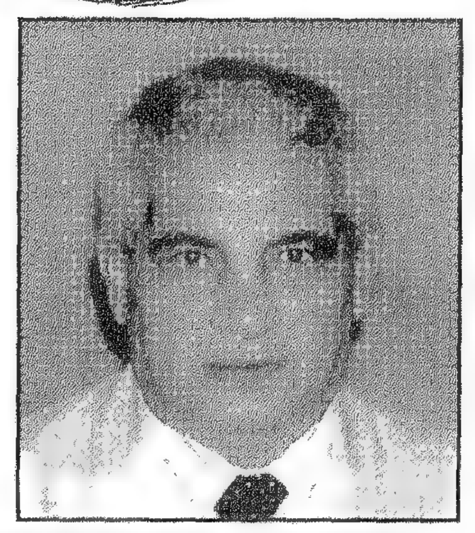
وقد استرعى الدكتور رءوف الانتباه عقب حصوله على درجة الماجستير فعين معيداً في فرع التاريخ الحديث بكلية الآداب بجامعة القاهرة سنة ٦٧، وأخذ يرتقي في سلك أعضاء هيئة التدريس حتى وصل إلى درجة الأستاذية سنة ١٩٨١. وطوال هذه السنوات كان موضع تقدير أساتذته وزملائه وتلاميذه، مما مكنه من الوصول إلى منصب رئيس قسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة القاهرة سنة ١٩٨٢، وظل في هذا المنصب خمس سنوات قدم فيها الكثير من العطاء وكان نموذجا في الاستقامة وحسن الخلق، بالإضافة إلى الجدية والأمانة مما جعله يختار لمنصب وكيل الكلية - كلية الآداب بجامعة القاهرة - حتى بلوغه سن المعاش، وعندئذ عين أستاذا متفرغا في فرع التاريخ الحديث.

وطوال هذه السنوات لم يتوقف الدكتور رءوف عباس عن الدراسة والبحث والتأليف والعطاء، فوضع أكثر من ثلاثة عشر مؤلفا في تاريخ إفريقيا الحديثة، ومذكرات محمد فريد، والحركة القومية في مصر في القرنين التاسع عشر والعشرين، ومكانة مصر في عالم حوض البحر المتوسط. وخرج إلى العالم الخارجي ليؤلف ويكتب في تاريخ اليابان وبعض التيارات الفكرية. كذلك قام بترجمة أكثر من خمسة كتب في تطور الرأسمالية، وفي يوميات هيروشيما وفي مسيرة الحركة الوطنية في مصر.. وغير ذلك. أما في ميدان البحوث العلمية. والمقالات فله العديد من البحوث التي اسهم بها في المؤتمرات والندوات العالمية والمحلية، ومنها ما تم نشره فعلا باللغات الأوربية في الحوليات ونحوها.

وهكذا لم يصرف العمل الإداري الدكتور رءوف عباس عن النشاط العلمي. ففي الجانب الأول أصلح وقوم وعدل وأضاف الجديد، وفي الجانب الثاني ابتكر وكشف النقاب عن حقائق غير معروفة، وألبس القديم ثوبا جديداً يشد الانتباه، وأقام صرح مدرسة من تلاميذه تشهد له بالكفاءة والعلم والفضل. وتدين له بحمل الرسالة، رسالة العلم لخير الحاضر والمستقبل وإعطاء السلف حقهم في بناء مسيرة الحضارة الإنسانية.

وللزميل الكريم خالص التهنئة بما هو أهل له من تقدير، ليس على المستوى المحلي الضيق، وإنما على مستوى الدولة. إنها (جائزة الدولة التقديرية).





مصر تكافئ البحث الحقيقى

دكتور قاسم والجائزة

د. حاتم الطحاوى (★)

تثبت مصر يوما بعد يوم مقدرتها على إنجاب الباحثين والعلماء والمبدعين الحقيقيين، كما تثبت أيضا أنها لا تنسى أبناءها الباحثين الذين يعملون فى صمت مهيب، ويحملون على أكتافهم هموم هذا الوطن النبيل.

وفارسنا اليوم هو الأستاذ الدكتور قاسم عبده قاسم، الذى قامت مصر بتكريمه عبر منحه جائزة الدولة للتفوق عام ٢٠٠٠م، وهو أحد أهم أعمدة المدرسة التاريخية المصرية فى الربع الأخير من القرن العشرين، وأحد الرواد الذين خرجوا بدراسة التاريخ ومناهج دراسته من قبو الكلاسيكية والتقليدية، والاحتفاء بتواريخ وأفعال الحكام، إلى آفاق أكثر رحابة، حيث التاريخ الاجتماعى والثقافى والحضرى، والتركيز على الشعوب بوصفها صانعة التاريخ الحقيقى. ولابد أن مصر قد عرفت قدره مبكرا، إذ منحته جائزتها التشجيعية فى عام ١٩٨٣ فضلا عن وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى فى عام ١٩٨٤م.

(★) الأستاذ بكلية الآداب - جامعة الزقازيق

بدأ الدكتور قاسم حياته العلمية بالغوص فى تاريخ مصر الاجتماعى والاقتصادى، فكتب عن النيل والمجتمع المصرى فى عصر المماليك، مبرزا للعلاقة (الحميمة) بين النيل والزراعة، وفضل النيل على مصر عبر فيضانه، وكذلك أهميته كطريق للمواصلات والتجارة والحملات العسكرية، كما عرج على دراسة أهل الذمة فى مصر فى الفترة الأيوبية والمملوكية موضحا عبر دراسة وثائقية فريدة مكانتهم المهمة فى نسيج المجتمع المصرى، ودورهم فى الحياة الثقافية، والتأثيرات اليهودية والمسيحية فى العادات والتقاليد المصرية، وطبيعة العلاقات مداً وجزرا بين الدولة وبينهم، علاوة على دورهم المهم فى الجهاز المالى والإدارى وأثرهم فى الحياة الاجتماعية بمصر.

وجذب التاريخ الحقيقى للمصريين فى العصور الوسطى انتباه الدكتور قاسم، فاستغرق فى مجموعة من الأبحاث اتصفت بالأهمية البالغة حول الحياة اليومية فى مصر، كذلك دور الأسواق بوصفها ظاهرة اقتصادية - اجتماعية وأثرها على الحياة الاجتماعية للمصريين، ومبينا التقسيم النوعى للأسواق وكيفية تنظيمها ، ومفردا اهتماما خاصا للباعة الجائلين، وعلاقة الدولة بالأسواق ، وأسباب تقلص دورها فضلا عن تدهور النقد وانهيار الأمن فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى، كذلك وجه اهتمامه صوب التاريخ الحرفى والحرفيين المصريين، مبينا التقسيم النوعى للحرف ، وموقع أصحابها فى السلم الاجتماعى المصرى فى عصر المماليك.

وفى الطور التالى من حياته العلمية، ازدادت شخصية الباحث نضجا لدى الدكتور قاسم، فاتجه ببصره، وبصيرته نحو أهم ظاهرة تاريخية شهدتها المنطقة العربية فى العصور الوسطى، وهى ما اصطلح على تسميتها لاحقا باسم «الحروب الصليبية» التى قامت البابوية الكاثوليكية والغرب الأوروبى بشنها على المسلمين فى الشام ومصر، فى محاولة من البابا لتصدير النزاعات وعمليات الاقتتال اليومية إلى خارج القارة الأوروبية، مستغلا حالة «الجوع إلى الأرض» التى تلبست كافة القوى الأوروبية العلمانية والدينية آنذاك. واعدا إياهم برغد العيش والاستقرار فى «أرض اللبن والعسل» وممنيا نفسه بتوحيد الكنيستين الأرثوذكسية والكاثوليكية تحت لوائه، وهو الأمر الذى أسفر عن العديد من الحملات الصليبية التى اتجهت نحو الأراضى العربية، كان وقودها كافة القوى

الاجتماعية الأوروبية (الفرسان - رجال الدين - الفلاحين والأقنان). وأطلقوا على أنفسهم اسم حجاج الرب أو جنود الرب الذين جاءوا لتحرير قبر المسيح المخلّص، والاستقرار فى تلك المنطقة إلى الأبد.

كتاب وحيد بالعربية

ونحت أبحاث الدكتور قاسم فى هذا الجانب منحى غير مسبوق، فأصدر كتابه الذى يعد الوحيد بالعربية فيما أعلم - عن الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية، متناولا فيه بالتشريح العلمى الدقيق الطبيعة العدوانية لمجتمع الغرب الأوروبى الذى انبثقت منه الدعوة للحروب الصليبية، ومحلّلا طبقاته الاجتماعية، وعارضا لفشل الكنيسة الغربية فى إنهاء الحروب الإقطاعية الدائرة هناك، وتورطها فى النظام الإقطاعى نفسه، ثم ذهاب محاولاتها أدراج الرياح فى وقف نزيف الدم المسيحى عبر إفرازها لصيغتى «هدنة الرب» «وسلام الرب».

ولم يكتف بذلك بل أصدر العديد من الكتب والأبحاث التى تناولت الحركة الصليبية بوصفها مشروعا استعماريا من قبل الغرب الأوروبى يهدف إلى كسر شوكة العرب والمسلمين، الذين وجدوا أنفسهم لأول مرة فى موقف دفاعى عن أرضهم، وذلك منذ انتهاء حركة الفتوح الإسلامية، وقامت تلك الأبحاث بالتركيز على حركة الجهاد العربى الإسلامى ضد الصليبين. والتذكير بأن تلك الجهود لم تؤت ثمارها إلا بعد نجاح صلاح الدين الأيوبى فى تفعيل محور القاهرة - دمشق. واستعادته لمدينة القدس ١١٨٧م، وهو الأمر الذى أدركه السلاطين المماليك بعد ذلك فقاموا بتوحيد مصر والشام إلى أن تمكنوا من طرد الصليبين نهائيا من عكا ١٢٩١م.

وإدراكا من الدكتور قاسم لضرورة معرفة العرب والمسلمين للأفكار والمبادئ الصليبية من منابعها الأصلية أصدر كتابا يحتوى على نصوص ووثائق الحركة الصليبية، وخاصة ما تعلق منها بالحملة الصليبية الأولى، والقراءة الأولى لهذا الكتاب تفضح كم كان الغرب الأوروبى دمويا ووحشيا فى أفكاره وممارساته تجاه المسلمين، كما أن النصوص الصليبية فى هذا الكتاب تنطق بقساوتها، وتفخر ببربريتها تجاه العرب والمسلمين. وعلاوة على ذلك قام بترجمة أحد أهم المصادر الصليبية التى واكبت سقوط القدس لدى انتهاء الحملة الصليبية الأولى، وهو المؤرخ الصليبى الشهير «فوشيه الشارترى» .

ولم يكتف الدكتور قاسم بالوصول إلى ينابيع الفكر الصليبي ، ومتابعة تداعياته المتناقضة في القارة الأوروبية، وفي الأراضي العربية الإسلامية بل اتجه بثاقب فكره إلى عقد مقارنة تاريخية بين الحركة الصليبية في العصور الوسطى والحركة الصهيونية في العصر الحديث، متتبعا الرؤية الإسرائيلية للحركة الصليبية، ومفندا دعاوى المؤرخين الصهاينة. وداحضا محاولاتهم التي تهدف إلى تضخيم الدور آنذاك ،وراصدا محاولاتهم التي ترمي إلى التعلم من أخطاء الصليبيين حتى يمكنهم تلافي ذلك مستقبلا، وهو ما قاموا بتنفيذه بالفعل عبر سياسة الاستيطان الإسرائيلي في فلسطين، التي استفادت من أسباب فشل الاستيطان الصليبي في فلسطين في العصور الوسطى.

ويستطيع القارئ المتابع لكتابات الدكتور قاسم في هذا المجال ملاحظة أنه يصف الصليبين والصهاينة بأنهم أصحاب مشروع استعماري واستيطاني واحد، وأن الصراع العربي الإسلامي معهم هو صراع وجود لا صراع حدود، وأنه يجب استنهاض كافة الهمم من أجل القيام بطردهم خارج الأراضي العربية.

وفي مجال بحثه عن الدور الحقيقي لليهود في التاريخ الإسلامي ، أصدر كتابه عن اليهود في مصر من الفتح العربي حتى الغزو العثماني، الذي قام فيه بتفنيذ آراء المؤرخين اليهود، الذين حاولوا إثبات أن اليهود كان لهم كيان قائم بذاته، ومنجزات قائمة بذاتها، وتأتي نتائج أبحاث الدكتور قاسم لتضع اليهود في حجمهم ودورهم الحقيقي ضمن نسيج مصر الاسلامية، وتثبت أنه لم يكن هناك ما يحاول المؤرخون اليهود ترويجه من وجود قومية يهودية، وشخصية يهودية، وغير ذلك من الأكاذيب.

فهم آليات الصراع العلماني

وفي محاولة جادة من الدكتور قاسم لمعرفة كنه الآخر (الأوروبي) وموقفه المعادي للعرب والمسلمين في العصور الوسطى، قام بتأليف وترجمة بعض الكتب التي تناولت تاريخ وحضارة أوروبا في العصور الوسطى، الأمر الذي مكنه من فهم آليات الصراع العلماني/ الديني في أوروبا آنذاك، ومتابعة انعكاساته وتجلياته في المنطقة العربية الإسلامية، والتي كان من أبرز مظاهره على الصعيد السياسي والعسكري ما عرف بالحركة الصليبية وعلى الصعيد الاقتصادي ما عرف بحركة النمو التجاري الضخم بين العرب والمسلمين من جهة وبين التجار الأوروبيين

من جهة أخرى، عبر استخدام مدن وموانى البحر المتوسط.

وتحتل مسألة التأثير العربى الإسلامى على أوروبا فى العصور الوسطى فى كافة المجالات، وخاصة الثقافية والعلمية منها مكانة خاصة لدى الدكتور قاسم، جعلته يقدم على ترجمة أحد أهم الكتب الأوروبية التى تنسب الفضل لأهله والتقدم للعرب والمسلمين. فضلا عن ذلك كانت له إسهاماته فى بيان تقدم التنظيم البحرى الإسلامى فى البحر المتوسط على حساب التنظيم البحرى الأوروبى حتى نهاية القرن العاشر الميلادى، والمردود الإيجابى لذلك من تفوق المسلمين فى السفن والمعارك البحرية بالإضافة إلى احتكار التجارة وعمليات نقل السلع والبضائع من موانى الشام ومصر إلى الموانى الأوروبية.

ولم يقنع الدكتور قاسم بالتجديد فى موضوعات أبحاثه التاريخية بل اتجه نحو قضايا المنهج فى الدراسات التاريخية، فكتب عن الرؤية الحضارية للتاريخ لدى العرب والمسلمين مستعرضا الفهم العربى للتاريخ والمؤثرات الإسلامية على التاريخ وتجلياتها عبر الاستخدام القرآنى لها، وتوظيفها لخدمة المسلمين والدعوة الإسلامية، كما أفرد أبحاثا مطولة عن ماهية التاريخ وعن تطور مناهج البحث التاريخى منذ أن بدأ التاريخ يحبو فى حجر الأسطورة حتى صار علما له مناهجه وفروعه المختلفة . كما لفتت أبحاثه الانتباه إلى أن تطور علم التاريخ جاء استجابة لتطور المجتمع نفسه، كما أن تطور مناهج البحث فى التاريخ لم يكن ليتم بمعزل عن تطور العلم المعرفى نفسه، وأن هناك ثمة علاقة جدلية بين تطور مناهج البحث فى التاريخ والتطور المعرفى لعلم التاريخ. وبالإضافة إلى ذلك قد توصل إلى أن المناهج القديمة ظلت موجودة إلى جانب المناهج الحديثة فى بعض الأحيان طالما أنها كانت تخدم نمطا من أنماط الكتابة التاريخية التى تلبى حاجة ثقافية - اجتماعية.

استلهام روح الشعب العربى

وبالإضافة إلى ما سبق، فقد اتجهت أبحاث الدكتور اتجاها آخر من نوع فريد، حيث كتب فى العلاقة بين الأدب والتاريخ، والفن والتاريخ، معتمدا على نصوص من الأدب الشعبى من أجل استلهام الروح الحقيقية للشعب العربى فى مصر والشام. ومن ذلك اتكاؤه على العديد من قصص ألف ليلة وليلة وسيرة الظاهر بيبرس لتبيان موقف العامة والمسلمين من الحروب الصليبية ومعرفة رد الفعل فى الشارع

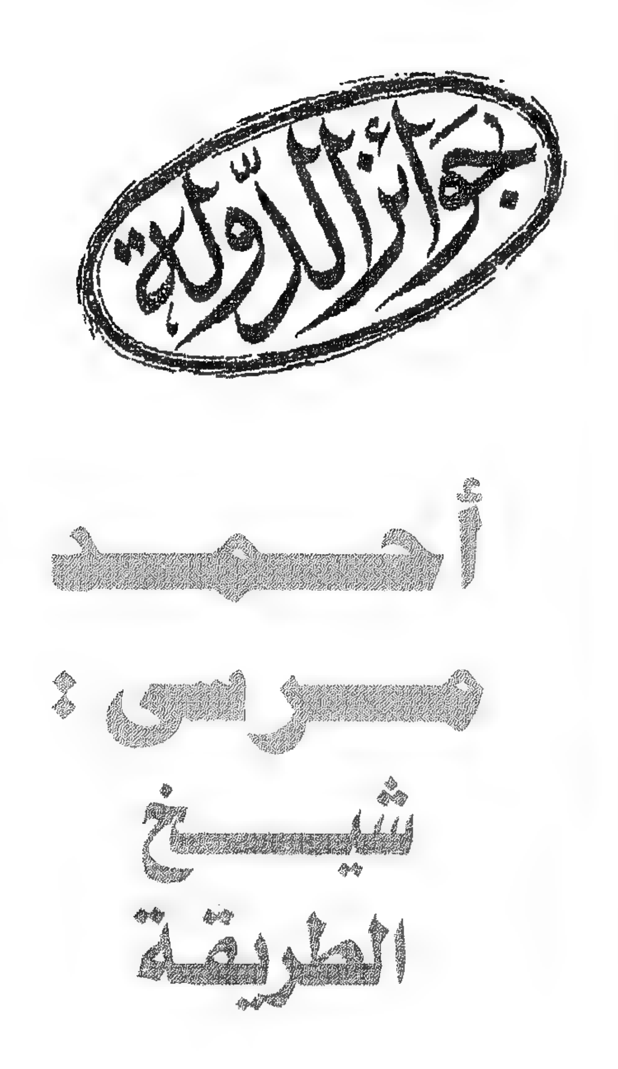
العربى على الغزو الصليبيى وعلى تخاذل الحكام المسلمين وهو ما دعاه إلى تلمس انتقام «المخيلة الشعبية» «والشعور الجمعى» للعامة من الغزاة الصليبيين والحكام المتقاعسين عن «نجدة الأوطان ونصرة الإسلام».

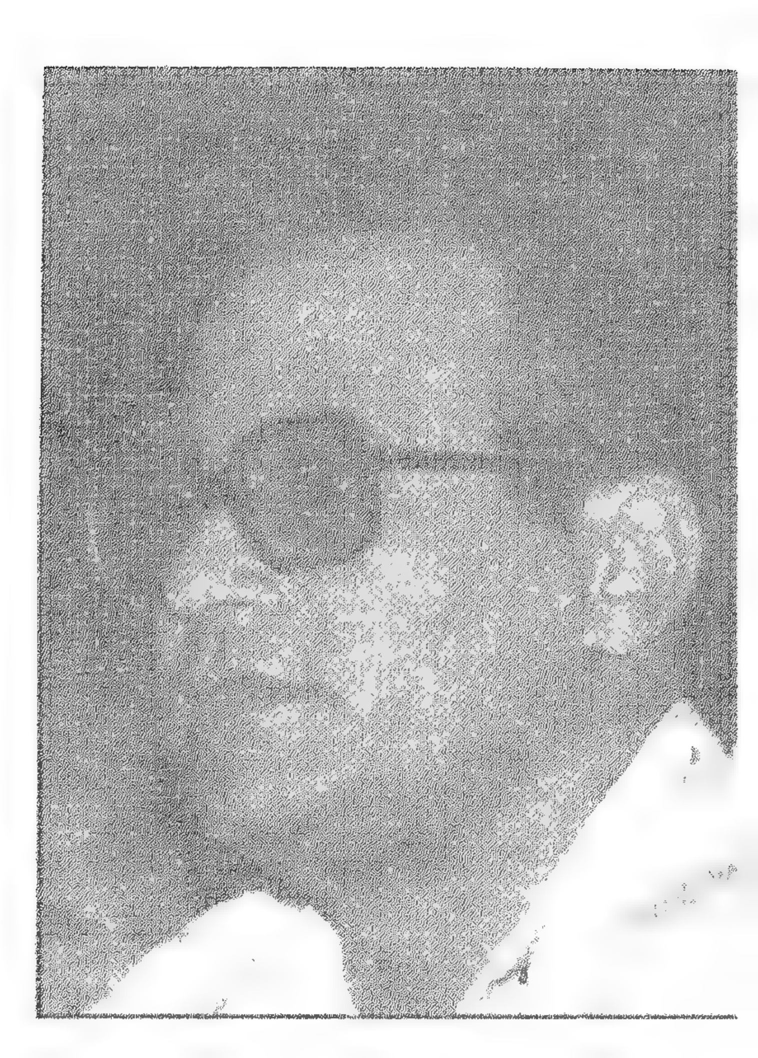
كذلك قام بتوظيف «سيرة الظاهر بيبرس» بعد تنحية عناصرها التى لا تتفق والواقع التاريخى، والتشبث بالإشارات التى تدل على الدور التاريخى الذى قام به هذا البطل المسلم ومكانته فى قلوب شعبه لاتباعه سياسة الجهاد ضد الصليبيين.

كما استطاع الدكتور قاسم أن يسير - بمهارة فائقة - على الخط الفاصل بين الأدب والتاريخ مستخرجا المادة التاريخية الحقيقية من بين ثنايا القصص والملاحم الشعبية (ألف ليلة وليلة - سيرة الظاهر بيبرس - قصة شجر الدر) مستخلصا رد الفعل الشعبى حول الأحداث التاريخية الجسام التى حلت بالمنطقة العربية. وهو إذ يفعل هذا فإنه يفعله من أجل الحصول على مادة تاريخية أصيلة من مصادر غير تاريخية، تمت كتابتها بقصد ألا تكون تاريخا، لكنه وعبر استخدامه للمناهج الحديثة فى البحث التاريخى يصل فى النهاية إلى مبتغاه، وهو: الحقيقة التاريخية.

وهكذا يبدو المشروع العلمى الرصين للدكتور قاسم بلا ضفاف، فقد اختار طريق البحث العلمى قدرا ومصيرا ، والرجل فى هذا كله متسق مع نفسه مسكون بهاجس رفعة وطنه وأمته العربية والإسلامية، والوقوف فى وجه كافة المشاريع« الأخرى» التى تهدف إلى بسط هيمنتها الثقافية والفكرية على أقدار أمتنا كما أنه آلى على نفسه - بالإضافة إلى آخرين مخلصين - ضرورة العمل جاهدا من أجل بناء مستقبل أكثر إشراقا يتسع لمصر وهى إذ تتبوأ مكانتها التى يجب أن تكون.

.. وفى النهاية فإذا كان الدكتور عبده قاسم قد قام بتصدير أحد كتبه منذ ما يقارب العشرين عاما بإهداء يقول فيه «إلى مصر.. الحب الذى نسيناه» فعسى أن تكون دعوته قد أفلحت نحو المزيد من حب مصر، وها هى مصر- مرة أخرى - تقوم بتكريم ابنها البار، وتمنحه جائزة التفوق لعام ٢٠٠٠ م.





بقلم: د. أحمد شمس الدين الحجاجي

كان أحد همومى فى عام ١٩٨٠ هو تحقيق حلم الدكتور عبد الحميد يونس فى إدخال الراوى الشعبى إلى جامعة القاهرة لتبدأ مرحلة جديدة تفتح فيها أبواب الأكاديمية على مصراعيها على فنون الشعب، كانت المتاعب كثيرة لم يخففها إلا إيمان أحمد مرسى بدور الجامعة فى حياة الناس فاستطعنا إقامة احتفال بمناسبة بلوغ الدكتور عبد الحميد يونس عامه السبعين. وكان يوما مشهودا تحلق عشاق الأدب الشعبى وتلامذة الدكتور عبد الحميد يونس حوله، وهم



يستمعون إلى الراوى الشعبى يغنى «السيرة الهلالية» فى قلب جامعة القاهرة، وفى أعمق عمقها مدرج «طه حسين» بكلية الآداب. وتكلم عبد الحميد يونس كثيرا واستمعنا، وقد أعلن يومها أنه لا يؤمن أنه خلف من بعده من يحمل رسالته سوى أحمد مرسى فهو تلميذه الوحيد الذى يعترف به. وكرر هذه الكلمة أكثر من مرة. وابتسمت: يا شيخنا إحنا هنا.. ذكر بعد ذلك أسماء كثيرة وبالطبع منها اسمى ولكنه عاد ليكرر أن أحمد مرسى هو الذى سيحمل الشعلة من بعده، وأنه تلميذه الوحيد.

كان علينا جميعا أن ندرك أن الشيخ قد اختار خليفته وأنه لا حيلة لنا من بعده فشيخ طريق الأدب الشعبى هو أحمد مرسى من يختلف على هذا عليه أن يخالف عبد الحميد يونس حيا ثم يخالفه بعد ذلك ميتا، ونحن جميعا لا نستطيع مخالفته فأحمد مرسى هو شيخ شيوخ الطريق الآن بلا منازع.

كانت بداية معرفتى به خريف ١٩٦٣ وكان حديث التخرج، اختاره الدكتور عبد الحميد يونس ليكون معيدا للأدب الشعبى وليشرف على رسالته عن «الأغنية الشعبية فى البرلس». كانت هذه البداية لطريق علم الأدب الشعبى المرتبط بحياة الناس المباشرة. الآباء الأوائل لدراسة الأدب الشعبى - كامل حسين، وسهير القلماوى، وعبد اللطيف حمزة، وعبد العزيز الأهوانى وفؤاد حسنين ومحمد فهمى عبد اللطيف، وعبد الحميد يونس - اقتحموا ميدان الأدب الشعبى فى مدوناته وكانت خبرتهم بالجمع الميدانى لم تبدأ إلا بشكل محدود، ومن هنا كانت أهمية الدراسة العامة التى قدمها رشدى صالح عن الأدب الشعبى، وجاء أحمد مرسى ليقتحم حياة الناس ويطور الدراسة الأكاديمية فى الأدب الشعبى خطوات. فقد كانت هذه الدراسة أول دراسة أكاديمية محددة بمكان معين وليصبح لقاؤه بالناس وجمعه للنصوص الشفاهية من أفواههم هو العمل الأساسى. كان أحمد مرسى يغيب فى براري الدلتا ويعود ليحكى لنا عما يحدث له، عاش بين أهله الفلاحين، فقاوم كل مشقة ونجح فى عمله، وانتقل بعد حصوله على الماجستير إلى العمل فى رسالة الدكتوراه واختار موضوعها «الأغنية الشعبية فى الفيوم».

مقدمة فى علم الفولكلور

اقتحم أحمد مرسى الصعيد بكل قسوته ومشقته وقبل أن تنتهى الدراسة، كان أحمد مرسى قد أصبح صعيديا حقيقيا ومن أبناء الفيوم، جمع بالحب مادته وأرهق نفسه كثيرا ليتعلم، ولم يتوقف عند الجمع الميدانى والدراسة النظرية وإنما ساهم مساهمة فعالة فى حركة الفولكلور مع أستاذه الدكتور عبد الحميد يونس فى إنشاء مجلة الفنون الشعبية وأصبح سكرتيرا لها ورفض الشيخ أن يكتب اسمه على المجلة. كان يريده أن يتعلم أن يعمل بلا ضوضاء، إنكار الذات شىء مهم فى العلم وقبل التلميذ رأى أستاذه وعندما حصل على الدكتوراه كان أحمد مرسى أصغر دكتور فى الجامعة، وكان عليه أن يقوم بدور فى تعريف الجمهور المثقف بعلم الفولكلور ونشر كتابا بعنوان «مقدمة فى علم الفولكلور» اهتم فيه بتحديد المصطلح الذى كثر التخبط فيه. بداية العلم تأخذ طريقها مع تحديد المصطلح وانتقل منه إلى تحديد ميدان هذا العلم ووقف عند قضية مهمة وهى تصنيف الأدب الشعبى وجمعه وقدم

الاهتمام الكبير بمؤديي الأدب الشعبي الذين اهملوا طويلا. ولم يمض وقت على هذا الكتاب حتى قدم كتيبا فى المكتبة الثقافية بعنوان «الأغنية الشعبية» كان محاولة لتبسيط العلم. وعاد بعد ذلك ليقدم مرجعا أساسيا فى العلم بنفس العنوان، دعم به ريادته لعلم الفولكلور فى العالم العربى، فى الوقت الذى كان فيه أصغر أستاذ من أساتذة الجامعات المصرية. استخرج قانون الأغنية الشعبية من غنائيات العامة والفلاحين.

دراسة الموسيقى

علم الفولكلور علم عالمي لا تستقل به أمة دون أمة فهو يحاول أن يدرس ابداع الانسان فى تلقائيته، والأدب الشعبى جزء من هذا الإبداع ارتبط بشفاهية المنطوق القولى العفوى المرتبط بجمهور المستمعين فالراوى مبدع والمتلقى مبدع ، وعندما تلقى ثقافته فى علم الفولكلور ذى الاتساع الشامل لم يقف عند حد الأخذ من الدارسين وإنما أضاف إليه رؤيته لواقع الجماعة الشعبية ورصد حركة الإبداع الشفاهى للأغنية الشعبية فى قوانينها المرتبطة بإبداعها وانتقالها الشفاهى وأسباب التغيرات التى تظهر عليها ثم توقف عند نشأة الأغنية ونموها. عملية الانتخاب والاختيار للأغنية الذى يجعل أجزاء منها تضيع لتبقى أجزاء أخرى منها تعيش مع الزمن، ثم تناول بعد ذلك الأغنية القصصية وقوانينها العامة قانون البداية والنهاية وقانون التناقض والجوانب الغنائية المتداخلة مع الجوانب القصصية فيها، تناول الشكل الموسيقى فقد أدته دراسته للأغنية الشعبية إلى أن يدرس الموسيقى دراسة علمية تساعده على معرفة قانونها وإبداعها، ثم تناول بعد ذلك الحب والزواج فى الأغنية وانتهى إلى الحديث عن الموت واختصره اختصارا بينا. ثم أنهى الكتاب بمجموعة من الأغنيات الشعبية التى جمعها ليسجل تراثا للأجيال. كان تناول أحمد مرسى السريع لأغنيات الموت أو المراثى أو العديد له أسبابه والباحث الجاد الذى حقق ريادة وقيادة في عمله فى التراث الشعبى له حياته الإنسانية التي يضرب بها المثل نموذجا إنسانيا من أروع النماذج.

قبل أن يختم أحمد مرسى عقده الثانى كان أبا لخمسة أخوة، فقد مات أبوه قبل أن تتكامل مراهقته فلم يعشها وتحول إلى رجل كبير يقود أسرته المكونة من أمه وأختين وثلاثة أخوة، ولم تمنعه دراسته من أن يؤدى واجب الأبوة لهم بحب، حتى إن من عرف أحمد فى هذه الفترة لا يمكن أن يعرفه بمفرده وانما يعرفه من خلال هذه الروح القوية المحبة. طاعة الأم فرض وواجب ومطالب الأخوة الأبناء أهم شغل له فأحسن الرعاية. وحدث فى هذه الفترة أن مرض أخوه النجومى مرضا طويلا وكان أحمد يعيش مأساة عمره. أخوه الحبيب مصاب بمرض

عضال لن يشفى منه وحاول، ولم يتوقف عن الأمل فى أن يصنع ما يمكن لإنسان نبيل أن يصنع. ومات النجومى ولم يكن الموت هو المأساة ولكن المأساة كانت إحساسه بعذاب أخيه وعجزه عن صنع شيء له. رضاء الوالدين فرض وصلة الرحم ورعايتها فرض. كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «أنا وكافل اليتيم فى الجنة كهاتين وهو يرفع يده وقد ضم السبابة إلى الوسطى». ولم يكن إخوة أحمد بالنسبة له يتامى فقد كانوا أولاده ولكن هكذا قال رسولنا العظيم صلوات الله وسلامه عليه. العمل فى الأدب الشعبى كما بدا من أحمد مرسى هو عمل فى أخلاق تراثنا وفى تدعيم قيمنا فكان المثل كباحث والمثل كإنسان. لم تتركه أزمة النجومى وكان يهرب من أغنية الموت حتى وضع كتابه «كل يبكى على حاله». قرأت هذا الكتاب مسودة منذ أكثر من ثمانى سنوات فى إسبانيا وقد دعانى وهو مستشار مصر الثقافى هناك. وجدت الكتاب يمثل خبرته بالعلم وخبرته بالتراث فتحمست لطبعه وهو متردد حتى أقدم أخيرا على طبعه ليضيف إلى التراث الشعبى قيمة جديدة.

السياسة بلا أصدقاء!

اقتحم أحمد مرسى عالم السياسة بتلقائية فريدة، فلم يكن ذلك مقصودا ولكن عمله مع الناس وهو يجمع التراث الشعبى يلتقى بالعامة من الشعب ومثقفيه ورجال السياسة إلى أن يصبح عضوا فى الاتحاد الاشتراكى. الامر الخطير فى السياسة المصرية قاله لى أحد الصعايدة، من أراد أن يخدم الناس فلا مفر له من العمل مع الحكومة، والناس لها احتياجات يومية ولا يمر يوم عليه دون أن يأتيه فلاح أو صعيدى يطلب حاجة، وهو لا يتوقف عن المساعدة وقضاء الحاجات لكل من طلب عنه.

هذه الحركة التى يتحركها من أجل الناس جعلت منه عضوا بارزا فى الاتحاد الاشتراكى وواحدا من مسئولى الشباب، وعندما جاء أحمد إلى العمل لمدة عام أستاذا زائرا فى جامعة هاربر استقبلته وكنت يومها أستاذا فى جامعة بنسلفانيا قلت له «إنك ستضرب من الكثير من زملائك فلا تتعجب حين تجد ذلك عندما تعود. فالسياسة بلا أصدقاء والساسة لا أصدقاء لهم»، فلم يصدقنى. وعاد أحمد مرسى فوجد ما قلته قد حدث فى غيبته.

واستمر أحمد بعمل بلا توقف مؤمنا بدوره مع الناس متجاهلا أخطاء من أخطأوا حتى التقى بالرئيس السادات. كانت علاقته به علاقة فريدة. لقد فقد والده فى صغره فرآه فى مقتبل العمر ورأى فيه أباه، وأحبه الرئيس السادات ورأى فيه ابنا له، وامتدت علاقة الحب حتى اغتيل الرئيس السادات فكانت مأساة أحمد مرسى. لقد مات أخوه الحبيب النجومى والآن يموت الأب الحبيب والقائد. بكاه أحمد مرسى بكاء الابن لأبيه، بكاء الوفاء والاخلاص ولم يخف حبه وإخلاصه له، وجدت بعض القوى المتنكرة الفرصة

لتستخدم هذا الحب ضده ولم يكن أحمد مرسى طاقة الحب المشعة ليتنكر للسادات الآب الذى حقق - مهما تكلمنا عن الأخطاء - شيئين ستفخر بهما مصر انتصار أكتوبر المجيد، والمنابر التى فتحت أبواب الديمقراطية فى مصر والتى لن تغلق أبدا. لقد أقنعت أحمد أن يرشح نفسه عضوا لاتحاد كتاب مصر فنحن فى حاجة إليه ولم أدهش وأنا أرى الرسائل ترسل لأعضاء الاتحاد ومكالمات تليفونية لهم تنال من أحمد مرسى وتضع عليه كل المسالب السياسية لتوقف من انتخابه عضوا فى الاتحاد ولم أهتم، ولم يهتم أحمد. كنت أعرف أن هذه الانتخابات ستقول كلمتها فى صف أحمد مرسى فكان أن وقف الأدباء معه واختير عضوا فى اتحاد كتاب مصر ولم توقف كلمات العداء حب الناس له.

مناجم حب

الباحث لا ينفصل عن الإنسان والرجل فى علاقته بحبه لأسرته لا يمكن أن يكون متفوقا فى دائرة الحب، لقد كانت فى أعماق أحمد مرسى مناجم حب وزعها بلا تردد على كل من اقترب منه فكانت عالم اشعاع لاينقطع. ولأعترف الآن أنى عملت فى ميدان الأدب الشعبى هاويا من خلال احساسى بصدقه فهو بالنسبة لى رائد متميز دفعنى للعمل فى السيرة الشعبية ولم يتوقف عن الحديث عن عملى، وعندما أهديته كتابى «النبوءة بالبطل فى السيرة الشعبية» لم أهده إلا للفلاح الذى تعلمت منه.

وكنت أقول له أنا هاو للأدب الشعبى ولا علاقة لى به، فكان يبتسم فى سخرية: «إنت بتضحك علينا». يعرف أحمد مرسى أنى ابتعد عن عالم الادب الشعبى فلقد رأيته يعانى الأمرين منه. كان حلم أحمد مرسى أن ينشىء معهد الفنون الشعبية واستطاع أن ينشئ هذا المعهد الذى يمثل ركيزة لحلمه فى تكوين جيل من الشبان الذين يحملون مشعل العمل الشعبى والجمع الميدانى. والغريب أن هذا المعهد الآن بلا عميد. وشيخ الطريقة موجود. ما أكثر ما يمكن أن يقال عن أحمد مرسى وما أكثر ما يمكن أن أقول أنا شخصيا عنه حتى عند الحديث عن الاختلاف، اختلفنا كثيرا، فهو من برارى الدلتا المطلة على البحر الأبيض المتوسط وأنا من مجاهل الصعيد فى عمق الصحراء قرب الجبال بكل حدتها وقسوتها، اختلفنا فى السياسة ولكنه أعطانى الحرية فى الاختلاف، وأعطيته أنا أيضا الحرية فى هذا الاختلاف حتى رأيى أن الأدب الشعبى يجب أن يوضع فى عالمنا الحديث جزءا من شفاهية «الأدب العربى الحديث». هذا الاختلاف الذى يجعل للحب قيمة. وهذه الكلمة ليست تهنئة بجائزة التفوق، ولقد رأيته متفوقا منذ زمن بعيد، الجائزة متأخرة ولكنها جاءت. إنها تحية لصديق، لفلاح يعرف معنى الإخلاص للوطن والناس والعلم، تحية لشيخ شيوخ الطريق طريق الأدب الشعبى.

ظاهرة ثقافية*

بين الحقيقة والواقع

محمود قاسم - سويسرا

الفريد نوبل ...

ماذا كان يبقى منه لو قرر أن يوزع أمواله على الورثة ... ؟

يمكن أن يطرح نفس السؤال على العديد من المؤسسات الثقافية والعلمية ، التى وهبها أصحابها من أجل المشاريع الإنسانية العامة ، التى تتسم بصفة الدوام .

الاسم الجديد الآن هو ليدج - روڤولت ..

قد يبدو غريبا ... لكن لو راجعنا ماذا يمكن أن يقدمه للعالم الأدبى فى عدد من السنوات فسوف نكتشف أنه الوجه المقابل لنوبل .. يؤدى خدمة مشابهة ... مع الفارق فى وجه العمل ...

مليسا مرقص ، وميلينا كنيازيفا ، وليسلى ميللر ود. هـ ملحم ، وأنابورجوا مع الكاتب



الفـريد نوبل قـرر أن تمنح جـوائزه للمتفـوقين فى مـجالات إبداعيـة انسانيـة مـتـعـددة ، وليـدج - روفـولت ، قـرر أن تتحول ثرواته ، وقصره الضخم المقام فوق ربوة سويسرية ، تبدو كأنها الفردوس ، إلى خدمة الابداع الجديد ...

ففى هذا القصر ، تتاح الفرصة لميلاد ثلاثين عـمـلا أدبيـا جـديدا ، لادباء من مـختلف الأجيال ، قادمين من كل انحاء العـالم ، بصـرف النظر عن هويتـهم ، أو انتمـاءاتهم السـيـاسـيـة ، أو مـدارسـهم الفكرية...

المشروع طموح .. وجديد ... واثمر نتاجا أدبيا ملحوظا خلال السنوات الاربع الاخيرة ، لكن ما الحكاية بالضبط ... ؟

الحكاية أن ليـدج - روفـولت ناشـر ألمانى (١٩٠٧ - ١٩٩٢) قـدم للمكتـبـة عشرات الألوف من العناوين المهمـة ، من تأليف إلى ترجمـة ، وكان صديقـا لأبرز ادباء العـالم من كل الانحـاء ، وكـان له قصر ضخم فى قرية سويسرية صغيرة ،

يطل على بحيرة ليمان ، القرية اسمها «لاڤينى» ، والقصر قديم ، يعد بمثابة مفخرة معمارية ، وكان الناشر يتردد على القصر مع زوجته «چين» بين وقت وآخر...

وعقب وفاة الناشر ، قررت زوجته التى رحلت بعد فترة قصيرة من موته . أن تحول القصر إلى مشروع ثقافى ، فلماذا لا تتحول ثروة زوجها من أجل خدمة الثقافة ، هى ترى أنها بذلك ترد للكتاب فضلهم الجليل على زوجها ، فقد كسب الناشر دوما ، على حساب ما ألفه الكتاب ، والأموال الطائلة التى يحققها أى ناشر فى العالم ، ليست سوى حصيلة ايرادات ضخمة من كتب جلبت الشهرة والثراء ..

ومن هذه القناعات ، تحول القصر إلى مؤسسة ثقافية ، تديرها مجموعة من الكاتبات السويسريات ، فيما يعرف باسم «مؤسسة ليدج - روڤولت السويسرية» ... ومهمة هذه اللجنة ، هى استضافة ادباء من كل انحاء العالم ، للإقامة فى القصر ، كى يتمكن كل منهم من تنفيذ مشروع ثقافى يتمنى أن يحققه فى أفضل ظروف للتأليف ، والابداع .

حوار ساخن

تقوم الفكرة اذن على أن الكاتب يجب أن توفر له كافة الأجواء التى يحتاجها من أجل الكتابة : الاقامة المناسبة ، والوقت الكافى ، وكل ما يتطلبه الاديب من استقرار كى يبدع ...

ومن أجل أن تصبح التجربة عالمية اسوة بما تقيمه مؤسسة نوبل ، فإن مهمة اللجنة هى نشر اعلان فى العديد من الصحف العالمية ، ولدى المؤسسات المختلفة ، تطالب الادباء التقدم بأفكارهم الجديدة ، والتى يودون كتابتها فى أجواء مناسبة ، وتفحص اللجنة اعمال الكتاب السابقة ، مما يتطلب مجهوداً لاختيار الكاتب الحقيقى ، حيث يشترط فى المقام الأول أن يكون متقنا لاحدى اللغتين الانجليزية ، أو الفرنسية ، ويفضل أن يكون مقروءاً بهاتين اللغتين بدرجات مختلفة .

وبعد الفحص الدقيق ، يتم اختيار ثلاثين كاتبا ، لدى كل منهم مشروعه الذى يمكنه أن يكتبه ، أو أن يبدأ فيه خلال فترة الاقامة .. يتم تقسيم هؤلاء الادباء إلى خمس مجموعات ، تفد إلى «لاڤينى» السويسرية . كل مجموعة منها تمثل ستة أدباء ، عليهم الاقامة فى غرف سبق لادباء كبار أن اقاموا فيها بنفس القصر يوما ما ، ومنهم البيركامى ، وارنست هيمنجواى ، وويليام فوكنر ، وفلادمير نابوكوف ، وروڤولت نفسه .

ومن اللحظة الأولى لوصول الكتاب ، يبدأ العمل بشكل مكثف ، فأمام كل واحد منهم فترة من الزمن ، عليه أن يقدم فى نهايتها ، تقريبا ، نموذجا من مشروعه ، فى ندوة ثقافية ، تحضرها مجموعة كبيرة من المثقفين ، ورجال الصحافة ، والاعلام، الذين يأتون من المدن السويسرية المجاورة ، ويقطعون مسافات طويلة ، من أجل هذا الملتقى الفكرى .

اذن ، فالقصر المسمى «بيت الأدباء» ليس منتجعا يذهب إليه الكاتب للنزهة ، أو السياحة ، بعيداً عن أهواء بعض



الكاتبة المصرية فوزية أسعد تدير الندوة الختامية

الكتاب الذين يرددون أحيانا : الكتابة حالة مزاجية ....

فالغريب أنه منذ الساعات المبكرة من الصباح ، وبعد تناول المشروبات الساخنة، يختفى الكتاب ، كل فى غرفته ، ولساعات طويلة ، من أجل انجاز عمله أو مشروعه الذى يحلم به ، ومن وقت لآخر ، قد يلتقون هنا أو هناك ، يتبادلون التحيات ، وعندما يسأل أحدهم زميله عن أحواله ، فإن جملة واحدة فقط تتردد : «إنى أعمل».

وبالفعل فإن احساسا بالمسئولية ، والمنافسة يبدو سائداً فى المكان ، قد يلتقى الادباء ساعة الغداء السريع ، لكن الفرصة الوحيدة المتاحة يوميا للنقاش ، والثرثرة ، والجدل هى عند العشاء ، حيث تقوم كرستين مديرة القصر يوميا بإعداد وجبة العشاء ، وتبدو هذه الساعات التى يلتف فيها الكتاب حول المائدة بمثابة عمل مقدس ، يجب عليهم أن يوجدوا هناك مهما كانت الظروف ، ويجدون أنفسهم لمدة ساعتين يتناقشون ، ويتبادلون الحوار فيما يخص ثقافاتهم ، واوطانهم والعالم .

دعونى أعمل .. فى هدوء

فى نهاية الدورة الثانية ، التى عقدت بين ٢٢ يونيه و ١٢ يوليو ٢٠٠٠ ، أثير نقاش سريع حول ترتيب المتحدثين فى الندوة الكبرى التى تقام فى الصالة الرئيسية للقصر ، واقترحت احدى الكاتبات أن يتم ترتيب إلقاء الكلمات وفقا

للحروف الهجائية أو حسب الجنسيات ، لكن كاتبا قال :

- نحن هنا مجتمعون باسم الكلمة ، وليس بصفة كل منا يحمل هوية «مدونة» فى بطاقته أو جواز سفره ...

هنا صارت «كلمة الابداع» هى التى ينادى بها الشخص قبل هويته ، وعقيدته ووطنه ، فقد جاء كل منهم باعتباره «كاتبا» وما يجمع هؤلاء جميعا هو الكتابة، والكلمة بشكلها الصادق الجميل..

فى هذه الدورة ، الثانية لصيف عام ٢٠٠٠ ، جاء ستة كتاب من أنحاء متفرقة من العالم ، منهم ثلاث امريكيات ، وروسية ، وهندى ، ومصرى ...

وقد بدا الشعر متسيداً فى هذه الدورة ، ولعل ذلك كان نوعا من المصادفة، وتجىء أهمية هذا الأمر فى أن الشعر العالمى يعانى من انحسار ملحوظ ، ويواجه الشعراء فى كل الاوطان حالة من الاهمال ، والتجاهل ، والمشكلة التى يعانى منها الشاعر فى كل انحاء العالم ، لا تختلف فى حدتها ، فالناشرون لايتحمسون كثيراً لنشر الشعر والسبب ببساطة أن اقبال القراء عليه قد أصبح بمثابة الموضات القديمة ، لا يقترب منها الناس الا كنوع من الترفيه غير المطلوب .

وبالنسبة للشعراء الذين جاءوا من الولايات المتحدة ، وروسيا ، والهند ، فإن أعمالهم المنشورة قليلة للغاية ، وكل منهم يعتمد فى حياته على وظائف أخرى ، أو انشطة كتابية مختلفة ، فالناشر الامريكى مثلا لا يتحمس لطبع اكثر من ألفى نسخة من أى ديوان جديد ، خاصة أنه يعرف أن الديوان سيظل موجوداً فى الارفف لمدة طويلة .

هؤلاء الشعراء هم هارى هار قايشفاف (الهند) ، وهو كاتب شعبى شفاهى وتحريرى ، يسكن على مسافة سفر ٣٦ ساعة بالقطار من نيودلهى ، ولشعره مذاق خاص ، وله مكانته لدى البسطاء الناطقين بلغة الهند ، كما أنه كاتب سيناريو لافلام تسجيلية عن عادات أهل منطقته .

أما د . هـ ملحم ، فهى شاعرة امريكية ، امها لبنانية ، وقد أصدرت العديد من الاعمال عن حياة امها بين سوريا ، ولبنان ، واليونان ، والولايات المتحدة ، وقد ورثت عن هذه الام الكثير من العادات الشرقية ، وطعمت شعرها بالكثير من المفردات اللغوية العربية ، وقد بدت فى قصائدها التى ألقتها فى الحفل الختامى للملتقى شديدة القوة بتعبيراتها ، واصرارها على مداومة الحياة ، ومن أعمالها «البقاء حبا» و «أشعار لك» .

الشاعرة الامريكية ليسلى ميللر (٤٥ سنة) تعمل استاذة الادب الانجليزى فى جامعة مينسوتا ورغم أنها حصلت على أكثر من عشر جوائز فى الشعر ، إلا أنها تعانى من نشر اشعارها البالغة العقلانية مع هذا العالم المجنون . ومن أعمالها «كان لها رجل بالأمس» و «قف للحب» .

ومن احضان شعر ليرمنتوف ، ويوشكين تولد شعر الروسية مارينا كنيازيفا وهى تردد :

انتم ، أيها الصيادون ذوى الأعين

الرقيقة

أنتم ، ايهـا الوحـوش ذوى القلوب الطيبة

أنتم ، ايهـا الذئاب ذوى الاهداف السـاذجة

انتم ، يا مراسى الروح

لن تسرقوا منى الزمن

ولا الأفكار

وقد بدت احـتـفـاليـة الشـعـر فى بيت الادباء هذه المرة ، كنوع من الاحـيـاء لفن أنجب عـباقـرة العـصـور فى كل اللغـات ، فـصـار غـريـبـا فى عـصـر الانتـرنت ، والاليكترونيات ، لكنه لا يزال يجد فرسانه والمتحمسين له ، ويؤمنون ببقائه إلى الابد، مـادام الانســـان قـادراً على النطق ، والاحساس بالمشاعر الصادقة .

أمـا الامريكيـة مليسـا مرقص ، فـهى اسـتـاذة الادب الفـرنسى فى الجـامـعـات الامريكية وقد اهتمت فى السنوات الاخيرة بتـرجـمـة الابداع الروائى الجـزائرى، والعـربى المنشـور بـاللـغـة الفـرنسـيـة ، فـتـرجـمت أعـمـال كل من نيـرا نبـراوى ، ومليكة مقدام ، وتعكف الآن على ترجـمـة رواية «مـصـرية» ، لفـوزية أسـعـد ، التى ترجـمـتـهـا روايات الهـلال منذ ثلاث سنوات.

وحسب البومات القصر ، فـإن أدباء عـديدين قـامـوا بزيارته ، والابداع فى اروقته طوال السنوات الخمس الماضـيـة ، ابتـداء من عـام ١٩٩٦ . أى أن اكثـر من ١٥٠ عـمـلا جـديدا ، بين دواوين ومسـرحـيـات، وروايات ، قـد خـرجت من جدران هذا القصر ، فى انحاء مختلفة من العـالم . وبلغـات عـديدة ، وأن الكثـير من هذا الابداع قـد ظهـر فى بلاده ، والكثـير ايضا سيقرؤه الناس فى الفترة القادمة .

أى أن تفرغاً خـاصاً قد منحه القصر، من أجل الخلق الجديد »، وكما أشرنا فى البداية ، فـإذا كـانت مؤسـسـة نوبل تمنح جوائزها لمن انجزوا ، فإن مؤسسة ليدچ تتيح فرصة الانجاز . وهناك بيتان للكتاب يحـمـلان نفس الاسم والهـدف، الأول فى سويسرا ، والثانى فى الولايات المتحدة ، وإن كان هذا الاخير يعطى نفس الفرصة لمن يكتبون باللغة الانجليزية .

وخـلال السنوات الخـمس ، لم يذهب إلى بيت الادباء سوى أربعة كتاب عرب من أجيـال مخـتلفة . وعلى رأسـهم الناقد والمتـرجم ابراهيم فـتـحـى ، والروائيـتـان نعمات البحيرى ، ونورا أمين ..

بيوت مصرية للإبداع

ولعل ما رأيناه فى هذه التجربة ، يتيح لنا المقارنة بتجارب مصرية ، فلا شك أن نظم التفرغ للكتابة فى مصر ، أقرب فى هدفـهـا العـام إلى هدف هـذه المؤسسـة . لكن السـؤال هو : مـاذا لو تحـولت بيـوت الأدباء الكبـار المطلة على النيل إلى تجربة مماثلة ، عالمياً ، وعربياً . طوال ايام العام بـدلا من أن تـتـكـدس بـالمـوظـفـين ، واشباههم ، ومنها قصر «عائشة فهمى» ، وبيـوت طه حـسـين «رامـتـان» ، واحـمـد شوقى (كرمة ابن هانىء) .

اعتقد أن الاجابة ستسفر عن حصاد رائع ومختلف تمام .





طه حسين ينتظر!!

بقلم : محمود بقشيش

الفنان «عبدالهادى الوشاحى» من أبرز نحّاتى مصر الآن - بإجماع آراء النقاد المصريين - وقد جمعتنى به صداقة عميقة امتدت من أيام الدراسة، كان زميلى فى الدفعة التى التحقت بكلية الفنون الجميلة سنة ١٩٥٨ وتخرجت فيها سنة ١٩٦٣، وكشفت بداياته عن موهبة تعرف طريقها إلى النضوج والتميز، وأذكر أنه حصل على الجائزة الأولى فى النحت سنة ١٩٦٠ وكان وقتها طالبا فى السنة الثانية، فى صالون القاهرة الذى كانت تنظمه جمعية محبى الفنون الجميلة فى مجالىْ: النحت والتصوير، وكان من بين الذين تفوّق عليهم «الوشاحى» فى ذلك العام عددٌ من أعضاء هيئة التدريس فى كلية الفنون الجميلة، كانت قيمة الجائزة خمسين جنيها، وكان ذلك المبلغ الزهيد الآن ضخما بمقاييس الماضى، فلكيا بالقياس إلى الظروف الاقتصادية العسيرة التى كنا نعانيها ونحن طلبة، والأهم من ذلك كله هو الأثر النفسى والفنى الذى تركته الجائزة على أعماله اللاحقة حتى اليوم.

كان تمثاله الفائز وعنوانه «البرد» تعبيرا دقيقا، ليس عن حياته الشخصية فقط، بل كان تعبيرا عن حالة أصدقائه وزملائه (وكان أكثرهم قد قدموا من قرى ونجوع مصر)، كان تمثاله تجسيدا لمعنى الاغتراب والعوز، يتجلى فى هيئة إنسان شديد النحول، يكاد ، شدة نحوله أن يشعرنا بأنه يحاول الاختباء تحت جلده، ولا تزال تماثيله - حتى اليوم - تنفر من مظاهر الترهل، وكان على إدراك مبكر بأن وظيفة الأعضاء الإنسانية فى الواقع غير وظيفتها فى العمل الفنى، لهذا كان يأخذ منها ما يعينه على تكثيف الحالة التعبيرية والجمالية التى يهدف إليها. وهى عندما تنتقل من الواقع إلى مجال منحوتاته تنقطع - نسبيا - عن أصلها الواقعى وتهجن - وهى فى طور التخليق - باستعارات تنتسب إلى أصول حيوانية أو حشرية : فعمله المسمى «العجلة» وهو مطروقة نحاسية ثلاثية الأبعاد، أنجزها سنة ١٩٦٩، تبدو أعضاء اللاعب وكأنها تنتسب إلى أعضاء الجراد. ألغى عامدا المشابهة مع الواقع للتركيز على «ديناميّة» تتسم بالنقاء والحيوية، فما تكاد العين تقع على هذا العمل إلا وتجد نفسها قد انجذبت إلى دوامة حركة ديمومية دائرية تجمع اللاعب والعجلة فى وحدة لاسبيل إلى قطعها أو فصل «العضوى» عن «الهندسى» أو «المشخّص» عن المجرد، وترددت نفس الاستعارات فى تمثاله الشهير «استشراف» أو «زرقاء اليمامة» عندما استعار إلى بنيتها شكل الكائن الأسطورى المسمى «الستير» Satyer الذى يجمع بين هيئة الإنسان والماعز، وترددت أصداء تمثال «البرد» بنحوله وعريه من اللحم فى تمثاله الذى اشترك به فى «صالون النحت الحديث فى الهواء الطلق» الذى أقيم بحدائق الشانزليزيه سنة ١٩٧٨ بناء على دعوة شخصية، وكان التمثال بعنوان «الخطوة الأولى» وهو من النحاس المطروق (إرتفاعه ٢٥ر٣ متر) .

الثابت والمتغير

لكل فنان كبير ثوابت تمثل فيما بينها قسماته الأسلوبية الخاصة، ويبقى من بين أعماله عمل (وقد لايكون أشهرها) غير أنه يظل علامة مهمة فى تاريخه الفنى، وأزعم أن تمثاله «البرد» هو «التمثال المفتاح» لتلك القسمات، فقد امتد تأثيره إلى غيره من أعمال «الوشاحى» التى احتفظت بحالتين تعبيريتين مختلفتين : استمرار حالة عَرَامة الانفعال وماتشترطه من تلقائية وحرية فى التعبير وتدفق فى العواطف وحرص على التأثير فى المُشاهد، أما الحالة الثانية فتتمثل فى حرصه على دقة البناء المعمارى وأناقته، صاحبت تلك العَرَامة الانفعالية إدمان فى تخليق وتوليد الأشكال بعضها من بعض ، دون أن يسقط فى عيوب الثرثرة.

يتزايد ولعه في التخليق والتوليد البركاني للأشكال في موضوع «التماثيل الشخصية» - دون أن يسقط من حسابه الملامح الحقيقية التي تميز كل شخصية عن الأخرى - فهو يتوغل داخل كتل الوجوه، في تجاويف متعددة الأبعاد، ولايكتفي بهذا التوغل الذى يجعل من الوجوه مغاور متصلة، يخترق بعضها بعضا وصولا إلى ضوء الفضاء الطبيعي المحيط بالكتلة، وعلى الرغم من استلهامه وجوه أشخاص حقيقيين، فإن ثراء التخليق المتجدد في الأشكال يجذبنا جذبا إليه، فلا نفكر في إحالة مانراه إلى مصدره الواقعي بل نتوقف لا إراديا، مستسلمين لسحره .

زيارة إلى طه حسين

زرت «الوشاحي» في مشغله لمشاهدة تمثال عميد الأدب العربي الدكتور «طه حسين»، وكان قد تعاقد على إنجازه في سبتمبر سنة ١٩٩٥ بناء على تكليف شخصي من وزير الثقافة، وبعد أن أنجزه لم يتمكن من صبه في البرونز وحوصر التمثال بمشاكل مكتبية لايتسع السياق لذكرها بعد أن أفاضت الصحف المصرية في الحديث عنها، مايعنيني الآن هو إبراز أهمية هذا العمل الفني وجدارته في أن يوضع في المكان اللائق بتاريخ «طه حسين» بدلا من سجنه الحالي داخل كتل الطين والحديد في مشغل الفنان، مثلما فعل الفرنسيون مع تمثال «بلزاك» و «فيكتور هيجو» للمثال «أوجست رودان» وكان التمثالان - خصوصا تمثال بلزاك - قد حوصر بصعوبات محورها الرئيسي الصراع بين رؤية الفنان ورأى المسئولين. وانتهى الصراع بانتصار الموهبة وانتصار حق الشعب في أن تستمتع أجياله بهذين الأثرين الرائعين .

انطباع الوهلة الأولى

تساءلت وأنا في الطريق إلى التمثال : ماذا سيصنع فناننا الكبير مع شخصية فذة مثل «طه حسين» وماذا سيصنع مع غياب بصره وحضور بصيرته، ما الذى يمكن أن يضيفه أو يحذفه لكي يصبح التمثال رسالة تنويرية لكل زواره عبر هذا القرن على الأقل إن أتيح له أن يصب في معدن البرونز.

ما إن وصلت إلى محترف الفنان حتى أمهلني بضع دقائق لضبط الإضاءة الكشافية على التمثال، وحين التقيت به لقاء الوهلة الأولى شعرت بأنني في رحاب قديس، تحيط رأسه هالة ضوئية، جاءت من دائرة قمرية، ذات أبعاد مختلفة تعلو كرسيه وتسمح بانعكاسات ضوئية: شمسية أثناء النهار وقمرية أثناء الليل حتى يبقى وجه «طه حسين» محاطا بالنور دوما.

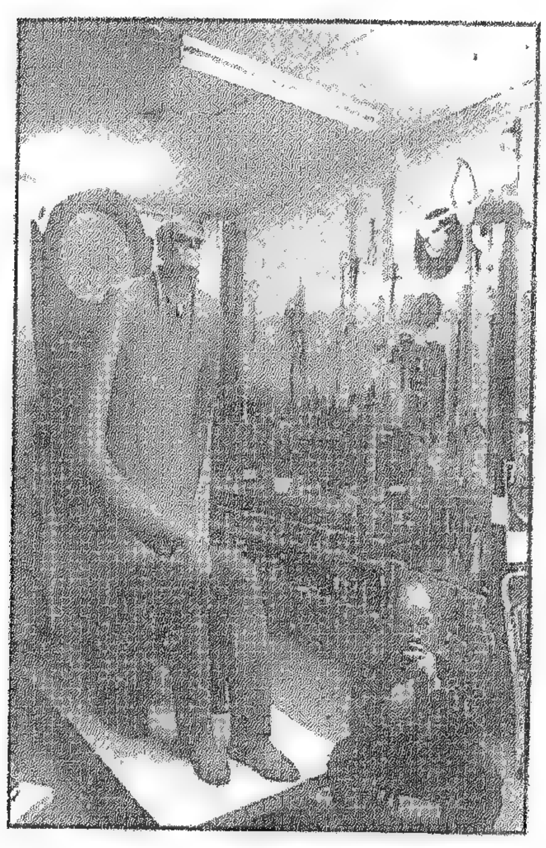
بدا لي التمثال عملاقا، نابضا بالحياة، رغم جلوسه (ارتفاعه ثلاثة أمتار بدون القاعدة) وخطوة خطوة تبينت تفاصيل الزواج الروحي بين المثال ونموذجه الذى احتل ولايزال



الفنان عبد الهادى الوشاحى

إحدى الركائز المحورية فى الذاكرة الثقافية العربية، لهذا فإن تجسيده فى شكل تمثال ميدان أو تمثال حديقة هو واجب قومى قبل أن يكون ضرورة فنية، لقد بث «الوشاحي» فى تمثاله كل أشواقه الشخصية وأشواق جيله من المثقفين نحو مستقبل أفضل، كما بثه شحنات التوتر الباطنة والظاهرة التى يعيشها الفنان.

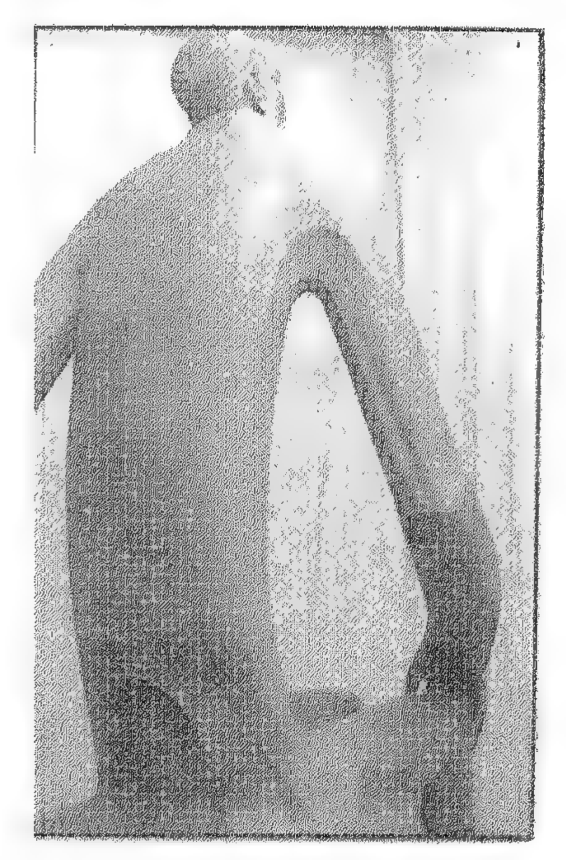
تجلىّ كل هذا بأسلوب شخصى، غير مقطوع الصلة بالطبع بإنجازات الجمالية المصرية القديمة، وإنجازات الفن المعاصر الأوربى وموصول أيضا بإنجازات الفنان السابقة من حيث الجمع، فى توازن دقيق، بين حدة الانفعال وجمال البناء، ظهر ذلك واضحا فى تنسيق العلاقات بين الكتل الرئيسية والكتل المساعدة والتجويفات الفراغية وماتعكسه من درجات ظلية وضوئية ذات إيحاءات رمزية، وضبط الإيقاع بين موحيات الحركة وموحيات



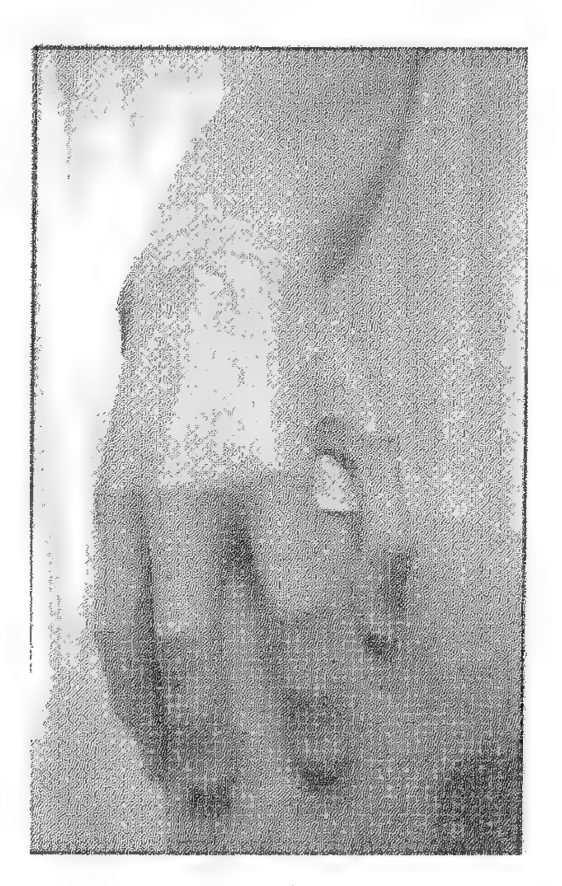
الفنان فى مشغله مع التمثال

السكون، بين موحيات التأمل العميق فى وجه طه حسين، تأكد ذلك التقابل الحيوى بين مايمكن وصفه بـ «الفعل» و«رد الفعل»: (العلاقة بين ساقى التمثال وأرجل المقعد، بين اليدين اليمنى واليسرى) ففى حين تتشبث أصابع اليد اليسرى بحافة المقعد تبدو أصابع اليد اليمنى وهى فى طريقها إلى التحرر من كتلة التمثال وكأنما يهمّ طه حسين بالنهوض لمواجهة أمر جلل.

وانتبه الفنان إلى ضرورة ألا يكون «طه حسين» مسترخيا شأن تمثال «لينكولن» - على سبيل المثال - فما يزال الطريق طويلا وشاقا لبلوغ تلك الرفاهية .



طه حسين من الظهر



تفصيل لتمثال طه حسين

البصر والبصيرة

عالج «الوشاحى» موضع نظارته السوداء وعينيه علاجا فنيا بليغا، استبدل بمكانيهما مغارتين عميقتى الظلمة واخترقهما بما يسمح بتسلل ومضتين شاحبتين جعلتنا نشعر بأننا أمام مبصريتن لاترانا فقط بل ترى ماهو أبعد من وجودنا المادى، وتبدو الرأس فى عليائها شامخة، ولأنه لم يكن مطروحا فى فكر الفنان أن يكون عمله الفنى صورة مستنسخة من الواقع المباشر- شأن الأكاديميين - بل ترك نفسه لغواية المراوغات الذكية والمبالغات المحسوبة، وقد أتاحت له تلك المبالغات أن يقيم فضاء رمزيا، يقع بين الذراع الأيمن والجسد ، يشبه بوابة معبد عريق، وإذا كانت مبالغات الإطالة قد أعدت المشاهد نفسيا إلى حالة التروى والتأمل وهو فى طريقه إلى الذروة (رأس المفكر) فإن المبالغة فى تقصير النصف السفلى قد مهدت إلى استقبال حالة مغايرة هى حالة الحركة، وبإنجاز تمثال «طه حسين» يكون «الوشاحى» قد وصل إلى محطة الوصول عبر طريق فنى واحد حرص عليه الفنان منذ بداياته التى تجلت فى تمثاله «البرد» ..



محمود حميدة في جنة الشياطين الفيلم الفائز بسبع جوائز

مهرجان وأكاذيب وملائكة وشياطين

بقلم : مصطفى درويش

لو كان لى أن أختار ما أتحدث عنه لفضلت الحديث عن أمرين لا ثالث لهما، أحدهما عروض الملتقى السينمائى بالمجلس الأعلى للثقافة ، كيف بدأت متوجة بالنجاح ، ولماذا انتهت ، وشبح الفشل واقف لها بالمرصاد.

والأمر الآخر «الشرق شرق»، ذلك الفيلم الإنجليزى الذى أتيحت لى فرصة مشاهدته، وأنا على سفر ، خارج ديار مصر، فهو عندى واحد من أحسن الأفلام التى أنتجتها



إلهام شاهين واحاديث صحفية ثلاثة



آل باشينو .. شيطان رجيم



ميج رايان فى «مدينة الملائكة»

السينما البريطانية، مشاركة مع تليفزيون هيئة الإذاعة البريطانية (بى. بى. سى)، خلال العقد الأخير من القرن العشرين.

ومع ذلك فلا أتوقع، فى ضوء ما حدث لعروض ذلك الملتقى السينمائى، أن تتاح لنا فرصة مشاهدته هنا فى ربوع مصر، لا فى مستقبل قريب أو بعيد.

أما لماذا غلبة التشاؤم على توقعي، فذلك لأن «الشرق شرق» فيلم يعرض بصدق وجرأة لحياة المهاجرين الباكستانيين في بريطانيا، من خلال معاناة أسرة كبيرة ، مكونة من أب باكستاني متمسك بأهداب دينه الحنيف، وأم إنجليزية ، وسبعة أولاد (ستة ذكور وانثى).

والصدق والجرأة ، كلاهما أمر غير مستحب في زماننا .

وعلى كل، فما حال بيني وبين الحديث عما أفضله ، ثلاثة أمور :

أولها : الفوضى التي صاحبت المهرجان القومي السادس للسينما المصرية.

وثانيها : التخبط في موقف الرقابة إزاء الأفلام المنعقدة بطولتها لملائكة أو شياطين.

أما آخر الأمور الثلاثة ، فهو الأحاديث الصحفية التي أدلت بها النجمة إلهام شاهين .

وأستهل الحديث بذلك المهرجان ، لأقول إنه بدأ فعالياته قبل ستة أعوام، على نحو مبشر بكل خير، غير أن بدايته هذه كانت، لسوء الحظ، خادعة إلى حد كبير.

فسرعان ما أخذ يتدهور، حتى أصبح في نهاية الأمر، مجرد تهريج رخيص يصرف صندوق التنمية الثقافية على عبثه العابث مئات الألوف من عزيز الجنيهات.

ولأن الضرب في الميت حرام، عاهدت نفسي ألا أعرض بالنقد لما يحدث في أيامه ولياليه من مآخذ جسام .

وظللت على العهد مبقيا ، لا أحيد عنه إلا نادرا، إلى أن حدث أمر، لا يتصور حدوثه ، حتى في أكثر المهرجانات بؤسا، وليكن على سبيل المثال، مهرجان «أواجادوجو» عاصمة «بوركينا فاسو» ، إحدى أفقر جمهوريات افريقيا السوداء !

فما هو ذلك الأمر الذى جنح بي إلى عدم الحفاظ على العهد؟

مساء يوم الخميس الموافق الثاني والعشرين من يونيه لعام ألفين، توجهت في تمام الساعة التاسعة إلا ربعا، إلى دار سينما شيراتون النيل ، حيث سيجرى عرض فيلم «المدينة» لصاحبه المخرج «يسرى نصر الله»، وهو واحد من الأفلام الروائية الطويلة ، المتنافسة على جوائز المهرجان.

والحق، أنني لم أتوجه إلى تلك الدار، إلا بعد دعوة من احدى المشاركات في إبداع الفيلم، أعقبها وعد منها بأن ثمة بضعة مقاعد، جرى تخصيصها لجلوس نفر من النقاد والمفكرين، وذلك بالاتفاق مع مدير الدار.

ولأمر ما، جنحت إلى تصديق وعدها، ولعل ما حدا بي إلى التصديق، رغبة جامحة في مشاهدة «المدينة»، ألهبتها قراءة مقال بقلم المفكر الفلسطيني الأمريكي «إدوارد سعيد»، أشاد فيه بالفيلم ، على نحو غير مسبوق، بالنسبة لأى عمل سينمائي مصرى، فيما عدا «مومياء» المخرج الراحل «شادى عبدالسلام».

وكم كنت ساذجا عندما لم أتسلح بالشك ، فسارعت بتصديق الوعد.

فعلى سلم دار السينما شاهدت حشدا منتظرا السماح له بالدخول .

وما هى إلا ثوان ، حتى أسرت لى صاحبة الوعد، أن جمهور حفل السادسة مساء ، حيث يجرى عرض فيلم «كلام الليل»، سيمتنع، بعد انتهائه ، عن مغادرة دار السينما، حتى يحتفظ بمقاعده، فتتاح له بذلك فرصة مشاهدة «المدينة» فيلم التاسعة مساء.

القاعدة والاستثناء

وان الأمل فى العثور على مقعد أو حتى مكان للوقوف خال، مثل أمل إبليس فى الجنة .

ولا غرابة فى هذا الذى يحدث، فهو أمر معتاد يوميا فى جميع عروض المهرجان، حيث تسود الفوضى ، ولا يلتزم أحد بالنظام إلا استثناء.

وهكذا، وجدتنى فى مأزق بعد سماع هذا الكلام تسر به صاحبة الوعد.

ولم تطل حيرتى كثيرا ، وهاأنذا أشق طريقى بصعوبة، وسط زحام غوغائى، حتى كتب لى أن أنجو، وأعود إلى بيتى سالما.

وما أن أفقت من هول صدمة معاناة الاحباط، حتى تساءلت: أيرجى أى خير من مهرجان له من العمر ستة أعوام، ومع ذلك تدار عروضه على هذا النحو البربرى، المفلوت العيار؟

وأليس هذا الانفلات بمثابة سجل ناطق ، صارخ بجميع عيوبنا التافهة والجسيمة معا، الأصيلة والدخيلة معا ، وإلى متى الاستمرار فى هذا السقوط من شاهق .. من شاهق جدا؟

هذا، وليس أدل على استمرار السقوط من انفراد فيلمين بثلاث عشرة جائزة من مجموع جوائز مسابقة المهرجان وعددها خمس عشرة، أحدهما «جنة الشياطين» ذلك الفيلم الذى حاول صاحبه المخرج «أسامة فوزى» أن يقول شيئا جادا ، فخانه التوفيق.

وكان أن أحجم الجمهور عن مشاهدته، ولا أدل على ذلك من أن إيراداته فى إحدى دور السينما لم تتجاوز أربعة وعشرين جنيها.

والآن إلى قصة الرقابة مع الملائكة والشياطين.

قبل عامين أو يزيد، ثار جدل مفتعل حول فيلمين أمريكيين من إنتاج هوليوود، أحدهما «مدينة الملائكة» من إخراج «براد سيلبرلنج»، وتمثيل «نيكولاس كيج» و«ميج رايان».

والآخر «قابل جو بلاك» من إخراج «مارتين برست» وتمثيل «براد بيت» و«انطونى هوبكنز»، الفائز بأوسكار أفضل ممثل رئيسى عن أدائه فى «صمت الحملان».

أما لماذا ثار الجدل حولهما، فذلك لأن كليهما بطله ملاك من الأطهار.

وكانت قد ثارت ضجة كبرى، قبل شهور من مجىء نسختيهما إلى برّ مصر، حول ترخيص من الرقابة بالعرض العام لفيلم «حليف الشيطان» ، وبطله «آل باشينو» فى دور شيطان رجيم.

ولأن تلك الضجة لم تثر إلا لأن البطل شيطان ، فما بالك إذا كان البطل ملاكا طاهرا.

وتهربا من تحمل مسئولياتها، عرضت الرقابة أمر الفيلمين على لجنة الرقابة العليا، المشكلة من خمسة عشر عضوا.

وفيما أتذكر، خلص أعضاء تلك اللجنة الموقرة بالإجماع إلى أن كلا الفيلمين لا مأخذ رقابى عليهما يحول دون عرضهما عرضا عاما.

ومع ذلك، جنح مدير الرقابة وقتذاك، إلى منع الفيلمين، غير عابىء برأى أعضاء تلك اللجنة، وجميعهم من صفوة المثقفين.

وتمر الأيام، وها هو ذا أحد الفيلمين الممنوعين «مدينة الملائكة» يعرض على شاشات دور السينما فى القاهرة والإسكندرية، دون أن تُثير رؤية الملائكة غضب أحد من المتفرجين.

والسؤال لماذا كان الذعر؟ ولماذا افتعلت الرقابة معارك دون كيشوتية مع طواحين الهواء؟

فإذا ما انتقلنا إلى أحاديث إلهام شاهين، وهى ثلاثة أحدها مع جريدة الحياة الغراء، والآخران مع مجلتى «الإذاعة والتليفزيون» و«السينما والناس» فسنكتشف، لدهشتنا، أنها لم تدل بها إلا من أجل الدفاع عن «جنون الحياة»، ذلك الفيلم الذى أثار بما انطوى عليه من مجون فاضح، ثائرة كل من شاهده، متزمتا كان أم متحرراً.

حق الخيانة

ومن بين ما جاء فى أحاديثها الثلاثة، وهى فى مجال الدفاع عن الفيلم أن المرأة إذا ما خانها زوجها، فمن حقها أن تخونه هي الأخرى.

وأن جنون الحياة يدق ناقوس الخطر، منذرا وداعيا إلى العودة لعاداتنا وتقاليدنا الشرقية.

وغنى عن البيان أن القول بمنح المرأة حق الانتقام من زوجها، بخيانتها له، ردا على خيانته لها، أمر لا يتفق مع الدعوة إلى العودة لعاداتنا وتقاليدنا الشرقية.

فتلك العادات والتقاليد لا ترضى بأى حال من الأحوال عن ذلك النوع من الانتقام.

وأيا ما كان الأمر فى هذا، فالسؤال المطروح هل «جنون الحياة» يدق حقا ناقوس الخطر، حسب قول إلهام شاهين.

من عجائب الوضع السينمائى المعاصر فى مصر أن أول فيلمين من إنتاج التليفزيون يجرى طرحهما للعرض العام، فى أثناء العام الأول من القرن الواحد والعشرين، كلاهما موضوعه مأخوذ عن قصة للأديب إسماعيل ولى الدين!!

وأقصد بالفيلمين «رجل له ماض»، و«جنون الحياة» وكلاهما من نوع الميلودراما الزاعقة.

عودة الابن الضال

فأحداث الفيلم الأول تدور حول ثرى مسن «كمال الشناوى»، عاد إلى أرض الوطن، بعد غياب دام ربع قرن من عمر الزمان.

ولأنه لم يبق له من العمر إلا القليل، وحاسته السادسة أوحت له أن لديه إبنة، غدر بها إثر ولادتها، إذ تركها وهى في المهد صبية، ولا يعرف من أمرها شيئا.

فقد آل على نفسه أن يكفر عن خطيئته فى حقها، بالبحث عنها، والاعتراف بها، حال العثور عليها، إبنة شرعية، حتى تؤول إليها ثروته الطائلة، التى جمعها، وهو فى الغربة، بعيدا عن الأحباب.

وفى أثناء قيامه بالبحث عن الإبنة الغالية، تعرف على الشقى «فاروق الفيشاوى»، الذى سرعان ما نعرف أنه متزوج من أربع، إحداهن الإبنة المفقودة، المنشودة «ليلى علوى».

ولغرض فى نفس كاتبى القصة والسيناريو تمكنت الإبنة ، قبل الالتقاء بالأب ، من التحرر من أسر الزوج الشقى، والعمل فى أحد الكباريهات.

فواجع بالجملة

ومع اقتراب الأحداث من النهاية الفاجعة، يكتشف الزوج أين تعمل «ليلى»، ويطعنها فى مقتل.

ويكتشف الأب الملتاع أن ابنته العزيزة امرأة سوء، أضاعها الإدمان ورصيد كبير من قضايا الآداب.

أما «جنون الحياة» فأحداثه تبدأ باكتشاف المهندسة المعمارية «إلهام شاهين» عن طريق المحمول أن زوجها «محمود قابيل» يخونها مع امرأة أخرى، أقل منها فتنة وجمالا.

ومن هنا جاء عزمها على الانتقام منه، بخيانتها له مع سائقها الخاص «كريم عبدالعزيز».

ولكن فاتها، وهى تخون، أن علاقة آثمة أخرى بين السائق الوسيم وامرأة بنت بلد شهوانية، كلما ارتوت بفحولته أجزلت له العطاء.

وتتعقد الأمور أكثر عندما يلتقى السائق الفحل بابنة أخ أو أخت «إلهام» - ياسمين عبدالعزيز - القادمة لتوها من بلاد العام سام لاستكمال الدراسة فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة.

فإذا بنا نكتشف أنها هى والسائق ، صديقا طفولة.

وما أن يتبادلا النظرات، حتى يشتعل قلباهما بنار الحب، وحتى يعقدا العزم على أن يرتبطا برباط الزوجية، لأنهما أرادا لحبهما أن يستمر طاهرا، عفيفا.

الغيرة القاتلة

ولكن فاتهما أن غيرة بنت البلد الشهوانية غيرة من النوع القاتل، ولابد أن تنتهى بحبهما شهيدا.

وختاما، ألا يحق لنا أن نتساءل ما صلة كل هذه العلاقات الآثمة بخطاب العودة إلى عاداتنا وتقاليدنا الشرقية؟!!

وأليس من المخجل أن ينتج التليفزيون مثل هذا النوع من الأفلام ، فى وقت ينتج فيه التليفزيون البريطانى أفلاما ذات رسالة مثل «الشرق شرق».

وفى وقت تجيئنا فيه من مصنع الأحلام فى هوليوود أفلام مناهضة لفساد الشركات الاحتكارية مثل «إيرين بروكوفيتش» و«الدخيل»، وأفلام أخرى فاضحة لألوان العنصرية فى المجتمع الأمريكى مثل «العاصفة» و«التاريخ الأمريكى الممنوع» الفيلم الذى اختتمت به عروض الملتقى السينمائى بالمجلس الأعلى للثقافة، وكانت به خير ختام.



(الشاطر حسن)

قصة :
أحمد السيد عوضين

لا تدرى ما الذى أيقظها . رغم أنها لم تكن قد نامت إلا ساعتين حاولت أن تستأنف النوم، إلا أنها لم تفلح ، اضجعت فى سريرها لتتفرج على التليفزيون، فلم تجد فى جميع البرامج ما يجذبها، فاستبدلت به الراديو، وراحت تدير المؤشر يميناً ويساراً، دون أن تتوقف عند أى محطة.. أغلقت الراديو، وأحكمت الغطاء، وراحت تسترخى فى محاولة للعودة إلى النوم، غير أن المحاولة لم تفلح .. ضاقت بسريرها، فنهضت جالسة ، وأوقدت نور الغرفة. واجهتها صورتها فى المرآة : ملفوفة الرأس ، حبيسة المشابك ، ضايقها ما وشت به نظراتها من إرهاق واكتئاب.. انتزعت نفسها من السرير، لتجلس أمام مرآتها تفك إسار شعرها، تعيد تصفيفه، تتركه مرسلاً دون لفه أو تقييده ، ثم تمضى تعالج وجهها، فى محاولة لإزالة آثار الإرهاق، وتغيير ملامح الضيق ، واستعادة شيء من النضارة والشباب حتى تتبدّى لها صورتها مرضية تشيع فى نفسها غير قليل من الرضا ، وتعاود الاضطجاع، ولا يخذلها التليفزيون هذه المرة، إذ كان يقدم برنامجاً حافلاً، غير أنها – مع ذلك – لم تصبر طويلاً، فما لبثت أن ضاقت بالأغانى لتكرار فقراتها إلى حد الإملال. وفيما هى تهم بإغلاق التليفزيون إذا برنين التليفون يفاجئها على غير توقع، فما تعودت أن تتلقى مكالمات فى مثل هذا الوقت.. وجاءها صوت محمود – من أمريكا – يسألها عن الصحة والأخبار منطلقاً دون توقف ليخبرها أنه سوف يصل مساء بعد غد، ومعه زوجته، ضمن فوج سياحى لمدة أسبوع.. وطبقاً للبرنامج فلن يمكث بالقاهرة سوى

ليلة واحدة..! وقبل أن تتاح لها الفرصة لتسأل أو تستفسر تأتى «أوريفوار» لتصنع نهاية غير منتظرة لهذا الاتصال الذى انتهى مثلما ابتدأ مفاجئاً .

ياه ..! محمود سيأتى إليها! بعد هذا العمر الطويل، ومعه زوجته ، ثم يقول إنه لن يمكث سوى ليلة واحدة! منذ متى كان سفره؟ منذ سنوات لا تُعد، حتى موت أبيه لم يدفعه إلى العودة ليرى أمه ، وسائر الأهل ..!

ما الذى جاء به أخيراً ؟ لقد كانت أمه قد نسيته - أو تناسته - تماماً، وكان هو نفسه قد ساعد - بعدم مداومة اتصاله - على هذا النسيان. فلم تكن رسائله تزيد عن «كروت» يبعث بها فى بعض المناسبات وكانت اتصالاته التليفونية أمراً نادر الحدوث .. كما كانت أخباره - وأوضاعه - شبه مجهولة بالنسبة لأسرته .. فهل ستغير هذه الزيارة - المفاجئة - شيئا من هذه الأوضاع ؟ إنها لا تدرى وإن كانت قد ابتدأت تحس بصداع تتزايد حدته ، ويضطرها إلى البحث عن المسكنات التى تحرص - ما أمكنها - على تجنب استعمالها.

وتمثل لها محمود بجرأته وشقاوته وحبه للمغامرة ، وتتذكر إصراره على السفر - ولم يكن قد اكمل العشرين من عمره - وعدم استجابته لأى رجاء من أبويه، وقد غاظها - وقتها - ومازال يسبب لها نفس الغيظ - كلما عاودتها الذكرى - موقف أبيه الذى يكتفى بالنصح الهادىء، معقباً فى كل مرة بقوله: (وبعد ذلك.. فأنت رجل، لك حرية التصرف).. رحمه الله، كان فى غاية الطيبة والرقة - قلبه يفيض حباً ونظراته تأسر القلب.. ولكنه مضى عنها مبكراً، وتركها للوحدة والحيرة .. فالابن الآخر تزوج وتركها لوحدتها .. ويالها من وحدة طويلة عريضة..!! ورغم أن العمل يستغرق الشطر الكبير من نهارها ، كما أن صديقاتها لا يتركنها فى فراغ سوى لفترات قصيرة - إلا أن الشعور بالوحدة كان ملء وجدانها ، يغلف أحاسيسها ، ويحكم نظرتها للأمور ، وعلاقاتها مع الآخرين، حتى لتحس أنها - حتى وهى مع هذا الحشد - فى عزلة تامة ، لا تجد من تحدثه أو تتحدث إليه. فليس بين كل من تلاقى من تستطيع أن تجلس إليها - أو إليه - وتفتح قلبها ، وتنطلق فى حديثها وتتصرف فى كامل حريتها ..!

وحيدة .. وحيدة .. رغم حرصها على أناقتها، ورغم شعورها بأنها ماتزال محتفظة بجمالها ورشاقتها ، وأنها مثار إعجاب الكثيرين الذين يسعون إليها، ويحاولون الاقتراب

منها، واستضافتها، والالتقاء بها حتى لتدرك مدى ما يفتعله البعض منهم من مناسبات أو دواع لتتاح لهم فرصة اللقاء والحديث.. وهى ليست من الغفلة بحيث لا تدرك ماذا تعنيه نظرات العيون ، ورقة الكلمات ، والمبالغة فى عبارات الثناء والتقدير..!

وحيدة .. وحيدة.. حتى لو كان أصدقاؤها - وصديقاتها - عشرات وعشرات، طالما أنها لا تميز أحدهم بالذات، تشغل به فى وحدتها ، ويشغل فكرها ، وتتمثل لها - وفى نظرها - يختلفون فيما بينهم حسب خفة الدم أو ثقله، لكنهم يظلون جميعاً - فى نظرها - أفراداً تتكون منهم المجموعة المحيطة بها، القريبة منها دون أن يكون لأى منهم مكان خاص فى نظرها..!!

وحيدة .. وحيدة.. بما فرضته من قيود على نفسها ، وما غلفت به عالمها من خصوصية لا تسمح لأحد أن يطلبها فى بيتها بعد أن تأوى إليه، ولا تتيح لأى من صديقاتها دخول بيتها حتى ولو لزيارة عابرة ، إذ تضيق بمن يقتحم عليها خلوتها التى تستريح إليها متى عادت إلى البيت وانتزعت ثياب الخروج واستبدلتها بالثياب المنزلية، متخلية عن حليها وسائر ما تتزين به.. بل ومتخلية كذلك عن شعورها بالوحدة الذى لم يكن ليلازمها إلا وهى خارج البيت، فمتى عادت إليه ملأها شعور بأنها لم يتغير فى حياتها شىء حتى المرحوم زوجها تحس كأنه قد خرج فى «مشوار» وهو - بعد قليل - سيهل عليها .. بعد أن يفرغ من العمل فى مكتبه .. وما أسرع ما يواتيها النوم وهى على ثقة من عودته إليها..!!

★ ★ ★

من المطار أتاها صوته يخبرها أن الفوج فى طريقه إلى الأقصر مباشرة، وأنه لا يدرى متى ستكون عودته إلى القاهرة، وأن أحد الرفاق سيتخلف فى القاهرة، وقد عرفه برقم تليفونها، وسوف يتصل بها لمعاونته فى بعض الأمور، وانتهت المكالمة كما بدأت خطفاً دون أن تتاح لها فرصة للحديث.. أى حديث، ولو بضع كلمات. نظرت أمامها طويلاً ، غامت الرؤى فى عينيها، ملأها إحساس بأن الدنيا لا تساوى شيئاً ، أو ربما هى التى أصبحت لا تساوى شيئاً، فهل صارت هى والعدم سواء وهى تشعر بأنها لم يعد لها مكان لدى فلذات قلبها: محمود فى الأقصر، وسمير فى الخليج، وسميرة مع زوجها فى بولندا..!

ولم تجد أمامها سوى دفتر أشعارها، فيه متنفسها، ومستودع أشجانها، وانسابت عبراتها - أو كلماتها - تعبر عن الشجن ،

تتحدث عن الذكريات ، تستعيد ما مضى ..!

وتوقف القلم .. أحست بخدر يشمل جسدها، وعندما أفاقت - لا تدرى متى - كان ثمة رنين التليفون يقطع الصمت المطبق.

- من ؟ تقول مستر بسام ؟ أهلاً .. شرفت القاهرة . تريد أن تلقاني؟ محمود بعث معك رسالة لي .. حاضر . سوف أدبّر الأمر . تقول أنك تريد أن تسمع أشعاري؟ وكيف عرفت أنني أقول شعراً؟ تقول إنك أنت أيضا شاعر؟.. عربى مقيم فى أمريكا؟ لم تنس هويتك ؟ معك حق. لابد أن نلتقى.. لابد أن نلتقى.

★ ★ ★

فى حديقة الفندق، وفى ركن منعزل ، وفى ضحى مشرق، ضمت المائدة اثنين، ضمت السيدة علية : إنسانة بسيطة فى ثيابها وزينتها، وإن كانت ذات جاذبية ، تحيط بها هالة من الفتنة الهادئة التى لا يدرك جليسها من أين تأتى، وإن كان يقع فى أسرها. والضيف : الشاعر بسام، عربى متأمرك ، ربما كان فى الخمسين من عمره - أو يجاوزها بقليل - بدأ فى جلسته قلقاً لا تستقر عيناه تتحركان فى كل اتجاه ، يتحدث بيديه ، وبجسمه ، بل وبعضلات وجهه، جرىء، مقتحم، لا يتردد ، لم يكد يلتقى بها حتى انطلق فى حديث لا ينقطع ، وكأنما يواصل حديثاً كان بينهما منذ زمن لأنه فعلاً يعرفها، قرأ رسائلها إلى محمود.. كل رسائلها، بل إنه ليحفظ مقاطع من بعضها، لأنه اختارها لتنشر فى جريدته بعد أن قام بترجمتها.. وهل ينسى قصيدتها التى تتحدث فيها عما تشعر به من وحدة تصل إلى بها حد الغربة رغم أنها تعيش فى وطنها وبين أهلها وما أجمل مناجاتها لمحمود؛ صغيرها محمود ، وهو طفل يحبو ، ثم وهو يردد كلماتها الأولى التى تصافح أذنيها .. تصافحها الآن مختلطة بضحكاته البريئة - وكأن الزمن قد عاد إلى عهده الأول : (ولكن .. هل لماض أن يعود؟ هل لماض أن يعود..؟).

ويروح يردد هذه الشطرة ، ثم يتساءل : ولكن لم نريد للماضى أن يعود؟ لم نريد لحياتنا أن تتوقف عند حدث أو واقع معين ؟ لا .. لا.. أنا لا أوافقك على ذلك. وأريد لك أن تسايرينى، أن تقفزى بفكرك - وخيالك - إلى الأمام ، فكرى دائماً فى المستقبل ، لا تقبلى الأمر الواقع، بل اعملى على تغييره .. ولتكن أشعارك حلماً بمستقبل باسم جميل، مشرق دائماً.

ويتوقف قليلاً، وعيناه عليها، فى جرأة عجيبة، ثم يمضى فى حديثه : (فى الحقيقة، لم أكن أتوقع أن تكونى على هذا

القدر من الجمال والشباب.. بل والفتنة الآسرة .. أرجو أن تعذريني إن كنت قد جاوزت حدّي..).

فاجأتها كلماته، أثارت في نفسها مشاعر- وانفعالات- عديدة، ولم تدر بم تجيبه، هل تطلب إليه أن يتوقف فقد جاوز بالفعل حده؟ ولكنه ضيف.. وعليها اكرامه - ولو من أجل خاطر محمود علي الأقل- ومع ذلك، فقد وجدت الشجاعة لتخرج عن صمتها مرددة:

أشكرك.. ولكن أرجو أن تدع الحديث عني لتحدثني عن محمود.. وأين رسالته التي بعث بها معك؟

وما أسرع ما أتاها جوابه الذي كان بداية حوار طال على غير ما كنت تقدر:

- يا سيدتي: دعك من محمود، فرسالته لم تزد عن أنه قد طلب إليّ أن أحدثك عنه، وعن نجاحه في عمله، وتوفيقه مع زوجه، وأنه يعيش حياته، ولذلك فهو يرجو منك أن تعيشي أنت الأخرى حياتك، وأن تودعي أيام الوحدة، لتكون أشعارك أناشيد للحياة، وأغنيات للجمال، ودعوة للحب بأشواقه وأحلامه ومسراته ولذاته..

- ولم تنس آلامه ومتاعبه..؟

- لا.. لم أنس ذلك، ولكن لم نتوقف عند هذا الجانب، بينما الحياة تدعونا إليها، لنقطف الزهر، ونسعد بالحب، ونتغلب على الألم بالعيش في رحاب الجمال؟؟ أقول الحق: إنني لا أجد سبباً واحدا يدعوك لاعتزال الحياة..

وقد أثارتها هذه العبارة الأخيرة.. فاندفعت تقول:

- ومن قال لك ذلك؟ إنني أعيش حياتي.. وأنا راضية عنها وعن نفسي. كل ما هنالك أن الشوق للأولاد يغلبني في بعض الأحيان.

وفي استطراد مضى يقول دون أن تفارق حديثه نبرة الهدوء.. ودون أن يرفع عينيه عن جليسته:

- لماذا لا تسلمين بأن الأولاد قد انفصلوا عنك، صارت لكل منهم حياته.. وأنا.. أنا لا أرضى لك - كما لا أرضى لنفسي - الوحدة.. لا أرضاها لكلينا..

وقد أدهشتها كلماته، وقدرت أن الوقت قد حان لإنهاء هذا الحديث، فبادرت تنظر إلى ساعتها، ثم تسأله عن برنامجه في القاهرة، ومتى يحضر محمود من الأقصر..

وكأنما أدرك غرضها.. فسارع يفتح حقيبته ليقدم إليها «ألبوماً» بعث به محمود إليها، وهو على ثقة من أن هذا الألبوم هو خير رسالة تحكي لأمه كل شئ، وربما كانت قراءة الألبوم أمراً ضرورياً يسبق لقاءهما بعد أربعة أيام بالتمام والكمال.. ووقف ومدّ يده مصافحاً

وكلماته تسبقه:

- وعلى كل لنا لقاء.. وآمل أن تكونى قد وصلت إلى قرار.. وإلى لقاء.. أوريفوار.. ولم يفتها أن تلاحظ- وهى تصافحه- ما كانت تشى به نظراته من معان، وما كان يتردد على شفتيه من كلمات لم ينطق بها وإن وصلت إلى سمعها صريحة وواضحة!

★ ★ ★

ماذا أصابها، ومن يكون هذا الطارق المجهول؟ وهل يعدو لقاؤها به أن يكون لقاءً عابراً جرى مصادفة؟ ومن ثم فان عليها أن تنسى حديثه.. كلماته.. بل كل ما جرى فى لقائها معه.

وامتدت يدها إلى الدفتر الملقى أمامها إلى المنضدة، والتقطته، ومضت تقلب فى صفحاته: إنه دفتر أشعارها.. وأخذت عيناها تطالعان العناوين والكلمات.. ما هذا؟ «ليلة محمومة».. «القمر المظلم».. «يوم كالح».. «النفس، وما تكره..».. ياه..! حقاً.. إن بسام لمحق.. فلم كل هذا السواد واليأس؟ ولم الحياة مع كل هذه الأحزان؟ بل ولم الاستسلام لها وفى الحياة الكثير مما يدعو إلى الابتسام..؟

وانتشلها رنين التليفون مما هى فيه.. وجاءها صوت محمود هذه المرة رقيقاً منعشاً يفيض رقة وحناناً، ليطلب إليها أن تحادث زوجته: اميلى.. وهيأت نفسها لسماع حديثها بلهجتها «الأمريكية» التى يصعب فهمها لمن لم يعش فى أمريكا.. فإذا بها تستمع إلى كلمات عربية مفهومة إلى حد كبير، وتتبادلان التحية لتستكمل الأم حديثها مع محمود الذى يحدد لها يوم عودته، وأنه سيعود يوم الخميس مساءً، وسينزل مع الفوج فى الفندق، وأنه سوف يحضر إليها هو وزوجته للغداء فى اليوم التالى.. ويتوقف قليلاً قبل أن يسألها عما إذا كان فى الإمكان أن يصطحب معه ضيفاً، ولا يسع الأم إلا أن ترحب به وبزوجه وبضيفه.

★ ★ ★

حل المساء.. تخافت الضوء.. ساد الغرفة هدوء عميق لا يقطعه سوى صوت «بندول» ساعة الحائط، لا راديو، ولا تليفزيون، وأمامها دفتر أشعارها مفتوح على صفحاته البيضاء ولم تجد حاجة للاضاءة فما وفقت بعد إلى مطلع القصيدة الجديدة وأن تمثلت لها معانيها متتابعة وتردد فى خيالها صورها ورموزها، بل وتدور على لسانها ألفاظها وتراكيبها.. وكلما تراءى لها أنها وفقت إلى المطلع المنشود، فما إن تهم بتسجيله حتى تفتر همتها، إذ تراه غير معبر عما تريد.. بل تراه بعيداً تماماً عن تلك المعانى الجميلة التى تتراقص أمامها.. ورغم ذلك فإنها تظل مستسلمة لما هى فيه من حالة شعرية - أو شعورية - لم تعرفها ربما منذ كانت محاولاتها الشعرية الأولى عندما التقت برفيق العمر الذى غادرها قبل أن تكمل

قصيدتها عنها.. هل تذكر تلك القصيدة؟. طبعاً تذكرها.. بل إنها ما تزال تذكر مطلعها ذاك ترسم فيه صورة لطفلة غريرة تحدث أمها حديثاً بريئاً فتسألها: «أين عريسي؟» فتنهرها الأم «عيب يا بنت» فتندهش البنت، وتعاود السؤال، فيتكرر نهر الأم لها، فتضحك البنت وهي تقول لأمها إنها تعرفه: فهو «الشاطر حسن» الذى يقبل عندما تميل الشمس إلى المغيب. ممتطياً صهوة جواده، مطوحاً فى الهواء بسيفه، شاقا فضاء الكون، لا يستطيع أحد أن يعترض طريقه، ويلقاها فى طريقه، ترقبه فى شوق ولهفه، فينحنى عليها، يختطفها، ويجلسها أمامه، وتضمها إليه، ماضياً بها إلى المجهول، إلى ماوراء الأفق.. بعيداً ..بعيدا عن الآخرين.. وقد جاء الشاطر حسن بالفعل، لكن بعد أن نمت الشجرة، وآتت ثمارها شوقاً وحناناً وضاءً وفتنة وجمالاً.

ترى كيف مضت القصيدة بعد ذلك؟ وماذا تقول اليوم إن أرادت أن تكمل القصيدة وتضع خاتمة لها؟

ولم يطل بها التفكير.. فقد تراءى «الشاطر حسن» أمامها.. جالساً فى الكرسى المقابل، يرتدى ثيابه المنزلية، والصحيفة بين يديه، وفنجان القهوة إلى يمينه، وسيجارته بين يديه، وهو يسألها:

«إلى متى تشغلين نفسك بهذا الدفتر؟ وهل مازلت ترين أننى الشاطر حسن، أم أن الصورة قد تغيرت مع مرور الأيام، وتعقد الحياة، ومجئ الأولاد؟».

وتنظر إليه طويلاً – تتأمله بنظرات متعمقة، فلا ترى إلا وجهاً آسراً وحباً خالصاً لا تزيده الأيام –بمشاكلها– إلا تماسكاً، وتأصلاً..

فلتمض تكمل القصيدة بعد أن وفقت إلى مطلعها: «مازلت تأسرنى بحبك.. مازلت تؤنسنى بقربك:.» وتنثال المعانى متتابعة فى مناجاة للغائب الحاضر، تساقيه الحب، وتبادله الغرام، وتتحدث إليه عن المستقبل، فى صحبته دائماً، فهو وحده الذى ملك نفسها، وقلبها بل وحياتها كلها.. وما كانت ولن تكون – ما طال بها العمر – إلا أسيرة الشاطر حسن.

وقد ظلت مع قصيدتها تكمل أبياتها، وترسم صورها، وترددها ثم ترددها حتى تطمئن إلى حسن وقعها على سمعها وفى قلبها، ولم تفرغ منها إلا مع مطلع الفجر.

★ ★ ★

مرة أخرى يوقظها رنين التليفون مع الضحى.. محمود يعتذر عن الحضور، فثمة تغير طارئ فى البرنامج، ولكن «مستر بسام» سوف يحضر.. وجاءت إجابتها وهى بين اليقظة والنوم:

– لا .. لا داعى لحضور بسام.. اعتذر له.. سأكون مشغولة.. بل أنا دائماً مشغولة.. مع الشاطر حسن..!

طه حسين واليهود والكاتب المصرى

بقلم : ربيع شتا

يرى الدكتور فؤاد حسنين على أنه «يحلو للدكتور طه حسين التحدث عن اليهود واليهودية» «كتاب شمس الله تشرق على الغرب» ، ويقول د. على شلش : «كان طه حسين من أكثر أدباء مصر المحدثين ، إن لم يكن أكثرهم تسامحا مع اليهود وعطفا عليهم لا فى كتاباته فحسب وإنما فى مواقفه أيضا» «اليهود والماسون فى مصر» وهناك غيرهما قال نفس الشىء ولا أريد أن أطيل.

وربما ترجع العلاقات الودية بين طه حسين واليهود منذ أعوام دراسته فى السربون فهو يذكر أنه درس «ديكارت» على ليفى برول «كتاب سامى الكيالى عن طه حسين وجريدة الجمهورية فى ١٤/١١/١٩٧٤» وليفى برول هذا يهودى أشرف على رسالة «المرأة المسلمة» التى حصل بمقتضاها د. منصور فهمى على درجة الدكتوراه، وكانت سببا فى فصله من الجامعة لما تضمنته من طعن شديد فى النبى والاسلام، وقد انتقدتها الصحف «المؤيد ٢٨/١/١٩١٤».

وكان من بين تلاميذه فى الجامعة المصرية طالب يهودى هو اسرائيل ولفنسون، وقد عطف عليه طه حسين واحتضنه وأشرف على رسالته للدكتوراه وهى «تاريخ اليهود فى بلاد العرب فى الجاهلية وصدر الاسلام» التى طبعت عام ١٩٢٧ والرسالة تظهر أثر اليهود فى الأدب العربى، وقد وصف د. فؤاد حسنين على رسالة ولفنسون بأنها عمل من أعمال الدعاية الصهيونية، وبعد أن عمل ولفنسون بالتدريس فى دار العلوم، ظهرت صهيونيته فهاجر إلى إسرائيل،



طه حسين واليهود

في انباء القاهرة ان الدكتور طه حسين مراقب الثقافة في وزارة التربية الوطنية القى في المدرسة الاسرائيلية بالاسكندرية ، يوم ٢٤ كانون الاول ، محاضرة عن اليهود والادب العربي ، فذكر العلاقات بين اليهود والعرب منذ الجاهلية واي اثر كان لليهود في تحضير سكان الجزيرة ثم تكلم على انتشارهم في افريقيا الشمالية، واسبانيا حيث كانت لهم خدمات في سبيل الثقافة وحيث نافسوا العرب انفسهم على اكبر المناصب في الدولة الى ان قال ان المسيحيين واليهود كانوا خير عون للعرب في نقلهم العلوم والفنون والاداب عن اليونان والهند والفرس .

وختم الدكتور حديثه داعياً يهود مصر الى توثيق صلاتهم بالمصريين من اهل الثقافة العربية ، والاندماج في سوادهم اندماجاً روحياً ، وتدارس ادبهم نثراً وشعراً . قالت الجريدة التي اشارت الى هذا الحادث الادبي : فقوبل كلام المحاضر بعاصفة من التصفيق ، وقرر المجلس الملي الاسرائيلي انشاء جائزتين باسم طه حسين تمنحان لاول طالبين في المدرسة الاسرائيلية .

المكشوف
٢ يناير ١٩٤٤

وأخذ يبعث برسائله من هناك إلى بعض المجلات اليهودية فى مصر.

وفى أواخر عام ١٩٤٣ وجهت الطائفة الإسرائيلية بالاسكندرية دعوة لطه حسين ليزور مدارسها، فلبى الدعوة، واستقبله الحاخام الأكبر فنتورا وكبار رجاله، وبالغوا فى الترحيب به، وفى هذا اليوم «١٩٤٣/١٢/٢٤» ألقى طه حسين محاضرة ذكر فيها «العلاقات بين اليهود والعرب منذ الجاهلية، ثم تكلم عن انتشارهم فى أفريقيا الشمالية وأسبانيا حيث كانت لهم خدمات فى الثقافة حيث نافسوا العرب أنفسهم على أكبر مناصب فى الدولة»وأين هذا الكلام مما قاله العقاد فى كتابه «الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين». نعود إلى محاضرة طه حسين التى ختمها بدعوته «ليهود مصر الى توثيق صلاتهم بالمصريين من أهل الثقافة العربية» وقد «قوبل كلام

المحاضر بعاصفة من التصفيق، وقرر المجلس الملى الاسرائيلى إنشاء جائزتين باسم طه حسين تمنحان لألمع طالبين فى المدرسة الإسرائيلية» (مجلة المكشوف ٢ يناير ١٩٤٤) وكتاب «الصحافة الصهيونية فى مصر . د. عواطف عبدالرحمن».

والمفيد بالنسبة لطه حسين استجابة اليهود لدعوته بتوثيق روابطهم بالمثقفين ، ودار بينهم حوار أسفر عن إصدار مجلة «الكاتب المصرى» فى أكتوبر ١٩٤٥.

عطف على اليهود !

كانت الفترة التى صدرت فيها «الكاتب المصرى» «اكتوبر ٤٥ ـ مايو ١٩٤٨» هى اكثر سنوات القضية الفلسطينية التهابا، إذ تفاقمت المشكلة وأخذ اليهود يعدون لإعلان قيام الدولة، وبعد صدور العدد الأول من «الكاتب المصرى» تظاهر الأزهريون فى ذكرى وعد بلفور، وحملت الصحف المصرية على الصهيونية ، وازدادت الهجرة إلى إسرائيل، وفى سنة ١٩٤٦ سافر طه حسين بحرا من مصر إلى بيروت، وشهد أعدادا من المهاجرين اليهود ينزلون ميناء حيفا، فأظهر عطفه عليهم وصورهم فى ««الكاتب المصرى» قائلا : «كانت السفينة تحمل الفا أو نحو الف من ضعاف اليهود المهاجرين: من الأطفال والصبية الذين لم يبلغوا الحلم. ومن النساء الأيامى، منهن من فقدت كل شىء ولم تحتفظ حتى بهذا الأمل الضئيل الذى يرسم على الثغور هذه الابتسامة الحزينة، ومنهن من فقدت كل شىء ولكن بين أحشائها حياة تثير فى قلبها الحزين المكلوم أملا ويأسا..» وطه حسين يثير فينا عاطفة الشفقة على هؤلاء ويخدر مشاعرنا القومية بهذا الكلام المؤثر الحزين. فى كل دولة فى العالم يتامى وايامى ومساكين متمسكون بأوطانهم، إن هؤلاء الايامى والصبية ذهبوا إلى فلسطين ليكونوا دولة وليس تخلصا من الفقر والفاقة. ولكى يخفف من عطفه درجة ويجعل كلامه متوازنا بعض الشىء قال: «ولكن أهل فلسطين لم يستشاروا ولم يستأمروا فى إيواء هؤلاء البائسين ، ولكن فى الارض أوطانا كثيرة أقدر على إيوائهم من فلسطين» ، ثم يعود الى الحديث عن هؤلاء البائسين الذين «ترتفع اصواتهم البائسة المتهالكة بغناء لست أدرى أكان يصور الفرح والمرح وانتصار الفاتحين أم كان يصور الحزن والبؤس وانكسار المطرودين» (الكاتب المصرى يونيه ١٩٤٦) انهم يتصايحون بغناء الفرح عند رؤيتهم لأرض المعاد. أرض العسل واللبن. ثم ما كل هذا العطف على هؤلاء البائسين. ألا يعلم الدكتور سلفا أن الفقراء البائسين هم الذين يهاجرون ، وأن الأغنياء المستقرين يبقون فى بلادهم، حاول طه حسين ما امكن ان يوازن عبارته. عين هنا وعين هناك، ولكن غلبت على حديثه الشفقة والعطف على اليهود البائسين. وقد مد الله فى عمره ليرى هولاء البائسين وهم يذبحون العرب فى دير ياسين وكفر قاسم وغيرهما، وهم ينتصرون فى عامى ٤٨ ، ٥٦ وهم يحتلون الضفة وغزة وسيناء والجولان عام ٦٧ . وهم يدمرون مدن القناة فى عامى ٦٩، ١٩٧٠ فلعله غير رأيه بعد كل ذلك فى البائسين، كذلك لم تخل «الكاتب المصرى» من الكلام عن تأثير اليهود فى أدب العرب.

على أنه أهم من كل هذا. الشكل المحايد أو شبه المحايد الذى واجهت به

...الا السفينة فإنها لم تضطرب ولم تتردد...
...ربوا ولم يترددوا ، وإنما مضوا بسفينتهم إلى حيث أمر...
...يرون بأحد ولا يحفلون بشئ إلا بالواجب الذى ينبغى أن يؤدوه . ...
...نت السفينة «حيفا» من الغد كان المنظر الذى يبعث فى النفس ألماً أى ألم وغضـ...
أى غضب ورثاء أى رثاء وبغضاً أى بغض وحبًّا أى حب أيضاً . فقد كانت
السفينة تحمل ألفاً أو نحو ألف من ضعاف اليهود المهاجرين : من الأطفال والصبية
الذين لم يبلغوا الحلم ، ومن النساء الأيامى ، منهن من فقدت كل شئ ولم تحتفظ
حتى بهذا الأمل الضئيل الذى يرسم على الثغور هذه الابتسامة الحزينة ، ومنهن
من فقدت كل شئ ، ولكن بين أحشائها حياة تثير فى قلبها الحزين المكلوم أملا
ويأساً ، ورضا وسخطاً ، ولذة وألماً . وقد أقبل هؤلاء المهاجرون جميعاً يقودهم
رسل من الحلفاء إلى فلسطين ليجدوا فيها أمناً بعد خوف وراحة بعد عناء .
ولكن أهل فلسطين لم يستشاروا ولم يستأمروا فى إيواء هؤلاء البائسين ،
ولكن فى الأرض أوطاناً كثيرة أقدر على إيوائهم من فسلطين . وهؤلاء الجنود
...بريطانيون قد ملئوا ثغر حيفا بالعدد والعُدّة وبالبأس والقوة، ليحموا هيـ...
... البائسين إلى هذه الأرض التى تُكْرَه على إيوائهم إكراها . ...
...طون من السفينة فى نظام ، ترتفع أصواتهم البائسة ال...
... الفرح والمرح وانتصار الفاتحـ...

المجلة جمهورها فى فترة غليان الشارع العربى واهتمامه بقضيته . ففى الوقت الذى كانت فيه الجرائد والمجلات العربية تثير الحماسة والحمية، وتزكى النعرة القومية، وتندد بالهجرة، وتتابع النشاط الصهيونى وترد على الدعاية اليهودية، وتبرز اعتداءات العصابات الارهابية، وتظهر غايات الصهيونية فى فلسطين ، كانت مجلة «الكاتب المصرى» تنشر قصيدة عن عودة الربيع، وأخرى عن أحزان المساء، وبحثا عن المرأة والخمر عند الاعشى، وحديثا عن فيلم السابحات الفاتنات وما إلى ذلك من موضوعات ثقافية، ألا يعد هذا صرفا لجمهور القراء عن متابعة قضية قومية فى غاية الأهمية؟ ألا يعد هذا صرفا لكتاب المجلة عن القضية الرئيسة وشغل اذهانهم بموضوعات ليس هذا وقتها؟ وماذا يريد اليهود أكثر من صرف الاذهان عن اعمالهم الشائنة حتى ينتهوا من اتمام جريمتهم؟.

لم تخل المجلة من عدة موضوعات قصيرة جدا عن فلسطين ، كان يعرض فيها كاتبها اطوار القضية بحياد شديد، وهب أن مجلة أصدرت ٣٢ عددا وفلتت منها عدة عبارات لصالح فلسطين ذرا للرماد فى العيون فى بعض الاعداد، فهل هذا يخرجها عن طابعها الحيادى، لقد نهض اليهود المصريون بمهامهم فى خدمة قضيتهم فى حين تقاعس كتاب المجلة من أمثال طه حسين وسلامة موسى وسليمان حزين ومحمود عزمى وسهير القلماوى وعبدالله عنان وغيرهم عن مهمتهم مقابل مال دفعه أولاد هرارى أليس كذلك؟.

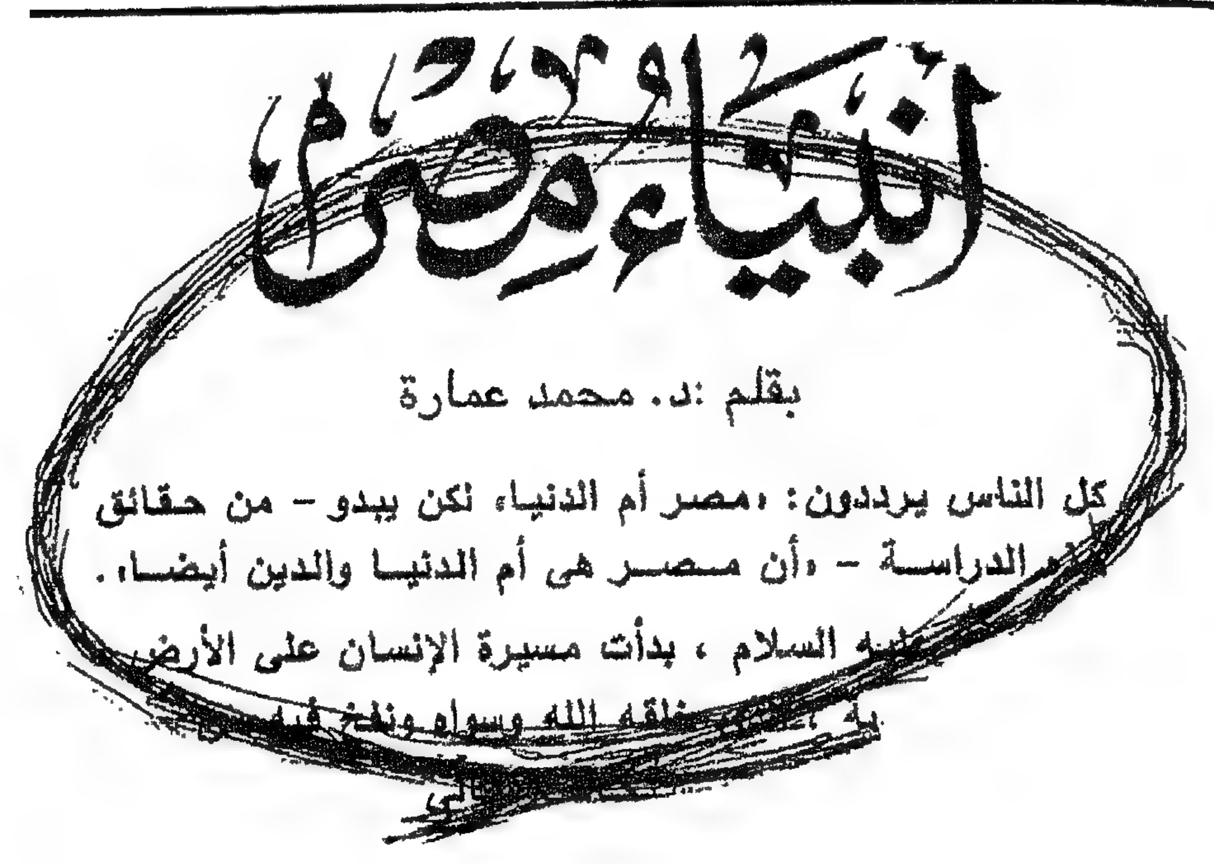
بين المربع والمثلث بون شاسع ..

وأنبياء مصر لم يشيدوا الأهرامات !!

بقلم : د. التهامي محمد الوكيلي★

نشرت مجلة «الهلال» «عدد يونيو ٢٠٠٠ ص ٦٠ - ٦٩» بحثا علميا للدكتور محمد عمارة، بعنوان «أنبياء مصر عبر التاريخ» تناول الباحث فيه مجموعة من الأنبياء «سلام الله عليهم» ممن بعثهم الله سبحانه وتعالى فى أرض الكنانة، بدءا بالنبى إدريس عليه السلام، ومرورا بإبراهيم الخليل ولوط ويوسف ويعقوب «إسرائيل» وانتهاء بموسى وأخيه هارون عليهم جميعا أزكى السلام.

★ مدير دار الأعماق - الرباط



وقد جاء هذا البحث بمعلومات فى غاية الأهمية منها على سبيل المثال أن هذه البعثة الأولى من الأنبياء كانت بالتأكيد من وراء استئثار الحضارة المصرية القديمة بمرتبة الطليعة مقارنة مع باقى الحضارات، فالأنبياء فضلا عن وصفهم هداة ودعاة إلى التوحيد وإلى الخير والصلاح، كانوا حاملين لمبادىء وبدايات العلوم الأولى كالحساب والكتابة والفلك والطب العتيق والفيزياء والهندسة.. فكانوا بالتالى بمثابة معلمين أوائل فى مختلف شعب العلم والمعرفة، والتى تطورت إلى العلوم والمعارف الحديثة التى تتغنى بامتلاكها اليوم.

هكذا إذن، وضع هذا البحث ثلة الأنبياء والرسل فى موضعهم الصحيح والسليم من حيث نقلهم الحقائق العلمية الأولى ومبادىء الصناعات المختلفة بواسطة الوحى إلى الناس كافة، وبذلك لم يعد هؤلاء المرسلون، كما كان يعتقد لدى أنفار كثيرين، مجرد دعاة إلى العبادات والأخلاق الكريمة، ومجرد أدباء ذوى فصاحة فى اللسان وحكماء حصيفى الرأى وعباقرة بعيدى النظر، ومجرد مستبصرين وأهل معجزات وخوارق.. بل صاروا حاملين لفواتح العلوم

والتكنولوجيات الأساسية التى لولاها لما عرف الإنسان اليوم ما عرفه ولما اكتسب ما اكتسبه من مدارك وحذاقات نظرية وتطبيقية فائقة التطور والحداثة.

فهم جديد / قديم حول وظيفة النبي

ها نحن إذن، بإزاء فهم جديد / قديم، حول وظيفة النبى والرسول، ونقول - جديدا /قديما لأن العلوم العتيقة، وخصوصا منها ما له علاقة بالفلسفة والمنطق وبالعلوم الباطنية، كانت دائما تنظر إلى الأنبياء ، نظرة مختلفة، وتقر بالتالى بوظائفهم العلمية والمعرفية التى خصهم الحق عز وجل بها لتكون سببا فى نقلات نوعية يتبدل بها شأن الإنسانية وتتطور بها أساليب عيشهم وبحثهم وفهمهم وتتطور مع ذلك أنماط علاقاتهم بالكون والطبيعة وبأنفسهم وبالساكنات الأخرى الكبرى والصغرى والدقيقة والمجهرية واللامرئية.

إلى هنا ، والبحث الذى نحن بصدده سائر فى الطريق العلمى الصحيح، ومستوف لشروط البحث المتناغم والمتكامل، لأنه أتى بمعلومات ومعطيات متكاملة يتضافر فيها النظرى بالعملى، والفلسفى المجرد بالمادى الوجودى ، والفكرى الخالص بالتجريبى الملموس ، وتتآزر فيه الرؤية العقدية بالحقيقة العلمية. وهذه كلها لا تنتمى إلى عالم الخيال أو إلى التخمين المبنى على فرضيات أو على تقليعات عقلية أو وجدانية ليس إلا، بل قد تم تمحيصها على صعيد مخابر الآثار والأنثربولوجيا الحديثة، ومعامل البحث الكيماوى والفيزيائى المتطورة، وأجمع العلماء فيها من مختلف المشارب والتخصصات على ما سبق ذكره من الحقائق حول وظائف الأنبياء والرسل بدءا بآدم وانتهاء بمحمد صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين.

لكن، تأتى فى سياق البحث المذكور ذاته فقرة لا علاقة لها بكل هذه المباهج العقلية، ولا صلة لها من قرب ولا من بعد بالعمل العلمى المجرد عن الذات وعن الهوى وعن الحكم المسبق.. تقول هذه الفقرة بالحرف : «وحتى يخلّد «النبى إدريس» هذه العلوم ويحفظها من عاديات الدهر وآفات النار والطوفان، بنى الأهرام والبرابى. وصور فيها جميع الصناعات والآلات، ورسم فيها صفات العلوم، حرصا منه على تخليدها لمن بعده، خيفة أن يذهب رسمها من العالم..» ! فكيف يكون هذا الكلام غير علمى، وكيف تراه

نحن، بكل تواضع، مفرغا من أى محتوى وقائما على غير أساس متين؟!

إن الدراسين والمختصين فى تاريخ الحضارات، وهذا عين مجال هذا البحث الذى نعلق عليه، يعرفون من بين ما يعرفونه أن للأشكال الهندسية قيمة رمزية ومعنى يختلف باختلاف الرمز ذاته، وأيضا، بحسب وضعه بين باقى الرموز، ثم بحسب علاقته مع غيره من الرموز إن كانت علاقة مصاحبة، أو تلاق، أو تقاطع أو تمازج وتداخل وتكامل.

إن المربع يرمز فى كل الحضارات السابقة كما فى الحضارات المتأخرة إلى السكون، وإلى الثبات فى العالم الأرضى الفيزيقى، كما أن الدائرة ترمز إلى الحركة، وإلى دائرية ودوران الفضاء الكونى وتكويره. وكذلك الشأن بالنسبة للظواهر الناشئة عن هذه الاستدارة وذلك التكوير، كالليل والنهار، والضوء والظل، وحركة الكون صوب التوسع.. الخ.

والذين يعرفون ذلك يعرفون أيضا أن للمثلث رمزية مخالفة:

فهو ليس رمزا أساسيا فى الخلق، كالمربع والدائرة «السكون والحركة» وبالتالى فهو «أى المثلث» رمز تفاعلى، يتغير ويتبدل مدلوله بحسب وضعه، وبحسب تبدل رؤوسه، فتارة يكون رمزا إلى النور كالمربع، كوضعه عندما يرمز إلى الثلاثية الأساسية «موجب + سالب + محايد» كما فى تكوين الذرة «بروتون + الكترون + نيوترون»، ولكنه يتحول إلى رمز للظلمات، وللكفر والإلحاد، ولكل القوى السالبة والخبيثة والشريرة كتدليله على الأقانيم الثلاثة «الأب + الابن + روح القدس» والتى يقوم عليها شرك المشركين من أهل العقائد الهندية والفرعونية والهرمسية القديمة وأيضا من أهل الكتاب، أو كاستعماله كرمز للعلاقة الثلاثية المصنوعة صنعا من كهنة «القبالة» اليهودية لأغراض يقولون إنها «سحرية سامية» (نسبة إلى «السحر السامى» الذى جعلوه بديلا لتعاليم اليهودية الأصلية ولشرائع التوراة الضائعة والتى أمعنوا فيها تحريفا وقلبا وتغييرا)، وهو الرمز الدال برؤوسه الثلاثة على الإنسان والجان والملائكة ، فى محاولة لجعل علاقة بين هذه المخلوقات الثلاثة تهدف إلى اكتساب القوة والغلبة والبقاء!..

يعرف العارفون بهذه العلوم وبهذه المعطيات العلمية العتيقة «نسبة إلى ما كان فى القديم من قبيل العلم» وهى نفس العلوم والمعطيات التى قام عليها بناء الهياكل والمعابد القديمة والأهرامات، بأن المثلث نظرا لتبدله وتغيره، بخلاف المربع

والدائرة، فإنه يكون رمزا ظلماتيا كلما كان استعماله في غير محله، وكلما كان الأساس العقدي الذي يشكل مرجعيته أساسا إلحاديا، وهذا بطبيعة الحال، لا يمكن ولا يتيسر تطبيقه بأي حال من الأحوال على المربع والدائرة.

من هنا جاء استعمال الشكل المثلث كرمز، وكرسم لاستمداد قوى طبيعة أو كونية خفية، متداولا على الخصوص في أوساط كهنة الهياكل والمعابد القديمة في مختلف الحضارات التي كانت تعتمد الرموز، والرسوم للاتصال بالقوى الباطنية أو بقوى الطبيعة أو بما كانت تعتقده قوى إلهية قابلة للتسخير، وبالتالي، ومن هنا، يسعنا أن نتساءل : «فما سر وجود المربع والمثلث معا في بناء الهرم الفرعوني؟» وإنه لسؤال وجيه وفي غاية الأهمية، خصوصا فيما نحن بصدده من مناقشته من خلال هذا المقال:

لقد سبق القول: إن المربع، باعتراف الحضارات المعروفة كلها، يرمز إلى الوجود الفيزيقي، وإلى السكون والثبات، وهذا المدلول الرمزي ليس اعتباطيا، ولا هو من اختصاص نفر دون آخر، بل لقد أثبت الدين ذلك، وكذلك نمط الخلق الإلهي، ويمكن الإشارة بعجالة إلى هذه الإثباتات كالآتي:

١ ـ لقد جعل الحق عز وجل للعدد ٤ «أربعة» سرا عظيما، حيث بدأ هذا الأمر ببنية العدد نفسه، فهذه البنية المكونة من أربعة أعداد هي «١ و ٢ و ٣ و ٤» يساوي مجموعها عشرة «١٠»، وهذا يجعل العدد «٤» عددا كاملا، لأنه يضم في بنيته العددية كمال الآحاد، بل يشكل رمزا إلى عودة «الواحد» ، الذي هو العدد الأساس، إلى الظهور من جديد بعد أن يحول الآحاد كلها إلى «صفر» «٠» ، وهذه هي رمزية العدد «١٠» «واحد، وصفر» وقد رأى علماء الباطن والفلاسفة أن العدد «واحد» إذا كان يرمز في البداية إلى اسم الله عز وجل «المبدىء» فإنه في العدد «عشرة» يرمز إلى اسمه تعالى «المعيد» ، لأنه يدل على تجل جديد في نهاية الآحاد، وهو تجل ضمني وليس بالذات، ذلك أن «العشرة» ليست هي «الواحد» بأي حال من الأحوال، ولكنها تتضمن وجودا واجبا ومستترا للواحد.

إذن فالعدد «أربعة» له في حد ذاته سر عظيم يتأكد من خلال استعمال الحق عز وجل إياه في بعض شئون خلقه ليدل على كمال هذا الخلق، فكيف ذلك؟

٢ ـ لقد جعل الله سبحانه وتعالى خلقه، حتى يكون خلقا كاملا لا

يمكن مطلقا الإتيان بأفضل منه. على أربعة أوجه، ولو كان على ثلاثة لاتّصف بالنقص، كما أن وروده على خمسة أوجه غير ممكن مهما اجتهد العقل في تخمين ذلك:

- **الوجه الأول** : «الخلق من لا شيء» ، كخلقة النور، أو خلقة العدم ثم الوجود ...

- **الوجه الثاني** : «الخلق من شيء»، كخلقة آدم عليه السلام من تراب، وخلقة الكون من المادة الأولى «مهما اختلفت أسماؤها»..

- **الوجه الثالث** : «الخلق بالجعل»، أي بالتطور والنشوء والارتقاء، كخلقة الكائن الحي من الأميبا أو الكائنات متعددة الخلايا من وحيدة الخلية ...

- **الوجه الرابع** : «الخلق بالتقنين»، أي بوضع القوانين أولا في يد الصانع، وهذه أدنى مستويات الخلق، كصناعة المراكب المائية استمدادا من قانون الطفو، والمركبات الطائرة استمدادا من قانون الجاذبية . الخ.

٣ ـ استخدام نفس العدد «أربعة» في إظهار كمال الخلق الإلهي للإنسان: آدم بغير أب وبغير أم وحواء بأب وبغير أم، وعيسى عليه السلام بأم وبغير أب، ثم باقي بني آدم بالأب والأم معا. ولو أفنى العقل طاقته كي يجد احتمالا خامسا لما استطاع إلى ذلك سبيلا.

٤ ـ قيام كمال الدين وتمام النعمة الإلهية على أربع رسالات: الزبور، والتوراة، والإنجيل، والقرآن.

وهناك ظواهر وبواطن أخرى يعز عدها وإحصاؤها، تزيد في تأكيد نفس هذه الحقيقة المرتبطة بكمال العدد «أربعة»، وهو عين الكمال الذى جاء المربع ليرمز إليه، وليكون أثبت وأرسخ بنيان، ويكون بالتالى، أساس البيت الذى جعله الله سبحانه للناس كافة وسيلة تقرب واستمداد لنوره وهدايته ورحمته «الكعبة المشرفة». ولو كان هناك أرسخ وأثبت من المربع فى الوجود الأرضى الفيزيقى، لاختاره الله سبحانه ليكون أساس هذا البيت الشريف لا محالة.

ولو قال قائل ، وما شأن الدائرة؟ لكان الجواب: إن شأنها كونى فضائى، ولذلك سارت عليها الأفلاك وحركات النجوم والكواكب والأقمار، وقام عليها مبدأ التكوير الذى توجد فوقنا ومن حولنا شواهد للدلالة عليه يستحيل أن يحيط بها الإنسان عدا وإحصاء

ها قد بدا لنا المربع كرمز نورانى

يدل على كمال خلق الله عز وجل فى الوجود عامة والوجود الأرضى الفيزيقى خاصة.

ولو أن الدارس للحضارات القديمة تتبع ظهور المربع فى الأنماط الهندسية وفى الدلالات الرمزية العتيقة، لوجده دائما وأبدا شديد الظهور فى عصور الأنبياء والرسل وكلما كانت نبوءاتهم وشرائعهم ورسالاتهم سارية المفعول بين الناس، وكذلك الدوائر والأقواس وباقى الأشكال المشتقة عن المربع والدائرة والمتفرعة عنهما.

وأما وجود المثلث مع المربع فى رسم الأهرامات فتبريره عند كهنة الحضارة الفرعونية، وهم الذين كانوا، كما فى باقى الحضارات القديمة، يفتون بالرسوم والأشكال والرموز التى يجب استعمالها فى الأبنية ذات الطابع العقدى كالهياكل والمعابد والمقابر، كما كانوا يفتون بالتوجهات التى ينبغى أن يأخذها كل بناء من هذه الأبنية وكل صرح أو محراب، ولا غرو فى ذلك إذ هم الذين كانت تتركز لديهم العلوم السائدة فى تلك الأزمنة، والتى كانت فى معظمها. بل كلها، علوما قائمة على الروحانيات، وعلى الاعتقادات والطقوس والتطبيقات الباطنية الصرف.

الكهنة وعلومهم الباطنية

نقول : كان الكهنة عارفين بالعلوم الباطنية وبالتالى مدركين لتقلب القوى وتفاعلها وتضاربها فيما بينها، وكانوا على علم بخطى النور والظلمات ، ودليل على هذه المعرفة وقوع سحرة فرعون وكهنته ساجدين لرب موسى عليه السلام، بعد أن فطنوا إلى الفرق البّين بين ما جاؤوا به من السحر وما جاء على يد هذا النبى المرسل من العمل النورانى الإعجازى ، وعرفوا بما لديهم من العلم عن القوتين، أن ما جاء به النبى هو النور، وان ما جاؤوا به ليس إلا من ظلمات السحر والغواية، وهذا العلم هو الذى جعل الكهنة يضعون المربع أرضا، كأساس للهرم، ثم يضعون عليه من الجهات الأربع «أضلاعه» أربعة مثلثات ترمز إلى العناصر الأساسية للطبيعة «الماء والنار والهواء والتراب»، اعتقادا منهم بأنهم بذلك يسجنون قوة المربع النورانية، بقوة المثلثات الأربعة ، الظلماتية لأنها مستمدة من قوى الطبيعة، مع ما كان يصاحب بناء الأهرامات خاصة والمعابد والهياكل القديمة عامة، من القرابين والذبائح الحيوانية أحيانا، والبشرية المستترة أحيانا أخرى، ومن قراءات وتعازيم وطقوس أخرى تختلف باختلاف نوع الكهانة المعتمدة.

لقد أثبت علماء الآثار، والأنثربولوجيون، وعلى امتداد الحقب المتأخرة بأن بناء الأهرامات وما تزخر به من المعالم والغرف والدهاليز والصناديق والتوابيت. كل ذلك، كان موضوعا بطريقة مدروسة، ومختارا فى حد ذاته بأسلوب مقصود ومدقق، وكذلك مكوناتها من المعادن النفيسة ومن الصوان «الكوارتز» مما يجعل لذلك كله مجالا كهرومغناطيسيا يدعمه الشكل الهرمي نفسه والذى اكتشف العلم الحديث له أسرارا فيزيائية فى غاية الأهمية.

علمنا إذن بأن بناء الأهرامات الفرعونية تم على يد كهنة الفراعنة وسدنة معابدهم من علماء الباطن، وكان موضوعا على أساس مدروس ومقصود قوامه السحر والاستمداد من قوى الطبيعة، مع علمنا بما كان أولئك الكهنة ينظرون له من العقائد والمذاهب ويفرضونه على الناس وعلى حكامهم من الطقوس والتطبيقات الظلماتية، تارة تحت راية الشمس، الإله، أو الفرعون الإله، وتارة أخرى تحت رايات آلهة متعددة ومتنوعة كما كان سائدا بعد ذلك لدى تلامذتهم اليونانيين والفرس والرومان الأوائل.

نعم ها قد عرفنا ذلك، فما موضع القول: إن النبى إدريس بنى الأهرام الأولى حتى يحتفظ بداخلها بالعلوم والكنوز التى جاءت على يديه؟! مع العلم بأن نبى الله لا يمكن أبدا أن يأتى بمثل ما يأتى به كهنة تلك الحقب، ولا بمثل ما جاء به أمراؤهم وملوكهم المؤلهين، وبأن أكمل بناء يمكن أن يقوم على يد نبى مرسل لا يمكن أن يكون إلا على النسق الكامل الذى اختاره الحق عز وجل لبيته العتيق، وأن أى نبى أو رسول لا يسعه إلا أن يفعل ذلك ولو على سبيل الاقتداء والتبرك فحسب.. وها قد أدركنا بالتالى، بأن ذلك القول الذى جاء به صاحب البحث المنوه عنه حول علاقة نبى الله إدريس عليه السلام ببناء الأهرامات إنما هو قول لا أساس له ولا سند ولا أصل ولا فضل.. وإنما هو كلام صادر على عواهنه بدليل عدم وجود أى إشارة اليه فى الكتاب أو فى السنة أو الأخبار أو الآثار ، وبدليل تموقع ذلك تاريخيا قبل زمن الطوفان الذى محا كل أثر من الآثار التى قامت قبله وعفى على كل الحضارات التى سبقت ذلك الحدث المهول «الطوفان» ، والتى لاشك أنها كانت متطاولة فى الأرض، متقدمة فى العلوم غير النافعة ، قائمة على الضلالة.. مما استوجب أن يحق عليها القول فيدمرها العلى القدير تدميرا.. وللحديث صلة.

احتفالى بعيد ميلادى الـ ٦٣ فى ١٧ أغسطس :

تنويعات من أوراقى القديمة

بقلم : صافى ناز كاظم

أوراقى القديمة توجع قلبى، أحرقت الكثير منها، ومزقت ونثرتها هباء، لكن فى كل «تنفيضة» أرفف خزانة من مكتبتى تنب وتشرئب قصاقيص من الواضح أننى، لحظة التمزيق، لم يهن علىّ إعدامها. الأوراق أوراقى، كتابتى بقلمى لنفسى وأنا حرّة ألغيها أو أسجلها. أتأمل فى بعض القصاصات الباقية لأعرف لماذا أبقيتها، غالبا إحساسي بقيمة فنية ما تشوبها، رغم كونها صفحة من مذكرات أو خواطر أو صورة من خطاب لصديق أو صديقة.

● وجدتها تلك الورقة التى كنت أضعها تحت زجاج مكتبى الإيديال الصاج الرمادى فى صالة تحرير مجلة الجيل بأخبار اليوم، بتاريخ ٢ يونيو ١٩٦٠ أقول:

- «أصدقائى ...

تصوروا ...

شىء غريب حدث لى أمس . أمس وأنا فى الأوتوبيس كنت أنظر من النافذة. الساعة كانت السابعة، ولكن ضوء النهار كان واضحاً. إلى اليمين نظرت. لفت نظرى شىء فى السماء أبيض مستدير كحدقة العين. لأول وهلة تصورت أنه أحد مصابيح الطريق ولكنى اكتشفت أنه يسير معى، واكتشفت أنه القمر. مستدير. بدر. وأعجبنى لونه الفضى وهو تائه فى ضوء النهار. ودخلت المؤسسة وخرجت منها فى الحادية عشرة مساء. الليل مكتمل فأحببت أن أرى مرة أخرى البدر الأبيض على المساحة السوداء. لكنى حين نظرت إلى أعلى، إلى اليمين، فوجئت بالبدر هلالاً، هلالاً صغيراً. تصوروا أننى لم أعرف الشمس؟. تصوروا حتى الشمس لم تعد واضحة؟. أنا أضحك ».

●●●

● تزوجت الشاعر أحمد فؤاد نجم فى ١٩٧٢/٨/٢٤، بعد عام من صدور



قرار منعي من النشر ١٩٧١/٨/١ الذي استمر ١٢ سنة. قال نجم تزوجيني، فلم أملك سوى أن أجيب: وهو كذلك. بين لقائي الأول ١٩٧٢/٨/١ وعقد القران إلتقيت به ما لا يزيد على أربع مرات. الذي شدّ من أزر قراري بالموافقة على الزواج منه هو المعارضة الشديدة التي واجهت ذلك القرار ، ليس فقط من جانب أمي رحمها الله، ولكن من أصدقائي وصديقاتي، الذين تعجبت من اندهاشهم ورفضهم هذا الزواج رغم حماسهم الشديد للشاعر المناضل ولفنه المذهل مع صاحبه الموسيقي الملحن المغني الشيخ إمام عيسى. كنت كلما لاقيت نصحا بالرجوع عن زواجي من نجم، يزداد احساسي بضرورة وواجب الإسراع نحو هذا الزواج. لم تكن الحكاية قصة غرام بيني وبينه؛ لكنها حكاية لا يصدقني فيها أحد لأنها كانت مني موقفا شعرياً يفوق في جماله حكايات الحب المعتادة بين الرجال والنساء. كنت قد انتهيت من قراءة سيرة حياة الشاعر البطل عبد الله النديم، «العودة إلى المنفى»، التي كتبها الأديب الأستاذ أبو المعاطي أبو النجا. بين كل سطر وآخر أجد فيه عبدالله النديم واقعاً في مأزق أو أزمة أو إفلاس أو جوع، مخذولاً ، مطارداً، محاصراً، أبكي وأقول: لو كنت أعيش زمنك لنهضت أفديك يا عبد الله النديم. وحين وجدت أحمد فؤاد نجم يسير إلى جانبي يطلبني للزواج قلت: ها هو الشاعر الشجاع، خارج لتوه من المعتقل، منفي داخل الوطن، مطارد، مرصود، وغالي شكري أمام باب الأتيليه يقول لي ولنجيب سرور بصوت مقتضب: «المباحث لغت ندوة إمام ونجم»، فيئز الغضب في صدري وأقول لنجيب : لابد أن نذهب إليهما لنعلن تضامننا معهما، فيوافقني نجيب ويصحبني إلى الغورية، ومنها نخترق الحارة والعطفة إلى حوش قدم، ونصعد السلم المعتم لأجد نفسي في غرفة مكدسة باللوحات والألوان ومعها الخرق وعلى الأسمال البالية يجلس الشاعر النحيل وأمامه على الأريكة الخشبية المتهالكة يحتضن المغني الملحن الضرير عوده. يتم الترحيب المتبادل، وأجتهد لكي أعبر لهما باختصار عن عمق احترامي واجلالي لهما ولفنهما العظيم من دون أن أنزلق إلى المستهلك والرخيص. كنت حزينة متألمة وجادة - (وعائدة منذ شهور من أداء فريضة الحج وأخذ العهد برجم الشياطين أينما أطلوا برءوسهم بأشكالها المختلفة) - وكانا ضاحكين لا مباليين كأنهما لم يكابدا أي لسعة من لسعات الشقاء. لم ألبث طويلا، وحين تهيأت للذهاب أصر نجم على توصيلي إلى شارع الأزهر، وكان قوله المفاجيء التلقائي: «ما تتجوزيني!». حين داهمني الإحساس بالورطة آذيت نفسي باللوم: كنت تبحثين عن عبدالله النديم لتفتديه، وها هو أمامك بلحمه وشحمه، الشاعر الذي يعطي ولا يأخذ، الذي كلما إشتد

ساعده في العمل كان أجره السجن والاعتقال والتجويع، الشاعر الذي صرخ في زمن الكبت والخرس بعد هزيمة ١٩٦٧/٦/٥: «قول الكلمة عالي، بالصوت البلالي، قول إن العدالة دين الإنسانية»، وتنفيذا لذلك قال قصيدته في عصر البطش الأعظم، التي كلفته سجنا كان مفترضا أن يكون مدى الحياة، فشاء الله أن يكون مدى حياة الآمر به: «كفاية، أسيادنا البعدا، عايشين سعدا، بفضل ناس تملا المعدة وتقول أشعار، أشعار تمجّد وتماين حتى الخاين، وإن شاء الله يخربها مداين عبد الجبار»، الشاعر الذي لم يبع شبراً ولم يخضع لضيم، واستمر لومي لنفسي على هذا المنوال حتى وصلت إلى: هذا شاعر يحتاج لمن يعتني به ويحافظ عليه، ويرممه: يقص أظافره - (عاني نجم من ذلك بالذات كثيرا!) - ويأخذه لطبيب العيون لأنه يحتاج نظارة قراءة، ويحضر له كمية هائلة من الصابون والفنيك وفرشاة بلاط لمسح وتنظيف غرفته، يحتاج لسرير ومرتبة ووسادة، وطعام وفق نظام غذائي متوازن. هذا شاعر النبض الشعبي وضعه الله أمانة في عنقك ياست صافي ناز، إذا كنت حقا مستعدة للفداء كما تدّعين. بعد الزواج مباشرة صدر أول ديوان شعر لنجم في بيروت كتبت فريدة النقاش في مقدمته تقول: «... ولقد تزوج أحمد فؤاد نجم أخيراً من الصحفية صافي ناز كاظم وهو يحاول ألا يؤثر ذلك في علاقته بالغورية وبالشيخ إمام...» بما يفيد طبعا أنني بالتزامي الإسلامي - أو برجزتي - مؤثر ضار على المسيرة التقدمية للشاعر من وجهة نظرها. ضحكت وقلت: هكذا يا ست فريدة؟، ما كان قصادكم، رايحين جايين تسمعوا وتسجلوا له وكله يروح ينام في بيته الداقيء الوجيه على سريره والشاعر في إطاره «الفولكلوري»!.

لم تلبث الأحداث أن تطورت ودخل نجم السجن بعد زواجنا بشهور في ١٩٧٢/١٢/٢٩، وشاركت في اعتصام طلبة جامعة عين شمس احتجاجاً على ضرب شعارات الديمقراطية المرفوعة. كانوا طلبة وكنت صحفية وكاتبة ممنوعة من النشر، ذهبت إلى اعتصامهم أقول أنني لا أملك أن أساندهم بقلمي ولذلك فإنني بانضمامي إلى اعتصامهم السلمي الذي هو من حقوقنا الدستورية، أكون قد قمت بواجبي الصحفي الشريف. واستمر الاعتصام بقصر الزعفران في قلب الجامعة من أول يناير ١٩٧٣ حتى التاسع منه عندما تم اقتحامه بقوات الأمن المركزي تحت قيادة اللواء أحمد رشدي، وتم القبض عليّ مع الطلبة والطالبات بصفتي مندسة متسللة إلى صفوف الطلبة لإثارتهم وتحريضهم على قلب نظام الحكم - (في المعتقل كنت أصيح في البنات: يا بنات فيه تفتيش إللي قالبة نظام الحكم تعدله فوراً!.)

في المعتقل تبين لي أنني أنتظر حادثا سعيداً وجاء الإفراج عني، في شهور

الحمل الأخيرة، بعد الإفراج عن نجم الذى سبق إفراجه الإفراج عنى بشهر. نجم هايص ومنطلق مع دوائر الطلبة والطالبات المناضلين الذين قرروا أن لا حق لى فى نجم لأنه ملكيتهم الخاصة. حاضر. يعنى إنت يا نجم مش محتاجنى ولا حاجة؟. أغضب ثم أكظم غيظى: إنت قلت فدائية وراعية. كان من حق نجم أن ينطلق كلما جاءته فرصة للإنطلاق بعد الحبس والضيق. كان مونولوجى الداخلى مدافعاً عنه دائماً إلا حين كان يذهب إلى بيوت من وصفهم «بالثورى النورى الكلامنجى» أو «القواد الفصيح» أو «اليويو» و«الحلاويللا». كنت صارمة فى عدائى لهؤلاء ومقاطعتى لهم، ولم أفهم أبداً، وقتها، «جدلية» نجم في زيارة من يرفضهم، وأظن أننى أفهم الآن أنه كان من حقه أن يتفرج ويتجول ليعرف ويصور. وفى يوم غضب شديد أخذت نفسى لأفسحها فى مقهى بفندق شبرد، طلبت الشاى والجاتوه وجلست أدون خواطرى:

● «شبرد، ١٩٧٣/٨/٧. مرور عام على معرفتى بأحمد فؤاد نجم. إلتقيت ١٩٧٢/٨/١ بنجيب سرور هنا فى شبرد ليقابلنى لأول مرة بنجم. عندما عرفت نجم أردت أن أهرب إليه من شبرد ومن مجلسى مع العالم الذى لا أتواءم معه، ومن الذين قهرتنى نذالتهم، وأغسل عنى أدران خيبة الأمل والحوار مع الذات – (حيث لم يكن ممكنا الحوار مع الصم والبكم) –.

أنا الآن جالسة فى شبرد بعد شهور غيبة قسرية لم أقضها مع نجم. ليس حاضرا معى من نجم الآن غير خاتمى الذهبى وجنينى الثمانية أشهر. حلمى فى نجم يخذلنى تماماً: هو مع العالم الذى أخاصمه، رغم أنه خارجه. هو لا يأخذنى معه لنكون عزوة ضد العالم المجذوم. ضاعت منى حتى فرصة: الذهاب لنجم، التى كنت أملكها قبل زواجى منه. هو يترجم أخذى إلى عالمه ترجمة سطحية مبسطة خليقة بإثارة المشاحنة بيننا. النتيجة أننى أعود بشكل أثقل وطأة إلى الحوار مع الذات حيث لا يمكن أن أتهادن مع عالم مجذوم يريد نجم أن يعيدنى إليه فى تزاور بغيض نتبادل فيه أقداح الكذب والمودة الزائفة. والوضع أن نجم يتزاور وحده ولا يدرك كيف يمكن أن يمثل هذا طعنات متوالية للتحدى الذى أعلنته «به» عليهم.

الفرق بين مشاعرى العام الماضى والآن، هو أننى لم أكن أحتوي هذا الكم الهائل من الشعور بالهزيمة والخذلان.

بدأ البيانو، وعدت كما كنت: مع الموسيقى، والكتاب، ونفسى.

●●●

● «١٩٧٣/٨/١٥ : أشهر ممنوعة بالقسر من الورقة والقلم. فى يدى ورقة وقلم واشتياقى للكتابة عارم، ولكن هذا الاحساس بالحصار، وأنك أرض مباحة لكلاب يأتون لينهشوا قلبك ودماغك فى

أى لحظة. كيف يمكن نكتب ونحن نعرف أن ما نكتبه لن يكون صوتا يذهب لمن نريد ونختار؟. هل يمكن أن تكون تربيتى لوليدى بديلاً للكتابة؟، أقول من خلاله كل أشيائي الخبيئة، وكل تحقيقي لما أراه فاضلاً؟. ألا يمكن أن يكون أطفالنا هم حبرنا السرى فى مرحلة يسودها القهر؟....».

● ● ●

● «مايو ١٩٧٥ : عدت إلى منزلى فى وقت متأخر، أحمل نوارة على كتفى ونجم إلى جوارى. صامتان. مقبوضة. فالأشياء بغيضة، وإن كان تنفس نوارة المتقلقل يلفح رقبتى فأتذكر أن هذه نعمة كبرى: أنا ونوارة وزوجى معاً: هذه حقيقة يمكن أن يطاح بها فى أى لحظة، ربما الآن أو بعد ساعة أو هذا الفجر أو الفجر الذى بعده. مقابلتى معك منذ ساعات وضعتنى مرة أخرى إلى قابلية الورقة والقلم. ممنوعة من النشر منذ أربعة أعوام، نعم، لكن الأكثر إيلاماً هو أننى أفقد تدريجيا قابليتى للكتابة. مُهانة . لا أستطيع أن أتلف مع القهر ولو أخذ شكلا مبسطا. القهر : قهر. ليس هناك حد أدنى أو أقصى للقهر. كل أشكال القهر امتهان للإنسان ومهانة الإنسان سقوط لكل شىء.

حين حشدونا - خليطا من مثقفى وفنانى مصر العزيزة - فى صندوق اللورى المظلم نقلا من سجن القلعة إلى النيابة، ارتفع صوت من بيننا يقرر أن الأشياء أفضل على أية حال: فنحن على الأقل ننقل إلى النيابة للتحقيق، ونحن على الأقل نسجن فقط بلا ممارسات التعذيب البدنية، ونحن على الأقل يمكننا الاحتجاج إلى النيابة إذا حدث تعذيب، ونحن على الأقل يمكننا الشكوى إلى المحامى إذا أصمت النيابة أذنيها... وجزعت نفسى: ما حاجتهم للتعذيب بعد؟. لقد نفذ سهمهم إلى مداه وتأصل الامتهان فى الروح وها هو العبد يحمد لسيده أنه صار يسجنه فقط. يسجنه : كيف يمكن أن يصبح السجن : (فقط) ؟.

وتفاجئين بمن يسأل : هل كانت المعاملة داخل السجن طيبة؟. كيف يمكن أن يطيب أى شىء داخل سجن؟.

إحساسى أننى عريانة وأن بيتى نهبا مباحاً لكلاب يدهسونه فى أى لحظة تعن لهم: يقلبون فى الكتب والأوراق، وأدمغتهم السميكة تتحرك كالدّوم الفارغ بين حجرة النوم والمكتب ومخدع الطفلة، تبحث عن مستودع الشعر أو الفكر، احساسى بكل هذا يصد قابليتى عن الحياة نفسها. نكتب عن المسرح، عن الشعر ، عن الاستعمار والاحتلال والمعاملة السيئة التى يلقاها العربى داخل الأرض المحتلة، وهذا الدّوم الفارغ يطل فوق أوراقنا لا يفقه شيئا لكنه يملك أن يزور قضية وهمية، لا يعتنى حتى بمداراة بطلانها الواضح، فالوقاحة سمة لصيقة بالدوم الفارغ أسوة بالسماجة، يملك أن يضعنا فى صندوق مظلم نتن فى لورى ينقلنا كالبهائم من

سجن لسجن ولا يعدم أن يجد بداخله أو خارجه من يشكر الاجراءات الرحيمة، التى شملت مع ذلك نوارة وعمرها أربعة عشر شهراً محجوزة ست ساعات معى ووالدها فى مرحاض ملىء بالجرب والقمل بقسم بوليس الوايلى.

***

أثناء هذا كله :

مهرجان للأدب،

مهرجان للشعر،

مهرجان للمسرح،

والحاضرون :

١ – قتلة الأدب والشعر والمسرح.

٢ – الموالسون للقتلة.

٣ – أصوات قليلة مغتربة تشاغب أحيانا فى الندوات وتنخدع بأكذوبة : إمكانية الحوار مع السفاحين.

***

تعود لحظيا الآن قابليتى للكتابة وحين أمسك القلم يتأكد لدى أننى أريد فرشاة تلطيخ الجدران: أريد أن أكتب كلمات قليلة بخط كبير: هل نحن بحاجة الى المسرح؟ لماذا هذا الإصرار على إقامة مسرح مع الإصرار الكامل على إقامته بدون مسرحيين؟.

مع الإصرار الكامل على استئصال أصل وجوده: الصراع؟.

هذه التساؤلات لا توجّه إلى قتلة المسرح، إننى أوجهها لمن هم ، إفتراضا، يحملون واجهة الأصوات المشاغبة المغتربة في ندوات القتلة – (المدهش أن المسرحيين لا يدخلون فى معترك الحرب الدائرة لطحنهم، إنهم على العكس يبدون طواعيتهم الكاملة للإنسحاق التام ويشكرون كذلك الاجراءات الرحيمة التى، على الأقل، مازالت تعطيهم فرصة الانسحاق).

***

إننى أرفض هذا وذاك، وحين أقول ذلك على وجه العموم، أقوله وأنا أقصد رفضى لتهرئهم الفكرى واتساخه، ولكن حين أحدد رفضى لهم فى المسرح، فأنا أرفضهم لأنهم غير مسرحيين من الأساس، وهذا يعنى أننى قد أقبل غيرهم فكرياً وإنسانياً، ولكن من المحتمل أن أرفضهم كذلك فى المسرح لذات السبب لأنهم: غير مسرحيين. الذى يحدث أن الذين يشاغبون بالرفض والقبول فى ندوات القتلة، لا يأبهون لنقطة المسرحى وغير المسرحى. إن التقبل الفكرى عندهم هو كل شىء وهم يسمحون به جوازا للولوج إلى كيان المسرح تأليفا وتنظيراً ونقدا وإخراجا وتمثيلا حتى وإن كان حامل الجواز عاطلاً تماماً من الإمكانية والعلم المسرحى. وسوف تجدين فى عدد الفكر المعاصر الذى يعد عن المسرح رهطا من الطيبين الفاضلين غير المسرحيين الذين سوف يسارعون إلى الافتاء فى المسرح قبل أن يفتح مسرحى واحد فمه بمقولة واحدة.

المشكلة يا صديقتى أن المسرحيين صاروا يتبنون مغالطات وخلط غير

المسرحيين حتى صار من النادر أن نجد مقالة واحدة مفيدة تكتب عن المسرح، ويا ويل من يكتب مصححاً للمغالطات والخلط: سوف يبدو هو الجاهل المغالط بالحتم!».

●●●

● «مسودة لفكرة عن الفن والفنانين، نيويورك ١٩٦٤: المبالغة فى تقديس الفن أمر مضحك للغاية . المعاشرة الإنسانية مع الفنان مملة ومعنتة . الفكرة هى اعترافى بأنى أرى الفنان ميتا يتسلى بالخلق، فلقد وصلت إلى ملاحظة أن معظم الفنانين أناس فشلوا فى تحقيق الحياة فهربوا إلى الإبداع، ولذلك فإن الإنسان الكامل السعيد لا يمكنه الخلق الفنى لأنه مشبع . وتصل أنانية الفنان وإنغماسه فى عالمه إلى عجزه عن الإحساس باللحم والدم، فعطفه على بطله الذهنى أكبر من عطفه على جاره مثلا، وهذه هى وحشية الفنان حقا. وأتصور أن الناس التى باع لها الفنان الترام منذ عصور تاريخية قديمة لن توافقنى على فكرتى هذه عن الفنان ، لأن الناس لا تحب أن تعترف أنها ساذجة إلى حد الحماقة. ومع ذلك فأنا متأكدة أن الجميع يعرف : معاشرة الفنان شىء ممل ومرهق، وهذا تفسير لحالة خيبة الأمل التى تصادفنا كلما قابلنا فنانا يعجبنا فنه».

● قطوف من رسالة طويلة إلى الأستاذ أحمد بهاء الدين أرسلتها إليه من نيويورك ١٨ إبريل ١٩٦٦ مكتوبة على مفارش ورق مطعم «شرافتس»، وعليها توقيت: «الساعة العاشرة مساء ، اتفضل العشاء ، الحساب دولار و ٨٩ سنتا + ٢٥ سنتا بقشيش: عزيزى الصديق؟، الزميل؟، الأستاذ؟، أستاذى؟، بهاء : نعم، نزعة التلمذة عندى هى الغالبة... وبما أنك قد عينتنى بمجلة المصور بمرتب ٦٠ جنيها فى الشهر ، فعلى عاتقك أن تهذب الفانتزى المسيطر علىّ وتأخذ منه التكوينات الملائمة للعالم الذى لا أعرفه . تعرفه ؟، أنا أحاول ....
... ...
... ...

إبريل ٢٧ / العام نفسه :

مازلت أكتب لك فى الخطاب . اليوم ستسافر ... إلى القاهرة وقد أرسلت معها صورة من المقالتين الضائعتين :

١- نشوة، ٢ - الفنان ميت يتسلى بالخلق.

أرسلتهما لأنى أحبهما جداً ولم أصدق ما قاله لى صباح قبانى بأن قولك بضياعهما ما هو إلا تعبير مهذب عن رفضك، فأنا لدى ثقة بقيمتهما، وإذا كانت طريقة كتابتى أخيراً غريبة إلى حد ما، فهذا تماماً هو التطور الطبيعى لى. ومازلت لا أعرف لماذا ترفض إلى الآن مجموعة : يا شجرة ... يا سحابة... يا

حصاه. قرأت أخيراً في مجلة حوار قصة قصيرة - مجموعة أشياء - لكاتب سوداني ، وهي غريبة غرابة أضعف كثيراً من غرابتي. همّي ليس أن أكون غريبة ، وأنا لا أفتعل الغرابة، ولكن هكذا أصبح تعبيري كلما أردت أن أكون صادقة مع عذابي. غضبانة من كل البشر وأشعر بيتم شديد، ولا أريد أن أصدق أن مشكلتي ليست سوى أنني شديدة المثالية. رغم فرحتي بنقلي إلى دار الهلال، إلاّ أنني لا أريد أن أقبض مرتبي الآن. فرحت أولاً لأنني صرت أعمل معك، ولكني توقفت عندما ذابت الفرحة داخل المسئولية: مسئولية رغبتي في ألا أسوّد وجهك أمام الغرباء بإنتاجي القليل، فأصدقائي أغلى عندي من أن أحملهم عبء القلق عليّ أو مني، ولا أريد مالاً لا أستحقه ، إلا تذكرة العودة من نيويورك إلى القاهرة، فأعتقد أن اقتراضها من الدار لن يظلم أحداً.

***

أمس كان ربيعا ولكني كنت ألبس المعطف، واليوم شتاء ولبست المعطف أيضا وقلت : خير لي أن ألبس معطفا في الربيع من أن أسير بلا معطف في الشتاء، وخطر لي برهة، برهة فقط، أنني أقول شيئا جديداً!.

حادثت أكرم ميداني تليفونيا ، أول أمس على ما أذكر وكان عمره سبع سنوات، فقد كان بشخصيته الرائعة لأنه أحيانا يصبح عمره ٣٨ سنة ويخيفني بشيخوخته. وطفاء تحضر لمعرض قريب أنتظره بفروغ صبر.

***

قررت العودة نهاية أغسطس إن شاء الله، لذلك أريد الحجز لي على الباخرة في الأسبوع الأول من سبتمبر. أفضل طريق المحيط الهادي، لأني أريد أن أبحث عن أصول ثلاث بطاقات من آسيا في هونج كونج! - (أمزح . أحبكم جميعا للأسف ، ويبدو أن تعبيري الوحيد لهذا الحب لن يأخذ سوى صورة واحدة هي تأليف الكتب عنكم، ويذهني حاليا مشروع لعدة دراسات أولها عن: العقاد بدون ضرب... ولي رغبة أخرى في دراسة عن مي زيادة - قرأت أخيراً محاضرات منصور فهمي عنها ... أعتقد أن مي زيادة هي المثقفة الفنانة بين كل النساء اللاتي شاركن في الأدب العربي المكتوب في آونة القرن العشرين، بعدها لا أتذكر واحدة . الملائكة وفدوى تنقصهما الهيومر والطفولة والإنغمار الحقيقي في التعبير. قرأت أخيرا غادة السمان: لا بحر في بيروت، وزهقت مع كل سطر، كيف يحدث أن تروّج مجموعة حالات الشفقة على النفس غير المبررة، ملخصها: آه ياني يا مثقفة يا أمه، يا خرابي عندي ٣٠ سنة ولا قليتش أدبي لسه ، وكله من ملتون وكيتس وعقدة

إلكترا إللى راكبانى يانى !. فتفوتة فن لم أجد، فتفوتة فكر أو حنان أو إنسانية أو هيومر، لم أجد سوى جبن قريش منزوع الدسم. المهم أعود إلى حبى وأنتم، هل اقتنعت الآن بفكرتى أن الفنان ميت يتسلى بالخلق؟. فى اليوم الذى أتزوج فيه رجلاً أحبه وأنجب أطفالا لن أكتب مطلقا وعندها يكون النجاح الحقيقي: نجاحى كإنسانة على قيد الحياة، وماذا أكثر ، إلى جانب رضا الله ورسوله؟. يا إلهى امنحنى قدرة عدم الكتابة!.)

***

فى المصعد اليوم كنت أهبط إلى الشارع . توقف المصعد عند الطابق السادس ودخل رجل وضغط على الزرار السادس ثم تنبه بعد برهة أنه قادم من الطابق الذى يريد الذهاب إليه. الرجل عادى جداً مثل الملايين العادية ولكنه قال كلمة انتبهت لها: أوه ياولد. مش عارف إن كنت رايح والا جاى!. أليس هذا ملخص كلام صمويل بيكيت؟.

***

لا أريد أن أترك الكتابة إليك لأنى ملتاذة بك من حفل عيد ميلاد فى الغرفة المجاورة. لم أحضرها لأنى جالسة مؤقتا عاملة تليفون فى المكتب الذى أعمل به، ولأنى لا أطيق صاحب عيد الميلاد وحيوان آخر جالس معهم. وطاقتى تتبدد عندما يمتزج ثقل الدم مع تكرار نكات حفلات عيد الميلاد التقليدية، خاصة إذا كان صاحب الميلاد يحتفل بعيده الـ ٣٨ وأعزبا ومتصوراً أنه عريس لقطة : يا نكد الزمان - (رسمت صورة كاريكاتيرية لصاحب عيد الميلاد أصلع ومغرور ويدخن البايب ويلبس البابيون أى الفيونكة!).

***

هل تعرف ممن أخاف الآن ؟. رهبة نظرات صديقاتى وهن قادمات لاستقبالى. كل واحدة عينها مخراز يطلب الشيء الذىّ تغير فىّ ، وعندما يصدمن لأنى لم أتغير سأكون مسئولة عن خيبة أملهن. الناس لا تغفر لمن لا يترك لها فرصة مهاجمته!. هل يمكن إخفاء موعد وصولى؟، أريد أن أصل أسبوعاً قبل أن أصل إلى علمهن، سأقابلك فى ذلك الأسبوع خلسة متنكرة فى نفسى التى لم تتغير .

***

أكلمك طويلاً فى هذا الخطاب لأنى أذكر أنك رحبت مرة بدردشتى، ولأنى استرحت بعد طلب اعفائى من المرتب الشهرى فأتلافى قولك: بدل اللت ده ما تكتبى مقالة. سأكتب إن شاء الله ولكن ليس اليوم. مع السلامة.

***

ملحوظة : عظيم لو أرسلت هذا الخطاب ولو وصلك. فلقد كتبت عدة مرات ولم أرسلها لك حين كنت أحس عند مراجعة الرسالة بحالة شفقة على النفس مقرفة. هذه المرة ليس هناك شفقة!.»

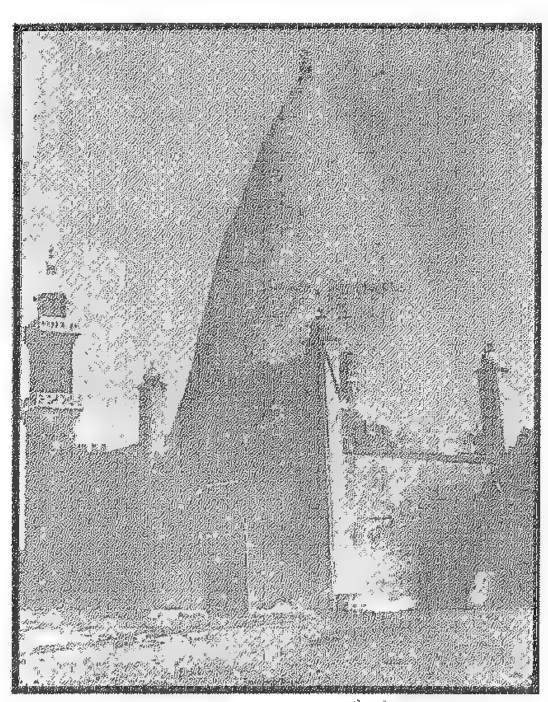
عرض كتاب

الطرق الصوفية وأثرها فى السودان

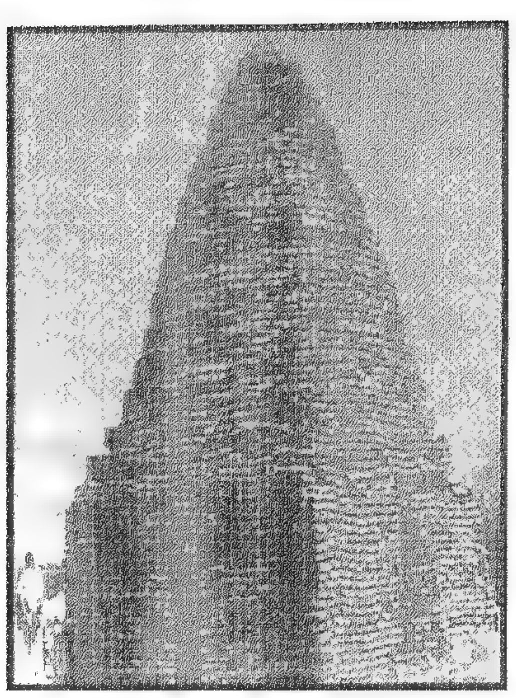
بقلم: د.صلاح عبداللطيف

تتعدد الطرق الصوفية فى السودان مثل الطريقة الشاذلية والسمانية والجيلانية والقادرية والسنوسية وغيرها. ويعتبر طبقات «ود ضيف الله» الذى يحمل اسم «كتاب الطبقات فى خصوص الأولياء الصالحين والعلماء والشعراء فى السودان» لمؤلفه محمد النور بن ضيف الله المولود فى القرن الثامن عشر مرجعا لأوضاع الطرق الصوفية فى السودان، ويحتوى على نوادر وحكايات عن كرامات الأولياء والصالحين، وهو يمثل تراثا هاما فى التاريخ السودانى ويعبر عن الجذور الحقيقية للشخصية السودانية.

يضم الكتاب ٢٧٠ شخصية من الأولياء والصالحين.. وقد أصدر الدكتور يوسف فضل حسن الأستاذ بجامعة الخرطوم نسخة من الطبقات صادرة من الجامعة بعد أن حققها وعلق عليها. وقدم لها، وهى النسخة الحديثة للطبقات. وهناك نسخة الشيخ حسب الرسول ونسخة سليمان داود منديل التى أصدرها فى



قبة الشيخ ادريس



قبة الشيخ التومى

أوائل القرن العشرين كما سبقتها أيضا نسخة الشيخ ابراهيم صديق.

يقول المؤلف الأصلى «ود ضيف الله» «إن الحافز لهذا الكتاب هو دعوة من بعض زملائه الذين طلبوا منه أن يؤرخ لهم ملك السودان وأن يذكر مناقب أوليائها الأعيان فاقتدى فى تأليفه بمن تأثر بهم من المحدثين والفقهاء والمؤرخين ممن ألفوا فى التاريخ والمناقب مثل عبد القافر النيسابورى والسيوطى وابن حجر العسقلانى والشيخ أحمد المعزى».

ويقول د. يوسف فضل حسن إن المؤلف قد تأثر بكتاب الطبقات الكبرى للشعرانى الذى روى عنه الكثير من الأخبار وكذلك طبقات الشافعية للسبكى، ويستند فى ذلك على قول المؤلف «أردت أن أجمع هؤلاء الأعيان (الأولياء) فى معجم، وأذكر العلماء على حدة وعلماء التوحيد على حدة وقراء القرآن على حدة والنجباء والشعراء على حدة، وأذكر الملوك والشيوخ المعنيين بأمر الدين والأعيان المذكورين بينهم بحروف الهجاء» وقد جاء ذكر الشعراء والملوك عرضا أو فى ثنايا التراجم.

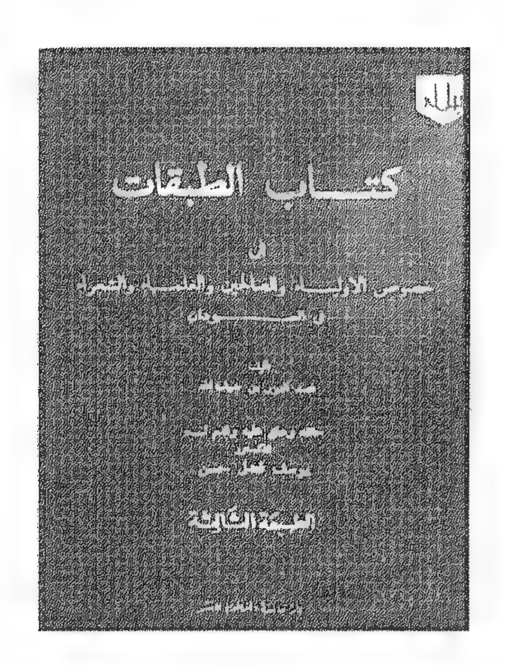
وقسم المؤلف الكتاب إلى ثلاثة أقسام رئيسية الأولى منها تمثل خطبة الكتاب وتشتمل على البسملة والصلاة على النبى (صلى الله عليه وسلم) ونبذة عن غرض الكتاب، ثم يذكر شيئا من مدح الله سبحانه وتعالى لأنبيائه.. متوسلا بجاههم

إلى الله ليكلل سعيه بالنجاح.. وفى القسم الثانى يؤرخ فى إيجاز شديد لنشأة مملكة الفونج فى السودان ذاكرا أسماء الأوائل من ملوكها وملوك العبدلاب وكذلك أسماء العلماء والصوفيين الذين وصفوا أسس التعاليم الإسلامية فى عهد تلك المملكة إلا أن ود ضيف الله لم يذكر شيئا كثيرا عن تاريخ تلك المملكة كما نوه فى مقدمة الكتاب بل ركز جهده على مناقب الأولياء وكراماتهم.

الطرق الصوفية في السودان

ويتناول الكتاب بالحديث عن الطرق الصوفية فى السودان، ويركز على أن الطريقة القادرية تعتبر أكثر الطرق الصوفية انتشارا فى السودان، واقترن دخولها السودان باسم تاج الدين البهارى البغدادى الذى قدم السودان عام ٩٨٥هـ – ١٥٧٧م من بغداد عن طريق الحجاز إثر دعوة بين «داود بن عبد الجليل» التاجر السودانى ومكث بالسودان سبع سنين تبعه عدد من المريدين منهم «خليفة محمد الهميم بن عبد الصادق» ونمت الطريقة القادرية على يد هؤلاء المريدين وتلاميذهم حتى صار معظم السكان من مريديها.

أما الطريقة الشاذلية فيروى «ود ضيف الله» أنها دخلت السودان قبل قيام مملكة الفونج، ومن الذين اهتدوا بتعاليمها الشيخ «خوجلى بن عبد



الرحمن»، و«الشيخ محمد بن المجذوب» الذى سلك هذه الطريقة فى الحجاز، وكتب لها الازدهار على يد حفدته والمجاذيب فى منطقة الدامر بالسودان حتى اشتهرت الطريقة باسم المجذوبية.

أما الطريقة «السمانية» فقد نشر تعاليمها الشيخ «أحمد الطيب البشير» فى القرن الثامن عشر، وهو الذى درس فى المدينة المنورة على مؤسس الطريقه «الشيخ محمد عبد الكريم السمانى وكانت هى والختمية امتدادا لحركة الاصلاح الدينى التى اجتاحت الولايات الجنوبية من الامبراطورية العثمانية، وقد دخلت الختمية السودان عام ١٨١٨ على يد مؤسسها السيد «محمد عثمان الميرغنى» وقد وجدت الطريقة السمانية قبولا فى بعض المناطق على حساب الطرق الأخرى.

قوة روحية لها سلطان على النفوس

سعى طلائع المتصوفة الذين قدموا إلى السودان إلى نشر وتعميق مبادئ العقيدة الإسلامية بطريقة مبسطة أساسها الزام المريدين اتباع نهج أخلاقي وتعبدي خاص مع المداومة على قراءة أذكار وأوراد معلومة. وكانت درجة نجاحهم في هذا المسعى تعتمد اعتمادا مطردا على ما يتمتعون به من علم وخلق ديني وورع وزهد وسلطان روحي وكرامات. وفي هذه العصور كان الشيوخ يمتلكون قوة روحية ذات سلطان عظيم على النفوس أحياء كانوا أم أمواتا.. وكانوا مصدر خير للضعفاء والفقراء يحمونهم من غدر الحكام وظلم السلاطين.

ويقول د. يوسف فضل حسن إن المتصوفة وأغلبهم من غير العلماء قربهم من نفوس الناس في نشر التعاليم الاسلامية، ولكن دون تمحيص أو مراقبة دقيقة لما علق بتعاليمهم الصوفية من شعوذة وخرافة. فالتف الاتباع والمريدون حول هؤلاء المشايخ يلهجون بحمدهم ويسبغون عليهم الكرامات وخوارق العادات.. بل بالغ بعض الاتباع حتى ظنوا أن مشايخهم قادرون على إبراء المرضى بالتعاويذ واحياء الموتى والإخبار عن الغيب، وأن لهم قدرات فوق طاقات البشر.. إلى آخر سلسلة الكرامات التي تمتلئ بها طبقات ود ضيف الله، فهو يتحدث عن كرامات الشيخ القدال والشيخ حسن ود حسونة الذى آحيا بنت الخشاب بعد موتها، وأحيا عفيشة ولد أبكر بعد أن غرق لمدة ٣ أيام.. وكان للنيل أثر فى حياة هؤلاء فيحكى أن الشيخ خوجلى وضع عصا فى النيل فهاج النيل وامتلأت السواقى بالماء.. وأن الشيخ أبا عمرو توضأ بأبريق كان معه فزاد النيل فى ذلك اليوم.

الملوك والسلاطين

لم يكن الاعتقاد فى الأولياء وقفا على عامة الناس بل اعتقد الملوك والسلاطين فيهم، وكانوا لا يشرعون فى عمل هام إلا بعد مشورتهم كما فعل الشيخ عجيب عندما عزم على حرب القونج، وأن الشيخ «ادريسى ود الأرباب» تنبأ له بأنهم سينتصرون وأن ذريته ستسود إلى يوم القيامة، وازاء هذا الاحترام والتأييد من السلطات الحاكمة لقى المتصوفة كالعلماء كثيرا من أسباب العون المادى إذ أوقف الحكام عليهم الاقطاعيات وأعفوهم من الضرائب بينما أغدق عليهم المريدون والاتباع من عامة الناس النذور والهدايا. واستغل المتصوفة هذا الدخل بالقيام بمتطلبات وظيفتهم التى تجمع بين الارشاد الدينى والهداية الروحية وعلاج المرضى بالاضافة إلى الإنفاق على المحتاجين وأبناء السبيل والفارين من

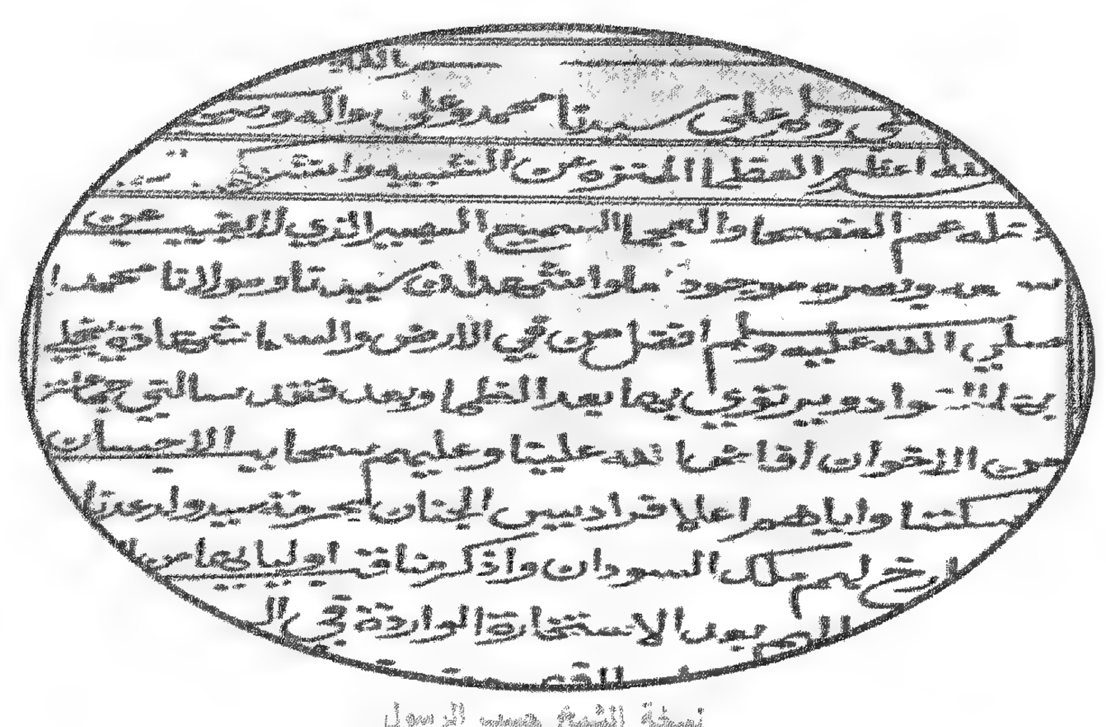
بطش السلاطين. ومنذ ذلك الوقت انخرط السودانيون فى الطرق الصوفية.

العلماء والمتصوفة.. والخلوة

ويذكر د. حسن فضل في تحقيقه عن كتاب طبقات ود ضيف الله أن العلماء لم يحسنوا الظن بالمتصوفة وتشابهت وظيفتيهما وخاصة فى نظام الخلوة وكان المسجد مكانا ملائما لعقد حلقات الذكر واهتم العلماء بإنشاء المساجد لنشر تعاليم الدين الاسلامى فاهتم بعضهم بتدريس القرآن وركز آخرون على تعاليم الفقه بينما جمعت بعض المساجد بين المنهجين.

ويخلط ود ضيف الله بين المسجد والخلوة، وهو يستعمل كلمتى مسجد ومسيد وخلوة للدلالة على معهد التعليم.. بينما اشتهرت الخلوة بأنها مكان للتعبد فى عزلة عن الناس فلما انتشر التصوف في السودان انتقلت فكرة الخلوة بمفهومها التعبدى إلى المسجد وصار دخول الخلوات أمرا شائعا بين الأولياء والفقهاء، وصارت الخلوة مرادفة لمعهد التعليم وأصبحت

نسخة الشيخ أحمد الامين خليفة الشيخ خوجلي

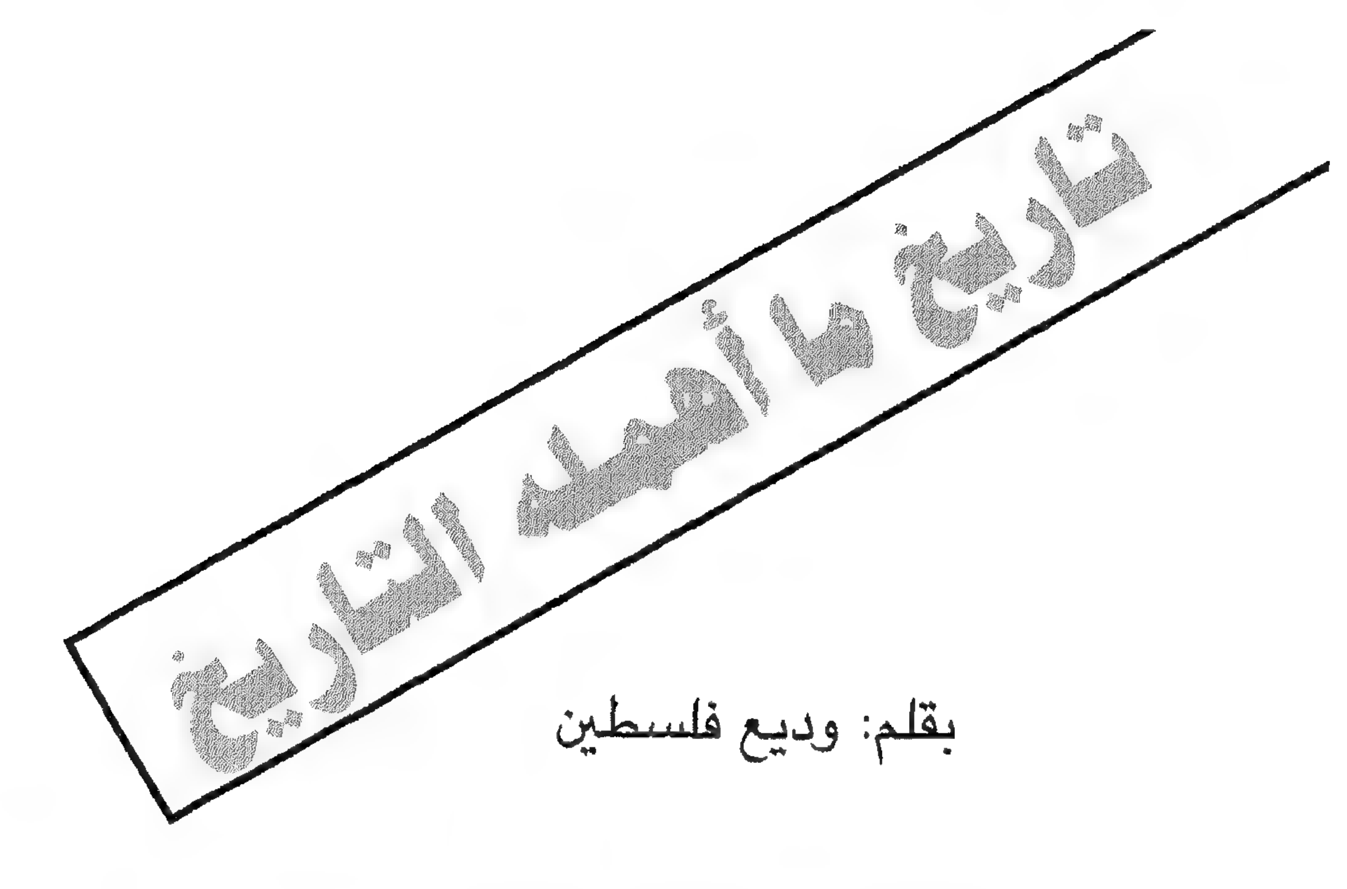


نسخة الشيخ حسب الرسول

بمثابة مركز الاشعاع الروحي والثقافي والاجتماعي في كل قرية، ومن ثم جمعت الخلوة تحت رعاية الشيخ أو الفقيه الصوفي بين وظائف تدريس مبادئ القرآن الكريم والفقه وتنشئة المريدين على العبادة والصلاة والتأمل.

انتشار كتب التصوف

وانتشرت على ضوء ذلك في السودان كتب التصوف وحظيت بالاهتمام وأقبل المريدون عليها مثل الطبقات الكبرى المسماة لواقح الأنوار في طبقات الأخيار لـ«عبد الوهاب الشعراني» المتوفى في ٩٧٣هـ والذي تناول فيه جماعة من الصحابة والتابعين والزهاد والأولياء حتى أواسط القرن العاشر الهجري.. ومن مؤلفات الشعراني الشائعة في السودان والتي شاعت أيضا في مصر «لطائف المنن والأخلاق في بيان التحدث بنعمة الله على الإطلاق»، وكتاب دلائل الخيرات وشوارق الأنوار في الصلاة على النبي المختار لأبي عبد الله محمد عبد الرحمن بن أبي بكر الجزولي منشئ الطريقة الجزولية.. ويعتبر هذا الكتاب أكثر كتب الأوراد ذيوعا في السودان وكذلك كتاب «حزب البحر» المعروف بالحرز اليماني للشيخ عبد القادر الجيلاني، وكذلك مؤلفات ابن عطا الله السكندري والامام أبي الحسن الشاذلي ومازالت الطرق الصوفية تمثل غالبية المجتمع السوداني وخاصة في الشرق والغرب والشمال، فهذه الطرق هي الجذور الحقيقية في المجتمع السوداني ومن خلالها انتشر الاسلام في السودان.



تاريخ ما أهمله التاريخ

بقلم: وديع فلسطين

أستعير هذا العنوان من صديقى الصحفى الأديب الكبير الراحل حبيب جاماتى (١٨٨٧ ـ ١٩٦٨) دون أن أزعم مجاراته فى هذا الميدان، فقد كان يصول فيه ويجول دون منافس. وفى «الهلال» عشرات من فصوله الممتعة التى استخلص مادتها مما أهمله المؤرخون وهم يهتمون بكبريات الأحداث وبأخبار الزعماء والمتزعمين، وفى هذه السطور نماذج من مهملات التاريخ وقفت عليها بحكم الاقتراب من أصحابها.

مصطفى كامل

محمد فريد

علي الغاياتي
المُبتلى بالنكبات

على الغاياتى (١٨٨٥ ـ ١٩٥٦) شيخ أزهرى، كان مُقدرا له أن يسلك مثل أقرانه، فيعمل فى الحقل الدينى أو الحقل التعليمى، ولكنه اختار العمل فى الصحافة، ولا سيما لأن هواه كان مع الحزب الوطنى بزعامة مصطفى كامل باشا (١٨٧٤ ـ ١٩٠٨) ومحمد فريد بك (١٨٦٧ ـ ١٩١٩) من بعده فعمل الغاياتى محررا فى صحف الحزب الوطنى، ولكن «شيطان» الشعر استولى عليه، فأصدر فى عام ١٩١٠ ديوانا عنوانه «وطنيتى»، استكتب محمد فريد بك وعبدالعزيز جاويش (١٨٧٦ ـ ١٩٢٩) مقدمتين له . ولم يكد الديوان يصدر حتى نشط البوليس السياسى

عبدالعزيز جاويش　　الخديو عباس حلمى




لملاحقة «المجرمين» الثلاثة المسئولين عنه، وهم الغاياتى بشعره الثورى، ومحمد فريد بك وعبدالعزيز جاويش بمقدمتيهما اللتين زينتا الجرائم التى تورط فيها الديوان. ولم يضيع الغاياتى وقتا، فسافر خفية الى استنبول ومنها إلى جنيف وهناك استقر بعيدا عن المحاكمات التى جرت فى القاهرة. وكان الاتهام الموجه إلى ثلاثتهم هو «العيب فى ذات ولى الأمر (الخديو عباس حلمى الثانى) والتحريض على كراهية الحكومة والازدراء بهما وتحبيذ الجرائم السياسية» . وصدر الحكم غيابيا على الغاياتى بالحبس سنة وعلى عبدالعزيز جاويش حضوريا بالحبس ثلاثة أشهر، أما محمد فريد بك فكان مسافرا فى الخارج، فلما عاد صدر عليه الحكم بالحبس ستة اشهر مع النفاذ.

وعندما وصل الغاياتى إلى تركيا أولا ثم إلى جنيف لم يكن يعرف أى لغة أجنبية، فتعذر عليه الاهتداء الى عمل، ولكنه شغل نفسه بتدريس اللغة العربية لابناء المغتربين من العرب هنا وهناك، وعندما استطاع إتقان اللغة الفرنسية بعد دراستها دراسة منهجية، قرر أن

يصدر فى جنيف جريدة أسبوعية باللغتين العربية والفرنسية، اختار لها اسم «منبر الشرق» واتخذ لها شعارا هو:

باسم الكنانة واسم شعب ناهض
لا باسم أحزاب ولا زعماء
كل يزول وينقضى، إلا الحمى
فوديعة الآباء للأبناء

واعتبارا من عام ١٩٢٢ بدأت جريدة منبر الشرق» تصدر اسبوعيا فى جنيف، ونظرا لأن سويسرا خلت من المطابع العربية، فكان الغاياتى يكتب بخط يده الجميل الصفحة العربية كلها، ثم يستخرج لها لوحة زنكوغرافية تتم الطباعة من واقعها. وعاش الغاياتى فى جنيف، وأصبح هناك شبه عمدة للمصريين والعرب الذين كانوا يؤمون هذه المدينة لعرض قضاياهم الوطنية أمام عصبة الأمم، وكانوا يستعينون بالغاياتى بسبب اتصالاته الواسعة بالصحافة السويسرية. وأصبح «منبر الشرق» منبرا للدفاع عن قضايا العالمين العربى والاسلامى، وكانت تنشر مقالا مدوية للمجاهدين العرب المقيمين فى الوطن أو النازحين الى اوربا، وفى طليعتهم الأمير الضخم شكيب أرسلان (١٨٦٩ ـ ١٩٤٦) .

وتزوج الغاياتى من سيدة سويسرية، وظل يواصل إصدار جريدته فى جنيف إلى عام ١٩٣٧ عندما قرر العودة النهائية الى مصر بناء على إلحاح الزعماء المصريين الذين كان يلتقى بهم فى جنيف، ثم لأن الحكم بحبسه سقط بمضى المدة، ولأن بناته الأربع أصبحن مرشحات للزواج، والزوج المصرى مفضل على الأجنبى، وكان الغاياتى موعودا من الزعماء الذين أقنعوه بالعودة بأن تسند اليه مناصب دبلوماسية فى مصر، ولكن هذه الوعود تبخرت بعد عودته. ومن هنا قرر إعادة إصدار جريدة «منبر الشرق» من القاهرة، وبقى يصدرها بانتظام صارم الى وفاته فى ٢٤ اغسطس ١٩٥٦. وحرصا منه على إتقان الطباعة وخلو الجريدة من الأغاليط، أنشأ لنفسه مطبعة خاصة الى جوار بيته فى عمارة بحرى بميدان الاسماعيلية (التحرير) وكان له فى المطبعة مكتب يستقبل فيه أصدقاءه الكثيرين، وكنت من جملتهم، بل كنت من الذين يواصلون «المنبر» بمقالاتهم، فكان الغاياتى ينشرها دون ان يعمل فيها قلمه الأحمر، أما ان كان له تحفظ على بعض كتاباتى ، فقد كان

يذيلها بتعليق من عنده.

لم تكن الحياة هينة لينة فى مصر بالنسبة لعلى الغاياتى، فقد ابتلى بسلسلة من النكبات لم ترحم شيخوخته، تمثلت النكبة الأولى فى حادث يتعلق بكبرى كريماته، إذ كانت عائدة إلى بيتها فى عمارة بحرى، فلمحها زنجى متوحش فتن بجمالها الأخاذ، فسار خلفها ودخل المصعد وراءها على زعم بأنه صاعد الى الادوار العليا. واكتشف والمصعد منطلق إلى اعلى الشقة التى تقيم فيها، فهبط لتوه، ودق جرس الباب، ففتحته هذه الشابة، وعندئذ هجم عليها وقضم أنفها وفر هاربا. وانشغلت الاسرة بمحاولة إنقاذ الفتاة من انهار الدم التى سالت من أنفها مما أتاح للوحش أن يهبط الدرج مسرعا ويذوب فى الزحام.

أما النكبة الثانية فقد تمثلت فى فقد ابنه الوحيد الذى سماه على اسم «على الغاياتى» وكان يعمل أستاذا فى كليات الفنون ويعشق صيد الحيوان فى البرارى، وذات يوم خرج مع بعض أصحابه إلى صحراء سيناء (وكانت وقتها جرداء مقفرة) ومعهم بندقياتهم للصيد هناك، فانطلقت رصاصة طائشة من بندقيته أصابته فى صدره، وعندئذ نقله أصحابه إلى مستشفى شركة قناة السويس الفرنسية فى الاسماعيلية، ولكن المسئولين فى المستشفى فاجأوهم بأنهم لا يستطيعون قبول المصاب لأن المستشفى مخصص لموظفى الشركة وحدهم، ونصحوهم بنقله إلى المستشفى الاميرى فى السويس، فلفظ أنفاسه قبل أن يدركه.

أما الكارثة الثالثة فقد تعلقت بحفيده زياد، نجل الدكتور مصطفى الحفناوى المحامى وعضو مجلس إدارة هيئة قناة السويس بعد تأميمها كانت أسرة الدكتور الحفناوى تقيم وقتها فى بيت فى طريق الأهرام بالجيزة، ولم يكن العمران قد استبحر فى هذه المنطقة فغطى جميع مساحاتها الخضراء وخرج الصبى زياد ليتريض على دراجته فى هذه المنطقة الهادئة. ولكن شاء حظه التعس أن تصدمه سيارة مسرعة فقتلته على الفور، وقد أقام والده مسجدا تخليدا لذكراه فى العمارة التى تحتلها الآن وزارة التعليم العالى فى حى جاردن سيتى .

وأما النكبة الرابعة فتعلقت بحفيدة الغاياتى، وهى ابنة زميلنا الصحفى

محمد على ناصف، كانت الشابة تهم بركوب المصعد فى العمارة التى تقيم فيها الاسرة فى شارع فهمى بباب اللوق، وبسبب خلل ميكانيكى في المصعد أغلق بابه عليها فانفصل رأسها عن جسدها وماتت فى التو واللحظة.

كنت فى جنيف فى صيف عام ١٩٥٦ أستهل يومى بمطالعة الصحف السويسرية، فقرأت فيها جميعا مقالات مطولة تنعى على الغاياتى، اذ كان معروفا على نطاق واسع فى أوساط الصحافة السويسرية . وزاد من حزنى على هذا الصديق اننى لم أشارك فى تشييع جنازته.

أوائل المبشرين بالاشتراكية

يروى سلامة موسى فى كتابه «تربية سلامة موسى» أنه ألف فى عام ١٩٢٠ عقب ثورة ١٩١٩ هو والدكتور على العنانى ومحمد عبدالله عنان ومحمود حسنى العرابى الحزب الاشتراكى، «وأرخى لنا المستعمرون الحبل كى يعرفوا مدى نشاطنا والاستجابة التى نلقاها من الشعب. والحق أنها كانت استجابة حسنة ويبدو اننا كنا نسير فى اعتدال ونتقى المصادمات.. ولكن حدث فجأة أن أحدنا، وهو حسنى العرابى، وجد فينا بطئا لم يطق له صبرا، فقصد الى الاسكندرية وأعلن قيام الحزب الإباحى ـ أى الشيوعى ـ وانشق عنا» .

وقد أتيح لى أن أعرف ثلاثة من الأربعة المبشرين الأوائل بالاشتراكية، وهم سلامة موسى ومحمد عبد الله عنان ومحمود حسنى العرابى. أما الدكتور على العنانى فلم أعرفه شخصيا، وان كنت لاحظت زياراته المتكررة للعرابى فى مكتبه بجريدة «المقطم» وكانت تجمعنى معه غرفة واحدة هى غرفة المترجمين .

وقد اعترف لى هؤلاء الثلاثة بأنهم تبرأوا من الماركسية بكل أسمائها المختلفة. زرت سلامة موسى فى فراش مرضه بالمستشفى القبطى قبل وفاته بأيام، فسألنى عن أخبار السياسة. فقلت له ان صحته أهم، وإن حياته أهم من كل مجريات السياسة. وانتهزت الفرصة لأسأله : هل أنت راض عن التطبيق العملى للاشتراكية فى مصر؟

فقال : بل إن هذا التطبيق أثبت فساد هذه النظرية التى كنت فى الماضى متحمسا لها أما الآن فلم أعد كذلك . وسألته : هل أفهم من هذا أنك كفرت

بالنظرية التى كنت من أوائل الداعين لها؟ فقال : اذا كان تطبيقها هو مارأيت، فقد كفرت بها .

أما محمد عبدالله عنان فقد كان أول الكافرين بالنظرية الماركسية حتى قبل أن يرى تطبيقاتها العملية. فانصرف من وقت مبكر إلى مباحثه التى تدور حول مصرية مصر وإسلاميتها. وحول الاندلس وتاريخه حتى باتت كتبه الضخام عن الاندلس أوثق مرجع وأدقه بحكم أسفاره المتعددة إلى إسبانيا والمغرب وإطلاعه على المخطوطات المودعة فى مكتباتهما، وهى مخطوطات مازال المغاربة يضنون بها ويرفضون اطلاع غيرهم عليها .

ولأن عنان برىء من جريرة الماركسية، فقد اختير فى وقت من الأوقات مديرا لإدارة المطبوعات التابعة لوزارة الداخلية، وهى التى كانت تقوم بالمهام الموكولة اليوم إلى وزارة الإعلام . وعندما سألت محمد عبدالله عنان عن سبب نفوره من دعوة القومية العربية التى راجت أسواقها فى ذلك الوقت وكان من أكبر منظريها العلامة ساطع الحصرى، قال إنها دعوة ماركسية تتستر تحت اسم العروبة، ولا شأن لى بهذه أو بتلك .

وأما محمود حسنى العرابى، فقد كان تطرفه فى اعتناق الماركسية وسفره إلى أوربا للاتصال بمنظماتها سببا فى تجريده من الجنسية المصرية وفى تشرده ٨٩ شهرا فى المنفى - وهو عنوان الكتاب الذى أصدره بعد ذلك. وعندما هم العرابى بالعودة إلى مصر وجد أمن الموانئ يمنعه من النزول من الباخرة، فإذا عادت الباخرة إلى الموانىء الأوربية حيل بينه وبين النزول لأنه لا يحمل جواز سفر. وهكذا قضى شهورا فى السفينة تتقاذفه الموانىء المختلفة، بما فيها الموانىء المصرية، حتى وصفته الصحف العالمية بأنه «ذارع البحار» . ولكن وزيرا حصيفا للداخلية (لا أذكر من هو) ارتأى أن قضية ذارع البحار أصبحت فضيحة عالمية، فأصدر أوامره لأمن الموانئ بتركه يتسلل إلى داخل البلاد وكأن العيون غفلت عنه، وهكذا عاد إلى مصر ولكن بلا جنسية، عمل بعد ذلك فى بعض الصحف مترجما، أو محررا فى مجلة اسمها «الكفاح» وأصدر جريدة اسبوعية، ولم يستطع استرداد جنسيته المصرية إلا بعد أن كتب سلسلة من المقالات بعنوان «آه لو كنت مصريا» تحرك بعدها وزير الداخلية فؤاد سراج الدين باشا وردّ الجنسية إليه. وكان

فى أواخر أيامه يعمل مترجما فى جريدة «السياسة» فى المساء ومترجما فى جريدة «المقطم» فى النهار، وعندما قامت الثورة وعين صديقه رشاد مهناً عضوا فى مجلس الوصاية، صار العرابى يكثر من زياراته له فى قصر عابدين، وهنا تلقفته جريدة «الأهرام» للعمل فيها مادام مقربا من أبرز أعضاء مجلس الوصاية. ولكن سرعان ما تم البطش بهذا المجلس وان كان العرابى احتفظ بعمله فى «الاهرام» الى أن توفى بعيد ذلك فى صيف عام ١٩٥٥ .

وكنت سألت العرابى وهو يزاملنى فى نفس الغرفة فى جريدة «المقطم» نحو ثمانية أعوام عما إذا كان لم يزل يؤمن «بالإباحية» ، أعنى الشيوعية، فكان رده الحاسم: وماذا كسبت من هذا الطريق الا التشريد بل الجوع؟ إن واجبى الأول الآن هو أن أرعى أسرتى ـ وكان قد تزوج فى سن متأخرة وأنجب طفلة ـ وآمل أن يمتد بى العمر حتى أرى طفلتى وقد نالت شهادتها الجامعية. وهى أمنية لم تتحقق لأن طفلته عاشت يتيمة منذ طفولتها الأولى.

فى حديثى عن مؤرخ اليمن الشيخ عبدالواسع الواسعى (المنشور فى هلال يونيو ٢٠٠٠) قلت إن الامام يحيى حميد الدين هو الذى كان يحكم اليمن عندما قامت ثورة ابن الوزير، وأنه أشيع وقتها ان الامام قتل ولكن تبين أن الاشاعة كاذبة. وواقع الامر ان الامام يحيى اغتيل فى هذا الانقلاب مع اثنين من ابنائه ورئيس وزرائه. ولكن ولى عهده وأكبر أبنائه أحمد تولى الامامة واستطاع اخماد ثورة ابن الوزير وأعدمه هو وكل أعوانه.

وفى حديثى فى نفس العدد من «الهلال» عن عيسى خليل صباغ فاتنى ان أشير الى أن له كتابا باللغة الانجليزية عنوانه «كذا تكلم العرب» ولعله تأثر فى


سلامة موسى   بديعة مصابنى

هذا العنوان بالفيلسوف نيتشه صاحب كتاب «كذا تكلم زرادشت».

وفي حديثي عن جاك تاجر أمين المكتبة الخاصة لجلالة الملك (المنشور فى عدد يناير ٢٠٠٠) ذكرت انه اصدر كتابا عنوانه «مسلمون وأقباط» كان سببا فى ضياع وظيفته ووفاته تحت عجلات مترو مصر الجديدة. وقد أخبرنى صديقى الامريكى/ المصرى الدكتور جيمى بشاى الطبيب النفسى فى الجامعات الأمريكية ـ وهو شقيق الرسام جورج البهجورى ـ ان الدكتور رجائى مقار من أساتذة جامعة يوطا UTAH الأمريكية ترجم هذا الكتاب إلى اللغة الانجليزية ، وأنه يقوم حاليا بترجمة كتاب «أيقونة فلتس» للبهجورى لنشره فى الولايات المتحدة.

وفى عدد مايو ٢٠٠٠ من «الهلال»





نجيب الريحانى رشاد مهنا

ذكرت نقلا عن الدكتور أنور لوقا الاستاذ بالجامعات الفرنسية والسويسرية أن روبير سوليه محرر جريدة «الموند» الفرنسية هو من شوام مصر، وأنه ابن شقيقة الدكتور جاك تاجر . وقد نبهنى بعض الأصدقاء الى أن الاسم الذى عرفت به هذه الأسرة فى مصر هو «صولى» وقد حور إلى «سوليه» باللغة الفرنسية.

وأشرت فى حديثى بعدد يوليو ٢٠٠٠ إلى زيارة العلامة الانجليزى ألدوس هكسلى لمصر فى عام ١٩٤٨ موفدا من هيئة اليونسكو حيث ألقى محاضرة عامة فى القاهرة وكان موضوع تكريم من وزير المعارف. وقد خانتنى الذاكرة لأن الزائر هو جوليان هكسلى المدير العام لهيئة اليونسكو الذى قال لى وقتها إن المنظمة تعتزم تنفيذ مشروع لترجمة الروائع الأدبية العربية القديمة إلى جميع اللغات الحية، وكذلك ترجمة روائع آداب الغرب الى اللغات الحية، ومنها العربية .

شاعر لبنانى يتزوج من الراقصة بديعة مصابنى

إلياس خليل زخريا (١٩١١ ـ ١٩٨٦)

أديب وشاعر وصحفى لبنانى درس فى المعاهد اللبنانية والسورية وفى كلية الآداب

بجامعة فؤاد الأول وفى الجامعات الفرنسية. وعمل فى عدد من الصحف اللبنانية. وكان ذا اسلوب عربى شديد النصاعة. وكانت مقالاته وقصائده تحتل الصفحات الأولى من الصحف والمجلات الأدبية. ولكن الصحافة جنت عليه لأنه مات دون أن ينشر له كتاب واحد من كتبه الكثيرة التى اختار عناوينها وهى «ثمالات» و«أصابع اليقين» و«عيون الورد» و«الورق المقطف» وغيرها، عدا حرصه على تسجيل المعارك الأدبية التى دارت فى لبنان فى كتاب مخطوط يضم آلافا من الصفحات.

فى عام ١٩٥٠ كنت فى مكتبى فى الجريدة التى أعمل فيها عندما تلقيت هاتفا من إلياس خليل زخريا يقول فيه إنه يزور القاهرة الآن ويود التعرف بى شخصيا. فقلت له إننى سأغادر مكتبى بعد نصف ساعة، فان أمكنه اللحاق بى فأهلا وسهلا، والا أرجأنا اللقاء إلى يوم تال. فقال إن لديه سيارة بسائقها. وأنه سيصل حالا. فرحبت به فى الدقائق الباقية قب انصرافى، ولكنه عرض علىّ أن يوصلنى بسيارته إلى منزلى فى الجيزة ليستزيد خلال الرحلة من صحبتى. وخرجنا من المكتب فوجدت سيارة ملاكى فارهة تقف عند الباب وسائقها واقف إلى جوارها. وقال : هذه هى سيارتى، فتفضل بالركوب إلى جوارى. وانطلقت بنا السيارة. وهنا سألته : هل استأجرت هذه السيارة أثناء إقامتك فى القاهرة؟ فقال : بل هى سيارة زوجتى. وعدت أسأله : وهل تقيم زوجتك فى مصر؟ فقال : نعم، فزوجتى هى بديعة مصابنى! فقلت له والدهشة تعقد لسانى: يبدو ان اسمها يتطابق مع اسم الفنانة المعروفة؟ (وتعمدت أن اصفها بالفنانة لا بالراقصة من قبيل التأدب). فقال : بل هى نفسها الفنانة المعروفة، فقد تزوجنا، ووضعت سيارتها الخاصة بسائقها تحت تصرفى!.

كانت بديعة مصابنى متزوجة قبل ذلك من الممثل الكوميدى نجيب الريحانى (١٨٩١ ـ ١٩٤٩) وهو زواج كاثوليكى لا طلاق فيه، وولكن بوفاة الريحانى فى عام ١٩٤٩ أصبحت الراقصة المشهورة حرة، تتزوج من تشاء حتى وإن كان يصغرها فى العمر مثل الياس خليل زخريا .

ويبدو أن هذا الزواج كان قصير العمر، إذ عاش ألياس خليل زخريا عزبا حتى بعد عودة بديعة مصابنى إلى بيروت حيث أقامت مفرخة للدجاج وتركت فن الرقص بعدما تقدمت بها السن .

تجارب

نصف قرن من محبة الاستطلاع

مجدى يوسف

عادة ما لا يعنينى الماضى إلا بقدر ما يمكننى من التعلم من أخطائه.

ولكني بعد أن وجدت أن السنين تجرى بهذه السرعة، سألت نفسى فيما كانت جدوى تلك التجارب التى عشتها لمن يعنينى أن أعيش من أجلهم: أبسط بسطاء هذا العالم فى وطنى، وكل الأوطان قررت إذن أن أضع بين أيديهم هذه المحاولات التى تجلى فيها الخطأ، والتى لا تستحق أن تنشر عليهم إلا لسبب ذاتى واحد:

هو أنى كنت ولازلت أحاول مخلصا أن أفهم وأعى بصورة أفضل ما يدور حولى فى هذه الحياة، وأن أضع ما وصلت إليه - على قلته - بين أيدى من يعنينى أن أتواصل معهم: بسطاء هذه الدنيا ومنتجيها الحقيقيين، منتجي كل ما فيها من قيم مادية وفكرية ومعنوية، أى منتجيها المباشرين. ولهم أن يقيموا محاولاتى هذه كيفما شاءوا.

أعترف بداية أنى عندما بدأت مشوار حياتى الواعية كانت فى نفسى دهشة عارمة وحب استطلاع متدفق، لا أكثر. كنت فى الثانية عشرة من عمرى، أقطن ضاحية الزيتون، وعلى مقربة من دارنا، بل على بعد خطوات قليلة منها، فى شارع دار السعادة، ڤيلا بحديقة جميلة يحوطها سور دون عليه: مكتبة الزيتون. وكانت تابعة لدار الكتب العامة. كنت أراها من شرفة منزلنا، كما أرى من الناحية المقابلة لها - خلف دارنا مباشرة - ڤيلا أخرى أنيقة لها أسوار عالية، علمت أنها كانت لصدقى «باشا».

وعلمت بعدها بنيف وثلاثين عاما - فى الثمانينات من القرن الماضى - أن أمينة رشيد، أستاذة الأدب الفرنسى فى يومنا هذا - كانت وراء تلك الأسوار العالية مع مربيتها الألمانية.

لم تكن تعنينى تلك الڤيلا بأسوارها العالية فى شىء. أما الڤيلا ذات الباب المفتوح التى كتب عليها يافطة «مكتبة الزيتون» فكنت أعشقها، ولا أكاد أستيقظ فى أجازات المدرسة إلا لأسرع إليها، وأظل أقرأ فيها حتى يطلب منى السعاة مغادرتها لانتهاء الوقت.

عندما زرتها للمرة الأولى كنت فى الثانية عشرة من عمرى.

كان ذلك فى عام ١٩٤٨. وكان رحيل والدتى قبل ذلك بعام قد ترك فى نفسى فراغا كبيرا أردت أن أملأه بالقراءة ومحاولة الفهم. وربما كان هذا هو السبب الذى حدا بى عندما طفت للمرة الأولى بأرفف تلك المكتبة إلى التوقف أمام عنوان: علم النفس والفلسفة. تسمرت فى مكانى أمام هذا الرف من الكتب ولم أبرحه. كنت أسارع إليه كل صباح لا أذهب فيه إلى



المدرسة، لأستكمل قراءة كتاب منه بدأت مطالعته فى الأيام السابقة. وكانت أولى قراءاتى فيه لمؤلفات «سيجموند فرويد». كنت أقرأه مترجما إلى العربية بطبيعة الحال، فما كانت محصلتى من اللغات الأجنبية، التى تعلمتها فى مدرسة الزيتون الابتدائية، تسمح لى بأن أقرأه بها ، ولكنى ما لبثت أن تطلعت لقراءته بالانجليزية، فقد أحسست قصورا ما فى ترجماته العربية آنذاك. ولكن كيف يتحقق لى قراءته بالانجليزية دون قاموس؟

فليكن بالقاموس. هكذا بدأت. وكانت طبعة دار نشر «مكميلان» لأوراق «فرويد» المجمعة Collected papers، والمنشورة فى الأربعينات هى التى قصدتها، ولعلها كانت الوحيدة المتاحة فى المكتبة آنذاك بطبيعة الحال لم تكن القراءة بالقاموس رحلة شيقة على الاطلاق. فمن بين العشر كلمات فى السطر الواحد كنت مضطرا لأن أبحث عن معنى ثمان أو تسع منها. ولكن بعد فترة قل عددها إلى سبع فست فخمس، وهلم جرا. ولكنها لم تبلغ أبدا درجة الصفر، أو واحد أو اثنين. ومع ذلك فقد كانت بهجتى كبيرة للتغلب على صعوبة اللغة، والتواصل مع أفكار المؤلف، خاصة مع نظريته فى اللاوعى، أو ما كان يطلق عليه «العقل الباطن». وقد بلغ تأثرى بهذه النظرية أن بدأت أعرضها فى مشروع كتاب لى، وأنا فى الرابعة عشرة من عمرى، دعوته «رياض علم النفس». ولكنى ما كدت أفرغ من كتابة الفصل الأول منه حتى اختفت المخطوطة. وقد علمت بعد ذلك أن والدى قد استولى عليها، وراح يعرضها على أصدقائه وذويه، متباهيا بذكاء ابنه وسعة اطلاعه! ولو كنت أنا والده، لما كنت أسمح لنفسى أن أفعل شيئا كهذا دون استئذانه، بل ولما قرأت ما يكتب - طالما أنه لم ينشر - إلا إذا طلب منى ذلك، أو لم يكن معترضا على الأقل. ولحاولت أن أناقشه فى أفكاره، وأشجعه على المضى فى تدوينها، حاثا إياه على أن يكون أول ناقد لما يكتب.

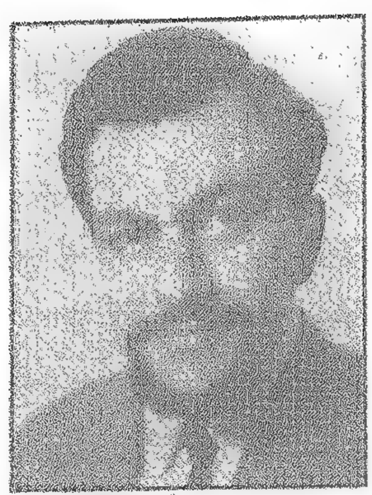
وفى تلك الفترة كان أمين مكتبة الزيتون يقيم نشاطا ثقافيا، على نحو محض تطوعى، لجمعية أصدقاء المكتبة.

ويبدو أنه كان قد لاحظ كثرة ترددى على تلك الدار، وطول الساعات التى كنت أمضيها فيها مع الكتب، فاستدعانى إلى مكتبه، وطلب منى بصفتى أصغر المترددين على المكتبة سنا - إذ لم يكن بها قسم خاص بالأطفال - أن ألقى محاضرة فى إطار النشاط الثقافى الذى يشرفُ عليه، على أن أدونها أولا فى الموضوع الذى أختاره، وأعرضها عليه. فقبلت عرضه، وما لبثت أن وجدت نفسى أكتب فى موضوع: «المشكلة الجنسية سيكلوجيا». فقد كانت هذه هى المشكلة التى كانت تشغلنى فى تلك السن: مطلع المراهقة. وسلمته النص. ثم فوجئت به على باب المكتبة بعد ذلك بأيام يبادرنى بقوله: «إنت عارف إن بسببك اتقفل النشاط الثقافى للمكتبة؟». وأخرج لى من درج مكتبه نصى، وقد خط تحت بعض من سطوره باللون الأحمر. كنت أتساءل فى تلك السطور: «لماذا نشعر بالخزى والعار من أعضائنا التناسلية، ولانفعل ذلك بإزاء أيدينا أو أقدامنا؟!».

فقد عثر أحد مفتشى المكتبة، بينما



عام ١٩٥٢ فى السنة الأولى قسم علم نفس آداب عين شمس



عام ١٩٤٨ فى الثانوية

كان جالسا فى مكتب الأمين يعبث فى أدراجه دون استئذانه، على نص محاضرتي، واعتبر هذه الجملة تحريضا للشباب على الفسق والفجور(!!) وأغلق النشاط الثقافي للمكتبة.

كان يحاضرنا فى إطار هذا النشاط، الذى افتقدناه من بعد، أساتذة أفاضل، أذكر من بينهم الدكتور محمود الحفني، والد السوبرانو رتيبة الحفنى، وكان مسئولا عن الموسيقى فى وزارة المعارف آنذاك، كما أن القاعة الرئيسية للمكتبة كانت دائما مكتظة بالحضور فى كل من أنشطتها الثقافية ذات الموضوعات المتباينة.

كنت قد قطعت شوطا فى قراءتى لأعمال «فرويد» باللغة الانجليزية. ولم يكن ذلك بالأمر اليسير على أية حال، ولكنه صار ممكنا وممتعا فى آن. إلى أن حدثت لى حادثة هزتنى بشدة. فقد استشهد الكاتب فى المتن الانجليزى ببيتين بالألمانية عن رواية «فاوست» لجوته دون أن يورد أية ترجمة انجليزية لهما فى الهامش. فراعنى ذلك كثيرا. إذ أنى كنت عاجزا عن فهم هذا الاستشهاد . وقد علمت فيما بعد أن السبب فى عدم إيراد ترجمة انجليزية للمقتطف الألمانى فى طبعة الأربعينات لأعمال «فرويد»، أن القارىء المثقف البريطانى لا حاجة به إلى مثل تلك الترجمة، فهو يفهم الألمانية حتى وإن لم يتحدثها. ومن ثم فلا مشكلة لديه فى قراءة واستيعاب نص مقتطف بالألمانية . ولم يكن الناشر البريطانى «مكميلان» يدرى أن شابا مصريا فى مقتبل العمر سيطلع على كتابه بعد أن أصابه لأى لفك شفرات لغته الانجليزية، فما بالك بمقتطفاته الألمانية؟!

كانت هذه «الصدمة» الثقافية حافزا لى على فك أسرار الألمانية فى أقرب فرصة ممكنة. فانتظرت حتى اجتزت امتحان الثانوية العامة. وانطلقت لتوى لدروس الألمانية التى كانت تقام آنذاك (فى عام ١٩٥٣) فى الجامعة الشعبية بالقرب من ميدان التحرير. وكان يلقيها الأستاذ محمود الدسوقي، الذى كان صديقا لتوفيق الحكيم. وكان الأستاذ الوحيد الذى تفرش له منضدته بالجوخ الأخضر. ولكنه كان شديد البطء فى التدريس، فاكتفيت بحضور صوتيات اللغة الألمانية عنده، وانصرفت فى الإجازة الصيفية لدرس تلك اللغة وحدى مستعينا بكتاب انجليزى يشرح قواعدها ومفرداتها. وكنت قد

ترددت فى ذات الوقت على دروس اللغة الإيطالية بالجامعة الشعبية، ولكنى وجدت تلك اللغة أسهل من أن أتابعها بالتردد على فصولها. وقررت أن أتفرغ لها بمفردى بعد أن أفرغ من الألمانية التى كانت تستغرق منى ثمان إلى عشر ساعات شبه متصلة كل يوم وأنا وحدى مع الكتاب فى غرفتى.

كان من الطبيعى، باديء ذى بدء، أن أفك شفرة البيتين الألمانيين اللذين استثارا فىَّ كل تلك الرغبة العارمة لاقتحام ألغاز تلك اللغة.

وكانا على لسان «مفيستو» معارضا «فاوست» :

(لا جدوى من أن تحوم حول العلوم فلن يتعلم المرء إلا ما يستطيع).

وليتصور القاريء الذى لايعرف الألمانية كيف سيكون حاله لو أنى لم آت له بالترجمة العربية للنص الألمانى!! فلعل ذلك يقرب إليه الحالة التى اجتاحتنى قبل أن أتعلم تلك اللغة.

لقاء مع الفلسفة الألمانية

بعد الإجازة الصيفية، وكنت قد اجتزت امتحان الثانوية العامة، التحقت بقسم الدراسات النفسية والاجتماعية بكلية الآداب، جامعة عين شمس، وكان مقرها - فى عام ١٩٥٣ - حدائق شبرا، حيث توجد الآن كلية الهندسة فرع جامعة الزقازيق وقد اخترت أن أتخصص فى «علم النفس»، على الرغم من معارضة شديدة من جانب أسرتى. وما أن رآنى الدكتور عبد الرحمن بدوى فى فناء الكلية، وكنت طالبا فى السنة الأولى بها، حتى بادرنى: «ياه، إنت لسه متخرجتش؟!» أما سبب تعجبه هذا، فمرجعه أنى كنت وأنا تلميذ فى المدرسة التوفيقية الثانوية أتردد على محاضرات الدكتور بدوى التى كان يلقيها على طلبة السنة الثالثة بقسم الفلسفة وكنت أناقشه، بينما كان يزعجنى أنه كان يملى على الطلبة كلامه، فيكتبوته وراءه وعندما راجعته فى طريقته التلقينية هذه بعد المحاضرة، قال لى: «ماهو أساتذتنا فى السربون كانوا بيملونا..»!! ولم أقتنع بحجته، بل مضيت فى مناقشة ما يقول بينما كان الطلاب يدونون وراءه دون مناقشة!!

وسمعت بعضهم يهمس فى الصف الذى ورائى: «أصله جاى من سنة رابعة». ولم يعلموا أنى كنت آنذاك لا أزال تلميذا بمدرسة التوفيقية الثانوية، وأنى كنت مولعا بقراءة مؤلفات «ديكارت»، وأستعد لدخول مسابقة حول أعماله، ألغيت للأسف.

* * *

كنا فى السنة الأولى بقسم الدراسات النفسية والاجتماعية ندرس من بين ما ندرس «المدخل إلى الفلسفة». وكان يحاضرنا فى هذه المادة معيد شاب اسمه الأستاذ أنيس منصور. وقد طلب إلينا أن يعد كل منا بحثا لأعمال السنة فى هذه المادة، فاخترت نصا ألمانيا من كتاب الفيلسوف «إيمانويل كانط»: «نقد العقل المجرد»، لأترجمه إلى العربية وأعلق عليه. ولكنى ما أن بدأت فى مطالعة نص «كانط» بلغته حتى تبين لى أن ما تعلمته من الألمانية لا يكاد يكون له علاقة بلغة ذلك الفيلسوف!!، ولم ينقذنى من هذه الورطة التى اخترتها لنفسى سوى أستاذ زائر



[illegible] الأمان في احتفال جمال عبدالناصر [illegible] عام ١٩٦٢



مع المهندس حسن فتحي في منزله بدرب اللبانة ١٩٨٧

فرنسى عجوز، كان يقوم بالتدريس فى قسم الفلسفة، قيل لنا أنه جاء إلى مصر ليستمتع بشتائها الدافىء بعد أن زهد تدريس الفلسفة فى شتاء ألمانيا، وما أن كاد ذلك الأستاذ العجوز ضئيل الحجم ينظر إلى المقولة الكانطية بالألمانية حتى ينطلق يترجمها لى فورا إلى الفرنسية، وكأنه يطالع صحيفة يومية، ومع ذلك فنطقه للألمانية كان فرنسيا خالصا! إذ عندما كنت أذكر له - مثلا - اسم الفيلسوف هوسرل كان يحتج على «مصححا» لى: لا، لا، بل «أوسرل»!!

وعندما قصصت ذلك على أصدقائى الألمان، بعد أن صرت عضوا فى اتحاد كتابهم منذ عام ١٩٧٨، لم يضحكوا لنطق الرجل للألمانية بالفرنسية، وإنما لاختيارى لواحد من أصعب كتب الفلسفة الألمانية، لأستهل به مطالعاتى فى تلك اللغة.

* * *

ذهبت إلى الاسكندرية للاستجمام فى صيف ١٩٥٣ حيث نزلت ضيفا على خالى «صالح» كالسنوات التى قبلها. ولكنى فى هذه المرة كنت أرتجف بصورة خاصة، ليس فقط للقاء البحر الذى كنت مشوقا اليه، وإنما للقاء «نادية»، ابنة خالى «مراد»، التى كانت تنزل بالمثل ضيفة على خالى «صالح» . كانت تكبرنى بعام، ذات جمال طاغ يلفت إليها الأنظار كلما مرت على الكورنيش ، أو انسالت فى البحر بالمايوه. وكان والدها قد أخرجها من المدرسة ولازالت طفلة لكثرة شقاوتها. فقد حبست مدرستها فى الفصل ذات مرة . وذهبت إلى الدار غير عائبة بصراخ المدرسة.

كانت شيطانة . وهكذا رسمها صبرى راغب، ابن خالتى وخالتها فى آن، وكان آنذاك رساما مصورا للبورتريه ، يسعى للاعتراف بموهبته، وقد اتخذ من الجراج التابع لمسكن خالى عدلى مرسما له، بعد أن ضاقت بألوانه ولوحاته غرف الدار على براحتها. وفى ذات مرة، وكنت طفلا فى الحادية عشرة من عمرى، تسللت الى الغرفة التى كان يرسم فيها صبرى قبل أن ينتقل إلى الجراج ، وأمسكت بالفرشاة، ورحت «أصلح» له بعض ملامح البورتريه الذى كان قد تركه على الحامل. وعندما شاهد ما أتيت به هاج وماج وسرعان ما ألصق التهمة بنادية. ولكنى لم أقل شيئا ، فهو لم يكن ليستطيع أن يعاقبها لأنها «بنت» وعفريته ايضا. أما أنا فكان يحملنى على جسدى النحيل الضعيف ولازلت فى تلك السن الغضة «براويز» لوحاته ليأتى بها من النجار. بينما كان يكبرنى بأكثر من خمس عشرة عاما، ولا يخجل من نفسه وهو يسير إلى جوار طفل فى عمرى ينوء تحت هذا الحمل الثقيل. كان الاستثناء فى تلك الفترة «الأربعينات» هو احترام حقوق الطفل.

لم تعد نادية طفلة عفريتة ، بل أصبحت شابة طاغية الجمال، قوية الشخصية . وكانت تقضى معظم النهار فى تلك السن - الثامنة عشرة - تصدح بالأغانى العاطفية، ولاسيما لفريد الأطرش الذى كانت تعشقه . أما أنا فكنت مولعا بالموسيقى الغربية، الخفيفة، منها والكلاسيكية. وكانت تسخر منى ومنها. كانت نموذجا للفتاة المتسقة مع تراث

مجتمعها، وكنت ممثلا للتيار المتجه بخياله وعقله نحو الغرب وثقافاته . فلم نجتمع على رأى، بل كنا فى خلاف شبه دائم. وتحولت أحلام المراهقة التى سبقت قدومى إلى الاسكندرية إلى سراب. ولكنى حين أتأمل اليوم ما كان آنذاك أجد أن تمردها على المدرسة فى صباها قد جعلها تتشرب ثراء الثقافة الاجتماعية التى نشأت فيها وترعرعت بينما كنت أنا الذى مضيت فى الدراسة أسير حلم الغرب الذى كان طاغيا فى النظام القيمى المضمر لدروس المدرسة حتى فى درس العربية نفسها، التى كان اساتذتها يستشهدون ويضربون الأمثال فيها بتقدم الأوربيين على العرب.





فأن أحرص وأنا فى السابعة عشرة من عمرى على قراءة «كانط» فى لغته الألمانية، وأن أقبل وأنا فى الثانية عشرة على مطالعة «فرويد» بدلا من ابن خلدون أو المقريزى أو الجبرتى، أليس ذلك مما يدعو إلى العجب من اغتراب التوجه السائد فى ثقافتنا «التعليمية» - بالمعنى الشامل - آنذاك ؟ ومع ذلك فهنالك عامل إضافى إلى هذا التوجه، هو صعوبة وجفاف معظم نصوصنا العربية الوسيطة، ناهيك عن القديمة. فقد حاولت أن أقرأ مقدمة ابن خلدون ، التى كانت «تزين» مكتبة خالى وأنا طفل ، ولكنى ما لبثت أن ضجرت منها، بينما كان أسلوب «فرويد» أكثر إمتاعا ، وأقل «خشونة» بالنسبة لى آنذاك. لا بأس ، بل يجب على المرء فى رأيى أن يتعلم من العالم أجمع بشماله

وجنوبه على حد سواء، ولكن بعد أن يتمكن أولا من مكوناته الثقافية برسوخ، متمثلا إياها بوعى نقدى يثريه مقارنتها بأرضيات سواها، وإدراكه لنسبية «مطلقات» الأحكام القيمية لكل منها.. ولكن نظامنا التعليمى الذى يلهث فى اتجاه واحد، نحو الشمال الأوربى، لا يحقق شيئا من ذلك ، وإنما يكرس التبعية للمعايير الغربية. ولا يعنى ذلك أن نقف وقوفا مستحيلا عند ابن النفيس، وابن الهيثم، أو عند المقريزى وابن خلدون، ولكن أن نحاول استكشاف تراثنا مستفيدين بآخر ما بلغته معارف البشرية من كشوف ومن ثم أن نذكى فى وعى أطفالنا وشبابنا الرغبة فى استكمال منجزات أسلافنا، بدلا من تهميشها والركون الى اجترار منجزات الغربيين باسم «العصرنة» و«مجاراة العصر» التى لا أجد لها ترجمة افضل من «الانصياع للثقافة المهيمنة حاليا ومن يدرى الى متى على أرجاء هذا العالم».

حول الاشتراكية

كان خالى «صالح» يجاور فى مصيفه بالاسكندرية لواء فى الجيش له شقيق أصغر عاد حديثا - من انجلترا، ومعه دكتوراه فى الاقتصاد. عرفنى عليه خالى، وقال له : «الأستاذ (يقصدنى) - مهتم بالفلسفة شوف رأيك فيه ايه».. وتحاورت مع الدكتور عبدالرازق حسن، الذى لم أكن أعرف هويته السياسية آنذاك، ونحن نتمشى على كورنيش البحر. كان فى منتصف الثلاثينيات من عمره أو يزيد على ذلك بقليل، قصير القامة فى شرخ الرجولة، يرتدى «الشورت» ، وعلى وجهه قسمات جادة. كان ينصت باهتمام الى ما أقول، إلى أن وجدته على غير عادته قد انفعل عندما ذكرت له مساوىء الاشتراكية العشرة التى كان الأستاذ أنيس منصور قد حاضرنا فيها وهو معيد فى شتاء ذلك العام، قبل أن يغادر الجامعة ليستقر فى الصحافة . وأذكر أن من بين تلك الانتقادات التى وجهها أنيس منصور إلى النظم الاشتراكية انخفاض متوسط أجور العاملين بالنسبة لارتفاعها فى الولايات المتحدة الامريكية - معقل الرأسمالية.

هنا رد الدكتور عبدالرازق : «ولكن أين ضمان استقرار ذلك الدخل المرتفع لدى العامل الأمريكى؟ ، ألا يمكن أن يفقد عمله بين يوم وليلة، ويصبح فجأة مع أسرته بلا مورد؟! كان هذا التباين فى وجهات النظر منشطا لتساؤلات جديدة فى ذهنى.

عندما عدت للدراسة فى السنة التالية «١٩٥٤» ، وكنت قد قررت أن أتخصص فى فرع علم النفس بعد العام التمهيدى المشترك الذى قضيناه فى ١٩٥٣، كان الدكتور مصطفى زيور أستاذ ورئيس قسم علم النفس ، ومنشئه بجامعة عين شمس، كما كان يرأس قسم الفلسفة الدكتور عبدالرحمن بدوى الذى أتى بمعيده أنيس منصور . وكان هنالك معيد آخر منطو بعض الشيء على نفسه يدعى الأستاذ فؤاد زكريا. ولم أكن أتصور آنذاك أنه سيصبح ذلك المفكر اللامع الذى عرفناه منذ الستينات والسبعينات . فعندما علم أنور عبدالملك برغبتى أثناء نهايات

الستينات وأنا فى ألمانيا، أعمل بجامعة كولونيا، فى تقديم «هيجل» الى قراء العربية ، أشار علىّ بالكتابة الى فؤاد زكريا فى القاهرة ، والاتصال بمصطفى صفوان فى ستراسبورج. وما لبثت ان وصلتنى رسالة متحمسة من الدكتور فؤاد يذكر لى فيها أنه طلب إلى أحد طلبته للدكتوراة (إمام عبدالفتاح إمام) أن يبعث الى رسالته للماجستير عن هيجل . وعندما حضرت من ألمانيا فى زيارة الى القاهرة فى عام ١٩٧٠ احتفى بى الدكتور فؤاد بشدة، ولم أكن أدرى أنه كان يعرفنى جيدا منذ أن كنت طالبا فى كلية الآداب، وكان هو معيدا فيها. فقد ذكرنى بعد ذلك انه كان يكاد ألا يرى وجهى وأنا فى فناء الكلية من كومة الكتب التى تعلو عليه حتى تغطيه. وأن ملامحى آنذاك كانت مشدودة تنم عن نهم بالمعرفة.

والحق أنى كنت منذ أن التحقت بكلية الاداب انتقل الى المحاضرات فى كل الاقسام وكل السنوات من قسم انجليزى الى فرنسى الى فلسفة ، فتاريخ ، وآثار الخ، بينما كنت طالبا مسجلا فى قسم «الدراسات النفسية والاجتماعية» . وقد استشارنى أحد أساتذتى آنذاك فى علم النفس ، لم يكن مصطفى زيور على أية حال، عندما بادرنى بقوله: «خلى بالك من الامتحان يا مجدى» فقد أجبته منفعلا : هو احنا اتعلمنا حاجة علشان نمتحن فيها؟ أنا ميهمنيش الامتحان، يهمنى اتعلم حاجة أولا». ويبدو أن ذلك الاستاذ قد اغتاظ من اجابتى هذه اذ وجدت نفسى «راسبا» فى مادته فى نهاية العام الدراسى، ومع ذلك فلم أعبأ.. بل أنى فضلت مرة أن أذهب للقاء أحد الشعراء، أظنه الاستاذ عبدالرحمن الخميسى على أن أؤدى امتحان اللغة الفرنسية فى الكلية فقد كان يمكن تأديته فى موعد ثان لاحق. وكنت أعجب كل العجب لمنظر زملائى وزميلاتى الطالبات وهم يرتجفون فى ذعر لاستقبال الامتحان ، بينما كنت أذهب اليه كمن يذهب الى مقهى. ويذكرنى ذلك الآن بقصة رواها لنا فى درس علم النفس الاكلينيكى الدكتور وجدى، وكيل وزارة الصحة لشئون الصحة العقلية، ومدير مستشفى الامراض العصبية والعقلية بالعباسية انذاك فى الخمسينات ، حيث كنا نقوم بتدريباتنا العملية ، قال لنا الدكتور وجدى أنه حين كان طبيبا شابا فى الثلاثينات كان نزلاء المستشفى يحبسون فى عنابرهم، ولا يسمح لهم بمغادرتها الا تحت رقابة مشددة شأنهم فى ذلك شأن المساجين، باستثناء مريض واحد، كان شيخا وقورا يعتقد أنه صاحب كل مستشفيات الأمراض العقلية فى العالم. وكان يجمع «مستندات ملكيته» فى شكل قصاصات من الصحف القديمة فى «مخلة» يحملها معه أينما تنقل . وكان مسموحا له أن يتحرك بكل حرية فى كافة أرجاء المستشفى وأفنيته، اذ انه لا يمكنه ان يغادر ممتلكاته أو يفكر فى الهرب منها! ولعلى انا كنت ذلك «المريض» بالنسبة للجامعة، لا اشعر فيها بما يخيفنى أو يقيد حريتى بما فى ذلك الامتحان سوى ما يمكن أن يعوق نهمى بازاء الفهم والاستكشاف.

أنت والهلال

عبد الرحمن بدوى واتهامات للمصريين !

رداً على مقال السفير شكرى فؤاد ، أقول .. صحيح ، محمود لكاتب السيرة الذاتية، أن يحكى كل شىء بصراحة ، وصحيح أننا لم نتعود على ذلك ، ولكن ليست هذه هى المسألة .

المسألة هو ما وجهه عبد الرحمن بدوى من اتهامات إلى المصريين ، فالفلاح المصرى مراوغ ، واتسمت هذه الاتهامات بالعمومية التى لا ينبغى أن تصدر من أستاذ للفلسفة .. وهذه بعض النماذج .. يقول فى صفحة ١٤٨ من كتابه .. «زار بعض المصريين باريس . ولأنهم فى غاية الجهل والصفاقة والادعاء ، فإنهم لما سمعوا الناس يتحدثون عن الوجودية ، ورأوا فتيات وفتيانا متحررين فى العلاقات الجنسية ، توهموا أن هذه هى الوجودية .. إنها التفاهة والجهل والادعاء الكاذب . وقد حملت هؤلاء على أن يربطوا بين ما هو قائم من مئات السنين وبين «الموضة» السائدة .. ثم يقول : «والمصرى بطبعه لا يتمعن أى شىء يقرأه أو يسمعه ، بل يصدق أى شىء ، حتى أكذب الأكاذيب ، ولا يتخلى عنه مهما أتيت له على عكسه بألف دليل .. وهذا أعضل داء أصيبت به عقول المصريين !»

إذا كان الأمر كذلك ، فإلى أى جنسية ينتمى ، ولماذا هذه الحدة التى يكتب بها عن أبناء وطنه ، ويتصور أنه عملاق وسط أقزام !.

سعيد أحمد - دمياط

●● الهلال :

ننشر هذه الرسالة بلا تعليق ، لكن كل من كتب نقدا لكتاب عبد الرحمن بدوى يدينه ويتعجب من هذه اللغة فضلا عن صدمة المثقفين ودهشتهم من كل ما جاء على لسانه فى سيرته الذاتية ..

من الوثائق البريطانية

بعد إخراج مكرم عبيد من الوزارة فى ٦ يوليو ١٩٤٢ وبعد نشرة الكتاب الأسود (٣٢٠ ص) .

بعث وزير الخارجية البريطانى أنطونى ايدن إلى سفيره بالقاهرة التوجيهات التالية التى أبلغها لرئيس الوزراء مصطفى النحاس :

(أ) أن الأسس التى قام عليها حزب الوفد أصبحت غير ذات موضوع بعد عقد المعاهدة وأن المصلحة تقضى بإعادة تكوين الحزب على مبادىء سياسية تقوم على دعامتين! الأولى الحفاظ على التحالف بين مصر وانجلترا ، والثانية رفع مستوى المعيشة بمجهود مكثف على غرار المجهود الحربى .

(ب) أن من الخير أن تعود الصلة بين بيت الأمة (حرم سعد زغلول باشا) وبين النحاس باشا .. ففى ذلك تقوية أدبية وشعبية للحزب فى تكوينه الجديد .

(جـ) «إذا ما تقرر إجراء انتخابات جديدة فإنه (أى مستر ايدن) لا يرى ضرورة العهد بها إلى وزارة محايدة ، وإنما تجريها وزارة النحاس باشا مع التوصية بتعديل الوزارة !.

(د) وأخيرا اقترح وزير الخارجية البريطانية بدعة انتخابية جديدة وهى أن يعهد إلى شخصية أو عدة شخصيات مستقلة بالإشراف على الانتخابات لضمان حيادها فى إطار وزارة الداخلية ، تكون لها مرتبة الوزير دون الاشتراك فى الوزارة .

محمد البشير ﷺ

قد جاءنا البشير — الهادى النذير
الماحى للظلام — المبصر البصير
قد جاء بالقرآن — لا يلبس الحرير
سماته الإيمان — يقرب الفقير
محطم الأوثان — محمد البشير
عظيم للإسلام — الهادى النذير

رسولنا قد قال — وقوله جمال
تصدقوا فى خُفية — لا تعلم الشمال
وقربوا يتيمكم — واطلبوا الحلال
وارحموا ضعيفكم — وصلوا بالليال
وسبحوا إلهكم — لتبتغوا المنال

أجدادنا الكرام — ما يعرفوا الحرام
ما دبروا مكيدة — يوما سوى الوئام
وينشروا إيمانهم — بالفعل والكلام
قد جاهدوا أعداءهم — ليبتغوا السلام

والعلم فى الحياة — يجلب لنا الصفاء
فنعرف الكواكب — ونعرف السماء
ونستطيع بعلمنا — أن نغزوا الفضاء
والعلم فى حياتنا — كالماء والهواء

أحمد نادى بهلول

أنبياء مصر

كتب د . محمد عمارة - هلال يونيو ٢٠٠٠ - عن أنبياء مصر وبدأهم بإديس عليه السلام - رغم أن الاستاذ الدكتور محمد رجب البيومى - هلال فبراير ٩٥ ص ٩٢ - يقول .. أترك هذين النبيين الكريمين - إدريس وابراهيم .. لأن القرآن لم يتحدث عن وجودهما بمصر .

لكن الدكتور عمارة استند إلى مصادر أخرى حدثته أن إدريس عليه السلام :

١ - عاش فى مصر وبعث في حياة آدم عليهما الصلاة والسلام ولنا أن نستنتج من مقال الدكتور أن إدريس النبى عليه السلام ولد متأخرا عن بدء خلق البشر - آدم هو أبو البشر - بألف عام . وللاحتياط نزيد الألف فنجعله خمسة آلاف .

٢ - والنويرى فى نهاية الأرب ذكر أن «الأهرام بأرض مصر كثيرة وأعظمها الهرمان اللذان بالجيزة غربى مصر وقد اختلف فى بانيهما ... وقال قوم بانيهما سوريد بن سلهوق بن سرناق ... ويقال أن إدريس عليه السلام أمر ببناء الأهرام» وحسم د . عمارة الأمر فأكد أن إدريس عليه السلام هو الذى بنى الأهرامات .

والعلمانيون الماديون - تقول مصادرهم - إن خوفو هو بانى الهرم الأكبر - وقد يكون - واستغفر الله من الخطأ والنسيان - خوفو هو اسم من اسماء النبى إدريس فالدكتور عمارة يقول إن إدريس اسمه فى التوراه .. خنوخ وفى ترجمتها العربية أخنوخ أما فى اليونانية فإن اسمه أرميس وعرب اسمه إلى هرمس واشتهر بهرمس الهرامسة .

٣ - ولنحسب فنقول : ولد إدريس عليه السلام بعد بدء خلق الإنسان بخمسة آلاف عام ثم بنى الأهرام منذ قرابة خمسة آلاف عام ، وعليه يكون عمر الإنسان على الأرض أقل كثيرا من عشرة آلاف عام .

٤ - وأرجو من الدكتور محمد عمارة أن يدحض وينقض وينسف حيبابات الماديين العلمانيين والتى تدعى أن الإنسان عاش على الأرض منذ مئات الآلاف من السنين .

سليم سالم المصرى
عزبة البريه - مطوبس

الحصان الأبيض

اكتشفت أخيراً أحد الأسباب التى تؤدى إلى فتور العلاقة العاطفية بين الزوجة وزوجها إن مرض البوفاريزم Bovarisme نسبة إلى مدام بوفارى القصة الفرنسية الخالدة .

ما هى أحداث هذه القصة ؟ وكيف اكتشف ذلك المرض من خلال أحداث القصة ؟

وما هى علاقة هذا المرض بالمرأة في الشرق وعلى مشارف القرن الواحد والعشرين

هذا ما سوف نتحدث بشأنه ونصل للنتائج معاً ..

قضت إمما Emma طفولتها في ملجأ للأيتام ملحق بدير الراهبات .

الراهبات كما نعلم ، تركن الحياة بملذاتها ولذن بالدير ، يستبدلن لذات الجسد بلذات الروح الصلاة – اشغال الأبرة – الرسم – الموسيقى كل ما يسمو بالروح .

كان يوجد فى الملجأ خادمة تقوم بالطهى والنظافة لا تنتمى للمكان إلا بحكم عملها لذا كانت تسرب للفتيات الصغيرات القصص الرومانسية والعاطفية والصور ليروا من خلالها عالم ما وراء الأسوار – حيث الرجل شجاع كالأسد وديع كالحمل .

يأتى على حصان أبيض ليطبع قبلة على شفتى الأميرة النائمة فتصحو بعد مائة عام من النوم .

بعد ذلك عندما كبرت إمما وتزوجت رجلا عادياً حدثت لها فجوة بين الخيال الذى درجت عليه والواقع فاختارت الخيال ونبذت الواقع وظلت فى داخلها نائمة تنتظر الفارس .

وهذا ما يحدث للكثير من الزوجات فى كل زمان ومكان يعقدن المقارنة بين الخيال والواقع وتكون النتيجة رفض الواقع ويقف الخيال فى اللاشعور كحاجز غير مرئى بين الزوجين .

أفيقى سيدتى فعصفور فى اليد خير من عشرة على الشجرة .

لا تنتظرى الحصان الأبيض فلن يأتى أبداً لسبب بسيط لأنه غير موجود سوى فى خيالك وفى قصص الأطفال فقط .

* فى العصر الحالى تقوم وسائل الإعلام بدور القصص الخيالية .

فترى الفتاة الشاب الجميل الصغير يمتلك قصرا على البحر ويشترى شقة فى منتجع وسيارة فارهة فمن الطبيعى أن تشعر بخيبة أمل من الحياة الواقعية وتعقد المقارنة بين ما تراه على الشاشة وما تعيشه فى الواقع .

منير وديع ميلاد

متاهات النوى

يا أيها الطير الذى ضل السفر
تشكو وتجفو ، تزدرى هدى القمر
تنداح – عمداً – فى متاهات العرا
تأبى السهول والنسيم والشجر
فكلما ليل بدا بين الربا
ترتاب خوفاً من أسارير السحر

وبـالـبـراح قـد قسوت والـندى
وصرت تهـذى تقتفى وحى العـبـر
بـأى ذنـب تـقـتلون بـرعـما ،
بـين الحـنين قـد نمـا عـلـى المطر
هـل لـلـثـكـالـى دمـعـة بـين الـنـهـى ؟
تنساب جـمـراً يكتـوى منه الحـجـر !!
مـا بـال أيـك بـان يـذرف الـرؤى ،
هـل ضـاق يـومـا مـن ينابيع السـهـر ؟!
الشـوق بـالأطيـاف يحـيـا ، يهـتـدى
سـيلتـقـى مـع الـربـيـع المنـتـظـر
مـن يغـتـرب بـين الـفـيـافى والـرَّدى ،
دومـا يـظـل فـى سـراديـب الخـطـر
أحـبَّـتى أنـا الـصـريـع بـالـنـوى
هـذا فـؤادى هـدنـى ؛ حـتـى انـفـطـر

عبد الناصر أحمد الجوهرى
نادى أدب المنصورة

وتأكلون التراث .. مرة أخرى

حاولت أن أفهم ما كتبه الاستاذ نبيل عبد الرحمن دربك فى هلال يوليو ٢٠٠٠ ردا على مقال الأستاذ الدكتور محمد رجب البيومى «وتأكلون التراث...» فلم أصل إلى شىء ؛ لأن د . رجب البيومى أعلن فى مقدمة مقاله أنه يستأنس بكتاب الله ولا يقتبس ، فجاء صاحب التعليق ليقول : ربما كان الهدف هو الاستعارة أو الاقتباس وليس فى الكلام استعارة أو اقتباس إطلاقا ، ثم يقفز إلى آية كريمة لاصلة لها بالموضوع وهى قوله تعالى: (أمرنا مترفيها ففسقوا فيها ..) وقد اتصلت بالدكتور فقال لى أنه لم يفهم شيئا مما قاله الأستاذ المعلق ، وعهدى بالدكتور أنه مهذب فى رده لذلك فهمت من قوله ما يعنيه ورأيت أن أكتب هذا التعقيب ليعلم الأخ الفاضل أن كلامه خارج عن الموضوع تماما .

فرج مجاهد عبد الوهاب - شربين

الهلال : نحن نحترم كل رسالة تصل إلينا وننشر ما تتضمنه ، وكان لابد من نشر رسالة نبيل عبد الرحمن دربك .

سقط البوح

هذا أنا خاضعٌ ..

أم أنت ذا .. العبدُ ؟

صاحبتنى فرقاً ..

أن يفلت الصيدُ

والدرب ممتدُ ..؟

رويتَ من ضرع آمالى التى سلبوا

في نومة الحرس

والصحو إذ يحب

والليل مريدّ !

هاك دمى سائغاً

والعظمُ واللحمُ

أهديكها بدلاً ..

مما جنى الضيمُ

واستمرأ الوجدُ !

املأ كئوس المدى .. ليلاً وما وزرا

ما عاد بى كلفٌ ..

أن أتبع القمرا ..

إن راح أو يغدوُ .. !

آهٍ ..

ياسيدى القيدُ !

محمد محمود الشناوى - بور سعيد

حسين السيد / فارس الأغنية المصرية

على مدى حوالى نصف قرن أثرى الشاعر الغنائى حسين السيد حياتنا الغنائية بأغان أوصلته إلى مصاف كبار فرسان الكلمة فى الاغنية المصرية ، وقد وصل بها إلى الرقى بالاشتراك مع الشاعر الغنائى الكبير مأمون الشناوى . وحسين السيد هو الشاعر الغنائى الوحيد الذى ألف - بين ما ألف - أغانى فيلمية لأفلام غنائية أو استعراضية بأكملها دون أن يشاركه شاعر آخر فى هذه الافلام ومنها : عنبر وغزل البنات وخاتم سليمان لليلى مراد ، دايما معاك لمحمد فوزى ، أيام وليالى ، وبنات اليوم لعبد الحليم حافظ ، ليلة من عمرى لشادية .

وقد أثبت فى وقت مبكر من عمره الفنى قدرته الفائقة على تطوير نفسه وتوسيع دائرة تأليفه فقد كان فى أول عهده يكتب للموسيقار محمد عبد الوهاب فقط ، ثم انفتح على كثير من المطربين والمطربات فغنى له فريد الاطرش ومحمد فوزى وليلى مراد وفايزة أحمد وعبد الحليم حافظ وشادية وغيرهم .

يحيى محمود حسين
القاهرة - مصر الجديدة

الرحيل المر

انقشعت الغيوم .. ابتلعت الأرض ماء ها .. توسط قرص الشمس الأفق .. تعالت الأصوات .. نفير السيارات .. صراخ الباعة عند الإشارات ..

وضعت الكتاب جانباً .. نظرت إليه .. لقد استغرق فى النوم .. اتجهت نحو النافذة .. رمقت الطبيعة بنظرة حزينة .. هزت جزع المسافة .. عادت إلى رحم الماضى .. تذكرت أمها .. المرأة التى تفسخ لها قلبه كثمرة مهترئة .. قسوتها .. حبها للمال .. كرهها له لإنسانيته وتواضعه سبب خلافهما .. عاش معها كالمتلفع من البرد بالثلج .. تركتها ابنة خمسة أعوام .. ترنح أمام ذلك اليوم :

- من سيعتنى بابنتك ؟!
- لما لا تعتنى بها أنت .. إنها ابنتك أيضاً ؟!
- لا أحد يستطيع تعويض الصغيرة عن أمها .. أنت تشتتين أوردة طفولتها ..
- هراء .. إذا كنت تريد منى أن أعود .. فعليك أن ترضخ لشروطى شقت الدموع طريقها على وجنتيها .. إن لها قلباً من طين يابس ..
- لايأس ..

إنه الآن يمثل الأب والأم بالنسبة لها ..

تنبهت فجأة .. الساعة تعلن تمام الخامسة .. بعد نصف ساعة سيستيقظ كما تعرف .. منذ اعتلَّت صحته ، وأمر بملازمة الفراش .. طلب منها أن تقرأ له .. وفي كل مرة يغفو حتى الخامسة والنصف ..

بدأت الشمس بالشحوب خلف غيوم تتجمع فى السماء .. هبت نسمة باردة .. حزمة من ضياء القمر تنتشر هنا وهناك .. حاولت إيقاظه دون فائدة ..

عادل فرج عبد العال
عضو اتحاد كتاب مصر - كفر شكر

إلى الأصدقاء

* محمود محمد أحمد - دراسات عليا - آداب بني سويف :

وصلت رسالتك ونشكرك على ذكرته عن الهلال وإعجابك بما تضمنه عدد يونيه ٢٠٠٠ خاصة مقال الأستاذ طارق البشرى ومقال الدكتور عاصم الدسوقى، وفيما يختص باستخدام بعض الكلمات «جيولوجيا - كمبيوتر» ومطالبتك باستخدام مفردات عربية لها، فقد أجاز المجمع اللغوى بعضا من هذه الكلمات ، ونحرص دائما فى الهلال على اللغة العربية الفصحى .

* محمد عبد الخالق - نادى أدب المنصورة

نرجو أن تواصل كتابة الشعر ، فلديك موهبة لكنها تحتاج إلى الصقل .

* حسن على محمد جابر - الاسكندرية

وصلتنا قصيدة «عروس البحر» ونود أن نرى نماذج أخرى لا تشير فيها لأشخاص ، فكيف تقول فى بيت شعرى

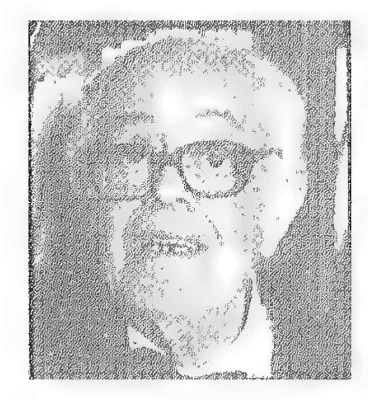
وكم كان الخديوى زريا كئيب الروح فى ثوب حقير
مسجى فى تراب وهو حى ويرضى فى البلايا بالكثير

فهل هذا شعر .. وهل هذا معقول ؟!!!

* وفاء حسن محمد - مغاغة - المنيا

نشكرك على ما جاء فى رسالتك من أن «الهلال» هى القدوة الحسنة وأنك سوف تواصلين قراءتها حبا فى كل ما تتضمنه من ثقافة وفكر .. وأهلا بك صديقة دائمة على صفحات مجلتك المحبوبة .

الكلمة الأخيرة



مغزى أن تكون مصريا

بقلم : محمد عودة

أحمل فى قرارة نفسى شعورا بالذنب والتقصير نحو صديق راحل وهو المرحوم الدكتور ويليام سليمان قلادة.

كنت أسعى إليه وأحرص على لقائه كلما سنحت الفرص . وكان مجرد اللقاء والاستماع إليه يبعث ثقة وسكينة وطمأنينة نفتقدها فى طوفان القلق الذى نعيشه، وكنت أعتز بإهدائه مؤلفاته. ولكن ما أن أفرغ من قراءة الفصل الأول ، حتى أقرر أن هذا كتاب من نوع متميز ولابد من التفرغ واعداد النفس لقراءته.

وذات يوم قررت أن أزيح كل شئ جانبا وأن أتفرغ لقراءة ويليام سليمان قلادة .. وأدركت أن لا أحد يمكن أن يستكمل مصريته .. أو يدرك مغزى أن يكون مصريا إذا لم يحط بتراث وفكر ويليام سليمان قلادة .

وفوجئت ذات صباح وأنا أتصفح الجرائد بخبر وفاته ، وأخرجت الكراسات التى سجلت فيها المقتطفات والنصوص من كتاباته والتى كنت أعدها لدراسة عنه ... وكانت مثلما كان صاحبها بلسما :

● «حين يحل العام ٦٤ يصل عمرو بن العاص ويدخل الاسلام إلى مصر ويبدأ شعبها منذ ذلك التاريخ يمارس حياة التعدد الدينى بين المسيحية والإسلام .

بدأ المجتمع التعددى الوئامى فى اللقاء التاريخى بين عمرو وبنيامين بابا الكنيسة القبطية الثامن والثلاثين» .

● «أمكن للشعب المصرى أن يبدع أسلوب حياة لا يستبعد فيه مطلق مطلقا آخر وأتيحت فرصة لهذا التعايش أن يستمر وأن تتأصل جذوره بل وأن يواصل تطوره إلى مزيد من الامتزاج والوحدة بين مكونات الشعب» .

● عبر الفنانون والصناع المعاصرون للحروب الصليبية عن وحدة مكونات الجماعة وهى تجاهد للدفاع عن وطنها بإبداع تحفظ المتاحف المصرية نماذجه، وفى متحف مطار القاهرة الدولى مقبض سراج من البرونز به صليب يحوطه هلال يرجع إلى القرن الثانى عشر، وثمة نموذج آخر مشابه محفوظ فى المتحف القبطى ويرجع إلى القرن الثالث عشر. وفى لحظة مشابهة من التاريخ المصرى وبعد ستة قرون بعثت النفس المصرية من اعماقها بإبداع جماعى تلقائى هو نفس الرمز ليكون علم ثورة ١٩١٩» .

ولعله ليس هناك رد مفحم على النفايه القبطية «الخسيسة» فى الولايات المتحدة سوى ترجمة مؤلفات ويليام سليمان قلادة ، وحبذا لو ترجم إلى الانجليزية ليقرأه سادتهم والمسكين بخيوطهم هناك .

الهلال

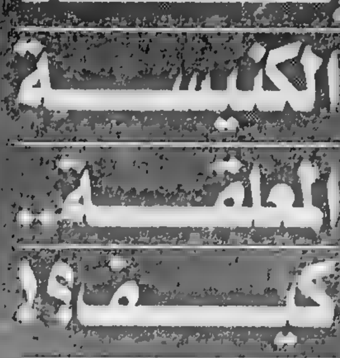
سبتمبر ٢٠٠٠ • الثمن جنيهان

من يستطيع التخلي عن القدس؟!

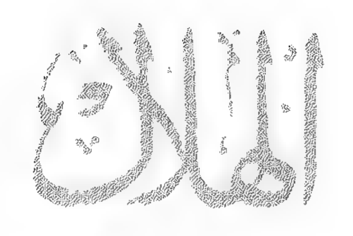




هيكل في كل سنة وأنت طيب



إنقاذ الكنيسة المعلقة.. كيف؟!



مجلة ثقافية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجى زيدان عام ١٨٩٢
العام التاسع بعد المائة

سبتمبر ٢٠٠٠ ● جماد ثانى ١٤٢١ هـ

الإدارة القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) . المكاتبات : ص.ب : ٦١ ب العتبة - الرقم البريدى : ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج. م. ع. مجلة الهلال ت : ٣٦٢٥٤٨١ - تلكس : 92703 Hilal un فاكس : FAX : ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكترونى : darhilal@idsc . gov . eg

ثمن النسخة سوريا ٦٠ ليرة - لبنان ٣٠٠٠ ليرة - الأردن ١٢٠٠ فلس - الكويت ٧٥٠ فلساء السعودية ١٠ ريالات - تونس ١.٧٥٠ دينار - المغرب ١٥ درهماً - البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبى/ أبو ظبى ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال - الجمهورية اليمنية ١٢٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ١ دولار - إيطاليا ٤٥٠٠ ليرة - المملكة المتحدة ٢.٥ جك

الاشتراكات قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عدداً) ٢٤ جنيها داخل ج م. تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٢٠ دولارا . أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولاراً . باقى دول العالم ٤٥ دولاراً

● وكيل الإشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيونى زغلول - ص ب رقم ٢١٨٣٣ - الصفاة - الكويت - ت/ 13079٤٧٤١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويُرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

فكر وثقافة



تصميم الغلاف
الفنان
محمد أبو طالب
تصوير:
شوقى مصطفى

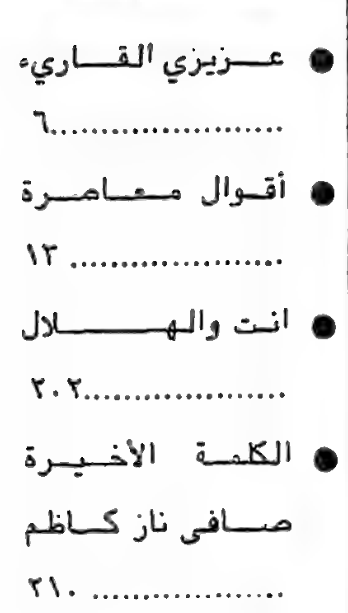
محمد حسنين هيكل

جزء خاص

فنون

قصة وشعر

التكوين



الأبواب الثابتة

هيكل .. كل سنة وأنت طيب

عزيزى القارىء

تفرد مجلة «الهلال» عدداً من صفحاتها للحديث عن الكاتب الكبير الأستاذ محمد حسنين هيكل، تحية له واحتفالاً بعيد ميلاده، يكتبها أصدقاؤه ومحبوه، فهيكل له وضع خاص وفريد فى الحياة السياسية، وفى الفكر السياسى العربى، فقد ظل طويلاً منارة مضيئة فى حياتنا السياسية والفكرية، ولا أظن أن كاتبا صحفيا فى مصر الحديثة، منذ ظهور الصحف، يطاول الأستاذ فى دوره الصحفى وتأثيره فى الحياة العامة.

ويمكن بلا أدنى مبالغة اعتبار الأستاذ جبرتى العصر الذى سجل أحداثه ونبضه ونقل تجربة مصر السياسية فى أعماله العديدة المؤيدة بالوثائق والمستندات. ورغم كل ما كتب وحلل وساهم فى الحياة السياسية، يصف نفسه بأنه صحفى اعتزازا بأن أى بناء فكرى صحيح يقوم على المعلومات الصحيحة، فلابد أن يقوم الفكر السياسى على معرفة عميقة بالواقع.

وأصبحت له مكانة عالية، كتبه أكثر الكتب توزيعاً، ويكاد يصدر له كتاب سنوى تتجاوز صفحاته أربعمائة صفحة لأكثر من عشرين عاماً، فلا أحد يجبر أحدا على قراءة كاتب أو كتاب، وقيل قديماً إن سبب الاهتمام بما يكتب يعود إلى دوره فى صنع القرار، وتمضى السنوات بعد رحيل الرئيس جمال عبد الناصر، وبقى له موقع فريد عند القارىء.

وهو صاحب الرأى الحر والكلمة المسموعة، ومن القلائل الذين إذا تحدث أنصت الجميع، وهو ليس مجرد كاتب كبير، ولكن بالنسبة إلى أجيال متتابعة هو «تاريخ». أحد صفاته البارزة أنه يواكب العصر، وهو متابع دءوب لما يدور فى

عزيزى القارىء

العالم. فهو يوصل القارىء بسلاسة بتغيرات العالم وأحداثه.

كتاباته عن الماضى ليست فقط من أجل الحفاظ على الذاكرة الوطنية وليست مجرد حنين إلى الماضى، ولكنها عن أجل الحاضر والمستقبل. فالمجتمع فاقد الذاكرة محكوم عليه بالانهيار.

يقرأ الشعر قديمه وحديثه قراءة فنان معاصر، ويحفظ الكثير منه، ولعل ذلك هو سبب أسلوبه المميز، وأن كتابته مزيج من كتابة المؤرخ والفنان.

ورغم أنه مؤسسة فى ذاته إلا أنه يدرك أن الأشخاص إلى زوال، وأن المؤسسة هى الدائمة. لذلك بنى مؤسسة الأهرام، وحان الوقت لكى يكتب سيرته الذاتية الموزعة فى روايته لكثير من الأحداث. تستقدم أحلام وطموحات عصر باكمله، وتقدم تاريخ أمة حكمت يوماً أن تكون سيدة نفسها، وأن تحقق على الأرض العدل والحرية.

وهاأناذا أضم صوتى إلى الكاتب الكبير طارق البشرى الذى دعا - على صفحات الهلال - إلى تنظيم ندوة علمية لدراسة أعمال محمد حسنين هيكل ومناقشتها وبيان ملامحها، فالواجب علينا لأنفسنا وفكرنا السياسى العربى أن ندرس أعماله ونتبين خصائصها. ونضع أعماله فى موضعها من الفكر المعاصر.

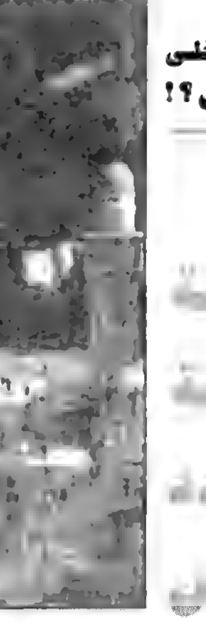
وكلمة أخيرة..

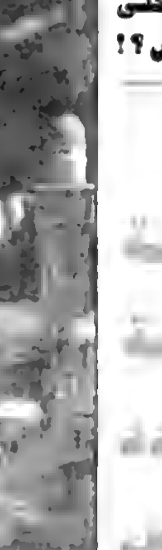
لدى الأستاذ هيكل مايزيد على مليون ونصف وثيقة، فمعروف عنه الحرص الشديد على الجمع والاحتفاظ بكل وثيقة أو مستند، وأتصور أنه حان الوقت لكى تودع هذه الأوراق المهمة فى إحدى الجامعات أو دار الوثائق التابعة لدار الكتب المصرية، وإن لم تكن الوثائق الأصلية فلتكن صورة ضوئية منها، لكى تتاح أمام الدارسين والباحثين، ومن أجل تاريخ حقيقى لثورة يوليو.

وأتفهم تخوفه من إهمالها أو عدم الحفاظ عليها، فلماذا إذن لا يقيم مؤسسة أهلية قادرة على الحفاظ على تلك الوثائق وإتاحتها لكل من يريد الاستفادة منها؟!.

المحـــــرر

من يستطيع التخلى عن القدس؟!





بقلم : عبد الرحمن شاكر

فى برنامج أذاعته قناة الجزيرة عن القدس، لمحت متحدثا «إسرائيليا» لم ألتقط اسمه ولا صفته، يقول: إن بلاده على استعداد لنقل قبة الصخرة ومسجدها من القدس إلى مكة! وأن لديهم من المهندسين البارعين من يستطيع القيام بتفتيت القبة حجرا حجرا بكل احترام (!!) ونقلها ليعاد تركيبها هناك! وهذا - كما هو ظاهر - اقتراح لا تنقصه الوجاهة.. وجاهة الصفاقة وسوء الأدب والجهل الفاضح والاستخفاف بعقول الناس! .

إن الإسرائيلى الذى تحدث على هذا النحو على قناة عربية، يتصور أو يحاول أن يصور للناس أن قداسة المسجد الأقصى عند المسلمين هى للحجارة التى بنيت منها القبة، والذى هو أو هم على استعداد لنقلها «بكل احترام» إلى مكة، ناسيا أو متناسيا، جاهلا أو متجاهلا أن القداسة إنما تعود إلى المكان الذى بنيت فيه القبة من قبل أن تبنى فى عهود متأخرة، عن زمن نبى الاسلام الذى نزل عليه الوحى بأنه: «سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله» (سورة الاسراء: ١) وأنه فى الأثر فى قصة الإسراء والمعراج أن عروج النبى (ﷺ) إلى السماء كان من فوق الصخرة التى

بنيت عليها تلك القبة فيما بعد! .

ولقد كان هذا المكان هو قبلة المسلمين فى صلواتهم قبل أن ينزل الوحى بتحويل القبلة إلى المسجد الحرام فى مكة، ولكن لم يكن معنى ذلك أن قداسة المكان، المسجد الأقصى أو بيت المقدّس قد زالت من عند المسلمين بهذا التحول، بل زادتها قصة الإسراء والمعراج، التى جاء فيها أن محمدا صلى الله عليه وسلم قد أمّ جميع الأنبياء بصلاة فى هذا المسجد الذى صلى جميعهم فيه من قبل ، من أيام أبيهم إبراهيم عليه السلام.

ما الذى يريده «اليهود» من أمثال صاحب الاقتراح المذكور، ومن يواليهم من أتباع الأصولية اليهودية فى الغرب وخاصة فى الولايات المتحدة الأمريكية الحليف الأكبر للدولة الصهيونية، والتى كشفت عن تواطئها معها فى رفض تسليم القدس الشرقية ، والتى تضم المسجد الأقصى إلى أصحابها من العرب الفلسطينيين رغم كونها أرضا محتلة من وجهة نظر الشرعية الدولية التى قامت الدولة الصهيونية بقرار منها فى عام ١٩٤٧ ، ذلك الرفض قد تجلى فى المفاوضات الأخيرة حول الحل النهائى فى كامب ديفيد! .

إنهم يريدون تحقيق الهدف الذى لم يتورعوا فى أحيان كثيرة عن التصريح به، وهو هدم المسجد الأقصى وقبة الصخرة وإقامة «هيكل سليمان» مكانه، ذلك الهيكل الذى تم تدميره من ألوف السنين، ولم يكن المسلمون هم الذين فعلوا ذلك، بل الفرس والرومان وسائر من احتلوا فلسطين قبل أن يفتحها العرب فى صدر الاسلام ويعيدوا بناء المسجد الأقصى.

أقول «يعيدوا» وأنا أعنيها، فالمسلمون يعتقدون أن كل بناء قام فى هذا المكان، بما فى ذلك ما يسميه اليهود هيكل سليمان إنما هو مسجد قد أقيم ليعبد فيه «الإله الواحد القهار»، أم يريد اليهود الذين يريدون إعادة بناء الهيكل أن يعبدوا شيئا آخر خلاف ذلك الإله الواحد القهار؟ فإذا كان الجواب بالنفى وأنهم لا ينوون سوى عبادة الإله الواحد القهار فكيف يجرأون على التفكير فى هدم بناء لا يعبد فيه إلا ذلك الاله؟! .

إن المسألة شائكة كما هو واضح، وسبب كونها شائكة أن العقل الأوروبى المتحجر، وليس المتحضر كما يزعمون، عند الأصوليين من المسيحيين واليهود فى الغرب لا يعرفون، أو هم يعرفون ويتجاهلون تاريخ هذه المنطقة وتاريخ العقائد فيها، وهم الذين يؤمنون ببعض منها ويكفرون ببعض! لا يعرفون أو يتجاهلون أن العرب المسلمين لم يهدموا معبدا ولا كنيسة لأى من الأديان السماوية من قبل ظهور الاسلام فى جزيرة العرب، ويشهد ذلك المسيحيون الشرقيون الذين بقيت كنائسهم على حالها، واليهود الشرقيون أيضا إذا كانوا منصفين.

لقد رفض عمر بن الخطاب حينما زار بيت المقدس أن يصلى فى كنيسة القيامة رغم أن الراهب الذى كان يرعاها دعاه إلى ذلك، وذلك على حد قول عمر لكى لا يتخذها من بعده المسلمون مسجدا لهم، وبدلا من ذلك بنى مسجدا على أنقاض المسجد الأقصى الذى كان مهدما هو المعروف باسم مسجد عمر، وإذا كان

اليهود يعتبرون الحائط الغربي للمسجد الأقصى هو الأثر القائم من هيكل سليمان، ويسمونه حائط المبكى، فلم يمنعهم أحد من الصلاة عنده، فلماذا لا يستمرون في ذلك، بدلا من إثارة الفتنة على أوسع نطاق ممكن بالدعوة إلى الهدم وإعادة البناء؟! .

دعوى الديمقراطية

إن الرئيس كلينتون، الديمقراطي في دعواه حسب اسم حزبه فحسب، يقول: إنه سوف يكافئ إسرائيل التي هي الدولة الديمقراطية الحقيقية الوحيدة في المنطقة - على حسب زعمه - بنقل السفارة الأمريكية إلى القدس، وعلى حسب ما ذكرته قناة الجزيرة، فإن المكان المقترح لإقامة مبنى السفارة الجديدة سوف يكون على مبعدة ميل واحد فحسب من المسجد الأقصى! ، أية ديمقراطية هذه التي يتحدثون عنها؟ هل استفتوا سكان الأرض المحتلة فيما إذا كانوا يقبلون أن تقوم سفارة لدى دولة الاحتلال على أرضهم هذه؟ ، أم أن المسألة كلها هي غطرسة القوة، قوة الدولة العظمى الوحيدة في العالم، والقوة التي أمدوا بها الكيان الصهيوني الدخيل المغتصب لأراضي الغير، وحقوقهم في أوطانهم، ويهدد الدرم أشنع تهديد بإزالة مقدساتهم في تلك الأوطان على نحو فاجر لم يشهد له التاريخ مثيلا من قبل؟ .

إنهم رجعيون ممعنون في الرجعية هؤلاء الذين يريدون إعادة التاريخ إلى الوراء ألوف السنين، حيث لا سبيل إلى هذه الاعادة، وإنما هو تلويث الحضارة الانسانية والسخرية البذيئة من معالمها الراسخة وليس أدل على رجعية هؤلاء القوم من التصريحات التي أدلى بها أخيرا، في غمار معركة القدس الدائرة حاليا بالكلمات فحسب، زعيم حزب شاس المدعو عبديه (أو عوفاديه كما ينطقونه) بن يوسف، ووصفه الفلسطينيين المعاصرين بأنهم أفاعي! .

إن هذا المتعصب الأحمق يقرأ في كتابهم المقدس وعد الرب باعطاء أرض الفلسطينيين لبني إسرائيل الذين خرجوا مع موسى من مصر، فيتصور أن الفلسطينيين المعاصرين هم هؤلاء المذكورين في الكتاب المقدس، وينسى أن الوعد الرباني قد تم وانقضى منذ ألوف السنين، وأن الفلسطينيين المعاصرين هم من بقايا السلالات الاسرائيلية الحقيقية، حينما قامت دولة الموحدين الأولى في تلك المنطقة، ثم ظهرت المسيحية في بني اسرائيل فأصبح كثير منهم مسيحيين ولا يزال بعضهم كذلك، ثم جاء المسلمون من جزيرة العرب فدخل معظمهم في الاسلام، وهكذا! .

إن الجريمة الكبرى التي أقدم عليها الرجعيون من الأصوليين اليهود والمسيحيون في الغرب، هو تصورهم أن قيام ملك اسرائيل في فلسطين، المذكور في الكتب المقدسة، إنما هو رواية مسرحية يمكن أن يعاد تمثيلها على ذات الأرض المقدسة، وأن يكون أبطال هذه المسرحية هم من سلالة الخزر، الذين اعتنق آباؤهم اليهودية في القرن الثامن الميلادي، بعد ظهور المسيحية والاسلام، وهم الذين يشكلون الآن تسعين في المائة من يهود العالم، ومنهم الجالية اليهودية الكبرى في

الولايات المتحدة الأمريكية، وبينهم ظهرت الحركة الصهيونية حينما بدأ القياصرة الروس فى اضطهادهم بعد أن أزالوا ملكهم فى جنوب روسيا.

إن خروج بنى اسرائيل من مصر وإقامة ملكهم فى فلسطين طبقا لما ترويه الكتب المقدسة هو أمر قد تم وانقضى، أما نزوح سلالات المتهودين الحاليين من روسيا وشرق أوربا إلى الأرض المقدسة، وإقدامهم على ارتكاب أشنع جرائم القتل وطرد المواطنين واغتصاب أوطانهم ومساكنهم ، واليوم محاولة اغتصاب مقدساتهم فذلك ليس إلا حلقة من سلسلة جرائم الاستعمار الأوربى، والعدوان الذى مارسه الرجل الأبيض ضد الانسان وحقوقه فى سائر أنحاء الأرض، بما فى ذلك إبادة الهنود الحمر فى أمريكا واختطاف ملايين السود من أفريقيا وترحيلهم بالقوة إلى أمريكا وبيعهم هناك عبيدا لخدمة الرجل الأبيض وبسط سلطانه وتنمية ثروته، إلى إبادة السكان الأصليين فى استراليا واضطهادهم إلى عهد قريب فى جنوب أفريقيا.. إلخ مآسى تلك السلسلة الاجرامية التى تعتبر وصمة عار فى تاريخ البشرية.

معركة فاصلة

إن الدفاع عن حرية القدس وعروبتها وحرمة مقدساتها الاسلامية والمسيحية، قد أصبح قضية فاصلة، ينبغى أن يقف إلى جانبها كل من يؤمن بالحرية والديمقراطية والتقدم واستقرار الحضارة الانسانية، من كل جنس أو ملة أو دين، وذلك فى مواجهة الرجعية الدولية، المستندة إلى الأصولية اليهودية المسيحية، الصليبية المتعصبة، والتى يمثلها أمثال بيل كلينتون وزوجته هيلارى، والمتنافسان على مقعده الذى يوشك أن يخلو فى البيت الأبيض، نائبه آل جور بمرشحه فى النيابة السيناتور ليبرمان، وجورج بوش الابن، وهما من يتنافسان على تملق الجالية اليهودية فى أمريكا عن طريق تأييد النوايا الاجرامية للدولة الصهيونية ومطامعها فى المنطقة، ويزيدان عليها الإصرار على تجويع شعب العراق وإبادة أطفاله من خلال الحصار والعقوبات الدولية التى لا نهاية لها.

إن الرجعية الدولية المتمثلة فى الصهيونية وأنصارها فى الغرب، تهون إلى جانبها، وإلى جانب أهدافها ووسائلها التكنولوجية المتطورة، ما قد أصبح يشار إليه فى بلادنا بأنه اتجاهات أصولية وسلفية، أهدافها من نوع تطبيق الشريعة الإسلامية أو إعادة الخلافة.. إلخ وحتى وسائلها أو وسائل بعض فرقها من نوع ما يسمى بالعمليات الارهابية، إنما هو لعب عيال تافه، إلى جانب ما لدى الأصولية الرجعية اليهودية المسيحية من أهداف ووسائل، بل إن من أهم أسباب انبعاث التيارات المتطرفة فى بلادنا على هذا النحو، هو الإثارة المتعمدة كل يوم، للمشاعر الاسلامية، من جانب الصهيونية وممارستها الهمجية المتوحشة، وسكوت حلفائها عليها، بل ممالأتهم الواضحة والمفضوحة لها.

بقى أن نقول: إن أول معول للهدم يهوى على قبة الصخرة أو المسجد الأقصى سوف يفتح على الجميع أبواب الجحيم، وما أظن أن مليار مسلم فى هذا العالم سوف يتركون ثأرا هكذا عند خمسة عشر مليون يهودى، مهما تكن من قوة الرجعية الدولية المساندة لهم!.

● «يجب ألا ننتظر من الناس أن يفعلوا كما نريد منهم، ولهذا نفهمهم إذا لم يفعلوا».

الرئيس الإيراني محمد خاتمي

● «القدس مشكلة فريدة تتطلب حلاً فريداً».

الرئيس الأمريكي بيل كلينتون

● «حقوق الإنسان والحقوق السياسية والمدنية هي كل لا يتجزأ».

د. ادوارد سعيد

● «علمانية تركيا الفوقية أطلقت إسلاماً شعبياً والعكس شهدته إيران».

الصحافي اللبناني بول الأشقر

● «قيمة الإنسان المتحضر لا تقاس بما يملك ولكن في كيف يتصرف».

د. ليلى تكلا

● «القارة التي أنتمي إليها تريد جسدها لعمل واحد هو أن يقاتل بعضه بعضاً».

الشاعر السوري أدونيس

● «الديمقراطية ليست مجرد صندوق للاقتراع وإنما هي أيضاً منظومة من القيم والرؤى التوعوية للإنسان في وجوده العام».

د. جورج طرابيشي

● «ليس منا من هو أكثر عبقرية من مجموعنا».

وارين بينيس مؤلف كتاب «التنظيم العبقرية»

● «الأديب هو المخلوق الذي يحترف لعبة الاعتراف بالأحرف».

الأديبة اللبنانية غادة السمان

● «ربما تكون رئاسة حكومة مسؤولية صعبة ولكن رئاسة عائلة قد تكون أصعب».

توني بلير
رئيس الحكومة البريطانية



بيل كلينتون



محمد خاتمي

ينالون ٩٩ ٪ فى الثانوية ... ثم ينحدرون

بقلم د. محمد رجب البيومى

فى هذه السنوات العجيبة نرى كليات القمة كما يسمونها، وهى فى مضمونها لا تفترق عن كليات السفح المظلومة، نرى هذه الكليات من طب وهندسة وصيدلة لا تأخذ من الطلاب غير الحائزين على ٩٩ ٪ إلى مالا يقل عن ٩٥ ٪ ، فإذا انخفض المجموع إلى ما دون ذلك، ترفعت هذه الكليات عن أن تنحدر إلى مستوى لا يليق بمركزها العلمى، ويدخل النابغون من هؤلاء الأفذاذ إلى كلياتهم، فإذا نتيجة الامتحان فى العام الأول تعصف بأكثر من النصف فى كل كلية!! فهل يكون من ارتفع إلى مستوى المائة فى المائة أحيانا أو ما دونها بقليل عاجزا عن اجتياز السنة الأولى إلى ما فوقها ! أين إذن النبوغ العبقرى الذى جعله يأخذ أعلى الدرجات فى الشهادة الثانوية ! ثم يتخلف عنه فجأة، وكأنه حذاء قد بلى فى قدمه بعد عام واحد، ليجد نفسه مضطرا للإعادة ، وقد يكون قد أرهق والده فى دروس خصوصية ذات أرقام فلكية ، كما أرهقه من قبل فى دروس خاصة فى سنته الأخيرة بالمدرسة الثانوية وما قبلها ، حتى باع مفروشات منزله، وكاد ينام على الحصير ! أين ذاك النبوغ وكيف توارى؟

ثم ارجع البصر كرتين إلى ما قبل ذلك بأربعين عاما أو أقل، فإنك ستجد من أخذ ٧٠٪ أو ما دونها بقليل ، قد وجد مكانه فى كليات القمة المزعومة، وانتقل من نجاح إلى نجاح فلم يتعثر فى عام واحد، ولم يكن وباء الدروس الخصوصية الجانبية قد مسه بسوء ، فانتقل سليما معافى، لم يرهق والده فى قليل أو كثير، حتى إذا بلغ منتهاه فى الدراسة، وجد المكان المهيأ، بل وجد السلاح العلمى الذى ظفر به باجتهاده ، فهو طبيب حقيقى ! أو مهندس حقيقى، وليس ممن حفظ كلاما ثم ردده شفويا وتحريريا فاقتحم العقبة بعد أهوال!

لماذا تعثر صاحب التسع والتسعين وفاز صاحب السبعين ! ولماذا لم يحدث أحد نفسه بدراسة ميدانية ترصد المقدمات، وتتعرف النتائج وتنتهى إلى التشخيص الناجع؟ ألفقر في الباحثين؟ ألعجز فى الدارسين؟ معاذ الله !

فالمؤتمرات العلمية تعقد كل حين، وتلقى فيها المحاضرات ، وتقدم بها الاقتراحات؟ والمجالس المتخصصة ذات مواعيد محددة تجتمع فيها الرءوس ، وتتبادل الآراء وتملأ استمارات المكافآت عقب كل مجلس! ولا نرى من ذلك ومما فوق ذلك مما أعلمه وأكتمه خشية اللجاج ما يدل على نظر فى مستقبل التعليم بالمدارس والجامعة! وكل عام تتكرر النسب المرتفعة فى النتائج وتمتلئ كليات القمة بمن نالوا هذه الدرجات، ليكبوا بعد قليل فى أول امتحان، ويسير الأمر فى طريقه المعبد! ولا يفتح أحد من هؤلاء فمه بصيحة انتباه! فلكل امرئ منهم شأن يغنيه!

بين عهدين

وللموازنة بن عهد مزدهر من قبل، وعهد منتكس من بعد، علينا أن نعرف حال المدرسة فى العهدين لنعلم كيف



أثمرت فى عهد، وكيف أجدبت فى عهد، ففى العهد المزدهر، كان التلميذ يتهيأ للمدرسة الثانوية فى أول عهده بالمراهقة فيجد التنفس المريح فى مدرسته، إذ فى أول أسبوع يبدأ النشاط المدرسى على وجه لا عهد له به من قبل فى مستواه الإعدادى ، فالنشاط الرياضى يجد الملعب المريح فى فناء المدرسة المتسع، وإذا كانت المدرسة فى إحدى العواصم الكبرى فلها ساحتها الرياضية التى تتسع للمدارس المختلفة، كما يجد هذا النشاط من المدرسين مهرة مجربين يزاولون النشاط فى متعة نفسية قبل أن يكون واجبا مفروضا، والنشاط الأدبى تتعدد فروعه إلى أسر مختلفة . أسرة الخطابة وأسرة الشعر وأسرة القصة . ولكل أسرة أستاذ يقوم على أمرها ممتعا بثقة طلابه، وهم ممتعون برعايته وتوجيهه ، وهم معه.فى كل أسبوع يتناولون ما بمكتبة المدرسة من صحف ومؤلفات ، ويسألون عما غمض فيجدون الإجابة ثم يتهيئون لكتابة النماذج البدائية للشعر والقصة فيجدون العطف، ويملئون أوقاتهم قراءة وكتابة متى سنحت لحظات الفراغ، وجماعة الأشغال اليدوية ، وجماعة الموسيقى وجماعة الرحلات وجماعة التمثيل، تقوم بنشاطها فى تنافس برئ دافع، وحفلات المدرسة فى المناسبات المتكررة تفسح لهؤلاء أن يبدوا على المسرح فى فترات سعيدة ، يدعى فيها أولياء الأمور فيصفقون للمجيد وتتسع آمالهم فى الغد إذ دلت البراعم الناشئة على الزهر المتأرج، فى هذا الجو يشعر الطالب أنه أصبح ذا كيان، وأن المدرسة كانت ترويحا له من قيود يجدها فى منزله، وتتعدد صداقاته، فيعمر منزله بالصفوة المختارة من زملائه ، وكلهم حريص على أن يكون نابها بين إخوانه، نابها فى الدرس ، نابها فى النشاط ، نابها فى التعامل الشخصى، وللنباهة أعباء تتطلب الجد فى العمل، واليقظة فى الاستماع عند تلقى الدروس؛ والحرص على مراجعتها، هذا هو الواقع الذى شهدناه من قبل وألفناه، فهل له من مثيل يقرب منه الآن ؟!

والأستاذ كان قبل كل شئ مهيئا للتدريس عن كفاءة واقتدار ، إذ لم تكن كليات الأقاليم قد باضت وأفرخت لتهيئ من يوقوق فى الفصول دون جدوى، كان ذا راتب شهرى يكفيه على ضآلته، فهو آمن السرب مرتاح الخاطر من جهة معاشه، لذلك يقبل على عمله، وفى اعتقاده أن كل تقصير سيحاسب عليه من ضميره، قبل أن يحاسبه الموجهون والمفتشون، لم يكن يفكر فى درس خصوصى إلا إذا أتاه برجاء مكرر، وقد عرف تلاميذه معرفة الوالد لأبنائه فى الأسرة الواحدة، وكل منهم يحاول أن يكون لديه بالمنزل الأثير، كما درس المقرر وقسّمه تقسيما على مدى الشهور، بحيث لا ينتهى العام إلا وقد استوفاه على أحسن ما يستطيع ، هذه هى المدرسة وهؤلاء هم الطلاب ، وهذا هو المدرس، فلا غرابة أن يطرد السير إلى

العاقبة المحمودة ، دون إرهاق ، ولا غرابة أن ينتقل الطالب من المدرسة إلى الجامعة وقد قام بناؤه الفكرى ونموه النفسى على أساس وطيد ، فإذا أخذ سبعين فى المائة من المجموع فقد نال ذلك عن جهد حقيقى، وهو به سعيد! وقد عرف المسئولون فى الجامعة له قيمة هذا الرقم غير المصنوع، ففتحت أمامه الأبواب ، وخرجت أمثال أحمد زويل ومجدى يعقوب!

أما المدرسة الآن فهى موجودة ببنائها الحجرى فقط ، ولكنها غير موجودة تماما بالنظر إلى مجهودها العلمى، لقد وقر فى نفس التلميذ ولدى الأستاذ وعند ولى الأمر أن الأداء التعليمى فى المدرسة لا جدوى منه ، وأن الدرس الخصوصى هو وحده سبيل النجاح! بمعنى أن التلميذ يستغنى استغناء تاما عن المدرسة، إذ لا جدوى من دروس تلقى بطرف اللسان لقضاء الوقت فحسب، وأولياء الأمور يصرخون من هول الدروس الخصوصية فى كل مادة ، لا فى مادة أو مادتين، والطلاب يقضون أوقات المدرسة فى فراغ شاحب إذ لا يسمعون ما يفيد، فإذا انصرفوا إلى منازلهم تلقتهم منازل المدرسين تباعا . وقد انقسم الوقت منذ العصر إلى بعد العشاء بين عدة دروس فى عدة منازل! والضعفاء من المساكين يسألون أين المجانية المزعومة؟ إنهم مستعدون إلى أن يدفعوا النفقات مضاعفة فوق الذى كان بالأمس على أن يستريحوا من كابوس الدروس فلا يجدون من يسمع !! المدرس يدخل إلى الطلاب ليقرأ عدة صفحات، أو يحل بعض المسائل دون اكتراث بمن فهم أو من لم يفهم، والموجه يأتى فيدرك الواقع على طبيعته ولكنه لا يستطيع أن يفعل شيئا . والناظر همه أن ينتظم الطلاب فى الفصول فحسب، ولا عليه إذا وجدوا الدرس النافع أو فقدوه، ودعك من الفصول التى امتلأت حتى التخمة، فأصبح الفصل يجمع الستين من التلاميذ وكأنهم دجاج فى الأقفاص، ودعك من الفناء الفسيح الذى لا وجود له فى تسعين فى المائة من المدارس بعد أن شغل الفراغ بفصول جديدة لتتسع للأفواج المتزايدة كل عام، ودعك من ألوان النشاط المدرسى التى لا يسمع بها أحد ولا ينتظر أن يكون لها صوت خافت ! ثم نفاجأ بعد ذلك بأن من الطلاب من حاز ٩٩٪ فى المائة! كيف أتى هذا؟ إنها طريقة البرشام فى الدروس الخصوصية ، لأن صاحب الدرس الخصوصى من المدرسين لا يثقف عقلا ، ولا يبنى نفسا ، ولا يعلل فكرة، إنما يضع السؤال ، وجواره جواب يجب أن يحفظ حفظا دون نظر إلى محتواه ، والمصحح فى أوراق الامتحان لا يعنيه أن يبحث عن فكر الطالب ، بل عن الإجابة التى وضعت فى البرشام المكتنز، فعليها المعول فى تقدير الدرجات ! ونتيجة لذلك لا يأخذ أعلى الدرجات إلا من ساعدته الدروس الخصوصية على التلقين دون فهم، ليس كل أولياء الأمور ذوى

استطاعة مالية تسمح لأولادهم بأخذ الدروس ، وفيهم من يقترض ليعطى ابنه درسا أو درسين فى مادة أو مادتين ، وتكون النتيجة الأليمة هى عدم تكافؤ الفرص بين طالب فقير لا يجد المعين ، وطالب غني أمده والده بما رفع رقمه النهائى ، رفعا متوهما لأنه مع التحاقه بكليات القمة ، ولم يعرف غير الحفظ والتسميع ! ولذلك تتعثر خطواته تعثرا أليما فى ميدانه الجديد !

فقدان الثقة !

وأدهى ما يصدم التلميذ فى دراسته الثانوية ، أنه يفقد الثقة فى كثير مما يقرأ ، إذ تطالعه مقررات المطالعة والتاريخ والتربية الوطنية بما يكذبه الواقع كل التكذيب ، فهو مثلا يقرأ فى كتب المطالعة أن الأحزاب قبل الثورة قد زيفت الانتخابات ، وصادرت رأى الشعب ، ومكنت الأثرياء من التحكم فى الناس بشراء الأصوات ، ثم جاءت الثورة فصححت هذه الأخطاء ، وأعطت للشعب حريته فى اختيار من يمثله دون إجبار ، يقرأ ذلك فيسأل أستاذه هل تم هذا فعلا ؟ ويسكت المدرس فلا يجيب ، فيقول الطالب إن ما نشهده منذ قامت الثورة فى أمور الانتخاب من تزييف إرادة الشعب ، شبيه بما يقولونه عن الأحزاب ، فلماذا يكذب المؤلفون . ويقرر كذبهم على الطلاب ؟ فيوافق الأستاذ آنا بالسكوت دون تعليق وآنا بالحق الصريح .

وهو يقرأ فى كتاب التربية الوطنية أن الإدارة المحلية تحقق العدالة المطلقة فى توزيع الخدمات على كل أنحاء البلاد . بدلا من تركيزها فى المدن الكبيرة دون الريف. فيتساءل ، هل تم ذلك فعلا ؟ يتساءل مستنكرا لأنه يرى مظاهر الجور والمحسوبية والابتزاز فى كثير من الإدارات ، ويشهد بعينيه إقصاء صاحب الحق ، وتقريبا ذوى الزلفى من أصحاب الوساطات ، ويجاهر المدرس بما يراه ، فيوافقه ويقول إن الكتاب المدرسى لا يصور الواقع كما هو كائن ! .

ثم يقرأ فى كتاب التربية أيضا أن الجو الديمقراطى يتمثل فى اتحاد الطلاب بكل جامعة ، وكل طالب يشارك فى انتخاب من يمثله دون ضغط ، وكل طالب يستطيع أن يرشح نفسه دون قيد ، واتحاد الطلاب هو المهيمن على النشاط الطلابى ، مع أنه يعلم أن هذا كله زيف ، وأن الديمقراطية بمنأى عن اتحاد الطلاب! يعلم ذلك مما يشاهده ويسمعه فيسأل الأستاذ عن مدى صحة ما قرر عليه فى درس التربية وكتابها فيجد السكوت تارة ، أو الإقرار بالواقع الأليم طورا آخر .

ويقرأ أن العقوبة شخصية ، ولا عقوبة إلا بقانون ، وأن المتهم برىء حتى تثبت إدانته ، ثم يرى فى الواقع المشاهد ما يخالف ذلك ، فقد يجد أخاه معتقلا دون تحقيق ، ويحال بينه وبين زيارته فى المعتقل ، ويرى من أصحاب الجرائم من

يتحايلون على القضاء بشهداء الزور ، ثم يكون لهم بعد ذلك وجاهتهم فى الدولة ، وتصدرهم فى المجتمعات ، وكأنهم لم يزاولوا منكرا يعرفه العامة جميعاً ! يرى ذلك فيسأل أستاذ التربية ما معنى أن المتهم برىء حتى تثبت إدانته ، وهو يرى عشرات المعتقلين يساقون إلى الحبس دون محاكمة ! فيسكت المدرس حينا ، وينفجر حينا آخر .

إن هذه المقررات الباطلة بشهادة العيان تفقد الطالب ثقته فى المقررات الصحيحة كثيرا ، لأنه فى عمره العقلى لا يستطيع أن يضع فاصلا بين الحق والبهتان ، وإذا فقد التلميذ ثقته فى كثير مما يقرر عليه من المعارف ، فقد أصبحت المدرسة فى رأيه أداة إعلامية لترويج وجهة معينة ، وليست مكان استنارة عقلية تهدى إلى الحق ، وترشد إلى الصواب ! وقد كانت المدرسة فى عهود سالفة محرابا للحقائق ، وقد تبتعد عن أمور السياسة ولكنها لا تتورط فى الزيف والتمويه ! وهذه الأسئلة لا تدور إلا فى مدارس عريقة لها شهرتها البعيدة فى حقل التربية ، وهى تعد على أصابع اليدين ! أما مدارس الصعيد الأقصى ، والريف البعيد ، فقد أهملت السؤال والجواب معاً ، فى أكثر ما يلاك من الدروس ، فلا طالب يسأل ، ولا مدرس يجيب !

ونبعد عن المدرسة الثانوية لنصل إلى الجامعة ، وهى التى تتلقف الأفواج الزاخرة كل عام ، فتقف وقفة مستأنية بين الطالب القديم الذى أخذ أقل من السبعين . والطالب الحديث الذى نال ٩٩٪ أو ما يقاربها ، فماذا نجد ؟ .

الأستاذ المتمكن

إن الطالب القديم لم يكن أمامه غير جامعتين جديرتين باسمهما الشريف . هما جامعة القاهرة (جامعة فؤاد) وجامعة الإسكندرية (جامعة فاروق) فإذا التحق بكلية من كلياتهما ، فإنه يجد من أول يوم الأستاذ الجامعى المتمكن ، يجده من أول درس يصافح طلابه ليقول لهم ، إن الدراسة فى الكلية غير الدراسة فى المدرسة الثانوية ، الدراسة فى الكلية يشترك فيها الطالب اشتراكا مباشرا ، فلابد أن يبحث ويسترشد بالمصادر ويرجع إلى أستاذه مستفهما عما غمض عليه ، أما الدراسة فى المدارس فالطالب جهاز استقبال فحسب ، وبعد أن يؤكد ذلك يتحدث عن المادة التى يدور حولها البحث ، فيعطى تصورا مقاربا لما سيكون، ثم يأتى الدرس الثانى ، فيقدم للطالب كشفاً بأسماء المراجع التى يجب أن يستشيرها فى مكتبة الكلية أو فى دور الكتب الخارجية ، ويطلب من النابهين أن يوافوه بملخص لما يقرءونه بعد أن سمعوا الدرس موجزاً يحتاج إلى تفصيل ، وهنا ينشط الطلاب فيقرءون ويأتون بالجديد للأستاذ ، فيجدون التشجيع ، وتكون فرصة طيبة لاحتضان النبهاء ، وحث

الكسالى ! وعلى هذا المنوال تتوالى الدروس ، ولا تنتهى السنة الأولى إلا وقد عرف الطالب كتبا شتى ، وآراء مختلفة . ووضع قدمه على الطريق الصحيح !

وقد يكون للأستاذ كتاب ، ولكنه لا يفرضه ، ولا يكتفى بما قيل فيه ، وحسبه أن يشير إلى مكانه فى دار النشر النائية ، وقد يرجع إليه الطالب أو يلتقى بكتاب زميله إذا لم تتيسر وسائل شرائه ، فما عليه من بأس ، ثم تكون الندوات العلمية ، والرحلات الاكتشافية ، والسهرات الترفيهية فى مواسم تتكرر ، وكلها تحمل طابع التثقيف ، ولا ينتهى أمر الجامعة حتى يكون حامل الليسانس أو البكالوريوس جديرا بما حاز من درجة ، فيفخر بانتسابه للجامعة . ويعد من أساتذته من يذكرهم مباهيا ، وفيهم من يصر على مراسلته مشوقا فيتلقى الرد العاطف والجواب المريح!

هذا بعض ما يقال عن الطالب القديم، أما طالب هذه الأيام فماذا يجد؟

أنا لا أنكر الفضل على أهله ، فلا يزال فى هيئة التدريس نفر يخلصون للمعرفة ويقدرون رسالة الجامعة ، ولكنهم - علم الله - لا يبلغون عشرين فى المائة على أكثر تقدير ! وإذن فثمانون فى المائة هم الذين ينحدرون بالتعليم الجامعى إلى أسفل سافلين !

يأتى الدرس الأول فى مطلع العام ، فإذا المدرس الناشىء (وغير الناشىء) يسارع فى الأسابيع الأولى ، ليتحدث عن كتابه الذى يجب أن يشتريه الطالب ، وينتخب طالبا يتفرس فيه النشاط الحيوى ليكون المختار فى رواج الكتاب ! وفى الدروس التى يقوم بإلقائها نجده يقرأ من صفحات الكتاب ، وكأن القراءة هى كل شىء ، فيهمل فصولا ذات بال . لأن شرحها يصيبه بالإرهاق ، وقد كتبها ليتضخم الكتاب ، فيتضخم الثمن ، ولا يستحى المدرس الناشىء (وغير الناشىء) أن يشير فى كل محاضرة ، تهديده لمن يحاول تصوير الكتاب ، وأن هذه الجريمة النكراء تدفع بصاحبها إلى السجن ، فالطرد من الكلية ، وأنه يعرف أن فى الطلاب من لا ضمير لديهم فيقترفون هذا الجرم الفاحش، الذى تكاد السماوات يتفطرن منه، وتشق الأرض ، وتخر الجبال هدا ، ثم إن له عيونا ستبحث عن الجانى الأثيم!! لقد يعدنى القارىء مبالغا مفرطا لا سيما وقد استشهدت بالنص القرآنى الشريف . ولكنى أقرر أن هذا بعض ما يحدث . لأن الحمى قد تلبست بعنف مجنون بعض «الوراقين» ولا أقول المؤلفين ، فهم من التأليف الحقيقى بمكان بعيد ، فأخذوا يهذون بمسألة التصوير هذه ! وإذا كان التصوير جرما ، فإن أشد منه وأخطر فى ميدان الجريمة أن يغفل المدرس الشرح ، وأن يكتفى بالقشور عن اللباب ، وألا يحاول أن يفسر بعض ما سطره فى الكتاب إلا بتثاقل كريه ! فإذا

سئل عن مسألة به ، قال إن الكتاب يحوى كل شيء !! لقد قرأت منذ أيام حديثا بديعا للأستاذ الكبير طارق البشرى بجريدة (صوت الأزهر) يقول فيه إن الأستاذ العلامة عبد الوهاب خلاف أستاذ الشريعة بكلية الحقوق ، كان يدرس له ولزملائه مادة «أصول الفقه» فيفيض فى حديث مسترسل شافٍ ، كأنه ماء يترقرق فى نهر صاف ، ولا يبلغ ما فى كتابه معشار ما يلقيه . والطلاب منجذبون مستمتعون . وكأنهم يستمعون إلى قصة بارعة ، والمادة هى مادة الأصول أعقد المواد ، وأشدها غموضا ، ولكنها استحالت على يده نغما مطربا ! هذا ما أذكره من كلام الأستاذ طارق بمعناه العام لا بلفظه فالجريدة ليست تحت يدى الآن ! ومن هنا استطاع أمثال عبد الوهاب خلاف ومحمد أبى زهرة وعبد الرازق السنهورى أن يكونوا المثل الأعلى للأستاذ الجامعى فى كلية الحقوق ! ولكن مدرس اليوم فى أكثر أحواله . لا يقيم العربية ، ويتحدث فى درس الأدب بالعامية! لأنه تعلم على من لا يعلو عنه إلا فى السن فحسب ، وتشبه به إلقاء وتأليفا وخواء فجلت المأساة !

أما الدروس الخصوصية . فقد أصبحت كأنها حق مشروع بكثير من الكليات ، تؤلف لها المجموعات جهارا ، يؤلفها الأستاذ بنفسه ، أو من ينوب عنه من تلاميذه، ومن أندر ما سمعت فى هذا الباب ، أن معيدا فى كلية من ذوات الأعداد الضخمة فى السنة الواحدة ، جعل يترصد كل طالب أو طالبة يأتى الكلية بعربة خاصة ، فيتصل به طالباً أن يلتحق بمجموعة تعد ، ويباهى بأن الأستاذ هو صاحب الأمر فى النجاح والرسوب والتعيين بعد التخرج وقد تصادف أن أتى طالب فى عربة أجرة لا عربة خاصة ، وتركها فى مستقرها ليعود بها ، فجاءه المعيد النشيط يطلب منه ما اعتاد عليه ، فقال الطالب ، إن العربة ليست له ، وإنه يعمل سائقا عليها بعد الظهيرة ، كى يعول. أسرته ، فقال المعيد إذن أنت تكسب ، وتجرى النقود فى يدك ! وكرر الطلب ! فيالله ، يقوم طالب مثقل مسكين بمجهود شاق ليعول الأم الأيم . والأخوات اليتيمات، مكسورات الجناح ، ثم يطلب منه هذا الوصولي الوغد أن ينضم إلى مجموعة الدرس الخصوصى ! لأنه يكسب نقودا تجرى فى يده ! يكسبها لمن ؟ لأستاذ مرموق كبير يجلس فى المدّرج منتفخا ، ولا كمجلس كسرى فى الإيوان ! أليست هذه كوارث !

لقد بلغت القدر الذى أنتهى إليه فى تحرير مقالى ، وفى النفس أشياء أخر قد أفصح عنها فى مناسبة تطرأ إذا شاء الله أن أكتب !

مضى بها ما مضى من عقل شاربها
وفى الزجاجة باق يطلب الباقى.

العولمة

بعض معالم الفوضى وغياب المعايير

بقلم : جميل مطر

فى أواخر كل حرب عالمية كبرى أو صغرى أو فى أعقابها وأعقاب الكوارث الانسانية العظمى تتجدد دعوة المفكرين ورجال السياسة لإقامة حكومة عالمية. فالعالم - حسب رأى هؤلاء - نظام من الفوضى. يختلف عن الدولة من حيث أن الدولة «الحكومة» تضبط حركة المجتمع وأفراده وتضع المعايير الأخلاقية وتضمنها تشريعات وقوانين وتشهد على تنفيذها بما لها من حق فى احتكار القوة داخل حدود الدولة. واذا فقدت الدولة أو المجتمع أحد هذه الشروط سادت الفوضى بشكل أو بآخر وبدرجة أو أخرى، حتى تقوم حكومة جديدة تستعيد الشرط المفقود وتعيد المجتمع الى حالة الانضباط. أما العالم فرغم وجود عدد من التشريعات العرفية أو التى تتضمنها الاتفاقات والمعاهدات الدولية، ورغم وجود مجلس الأمن وحقه فى التدخل لاقرار الأمن والسلام الدوليين، أنه - أى العالم - مازال يفتقر الى شروط متعددة، أهمها عدم وجود سلطة مركزية كتلك التى توجد فى الدولة ولذلك توجد فوضى، وأحيانا تتفاقم .

ومن الشـروط المفـقـودة، العـدالة والمسـاواة والمشـاركـة. فـفى النظام الدولى تتفـاوت المسـتويات الى درجـة خطيرة. إذ بينمـا توجـد دول تشكل ما يسـمى بالنادى النووى، أى دول بترسانة كبرت أو صغرت تحـتـفظ فـيـهـا بأسلحـة نووية وصـواريخ عابرة للقارات أو عابرة للحدود، توجد دول لا تملك من القوة المسلحة ما يحمى حدود قصور حكامها ومبانى الدولة. هذه الفجوة فى حـد ذاتهـا كـافـيـة لأن تتـسـبب فى الفوضى. فالدول الصغيرة، أو الضعيفة، ستشـعر دائمـا بعدم الاطمئنان والخوف من عـدوان، أو حـتى من مـجـرد التـهـديد بعـدوان، تشنه دولة نووية. بل أن مـجـرد تجـاور دولتـين، إحـداهـمـا نووية والأخـرى مزودة بأسلحة تقليدية قليلة أو كثيرة كفيل بأن يتسبب فى حالة توتر دائم. هنا تلجأ بعض الدول الأضـعـف الى «السـلاح الموازى» أو «الحـرب السـوداء» كـمـا فى الاقتصـاد، بهـدف تضـييق الفـجـوة. هكذا نشـأت حـركـات التـحـرير، وهكذا مـارست قـوى التـحـرير نضـالهـا العـسكرى ضـد القـوى الاسـتـعـمـارية والتـدخل العـسكرى الأجنبى والاحتلال. وهكذا أيضـا انتشـرت منظمـات العنف، التى اتفقت مـعظم الدول الأقوى عـسكريا على تسـميـتـها منظمـات الارهاب. وبعيدا عن الحكم عليها سلبا أو ايجـابا وبعـيـدا عن تبرير وجودها، تبـقى هذه المنظمات تمثل نوعا من مـحاولات سد الفـجـوات بين الأقـوى والأضـعـف. وكل مـا يمكن قوله فى هذا الشأن، أنه بينمـا يبالغ الأقوى فى ممارسـة قوته والاسـتـفادة من رجـحـان كـفـة التـوازن لصـالحـه، يبـالغ الضـعـيف فى اسـتـخدام القوة بصـورتـهـا البدائية أو شديدة العنف أو المتسللة سرا بدون انذار أو إعـلان حـرب مـسـبق. فى الحالتين لا يعتمد الأمر للأسف على معيار أخـلاقى واحـد منظم للعـلاقـة بين الأقـوى عسكريا والأضـعف .

الفقر يزداد !.

ويفـتـقـر النظام الدولى الى العـدالة الاجتماعية. وحين أقول عدالة اجتماعية لا أقـصـد المسـاواة بين الأغنيـاء والفـقـراء وإعادة توزيع الثروة بالتساوى بين شعوب تنتج وشعوب لا تنتج، أو بين دول تحكمها القوانين ودول يحكمـها الفسـاد والعلاقات الشخصية. وإنما أقصد الفرص المتساوية بدون ظلم من جـانب الأغنى والأقـوى، وأقـصـد وجـود حـد أدنى من المسـئوليـة الاجتماعية لدى الأغنياء. إذ لا يجوز أن يدعى الأغنيـاء،، وهم المسـتـفـيـدون من العولمة مثلا، أن العالم قرية صغيرة، وأن المسـافـات قد اخـتـصـرت بين الدول، وفى نفس الوقت يتـجـاهلون أن فى هذا العـالم الذى أصبح فى حجم القرية بسـبب تقدم وسـائل الاتصـالات والمواصلات، شعوبا أو جماعات تموت بأعداد كبيرة بسبب الفقر والمرض، وتموت أيضـا بسـبب ثالث لا يقل

أهمية، وهو حروب الفقراء. ففى ظل تقدم مسيرة العولمة واحتلالها مكان الصدارة بين الأيديولوجيات «غير الأيديولوجية» كما يصفها مبشرو العولمة، اتسعت رقعة الفقر في العالم الى حدود غير مسبوقة فى التاريخ الانسانى. وهنا يتعاظم التناقض المدمر، فقد ضاقت المسافات الجغرافية التى تفصل الأغنياء عن الفقراء، وفى نفس الوقت اتسعت المسافات بين المكنوز والمستهلك من الثروة عند الأغنياء من ناحية والعدم أو مايشبه العدم عند الفقراء من ناحية أخرى. بمعنى آخر أصبحوا ، أى الفقراء والأغنياء، على مرمى بصر الطرف للآخر. هذا يرى النعم والطيبات التى يتمتع بها الآخر، والآخر يرى العدم والجدب والأمراض التى يعيش أو يموت فيها الفقراء. والمؤكد فى هذه المرحلة التى نعيشها فى ظل العولمة أن المعلومات عن الثروة والغنى والرفاهة متوفرة للجميع، وكذلك المعلومات عن العدم والجدب والفقر. يستطيع الأغنياء دولا وجماعات وأفرادا، لو مدوا أيديهم أن يلمسوا الفقراء ولو أمعنوا النظر أن يكتشفوا تفاصيل أحوالهم، ولو ركزوا على الفهم أن يتنبأوا بحجم الخطر الذى يهدد استمرار العولمة وينذر بفوضى مدمرة.

★ ★ ★

والأمثلة كثيرة على خطورة المسافة التى تبدو قصيرة للغاية بينما هى أيضا بعيدة للغاية. اذ يخلق هذا النوع من التناقض حالة.شكوك وشعور بالخداع لدى أكثر من ثلاثة مليارات من سكان العالم الذين يعانون الجوع كليا أو جزئيا ودوما أو متقطعا. خذ الدواء نموذجا على ما تفعله أيديولوجية العولمة وممارساتها فى صنع هذه الفجوة بين الأغنياء والفقراء فى القرية الكونية.. ففى أفريقيا يستعملون منذ سبعين عاما عقارا يعالج مرض النوم، وهو مرض قاتل يتسبب فيه الذباب الناقل لجرثومة هذا المرض من إنسان أو حيوان الى آخر. يتعاطون هذا العقار عن طريق الحقن فى الوريد. وهو ليس العقار الأمثل ولكنه الوحيد رغم أنه يقتل حوالى خمسة بالمائة من المرضى، ويجعل الوريد الذى ينساب فيه غير صالح لأنه يتسبب فى تآكل جدرانه الداخلية. وكان الظن خلال السنوات الأخيرة أن هذا المرض قد قضى عليه، مثله مثل السل والملاريا والكوليرا والجدرى، واذ به عائد مع كل تلك الأمراض متفشيا بشكل رهيب.

أدوية لمنع انتشار الأمراض !

لم تنته القصة . كان المتوقع أن العالم الذى صار فى حجم القرية الكونية المتقدمة تكنولوجيا وبالذات فى مجال الحيويات سينتفض وبسرعة لانتاج أدوية

تمنع انتشار هذه الأمراض على نطاق واسع. وقد تحمس بالفعل باحثون في شركات عملاقة تنتج الأدوية وتوصلوا الى عقار جديد أقل خطورة من العقار القديم نزل الى الأسواق في شهر يوليو الماضي، وقبل مرور شهر سحب من الأسواق لأن الشركة العملاقة اكتشفت أنه غير مربح اقتصاديا. بمعنى آخر توقفت الشركة العظمى عن انتاج دواء ينقذ الملايين من البشر لأن هذه الملايين فقيرة ولا تستطيع أن تدفع ثمناً مرتفعا لدواء يعود بالربح على الشركة. ثم تبين أن الشركات كانت قد توقفت أيضا عن انتاج عشرات بل مئات من الأدوية الضرورية لعلاج الأمراض الأخرى التي بعثت من جديد، ولايقوى الفقراء على شرائها. إن الدواء الوحيد الناجح في علاج السل الذى يقضى على ملونين كل عام، دواء عمره ثلاثين عاما. ورغم قدمه ورغم التقدم الهائل في التكنولوجيا الحيوية والكيمائية لم تحاول حتى الآن شركات الأدوية انتاج دواء أفضل .

صحيح أن أفريقيا تمثل واحدا بالمائة فقط من سوق الدواء في العالم، ولكن يعيش فيها أكثر من خمسة عشر بالمائة من سكان القرية الكونية. الأفارقة لا يشترون لأنهم فقراء فيموتون، والأمريكيون والأوربيون واليابانيون يشترون لأنهم أغنياء فيعيشون لذلك يقول جيمس أوبرنيسكى رئيس منظمة أطباء بلا حدود وهى المنظمة الحائزة على جائزة نوبل .. «لقد تعبت من منطق يقول.. من لا يقدر على الدفع يموت».. وهو منطق تكاد تصرخ به جهارا وبدون خجل أو حرج شركات الأدوية التى تتنافس فيما بينها على اختراع أدوية لعلاج سقوط الشعر وأدوية لازالته. هذه الشركات تستثمر ماقيمته ٢٧ مليار دولار سنويا في البحث العلمى لتنتج أدوية لعلاج العجز الجنسى والاكتئاب والكولسترول والحساسية ولا تخطط لانتاج أدوية رخيصة لعلاج أمراض مثل البلهارسيا والملاريا والنوم والسل والكوليرا والايدز .

وقد لا يعرف الكثيرون أنه من بين ١٢٣٣ عقارا جديدا صدر ترخيص بانتاجه في الفترة من ١٩٧٥ الى ١٩٩٧، انتج ثلاثة عشر دواء فقط صالح لأمراض المناطق الحارة. حتى هذه الأدوية الثلاثة عشر، أربعة منها انتجتها شركات بغرض المساعدة فى علاج الفقراء، أما التسعة الأخرى فقد أنتجت بتكليف من وزارة الدفاع الأمريكية لخدمة أهداف الحرب في فيتنام سواء لقتل الأعداء أو علاج الجنود الأمريكيين. وأدوية انتجت لعلاج الكلاب والقطط. والمذهل أن شركة من هذه الشركات العظمى رفضت انتاج أدوية لأمراض الفقر ولكنها انتجت دواء لعلاج «قلق الفراق» عند الكلاب. ولكن هذه

ليست أسوأ مصائب صناعة الدواء في عصر العولمة، المصيبة ليست ألا تنتج دواء الا اذا كان انتاجه مربحا، ولكن المصيبة أن تعود المسئولية الوحيدة في اتخاذ قرار في هذا الشأن الى جماعة هلامية أو حقيقية تدعى «حملة الأسهم». هؤلاء، يقال عنهم أنهم، لن يستثمروا في مشروع تجارى الا إذا كان رابحا. هؤلاء، يقال أنه لا يجمع بينهم ضمير اجتماعى أو وازع أخلاقي، قد يكون لكل واحد فيهم منفردا التزاماته الأخلاقية والاجتماعية، ولكنه كصاحب سهم له حسابات مختلفة. هؤلاء هم الطاقة المحركة للعولمة. بدونهم لا عولمة. وبالتالى لا تقدم تكنولوجي ولا ثورة في الاتصالات والمعلومات ولا قرية كونية .

ضبط سلوك العولمة !

هذه هي الفوضى، كما أراها، أو كما أتصورها قبل أن تتفاقم أكثر فأكثر. والسبب أنه لا يوجد «نظام» يضبط سلوك العولمة. ولذلك كان اعجابى كبيرا بتوماس فريدمان الكاتب والصحفى الأمريكى، وهو الرجل الذى كنت انتقدت كتابه ذائع الصيت عن العولمة انتقادا شديدا. فوجئت به يكتب مقالا ينبه لخطورة بعض الأوضاع الناجمة عن العولمة. ويحدد خمسة أوضاع تتعلق بالتطورات المتسارعة في موضوعات بعينها هى :

أولا : فيروسات الكومبيوتر وبخاصة بعد الهجمة الأخيرة من فيروس الحب الذى قضى فى ساعات قليلة على ملفات تساوى ملايين الدولارات فى عشرة ملايين جهاز كومبيوتر.

ثانيا : الايفرنت، أي مرحلة ما بعد الانترنت، وهى الشبكة التى ستربط بين كافة الأجهزة المنزلية والمكتبية .. بمعنى وجود شبكة واحدة تسيطر على كل شيء يعمل بالطاقة الكهربية فى المنزل والمكتب معا بما يحقق تناسقا كاملا وانضباطا فى المواعيد. صحيح أن هذه الشبكة تجعل الانسان أشد قدرة على إدارة الأشياء ومراقبتها عن بعد، ولكنه صحيح أيضا، وهو الأخطر، أن الشبكة ستجعل هذه الأجهزة قادرة على تسيير الانسان والتحكم فى إرادته وأمزجته وهواياته وحياته الشخصية، هنا تشبه هذه الشبكة، ولكن بطريقة مختلفة، الهيمنة التى تمارسها على الانسان شركات بطاقات الائتمان، والاختراق الذى حققه الانترنت لحياة الفرد الشخصية، بل وتعريته بعد خلع ثم نزع ثم نشر كل خصوصياته على الملأ. وفى الواقع، ويصدق فريدمان حين يقول أن «الأخ الكبير» الذى تصوره جورج أوريل فى شخص الحاكم المستبد الذى يعرف كل صغيرة وكبيرة فى حياة وتصرفات المواطن، يتجسد الآن فى هذا الكومبيوتر الراقد هادئا سكانا فوق المكتب، بينما هو

فى الحقيقة يرصد ويسجل كل حركة وكل انفعال وكل رغبة عند صاحبه .

ثالثا : بدء مرحلة جديدة فى السباق القديم بين المستهلك وشركات الانتاج على حيازة المنتج دون دفع مايستحق باسم حقوق الملكية الفكرية. فالمستهلك الآن أشد قدرة من أى وقت مضى على الاستمتاع بمنتج دون استئذان الطرف الذى أنتجه .

خريطة الحياة

رابعا : يقول فريدمان أن موعدين حاسمين فى مفكرة العولمة يقتربان، وكلاهما متصل بقضية حاسمة. فقد اقترب موعد إقامة سوق مالية موحدة تعمل على مدى ٢٤ ساعة وتغطى العالم بأسره. ولا يعرف خطورة هذا التطور الا من اختبر الثورة المالية ومكانة الأسهم والسندات والتجارة فيها فى الاقتصاد العالمى الراهن. وأعلن عن الانتهاء من الخطوات الأساسية فى مشروع فك رموز خريطة الحياة، وسيكون بين يدى العلم الخريطة التى تشرح وتتبع التفاعلات بين جميع أعضاء الجسم البشرى مما يعنى قدرة أعظم على علاج الأمراض، ولكنه يعنى فى نفس الوقت الاقتراب بشكل مخيف من عملية «تكوين» كائنات حية أو على الأقل تغيير طبائع وأشكال المخلوقات.

بكل المعايير لا نستطيع أن نتجاهل خطورة هذه التطورات. إنها أخطر من حرب عالمية. وقد تكون أشد فتكا بالبشرية من أبشع الكوارث في تاريخ الانسانية. أو قد تكون الأكثر فائدة والأنفع لهذه البشرية من كل الانجازات التى حققتها عبر التاريخ. وقد تجمع مثل معظم التحولات العلمية العظمى الشر والخير معا. فى كل الأحوال نحن ـ أى الانسانية ـ على مقربة من مفترق طرق ـ عند هذا المفترق سنجد أنفسنا مجبرين على اتخاذ قرارات حيوية تتعلق بمستقبل هذا الانسان، وهذه الحياة، وهذه الأرض التى نعيش عليها. ولكن لا قرار من هذه القرارات التى سيتعين علينا اتخاذها نحن مستعدون له. فالأمر عند ذاك لن يكون أمر قرار نتخذه أو لا نتخذه.. وإنما وفق أى معيار أو معايير سنتخذه .

والحديث عن المعايير حديث طويل. يبدأ عند ضرورة اختراع «حاسب أخلاقى» يستخدمه انسان عصر العولمة ليخصم ويجمع ويضرب ما عاد اليه من فائدة مادية وما عاد عليه من خسائر معنوية واخلاقية فيعرف فى غده أى قرار سيتخذ فى شأن هذا الأمر او ذاك، ولعلنا الآن، وأقصد كلنا، كمتعاملين مع العولمة، نواجه هذه المعضلة مرة كل يوم ان لم تكن مرات عديدة .

الشرق والغرب .. فى النموذج الثقافى

ثقافة التوحيد لله .. والاستخلاف للإنسان

بقلم: د. محمد عمارة

إذا كانت هذه هى خصوصية الإسلام، التى عظمت من دوره فى صياغة النموذج الثقافى لأمته وحضارته.. فإنه فى بناء هذا النموذج العديد والعديد من «اللبنات» .. والتى تقف هذه الصفحات -مراعاة للحيز والمقام- عند تقديم نماذج منها تعين على تصور دور الإسلام - مقارنا بالتصور الغربى خاصة - فى صياغة النموذج الثقافى المتميز للأمة العربية والإسلامية.. فهى «لبنات» قد مثلت «خصوصيات» ميزت هذا النموذج الإسلامى فى الثقافة عن غيره من النماذج الثقافية الأخرى ..

التوحيد

لقد بلغ الإسلام، على درب عقيدة التوحيد، الذروة فى تنزيه الذات الإلهية عن أى تعددية أو تركيب أو مماثلة أو شبه لأى من المخلوقات والمحدثات، وصاغ للخالق تصورا تجريديا بلغ فى التجريد اقصى ما يطيقه عقل الإنسان..

(قل هو الله أحد .. الله الصمد.. لم يلد ولم يولد.. ولم يكن له كفوا أحد..)(١) وهو سبحانه وتعالى، (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)(٢) .. حتى لقد اجتهد علماء اصول الاعتقاد الاسلامى، كى يعبروا .. باللغة البشرية .. عن هذا التصور التنزيهى التجريدى الذى جاء به الاسلام للذات الإلهية، فلم يجدوا إلا طريق الوصف بالسلب. فقالوا عبارتهم الشهيرة : «كل ما خطر على بالك . فالله ليس كذلك»!.

فهو سبحانه مفارق ، ليس فقط

للمخلوقات وإنما ايضا، لكل التصورات الإنسانية عن هذه المخلوقات .

قدم الإسلام هذا النموذج للتوحيد، فى مقابل اليهودية التى تحولت، بالتحريف إلى وثنية صورت الإله مصارعا؟! وجعلته إلها لبنى اسرائيل وحدهم.. وللشعوب الأخرى آلهتها الأخرى ؟!.

وفى مقابل نصرانية اغتالت الغنوصية توحيدها فسقطت فى الحلول والتجسد وتعددية التثليث ؟!

ولم يقف الاسلام بهذا التصور التنزيهى والتجريدى للتوحيد عند نطاق الاعتقاد الدينى فى ذات المعبود، وإنما اشاعه روحاً سارية فى ثقافة الانسان المسلم، وذلك عندما جعل من عقيدة التوحيد ثورة لتحرير الإنسان الموحد من العبودية لسائر الطواغيت .. ففى العبودية للمعبود الواحد قمة التحرر من أسر واستعباد كل ماعدا الله.. ومن هنا تحول التوحيد ، ويتحول الى حياة يحياها الإنسان دائما وأبدا وليس فقط إلى تصور عند الشعائر والعبادات ..

(قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين.. لا شريك له وبذلك أمرت وأنا اول المسلمين)[٣] ..

وهذا التصور الإسلامى الذى يخلص العبودية لله الواحد فى كل الميادين الدينية والدنيوية والأخروية (صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له) هو الذى ميز النموذج الثقافى الاسلامى بتصور متميز لنطاق عمل الذات الالهية انفردت به الثقافة الاسلامية عن غيرها من الثقافات .

- ففى الارسطية اليونانية كان التصور للذات الالهية باعتباره مجرد خالق للعالم .. خلقه وانتهت علاقته به .. وتدبيره موكول الى الاسباب الطبيعية والمادية المودعة فى ظواهره وقواه .

- وفى الوثنية الجاهلية كان التصور لنطاق عمل الذات الالهية قريبا من هذا التصور الارسطى.. فالوثنيون فى الجاهلية لم يكونوا ينكرون الله خالقا للمخلوقات (..ولئن سألتهم من خلق السموات والارض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله)[٤]..

لكنهم كانوا يشركون معه الطواغيت والأوثان فى تدبير العمران الدنيوى فيلجأون الى هذه الأوثان إذا أرادوا الحرب أو السلم ، السفر أو الحل، الإقدام أو الاحجام .. الخ.. الخ.. فجعلوا الله خالقا ..

ووقفوا بنطاق عمله عند الخلق ..

وجعلوا تدبير العمران للشركاء والطواغيت (.. فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا)[٥] ..

– وقريبا من هذا التصور الذى يعزل الذات الإلهية عن تدبير العمران الإنسانى ويحرر سياسة هذا العمران من شريعة السماء قريبا من هذا التصور جاء التصور اللاهوتى النصرانى .. عندما قال : «دع ماالقيصر لقيصر وما لله لله »، فحرر «قيصر» أى الدولة والمجتمع والعمران.. من قانون الله وشريعة السماء، جاعلا تدبير العمران إلى المرجعية الإنسانية وحدها ..

– ولذلك كان التصور العلمانى الغربى – الوضعى .. والمادى طبيعيا فى ذلك الإطار.. فهو عندما رأى العالم مكتفيا بذاته، والطبيعة تدبرها الأسباب المادية المركبة فى ظواهرها وقواها ، والدولة والاجتماع البشرى يديرهما ويسوسهما الإنسان بالعقل والتجربة .. إنما كان إحياء حديثا للتصور الارسطى لنطاق عمل الذات الإلهية.. الخلق دون الرعاية والتدبير.. كما كان تصحيحا رد الكنيسة .. التى تجاوزت رسالة النصرانية ، عندما جمعت السلطة الزمنية الى السلطة الروحية.. ردها إلى نطاق التصور اللاهوتى لرسالة نصرانيتها ولنطاق عمل إلهها.. «دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله» ..

– أما التصور الاسلامى فقد جاء متميزا عن جميع تلك التصورات.. فالتوحيد فيه يفرد الذات الالهية ، لا كمجرد خالق وفقط، وإنما هو الخالق والراعى والمدبر لجميع المخلوقات.. فالأمر والتدبير له ، سبحانه وليس الخلق فحسب.. (ألا له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين..)[٦] (قال فمن ربكما يا موسى. قال ربنا الذى اعطى كل شىء خلقه ثم هدى)[٧] (قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين. لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين)[٨] .

وبهذا التصور الإسلامى للتوحيد.. ولنطاق عمل الإله الواحد.. تميز النموذج الإسلامى، وسرى هذا التميز فى الثقافة الإسلامية عندما صاغ هذا التصور المتميز النفس التى تصورت الذات الالهية على هذا النحو من التنزيه والتجريد والتى رأته المدبر لكل المخلوقات ، والحاكم فى مختلف ميادين العمران ..

[illegible]

وإذا كان هذا التصور التوحيدى، قد جعل الحكم والتدبير .. مع الخلق –

لله سبحانه وتعالى.. فإن نظرية الاستخلاف الإسلامية قد حددت مكانة الإنسان ونطاق عمله وآفاق حريته وقدرته واستطاعته في العمران البشري، الذي اختار عمل امانته عندما استخلفه الله فيه فالتثوير الإسلامي عن أن الحكم لله، واضح أشد الوضوح (إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه.. ذلك الدين القيم)(٩)..

لكن الله استخلف الإنسان لإقامة العمران في الأرض (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة)(١٠).. (هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها)(١١) .. وحتى ينهض الإنسان بتكاليف إقامة العمران وأمانات الاستخلاف ميزه خالقه بالاختيار والحرية والقدرة والاستطاعة .. إنا عرضنا الأمانة على السموات والارض والجبال فأبين ان يحملنها واشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا)(١٢) .. فكانت مكانته هي مكانة الخليفة المتمتع بالحريات ، والمالك للقدرات لكنها حريات وقدرات الخليفة المكلف بأن يضبطها ببنود عقد وعهد الاستخلاف .. فهو ليس المجبر المهمش الذي لا شأن له.. وليس سيد الكون الذي لايسأل عما يفعل والفعال لما يريد ، والذي لا سقف لحرياته وقدراته.. وإنما هو خليفة لسيد هذا الوجود ، استخلفه وأراد له استعمار الارض عمرانا يهتدي فيه ويلتزم عند تدبيره ببنود عقد وعهد الاستخلاف التي تمثلت في شريعة الله .

ولقد قدم الاسلام هذا التصور لمكانة الانسان في الوجود .. تصور الخلافة والاستخلاف فتميز به النموذج الاسلامي عن التصورات المادية التي رأت الإنسان سيدا لهذا الوجود ، مكتفيا بذاته، قاهراً للطبيعة، لا سقف لحريته وإرادته إلا اطار النفع العام ولا قيود على أشواقه من وراء هذه الطبيعة من الحلال والحرام الديني ..

كما تميز هذا النموذج الإسلامي، في مكانة الانسان بالوجود عن التصورات الفلسفية الغنوصية والباطنية والإشراقية التي رأته.. حقيراً مجبرا مهمشا لا سبيل الى خلاصه الا بالفناء في المطلق ..

ولقد عبر الإمام ابن حزم الأندلسي (٣٨٤-٤٥٦هـ ٩٩٤-١٠٤٦م) بعبارة بالغة عن هذا الاستخلاف الذي جعل الله فيه الانسان حاكما كمستخلف «عن الله الذي له الحكم والأمر والتدبير .. فقال : «إن من حكم الله أن يجعل الحكم لغير الله» ؟! فحكم الانسان

وخلافته هما حكم من الله الذى حكم وقضى باستخلاف الإنسان فى إقامة العمران ..

وكما تجاوز التصور التوحيدى الاسلامى نطاق الاعتقاد فى علاقة الإنسان بخالقه ليشيع فى ثقافة الإنسان المسلم.. كذلك كان الحال مع نظرية الاستخلاف ..

- فحقوق الإنسان .. التى ارتفع الاسلام بدرجاتها الى مراتب الفرائض والواجبات والضرورات - هى حقوق الإنسان الخليفة.. ولذلك فهى محكومة بحقوق الله .. وليست كالحال فى التصورات الأخرى، محكومة فقط بالمصلحة الدنيوية والمنفعة المادية.. بل إن المصلحة ذاتها فى التصور الاسلامى لابد وأن تكون شرعية.. معتبرة .. !

فبنود عقد وعهد الاستخلاف المتمثلة فى حدود الله من الحلال والحرام الدينى .. هى الضابط والسقف لهذه الحقوق.. لأن صاحبها خليفة ونائب ووكيل .. وليس سيد هذا الوجود ..

- وحظ الإنسان من الثروات والأموال وعلاقته بها، وموقعه منها، هو موقع الخليفة المستخلف فيها.. وحريته فى الاختصاص والاستثمار والاستمتاع محكومة ببنود عقد وعهد الاستخلاف .. ذلك أن المالك الحقيقى .. مالك الرقبة .. في هذه الأموال، هو خالقها سبحانه وتعالى وللإنسان فيها مكانة الخليفة والنائب والوكيل.. له فيها ملكية المنفعة - المجازية - وحرية الاختصاص والاستثمار والاستمتاع محكومة بحدود الله فى الحيازة .. وفى الانفاق .. وفى التكافل الذى يحقق وحدة الجسد الإسلامى .. الخ..

«آمنوا بالله ورسوله وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وانفقوا لهم اجر كبير»[١٣] ..

- وإذا كانت الأمة والجماعة هى المستخلفة لله، سبحانه وتعالى، فإن الدولة فى النموذج الاسلامى هى دولة الخلافة ، أى المستخلفة عن الأمة للنهوض بالمهام التى استخلصتها الأمة فيها .. فتميز التصور الإسلامى للدولة ايضا، تبعا لتميز هذا النموذج بنظرية الاستخلاف .. ولذلك لم تكن صدفة أن يطلق المسلمون على نظام الدولة منذ العصر الراشد دولة الخلافة .. بل إن الحديث النبوى قد شهد بهذا التميز لهذا النظام عندما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء ، كلما هلك نبى خلفه نبى ، وإنه لا نبى بعدى، إنه

سيكون خلفاء[١٤] .. وبدولة الخلافة تكون حراسة الدين ، وسياسة الدنيا بهذا الدين .

– وكما استخلف الله الإنسان لعمارة الدنيا، فإنه قد كلفه بإقامة الدين « .. شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى اوحينا اليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه»[١٥] .. فكان مستخلفا فى إقامة الدين وفى بناء العمران ، على النحو الذى يكون فيه الدين سائسا للعمران، ويصير فيه العمران اساسا لإقامة الدين .. وعن هذه الحقيقة من حقائق التصور الاسلامى لعلاقة العمران بالدين يقول حجة الإسلام أبو حامد الغزالى (٤٥٠ – ٥٠٥ هـ) (١٠٥٨ – ١١١١م): (إن نظام الدين لا يحصل إلا بنظام الدنيا).

فنظام الدين، بالمعرفة والعبادة لا يتوصل اليهما إلا بصحة البدن، وبقاء الحياة، وسلامة قدر الحاجات من الكسوة والمسكن، والأقوات والأمن فلا ينتظم الدين إلا بتحقيق الأمن على هذه المهمات الضرورية وإلا ، فمن كان جميع اوقاته مستغرقا بحراسة نفسه من سيوف الظلمة، وطلب قوته من وجوه الغلبة، متى يتفرغ للعلم والعمل، وهما وسيلتاه الى سعادة الآخرة؟! فإذن بان ان نظام الدنيا، اعنى مقادير الحاجة شرط لنظام الدين[١٦] ..

وهكذا يتميز التصور الاسلامى فى علاقة الدين بالعمران الدنيوى على النحو الذى يقيم علاقات «الجدل» و«الارتفاق» بينهما ، كما لم يوجد فى تصور آخر من التصورات التى سقطت فى الثنائيات المتقابلة والمتناقضة كما غدا هذا التصور الاسلامى المتميز سمة شائعة فى النموذج الثقافى الاسلامى ، ميز النظرة للدين وللعمران كليهما عن نظيرتها فى الانساق الثقافية الاخرى ..

الهوامش

١– الإخلاص : ١ –٤ . ٢– الشورى : ١١. ٣– الانعام : ١٦٢ – ١٦٣ ٤– العنكبوت : ٦٣ ٥ – الانعام : ١٣٦ ٦– الاعراف : ٥٤ . ٧– طه : ٤٩ – ٥٠ . ٨ – الانعام : ١٦٢ – ١٦٣ . ٩– يوسف : ٤٠ . ١٠– البقرة : ٣٠ . ١١– هود : ٦١ ١٢ – الاحزاب : ٧٢ . ١٣– الحديد : ٧ . ١٤– رواه البخارى وابن ماجة والإمام احمد . ١٥– الشورى : ١٣ . ١٦– الاقتصاد في الاعتقاد .. ص١٣٥ .. طبعة القاهرة .. مكتبة صبيح بدون تاريخ ..

ملحمة بارتسيفال بين شرق وغرب

بقلم : د. مصطفى ماهر

عندما سئلت عن كتاب شغلنى سنوات طوال فى الماضى ومازال يشغلنى فى الحاضر، وأغلب الظن أنه سيشغلنى ماحييت، لم أتردد فى الإجابة: ملحمة بارتسيفالPARZIVAL التى كتبها الشاعر الألمانى الوسيطى فولفرام الإيشنباخى Wolfram von Eschenbach بين عامى١٢٠٠و ١٢١٠ مستندا إلى صياغة فرنسية سابقة (قبل ١١٩٠) لم تكتمل، كتبها الشاعر الفرنسى كرتيان دى تروا Chretien de troyes «قصة الجرال Li Contes del Graal»، وهاهو ذا السؤال يعود بى نيفا وأربعين سنة إلى الوراء، إلى أيام الدراسة الجامعية وما فتحت أمامى من آفاق. أحببت أدب العصر الوسيط على اختلاف بيئاته ولغاته، وتهيأت له بكل ماستطعت من وسائل التذوق والدرس، وشدتنى بصفة خاصة الأعمال الأدبية التى تلاقى فيها الشرق والغرب، سواء فى الأندلس وما حولها أو فى صقلية أو فى تلك الربوع من العالم العربى الإسلامى التى كانت مسرحا للحروب الصليبية، وقد أتيح للأدب الفرنسى فى سياق التفاعل بين الشرق والغرب مالم يتح لغيره من الآداب الأخرى، فتراه يسعى إلى الحفاظ على قديمه، ويدافع عن توجهاته، كما تراه يجتذب إليه كل جديد ويمتزج بكل ما يستحسنه من إبداع وارد، وهو فى هذا كله لاينغلق على نفسه، بل يمد البيئات المجاورة بما يحققه لترى فيه رأيها وتسيغه أو تلفظه،وهكذا نشأت قصص الفرسان الذين صورتهم الأسطورة يجلسون إلى مائدة مستديرة، ويقصون قصص مغامراتهم، وهكذا نشأ شعر الغزل الذى كان الشعراء المنشدون فى الجنوب خاصة - التروبادور - يتغنون به ، وهكذا نشأت قصص الحيوان وما ارتبطت بها من مواعظ.



وإذا كانت قصص الفرسان تضرب بجذورها فى ممارسات الدفاع عن الأرض والإغارة على القريب ثم البعيد، فإنها امتزجت بما ورد إليها من الأندلس من مفاهيم الشهامة العربية التى تقوم عليها حياة الفرسان العرب بين التصوف والحب والأدب والفن والحكمة والشجاعة، وإذا لم يكن لهذه البلاد الأوروبية الغربية فى بدايات تاريخها تراث من شعر الغزل، فقد جاءها شعر الغزل متطورا منوعا على لسان العرب فى الأندلس، وعندما اغترف العرب من معين ثقافات الأمم التي سبقتهم إلى الحضارة، وعرفوا من قصص الحيوان ما وسّعوا به ديوانهم، انتقل هذا النوع أيضا إلى الفرنسيين المجاورين وعن طريقهم إلى الأمم الأوروبية الأخرى.

ومن يدرس الأدب الألمانى فى العصر الوسيط، يدهشه ما انتقل من التراث العربى الإسلامى إلى ديار الألمان عن طريق فرنسا، وكانت أجزاء كبيرة من أوروبا الغربية تستظل بمظلة سياسية ودينية تتيح لها قدرا من التواصل والتقارب، وانظر إلى شعراء ألمانيا فى القرن الثانى عشر والثالث عشر تراهم يتبارون صراحة مع الفرنسيين ويعيدون صياغة أعمالهم مترجمين أو موسعين أو مقتبسين أو مبدعين من جديد، وكانوا يذكرون ذلك فى أدبهم ولا يخفونه. وهكذا تجد لأنشودة رولان الفرنسية مقابلا

بالألمانية، بل تجد قصص كرتيان دى طروا الشعرية قد أعيدت صياغتها بالألمانية، وقام بهذا الإبداع الاقتباسى كبار الشعراء، فهذا جوتفريد الاشتراسبورجي يبدع «تريستان وإيزولدة» وهارتمان الآوى يبدع قصة «إيريك» وقصة «إيفاين» وفولفرام الإيشنباخى يبدع «بارتسيفال»، كان هؤلاء الشعراء جميعا يخافون من تهمة التخريف، فيبحثون عن كتاب يسترشدون به، لاينقلونه بحرفه، بل يتناولونه بالدرس والبحث ، ويصححونه ويغيرون فيه بالتعديل والحذف والإضافة أو يبدعونه من جديد .

وهكذا تناول الألمانى فولفرام القصة الناقصة التى كتبها كرتيان دى طروا، وصاغها من جديد، وجعل منها أعظم قصة شعرية فى العصر الوسيط، لاتدانيها إلا الكوميديا الإلهية لدانتى التى نشأت بعدها بوقت طويل .

هذه القصة الشعرية أو الملحمة عمل ضخم فى نحو خمسة وعشرين ألف بيت من الشعر (٢٤٨١٢)! مقسمة إلى كتب عدتها ستة عشر كتابا، وكنت دائما أتمنى أن أتفرغ لهذا العمل لنقله إلى العربية، ولكن من أين لى هذه السنوات الطوال التى يتطلبها. فترجمت منه صفحات. وكتبت عنه دراسات ومقالات، ثم ترجمت النص الأوبرالى الذى ألفه فاجنر ونسج حوله موسيقاه.

عرف فولفرام فون إيشينباخ القصة الفرنسية التي لم تكتمل، التي كتبها كرتيان دى طروا، ولكنه ذكر أنه اعتمد على مصدر عربى أعانه على الإفادة منه شاعر متمكن من العربية، وقد فتحت هذه المعلومات الباب أمام جدل كثير بين العلماء، فمنهم من ذهب إلى أن فولفرام اخترعها ليؤكد مصداقيته وتبحره فى علوم زمانه، ومنهم من يرى أن نص فولفرام مليء بالشواهد التى تؤكد صلته الوثيقة بالثقافة العربية الإسلامية، وما أظن إلا أن فولفرام عبر بعبارة واضحة جديرة بأن تؤخذ مأخذ الجد، والذين يأخذونها مأخذ الجد هم أصحاب مايسمى بالنظرية العربية، ولهم مؤلفاتهم المهمة التى تكون مكتبة تحظى باهتمام متزايد، وقد كتبت عدة دراسات أشدت فيها بما عرفنا به الباحثون من إشارات إلى ما زخرت به القصة من أسماء عربية إسلامية وموضوعات عربية إسلامية أيضا، وأضفت إليها اجتهاداتى، ففى تقديرى مثلا أن اسم «بارتسيفال» تحوير للكلمة العربية «فارس»، وأن كلمة «جرال» هى تحوير لكلمة «حجر» أو كلمة «جرة» أو كليهما، وأن الاقتباس شمل أمورا كثيرة، ليس من السهل استشفافها لكثرة مادخل عليها من التحوير، منها: الحجر الأسود وجبل عرفات وسدنة الكعبة .. ناهيك عن

مفاهيم الفرسانية والفتوة والشهامة، ومفاهيم المنة والرحمة ومفاهيم الجمع بين التصوف والجهاد، وليس من شك فى أن الشاعر الألمانى وضع فى ملحمته خلاصة ثقافته المسيحية الأوروبية الجرمانية أيضا.

والموضوع المحورى هو على أية حال سيرة إنسان اختاره القدر لمهمة بعينها، فنشأ ميسرا لما خلق له، وخرج من أصلاب آباء كرام، فهو كريم أبا عن جد، بطل الملحمة بارستيفال ابن ملك كريم مناضل شديد الاعتداد بنفسه هو جاهموريت، لم يجد جاهموريت فى ديار المسيحية ملكا عظيما يشرفه أن يعمل تحت إمرته، فيمم شطر ديار الإسلام وعمل تحت إمرة الخليفة عمر الذى يسميه الفاروق والذى خضعت له أكثر بلاد الدنيا، آثر جاهموريت تحقيق ذاته فى البطولة على حب الزوجة هيرتسلويدة وتركها كسيرة الفؤاد مع وليدها فمقتت الفرسان وحياتهم، ولم يعد جاهموريت إلى الوطن بعد ذلك، بل تحكى القصة أنه تزوج فى الشرق امرأة شرقية سمراء مسلمة ولدت له ابنا مسلما هو فايرفيس، كانت بشرته بيضاء سمراء كرقعة الشطرنج، وهكذا كان جاهموريت أبا لابنين أحدهما مسيحى والآخر مسلم، أو نقول بعبارة أخرى إن ابنيه كانا يمثلان نوعا من الإخاء المسيحى الإسلامى، كان فولفرام حريصا على التعبير عنه فى أكثر من موضع .

***

ونستأنف متابعة الأحداث فنرى أم بارتسيفال تستجيب لعاطفة الأم، وتقرر أن تباعد بين ابنها وبين كل مايمكن أن يغريه بحياة من لون حياة أبيه، فنشأته على الفطرة فى جهالة أو أمية، فى غابة سلطانة فى أحضان الطبيعة، ولم تحدثه بشىء عن أبيه وحسبه ونسبه وقدره، ولكن هذا الذى كانت تدبره، كان شيئا، وكان القدر يدبر شيئا آخر، فقد اختار بارتسيفال ليكون الفارس الكامل وملك الجرال، وكان بارتسيفال سليل فرسان الجرال، وهم أسمى طائفة من الفرسان، لهم مثلهم العليا التى تجمع بين القوة العضلية الفائقة، والشجاعة التى لاتقهر ، وبين الرحمة والمسارعة إلى العون، فى إطار من الحكمة والتقوى. والجرال الذى يتحدثون عنه إناء - جرّة - تحكى بعض الأساطير أن يوسف اريماتيا جمع فيه دم المسيح فإذا به يكتسب قوة خارقة تمنح الشفاء وتمنع المرض، تهب الحياة وتصد الموت، وتعطي الخير وتدرأ الشر، والجرال فى الوقت نفسه حجر يفضل كل حجر كريم، له نور من السماء، وله قوة، وهو يحقق صلة بالسماء، وله سدنة من صفوة البشر، كبيرهم ملك من صلب ملوك الجرال،

تعلم وجمع ما ينبغي أن يكون لملك الجرال من خلال.

وتحكى الملحمة أن جهود الأم التى تجاوزت المألوف لم تبلغ الهدف، وأن الابن وعى قوته العضلية، وساورته هواجس عن هدف بعيد عظيم، فسار بدافع من القدر. وارتقى مدارج الخبرة من الفطرة إلى العلم، ونال الحكم والحكمة بعد عناء أى عناء، حيث طال تقلبه بين الخطأ والصواب، والشك واليقين، كان يحس بدافع قوى يدفعه إلى البحث عن الله، وبشوق إلى حياة الفرسان، وعندما رأى بالمصادفة رجالا يركبون الخيل ويغامرون على طريقة الفرسان ،صمم على أن يسلك سبيلهم، وحاولت الأم محاولتها الأخيرة لإفساد خطته، فألبسته ثياب المهابيل، وأركبته حصانا هزيلا حتى يفشل ويعود، وأعطته نصائح مختلطة مهوشة، حتى لايدرك حقائق الأشياء ، وتستبد به الحيرة، فيعود إليها. وتفرقت به الأحزان، وشتته التجارب الفجة، وظن أن الكمال فى القوة ، فبطش، وظن أن العلم هو إدراك الظاهر وفهم الشكليات والقشور، فما جنى إلا الشر والضر، وما أنزل بالآخرين إلا البلاء، ألم تر كيف قبّل الحسناء «يشوته» إجلالا، وأخذ حليتها عنوة، فأشقاها أشد الشقاء؟ لقد شهد زوجها ماحدث فشك فى سلوكها، وفرض عليها من العقاب والتفكير مايفوق الاحتمال، والتقى بارتسيفال بابنة عمه «زيجونة» التى وصلت فى إخلاصها للحبيب إلى أعلى الدرجات، حتى بعد أن مات، حنطته ووضعته فى نعش كانت تحمله معها فى حلها وترحالها، وقد بينت زيجونة هذه لابن عمها بارتسيفال بعض علامات على الطريق، فعرفته أصله وشرحت له حسبه ونسبه والصفوة التى ينتمى إليها والخلق التى ينبغى أن يتحلى بها، ولكنه لم يفهم كلامها الفهم الصحيح واشتد به الشوق إلى العظمة، والظهور بمظهر يناسب حسبه ونسبه، فارتكب المزيد من الأخطاء. وهكذا ضرب الفارس الأحمر «إيتر» فقتله، وماكان له أن يضربه، فالفارس لايضرب بل ينازل، ولايحمل السيف إلا لقضية عادلة وهدف سام، ولم يكن قتل الفارس الأحمر شيئا هينا، فقد كان واحدا من أهله، وإذا كان كل فارس ممتاز يطمح إلى الدخول أولا فى زمرة فرسان المائدة المستديرة، فرسان الملك أرتوس (بالفرنسية أرتور. وبالإنجليزية آرثر)، فقد وقفت هذه القتلة عقبة فى طريقه .

كان بحاجة إلى من يفتح عينيه ويعلمه الحقيقة، وهنا نجده يلتقى بعمه «جورنيمانس» الذى قام منه مقام المعلم، فشرح له ماتيسر له من مفاهيم الفرسانية، وحدثه عن الاعتدال، وضبط النفس والأدب، والسلوك اللائق، وحضه بصفة خاصة على ألا يسأل كثيرا.

فكثرة الأسئلة ترهق الآخرين، وتعطيه صورة متدنية عن السائل، وكلما ارتفع قدر الإنسان وزاد علمه، قلّت أسئلته، ولم يتصور العم أن عليه أن يبين لابن أخيه أن الكف عن السؤال لايعنى الصمت فى المواضع التى يكون فيها السؤال واجبا .

سمع إذن أن الأدب يفرض على الإنسان ألا يسأل، لم يفهم أن المقصود هو السؤال الفاضح، وسكت عن كل سؤال حتى عن السؤال الذى يفتح أبواب الرحمة والنجاة، وعرف بارتسيفال الحب عندما التقى بكونقيرامور، وكان فى محنة فأنقذها من الأعداء ، وتزوجها. ثم انصرف عنها إلى حين على عادة الفرسان، وخرج ليثبت جدارته، وفكر فى أمه التى تركها ، والتى اعتقد أنها لاتزال على قيد الحياة، وأن عليه أن يبحث عنها.

***

ومازال ينتقل من مكان إلى مكان حتى وصل إلى مكان مقدس فيه جبل يحمل اسما غريبا، وفيه بناء منيف فيه حجر الجرال، وسمح له السدنة بأن يحضر الشعائر التى وصفها الشاعر فأبدع، ورأى الجرال رأى العين، وأدرك أنه يحمل من الأسرار والقوى ما يجعله شيئا فريدا، ولكن انظر إليه عندما دخل إلى ساحة الجرال فرأى الملك أنفورتاس يعانى من جرح لايبرأ، وقد تمدد على فراش ينتظر النجاة، ولم تكن نجاة أنفورتاس ترهن إلا بشىء واحد، هو أن يسأل بارتسيفال عنه بدافع الرحمة، لم يفهم إذن أن الرحمة تفرض عليه أن يسأل، فتبدد الأمل، وتردى من مرتبة صفوة فرسان المائدة المستديرة، وغشيته لعنة رسولة الجرال، الكاهنة كوندرى، فعاودته هواجس الشك والريبة التى وصلت إلى الكفر العابر، سبته كوندرى رسولة الجرال، ولقى زيجونة فسبته هى الأخرى، ووبخته على سوء فعلته، وبينت له أنه كان قاب قوسين أو أدنى من الجلوس على عرش الجرال، فضيع كل شىء .

وكان عليه أن يستأنف مسيرة السعى إلى الحقيقة، تلك الحقيقة الكامنة فى سر الجرال، فخرج على عادة الفرسان إلى مغامرات منها مايقوم بها هو ومنها مايقوم به قريبه جافان الذي يمثل الفرسانية الأرتورية لا الجرالية، والفصول الطوال التي خص بها الشاعر الفارس الآخر، جافان - تحير الشراح ، فقد ترك الشاعر بارتسيفال إلى حين وأفاض في الحديث عن الآخر، ثم يعود خط الأحداث إلى بارتسيفال الذى نراه يقترب من الهدف، فيلتقى بعمه الناسك تريفريسنت الذى يعلمه أساسيات الإيمان والمنة والرحمة والندم، بين له الناسك أن هذا الذى حدث له لم يكن

من الله، بل كان من نفسه، كان نتيجة ذنوبه وأخطائه، بقى أن ينال المغفرة التى تمحو كل ذنب، وتلك منة من الله ينالها الإنسان الذى يكدح إلى ربه .

ويسترسل الشاعر على مدى فصلين آخرين فى قصة الفارس جافان ومغامراته من أجل الحسناء أورجيلوزه، وهى مغامرات تذكرنا بعالم ألف ليلة وليلة، بما زخر به من عجائب تفوق الوصف، وبخاصة ماجرى منها فى القصر المسحور، ويلتقى بارتسيفال مصادفة بالفارس جافان وينازله دون أن يعرفه، وتطول المنازلة، ولا تنتهى، لأن الفارسين متساويان فى القوة، وتتيح هذه المنازلة لبارتسيفال على أية حال التقدم خطوة إلى الأمام، حيث ينضم إلى صفوة المائدة المستديرة. ثم يخرج بارتسيفال باحثا عن أخيه من أبيه، الفارس المسلم «فايرفيس» فيجده ويذهبان معا إلى ساحة المائدة المستديرة، ويقبلهما الملك أرتوس فارسين من الصفوة، لا يفرق بين مسلم ومسيحى، بل إن الشاعر يحدثنا أن فايرفيس المسلم كانت له من الخصال فوق ماكان لأخيه، وهذه الناحية المتسامحة إلى أبعد الحدود فى أدب فولفرام جديرة باهتمام خاص ودرس خاص.

وتأتى الكاهنة كوندرى، رسولة الجرال، بالبشرى، لقد انفتح الطريق إلى عرش الجرال أمام بارتسيفال، بلغ بارتسيفال إذن ما بلغ من الحكمة، فأصبح جديرا بسعادة الدين والدنيا وذهب بارتسيفال ومعه أخوه فايرفيس إلى ساحة الجرال، ورأى أمفورتاس يعانى، فسأله عن حاله، ولم يصمت كما فعل من قبل، فزال ما بالعم من ألم، ونال بارتسيفال الجرال، وتربع على كرسيه، ولبس تاجه، وتولى شعائره، ونعم فى الوقت نفسه بالسعادة الزوجية، مع زوجته الحبيبة كوندفيرامور التى أتت ومعها ابناه التوأمان: لوهنجرين الذى سيتولى بعد أبيه مملكة الجرال، وكارديس الذى يتولى المملكة الدنيوية، وهكذا فإن هذه الفرسانية الجرالية الرفيعة التي حققها لم تكن تقوم على الرهبانية فحسب، بل كانت تجمع الدين والدنيا معا.

مابعد فولفرام

لم تكف مادة ملحمة بارتسيفال عن إلهام الشعراء، والمفكرين والفنانين، فظهرت ملاحم قلدتها، بل ظهرت أفلام سينمائية صورت فرسان المائدة المستديرة، ومنها فيلم بارتسيفال، ومن أهم النصوص التى حفظت بارتسيفال لجمهور الفن الرفيع النص الأوبرالى الذى كتبه فاجنر ونسج من حوله ألحانه «بارسيفال» Parsifal.

النص الفاجنرى

كتب فاجنر نصه الشعرى الأوبرالى

(فى عام ١٨٧٧) على هيئة ثلاثة فصول فى جو عام يعبر عن السعى لتحقيق العنصرين الأساسيين اللذين يرمز إليهما الجرال وهما الحب والإيمان، واتخذ للأحداث بانوراما واسعة ذات طابع إسبانى قوطى أندلسى تشمل: ساحة الجرال، والجبل المقدس إلى الشمال، وقصر الساحر كلينجسور إلى الجنوب.

الفصل الأول :

يعلن فارسان قرب وصول الملك أمفورتاس المريض الذى ينوى الاستحمام فى بحيرة الغابة حتى تخف آلامه، تدخل كوندرى وتعطى جورنيمانتس بلسما للملك الذى يدخل به حملة الهودج محمولا، فيذكر وهو يتأوه تلك النبوءة التى تقول إن شفاءه المأمول يأتى من فتى أمى على الفطرة تأخذه به الرحمة، ويتناول الملك بلسم كوندرى ويشكرها، فتأبى، وما يوبخها الفتيان حتى يمنعهما جورنيمانتس، فهى لم تخطىء فى حق الجرال، ويحكى جورنيمانتس للفتيين قصة الجرال ، فيحدثهما عن تيتوريل الذى قام ببناء صرح ليحفظ فيه الإناء الذى شرب منه المسيح شربته الأخيرة والرمح المقدس الذى أسال دمه، ويذكر أن تيتوريل جمع صفوة من الفرسان حول صرح الجرال، ينالون من نور الجرال فيما يطعمون قوة خارقة، ونعرف عن كلينجسور أنه أراد فيما مضى من الزمان أن يدخل فى شرعة فرسان الجرال ولكنه عجز عن التحكم فى شهواته، فنبذه تيتوريل، وإذا كلينجسور ينقلب من الضد إلى الضد، ويجعل من الانتقام ديدنه، وهو قد عمد إلى فلاة قرب صرح الجرال وحولها بالسحر إلى حديقة غناء خلابة، وتربص هناك بفرسان الجرال يغويهم ليردهم عن النذر الذى نذروه، ويستعين فى ذلك بنسوة حسان لهن ألاعيب شيطانية لا يقاومها البشر ، وعندما تلقى أمفورتاس عن أبيه تيتوريل تاج الجرال، عزّم على التصدى لكلينجسور الشرير فنزل ساحته حاملا الرمح المقدس، ولكنه تعرض للفتنة هو نفسه، واستطاع كلينجسور أن ينتزع منه الرمح وأن يصيبه به بجرح لا يلتئم.

وتتناهى إلى السمع صرخات استنكار، وترى الأبصار ذكر بجع أصيب بسهم، وأخذ يترنح متهاويا وقد أشرف على الموت. ثم يدخل الفرسان والفتيان ومعهم الآثم الذى أصاب ذكر البجع، وما هذا الآثم إلا بارتسيفال الذى كان يجهل أن الصيد محرم فى ساحة الجرال، فرمى الطائر رمية قدير متمكن ، فلما بيّن له جورنيمانتس سوء عمله، حزن وكسر القوس والرمح، وأخذوا يسألونه عن نفسه، من هو وماذا يريد، فلم يعرف عن الأسئلة جوابا، إلا السؤال عن أمه، قال إن

اسمها هيرتسلويده، وهذه هى كوندرى تعرفه فهو ابن جاهموريت ربته أمه على الفطرة، وحرصت على أن يجهل أصله ونسبه حتى لا يسلك سبيل أبيه ويتركها إلى ساحة البطولة، فلا يعود. ولكن حرصها لم يجد نفعا، فقد رأى الصبى ذات يوم رجالا مسربلين يمتطون متون الخيول فقرر أن يكون مثلهم، وصنع لنفسه قوسا ورمحا، وترك أمه وخرج لهذه الحياة التى اختارته لها المقادير، وترك أمه تقطع الأحزان نياط قلبها، ولم يعلم أنها قضت نحبها حزنا عليه .

فلما سمع بارتسيفال حديث كوندرى، انقض عليها يوشك أن يخنقها، فأنقذها جورنيمانتس، ولكنها ردت على السوء بالإحسان وقدمت إلى العطشى ماء قراحا، وراحت إلى حال سبيلها وصحب جورنيمانتس بارتسيفال إلى القاعة التى التقى فيها أمفورتاس بالفرسان وقد تجمعوا يلتمسون نفحة من ذلك الطعام المقدس الذى يعطى قوة خارقة. ويصافح الأذن صوت تيتوريل تناهى من قبره الذى كان يتوسده حياً بعد موته، وتلك معجزة منّ بها عليه المسيح؛ كان تيتوريل يوجه كلامه إلى ابنه أمفورتاس يأمره بأن يقيم شعائر الجرال، ولكن أمفورتاس أصبح يتردد عن هذا العمل الجليل، فقد اشتد شعوره بالذنب، واسترسل فى الشكوى من جرحه الأليم، ولكن أباه حضه على الصبر حتى النجاة، وكشف أمفورتاس الغطاء عن الجرال، فأضاء بنور قرمزى، وهلل تيتوريل للمعجزة التى تحمل المنة إلى المشوقين إليها، حتى إذا انطفأ الجرال بدأ الفرسان فى تناول الطعام ثم تعانقوا وافترقوا بعد قبلة الأخوة، أما بارتسيفال فقد أخذته الدهشة وهو ينظر إلى شعائر الجرال، وانقبض قلبه وهو يسمع شكوى الملك ولكنه لم ينطق بشىء، ولم يلق السؤال الذى لو ألقاه بفطرته لكانت فيه الرحمة ولنجا الملك، ولهذا أخرجه جورنيمانتس من القاعة وهو يلومه على جهله الذى سيطيل عذاب الملك.

الفصل الثانى :

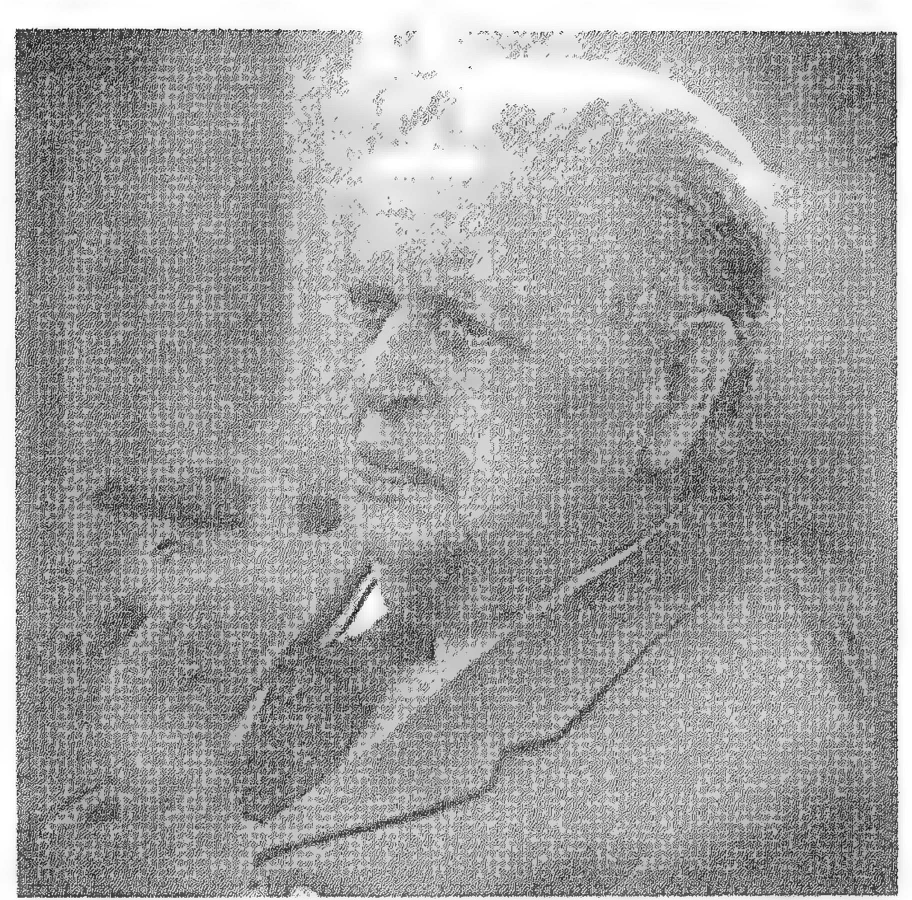
يتتبع كلينجسور فى مرآة سحرية حركة بارتسيفال ويراه يقترب وهو يعرف الغاية التى اختاره لها القدر، فيدبر لغوايته، ويطلب إلى كوندرى أن تغويه كما غوت أمفورتاس من قبل، وكما سخرت من المسيح منذ أمد بعيد، ولقد كرهت هذا الشر الذى اضطرت إليه، والذي حمّلها بالنقمة، وظلت تسعى للخلاص ما استطاعت، تريد الحب الطاهر فلا تعرف إلا الحب الدنىء. والعالمون بأسرار القدر يعرفون أنها يمكن أن تنجو إذا تصدى لغوايتها فتى نقى السريرة فصمد لغيها وامتنع إلى النهاية، كانت كوندرى تطيع كلنجسور، طاعة

السجين للسجان، ولكنها كانت تجاهد من أجل الخلاص فلا تفلح، وها هوذا بارتسيفال على شرفة حديقة لفتنة يرى حسناوات لم تر عين أجمل منهن، جمعن في خلقتهن المختلط، طلاوة الغواني إلى حسن الزهور، ويرى الفرسان يلهون معهن لهو الذ سارة، ويوشك بارتسيفال أن يقع في الفتنة، فقد أقبلت عليه كوندرى تدعوه إلى أن يبقى، وتفترش معه فراشا من الأزاهير، وتقص عليه أخبار أهله، ويرهقه خبر موت أمه بألم بالغ، وتقبّله مدعية أن تلك بركة من أمه، ولكن بارتسيفال ينجو في النهاية من غوايتها، إذ تراود خياله صورة أمفورتاس، ويدرك بفطرته محنة الملك، ويصور له الأمل سبيلا إلى إنقاذه منها، ويحاول كلينجسور أن يصيب بارتسيفال بالرمح كما أصاب به أمفورتاس من قبل، ولكن الرمح يمتنع ويظل معلقا في الهواء، فيمسكه بارتسيفال بإيمان ويلعن الحديقة فتعود صحراء كما كانت .

الفصل الثالث :

وهذا هو بارتسيفال يضرب في الأرض ،في سعي رسمته الأقدار، فيرى في الطريق صومعة جورنيمانتس التي يخلص فيها إلى نفسه متعبد ، ويرى جورنيمانتس ببابها، يرهف السمع فيكتشف كوندرى في خميلة كالميتة تتأوه، فيدعوها ويردها إلى الحياة، فتنذر نفسها للعبادة، وبينما هي تجول ببصرها في الرحب ترى فارسا قادما وقد تدجج بسلاحه، في هذا اليوم، يوم الجمعة الحزينة، الذي لايجوز فيه حمل سلاح، فتبلغ جورنيمانتس الذي يحض الفارس على إلقاء السلاح، فيستجيب، إنه بارتسيفال، جال جولاته، ووصل إلى مايوشك أن يكون غايته،وعرف من جورنيمانتس أن تاج الجرال في انتظاره، فقد تخلى أمفورتاس عن ممارسة الشعائر القدسية، ولم يعد يمنح الفرسان من الجرال ما يرجونه من قوة، وعلم أن تيتوريل ظميء إلى مشرب من الجرال فلم يرتو، وتقطعت ما بينه وبين الحياة من أسباب ، وعرف قبل هذا وذاك حقيقة ما ارتكبه في حق أمفورتاس عندما تقاعس عن السؤال، فلما علم ما لم يكن يعلم صحبه جورنيمانتس وكوندرى إلى النبع المقدس، أما وكوندرى فغسلت رجليه، وأما جورنيمانتس، فعطَّره وألبسه التاج ليكون ملك الجرال. وذهب ثلاثتهم إلى أمفورتاس، فوجدوه قد امتنع رغم الإلحاح عن ممارسة شعائر الجرال، ورأوا الحزن استبد به لموت تيتوريل الذي حملوا جثمانه للجنازة، وكان أمفورتاس يطلب أن يضربوه قصاصا حتى يرتاح، فلما أقبل بارتسيفال وضع الرمح على جرح أمفورتاس فالتأم، وتولى هو شعائر الجرال الذي أضاء بنور لم يعهده أحد من قبل، ونجت كوندرى، وحلقت حمامة الجرال فوق هام بارتسيفال .

□□□



فؤاد سراج الدين باشا فى ذمة التاريخ !!

بقلم: د. عاصم الدسوقى

محمد فؤاد سراج الدين أحد الشخصيات التى صنعتها الحياة الحزبية فى تاريخ مصر منذ عرفت مصر الحياة الحزبية بشكل أكثر تنظيما وانتظاما مع دستور١٩٢٣ ، واجراء أول انتخابات برلمانية جاءت بحزب الوفد رغم أنف القصر الملكى ليكون سعد زغلول أول رئيس منتخب للوزراء، ومن هنا عرفت وزارته بحكومة الشعب (١٩٢٤) .

وآنذاك كانت القسمات الطبقية قد أخذت تتبلور في مصر، ففي أواخر القرن التاسع عشر استقرت الملكية الفردية للأرض الزراعية في مصر، وأصبحنا أمام طبقة من كبار ملاك الأراضي الزراعية أخذت تستثمر فائض عائد الأرض في اقتناء مزيد من الأرض، وفي تكوين الشركات التجارية والصناعية. وجاء بنك مصر (١٩٢٠) ليوظف مدخرات هذه الطبقة في كافة مجالات الاستثمار. كما أخذت هذه الطبقة في تكوين التنظيمات التي تحمي مصالحها، فتأسست خلال المدة من ١٩٢١ – ١٩٢٧ النقابة الزراعية المصرية العامة، واتحاد الصناعات المصرية، والغرفة التجارية

وقد تطلعت هذه الصفوة الاجتماعية للمشاركة السياسية فى الهيئة التشريعية (البرلمان بمجلسيه: النواب والشيوخ) حتى لاتصدر قوانين فى غير صالحها، وفى السلطة التنفيذية للسهر على حماية المصالح بتنفيذ القوانين . وكان الطريق الى تلك المشاركة لا يأتى إلا عبر عضوية الأحزاب السياسية، ومن هنا انخرطت فى كل الأحزاب السياسية التى شهدتها الفترة من ١٩٢٣ – ١٩٥٣ . ولم يكن يوجد بين هذه الأحزاب أية تمايزات طبقية حادة فعضويتها مفتوحة أمام أبناء هذه الصفوة الاجتماعية حسب اختيار كل منهم، ولهذا لم يكن غريبا أن يتقلب أبناء هذه الصفوة بين حزب وآخر دون حساسية، فقد يبدأ الواحد منهم وفديا ثم ينتقل إلى حزب الأحرار الدستوريين أو الاتحاد، والعكس صحيح وذلك سعيا وراء الفرصة المناسبة.

غير أن حزب الوفد كان يمتاز بشعبية كاسحة دون الأحزاب الأخرى استمدها من معارضة سعد زغلول للملك فؤاد، ومن إثارة الجماهير ضد الانجليز، ومن عدم تقديم تنازلات فى المفاوضات التى دخلتها حكوماته مع الانجليز قبل معاهدة ١٩٣٦ حول المسائل المعلقة من تصريح فبراير ١٩٢٢ باستقلال مصر (مفاوضات سعد زغلول مع رامزى مكدونالد ١٩٢٤ ومفاوضات النحاس مع هندرسون ١٩٣٠). ومن هنا تمتع الوفد بقاعدة عريضة من العضوية من مختلف الطبقات وفى الصدارة أبناء الصفوة الاجتماعية اعتقادا بأن شعبية الوفد لابد وأن تفرضه على الهيئات النيابية ومن هنا تتحقق كل الآمال.

على هذا الأساس انضم فؤاد سراج الدين للوفد وفاز بعضوية مجلس النواب فى انتخابات ١٩٣٦ (الهيئة النيابية السادسة ٢٣مايو ١٩٣٦ – ٢ فبراير ١٩٣٨) مع أنه كان من قبل عضوا باللجنة التنفيذية للشبان بحزب الأحرار الدستوريين . ولم يكن فى هذا غرابة طبقا لما كان شائعا آنذاك، فوالد فؤاد سراج الدين نفسه دخل مجلس نواب ١٩٢٥ على قائمة الوفد ثم انتقل إلى حزب الاتحاد ثم صار مستقلا عام ١٩٢٦ .

وزيرا للداخلية

وفي حزب الوفد منذ عام ١٩٣٦ تفرغ فؤاد سراج الدين للعمل السياسي وأخذ نجمه يصعد رويدا رويدا في دوائره السياسية ونشاطاته المختلفة . وفي مارس ١٩٤٢ دخل مجلس النواب للمرة الثانية (الهيئة النيابية الثامنة ٣٠ مارس ١٩٤٢ - ٩ أغسطس ١٩٤٤) . ونظرا لنشاطه واقترابه السريع من زعامة الوفد اختاره مصطفى النحاس باشا وزيرا للزراعة في وزارة ٤ فبراير الشهيرة مكان عبد السلام فهمي جمعة الذي انتخب لرئاسة مجلس النواب. ثم ترك وزارة الزراعة في يونية ١٩٤٣ ليصبح وزيرا للداخلية مع قيامه بأعمال وزارة الشئون الاجتماعية مكان عبد الحميد عبد الحق الذي عين وزيرا للأوقاف .

ولما اختلف النحاس باشا في مايو ١٩٤٢ مع مكرم عبيد وزير المالية وسكرتير عام الوفد بسبب رفض مكرم استثناء بعض الموظفين الوفديين للترقية بناء على رغبة النحاس نفسه، ورفضه تمييز بعض أصهار النحاس في طلبات تصدير، ثار النحاس وطلب من مكرم عبيد أن يستقيل فلما رفض الاستقالة رفع النحاس استقالة الوزارة كلها الى الملك وأعاد تشكيلها دون مكرم عبيد، وسرعان ما فصل مكرم من الوفد ومن مجلس النواب في يولية ١٩٤٢ باعتباره «أسوأ مثل للنائب منذ بدأت الحياة النيابية في مصر». ويرى بعض المراقبين أن مكرم عبيد فجر مشكلة الاستثناءات لإحراج الزعيم مصطفى النحاس بسبب تقريبه فؤاد سراج الدين الذى لم يكن وفديا قديما شأن مكرم عبيد.

اعتقال مكرم عبيد

ويبدو من سياق الحوادث أن فؤاد سراج الدين أدرك في تلك اللحظة خطورة معارضة الزعيم أو الوقوف ضد رغباته، وأن مسايرة الأمور هو أفضل الطرق وأقصرها لتحقيق الطموح . ومن هنا نراه يزداد التصاقا بمصطفى النحاس وبأسرته. وفي هذا الخصوص باع سراج الدين في يونية ١٩٤٢ لحرم النحاس باشا زينب الوكيل ثمانين فدانا وبضعة قراريط بمركز شربين بسعر الفدان ٥٣ جنيها وهو سعر أقل من سعر السوق، ثم أعادت بيعها له في يونية ١٩٤٤ بمبلغ ١٢٠ جنيها للفدان (راجع محاكمات الثورة ١ - ١٩٥٤/٣/٢) . وفي مدة وزارته للداخلية تم اعتقال مكرم عبيد وبعض أنصاره في ١٩٤٤ بعد فضيحة الكتاب الأسود وأزمة نزاهة الحكم على حد قول جلال الدين الحمامصي . ومنعت الصحف بأمر الداخلية من نشر آراء المعارضة لموقف الوفد من مكرم عبيد، بل لقد اعتقل بعض الضباط وبعض المدنيين المشكوك في ولائهم . وأكثر من هذا أحيل الدكتور عبد الرزاق السنهوري وكيل وزارة المعارف الى المعاش لا لشئ سوى انه لم يكن وفديا، وأشيع وقتها من باب التغطية أن السنهوري سوف يعين مستشاراً ملكيا لوزارة العدل وهو أمر لم يحدث.

ولعل سراج الدين قد تيقن من صحة إدراكه حين استعاد ما حدث فى وزارة النحاس عام ١٩٣٧ (الوزارة الرابعة) عندما أخرج منها محمود فهمي النقراشي لمعارضته تنفيذ مشروع توليد الكهرباء من خزان أسوان دون دراسة كافية، ثم فصل من الوفد فى سبتمبر ١٩٣٧ على أثر بيانه عن سلامة موقفه من معارضة المشروع . وما لبث أن لحق به أحمد ماهر فى يناير ١٩٣٨ لتضامنه مع النقراشي وألف الاثنان الهيئة السعدية وخاضا بها انتخابات ١٩٣٨ .

وبعد إقالة وزارة النحاس فى أكتوبر ١٩٤٤ وخروج فؤاد سراج الدين من الحياة السياسية مع باقي وزراء الوفد نراه ينتهز فرصة انتخابات التجديد النصفى لمجلس الشيوخ فى عام ١٩٤٦ فيرشح نفسه عن الوفد ويفوز بالعضوية. وسرعان ما تم تصعيده داخل الحزب حيث أصبح السكرتير العام فى عام ١٩٤٨. وما أن عاد الوفد للحكم فى يناير ١٩٥٠ (وزارته الأخيرة) عُين فؤاد سراج الدين وزيراً للداخلية، وفى نوفمبر من العام نفسه أضيفت له وزارة المالية بعد إقالة محمد زكي عبد المتعال.

تجاوزات

وفى الوزارة الأخيرة التى استقالت بحريق القاهرة الشهير فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ كثرت الاستثناءات والتجاوزات، ومن ذلك مطالبة الدكتور عبد الرزاق السنهورى الذى كان قد أصبح رئيساً لمجلس الدولة تقديم استقالته بحجة أنه قبل رئاسته للمجلس كان وزيراً حزبياً (تولى وزارة المعارف فى وزارة إبراهيم عبد الهادى السعدية ديسمبر ١٩٤٨ - يوليو ١٩٤٩).

ومن ذلك أيضا التلاعب فى سعر القطن حيث أصبح ثمن القطن الأشمونى قصير التيلة ضعف ثمن قطن الكرنك طويل التيلة، وهو ما لم يحدث من قبل وذلك لصالح مزارعين معينين . ومن ذلك ثالثا: اغلاق دوائر مجلس الشيوخ عند التجديد النصفى فى عام ١٩٥١ لصالح عناصر الوفد . ومن ذلك رابعا: أن أحد أفراد عائلة سراج الدين وضع يده على ٤٧٠ فدانا بناحية أبيس بالبحيرة غير أن وزارة الداخلية رفعت يده عن الأرض بالقوة عام ١٩٤٨، ولكنه عاد فى عام ١٩٥٠ ووضع يده من جديد عليها وعلى غيرها فى حماية وزارة الداخلية (راجع المحاكمات).

والحقيقة أنه لم ينقذ سمعة وزارة الوفد الأخيرة ويغطى على تجاوزاتها سوى قرار مجانية التعليم الذى أعلنه طه حسين وزير المعارف وإن كان فؤاد سراج الدين صاحب الاقتراح، وقرار النحاس باشا بإلغاء معاهدة ١٩٣٦ فى ٨ أكتوبر ١٩٥١ الذى سجل له التاريخ قولته الشهيرة أمام البرلمان : «من أجل مصر وقعت المعاهدة ومن أجل مصر أطالبكم بالموافقة على إلغائها» . وكذلك قرار وزير الداخلية فؤاد سراج الدين لبوليس

الاسماعيلية فجر ٢٥ يناير ١٩٥٢ بالصمود وعدم الاستسلام للقوات البريطانية، وهو أمر لم يصدره لليوزباشى مصطفى رفعت إلا بعد أن طمأنه اليوزباشى بأنه سوف يمتثل للأمر الى آخر رجل، وحينذاك قال له الوزير : اذن توكلوا على الله (راجع خطاب سراج الدين فى ٢٣ أغسطس ١٩٧٧ فى نقابة المحامين) .

على كل حال .. خرج سراج الدين والوفد من الحكم عقب حريق القاهرة وتطورت الحوادث مسرعات حيث قام الضباط الأحرار بالثورة فى٢٣ يولية ١٩٥٢، وخضع وأسرته مع صفوة كبار ملاك الأراضى الزراعية لقانون الاصلاح الزراعى (بلغ عدد أفراد الأسرة الذين خضعوا للقانون ٢٦ شخصا - راجع كشوف الخاضعين) وكان قد أعلن فى جريدة المصرى فى أغسطس ١٩٥٢ عن موافقته على الإصلاح الزراعى . ثم ألغيت الأحزاب السياسية فى يناير ١٩٥٣ وأعتقل فؤاد سراج الدين مع آخرين، وقُدم للمحاكمة حيث حكم عليه بالسجن خمسة عشر عاما أفرج عنه بعد ثلاث سنوات، وانحسرت عنه الأضواء بعد أن طويت صفحة الوفد من الحياة السياسية فى مصر، وانشغل بأعماله شأن الكثيرين من أركان العصر الملكى، وان ظل يراقب الموقف السياسى عن بعد.

وفى عام ١٩٧٤ وبعد انتصارات أكتوبر بدأت انفراجة نحو تحرير العمل السياسى من قيود التنظيم السياسى الواحد وبما يتواكب مع سياسة الانفتاح الاقتصادى، حيث أعلن الرئيس السادات نيته فى تكوينّ منابر سياسية كخطوة تمهيدية لإعادة الحياة الحزبية، فكانت منابر ثلاثة لكل من اليسار والوسط واليمين تحولت الى أحزاب فى أكتوبر ١٩٧٦ . وهنا عادت الحيوية لفؤاد سراج الدين وتدفقت دماء الحزبية فى شرايينه بعد ربع قرن من التجلط وبدأ يعد العدة لاعادة حزب الوفد من جديد . ومنذ البداية كان حريصا على ألا يغضب السلطة السياسية، ففى حديث له فى المصور ٣ يونية ١٩٧٧ قال إن تأييده للسادات «تأييد صادق لا يشوبه الغرض ولا التماس المنفعة. ثم أشار إلى بعض أفكاره فى حديث لمجلة الحوادث اللبنانية (١٩٧٧/٧/١) عن تعارض قانون الأحزاب مع فكرة القومية العربية» . ثم دفع الاتهامات الموجهة له بمهادنة الانجليز والسراى، وأعلن أن حزبه القادم ليس خارج ثورة يولية لأن الثورة قامت على «أساس المبادىء الستة التى أعلنها الرئيس السادات وقد وافقنا وقتها عليها أما السلبيات التى وقعت فهى لا تجعلنا نكفر بمبادئها السليمة».

وفى ٢٣ أغسطس ١٩٧٧ وفى خطاب ألقاه على مدى ثلاث ساعات ونصف

الساعة بنقابة المحامين احتفالا بذكرى الزعيمين سعد زغلول ومصطفى النحاس، دشن فؤاد سراج الدين إنشاء حزب الوفد الجديد بعد أن استعرض تاريخ الرفد، ونفى عنه الانتهازية وسعيه للمصالح الخاصة على حساب المصلحة العامة، ثم نقد بمرارة واضحة ثورة يولية وذلك فى حماية مناخ السبعينات الذى أعطى إشارة خضراء للهجوم على الناصرية .

وهكذا تأسس حزب الوفد الجديد برئاسته فى فبراير ١٩٧٨ ومعه قيادات الوفد القديم وأعضاء جدد من العناصر المضادة لثورة يولية بدرجة أو بأخرى سواء على مستوى المصالح أو مستوى الفكر السياسى أو مستوى الانتهازية. ولكن سرعان ماأعلن الوفد تجميد نشاطه فى يونية ١٩٧٨ احتجاجا على قانون صدر فى مايو يحرم كل من تولى الوزارة قبل ١٩٥٢ من العمل السياسى، وكان هذا يعنى ذبح الحزب الجديد على الكرسى قبل أن تقوم له قائمة. ولا شك أن السادات كان يستهدف رجال الوفد بهذا القانون لأن أعضاء الأحزاب الأخرى لم يكونوا قد تولوا الوزارة قبل ١٩٥٢ . وقد نسى الباشا فى احتجاجه ان الوفد - كما رأينا - كان يمنع غير الوفديين من تولى الوظائف العامة بل ويعزلهم، وكذلك كانت تفعل الأحزاب الأخرى.

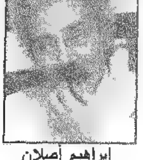
وما لبث أن عاد الوفد الجديد لنشاطه ودخل انتخابات ١٩٨٤ ودخل فى قالب الحياة الحزبية الجديدة . وبدأ لعبة التوازنات السياسية التى أجادها سراج الدين من قبل، ودخل فى تحالف مع الإخوان المسلمين لتحقيق نسبة النجاح المطلوبة لعضوية مجلس الشعب مما أغضب كثيرا من أعضائه الذين رأوا فى هذا التحالف خروجاً عن مبادىء الوفد الأساسية. وتميز خطابه السياسى بشكل عام بإثارة قضية الحريات العامة شأن باقى الأحزاب والمناداة بحرية إطلاق تكوين الأحزاب .. الخ . وقد استشعر السادات الخطر من شعبية الوفد الجديد ولم يشفع لفؤاد سراج الدين أحاديثه الطلية عنه وعن ديمقراطيته وعن أبوته للأسرة المصرية فكان ضمن المعتقلين فى حملة سبتمبر ١٩٨١. وفى المعتقل اختلط بمختلف التيارات السياسية التى كان لها تأثيرها ولا شك على تعديل خطابه السياسى وخاصة بعد استقبال الرئيس مبارك له بعد الافراج .

لقد كان فؤاد سراج الدين سياسيا صنعته الحياة الحزبية بكل مناوراتها، وكان مخلصا شديداً لطبقته الاجتماعية وليس فى هذا ما يعيب فالقاعدة أن الإنسان يتحرك مع مصالح طبقته والاستثناء أن يخرج على طبقته. وفى تاريخ مصر وغيرها من بلاد العالم ما يؤكد هذه الحقيقة. ودراسة التاريخ فى النهاية لا تقوم على الحكم الأخلاقى على السياسيين، ولكنها تعنى بتفسير خطواتهم فى السياسة بالبحث فى الأصول وفى الظروف، وليس بالبكاء على الماضى أو الاحتفاء بالحاضر .

إبراهيم أصلان

كـــتـــابة توائم

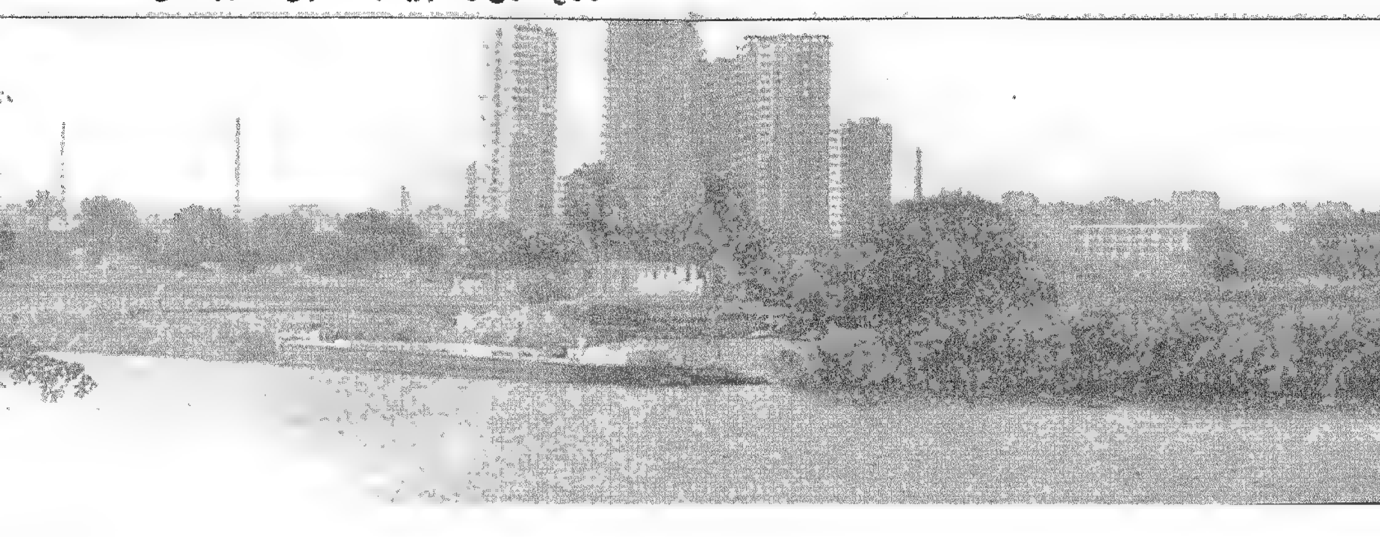
بين الجمالى والوطنى

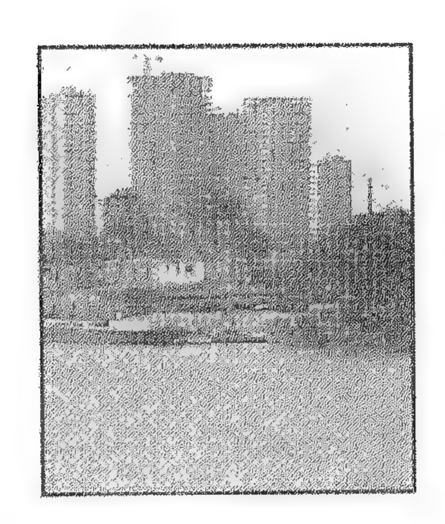

إبراهيم أصلان

بقلم : د. عبدالمنعم تليمة

لا وطن للفن ، بيد أن للفنان وطنا .

الفن لغة البشرية وسبيلها إلى تجاوز القهر والظلم ، وأداتها للمح المطلق فى النسبى والكلى فى الجزئى والخالد فى العارض، والدائم فى العابر والجوهرى فى السطحى والحقيقى فى الزائف . والفنان يعيش واقعا بعينه وعلاقات بعينها ، وهو يرى فى هذا الواقع وفى هذه العلاقات مالا يراه غيره ، فعينه - قدراته المتخيلة واقتداره التشكيلى - تقع على مالا تقع عليه أى عين . وما يراه الفنان وتقع عين خياله عليه ، ليس هو التفصيلات والمناسبات العارضة والحادثات الطارئة ، إنما هو أرفع تقنيات وصلت إليها جماعته فى تطورها التاريخى ، وأرفع أشواق رنت إليها جماعته إلى مستقبلها الآتى .





يعكس الفنان ما عليه جماعته من خبرة تقنية وآفاق روحية وقيمية وعلاقات اجتماعية وسياسية .. الخ. هو يعكس (جوهر) مرحلة تاريخية كاملة من حياة جماعته ، ليثبت هذا الجوهر ، وليدفع به إلى تطوره المستقبلى الحق، وليصل هذا الواقعى المحلى بما وصلت إليه الجماعات البشرية الأخرى وما ترنو إلى الوصول إليه ، فيتخذ هذا المحلى - عبر المشترك الإنسانى - طوابعه الإنسانية .

لهذا كان الفن ولا يزال إلى حد ؛ أكثر الظواهر تعقيدا وتركيبا ، لأنه الظاهرة الوحيدة التى تتوسل بأرفع طاقات الإنسان ، الخيال الخالق ، وتنهض على أرفع مواد فى تكوينات الآحاد والجماعات، الأبعاد النفسية والروحية والوجدانية والعاطفية فى الذات الفردية وذوات الآحاد والصلات والعلاقات والتناقضات والمصالح فى المجموعة وبين المجموعة الواحدة وسواها من المجموعات البشرية الأخرى . هذا التعقيد جعل الظاهرة الفنية تتبدى للبشر فى أثواب فضفاضة من الغموض و(السحرية) وجعل الفن مادة لتأويلات ليست من عناصر تكوينه الجمالى ولا من مقاصد وجوده القيمية ، وأغرى الغموض السحرى أى أحد أن يطلب فى الفن أى شئ ، ولكل هواه ولكل مصلحته ، حتى لقد صار الفن حمالا لأى تأويل وتوجيه ، فهو يعطى نائله لمن يطلب حسب وجهته وأغراضه . صار الفن سلاحا وساحة لكافة الصراعات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والحزبية والعرقية والمذهبية والأيديولوچية. يرى كل طرف من أطراف هذه الصراعات أن وجهته فى تأويل الأعمال الفنية هى الحق ، وأن وجهة غيره من الأطراف باطل . ومع عسر ظاهرة الفن ، وسوء التعامل مع الأعمال الإبداعية، والتراوح الشديد بين التقديس والتنجيس ، ومواراة كل الأغراض والمصالح والصراعات والتناقضات وراء الفن ، نقول مع كل ذلك إن البشرية قد شهدت عبر تاريخها الطويل خوالد إبداعية ادخرتها فى واعيتها وضميرها ، ومبدعين باقين معظمين فى سجلاتها ، ومتلقين أسوياء بالفطر والذائقات السليمة . ثم بدأت البشرية عصرها هذا الحديث فارتفع فى بواكيره لواء العقل ، ثم تصدر العلم وصار (مرجعية) لكل أمر : فانضبطت

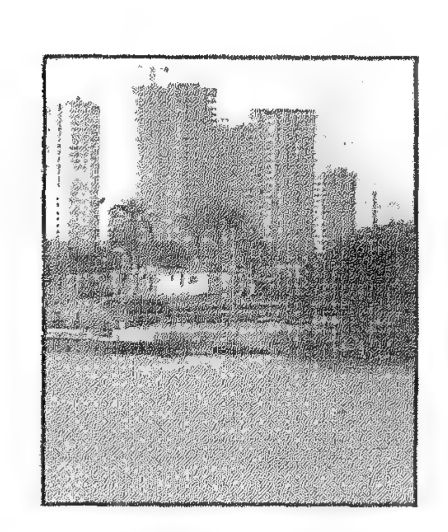
العلوم الطبيعية والتجريبية بالتقدم الهائل المعملى والآلى والرياضى ، ونشأت العلوم الإنسانية والاجتماعية فنشأ لكل ظاهرة فردية أو اجتماعية أو بشرية عامة علم يقوم بدرسها ، فكانت علوم النفس والاجتماع واللغة والسياسة والتاريخ والاقتصاد .. الخ . وفي العقود الأخيرة نرى نشوء آخر العلوم ، (علم الفن) ، وهو آخرها لأنه إنما ينهض بدرس أكثر الظواهر تعقيدا أو تركيبا - كما سلف القول - ولأن قيامه كان يحتاج إلى نضج علوم الظواهر الأخرى واستقرارها . ثمة اليوم نتائج علمية منضبطة فى حقل درس الفن ، وتنهض بهذا الدرس دوائر علمية ذات هيبة وأكاديميات ومراكز بحث ومعاهد عالية ، وصار لهذا الدرس أهله من العلماء والدارسين والباحثين ، ويتوسل هذا الدرس بإجراءات منضبطة وتقنيات صارمة .

عرفت ثقافتنا الحالية شيئا من هذا الأفق العلمى الرحيب ، وغابت عنها أشياء، فظل مشكل الفن فى بلادنا قائما ، بل إن ثقافتنا الحالية هذه تعانى ما لاتعانيه ثقافة أخرى على ظهر هذا الكوكب فى زماننا هذا : نرى قوى التخلف لا تصطنع الفن سلاحا توارى وراءه غاياتها المذهبية والحزبية الضيقة وساحة لمعاركها السوداء فحسب ، بل نراها تحرم الفن تحريما وتفتى بتدمير الإبداعات وتحريف الكتابات وإهدار دماء منشئيها من المبدعين والفنانين والمفكرين والكتاب ، لكن قوى الاستنارة حية ، ترد بأصيل الإبداع وبالفكر المسئول .

إبداعات أصيلة

ولقد قدم إبراهيم أصلان ، ولا يزال يقدم ، إبداعات أصيلة : أصل كل الحقائق التاريخية المستقرة أن وجود مصر فى التاريخ البشرى وجود إبداعي ، الإبداع الفنى والثقافى ، وأن المصريين متعددو الأعراق والملل ، غير أن عيشهم المشترك على مصدر (وحيد) للحياة ، هو النيل ، جعل التعددية - بالتفاعل السمح - وحدة، فكانت وحدة المصريين إبداعهم الأول - تواترت هذه الحقائق واطرد فعلها ، من البداية العتيقة ، منذ آلاف السنين ، إلى يوم الناس هذا ، وصارت لدى المبدعين المصريين ، فى وعاء حافظ ، يؤسسون جديدهم - فى كل زمن من أزمنة الوجود المصرى - على ما انتهى إليهم من خوالد آبائهم وأجدادهم الباقية ، ويحمون وحدة جماعتهم بطرائق الفن وبالاقتدار الجمالى التشكيلى .

يتبدى هذا الأمر فى رواية إبراهيم أصلان الأخيرة (عصافير النيل) . وتضع القراءة الأولى للرواية أيدينا - من جهتى التشكيل الجمالى والموقف الفكرى - على



ثلاثة أمور :

النيل : والنيل لدى المصريين ليس قناة ضئيلة ، إنما هو (البحر) مطلقا وعلى الحقيقة ، له الهيبة ، فهو مصدر الحياة ومستودع كل معرفة وسر ، وإليه اللجوء فى هين الأمر وعظيمه، من أول شأن فردى قريب إلى الشأن الجماعى المهيب : فهذه مصرية تلجأ إليه لما ألم بها طارئ صحى بسيط ، وهذه مصرية ترنو إليه فى لحظة نشوة جنسية متوهجة ، وهذا مصرى يسعى إلى (طريق النيل) يطلب على حافة شاطئه الإلهام ، وهذا مصرى يتطلع بعينيه إلى سطح مائه طلبا لحاجة نفسية روحية ، وها هم المصريون يلوذون بالنيل ، أبيهم ، إذا ما اشتدت غارات الحرب. ويقدس المصريون النيل ، يجعلون بيوت عبادتهم على شاطئه - ويتسع النهر الفضى الجليل ليكون رمزا لكل أرض مصر الطيبة ، حتى إذا طلب امرؤ إلى أخيه أمرا يتصل بالأرض ، وكان فى الطلب التباس ينتهى بسؤال ، كانت مياه النهر ملهما وشاهدا « ... وقبل أن يخرج إلى طريق النيل جاءه صوت سلامة من بعيد :

- لا تنسَ موضوع الأرض

جلس على حافة الشاطئ

كان النهر ساكنا وبدت أضواء المصابيح التى انعكست فيه عكرة وذاوية .

فكر عبدالله بن عثمان أن الماء نائم.

الأرض ؟

تلك التى يحلم بها إخوته .. » . ص ١٤٦.

الوحدة البشرية : المصريون هم عصافير النيل (عنوان الرواية : عصافير النيل) تحلق أسرابهم ما تحلق وتعانى ما تعانى ، ثم تجرى على آحادها شأن كل حى، النواميس ، فيدركهم الموت . بيد أن الموت حياة فى العقيدة المصرية العتيقة ، عقيدة الخلود . هذه العصافير، المصريون، باقون، يحمل الوليد الجديد منهم اسم سلفه ، والجميع - من رحل ومن ولد - أحياء يرزقون عند الجدة هانم التى تجاوزت التسعين، بل قيل إنها تجاوزت المائة والأربعين. كلهم حى باق ما ظلت الجدة حية باقية ، وهى لا تزال حية ، تفتش عن (المداس) تلبسه وتسعى إلى هؤلاء الموتى الأحياء فى دورهم وحيث يكونون ، تتحدث إليهم وتعطى لهم وتأخذ

منهم ، وثمة ما يوازى – رمزيا – حياة هؤلاء العصافير البشر والموازى هنا هو العصافير الحقيقة ، الطير ، وإنما تأتى هذه الموازاة – أو المعادلة – الرمزية فى مواقف بعينها من شدة ومعاناة وإحباط .. الخ : « ......

بين حين وآخر وهو واقف

كان يرى فخا أو أكثر وهو ينطبق

يثير رذاذا من القش والعفار .

وقد أمسك بواحدة من تلك العصافير الصغيرة ، التى كانت تتنقل بين أغصان الأشجار المائلة ، وشاطئ النهر المنحدر .

حصل لنفسه على فخ

ولكنه لم يفلح أبدا فى اصطياد عصفور. ص ١٥١ لكن العصافير البشر ، المصريين ، أصل ، وموتاهم أحياء ، فلا تزال الجدة – رمز البقاء والخلود – على عقيدتها بأن من رحل من أسرابها حى يدرج على الأرض ، ولا تزال تطلب موتاها الأحياء ، وهى تطلبهم من النيل ، إذ إنه – لا جرم – مستودع الحياة: « ....

والجدة هانم مازالت تمشى

تبحث عن بيت ابنتها نرجس

تدور مع الأزقة ، وتغيب فى الحارات .

تفتش فى وجوه الناس

تلج البيوت المفتوحة وتغادرها

وتدخل الدكاكين على أصحابها.

إذا داهمها الليل تحتمى بالماء ، جالسة بجرمها الصغير تحت شجيرات الخروع بأوراقها العريضة المائلة على حافة النهر الساكن.

الوحدة الرمزية : تتأسس الأبنية الرمزية فى هذه الرواية على رموز النيل والجدة والأرض ، فى فضاء رمز دافئ عميق، هو كلمة (البلد) الرامزة الدالة بذاتها . البلد حقيقة هذه العصافير البشرية المصرية ، والذى يعرف هذه الحقيقة حق المعرفة هو أكثر هذه العصافير المصرية رهافة وثقافة ومسئولية، عبدالله . وقد تطير آحاد وجماعات من هذه العصافير إلى بلاد أخرى ، فهذا إلى بلد عربى وذاك إلى بلد أوروبى ، لكن يظل (البلد) الطيب مستقر الجميع وحقيقتهم فالبهى عثمان (يشم) رائحة البلد ، ولا يصح زواج لعبد الرحيم إلا من (بنت البلد) . ثم تجتمع كل الرموز – النيل والجدة والبلد – فى منظومة دقيقة عندما تقف الجدة على النيل تطلب إلى سائق عربة أن ينقلها إلى (البلد) ، فتكون هذه الكلمة – البلد – آخر كلمات الرواية وتكون نهاية بارعة ساطعة .

لقد أهدانا إبراهيم أصلان فى (عصافير النيل) صورة حياتنا ووحدة جماعتنا ، وتألقت بقلمه موروثاتنا اللغوية والجمالية والقيمية ، فالتحم ماهو جمالى بما هو وطنى فى بناء روائى محكم .

أنا واللامعقول !!

بقلم :حسن سليمان

وسط المدينة لايطاق من الزحـــام . الرصيف غير مرصوف فتتزاحم السابلة على الجزء المرصوف منه . عبور شارع سليمان باشا إلى ممر السنترال قاس جداً . فعربات التاكسى لا يحلو لها الوقوف فجأة دون مبرر إلا عند عبور المشاة ، والعربات تتدفع بشدة مع منعطف الطريق ، ولا فرق إن كانت الإشارة حمراء أو خضراء . إنه نوع من فوضى لاتفهم لها مبرراً، ولكن الكل يتسابق دون سبب معقول . وفى ممر السنترال يعلق الباعة ملابس رجالى كى تباع

لا ندرى إن كانت جديدة أم نصف عمر ، وعند ناصية شارع شريف باشا يقف رجل ذو جلباب قصير أبيض . ضخم الجثة غليظها، وتحت الجلباب سروال أبيض . فى قدميه «كوتشى» ضخم الحجم ، والعمامة التى على رأسه تتدلى منها «عدبة» على قفاه . فى يده بوق ينادى فيه: «تبرعوا لبناء مسجد» . فإذا بالرجل الذى يبيع الملابس المعلقة يصرخ فى وجهه : «أنت رجل حرامى، والمسجد بنى منذ سنين فى ميدان رمسيس والايصالات التى فى يدك قديمة لا قيمة لها .. ألا تكف عن السرقة بعد أيها اللص» الرجل الغليظ ينادى بأعلى صوته «بالميكروفون» الذى فى يده : «أسكت يارجل ياجعر» . صوته يدوى إلى آخر الشارع ، فيدير المارة كلهم رؤوسهم ناحية الصوت . لم يسمع أحد صوت بائع الملابس الذى اتهمه بالسرقة والكذب . لكن الناس كلها سمعت الرجل يسبه فى «الميكروفون» ، والنتيجة أن الرجل الذى يبيع الملابس أخذ يقضم أظافره فى غيظ وحقد صامت . أما أنا فسرت أردد : «من يملك بوق الإعلان فهو يسيطر على الآخرين».

★★★

منذ سنوات طويلة وجد نفسه وقد صك عليه باب الزنزانة . كان تعباً مرهقاً من التحقيق والضرب . تجولت عيناه على جدران الزنزانة. وجد خطوطاً قصيرة خدشت بآلة حادة أو بحجر على الجدران لا حصر لها، وكتب آخر هذه الخطوط التى لا نهاية لها : «مضت سنوات ومازلت مستمراً » . صمت. تبلد الحس لديه . نظر إلى الأرض ، فإذا به يجد غطاء وعلبة سجائر «هوليود». فرح بها . فقد وجد شيئاً . أخذ يقرأ الكلمة ، ويعيد قراءتها دون ملل . المهم أن ينصرف تفكيره إلى شيء بعيد عما هو فيه . رويداً رويداً .. اعتادت عيناه على ظلمة المكان ، وأصبحت النافذة الصغيرة ذات القضبان هى محور الكون لديه . فمن الأصوات المترامية إليه مع شحوب الضوء أو سطوعه يستطيع إدراك الوقت .

تقبل الوضع صامتاً .

كان يريد أن يصل إلى نوع من السلام الداخلي يعينه على ما هو فيه . تقبل الوضع . تعامل معه في اقتناع واستسلام. قائلاً لنفسه : «سأغلق رأسي».

ذات صباح فتح الباب ، ونودي عليه بأن المأمور يطلبه . تعثرت خطاه سائراً خلف حارسه . وقف ذليلاً صامتاً أمام المأمور . لكنه تماسك . قابله المأمور مبتسماً ، وبادره بأن هناك توصية كبيرة عليه ، فهل من شكوى عنده ؟ أجابه في شموخ : «لقد اعتدت أن أغلق باب شقتي عليّ وأعتكف دون رؤية أحد . اعتدت على الوحدة . الوحدة أحد مقومات شخصيتي. أحبها . كنت أصك الباب عليّ لكنكم جنبتموني هذه المشقة . فأنتم تغلقون الباب خلفي . أما عن النوم فأنا أتبع «فلسفة الزن»، وأحلم طيلة الوقت أن يكون لدى السرير الياباني بدون الحشايا والوسائد . ذلك السرير القاسي من البامبو ، وإذا بحلمي يتحقق . «فالبرش» يقوم بنفس الشيء الذي تمنيته، لكن الاكتشاف الأعظم كان في الملابس . كنت أبحث دائماً عن نوع من القماش ملمسه مثل بدلة السجن ولونه كذلك ، وإذا بذلك الحلم يتحقق . اندهش المأمور قائلاً : لم أر سجيناً مثلك . أليست لك شكوى من أي نوع .» قال له : «وما قيمة الشكوى». الأفضل لي كترويض لروحي أن أتحمل أقسى شيء من العذاب. إنه انصهار للروح سيجعل مني إنساناً آخر». لم يفهم المأمور كلماته الأخيرة وأمر السجان أن يأخذه إلى الزنزانة . لكنه توقف عند الباب، وهمس للمأمور : «الحرية شيء آخر. إنها بداخلي . فمن الممكن أن يكون هناك مسجون حر أكثر من رئيس وزارة، ومن الممكن يكون الرجل الذي يمارس ضده التعذيب أقوى من جلاديه». رجع لزنزانته. صك الباب خلفه. شعر بسعادة تغمره.

مع كل شهر كان عليه أن يأخذوه مع غيره إلى دار القضاء العالي ، وفي كل مرة كان يتطلع إلى الأقدام المتجهة إلى بناية مرسمه . كان يقف أمام القاضي . يصرخ منادياً عليه . يصيح القاضي : «أين ملف القضية». فتكون الإجابة : «لم يصل الملف بعد من مديرية الأمن». فيكتب القاضي «تؤجل إلى الشهر القادم»، وهكذا تكررت المهزلة ، وفي مرة صاح بسرعة : «إن المسافة بيننا وبين باب الخلق لا تعدو بضع دقائق . فلم لا تأمرون بإحضار الملف». فهتف القاضي في وجهه : «حينما ينطق القاضي بالحكم . عليك ألا تنطق» . قال له «ولكنك لم تنطق بعد بالحكم» . لم يعره القاضي التفاتاً وكتب : «تؤجل إلى الشهر القادم».

حينما رجع إلى زنزانته فتح عليه الباب وصاح أحدهم : «سعادة الباشا يريد أن يراك». تبعه ، وإذا به أمام أحد الضباط في حجرة . قال له الضابط:« هل تظن أن لك قضية . إننا فقط نريد أن نرفه عنك كل شهر ونريك الدنيا . أفهمت إذن». لم يحر جواباً. لقد علمته التجربة أنه في مواقف مثل هذه عليه أن يصمت وأن

يسترخي كلية . فهو عرضة لصفعة أو لكمة . مرت أشهر، وتم استدعاؤه ثانية إلى سعادة الباشا الضابط. فقال : «لقد أمروا بالإفراج عنك». وأعطاه متعلقاته القليلة . فقال له : «أنا الآن منصرف لكني أريد أن أعرف لماذا سجنت؟». قال له الضابط : «أتريد أن تعرف . أدخل ثانية». فأجابه : «أشكرك» شاعراً بمرارة .

في الطريق لم يشعر بسعادة . فحينما صعد إلى مرسمه . وجد كل شيء منظما في مكانه لكنه افتقد خادمته . خلع ملابسه . لا يدرى لماذا، وبقي بملابسه الداخلية ، وفجأة وقف على سور شرفته التي تطل على دار القضاء العالي . صعد إلى سور شرفته وأخذ يتبول . شاعراً بسعادة : إنه يتبول في وجه العالم أجمع . رآه جنديان ينشران ملابسهما على سطح دار القضاء العالي . أشارا إليه يتهامسان ويتضاحكان . لوح لهما بيده شاعراً بسعادة دون أن يكف عن التبول.

★★★

مر الزمن .. وأنا الآن أعاني من مرض «الروماتيد» وخصوصاً في ركبتي اليسرى ، وأحياناً يعن عليّ الألم بقسوة. في ذلك اليوم كنت أتألم ، ولكن عليّ أن أمضي إلى البنك . اقترحت السيدة المشرفة على مرسمي أن يصحبني زوجها. زوجها رجل عملاق . أمين شرطة في المباحث ، ويعتمدون عليه في المهام الصعبة . تحت منزلي وجدت عربات كثيرة مصفحة مثل تلك العربات التي نقلتني إلى المحكمة، ووجدت على الرصيف بعض الضباط يأكلون ويشربون الشاي ويتسامرون. ولم يتركوا لي مكاناً أمر منه. لا أعرف كيف يتعرفون على بعضهم، لكن مرافقي حياهم وحيوه، وحينما وجدوني أتكيء على عصا، ووضعت على عيني نظارة سوداء. أفسحوا لي مكاناً بينهم بل وقف بعضهم. شجعتني بشاشتهم على أن أسألهم . لماذا كل هذا ؟ أجابوا : إن اليوم صدور الأحكام ضد نواب القروض ، وإن متوسط الأحكام ستكون حوالي ثماني سنوات . فأجبت : أيسرق فرد ملايين الملايين ثم يحكم عليه بثماني سنوات؟! كم رجل في الصعيد على استعداد أن يأخذ حكماً مؤبداً طيلة حياته نظير عشرين ألف جنيه مثلاً . ضحك أحدهم . وقالوا : «كلهم ، وقد حدث فعلاً كثير من مثل هذه الحوادث». لكن أكبرهم رتبة صاح في حزم: «نحن هنا مكلفون بمهمة معينة ولا أريد كلاماً في السياسة». فانصرفت ، وتذكرت جماعات من عامة الشعب تنتظر كي تبيع أعضاءً من أجسامهم مقابل بضعة آلاف قليلة من الجنيهات . فجأة تذكرت حادثة وأخذت أضحك بصوت عال. حادثة المسئول المهم جداً الذى ذهب إلى أمريكا ليزرع صلعته . فكلفته كل شعرة ثمن قيراط من القصب ، والنتيجة كانت بضعة شعيرات ضعيفة شكلها مضحك . فرجع ثانية إلى الباروكة . سرت مع صابر وشعرت بجانبه أنني في حماية الدولة كلها. إذ باستطاعته أن يوقف السيارات كي أمر ، وفي استطاعته أن يفتح لي

الاشـارة مـتى أراد . فكل رجـال المرور يعرفونه ، وصلنا إلى شارع عدلى . حيث يوجـد بنك القـاهرة. وبنك القـاهرة دائمـاً يحيرنى إذ تقف أمامه سيارات المرسيدس والكاديلاك الفارهة . ذات ستائر سوداء ، وينزل منها أشخاص منتفخون كباذنجانة بيضاء محشية قد تفحمت فى قاع الحلة . أقدامهم تكاد تفتك بأحذيتهم الضيقة التى يصعب إحكام رباطها. وملابسهم وحللهم لامعة ضيقة وقمصانهم ذاهية الألوان وأزرارها لا تكاد تغلق على كـروشـهـم. وربطات عنق زاهيـة الألوان كـرسـوم الأطفال أو المجانين . ويحملون المحمول صارخين بصوت عالٍ.

فى ذلك اليـوم وقـفت عـربة من تلك العـربات . نزل منهـا أحد تلك النمـاذج . شكله بالضـبط كـإعـلان «مـيشـلان» عن الإطارات . لكن المثـيـر أنه كـان يحـمل مسبحة ، وإذا بى أقول بسرعة لصابر . أريد منك خـدمـة . أجـاب : «أأمـر ؟ قلت أريد مـسـبـحـة هذا الرجل». هـجم عليـه صابر ووقف حائلاً بينه وبين الباب وصـاح آمـراً : سـعـادة البـاشـا يريد أن يرى المسبحة. ارتاع الرجل ناظراً إلى مسدس صـابر الذى يطل من حـزامـه . وطوله وحـجـمـه الضـخم. اعطاه المسـبـحـة مستسلماً. أمسكت المسبحة بيدى وأخذت أحرك الحبات مردداً «صرفت كم أمس .. كم سأودع اليوم .. سأصرف كم غداً!!» . حـرك الرجل عـينيـه بينى وبين صـابر فى دهشـة . وفجـأة قلت له : «هل قـال لك الله أن تذكـره وأنت داخل للبنك لتـدع نقـوداً مسروقـة». ارتاع واصفر وجهه. أعطيته المسبحة . فأخذها بذلة . قلت له «الويل لك لو رأيتك داخـلاً البنك مـرة أخـرى وانت ممسك بها . إبعد عن طريقى». وضـعـهـا الرجل فى جيبه ، وطيلة دخوله البنك كان يتلفت خلفه ناظراً إلينا .

فى مـصـر دائمـاً تتناسب الثـروات تناسباً طردياً مع الغباء ودمامة الروح . كلمـا ازداد غبـاء الرجل وضـيق تفكيـره ازداد ثروة . فلأنه غبى . لا يعطى أهمـية لحجم مـغـامـرة ضـد القانون والأعراف والأخـلاق ويجلس دائمـاً فى المطاعم الفـخـمـة جداً ليصل حـساب مـائدته إلى آلاف الجنيـهات نافـثاً أكـاذيبـه مع دخـان سـيـجـاره «الهـاڤـانا» الذى لن يتـعلم أبداً كـيف يدخنه. ينفث أكـاذيبـه عن عـلاقـاته الحـمـيـمـة برجـال السلطة . وكـيف أنه باستطاعته أشياء كـثيرة ، وكلها أوهام رجل مريض.

★★★

أنا الآن فى وحدتى التى فرضتها على نفسى ولا فرق بينها وبين السجن . أتساءل : لماذا لم يولد لدينا «كـافكا» آخر أو «بيكت» . إننا نعيش فى مناخ خصب . أخصب بكثير من مناخ الذين كتبوا فى مذهب اللامعقول!

الديناميت .. شراب لذيذ

بقلم: محمود قاسم

تم اعلان وفاة الرواية الشعبية برحيل الكاتب سان انطونيو (فيليب دار)، والرواية الشعبية هى الروايات الاكثر مبيعا تستطيع أن تقرأها فى إحدى وسائل المواصلات، كأنها شطيرة سهلة الهضم، أو زجاجة مياه غازية، أو كيس لذيذ به حبات الفيشار.

وأهمية هذا الحدث أن الرواية الشعبية مولود أوروبى، ازدهر فى القرن التاسع عشر مع انتشار الصحافة المكتوبة، وقد شهدت فرسانها، من أدباء الرواية البوليسية، والقصص العاطفية، والميلودرامية، ثم رواية الخيال العلمى.

وأشهر فرسان هذه الرواية فى اوروبا هم موريس ليلان، وارثر كونان دويل، وادجار رايس بوروز، ثم اجاثا كريستى، وجورج سيمنون، وبربارا كارتلاند، وسان انطونيو، والأخيران رحلا عن عالمنا فى الشهرين الماضيين.

الغريب، انه بعد فترة الحداد الادبية، التى اقامها الاوربيون لكل من كارتلاند، وسان انطونيو، فان احتفالية ملحوظة بالرواية الشعبية الامريكية قد تمت بمناسبة موسم الصيف، وبدا ذلك واضحا فى الملف الذى خصصته مجلة لوبوان

الفرنسية فى ٤ أغسطس المنصرم تحت عنوان «قصص الصيف البوليسية» حيث تم الحديث فى صفحات مطولة عن جميع فرسان الرواية الشعبية الجديدة، لم يكن من بينهم اوروبى واحد.. وبدت اوروبا كأنها تتخلي عن نوع ادبى صنعته، وتفوقت فيه طوال قرن ونصف من الزمان، واختارت طوعا ان تقدمه هدية الى الامريكيين .

اوروبا لم تعوض حتى الآن كل من أجاثا كريستى، وسيمنون، وان كانت أوروبا هى التى اكتشفت موهبة باترشيا هايسميث (انظر روايات الهلال فى عددها الأخير، فسرعان ماترجمت رواياتها الامريكية، وحولتها الى افلام فى كل من فرنسا، والمانيا، بينما بدت الافلام الامريكية المأخوذة عن ابداعها اقل بكثير من الافلام الاوربية .

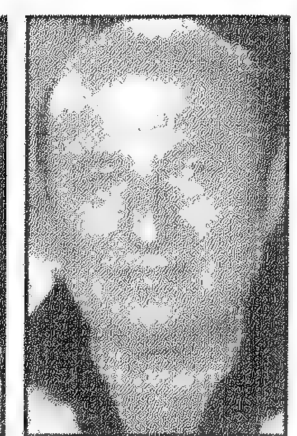
كما أن أوروبا لن تعوض كاتبة طويلة العمر، وغزيرة الانتاج، ومقروءة بشكل شعبى على كل المستويات مثل بربارا كارتلاند (١٩٠٣ ـ ٢٠٠٠) . فى الوقت الذى يولد فيه كل عام بالولايات المتحدة اسم جديد يغزو الاسواق بقوة بالاضافة الى بقية الاسماء الموجودة الآن فى ساحة الرواية الشعبية مثل جون جريشام ، وستيفن كنج، ومارى هيجنز كلارك، رووث راندل، وب. وجيمس، وغيرها من الاسماء.

* * *

من المهم ان نتعرف على الرجل الذى شكل آخر جيل الرواية الشعبية فى اوروبا، خاصة فى فرنسا ، وخاصة انه الكاتب الاقل حظا فى اللغة العربية، فبينما ترجمت اعمال اغلب كتاب الرواية الشعبية فى مصر، فان رواية واحدة لم تر النور، لا باسم فيليب دار، ولا الاسم المستعار سان انطونيو.. وذلك رغم غزارة انتاجه .

تحدث عن طفولته قائلا: كان ابى احد البسطاء. أما أمى فكانت ابنة لمزارع. ولقد قضيت أغلب سنوات شبابى فى هذا الجو الريفى مع جدتى التى كانت ارملة. وكانت تصحبنى لرؤية المزارع، فعرفت هذا البلد جيدا المعروف باسم «آلب الرون».

وقد عمل فيليب دار المولود عام ١٩٢١ صحفيا فى جريدتى «لوفيجارو» و«باريس سوار».. وفى عام ١٩٤٩ نشر اول قصة باسمه المستعار «سان انطونيو» ويرى انه اتجه الى التأليف القصصى لأن الصحافة لم تعد بعد الحرب بنفس أهميتها قبل ذلك.. ورغم ان الرواية الاولى لم يطبع منها سوى ثلاثة آلاف نسخة، فانه قد انتهى من تأليف الرواية الثانية، واختار الرواية البوليسية لأنها تقوم على تتبع الاثر ، وغريزة الفضول .



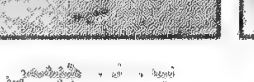
سان انطونيو



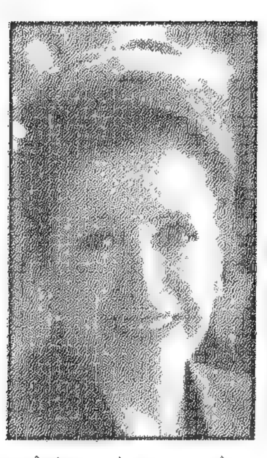




ب . د . جيمس



روث راندل



ماري هيجنز كلارك

ظل ينشر باسمين ، الحقيقي والمستعار، لكن القراء كانوا اكثر ميلا الى الروايات الموقعة باسم «سان انطونيو» قدم فى رواياته شخصية رجل بملامح اسمه «بوبوبيه» وهى شخصية اشبه بفالستاف عند شكسبير، لا يهتم بلحيته، ويمكن ان تقابله ، وتجد صفار البيض على رابطة عنقه : عندما ابتدعت بوبوبيه .. فكرت فى شخص بعينه له نفس الاسم، انه رجل عاش الحرب العالمية الاولى، بدين، له ساق واحدة، ويعيش فى بيت صغير.. اذكر يوما قادتنى قدماى الى داره، وفوجئت به يأخذ حماما، كانت قدمه الصناعية الى جواره. وظل هذا المنظر محفورا فى ذهنى .

ومن بين الروايات الكثيرة التى حملت اسم «سان انطونيو» كمؤلف، هناك : «صفر على الشمال» «كل واسكت» ، «الاصابع فى الافق»، «الحياة الخاصة لولتر كولتز» ، «خداع فيل»، «برافو يادكتور بيرو»، «لحظة ياجميلة» ، «نساء من قصور يتس» وهى من ضمن زواياته الاخيرة .

أما من بين الروايات الكثيرة التى حملت توقيع «فيليب دار»، فهناك : «جسدى الأبيض القذر»، «زرع الليل»، «هذا الموت الذى تكلمت عنه» و«الديناميت شراب لذيذ» ، «البلوزة» ، «ثانية مليئة بالجمال»، وفى السنوات الأخيرة راح يكتب بكلا الاسمين معا، مثلما فى كتابه «سان انطونيو» وهى مسرحية من فصل واحد. عبارة عن مونولوج واحد تقوم به شخصية على خشبة المسرح، ويتكلم فى هذا الحوار عن الحياة والموت والحب والرجال والنساء .

عشت هوس الحياة

ومن بين روايات الكاتب «سان

انطونيو» هناك : «العجوز التى سارت فوق البحر»، وهو اسم غريب لرواية تتحدث عن شاب فى العشرين من العمر . يقضى حياته فى سفر ورحيل، وتحوم روحه فى الفراغ والملل. وفى احدى سفرياته يتعرف على امرأة عجوز ثرية، تغطيها المجوهرات الثمينة، ويراها فى كل روحاته وغدواته تلمع فى يديها، وهى تستحم فى البحر، فى آخر الرحلة يفاجأ بها تضع له البقشيش فى ملابسه الداخلية، ويبدأ فى رسم خطته من اجل العزف على حالة الحنين التى تتملكها، ويخطط كى يتخلص منها، فهو ليس من الشباب الذين يبيعون اجسادهم للحسناوات . لكنه يريد الاستفادة من هذه الثروة. ويستغل قدرته فى الكذب ، وينسج لها القصص . حتى ينجح فى تدبير خطته، ويهرب دون ان يقدر احد على معرفة مكانه.

الجريمة مفيدة اذن فى بعض روايات سان انطونيو، مثلما هى مفيدة دوما فى روايات باترشيا هايسميث. لذا مثَّل الكاتب ظاهرة خاصة فى الرواية، البوليسية، وحسب مجلة بارى ماتش ـ ١٢ فبراير ١٩٩٢ ـ فقد ذكرت موسوعة الارقام القياسية ان فيليب دار حقق اعلى المبيعات فى كتبه حيث انه باع حتى ذلك الوقت ١١٢ مليون نسخة من رواياته، وتشير المجلة نفسها فى عدد آخر أن الكاتب وزع ٢٠٠ مليون نسخة، ويعلق دار على هذا :

اكتب خمس صفحات يوميا. ولم اكن واعيا لهذا الكم. وطوال اربعين عاما شكلت كل هذه الصفحات جبالا من اوراق المسودات. لقد عشت الهوس الحياتى. وعندما يحدثوننى عن منجزات سان انطونيو، فإننى احس كم انا فى حاجة الى الكتابة، وانا اكتب لا اهتم الا بما أنا عليه، وانا فى حالة عمل . وما سأفعله غدا.

وقال الكاتب فى البرنامج التليفزيونى «ابستروف» .. قلت كل ما اوده من خلال سان انطونيو . لكننى كنت فى حاجة الى غربة مناسبة اكثر. لقد تعلم احد الفلاسفة كيف يعزف وهو فى الثمانين من العمر. اما انا فأريد تعلم العزف قبل أن أموت .

هذا عن سان انطونيو.. آخر كتاب الرواية الشعبية الاوروبية ، والجدير بالذكر ان السينما قد تجاهلت دائما أعماله، ومع ذلك ظل محتفظا بشعبيته، نفس الأمر حدث مع باربرا كارتلاند، وغيرهما من ادباء الرواية الشعبية باستثناء سيمنون ، وكريستى.. لكن الامر يختلف تماما بالنسبة لأدباء الرواية الشعبية الامريكية، فاغلب اعمالهم يتم انتاجها فى افلام

سينمائية تحقق انتشارا للروايات، وتوضع الصورة الرئيسية للفيلم على أغلفة الروايات فى طبعتها التالية، بل ان الكثيرين منهم عملوا فى السينما منهم مايكل كرايتون، وستيفن كنج .

وحسب مجلة «لوبوان» المشار اليها، فان كاتبا جديدا فى الرواية الشعبية الامريكية، وهو سكوت تورو قد حقق من خلال روايته الاولى مبيعات ضخمة، لأن المخرج آلان باكولا حول الرواية الى فيلم بنفس العنوان «البرئ المحتضر» وقام بالبطولة هاريسون فورد، ويتم تصوير روايته الثانية «خسارة شخصية» من بطولة داستن هوفمان .

اذن فالسينما الآن تساعد بقوة على اكساب الروايات البوليسية شعبية كبرى، ويرى النقاد ان تورو قد يسير فى نفس طريق جون جريشام، فهو محام مثله، واعماله عن عالم المحاكم، حيث يختلط الابرياء بالمدنيين والمجرمين .

العرب والرواية الشعبية

وحسب قوائم المبيعات خلال هذا الصيف، فان الروايات الامريكية تباع رواياتها الآن فى اوروبا بشكل يؤكد أن الأوربيين تركوا الساحة تماما للامريكيين، فها هى ذى رواية «قبل ان نقول وداعا» لمارى هيجنز كلارك تتصدر كل المبيعات طوال الأشهر الأخيرة والغريب أنه عندما ترجمت إحدي روايات الكاتبة فى روايات الهلال منذ عامين، فانها لم تلق نفس القبول.. بما يثير الدهشة، علما بأن الرواية الشعبية لاقت الاقبال الدائم لدى القراء العرب، مما يترك تساؤلا بلا اجابة حول منذ شعبية هذه الاسماء الآن فى الوطن العربى .

والى جانب الأسماء البارزة، التى تترجم بشكل فورى الى كل اللغات، فان الساحة تستقبل الجدد دوما. وتتنافس الاطراف جميعها فى الميدان، فمن الجيل القديم، قدمت ب. و جيمس روايتها «حان وقت الجد» ورواية «حكيم مثل الصورة» لروث راندل، فان الكتاب الجدد يدخلون الساحة بقوة مثل رواية «صيادو الرءوس» لميشيل كرسبى، ورواية «قتلى تيتانيك» لماكس آلان كولينز وهى اسماء من المنتظر ان تلمع كثيرا فى السنوات القادمة .

لكن ماذا عن مصر ؟... لاشك ان الرواية الشعبية لا تلقى قبولا لدى الكبار، وان كانت روايات «عبير» واغلبها من تأليف بربارا كارتلاند، تجد هوى لدى الشباب، اما الروايات البوليسية، وروايات التجسس التى يكتبها كل من نبيل فاروق، ومجدى صابر، فان اغلب قرائها من الشباب، وهى روايات مصرية، وظاهرة حديثة غير مسبوقة بنفس القوة فى العالم العربى. ❑

حتى لا تكون

الكنيسة المعلقة ضحية تراشق الاتهامات !

بقلم : أحمد أبو كف

●● الكنيسة المعلقة درة الكنائس فى حى مصر القديمة تراشقت حولها الاتهامات بين كاهن الكنيسة المعلقة ورجال الآثار المنوط بهم ترميمها. كاهن الكنيسة يتهم المجموعات التى بدأت فى ترميمها ، بأنه كان تزويقا وليس ترميما جذريا .. ورجال الآثار والترميم يتهمون الكاهن بأنه يدس أنفه فى كل شيء ، ويتهمهم بالجهل وعدم الامانة. وكاهن الكنيسة يتهمهم بالتآمر على الكنيسة كما يتهمهم أيضا بأنهم قبضوا أموالاً كثيرة كانت مخصصة للترميم .. ورجال الآثار يقولون أنه لم تأت أموال خاصة بترميم الكنيسة من الخارج ، وإنما الرئيس مبارك تفضل بتخصيص ١٠٠ مليون جنيه لترميم الآثار، ومنها الكنيسة المعلقة ٣٠ مليون جنيه. وكاهن الكنيسة المعلقة يتهم الخبراء بأنهم أزالوا لوحة دينية من على أحد جدران الكنيسة ، مع أنها لوحة وثنية تاريخية ، ويتهمهم أيضا بأنهم هدموا كنيسة فى الدور الثالث .. ولم يسمع دفاع الآثار الخبراء عن ذلك .

وكاهن الكنيسة مرقص عزيز يتهم الخبراء بالتآمر على الكنيسة والخبراء يقولون فليتركنا فى عملنا الذى نجيده ونتخصص فيه دون التشهير بالأعمال التى انجزت.

والحملات مستمرة ومتبادلة .. والكنيسة هى الضحية ●●


الكنيسة المعلقة
زينة كنائس مصر
القديمة ، المشكلة
والحل !

هل نحن نريد الحفاظ على التراث القبطي الفريد ، أم أن نساعد الزمن في إهداره؟.

هذا هو السؤال المطروح والمتاح الآن قبل أن نندم ولات ساعة مندم .

فالكنيسة أثر ثمين يعود إلى نهاية القرن الثالث الميلادى وبداية القرن الرابع، وهو من المبانى الأثرية الفريدة المعلقة ، مثل المساجد المعلقة كجامع الغورى وغيره من المساجد . والكنيسة المعلقة أنشئت في مصر قبل الاعتراف الرومانى بالمسيحية وانتشارها ، وقبل عصر الشهداء . يقال أن الكنيسة قديمة وكانت معبداً وثنياً ، ثم اختارها المسيحيون لتكون علامة على انتصار المسيحية على الوثنية، والذين عانوا من اضطهاد الرومان ، قبل أن يعلن أولا الامبراطور قسطنطين مرسومه الامبراطورى بالاعتراف بالمسيحية كأحد الأديان فى الدولة الرومانية ، وبعد أن أكد ذلك الامبراطور تراجان وزوجته هيلانه أن المسيحية هى الدين الرسمى للامبراطورية.

الكنيسة المعلقة تعتبر معجزة لأنها شيدت على برج من أبراج حصن بابليون الرومانى ، لكن الزمن له حدود ، وكذلك تأثير المياه الجوفية فى حى مصر القديمة التى تنخر فى أساسات البرج الرومانى المقامة عليه الكنيسة المعلقة . ويظهر فعل الزمن واضحا لكل من يزور الكنيسة ويتفحص فى أركانها وجدرانها وأرضياتها وسقفها، فالشقوق مازالت غائرة، والرسوم والايقونات التى رسمت على جدران الكنيسة بدأت تتلاشى ، والتصدعات فى كل الاتجاهات ، والأساسات غارق معظمها فى المياه الجوفية الراكدة . والوضع العام للكنيسة أخطر . والمطلوب قرار حاسم ببدء مشروع متكامل ومرسوم يحفظ لمصر كنيستها المعلقة، على أن تغلق الكنيسة أمام السائحين حتى يتم ترميمها بالكامل .. ولكن كاهن الكنيسة لا يحب سماع حكاية غلقها ويتحدى ..

تتميز الكنيسة المعلقة بأنها مبنية فوق برجين من أبراج حصن بابليون . وتضم روائع الفن القبطى النادرة فى الهياكل والرسوم الجدارية وللكنيسة سقف معلق خشبى على شكل سفينة نوح ، رمز الانتصار والنجاة . كانت فى بداية الأمر معبدا فرعونيا ، ثم معبدا وثنيا للرومان ، ثم كنيسة رومانية ، وتحولت فى نهاية القرن الثالث الميلادى وبداية الرابع إلى كنيسة قبطية، بل تحولت فى بعض السنوات إلى أن تكون مقرا للكرازة المرقصية . والدليل على ذلك ما ذكره فانسيليب عام ١٦٧١م. الذى بعثه لويس الرابع عشر من فرنسا لدراسة حالة كنائس وأديرة مصر ، أنه رأى بالكنيسة المعلقة كتابة بخط يد عمرو بن العاص،

عندما كان واليا على مصر، يوصى المسلمين بألا يتعرضوا لهذه الكنيسة بأذى، فما الذى حدث بعد هذه الوصية من عمرو بن العاص الذى فتح مصر وأسس الفسطاط أول عاصمة لمصر الاسلامية فى افريقيا ، وبنى جامع عمرو .. رابع المساجد فى عالم الاسلام وأول المساجد فى افريقيا المجاور للكنيسة المعلقة .

●●●

مأساة الكنيسة المعلقة تكمن فى موقف الآثار كما يقول الكاهن مرقص عزيز ، الذى يتجاهل صيحات التحذير من خطورة الوضع الحالى للكنيسة المعلقة . والاستثناء فى قرارات الترميم . ففى عام ١٩٨١ – كما يقول كاهن الكنيسة فى بلاغه الذى بعثه لجميع الصحف – حاولت هيئة الآثار ترميم الكنيسة المتهالكة بعد انهيار حوائطها . والسبب أن وفدا أمريكيا جاء لزيارة الكنيسة «٤٠٠ فرد»

وفى عام ١٩٨٤ صدرت قرارات بترميم عاجل قبل زيارة الرئيس مبارك لها .. بعد انهيار حوائطها . وبالفعل – كما يقول الكاهن مرقص عزيز – الكنيسة المعلقة لها طريقة فريدة فى بنائها وانشائها ، وتحتاج إلى شركات متخصصة فى الترميم وليس شركات مقاولات عامة . وقال إنه فى عام ١٩٨١ أيام المرحوم د. أحمد قدرى رئيس هيئة الآثار الاسبق ، كانت الترميمات صورية بشهادة الجميع ، ومن بينهم وزير الثقافة نفسه ، والذى تولى الوزارة وأقال د . أحمد قدرى فى هذا الوقت .

وقد تفضل الرئيس مبارك بزيارة الكنيسة المعلقة فى مارس عام ١٩٨٤ .. وشاهد أعمال الترميم وقالوا له فى الكنيسة إنها غير كافية ، وطلب من رجال الآثار استكمالها . لكن بعد ذلك وقع زلزال أكتوبر ١٩٩٢ ، الذى كان له تأثيره الضار على الكنيسة . واستؤنف العمل فى الكنيسة بعد صلبها عقب الزلزال عام ١٩٩٧ . لكن – وكما يقول الكاهن مرقص عزيز – أتت الرياح بما لا تشتهى السفن. والسبب أن المسئولين عن الترميم بدأوا العمل من أعلى إلى أسفل ، قبل البدء فى ترميم الأساسات ، وقبل البدء فى مشروع تقليل مستوى سطح المياه الجوفية . وهذا التصرف غير مناسب لا هندسيا ولا منطقيا . وكان هناك مسئول عن ذلك ووضع مشروع تقليل المياه الجوفية لمنطقة كنائس مصر القديمة ، دون وضع الكنيسة المعلقة فى الحسبان وضمن هذا المشروع . وتعللوا بأنهم سيضعون مشروعا خاصا بالكنيسة المعلقة ، ووضعوا بالفعل مشروعا فاشلا .. ثم بعد ذلك قام محافظ القاهرة بضم الكنيسة المعلقة للمشروع الكلى .

المهندس رمزى نجيب الذى أشرف على ترميم الكنيسة المعلقة ، ومعه المهندس جوزيف زكى مدير الادارة الهندسية بهيئة



كاهن الكنيسة يشير إلى إحدى اللوحات التى تحتاج إلى ترميم



مذبح الكنيسة والستارة وصور القديسين

الآثار ، واللذان قاما بالعمل فى عهد د . أحمد قدرى خلال بداية الثمانينيات ، يقول المهندس رمزى نجيب انه كشف عن لوحة حائطية ترجع لما قبل انتشار المسيحية وتنتمى للعصر الوثنى ، وهى تصور الرومان يتعبدون للآلهة الوثنية ، وقام بحسن نية وانطلاقا من مسيحيته الغيورة بوضع طبقة من الجير على اللوحة ، وبالطبع دون تدخل كاهن الكنيسة ، ودون أخذ رأى المسئولين فى الكنيسة ظنا منه أنه لا يليق أن يوجد فى الكنيسة صورة تمثل العبادات الوثنية داخل الكنيسة . وحدثت له مشكلة كبرى بخصوص هذه الصورة وطاردوه ، وقال له كاهن الكنيسة أن هذه اللوحة تمثل فترة من تاريخ مصر ، ومن تاريخ الكنيسة ولابد من وجودها . وهرب من الكنيسة ولم يدخلها بعد ذلك رغم أنه فى ترميم أديرة وادى النطرون.

وقد توقفت الضجة التى حدثت بسبب هذه اللوحة الجدارية . وحين استؤنفت أعمال الترميم مرة أخرى من جهة متخصصة اتفق على ازالة طبقة الجير عن اللوحة . وهجم القمص مرقص عزيز على المهندس شريف منير مدير مشروع الترميم من قبل المقاولون العرب ، الذى تعهد بانتداب متخصصين لذلك . ويضيف كاهن الكنيسة المعلقة .. أنه أثناء مروره لمتابعة أعمال الترميم فوجىء بازالة اللوحة ، فقام بإبلاغ هيئة الآثار ، وإبلاغ رئيس مجلس ادارة المقاولون العرب المهندس ابراهيم محلب ، ثم قام بإبلاغ الشرطة وتم عمل محضر بالواقعة ، والمحضر فى نيابة مصر القديمة .. ولا يعرف بعد ذلك ماذا حدث.

●●●

والسؤال الآن .. ماذا يفعل المهندسون والمرممون فى الكنيسة المعلقة؟

الكنيسة المعلقة فوق برجين من أبراج حصن بابيلون الرومانى ، تضم روائع الفن القبطى فى الهيكل والنقوش والرسوم الجدارية والايقونات. ومأساة هذه الكنيسة تكمن فى موقف المجلس الأعلى للآثار .. وموقف كاهن الكنيسة.

فى عام ١٩٩٤ حينما قررت الآثار عمل مشروع متكامل لترميم الكنيسة حدثت مهزلة كما يصفها الكاهن فقد تراوحت العطاءات المقدمة للمناقصة بين ٧ ملايين جنيه و ١٨٥ مليون جنيه . وهذا التراوح جاء بفضل الكاهن الذى ادعى أن أمريكا ساهمت فى ترميم الكنيسة المعلقة بمبلغ كبير . وانتهت المناقصة باختيار عرض شركة ايطالية بقيمة مالية ٢٥ مليون جنيه . ثم - كما يقول الكاهن - فاحت روائح كريهة ، وأحيلت هذه المناقصة للنيابة الإدارية ، ثم مجلس الدولة، الذى ألغى المناقصة بالكامل .

ومن يومها لم يتحدث أحد من المسئولين عن مشروع متكامل لترميم أهم

كنيسة فى العالم كما يقول الكاهن.

والحكايات عن الترميم فى الكنيسة المعلقة لا تنتهى.. يقول القس مرقص عزيز: إن مهندسة من هيئة الآثار قامت فى عام ١٩٩١ بهدم جدار كبير بدعوى اعاقته لعملية الترميم ، وأسفر الهدم عن سقوط كنيسة كانت تحتل الدور الثالث من الكنيسة المعلقة . وحتى الآن مازالت بقايا الخشب المزخرف مهملة دون أن تمتد إليها يد الترميم . ورسوم رائعة على جدران الكنيسة تآكلت بفعل الاهمال واختفت . ويقول إن عمالا اعتدوا على اجزاء كبيرة من لوحة فسيفساء رائعة فى هيكل كنيسة يوحنا المعمدان .

ويضيف: إنه فى عام ١٩٨٥ تم تنفيذ مشروع لاطفاء الحرائق قيمته نصف مليون جنيه ، وحتى الآن لا يعمل دون أسباب واضحة . بل فى عام ١٩٨٦ قام خبراء آثار ببناء سور خراسانى أعلى الكنيسة ، ليضيف الاحمال على مبنى أثرى معلق . وقبله فى عام ١٩٩٢ تم صلب بعض المواقع بأسلوب بدائى ، واختفى بعده المهندسون ولم نشاهد وجوههم بعد ذلك . وتفاصيل الكارثة التى تتعرض لها المعلقة تبدو فى تقرير مهم لمركز هندسة الآثار بكلية الهندسة جامعة القاهرة كتبه د . على رضا استاذ خواص التربة ومقاومة المواد ، و د . أحمد محمود ماهر استاذ الهندسة الانشائية ..

ماذا فى التقرير؟

● أن أسفل الكنيسة المعلقة على برجى حصن بابيلون تبدو الأبراج غارقة فى مياه جوفية معفنة لعلو الحصن بمسافة تصل إلى متر ونصف المتر فى المتوسط . وجدران الحصن صارت فى حالة سيئة ومتآكلة ومتصدعة فى عدة مواضع وتبدو الشروخ الرأسية بين الحوائط الملاصقة للحصن .

● أما أرضية الكنيسة من أسفل فهى محمولة على عروق خشبية ينخرها السوس وتتآكل بفعل الزمن ، ولم تعد قادرة على تحمل الضغوط الواقعة عليها من أعلى ، ولذلك هبطت أرضية صحن الكنيسة فى مسطحات كبيرة .

● وحتى أعمال الصلب والترميم اسفل الحصن الرومانى جرت باستخدام العروق الخشبية وبطريقة غير سليمة أدت فى مواقع كثيرة إلى عدم ملامسة هذه القواعد لأرضية الكنيسة .

ويتابع تقرير مركز هندسة الآثار قائلا :

● إن الشروخ والتصدعات تمتد فى أرجاء الكنيسة ، وفى الحائط المشترك بينها وبين المتحف القبطى وارضية صحن الكنيسة ومدخل إحدى الكنائس الفرعية وهى «كنيسة الهروب» ومثلث الصالة المكشوف، ويصل ارتفاعه إلى خمسة أمتار دون دعامات كافية من الخلف

تضمن ترابطه واتزانه . وبسطة السلم المؤدى للدور الأول ، وهيكل يوحنا المعمدان، وأجزاء المنبر الرخامي وحوائط الواجهة الغربية .. وباختصار معظم قطاعات الكنيسة تعاني الشروخ والتصدعات، ومنارات الكنيسة والأقبية الثلاثة أعلى الكنيسة كلها مملوءة بالتشققات والتصدعات .

كما يوجد ميل في صف الأعمدة الرخامية الثمانية لصحن الكنيسة ، إلى جانب استمرار تحرك أجزاء القبو السفلي ومواضع الارتكاز أسفله ، والبقع الجصية العشوائية التي عملتها يد غير خبيرة في معظم الشروخ تتآكل باستمرار مما يدل على أن الشروخ مازالت حية ، وفي أعلى الكنيسة ترى عروقا خشبية متآكلة . وأرضيات الدور الأول والثاني تهتز عند السير عليها، لأن أعمال الترميم المنفذة بدائية وغير مكتملة .

الكنيسة تتعرض لأهمال جسيم أسفر عن شروخ وتصدعات وتلفيات توجب البدء في مشروع متكامل من أسفل إلى أعلى . وتدل على أن أعمال الترميم السابقة دون المستوى وتفتقر إلى الأسس الفنية السليمة ، وتهدد القيمة الأثرية للمكان وتعرضه لخطر الانهيار .

●●●

هذه هي الحكاية.. كما يرويها الكاهن مرقص عزيز .. فماذا تقول الآثار؟.

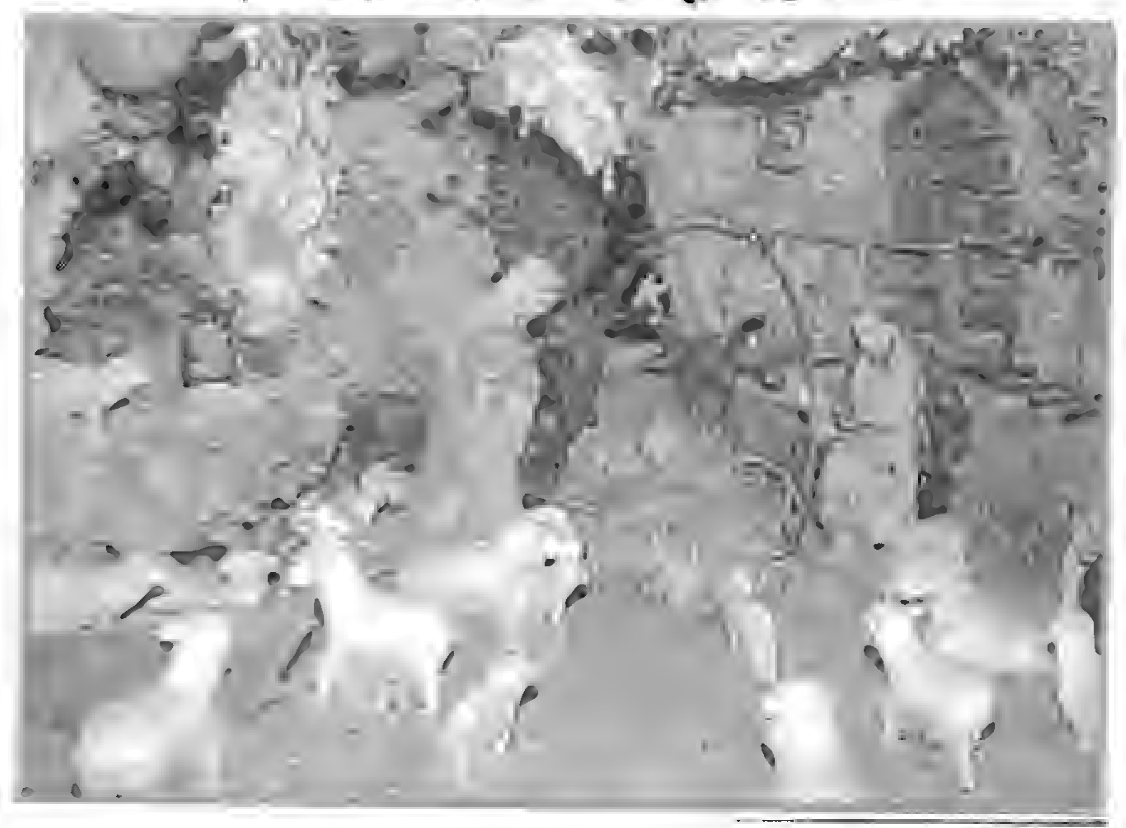
إن هدف المجلس الأعلى للآثار إعادة الكنيسة المعلقة وحصن بابليون إلى الحالة المعمارية التي سجلت في كتب التاريخ لتتكامل مع جامع عمرو بن العاص ومعبد بن عزرا . ويأمل المسئولون في وزارة الثقافة في أن تشكل كلها متحفا مفتوحا يؤكد سماحة الأديان على أرض الحضارة والوحدة الوطنية .

ويقول وزير الثقافة فاروق حسني إن المشروع بدأ العمل فيه في منتصف فبراير عام ١٩٩٨ ويخلص الكنيسة والمتحف القبطي من المياه الجوفية . وقد تم خفض منسوبها بالفعل . وفي عمليات الترميم هناك أربعة أنظمة للمراقبة بالكمبيوتر حيث ١٠٠ منطقة متصلة بالمجسات على الشروخ تتصل بوحدة تجميع البيانات التي يتم رصدها كل ساعة بنظام شبيه بالعمل في برج بيزا بايطاليا . ويطبق ايضا النظام اليدوى بوضع مسماري تثبيت من مادة غير قابلة للتمدد والانكماش حول الشرخ، ويتم قياس المسافة بين المسمارين والحرارة بجهاز خاص . ويبلغ عدد نقاط النظام اليدوى خمسين نقطة. ويتكامل نظام الرصد خلال المحطة المتكاملة ذات الحركة الآلية مرة كل يوم وثلاثية الابعاد ، بالإضافة إلى عملية المراقبة من خلال رصد المناسيب.

أما د . جاب الله علي جاب الله فيقول: إن الكنيسة بنيت أواخر القرن



لقطة أخرى لمذبح الكنيسة فى حاجة دائما إلى اهتمام



إحدى اللوحات النادرة تحتاج إلى إنقاذ

الثالث الميلادى وأوائل القرن الرابع . ومساحتها ٢٣,٥ × ١٨,٥ متر. وبارتفاع ٩,٧ متر وسميت معلقة لأنها شيدت فوق الحصن الرومانى المعروف باسم حصن بابيلون . وضعت أشجار النخيل مع طبقة من الأحجار فوق اسطوانات الحصن لتكون هى أرضية الكنيسة .

وعرفت المعلقة بكنيسة السيدة العذراء ، ثم القديسة دميانه . كما أن الدرج والفناء وملحقاتهما مبنية على البرج الرومانى وحالتين أخرين مبنية جزء من الجناح القديم بالمتحف القبطى . والكنيسة دون قباب وسقفها خشبى على شكل سفينة نوح . وبها كنيسة أخرى يصعد إليها بدرج خشبى هى كنيسة «مرقص» بالإضافة إلى هيكل تكلا هيمانوت الحبشى ، ثم كنيسة الهروب .

وتحتوى الكنيسة المعلقة على مائة وعشرة أيقونات، يرجع أقدمها إلى القرن الثامن الميلادى . وأغلبها يعود إلى عام ١٧٧٧ . وبعضها رسم فى زمن الباراتى بك عام ١٨٩٨ الذى كان ناظرا فى ذلك الوقت ، وقد أجرى ترميما معماريا ودقيقا لجميع الايقونات . وجاءت فترة من الزمن كانت فيها منطقة الكنيسة المعلقة هى قلب الكنيسة القبطية مما دعا البابا خريستو دولوس البطريرك رقم ٦٦ أن يجلس على الكرسى المرقصى أواخر عام ١٠٤٦ الميلادى ، ويتخذ من الكنيسة المعلقة مقرا للكرسى البابوى بدلا من كنيسة الاسكندرية، واستمر هذا إلى عهد البابا يؤانس الثامن البطريرك رقم ٨٠ والذى جلس على الكرسى المرقصى عام ١٣٠٠ ميلادية ، وهو الذى نقل الكرسى البابوى إلى كنيسة العذراء فى باب زويلة .. ربما لأن الكنيسة المعلقة وقتها لم تكن تصلح للإقامة فيها بسبب تدهور مبانيها ، وبسبب أنها يمكن أن تنهار .

●●●

وماذا عن الحصن الرومانى الذى شيدت فوقه الكنيسة المعلقة؟.

كما يقول عبد الله العطار رئيس قطاع الآثار الاسلامية والقبطية : إن الكنيسة المعلقة هى التحدى ، وسنصل بإذن الله إلى تحد صارم لترميمها بحلول ليست تقليدية ، وإنما باستخدام كل الجديد والترميم المعمارى والدقيق. وهناك صعوبة أمام الخبراء والمؤرخين للتعرف على الأصول الأولى للبناء . ثم أنه ليس هناك من المساقط إلا ما ورد فى الكتب التاريخية . ولذا فهى تحتاج لدراسة مقارنة مع حصون أوربا وشمال افريقيا ، حتى يمكن عمل مساقط وقطاعات توضح الأصول الأولى للحصن ، وما أدخل عليه من تغييرات بعد ذلك سواء فى عهد الامبراطور الرومانى «تراجان» أو فى عهد خلفه الامبراطور «أركاديوس». فالمراجع تذكر أن أركاديوس أحدث تعديلات على

الحصن الذى كان يشغل بداخله عمائر وكنائس وغير ذلك من المنشآت الميدانية والوكالات والأسواق .

وتدل بقايا الحصن من أسوار وأبراج على أن هذا الصرح كان ضخم البناء ، وكانت توجد البوابة البحرية التى تقع قرب جامع عمرو بن العاص، بجوارها البوابة الجنوبية ببرجيها الضخمين اللذين يحتويان المدخل البازيليكى ، بالإضافة للبوابة الشرقية خلف كنيسة السيدة «بربارة» ، وأهم ما يميز تلك البوابة البرج الواقع بجوار القديسة بربارة . أما البوابة الغربية فتميزها برجان أحدهما على اليمين وهى بداية المتحف القبطى . والأخرى اسفل كنيسة «سان چورچ» . وكانت هذه البوابة مطلة على النيل مباشرة بامتداد السور الشمالى . ويبلغ ارتفاع البرج الجنوبى من البوابة الجنوبية ٣١ مترا ، بينما استغل البرج الثانى كمكان للطاحونة والفرن . ويقع بين البرجين الدرج الخاص بمرسى الميناء الرومانى الذى كانت ترسو عليه السفن التجارية والحربية . وينسب الحصن إلى منطقة بابيلون التى اشتق اسمها من «برجابى آمون» أى بيت النيل ، وهى المنسوبة إلى «أون» المقدسة ، وهى هليوبوليس .

أما المتحف القبطى فهو ملاصق الكنيسة المعلقة و خمس كنائس أثرية . وقد أنشىء المتحف على يد مرقص سميكة باشا ليجمع فيه القطع الأثرية القبطية عام ١٩٠٨ ولدراسة تاريخ وآثار مصر القبطية . ولم يجد سميكة باشا أفضل وسيلة لذلك من موقع مجاور للكنائس الست ذات الأهمية وهى الكنيسة المعلقة ، وكنيسة ابو سرجة وكنيسة السيدة بربارة ، وكنيسة مارجرجس وقصرية الريحان ودير السيدة العذراء .

ويتميز المتحف القبطى بأن المشربيات والأسقف المستعملة قد جلبت من قصور قديمة للأقباط ، وكذلك قطع الفسيفساء والأعمدة الرخامية ، واللوحات الجصية . وينقسم المتحف القبطى إلى قسمين : العلوى والسفلى . وكليهما يتكون من ١٤ قاعة اسقفها من الارابيسك . والجزء الجنوبى مقام على حصن بابيلون ملاصق للكنيسة المعلقة . ويطل هذا الجناح على حديقة صغيرة مزينة بتيجان اعمدة ، ويوجد فى جدارها الجنوبى سلم يتكون من ٢٥ درجة يؤدى إلى البوابة الجنوبية لحصن بابليون . والمعروف أن المتحف القبطى أغلق من أجل ترميمه عام ١٩٦٦ واعيد افتتاحه مرة أخرى عام ١٩٨٤ دون مشاكل .. مثل التى يثيرها كاهن الكنيسة المعلقة مما يزعج الخبراء .

●●●

هناك رأى يقول إن الكنيسة المعلقة بنيت على برجى حصن بابليون قبل القرن الثالث الميلادى ، وأنها قبل ذلك كانت معبدا رومانيا ، ثم تحولت إلى كنيسة



الشروخ واضحة ومحاولات انقاذ الشروخ التى تتسع مع مرور الوقت

قبطية . والدليل على ذلك تحليل الأخشاب بكربون ١٤ لأرضية الكنيسة ، والذى أثبت أن عمرها يعود إلى عام ١٥٠ ق . م لكن تظل هذه الكنيسة من المزارات السياحية وتدر دخلا سياحيا كبيرا . وسميت معلقة لأنها بنيت على الحصن الرومانى ، وهى اسطوانة كبيرة من الحجر ارتفاعها ١٣ مترا عن الأرض ، وتم وضع أخشاب النخيل فوق الاسطوانة لتكون هى أرضية الكنيسة . لكن تحللت معظم هذه الأخشاب ، وصارت الكنيسة آيلة للسقوط .

وعقب أحداث زلزال عام ١٩٩٢ أكدت التقارير الهندسية أن الكنيسة المعلقة فى خطر نتيجة للزلزال والمياه الجوفية ولتركها للإهمال ، وأثبتت التقارير سقوط أجزاء كبيرة منها ، وحدوث هبوط بالأرضية .. نتيجة لترك الكنيسة بلا ترميم أو تدعيم ، ووجود شروخ عميقة فى «الامبل» وميل فى أعمدته وتحركها ، بالإضافة إلى شروخ أخرى بالهيكل الأوسط ، وهيكل يوحنا المعمدان ، والحائط المشترك للكنيسة مع المتحف القبطى ، بجانب تصدعات فى الصالة المكشوفة ، وسقف الكنيسة من الداخل والخارج ، وفى المنارة . والمياه الجوفية ارتفعت حوالى ثلاثة أمتار أسفل الكنيسة .

وقد توقع الجميع أن تزال هذه المشاكل من خلال الخبراء ..

●●●

المعروف أن المجلس الأعلى للآثار هو المسئول حسب القانون عن الحفاظ والصيانة والترميم والحماية لآثار مصر ومنها الكنيسة المعلقة ، وليس المسئول عنها كاهن الكنيسة . والتأنى فى الترميم مطلوب بعد أن خصص الرئيس مبارك ١٠٠ مليون جنيه للترميم . وكانت الكنيسة المعلقة المقصودة بهذا الترميم، وليس كما يشيعون هناك أى أموال اجنبية جرى التبرع بها لترميم الكنيسة المعلقة بالذات لكن بينما الترميم يدور .. كان يصفه الكاهن بأن مجرد تزويق فقط ، بل أنه من قبل هاجم المهندس رمزى ميخائيل والمهندس جوزيف زكى اللذين اتهمهما أنهما لم يرمما .. وإنما قاما بالتزويق فقط.

المسألة المهمة أن كاهن الكنيسة يقف ضد هيئة الآثار التى تطلب اغلاق الكنيسة أثناء الترميم وهو دائم الشكوى والاتهامات ، لأنهم لا يتبعون تعليماته وإنما يتبعون تعليمات المتخصصين وكاهن الكنيسة المعلقة لا يقتنع بآية الانجيل اعط ما لقيصر لقيصر .. وما لله لله وتعالى اتبعنى.

وأخيرا أعلن فاروق حسنى وزير الثقافة أنه تم تشكيل لجنة علمية من أساتذة الجامعات لمراجعة الاعمال التى قام بها المجلس الأعلى للآثار ، وسيتم العمل فور انتهاء أعمال هذه اللجنة .. ولكن بشروط ودون تدخلات فى عمل المتخصصين حتى لا تظل الكنيسة .. كما كانت على حافة الهاوية.

محمد حسنين هيكل



حول فكرة السياسي

بقلم: طارق البشري





مرة ثانية أحوم حول كتابات الأستاذ محمد حسنين هيكل ، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه - أى من أقترب من الأمر أوشك أن يقوم به .

فمن أكثر من عام عرضت فى مجلة «الهلال» كتاب العروش والجيوش ، فلم أكتب عن الكتاب بقدر ما كتبت عن مؤلفه «هيكل» . وغلبتنى نفسى فاقترحت أن يعد مؤتمر علمى يليق بدراسة أعمال «هيكل» لمناقشتها وتحليلها . والآن غلبتنى «الهلال» فطلبت منى الحديث عن الفكر السياسى لمحمد حسنين هيكل فيما خصصته من محور لأعماله .

وأنا لدىّ الحد الأدنى من امكانية التقدير ، التى أدرك بها استحالة تغطية جوانب الفكر السياسى لهيكل فى بضع صفحات ، وهو فكر يشيع فى عشرات الكتب وفى مئات المقالات كتبت كلها فى مدى يزيد على خمسين سنة . وكلها فكر سياسى ، وهو فكر متحرك ومتفاعل مع ظروف تاريخية متغيرة . فيلزم متابعته فى إطار سياقه التاريخى السياسى ، وتبين مراحله فى ملامحها العامة ، وأوضاع تعامله مع ظروف الزمان والمكان فما من فكر سياسى إلا وجبت دراسته فى إطار تعامله مع تلك الظروف .

ودراسة أى مجال فكرى ، وبخاصة مجال الفكر السياسى ، يقتضى دراسة المكونات الأولى للمفكر وتشكله الفكرى الأول وروافد ثقافته ورؤاه ، ثم تفاعله مع غيره من التيارات الفكرية التى شغلت الساحة فى عهده . ويشمل ذلك ما كان يصنعه القدماء عندما يقولون فى الأول «من شيوخه» الذى تلقى عنهم ، وفى الآخر «من تلاميذه»؟ الذين تلقوا عنه . ويرسمون بذلك شجرة الفكر جذورا وفروعا فى أى تخصص ، ويشمل ما اعتاده المحدثون الآن من ذكر معاركه الفكرية .

ثم إن هيكل لم يكن ابدا ممن يتعاملون مع المعارف الفكرية تلقيا وشرحا وتدريسا للطلبة. ولكنه كان يتعامل مع المواد التطبيقية ويمارس الفكر السياسى بنظرياته ومناهجه ، وهو بصدد التعامل مع هذه المادة بالتحليل واستخلاص النتائج . ولم يكن جمهوره طلبة علم فى جامعة، ولكنهم كانوا من جمهور القراء سواء المتخصصين منهم أو الساسة أو القراء العاديين للصحف السيارة . ولج إلى الفكر السياسى من باب الصحافة السياسية الباحثة عن الأحداث والمذيعة لأخبارها وتحاليلها، والصحافة لا تتابع الأحداث فقط ولكنها تشارك فى صنعها على نحو ما ، لأنها بالمتابعة اللحظية تتعامل مع أحداث غير تامة الصنع وتكون لا تزال فى مجال التشكل .

إن أى دارس مثلى عندما يقترب من رجل سياسة أو باحث سياسى ، يتعين عليه أن يميز بين الاثنين من حيث أدوات التحليل التى تستخدم مع أقوال كل منهما وأفعاله .ذلك أن رجل السياسة ينشىء أحداثا لم تكن موجودة ، ويصرف أحداثا عما كانت وقعت من أجل تحقيقه ، وقد يصوغ نهايات لأحداث تتنافى مع بداياتها، وقد يحول دون تحقق آثار لها كان من المقدر أن تحدث . بينما الباحث السياسى يحلل أحداثا دون أن يساهم فى إحداثها أو فى تشكل آثارها ، فهو يحلل ويستخلص العبر ، ومن هنا تختلف دلالات الالفاظ والعبارات والمواقف وتتغير مفاهيم المصطلحات . والصعوبة أن هيكل يقف بين الرجلين ، رجل السياسة والباحث السياسى ، ويقف بين الفكر السياسى كما نتبينه من كتب الدارسين وبين العمل السياسى كما نستخلصه من أعمال الساسة . وهذا يحتاج فى تحليله إلى مزيد يقظة وتنبه والى فضل مراجعة للقول فى اطارد الفعلى ، ونحن هنا أمام فعل قوال وأمام قول فعال .

وهيكل صحفى ، بمعنى أنه معنىٌ بالأحداث وبالإخبار عنها ، يكتشفها ويتحقق منها ويذيعها . والعلاقة بين الخبر والفكر لا يمكن فصلها وبخاصة فى مجال السياسة . ذلك أن الخبر هو ما يتحدث عنه ، هو عن حدث ، والحدث فعل وقع ،

والإخبار عن الحدث هو صياغة له على صورة من الصور وهو اظهار له بشكل من الاشكال، أى هو وصف لما حدث وتكييف له وهذا التوصيف للحدث يتضمن تصورا ويتحدد وفقا لفكر ما . فالحدث الخاص بخروج جماعة بالسلاح على آخرين ، يرد فى الخبر بأنه ثورة أو تمرد أو ارهاب أو عصيان ، هذا الوصف الذى صيغ به الحدث يتضمن فكرا سياسيا ويتضمن موقفا سياسيا . والفكر السياسى تنظير لحركة سياسية تتشكل من مجموع أحداث ترد فى صيرورة وتتابع .

فإذا كان الكاتب صحفياً محترفاً وجامع أخبار عن أحداث سياسية تشكل حركة ، فهو بالضرورة يعبر فى صياغته لذلك عن فكر سياسى ، لأن وصف الحدث لا يرد إلا من مفاهيم سياسية وقناعات وتصورات عامة . يضاف إلى ذلك بالمقابل ، أن ثمة أسلوبا فى الكتابة عن الفكر السياسى يعبر عن الأفكار العامة المجردة من خلال العرض المسلسل للأحداث ، فلا يصاغ الفكر مجردا ولكن يعرض من خلال صور تطبيقية ، ويقدم من خلال ربط الاحداث بروابط العلة والمعلول ، ومن كان صاحب أسلوب تطبيقى تجريبى فى التعبير عن أفكاره العامة ، ومن كان متأثرا بمناهج المدرسة الانجليزية فى التعبير العلمى فى مجال العلوم الانسانية ، من كان هذا ديدنه فهو عادة ما يصوغ أفكاره بتتابع الاحداث ، والاقناع بذلك أساس الافتراض النظرى



يرد مصحوبا بدليله التطبيقى .

من منتصف السبعينات ، عندما ترك «هيكل» ادارة العمل الصحفى ، والذى كان يجعل له ارتباطا وثيقا مباشرا بالسياسات الجارية ، ظهر العمق التاريخى بارزا فى كتاباته السياسية . أقول «العمق التاريخى» لأنه دائما وحتى الآن كاتب فى السياسة ، وهو دائما يخاطب الحاضر ، وإن كان يزود قارئه بمادة اخبارية عن جذور الماضى الممتدة فى أحداث الحاضر ، وساعد على ذلك أن كتابة الكتب رجحت كتابة المقالات ، مما زاد نصيب المعالجة التاريخية للموضوعات . وهنا تبدو لدارس فكره صعوبة أخرى ، تتعلق بالتقاط الفكر السياسى وتكثيفه من خلال المعالجات التاريخية .

***

كل هذه الصعوبات المنهجية ، تقتضى التأنى وإمعان النظر للتميز بين الفكر المستخلص وبين الاخبار والأحداث التى عرض فى سياقها ، وما يقتضيه ذلك من مقارنات ومن متابعات للموضوعات محل الاهتمام ، وتبين ما غَرُزَتْ فيه مادة الانتاج وما قلت وادراك الفروق بين المتشابهات ، ومعرفة التوافق بين

المتغيرات ، ولتبين ذلك يتعين إعادة المطالعة الكاملة ، فلا يكتفي بالأمثلة ولا يكتفي بالمخزون المعرفي المودع بالذاكرة ولا ما ترسب من انطباعات القراءات الأولى .

لذلك قلت أنني «أحوم» حول المادة المبحوثة وإن كنت أوشك أن أقع فيها .

وبنظرة سريعة إلى الملامح العامة ، يمكن القول بأن «هيكل» كان صحفيا سياسيا في الاساس حتى قامت ثورة ٢٣ يولية ، فلما ارتبط بها وتولى رئاسة تحرير صحفية الأهرام صار سياسيا حركيا يستخدم الصحافة في التعبير عن موقف ثورة ٢٣ يولية أو عن موقفه السياسي في هذا الاطار . ومع تركه صحيفة الأهرام في ١٩٧٤ صار مفكرا سياسيا في الاساس . وأن ايراد هذه الملامح العامة لا يقتضي فصلا صارما بين المراحل ، ولا يخل بالتداخل بين هذه المراحل .

وهيكل صاحب تعبير متبلور عن الحركة الوطنية المصرية في المرحلة المتميزة التي عاشتها هذه الحركة في الربع الثالث من القرن العشرين . وقد تميزت هذه المرحلة بأنها المرحلة التي تحقق فيها الجلاء العسكري الأجنبي عن مصر وتحرر الإرادة السياسية المصرية ، وأنها مرحلة الاشتباك مع «الاستعمار الاجنبي» ووجوده العسكري في معارك خارج حدود مصر عن طريق اشاعة رفض الأحلاف العسكرية واشاعة روح عدم الانحياز للقوى العالمية الكبرى . وأنها مرحلة تعميق الاستقلال الوطني أفقيا في اطار الجماعة العربية ، وتعميقه رأسيا في اطار التنمية الاقتصادية المستقلة ، وأنها مرحلة الصراع مع الوجود الاسرائيلي في فلسطين .

وهذه المرحلة تشابكت فيها أوضاع الحركة الوطنية بالسياسة الدولية والسياسة العربية . وهي في ظني أول مرحلة اجتهدت فيها «مصر» بوصفها جماعة سياسية متميزة ودولة مستقلة ، اجتهدت في أن ترسي ثوابت وأسسا لسياسة خارجية وسياسة دولية تعكس منظوراً مصرياً عربياً مستقلاً ، وتهدف إلى تحقيق صالح وطني يصاحبه ادراك لضوابط الأمن القومي ونظر استراتيجي للمصالح بعيدة المدى ، وفي هذه الفترة عينها بدأ الفكر الاجتماعي المصري يبلور نظرات حول الخصائص التي تميز الوضع المصري ودوائر انتمائه . وشغلت هذه القضايا أذهان المصريين وباحثيهم سواء في كلياتها أو في فروعها . وكان هيكل من أهم المساهمين في هذا المضمار ، لا بكتاباته فقط ، ولكن بادارته لوجوه من هذا النشاط .

ولهيكل قدرة على إدارة حوار فكري ايجابي أي حوار من هذا النوع من الحوارات التي تتغذى بعضها من بعض ولا تتنافى مع بعضها البعض . إن حسن ادارة الحوار هي ما عليه المعول في أن يكون ايجابياً ينتهي إلى نتائج تستوعب ايجابيات المتحاورين ، أو سلبيا يهدم

بعضه بعضا وينتهى حصاد هشيم وقبض ريح . فهو مفكر يدرك كفاءات الرجال ويدرك وجوه هذه الكفاءة وكيف تستخدم فيما تيسر لها ، وهو يدرك وجوه الاخصاب بين الافكار، أقول ذلك لأن هذه الصفة افتقدناها للأسف الشديد . على مدى العقدين الماضيين ، افتقدنا أن يوجد فى حياتنا الثقافية على قمة منبر ذى نفوذ وفاعلية من يستطيع أن يوجه الحوار القومى فى مجالات حياتنا الثقافية المختلفة ، يوجهه إلى ما تتلاقح به الافكار وتخصب، لا إلى ما تتقاتل فيه وتذوى ان افتقادنا لواحد لديه هذه الملكة وهذا العزم، كبدنا خسائر ضخمة فى الجهد الفكرى وبدد طاقات ثقافية كنا أحوج ما نكون إليها ، وأوقع شبابنا الآن فى لا أدرية عقيم.

***

وهيكل لا يمكن فصله عن ثورة ٢٣ يوليه ١٩٥٢ . له تاريخ فكرى سابق لها ولاحق عليها ، ولكنه فى الفترة من ١٩٥٢ حتى ١٩٧٠ ، امتزج بها لا ينفك عن تيارها العام . وقد يلقى عليه ذلك عبئا جسيما من اشتراكه فى حمل ما يوجه إلى نظام الثورة وممارستها من ايجابيات وسلبيات . ولكن الحصيلة النهائية فى ظنى بالنسبة للثورة وبالنسبة له سترجح الايجابيات فيها السلبيات . أقول ذلك لأننى من هذا الفريق من الناس الذى يجعل المعيار الأول فى الحكم على السياسات المتبعة والنظم القائمة على



مدى القرنين الاخيرين ، المقياس الأول هو مدى جدية المواجهة للمخاطر الخارجية ومدى الكفاءة فى هذه المواجهة ، وهذا ما يعبر عنه بعدد من العناصر منها الاستقلال الوطنى ، مراعاة اعتبارات الأمن القومى ، تحرير الارادة السياسية للجماعة الوطنية ، اتباع خطط التنمية الاجتماعية المستقلة ، وإن كل الأحداث الأخرى إنما تتحقق فى ظنى من خلال هذا الهدف الأول وهى مشمولة به ومحكومة ومشروطة به . وقد أكد هيكل هذا الارتباط فى كتبه التى أصدرها بعد انتهاء المرحلة الناصرية وابتعاده عن الممارسة السياسية المباشرة من خلال الدولة منذ منتصف السبعينيات .

أقول باستحالة الفصل بين الفكر السياسى لهيكل وبين فكر ثورة ٢٣ يوليه مع علمى بالفروق الكثيرة والمهمة التى تميز بين قيادة ثورة ورئاسة نظام سياسى وصدور قرارات ، وبين صاحب رأى ونظر . صلة عبد الناصر مثلا بالثورة ونظامها هو صلة اندماج . كما يعبر رجال القانون بعبارة «اندماج الحق فى الصك» . وليست هكذا صلة هيكل بها ، الأول يركب الدبابة ويطلق القذائف والثانى يركب السيارة

المصاحبة فى أرض المعركة ويتابع تحت خط النار ، وهو كما يقول الماوردى: «يؤدى للسلطان ويؤدى عن السلطان ويشارك بالرأى»، يؤدى له بالخبرة والمعلومة ويؤدى عنه بالتوجه ويشارك بالرأى فى وزن المواقف .

وهيكل ذو مرجعية فى التعبير عن ثورة ٢٣ يوليه ، لا يكاد يماثله فى ذلك اكثر من عايش الثورة وعبر عنها حال نشاطها ودافع عنها حال فواتها بعد منتصف السبعينات . لكننى لاحظت بالنظرة العجلى أنه فى دفاعه عن ثورة ٢٣ يوليه وعهدها وفى تأريخه لها وذكر وقائعها ، فى ذلك كله قد أولى موضوع «الاشتراكية» أقل اهتماماته النسبية، رغم تعرضه للقطاع العام وضرورته ومدى النفع منه فى قضايا الأمن القومى والتنمية . وأنه كذلك أولى أقل اهتماماته النسبية موضوع التنظيم السياسى والادارة السياسية لأجهزة الحكم وما شاكل ذلك وكان أهم ما احتشد له فى ربع القرن الأخير واستوعب جل كتاباته ، ثلاثة جوانب ، قضايا السياسة الخارجية والصراع حول تحرير الارادة السياسية فى مواجهة ضغوط الخارج ومساعى الهيمنة من الدول الكبرى ، وكذلك قضايا الصراع العربى الاسرائيلى الذى شغل حياتنا السياسية كلها فى نصف القرن الأخير ، وقضايا العلاقات العربية العربية

وقد لاحظت عندما كنت أجمع مادة كتاب لى عن «الديمقراطية ونظام ٢٣ يوليه» الذى نشرته طبعته الأولى فى ١٩٨٧ ، وهو دراسه خصصتها لموضوع الأبنية التنظيمية للثورة ، لاحظت أننى لم أجد لهيكل فى هذا الشأن كتابات تعكس وجهة نظره وتؤثر فيما كنت بصدد بحثه .. لذلك قد يلحظ من يقرأ لى هذا الكتاب ، أننى لم أثبت «هيكل» فى أى من هوامش المراجع . احترمت سكوتا وجدته مقصودا وهو من حقه ، وأن حرية الصمت المقصودة هى جزء من حرية الكلمة من باب أولى . وبدا لى من تجربته ونوع نشاطه أنه يشارك فى السياسات والتوجهات وليس فى التشكيلات والتنظيمات، وهى لا تعنى الرفض ولا الموافقة، فلا ينسب إلى ساكت قول وأن مساهماته ترد فى المضامين السياسية وليس فى الهياكل السياسية وبدت لى فيه فردية المثقف وامتناعه عن الانضواء التنظيمى ، ولم اقتنع بحجية أقوال له ترد عفوا فى هذا المجال .

وأن هذا الذى عبر بشروحه السياسية والتاريخية عن جوهر ما يعرف الآن بالناصرية ، لاقى هجوما وإزورارا من فئتين أولاهما كثير من الماركسيين الذين اعتبروه من معوقات تحول النظام الناصرى إلى الاشتراكية الماركسية ، وثانيتهما بعض ذوى النفوذ السياسى من رجال دولة عبد الناصر وتنظيماته السياسية ، وفى بعضهم رشحات من الفكر الماركسى تسربت إليهم فى الستينات ، وهؤلاء لم يكونوا على وفاق

سياسى معه وخاض بعضهم معارك سياسية ضده اتسمت أحيانا بالحدة ، وخمدت هذه الحدة كثيراً من منتصف السبعينات بعد عدول الدولة عن الناصرية ووقوف هيكل مدافعا ذكيا عن الناصرية، وأن بقى البعض مستصحبا مواقف الخصام السابقة .

***

بمراعاة الملاحظات السابق ذكرها جميعا ، لا يصلح فى تبين الفكر إلا أن تجرى المتابعة التطبيقية ، وهنا لا يصح البدء إلا بالبداية ، ثم يلتزم بقدر الإمكان بالترتيب الزمنى . وفى هذا الصددأكتفى الآن بمطالعة كتاب للمؤلف هو من البواكير الأولى له فى التأليف ، وقد أعده بوصفه عملا صحفيا تابع به ذروة من ذرى الازمات السياسية التى استفتح بها النصف الثانى من القرن العشرين. وكان ذلك عن بلد مثيل لمصر من النواحى التاريخية والسياسية والجغرافية والثقافية، وكانت أزماته مواكبة لأزماتها وإن سبق مصر بقليل وغاير هذا السبق من سياق الاحداث ، وكان سبقه من أسباب تعثره ، ثم سبقته مصر وكان سبقها من اسباب تعثرها من بعد ، وتلك الأيام تتداول بين الناس.

هذا البلد هو ايران فى بدايات ١٩٥١ ، عندما ثار شعبه وأمم البترول وآلت أحداثه إلى ثورة عارمة ثم اخفقت وعاد الامبراطور وعاد الانجليز ومعهم الامريكيون وسيطروا على ايران وعلى بتروله وأدخلوه حلف بغداد . وفى بدايات



١٩٥١ كانت مصر لا تزال تفور مراجلها ضد الاحتلال العسكرى متمثلا فى الانجليز وألغت معاهدة ١٩٣٦ فى نهايات ١٩٥١ فلما انتكست الاوضاع الشعبية بحريق القاهرة فى يناير ١٩٥٢ ، قامت ثورة ٢٣ يولية ١٩٥٢ ، ثم خرج الانجليز من مصر وعندما كانت ايران بعد نكسة الثورة تدخل فى حلف بغداد ، كانت مصر تقود حركة الصراع العربى والشرق أوسطى ضد الاحلاف فى ١٩٥٥ و ١٩٥٦ ، وأممت قناة السويس فى يوليه ١٩٥٦ بحركة شبيهة لتأميم بترول ايران فى ١٩٥١ ولكنها صارت حركة ناجحة لأن فوات خمس سنوات فى فترات التحول التاريخية كان قد قلب موازين القوى العالمية . ثم مضت عشرون سنه أو يزيد تهيأت فيها ايران لثورة جديدة ناجحة قامت فى ١٩٧٩ . وهى ذات السنة التى انتكست فيها حركة التحرير المصرية والعربية بتوقيع معاهدة الصلح مع اسرائيل.

ومن هنا تبدو أهمية كتاب «ايران فوق بركان» الذى نشر فى سلسلة كتاب أخبار اليوم العدد الثالث فى مايو ١٩٥١ لمحمد حسنين هيكل ، وهو أول كتاب قرأته للمؤلف ولا يزال عندى فى طبعته الأولى



الشعبية بغلافه الورقى الاحمر الرقيق ، وعليه رسم الاسد الفارسى حاملا سيفا ورافعا ذيله ، وخلفه لهب رمادى وشمس تشرق ويصف المؤلف فى كتابه رحلة شهر عاشه فى إيران فى مارس ١٩٥١ بعد مقتل رئيس الوزراء .

فى مايو ١٩٥١ لم تكن قصة تأميم البترول فى إيران قد تمت فصولها، كانت الازمة فى أوج تصاعدها . والكتاب يصف الاوضاع هناك فى ثمانية فصول قصيرة ، عرض للإنجليز وسيطرتهم على إيران وعلى بترولها ، وعرض للأمريكيين وخوفهم من سيطرة الاتحاد السوفييتى على إيران منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية . وأشار إلى نوايا الامريكيين فى الحلول محل الانجليز أو مشاركتهم ، وترددهم لعدم فهمهم لأوضاع منطقة جديدة عليهم . وعرض لروسيا وطمعها فى ايران أرضاً وبترولاً ، وسيطرتها على اذربيجان فى شمال ايران عن طريق حركة شيوعية قامت هناك ، ثم تخليهم عن هذه الحركة طمعا فى البترول الايرانى . وعرض للملك (الامبراطور) وأزمة حكمه ومقتل رئيس وزرائه وخروج الحركة السياسية الثورية عليه .

وعرض الكتاب للقوى الشعبية العاملة وقتها ، للمؤسسة الدينية وعلى رأسها آية الله كاشانى وتحديه سلطة الملك وقيادته الثورة لاخراج الانجليز من ايران سواء بتأميم البترول أو بغيره ، وجماعة فدائيان اسلام والتى مارست العنف وعمليات الاغتيال السياسى وقتلت رئيس الوزراء وتحميها القوى الثورية جهارا ، ثم للكتلة الوطنية وزعيمها محمد مصدق وتحالفها مع القوى الدينية مؤسسيا وشعبيا ، وتولى مصدق رئاسه الوزارة من بعد . ثم عرض لحزب توده الشيوعى ، واستغلاله أوضاع الثورة لتنمية شعبيته ، وخطورة أن ينمو الحزب سريعا ويقترب من السلطة فى لحظة يستدعى فيها النفوذ الشيوعى من الاتحاد السوفييتى المتأخم لايران على امتداد الحدود الشمالية .

الكتاب سريع فى عرضه الصحافى الشيق ، ويعبر بالخبر عن الفكرة وعن الموقف ، وينتقل بسرعة من لقطة سياسية إلى لقطة أخرى . وفيه من أسلوب المؤلف الذى تبلور بعد ذلك بخصائص محددة، تظهر بداياتها فى هذا الكتاب ومنها المزج بين عرض الفكرة وبين التصوير المشوق واشعار القارىء «بالمكان» الذى يجرى فيه اللقاء وتبادل الحديث . وعرض كلا من القوى النشيطة بقدر الامكان حسبما عبر ممثلوها عن أنفسهم للمؤلف وذلك فى اطار من أمكن له الالتقاء بهم .

لم أشعر فى قراءتى الاخيرة للكتاب ، أن المؤلف كان متعاطفا وقتها مع التيار الدينى ممثلا فى آية الله كاشانى أو أنه كان مقتنعا به ، وشعرت أنه يستشعر الخطر الشديد من نمو رآه نموا انتهازياً غير مبرر لحزب توده الشيوعى وفهمت ذلك

، فإن نمو الشيوعية فى إيران بحدودها المتأخمة للاتحاد السوفييتى على مئات الأميال ، وبما جبل عليه الاتحاد السوفيتى وروسيا القيصرية من قبله من حرص على ابتلاع دول الجنوب وشعوبها وصولا بالدب الروسى إلى البحار الدافئة وإلى وسط آسيا وجنوبها ، كل ذلك لابد أن يكون داعيا للقلق من هيمنة الدولة الكبرى على البلد الذى يريد أن يستقل وأن تتحرر ارادته السياسية من سيطرة القوى العالمية العظمى . وكان هذا ما أقلق المؤسسة السياسية الاسلامية التى كانت تقود الثورة مع رديفها الكتلة الوطنية برئاسة محمد مصدق وما أقلق هذه الكتلة ذاتها وما تشعر أن المؤلف كان يستجيب له ويتفهمه من بواعث هذا القلق.

أما الكتلة الوطنية فلا يشعر القارىء أن الكتاب يوليها اهتماما كبيرا ، ولعل ذلك يرجع إلى تقديره بأنها كانت أضعف من أن تقف باستقلال بين التيار الدينى الذى لا يتحمس له والتيار الشيوعى الذى يشعر بالخطر منه .

فى عام ١٩٥١ ، ومع الاستقطاب الدولى الحاد ، ومع بداية ظهور الأحلاف العسكرية بعد أن انقسمت القوى العظمى إلى كتلتين دوليتين تتصارعان على الدول الصغرى ، وبخاصة الدول حديثة العهد بالاستقلال . وفى ظروف لم تكن حركات التحرر الوطنى قد تنادت لتتماسك ولتشكل مجموعة دولية قادرة على الامتناع عن الانحياز لأى من الكتلتين الدوليتين فى هذه الظروف كانت الحركات الوطنية فى لحظات حيرة واضطراب وقلق حول الامكانات الدولية التى يمكن أن تتوفر لحماية الاستقلال الوليد .

ولم تمض أربع سنوات على أحداث ايران التى سجلها الكتاب ، حتى ظهرت حركة باندونج فى ١٩٥٥ واستطاعت مجموعة الدول الأفرر اسيوية أن تشكل قوة تماسك دولى تعصمها من نفوذ الكتلتين العالميتين .

ورغم فروق الموقع بين ايران ومصر ، وهى الفروق الجغرافية التى تجعل ايران أشد خوفا من مصر من خطر الشيوعية واستيعاب الاتحاد السوفييتى لها ، ورغم الفروق التاريخية التى تجعل لايران نوعا من الحذر التقليدى من الوجود الروسى فى شمالها وهو الوجود الذى اقتطع مع التاريخ أجزاء من امتداداتها السياسية وكان دائما مهددا لها ولترابها ومجتزئا من أراضيها ، مما لم تجربه مصر . ورغم أن الحركة الاسلامية فى ايران كانت دائما ولا تزال مستوعبة للحركة الوطنية ، بما يغاير الوضع فى مصر التى عرفت منذ العشرينات تميزا لحركتين وطنيتين إحداهما تصدر عن المرجعية الاسلامية والأخرى قومية وضعية تعترف بالإسلام دينا دون أن يكون أساسا لمرجعية سياسية اجتماعية . رغم كل هذه الفروق التى أتصورها قائمة فإن كتاب «ايران فوق بركان» يمثل خبرة سياسية مهمة للسياسات المصرية بعد ٢٣ يولية ولتطور الرؤى الخاصة بالسياسات الدولية للدول المستقلة وستظل كتابات هيكل مما تسهر فيه العيون ، ويحتاج إلى مزيد من الدراسات المتأنية.



عبدالناصر فى الفالوجا

السكون الذي ترقد تحته عاصفة

أول مقال كتبه هيكل عن عبد الناصر

بقلم : عادل حمودة

قبل أن يتحرك «الضباط الأحرار» للانقضاض على النظام الملكي في ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ كانوا قد اتفقوا فيما بينهم على أن يبقوا جميعا في الخفاء .. وراء الستار .. وعلى أن يترفعوا عن المظاهر الدعائية فلا يعرف الناس أسماءهم ولا أدوارهم .. ولا تنشر الصحف أخبارهم ولا صورهم .. قرروا برومانسية «ثورية» - كانت تناسب أعمارهم وأحلامهم وأفكارهم وتصوراتهم - أن يبقوا في الظل والخفاء، على أن ينفرد اللواء «محمد نجيب» - الذي ظهر على الناس بوجه الأب الطيب - بكل الضوء والشهرة.

لكن بعض الصحفيين الذين قفزوا إلى مقر قيادة الجيش بعد نجاح «الحركة» - وأولهم محمد حسنين هيكل - كان يعرف أن اللواء «محمد نجيب» ليس سوى «فاترينة» أو «واجهة» وأن الرجل القوي والمؤثر والمحرك للأحداث هو «جمال عبد الناصر».

ولا جدال أن مثل هذا «السر» قد أسال الصحفيين - خاصة اللامعين منهم - بالتململ والأرق وسيطرت عليهم ضغوط المهنة في كشف الأسرار ومتكيا .. في حدا يستعدون بكل الطرق التي يطرقونها لكشف ما عرفوه .. ولم يكن من الصعب عليهم أن ينجحوا في ذلك .. في أقل من ثلاثة شهور.

في صباح يوم ١٤ أكتوبر عام ١٩٥٢ نشر «مصطفى أمين» على الصفحة الأولى والصفحة الثالثة مقالا في صحيفة «الأخبار» لم يوقعه بعنوان «سر الصفحة» وقد ألمح فيه إلى أن «جمال عبد الناصر» هو القائد الفعلي للثورة وإن الذين ساعدوه هم ضباط مجلس القيادة «جمال سالم» وأنور السادات وعبد الحكيم عامر، وعبد اللطيف البغدادي، وحسن إبراهيم وصلاح سالم، وكمال الدين حسين، وخالد محيي الدين، ونشر «مصطفى أمين» صورة فوتوغرافية كبيرة لـ«جمال عبد الناصر» في الصفحة الأولى - ونشر صور الضباط الآخرين بحجم أصغر في الصفحة الثالثة .. ولم ينشر صورة «محمد نجيب» .. ولم يشر إليه .. ولم يشر إلى باقي الضباط الأحرار الذين قاموا بالثورة وهو ما أغضبهم .. وقد تحول غضبهم إلى استياء .. وتحول الاستياء إلى صراع بينهم وبين مجلس القيادة .. ومثلما بدأ التمرد بين ضباط المدفعية .. ثم انتقل إلى ضباط الفرسان .. ولم ينته الصراع إلا بالقبض على ضباط المدفعية والفرسان المتمردين ومحاكمتهم .. وكاد بعضهم يعدم .. وهو ما جعل البعض يؤكد أن الثورة انتحرت في تلك الأيام عندما تحولت إلى دولة تحاكم وتحاسب وتعاقب أقرب الناس إليها.

وقد قال لي «مصطفى أمين» - فيما بعد - إنه كتب المقال بإيحاء من «جمال عبد الناصر» ولا يملك دليلا على ذلك .. لكن المؤكد أن «مصطفى أمين» أفرط في الدعاية المبكرة لجمال عبد الناصر .. وقال عنه «إنه يتحدث بأعصاب مصرية صارمة

وبوجه جامد».. و«شعره الأشيب يروى قصة كفاح سرى عجيب لم يتصوره أحد ولم يعلم به أحد» .

المرحلة الرومانسية

وفى الحقيقة لم يكن «مصطفى أمين» أول من كتب عن «جمال عبد الناصر» وضباط القيادة لقد سبقه الى ذلك محمد حسنين هيكل بأكثر من ٤٧ يوما ففى عدد «آخر ساعة» رقم «٩٣١» بتاريخ ٢٧ أغسطس ١٩٥٢ وعلى صفحتين كاملتين كتب «هيكل» تحقيقا موسعا بعنوان «من هم ضباط قيادة محمد نجيب؟ الستار الحديدى الذى وضعوه حول أنفسهم».. وقد حظى «جمال عبد الناصر» بالقطع بنصيب الأسد .. وكان ذلك هو أول ما كتبه عنه .. وإن لم يذكر «هيكل» اسمه صراحة .. فقد كان الضباط الأحرار مازالوا فى المرحلة الرومانسية التى كان نشر اسمائهم فيها جريمة .. وهى المرحلة التى كانوا يشبهون فيها أنفسهم «بظواهر الطبيعة الخارقة الغامضة .. فهى موجودة .. تفعل فعلها .. وتؤدى عملها .. وتؤثر فيما حولها .. ولكن لا أحد يعلم على وجه التحديد من أين جاءت ولا أين تروح».

كان عنوان أول مقال كتبه «هيكل» عن جمال عبد الناصر : «السكون الذى ترقد تحته عاصفة» أما المقال نفسه فهو وثيقة مهمة فى تاريخ «هيكل» فلسنا فى حاجة للقول بأهمية علاقته بجمال عبد الناصر .. وهذه الأهمية هى التى تفرض علينا قراءة هذا المقال من أوله إلى آخره .. كما أن هذا المقال يحدد بدقة متى بدأت علاقة هيكل بجمال عبد الناصر .. وبالحرف يقول هيكل فى المقال:

«سمعت عنه قبل أن ألقاه .. كانوا يتحدثون عنه فى الفالوجا المحصورة كما يتحدثون عن الخرافات والجن العمالقة .. كان جريئا إلى أبعد حدود الجرأة وفى الوقت نفسه كان هادئا إلى أبعد حدود الهدوء .. وكان هذا المزيج من الجرأة والهدوء شيئا عجيبا مثيرا .. وكان كل زملائه يحبونه .. واشتهر بينهم باسم تدليل «كان يقصد تدليل جمال عبد الناصر باسم جيمى» يطلقونه عليه وينطقونه بأنفة وإعزاز حينما يتكلمون عنه وهم جالسون فى الخنادق فى خط النار.

وكان كثيرون فى الفالوجا يحبون الاستماع إليه فقد كان يتكلم لغة جديدة ويثير فيمن حوله مشاعر جديدة قوية .. وعندما كانت المعارك تهدأ يهرع إليه نفر من الضباط حيث يكون ثم تدور أحاديث تتجه كلها إلى الوطن البعيد حيث يفصل بينه وبينهم عدو يحاصر مواقعهم من كل ناحية وكان تخليص وطنهم أهم عندهم من تخليص أنفسهم من الحصار الذى كانوا فيه .

أنا من الإخوان المسلمين

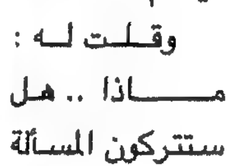
وعاد من الفالوجا هادئا ساكنا وفى نفس الوقت هائجا ثائرا .. وكتب البوليس السياسى عنه تقارير وصفته بأنه من الإخوان المسلمين واستدعاه رئيس الوزراء القائم بالحكم وقتئذ لمقابلته وسأله: هل

أنت من الإخوان ؟ وكانت تهمة الالتصاق بالإخوان المسلمين فى ذلك الوقت تهمة مخيفة وكانت مفاجأة لرئيس الوزراء حين قال الضابط: نعم أنا منهم .. ودهش رئيس الوزراء وصمت لحظة ثم قال : لقد أعجبتنى شجاعتك ولست أطلب منك تعهدا لى بألا تشترك فى أعمال عنيفة .

وحين خرج بعد انتهاء اللقاء وعرف بعض زملائه ماحدث أقبلوا عليه يسألونه: ولكنك لست منتميا الى جماعة الإخوان المسلمين فلماذا قلت إنك منهم؟ وقال بهدوء: لقد كان سيتصور أنى أتهرب وأجبن إذ قلت إنى لست منهم .

والذين اتصلوا بعمله يقولون إنه جندى محترف .. الجندية فى دمه وفى أعصابه وفى عقله .. ويستشهدون على ذلك بفترة قضاها فى كلية أركان الحرب وكان العقل المدبر للكلية .. ومن خريجى هذه الكلية جاء معظم ضباط حركة القوات المسلحة ..

ثم التقيت به لأول مرة .. وكان اللقاء فى بيت اللواء محمد نجيب قبل أربعة أيام من حركة القوات المسلحة .. وكان يبدو أبعد بكثير مما سمعت عنه .. كان يرتدى قميصا أبيض وبنطلونا رمادى اللون .. وبدا وكأنه شاب عادى لولا الشيب الكثير الذى ملأ شعر رأسه .. وكنت قبل أن يدخل هو إلى بيت اللواء محمد نجيب جالسا مع اللواء نتحدث عن موضوع الساعة فى ذلك الوقت وهو حل مجلس إدارة نادى الضباط .. وحين دخل هو واصلنا الحديث فى نفس الموضوع وكان



هو ساكتا لايتكلم.

وقلت له : ماذا .. هل ستتركون المسألة هذه المرة تمضى؟ وقال فى هدوء: ماذا نفعل؟ قلت : افعلوا أى شىء .. ولكن لايمكن أن تمضى المسألة هكذا .. وقال ببساطة: أهذا رأيك؟.. قلت فى عصبية : وهل لك أنت رأى آخر؟

ثم التقيت به للمرة الثانية فى الساعة الرابعة من فجر ٢٣ يوليو.. كانت الحركة قد فرغت منذ أقل من دقائق .. وكانت رئاسة الجيش تعيش فى جو غريب .. حركات القوات حولها من كل ناحية .. والدبابات والسيارات المدرعة ومدافع الميدان والمدافع الرشاشة .. واقترب منى فى صوت رقيق متزن يقول : ما رأيك .. هل يكفى هذا؟

ثم رأيته كثيرا بعد ذلك .. رأيته يلزم مكتبه سبعة أيام متواصلة .. وإذا غادره فإلى المكتب المجاور .. حيث يشهد مؤتمرا .. ورأيته فى كل الموضوعات يقترح حلولا لكل المشاكل . وبعضها بعيد عن العسكرية بعد السماء عن الأرض .. ورأيته يجلس على ركائز القوة دون أن يحس بها فإن رأسه لم يدر ولم يركبه الغرور .. لقد كان فى هذا كله كما وصفوه أيام الفالوجا مزيجا من الجرأة المتناهية والهدوء الوديع»

انتهى المقال .. وانتهى مقالى عن المقال.

محمد حسنين هيكل :

صداقة حميمة ..

رغم تباين المواقع

بقلم : محمد سيد أحمد

أذكر أول لقاء لى مع محمد حسنين هيكل .. ربما لا يتذكره هو .. كان ذلك في أحد شرفات دار النيابة بباب الخلق عام ١٩٥٧ .. كان هو ومعه جمال العطيفى ، وكنت أنا ومعى نبيل الهلالى .. كنت قد صاحبت «نبيل» إلى النيابة لمشكلة متعلقة بنشر أحد كتب «دار الديمقراطية الجديدة» .. وهى دار نشر كنت مديرها ومالكها وقتذاك .. ولم أكن أعرف هيكل شخصيا .. ولكن كان يعرفه نبيل بحكم علاقة هيكل بوالده ، نجيب

باشا الهلالي ، رئيس وزراء مصر في مناسبتين قبل الثورة .. وكان يعرفنا جمال العطيفي .. لا بصفته كمحام ، وإنما بوصفه كان وكيل النيابة في أول قضية حكم علىّ فيها بالسجن لمدة عامين عام ١٩٥٠ .
وقد تصافحنا ، وتبادلنا كلمتين ، وافترقنا ..

وكانت المناسبة الثانية لقاءً في مكتب هيكل بمبنى «الأهرام» القديم عام ١٩٦٤ . لقد حرص هيكل على أن يتعرف بي وببعض زملائي وقتذاك بعد خروجنا من السجن . وأقصد بالسجن هنا السنوات الخمس ونصف السنة التي قضيناها بسجن الواحات ، ابتداء من أول يناير ١٩٥٩ ، وحتى قدوم خروشوف إلى مصر ليفتتح مع عبد الناصر السد العالي .

بمجرد دخولي مكتب هيكل بمبنى «الأهرام» فاجأني بقراءة فقرات المقال الذي أرسلته إلى «الأهرام الاقتصادي» وهو مقال جيد - ولكن قررت أن نرفعه من المجلة بعد الطبع ولا ننشره !! وربما بدت الدهشة على وجهي ، ثم أضاف : «ثمة صحف ودوريات بوسعك النشر فيها ولكن ليس لك أن تنشر في «الأهرام الاقتصادي» وهذه عبارة لم أفهمها وقتذاك .. ولكن تعددت المناسبات لفهمها فيما بعد . لقد كانت هناك مجلات ودوريات لليسار ، ومجلات ودوريات لليمين ، ولم يكن مقبولا خلط الأوراق !.

وكنت قبل ذلك قد خصصت الأشهر التي تلت خروجي من المعتقل ، عام ١٩٦٤ ، لأركز جهدي كله على دراسة .. وكان هذا متاحا لي وقتذاك .. ذلك أن الإفراج عنا كان بادىء الأمر «إفراجا صحياً» فقط . ومن شروط «الإفراج الصحي» الوجود في مكان الإقامة ابتداء من غروب الشمس .. فرحت أستثمر هذه «الإقامة الجبرية» كي أنصرف إلى هذه الدراسة .

معاملة شديدة القسوة

والحقيقة أن الدراسة كانت تعبيراً عما ساورني من مشاعر ومشاغل حول معنى خروجنا المفاجىء من السجن ، قبل انقضاء مدة العقوبة بالكامل . وبعد أن ظللنا طوال سنوات نعامل في السجن معاملة شديدة القسوة ، بلغت في ظروف كثيرة حد التعذيب البدني المنتظم ، وحد قتل بعض زملائنا . لماذا هذا التحول؟ وكما هو حال أي مهموم يريد أن يتوصل لسبب ما ، أسقطت فكرا قديما يضفي «التآمر» على الواقع «الموضوعي» كما تصورته وقتذاك .

لقد عرفت «الواقع الموضوعي» ، وقتذاك ، على أن العالم بصدد أن ينتقل من

مرحلة حاصرت فيه الرأسمالية الاشتراكية ، إلى مرحلة أصبحت تظهر البوادر الأولى لمحاصرة الاشتراكية للرأسمالية .. فحركات التحرر الوطنى قد تعاظم شأنها فى العالم الثالث .. وأصبح هذا الأخير يتحول من رقعة من العالم تتبع الاستعمار العالمى وتشكل «قوة احتياطية» للرأسمالية العالمية إلى أرض محررة مترامية الأطراف بسبيلها أن تشكل «قوة احتياطيةً» للاشتراكية العالمية .. وبهذا المعنى ، فكان على القوى الاشتراكية أن تسند القوى التحررية فى بلدان العالم الثالث ، والعكس بالعكس .. وكان هذا، على حد استنتاجى ، تفسير خروجنا المفاجىء من السجن ، رغم كل العقبات التى اعترضت هذا التوجه.

وكانت الدولة، وقتذاك، تبحث عن مستند تستطيع الاستعانة به لتبرير قرارها بالإفراج عن الشيوعيين، فى نفس الوقت الذى كانت تستقبل فيه خروشوف ، زعيم الشيوعية العالمية.. هل كان هناك فعلا مايدعو إلى مصالحة بين الشيوعيين المحليين وبين عبد الناصر؟.. وهل قرار الشيوعيين بـ «حل الحزب» ، وهو قرار اتخذ بعد أشهر من الإفراج ، كان تعبيراً صادقاً عن توجه الشيوعيين فى اتجاه مساندة عبد الناصر ، أم مجرد مناورة تخرجهم من مأزق السجن الأبدى؟..

وقد جاء ت الدراسة التى كتبتها لترد - دون أن أقصد - على هذا السؤال .. وهكذا أصبحت من الشيوعيين الجديرين بأن تلتفت إليهم الدولة !.. كان هيكل قد طرح السؤال على شخصيات يسارية بارزة ومنهم د. إبراهيم سعد الدين .. وكان ابراهيم سعد الدين قد قرأ الدراسة ، فاتصل بى فوراً وطلب منى نسخة ليقدمها لهيكل .. فى الوقت نفسه، كانت نسخة أخرى قد وصلت إلى كمال رفعت ، أمين الدعوة بالاتحاد الاشتراكى ، وكان هو قد استند إليها ليطالبنى بكتابة مقالات لمجلة «الكاتب» .. وهكذا جاء تنى دعوة من لطفى الخولى لكتابة مقال لمجلة «الطليعة» ، نشر فى عددها الثالث .. وقد حرصت على أن أكتب عن موضوع بعيد .. كتبت عن حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ ، محاولا تفسير لماذا أعادت بريطانيا العظمى ، الدولة الاستعمارية ، الوفد إلى الحكم ،وحاصرت قصر عابدين بالدبابات لإجبار الملك على الرضوخ..

وكان مقالى هذا ، على مايبدو ، قد عجب هيكل .. وعرض علىّ أن التحق بالأهرام فوراً .. ولكن كان خالد محيى الدين قد عينه عبد الناصر وقتذاك رئيساً لمجلس إدارة «أخبار اليوم» .. وكانت تعليمات عبد الناصر له ألا يستعين بيساريين إلا فى حدود ضيقة فاغتنم فرصة عرض هيكل لى، وقال لى إن لطفى الخولى موجود بـ «الأهرام» ويتولى فيه مسئولية صفحة الرأى .. واقترح خالد أن أتولى المسئولية

ذاتها فى «الأخبار» .. مضيفا أن تعيينى فى «الأخبار» سوف يكون مناسبة لضم عدد من الزملاء معى إلى الصحيفة ، بينما ليس هذا متاحاً فى «الأهرام»، حيث سوف أعين وحدى .. فقررت تلبية دعوة خالد ..

واعتقد أن هيكل دهش لتصرفى هذا .. ذلك أنه لم يكن متصوراً فى ذلك الوقت رفض مثل هذا العرض من جانبه .. ومرت السنوات وأنا أجمع بين إسهاماتى فى «الطليعة» وعملى فى «الأخبار» ، مسئولا عن مقالات صفحة الرأى التى كانت تنشر فى الركن الأيسر من الصفحة الثالثة ..

هيكل فى الأخبار

وفى يوم فوجئنا باستقالة خالد محيى الدين من رئاسة مجلس إدارة «أخبار اليوم» وجاء هيكل ليتولى مؤقتا رئاسة مجلس إدارة مؤسسة «الأخبار» بجانب رئاسته لمجلس إدارة «الأهرام» .. وحرص هيكل على أن يترك إدارة الأخبار اليومية للعاملين الأصليين فى المؤسسة .. وظللت أعمل فى «الأخبار» فى ظل رئاسة هيكل للصحيفتين معا ، حتى تقرر فى يوم ما تعيين محمود أمين العالم لرئاسة مجلس إدارة «أخبار اليوم» .. وقتئذ أصر هيكل على أن ألبى دعوته للالتحاق بالأهرام ، ولبيت الدعوة.

وأذكر أن هيكل قد قال لى ذات يوم وهو يستبقينى فى «الأخبار» بعد أن أبعد كثيرين ممن ألحقوا بالصحيفة فى ظل رئاسة خالد ، أن كل مايطلبه منى هو ألا أكون منضما إلى تنظيم سرى .. وهنا لم أجب إجابة كاملة .. ذلك أن الحزب الشيوعى كان قد حل نفسه ، ولم أعد بالتالى منضما إليه .. ولكن ألحقت فى «الأخبار» بتنظيم سرى آخر هو «التنظيم الطليعى» الذى أنشأه عبد الناصر فى قلب الاتحاد الاشتراكى ..وكانت التعليمات الصادرة إلىّ ألا أفاتح أحدا فى شأن هذا التنظيم .. وكنت فى ذلك الوقت مازلت متشبعا بعقلية الانضباط الشيوعى الصارم .. وعذبنى ألا أفاتح هيكل فى موضوع أصبح يخصه بعد انضمامى إلى «الأهرام» .. غير أن التعليمات قد صدرت إلىّ من موقع «أعلى» من هيكل .. وتحديداً من مكتب سامى شرف .. وكنت أعلم أن هناك خلافات فى الدوائر المحيطة بعبد الناصر ،القريبة اليه .. ولكن كان هيكل دون سواه من هؤلاء، القريب إلىّ..

وأذكر أن نهج بناء «التنظيم الطليعى» قد أرشدنى إلى شعار ابتدعته وقتذاك ، ولكن غيرى ومنهم هيكل قد كتبوا عنه قبل أن أتيح لى أن أكتب عنه ، وهو ما أسميته «تأميم الصراع الطبقى» .. كنت أرى فى التنظيم «الطليعى» تعبيرا ناطقا عن عملية «تأميم» لم تقتصر على المصانع والمصارف والأرض الزراعية ، وإنما امتدت للصراع

الاجتماعى ذاته .. كان التنظيم منقسما إلى فرع للاشتراكيين العلميين، وقصد بهؤلاء أنصار الاشتراكية الماركسية ، وإلى فرع لأنصار الاشتراكية العربية، وقصد بهؤلاء الاتجاه القومى ، وإلى فرع لأنصار الاشتراكية الإسلامية وقصد بهؤلاء الإخوان المسلمين الذين تابوا والتحقوا بركب عبد الناصر .. لقد أراد عبد الناصر أن يجعل من الصراع الطبقى بكل روافده قوى تتصارع وتتفاعل تحت مظلة سيطرته، وهذا ما قصدته بـ «تأميم الصراع الطبقى».

صحيح أن التنظيم الطليعى لم يطلب منى إطلاقا أن أنشط لحسابه داخل مؤسسة «الأهرام» .. وظللت منضما إلى الخلية التى كانت تجمعنى مع عدد من صحفيى مؤسسة «أخبار اليوم» .. ولم تكن الجلسات منتظمة ، بل كادت تنعدم بعد تولى محمود العالم رئاسة مجلس إدارة «الأخبار» .. وأخذ هذا التنظيم يغيب عن اهتماماتى تدريجيا حتى جاء صراع السادات مع مراكز القوى ، وقد تعرضت مراكز القوى التى كانت تتولى أمر التنظيم الطليعى لأزمة حادة .. كان هيكل ممن اصطفوا إلى جانب السادات ضد قيادات مراكز القوى .. وطبعاً كنت ، بحكم موقعى ، من أنصار عدم تصعيد المواجهة بين الجانبين .. وأذكر أننى فاتحت هيكل فى هذا الموضوع ذات يوم .. قلت إنه لا مفر من مصالحة بدلا من التصعيد .. واستمع هيكل إلىّ .. ولكنه لم يجب ..

ثم جاءت إقالة على صبرى .. وما وصف بـ «الثورة التصحيحية» فى ١٥ مايو ١٩٧١ .. وهنا وجدت نفسى، والضمير يؤنبنى ، أذهب إلى مكتب هيكل لأقول له إننى قد ارتكبت خطأ جسيماً فى حقه . فأنا عضو بالتنظيم الطليعى ، ولم أكن قد أبلغته هذا من قبل .. وفوجىء هو وذهل ..وفاجأه بالذات أن للتنظيم الطليعى وجودا داخل «الأهرام» دون علمه .. واعتقد أنه حرص على معرفة مَن مِن صحفيى «الأهرام» كان عضوا بالتنظيم غيرى .. والحقيقة أن اعترافى لم يكن خالصا لوجه الله .. فإننى كنت أدرك أن هيكل سوف يحاط علما بأعضاء التنظيم إن آجلا أو عاجلا .. وأردت أن أبلغه قبل أن يعلم هو من غيرى .. وقدر هو هذه الخطوة من جانبى ، حتى لو لم تكن خالصة مائة بالمائة .. ولكن أشعرته أيضاً على ما أتصور بخيبة أمل، لأنى قد خفيت عنه الموضوع طوال سنوات ..

وأذكر ذات يوم وكنت مازلت المسئول عن افتتاحية «الأهرام» التى تكتب تحت عنوان «كلمة الأهرام» .. أن طلب منى هيكل أن أكتب أن كل أعضاء التنظيم الطليعى لم يكونوا متورطين فى مؤامرات مراكز القوى .. وكتبت افتتاحية بهذا المعنى .. واعتقد كثيرون أن الفضل فى كتابتها قد عاد إلىّ، وأننى قد تحديت هيكل بكتابتها ..

ولكن الحقيقة هى أن هيكل كان هو الذى كلفنى .. وأذكر أن أحد كبار الشيوعيين هو مبارك عبده فضل قد هنأنى على الافتتاحية ..

★★★

كان أهم حدث ينسجم مع اتجاهاتى بعد التحاقى بالصحافة ، هو مؤتمر انعقد عام ١٩٦٦ فى فندق البرج بالزمالك .. مؤتمر جمع مجلة «الطليعة» التى كنت قد أصبحت عضوا بلجنة المستشارين بها ، وبين مجلة «السلم والاشتراكية» التى كانت تصدر فى براج والتى كانت تعتبر لسان حال الأحزاب الشيوعية المشايعة لموسكو فى مختلف بلدان العالم .. كان هذا المؤتمر تكريساً للمصالحة بين الشيوعيين وبين نظام عبدالناصر .. وقد تمت المصالحة فى إطار مجلة «الطليعة» التى كانت تتبع «الأهرام»، وهيكل شخصيا .. ويرأس تحريرها لطفى الخولى.

تلا هذا الحدث حدث كبير مماثل فى العام التالى ، هو مؤتمر ضم فى الجزائر القوى الاشتراكية من مختلف أرجاء الوطن العربى ، وقد دعيت للمشاركة فى إعداده .. سافرت مع زملاء غيرى من الصحافة المصرية إلى الجزائر يوم ١٤ مايو ١٩٦٧ لأكون ضمن المنظمين لهذا المؤتمر ..وقد التقيت فيه لأول مرة بوجوه كثيرة أصبحت من الوجوه المألوفة فى الساحات العربية بعد حرب ١٩٦٧..

غير أن الأحداث كانت تجرى بسرعة .. وقد اختتم المؤتمر فى يوم ٢٤ مايو، وصدر إلى عدد منا قرار بألا نعود إلى مصر ، وإنما أن نذهب إلى أوروبا ، وأن نبدأ بفرنسا لننتشر فى عدد من العواصم الأوروبية ، والتصدى للدعاية الصهيونية فى الأيام التى سبقت ٥ يونيو ١٩٦٧ مباشرة ..وذهبنا إلى باريس .. ولم يكن هناك مايستدعى مبارحتها .. كما وجدنا أنه من غير الممكن العودة إلى مصر، لأن مطار القاهرة كان مغلقاً .. فمكثنا شهرا كاملا فى باريس نفعل مايوسعنا للذود عن القضية العربية فى مناخ معادٍ مذل .. وهكذا أسفر مؤتمر الجزائر عن نقيض ما رمز له اجتماع «الطليعة» مع مجلة «السلم والاشتراكية» بفندق البرج بالقاهرة .. رمز الاجتماع الأول لانتصار التلاحم بين القوى الاشتراكية .. وجاء الثانى قبيل الهزيمة التى نالت من الحلم فى الصميم.

★★★

كان هيكل يتسم فى نظرى بقدر كبير من الاعتداد بالنفس .. ولم يعد بعد هزيمة ٦٧ يستطيع أن يجمع بين حرصه على كبريائه وتحمل آثار الهزيمة النكراء التى ألمت بنا جميعاً .. كنت مع لطفى الخولى وأحمد بهاء الدين وغيرنا محبوسين فى باريس

عقب الهزيمة ، ولم يكن بوسعنا العودة إلى مصر بسبب إغلاق المطار .. اتصلنا بهيكل تليفونيا ، لطفى وأنا ، من السفارة المصرية بباريس ..وكنت أسمع صوت هيكل فى المكالمة القصيرة التى جرت بيننا ، وكنت أحاول أن استشف من صوته حجم الكارثة التى أصابتنا .. أراد هو أن يعطى الانطباع بأنه ليس هناك شىء تغير .. ومع ذلك ، وكما علمت فيما بعد ، كان لهيكل دور كبير فى إقناع عبد الناصر بضرورة أن يتنحى ، وأن يتحمل بصفته القائد المسئولية بالكامل .. ومع كل حبه لعبد الناصر ، كان مقتنعا بأنه لم يكن أمام الرئيس والزعيم خيار آخر .

ومع ذلك كان هيكل هو الذى ابتدع كلمة «النكسة» ، لتحاشى كلمة «الهزيمة» المحبطة للهمم .. لقد طرح الوضع القائم وكأنما هو شىء مؤقت ..ولكن .. كما ثبت فيما بعد .. إننا مازلنا نعاني من آثار النكسة والقرن قد انقضى.

★★★

لقد ألحقنى هيكل بـ «الأهرام» فى عام ١٩٦٨ .. وأذكر بعد التحاقى بالأهرام، وقبل أن تتحدد لى مسئوليات فيه ، أننى قد كتبت مقالا عن أزمة تشيكوسلوفاكيا التى بلغت الذروة وقتذاك فى أواخر أيام زعامة دوبشيك .. قلت فى المقال أن السوفيت لن يتدخلوا .. وثبت أننى أخطأت .. فلقد تدخلوا وعلى نطاق شامل ..وصبيحة يوم تدخلهم ، دعانى هيكل إلى مكتبه وقال لى : «أخطأت التقدير» .. قلت «نعم» .. قال : «إني حريص على أن تذهب لكي ترى بنفسك» .. وقد رتب لى لطفى الخولى السفر .. وأرسلت إلى برلين الشرقية أولا ..وتقرر فى برلين أن أذهب إلى موسكو قبل أن أذهب إلى براج ، علما بأن الحدث الصحفى الخطير كان فى براج ولم يكن فى موسكو !!. وكنت قبل ذلك قد زرت براج سنة ١٩٦٦ .. بل وتزوجت فى براج، ذلك أن والد زوجتى كان دائم الإقامة بها وقتذاك بحكم عمله ..وقررنا أن نتزوج بعيداً عن صخب القاهرة ، وعن النوعيات المختلفة من الناس التى كان علىّ أن أدعوها لزواجى .. ذهبت إلى كل من موسكو وبراج ومزقنى ما رأيته .. الصمت التام عن الحدث فى موسكو .. والفوضى والتمرد على المكشوف فى براج .. كانت أول زيارة لى لموسكو ورأيت بنفسى عدم استعداد أحد ممن التقيت بهم أن يتفوه بكلمة .. تقرر بعد وصولى اعتبارى مدعوا من قبل وكالة «نوفوستى» السوفيتية ، مجاملة لمصر و«للطليعة» .. ولكن «أغلقت» كل الأبواب في وجهي، ولم تتح لى فرصة التحدث إلى أى من المسئولين ..

ولأول مرة أدرك ما هو معني أن تتمرد عاصمة اشتراكية على الاتحاد السوفيتى واستمعت إلى حجج هؤلاء وأولئك ..وكتبت أربعة مقالات ، رفض هيكل أن ينشرها

بالأهرام، لأنه كان قد كتب هو مقالا عن غزو السوفيت لتشيكوسلوفاكيا ، واعتبر هذا المقال كافيا ، ولا حاجة لتحميل «الأهرام» المزيد فى وقت كنا فى أحوج الحاجة إلى السلاح السوفيتى .. ووافق لطفى الخولى على نشر مقالاتى بـ «الطليعة» .. وكان مجمل ما قلته هو أن العملية من الوجهة الفنية كانت ناجحة مائة فى المائة .. فلقد تم احتلال تشيكوسلوفاكيا دون إراقة نقطة دم واحدة .. ولكن إذا ما تحدثنا عن مبرر هذا الاحتلال ، فقد اكتفيت بسرد الحجج التى سمعتها فى موسكو ، وتلك التى سمعتها فى براج ، ولم أبت برأى .. وتركت للقارىء ليقرر أية من وجهتى النظر هى الأصوب !.. ولم تكن مقالاتى موضع رضا أى من الجانبين!..

★★★

التحقت بالأهرام عام ١٩٦٨ ، ولكن لم أباشر مسئولية الإشراف على صفحة الرأى إلا فى العام التالى، بعد انتقالنا إلى مبنى «الأهرام» الجديد .. لقد عيننى هيكل وقتذاك مسئولا عن صفحة الرأى ، وعن افتتاحية «الأهرام» غير الموقعة التى تنشر كل يوم ..

إلا أن الذى أصبح يشغلنى بشكل متزايد فى هذه المرحلة ، ربما أكثر من مجلة «الطليعة» التى كنت أكرس لها جهدا كبيراً فى المرحلة السابقة، هو أن أسهم فى أعمال مركز الدراسات الاستراتيجية بـ «الأهرام» الذى أنشىء بمجرد استقرارنا بالمبنى الجديد .. فمن الواضح أن عبد الناصر قد أدرك أن أجهزة المخابرات لم تكن قد قامت قبل الحرب بدورها على النحو المطلوب ..وقد أعطت صورة مغلوطة عن إسرائيل .. وكان لابد من وسيلة أخرى لمعرفة إسرائيل ، ولتحاشى سقوطنا أسرى تصورات عن إسرائيل تخالف الواقع كل المخالفة .. ومن هنا كانت أهمية انتقاء أمخاخ بمقربة من عبد الناصر تفكر وتحلل وتمعن النظر فى الأمور دون أن تعلم أن اجتهاداتها تحت بصر رئيس الدولة مباشرة .. وكنت بفضل هيكل من هؤلاء المنتقين .. كنا نقوم بمناقشات واسعة وراء الأبواب المغلقة .. ولم يكن واردا أن ننشر فى «الأهرام» مانتبادله من أراء فى هذه الغرف المغلقة.

والحقيقة أن «الأهرام» فى الأيام الأخيرة لحكم عبدالناصر قد اتسم بجو شديد التكهرب .. فبعد انتقالنا إلى المبنى الجديد .. كانت تبدو الأمور هادئة،ومستقرة، وكان المبنى كيانا شامخا موضع اعتزازنا جميعاً .. كانت تلتقى فيه كل نخب مصر .. ولكن كنا نباشر وظائفنا ونحن لا نكاد نعلم شيئاً عن الأسرار التى كان مكتب رئيس التحرير وحده ملما بها .. كان مجلس التحرير يلتقى كل يوم .. الجلسة الأولى فى الساعة التاسعة صباحاً بحضور هيكل ، وأذكر أن حمدى فؤاد كان يأتى بأخبار

يلتقطها بالذات من حفلات الكوكتيل والعشاء لدى السفارات .. وكان يتقدم بما لديه، وهيكل ينشر مايطمئن إلى أنه صحيح .. ذلك أن نبأ يعلمه حمدى فؤاد هو نبأ لايعلمه هو وحده .. ومن هنا فلا خطر من النشر وإفشاء أسرار!..

وكان غريباً أن تكون أهم صحيفة فى مصر قليلة المناقشات العامة على هذا النحو .. كنت أصف «الأهرام» مازحاً بأنه «خط الدفاع الثانى» .. كان «خط الدفاع الأول» هو خط الدعاية بالطريقة المألوفة .. وهو الدفاع الفج عن النظام حتى لو افتقر إلى مصداقية .. أما «خط الدفاع الثانى» ، فهو الخط الذى كان يحرص على مصداقية الخبر وجديته ، حتى لو تطلب ذلك التعرض لموضوعات شائكة .. وكان هيكل يملك وحده النهوض بهذا الدور .

وأذكر أن هيكل كثيراً ما استدعانى إلى مكتبه ليقول لى إننى أثرثر أكثر من اللازم فى أحاديثى مع الصحفيين الأجانب .. وأن التقارير عنى كثيرة ، وأنه علىّ أن ألم نفسى!.. هكذا كان يقول، ولكن أعتقد أنه لم يكن متضايقا حقاً مما أفعله .. ذلك إننى لم أكن أعلم شيئاً .. وأن كل ماكنت أقوله استنتاج ذاتى وبالتالى ليس بخبر وكان يبدو للصحفى الأجنبى أننى أحلل انطلاقا من معلومات أعلمها ..ولا مانع من انتشار الأنباء على هذا النحو!..

مناطحة أمريكا

ومما لم أكن أدركه ، على الأقل بشكل كاف، هو تعاظم الصراع بين الاتحاد الاشتراكى من جانب ومؤسسة الأهرام وعلى رأسها هيكل من الجانب الآخر .. وأذكر ذات مرة وقوع خلاف كبير ما بين «الأهرام» و«الجمهورية» حول موضوع كان وقتذاك حساساً .. كان هيكل قد أعلن فى مقال شهير أنه لا ينبغى مناطحة أمريكا فوق حد معين ، وقد تصدى له بعض كتاب «الجمهورية» ليقولوا إن هذا موقف ممالىء لأمريكا، فى ظرف تسند فيه أمريكا إسرائيل على طول الخط .. وهذا موقف يسىء إلى حليفنا السوفيتى الذى ينهض بدور كبير فى إعادة بناء الجيش المصرى .. والحقيقة أن الخطين كانا متكاملين أكثر من أن يكونا متعارضين .. كنا بحاجة إلى مخاطبة أمريكا للتمييز ما بين أمريكا وإسرائيل قدر المستطاع، حتى مع التسليم بأن هذا لم يكن سهلا .. وكان هذا تمهيداً لمبادرة روجرز فيما بعد .. كانت «الجمهورية» وقتذاك لسان حال الاتحاد الاشتراكى ، وكان يكتب فيها مسئولون بالتنظيم الطليعى ، بينما كان للأهرام وظيفة أخرى.. هى التى وصفناها بـ «خط الدفاع الثانى»..

كنت أجد نفسى فى مأزق إزاء مثل هذه الزوابع .. لم أكن أعلم إلى أى حد كان

هيكل يرحب باختيار فلان أو علان كاتبا بصفحة الرأى فى «الأهرام» .. لم أكن أعلم ولاعهم لمن فى النظام .. لم أكن أحاط علماً بهذه «التفاصيل» البالغة الأهمية .. وحدث ذات مرة بعد وفاة عبدالناصر ، فى الأيام الأربعين التى خصصت فيها مقالات الرأى كلها لرثاء الزعيم الراحل .. حدث ذات مرة أن تلقيت من مكتب رئيس التحرير مقالا من سامي شرف .. وأعطى هيكل تعليمات بنشر المقال كما هو .. ولم أكن قد تلقيت شخصياً هذه التعليمات .. وقد أنهى سامى شرف المقال بكلمة وجدت نشرها كما صاغها مذلة ، فحذفتها .. وفى اليوم التالى استدعاني هيكل لمكتبه وهو فى حالة غضب شديد .. رأيته فى صورة لم أكن أعرفها عنه أبداً .. كان ذلك ربما المرة الوحيدة التى رأيته يثور فى وجهى، وقال «إننى أعطيت تعليمات واضحة أن المقال ينبغى نشره كما هو دون مساس ، والمسألة فى وجهى» .. قلت: «حملنى أنا المسئولية» .. قال : «الموضوع بينى وبينه .. ولست أنت طرفا فى الموضوع على وجه الإطلاق»..

في ظل هذا الجو المكهرب، جاء القبض على لطفى الخولى وزوجته ، وكذلك على سكرتيرة هيكل نوال المحلاوى وزوجها .. لقد اتهم الأربعة بالتلسين على عبد الناصر ..وكان عبد الناصر وقتذاك قد عين هيكل وزيراً للإعلام .. وبدا ذلك لنوال المحلاوى وكأنما هو تحجيم لهيكل ، وانتصار لفريق قيادات الاتحاد الاشتراكى عليه..

وارد أن يكون ذلك هو سبب التلسين .. لم يكونوا يعلمون أن شقة لطفى موضع مراقبة دقيقة .. فلقد وضعت أجهزة تنصت فى كل الحجرات .. وقد أحيط سامى شرف فعبد الناصر علماً بما قيل ، وصدر أمر باعتقال الأربعة والتحقيق معهم .. كان من المفروض فى ذاك اليوم أن نتواجد ، زوجتى وأنا ، مع الأربعة فى شقة لطفى ..ولكن زوجتى أصيبت بوعكة صحية حالت فى آخر لحظة دون ذهابنا .. وقد أفرج عن ليليان الخولى وعن نوال، ولكن طال حبس لطفى وزوج نوال .. مما أعجز لطفى عن حضور جنازة عبد الناصر ، ذلك أنه كان محبوساً ولم يفرج عنه إلا بعد بضعة أشهر من تولى السادات الحكم .

لقد ساد فى هذه المرحلة الأخيرة من حكم عبد الناصر إحساس بالرعب منقطع النظير .. أذكر بعد القبض على لطفى أننا ، كلما تناولنا موضوعا حساساً ، فضلنا الخروج من المنزل إلى الشارع تحاشيا لأجهزة التنصت .. وفعلا وقع ذات يوم فى عهد السادات حريق بشقتنا ، كادت تودى بها تماماً ، وكادت تقضى على حياة والدتى .. وقد أبلغنا فيما بعد من جهات تعلم أن سبب الحريق هو وجود جهاز

تنصت فى حجرة النوم!..

★★★

ربما حجم عبد الناصر هيكل بتعيينه وزيراً .. ولكن بدا لهيكل أنه قد استرد مكانته بوقوفه إلى جانب السادات ضد مراكز القوى بمجرد تولى السادات الحكم..

لم أكن أنا شخصياً أعلم أن هيكل إلى جانب السادات ضد ماسمى بمراكز القوي .. كنت أنا شخصياً ، بحكم ميولى، أقرب إلى منطق الاتحاد الاشتراكى منه إلى أى منطق يعاديه، ذلك بغض النظر عن صداقتى لهيكل .. تصورت ذات يوم أننى فى استطاعتى أن أحول دون انفجار الخلاف بين الطرفين ..وجلست أصارح هيكل مراراً بأنه لاينبغى أن تصل الأمور إلى حد الصدام .. ولكن هيكل لم يكن يرد .. ووقع الصدام .. واستبعد على صبرى ومن معه..

ولم يستبعد الماركسيون .. فلقد عين السادات إسماعيل صبرى عبد الله وفؤاد مرسى وزيرين بالحكومة .. وأصبح للطفى دور مهم فى أمانة الاتحاد الاشتراكى بعد إطلاق سراحه .. ووقع السادات معاهدة مع السوفييت ..ولكنه كان قد أقدم على هذه الخطوات وفى ذهنه أساساً مخاطبة واشنطن ، واستثمار قبول عبد الناصر لمبادرة روجرز..

وأذكر فى هذه المرحلة زيارات معمر القذافى «للأهرام» .. كان قد تولى السلطة منذ وقت قصير ..وكان يأتى إلينا ليتحدث معنا فى جلسات مغلقة ، مطولة .. أذكر فى أول مرة التقينا به قال له هيكل : «معنا هنا محمد سيد أحمد وله ميول قريبة إلى السوفييت» .. كنت قد علقت على كلمة تحدث هو فيها عن المعسكر الاشتراكى بطريقة فيها قدر من الاستخفاف .. قلت إنه من الصعب الانطلاق من تصور لخريطة العالم كما قد تبدو من الصحراء ، ووضع الكتلتين الدوليتين على قدم المساواة دون إدراك الاختلافات بينهما ..وقد عنفنى القذافى على هذه الإجابة .. وأذكر أن الأهرام قد نشر حديثه دون نشر ردى عليه، مما أوجدنى فى مركز حرج .. وقد تصالحت مع القذافى فى لقاءات لاحقة .. وكتبت أدافع عنه مرة ضد مقال هاجمه بـ «البرافدا» . ونقل إلىّ أنه قد دافع هو عنى ذات مرة لدى الرئيس السادات ، ولكن كان رد السادات أن فلانا هو من اتباع هيكل الذين يحرضونه ضدى!..

ثم وقع حدث مثير .. فلقد نشر «الأهرام» فى باب ابتدعه وقتذاك تحت عنوان «دائرة الحوار» مناقشة مع إسماعيل فهمى ، وكيل الخارجية وقتذاك ، أدان فيه موقف الروس إدانة حازمة ..وبدأت أشعر بأن هناك جوا يتعلق بالسوفييت ..

وأحسست بأن ثمة شواهد تنم عن رغبة فى تحميلهم مسئولية الهزيمة التى تكبدناها .. وبدلا من أن نرى أن العيب إنما يكمن أساساً فينا ، حملناه لأسلحتهم .. وقد أثارت «دائرة الحوار» هذه ضجة كبرى بين الدبلوماسيين الأجانب .. بلغت حد أن الصين تصورت أن «الأهرام» قد قاد الحملة للاطاحة بالخبراء السوفييت .. فتلقى هيكل دعوة لزيارة الصين .. وقرر أن تكون الدعوة لعدة بلدان آسيوية بدأت بالصين وشملت عدة دول فى آسيا .. وقد قاد هيكل فريق «الأهرام» الذى قام بهذه الرحلة وكنت ضمن المشاركين فيها مع حمدى فؤاد وجميل مطر وسميح صادق وعبد الله عبد البارى ومحمد يوسف المصور ..

وأذكر اللقاء مع شواين لاى .. وأذكر أن هيكل قد قال له أيضاً أن لدينا فى مجموعتنا شخصا موالياً للسوفيت .. وتركزت الأضواء علىّ ، وشعرت بحرج شديد أمام القادة الصينيين الذين كانوا ينظرون وقتذاك إلى القيادة السوفيتية على أنها ألد أعدائهم ..وطلب منى أن أطرح سؤالا .. وسألت عن الثورة الثقافية .. وحرص شو على أن يرد علىّ بإسهاب .. غير أن شو قد أدرك من حديث هيكل أنه لم يكن صحيحاً أن «الأهرام» يعادى السوفييت .. وهكذا التقينا بشواين لاى ، ولكننا لم نلتق بماو تسى تونج..

وبعد عودتنا من رحلة آسيا ، فوجئنا بأن عدداً من الصحفيين قد اعتقل .. غير أن السادات كان يعد وقتذاك لحرب اكتوبر .. ووقعت الحرب ..وكان العبور .. وقبيل الحرب بيوم واحد ، أعاد السادات الصحفيين المبعدين إلى صحفهم ، تحقيقا للوحدة الوطنية .. ووقعت الحرب .

ولم أكن أدرك أن متانة علاقة هيكل بالسادات كانت رهنا بحاجة السادات إلى هيكل فى وجه مراكز القوى .. وكان معنى ذلك أن انتصار أكتوبر ، والمجد الذى تحقق للسادات فى أعقاب العبور ، قد أغناه عن حاجته إلى هيكل .. فنشبت خلافات بينهما ..ونشر هيكل مقالات أبرزت وجهت نظر مخالفة لرؤى السادات ..

ثم كانت دعوة هيكل لميتران آخر عمل قام به قبل تنحيته من «الأهرام» .. كان هيكل قد دعاه بصفته وقتذاك زعيم المعارضة فى فرنسا .. وقد كلفنى بأن أرافق الضيف إلى الأقصر وأسوان ، ومعه بعض كبار معاونيه ..وأتيحت لى، هكذا فرصة التعرف على الزعيم الفرنسى عن قرب .. كما كانت زيارته الأولى هذه لمصر مناسبة ليجمعه هيكل لأول مرة مع عرفات على مائدة غداء فى الأهرام ..وكلفت أنا بالترجمة بينهما .. وقد واظب ميتران على زيارة مصر بانتظام بعد ذلك .. وفى آخر يوم غادر فيه ميتران مصر ، لم يحضر هيكل لوداعه والذهاب معه إلى المطار إلا فى آخر

لحظة .. وبعد ٣ ساعات من مغادرة ميتران مصر، أذاعت نشرة الأخبار أن هيكل قد أبعد من «الأهرام».

★★★

وقدمت استقالتي .. شعرت بأنني مدين لهيكل بوجودى فى «الأهرام» ، وأنه يتعين عليّ أن اتضامن معه .. والغريب أن استقالتى فاجأت الجميع ، ثم قيل لى إنه ينبغى عليّ أن اسحب الاستقالة .. فلا معنى لها وفى أى الأحوال ، فلست محسوبا على هيكل .. وجاء هيكل بنفسه إلى منزلى وطلب منى سحب الاستقالة وفى النهاية سلمت بأنه كان عليّ أن أسحبها ..وقد عين «على أمين» رئيساً لتحرير «الأهرام» ..ولم أكن أريد أن أتعاون مع «على أمين» .. وأبدى هو إحساساً طيباً إزائى .. وذات مرة أصر على نشر مقال له وفى مواجهته مقال لى ، تحت عنوان «مواجهة بين اليمين واليسار فى الأهرام» حول قضية حرية الصحافة .. وأدركت أن على أمين كان صديقاً لهيكل ، ولكن مصطفى أمين كان يعاديه على طول الخط ..وبعد خروج مصطفى أمين من السجن ، أوقف على أمين كل تعامل له مع هيكل ..

وينبغى لى أن أقول أن هيكل فى هذه المرحلة التى سبقت إبعاده من «الأهرام» قد وقف بجانبى بشدة فى ظروف بلغت ذات مرة حد المخاطرة .. أذكر هذه المناسبة التى اتصل فيها هيكل بى فى منتصف الليل ليقول لى أن أذهب إلى منزله فوراً .. وكان لى زوار فى البيت .. قلت : «إن لى هنا ناس» .. قال «اتركهم وتعال فوراً» .. ذهبت .. قال لى : «سأمر عليك صبيحة الغد الساعة السابعة والنصف صباحاً لأرافقك إلى «الأهرام» وأتركك هناك، ولا تترك المبنى الا عندما أسمح لك بهذا!!!». واندهشت .. وكان الأمر هو إننى قد اتهمت بأننى أسرب أسراراً للسفارة الفرنسية .. كانت القصة ، باختصار ، أن أحد أعضاء السفارة السوفيتية قد زار أحد معاونى بالأهرام وأبلغه عرضاً بأن بودجورنى، رئيس الاتحاد السوفيتى وقتذاك ، سيزور مصر .. جاءنى الخبر ولم التفت إليه .. ولكن دخل مكتبى بعد ذلك بدقائق مندوب وكالة الأنباء الفرنسية .. ودار حديث عفوى ، بيننا عرج فيه على موضوع السوفييت ..وقلت له إننى أعلم أن بودجورنى سيأتى إلى مصر . وانتهى الأمر عند هذا الحد ..

والذى حدث هو أن السادات قرر ألا يستقبل بودجورنى .. ولم يكن يريد أن ينتشر خبر مجيئه .. وفوجىء بأن الخبر معروف .. وأحرجه ذلك وأمر بالبحث فوراً عن المسئول عن تسريب الخبر .. وتوصلت الأجهزة إلى أن الخبر قد وصل إلى مندوب وكالة الأنباء الفرنسية عن طريقى ومن الوكالة إلى السفارة .. غير أن

هيكل قد تدخل شخصيا ، وقابل السادات خصيصا لهذا الموضوع ، وانهى المشكلة .. قال للسادات إننى قد أبلغته هو شخصياً الخبر ، ولم أخفه قط .. وسويت المسألة .. والحقيقة أن الحدث كان تعبيراً عن مدى إخلاص هيكل لأصدقائه المقربين إليه..

وأعلم عن قصص كثيرة مماثلة مع آخرين فى «الأهرام» ، ولكن هذه هى قصته معى .. وأذكر بعد تصفية المشكلة أنه قال لى : «لا مانع فى أن تمكث فى السجن سنوات طويلة بسبب تهمة سياسية ، ولكن الذى لا أقبله أن تعاد إلى السجن بصفتك جاسوساً!»..

والحقيقة أن مشكلة أمنى كانت دائماً مشكلة تشغله .. أذكر ذات يوم أننى كتبت مقالاً فى الأهرام ..ورغم أننى كنت المسئول عن صفحة الرأى، فلقد تدخل على حمدى الجمال، مدير التحرير وقتذاك ، ومعه د. عبدالملك عودة، معاون رئيس التحرير فى الشئون الإدارية، ليطلبا من هيكل حذف المقال من الصفحة. لأنه يعرض أمنى الشخصى للخطر.. ولبى هيكل طلبهما أول الأمر.. ثم أتيت إلى «الاهرام» واكتشفت أن مقالى قد سحب.. طلبت مقابلة هيكل وحاولت إقناعه بعدم سحب المقال.. ووافق.. ثم تدخلا مرة ثانية.. وانتهى الأمر بأن قرر هيكل إبعادنا جميعا.. وبت هو وحده فى مصير المقال بتعديل عدد من الفقرات فيه.. كان المقال تعبيرا عن بعض ما أبديته من آراء فى الجلسات المغلقة بمركز الدراسات.. كان واردا الحديث عن مثل هذه الأمور فى جلسات مغلقة.. وتجربة المقال أثبتت أن طرحها علنا لم يكن واردا دون إخضاعها لتدقيق شديد...

★★★

إخراج هيكل من الأهرام قد أشعره بادئ الأمر بفراغ كبير.. كان هو الذى جعل من «الأهرام» هرما شامخا.. مبنى يشار إليه بالبنان.. وظل هيكل يحلم طويلا بعد خروجه من «الأهرام» فى إصدار جريدة، واكتشاف وسيلة لإصدار جريدة، حتى لو تطلب الأمر أن تصدر من خارج مصر.. ثم توجه نشاطه فى الأساس إلى تأليف كتب.. والواقع أن العالم كله كان حريصا على أن يسمع رواية هيكل عن كثير مما دار طوال سنوات حكم عبدالناصر، ومن هنا كانت لكتبه مصداقية فريدة.. وأصبحت لها سوقا رائجة فى عدد كبير من اللغات..

وهكذا أصبح هيكل بشخصه مؤسسة.. لم يعد بحاجة إلى «الاهرام» كقاعدة ينطلق منها .. وأخذ يحول مسكنه إلى هذه المؤسسة، واستمر هو على صلة بكل من له صفة فى الحياة السياسية المصرية، بل ظل على صلة ما بالسادات، وإن ساءت

العلاقة مع السادات بالتدريج، حتى اعتقل فى نهاية أيام السادات مع غيره ممن اعتقلوا، فيما اشتهر «بمذبحة سبتمبر»..

وبعد أن غادر هيكل «الاهرام» فكرت أنا أيضا أن أؤلف كتبا.. أو على الأقل أن أرصد فى صيغة كتاب ما أحسست بأنه توجهات السياسة المصرية فى أعقاب حرب أكتوبر..واستشففت هذه التوجهات من المناقشات وراء أبواب مغلقة التى دارت طوال سنوات بمركز الدراسات الاستراتيجية بالأهرام .. وفى مائة يوم ، ألفت كتابا طلبت من هيكل أن يساعدنى فى وضع عنوان له .. وأذكر كيف صاغ هيكل العنوان بعد التفكير برهة، على صفحة بيضاء : «بعد أن تسكت المدافع» .. كان له هو الفضل فى صياغة العنوان بالعربية ، كما كان لزوجتى الفضل فى صياغة العنوان بالإنجليزية .. وكان للعنوان فضل كبير فى بلورة دلالة الكتاب ومحتوياته ربما أكثر من أى شىء آخر ..

قدر من الإلتباس

وقد تقلص دورى بالتدريج فى «الأهرام» بعد خروج هيكل منه .. كان كتابى قد أشهرنى عالمياً في وقت كان «الأهرام» يهمشني تدريجيا .. وفى ذاك الوقت أسست المنابر فالأحزاب .. وكان وضعى الشخصى يحيطه قدر غير قليل من الإلتباس .. فبسبب كتابى ، لم أكن من مؤسسى حزب التجمع رغم أننى قد صعدت ، فيما بعد ، إلى الأمانة العامة، ثم إلى موقع عضو الأمانة المركزية المسئول عن خط التجمع السياسى بعد رحيل د . فؤاد مرسى .. وأصبح ما أكتبه فى «الأهالى، وللحزب، أكثر أهمية لى مما أتيحت لى فرصة كتابته «للأهرام» .. وبوجه عام ، أخذت الأوضاع تزداد ترديا فى صفوف المعارضة بمختلف تشكيلاتها حتى جاءت أزمة سبتمبر ١٩٨٠ .. وقد شملت الاعتقالات هيكل .. وأذكر عندما اعتقل كم كان موضع مساندة كثيرين خارج مصر على الصعيد العالمى ..

لقد تواجدت أنا ولطفى الخولى خارج مصر فى ذاك الوقت .. وأذكر إحساسى بالغربة فى باريس وقد استطعت بمعجزة أن أغادر مصر إليها قبل أن يشملنى الاعتقال ، وأقول لنفسى فى برنامج تليفزيونى سئلت فيه ، أن كل من أعرفه فى مصر رهن الاعتقال حاليا .. إن نخب مصر كلها فى المعتقل .. والغريب هو من لا يشمله الاعتقال ، لا العكس ..

وأذكر ذات يوم أن محطة ABC الأمريكية خصصت بقرار من بيير سالنجر ، مدير برامجها فى أوروبا ، والسكرتير الصحفى لجون كنيدى فيما قبل ، برنامجا كاملا عن المعتقلين فى مصر ، وعن شخص هيكل .. لقد أراد سالنجر البرنامج

مساندة لهيكل بالذات .. وكان من المفروض أن أتولى دوراً مهما فى هذا البرنامج ، ولكن شاءت الظروف أنه كان علىّ أن انتقل إلى لندن ثم تعذر ذلك ، وتولى لطفى البرنامج .. ووقع صدام حاد بينه وبين المسئول وقتذاك عن الاستعلامات فى مصر ، شافعى عبد الحميد .. ولم يفرج عن هيكل إلا عقب اغتيال السادات ، ضمن الدفعة الأولى ممن أطلق سراحهم بعد وقت وجيز من تولى مبارك الحكم ..

وقد ظلت علاقتى وطيدة مع هيكل، ربما بالذات فى السنوات التى لم تعد تربطنا علاقة عمل . ومع ذلك فثمة بذرة التباس قد لاحقتنا عبر السنوات .. إذ أن أعظم أيام هيكل هى الأيام التى بلغ فيها مجد عبد الناصر الذروة .. ومرجعيته فى تقدير أى حدث ، أن ينظر إليه من منظور الوقوف إلى جانب عبد الناصر .. ذلك بينما كنت أنا صاحب تجربة مختلفة ، وصاحب كتاب «بعد أن تسكت المدافع» الذى كان ينطوى على رؤية مختلفة عن تلك التى كان يدعو لها هيكل ..

وقد مرت السنوات ، بدأت أشعر بأن كثيرا مما أفعله لا يمكن أن يكون موضع رضا هيكل .. كنت أجد نفسى ، مثلا ، ألتقى باسرائيليين فى مناسبات مختلفة خارج مصر .. وبصفتى صاحب كتاب «بعد أن تسكت المدافع» ، لم يكن يستقيم أن أرفض هذه اللقاءات ابتداء .. وهكذا نمت ظاهرة كوبنهاجن .. وأظهر هيكل ضيقا شديدا لتوجهى هذا .. وربما وجدت نفسى ، حيال قضية كوبنهاجن، فى موقع مماثل لما جرى بشأن التنظيم الطليعى .. أحسست بأننى أتجه اتجاها تباعدت فيه عن هيكل .. ولم يكن بوسعى أن أفاتحه فى كل ما أفعله .. ولم يكن فى اختلافى مع من واصلوا هذا الخط ما أشعره بأنى قد صححت موقفى وتخليت عن الطريق الذى سبق وسلكته .. وأذكر مناسبة جرت لى فيها شبه محاكمة من قبل أصدقاء له ولى حول دعوتى إلى ما أسميته «ترحيل التناقضات إلى داخل إسرائيل ، والمراهنة على أوجه التمييز فى صفوف الخصم» .. وقال هيكل : «هل يعقل أن يكون موقفك سليما وأعز أصدقائك كلهم ضدك؟» .. وكانت إجابتى «أن مثل هذا الكلام يقال بعد نهاية المناقشة وليس قبل بدئها !» .. وفى النهاية ، لم أذهب فيما يتعلق كوبنهاجن إلى نهاية المطاف .. وإن كان هناك درس يتعين استخلاصه . وإن كان هناك شىء أنا مدين لهيكل به ، هو أن أحرص دائما على المصارحة والمكاشفة معه .. فلقد نشأت بيننا عبر سنوات العمر صداقة حميمة هى عرضة لطعنات غير محتملة لو غابت عنها الاستقامة والشفافية ..





شعر : عبد السلام شهاب

فى عام ١٩٦٢ ، رأى محررو «الأهرام» أن يحتفلوا بمناسبة مرور عشرين عاما على اشتغال رئيس تحريرهم المرموق محمد حسنين هيكل بالصحافة . وكان الاحتفال تعبيرا فى حد ذاته عن تقدير أسرة التحرير لـ «الاستاذ هيكل» واعتزازها برئاسته .

أقيم الاحتفال فى «شقة» تقع بالقرب من ميدان التحرير ، فى أول شارع شمبليون ، كان هيكل قد استأجرها باسم «الأهرام» لتكون ناديا لأسرة التحرير التى كانت محدودة العدد - نسبيا - فى ذلك الوقت .

وفى الاحتفال ، ألقى المرحوم الأستاذ عبد السلام شهاب الشاعر المعروف ، والذى كان يعمل مراجعا بـ «الأهرام» ، قصيدة من الشعر «الحلمنتيشى» - الذى أبرز فيه - تحية لرئيس التحرير المحتفى به .. وجعل عنوانها «هيكل .. زميلاً» :

هيكل .. زميلا

عشرون عاماً ، وأكثر   وليس عقلى دفترْ
لكنني ... مع هذا   لمّا أزل .. أتذكّر
أيام روزا .. وروزا   مجلة .. تتعثر
بقدرة الله .. تظهر   في وقتها .. وتُحرّر
ولا محرر فيها   على التحارير يؤجر
وأول الشهر يبدو   من آخر الشهر .. أوخر
لا تارك الصوم أفطر   ولا اللى صام تسحّر
وللمجلة .... دار   كأنما هى أزهر
لها سلالم عاشت   عصور كسرى وقيصر
وفي الدهاليز منها ..   للجمع والطبع .. عنْبر
لها مدير كبير   لكنه ليس يظهر
وكلها .... حجرات   بها المكاتب تنثر
وكلّ من هم عليها   شخصان ... بس ، تصوّر !
رخا .. الذي يتكرْتر   أمام عينى .. مُقَنْبَرْ
وفي يديه .. رسوم   تجرى وتلهو وتسخر
وكلما .. بان رسم   غنّى انسجاما وصفر
وصِحْت ، من فرط غُلْبي   الله .. الله أكبر
وبين حين وحين   صوت التليفون يجعر
وتُصدر .. الست روزا   أمراً بما سوف يُنشر
لكاتبين ... كرام   لهم مكان ومظهر
من صنف بيك . وباشا   وطالع فى المقدّر
وأصدقاء .. قدامى   أولاد فنّ تنكّر
يسطّرون .. فنونا   من الكلام المُبَسْتَر

كـــأنما .. أنشــــأوه ... على طريقــة «شـــرشــر»
ومـــخـــبـــرين .. لديهم ... علمٌ بما الغـــيب أضـــمـــر
يخـــبـــرون ... بما .. لا ... يكون .. أو .. يُتـــصـــوّر
أرســين لـــوبــين .. طـــظ ... فـــيـــه لديهم .. وكـــارتر
وتــصـــدر الست أمـــرا ... للبـــاشـــمـــهندس يَحْـضَـــر
والبـــاشـــمـــهندس يعــدو ... مــهـــرولاً قـــد تشـــمَّـر
زئيـــره .. يتـــعـــالى ... كـــأى ســبع غـــضنفـــر
فـــلا تقل لى : عنتـــر ... ولا تـــقـــل لـــى : هـــتـــلـــر
والمـاكـــيـنـات تـدور ... ونحن نشـــقى ونســـهـــر
ولـلـرقـــابة عـين ... ترى الأمــور بمجـــهـــر
حـــتى إذا الصـبح أســفـــرْ ... والـــلـــيـــل ولَّـــى وأدبـــر
وقـــيل : قـــد طبــعــوها ... طبٌّ البــوليس الموّقـــر
وقـــيل : قـــد صــادروها ... فـــأصـــبحت وهى «محـضـر»
ولم يطل حــــدّ منًّا ... حـــتى ولا .. مـــا تيـسّر
وضـــاع أســـبـــوع شَـغْلٍ ... وضـــاع أقـــلام باركـــر
وفـــجـــأة .. جـــدّ شىء ... والشـىء بالشــىء يذكـــر
وحل بالدار .. عـــهـــد ... غـــيـــر الذى هو أغـــبـــر
وكــل شـــىء .. تـــطـــوّر ... بحكمـــة .. وتحـــوّر
وللمـــجلة .. أضـــحـى ... قـــدر عظيم ومنظر
وبالمكاسب فـــاضت ... حـــتى قـــبضنا المؤخـــر
وأصـــبح الشـــغل يمشى ... قـــدّامنا يتـبــخـــتـــر
وكـــان هذا .. لســـر ... كـــالســـحـــر ، يُروَى ، ويُؤثر
قـــد حلّ فـــيـــهـــا زمـــيل ... من خـــيـــر أبناء عَـبْــقَـــر
فـــتى ، طروب المحـــيـــا ... كـــالنيل ، أســـمـــر أحـــمـــر
يـــطـــل مـــن نـــاظـــريـــه ... فكرٌ ذكى .. مُـــصـــوِّر

بمثله .. صحفيًا كل الصحافة تفخر
أسلوبه ، وهو نثر من أعذب الشعر أشعر
يحلو إذا ما تكرر ككلّ شهد مكرّر
وفيه صدق ، وعمق وبالحقائق يجهر
يفيض علماً ، وفنا ونكتة لا تقدر
فالكاتبون .. جميعا يصغون إن هو حرر
والمخبرون .. عيال عليه .. أن هو أخبر
وفى السياسة .. أدهى من أي نمس ، وأمكر
وفى السياحة .. أمضى من جاجرين .. وأمهر
تراه فى مصر لَيْلاً والصبح فى مدغشقر
والظهر فى نيويورك والعصر فى مانشستر
وفى المعارك أعلى رأياً ، وأقوى وأقدر
له يراع عجيب يهز أقوى معسكر
وكم له .. حملات منها عروش تدمر
فذاك صاحب عرش بذقنه قام زمّر
وذاك أهيف منه فى عرشه قد تسمّر
ولا أحاول وصفا قد كان غيرى أشطر
وكلنا .. قد عرفنا هذا الزميل الموقر
مازال «هيكل» يبدو أبهي كثيرا وأبهر
وها هو اليوم فينا ما بيننا قد تصدّر
شبابه ليس يبلى بالدهر لا يتأثر
وكلما زاد عمرا نراه فى العمر اصغر
وكل عام وأنتم كما اشتهيتم وأكثر



هيكل رئيسا للأهرام

بقلم : محمود أحمد

ذات يوم، فى مطلع الستينات، سمعت هذه الملاحظة من الاستاذ محمد حسنين هيكل واعتبرتها ذات دلالة، ربما لأنها تلقى ضوءا على جانب من شخصيته المسيطرة . قال إنه لا يحب الشخص الذى لا يضر ولاينفع.. فالذى «يضر» قد يكون - فى رأيه - أفضل، لأن التعامل معه يكون أيسر وأوضح .

ولكنى لا أذكر المناسبة التى استمعت فيها إلى هذه الملاحظة وسط جمع من الزملاء الذين يتحدث إليهم رئيس تحرير «الأهرام» بين وقت وآخر. ولكن كلماته ظلت باقية فى أعماق الذاكرة.. كغيرها من ملاحظات و«دروس» كنا - نحن مجموعة المحررين الشباب فى ذلك الوقت - نتلقفها من رئيس التحرير الذى كان شابا هو أيضا، والذى كان يحظى بقدر كبير من احترامنا وتقديرنا. فلم يكن محمد حسنين هيكل مجرد رئيس تحرير عادى، وإنما كان صحفيا متميزا بكل المقاييس، ومهنيا من الطراز الأول، فضلا عما كان يتمتع به من شخصية قوية وآسرة .

لم يكن «الأستاذ هيكل» يكبرنا فى السن كثيرا. وربما لم يفصله عن معظمنا سوى عشرة أو خمسة عشر عاما. ولكنه ظل مع ذلك يحتل مما موقع الأستاذ من تلاميذه الذين ينتظرون منه «الدروس» مع ما يصدر عنه من توجيهات وما يعهد إليهم به من مهام. وهكذا، فإنى على مدى عشر سنوات عملت خلالها فى «الأهرام» - من ١٩٥٨ إلى ١٩٦٨ - تعلمت الكثير من هيكل، وتحققت لى فوائد مهنية من الاحتكاك به ربما لم أقدرها حق قدرها إلا فيما بعد .



هيكل وسط محرري الأهرام

أول وأهم الدروس المهمة التي تعلمها من هيكل، هو الحرص على أهمية وقدسية المعلومة الصادقة. وكانت «توجيهاته» في هذا الشأن واضحة ومباشرة بمناسبة بدء عملي مع ستة من زملائي في قسم الأخبار. قال هيكل:

أنا لن أهتم إذا أهمل أحدكم فلم يجلب للصحيفة الأخبار التي يعهد إليه بمتابعتها. فهو في هذه الحالة يضر نفسه فقط. لأنه سيندمغ بالخمول المهني. أما إذا جاء بخبر واحد فيجب أن يكون صادقا تماما. لأنه إذا جاء بخبر كاذب فإنه يسبب ضررا لـ «الأهرام». وهذا ما لن أسمح به.

كان هيكل يعبر بذلك عن اتجاه أو «مدرسة» في الصحافة تتناقض مع اتجاهات ومدارس كانت شائعة وقتها تعتمد على الإثارة في نشر الأخبار حتى لو تبين فيما بعد عدم صدقها.

أيضا، لم يكن هيكل يرضى بالتغطية السطحية أو المنقوصة، وكثيرا ما كان يعيد خبرا أو تحقيقا أو موضوعا صحفيا إلى صاحبه؛ لأنه وجده غير مستكمل العناصر. ولم يكن يكتفي في ذلك بالتوجيهات التي يصدرها من مكتبه، وإنما كان يقود بنفسه فريق العمل إذا كان هناك حدث يستحق التغطية الشاملة. رأيت ذلك منه في أحداث لا أنساها، منها حادث غرق الباخرة النيلية «دندرة» حيث

وجدت هيكل يجلس على وحل شاطىء النيل، يراقب عملية انتشال جثث الغرقي ويشرف بنفسه على «تكليفات» المحررين ليضمن أفضل تغطية للحدث. وفى النهاية عبر عن رضاه بمنح كل من تميز فى العمل هدية كانت عبارة عن قلم حبر «شيفرز» أسود ومعه بطاقة منه شخصيا تحمل توقيعه «مع خالص تقديرى ومودتى». وأظن أن كل من حصل على هذا «التذكار» الثمين لا يزال يحتفظ به .

وفى مناسبة أخرى، رأيت كيف قاد هيكل ـ باقتدار ـ فريق «الأهرام» الذى كُلف بمتابعة حادث اغتيال الرئيس الأمريكى الأسبق جون كنيدى، وكيف حققت قيادته للفريق تميزا فى التغطية لمسه كل قرّاء «الأهرام» .

تجربتى مع هيكل والسادات

والأمثلة كثيرة، أستطيع أن أسوق العديد منها، كما أن من بين زملائى وأبناء جيلى من يمكنه أن يتذكر ماهو أكثر دلالة. ولكنى أستطيع أن أتوقف عند تجربة «شخصية» مع هيكل، كانت بالغة الأهمية فى حياتى المهنية، وهى تتعلق بموقف لا ينسى.. خاصة وأنه اتصل بطرف ثالث . كان هو الرئيس الراحل أنور السادات .

ففى أوائل عام ١٩٦٧، وكنت قد تخصصت فى العمل البرلمانى، وقعت «مصادمة» بسبب العمل بينى وبين السادات الذى كان وقتها رئيسا لـ «مجلس الأمة». كان هيكل قد وافق ـ بعد طول إلحاح ـ على أن يخصص لى صفحة أسبوعية أسجل فيها تعليقات وملاحظات على العمل البرلمانى من واقع متابعتى له. وبالطبع ، كان لابد وأن يحمل ماأكتب، من حين لآخر، انتقادات لأداء مجلس الأمة حرصت على أن تظل فى إطار الموضوعية اتساقا مع طابع وروح المادة التحريرية للأهرام. ولكن السادات اعتبر بعض ما كتب تجاوزا لا يمكن السكوت عنه وهكذا أصدر قرارا بمنعى من دخول المجلس وحضور الجلسات أو متابعة أعمال اللجان .

كانت تربطنى علاقة صداقة أعتز بها بالأستاذ محمد عبدالسلام الزيات الذى كان أمينا عاما لمجلس الأمة فى ذلك الوقت (وقد عينه السادات نائبا لرئيس الوزراء عندما أصبح رئيسا للجمهورية ثم عزله بعد وقت قصير). ووجدت الزيات يتصل بى ليطلب إلى فى رفق ومودة، ألا أبالغ فى رد الفعل وأن أترك له فرصة ليعالج الموضوع بهدوء. ثم أتبع ذلك بأن مر على فى «الأهرام» واصطحبنى إلى محل «لاباس» فى شارع قصر النيل

القريب من مبنى الأهرام القديم فى شارع مظلوم. وكرر الأستاذ الزيات طلبه، ملحا على أنه من الأفضل عدم إبلاغ الأستاذ هيكل بالموضوع حتى لا نصعد المشكلة. ولكننى اعتذرت، مشيرا إلى أن قرار السادات يعطل قدرتى على العمل، الأمر الذى يحتم علىّ أن أفسره لرئيس التحرير. وفى صباح اليوم التالى - وكنت قد علمت بصورة ما أن السادات لم يتراجع عن قراره - توجهت إلى مكتب رئيس التحرير لكى أبلغه بما جرى .

ارتسمت على وجه هيكل أمارات الدهشة المشوبة بالاستنكار. قال : نعم؟! منعك من دخول المجلس؟ طيب! اترك لى هذا الأمر.

ولكن مشاغله حالت بينه وبين متابعة الموضوع. وبقيت أنا أنتظر إلى أن حل موعد انعقاد الجلسة التالية للمجلس، فذهبت من جديد إلى مكتب رئيس التحرير لأعرف مايتعين على أن أفعله . قال هيكل: نسيت! ثم طلب من سكرتيرته الزميلة المرحومة نوال المحلاوى أن تطلب له أنور السادات. وبقيت أنا واقفا أستمع إلى الحوار التليفونى بين الشخصيتين اللتين ظلت تربطهما إلى النهاية علاقة شائكة وملتبسة .

قال هيكل إنه مندهش كيف يُمنع محرر «الأهرام» من دخول مجلس الأمة وهو مكلّف بمتابعة العمل البرلمانى وتغطيته. ورد السادات بشىء ما.. فعاد هيكل يقول بشىء من نفاد الصبر : قل لى .. إننى أرسلت محررا لكى يقوم بعمل معين، وهو يتعرض لضرر يقع عليه بسبب قيامه بهذا العمل. فماذا تتوقع منى أن أفعل إزاء ذلك؟ وتوقف برهة ليستمع إلى رد السادات، ثم عاد يقول : لا .. أنا لا أهددك! ولكن ضع نفسك مكانى.. كيف تتوقع منى أن أتصرف؟ وأخيرا سمعته يتمتم بما يعنى أن اتفاقا قد تم التوصل إليه بتراجع السادات عن قراره بمنعي من دخول المجلس . وقد كانت لهذا الموقف تداعيات. بينى وبين الرئيس السادات، ولكنها بعيدة عن هذا السياق .

وفى مناسبة أخرى ، ربما تكون سابقة على هذه الواقعة، سمعت من هيكل ملاحظة اعتبرتُ أنها تشى - على نحو ما - بنظرته إلى أنور السادات. لا أذكر المناسبة. ولكنى أذكر أننى التقيت به وهو فى طريقه إلى الاجتماع المسائى اليومى الذى يتقرر فيه الشكل النهائى للمادة التحريرية.. فاستوقفنى ليسألنى عن بعض الأعمال العادية فى مجلس الأمة. ثم فوجئت به يعلق فيما يشبه السخرية قائلا: «عاوز إيه السادات والمجلس بتاعه..

ياشيخ! روحوا اقفلوه!».

صعوبة العمل مع «هيكل»

ولم تكن هذه - بالطبع - هى التجربة الوحيدة لى مع «الأستاذ هيكل» ولكنى اخترتها لدلالتها وأهميتها بالنسبة لى على الأقل. ومع ذلك ، فإن التعامل مع هيكل كرئيس للتحرير لم يكن سهلا على المحررين الذين عملوا تحت رئاسته. بل إن العكس هو الصحيح.. فقد كان هيكل، فضلا عن قدراته المهنية العالية التى تجعله نموذجا يصعب إدراكه، من أبرز الصحفيين فى مصر على مدى حقب متتابعة، كانت «اتصالاته» رفيعة المستوى تمكنه من الحصول على المعلومات والأخبار، من مصادر صنع القرار التى يستحيل على الصحفى العادى الوصول إليها. وكثيرا ما كنت أحصل على أخبار عالية المستوى، وأقدمها معتزا بحصولى عليها، ولكنى أفاجأ بأن هناك «تفصيلة ما» قد طرأت بعد حصولى على الخبر.. وأن «الأستاذ هيكل» - الذى يعرف هذا كله بحذافيره - قد أضاف إلى ما كتبت أو حذف منه ما يجعله أكثر دقة ومطابقة للواقع .

أذكر أننى حصلت، أثناء إعداد مسودة الدستور الدائم فى الستينات، على خبر مؤداه أن هناك اتجاها لتعيين عدد من أعضاء مجلس الأمة ، إلى جانب المنتخبين ، لتعويض الكفاءات فى بعض المجالات وضمان تمثيل فئات بعينها ، وكان الاتجاه، حسب ما علمته من مصادرى، هو أن يكون التعيين فى حدود عشرة فى المائة من مجموع النواب وفرحت بالخبر، وسارعت إلى تقديمه، ولكننى علمت - بحسرة - أن الأستاذ هيكل قرأ ما كتبت بفتور ثم علق قائلا : مادام الخبر قد عرف، فلنكتبه بشكله الصحيح. وعلمت فيما بعد أنه عندما عرض الأمر على الرئيس الراحل جمال عبدالناصر فإنه رأى، رغم إعجابه بالمبدأ وموافقته عليه، أن عشرة فى المائة ستكون نسبة كبيرة.. ولذلك فإنه عمد إلى شطب عبارة «فى المائة» فاقتصر المبدأ على تعيين «عشرة» أعضاء فقط . وبقيت عدة أيام أتلفت إلى زملائى متسائلا فى حيرة « .. وكيف كان لى أن أعرف أو أن أطلع على هذا التغيير؟» وحده كان هيكل القادر على ذلك، وهذا ما أقصده من القول إن العمل معه لم يكن سهلا، بل إنه كان - فى الحقيقة - مرهقا !

الحفر فى الصخر

كذلك، لم يكن «الأستاذ هيكل» - رغم رعايته وحمايته لمن يعملون معه - يميل إلى الاستجابة لمن يطلب إليه منهم أن

يساعده مهنيا أو يمهد له الطريق .

وكان يقول فى ذلك إنه ليس «مرضعة أو حاضنة أطفال»، كما كان يحلو له أن يكرر أمام مستمعيه الصعاب التى واجهها فى بداية حياته منذ أن عمل محرر أخبار فنية فى «روز اليوسف» ، وحتى أصبح نائبا لرئيس تحرير مجلة «آخر ساعة» وهو لا يزال فى السادسة والعشرين من عمره، مرورا بالتجارب الصحفية التى مر بها والتغطيات المتميزة له فى حرب فلسطين وفى الحرب الكورية وثورة مصدق فى إيران.. وغيرها وعادة ما كان يختم حديثه بالقول إن على من اختار العمل الصحفى أن يشق طريقه بنفسه ولو اقتضى ذلك أن يحفره فى الصخر .

اجتمعت انا واثنان من أبناء جيلى فى «الأهرام» ذات يوم فى مطلع الستينات - الزميلين مكرم محمد أحمد وإحسان بكر - واستقر رأينا على أن نطلب مقابلة مع الأستاذ هيكل من أجل هدف محدد : أن يطلب منه توفير «فرص» لنا تتيح لنا أن نظهر قدراتنا - التى كان يسلم بها الجميع فى «الأهرام» وتساعدنا على التقدم مهنيا بوتيرة أسرع. ولكن الاجتماع جاء على عكس ما توقعنا، فقد شن هيكل علينا هجوما كاسحا، مركزا على «نقاط ضعف» وهمية فى عملنا.. وطالبنا، كالمعتاد، بأن نشرع أظافرنا لكى تظهر «خدوشنا» على صفحات «الأهرام»



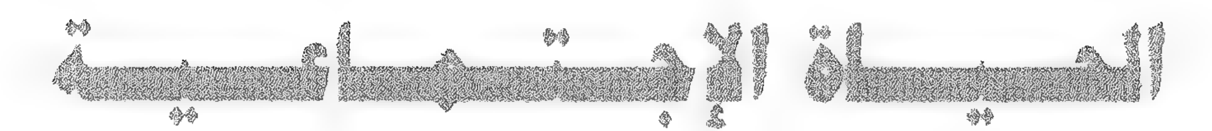
فهذا هو السبيل الوحيد للتقدم الذى ننشده. وخرجنا من اجتماعنا معه كاسفى البال، خاصة ونحن نعلم أن هناك من زملائنا من حصل على فرص مهنية ثمينة.. حتى دون أن يطلبها، ولكن الإنصاف يتطلب أن أذكر أن تلك كانت استثناءات، بعضها مفهوم ومبرر، وبعضها غير مفهوم. غير أن القاعدة الأساسية ظلت كما أرادها هيكل باستمرار : أن العمل هو طريق التقدم، وكان يحرص على أن يضع لذلك المعايير ويطبقها .

وهكذا، فقد ظل محمد حسنين هيكل قائد فريق يندر أن تجود بمثله الصحافة المصرية، واستطاع أن يعزز مكانة «الأهرام» على مدى السنوات التى رأس فيها تحرير الصحيفة العريقة وأن يجعل لها سمعة عالمية لاتنكر .

أما بالنسبة لمن عملوا معه ، فقد ظل دائما رئيسا يحظى بالاحترام والتقدير، وأستاذا يتقدم الجميع وقدوة فرضت على جيل بأكمله نموذجا جديرا بأن يتطلع إليه ويحاول الوصول إلى الذروة التى بلغها .

وهو اليوم لا يزال كذلك .

مظاهر

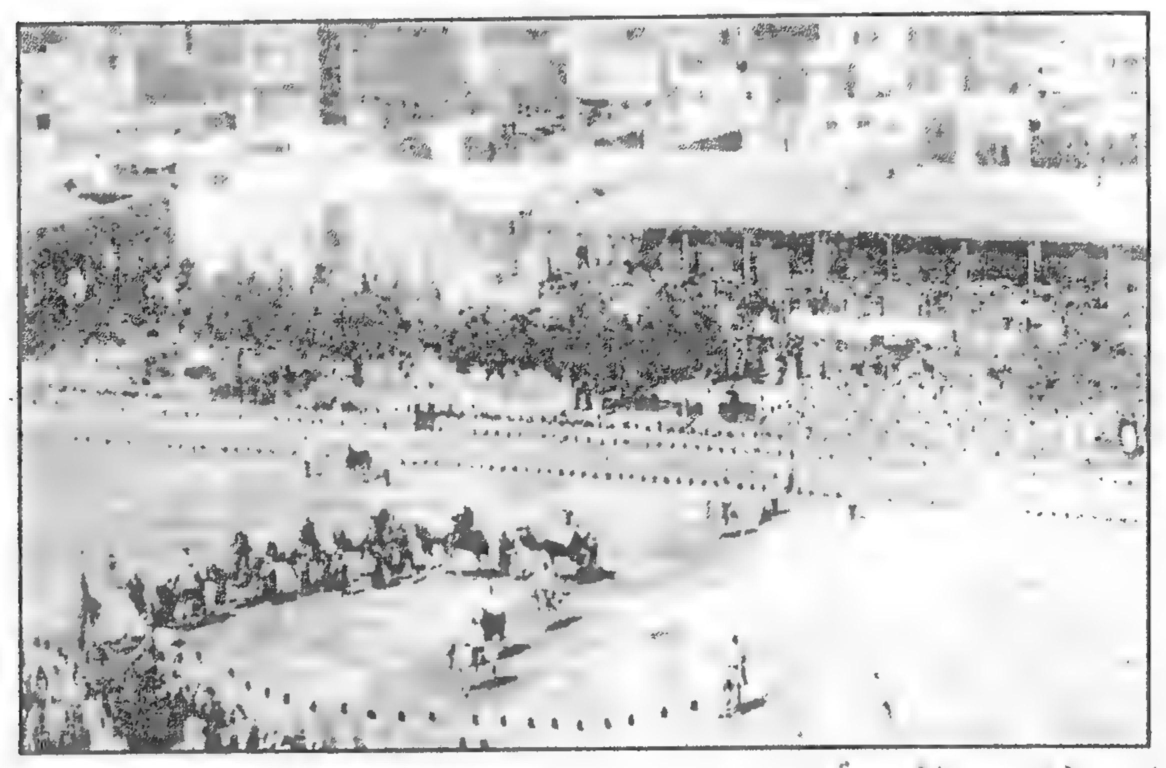


بقلم : د . فتحى صالح★

شهدت بداية القرن العشرين تغييرات جذرية فى استحداث العديد من التكنولوجيات الجديدة على البشرية ، مثل اكتشاف التيار الكهربائى واكتشاف التليفون والتلغراف وبداية صناعة السيارات والطائرات وكذلك صناعة السينما، ولكن كل هذه التكنولوجيات الجديدة لم تتبلور فى الاستخدام إلا بعد مرور عدة عقود، ولذا كان مظهر الحياة الإجتماعية فى أوائل القرن مختلفة كثيرا عن منتصفه . فى حين لم تختلف هذه المظاهر من منتصف القرن إلى نهايته . ففى أوائل القرن لم تكن هناك سيارات تجرى فى الشوارع فى حين فى منتصف القرن كانت الشوارع ممتلئة بالسيارات وفى نهاية القرن كان بها سيارات أحدث وأقوى ، وفى بداية القرن لم تكن هناك دور عرض سينمائية فى حين فى منتصف القرن كانت دور السينما منتشرة فى كل مكان ولم يتغير الحال كثيرا فى نهاية القرن . وفى هذا المقال نقوم باستعراض بعض مظاهر الحياة اليومية فى مصر فى أوائل القرن العشرين من خلال بعض صور الكارت بوستال التى تم نشرها عن هذه الفترة والتى تم الحديث

★ مدير مركز توثيق التراث الحضاري والطبيعي

عنها فى مقال سابق تحت عنوان «أحوال مصر فى أوائل القرن العشرين» - (الهلال عدد يونيو ٢٠٠٠) حيث نجوب معا فى مظاهر الحياة اليومية المختلفة من الاحتفالات الشعبية إلي عناصر المجتمع من بائعين ووسائل نقل إلى الحياة الإجتماعية بما فيها الاحتفالات والمقاهى والتعليم وخلافه .



الاحتفالات الشعبية

هناك العديد من الاحتفالات الشعبية التى كان لها وجود قوى فى أوائل القرن العشرين ثم اختفت أو تضاءلت مع الوقت . من هذه الاحتفالات ، احتفال «المحمل» أو «الكسوة الشريفة» حيث كانت تقوم مصر فى كل عام بتصنيع كسوة جديدة للكعبة الشريفة وتقوم باهدائها للمملكة العربية السعودية . وعند الانتهاء من تصنيع هذه الكسوة يتم إقامة احتفال كبير فى القاهرة يتقدمه عرض عسكرى ويطوف الأحياء المختلفة ويحتوى على عدد من الجمال تحمل الكسوة الشريفة وهدايا أخرى . وبعد الانتهاء من احتفالات القاهرة تبدأ رحلة قافلة الجمال فى حراسة كتيبة من قوات الجيش عبر الصحراء الشرقية لتعبر قناة السويس ومنها إلى سيناء ثم إلى فلسطين ومنها إلى أراضى المملكة العربية السعودية حيث تقطعها

من الشمال إلى وسط الحجاز لتصل إلى مكة المكرمة فى بداية موسم الحج فيقام لها احتفال خاص ويتم تركيبها بالكعبة المشرفة . وتزخر مجموعتنا من الكروت بوستال بالعديد من الصور لهذه الاحتفالات ابتداء من العروض العسكرية فى الميادين المختلفة إلى قافلة الجمال المحملة بالهودج المزوق إلى مناظر عبور القافلة لقناة السويس . وهكذا . والصورة التى تم اختيارها هنا هى للعرض العسكرى المصاحب للمحمل .



سحر الشرق

ظل الشرق يمثل للمجتمع الغربى خيالا ساحرا خاصة بعد أن زاره وعاش فيه مجموعة من الفنانين التشكيليين وصوروا مجتمعه بطريقة سحرية خلابة وخاصة الرسام الكبير دى لاكروا الذى عاش فترة فى شمال افريقيا، وأبدع فى رسم مجتمع السيدات فى هذه المنطقة أعطت إنطباعا راسخا عن سحر الشرق فى ذهن المجتمع الغربى . وها هى ذى مجموعة الكروت بوستال التى تم نشرها فى أوائل القرن تعطى مجموعة من الصور للسيدات المصريات فى ذلك العصر تعكس مرة ثانية هذا السحر بالشرق. وقد اخترنا هنا هذه الصورة لمجموعة من السيدات فى ملابس شرقية وفى تجمع يعطى نفس ايحاء لوحات دى لاكروا .



بائع العرقسوس

أصبح بائع العرقسوس ذكرى تكاد لا نجدها إلا قليلا خاصة بعد انتشار الثقافة الغربية وما تحمله من زجاجات الكوكاكولا والسفن آب والعصائر المعلبة . ولنا أن نتخيل أنه منذ حوالى ستين عاما لم تكن هذه المشروبات موجودة وعلى ذلك فلنا أن نتخيل على الفور البديل القائم فى هذه الفترة من أوائل القرن العشرين وهو بائع العرقسوس أو المنتجات الأخرى المثلجة ، والتى كان انتشارها فى كل الأحياء حيث كان يحمل الصاجات فى يديه ليصدر أصواتا تدل على وجوده فى الحى حتى تهرع الناس إليه لتروى عطشها . وبائعو العرقسوس الموجودون فى الصورة المنشورة يحملون دورقين أحدهما يحمل العرقسوس ويعلوه لوح من الثلج وربما يحمل الآخر أحد المشروبات الساخنة مثل الشاى أو القهوة .

الكتاب أو التعليم الأساسى

ظاهرة الكتاتيب كان لها وجود قوى فى بداية القرن العشرين حيث كان هناك تعليم متواز بين هذا النظام وبين مدارس رياض الأطفال للطبقات العليا من المجتمع، ونظام الكتاب هو نظام تعليمى بسيط ومنتشر ويشبه لما يسمى فى عصرنا الحالى بنظام الفصل الواحد . ويعتمد الكتاب أساسا على العلاقة الوثيقة بين الشيخ والتلاميذ حيث يلتف التلاميذ فى أغلب الأحيان على شكل حلقة (تشبه حلقة الذكر) ويكون الشيخ أو الأستاذ فى طرف منها ويعتمد

التدريس فيها على قوة التلقين حيث يقوم الشيخ بتلقين تلاميذه أسس العلوم المختلفة وخاصة علوم الدين . وهى طريقة فى التدريس ، عندما فقدناها ، فإننا فقدنا القدرة على الحفظ والقدرة على نشر التعليم الأساسى فى القرى والنجوع والقدرة على إيجاد العلاقة الوثيقة بين الملقى والمتلقى والصورة المنشورة هنا تعكس صورة حقيقية لكُتّاب فى أوائل القرن .



المزارات السياحية

فى الأونة القديمة لم تكن الطرق ممهدة بالقدر الكافى لزيارة الأماكن السياحية النائية مثل وادى الملوك ومعبد حتشبسوت وخلافه فلم تكن السيارات قد انتشرت بعد . وكذلك لم تكن بعض الطرق معبدة بالقدر الكافى لمرور المركبات التى تجرها الخيل لذا كان البديل لهذه المركبات هو صنع محفات خشبية على شكل مقعد يحملها أربعة رجال، ويجلس عليها الزوار من الأجانب حيث تحملهم إلى المزارات المختلفة . والصورة المرفقة والمطبوعة على كارت بوستال من ذلك العصر تبين مجموعة من السياح يحملهم مجموعة من الرجال على محفات خشبية لزيارة بعض المواقع الأثرية بمنطقة الكرنك .





«السقايين»

فى حين تنعم المناطق الحضرية بصفة عامة فى مصر فى الوقت الحاضر بشبكة المياه الحلوة التى تصل إلى جميع المنازل وإلى جميع الأدوار ، فإن الوضع كان مختلفا فى أوائل

القرن العشرين حيث كانت مناطق عديدة تفتقر إلى مياه الشرب الجارية . لذا كانت وسيلة الحصول على المياه إما عن طريق الحنفيات العمومية المنتشرة فى الأحياء المختلفة أو عن طريق «السقايين» الذين يجوبون الأحياء «بقرب» مصنوعة عادة من جلد الحيوانات، ويقوم «السقا» بتوزيع مياه الشرب على المنازل نظير مبلغ من المال . وهو ربما ما يقابل ما يتم الآن من بيع المياه المعدنية والطبيعية معبأة فى زجاجات بلاستيك . والكارت بوستال المختار هنا يمثل مجموعة من السقايين بعد أن قاموا بملء قربهم من النيل لتوصيل المياه إلى المنازل .

الرقص الشرقى

ربما كان الرقص الشرقي هو الفن الذى عاش تقريبا بنفس النهج على مر العصور . فنجد أن بعض الحركات التى تمارس في الرقص الشرقى حتى اليوم موجودة تقريبا كما هى على رسومات بعض الجدران ببعض المقابر التى بها مشاهد الحياة اليومية عند قدماء المصريين . ولذا فإننا نجد أن مشهد الرقص الشرقي فى كتاب وصف مصر الذى أنتجته الحملة الفرنسية منذ مائتين عام هو تقريبا نفس المشهد التى نجده في صور بداية القرن العشرين ولا نجد فيه اختلافا كثيرا عما نشاهده فى مشاهد الرقص الشرقى اليوم . وواضح من الصور والكروت بوستال التى تم العصور عليها فى أوائل القرن العشرين، أنه كان هناك ملهى شهير تقدم به الرقصات الشرقية بكثرة وهو «ملهى الدورادو» . وأما الصورة التى اخترناها من هذه الفترة ، فإنها لراقصة شابة رشيقة ترتدى ملابس رقص يحتار المرء فيها إن كانت هذه لراقصة من اوائل القرن أم لفتاة عادية تسهر فى شوارع باريس اليوم . وذلك سواء من حيث الموديل أو من حيث نوع القماش أو من حيث الألوان المستخدمة .

السايس

تطلق كلمة «السايس» اليوم على بعض العاملين الذين يقومون بحراسة السيارات والمعاونة فى ركن هذه السيارات سواء بالطريق العام أو بالجراجات . ولكن أصل هذه الصنعة يرجع للقرون الماضية قبل اختراع السيارات عندما كانت هناك العربات أو الكارتات التى تجرها الخيول وخاصة التى تتبع البلاط الملكى ، حيث كانت هذه الكارتات تقوم بجرها خيول مسومة ومزينة بطرق متعددة وكان يجرى أمام هذه المركبة والخيول إثنان أو أكثر من الرجال يرتدون زيا خاصا مكونا من سروال وصديرية مزركشة وعلى رأسه ما يشبه الطربوش المستعمل فى قبائل الصحراء الغربية حاليا . ويحمل فى يده عصا طويلة . وكل ذلك يمثل جزءا من الموكب الملكى أو الأميرى . وقد وجدنا صورة هؤلاء السياس مسجلة على العديد من الكروت بوستال التى تم الحصول عليها من ذلك العصر والصورة المختارة لاثنين هؤلاء السياس يسيرون أمام إحدى المركبات التى تجرها الخيل .



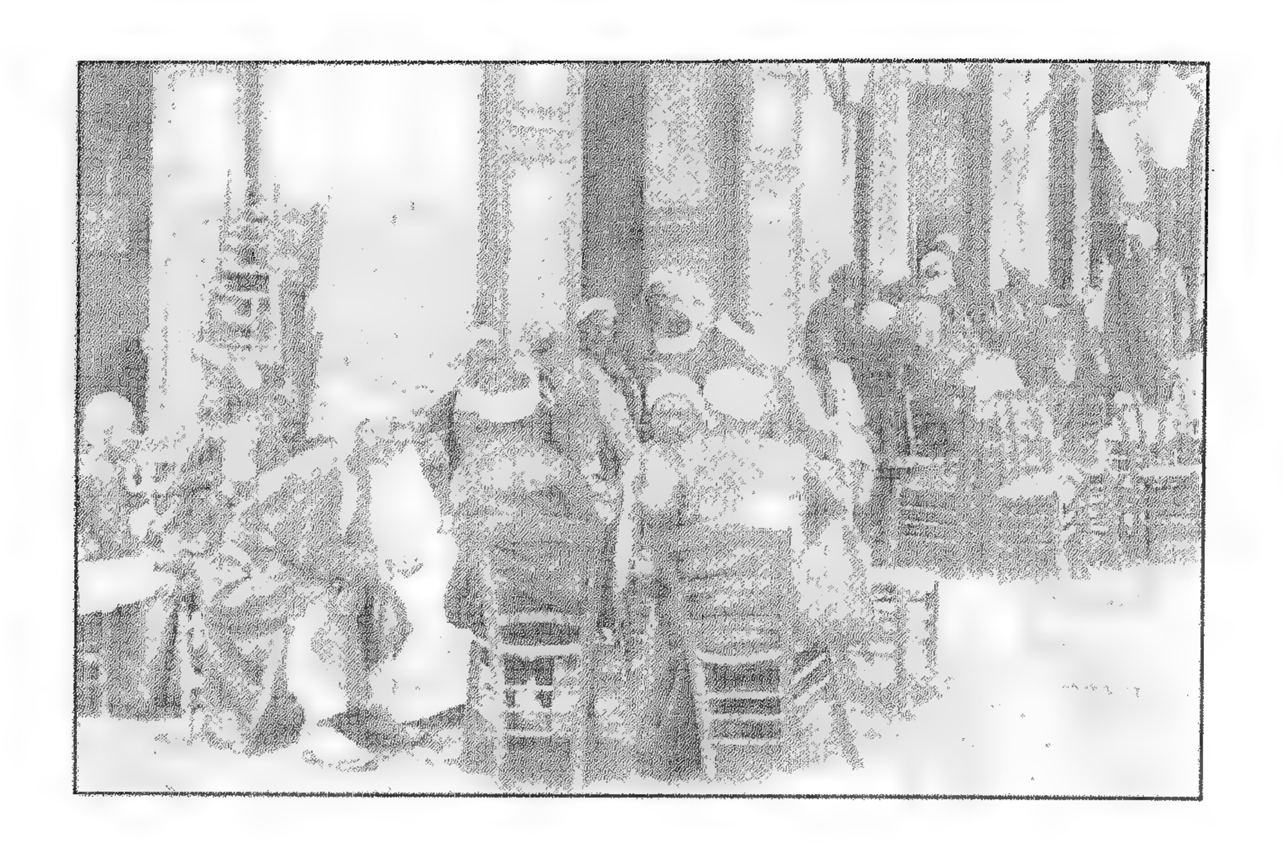


العربات الكارو

ربما كانت العربات الكارو هى الوسيلة الرئيسية لنقل المواطنين داخل البلاد إلى أن حلت محلها قبل منتصف القرن وسائل المواصلات العامة مثل الأوتوبيسات والتاكسيات وخلافه، ولذا كان كثرة وجود هذه العربات الكارو للعامة بجانب الكاريتات للخاصة هى الوسائل السائدة المنتشرة فى ذلك الوقت ، وبالرغم من تقدم وسائل المواصلات فى اواخر القرن العشرين حتى وصل إلى العديد من السيارات بجميع أنواعها والتراموايات ومترو الأنفاق وخلافه إلا أن العربات الكارو مازال لها وجود ، وإن كان بسيطا ، فى مجتمع اليوم . ولذا فإننا لا نستغرب صورة العربة الكارو الموجودة فى الكارت بوستال المطبوع من أول القرن نظرا لوجود هذه الظاهرة ولو بصورة أندر حتى اليوم ويمكن ملاحظة أيضا أن تاريخ هذا الكارت بوستال يحمل ٣ سبمتبر ١٩٠٠ .

المقاهى

تمثل المقاهى فى مصر خصوصا فى هذه الفترة من أوائل القرن العشرين متنفسا لعامة الشعب . وفى حين وجدت المقاهى على مستوى عال فى الفنادق الحديثة مثل الكونتننتال وشبرد وسميراميس وذلك لعلية القوم ، إلا أنه انتشرت فى نفس الوقت المقاهى الشعبية حيث يجتمع بصفة عامة الرجال . وقد تميزت هذه المقاهى الشعبية بالكراسى الخشبية ذات



القـاعـدة والمسند المصنوعـة من القش . ويكفى أن نذكـر أنه فى هذه الفتـرة عندمـا ظـهـرت صناعـة السـينمـا وكـانت فى البـداية على شكل أفـلام تسـجيلية ، ولم يكن هناك بـالطبع دور عرض بعد ، فكان المكان الطبيعى الذى تعرض فيه هذه الأفلام هى المقاهى المنتشرة، وبدأ هذا النشـاط فى الاسكندرية ثم إنتـقل بعـد ذلك إلى القـاهرة إلى أن بـدأ ظـهـور دور العـرض المتـخصـصة . وهـا نـحن نرى اليوم بعض المقاهى بدأت تعود ثانية لهذا النهج بوضـع شـاشـة كبيرة يتم عرض أفلام فيديو عليها .

وصـورة المقهى المعروضـة فى الكارت بوستال المرفق تتميز بأنها مقهى شعبى من أوائل القرن نجد فـيهـا تشابهـا مع المقاهـى الشعبية الموجودة اليوم مـع ملاحظة التناغم فى الكراسى الخشبية وملابس المترددين على هذا المقهى من الجلابيب والطواقى .

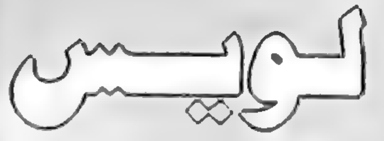
وأخيرا فإن هذه الجولة السريعة فى هذه المجموعة من الكروت بوستال والتى يرجع تاريخها إلى اوائل القرن العشرين تحملنا فى جولة من المظاهر المختلفة للمجتمع، وتعطى صورة مقارنة بمجتمع اليوم بعد أن دهمته تكنولوجيات القرن العشرين من صناعات كهربية والكترونية ووسائل اتصالات وعمران وخلافه. فيا ترى أى المجتمعين كان أكثر هناء وسكونا وسلاما .



بقلم :

محمد ابراهيم أبو سنة

فى ذكراه العاشرة



لويس عوض
تنوع الريادة

عاش المفكر والناقد الكبير الدكتور لويس عوض قلقا مقلقا مغامرا تواقا إلى التجديد والتغيير. راد كثيرا من الحقول المعرفية وترك آثارا لها انطباعاتها العميقة فى ميدان الشعر والنقد والفكر، وانحاز طوال حياته للجديد ولكنه كان يعرف المناطق الحية فى القديم. لعب دورا لاينكر فى ترسيخ حركة الشعر الحديث فى أدبنا العربى المعاصر، كما خاض بشجاعة منقطعة النظير معارك ضد التخلف والجمود والتطوير فى مجال الثقافة، أثار الكثير من الغبار وحرك الساكن وتلقى الإعجاب والعداء دون أن يحيد عن منهجه الثورى الذى جعله راندا متنوع الريادة، فقد بشر بالشعر الحديث فى ديوانه «بلوتولاند» الذى صدرت طبعته الأولى فى عام ١٩٤٧ وكتب له مقدمة عاصفة، طالب فيها بكسر عنق البلاغة والخروج من عمود الشعر كما كتب الرواية «العنقاء أو تاريخ حسن مفتاح» كما ترجم القصيدة الطويلة «بروميثيوس طليقا» للشاعر الإنجليزى بيرس بيش شيلى وقصيدة شيلى فى رثاء جون كيتس، وكتب الكثير عن حركات التجديد والمذاهب الأدبية ورواد الفكر العالمى .

وفى سلسلة نقاد الأدب التى تصدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب صدر كتاب «لويس عوض» للدكتور عبدالناصر هلال المدرس بجامعة حلوان، وقد شمل الفصل الأول الجذور والتكوين ومعالم حياة لويس وثقافته ومؤلفاته. كما تناول الفصل الثانى التراث بين الرفض والقبول. ولويس عوض بين الشعر التقليدى والجديد ولويس عوض وثورة الشعر العربى الحديث ولويس عوض والمذاهب الأدبية والفنية والنقدية. كما تناول الفصل الثالث منهج لويس عوض فى نقد الشعر بين النظرية والتطبيق.

يقول الدكتور عبدالناصر هلال: «ولويس عوض واحد من هؤلاء النقاد العرب الذين اسهموا فى تأسيس الحركة النقدية العربية المعاصرة إذ يعد نتاجا لتلاقح ثقافات متعددة ومنظومة فكرية من طراز خاص. كما أنه يمثل فى حياتنا الثقافية والفكرية منذ الأربعينيات مجموعة من القيم والمعانى والأفكار التى أثرت الإبداع فى بلادنا. فكانت حيويته فى أكثر من مجال ووسعت آفاقه فى أكثر من مرحلة. فقد حرك مفاهيم كانت تتسم بالثبات والاستقرار والاطمئنان جعلها عرضة للحوار والمناقشة.

٥٠ كتابا فى شتى المجالات

استطاع لويس عوض أن يثرى حياتنا الفكرية والثقافية إذ أضاف للمكتبة العربية خمسين كتابا تمثل انجازه فى شتى المجالات.

ولد لويس عوض فى ٢١ ديسمبر ١٩١٤ فى قرية شاردنه التى تقع على الجانب الشرقى للنيل فى محافظة المنيا. شب فى أسرة متوسطة تتكون من عشرة أبناء كان هو أوسطهم، عاش خمس سنوات من عمره وهى أولى سنوات حياته فى الخرطوم بالسودان حيث كان والده يعمل كاتبا فى إحدى الدوائر الحكومية، ثم عادت الأسرة إلى المنيا فى عام ١٩٢٠ حيث التحق بمدرسة المنيا الابتدائية ثم التحق بعد حصوله على الشهادة الابتدائية بالمدرسة الثانوية. ثم انتقل إلى القاهرة بعد هذه المرحلة ليدخل كلية الآداب جامعة فؤاد الأول «القاهرة حاليا»، وكان طالبا متفوقا لفت أنظار اساتذته وعلى رأسهم عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين الذي رشحه للسفر فى بعثة إلى انجلترا للحصول على الدكتوراه وعمل بعد عودته بنفس القسم بالكلية . تعرف فى عام ١٩٤٧ على الفتاة الفرنسية فراتس وتزوجها ولكنه لم ينجب طوال حياته سوى كتبه الخصبة، وقد عمل بعد فصله من الجامعة بالأمم المتحدة وجامعة برنستون بالولايات المتحدة الأمريكية ثم عمل مسئولا ثقافيا بجريدة الجمهورية فى الفترة من عامى ١٩٥٣، ١٩٥٤، ووضع على رأس الصفحة الثقافية التى يشرف عليها شعار «الأدب فى سبيل الحياة »، وخلال فترة الوحدة بين مصر وسوريا فيما عرف بالجمهورية العربية المتحدة عمل فى جامعة دمشق.

ويقول لويس عوض إنه مازال يحتفظ بذكرى طيبة لهذه الفترة التى أمضاها في دمشق. واعتقل لويس عوض فى ٢٨ مارس ١٩٥٩ حيث كتب مسرحية «الراهب» خلال فترة اعتقاله، وبعد خروجه من المعتقل عمل مديرا لمكتب وزير الثقافة الدكتور ثروت عكاشة ثم انتقل فى عام ١٩٦٣ ليعمل مستشارا ثقافيا لصحيفة الأهرام حيث أشرف على الملحق الثقافى الأسبوعي لجريدة الأهرام، والذى حمل إلى القراء نتاج كبار الشعراء والروائيين والنقاد وأهم الأحداث الثقافية فى مصر والوطن العربى .

وتعد هذه المرحلة أزهى مراحل لويس عوض الثقافية حيث كان يتمتع بشهرة كاسحة وتأثير عميق فى الرأى العام الأدبى، ولمعت بفضل شجاعته مجموعة كبيرة من أسماء الشعراء وكتاب القصة والروائيين وكرس جهدا كبيرا للدفاع عن حركة الشعر الحديث خاصة عندما أوصت لجنة الشعر بالمجلس الأعلى للفنون والآداب بمنع الشعر الحديث من النشر والإذاعة، حيث بادر لويس عوض بالاتصال بزملائه من النقاد واتصل بالدكتور طه حسين الذى وقف كعادته وبمصداقيته وقوة تأثيره إلى جانب حرية الإبداع والتجديد، ونجا الشعر الحديث فى مصر من الحظر بفضل شجاعة هذا الرائد الكبير ومعه كوكبة من زملائه النقاد من أمثال الدكتور عبدالقادر القط والدكتور شكرى عياد والدكتور عز الدين اسماعيل وغالى شكرى وغيرهم.

مر لويس عوض بفترة مختلفة من حياته خلال السبعينيات والثمانينيات حيث اهتزت مكانته فى الأهرام وسافر للعمل فى كاليفورنيا، وتنقل بين الأهرام والمصور إلى أن انقطع للكتابة والنشاط الثقافى ثم هاجمه المرض العضال الذى أودى بحياته فى فجر التاسع من سبتمبر سنة ١٩٩٠. حصل لويس عوض على وسام الاستحقاق من الطبقة الأولى من الرئيس جمال عبدالناصر فى عيد العلم فى عام ١٩٦٤ كما حصل على جائزة الدولة التقديرية فى عام ١٩٨٩ . يتحدث لويس عوض عن المؤثرات الأساسية فى تكوينه الفكرى والثقافى خلال فترة بعثته فى انجلترا فيقول «فى كمبريدج رأيت الشعراء الكبار : أودن وستيفن سبندر وسيسل دى لويس وهم يأتون إلينا ويحاضروننا وأذكر مناظرة فى اتحاد الجامعة عنوانها: الأمبراطورية البريطانية تهديد مستمر لسلام العالم.

وكان المشاركون فى المناظرة من كبار المفكرين والاساتذة بالاضافة إلى الطلاب. هذا الجو من الحرية الفكرية كان له أثره فى ترسيخ بعض المعانى التى يصعب اقتلاعها وكنت ما إن وصلت إلى لندن فى عام ١٩٣٧ حتى أخذت اتردد على المتحف البريطانى إذ بقيت فى العاصمة شهرا قبل التوجه إلى كمبريدج، وقد تكرست فى داخلى طيلة الفترة التى أمضيتها فكرتان

وقيمتان هما: الاشتراكية والديمقراطية» أعجب لويس عوض منذ كان طالبا فى المرحلة الثانوية بشخصية وفكر عباس محمود العقاد ولكنه بعد أن انتقل الى القاهرة تعرف إلى سلامة موسى وطه حسين.

رومانسيا وعقلانيا

وظلت هذه الشخصيات محور التأثير فى تكوينه الفكرى يقول لويس عوض:

كنت أعاني من البلبلة بطريقة أخرى هي التناقض - داخليا - بين العقاد وسلامة موسى وطه حسين ، فقد تواجد الثلاثة معا وقد أحطتهم بدرجة عالية من التقدير، وهكذا وجدتني رومانسيا يترجم شيلى، وحينا عقلانيا ديكارتيا، وحينا ثالثا يساريا أوروبيا من القرن الماضى» ويقول عن صلته المبكرة بالعقاد :

- كان أول كتاب قرأته للعقاد هو كتاب الفصول وكنت يومئذ فى الثانية عشرة من عمرى وفهمت أكثر ماجاء فيه» ويقول :

«كنت أحسب زمنا أن الذى عرف جيلى بفكرة الاشتراكية هو سلامة موسى فإذا بى أجد أن العقاد هو أسبق الذين وضعوا أسسها النظرية فى بلادنا، ولولا أننى أحب الاحتياط فى القول لقلت إن العقاد هو أبو الاشتراكية المصرية، ففى كتابه الفصول الذى نشر عام ١٩٢٢ بحث مستفيض عن سر تطور الأمم يدافع فيه عن المذهب الاشتراكى»، وهو يتحدث عن التزامه فى الأدب فيقول: «أنا من المؤمنين بضرورة الالتزام فى الأدب والفن بل أومن أن لكل أدب وفن راق رسالة يحملها الى الكافة من بنى الانسان، وأومن بأن الالتزام ينبغى أن يقوم على المعرفة بمعني الحكمة والاختيار فإذا خلا من الاختيار الحر تحول الى الزام. وعندى أن الالتزام بالانسان وقضاياه مقدم على كل نوع من الالتزام، وتحرير الانسان عندى مقدم على تحرير أى طبقة من طبقات المجتمع، ولاتناقض بين هذا وبين الدعوة الى تحرير الطبقات الشعبية لأن تحرير الطبقات الشعبية هو المقدمة اللازمة لتحرير الانسان» لقد أبدع لويس عوض فى معظم المجالات التى تناولها يتحدث عن علاقة الواقع بالتراث فيقول :

«إن الانسان لايستطيع أن يكون معاصرا ولا حتى أن يكون شاعرا أو فنانا إلا إذا استوعب التراث استيعابا كافيا. ولايخفى أن الاستيعاب شىء والقبول شىء آخر فمن الممكن أن يستوعب الانسان التراث ويثور عليه. إذن فعلينا أن نقرأ القدامى وعلينا أن نستوعبهم ولكن ليس علينا بالضرورة أن نتقبلهم».

لقد بذل الدكتور عبدالناصر هلال جهدا طيبا فى الإحاطة بالعالم المترامى الأطراف لابداع لويس عوض واعتمد على أهم المصادر والمراجع وتأمل سيرة حياته وكتاباته، ولكن لويس عوض يظل فى حاجة إلى مزيد من الجهد للكشف عن الاضافة الحقيقية التى قدمها للتراث الأدبى والفكرى ولكن الكتاب يضىء كثيرا من الجوانب فى هذه الشخصية الكبيرة .

بقلم
محمود بقشيش

استجابة إلى التيار النقدى الذى يدعو أصحابه إلى التمسك بالجذور الثقافية فى مواجهة العولمة، نظم المركز القومى للفنون معرضا لفن عربى خالص هو فن «الخط العربى»، وقرر صناع القرار - لسبب ما - أن يقام هذا المعرض كل ثلاث سنوات لفنانى الخط من المصريين، ومن ناحيتنا فإننا نتوقع له أن يصبح فى المستقبل القريب «ترينالى» أو «بينالى» عربى.

عرس الخط العربي

فى قصر الفنون



عميد الخط العربي سيد ابراهيم

لقد تجاوز بعض مبدعي هذا الفن حدود العالم العربى والإسلامى إلى آفاق الغرب الأوربى مثل شيخ الخطاطين «سيد إبراهيم» (١٨٩٧ ـ ١٩٩٤) ولم يكن خطاطا بالغ المهارة، فائق الرهافة فقط، بل كان واسع الثقافة أيضا. عرفت باسمه لأول مرة من أستاذى المرحوم «محمد نجم» سنة ١٩٥٠. وكان أستاذا للخط، يتميز بالأناقة والدقة والتعفف وطيبة القلب، لهذا أحببناه وتعلّقنا بفن الخط. وبالنسبة لى كنت مفتونا بلوحات فنان الخط الكبير «محمد وجدى». وكان مشغله قريبا من مدرستنا عندما كنت طالبا بالمدرسة الإعدادية بمدينتى «بورسعيد» .

وكنت أختلس إليه النظر وهو منكب على لوحاته دون أن أتجاسر على اقتحام خلوته، على النقيض من الفنان «طه شحاتة» (أكثر خطاطى ورسامى بورسعيد شعبية) ، كنت أختار المكان المناسب الذى يسمح لى بتأمل حركة ريشته ساعات طوالا. مبهورا بقدرته على التركيز وسط زحام الأحياء الشعبية. وظهر بعدهما فنان الخط «خضير» الذى أتيح له أن يتمتع بألق إعلامى أكبر من سابقيه وهاهو نفسه يقوم الآن بدور قوميسير المعرض باعتباره رئيسا لجمعية الخط التى أسهم أعضاؤها بنصيب الأسد.

المخضرمون

أختير «سيد إبراهيم» ضمن خمسة عشر فنانا من أفذاذ هذا الفن وهم ؛ ابراهيم المصرى وحسين أمين عجاج وسيد عبدالقادر عبدالله وعبدالرحمن عبوش وعبدالمنعم شرقاوى وكامل إبراهيم الاسكندرانى ومحمد إبراهيم الاسكندرانى ومحمد إبراهيم محمود ومحمد العيسوى هنداوى ومحمد رضوان على ومحمد سعد حداد ومحمد عبدالقادر عبدالله ومحمود إبراهيم سلامة ومصطفى لطفى محمود. بالإضافة إلى هؤلاء الكبار فقد ضم المعرض واحدا وسبعين فنانا من أجيال مختلفة، يقدمون بانوراما للخط العربى تستحق التأمل وتغرى بالدراسة وبإثارة الأسئلة .

خبيئة وكالة الغورى

احتلت خبيئة وكالة الغورى موقع الصدارة وهى تضم ثمانين لوحة أنجزها خطاطون أفذاذ عربا وأتراكا خلال الفترة من ١٥٥٨م إلى ١٩١٦م وقد اكتشف هذا الكنز الذى لا يجد له مستقرا فى متحف يليق به حتى الآن الفنان والناقد المعروف «عز الدين نجيب»!

تلاحظ العين الناقدة فى انتقالها من لوحات جيل إلى جيل تخفّف الأجيال اللاحقة ـ تدريجيا ـ من تلك الأسس

المرجعية وتنامي الاختيارات الفردية، فالخط العربي مثله مثل أي فن : كيان حي، يؤثر ويتأثر. ينمو بالحوار ويتحلل بالعزلة. ولحسن حظ الخط العربي فإنه يتمتع بمرونة لا نظير لها في خطوط اللغات الأخرى ويستطيع أن يعبر عن كل الحالات الظاهرة والباطنة: يستطيع عازف الخط العربي البارع أن يجسد ممكنات الغناء والرشاقة من طراوته الأنثوية ويرسم الجلال والوقار باستقامات الخط الكوفي. كل حرف في العربية له شكله ومعناه، حتى النقطة لها حضورها الفعال في جدلية «المبنى والمعنى» وقد ساعد ذلك الثراء في بنية اللغة العربية فناني الخط على إنجاز تحف رائعة على مسطحات غير مستوية وعلى خامات جد مختلفة مثل النسيج والمعادن والخزف والزجاج والجص إضافة إلى الورق بكل أنواعه. وكان من الممكن أن يظل هذا الفن محتلا لإحدى ذرى الإبداع المرئي لولا الطباعة الحديثة وشراهتها إلى الإنتاج الواسع وتكدس المال مما دفع الكثيرين إلى الغياب في ظلال اليأس الكثيفة وأوقف تسابقنا إليومي إلى الصفحات الأولى من جرائد الصباح لنستمتع بجمال الخطوط. تأمل الحروف الجميلة التي صممها فنان الخط العظيم «محمد جعفر» في النسخة الأولى من القرآن الكريم التي طبعتها المطبعة الأميرية في عهد الملك فؤاد والكتب التي بين أيدينا الآن، لتدرك الفارق الشاسع بين الجمال والدمامة .

محاولات التخطي

ليس معنى هذا أنني أدعو إلى نبذ أي محاولة للتغيير، ذلك أن التغيير أمر لا مفر من حدوثه وأي جديد يصيبنا بصدمة إلى أن نعتاده ونتمسك به بحكم الألفة. هناك من الفنانين المصريين من درس قواعد الخط، غير أن دراسته في مجال فن آخر هو فن «الجرافيك» قد أغوته بتقديم أشكال خطية تستجيب لشره ماكينات الطباعة، وتعبر المسافات بين أشكال الحروف العربية والحروف اللاتينية. وتخلى بإرادته عما تمنحه الحروف العربية من إمكانات في الاستدارة والتداخل والتزوية، واكتفى بالتصفيف الأفقي مثلما فعل الفنان المعروف «فتحي جودة» وقد انشغل طويلا بتصميم وتنفيذ علامات إرشادية، وقد قام بتوريد حروف طباعية عربية وإفرنجية مطابقة للمواصفات ، خاصة بالطرق، وهو يكتفي من الحرف العربي بحدوده الدنيا المجردة للدرجة التي تشعرك بميله إلى قطع الصلة بجذر الحرف العربي طموحا إلى تأسيس مرجعية خاصة به. وتتأرجح لوحاته بين مؤثرين مختلفين هما : أسلوب التكعيبية التحليلية وأسلوب «الفن البصري» واختار

قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق ومن شر غاسق إذا وقب
ومن شر النفاثات في العقد ومن شر حاسد إذا حسد

للفنان
إبراهيم
المصري

ن والقلم وما يسطرون

للفنان حامد العويضي





للفنان
أحمد حسن
الأبعر

للفنان محمد العصري

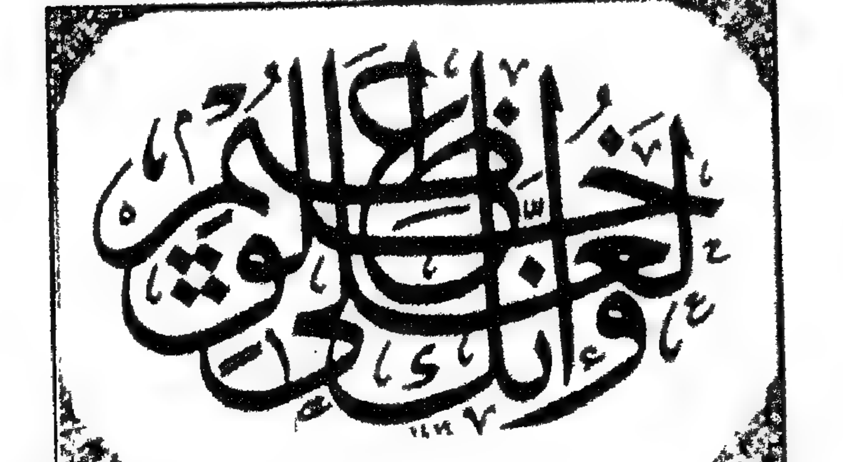
الفنان «منير الشعراني» طريقا آخر للحداثة. وهو لا ينسى أن الحرف العربى قد ارتبط بلغة القرآن الكريم وبكتابات المتصوفة وأشعارهم. فى لوحاته تجلت روحانية الحروف، خصوصا حرف الألف الذى ظهر جليلا، شامخا، متسقا مع روح النصوص الصوفية التى استلهمها وللحق فقد كان «منير الشعرانى» «دينامو» هذا المعرض وهو الذى كتب نص الدعوة وصمم الميدالية التى وزعت على الأحياء من المكرمين، وقد دعى «الشعرانى» من بين فنانى الخط ليكون الفنان العربى الوحيد الذى شارك فى مهرجان «الهضاب السبعة» الذى أقيم فى «برلين» منذ ٥/١٤ وسيستمر حتى نهاية أكتوبر ٢٠٠٠ وقد أقيم هذا المهرجان بمناسبة استقبال القرن الحادى والعشرين. وكانت غاية هذا المهرجان الإجابة عن سؤال : «ماذا قدمت الإنسانية فى مجالاتها الإبداعية السبعة». وقد اشترك «الشعرانى» فى «هضبة الفنون» وكانت تحمل عنوان «الحلم» وعرضت لوحاته الخطية فى قسم «فنتازيا». ودار موضوع لوحاته حول ملحمة جلجامش .

تراوب الحداثة

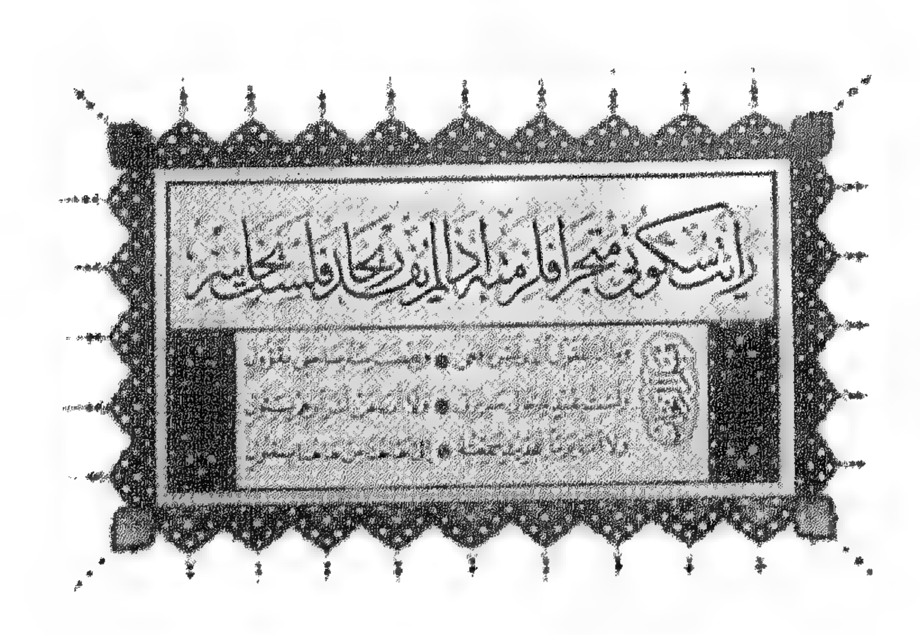
إذا كان الفنان «فتحى جودة» قد ضحى بالأسس المرجعية للخط العربى بدعوى ابتكار منتج جديد، متفرد، يدين بالولاء لصاحبه أولا ثم «لمطالب المطبعة والشارع ثانيا فإن الفنان «أحمد الأبحر» يتخذ طريقا مغايرا ، فلا يزال متمسكا بالقواعد وبالعطر الروحانى للحروف وبموسقها بأن يمنح حرفا أو نقطة من عناصر الكلمة موضع البطولة ونقطة الارتكاز والجذب ، وتقوم الألوان بدورها الساحر فى جذب العين إلى مسطح اللوحة العامرة بالصراحة اللونية والتقابل الذى يبدو محتدما بين الأزرق والأحمر ، ويظهر الضوء عند الحواف أشبه بالنصال النافذة. وعلى الرغم من الحالات المحتدمة التى يجذب بها الفنان متلقيه فإنه يبدو حريصا على بناء أشكاله أو نحتها، ولاشك أن تخرجه فى كلية الفنون الجميلة (قسم التصوير) قد ترك آثاره على لوحاته الخطية.

أين المرأة؟!

السؤال الذى يطرح نفسه بشدة بعد جولة بين عشرات اللوحات الخطية التى أبدعها رجال: لماذا توارت المرأة وأحجمت عن المشاركة: ألا توجد فنانات للخط العربى؟!. والحقيقة أنه توجد. وكان يتعين على مستشارى الوزارة أن يبحثوا وكان على المركز القومى أن يقدم (كتالوج) موثقايرقى إلى مستوى هذا الحدث التاريخى. من المعروف تاريخيا أنه فى



للفنان
محمود إبراهيم
سلامة



للفنان
سيد
إبراهيم

العصر العباسي قد ظهرت فنانة للخط العربي واسم شهرتها «شُهدة» واسمها الحقيقي (زينب بنت أحمد بن أبي الفرج البغدادي) وإذا كان هذا قد حدث في العصر العباسي فقد ظهرت في القرن العشرين فنانتان عراقيتان، الأولى اسمها: (جنة) والثانية اسمها: (فرح). واللافت للنظر أنهما تتلمذتا على أستاذ أساتذة الخط الفنان المصري الفذ «سيد إبراهيم».

ملاحظة هامة

كان الإقبال على هذا المعرض كثيفا وازادت كثافته عند فشل قمة «كامب ديفيد» ألا يعني هذا إعلانا عفويا من الناس على مؤازرة الحق الفلسطيني والدفاع عن الوجود العربي؟



استعراض الألفية فى قبة لندن

رسالة اسكتلندا

مشاهد من نزهة فى بلاد القلب الشجاع



ايماكس مجسما فى لندن

بقلم : مصطفى درويش

هى نقطة فى محيط، كان يطلق عليه فى كتبنا اسم بحر الظلمات.. وذلك وقت رحلة كريستوفر كولمبس، قبل أربعمائة عام.

وتلك النقطة عبارة عن جزيرة صغيرة، نكاد لا نراها بالعين المجردة، حتى لو استعنا فى البحث عنها بخريطة مكبرة لاسكتلندا، وجزر الهبريد، الواقعة إلى الغرب من ساحلها المطل على المحيط الأطلسى، بأمواجه المتلاطمة، والمفترسة فى بعض الأحيان.

وحتى وقت قريب ، لم أكن على علم بوجود تلك الجزيرة الأصغر، على الخريطة، من رأس الدبوس.

ولولا افتتاحية أبدعها خيال الموسيقار الألمانى «فيلكس مندلسون»، قبل مائة وسبع وستين عاما وعند سماعها عبّر الموسيقار يوهان براهمز - وهو من هو فى دنيا الموسيقى - عن استعداده للتضحية بجميع أعماله، مقابل أن يكون فى إمكانه إبداع افتتاحية بنفس المستوى .

لولاها لاستمر عدم علمى بتلك الجزيرة إلى يومنا هذا ومن باب أولى لما عرفت اسمها، ولما عملت على أن تكون قبلتى، أرنو إلى شطآنها، حتى إذا ما مستها قدماى، كان ذلك خير ختام لأول، وربما آخر رحلة تتيح لى زيارة أرض القلب الشجاع.

احتلال وأبطال

وكما هو معروف فصاحب القلب الشجاع هو «ويليم والاس» بطل المقاومة الأسكتلندية لقوات الاحتلال الانجليزى لبلاده، بأمر من الملك الطاغية «ادوارد الأول» وذلك قبل سبعة قرون من عمر الزمان (١٢٩٨ - ١٣٠٣).

هذا ولم يذع صيت ذلك البطل عندنا، إلا بفضل فيلم «القلب الشجاع» (١٩٩٥)، الفائز بخمس جوائز أوسكار، بينها جائزتا أفضل فيلم ومخرج «ميل جيبسون».

وقد تقمص الأخير بجدارة شخصية «ويليم والاس» .

وأعود بعد هذا الاستطراد الشارح إلى الجزيرة والافتتاحية لأقول إن «مندلسون» قام بزيارة «جزر الهبريد» ، قبل انتهائه من إبداع افتتاحيته المعروفة تحت اسم تلك الجزر، مقرونا باسم «كهف فنجال» ، وهو كهف موجود.. بواحدة من تلك الجزر، اسمها «اصطفا».

والسؤال لماذا لا يرد ذكر تلك الافتتاحية إلا مقرونا بجزر «الهبريد»، وبالذات «كهف فنجال»؟

والحق، أننى لم أجد إجابة شافية على هذا السؤال إلا بعد أن أصبحت جزيرة «اصطفا» على مرأى البصر، ليس بينى وبين شطآنها سوى بضع خطوات.

وفى زمن «مندلسون» لم يكن الوصول إلى تلك الجزيرة أمرا سهلا، وذلك بسبب ما كانت تفرضه سطوة الطبيعة من حوائل وعقبات.

ثورة الاتصالات

فمثلا كان على الملكة فيكتوريا ، صاحبة الأمر والنهى فى شئون إمبراطورية لا تغرب عنها الشمس، أن تركب هى وزوجها الأمير ألبرت وأولادهما مخاطر السفر برا وبحرا، حتى يصلوا ، فى أمان ، إلى كهف فنجال «١٨٤٧».

أما فى زماننا ، فكل من ينشد الاستمتاع بدهشة ذلك الكهف، ما عليه إلا أن يستقل الطائرة إلى لندن، ومنها إلى جلاسجو، فميناء اوبان، حيث يستقل عبارة إلى جزيرة «مول»، ومنها بزورق بخارى إلى جزيرة «اصطفا»، حيث الكهف المنشود، كل ذلك فى بضع ساعات.

وعندما عقدت العزم على إلقاء نظرة على «كهف فنجال» ، ربما لن تزيد مدتها

على دقائق معدودات، عندئذ، استبعدت . بطبيعة الحال ، شد الرحال إليه بوسائل الانتقال السائدة أيام «مندلسون» والملكة فيكتوريا، وذلك بحكم أنها وسائل عفا عليها الزمان.

وكذلك، استبعدت السفر بالطائرة إلى لندن، ومنها إلى اسكتلندا، مفضلا السفر جوا إلى ألمانيا ، ومنها السفر بالسيارة عبر هولندا، فبلجيكا، إلى ميناء «كاليه» فى فرنسا، حيث نستقل نحن الأربعة ، أنا وشقيقتى الوحيدة، وابنها الوحيد وزوجته وسيارته القوية، العفية، عبارة، تجتاز بنا المانش إلى ميناء دوفر .

وبتلك السيارة نتوجه إلى اسكتلندا ، عبر انجلترا حتى نصل فى نهاية المطاف إلى كهف فنجال.

ومنه نعود أدراجنا، مرورا بجلاسجو، فبرمنجهام، ثم دوفر، حيث نجتاز البحر، عبر نفق المانش، بواسطة قطار من طابقين، يحملنا، ونحن داخل السيارة، حتى بر الأمان فى فرنسا، وكأننا فى فيلم من أفلام الخيال العلمى، تدور أحداثه فى زمن غير زماننا ، وعلى سطح كوكب غير كوكبنا .

ألفية لندن

وكانت لندن أول محطة نتوقف عندها، ونحن فى الطريق إلى الشمال.

وأول ما لفت نظرى فى العاصمة البريطانية هو أعمدة النور فى شوارعها، وقد ازدانت بزهور جرى تنسيقها على نحو يسر الناظرين.

كما لفت نظرى الاحتفال بالملكة الأم «اليزابث» وقد بلغت المائة من عمرها، والصواريخ النارية، تنطلق فى سماء ميدان الطرف الأغر، تكريما لها، وفرحا بحياتها كما عاشتها أخذا وعطاء.

ومما لفت نظرى فى مجال الثقافة.

أولا وجود دار سينما، قريبا من جسر ووترلو، مخصصة لعرض الأفلام المنتجة بطريقة «آيماكس».

وفى تلك الدار شاهدت فيلما مجسما «لقاء فى البعد الثالث»، وياله من لقاء مع سينما مستقبل، علينا أن نستعد له ، بدءا من الآن.

وثانيا قبة «جرينويش» التى جرى تشييدها احتفالا بالألفية.

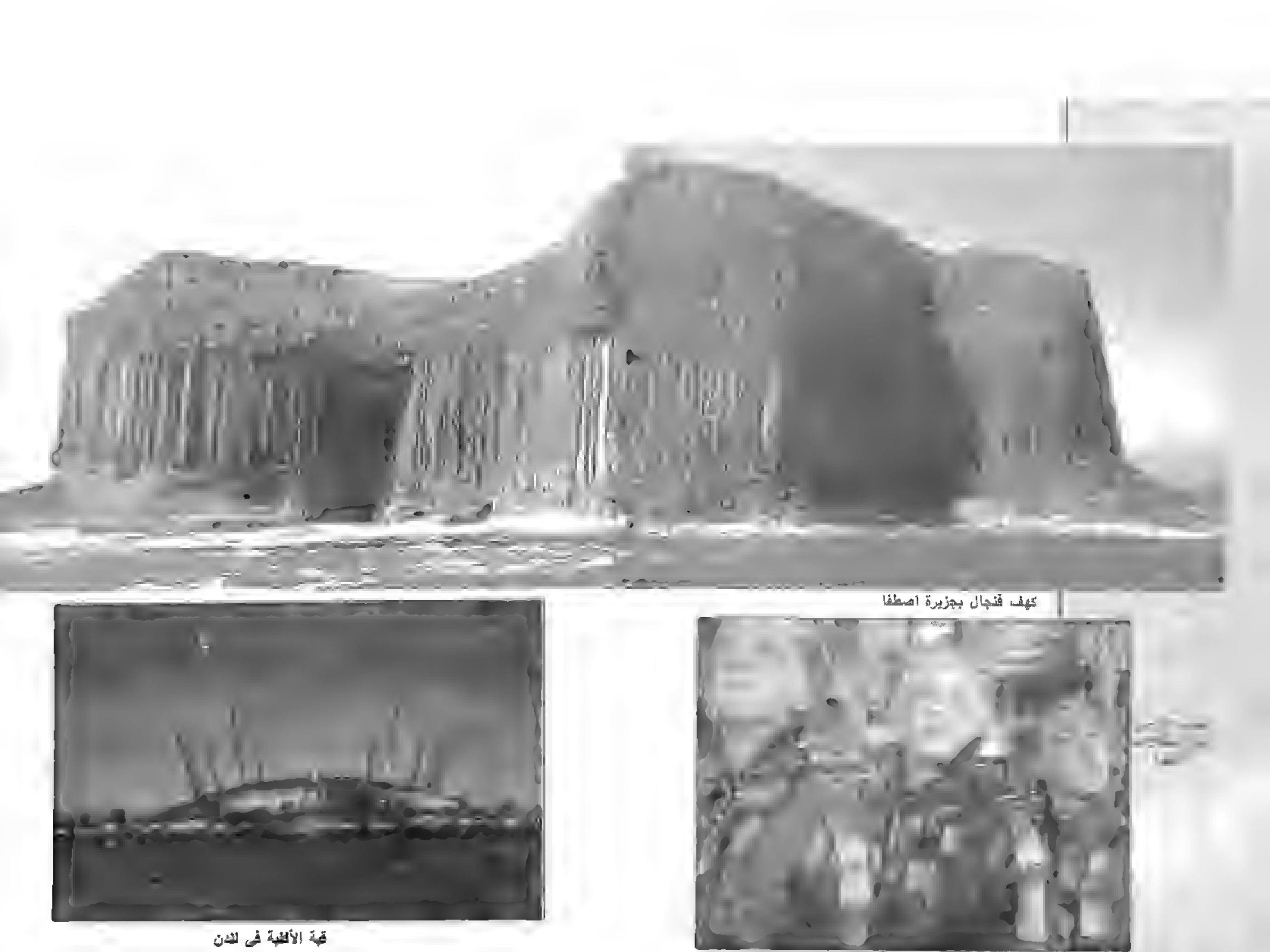
ومن بين عروضها أخص بالذكر «استعراض الألفية»، حيث تدور أحداث قصة حب من ثلاثة فصول، ذات رسالة إنسانية، هى حماية البيئة من عبث الجشعين، والفاسدين وحيث يؤدى الأدوار مائة واثنان وستون لاعبا ما بين ممثل وراقص، وأكروبات ـ كل ذلك مع خلفية موسيقية، ومؤثرات صوتية، وبصرية، تحمل من الإبهار الشىء الكثير.

وثالثا غلبة ملصق فيلم «المناضل»، نراه حيثما ولينا وجوهنا.

وبطولته منعقدة لـ «ميل جيبسون» نجم القلب الشجاع.

اتهام وتسامح

وكما جرى اتهام الفيلم الأخير من قبل نفر من النقاد الانجليز بأنه عمل معاد



كهف فنجال بجزيرة اصطفا

قبة الألفية فى لندن

للشعب الانجليزى، لم يسلم «المناضل» من الاتهام نفسه.

ولا غرابة فى أن يتعرض لمثل ذلك الاتهام، فموضوعه يدور وجودا وعدما حول وقائع الحرب التى نشبت بين قوات الإمبراطورية البريطانية وسكان مستعمراتها فى امريكا الشمالية، قبل مائتى وثلاثين عاما.

وبفضل هزيمة تلك القوات، تحررت المستعمرات الأمريكية، بإعلانها الانسلاخ عن ممتلكات التاج البريطانى ، وهو ما يعرف تاريخيا بإعلان الاستقلال.

ويهمنى هنا، أن أقول إنه ، ورغم امتعاض بعض النقاد الانجليز من تشويهه للتاريخ فى رأيهم . وتحامله على الانجليز، بشكل ينطوى على شبهة العداء، فأحد منهم لم يطالب بمنع عرضه، بمقولة، إنه مسىء إلى سمعة البلاد!!

وكانت المحطة التالية للعاصمة البريطانية، مدينة كامبريدج . بعطر تاريخها العلمى، تتحدث بمآثره مبانى كليات جامعتها المطلة على نهر كام، وهو نهر صغير مزدحم بقوارب شبيهة بالجندول .. تتهادى على سطحه ، تحت رذاذ المطر، على نحو يذكرنا بسحر قنوات «فينيسيا».

وفيما بين «كامبريدج» وحدود اسكتلندا ، مررنا أولا بمنتجع صيفى، مطل على بحر الشمال، وثانيا بمدينة يورك، حيث توجد أكبر كاتدرائية فى انجلترا.

وتاريخ البدء فى تشييدها يرجع إلى القرن الثالث بعد الميلاد.

الحدود

وما ان اجتزنا الحدود، عند صخرة فاصلة، مكتوب عليها بحروف ظاهرة، اسكتلندا ، حتى أخذت السيارة تنهب بنا الأرض نهبا نحو العاصمة، «أدنبرة» .

فى الطريق إليها كانت العين لا ترى سوى جبال ووديان مكسوة بالغابات، ومروج خضراء يرعى فيها بسلام البقر أحيانا، والحملان فى أكثر الأحيان.

ولن أقف عند العاصمة الاسكتلندية إلا لأقول إننى بفضل معمار قصورها المشيدة على التلال، وهى والحق يقال، آية من آيات الجمال، بفضله أرى أوجه شبه كثيرة بينها وبين مدينة براغ عاصمة التشيك.

ولقد حدا هذا الجمال بالبعض إلى تسميتها بأثينا الشمال.

ألفية أدنبرة

ومن بين نشاطاتها الثقافية، وما أكثرها على مدار العام، مبنى حديث جرى تشييده فوق سفح أحد تلالها، احتفالا بالألفية، كى يعيش الزائر فيه، خلال يوم واحد، تاريخ الأرض وما حولها من أجرام سماوية، على امتداد أعوام تعد بآلاف الملايين.

هذا، وتعد أدنبرة واحدة من المدن

القليلة التى يغادرها المرء، وهو مشتاق، وعنده لوعة من الفراق.

ولكن ما احتوتني الغابات الشاسعة التى اكتست بها الجبال على جانبى الطريق، حتى أنستنى روعة الجمال المخيم فيها وفوقها «أدنبرة» ولو إلى حين.

الجنة والوحش

وهاهى ذى السيارة مسرعة بنا فى طريق الويسكى، حيث تكثر مصانع تقطير ذلك المشروب ، بشتى أنواعه المعبأة فى مختلف الأحجام.

وهى بعد ذلك منطلقة بنا فى طريق البحيرات الفاصلة بين أقصى شمال اسكتلندا وبين جنوبها، بمياهه الشادية، وظلاله الناعمة الوارفة، وأعشابه المتنوعة، المزهرة، ولكل منها لونه الخاص، وشذاه الذى ينفرد.

وفى هذا الطريق بجناته التى تجرى من تحتها الأنهار توجد بحيرة «نسْ»، ولعلها أكبر بحيرات الطريق، وأكثرها شهرة، وذلك بحكم وجود وحش أسطورى يقال عنه من بين ما يقال إنه مختبىء فيها. ومن حين لآخر يظهر مثيرا الرعب والأقاويل.

ومهما يكن من أمر ذلك الوحش، فقد اجتزنا طريق البحيرات بسلام، حتى الساحل الغربى لاسكتلندا، حيث ميناء «أوبان» . ومنه إلى جزيرة «مول».

وبعد أكثر من ساعة ، وسط طبيعة عذراء. وفى طريق معبد ، لا يسع المرور فيه سوى سيارة واحدة وصلنا إلى ميناء «فيون بورت».

وفى صباح اليوم التالى، انطلق زورق بخارى بنا إلى جزيرة «اصطفا»، حيث توجد خمسة كهوف، أكبرها كهف «فنجال».

ولحسن الحظ، كان المحيط هادئا، خاليا من أمواج تحول بين الزورق، وبين الرسو على رصيف الجزيرة دون عناء.

الجزيرة والكهف

وما كنت أدرى يوم ساقنى قدرى إلى تلك الجزيرة الصغيرة، بفضل افتتاحية موسيقية مستوحاة من ذلك الكهف، أننى سأرى تكوينات رائعة من البازلت ، لو قورن بها أروع ما أبدعه خيال الإنسان من قصور وكاتدرائيات، لبدت تقليدا باهتا، من صنع أقزام متعملقين.

ولم أمكث على أرض الجزيرة سوى ساعة وبضع دقائق، ولم أر سوى بضعة أجزاء من كهف لايزيد طوله على مائتين وثلاثين قدما، وارتفاعه على ستين قدما، وعرضه على خمسين قدما.

ومع ذلك ، فبفضل هذه الزيارة القصيرة، وبفضل ما تيسر لى أن أراه من جدران الكهف، ومن مياهه المتعددة الألوان، عرفت لماذا حرص «مندلسون» على زيارة الجزيرة ولماذا انفعل برؤية كهفها الغريب، المهيب فأبدع افتتاحية ،، تعد بحق، أكثر أعماله بقاء وتأثيرا.

حقول الأشواك تحاصر المدينة الحزينة

بقلم : فخري المهدي

باريس

بريشة : سميحة حسنين



كانت ليلة موحشة، عاصفة، طويلة انتابتها تشنجات الرياح القوية وأصواتها المخيفة التى ما برحت تصطدم بأوراق الأشجار مولدة بذلك نوعا من الزئير الحاد الذى ترتطم أصداؤه على واجهات المنازل فترتد وهى مشبعة برنين الأعاصير، الذى يضطرب وينتشر فى دوامة يزيد تعدد ارتدادها من تنوع أصواتها ومصادرها مؤدية بذلك إلى خلق سمفونية جهنمية لا يمكن أن تطيقها أقوى الأعصاب البشرية .

استمر هذا الهدير المخيف طيلة الليل صاحبته فترات قليلة ساد خلالها صمت موحش كأنه دليل يشير إلى التناقض الموجود فى الطبيعة، التى قد تفور بغضبها فتحيل هدوءها إلى هياج لا يلبث أن تخمد أنفاسه وتجعل منه سباتا لا يلتفت حتى إلى الحطام الذى ينتشر بعد هدوء عواصفه الراعدة ..

لم يستطع عبدالتواب خلال هذه الليلة من الخلود إلى النوم إلا لفترات متقطعة مثله مثل زوجته التى تشبثت بكتفيه، وهى تدفن رأسها فى أعماق صدره غير قادرة حتى على النطق بكلمات لم تتجاوز التعبير عن شعورها بالخوف، وهى تحتضن طفليها عامر وجنان ، اللذين كان الرعب قد دب فى أوصالهما وجعلهما يرتجفان فى ارتعاشات متواترة مماثلة إلى سعير مرضى أصابتهم حمى خبيثة فتحولت غمغمتهم إلى أنين متواصل، لا تقطعه إلا غيبوبة لا يلبث أن يعيد هذيانهم اللاشعورى هؤلاء المرضى إلى عالم الألم والمعاناة الطويل .

استحمد عبدالتواب ربه عندما بدت اشعاعات الشمس ظاهرة وهى تخترق نوافذ منزله لتنتشر فى أرجائه ولتدب فى أركانه تلك الحيوية التى أحالتها وحشة الليلة المخيفة إلى كابوس لم يستفق منه إلا عندما أبصر هو وزوجته وطفليهما بريق اشعاعات الشمس الحنونة . وأدى هو وزوجته صلاة الفجر بسرعة وأعدوا أنفسهم وطفليهم وتناولوا جميعا فطورهم بعجل نظرا إلى تأخر الوقت المتاح ، لكى يصل عبدالتواب إلى عمله ولكى يتمكن من إيصال زوجته بالسيارة فى طريقه إلى مدرستها إضافة إلى إيداع طفليهما لدى المربية التى اعتادت على العناية بهما ورعايتهما منذ أكثر من شهر .

كان عبدالتواب يسكن فى ضاحية تبعد قليلا عن المدينة أو هى تشكل جزءا منها يقع مع ذلك على أبوابها وكان عليه أن يمر عبر حدودها قبل أن يصل إلى عمله وأن يوصل زوجته إلى مقر مدرستها وأطفاله إلى المربية المعهودة . وكان أرق الليلة السابقة قد أدى مفعوله عليه وعلى زوجته وطفليه بحيث لم ينطق أى منهم إلا ببعض الكلمات العادية، وهم

يستعيدون صور هذه الليلة كل بالشكل الذى أثرت فيه عليه وهم بين اليقظة والحلم أو بين مشاهد الواقع الذى يسيرون الآن بين أجوائه وصور الكابوس الذي عاشوا داخل إطاره الواسع خلال الليلة السابقة ، هذه المشاهد والصور المتداخلة التى لم ينهيها إلا مشهد آخر برز أمامهم فجأة وهم فى طريقهم وأثناء صمتهم المتواصل ، لم يكن هذا المشهد غير المألوف عاديا، فقد كان الحشد الذى ظهر أمام عبدالتواب وزوجته وطفليهما وهم يقتربون من باب المدينة الرئيسى كبيرا إلى درجة أنه أدى إلى زحام فى السير كان من نتيجته أن توقف العديد من سائقى السيارات لكى يقوموا بمناورة على شكل نصف دورة تعيدهم من حيث أتوا ، وهو ما فكر أن يقوم به عبدالتواب قبل أن يطلب من زوجته النزول من السيارة لإيصال طفليهما إلى دار المربية على الأقدام والتوجه إلى مدرستها سيرا على الأقدام هى الأخرى قبل أن يجد مخرجا يساعده على الوصول إلى عمله بطريقة أو بأخرى ، إلا أن فضوله وحبه للاستطلاع دفعاه بالقوة إلى أن يهبط من سيارته بعد أن تمكن بصعوبة من رصفها فى مكان لا يبعد إلا قليلا عن مكان الحشد البشرى الذى استوقفه .

كانت دهشة عبدالتواب كبيرة وهو يرى محافظ المدينة محاطا بأعوانه وموظفيه وحرسه الكبار والصغار على حد السواء الذين كان وجودهم بمثابة دعوة للمزيد من سكان المدينة الذين تجمهروا معهم وهم يراقبون ما تمخضت عنه هذه الليلة اللعينة بعواصفها ورعودها وزئير رياحها ووحشة أحداثها العنيفة . لم يكن هذا التمخض عاديا مثله مثل هذا الحدث النادر بل والوحيد من نوعه ، فقد تمثل بظهور حقل غريب برز فجأة على أحد أهم منافذ المدينة وأبوابها الرئيسية ، حقل باهت اللون ، قبيح المظهر ، تتجاوز سعته حجم أى حقل من حقول المزارع المألوفة ، نعم لم يكن هذا الحقل الممتد سوى حقل من الأشواك الحادة ، أشواك طويلة متناثرة بدون أى انتظام ، أشواك برزت أبرها وكأنها تتحدى أكثر الموجودين شجاعة لكى يتجرأ ويحاول أن يقتلعها أو أن يمسكها على الأقل. كان محافظ المدينة يتطلع إلى هذا الحقل الغريب تعلو وجهه دهشة ارتسمت على كامل تفاصيله وهو يتصنع سلوكا يريد بواسطته أن يضفى عليه نوعا من الثقة بالنفس، لكى يواجه به أسئلة الصحفيين وعدسات الكاميرات التليفزيونية والسينمائية الذين تجمهروا هم أيضا كمحاولة لتغطية هذا الحدث من جهة ومعرفة أسبابه ونتائجه على المدينة وعلى سكان هذه المدينة من جهة أخرى .

كانت شفتا المحافظ ترتجفان وهو ينطق ببضع كلمات مطمئنة تقطعها غصات بدت واضحة على حدبات عنقه جعلته يلجأ إلى مسح فمه بمنديل أبيض يحاول بواسطته منح تصرف طبيعي لسكوته المتواتر .

«إنه حقل غريب فعلا، هذا الحقل الذى نشاهده جميعا»، اكتفى المحافظ بهذه العبارة وهو يرد على سؤال لصحفى لم تترك عيناه التحديق فى وجهه وكأنه يريد بذلك استكشاف بعض من جوانب يخفيها هذا الرجل الغامض عنه ويتمكن من خلال نظراته العميقة من سبر أغوار حقيقتها .

استمر المحافظ فى كلامه وهو يؤكد قدرات المدينة على اقتلاع هذا الحقل والتخلص من أشواكه قائلا بعصبية لم يستطع منديله من اخفائها : «لا لن يطول بقاء هذا الحقل ، وهو حتى وإن يقى فإننا قادرون على الالتفاف حوله وتفادى أشواكه بل وجعلها تتساقط شيئا فشيئا حتى تستحيل ابرها إلى العدم والزمن كفيل بذلك» .

لم يجد عبدالتواب مفرا بعد أن اطمأن ولو قليلا عند سماعه لكلام المحافظ من الانسحاب والتوجه إلى عمله متأخرا بعد أن رصف سيارته في مكان آمن ، حيث وجد هناك أيضا أن حقل الأشواك قد أصبح محور الأحاديث لدى الجميع ، هذا الحقل الذى أخذ يثير المخاوف خاصة وأنه قد ظهر بشكل مفاجىء وبطريقة لا تدعو إلى عدم الارتياح فقط وإنما إلى قلق شديد بعد أن ترددت إلى المسامع أخبار تشير إلى إصابة العديد من سكان المدينة بجروح عميقة عندما حاولوا اجتياز مقاطع من هذا الحقل أو الالتفاف حولها ، ولم تكن عودة عبدالتواب إلى منزله مساء وزوجته وطفليهما بأفضل عندما أخذت الجميع حالة من الرهبة تزايدت عند مشاهدتهم للأخبار على شاشة التليفزيون وسماعهم للتعليقات فى مختلف الإذاعات الداخلية منها والخارجية، وهى تنقل أخبار حقل الأشواك وتعلق عليها بتداخلات لا يمكن إلا أن تثير القلق بالرغم من تفاوت حدتها بين وسيلة وأخرى ، فكان الصمت الذى اكتنفهم جميعا علامة على ولادة حزن حاول عبدالتواب كسره بطمأنة أفراد عائلته بطريقة لم يقتنع بها هو شخصيا ، فكيف يمكن أن يخفف من قلق الآخرين الذين شعروا بذلك ورسموا على شفاههم ابتسامة لا يمكن أن يعبر مظهرها المصطنع إلا عن مخاوف جعلتهم يأوون إلى أسرتهم للنوم لكى يتركوا جانبا ولو إلى حين كابوس هذا الحقل وأشواكه المخيفة؟.

لم يكن هذا الحقل فى الواقع إلا بداية للحزن الذى ما لبث أن نشر سواده فى كافة

أرجاء المدينة الجميلة التى لم تكن تعرف معنى للحزن فى السابق بقدر ما تعرفه جميع المدن الأخرى من أحداث لا تتجاوز فى حدتها بعض الوفيات أو مآس صغيرة، ناتجة عن حوادث سيارات أو عن جرائم قتل يمكن عدها بعدد أصابع اليدين . انتشر الحزن فى المدينة الجميلة منذ أن ظهر هذا الحقل القبيح وزاد من انتشاره ظهور حقول أخرى كانت أحجامها متنوعة منها ما كان كبيرا ومنها ماكان صغيرا وبأشكال ومظاهر لا تقل قبحا ولا تزيد عن الحقل الأول . وكان أن زاد حزن سكان المدينة عندما اكتشفوا بأن ظهور حقول الأشواك هذه يتوافق مع ظهور سحابة أو غيمة أو قل غمامة بل وغمامات تعتلى الحقول وكأنها نذير شر لكل من يقترب منها أو يحاول اعتراضها أو الالتفاف حولها . حينها أدرك عبدالتواب كما أدرك جميع سكان المدينة الجميلة أنهم وقعوا ضحية أمام حقول الأشواك وأنها تحاصرهم جميعا وأن لا مفر من العيش تحت طائل هذه الحقول إلا عمل شىء ما للتخلص منها . ولكن ماهو العمل أمام قوة تتزايد أمامهم وهم لا يملكون شيئا إلا إيمانهم بكونهم ضحايا لا حول لهم ولا قوة؟. حاول العديد من سكان المدينة الجميلة أن يكسروا طوق حقول الأشواك ، فمنهم من جرب مهاجمتها باستعمال أية وسائل يمتلكونها حتى وإن كانت بسيطة استطاعوا مهاجمتها بها ، فخرجوا من صراعهم هذا بين صرعى قتلى أمام أشواك دامية كانوا يعتقدون أن من الممكن مشاكستها وجرحى زادت جروحهم من أحزانهم وزاد حزن الآخرين بتضميدهم لجراح لم يكن من السهولة تضميدها ، ومنهم من جرب الإلتفاف حول هذه الحقول للإفلات من حصارها ، فكان عدد الذين استطاعوا أن ينجوا بجلدهم بعد أن أثخنتهم الجراح قليلا وغادروا المدينة الحزينة وهم يندبون جمالها الزائل بعد أن تركوها تئن بسكانها الذين لم يعد لهم من خلاص إلا الانتظار ، انتظار شىء ما ، انتظار المجهول الذى يمنحهم خلاصهم بعد أن ضاقت بهم الحيل للتخلص من حقول أدركوا جميعا بأنها تحاصرهم من جميع الجوانب ولا تترك لهم أى سبيل للتخلص منها .

ما لبث هذا الإدراك أن تحول إلى كارثة بل وكوارث أصابت سكان المدينة الجميلة بالشلل حيث شحت المواد الاستهلاكية لديهم خاصة وأنهم يعيشون فى مدينة مثلها مثل جميع مدن العالم تعتمد على التصدير والاستيراد ، وهما العاملان اللذان تعرضا إلى المنع نتيجة لوجود حقول الأشواك التى وقفت وتقف أمامهم بالمرصاد تمنعهم من

الحركة وتمنع المعونة عنهم إلا من قبل بعض من أسعفته الحيلة لكى ينفذ من خلال حقول الأشواك بشكل أو بآخر ، وازدادت آلام سكان هذه المدينة الذين فقدوا أعز ما لديهم من أفراد عوائلهم أطفالا ونساء وشيوخا نتيجة الشحة فى المواد أو بسبب تعرضهم لأمراض كان من الصعب علاجها والمدينة محاصرة لا تدخل إليهم الأدوية ولا يمكن إخراج مرضاها لعلاجهم فى المدن الأخرى المحيطة بها .

ومرت الأيام وانقضت الأشهر وتوالت السنوات والمدينة الحزينة ترزح تحت وطأة الأشواك وقسوة حقولها الكريهة ، وحاول الكثيرون من سكانها تحليل وجود هذه الحقول وسبب ظهورها ، فمنهم من قال بأن محافظ المدينة كان يعلم تمام العلم بمصير المدينة قبل أن تظهر الحقول فيها ، إلا أنه لم يفعل شيئا لتدارك سقوطها ضحية أمام حقول الأشواك ، بل أنه كان العامل الذى ساعد على ظهورها ، فهو وحرسه وموظفيه ومستخدميه لم يعان ولا يعانى إلى اليوم من أشواك الحقول الكريهة ، بل أنه يحيا كما كان يحيا سابقا فى بحبوحة لم تؤثر عليها الأشواك ولم تمنعها من الازدياد والتكاثر حتى تحت ظل الأشواك التى قيل أنها متواطئة معه ومع من حوله . ومنهم من قال أنها غضب السماء الذى جاء نتيجة لسلوك بعض سكان هذه المدينة الذين تجاوزوا حقوقهم ، فعبثوا بالصغيرة والكبيرة حتى أنهم نسوا غضب السماء الذى انصب عليهم فجأة بحقول لا نفع فيها إلا بأشواك تذكرهم بماض كانوا يعتقدون فيه أنهم أسياد الأرض وليس ولاتها . وادعى آخرون بأن حقول الأشواك هذه ماهى إلا امتحان تخضع له المدينة الحزينة مثل أى امتحان آخر تمر فيه أية مدينة من مدن كرتنا الأرضية لابد وأن ينتهى بزوال الحزن مع الأيام وبمرور الزمن وما الزمن إلا نسبى حتى وان تجاوز سنوات بل وعقود من السنوات . ازدادت التحليلات وكثرت التبريرات ومازالت المدينة الحزينة تئن من آلام الأشواك وحقولها القاتلة ومازال سكانها يحيون الأمرين حتى وإن امتلكوا الإيمان الذى يعزى بعضا من آلامهم .

ومع مرور الأيام وانقضاء الأشهر وتوالى السنوات ، ظهر بصيص من النور أمام سكان المدينة الحزينة ، بصيص طالما استوعب عبدالتواب وزملاء له أبعاده وأدركوا متانته منذ البداية تجاه حقول الأشواك هذه ، ألا وهو دعوة لجميع سكان المدينة الذين بقوا فيها أو الذين تمكنوا من مغادرتها أو كانوا قد غادروها سابقا ، دعوة لتضامن متين وتعبئة فعالة على مستوى الداخل والخارج لكى لا ينحصر مجهود مقاومة حقول الأشواك

على من هم أمامها بل على جميع من يحب هذه المدينة الحزينة ، تضامن يشرح لسكان المدن الأخرى المحيطة بمدينتهم وحتى البعيدة عنها بضرورة إزالة حقول الأشواك عن المدينة الحزينة التى إن كانت تؤلم سكانها اليوم، فإنها قد تمتد يوما لكى تتعرض مدن أخرى لقسوتها . لم يكن نشر هذا البصيص سهلا فى بداية الأمر ، حيث أن سكان المدن الأخرى المحيطة بالمدينة الحزينة أو البعيدة عنها كانوا غير مبالين بهذه الحقول التى شوهت وسائل الإعلام صورتها وجعلتها حقولا لا يمكن أن تمسهم بأذى لا على المدى القريب ولا على المدى البعيد . وكان من الصعوبة سابقا على هذه النخبة أن تتوصل إلى قلوب سكان المدن الأخرى وتشرح لهم مدى خطورة حقول الأشواك عليهم وعلى الجميع . ولم يكن سهلا لهم أن يمدوا أياديهم نحو أيادى سكان المدن الأخرى لكى تطلب منها العمل سوية لمحاصرة حقول الأشواك من الداخل ومن الخارج على حد السواء بالتضامن وبالتضامن فقط . وكانت فرحة عبدالتواب كبيرة عندما رأى بأن تيار التضامن مع سكان المدينة الحزينة يزداد اليوم شيئا، فشيئا وإن إدراك سكان المدينة الأخرى يزداد هو الآخر مبشرا بموعد الخلاص من أشواك الشر وحقولها الزائلة .

اليوم ، يعمل عبدالتواب مع زملائه الذين يتزايد عددهم يوما بعد يوم سواء فى داخل المدينة الحزينة أو خارجها باللجوء إلى أبسط الوسائل أو أعقدها، على جعل بصيص النور هذا شعلة تتلاقفها الأيادى ، جميع الأيادى وتتطلع لها الأعين جميع الأعين ، شعلة بمقدورها إن تضامنت كافة المدن مع المدينة الحزينة ، وإن تكاتفت أيادى جميع سكان المدينة الأخرى مع سكان المدينة الحزينة أن تحرق حقول الأشواك وتحيلها إلى رماد يعيد الابتسامة إلى سكان المدينة الحزينة. ويستمر عبدالتواب وهو يحتضن زوجته ويقبل طفليه بالعمل الدائم والدؤوب مع جميع زملائه ورفاقه على تحقيق حلمه المتمثل فى أمله بعودة الفرح إلى المدينة الحزينة، التى يزداد اقتناعه أكثر فأكثر بأنها لابد وأن تحمل فى أقرب فرصة ممكنة تسمية «المدينة السعيدة» وهى تنفض عن أثوابها رماد الحزن ، حزن حقول الأشواك التى يرى منذ الآن فى آفاق سمائها الواسعة زوال غمامتها السوداء وهى تتبخر تحت اشعاعات شمس الأمل ، الأمل الذى طالما ردد المثل الشعبى معانيه فى عبارة واحدة هى وببساطة «لولا الأمل لبطل العمل» .

كتاب جديد

قصة حياة عادية



عرض :
د. أحمد السيد عوضين

«قصة حياة» عادية» - عنوان الكتاب الذى أصدره الدكتور / يحيى الجمل (١) : رجل السياسة ، وأستاذ القانون ، والذى يمارس - فى نفس الوقت - مهنة المحاماة ، وقد كان مبرزا فى تلك المجالات جميعها ... وها هوذا يكشف عن مجال آخر يرتاده بأصالة ويبدع فيه على نحو لافت للنظر ، مثير للإعجاب ، إذ يطرق باب السيرة الذاتية ، ليخرج إلينا هذه القصة التى بين أيدينا يروى فيها سيرته صبيا ، ففتى ، فشابا ، ثم رجلا مكتملا .. ولكنه يتوقف عند أولى مراحل الرجولة المبكرة ، لايتجاوزها إلى دهاليز السياسة ، ومعترك الحياة ، والتى خاضها أستاذا جامعيا ونائبا برلمانيا ووزيرا يشارك فى المسئولية الوزارية ، وكذلك فإنه لم يتجاوزها إلى حياته الزوجية والمسئولية الأبوية .

فقصته لم تكتمل فصولها بعد ، فقد توقفت عند مرحلة التكوين منذ أن خطا خطواته الأولى فى سبيل العلم والمعرفة إلى أن حصل على درجة الدكتوراه .

١- عدد يوليو من «كتاب الهلال»

وعلى مدار هذه الفترة يحكي المؤلف قصة «صاحبنا» - أو قصة الفتي - منذ أن عبر النيل من البر الشرقي إلى البر الغربي - في طفولته الباكرة - ليعيش في أحضان جدته لأمه ، ينعم بدفء الحب ، وفيض الحنان ، بما ينسيه أن له أما غير الجدة ، وأبا واخوة - ولم يلبث طويلا في كنف هذه الرعاية والتدليل ، فما أسرع ما رحلت الجدة عن دنيانا ، فكان حتما أن يعود إلى المنزل الذي يضم أسرته ، في قريته في البر الشرقي من النيل ، فينشأُ في كنف أسرة متوسطة الحال - لكنها تنعم بالستر والقناعة - وتمضي بأبنائها إلى حيث يتلقون العلم ، ويتابعون الدراسة في المدارس الأميرية . وكان من حظ «صاحبنا» أن ينتقل إلى طنطا ليتلقى تعليمه الابتدائي ، ولكنه ما يلبث أن ينتقل إلى القاهرة ليحصل من مدارسها على شهادة الابتدائية ، فالثقافة ثم التوجيهية ، ليلتحق بعد ذلك بكلية الحقوق ، ويتخرج منها ليعمل فترة وجيزة في المحاماة ، يتم تعيينه بعدها في «النيابة العامة» ، ليعمل فترة في محافظة سوهاج ، ثم ينقل إلى القاهرة، وبعدها يعار إلى المملكة الليبية ، ولكنه لم يمكث بها طويلاً ، ولم يلبث أن عاد إلى وطنه ..

وكان منذ أن تخرج وشاغله هو الحصول على درجة الدكتوراه ، وقد بذل في سبيلها الكثير من الجهد والمال حتى لقد سعى للعمل بالسعودية فترة لغاية محددة حتى يتسنى له ادخار قدر من المال يعينه على السفر إلى أوربا ليتحقق أمل حياته في الاطلاع والتزود بالمعارف حتى يتسنى له أن يعد «أطروحته» للدكتوراه مكتملة المراجع ، موفية بالغرض، أقرب ما تكون إلى الكمال .

وإذ حظيت تلك «الأطروحة» - أو «الرسالة» بالتقدير المشرف ، ونال بها درجة الدكتوراه في الحقوق ، وكان موضوعها «الاعتراف في القانون الدولي الخاص» - فقد شعر أنه حقق أمل حياته وأنه بذلك قد فتح له - وأمامه - باب الأستاذية في الجامعة ، ولكن طموحه لم يقف به عند ذاك الحد .. فما لبث أن تجاوز أسوار الجامعة إلى مجالات السياسة وسواها من مجالات الحياة العامة - وهي مجالات لم يحدثنا بعد عن تجربته - أوتجاربه - فيها ، مرجئا ذلك - ربما - إلى كتاب تال - لن يكون عنوانه - فيما أتوقع - ذات العنوان ، بعد أن أصبح علما مبرزا ، وخاض ما خاض من مجالات ترك فيها جميعا بصمات سوف تذكر له على مر الأيام .

★ ★ ★

والكتاب - في الواقع لايقف عند سرد تلك الفترة من حياة «صاحبنا» بل هو

يحرص على أن يتعمق كل ما مر به من أحداث ، وكل من لقى من شخصيات ، وكل ما اجتاز من تجارب ، وما شغل به من أفكار ليقدم لنا ثمرة ذلك كله من خلال صفحات كتابه ، وفي ثنايا روايته لفصول قصة حياته .. التى وإن أخذت اسم القصة، إلا أنها لم تنتهج أسلوب القصة الفنى فى رواية الأحداث ، بل أخذ بأسلوب السرد المباشر وهو أسلوب ذائع فى رواية السيرة الذاتية فى كثير من الأحيان .

ولعل حديثه عن «كتاب الشيخ عبدالحميد قشطة» الذى انخرط «صاحبنا» فيه يحفظ القرآن الكريم - كان من أمتع الأحاديث ، فقد كان يتزايد قدر ما يحفظ من القرآن يوما بعد يوم حتى لقد عرف عنه بين لداته سرعة الحفظ ، وحسن الإلقاء، وكان الشيخ فخورا به .. إلا أن ذلك لم يعفه من أن يضعه فى «الفلكة» وما أدراك ما «الفلكة» التى اقتيد إليها مرتين حيث كان الشيخ يأمر فتوضع رجلاه فيها، ويضربه الشيخ ضربا موجعا .. وفى المرة الثانية كان الفراق بينه وبين الكتاب حيث أعلن عصيانا لا عدول عنه .. وكان ذلك أول السبيل لتحوله إلى التعليم المدنى بعد أن قد اختط طريقه للتعليم الأزهرى .

الحب والحنان والقوة والإصرار

وتحدث «صاحبنا» عن جده ، وأنه «مازال يذكره ، وكيف كان فارعا يكاد الدم ينفر من وجهه من شدة احمراره ، وكان حاد المزاج لايكاد يتكلم بهدوء فى أمر من الأمور .. وعلى العكس من ذلك فلم يكن أبوه - وهو ذلك الوالد الحنون - من الشخصيات الآمرة الناهية المستبدة بأبنائها .. كان مسالما لايحب المشاكل وينأى بنفسه ويود لو نأى بأولاده جميعا عنها ، وكان متدينا فى غير تطرف ، محبا للحياة فى غير تكالب . يسره من دنياه رؤية أولاده ناجحين ، ويسعده أن يأكل من الطعام ما يشتهيه ويستطيبه ، أما أمه فقد كانت - فى الحقيقة - شخصية مختلفة عن أبيه كل الاختلاف .. كانت حادة الذكاء ، قوية الشكيمة ، متميزة الشخصية، وكانت أقرب إلى القسوة على نفسها وعلى أولادها . لاتكاد تترك خطأ صغيرا دون أن تعنف مرتكبه من الأولاد أو من الغير أشد التعنيف ...

وعلى ذلك - فقد كانت الصورة مقلوبة: كان الأب هو مصدر الحب والحنان ، وكانت الأم هى مصدر القوة والجسم والإصرار .. ولكن الشيء الذى لاشك فيه أن الفتى واخوته جميعا رغم أنهم كانوا يحسون إحساسا قويا بحرص كل من والديهما عليهم ، وعلى مستقبلهم ، إلا انهم لم يتمتعوا بذلك الدفء العائلى الذى تهيئه الحياة المستقرة التى يسودها التفاهم بين الزوجين ، ولعل ذلك قد ألقى كثيرا من الظلال على نفس الفتى وعلى

نظرته لكثير من الأمور ..

والفتى أو «صاحبنا» محب منذ صباه الباكر للقراءة مغرم بالاطلاع - كان وهو فى قريته يحرص على قراءة ما يصل إليه من كتب ومجلات أدبية يلتهمها التهاما حتى إذا ما استقرت إقامته فى القاهرة اتسع المجال أمامه ، فاستغله أحسن استغلال وأعانته «دار الكتب» على تحقيق غايته ، بما كانت تتيح له من «استعارة» كل مالا يقدر على شرائه ، إما لأنه غالى الثمن أو لأنه من كتب التراث التى لايسهل العثور عليها .

وإذا كان «صاحبنا» قد شارك إلى حد ما فى النشاط السياسى بتردده على «نادى الحزب الوطنى» ليصبح بعد ذلك واحدا من شباب ذلك الحزب ، كما كان على مقربة من نشاط الاخوان المسلمين يتابعه ، ورغم أنه بذلك قد تفتح للحياة السياسية إلا أنه - كما يذكر - : «فإن اتجاهاته الأدبية ورغبته فى تثقيف نفسه كانت غلابة على كل شئ ، وعرف بين أقرانه فى المدرسة بحبه للقراءة الأدبية وشغفه بها أكثر مما عرف باعتباره من هواة السياسة» .

غير أن ذلك لم يحل بينه وبين الاشتراك فى المظاهرات ، وكان ذلك أيام ١٩٤٦ إبان حكومة إسماعيل صدقى ، حتى أنه لم يتخلف عن أغلب تلك للظاهرات ، بل إنه قاد بعضها أحيانا ، ولكنه - كما يقرر - ينفر نفورا طبيعيا من أى عمل تخريبي يقوم به بعض الشباب .

كما أنه خلال تلك الفترة من الشباب الباكر توثقت صلته بالدكتور / نظمى لوقا - الذى اهتم به ، بل وشجعه على أن يحضر صالون الجمعة عند «العقاد» ويصف أول زيارة له فيقول : «وذهب صاحبنا وهو خائف يترقب .. ذهب هيابا وجلا .. ودلف إلى الصالون وسلم على العملاق ، ثم جلس حيث وجد مكانا ، وأخذ ينصت إلى الحوار الدائر ، وهو لايكاد يصدق نفسه أنه فى مجلس العقاد. وسمع العقاد وهو يضحك ضحكته المجلجلة وسمعه يلقى بألفاظ ما كان يتصور أن هذا العملاق يخرج مثلها من فمه ، ورأى فى صالون العقاد كثيرا من أصحاب الأسماء الكبيرة التى كان يقرأ لها ويحس نحوها بغير قليل من التوقير والإجلال .. وقد استمر مواظبا على صالون العقاد بقية مرحلة الدراسة الثانوية وطوال المرحلة الجامعية ولم ينقطع عنه الا عندما تخرج وعين فى النيابة العامة فى صعيد مصر» ويختم حديثه عن هذه الفترة بقوله : «وقد كان صالون العقاد مدرسة حقيقية ، وكان فرصة رائعة للتعرف والقرب من عدد من القيادات الفكرية ...» .

★ ★ ★

ويتحدث طويلا عن مرحلة دراسته الجامعية .. فيذكر أنه كان أمامه خياران

لا ثالث لهما : قسم الفلسفة بكلية الآداب أو كلية الحقوق ، فهو يحب القراءات الفلسفية والأدبية ، وقد قضى سنواته الفائتة من حياته معها ، غير أن أباه كان قاطعا فى رفضه لقسم الفلسفة لما كان يراه من أن تلك الفلسفة قريبة من الكفر أو مؤدية له .. «ومن هنا فإذا كان قد اختار دراسة الحقوق ، فقد كان ذلك نزولا على ما انتهى إليه بينه وبين نفسه من قرار : لتكن الفلسفة هوايتى وليكن القانون حرفتى ومهنتى - ولعل كتابه الذى بين أيدينا هو خير دليل على ذلك ، فهو فى تصنيفه كتاب أدبى ، فلسفى ، نفسى ، تحليلى .. وهو فى ذات الوقت بقلم أستاذ فى القانون ومحام من كبار المحامين .

وإذ كان التحاقه بالجامعة فى أواخر عقد الأربعينيات ، فإنه يصف الحياة العامة فى مصر كلها بأنها كانت تفور فوراناً عجيباً يوحى بأن إعصاراً يوشك أن يهب ليقتلع كل شىء ، وإنه لم يعد لشىء ولا لأحد وقار ، حتى إن الملك نفسه فقد اعتباره بين الناس ، وأصبح الحديث عن مباذله وفساده على كل لسان .

وقد ظل «صاحبنا» طوال مرحلة دراسته الجامعية مشاركاً فى النشاط السياسى ، قريباً منه القرب كله ، وبصفه خاصة من الحركة الوطنية وكتائب الفدائيين - إلا أن ذلك لم يكن ليجعل دراسته تتأثر بذلك النشاط ، وإنه ليذكر بعض أساتذته بكثير من التقدير - يذكر الشيخ عبدالوهاب خلاف فيقول إنه كان من العلماء الأزهريين المتميزين تميزاً ظاهرا كان صاحب صوت جهورى واضح، وذا منطق قوى ، وكان متفتح العقل مستنيراً إلى أبعد حدود الاستنارة ففى الحقيقة أن الرجل كان عظيماً وكان مهيباً .

وكذلك يذكر أنه كان من أساتذته الذين مازال يذكرهم الدكتور / أمين بدر الذى كان لايزال شابا عائدا من البعثة منذ أمد قصير ولكنه كان شابا ممتلئا حماسا واعتزازا بالنفس ، وكان جادا يأخذ أموره كلها مأخذ الجد ، وكانت محاضراته علما خالصا .. على أن أمين بدر خارج المحاضرة كان حريصا على أن يقيم علاقات مع الطلاب المتفوقين والطلاب المشاركين فى الأنشطة العامة فى الكلية وكان أمين بدر إلى جوار تمكنه من مادته القانونية - متمكنا أيضا من اللغة العربية وكان صاحب ذهن قوى منطقى حاد ..

★ ★ ★

ولا نقف طويلا عند حديث صاحبنا عن حريق القاهرة وما تلاه من اضطرابات سياسية ، ولكننا نقف معه عند هذه المصادفات ، فقد أعلنت نتيجة الليسانس يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وفى نفس اليوم توفى عميد الكلية ، وكان الجيش قد تحرك منذ ما قبل فجر ذلك اليوم نفسه ليحدث فى حياتنا ما أحدث من ثورة بدأت بها مصر

كلها ، فصلا جديدا خطيرا من تاريخها الطويل..

★ ★ ★

على أن كاتبنا حرص على أن يجعل لحديث القلب أكثر من موضع من سيرته .. لعل بداية ذلك كانت وقد جاوز الثانية عشرة من العمر عندما خفق قلبه بالحب لأول مرة وهو مازال فى قريته ، وكان بينه وبين حبيبته حب متبادل ، يلتقيان خلسة فى أمسيات الصيف . وكان حبهما بريئا ساذجا غرا أيضا .. ولكن أخاها رآهما وهما واقفان فى جنح الليل يتهامسان ويتناجيان . فما أسرع ما لقيت جزاءها من أخيها ضربا مبرحا أصيبت على أثره بالحمى التي ما لبثت أن أودت بحياتها ... وكانت تلك من أشد صدمات حياته .

ولكن الحياة ما لبثت أن أخذته مع تياراتها ، إلا أن انصرافه إلى العمل لم ينسه نبض القلب ، حتى انه ليذكر أنه كان من دواعى حرصه على الاشتراك فى المظاهرات أنه وهو فى طريقه اليومى إلى المدرسة .. كان يرى تلميذة صغيرة وكان يعرف موعدها .. ولم تزد العلاقة على أنه كان يتبادل معها النظرات ، وكان يحاول بحياء أن يبتسم لها ، وقد ظن يوما أنها بادلته ابتسامة ، وكان يأمل أن تراه وهو على رأس إحدى تلك المظاهرات – ولا يدرى ما إذا كان قد تحقق شيء من ذلك أم لا، غير أنه لم يقدر لهذا الحب الصامت أن يستمر طويلا .

ويحكى صاحبنا أنه وهو فى «الترام» كان يرى من بين من يرى كل يوم فتاة رقيقة خمرية اللون لها عينان عسليتان أشبه بعيون القطط وكان يجد فيها ملاحة لفتت نظره ، وكان تكرار المقابلة هو الذى أوحى له بذلك على أى حال فقد تجاسر فى يوم من الأيام وقال لها صباح الخير، فردت تحيته بمثلها .. ثم اتصلت حبال الود بينهما ، ولكنها ما لبثت أن تقطعت .. فقد كانت الفتاة على ما يبدو من أسرة محافظة ، واضطرتها الظروف إلى الإعراض عنه . ولكن تلك الفتاة لم تكن هى الوحيدة التى لفتت نظره ، فقد ظل طوال دراسته «يستملح من بعيد» – دون أن يقيم علاقة متصلة مع أى من رفيقات الدرس .. ولعل حرصهن – لقلة عددهن – على الجلوس فى الصف الأول من المدرج كان يجعل المسافة بينه وبينهن بعيدة ..!!

على أن تجربته الحقيقية التى خاضها حتى الثمالة – فأشعلت الحب فى قلبه ، وقلبت كيانه كله – كانت فى طرابلس– فى غضون تلك الفترة القصيرة التى قضاها فى ليبيا – حين اتصلت أسبابه بأسباب تلك الأمريكية الشعنونة التى التقى بها فى فندق «المهارى» .. ولكن تلك الأسباب ما لبثت أن تقطعت وهو يودع ليبيا كلها عائدا إلى مصر .

★ ★ ★

وهكذا طوف بنا صاحب تلك الحياة عبر السنوات الثلاثين الأولى من حياته –

وهى سنوات التكوين - ليطلعنا على صورة دقيقة لأيامه ولياليه ، لجهاده وجهوده ، وعمله الجاد ، كما لم ينس أن يطلعنا - فى نفس الوقت - على ما شغل قلبه من عواطف ، وما كان يثور فى نفسه من انفعالات ، بل ولم يتردد فى أن يكاشفنا بما وقع منه من زلل - وكأنى به أراد أن يقول ... هاكم حياتى على حقيقتها ، بكل مافيها من نقص فى تكوينى ، والمنابع التى ارتويت منها - عقليا وعاطفيا - ولعلنى بذلك أكون قد كشفت عن الحقيقة ، وقدمت صورة أقرب ما تكون إلى الواقع .

وإذا كان لنا من كلمة نوردها فى نهاية عرضنا لهذه القصة فإننا نوجزها فيما يلى :

لايمكن لمنصف أن ينكر على الكاتب نزعته الأدبية ، وتصويره الفنى ، بل ولغته الشاعرة ، حتى إننى لأزعم أنه لو كان قد اتجه إلى مجال الفن القصصى لقدم إبداعات تحتل مكانها فى عالم الرواية - أو القصة القصيرة -

كما أننا نشير إلى هذا المزج - فى الرواية - بين ماهو شخصى وما هو عام ، فى نسيج واحد ، حتى ليكاد يرسم صورة للمجتمع المصرى فى القطاعات التى تحدث عنها طوال تلك الحقيقة من خلال روايته لسيرته الذاتية .

كما نذكر أننا أحسسنا بالصدق طوال صفحات القصة ، وهو صدق مقترن بالصراحة دائماً حتى لتكاد تلك الصراحة تجاوز الحد المعقول فى بعض الأحيان .

كما نذكر له حديثه عن القرية وعما تعانيه الأسر متوسطة الحال فيها من متاعب ، حيث تعجز إمكانياتها القليلة عن الوفاء بتطلعاتها الكبيرة ، ولكنها - مع الإصرار والدأب - تفلح فى آخر الأمر فى الوصول بأبنائها إلى ما تتمناه لهم بعد أن تكون قد لقيت من المشاق ألواناً وألواناً ... وهذا هو الفلاح المصرى بما تميز به عبر العصور من جلد وصبر يشق بهما الصخور .

وإذا كنا نأخذ عليه شيئاً فهو إيراده للكثير من التفاصيل التى شغلت الحيز الأكبر من القصة واضطرته إلى أن يقتضبها فى النهاية اقتضاباً حتى ليوجز رحلته فى سبيل الحصول على الدكتوراه فى صفحات معدودة لم تشف غليلنا للوقوف على ما بذل من جهد علمى متصل حتى كللت خطاه بالنجاح .

★ ★ ★

وإذا كنا قد تلقينا هذه الصفحات بتقدير واعتزاز فإننا سوف ننتظر الجزء الثانى من هذه القصة على شوق وفى ترقب حيث يروى لنا الجانب الثرى من حياته الفكرية والجامعية والاجتماعية والسياسية .. فضلاً عن تجربته فى الإدارة المصرية .. فهل يطول بنا الانتظار؟؟

عاملة نظافة

شعر

عبده بدوى



لست أنسى مقلتيها ... تحت أهداب ثمينه
وخيوطا من غناء ... تتداعى فى ليونه
وابتساما فيه شىء ... من هناءات ضئيله
.. لم تكن تلبس عقدا ... يتدلى فى رعونه
أو سوارا عبقريا ... يحضن الكف الأمينه
أو تمدّ «الروج» مدا ... للشفاه المستكينه
أو يرى الفستان يعلو ... فوق عرش الياسمينه
فهى تمشى فى نظام ... وفق لحن يعزفونه !

★★★

كل من يسأل عنها ... كيف تبدو فى خشونه ؟
كيف لا تنساب فجرا ... أو شراعا فى سفينه ؟
تضحك العينان حتى ... يملأ الضحك السكينه
ثم تمضى فى حديث ... دون أن تُلْقِى حزينه
« .. زينتى تزداد نورا ... عند تنظيف المدينه
فإذا رقّت ، وشفت ... صرت فى أجمل زينه!


معركة الايدز
فى إفريقيا

سامى راتب *

من الصعوبة بمكان استيعاب الحقيقة الكاملة لوباء الايدز الذى أصبح ««عالميا» .. والذى يعتقد أنه أودى حتى الآن بحياة ١٩ مليون شخص، وهو عدد يمثل تقريبا ضعف عدد الاشخاص الذين قتلوا فى الحرب العالمية الاولى.. لقد أصاب هذا المرض اللعين ٣٤ مليونا آخرين، وعندما يموت هؤلاء وهو الامر الذى سيحدث خلال السنوات القليلة القادمة فإن ضحايا مرض الايدز يكون قد وصل تقريبا الى ذات العدد الذى قتل فى الحرب العالمية الثانية .. ولم يبد هذا المرض الوبائى أى علامات على أن الاصابة به أخذت طريقها نحو الانخفاض. وحسبما تقول منظمة الأمم المتحدة لمكافحة الإيدز / يونيدز / وهى المنظمة التى تتولى التنسيق بين جهود منظمات ووكالات الامم المتحدة لمكافحة الإيدز فإن خمسة ملايين شخص يصابون سنويا بفيروس فقدان المناعة المكتسبة /اتش آى فى / المسبب لمرض الايدز. ولو ان هؤلاء الاشخاص قد ماتوا بطلقات الرصاص والقنابل لما كانت العناوين الرئيسية للصحف والمجلات قد تركتهم هكذا دون اهتمام مثلما يحدث مع ضحايا الايدز.

إن تأثير مرض الايدز على أعداد السكان مماثل تماما لما تنزله الحروب من ضحايا بين هؤلاء السكان، فمعظم الامراض الاخرى تقتل الاطفال والمسنين غير ان الايدز مثل الحروب فهو يقتل الافراد وهم فى مقتبل العمر فعندما تتقاتل الجيوش فإننا نجد غالبية الضحايا من الشباب ولا يتوقف الامر عند هذا الحد فالايدز يقتل الفتيات والسيدات الشابات ايضا.

ولم يأت من فراغ الشعار الذى رفعه المؤتمر الدولى لمكافحة الايدز الذى عقد فى ديربان بجنوب افريقيا يوم التاسع من يوليو الجارى وهو «لنكسر دائرة الصمت».

*وكالة أنباء الشرق الأوسط

ويشير انعقاد هذا المؤتمر فى افريقيا وهو المؤتمر الدولى الثالث عشر لمكافحة الإيدز إلى أنه قد يجرى حاليا إحراز بعض التقدم في الجهود الأفريقية للسيطرة على هذا المرض. وربما يكون هذا المؤتمر قد نجح فى تحقيق شعاره وهو «كسر دائرة الصمت» حول الايدز . والامر الذى تعين اعلانه من فوق منصة هذا المؤتمر هو ان الايدز على عكس الافكار الشائعة ليس فى المقام الاول مرض الرجال الشواذ الغربيين أو الذين يتعاطون العقاقير المخدرة عن طريق الحقن فى الاوردة. فقد تم الاعلان عن ان الايدز هو مرض الناس العاديين الذين يعيشون حياة عادية فيما عدا انهم يعيشون فى قارة هى «افريقيا» التى تتجاهلها ببساطة دول العالم الغنية.

وفى بعض المناطق فإن المشكلة معقدة لدرجة تجعل من الصعب معها معرفة من أين يتم البدء فى العلاج. وتشير إحصاءات الأمم المتحدة الى أن ٢٥ مليون شخص من إجمالى عدد المصابين بالإيدز فى العالم حاليا وهو ٣٤ مليونا يعيشون فى افريقيا.

قضية الايدز تتوارى عن الانظار فى العالم الغربى :

والآن وبعد أن أصبح بامكان الادوية والعقاقير وقف آثار الاصابة بمرض الايدز عند المصابين بهذا المرض ، والذين يمكنهم تحمل تلك الأدوية فإن هذه القضية قد توارت وابتعدت عن الانظار فى العالم الغنى بصورة ما ، حيث بات الايدز مرضا مثل سائر الامراض الاخرى مثل الملاريا والحصبة والتهاب الغدة النكفية بوسع ابناء العالم الغربى تجاهله ، باعتبار انه من غير المرجح ان يصابوا به ولن يموتوا منه فى حالة الاصابة به.

لذلك فإن الايدز ليس مجرد مرض معد آخر وان مقارنة ضحاياه بأعداد ضحايا الحرب ليس مجرد عبارات رنانة.. فمعظم الامراض تختطف الاطفال الصغار والاشخاص المسنين الا ان مرض الايدز يصيب هؤلاء الذين هم فى مقتبل العمر وفى سن الشباب. وتتحول المحنة الانسانية لضحايا الايدز واسرهم الى محنة اجتماعية واقتصادية فى الدول التى تتأثر بهذا المرض . وباستثناءات قليلة فإن هذه الدول توجد فى افريقيا وهى القارة التى تعانى بالفعل وبقدر كاف من مشكلات اقتصادية واجتماعية.

المبادرات الجديدة لمكافحة الايدز قطرة فى محيط :

وبدأت الاتجاهات فى التغيير الآن، ففى شهر يناير الماضى رفعت الولايات المتحدة من درجة خطورة مرض الايدز، وأعلنت الحكومة الأمريكية أن الايدز ليس فقط من الامراض التى تؤثر على صحة الإنسان بل هو مرض يؤثر على أمن الدول. وقد أعلن رئيس البنك الدولى جيمس ولفنسون انه ليس هناك حد للمبالغ التى سينفقها البنك الدولى على مكافحة الايدز وأنه تم الآن رصد خمسمائة مليون دولار لهذا الغرض.

وقد اتفقت خمس من شركات الادوية الكبرى مع منظمة الامم المتحدة لمكافحة الايدز يونيدز ، ليس فقط على ضرورة القيام بعمل ما ولكن ايضا على حتمية قيام هذه الشركات بالمعاونة فى مكافحة هذا المرض. وخصصت إحدى الشركات وهى شركة ميرك مبلغ ٥٠ مليون دولار من أموالها لهذا الغرض، واتفقت الشركة مع مؤسسة جيتس الخيرية الامريكية على تنفيذ برنامج شامل لمكافحة الايدز فى بوتسوانا الدولة الاكثر تضررا فى العالم فى مرض الإيدز.

ومثل هذه المبادرات امر طيب حتى وإن كانت جميعها قطرة فى المحيط. فالبنك الدولى يقدر احتياجات افريقيا وحدها لمكافحة هذا المرض بحوالى ٢٫٣ مليار دولار، غير انه نادرا ما تتمكن الاطراف الخارجية من حل مشكلات منطقة لا ينتمون إليها، فمرض الايدز فى الدول الفقيرة حسبما تقول مجلة الايكونوميست البريطانية فى عددها الاخير لن يختفى طالما لم يعط زعماء هذه الدول القدوة فى مكافحة هذا المرض ولم يحدث ذلك فى افريقيا باستثناء حالة أو حالتين . وتشير المجلة إلى أن بعض الزعماء الافارقة تجاهلوا المشكلة وجنوب افريقيا الدولة المضيفة للمؤتمر الدولى لمكافحة الايدز الذى عقد فى ديربان هى أسوأ مثال على تجاهل مرض الايدز. فقد شنت حملات غاضبة على شركات الادوية بينما هى فى الوقت نفسه لم تفعل شيئا على المستوى الداخلى لتشجيع استخدام عقار «ايه زد تى» أو «نيفرابين» وهو الدواء المعروف بأنه يمنع انتقال المرض من الام الى الطفل عند الميلاد.

الطابع الخاص للقارة الافريقية :

وبالتأكيد فإن لافريقيا بعض الملامح والصفات الخاصة وجميعها تعمل على اضعاف السكان، وجعلهم معرضين للإصابة بالأمراض بصورة تفوق الاشخاص الاخرين فى مناطق العالم الاخرى.

ويؤدى الفقر إلى تفاقم المشكلة ونفس الشىء تفعله الحروب التى لا تنقطع فى هذه القارة ، وإذا ما كانت أفريقيا قارة غنية يعم ربوعها السلام مثل أوروبا وأمريكا فربما كان الإيدز نادراً الحدوث مثلما هو الحال فى مناطق أخرى من العالم.

غير ان نقص الاموال ليس فى نهاية الامر هو الذى يسبب الايدز.. انه فيروس ووقف هذا الفيروس او الحد من سرعة انتشاره ليس بالامر المستحيل ، مثلما هو الحال فى اوغندا التى نجحت فى تخفيض مستوى الاصابة بفيروس اتش اى فى المسبب لمرض الايدز من ١٤ فى المائة الى ٨ فى المائة خلال السنوات العشر الماضية.

وتوضح مجلة الايكونوميست فى مقالها حول الايدز ان هناك القليل من الاجراءات البسيطة ولكنها مهمة يتعين

اتخاذها لمكافحة هذا المرض.. واول هذه الاجـــراءات هو الكف عن الشـــعـــور بالاشمئزاز تجاه الجنس والحديث عنه.. فالايدز مرض ينتقل عن طريق الممارسات الجنسيـة اى ان الناس هم الذين ينقلونه بعـضـهـم لبعض ، والحـديث عن الايدز يعـتبر مسـألة محظورة ومحـرمة فـى الكـثير من الثقافات الافريقية غير أنه امكن التغلب على هذا الحظر فى مناطق مثل اوغندا.

وتقول المجلة ان جميع حملات الوقاية الناجـحـة من هذا المرض قـد جـرت عن طريق التوعية بوسائل الوقاية المختلفة، خـاصـة استـخـدام العـازل الطبى الذى يقلل قليلا فقط مـن الاستمتاع الجنسى، امـا التوعية التى حضـت على الامتناع عن الممارسـات الجنسـيـة فـقـد فـشلت تماما.

وتتـمـثل الفكرة الثـانيـة فى اجـراء الاختبارات على السيدات الحوامل للكشف عن فـيـروس اتش آى فى المسـبب للايدز واعطائهن العـقـار ايه زد تى او نيـفرابين اذا ما اسفر الفحص عن اثبات اصابتهن بفـيـروس الإيدز، ويعـتـبـر ذلك أرخص استخدام للعقاقير المضادة للايدز وأكثرها فاعلية والتى يتعين ان تكون احد أولويات الميـزانية الصـحـيـة لأفـقـر الـدول. وهذه الاجراءات يمكنها ان تنقذ حيـاة حـوالى خمسمائه الف طفل سنويا.

وهناك وسيلة أخرى لمنع انتشار الايدز حسبما تقول الايكونوميست وتتمثل هذه الوسيلة فى تقوية سلطة المرأة حتى تتمكن من ان ترفض الممارسة الجنسية وهذا امر يعتبر صعبا للغاية فى الثقافات الافريقية. غير ان السيدات المتعلمات لديهن فرصة افضل لرفض ممارسة الجنس غير الآمن وغـيـر المحـصن بصـورة تفـوق غـيـر المتـعلمـات . والرفض هنا لا يعنى رفض ممارسـة الجنس برمـتـه ولكن رفض ممارسة الجنس غير الآمنة مع اى شخص معروفة حالته بالنسبة لفيروس اتش آى فى .

ومن الامـور التى تدعـو الى الدهشة تلك التصرفات التى يسلكها الاشخاص الاصحاء تجاه مرضى الايدز . فعادة ما يؤدى اصابة شخص بالمرض الى شعور الاخرين بالشـفـقـة والتعاطف تجاه ذلك الشخص المريض ، غير ان الامر مختلف مع مرضى الايدز ففى الكثير من مناطق العالم تتم معاملة هؤلاء الاشخاص الذين يحملون فيروس اتش اى فى، مثل المعاملة التى كـان يلقـاهـا المصـاب بـالجـذام فى العصور القديمة. فقد تعرضت سيدة من اقليم كوازولو فاتال بجنوب افـريقـيـا الى الرجم بالحـجـارة حـتى الموت من جـانب جيرانها عندما كشفت لهم عن انها مصابة بفيروس اتش اى فى.

الدول الاكثر تضررا من الايدز

والوضع فى بوتسـوانا بـالغ الخطورة بسـبب تفشى المرض ووفاة اعداد كبيرة بسبب الاصابة به. فبعد عشر سنوات من

الان فإن متوسط عمر الفرد المولود فى بوتسوانا سينخفض الى ٢٩ عاما وفى غضون عشرين عاما فان عدد الاشخاص المسنين سوف يتفوق على عدد الافراد الذين هم فى سن الشباب.

وليست الاحوال فى الدول الاخرى المجاورة لبوتسوانا فى الجنوب الافريقى افضل كثيرا. ففى زيمبابوى وناميبيا سيصل متوسط عمر الافراد فى عام ٢٠١٠ الى ٣٣ عاما وفى جنوب افريقيا الى ٣٥ عاما.

ويعنى تدمير الايدز للشباب ان المرض يخلق فى المجتمع اعدادا كبيرة من اليتامى على نطاق لم يحدث من قبل. فيوجد فى العالم حوالى ٢ر١١ مليون من هؤلاء اليتامى الذين فقدوا من يعولهم نتيجة الاصابة بمرض الايدز ويوجد فى افريقيا وحدها حوالى ٧ر١٠ مليون طفل من هؤلاء اليتامى.

تحرك لمواجهة الايدز :

ورغم تلك الصورة القاتمة لانتشار المرض وتأثيره فى القارة الافريقية فإن الأمل مازال باقيا فى امكانية محاصرة هذا المرض والحد من انتشاره.

وتعتبر اوغندا والسنغال من الدول الافريقية التى بدأت فى تنفيذ برنامج للتعامل مع هذا المرض . فخبرة الدولتين وتحركهما يمكن ان يمثل تحذيرا ودرسا للدول الاخرى فى العالم خاصة تلك الواقعة فى اسيا ، والتى توجد بها حاليا نسبة اصابة منخفضة وتشعر هذه الدول بالرضاء ازاء هذه المعدلات المسجلة لديها.

والتحذير الذى يمكن الخروج به من خبرة اوغندا والسنغال هو «تحرك سريعا قبل شعور بالاسف والندم» ، اما الدرس فيتمثل فى ان «الوقت لم يمض بعد للتحرك وعمل شيء».

وقد بدأت السنغال برنامجها لمكافحة مرض الايدز فى عام ١٩٨٦ قبل ان يتمكن الفيروس من احكام قبضته على البلاد ونجحت السنغال فى الحفاظ على معدلات الاصابة بالمرض عند ادنى مستوياتها وهو ما دون نسبة ٢ فى المائة.

اما اوغندا فقد بدأت برنامجها فى أوائل التسعينات وكانت نسبة الاصابة بفيروس المرض بين الشباب ١٤ فى المائة. والآن انخفضت هذه النسبة الى ٨ فى المائة وهى آخذة فى الانخفاض بصورة اكبر ويبدو انه قد امكن وقف الوباء عند معدلاته المنخفضة.

وأوضح دكتور روى اندرسون استاذ طب الأمراض الوبائية بجامعة اوكسفورد فى المؤتمر الدولى لمكافحة الايدز الذى عقد فى ديربان بجنوب افريقيا. ان الحد من اى مرض وبائى ووقف انتشاره يتطلب شيئا واحدا يتمثل فى ان ينخفض متوسط عدد الاشخاص الذين يصابون بالعدوى من شخص مصاب الى اقل من شخص واحد.

ومن الدروس المستفادة مما قاله دكتور اندرسون فى المؤتمر هو انه يتعين

عدم الاستسلام اذا لم تفلح سياسة ما لمكافحة الايدز فى اظهار نتائج مؤثرة.

ويشير اندرسون إلى ان تطبيق جهود كبيرة لمكافحة وباء معين سيكون لها اثر طفيف فى البداية غير ان سرعان ما تبدأ معدلات الاصابة فى الانخفاض بصورة مفاجئة وسريعة.

ويمكن القول بأن وسائل علمية وطبية جيدة وسياسة عامة معقولة يمكن ان تتغلب على هذا الوباء.. فهناك بصيص من الامل فى نهاية النفق المظلم.

تحذيرات من خطر الايدز

وكان الرئيس التوجولى جناسنجى اياديما قد اعلن فى كلمته امام المؤتمر السادس والثلاثين لرؤساء دول وحكومات منظمة الوحدة الافريقية . الذى عقد فى لومى عاصمة توجو خلال الفترة من العاشر الى الثانى عشر من شهر يوليو الجارى ان مرض الايدز منذ ظهوره وانتشاره اصبح السبب الرئيسى وراء الوفاة المبكرة فى القارة الافريقية . وهذا هو السبب فى ضرورة إعطاء اولوية قصوى لمكافحة هذا المرض فى افريقيا وتوجيه جهود دولها من اجل السيطرة على المرض.

واكد الرئيس اياديما على اهمية التعليم والتوعية والمعرفة ان الوقاية هى العلاج الرئيسى والوحيد لمقاومة هذا المرض.

واوضح اياديما كذلك اهمية تنسيق جهود الخبراء الافارقة مع جهود الباحثين الآخرين فى مختلف ارجاء العالم حتى يمكن الوصول الى علاج ناجح لهذا المرض.

واقترح اياديما قيام الدول الافريقية بالتخطيط لاقامة مصنع للادوية فى افريقيا لانتاج العقاقير الطبية والادوية تكون اسعارها فى متناول ابناء الشعوب الافريقية.

اما البيان الختامى لهذا المؤتمر فقد تضمن اعراب دول وحكومات منظمة الوحدة الافريقية عن بالغ القلق ازاء تعاظم انتشار مرض الايدز ووفاة الملايين من جراء الاصابة به.

وأوضح اعلان لومى ان الرؤساء خصصوا جلسة كاملة من الاجتماعات لبحث مشكلة مرض الايدز فى القارة الافريقية مع الاخذ فى الاعتبار التحديات الطبية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية السلبية الناجمة عن هذا الوباء فى القارة الافريقية.

واوضح البيان ان الاستجابة للتحديات السابقة تتطلب رفع الوعى السياسى، واظهار قدر اكبر من الارادة السياسية ذات الطابع الاستثنائى على أعلى مستوى فى جميع بلدان القارة.

واعرب رؤساء الدول والحكومات ايضا عن تصميمهم على استبقاء موضوع الايدز فى مقدمة البرامج الوطنية للانشطة الصحية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية وجعله من مسائل التنمية.

وتعهد رؤساء الدول والحكومات بضمان قيام الحكومات وخاصة وزارات الصحة بوضع استراتيجيات وطنية لمعالجة موضوع فيروس الايدز كأولوية فى اطار خطط التنمية الوطنية وطالبوا السكرتير العام لمنظمة الوحدة الافريقية بوضع خطة عمل للتعجيل بالإصلاح قطاع الصحة مع التركيز على الأوبئة مثل الايدز.



شاعر البؤس

عبد الحميد الديب

المهاجر الأبدى بين أقطار الأسى !..

«مات اليوم شاعر تعرى واكتست جدران الأضرحة
وجاع وشبعت كلاب الطريق»
من رثاء كامل الشناوى لعبد الحميد الديب

بقلم : د.فهمي عبدالسلام

أذلة الدهر لا مـــال ولا سكن ∴ فتى تـزيد على أنفاسه المحـــن
إذا سعى فجميـــع الأرض قبلتــه ∴ وإذا أقــام فــلا أهــل ولا وطـن
مـهاجر بين أقطار الأسـى أبـدا ∴ كــأنه بين الأرزاء مــرتهـــن

هذه الأبيات المحكمة الجميلة ، لشاعرنا عبدالحميد الديب (١٨٩٨ - ١٩٤٣) ، تصور حالة الديب الفقير المشرد كأنه المهاجر الأبدى بين أقطار الأسى، والذى يكابد من المحن ما يزيد عددها عن عدد أنفاسه ، فالشاعر آنذاك ١٩٢٠ مجاور فقير فى الأزهر ، جاء من أسرة معدمة من أسر كمشيش في المنوفية ، لكى يحقق أمنية الأب الفقير أن يرى أحد الأبناء عالما أزهريا .

وفى حى الحسين يستأجر شاعرنا غرفة متهالكة ، يتهكم الشاعر عليها وعلى نفسه بالمرة ، فيكتب :

أفى غرفتى يارب أم أنا فى لحـــدى
ألا أشد ما ألقى من الزمـــن الوغـــد
فــأهدأ أنفاسى يكـــاد يهــــدها
وأيســـر لمس فى بنايتـــهـــا يردى
أرى النمل يخشى الناس إلا بأرضها
فـأرجله أمـضى من الصـارم الهنـدى
تســاكنت فيها الأفـاعـــى جريئـــة
وفى جـوها الأمـراض تفـتك أو تعـدى
ترانى بهـــا كل الأثـــاث فمعطـــفى
فــــراش لنومـى أو وقـــاء مـن برد
أمـــا وســادتى بـهـا فجـــرائد
تجـــدد إلا تبلى على حـــجـــر

الساكن فى الغرفة المتداعية هو المستأجر وهو الأثاث والرياش كذلك ، ويعرى الديب فقره المدقع ويسخر منه ، فقد حبا الله غرفة الديب بنمل مقدام دونا عن بقية النمل، والرياش هى معطف الشاعر فهو الغطاء من برد الشتاء وهو الفراش إذا ما جاء الصيف ، ثم يهتف الديب ساخطا على هذا الفقر الدكر ، طالبا الموت حتى لو كانت جهنم هى المصير فيقول :

تعلمت فيها صبر أيوب فى الضنى ∴ وذقت هزال الجوع أكثر من غاندى
جوارك يـــارب لمثـلى رحمـــة ∴ فخذنى إلى النار لا إلى جنة الخلد

عاش الديب هذه الفترة - كمعظم حياته - جائعا مفلسا ، مثل غالبية شعبنا الطيب لا يملك سوى التحايل على الحياة ، والعيش وفقا للشعار الشعبى الحكيم الجميل ، «إن أكل العيش يحب الخفية » ، فعلى سبيل المثال .

مزيد من المديح

كان هناك بالقرب من مقهى الفيشاوى دكان الحاج محمد شعبان الحلاق، لقد ادخره الديب للزمن ، على حد تعبير الديب، كى يقص الديب شعره مجانا ، ومن أجل قروض

الديب الصغيرة التى يأخذها من الحلاق ، وكي يستبقي الديب أريحية الحلاق، راح الديب يمتدح تلك الأريحية هنا وهناك ، والحلاق كلما ترامي له إطراء الديب، يأخذه قسرا كي يقص للديب شعره ، بالمجان بالطبع ، بالإضافة إلى قرشين أو ثلاثة قروش ، يمنحها الحلاق للديب بغرض المزيد من المديح والدعاية الرخيصة ، فيكتب الديب:

أخي وجارى وحـــلاقى ودياني ∴ وممسكى إن أمال الدهر ميـزانى
مقصـــه حالق للشـيب يمحقـه ∴ وحالق بالحـديث الغـث أحـزاني
مرآته زينـة للعيـــن ساحـرة ∴ وموساه أفضل من «موسى ابن عمران»

من أجل قروش قليلة وحلقة مجانية يرى الديب الفكه اللاذع أن موسى الحاج محمد شعبان أفضل من موسى ابن عمران، فموسى ابن عمران لن يحلق للديب ولن يقرضه ، فيعترض أحد الأصدقاء ، على تفضيل مقارنة موسى ابن عمران نبى الله بموسى الحاج شعبان، فيدافع الديب عن نفسه ويختلق شخصية وهمية اسمها موسى ابن عمران ويزعم الديب أنه كان نقيبا للحلاقين فى زمن الحملة الفرنسية ، وأنه قطع بموساه رقبة ألف جندى من جنود الحملة الفرنسية، وأن هذا كله مذكور فى كتاب الجبرتى ، والحكاية كلها تأليف فورى من الديب، فلا جبرتى ولا غيره ، والمسألة كلها أن القروض الصغيرة والحلاقة المجانية تندرج كلها تحت بند التحايل على الحياة ، وأكل العيش الذى لا يحب إلا الخفية .

شريك فى الغرفة !

تشرد الديب طويلا ، وتصعلك فى المقاهى والمواخير ونام عند الأصدقاء وفى الخرابات وفى المساجد التى كان يطلق عليها اسم «لوكاندات ربنا» ، يعمل بالتدريس فى المدارس الأهلية بعض الوقت، عاطلا مشردا متصعلكا معظم الوقت فى «الحى اللاتينى» كما كان يطلق على حى الحسين متمردا متبرما بالزمن الوغد الذى يضن عليه وهو صاحب الموهبة الكبيرة بالكفاف ، ويحكى الديب كيف استأجر غرفة بائسة دفع لصاحبها الشيخ جمعة ريالا كمقدم ايجار ، أما بقية الايجار سيدفعه الديب حين ميسرة ، وتمر الشهور ولا تتأتى للديب الميسرة المنشودة . فإذا ما طرق الشيخ جمعة باب غرفة الديب ، الذى لم يرفع سوى الريال إياه ، تظاهر الديب بأنه فى الخارج ، وعندما يترصده الشيخ جمعة ويقبض على الديب ، عاجله الديب بأعذار «تطلع الروح» على حد قول الديب، وبعد شهور من المراوغات والمطاردات قرر الشيخ جمعة طرد الديب، فعاد شاعرنا إلى الغرفة البائسة ليجد من يشاركه ، ولم يكن ذلك الشريك سوى «جدى» ، وملأ الشريك الغرفة مأمأة وعاث ببوله بها فسادا ، فذهب الديب إلى زوجة الشيخ جمعة ، التى قالت له أن الجدى سيشاركه الغرفة حتى عيد الأضحى بعد عدة شهور ، وانتظر الديب حضور الشيخ جمعة ، وعندما حضر حاول الديب الاعتراض على وجود الشريك ، لكن الشيخ جمعة الذى كانت مماطلات الديب قد أزهقت روحه ، انفجر فى الديب قائلا :

هو أنت اشتريت الأوضة بالريال بتاعك
إذا كان مش عاجبك ورينا عرض أكتافك

ويكتب الديب الساخر معترفا بأنه لم يشتر «الأوضة» بالريال ، وصحيح أن وجود الشريك لا يعجب الديب، لكنه لا يستطيع أن يترك الغرفة. مكث الديب فى الغرفة مقهوراً



مفلساً جائعاً، وقد تحولت الغرفة إلى حظيرة، واكتشف الديب أن هناك شريكا ثالثا ، الذى لم يكن سوى صرصور جميل رشيق ، فقرر الديب أن يتخلص من الشريك الأول «الجدى» ، بالشريك الثانى «الصرصور» ، فأمسك الديب بالصرصور بين عودين ، وحمله ووضعه فى أذن الجدى ، وخلال ثوان راح الجندى المسكين يرقص الشارلستون ، وازداد رقص الجدى عنفا ، وبعد دقائق قليلة رقد الجدى على الأرض متشنجا وظل يتمرغ ،.وخرج الديب ينادى على الشيخ جمعة يصرخ فيه أن الجدى يحتضر ، فجاء الشيخ جمعة وذبح الجدى وطرد الديب شر طردة .

وتمضى الأيام بالديب عاطلا عن العمل مشردا ، ثم يقبل أن يعمل مصححا لدى فريد الرفاعى الذى كان يعد كتاب عصر المأمون، وصبر الديب وهو الشاعر الموهوب على شروط العمل القاسية التى وضعها فريد الرفاعى ، الذى كان يحبس شاعرنا طيلة الليل والنهار للعمل فى الكتاب ، فلا يخرج الديب إلا نصف يوم فى آخر الأسبوع ، بأجر بائس لايزيد عن جنيهات ثلاثة ، ومأوى بائس ملحق بمنزل فريد الرفاعى ، ويتمرد الديب ، ويترك العمل عند فريد الرفاعى ، ليعمل الديب بوظيفة صبى نصاب عند دجال قرارى يسمى نفسه طوالع الملوك .

كان طوالع الملوك دجالا يفك الأعمال ويسخر الجن لحل المشاكل النفسية والزوجية والعكوسات ويقرأ الطالع ويفك المندل ، ووعد طوالع الملوك شاعرنا بغرفة يسكن بها بالإضافة إلى راتب شهرى هزيل والديب وشطارته فى «تقليب» الزبائن على حد تعبير طوالع الملوك، أما مهام الوظيفة فهما مهمتان ، الأولى غير شعرية وهى تحضير الزبائن، فيجلس الديب بين الزبائن يقول لهم «أنه يقوم بخدمة طوالع الملوك ، لقد رآه الديب يذبح غرابا وألقى طوالع الملوك برأس الغراب بعيدا ، وامتلأت الغرفة بدم الغراب القانى ، وبعد أن همد الجسد ، قرأ طوالع الملوك آيات من القرآن ، ثم بصوت عظيم آمر ، نادى على خادمه الجنى شمهورش الأكبر ، الذى دخل الغرفة فى زوبعة عظيمة من الدخان والنيران..

.. يصمت الديب ، تاركا الزبائن فى لهفة لمعرفة ماذا سيفعل طوالع الملوك مع شمهورش الأكبر والغراب المذبوح ، فى هذه الوقفة يقوم الديب فى تقليب الزبائن، سيتظاهر الديب بالبحث عن علبة السجائر التى يؤكد للحضور أنه اشتراها منذ قليل ، يظل شاعرنا المفلس الخرمان يبحث هنا وهناك، فيهب الزبائن يقدم أحدهم علبة سجائر ، والآخر علبة دخان والثالث ثمن علبة دخان ، كى لا يتعطلوا عن سماع بقية القصة ، فيأخذ الديب السجائر والنقود متظاهرا بالأسف ، ويكمل بصوت مؤثر ، إن طوالع الملوك وقد أشرق وجهه بنور الإيمان (..) يشير بإصبعه الصغير وبصوت مهيب آمر ، يأمر طوالع الملوك المبارك خادمه شمهورش الأكبر ، أن يعيد الرأس إلى الجسد بإذن الله ، وأن يعود الغراب من حيث أتى .

يرين صمت كثيف على غرفة انتظار طوالع الملوك ، من هذا الهراء الفارغ ، ويكمل

الديب أنه رأى بأم عينيه رأس الغراب . تزحف من آخر الغرفة حتى تصل إلى الجسد الهامد ، وإذا بالرأس تلتئم بالجسد، وإذا بالغراب الذبيح يطير مثل السهم، ويغادر الغرفة من النافذة ، بأمر رب العباد وببركات طوالع الملوك الصالح المبارك !!.

أما مهمة الديب الثانية كانت شعرية ، فقد اعتاد طوالع الملوك في مطلع كل عام إعداد كتيب يحمل تنبؤات طوالع الملوك خلال العام المقبل ، ومهمة الديب هي صياغة تلك التنبؤات شعرا، فيكتب الديب الواسع الحيلة :

«وميم» يواتيه الهـنا بـوزارة ∴ ويأفل نجم «العين» من فلك العلا

ويغلب «ثور عقربا» بقـرونه ∴ وفى أسد تعلو الحروب على الملا

شاعرنا خفيف الظل ، وما من موهبة كبيرة إلا وتمتعت بخفة الظل، فالديب يرى أن المسألة عبث في عبث ، فيهزل مستمتعا بقدراته على السخرية من الناس ومن الدنيا التي ظلمته وآذته طويلا ، ومن هذا المورستان الكبير المسمى بالحياة ، فيم سيواتيه الهنا بوزارة ، ولابد أن نلاحظ الفكاهة بين الوزارة ولفظ الهنا ، من هو ميم ؟ ، وما هى تلك الوزارة ؟ ، ليس هذا بالمهم ، فلابد أن يهنأ «ميم» من الميمات بوزارة من الوزارات ، ولابد أن يهلك «عين» من العينات، والثور سيبقر بطن العقرب والمسألة كلها أى كلام وأكل العيش يحب الخفية ، وهذا هو الموضوع ، ويجلس الديب فى مأتم ملئ بأصحاب العمائم ويعن له أن يعبث بالمعزين ، ويهب الديب واقفا وبصوت وقور وهيب ، يصيح فى الآلاف من فوق دكة خشبية قائلا .

– يا أيها الناس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مات عزيز لديكم فحلوا عمائمكم .

ويخيم الصمت على السرادق ، ويحل جميع الموجودين عمائمهم فى صمت ، ثم يرتفع صوت الديب مرة أخرى قائلا :

– أعيدوها كما كانت .

ويكتشف عالم أزهرى كان في السرادق – وكان قد حل عمامته هو الآخر – أنه ليس هناك حديث نبوى فى هذا الشأن ، فتثور الجماهير على الديب الذى غرر بها ، وقبل أن يتمكن الشاعر العابث اللاهى من الفرار ، ينال علقة ساخنة يرقد إثرها شهرا بلا حراك.

وبينما كان الديب يحضر مولد السيد البدوى فى طنطا ، وجد آلاف القرويين السذج يتضرعون إلى «صاحب الفرح» كما كانوا يقولون على السيد البدوى ، عنّ للديب أن يعابث هؤلاء السذج ، فأخذ يصيح بهم أن ينتبهوا ، فما أن انتبهوا إذا به ينشدهم قائلا:

الحـرب بالأبـواب أيـن بنـوك

يا مصر ناديهـم لكـى يحمـوك

يا مصر ما الطليـان كفـؤك فاهجمى

إن لم تكـونى مـرة .. أكلوك ..

ولم يعجب هذا التصرف أحد الطلاب بالمعهد الدينى ، فجرى هذا الطالب فى ثورة ، وانتزع الورقة التى كتب الديب بها القصيدة ومزقها ، فانقض الديب على الطالب وخطف

غطاء رأس الطالب وفرق شاله الأبيض ، وقال للطالب:
- أنا لم أخسر شيئا لأنى أحفظ القصيدة .. أما أنت فقد خسرت لأنك لاتحفظ غطاء رأسك .

فتدخل الجمهور ، ورفض الديب التصالح إلا إذا كتب الطالب القصيدة بخط نسخ جميل، فأذعن الطالب وكتب القصيدة وانتهت المشكلة واعتنق الطالب رأى الديب، فصفق الجمهور.

وتستمر حياة الديب صاخبة ، فقر وتشرد وتسكع وصعلكة فى أقسام البوليس وفى غياهب السجون للتحرى وللاشتباه أو للشجار مع أحد الثقلاء أو لديون عجز عن تسديدها ، وفى السجن يتألق الديب الذكى الموهوب بقدرته الفذة على اكتساب قلوب عتاة المجرمين ، فالديب شاعر وفنان ، والفنان هو نفس كبيرة ، وأصحاب النفوس الكبيرة يشعرون بالضعفاء والمساكين ، فاستطاع الديب بذكائه أن يصل إلى قلب «سعادة مأمور السجن» ، ويتحلق السجناء حول الديب ليمسح بحديثه الممتع وفكاهاته اللاذعة أحزانهم فيضحكون طويلا ، وبالرغم من القضبان ، لا ينسى الديب ألحانه وأناشيده ، فإذا ما انفض السامر ونام الجميع ، جلس الديب على البرش وحده ، يتأمل رفاقه الجدد ، ويكتب.

وإخوان سجن قبحت من وجوههم ∴ هموم توالى دائما وخطوب
فمنظرهم أضحوكة للباسهم ∴ ومخبرهم فى الحادثات رهيب
لقد كنت فيهم «يوسف» السجن صالحا ∴ أفسر أحلاما لهم وأصيب

مدرس ألعاب !

يخرج الديب من السجن إلى التشرد ، يبحث عن عمل فيعابثه الشاعر الكبير كامل الشناوى أنه وجد له وظيفة مدرس، يسعد الديب ويحلق فى آفاق الأحلام الحلوة ، ويسقط من حالق حينما يذهب إلى المدرسة ويعلم أن الوظيفة هى وظيفة مدرس ألعاب ، وهو الأزهرى بالعمة والكاكولة، ويقوم كامل الشناوى بتقديم العشرة قروش إلى الديب، معرفا كل منهما للآخر:

- حضرتها عشرة صاغ .. وحضرته الشاعر الكبير عبدالحميد الديب

باعتبار أن هذا هو تعارفهما الأول، وتمضى الحياة بالديب مريرة كالعلقم ، ويقرر أن يلتحق بكلية دار العلوم، لأنها تمنح الطالب بها وجبة مجانية بالإضافة إلى راتب شهرى بائس «أحسن من لاشئ» ، وفى دار العلوم ينهل الديب من عيون الشعر العربى ، وتتبدى موهبة الديب الكبيرة واضحة للعيان ، حتى أن أحد الأساتذة قال «يقولون بدأت الكتابة بعبد الحميد وانتهت بابن العميد لكننى أقول بدأت الكتابة بعبد الحميد وانتهت بعبد الحميد» .

يتألق الديب محدثا وشاعرا فى منتديات القاهرة الثقافية ومقاهيها ، وعلى الرغم من الفقر والحرمان والمهانة ، إلا أن الديب يستظل بموهبته الكبيرة ، يتحقق من خلالها ، يعتقد كما يعتقد الجميع ، أن هذه البدايات القوية لابد أن تنتهى إلى مستقبل أدبى لامع، لكن الأقدار كان لها رأى آخر .

إذا ما أمعن المرء منا تأملا فى حياته ، سيجد أن حياة الفرد منا ، لم تكن سوى بضع مصادفات تافهة ، وعلى الرغم من تفاهتها تلك ، فإنها فى النهاية ، تتشكل منها حياتنا ، مصادفة جعلت الديب يتطاوس على أحد الأساتذة ، فيقرر الأستاذ قرص أذن

التلميذ المغرور بحرمانه من الدراسة عدة أيام ، يهيم الديب على وجهه ، فيقوده القدر إلى مقهى عجيب الاسم يسمى مقهى البرابرة الوحيد ، هل هناك مصادفة أكثر تفاهة من هذه المصادفة ؟!

يجلس الديب فى المقهى فيجد شابا متين البنيان يغنى مطلع أغنية «والله تستاهل يا قلبى» ولا يتمكن المغنى من اكمال المطلع ، وتتكرر المحاولات من المغنى دون جدوى ، من ركن المقهى يجيز الديب بقية المطلع للمغنى الشاب، ويكمل الديب له :

والله تستــاهــل يا قلبــى ليه تميــل ماكنــت خـــالى
أنـــت أسـباب كل كــربى أنت أســباب ماجـــــرالى
والله تسـتاهل يا قلبـــى

أبيات شجية جميلة تثبت موهبة الديب الفياضنة التى تغرف من بحر فى سهولة ويسر، يفاجئ الديب بالمغنى الشاب يعانقه ويقبله ، ولم يكن المغنى الشاب سوى الشيخ سيد درويش عبقرى الموسيقى العربية ، ومنذ هذه لم يترك الشيخ سيد صاحبنا ، فقد وجد الشيخ سيد فى هذا الفتى الزرى الهيئة القادر على كتابة أرق المعانى ضالته المنشودة ، وأصبح شاعرنا فى معية الشيخ سيد ، ويصحبه فى كل مكان يتوجه إليه ، إلى المسارح والكباريهات والملاهى ويسكن شاعرنا مع سيد درويش فى قصره الجميل ، ويعيش الديب الفقير البائس مع الشيخ سيد عيشة الملوك ، فترة ذهبية حافلة بالترف والعز والمباهج والمسرات قضاها الديب مع الشيخ سيد، هذا يكتب أجمل الأشعار ، وذاك يضع لها الألحان العبقرية ، وشاعرنا بعد الضنى لابس حرير فى جرير ، لكن السعادة أقدار مقدرة ، لم يكتب لها أن تستمر طويلا ، فإذا الدنيا كما نعرفها ، وإذا بالأحباب كل فى طريق ، كانت الدار الآخرة هى طريق الشيخ سيد ، الذى مات عام ٢٣ فى عنفوان الشباب وليترك الديب إلى الطريق الذى أتى منه ، إلى الشارع مرة أخرى ، إلى التشرد والفقر الدكر والحرمان ، وبخلاف كل هذه البلايا ، أضيفت إلى الديب بلوى جديدة ، بلوى تفوق كل مصائب الديب ومحنه التى تزيد على عدد أنفاسه كما قال ، إنها بلوى إدمان شم الكوكايين الذى كان رائجا بشكل وبائى آنذاك ، ولم يكن الديب أول ضحايا الشيخ سيد ، ففى مذكرات فاطمة رشدى تقول ، إن المخرج المسرحى «عزيز عيد» والذى يعتبره البعض الأب الحقيقى ، اتفق عزيز عيد مع الشيخ سيد لوضع الألحان اللازمة لمسرحية غنائية كان عزيز سيقوم باخراجها ، فاصطحب الشيخ سيد الفنان النهم للحياة المخرج عزيز عيد إلى بدروم ما ، ولم يغادرا ذلك البدروم لمدة أسبوع ، وخرجا بعدها وقد تم تلحين المسرحية وقد أدمن عزيز عيد الأفيون والمخدرات حتى وفاته . مات الشيخ سيد من جرعة زائدة ليترك الديب المسكين يواجه الادمان ، وكانت علامة فارقة فى حياة شاعرنا الذى تحدد مصيره المشئوم بالادمان ، الادمان والعوز والتلطيم فى المواخير ورثاء النفس والسخط عليها وعلى الناس وعلى الدنيا ، فهو إما مذهول من شمة أو مذهول من الحرمان هيئة زرية ووجه مكفهر وتلطيم حزين فى الخرابات وأقسام البوليس ولوكاندات ربنا وقصة حب أليمة لمومس بائسة اسمها فاطمة ، شمامة مثل الديب، رق قلبه لها ورق قلبها له ، ويحاول أن يخفى عار الإدمان عن الجميع فيقول:

أفاطم أن الناس فرقوا عرضى ∴ صرت لعينا في السماء وفي الأرض
يقولون شمام وما شم معطسى ∴ سوى الروضة الهيفاء والنرجس الغض

(٢)

يحدثنا الجاحظ العظيم النافذ البصر فى إحدى رسائله «فساد أخلاق الكتّاب» عن ضراوة العداوة بين الكتاب ، وأن الكتاب بخلاف أهل الحرف الأخرى جميعا، الذين يتراحمون مع من يسقط منهم ويتكافلون معه حتى يقيموه من عثرته ، إلا أهل الكتابة الذين يكرهون بعضهم البعض كراهية حقوده أشبه بكراهية الضرائر كما يقول الجاحظ، ولأنهم يعرفون مواطن الألم ، فهم يصيبون فى مقتل ، ويحدثنا ديستويفسكى العظيم عن اللذة الخبيثة التى يجدها عموم الناس عندما «يشاهدون رجلا فاضلا يتلطخ شرفه فى الوحل» . والديب الموهوب ينتظره الأصدقاء والمحبون كى يمتعهم بالنوادر والأحاديث والأشعار ، والموهبة الكبيرة عادة ما تثير الحسد، فهذا الشمام الزرى الهيئة يثير الإعجاب أينما حل ، والحاسدون بثرائهم لا يحظون بمثل حظوة هذا البائس. وكابد الديب المبتلى بالفقر والادمان حسد الحاسدين وشماتتهم ، وشن شيخ معمم حملة شعواء على الديب فى جريدة كبرى، عن هذا البشع الهيئة المتسول الشحاذ الشمام الذى لا يعجبه أحد ، وتستمر الحملة القاسية حتى تصل إلى كمشيش ، وأمام بار اللواء يجد الديب نفسه يتضارب مع صاحب الحملة بالأرجل والأقدام ، فيكتب الديب متوهجا فى هجاء حار فاحش بحجم المذلة والمهانة التى يشعر بهما الديب فيقول :

عمة تحتها ضلال ولؤم ∴ وهى عش الخنا وبيت الداء
نسجت من سفاهة وفسوق ∴ وعلى الخسة انطوت والرياء
أطعمت ربها دجاجا حنيذاً ∴ وسقته الكونياك بعد الماء

ثم يهجو بار اللواء فيقول:

ببار اللواء جمعت بعض كتائب ∴ والحقد فيهم مستبد متلف
وقفوا كما وقف الزمان بمحنتى ∴ لدمى البرىء جميعهم مستنزف

ثم يكابد شماتة العامة الذين يلذ لهم أن يروا رجلا فاضلا يتلطخ شرفه فى الوحل فيقول:

أعود اليوم إلى الربع المحيل ∴ ولؤم الناس من قال وقيل
بقهوة عسكر ينبوع بؤسى ∴ فياله من بؤس طويل

نزيلا بالخانكة !

ويعطف كامل بك وكيل الطب الشرعى على الديب ، فيجعل الديب يعطى دروسا خصوصية لنجله مأمون ، ويصف لنا الديب فى مذكراته كيف قضى الادمان على عقله ، فيعطى مأمون مسألة حسابية كالآتى : اشترى تاجر ٧٠ دقيقة ! وباعها بألف أردب من البقر (!!) فبكم اشتراها إذا كان مكسبه ألف خروف ، الأجمل أن مأمون نجح فى

الامتحان ، فذهب الديب محاولا استئناف الدروس في الصيف ، فإذا بكامل بك يمنحه زوجا من الجنيهات وفوقها مفاجأة سعيدة سيجدها الديب في انتظاره لو جاء إلى مكان معلوم ، ويسأل الديب عن كنه المفاجأة فيخبره كامل بك أنها كيس من الهيروين الفاخر ماركة أبو قراعة الأصلي ، وكان الموعد على باب مستشفى المجانين بالخانكة ، وبدلا من أن يجد الديب خادم كامل بك يحمل كيس أبو قراعة ، فوجئ بتشكيل جهنمي من الممرضين يهجم عليه، وإذا به نزيلا بالخانكة للعلاج من الادمان ، وتحت عنوان مذكرات نزيل بالخانكة ، يروى الديب الساخر العظيم حياته وعلاجه من الادمان في الخانكة ، وبعد فترة فوجئ الديب الذي استسلم لقدره ، بمن ينادي عليه باسمه مصحوبا بلقب أفندي ، وتظر الديب ، ولم يكن صاحب النداء سوى تلميذه السابق مأمون الذي جاء لزيارته ، والحكاية أن مأمون كان قد شاهد مسرحية مع والده ، يموت خلالها بطل المسرحية من ادمان الهيروين ، فأعتقد مأمون أن أستاذه قد مات هو الآخر ، وأسرف مأمون في البكاء حزنا على معلمه ، فلم يجد كامل بك مفرا من اصطحاب مأمون ليرى بعينيه أن معلمه لازال حيا ويشغل سريرا بالخانكة .

هذه العلاقة الجميلة ، تثبت أن الديب بالرغم من كل المحن كان داخله قلبا رقيقا جميلا ، والدليل على ذلك هو حب مأمون الطيب لمعلمه ، فالأطفال لهم سجية لا تخطئ في تمييز الخبيث من الطيب ، وخلال تلك المذكرات الممتعة ، التي يثبت خلالها الديب أنه ناثر ساخر عظيم ، يحكي لنا عن رفاقه في المستشفى ، منهم القارئ الشاب الذي جن بالتلاوة ، وهو ابن الشيخ إسماعيل سكر القارئ المعروف آنذاك ، فكان القارئ الشاب يجلس في العنبر خاشعا ، فيجلس بقية نزلاء العنبر في هدوء وسكينة ، ويقرأ الشاب السورة التي فقد عقله خلالها ، بصوت جميل مرتل ، فإذا ما وصل من قوله تعالى «وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي » راح الشاب يكرر أقلعي «وهي الكلمة التي أفقدته عقله لسبب ما» عشرات المرات يقول ابلعي ابلعي ، فيقف عشرة من المرضى على أسرتهم يرددون خلفه أقلعي أقلعي أقلعي بصوت لا حكم الله بسماعه على العقلاء .

ويحكي لنا الديب عن المجنون الذي هام حبا بفتاة ، فلما تحقق له أن يقبلها ذات مرة، فقد الشاب عقله من كل تلك الروعة ، فراح يقبل كل من يقابله ، وعندما أبلغوا عنه قام الشاب بتقبيل الشرطي والمخبرين ثم الضابط ثم قبل المأمور ثم قبل وكيل النيابة ثم قبل وكيل مستشفى المجانين نفسه ، وهناك راح المسكين يوزع قبلاته على الجميع ، أما عن علاج المرضى ، يحكي لنا الديب نوادر غاية في اللطف ، كيف دهنوا وجه أحد المرضين بالشطة الحارة ، وطلبوا من مجنون القبلات الشاب أن يقبل المرض ، فما كاد يفعل حتى تراجع باكيًا في ذعر عظيم .. وتم شفاء الديب من بلوى الادمان ، بعد أن حطمه الداء الوبيل طيلة عشرة أعوام ، تركت شاعرنا حطاما يثير الشفقة .

(٣)

خرج الديب من الخانكة يطلب الرزق وقد شفي من الادمان ، وهو الكاتب والشاعر الموهوب الذي يملك من القدرات ما يكفل له الستر على الأقل ، وحفيت قدماه كي يعمل في جريدة الأهرام ، وسمع من صاحبها ومن المحررين معسول الوعود والآمال التي لن

تتحقق ، وأفاض الديب باقتراحات وبأفكار ، وكان الحنق يأكله وهو يرى أفكاره وقد تم السطو عليها ، كانت مصر آنذاك تشغى بحياة سياسية بعثتها ثورة ١٩ ، أحزاب تألفت وجرائد ومجلات بالعشرات ، وعشرات من الأذناب والمحاسيب والإتباع من معدومي الموهبة ، يتحولون إلى كتاب وصحفيين يقبضون الرواتب المحترمة ويعيشون في رغد ، والديب يتضور جوعا ، فيتحول إلى وحش عقور هجاء سليط اللسان، وراح يقتحم الأهرام وهو مخمور ثائر ، فيطيبون خاطره من جديد بوعد ، فيذهب إلى بار اللواء يشاكس هذا ويهجو ذلك ويعابث ثالثا ، وكتب هذه الأبيات يهجو الأهرام وصاحبه بأبيات نرى فيها سخرية شاعرنا العميقة الحلوة:

أموت بحسرة إن ضاع عمـــرى ∴ ولم أظفـــر بجبرائيل تكلا
بداخــــل ملك فــاروق أقامــوا ∴ لهم ملكا عــلا ثم اســتقلا

راح الديب يجمع قصائده من الجرائد والمجلات والصحف، فقد علم الديب أن الصحفي الكبير محمد أحمد الصاوى ينوى طبع ديوان لأشعار الديب ، وكان الأديب اللامع حفني محمود، وهو أحد ظرفاء ذلك الزمان، قد اصطحب الديب إلى بار اللواء ، واستدرجه الصاوى أن يهجو كامل الشناوى مقابل كأس كونياك وريال ، وكان بين الديب والشناوى مساجلات ونوادر ، فلم يتوان الديب فقال :

بار اللواء لعنت بالشناوى ..

ثم تلفت الديب حوله فوجد محمد أحمد الصاوى يجلس غير بعيد عنهما، فأكمل الديب

بار اللواء لعنت بالشناوى ∴ ورزئت قبلا بالثقيل الصاوى

غضب الصاوي قائلا : بتشتمنى ليه يا ديب

فقال الديب المسكين في تسليم .. القافية حكمت يا أستاذ وعلينا العوض في الديوان.

كان الديب قد تلقى عشرة جنيهات من إبراهيم الدسوقى أباظة ، الذى كان يحب الديب ويعطف عليه ، فأمتدحه الديب قائلا :

ومالي لا أزور كريم ∴ تكنف حافظا وراع حمام

والديب يقصد رعاية إبراهيم الدسوقى أباظة للشاعرين حافظ إبراهيم ومحمد مصطفى حمام ، وبعد ساعات قابل الديب صديقه كامل الشناوى ، فقال له الديب عن الجنيهات العشرة ، فتظاهر كامل الشناوى بالأسى والاشفاق ، وأخبر الديب أن أباظة ربح اليوم ٢٠ ألف جنيه في البورصة وأنت أيها الشاعر العظيم العبقرى لا يعطيك سوى عشرة جنيهات .. «شوف الناس» ، فأربد وجه الديب، وقال هاجيا أباظة في نفس اليوم الذى امتدحه به وقال :

أبلغ أباظــة عني أنهــم ∴ ورثوا مالا ولم يرثوا دينا ولا خلقا

كان الديب يحب الشناوى ويخشاه ، وكان الشناوى يعطف على الديب ، ويدبر مقالب تكلف الديب العلق الساخنة ممن يهجوهم الديب بتحريض من الشناوى .

(٤)

.. السنوات تمر ، والاخفاق تلو الاخفاق ، ومرارة الديب تزداد ، ويشعر بدنو الأجل ،

ويتمنى الموت ، فقد فشل فى الزواج ، واضطر لتطليق زوجته إحسان لعجزه عن الانفاق عليها وعلى طفليها اللذين كانا يحبهما الديب، وحينما كان يرزق بنقود كان يسعد سعادة هائلة وهو يشترى لأسرته ما يجلب لهم السرور ، فيقول لها يرثى حظه العاثر ورزقه القليل .

ياربة الدار لا ترثي لأرزاقى ∴ قد قرر الله اسعادى واملاقى

ويطلق احسان ويعود الديب مشردا كما كان ، حزينا ممرورا ، ويطلب الموت فيكتب:

يارب أين الرزق ؟ أين السماء ∴ وأين أنت يا إله الجميع
أليس لى فى طيب عيشى رجاء ∴ أليس فى عطف ربى شفيع
خذنى إذا ما المال أمسى عسيرا ∴ فالموت خير من حياة الفقير
الشاعر الموهوب يحيا فقيرا ∴ وماله فى شعبه من نصير

ثم يعمل الديب بعد طول كفاح ، فى وظيفة حكومية ، ويحلق الديب فى خيالات جميلة عن الوظيفة والأبهة التى سيتمتع بها بعد طول تشرد، ويذهب إلى المصلحة فيفاجأ بأن لا مكان له من الأساس ، ولا مكتب ولا حتى مقعد فيسألوه فيجيب فى سخرية مريرة:

بالأمس كنت مشردا أهليا ∴ واليوم صرت مشردا رسميا

ويحضر شقيق له عند صلاة الفجر ، فيجد الديب يسكر ، فينهاه الشقيق ، ويطلب من الديب أن يبادر بالنزول لأن الله يوزع الأرزاق فى هذه الساعة المبكرة ، فيخفف الديب عن شقيقه قائلا أنه يعلم أنه خارج التقسيم ومنذ زمان طويل ، فإذا خرج أو لم يخرج فالأمر سيان ، لأنه خارج أى توزيع من أى نوع فيم يخص الأرزاق ، فدعنى أكمل ما أنا به لأنها هى هى ..

يشعر الديب بدنو الأجل ، وأن الرحلة التعسة قاربت على الانتهاء ، ويموت صديقه الشاعر الهمشرى ، فكتب الديب قصيدة يرثى نفسه ويرثى صديقه وهى بعنوان «من شاعر يموت إلى شاعر مات» .

نم صديقى وارتقبنى فى غد ∴ وغد أقرب من محو الحساب
لم نمتع بحياة أو غنى ∴ فلنمتع من تضاعيف التراب
لم نثب فيه بجهدنا فى عمرنا ∴ فلنصبه اليوم فى دار الثواب

وفى ٣٠ أبريل عام ٤٣ فاضت روح الديب القلقة المتوثبة إلى بارئها ، منهية الرحلة الشاقة الحزينة ، وشاءت الأقدار أن يموت الديب فى اليوم الذى جاءته الوظيفة بوزارة الشئون الاجتماعية، جاءت حينما لا ينفع الوصل ، مات بائسا وعاش بائسا ، ولم تنصفه الدنيا التى لا تعرف عدلا ولا انصافا ، وكتب صديقه الشاعر الكبير كامل الشناوى يرثى الديب قائلا :

«تعرى الديب واكتنست حوائط الأضرحة ، وطمعت كلاب الأرض وجاع عبدالحميد الديب ومر به تاريخ الشعر مرور الكرام، وهذا لا يثير من الدهشة بقدر ما يثير من الأسى، ألم يتساءل اشبنجلر العظيم حينما كتب «أليس قدرا أن يتبوأ أوكتافيوس التافه حقبة تاريخية بأكملها ، بينما يمر التاريخ على تيبوريوس العظيم مرور الكرام !.

بعض مما وعته الذاكرة

صور كثيرة من الماضى البعيد والقريب تستعرض الذاكرة شريطها السينمائى ، ويحار المرء فى انتقاء بعض منها مما وعته الذاكرة ، ومما قد يكون بعيداً عن منال القارىء . وفى هذه الأسطر المقتضبة أطراف من هذه الصور ، وطرائف من حكاياتها لعل فيها ما ينفع الناس .

الشاعر المهجرى إلياس فرحات

فى عام ١٩٥٩ وفى عهد الوحدة المصرية السورية زار القاهرة الشاعر المهجرى إلياس فرحات (١٨٩٣ - ١٩٧٦) ضيفاً على الحكومة ، ولم تكن لى به أى صلة مباشرة حتى ذلك الوقت . على الرغم من كثرة صداقاتى مع الشعراء المهجريين فى شمال القارة الأمريكية وجنوبها . ولم تكن لى فى ذلك الوقت - ولا إلى هذا اليوم - أى صفة فى الحياة الأدبية تضع إسمى على قائمة المدعوين إلى المناسبات الاجتماعية التى تقام احتفاء بالضيوف من الأدباء . ولم تطاوعنى نفسى أن أحاول الاتصال بهذا الشاعر الكبير القادم من سخيقات البرازيل ، إذ كان يقيم فى مدينة اسمها «بيلوأوريزونتى» وترجمتها «الأفق الجميل» .

ولكن أستاذنا مصطفى عبد اللطيف السحرتى رئيس رابطة الأدب الحديث والدكتور محمد عبد المنعم خفاجى وكيلها ارتأيا دعوة إلياس فرحات إلى مقر الرابطة للحفاوة به ، وطلب منى أن ألقى كلمة بهذه المناسبة . ويبدو أن الشاعر لم يلتقط اسمى عند تقديمى ، وهو ما تبينته فيما بعد . وكان مما قلته فى كلمتى بعنوان «عبقرية فرحات» «إن إلياس فرحات ولد فى كفر شيما فى لبنان (وهى المدينة التى أنجبت آل تقلا - أصحاب جريدة «الأهرام» ، وآل الشميل أصحاب

بقلم : وديع فلسطين



الشاعر إلياس فرحات



أحمد شوقي

جريدة «البصير» بالإسكندرية وآل اليازجي وهم من كبار علماء اللغة).

واختلف إلى المدارس فلم يكن حظه منها إلا نتف معلومات لا تغني رجلاً في حياة كفاح، وبالتالي لا تمشي لصاحبها بأية منزلة في دنيا الأدب. وكان إلى يوم هجرته (في عام ١٩١٠) لا يحسن علماً ولا لغة، ولا يتقن فناً من فنون الأدب، ولا ينظم شعراً ولا يعرف من النحو والصرف ما يقوم عبارته. ولو طبقت عليه نظريات مقاييس الذكاء في الفترة الأولى من حياته لأجمع العلماء النفسيون على أنه رجل ميئوس من نجاحه في ميادين الفكر والقلم والرأي لأن مستواه لا يومئ إلى غد مضيء، ولأن ذكاءه دون المتوسط. ولكن إلياس فرحات الخامل في لبنان استوى بعد الهجرة على عرش من العبقرية المصنوعة والمطبوعة، وجاء مكذباً نظريات علم النفس. فهذا الشاب الساذج الطرير صار في بضع سنين شاعراً عربي الديباجة عربي الأداء عربي البيان عربي الفصاحة عربي النفس والروح وأين أنا من بلاد كل من فيها حوله رطن ومعجم وينطق الضاد «دالاً» كما قال في وصفهم أستاذنا العقاد».

وكأنه استلهمت كل هذه المعاني من قصيدة فرحات التي يقول فيها

يقولون : عمن أخذت القريض
وممن تعلمت نظم الدرر
وأين درست العروض وكيف
تلقنت هذا البيان الأغر
وما كنت يوما بطالب علم
فإنا عرفناك منذ الصغر ؟
فقلت : أخذت القريض صبياً
عن الطير وهي تغني السحر
وعن خطرات عليل النسيم
يمر فيشفي عليل البشر
وعن ضحكات مياه الجداول
فوق الجلامد تحت الشجر
وعن زفرات المحب الأديب
يزاحمه الموسر المحتقر

وعن نظرات الحسان اللواتي
يكدن يغلغلنها في الحجر
إلي أن قال :
لئن كنت لم أدخل المدرسات
صغيراً ، ولا بعد هذا الكبر
فذا الكون جامعة الجامعات
وذا الدهر أستاذها المعتبر

وفي هذا اعتراف صريح من الشاعر بأنه لا كان طالب علم ولم يدخل المدارس ، وأنه تعلم فنون الشعر من الطبيعة ومن نظرات الحسان وزفرات المحب ! وكنت أثناء إلقاء كلمتى أرى عينى إلياس فرحات تقدحان شرراً ، دون أن أعرف سبب ذلك ، ولا سيما لأننى أقررت له بالعبقرية وباستوائه على عرش الشعر .

ولم أكد أفرغ من إلقاء كلمتى ، حتى طلب إلياس فرحات أن يعلق عليها . وهنا أنقل ما رواه عن هذه الواقعة فى كتابه «ذكرياتى بين صباح الحياة ومسائها» المنشور فى البرازيل عام ١٩٧٥ حيث يقول : «يوم الثلثاء الواقع في الثامن من آذار لبيت الدعوة إلى حفلة تقيمها على شرفى رابطة الأدب الحديث ، فكانت أول حفلة تقام لى فى القاهرة . ذهبت إلى هذه الحفلة حزيناً (بسبب مرض زوجته خلال فترة زيارته لمصر ، وزوجته من أسرة جبران خليل جبران) فاستقبلنى الإخوان المجتمعون هناك بالتصفيق ، وكان عدد الحضور كبيراً وأنا لا أعرف منهم أحداً . تكلم فريق من الأدباء والشعراء ، ثم تكلم فتى فزعم أننى لم أكن فى صغرى ذكياً ، أو أن ذكائى لم يظهر إلا بعد أن أصبحت رجلاً فى الثلاثين من عمرى . فلما جاء دورى وقفت وشكرت ثم قلت موجهاً كلامى إلي الفتى : لو قلت في كفر شيما ما قلته هنا لرد عليك أهلها رجالاً ونساء ، ولردت عليك أرضها وسماؤها ، منكرين عاتبين ، وربما غاضبين . إنهم هناك ، أى فى كفر شيما لا يزالون يرددون أزجالى اللبنانية ويعجبون كيف يمكن لطفل فى مثل سنى أن يأتى بهذه المعانى .

قلت هذا الكلام ضاحكا ، ولكنى قلته جاداً صادقاً ! فلم يحر هو جواباً . ثم أنشدت شيئاً من شعرى . وعندما انتهت الحفلة جلست إلى جانب هذا الفتى الأسمر الذى زعم ما زعم ، ورحت أتجاذب وإياه أطراف الحديث ، فأعجبنى تفكيره واطلاعه الواسع (إلا على زجل طفولتى) . فقلت له : من أنت ، وما اسمك؟ فأجاب بوداعة ولطف : اسمى وديع فلسطين . فبهت لهذا الاسم الذى أعرفه جيداً وأعجب بصاحبه دون أن أرى له وجهاً . فقلت : يا سبحان الله ! إنى منذ وصلت إلى القاهرة أسأل عنك وأعجب لاختفائك ، وأنت اليوم تخطب فى حفلتى دون أن أنتبه لاسمك ، فعفواً ومعذرة . وقمنا مجدداً نتصافح ونتعانق كأننا أخوان التقينا بعد فراق طويل » .

وعندما عاد فرحات إلى البرازيل بدأ يراسلنى بكثافة ، وكانت له فى كل رسالة مشاغبة من نوع ما . ومن مشاغباته أنه اتهم جميع النقاد والباحثين بأنهم يزيفون

الحقائق الأدبية ويقولون الأدباء والشعراء السابقين ما لم يقولوه بصريح اللفظ مجاراة منهم أو تملقاً للتيارات العقائدية أو السياسية السائدة ، وقال في التدليل على صحة كلامه إن الباحثين يزعمون أن الشاعرين أحمد شوقي وحافظ ابراهيم كانا من دعاة العروبة والقومية العربية ، ولكن دواوينهما تشهد على خلاف ذلك ، فالشاعران لا يعرفان العرب ولا العروبة مع أنهما يقيمان في الوطن ، في حين أننا في المهاجر السحيقة لا نتغنى إلا بالعرب والعروبة . لقد انحصر شعر شوقي وحافظ في «الشرق» ، فأي شرق يقصدانه ؟ هل هو الهند والسند والبنغال وأفغانستان والملايو ؟ وما شأننا نحن العرب بهذه البلاد الشرقية إلا من حيث التعامل معها على الصعيدين السياسي والدبلوماسي ؟ وقال فرحات : خذ شوقي مثلاً . إنه يقول في قصيدته عن نكبة دمشق :

نصحت ونحن مختلفون داراً
ولكن كلنا في الهم شرق

ويقول في قصيدة عن إمارة الشعر :

كان شعري الغناء في فرح الشرق
وكان العزاء في أحزانه

ويقول في رثاء الزعيم مصطفى كامل باشا :

المشرقان عليك ينتحبان
قاصيهما في مأتم والداني

ويقول عن المويلحي :

قلدوا الشرق من جمال وخير
ما يؤود المفندين انتزاعه

وعلى هذه الشاكلة عينها درج الشاعر حافظ ابراهيم في التغني بالشرق حيث يقول في قصيدة عنوانها «الإخفاق بعد الكد» :

فإن تكن نسبتي للشرق مانعتي
حظاً ، فواهاً لمجد الترك والعرب

وفي قصيدة عن عمر بن الخطاب يقول :

واهاً علي دولة بالأمس قد ملأت
جوانب الشرق رغداً من أياديها

ويقول في قصيدته المعنونة ««اللغة العربية تنعى حظها بين أهلها» :

وفاخرت أهل الغرب ، والشرق مطرق
حياء بتلك الأعظم النخرات

وفي رثاء الإمام محمد عبده يقول :

تباركت ، هذا عالم الشرق قد قضي
ولانت قناة الدين للغمزات

ويقول في رثاء العلامة يعقوب صروف صاحب «المقتطف» :

أبكي وعين الشرق تبكي معي
علي الأريب الكاتب الألمعي

ويوجه تحية إلى الشاعر شوقي يقول فيها :

أهلا بشمس المشرقين ومرحبا
بالأبلج المرجو من إخوانه

وفي محاورات مع الشاعر خليل مطران يقول :

قعدت شعوب الشرق عن كسب
المحامد والمفاخر

وأخذ الشاعر إلياس فرحات يستشهد بعشرات من الأبيات من شعر شوقي

وحافظ ابراهيم لتأكيد دعواه القائلة إنهما لم يعرفا العرب والعروبة ، ولم يصل إليهما الوعى بهما كما وصل إلى سحيقات المهاجر فى الأمريكتين الشمالية والجنوبية.

فقلت لفرحات : لا تظلم الشاعرين الكبيرين ، لأنهما توفيا فى عام ١٩٣٢ قبل قيام جامعة الدول العربية فى عام ١٩٤٥ ، وإلى الجامعة يعزى الفضل فى إذكاء الوعى بالعروبة والقومية العربية ولكنه لم يقتنع وقال إن الدعوة إلى العروبة ترجع إلى أوائل القرن العشرين ، وهذا ابراهيم اليازجى (١٨٤٧ - ١٩٠٦) القائل:

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب
فقد طمي الخطب حتي غاصت الركب

ولم يتوقف إلياس فرحات عن مشاغباته ، حتى قلت له مرة إننى لست مثلك حيث تقول :

ونشرب مما تشرب الخيل تارة
وطوراً تعاف الخيل ما نحن نشرب

فقال إن الذى نشربه وتعاف الخيل شربه هو «الويسكى» !

الشابى ورائعته

دعيت من بضع سنين إلى المشاركة فى مناسبة أدبية فى تونس ، ولاحظت أن النشيد الوطنى هناك يضم مقطعين ، مقطعاً من رائعة الشابى :

إذا الشعب يوماً أراد الحياة
فلابد أن يستجيب القدر
ولابد لليل أن ينجلي
ولابد للقيد أن ينكسر

أما المقطع الثانى فللشاعر المصرى مصطفى صادق الرافعى ..

وعندما دعيت لإلقاء كلمة فى هذه المناسبة قلت للحاضرين : أرجو أن تغفروا لى تطفلى - ولست بشاعر - على رائعة الشابى ، شاعركم الأكبر .

فقد نظرت فى مطلع القصيدة ، ورأيت الشاعر يستخدم لفظة «إذا» ، وهى لفظة تعنى الاحتمال ، بمعنى أن إرادة الحياة لا تتحقق إلا إذا رغب الشعب فيها، فإذا لم يرغب ، لم تتحقق هذه الإرادة . ثم قلت إن الشاعر استخدم لفظة «يوماً» وهى لفظة ضعيفة لأن معناها أن إرادته تتحقق فى يوم من الأيام ، وهو يوم قد لا يجىء أبداً . وفى ضوء هاتين الملاحظتين قلت : لعل الشاعر كان يبلغ غاية مراده ، لو أنه قال :

أنا الشعب ، دوماً أريد الحياة
ولابد أن يستجيب القدر

وبهذا تصبح الإرادة فعلاً مستديماً لا يتوقف على عنصر الاحتمال ولا يرتبط بيوم فى كنه الغيب .

صاحبة منتدى سكينة

توفيت فى دمشق مؤخراً السيدة ثريا الحافظ التى اقترن اسمها «بمنتدى سكينة» سنوات طويلة ، وهو منتدى كانت تقيمه فى بيتها فيغشاه كثيرون من كرام السيدات وأعلام الفكر والرأى فى سوريا .

وثريا الحافظ هى ابنة أمين الحافظ الذى أعدمه السفاح جمال باشا ، كما أنها زوجة المناضل السورى منير الريس .

وقد تزوج الأمير مصطفى الشهابى الوزير السورى ورئيس مجمع دمشق من والدة ثريا الحافظ بعد إعدام زوجها ورباها مع كريمتيه لميس ونهلة .

وفى أيام الوحدة المصرية السورية ، استقرت ثريا الحافظ وزوجها وابنها الشاب (الذى لقى مصرعه بعد ذلك فى حادث فى الخليج فأدمى قلب والديه على الابن الوحيد) فى القاهرة وصارحتنى بأنها ترغب فى إحياء «منتدى سكينة» حتى يصبح من المظاهر الفكرية الملحوظة فى القاهرة ، فنصحتها بأن تقصر المنتدى على الجانب الأدبى ، وتجتنب السياسة لأنها كثيرة المزالق ، وسألتنى عمن أرشحه ليكون المتحدث فى الجلسة الأولى للمنتدى، فقلت لها إن الدكتورة سهير القلماوى هى خير من «يدشن» هذا المنتدى . كما قامت من ناحيتها بدعوة المستشار محمد فتحى بك رائد علم النفس الجنائى ووالد الشاعرة شريفة فتحى والأديبة حنيفة فتحى لكى يعزف على آلة موسيقية تعرف باسم البزق . ورجتنى أن أفتتح المنتدى بكلمة ، فقبلت بعد تردد لاعتقادى بأنها هى الأحق بافتتاح منتداها .

وكانت الجلسة الافتتاحية الأولى موضوع ارتياح جميع الذين حضروها من المصريين والسوريين وحياها الصحافى السورى نشأت التغلبى الذى كان يقيم وقتها فى مصر بكلمة رقيقة فى يومياته فى جريدة «الأخبار» .

وظلت جلسات المنتدى تنتظم مادام الطابع الأدبى غالباً عليها . ولكنها لم تلبث أن جنحت إلى السياسة ، وبدأ الرواد يبتعدون عنها . وحدث فى آخر جلسة حضرتها لهذا المنتدى أن اشتبك فريقان من الشباب السورى المقيم فى مصر فى معركة كلامية عقائدية ، ثم أخذا يتضاربان بالكراسى فهرولت خارجاً حتى لا أعود إلى بيتى «مخرشماً» ! وعندئذ قررت ثريا الحافظ إنهاء أنشطة المنتدى ، وبعيد ذلك سافرت مع أسرتها إلى دمشق .

ولثريا كتاب يتيم ، كما أن لزوجها المناضل ذكريات عن دوره فى الحياة السياسية فى سوريا . هذا وقد توفيت ثريا الحافظ بعد مرض طويل فى الثانى من يونيو ٢٠٠٠ عن ٨٩ عاماً .

العقاد لم يترجم هذا الكتاب

عرفت المستشرق الكبير الدكتور تشارلس أدامز الذى كان أبرع جميع المستشرقين فى نطق اللغة العربية بحروفها الصعبة مثل الضاد والظاء والعين والحاء والذال ، وذلك بسبب طول إقامته فى مصر وقيامه بتدريس اللغة العربية وآدابها سواء فى أمريكا أو من خلال معهد الدراسات الشرقية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة ، الذى تولى منصب العميد فيه فى عام ١٩٣٩ بعدما تقاعد عميده الأول المستشرق الدكتور روبرت مكلانهن بسبب ضعف صحته . وظل الدكتور أدامز يضطلع بأعباء العمادة إلى

أن توفي فجأة في عام ١٩٤٨ عن ٦٥ عاماً ، فهو من مواليد عام ١٨٨٣ .

وللدكتور أدامز كتاب مهم باللغة الانجلزية ، هو أصلا رسالته لنيل درجة الدكتوراه . أصدره عام ١٩٢٨ بعنوان «الإسلام والتجديد في مصر» وتناول فيه حركات التجديد منذ الإمام محمد عبده وحتى الأخوين علي ومصطفى عبد الرازق .

وقد تصدى لترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية في عام ١٩٣٦ أديب كان يعمل موظفاً في وزارة الأوقاف اسمه عباس محمود . وقد قيل إنه مات منتحراً في ظروف لا علم لي بها .

والغريب أن معظم الباحثين الذين رجعوا إلى هذه الترجمة ، نسبوها إلى عباس محمود العقاد ، مع أن العقاد لم يخط حرفاً فيها ، وإن كان اطلع عليها في حينها . والغريب أيضا أنني كلما هممت بتخطئة القائلين بهذه النسبة قاموا بتخطئتي !

ماذا يقول الأدباء عن أنفسهم ؟

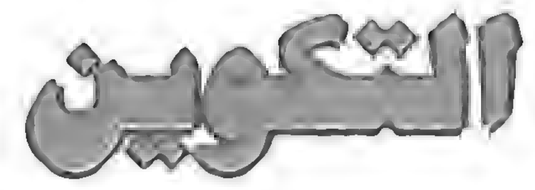
ظهر في بيروت كتاب ضخم من جزءين عنوانه «أعلام الأدب العربي المعاصر» صنفه المستشرق روبرت كامبل وتضمن سيراً لعشرات من الأدباء المعاصرين حرروها بأنفسهم استجابة لاستبيان وجه إليهم في البلدان العربية المختلفة .

وبغض النظر عن أن هذا الكتاب الحافل أغفل سير أعلام كبار مثل أحمد حسن الزيات وأحمد زكي أبي شادي وابراهيم ناجي ومارون عبود وإسماعيل مظهر وغيرهم وغيرهم ، فقد وردت فيه اعترافات طريفة بأقلام أصحابها حيث قالت الأديبة العراقية ديزي الأمير : «أحمل جواز سفر دبلوماسي وسيارة دبلوماسية (لم تذكر رقمها أو ماركتها !) وأسكن بيتاً مستقلاً خاصاً بي كان حلماً رائعاً .. وفي كل ما مر علي لا أغفر لنفسي خطأ ارتكبته ، فقد تزوجت شخصاً ظننته طيباً وكنت في أشد الحاجة إلى بيت حنون يخلصني من زوجة أبي .. سنتان كانت حصيلتهما البيت العربي السعيد ، واكتشفت تعدد الشخصية العربية التقدمية واستغلالها وتآمرها» .

أما الأديب العراقي ذو النون أيوب فقد جاء في اعترافه قوله «عاشرت كهلة في سن أمي مدة ست سنين وكانت السبب في اضطراب أحوالي الاجتماعية في المعاشرة والزواج المتعدد ، وكانت هي المرشدة المعينة فيه ، إذ كان من المستحيل الزواج بها جمالاً وكمالاً وسناً» .

والسؤال هو : هل هذه الاعترافات تضيف إلى القيمة الأدبية لصاحبها ؟ وماذا يهم القارىء من معرفة هذه البيانات سواء أريد بها التفاخر أو التصارح ؟

وهو سؤال أثيره عسى أن يجد من يتطوع للإجابة عنه من نقاد الأدب اللوذعيين !



انتهزت فرصة أن الحرس الوطنى الذى كنت قد انضممت إليه وشاركت فى معسكرين أقامهما لشباب الجامعات أحدهما فى زمنهم وكان مقصوراً على طلبة الجامعات المصرية ، والآخر فى سرس الليان، وكان دوليا بالتعاون مع شعبة معسكرات عمل الشباب بهيئة اليونسكو (باريس) ، انتهزت الفرصة أن الحرس الوطنى قد أعلن فى صيف عام ١٩٥٥ أنه ينوى ارسال عدد من شباب الجامعات المصرية ليشتركوا فى معسكرات العمل الشبابية فى أوروبا، وتقدمت للحصول على إحدى هذه المنح التى كانت تقتصر على تغطية نفقات السفر ذهابا وعودة بالباخرة على السطح، بدون وجبات أو مكان مخصص للنوم وتذكرة القطار فى البلد الذى يقام فيه المعسكر

وهكذا وقعت عليّ القرعة لأذهب الى معسكر عمل شبابي في «متز Metz» بفرنسا. كانت فرحتي غامرة بهذه الفرصة التي كنت انتظرها بغاية الشغف، ورحت أجمع من أسرتي ما استطعت من النقود التي لم يتبق منها بعد استخراج جواز السفر – على الرغم من التقشف في الانفاق – سوى سبعة جنيهات مصرية أولا عن آخر.

وذهبت الى الإسكندرية لاستقل السفينة اليونانية التي كانت ستغادرها متوجهة بنا الى مرسيليا، وهناك تعرفت على زملائي السكندريين من شباب الحرس الوطني المسافرين على نفس الباخرة الى فرنسا ليلتحقوا بمعسكرات العمل الشبابية فيها، وكان من بين مودعيهم شاب عمير جامعي عرفت أنه اشترك في إحدى الدورات الأوليمبية للعدو ممثلا لمصر، وعلاما علم اني كنت ابحث قبيل سفري عن مكتب للصرافة، أحول فيه جنيهاتي السبعة الى فرنكات فرنسية عرض علي أن يقوم بهذه المهمة نيابة عني، وأن يحضر لي المبلغ لتحويل غدوا حتى لا اتأخر عن موعد مغادرة السفينة للميناء، ولا أدري كيف استأمنته على آخر ما أملك وزملاؤه شهود أمامنا، ولكنه فر بالمبلغ ولم يعد. وكان أمامي إما أن أذهب للبحث عنه أو أن ألحق بالسفينة بعد أن صفرت مؤذنة بالإبحار. وقررت أن ألحق بها ومعي خمسة قروش مصرية لم تكف سوى لشراء كوب واحد من الشاي على سطح الباخرة.

كنت ارتدي في رحلتي افرول الحرس الوطني، واصطحب «جرسيه» بها بدلة واحدة وقميص وكيسان من الأرز والعدس غير المطهي، إذ كنت أتصور أن الفرنسيين لا يعرفون هذين النوعين من الطعام، وعدد من الكتب التي حرصت على حملها معي في الرحلة. تنكر لي على سطح السفينة أغلب الزملاء السكندريين الذين كان في وداعهم صديقهم العداء الذي فر

اضطهدت في باريس بسبب
مناصرة مصر لثورة الجزائر

بجنيهاتي السبعة كل ما كنت أملك من نقود. وعندما بلغنا بالقطار باريس قادمين من مارسيليا افتعلوا خلافا معي ليتركوني وحدي بلا أي مورد . هكذا وجدت نفسي للمرة الأولى في تلك المدينة التي كنت أحلم بها، خرجت وحدي من محطة القطار الى طريق مهول الاتساع ، كان يقوم برصفه عامل فرنسي ، وكنت لم أتناول الطعام منذ بضعة أيام إذ كانت تذكرة الباخرة بلا طعام أو مكان مخصص للمبيت، وقفت استتند والجرابندية على ظهري الى حائط سور وأنا أتهيأ لالتقاط كتابين وقعا مني على الأرض وفجأة ظهر أمامي عامل رصف الطريق ، والتقط الكتابين بدلا مني ليسلمني إياهما . سألني الى أين أنت ذاهب ؟ فلابد أن منظري كان ينم عن إعياء شديد قلت له الى مبنى اليونسكو حيث كان عليّ أن أتوجه الى مكتب الشباب ومعسكرات العمل به . قال لي ولكنه بعيد جدا . أنت بحاجة الى أن تذهب اليه بالتاكسي . قلت له إني لا احمل مجرد ثمن تذكرة المترو ، وسرعان ما صفر لسيارة تاكسي . وقال لي اركب. وركب معي حيث أوصلني الى مبنى اليونسكو وعاد بالسيارة نفسها ليواصل عمله على نفقته الخاصة .

كان هذا هو الدرس الأول الذي تعلمته من أول رحلة لي خارج أرض الوطن .

قلت لعامل رصف الطريق النبيل الذي ترك عمله ليصحبني في تاكسي على حسابه إلى مبنى اليونسكو : إنتظرني حتى أحاول أن آتيك من اليونسكو بأجرة التاكسي . وتوجهت إلى المشرف السويسري على مكتب معسكرات الشباب في هيئة اليونسكو ، وكنت أعرفه من معسكر دولي للشباب في سزس الليان ، حيث قال لي آنذاك : إذا حضرت إلى باريس يمكنك أن تنزل ضيفا عليّ ، ولكنه – على العكس من توقعي تمَاما – بادرني باستقبال غاية في الفتور ، وكأنه رآني لتوه من خمس دقائق فقط ، وليس في مصر منذ شهور ، وما أن حاولت أن أسرد له ما حدث من فقدان آخر ما كان معي من نقود حتى انفجر في قائلا أنه لا يصدقني ، ولن يفعل شيئا من أجلي .

وعندما عدت إلى الطريق لأبحث عن العامل النبيل لأعتذر له لم أجده ، فقد عاد إلى عمله حتى لا يفقده . كل ما أعطاني إياه «بيتر» السويسري ، هو تذكرة لسفرة واحدة أو سفرتين بمترو الأنفاق الباريسي وعنوان نزل الشباب في حي «كليشي» ، حيث كان يتعين عليّ أن أقضي ليلتي قبل أن أتوجه في اليوم التالي بالأوتوستوب

إلى معسكر العمل الدولي للشباب في مدينة «متز» البعيدة عن باريس ببضعة مئات من الكيلومترات . ولكنى بعد أن ظللت في نصف يومى الأول أهيم على وجهى فى طرقات باريس وبعد ذلك الاستقبال «الحافل» من السيد «بيتر»، قضيت النصف الثانى من ذلك اليوم تحت الأرض تتلقفنى قطارات المترو الباريسى فى شتى الاتجاهات ، وكلما سألت أحدا من أهل المدينة أشار إلىّ بعصبية إلى اتجاه خاطىء . وهكذا لم تسعفنى فرنسيتى فى الوصول إلى غايتى: المحطة القريبة من نزل الشباب. حتى فقدت الأمل فى العثور عليها . وبعد أن توقفت قطارات المترو بعد منتصف الليل عن العدو فى كل صوب واتجاه ، خرجت من المحطة التى انتهيت إليها وقد أخذ منى العناء كل مأخذ . فما أن رأيت أريكة خشبية فى الطريق حتى جلست عليها متكئا على جزبنديتى ، ولم أدر إلا برءوس من فوقى تهزنى وتفيقنى من سبات عميق، تبينت أنها لرجال الشرطة . سألونى : إلى أين ؟ قلت لهم العنوان ، وأنى تهت فى أدغال مترو باريس . فحملوا جربنديتى وأحضرونى فى سيارتهم – سيارة الشرطة – إلى نزل الشباب ، حيث قرعوا الباب طويلا لتفتحه بعد فترة سيدة فى لباس النوم ، وعندما رأتنى ابتسمت قائلة: لابد أنه كان يجوس فى «بيجال» – حى الملذات – حتى هذه الساعة المتأخرة من الليل !!. وأشارت لى إلى سرير شاغر ضمن عدد كبير من المخادع فيما يشبه القاعة الكبيرة . فما أن رأيته حتى استلقيت عليه ولم أدر بنفسى إلا فى صباح اليوم التالى ، وقد رحل كل الشاغلين لمخادعهم ماعدا رأس واحد لشاب مصرى عرفت أنه من مصر الجديدة، وأنه أتى إلى باريس ليشاهدها بعد أن سمع عنها ، وهاهو ذا بعد أن قضى فيها أسبوعين قد اكتفى منها وأصبح على أهبة الاستعداد للعودة إلى مصر . وعندما عرف بقصة فقدى لآخر ماكان معى من نقود وقبل إبحار السفينة من الإسكندرية أعطانى مائتى فرنك قائلا إنه سوف لا يحتاج إليها لأنه سيعود إلى مصر فى اليوم نفسه. شكرته وتقبلت هديته .

تعلمت الفرنسية

كان ذلك عام ١٩٥٥ حين كان الجنيه المصرى يساوى جنيها استرلينيا وزيادة عليه بشلن . وكان ميسرا للكثيرين من المترددين على مدارس الإرساليات الأجنبية ، ولا سيما الفرنسية ، أن يذهبوا إلى فرنسا بالباخرة من الإسكندرية فلا يزيد إنفاقهم على قضاء الصيف فى الثغر السكندرى إلا بقدر معقول . أما

أنا فقد تعلمت الفرنسية بمجهودى الخاص ، ولم أكن أملك من المال لا كثيرا ولا قليلا. وكانت المرة الأولى التى أتوجه فيها من دار أهلى ، ورغما عن معارضة عمى الذى كان ولى أمرى (بعد وفاة والدى) فى سفرى ، إلى حلمى : مدينة «النور» باريس.. ولكنى لم ألق فيها إلا كل ما أطاح بهذا الحلم.

وعندما كنت أسير فى بوليفاراتها العريضة كنت أنفجر ضاحكا كالمجنون إذ يخطر لى شارع فؤاد (٢٦ يوليو) فى القاهرة الذى لا يكاد يبلغ بكامل عرضه رصيف الشانزليزيه. أما استقبال الغريب فى باريس فالغالب فيه من جانب أهل تلك المدينة هو المعاملة السيئة وعدم الإرشاد إلى أي عنوان يسأل عنه ، أو تعمد تتويه الغريب وكأنهم يتشفون فيه ضائعا في أدغال مدينتهم . ومع ذلك فقد كان أول من قابلنى فى تلك العاصمة المهولة هو استثناء كبير : ذلك العامل النبيل راصف الطريق العام . أما القاعدة فهى العكس تماما ، ولا أحسب أن ذلك يختلف كثيرا عن الآن بعد مضى خمسة وأربعين عاما ، وإن كان رفض الأجانب آنذاك، ولاسيما العرب أشد عنفا وتعنتاً بسبب حرب تحرير الجزائر التى كانت البرجوازية الفرنسية لاسيما المتوسطة تعتبرها ملكية خاصة لفرنسا ، كملكية صاحب العبيد لتابعيه . وإذا كان «ديجول» قد «خان» فرنسا – فيما بعد ، من وجهة نظر الطبقة الوسطى الفرنسية ، بتصديقه على استقلال الجزائر ، إلا أن ذلك قد تم لحساب مصالح رأس المال الفرنسى الكبير مضحيا برأس المال الفرنسى المتوسط والصغير الذى كان أصحابه شديدى العنصرية والعداء للعرب عامة وأهل شمال أفريقيا بخاصة . وكانت معاملة المصريين فى تلك الآونة سيئة بالمثل على مستوى السلطات الفرنسية ، إذ كان جمال عبدالناصر يعلن مناصرته لثورة الجزائر مما استشاط غضب الحكومة الفرنسية ضده وضد كل ماهو مصرى . وقد بلغ حنق السلطة الفرنسية على مصر وعبدالناصر مداه باشتراكها فى العدوان الثلاثى على بورسعيد فى ١٩٥٦ .

بعد أن اشتركت فى معسكر العمل الدولى الذى كانت اليونسكو تشرف على تنظيمه فى مدينة «متز» الواقعة شمالى شرق باريس وإن بعدت عنها كثيرا ، تصادف أن تحدثت إلى موظف فرنسى فى تعاونية البناء بتلك المدينة التى كنا نحن الشباب القادم من جميع أنحاء العالم نساهم فيها بأعمال الحفر، حفر الأساسات – خاصة – نظير مأكلنا ومشربنا ومبيتنا لا أكثر .



بعد عودتى من فرنسا مباشرة عام ١٩٥٦ فى صحبة صديق زملائى فى مدرسة التوفيقية الثانوية حتى عام ١٩٥٣

قلت للموظف الفرنسى الذى حضر فى اليوم الختامى لمعسكرنا الشبابى حتى يتسلم العهدة من مندوب اليونسكو ، إنى أود أن أستمر فى «متز» لمدة أطول حتى أتعرف على الفرنسيين بشكل أفضل ، فليتنى وجدت عملا يمكننى من ذلك . تحمس مسيو «پول فاڤيير» لفكرتى هذه ، وكان فى منتصف الثلاثينات من عمره ، وتحدث بشأنها مع مدير تعاونية إسكان أهالى «متز» ، ثم عاد إلىّ وقال لى مبشرا : لقد وافق بعد لأى . ويمكنك أن تسكن عندى فى دارى على أية حال . وسوف أرشدك غدا إلى عمل تقوم به .

فرنسى يحب المصريين

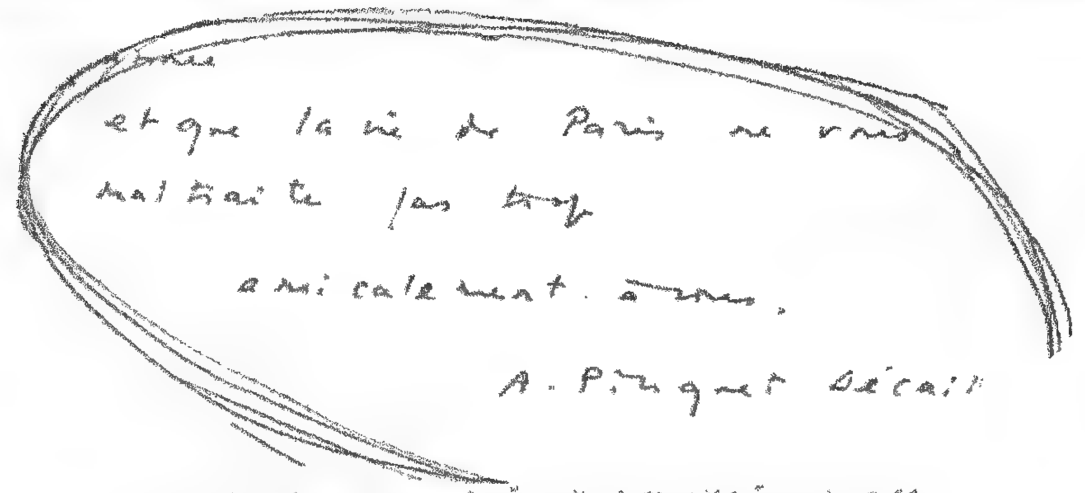
كان مسيو «فاڤيير» إنسانا صريحا نقيا محبا للمصريين والعرب بعكس أغلب الفرنسيين . كما لاحظت أنهم كانوا ينظرون إليه بغير قليل من الضجر والاستنكار على الرغم من استقامته ونقائه . صرح لى عندما انتقلت إلى داره لأقيم معه وأسرته الصغيرة أسبوعين كاملين ، بأنه قد ولد وعاش صباه وشبابه الأول فى الهند الصينية ، وخبر عن قرب وحشية الاستعمار ، استعمار بلاده هناك . لذلك كان متعاطفا مع الشعب الجزائرى فى حربه لتحرير بلاده من الاستعمار الفرنسى . كما كان شديد الحب والإعجاب بجمال عبدالناصر ، الذى أهديته صورة له عند مغادرتى لـ«متز» فاعتز بها كثيرا . لم أعجب إذن لكره الفرنسيين الآخرين له وتغامزهم عليه وشدة تحفظهم بإزائه .

غادرت «متز» فى طريقى إلى باريس أستوقف السيارات الخاصة فى أول الطريق السريع على طريقة «الأوتوستوب»، وعندما وصلت إلى بلدة

«ڤروان» كان قد خيم المساء ، ولم تعد السيارات تتوقف لتصحب أحدا معها فى طريقها لأسباب معروفة ، فتوجهت إلى بيت الشباب فى تلك البلدة لأقضى فيه ليلتى حتى الصباح التالى . وطرقت الباب برفق ، ولكن أحدا لم يجب . عندئذ خرج رجل من عربة سكنى مرابطة أمام دار مبيت الشباب وقال لى إنهم جميعا قد ناموا الآن ، ولن يسمعوا طرقك الخفيف هذا . وراح يطرق الباب نيابة عنى بشدة إلى أن استيقظ المشرف على الدار ، وكان يغط فى نوم عميق ، وأشار لى وهو مغمض العينين إلى السرير الذى سأنام عليه ومضى لتوه إلى مخدعه . ولكن ما كدت أن أغط فى السبات حتى جاءت الشرطة تبحث عن «جزائرى» أحدث إزعاجا للأهالى بقرعه الشديد على باب بيت الشباب فى تلك الساعة من المساء . ولم أشأ أن أفشى حقيقة أنى لم أكن ذلك الذى قرع الباب بشدة حتى لا يضار الإنسان الذى حاول أن يساعدنى فى المبيت بالدار . وفى صباح اليوم التالى ، بينما كنت أرفع سبابتى مشيرا للسيارات العابرة على أول الطريق السريع فى اتجاه باريس ، توقفت أمامى سيارة مرسيدس ملاكى ، لم يلفت نظرى فيها سوى أن راكبيها كانوا بزى الشرطة . سألت سائقها : إلى باريس ؟ أجابنى بعجلة ! بلا ، اركب . ركبت ثم إذ بى أفاجأ بالسيارة تدور فى عجلة لتتجه إلى مخفر البوليس بدلا من باريس !. وهناك مثلت أمام شرطى فى زى مدنى. ونهرنى أمامه الشرطى بالملبس الرسمى قائلا فى لهجة عسكرية : أخرج كل مافى جيوبك وضعه هنا . فعلت . أخذوها جميعا ووضعونى فى حبس تحفظى بالقسم لمدة ليلتين ، اتصلوا خلالها بكل العناوين وأرقام التليفونات المدونة فى مفكرتى . وعندما تأكدوا أنى لست «إرهابيا» فى جيش التحرير الجزائرى أطلقوا سراحى لأواصل رحلتى الى باريس بالأوتوستوب .

وفى باريس كانت المرة الأولى التى أشهد فيها حلمى - حلم مراهقتى - مليا ، بعد المرور السابق السريع فلا أعثر، على ما يقارب ذلك الحلم.. تعرفت على معظم شوارعها على قدمى لأنى لم أكن أملك ثمن تذكرة أوتوبيس أو مترو . وعندما كان يخيم المساء كنت أنام على مخدع عامل فرنسى يعمل فى أحد المصانع طوال الليل ثم يجىء ليوقظنى فى السادسة من الصباح لينام .

كنت قد تعرفت على هؤلاء الفرنسيين الشباب فى معسكر «متز» فاستضافونى فى باريس بكل كرم على


et que la vie de Paris ne vous
maltraite pas trop
amicalement.

كتبت باريسية كانت تتعلم العربية على مجدى يوسف عام ١٩٥٥
تقول له: «أرجو ألا تكون حياة باريس أساءت إليك كثيرا»

قلة ما بأيديهم . كان الواحد منهم يعطينى كل ما معه من النقود ، ولم يكن كثيرا ، ولكنه كان كل ما يملكه ، وعندما كنا نستقل الأوتوبيس كان يطلب منى أن أعيره ثمن التذكرة من نقوده التى أعطاها لى . صرت أقارن هذا الكرم الفرنسى الذى لا حدود له بعنصرية من لديهم بعض المال أو الاستقرار النسبى من «مواطنيهم» ، بإزاء الأجانب العرب الذى كنت واحدا منهم على أية حال.

نموذج للشاب المكافح

تمكنت من أن أمكث شهور الصيف بأكملها فى تلك المدينة ، أقوم أحيانا ببعض الأعمال التى يكلف بها الطلبة مقابل أجر يكفيهم يوما أو اثنين، كتوزيع المنشورات للتوعية بمساوىء استهلاك الكحول ، أو جمع الصحف والمجلات القديمة من المنازل وتسليمها لوكالة فى الحى اللاتينى ، وهكذا . وكنت قد تعرفت أثناء ذلك على شاب من حى الظاهر بالقاهرة يدعى أنور الساكت أنعم الله عليه بوظيفة لم أحلم بها : حاجب على باب علبة ليل فى الحى اللاتينى تدعى «ليالى لبنان» . وقد كتب عنه المرحوم موسى صبرى فى مجلة «الجيل» التى كان يرأسها آنذاك «كنموذج» للشاب المصرى «المكافح» فى باريس !. وقد علمت بعد عودتى إلى مصر بعام ، أو ما يزيد على ذلك بقليل ، أن أنور قد رحل من باريس إلى برلين الشرقية وتوفى هناك على إثر إصابته بورم خبيث فى الدماغ . وقد أجاد الأستاذ أحمد بهجت فى تصوير عودته الجنائزية فى تابوت إلى مصر على ظهر سفينة رست فى الإسكندرية . وكان الأستاذ أحمد بهجت يعمل آنذاك محررا للتحقيقات الصحفية فى صحيفة الأهرام.

انقضت شهور الصيف والخريف، وأقبل الشتاء الفرنسي بزمهريره ، وانتهى آخر تجديد لتصريح إقامتى فى فرنسا ، وكنت كلما توجهت إلى محافظة باريس ومعى خطاب موجه إليها من قنصليتنا المصرية لتجديد إقامتى رفض الطلب . فلم يتبق أمامى سوى أن أرحل إلى ألمانيا ، خاصة أنى كنت أعرف الألمانية التى تعلمتها بمفردى منذ عام ١٩٥٣ . وقد شجعنى على السفرِ إلى ألمانيا «تلميذ» لى كان يدرس عليّ اللغة العربية فى باريس . وقد تعرفت عليه عن طريق إعلان مجاني نشرته لى جريدة «الإكسبريس» الباريسية وكانت تصدر يومية آنذاك . كنت قد ذكرت فى الإعلان أنى طالب علم نفس مستعد لرعاية الأطفال المشكلين أو تدريس اللغة العربية . فكتب إلى فرنسى من أصل ألمانى يدعى «مسيو بنتان» ، بعد أن كان يدعى بالألمانية «الهر بنتهايم»، كتب إليّ يقول إنه يعمل مترجما ، ولكنه لا يريدنى أن أعلمه العربية لأي أمر يتعلق بعمله ، وإنما لأنه أحب العرب عندما جند فى الجيش الفرنسى فى الجزائر ، كشرط لحصوله على الجنسية الفرنسية ، بعد الحرب العالمية الأخيرة . ولهذا فقد حرص على تعلم لغة أولئك الذين أحبهم بينما كان مجندا رغما عنه فى القوات التى تحتل بلادهم .

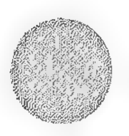
كان «الهر بنتهايم» ، أو «مسيو بنتان» كريما معى غاية الكرم . يدعونى بعد كل درس ألقيه عليه أسبوعيا إلى الغداء معه فى مطعم باريسى . وعندما علم برفض السلطات الفرنسية تجديد إقامتى ، أعطانى بعض الماركات التى كانت فى حوزته (ثمانين ماركا) وثمن تذكرة السفر بالقطار إلى بون عبر كولونيا .

وصل بي القطار فى الخامسة من صباح ذلك اليوم إلى كولونيا ، وبينما كان يهدىء من سرعته ليدلف إلى المحطة كنت فى غاية السعادة لأنى صرت استنشق ذلك الهواء الذى امتلأت به رئات عباقرة الأدب والفلسفة والموسيقى الألمانية ، من جوته وشيلز إلى كانط وهيجل ، عبورا بـ«بيتهوفن» الذى ولد فى «بون» القريبة من كولونيا. وعندما غادرت القطار فى المحطة لم أجد أحدا من الناس . المحلات جميعها مقفلة ماعدا كافيتريا المحطة . إليها توجهت . وطلبت إفطارا فقد كانت معى ماركات «الهر بنتهايم»، وطلب منى النادل الحساب فورا : سبعة ماركات ونصف المارك نقدته إياها ثم اختفى للتو . ولكنى ارتبت فى الأمر ، وعندما راجعت قائمة الأطعمة والمشروبات ، التى كان عليّ أن أبحث عنها إذ لم يحضرها معه ، وجدت أن

أغلى إفطار كان لا يتجاوز ثمنه ماركين ونصف المارك!! مكثت شهور الشتاء في ألمانيا أعمل أحيانا لأسد رمقي ، وأتردد على الجامعة والمتاحف والمكتبات فيما يتبقى لي من الوقت . وعندما حل الصيف التالى شددت الرحيل إلى باريس ، حيث مكثت لبعض الوقت كشأني قبل مغادرتي لها في العام الذى قبله . كنت أتردد على السربون كثيرا ، أستمع إلى مناقشات رسائل الدكتوراة في الآداب ، وأحضر المحاضرات العامة التي كان من بينها عام ١٩٥٥ محاضرة ألقاها «سلڤادور دالي» عن مشوار حياته الفنية في مدرج كلية العلوم بالسربون القديمة ، وقد صارت - فيما بعد - من المحاضرات القليلة الشهيرة المدرجة في كتب تاريخ الفن الحديث .

انتهت مدة صلاحية جواز سفرى بعد مضى عام كامل من الإقامة في فرنسا وألمانيا ، وكانت هنالك تأشيرة على الجواز تنص على عدم تجديده إلا بعد تقديم شهادة المعاملة العسكرية (التجنيد) . ومن ثم تعين عليّ أن أعود إلى الوطن في صيف عام ١٩٥٦ . ولكن تذكرة العودة بالسفينة لم تعد صالحة . هنا هب بعض الأصدقاء من الجزائريين البسطاء العاملين في باريس لمساعدتي على شراء تذكرة جديدة للعودة بأن جمعوا ثمنها فيما بينهم . فقد كانت كلمة «مصرى» تعنى آنذاك بالنسبة لهم كل العزة والكرامة التى نادى بها جمال عبدالناصر.

غمرني نبلهم ، كما سبق أن غمرني نبل عامل رصف الطريق الفرنسي الذي كان أول من استقبلني في باريس. وهكذا قررت أن أكرس حياتى لرفع الغبن عن هؤلاء البسطاء العظماء حقا . وأرجو أن يكون إنتاجي البحثي في مجال نظرية الأدب والحضارات المقارنة ، والمنشور حتى الآن بلغات أوربية ست هي (الانجليزية ، والفرنسية، والألمانية ، والايطالية، والبرتغالية ، والأيرلندية) فضلا عن العربية ، قد أسهم بشكل دقيق في تفنيد وكشف الأوهام التى تتخفى بها العنصرية بإزاء هؤلاء المنتجين المباشرين البسطاء سواء كان في أوطانهم الغربية ، أو في بلاد ما صار يدعى «العالم الثالث». وفى هذا الجانب الأخير كان إسهامى النظرى من خلال المدخل البديل للنظريات التي تبرر وتسعى لتعميق التوغل الغربى الاستعمارى في بلادنا تحت اسم «التثقيف من الخارج» تارة و«الاتصال الثقافى» أخرى، وذلك باقتراح مدخل منهجي بديل يبدأ برصد وتحليل واقعنا المهيمن عليه ، وهو مدخل «التداخل الحضارى» .



تحية للدكتور البيومى وكـل كتّـاب الهـلال

حيا الله كل كاتب يطلب الحق ، ويقول السداد ، ويتحرى الصواب ، ولكن للنفس هواها ، وللقلب ميله ، ولا بأس بالهوى إذا كان غير متبوع ، ولا جناح فى الميل إذا كان غير مملوك .

وإنى لتروقنى أيما روق مقالات الأستاذ الكبير الدكتور محمد رجب البيومى فى الهلال ، وأخص بالذكر مقاله فى ذكرى المولد النبوى (٦/٢٠٠٠) ، وماقيه من الصفاء العجيب ، والتدفق الآسر ، والبيان الساحر ، والتفكر السامى .

هنيئا للهلال كاتبها الكبير ، وكتّابها : الباحث المفكر الدكتور محمد عمارة ، والأديبة الليبية الأستاذة صافى نازكاظم ، والمؤرخ المنصف طارق البشرى ، أكتب هذا الكلام وعلى خدى دمعة على أستاذنا المحقق الضليع الدكتور محمود الطناحى ، رحمه الله رحمة واسعة .

محمد خليل الزروق
بنغازى - ليبيا

لا طلاق بعد الانجاب

طلقـهـا والحـزن فى عـينه ... مـجـرة للكبـريا تنتـمى
أى طـلاق بعـد طـفـلين ... لم يفـهـمـا طبـيـعـة العـالم
مـا أظلم الدنيـا، لقـد أقسـمت ... أن تلدغ الجـمـيع كـالأرقم«١»
أين الهـوى القـديم أين الشـذا؟ ... أين ليـالى القـمـر الهـائم؟
يحـاول الوالـد طعـن التى ... طلقـهـا بنجله السـاهم
والأم أيضـاً ليس فى رأسـهـا ... سـوى قـتـال الرجل الظالم
كـأنما الأطفـال فى شـرعـهـم ... قـنـابـل فـى خـنـدق مـظـلـم
الانسـجـام مسـتـحيل وكم ... تعـاركـا فى الأرض والأنجم
صـار الصـراخ غـيـمـة أمطرت ... حـزناً على بيـتـهـمـا الغـائم

إن أنجب الزوجان لن ينجحا ... بالانفصال فالضحى يرتمى

بينهما كمغنطيس له ... قطبان يأمران كالحاكم

سيجمع الأولاد رأسيهما ... رغم الطلاق واحتراق الدم

لا ينجح الطلاق يا صاحبى ... بعد قدوم الوالد الباسم

«١» ثعبان

د.هيثم الحويج العمر
دمشق

تنويه حول تاريخ ميلاد الشيخ على عبدالرازق

جاء فى كلمة هذا الكتاب ، والتى تنوه عن «كتاب الإسلام وأصول الحكم» الصادر عن سلسلة كتاب الهلال فى ٥ أغسطس عام ٢٠٠٠م ، أن الشيخ على عبدالرازق ولد عام ١٩٠٨ ، بينما ذكر فى نفس الكتاب أنه قد تولى القضاء الشرعى عام ١٩١٥ ، ومعنى ذلك أنه تولى القضاء فى السابعة من عمره ، وهذا غير معقول .

والأرجح أنه قد وقع إبدال فى الأرقام الخاصة بتاريخ مولده وصحتها عام ١٨٩٠م .

عبدالرحمن شاكر

مصر الجديدة

الهلال :

نشكر الكاتب الكبير عبدالرحمن شاكر على ملاحظته القيمة ، ودقته ، والتى أردنا فى نفس الوقت أن ننوه عنها ليستفيد قارىء كتاب الهلال العزيز .

تعليق على موضوع الشاعر الذى تزوج الحرية !

لى تعليق على مقال الشاعر الرقيق الأستاذ/ محمد إبراهيم أبوسنة والذى يدور حول نزار قبانى والحرية ..

فى البداية : عندما قرأت هذا المقال عنه وجدت خطأين فادحين .

الأول : هو عندما يقول نزار فى قصيدته والتى على (البحر المتدارك) «وأقول بأن الله سيجمع يوماً بين الأرحام» والصواب هو إضافة (ما) بعد (يوماً) حتى يستقيم الوزن فنقول (وأقول بأن الله سيجمع يوماً ما بين الأرحام) .

والثانى :

عندما يقول نزار بأسلوبه الشعرى وهذا يتمثل فى هذا الموضع عندما يقول :

ياسيدتى : إن النملة تملك وطنا

إن الدودة تملك وطنا

إن الضفدع يملك وطنا

إن الفأرة تملك وطنا .... إلخ

وأقول ، وأين باقى الحيوانات فى القصيدة يانزار ؟!

فيصل حجاج
الإسكندرية

ينابيع الإيمان

أنا مسلم ، أنا مسلم
نبذت الشرك من دربى
ففيض الله يغشانى
ويحمينى من الجدب
جذورى غرس أجدادى
ينابيعى ندى العشب

ربوع الأرض محرابى
ومشكـاتى هـدى ربـى
وأبغى العيش فى سلم
بـلا هول ، بـلا خطـب
ولـو يومـاً هنـا داسـوا
على عرضى ، على شعبى
أنـا بـرق ، أنـا رعـد
أنــا القنـاص للـــدب
أنا مسلـم ، أنا مسلـم
نبـذت الإفك مــن دربـى
ومختـالاً بآيـاتــــى
وبستانـى فمــا ذنبـى ؟!

عبدالناصر أحمد الجوهرى
المنصورة

إشــارة
قصة قصيرة

توقفت سيارتى فى الشارع المزدحم بسبب إشارة المرور ، إنها ثالث مرة أتوقف فيها اليوم . الوقت يمر ببطء توقفت بجانبى سيارة تحوى مجموعة من الشباب ، ويصدر منها ضجيج شديد ، حاولت التركيز فى أى شىء آخر غير هذه الموسيقى ، كان هناك شىء يجذب الانتباه ، ذلك الشاب الذى يحمل فى يده عقود الفل ، ويتنقل بين السيارات فى سرعة ، شاب أسمر يحمل ملامح مصرية أصيلة ، أخذت ألاحقه بنظراتى ، يتوقف بجانب كل سيارة فترة لا تزيد عن الدقيقة ، ثم ينتقل إلى سيارة أخرى فى سرعة ، كان يبيع عقوده فى بعض السيارات ويترك سيارات أخرى وقد احمر وجهه نتيجة معاملة أصحابها له معاملة جافة ، أو إغلاقهم لزجاج السيارة فى وجهه .

لهذا الفتى قدرة غريبة فى التحمل ، تخيلت نفسى مكانه وتخيلت ردود أفعالى مع الناس . هذه السيدة التى فى العقد الرابع والتى نهرت الفتى لو فعلت هذا معى لصرخت فى وجهها أو رميتها بما أحمله ، أنا عصبى ولا أتحمل مثل هذه التصرفات بل لا أتحمل الوجود فى الأماكن المزدحمة . انتظرت أن يأتينى بائع الفل ليعرض بضاعته علىّ لكن الإشارة الخضراء انطلقت ولم يقترب من سيارتى ، انطلقت بالسيارة وأنا ألقى نظرة أخيرة على وجهه واندهشت جداً وأنا أراه مبتسماً ويلوح للسيارات الذاهبة فى سعادة!

محمد شعبان-حدائق حلوان

مناجاة

ياشـعـر أنت رفـيـقـى	وأنـت سـر وجـودى
آنـسـت فـيـك وفـاء	فـى سـابـقـى وجـديـدى
إن هـددتـنـى الـبـلايـا	وفـارقـتـنـى سـعـودى
وكـان يـومـى عـبـئـا	مـمـا تـعـانـى جـهـودى
أنـت الـذى فـيـك ألـقـى	لـحـنـا لأوتـار عـودى
الـسـحـر فـيـك جـمـيـل	مـا الـقـصـد سـحـر قـصـيـدى
وإنـمـا نـفـحـات	تـشـمـهـا مـن بـعـيـد
كـالـورد يـحـلـو شـذاه	عـنـد الـصـبـاح الـولـيـد

خير الدين عبدالسلام
بسكرة - الجزائر

الهلال : الصديق خير الدين ...

نحن نعتز بك قارئا للهلال وصديقا دائما ، ودائما فى انتظار مساهماتك .

طرائف من النثر والشعر

ذهب يوما الظريف محمد البابلى لتقديم واجب العزاء فى صديق له بإحدى قرى مديرية المنوفية فوجد المعزين فى المأتم يجلسون على الحصير كعادة أهل الريف فجلس القرفصاء معهم، وطال الوقت وتعب من هذه الجلسة التى لم يتعودها فقال لواحد من أهل الفقيد : هو المرحوم فاتكم ع الحصيرة ولا ايه .. وحدث مرة أخرى أن كان يسير فى جنازة احد الباشوات مع صديقه الشيخ عبدالعزيز البشرى ولاحظا أن نعش الفقيد ملفوف بالحرير فسأله البشرى : هو النعش ده يسوى كام فقال له البابلى : ده بالميت يسوى عشرين جنيه .

كان أحد الولاة بالعراق ويدعى أبى حسن بن المدبر إذا مدحه أحد الشعراء بشعر لم يعجبه أمر غلامه أن يأخذه الى المسجد ولا يتركه الا بعد أن يصلى مئة ركعة لذا كان يتجنبه الشعراء الا أن واحدا منهم ويدعى الحسين المصرى عرض عليه أن ينشده بعضا من شعره فقال له الوالى : وهل علمت ما سوف افعله بك إذا لم يعجبنى شعرك قال : نعم ثم أنشد :

أردنا فى أبى حـــسن مـــديحـــا — كـــمـــا بالمدح ينتـــجع الولاه
فـــقلت أكـــرم الثـــقلين طرا — ومن كـــفـــاه دجلة والفـــرات
فـــقـــالوا يقـــبل المدحـــات لكن — جـــوائزه عليـــهـن الصـــلاة
فـــقلت لهم ومـــا تغنى صـــلاتى — عـــيـــالى انما الشـــأن الذكـــاه
فـــيـــأمـــر لى بكسر الصـــاد منهـــا — فـــتـــصـــبح للصـــلاة هى الصـــلات

فصحك الوالى وقال للشاعر : من أين أتيت بهذا: قال : من قول أبى تمام :

هن الحـمـــام فـــإن كـــسـرت عـــيـــافـــه — من حـــائهن فـــإنهن حـــمـــام

محمد أمين عيسوى
الاسماعيلية

إبحـــار

علمنى حبك ساحرتى
أن أكتب فيك الأشعار
أن ألثم فى كل صباح آلاف الأزهار
أن أعرف كيف إذا رقص الأطفال ستنهمر الأمطار
علمنى حبك مغرقتى
أن أبحر فى عينيك بكل مساء
علمنى أن أرفع أشرعة حمراء
علمنى كيف أغير لون الشفتين وكما اشاء
علمنى كيف يكون القلب طريق نجاة
علمنى حبك فاتنتى
كيف يكون النهد رسول حياة

رمضان سالم الأسيود
صبراتة - ليبيا

الهلال :
هذه القصيدة من قصائد الشاعر الكبير نزار قبانى ويبدو أنك قد تأثرت بشعره حتى أنك تكاد تنقل أبيات القصيدة باستثناء بعض التغييرات الطفيفة .. وفى انتظار شعرك وابداعك الحقيقى .

يوسف وهبى فى ذكرى ميلاده المائة

تحل ذكرى مولد عميد المسرح المصرى والعربى يوسف وهبى فى هذا العام ، ولعل تسليط الأضواء على حياة الرواد فى كافة المجالات أمر ينشده الدارسون لما فيه من فائدة تتمثل فى كيفية تمسك هؤلاء الرواد بالعزيمة والإصرار على شق طريق الكفاح من البداية حتى وصلوا إلى ما حققوه من أمجاد فى هذه المجالات، رغم العثرات والمصاعب الجمة التى لاقوها فى عصر لم يكن احتراف الفن فيه أمراً مستحباً .

وفى هذه الذكرى أجد أن أبرز ما يمكن الحديث عنه حول مذكراته التى سبق أن أصدرتها دار المعارف فى جزءين منها عام ٧٣، ١٩٧٤ تحت عنوان «عشت ألف عام».

ويمكن تقسيم حياته من خلالها إلى مراحل ثلاث:

١ - مرحلة ميلاد الهواية فى فترة صباه وشبابه الباكر ومزاملته لصديقيه الحميمين محمد كريم «المخرج السينمائى»، مختار عثمان ومغامراته الشبابية والعاطفية خلال هذه الفترة وحبه الجارف لهواية التمثيل رغم محاربة والده لها .

٢ - مرحلة سفره إلى ايطاليا والتحاقه بالمعهد العالى للتمثيل والموسيقى بميلانو.

٣ - المرحلة التى بدأت بعودته إلى مصر وتأسيسه فرقة رمسيس المسرحية عام ١٩٢٣ وإرسائه قواعد «اتيكيت المسرح» التى تمثلت فى احترام مواعيد رفع الستار والعناية بإطار المسرحية ومستلزماتها .

يحيى محمود حسين

القاهرة - مصر الجديدة

الهلال :

ونحن بدورنا نؤكد على هؤلاء الرواد الذين أثروا حياتنا فى مجالات الأدب والفن، ويوسف وهبى يستحق كل التقدير لما قدمه للمسرح من إبداع لم يصل إليه أحد حتى الآن ،بل إننا نتذكره الآن وقد بدأ المسرح المصرى ينهار ويتراجع الى الوراء كثيرا .

إلى الأصدقاء

●● عرنوس البراشي – شربين – دقهلية :

وصلتنا قصيدتك اشتياق ، وفيها حس شاعرى جميل ، انتظرها فى اعداد قادمة من الهلال .

●● الصديق فهيد مطلق الفهيد رئيس مجلس إدارة نادى الريان حائل – مدينة الروضة السعودية نحن نرحب باشتراككم فى مجلة الهلال ، وكتاب الهلال ، ورواية الهلال ، وذلك من خلال إرسال طلب إلى إدارة الاشتراكات بدار الهلال ، وهى التى تتولى ذلك ، مع تمنياتنا بالنجاح الدائم .

●● عادل فرج عبدالعال – كفر شكر:

وصلت مساهمتكم ، وهى عبارة عن قصة بعنوان «للأيام دهاليز قديمة» ، ونتمنى أن تاخذ دورها فى النشر قريبا.

●● الصديق : عاصم فريد البرقوقى – الإسكندرية – جليم:

شكراً لك على رأيك حول ماجاء فى التعليق على مقالة «أنبياء مصر» . كما نرجو أن تكتب باستمرار مساهماتك التى يمكن أن نقدمها لمجلات الأطفال فى دار الهلال ، ومنها مجلة ستمرار ، وقد ينشر البعض من هذه المساهمات .

●● الصديق : عرفة رمضان أنسى – باسوس – القناطر الخيرية:

قصيدتك «رسالة قصيرة جدا» ، أو محاولتك الأولى كما تذكر فى رسالتك ، لا بأس بها ، لكن الشعر مكسور ، وتحتاج إلى محاولات وقراءات متصلة ، والشعر ياصديقى فن جميل لكنك لابد أن تتسلح بالموهبة والقراءة ومعرفة علم العروض، حتى يتسنى لك أن تنشىء قصيدة يشار إليها بالبنان فواصل المشوار ولا تتوقف من أول مرة !.



الكلمة الأخيرة : مذكرات، ذكريات، شهادات، مداخلات، رسائل، خطابات ولكن الثعلب له لفات!

بقلم :صافى ناز كاظم

ذهبت مرة إلى الأستاذ أحمد بهاء الدين، وكانت تربطني به صداقة محترمة، أقول: أريد رأيك في كذا وكذا، هز رأسه: حاضر، لكن ما أن بدأ في إبداء رأيه حتى صرت أقاطعه معارضة كل كلمة يقولها بـ «لكن»، حتى انفجر: «إنت جاية تاخدي مني رأيي أم رأيك؟». لم أنس حتى الآن هذا التأنيب الساخر الذي يلتقط بذكاء، ويلخص النزوع المستمر لدينا لكي نسمع من الآخرين ما نحب، ونراه لا ما يحبونه ويرونه. ومنذ أن صدرت مذكرات عبد الرحمن بدوي وسيل الغضب منها وعليه لم ينقطع: لماذا قال، وكيف يقول وهذا لا يصح وكان يجب عليه أن... إلخ. والحقيقة إنني لم تربطني بالدكتور عبدالرحمن بدوي أي وشيجة، ثقافية أو غيرها، على طول مشوارى الحياتي، وكل ما أعرفه عنه اسمه فقط الذي ظل الأستاذ أنيس منصور يردده في كتاباته، التي لولاها لما كان لاسم عبد الرحمن بدوي أي رنة في أذني. فأنا لم أقرأ له شيئاً ولم أحتج أن أقرأ له أي شيء في سياق دراسة أو بحث أو معرفة أو متعة، وحين هاج من هاج في حملة إعلامية مكثفة لتعداد مناقب د. بدوي وضرورة مكافأة مشواره العلمي والثقافي بأعلى جائزة تمنحها الدولة، قلت: إن رجلاً مثل «بابا شارو» محمد محمود شعبان، عبقري الفن الإذاعي ومحاضنة الطفل، الذي بذر على مدى أكثر من نصف قرن في وجدان هذه الأمة منبهات الثقافة والفن، وحرك بالخيال، وفطرة التأمل، آمادا من الجمال والحكمة لهو أجدر بالتكريم والجائزة من عبد الرحمن بدوي الذي لم نر له في قلوبنا حقيقة ولا في عقولنا ظل بصمة. وعلى الرغم من موقفي هذا من د. بدوي، ظللت أردد إزاء مذكراته: ماذا يريدون من الرجل، مذكراته أم مذكراتهم؟.

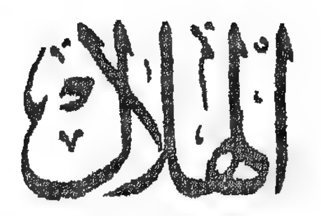
رجل يقول: أكره فلان، وشهادتي عليه كيت، واحتكاكي به كشف لي كذا، فنرى من يحاسبه ويقول: لا يصح أن تقول ما رأيت أو تصرح بما شعرت.

لماذا الإصرار على أن نظل عميانا لا نرى حقائق الأمور من كل زواياها، سواء كانت حقائق «الراوي» أو «المروي عنه»؟.

لماذا إذن يضجون بالطلب: اكتبوا مذكراتكم، ذكرياتكم، شهاداتكم، وانشروا الرسائل والخطابات؟ هذا التناقض - أو لعله الكذب - مستمر في إصرار يثير الاشمئزاز، مثل تلك اللافتات التي تحرص بعض الصحف على رفعها: «مساحة حرية»، «الحرية الحقيقية تحتمل إبداء كل رأي... إلخ»، «الإبداع».. «الإبداع من دون رقابة أو وصاية»، «وبما أن نسير خطوتين وراء الصارخين بتلك الحرية حتى نجد يد بطشهم الغبي - التي لا هي تعليمات أمن أو توجيهات عليا - تطشك على أهون زفرة وأبسط شهيق، أنفه حق، وتمنعك حتى من تصحيح وقائع ملتبسة، ويتبين لك أن اللافتات وصرخات «الحرية» ما هي إلا علاة الحب العديدة على خلق الله، مزوقة، مثل محال الفسيخ، بالزهور الصناعية التي قد توحي بشذى الهواء الطلق لكنها في واقعها تكتم الأنفاس.


الهلال
الصحافة الحزبية
تجارب وشهادات
زكريا أحمد
عاشق أم كلثوم
٢٠٠٠ • الثمن جنيهان


لمن يرغب فى خدمة مصرفية متميزة فى كل المجالات
بنك مصر
البنك الشامل
* قبول الودائع بالعملات المحلية والأجنبية.
* تمويل المشروعات فى مختلف أوجه النشاط الاقتصادية .
* تمويل عمليات التجارة الخارجية (تصدير - استيراد - خطابات الضمان) .
* المساهمات فى تنشيط سوق المال (شراء - بيع الأوراق المالية) .
إصدار بطاقات الدفع الدولية والمحلية فيزا وماستر كارد وبطاقات الدفع الإلكترونية المتنوعة .
* ترويج وتسويق وبيع حصص الأسهم لشركات قطاع الأعمال العام وتمشيا مع سياسة الدولة فى توسيع قاعدة الملكية .
* الريادة فى إدخال نظام العمل المصرفى الإسلامي طبقاً لأحكام الشريعة الإسلامية (٣٠ فرعا فى خدمة عملائه) .
* تقديم الخدمات غير التقليدية (سداد اشتراكات التليفون نيابة عنك وما ترغب من خدمات أخرى مثل البيع والشراء لحسابك .. وما تريد) .
* استحداث خدمات متطورة للعملاء (الفون بنك Phone Bank والهوم بنك Home Bank) .
هكذا يكون البنك



مجلة ثقافية تصدرها دار الهلال

أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢

العام التاسع بعد المائة

أكتوبر ٢٠٠٠م ● رجب ١٤٢١ هـ

الإدارة القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) . المكاتبات : ص.ب : ٦١ - العتبة - الرقم البريدى : ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج. م. ع. مجلة الهلال ت : ٣٦٢٥٤٨١ - تلكس : 92703 Hilal un فاكس · FAX : ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكترونى : darhilal@idsc . gov . eg

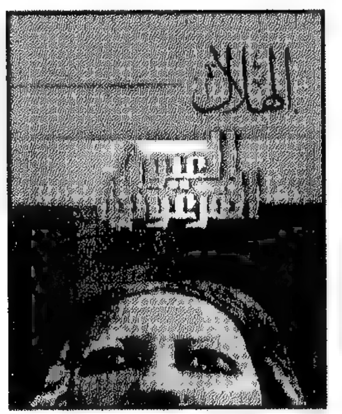
ثمن النسخة سوريا ٦٠ ليرة - لبنان ٣٠٠٠ ليرة - الأردن ١٢٠٠ فلس - الكويت ٧٥٠ فلسا، السعودية ١٠ ريالات - تونس ١,٧٥٠ دينار - المغرب ١٥ درهماً - البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبى/ أبو ظبى ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال - الجمهورية اليمنية ١٢٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ١ دولار - إيطاليا ٤٥٠٠ ليرة - المملكة المتحدة ٢,٥ جك

الاشتراكات قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عدداً) ٢٤ جنيها داخل ج م. تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٢٠ دولارا، أمريكا وأوربا وأفريقيا ٣٥ دولاراً، باقى دول العالم ٤٥ دولاراً

● وكيل الإشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيونى زغلول - ص ب رقم ٢١٨٣٣ - الصفاة - الكويت - ت/ 13079 ٤٧٤١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

هـذا العـدد



تصميم الغلاف
الفنان
محمد أبو طالب

فكر وثقافة

الصحافة الحزبية في مصر

جزء خاص

فنـــون

قصة وشعر

التكوين

الأبواب الثابتة

تذويب الفوارق بين الدول

أطفئت الأنوار، في المبنى الأنيق الواقع على شاطئ نهر «الهدسون» مقر الأمم المتحدة في نيويورك، وانفض الجمهور الذى احتشد وراء ١٥٠ من زعماء العالم ليحتفل بهذا الحدث الفريد المتمثل بحلول الألفية الثالثة، انتهت «قمة الألفية»، وعاد المحتفلون إلى ما كان يشغلهم قبل هذا المهرجان الباهر، ولكن الآمال التى فجرتها المناسبة وخطب «الكبار» الرنانة لاتزال تعتمل في الصدور.. خاصة صدور هؤلاء الذين وصفهم الخطباء بأنهم الأكثر فقرا والأقل حظا فيما تنتجه الأرض أو ينجزه الإنسان.

كانت «العولمة» هي المحور الذى دارت حوله «قمة الألفية» التى عقدت فى مقر الأمم المتحدة في أوائل سبتمبر الماضى. ولأن الموضوع، بطبيعته، جديد وواسع ومثير لكثير من الخلط والالتباس، فإنه كان لابد وأن يطول حوله الجدل ويتشعب. وهكذا تناولت خطب الزعماء - وأيضا تقرير كوفى عنان الأمين العام للمنظمة الدولية - الآفاق التى ينبغى للعولمة أن تغطيها، والمحاذير التى يجب أن تتجنبها، مع الأخذ فى الاعتبار أن الأمم المتحدة ينبغى أن تأخذ فى يدها زمام المبادرة فيما يتعلق بـ «مراقبة» تطبيق العولمة فيما هو آت من سنين وحقب، وعلى نحو أكثر إيجابية وفاعلية مما كان عليه دورها طوال نصف القرن الذى انقضى من عمرها والذى تعرضت خلاله إما للشلل الكامل فى أحيان كثيرة بسبب الحرب الباردة.. أو لتعطيل دورها وتجاهلها بفعل هيمنة القوة الأعظم الباقية - أمريكا - منذ انهيار الاتحاد السوفيتى.

ولكن أيا كانت الآمال التى حفزتها «قمة الألفية» وخاصة لدى الفقراء من سكان العالم، وهم الغالبية، فإن هناك سؤالا جوهريا يفرض نفسه فوق كل تلك الآمال - أو ربما بالرغم منها - وهو: كيف يمكن أن تتحول «العولمة»، من خلال نظام دولى متطور، إلى قوة إيجابية يستفيد منها الجميع.. والفقراء على وجه أخص؟.

عزيزي القارئ

ومع أن هذا سؤال مهم، لأنه يمس صميم ما ينبغي أن يتوجه إليه المجتمع الدولي مع مطلع الألفية الثالثة، والتحول العميق الذي يجب أن يطرأ على العلاقات الدولية.. إلا أنه يثير، بالنسبة إلينا في هذا الركن من العالم الذي يطلق عليه «العالم العربي»، ما هو أكثر من التساؤل وما هو أبعد من الآمال.

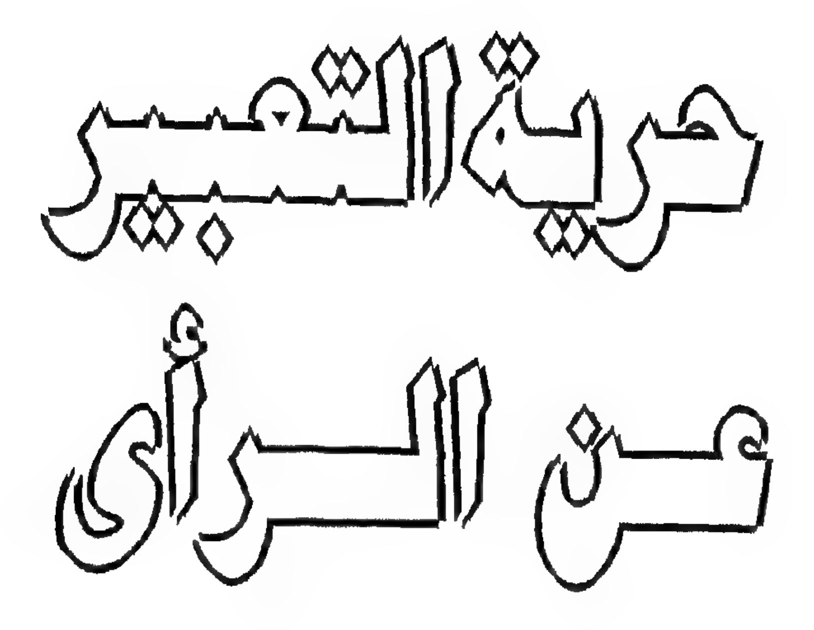
فإذا كان كوفي عنان قد أكد في تقريره إلى «قمة الألفية» أن الأمم المتحدة أصبحت ضرورية اليوم أكثر مما كانت في أي وقت مضى، وأنها يجب أن تعمل على تذويب الفروق بين الدول في النفوذ، والثقافة والمصالح، فإن ذلك من شأنه أن يبعث إلى العقل العربي، على الفور، ذكريات مؤلمة عن موقف العجز الذي وقفته الأمم المتحدة في عام ١٩٤٨ وحتى اليوم... وهو عجز ذو أثر مزدوج، حيث لم يتمكن المجتمع الدولي من فرض إرادته كلما كان الأمر متعلقا بإسرائيل، في حين استطاع أن يتحول إلى «قوة بطش» في حالات أخرى على نحو ما حدث إبان حرب الخليج وانعكس في قرارات لمجلس الأمن لاتزال تفرض بمقتضاها حالة الحصار القاسية على العراق.

لقد تحولت «الأمم المتحدة» في أنظار الكثيرين، خاصة طوال العقد الأخير من القرن العشرين، إلى مجرد أداة في يد الدولة الأعظم المهيمنة على العالم اليوم وهي الولايات المتحدة الأمريكية فهل يكون انعقاد «قمة الألفية» علامة ومؤشرا لتحول «حقيقي» في دور المنظمة الدولية أكثر إيجابية وأكثر عدلا وإنصافا لفقراء العالم؟ وهل يصبح المجتمع الدولي قادرا بالفعل على إدارة أموره بصورة أكثر عقلانية بحيث تقبل الدول القوية والغنية التعاون من أجل محاربة الفقر وتلوث البيئة والتخلف لما فيه مصلحة جميع سكان كوكب الأرض؟.

وهل تنجح المنظمة الدولية في تحقيق هذا الهدف الجميل الذي عبر عنه أمينها العام بتذويب الفوارق بين بلدان العالم.. حتى في حده الأدنى؟.

إن التساؤلات كثيرة، ولكن الآمال - أيضا - كبيرة.. لأنه لا سبيل أمام بني البشر المنتشرين على سطح هذه المعمورة سوى التسليم بضرورات العيش المشترك.

المحرر



بقلم : حسين أحمد أمين

غدت حرية التعبير عن الرأى اليوم مقبولة ومسلماً بها فى معظم البلدان المتحضرة . غير أنها حرية لم تكتسب إلا فى العصر الحديث، وبعد إراقة بحور من الدماء . وكان لابد من مرور قرون طويلة حتى تقتنع الشعوب المتمدينة بأنها فى صالح الإنسان لا العكس. بل كان لابد من انقضاء أمد طويل قبل أن تخطر فكرة حرية الرأى نفسها فى أذهان الناس .. فثمة من المجتمعات ماعرف حرية التعبير عن الرأى قبل أن يطرأ بباله أنه يتمتع بها (كالإغريق والرومان فى بداية دولتيهما، والعرب فى الشطر الأعظم من جاهليتهم) ، وقبل أن يعى أن هذه الحرية حق من حقوق الإنسان ليس من حق سلطة أن تمسه.

فمرور الزمن الطويل كان لازما إذن حتى تنبت فى الأذهان فكرة هذا الحق. وهى فكرة تستلزم توافر أمور ثلاثة، الأول : إرساء دعائم مجتمعات ذات أنظمة سياسية واقتصادية ، والثانى : شيوع آراء وأفكار ومعتقدات بين أفراد هذه المجتمعات تحظى من غالبيتهم العظمى بالقبول ، والثالث : نشوء مصالح لدى طبقات معينة فى المجتمع تكون مرتبطة بآراء ومعتقدات معينة .

وبالتالى يصبح فى مقدورنا أن نحكم بأن المجتمعات التى كانت - أو لاتزال - تعارض حرية الفكر ، وتناهض الآراء الجديدة ، إنما تعارض هذه وتناهض تلك للأسباب الثلاثة التالية :

أولها : أن عقل الإنسان العادى هو بطبيعته كسول ، وأفكاره يقبلها عادة من البيئة المحيطة به دون مناقشة . فهو يعارض غريزيا كل ما من شأنه أن يخلخل النظام الثابت فى عالمه المألوف . والفكرة الجديدة تحتم ضرورة قيامه بإعادة ترتيب أفكاره ، وهو أمر شاق . ومن ثم فإن الفكرة الجديدة تبدو له شريرة خبيثة لمجرد أنها مرهقة، ويفضل عليها اعتناق الآراء والمعتقدات المستندة إلى سلطان كنيسة أو كتاب مقدس أو رأى عام، حتى إن كان من المستحيل البرهنة على صحتها، لمجرد إيمانه المطلق بسلطة أو بفرد.

وثانيها : ذلك الخوف من أن تؤدى الأفكار الجديدة إلى تهديد المجتمع وأسسه، بالنظر إلى ماتعنيه من ضرورة إدخال التغيير والتعديل على النظم السائدة فيه، وقد ظل الناس حتى عصرنا هذا يخالون صلاح الدولة فى الاستقرار الثابت الجامد، وفى المحافظة على التقاليد والأنظمة دون أدنى مساس بها . ولذا صاروا يرون الشخص خطرا متى شرع فى التساؤل عن حكمة المبادىء الشائعة ، أو التشكيك فى التقاليد .

وثالثها : أن الأفكار الجديدة تهدد مصالح شرائح قوية فى المجتمع ، كتهديد مبادىء الثورة الفرنسية للطبقة الأرستقراطية، والماركسية للطبقة البورجوازية، والعلمانية لرجال الدين ، وهى طبقات ترتبط مصالحها بالنظام القائم ، وبالأفكار التى يستند إليها هذا النظام . ولذا صار من المؤكد أن تلقى هذه الأفكار معارضة قوية من تلك الشرائح. والواقع أن معظم المعتقدات الخاصة بالطبيعة والإنسان مما لايقوم على أساس علمىّ، كان يخدم بصورة مباشرة أو غير مباشرة مصالح طبقة اجتماعية أو سلطة دينية . وبالتالى فقد كانت القوة تحميه دائماً من هجمات وانتقادات أفراد يصرون فى عناد على الاحتكام إلى العقل . والملاحظ بوجه عام أنه مامن شخص يغضب إذا أنكر جاره حقيقة قابلة

للتمحيص والإثبات ، غير أنه يثور ويهيج متى أنكر هذا الجار معتقدات لا يمكن بأي حال إثباتها علميا . فإن أصرّ الجار على أن صلاح الدين الأيوبي لم يكن له وجود، أو أنكر أن الملح يذوب في الماء، فإنه يثير سخريتنا أو شفقتنا . أما إن شك في وجود الملائكة وعذاب القبر أو في خلود الروح ، فإنه يثير غضب الناس وكراهيتهم، وقد يحكم عليه في بعض المجتمعات بالموت بسبب شكه هذا .

العقلانية

وقد شهدت العصور الوسطى بالأخص ميدانا شاسعا من المعتقدات التي فرضت السلطات على الناس واجب قبولها. وحذرتهم من الخوض في الكلام عنها أو تحكيم العقل فيها . غير أن العقل إنما يخون طبيعته أو وظيفته إن هو قبل الحدود التحكمية أو القيود المفروضة على حريته . وتأكيد العقل لحقه المطلق في النظر في كل الأمور هو مايعرف بالعقلانية . وما إدانة البعض لهذه العقلانية إلا من آثار الصراع المرير بين العقل والقوى المعادية له ، لاسيما في مجال الثيولوجيا التي احتدم فيها الصراع بصفة خاصة .

والحقيقة أن أولئك الذين يهمهم حقاً تأكيد سلطان العقل ، كانوا دوماً أقلية صغيرة من البشر، ومن المثقفين الذين بوسعهم استخدام السلاح الوحيد المتاح للعقلانيين، وأعني به الجدل . أما السلطات فقد لجأت في حربها ضد هؤلاء إلى العنف المادي، والقهر المعنوي، والضغط القانوني، وإثارة الاستنكار الاجتماعي . وقد لجأت أحياناً إلى استخدام سلاح أعدائها وهو الجدل وتحكيم العقل . غير أنها كانت دائماً في تلك الأحيان تخرج من الصراع جريحة منهزمة ، كما هي الحال حين حاربت الكنيسة أفكار جاليليو في أوائل القرن السابع عشر ، ثم اعترفت بخطئها في أواخر القرن العشرين . والواقع أن أضعف نقطة في المركز الاستراتيجي للسلطة هو أن حُماتها – وهم بشر – لم يستطيعوا أن يحولوا بين أنفسهم وبين استخدام الجدل والحجج العقلية ، مما أدى إلى حدوث الانقسامات في صفوفهم ، وإلى إتاحة فرصة النصر للعقلانيين.

قبول الفكرة وتصديقها

قد يعترف البعض بخطأ السلطة في محاكمة جاليليو، ولكنه يرى لها الحق مع ذلك في أن تتحكم في مجال العقائد التي تخرج عن نطاق الخبرات البشرية ، والتي لايمكن إثباتها أو التأكد من صحتها، كما لايمكن إثبات خطئها . وفي الرد على ذلك نقول : إنه بوسع أي مخلوق أن يخترع أي عدد من الافتراضات التي لا يمكن إثبات خطئها ، والتي يمكن لأي شخص أبله ، أو مندفع ، أو سهل الانخداع ، أن يقبلها ويعتنقها . غير أنه ما من أحد يملك أن يدعي أن كل هذه الافتراضات جديرة

بالتصديق مالم يثبت كذبها . فإن كان بعضها فقط أهلا لأن يصدق ، فأى سلطان سوى سلطان العقل له أن يميز بين ماهو أهل للتصديق وما هو أهل للتكذيب ؟ فإن ادعوا للسلطة هذا الحق ، أجبنا بأن الكثير من المعتقدات التى آزرتها السلطة فى الماضى ثبت على مر الأيام بطلانها وهجرت .. والخلاصة أن عبء الإثبات لا يقع على عاتق المكذب بل على عاتق المصدق . فلو أنه قيل لك إن بالفضاء الخارجى كوكبا يسكنه جنس من الحمير ، يتحدث بلسان عربى مبين ، ويقضى يومه فى مناقشة آراء ابن سينا وابن رشد ، لما كان بوسعك أن تثبت كذب مايقال لك. غير أنك لست مطالباً بالتصديق لمجرد عجزك عن إثبات بطلان الزعم . ومع ذلك فإن البعض قد يقبل الفكرة ويصدقها متى كررتها السلطات بما فيه الكفاية ، واذاعتها الإذاعة والتليفزيون صباحاً ومساء، ونادى بها قوم من أسطح المنازل ، وغرسها الآباء والمعلمون فى ذهنه منذ طفولته ، وأكدها له بقوة أناس يوقرهم ويحترمهم . ونحن نعلم عن يقين قوة تأثير التكرار فى ثقة (كما فى الإعلانات) ، وقدرة هذا التكرار على تثبيت الآراء فى النفوس .

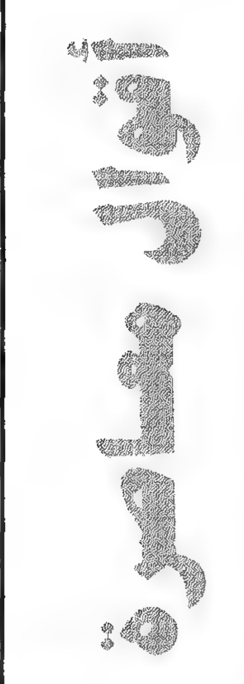
ولاشك فى أن قمع الآراء الجديدة كثيراً ماتسبب فى الماضى فى عرقلة التقدم أو الحيلولة دونه فى المجتمعات البشرية . وقد كان هذا القمع يستند دائماً إلى حجة أن الآراء الفاسدة ليست أخف ضرراً من الأعمال الإجرامية ، وأنه من مسئولية القائمين بالحكم مكافحة هذه كما أن من مسئوليتهم مقاومة تلك . والرد الواضح على ذلك هو بالتساؤل عن الحكم بصدد تقييم الآراء ، ومن صاحب الحق فى الفصل بين الصحيح والباطل، والتمييز بين الإجرامى والبطولى، وبيان ماهو خليق بالمكافحة وما هو خليق بالتشجيع والرعاية، وكثيراً ما حدث فى التاريخ أن أدان حكام رأياً ثم اعتنقه حكام تالون ، كمكافحة حكومة القيصر نيقولا الثانى للشيوعية فى روسيا، ومكافحة حكومة لينين بعدها للآراء المناهضة للشيوعية ، كل بدعوى أن آراء خصمه آراء فاسدة ، غير أن المثال الأقرب على هذا هو تغيير الفرد نفسه لآرائه بمرور الوقت. فالرأى الذى أؤمن اليوم بكل قوة وثقة بأنه صحيح وفوق مستوى الشبهات ، قد أغيره بعد عام أو عامين وأرى خطله وفساده . ثم قد انتقل من هذا الرأى الثانى فى مستقبل أيامى إلى ثالث فرابع .. ففى أية مرحلة إذن من تلك المراحل من العمر يمكننى أن أقول فى ثقة بأنى على حق ؟ وقد سبق لفرويد أن عرف الآراء بأنها اعتقاد المرء بصحة شىء ما لمجرد رغبته فى أن يكون ذلك الشىء صحيحاً ، وعرف الشاعر روبرت جريفز الأساطير بأنها ديانات الآخرين . فمن إذن بمقدوره أن يصف

عقيدته بأنها العقيدة الحقة ، وغيرها بأنها أساطير ، وهو يعلم أنه لو كان قد ولد فى بلد غير بلده ، وبين قوم غير قومه ، لوصف العقيدة التى يؤمن الآن بها بأنها من الأساطير؟

كذلك فإن الاحتجاج بأن عقيدة الأغلبية العظمى فى مجتمع معين هى الحكم فى مضمار صحة الرأى ، هو الآخر احتجاج مردود عليه . فقد تخطىء الأغلبية فى اعتقادها وقد يصيب إنسان فرد. ولو أن البشرية بأسرها أجمعت على رأى وخالفها فيه شخص واحد ، لما حق للبشرية أن تخمد صوته ، تماما كما أنه ليس من حق هذا الفرد أن يخمد صوت البشرية ، فإخماد الصوت فى حد ذاته - وعلى حد تعبير جون ستيوارت ميل يضر بالجنس البشرى ، بحاضره ومستقبله ، كما يضر بقامعى الرأى أكثر من إضراره بصاحب الرأى . ذلك أنه لو كان رأى ذلك الفرد سليماً ، لحرم الناس بقمعه من فرصة تصحيح خطئهم ، ولو كان رأيه باطلا ، لحرموا من فضل يفوق فضل تصحيح الخطأ ، ألا وهو الرؤية الأوضح للحق الناجمة عن صراعه مع الباطل. ذلك أنه حتى لو كانت عقيدة الأغلبية هى الحق المطلق ، فإن حرمانها من فرصة إثبات نفسها على حساب الباطل يجردها من أسسها العقلانية ، ويحجب الأسباب التى أحالتها من رأى إلى معرفة قطعية.

★★★

وختاما فإن تأكيد حق كل إنسان فى حرية التعبير عن رأيه ، لا يستهدف استمرار اختلاف الآراء بين الناس إلى ما لا نهاية ، ولا إبقاء الآراء دوما محلا للشك والجدل . بالعكس ، لقد كان من أفضال حرية التعبير عن الرأى على البشرية أن زادت (ولاتزال تزيد) من عدد الآراء والمعارف التى لم تعد موضعا للشك والخلاف ، أو هى على الأقل ضيقت من حدود الشك واحتمال الخلاف . إذ من ذا بمقدوره اليوم، غير قلة يدينها الضمير البشرى، أن يدافع عن نظام الرق أو تجارة العبيد ، أو عن نظرية تفوق جنس على جنس، أو عن حرمان المرأة من الحقوق، أو أن ينكر أنه لا إكراه فى الدين، أو حقوق الأقليات ، إلى آخره؟ فالواقع أن تقدم البشرية يمكن أن يقاس بعدد وأهمية الحقائق التى لم تعد تثار الشكوك حولها .. وهو أمر ما كان ليحدث لولا أن أتيحت للناس فرصة الطعن فى المعتقدات السائدة ، والحق فى التعبير عن آرائهم المخالفة لفكر الغالبية فى مجتمعهم، ولولا انتصار دعوى أنه خير امتحان للحقيقة هو قدرة الفكرة على أن تلقى القبول فى ظل التنافس فى السوق، وأنه ما من شخصية أو جماعة قد بلغت من الحكمة مبلغا يبيت من حقها معه أن تستقل بالحكم على هذا الرأى أو ذاك بالصحة أو البطلان.



● «أتمنى» ألا يكون السلام مجرد معدن صدىء أو مجرد خردة»

الشاعر الفلسطينى .سميح القاسم

● «حريق القاهرة كان بداية محسوبة لإجهاض المخاض الوطنى»

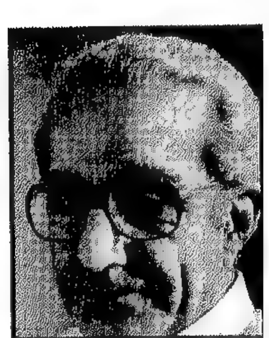
د. مصطفى سويف

● «الثقافة الحاكمة للناس فى المجتمع المصرى ثقافة لم تكد تتغير منذ أمد أبعد من حكم محمد على الكبير!!»

الكاتب احمد عباس صالح

● «محاولات قمع الفكر والحجر على الرأى لن تجدى شيئا فى آخر الأمر، بل قد تأتى بنتائج عكسية تماما»

د. أحمد أبوزيد استاذ الانثروبولوجيا بجامعة الاسكندرية

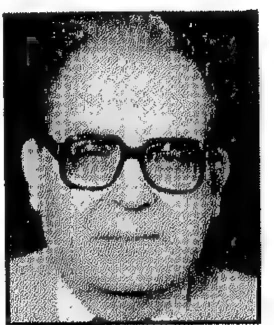

د. مصطفى سويف

● «الانفتاح لا يلغى هويتنا، فهى تغتنى على الدوام بروافد متعددة من الثقافة والتراث والتاريخ»

الناقدة اللبنانية د. يمنى العيد

● «أحب أفلامى الفاشلة، وأعشق التحديات»

المخرج المصرى حسين كمال


د. أحمد أبوزيد

● «الطباعة جعلت منا جميعا قراء، وآلات زيروكس للتصوير الفورى جعلت منا جميعا ناشرين، والتليفزيون جعل منا جميعا مشاهدين، والرقميات جعلت منا جميعا مذيعين!!»

لورانس جروسمان الرئيس الأسبق لشركة ان . بى . سى N.B.C الاخبارية

● «عالم الأزرار المهول يفتح نوافذ نطل منها على كل شيء بالصوت وبالصورة إذا شئنا»

أديب الخيال العلمي حسين قدرى

المظاهرات الطلابية في الرواية المصرية

بقلم : إبراهيم فتحى

للحـــركـــة الطلابيـــة تاريخ طويل فى النضـــال الوطنى الديمقراطى منذ ثورة ١٩١٩ حتى الآن . ولكننا سنقتصر فى حديثنا على الحركة التى أعقبت هزيمة ٥ يونيه ١٩٦٧ وبلغت ذروتها فى السبعينات من القرن العشرين كما صورتها روايات متعددة . وقد لعب الروائيون من أجيال مختلفة دور المؤرخ غير الرسمى الذى يصور الأحداث باعتبارها طرائق حياة عاناها البشر وتفاعلوا معها بأعمق أعماقهم .

وترى فى «حب تحت المطر» لنجـيـب محـفـوظ صورة لبعض جوانب السلبية واللامـبالاة عند بعض الطلبة والطالبات أثناء حرب الاستنزاف ، والانفصـام بين الجبـهة العسكرية والجبـهة الداخلية . المجندون يضحـون ويقاسون ووراءهم جو



لاه عاكف على المتع الحسية والاستهلاكية وأحلام الثراء . فخطيبات وشقيقات بعض المجندين من الطلبة المتخرجين ، وهن طالبات أيضا يقايضن الجنس بالمال لشراء لوازم الزينة والترف . ومن الناحية العكسية نرى فى «الكرنك» ما يحيق ببعض الطلبة «الإيجابيين» الذين يتجاسرون على رفع أصواتهم من بطش وتعذيب على أيدى زبانية الأجهزة البوليسية . وتومىء رواية «خرائط للمرح» لسهام بيومى إلى أن جيل السبعينات من الطلبة والمثقفين مر بمرحلة طويلة من المعاناة ، من الهزيمة إلى الاستنزاف إلى خوض غمار التحضير للحرب والاشتراك فيها اشتراكا فعليا . وقد حتم ذلك الرغبة فى واقع آخر يخفف المعاناة ويتيح قدرا أكبر من المشاركة الشعبية ومن محاصرة الامتيازات . لقد عرف هذا الجيل الحلم الملح بتحقيق واقع آخر ، وإعادة تشكيل المجتمع الذى يتسم بتراتب صارخ وبيروقراطية ومنطق بوليسى تشكيلا سياسيا وديمقراطيا ، والحلم بمعمار مختلف للواقع وهندسة جديدة للمجتمع . إن تضحيات هذا الجيل بالكثير جعلهم يطالبون بحقهم فى التعبير والفاعلية وفى بداية جديدة .

لقد كان الطلبة المتظاهرون فى رواية «تحريك القلب» لعبده جبير يشكلون الوجه الآخر المضاد لليأس الأسود والشلل المؤقت الذى أحدثته إلهزيمة وغياب الوعى فى مباريات كرة القدم أو فى الدخان الأزرق وأبخرة الكحول حتى الفتاة «سمراء» الخارجة إلى عالم الرقص فى الملاهى تتمنى لو استطاعت الاندساس وسط المتظاهرين الذين يبدون لها قوة تحطيم . وحتى شقيقها غائب الوعى يسمع الطلبة يتناقشون فى السياسة فى كل الأوقات وهم يتفرجون على المباريات أو يغازلون الفتيات ، وعندما يتظاهرون أو يحدثون «الشعب» يترك لحنه الخاص ويزاحم الناس على الأرصفة ويتغنى معهم باللحن العام ..

لقد كانت حركة الطلبة رفضا لانهيار البيت ، واستعادة للإرادة الوطنية ونفضا لغبار الهزيمة .

ويصور إبراهيم أصلان فى «مالك الحزين» مشاهد دالة من الحركة الطلابية مشهد احتلال الطلبة ميدان التحرير بعد



اقتحام الأمن المركزى جامعة القاهرة والقبض على الطلبة والطالبات المعتصمين فيها مطالبين باقتصاد حرب وموقف حاسم من احتلال سيناء وحريات ديمقراطية وإلغاء للامتيازات الجائرة . وتشير الرواية إلى تضامن الأدباء مع حركة الطلبة وتوزيعهم منشورات التأييد الرافضة لصلح منفرد مع العدو وتصفية القضية الفلسطينية .

انتفاضة ١٩٧٧

وبعد هذا المشهد المبكر فى أوائل السبعينات ، تشير الرواية إلى قيادة الطلبة للانتفاضة الشعبية فى يناير ١٩٧٧، التى رفضت «الانفتاح» وعواقبه المدمرة ، والهوة الواسعة بين قمة الهرم الاجتماعى وقاعدته . وتومىء الرواية إلى اشتراك الطالبات مع الطلبة فى الهتاف وقيادة المظاهرات . وهنا تتفتح حركة الطلبة على أوسع الجماهير الشعبية وعلى مطالبها الحيوية اليومية فى هذه الهبة التلقائية التى لم يدبرها أحد . وإلى ذلك تشير رواية «بيت الياسمين» لإبراهيم عبدالمجيد . وهى تصور التقابل بين المظاهرات المصنوعة مدفوعة الثمن من جانب السلطة ، ومظاهرات الانتفاضة الشعبية العارمة . إن أصداء هذا الحدث الكبير الذى شاركت الحركة الطلابية فى قيادته تتردد فى الكثير من الروايات ، ونصغى إليها هادرة فى رواية «اهبطوا مصر» لعبدالسلام العمرى حيث يعود البطل فى أجازة من الخليج ليلتقى بهذا الرفض الجماهيرى الواسع للكثير من السلبيات، فالحركة الطلابية فى هذه الروايات جميعا ، حركة شعبية ليست سجينة أسوار الجامعة ، وليست حركة مثقفين منعزلين ، بل كانت تجسيداً لضمير الأمة وتعبيرا عن مطامحها وأحلامها ومطالبها الحيوية .

وفى رواية «ليلة رأس السبنة» لرمضان الصباغ ، نجد عرضا يقترب من التسجيل لوقائع حركة الطلبة فى جامعة الاسكندرية . ويبدأ التسجيل بالمعركة الشرسة من أجل حق الطلبة فى إصدار مجلات الحائط دون وصاية ، وكان الطلبة يريدون تحطيم القانون الذى استنه الاتحاد الرسمي للطلاب بالاتفاق مع الأجهزة المختلفة . وهذا القانون يقضى بضرورة توقيع رئيس الاتحاد وأمين اللجنة الثقافية والدكتور رائد الأسرة على مجلات الحائط والموافقة عليها بعد قراءتها . ونرى فى التسجيل الروائي أن حلقات النقاش بدأت تتسع فنزل عدد كبير من الموظفين والطلاب المنتمين إلى الاتحاد الاشتراكى وعملاء السلطة إلى ساحة الحوار لضرب الحركة الطلابية . وبدأت المشادات . وقرر الطلبة دفع المعركة إلى الأمام وتعليق المجلات بدون توقيعات رسمية . وقام أصحاب العضلات بنزع المجلات ودلافع عنها الطلبة فكانت تتمزق . إنها معركة دائمة غير متكافئة بين عدد محدود من

الطلاب والطالبات ضد جيش جرار من الفتوات والبلطجية، وكانت إصابة الطلبة والطالبات بالغة . وفى السبعينات أيضا عندما اشتد عود اليسار والناصريين وكادوا يسيطرون على الجامعة وتغلغلوا فى الحركة العمالية وفى النقابات المهنية، قام النظام بصناعة الجامعات الإسلامية لكي تقاوم المد اليساري . وظلت هذه الجماعات بجنازيرها وأسلحتها البيضاء مطيعة للنظام إلى حين قبل أن تتفرع منها جماعات أخرى منشقة معادية للنظام ذاته.

مؤتمرات طلابية بالجامعة

وقام الحكوميون والجماعات المتشحة بالإسلام بإحراق المجلات وهم يهللون ويكبرون ويهتفون ضد اليسار والإلحاد . ولكن المجلات لم تتوقف رغم التضحيات كما تسجل الرواية ، وكانت تقدم المطالب الديمقراطية المرفوضة رسميا من الحزب الواحد . فالأحزاب ضرورة وضمان للحرية وطالبت مجلات الحائط كذلك بحق التنظيم السياسي والنقابي وبحرية الإضراب والاعتصام . فكانت السباقة إلى تلك المطالبة الديمقراطية وقوة ضغط فعالة من أجل اكتساب الوعي بضرورة تلك المطالب والعمل على تحقيقها . وواصلت المجلات فى التسجيل الروائي توجيه الانتقادات إلى ممارسات الانفتاح الاستهلاكى ،وحفلات البذخ التى يقيمها المسئولون والأثرياء على حين يعانى الشعب المصرى من الأزمة الاقتصادية .

كما شددت على رفض التبعية للولايات المتحدة ودعت إلى التضامن مع الثورة الفلسطينية . وفى جامعة القاهرة تعددت مؤتمرات هذا التضامن فى مواجهة خطوات تصفية الصراع مع الصهيونية . وتوضح الرواية أن الجركة الطلابية كانت مدرسة سياسية لممارسة أشكال شتى من المعارضة فى المنشورات والمسيرات والهتاف بالشعارات . وتتتبع الرواية الالتقاء بين الحركة الطلابية والحركة الجماهيرية العارمة فى يناير ١٩٧٧ . لقد كان رفع الأسعار هو القشة التى قصمت ظهر البعير ، فالواقع يغلى والأوضاع الاقتصادية تتدهور . فاحتشد عدد كبير من الطلاب ، وظهرت اقتراحات بالخروج فى مسيرة إحتجاج . ولكن المظاهرات الغاضبة كانت قد اندلعت فى كل مكان ، ونزل جمهور ضخم من المواطنين إلى الشارع يهتفون فالتحم الطلبة بهم . مظاهرات تلتقى بمظاهرات . كان الجو صاخبا والهتافات حادة فى مواجهة السلطة ورموزها . وكان الناس يتسابقون إلى حمل الطلبة الهاتفين وتردد الجماهير الهتاف حتى يبح صوت قائد المظاهرة ، وكانت الفتيات أيضا يقدن الهتاف . لم يكن أحد يستطيع إقناع مصر كلها بالتوقف عن التظاهر فالأمر أكبر مما تصور الطلبة الذين كان قصارى همهم عقد مؤتمر فى ميدان عام ففوجئوا بانتفاضة شعبية حقيقية . وسرعان ماحدث التحام آخر بين الجمهور الذى

على رأسه قيادات طلابية والأمن المركزى ولعلع الرصاص وسقط شهداء وأصيب بعض الجنود من طوب وأحجار الجمهور . وتعددت معارك الأيدى والهراوات . وتشعبت المظاهرات إلى الشوارع الجانبية وتم القبض على كثير من الطلبة . وأعلن منع التجول . بعد ذلك أغلقت الجامعة والمدينة الجامعية أبوابها وسافر الطلاب والطالبات إلى أهلهم وأقاربهم .

اختراق التنظيمات الطلابية

ولكن الرواية لاتقف عند كيل المديح للحمة طلابية بلا نقاط ضعف . فالتنظيمات اليسارية التى ينتمى إليها قياديون من الطلبة تعانى من خلافات حادة فيما بينها ومن خلافات داخلية فى كل تنظيم على حدة . كما أن أجهزة الأمن عمدت إلى اختراق التنظيمات والحلقات الطلابية وبدأ جو من الشك المتبادل ينتشر بين الطلاب ، وبدأت الاتهامات تلقى جزافا ويختلط فيها الصواب بالخطأ . وتعددت المشاحنات بين الزملاء بسبب الرغبة فى الزعامة أو بسبب المنافسة على الفتيات.. فلقد كان دخول البعض إلى حلبة السياسة نتيجة لأزمة خاصة أو العوز للحب أو الانبهار باليوتوبيا . وقد طال عرضنا لرواية «ليلة رأس السنة» لأن جزءا منها هو بمثابة ملاحظات شاهد عيان مفصلة لهذه الحركة الطلابية متعددة الأوجه .

ومن الناحية الأخرى كان انكسار هذه الحركة على الروايات بعيدا عن الطابع الملحمى قريبا من الانتقاد الحاد ، ربما لأنها انحسرت مقسمة الطريق أمام الحركة المتشحة بالإسلام . ولنأخذ «بشائر اليوسفى» لرضا البهات . والرواية تتعقب بالنقد انعزال المثقف الطلابى عن الحياة . الفتاة «خلود» تسأل حبيبها لماذا كنتم تهتفون فى المظاهرة بكلام يصعب فهمه ، كان قد تعرف عليها فى مظاهرات الطلبة ، وهى تتعجب لماذا يتحدث الطلبة بحدة ويتشاجرون دائما ، لماذا ينقسمون بسبب كلمة لا تهم جموع الطلبة ، لماذا تنشطر المظاهرة مظاهرتين فتساند هى المظاهرة التى يؤيدها حبيبها ثم تجد تلك المظاهرة تنقسم بدورها إلى مظاهرتين وبطبيعة الحال لم تكن الانقسامية مستفحلة فى واقع الأمر إلى تلك الدرجة الخانقة التى تصورها الرواية وإلا ما كان للحركة الطلابية فاعليتها المؤثرة التى استمرت عقدا من الزمان على أساس من الحد الأدنى المشترك بين الاتجاهات المعارضة المتعددة . إن الرواية تجسد الحركة الطلابية فى شخصية المثقف الحافلة بالسلبيات . وأبرز تلك السلبيات فى شخصية هذا الثورى عبادته للنظرية التى تتحول إلى القوة المسيطرة على عقله ووجدانه وسلوكه . فيصبح بالونا ممتلئا بالكلمات المنمقة والأفكار المجردة . وكان يقول لحبيبته إن من الكلام مايسقط ممالك . كانت النظرية عنده قد تحولت إلى عقيدة جامدة تسرى فى دمه ولم تعد مرشدا

للعمل ، وبدلا من أن تضيء الواقع أصبحت بديلا للواقع وعصابة على عينيه وأصبح يفضل كلام الكتب على ممارسة الحياة . ويقيم السرد تناقضا لايقبل الحل بين تجريد النظرية وواقعية السلوك . ويقدم صورة مثالية للإنسانية البسيط التلقائي الذى يحيا دون أن يحتاج إلى أى مفاهيم نظرية . ويتمثل ذلك فى الحبيبة الطيبة المعطاء ، فهى تكره السلطة لأن كل سلطة ظالمة ليس لأنها تظلم فعلا بل لأنها تضع نفسها فوق الناس ، (وهذا مفهوم نظرى) وهى لاتحب الأغنياء لأن قلوبهم خلت من الرحمة، واستطاعوا لذلك أن يكدسوا المال، وتكره الصهاينة لأنهم قتلوا أخاها الشهيد.. وتنحاز الرواية إلى تجربة البسطاء الذين يكتشفون الحقائق الكبرى فيما يشبه التجلى الفورى فى مواجهة السفسطة التجريدية . ولا يصلح هذا المثقف الورقى الذى يجرى فى عروقه مداد الكتب بدلا من الدم نموذجا لتجسيد الحركة الطلابية . فكتب اليسار تكرر كثيرا انتقاد المثقف المنعزل عن حياة الجماعة ، وتعتبر أن النظرية لن تكون قوة فاعلة إلا إذا ارتبطت بحياة أوسع الجماهير واعتنقتها الجماهير . وربما كان هذا النقد ملائما لأن يوجه لا إلى مثقف الحركة الطلابية بل إلى نوع من العقائدية اليسارية التى تقدس بعض المقولات النظرية فى جمود وانعزال عن الواقع .

وترسم بهيجة حسين فى «رائحة اللحظات» صورة أخرى للحركة الطلابية . فالبطلة تسترجع يوم تصاعدت دقات قلبها والتحمت بقلوب الطلاب المتظاهرين فى الجامعة المصرية . اهتدوا جميعا للحقيقة وحفروا طريق الخلاص ، غطوا جدران الجامعة بمجلات الحائط ووزعوا بيانا على الطلبة ووقفوا يحمون أوراقهم المعلقة بأجسادهم ، زادت أعدادهم وتشابكت أيديهم وغنوا معا للوطن (عرض الدكتور على الراعى) . وحين نصل إلى ميرال الطحاوى فى «الباذنجانة الزرقاء» نرى تقييما سلبيا لبعض المشتركين فى الحركة الطلابية من زاوية العاهات النفسية . فالرواية فيما يبدو تدعى رفض كل الأيديولوجيات وتحتفى بالتجربة الذاتية الحميمة . ومن البداية يقدم السرد صورة كاريكاتيرية مضخمة للطالب المناضل . فهو يلهث بين الأروقة ويستبدل مجلة حائط بأخرى ، و«يدقدق» مع الطلبة على «البنش» ويردد مقاطع من أغانى يصعب حفظها تتحدث دائما عن سجون وحمائم ونسائم وبشائر والغلابة الشقيانين .. إنهم يتحدثون عن الثورة وعمال كفر الدوار وإنتفاضة الجياع ويتبادلون نكات جديدة عن الكافيار وفراخ الجمعية . ويسخر السرد من المقالات الطويلة عن العدالة والثورة ،وتوزيع الأرزاق وعن ماركس وعلى بن أبى طالب ، وإحدى الشخصيات تتحدث عن أنها دونت كل اللافتات اللازمة لمجلة حائط مجيدة ثم نامت مرتاحة

الضمير . وأين تضع الرواية مناضلى الحركة الطلابية ؟ فى بار الشيخ على ، ورواد البار يهتفون ضد ارتفاع الأسعار والبطالة فى مظاهرات تنتهى بعربات أمن مركزى ومجندين يطاردون المتظاهرين بعصى كهربائية وقنابل مسيلة للدموع . وعلى الرغم من أن المشاكل حقيقية والمظاهرات شجاعة وجدية فقد جعلهم السرد من رواد بار ، وصورهم على أنهم يعلقون لافتات كبيرة على أفواههم عن العدالة والثورية .. والعمالة لأمريكا ويقاطعون الكنتاكى والهامبورجر والفراخ المجمدة ، ويلتفون فى جلسات عبثية تتحدث عن ماركس وتروتسكى والإحباط ، ولكهم يكتبون قصائد متشابهة ويطلقون شعارات الالتزام الأيديولوجى وأدبيات النص الثورى . إن قعيد بار الشيخ على يستمد نشوته الوحيدة حين يحملونه على ظهورهم فيرتجل كل الشعارات اللازمة لإشعال مظاهرة :

مش كفاية لبسنا الخيش جايين ياخدوا رغيف العيش، يشربوا ويسكى وياكلوا فراخ والشعب من الجوع أهو داخ.

يا أمريكا لمى فلوسك ، بكره الشعب العربى يدوسك.

والعرق على جبهته يتوهج ، وبعد الركض وقذف الأحجار يتوارى المتظاهرون مكدودين يعدون أسماء الذين تم اعتقالهم وأسماء المختبئين . وتبدو المظاهرات إفرازا لحالات خاصة لا علاقة لها بالواقع الكبير ولا بمطالب الجماهير ولا بمشاركة هذه الجماهير ، ولكنها لعبة عبثية شديدة الانعزال لا تلقى صدى ، أو استجابة من أحد . وهذا المناضل المصنوع من خرق الخيال البالية حينما لايكون ثملا يفتح حقيبة حبيبته ويشترى لها بنقودها عقدا من الفل ويقبلها فيضحك أصدقاؤه ويصفقون ويزغردون ويظل يشرب (!!) ثم يمشى معها فى الشوارع المعتمة وقد يكون ثملا لدرجة أن يفتح بنطاله ويبول وهو ممسك بذراعها على عربة أمن مركزى مرابطة أمام الجامعة الأمريكية (من يجرؤ على ذلك ؟) وهو يكثر من التبول أمام قسم شرطة باب الشعرية والصول مغرم بالتقاطه متحوطا فى الشوارع ليبيت ليالى كثيرة فى التخشيبة وتكتمل الصورة الذهنية الأيديولوجية فى فكر المؤلفة عن بشاعة «المناضل» اليسارى لنعرف أن السيدة والدته شبه عاهرة يتبادل معها الاتهامات بكونها عاهرة فترد له الاتهام بأنه ليس رجلا . وبار الشيخ على فى هذه الرواية الأيديولوجية ذات التصميم الفكرى المسبق هو المستنبت الذى تخرج منه مجلات الحائط ، وتخطط فيه المظاهرات العارمة !! . وكان الإسلاميون من ناحيتهم يرفعون بين المدرجات لافتات تتحدث عن الجهاد والمجاهدين الأفغان ، وكان «المناضل» اليسارى يقول عنهم إنهم مرتزقة وحشاشون وعملاء للهمبورجر الأمريكانى وإنهم يتاجرون باسم الدين لهدم الثورة العمالية (من المعروف أن يساريى البلاد التابعة والمستقلة حديثا لايطالبون بثورات

عمالية بل بثورات وطنية شعبية) . وكان يحدث اشتباك بين الجانبين، هناك من يهتفون : إسلامية إسلامية لا شرقية ولا غربية وهناك من يهتفون : عبدالناصر إصحى وشوف نهبوا الثورة على المكشوف وكانت الثرثرة اليسارية تتحدث عن الآلام الرومانتيكية والاغتراب واليأس والإحباط ووعى النخبة والسلفية التى ابتلعت السخط الجماهيرى صانع الثورة . وتواصل الرواية تشويه اليسارى فى الفراش ، فعادة يكون ثملا وجسد فوق حبيبته حمل من الهذيان ، يختبر ما تقوله أمه عن افتقاد رجولته «بجولات يحرص على أن تكون كثيرة ويتوحش يصلح لمناضل ويفجاجة تصلح لثورى» . وكل صفات اليسارى الحسنى تأتى على لسان الطالبة حبيبته التى تشارك فى نضاله . ويبدو اليسار شبيها بالسلفية ، فالرفاق يرفضون أن يعترض أحد أو يناقش سياسة التنظيم العليا ، والأخوة يؤكدون أن التنظيم أساسه السمع والطاعة وليس المراء والجدل .

حرارة التجربة

ويفتقد تصوير الحركة الطلابية فى تلك الرواية حرارة التجربة وعمقها ولا نجد بين أيدينا إلا قوالب ذهنية سطحية لرفض العمل السياسى تبتعد كل الابتعاد عن التناقضات الفعلية فى المجتمع وعن القوى الدافعة للحركة الطلابية ، وعنفوانها وصورها ، وآثارها .

وبعد انحسار الحركة وتحول مسارها وتصدى وجوه أخرى للقيادة بشعارات مختلفة ترصد رواية «ليال أخرى» لمحمد البساطى وميضا بين جمرتها تحت الرماد الكثير . لقد اعتقلت أجهزة الأمن فى سبتمبر ١٩٨١ بتوجيه من السلطات العليا ما يقترب من ألفين من المفكرين ورجال الدين والسياسيين القدامى العجائز فى السبعين ، ومن الشباب ، أى كل من نطقوا أو كتبوا ضد النظام على الرغم من أنهم خليط لايجمعهم فكر واحد . وتصور الرواية خمسة أولاد «يدرسون فى أفضل الكليات» جلسوا على كراسى المقهى ومعهم لافتة من القماش فردوها على منضدة ، وواحد منهم يكتب عليها بفرشاه وآخر بجواره يمسك بعلبة اللون . رآهم صاحب المقهى واقترب منهم، وألقى نظرة على اللافتة وصرخ : بتشتموا الحكومة ! وراح يدفعهم بعيدا عن المناضد .الأولاد وقفوا عند الجدار المقابل وفردوا اللافتة عليه وأخذوا يستكملون كتابتهم . وصاحب المقهى جرى إلى الداخل وتناول سماعة التليفون . والأولاد بعد أن انتهوا رفعوا اللافتة واندفعوا بها إلى الشارع . تركوا وراءهم الفرشاة وعلبة اللون مفتوحة . الزبائن منهم من غادر المقهى والباقون سحبوا مقاعدهم مبتعدين عن المنضدة التى كان يستخدمها الأولاد . ولكن المباحث تهجم وتقبض على بعض الزبائن الذين ينكرون أنهم شاهدوا شيئا . ويعرف هؤلاء أن المباحث قبضت على الطلبة المحتجين بعد فترة قصيرة .

إن الروايات المصرية التى احتفت بالحركة الطلابية وحاولت التأريخ الفنى لها من زوايا مختلفة ظلت تقوم بدور المؤرخ غير الرسمى الحر للشخصية الإنسانية فى مصر ذات الأبعاد المتعددة .

كتاب جديد

اسرائيل
والقرن الحادى والعشرون

بقلم : مصطفى نبيل

هل يكسب يهودا باراك السباق ، وينتصر للعلمانية ويحقق التسوية السياسية؟! خاصة بعد الخطوات التى اتخذها ، فألغى وزارة الأديان، وأعلن عزمه على إعداد دستور دائم .

فهل هو جاد وقادر على السير فى هذا الطريق؟.. أم أن الحكاية مجرد فصل فى الصراع بين الأصوليين والعلمانيين؟.. وهل يمكن أن تتداخل معركة علمانية الدولة مع التسوية السياسية فى المنطقة؟

أم أن مايجرى هو رسالة للفلسطينيين تحثهم على الاتفاق حتى لا تسقط إسرائيل فى أيدى المتشددين؟!

وربما نجد فى الكتاب الذى صدر أخيراً جانباً من الإجابات..

شغل مستقبل إسرائيل العديد من الباحثين ، الذين لم يكتفوا برصد الواقع الراهن فقط ، بل إمتد بصرهم إلى المستقبل ، ومن الدراسات الحديثة والزاخرة بالمعلومات ، كتاب «الدولة اليهودية .. قرن مقبل» ، كتبه آلان دوتى «Alen Douty» الذى انقسمت حياته بين إسرائيل والولايات المتحدة..

وأهمية الكتاب تلك الصورة التى يقدمها لإسرائيل من الداخل، والضوء الذى يلقيه على الانقسام الحاد الذى يصل إلى الانغلاق الكامل داخل المجتمع اليهودى ، بين التيار الأصولى من جانب والتيار العلمانى من جانب آخر، والصراع المرير الذى يجرى بين الداعين إلى الإندماج فى العالم المعاصر وأولئك المتمسكين بالحفاظ على الخصوصية اليهودية. ويقدم رصدا دقيقا للأزمة المجتمعية التى تعيشها إسرائيل ، وتشكلت الدراسة فى قالب البحث عن مستقبل الديمقراطية، وما تواجهه الديمقراطية من عقبات ، وما أحوجنا حقاً إلى معرفة إسرائيل من الداخل، معرفة متجددة وواقعية وبلا أوهام.

ومنذ قيام إسرائيل ويدور الصراع حول إمكانية فصل الدين عن الدولة ، فبعد أن هاجر اليهود المتدينون إلى فلسطين ، أرض الميعاد ، يسعون من أجل حياة يهودية خالصة ، وجدوا أنفسهم وسط دولة



يجاهر حكامها بالإلحاد ..

ويتساءل الكاتب .. هل يمكن أن تكون إسرائيل يهودية وديمقراطية معا..؟ فاليهودية عند البعض منافية للديمقراطية، وأنه بقدر يهودية الدولة بقدر عجزها على أن تكون ديمقراطية، وأنه لا يجوز أن تستند إلى قانون علماني بل ينبغي أن تعلو الشريعة الإلهية على القواعد والقوانين والمؤسسات البشرية ، كما نصت عليه التوراة (٢٣) سفر الخروج..

«لاتتبع الكثيرين إلى فعل الشر، ولا تجب فى دعوى مائلا وراء الكثيرين

للتحريف».. ويؤخذ هذا النص حجه فاصلة ضد حكم الأغلبية.

وبلغ التعصب والانقسام ذروته فى نوفمبر ١٩٩٥ ، عندما أطلق أحد المتشددين اليهود النار على رئيس الوزراء اسحق رابين ، احتجاجاً على التفريط فى «أرض إسرائيل»!.

ويمكن رصد تنامى قوة الأصوليين من خلال مؤشرات إنتخابات الكنيست الإسرائيلى ، ففى إنتخابات ١٩٩٢ و١٩٩٦ حدث تصدع واضح فى التيار الرئيسى فى إسرائيل، وحقق حزب العمل والأحزاب اليسارية أغلبية ضئيلة وهى التى كانت تهيمن على الحياة السياسية فى إسرائيل منذ قيامها وحصلا معاً على ٦١ مقعداً . وفى أول انتخابات مباشرة لرئيس الوزراء سنة ١٩٩٦ حصل نتانياهو على ١٪ من الأصوات المرجحة ووقفت إسرائيل المدنية وراء بيريز واحتشدت إسرائيل الأصولية خلف نتانياهو، وهى الأكثر فطرية وخصوصية وطائفية وتدينا ومحافظة وتشدداً ، وتراجعت إسرائيل المدنية وهى الأكثر عصرية وليبرالية وميلا إلى السلام(!).

كما أن إسرائيل التقليدية الأصولية عاطفية ، وإسرائيل المدنية عقلانية . وهوية إسرائيل الأصولية هى العرقية اليهودية ، أما إسرائيل المدنية فالمواطن إسرائيلى أولاً ثم يهودى بعد ذلك ، ويستدرك الكاتب قائلا .. «وليست هذه الحالة مطلقة، فالحياة الواقعية تمتلىء بالتناقضات فهناك فى إسرائيل حمائم متدينون وصقور علمانيون، وتقليديون من أصول أوربية ، وأناس لهم نزعات غربية من أصول شرقية».

ويعود الاستقطاب للظهور فى انتخابات الكنيست عام ١٩٩٦، وخسرت الأحزاب اليسارية الأغلبية الطفيفة التى حصلت عليها من ٦١ مقعداً إلى ٥٢ مقعدا ، وخسرت فى ذات الوقت أحزاب اليمين تسعة مقاعد من ٢٣ مقعداً إلى ٣٤ مقعداً . وظهر فريق جديد بزعامة المنشق السوفيتى ناثان شارانسكى والذى يميل إلى التشدد.

وهنا يثور السؤال التالى .. أيهما أكثر صعوبة ، الاتفاق بين الفرقاء داخل إسرائيل ، أى بين الأصولى والعلمانى ، هل ذلك أسهل ، أم أن الاتفاق بين العرب وإسرائيل أسهل؟!.

ويرى العديد من الباحثين الإسرائيليين أن الاتفاق الداخلى أكثر صعوبة(!). وترسم الأبحاث صورة قاتمة للصراع الداخلى الحاد ، الكارثة الوشيكة الوقوع والتى تهدد وحدة إسرائيل ، فمطالب الأحزاب الدينية قد تكون خطيرة بنفس القدر لخطورة المطالب العربية ، فالجماعات العربية أكثر استعداداً للتفاهم بشأن مطالبها من الأحزاب الدينية التى لم

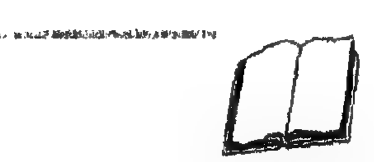
تظهر يوماً أى استعداد للتفاهم!.

فقد بدأ الرد الأصولى على الحداثة فى الرفض الكامل للعالم المعاصر والدعوة إلى العودة إلى الماضى والتمسك بالجذور، وبدلا من أن يصبح الإسرائيليون «أمة كغيرهم من الأمم»، أخذوا ينظرون إلى ذواتهم على أنهم . «هو ذا شعب يسكن وحده» ، كما جاء فى التوراة فى سفر العدد (آية ٢٣) ، وأخذت إسرائيل تنتقل من العلمانية العقلانية المدنية إلى إتجاه صوفى غيبى وأخذت بالتالى تتقهقر ، وشهدت إعادة تأكيد للديانة اليهودية بعد فاصل زمنى يغلب عليه موجة أيدلوجية علمانية أخذت بعد ذلك فى الانحسار.

ومن مظاهر ذلك ، تدعيم الدراسات الدينية اليهودية فى جميع المدارس، وتقليص دور المرأة فى الحياة العامة واقتصارها على الشئون الخاصة، فإسرائيل مازالت متخلفة عن الكثير من الدول فيما يتعلق بالمساواة الحقيقية بين الرجل والمرأة – مازال الحديث للكاتب اليهودى – وانخفض تمثيل المرأة من الكنيست بصورة متتابعة، حصلت على إثنى عشر مقعداً عام ١٩٤٨ وثلاثة عشر مقعداً عام ١٩٥٥ ثم هبط إلى سبعة مقاعد عام ١٩٨٨ وثمانية عام ١٩٩٦ (أعد الكتاب قبل ظهور نتائج الانتخابات الأخيرة).

وانتعشت ثقافة يهودية من شبكة مدارس دينية ، هى التى أمدت التنظيمات المتطرفة بعناصرها ، مثل جوش إيمونيم (وهو التنظيم الإرهابى الذى أقامه الحاخام كاهانا القادم من بروكلين ، والتى تأسست عام ١٩٧٤ ، بهدف استيلاء إسرائيل على كامل أرض فلسطين من خلال التوسع فى الاستيطان ، والذى يعود لأحد عناصرها المذبحة التى شهدها المسجد الإبراهيمى عند الفجر)، والمساواة بين البشر لدى هؤلاء غير ممكنة والديمقراطية لديهم مستحيلة ، وعلى العرب أن يختاروا بين العيش دون حقوق أو الرحيل!.

ويمضى الكاتب قائلاً .. «يلاحظ مايرون أرتوف.. أن الانقسام فى إسرائيل يقوم حول تفسيرات متعارضة ، بشأن ما يجب أن يكون عليه الطابع اليهودى لإسرائيل والاستقطاب الذى يضم عند أحد طرفيه الذين يؤكدون ضم واستيعاب الضفة الغربية ، قلب اليابسة التوراتى القديم ، وبين من يرون أن ذلك سيهدد الطابع اليهودى والديمقراطى للدولة ، ويجعل الصراع والحرب فى الشرق الأوسط أمراً حتمياً، ويؤكد المنهج الأول على تفرد الشعب اليهودى وعزلة



إسرائيل بينما يدعو التوجه الثانى إلى تطبيع ودمج الدولة اليهودية فى العالم المعاصر كمنارة وسط الظلام!.

ويرتبط هذا الانقسام بانقسام طائفى آخر بين الاشكيناز والسفارديم، أى بين اليهود ذوى الخلفية الأوربية واليهود القادمين من الشرق ، كما يرتبط أيضاً بانقسام بين اليهود المتدينين وغير المتدينين ، ومن انقسام عرقى ثالث بين اليهود والعرب.

تآكل الصهيونية

ويزعم الكاتب تآكل الصهيونية بعد أن حولت اليهود من مجرد دين إلى دين وسياسة ، ويغفل الكاتب هنا البعد الدينى العميق ، فإن كان الآباء المؤسسون ذوو الأصول الأوربية تأثروا بالمفاهيم الليبرالية، إلا أنهم سعوا لاستخدامها من أجل الوصول إلى أهداف دينية بعيدة عن الليبرالية ..

ونعود إلى ما قاله الكاتب .. يؤكد أن الجيل الجديد من الشباب فى إسرائيل أكثر ميلاً للسلام من آبائهم ، وأخذت تتناقص الفجوة التى كانت قائمة بين نخبة اشتراكية علمانية تنتمى إلى أوربا ، وجمهور أكثر تقليدية جاء من الشرق . أى الاشكناز والسفارديم، ويقف الشرقيون مع الدولة الدينية والاشكناز مع العلمانية. ومن المفارقات أن حرب ١٩٦٧ ساهمت فى تقويض حزب العمل العلمانى(!) الذى كان يهيمن بلا منازع على الحياة السياسية فى إسرائيل ، عندما تراجع التهديد الخارجى وأدى إلى عدم الحاجة للوقوف خلف الحكومة ، وجاء رحيل الرئيس المصرى جمال عبدالناصر فى سبتمبر عام ١٩٧٠ ، لكى يزيد الشعور بالأمن وانحسار التهديد داخل إسرائيل. كما شكل أبناء اليهود القادمين من البلدان العربية وهم قرابة نصف الناخبين ، الذين لايرون أى إجحاف أو ظلم فى استمرار خضوع الفلسطينيين فى الضفة الغربية للسيطرة الإسرائيلية ، وظل الكثيرون متمسكين بادعاء حق اليهود فى كل أرض فلسطين.

وعندما وقعت حرب أكتوبر وجهت ضربة قاسمة للثقة القائمة فى قدرة حزب العمل على القيادة ، وأصبح التوصل إلى حل وسط سياسى بين طرفى المعادلة داخل إسرائيل أكثر صعوبة ، وأدى الاستقطاب بين الفريقين إلى جعل الطريق مغلقاً ، وظلت إسرائيل منقسمة بين نصف علمانى تحديثى أميل للسلام ، ونصف أصولى تقليدى محافظ أكثر تشدداً!.

ويعبر إفنير يانيف عن بعد آخر حيث اقتحم الصورة بالقول .. «أنقذت حرب ١٩٦٧، الشبحين التوأم ، التطرف اليهودى والشخصية الفلسطينية»، ثم تأتى اتفاقية السلام بين مصر وإسرائيل وتزيد الشعور بالأمن وتضعف تماسك الطرفين المتصارعين .

وتتغير الخريطة السياسية تغيراً جوهرياً مع قيام الانتفاضة الفلسطينية سنة ١٩٨٧ ، وتصاعدت المطالبة بتسوية سياسية ، انتهت هذه الحاجة أو كادت بعد وقف الانتفاضة.

الدين والدولة

وبقيت العلاقات بين الأصوليين والعلمانيين ذات حساسية خاصة، لافتقار العلمانيين إلى دعم فكرة فصل الدين عن الدولة فليس في التقاليد اليهودية فصل الدين عن الدولة فترتكز اليهودية على مجموعة من القوانين مأخوذة من الوصايا العشر.

وهناك ١٤ ديانة تعترف بها الدولة ، فإلى جانب الإسلام والمسيحية يوجد البهائية وطوائف دينية مسيحية وإسلامية مختلفة.

ودأبت الحركة الصهيونية منذ بدايتها على إقامة مؤسسات ثقافية ثنائية، بعضها دينية وبعضها غير ذلك ، ومنذ البداية وبعد قيام إسرائيل عارض الحزب الديني أجودات إسرائيل صياغة دستور لإسرائيل ، (وأيد ذلك السياسيون الليبراليون لكي تبقى احتمالات التوسع الإسرائيلي قائمة) ، كما عارض قيام دولة يقوم الحكم فيها على الأغلبية لأن معنى ذلك التنكر لحكم التوراة، كما عارض هذا التيار استخدام الرموز الوطنية مثل العلم الإسرائيلي ، وعارض التحاق شبابهم بالخدمة العسكرية ، وانسحب الحزب الديني من الحكومة بسبب التجنيد الاجباري للنساء.

واستمر الخلاف مع التعايش بين التيارين. فتحمي الدولة تماماً منع العمل يوم السبت، ويقوم الحاخامات بزواج وطلاق اليهود ، وتجاهلت الحكومة في ذات الوقت تطبيق القوانين التي من المرجح أن يؤدي تطبيقها إلى رد فعل عنيف ، فلم يحدث فرض حظر على لحم الخنزير، وتركت أماكن الترفيه تعمل يوم السبت . رغم مخالفة ذلك نصوص القانون.

وأخذت الأحزاب الدينية تقايض على مواقفها السياسية في الحصول على دعم الحكومة لأهدافها ، مثل زيادة الانفاق على المدارس الدينية رغم انفصالها عن الحكومة فإذا كانت الأهداف بعيدة المدى بين الأصوليين والعلمانيين متعارضة إلا أن مستوى الشعور المتبادل بعدم الرضا متعادلاً . ويدور الصراع بينهما حتى فترة قريبة ، وكأنه مجرد مناوشات على الحدود وليست حربا شاملة . ونجح العقل الجمعي في توظيف كافة ألوان الطيف من أجل مستقبل إسرائيل ، وها هي المحكمة



العليا في إسرائيل ، وها هى ذى تحدد مدى أهلية الأحزاب الإسرائيلية وحقها فى دخول الانتخابات ، بأنها الأحزاب التى تقبل إسرائيل كدولة يهودية ، وأن تحتفظ بأغلبية يهودية ، وتؤيد قانون العودة الذى يعطى الحق لأى يهودى من أى مكان فى العالم فى الحصول على الجنسية الإسرائيلية عندما تطأ قدماه أرض فلسطين ، كما يجب عليه أن يؤيد وجود علاقات مع اليهود خارج إسرائيل.

ويظل تعريف من هو اليهودى ، مسألة خلافية كبرى ، وقضية بالغة الأهمية ، وهى أكثر القضايا التى يحتمل انفجارها بين الطرفين، والغريب ما أعلنه زعماء اليهود المدنيين أن السلام وانقاذ الأرواح يأتيان قبل الاستيلاء على الأرض والاحتفاظ بها.

ومن جانب آخر فرغم عدم شرعية الاستيطان فى الأراضى المحتلة ، نجد أولئك الذين يدعون الليبرالية يغضون الطرف عن التوسع السرطانى للمستوطنات، وهنا يظهر واضحا القدرة على توزيع الأدوار والتناغم بين المتناقضات لتحقيق الأهداف الإسرائيلية، وهو مالم ينجح فيه العرب.

وينقل الكاتب عن چو ناثان فرانكل قوله .. أعاد الاحتلال سياج الاستيطان المزعج الذى كان قائماً فى القرن الماضى فى روسيا القيصرية ، عندما كان اليهود يعيشون غير آمنين ، وسط سكان معادين، مما يحول الحلم الصهيونى إلى كابوس».

والعلاقة وثيقة بين ديمقراطية إسرائيل وعلمانيتها ..

ويردد الجميع أن إسرائيل هى الدولة الديمقراطية الوحيدة المحاطة بدول استبدادية عشائرية وطائفية ، فماذا يقول الكاتب عن الديمقراطية فى إسرائيل..

يقول .. «أحد أسباب الديمقراطية الناقصة ما تواجهه إسرائيل من تهديدات أدت إلى تماسكها الداخلى وليس فقط لوجود أقلية كبيرة منتمية عرقيا إلى عدو خارجى(!) فحسب ، بل ووجود انشقاقات طائفية ودينية وأيدلوچية عميقة داخل اليهود أنفسهم ، والوحدة الشكلية التى ظهرت بعد قيام الدولة ، يفرضها الصراع العربى الإسرائيلى» الذى لولاه «لمزقت إسرائيل ذاتها بالنزاعات الداخلية»..

وإذا كانت ركائز الديمقراطية تقوم على الحريات العامة ، فبالنسبة لحرية النشر تقيد وسائل الإعلام عند تعرض مصالح الدولة للخطر ، أو عندما تسوء صورة الدولة لدى الأغيار، وهو جزء من الانغلاق التقليدى للمجتمع اليهودى واهتمامه بصورته . مع الحساسية الخاصة لنشر المعلومات الأمنية.

ولا يمكن لأحد أن يصدق ديمقراطية إسرائيل ، إذا عرف أنه منذ قيام إسرائيل

وحتى اليوم وهى تعيش فى ظل قانون الطوارىء الذى صدر بعد أربعة أيام فقط من قيامها فى ١٩ مايو سنة ١٩٤٨ ، وأكثر أحكام قانون الطوارىء تطبيقا هى الرقابة على كل أجهزة الإعلام ، وتنص قوانين الرقابة على ضرورة الحصول على ترخيص إصدار من وزارة الداخلية ، ولا يلزم القانون وزارة الداخلية بتبرير رفضها، كما أنه من حق وزير الداخلية وقف إصدار الصحف لأى فترة زمنية ، وتراقب قبل النشر أى مادة مطبوعة تمس الأمن أو النظام العام(!).

ومن غرائب الرقابة أنه أحياناً لايسمح للصحف العربية التى تصدر فى إسرائيل بإعادة نشر مواد مترجمة عن الصحف العبرية.

ويورد الكاتب توصيف أموس إليون لهذه الحالة . بأنها .. «تصميم ساذج على عدم الكشف عن الخفايا والفضائح ، وهو المأخوذ عن الوصية التوراتية .. «لاتبح بها فى حشد ، ولا تنشرها فى شوارع عسقلان..» وهو القول الذى يطابق ما صرح به رفائيل إيتان أحد رؤساء أركان حرب الجيش الإسرائيلى .. «ينبغى عدم نشر وسائل الإعلام أى شىء يؤدى إلى شعور أى عربى فى أى مكان بالارتياح.!»

عرب ١٩٤٨

وأحد ركائز الديمقراطية المساواة المطلقة بين المواطنين ، وهو ما لم يتحقق يوماً داخل إسرائيل ، فلم يتمتع عرب ١٩٤٨ بالمساواة ، رغم أن هذه المسألة تعتبر بمثابة الاختبار الحاسم لقيام مجتمع علمانى، ومع أن اليهود شكلوا أقليات فى كثير من بلدان العالم، وها هم يتحولون إلى الأغلبية، ويمارسون العسف، ويصبحون طغاة ،ويتناول إسرائيل شاحاك ذلك فى كتابه «موقف اليهود من الأغيار» ويقول .. «التاريخ المعروف تعرض لحذف الحقائق اليهودية الموجعة، فالخصوصية العرقية اليهودية تنطوى على الشك والعداء لغير اليهود، وهى تجنح بطبيعتها للعزلة ، لذا كانت الكيبوتزات وبعدها المستوطنات مؤسسات عنصرية مغلقة .. وفى التراث التلمودى علاج غير اليهودى حرام حتى مقابل أجر ، ويجب عدم دفع الأغيار إلى البئر وأيضاً عدم إخراجهم منه إذا سقطوا فيه .. لذلك يعلن أتباع غوش إيمونيم .. «إن طريقة معاملة الفلسطينيين تتعلق بمقدار قوتهم ، إذا كانت لديهم قوة كافية فإن الواجب، الدينى يقضى بطردهم»..!

ويضيف فى كتابه «التاريخ اليهودى» .. «إن القوانين الإسرائيلية تتسم بالتفرقة العنصرية ضد غير اليهود ، فى مجالات



ثلاثة ، حقوق الإقامة ، وحق العمل وحقوق المواطنة ، ويقف عل قمة الهرم فى المجتمع اليهودى ، اليهود الغربيون (الاشكناز) يليهم اليهود الشرقيون (السفارديم) ويأتى عرب إسرائيل فى قاعدة الهرم».

ونعود إلى كتاب آلان دوتى الذى يقول .. «رغم أن إعلان الدولة تضمن وعداً بالمساواة لكل المقيمين بصرف النظر عن الديانة أو العرق أو الجنس» إلا أن ذلك لم يتحقق ، ويبدو أن من أصدره لم يدرك احتمال وقوع تضارب بين هذا الوعد وبين رسالة إسرائيل نحو الشعب اليهودى».

واعتبر غائباً كل فلسطينى غادر بيته قبل أغسطس ١٩٤٨، وصودرت ثلثا الأراضى الفلسطينية ، وحرم القانون سكن مدن بكاملها لغير اليهود ، وغدا عرب ١٩٤٨ لدى اليهود «الطابور الخامس» و«حصان طروادة» ، وأغلقت المؤسسة العسكرية فى وجوههم ، وتولى الإشراف الادارى عليهم مستعربون من أجهزة الأمن أو المخابرات ، وتم طردهم من بعض أراضيهم بحجة أنها مناطق استراتيجية، وتم ترحيل العرب من مدينة عسقلان عام ١٩٥٠ ، ورفض الهستدروت قبول العرب كأعضاء كاملى العضوية حتى عام ١٩٥٩، ومازالت أغلبية اليهود لايستقبلون زائرا عربيا فى بيوتهم ولا يرغبون فى السكن جوارهم.

ورفضت السلطات الإسرائيلية الاعتراف بالأقلية العربية كجماعة، وعارضت قيام أجهزة إعلام أو جامعات أو اتحادات أو أحزاب عربية مستقلة. ووظفت إسرائيل ماتدعيه من تهديدات خارجية من أجل الحفاظ على تماسكها الداخلى ، وجاء وجود أقلية عربية منتمية إلى العدو لكى يقلل من أثر الانشقاقات الطائفية والدينية والأيدلوچية ، والا لمزقت إسرائيل نفسها نتيجة عنف الصراعات الداخلية.

وشهدت أوضاع العرب تغيرات واسعة مع عدم الاستعداد لاقتسام السلطة بين اليهود والعرب، إلا أن وصل أعضاء عرب إلى الكنيست فى انتخابات عام ١٩٩٦، وصل عددهم إلى أحد عشر نائباً عربياً.

ويستدرك الكاتب قائلاً .. «لم تقم القوى السياسية العربية بدور اللاعب فى الحياة السياسية ، رغم أن العلاقات بين اليهود والعرب داخل إسرائيل هى الاختبار الحاسم لديمقراطية إسرائيل.

وطالب الروائى أنطون شماس بوضع تعريف جديد لكلمة إسرائيل حتى تشملنى، ورد عليه الكاتب اليهودى أ. ب. يهو شوا قائلا : فى فترة المعبد الأول ، لم تكن الهوية الدينية عنصراً ضروريا. للهوية الإسرائيلية»!

المؤسسة العسكرية

ولنتوقف فيما يورده الكاتب حول سيطرة المؤسسة العسكرية على الحياة السياسية فى إسرائيل ، ويؤكد غلبة

«الأمن» على الديمقراطية ، وينطبق هنا المثل القائل «وشهد شاهد من أهلها» ويكشف الكاتب انحسار المجتمع المدنى وتزايد التأثير العسكرى على القرارات السياسية . وشهد هذا التأثير منتهاه مع انتهاء سيطرة حزب العمل على الحياة السياسية سنة ١٩٧٧ ، وأصبح للإتجاه السياسى لرئيس الأركان أهمية بالغة ، وقفزت ميزانية الجيش قفزة كبيرة بعد حرب ١٩٧٣.

وجاهر مناحم بيجين رئيس الوزراء فى أغسطس ١٩٨١ بعد تولى شارون وزارة الدفاع بأن أول عمل سيقوم به هو تطويق الكنيست بالصفحات ،وظهرت هيمنة العسكرية الإسرائيلية فى العدوان الإسرائيلى على لبنان سنة ١٩٨٢ ، حينما نفذ شارون سياسته التى لم تكن سياسة مجلس الوزراء.

ويعنى الأمن عادة المزيد من الضغط على الديمقراطية ، وتشجيع مركزية السلطة والمزيد من التعصب فى العلاقات مع العالم الخارجى.

مما طبع سياسة اليهود التقليدية على سياسة الدولة العبرية، التى تجنح بطبعها وتجربتها التاريخية إلى العزلة والانغلاق تجاه العالم الخارجى.

ويختتم الكاتب هذا الفصل بقوله .. «بلغ التضاد بين الأمن والديمقراطية ذروته فى عدم الإقرار بالحقوق الجماعية للأقليات غير اليهودية ، ومن ناحية أخرى معروف بوجه عام أن التعبئة ضد عدو خارجى لا تتوافق مع الديمقراطية واستمرت إسرائيل مجتمع تحت الحصار ، وبقيت إسرائيل داخل الأسوار وتجنبت أن تكون بلا أسوار(!) الجيش هو المؤسسة المهيمنة على كل جوانب الحياة.

فأى مستقبل ينتظر الدولة العبرية.؟!

فلا يوجد سوى وسيلة واحدة لاستمرار إحتلال إسرائيل للأراضى العربية ، هى أن تسلك ذات الدور الذى كان يقوم به النازى فى الأراضى المحتلة ، وأن تلجأ للترحيل الجماعى أو التطهير العرقى، وهو ما لايمكن القيام به فى هذا العصر الذى تحول إلى قرية صغيرة..

وليس أمام إسرائيل سوى أن تستوعب دروس الحروب التى خاضتها ، والتى تكشف حدود القوة، وخطر غطرسة القوة . ولن تكون ترسانتها النووية ولا قنابلها الانشطارية ، قادرة على فرض احتلالها..

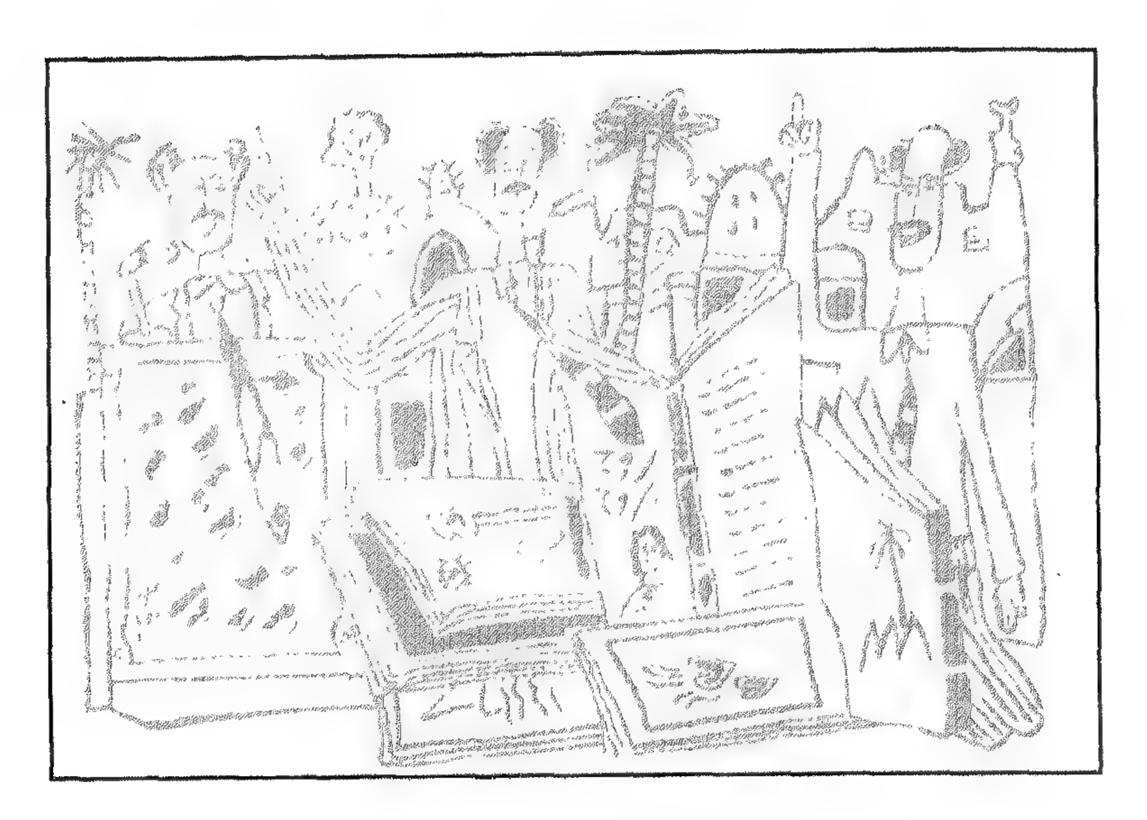


العولمة

انبهار بالابداع وخوف منه

بقلم : جميل مطر

يعيش العالم حالة انبهار مختلط بالخوف. وكلاهما ، الانبهار والخوف - وقد وصلا الى حدود قصوى - لهما ما يبررهما. فما حققه العقل الانسانى من ابداعات تكنولوجية فى كل المجالات بدون استثناء، وبخاصة مجال تكنولوجيا الجينات والكشف عن أحد أهم أسرار الانسان واعلانه عن طريق ما أطلق عليه كتاب أو خريطة الحياة، لم يحقق مثله من قبل . أظن أن أبناء هذا الجيل الذى عاش الاعلان عن هذه الابداعات الفائقة سيكون الأكثر شعورا بالفخر فى كل أجيال البشرية. ففى حياته وليس فى حياة أجداده وأجداد أجداده توصل الانسان الى هذا الانجاز وغيره. ولكن هذا الجيل نفسه خائف، ولعله الأكثر شعورا بالخوف بين كل أجيال البشرية. إذ أنه الجيل «الأول» الذى أبدع فى غياب كثير من الروادع والقيود والسقوف. ولعلنى أفضل كلمة السقوف عن غيرها من الكلمات التى تحاول التعبير عن مجموعة العوامل المادية والمعنوية والاخلاقية والدينية، وربما السياسية والاجتماعية، التى وقفت على مدى التاريخ وبدرجات متفاوتة حائلا دون انطلاق الانسان فى الابداع المطلق .



ففي كل، أو معظم، مراحل تطور الانسانية، لا أظن أن الانسان كان حرا ليبدع كيفما وأينما ومتى أراد كما هو الآن. ولا أظن أنه كان حرا ليبدع في كل المجالات حتى إن استطاع وليس فقط إن أراد، كما هو الآن. كان الابداع، في معظم الحالات والصور، يصطدم إن آجلاً أو عاجلا، وفي درجة أو أخرى من درجاته بسقف أو سقوف لم تكن عالية بالقدر الكافي الذي يسمح بالانطلاق. اليوم يقال أن السماء تكاد تكون السقف الوحيد للابداع. أي أن المبدع حر فيما يريد أن يفعله. لن يمنعه أو يحد من انطلاقه سقف واطيء. وعلى العكس من عصر «اللاسقوف» أو عصر السقوف العالية جدا الذي نعيشه، كان الماضي زمن السقوف الكثيرة والمنخفضة. وفي أحيان، أو حالات، كان السقف يكاد لا يسمح بأن ينهض الإنسان، ناهيك عن أن يطلق لأفكاره العنان ويبدع. وفي أحيان أو حالات أخرى كان السقف أعلى، أي كان الابداع ممكنا.. وبالفعل أبدع شعراء وفلاسفة وأبدع مهندسون ومحاربون وسياسيون. لا يختلف الكثيرون على أن العلاقة بين الابداع والسقوف العالية علاقة طردية.

أحد أهم السقوف المقيدة لانطلاقات المبدعين، سقف التقاليد والأعراف ومنظومة القيم السائدة

ومعايير الأخلاق. ولكل منها معاييره وروادعه. ولكنها فى كل الأحوال ظلت على مدى الزمن أهم السقوف. كان المجتمع - أو النخبة القائدة فيه - يضع القواعد التى تمنع انفلات المبدعين خشية وقوع اختلال فى التوازن الذى بفضله تعيش القبيلة أو الأمة متماسكة. يسمح بالابداع، وقد يشجع عليه، ولكن من خلال خطوات وانجازات متدرجة، أى بدون قفزات واسعة، بل أن مجتمعات كثيرة فى مرحلة أو أخرى من مراحل تطورها مولت أو جندت من يبرر الابداعات الفكرية والمادية، أو ادخلت التطوير على انسان التقاليد والقيم إما للتمهيد لابداع معين أو لتسهيل استيعابه مجتمعيا. وفى معظم الحالات لم تأت هذه الابداعات الانسانية، حتى التكنولوجية منها، من فراغ أو جاءت من خارج السياق أو قفزا فوقه. أما فى الحالات حيث جاء الانجاز مفاجئا أو نتيجة قفزة عبر الزمان أو المكان أو كليهما، لم تتردد القوى القائدة فى المجتمع فى قمع من تسول له نفسه تبرير هذا الانجاز المبدع، وفى وأد الانجاز ذاته أو التعتيم عليه. والتاريخ فى مراحل كثيرة، قديمة ومعاصرة، شاهد على اغتيال فلاسفة وعلماء أو اختفائهم أو انتحارهم .

ولكننا عندما نتحدث عن السقوف كقيود على الحرية المطلقة فى الابداع، يجب أن نتحدث عن السقوف كروادع لتجاوزات هذه الحرية المطلقة فى الابداع. هنا تتشابه التقاليد ومنظومة الاخلاق والدين. وفي موضوع الدين تحديدا مازال الجدل قويا بين من يعتبرون الدين قيدا على الابداع، ومن يعتبرون الدين محايدا فى هذا الموضوع. وفى التاريخ ما يعزز الرأيين. اذ انه عندما يهبط مستوى العلم والتعليم عند المتخصصين والمتفرغين للجانب الدينى أو عندما يتحجر الفكر الدينى يهبط مستوى الفكر عامة فى كل المجتمع ويتخلف ، وبخاصة اذا استخدم رجال المؤسسة الدينية وسائل عنف وتهديد لمحاربة أى تجديد فى فروع العلم المختلفة، ناهيك عن أى تجديد فى تفسير وتطوير الدين وتطبيقاته. كذلك حدث العكس تماما عندما كان رجال الدين، أو رجال السياسة فى الدولة الدينية، متحررين فكرا وحريصين على تطوير مجتمعاتهم خدمة للدين أو للمجتمع أو لكليهما معا، ففى ظل بعض عصور الديانات القديمة أبدع المبدعون وخلفوا انجازات ما برحت تشد الاهتمام. وفى ظل عصور «دينية» أخرى قديمة ووسطى ومعاصرة انحسر الابداع أو اختفى مخلفا بانحساره أو اختفائه تدهور جميع

أركان المجتمع. فى الحالة الأولى قامت حضارات مازال تراثها قائما وشاهدا على بصيرة نافذة لعلماء الدين أو الحكومة الدينية، وفى الحالة الثانية اندثرت حضارات وسادت الأوبئة وعم التخلف بسبب استخدام البطش باسم الدين والحرص الشديد على مصالح ضيقة لطبقة رجال الدين وحاشيتهم الحاكمة، أو بسبب ضعف الطبقة السياسية الحاكمة وخضوعها لغير المتنورين من النافذين فى الطبقة الدينية .

وعلى شاكلة التقاليد، وان أكثر وأقوى، لعب الدين الدورين معا. لعب دور السقف المقيد لانطلاقة الابداع ولعب دور الروادع المهدئة أو الكابحة للابداع وخاصة إن تجاوز حدود التدرج أو هدد استمرارية المجتمع أو سبق زمانه. ولكن الدين لعب دورا ثالثا. ففى حالات وعصور معينة لعب الدين دور المحفز للابداع. عندئذ لم يكن سقفا بل كان البوابة التى انطلق منها الابداع نحو آفاق لم يجرؤ المبدعون على اقتحامها لولا وجود الحافز الدينى المناسب .

☆☆☆

توجد سقوف أخرى للابداع، ولكنها ليست مزدوجة أو مثلثة الادوار ـ المتناقضة أحيانا ـ كسقف التقاليد وسقف الدين ، خذ مثلا الامكانات المادية والمعنوية للمجتمع. فالمجتمعات التى تعانى من شح مادى أو بشرى مجتمعات لا تنتج مبدعين لأنها لا تهيئ الظروف المناسبة من بشر مدرب تدريبا متميزا، ومن امكانات مادية ضرورى توافرها لتحويل أفكار المبدعين الى انجازات ملموسة تتراكم فتشجع على ابداع جديد وهكذا. فالمبدعون لا يبدعون ان لم يكن المجتمع غنيا بالبشر والطيبات والخبرات السابقة يبنون عليها ويستفيدون منها. ولا يبدعون ان لم تتوافر بحبوحة مادية فلا تتشتت اهتماماتهم فى اتجاهات اخرى مثل السعى اليومى والدائب نحو تلبية مطالب الحياة. ثم إن ابداعا ما ان لم يجد الامكانات اللازمة لتعميمه لصالح المجتمع الانسانى المحدود أو العالمى سيبقى حبيس الادراج والرفوف. وبالتالى سيكون مصير المبدع مع غيره من المبدعين المحتملى التحول الى اهتمامات أخرى.

ويرتبط بالامكانات حال الاتصالات والمواصلات. فالقيمة العظمى لأى ابداع تتضاعف ان استطاع تجاوز الحدود المحلية أو الاقليمية الى العالم بأسره أى الى الانسانية جمعاء. القيمة العظمى للابداع أن ينتقل فى المكان كما ينتقل فى الزمان. وهنا تكمن أهمية التقدم فى وسائل وتكنولوجيا

الاتصال والمعلومات والمواصلات. فنقص هذه الوسائل أو تخلفها يصنع سقفا منخفضا للغاية قد يؤدى الى وأد الابداع بالتعتيم عليه. ولا تقل القدرة الاستهلاكية فى مجتمع ما أهمية عن امكاناته المادية والبشرية فكما أن المجتمع المنغلق بالجهل لن ينشىء أو ينعش مجتمعا ثقافيا وان كان صغير العدد والنفوذ. كذلك فإن المجتمع الثقافى المنغلق بالسياسة أو المؤمم اجتماعيا واقتصاديا، لن يفرز مبدعا. وان تفلت بالصدفة من اسار تخلفه مبدع سارع «المجتمع الثقافى السياسى» لافساده أو طمس ابداعه. واذا قاوم المبدع حورب وطورد حتى يهجر أو يهاجر .

كذلك الحال بالنسبة لمخترع آلة أو أداة جديدة أو مكتشف فيروس أو جرثومة جديدة. هذا المبدع لن يتمكن من تحويل اكتشافه أو اختراعه الى انجاز واسع الانتشار فى مجتمع لا يقوى أفراده على شرائه، سيتوقف عن تطوير ما أبدع اذا لم يكن المجتمع مؤهلا ماديا أو علميا أو دينيا أو بالتقاليد لاستهلاك هذا المنتج. لذلك سمعنا وقرأنا عن مبدعين لم تستفد البشرية من اكتشافاتهم وأفكارهم واختراعاتهم لأن الظروف المادية أو غيرها من الظروف لم تشجع وقت الاكتشاف على استهلاكها، وسمعنا وقرأنا عن ابداعات أخذت سنوات بل عقودا قبل أن نتمكن من أن تجد السوق الاستهلاكى المناسب .

☆☆☆

كانت السنوات الأخيرة حافلة بالجديد فى الفكر السياسى والاجتماعى والتحولات الاقتصادية. كانت مرحلة ثرية، بالجيد والسيىء على حد سواء، فى مجالات تسجيل التطورات المذهلة والابداعات الهائلة التى شهدها نصف القرن الأخير وبخاصة الربع الثانى منه، لن يكون هنا مجال استرجاع خلاصة النقاش الساخن جدا فى مجتمعات ثقافية متعددة فى أعقاب اسقاط القنبلة الذرية على مدينة هيروشيما. وقتها طالب معظم مثقفى الغرب بوضع روادع لهذا النوع من الابداع. وبرز تيار بينهم يعتبر أن القنبلة اطلقت الى الوجود عصرا جديدا من الظلام والتخلف، ولن يكون هنا مجال استرجاع خلاصة الحوار الذى دار على مستوى العالم حول حوار الحضارات وصداماتها، أو الجدل حول اقتراح اعلان نهاية التاريخ، أو الهزة الشديدة التى تسببت فيها «دوللى» والهزات المتناقضة الشدة التى تسببت فيها استنساخات أخرى بعد دوللى. كثيرة كانت التطورات التى دفعت مفكرين فى جميع أنحاء العالم ـ

خلال هذا العقد الأخير ـ الى المطالبة بالتريث ـ ولو لبرهة ـ لنخرج خلالها الزفير المحبوس بعد شهيق المفاجأة او الانبهار. وبشيء من المبالغة، وبالقدر الضرورى، لم يخف بعض المفكرين خوفهم الناتج عن ان هذه «البرهة» لم تعد متاحة لهم ليتأملوا فيما وقع واستجد، أو فيما تم ابداعه وانجازه. وهذا خطر، لأن المجتمع الثقافى فى أى مجتمع ان لم تتح له «برهة» أو فرصة التأمل ثم برهة أو فرصة ربط الجديد بمسيرة الانسانية والتاريخ والمجتمع، يكون قد تخلف عن المشاركة وابداء الرأى والنصح وترك المجتمع فريسة سهلة لمبدع لا يقدر بالضرورة كل العواقب الناتجة عن ابداعه، وانعزل هو نفسه عن تطورات متلاحقة ومتصلة تحبس الانفاس وتبقيه فى حال انبهار حاد لايسمح ببرهة ولا فرصة يستفيد منها فيستعيد قدرته على صنع معايير أخلاقية جديدة أو استنهاض همم لمواجهة هذا الغزو الابداعى، أو التأقلم معه .

نفترض أن النخبة المثقفة فى عالم اليوم، وبخاصة فى العالم المتقدم ماديا وتكنولوجيا ، فشلت فى الفكاك من أسر دائرة الانبهار بالابداع، واستمر اختلاط الحابل بالنابل فى مجال الثورات المترابطة أو المتلاحقة، وهى الثورة المالية والثورة فى المعلومات والاتصالات والثورة فى المواصلات والثورة فى تكنولوجيا التخليق و«المنتجات البشرية والحيوانية والنباتية» ، فالى من ستعهد البشرية بمسئولية اعادة الانضباط الى العلم وتوجيه الابداع او على الأقل وضع المعايير الاخلاقية الضرورية لتفادى كارثة أخطر من كل الكوارث التى مرت بها الانسانية حتى الآن؟.

ثم كيف تتوصل البشرية الى أن تكون المعايير الأخلاقية الجديدة محل اجماع كافة الحضارات فنتفادى صداما مدمرا بينها ؟

وهل تستأنف الديانات دورها فى تحقيق التوازن بين الابداع والنظام العام حفاظا على مسيرة الانسانية؟ واذا استأنفت الديانات دورها كيف تضمن المجتمعات أن لا يهيمن على التفسير والتأويل كهنة ورجال دين ومتخصصون فى ركوب الموجات الدينية رافضون للابداع من اساسه، وقد حدث شيء من هذا فى مراحل متعددة من مراحل التقدم الانسانى.

أسئلة تدعو للتأمل، وتنتظر اجتهادات، حتى وان كانت صعبة وحرجة.

أنثروبولوجيا السفر

بقلم :د. جلال أمين

أعترف للقارىء بأنى لازلت حتى الآن، رغم ظنى بأن مرور الزمن يقلل من درجة حماقتى، أشعر بالسرور، بل وبنوع من الفخر أيضا، كلما تلقيت دعوة للسفر إلى الخارج ، لحضور مؤتمر أو ندوة أو اجتماع من أى نوع .

أعترف بهذا وأنا أشعر بشىء من الخجل، إذ أنى مهما فكرت فى الأمر، لا أجد أى مبرر معقول لهذا السرور أو هذا الفخر.

فموضوع المؤتمر الذى أدعى إليه قد يكون تافها للغاية، ولا مبرر له بالمرة، والاجتماع الذى قد يطلب منى السفر لحضوره قد تكون دوافعه مظهرية بحتة، ولا يحقق أى نفع إلا للهيئة الداعية إليه، ومع هذا، فهأنذا أشعر بالسرور والفخر لمجرد «السفر إلى الخارج» .

قلبت الأمر على وجوهه فى محاولة لفهم سر هذا الشعور، هل السبب هو مجرد التحليق فى الطائرة على ارتفاع عشرات الآلاف من الأقدام؟ فما وجه الجاذبية فى هذا، والأمر مملوء بالمشقة، من تجديد جواز السفر، إلى استخراج تأشيرات الدخول، إلى الاستيقاظ فى مواعيد غير ملائمة، إلى الجلوس ساعات طويلة مقيدا فى كرسى بالسلاسل المسماة «أحزمة المقاعد»، إلى اضطراب النوم بسبب الفوارق الزمنية .. إلخ؟ ماهو وجه الفرح إذن، وأين هى دواعى الغبطة؟

ربما كان الأمر مفهوما منذ أربعين أو خمسين عاما، عندما كان السفر بالطائرة شيئا نادرا فعلا، وكان ركاب الطائرة يعاملون وكأنهم أشخاص متميزون، وكان منظر الشخص الخارج من قائمة الجمرك إلى الصالة التى يصطف فيها المستقبلون المتلهفون على رؤيته، منظرا يدعو إلى الإعجاب حقا، بحقائبه الموضوعة على عربة (ترولى) أنيقة تسير بسهولة ويسر رغم ما تحمله من أثقال، ناهيك عن ذلك الكيس

المصنوع من البلاستيك وكتب عليه بألوان زاهية (السوق الحرة)، والذى يحتوى على مختلف السلع غير الموجودة داخل الوطن أو عالية الثمن، كان هذا مفهوما منذ أربعين أو خمسين عاما، ولكن كيف يمكن أن يكون أى شىء من هذا جذابا أو مبهرا الآن، وقد أصبح ممكنا لكل عامل بسيط يسافر إلى دولة من دول النفط لبضعة أشهر أو حتى لبضعة أسابيع، أن يعود حاملا البضائع نفسها وأن يضعها على الترولى نفسه .

أسباب الفرح

أعترف بأنى لازلت أبحث عن السبب الحقيقى لهذا الفرح بالسفر إلى الخارج، وأميل إلى ردّه إلى أسباب غير عقلانية بالمرة، قد ترجع فى نهاية الأمر إلى أن السفر بالطائرة، على الرغم من شيوعه وانتشاره بين مختلف طبقات المجتمع، لازال قاصرا على نسبة ضئيلة من الناس، ولازال أكثر من ثلاثة أرباع السكان، أو نسبة قريبة من هذه النسبة، حتى فى البلاد المتقدمة والثرية، لم تطأ أقدامهم مطارا أو طائرة .. ومن ثم يكتسب المسافر بالطائرة قيمة وتميزا اجتماعيا لمجرد أنه يفعل شيئا لايفعله معظم الناس .

إذا كان هذا هو التفسير الحقيقى أو قريبا منه، فالأمر إذن له صلة بنزعات وميول طبيعية ودفينة لدى الانسان، بوصفه انسانا يتعلق فى هذه الحالة بالميل إلى التميز والتفوق على الغير، ولكن كلما أمعنت التكامل فى مشاعر وسلوك الناس إزاء ظاهرة السفر بالطائرة، تبين لى، أكثر فأكثر، أن الانسان العصرى، مهما بدا من تحضره، وتمدّنه لازال محكوما فى الأساس بهذه النوازع الطبيعية والغريزية التى كثيرا ماتكون بعيدة جدا عن العقلانية، من الممكن إذن للمرء فيما يبدو، أن يتكلم عن شىء اسمه «انثروبولوجيا السفر» .

★★★

إن الأمر يبدأ منذ أشرع فى تحضير حقيبتى للسفر.

شركات الطيران لاتسمح إلا بحقيبة لايزيد وزنها على ٢٠ كيلوجراما، مع التجاوز عن حقيبة صغيرة لليد، دون تحديد دقيق للوزن المسموح به لهذه الحقيبة الصغيرة . ولكن الأشياء التى أريد أن آخذها معى تزيد دائما عن المسموح به، أيا كان البلد الذى أنوى السفر إليه ، بعيدا أو قريبا، وأيا كانت مدة الغياب، قصيرة أو طويلة، بل إن الحقيبة نفسها لايمكن أن تتسع لكل ما أريد وضعه فيها، أيا كان حجمها، الأمر فيما يبدو شبيه بما قيل فى وصف شهوة الانسان إلى الطعام «عيناه أكثر اتساعا من بطنه»، أى أن مايرغب فى التهامه من طعام أكثر دائما من قدرة معدته على الاستيعاب.

هكذا اكتشف المرة بعد المرة (والأرجح أن أمثالى فى هذا كثيرون) كلما شرعت فى الاستعداد للسفر، أن ما أرغب فى حمله هو أكبر دائما من طاقتى، وأكثر بكثير مما أحتاج إليه فى الحقيقة، ربما احتجت إلى عشرة أعوام

أخرى من السفر قبل أن أتعلم أن تكون حقيبتي عند السفر نصف ملآنة، خفيفة الوزن سهلة الحمل، وألا أحمل معي من الكتب إلا كتيبا واحدا صغيرا في حقيبة يدي، وأن أواجه أهلي عند العودة بلا هدايا، اللهم إلا ما أعرف أنهم بحاجة حقيقية إليه، على أساس أن المهم هو ما أحمل لهم من حب وشوق وليس ما أحمله من سلع.

من المؤكد أن الإنسان لم يتعلم بعد أن السفر بالطائرة ليس كالسفر بامتطاء ظهر جمل أو حصان، ولا حتى كالسفر بالقطار، حيث يظل الانسان ملامسا للأرض أو قريبا جدا منها، فالانسان لايزال يريد أن يقلد الطائر في الطيران مع إصراره في الوقت نفسه على حمل أثقاله معه، دون أن يدرك أن من المستحيل على طائر أن يحلق في الهواء وهو يحمل حقيبة كبيرة وحقيبة أخرى صغيرة لليد.

★★★

منذ أن بدأ استخدام الطائرة كوسيلة من وسائل الانتقال، عمدت شركات الطيران إلى مراعاة الدقة الشديدة في اختيار من اسمتهن «بالمضيفات»، وهن نساء مهمتهن الوحيدة تلبية رغبات المسافرين وتوفير أكبر قدر من الراحة والاطمئنان لهم، ذلك أن شركات الطيران تفترض افتراضا أساسيا (ولعلها في هذا على الحق) هو أن المسافر بالطائرة شخص يعاني من أمرين: الأول هو الخوف من أن تتعرض الطائرة لكارثة، والثاني هو ضآلة الحرية المتاحة له للحركة، أما عن الخوف من وقوع كارثة فمهما قيل للمسافر من أن الطيران هو اليوم أكثر وسائل السفر أمانا، طبقا للاحصاءات المؤكدة عن نسبة التعرض للكوارث في مختلف وسائل الانتقال، فإن المسافر بالطائرة لايزال ينتابه شعور بخطورة ماهو مقبل عليه بدرجة لاتنتابه وهو يصعد سلم القطار أو الباخرة، فالإنسان ليس مخلوقا عقلانيا تتحدد مشاعره بما تقوله الاحصاءات بل تتحدد هذه المشاعر بدرجة أكبر بكثير وفقا لما يدور بخياله من صور، ولاشك أن فكرة السقوط، لاقدر الله، من ارتفاع ٢٠ ألف قدم هي أصعب على النفس بكثير من فكرة ارتطام قطار بآخر أو تسرب المياه داخل الباخرة. وأما فقدان حرية الحركة داخل الطائرة فلاشك في صحته، ومع ذلك فراكب القطار ليس أفضل حالا في ذلك بكثير من راكب الطائرة، ومن ثم فالأرجح أن يكون الفارق الأهم يعود إلى حاجة الانسان الدفينة إلى أن تظل قدماه ملامستين للأرض، أو على الأقرب قريبتين منها، وهو مايتحقق لراكب القطار أكثر مما يتحقق لراكب الطائرة.

لعل هذا إذن هو تفسير تلك الابتسامات الدائمة التي ترتسم على وجوه المضيفات، أو التي تطلب شركات الطيران من مضيفاتها أن يرسمنها باستمرار على وجوههن، ولعله هو

أيضا تفسير الميل إلى استخدام النساء كمضيفات بدلا من الرجال الذين قد لايبعثون فى المسافرين ومعظمهم من الرجال، الدرجة المطلوبة من الحنان.

إن صوت الكابتن الواثق من نفسه (وهو دائما من الذكور)، والذى يجب دائما أن يتسم بالحسم وعدم التردد، أمر مهم بدوره فى هذه الظروف ومن المستحسن أيضا أن يتطرق الكابتن فى كلامه عبر الميكروفون إلى بعض الأمور التافهة، كحالة الطقس فى البلد الذى تقصده الطائرة، أو كأسماء زملائه العاملين بالطائرة مما لايهم المسافرين قيد أنملة إذ أن لهذا الكلام فائدة لاشك فيها فى بث الثقة فى نفوس المسافرين بأن الكابتن، وهو الذى تتوقف عليه سلامتهم أكثر من أى شخص آخر، مطمئن، تماما إلى أن الرحلة سوف تتم بسلام.

من المهم أيضا شغل المسافرين طول الرحلة بأى شىء على الإطلاق، مهما كان تافها، ودون توقف، بغرض بث الشعور فى المسافر بأنه ليس وحيدا، ومنعه من الاسترسال فى أى تخيلات تتعلق بخطورة التحليق فى الهواء . أما التعليمات التى تصر كل الشركات على ذكرها فى بداية الرحلة، فيما يتعلق بما يجب على المسافر عمله فى حالة تعرض الطائرة لأى خطر، فالأرجح أن فائدتها الوحيدة، ليست هى بالضبط تقليل الخطر الفعلى الذى يتعرض له المسافر بل إيهام المسافر بأنه ، حتى فى حالة تعرض الطائرة للخطر فإن هناك وسائل لمواجهة هذا الخطر.

لا أخفى على القارىء إذن أنى قد سئمت تكرار هذه التعليمات لدرجة جعلتنى أصرف النظر عنها ولا أتابعها بالمرة، وذلك باستثناء مرة واحدة لفت فيها نظرى بشدة ماتقوم به المضيفة ووجدته طريفا للغاية مما قد يستحق أن أرويه للقارىء.

كانت الطائرة مصرية، ومن ثم كانت المضيفتان اللتان وقفتا لتمثيل مايجب على المسافرين اتخاذه من إجراءات الأمان، مصريتين أيضا، كانت المهمة تتطلب من المضيفة أن تمد ذراعيها مرة إلى أعلى ومرة إلى أسفل ومرة تشير إلى باب الخروج ومرة ترتدى قناع الأوكسجين .. الخ . وكنت قد رأيت مثل هذا المنظر عدة مرات من قبل يقمن به مضيفات أوربيات ، فكن يقمن بهذا العمل بجدية تامة ودون أن ترتسم على وجوههن أى ابتسامة حتى ينتهين من هذه المهمة المملة، ولكن لم يكن هذا حال المضيفتين المصريتين، فقد لاحظت أن كلا منهما تجد صعوبة بالغة فى منع نفسها من الاستغراق فى الضحك بمجرد شروعها فى القيام بهذه الحركات، وتختلس كل منهما النظر إلى زميلتها التى تقوم بالعمل نفسه، وتحاول أن ترسم على وجهها ملامح الجدية والصرامة دون جدوى، كان المنظر مسليا وغريبا للغاية، خاصة إذا قارنته بما ألفته من المضيفات الأوربيات، ورحت أفتش عن السبب: هل هو حياء دفين فى الفتاة المصرية نفسها، يجعلها

تكاد تموت خجلا من الوقوف أمام الناس الغرباء والتمثيل على هذا النحو، أم هو سخرية واستهانة بهذا التمرين الذى يشعر الجميع بقلة فائدته؟ على أى حال، قلت لنفسى إنه سواء كان السبب هو هذا أو ذاك، فها هو ذا مثال صغير ولكنه يعبر بدقة عن فارق مهم بيننا وبينهم، أى بين المصريين أو الشرقيين عموما وبين الأوربيين أو الغربيين بصفة عامة، ولعله لايخلو من دلالة على سبب نجاحهم فى تحقيق ما حققوه وفشلنا نحن فى ذلك، قد نكون فى كثير من الأحيان أكثر ظرفا وأخف دما، بل وكثيرا ما نبدو أكثر حكمة، ولكننا لانملك مايملكونه من رباطة الجأش وأخذ كل الأمور، كبيرها وصغيرها، بالجدية الواجبة، بل إنهم كثيرا مايبدون درجة أكبر من الصبر حين يسرع إلى نفوسنا السأم، على الرغم من أننا لانكفّ عن التغنى بالصبر ومزاياه، يبدو أن الصبر الذى نعنيه شىء مختلف تماما عن صبرهم

★★★

اكتشفت شركات الطيران أيضا أنه إذا كان راكب الطائرة يعانى فى الأساس من أمرين : الخوف والملل، فإن العلاج الناجح لهذين الشعورين هو الطعام، إملأ فم المسافر باستمرار تصرف عنه، ولو لفترة، مايشعر به من خوف من التحليق على هذا الارتفاع الشاهق، ومايشعر به من ملل بسبب اضطراره للجلوس فى المكان نفسه الضيق لعدة ساعات. إن الأكل هو أحد الوسائل الفعالة التى نلجأ إليها حتى ونحن على الأرض، لصرف القلق أو السأم عن نفوسنا، وهكذا تفعل شركات الطيران فلا تكف عن تدليل المسافر بما تقدمه له من أصناف المشروبات والطعام وقطع الحلوى، أيا كان طول الرحلة أو قصرها، وسواء كان الوقت ملائما لتناول الطعام أو غير ملائم .

فى كل هذه الأمور لاتكاد تختلف معاملة شركات الطيران لركاب الدرجة الأولى عن بقية الركاب، إذ أن من الصعب أن يتفتق الذهن عن طريق للتمييز بين طائفة من الركاب وغيرهم دون حرمان بعض الركاب من بعض اللوازم الضرورية لرحلة الطائرة، ومن التدليل المستمر للركاب هناك بالطبع حدود واضحة لما يمكن أن تميز به مايقدم من طعام لركاب الدرجة الأولى عما يقدم لغيرهم، مادامت معدة الانسان ، كما قال آدم سميث منذ زمن بعيد، لها حدود لايمكن تجاوزها، نعم، من الممكن وضع أربعة أو خمسة أزرار على يد كل مقعد من مقاعد الدرجة الأولى تسمح بتحريك أجزاء المقعد فى اتجاهات متعددة حتى يحصل كل راكب على الوضع الذى يتناسب تماما مع حجمه وثنيات جسمه، ولكن الناس لايختلفون فيما بينهم اختلافا كبيرا فى هذا الأمر أيضا.

تفتق ذهن شركات الطيران عن طريقة أخرى لتمييز ركاب الدرجة الأولى عن غيرهم، وهى إعطاء كل

راكب في الدرجة الأولى هدية، هي في العادة كيس صغير قد يبدو جذابا في البداية ولكن الراكب يصاب بحيرة شديدة بمجرد أن يحاول أن يعرف ما الذي يمكن أن يفعله به، فهو قد يحتوى مثلا على مشط صغير أو معجون وفرشاة، للأسنان، مما يملك الشخص مثله ولا حاجة له به، أو زجاجة صغيرة بها سائل لغسيل الشعر وزيادة درجة لمعانه، مما يندر أن يحتاج المرء لمثله .. إلى آخر هذه الأشياء التي لايحتاج إليها في الحقيقة أي شخص ومن ثم ينطبق عليها وصف «الهدايا»، أي الأشياء التي لايحتاج إليها أحد في الحقيقة ومن ثم لايمكن أن يشتريها الشخص لنفسه وإنما يمكن أن يحاول بها خداع غيره . ومع كل هذا فشركات الطيران مستمرة في استغلال هذا الميل الدفين فينا جميعا، وهو الفرح بالحصول على أي شيء، مهما كانت قلة حاجتنا إليه، مادام يقدم إلينا دون مقابل، واللهفة التي نشعر بها إلى فتح أي شيء مغلق معلقين آمالا كبيرة على العثور في داخله على شيء ثمين غير متوقع .

★★★

إذا فرغت شركة الطيران من إلهاء الركاب بالطعام أو الشراب، وبعرض بعض الأفلام، وبتوزيع بطاقات الدخول، وفرغت جعبة قائد الطائرة من أي تعليقات أو تعليمات يمكن توجيهها للركاب، لايبقى إلا إغراء الركاب بما يسمى «بالسوق الحرّة» وهو اسم غريب لظاهرة أكثر غرابة.

فالمفروض أن هذه السوق الحرة تتكون من سلع تعرض على الركاب بسعر أقل كثيرا من الأسعار التي تباع بها داخل الدولة التي خرج منها المسافر أو الدولة التي سوف يدخلها. بسبب عدم خضوعها للرسوم الجمركية في هذه الدولة أو تلك، وحيث أن هذه الرسوم قد تكون مرتفعة للغاية على سلعة مثل السجائر والخمور والعطور فإن الشراء من السوق الحرة لابد أن يكون شديد الإغراء للمدخنين وشاربي الخمر، ولكن الانسان هو عادة من الضعف بدرجة تجعل من السهل جدا أن يسقط فريسة لخدعة بسيطة، إذ بمجرد أن يجد فرصة لشراء سلعة بثمن أقل مما تباع به عادة سال لعابه لها بصرف النظر عما إذا كان يشتري هذه السلعة عادة أو لا يشتريها يحتاج إليها أو لايحتاج فإذا به يقبل بحماس على شراء أي شيء من هذه السوق «الحرة»، ولو لم تكن لديه أدنى حاجة إليها، خوفا من أن تضيع هذه الفرصة الذهبية وهي دفع ثمن أقل مما يمكن أن يدفعه في ظروف أخرى! . وهكذا تتحول هذه الفرصة الاستثنائية لشراء هذه السلع الترفيهية إلا بدونها، ويصرّ الراكب على الحصول عليها إن لم تعرض عليه، وقد يتحمل من أجلها أعباء شديدة أقلها زيادة أحماله، وهي الثقيلة أصلا، ومزيد من انحناء ظهره، وتقليل حريته في الحركة بسبب ما يحمله من سلع هذه السوق «الحرة» .

وقد استغلت شركات الطيران هذا الجانب أيضا من جوانب الضعف

الانسانى، فاختارت من أنواع السجائر والمشروبات العطور أغلاها ثمنا، ولم تعرض غيرها من الأنواع على الركاب، فإن الراكب يدفع أثمانا أعلى مما يدفعه عادة لمجرد أنه يشترى الآن أصنافا أعلى مستوى .

فى مقابل هذا كله يوجه الراكب كلمة شكر رقيقة للمضيفة الجميلة الواقفة لتوديعه على باب الطائرة، وهى تبتسم له ابتسامة واسعة تعبر بها عن امتنان شركة الطيران لما أبداه من خضوع تام لكل تعليماتها وإغراءاتها، ولقبوله بصدر رحب كل ماجرى عليه من عمليات الترويض .

فإذا وضع الراكب قدمه فى مطار البلد الذى يقصده، وفرغ من إجراءات الجوازات، ذهب مسرعا إلى «السير» المتحرك متلهفا على رؤية حقائبه الأساسية التى سلمها لشركات الطيران قبل بداية الرحلة، وهو يدعو الله بمنتهى الخشوع ألا يكون قد حدث خلال عمليات السفر المعقدة أى خطأ أدى إلى ضياع حقيبة من حقائبه أو إلى ذهابها إلى بلد آخر أو قارة أخرى، إن من الشيق حقا تأمل وجوه الركاب أثناء وقوفهم أمام هذا السير المتحرك فى انتظار ظهور حقائبهم، وكأن كلا منهم ينتظر ظهور وجه حبيبته من بين عشرات النساء الغريبات، فإذا ظهرت، بعلاماتها المميزة، سواء كانت حقيبة جميلة أو قبيحة، مستوية أم منبعجة، مادامت حقيبته هو دون غيره، تنفس الصعداء وشعر لأول مرة بأن السفر قد بلغ نهايته، وهنأ نفسه على السلامة، ولكن الأكثر استحقاقا للتأمل والأكثر مدعاة للتأثر هو منظر الركاب من جنسيات بعينها وهم واقفون الموقف نفسه، فى انتظار حقائبهم، بالمقارنة بمنظر ركاب آخرين من جنسيات أخرى، فلنتأمل مثلا لهفة المصرى وهو فى انتظار حقائبه ومتاعه، خاصة إذا كان عائدا بعد رحلة عمل فى إحدى دول الخليج، فهنا تكون اللهفة مضاعفة والشوق أشد ذلك أن الحقائب والأمتعة لاتحتوى فقط، فى هذه الحالة، على أشياء تحمل ذكريات شخصية أو على سلع عالية الثمن ضحى الرجل فى سبيلها بالعمل الشاق والاغتراب عن الوطن والأهل، بل إنها أيضا تمثل رموزا لصعوده الاجتماعى وارتقائه إلى طبقة أعلى من الطبقة التى كان ينتمى إليها قبل سفره، فالمروحة اليابانية مثلا أو جهاز الكاسيت أو التليفزيون الملون تمثل كلها خطوات مهمة فى رحلة طويلة طالما حلم بها، وهى رحلة الارتقاء على السلم الاجتماعى، لا حاجة بى إذن لوصف البهجة التى يشعر بها هذا المسافر لدى رؤيته لحقائبه وأمتعته وهى تظهر الواحدة بعد الأخرى على هذا «السير» السحرى المتحرك. إن رؤية هذه الحقائب كافية لأن تنسى هذا المسافر كل ماقد يكون قد صادفه فى رحلته من مشاق، ولاتعادل بهجتها إلا بهجة فتح هذه الحقائب أمام عيون زوجته وأولاده المتطلعة إليه بإعجاب واحترام لم يكن يحظى بمثلهما قبل السفر .

من واقعنا الثقافى

الخيانات العلمية

رأيت ... وقرأت ... وسمعت

بقلم : د. محمد رجب البيومى

كان القدماء من النقاد يقيمون الدنيا ويقعدونها ، إذا أخذ شاعر معنى من شاعر آخر فى بيت واحد من الأبيات ، ويعقدون لذلك فصلا تحت عنوان «السرقات الأدبية» وفيهم من ألف كتبا مستقلة خاصة بأخذ معنى ، أو استلاب لفظ ، وجعلوا هذه السرقات أقساما تندرج تحت عناوين النسخ ، أو السلخ أو المسخ ، ولكل عنوان أمثلة واعتراضات ! ولم يدر بخلدهم فى مجال السرقات ما نراه من الآن. حين يسطو سارق على كتاب فيأخذه بأكمله ، لا لينسب إليه فقط ، بل ليحوز به درجة علمية كالدكتوراه ، أو يرقى به إلى مرتبة أعلى فيكون أستاذا مساعدا بعد أن كان مدرسا. أو أستاذا بعد أن كان أستاذا مساعدا ، وإذا كان هذا مشهودا ملموسا بيننا الآن ، فلنا أن نتخيل اندهاش هؤلاء السابقين ممن يقيمون المعارك حول سرقة بيت واحد ! حين يعرفون ما اتسع فيه الخلف من السرقات الفاضحة ، أكبر الظن أنهم سيتركون الحديث عن النقد ، ويولون أقلامهم حول انتكاس الأخلاق.

لقد فسحت الأهرام صدرها فى الشهور الأخيرة ، لذكر أنواع من هذه الجرائم ، وجعلت تقدم أنماطا مخزية لما ارتكبه أهل العلم من ، متصاب شنيع ، وأقول أهل العلم لأضحك القارىء، فإن الذين يرتكبون هذه الجهالات المندية لا يعرفون قيمة العلم والعلماء ، وأعجب ما فى الموضوع أنك ترى من يدافع عن هذه الخيانات، فقد ذكرت الأهرام أخيرا، أن لجنة كونت للبحث عن بعض هذه الجرائم، فلم تلزم جانب الحق مع وضوحه، ولكنها تعللت بذرائع مضحكة يعرف أعضاؤها قبل غيرهم أنها كذب واحتيال ، وتستغرب ذلك فتسأل عن هذا السلوك المريب، فيقال : إنها كرامة الجامعة ! ولا أدرى أيهما أكرم للجامعة وأشرف ، أن تأخذ المذنب بذنبه فيرتدع سواه ، أم أن تتستر عليه لتشجع سواه ! لقد أصبحت المسألة (مؤامرة) ولم تعد قضية سرقة وانتهاب بل جريمة اشترك فيها الرءوس والأذناب ؟.

رصد الانحرافات

ولكى نوازن بين اليوم والأمس ، أذكر أن المؤرخ الكبير الشيخ محمد الخضرى فى العقد الأول من القرن العشرين نقل صفحة واحدة من كتاب الشفاء ، للقاضى عياض، ونسى أن يذكر المؤلف، نسى ساهيا إذ تعود أن يذكر اسمه واسم غيره حين ينقل مستشهدا، فقامت القيامة عليه فى الصحف، واعتذر الرجل بأنه سها عن ذكر المرجع، حتى هدأت العاصفة شيئا ، وأرد الشاعر الفكه حفنى ناصف أن يعيد الحرب جذعة، فكتب يقول ، إن الشيخ الخضرى لم يَسْه، ولم يأخذ عن الشفاء . ولكن القاضى عياض هو الذى أخذ منه هذه الورقة ، لأنه ولىّ من أولياء الله، وقد اطلع على اللوح المحفوظ الذى يجمع ما كان ويكون من المؤلفات قبل ستة قرون ، فقرأ كلام الشيخ وأخذه بحسن نية ! وهكذا شاء حفنى أن يعيد الحديث مرة ثانية بهذه النادرة الضاحكة !. أأقول مرة أخرى ماذا كان يصنع أجدادنا فى أول القرن الماضى! لو امتد بهم الأجل إلى عصر الأحفاد ! وفيه تسرق المؤلفات ، وتمنح عليها الدرجات! .على أنى أرى، أن مواصلة الطرق الملح تنديدا بهذه الجرائم، لابد أن يكون لها صداها ، فعلى أصحاب الأقلام ، أن يرصدوا كل انحراف ليتحدثوا عنه بإشباع ، وأن يجدوا من أصحاب الصحف المعين الناصر لا الشفيع المخذل ، فإذا انتشر الودّى الرنان بصوته الصارخ ، أحدث أثره الزاجر ، ودعا من يهم بالخطيئة ، أن يرتكس دونها ، حذرا من الفضائح المجلجلة! وقد أتيح لى أن أرى وأن أقرأ ، وأن أسمع فى مدى نصف قرن أو يزيد ، ما ينتمى إلى هذه الجرائر المندية ، وسأكشف هنا عن بعضها تنبيها لا ترديحاً ، ليكون فى ذلك عظة باهرة لمن

ألقى السمع .

مما رأيت

كنت من مشتركي مجلة الأزهر، وأنا طالب بالقسم الابتدائي، إذ كان اشتراكها السنوي للطلاب عشرة قروش فقط وكانت مقالات الأستاذ الكبير العلامة محمد فريد وجدى رئيس التحرير، تأخذ بلبى، فكنت ألخص عناصرها فى هوامش الصفحات بالقلم الرصاص لأظل على ذكر منها، وقد كتب الأستاذ سلسلة من المقالات جاوزت الثلاثين تحت عنوان (السيرة المحمدية فى ضوء العلم والفلسفة) كنت أحصلها عن وعى. كأنى سأمتحن فيها آخر العام كان ذلك فى سنوات ١٩٣٩، ١٩٤٠، ١٩٤١ من الميلاد، ثم مضت الأيام قرابة خمسين عاما أو أكثر، وشاءت الأقدار أن أحضر بكلية اللغة العربية بالقاهرة سنة ١٩٩٢ م مناقشة لإحدى الرسائل، تقدم بها طالب سورى، وجلست فى الصف الأول ، وكان عن يمينى رجل معمم من أبناء القطر الشقيق، وفى يده كتاب يحمل اسم «السيرة المحمدية»، وأنا مغرم بكل ما يتعلق بسيرة رسول الله، فاستأذنت منه أن أطلع على عنوانه وفهرسه، فقدمه مباهيا، وقال إنه المؤلف، ومن الصفحة الأولى فغرت فمى دهشا ، لأن الكتاب كتاب الأستاذ محمد فريد وجدى جمعه بعد نصف قرن، ظانا أن الناس لم يعودوا يتذكرون ما كان فى غابر السنوات ، فندت منى صرخة سمعها من حولى : يا مجرم ، هذا كتاب فريد وجدى ! وسرعان ما قفز المؤلف المزعوم قفزة سريعة ، ومعه الكتاب، وخرجت من خلفه، فلم أدركه، فكأنما انشقت الأرض وابتلعته !.

لم أنم ليلتى، وأنا أحب الأستاذ فريد وجدى لدرجة العشق ، وأخذت أفكر فى رد هذا الكيد ! فاهتديت إلى أن أقوم بجمع المقالات الثلاثين، وأن أنشرها باسم صاحبها ، وساعدنى أخى الأديب المحقق الأستاذ محمد محمود حمدان ، فتقدم بها إلى الدار اللبنانية المصرية، وهو صاحب شأن فيها ، فأسرع صاحبها الأستاذ محمد رشاد بطبعها فى مجلد فاخر، وأتم الله نعمته فرأت مكتبة الأسرة أخيرا أن تعيد طبعها على نحو متسع فياح، فانتشر الكتاب انتشارا لم أكن أتوقعه، ثم دعانى الأستاذ محمد رشاد إلى أن أتابع نشر آثار محمد فريد وجدى المتفرقة فى أنهار الصحف والمجلات ، فأصدرت عدة أجزاء ، وقد استرحت كثيرا لما صنعت، لأن الشيخ المزور قد افتضح بذلك افتضاحا شنيعا ، وما عليه إلا أن يجمع ما طبع ثم يحرقه خزيان غضبان !.

هذه واحدة !.

أما الثانية ففى سنة ١٩٤٥ تقريبا، كنت أمر بسور الأزبكية، وهو يومئذ مورد الفقراء من محبى الإطلاع، فرأيت

مجموعة من مجلة (مكارم الأخلاق) تبلغ خمسين عددا، وقد ربطها البائع فى حبل متين، وكتب عليها ثمنها وهو خمسة عشر قرشا ، أى أن ثمن العدد الواحد ثلاثة مليمات ، وحاولت أن أساومه كى ينتهى المبلغ إلى عشرة قروش، فرفض مستنكرا، وكان الثمن معى، فحملت الحزمة بما ضمنت ، ورجعت إلى منزلى أقرؤها عددًا عددًا ، فوجدت كل عدد يفتتح بتفسير آيات من كتاب الله، بقلم رئيس التحرير الأستاذ محمود محمود وكيل جمعية مكارم الأخلاق والمدرس بالمعلمين العليا، وجاء التفسير سلسا سهلا ينأى عن مشكلات النحو والبلاغة ، ويكتفى باللباب الخالص من المعانى ، ولم تمض خمسة أعوام ، حتى زارنى بالمدرسة التى أعمل بها ولى أمر أحد الطلاب ممن يتزيون بأزياء العلماء، ومعه كتاب يحمل عنوان (تفسير آيات من الكتاب) وعليه اسم مؤلفه (محمود محمود) مجردا من وظيفته، ومنصبه فى الجمعية ، فظننت أن رئيس التحرير قد جمع بعض آثاره فى هذا المصنف ، ولكن الزائر قال مستطردا بعد حديث عن سلاسة الكتاب ، إن مؤلفه واعظ المركز المجاور الأستاذ محمود محمود، وقد حمل نسخا من كتابه إلى القرى المجاورة ليوزعها الأئمة والعمد بثمن محدد! ،وهنا تملكتنى الدهشة، إذ ليس من المعقول أن ينقلب أستاذ المعلمين العليا فى العشرينيات ، واعظا فى الخمسينيات، كما أن مثله لا يسمح لنفسه أن يحمل آثاره لتوزع على القرويين بوساطة الأئمة والعمد، وفى غمرة حيرتى، قلت للزائر ، هل رأيت الواعظ المؤلف ، فقال نعم إنه من نمط خاص ، حيث لا يتقدم للخطبة يوم الجمعة إلا بين جماعة تتقدمه إلى المنبر ومن خلفه جماعة أخرى، وإذا جلس للوعظ فى غير يوم الجمعة ، تحلق حوله السامعون فى وضع رسمه لعمال المسجد كى يرشدوا الناس إليه، فإذا انتهى جاء السامعون صفوفا صفوفا يقبلون يده فى انحناء! وقد قال إنه ألف كتابه فى التفسير محتجا على زملائه الذين يخطبون ولا يؤلفون، فضرب لهم المثل بما صنع!! كل ذلك قد دفعنى إلى زيارته بعد أن عرفت مكانه ، وتوجهت إليه بعد يومين ، فلاحظت من مظاهر الأبهة فى الملبس ، وطريقة الاستقبال ما ذكرنى بحديث صاحبى عنه ، وابتدرته قائلا : أأنت مؤلف كتاب التفسير، فابتسم ملاطفا، وقال : كم نسخة تود شراءها، إذ للجملة ثمن، وللكتاب المفرد ثمن ، فقلت يا أخى أنا أسألك أأنت مؤلف الكتاب ، فتقول لى كم نسخة تريد ! عجبا ! وهنا اختفت الابتسامة سريعا ، وتبدلت بتجهم غاضب ، ثم قال : أظنك تشك فى شىء ؟ قلت إن الكتاب مقالات نشرت بمجلة مكارم الأخلاق للأستاذ محمود محمود! فغشى وجهه مثل سواد الليل ، وقال فى انكسار، وأنا حفظت له حقه، فوضعت

اسمه ، وتحاشيت أن أذكر وظيفتى ليظل هو صاحبه، فقلت ولكنك أعلنت للناس أن الكتاب كتابك، وأن الوعاظ يخطبون ولا يؤلفون فضربت لهم المثل! ووزعت النسخ وقبضت الثمن ، فسكت الشيخ متحيرا، وقال : وتعرف كل هذا؟ وران الصمت بيننا، وقد شعرت أن الرجل عند مشاهدتى إياه بدءًا كان كدوحة ممتدة الأغصان ناضرة زاهية، ثم انقلب فجأة إلى قصبة جوفاء ! فرحمته، وأحسست أنى أسأت إليه ، ومن طبيعتى أن أنخذل أمام مواقف الهوان ، فينقلب غضبى الثائر رحمة حانية، ولا أستأسد على جزع، فقلت لا ضير، فلن أذيع شيئا ، على ألا تعاود الكرة، إذ إن للرجل ما يملأ عدة أسفار، وهممت بالخروج ، فسبقنى إلى الشارع، وظل صامتا ، حتى دنت (المحطة) فسبقنى إلى الشباك، واشترى لى تذكرة بعد أن عرف وجهتى، وثمنها ثلاثة قروش، وحين ركبت ظل واقفا يرفع يده بالتحية ، وعلمت أنه طلب سريعا الانتقال إلى مكان آخر، وأجيب إلى طلبه ، فهل كنت سببا فى ذلك؟ لا أدرى .

مما قرأت

هذا بعض ما شاهدت عن عيان ، أما ما قرأت فأكثر من أن يحصر، لأن مجلة الرسالة ذات المجلدات الأربعين قد حفلت بما لو جمع لألف كتابا! فكيف بغيرها من المجلات المماثلة ! لذلك سأختار منها ما يغنى عن شبيهه المماثل، وإنه لكثير .

يقول الدكتور جمال الدين الشيال متحدثا عن أستاذ بالجامعة - لم أشأ أن أذكر اسمه لأنه انتقل إلى رحمة الله فلا يُزعج فى قبره - نقلا عن العدد (٨٤٩) من مجلة الرسالة الصادرة فى ١٠/١٠/١٩٤٩م «فى صيف سنة ١٩٤٧ زارنى فى منزلى الأستاذ الدكتور (وذكر اسمه) أستاذ التاريخ المساعد بكلية الآداب، وطلب منى أن أعيره رسالتى (تاريخ الترجمة فى مصر) ليطلع عليها، فبينت له أنى لا أملك غير نسختى المخطوطة وقدمتها إليه بكل ترحاب، فأبقاها لديه عشرة أيام، ثم أعادها إلىّ وقد كتب بالحرف الواحد «أهنئك على هذا المجهود الصادق، وأرجو أن تتاح لك الفرصة لنشر هذه البحوث القيمة وأشكرك لإعطائى هذا البحث الرصين لقراءته والإفادة منه.

وفى صيف سنة ١٩٤٨ ظهر كتاب جديد فى ٨٤٠ صفحة عنوانه (بناء دولة - عصر محمد على).. وقرأت فإذا بى أجد فصلا فى ٢٠ صفحة كبيرة ، سطا فيه الأستاذ على رسالتى سطوا تاما فلخصها تلخيصا كاملا، حتى منهجى فى البحث قد التزمه عند التلخيص وتتبع أبوابه وفصوله بابا بابا وفصلا فصلا لم يحد عنه قيد أنملة، وترك ذلك إلى الفصل الذى يليه فى رسالتى وموضوعه التحدث عن المحررين والمصححين ، فإذا فرغ منه انتقل إلى الحديث عن القواميس والمعاجم

كما انتقلت أنا ، ثم إلى حركة الطباعة والنشر تحدث عنها كما تحدثت، حتى الملاحق ، ملاحق الرسالة لم يتركها لى فقد أخذها جميعا كما أثبتها فى رسالتى.

ومن هنا نرى أن الدكتور (... ...) قد سطا على الرسالة منهجا وموضوعا، وعند المقارنة يتبين فى وضوح تام أنه لم يسط على المنهج والأفكار فقط، وإنما سطا على العبارات والألفاظ فنحو ٨٠٪ من عباراته هى عباراتى بألفاظها وحروفها ، ومع هذا لم يشر حضرته بحرف واحد لا فى الهوامش ولا فى قوائم المراجع على كثرتها البالغة فى نهاية الكتاب إلىّ أو إلى رسالتى لا بشكر، ولا بما يفيد رجوعه إليها، واعتماده عليها وحدها اعتمادا كليا تاما عند كتابة هذا الفصل» .

هذا بعض ما قاله الدكتور الشيال فى فصل شمل أربعة أعمدة من صفحات الرسالة يضيق المقام عن تلخيصها وما قلته يكفى، ولم يعقب الدكتور الغاصب بشىء فى الأعداد القادمة، وكأن الأمر لا يعنيه، إنما جاء التعقيب فى العدد التالى (٨٥٠) الصادر فى ١٩٤٩/١٠/١٧ من زميل آخر يستعرض من المآسى العلمية ما هو أفدح فيقول بعد مقدمة:

«قد عادت بى الذكريات إلى أيام تلمذتى بالجامعة، فتذكرت ذلك الأستاذ المعمم، وقد جاءنا يرفل فى جبته وقفطانه، ثم طلب منا أبحاثا علمية ليقرأها ويصححها ويعيدها إلينا ، وكنا حريصين أشد الحرص على أن نرضى الأساتذة بهذه البحوث، حتى نفوز بالتقدير ، ولكن الأستاذ حفظه الله بخل علينا بأبحاثنا ولم يشأ أن يردها إلينا ، ولم نلبث أن رأينا هذه الأبحاث قد ضمت بعضها إلى بعض، وقسمت إلى أبواب وفصول، وأصبحت كتابا يحمل اسم الأستاذ، وان كنا نحمد له أنه غير الأسلوب المختلف ليكون فى نسق واحد، أما الآراء فقد بقيت كما هى ، والنصوص كما هى لم يتغير منها شىء.

ولم ننس بحثا كتبه أستاذنا فى مجلة، وقام أحد الطلاب يصيح فى وجهه، إنى أعطيتك هذا البحث منذ شهر، فلم يسع الأستاذ إلا أن يعترف أنه استفاد من البحث الذى قدم له، ولكنه أصر الأمر فى نفسه، وانتقم من الطالب فرسب آخر العام فى الامتحان.

وهذه زميلة تتقدم برسالة ماجستير، وتعطيها لأستاذها المشرف، فمكثت عنده زهاء ستة أشهر، ثم يفاجئنا بأن آراءها فى الرسالة قد اتفقت تماما مع آرائه فقالت الزميلة: وأين نشرت هذه الآراء، فقال باسما فى كتاب سيظهر بعد أسبوع وفيه هذه الآراء، فقالت ساخرة: الحمد لله أنك اطلعت على آرائى ولم أطلع على آرائك!.

وأذكر أن أستاذا أعطى رسالة لطالب يعطف عليه، كان قد كتبها زميل بإشرافه، فنقلها نقلا، وحضر الطالب المسروق منه

جلسة المناقشة، فلم يملك أن صاح مستنكراً، فقاطعه الأستاذ مغتاظا، وقال في حدة: أنت تعمل على فشل الامتحان! ولم يقل الزميلان المناقشان شيئاً، وكأن الأمر لا يعنيهما.

وأذكر أن أستاذا سافر إلى أحد الأقطار، فدعى إلى إلقاء محاضرات بالإذاعة هناك، فأرسل برقية إلى أحد المعيدين بالكلية ليكتب عاجلا سلسلة من المحاضرات ويرسلها إليه تباعا بالبريد الجوى وفعل، وألقى الأستاذ المحاضرات، وقبض مكافآتها المالية، وقد عاد ليضطهد المعيد، وكأنه أسلف له جرما.

هذا إلى أحداث أخرى ذكرها الكاتب، وقد أشرت إلى المصدر فليرجع إليه من يريد الاستقصاء!

أما النادرة الثالثة فلا تتعلق بأساتذة الجامعة، ولكن بسفير دبلوماسى، قرأ ترجمة إنجليزية لكتاب تحت عنوان «رسالة الحج» كتبه بالأردية عالم هندى كبير، فأعطى الرسالة لمن يترجمها إلى العربية، ثم نشرها باسمه باعتباره مؤلفا: وقرأ الأستاذ الهندى، وهو يجيد العربية ما صنع السفير الكبير فهاج وكتب فى صحف البلاد العربية ما يدل على استنكاره وتناقلت مجلتا الرسالة والثقافة حديث هذا السطو المنكر، فكررت القول فيه بدءا وتعقيبا، وأذكر أن الاستاذ محمد سعيد العريان، كتب بمجلة الثقافة فصلا بديعاً عن السرقات الأدبية، تحت عنوان «الأدب المنحول» أى المنسوب إلى غير قائله، جاء فيه «العدد٢٢٢ (١٩٤٣/٣/٣٠) من الثقافة:

«وهذا قاض كان يشغل منصباً دبلوماسيا كبيراً، تهيأت له فى بعض غربته فرصة، فحصل على ترجمة إنجليزية لرسالة بالأردية فى أسرار الحج، فحملها إلى مصر، وأخرجها كتابا باسمه بعد ما أعانه على أدائها بالعربية أديب كبير من أدبائنا، ولا يزال هذا الكتاب إلى اليوم منشوراً ومنسوبا إلى ناشره وليس له فيه الفكرة ولا الترجمة ولا الأداء، وليس إلا أن حمله من جدّة إلى القاهرة أو حملته معه الباخرة».

والطريف أن الأستاذ الكبير عبدالحميد العبادى أعجب بالكتاب إعجابا شديداً، وعدّه فى طليعة الكتب المهمة التى تتحدث عن أسرار الحج ونشر ذلك بمقال ضاف بمجلة الرسالة، ولم يكن يدرى أن الكتاب هندى بقلم عالم إسلامى جهير، فيكيل له وحده الثناء! ومن يدريه، والأصل فى المؤلف – وبخاصة إذا كان منصب مرموق – أن يكون أمينا مأمونا!

مما سمعت

وما سمعته كثير كثير، واقتصر على هذه النادرة.

كنت فى أوائل الستينيات أقضى شهرى الصيف بالإسكندرية، ولى بها صديقان أثيران، هما الأستاذ صديق شيبوب والأستاذ نقولا يوسف، وكلاهما

من ذوى الكفاية المشهودة فى الأدب والنقد والتاريخ، رحمهما الله.

وذات يوم زرت الأستاذ شيبوب فى مكتبه بإدارة جريدة البصير، فوجدت الأستاذ نقولا معه، وأمامهما كتابان، يضمان مجموعة من القصص، وقد أهدى المؤلف لهما هذين الكتابين، ولكن انقباضهما النفسى كان ملحوظا لا يخفى على مثلى فتساءلت، فقال الأستاذ شيبوب قد يكون السكوت أفضل، ولكن نقولا قال، وماذا لو علم رجب بما نأسف له، ثم توجه بالحديث إلىّ قائلا:

كنا منذ عامين ثلاثة من المحكمين فى مسابقة قصصية أقامها نادى الثقافة بالإسكندرية، أنا والأستاذ شيبوب وصاحب هذه المجموعة القصصية التى ترى منها نسختين أمامنا، وقد قرأنا أكثر من ثلاثين قصة واخترنا ثلاثا للجوائز المقررة، ووكلنا إلى الزميل تقديم الأصول إلى النادى، ولكنه لم يفعل، وقد تسلمت بالأمس مجموعته التى لم يخجل من إهدائها إلينا معا! فماذا رأينا؟ رأينا عشرا من القصص المرفوضة قد بدلت عناوينها وبعض العبارات التى لا تقدم ولا تؤخر، ثم جمعت فى هذا السفر البائس، وليس لصاحبها منها غير اسمه فقط! وهى كل ما فى الكتاب!.

قلت، ولماذا لا تواجهانه؟ فصاح نقولا: نحن لم نسلم من شره، دون أن نجاهره بسوء! فما ظنك لو جابهناه بما اقترف! إنه بطل الشكاوى الكيدية للمباحث وصاحب الدعايات المسمومة، ولخطره البالغ تقبله المجتمع الأدبى بيننا فى مرارة إنه يعيش بين الناس كما يعيش الثعبان فى برج الحمام، يعيش ليلدغ، قال عنى: إنى بهائى، وأنا لا أعرف شيئاً عن البهائية، وقال عن صديق شيبوب إنه ينشر إعلانات المرابين فى البصير بأجر مضاعف يأخذ نصفه، وصديق ليس له غير الصفحة الأدبية التى تصدر يوم السبت، فما له وللإعلان.. أهو صاحب الجريدة؟.

فتوجهت إلى صديق سائلا، وهل توافق أنت على الصمت أيضاً؟ قال أرجو أن ينكشف الأمر على غير أيدينا، فقد يقرأ المتسابقون المجموعة ثم يصرخون!.

وبعد، فهذه أمثلة مما رأيت وقرأت وسمعت، وكلها حق واقع، وحين أقرأ نظرائها اليوم فى الصحف يغلى الدم فى عروقى، ولا أهدأ إلا بعد أمد قد يطول، وقد حاولت أن أتجاهلها، ولكنها كانت أقوى من كل محاولة للتجاهل، فرأيت أن أخفف لواعجها المحتدمة، حين أنقلها إلى القراء مكرها غير مختار، لأن الإناء قد امتلأ، ولابد أن يفيض.

سقونى، وقالوا لا تغن، ولو سقوا
جبال حنين ما سقونى لغنت!

التعددية فى الفكر

بقلم: د. محمد عمارة

إن جماع هذا الوجود - فى النظرة الإسلامية، والتصور الثقافى الإسلامى- هو الحق.. والخلق الخالق ، سبحانه وتعالى، والكون وعوالم المخلوقات، الموجد والموجودات، المحدث والمحدثات.. هذا هو جماع الوجود فى نموذج التصور الثقافى الإسلامى..

وإذا كان هذا التصور قد بلغ قمة التنزيه والتجريد فى وحدانية الحق.. فإنه قد آمن بأن التعددية هى السنة والقانون فى سائر عوالم الخلق، التى فطرها خالقها على الثنائية والازدواج والاشتراك والارتفاق، فطرة وسنة لا تبديل لها ولا تحويل.. فالإيمان بالتعددية فى ظواهر وعناصر الكون المادى، وفى مكونات الاجتماع الإنسانى قسمة أصيلة وسمة بارزة فى النموذج الثقافى الإسلامى، والوعى بهذه الحقيقة إنما يمثل حجر زاوية - أو هكذا يجب أن يكون - فى ثقافة إنساننا العربى والإسلامى .

فتعددية الازدواج سنة إلهية حكمت خلق الله لجميع المخلوقات (سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون)

وتعددية الذكر والأنثى سنة إلهية قد حكمت خلق الله للأنفس والبشر «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى» .

وفي بقية هذه الآية القرآنية التي تحدثت عن سنة التعددية في خلق الإنسان من ذكر وأنثى، اشارة إلى سنة أخرى هي تعددية الإنسانية والبشرية إلى شعوب وقبائل، أي تعددية في الأمم والجماعات.. «وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم» .

وكما اقتضت السنة الإلهية تعدد البشر إلى شعوب وقبائل وأمم وجماعات، كذلك اقتضت تعدديتها في القوميات - التي تحددها تعددية الألسن واللغات - وفي الأجناس - التي تشير إليها الألوان .. سنة حاكمة وقانونا عاملا وآية من آيات الله في الخلق «ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين» .

وإذا كانت سفينة نوح ، عليه السلام، قد مثلت «الحياة» الناجية من الطوفان، فلقد حكمت التعددية والازدواج عناصر ومكونات هذه الحياة «حتى اذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن» .. «فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا فإذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك» .

وكما قام الخلق على التعددية ، كذلك حكمت سنتها وساد قانونها في «عالم الأفكار» .. فالاختلاف في الشرائع والمناهج، والتعددية في المذاهب والتيارات الفكرية ، هي الأخرى سنة إلهية، لا تبديل لها ولا تحويل، في «عالم الأفكار» - «كعالم الخلق» سواء بسواء «ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين. إلا من رحم ربك. ولذلك خلقهم» «لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات ، إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون» .

فالتعددية بين الأمم في الشرائع والمناهج سنة إلهية، تثمر الابتلاء الحافز على الاستباق على طريق الخيرات.. بل إن هذه التعددية ، وهذا الاختلاف قد بلغ، برأي العلماء من مفسري هذه الآيات القرآنية، الى درجة اعتباره «حكمة الخلق».. فقالوا : «وللاختلاف خلقهم» الله، سبحانه وتعالى!..

وإذا كانت التعددية هي منطلق التدافع الفكري والاجتماعي والحضاري، فإن هذا التدافع - الذي لا وجود له بدونها - هو سبب الصلاح والإصلاح لما يحدث في الاجتماع الانساني من فساد وإفساد «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين» «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا» .

وحتى في إطار الأمة الواحدة - ووحدتها فريضة إلهية «إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون» .. فإن هذه الوحدة إنما تكون فيما هو معلوم من الدين بالضرورة، أي ما تتفق فيه الفطر السوية ولايتأتى فيه الاختلاف - من الوحدة في العقيدة والشريعة والأمة والدار - وفي ثوابت الوضع الإلهي القطعي الثبوت والدلالة - أما فيما عدا هذه الجوامع للوحدة ، فإن التعددية هي السنة التي تحكم تنوع الأمة إلى اجتهادات في الفروع والمذاهب ومدارس الفكر وتيارات

الاجتماع.. ففي الفكر تنوع في إطار وحدة الأصول.. وفي الاجتماع : طبقات وشرائح اجتماعية في إطار الأمة والجماعة .. وكون الإسلام : دين «الجماعة» ، لايلغي تميز «الفرد» ولا تمايز «الطبقات» ، وإنما تتميز التعددية في التصور الإسلامي - بالجامع الذي يجمع فرقاءها، والأصول التي توحد جماعاتها وتياراتها ومذاهبها وطبقاتها.. فلا هي «الوحدة» التي لا تعدد فيها .. ولا هي «التعددية» التي لا جامع لأجزائها.. وإذا كانت التعددية الفكرية إنما هي تنوع في الاجتهاد، بإطار وحدة التصديق بالبلاغ القرآني والبيان النبوي لهذا البلاغ، فإن معايير الاختلاف في هذا الاجتهاد هي «الصواب» و«الخطأ» و«النفع» و«الضرر» وليس «الايمان» و«الكفر» لأن «الايمان» و«الكفر» هما معايير الاختلاف فيما هو معلوم من الدين بالضرورة - وهو مالا يجوز فيه الاختلاف لأنه الجامع لوحدة الأمة ، التي هي فريضة إلهية، وبدونها لا يكون معنى للتعددية والاختلاف!

وكذلك الحال في «الحياة الاجتماعية» للأمة: تنوع في الأفراد والطبقات بإطار الوحدة القائمة على ارتفاق الأفراد والطبقات - كتنوع أعضاء الجسد في الحجم والدور والاحتياجات والقدرات بإطار وحدة الجسد، التي تجعل سائر الأعضاء تتداعى بالسهر والحمى لأي عضو إذا هو اشتكى؟!

ولعل في «الصورة» التي رسمها الإمام علي بن أبي طالب، لهذه التعددية الاجتماعية - في العهد الذي كتبه لعامله على مصر - الاشتر النخعي (٣٧ هـ ٦٥٧ م) .. لعل فيها التجسيد لعلاقة التنوع بالوحدة، والتعددية بالجامع ، والارتفاق الذي يمثل العلاقة بينهما.. لقد قال الإمام علي وهو يوصي عامله : «واعلم أن الرعية طبقات، لا يصلح بعضها إلا ببعض، ولا غنى ببعضها عن بعض، فمنها : جنود الله.. ومنها : كتّاب العامة والخاصة.. ومنها : قضاة العدل.. ومنها : عمال الانصاف والرفق.. ومنها : أهل الجزية والخراج.. ومنها : التجار وأهل الصناعات.. ومنها : الطبقة السفلى، من ذوي الحاجة والمسكنة.. فالجنود حصون الرعية، وسبل الأمن.. ثم لا قوام للجنود إلا بما يخرج لهم من الخراج.. ثم لا قوام لهذين الصنفين إلا بالصنف الثالث من القضاة والعمال والكتاب.. ولا قوام لهم جميعا إلا بالتجار وذوي الصناعات» .

وهكذا، تبلغ التعددية - التي هي تنوع في إطار الوحدة - في الثقافة الإسلامية، مبلغ السنة الإلهية التي لا تبديل لها ولا تحويل، في سائر ميادين وعوالم المخلوقات، المادية.. والحيوانية.. والانسانية .. وفي عوالم الأفكار.. كما بلغت الوحدانية في تصور الذات الإلهية قمة التنزيه والتجريد.

ولاشك أن الوعي بهذه الحقيقة، وبأبعادها وتجلياتها في الثقافة الإسلامية، سيثمر العديد والجليل من الثمرات .

ودوائر الانتماء

وعلى عكس الثقافات التي أقامت التناقضات بين دوائر الانتماء : «الوطنية» و«القومية» و«الحضارية» ، لأنها اعتمدت «الأرض» وحدها مميزا ومحددا للوطنية والوطن، والعرق والجنس مميزا ومحددا للقوم والقومية، على عكس هذه الثقافات، يأتي النموذج الثقافي الإسلامي - انطلاقا من الفطرة - ليسلك هذه الدوائر كدرجات مترابطة ومتكاملة في سلم الانتماء الأكبر،

الذى يضم دوائر فرعية ليس بينها وبين جامع الانتماء الأكبر تناقض أو تضاد .

فالفطرة الإنسانية السوية، التى فطر الله الناس عليها، قاضية بوجود ولاءات وانتماءات متعددة للإنسان، لا تناقض بينها إذا خلت مضامينها ومفاهيمها مما يؤدى إلى تناقض أو تضاد.. فللإنسان ولاء وانتماء إلى أهله وعشيرته لا يتناقض مع ولائه وانتمائه الى الوطن والإقليم الذى ولد وتربى ونشأ فيه، كما أنه لا تناقض بين الانتماء للأهل والوطن وبين الانتماء والولاء للقوم الذين تحدد اللغة دائرتهم.. وكذلك الحال مع الانتماء إلى الدائرة الحضارية التى قد تجمع العديد من الأوطان والعديد من اللغات والقوميات.. فإذا خلت مفاهيم مصطلحات «الوطن» و«القومية» من عصبيات العرق والجنس، وإذا اتخذت مكان الإنتماءات الفرعية فى إطار الانتماء الجامع - الإنتماء الحضارى - الذى يحدد الإسلام دائرته ، فى حال أمتنا العربية والاسلامية - فإن التناقض والتضاد سينتفيان فى النموذج الثقافى الإسلامى، بين دوائر الانتماء والولاء .

إن الاسلام - وهو الصبغة التى صبغت ثقافة الأمة - يجعل الانتماء إليه والولاء له الجامع الأكبر والأشمل والأول للإنسان المسلم (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين) «النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم، وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلا أن تفعلوا الى أوليائكم معروفا، كان ذلك فى الكتاب مسطورا» .

فالنبى، صلى الله عليه وسلم - أى الرسالة والإسلام - أولى بالمؤمنين من أى ولاء فرعى آخر.. وفى ذات الآية بيان لولاء فرعى بين أولى الأرحام ، طالما لم يحل الولاء لأولى الأرحام بين الإنسان وبين الانتماء والولاء للجامع الأول والأكبر وهو الإسلام ودائرته الحضارية.

ولذلك ، تجاورت وتفاعلت وتساندت فى التاريخ الحضارى الإسلامى :

وحدة دار الإسلام، ومعها - وفى إطارها - تمايزت الأوطان والأقاليم .. دونما تناقض أو تضاد.. ووحدة الحضارة - التى حددت العقيدة والشريعة والأمة دائرتها - وفى إطارها تنوعت القوميات، التى رسمت اللغات حدودها .

ووحدة الأمة الإسلامية، ومعها - وفى إطارها - تمايزت الشعوب والقبائل ..

كل ذلك ، دونما تعارض أو تناقض أو تضاد بين الانتماء الإسلامى الأكبر والأول وبين ما ضم واحتضن من دوائر فرعية للولاء والانتماء .

فالرسول ، صلى الله عليه وسلم - هو الذى جسد بالرسالة معالم الانتماء للإسلام والولاء له - حتى كانت طاعته طاعة لله، ومحبته محبة لله - هو الذى عبر عن حبه وولائه لمكة - وطن النشأة .. ووعاء الذكريات - حتى وهى على الشرك الذى بلغ فى عدائه له حد إخراجه منها - فقال، صلى الله عليه وسلم مناجيا اياها فى لحظات الهجرة منها : «والله إنى أعلم انك احب بلاد الله إلى الله، وأحب البلاد إلى نفسى. ولولا أن أهلك أخرجونى منك ما خرجت!» .. ولقد كان يدعو ربه ، فى المدينة أن يحبب إليه المدينة حبه لوطن المولد والنشأة ووعاء الذكريات ! ..

وهكذا تجاورت وتزاملت وتساندت وتفاعلت ، فى النموذج الثقافى الإسلامى، دوائر الانتماء للأهل والوطن، والقوم ، ولجامعة الإسلام.. فتجاورت الوطنية مع الجامعة الإسلامية، عندما برىء الانتماء الإسلامى من «عصبية الجاهلية» ومن «جنسيات» القوميات العنصرية التى سادت فى حضارات أخرى ، ووجدنا الامام محمد عبده (١٢٦٥ - ١٣٢٣ هـ - ١٨٤٩ - ١٩٠٥م) يفتى « بأن وطن المسلم فى البلاد الاسلامية هو المحل الذى ينوى الإقامة فيه، ويتخذ فيه طريقة كسبه لعيشه، ويقر فيه مع أهله - ان كان له أهل - ولا ينظر إلى مولده، ولا إلى البلد الذى نشأ فيه، ولا يلتفت إلى عادات أهل بلده الأول، ولا إلى ما يتعارفون عليه من الأحكام والمعاملات، وإنما بلده ووطنه الذى يجرى عليه عرفه وينفذ فيه حكمه هو البلد الذى انتقل إليه واستقر فيه، فهو رعية الحاكم الذى يقيم تحت ولايته، دون سواه من سائر الحكام، وله من حقوق رعية ذلك الحاكم ما لهم وعليه ما عليهم، لا يميزه عنهم شىء، لا خاص ولا عام .

أما الجنسية - المعبر عنها عند غير المسلمين «بالكبيتولاسيون Capitula-tions» - فليست معروفة عند المسلمين، ولا لها أحكام تجرى عليهم، لا فى خاصتهم ولا عامتهم، وإنما الجنسية عند الأمم الأوربية تشبه ما كان يسمى عند العرب عصبية، وهو ارتباط أهل قبيلة واحدة أو عدة قبائل بنسب أو حلف يكون من حق ذلك الارتباط أن ينصر كل منتسب إليه من يشاركه فيه، وقد كان لأهل العصبية ذات القوة والشوكة حقوق يمتازون بها عن سواهم

جاء الاسلام فألغى تلك العصبية، ومحا آثارها ، وسوى بين الناس فى الحقوق، فلم يبق للنسب ولا لما يتصل به أثر فى الحقوق ولا فى الأحكام. فالجنسية لا أثر لها عند المسلمين قاطبة، فقد قال صلى الله عليه وسلم : «إن الله أذهب عنكم عُبّية الجاهلية» (أى عظمتها) - وفخرها بالآباء، وإنما هو مؤمن تقى وفاجر شقى، الناس كلهم بنو آدم، وآدم خلق من تراب » وروى كذلك عنه «ليس منا من دعا إلى عصبية» .

وبالجملة، فالاختلاف فى الأصناف البشرية، كالعربى والهندى والرومى والشامى والمصرى والتونسى والمراكشى، مما لا دخل له فى اختلاف الأحكام والمعاملات بوجه من الوجوه. ومن كان مصريا وسكن فى بلاد المغرب وأقام بها جرت عليه أحكام بلاد المغرب، ولا ينظر إلى أصله المصرى بوجه من الوجوه .

وأما حقوق الامتيازات، المعبر عنها «بالكابيتولاسيون» ، فلا يوجد شىء منها بين الحكومات الاسلامية قاطبة، هذا ما تقضى به الشريعة الإسلامية، على اختلاف مذاهبها، لا جنسية فى الإسلام، ولا امتياز فى الحقوق بين مسلم ومسلم، والبلد الذى يقيم فيه المسلم من بلاد المسلمين هو بلده، ولأحكامه عليه السلطان دون أحكام غيره .

وبهذا جمع الإسلام، فى نموذجه الثقافى، بين وحدة دار الإسلام وبين تمايز الأوطان فيها، وتجاورت فيه الوطنية اللاعنصرية والأممية الحضارية - لا الأممية الطبقية التى ناصبت الوطنية والقومية العداء؟!

وبهذا يقدم الإسلام نموذجا ثقافيا متميزا فى دوائر الانتماء، انطلاقا من الفطرة السوية التى فطر الله الناس عليها.

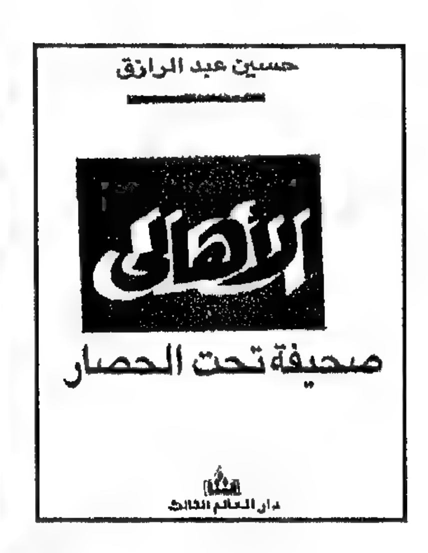

الشعب
يصدرها حزب العمل
العربي
الأحرار
الأهالي
AL-WAFD
الوفد
ت عام ١٩٨٤ برئاسة تحرير مصطفى شردى

ملامح التطور وسمات الدور ورهانات المستقبل

بقلـــم: د/ محمـــود خليـــل★

تواجه الصحافة الحزبية العديد من المشكلات التى تعـرقل قـدرتهـا على أداء دورها على المستويين السياسى والمهنى من ناحيـة، كما تضع حدودا على شروط نموها وتضاعف دورها فى المستقبل من ناحية أخرى فى ظل التحولات الإعلاميـة والمهنيـة، التى تجتـاح السـاحـة الصحفيـة فى مصر فى الوقت الحاضر نتيجة تغلغل رأس المال فى العـمل الإعـلامى على مستويات عديدة، وانخراطه على مستوى التملك والإنتاج تراجع الأدوار التثقيفية والتعليمية والتعبوية للرسالة الإعلامية ككل وبروز الأدوار الخدمية والترفيهية بصورة كبيرة .

★ أستاذ الصحافة المساعد - كلية الإعلام - جامعة القاهرة





وتتمثل أبرز هذه المشكلات فى:

١- الضغوط الخارجية:

وتتمثل فى الضغوط الناتجة عن منظومة الظروف السياسية والقانونية التى تعمل فى إطارها الصحف الحزبية، وتتبلور الظروف السياسية بشكل أساسى فى موقف النظام السياسى ممثلا فى شخصية رئيس الجمهورية من فكرة التعددية ولاحق فى الاختلاف، وإذا طورنا المسألة أكثر أمكننا إضافة الموقف من فكرة تداول السلطة. أما الظروف القانونية فتتمثل فى التشريعات المنظمة لإنشاء الأحزاب وإصدار صحف ناطقة باسمها والقيود القانونية المختلفة التى توضع من أجل تحديد نوع حركتها ومستوى ممارستها للنشاط السياسى.

وقد عانت الصحف الحزبية من نشأتها من مشكلات عديدة أبرزها مجموعة القيود التى يضعها القانون على إنشاء الأحزاب وبعض الشروط المتعسفة التى يضعها فى هذا الصدد، بالإضافة إلى عدم نص قوانين الصحافة فى مصر سواء قانون سلطة الصحافة ١٩٨٠ أو قانون تنظيم الصحافة ١٩٩٦ على حق الأفراد فى إصدار صحف إلا بعد تكتلهم فى شركات خاصة بشروط شديدة التعسف مما يمنع نشأة صحف «متحزبة» بمعنى صحف غير مملوكة لأحزاب ومع ذلك تتبنى وجهة ورؤية حزب معين وتدافع عنها.

ومن الناحية السياسية فإن درجة انطلاق الصحيفة الحزبية فى القيام بدورها يتحدد بموقف القيادة السياسية. فهى يمكن أن تسمح أو لا تسمح بذلك، وقد صودرت صحيفة الأهالى منذ صدورها وطيلة فترة حكم الرئيس السادات عدة مرات، وصودرت فى عصر الرئيس مبارك مرة واحدة. كما انتهى أمر جريدة الشعب إلى الإيقاف بعد الدور الذى لعبته فى أزمة رواية «وليمة لأعشاب البحر» وبالتالى فإن الضغوط التى تمارس من خارج الصحيفة الحزبية سواء كانت سياسية أو قانونية يمكن أن تؤثر على حجم الدور الذى تلعبه، وقد يشتد الأمر أحيانا ليصل إلى حد عرقلة قدرتها على الاستمرار.

٢- الصراعات الداخلية :

من خلال الشهادات التى يقدمها العديد من رؤساء تحرير الصحف الحزبية حول تجارب عملهم فى هذه الصحف ، مثل شهادة عبد الله إمام حول تجربته فى صحيفة العربى وصلاح قبضايا حول تجربته فى الأحرار وحسين عبد الرازق فى الأهالى، يتضح أن الصراعات التى تقع داخل الأحزاب تؤثر تأثيرا بالغا على قدرة الصحيفة الحزبية على أداء دورها. فقد نشأت الأحزاب فى مصر - كما يقول حسين عبد الرازق - فى شكل جبهات تجمع أحيانا قوى سياسية متنافرة أو متصارعة ، ويضاف إلى ذلك التباين فى تركيبة الأجيال التى تعمل فى الأحزاب الآن والاختلاف فى حجم ونوع تجاربها السياسية وعدم ديمقراطية الفعل السياسى داخل الأحزاب فى بعض الأحيان، وبروز الصحيفة كأداة أساسية للعمل السياسى الحزبى . كل هذه الأمور تلعب دورا فى عرقلة أداء الصحيفة الحزبية. وتتجلى هذه العرقلة فى عدد من الأمور أبرزها (من تجربة صحيفة العربى):

- التضارب عند تحديد الخطوط العامة والأساسية للسياسة التحريرية للصحيفة.
- التغيرات المستمرة فى شخصية القيادات العاملة داخل الصحيفة.
- إقحام أفراد لا صلة لهم بالعمل الصحفى على جهاز الصحيفة لمجرد الانتماء إلى الحزب.
- سيادة أسلوب المؤامرات وضرب قيم الزمالة والرغبة فى تجويد العمل.

٣- المشكلات المهنية :

وتتمثل أولى هذه المشكلات فى ضعف التمويل والذى يعرقل قدرة بعض الصحف الحزبية على الصدور بشكل منظم ويعرقل الآخر عن التحول من الإصدار الأسبوعى إلى الإصدار اليومى، وهو أمر منطقى لابد أن تسعى إليه الأحزاب فى ظل عدم قدرتها على التعبير الإعلامى من خلال جهازى الإذاعة والتليفزيون، كما سبق وذكرنا، وينتج ضعف التمويل عن انخفاض الضخ الإعلانى وضعف التوزيع.

وتتمثل ثانى هذه المشكلات فى ضعف الأجهزة التنفيذية القائمة على إصدار هذه الصحف مثل جهازى التوزيع والإعلان ومن فوقهما الجهاز الإدارى، ونجاح الصحيفة الحزبية لا يعتمد فقط على وجود جهاز تحريرى متمكن وكفء بل يعتمد - بالإضافة إلى ذلك - على جهاز إدارى ناجح.

وإذا جئنا إلى الأجهزة التحريرية بالصحف الحزبية فسنجد أنها تعانى العديد من المشكلات أبرزها:

عدم الاعتماد على كوادر تحريرية محترفة والاعتماد على كوادر من شباب المحررين محدودى الخبرة، وعدم وجود شبكة من المندوبين الإخباريين وكذلك المراسلين الصحفيين مما يعرقل الأداء الإخبارى ويجعل هذه الصحف تعتمد بصورة أكبر على المواد التفسيرية ومواد الرأى وغيرها من مواد صحفية صالحة للمجلة أكثر من صلاحيتها للجريدة.

بعد الثورة:

بعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ وتحديدا فى عام ١٩٥٤ انتهى الوجود الرسمى للتجربة الحزبية التى تبلورت بعد ثورة ١٩١٩ وما يعبر عنها من صحف، وسادت الحياة الصحفية فى مصر مجموعة من الصحف المملوكة لعائلات، بالإضافة إلى الصحف التى أصدرتها الثورة من خلال مؤسسة دار التحرير والتى قامت بإنشائها.

وقد سارعت الصحف المملوكة لعائلات فى مصر إلى تأييد الثورة منذ قيامها وقامت بدور الناقل والمفسر والمبرر لتوجهاتها ولم تحاول الخروج عن الخطوط العامة والأسس التى يستند إليها التنظيم السياسى الأوحد.

وفى عام ١٩٦٠ - وقبل صدور قوانين التأميم بنحو عام - صدر القانون رقم ١٥٦ المسمى بقانون تنظيم الصحافة والذى نص على أيلولة الصحف المملوكة لعائلات إلى التنظيم السياسى الأوحد (الاتحاد القومى ثم الاتحاد الاشتراكى) وتمثلت فى الصحف الصادرة عن دار الأهرام ودار أخبار اليوم ودار روز اليوسف ودار الهلال، وأضيف إليها الصحف الصادرة عن دار التحرير التى أنشأتها الثورة ثم دار المعارف عام ١٩٦٣ ثم دار التعاون ١٩٦٩.

وإذا كانت الصحافة العائلية قد تميزت خلال الفترة من ١٩٥٤ - ١٩٦٠ بنوع من التعددية المهنية - نتيجة لتنوع المدارس الصحفية التى تنتمى إليها، والتى تعكس فكرا صحفيا مختلفا لكل صاحب مدرسة فى التعبير، فقد بدأ هذا الأمر فى التراجع بعد توحد مالك هذه الصحف جميعها فى الاتحاد القومى.

وقد ظل هذا الوضع قائما حتى وفاة الرئيس عبد الناصر وفترة تولى حكم الرئيس السادات حتى عام ١٩٧٦. وكان السادات قد بدأ منذ تحقق نصر أكتوبر عام ١٩٧٣ فى إعادة صياغة أسس نظام حكمه بشكل مخالف إلى حد كبير للأسس التى كان يستند إليها الحكم خلال العهد الناصرى، وصدرت ورقة أكتوبر وقوانين الاستثمار وانتعش الاتجاه نحو تفعيل دور القطاع الخاص وسياسات الانفتاح الاقتصادى ، وفيما يبدو أن الرئيس السادات فى ظل شغفه بالصياغات الجديدة أحس أن التحولات التى تقع فى الإطار الاقتصادى فى اتجاه التعددية لابد أن يصحبها تعددية موازية على المستوى السياسى، وبالتالى ضرب فكرة التنظيم السياسى الواحد.

وفى سياق ذلك دعا الرئيس السادات إلى إنشاء منابر سياسية داخل الاتحاد الاشتراكى، وحددها لتمثيل اليمين والوسط واليسار، وأعلن فى افتتاح دورة مجلس الشعب فى نوفمبر ١٩٧٦ قرار تحويل المنابر إلى أحزاب ثم صدر قانون الأحزاب رقم ٤٠ لسنة ١٩٧٧، لينص فى المادة رقم ١٥ على حق كل حزب فى إصدار صحيفة أو أكثر للتعبير عن آرائه دون التقيد بالحصول على ترخيص. وفى هذا الإطار ظهرت الصحف الحزبية ممثلة فى جريدة الأحرار فى ١٤ نوفمبر ١٩٧٧ عن حزب الأحرار الاشتراكيين وتلتها باقى الصحف

مثل جريدة الأهالي في ١ فبراير ١٩٧٨ عن حزب التجمع، وتلتها صحيفة الشعب عن حزب العمل في ١ مايو ١٩٧٩.

ومن الجدير بالتسجيل أن الأحزاب التي نشأت خلال هذه الفترة وما صدر عنها من صحف خرجت بقرار من السلطة وبالتالي فقد خضعت لشروطها. وقد لجأت السلطة إلى تحديد معايير وحدود لعبة المعارضة من جانب الأحزاب التي أوجدتها وتوقعت منها الالتزام بها كأحزاب صورية، ولكن الذي حدث أن الأحزاب التي نشأت حاولت التحرك انطلاقا من كونها أحزابا معارضة لها أيديولوجيتها الخاصة ولها حقها في الطموح إلى السلطة، وبالتالي فقد خرجت عن الدور المرسوم لها من جانب السلطة السياسية. وترتب على ذلك وقوع صدام بين الطرفين تجلت أبرز مظاهره في مصادرة أعداد من صحيفة الأهالي، وأخذ الأمر في الالتهاب بشكل متزايد إلى أن انتهى بمصادرة السادات لتجربة التعددية ككل في أيامه الأخيرة ووقف كافة الصحف الحزبية عن الصدور فيما عدا جريدة الأحرار، التي التزمت بشروط اللعبة كما حددتها السلطة السياسية فضمن لها ذلك البقاء على الساحة.

وقد حاول الرئيس مبارك بعد توليه الحكم إحداث نوع من التصالح بين السلطة السياسية والمعارضة، وفي لقاء له مع الأمين العام لحزب التجمع أثيرت مسألة عودة الصحف الحزبية التي أوقفها الرئيس السادات إلى الظهور، وأعلن الرئيس مبارك موافقته على عودتها إلى الظهور بعد ٢٥ أبريل ١٩٨٢، وهو الموعد المحدد لانسحاب القوات الإسرائيلية من سيناء وحلول القوات متعددة الجنسيات محلها في بعض المواقع. ووافق الرئيس أيضا على تمتع الصحفيين الذين يعملون في صحف المعارضة بنفس المميزات التي يتمتع بها الصحفيون العاملون في صحيفة مايو الناطقة بلسان الحزب الوطني الحاكم.

ومنذ ذلك التاريخ شهدت الصحافة الحزبية في مصر نموا متزايدا على المستوى الكمي. فرغم انتهاء الثمانينات بوجود ثلاث صحف حزبية فقط فقد شهدت الفترة التي تقع ما بين عام ١٩٨٢ وعام ١٩٩٥ ظهور (٢٧) صحيفة صدرت عن أحزاب جديدة نشأت خلالها، أو أحزاب استمرت في الوجود منذ نشأة النظام الحزبي في مصر ما بعد الثورة (١٩٧٧) . وقد شكلت الصحف الحزبية الصادرة خلال هذه الفترة نسبة ١١٪ من إجمالي عدد الصحف التي صدرت في مصر، وشملت صحفا تنتمي إلى عدة أحزاب مثل حزب الأحرار والتجمع والوفد الجديد والوطني والأمة والاتحادي الديمقراطي والعمل ومصر العربي الاشتراكي والعدالة الاجتماعية والعربي الناصري والتكافل . كما شهدت هذه الفترة أيضا تحول عدد من صحف الأحزاب من الإصدار الأسبوعي إلى الإصدار اليومي مثل صحف الوفد والأحرار والعربي.

يمكن تسجيل ثلاث سمات أولية تجمع بين الصحف الحزبية في مصر:

١- **تفاوت الإمكانيات:** فالصحف الحزبية تتفاوت فيما بينها من حيث حجم

الإمكانيات المتوافرة لها، فهى تبدأ من أقصى اليمين عند صحيفة الوفد التى صدرت كجريدة يومية بعد فترة قصيرة من صدورها الأسبوعى واستطاعت أن تكون لنفسها مساحة خاصة فى السوق الصحفية بمصر، وتنتهى عند أقصى اليسار عند صحيفة الأمة التى تصدر كلما توافر لدى حزب الأمة مبلغ يسمح بإصدار عدد.

٢- التنوع علي مستوي الخطاب المقدم:

فإذا كان التنوع ظاهرة ذات صفة مهنية بالنسبة للصحافة القومية، فإن التنوع فى الصحف الحزبية يتبلور بشكل أساسى على مستوى الخطاب الصحفى المقدم والذى يعكس غطاء أيديولوجيا يختلف من حزب إلى حزب كما يختلف فى درجة قربه أو بعده عن الخطاب الحكومى كما ينعكس فى الصحافة القومية.

٣- الانغلاق علي فكرة الجريدة فى العمل الصحفى:

وهى مسألة ترتبط بضعف الإمكانيات المادية والبشرية بالمؤسسات الصحفية الحزبية، الأمر الذى يدفعها إلى الاكتفاء بإصدار جريدة أسبوعية أو جريدة يومية فى أفضل التقديرات، وإذا زادت إمكانيات الحزب فإنه يسعى فى اتجاه إصدار عدد من الصحف الإقليمية الضعيفة، وفى مقابل ذلك لا تتجه الأحزاب المصرية، بما فيها الحزب الوطنى، إلى إصدار مجلات عامة أو متخصصة. وهناك استثناءات محدودة على هذه القاعدة مثل بعض الإصدارات المتخصصة التى تخرج عن حزب التجمع.

٤- تفوق دور الصحيفة الحزبية علي دور الحزب ذاته: ففى ظل وضع مجموعة من القيود على الممارسة السياسية والحزبية فى مصر، مثل التضييق على الأحزاب فى الاجتماعات وإقامة الندوات والمؤتمرات، وكذلك حرمانها من التعبير الإعلامى فى الراديو والتليفزيون، فى ظل هذه العوامل تفوق دور الصحيفة كأداة مبلورة للحزب السياسى. وتعد هذه الظاهرة قديمة فى الحياة الحزبية فى مصر، والتى تتمثل فى بلورة الحزب حول صحيفة تعبر عنه وتخلق جسور صلة بينه وبين الجمهور، حيث تعود بجذورها إلى التجربة الحزبية الأولى (١٩٠٧ - ١٩١٤) فى مصر. ولا خلاف على أن هذا الأمر يعكس ضعف الدور الذى تقوم به الأحزاب فى مجال التربية السياسية ودعم المشاركة الجماهيرية فى العمل السياسى. فالجمهور يعرف الصحيفة الحزبية أكثر مما يعرف الحزب ذاته. وكثيراً ما يسمى البسطاء من الناس الأحزاب بأسماء الصحف التى تصدر عنها (فى حالة اختلاف الاسمين). فالحزب يكتسب وجوده فى الشارع السياسى من مجرد صدور صحيفة معبرة عنه، ولكن هذا الأمر لايعنى قدرة الصحيفة الحزبية على اتخاذ مواقف مفارقة أو مخالفة لتوجهات الحزب. فالتدخل من جانب رئيس الحزب وارد بصورة كبيرة (ورئيس الحزب غالبا ما يشغل منصب رئيس مجلس إدارة الصحيفة) على أساس النص القانونى على المسئولية المشتركة لرئيس الحزب ورئيس التحرير عما ينشر فى صحيفة

الحزب، وعند الاختلاف كثيرا ما يتم ترجيح وجهة نظر رئيس الحزب.

ويمثل المضمون الصحفى الذى تتناوله الصحف الحزبية نوعا من الاستجابة للخطاب السياسي الحكومى . كما يعبر عنه فى الخطاب الصحفى، وإن اختلفت تلك الصحف فى درجة اقترابها أو ابتعادها عن معطيات هذا الخطاب، وبالتالى فإن الخطاب الذى يحمله المضمون الصحفى الحزبى يمكن أن يفسر فى إطار علاقات «التناص» فيما بينه وبين الخطاب الذى يحمله المضمون الصحفى الحكومى. ويتحقق هذا الأمر بصورة واضحة وجلية داخل الصحف الحزبية التى تمتلك رؤية واضحة فى العمل الحزبى أو تحديدا واضح المعالم للسياسة التحريرية، مثل صحف الوفد والأهالى والعربى والشعب، حيث يدخل الخطاب فى علاقات تشابك أو اشتباك مع الخطاب الحكومى.

كما أنه من الواجب ألا نغفل أيضا الدور الذى يلعبه رئيس تحرير الصحيفة الحزبية فى الصياغة التنفيذية لرؤية الحزب لفعاليات الحركة فى المجالات المختلفة داخل المجتمع . فرئيس التحرير يبلور الرؤية عمليا بنوع من الاجتهاد الذاتى الأمر الذى قد يدخله فى نوع من الصراع مع أمانة الحزب أو مجلس إدارة الصحيفة. وتحدد مساحة الاجتهاد المسموح به فى هذه الحالة طبقا للوزن والثقل السياسى والدور الذى يلعبه رئيس التحرير داخل الحزب .

فى هذا الإطار نجد أن المضامين والمعالجات التى تقدمها صحيفة الوفد – على سبيل المثال – تتقارب مع مقولات وأطروحات الخطاب الحكومى فيما يتعلق بقضايا السياسة الخارجية ، كما أن اتجاه الدولة نحو الخصخصة وتشجيع الاستثمارات الخاصة فى كافة المجالات يخلق نوعا من «التناص» بين ما تقدمه الوفد وما يقدمه الخطاب الحكومى فيما يتعلق بعدد من القضايا الداخلية . وتبدأ خطوط المعالجة فى المفارقة بشكل أساسى فيما يتعلق بقضية الأداء الحكومى حيث تتبنى الصحيفة فى هذا الصدد رؤية تعتمد على انتقاد هذا الأداء والتشكيك فى درجة كفاءة الأجهزة المسئولة عنه، سواء تمثلت فى وزارات أو أجهزة حكم محلى أو بنوك أو بصفة عامة ما يتعلق بأداء حكومة الحزب الوطنى تحديدا . وفى هذا الإطار نجد أن خطاب الوفد يعلى بشكل مستمر من قيمة «التحقيقات الصحفية» كأحد الأدوات الصحفية التى تعتمد على معالجة وتحليل المشكلات اليومية التى تتسبب فيها أجهزة الدولة.

وبالنظر إلى طبيعة المضامين والمعالجات التى تقدمها صحيفة «الشعب» والتى أصبحت فى السنوات الأخيرة معبرة عن تيار إسلامى معين تحالف حزب العمل معه، نجد حالة تناص لا تعتمد على الاتفاق مع الخطاب الحكومى بل تعتمد بشكل أساسى على المفارقة سواء فيما يتعلق بالعديد من القضايا الداخلية أو الخارجية. والمعالجة هنا لا تعتمد فى حالة المفارقة كما هو الحال فى صحيفة الوفد على انتقاد أداء حكومة الحزب الوطنى، بل على رد الحالة المصرية ككل إلى المقولات والأطروحات التى يقدمها النص الدينى فى

إطار فقه جماعة معينة، وهو يحكم على هذه الحالة - ولا نريد أن نقول يحاكمها- في إطار معطيات هذا النص ويقيس درجة اقترابه أو ابتعاده عنها، ولأن هذا الخطاب يعتمد على إعلاء قيمة عنصر الصراع بدرجة كبيرة، فإنه يدفع باستمرار إلى بناء حملات صحفية من حين إلى آخر (حملة يوسف والي - حملة رواية «وليمة لأعشاب البحر» لحيدر حيدر على سبيل المثال) . كما يعتمد على صياغات لغوية فاعلة على المستوى الانفعالي والوجداني لدى القراء لأنه باستمرار يهدف إلى حشد وتعبئة الجمهور لتفعيل دوره كطرف مشارك في الصراع مع الدولة.

ويختلف الأمر داخل صحيفة «العربي» وبشكل أكثر حدة داخل صحيفة «الأهالي» فالمعالجات والمضامين التي تقدم من خلال هاتين الصحيفتين تعتمد على «التناص» القائم على المفارقة (الحادة أحيانا) لمقولات وأطروحات الخطاب السياسي الحكومي على المستويين الداخلي والخارجي. ويستند هذا الخطاب دائما إلى تفنيد ودحض مفردات ومقولات خطاب الحكومة، انطلاقا من الرؤية الخاصة والمتبلورة للحزب والتي تختلف عن معطيات الرؤية التي تقدمها الحكومة سواء فيما يتعلق بإدارة الشئون الداخلية أو الشئون الخارجية. فالمعالجات والمضامين الصحفية التي تقدمها كل من صحيفتي العربي والأهالي على «عقائدية» حزبية معينة تحكم النظر والتقييم والتحليل للأحداث، لذا نجد الخطاب هنا يعتمد على التفنيد المحكوم برؤية مستندا في ذلك إلى آليات الانتقاء الخبري والمقالات التحليلية والنقدية والتقارير الصحفية. ويؤثر فهم رئيس التحرير للمعطيات الأيديولوجية التي يقوم عليها الخطاب الحزبي في تحديد درجة حدة أو شدة الاتجاه النقدي والتفنيدي داخل الخطاب الصحفي (حالة حسين عبد الرازق على سبيل المثال أثناء رئاسته لتحرير صحيفة الأهالي).

مستقبل الصحافة الحزبية

استطاعت الصحافة الحزبية أن تشكل وثيقة عملية لحالة التعددية التي سمحت بها السلطة السياسية على المستوى الصحفي في مقابل حالة الأحادية التي تميز التعبير الإعلامي الإذاعي بشقيه. وربما كان المنطق الذي حكم وجهة نظر الدولة في إعطاء مساحة حركة أعلى للصحافة هو رهانها على أن الصحيفة لم تعد تتمتع بذات الأرضية الجماهيرية التي يتمتع بها الراديو والتليفزيون وبالتالي فتأثيرها مقارنة بهذه الوسائل يعد محدودا . فالضرر الذي يمكن أن يلحق بالنظام السياسي من جراء الانتقادات التي تحملها وجهات النظر المعارضة التي تنشر في الصحف الحزبية أو الصحف المملوكة لشركات مساهمة هو ضرر محدود للغاية ، بل إن درجة النفع هنا تفوق درجة الضرر على أساس أن هامش الحرية الممنوح للصحافة يعد أحد المبررات التي تساق بشكل مستمر على ديمقراطية النظام السياسي.

وفي حالة قبول فرض أن ذلك هو التصور الذي يحكم رؤية الدولة لموقع الصحف الحزبية على خريطة التأثير الإعلامي، فإنه يمكننا القول بخطأ هذا الفرض. فالصحف الحزبية تلعب دورا مهما في توجيه الرأي العام، ومن المتوقع

أن يزداد هذا الدور مستقبلا، خصوصا فى ظل المنافسة التى تأتيها من البرامج الحوارية فى القنوات التليفزيونية الأرضية والفضائية والتى تعتمد على معادلة التعددية. وقد أثبتت الأزمة الأخيرة التى نشبت بسبب رواية «وليمة لأعشاب البحر» الدور الذى مازالت بعض الصحف الحزبية تلعبه فى توجيه وتحريك بعض فئات الجمهور فى حدود شديدة التطرف.

ومن المؤكد أن رهانات المستقبل بالنسبة للصحف الحزبية ترتبط بقدرتها على حل العديد من المشكلات التى تواجهها سواء جاء الحل متمثلا فى تغير منظومة الظروف الخارجية الضاغطة عليها أو فى قدرتها الخاصة على مواجهة مشاكلها الذاتية. وفى هذا الإطار يرتبط مستقبل الصحافة الحزبية بمقابلة العديد من التحديات أبرزها ما يلى:

١- الاعتماد على تكنولوجيا الإنتاج الرخيصة ممثلة فى الحاسبات الآلية وبرامجها مع تفعيل أساليب استخدام هذه التكنولوجيا، وتوظيفها بشكل يفوق استخدام الصحف القومية لها. ولعل أحد المؤشرات المهمة الدالة على ذلك هو اتجاه العديد من الصحف الحزبية منذ فترة مبكرة إلى إنشاء صفحات ويب على شبكة الانترنت قبل إقدام العديد من الصحف القومية على ذلك والمثال الواضح على ذلك يتمثل فى جريدة «الشعب» الناطقة بلسان حزب العمل.

٢- تطوير أجندة موضوعات وأساليب المعالجة الصحفية داخل الصحف الحزبية بما يساعدها على الوقوف فى وجه المنافسة التي تأتيها من روافد عديدة، أبرزها الصحف الخاصة والتى استطاعت تطوير معادلات صحفية جديدة تعتمد على نمط معالجات وأجندة موضوعات تراهن على الغائب فى النصين الصحفى القومى والحزبى، وبالتالى فقد استطاعت أن تجتذب قطاعا من القراء في السوق الصحفية المصرية على حساب الصحف القومية والحزبية.

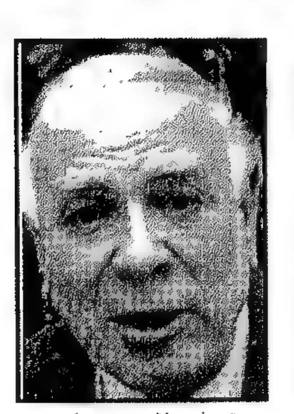
٣- الاتجاه نحو درجة أكبر من التعددية فى عرض وجهات النظر المختلفة عند معالجة الموضوعات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية المختلفة، وزيادة مساحة الاختلاف مع الخط العام للدولة من خلال تجديد المبادئ الأساسية لبرامج الأحزاب كما تعكسها المواد الصحفية الناطقة باسمها.

٤- إذا كان الاتجاه نحو إنشاء المزيد من الصحف المتخصصة يعد ظاهرة حالية ومستقبلية بالنسبة للصحف القومية ، فإن الاتجاه نحو إنشاء المزيد من الصحف المحلية يعد اتجاها سائدا لدى الأحزاب خلال الفترة ٨٢ - ٩٥ ، وسيتزايد هذا الاتجاه خلال العقدين القادمين، ولاشك أن هذا الاتجاه يؤكد سعى الأحزاب السياسية - المعارضة - فى مصر إلى التأثير فى قطاعات الجماهير بمناطق الجمهورية المختلفة بشكل مكثف ومركز، لتعويض عدم قدرتها على مخاطبة هذه الجماهير من خلال جهازى الإذاعة والتليفزيون، المملوكين للدولة بالإضافة إلى عدم قدرتها على طباعة صحفها بالعدد وكذلك توزيعها بالشكل الذى يغطى كافة أنحاء الجمهورية.

صحافة الفرص الضائعة

محمود المراغى


محمود المراغى


ضياء الدين داوود

هل كانت الصحف الحزبية فى مصر، والتى مضى على تجربتها أكثر من عشرين عاما هى تجربة الفرص الضائعة ؟. كثيرا ما راودنى هذا السؤال بعد أن عشت تجربتين فى رئاسة تحرير «الأهالى» .. صحيفة حزب التجمع، و«العربى» صحيفة الحزب الناصرى .

لقد شغلتنى قضية الصحافة منذ فترة بعيدة وكان الهاجس دائما : أى قدر من الحرية يمكن أن تحققها الصحافة المصرية ؟ .. هل تحققها الصحافة المملوكة ملكية عامة بعد أن تتحرر من سلطة الدولة وتصبح - كما أشار الدستور -سلطة مستقلة ؟ .. هل يحققها كما يقول البعض : خصخصة الصحافة والإعلام ؟ .. هل يحققها حل وسط يجمع بين الحلين .. عام وخاص ؟.

وأقـول صـراحـة إننى لم أكن متحمسا لفكرة التراجع عن الملكية العامة للصحف، وكنت أحس من خلال موقع نقابى شغلته عدة مرات أن عموم الصحفيين لايتحمسون لفكرة الخصخصة فى الصحافة القومية .. البعض منهم بسبب مصالح ذاتية فهذه الصحف أكثر أمنا من الناحية الاقتصادية، والبعض منهم إيمانا بفكرة أن الصحافة القومية رغم أى سلبيات فيها سوف تعبر فى لحظة ما عن الصالح العام وعن عموم المجتمع وأنها غير خاضعة لسلطة رأس المال.

وكنت من الفريق الأخير، لكنى كنت أؤمن بفكرة أخرى وهى تغيير التوازن بين العام والخاص .. فإذا كانت الصحف القومية تضم الصحف الأوسع انتشارا كالأهرام والأخبار فإن نمو القطاع الخاص «حزبيا ومستقلا» يمكن أن يحتل مع الزمن نسبة مئوية أعلى فى القراءة.

كانت نسبة القراءة فى السبعينات تقترب من المائة فى المائة لصالح الصحف القومية، وقلت : إذا تغيرت النسبة لتصبح «٧٠٪» لصالح الصحف القومية «بحكم تاريخها وإمكاناتها الواسعة» و«٣٠٪» لصالح الصحف الأخرى فإن درجة أعلى من حرية الصحافة تكون قد تحققت .

الآن ، أجدنى محبطا، فالهدف لم يتحقق رغم زيادة عدد الصحف وامتلاء


مكرم محمد أحمد — كامل زهيرى

الأرصفة بالغث والثمين.. الحزبى والمستقل .. المصرى والقبرصى واللندنى، ولنبدأ القصة من أولها .

ميلاد صحيفة

كنت عضوا مؤسسا فى حزب التجمع منذ نشأته عام ١٩٧٦، وكنت أحد ممثلى الجناح الناصرى، وكانت الصحيفة هدفا غاليا فهى وسيلة الاتصال بالرأى العام.. فى وقت اشتد فيه الحصار حول الأحزاب، ومنذ نشأتها تقريبا .

كانت نقطة البحث الأولى هى إسم المولود الجديد، وجاءتنا اقتراحات كثيرة «الانتفاضة ـ المقاومة ـ اليسار ـ الاشتراكى ـ النضال ـ الرأى الآخر » ثم استقر الرأى على اقتراح تقدم به الكاتب الكبير الأستاذ محمد عودة وهو «الأهالى» كان الاسم بسيطا وموحيا ولايحمل نبرة تشنج، وكان اسما قادرا على أن يستمر مع القارىء بصرف النظر عن تغير طبيعة المرحلة فلم يكن متصورا أن يصل حزب التجمع للحكم «على سبيل الافتراض» وصحيفته تبدو

كنغمة معارضة بشكل حاد .. وكان الاسم مستعارا من صحيفة صدرت فى العشرينات ثم توقفت.

وكانت نقطة البحث الثانية : اقتصاديات الصحيفة، وقال لنا أحد خبراء إدارة الصحف: «يلزمكم مليون جنيه» ولم يكن لدينا مليون قرش ... ورحت بخبرتى الاقتصادية المتواضعة أعد دراسة صغيرة للايرادات والمصروفات المتوقعة وعدت للأمانة العامة للحزب باقتراح يقول: نستطيع البدء بمبلغ متواضع هو «١٤ ألف جنيه» وهو مايكفى لإصدار جريدة أسبوعية لمدة خمسة أو ستة أعداد .. وحينذاك تبدأ الايرادات في التدفق.

وأخذت الأمانة العامة بما اقترحته وصدرت الصحيفة بهذه الامكانات المتواضعة، والتى اكتشفت ثغرتها فيما بعد فالمبلغ المتاح لم يكن يوفر شراء مطابع .. والمطابع الكبرى التى تنتج حجم الصحيفة حكرا على الصحف القومية، والصحيفة التى تعاقدنا معها حينذاك كانت ترسل الأعداد للمباحث العامة قبل الطبع مما أدى لمصادرة الأهالى قبل الصدور عدة مرات .. وعندما أعيتنا الحيلة طبعنا عددا وثائقيا لايحمل كلمة من جانبنا لكنها مضبطة مجلس الشعب في الجلسة التى ناقشت معاهدة الصلح مع إسرائيل.. و.. على ما أذكر ، تمت مصادرة العدد أيضاء وكانت المحكمة جاهزة فى كل الأحوال وعند الفجر .

أعود للبداية كان الحلم : تجربة صحفية سياسية جيدة .. ومن ثم فقد رفعت ومنذ اليوم الأول شعار «المعارضة بالمعلومات» فالصوت العالى وحده لايكفى، وأثره مؤقت فى كل الأحوال .. وكنت أقول إن الصوت العالى عند البعض «ديماجوجية» ومن ثم فإن النغمة الصحيحة هى النغمة الهادئة التى تدحض الرأى بالرأى، وتكشف سلبيات الواقع الذى نعارضه .. وكنت أردد أن الصوت العالى يفقد أثره إذا كان إيقاعا مستمرا فهو يتحول حينذاك إلى ضوضاء.. ولكن عندما نستخدم الصوت العالى عندما يكون هناك حدث نريد استثارة الرأى العام بشأنه فإنه يؤتى أثره أى أن الصوت العالى استثناء على قاعدة، وإن كان ذلك لايخل بآرائنا المعارضة لما يجرى وانحيازنا لفكر ثورة يوليو فى الاستقلال والعدل الاجتماعى، والفقراء والعروبة ، مضافا له ماصنعته التجربة من أهمية تداول السلطة واثراء الحياة الديمقراطية .

من هذا المنطلق كنت معنيا بالمعلومات وتدقيقها حتى أننى أذكر أن اعتذارات قد نشرت لخطأ فى معلومة تاريخية وردت بالصحيفة .. وكان القصد هو اعطاء مصداقية للصحيفة .

ولكن .. مابين الأهداف والنتائج تكون دائما المسافة التى يجب أن نقطعها .

فى هذه المسافة كانت هناك شئون

البيت وشئون الحكم، وهما علاقتان أساسيتان فى الصحيفة الحزبية .. وفى الجانب الأول، شئون البيت، كثيرا ماتوقفنا عند تقنين العلاقة بين الحزب والصحيفة .. وكيف تعبر الصحيفة عن الحزب دون أن تغرق فى دهاليزه ودون أن تكون تابعة تبعية كاملة.

لكن القضية لم تكن لائحية، فالحزب بعد ضربة ١٨ و١٩ يناير واعتقال الكثير من عناصره وانحسار عضويته لم تكن لديه غير الصحيفة أداة اتصال رائجة بالرأى العام .. لذا كان هم كل اعضائه وشاغل اجتماعاتهم صحيفة الأهالى، يناقشونها فى أسوان والاسكندرية والدقهلية وكل حى وكل حارة.

ولم يكن النقاش دائما لوجه الله فالحزب كان منقسما «دون أن نقول» لماركسيين وناصريين وكان للفريق الأول الغلبة فى المواقع القيادية ومن ثم كان يرى أن من حقه السيطرة على قيادة الصحيفة، ولم يكن مرتاحا لوجود شخصية ناصرية على رأس الجريدة رغم علاقاتى الطيبة بمعظم أفراد هذا التيار .

كنت قد تسلمت الصحيفة من صديق عزيز هو الأستاذ حسين عبد الرازق، وكان قد أنجز مهمة صعبة وحقق أرقاما فى التوزيع بلغت أو ربما تخطت المائة وخمسين ألف نسخة، وهى أرقام جيدة بكل مقياس .. وكانت نغمة الصحيفة حينذاك أكثر حدة، فلما حدث


محمد فائق


حامد محمود

التغيير باتت أقل حدة، وإن كنت أظن أنها ليست أقل معارضة .

.. وحدث التكتل ضدى داخل الحزب، وباتت لهجة الصحيفة هى موضوع حديث الأمانة العامة واللجنة المركزية، ولم يكن يقنع القاعة غير الصوت العالى فى كل الأحوال كان لنا موقف ثابت فى قضايا التعذيب، وجاءتنا واقعة تعذيب لكاتب وصحفى مشهور هو د. محمد السيد سعيد، ونصحنى نقيب الصحفيين حينذاك الأستاذ مكرم محمد أحمد بأن أرجىء النشر عددا واحدا لأن النشر سوف يفوت عليه فرصة التدخل لانقاذ الرجل وأخذت بنصحيته من أجل الرجل،

ونجحت مساعيه ولكن بقى الحساب الحزبى عسيرا: لماذا لم تنشر فورا؟ وأحسست حينذاك أن مافى الصدور من غضب قد لاتعبر عنه بالفعل غير صحافة ذات لهجة حادة .

وهكذا كانت تتعدد المواقف ويضيع معظم الوقت فى سجال حزبى امتد لداخل الصحيفة حيث أن معظم المحررين والمراسلين أعضاء حزبيون.

وانتهت التجربة بعد عامين ٨٧-٨٩ باستقالتى على أثر تدخل حزبى فج قام به رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير المشارك الذى أقال أحد المحررين بالتليفون فتركت استقالتى على المكتب مع مفتاح الأدراج وحدثت الصحيفة تليفونيا: «لقد انتهت مهمتى».

تجربة رقم ٢

كانت التجربة الثانية هى رئاسة تحرير أو بالأحرى تأسيس جريدة العربى الناطقة بلسان الحزب الناصرى الذى جاء ميلاده بحكم قضائى .

كان مقررا أن يرأس التحرير الكاتب الكبير الأستاذ كامل زهيرى، وكنت أضع خبرتى تحت أمره لمجرد العون وحماسا لتجربة صحفية وناصرية جديدة .. ولكن، بسبب أو لآخر، اعتذر كامل زهيرى عن المهمة ووجدتنى تاركا منصبى فى جريدة «العالم اليوم» وفى «روز اليوسف» لأتفرغ لتأسيس جريدة .

كنت أتصور حينذاك أن التجربة أكثر يسرا فبينها وبين الأهالى نقطتا تميز، الأولى أنها تعبير عن تيار واحد متجانس هو التيار الناصرى .. والثانية أنها تبدأ من الصفر، ومن ثم فإن تشكيلها وفق مانريد أمر سهل.

ولم يكن ظنى صائبا فى الحالتين، وكانت المهمة صعبة تبدأ بالبحث عن تمويل، البحث عن مقر، البحث عن هيئة تحرير .. والأهم هو البحث عن قارىء فهذه صحيفة أصر أصحابها أن يطلقوا عليها اسما مكررا هو «العربى» تميزا لهويتها وانتمائها ، وكان الحماس حينئذ شديدا فاستطاعت التبرعات أن توفر مقرا «فيللا مستقلة فى حى السيدة زينب» واستطاعت أن توفر تجهيزا آليا «وحدة كمبيوتر» وحين وصلنا لهيئة التحرير فتحنا الباب على مصراعيه لكل من يريد بصرف النظر عن هويته الحزبية، ثم أحكمنا الدخول باختيار عناصر بلغت نحو الأربعين محررا وبأجور مميزة فقد كنت أقول: نريد أن نعامل الصحفيين معاملة كريمة تغنيهم عن سؤال الصحف العربية ومكاتبها فى القاهرة فلندفع أجرا أفضل «وفقا للخبرة وسنة التخرج» ونأخذ كل الجهد .. وكانت هذه سابقة بالنسبة لصحف المعارضة التى دائما مادفعت القليل .

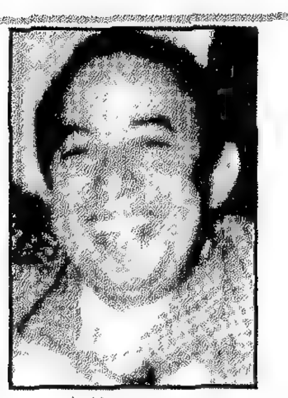
جرى إصدار العدد الأول «٥ يوليو ٩٣» على استعجال فقد كان الحزب مصرا على أن تصدر الصحيفة فى

يوليو، وقمت بتقديم العدد الأول على النحو التالى «المانشيت : الحزب الناصرى يعترض على مبايعة مبارك» وفى التفاصيل والتى جرى ذكرها بشكل تقرير «الناصرى : ندعو إلى انتخاب رئيس الجمهورية بين أكثر من مرشح» وهكذا كانت المعارضة واضحة وتنصب على المبدأ وليست على الشخص .

فى العدد نفسه قمت بكتابة مايمكن تسميته «دستور الصحيفة» مقال افتتاحى تحت عنوان «لهذا نعارض» .

وكان من كلماته :

«لانخترع جديدا حين نقول : نعم .. نحن نعارض مايجرى فالغالبية العظمى على أرض مصر تضيق بما يحدث وتستنكر مايتم وضعه من سياسات، لكن تلك الأغلبية تلوذ بالصمت بعد أن بات تداول السلطة نكتة وإبداء الرأى لعبة تلهو بها الأحزاب والصحف .. نعارض وأمامنا تقرير من البنك الدولى يقول إن ربع سكان مصر يعيشون تحت خط الفقر وأن ٧ ملايين فرد لايزيد دخل كل منهم على مايساوى دولارا فى اليوم» .. واستطردت الافتتاحية تذكر مبررات المعارضة لسياسات أدت للتضخم «حينذاك» والبطالة وسوء توزيع الدخل والخدمات .. وانتهت بقولها «هذه صحيفة للمستقبل وليست للماضى .. جريدة للعصر وليست لكل عصر .. نأخذ من الماضى قيمه الوطنية


حسين عبدالرازق


عبدالله السناوى

والإنسانية العالية : العدل والحرية والكرامة والوطنية والقومية .. ونمد للمستقبل خيوطا تضع نسيجا جديدا لحياة أفضل .. ذخيرتنا «أن نعرف» وخطتنا «أن نقتحم» من أعدائنا الفساد والمفسدين ومن أهدافنا مكان لكل مواطن فى دائرة اتخاذ القرار .. الحكم للجميع وليس لمن يظنون أنهم وحدهم الأكثر علما وإخلاصا ونفعا» .

كانت نصيحة شركة التوزيع أن نطبع مائة ألف نسخة «وهو بمقياس صحف المعارضة فى التسعينات رقم مرتفع للغاية» ونفذنا النصيحة وجاءت أرقام توزيع الأهرام لتقول إننا اقتربنا من «٩٥» ألف .

ثم مضت التجربة وأنا قابض على الهدف، صحيفة حوارية وليست جامدة .. صحيفة لكل القوى الوطنية وليست للناصريين وحدهم .. صحيفة تؤمن بالتوثيق والخبر الصحيح والرقم الشافى والمعبر .. إنها المعارضة بالمعلومات والتى جعلتنى أنشىء بابا أو سلسلة تحمل اسم «حديث الوثائق» قمت فيها بتقديم ما أتيح لى من وثائق سرية عن مصر وإن كانت صادرة عن جهات أجنبية .

وكما وصف الزميل حسين عبد الرازق فى كتابه الموسوعى عن الأهالى أنها جريدة تحت الحصار، فقد جاءت «العربى» بالوصف نفسه .

كنت اسعى للمعارضة بالمعلومات، لكن قنوات المعلومات مغلقة ورئاسة الوزراء ووزارة الخارجية لم تسمح بوجود مندوب للصحيفة لديها إلا بعد إلحاح دام عدة سنوات، أما المصادر فهى خائفة .. كيف تتحدث لصحيفة تعارض الحكومة؟

حصار فى الداخل والخارج

وامتد الحصار من المصادر والمعلومات لاقتصاديات الصحيفة، فالمعروف أن الجزء الأكبر من تمويل الصحيفة يعتمد على الإعلان لكن حظ العربى فى الإعلان كان عثرا .. فالقطاع الخاص يرى أننا نرفضه «وهو أمر غير صحيح» والقطاع العام لديه توجيه بألا يعطى .. ومن ثم بات المعلنون لدينا هم المغامرون والمخاطرون والراغبون فى المساندة .. ولم يكن ذلك كافيا لتمويل الصحيفة التى اعتمدت على الحزب ثم عجز الحزب عن مواصلة ذلك فبات ضروريا البحث عن حل «فى عام ٢٠٠٠ عدل الحزب عن الإصدار اليومى وعاد للإصدار الأسبوعى فقط وهو ما كنا قد بدأنا به» .

ومن حصار الخارج إلى حصار الداخل ، فسرعان ماتشكل داخل الحزب تكتلات باتت تطالب بالسلطة .. ليس فى الحزب «فهى موجودة فى القيادة» ولكن فى الصحيفة .

وامتد الصراع من داخل الحزب إلى داخل الصحيفة وترددت دعوى فى المحافظات بين أبناء الحزب بمقاطعة الصحيفة .. وكانت الحجة أيضا أن الصحيفة ليست كما نريد فلما تسألهم و«ماذا تريدون ولماذا لاتكتبون» يصمتون.

كان المناخ الحزبى غير صحى، وكنت أكثر وعيا بفكرة استقلال الصحيفة عن الحزب وأيدنى فى ذلك رؤساء مجالس الإدارة على التوالى الأستاذ ضياء الدين داود والذى تولى رئاسة المجلس فى بدايته وفى نهايته «حاليا» والأستاذان : محمد فائق وحامد محمود .

ولم تكن القضية هنا أيضا لائحية فهناك لائحة تنظم العلاقة وتجعل الرابطة سياسية أكثر منها تنظيمية ووظيفية، ولم أكن فى الواقع أعود

للحزب إلا فى المسائل الكبرى والتى تتعلق بعلاقته بالنظام بشكل أساسى ولم يكن رؤساء المؤسسة الثلاثة على التوالى يتدخلون فى العمل اليومى وكانت المنازعات الحزبية حول قيام أو تقصير الجريدة عن ذكر النشاط الحزبى، وأفراده وأدوارهم .. ولم يكن النزاع حول خطوط سياسية أساسية .

عارضت الصحيفة قانون العلاقة بين المالك الزراعى والمستأجر، وعارضت بيع القطاع العام «وكان الحزب مع آخرين قد أقام دعوى قضائية ببطلان البيع» وعارضت الصحيفة العلاقة الخاصة مع الولايات المتحدة الأمريكية وصندوق النقد والبنك الدولى ودافعت عن فكرة العدل الاجتماعى ومجتمع الفقراء والمنتجين وانحازت للصناعة الوطنية، وللمصريين ضد الأجانب .. وباتت الصحيفة خلال أقل من عام محل احترام عند المثقفين والمشتغلين بالسياسة .

تراجع التوزيع

ثم بدأت الضربات ، مرة من داخل الحزب كما اسلفت ومرة من خارجه وعبر ظرف عام هو زيادة أسعار الصحف، كان التوزيع مرتفعا حين كان سعر الصحيفة خمسة وعشرين قرشا .. لكنه ومعه كل الأسبوعيات تراجع حين أصبح السعر أربعين ثم خمسين قرشا .. فقد أحس القارىء مع ارتفاع سعر الصحيفة أنه لايستطيع الاستغناء عن الوجبة اليومية فصحيفة الصباح هى رغيف الخبز فى مجال القراءة ومجال الصحافة، أما الصحافة الأسبوعية فهى قابلة للاستغناء.

وأظن أن هناك سببا آخر لتراجع توزيع الصحف الحزبية فى مصر فالأرقام الكبيرة التى حققتها الأهالى والوفد فى بداية إصدارهما ثم الرقم الكبير الذى حققته صحيفة العربى فى العام الأول .. كل ذلك كان مرتبطا بأمل سياسى عند القارىء، فالصحافة ليست للتنفيس لكنها أداة تغيير، وعندما يصبح حديث الصحف «كمن يؤذن فى مالطا» بلا ردود فعل، وبلا تفاعل فى المجتمع وعند اطراف السلطة.. عندما يحدث ذلك يتراجع الاهتمام بهذه الصحف .

لقد تحولت الأحزاب فى مصر وإلى حد كبير الى صحف، والصحف الى أداة تنفيس لا أداة تغيير .. ومن ثم تراجعت أهميتها عند القارىء رغم أثر محدود هنا أو هناك .

هل يعنى ذلك أن التجربة كلها سالبة؟

الجواب بالنفى.

الحصاد

لقد قضيت عامين فى جريدة الأهالى ونحو أربعة أعوام أو أقل قليلا فى جريدة «العربى» حتى عام ٩٧ وكنت على اتصال بالقضية من خلال مشاركتى فى المجلس الأعلى للصحافة واللجنة التى وضعت قانون الصحافة الأول ١٩٨١ وقانون الصحافة الأخير



عبدالحليم قنديل



عبدالله إمام

فى منتصف التسعينات وخلال كل ذلك يمكن القول :

١ - إن الصحافة الحزبية .. رغم كل الصعوبات التى صادفتها قد حركت الماء الساكن فباتت لها بدرجة أو أخرى كلمة مسموعة تؤثر عند متخذى القرار فى بعض الأحيان .. فالمسئول الكبير «وزيرا أو مديرا أو رئيسا للوزراء» تهمه صورته أمام الرأى العام وبصرف النظر عن معادلة «السلطة - الأحزاب» فهو يريد أن يكون بمنجاة عن النقد الشديد.

وقد عكست الحرية المتاحة لذى الصحف الحزبية نفسها على أداء الصحف القومية فباتت تتسابق فى بعض الأحيان على نقد المسئولين وإن كانت معارضة الصحف القومية غير جذرية فى معظم الأحيان.

أى أنه بات هناك مناخ صحفى مختلف بقدر ما .

٢ - لم يتحقق كثيرا توازن جديد بين الصحف القومية والحزبية .. احتلت الصحافة الحزبية مساحة ما، لكن السيادة مازالت للصحف القومية الأكثر قدرة اقتصاديا ومهنيا وبعلاقتها مع الدولة.

٣ - لم تتحقق معادلة استقلال الصحفى وهو ركن أساسى فى حرية الصحافة التي هى الآن: حرية المعلومات - وحرية الرأى، وحرية النشر.

لا يتحقق الاستقلال في الصحف القومية بحكم تبعيتها للدولة .. ولايتحقق الاستقلال للصحف الخاصة بحكم تبعيتها للأحزاب أو لرأس المال الخاص .

معادلة «من يملك يحكم» معادلة صحيحة واستقلال الصحفى بات نوعا من «فن الممكن» وليس آلية سائدة .

٣ - لعب المناخ التشريعى وهجمة «٩٥ -٩٦» بتشديد العقوبات على الصحفيين دورا سالبا وكان انتباه الجميع أن الصحفى ليس فوق المساءلة وأن قاضى ابتدائى يمكن أن يسجنه .. كانت لهذه اليقظة التى أحدثها القانون أثرها على الصحفيين دون شك وإن كان هناك تسليم بأن جرائم النشر

واحترام الجمهور وحق المواطن والخصوصية مسائل لايمكن التجاوز عنها .

٤ ـ استطاعت جريدة «الأهالى» أن تحقق لفترات طويلة التوازن الاقتصادى، وحاولنا فى «العربى» تحقيق بناء مؤسسى حقيقى .. لكننى لا أظن وفى الظروف الضاغطة على جميع الصحف الحزبية أن فكرة «المؤسسة» قد تحققت دائما فى هذه الصحف .. لافى العلاقات الداخلية ولا فى التنظيم الإدارى، ولا فى التخطيط للمستقبل .

كل الصحف الحزبية تحت الحصار، والسبب اقتصادى وسياسى .. والسياسة فى بلادنا تصنع الاقتصاد والجودة المهنية تحققها امكانات مادية ، والحل فى صحافة مصر التى سبقت كل الصحافة العربية وزاد عمرها عن قرن ونصف القرن.. الحل سياسى واقتصادى ومهنى .. لا أعفى من ذلك الحكومة أو المعارضة .. المناخ العام الذى تعمل فيه الأحزاب أو العلاقة الخاصة المتصلة بالصحف.

إننى أتصور أن تكون الأحزاب وصحفها بيوت خبرة سياسية واقتصادية ومراكز فكر تقدم البدائل لسيرة المجتمع .. ولم يحدث، وأتصور أن تتطور الصحف الحزبية لتكون أكثر تقدما من الناحية المهنية وأكثر كفاءة فى تدقيق الأخبار والمعلومات، فالمعارضة وحدها، وبعد نحو ربع قرن من من التعددية، لم تعد بضاعة كافية لترويج الصحيفة .. فالصحيفة لابد أن تكون أولا «صحيفة» وهو ماحدث لـ «العربى» بعد نكسة إصابتها فعادت أرقام التوزيع للارتفاع بعد تحسينات مهنية وسياسية، وتولى اثنان من الزملاء الشباب هما: عبد الله السنارى وعبد الحليم قنديل رئاسة التحرير.

وأتصور أن يتسع صدر الحكومات المتعاقبة، وأن تترجم ـ مثلا ـ ماجاء فى قانون الصحافة عن حرية المعلومات الى واقع .

وأتصور أن يأتى الوقت الذى يؤمن فيه الجميع، أحزابا وحكومات بالديمقراطية وأن تتسع الصدور للرأى والرأى الآخر .. وألا يكون الرأى الآخر «رجسا من عمل الشيطان فاجتنبوه» .

أحوال الوطن تحتاج فكر المثقفين، وليس أفضل من الإعلام وسيلة لتداول الآراء والمعلومات والتفاعل بينها .

فى صحافتنا قومية وحزبية كثيرا مايغيب التفاعل، وتغيب فكرة المؤسسة «حتى فى الصحف القومية» ويضيع المستقبل الأفضل، فيبيت الأمر صياحا ويبيت الرأى ثرثرة، ويبيت توزيع الصحف بحكم العادة .

ألم أقل إننا أمام صحف الفرص الضائعة ؟

أظن ذلك.

هذه تجربتي كاملة

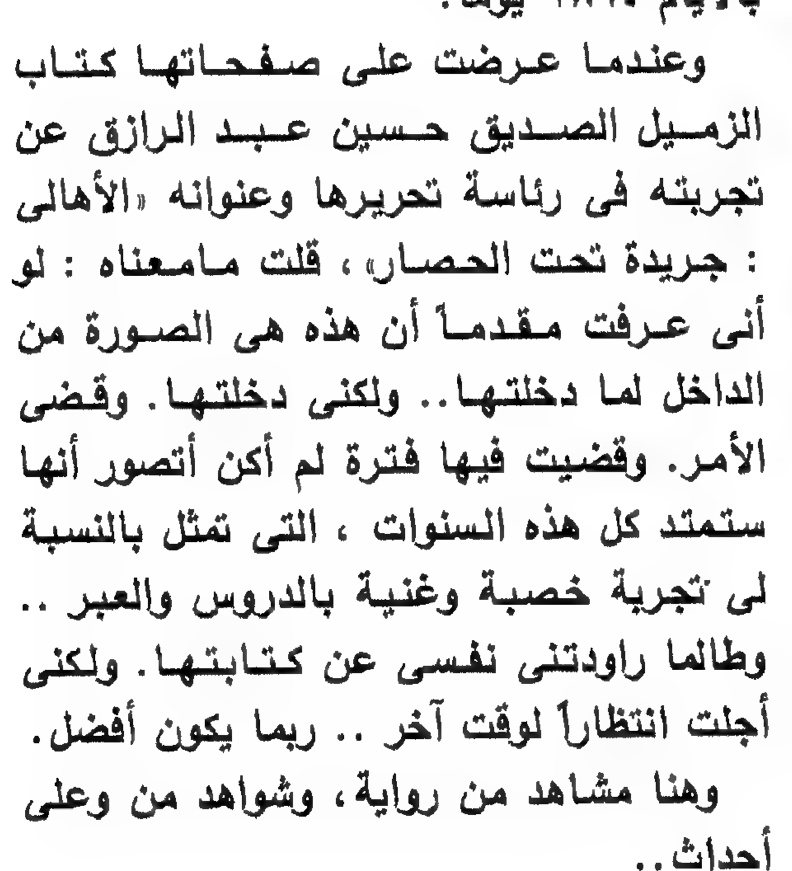
فى صحيفة «الأهالى»

بقلم : عبد العال الباقوري


عبد العال الباقورى


رفعت السعيد

دخلت و«الأهالى» فى ١٥ يونيو ١٩٩٣، وخرجت أو أخرجت منها ، سيان، فى ١٩ سبتمبر ١٩٩٨ ، أى قضيت فيها خمس سنوات، وثلاثة شهور وأربعة أيام، مجموعها بالأيام ١٨٩٤ يوماً.

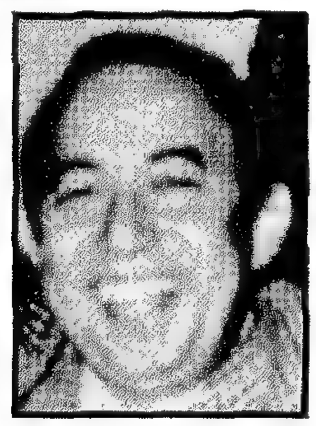


وعندما عرضت على صفحاتها كتاب الزميل الصديق حسين عبد الرازق عن تجربته فى رئاسة تحريرها وعنوانه «الأهالى : جريدة تحت الحصار» ، قلت مامعناه : لو أنى عرفت مقدماً أن هذه هى الصورة من الداخل لما دخلتها.. ولكنى دخلتها. وقضى الأمر. وقضيت فيها فترة لم أكن أتصور أنها ستمتد كل هذه السنوات ، التى تمثل بالنسبة لى تجربة خصبة وغنية بالدروس والعبر .. وطالما راودتنى نفسى عن كتابتها. ولكنى أجلت انتظاراً لوقت آخر .. ربما يكون أفضل.

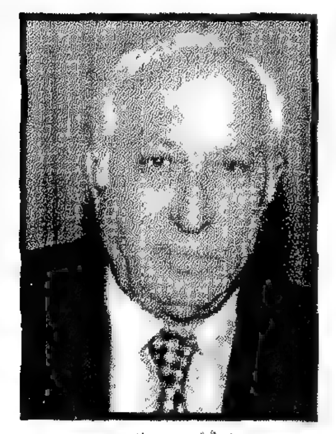
وهنا مشاهد من رواية، وشواهد من وعلى أحداث..

بداية

فى أحد أيام أواخر شهر ابريل أو أوائل مايو ١٩٩٣، اتصل بى الصديق حسين عبد الرازق تليفونيا . وقال لى: الدكتور رفعت السعيد (الأمين العام لحزب التجمع الوطنى التقدمى الوحدوى) «طلب منى أبلغك إنه عايز يشوفك» . قلت : خيراً. وأبلغنى ، بعد تردد، أنه - فيما يبدو - سيعرض علىّ «حاجة» بشأن الأهالى. قلت: زى إيه؟. قال: يبدو أنه عايز مدير تحرير. ودعانى حسين عبد الرازق إلى عدم ذكر شىء من ذلك لأحد ، إلى أن يتم اللقاء.



حسين عبد الرازق



لطفى واكد

فى الموعد الذى ذكره حسين عبد الرازق، توجهت ظهراً إلى مكتب الدكتور رفعت السعيد فى مقر حزب التجمع الذى أعرفه جيداً. بعد حوار غير طويل عرض على منصب مدير تحرير الأهالى .

قلت له : بعد ربع قرن فى الصحافة، وفى هذه السن مدير تحرير، أسف . ولكن أشكركم أن تذكرتمونى بعد غياب طويل عن الحزب وعن البلد . (قضيت الفترة من يونيو ١٩٧٩ إلى أكتوبر ١٩٩٠ فى دولة الإمارات العربية المتحدة، فى صحيفة «الاتحاد»).

تفرعت المناقشة ولم تطل . وانتهت باقتراح، غالباً طرحه الدكتور رفعت السعيد ، بأن أتولى الإشراف على التحرير لمدة ٣ شهور ،وبعدها إما أن أقبل أو أرفض مايعرض علىّ ، كما يكون من حق حزب التجمع أن يوافق على استمرارى أو يقول لى شكراً .

قلت : يعنى «تحت الاختبار» - قال (وأنا هنا أعصر ذهنى لأتذكر الألفاظ التى تبادلناها) موش بالضبط . قلت : رغم أنى لا أقبل من أحد أن يضعنى تحت الاختبار، لكن سأقبل، وأعتبر هذا نوعاً من التكليف الحزبى.

وكان هذا أول خطأ ارتكبته . فقد وضعت نفسى فى

«وضع مربك»، حيث دخلت صحيفة لا أعرف العاملين فيها ، إلا أربعة منهم فقط، ولا أملك فيها «سلطات»، وإن كانت «الأمانة العامة» للتجمع قد وافقت بالإجماع . «امتنع عضوان عن التصويت» على تعييني رئيساً للتحرير، قبل مضى الشهور الثلاثة، ولقد انعكست تجربة هذه الشهور على أيامى فى «الأهالى».

بعد أيام من ذلك اللقاء مع الدكتور رفعت السعيد ، حضرت اجتماعاً مع الأساتذة خالد محيى الدين رئيس حزب التجمع و«راية» اليسار المصرى عندئذ، ولطفى واكد رحمه الله نائب رئيس الحزب ورئيس مجلس إدارة «الأهالى» ورئيس التحرير، وحلمى ياسين المدير المالى والإدارى، والدكتور رفعت ، ولم يكن صعباً علىّ فى هذا اللقاء وما جرى فيه أن أتأكد أنه «الكل فى الكل» فى التجمع والأهالى ..

خالد محيى الدين

كانت الجلسة ودية . شرح فيها الدكتور رفعت السعيد وضع الأهالى وظروفها ،وظروف محرريها. وأدلى الحاضرون بتعليقات متفرقة، وكان لطفى واكد أكثر الحاضرين اعتزازاً بمحررى الأهالى، وقال فى أثناء الحديث «متخفش معاك عيال رجالة». ولم أدرك لحظتئذٍ فارق الموقفين بين لطفى ورفعت فى الحديث عن محررى الأهالى.

وحين ظن الآخرون أن الجلسة انتهت ، سألت الأستاذ خالد محيى الدين بشكل مباشر: «ماخطوطك الحمر؟»، تبادل نظرة سريعة حادة مع جميع الحاضرين . وتمتم بكلمات لم أفهم منها شيئاً . كررت السؤال .. وتلقيت جواباً وضعت له - ونحن جلوس - النقاط على الحروف ، وقلت إذن هناك «ممنوعات» و«خصوصيات» و«حساسيات»، تبدأ من «فلسطين» وتمتد إلى «طرابلس» عبر القاهرة وبلاد أخرى ، حسب التعليق الذى استخدمته وأثار الضحك المستهجن!.

ثم تساءلت عن الكتاب الذين يمكن الاستعانة بكتاباتهم . فقال الأستاذ خالد: أنت حر ، فلا أحد ممنوع من الكتابة «المحترمة».

قلت : لا أحد بشكل مطلق .

قال : أيوه .

ألححت فى السؤال «قال : تقصد

فلانا (وذكر اسماً محدداً) . قلت : ليس بالتحديد ، ولكن على سبيل المثال . قال : شوف ، مفيش حد ممنوع من الكتابة التى توافقنا، بس بلاش إضافة أعمدة ثابتة جديدة ويكفى ماهو موجود.

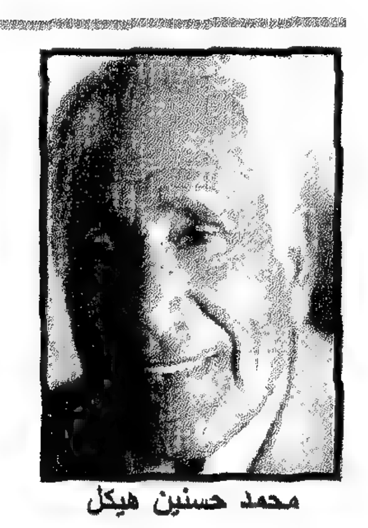
وعلق الدكتور رفعت السعيد بأنه ضاق ذرعاً بعمودين ثابتين فى الأهالى، وليتنى أتخلص منهما .

لم أفهم مغزى ودخيلة ماقيل بهذا الشأن، عندئذ . ولم أتبين الأمر إلا وأنا على مقربة من الخروج من «الأهالى».

وفى النهاية ، اتفقنا على أن أتسلم المسئولية ابتداء من ١٥ يونيو، فقد كانت ورائى ترتيبات خاصة.

نهاية

فى يوم السبت ١٩ سبتمبر ١٩٩٨، وعند الظهر ، خرجت كعادتى أتجول على قدمى فى المنطقة المحيطة بميدان طلعت حرب . وأشرب - كعادتى - قهوة فى «البن البرازيلى»، و«أتسكع» عند باعة الصحف، وأزور بعض المكتبات لعلى أجد فيها جديداً أقتنيه . وفى هذا اليوم ، وجدت فى فروع الهيئة العامة للكتاب نسخاً من كتابى الجديد : «إسرائيل والعرب وفلسطين : قرن من الصراع» الذى نشر فى «مكتبة الأسرة». وحملت معى حوالى عشرين نسخة، تصببت عرقاً وأنا أصعد بها سلالم مبنى التجمع، الذى



محمد حسنين هيكل

كنا قد انتقلنا إليه قبل شهور من ٢٣ عبد الخالق ثروت.

لم أكد أدخل مكتبى ، ولم أجلس بعد على الكرسى ، حتى دق جرس التليفون . كان رفعت السعيد على الخط - دعانى إلى مكتبه، ورجانى أن أسرع - ذهبت إليه، ولما يجف عرقى بعد . كان معه حسين عبد الرازق ، رحب بى : «أهلا ياأستاذ عبد العال». كان من المعتاد أن ينادينى باسمى مجرداً. وفتح الحديث مباشرة ، قال : أنت عارف إن الأمانة العامة ستجتمع يوم الأربعاء، وفيه كلام كثير عن الأهالى، والمؤتمر العام ، وأخذ يقول كلاماً غير مترابط . ولكنى فهمت الرسالة . نهضت واقفاً، وقلت له : دكتور رفعت أرجوك تكلم «دوغرى» .. وأشرت بيدى إلى الأمام، وبلاش لف ودوران وأشرت بيدى يميناً ويساراً .

وأضفت أن استقالتى .. عندكم .. من شهور.

قال : أنا مقلتش كده بالضبط .

قلت : يادكتور الحكاية معروفة من شهور ، و«عيالك» فى المقر يتحدثون فيها ليل نهار من سنة ، قبل المؤتمر وبعده، ويرددون علناً مين اللى رايح ومين اللى جاى .. وهذه - كما تعلم - مسألة لاتهمني، كل اللى يهمنى أننا كنا متفقين على إعطائى مهلة لترتيب أمورى. ومادامت الأمور وصلت إلى هذا الحد، فأنا لا أستطيع الاستمرار.

وفى هذه اللحظة بالضبط ، وكأن الأمر مرتب ، دخل الأستاذ خالد محيى الدين. ودون سلام أو كلام قال له رفعت السعيد : عبد العال بيقول استقالتى عندكم.

قال خالد : لأ، موش كده . إحنا حندخل الأمانة العامة ، إذا كان الهجوم تقيل نقول إنك استقلت ، إن مشى الحال..

عندئذ ضحكت ضحكة أظنها تجاوزت حيطان مبنى التجمع . وقلت دون أن أتركه يكمل كلامه : ياأستاذ خالد ده اللى اسمه العيب .. حكاية الهجوم الخفيف والتقيل ما أنت عارف وأنا عارف كيف يتم . هذا اللى حصل فى يونيو ١٩٩٧ بعيد عني.

(فى ذلك التاريخ عقدت الأمانة العامة اجتماعاً صاخباً تحولت فيه إيجابيات الأهالى إلى سلبيات ، ووصل الأمر فيه إلى أن قال أحد الزملاء للطفى واكد : أنت قاعد ليه، هى بتاعة أبوك!! وبالطبع كانت المحاكمة لى وليست للطفى واكد ، وقد انفضت الجلسة دون أن أرد، فقد كان الفلاحون يتأهبون لاجتماع صاخب!!

واختتمت كلامى قائلاً : استقالتى عندكم ، ولم أكن أتصور أن الأمور فى هذا الحزب وصلت إلى هذا الحد ..

وهممت بالانصراف . ووقف الدكتور رفعت السعيد يودعنى ، ومد يده لمصافحتى وهو يقول احنا co grateful (ممنونون) للفترة اللى .. وعندها كنت قد فتحت الباب، وهرولت مبتعداً .

ولم يكن حسين عبد الرازق قد فتح فمه بكلمة واحدة أثناء هذا الحوار وجاء فى أعقابى إلى مكتبى وقال لى : وحياة أولادى ، أنا لا أعرف حاجة عن الموضوع ده .. وأنا مفاجأ زيك!!

تمتمت بكلمات لا يتبين منها أحد - ولا أنا - شيئا. وحين انصرف ، طلبت من السيدة كوثر حسن أن تصلنى تليفونيا بالأستاذ مصطفى بكرى، ووجدته، ورجوته أن ينشر خبراً عن استقالتى من «الأهالى» واتفقنا على الصيغة . وقد كان كريماً معى، وكان أميناً ، ونشر الخبر بشكل بارز فى عدد يوم الاثنين مع تعليق منه فى الصفحة الرابعة . وبعد النشر ، لم يكف تليفون المنزل عن الرنين . وفى صبيحة

اجتماع الأمانة العامة ، نشر الزميل الأستاذ مجدى الدقاق خبراً في «المصور»، حدد فيه اسمي رئيس مجلس الادارة ورئيس التحرير، وأشارت إلى ذلك السيدة شاهنده مقلد ، في اجتماع الأمانة. وتعاملت مع الأمر على أنه استقالة، إلى أن صككت تعبير «استقالوني» وإن كانت «الأهرام العربي» (عدد ١٠ أكتوبر ١٩٩٨، ص ٢٦) قد استخدمت تعبير «عزل رئيس تحرير الأهالي».

محطة

بكل الصدق والأمانة ، أقول اليوم إن قيادة حزب التجمع كانت صبورة معي .. لأن الخلافات بيننا ظهرت منذ أول عدد «أشرفت» على إصداره ، حين قيل لي تليفونياً مساء يوم الثلاثاء ، وقبل أن يطرح العدد في السوق: «بلاش تعبير الكيان الصهيوني» ، لماذا؟ لأنه «تعبير بعثي»، قلت : بل هو تعبير علمي – دقيق . ثم تفجر الخلاف عاصفاً بعد نشر خبر عن كلام قاله البابا شنودة وذلك فى أكتوبر ١٩٩٣ . كان الخبر صحيحاً مائة فى المائة. ولا يزال مصدره حياً يرزق ، وهو واحد من أهم وأنبل المطلعين على دخائل الكنيسة. ولكن الخبر كان كاشفاً لعورات كثيرة . وكان بالنسبى لي بداية لأزمات، ولعلاقات ، ولمعلومات تدفقت عليّ من مصادر عديدة، من الداخل والخارج ، وكانت موثقة . ولست فى حل الآن من البوح بها. وبعض ردود أفعال الخبر منشورة فى «الأهالى» ، العدد ٦٢٧ فى ١٣ أكتوبر ١٩٩٣.

أما الخلاف الذى كان تحت السطح ، فبرز حول الموقف من اتفاق أوسلو، الذى أبرم بعد شهور من دخولي «الأهالى» ، ووافقت عليه الأمانة العامة بتحفظ، وكان المعارضون كثيرين من أعضاء اللجنة . ووصل أمر هذا الخلاف المستتر إلى أن قال الدكتور رفعت السعيد فى اجتماع حزبي في أواخر ١٩٩٤ ، وكتبت محضره بنفسي «إن رئيس التحرير يكتب ضد خط الحزب»، وكان يعني تحديداً نقدى لسياسة ياسر عرفات.

وبعدئذ ، أوقفت كتاباتى فى «الأهالى». وظللت رئيس تحرير لا يكتب ، لفترة غير قصيرة . وكان هذا من خطاياي، وليس من أخطائى فقط فى «الأهالى» .. وكان الخلاف حول «أوسلو» قد حرمني وحرم قراء الأهالي من ريشة الفنان الكبير بهجت عثمان الذي قدم لوحة عميقة السخرية عن توقيع الاتفاق . ولما وصلت إليه أصداء ما قيل، توقف عن الرسم «للأهالى»!

استشهادات

فى ٢٤ أغسطس ١٩٩٤ ، كتبت مقالاً

فى صفحة «الحوار القومى» فى «الأهرام» تعليقاً على مقال للدكتور صلاح قبضايا فى الصفحة نفسها ، عن تجربته السابقة – وليست الراهنة بالطبع – فى رئاسة تحرير «الأحرار» . كان عنوان مقالى هو : «فى الصحافة الحزبية: «الأهالى» تجربة أخرى»، واقتبس منه مايلى.

– «تعتبر كل صحيفة حزبية «حالة خاصة» بالمعنى القانونى الدقيق لهذا التعبير، والخصوصية هنا لها مصادر ومنابع عديدة ، على رأسها أن كل حزب هو أيضاً حالة خاصة : فى فكره وسياسته ، وفى تنظيمه ، وفى قيادته ، وفى مدى انتشاره وجماهيريته ، وفى مدى تأثيره فى الشارع وعلى صاحب القرار. «ولذلك فإن تعميم تجربة صحيفة حزبية على صحف أخرى أو على الصحافة الحزبية عامة ، أمر لايسلم من الخطأ ، بل قد يجانبه الصواب. أكثر من هذا إن تجربة الصحيفة الحزبية نفسها تختلف من مرحلة لأخرى ، لاختلاف الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، واختلاف الظروف الحزبية ، وعلاقات الحزب الخارجية والداخلية. وعلى سبيل المثال ، فإن تجربة «الأهالى» فى ظل حكم الرئيس الراحل أنورالسادات تختلف بشكل أو آخر عن تجربتها فى ظل حكم الرئيس حسنى مبارك . كما أن تجربة «الأهالى» برئاسة تحرير (س) من الزملاء تختلف بدرجة أو أخرى عن التجربة برئاسة زميل آخر .. وهكذا».

. . . .

. . . .

– أود أن أقف عند أمرين جديرين بالاهتمام والتسجيل :

– **أولاً** : إن الحزب فى جوهره هو «تنظيم» يجمع أفراداً متفقين حول وسائل معينة للوصول إلى الحكم . إنى أميل إلى الرأى الذى يغلب الجانب التنظيمى فى الحزب السياسى على جانب الفكر والأيديولوچية ، فالحزب هو – باختصار – تنظيم له أيديولوچية .

– **ثانياً** : لكل حزب نخبته القيادية التى يصل الأمر عند بعض علماء السياسة إلى اعتبارها «الدائرة الحديدية التى تقود الحزب وتوجهه، وحيث توجد سلطة ونخبة وقرار، فإن بجانبها توجد أيضاً قوى ضغط ودوائر نفوذ ، يحتدم بينها صراع داخلى ، يبحث له عن وسائل تعبير . وحتى أكون واضحاً، فإنى أتحدث عن «الحزب» بمعناه العلمى، ومعناه السياسى، فهل لدينا فى مصر ، وفى ظل التجربة القائمة، تجربة التعددية المقيدة ، أحزاب بهذا المعنى.

«إن لدينا أكثر من دراسة علمية وأكاديمية تكاد تقطع بأن «التجمع» هو

الأقرب إلى كونه حزبا بالمعنى الصحيح، إذ يقوم على «تنظيم» معروف ومحدد، وعلى هيئات يتم انتخابها ، وتجتمع دوريا لتناقش ، وتتفق على وسائل تنفيذ قراراتها .. دون أن يخل هذا - فى تقديرى - بقانون «الدائرة الحديدية».

. . . .

. . . .

- «لكل صحيفة حزبية «أزمتها» الخاصة ، ومن داخلها ، ومن داخل الأحزاب التى تصدرها ... ثم هناك أزمة صحفية حزبية من خارجها ، ومن خارج الأحزاب التى تصدرها . وعلاج الأزمة من الداخل يتطلب ويفرض بنية مؤسسية محددة المعالم ، والوظائف والاختصاصات والمسئوليات وبنية مهنية قوية عمادها مهنيون أكفاء صحفياً وسياسياً وخلقياً، ومن الخارج ، لابد من إصلاح سياسى وديمقراطى يتيح قيام أحزاب قوية ويوفر الجو لحياة حزبية قوية أيضاً ».

قبل بدء العمل فى الأهالى تسلمت ملفين : أحدهما عن الميزانية ، والتوزيع ، والعاملين، والقرارات التنظيمية الداخلية . والثانى عن اقتراحات تطوير «الأهالى».

ولم يكن النهوض بالصحيفة يتطلب أكثر مما ورد فى هذه الاقتراحات ، خاصة الورقة التى أعدها الأستاذ حسين شعلان رئيس التحرير الذى استقال، فعلاً.


جلال السيد

ومن أسف أنى لم أسأل نفسى ولم أسأل شعلان نفسه لماذا لم يطبق عملياً ماكتبه نظرياً؟. بالمناسبة ، نسيت أن أذكر أنه بعد اللقاء الأول مع الدكتور رفعت السعيد، استشرت عدداً من الأصدقاء الذين أثق بهم ، منهم الصديق الصدوق جلال السيد رحمه الله ، والدكتور إيمان يحيى ، وكنت قد تعرفت عليه قبل وقت قصير من خلال العمل معاً فى «اللجنة السياسية» لحزب التجمع ، والدكتور محمد رضا محرم الذى ترجع معرفتى به إلى سنة ١٩٧٥ ، وآخرون . كانوا جميعهم متحمسين ومتحفظين. وكان خطأ من جانبى أنى لم أتحدث مع حسين شعلان ، الذى اتخذ مبكراً أذكى قرار اتخذه رئيس تحرير مر على «الأهالى»، إذ فر بجلده سالماً ، غانماً.

بعد وقت قصير جداً ، من دخولى

«الأهالى» جاءنى (ش . هـ) الذى عرفته من خلال العمل السياسى منذ بداية السبعينيات، وهو شيوعى قديم، وجرى بيننا حوار طويل ، تركز أساساً على القضية الفلسطينية . وأحسست أن الرجل يجرى لى عملية اختبار . ومع ذلك ، قلت له كل ماتصورت أنه جاءنى كى ينقله إلى «آخرين» ، مما جعله يفصح عن مهمته حين قال لى : «أنت ناصرى». قلت فوراً العبارة المشهورة: «شرف لا أدعيه، وتهمة لا أنكرها» . ولكنى أضفت فوراً «كى نكون دقيقين، يجب أن تقول إنى ناصرى ماركسى ، وأظن أن هذا هو التجمع وأن هذه هى صحيفته ، وأنا هنا «تجمعى»» وكفى.

وبالمناسبة ، كان الأستاذ : الدكتور محمد أنيس والأستاذ جلال السيد - رحمهما الله - ومعنا آخرون، مصريون وغير مصريين ، نتحدث كثيراً ونتحاور طويلاً فى سهرات كانت تمتد إلى الفجر. حول الدعوة إلى «الناصريين الماركسيين»، وذلك فى منتصف الثمانينات.

ذات يوم ، قال لى الأستاذ خالد محيى الدين إن الأستاذ محمد حسنين هيكل «عنده انطباعات موش كويسة عن الأهالى» . لم أكن قد التقيت من قبل لقاء مباشراً مع الأستاذ هيكل . وقام الزميل الأستاذ مدحت الزاهد عضو مجلس تحرير «الأهالى» بترتيب موعد معه. وذهبنا معاً . وتحدث الأستاذ هيكل طويلاً عن الصحافة المصرية ، والصحافة الحزبية ، والصحيفة الأسبوعية . وكانت له ملاحظات دقيقة وصائبة تماماً بالنسبة للأهالى . وكنت مستمعاً فقط، ولم أقاطعه إلا إذا طرح سؤالاً وطلب رداً عليه . وكنت أرد باقتضاب . فقد كان لدى شوق للوقوف على رأى الأستاذ هيكل، لأسباب عديدة.

وحين أحسست أنه فرغ من حديثه ، قلت له : أستاذ هيكل، هل تتصور أن «الأهالى» ليس بها اشتراك وكالة أنباء؟!

انتفض الرجل وهو يردد : بتقول إيه ياأستاذ؟

قلت : اللى سمعته سيادتك .

قال ، وقد أحسست أنه بدأ يدرك أزمتى : وازاى راضى بكده .. وهل خالد (بيقصد الأستاذ خالد محيى الدين) يعرف؟.

وتوقفت المناقشة عند هذا الحد ، إذ دخل عليه جهاد الخازن رئيس تحرير صحيفة «الحياة» عندئذ ، ويبدو أنه كان على موعد معه .

أزمة الصحافة الحزبية أزمة حزبية أساساً ، وفى المرتبة الأولى ، وبعد هذا وفى المرتبة الثانية تأتى أزمتها الذاتية .

مرة سئلت : لماذا نجحت «الدستور» وهى صحيفة ليس وراءها حزب ؟. أجبت:

بالضبط، لأنها غير حزبية . فمدى نجاح الصحيفة الحزبية يرتبط ، في جانب منه ، بقدر من الفصل النسبي بين الصحيفة والحزب ، كل الحزب: قيادته وكوادره وأعضائه وهيئاته . وهذا أمر صعب في أكثر الأحيان ، خاصة في حالات الانحسار الحزبي ، حين تجد قيادة الحزب في صحيفته أهم أسلحتها ، فترفض إلا أن تسيطر عليها، من الداخل ومن الخارج ، وتملك في يدها من الأدوات ماتستطيع أن تحقق به ذلك ، إنها «تكوّش» عليها ، وتقبض على عنقها ، حتى لو خنقتها!.

شهادة حق يجب أن تقال ، إن «الأهالي» تضم – في الفترة التي عشتها فيها – مجموعة قد تكون – في عمومها وليس بالضرورة في كل فرد فيها – من أفضل ومن أشرف الصحفيين المصريين . ولا تنقص كثيرين منهم الكفاءة. ولكنهم – مع الأسف – يتآكلون ذاتيا ، في معارك جانبية، وفي تصفية حسابات تدفع الصحيفة ثمنها . وأستطيع أن أزعم أن نفراً من من محرري «الأهالي» لا يوجد نظراء لهم في صحف قومية أو حزبية أخرى . ولكنهم مستنزفون . وهناك آخرون بالطبع ليسوا على مستوى صحيفة حزبية، ويسارية خاصة . وهناك قلة ظلمت نفسها أو «ظلموها» حين اتخذت الصحافة مهنة ، فصارت في الأحزاب مهنة من لا مهنة له.

وقد سجلت هذا كتابة في أول تقرير كتبته، وتم رفعه إلى اللجنة المركزية ، وأشاد به «الجميع».

من أسوأ الظواهر في الصحافة عامة، وفي الصحافة الحزبية خاصة، أن يحارب بعض الصحفيين صحيفتهم ، من وراء ستار .. وندع التفاصيل الآن .

من أخطائي الشخصية في «الأهالي» أني كنت كثير الاستقالات .. وربما يرجع هذا إلى أني أدركت ، بالذات منذ أواخر ١٩٩٥ ، أن الأفق مسدود ، وأني أنحت في صخر.

على المستوى الشخصي ، أستطيع أن أقرر وبضمير مستريح ، أن كرسي رئيس التحرير لم يغيرني ، بل علمني المزيد من التواضع والتواؤم مع من حولي، والائتناس بهم حتى لو اختلفت معهم في العمل أو الرأي . وقد تعلمت هذا الدرس من أستاذي العزيز محمد عودة . ويكفيني جزاء عما عملته في «الأهالي» أن هذه شهادة الغالبية العظمى ممن عملوا معي أو اقتربوا مني على مدى ١٨٩٤ يوماً.

رسالة

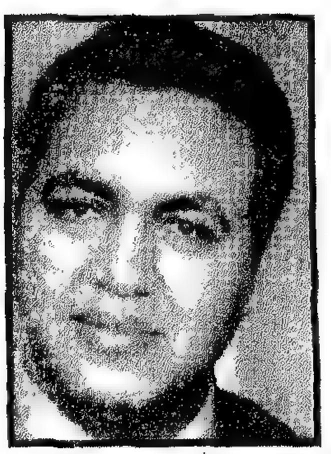
لا أريد أن أكتب الآن عن تجربتي في «الأهالي» حتى لا يتقول أحد إني أكتب بعد أن تركتها . لذلك ، سأكتفي هنا بإيراد نص رسالة مؤرخة في ٤ – ٨ –

١٩٩٧ ، وموجهة منى إلى الدكتور رفعت السعيد ، الذى أعتقد أنه يحتفظ بها ، فهو - كمؤرخ - وراق ، ولا يلقى بورقة إلى سلة المهـــمــــلات . وأظن أن «المستمسكات» - كما كان يسميها مصطفى شردى رحمه الله - جزء من العمل الصحفى والحزبى . ولن أحذف من هذه الرسالة سوى الأسماء ،وسوى جملة شخصية جداً .. وفيما عدا ذلك، ففيما يلى النص الحرفى الذى أعتقد أنه كاشف عن دخائل كثيرة ، ونواقص عديدة ، وثغرات عميقة فى جسد التجربة.

الدكتور رفعت السعيد...

أشـــعــر ، فى هذه المرحلة ، أنه من الضرورى ومن المفيد أن أضع أمامكم تصوراتى عما آلت إليه الحال ، فى هذه الظروف ، خاصة وأنى أحس أننا جميعاً ، سواء لدواعى الانشغال أو لطبيعة الظروف

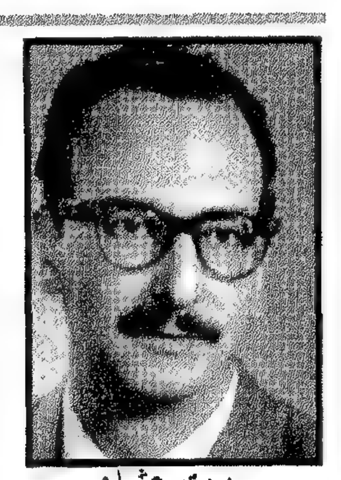
مصطفى بكرى



أو دقتها ، نظلم «الأهالى»، وأحياناً يصل الظلم إلى حد التجنى . ولا أخفى عليك أن شعورى هذا ليس وليد ماحدث أمس أو أمس الأول ، بل يرجع إلى شهور مضت ، رصدت خلالها شواهد جعلتنى أستنتج أن هناك «حالة تربص» تحيط بالأهالى ، ولعل هذا كان أوضح ما يكون فى المناقشة التى شهدتها الأمانة العامة ... ولكن الإيماءات ترجع إلى شهور قبل ذلك . ولا أريد هنا أن أخلط العام بالخاص ، ولا أتحدث بلغة أن هناك «مؤامرة» ضدى ، فأنا - والحمد لله - لا أتوجس خيفة من فرد أو محور أو تكتل ، لسبب بسيط أعتقد أنك تدركه وهو أنى - منذ البداية - وضعت نفسى خارج دائرة المحاور والتكتلات ، وحرصت بقدر مـــا أســـتطيع - ولا أزال - أن أجـــعل «الأهالى» ناطقة باسم حزبها وقيادته . ولا يخفى على أحد أنى تلقيت بعض السهام ، ولاأزال ، نتيجة لذلك ..ولا أستطيع - صادقا - أن أقول إنى لم أعبأ بها ، بل حرصت على أن أبدو وكـــأنى لا أتلقى ضربات ولا أشـــهـد مناورات ، من هذه الجهة أو تلك . وركزت جهدى - بكل ماأستطيع - على أن أصنع صحيفة يسارية ومتطورة .. ولا يخفى عليك - ولا على أحد - أن الظروف لم تكن مواتية ، ولأسباب كثيرة لا أريد الخوض فى تفصيلها الآن ، حيث وصلت إلى مرحلة

أتمنى فيها أن أغادر «الأهالى» الآن ، قبل الغد ، كما أتمنى – فى الوقت نفسه – أن تمتد تجربتى ، حتى لا يقال عنى إنى تركت «الأهالى» وهى توشك على الغرق..

وهذه ، بالضبط ، هى مشكلتى وأزمتى الخاصة . وكنت أظن أنك شخصياً ، وقيادة الحزب ، تدركون طبيعة هذا الموقف .. ولكنى مع الأسف فوجئت بك كثير المشاغل والشواغل ، فى الفترة الأخيرة ، بينما تحول مجلس الإدارة إلى هيكل شكلى .. وفى وقت يتزايد فيه الهجوم على الأهالى ، فى حين تشتد المنافسة الصحفية إلى أبعد الحدود . بينما القائمون على الأهالى لا يدركون هذا، ولا يرون فى الأمر سوى جانب الميزانية ، والخوف من الإنفاق ، ومن العجز، ووضح هذا ، بشكل خاص فى قرارات العام الماضى ، بشأن تخفيض كمية المطبوع ، وتخفيض عدد الصفحات، وتخفيض المكافآت . كان هذا – كما قلت لكم فى مذكرة سابقة – صحيحاً مالياً ، وخاطئاً صحفياً ... وقد جاءت نتيجته فى كارثة ... حيث تدنى التوزيع بشكل غير لائق، ووصل إلى مستوى خطير . ولا أعتقد أن هناك أحداً يهتم – أسبوعياً – برصد أرقام التوزيع كما أفعل ، وليس هناك أحد يجوب الشوارع يوم الأربعاء ويسأل ويتقصى كما أفعل .


بهجت عثمان

وقد بح صوتى وأنا أطالب بدور من الحزب فى متابعة التوزيع(وأنا هنا أقصر الحديث على علاقة الحزب بالأهالى ، وأضع جانباً الحديث عن العاملين فى الأهالى ، دون أن أنسى أن المسئولية مشتركة بين الجانبين.

وبعد المناقشات التى جرت، والاقتراحات التى قدمت ، أرسلت لكم مذكرة عنوانها «خطة عاجلة لتنشيط «الأهالى» .. ووعدتنى بأن أنتظر حتى ننقل مقر الأهالى إلى ١ كريم الدولة .. وتضمنت الخطة عدة جوانب من أهمها : شراء أجهزة فنية – تنشيط الرياضة – الإخراج – خطة للاستكتاب من الخارج .

وبناء على ذلك ، تم إعداد مكافآت شهر يونيو .. ومنها مكافآت لكتاب (أذكر منهم – اسم محذوف) ومكافأة

إخـراج لـ .... (بجـانب ....) ومكافآت للقسم الرياضى.

وبالمناسـبـة ، فـإن المكافـآت الجـديدة كتبت كل مكافأة فى مذكرتين منفصلتين ، إحداهما موجهة إلى رئيس مجلس الإدارة تطلب مـوافـقـتـه على أن تصـرف مكافـأة شهرية لفلان مقدارها كذا ، والثانية مذكرة بصرف المكافأة عن شـهر يونيو .. ولم أتلق أية ملاحظة على ذلك .. كما أننا عدنا إلى الصـدور فى ١٤ صـفـحـة .. خاصـة وأن جميع الصحف الأسبوعية تصدر فى ١٦ أو ٢٠ أو ٢٤ صفحة، ثم فوجئت بضجة حـول مكافـآت شـهـر يوليـو .. تركـزت أسـاسـاً على مكافـآت قـسـم الجـمـع ، وأعـيـدت من جـديد أمـور كنت أظن أننا حـسـمناها منذ فـتـرة ... ثم تبين لى أن المشـكلة كلها تكمن فى ٦٠٠ جنيه!!

وبعـد حـديث طويل مـع الأسـتـاذ لطفى واكد والأستاذ عمر عبد الواحد (محاسب فى الإدارة) ، فوجئت بأن هناك قراراً بألا تزيد المكافـآت ، إجـمـالى المكافـآت ، على خمسة آلاف جنيه !!. ولم يقل لى أحد ذلك، ولكننى اكـتـشـفـتـه بالمصـادفـة .. هل هذا يليق؟.

ألا تشـعـر أن هذا يتضـمن تشـكيكاً أو شكاً فى ذمـتى أو ائتـمـانى على مـيـزانيـة «الأهالى» .. لست فى حـاجة لأن أقسم لك إنى أحيـاناً أتجـادل مع بعض الزمـلاء على خمسة جنيهات .. هم يقولون المقال بـ ٣٥ جنيـهـا ، وأنا أقـول : لا ، يكفى ثلاثون جنيها.. ولكنى أحياناً أضـيف عشـرين أو ثلاثين جنيـها على مكافـأة بعض العـاملين المجدين.

على أية حال ، وحـتى لا أطيل عليك ، إن هذا التعامل لم يعد يناسب الصحافة حـالياً .. ولكى ندرك جلية الأمر ، أشـيـر إلى أنى ذكـرت لك فى المذكـرة السـابقـة مايلى:

«كى ندرك الارتفـاع فى أسـعـار الكتابة، زميلة كانت تكتب فى الأهالى منذ سنوات مقابل ١٥٠ جنيهاً شهرياً ، طلبت فى الحلقة الواحدة ١٥٠ جنيها .

وأضـيـف اليـوم : «.......» تدفـع لأحـد كـتـاب الأعـمـدة ٢٠٠ جنيـه فى العـمـود الواحد ، وهى تستكتب فى العدد مالا يقل عن عشرة كتاب ... أنا أتحدث عن الكتاب فقط ، وليس عن الصحفيين تحت التمرين .. وللعلم ، فإن عـدد المعينين فى «........» الآن أكبر من المعينين فى الأهالى ، وللعلم فـإن توزيع «............» يكاد يتـوازى مع توزيع الأهالى.

الزميل العزيز :

أرجـــو أن نراجـع الموقف بدقـــة وبموضـوعية . لقد سبق أن وعدتك أنى لن أتحـدث مـرة أخـرى عن الاسـتـقـالة من الأهالى ، ولكم أن تتخـذوا هذا القـرار فى

أي وقت تشاءون ..وإلى أن تأتى هذه اللحظة ، فإنى سأدافع عن الأهالى ، وسأطلب منكم المزيد والمزيد ، وأرجو ان تستعدوا من الآن للصدور فى ١٦ صفحة، بل فى عشرين صفحة ، ابتداءً من أكتوبر القادم . هذا مطلب لا يجب التخلى عنه . أرجو – منذ الآن – ألا يكون التمويل مشكلة أو عائقاً . أما مشكلتى الآن التى أحاسب عليها فهى التحرير والعمل الصحفى والتفوق فيه ، فى إطار الالتزام بخط الحزب . ولن أسمح لنفسى بالانشغال بأى أمر آخر .

وصحيفة عمرها ٢٠ سنة، ويملكها حزب محترم وتعبر عن اتجاه سياسى فى البلد لا أعتقد أن التمويل يمثل لها مشكلة، إذا تم التخطيط لمدة طويلة نسبياً، دون أن نقف عند طارئ فى هذا الشهر أو تلك السنة . وأرجو – صادقا – أن يتغير أسلوب التعامل مع الأزمة المالية، فبدلاً من التفكير فى الحد من الإنفاق ، نفكر ونجهد أنفسنا فى التفكير فى زيادة الموارد . وهذه هى مسئولية مجلس الإدارة التى لم يقم بها . ولولا جهودك الشخصية لأغلقت الأهالى أبوابها، دون أن نغفل دور الأهالى فى التخديم على هذه الجهود. وحين نصل إلى «حد الأزمة» يجب أن نراجع ، ولا نتراجع .. ولكن مايحدث – بكل أسف – هو العكس .. ونبدأ – مع كل طارئ – ونعيد فى حكاية العمالة ، والذين لا يعلمون ناسين أو متناسين أن هذه إحدى مشاكل الصحافة المصرية ككل .. وأرجو أن نأخذ «........» كمثال . إن عدد المنتجين فيها لايتجاوز ١٠٪ من المعينين واعتمادها الأساسى على «اللى تحت التمرين» .. بينما تبلغ نسبة المنتجين فى «الأهالى» حوالى ٦٠٪ .. يمكن ببعض الأساليب أن نصل بها إلى ٨٠٪ ، كما يمكن ببعض الحوافز أن نحصل على عطاء أكبر من نسبة الـ ٦٠٪ . ولكن الذى يحدث هو العكس على طول الخط.

وأرجو أن تضع نفسك أمامى أمس (هكذا فى الأصل وأظنها مكانى وليست أمامى) – الأحد ٣ أغسطس – مشكلة مثارة اسمها .... مشكلة جديدة هى الذين يعملون فى الصحف العربية – (........) يشكو أمامى مر الشكوى من (........) – ضجة حول المكافآت والجمع الخ .

بذمتك – أيها الزميل الصديق – هل هذا جو عمل وإنتاج، وأية رئاسة تحرير هذه؟. وكيف أخطط وأتابع وأعرف الذين لم يقوموا بواجباتهم .. وأسد النقص – كتابة وتحريراً بنفسى – بسبب اجازات الصيف أرجو أن تثق – كل الثقة – أن الأهالى تصدر بأدنى حد ممكن من الإنفاق، أقصد «الإنفاق الجارى» ، أما

الأجور الثابتة (= أجور الزملاء المعينين فهي مشكلة أخرى، وإلا قل لي : أين العربية التي وعدت منذ شهور بعودتها للتحرير ؟ أين وكالة الأنباء؟....أين.... أين. لقد وصل الانخفاض في الإنفاق إلى حد تكاد معه الأهالي أن تختنق . ومتى؟ في وقت نشهد فيه منافسة صحفية لم تشهدها مصر منذ سنين طويلة . ومع ذلك، يتساءل الجميع : لماذا تتراجع الأهالي؟ لماذا تتخلف الأهالي من كذا وكذا؟ أين فلان وعلان؟

لقد كتبت لك أكثر من مرة أقول : إن الصحافة مهنة كلما أعطيتها أعطتك ، كلما أنفقت عليها منحتك ، وكلما قبضت يدك عنها حرمتك . صدقني إنها امرأة لعوب تحتاج إلى شاب في كامل لياقته ووسامته ، مملوء الجيب مبسوط اليد..

وسط هذا كله ، هناك هم شخصي كنت أريد ألا أحدثك فيه ... وهو أني معروض عليّ العودة للعمل في الإمارات بمبلغ يصل إلى حوالي ١٨ ألف جنيه شهرياً ، بجانب مجموعة من الامتيازات يسيل لها لعاب أمثالي. ومع ذلك رفضت (جملة محذوفة) .. ونظراً لعلاقة الاحترام المتبادل بيني وبين هؤلاء الناس بعثوا لي برسول كان عندي في الأهالي منذ أيام.

وأرجو أن تثق أني لا أقول هذا منا على الأهالي .. إنها عندي أكبر من أن أمن عليها . ولكن حين أخلص لها ، على الأقل ألقى بعض الهدوء، ولا أظل أقضي نصف يومي في الحديث عن مشاكل (..........) و(.........) و(.........) و(.........) وغيرهم وغيرهم .. فضلا عن أمور أخرى من الدس وغيره ، لا ألتفت إليه ولا أهتم به، ولا أشكو منه ، فمن طبيعتي ألا أتلفت خلفي ، وألا «أشبك» شيئاً على شيء .. وهذه بالطبع «هبالة» وليست سياسة . ولكن هكذا أنا . هكذا خلقت . ولن أتغير وأنا في هذه السن . أليس كذلك يادكتور.

لقد تحدثت معك كأصدقاء .. وليس كزملاء حزبيين . وأسمح لنفسي أن أقول لك ، وأنا واثق أنك ستتقبل هذا القول مني، لأنك تدرك نبل دوافعه : ادفعوا للأهالي تندفع ، ولن أرضى بأن أستغل نفسي بعد الآن بالحديث عن دراهم معدودة . ومن جانبي ، لا أملك إلا الدفاع عن صحيفتي وصحيفة حزبي . وفي سبيل ذلك فإني مستعد لتحمل أي هجوم أو أذى شخصي لأنه لا يقلقني بل يزيدني قدرة على العمل والإنتاج . وأنا - والحمد لله - أعرف قدراتي الشخصية ولن أضن بها . وبجانب ذلك فإني مستعد لأي حساب أو مساءلة ، كما أني لن أكف عن مطالبتكم

بالإنفاق أكثر وأكثر من أجل النهوض بالأهالي.

ولك خالص مودتي وتقديري،،

التوقيع٤-٨-١٩٩٧

وأخيرا .. «استقالوني»

بعد هذه الرسالة ، وفي حديث مع الدكتور رفعت السعيد ، حضره الأستاذ خالد محيي الدين في جزئه الأخير، اتفقنا على أن أعرف قبل إقالتي أو قبول استقالتي بثلاثة شهور على الأقل ، كي أستطيع ترتيب أموري . وبالفعل ، سلمت استقالة غير مؤرخة إلى الدكتور رفعت السعيد ، فقال : «بلاش كلام فارغ» وقام بوضعها في «مفرمة الورق» التي كان قد أحضرها لمكتبه قبل فترة قصيرة.

وفي هذا الوقت كان البحث على قدم وساق عن رئيس تحرير جديد . وتعددت الأسماء التي طرحت . بعضها كان قد طرح من قبل في ١٩٩٣ . وطرح عندئذ اسم تم في ١٩٩٣ عرضه على الأمانة المركزية ليكون عضواً في مجلس الإدارة. واحتج على ذلك بشدة الزميلان حسين عبد الرازق وعبد الغفار شكر. وقال حسين إنه «فلانا» هذا عضو في الحزب الوطني، وإن ..... وإنه!

وفي أوائل ١٩٩٨ تجدد عرض العمل في صحيفة «الاتحاد» وذهبت في مارس إلى أبو ظبي . وكان مطلوباً مني أن أوافق فوراً ، وأتسلم العمل . ولكني طلبت مهلة كي أرتب شئوني مع «الأهالي»، وكي لا أترك ابنتي وهي تستعد لدخول امتحان البكالوريوس بعد شهرين. والخير فيما اختاره الله . فقد وقع الاختيار على زميل لبناني ، تقاضى حوالي ٣٥ ألف جنيه شهرياً عن شغل المنصب الذي كان معروضاً عليّ ... وكان خطأ مني أني لم أقبل ، ولم أضرب عرض الحائط بالتزامات أخرى ، إذ تأكد بعد شهور وفي أثناء المؤتمر الرابع لحزب التجمع في ٢٣ يوليو ١٩٩٨ أني حاولت أن أكون ملتزماً بأخلاقيات أصبح دمها مسفوحا على قارعة الحياة الحزبية التي لا يجوز في ظلها لأي صحفي أن يتولى أية مسئولية في أية صحيفة حزبية إلا بناءً على عقد محدد المدة، وينص على عقوبات جزائية .. فلم يعد يكفي أن يكون المرء منتمياً للحزب ، أو عضواً بالانتخاب في مستوياته القيادية ، مادامت «الدائرة الحديدية» - التي سلفت الإشارة إليها - قد أغلقت دونه!!. وعندئذ يستوى أن يقال أو يستقيل أو «يستقال» .. وهذا ماحدث . والله على ماكتبت شهيد.

جــزء خـــاص

الصحافة الحزبيـة

شهادتى

عن ١٥ عاما فى جريدة الـوفد

انعـدام الهـيكل المالى والإدارى أكبر مشكلة تواجـه رئيس التحرير

بقلم : جمال بدوى


جمال بدوى


فؤاد سراج الدين

لم تكن الأحزاب السياسية في العصر الليبرالى (١٩٠٧ - ١٩٥٢) تملك صحفا، وإنما كـانت ملكيـة الصحف لأفـراد أو لشركات يقيمها أثرياء ينتمون إلى الحزب، فجريدة «المؤيد» كان يملكها الشيخ على يوسف قبل سبعة عشر عاما من قيام حزب الإصلاح ، و«الجريدة» كانت ملك شركة تضم كبار الملاك فى حزب الأمـة، وقبل ثورة ١٩٥٢ لم يكن حزب الوفد يملك صحفا ، «فالبلاغ» ملكية عبد القادر حمزة باشا ، و«كوكب الشرق» ملكية أحمد حافظ عوض، و«روزاليوسف» ملكية السيدة فاطمة اليوسف، و«المصرى» آلت ملكيتها إلى أسرة أبو الفتح، وجريدة «الوفد المصرى» كان يملكها حامد طلبة صقر.

ولم تبدأ ظاهرة ملكية الأحزاب للصحف إلا بعد صدور قانون الأحزاب الذى أصدره الرئيس الراحل أنور السادات، وأباح للأحزاب أن تصدر ما تشاء من صحف ومجلات دون حد أقصى. فأصدر حزب الأحرار صحيفته، وصدرت «الأهالى» عن حزب التجمع، وفى عام ١٩٨٤ أصدر حزب الوفد صحيفته الأسبوعية التى تحولت إلى يومية فى ١٩٨٧ . وكان لى شرف المساهمة فى إعدادها مع الزميل الراحل مصطفى شردى، وإذا كانت الأحزاب قد أفادت من حرية الإصدار ، فإن بعضها أساء استخدام هذا الحق بالمتاجرة فى الرخص الصحفية، أما حزب الوفد فقد برىء من هذا المسلك المشين مع الإفادة من حرية الاصدار فأصدر العديد من الصحف المحلية فى المحافظات والتى تحمل اسم «الوفد» وساهمت مساهمة جيدة فى ازدهار الصحافة الإقليمية.

ولا شك أن صدور جريدة «الوفد» المملوكة للحزب أتاح له فرصة التعبير عن توجهاته السياسية فى حرية خالية من هيمنة أصحاب الصحف، كما كان الحال قبل ثورة يوليه، مما أدى إلى انشقاق بعض أصحاب هذه الصحف عندما اختلفوا مع زعامة الحزب وهو ما حدث للبلاغ وروز اليوسف، وإن كان بعض هذه الصحف ظل على ولائه للحزب رغم اختلافه فى بعض سياساته العامة. وأبرز مثل على ذلك موقف جريدة «المصرى» من مشروع فرض الرقابة على أبناء القصر ، الذى تبناه الحزب، وعارضه أحمد أبوالفتح معارضة عنيفة أدت إلى وأد المشروع قبل أن يولد .

علاقة الجريدة بالحزب

طوال خمسة عشر عاماً عشتها فى جريدة الوفد، مديرا ثم رئيسا للتحرير ، كانت العلاقة بين الجريدة وبين رئيس الحزب – المرحوم فؤاد باشا سراج الدين – يغلب عليها الانسجام والتفهم والثقة التامة، ولم يكن رئيس الحزب يتدخل فى شئون التحرير إلا فيما ندر، وكان هذا التفهم يتم عبر لقاءات منتظمة فى مكتبه أو فى بيته أو عن طريق التليفون، وكان سراج الدين يعطى رئيس التحرير حرية شبه مطلقة فى الاشراف على شئون التحرير، وكان يقرأ المقال الافتتاحى – شأن أى قارىء – فيرى فيه تعبيرا صحيحا عن سياسة الحزب . وعلى هذا المنهج خاضت الجريدة كل معاركها السياسية والحزبية والعربية.

أما تدخل سراج الدين فى شئون التحرير، فلم يكن يحدث إلا نتيجة ضغوط هائلة من جانب عناصر شديدة التأثير عليه، ولعل أبرز مثل على ذلك أنه منع نشر مقال كتبه الأستاذ محمد حسنين هيكل – بموافقة مسبقة من سراج الدين – تصدى فيه لمشروع عقد مؤتمر يبحث فى شئون الأقليات المصرية (الأقباط والنوبة) فاضطر هيكل إلى نشره فى «الأهرام». وكان من نتيجته إلغاء المؤتمر المشبوه ، وخسر الوفد معركة كان يجب أن تضاف إلى رصيده التاريخى فى

الحفاظ على الوحدة الوطنية .

مشكلة الشئون المالية

أما المشكلة الرئيسية التي كانت تنغص على رئيس التحرير، فهي سلطة الاشراف على النواحي المالية والإدارية ، ورغم أن اسم (فؤاد سراج الدين) كان مقرونا بوصفه رئيسا لمجلس الإدارة، إلا أن هذه الصفة كانت صورية، ولم يوجد لمجلس الإدارة كيان على الإطلاق، وبقيت جميع هذه السلطات مركزة في يد رئيس الحزب، فهو المهيمن على كل كبيرة وصغيرة ويراجع بنفسه كل تصرف مالي مهما قل شأنه، فيحذفه أو يعدله ، وكان من شأن التركيز أن يؤدي إلى تقييد حرية رئيس التحرير في إدارة شئون الجريدة بدءا من تعيين المحررين وترقياتهم وعلاواتهم وانتهاء بصرف بدلات السفر المقررة لهم وفق نظام العمل، أو الاشراف الطبي عليهم خارج نظام التأمين الصحي الذي كان يتحرج منه المحررون . أضف إلى هذا حرمان المحررين من الميزات التي يتمتع بها زملاؤهم في الصحف الأخرى مثل الأرباح. أو حقهم في تشكيل لجنة نقابية كما يقضي بذلك القانون . أو إرغامهم على دفع إتاوات باهظة - بالدولار - بدون إيصال ، مقابل حصولهم على إجازات بدون مرتب للعمل في البلاد العربية .

عمال وشغيلة

ولم تكن سنوات عملي في الوفد تخلو من مناوشات مع بعض أعضاء الحزب، صحيح أن الشعور العام داخل الحزب كان يقوم على التأييد والمساندة للجريدة باعتبارها الصوت القوي المعبر عن الحزب ، إلا أن بعض الأعضاء كانوا يضمرون الكراهية للجريدة للسبب نفسه، ثم تزداد حدة الكراهية مع ترديد مقولة «إن الوفد صحيفة وليس حزباً»، وكانت هذه المقولة تأتي بنتائج عكسية تتمثل في الإساءة إلى جهاز التحرير، واعتبار المحررين - بدءا من رئيس التحرير - ليسوا أكثر من شغيلة أو عمال يتقاضون أجورهم وما عليهم إلا السمع والطاعة ، أو أنهم مستوفدون .. وليسوا وفديين أصلاء، والحق أن فؤاد سراج الدين كان يتصدى لهذه النغمات الشاذة ، ويحسمها بما لديه من قوة التأثير على الحزب والجريدة .

محرمات ..

وفي ختام شهادتي أقول إن أعوص مشكلة كانت تواجه رئيس التحرير هي : انعدام الهيكل المالي والإداري للجريدة ، وتركيزها في يد رئيس مجلس الإدارة بدون مجلس إدارة، مما أدى إلى انفراده بإدارة الشئون المالية بطريقة مغلقة عن طريق عدد محدود جدا من العناصر التي تحتفظ بكل أسرار الشئون المالية وكأنها كهنوت يحرم على غيرهم الاطلاع عليها بمن فيهم رئيس التحرير، أو أية قيادة في الحزب مهما علا مقامها، ولم يكن أحد يعرف - أو يجرؤ على السؤال - عن ميزانية الجريدة ومكاسبها .. أو يطلع على وجوه الانفاق على أشياء لا علاقة لها بالجريدة من قريب أو من بعيد.

صالون الشباب ٢٠٠٠

بين لغة الواقع وافتعال الحداثة

بقلم: د. صبرى منصور

اكتسب معرض صالون الشباب السنوى للفنون التشكيلية خلال السنوات السابقة أهمية واضحة، فمن خلاله نستطيع أن نرى بعض ملامح مستقبل الفن التشكيلى فى مصر، وإلى أين يتجه.

ويعطى صالون الشباب فى دورته الثانية عشرة انطباعا للمشاهد بالتوازن بين الاتجاهات والأساليب، سواء تلك التى تعتمد على لغة الواقع ومفرداته فى صياغة فنية جديدة، أو تلك الاتجاهات التى تستهدف التجريب والتغريب والخروج على المألوف، والأعمال المعروضة فى كلا الاتجاهين تعكس فى مجملها محاولات جادة فى البحث عن ملامح ذاتية لم تتضح معالمها بعد، فهى إما تجاهد فى التخلص من جذور أكاديمية، أو تحاول الفكاك من أسر التيارات الغربية التى تسير على منوالها.

◀ مصريتان (٢) للفنان إبراهيم الدسوقى
جائزة أولى تصوير



انقطاع الصلة بالماضي

ولعل أهم ما يلفت الانتباه في صالون الشباب هذا العام وما سبقه من دورات، ظاهرة تدعونا إلي التنبيه لها، وهى أن ابداع الشباب جاء منقطع الصلة بابداع أجيال سابقة مهدت الطريق لتحقيق ذاتية الفن المصرى المعاصر، ووضعت فى بنائه لبنات يجب أن تستكملها الأجيال اللاحقة، إذ أنه بدون وجود هذا التواصل لن نحلم أبدا بفن مصرى له ايقاعه الخاص المختلف عن فنون العالم، ويبدو أن الشباب لا يدرك أن الابداع الفنى فى وطن ما يجب أن يأتى متماسك الحلقات ليربط بين ماضيه وحاضره فى وحدة متجانسة، فليس هناك فن ينشأ من فراغ، أو يقوم مستقلا مكتفيا بذاته، فكل عمل ابداعى له أصوله التى يعتمد عليها، وربما كانت تلك اشكالية لم يكابدها جيل شباب الصالون الذين نضجوا خلال سنوات توارت فيها قيم أصيلة، وسادها نوع من البلبلة الثقافية والتشتت الفكرى، كما ساهم غياب التقييم النقدى السليم والموضوعى للابداع التشكيلى فى اختلاط المزيف بالأصيل، والجاد بالسطحى التافه. وذلك بالاضافة الى مفهوم خاطىء روجت له بعض الدوائر التى يهمها زيادة اللبس فى حياتنا الثقافية، ذلك المفهوم الذى يدعو الشباب الى التمرد والثورة على التقاليد، وتكريس مبدأ الحرية المطلقة فى التعبير بأى شكل وعن طريق أية خامة، ومع التقدير الخاطىء لأعمال اعتمدت على البدع والطرائف التى وصلت فى بعض الدورات الى أن يتقدم أحد الفنانين الشبان بعمل فنى باستخدام عظام ميت، كل ذلك ساهم فى توجيه الشباب نحو الاتجاه الخاطىء بالانسلاخ من تاريخهم وتراثهم والدوران فى فلك لا يؤدى الى نتيجة أو قيمة فنية عالية، كما صرف انتباههم عن دورهم الحقيقى فى استخدام ملكاتهم ومواهبهم الفنية من أجل استكمال حلقات الفن المصرى المرتبط بالوطن والمعبر عن قضاياه وعن تجسيد روح البلاد ووجدانها.

التقنية الفنية

ومن الظواهر الملفتة فى صالون الشباب تلك القدرة الحرفية العالية والمهارة المتميزة فى الاداء الفنى والسيطرة على الأدوات الفنية التى تتضح فى المعالجات الفنية المتميزة والحساسية المرهفة ، وتلك كلها أسس مهمة فى بناء العمل الفنى، وقد جاء ذلك على حساب مضمون الأعمال ومحتواها الثقافى، فأصبحت تبدو وكأنها استعراض للحرفية الفنية التى تخلو من المعنى وتفتقد الرسالة التى يجب أن يحملها العمل الفنى للمشاهد كى يتم التواصل معه

ويؤدى الأثر المنشـود، وربما كـانت تلك الظاهرة طبيـعية فى فترة سنيـة مـازالت تحتاج الى بلورة الرؤى واستكمال عناصر الشخصية، ومع ذلك فانه يحسن التأكيد على ضرورة اهتمام الشباب بالبعد الثقافى فى ابداعهم بتقديم رؤى يتكامل فيها الشكل الجيد بالمضمون العميق.

نماذج جادة

وعديدة هى الأعمال التى تنبيء عن موهبة حقيقية كما تعكس فى الوقت نفسه جدية فى تناول العمل الفنى، وجهادا من أجل تحقيق مستوى فنى رفيع. ومن بين تلك الأعمال لوحات الفنان **ابراهيم الدسوقي** الذى يعتمد أسلوبه على الشكل الواقعى الذى يستخرج منه امكانيات تعبيرية قوية من خلال معالجة فنية خاصة تنمو وتتطور فى خط صاعد، وهو فى أعماله يقدم المثل على قدرة الصورة الواقعية التى لا تنضب على التعبير الفنى، وهو فى هذا ينازل اتجاها يعتبر الأسلوب الواقعى قد انتهى زمنه، وهى نظرية خاطئة يروج لها أولئك الذين لا يعرفون حتى كيف يمسكون القلم .

ويقدم الخزاف **منصور فرج** عالما سحريا مكونا من أشكال خزفية عديدة تبدو كحفائر أثرية، أو صخور متاكلة بفعل مرور الزمن، واستطاع أن يجسد من خلال فن الخزف عالما اسطورى الطابع، وإن عابته رغبة فى مسايرة التغريب وذلك من خلال أشكال مدلاة قللت من جمال العمل وتكامله وأفسدت وحدته وشتت العين عن الاستغراق فى ذلك العالم الخيالى الجميل.

ويعرض **المثال عصام درويش** شكلا نجتيا طوليا أجاد فيه الانتقال الهادىء للظلال والاضواء فى حوار فنى بليغ، وقد استطاع التعامل مع الكتل النحتية المتشابهة باحساس فنى دقيق .

وتمتلك الرسامة **فاطمة عبدالرحمن** فى أعمالها المعروضة حساسية فنية مرهفة فى فن الرسم، وتجيد السيطرة على ريشتها التى تنتقل بها فى أجواء غامضة خالقة أشكالاً تتسم بالغرابة والخيال، ولعلها تستفيد من أدائها المتمكن فى صياغة رؤى أكثر تركيبا وثراء .

وتعكس لوحة **مي رفقي** إمكانية مختلفة فى معالجة الشكل الواقعى باحساس فنى مرهف، وفى صياغة فنية حديثة تعتمد على معالجة الفراغ المحيط بالأشكال بأسلوب غير تقليدى.

فى لوحته الثلاثية يقدم **يوسف نبيل راغب** اشكالا تعبيرية لم تسلم من المؤثرات الغربية، وان كانت تنم فى الوقت نفسه عن موهبة الفنان ورقة حسه الفنى



الجائزة التشجيعية فى التصوير - مى مصطفى رفقى

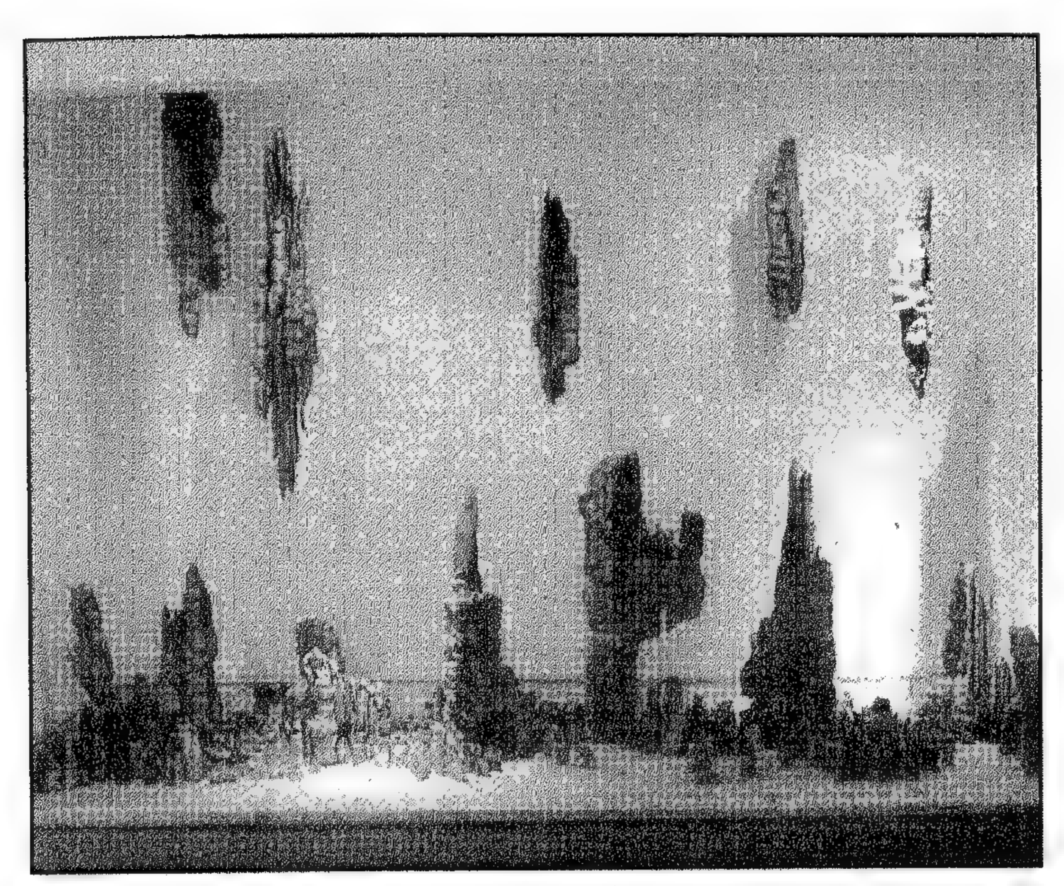
وشحنته العاطفية الصادقة التى تنطق بها أشكاله الدرامية .

الشباب ودائرة الاهتمام

سيظل الفن التشكيلى فى مصر معزولا عن المجتمع والجماهير لفترة طويلة من الزمن لأسباب عديدة وعوامل متشابكة ساهمت فى انصراف المصريين عن تذوق الفن التشكيلى وتقديره حق قدره بين باقى الفنون، لذلك فإن دائرة الاهتمام بابداع الشباب هى دائرة محدودة لا تتعدى الدارسين والمتخصصين، ومن هنا فانه يجب الحرص على تقديم الرعاية الكاملة لهؤلاء المبدعين وتشجيعهم على مواصلة الانتاج الفنى ، وأن نعوضهم عن انصراف

الجائزة الثانية نحت - الفنان عصام درويش





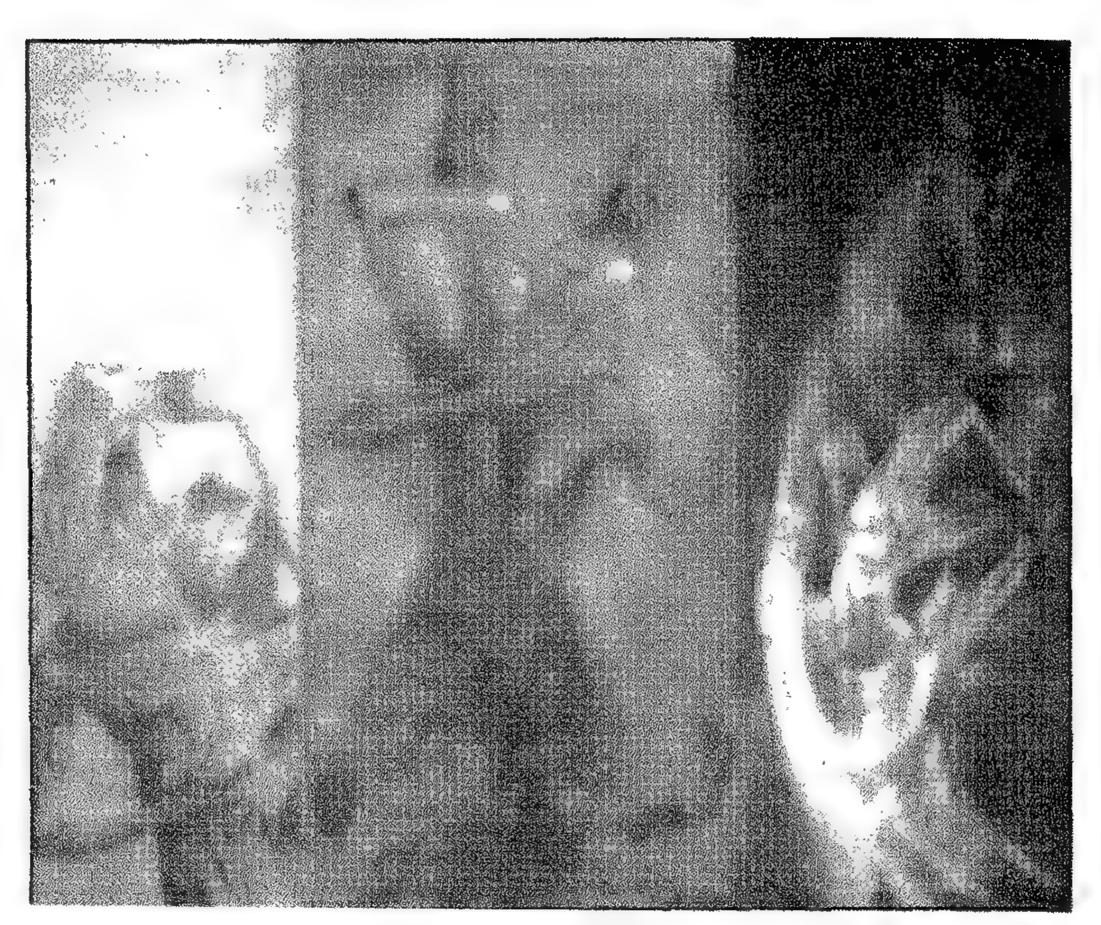
الجائزة الثانية ـ خزف ـ منصور فراج

المجتمع عن ابداعهم وعدم تقديره بالشكل الملائم، الذى يكفل استمرارية تجربتهم الفنية وانضاجها والوصول بها الى المستوى الذى نرجوه جميعا للفن المصرى المعاصر، الذى سيظل ـ رغم كل شيء ـ دليلا على قدرة المصريين الابداعية فى مجال فنى دقيق لم يكد يبدأونه إلا منذ حوالى مائة عام فقط .

دعوة للتقييم

وعلى قدر الهدف النبيل الذى نرجو أن يحققه صالون الشباب فاننا ندعو المركز القومى للفنون التشكيلية لطرح القضايا التى تثير الجدل من حوله، ودراسة بعض السلبيات التى تفقده بعضا من بريقه، ومن بينها مشكلة تكوين لجان التحكيم ومنح الجوائز، وتلك مشكلة فى مصر عموما حيث يفتقد معظم الناس الموضوعية، ويتأثرون بالعوامل الشخصية والعاطفية مما يخل بميزان العدالة.

ونظرة واحدة الى العديد من الجوائز التى تمنح فى مجالات عديدة بما فيها جوائز الدولة سوف توضح اننا لازلنا بعيدين عن التجرد والموضوعية ، وصحيح أن منح الجوائز للبعض وحجبها عن البعض الآخر سوف يظل مثيرا للجدل واختلاف الآراء، ولكن تلك عملية نسبية يجب أن تتم محاصرتها بقدر الامكان



تصوير للفنان يوسف نبيل راغب

وذلك عن طريق الانتقاء الدقيق لأعضاء لجان التحكيم الذين يمتلكون الخبرة الكافية للتقييم ويتمتعون فى الوقت نفسه بالحيدة والموضوعية.

كما يمكن النظر فى تعديل دورات اقامة الصالون ليكون موعده كل سنتين بدلا من الصالون السنوى حتى يمكن اتاحة الوقت الكافى للشباب من اجل الانتاج الفنى المتمهل بدلا من اللهاث والعجلة التى تفرز اعمالا متسرعة غير ناضجة للحاق بالموعد السنوى .

أما الجوائز العديدة التي يتوه فيها المشاهد ويتحير بين مسمياتها المتنوعة فهى فى حاجة الي اعادة نظر كى تحقق الهدف المرجو منها .

وكذلك فإن أعمال الفنانين المشاركين كان يجب تضمينها دليل المعرض فهو الوثيقة الباقية التى ستكون ذات فائدة محققة بعد انتهاء المعرض ومرور السنين.

كل تلك عوامل يمكن أن تجد الحل المناسب لكى نوفر لصالون الشباب السنوى نجاحا أكبر ونهيىء له امكانية أفضل للقيام بدور اكثر ايجابية فى الحركة الفنية التشكيلية المعاصرة .



الاسرة الخامسة تمثال (كا اير) شيخ البلد ـ خشب عيون كريستال.

العيون الفرعونية

● اذا فتحت عينيها يعود الي جسدي شبابه

● نظرات أبدية انتظمت بها حبات مسبحة الفنون المصرية

بقلم : د. محمد المهدى



عيون خفرع - حجر ديوريت (الاسرة الرابعة)

حينما تصيب الانسان الدهشة، تتعلق العيون فى خط مستقيم.. خط لا نهائى.. أبدى، أزلى.. هكذا كانت العيون المصرية، تأمل فى عيون تماثيل الفراعنة، ستعرف لماذا حنط المصرى الجثة؟ لماذا أحاطها بمظاهر الحياة اليومية؟ لماذا أبدع فنونه وأساطيره فى مقابره ومعابده؟ لماذا أيضا أمتع يومه،، وأحب غده، وأبدع شعرا حسيا عذريا فى آن؟ يقول شاعر مصرى قديم :

فإذا فتحت عينيها يعود الي جسدي شبابه

ولكن لماذا التحنيط والأدوات البسيطة فقط؟ لماذا لا يجعل الحضور كاملا لشخص المتوفى؟ لماذا لا يرسمه على جدران مقبرته بملامح ثابتة غير معرضة لانفعال مؤقت؟

امتدت الأيدى الى جدران المقابر تضع الخطوط الأولى للفن المصرى ولأن الزمن عند المصرى القديم أبدى ومستمر . فالماضى والحاضر والمستقبل حاضر مادام البعث سيستمر بالحياة، لذلك جاءت ملامح الرسوم تجريدية أبدية .

وتأمل تمثالا يونانيا الى جوار تمثال مصرى، الأولى يجسب الزمن وبالتالى عند التسجيل يوقفه. يوقف الملامح بانفعال مؤقت.. غضب. حزن، فرح ولكن التمثال المصرى يجعل فروق انفعاله طفيفة. تأمل تمثال «ميلو» اليونانى المبتور الذراعين، وقارنه بتمثال «نفرتارى» المصرى، تلحظ الفارق بسهولة بين اللمسة الفنية لدى كل من الفنان اليونانى

والمصرى القديم. الأول يعمد الى تقليد الطبيعة فى مثالية النسب والأبعاد، والمصرى القديم يعمد الى تحدى الطبيعة ليصور فى خطوط بسيطة عالما خاصا به، وبتصوراته الخارجة عن الطبيعة .

وليست هذه مفاضلة حضارية، ولكن مقارنة ندرك منها أبعاد الخطوط الأنثوية البسيطة على (جسد) التمثال المصرى القديم .

رسم العين

الفنان المصرى كان يوقف خطوط الطبيعة بطريقته ومن خلال فكره، وأفضل طريقة اكتشفها لذلك هو رسم جانبى للوجه فى لحظة ثبات (بروفيل)، ثم صدر مفتوح باتساعه كاملا مع اظهار اليدين وما تحملان، ووضع شبه جانبى للوسط، ثم يعود عند الساقين الى الوضع الجانبى الكامل. وتبقى أهم مرحلة للحضور واكتمال الهيئة وهى رسم العين. فاذا كان الوجه جانبيا فالعين ـ غافلا المنظور ـ تبدو كاملة من الامام. متسعة. محدقة. تمتد فى هدوء المتصوف وتحديه الى الأبدية. تستعد أيضا اكتمالا لفكر الفنان لالتقاط الروح الباحثة عن صاحبها . لا تضيع فى البحث عنه بين انفعالات مؤقتة آنية ، زائلة .

وتأمل لوحة الفنان (جوجان) المعروفة باسم (السوق) ستجد هذه المعالجة الخاصة، ولكن من خلال دراسة وخبرة فنان فرد، فنان قرأ القديم والحديث وزاوج بينهما.. وتأمل بعض أعمال (بيكاسو). ستجد التحضير الجانبى للوجه (البروفيل) بطريقة متعمدة، ستجد العين المتسعة الكاملة الحضور تتحدى المنظور الجانبى .

وتأمل فى عيون تماثيل المصرى القديم فى الأسرات الأولى، ستلحظ هذه النظرة المحدقة «المحايدة». عيون تمثال (خفرع)، ذات الهدوء والسيادة فى نظرات مستقيمة، أو فى تمثال (نفرت ورع حتب) المصنوعة من أحجار الكريستال النادرة، أو عينى تمثال (شيخ البلد) المطعمتين، حافتهما من النحاس، وبياضهما من الكوارتز الشفاف، وقرنيتاهما من البللور الطبيعى، وانسان العين يتألف من ثقب صغير أسطوانى مجوف خلف القرنية، وقد حشى بمادة سوداء يرجح أنها من الراتنج .

وبعد هذا الجهد فى تكوين العين والعناية بها ، تأتى النظرة محدقة أبدية، نظرة مقصودة. كل الجهد موجه لها ، كل الخبرة كانت من أجلها. خبرة التاريخ، وخبرة الفرد .

واذا أدار رأسك مخزن الفنون أو ما يعرف بالمتحف المصرى فى تأمل نظرات المصريين القدماء، فيمكنك أن

تكتفى بنظرة لتمثال ضخم قيل انك تستطيع ان تتمشى على شفتيه، تأمل عينى تمثال (أبو الهول) فانها أيضا عينا (خفرع). وعينا الفن المصرى القديم .

عيون السماء

الفلاح المصرى البسيط جاء عليه يوم احتاج لمعونة جاره. واحتاج اليه جاره، التقى الرفيقان بغيرهما، وتكونت الجماعة في الجنوب، عرفت الزعامة وخرجت تبسط فى الأرض سلطانها. وفى الشمال كانت هناك جماعة أخرى كونتها أيضا ضرورة التعاون. تحركت الجماعتان. اقتربتا. اشتبكتا. قام الصراع. وانزوى فى ركن بعيد رجال صلع الرءوس عرفوا بالكهنة، يفكرون فى أفضل الحلول لايقاف القتال بهدف خبيث. هب أحدهم قائلا : إن الملك اله. إنه فوق البشر. فوق الصراع.. وتوقف القتال .

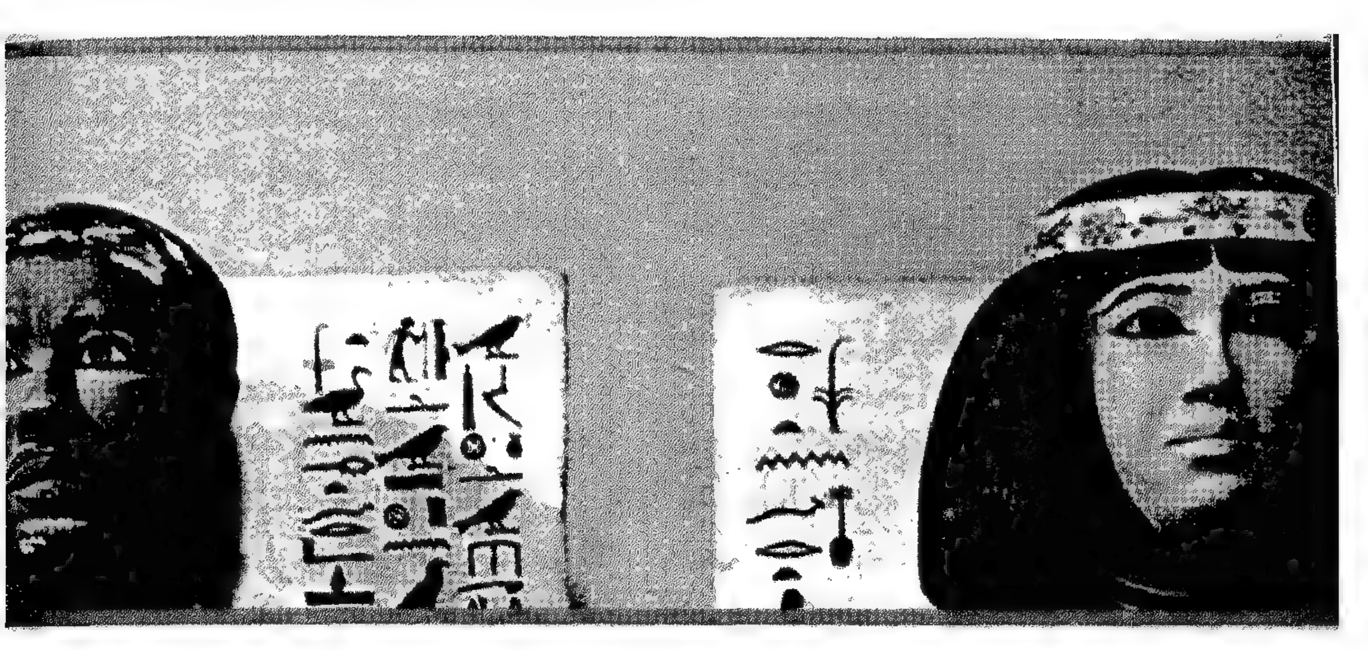
فى حالة السلم بحث الكهنة للملك عن طقوس، وأسرار، وأساطير يتحاشون بها تمرد البشر. تطلعوا الى السماء. بحثوا عن عينيها. انتهوا الى ان الإله (حور) رب السماء عيناه الشمس والقمر، وحاول كهنة عين شمس الاحتفاظ بمكانة الههم (رع) فوزعوا الأعين. اختص (حور) بعينى (قمر) ، و(رع) بعينى (شمس) .

وعندما انتقل اوزيريس الى العالم السفلى بعد صراعه مع أخيه (ست) بكته (ايزيس) بدموع غزيرة، تساقطت فى النيل.. فاضت.. أغرقت الأرض.. وكان الفيضان. واحتفل المصرى بعيد (ليلة الدموع) فى شهر يونيو. اما (حور) ابنها فقد جدد الصراع مع عمه، تمكن (ست) الغاضب من نزع عينه، ولكنه استرجعها وقدمها لأبيه ليسترجع بصره، أصبحت العين عند المصرى القديم رمزا لكل قربان جميل، وهدية غالية تقدم للمتوفى .

عيون العفة

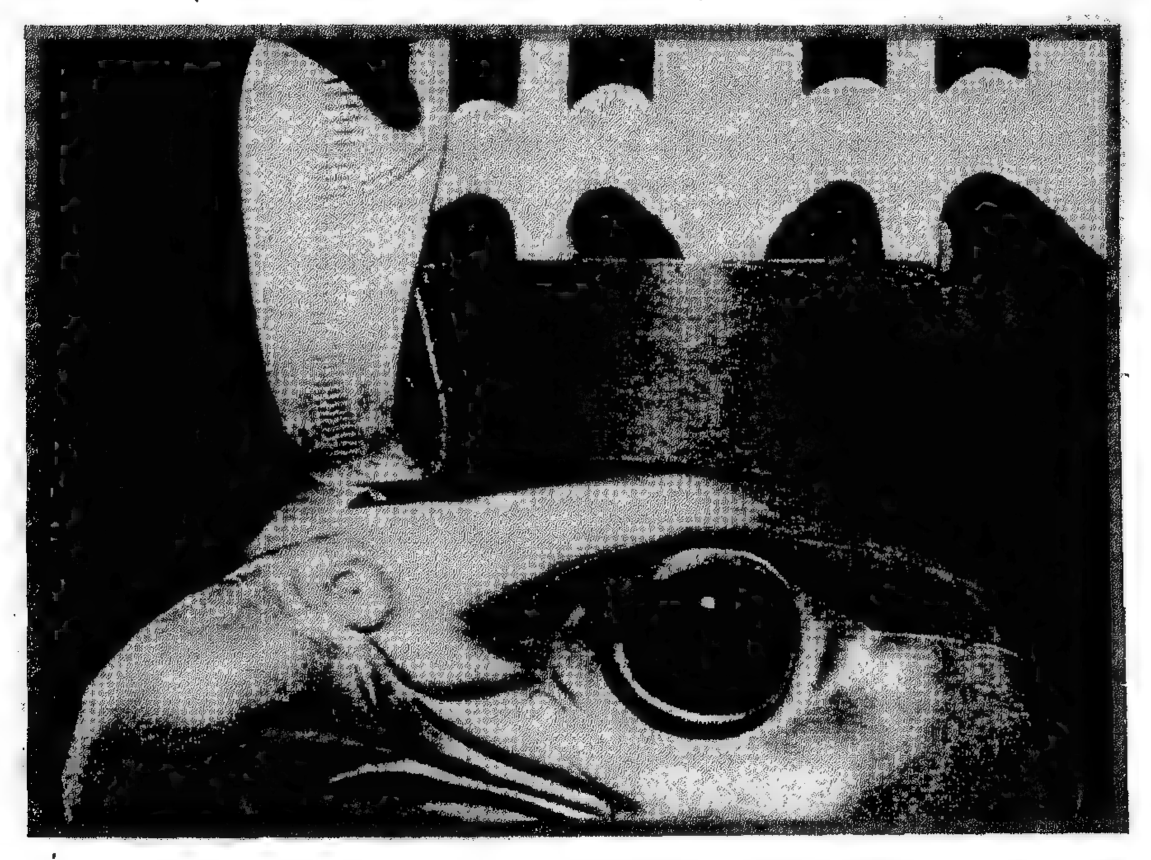
عيون ايزيس وأوزيريس. عيون الآلهة. عيون الأخوة أيضا. هكذا اقتضت عقائد القدماء، زواج الأخوة الآلهة، وزواج الأخوة الملوك حتى تصفو الدماء من ملوثات البيئة البشرية. ويقول خبراء الفرعونيات : انه لم يثبت لدينا الى الآن ان عادة زواج الأخوة كانت شائعة بين عامة الناس، ولكن ذلك لم يمنع عبارات الأخوة متبادلة فى حوار أو بيت شعر موجه من الزوجة للزوج أو العكس .

علاقات الأخوة بمعناها الانسانى بين الزوج والزوجة اعطت فرصة للفنان لرسم عيون (العفة) . عيون الوقار. الزوجة فى بيتها تسمى (بنت/ بر) أى سيدة البيت. وفى قبور العامة كانت الزوجة ترسم بنفس حجم زوجها. تلون بلون فاتح ضارب الى الصفرة، بينما



نفرت ورع حتب - اول الاسرة الرابعة

رأس النسر رمز الإله حورس من الذهب القرن ٢٣ ق . م





لوحة السوق (جوجان) - ١٨٩٢)



اخناتون ١٤ ق.م

يصور الرجل بلون ضارب الى الحمرة. وكان للفنان فلتاته حتى فى رسم الوقار الملكي، تأمل نظرات (توت عنخ آمون) فى الصورة المرسومة خلف مقعده. تأمل نظرات زوجته وهى تقترب من الملك الجالس بلا تكلف، فى احدى يديها اناء عطر، تأخذ منه باليد الأخرى لتلمس به كتف زوجها برقة. ومن اشهر الصور ايضا صورة اخناتون الملك الحالم.. الزوج، والزوجة والأولاد تجمعهم نظرات دافئة تحت أشعة قرص الشمس (اتون) .

وغريبة هذه الصلة التى ماتزال تربط بين العيون ، والقطة، والمرأة، الفنان المصرى القديم اهتم بعيون القطة خاصة فى منحوتاته الشهيرة. عيون القطة تتدرج بشروق الشمس الوانا الى أن يظهر القمر. لقد انزلوا عيون السماء ووضعوها فى عيون المعبودة القطة (باستت) .

مقدمات اخناتونية

ومنذ أكثر من ثلاثة آلاف عام خرج (اخناتون) الى الخلاء بحثا عن (ماعت) الحقيقة . تعارك مع والديه . اقام الدنيا، واقعدها. ترك طيبة واقام مدينته الجديدة فى (تل العمارنة) .

وحينما تتأمل عيون اخناتون ستلحظ شيئا جديدا . لقد انسحبت الخطوط الى اعلى مع الحواجب، وضاقت فى غموض اشبه باللوز وبالتالى صاحب ضرورة التكوين الجمالى للوجه انسحاب الخطوط لاسفل فى ضمور. خدود غائرة. ذقن بارز. غلظ بالشفتين .

واذا كان اخناتون قد أتى بجديد فى طرح فكرة التوحيد، فإنه لم يكن من العبقرية ليحدث انقلابا فى الابداع الفني. مقدمات التغيير الفنى كانت قد اعدت على يد الفنان من قبل . ونرجع فى ذلك الى والدى اخناتون نفسه. تستطيع ان تلتقى بهما فى مدخل المتحف المصرى فى تمثالين ضخمين يجلسان حقيقة فى وقار، ولكن فى عيونهما لمحة (لوزية) اخناتونية قبل الأوان. وأوضح من هذين التمثالين، هناك رأس (امنحوتب) الثالث والد اخناتون و (تى) والدته. فى عيونهما مقدمات انسحاب الخطوط الى اعلى ، وبقية خطوط وجه الوالد من أنف وشفتين، وذقن تحمل ملامح الابن، ولكن بغير المبالغة الاخناتونية.

العيون الحرة

ويقال ان عصر الدولة الحديثة كان أيضا عصر عيون المرأة الحرة. يحدثنا موظف اسمه (خنوم ردى) أنه كان أمينا لمكتبة سيدة عظيمة تدعى (نفرو كابيت) .. يقول (هذه السيدة عينتنى فى دندرة مشرفا على خزائن الكتب الخاصة بأمها. كانت مولعة بالعلوم والفنون. وقد زدت فى عدد ما

تحويه المكتبة من كتب. وجلبت لها كثيرا من المؤلفات القيمة حتى لم تعد تتسع لأكثر من ذلك. وقمت بترتيبها أحسن ترتيب، وربطت ما كان منها مفككا).

فى هذه الفترة نلحظ حرية الفنان فى تصوير رشاقة قد المرأة.. خفة حركتها، تارة تسبح بين زهور اللوتس، ونبات البردى، كما يصور لنا منظرا لإحدى السيدات وهى تستحم على أحد جدران مقابر طيبة. وتارة تلعب الكرة كما فى مناظر بنى حسن من الدولة الوسطى، وهناك لوحة شهيرة تجدها دائما فى العاب الاولمبياد تصور مجموعة من الفتيات وهن ينثنين بأجسامهن الى الخلف حتى يكون نصف دائرة على الارض، ويلمسنها باطراف اصابع اليدين والقدمين.

المرأة الحرة صارت عيونها جريئة فى التصوير وفى الواقع. صار من حقها طلب الطلاق. تمتعت بحق الامتلاك. والبيع والشراء وأداء الشهادة.. وميراث العرش .

عيون هذه المرحلة واثقة قوية. لقد اتسعت رقعة الدولة. تمتعت بالثراء. أرخى الثراء أحيانا يد الفنان يصور الترف فى خطوط لينة. كان طبيعيا أن تستمر خطورط الفنان المصرى بعد اخناتون فى سيرها الطبيعى. تأمل نظرات (توت عنخ آمون). تأمل الحواجب والجفون المرصعة باللازود تراها تخدم الاتجاه القديم. وكان النصر الذى حصل عليه الفنان باختراق السياج الملكى والدخول الى جلساته العائلية ليسجلها، يخدم الاتجاه الجديد.

فى عصر العظمة الحربية..فى عصر الرمامسة (جمع رمسيس) كان الاهتمام بالضخامة يماثل ضخامة الاحداث. فى معاقد الرمسيوم، والكرنك ، والاقصر، ومنف ، وصان الحجر. ومعبدى ابو سنمبل. تأمل نظرات رمسيس الثانى، ونفرتارى عند مدخل معبدى ابو سنمبل. لا يمكن ادراك ثابتها الا من بعد يخفف من ضخامة التمثال ويظهر ملامحه .

وتنحدر مع عصور متأخرة العيون. تحمل الهم، كفاح الغزو، غزو يونانى يليه رومانى . تصيب الحواجب التقطيب. تحيط بالعين هالة سوداء.

ويسجل الفنان المصرى القديم لأول مرة لحظة الانفعال المؤقت. لحظة المرارة. ضاعت نظرات الأبدية. نظرات تصل الأولى بالآخرة . لقد امتلأت النفوس بالشك، والعيون بأدران الواقع. كان عليها أن تنتظر فسحة جديدة من الأمل ستأتى مع الزمن .



محمد هنيدى فى بلية ودماغه العالية



هنيدى فى ثانى أفلام الثلاثية



علاء ولى الدين فى أكثر من دور



علاء يغنى فى «الناظر صلاح الدين»

السينما
بين أزمة النقد ونوم العقل

بقلم : مصطفى درويش

لكل أزمة سبب، أما أزمة السينما عندنا، فلها أسباب، أذكر من بينها على سبيل التمثيل، فقر الفكر فى السيناريوهات، ورسوخ الرقابة رسوخ الجبال، فضلا عن داء الاستسهال.

والأهم اختلاط الحابل بالنابل فى مجال النقد، على نحو أصبح معه الجيد من الأفلام رديئاً، والردىء منها جيدا. وليس أدل على استفحال خطر السبب الأخير، ذلك الغلو فى الاشادة بـ «الناظر صلاح الدين»، بواسطة أقلام نفر من النقاد.

قلم طائش

ولعل خير مثل على ذلك، ما خطّه قلم ناقد مرموق إشادة بأداء «علاء ولى الدين» لدور الأم فى الفيلم. فماذا خط قلمه، تعبيرا عما أشاد به؟.

من بين ما خطّه أنه، أى علاء، قد لعب دورها، أى الأم، باتقان يصل إلى حدّ الإعجاز. فقدم من خلالها برهانا ناصعا على قوة أدائه، ونقاء فنه.

وما علينا إلا أن نذكر بمشهد الأم الراقصة مع فتيات الباليه الروسيات، الذى وصل فيه إلى المستوى الذى وصل إليه «چاك ليمون» فى رقصة التانجو فى فيلمه الشهير أمام مارلين مونرو (يقصد «البعض يحبونها ساخنة»).

وهكذا، بسحر ساحر، ارتفعت منزلة

علاء، دون حياء، إلى منزلة نجم متعدد المواهب، تخرج فى جامعة هارفارد، وجرى ترشيحه لأوسكار أفضل ممثل ثمانى مرات، وفاز بجائزتها مرتين.

وليس من شك أن الارتفاع بمنزلة علاء على هذا النحو، لما يدخل فى باب العجب العجاب.

سرّ علاء

فلا أحد إلا ويعلم أن أداء «علاء فى جميع أفلامه السابقة على «الناظر صلاح الدين» لم ينهض على أساس أنه ممثل يؤدى الأدوار المكلف بها، بقوة ونقاء.

وإنما نهض على أساس أن الطبيعة حبته، وربما ابتلته، بصفة غير متوافرة فى غيرة من الممثلين، وتلك الصفة تنحصر فى أنه بدين.

ولأن بدانته مفرطة، استغلها المخرج «شريف عرفة»، فأسند له الدور الرئيسى فى «عبود على الحدود».

ولأمر ما، لعله بدانة «علاء»، حقق «عبود» نجاحا كبيرا، رغم هبوط مستواه فنيا.

وبفضل ذلك النجاح عاد «شريف»، فاستغل بدانة «علاء» فى فيلم ثان، عنوانه «الناظر» فى بعض النسخ، و«الناظر صلاح الدين» فى بعضها الآخر.

النسخة التى شاهدتها فى سينما مترو كانت بعنوان «الناظر صلاح الدين».

وبدلا من استغلال بدانته فى دور واحد، عمل «شريف» على استغلالها فى ستة أدوار، مقلدا بذلك «إيدى ميرفى» فى الفيلم الأمريكى «الأستاذ المجنون»، حيث لعب «ميرفى»، فيما أتذكر سبعة أدوار.

وعلى كل، فمن بين الأدوار التى لعبها «علاء» دور زوجة الناظر الأب وأرملته وأم الناظر الابن.

غياب الذوق

وقام «علاء» بأداء الأدوار الثلاثة، على نحو كان لابدّ وأن يثير اشمئزاز أى صاحب ذوق سليم.

ولا غرابة فى ألا يثير سوى الاشمئزاز، فأداؤه لم يكن انطلاقا من الفهم للشخصيات الثلاث - الزوجة والأرملة والأم - وأبعادها.

كما أنه لم يكن بذوق وليد الحياء، وإنما كان وليد فهم خاطىء، انحدر بالأداء إلى التشويح بالذراعين، والتلعيب للحاجبين، والتحريك للرأس على الجهتين، بغير قصد سوى التهريج، والكاريكاتور الرخيص.

أما الذوق المهذب، ففى ستين داهية!

مقارنة ظالمة

ولو أجرينا مقارنة بين أداء «علاء» لدور امرأة بأداء كل من السير «اليك جينيس» و«چاك ليمون» و«وداستن هوفمان» لأدوار نسائية فى «قلوب طيبة وتيجان صغيرة» و«البعض يحبونها ساخنة» و«توتسى» لجاءت المقارنة فى غير صالح «علاء» ما فى ذلك شك فما أبعد الثرى عن الثريا.

ولم يكن فى نيتى أن أجرى مقارنة بين أداء «علاء» وأداء غيره من نجوم السينما الانجليزية والأمريكية، فمثل هذه المقارنة تنطوى على ظلم بيّن لنجم مصرى، لم يزعم فى يوم من الأيام، أنه صاحب موهبة فذة فى التمثيل.

ولم يحاول أبدا أن يضع نفسه فى مصاف «چينيس»، «ليمون»، «هوفمان»، ولا حتى «ميرفى» النجم الأسود المتعدد المواهب.

وازاء هذه المقارنة الظالمة، ما عليه إلا أن يردد قولة حكيم المعرّة، مع بعض التعديل، هذا ما جناه علىّ النفاق، وما جنيت على أحد!!.

القاعدة والاستثناء

وأيا ما كان الأمر، فالناظر بدون «علاء» لا يساوى شيئا.

فقصته إن كان له قصة لا تعدو أن تكون تكرارا لمدرسة المشاغبين، تلك المسرحية التى جرى ترجمتها إلى لغة السينما، فى فيلم أخرجه حسام الدين مصطفى، فأفسد به أجيالا ورموزه فجة وغليظة فى آن معاً.

أما فن التمثيل، فقد انخفض إلى مستوى، ليس له ما تحته.

فباستثناء «حسن حسنى» الذى لم يكن فى أحسن أحواله، لم يتخلص تمثيل الجميع من داء الزعيق والتشويح.

غرائب الأفلام

ومع ذلك، فالناظر كان أنجح أفلامنا المصرية فى الصيف الأول من الألفية الثالثة، متفوقا بايراداته على «بلية ودماغه العالية»، آخر أفلام «محمد هنيدى» الذى تزامن صعوده مع صعود «علاء».

ويوحى عنوان فيلم «هنيدى» بأن موضوعه يدور حول الكيف وقعداته.

ولكن العنوانَ مضلل، فالموضوع على العكس من ذلك تماما.

ففيما عدا إغراء أحد أصدقاء «بلية» – محمد هنيدى – من حين لآخر، بشدّ بضعة أنفاس مع شلّة أنس فى قارب شراعى بالنيل، وخضوعه للإغراء، والفيلم يقترب من ختامه السعيد، حيث نراه فى القارب، وقد انطلقت حنجرته، دون أن يشدّ أى نفس، تشدو، ربما تحت تأثير النسيم العليل أو دخان أنفاس الشلّة، بكلمات أغنية الفيلم الوحيدة، ومن أهم مقاطعها «انسى وخليك ريلاكس (أى على راحتك) وابعت للدنيا فاكس».

عودة الروح

فيما عدا ذلك، جاء الفيلم، رغم ايحاءات عنوانه، خاليا من قعدات المزاج التى عانى منها جمهور السينما، زهاء ثلاثين عاما، بدءا من «ثرثرة فوق النيل» للمخرج «حسين كمال».

وأغلب الظن، أن مجيئه خاليا من مشاهد التعاطى بجميع ألوانه، وذلك فيما عدا مشهد شلة الأنس فى القارب الشراعى، إنما يرجع إلى مراعاة أصحابه تجنب المساس بشعور جمهور «هنيدى»، المكون أساسا من أسر محافظة، فقدت تحت تأثير التليفزيون، عادة مشاهدة الأفلام فى دور السينما، ولم تسترد تلك العادة إلا بفضل تعلق قلوب الصغار «بهنيدى»، منذ «اسماعيلية رايح.. جاى»، وبالتحديد أغنية «كامننا».

ثلاثية آل العدل

ويعد «بلية» الفيلم الأخير فى ثلاثية «هنيدى» مع كاتب السيناريو «مدحت العدل»، تلك الثلاثية التى بدأت، عقب نجاح «اسماعيلية رايح .. جاى» غير المتوقع، بفيلم «صعيدى فى الجامعة

الأمريكية» فـ «همام في أمستردام».

والقدر المتيقن أنه أضعف أفلام تلك الثلاثية، وأقلها نجاحا.

وفي اعتقادي أن هبوط مستواه، وما صاحب ذلك من انخفاض الاقبال على مشاهدته، وهو بكل المعايير انخفاض حاد، كلاهما يؤذن بأوخم العواقب بالنسبة لهنيدي، وذلك إذا لم يتدارك الأمر، فيعمل على مراجعة مسيرته السينمائية، صعودا وهبوطا، بأن يسائل نفسه متى وأين أخطأ، وهو أمر من الصعوبة بمكان!!.

الفشل .. لماذا؟

وفشل «بلية» يرجع في رأيي إلى تفكك سيناريو «العدل»، فهو عبارة عن قصاقيص أو لملمات، بعضها مأخوذ من أفلام مصرية قديمة، لاقت نجاحا في زمانها، وبعضها الآخر مفتعل أشد افتعال.

وهنا، أذكر على سبيل المثال مشهدين أولهما مشهد انفجار سيارة أحد زبائن الميكانيكي «بلية»، وتعرض الأخير بسبب ذلك لضرب مبرح، انتهى به مثخنا بالجراح.

ثم ذهابه، وهو على هذه الحال، إلى إحدى دور السينما، حيث كانت تنتظره محبوبته، بنت الأكابر (غادة عادل)، وخلفها شابان، يغازلانها دون حياء.

وزيادة في جرعة الاستغراب، ولا أقول الاستظراف، تطلب إلى «بلية»، دون أن تلحظ آلامه وأوجاعه الظاهرة بوضوح، أن يوسع الشابين ضربا.

أما المشهد الثاني، وهو أكثر غرابة، فيبدأ بامرأة تأمر «بلية» أن يستقل سيارتها، وهي معه، إلى حيث شقتها، فحجرة نومها، كل ذلك، وهو في حيرة من أمره، لا يعرف سببا لتصرفها معه على هذا النحو.

وماهي إلا بضع لقطات، بعد وجوده في غرفة النوم حتى يكتشف أنها لم تصطحبه إلى غرفة النوم، إلا لإثارة غيرة زوجها، أو ربما عشيقها.

وها هو ذا، يطارده، وقد استبد به الغضب لشرفه المهان، حتى ينتهي به الأمر مضروبا، مرة أخرى، ضربا موجعا.

أين العقل؟

ومن مظاهر تفكك السيناريو على نحو غير مسبوق بالنسبة لكاتب سيناريو مرموق مثل «العدل»، ذهاب بلية إلى حبيبة قلبه، ومعه وثائق دامغة لسلوك خطيبها ابن الذوات (أحمد زاهر)، لو ألقت نظرة عليها لفسخت خطبتها في ثوان.

غير أنها ما أن صدّته، حتى تركها محبطا، مكتئبا، دون أن يطلعها على تلك الوثائق.

ولقد اتخذ «العدل»، ومعه المخرج المخضرم «نادر جلال» من إصابة «بلية» بالاحباط والاكتئاب ذريعة للذهاب به إلى غرزة المركب الشراعي، حيث غنى، متسائلا «هل الدنيا من الدناوة، ولا من الضنى» ورداً على تساؤل العدل نقول إنه، ورغم فيلمه، فالدنيا ليست من الدناوة، ولا من الضنى، الدنيا بخير!!.



لقطة من تجريبى هذا العام

المسرح التقريبى

بقلم :مهدى الحسينى

تقريبا .. هى اللفظة التى تدور فى ذهن كثير من المتحدثين - حتى ولو كانوا من المتخصصين جدا - فى هذا الموضوع . وتقرب إلى ذهنى ما يدور فى تلك الندوات التنظيرية التى عقدها المهرجان فى كل دوراته ، صورة تلك المجامع العلمية بعد انهيار مدرسة الاسكندرية ، خاصة فى العصور الوسطى ، لدراسة السيمياء والبحث عن حجر الفلاسفة ومحاولة تحويل الحديد إلى ذهب .. والرصاص أو الفحم إلى ماس ، وسبل استخراج الشياطين من أجساد المخابيل !!.

ويدهشني اليقين والحماس الذي يتحدث به البعض في هذا الموضوع ، وكأن هذا المسرح (التجريبي) هو الاقتراح الفذ الأوحد الذي يقترحونه على البشرية لتجد فيه متعة لا مثيل لها ، ولتصبح عروضه هي عروض القرن الجديد .. بل والقرون التي تليه .

ومنذ الدورة الأولى يأتي إلى القاهرة عديد من المنظرين والأكاديميين والفنانين والنقاد وأبناء السبيل ليدلوا بدلوهم في محاولة للعثور على تعريف لهذا المسرح .. تعريفا محددا .. دون جدوى ، مع ملاحظة أننا الآن في الدورة الثانية عشرة ، وفي العام الثالث عشر !! فمتى ؟!

غياب الهدف !

وترجع المسألة - إذا كان الأمر جادا والمتحدثون جادين والضيوف ليسوا سائحين مجانين والمهتمون مبالين إلى غياب الهدف أو عدم تحديده أصلا من هذا النشاط - فهل نحن كمصريين مسئولون عن تطوير المسرح في العالم وتحريك مياهه الآسنة ؟ ، هل نحن في وضع القيادة الثقافية من العالم في هذا المجال حتى نسعى لتحقيق هذا الهدف على مستوى مسارح العالم ؟ ، هل يسمح تاريخنا المسرحي وخبراتنا منذ صنوع سنة ١٨٧٠ وحتى اليوم .. أن نقود حركة تجديدية مسرحية عالمية ؟ ، هل استغرقنا هذا التاريخ وتلك الخبرات ودرسناها وخرجنا منها بمنهج إبداعي مصري يصلح أن نساهم به في الحوار مع الشعوب الأخرى في هذا الفن ؟، هل أتيحت فرص كافية للمبدعين المصريين مع إبداعاتهم وجماهيرهم كي ينتجوا وينضجوا .. فنخرج بهم إلى مثل هذا المهرجان فيشكلون بؤرة من أهم بؤره؟ هل أتيحت لهم فرص التعرف على الذات القومية : التاريخ والتراث الثقافي والفولكلور والجغرافيا والبشر .. حتى التشبع ، وبالعلم ، حتى إذا صدروا بمنتج فني يكون منتجا مصريا خالصا ؟.

إذن لننظر إلى أنفسنا ولو قليلا : لقد كان قيام مسرح يعقوب صنوع بحديقة الأزبكية بمثابة التجربة المسرحية الأولى بالنسبة لنا ، وفي كل جوانب العمل المسرحي وعناصره ، بصفته العرض المسرحي المصري الأول . ثم كانت أعمال المسرحيين المصريين وحدهم أو بالتعاون مع المتمصرين الشوام ابتداء من فرقة سلامة حجازي .. ثم أعمال عزيز عيد وجورج أبيض والريحاني ومحمد تيمور وسيد درويش وأولاد عكاشة والكسار .. وحتى قيام فرقة يوسف وهبي في مسرح رمسيس ، وكلها تجارب رائدة هي في

جملتها محاولات لبلورة صيغة لمسرح مصرى مستقل عن الدولة وفى مواجهة الرقابة وفى علاقة قوية مع الجمهور الممول ومعيار النجاح . ثم كان تقديم «أهل الكهف» من خلال أول فرقة حكومية منظمة سنة ١٩٣٥ ، وكانت تجربة تتعلق بمعالجة عصرية للتراث واختبار اللادارة الذاتية فى فرقة خكومية ناشئة . وإذا ما مضينا إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية ، فإننا نجد فى المسرح المصرى أصداء لمراحله السابقة ، مع بعض التطور فى أساليب مخاطبة الجمهور ، وكان فرسان هذا المسرح هم الريحاني والكسار ويوسف وهبى إلى جانب الفرقة القومية الحكومية .. ثم فرقة المسرح المصرى الحديث شبه الحكومية والتى قدمت طعما مغايرا بفضل العائدين من البعثات .

وفى أثناء الحرب وبعدها نجحت الحركة الوطنية في الضغط على الحكومات من أجل إنشاء «معهد التمثيل المسائى» ، بلا مقر ثابت وبتمويل ضعيف ، وكذا دعم الفرقتين الرسمية والمدعومة ، وبعض الجمعيات الأهلية ، خاصة جمعية أنصار التمثيل ، بينما ظهرت أنشطة فنية وثقافية فى الجامعات مواكبة للحركات الوطنية الطلابية ، فأسفر هذا المناخ عن مثقفين مسرحيين من هنا وهناك ، كان من بينهم محمد مندور وعلى الراعى ومجموعة الإذاعة المصرية (سعد لبيب وعباس أحمد وعبدالوهاب يوسف وديمترى لوقا وتماضر توفيق .. وغيرهم) فى مقابل المجموعة التى آثرت التعاون مع إذاعة الشرق الأدنى ومكتب الدعاية من أجل الحلفاء التابعتين للمخابرات البريطانية بقيادة مستر سكيف رئيسها فى المنطقة والمتخفى فى صورة رئيس قسم الأدب الانجليزى بجامعة القاهرة ، والذى قام بتجنيد عناصر أصبحت فيما بعد شخصيات ذات شهرة ونفوذ ، وقد تعاون معهم فى مجال المسرح والإذاعة عدد من المسرحيين والكتاب المصريين تحت مظلة محاربة الفاشية والنازية والدفاع عن الديمقراطية والعالم الحر! ومن المسرحيات التى قدموها فى مصر وفلسطين والعراق ، مسرحية «ثم غاب القمر» للأمريكى «چون شتاينبك» بتفسير انجليزى ضد الألمان ومن إخراج مستر« سكيف» .

المسرح الحر

وفى مقابل ذلك تكونت فى معهد التمثيل المسائى مجموعة من تلامذة محمد مندور ، أصدرت مجلة (الميزان الجديد) أذكر من أسمائهم أنور فتح الله ، دعت إلى مسرح مصرى خالص شكلا ومضمونا ، ولقد آتت هذه الدعوة ثمارها

عند مجموعة من الشباب ، فكونوا جمعية أهلية تحت اسم «المسرح الحر» قدمت بعض الأعمال التى لم تجد صدى كبيرا ، حتى التقت بالمثقف الشاب « نعمان عاشور» خريج قسم اللغة الانجليزية ، والذى دفع به على الراعى ، أيام كان يعمل بالإذاعة ، إلى الكتابة الإذاعية ، وهكذا كتب مسرحيته الأولى «المغماطيس» فلاقت نجاحا نسبيا خاصة على المستوى النقدى ، فوصفها مندور بـ «الأوتشرك» وهى لفظة روسية تعنى تحقيق مسرحى للواقع الاجتماعى بالأدوات والأساليب والتقنيات المسرحية ، ثم ألحقها نعمان بمسرحية «الناس اللى تحت» فنجحت نجاحا كبيرا على المستويين الجماهيرى والنقدى ، حتى أن سعت الأجهزة الرسمية لاستقطابه فكتب لها «الناس اللى فوق » كهجائية للمجتمع الذى سبق ٢٣ يوليو !! كانت أعمال نعمان عاشور تجربة مسرحية جديدة فى التعامل مع بنية النص المسرحى من جهة وفى التعامل مع الواقع الاجتماعى والشخصية المصرية خاصة على المستوى الشعبى والطبقة الوسطى من جهة أخرى .

وهكذا اندفع كتاب آخرون من نفس جيله الذى تفتح وعيه أثناء الحرب الثانية وفى أعقابها ، وهم محملون بوعى وطنى ليبرالى ديمقراطى ، وحس فنى إنسانى يميل إلى الطبقات الشعبية والفكرة الاشتراكية ، فكان هؤلاء الذين عرفناهم وهم : باكثير والفريد فرج ويوسف ادريس وأنور قزمان وميخائيل رومان وعبدالرحمن الشرقاوى ونجيب سرور وصلاح عبدالصبور وشوقى عبدالحكيم ومحمود دياب ومصطفى بهجت ، يواكبهم من المخرجين : فتوح نشاطى وعبدالرحيم الزرقانى ، وحمدى غيث ونبيل الألفى وكرم مطاوع وسعد أردش وسمير العصفورى وعبدالرحمن الشافعى ، وقبل كل هؤلاء ومن بعدهم الكاتب والمفكر القومى المصرى توفيق الحكيم .

ورغم الرقابة التى شددت قبضتها ابتداء من سنة ١٩٥٩ ، فإن المسرحيين المصريين قد نجحوا فى تقديم أعمال لا بأس بها منها : دخان ميخائيل رومان وفرافير يوسف ادريس وسليمان الحلبى لألفريد فرج وليلى والمجنون لصلاح عبدالصبور وشمس النهار لتوفيق الحكيم وعيلة الدوغرى لنعمان عاشور والفتى مهران للشرقاوى وياسين وبهية لنجيب سرور ، وليالى الحصاد لمحمود دياب ، فضلا عن أعمال أخرى مترجمة لاسخيلوس وتشيكوف وبريشت وبيترفايس وآرثر ميللر ، فأثبتوا أن قبضة السلطان

ليست محكمة .. وليست حاكمة إلى الأبد .
ولكن «التجريبي» يقفز على كل هؤلاء ، وكأن الكفاح الطويل لم يكن !! ، ليس فيه من درس يستقى ولا إنجاز ذى جدوى ، ولا تجارب ذات قيمة أو معنى ، فهؤلاء الرواد مجهولون بالنسبة للأجيال الجديدة وهناك حرص غريب على التعتيم عليهم ، وهم متهمون من وجهة نظر هذا الجيل (الراقص) بالجمود والتخلف والرجعية ، وبالطبع لا نستطيع إقناع هؤلاء المستجدين بالعودة إلى صنوع والحكيم .. وإلى الزرقانى وغيث والألفى وكرم وسرور ، ولكننا فقط نرجوهم أن يتعرفوا نقديا على هذا التراث ، أن يستخلصوا درسه وخلاصته كى يواصلوا بعده ، لا أن ينقطعوا انقطاعا تاما ومطلقا عنه ، ليستعيروا ثقافات وفنونا أخرى بديلا عنه، تعبر عن شعوب وثقافات أخرى ، بل لعل هذه البدائل والاستعارات (عولمية) أى متعددة الجنسيات .. أى لا هوية لها ولا تعبر عن أحد .

صورة مصرية

والسؤال هنا : هل كان الجيل القديم ضد التجريب ؟ أو ضد التحديث ؟ أو يجهله ؟ لعل مقالات يوسف ادريس (نحو مسرح مصرى) ومسرحية الفرافير .. تدحض هذا الزعم . أليست مسرحيات الحكيم : يا طالع الشجرة ورحلة قطار ورحلة صيد وشاعر على القمر .. وغيرها تثبت أن توفيق الحكيم كان على رأس ايقاع العصر ولكن من زاوية مصرية .. وفى صورة مصرية ؟! ألم يكتب نجيب سرور توصيفا دقيقا فى كتاباته النقدية – لماهية التجريب ؟ ألا تعتبر مسرحيته «يا بهية وخبرينى» نصا تجريبيا ؟ وكذا كل أو أغلب نصوص شوقى عبدالحكيم، ألم يصدر على الراعى دراسة ضخمة من ثلاثة أجزاء عن المسرح الشعبى المصرى وتاريخه وأشكاله وأسبابه ومعانيه ؟ ألم يقدم حمدى غيث ونبيل الألفى وكرم مطاوع وأحمد عبدالحليم وأحمد زكى ونجيب سرور أشكالا مسرحية جديدة وأصيلة على المسرح المصرى ؟ إذن لماذا نبدأ من الصفر وكأننا بلا تاريخ؟ لماذا نبدأ من الخواجة .. وأى خواجة ؟ لماذا نستعير حركة من هناك .. واشارة من هنالك ؟ وإيماءة من ذاك والتفاتة من ذلك ؟ لماذا لا نستطيع التعرف على أنفسنا وعلى ذاتيتنا القومية ومصريتنا فى عروض هؤلاء الشباب ؟ إنهم لا ينقلون مناهج فقط ، وإنما يقلدون صورا ونتائج !! إنهم فقط لا يقلدون – برداءة – فنون مارتا جراهام وبيچار وموسييف ، بل ينقلون بركاكة ومسخ عن تلاميذهم .. وتلاميذ تلاميذهم . هل عجزت القريحة المصرية عن وضع مناهج إبداعية ننفرد بها وتميزنا

. عن غيرنا؟ هل نضبت الموهبة المصرية إلى حد السقوط فى وهدة التقليد الرخيص ؟

إهمال فنوننا

حقا لا توجد لدينا مدرسة للرقص المسرحى المصرى ، لكن رقص الباليه ليس فننا ، وكذا الرقص الغربى الحديث ليس من فننا ، وكذا فن الأوبرا والغناء والموسيقى الغربية ليست فنوننا، ولا يصح أن نهمل فنوننا ومصادرها وتطوير مناهجها ونهب فنون الآخرين أبناء نا وأموالنا واهتمامنا ، لماذا لا ننشئ مدرسة للرقص المسرحى المصرى شريطة أن تكون مصرية صميمة . ولدينا المصادر فى التاريخ والآثار والفولكلور وفى الحركة اليومية للإنسان المصرى ، وفى الصور التشكيلية التى سجلها رسامونا خلال قرن أو يزيد ، وفى الصور الفوتوغرافية ، وأيضا فى ثنايا التراث الثقافى المصرى كألف ليلة وليلة وغيرها من كتب التراث ، وكذا فى فرضيات الخيال حين يتصور الماضى والمستقبل .. مستقبلنا لا مستقبل الآخرين .

وحقا لدينا بعض التعثر أو التشوش فى تعبيرنا عن أنفسنا بواسطة الحركة والصورة الحية والموسيقى ، ولكن هذا النقص لا يبرر لنا تقليد الأجانب ، بل علينا أن نسعى - بأساليب تميزنا نحن وتعبر عن شخصيتنا القومية نحن وعن حياتنا ونظرتنا وفكرنا وقضايانا ومشاكلنا وأحلامنا - للحصول على إيقاعنا المسرحى الخاص بنا ، وذلك من خلال العمل على تكوين مدارس مصرية فى مختلف الفنون التعبيرية والتشكيلية . كيف لا يمكننا هذا وحضارتنا المصرية هى الأولى فى كل شئ ؟ بل هى مازالت ماثلة للعيان كأنما تنادينا أن نفيد منها وأن نحييها وإن نستلهمها بدلا من أن ينتحلها وينهبها خصومنا. لقد أهدانى الاستاذ الفريد فرج شريطا أذاعه التليفزيون البريطانى تم تصويره فى «مروى» تلك البلدة النوبية فى شمال شرق السودان تلك البلدة المليئة بالأهرامات والآثار الفرعونية ، والشريط يبين أن الرقص المصرى القديم مازال حيا هناك ، وأن الرقصات التى يقدمها النوبيون فى مروى حتى اليوم ، يمكن مزج صورتها على صور آثار القرنة بالأقصر وبنى حسن بالمنيا فنجدها مطابقة . وكأنها ليست صورة للماضى وحسب . بل صورة للحاضر .

تقليد أعمى

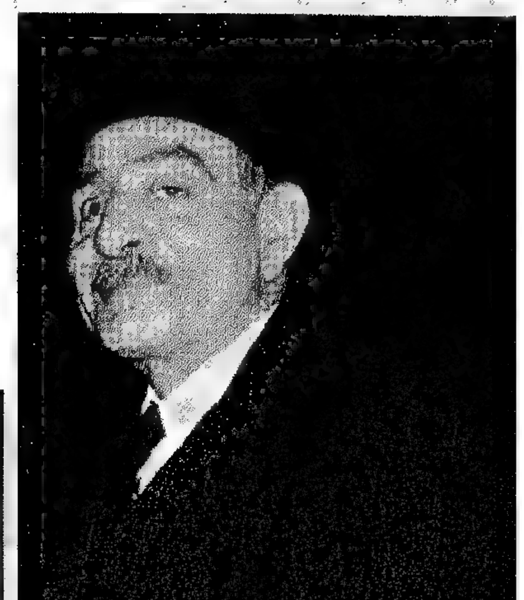
إذن ماذا تفعل أكاديمية الفنون اليوم؟ ماذا تفعل مراكز البحث العلمى - فى مجالات الفنون والآداب - عندنا ؟ ماذا تفعل دراسات المسرح والانثربولوجى والفنون فى جامعاتنا ؟ ماذا تفعل لجان

المجلس الأعلى للثقافة ؟ ماذا تفعل منح التفرغ ؟ في أي ميدان تعمل وفي أي اتجاه وفي أية موضوعات ؟ هل في نيتها أن تمضي مصر في طريق الإمساك بالمبادرة أو حتى المشاركة مرة أخرى ؟ أم نبقى في الذيل أو مجرد رد فعل أو مقلدين شائهين ؟ إن جذورنا الفرعونية والإفريقية مهملة ، وأصداءنا الاغريقية والرومانية والمتوسطية تركناها نهبا لانتحال الآخرين ومزاعمهم الكاذبة ، وأثرنا في المشرق والمغرب العربي عند البعض مفقود ومنكور. إن مهمة هذه الجهات المسئولة – ولنا أمل باق في مشروع مكتبة الاسكندرية – هي البحث في الأغوار عن روحنا وصورتنا والتنقيب في الجغرافيا اكتشافا للأصول ، وهذه مهام لا ينجزها أفراد وحدهم ، وإنما جماعات مدربة منظمة ممولة وهيئات علمية واعية مدركة لواجبها القومي ، ومعاهد تلقن الدارسين فيها أثمن الدروس وأعمقها في الانتماء إلى الوطن .

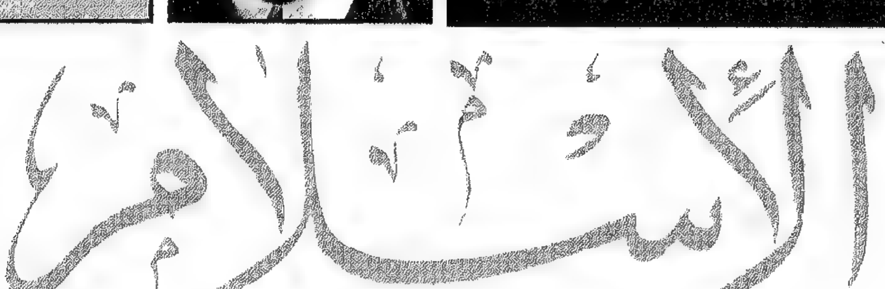
لقد لقي العرضان المسرحيان الياباني «حكاية برج القلعة» واليوناني «الأورستيا» احتراما وإعجابا عميقين من جمهرة المشاهدين ، وذلك لعنايتهما الخاصة – كل بطريقته – بثقافة بلديهما التاريخية ، بينما مضت عروض أخرى كثيرة دون أن يتوقف أمامها أحد ، اللهم إلا بعض المتسكعين بحثا عن انتماء آخر .. أو نزوة .. أو لذة أخرى .

إن «التيمة » المصرية غائبة في هذا المهرجان شكلا ومضمونا ، بينما نمتلك تيمة فريدة من نوعها لا يملكها أحد ، تيمة عبقرية من صنع المصريين وحدهم ، تيمة انسانية عميقة ومرنة وشاملة ، إنها تيمة «الزمن» ذلك الاكتشاف العبقري الذي أهدته مصر للإنسانية في الفجر الباكر للتاريخ ، فمصر هي التي عرفت البشرية بالسنين والشهور والأيام والساعات والفصول والتحولات والشموس والكواكب والأقمار والنجوم والأفلاك والأزل والأبد والمصير والخلود ، لم تغب هذه الحقيقة الجبارة عن العالم المصري «زويل» وهو يقيم في بلاد اللاهوية ، بل صاغها صورة بعد صورة (فيمتو ثانية) وكأنه يقرأ خطوط المعابد بسرعة جبارة . إن سر عبقريته أنه لم يتخل عن فرعونيته . وكذا كان عبقري مصري آخر هو توفيق الحكيم الذي اختار (الزمن) تيمته المسرحية والروائية بل والفكرية ، وأيضا هي سر عبقرية اختيار المبدع الشعبي – ذلك المجهول – لنفس التيمة فأبدع منها سيره وأشعاره ، كلهم آمنوا بالزمن قانونا إبداعيا إلا هؤلاء المحدثين المقلدين للأجانب اللاهين عن مسئولياتهم تجاه ضرورة لحاق مصر بالزمن (العصر) ، منتظمة في أول الصفوف دون أن تكون هويتها هي الثمن .

دائرة حوار







وأصول الحكم

بين الوسيلة والمقصد

بقلم : د.ابراهيم عوضين

ماكان يدور بخلدى أن أعود للكتابة فى هذا الموضوع ، بعد ماقدمته من مقالات أفند فيها ماقدمه الدكتور محمد أحمد خلف الله منذ أكثر من عشر سنوات ، وبعد ماقدمه أساتذتنا ومشايخنا الذين عاصروا ظهور كتاب الشيخ على عبد الرازق فى عشرينيات القرن العشرين ، ثم الذين تصدوا لما ضمنه الأستاذ خالد محمد خالد كتابه (من هنا نبدأ) فى أوائل النصف الثانى من القرن العشرين.!

ولكن يبدو أن هناك من يحرص على أن يفرض هذا الموضوع على الساحة حينا بعد حين لغرض مكنون فى النفوس ، لا نستطيع أن نقطع به .

ولئن وقفنا على هذا الغرض ، فإن حاجتنا اليوم إلى لم الشمل أوضح من حاجتنا إلى مايثير الخلاف والنزاع.

ففى صدر مجلتنا الغراء (هلال أغسطس سنة ٢٠٠٠) طالعنا الأستاذ السفير ممدوح عبد الرازق بمقالة (الإسلام وأصول الحكم ومذكرات الشيخ على عبد الرازق) أدى فيه دور الابن الوفى بما قدمه من مذكرات عمه الشيخ ، يدعم به ما قيل من قبل عن ملابسات وظروف كانت وراء الضجة الصاخبة التى ووجه بها الشيخ وكتابه ، منذ صدر فى طبعته الأولى،

ولأن تلك الملابسات تقوم على افتراضات عقلية ، وتصورات ذهنية ، ورؤى ذهنية ، وتفسيرات احتمالية ... كانت ميدانا للكتابات تجمع بين النقيضين، ومجالا فسيحا لتبارى الأقلام والعقول فى رفض الثابت المقرر ، أو تقرير المرفوض .

ولا غرابة فى ذلك ، فهذه سمة كل ما يقوم على تفسير النوايا المطوية ، وتأويل المقاصد الخفية! .

ولذلك رأيت أن الخوض فى مثل ذلك إنما هو لجاج يضيع الوقت ، ويهلك الجهد، دون طائل وراءه ، ولا ثمرة ترجى منه، اللهم إلا توسيع شقة الخلاف ؛ فكل يصر على رؤيته ، ويخيل إليه أنها وحدها الحق الصائب ، وأن ماعداها باطل

زائف .

فلم يكن إلا أن نتجاوز ذلك، موقنين أن خلف الأكمة حقيقة غيبها ما أثير من غبار الجدل المحتدم، والأصوات المتبارية في الوصول إلى الدرجة الأعلى.

الغاية والوسيلة

ولو أننا سلمنا - جدلا - بما نسب إلى الشيخ من مذكرات، وما أبديتموه من عوامل وأسباب دفعته إلى تأليف كتابه (الإسلام وأصول الحكم) ، وأنه إنما قدم كتابه هذا ليقضى على حلم الملك أحمد فؤاد ومناصريه في الخلافة الإسلامية ، اهتبالا منهم لفرصة سنحت بالقضاء على الخلافة الإسلامية في تركيا .. فبم توسل الشيخ في كتابه هذا لتحقيق تلك الغاية؟

إن من يردد النظر في كتاب الشيخ بحثا عن الوسيلة التي امتطاها ليقضي على حلم الملك أحمد فؤاد يجده ينطلق فيها من تقرير أحكام عدة تتناول الإسلام وشريعته، ورسوله، لايتسع المقام لتناولها مجتمعة؛ فلا يملك الباحث إلا أن يستعرض بعضها لماما ليضعه في ميزان العدل ، بحثا عما تقوم عليه من حق أو باطل ؛ موقنا أن ميزان العدل هذا إنما يجب أن يقوم - مع مثل الشيخ علي عبد الرازق - على القرآن الكريم ، والسنة النبوية ، وما انبثق عنهما من منطق إسلامي ؛ فالشيخ - كما نعرف جميعاً ، وكما أعلنتم في مقالكم - مسلم المعتقد والدين ، أزهري المنشأ والثقافة ، يعتز بإسلامه وبأزهريته ، وليس رجل سياسة، ولا ينتمي إلى أي حزب سياسي فإذا كان (ميكيافيللي) الداهية السياسي ، غير المسلم ، قد قرر أن الغاية تبرر الوسيلة ، فإن القرآن الكريم الذي نؤمن به - نحن والشيخ علي عبد الرازق - يقرر أن الباطل لا يدفع بالباطل ، ولكن يدفع بالحق وحده . «بل نقذف بالحق على الباطل فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون». (الأنبياء : ١٨) ، كما يقرر أن الحق أحق أن يتبع ؛ فما على المسلم المؤمن بالقرآن الكريم إذا تصدى للدعوة، وأخلص نفسه لذلك إلا أن يضيء الحقائق، ويبسط القول، ليبصر الآخرين بما فتح الله به عليه، ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم القدوة والمثل؛ حيث وجهه ربه إلى دوره بين الناس، وحدد له خطواته، ونهجه، فقال: «إن أنت إلا نذير» «فاطر:٢٣» وقال: «فذكر إنما أنت مذكر. لست عليهم بمسيطر» «الغاشية:٢١-٢٢».

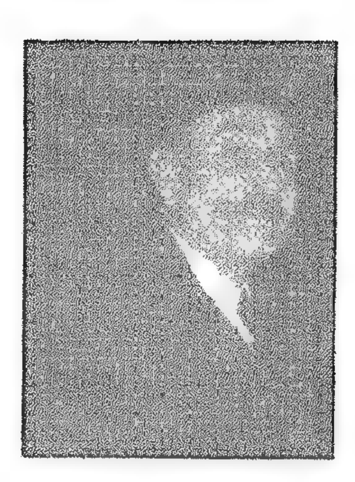
وحين تجاوز الرسول صلى الله عليه

وسلم ذلك المبدأ، فانصرف عن ابن أم مكتوم، وتصدى لاستقبال العلية من قريش، ظنا منه أنه بذلك يكسب إسلامهم.. حينئذ نزل عليه الوحي بآيات القرآن الكريم، تلفته إلى خطأ تقديره، وتعاتبه على سلوكه، مؤكدة له ولنا أن الغاية مهما كانت لا يصح أن تبرر الوسيلة. وذلك قوله تعالى: «عبس وتولى. أن جاءه الأعمى. وما يدريك لعله يزكى. أو يذكر فتنفعه الذكرى. أما من استغنى. فأنت له تصدى. وما عليك ألا يزكى. وأما من جاءك يسعى. وهو يخشى. فأنت عنه تلهى. كلا إنها تذكرة» «عبس:١-١١».

والشيخ علي واحد من أولئك الذين تصدوا للفساد بالتقويم - من منطلق إسلامه وأزهريته - على ما قرره هو في مذكراته تلك، وما بسطه تلاميذه ومناصروه، من ظروف واكبت تأليف كتابه..

بين دعوى الشيخ والقرآن

ولكنه - في مناهضته هذا الانحراف الفاسد، المتوقع من أحمد فؤاد وأعوانه - لم يواجه خصمه مباشرة، ولا تصدى لموضوع الخصومة- وهو نقل الخلافة إلى مصر - صراحة، ولكنه رأى أن يتجه إلى مبدأ الخلافة ذاتها، فيحاول قطع صلتها -



على وجه العموم - بالإسلام، بغية أن يحرم فؤادا - إذا نجح في مسعاه - من الانتماء الإسلامي، أو يحرمه من عون المسلمين في الوصول إلى مأربه.

والشيخ - في سبيله إلى تلك الغاية - قرر فيما قرر: أن الإسلام دين روحي محض، عني بالروح وحدها، وترك أمور الدنيا للنظم المدينة - في أشكالها المختلفة، ومناهجها المتباينة - هي وحدها التي تقننها، وتقوم على تنفيذها وإدارتها.

نعم! قرر الشيخ ذلك؛ ليصل منه إلى تجريد الخلافة أو الحكم من صفة الإسلام، وقطعه عن الانتماء إليه، متجاهلا - أو منكرا - آيات الأحكام التي لا تكاد تخلو منها سورة من سور القرآن الكريم، والتي تقدم للمسلم نظم المعاملات الدقيقة، في علاقة الإنسان بنفسه، وبأسرته، وبمجتمعه، وفي علاقة الدولة الإسلامية

بغيرها من الدول.

فالقرآن الكريم - فضلا عن دعوته الآمرة إلى الحكم بما أنزل فى أكثر من موطن - قدم أحكام الأسرة فى بدء تكوينها، وفيما تتعرض له من هزات واختلاف، وفيما تقوم عليه من أسس مادية وروحية، وما يلتزم به كل واحد من عناصرها قبل الآخرين. وقدم أحكام البيع والشراء على اختلاف أشكاله، وأحكام الرهن، والقرض، والربا، والميراث، والقصاص، والديات، ونظم التقاضى، ونظم الحرب والمعاهدات، وعلاقة المسلمين بغير المسلمين فى الحرب والسلم.. وإلى غير ذلك، مما يعلمه كل من حفظ القرآن الكريم، ودرسه ودرس السنة النبوية، ووقف على ما تضمنته من شروح لتلك الأحكام، وتفصيل لمجملها، والنهوض بتطبيقها، وتنفيذها.

ويبدو أن الشيخ حين قرر ذلك، كان يستشعر ما فى كلامه من تجاوز، فبحث عن كلام يدعم به وجهته فلم يجد إلا تلك العبارات الخطابية الخيالية الخادعة، حيث يقول: «والدنيا من أولها إلى آخرها أهون عند الله من أن يقيم على تدبيرها غير ماركب فينا من عقول، وما حبانا من عواطف وشهوات، وما علمنا من أسماء ومسميات، «هى أهون عند الله من أن يبعث لها رسولا». «الإسلام وأصول الحكم:١١٩».

بهذا الكلام الشعرى الأجوف يعزز الشيخ دعواه القائمة على رفض - أو إلغاء - جميع آيات الأحكام التى أنزلها خالق الإنسان والكون، وباعث الرسل، ومنظم الكون فى شتى أبعاده، على زعم أن الدنيا أهون من أن تحوج الله تعالى إلى بعث رسول يحكمها، ولكنها ليست أهون عند الله من أن يركب فينا عقولا تنهض هى بعبء تنظيم الدولة، وعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان..

ولكنه لم يشر إلى ما يناط به تدبير الحياة من تلك العقول:

أيناط بها جميعها، فينطلق كل إنسان بعقله يحكم، وينظم، وليكن ما يكون من نزاع واختلاف؟

أم يناط ذلك بعقل بعينه من بين تلك العقول؟!

وإذا كان كذلك، فما مواصفات صاحب ذلك العقل الحاكم؟ ومن يقوم باختياره؟ وهل الأفضل أن يقوم باختياره الخالق جل وعلا - على الرغم من أن الحياة الدنيا أهون عند الله من أن يشغل نفسه بأمورها - أم يختاره المخلوقون على

تباين مشاربهم، ومقاصدهم، واختلاف أحوالهم حينا بعد حين، فما يقبلونه اليوم قد يرفضونه غدا؟!

رسول الإسلام بين دعوى الشيخ وصريح القرآن

ويبدو أن الشيخ قدر مواجهته بهذا السؤال الأخير، فلم يقف - فى دعم مقصده - عند حدود إبطال آيات الأحكام أو تجاهلها، ولكنه ذهب يعزز حجته بحجة أخرى، أدارها حول من يناط به إدارة شئون البلاد الإسلامية، والقيام على تنظيمها، وواصل السير فى طريقه الذى بدأ الخطو فيه - وهو تجريد الإسلام من أسباب ذلك - فكما سلب آيات الأحكام قيمتها فى تنظيم الدولة، رأى أن يسلب الخالق سلطانه فى اختيار من يقوم بالحكم، ومن يتحمل مسئولية إنفاذ أحكامه، فعمل على سلب الرسول دوره فى ذلك، موقنا أن هذه الخطوة سوف تثمر إلغاء الخلافة - بالضرورة - فلا يكون هناك مجال أمام فؤاد وأعوانه لطلب الخلافة، ولا إحيائها، بعد ما قبرت فى استانبول.

واعتمد الشيخ فى تقرير ذلك على ما اعتمد عليه من قبل، فأضاف يقول - موازنا بين ولاية الرسول وولاية الحاكم:



«ولاية الرسول على قومه ولاية روحية، منشؤها إيمان القلب، وخضوعه خضوعا تاما يتبعه الجسم، وولاية الحاكم ولاية مادية تعتمد على إخضاع الجسم، من غير أن يكون له بالقلوب اتصال. تلك ولاية هداية إلى الله، وإرشاد إليه، وهذه ولاية تدبير لصالح الحياة، وعمار الأرض، تلك للدين، وهذه للدنيا، تلك لله، وهذه للناس، تلك زعامة دينية، وهذه زعامة سياسية، ويا بعد ما بين السياسة والدين». «الإسلام وأصول الحكم ١٠٩».

بهذا الكلام العجيب، الخيالى الموغل فى الخيالية، الشاعرى المحلق فى سماوات الشاعرية وفضائها الفارغ.. وزع الكيان البشرى بين قلب يخضع لولاية الرسول خضوعاً تاما يتبعه الجسم، وبين جسم تسلط عليه ولاية الحاكم الولاية المادية لتخضع هذا الجسم، فجعل الجسم محور صراع بين ولاية الرسول وولاية الحاكم.

ووزع الإنسان بين الدين والدنيا، ووزع الأعمال بين الله والناس، دون أن يترك فرصة للنظر العقلى البصير، الذى يدرك للوهلة الأولى أن شتى أنشطة الإنسان يمتزج فيها الروحى بالمادى امتزاج روح الإنسان بجسمه، فلا يمكن فصل أحدهما من الآخر إلا عند الموت..

ودون أن يترك فرصة النظر العقلى البصير الذى يدرك للوهلة الأولى أن مقاصد أنشطة الإنسان كلها موجهة إلى خيره هو، لا فرق بين الأفعال الروحية - من صلاة، وصيام، وحج...إلخ - وبين الأفعال المادية - من زراعة، وتجارة، وصناعة...إلخ - إذ المقصد فى الإسلام من هذه وتلك هو خير الإنسان نفسه، فالصلاة تعصم عن الوقوع فى الخطايا المادية والروحية، من الفحشاء والمنكر - وليست لإضافة شئ إلى ملك الله - والصيام يزود الإنسان بأسباب الوقاية من كل أوضار الحياة..إلخ، كما أن الزراعة تحقق للزارع العائد المادى إلى جانب العائد الروحى، فقد جعل الإسلام للزارع فى كل من ينتفع بزرعه صدقة.

فالقول بأن هذا للإنسان وذاك لله، إنما هو من التهويمات الشعرية التى قد تثير بما فيها من خيال، ولكنها لا تقف أمام النظر العاقل الفاحص، الذى لا يجد مفرا من التسليم بأن الله الخالق لابد من أن يملك كل شئ فى مخلوقاته، حتى ما ينشأ عنهم.

ولقد صرح القرآن الكريم بذلك فى غير موطن، وجعل تحكيم الرسول صلى الله عليه وسلم فى شتى شئون الحياة، دون تردد من مظاهر الإيمان، لما يوفره للإنسان من أمن وأمان، وسلامة من الصراع، فقال جل شأنه: «فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما». «النساء:٦٥».

واجب الوفاء الحق

أفلا ترى معى يا أخى السفير - بعد هذه الجولة المحدودة - أن عمك الشيخ - فى زحمة البحث عن وسيلة يحارب بها فؤاد وأنصاره - لم يجد بدا من أن يبطل نصوص القرآن الكريم، أو أن يتجاهلها.. وهذا بدوره أسلمه إلى أن يقيم إدارة شئون البلاد على الهوى، ويربطها بالرؤى الشخصية، والتوجهات النسبية، أو أن نسلم أمرنا لواحد بذاته نجمع على تميزه وتفوقه، يقيم أمر البلاد والعباد وفق ما يهديه إليه عقله.!

وأنه - بذلك - قد استبدت به الغاية، فلم يجد لها إلا تلك الوسيلة، على الرغم

مما فيها من خطايا وأخطاء. أو أنه – فى تلك الزحمة – أغفله المقصد الشخصى عن خصوصية الإسلام، فأسقط عليه ما فى الديانات الأخرى من سمات، وقاسه بغيره.

أو أنه أدخل على بحثه هذا الكلام الذى تعارض مع إسلامه وأزهريته، ونسب إليه زورا.؟!

وقد يرجح هذا الاحتمال الأخير ما كتبه هو – بعد نحو خمسة وعشرين عاما من صدور كتابه هذا – فى مجلة «رسالة الإسلام» التى كانت تصدرها جماعة التقريب، العدد الثالث، الصادر فى رمضان ١٣٨٠ يوليو ١٩٥١ تحت عنوان: «الاجتهاد فى نظر الإسلام» «قرأت بحثا قيما لحضرة صاحب العزة، الكاتب الكبير، الاستاذ الدكتور أحمد أمين، جاء فى صدره أنه كان يتجادل معى، فقلت: إن دواء ذلك أن نرجع إلى ما نشرته قديما من أن رسالة الإسلام روحية فقط. ولنا الحق فيما عدا ذلك من مسائل ومشاكل، وقد وقفت أمام كلمة: «رسالة روحانية» ولم تشأ أن تمر من غير أن تثير ذكرى قصة قديمة لهذه الكلمة معى، فقد زعم الطاعنون أننى فى هذا البحث قد جعلت الشريعة الإسلامية شريعة روحانية محضة، ورتبوا على ذلك ما طوعت لهم أنفسهم أن يفعلوا، أما أنا فقد رددت عليهم أننى لم أقل ذلك مطلقا، لا فى هذا



الكتاب ولا فى غيره، ولا قلت شيئاً يشبه ذلك الرأى أو يدانيه، أسوق هذا الحديث ليذكر الأستاذ الكبير أن فكرة «روحانية الإسلام» لم تكن لى رأيا يوم نشرت البحث المشار إليه، وأنى رفضت يومئذ رفضا باتا أن يكون ذلك رأيى».

فالوفاء الحق يا أخى السفير أن تعمل على أن تضيف إلى ما قدمته من مذكرات عمك، ما يدعم هذا الإنكار الرافض فى صراحة ما تضمنه الكتاب المنسوب إليه، متوسلا إلى ذلك بما قد تستطيع – من موقعك من الشيخ – أن تقف عليه فى أوراقه، حتى تبرئ ساحته من تلك الزلة أمام الناس، بعد أن صار فى عالم البرزخ بين يدى رب غفور رحيم، يعلم السر وأخفى. وقانا الله الزلل، وهدانا وهدى بنا، وجعلنا ممن يسن السنة الحسنة ليكون لنا أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ولا نكون ممن يسن السنة السيئة، حتى لا نحمل وزرها ووزر من يعمل بها إلى يوم القيامة.

البورتريه
فى مواجهة التجريد!

بقلم: محمود بقشيش

بمناسبتين متعارضتين أقيم معرض متحفى لفن «البورتريه» بمركز الجزيرة للفنون المرئية: المناسبة الأولى هى فوز الفنان الكبير «حسين بيكار» بأكبر الجوائز الرسمية وهى جائزة مبارك، أما المناسبة الثانية فهى رحيل فنان «البورتريه» اللامع «صبرى راغب» كمدا بفعل الإهمال المستمر من وزارة الثقافة لموهبته . جاء المعرض كنوع من التكريم للفنان الفائز وإحياء ذكرى الفنان الراحل وإنعاش فن جميل أسيئ تقديره خلال العقد الأخير من صناع القرار الثقافى ، وكان ينظر إلى هذا الفن بازدراء وتعسف بدعوى ملاحقة الغرب، لهذا اقتصر التشجيع على النقل الحرفى لما تجود به الدوريات العالمية من أخبار وأحداث فنية أوجدتها ظروف ثقافية مغايرة.

بورتريه المثال مصطفى متولى.. للفنان حسنى البنانى



البداية

تعد أول لوحة لفن «البورتريه» بعيدا عن شعائرية وجوه الفيوم ووجوه الملوك والملكات فى الموروث الفنى المصرى.. هى اللوحة التى رسمت لملك فرنسا «جان لوبون» سنة ١٣٤٩ (موجودة حاليا باللوفر) وقد فتحت تلك اللوحة الباب أمام هذا النوع الفنى المثير والصعب، وانتشر من فرنسا إلى غيرها من الدول ويحتاج هذا الفن من ممارسه إلى موهبة إستثنائية للنفاذ إلى جوانيات الشخصية المراد رسمها بالإضافة إلى وصف ملامحها الخارجية، لهذا لم يتألق فى هذا الفن، عبر العصور المختلفة إلا القليلون وفى مصر يعد الفنان «أحمد صبرى» أول فنان مصرى يتقن هذا الفن . وقد فازت رائعته «الراهبة» بالميدالية الذهبية فى صالون باريس وكان مجرد قبول لوحة لأى فنان للعرض يعد مفخرة له. وبدلا من أن تحتفظ مصر بموناليزا التصوير المصرى تركت لمصيرها الذى لا نعرفه خارج مصر. ولم تحرك وزارة الثقافة ساكنا من أجل استعادة هذا الأثر الفنى الرائع ولحسن الحظ فقد أتاح المعرض لزواره اللقاء بثلاث لوحات من روائعه هى: لوحة عازف العود التى رسمها لتلميذه المفضل «حسين بيكار» ، ولوحة أخرى بعنوان «بعد القراءة» ولوحة ثالثة بعنوان «السيدة ذات العقد» وهى عجالة بالألوان الزيتية، تكشف عن مهارة أستاذية فى العزف باللمسات. تتسم لوحة «ما بعد القراءة» بالدراسة المتأنية، سواء فى رسم ملامح الوجه والأصابع أو صنع ذلك الملمس الوردى، الأنثوى، المسامى الذى يكسو به وجه المرأة الغارقة في تأملاتها بعد القراءة. وقد أحاطها الفنان بجو مخملى، استرخائي لذيذ وينقلب الاسترخاء إلى نشاط واشتباك هى بين فواتح اللون وغوامقه فى لوحة «عازف العود» وكان الموديل بيكار شابا صغيرا، وسيما فى ذلك الوقت وكان ومايزال عازفا على آلة البزق. ونكاد نسمع وقع لمسات الفنان الرشيقة التى تعرف مواقعها الصحيحة ودرجاتها الظلية والضوئية ، ويخلق ذلك العزف اللونى البارع نوعا من السلطنة لا تملك معها إلا أن تهتف إعجابا (الله!) ولم يكتف «صبرى» بتلك البراعة الشكلية الضرورية بل كان حريصا على الغوص داخل الشخصية نفسها وإطلاعنا على حالة فنان مستغرق فى العزف على آلته ومنصت لصوت الموسيقى فى آن واحد.

وعلى الرغم من إدراك «صبرى» بأن هناك مساحة فارقة بين المثير الجمالي والتعبيرى الموجود فى الواقع واللوحة الفنية فقد اختار فى لوحاته الثلاث وجوها جذابة فى أصلها الواقعى وانتقل هذا الميل إلى الأصل الواقعى الجميل إلى تلامذته: بيكار وصبرى راغب . ففى لوحة بيكار المسماة : «فتى مغربى» يبدو الأصل الواقعى الموديل وسيما ويبدو وجه الفتاة فى لوحة صبرى راغب حالما رقيقا ويعد صبرى راغب امتدادا طبيعيا لأسلوب

أحمد صبرى فى حين يبدو «بيكار» مختلفا مع أستاذه حريصا على أن يكون مؤلفا لا ناقلا، مبسطا للون والمساحة، نزاعا لهندسة المرئيات وهندسة الظلال وفى حين تبدو وجوه صبرى فى المعرض غارقة فى ذواتها يبدو على وجه الفتى المغربى وقد انتبه لشئ عابر، يلوح على شفتيه شبح إبتسامة. وتزداد درجة التأليف وحرية التعبير عند الفنان «محمود سعيد» مع نماذجه المفضلة: «الخادمات النوبيات» حيث يتخفف من قيود طبقته التى يستشعرها عندما يضطر إلى رسم شخصية منها وتجبره تلك القيود إلى أن يرسم شخصياتها فى حياد فيما ينطلق فى إظهار ما تكتمه النفس من رغبات، فيجعل الوجوه الأنثوية تصرخ بأنوثتها والصدور العارية تهتف بالعطايا الربانية! بينما تواجهنا فتاة «حسن سليمان» بألوانها الزيتية على السيلوتكس فى صلابة تذكرنا بصلابة أوانيه وقواريره وإن لاح شبح إبتسامة على وجه الفتاة.

الوجه الحزين

اتسمت اللوحتان اللتان ضمهما المعرض للفنان الكبير «صبرى راغب» – وهما للأسف من أقل أعماله شأنا – بشاعرية حزينة نلقاها فى كثير من أعماله، تؤكدها لمسات تتسم بالهشاشة والرقة، تبدو لى أقرب إلى مهامسة السطح وملاطفته ويترك لخيال المشاهد أن يكمل رحلة اللمسات أما ألوانه الزيتية فتبدو شفافة قريبة من رقة الألوان المائية . وهو لا يحفل بما يحفل به أحمد صبرى بالبناء والصلابة ولا يحرص على التأليف الذاتى بل اكتفى بوجوه البشر، خصوصا النساء منهن، الجميلات طبعا . واستطاع أن يكون واحدا من القليلين جدا الذين استطاعوا أن يعيشوا من عوائد فنهم وأن يسافر كل عام إلى عاصمة من عواصم الفن الكبرى ليتعرف على الجديد فى فنونها ، وإن ظل متمسكا بوجه الإنسان الفرد بأسلوب أقرب إلى التأثرية، فهو لم يلتزم بقواعدها المحفوظة بل أخذ منها ما يتسق مع طبيعته، وظل نافرا من أساليب ما بعد الدادية . ولهذا لم يدع من صناع القرار الثقافى لتكريمه فى أى مناسبة من المناسبات ولم ترشحه الوزارة فى أى معرض من المعارض الخارجية ولم يمنح أى جائزة من جوائزها ولم تقتن منه إلا النزر اليسير.

البلياتشو

من الشخصيات التى أثارت إهتمام كثير من رسامى العالم الكبار شخصية المهرج لأن ظاهرها المضحك غير باطنها الحزين وربما كانت لوحة الفنان عبد العزيز التى رسمها للمهرج من أفضل لوحات الوجوه الشخصية لما تعكسه من تعبير عميق لوجه بالغ الحساسية هو فى الأصل لسيدة إسبانية عجوز تدعى لولا كانت تقوم على خدمة الطلبة المصريين أثناء فترة بعثة الفنان إلى إسبانيا ، ولأن «درويش» كان مبهورا بأسلوب «سيزان» كان يحرص على البناء والتحليل مستعينا



بيكار يعزف للفنان أحمد صبرى



المهرج الحزين للفنان عبد العزيز درويش



هدى شعراوى لعز الدين حمودة



حاملة المصباح لتحية حليم



فتـــى مغربى
للفنان حسين بيكار

فى ذات الوقت بالحيوية اللونية التى تتجلى فى الأسلوب التأثرى . لم يستدرجه الصخب اللونى للأسلوب التأثرى إلى التضحية بوصف الحالة التعبيرية التى يريد لنا الفنان أن نلتقى بها فى وجه المهرج الذى بدأ أشبه بوجه مفكر يتأملنا بعمق لا يخلو من سخرية وكأن لسان حاله يسألنا: ترى من منا المهرج؟!.. وإذا كان وجه مهرج الفنان درويش يواجهنا بتأملاته العميقة فإن وجه المثال مصطفى متولى الذى رسمه الفنان «حسنى البنانى» يهرب من مواجهة المشاهد وقد انشغل البنانى بالاستعراض اللونى والملمس الجرئ.

ثلاثة مواقف من وجه الإنسان

تعكس لوحات المعرض ثلاثة مواقف فنية من الوجه الإنسانى وتلك المواقف ليست قاصرة - فى حقيقة الأمر - على لوحات هذا المعرض بل تمتد خارجه إلى فنانى العصور المختلفة، وتضم تلك المواقف كل أساليب الفن التى تناولت الوجوه الشخصية: الموقف الأول يرى أن الصورة الشخصية صورة نادرة لأن اللقاء الاختيارى بين الفنان والموديل لا يحدث كل يوم بل هو لقاء استثنائى حساس، لا يسمح إلا بحدود محسوبة من حرية التعبير ومن ثم يختار فنانو الموقف الأول طريق السلامة وهو طريق التجميل المراوغ. ويعد الفنان بيكار أستاذا كبيرا فى هذا الطريق والأمثلة على ذلك كثيرة منها أنه رسم رجلا أحدب وأعور واستطاع بمهارته المعتادة أن يستبدل الجمال بالقبح فأخفى عينى «الموديل» تحت منظار كثيف، تتألق فوقه انعكاسات ضوء وهمى، وعدل من الزاوية المنظورية التى تكشف عيب الظهر وجعل الرجل يبدو وكأنه ينظر من علٍ فيما يبدو المشاهد فى الوضع الأدنى، ورسم سيدة ذات أسنان بارزة وقامت براعته بدورها الساحر، الإنقلابى وجعلها تبدو مبتسمة، فاتنة، أما الموقف الثانى فإنه يتعاكس مع موقف التجميل المراوغ، غاية فنانيه أن يعبروا عن الحقيقة الجوانية للموديل، مهما كانت التضحيات التى لابد أن تلحق بالوقار المتكلف والفخامة الكاذبة . ولا شك أن الفنان «محمود سعيد» استطاع أن يحقق تلك الحرية التعبيرية، غير أنه كان يحققها فى المنطقة الآمنة: أعنى شريحة الخادمات النوبيات، كان يستطيع معهن أن يكون صريحا دون خوف من لوم طبقته . بطبيعة الحال لم تكن هذه مشكلة بالنسبة للفنانين الأوربيين والأمريكيين، خصوصا بعد ثبوت مشروعية تحريف أو تشويه الواقع المرئى (Deformation) فى الفن الحديث والانصراف عن المشابهة السطحية مع المرئيات . وأصبحت غاية فنانى الموقف الثانى هى التعبير عن الحقيقة . أما الموقف الثالث فيتمثل فى الانصراف الكلى عن نقل الواقع والاحتفاء بالتأليف الذهنى ويمثل هذا الموقف فى المعرض الفنان كمال خليفة الذى أبدع وجها منحوتا لا مثيل له فى واقع الحياة



بورتريه
لفتاة
للفنان صبرى راغب

وإن استلهم قيم النحت المصرى القديم، خصوصا قيمة النقاء، فالوجه هنا لا يصور شخصا بعينه بل يجسد قيما جمالية أصيلة. ويمضى المثال السكندرى المدهش «محمود موسى» فى نفس الطريق: طريق التأليف الذهنى المتكئ على جماليات النحت المصرى القديم ويضم المعرض منحوتة له، رائعة الجمال تمثل وجها بيضاويا استولده من الجرانيت ويدهش المرء لهذه القدرة الفذة التى استخرجت من أصلب الأحجار تلك الكتلة الناعمة، الساحرة ولحسن الحظ فقد اشترك عبد البديع عبد الحى العاشق الثانى لذلك الحجر الصوان وإن اختلف معه فى الأسلوب ففى الوقت الذى انصرف فيه «موسى» عن النقل توقف عبد البديع عنده وقدم منحوتة بالبازلت لوجه شاب سودانى جميل.

أين المرأة؟!

إن فن البورتريه لم يحتل فى إبداع الفنانة المصرية إلا هامشا نحيلا، لهذا لم تمثل المرأة إلا بلوحتين لوحة للفنانة تحية خليم بعنوان: «الفتاة والمصباح» ولوحة للفنانة مارجريت نخله بعنوان: «المقهى فى باريس»، يبدو على لوحة تحية تأثرها بالفن القبطى وعلى لوحة «مارجريت» تأثرها بالفن الفطرى.



أغنية لزفاف جديد

قصة قصيرة

مهداة لجنود وضباط أكتوبر

بقلم : محمد جابر غريب

١

أنزع ورقة النتيجة .. العاشر من رمضان.. السادس من أكتوبر.. الساعة دقت الثانية والنصف ظهراً.

كف الراديو عن إذاعة موسيقاه.. المذيع يقول كلاماً.. في البداية لم أستوعبه.. ولأن زوجي سافر بالأمس.. خفق قلبي.. اضطربت.

ماذا حدث ويحدث.. مفاجأة.

أصابتني الدهشة.

اقتحمتني الكلمات.. اقتحمت آذان أمي وأولادي سامح وسوسن وسهير.

منحت أذني للراديو.

حاولت أن أفهم .. أفهم شيئاً مما قيل أو يقال.

ثم بدأ يتسلل إليّ بعض الفهم.

ثم بدأت أعي وأدرك، وفهمت أن قواتنا الآن .. بالضبط الآن .. تداهم قوات العدو.

الطائرات اندفعت، عبرت سماواتهم، صعدت صعدت، فأصابت مدرعاتهم .. نقطهم الحصينة.

دشمهم.. أشعلت ملاجيء ضباطهم.. فتيات الترفيه الشقراوات «جنودهم».

جنودنا الآن تتحرك متجهة نحو ذلك الخط.

خط ماذا ..؟

نسيت .. إنه عبارة عن سواتر ترابية، أطلق عليها اسم واحد من قوادهم.

٢

كنت أترنم بأغنية، الابتسام مفروش على وجهي .. المنفضة في يدي.. أزيل بها الأتربة من فوق ستارة النافذة .. البلكونة .. مقاعد الصالة .. مكتب زوجي «حسام».

اجتهدت أن أطاول لوحاته.. طلعت فوق أحد المقاعد الصغيرة.. صورتنا، حسام وأنا، في ثياب زفافنا، تجاور عشقه الخاص، لأشهر الرسامين.

٣

النسمة تداعب أوراق الشجرة قبالة بلكونتي.. تداعب ستارة النافذة.. تداعب ياقة جلبابي البمبي.. حسام يحب البمبي .. قدام المرآة اكتشفت جمال عيني.. شفتاي حبتا فراولة .. صغر أنفي.. طزاجة صدري.. لا طويلة ولا قصيرة .. ملفوفة.. خرطني خراط البنات.. كل جزء في جسدي يقطر أنوثة.

٤

قطة سامح بين أقدام أمي، جفناها منطبقان.. مستمتعة .. تطعم أرز مع الملائكة.. على المكتب، لمحت كتاباً، طويت منه

صفحتان .. حسام قرأهما أكثر من مرة.. يحدث ذلك أحيانا كلما عاد فى اجازة قصيرة .

٥

تقتحم أذنى أغنية جميلة.. بسم الله الله أكبر.. بسم الله أذن وكبر.. بسم الله .

تداخلت مع أغنية أسمعها لأول مرة، وأنا على الربابة باغنى .. ما ملكش غير انى أغنى وأقول.. تعيشى يا مصر.

٦

سألنى سامح : أنت بتعيطي يا ماما..؟

– أبداً .. أبداً يا حبيبى.

بأطراف أناملى .. أخفيت دمعة انحدرت.

فاجأنى بالسؤال ثانية: هو يا ماما بابا عدى الكنال..؟

– أيوه يا حبيبى.

أضمه إلى صدرى .. أستدفىء به .. تنهمر قبلاتى .. بريق الفرحة فى عينيه .. فى شفتيه.. فى نبض يديه .. يمتزج الفرح بالدموع فوق خديه .

٧

حسام لم يعد.

أنزع ورقة النتيجة.

الحجرة تيه.. الحجرات بحار ومحيطات من الفراغ.. تتوتر أعصابى .. مع رنين جرس الباب أو الطرق عليه.. فى انتظار رسالة من زميل دفعة .. أو خبر فى خطاب يحمله البوسطجى.

لا أثر لنجم، السماء مغلقة بالضباب.. أتساءل عن القمر، متى ينفلت من تحت سحابة تخنقه.

حثتنى أمى على الصبر الجميل .. المكتوب ما منه مهروب.

– أنا بأقول يمكن يكون مع المحاصرين.

– ازاى بس يا ماما حسام بطل.

– معلوم يا بنتى بطل.

قيل، هو من الصابرين.. الساهرين على أمن الأهل.. الأقارب.. الأحباب.

– كل واحد يتمنى يكون له ابن معاه.. يقف جنبه، يؤازره.. ده شرف كبير ياست سعاد.

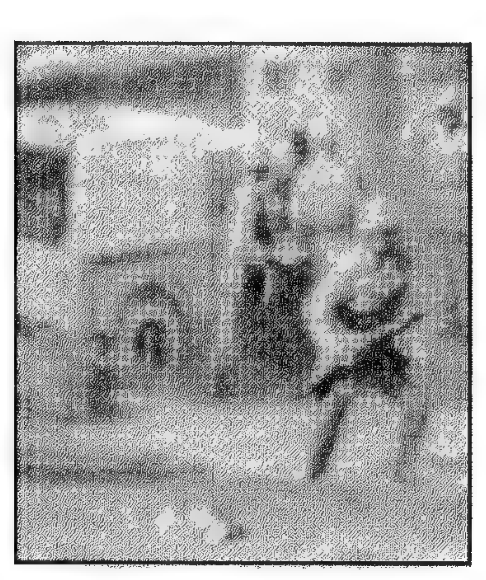
كلام جميل يقطر عذوبة.. يسعد الفؤاد .. ويطمئن القلب.

لكنى كنت ألمح أمى يعلو قلبها ويهبط، تستدير بسرعة، تعطينى ظهرها.. محاولة أن تخفى دموعاً تتدافع ، لا تستطيع وقفها.

٨

أول ديسمبر.

ارتديت السواد، قميص نومى تعمدت أن



يكون بلون الثياب، حتى ستارة النافذة، والبلكونة رأيتهما مغلفتان بالسواد.

الشجرة القائمة قبالتنا زحفت فوق فروعها الشيخوخة، خارت قواها.. بدت كالباحث عن عكاز.. أو عن أي أحد يساعدها على المقاومة.. أوراق الورد في القصارى اصفرت، أصابها الذبول.

- يعني ماكنش ممكن يسلم نفسه ويبعنا كلنا.

- مستحيل.

- طب إنت عارفاه أكثر مننا.

- هو بطل ولا بأس من الانتظار.

«الصدمة في إسرائيل كانت أكبر من احتمالهم، جعلتهم يتصرفون بجنون، دفعتهم لصياغة تصاريح وبيانات.. أكبر كتير من الحقيقة.. المدنيين في السويس اتصدوا لدباباتهم، لم تفلت منهم واحدة.

هربت العساكر قدام جدار اتبنى من قلوب البشر.

انفتحت طاقة القدر، إلسما زغردت.

حصل برجسه.. الدبابات اتفرقت.. شارون أمر بتفريق قواته في مناطق، الوادي ومفارق العجرود.. مداخل عين السخنة.. الأتكة.. جنيفة.. أنا دارس الأماكن دي كويس إن كنت بتثقي في أخوكي .. صدقيني يا سعاد.

٩

أمي تمسح شعر القطة بوسي وهي في حجرها ناعسة، وأنا على الرغم من إحتاطتي بالدفء والحنان أشعر بفقداني دعاباته.. ابتساماته.. ضحكاته.. غضبه.. حلمه.. رضاه.

كنت أغلبه إذا لاعبني كوتشينة أو ضمنه، ويغلبني إذا لاعبته شطرنج، أضحك، يضحك، نتشاكس، نتقافز كعصفورين، أتعثر، أسقط، فيسقط إلى جواري، يطوقني ، أستسلم له، تتناغم داخلنا الأشياء .

١٠

تقلبت أمي إلى جواري.. سألتني.

- إنت مانمتيش يا سعاد.

- قلقانة يا أمي .

- استعيذي بالله واقرأي المعوذتين.. تنعسي على طول.

«حقيقة لو أن السويس حوصوت، لأبيدت عن آخرها وأبيدت معها القوات التي عبرت إلى الشرق».



غيرت ماء الزهرية.. الهواء يتدفق من النوافذ.. السماء أشرقت.. سوسن وسهير بدتا عاقلتين، لا أثر للحبر على ثيابهما.. المرايل نظيفة.. لا شقاوة.. لا مشاجرات.. أنزع ورق النتيجة ٢ يناير ١٩٧٤.

١١

قبل آخر إجازة له.. الأضواء كانت خافتة.. ارتديت غلالتي الشفيفة.. تيقنت من نوم أمي والأولاد.. تسللت إليه حافية.

كان عطري يسبقني.. وكان عطره يسبقه .

وتسابقت الشفاة.. لا شيء يعلو على صوت قلبينا.. هو وأنا، ذاب، ذبت.. ذاب كل منا في الآخر.

١٢

حين يتناول الأفرول ويتهيأ للعودة إلى السويس.. يظل عالقاً بخيالي لا يبرحه.. حتى يعود ثانية.. هذه المرة طال غيابه.. انتابني



القلق.

١٣

٤ فبراير ١٩٧٤.

على رصيف محطة كوبري الليمون.

زحام.. الخلق كالنمل.. لا مكان لقدم.. الأكتاف متلاصقة.. متلاطمة.. متصادمة.. السماء في حالة فرح وإشراق كبيرين.. الكل في حالة انتظار ممزوج باللهفة والقلق، والخوف.. اللهفة على زوج .. أخ.. إبن .. صديق.

القلق من طول الانتظار أو من وساوس الفقد، الخوف من ألا يحدث اللقاء والعناق، أو امتزاج دموع الفرح.

بين العيون المتطلعة أشق طريقي.. بين مواكب الهدير.. بابا يا سامح.. بابا يا سوسن.. حسام يا أمي.

المزيكا.. الطبول.. الأكف تصفق، كباراً وصغاراً، النساء، الرجال، الأطفال، الآباء، الأخوة الأخوات.

أدفع المناكب، أخوض الضجيج.. الصخب.

والقطار يقترب يقترب.

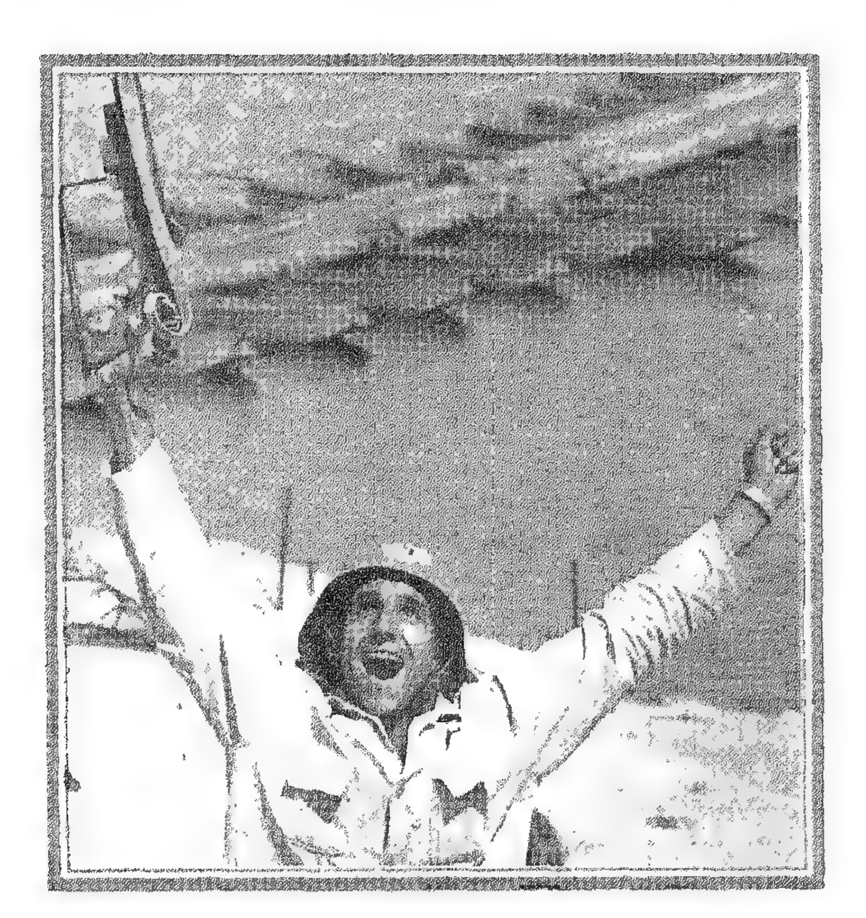
وقلبي يدق يدق.

التهليل .. التصفيق.. الصفير.

والقطار يقترب أكثر.. في طريقه لدخول المحطة.

أشق طريقي بين الجميع، الصغار، صبياناً وبنات، شباباً وشابات.

ولعجلات القطار نغم.. نغم حقيقي.. أحس دبيبه في روحي.. في دمي.. كأنه يعزف لنا، حسام وأنا، أغنية جديدة لزفاف جديد.



متى تعود عزيمة أكتوبر ؟

بقلم : عبدالرحمن شاكر

الأيام المتألقة في حياة الشعوب لاتمضى عبثا، ولا تمر ذكراها هباء، ولكنها مناسبات للتأمل والاعتبار، واستخلاص الدروس المستفادة من الماضى لخدمة الحاضر، والمستقبل، وبعد أيام من صدور هذا العدد من «الهلال» تمر علينا ذكرى السادس من أكتوبر عام ١٩٧٣، ورغم كون ما مضى من الزمن وهو سبعة وعشرون عاما ليس بالقليل ولكنه ليس ايضا بالكثير، انه سن شاب يافع فى عنفوان شبابه.

وغنى عن القول ان ذلك اليوم هو أمجد يوم عربى فى تاريخ ما يسمى الصراع العربى الاسرائيلى، وفى تراثنا العربى أن «أيام» العرب. هى الأيام التى تستحق الذكر وكانت عادة ما تمثل يوم وقوف صلب فى وجه عدو معتد والاستبسال فى قتاله مثل يوم ذى قار وخلافه.

وثمة عناصر ثلاثة رئيسية صنعت ذلك «اليوم» وميزته. وهي تمثل خلاصة عبرته ودروسه.

اولها كان اجتماع الارادة العربية، بالتنسيق ما بين مصر وسوريا فيما يتعلق بالأداء العسكرى، والتنسيق السياسى ما بين دول المواجهة المقاتلة ودول الخليج مالكة موارد البترول. وخاصة المملكة العربية السعودية لتوظيف سلاح النفط، فى خدمة المعركة القومية.

الثانى : التخطيط الدقيق للمعركة، والاعداد الجيد لها بما فى ذلك التدريب الشاق، الدءوب الصبور ، وكتمان اسرار المعركة المرتقبة، والبعد عن الطنطنة والخيلاء الكاذبة.

الثالث : سد الثغرة التى كان يمثلها التفوق التكنولوجى لدى العدو، بالارادة الانسانية الصلبة من ناحية، وبإعمال الخيال والابتكار فى مواجهة عناصر التفوق المذكور من ناحية اخرى فبالرغم مما كان معروفا من تفوق الطائرات الامريكية لدى العدو الصهيونى، على الطائرات الروسية التى كانت هى عماد سلاحنا الجوى، فإن عقدة تدمير الطائرات المصرية على الأرض كما حدث فى حربى عام ١٩٥٦ و ١٩٦٧، لم تكن حائلا ، بل ربما كانت حافزا للخطة التى وضعها رئيسنا محمد حسنى مبارك أيام كان قائدا لسلاح الطيران، لاستخدام أقصى طاقات هذا السلاح فى الهجوم، بالضربة الجوية المكثفة التى إحسن إعدادها وتخطيطها ، ونجح بها فى شل ارادة العدو ومراكزه العصبية فى أول الحرب، ريثما تمكنت المشاة من عبور قناة السويس بالقوارب المطاطية . لتفتح ثغرات فى الساتر الترابى. باستخدام التكنولوجيا المصرية التى ابتكرها سلاح المهندسين، وهى تجريف التراب بالمياه المتدفقة من الخراطيم، تمهيدا لاقامة الجسور التى عبرتها الدبابات والسيارات المصفحة ونجحت فى الاستيلاء على خط بارليف وتدمير مواقعه الحصينة ورفع العلم المصرى على الضفة الشرقية للقناة، بينما تولى حائط الصواريخ المضاد للطائرات حماية مسرح العمليات من تدخل الطيران الاسرائيلى المتفوق!

تلك باختصار هى عناصر الملحمة التى صنعت يوم العبور، يوم ٦ اكتوبر.

مما لاشك فيه أن حرب أكتوبر، بالرغم من مضاعفاتها . ما أعقبها من

مفاوضات ، كانت العامل الحاسم فى استرداد مصر ارضها المحتلة فى سيناء، كما ان المقاومة اللبنانية كانت هى الاخرى العامل الحاسم فى تحقيق جلاء القوت الاسرائيلية عن كل الاراضى اللبنانية، بعد احتلال دام اثنين وعشرين عاما.

جوهر الصراع

والآن تمر القضية بمنعطف خطير، يسمى فى الاروقة الدبلوماسية تحقيق السلام على المسار الفلسطينى، وربما المسار السورى ايضا! ولكن من حيث كون القضية الفلسطينية هى جوهر هذا الصراع، فان المباحثات المسماة مباحثات الوضع النهائى، قد وصلت الى عظام القضية: مسألة القدس واللاجئين الفلسطينيين ممن شردوا من ديارهم عند قيام الكيان الصهيونى وحروبه المتوالية مع العرب فى أعوام ١٩٤٨ و ١٩٦٧ مرورا بالعدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦.

ويختلف الموقف باختلاف الأطراف، فمن وجهة النظر الفلسطينية والعربية القدس واقعة تحت الاحتلال الصهيونى من عام ١٩٦٧ وليست مماحكات الطرف الآخر الا محاولة لاضفاء الشرعية على هذا الوضع غير المشروع، و«المرونة» المطلوبة من الطرف الفلسطينى هى فى نهاية المطاف توقيع صك بالتنازل عن الحق فى استرداد ماسلب!

ويقول الفلسطينيون - وهم على حق فى ذلك - ان القدس لاتخصهم وحدهم، وانما يهم امرها سائر العرب والمسلمين والمسيحيين ايضا. أما عن المسيحيين الشرقيين فهم جزء منا وموقفهم هو موقفنا. ولكن السؤال هو عن سائر مسيحيى العالم، وفى ظنى انهم ينقسمون الى ثلاث فرق:

- الارثوذكس من مسيحيى روسيا واليونان وشرق اوروبا، وموقفهم اقرب ما يكون الينا، ولا ادرى اذ ما كانت المصالح السياسية، وخاصة بعد سقوط الاتحاد السوفييتى، وتدهور الاوضاع الاقتصادية سوف يجعل تأييدهم للحق العربى على نفس حرارته فى السابق، ولن تنال منه الرغبة فى إرضاء القوة الوحيدة الكبرى فى عالم اليوم وهى الولايات المتحدة الأمريكية؟

- الفرقة الثانية من مسيحيى العالم هم الكاثوليك، بزعامة الفاتيكان، وهؤلاء هم أصحاب دعوة تدويل القدس

من قديم، وقد أصبح بين ظهرانينا الآن من يؤيد هذه الدعوة التى تتضمن دون مراء التخلى عن السيادة العربية التى دامت أربعة عشر قرنا على الأماكن المقدسة، باعتبار أن التدويل أهون الشرين، حيث الثانى هو السيادة الاسرائيلية المستندة إلى واقع الاحتلال واعلانها عاصمة موحدة أبدية لاسرائيل.

- وهذا الأخير هو الموقف الغالب للفرقة الثالثة من المسيحيين وهم البروتستانت، وخاصة فى الولايات المتحدة الأمريكية وفى بريطانيا العظمى، الذين ينطلقون من وهم دينى بأن المسيح لن يعود حتى يعود شعب إسرائيل إلى أرضه! يشاركون فى ذلك اليهود الذين عندهم أن المسيح لم يأت بعد، وأنه سيأتى حينما تتحقق العودة المزعومة لشعب إسرائيل!

وعند هذه النقطة تبدأ مسئولية غالبية المعنيين بالقدس من جانبنا، أعنى العرب والمسلمين!

مسئولية المواجهة :

بالطبع واضح لكل ذى عينين من العرب أننا فى حال لايرقى إلى ما كنا عليه أيام حرب أكتوبر من تماسك قومى، ويكفى أن انعقاد القمة العربية قد غدا أمرا شبه متعذر، ما لم توافق عليه الولايات المتحدة الأمريكية - النصير الأكبر للعدو الصهيونى - وهى التى أصبحت تمارس احتلالا آخر فى المشرق العربى، بأساطيلها وجيوشها وقواعدها فى الخليج، بعد الكارثة التى صنعها الاجتياح العراقى للكويت منذ حوالى عشر سنوات، والتى جعلت من العراق أمثولة لم تنل مثلها الفاشية أو النازية بعد هزيمتها فى الحرب العالمية الثانية، وما يزال شعبه يعانى ويلات الحصار ويموت أبناؤه من نقص الغذاء والدواء والتعرض للقصف الجوى الأمريكى البريطانى بين حين وآخر!

نقول إنه رغم الفارق ما بين الوضع العربى الآن وما كان عليه أيام أكتوبر فإن أحدا لم يعد يطالب الحكومات العربية بشن حرب جديدة مثل حرب أكتوبر من أجل تحرير القدس، ولا حتى قطع البترول عن الغرب، ولكن احتياطيات النضال لدى الشعوب، لاتزال قائمة تشركنا فيها المجتمعات الاسلامية من حولنا بمقدار ما يهمهم من أمر القدس مثل ما يهمنا، والشعوب هى التي نريد لها أن تستعيد

عزيمة أكتوبر.

بالنسبة للعرب لدينا دعوة للتوحد من خلال برلمان عربي منتخب، يكون هو السلطة العليا في بلاد العرب، ولكن حتى يتحقق هذا وهو الذى لابد وأن تقبله الحكومات إذا ما اشتد الضغط الشعبي من أجله، فإن في أيدى الشعوب أن تصنع الكثير.

هناك الجانب الاعلامي الذى تقع مسئوليته أساسا على المثقفين من أبناء العرب، والمسلمين أيضا في شتى أنحاء العالم، وهو فضح الادعاء الصهيوني بأن تهجير يهود روسيا وشرق أوروبا إلى فلسطين هو إعادة لشعب اسرائيل إلى أرضه، وقد أشرنا في كتابات عدة على صفحات «الهلال» وغيرها، إلى أن هذه دعوى باطلة تماما، وأن هؤلاء المجلوبين من البلدان المشار إليها، إنما هم من سلالة الخزر الذين تهودوا في بداية القرن الثامن الميلاد بعد ظهور المسيحية والاسلام، وأن هؤلاء المعروفين باسم اليهود الاشكناز إنما هم من مجرد الاسم الذى يحملونه هم عند اليهود أنفسهم من سلالة أشكناز بن جومر بن يافث ابن نوح، وليس لهم علاقة من الناحية العرقية ببني اسرائيل التوراتية، الذين هم من سلالة عابر بن سام بن نوح، ونقول لهؤلاء ولمن يؤيدونهم من البرتستانت: إن الأدعياء لن يعيدوا أبدا ملك الأنبياء!.

وفي هذا الموضع فإن قضية اللاجئين من الفلسطينيين ينبغي أن يتخذ تناولها منحنى جديدا، وحيث أن الهجوم هو أقوى وسيلة للدفاع، فليكن شعارنا الاعلامي هو: ليعد الخزر من حيث جاءوا، لكي يعود شعب فلسطين إلى أرضه!

وإذا كنا لا نطالب الحكومات العربية بأن تشن حربا أو تقطع نفطا، فلا أقل من أن نطالبها، بأن تغض الطرف عن محاولة أى فلسطيني مبعد عن أرضه في أن يعود إليها بأية طريقة، ولو متسللا، ولو مدعيا غير هويته الحقيقية، وذلك ما فعله اليهود في بداية تسللهم إلى فلسطين وغيرها من بلاد العرب والمسلمين، وعسى أن يقدر على ذلك منهم، من يمكن أن يكون في يوم من الأيام حرسا للقدس الشريف مما يحاك له!.



أيام أكتوبر

بقلم : صافى ناز كاظم

قبل انتصار أكتوبر ١٩٧٣ ، كان لشهر أكتوبر وجوده المهم فى حياتنا ، فهو شهر بداية العام الدراسى الذى يشغل التلاميذ والطلاب وأولياء الأمور. وهو شهر يشعرنى دائما بالحر، ذلك لأنه رسميا يدخل فى فصل الخريف وعلى مشارف فصل الشتاء، وكان أهلى يشترون لنا ملابس شتوية نبدأ فى لبسها مع بداية العام الدراسى من دون أن نكون واقعيا فى احتياج لتلك التدفئة القسرية، لأن الطقس يكون فعليا فى مصر لايزال مائلا إلى الحرارة بتشبث الصيف على عدم الرحيل فتخيلوا ، طقسا بهذا الشكل مع إجبار على إرتداء ملابس شتوية، لابد أن ينتج عنه بالطبع الإحساس المضاعف بالحر، حتى أننى كنت أقول أشد شهور الصيف حرارة هو شهر أكتوبر.

ويظل شهر أكتوبر شهرا تصاحبه عندى الحيثية قبل وبعد انتصار ٦ أكتوبر ١٩٧٣، لأسباب تحتفظ بها ذاكرتى: فهو الشهر الذى انتقلت فيه باحثة البادية ملك حنفى ناصف إلى رحمة الله ليلة الخميس ١٧ أكتوبر ١٩١٨ إثر مرضها بالحمى الإسپانيولية، وهو كذلك الشهر الذى رحلت فيه الآنسة مىّ فى ذمة الله ١٩ أكتوبر ١٩٤١، وولد وتوفى فيه رائد أدب الأطفال الأديب الجميل كامل كيلانى، الذى ولد فى ٢٠ أكتوبر ١٨٩٨ ولقى ربه فى ٩ أكتوبر ١٩٥٩، كذلك غاب عنا فيه صديقى العبقرى المعذب الشاعر وفنان المسرح نجيب سرور ٢٤ أكتوبر ١٩٧٨، وفقدت فيه صديقى واستاذى القدوة العظيم، السياسى، والأديب والفنان فتحى رضوان فى ٢ أكتوبر ١٩٨٨، وهو شهر جاء فيه ميلاد الاستاذ توفيق الحكيم ٨ أكتوبر ١٩٠٢، وهذا اليوم هو نفس يوم مولد ابنتى الوحيدة نوارة الانتصار نجم التى أنجبتها فى ٨ أكتوبر ١٩٧٣. وفى شهر أكتوبر مولد مجموعة من أصدقائى على رأسهم أديبنا الرائع الاستاذ وديع فلسطين فى أول أكتوبر ١٩٢٣، والأستاذة وداد مترى فى ٩ أكتوبر ١٩٢٧ والموسيقى كمال بكير فى ٥ أكتوبر ١٩٣٧ والفنانة الباهرة سميحة حسنين، ملكة فن لوحة الغلاف على مدى نصف قرن، فى ١٣ أكتوبر ١٩٢٤، وصديقتى السيدة آمال زكى



كامل كيلانى — الشيخ إمام

طليمات ابنة الاستاذة فاطمة روزاليوسف فى ٢٠ أكتوبر ١٩٢٤. ولايمكن أن يعود شهر أكتوبر من دون أن أتصل هاتفيا بصديقتى التى أتشاحن معها دائما منى أنيس، الناقدة والكاتبة ومساعد رئيس تحرير جريدة الأهرام ويكلى، لنسرد سويا، بتكرار لا نمله، وقائع ذلك اليوم المشهود: السبت ٦ أكتوبر ١٩٧٣، العاشر من شهر رمضان ١٣٩٣، أحكى وتحكى، وتصر أن تذكرنى بإحساسها الهائل بالحرج منى فى ذلك اليوم لأننى كنت ألبس السارى الهندى الحرير الفيروزى اللون، الذى تقول أنه كان يضخم من حجمى وأنا فى أيام حملى، بل ساعات حملى الأخيرة، وأزعق، ونحن نسير، فى سائقى السيارات الذين لايحترمون إشارات المرور .



في ذلك التاريخ كنت أتوقع ميلاد مولودى فى أى لحظة بعد أن تأخر عن موعده أسبوعين كاملين، كنت خارجة للتو من المعتقل الذى دخلته فى ١٩٧٣/١/٩ حاملا فى الشهر الأول، وكان كل من يسألنى: «ألم تلدى بعد؟» أرد عليه مازحة: «الجنين معتصم ولايريد الخروج إلى الدنيا إلا بعد أن تتحقق مطالبه كلها بعد إلغاء قرار فصلى ، وأولها تحرير سيناء» كنت قد فصلت من عملى بدار الهلال مع مجموعة الصحفيين الذين تم فصلهم فى فبراير ١٩٧٣ بقرار من لجنة اسمها «لجنة النظام» وهى اللجنة التى لم أفهم معنى اسمها أبدا حتى الآن.

وعندما صدر القرار بعودة الجميع إلى مؤسساتهم بعد ذلك بشهور لم يكن اسمى فى قائمة هؤلاء العائدين، فاستبد بى الغضب وعقب خروجى من المعتقل أرسلت برقية لرئيس الجمهورية أفيده أن هذا الظلم البيّن الواقع علىّ حرام فى حرام. بعدها إتصل بى الأستاذ صالح جودت من مكتبه بدار الهلال وأخبرنى بأنه قد تحدد لى موعد لمقابلة الدكتور عبدالقادر حاتم فى مكتبه بمبنى التليفزيون . ما أن دخلت على الدكتور حاتم حتى قال: «هوب .. إوعى تولدى هنا .. نحتاس!» كان يضحك، وتعجبت: سبحان الله أحسن استقبالى ويتودد شديد قال لى : «مين ياصافى ناز اللى زفدك؟، عبدالواحد؟ قلت: «أفندم؟، حضرتك بتسألنى؟» قال بتأفف من لايحتمل الظلم : «الريّس وصله تلغرافك وهو مندهش .. وقال مش إحنا اللى نقطع عيش حد، صحيح ياصافى ناز إنت ماتعرفيش مين اللى عمل ده؟» قلت: «والله ما أعرف يافندم..»، أثناء الحوار الممتع دخل علينا الفنان يوسف وهبى، وقبل أن يقترب من مكتب الدكتور حاتم نظر إلىّ الدكتور حاتم هامسا همس الصديق لصديقه القديم الذى لايكتمه سرا : «.. ماشاء الله .. ربنا مديله عُمْر ..» ولولا أننى كنت مقررة أن أتخذ سمت الجدية والجهامة لانفجرت بالضحك. جلس يوسف وهبى جلسته وقال مقالته التى لا أذكر منها شيئا ثم غادر، بعدها وفى ابتسامة عذبة قال لى الدكتور حاتم : «روحى على طول دلوقت دار الهلال وقولى لهم عيب .. الريّس مايرضاش كده .. وأى مشكلة كلمينى». خرجت من عنده مباشرة إلى مكتب الأستاذ عبدالواحد الوكيل - رحمة الله عليه - العضو المنتدب بدار الهلال- ونقلت له بالحرف لقائى مع د.حاتم، قام الرجل وقعد: «أنا .. أنا .. أرفدك؟ .. ليه . هاتوا الدوسيه ..» وفتح ملفى وقال مشيرا إلى خطابات من الاتحاد الاشتراكى والنقابة ولجنة النظام: «إقرئى ماذا يقول هذا .. وهذا .. وهذا ...؟» قلت : «يقولون إذبحها واسلقها وكلوها . هَمْ .. هَمْ..» وضحكت. وقال الأستاذ عبدالواحد الوكيل - رحمة الله عليه - : «أنا أنفذ

تعليمات، فلانة مفصولة، فلانة تعود لعملها .. خلاص!» سألته: «هل هذا يعني أن أعود للكتابة والنشر؟» هزّ كتفيه: مش اختصاصي .. ده اختصاص فكري باشا أباظة». صرفوا لي المتجمد من راتبي، وكان يقرب من أربعمائة جنيه، سألني صديقي فنان الكاريكاتير بهجت عثمان: «ياه .. ح تعملي إيه بالمبلغ ده كله؟» نزلت محل «هانو» واشتريت أشياء المولود، اشتريت من وسع براحتي حتى بلغت قائمة مشترواتي ٣٦ جنيها، قلت للبائع: أرسلها إلى عنوان بيتي وأعطني إيصالا، قال: نحن لانعطي إيصالات، قلت : «لا .. المبلغ مش بسيط ده ٣٦ جنيه بحالهم» قال: «ولو حتى مائة جنيه نحن لانعطي إيصالات والبضاعة ستصلك كاملة إن شاء الله!» أعطيت والدتي مائتي جنيه كانت قد دفعتها للاستاذ عبده مراد أتعابا للدفاع عني لم يتم بسبب حفظ القضية الوهمية، واشتريت لها بثمانية جنيهات حلية ذهب مجفور عليه آية الكرسي وعلى وجهها الآخر «ماما حفظها الله» - (آلت إليّ هذه الحلية بعد وفاتها رحمها الله ومازلت أحتفظ بها) - حاولت أن أسترد الجنيهات المائتين من الاستاذ عبده مراد فصرخ في أذني «في محامي يرد أتعابه؟، أنا راجل عندى ضغط ابعدى عني!» لم أر أي وجه حق لإصراره على الاحتفاظ بهذا المبلغ، الذى كان في وقتها مهولا ومقتطع من احتياجاتي والتكاليف المنتظرة للولادة.

★★★

كانت قصيدة الشاعر أحمد فؤاد نجم «لاصوت يعلو فوق صوت المعركة» التي يقول في بعض مقاطعها «وأكلنا عيش اسود بلون المعركة .. ياهمبكة .. لاصوت يعلو .. لاعوت يصلو ..» .. الخ، يسخر فيها من المزايدة بوعود التحرير ومشاعر الناس التواقة إلى إزالة آثار العدوان وجراحه منذ هزيمة ١٩٦٧/٦/٥، بعد أن ضاقت الصدور بالوعود التي لاتتحقق عن : «ما أخذ بالقوة، لايسترد إلا بالقوة». وكان الذى يعبر عن ضيق صدره بالأعوام المكرورة من دون الرد المنتظر على هزيمة ١٩٦٧/٦/٥ المهينة، يقصف قلمه ويلاحقه الاعتقال، وأصبحت صيحة: «إن بات التار ياولادى، حيبات الذل شريكي»، التى أطلقها نجم عاليا بصوت الشيخ إمام مخترقة جدران السجون والمحظور، أصبحت الشهيق والزفير، وبالذات الزفير، لكل الغاضبين. كنت أمزح وأنا أؤكد اعتصام وليدى ورفضه الخروج إلى الدنيا قبل تحرير سيناء، ولم أدر أنني كنت أنطق بنبوءة. رغم مزاحي كنت قلقة لتأخر المخاض ودخولي فى الشهر العاشر من الحمل، فأخذتني مني أنيس لنسير مشوارا لعل السير يحدث أمرا - (كان عمرها ٢٢ سنة وكنا قد تزاملنا في زنزانة واحدة بسجن

القناطر للنساء، قسم سجناء الرأى، مع الدكتورة انتصار جمال الدين التى كانت طالبة من طب عين شمس، وفى ١٥ أكتوبر هذا العام تأتى ذكرى العام الأول على رحيلها رحمة الله عليها) - وهكذا فى عصر العاشر من رمضان ١٣٩٣ هجرية و٦ أكتوبر ١٩٧٣ ميلادية بدأنا أنا ومنى أنيس رحلتنا من فندق شبرد إلى مقهى ريش عند ميدان طلعت حرب حتى قادتنا خطانا السائرة إلى حى الحسين الذى كان ينتظر مدفع الإفطار حين أرهقنا السير فاقترحت أن نستريح فى محل صائغ أعرفه، اشتهيت خاتما به فص فيروز بسيطا جميلا، لبست الخاتم واشتريته على الفور رغم ثمنه الباهظ الذى بلغ سبعة جنيهات ونصف.

وواصلنا أنا ومنى أنيس رحلة السير فى خان الخليلى وأنا مستبشرة بخاتمى الجديد الذى قال الصائغ أن فيروزته من جبل الطور بسيناء. فجأة وجدنا هرجا والناس تتدافع نحو أجهزة التليفزيون فى المقاهى وبعض المحال قال الناس : «بدأنا المعركة لتحرير سيناء» «المعركة حقا؟».

سمعنا آخرين : «لقد عبرنا القناة بالفعل والجنود منتصرة تهتف الله أكبر!» نظرت إلى منى أنيس: «معقول يامنى خلاص تحقق المطلب؟» نظرت إلى خاتمى الفيروز وقلت: «خلاص يبقى ح أولد إن شاء الله!» دفعتنى منى أنيس لنجرى سريعا نبحث عن تاكسى يحملنا إلى بيتى فى العباسية وأنوار شارع الصاغة تنطفىء والناس حذرة متوجسة من الفرح المتعجل.

★★★

فى اليوم التالى ، الأحد ١١ رمضان - ٧ أكتوبر، كانت الانتصارات تتوضح وتتوالى فى تصاعد، ونحن الخارجين من المعتقلات، نشعر أن إلحاحنا للخطو نحو المعركة كان فى محله وأن ضغوط التذمر الشعبي قد آتت أكلها، تتصل بى الدكتورة نجلاء مصطفى، طبيبتى لتخبرنى أن مكانى فى مستشفى دار الشفاء قد تم إلغاؤه لأن المستشفى بأكمله قد حجزوه لطوارىء المعارك، تفاعل الفرح والمفاجأة والتوتر، ومشوار السير من ميدان طلعت حرب حتى الحسين يحقق المرغوب وتبدأ طرقات الجنين تدق تعلن عن رغبته فى الميلاد، وفى الساعة الرابعة فجر الإثنين ١٢ رمضان - ٨ أكتوبر ١٩٧٣ ثالث فجر معارك التحرير تعلو صرخات وليدتى كأنها الهتاف وأسميها: «نوارة الانتصار» - (الاسم من اختراعى واقتراحى ولكن الناس تقول الآن عندما تسمعه: طبعا مش أبوها شاعر!) - ليلة واحدة فى المستشفى الخاص على طاولة العمليات لتأخذ من بعدى مكانى فى أزمة طوارىء النصر، ما أن أتمالك نفسى، وماتزال بى أوجاع مابعد الوضع، حتى أمسك بالقلم لأكتب «غنائية» تحت إلحاح مشاعرى وفرحى، وبتصورى أن النصر قد غسل من قلوب المصريين كل غل وكل حقد أرسل غنائيتى إلى رئيس

تحرير مجلة المصور الأستاذ فكرى أباظة، معتقدة بيقين أن عينيه ستدمعان وهو يؤشر عليها بالنشر حتما وفورا، ولم لا؟، أليس هذا الفرح حقنا نحن الذين لم ننس وجع الهزيمة لحظة؟. غير أن تفاؤلي بطيبة هؤلاء الناس ينهار وأذني على الهاتف يصفعها صوت «فكرى أباظة»: «متأسف يابنتي إنت عارفة التعليمات، وبعدين يوسف السباعي يفتكرني بتحداه ...». لا أصدق فأجهش: «يوسف السباعي إيه .. إنت فكري أباظة . إنت فكرى إباظه بحاله .. هو ماله يوسف السباعي ومال دار الهلال ماخلاص خرج منها ...»، يكرر فكرى أباظة طاويا تاريخه المجيد: «معلهش والله ما أقدر أنشر لك شيء...»!.

تأخذ منى أنيس «الغنائية» إلى نقابة الصحفيين لتنشرها في نشرة تصدرها النقابة يتسلمها حسين عبدالرازق، بشهامة لا أنساها، يراجعها ويتابعها لتظهر مع رسم جميل وإبراز صحفي تملأ الصفحة الأخيرة من النشرة، أمسح دموعي وأشعر بانشراح حين أكتشف أن قراء نشرة نقابة الصحفيين كانوا أكثر من قراء مجلة المصور المكبلة بتعليمات الحقد والغل والبغضاء والإنحياز الظالم .

★★★

كان عنوان الغنائية هكذا : «غنائية أم لرضيعة ولدت في ثالث فجر معارك التحرير ٨ أكتوبر ١٩٧٣»، أعيد هنا نشرها ليستشعر جيل ابنتي كيف استقبلنا النصر وصدقناه واحتضنته مشاعرنا باعتباره «نوار نصر»، أى بداية لثمار طيبة نجنيها، ذلك قبل أن يخذلنا قرار وقف إطلاق النار الذى أدركنا لحظته إنه وقف إرغامي تنفيذا لتعليمات قهرية بقوة قهر اكبر جدا جدا من قوة قهر تعليمات يوسف السباعي .

أقول غنائيتي التى كتبتها ١٠ أكتوبر ١٩٧٣ - المخلصة، بريئة كانت أو سانجة، فاسمعوني :

★★★

● حين تأخر المخاض والميلاد لم أفزع.

آمنت أن الخروج من عنق الرحم لابد آت - وسيكون رائعا - طالما أن الحمل غير كاذب وطالما أن هناك إنساناً يريد أن يولد.

★★★

● وفى شهر أكتوبر يختار فلاحو مصر أن يطلقوا «نوارة» أسما لكل أنثى تولد تيمنا ببشائر المحاصيل - كدّ الأيدى - غذاء الحياة لمصر. وحين قررت نفسي أن أتبع التقليد، لم أكن أعرف أن حصادا غاليا مباركا طال توقنا إليه سوف يهدينا كذلك نوارته، وفوق الألم ارتفع صوتي: «انصر مصر يا الله!» وأنجبت ابنتي «نوارة الانتصار» في فجر اليوم الثالث لمعارك التحرير في أجمل ربيع عرفته مصر وهلّت بشائره في فصل الخريف.

★★★

● ولقد كان اليقين هناك بأن مصر حبلى .. وكان اليقين أن مانراه ليس تضخما أو ورما أو انبعاجا كاذبا: ليس في حوزة مصر سوى أن تحمل صدقا وشرفا وغضبا طيبا وحنقا أخضر، فمن هي «مصر» قبل كل شيء؟

أليست هي : الخصب الذي أعطى إنسان العالم بشارته منذ فجر التاريخ : نوارة مجد وحضارة البشر؟.

أليست مصر هي: كنانة الله التي حفظ فيها أنبياؤه: يوسف وموسى، وعيسى، ودعوة الإسلام العزيز الذي جاء به «محمد خاتم الأنبياء والرسل أجمعين» ولتظل «الكنانة» هي مستودع «الإسلام» دائما، منذ البداية وإلى الأبد إن شاء الله.

وحين تنحني رقاب الأسرى الشعث ضخام الجثة لمصر، تحس مصر بأن الأمر غير جديد: فهكذا كان الحال دائما، وهكذا يعتدل الميزان وتكون «مصر» هي : «مصر».

★★★

● يقف الجندي المصري الفلاح النحيل الأسمر، يحارب حرب جندي شريف في معركة بينما القتلة في انقضاضات اللصوص وقطاع الطريق يحرزون الانتصار على البيوت والمدارس والأطفال والنساء، وحين تستبد النقمة وتسوقنا إلى رغبة الثأر بالمثل: تزجرنا آيات القرآن وتوقظنا آلاف المآذن ومسئولية «مصر» في أن تظل «مصر».

★★★

● وكان لمصر أن تصبر،

وكان لمصر أن تقلق،

وكان لمصر أن تتململ وتغضب،

وكان لمصر أن تحنق،

ولم يكن لمصر أن تصمت أو أن يغشاها اليأس أبدا.

ثم ....

ترهف الفرحة: وترق وتعذب والقطرة عند المقلة تتردد في التعبير عن نفسها .

هي «مصر» أيضا تستعيذ برب الفلق وتقرأ آية الكرسي وتهمس في ترقب :

ربي يسّر ولاتعسّر،

ربي تمم بالخير،

ربي تمم بالخير ..

والحمد لله.

«١٩٧٣/١٠/١٠»

★★★

كل عام وأنتم بخير، وتعيشون وتفتكرون، وأرجو أن يكون لديّ في أكتوبر القادم حكايات أخرى مختلفة في احتفاليتي بشهر أكتوبر التي لايمكنني الفكاك منها .

والهلال يستدير

شعر
حسن فتح الباب

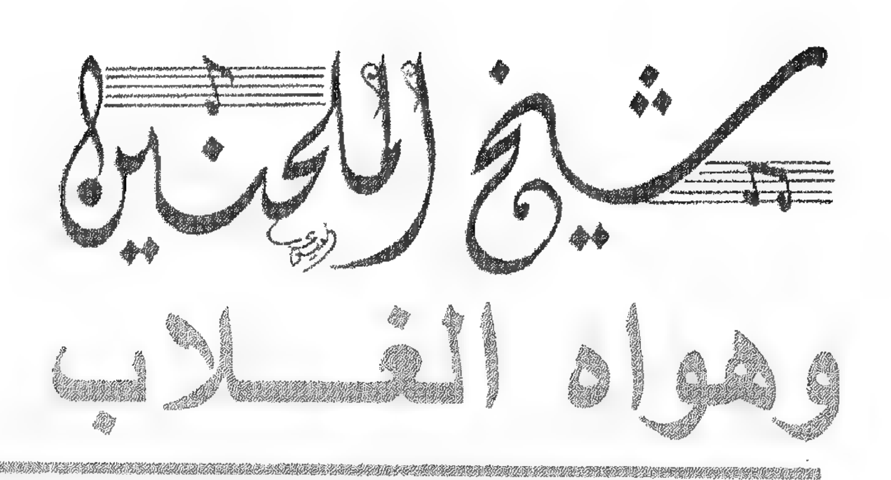
تقول لى :
فى غبش المساء تولد النجوم
لكى تضئ فى قلوب الشعراء
وفى خدود الياسمين
والأمهات والطيور والشجر
فى دورة الشروق والغروب
تطلع بائع القمر
عبر ألماس السحر
بوردة القمر
فلننشد فى عرس الربيع
أغرودة النوارس البيضاء
ونملأ العيون بالضياء
دع الشجى
أطفىء مجامر الضجر
ولتغمر القلبين أمواج السرور
فأجمل الأيام ما لم يأت بعد
وفى غد وبعد غد
موعدنا مع الحياة والهلال يستدير

●●●

أقول : ياشمس الضحى
يانجمة تلألأت على الغروب
أفق بريعك الندى
وطيرك الطروب
يطلبن الشجى
لكننى هذا المساء
مسافر غريب
يقول لك :
ما أجمل الحياة
لولا بك تعقد فى الظلام
لتسرق الأحلام
ما أطيب الأريج

لولا فحيح الثعبان
على ربى (الخليل)
وفى (مدينة الصلاة) يشعل الحريق
لولا شراك القهر والشقاء
ظل لذئب فى المروج
أشباح قطاع الطريق
وطفل (كوسوفا) الشريد
بين دموع الأمهات
والليل والاعصار والجليد
طفل شهيد
لا تفزعى
لن يستباح الشهداء
سيرجعون
سيرجعون أغنيات للوطن
أجنحة للعاشقين
وردا على ضفائر البنات
سيرجعون
سنابلا على حقول الكادحين
مناهلا تروى الظماء المتعبين
مشاعلا تهدى السراة الحائرين
حبيبتى
لا تهنى .. لا تجزعى
سيطرق الصباح بعد حين
والتقى
على ضفافى جدول صغير
موعدنا مع الحياة والهلال يستدير
ويل لصناع الظلام
وسارقى الأحلام
ويل لقاطعى الطريق
ويل لأعداء الحياه





بقلم : هشام فاروق

كان أول لقاء بين لحن من ألحان الشيخ زكريا أحمد وصوت أم كلثوم فى طقطوقة «اللى حبك ياهناه» (١٩٣١).
وكان لقاء سعيدا لصاحبى اللحن والصوت ، أتاح لكليهما ان يجوب آفاقا باهرة ، ما كانت لتخطر لأحد على بال.
وفيما بين ذلك اللقاء السعيد ، وخاتم لقاءاتهما فى «هوه صحيح الهوى غلاب» (١٩٦٠) ؛ تلك الأغنية الرائعة التى قام بتلحينها لصوتها ، بعد خصام دام أعواما.
فيما بينهما ، مرت الأيام أعواما بعد أعوام ، فى أثنائها قام زكريا بتلحين العديد من الأغانى بصوت أم كلثوم ، فشدا بها على أسطوانات ، وفى حفلات وأفلام .
وقد يجنح البعض إلى الاعتقاد بأن العلاقة بينهما يرجع تاريخها إلى ذلك اللقاء السعيد.

وإذن، فليس لها من العمر سوى تسعة وعشرين عاما، هى المدة بين ذلك اللقاء ولقاء «هوه صحيح الهوى غلاب».

غير أن عمرها ، فى حقيقة الأمر، أطول باثنى عشر عاما، إذ يرجع أول لقاء بين الاثنين إلى الثانى من يونية لعام ١٩١٩، وفى مدينة السنبلاوين ، بالقرب من قرية طماى الزهايرة، حيث غنت له ، مع أخيها خالد.

وبعد ذلك ، بثمانية أيام ، قام بزيارتها فى بيت أبيها ، بتلك القرية ، حيث أهداها موشحا وطقطوقة، ودعاها إلى القاهرة ، حيث جمعتهما سهرة ضمت محمد القصبجى ، أحمد صبرى النجريدى والشيخ أبوالعلا.

وانطلاقا من تلك السهرة ، جرى اتفاق، تعهدت بموجبه أم كلثوم بالغناء بين الفصول على خشبة مسرح على الكسار.

شيخ الملحنين وهواه الغلاب

حب من أول نظرة

وعما أحدثته أم كلثوم من تأثير عليه، كتب الشيخ زكريا فى سجل يومياته أنه بدءا من تلك السهرة..

«وأنا أصم لا أسمع إلا صوتها ، أبكم لا أتحدث إلا باسمها فقد أصبحت مفتوناً بها، لأننى أحببتها حب الفنان للحن الخالد ، تمنى العثور عليه دهرا طويلا».

وذلك الاعتراف بافتتانه بها ، ربما يفسر التحالف الوثيق بين الاثنين ، هو بما أودعه من روحه الحية فى ألحانه لها.

وهى بما أضافته من روح تشعر وتفهم وتترجم عن حياتها ووجدانها.

ومما يعرف عن ذلك التحالف أنه دام نحو سبعة عشر عاما دون انقطاع ، حتى دب خصام بين قطبيه ، دام نحو اثنى عشر عاما ، وانتهى بعودة الوئام ، متوجا بأغنية «هوه صحيح الهوى غلاب»، التى تعتبر بحق، تعبيرا عن افتتان زكريا بشاديتها ، وبصوتها ، على نحو، لم يعد يملك معه القدرة على الفكاك ، حتى وان طال أمد الخصام .

ولكن الوئام لم يعد ليمكث طويلا ، لا لسبب سوى أن عودته جاءت بعد فوات الأوان.

فقبل ساعات من شدو الصوت الذى قل ان يجود بمثله الزمان لتلك الأغنية ، وهى من مقام الحزن والشجن ، وأعنى به مقام الصبا ، كان ناظم كلماتها الشاعر «بيرم التونسى» ، قد أسلم الروح (٥ يناير ١٩٦١).

وعندما عاد الصوت الساحر يشدو بها، بعد رحيل «بيرم» عن دنيانا بنحو أربعين يوما كانت روح زكريا قد آثرت ، هى الأخرى ، اللحاق بروح «بيرم» ، فى دنبا غير دنيانا.

تغريدة البجع

وليس أدل على افتتان «زكريا» بالصوت الذى لم يعد يسمع سواه ، من اختياره أغنيته الأخيرة له من ذلك المقام، وبكلمات تدور معانيها حول ما وراء الحب من أشجان وألم وندم لايفيد ، وتحول نهار العاشق العاجز إلى ليل وليله الى نهار والحق أن أغنيته الأخيرة بمقامها وكلماتها أقرب إلى إبداع الختام المسمى بتغريدة البجع.

أما لماذا تلك التسمية : فذلك لأنه مما يقال عن البجعة انها إذا ما دنت من ختام حياتها سمعت لها أنات منغومة، تطرب لها الآذان، ولا يمنع طربها أن تكون تلك الأنات صادرة عن ألم يكويها.

ومن هذه التغريدة الجميلة ، قبيل

صوتها، جاء التشبيه عند أدباء الغرب الذي يصفون به عملا جيدا أنجزه صاحبه ليختم به حياته ، إذ يقولون عنه إنه تغريدة البجعة .

الصوت الذهبي

وعلى كل، فالسؤال هل افتتان زكريا بأم كلثوم ، فلا يسمع إلا صوتها ، ولا يتحدث إلا باسمها ، أضر أم أفاد؟

في ليلة من صيف عام ١٩٦٩ ، غنى المطرب السوري «صباح فخري»، وهو من تلك الفئة القليلة التي لاتزال على العهد رافعة لواء الأداء العربي الصميم ؛ غنى ذلك الدور المشهور الذي لحنه «سيد درويش» من مقام الزنجران «في شرع مين قاضي الهوى .. يذل خصمه ويحكمه».

وبعد الانتهاء من الغناء قال من بين ما قال إن سيد درويش لم يخترع ذلك المقام ، لأنه كان موجودا معروفا ولكنه لم يكن رائجا.

وقبل «سيد درويش» ، طرقه «داوود حسني» في بعض الألحان.

فلما سئل أي الرجلين كان اقدر على إحيائه، أجاب كلاهما كان قديرا، غير أن الشيخ زكريا كان أقدر منهما معا ، فضم الزنجران من أطرافه في تلحين الدور الذي غنته أم كلثوم في مطلع الثلاثينات «هو دا يخلص من الله القوي يذل الضعيف».

وفي كلا الدورين جاءت كلمة الذل ومع ذلك ، فكلاهما كان للغناء العربي عزا ومجدا.

ومضى يتحدث عن مواطن الجمال الفائق ، والصنعة الدقيقة ، والتصرف اللبق في لحن الشيخ زكريا.

ثم صاح :

والله .. والله ، لقد تفوق زكريا في دوره هو دا يخلص من الله ، على الشيخ سيد في دوره «في شرع مين».

فقد استطاع تصوير مقام الزنجران على أدق صورة وأجملها وأعجبها .

وكان صوت أم كلثوم هو الإطار الذهبي ، لهذه الصورة الدقيقة ، الجميلة ، العجيبة».

ولاجدال في أن صوتها قد صاغته الاقدار السعيدة، في لحظة لا تتكرر الا نادرا ، صاغته من ذهب خالص، لا يصدأ أبداً، وكان بفضل روعة صياغته من معدن نفيس ، من أبرز عوامل النجاح لأغنية «هو دا يخلص من الله».

ولعلي لست بعيداً عن الصواب، إذا ما جنحت إلى القول بأنه لولا افتتان «زكريا» بصوت أم كلثوم الذهبي ، لربما ظل اسير تلحين أغان مثل «ارخي الستارة اللي في ريحنا، لاحسن جيرانك تجرحنا».

وهي أغنية لحنها في أثناء عقد العشرينات ، وتزاحم على غنائها كل من عبد اللطيف البنا ونعيمة المصرية ومنيرة المهدية ، والثلاثة كانوا من أقطاب الطرب في ذلك الزمان.

الصعود والارتقاء

ولما كان في وسعه القفز بألحانه ، مع مطلع عقد الثلاثينات، صعودا وارتقاء، إلى أغان مثل «اللي حبك ياهناه» ، «إمتى

شيخ الملحنين وهواه الغلاب

الهوى بيجي سوا» و«آه ياسلام زاد وجدى آه.»

ولما كانت تجربته العريضة مع صوتها الذهبى فى الألحان التى صاغ بها كلمات الشاعر «بيرم التونسى» إبان عقد الأربعينات ، ومن بينها اذكر على سبيل التمثيل «كل الأحبة اتنين اتنين»، «أهل الهوى» ، «الآهات» و«الأولة فى الغرام».

ولما لحن أغانى «سلامة» ذلك الفيلم الذى أبدع جميع أغانيه ، عدا أغنية يتيمة لحنها «رياض السنباطى».

وفيها بلغت بداوتهما معا - زكريا وأم كلثوم - قمة من قمم الجمال.

ولما ابدع على امتداد عشرين عاما، هى أعوام مجد الصوت الذهبى ، أغانى لأفلام أخرى وحفلات ، ملأت صاحبة ذلك الصوت بأدائها الصحيح ، الممتع لها ، على نحو كان ينتزع دوما الآهات من أعماق الصدور ، ملأت به الدنيا ،وشغلت الناس من الخليج إلى المحيط .

الحصر الجنسيلى

وأكثر أغانى تلك الأعوام مرحا، وتعبيرا عن شعور «زكريا» نحو الصوت الذهبى وصاحبته هى «غنى لى شوى .. شوى».

وليس صدفة ، ولا غريبا ، أن تختارها أم كلثوم، رغم الخصام ، لتغنى كلماتها فى السهرة التى أقامها المعجبون والزملاء بمنزل المطربة «فتحية أحمد» احتفالا بمقدمها من الولايات المتحدة ، حيث شفيت من مرض هدد أوتار صوتها السماوية .

فإذا هم يسمعون منها القديم المكتوب لأداء فى فيلم «سلامة» لم يدم سوى دقائق معدودات ، يسمعونه جديدا لما يقرب من الساعة ، كأنما وضعت أغنية زكريا لهذا المقام.

لأغنى وأغنى وأغنى
وأورى الخلايق فنى
المغنى حياة الروح
يسمعها العليل تشفيه
وتداوى كبد مجروح
تحتار الأطبا فيه

وافتتان «زكريا» بالصوت الذهبى وصاحبته أمر شائع بين الفنانين.

ويحضرنى هنا افتتان «جوزيف فون سترنبرج» المخرج الألمانى الذائع الصيت بمارلين ديترش نجمة فيلمه «الملاك الأزرق».

وكيف أنه اصطحبها فى مطلع الثلاثينات إلى هوليوود، حيث عبر عن شعوره نحو سحر جمالها الأخاذ فى ستة

أفلام.

فلما تحررت من فلكه ، مستقلة بفلكها، بعد آخر فيلم لها معه «الشيطان امرأة» (١٩٣٥) ، فقد الإلهام، ومعه القدرة على الابداع.

ولقد تعرض زكريا لمحنة مماثلة ، عندما لم يعد بينه وبين الصوت الذهبى عمار.

حسن الختام

فلما عاد الوصال ابدع تغريدته الأخيرة «هوه صحيح الهوى غلاب».

وفى اعتقادى أنه لو وضعت تلك التغريدة فى كفة ، ووضعت جميع الأغانى التى قام بتلحينها فى أثناء فترة الخصام بينه وبين صاحبة الصوت الذهبى ، لرجحت كفة التغريدة الأخيرة، التى تعتبر بحق حسن الختام.

وختاما ، يظل لى أن أقول إنه حتى فى أعوام نزاعه مع صاحبة الصوت الذهبى أمام القضاء ، بقى مفتونا بها وبصوتها ، آية ذلك ما يروى عنه من أنه استمع إلى حديث بين ساقيين لم يكونا يعرفان بأمر وجوده فى المقهى.

هل سمعت الست أمس؟

لا والله ، لأننى نمت بعد الوصلة الأولى.

وهل ينام الناس ، والست تغنى؟

أقول الجد يا إبراهيم ، أنا أموت فى الست ، وهى تغنى للشيخ.

وسمع زكريا الحوار ، وقال لرفيق كان معه ، إن هذه الكلمة تساوى له أكثر من مليون جنيه .

والأكيد أنه كان محظوظا ، فصوت الست الذهبى شدا بأغان من تلحينه أكثر من أغانى أى موسيقار آخر.

وفى حديث له نشرته مجلة الإذاعة اللبنانية فى ديسمبر ١٩٥٠ قال «ان هذا الذى يسمونه تجديدا فى الموسيقى هو فى الواقع قضاء على روحنا الشرقية الأصيلة.

ان الموسيقى لم تعد فى هذه الأيام الا متاجرة بعواطف المستعمين.

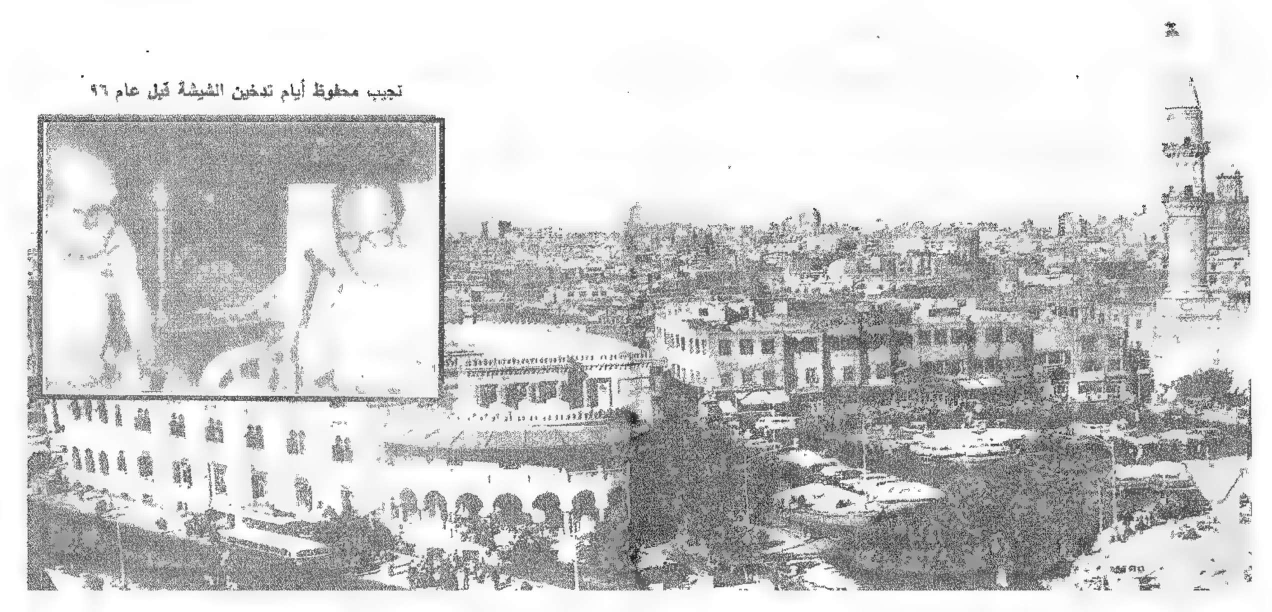
والألحان التى يقال إنها مجددة هى التى تهدم الذوق الفنى فى الشرق.

أما أنا فلن أهبط بفنى إلى مستوى المتاجرة ، سأظل على ما أنا عليه ، اعطى لحنا قويا فى العام، واصبه فى حنجرة صافية ، تحسن تأديته ، ثم آوى إلى نفسى ، وأنا فى اطمئنان إلى اننى اديت واجبى ، وليس اكره عندى من أن يمر الناس على لحن لى مرورا عابرا ، فلا يحسون به».

واعود ، فاقول إنه حقا كان محظوظا عندما التقى، قبل ثمانين عاما أو يزيد، بحنجرة صافية ، فسمع صوتا ذهبيا ، يحسن الاداء.

والاكيد .. الاكيد أنه آوى إلى نفسه آمنا ، مطمئنا حين سمع الصوت الذهبى يشدو بتغريدته الأخيرة «هوه صحيح الهوى غلاب» ، وحين سمع بافتتان المستمعين بها.

واغرب ما اعجب له ان ذلك الافتتان لايزال قائما ، حتى يومنا هذا!!



نجيب محفوظ أيام تدخين الشيشة قبل عام ٩٦



شروق المكان

بقلم :جمال الغيطانى

كم شروق توالى على الدنيا منذ اكتمال استدارة الكوكب الأرضي وانتظامه فى مداره حول الشمس؟!

كم شروق توالى على تلك الأرض التى كانت أول ما رأيت؟! أقدم ما تحتفظ به ذاكرتى، ذلك الأفق القاهرى . كم شروق توالى عليه منذ أن كانت أرضا وعرة، موحشة، حتى سريان نهر النيل إليها، وتكون الأحراش ودبيب الحيوان وسعى المخلوقات كافة وجهاد الإنسان؟.

كم شروق توالى منذ بدأ تحديد مسار الضوء عبر إقامة الجدران والنوافذ، مستطيلة، مستديرة، مربعة، الأسقف سواء كانت لمعابد تواجه مسارات النجوم والكواكب، أو مقابر تحفظ الموجود في اللاموجود، منذ أن شكلت ملامح أول مدينة فعرف اسمها «منف» في الزمن العتيق، موقع توارثته عدة مدن اسهم في ظهوره عوامل شتى منها الجغرافى، والسياسى والاجتماعى، والدينى والانسانى بكل مستوياته، ماتزال اطلال «منف» إلى الجنوب من أهرام الجيزة، انه الموقع الرمز، القريب من انشطار نهر النيل الى فرعين يتجهان إلى البحر، يسافر فيه الماء القادم من الجنوب إلى الشمال، اما مصدر الضوء الأقوى، الذى لا تقدر العيون على التطلع إليه والتحديق فيه فيرحل من الشرق إلى الغرب، عابرا الارض، والنهر الممتد بالعرض. هكذا حدد الإنسان الجهات. وكان ذلك منطلقه إلى رصدد سمات الكون وعلاماته. وعندما شرع فى البناء ، راعى المرجعيات الكبرى للوجود. فأضلاع الاهرام تواجه الجهات الاربع، والمدخل اليها دائما الى الشرق. كذلك يتجه تمثال «ابو الهول» مواجها الابدية والحركة الكونية بابتسامته الغامضة، والتى يمكن أن نرى فيها المعانى المتناقضة، من سخرية إلى شجن إلى أسى على ما يمضى ويندثر. انها نفس النظرة التى نراها عبر تحديق التماثيل المصرية القديمة فينا. المتجهة الى اللامكان. الى ما يصعب تحديده.

متى بدأ شروق الشروق ؟

لا أدرى.

تماما كما لا أقدر على تحديد أول شروق بعد وفادتى إلى العالم. بعد لقاء عينى بالضوء المسافر من الأبد إلى الأبد، من المصدر الكونى إلى موضع التلقى الإنسانى: عيناى، لا يمكننى التذكر لأن الوعى لا يحتفظ باللحيظات الأولى، ربما يتردد صداها داخلنا، لكن أنى لنا أن نعى؟

طلوع الشمس في ذاكرتي

كم شروق توالى علىّ؟

يصعب ذلك رغم سهولة الإجابة الظاهرية، ذلك أننى قادم من أمد يصعب تحديده الى أبد يعسر تعيينه. وما بينهما أيامى تلك التى يمكننى الاشارة إليها. أن أسميها . رغم أنها تنقضى دائما، لكن ما يسهل الأمر علىّ أن مكانها متعلق بها، بل إن زمانى لا معنى له بدون هذا المكان، كل لحظة تستدعى موضعا بعينه، وكل موقع تحتويه لحظة، وقديما قيل إن الزمن مكان متجمد، والمكان زمن متجمد، مكانى المرتكز، منطلقى ذلك المسمى بالقاهرة، القاهرة القديمة تحديدا. القاهرة التى تعتقت فيها الأزمنة المتعاقبة، التى لا أدرى ولا ألم بعدد المرات التى توالى عليها الشروق، لكننى أعى أول طلوع للشمس فى ذاكرتى، يمت أفق المدينة، ومنه منطلقى وأول وثبى ورحيلى، فكما ترحل الشمس، يرحل الضوء، ونرحل معه.

كنا نسكن الطابق الأخير. الخامس، وكان يعد مرتفعا بمقاييس الاربعينات والخمسينات من القرن الماضي، من هذه النقطة بدأت صلتي بالزمن القاهري. الى الشرق هضبة المقطم الصخرية التي كانت مغمورة بمياه البحر في زمن عتيق، قبل أن تنحسر المياه شمالا مخلفة في الصخور أسماكا وأصدافا، وكائنات بحرية توحدت بالحجر.

إلى الغرب أهرام الجيزة. ومع متانة التحديق يمكن رؤية سلسلة الأهرام الأقدم، تتوالى عند خط الغرب، جهة مغيب الشمس، سقارة، دهشور، أبو صير. في زمن طفولتي كان الأفق القاهري مفتوحا، لم تزحمه الأبراج المرتفعة التي تقوم الآن.

صعب عليّ تذكر السبب الذي جعلني أخرج بصحبة الوالد - رحمه الله - إلى السطح فجرا، غير أنني أعي تماما وقوفي متطلعا إلى ذلك اللون الأحمر الذي يجيء من عتمة الليل مزيحا النجوم الأقاصي، احمرار خفيف لكنه قوي. يمهد لدرجة أقوى من الأحمر الغامق، حمرة متدفقة، مستمرة، تنبيء بمصدر خفي. تتعاقب درجاتها بحيث يصعب رصدها. او حصرها. او تعداد درجاتها، عند لحظة معينة يتدفق الضوء، كأنه ينفجر، ومن هنا سمي الفجر فجرا في اللغة العربية.

من خلف صخور المقطم يبدأ البزوغ، مجرد خط نحيل يميل إلى استدارة. يتضح شيئا فشيئا، وبمجرد اكتمال ظهور القرص يصعد بسرعة. تلك لحظة لا تغيب عني ولاتولى. إليها أنسب أي شروق أراه. استعدتها في اوضاع شتى، وفي اماكن نائية، استرجع تطلعي المبهور ودهشتي الطفولية التي ربما تشبه دهشة الإنسان القديم وهو لايجد تفسيرا أو تبريرا، فيتخيل عبور السماء بقارب خفي، وتمتد الأذرع من قرص الشمس. خيوط الأشعة تنتهي بأيدي، ذلك التطلع العميق، المبهور أفتقده الآن. ليس لأني أغيب عن شروق الشمس لكثافة البنيان، واختلاف الموقع، لكن لتوالي المظاهر وتوالي الوقائع، واتضاح أمور شتى من خلال المعرفة، المعرفة التي تحد أحيانا من انطلاقة الخيال. لكن يظل الشروق الأول الذي احتفظت به ذاكرتي مهيمنا، مرجعيا، يؤطر المآذن، القباب، البيوت، ابراج الحمام، المدينة العتيقة وأهلها. اولئك الذين يعبرهم الزمن. ويعبرونه أيضا.

الفول المدمس

مع الشروق يبدأ السعي. منذ الفجر تسري الحركة، تخرج العربات التي تدفع باليد أو التي تجرها الحيوانات من مراقدها، اول ما يظهر منها العربات التي يقدم عليها الطعام. خاصة الفول المدمس، يوضع في «قدرة» مستديرة كانت في الماضي القريب من الفخار او النحاس قبل أن يسود الالومنيوم، يتم النفاذ الى داخلها بواسطة المغرفة، طويلة اليد، تخرج محملة بحبات الفول الذي استوى على نار هادئة، أصبحت لينة، ناعمة مثل الزبد، تدفس

«القدرة» طوال الليل في المستوقد، حيث الوقود الذي يشعل النار البطيئة التي يتم بها تسخين ماء الحمامات العامة والذي يصلها عبر انابيب من فخار، تصب في المغطس المليء بالماء الساخن ومنه يتصاعد البخار في فراغ محدود يجلس به الرجال ليلا عرايا تماما والنساء نهارا، مع اندثار الحمامات العامة التي بلغ عددها اول القرن التاسع عشر ثلاثة آلاف، لم يتبق منها الآن إلا حوالي عشرين. بدأ باعة الفول يستخدمون وسائل مباشرة، لكن في كل الاحوال لابد أن تكون النيران هادئة تسوى الفول على مهل. حتى تنضج الحبات الصلبة ، الجافة وتلين بحيث تستحق الوصف الذي كان ينادى به الباعة على الفول «يالوز» . وللباعة القاهريين تراث طويل في المناداة على بضاعاتهم في أصوات منغمة، ويصل الأمر إلى تدليل البضاعة، فالطماطم لونها أحمر كخد العروس، والتين لا يشبهه شيء، أذكر في طفولتي أربعة رجال ضخام الأجسام، كانوا يدفعون امامهم عربة صغيرة، فوقها أنواع مختلفة من الكعك، بعضه مستدير، والآخر مربع. من أشكال شتى، كانوا يجيئون الى الحارة مرتين، الأولى عند شروق الشمس، والثانية عند الغروب. وما كان يثيرني، أصواتهم القوية التي ترتفع بالغناء.

ستن كحكة بقرش أبيض

أصواتهم قوية وأحجامهم ضخمة، والعربة صغيرة جدا، اين هم الآن؟ كان الباعة القاهريون، ومازال بعضهم ينغمون نداءاتهم، يدللون بضاعاتهم، كان العرض منذ نصف قرن أكثر من الطلب، وجودة البضاعة، ضرورية لبيعها، الآن عدد السكان في تزايد، وما يهم الكم وليس الكيف، اول صوت يسمع في المدينة.

حليب يا قشدة..

باعة اللبن. يجيئون من المناطق الريفية القريبة، مثل امبابة والقناطر ودار السلام، يتجولون في الحواري والأزقة والدروب، يحمل كل منهم «قسط اللبن» المصنوع من الالمونيوم. المحكم الغطاء جيدا، «القسط» بيد، والمكيال المختوم من مصلحة الدمغة والموازين بيد، الرطل واجزاؤه، ومنذ الستينات اعتمد الكيلو كوحدة للوزن، ربما ابتعادا عن كل ما يمت الى الانجليز الذين احتلوا مصر لمدة سبعين عاما.

باعة اللبن يرتدون جلابيب بيضاء، لابد ان تكون بيضاء نظيفة . حتى منتصف القرن التاسع عشر كان المحتسب يفتش على نظافة الباعة، وجودة البضاعة، ويحدد شروط البيع، ثم حلت البلدية مكانه، كذلك ادارات وزارة الصحة، غير ان الانضباط القديم ولى الآن. فغش الأكل لم يعد من اختصاص صغار الباعة الفقراء المتجولين، إنما أصبح من مهام التجار الكبار جدا، الأثرياء الجدد، أصحاب النفوذ ، الذين يستوردون الطعام الذي نفدت صلاحيته بأسعار بخسة ويطرحونه للبيع لتحقيق الارباح الطائلة، مع تواطؤ الموظفين. صغارهم وكبارهم. يتوزع الباعة على

نواصى الطرقات، عند مداخل الحارات، لكل منهم ركنه المعتاد، بالتحديد باعة الفول، الإفطار الشعبى فى مصر كلها. حتى الفنادق الحديثة، ذات الخمسة نجوم تحرص على تقديمه .

الفول يقدم فوق العربات اليدوية، العربة منمنمة ، مزوقة، ألوان متضادة ، الأحمر يقابل الأخضر، الازرق يقابل الأصفر، عبارات مطمئنة تؤمن البائع والمشترى معا.

الأرزاق على الله

توكلت على الله

أو آية قرآنية

«كلوا من طيبات ما رزقناكم..».

لكل عربة فول بروزان، الاول يوضع فوقه الخبز القاهرى المعروف بالبلدى، ولكل منطقة فى مصر خبزها، لكن القاهرى الأشهر. ومنه انواع الطرى. الملدن «الوسط» والمفقع «الناشف» والناس فى مصر يطلقون على الخبز اسم «العيش» أى الحياة . انهم الوحيدون فى العالم الذين يسمونه العيش، انه مقدس لديهم. فإذا رأى الواحد منا قطعة فى الطريق ينحنى ليقبلها ويضعها الى جوار الجدار بعيدا عن مسار المارة، واذا أردنا أن نضرب المثل على متانة العلاقة وحسن الصلة. نقول:

«دا انا واكل معاه عيش وملح..»

واذا أتى الصديق فعلا سيئا.

«دا خان العيش والملح..».

لا يمكن للمصرى، أن يسرق رغيفا من الخبز، فى الصباح يقف الرجال حول عربة الفول يأكلون إفطارهم، بعد ان ينتهى كل منهم يخبر البائع بعدد الأرغفة التى اكلها، مستحيل أن يخطىء، فاللقمة الحرام تصيب الانسان بالأذى، كله إلا العيش.

البروز الثانى يحمل اوانى السلطة. خضراء او طحينة، وزجاجات الزيت بأنواعه، الزيتون والحار والفرنساوى «زيت مستخرج من بذرة القطن»، وحديثا زيت الذرة.

معظم الزبائن الذين يتناولون افطارهم وقوفا من الموظفين الصغار أو الحرفيين، الأكل فى الشارع، ثم تناول الشاى او القهوة، وتدخين المعسل صباحا بمثابة اجتياز مراحل فاصلة بين البيت والعمل، نوع من التدرج، والضرورة ايضا. إذ يستيقظ معظم الرجال والاطفال يغطون فى نوم عميق، فلا يرغبون فى إزعاجهم، مهمة بائع الفول أن يغرف الحبات والمرق فى الاطباق الصغيرة، وأن يجهز الوجبة بإضافة الملح والكمون والشطة اذا رغب الزبون، ثم يقوم مساعده بغسل الاطباق فى جردل ملىء بالماء.

حركات البائع سريعة، بارعة، يقف فوق صندوق خشبى، يجعله فى مستوى اعلى من العربة، لا يسأل اى زبون كم رغيفا أكل، أو كم بصلة التهم؟ الوجبة لها سعر. فإذا تناول الزبون اكثر من رغيف أخبر به، لا يمكن المغالطة فى العيش،

ربما كان احترام الخبز قادما من الزمن المصرى العتيق، ألم يصور جثمان «اوزير» على جدران المعابد والمقابر مدفونا تحت الأرض وسنابل القمح تنبت منه؟

الفول ليس طعام الإفطار القاهرى الوحيد، سنرى عند مداخل بعض الحارات عربات أخرى، لكنها تقدم «الكسكسى» طعاما للإفطار . القاهريون يعرفونه محلى بالسكر الناعم الأبيض ويضاف اليه اللبن، لكنهم لا يأكلونه مضافا اليه الخضراوات واللحم مثل شمال افريقيا.

عربات أخرى تقدم الفطائر المقلية فى الزيت أو السمن، فطائر صغيرة شهية، ونرى عددا منها معروضا فوق بعضه البعض، يتناول البائع إحداها. وعلى طرف السكين المثلث يقلبها فى الهواء ليتلقاها بمهارة، ثم يضعها فى الإناء الذى يحتفظ بحرارته موقد صغير. ضعيف اللهب موضوع أسفله.

المهارة فى حركات البائعين قاسم مشترك، الخفة، المهارة ، القدرة على تلبية طلبات الجميع، فى وقت واحد، ولكنها لا تهدف إلى ذلك فقط، انما تعنى ايضا مهارة البائع وشطارته.

السرعة والمهارة، الخفة والاتقان، شرطان متلازمان لأداء القاهرى الصميم أو كما يعرف بين المصريين بابن البلد، ابن البلد الذى تمكن دنى لو من خلال عدسته المرهفة، الحساسة، التى تتقن الإمساك باللحظة ان يسجل ملامحه، ظاهرة وباطنة.

ابن البلد

بسعيه فى القاهرة، قديمة او حديثة، يضفى عليها خصوصية، أهم ما فى المدن ناسها، أهلها، خاصة المقيمين، الذين يجمعون داخلهم الزمان المنقضى والمكان المقيم.

مثل ابن البلد لا نجد فى أى مدينة أخرى، إنه يسعى فى القاهرة، ابن البلد هو القاهرى الصميم، الذى لم يفد اليها من منطقة أخرى، المستقر، المحتوى ملامحها.

نراه فى الشوارع الحوارى. الدروب، الأزقة . طبعا فى الأسواق ، والوكالات والمقاهى، حاضر دائما فى الافلام والمسرحيات المصرية، يطالعنا من خلال لوحات دنى لو التى يحتويها هذا الكتاب.

نراه يرتدى زيه التقليدى . الجلباب الواسع الاكمام، المفتوح عند الصدر، يبرز من تحته الصديرى المصنوع من القطن. وأزراره العديدة. المنتظمة . المتعاقبة ، حول عنقه شال من الصوف شتاء. او القطن المنسوج يدويا صيفا، اما غطاء الرأس فهو «الطاقية» والتى يلف حولها شالا من الحرير او القطن. قوامه فاره . صدره بارز، يعلن فى كل خطوة او اشارة منه عن تمكنه . وقدرته. خاصة اذا كان صاحب تجارة او مكانة فى السوق، ممن يطلق عليهم لقب «معلم». لقب يمنحه الناس لمن امضى قدرا معقولا يبيع ويشترى ويصدق فى العهود، ويبدى آيات الشهامة، وينجد الضعيف، ويتحدى

السلطة احيانا، «المعلم» مطلقة . غير مقصورة على فرع معين من النشاط، تشمل كل الانشطة، انها تعنى معرفة صاحبها بأسرار مهنته والعلاقات بين الناس، ومعرفته بالأصول. والأصول فى لغة الحياة اليومية المصريين تعنى منظومة القيم والعادات المتوارثة داخل هذا المجتمع القديم، وربما كانت كلمة «الاصول» تعنى أو تقابل اللفظ المصرى الفرعونى «ماعت» ابن البلد الذى يعرف الأصول، يقيم الحق. ينتصر له، يقف الى جانب الضعيف، مثهم. عنده مروءة . جدع. والجدع هو الناصح، الذكى، الشجاع، الكريم، ابن البلد هو القاهرى الصميم. تعرف المدينة فئات عديدة . تجارا، علماء دين. افندية «اى مثقفين» أثرياء، لكن ابن البلد هو القاهرى الصميم الذى يعيش فى المناطق العتيقة، ويرتبط بالمكان وعادات الناس، عرفت بعضهم لم يغادر الشارع أو الحارة التى يعيش فيها معظم سنوات عمره.

منهم معلم ابن بلد. كان صاحب فرن شهير فى الجمالية، مقره فى حارة درب الطبلاوى، كان بيته على بعد امتار من الفرن، ثم حدث شرخ فى المنزل القديم، اضطر إلى الانتقال بالتحديد الى المغربلين . أى على بعد أقل من كيلو متر، كان يقطع المسافة يوميا مشيا، بدأ يظهر عليه الحزن، والاكتئاب، كان يحدثنى بأسى عن غربته التى يعانيها هناك.

«لكن يا معلم انت لم تذهب بعيدا، والناس هناك طيبون».

يهز رأسه: هذا صحيح ، لكنه طوال مراحل عمره اعتاد أن يستيقظ فجرا، أن يخرج من الحارة مع جيرانه للصلاة فى مسجد الحسين، ثم يعود إلى الفرن، يتبادل الصباح مع هذا، والحوار مع ذاك، يعرف أهل الحارة فردا، فردا، رأى بعينيه الفتيات وهن صغيرات، ثم نموهن مع الزمن، وزواجهن . ثم مجيئهن مع اطفالهن، لم يهدأ الا عندما عثر على مسكن ملائم فعاد الى الحارة، وكان يردد دائما أن روحه ردت اليه يوم رجوعه.

الوطن كله

كان المصريون كأبناء أقدم مجتمع زراعى فى التاريخ لا يتصورون أنفسهم فى أرض غريبة، وعندما نفى الفرعون موظفه الكبير «سنوحى» إلى أحد بلاد البحر، راح يرسل إليه الكلمات المؤثرة ليعفو عنه، ليعود فيدفن فى أرض مصر المقدسة. لقد تغير هذا الحال لأول مرة فى التاريخ منذ حوالى ثلاثين عاما. عندما اضطر إلى الهجرة الى بلاد النفط حيث الثروة الطارئة، ومع ازدياد سوء الأحوال الاقتصادية تزايدت الهجرة الى سائر الاتجاهات. لكن مازال معظم ابناء البلد فى القاهرة القديمة يسعون، ولا يتصورون أنفسهم فى بلد آخر.

«البلد» تعنى الوطن كله، تماما كما يطلق اسم «مصر» على «القاهرة» فى الريف ، بحرى أو قبلى، إذا قصد أحدهم السفر إلى العاصمة يقول: انا رايح مصر.

ابن البلد تعنى إذن أنه ابن مصر.

ابن البلد يؤمن بالعمل، يردد «الايد البطالة نجسة» أو «الشغل عبادة» ، يؤمن بالعلم، ربما نلتقى بأحدهم لا يجيد القراءة او الكتابة لكنه مرجع فى اصول العلاقات الإنسانية ، والتقاليد، ودقائق الحياة، يردد من ذخيرة الأمثال الشعبية، «العلم بالشيء ولا الجهل به» من صفاته الذكاء، والشطارة «يفهمها وهى طايرة» وقوة الذاكرة، كنت اعرف معلما صاحب مقهى، كان يحفظ فى ذاكرته كافة تفاصيل الحسابات التى تخص زبائنه يوميا، وآخر النهار، إذا أبدى زبون شكا فى شرب فنجان قهوة أو كوب شاى، عندئذ يميل المعلم قليلا ويذكره بالمناسبة التى طلب فيها الشاى «لما جالك الافندى الرفيع ده»..

يفضل الاعتماد على نفسه «حمارتك العرجاء ولا سؤال اللئيم» فإذا ضاقت الحال. وصعب الامر فإن الجار للجار . ميال الى اصلاح المتخاصمين والتوفيق بينهما. «اسعى فى الخير ولا تسعى فى الشر» من الافضل حل المشاكل كلها بعيدا عن البوليس، وكل اشكال السلطة، العلاقة مع السلطة حافلة بتعقيدات عديدة، من الافضل تجنبها بقدر الامكان، من هنا الكلمة عند ابن البلد قانون أهم بكثير من المواد الرسمية، يقول مؤكدا موقفه.

«انا اديت كلمة.. والرجل يتمسك من كلمته».

فى حواره اليومى تورية، ومستويات متعددة، كل جملة لها ظاهر وباطن، نتيجة لميراث القهر التاريخى، منذ ان فقدت مصر استقلالها منذ حوالى ثلاثة وعشرين قرنا. تعاقب عليها الحكام القساة من بطالمة ورومان وعرب وأتراك واجانب اصبح لكل طائفة لغتها، وللتعاملات اليومية اشارات موحية.

لنتأمل طريقة ابن البلد فى الصباح، يقول «صباح الخير» لكنه لا يكتفى بذلك!، بل لديه تنويع على معنى الصباح، صباح الورد. صباح الفل، صباح القشطة، نهارنا لبن ، نهارنا نادى. يا مساء الجمال، يا مساء العندليب، يا مساء الهنا».

إذا اراد ان يغلق باب النقاش فى صفقة يقول :

«يفتح الله».

أى. السعر الذى تعرضه لا يناسب، اذا غضب يصيح

«توكل على الله».

اذا كان يأكل ، أيا كان حجم ونوعية الطعام، فلابد ان يوجه الدعوة إلى أى مار به.

«تفضل معانا»

ومعناها الحقيقى : ما أمامى يكفينى فقط.

ينادى على بضاعته ملحنا صوته. رافعا من شأنه.

«كهرمان يا عدس».

«الملاح.. الملاح».

يعنى الكتاكيت الصغار

«يا لوز يا حلو..»

أى الفول المدمس.

للطعام عنده شأن ، اذا أكل مع شخص ما يعتبر ذلك مثل الميثاق أو المعاهدة يردد دائما : «دا كان بيننا عيش وملح» وبالتالى لا يمكن ان يغدر بمن شاركه المائدة يوما.

يراعى الجار . لا يغازل امرأة جاره، نتذكر القسم الذى كان يدلى به المصرى القديم امام محكمة الاله اوزيريس فى العصر الفرعونى.

«لم الوث ماء النيل».

«لم اغازل امرأة جارى».

انه يغار على أى أنثى تمت الى المنطقة التى يعيش فيها. وقد يتشاجر مع أى غريب يحاول مضايقتها، هى عنده «بنت الحتة» اى ابنة المنطقة وبالتالى يجب حمايتها من اى مضايقة، واذا ابدى الغزل فانه يختار ألفاظه بعناية، وحتى سنوات قريبة كان الغزل القاهرى يشبه الشعر.

«ياغزال .. ياجميل..»

«يا أرض احفظى ما عليك».

«يا أرض اتهدى ما عليك قدى..»

بقدر الامكان يحاول تجنب العراك، او العنف، لكن اذا مس شرفه ، أو تعرض للاهانة فإن شعاره هنا «يا روح ما بعدك روح».

يعتز جدا بالمنطقة التى ينتمى اليها مباشرة احترامه للجيران مقدس، يقول، «دا ابن حتتنا».

يتعصب لمنطقة فى مواجهة المناطق الاخرى. الانتماء الى المكان والارتباط به أساسى، ابن البلد يمكن ان يكون مسلما او مسيحيا او يهوديا، تدينه معتدل. يتمسك من خلال الدين بالقيم». امشى عدل يحتار عدوك فيك».

ساخر. مرح. محب للحياة ، يحترم الموت مثل كل المصريين، يرقص فى الموالد واحتفالات الزواج بالعصا. واتقان اللعب ، يثير الاعجاب، فى الافراح يقوم بالخدمة ، وفى المأتم يقف لتقبل العزاء الى جانب أهل الفقيد. يؤدى ما يعرف عنده بالواجب، واجبه هو تجاه الاخر.

ابن البلد فى الأزمنة القديمة، كان التركى او البدوى واثرياء المصريين المتفرنجين اذا ارادوا ذم شىء ما . يقولون باحتقار «دا بلدى» أى «دا مصرى»! لكن عند المصريين الذين يعون ذواتهم اذا ارادوا اضفاء الصفات الحسنة على شخص ما وصفوه بانه «دا ابن بلد».

اولاد البلد، هم الذين سعى دنى لو إليهم. وسجل ملامحهم فى لحظات استثنائية ورصد العيون القاهرية الفسيحة التى تشبه عيون أقنعة الفيوم عيون أولاد البلد.

كرامة الفنان

بقلم : حسن سليمان

جاءت متشحة بالسواد فى ثوب فضفاض، وكأنها «ميديا» تسعى لانتقام، لا أدرى لماذا؟ فليس بيننا خصام. قالت لى «لا أريد أحدا أن يتدخل فى شئونى» ، لم أجبها. فأنا لا أتدخل فى شئونها، ولم أسع لأعرف عنها شيئا. هى التى تأتى وهى التى تذهب. ألقت بسنوات حياتنا معا من بين أصابعها المعقوصة فى حجرها، لتتدحرج تحت قدمى. لم أطأها بقدمىّ. لأنى أدرك أنها ستنحنى فى يوم ما لتجمعها. لم أرد، نظرت إلى زرقة غابرة فى السماء وسحابة عابرة، ثم صنعت من اللامبالاة قبة زجاجية حولى، وظللت داخل القبة أرقب ثورة غضب وحزن مرتسمة على وجهها فى صمت. فليس لدى القوة على المجادلة والعتاب والخصام أو الإنفصال. لقد نسيت هى شيئا واحدا. لم أذكرها بأن المرأة حينما تضع الفنان فى حيرة تكون هى والعالم الخارجى شيئا واحدا. إنصرفت، وأنا لازلت صامتا فى قبتى الزجاجية من اللامبالاة. فالأفضل أن أحتفظ بكرامتى وكرامتها فى آن واحد.

تذكرت حادثة «أولجا» مع بيكاسو. فى يوم مطير وجد فى «مزراب» ماء بمدخل مرسمه المتواضع ورقة تعبث بها المياه المندفعة، انحنى بيكاسو والتقطها. وجد فى الورقة المبتلة والخطوط المتعثرة خطابا «غراميا» من أحد جيرانه «لأولجا» ثار بيكاسو وهاج فدماؤه عربية من الأندلس . صعد مسرعا إليها طالبا الانفصال . بكت وأصرت أنها ليس لها علاقة بهذا الشاب المجنون، وأنها لم تحبه مرة واحدة، ولم تكلمه ولم تنبس معه ببنت شفة. بيكاسو أصر على أنها أخفت عنه موضوع الخطاب . قال لها: إن المرأة حينما تضع الفنان فى حيرة وبلبلة وشك، فالأفضل له

أن يقطع علاقته تواً بها ، وينصرف إلى عمله حتى لا تعطله غيرة ما.

إن كرامة الفنان تنحصر في مستوى عمله وفى مستوى موقفه الإجتماعى فقط.. وإلى الجحيم لأى امرأة مهما كانت. إن أصبحت مادة معوقة للفنان. إن موقف الفنان الحاد هو الذى يحدد قوة بناء عمله.

أذكر أن فنانا جاء لى فى حالة ثورة جامحة. وضع يديه فى خصره بعد أن أبعد سترته خلفه، وصاح : «تصور أنى فى سنى هذا وقد تعديت السبعين، ومن الممكن أن أكون أستاذا للوزير. ذهبت إليه فى مكتبه فأجابنى سكرتيره بأنه ليس لدى موعد سابق معه. وأنه سيحدد لى موعدا. سألته بعد فترة هل أدخل اسمى. قال: نعم والوزير سيطلبك : جلست ساعات طويلة والوزير لم يطلبنى. ذهبت إليه مرة ثانية. تكررت نفس المأساة. فقلت للسكرتير أخبره باسمى. قال لى: والله قد أخبرته ، وتكرر نفس الحادث إلى الساعة السادسة. فجئت إليك منفعلا. قلت له ولما ذهبت، أليست لك كرامة؟! . قال لى : «إنه حقى. وإنها نقود الضرائب. وأنه يجب عليه أن يستقبلنى، وأنا لم أعد صغيرا، وقد كنت. وقد كنت». قلت له : «نحن فى حكم ديمقراطى .. رئيس الجمهورية اختار رئيس الوزراء، ورئيس الوزراء اختار أهل الثقة، إذن هم أحرار فى تصرفاتهم تجاه شئون الدولة» . هاج وماج وصب غضبه علىّ قائلا: «فلأدعك أنت فى برجك العاجى. متى تفيق وتضع يدك فى يدنا لاصلاح هذا الفساد؟» . قلت له: «إن كرامتى لا تسمح لى الآن فى سنى إلا بالحذر والتمعن فى وضع إمضائى على ورقة»، أين كرامة الفنان هنا؟ هل هى فى التسكع على الأبواب المغلقة؟.

★★★

حينما جاء إلى مصر «مالرو» وزير الثقافة الفرنسية. الذى اختاره «ديجول» بعد إلحاح وإصرار على أن يكون الكاتب الخالد العظيم وزيرا للثقافة فى فرنسا ، وكان معه «جان توما» سكرتير عام الوزارة والذى كان قبل ذلك سكرتيرا عاما لليونسكو . قص على «جان توما» هذه الحادثة: أن «مالرو» كان خارجا من مكتبه وجد كاتبا شابا ينتظره وقد قالت له السكرتيرة بأن الوزير مشغول. ثار «مالرور» على السكرتيرة. أدخل الشاب وأخبرها بأنها لا يمكن أن تجعل فنانا شابا ينتظر، فالباب مفتوح على مصراعيه، وأدخله «مالرو» واستمع إلى شكواه جيدا. أخبره أنه قرأ كتابه جيدا. ثم ودعه الى خارج حجرته.

أذكر أن هناك حادثة مشابهة لهذه حدثت عندنا، كان يحيى حقى مديرا لمصلحة الفنون الجميلة . يقص محمود شعبان الكاتب المسرحى: أنه كان موجودا حينما ذهب نجيب محفوظ إلى مكتب يحيي حقي. وقف يحيى حقى إحتراما لنجيب محفوظ المشهود له بالحياء والخجل. ظل يحيى حقى واقفا بدوره كذلك . طالت مدة وقوف الاثنين حتى أصبح يحيى حقى برما. قال لنجيب محفوظ : «اجلس يا نجيب ولا تحرجنى أكثر من هذا. أنت. هنا نجيب محفوظ الكاتب الكبير، ولست الشخص الذى فى حاجة إلى مدير مصلحة الفنون».

حادثة أخرى. فقد أخبرنى فنان أنه كانت له حاجة ضرورية لدى مسئول كبير. فقالت له السكرتيرة بأن المسئول عنده إجتماع مهم ولا تستطيع أن تزعجه الآن. انتظر صاحب الحاجة طويلا دون جدوى، وفجأة دخلت القاعة امرأة مصبوغة الشعر ملطخة الوجه. تفوح منها رائحة العطر الرخيص . مكتنزة الجسد تتعثر فى حذائها العالى. ترتدى سروالا ضيقا من ذلك النوع الذى يسمى «إسترتش» يبرز دمامة خطوط جسدها المشوه. واذ بالسكرتيرة تقف لها صائحة: إن المسئول ينتظرها منذ ساعات . أين كرامة الفنان هنا؟!

★★★

أظن أنه فى أوائل السبعينات . حدث فى باريس تظاهر للطلبة، وسمح لهم «جان لوى بارو» مدير مسرح «أوديون» فى ذلك الوقت باحتلال مسرح «أوديون». صنع الطلبة من المقاعد متاريس وسدودا. أتى البوليس والمطافى لاقتحامه. فزاد تخريب المسرح كلية. حقق مع «جان لوى بارو»، فرد عليهم بأسطر قليلة حادة قائلا: «هل نسيتم أيها السادة أننى «جان لوى بارو» الممثل، ولم أكن أصفح لنفسى بتاتا. إن لم أناصر الطلبة ومطالبهم وحريتهم، إن كرامتهم هى كرامتى» أين نحن من هذا فى مصر؟.

فى يوم من الأيام أتى لى أمل دنقل فى ، حالة حزن عميق وألم ممض. ألقى إلى بديوانه على مكتبى . حتى إن أعجبنى أرسمه له، وفجأة قلب فى القصائد وأخرج بعضها قائلا: «لن أدعها تخلد. كرامتى لا تسمح لى بأن تخلد فى قصائدى» ـ أظن لا داعى لأن أذكر من هى هذه الفتاة ـ لكنى بعد رحيله لملمت القصاصات وأخذت أجمعها بجانب بعضها. وجدت أنها من أروع قصائد أمل دنقل لأن بها وجداً وشجناً يدغدغ حواسك بقسوة أكثر من قصائده الأخرى. أخذت تتنازعنى فكرتين

. فكرة ان من الجـرم عـدم نشـر هذه القـصـائد، وفى الوقت نفـسـه يجب أن أحترم رغبة الفنان خصوصا فى مشاعره وفى كرامته المجروحة . فقررت الاحتفاظ بها، ومن حين لآخر كنت أقرأها بشجن عـمـيق، وأخـيـرا قـررت أن أعلنها لكن الحريق أتى وأضاع كل شىء حتى قصائد أمل دنقل. لست نادمـا. فكرامـة أمل دنقل المجروحة ولياليه التى قضاها وقد تجمدت الدموع فى عينيه أهم بكثير.

★★★

كان من أحب الشخصيات الىّ نجيب سـرور . آخـر مـرة رأيتـه فـيـها كـانت فى مقهى ريش. كان يرتدى «بيجامة» أزرارها مـفـتوحة، وقـدمـاه منتفـختين من المرض. أشار إلىّ بيده أن أجلس بجانبه. جلست، وبشموخ وكبرياء قال لى أستدفع لى ثمن زجاجة البـيرة؟» قلت له «نجيب أنت تعلم أنى لا أرفض لك طلبا مـهـمـا كـان هذا الطلب» نظر إلىّ بعـينيـه الضـيـقـتـين الثاقبـتين يحملان لى الجميل والامتنان. كـان نجيب حـتى فى فـقـره فى آخـر ايام حـيـاته يحـمل كـبـرياء وشـمـوخ الفنان العظيم. كـانت عيناه تذكرانى بعينى بيرم التونسى. لكن بيرم كان عنده شىء آخـر لازلت أتذكـره وأتعـجب. كنا نخـرج من جريدة المصرى، وفى ميدان التحرير نقف، وفجأة يبحث فى الميدان عن شرطى ويقول لى دعنا نقف هنا قليلا. يخرج من جيبه قطعة الحشيش. يلفـها فى سيـجارة ويدخنها نافثا رائحتها فى أنف الشرطى متحديا السلطة، وهكذا يكرر العملية اكثر من مرة فى ميدان التحرير.

فى مظاهرات باريس الشهـيرة التى رسمها «ديلا كروا» . كان «بودلير» ينزل وسط المتظاهرين خلف المتـاريس هاتفـا ضـد زوج أمه. فـقـيل له «لماذا تهتف ضـد زوج امك» قـال: «إنه رمـز السلطة فـهـو يعمل فى و ظيفة كبيرة بالبلدية. ويمارس كـذلك سلطتـه عليه فى المنزل. فـهـو كلب للسلطة» ، ولذلك استـخـدم تعـبيـر كـلاب السلطة بعد «بودلير».

فى آخـر أيام «مـوديلـيـانى» وقـد طـحنه الأفـيـون والخـمـر والسل يحكى «أندريه سـلامـون» هذه الحـادثة، أنه كـان يحـمل رسـومـه فى يده صـائحـا : «مـوديلـيـانى بخمسة فرنك» وفـجـأة لمح فى مطعم غال ناقدا مشهورا لا يحترمه الفنانون الحداث بتاتا، ويحتقرونه كأنه سـبب لتأخر الفن ، وإذ «بموديليانى» يدخـل المطعم. يقف على الكرسى الذى بجوار الناقـد ويتبول لقد كـان هذا رده على حـقارة الفـن المسيطر فى عصره. والنقد السيىء.



فى مرة وصل «لديلاكروا» أن «الفونس دوديه» الشاعر الفرنسى كان ينتظر فى البرد وهو يفترسه مرض السل. ينتظر هو وصديق له «جورج صاند» وقد أعطته موعدا، وإذ بهما يريان «جورج صاند»» ومعها شاب تدخل منزلها. واذا «بالفونس دوديه» يهمس بوهن المسلول : «إلهى اصفح عنها . سوء حظى العاثر هو الذى ألقانى فى طريقها» ثار «ديلاكرورا» ثورة كبيرة لكبرياء «الفونس دوديه» المجروحة عند معرفته بالحادثة، وحينما ذهبت إليه «جورج صاند» صفعها وطردها من مرسمه.

ذات مرة وجد «ديلاكروا» نفسه فى مواجهة «أنجر» على المائدة بوليمة و«أنجر» أكبر منه لكن «ديلاكروا» كان متحدثا لبقا. آثر الجميع بطلاوة حديثه وهو يشرح وجهة نظره. فجأة دون مبرر ضرب «أنجر» المنضدة بكفه صائحا : «الرسم يا سيدى.. الرسم». لم يعره «ديلاكروا» إلتفاتا مزهوا بطلاوة حديثة، فصرخ «أنجر» ثانية : «الرسم يا سيدى.. الرسم» . وحينما لم يلتفت اليه أحد. ألقى «بفوطة المائدة» ومضى صافعا الباب خلفه. كان هناك الكثير كى يهاجم ديلاكروا اتهام أبخر باتهامات اقسى. لكن ديلاكروا فضل الصمت. احتراما لكرامة فنان اكبر منه سنا. أين نحن فى مصر من هذا؟

★★★

عندما ذهبت «مدام ريكلاميه» إلى «ديفيد» كى يرسمها. رسم لها رسما صغيرا على انها ستأتى ثانية ليرسمها الصورة الكبيرة، وقد كانت «مدام ريكلاميه» أجمل نساء باريس قاطبة. انتظرها «ديفيد» خمس دقائق فقط لكنها لم تأت، فانصرف الى عمل آخر. وحينما أتت بعد الدقائق الخمس. قال لها «ديفيد» دون أن ينظر إليها: «مدام ريكلاميه» تنتظر لكن ديفيد لا ينتظر. ومع اهماله لها انصرفت وذهبت الى فنان أقل من «ديفيد» مقدرة وهو «جيرار». لكن صورة «جيرار» رغم خلودها لم ترتفع الى مستوى مقدرة ديفيد فى «الاسكتش» الصغير.

★★★

تحكى عشيقة «جوته» الروسية فى كتابها الممتع عنه أن فى زيارة لبيتهوفن لبلدة فايمر كان يسير هو وجوته على قنطرة هناك، واذا بهما يبصران مركبة الاميرة التى يعمل جوته عند زوجها وزيرا. وإذ بجوته يقف ويخلع قبعته منحنيا فتتوقف العربة ليتحدث معها وهو منحنى نصف انحناءة ، أما بيتهوفن فى ملابسه الرثة التى لا تضاهى ملابس جوته. شد قبعته بقسوة حتى غطت أذنيه. ثم عقد

ذراعيه خلف ظهره ومضى شامخا. ناظرا إلى السماء وعندما لحق به جوته انهال بيتهوفن غاضبا عليه. اذ كيف يتهاون فى كرامة الفنان. فلا يوجد امير ترتفع هامته لهامة فنان ابدا. خاصم بيتهوفن جوته بعد ذلك مدة طويلة.

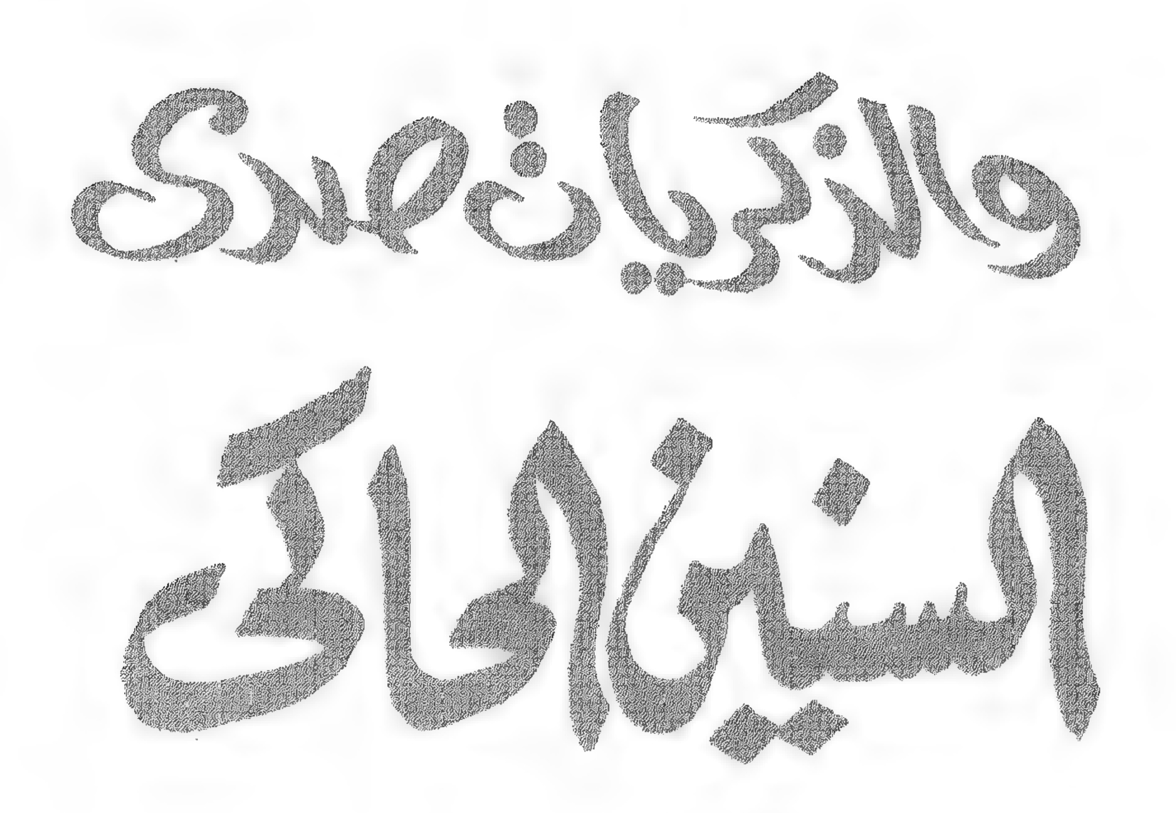
جوته عظيم لكننا نجد ان معظم المثقفين الالمان منذ زمن طويل ينحازون لشيلر المتمرد اكثر من جوته. فقد كانت كرامته فوق كل شيء حتى أنه كان يقرأ شعر روايته «اللصوص» على ضوء شمعة فى الغابة فهو محكوم عليه بالسجن، والى الآن توجد محطة للمترو فى بداية الغابة فى شتوتجارت تسمى هنا حيث يوجد ركن شيلر. وترتفع هامته عالية جدا جدا فى ميدان صغير لا يتناسب حجمه مع التمثال، حوله باعة الزهور والفاكهة، وكأنهم يقصدون أن هامته اعلى من كل من حوله.

نحن الفنانين لا نفكر فى الكرامة ولا نتحدث عنها. فهى فى حد ذاتها داخل أنفسنا. نبتهج لكرامة لا ندرى ماهى. البهجة ممكن أن يحملها إلينا صوت ناء بعيد. ومن الممكن أن تحملها لنا سحابة مضيئة. البهجة التى تجمل إلينا الأمل لا يمكن أن تأتينا مع انتظار مسئول. إنها تحمل الى كل صدى الألوان التى تضيئها كرامة الفنان. ما كل هذا الوهم الذى يجعلنى أحلم بالسعادة. رغم ان معظم المسئولين فى الدولة قد اختيروا من حلة واحدة تسمى الحرمان والعقد. لكن هذا الوهم فى مقدوره ان يحملنى الى أرض الواقع.. إلى الحقيقة التى هى واقع مظلم.

★★★

أدرت ظهرى يا سيدتى وأنصت إلى رياح تدفع بالنافذة لتفتحها. لم أعد أرغب فى مهمة عذاب بعد. ما الذى تريدين ان تقوليه لى ؟ أليس صوت الريح أجمل لنسمعه، سويا ، يالك من طفلة صغيرة ليست بعيدة عن دارها الحقيقية. لكنك تفضلين العناد والوحشة . أما أنا فسأرجع الى لوحة لم أكملها بعد. إن المرأة قلما عرفت أبعاد الفنان الحقيقية. كذلك المجتمع لم يعرفها بعد. لايهم الفنان أن يقول المجتمع كله رأيه فيه. فالتاريخ فقط هو الذى فى مقدوره ان يقول، ولا يهم الفنان كذلك رأى المرأة فيه. إن إخلاصها المتناهى له غير المشروط هو الذى يجعله يستسلم لها كطفل صغير.

إننا نتاجر بألفاظ وكلمات لا ندرى حتى معناها «القاموسى» مثل الإخلاص والولاء ونجحت الدولة فى ادخال كل المثقفين حظيرة وزارة الثقافة من هم المثقفون؟؟؟ زكى نجب محمود حتى وهو على فراش الموت لم يعرهم حتى التفاته وأطبق فمه. إنهم أقل حتى من أن يحييهم أو يرد.

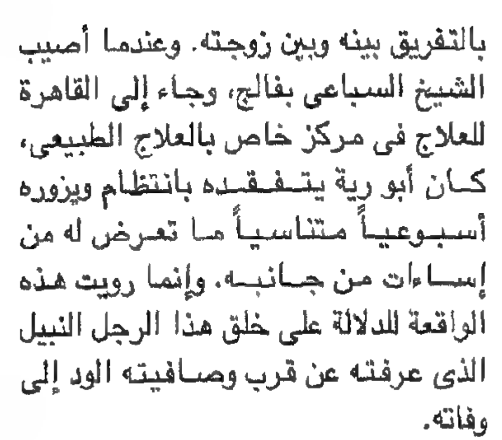


بقلم : وديع فلسطين

ليس من ملتى أن أسجل ذكرياتى أو مذكراتى، لأننى عشت دائما على هامش الهامش من الحياة الثقافية والأدبية، وكان دورى - ومازال - هو المتابعة عن قرب أحياناً وعن بعد فى أكثر الأحايين، ولكن لا بأس من إجترار بعض ما وعته الذاكرة مما عرفته أو سمعته أو كنت من المعاينين له.

طه حسين وكتاب النظرات

الشيخ محمود أبورية (١٨٨٩ - ١٩٧٠) عُرف بأنه التلميذ الوفىّ للأديب مصطفى صادق الرافعى (١٨٨٠ - ١٩٣٧) وهو ناشر رسائله فى كتاب كان من أوائل كتب الرسائل الأدبية فى زمننا المعاصر. وقد عرفت الشيخ أبا رية رجلاً متين الخلق، صادق النية، شريف المقصد، لا ينال أحداً بسوء ولا يقول إلا ما يعرفه عن ثقة، وعندما أصدر كتابه «أضواء على السنة» الذى أثار جدلاً طويلاً، ألف الشيخ مصطفى السباعى السورى (١٩١٥ - ١٩٧٤) كتاباً فى ألف صفحة فى الرد على الشيخ أبى رية طالب فيه



بالتفريق بينه وبين زوجته. وعندما أصيب الشيخ السباعى بفالج، وجاء إلى القاهرة للعلاج فى مركز خاص بالعلاج الطبيعى، كان أبو رية يتفقده بانتظام ويزوره أسبوعياً متناسياً ما تعرض له من إساءات من جانبه. وإنما رويت هذه الواقعة للدلالة على خلق هذا الرجل النبيل الذى عرفته عن قرب وصافيته الود إلى وفاته.

وكان من عادة الشيخ أبى رية أن يزورنى فى مكتبى كل سبت . وفى إحدى هذه الزيارات قلت له إننى متواعد مع صديق عراقى على زيارة الدكتور طه حسين فى فيللا رامتان فى الليلة نفسها. فأشار علىّ أن أسأل طه حسين عن سر تجاهله لسلسلة المقالات التى نشرها فى فجر حياته الأدبية بعنوان «نظرات فى النظرات» وفيها انتقد «نظرات» الأديب مصطفى لطفى المنفلوطى (١٨٧٦ - ١٩٢٤) انتقاداً مُرّاً انصب على أغاليط اللغة والنحو والصرف، ولما استفسرت من الشيخ أبى رية عما يعرفه عن هذا الموضوع ، قال إن هذه المقالات منسوبة ظلماً إلى طه حسين على الرغم من أنها حملت توقيعه الصريح، إذ إن كاتبها الحقيقى هو الأديب محمد صادق عنبر (ت ١٩٣٨) وهو أديب فذ سقط من اهتمام الباحثين فى سنوات طويلة، وليت محمود أمين العالم يعنى بدراسة أدبه بحكم كونه والد زوجة شقيقه المجمعى الراحل محمد شوقى أمين (١٩١٠ - ١٩٩٢). وأضاف الشيخ أبورية أن هناك اعتبارات سياسية جعلت صادق عنبر يقوم بدور الكاتب الشبح الذى يختفى



طه حسين

وراء طه حسين، وأن طه حسين لم يُمانع فى وضع اسمه على هذه المقالات ، فهو أديب ناشىء ولا حرج فى الخروج على الناس بمقالات تجرح عملاً أدبياً كبيراً لأديب كان وقتها ملء السمع والبصر، وكان مقربا من الزعيم سعد زغلول باشا (١٨٦٠ - ١٩٢٧).

وتلقيت ما قاله الشيخ أبورية بشىء من التحفظ ، مع أننى عرفته متابعاً دؤوبا للحياة الأدبية المعاصرة، وعندما اجتمعت بطه حسين (١٨٨٩ - ١٩٧٣) فى منزله قلت له: هل لى أن أسألك يا معالى الباشا - وكان يحب أن يخاطب بهذا اللقب حتى بعد إلغاء الألقاب - عن السبب فى تجاهلك لمقالاتك القديمة المعنونة «نظرات فى النظرات»، إذ إنك وإن كنت جمعت معظم فصولك الأدبية المنشورة فى الصحف، بما فى ذلك أحاديث الأربعاء، إلا أنك أهملت هذه الفصول. «أما مقالاته السياسية، فقد قام بجمعها فى وقت لاحق الأديب محمد سيد كيلانى (١٩١٢ - ١٩٩٨) فى عدة كتب». فابتسم الدكتور طه حسين وقال ما معناه : لك أن تعتبر هذه المقالات عبث أطفال ،

فقد كنا وقتها نتعجل الشهرة ، وأوسع الأبواب لبلوغ الشهرة هو مهاجمة المشهورين من الكتاب، ولو كانت للمقالات قيمة لجمعتها في كتبي.

ومصداقاً لنفور طه حسين من هذه الفصول أنقل ما رواه بنفسه في كتاب «مذكرات طه حسين» المطبوع في بيروت عام ١٩٦٧ والذي جعله بعد ذلك جزءاً ثالثاً لكتاب «الأيام»، حيث قال : «وعلى الشيخ عبد العزيز جاويش رحمه الله يقع نصيب غير قليل من تلك الفصول الطوال السمجة التي كتبها الفتي ، فشغل بها الأدباء والمثقفين حيناً، ثم لم ينقطع استخذاؤه لها وضيقه بها وخجله منها كلما ذكرت له، وكان موضوعها نقد «نظرات» المنفلوطي، رحمه الله، وكان عنوانها «نظرات في النظرات»، قرأ الفتي الفصول الأولى من نظرات المنفلوطي راضيا عنها، معجبا بها، ثم لم يلبث أن سئمها وانصرف عنها. ولكنه لم يكد يراها مجموعة في كتاب حتى ضاق بها أشد الضيق، وكتب يعيبها ويغض منها. وفرح الشيخ عبدالعزيز جاويش (١٨٧٦ - ١٩٢٩) بما كتبه الفتي أشد الفرح ، واستزاده من الكتابة، وحرضه عليها، وألح في التحريض، حتى ألقى في روعه ألا يدع فصلاً من فصول المنفلوطي إلا اختصه بفصل من النقد، وكان الفتى قديم المذهب في الأدب، لا ينظر منه إلا إلى اللفظ، ولا يحفل من اللفظ إلا بمكانه من معجمات اللغة، فكان عيب المنفلوطي عنده أنه يخطيء في اللغة ويضع الألفاظ في غير مواضعها، ويصطنع ألفاظاً لم تثبت في «لسان العرب» ولا في «القاموس المحيط». وما أسرع ما انزلق الفتى من هذا النقد السخيف إلى طول اللسان وشيء من الشتم لم تكن بينه وبين النقد صلة، ولم ينس الفتى مقالاً دفعه ذات مساء إلى الشيخ عبد العزيز جاويش، فلم يكد يقرأ أوله حتى طرب له وأبى إلا أن يقرأه بصوته العذب على من يحضر مجلسه ذاك. وابتهج الفتى حين سمع الثناء، وأحس الاعجاب، واستيقن أنه أصبح كاتباً ممتازاً، ثم لم يذكر بعد ذلك أول هذا المقال حتى طأطأ من رأسه ومن نفسه وسأل الله أن يُتيح له التكفير عن ذنبه ذاك العظيم. وكان أول المقال: «عم صباحاً أو مساء ، واشرب هواء أو ماء، واستأجر من تشاء لما تشاء، فقد وضح الحق وبرح الخفاء».

ويقول طه حسين : كان بعض تبعة هذا السخف يقع على الشيخ عبدالعزيز جاويش، وفهم الفتى ، ولكن متأخراً، أن لطفي السيد (١٨٧٢ - ١٩٦٣) لم يرض قط عن هذه الفصول.

وإذا كان طه حسين اعترف بتحريض عبدالعزيز جاويش على كتابة هذه الفصول، فهو لم يعترف بأن كاتبها شخص آخر هو محمد صادق عنبر كما حدثني بذلك الشيخ محمود أبورية.

حفاوة تونسية بطه حسين

أخبرني العلامة الكبير أبو القاسم محمد كرّو المستشار الثقافي العتيد في تونس في عهود معظم وزراء الثقافة أن تونس تولى طه حسين عناية خاصة وأنها قد أصدرت فعلاً كتابين كبيرين عنه، عنوان أولهما «مائوية طه حسين» الصادر عن دار الحكمة - وهي المجمع العلمي في

تونس – وعنوان الثاني «طه حسين : قضايا ومواقف» لحسن أحمد جغام ، وقد أنشئت لجنة بإشراف الأستاذ كرّو لنشر سلسلة من الكتب عن طه حسين، منها كتاب «طه حسين والمغرب العربى» وهو يتدارك التقصير الذى وقع فى البيليوغرافيا التى نشرها الدكتوران مارسون جونز وحمدى السكوت حيث أغفلت صلات طه حسين الوثيقة بالمغرب العربى وعناية المغاربة بآثار طه حسين. وتضم السلسلة مؤلفات طه حسين المعلمية ومنها «الأيام» بأجزائها الثلاثة و«فى الشعر الجاهلى» و«فلسفة ابن خلدون الاجتماعية» وهى الرسالة الجامعية التى أعدّها طه حسين باللغة الفرنسية وترجمها محمد عبد الله عنان و«ألوان» و«نفوس للبيع».

وليت هذه اللجنة تُعنى بترجمة الدراسة الجامعية التى أعدها زميلى الجامعى الدكتور بيير كاكيا الأستاذ بجامعة إدنبرة وجامعة كولبيا عن طه حسين، وهى من أوائل الدراسات الأجنبية التى كتبت عن طه حسين وفلسفته .

شاعر تنبأ بموته

دخلت إحدى مكتبات القاهرة طالباً شراء ديوانٍ عزيز أباظة باشا (١٨٩٨ – ١٩٧٣) فقدّم لى موظف المكتبة «ديوان عزيز» وهو للشاعر الدكتور عزيز فهمى (١٩٠٩ – ١٩٥٢) فاقتنيته، لأننى كنت أبحث عنه، ولأن صاحبه شاعر مُجيد حتى إن الدكتور طه حسينٍ كتب مقدمة له أثنى فيها على الشاعر ثناءً مستطابا يستحقه .

وعزيز فهمى هو نجل القطب الوفدى عبد السلام فهمى جمعة باشا الذى كان



مى زيادة

رئيسا للبرلمان المصرى. وقد تخصص نجله عزيز فى القانون، وتابع دراساته العليا فى جامعة السوربون فى فرنسا وظفر منها بدرجة الدكتوراه .

وعند عودته عمل بالمحاماة، واشتغل كذلك بالسياسة فانتخب عضواً فى مجلس النواب ، وكانت له مواقف حادة فى الدفاع عن وجهة نظره وإن خالفت وجهة نظر الحزب الذى ينتمى إليه، بل وجهة نظر والده رئيس مجلس النواب الذى هو عضو فيه .

وكان معروفاً عن عزيز فهمى «ولابد من التفرقة بينه وبين شاعر آخر اسمه عزيز أحمد فهمى كان يعمل محرراً بجريدة (المصرى) » أنه يحب السهر ومجالس أهل الفن، وعندما طلبت منه الراقصة المعروفة ببا عز الدين استعارة سيارته الأمريكية الفارهة الجديدة للسفر بها إلى الإسكندرية، تنازل لها عنها طواعية، ولكن الراقصة المتمكنة من اهتزازات جسمها فى صالة الرقص، لم تستطع أن تتحكم فى اهتزازات السيارة ، فاصطدمت بشجرة ولقيت مصرعها فى الحال، وأصبحت السيارة حطاماً،

واضطر المحامي عزيز فهمي بعد ذلك إلى استخدام سيارات الأجرة فى تنقلاته بين المحاكم المختلفة.

وكانت لعزيز فهمي قضية منظورة أمام محكمة بني سويف ، وبسبب اعتياده على السهر استيقظ متأخرا فلم يلحق بقطار الصعيد الذي غادر محطة القاهرة قبيل وصوله إليها بسيارة أجرة، فأمر سائق السيارة بأن يحاول اللحاق بالقطار في محطة الجيزة، ولكن القطار كان أسرع من السيارة فلم يتمكن من اللحاق به، وعاد عزيز فهمي يأمر السائق بالإسراع عساه يدرك القطار في المحطة التالية، وكانت إلى يمين الطريق ترعة «ردمت الآن» ، ولما حاول السائق تفادى الاصطدام بسيارة آتية من الاتجاه الآخر، أفلتت منه عجلة القيادة ، فهوى بالسيارة في الترعة . واستطاع السائق أن ينجو بنفسه، أما عزيز فهمي فقد مات بالصورة التي تخيلها بنفسه في إحدى قصائده.

ويرجع الفضل الأول في التنبيه إلى توافق النهاية الأسيفة للشاعر مع وحيه وإلهامه إلى الأديب الشاعر الفنان عبدالرحمن الخميسي (١٩٣٠ - ١٩٨٧).

أما القصيدة التي تنبأ فيها الشاعر بموته، والتي نبّه إليها الخميسي فعنوانها «قارىء الكف» ، ومطلعها :

يا قارىء الكف، ماذا خبّأ القدرُ؟
وما عليك إذا لم يصدق الخبرُ

ثم ذهب الشاعر في تعداد أسباب المنايا المختلفة ، إلى أن قال :

أم أن في مسبح الحيتان منقلبي
يوم الرحيل إذا ناداني القدر!

وكانت وفاة عزيز فهمي فاجعة بالنسبة لأبيه الشيخ عبدالسلام فهمي جمعة باشا الذى قرر اعتزال الحياة نهائيا واستولت عليه حالة من «الدروشة» وقام ببناء مسجد في مدينة طنطا دفن فيه ابنه ودفن هو فيه من بعده .

لبنان يرد الاعتبار للآنسة مى زيادة

فى بادرة كريمة للاعتذار للأديبة مى زيادة عن «أيام العصفورية» التى قضتها في لبنان بدعوى اختلال قواها العقلية ، أقام لبنان مهرجاناً كبيراً في سياق الاحتفال ببيروت عاصمة ثقافية للعالم العربى لتمجيد ذكرى مى برعاية العماد إميل لحود رئيس الجمهورية، وأقيم المهرجان في قصر الأونسكو وكان من كبار المشاركين فيه الأستاذ محمد يوسف بيضون وزير الثقافة في لبنان والأستاذ عادل الخضرى سفير مصر في بيروت الذى ألقى كلمة السيد فاروق حسنى وزير الثقافة، والوزيرة السورية السابقة الدكتورة نجاح العطار التى بعثت بكلمة بليغة ألقيت باسمها ، والمؤرخ الكبير الدكتور نقولا زيادة والمؤرخ الكبير الذى توفى مؤخراً الدكتور قسطنطين زريق والأديبة سلمى الحفار الكزبرى وممثل عائلة مى الأستاذ جان زيادة.

وفى الحفل الافتتاحي للمهرجان أزاح وزير الثقافة اللبناني الستار عن تمثال نصفى جميل للآنسة مى صنعه النحات بيار كرم وتكفلت بنفقاته السيدة بهية الحريرى نائبة الجنوب في البرلمان اللبناني، وقد تم نصب التمثال في شارع يحمل اسم مى في بيروت يتقاطع مع

شارع جبران خليل جبران.

واضطلعت بتنظيم المهرجان لجنة تكريم مى زيادة برياسة عاشقة مى الأديبة السورية سلمى الحفار الكزبرى ولجنة الأوديسيه اللبنانية برياسة الشاعر هنرى زغيب . وكان للسيدات دور ملحوظ فى إضفاء جو روحى جميل يكسر رتابة البرنامج واضطلعت به السيدات منى غزال وألكسا بُرجى ورشا نجار.

واقترن المهرجان بمعرض ضم مقتنيات مى التى استطاعت سلمى الحفار الكزبرى الحصول عليها مع صور وأوراق لمى كجواز سفرها ورسائلها وبعض كتاباتها.

أما الندوات التى أقيمت للحديث عن مى وأدبها ومآثرها وشخصيتها وصالونها الأدبى فقد شارك فيها من الخارج الدكتور سهيل بديع بشروئى من جامعة ماريلند الأمريكية والمستشرقة الألمانية أنتى زيغلر والمستشرقة الاسبانية كارمن رويث براڤو والأديب السورى الدكتور عبد السلام العجيلى والشاعرة العربية هيفاء اليافى وكاتب هذه السطور. وأما المشاركون من لبنان فمنهم الأديبة إملى نصر الله والسيدة أنجال الزعنى والدكتور جميل جبر والدكتور ميشال جحا والدكتور وجيه فانوس والدكتور أمين الريحانى .

ومن وقائع المهرجان التى أريد بها استعادة عصر مى حفلتان أقيمتا فى أوديتوريوم حسّانة فتح الله داعوق لقراءة درامية لمختارات من آثار مى وجبران قام بها رفعت طربية وجوليا قصّار مع عزف موسيقى لناصر نحول، ولإنشاد أغنيات من عصر مى ولا سيما أغنية «يا حنينة»



مصطفى
صادق الرافعى

التى كانت مى تغنيها فى صالونها، وأغنية «آمنت بالله» للمطربة لورد كاش، وقد أدت هذه الأغنيات بإتقان كبير المطربة الشابة جاهدة وهبى مع فرقتها بقيادة محيى الدين المغالى. وأُهدى الضيوف لوحة جميلة نقشت عليها عبارة «تكريم ذكرى مى زيادة» .

ودعى أعضاء المهرجان وضيوفه لزيارة مدينة شحتول من قضاء كسروان فى جبل لبنان وهى مدينة أسرة مى حيث احتفى بهم عميد الأسرة اسكندر جان زيادة . كما دعتهم نائبة الجنوب السيدة بهية الحريرى لتفقد مشروعاتها لتعمير الجنوب اللبنانى، وأمضوا فى ضيافتها يوماً جميلاً.

والمعنى الذى أُريد استخلاصه من هذا المهرجان هو رد الاعتبار للأديبة مى زيادة التى رموها ظلماً بالجنون، والتأكيد على أن ذكراها باقية كأديبة موهوبة كانت تمثل فى عصرها ظاهرة لا تتكرر.

أما لولب المهرجان السيدة سلمى الحفار الكزبرى فهى عاشقة لمى، ولهذا أصدرت عنها مجموعة من الكتب الموثقة هى «مى أو مأساة النبوغ» و«مى وأعلام



الشيخ عبدالعزيز جاويش

عصرها» والمجموعة الكاملة لمؤلفات مى، وكتاب «كلمات وإشارات» وكتاب «الشعلة الزرقاء» وفيه الرسائل المتبادلة بين مى وجبران واشترك فى إعداده الدكتور سهيل بشرولى. وقد ترجم بعض هذه الكتب إلى اللغات المختلفة .

ولأن الصحافة المصرية أغفلت الإشارة إلى هذا المهرجان إغفالاً تاماً، فقد ارتأيت أن أطيل الحديث عنه لأننى كنت من شهوده، والمفروض أن يصدر كتاب تذكارى يضم جميع البحوث التى ألقيت فى هذا المهرجان الجميل .

لا العرب ولا الفراعنة عرفوا علة البروستاتة

كنت أتحدث مع صديقى الطبيب الاستشارى الدكتور شريف الكردانى زميل كلية الجراحين البريطانية عن المصطلحات التى تسكّها مجامع اللغة العربية للعلل المرضية. فقلت له إن مجمع دمشق أجاز مصطلح «المؤثة» مقابلا للبروستاتة. فسألنى عن مصدر هذه التسمية فقلت له إننى لا أعرف على وجه اليقين، وإن كنت أعتقد أن الطب العربى القديم قد يكون صاحب هذه التسمية، ولكن الطبيب العالم رد على رداً قاطعاً بأنه لا العرب ولا الفراعنة عرفوا مرض تضخم البروستاتة ولا أشاروا إليه فى كتب الطب التى وضعوها أو فى الآثار التى تركوها.

وقد حدا بى ذلك إلى الرجوع إلى كتابين باللغة الإنجليزية يعالج أولهما موضوع «الأطباء فى مصر الفرعونية» للدكتور پول غليونجى، ويحمل الثانى عنوان «دائرة معارف الطب الإسلامى» للدكتور حسن كمال، فلم أجد فى أى منهما إشارة إلى مرض تضخم البروستاتة .

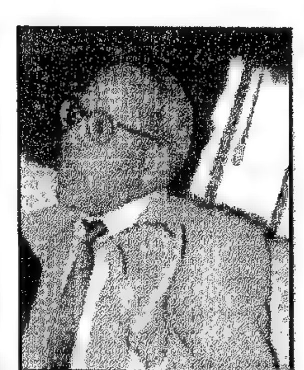
ثم رجعت إلى المعجم الضخم الذى ألفه الدكتور حسنى سَبَح الرئيس السابق لمجمع دمشق وجعل عنوانه «نظرة فى معجم المصطلحات الطبية الكثير اللغات» فألفيته يذكر تحت مادة البروستاتة تعبير «التهاب المؤثة» ثم أضاف تعليقاً جاء فيه «أن مجمع اللغة العربية فى القاهرة أقر تعريب اللفظة بالبروستات، ولم أعثر على منشأ لفظة المؤثة» .

ومعروف أن متوسط الأعمار فى الماضى ، أيام الفراعنة والعرب القدامى ، كان متوسطاً منخفضاً نسبياً وأن معدل الوفيات كان كبيراً نظراً لعدم اتساع أسباب الرعاية الصحية، وفى ترجيحى أن علة عدم اكتشاف هذا المرض الذى تتعاظم متاعبه مع علوّ السن هو أن القدامى كانوا يموتون قبل أن يصابوا بالمرض أو والمرض فى بداياته بحيث لم يلحظه أطباء تلك العهود بوسائلهم البدائية . والله أعلم .

نصف قرن
من الظمأ إلى المعرفة

د. محمد درويش







عندمـا يكون الإنسـان داخل الدائـرة، ويحـاول أن يرصـد خـمسـة عقود متتالية من الوعى، وعيه بذاته، ووعيه بالآخر ذاتا أو زمانا أو مكانـا، فـلابد أن يكون الأمـر صـعبـا، إن العين التى تعودت أن تكون أداة لرؤية الأشياء التى تقع خارجها على بعد معقول، مطالبة هذه المرة أن ترى ذاتهـا أن ترى العين العين. ولابد لهـا أن تتـخـذ موقعا خلال الرؤية يفصلها عن المرئى لكى تراه.

فى كتـاب اندريه موروا عن «فن التـراجم والسير الذاتيـة» الذى قمت بترجمتـه إلى العربية يشير إلى تفاوت الناس فى إدراك أبعد مراحل الطفولة المبكرة فى التذكر، ويشير إلـى حالات بعض الأدباء الذين تسـاعدهم الذاكرة على الوصول إلى شـهور الطفـولة الأولى، مثل تولستوى الذى يتذكر رائحة الصابون المتسربة إلى أنفه وعينيه وأقدامـه الملساء تنزلق على جدار الوعاء الخشبى الذى كـانت أمـه تغسل جسده فيه، ولا تسعفنى ذاكرتى على استعادة شىء ذى بال فى السنوات الأربع الأولى من عمرى، لكن السنة الخامسة تحتفظ بحدث مـازلت احـتفظ بصورة زمـانه ومكانه ووقع كلمـاته ورائحـة الأشياء المحيطة بى وقت سمـاعهـا، فضـلا عن وقـعـها المروع فى قلب الطفل الصغير آنذاك.

كـان الزمـان أصـيل يوم ربيـعى مشمس، وكان المكان بجوار حائط المسجد المجاور لبيتنا وهو مكان تجمع مـفـضل لأهل القـرية فى مـثل هذه اللحظة، وكـان الشـارع الذى نقف فـيـه يشق القـرية الصـغـيرة عـرضـا وينتـهى من الشـرق بسـاحـة واسـعـة تزدحم بـالنخـيل الطويل وتؤدى إلى الطريق الزراعى الذى يستقبل ويودع القادمين من القاهرة أو المسافرين إليـها وعددهم لا يتـجـاوز أصـابع اليدين على امـتـداد الأسـبـوع ومـعظمـهم من المجندين أو الطلاب، فى هذه اللحظة ظهر من بين النخيل البعيدة عبد الله أبو ماضى قادما من حرب فلسطين بعد أن كانت قد انتشرت شائعات عن هزيمة الجيوش وذبح الجنود، وما أن ظهر حتى انفتحت أبواب البيوت المجاورة وخرج من فيها يصافحون ويهنئـون ويزغـردون ويبكون ويتسـاءلون، وهم يتـابـعـون المسـيـر والانضـمـام إلى الدائرة التى تتسع شيئا فشيئا ويغالبون

زحمة الدروب النسبية التى تضيق فى هذه اللحظات بعودة الفلاحين مع دوابهم من الحقول، وعندما وصل الموكب إلى المكان الذى كنا نقف فيه، زاحمت وصافحت وسمعت عبد الله مستمرا فى حكاياته: «نعم.. من يقع فى أيديهم يذبحونه كالخروف.. وتساءلت من؟ وأجاب أكثر من صوت: اليهود، وظلت عودة عبد الله أبو ماضى تشغل القرية أياما، والأطفال يتساءلون فى رعب عن الذبح وهل يتم من الأمام كذبح الخراف أم من الخلف، وتتعدد الإجابات، لكن الرعب والكراهية تظل كامنة فى القلوب وتحفر فى هذه اللحظات المبكرة من الطفولة مسارها إلى الأبد.

الحاج الصغير!

كان أبى من تجار الريف «المستورين» تساعده حركته الكثيرة إلى القاهرة والاسكندرية ودمياط ورشيد وبنى سويف وغيرها من المدن الصغيرة، على توسيع أفقه واطلاعه على كثير من النماذج البشرية التى يتمنى لأبنائه أن يسلكوا طريقها، ومن هنا كان حرصه على أن يكمل الصبيان على الأقل تعليمهم، مع انه لا يوجد فى القرية إلا الكتاب والمدرسة الابتدائية، وعليهم أن يشدوا الرحال بعد ذلك إلى «مصر» حيث الجامع الأزهر والأمنية الكبرى أن يكون الأولاد من العلماء الذين يجمعون خير الدنيا والدين، وكنت أصغر الأخوين اللذين قدر لهما أن يخوضا هذه التجربة، وقد سبقنى أخى محمود إلى الأزهر بعام، وكنت فيما يبدو مدللا من قبل الأب، فقد وعدنى وأنا على مشارف السادسة أن يصحبنى معه إلى «الحجاز» فى حجته الثالثة التى كان يخطط لها، وكذلك وعد الحاج محمد الصعيدى ابنه الذى كان فى عمرى، وغمرتنا الفرحة أصبحنا ندعى بين الأطفال «بالحجاج» وكانت فترة التمهيد للحاج الصغير لذيذة، نتصنع فيها الوقار ونتمتع بضم النساء وقبلاتهن وهن يلتمسن البركة مقدما، ونحرص على الذهاب إلى المسجد فى آخر الصفوف، وأحيانا حضور حلقات الذكر التى كانت تهفهف فيها «أكمام» الجلابيب الطويلة للرجال الذاكرين فوق رؤوسنا وهم يتمايلون فى هدوء أول الأمر، فإذا ما اشتدت الحميا ازدادت السرعة وكثر الهواء المنبعث وتداخلت الأصوات وأصبحنا نستمتع بلذة الدوران والدوار مع الذاكرين، ثم نسعد معهم بالجلوس للاستراحة وتناول شراب القرفة اللذيذة، واستمرت الاستعدادات لرحلة الحج وذهبنا إلى «مدينة الصف» للجلوس أمام آلة التصوير، للحصول على صور لجواز السفر، ثم ذهبنا إلى «التطعيم» مع الحجاج الكبار، لكن الفرحة لم تكتمل، فقد انتشر وباء «التيفود» أو «الكوليرا» فى ذلك العام، ووضعت القيود على السفر ومنع الأطفال منه، وضاع حلم «الحاج الصغير» بعد أن ظل يفعل فعله فى النفس قرابة العام.

وكان التعويض عن الذهاب إلى الحج بالذهاب إلى «الكتاب» لبدء حفظ القرآن الكريم وعندما ودعت أبى مع المودعين إلى «الرفاص» الذى ركبه الحجاج فى النيل

من قريتنا إلى القاهرة على بعد مسافة ثمانين كيلو مترا شمالا والذى كان يحمل من الحجاج أمتعتهم و«زوادتهم» التى توفر كل ما يحتاجون إليه من طعام طوال فترة الحج وخلال رحلات الذهاب والعودة على السفن من السويس إلى جدة، كان الاتفاق مع سيدنا على أن يستقبلنى فى الكتاب لأبدأ الدرس الأول فى القراءة والكتابة وحفظ القرآن، واكتفينا من رائحة الحجاج بالتلهف على الرسائل «الملونة» التى تصل من مكة أو المدينة خلال رحلتهم الطويلة وقد رسم على المظاريف وصفحات الرسائل صور الكعبة والبيت الحرام، وكنا نتقاسم أنا والحاج الصغير الآخر، صفحات الرسائل والمظاريف ونحتفظ بها كجزء من خيوط الحلم اللذيذ المتلاشى، وهكذا حفر الشعور الروحى لنفسه طريقا فى النفس منذ الصبا المبكر.

فى الكتاب ضمنى سيدنا إلى خلية النحل التى تهدر فى صحن بيته المستطيل وكان «سيدنا» الشيخ أحمد الحجر مختلفا بعض الشيء عن الصورة الشائعة لشيخ الكتاب فلم يكن أعمى يضع الحصى الصغير فى شحمة الأذن ويضغط عليها بطرف أصابعه حتى يصرخ الصبى من الألم، ولم يكن يقرأ القرآن على المقابر أو البيوت، ولم يكن حسن الصوت كى يرتله فى المآتم، ولم يكن بدينا مترهل الجسم وانما كان رجلا فلاحا يزرع أرضه بنفسه، فى الصباح ويجلس فى الكتاب بعد الظهر ويحرص على أن يشترى جريدة «الجمهورية» كل يوم بقرش ونصف ثم يعيدها للبائع فى اليوم التالى بنصف قرش مع «المرتجع» وهو يدع التلاميذ النابهين يقلبون بعض صفحات الجريدة، وقد ضمنى إلى هؤلاء بعد فترة قصيرة، ثم هو ينضم إلى المجلس الذى يلتف حول المذياع الوحيد فى القرية، وكان والدى قد اشتراه، ومعه البطارية السائلة التى كانت تشحن من ماكينة الطاحين، قبل أن تتحول إلى البطارية الجافة الأخف وزنا والأطول عمرا، وحول المذياع تدور المناقشات حول استحسان صوت الشيخ مصطفى اسماعيل مقرىء الملك فاروق والشيخ محمد رفعت أو المقرىء الجديد عبد الباسط عبد الصمد، وحول نجوم الغناء أم كلثوم وعبد الوهاب وعبد المطلب وليلى مراد، وحول أطراف السياسة، والأحاديث الدينية، وكنت أتابع الحوار بشغف وأتفاصح فأشارك فيه فى بعض الأحايين، وأحرص على اقتناء مجلة الإذاعة، وأكاد أحفظ صفحاتها، وأجد فى مؤشر المذياع أداة سحرية تحملنى إلى آفاق بعيدة وتزيدنى ظمأ، وكلما حمل المؤشر إلىَّ أصواتا ممزوجة بالخرخشة وتموج الصوت وغيابه وظهوره أدركت أنى عبرت البحر إلى أماكن نائية على موجات بعيدة، وازداد إحساسى برى الظمأ وذهبت بى الأحلام بعيدا.

فى العام الثانى لدخولى: الكُتَّاب «التحقت بمدرسة القرية وتابعت شأن كثير من أبناء القرية، المدرسة صباحا والكتاب بعد الظهر، وفى المدرسة التقيت بنماذج أخرى من المعلمين، قليلون منهم يلبسون العمامة أو الجبة أو الطربوش الطويل وغالبا ما يكونون من أبناء القرية أو القرى

المجاورة وكثير منهم يرتدى البنطلون والقميص وبعضهم حتى لايذهب إلى المسجد عند سماع الآذان، وشكل هذا فى البداية خروجا على نسق المعلم الشيخ لكن ما لبثنا أن تعودنا عليه وتابعنا أهل القرية فى إجلالهم وحبهم، وكانت العصا فى أيديهم أخف منها فى أيدى الشيوخ فازدادوا حبا فى أنفسنا.

حكايات القرية

وكانت جلسة المصطبة فى القرية موردا آخر للتكوين فى هذه السن المبكرة كانت المصطبة الموجودة أمام بيتنا ملتقى يأوى إليه بعض الناس لقربها من المسجد ممن ينتظرون الصلاة أو يستريحون قليلا بعدها، وكانت تمتد عليها السهرة فى بعض الأحيان ممن يفضلون قضاء الوقت فى الكلام والحكايات، وكنت أحب كثيرا الاستماع إلى الحكايات وخاصة تلك المتصلة بالمغامرات، وشيئا فشيئا أصبحت القرية الصغيرة من خلال الحكايات نموذجا مصغرا للعالم الكبير، وتجسدت الخصال الكبرى فى ذوات بأعينهم: الطيب والشهم والشجاع والقوى والجبان و«الدلدول» والمنافق والجميلة واللعوب واللص والساحر وأبو عين صفره والذكى والغبى وأبو قرون والمفترى والغلبان والفهلوى والجدع ولم يكد يند نموذج من النماذج الإنسانية التى عرفتها فى المدينة الصغيرة أو الكبيرة أو الكبرى فيما بعد، عن التجسد فى حكايات القرية وشخصياتها وما أضافه إليها الخيال المتوهج عند سماعها.

الدراسة في الأزهر

لكن فترة الطفولة سوف تنقضى سريعا مع دخول الأزهر ولبس العمامة على الرأس وسوف يتحول الطفل إلى «شيخ صغير» يطالب بالوقار الدائم واعطاء النموذج فى السلوك القويم، رغم حمى المراهقة التى تتأجج فى العروق وتبحث عن اشباع من لون آخر، وتضطر إلى محاولة الحصول على بعض حاجاتها بطرقها الخاصة مع المحافظة على الوقار الخارجى فتصيب مرة وتخفق مرات، ولايختفى شبح ذلك الوقار حتى فى المدينة الكبيرة حيث الخوف من الفشل فى الدراسة عند التلاعب أو الجلوس على المقاهى أو الاقتراب من المعاصى، وكنا قد حفظنا فى كُتّاب «سيدنا» أبياتا تنسب إلى الإمام الشافعى فى مخاطبة أستاذه «وكيع».

شكوت إلي وكيع سوء حفظي
فأرشدني إلي ترك المعاصي
وأخبرني بأن العلم نور
ونور الله لايهدى لعاصي

وأمضيت تسع سنوات من الدراسة الأزهرية فى القاهرة ومع معايشة المناخ الذى أشار طه حسين إلى بعضه فى «الأيام» وعندما ينظر الإنسان إلى هذه الفترة يجدها مليئة بخليط من الإيجابيات والسلبيات، كانت العلوم الأساسية التى تطرح للدراسة متصلة بعلوم اللغة والدين وقد شكلت دون شك البنية الأساسية لما أعتز به الآن من سلامة النطق اللغوى وطواعيته والوقوف على أسرار قرون كاملة

من العطاء العظيم في مجال الدراسات الإنسانية العربية والإسلامية، مما ساعد على تماسك الشخصية في مواجهة الثقافات الأجنبية والإفادة منها دون الذوبان فيها، ولم تكن هذه الفائدة لتتم من خلال الكتب وحدها وانما من خلال أساتذة إجلاء سعدت بالتتلمذ عليهم في الأزهر مثل الشيخ أحمد الشرباصي، والمثقف الكبير السيد أحمد صقر والعالم الضرير الدكتور محمد فتحي عبد المنعم والمؤرخ الشيخ عبد المقصود نصار والدكتور محمد الطيب النجار وكلهم ساعدوا في غرس الثقافة العربية والإسلامية واستشراف الثقافة المعاصرة الحية.

في زيارة للعقاد وشاكر

ومن خلال هؤلاء الأساتذة والمستنيرين في الأزهر خطوت الخطوات الأولى في التعرف على الحياة الثقافية العامة خارج أسوار الأزهر، كان فتحي عبد المنعم «الكفيف» يحرضني على الذهاب إلى دار الكتب وإجراء أبحاث في التاريخ والأدب (مع انه كان يدرس لنا الأحاديث النبوية) وكنت أعكف على البحث أسابيع طوالا ويراجعه معي ثم اكتفي بقراءتي له في حجرة المدرسين فيمنحني كلمة ثناء ورضاء كانت عندي أفضل من كل الجوائز، وكان السيد صقر ينتقل بالطلاب النابهين من «فصل» إلى «آخر» لكي يغيظ بهم الكسالى وهم يقرأون أبحاثهم التي كتبوها بقراءاتهم الخارجية فيمتازون على «أهل الكتاب» الذين يكتفون بمذاكرة الكتاب المقرر، وقد كافأنا أنا وزميلي حامد طاهر (نائب رئيس جامعة القاهرة الآن) وحماسة عبد اللطيف (الأستاذ بدار العلوم) كافأنا على أبحاث وقراءات جادة فزار بنا مجلس العقاد ومحمود شاكر في مصر الجديدة في يوم واحد وقدمنا للأديبين الكبيرين.

وفي الأزهر أيضا دخلت الحياة السياسية العامة في عهد عبد الناصر للمرة الأولى والوحيدة، ففي أعقاب فشل تجربة الوحدة بين مصر وسوريا تم وضع الميثاق الوطني، وتقرر انتخاب المؤتمر الوطني للقوى الشعبية لمناقشة الميثاق واتسع نطاق التمثيل حتى مستوى تلاميذ المرحلة الثانوية التي تقرر أن تختار كل منطقة تعليمية طالبا واحدا يمثلها، ولما كانت معاهد الأزهر الثانوية متناثرة في كل مدن الدولة فقد تقرر أن ينضم كل معهد إلى المنطقة التعليمية التي يوجد فيها وقلل هذا من فرص اختيار أحد الأزهريين من قبل طلاب المدارس الذين كان لديهم إحساس بأن هؤلاء «الشيوخ الصغار» من نوع «مختلف» ومع ذلك تمكنت من الفوز بمقعد منطقة وسط القاهرة التعليمية آنذاك، مع وجود مدارس ثانوية عريقة بها مثل «الخديوية» و«الابراهيمية» و«التوفيقية» ولم يفز من كل معاهد الأزهر الأخرى في هذه الجولة معي سوى أحمد عمر هاشم (رئيس جامعة الأزهر حاليا) عن منطقة الزقازيق.

وحضرت جلسات البرلمان المؤقت وأنا في السابعة عشرة وقدمت مشروعا نشر

فى مضابط الجلسات حول قانون تطوير الأزهر آنذاك، والتقينا على مقاعد المؤتمر بخالد محمد خالد الذى كان قد خاض لتوه معركة ضد محاولة مسخ التاريخ السياسى لمصر قبل عام ١٩٥٢، والشيخ محمد الغزالى الذى قاد معركة من منصة المؤتمر ضد صلاح جاهين الذى كان قد سخر منه فى رسم كاريكاتيرى فى صحيفة الأهرام، وارتجت القاهرة فى اليوم التالى وآلاف من الناس تزحف نحو مبنى الأهرام لترجمه بالحجارة.

كتب جامدة!

لكن الكتب التى كانت تدرس فى الأزهر والتى مازال الكثير منها باقيا حتى اليوم تمثل التزيد وعدم الملاءمة حتى لتعليم الثقافة العربية الإسلامية، لأنها ببساطة لا تلائم عقل التلميذ المعاصر، ولا هى حتى أفضل ما كتب فى التراث، فكثير منها ينتسب إلى عصر المتون والشروح والحواشى فى فترات ضعف التأليف والإبداع عند العرب والمسلمين، وما بالك فى تلميذ صغير يريد أن يتعلم أصول العبادات وأحكام الفقه لكى يعمل بها ويعلمها الناس فيما بعد، فيدفع إليه بكتاب «الإقناع فى حل ألفاظ أبى شجاع» فيقضى عاما كاملا فى دراسة أنواع الأحجار التى يجوز التيمم بها وهو يعيش على شاطىء النيل، أو يطلب معرفة شىء عن تفسير القرآن فيدفع إليه بكتاب «تفسير النسفى» الذى يعرب له كل آية ويأتى بعشرات الآراء الخلافية حول إعراب كل كلمة دون أن يقترب من تفسير النص، أو يطلب تعلم المنطق ومناهج التفكير فيدفعون إليه بكتاب «الخبيصى» فى المنطق فيحفظ أشكال الكليات والجزئيات دون أن يستطيع فى النهاية أن يناقش قضية واحدة حتى فى مجال تخصصه، ومع أن الأزهر رفع شعار «التطوير» منذ عصر الدكتور محمد البهى والشيخ محمود شلتوت فى أواخر الخمسينات، فإن هذه المناهج العقيمة والتى تزداد عقماً بتحويلها إلى مذكرات ضحلة، تعوق معظم طلابه عند الانطلاق حتى فى آفاق الثقافة العربية الإسلامية إلا من عصم ربك وهم قليل، ولم يخف من وقع هذه الكتب إلا قرار الأزهر بأن تضاف إلينا كل كتب المدارس الثانوية لكى نحصل على «الثانويتين» فى سنة واحدة، وكانت دفعتنا أول من طبق عليها هذا النظام. ومن أجل هذا كان القرار بالخروج من الأزهر بعد المرحلة الثانوية، والاكتفاء من هذه المرحلة الثقافية بهذه الايجابيات والتوقف عن التوغل قبل أن يصبح المرء واحدا من صناع النمط والمدافعين عنه، وساعتها لن يكون تغيير المسار سهلا. وكانت «دار العلوم» هى الحل الطبيعى، والمنعطف الذى اختار كثير من نوابغ الطلاب فى الأزهر فى الأجيال الماضية، الوقوف عنده وتعديل المسار من خلاله وكان الحلم بدار العلوم قد بدأ ينمو فى نفسى منذ بدايات المرحلة الثانوية فى الأزهر، كانت الخطابة التى عرفت خطواتها الأولى فى مسجد القرية وأنا فى مرحلة المراهقة، قد قويت فى فصول الدراسة وحصص الإنشاء مما أغرى مدرس المادة أن ينيبنى عنه يوما فى

إلقاء خطبة الجمعة فى مسجد الفكهانى بالغورية وهو من مساجد المماليك العريقة الضخمة ذات المنابر الشاهقة وكنت يومها صبيا فى نحو السادسة عشرة، ولم أستعن بالأوراق وأنا أؤدى الخطبة التى كنت متأثرا فيها بخطب الشيخ محمد الغزالى فى الجامع الأزهر فى معالجة المسائل الفكرية المعاصرة، وأذكر أننى عندما وصلت إلى مقطع علا فيه تحمسى واستنكارى، هتف رجل من قاع المسجد بصوت جهورى «الله أكبر» فكدت أن أقع على المنبر هلعا.. لكننى تماسكت غير أن ملكة الخطابة و«زلافة اللسان» ما لبست أن نافستها وكادت تغطى عليها ملكة الشعر الذى بدأ يزحف شيئا فشيئا من أواسط المرحلة الثانوية حتى أصبح الملكة المسيطرة. والموجعة لغيرها من الأنشطة الثقافية وتركزت القراءة فى هذه الفترة حول الدراسات الأدبية المؤلفة أو المترجمة وحول دواوين الشعراء وإنتاج المجلات الأدبية كالرسالة والثقافة، وكانت مكتبات الأحياء الشعبية التى كنا نسكن فيها خلال العام الدراسى تمدنا بحاجتنا وكانت كتب أبناء القرية من الطلاب الجامعيين تسد حاجة الإجازة الصيفية، وكان من بينهم طالب فى دار العلوم، استعرت منه معظم كتب أساتذة دار العلوم: غنيمى هلال وابراهيم سلامة وأحمد بدوى وابراهيم أنيس وأحمد الحوفى وأحمد هيكل وعبد الحكيم بلبع وغيرهم وقرأتها وأنا طالب فى المرحلة الثانوية، إلى جانب متابعتى للأحاديث الثقافية فى الإذاعة المصرية التى كانت تشكل رافدا ثقافيا هاما.

تحقق حلمي

لم أجد غربة فى دار العلوم التى التقيت فيها بالأسماء التى حلمت بها وقرأت لها وبأوائل الطلاب فى الثانوية الأزهرية فى كل محافظات مصر، وبطلاب وطالبات من الثانوية العامة، ندرس معهم لأول مرة تحت سقف واحد، وكل هذا يتم فى «الجامعة» حيث الأبواب مفتوحة، والمحاضرات لا يدون فيها «الغياب» والكتب ليست قديمة مؤلفة فى العصور الوسطى وانما هى من تأليف أناس نراهم ونعرفهم وليسوا مثل: «أبى شجاع» و«الخبيصى» ممن كان يصعب تصور شخصياتهم فى أذهاننا، والمكتبة مفتوحة يمكن أن يكتب الإنسان من خلالها «بحثا» والكافتيريا أيضا مفتوحة يلتقى عليها الأولاد والبنات أحيانا والشعر الذى لم يكن يجد متنفسا له يستطيع الآن أن يتنفس، وبدا وكأننى وجدت ما كنت أحلم به علميا وثقافيا واجتماعيا.

ومع الجامعة تتسع مطالب الحياة، وتضيق موارد الأسرة «المستورة» ويصبح البحث عن مورد للرزق أمرا ضروريا، ويعترينى الخوف فى البداية، أخاف أن يفلت منى هذا الحلم الجميل وقد أمسكت بخيوطه بين يدى، وأخاف أن أصبح واحدا من حملة «الشهادات المتوسطة» الذين ينغمسون فى وظائف ويحاول الطموحون منهم اكمال تعليمهم «الجامعى» فى وقت الفراغ، وكنت ارتاع لمجرد عبور الصورة فى خاطرى فلقد كنت

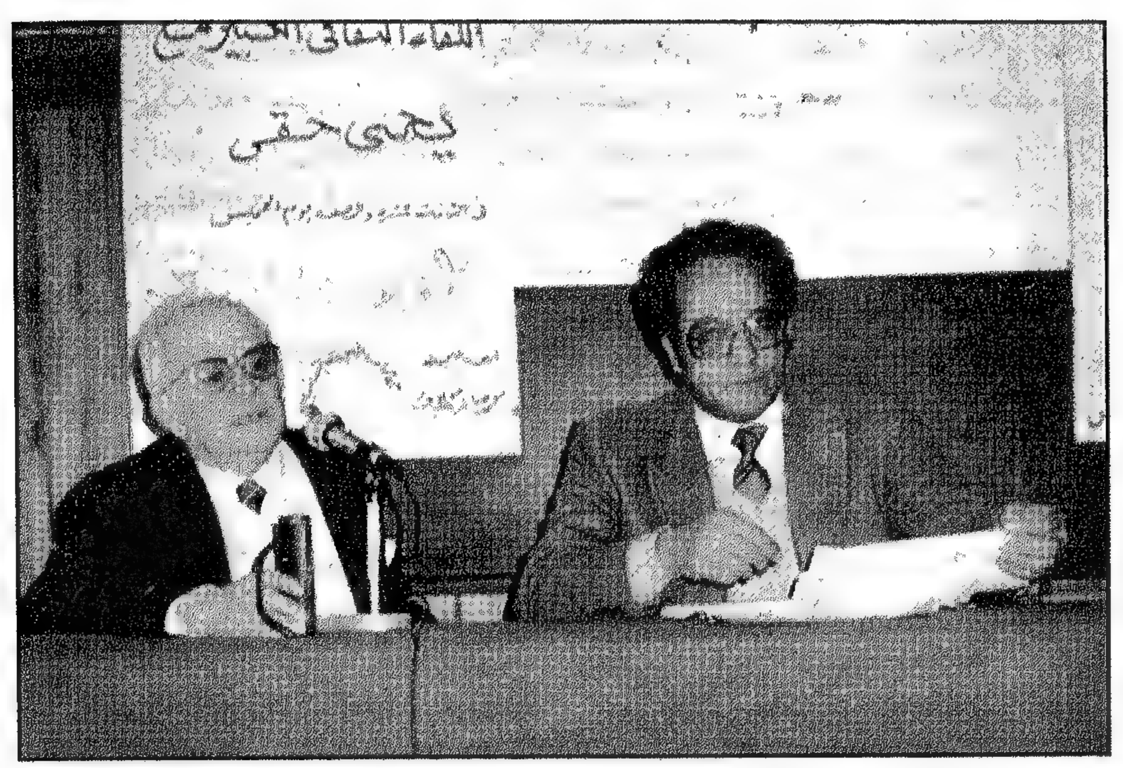
مصمما على أن أنغمس فى الحياة الجامعية والثقافية حتى أذنى، وأن أبحث عن مورد اضافى فى وقت الفراغ، ولم تطل لحسن الحظ حيرتى، فقد وجدت وظيفة مناسبة فى صحيفة كبرى، فى قسم المراجعة اللغوية، وكانت طبيعتها تقتضى أن اذهب اليها فى وقت متأخر من المساء ساعتين أو ثلاثاً أقرأ خلالها الصحيفة التى سوف تصدر فى الغد قبل أن يقرأها الناس، وكان هذا ملائما جدا لطبيعتى، فقد عشت حياتى الطلابية، ولم أمنح لنفسى أى عذر فى التقصير فى مجال منافسة الآخرين وظللت بين أوائل الدفعة أحصل على تقديرات جيد جدا وامتياز واتمتع بمكافأة التفوق فتساعدنى على تكوين مكتبتى وتوفير الاستقرار فى حياتى، حتى كانت سنة التخرج (١٩٦٧) فحصلت على المركز الأول على الدفعة بتقدير الامتياز مع مرتبة الشرف وعينت معيدا فى قسم البلاغة والنقد الأدبى والأدب المقارن، وبدأت طريقا أكاديميا طويلا صعدت خلاله من أدنى درجات السلم حتى أعلاها من درجة المعيد الى درجة العميد .

ومع ذلك فقد كانت فترة العمل المسائية فترة مفيدة، وجدتنى فى مطبخ الصحافة، التقى كل يوم بأعلام الكتاب والأدباء والسياسيين، وأتعامل مع كلمات تولد لساعتها قبل أن تتجمد فى حروف الرصاص، وأجدنى فى موقع مقابل تماما لما كنت عليه من سنوات قليلة حين كنت أتعامل مع كلمات «الخبيصى» و«أبى شجاع» ويترسخ فى يقينى أن الكتابة ليست شيئا مستحيلا، لكنها لكى تكون باقية تتطلب جهدا خاصا فقد كنت أرى أيضا كتابات تولد بسهولة وتموت بسهولة وساعد هذا فى اتساع مساحة الأفق المحيط .

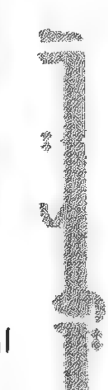
التكوين الثقافي

وكانت سنوات الجامعة فترة تكوين ثقافى وأكاديمى رائع، كان النهم للقراءة يزداد ويلتهم كل ما تصل اليه اليد من مؤلفات أو مترجمات، وتقتنى المكتبة الصغيرة كل ما تسمح به الميزانية المتواضعة من المطبوعات الجديدة أو القديمة على سور الازبكية، وكانت المشاركة فى الحياة الثقافية من خلال حضور الندوات التى لا تكاد تخلو القاهرة منها فى دار الأدباء أو المجلس الأعلى للفنون والآداب، أو اتحاد الكتاب، أو دار القصة أو الغرفة التجارية أو جمعية الشبان المسلمين أو الأندية المتناثرة فى الأحياء.

ولم تكن قاعات الجامعة بعيدة عن تلك الندوات والمهرجانات، خاصة انه اسند الىّ إدارة النشاط الثقافى عندما كنت طالبا ومعيدا فى دار العلوم، فكنت رئيسا لجماعة الشعر وللجنة الثقافية التى أشرفت من خلالها على تنسيق نشاط جماعة القصة وجماعة الندوات، ومن خلال هذه الندوات استضفت فى دار العلوم اللامعين فى الستينات والسبعينات مثل يحيى حقى ونزار قبانى ومحمود حسن اسماعيل وصلاح عبدالصبور ومحمد الفيتورى وأحمد حجازى وملك عبدالعزيز وعلى الجندى وصالح جودت ويوسف



أحمد درويش مع الأديب يحيى حقي



ادريس وفاروق شوشة ومحمد ابراهيم ابو سنة وأمل دنقل وابو المعاطي أبو النجا وغيرهم من كبار الكتاب والنقاد والشعراء، وكانت المتعة والفائدة من الاستماع اليهم والحوار معهم لا تقدر .

وفي الوقت ذاته كنت قد بدأت بنشر قصائدى فى مجلة الشعر التى كان يديرها الدكتور عبدالقادر القط، ولفتت القصائد التى كنت انشرها أو ألقيها أنا وزميلاى حامد طاهر ومحمد حماسة عبداللطيف انظار أدباء الفترة ونقادها ومنهم صلاح عبدالصبور الذى شجعنا على تجميع ديوان مشترك نشرته الهيئة المصرية للكتاب عندما كان رئيسا لها تحت عنوان «ثلاثة ألحان مصرية» وكتب مقدمته الدكتور أحمد هيكل، ثم نشرنا بعد ذلك بنحو خمس سنوات فى منتصف السبعينات ديوانا مشتركا ثانيا تحت عنوان «نافذة فى جدار الصمت» كتب مقدمته الدكتور محمود الربيعى ثم واصل كل منا بعد ذلك طريقه فى الشعر منفردا، وراودتنا فى أواخر التسعينات فكرة العودة الى اصدار ديوان مشترك، ولم يقدر للفكرة حتى الآن أن ترى النور .

المرحلة الأكاديمية

أما الحياة الأكاديمية فقد كانت مكتظة بكثير من الرواد الذين تركوا بصمات واضحة على مسيرة التكوين المعرفى لدى، قادنا محمود قاسم استاذ الفلسفة وعميد الكلية على طريق «المنطق الحديث و«مناهج البحث» فهز فى نفوسنا كثيرا من ثوابت القياس الارسطى لصالح الاستقراء

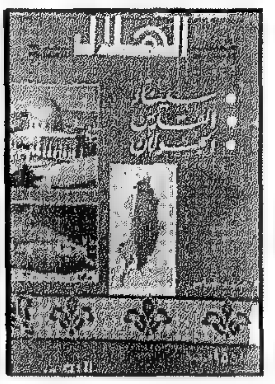
المنهجي الحديث، وقادنا مرة أخرى على طريق تأثير الفكر الاسلامي في أوربا العصور الوسطى من خلال بحثه حول تأثير ابن رشد على توماس الاكويني، وكان غنيمي هلال يمثل نموذجا للمثقف الحديث في الدراسات الأدبية والنقدية، كان قد عاد من جامعة السربون ومعه أول دكتوراه في العالم العربي في تخصص الأدب المقارن وكان على معرفة جيدة بالانجليزية والفرنسية والفارسية واليونانية والأسبانية، وكان قد أصدر كتابيه عن الأدب المقارن والنقد الحديث، وكان يحاضرنا والمعلومات تتزاحم على لسانه فلا نكاد نتابعه، لكننا ننبهر بنموذج المعرفة المتفجرة ونقبل على كتبه ومقالاته في شغف، لكننا رأينا هذا النجم المتوهج وهو يحترق ويسحق رغم غزارة معرفته وربما بسبب غزارة معرفته، كان قد تقدم لكرسي الأستاذية في النقد الأدبي والأدب المقارن والبلاغة ، ونافسه على المقعد الدكتور بدوي طبانة الذي كان غزير الانتاج في البلاغة العربية القديمة دون اضافة حقيقية من قبله، وكان يكتب بعض الأشياء عن النقد الحديث وحتى عن النقد عند اليونان دون أن يكون له أدنى اتصال بأي لغة أجنبية ولم تكن كتبه تتجاوز دائرة الطلاب الذين تقرر عليهم هذه الكتب من قبله أو من قبل تلاميذه، ومع ذلك فعندما نافس غنيمي هلال على كرسي الأستاذية وجاءت التقارير العلمية في صالح غنيمي هلال بالطبع، فوجئت الأوساط العلمية بقرار يصدر لصالح طبانه، لأن أحد المقربين من طه حسين وكان رئيساً للجنة، همس في أذنه - والعهدة على الراوي : «غنيمي ده بتاع العقاد يا باشا»!.

وتتلمذت على مجموعة كبرى لا أستطيع ان أنسى فضلهم ولا أن أعدد مزاياهم بالتفصيل في هذا العرض الموجز : محمد عبدالهادي أبو ريدة ، عبدالرحمن أيوب، كمال بشر، ضياء الدين الريس، أحمد هيكل ، عبدالحكيم بلبع، حمدى السكوت، طاهر مكي، محمود الربيعي، عبدالحكيم حسان، السعيد بدوي، تمام حسان، محمد سالم الجرح، محمد عيد، محمد بلتاجي، علي أبو المكارم، وغيرهم ممن قد يضيق المكان عن مجرد ذكر اسمائهم جميعا .

ثم توجت مرحلة دار العلوم الأولى بالزواج منها، كنت بعد أن عينت معيدا كلفت بالقاء بعض الدروس على طلاب السنة الأولى خلال اعدادي لرسالة الماجستير وارتبطت باحدى طالباتي ، ليلى صقر، وتزوجنا خلال اعداد رسالة الماجستير وساعدني ذلك كثيرا على الاستقرار، وعندما ناقشت رسالة الماجستير سنة ١٩٧٢ كنا نتأهب لاستقبال طفلتنا الأولى رشا، وعندما كنت أحزم حقائبي في أواخر عام ١٩٧٤ للسفر لفرنسا لاعداد الدكتوراه، كنا نتوقع وصول طفلنا الثاني هشام بعد أسابيع قليلة، وقد فاجأتنا «غادة» بوصولها بعد ذلك بنحو ستة أعوام في باريس .

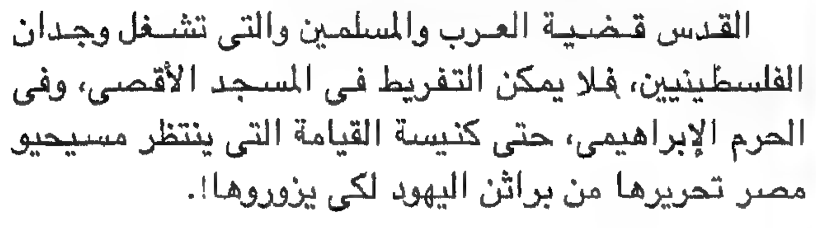
لقد كانت «فرنسا» بداية مرحلة جديدة في حياتي مع الاتصال بالفكر وبالثقافة الأجنبية مما سيكون له أثره في الاستيعاب وتلون النظرة للحياة، والتأليف والترجمة، ومواجهة النصوص ومواجهة المواقف في المرحلة التي بدأ معها حصاد التجربة .











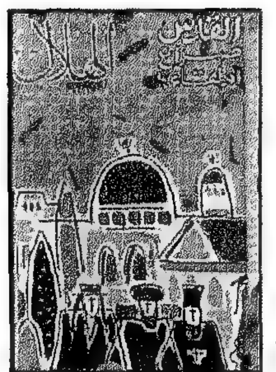
القدس .. والهلال

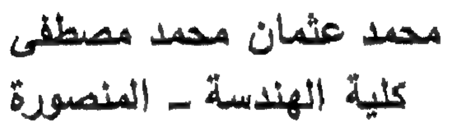
القدس قضية العرب والمسلمين والتى تشغل وجدان الفلسطينيين، فلا يمكن التفريط فى المسجد الأقصى، وفى الحرم الإبراهيمى، حتى كنيسة القيامة التى ينتظر مسيحيو مصر تحريرها من براثن اليهود لكى يزوروها!.



هذه القضية تحتاج منكم إلى دعم إعلامى مكثف بالإضافة إلى الدبلوماسية التى تدعمها مصر وتقوم بالتنسيق مع الدول العربية لدعم المفاوض الفلسطينى.

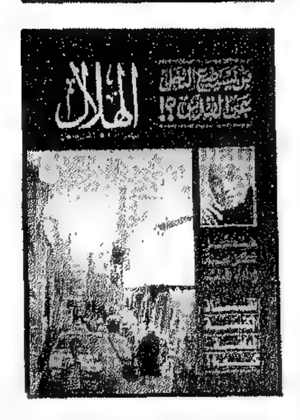
ونحن نعلم أن «الهلال» من خلال عراقته ودوره فى الحياة الفكرية والثقافية العربية يهتم دائما بهذه القضايا القومية والحيوية.





محمد عثمان محمد مصطفى
كلية الهندسة ـ المنصورة

الهلال: نحرص منذ أمد طويل، وخاصة بعد الاجتياح الإسرائيلى لفلسطين على إبراز أهمية القدس والتى طالما حاول المغتصب أن ينال منها على مر العصور. وقد نشرنا العديد من البحوث والدراسات التى تبرز أهمية القدس عاصمة فلسطين، وكان آخرها عدد الهلال الماضى سبتمبر ٢٠٠٠م، وننشر بعض الأغلفة والتى تضم المقالات والصور التاريخية للقدس العربية.



مصر الحضارة والرخاء

منذ الأزل.. والنيل يجرى بالنماء ... متـرامى الشطآن مـوفـور الرواء
قطراته تعطى القفار نضارة ... وكأنه من جنة الفردوس جاء
من يقرأ التاريخ يدرك أنه ... هبة من المولى وفيض عطاء
يُسقى ويُطعم كل نفس حية ... فى الأرض تحيا.. أو تغرد فى السماء
واليوم فى توشكا يمد ذراعه ... فيحيلها خصبا ويفعمها ثراء
أبناؤه من كل فج أقبلوا ... يتوافدون بكل عزم للعطاء
ليبدلوا تبر التراب بعسجد ... بالجد بالإيمان كى يعلو البناء
بالروح جادوا فى سبيل بلادهم ... فالروح للأوطان بعض من فداء
صنعوا الحضارة كابرا عن كابر ... لهم التفوق والتفرد والعلاء
فمعابد الآباء مازالت على ... مر العصور لها على الدنيا البقاء
يأتى إليها العارفون بفضلها ... ليطأطئوا هاماتهم عند اللقاء
دانت لهم قمم الجبال ليخرجوا ... منها الكنوز وينشروا عهد الرخاء
أعطاهم المولى شتاء دافئا ... ومصائفا ريانة عند الصفاء
إن شاءت الدنيا وشاءوا غيرها ... فالقول ما قالوا وماشاء القضاء
فاحفظ إلهى أرضنا وسماءنا ... واغفر لنا.. ياخير من يجب الدعاء

دكتورة/ إيمان محمد أبوخشبة
دسوق

العصافير

غرام بقلبى.. كعشق الملاح لشدو العصافير عند الصباح
ترفُ.. أرفُّ.. لها فى ابتهاج تطير.. أطير.. بها فى البراح
وأصحو لها فى البكور اشتياقا وأهفو لها فى هوى وارتياح
أطارحها الحب فى صبنوة أبادلها.. قفزات المراح
تجيء لشرفتينا من بعيد وبين الأصائل.. لهو متاح
وتنقر شبَّاكنا فى حنوٍ كلانا ترقرق حبا.. وباح

• • •

بنافذتى ملتقى رقصها وعند الغدو وعند الرواح
تشاغلنا بانعطاف.. فلا أقاوم هذا الهيام الصراح
كعاشقة فضفضت واستراحت وفضفض عاشقها واستراح
وعشت تباريح عشق جميل ومافاح عطر.. وما الفجر لاح

• • •

أقمت بقلبى لها ملعبا وعشا دفيئا لها مستباح
نسجنا وصالا رقيق المعانى ثرى الأمانى.. بخفض الجناح
....
فياليت ليلاى عصفورة فتنقر نافذتى فى الصباح
فيشفى فؤادى من صدها ومن دلها.. بين سرب الملاح

محمد محمد عبدالرحمن

المقال الأدبى طوق نجاة

وصلتنا رسالة من القارئة نيڤين الجمل وجهتها إلى الأستاذ الدكتور محمد رجب البيومى تقول فيها: «قرأت مقالكم فى الهلال عدد أغسطس «أين المقال الأدبى الذاتى» والذى هو بمثابة طوق النجاة بالنسبة لى، حيث لم أكن أدرى كيف أضيف ما أكتبه، وبعد قراءتى لمقالكم الممتع بالهلال فإننى أعتقد أن معظم كتاباتى تنتمى إلى المقال الذاتى.

إنى لاأزال فى بداية الطريق، وأود أن أعرض عليكم بعض مقالاتى لكى ترشدنى للطريقة الصحيحة، فهل أجد وسيلة للاتصال بكم.

الهلال: فور تلقينا هذه الرسالة من القارئة العزيزة قمنا بالاتصال بأستاذنا الدكتور محمد رجب البيومى بمدينة المنصورة التى يطيب له الإقامة بها وهى مقره الدائم، وقرأت عليه محتواها فرحب على الفور، وطلب من القارئة نيڤين الجمل أن يتم مراسلته بالبريد على العنوان التالى:

كلية اللغة العربية ـ جامعة الأزهر ـ المنصورة.

الرياضة وأهميتها فى حياتنا

علموا أولادكم الرماية والسباحة وركوب الخيل، حكمة قالها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وأثبتها العلم حديثا بإقراره أن العقل السليم فى الجسم السليم، وجاءت التجربة العلمية لتثبت أن الرياضة شىء أساسى فى حياة الإنسان والرياضة لها أهمية فى حياة شبابنا، فهى تغرس الأخلاق الحميدة فى قلوبهم، واحترام المواعيد، وتعلمهم الشجاعة والإقدام.

ولقد قال رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم: «روِّحوا عن قلوبكم ساعة ساعة، فإن القلوب إذا تعبت كلت، وإذا كلت ملت، وإذا ملت ماتت».. فالرياضة هى راحة للعقل والوجدان، وتتعدد مجالاتها، حيث يستفيد منها الجسم والعقل.

ندى نصرالدين أحمد
قسم إعلام

ربيع شتا وأنور الجندى وهجوم على طه حسين!

ليست هذه هى المرة الأولى التى يوضع فيها طه حسين فى قفص الاتهام، ففى أخريات عام ١٩٧٦ ظهر كتاب لأنور الجندى تحت عنوان «طه حسين فى ميزان الإسلام» نال فيه طه حسين نصيبا وافرا من الاتهامات.

ولعل أنور الجندى لم يبعدنا كثيرا عن الرد على افتراءات الأستاذ/ ربيع شتا فى عدد سبتمبر من الهلال وأنهما وجهان لعملة واحدة، وأوجه الخلاف بينهما تنحصر فقط فى زمان كل منهما، فإن أنور الجندى شن حملتة الشعواء فى السبعينيات من القرن العشرين، على حين أن «شتا» جاءت اتهاماته فى مطلع القرن الحالى الحادى والعشرين، ومن ثم فإن كلا الاتهامين متطابقان تمام التطابق، حيث اتهم الكاتبان طه حسين بالعمالة للصهيونية عندما أشرف على تحرير مجلة «الكاتب المصرى» بتمويل من آل هرارى، وهم يهود مصريون، وأود أن أقول للكاتبين أن يهود مصر عاشوا بين ظهرانينا زمانا طويلا، يعيشون فى طمأنينة، يمارسون نشاطاتهم بحرية تامة، دون أدنى قيود، بل وصار لبعضهم اليد الطولى فى توجيه الاقتصاد المصرى وآخرون منهم كانوا فى البرلمان المصرى فى منتصف الأربعينيات..!! كما أنهم امتلكوا الأراضى واحتكروا بعض الصناعات آنذاك..!!؟؟.

وحول الفكرة ذاتها، لم نستطع السكوت بأية حال، على اتهام الدكتور طه حسين بالعمالة للصهيونية بمجرد أنه وجه الدعوة ليهود مصر إلى توثيق صلاتهم بالمصريين من أهل الثقافة العربية، وهى دعوة لا غبار عليها خاصة إبان الظروف الموضوعية التى عاشها اليهود آنذاك كما سبق الإشارة، وإن كان قد تعاطف مع أولئك اليهود، فإنه لم يرتكب جرما فى حق مصر والعروبة، إذن موقف طه حسين كان محددا وهو توجه ثقافى محض، لم تكن وراءه أية شبهة خيانة أو عمالة كما يزعم الأستاذ/ شتا فى مقاله المشار إليه..!!

وتأسيسا على ذلك كان لابد من أن يوجه النقد المرير لا لطه حسين وزملائه المثقفين فحسب، وإنما يوجه إلى صانعى القرار آنذاك فهم المسئولون أولا وأخيرا عن نكبة فلسطين ١٩٤٨ والتى كان من نتائجها المريرة تأسيس الدولة الصهيونية فى فلسطين، وحرمان الشعب الفلسطينى من حقوقه المشروعة، ناهيك عما حدث

فى عام ١٩٦٧، من حدوث نكسة العرب الكبرى، وهى أشبه بكارثة حاقت بالأمة العربية كلها..!! وأصابتها فى مقتل، وانتهت باحتلال سيناء المصرية والجولان السورية والضفة الغربية لنهر الأردن، ومنها اغتصاب القدس وجعلها عاصمة لإسرائيل، ولاتزال الأراضى محتلة حتى الآن باستثناء سيناء التى استردتها مصر إبان حرب أكتوبر ١٩٧٣ .. لذا يجب علينا أن نتناول النقد بحيث يكون موضوعيا بنَّاء هادفا، ولانكيل التهم جزافا لمثقفينا ودعاة التنوير فى مصر والدول العربية بل نصوب سهام النقد لمن تسبب فى نكبة العرب ونكستهم من أولئك الحكام الذين باعوا القضية الفلسطينية، وتاجروا بها على حساب الفلسطينيين وحقوقهم المشروعة، وإقامة دولتهم على ترابهم الوطنى وهو مايحاول الفلسطينيون تحقيقه الآن.

د. صموئيل لبيب سيحة ـ المنيا

تعقيب حول مقال ربيع شتا

ردا على مقال ربيع شتا فى هلال الشهر الماضى أقول إن طه حسين الذى كانت له مواقف مشهودة دافع فيها عن العروبة والقومية العربية لم يظهر فى سطر واحد من كتاباته على أنه متعصب لدينه أو لجنسه، وكان يدعو للسماحة والتسامح حتى تجاه اليهود المدنيين، وهو لم يؤيد إطلاقا قيام دولة إسرائيل ولم يكتب تقريظا عن المذابح التى قام بها اليهود فى فلسطين، وأكد عميد الأدب العربى أنه كان لليهود دور فى الأدب العربى وهذا صحيح، وقال أنهم نافسوا العرب على أكبر المناصب فى دول شمال افريقيا الإسلامية ويمكن لمن أراد التأكد من صحة هذه الحقيقة أن يعود إلى مصادر تاريخ الدولة الفاطمية خاصة عهد الخليفة المستنصر، وكما أظهر الكاتب الكبير العطف على نساء وأطفال اليهود المهاجرين ـ وله الحق فى ذلك ـ أظهر العطف عينه على اللاجئين الفلسطينيين، وهذا نابع عن فكر إنسانى راق تميز به الدكتور طه حسين.

وأخيرا فإن ربيع شتا ذكر فى نهاية مقاله أسماء كبيرة مثل سهير القلماوى وسلامة موسى وغيرهما من أعلام الفكر والأدب العربى والمصرى وتناولهم بالتجريح قائلا أنهم باعوا أقلامهم مقابل المال..

هل هذا يليق أيها الأستاذ الجليل؟

محمود محمد أحمد

دراسات عليا ـ قسم التاريخ ـ آداب بني سويف

العالم اليوم

العين تبكي والدموع تسيل — والجرح ينزف والفؤاد عليل
والكل يجرى فى ظلام حالك — والسيف فى هذا الزمان سليل
والقتل أمسى شرعة وتحالفا — والعنف أصبح عادة فى الجيل
والطفل فى هذى الحياة ضحية — للظلم، للطغيان، للتهويل
وكأنه أمسى فريسة عالم — فتراه من ألم السياط عليل
كم من مذابح أنشئت وتهيئت — الناس تذبح والدماء تسيل
أخلاقنا تمحى بدعوى حضارة — ولساننا يعجز عن التعليل
الناس تشكوا من فساد بنيهم — والعدل فى هذا الزمان هزيل
والعالم المادى أصبح غابة — بالنار بالبارود بالتقتيل

أحمد نادى بهلول
المندرة بحرى ـ ديروط ـ أسيوط

الفكاهة فى شعر شوقى

عرف عن أمير الشعراء أحمد شوقى جديته فى التعامل مع الناس وعدم ميله إلى الهزل واللهو اللهم إلا فى مواقف قليلة من حياته وهو ما انعكس على أشعاره التى كتبها بالفصحى، لكن عباس العقاد حاول التركيز على الجانب الفكه الظريف فى شخصية أحمد شوقى فكتب سنة ١٩٥٧ فى مجلة الهلال بعض ما كتبه شوقى فى وصف سيارة صديقه الدكتور محجوب ثابت التى تسير يوما وتركن أياما:

إذا حركتها مالت — على الجنبين منهارة
وقد تحرن أحيانا — وتمشى وحدها تارة
ترى الناس فى ذعر — إذا لاحت من الحارة
وصبيانا يفرون — كما يلقون طيارة

كما قال شوقى فى براغيث محجوب التى كان يمتلىء بها بيته:

بواكير تطلع قبل الشتاء — وترفع ألوية الموسم
وتبصرها حول بيته وداخله — وفى شاربيه وحول الفم

محمد أمين عيسوى ـ الاسماعيلية

فريدمان والعولمة

من خلال قراءاتي ومتابعاتي لكل مايدور على الساحة الثقافية فوجئت بالهجوم الشديد على الكاتب الأمريكي توماس فريدمان وكان قبل عدة أشهر قد أتى إلى مصر، ونال من الاهتمام الكثير، وفجأة كتب كلاما فى الصحافة الأمريكية، يناقض تماما ما أعطيناه له من أهمية واحتفاء شديد وبدأت الصحف المصرية تهاجمه، فمن هو هذا الرجل الذى يتغير بين عشية وضحاها؟.

محمد وجيه قنديل ـ الجيزة

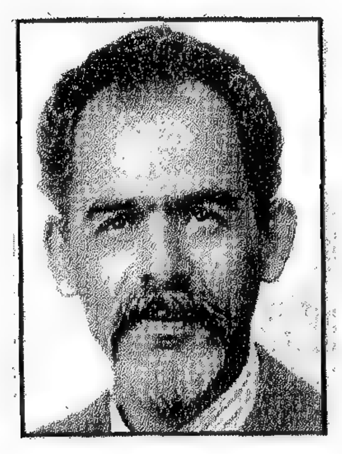
الهلال: لقد بادرنا بنشر دراسة كتبها الدكتور صلاح قنصوة عن كتابه «السيارة ليكساس تقتلع شجرة الزيتون»، كما كتب الدكتور محمود عبدالفضيل دراسة مهمة بعنوان «تسويق وتزويق» العولمة مراجعة نقدية لكتاب «توماس فريدمان» السيارة ليكساس وشجرة الزيتون.

ونشرت الدراستان فى عدد فبراير ٢٠٠٠م مع إشارة على غلاف المجلة بعنوان: فريدمان: العولمة ديانة جديدة.. وبينت الدراستان فكر هذا الرجل وانتصاره للأفكار الأمريكية وتوقفه عند قضايا كثيرة مباغتة كأن يقول «إن مطاعم ماكدونالدز لن تنجح بدون «ماكدونيل دوجلاس» مصمم طائرة السلاح الجوى الأمريكى فـ ١٥»، فالعولمة أو الأمركة فى تصوره هى السلام وهى الحرب معا، وليحفظ الله أمريكا!.

وشجرة الزيتون التى تعنى فريدمان هى أشجار زيتون الولايات المتحدة، أما الأمم أو الدول الأخرى فعليها أن تنصرف عن شجرة الزيتون لتنضم إلى مايسميه «بالقطيع الإلكترونى» الذى لايسمح بعضويته إلا لمن يرتدى السترة الضيقة الذهبية، وهى السوق الحرة، لأنها البديل الأيديولوجى الوحيد، فليس هناك سوى طريق واحد وسرعات مختلفة.. والاعتراف بقواعد السوق الحرة والالتزام بها هو القميص أو السترة التى تعرف بها حقبة العولمة سياسيا واقتصاديا، وليس لدى العولمة إلا قميص القيد الذهبى.

وفريدمان صحفى يحرر عمودا فى «النيويورك تايمز» منذ ١٩٩٤ للشئون الخارجية، وكان مراسلا أجنبيا فى بيروت والقدس لعشر سنوات حتى ١٩٨٨، ومراسلا دبلوماسيا، ومندوبا فى البيت الأبيض، كما عمل من قبل محررا فى القسم الاقتصادى والبيزنس فى الصحيفة نفسها، ومندوبا فى وزارتى الخزانة والتجارة، كما حصل على درجتى البكالوريوس والماجستير فى الدراسات العربية والشرق أوسطية.

وهو فى الوقت نفسه يهودى يشيد بالفضل الذى يدين به لمعلم الدين الحاخام «ترقى ماركس» الذى ألهمه بأول مسيرة كتابه، وخاتمته فى قصتى هابيل وقابيل أولا، ثم برج بابل أخيرا بوصفهما تفسيرا عميقا، وموجزا لتاريخ العالم ومستقبله.. وتقوم معظم أدلته على مايسميه بنظام العولمة.



شيخوخة مجتمع شاب

بقلم : مصطفى الحسينى

من ملامح المجتمع المصرى، والتى يبدو أنها غير ملحوظة. أنه مجتمع شاب، فالتقدير أن أكثر من نصف تعداده لا تزيد أعمارهم عن الخامسة والعشرين، وهذا، على أى حال، من الملامح المشتركة بين مجتمعات البلدان النامية، أو إذا فضلنا الصراحة فهى مجتمعات البلدان المتخلفة .

والمفترض أن شباب المجتمعات يعتبر ميزة لها، حيث من شأنه أن يدفع فى شرايين المجتمع دماء جديدة، وفى أوصاله طاقات متجددة، وفى عقله الجمعى أفكارا طازجة ومتدفقة، وفى وجدانه جرأة تعينه على مواجهة التحديات والتغلب عليها وعبورها .

لكن الحال عندنا، كما هو عند سوانا من المجتمعات المتخلفة على خلاف هذا، بل على نقيضه، ولأسباب عديدة .

ولعل من بين أبرز هذه الأسباب أن حكوماتنا، أو أن أولى الأمر فينا يتميزون بنظرة «معدية» الى المجتمع، أى نظرة تعتبر الأجيال الجديدة عبئا يتلخص فى أفواه تطلب الطعام، وليس فى طاقات تجدد حيوية المجتمع وتضيف اليه .

وربما يجد أصحاب هذه النظرة «المعدية» مبررا لها فى نظرات اقتصادية ـ احصائية شائعة فى الكتابات الاقتصادية فى البلدان المتقدمة، نظرات تتحدث عن معدل الاعالة فى المجتمع، وهو ما يعنى النسبة بين من هم فى سن العمل والانتاج، وبين من هم دون هذه السن ومن هم فوقها .

لكن تلك النظرات الاقتصادية ـ الاحصائية الشائعة هناك تتحدث فى الحقيقة عن مجتمع فعال وشغال. يقع فى المركز منه، عديد من العاملين المنتجين.

اما عندنا، فالاخطر من نظرية «الأفواه» والنظرة «المعدية» الى المجتمع، هو ما يكاد يكون نقيض نظرية معدل الاعالة .

مجتمعنا الشاب لا يكاد يكون فيه مكان إلا للشيوخ ، حتى انه ينظر الى من تجاوز عمرهم نصف قرن من الزمان على انهم «شباب»، أما من هم دون هذا العمر المتوسط، أو بالأحرى العمر المتقدم، فهم مجرد «عيال».

انظر حولك : قيادات الاحزاب ـ اعضاء مجالس إدارات الشركات والمؤسسات ، رؤساء تحرير الصحف. مخرجو المسرح والسينما.. ممثلات الاغراء.

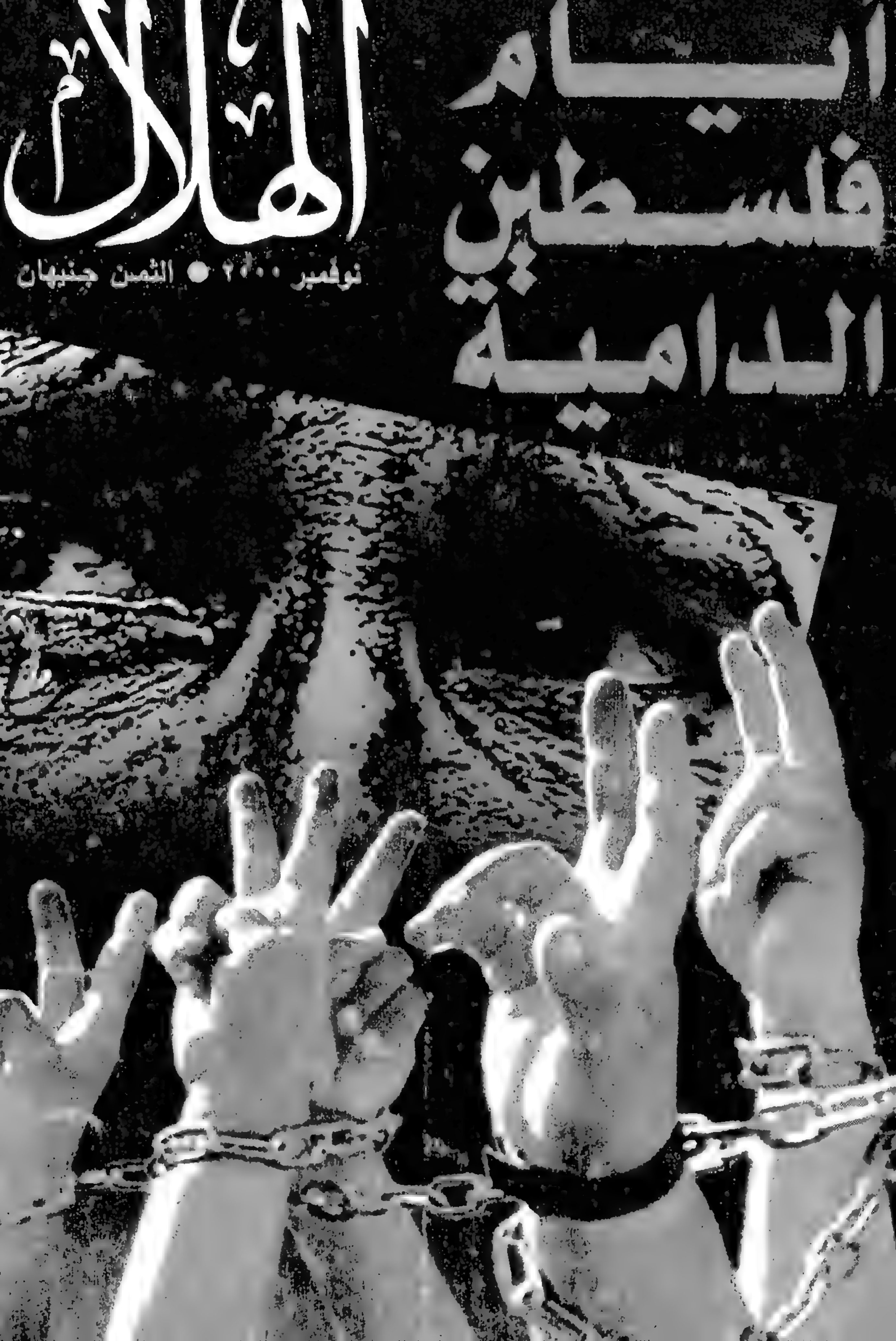
وليست نادرة الاشارة ـ مثلا ـ الى مخرجين من مستوى داود عبدالسيد، وخيرى بشارة ورأفت الميهى وحسن الجريتلى.. على أنهم شباب السينمائيين المسرحيين .

فهل بوسع مجتمع هذه مقاييسه أن يتجرأ على التجريب، وأن تكون له شجاعة اقتحام مجالات جديدة؟

هل يمكن أن يكون إلا مجتمعا ينظر الى الوراء، يستمد إلهامه من الماضى، و«يتقدم» نحوه؟

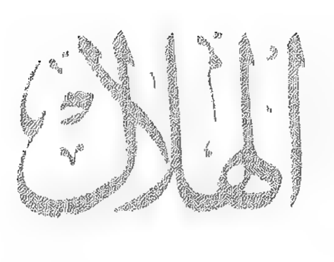
* ملحوظة : كاتب هذه السطور تجاوز عمره الخامسة والستين .

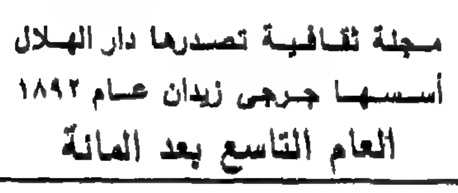

روايات مصرية للجيب
روايات مصرية للجيب
المؤسّسة العربيّة الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع


الهلال
نوفمبر ٢٠٠٠ ● الثمن جنيهان
أيام فلسطين الدامية

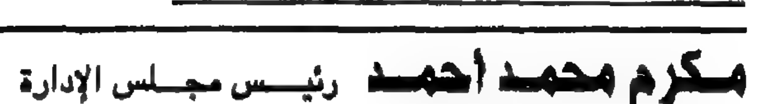


أزهار عباد الشمس
للفنان العالمى : فان جوخ




مجلة ثقافية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجى زيدان عام ١٨٩٢
العام التاسع بعد المائة

نوفمبر ٢٠٠٠م ● شعبان ١٤٢١ هـ


مكرم محمد أحمد رئيس مجلس الإدارة

الإدارة القاهرة – ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) . المكاتبات ص ب ٦١ – العتبة – الرقم البريدى ١١٥١١ – تلغرافيا – المصور – القاهرة ج. م. ع. مجلة الهلال ت ٣٦٢٥٤٨١ – تلكس 92703 Hilal un فاكس FAX ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكترونى : darhilal@idsc . gov . eg

مصطفى نبيل رئيس التحرير

محمد أبو طالب المستشار الفنى

عاطف مصطفى مدير التحرير

محمود الشيخ المدير الفنى

ثمن النسخة سوريا ٦٠ ليرة – لبنان ٣٠٠٠ ليرة – الأردن ١٢٠٠ فلس – الكويت ٧٥٠ فلسا، السعودية ١٠ ريالات – تونس ١.٧٥٠ دينار – المغرب ١٥ درهماً – البحرين ١ دينار – قطر ١٠ ريالات – دبى/ أبو ظبى ١٠ دراهم – سلطنة عمان ١ ريال – الجمهورية اليمنية ١٢٠ ريال – غزة/ الضفة/ القدس ١ دولار – إيطاليا ٤٥٠٠ ليرة – المملكة المتحدة ٢.٥ جك

الاشتراكات قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عدداً) ٢٤ جنيها داخل ج م. ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية – البلاد العربية ٢٠ دولارا، أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولاراً، باقى دول العالم ٤٥ دولاراً

● وكيل الإشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيونى زغلول – ص ب رقم ٢١٨٣٣ – الصفاة – الكويت – ت/ 13079 ٤٧٤١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

هذا العدد

تصميم الغلاف
الفنان
محمد أبو طالب

أيام فلسطين الدامية
جزء خاص

فكر وثقافة

دائرة حوار

فنون

قصة

الأبواب الثابتة

ثقافة المقاومة

نكتب الآن فى خضم أحداث المسجد الأقصى، وانتفاضة الاحتجاج على الاستفزازات المخططة من قبل الكيان الصهيونى التى بدأت بزيارة السفاح إيريل شارون، ومعه آلاف العسكر المدججين بالسلاح لساحة المسجد الشريف ، زاعما أنه لم يكن يعرف أن الساحة هى ساحة المسجد الأقصى إذ أنه لايعرفها إلا بصفتها العبرية، ورغم الإدانة الشكلية لزيارة سفاح صابرا وشاتيلا، إلا أننا نعرف أن الزيارة ليست تلقائية ولا فجائية ولا هى مبادرة شخصية من المجرم المتأصل فى الإجرام ، وفقا لفلسفة الاحتلال الاستيطانى السرطانى العنصرى التى تطرحها الأطماع الصهيونية ومن يساندها ولأننا من الجيل الذى يحمل وعيا عمره ٥٣ عاما بخسة الإرهاب الصهيونى منذ عام ١٩٤٧ لذلك فنحن لم نندهش كثيرا من صور الوحشية المنقولة للسمع والبصر عبر أجهزة الإعلام من كل صوب ومكان . لقد ترعرع جيلنا على تفاصيل المجازر والذبح وبقر البطون وعصابات الهجاناه «التى كان من مجرميها الإرهابيون الرواد : بن جوريون، وبيجين، وموشى ديان، ورابين، وجولدا مائير .. الخ ، الذين تركوا وراءهم تعاليم تربى عليها شارون ونتانياهو وبيريز، وإيهود باراك، وخفافيش المستوطنات من مصاصى الدماء العطشى دائما إلى تجرع دمائنا فى انتشاء لايكتفى بأى ارتواء لقد تحدث البعض بسلامة نية عما أسموه «ثقافة السلام» و«كسر الحاجز النفسى» بيننا وبين عدونا الأبدى، وتلك الأبدية فى العداوة لم نكن نحن المسئولين عن اختيارها، فالعداء هو اختيار يضعه المغتصب للحقوق ويأبى علينا أن ننساه وهو المحتل السارق للأرض والوطن وهوية الشعب الفلسطينى العربى. و«السلام» الذى هو «تحيتنا» له فى تعريفنا دلالة لاتنفصل عن «الحق»، لاتنفصل عن «العدل»، لاتنفصل عن «الأمن» و«الطمأنينة» لأصحاب «البيت» و«الحقل» و«المسجد» و«الأرض المباركة» . وكل ثقافة تؤدى إلى تأكيد هذه الدلالة التى نفهم بها كلمة «السلام» هى فقط «ثقافة السلام» التى نعرفها. وحين نرى العدو الصهيونى «يشقلب» لنا معانى «السلام» لتصبح – وفقا لأهوائه الشريرة – خضوعا بشروط اللصوص تحت تهديد الطائرات والدبابات والمدافع، والقلوب التى هى أشد قسوة من الحجارة، فلابد لنا أن نقذف بالحق على الباطل ليزهقه، بحول الله وقوته - فى مواجهة كل هؤلاء الذين يجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق . ولايكون أمامنا إلا «ثقافة المقاومة» لتتحقق دلالة «السلام» الأصيلة والأصلية .

عزيزى القارىء

لقد منيت منطقتنا بالاحتلال الانجليزى لمصر عام ١٨٨٢ وصارت العسكرية الإنجليزية فى شوارعنا ومرافقنا ومدارسنا ووسائل مواصلاتنا، ومع ذلك لم يخطر ببال شعبنا لحظة أن «يطبع» علاقته مع المحتل، وظل المحتل بين ظهرانينا أكثر من ٧٠ عاما وكنا نعلم أنه لابد أن يرحل ولو طال الزمن . ونشب الاحتلال الفرنسى مخالبه فى الجسد الجزائرى والمغرب العربى، احتلالا استيطانيا سرق اللسان والثقافة وعزل الناس عن هويتهم فصارعوه وقاوموه حتى ثابوا إلى أنفسهم وإن أنهكم التعب (وللتعب والإرهاق جراحه وأمراضه) لكنهم تحرروا بالمقاومة ولاتزال أمامهم معركة - مقاومة -«الثقافة الدخيلة» ليستعيد البجع المسحور إنسانيته الحقة.

★★★

لم تكن بيننا وبين العدو الصهيونى المحتل الاستيطانى - «أبشع وجوه الاحتلال قاطبة» - أى «حرب» لقد أعلنوا علينا الحرب العدوانية وأسموها كذبا «حرب التحرير» وكان علينا أن نواجه العدوان بالصد ودفع الأذى فيما يجب أن نعرف كونه «معارك المقاومة» منذ ١٩٤٨ ونحن نقاوم ، ومعنا «ثقافة المقاومة» منذ مطلع القرن. فالحقيقة أننا لانقترح بداية لثقافة المقاومة، لأنها عميقة الغرس فى تاريخنا وحضارتنا ونهضتنا العربية والإيمانية والإسلامية . إن مقولة «قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى النار» تعنى أن لقب «الشهيد» لايطلق سوى على من مات فى سبيل الله لتحقيق أوامره بالنهى عن البغى والبطش والقهر والظلم وجبروت الطغاة. لايمكن أن يكون شهيدا من مات فى سبيل تكريس ظلم الاحتلال ووحشية المغتصب وفساد اللصوص والقتلة ومن مات «فى سبيل التاج» ! .أى سلطة الظالمين .

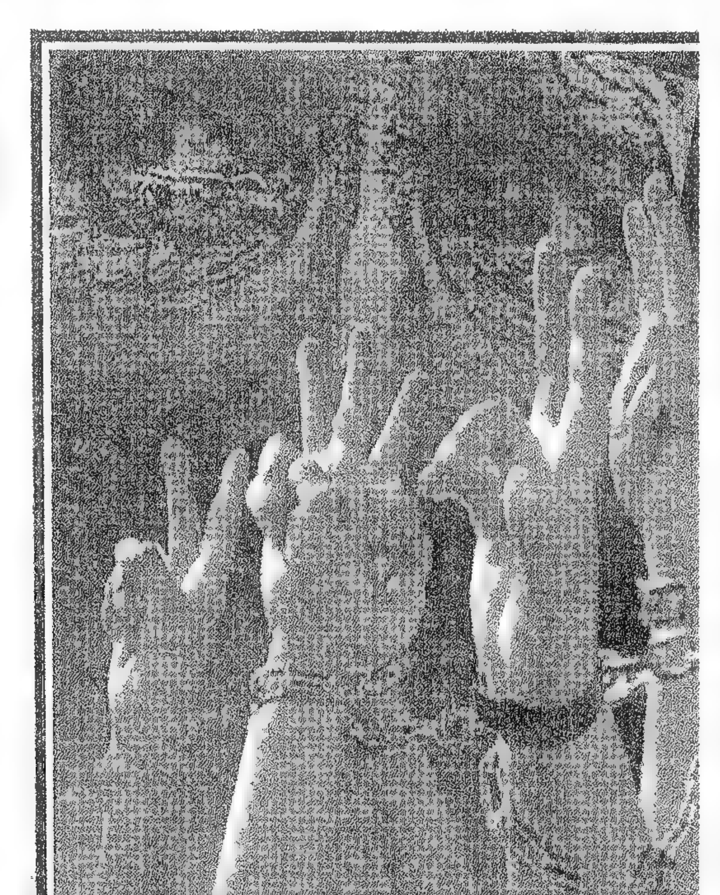
★★★

الناس تسقط ميتة وشهداء المقاومة يرتفعون شهداء فى سبيل طاعة الله وتقديم حقه فوق كل حسابات الربح والخسارة عند عشاق فتنة هذه الدنيا، يقول من يقول فى سفاهة «لابد أن تتخلى المقاومة عن حجارتها» حتى يتوقف القصف الحيوانى الأعمى الذى تصبه دولة الاحتلال الصهيونى على الشعب المدافع عن حق أطفاله فى عبور الشارع سالمين. دولة الاحتلال المعتدية تجمع السلاح من كل مكان، وتسلح ثعابينها من سكان المستوطنات مصاصى الدماء ويكون معها العذر والمنطق، وعلى المقاومة بالأحجار أن تلقى سلاحها البتار : ماشاء الله !.

مذلون مهانون : هكذا يريدوننا فهل نرضى دائما؟.

المحــرر

الأثريون الإسرائيليون يكشفون زيف الإدعاءات الدينية والتاريخية لليهود فى فلسطين



بقلم :

د . رشاد الشامى

* استاذ الدراسات العبرية ورئيس قسم اللغة العبرية بكلية الآداب جامعة عين شمس .

* هذا المقال جزء من مقدمة كتاب سيصدر قريبا لكاتبه تحت عنوان «العبرانيون وبنو اسرائيل فى العصور القديمة ، بين الرواية التوراتية والاكتشافات الأثرية» .

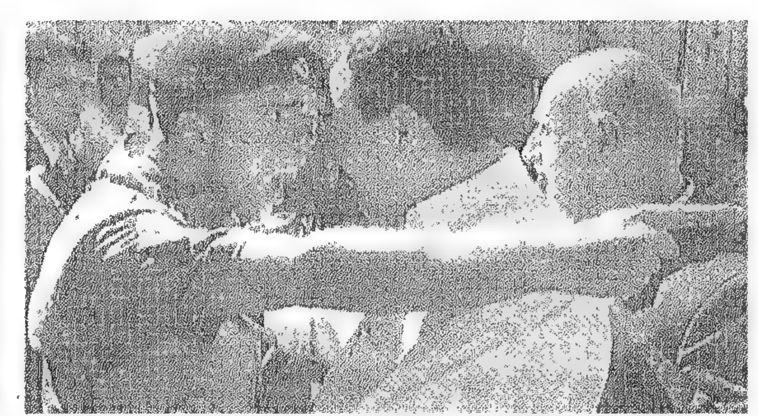
سعت الصهيونية منذ قيامها فى القرن التاسع عشر إلى توظيف الروايات التوراتية لخدمة أهدافها ، بحيث أن إقحام السياسة فى ميدان كتابة تاريخ اسرائيل القديمة ، لم يثر فى حينه جدلا واسعا ، لأن معظم دارسى التوراة كانوا متفقين على المبادىء الأساسية لمشروعهم ، وكانت ثقتهم بالمصادر التوراتية وإيمانهم بها ، وبصحتها التاريخية ثقة كبيرة ، وكذلك الأمر بالنسبة لموضوعية الباحث التوراتى الحديث الذى كان بدوره موضع ثقة كبيرة .

وهكذا فإن الصهيونية لم تتوقف عن الاغتراف من الأحداث التاريخية الواردة فى أسفار العهد القديم بما تعزز به مطالبها وأهدافها فى الاستيطان فى أرض فلسطين وإقامة دولة يهودية فيها ، مرددة مقولات مثل : «الحق الدينى والتاريخى لليهود فى فلسطين» و«الاستمرارية التاريخية» . وقد كان هذا التوجه الذى خاطبت به الصهيونية العقلية الغربية المسيحية : يسعى إلى أن يثبت فى الوجدان الغربى أن تاريخ المنطقة لا يمكن فهمه إلا من خلال «التاريخ التوراتى» ، وأن هذه الإدعاءات الدينية تحدد هذا التاريخ وتسيطر عليه ، بحيث لا يصبح تاريخ هذه البلاد هو تاريخ وجغرافية فلسطين ، بل تاريخ وجغرافية «اسرائيل التوراتية » ، ويصبح اسم «فلسطين» على هذا النحو ، لا يزيد على كونه تعبيرا مختصرا عن «أرض التوراة» .

وتصبح الاعتبارات الدينية والتعريفات التوراتية هى مفتاح فهم تاريخ المنطقة وتصبح أسماء المناطق فيها نابعة من الأسماء التوراتية مثل «يهودا والسامرة» بدلاً من «الضفة الغربية» وتصبح سائر المناطق هى مناطق زبولون وإنرايم وبنيامين ومنسى .. الخ .

وفى سياق هذا الاختزال الذى يجعل من تاريخ فلسطين تاريخا لبنى إسرائيل ولليهود دون سواهم من الشعوب التى قطنتها وعاشت فيها وأسست دولا وممالك ، تصبح الأوضاع التى أدت إلى إنشاء دولة إسرائيل فى القرن العشرين شبيهة بالأوضاع فى العصور القديمة . فإذا كانت الصهيونية قد رفعت شعار «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض» ، فإن الدراسات التوراتية ، التى عكست المفاهيم الصهيونية الخاصة بفلسطين ، قد صورت فلسطين دون سكان ، أو على أكثر تقدير ، كسكان مؤقتين سريعى الزوال ينتظرون قدوم ذلك الشعب الذى لا يملك الأرض . وهنا نجد أن جذور الدولة الحديثة قد سيطرت على الدراسات العلمية فى مجال الدراسات التوراتية ، بما فى ذلك تطويع المكتشفات الأثرية ، لدرجة أن هذا الإسقاط على الماضى للدولة اليهودية فى العصور القديمة ، قد أدى إلى استمرارية حتمية ساعدت على تبرير وإضفاء شرعية على كلتا الدولتين القوميتين قديماً وحديثاً.

وهكذا فإن الافتراض الصهيونى السائد بوجود صلة مباشرة بين إسرائيل القديمة والدولة الاسرائيلية الحديثة ، والذى يتلخص فى الاعتقاد بعودة «الشعب اليهودى» إلى «وطنه» فى «أرض إسرائيل القديمة» ، هو الذى يحدد مسبقاً نتيجة البحث التوراتى بحثا عن جذور «إسرائيل

القديمة» لإضفاء الشرعية على الدولة الحديثة : إسكاتاً للبحث عن تاريخ أعم للمنطقة .

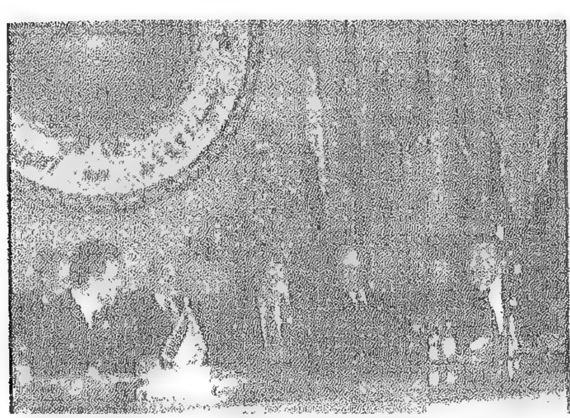
وأخيرا ، إضافة إلى الجهود التى بذلها أصحاب مدرسة نقد المصادر التوراتية ، وما كشفوا عنه في دراساتهم عن تضارب الروايات التوراتية ، وعدم وجود أية مصداقية لها على المستوى التاريخى أو الأثرى يثبت صحتها أو وقوعها ، فاجأنا الأثريون في اسرائيل ، وعلى رأسهم الأثرى الاسرائيلى المعروف جيم هرتسوج أستاذ الآثار بجامعة تل أبيب ، وبعد جهود مضنية ومكثفة قاموا بها على إمتداد الفترة من ١٩٦٧ بعد احتلال القدس والضفة الغربية وحتى عام ١٩٩٩ ، بإعلان أذهل الجميع فى اسرائيل وخارجها ، أكد فيه عدم صحة الرواية التوراتية حول نشأة وتكون بنى إسرائيل فى العصور القديمة ، وحول كل ما يتعلق بإقامتهم فى مصر والتيه فى صحراء سيناء وغزو أرض كنعان بالقوة المسلحة وقيام مملكة إسرائيلية موحدة فى فلسطين بين الحضارات الكبرى فى المنطقة ، بما يثبت زيف كل الإدعاءات الصهيونية حول الحق الدينى والتاريخى في فلسطين وحول مملكة داود والقدس وغيرها .

وفيما يلى سنقدم نص ما نشر حول هذا الموضوع فى صحيفة هاأرتس بتاريخ ١٩٩٩/١٠/٢٨ (الصفحة الأولى) :

الأثريون يتفقون : الفترة التوراتية لم تحدث على الاطلاق

بعد سبعين عاما من الحفائر المكثفة فى فلسطين ، لم يتم العثور على أدلة تؤكد روايات العهد القديم .

بعد سبعين عاما من الحفائر المكثفة توصل معظم رجال الآثار الاسرائيليين إلى استنتاج قاطع ، وهو أن الفترة التوراتية لم تحدث على الإطلاق . ففى مقال نشر اليوم فى «ملحق هاأرتس» أكد رجل الآثار البروفيسور زئيف هرتسوج ، الاستاذ بجامعة تل أبيب ، أنه خلال العشرين عاما الماضية حدثت ثورة فى

موقف الباحثين من التوراة باعتبارها مصدراً تاريخياً .

ووفقاً لأقواله ، فإن معظم المعنيين بالأبحاث العلمية فى مجال التوراة ، والآثار وتاريخ شعب اسرائيل ، والذين قاموا حتى الآن بالبحث والتنقيب عن أدلة لتأكيد صحة قصص العهد القديم ، قد اتفقوا حاليا على أن مراحل تكوين شعب إسرائيل كانت مختلفة تماماً عن تلك الواردة فى التوراة ، ولكن المجتمع الاسرائيلى غير مستعد لتدارس هذا الأمر ويفضل إبعاد هذا الموضوع المهدد . .

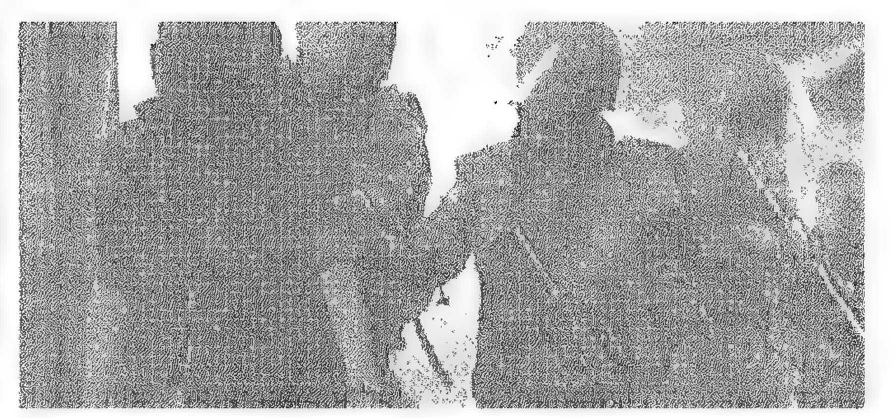
وقد كتب هرتسوج قائلاً : «من **الصعوبة بمكان قبول هذا ولكن من الواضح بالنسبة للباحثين اليوم أن شعب إسرائيل لم يعش في مصر . ولم يته فى الصحراء ، ولم يحتل فلسطين فى حملة عسكرية ولم يورثها لاثنى عشر سبطا من أسباط إسرائيل . والأكثر صعوبة هو قبول الحقيقة الواضحة ، وهى أن مملكة داود وسليمان الموحدة ، والموصوفة فى العهد القديم باعتبارها قوة عظمى إقليمية ، كانت مجرد مملكة سبطية صغيرة فى أحسن الأحوال » .**

قبر يوسف فى نابلس

ومن الأمثلة التى نسوقها للتدليل على توجه أصحاب الروايات التوراتية فى صياغة الروايات القديمة لتخدم الواقع الحديث ، وخاصة فيما يتصل بمحاولات الإدعاء بأن لهم حقا دينيا وتاريخيا فى كل بقعة فى أرض فلسطين لهم فيها ذكريات أو آثار لشخصياتهم الدينية ، تلك القصة المرتبطة بقبر يوسف بالقرب من مدينة نابلس ، والتى كانت محورا من محاور أحداث إنتفاضة الأقصى خلال اكتوبر ٢٠٠٠ .

إن القصة المقرائية (الخاصة بالتوراة) عن سيدنا يوسف تروى فى سفر التكوين وهو السفر الأول من أسفار التوراة ، إعتبارا من الاصحاح السابع والثلاثين وحتى نهاية سفر التكوين (الاصحاح الخمسون) ، مع إستثناء





الاصحاح الثامن والثلاثين ، وبعض من الاصحاح التاسع والأربعين . وتتضمن هذه القصة سردا مفصلا لحياة يوسف من صباه حتى وافته المنية ، وهى قصة مليئة بالأحداث والشخصيات وتغير الزمان والمكان وتحكمها حبكة روائية ، تجعلها نموذجا مثاليا لدراسة أسلوب القص فى التوراة .

ولن نخوض بطبيعة الحال فى تفاصيل قصة يوسف المعروفة ، ولكن ما يعنينا فى هذا المقام هو قصة موته ودفنه ومدى صحتها من عدمه .

إن نهايات قصة يوسف تشير إلى إنتقاله لدفن أبيه فى حشد غفير من الأعيان المصريين ليشاركوا يوسف وإخوته وجميع أهل بيته ، فيما عدا الصغار من أبنائهم الذين بقوا فى أرض جاسان بمصر ، وصاحبته بالاضافة إلى هذا قوة حربية وجيش من الفرسان ، بما يشير إلى مكانة يوسف التى تعاظمت داخل بلاط فرعون مصر ، الذى استأذنه يوسف قبل خروجه فى هذا الحشد ، دون الاشارة ، كعادة السرد القصصى المقرائى (التوراتى) إلى هوية هذا الفرعون ومن هو تحديدا (التكوين الاصحاحات ٤٨ - ٤٩ - ٥٠) .

أما بالنسبة لمشهد موت يوسف فإنه يرد فى هذه الاسفار فى روايتين ، الرواية الأولى هى الرواية «اليهودية» (المنسوبة إلى المصدر اليهودى) والرواية «الايلوهيمية» (المنسوبة إلى المصدر الايلوهيمى) ، وهما المصدران اللذان رأى أصحاب مدرسة الاتجاه النقدى فى دراسة العهد القديم أنهما دونا بعد فترة طويلة من الأحداث ، واختلف أصحاب كل مصدر فى رواية الأحداث ، ولكنهما جمعا معا فى النص التوراتى ، رغم ما بهما من تناقض أو تعارض فى سرد الاحداث .

والرواية الأولى تقول : «وسكن يوسف فى مصر هو وبيت أبيه وعاش مائة وعشر سنين . واستحلف يوسف بنى إسرائيل قائلا : الرب سيفتقدكم فتصعدون عظامى من هنا . ثم مات يوسف وهو ابن مائة وعشر سنين»



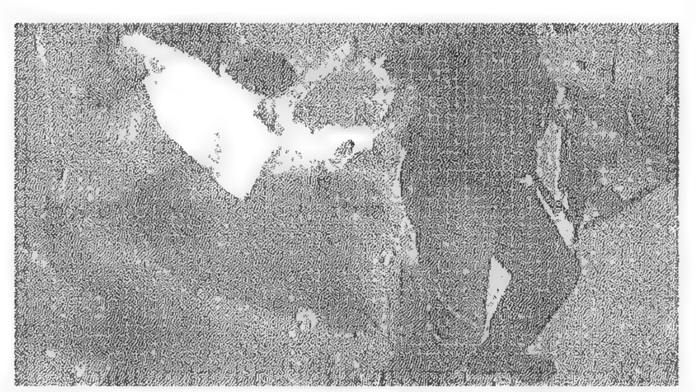

(التكوين ٥٠ : ٢٢ - ٢٥ - ٢٦أ)

أما الرواية الايلوهيمية فتقول :

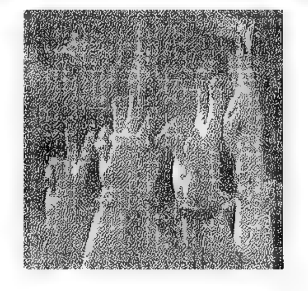
«وقال يوسف لأخوته أنا أموت ولكن الرب سيفتقدكم ويصعدكم من هذه الأرض إلى الأرض التي حلف لإبراهيم واسحق ويعقوب ، فحنطوه ووضع في تابوت في مصر» (التكوين ٥٠ : ٢٤ - ٢٦ ب) .

والرواية سواء اليهودية أو الايلوهيمية تتفقان على أن يوسف أوصى بنقل عظامه من هنا ، أى من مصر (الرواية اليهودية)، بينما الرواية «الايلوهيمية» ، تشير إلى «من هذه الأرض» أى من أرض مصر ، إلى «الأرض التى حلف لابراهيم واسحق ويعقوب» أى إلى أرض كنعان تحديدا ، ودون الإشارة المبهمة الواردة فى النص الأول ، وهو ما يؤكد أن أصحاب الرواية الثانية من المدونين كانوا حريصين على التحديد الدقيق .

وقد حنط يوسف ووضع فى تابوت فى مصر . والقصة التوراتية تتوقف عند سرد أحوال بنى إسرائيل فى مصر ، إلى أن يعود السرد مرة أخرى مع بدايات قصة الفرعون الذى استعبد بنى اسرائيل ، وظهور سيدنا موسى ليقودهم فى رحلة الخروج من مصر والتيه فى سيناء ثم دخول أرض كنعان ، سواء بالتسلل السلمى أو عن طريق الغزو المسلح ، ولكن القصة لا تشير فى ثناياها بعد ذلك إلى أنهم حملوا معهم رفات يوسف ، وخاصة أنهم خرجوا خفية عن أعين فرعون وجنوده ، ولم يكن يخطر ببالهم أنهم سيجدون البلاد (أرض كنعان) التى كانوا قد غادروها منذ أربعة قرون من الزمان مأهولة بسكان وممالك وحضارات لا قبل لهم بها . وإذا كانت القصة (قصة الخروج) لا تشير إلى هذا النقل لرفات يوسف ، بالإضافة إلى أنهم إستغرقوا وقتا طويلا حتى إستولوا على «شكيم» (نابلس الحالية) ، فكيف يمكن أن نتصور أنهم دفنوه هناك ، وأن قبره مازال قائماً حتى الآن فى نفس المكان . إنها الحيلة اليهودية المعهودة فى ادعاء المزاعم التى يتصورون أنها تعطيهم الحق فى الامتلاك، بالأثر الرجعى التاريخى .







كتاب جديد
«الجدار الحديدى»

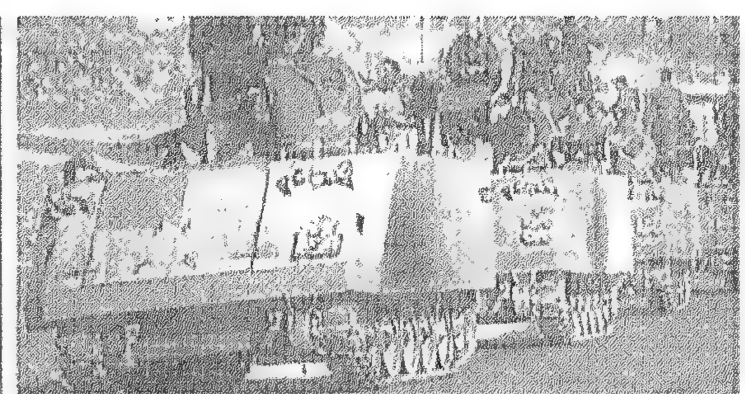
مؤرخ اسرائيلى يعترف :

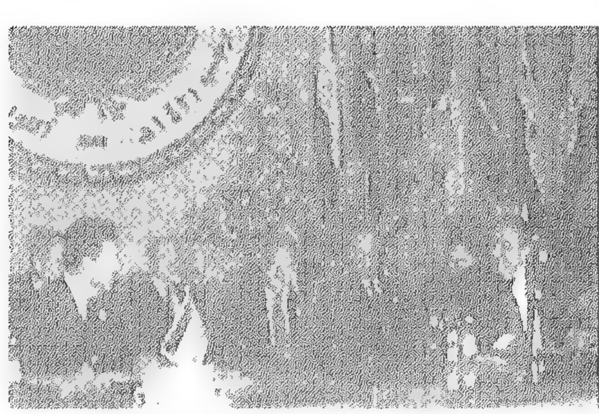
اسـرائيل لا تريد السـلام !

● لم تكن اسرائيل يوما ضحية !!

بقلم : لبنى الريدى

اعتمدت الحركة الصهيونية فى تأسيس دولتها على مجموعة من الأساطير والمغالطات التاريخية. وأنصاف الحقائق وتلفيق الاحداث ، واستطاعت آلتها الدعائية أن ترسخ هذه المفاهيم المغلوطة فى كثير من الأذهان . خاصة بين الرأى العام الاوروبى والأمريكى، أما فى داخل إسرائيل فلقد شكلت تلك المفاهيم وجدان الإسرائيليين جيلا بعد جيل. ونجحت إسرائيل فى أن تخدع الناس لبعض الوقت لكن لا يستطيع أحد أن يخدع كل الناس كل الوقت. وبدأ بالفعل بعض كبار المفكرين فى العالم الغربى فى فضح أساطير الصهيونية ، وقد يكون المفكر الفرنسى الكبير جارودى من أبرع من قام بذلك.





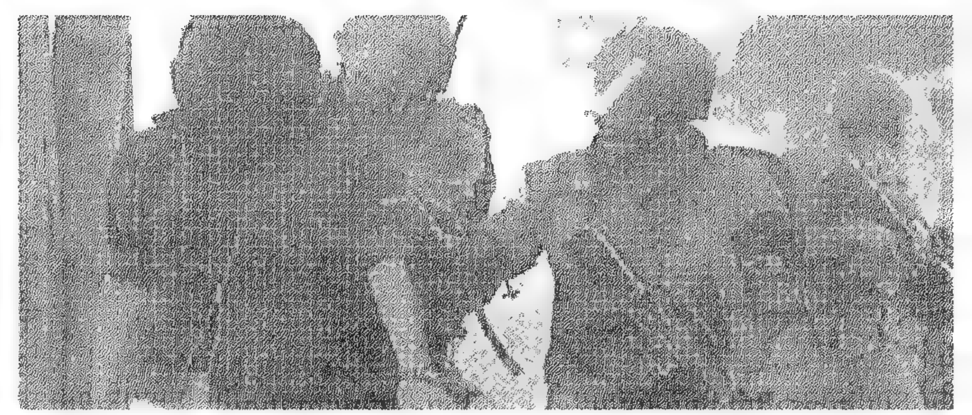
ومن ناحية أخرى بدأ يتشكل مؤخرا في إسرائيل اتجاه لمراجعة كتابة تاريخ الحركة الصهيونية ودولة إسرائيل فيما يعرف بـ «المؤرخين الإسرائيليين الجدد»، وساعد على ذلك أنه منذ عشر سنوات أتيح للباحثين الإسرائيليين الإطلاع على الارشيف الرسمي لإسرائيل واكتشاف حقائق ووقائع كثيرة مخالفة للرواية الرسمية. ومن أهم **هؤلاء المؤرخين الإسرائيليين الجدد المؤرخ آفي شلايم، الذي أصدر هذا العام كتابا بعنوان «الجدار الحديدي»** يؤرخ فيه للصراع العربي الإسرائيلي على امتداد نصف قرن. ويحاول شلايم الذى ولد فى بغداد عام ١٩٤٥ وشب فى إسرائيل أن يكون موضوعيا. لقد أعاد قراءة تاريخ إسرائيل بعيون مدققة وغير متواطئة في ضوء الحقائق التى اظهرتها الوثائق التى لم تكن متاحة من قبل.

ويقدم كتاب «الجدار الحديدى» مادة تاريخية جديدة على كتابة التاريخ الصهيونى يفند اكاذيب وادعاءات كثيرة ظل الكثيرون يصدقونها، قد تكون تلك المادة التاريخية معروفة لنا كعرب . إلا أن أهمية الكتاب ان من يكشف تلك الحقائق هو مؤرخ إسرائيلي عاصر اغلب حروبها وشارك فى الخدمة العسكرية فى الفترة من ١٩٦٤ إلى ١٩٦٦، وهو يعمل حاليا أستاذا للعلاقات الدولية بجامعة اوكسفورد.

لكن قبل ان نستعرض معا أهم تلك الحقائق التى كشفها الكتاب أو الأكاذيب والادعاءات التى دخصها سوف نتحدث عن عنوان الكتاب ، ألا وهو «الجدار الحديدى».

إن الجدار الحديدى هو استراتيجية التزمت بها إسرائيل حتى قبل قيامها كدولة، ففى عام ١٩٢٣ كتب جابوتنسكى أحد كبار المنظرين للإرهاب الصهيونى ضد الفلسطينيين مقالا بنفس العنوان يعد التعبير المنهجى لما أصبح فى الحقيقة الأساس المنطقى السائد بالنسبة للحركة الصهيونية وسياسات إسرائيل ومواقفها تجاه الفلسطينيين .وتتلخص هذه الاستراتيجية فى بناء جدار حديدى من القوة العسكرية اليهودية يكون العرب عاجزين عن تحطيمه.

كان جابوتنسكى أول زعيم صهيونى كبير يعترف بأن الفلسطينيين أمة وأنه من غير المتوقع أن يتخلوا طواعية عن حقوقهم، وأوضح أنه «طالما بقى للعرب بارقة أمل واحدة فى أنهم سينجحون فى التخلص منا فلا شىء فى العالم يمكن أن يجعلهم يتخلون عن هذا الأمل لأنهم ليسوا غوغاء وإنما شعب حى». إلا أنه كان يعتقد أن العرب بعد أن يضربوا رؤوسهم سدى قبالة ذلك الجدار الحديدى قد يدركون ويعترفون بأنهم فى وضع من الضعف الدائم، عندئذ فقط تفقد المجموعات «المتطرفة» تاثيرها وينتقل هذا التاثير الى

مجموعات أكثر اعتدالا تقدم مقترحات للحلول الوسط، وحينئذ قد يكون الوقت مناسبا للدخول في مفاوضات معهم حول الأمور العملية مثل وضعهم وحقوقهم المدنية والقومية فى فلسطين.

غير أن الجدار الحديدى ليس غاية فى حد ذاته وإنما وسيلة لغاية هى كسر المقاومة العربية لمسيرة الصهيونية وعندما يتحقق ذلك فإن عملية تغيير ستحدث داخل الحركة القومية الفلسطينية مع قدوم المعتدلين إلى المقدمة، وعندئذ فقط سيكون الوقت ملائما للبدء فى مفاوضات جدية مع الفلسطينيين والعرب. وللأسف فإن ذلك هو ماحدث بالفعل بشكل ما.

ويرى الكاتب ان الخطر الحقيقى لاستراتيجية الجدار الحديدى أن قادة إسرائيل يميلون إلى تبنيها كطريقة دائمة للحياة.

طرد العرب من فلسطين

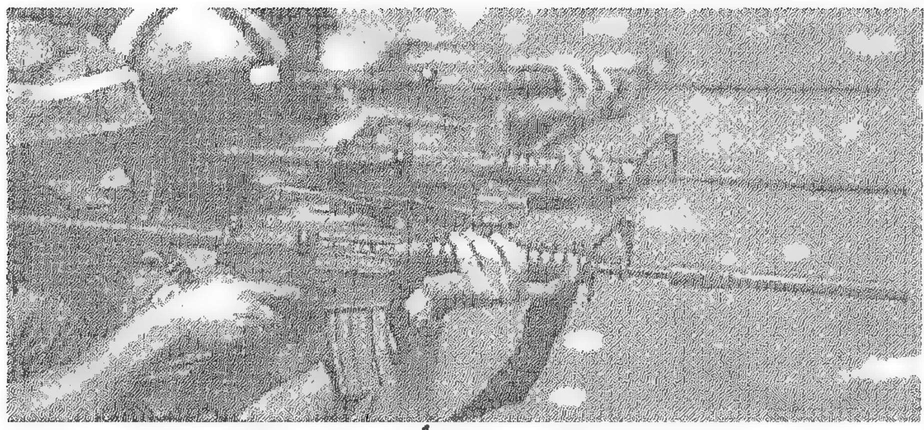
فى كتاب «الجدار الحديدى» يشعر القارىء العربى أن جزءا من الحقيقة يخرج إلى النور لأول مرة ، وعلى لسان الإسرائيليين أنفسهم، فهى شهادة شاهد من أهلها، وبحقائق جديدة مغايرة لما تضخه آلة الدعاية الصهيونية.

يصف آفى شلايم كيف أجبر العرب أصحاب الأرض على ترك أراضيهم بالقوة، ففى أجتماع عقد يومى ١ ـ ٢ يناير ١٩٤٨ لخص قادة الحركة الصهيونية الاستراتيجية اليهودية للصراع فى ذلك الوقت، وهى تصعيد الصراع الفكرى بدلا من احتوائه، وبالتالى انطلقت عصابات الهاجاناه تستولى على القرى والمدن العربية . وتحت حجة تطهير داخل البلاد من العناصر العربية المعادية أو المحتمل أن تكون معادية تم تبرير طرد المدنيين.

لقد ساهمت هذه الخطة التى نفذت فى ابريل ومايو من عام ١٩٤٨ بشكل مباشر وحاسم فى خلق مشكلة اللاجئين الفلسطينيين ، وبدأت الهجرة الجماعية الفلسطينية . وعلى نقيض الرواية الصهيونية الرسمية التى تدعى أن العرب خرجوا وتركوا أراضيهم لأن زعماءهم طلبوا منهم إخلاء الأرض، يوضح شلايم أن الحركة الصهيونية بإصدارها الأوامر بالاستيلاء على المدن العربية وتدمير القرى قد سمحت وبررت الطرد الإكراهى للمدنيين العرب.

القلة ضد الكثرة

كما يفند شلايم وبالأرقام الرواية الصهيونية لحرب ١٩٤٨ التى تصورها على أنها «صراع القلة ضد الكثرة، صراع غير متكافىء بين داود اليهودى وجالوت العربى» لقد استخدمت إسرائيل هذه الرواية بشكل واسع فى الدعاية الصهيونية ولازالت تدرس فى المدارس. ويعتبرها شلايم مثالا ممتازا لاستخدام الرواية القومية للتاريخ فى عملية بناء الأمة، ويكشف عن أنه بعد الافراج عن





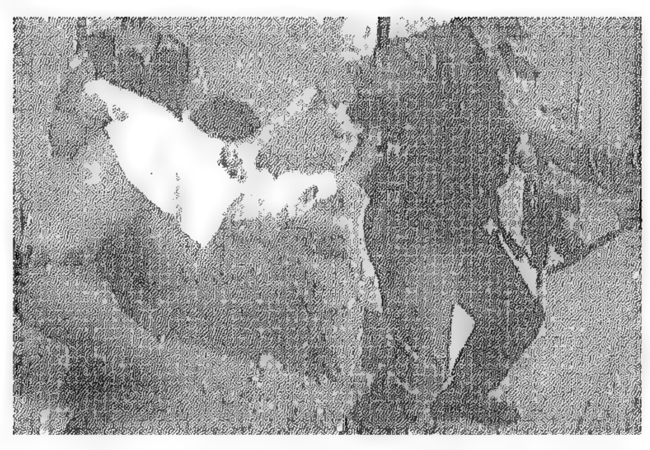
الوثائق الرسمية اتضح زيف هذه الادعاءات خاصة فيما يتعلق بالتوازن العسكرى العربى ـ الإسرائيلى ، ففى منتصف مايو ١٩٤٨ كان إجمالى عدد القوات العربية، النظامية وغير النظامية، العاملة فى مسرح العمليات فى فلسطين أقل من ٢٥ الفا فى حين كان عدد القوات الإسرائيلية ٣٥ ألفا . وفى منتصف يوليو تم تعبئة ٦٥ ألف رجل تحت السلاح وبحلول ديسمبر بلغ عدد القوات الإسرائيلية ٩٦ ألف و٤٤١ مقاتلا. ويتضح من هذه الأرقام أن القوات الإسرائيلية كانت تفوق القوات العربية عددا فى كل مراحل الحرب ، وكانت نسبة تفوقها فى المرحلة النهائية تقارب اثنين إلى واحد. ومن ثم لم تكن النتيجة النهائية للحرب معجزة ولكن مجرد انعكاس للتوازن العسكرى العربى ـ الإسرائيلى.

كما يكشف كتاب «الجدار الحديدى» أن العلاقة الخاصة بين إسرائيل والملك عبدالله كانت عاملا رئيسيا فى تحديد مسار حرب ٤٨ ومحصلتها . ويؤكد شلايم أنه لولا هذه العلاقة لما تمكنت إسرائيل من تحقيق الانتصار الشامل والحاسم فى تلك الحرب، لكن المؤرخين الصهاينة يتجاهلون ـ حسب تعبيره ـ هذا العامل لأنه لا يتفق بسهولة مع الرواية البطولية للحرب التى تدعى ان اسرائيل الصغيرة وقفت وحدها فى مواجهة العالم العربى كله.

مصر وأمن إسرائيل

ويكشف شلايم عن الخلفيات الحقيقية لحرب ١٩٥٦ والتى بدأت مقدماتها لدى إسرائيل منذ قيام ثورة ٢٣ يوليو وتولى جمال عبد الناصر مقاليد السلطة فى مصر. فقد كان بن جوريون يرى «أن ناصر هو صلاح الدين آخر الزمان وأنه زعيم عسكرى قادر على توحيد العالم العربى وأن يقوده إلى معركة ضد أعدائه»، كما كان يعتقد أن «ناصر قائد قادر على تحريك شعبه ونقله من التخلف إلى وضع شديد القوة، مما قد يعرض مستقبل إسرائيل للخطر» .كان ناصر يمثل هاجسا بالنسبة له وخلص رأيه إلى أن هيمنة مصر داخل العالم العربى تحت القيادة الديناميكية لناصر تمثل تهديدا خطيرا لأمن إسرائيل، ومن ثم أصبحت إزاحته تمثل مصلحة وطنية حيوية. وقال بن جوريون فى اجتماع لقادة الدولة اليهودية عقد فى بداية عام ١٩٥٥: «يتعين تلقين ناصر درسا... من الممكن تماما إسقاطه ، بل ان القيام بذلك يمثل واجبا مقدسا».

وفى ٢٨ فبراير ١٩٥٥. بعد عودة بن جوريون الى الحكم وتوليه وزارة الدفاع بأسبوع واحد شنت إسرائيل غارة مدمرة على غزة ، «وكان يأمل أن تؤدى الغارة إلى التقليل من شأن ناصر بكشف العجز العسكرى لنظامه» . ويرى شلايم أن الإغارة على غزة كانت نقطة تحول بالنسبة





للنظام المصرى، فقد فرضت تغييرا فى قائمة الأولويات الوطنية حيث تصدر الدفاع القائمة بدلا من التحول الاجتماعى والاقتصادى، ووصل هذا التغيير الى ذروته فى صفقة السلاح مع تشيكوسلوفاكيا فى سبتمبر ١٩٥٥.

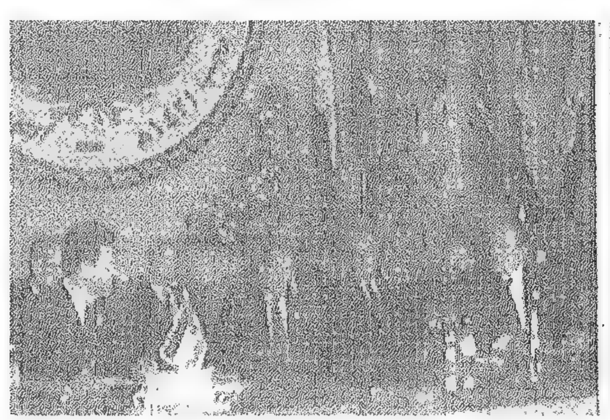
وتزايد ضغط بن جوريون والمؤسسة العسكرية من أجل شن حرب وقائية ضد مصر. وينتقد شلايم اصطلاح «حرب وقائية» ويعتبره خطأ فى التسمية، لأنه لم يكن هناك دليل واحد على أن مصر تخطط لمهاجمة إسرائيل. وكان دعاة الحرب يفترضون أن هزيمة عسكرية قد تؤدى إلى سقوط نظام ناصر. ويشير شلايم إلى محاضرة لديان حدد فيها لقيادة القوات الإسرائيلية الخطوط العامة لعمل القوات فى تلك الفترة قائلا : «ان الحل الأساسى لمشكلة الأمن التى تزداد سوءا هى اسقاط نظام ناصر فى مصر. إن الازاحة التامة لناصر من السلطة ستزيل السبب الجذرى للخطر الذى يهدد إسرائيل» .

وكان ديان يرى ان من الضرورى الدخول فى مواجهة حاسمة مع المصريين فى أقرب موعد ممكن قبل أن يتم استيعاب الأسلحة السوفيتية، وإلا فإن العملية قد تصبح شديدة الصعوبة بل ومستحيلة، وكان هدفه هو إجبار الجيش المصرى على خوض الحرب قبل ان يتحول ميزان القوة لصالح مصر، وكانت استراتيجيته هى القيام بعمليات انتقامية كبيرة على الحدود بين البلدين من أجل دفع مصر إلى دخول الحرب قبل ان تكون مستعدة لها.

ويكشف شلايم أنه فى اجتماع عقد يوم ٢٣ أكتوبر ١٩٥٥ إذن بن جوريون لديان بالإعداد لمواجهة كاملة مع مصر والتخلص من ناصر. وفى ١٠ يونيو ١٩٥٦ أذن له ان يمضى قدما فى المفاوضات السرية التى يجريها مع فرنسا من أجل التوصل إلى أقصى تعاون بما فى ذلك القيام بعمليات حربية مشتركة ضد مصر.

ويؤكد شلايم أن إسرائيل لم تكن تواجه أى خطر جاد من جانب مصر فى عام ١٩٥٦ ومع ذلك تحالفت مع فرنسا وبريطانيا لمهاجمة مصر. وهو يناقض الرواية الرسمية التى تدعى أن إسرائيل لم تذهب للحرب إلا لأنها كانت تواجه خطر هجوم داهم من جانب مصر.

ويعتقد شلايم أن معركة سيناء حققت عددا من الاهداف المباشرة أهمها هزيمة الجيش المصرى. وإن كان يوضح «أن الجيش هزم لكنه لم يدمر ويرجع الفضل فى ذلك إلى توقيت انسحابه من سيناء» لقد قلل ناصر من خسائر جيشه بإعطاء الامر بالانسحاب كما ان الضرر الذى لحق بالجيش المصرى كان بسيطا وتم اصلاحه سريعا. أما على المستوى السياسى فلم يتحقق أى هدف من اهداف حملة سيناء، إذ لم يسقط نظام ناصر




وانما على العكس تدعم وانتشر تأثيره فى كل العالم العربى والعالم الثالث «لقد انتزع ناصر نصرا سياسيا باهرا من بين فكى هزيمة عسكرية» ، فى حين دفعت اسرائيل ثمنا باهظا نتيجة لتآمرها مع قوى الاستعمار القديم، «لقد قدمت الدليل الدامغ على الطابع التوسعى والرجعى للحركة الصهيونية» .

ويشير شلايم إلى أنه بالرغم من كل الحسابات السياسية الخاطئة واخفاقات الذين خططوا لهذه الحرب فإن روايتهم عنها هى التى رسخت فى أذهان اغلبية الإسرائيليين، وأنها كانت حربا دفاعية وعادلة تم انجازها بنجاح باهر وانها حققت تقريبا كل اهدافها. لكن هذه الرواية لم تصمد فى ضوء الحقائق المتاحة. ويعتقد شلايم انها تعد مثالا واضحا للطريقة التى يتم بها التلاعب بالتاريخ لخدمة أهداف قومية.

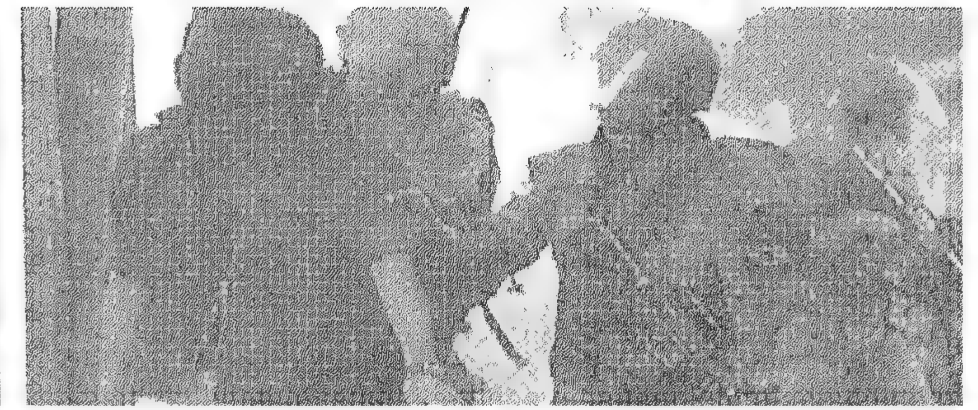
أمريكا والصراع

ويستمر الصراع بين الصهيونية والقومية العربية ويبلغ ذروته فى حرب يونيو ١٩٦٧ ، ويكشف شلايم كيف اختلف موقف الولايات المتحدة من الصراع العربى الاسرائيلى ما بين حرب السويس وحرب يونيو ، فيذكر أن القيادة الإسرائيلية عندما قررت شن حرب على مصر قررت إرسال مدير جهاز الموساد آنذاك «مائير آميت» إلى الولايات المتحدة فى مهمة سرية تتلخص فى التعرف على الموقف الأمريكى لو أن إسرائيل لجأت إلى الخيار العسكرى .

ويقول شلايم إن مدير الموساد أخبر «روبرت مكنمارا» وزير الدفاع الأمريكى فى عهد جونسون ، إن إسرائيل تدرس خيار الحرب وطلب ثلاثة ضمانات هى : الدعم الدبلوماسى الأمريكى فى الأمم المتحدة ، والمساندة الأمريكية فى حالة التدخل السوفيتى ، **وأن تسد الولايات المتحدة أي نقص يحدث في الترسانة العسكرية الإسرائيلية** . وأعطى مكنمارا إسرائيل الضوء الأخضر للقيام بعمل عسكرى ضد مصر ، كان الموقف الأمريكى يؤيد إطلاق إسرائيل ضد ناصر .

ويشير شلايم إلى أن العلاقة بين البلدين تطورت تدريجيا أثناء رئاسة نيكسون إلى شراكة استراتيجية .

إن تجربة الولايات المتحدة المريرة فى فيتنام أدت إلى صياغة مايسمى بنظرية نيكسون . وتتلخص هذه النظرية فى أنه يتعين على الولايات المتحدة تفادى أى تدخل مباشر فى العالم الثالث وأن تعتمد بدلا من ذلك على وكلاء لها مثل شاه إيران فى منطقة الخليج وإسرائيل فى الشرق الأوسط ، ووفقا لهذه النظرية أصبحت إسرائيل مسئولة عن أن يكون توازن القوى الاقليمى فى صالح المصالح الأمريكية . كما أصبحت الولايات المتحدة تعتبر إسرائيل « حصنا منيعا للنظام

الإقليمى » ومصدر قوة استراتيجية فى الشرق الأوسط ، وكان مهندس هذه السياسة هو هنرى كيسنجر .

حرب الاستنزاف

وقد أولى شلايم اهتماما خاصا بحرب الاستنزاف موضحا أن فشل الوسائل الدبلوماسية فى دفع إسرائيل إلى الانسحاب من الأراضى التى احتلتها فى حرب ١٩٦٧ جعل عبد الناصر يرفع شعار « ما أخذ بالقوة لايسترد إلا بالقوة » . وبالرغم من أن المعارك العسكرية بين مصر وإسرائيل لم تتوقف منذ نهاية الحرب وحتى ربيع عام ١٩٦٩ فإن شلايم يعتبر مارس ١٩٦٩ بداية حرب الاستنزاف ، ففى ذلك التاريخ قام الجيش المصرى بعملية هجومية كبيرة تزامنت مع تخلى عبد الناصر عن قرار الأمم المتحدة بوقف إطلاق النار ، ويشير شلايم إلى أن الهدف المباشر لناصر من تلك الحرب هى الحيلولة دون تحول قناة السويس إلى حدود أمر واقع ، فى حين كان الهدف النهائى هو إجبار إسرائيل على الانسحاب إلى حدود ما قبل الحرب وذلك من خلال إنهاكها عسكريا واقتصاديا ونفسيا ، مما يمهد الطريق لعبور مصرى يلقى بالقوات الإسرائيلية خارج سيناء .

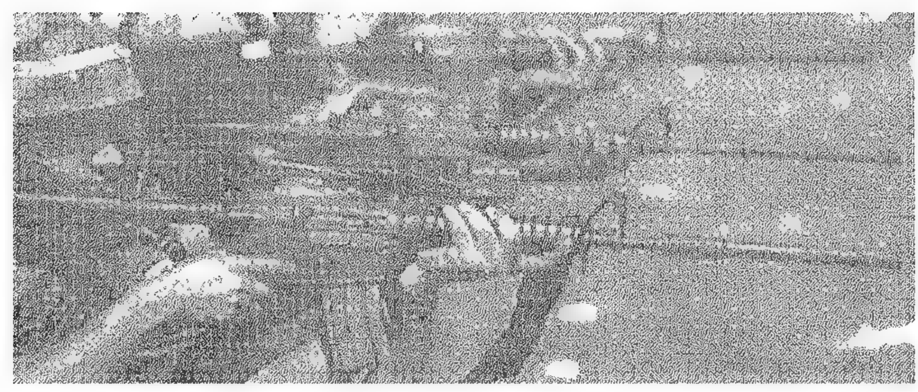
وفى الأسبوع الأخير من ديسمبر اتخذ مجلس الوزراء الإسرائيلى قرارا مصيريا ألا وهو البدء فى قصف العمق المصرى ، وفى ٧ يناير ١٩٧٠ بدأ تنفيذ هذا القرار . ويذكر شلايم أن الأهداف العسكرية لهذه السياسة كانت :

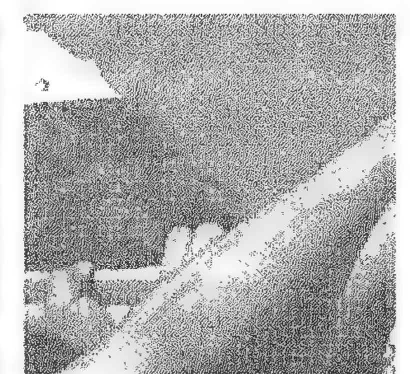
– أولا : تقليل الضغط العسكرى المصرى فى منطقة القناة .

– ثانيا : ردع المصريين من التخطيط لحرب واسعة النطاق .

– ثالثا : وضع نهاية لحرب الاستنزاف وإرغام مصر على الالتزام بوقف إطلاق النار . وكان المستهدف هو إثبات قدرة الجيش الإسرائيلى على المبادرة وإرغام الجيش المصرى على أن يسلك الطريق المحدد له .

وبالإضافة إلى الأهداف العسكرية كان القادة الإسرائيليون يأملون فى تحقيق مجموعة من الأهداف النفسية والسياسية فى مقدمتها « تحطيم الروح المعنوية للمصريين وخلق فجوة ثقة بين ناصر وشعبه وإسقاط نظامه واستبداله بنظام موال للغرب » . ولكن شلايم يعترف أن الأحداث أثبتت أن إرادة المقاومة لدى الشعب المصرى قد تعززت بدلا من أن تنهار ، وأدى القصف الإسرائيلى للعمق المصرى إلى وقوف الشعب وراء ناصر فى ارتفاع مفاجىء للتضامن القومى . كما أسهمت أسلحة الدفاع الجوى المتطورة التى قدمها السوفييت لمصر فى تقليص التفوق الجوى الإسرائيلى ، مما اضطر إسرائيل إلى تخفيض هجومها الجوى حتى توقف تماما قصف العمق المصرى فى منتصف أبريل بعد أن تزايد سقوط





الطائرات الإسرائيلية والجنود الإسرائيليين فى تلك الفترة بمعدل مخيف.

واستمرت حرب الاستنزاف عبر قناة السويس بعد توقف قصف العمق المصرى، ويشهد شلايم أن هذه الحرب التى يصفها بأنها الحرب الأطول فى تاريخ إسرائيل قد كلفتها ثمنا اقتصاديا باهظا وخسائر جسيمة فى الأرواح .

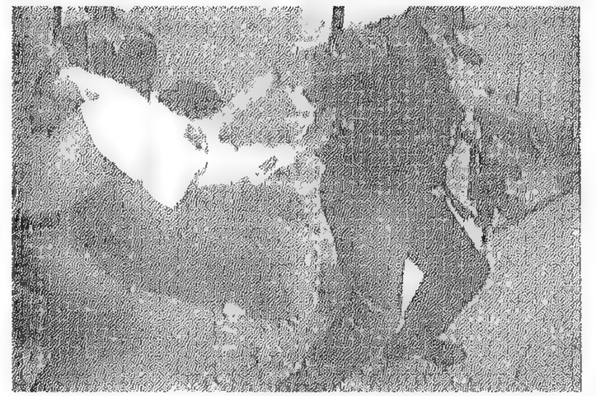
وقد دفع خطر التصعيد وزير خارجية الولايات المتحدة إلى طرح مبادرته الثانية التى كانت تدعو إلى وقف إطلاق النار على الجبهة المصرية لمدة ثلاثة شهور ، لكن جولدا مائير رفضت المبادرة الأمريكية مما اضطر نيكسون فى ٢٤ يوليو إلى أن يبعث إلى مائير رسالة يتعهد فيها بأن تضمن الولايات المتحدة ألا تتعرض إسرائيل لأى ضغوط من بلاده لكى تقبل حلا لمشكلة اللاجئين قد يضر بالطابع اليهودى للدولة ويعرض أمنها للخطر ، وأن يتم الاتفاق على الحدود النهائية من خلال التفاوض بين الأطراف المعنية ، وعدم انسحاب جندى إسرائيلى واحد من خطوط وقف إطلاق النار قبل التوصل إلى اتفاقية سلام مرضية لإسرائيل . ويصف شلايم هذه الرسالة بأنها « وعد بلفور ثان» . ويقول إن ما احتوت عليه الرسالة من ضمانات وتعهدات جعل جولدا مائير توافق على مبادرة روجرز .

ويضيف شلايم أن التقييم غير المنحاز لمواقف ومواقع الجانبين قبل وبعد حرب الاستنزاف قاد أبا إيبان إلى القول بأن الميزان النفسى والدولى قد تغير لصالح مصر .

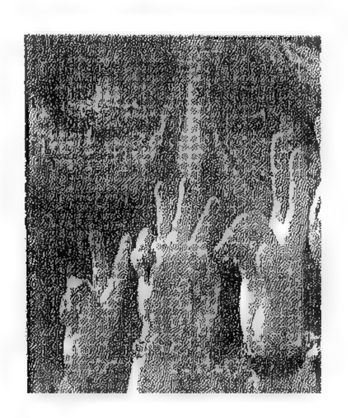
أما عيزرا وايزمان الذى يهتم بالميزان العسكرى فإنه يعتبر أن حرب الاستنزاف انتهت وقد فقدت إسرائيل تفوقها الجوى السابق بعد أن أصبح نظام الصواريخ المصرى على حافة القناة . ويوضح وايزمان أن هذه النتيجة منحت المصريين على امتداد السنوات الثلاث التالية الحرية اللازمة للإعداد لحرب أكتوبر ١٩٧٣ .

أما بالنسبة لمعركة السلام فقد أوضح شلايم أن الفلسطينيين اختاروا السلام ، وأن الكرة الآن فى ملعب إسرائيل بلا جدال ، وقال : « على إسرائيل أن تختار ، أن تحتفظ بالأرض أو أن تحقق السلام ولكن لايمكنها أن تحتفظ بالاثنين معا » .

ويختتم شلايم كتاب « الجدار الحديدى » مؤكدا أنه « لايمكن إنكار أن إقامة دولة إسرائيل تضمن ظلما شديدا للفلسطينيين ، وأنه بعد مرور نصف قرن لازال على إسرائيل أن تقيم الآثام التى اقترفتها ضد الفلسطينيين،والاعتراف بأنها تدين لهم بدين يتعين دفعه » .





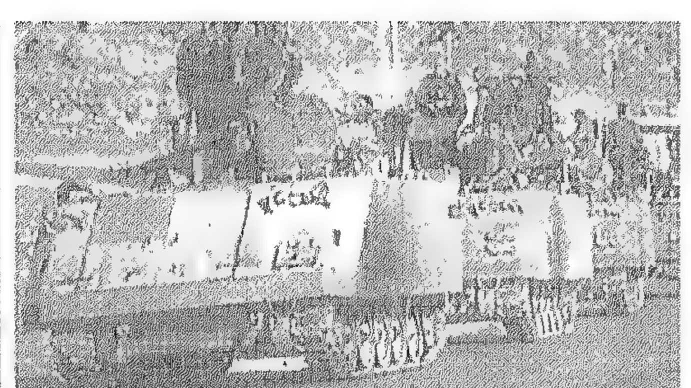
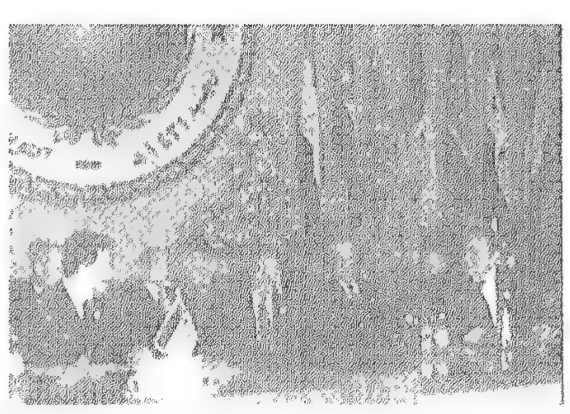


على هامش انتفاضة الأقصى:

.. وجاء الخزر إلى بلادنا بالخراب!

بقلم : عبد الرحمن شاكر

كنت أدير مفاتيح «الصحن اللاقط» ذات مساء متتبعا لأخبار انتفاضة الأقصي. والصحن اللاقط هو التعبير الذي اختاره الأستاذ فهمي هويدي علي صفحات الأهرام تعريبا لكلمة «الدش» وهو أجتهاد منه مشكور، وإن كنت لا أري بأسا في استخدام كلمة «الدش» علي حالها، فهي موجزة خفيفة علي السمع، وأسلافنا العرب لم يكونوا يستنكفون في استدخال كلمات أعجمية الأصل إلي لغتنا مثل كلمات «البهار» و«الجوز» و«الديباج» وغيرها، مما يضمه كتاب «المعرب من الكلام الأعجمي علي حروف المعجم» لأبي منصور الجواليقي «٤٦٥ - ٥٤٠هـ» والذي أشرف علي شرحه وتحقيقه عمي الأكبر المرحوم الشيخ أحمد محمد شاكر، وطبعته دار الكتب المصرية في عام ١٣٦١ هـ .

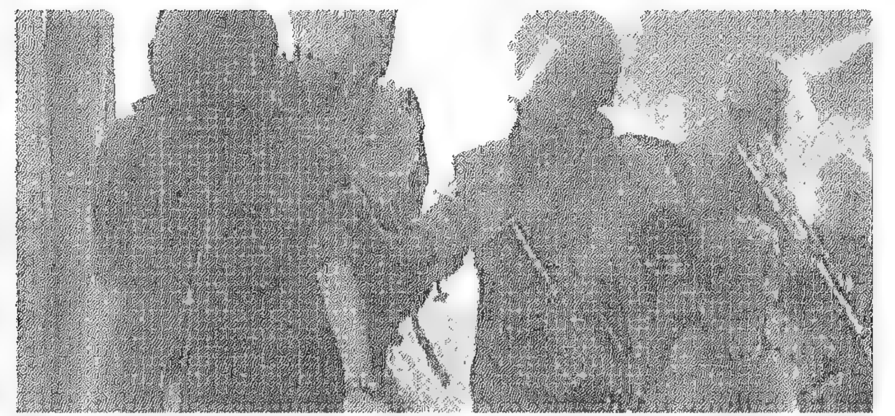



ووقفت بى المفاتيح عند قناة فضائية، إسرائيلية، وكانت تعرض فيلما يدور حول شابين ، فتى وفتاة، التقيا فى طريقهما إلى أستاذ مشهور فى العلوم الجنسية، توجها إليه معا ليغترفا من علمه الغزير !

وعادت بى الذاكرة الى تمثال صغير الحجم رأيته منذ سنوات فى متحف بمدينة «ليدن» الهولندية، ويصور رجلا له قضيب ضخم منتشر، ويحمل هذا القضب من جانبيه أفراد عدة كما تحمل الهوادج أو النعوش، وقلت ربما يكون هذا التمثال تعبيرا عن عبادة «فالوس» أو عضو التذكير، والتى تماثل عبادة «لانج» فى الهند ومازال موجودة بها حتى الآن، وكان من أتباعها واحد من رؤساء الجمهورية الذين تعاقبوا على حكمها منذ استقلالها فى عام ١٩٤٨.

وتذكرت أنه كان من أتباع عقيدة «فالوس» هذه قبائل الخزر الذين كانوا يسكنون القوقاز، فى المنطقة مابين بحر قزوين، والبحر الأسود، وكانت الأطالس الجغرافية القديمة تطلق على أحد هذين البحرين اسم بحر الخزر، ومايزال الايرانيون يطلقون هذا الاسم على بحر قزوين الذى تقع بلادهم عليه.

كانت لهؤلاء الخزر عاصمة تقع على بحر قزوين تسمى «إتل» يصب عندها نهر إتل الذى يعرف باسم الفولجا حاليا، وكانت مدينة تجارية يقصدها التجار من سائر الأنحاء، وكانت من التجارات الرائجة بها تجارة الرقيق، حيث كان الخزر يبيعون فى سوقها بعض أبنائهم وبناتهم! بعض هؤلاء التجار كانوا من الشرق الإسلامى، وآخرون منهم كانوا من الغرب المسيحى، وشرع بعض الخزر فى اعتناق المسيحية أو الإسلام تأثرا بمن يفد عليهم من التجار، وتفشى هذا الوضع حتى اضطر «خاقان» الخزر أو ملكهم إلى تعيين نائبين له، أحدهما مسلم والآخر مسيحى، وخشى الخاقان «بولان» أن يتمزق ملكه إذا استمر هذا الوضع بانقسام الولاء فى شعبه إما إلى الدولة العباسية فى الشرق أو الجنوب من بلاده، أو إلى دولة بيزنطة المسيحية فى الغرب منها. وقرر أن يعطى شعبه ديانة سماوية محترمة، مثل الإسلام والمسيحية، ومستقلة عنهما فى الوقت ذاته، فقرر اعتناق اليهودية، ثم جاء من بعده خاقان آخر



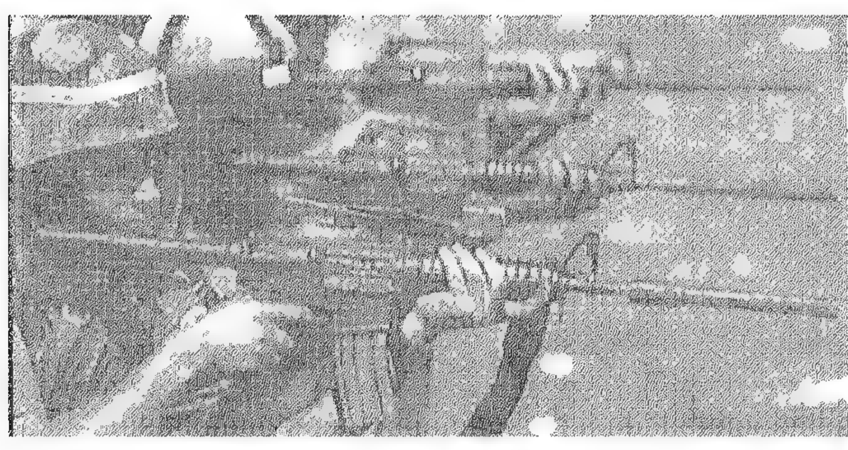
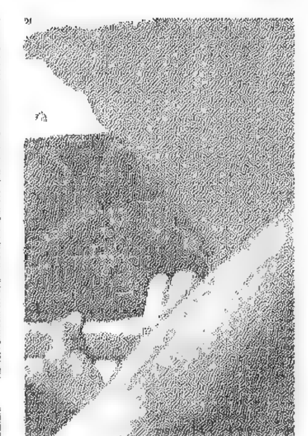

تسمى باسم عبراني، وهو «عبديه» وقرر ألا يتولى ملك الخزر إلا من يعتنق اليهودية، فتهود البلاط الملكي كله، ثم تبعه معظم شعب الخزر، لأن الناس على دين ملوكهم، كما كان يقال قديما.

أرض اشكناز

شرع هؤلاء الناس ينسون أصولهم أو يتناسونها شيئا فشيئا، من خلال اعتناقهم اليهودية، وتلاوتهم للتوراة، التي تدور أسفارها حول نشأة بنى إسرائيل، ومجيئهم إلى مصر فى عهد يوسف عليه السلام، ثم استعبادهم فى مصر بعد أن تكاثروا فيها، حتى جاء موسى عليه السلام فأخرجهم منها وقادهم إلى فلسطين، حيث قامت لهم مملكة هناك كان من أشهر ملوكها داوود وسليمان عليهما السلام. ثم بادت هذه المملكة بالغزو الفارسي، الذى ساق كل اليهود إلى بابل، وبعد فترة أطلقوا من أسرهم ليعودوا إلى فلسطين حيث لم يلبثوا أن جاء الرومان ليقضوا على ملكهم من جديد.

ظل ملك الخزر قائما كدولة يهودية كبرى فى القوقاز وتوسع ملكهم حتى وصل الى نهر الراين فى ألمانيا، وأطلق عليهم اليهود السفارديم، الذين كانوا يعيشون مع العرب المسلمين فى الأندلس اسم اليهود الأشكنازيم، نسبة إلى أشكناز بن جومر بن يافث بن نوح، حيث فى اعتقادهم أن هذه السلالة قد سكنت القوقاز التي يسمونها في كتبهم «أرض أشكناز».

وكانت هناك «خاقانية» أو ولاية تتبع ملك الخزر فى مدينة كييف، عاصمة جمهورية أوكرانيا حاليا، وحضر إليها أمراء من فرغانة فى آسيا الوسطى، وشرعوا يجمعون حولهم قبائل «الرس» السلافية، أو الصقلبية، ثم اعتنق الأمراء المسيحية الأرثوذكسية وحملوا أتباعهم من الروس عليها، وتحالفوا مع بيزنطة فى القضاء على ملك الخزر، وأطلقوا اسم روسيا على تلك المناطق الشاسعة، ونجح أمير موسكو في القضاء على دولة «القبيل الذهبى» التترية المسلمة في قازان، عاصمة جمهورية تتارستان التى هى إحدى الجمهوريات ذات الحكم الذاتى فى الاتحاد الروسى حاليا، وتقع عند حوض الفولجا الأوسط. وأعلن أمير موسكو نفسه «قيصرا» وهو من عرفه التاريخ باسم

إيفان الرهيب . وأصبحت روسيا «المقدسة» هي حامية الأرثوذكسية بعد سقوط بيزنطة في يد العثمانيين، واضطهد القياصرة الروس أتباعهم من الخزر اليهود، لأنهم بدورهم قد نسوا أن هؤلاء لا ذنب لهم فيما نسب إلى اليهود الأصليين في فلسطين من كونهم أسلموا المسيح عليه السلام للرومان لكي يصلبوه. كانوا يقولون لأتباعهم الهمج «اقتلوا اليهود أعداء الرب»! فيزداد يهود الخزر تشبثا بديانتهم ويداخلهم الاعتقاد بأنهم حقا من بني إسرائيل، من الشعب المختار المضطهد. أحدهم زعم لي أنهم من بني إسرائيل لأن داوود عليه السلام قد زني بجارية خزرية ولدت كل شعب الخزر! وهذا كلام لا أصل له، فبين عهد داوود ، وتعرف الخزر الى اليهودية ألوف السنين!.

هجرة اليهود إلي فلسطين

سلالة هؤلاء الخزر هم الذين شكلوا الحركة الصهيونية التي تنادت بالهجرة إلى فلسطين بعد أن اشتد اضطهاد القياصرة الروس لهم خلال القرن التاسع عشر، وهم يمثلون تسعة أعشار يهود العالم، وقد استغلت الدوائر الاستعمارية في الغرب محنتهم في بلادهم للسيطرة على بلاد العرب والمسلمين، وخاصة بعد سقوط الإمبراطورية العثمانية ووقوع معظم الأقطار العربية في قبضة الاحتلال الأوربي البريطاني والفرنسي والإيطالي والأسباني، وكانت فلسطين تحت الانتداب البريطاني بعد الحرب العالمية الأولى، التي سهلت هجرة اليهود الاشكناز إلى فلسطين وسلحتهم ودربتهم تمهيدا لإعلان الدولة اليهودية في فلسطين في عام ١٩٤٨.

الخزر الأشكناز اغتصبوا اسم إسرائيل الذي يقدسه اليهود والمسيحيون والمسلمون وجعلوه علما على دولتهم، وجروا وراءهم اليهود الشرقيين من البلدان العربية، بدعوى أنهم كلهم من بني إسرائيل، والحقيقة أن بني إسرائيل قد بادوا من قديم، حتى اليهود العرب معظمهم من قبائل عربية اعتنقت اليهودية ومنهم يهود اليمن المزراحيون، الذين أجبروا على الدخول في تلك الديانة على أيدي أصحاب الأخدود الوارد ذكرهم في القرآن الكريم!.

واليوم يريدون اغتصاب المسجد

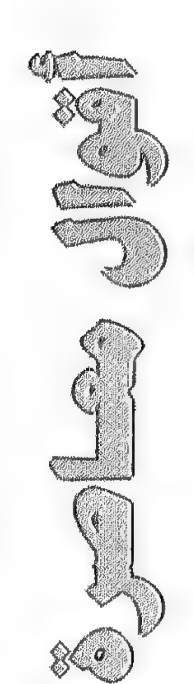




الأقصى، يطلقون على موقعه المقدس اسم «جبل الهيكل» تردد ذلك مع مفاوضهم وزيرة الخارجية الأمريكية أولبرايت! يذودون المسلمين عن الصلاة فيه، حتى فى يوم الجمعة كما حدث بتاريخ ١٣ من شهر أكتوبر المنصرم، حيث أغلقوا أبواب القدس ليعزلوها عن سائر الضفة الغربية المحتلة، ولايسمحون بدخول المسجد إلا لمن جاوز عمره الخامسة والأربعين بحيث تناقص عدد المصلين فى تلك «الجمعة الحزينة» إلى ألفين فقط بعد أن كان يؤمه مئات الألوف من المسلمين !.

الله وحده يعلم ماذا يدبرون هناك، ولكن حتى ولو هدموا كل الأبنية القائمة، مثل قبة الصخرة والمسجدين الآخرين هناك، وأقاموا مايسمونه هيكل سليمان، فسوف يبقى أو تبقى تلك البقعة من الأرض المقدسة هى «المسجد الأقصى» عند المسلمين الذين قال نبيهم إن الأرض قد جعلت لى مسجدا !.

من أكاذيبهم خلال الانتفاضة الحالية، التى يدافع فيها الفلسطينيون بأرواحهم عن المسجد الأقصى، أن بعض الشبان فى مدينة رام الله قد هدموا قبر النبى يوسف عليه السلام! ومن المعروف أن يوسف النبى هو الذى جاء ببنى إسرائيل إلى مصر ولبثوا فيها وتكاثروا حتى أصبحوا شعبا كاملا قاده موسى إلى فلسطين، ومعنى ذلك أن يوسف قد مات قبل ذلك بمئات السنين، وغير معقول أن يكون بنو إسرائيل قد حملوا رفاته معهم وهم من لبثوا فى التيه أربعين سنة قبل الدخول إلى فلسطين ، والقبر القائم فى رام الله هو لشيخ مسلم فى العهد العثمانى كان اسمه يوسف ! ومع ذلك فقد قام العمال الفلسطينيون بإعادة بناء الضريح، وأعادوه أحسن وأجمل مما كان، فى الوقت الذى ينطلق فيه الهمج من الأدعياء الخزر فى هدم المساجد وإحراقها فى كل فلسطين، فى يافا وعكا وحيفا وسواها من الأرض المحتلة من قديم، من عام ١٩٤٨، وقبلها أو بعدها، ولماذا لايفعلون وهم من تساندهم وتسلحهم دولة همجية كبرى اسمها الولايات المتحدة الأمريكية !.



● «زمن اعتداد الدول بنفسها ، والقول بأنها هى المسئولة عن مصيرها قد ولى».

الملك محمد الخامس

● «البشر أسوأ من الحيوان، لأنهم يدركون مايفعلون من شر».

المخرج الاسبانى كارلوس ساورا

● «يمكن للمرأة العربية أن تتحرر دون خلع ملابسها، وللمرأة الغربية أن تخلع ملابسها وتظل مقهورة».

الكاتب د. جلال أمين

● «الاذعان بانبطاح لسياسة شرق أوسطية يتحكم فيها الصهاينة لن يحقق الاستقرار».

د. ادوارد سعيد

● «جريمتي الوحيدة هى إننى تزوجت أول رئيسة وزراء فى الاسلام».

زندارى زوج بنظير بوتو
رئيسة وزراء باكستان الاسبق

● «التكنولوچيا الجديدة والتشريعات المصاحبة لها قد تؤذن بنهاية الكتابة اليدوية، ومعها الامضاء».

المفكر الانجليزى جيمس ميك

● «نسير إلى المستقبل وكأنه لا ماضٍ لنا، ونقفز فوق المتغيرات هربا من أخطائنا».

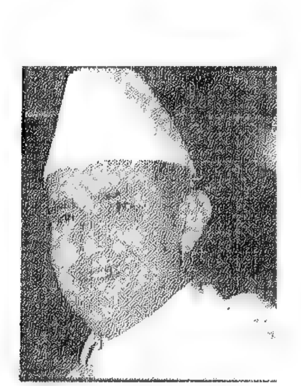
المخرج السورى محمد ملص

● «إذا كان لى أن أقدم النصح، فاننى أوصى بالا يعيش المرء أكثر من مائة عام».

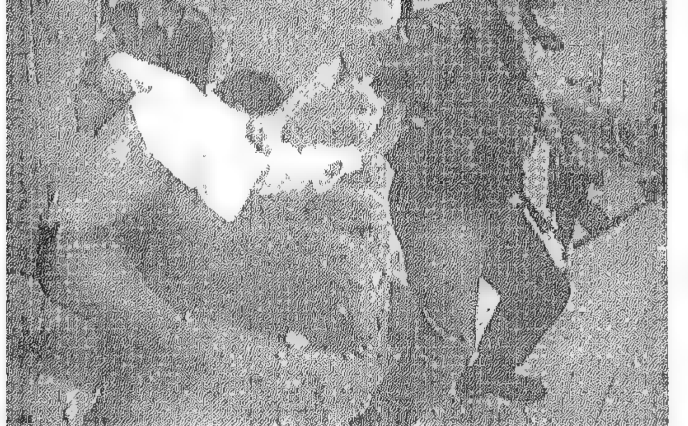
الصحفى البرازيلى باريوز اليما
مات قبل أسابيع عن عمر ناهز المائة وثلاثة أعوام

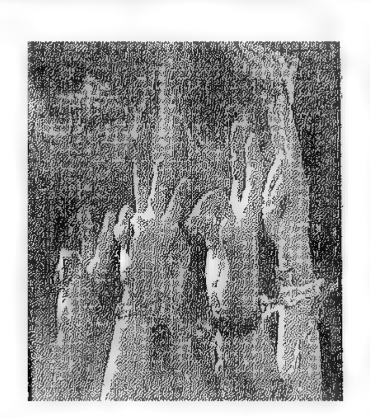
● «الرؤية الابداعية بحر لاينضب، لا أول له، ولا آخر، بالنسبة إلى أولئك الذين يعرفون كيف يسبحون على أمواجه الغامضة» .

الأديبة نادين جورديمر
الفائزة بجائزة نوبل ١٩٩١


الملك محمد الخامس


نادين جورديمر

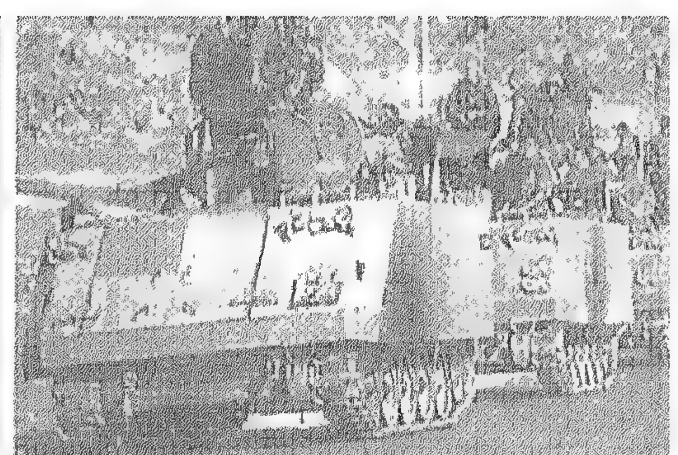
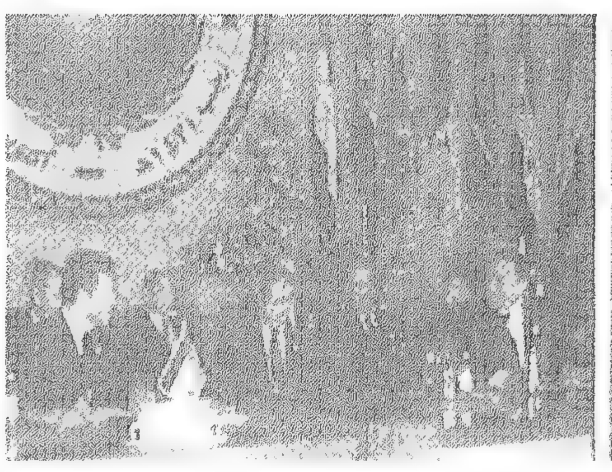




موسوعة اليهود والصهيونية

بقلم : د.أحمد ثابت

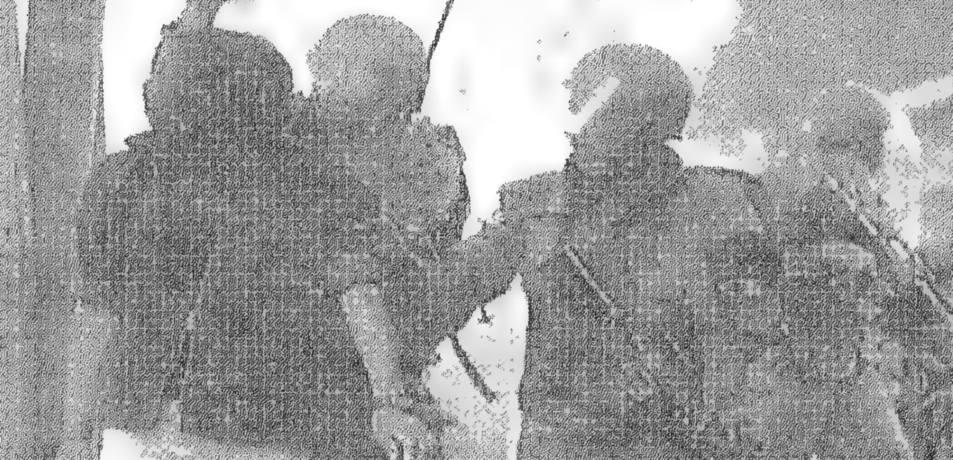
لاتكفى صفحات قليلة لتقدير الجهد الدءوب والمثابر والإبداعى الذى بذله الدكتور عبدالوهاب المسيرى عبر مايقترب من ثلاثين عاما أنفقها من عمره ومن عصارة فكره ووجدانه حتى يخرج لنا، ولمكتبتنا العربية هذا العمل الموسوعى الإبداعى والفكرى الضافى موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ولاتتمكن الكلمات مهما بلغت بلاغتها وثراؤها أن تفى الرجل وفريق بحثه المكون من كوكبة مبدعة من شباب باحثى الأمة العربية، فقط يمكن أن نرد له بعض التقدير .

إذا قلنا إنه نجح فيما لم تتمكن مراكز البحوث العامة والخاصة عندنا، على كثرتها وعلى ضخامة امكانياتها المالية والبشرية واللوجستية من إنجازه، فقد قام بالفكر والتحليل والتمحيص بكتابة هذه الموسوعة الضخمة المكونة من سبعة مجلدات تناولت مختلف قضايا واشكاليات الظواهر اليهودية والصهيونية، ومجلد ثامن يتضمن من الفهارس والمفاتيح كل ما يشمل موضوعات الموسوعة، وقد نستطيع أيضا أن نبرز العرفان لأهله إذا ما قلنا إن عبدالوهاب المسيرى كرس نفسه كمركز معلومات وكقاعدة للفكر وللمنهج، وإذا كان سهلا أن نطلق عليه أنه موسوعة متنقلة لكن الأكثر فعالية هو أن نقول إن المسيرى كان ولايزال، بفريق بحث أعطاه الخبرة وصقل المعرفة، مركز بل أهم مركز بحوث مصرى وعربى، وقد نكمل أجزاء التقدير لنقول إن المسيرى المتخصص فى الشئون الصهيونية واليهودية دحض مقولة ضعيفة لكن لها أصحابها من أنصار التطبيع والحوار مع العدو الصهيونى، وما يسمى بثقافة السلام ومؤداها أن معرفة إسرائيل من الداخل لن تتم إلا بزيارة إسرائيل أو بالحوار مع الإسرائيليين!، فقد أبدع عبدالوهاب المسيرى فى الموسوعة بالقدر الخلاق الذى ينفى صحة هذه المقولة بل ويثبت مرارا أن الكتاب والمؤرخين الإسرائيليين عجزوا عن الرد على ما ورد فى الموسوعة .

رؤية ذات قدرة تفسيرية

ومن جانب آخر فإن عبدالوهاب المسيرى لم يقدم لنا المعلومات والوقائع والتواريخ فقط فهى موجودة بصورة أو بأخرى، ولكنه وهذا مايُحسب له يقدم رؤية منهجية صلبة مفتوحة وذات قدرة تفسيرية خلاقة للظواهر اليهودية والصهيونية وعلاقتها بالتشكيل الاستعمارى والإمبريالى الغربى فى تجلياته الحديثة مع انطلاق الرأسمالية الأوروبية بمشروعها للهيمنة على المعمورة، وتبدو روح الاستنارة والتنوير واضحة فى فكر عبدالوهاب المسيرى وفى اقترابه المنهجى والنظرى والتحليلى من المشروع الصهيونى ومن

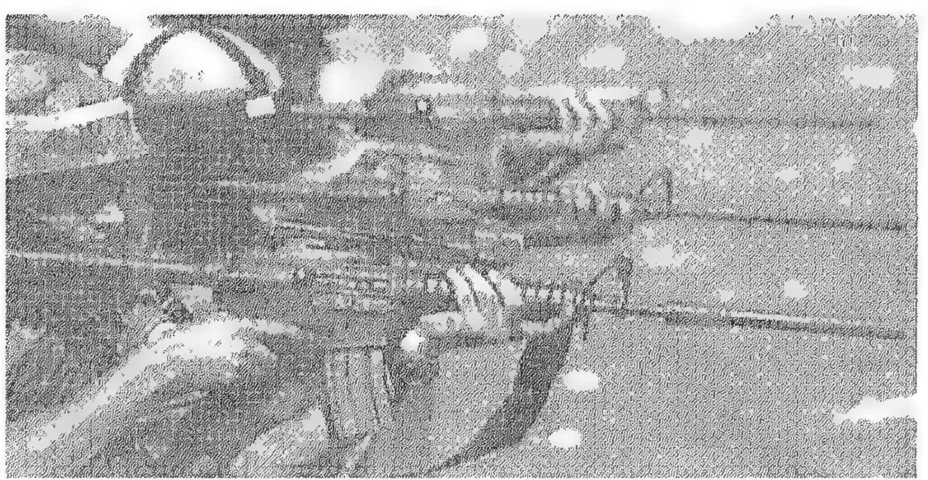
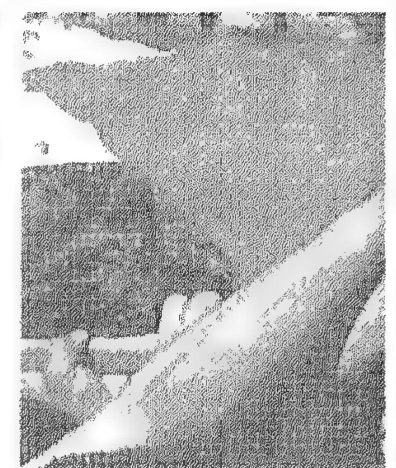



الجماعات اليهودية فى تفصيلاتها وتفاعلاتها مع المجتمعات البشرية التى عاشوا فيها عبر أزمنة التاريخ وعصوره.

ومثلما ينطلق فكرنا وفقهنا العربى الإسلامى فى تجلياته الإبداعية النقدية والمتنورة من قاعدة أثيرة ورصينة هى «ضرورة تحرير المسائل» منذ البداية، فإن أكثر ابداعات عبدالوهاب المسيرى قدرة على التفسير والتحليل هى الدأب على تحرير أو بالأحرى تفكيك المقولات والفروض الصهيونية والقائمة على المزاعم والأساطير وإخضاعها للمساءلة التاريخية والنقدية ووضعها فى إطارها الذى ينبغى أن تحكمه قوانين وفلسفة التاريخ والتطور الاجتماعى كى يخرج بها من «الأقانيم المقدسة»و «الجيتوات المنكفئة على الذات» و «السرمدية المنغلقة المغلقة» إلى فضاء التحليل النقدى حتى ينطبق على هذه المزاعم والأساطير ما ينطبق على وقائع وتحولات التاريخ وحتى لايعود «اليهود» يمثلون «شيئا مقدسا» يسمو على التاريخ ويخرج عنه ويخترع له «تاريخا خاصاً».

عاطفة فاسدة للمشروع الصهيونى

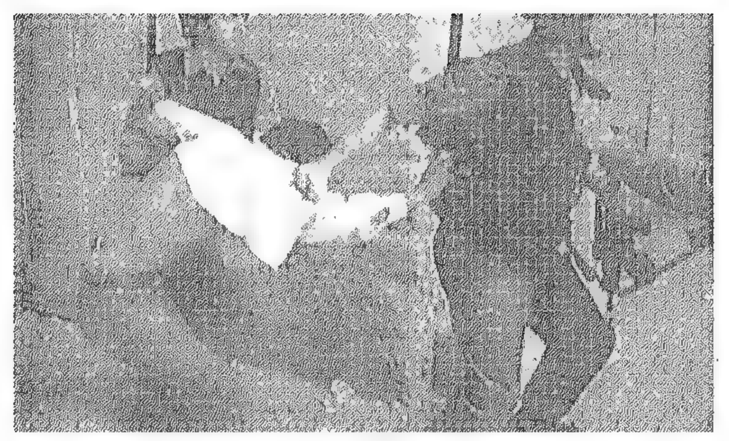
وينقلنا عبدالوهاب المسيرى فى الواقع نقلة منهجية صعبة وشاقة على الأذهان العربية التى تعودت على البساطة والتبسيط والدعة والاطمئنان لكى نمتلك رؤية منهاجية تحررنا من حالة الضعف والاستكانة التى يصورها العديد من مؤسسات الحكم والثقافة والصحافة، ومن بعض التيارات السلفية الدينية التى تروج لمقولة أن «اليهود» ملعونون ومصيرهم الذوبان مثلاً أو أنهم يسيطرون على آلة المال والإعلام والسلاح والمصارف الضخمة فى العالم الغربى وعلى رأسه الولايات المتحدة، ومن ثم فلا طائل لنا من وراء المواجهة معهم!. ولأن المشروع الصهيونى يتأسس على العاطفة الفاسدة الكاذبة فمن مصلحته أن يكون العداء له عاطفيا ودينيا حتى يتهمنا بالعنصرية ومعاداة السامية، فى حين أن امتلاك رؤية معرفية جدلية للمشروع الصهيونى تضعه

فى إطاره التاريخى كجزء من التشكيل الاستعمارى الإمبريالى الغربى بوجهه المعن فى المادية والعنصرية والتمركز حول الذات، تمكننا من امتلاك قدرة تفسيرية عالية للكيان الصهيونى بأنه كيان استيطانى إحلالى واستعلائى ينفى تماما الآخر الذى هو العربى ليقوم على أنقاضه .

وبقدر ما أبدع رواد مدرسة فرانكفورت الألمانية فى ثلاثينات القرن العشرين وحيث توج «هابرماس» الجهود الفكرية لهذه المدرسة، وأبدعت البنيوية والحداثة النقدية فى كشف الوجه الآخر للرأسمالية والفلسفة النفعية الوضعية خلال تحليل البنية والفعل الاجتماعى والفاعلين الاجتماعيين، فإن عبدالوهاب المسيرى اتبع منطلقات منهجية منشئة وكاشفة فى الوقت نفسه، فهى منشئة أو مؤسسة لعقلية نقدية تنتهى إلى أن المشروع الصهيونى سيظل أداة التشكيل الإمبريالى الغربى ولاسبيل إلى القضاء عليه سوى إما بأن ينفى هذا المشروع نفسه وهذا مستحيل بالطبع أو بأن تكون المواجهة صراعا ممتدا صراع وجود لا حدود ، وهى منطلقات منهاجية كاشفة لعدة أساطير روجها الرواد الصهاينة وقادة الكيان الصهيونى وللأسف عششت فى أذهان الكثيرين منا من قبيل إما التهوين المبالغ فيه للظاهرة الصهيونية أو التهويل المبالغ فيه، أو بالاقتصار فى مسار الصراع الطويل على إسرائيل فقط سواء كانت ١٩٤٨ أو ١٩٦٧، مع عدم القدرة على تحليل مايحدث من ظواهر وحوادث يومية مرتبطة بالصهيونية وبإسرائيل وكأنها لاتهمنا فى شىء مع أنها تدخل فى عمق صراعنا مع إسرائيل، مثل قضايا التعويضات السويسرية والألمانية والمحرقة أو الهولوكست أو الإبادة.

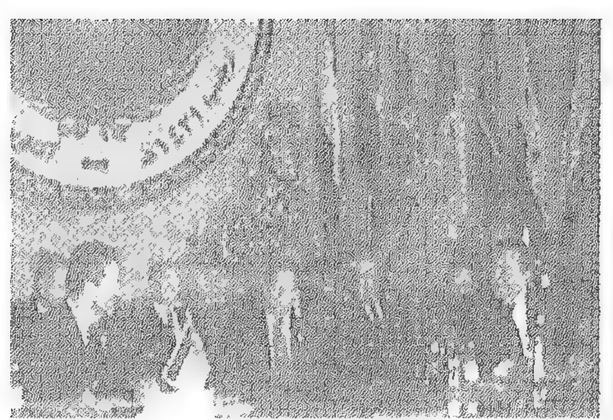
وهى كاشفة أيضا من زاوية إبراز ما وصلت إليه حال حكام عرب ومثقفين وكتاب يناصرونهم من ترداد مقولات صهيونية خالصة من قبيل أن الفلسطينيين هم الذين باعوا أرضهم للعصابات الصهيونية قبل ١٩٤٨، أو «عملية السلام» أو «اجراءات




بناء الثـقــة» أو «الأمن المطلق» الذى تحتاجه إسرائيل لكى «تغامر» بالدخول فى السـلام ومعـركتـه، أو «التطبـيع» أو «ثقافة السلام».

ووصلت الحـالة إلى قـمـة المأسـاة عندمـا حـدثنى صـديق فـاضـل يعـمـل أستاذا للغة العبرية بجامعة عين شمس عن أن إحـدى طالبـاته ذكـرت له أن مضـمـون مـا درسـتـه طـوال السـنوات الأربع فى كليـة الألسن قـسـم اللغـة العبرية أوصلها إلى الاعتقاد بأن اليهود تاريخـهم متواصل متـصل فى فلسطين وأن «نضال اليهود» فى التاريخ لم ينقطع حـول فلسطين أو فـيـهـا!!. وشـرح لى الصديق الفاضل مـايحدث وهو أن معظم الأسـاتذة يقـومـون بتـدريس أو ترجـمـة كتـابات لمفكرين صـهاينة حـول فلسطين تاريخـا وأرضـا وشـعـبـا دون أن يكلفـوا أنفـسـهم عبء كـتـابة تعليق أو دراسـة متعمقة نقدية لهذه الكتابات الصهيونية أو اليـهـودية المتـعـاطفـة مع المشـروع الصهيونى .

فى المجلد الأول الذى يتضمن المدخل المنهاجى النظرى ينطلق المسيرى من ثلاث ركائز نظرية قوية لتقديم رؤيته التفسيرية ولإثبـات قـدرتهـا على الإحـاطة بالظواهرالصـهـيونية واليـهـودية: العلمنة الشـاملة، الحلوليـة الكمـونية، الجـمـاعـة الوظيفية. تشير العلمنة الشاملة إلى تبنى تصـور للإنسـان المادى الباحث عن المنفعة بالمنطق الداروينى وحيث تتحكم المؤسسة القوية فى الإنسـان حـتى تحـوله إلى أداة وتغرقه فى «التشيؤ» ويتحول الإنسان إلى أداة مستهلكة ومنتجة وقدرة شرائية، ولا يجـوز له التـفكيـر فى فـضـاء رحب بل لا يجوز له أن يتعدى حدودا معينة ينبغى أن يفكر فيها وفيها فقط كما يقول شومسكى وهابرمـاس وماركيوزه، وحيث تُقاس قدرة المجـتـمـع المهـيـمن على أفـراده بكيـفـيـة توظيف الطاقـة البـشـرية بأقل التكاليف لتحقيق أعلى عائد، والمشروع الصـهيونى والحـركـة الصـهـيونيـة قـامـا على أسـاس تحـويل اليـهـودية فى شرق أوروبا بالذات إلى مـادة نافـعة للترانسفير أى نقلها إلى

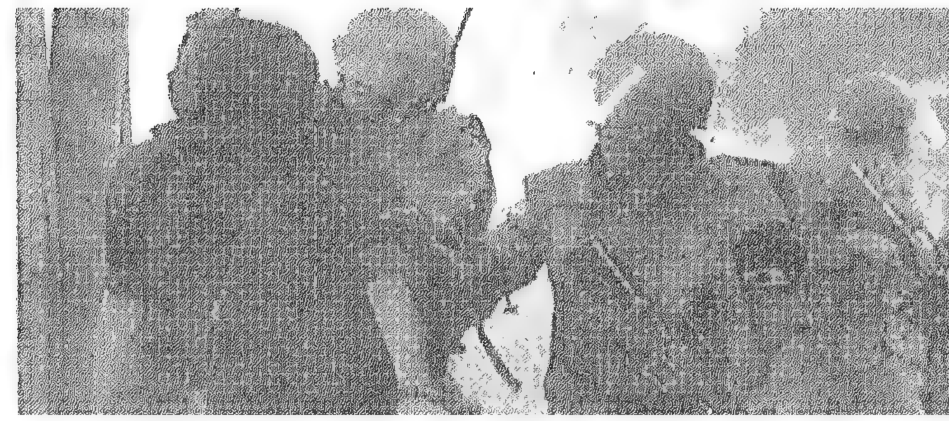



الوطن المزعوم الموعود فى فلسطين. بل إن المشروع الصهيونى بخلفيته الفكرية والأيديولوجية استفاد من العلمنة الغربية المادية بنموذجها النفعى الذرائعى حينما حول الإنسان المتكامل المركب إلى إنسان طبيعى وظيفى اقتصادى على غرار النموذج السنغافورى.

اختزال الإنسان فى لحظة تشيؤ

أما مصطلح «الحلولية الكمونية» فإنه يشير إلى أنه بعد أن اختزل الإنسان فى لحظة تشيؤ كامل وواحدية مادية، فإنه من الضرورى لنجاح الفكرة الصهيونية أن تحل إرادة صهيون أو « الشعب اليهودى» أو الرواد كل «مشيئة الرب» وأن يعترف«الرب» بهزيمته أمام المصارع يعقوب أو يوشع بن نون ويعطى بنى صهيون فلسطين تكفيراً عن «خطيئته» فى حق بنى إسرائيل، وأن تنقل القداسة من الرب إلى الشعب اليهودى وجيشه الذى هو جيش الدفاع «تسهال»، وإذن فإن الميتافيزيقا الخاصة بالرب وبالتوراة والتلمود لابد من اضفاء الطابع الصهيونى عليها بحيث تصير ميتافيزيقا خاصة وبنضال متواصل للشعب اليهودى فى رحلته الدراميه والمأساوية من«التيه» إلى «الاستقرار» على أرض فلسطين. ويصير« اليهودى الجيد» هو اليهودى المهاجر إلى فلسطين والمؤمن بأنه مقدس اكتسب قداسته من ايمانه بالمشروع الصهيونى فى فلسطين، وحيث إن من يؤمن من اليهود بأن الخلاص ليس فى فلسطين فهو معاد للفكرة الصهيونية ومعاد لتجسد وحلول إرادة شعب إسرائيل كل «إرادة ومشيئة الرب»! فقد صار الصهيونى المهاجر الرائد هو مركز الكون لا الرب عند الرواد الصهاينة وتلامذتهم الإسرائيليين!

وفيما يتعلق بمفهوم «الجماعة الوظيفية» الذى يستخدمه المسيرى لتفسير الوجود«اليهودى» فى المجتمعات والحضارات المختلفة ليصل إلى أن الإدراك الأكثر فعالية ودقة هو أن هناك «جماعات يهودية» مختلفة وليس يهوداً عاشت فى المجتمعات والحضارات البشرية عبر

العصور بمنطق وبأسلوب أداء مهمة «الجماعة الوظيفية»، التى هى مجموعات بشرية تستجلبها المجتمعات من خارجها، فى غالب الأحيان، أو تجندها من بين أعضاء المجتمع أنفسهم من بين الأقليات الدينية أو الاثنية، ثم يوكل لأعضاء هذه المجموعات وظائف شتى لا يمكن لغالبية أعضاء المجتمع القيام بها لأسباب مختلفة من بينها رغبة المجتمع فى الحفاظ على تراحمه وقداسته، ولذا يوكل لأعضاء الجماعة الوظيفية بعض الوظائف المشينة(الربا- البغاء) أو المتميزة(القضاء - الترجمة - الطب) التى تتطلب الحياد إزاء المجتمع والصفة التعاقدية المرهونة بشروط معينة لأداء العمل. وقد يوكل لأعضاء الجماعة الوظيفية أيضا الذهاب إلى أماكن نائية للاستيطان فيها، كما قد توكل إليهم الوظائف ذات الحساسية الخاصة وذات الطابع الأمنى(حرس الملك، طبيبه، السفراء، الجواسيس) الى جانب القيام بالوظائف الأمنية .

الأمر هنا يتعلق بكيفية تفسير وجود الجماعات اليهودية فى مختلف التجمعات والحضارات البشرية، ففى بولندا فى القرن الثالث عشر استعانت الطبقة الاقطاعية الحاكمة بالجماعة اليهودية لديها ومن المقاطعات الجرمانية لزراعة أراضيها الواسعة فى أوكرنيا التى احتلتها بولندا آنذاك، ولقمع الفلاحين وجباية الضرائب منهم لحساب الطبقة الاقطاعية الحاكمة، والجماعات اليهودية فى البلاد العربية والإسلامية اشتغلت بحرف صناعة الذهب والحلى والاقراض بالفوائد الباهظة وكان منهم الأطباء، وهذا المفهوم تنبع قدرته التفسيرية العالية من كونه يصلح للانطباق على جماعات بشرية من الأقلية مستجلبة من الخارج أو عاشت فى المجتمع غير الجماعات اليهودية، مثل الانكشارية والمماليك فى الامبراطورية العثمانية، والأرمن واليونانيين فى بلاد عربية وإسلامية وفى روسيا القيصرية.

سمات الجماعة الوظيفية

ومن أهم سمات الجماعة الوظيفة كما يذكر المسيرى: التعاقدية العزلة والغربة





والعجز، الانفصال عن المكان والزمان والهوية الوهمية، الحركية أو القدرة على النشاط، ازدواجية المعايير والنسبية الأخلاقية.

وفى كثير من الاحيان ترفض الجماعة الوظيفية الاندماج الشامل فى المجتمع حتى لا تفقد وظائفها التى تميزها أو حتى تشينها، كما ترفض أن تظهر بمظهر المنتمى الى روح وهوية المجتمع، بل تحرص على التميز وعلى إبراز أنها مصدر نفع وحسب بالنسبة لمجتمع الأغلبية، وتفضل ، فوق ذلك، أن تعيش على هامش فعاليات وديناميات المجتمع وتبدو أنها قوة من خارجه، قد يكون«الجيتو» أو «حارة اليهود» أبرز تعبير عن وضعية الجماعات اليهودية، ومع طغيان موجات الحداثة والتحديث والاندماج فى إطار بوتقة صهر للجميع فى أوربا الغربية اختفت إلى حد كبير سمات الجماعة الوظيفية للجماعات اليهودية وقبلت بالعصرنة والعلمنة وان كان توازى مع ذلك نشوء الحركة الصهيونية بقوة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، فلم تجد من هم على استعداد للإيمان بالفكرة الصهيونية والمشروع الصهيونى بإنشاء وطن قومى فى فلسطين إلا فى مجتمعات شرق أوربا وروسيا القيصيرية من يهود الاشكناز، حيث إن هذه المجتمعات لم تصب من التحديث والحداثة الكثير وظلت أبنيتها الاجتماعية والسياسية وهياكلها الاقتصادية وأنساقها الثقافية فى المرحلة ما قبل الرأسمالية . ومن هنا كان الأمر سهلاً على منظمات الحركة الصهيونية أن تستجلب أعضاء الجماعات اليهودية من شرق أوروبا وروسيا القصيرية لتهجيرها ترغيباً أو ترهيباً إلى فلسطين، لانشاء الوطن الموعود فى أرض الميعاد المزعومة وحسب المقولة الصهيونية الشهيرة «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض» أو شعب بلا أرض إلى أرض بلا شعب! وقد تمكنت قيادة الحركة الصهيونية آنذاك: هرتزل، موسى هيس، نوردو، زانجفيل من اقناع قادة الاستعمار الغربى: بالمرستون جلادستون، نابليون، وصولاً إلى هتلر وقبله بلفور، بأن وجود كيان صهيونى فى





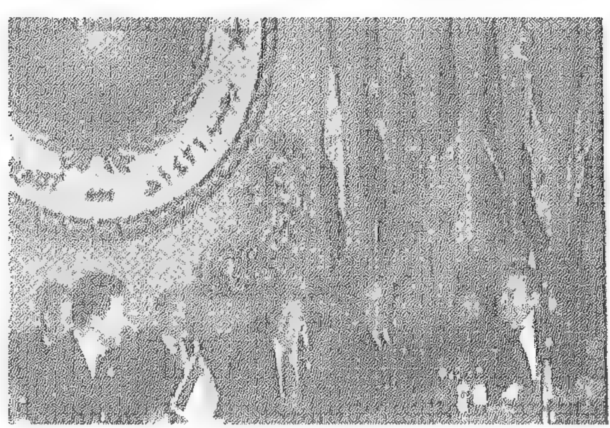
فلسطين العربية يمكن أن يتحول إلى «دولة وظيفية» من الرصيد البشرى اليهودى فى شرق أوربا وروسيا من خلال عملية ترانسفير واستيطان وقمع وإبادة للشعب الأصلى. ولعبت قيادة الحركة الصهيونية على وجدان التاريخ المفعم بالأساطير والحروب الدينية لدى القادة الإمبريالية الغربيين بالرغم من أن إنشاء «دولة وظيفية»، بدلا من الجماعة الوظيفية، فى فلسطين يسهم فى استعادة المجد الصليبى الغابر أو الإمارات الصليبية إبان حروب الفرنجة ضد العرب والمسلمين !.

زيف الفكر الصهيونى

وفى مواضع أخرى من الموسوعة يكشف عبد الوهاب المسيرى عن زيف مقولات عديدة روجها الفكر الصهيونى ولا يزال ومن أهمها مقولة «الاستمرار اليهودى» و«التاريخ اليهودى » حيث يذهب الصهاينة إلى أن اليهود الآن هم ورثة العبرانيين القدامى وأن حكومة إسرائيل ما هى إلا الكومنولث اليهودى الثالث قبل الخروج من فلسطين عام ٧٠ قبل الميلاد، وأن الدعوة إلى العودة شىء متصل منذ بداية التاريخ اليهودى إلى الآن، من الأنبياء إلى هرتزل. ومما يلفت النظر أن الحركة الصهيونية كرست فى الوجدان الغربى النظر إلى اليهود باعتبارهم تاريخا متصلاً، ورغم أن هذا الوجدان فى غالبيته مادى علمانى فإنه ينظر إلى الجماعات اليهودية من خلال الكتب المقدسة والتأويلات والتحريفات العديدة التى أدخلت عليها، ومؤدى ذلك أن اليهود منذ النفى قابعون داخل تاريخهم المقدس الذى حل فيه الإله، وتستأنف الحلقة بعودة اليهود مرة أخرى إلى فلسطين، وبالتالى فإن الاستيطان الصهيونى تعبير عن نمط متكرر ومستمر ومتوقع، كما أن دخول المستوطنين الصهاينة إلى فلسطين، وقيامهم بإبادة الشعب الفلسطينى، ليس سوى استمرار وتكرار لدخول العبرانيين إلى أرض كنعان وإبادتهم لأهلها .

وعلى هذا المنوال الأسطورى نجد أن مفهوم الاستمرار اليهودى يعطى الصهيونى حقوقا مطلقة مستمرة لا تنقطع ويسقط الحقوق القائمة للآخرين،





فباسم هذا الاستمرار يدعى الصهاينة لأنفسهم شرعية احتلال فلسطين وطرد أهلها، فالدولة اليهودية، حسب هذا الزعم، هى وريثة الدويلات اليهودية التى قامت منذ آلاف السنين.

وفى المجلد الخاص بإسرائيل تتحدث الموسوعة عن النظام السياسى الإسرائيلى وتفند فكرة أنه نظام ديمقراطى ومن الأدق أن نسميه «نظام سياسى استيطانى» تشكلت خصائصه فى بيئة معادية وتحت ضغط متطلبات الاستيطان مثل الأمن وتأمين الهجرة والاستيطان والاستيعاب، ومن أهم خصائص هذا النظام الاستيطانى الازدواجية فى علاقة النظام بالسكان حيث الانفصال الداخلى بين العلاقة مع المستوطنين والعلاقة مع الشعب الأصلى الفلسطينيين)، وإذا كانت العنصرية تمارس بشكل غير قانونى فى كل المجتمعات البشرية، فالمجتمعات الاستيطانية مثل الكيان الصهيونى تقنن للعنصرية وتجعلها إطاراً مرجعياً، لأن المساواة تهدد وجود النظام الاستيطانى ولذا نجد أن مقولة «يهودى» مقولة قانونية فى النظام السياسى والاجتماعى الإسرائيلى، والأرض ملكية خالصة للشعب «اليهودى» وقانون العودة يسمح لـ «اليهود» وحدهم بالعودة، وهذا ما يفسر القرارين اللذين أصدرهما الكنيست الإسرائيلى أخيرا فى مايو ٢٠٠٠ بالزام أية حكومة إسرائيلية بإخراج موضوعى القدس وعودة اللاجئين الفلسطينيين من مفاوضات الوضع النهائى!.

ومن أهم الأمثلة على التناقض الجوهرى بين ادعاءات الديمقراطية والممارسات العنصرية الاستيطانية ما يحدث فى الكيبوتسات، فلكى ينتمى المواطن الإسرائيلى لأى كيبوتس لابد أن يكون يهوديا لأن الكيبوتسات توجد على أرض مملوكة للدولة اليهودية. ومن أهم سمات هذا النظام السياسى أيضا أنه يتجه ومنذ منتصف السبعينات إلى اليمين المتطرف علمانياً كان أو دينيا أصولياً، أى تسيطر آليات التمييز والعنصرية ضد الشعب الفلسطينى ودعوات الفصل التام والحائط الأمنى.

القرية المصرية

بين عهدين !

بقلم : د. محمد رجب البيومى

حين أزور قريتى أجد كلّ شىء فيها تغير عما كنت أعهد، ولا أرانى أحسّ براحة ما لهذا الانقلاب فالنور والكهرباء، والمنازل العصرية، والمدارس المتنوعة كلٌّ ذلك قد طرأ على القرية بعد رحيلى المتقطع، ولكن هل أدّى إلى راحة نفسية، وإلى إنتاج زراعى، وإلى سلام هادىء بين القرويين كما كان الأمر قبل هذا التجديد؟ لقد كادت القرية تقترب من المدينة فى مظاهر كثيرة، ولكن؟ هل انتفعت القرية اجتماعياً بهذا الاقتراب سنرى!! .

لست عالم اجتماع، فأحشر نفسى بين الفضلاء المتخصصين، وفيهم من ينكر أن يتحدث غيرهم فيما يزاولون من بحوث! ولكنهم مع ذلك يطبعون استمارات (الاستبيان) ولا أدرى من أين جاءت هذه الكلمة الغريبة الصياغة!! يطبعون هذه الاستمارات ويوزعونها على العالم والجاهل ليجيب عما يريدون من الأسئلة، فليعدوا مقالتى إجابة متصلة عن بعض هذه الاستمارات وحينئذ لاينكرون على مثلى أن يجيب بما يراه، فهو مشاهد لا باحث.

كان الطابع الدينى هو السمة الأصيلة لأهل القرية ، فالدين هو المسيطر الأول على السلوك، من تبع نوره سار فى طريق مستقيم، وأجمع الرأى العام على تقديره، ومن شذ عنه عد مجرما وتباعد عنه أقرباؤه كما يتباعد الصحيح عن الأجرب، ورجل الدين وإن كان متواضع المعرفة هو صاحب المشورة والرأى، يختلف الناس،



ويتنازعون، فلا ينحسم الخلاف إلا برأيه، ويأتى موسم الانتخاب، فيكون من هم المرشح أن يحظى برضاه فيزور منزله، أول مايزور، ويخف إلى المسجد عند الأذان ليصلى خلفه، ثم ينتظر ختام الصلاة، ليسرع إليه فيحتضنه ! وإذا كان المصلون كثيرى العدد أطال معه الوقوف فى هيبته! وفيهم من يقبل يده، كان هذا بالأمس فإذا شك قارىء اليوم فيما أقول، فليسمع هذه النادرة.

مدير الدقهلية

كان مدير الدقهلية (محافظ اليوم) صاحب الكلمة الأولى فى إقليمه، وكان الناس لايتحدثون عنه إلا بقولهم (الباشا المدير) وفى أوائل الثلاثينيات كان المدير هو (محمد نيازى باشا) ، وفيه شموخ وتكبّر، فتقدم إليه إنسان نظيف البزة حسن المظهر يرتدى حلة جميلة، وطربوشا منسجما، تقدم بشكوى فى بعض الأمور، فقابله عند رويته باحتفاء، وحين قرأ التوقيع (مدرس بمدرسة .. الإلزامية) هاج هائجه، وتملكه الغضب وصاح منفعلا! مدرس إلزامى يظهر فى هذه الأبهة! وراتبه ثلاثة جنيهات! ثم أصدر أمرا بأن يلبس جميع مدرسى المرحلة الأولى العمامة والكاكولة، وأصر على معاقبة من لايذعن (١)، فالبدلة أرقى من مستواهم فى رأيه ! وقد ثارت الصحف - وكانت الوزارة وزارة اسماعيل صدقى - وكتب الدكتور طه حسين مقالا ناقدا، ولكن المدير أصر، ورأى الرجوع مما يمس كرامته، وأخذ يأمر المفتشين بالمؤاخذة الصارمة لمن لايلبس العمامة.

وفى يوم ما عزم الباشا على زيارة إحدى قرى المديرية فى وقت حدده باليوم

---

(١) فى المجلة الرسالة -العدد (٤٢٣) ١٩٤١/٨/١١ تفصيل لهذه المهزلة .



والساعة والدقيقة، وحان الموعد، فخف العمدة وشيخ القرية وبعض الخفراء لاستقباله: كانوا سبعة لايزيدون، ونزل المدير فرأى على البعد ازدحاما شديدا يموج به أهل القرية، فظن القوم قد خرجوا لاستقباله، ولكنهم تهيبوه فلم يقربوا منه، فقال المدير متسائلا: لماذا يبتعد القوم ولايقربون ! وقال أحد أصحابه ممن قدموا معه، ولماذا لايهتفون مرحبين! وهم يستقبلون الباشا.

فقال العمدة، وكان مفطورا على الصدق : ياباشا أهل القرية يودعون فضيلة الواعظ، حيث ألقى الدرس بالمسجد عقب صلاة الظهر، واتجه إلى الطريق الزراعى مسافرا، فخرجوا لوداعه، هو صاحب العمامة البيضاء الذى يحتفون به! صاحب العمامة ياباشا:

قال رفيق الباشا فى غضب: ولماذا لم يحضروا لاستقبال سعادة الباشا؟ فسكت العمدة ولم يجب؟ ، ولكن خفيرا لايفهم أسلوب المجاملة قال فى براءة : هم لايعرفون الباشا، ولكنهم يحبون أهل العلم، وجميعهم يقبلون يد الشيخ!!

وهنا ركب المدير عربته غاضبا، وسارع بالعودة ! وهو لايدرى كيف يعاقب هؤلاء !

رجع الباشا منهزما، فقد ظن العمامة موضع الامتهان، فرآها موضع التقدير ! تقدير لم يتهيأ له أن يناله .

منبعان مختلفان

إذا بحثنا عن التغيير الطارىء إلى حد التناقض فى سلوك القرويين بين عهد وعهد فإننا نجده يرجع إلى اختلاف المنبع فى العهدين المتعاقبين، ففي العهد الماضى كان المسجد هو المنبع الوحيد لما يشمل القرية من عادات وتقاليد، وهو منبع عريق يضرب بجذوره إلى السنوات البعيدة، فتوارث تقاليده الآباء عن الأجداد والأحفاد عن الآباء، فنشأت أجيال تؤمن بتعاليم المسجد، وتعدها باب النجاة والأمل ففى المسجد يقرأ القرآن ويشرح الحديث، وتستمع مجالس الوعظ، فيكون من كل ذلك سنن متبع يرتفع إلى مصدره الأعلى فى السماء، فمن حاد عنه خالف الله، ومن اهتدى به نعم براحة البال فى الحياة، وبجنة الخلد بعد الممات، أما فى العهد الحاضر فالمنبع لكل جديد طارىء هو شاشة التليفزيون ومسلسلاتها على الخصوص، لقد أصبحت الشاشة مدرسة

تلقى الدروس المتكررة لتنحرف بالتقاليد من وضع إلى وضع، كان المسجد يأمر بانسجام الأسرة وطاعة الوالدين، فجاءت الشاشة لترى القروية الساذجة كيف ينشز الولد عن طاعة أبيه، وكيف تتهكم الفتاة بأمها وتعدها ميراثا بائدا يجب أن يزول، كان المسجد يدعو إلى القناعة والرضا باليسير، ويأخذ فى مواعظه بقول الله عز وجل «ولاتجعل يدك مغلولة إلى عنقك، ولاتبسطها كل البسط»، فجاءت الشاشة لتعرض مباذل الترف الصارخ فى المآكل والمشرب، وأثاث المنزل وإعلانات السفه والمجون ، وتعد الكماليات ضروريات لامحيد عنها، كان المسجد يدعو إلى حفظ الوقت وتجنب السهر الطويل واليقظة عند صلاة الفجر لاستقبال اليوم فى أنشط مظاهر القوة، فجاءت الشاشة لتجمع الساهرين والساهرات فى الليل الأطول أمامها، وقد تبتعد الشاشة ليأتى مكانها (الفيديو) وقد جاء به من اشتروه من بلاد البترول ليعرض مانهى الله عنه من فنون الخلاعات، وليحدث مُثلاً جديدة فى العلاقات ويكشف عن أساليب طائشة فى الإغراء والخداع، لقد تناقض المنبعان إلى حد التضارب، ولا من مغيث .



الأسرة الواحدة

يقال الآن إن العالم كله قد أصبح قرية صغيرة لأن وسائل الاتصال قد



طه حسين — إسماعيل صدقى

سهلت كل معرفة، وقربت كل بعيد، أفلا أقول الآن أن القرية فى عهدها الماضى كانت أسرة واحدة، لأن جميع أبنائها يشعرون برباط قوى متماسك يدفعهم إلى التآزر فى الشدائد، وإلى اعتبار التكافل الاجتماعى فرضا محتوما لا فكاك منه، وإن جهلوا مسماه.

قد تدور الماشية فى الساقية، فتسقط في بئر، وهى عماد صاحبها فى أرضه، فإذا فقدها فقد خسر مقومات كسبه الضرورى، فما يرتفع الصراخ حتى ينهض القرويون من كل صوب، ليعملوا على إنقاذ الهاوية المسكينة بما يعرفون من وسائل الإنقاذ، فإذا خرجت سليمة معافاة، فقد تم المراد، وإذا خرجت جريحة تكاد تلفظ أنفاسها، قام الجزار سريعا بذبحها، وحضر من وجوه القرية من يقسم اللحم فى لفائف خاصة، ويبعث فى كل منزل بلفافة كبيرة، ويقدر الثمين زائدا عن حده الطبيعى، ليجمع من كل المنازل

مايكفى لشراء بقرة مماثلة، ويتم ذلك فى العاجل السريع، فإذا تكاملت القيمة، ذهب اثنان أو ثلاثة فاشتروا البديل وأخذ المرزوء يحمد الله أن عوضه كل خير، يتم ذلك وكأنه شيء طبيعى لابد أن يكون .

قد يشرع قروى فى بناء منزل لحاجته الضرورية فيخف أبناء القرية لمعاونته، فإذا احتاج البناء إلى عشرة أيام، وجد من العائلات من يقوم ذووها وفق اتفاق متبع بإطعام العمال، لكل عائلة يوم يختص بذلك، فلا يتحمل صاحب المنزل أعباء تضاف إلى ثمن الطوب والخشب ويكون التسابق فى هذا المجال موضع اهتمام الجميع وقد تجرى القرعة كيلا يفوز رجل بالسبق، وهذا ما شهدته عن عيان .

قد يشب حريق، وليس فى القرية شيء من أدوات الإطفاء فما يرتفع الصراخ، حتى تنهض عشرات النساء بالصفائح لملئها من النهر على وجه سريع ، ويقف الرجال فى مهب الحريق يوالون عملية الإطفاء، وفيهم من يجازف فيتسلق الجدران ليحاصر اللهب المشتعل، وفيهم من يخوض النار ليرمى إلى الأرض بكتلة كبيرة مشتعلة من الحطب المتراكم فوق السطح، وتنظر فتجد الشارع الذى يضم المنزل المصاب زاخرا بالناس صغارا وكبارا، لايكاد يوجد به مكان خال حتى تنفرج القمة، ويخمد اللهب .

ويأتى رمضان، فلا نتحدث عن زينة المسجد وبهائه واحتفاله بالدرس بعد المغرب وبالتراويح بعد العشاء، وخروج الناس عقب الإفطار بالمصابيح الزيتية، قبل أن تعم الكهرباء مساهمة فى تألق المسجد وبهائه، لانتحدث عن ذلك، بل نتحدث عن الموائد التى توضع أمام المنازل قبل الغروب لتستقبل كل وافد، وعن السهرات بعد العشاء الحافلة بمقرئى الكتّاب، طيلة الليل، حتى إذا قرب ميعاد السحور قدم الطعام لمن ينتظر من ذوى الحاجة، وقد يحمل منه إلى أهله استجابة لرغبة صاحب المنزل دون أن يسأل وهنا يكون رمضان كما سنه الله شهر البر والإحسان، لا شهر الفوازير والمسلسلات.

والمرأة فى القرية، حياتها الواقعية تعصف بكل مايقوّل المتحدثات فى الصالونات عن سجن المرأة وعبوديتها، إن المرأة الشابة زميلة زوجها المناضل فى حقله، تخرج معه إلى عمله صباحاً فتشاركه فى نظافة الحقل وإطعام الماشية وتعود فى الظهيرة لتعد الطعام وتحمله إليه، والأم الكبيرة فى المنزل تظل به، لا لتنام، بل لتنظف الأثاث، وتطعم الدواجن، وترعى الأطفال الصغار، وتنهض الفتاة إلى أبيها فى حقله القريب أو البعيد، فتسير هادئة مطمئنة، لايجرؤ أحد على أن يقربها السلام، ولو شذ شاب ففاه بأدنى كلمة، قامت القيامة، وأصبح مضغة الأفواه، ولا أسترسل فى بسط هذا المنحى إذ كفانى الشاعر الكبير الأستاذ أحمد محرم وصف الواقع الصريح، حين تحدث

عن ريفية هم أحد المتسرعين من الشباب بالنظر إليها فقط، فزلزلت الأرض زلزالها، قال أحمد محرم رحمه الله :

كم نظرة هوجاء من متوسم
عصفت بأحلام هناك رجاح
دلف الشيوخ إلى الشيوخ حمية
وتدافعت أبطالهم بالراح
ها إن قومك كاد يهلك جمعهم
لولا الهوادة من ذوى الإصلاح
ما أنت من بكر ولا من تغلب
لكنه الشرف المنيع الساح
ياموردا تثب المنية دونه
ماذا صنعت بمهجة الملتاح
ماكان خطبك فى ذويك برائع
لو كنت ذات غلالة ووشاح الله ! الله !

والبيت الأخير جدير بالتأمل إذ يوازن بين فتاة الحضر وفتاة القرية موازنة ذات عبرة والنفات، وحقوق الجيران - ولا أقول الجار - لأن أهل القرية يعتبرون أنفسهم جميعا جيرانا متشابكين، حقوق الجيران على أكملها. فالتزاور قائم لايتقطع، والعون فى الشدة، والبهجة فى الفرحة مما نراه مثلا فى المأتم والأفراح، ويتجلى هذا التزاور فى المواسم العامة، وبخاصة فى يومى العيد، فالشارع - كل شارع - يزدحم بالزائرين ما بين غاد ورائح، ومن ينتظر فى الصباح لاستقبال الزائرين يخرج بعد العصر ليرد التحية بمثلها، فلا ينقضى اليوم حتى تتصافح الأكف، وتتعارف الوجوه وقد يحدث من قبل ما



يبعث على الخصام فيكون العيد موسما للصفاء وميعادا للمصالحة، وتروى الأحاديث الخاصة بهذا المنحى فتتصافى القلوب، وتتعانق الصدور، وكم من قضايا رفعت إلى المحاكم وجاء موسم العيد فكان باعثا على التراضى، واستراح المحامون والقضاة، وبمناسبة الإشارة إلي الأفراح فى القرية أعلن فى أسف :

أن أدهى ما ارتطمت به القرية هو غلاء المهور، لقد كنت من قبل لاتكاد تجد عانسا فى القرية لأن ولى الأمر كان يبحث عن الزوج الصالح لا الزوج الغنىّ الذى يقدم من المال ما يملأ أربع حجرات؟! فانتقلت العدوى من المدينة، وأصبح ارتفاع المهور فيهما أمرا مشتركا، كان الأب يذهب إلى عاصمة المركز القريب فيهيىء

جهازا يحتل حجرتين ولايزيد، أما الآن فمن العيب أن يشترى الجهاز من عاصمة المركز لابد من الذهاب إلى عاصمة المحافظة، أو ما اشتهرت من المحافظات بفخامة الأثاث كالقاهرة والاسكندرية ودمياط وأن يشترى مايبهر ويرفع مكانة العروس، ونتيجة ذلك توقف الحال، وكثرة العوانس ، وضياع الشباب !

واقعنا الآن

ولأنظر إلى واقعنا اليوم فأقول :

أصبحت القرية تستورد من المدينة ماتريد من الخبز والبيض واللبن والدجاج والسمك، ماهذا؟ لقد كانت القرية مصدر هذا كله وكان ساكن المدينة يزور أقاربه وفي همه أن يعود مثقلا بخيرات القرية، كما كان ساكن المدينة ينتظر زيارة أقربائه بفارغ الصبر ليجد معهم مايحملون من غرائر القمح والأرز وأقفاص الدجاج، حتى الخضراوات أصبحت تأتى من المدينة إلى القرية؟ كيف حدث هذا؟ .

إن كثرة الاستهلاك مقارنة بضعف الإنتاج قد أدت إلى هذا العجز الأليم وضعف الإنتاج نتيجة «للتخلف الزراعي، فقد وجدت الآلات الحديثة الخاصة بزراعة الأرض، ولكن لم نعرف كيف نستخدمها على الوجه الصحيح، قامت الجمعيات الزراعية وبنوك القرية والوحدة الصحية، ولكنها تضم موظفين، وليست مجال تنوير لإرشاد الفلاح كيف يستغل أرضه على وجه يتيح كثافة المحصول، تخرجت أفواج من كليات الزراعة، ولم تجد عملا، ونفر الكثيرون من البقاء في القرية، ومن مكث فيها لعدم طاقته على الهروب أصبح عاطلا لايشارك فى تنمية زراعته، أو إنشاء مزرعة حيوانية فيفيد الناس بما حصل فى كليته حين يجدونه قدوة ذات خبرة متميزة، ولكنه ترفع عن العمل فى الحقل، وعاش عالة على أخيه الكادح فى حقله بالطريقة البدائية، وكانت الكارثة أن موظفى هذه الإدارات الجديدة فى القرية، قد أرهقوا الفلاح بما يخترعون من زيادات فى الأسعار، أو يختلقون من ضرائب وهمية يزعمون أن المسئولين قد فرضوها، وينظر الفلاح المسكين فيجد ما ينتج لا يكفى حاصله بعد الكدح الطويل فى الزرع والرى لسداد ما عليه من التزامات، فيرى هذه المنشآت بابا من اللهيب قد أرسل شواظه عليه ، فيجتنب أن يلم به مهما أرهقه العوز، وعضته البأساء!

وقد هاجر إلى البلاد العربية قوم من هؤلاء المساكين ، وحين رجعوا بعد خمسة أعوام أو ما فوق، لم يحملوا غير أدوات الترف، وأخذ الواحد منهم يقلد الآخر فى شراء الفيديو والتليفزيون، ويعد ذلك مصدر مباهاة! على حين يتلهف الجيران على مشاهدة ما يودون من مناظر الإغراء! وكثيراً ما ترى فى الشارع الضيق جموعا تتراص على الأرض فى غسق الليل أمام أحد الأجهزة البراقة، ليقضوا الوقت حتى مطلع الفجر أمام مُغريات سخيفة، فإذا طلع النهار ولم يذهب الفلاح إلى أرضه،

بل ظل نائما هامدا لأنه قضى الليل فى عبث لا يفيد! وأكاد أتوارى من الخجل حين أذكر أن الفتاة الطاهرة بالأمس، قد وجدت في اجتماع الفيديو ما شجعها على الصداقات المريبة وقد تنقلب هذه الصداقة إلى شر مستطير ، إذ يكون الزوج غائبا لمدى سنوات فى بلاد الهجرة، والزوجة فارغة لا تجد غير مناظر الشهوات، ورفقاء الآثام! أما المسجد - رحمة الله على المسجد - فلم يعد يؤمه غير الشيوخ ممن فرغت منهم الحياة، كما لم يُعد خطيبه شيخاً جليلاً مهيبا يرسل الخشية بمظهره وسلوكه قبل أن يبعث الموعظة بألفاظه وكلماته بل صار شابا تخرج منذ شهور أو بضعة أعوام ، لا يلبس العمامة إلا يوم الجمعة حين يؤدى الخطبة ويتركها بعد ذلك في حجرته بالمسجد، وكأنه تخلص من عبء ثقيل ! ماذا يستطيع مثل هذا الساذج أن يقول فى خطبته حتى يجذب الناس؟ وإذا قال فمن الذى يستمع إليه بعد أن تسمم بالمغريات الهابطات! .

نحن نعلم أن القرية قد نهضت فى اليابان والهند والصين، وأصبحت مصدر تنمية وافية وثروة جيدة، ولكن دول العالم الثالث قد اعتمدت على القروض الاستهلاكية التى لا تفيد القرية فى شىء، بل إن مانحى هذه القروض لا يجعلون النفع القروى من أدوات تنفيذها، لتظل القرية فقيرة محتاجة، وليظل الاعتماد على القروض تيارا لا ينقطع له مد، وقد سمعنا عن الصناعات الصغيرة، وضرورة تشجيعها بالريف، وسمعنا عن القروض التى تبذل للشباب كى يلجوا باب الرزق عن هذه الصناعات! سمعنا ذلك، ونرجو أن يتحقق الخير عن طريقه! ولكن الذى نرجوه ألا تكون الجمعيات الحكومية فى القرى حلقة اتصال بين الآخذ والمأخوذ منه! فقد كفى ما علمناه من احتيال فى القرض والسداد.

أذكر أن الشيخ متولى الشعراوى رحمه الله ، قد تعرض فى بعض أحاديثه لحفلات السهر الريفي أمام الفيديو والتليفزيون، فذكر ما جرته من الانحدار الخلقى، والانهيار الزراعى معا، وتمنى غاضبا ألا تكون الكهرباء قد دخلت الريف على هذا الوجه المستقبح!! وهنا ثار الثائرون فى الصحف على هذا المتخلف الذى يحارب امتداد النور فى أزقة القرى!! والرجل فى ذلك مثله كمثل الأب الحزين الذى يرى ابنه فاشلا فى مدرسته، منحدرا فى سلوكه! فيقول فى ساعة قهر : ليت الله يأخذه فأستريح! أفكان الأب يكره ولده؟ أفكان يتمنى له الموت! إن شجونه قد ارتفعت من هيجان مشاعره إلى لهاة لسانه، فأنطقته بما لا يريد ..

وأخيرا

ماذا نريد للقرية ؟ وماذا نريد منها؟

نريد للقرية أن تأخذ من كل عهد أحسن ما فيه، فتأخذ من عهدها الأول تأصل الروح الدينى، وبعث التكافل الاجتماعى ، وإيقاظ مشاعر الأخوة الصادقة وتأخذ من العهد الثانى توظيف الآلات الحديثة فى مسائل الزراعة والصناعة، والاستفادة من مرافق التوجيه



الثقافى وإصلاح الجمعيات الريفية حتى تؤدى المنشود باختبار الأكفاء من العاملين ومحاسبة الوصوليين من المرتزقة ونشر الوعى الزراعى والصناعى بإنشاء المدارس الخاصة بهذين النوعين على نحو ريفى متواضع، فقد تكفى خمس حجرات لإقامة مدرسة من هذا النوع تكون للصغير معهد تعليم وللكبير مصدر إشعاع. هذا ما نريد لها أما ما نريد منها فأن تكون أكثر حيوية من المدينة نفسها! لأن سكان القرى أوفر عدداً من سكان المدن كما ينطق بذلك آخر احصاء !. ونريد منها أن تحارب أدوات الترف البغيضة التى منحت الكسل وحرمت العمل، ونريد منها أن تجذب أبناءها الراحلين إلى المدينة بما يتهيأ لها من توفر وسائل الرزق، ورواج الصناعات الصغيرة، وأن توجد بكل قرية مدرسة ريفية ترعى حاجات الريف، قبل أن تمهد للالتحاق بالمدارس الثانوية، وإذا كان العامل الأمى اليوم يكسب فى الأسبوع ما يكسبه الموظف الحكومى فى شهور، فلماذا لا نثقفه فى مهده الأصيل ، نفقهه بالثقافة الضرورية التى تعينه على الكسب الشريف بالعمل الجاد، لا بكماليات الترف العلمى الذى يخزن المعلومات دون جدوى، ولابد أن ننظر إلى الواقع الملموس فلا نكتفى فى الاصلاح الريفى بإضاءة المنازل، ومجلس القرية، وجمعية التعاون، ومركز الشباب، دون أن نفهم القائمين على هذه الأجهزة أنهم أصحاب رسالة بين أهليهم وذوى قرباهم، لا موظفون أنانيون يتلمسون الصيد من وجوهه المنحرفة، كما نعمل على إعادة الروح العائلية الصحيحة التى كانت تجعل القرية جسدا واحدا، إذا اشتكى منه عضو تداعى له جميع الأعضاء بالسهر، وعلى الذين ينكرون مباهج الماضى ويعدونها أخلاقا بدائية لا تناسب التمدن أن يجيبوا عن هذه الأسئلة ، هل دام التكافل الأخوى كسابق عهده ؟ هل نشطت الحقول فى استثمار كل شبر من الأرض؟ هل عادت أفران الخبز كعهدها فى كل منزل ؟ هل نشطت مواسم البر فى المناسبات الدينية وأهمها شهر رمضان ؟ هل عرف الابن حق أبيه، والفتاة حق والدتها والتزما معهما الأدب والامتثال، إنى لأبحث الآن عن ذلك أو بعضه فيثب إلى خاطرى قول أبى تمام :

إن المنازل ساورتها فرقة
أخلت من الآرام كل كِناس

الجامعة والسياسة

بقلم : د. سعيد إسماعيل على

تتكون الجامعة عادة من فئتين من المقومات ، أولهما المقومات البشرية ، والتى نصطلح على تسميتها بالمجتمع الجامعى، وثانيهما ، المقومات المادية، بكل عناصرها من قاعات دروس ومعامل ومكاتب وكتب وملاعب وأفنية وحدائق وأجهزة ومعدات ، ووفقا لطبيعة موضوعنا فإننا نقف هنا فى نطاق الفئة الأولى، ونعنى بها المجتمع الجامعى.

ثم إننا داخل هذا المجتمع الجامعى أيضاً، يمكن أن نميز فيه بين عناصر أربع : أعضاء هيئة التدريس ومعاونيهم، الطلاب، الإداريون، الفنيون، وحتى يكون حديثنا أكثر تحديدا فسوف نقتصر على الطلاب ، باعتبارهم العصب الرئيسى فى المجتمع الجامعى، وهم «زبائنه» إن صح هذا التشبيه ، ولو نظرنا فى كل المقومات والفئات والعناصر التى يضمها التنظيم الجامعى ، فسوف نجد أنها جميعا قد وجدت من أجل تنشئة وتكوين وتربية هذه الفئة بصفة خاصة وفقا لما يتسق مع التوجهات المجتمعية العامة.

فإذا انتقلنا بعد هذا إلى «المشاركة السياسية»، فسوف نجد أنها - كما نتصورها - مظهر من مظاهر النهج الديمقراطى ، وآية من آيات فلسفته ، وبالتالى فإن اكتمال صورة الحديث عن المشاركة السياسية إنما يكون من خلال إطلالة على الوضع الديمقراطى العام . ورغم وعينا بهذا فإننا مضطرون إلى تكثيف الحديث على المشاركة السياسية نفسها، حتى لاتتشعب بنا

الدروب وتتفرع ، «ويضيع من قدمنا الطريق»!.

فإذا ما حاولنا أن نتصور كيفية المشاركة السياسية لطلاب الجامعة ، فسوف نجد أنها يمكن أن تكون من خلال القنوات التالية:

-الاطلاع والمتابعة لما يحدث بالنسبة للشأن العام الوطنى المصرى ، والإقليمى العربى، والعالمى، اطلاعا ومتابعة تتفاوت وتتدرج فى مستوياتها وتختلف كما ونوعا، ضيقا واتساعا ، عمقا وسطحا.

- الانضمام إلى حزب من الأحزاب السياسية القائمة ، وهو المظهر الأكثر وضوحا وصراحة عادة فى قضية المشاركة السياسية ، أو الانتماء إلى تيار فكرى عام قد لا يكون له حزب سياسى ينتظمه بحكم ظروف وعوامل متعددة .

- الحرص على امتلاك بطاقة انتخابية، والمشاركة فى عملية التصويت فى الانتخابات العامة ، سواء لاختيار أعضاء لمجلس الشعب أو الشورى أو الاستفتاء على رئاسة الجمهورية ، أو غير هذا وذاك مما يقع فى نطاق التصويت العام .

- إبداء الرأى دائماً أو غالباً فيما يحدث من أحداث ، أو يثور من قضايا ومشكلات ، أو ما يسمع أو يشاهد أو يقرأ من آراء وأفكار تتصل بالشأن السياسى أو المجتمعى العام، محليا وخارجيا.

- المساهمة العملية فى بعض مشروعات خدمة البيئة المحلية أو المجتمع العام ، سواء من خلال حملات محو أمية ، مثلا، أو تلوث البيئة ، أو توعية سياسية عامة، أو غير هذا وذاك من قضايا ومشكلات.

طابع الدعاية

فاذا حاولنا استقراء واقع المشاركة السياسية لطلاب الجامعة، وفقا لهذا التصور فسوف نجد مايلى:

١ - فمن حيث الاطلاع والمتابعة ، فهى مسألة لايمكن استقراء الوضع فيها إلا بناء على دراسة ميدانية ، لا يتيسر لنا القيام بها، وربما يكون هناك من أجراها ، لكن لم تتيسر لنا، وبالتالى فإن رأينا فيها إنما هو بناء على «انطباعات» مع ما هو معروف عن المعرفة القائمة على الانطباعات من محاذير تتصل بالدقة ، والإحاطة ، والشمول ، وإمكان التعميم.

وعلى هذا يمكننا القول بأن المسألة هنا تتصل إلى حد كبير بقضية القراءة على وجه العموم ، ومتابعة القضايا العامة ، مما يشير إلى قلة الاتصال بمصادر المعرفة السياسية، خاصة وأن المصادر المتاحة أكثر من غيرها مصادر حكومية يغلب عليها طابع الدعاية والإعلان والتلقين، وهو مما يباعد بين شبابنا وبين الاطلاع والمتابعة.

وفضلا عن ذلك فهناك الكثير من المحاذير والتخوفات من مصادر المعرفة السياسية التى توفرها مصادر المعارضة ، مما سنشير إليه بشكل أكثر تفصيلا فى جزء تال.

يضاف إلى هذا وذاك ماهو ملموس من الخبرة التاريخية أن افتقاد المشروع القومى العام ، ربما يكون باعثا على تشتت الاهتمامات وتوزع الميول والأهواء نحو الشأن الخاص، وكذلك مانسميه بالمجالات الشبابية من موسيقى وأغانى وسينما ورياضة وترفيه.

لكن الأمر يتغير إلى حد كبير ، عندما تكون هناك قضايا كبرى «ساخنة» تفرض نفسها على مجرى الأحداث ، كما هو الشأن فى أيامنا هذه بالنسبة لقضية الصراع العربى الصهيونى، وكما سبق أن رأينا فى عام ١٩٩٠ عند غزو العراق لدولة الكويت ، إذ غالبا ماينجذب قطاع غير قليل من الشباب إلى الاطلاع والمتابعة.

ب - وبالنسبة للانخراط فى سلك الأحزاب السياسية ، فإن المسألة تتأثر إلى حد كبير بوضعية هذه الأحزاب فى مصر ، من حيث هشاشة الوجود الحزبى الحقيقى ، اعتمادا على تسيد مقولة أننا أمام ظاهرة : حزب الحكومة لا حكومة الحزب ، مع ماهو معروف فى التراث الثقافى المصرى ، عن الدور الذى تلعبه السلطة فى حياتنا ، بحيث تتحول إلى نقطة جذب شديدة ، ومن هنا يلمس الشباب أن عددا غير قليل من طلاب المواقع التنفيذية هم من «الكبار» فى غالب الأحيان فتقل الفرص أمام فئة الصغار «طلاب الجامعات» للالتحاق بهذا الحزب صاحب السلطة ، وفى الوقت نفسه لا يفكر كثيرون فى الانضمام إلى أحزاب أخرى مما يسمى بأحزاب المعارضة ، خاصة وأن وجودها مهمش فى الحياة السياسية على وجه الخصوص والحياة المجتمعية على وجه العموم بفعل ظروف وعوامل متعددة أشهرها قانون الأحزاب ، وقانون الطوارىء المطبق منذ تسعة عشر عاما ، فضلا عن الضغوط التى يمارسها الآباء والأمهات كى لا ينخرطوا فى أى عمل سياسى بدافع الخوف عليهم ، وبإبعادهم عن المخاطر التى يتعرض لها المشارك فى ملعب السياسة ، ولسان حالهم يردد مع الشيخ محمد عبده مقولته الشهيرة التى أثرت عنه عندما قال: لعن الله ساس ويسوس سياسة ! وإذا كان هناك طلاب ممن يؤمنون بتيار فكرى ما غير مسموح له بتنظيم حزبى ، فإنهم بالتالى يقعون فى محظور التجريم القانونى.

سلبية صارخة

جـ - وبالنسبة للقضية الخاصة بالمشاركة فى التصويت فى العمليات

الانتخابية العامة، فقد كنا نود لو توافرت إحصائية رسمية بأعداد طلاب الجامعات ممن لهم بطاقة انتخابية ، مقارنة بالفئة العمرية لهم في التعداد السكاني ، لكن الاتصال المباشر بأعداد غير قليلة من هؤلاء أتيح لناالتعامل معهم تدريسا وبحثا عبر سنوات طويلة يظهر لنا أن قلة منهم هي التي حرصت على ذلك ، فالسلبية هنا صارخة ، وردهم على انتقادنا لهم مشهور ومعروف لا داعي للتفصيل فيه، من حيث تكرار قناعة مؤسفة لديهم بأن صوتهم عادة لايغير من المراد شيئاً. والغريب أن ابني الذي تحمس للغاية لأن تكون له بطاقة انتخابية قد «داخ» كثيرا، ولعدة أيام كي يحصل عليها ، مما يشير إلى ضرورة التفكير في كيفية تيسير هذا الأمر، حتى ولو انتقلت وحدة متخصصة من الداخلية إلى الجامعات لإنجاز الحصول على البطاقة الانتخابية.

د – وتتعلق مسألة إبداء الرأي في القضايا والمشكلات المثارة بالقنوات المتاحة لذلك ، ولا نريد أن نتعرض هنا للقنوات الخارجية ، وإنما لما هو متاح داخل الجامعة ، فاللجنة السياسية في الاتحادات للطلاب ألغيت منذ سنوات ، وهناك حظر واضح لاستضافة سياسيين أو مفكرين أو كتاب من أصحاب الرأي المخالف على أساس أن هذا مكانه خارج الجامعة ، ومع ذلك فالسلطات المسئولة تسمح بمثل هذه الندوات السياسية واستضافة من يتحدثون ، إذا كان الاتجاه يصب في الخانة الرسمية ، ولا نستطيع أن ننسى المقولة الشهيرة بألا سياسة في التعليم ، وإن كنا نحاول أن نفهم منها أن المقصود هو النشاط الحزبي ، حتى لا ينمزق الطلاب بين التيارات الحزبية ويتكرر ما كان يحدث بفعل الاختلافات الحزبية قبل ثورة يوليو ١٩٥٢. وصحف الحائط انحسرت إلى حد كبير من الحياة الطلابية الجامعية نظرا لتعدد السلطات الرقابية عليها، وكثرة إجراءات إصدارها.

هـ – فإذا ما جئنا إلى البعد الخاص بالمساهمة في مشروعات خدمة المجتمع ، فسوف نجد أن النظام الدراسي القائم على الفصلين ، وخاصة عندما يرافقه نفس النظام التقليدي للامتحانات ، فإن كثرة من الطلاب يجدون أن مثل هذه المساهمة يمكن أن تعطلهم عن الانتظام في المحاضرات ، والمذاكرة ، باستثناء بعض المساهمات التي يمكن أن تكون جزءا من الدراسة نفسها ، كما نجد في بعض التخصصات في الخدمة الاجتماعية مثلا ، لكن هناك فرصا واضحة لذلك في العطلة الصيفية وفي عطلة منتصف العام، وإن كان عدد الأنشطة التي تقع زمنيا في هذه الفترات قد يغلب عليها الطابع الترفيهي.

لكن، كيف يمكن للجامعة أن تعين على تنمية المشاركة السياسية للطلاب؟

هنا نجد أن وسائل الجامعة في هذا السبيل تتعدد وتتنوع وفقا لما يلي:

– فهناك القناة الرئيسية لذلك وهى اتحاد الطلاب ، فهو «برلمان» – إذا صح التشبيه – متخصص ، وخاصة أنه يقوم على عمليات ترشيح وتصويت وأنشطة ومناقشات ، ولعل عمليتى الترشيح والتصويت هما أكثر جوانب الاتحاد حساسية ، فهما «نموذج» أمام الطلاب لمدى الجدية والفعالية لمثل هذه التنظيمات القائمة على مبدأ التمثيل النسبى . لكن من المعروف أن الترشيح تتدخل فيه جهات أمنية بحيث نستبعد البعض على أساس ما تراه من خطورتهم على «الأمن» ، مما يرسم علامات استفهام أمام العديد من الطلاب وتشكك، ولعل هذا يستدعى إلى ذاكرتى على الفور منظر طالب تم استبعاده ووقف أمام عميد الكلية، وكنت حاضرا المناقشة ، وسأل الطالب : أريد أن أعرف : لماذا استبعد، وأنا لم أتهم مرة فى قضية غش، ولم أذهب إلى قسم شرطة، ولم أتشاجر مع أحد لا داخل الكلية ولا خارجها ، وتقديراتى دائماً مرتفعة؟ ولم يجبه العميد إلا بأنه لا يعرف لماذا استعبد ، حيث أنه ليس هو الذى قام بذلك!.

وبنفس الروح السلبية التى تجدها فى التصويت العام، نجد هنا انصرافا لكثيرين عن الإدلاء بأصواتهم ، مع أن المسألة لا تتطلب منهم جهدا لاستخراج بطاقة انتخابية كما هو الأمر فى الانتخابات العامة، وليست هناك صراعات حزبية يخشى الدخول فى معمعتها، والمرشحون زملاء وأصدقاء، والقضايا التى ينشغل بها الاتحاد هى قضايا تخص الطلاب أنفسهم، لكن ربما كان التدخل الأمنى عاملاً أساسياً فى هذه السلبية.

ونكرر هنا ما سبق أن أشرنا إليه بالنسبة لأنشطة الاتحاد ، من أن النشاط السياسي إذا كان محظورا خوفا مما يقال عن التفرق الحزبى، إلا أن هناك مشكلات وقضايا عامة لا يكون هناك اختلاف كبير فى الرأى إزاءها يمكن أن ينظم الاتحاد ندوات فيها ، ولابد أن تتاح الفرصة للرأى الآخر أن يعبر عن نفسه بغير خوف من إيذاء أو تهديد به مادامت المسألة محصورة فى التعبير عن الرأى بالكلمة والفكرة والحوار المنظم.

– لكن هناك أعراض مرض بدأت تزحف على الجسم الطلابى قد لا تبدو هناك ثمة علاقة بينها وبين المشاركة السياسية، لكن النظر الدقيق، يؤكد أن هذه العلاقة قائمة، هذه الأعراض تتعلق بالكتاب الجامعي، الذى بدأ يعرف، ومنذ سنوات مايسمى بالكتاب المقرر، والذى بدأ المجلس الأعلى يقنن له ويكسبه الشرعية ، بل ويتحدث عن عدد الصفحات والسعر، والتأليف الجامعى، وما إلى هذا وذاك من جوانب متصلة. إن وجه الخطورة فى تمحور التعليم الجامعى الآن

حول كتاب واحد مقرر ، هو المساعدة على تنميط العقول الطلابية، والتزامهم برأى واحد بعينه، مما يقلل فرص الطلاب لأن يلمسوا تعدد زوايا الرؤية للقضية الواحدة، وتنوع الاجتهادات ، ويحتكون بعقول متعددة ، فمثل هذا يكون له أثره على صناعة التفكير وتكوين العقول ، وبالتالى لا يؤثر فى القدرة على المشاركة السياسية فقط بل تكون له اثاره السلبية فى مجالات أخرى كثيرة تقوم على «الاختيار» ، إذ المعروف أن القدرة على الاختيار إنما يعززها التنوع والتعدد وممارسة حق الاختلاف.

السلبية فى التفكير

- ويرتبط بالكتاب الجامعى كذلك «طريقة التعليم»، إذ مما لاشك فيه أن الطريقة المسيطرة هى تلك التى تقوم على التلقين ، والتعليم اللفظى، والتلقين يعزز السلبية فى التفكير ، لأنه يقوم على واحدية مصدر المعرفة ألا وهو الأستاذ ، بينما التعليم عن طريق المناقشة والمحاورة يفعل العكس، ويشرك الطالب فى الحصول على المعرفة ، والمشاركة هى قضية مركزية ، عندما تتدعم عن طريق المشاركة فى التعلم ، وفى مجالات أخرى ، تصبح أمراً نهجا حياتيا وسلوكا أساسيا . وهناك ظروف متعددة مع الأسف الشديد تقف عائقا أمام الخروج من أسر التلقين ، لعل أكثرها بروزا ما أصبح التعليم عليه منذ سنوات تعليما لأعداد ضخمة تتزايد عاما بعد عام، ونظام الامتحان التقليدى الذى يقوم على استظهار الطلاب لما تلقوه فى المحاضرات أو قرأوه فى الكتاب المقرر، ومن هنا تبرز ضرورة الاستجابة لآراء اقتراحات بأن تتحول فروع الجامعات إلى جامعات مستقلة ، وتنشأ أخرى جديدة حتى تختفى هذه الظاهرة التى لا مثيل لها عندما تضم جامعة واحدة مايزيد على المائة وخمسين ألف طالب، وتضم كلية مثل تجارة عين شمس فى العام ٩٨/٩٧ أربعة وخمسين ألف طالب!.

- وهناك أيضاً أعضاء هيئة التدريس والذين هم النماذج السلوكية العامة أمام الطلاب ، إذ مما لاشك فيه أن وجود الأستاذ الذى يتوافر لديه وعى سياسى جيد، ويشارك سياسيا من عدد من الوجوه سوف يسعى فى تربيته لطلابه ، حتى ولو لم يقصد ذلك مباشرة، إلى المساهمة فى تربيتهم تربية سياسية واعية، والتى أحد أركانها مشاركة سياسية واعية ، وكم منا من تأثروا فى توجهاتهم السياسية وسلوكهم السياسى بما رأوه ولمسوه لدى معلم لهم سواء فى الجامعة أو فى مراحل التعليم قبل الجامعى، وأحياناً نجد الطالب الواعى سياسياً، لكنه إذا حاول مناقشة أستاذه نهره أو سفهه ، أو دعاه إلى أن «يلتفت إلى دروسه» والزعم بأن الأمور السياسية مضيعة لوقت الطالب ، وربما قام الأستاذ بدور تحريضى معاكس للتوجه العام للنظام السياسى ، وهناك

نوع من أعضاء هيئة التدريس قد ينتهزون أية فرصة أثناء تدريسهم ، إذا وجدوا ثمة علاقة بين جانب أو أمر فيما يدرسون فيربطونه بشأن سياسى، ومثل هذا الوعى مقدمة أساسية للمشاركة السياسية.

– ثم هناك المناخ العام السائد داخل الجامعة ، فالطلاب على سبيل المثال قد لايجدون فى أى فرد من القيادات الجامعية ، سواء على مستوى الكلية أو مستوى الجامعة أحدا عضوا فى حزب معارض ، فهذا ربما يرسخ لديه مفهوما للمشاركة ينحصر فى المسايرة للاتجاه القائم، ويكون هذا مدعاة للشك فى جدوى المشاركة السياسية .

كذلك ما سبق أن أشرنا إليه من حيث نظام الفصلين الدراسيين ، فهناك اعتقاد عام شائع بأن تقريره كان لأسباب سياسية تعنى عكس ما ندعو إليه من حيث الحث على المشاركة السياسية ، خاصة وأنه قد سبق تقرير مثل هذا النظام أواسط الخمسينيات حيث جاء كذلك عقب أحداث سياسية لم تكن الدولة راضية عنها ، ولما مضت الظروف التى أدت إليها عاد العمل بنظام السنة الكاملة .

والمتأمل فى نظامنا الجامعى يستطيع أن يلمس أنه نظام تقليدى لايوفر الكثير من مظاهر الحرية الأكاديمية للطلاب كما هو الشأن فى بعض النظم الجامعية الأخرى، وعلى سبيل المثال فإن نظام الساعات المعتمدة يتيح للطالب حرية اختيار وقت المحاضرة، والمادة المقررة ، والأستاذ الذى يدرسها عندما يطرح عددا من المجموعات مختلفة الأوقات ومتعددة المعلمين ، وكما سبق أن أشرنا فإن المناخ القائم على حرية الاختيار، يشجع على المشاركة، أيا كان مجالها فى أغلب الأحوال.

وفى نهاية دراستنا لايسعنا إلا أن نؤكد أنه من الخطأ تصور أن المجتمع الجامعى «صوبة» تربوية منقطع الصلة بما يجرى فى المجتمع الأصل ، بل لنقل ما هو أكثر من ذلك أن المجتمع الجامعى إن هو إلا مرآة، بصورة ما ، من المجتمع الأصل ، إن خيرا فخير وإن شراً فشر فإذا كانت المشاركة السياسية تعد أحد مظاهر الديمقراطية ، فلابد من الاعتراف بوجود عدد من السلبيات التى لا تجعل من المناخ العام مهيأ كى يعين على تربية سياسية تتسم بالإيجابية والمشاركة، ويمكن الإشارة فقط إلى عناوين هذه السلبيات ، مثل مايحدث من حراسات على بعض النقابات، وعدم تداول السلطة ، واحتكار الدولة للإذاعة والتليفزيون، وسيطرتها على دور الصحف الكبرى، وقانون الأحزاب الذى ينتهى إلى أن تقرر الدولة نفسها ما يسمح به أو لا يسمح من الأحزاب ، وندرة الشفافية فيما يتصل بكثير من الأحداث المتعلقة بممارسات السلطة السياسية..

عالم السوبر ماركت العجيب!

بقلم : د. جلال أمين

عندما أخرج شارلى شابلن فى أوائل الثلاثينات، فيلمه الشهير «العصور الحديثة»، لم يكن السوبر ماركت قد ظهر بعد. لم يكن متاحاً لشارلى شابلن إذن، للتعبير عما فعلته العصور الحديثة بالانسان من سلبه صفات الآدمية، وتحويله إلى آلة أو ما يشبه الآلة ، إلا تصوير العامل المسكين فى داخل المصنع الحديث. صوّر هذا الفيلم العامل وهو واقف كالأبله أمام خط التجميع. (assembly line).



وهو شريط متحرك يحمل جزءا بعد آخر من أجزاء السلعة المطلوب تصنيعها أو تجميعها، فيسير هذا الشريط أمام العمال الثابتين فى أماكنهم طوال اليوم ، وقد عهدت إلى كل منهم مهمة محددة بسيطة للغاية، كتثبيت مسمار أو تحريك مقبض، وذلك قبل أن تصل السلع إلى العامل الذى يليه فيثبت فيها مسمارا آخر أو يحرك مقبضا آخر .. إلخ. وعلى كل عامل أن يقوم بمهمته بالسرعة التى تتفق مع سرعة سير الشريط وإلا اختل النظام وانتقلت السلعة إلى العامل التالى ناقصة أو معيبة. وهكذا تصبح سرعة العامل وحركته تابعة لسرعة الآلة وحركتها وليس العكس. كان دور شارلى شابلن فى الفيلم هو دور هذا العامل المسكين الذى يكرر مثل هذه العملية البسيطة آلاف المرات كل يوم، فلم يمض عليه وقت طويل حتى أصابته لوثة أودع بسببها مستشفى الأمراض العقلية..

لم يكن شارلى شابلن قد رأى بعد السوبر ماركت الحديث، إذ لو كان قد رآه لأضاف بلاشك مثالا آخر لا يقل قوة، لسلب آدمية الانسان فى المجتمع التكنولوجى الحديث. بل إن اسم «خط التجميع» يبدو أكثر ملاءمة بكثير لما يحدث فى السوبر ماركت منه لما يحدث فى المصنع، مع فارق واحد بسيط، وهو أن العامل فى المصنع ثابت فى مكانه لايتحرك بينما يتحرك أمامه الشريط الحامل للسلعة التى يجرى تصنيعها، بينما الذى يتحرك فى السوبر ماركت هو الانسان نفسه، والسلع ثابتة فى مكانها. فى المصنع تعرض السلعة نفسها على العامل ليجرى عليها التعديلات اللازمة حتى تخرج السلعة من المصنع تامة الصنع وجاهزة للاستعمال، أما فى السوبر ماركت فإن المستهلك هو الذى يعرض نفسه على السلع الثابتة والمعروضة على الرفوف، فتجرى هذه السلع على نفسية المستهلك التعديلات اللازمة حتى يخرج المستهلك من السوبر ماركت «تام الصنع»، وجاهزا للاستهلاك. لتوضيح ذلك فلنتتبع ما يحدث للمستهلك منذ دخوله من باب السوبر ماركت وحتى يخرج منه، فسنجد العجب العجاب.

التروللى المدهش :

عند باب السوبر ماركت يجد الواحد منا سلة معدنية هى أقرب إلى المركبة منها إلى السلة ، إذ أنها وعاء كبير يقوم على أربع عجلات، وأحيانا تكون من الفخامة بحيث تتسع لركوب طفل صغير فى جانب منها، تسير به أمه أو أبوه فى شوارع السوبر ماركت التى يطلق عليها بالفعل اسم الحارات أو الشوارع (lanes)، ريثما يتم جمع السلع من الرفوف المختلفة.

لم تكن هذه السلة (التى تسمى الآن بالترولى) ، عندما بدأ ظهور السوبر ماركت أكثر من وعاء صغير من البلاستيك يحمله المرء بيده، ثم اكتشف أصحاب

السوبر ماركت نقطة ضعف خطيرة فى زبائنهم، لم يترددوا فى استغلالها، وتتمثل فى النزوع الطبيعى لدى الانسان إلى ملء ما كان فارغاً. إذا كان الأمر كذلك فإن اعطاء الزبون سلة عظيمة الحجم سوف يدفعه دفعا إلى ملئها بمختلف السلع المعروضة عليه، أو على الأقل ملء الجزء الأكبر منها. إذ لابد أن يبدو منظر السلة الضخمة وهي لا تحتوى إلا على علبة صغيرة أو رغيف خبز واحد مثلا، منظرا غير طبيعي بل وقد يثير بعض السخرية. لقد انقلب الأمر إذن عما كان فى الماضى، فبعد أن كان الحال في الماضى أن يشترى المرء ما يحتاجه ثم يبحث عن الوعاء اللازم لحمله، أصبح الحال في السوبر ماركت الحديث، أن يحدد حجم الوعاء فى البداية ثم تتحدد كمية السلع المشتراة طبقا لذلك.

* * *

خرافة «حرية الاختيار»

منذ أن يتسلم زائر السوبر ماركت هذا الترولل المدهش ذا الأربع عجلات، يكون قد وضع نفسه تحت رحمة البائع ليفعل به ما يشاء. فهو إذ يتنقل من قسم لأخر من أقسام السوبر ماركت ؟ من قسم منتجات الألبان، إلي قسم اللحوم، إلي قسم النشويات إلي قسم المربات، إلي قسم المشروبات الغازية.. إلخ يجد نفسه وجها لوجه مع عدد لا نهائي من أصناف السلع الواحدة يقف أمامها كالمشدوه لا يعرف كيف يتصرف. إن الاقتصادى يقول لنا إن زيادة عدد السلع والأصناف على هذا النحو يوسّع من دائرة حرية الاختيار المتاحة للمستهلك، ولكن يبدو أن الأقرب إلي الصحة أن حرية الاختيار يشترط لمارستها ألا يتجاوز عدد الأشياء المعروضة حدا معينا، فإذا تجاوز عددها هذا الحد يصاب المستهلك بحيرة بالغة قد تعطّل تماما قدرته على الاختيار، ويصبح فريسة سهلة لأى إغراء أو إلحاح من جانب المنتج أو البائع.

أنظر مثلا إلي قسم الجبن، تجد أمامك عددا من أصناف الجبن قد يتجاوز المائة، فتجد الجبن الأبيض والأصفر والأحمر، شديد الملوحة وقليل الملوحة القديم والجديد، كامل الدسم وعديم الدسم وما بينهما، الصلب واللين، ما يمكن أن يعيش مدة طويلة دون أن يفسد وما يجب استهلاكه فورا، ما يصلح للأكل مباشرة وما هو أصلح للطهى، ومن كل هذه الأصناف هناك المحلى والمستورد، والحجم الذى يلائم الفرد الذى يعيش بمفرده والحجم العائلى.. إلخ المطلوب منك - طبقا للنظرية الاقتصادية التى تفترض فيك أنك مستهلك عاقل رشيد، لا تلقى بالمال دون حساب أن تقارن بين كل هذه الأصناف المعروضة عليك، فتوازن بين مزاياها ونقائصها، ثم تقارن هذه المزايا والنقائص بأثمان الأصناف المختلفة بل المفروض أيضا، إذا كنت مستهلكا رشيداً مائة بالمائة، أن تقارن كل هذا، فى هذا السوبر

ماركت بالذات، بما تجده فى السوبر ماركت المجاور، وذلك قبل أن تتخذ قرارك النهائى. وهو جهد يفوق فى الواقع طاقة البشر. بل إن صاحب السوبر ماركت لا يتركك لإجراء هذه المقارنات فى هدوء بفرض إمكانها أصلا إذ يواجهك إعلان كبير وضع فوق أحد الرفوف، يخبرك بأنك إذا اشتريت هذا الصنف دون غيره تكون قد «ادخرت» جنيها أو جنيهين، مع أنك كنت تظن أن شراءك لهذا الصنف أو غيره يتضمن انفاقا وليس إدخارا. كما أن صاحب السوبر ماركت حريص علي اتباع طريقة معينة وخبيثة فى كتابة الأسعار على كل صنف، فبدلا من أن يكتب «خمسة جنيهات» مثلا على أحد الأصناف يكتب ٤٩٩ قرشا، مستغلاً نقطة ضعف أخرى مدهشة فينا جميعا، وهى أننا إذا رأينا هذا الرقم (٤٩٩) نتصرف تلقائيا إلى الظن فإن الرقم أقرب إلى أربعة منه إلى خمسة، ويظل المستهلك يرتكب هذا الخطأ المرة تلو الأخرى دون أن يتعلم الدرس قط.

يبدو أيضا أن المرء منا إذا رأى صنفا معينا من سلعة ما، وليكن الجبن مثلا، وقد وضع على الرف وسط عشرات الأصناف الأخرى المتعددة الأشكال والألوان، يرى فيه جاذبية لا يتمتع بها إذا رؤى منفردا، إذ يضفى المنظر العام وتعدد الأشكال والألوان جمالا وبهاء على كل صنف من الأصناف، لا يتمتع بها أيها على حدة، فإذا قرر أحدنا شراء أحد هذه الأصناف ووضعه فى سلته، فإنه يفعل ذلك وهو يتخيّل أنه يحصل بهذا الشراء على المنظر بأكمله أو على الرفّ برمّته، فإذا عاد إلى بيته وأخرج ما اشتراه ونظر إليه اعترته الدهشة وخيبة الأمل إذ يرى أن ما اشتراه لم يكن الا قطعة يتيمة من الجبن لم يكن لها فى الحقيقة كل هذا البهاء الذى ظنّه فيها.

طعام بلا غذاء

منذ نحو ثلاثين عاما، أى فى بداية السبعينات، بدأ يشيع فى دول الغرب اهتمام متزايد، كاد يبلغ درجة الهوس، بما يجب على المرء عمله للمحافظة على صحته وإطالة عمره والاحتفاظ بلياقته البدنية ورشاقته. ويصعب تحديد منشأ هذه الظاهرة والباعث عليها. هل هو ما أسفرت عنه البحوث الطبية من اكتشاف لأخطار ارتفاع نسبة الكولسترول فى الدم مثلا ، أو ارتفاع نسبة السكر، أو انتشار ضغط الدم المرتفع، أو أخطار السمنة المفرطة ومزايا النحافة.. إلخ ؟، أم أن السبب هو أن الناس إذا بلغوا حدا معينا من الرخاء والرفاهة وتضاءلت لديهم مشكلة العوز والحاجة، لابّد أن يجدوا لأنفسهم شاغلا آخر ينصرفون إليه ويحملون همّه؟ . أيا كان السبب فإن من المؤكد أن المنتجين والبائعين قد استغلوا لصالحهم انتشار هذا الهوس بالصحة واللياقة البدنية والرشاقة، وقد يكونون قد

عملوا على زيادة انتشاره وتقويته. قد يبدو وهذا القول غريبا لأول وهلة، إذ المفروض أن يؤدى تزايد الشعور بخطر ارتفاع نسبة الكولسترول أو السكر أو البروتين أو بأهمية الرشاقة والنحافة إلى تخفيض الاستهلاك بوجه عام، ومن ثم أن ينعكس هذا فى انخفاض الطلب على مختلف السلع الغذائية. ولكن يبدو أن العكس بالضبط هو الصحيح. ألا نرى حالنا فى شهر رمضان مثلا، والمفروض أن يكون شهر الجوع والزهد، فإذا به يتحول إلى شهر يرتفع فيه حجم الانفاق ارتفاعا ملحوظا، بما فى ذلك الانفاق على السلع الغذائية نفسها. كذلك ما حدث فى الغرب، إذ قلب المنتجون والبائعون هذا الهوس بالصحة والرشاقة رأسا على عقب، فبدلا من أن يصبح خطرا يهدد البيع والتسويق، خلقوا منه مناسبات جديدة للبيع والشراء.

إنى لا أقصد فقط الأجهزة الرياضية التى شاع استخدامها فى النوادى وفى داخل البيوت للمحافظة على الرشاقة واللياقة البدنية، أو أجهزة قياس الضغط أو السكر السهلة الاستخدام والخفيفة الوزن والتى يمكن لأى فرد أن يحملها معه إلى أى مكان ، ولا أقصد فقط تلك الملابس الجديدة التى تستخدم أثناء رياضة الجرى أو المشي السريع، أو أجهزة الراديو المحمول وما يصاحبها من سماعات صنعت خصيصا لهؤلاء الممارسين اليوميين لهذه الرياضة. بل أقصد أيضا الترويج للسلع الغذائية نفسها.

صحيح أن هذا الخوف الجديد من المواد الدهنية أو السكرية أو البروتينية يمكن أن يصرف الناس عن أصناف معينة من السلع، ولكن ما رأيك فى ابتداع أصناف بديلة يروّج لها، لا بالكلام عما تحتويه من صفات رائعة ، بل بالكلام عما تخلو منه من صفات! فهذه الأصناف الجديدة يروّج لها، ليس بالقول فإنها مغذية أو لذيذة الطعم أو حلوة المذاق، بل على العكس بالضبط يروج لها بالقول بأنها ذات سعرات حرارية منخفضة للغاية، أو بأنها تخلو من أى حلاوة، أو بإنها قليلة الدسم أو حتى عديمة الدسم، أو فإنها لا تحتوى على أى دهون على الاطلاق، أو أى بروتينات، أو أى سكر، حتى ليكاد المرء أن يسأل نفسه: «إذا كانت هذه الأصناف كما يقولون خالية حقا من كل هذه الأشياء، فأى نفع يمكن أن نجنى من ورائها؟».

الكاميرا الخفية :

أثناء سيرك فى ممرات السوبر ماركت ، تصل إلى أذنيك بعض الأنغام الرقيقة التى تتسم بخفوت الصوت حتى لا تصرف انتباهك عما يجب التركيز عليه من سلع، ولكنها تضفى مع ذلك جواً من الرومانسية والشاعرية يساعد على خلق شعور بالتفاؤل والرضا على الحياة، ومن ثم يساعد أيضا على أن تتخذ قرارات

إيجابية إذا حدث وترددت بين الشراء وعدمه.

إن صاحب السوبر ماركت حريص إذن على زيادة ثقتك بنفسك واطمئنانك إلى المستقبل، إذ أن هذا الشعور كفيل بالتشجيع على الانفاق، ولكن صاحب المتجر نفسه لا يشعر بثقة كبيرة فيك ولا يطمئن إليك بدرجة كبيرة. الدليل على ذلك، ذلك العدد الكبير من الكاميرات الخفية التى بثها صاحب المتجر فى أماكن متعددة، لكى تنقل إليه صور الزبائن من الأمام ومن الخلف أثناء تجولهم فى السوبر ماركت ، وذلك تجنبا لأى خطر يتمثل في قيام أحد الزبائن، استسلاما لكل ما يعرض عليه من إغراءات، بسرقة بعض ما يجده على الرفوف، فيدسّه فى جيبه ويخرج به دون أن يدفع ثمنه.

هذه الحقيقة المتعلقة بالكاميرات الخفية ليست فى الواقع سراً يحجبه البائع عن زبائنه، بل إنه يجاهر به ويعلنه بصراحة أملا فى أن تؤدى هذه المصارحة إلى تقليل حجم السرقات. وإنما المدهش حقا أن هذه الحقيقة، حقيقة خضوع الزبائن للمراقبة الدقيقة والتصعيد المستمر، لا يبدو أنها تسبب أى ازعاج لزبائن السوبر ماركت، أو تثير غضبهم ، لما ينطوى عليه هذا الإجراء من اتهام صريح لهم بقلة الذمّة . قد يكون سبب هذا أن الإهانة فى هذه الحالة ليست موجهة لشخص معين دون غيره بل هى موجّهة للجميع، ومادام الجميع يعاملون هذه المعاملة ويقادون كقطعان الماشية دون تمييز بين زبون وآخر، فليس هناك مبرر لأن يغضب أحد لكرامته أو يمتنع عن الشراء لمجرد أن البائع يشك فى ذمته.

وقت الحساب :

يتابع زائر السوبر ماركت سيره، مضيفا سلعة بعد أخرى إلى سلّته، دون أن يكون لديه إلا فكرة تقريبية جدا عن إجمالى المبلغ الذى عليه أن يدفعه، حتى يصل إلى وقت الحساب. وأمام الآلة الحاسبة يقف بضع لحظات ريثما تجمع العاملة قيمة ما اشتراه. لايريد صاحب المتجر أن يضيّع هذه الفرصة الذهبية التى يقف فيها المستهلك بضع لحظات لا يفعل خلالها شيئا ريثما تنتهى العاملة من حساباتها. ذلك أن هذا المكان هو فى الواقع مكان رائع لوضع بضع سلع صغيرة تحت نظر المستهلك مباشرة، وهى سلع اختيرت بعناية وتتسم كلها بالضآلة النسبية فى السعر وفى الأهمية على السواء، مثل قطع الشوكلاته أو اللبان، مما يمكن أن يقول المستهلك لنفسه إذا رآها: «إذا كنت قد اشتريت كل هذه الاشياء، وسأنفق كل هذا الانفاق فما الضرر من قطعة صغيرة من الشوكلاته أو اللبان ، لها فائدتها بلا شك ، ولن تضيف شيئا يذكر إلى إجمالى الحساب».

عندما يتم اضافة هذا القطعة من الشوكلاته أو اللبان إلى الترولى، يكون

السوبر ماركت قد امتص آخر قطرة من دم المستهلك ، ويكون قد تم تطويع المستهلك وترويضه وأصبح من الممكن السماح له بالخروج - بعد أن يدفع ما عليه بالطبع فقد أصبح هو نفسه «سلعة تامة الصنع» .

السوبر ماركت ومحل البقالة القديم :

قبل أن أنهى هذا الوصف لما يفعله السوبر ماركت بالمستهلك أودّ أن أذكّر القارىء الكريم بشىء قد يكون قد نسيه، وهو ذلك البقّال القديم الذى كنا نشترى منه حاجاتنا عندما كنا صغاراً . وأريد على الأخص أن ألفت نظر القارىء إلى فارقين مهمين بين محل البقالة القديم والسوبر ماركت الحديث.

الفارق الأول : هو أننا عندما كنا نقصد محل البقالة القديم، القائم على ناصية الشارع، لم نكن لنفعل ذلك إلا إذا نشأت لدينا حاجة إلى سلعة بعينها، نعرفها بكل أوصافها. فإذا ذهبنا إليه طلبنا ما نحن بحاجة إليه وعدنا به. أما فى السوبر ماركت الحديث فأنت كثيرا ما تقرر الذهاب إليه لا لأنك تشعر بحاجة إلى شىء معين تعرفه جيدا، وإنما لأنك تريد أن تتسوّق . إنك لا تذهب لشراء «مايجب» شراؤه، ولكن لترى ما الذى «يمكن» لك شراؤه ، فإذا بك تنتهى من زيارتك بشراء ما لم يخطر ببالك شراؤه قط قبل أن تدخل من الباب.

الفارق الثانى : هو أنك كنت إذا ذهبت إلى محل البقالة القديم نجد بمجرد دخولك من تكلمه ويكلمك، بل كنت فى معظم الأحيان تعرف اسم البائع وكثيرا ما كان يخاطبك باسمك . كثيرا ما كنا نبدأ البائع بالسؤال: عندك جنبه رومى؟» أو «عندك زيتون أسود»؟ فإذا كان لديه هذا أو ذاك قد نطلب منه أن يناولنا قطعة صغيرة من الجبن أو حبّة من حبّات الزيتون لتذّوقها قبل أن نتورط فى الشراء. ذلك أن ما لديه من جبن قد يكون أكثر ملوحة مما نحب والزيتون قد يكون أكثر أو أقل مرارة مما نريد. كانت هذه السلعة أو تلك تأتى إلى البقال بكميات كبيرة يقوم هو بتجزئتها وتغليفها، ومن ثم فلم يكن ثمة ضرر كبير من أن يتذوق الزبون قطعة من السلعة قبل أن يقرر شراءها. بل كان من المألوف والشائع أن يعرض عليك البائع أن تتأكد بنفسك من أن السلعة طازجة أو كاملة النضج، فإذا بدا منك مثلا أى شك فى حالة البطيخة التى يقدمها لك أصرّ على أن يكون شراؤك لها «على السكّين»، فيكسرها أمامك فإن لم تعجبك تركتها وأخذت غيرها. لم يعد شىء من هذا ممكنا بالطبع فى السوبر ماركت . إذ فلتحاول إذا شئت أن تشترى بطيخة «على السكين» ، فى أحد هذه المحلات العظيمة ، أذ فلتحاول أن تطلب

تذوّق هذا الصنف أو ذاك، هذا بفرض أنك وجدت أحداً تكلّمه ويكلّمك . نحن الآن فى عصر المعلّبات والمحفوظات والمثلجات ، مما يستحيل تذوقه إلا بعد أن تتم واقعة الشراء.

قد تقول: وما العيب فى ذلك؟ ألا تجد الآن على كل سلعة وكل صنف مربعاً صغيرا كتب فيه بدقة بالغة وبتفصيل يدعو للاعجاب: عدد السعرات الحرارية التى يحتويها كل ١٠٠ جرام من السلعة، وكمية ما تحتويه بالضبط من دهون ومواد سكرية أو بروتينية.. إلخ؟ ما الذى يمكن أن تريد معرفته أكثر من هذا ؟.

أما عن طزاجة السلعة أو فسادها، ألا تجد الآن على كل سلعة تاريخين مكتوبين بكل وضوح، أحدهما هو تاريخ الانتاج والآخر تاريخ انتهاء الصلاحية؟ هل تطمع فى تطبيق أكثر صرامة من ذلك لقواعد العلم الصحيحة ، أو حرصا أكبر من هذا على سلامة المستهلك وصحته ؟»

كل هذا صحيح بلاشك ، ولكنى مع ذلك ألفت نظر القارىء إلى أمرين، الأول أنك، فى ظل كل هذه المعلومات المكتوبة على كل سلعة، والمطلوب منك قراءتها، واستيعابها ، لا تشترى الآن فى الحقيقة جبنا أو زيتونا ، بل تشترى سعرات حرارية أو بروتينات أو مواد سكرية ، وفى هذا العصر المدهش للمعلومات، يتوارى شيئا فشيئا الذوق الشخصى للمستهلك ، هذا الذوق الذى يختلف من شخص لآخر، ليحل محله التحليل الكيميائى الذى يتساوى ازاءه الناس جميعا ..

والأمر الثانى : هو أنه فى نفس الوقت الذى بدأ فيه المنتج فى ذكر تاريخ الانتاج وتاريخ انتهاء الصلاحية، بدأ أيضا فى ابتداع مختلف الوسائل لإطالة عمر السلعة لأقصى حد ممكن، إما بتعديل صفات السلعة نفسها، منذ اختيار البذور إلى تعليبها أو تغليفها، أو بإضافة مختلف المواد الكيماوية «الحافظة» التى تزداد الشكوك يوما بعد يوم حول مدى الضرر الذى تسببه لصحة المستهلك.

وإذا بنا نجد أعدادا متزايدة من المستهلكين يفضلون العودة إلى نظام البقالة القديم حيث تباع السلعة بحالتها الطبيعية. وقد أطلقت هذه المحلات الجديدة على ما تبيعه من سلع غذائية اسما مدهشا هو «مواد غذائية ملائمة للصحة» (Health Food) ، وهو وصف مدهش لأنه إذا كان صحيحا ، فإن من شأنه أن يثير الكثير من الشكوك حول كثير مما يعرضه السوبر ماركت من سلع غذائية، وكأنه قد أصبح من المناسب أن تعلّق يافطة فوق هذه السلع تحمل تحذيرا لزائر السوبر ماركت بأن ما يراه أمامه هو «سلع مضرة بالصحة» .

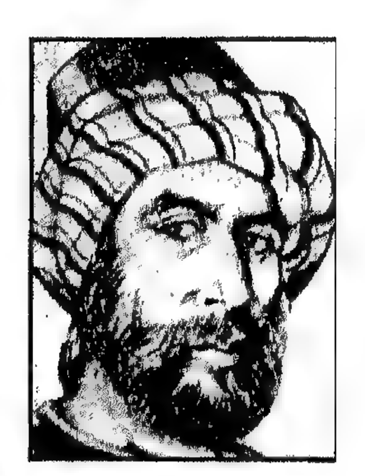
خواطـــــــــر مســـــــافر

بقلم : مصطفى نبيل

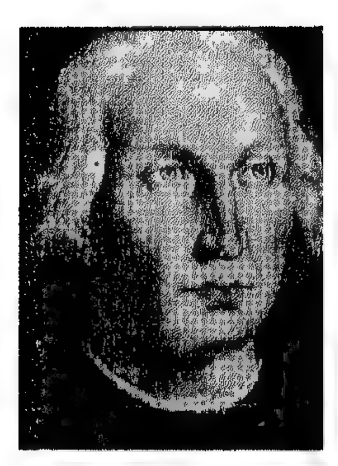
تتسابق اليوم الأسفار مع الفضائيات..

ولم يعد السفر مثلما كان، متعبا أو كثير النفقات، فتستطيع اليوم أن تسافر إلى أقصى الأرض، وأنت جالس على مقعدك أمام التليفزيون أو الفيديو أو الإنترنت. تشاهد بالكلمة والصورة أى مكان فى العالم.

وها هى الرحلات تصبح أسهل وأيسر ، واختفت منها المعاناة وحس المغامرة، بعد أن استبدل الإنسان بقطع المسافات علي قدميه أو راكبا الجمال والخيول ركوب السيارات والقاطرات والبواخر العملاقة والطائرات المجهزة بكل وسائل الراحة. وأصبح المسافر وكأنه يمر خلال أنبوب ينتهى به إلى مطار البلد الذى يقصده، فما يكاد يستقر داخل الطائرة حتى يجد نفسه قد وصل إلى هدفه ، وما كان فى الماضى يستغرق شهوراً أصبح اليوم يستغرق ساعات، ولم تعد الأسفار تعلم الصبر على الشدائد واحتمال الصعاب، فأغلب المسافرين اليوم من العجائز الذين وصلوا إلى سن التقاعد، ولم يعد ينقصهم سوى الطواف حول العالم.



ابن بطوطة



كريستوفر كولمبس

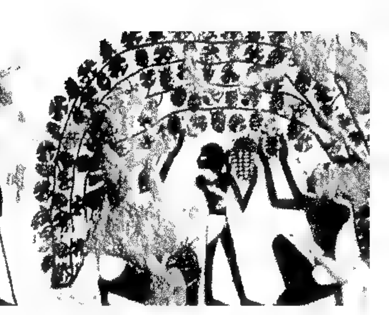
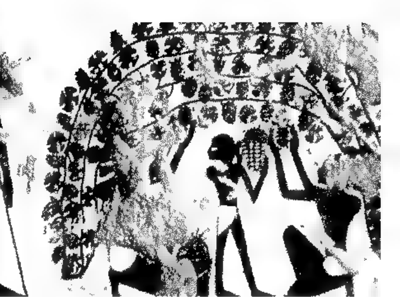
ووضعت الفضائيات العالم بين يديك، تستدعيه بلمسة من أناملك، وأصبح العالم كتابا مفتوحاً ، أمام نظر كل الشعوب، فإذا كان العالم في الماضي قرية صغيرة مبعثرة، فهو اليوم قرية واحدة صغيرة ، فهل ستبقى «الرحلة» بمعناها التقليدي أم ستندثر؟! أم هل دخلت الرحلة مرحلة تاريخية جديدة؟ .. وهل مازال «القلم والعدسة» يلعبان الدور الجوهري في أدب الرحلات أم انتقلت إلى التليفزيون الذي ينقل بالصوت والصورة حياة وعادات الشعوب، وألسنتهم المختلفة وطرق حياتهم، ترى على شاشاته المناظر الحية والفنون والعمارة والمتاحف والأسواق، والغابات والجزر والواحات.

وأصبح الرحالة سائحين يسلمون أمرهم إلي غيرهم ، واختفى المكتشف المغامر، وأصبح المسافر شخصا سلبيا، مما يؤثر بالضرورة على أدب الرحلات في ظل التطورات التكنولوجية الحديثة ، وينقل الرحلة من الكلمة المكتوبة إلى الإنترنت والتليفزيون.

كان حلمي منذ الصغر هو التجول في البلاد المختلفة، وزادت رغبتي في السفر والتطلع بشوق إليه، عندما تبينت أن اسمي في قائمة الممنوعين من السفر ولم يتجاوز عمري خمسة عشر عاما عندما كنت طالبا في المدرسة السعيدية، وطلبت الانضمام إلى رحلة مدرسية إلى السودان - لاحظ أن المدارس الثانوية كانت تتيح الفرصة لطلابها للتجول في البلدان العربية - ، وبعدها وعندما رغبت في السفر مع أسرتي إلي كل من سوريا ولبنان لم أحصل على تأشيرة خروج، ولم يبق لي سوى التجول في هذه الأصقاع من خلال ما قرأته، وأترك بقية الرحلة لخيالي، ثم مكنتني ظروف عملي أن أحقق بعض ما حلمت به، وزرت بالفعل معظم بلاد العالم.

حقا .. لقد ولد الإنسان راحلاً، إن أعجزته الرحلة أسعفه الخيال. وتعلمت من خلال هذه الرحلات أنه لابد أن ترى الغير بمنطقه لا بمنطقك، وتتعرف على أفكاره بصرف النظر عن أفكارك .

ويلاحظ أن أكثر الأعمال الأدبية تشويقا في التراث هي : «ألف ليلة وليلة» التي اتخذت من الرحلة قالباً أساسياً لها، فالرحلة أكثر القوالب تشويقاً وإثارة، كما يلاحظ أيضا أن أدب الرحلات هو جماع الأجناس الأدبية المختلفة، ففيه من

الدراما والقصة والشعر والخيال. ويصبح بجاذبيته أداة تشويق القراء إلى جوانب المعرفة المتعددة.

●

والسفر تعبير عميق عن رغبة الإنسان فى كشف المجهول واختراق الآفاق، واكتساب المعارف الجديدة، كما أن فى السفر رغبة دفينة فى الفكاك من أسر المكان، والتخلص من قيود الإقامة فى مساحة محددة، لذلك كلما حاصرت المرء المشاكل والصعاب داهمته الرغبة العميقة فى الرحيل.. ويعبر عن ذلك الرحالة العربى المسعودى بقوله .. «ليس من لزم وطنه، وقنع بما إليه من أخبار، كمن قسم عمره على قطع الأقطار، ووزع بين أيامه تقاذف الأسفار، واستخراج كل دقيق من معدنه ، وإثارة كل نفيس من مكمنه..».

فمع السفر تشعر برعشة الدهشة مع كل جديد، والرغبة الجامحة فى الاكتشاف، وتحس أنك فى حالة تجدد مستمر ، وكما قال أبو تمام :

وطول مقام المرء فى الحى مخلق
لديباجتيه ، فاغترب تتجدد

والسفر رياضة النفس وتهذيب الطبع، وتثقيف الفكر، والرحلة اكتشاف للإنسان وللعالم من حوله ، وتتألق .. إن كانت عين المسافر ثاقبة، وإذا تمتع المسافر بقوة الملاحظة، وشهوة التطلع ، ويقظة الحواس، والرغبة فى التفاعل والحوار مع الثقافات المختلفة، والحرص على التسجيل، وتعمل أيضا الرحلة على التعرف على أسلوب الحياة والتقاليد والعادات والقيم والأدوات والفنون والمأثورات الشعبية لدى الشعوب التى يزورها . ولا يفوتنى هنا قول الشاعر البريطانى ت . س . إليوت .. «ارتحلوا.. انطلقوا، فأنتم لستم نفس الأشخاص عند بدء الرحلة ..».

ومن يدرك عظمة التنوع بين البشر من العسير أن يقبل التعصب أو يسمح بالعزلة، فالسفر كشف للذات وانفتاح على الآخر.

ورغم أن ملوك مصر الفرعونية سجلوا جانباً من رحلاتهم على جدران المعابد، خاصة ما سجلته على جدران معبد الدير البحرى الملكة حتشبسوت عن الرحلة إلى الجنوب، إلا أنه استوقفنى عدم معرفة المصريين بمنابع النيل حتى العصر الحديث، وتصور المصريون أن نهر النيل ينبع من الجنة، أو تتدفق مياهه من القمر، حتى قام الرحالة الأوربيون باكتشاف منابع النيل فى القرن الماضى، وأدهشنى عدم قيام أحد الرحالة ، بتتبع نهر النيل حتى منابعه، رغم الشلالات والصحراء والغابات التى سيقطعها ، ولم ينقل لنا التاريخ قيام أحد بهذه المحاولة.

هذا رغم أن ابن فضلان وحده هو الذى أمد العالم بالمعرفة عن شمال أوروبا وعن الفايكنج سكان الشمال فى العصور الوسطى من خلال رحلته التى سجلها فى كتابه ، كما أن العالم الحسن بن الوزان أو ليون الأفريقى العالم بالمعرفة عن بعض المناطق الأفريقية قبل العصر الحديث، ويعتبر كتاب «وصف أفريقيا» الكتاب الوحيد الذى يتناول الحياة فى عدد من البلاد الأفريقية .

●

أتخيل دائما مدى شغف وفضول الرحالة المغربى ابن بطوطة أو الإيطالى ماركو بولو فى التعرف على العالم الذى يعيش فيه، ومدى ما تمتع كل منهم من الإقدام والشجاعة، وكذلك مدى شجاعة ابن ماجد أو كولمبس وهو يبحر فى بحر الظلمات، من أجل الوصول إلى عوالم جديدة.

واهتم الإدريسى بهذه الحالة، التى تؤدى إلى تطور الأمم، وهى التي تؤدى إلى التقدم. يقول فى كتابه «نزهة المشتاق .. واختراق الآفاق» لاحظ العنوان، قصة «رحلة فتية ركبوا البحر المظلم، وظلوا فيه أشهراً، بعد أن خرجوا لرؤية عجائبه وخوارقه وأسراره وحتى يقفوا على نهايته.».

وتؤكد هذه القصة أن المجازفة وراء المعرفة ، ولم يكن غريبا أن تشارلز داروين أحد كبار العلماء فى القرن التاسع عشر وصاحب نظرية النشوء والارتقاء، قيامه برحلة حول العالم على ظهر إحدى السفن، وجاءت نظريته إحدى نتائج هذه الرحلة، ونشر داروين تفاصيل رحلته حول العالم عام ١٨٤٢، واعتبرها البعض أمتع ما كتب داروين، لما تميزت به من طبيعة أدبية، وسجل خلالها الحقائق والمشاهدات مع تقديم تفسير علمي لها.

ولا يسعني أخيراً سوى أن أنشد مع ناظم حكمت قوله :

لا تحيا على الأرض كمستأجر بيت
أو زائر ريف يتأمل اشراقه
بل عش فى العالم
وكأن العالم بيت أبيك
امنح ثقتك للحب وللأرض وللبحر.

بين الحياة والموت

بقلم : حسن سليمان

لا أدرى ماذا أكتب كأنى أصرخ فى الفراغ، الذى أبعد الآخرين عنى، أسمع صوتهم أعلى من صوتى تجاه فراغ آخر، إنهم هم الذين قطعوا ذلك الفراغ إلى اثنين كأنهم كانوا الوحيدين الذين قدر لهم ألا نلتقى رغم وهم بأنهم وأنا نلتقى. لذلك فالكلمات أعجز عن التحدث عن إسرائيل ومذابحها وتاريخها الطويل من الوحشية وتقاعس الامة الإسلامية .

صبرى راغب وأنا

فجأة حين وصلت إلي ميدان التحرير ذات ظهيرة وجدته يكاد يكون مرتبكا، فهناك جنازة شبه رسمية مع أكاليل الزهور التي لا تعد ولا تحصي، أما عن المشيعين فلا تتحدث. لم أر في حياتي جنازة بهذه الضخامة.

سألت من الراحل قالوا أحد الأساتذة بالجامعة . قلت إن أساتذة الجامعة يموتون كل حين ولا أحد يشعر بهم.

وحينما انتظرت حتى سارت الجنازة كلها. عبرت الشارع إلى ميدان الشيخ بركات متنفسا الصعداء .وفى اليوم التالى وبصفتي مولعا بقراءة البخت والوفيات فى جريدة «الأهرام» ، ودائما تستفزنى الصور التى تنشر للمتوفين ـ فأحيانا ما تتصدرصفحة «الأهرام» كاملة وجه المتوفى . ويتساوى عدد الذين ينعونه مع عدد الذين ينعون رئيس الوزراء، أو وزير أو حرم رئيس مجلس إدارة المهم أن يتسابق الكل، وأن تتسابق الشركات والمصانع لمجاملة الرجل الذى ترتبط مصالحهم بمصالحه . وفى هذا اليوم الذى مات فيه الأستاذ وجدت نعى الوزراء والشركات ورجال الأعمال والشركات له. وكثيرا ما تستمر مثل هذه الحملات الغريبة من التعازى لمدة قد تصل إلى ثلاثة أيام.

فى صبيحة الجنازة وجدت أكثر من



صورة شخصية للفنان صبرى راغب بريشته

أربع صفحات لنعي أستاذ الجامعة .بعد ذلك نسى الأستاذ كلية ولم يتحدث عنه أحد. وظلت صفحة الوفيات تستثيرني.

ومنذ أكثر من شهرين توفى الفنان صبرى راغب ، وعلاقتى بصبرى راغب نرجع الى سنوات مضت فقد ترك الكلية غير آسف وذهب الى إيطاليا وظل هناك واستطاع أن يشق طريقه بمهارة يده ثم رجع ثانية بعد سنوات تربو على عشر فقبل فى نفس السنة التى ترك فيها الكلية.

أذكر أول لقاء معه ، كنا فى كلية الفنون. كان عميد الكلية في ذلك الحين هو عبدالمنعم هيكل وفجأة رغم اعتراض الأساتذة والطلبة على أن الجرس لن يشكل أى شىء فى مسار الدراسة بكلية الفنون فالمشروع قد يستغرق أسبوعا أو أكثر فى يدى الطالب. فما قيمة الجرس؟ والدروس،وهى قليلة، مثل التشريح وتاريخ الفن واللغة الايطالية يخصص لها يوم الخميس فقط فما قيمة الجرس نهائيا؟ فى ذلك الوقت كان صبرى راغب فى كلية الفنون هو أنبغ طالب فى الكلية فهو مدلل من الأساتذة ومن الإدارة ومن الموديلات وهذا تقليد أخذناه من كلية الفنون الفرنسية اذ معناه ميلاد فنان جديد. كنت أنا فى البكالوريوس ملقى على الأرض تحت أقدام ضابط الكلية لطيف نسيم ، وهو فنان لايقل عن الأساتذة كفاءة لكن لأنه «ابن ذوات» ذهب الى روما وعمل فى الأكاديميات الحرة فهو ليس فى حاجة إلى شهادات، كنت ملقى تحت أقدامه نائما، وبجوارى إبراهيم شهده المتصدر السنة الثالثة . كان طويلا جدا وكنت قصيرا جدا، كانت الشمس شديدة حتى إننا شبكنا ساعدينا على عيوننا، لكننا رأينا عبدالمنعم هيكل يقبل نحونا ، صاح عبدالمنعم هيكل بصوته الرفيع: «ألم نسمعا الجرس؟اذهبا إلى مرسمكما» . كان صبرى راغب يجلس بعيدا على كرسى يدخن غليونه فى صمت كما يفعل لطيف نسيم، وقد وضع ساقا على ساق لم يحرك ساكنا ولم يقف حتى للعميد احتراما. ظللنا أنا وشهده نائمين فى مكاننا . نظر إلىّ شهده وقال: «الرجل ده بيقول إذهبا الى مرسمكما». فقلت «دعك منه إنه رجل عبيط» فقال شهده لعبد المنعم هيكل «إنه يقول إنك رجل عبيط» . تجاهل عبدالمنعم هيكل الإهانة.

فصاح عبد المنعم هيكل فى وجه لطيف نسيم بغيظ وهزيمة وهو لا يدرى ما علاقة الصداقة بين أسرتى وبين لطيف نسيم إذ إن لطيف نسيم أول من حملنى بعد ولادتى. صاح فى وجهه : «قومهم» ضحك لطيف نسيم ضحكته العالية الخشنة إذ لم يكن هو كذلك راضيا أن يكون فى كلية الفنون جرس، صاح فى وجهه : «قومهم أنت».

كان عبدالمنعم هيكل يحمل جميلا كبيرا للطيف نسيم فقد حدث إضراب منذ سنوات وهجم الطلاب على عبدالمنعم هيكل يريدون ضربه ، لطيف نسيم بصفته بطلا سابقا لمصر فى الملاكمة طاح فى الطلبة كلهم ضربا حتى أنزلهم أسفل السلالم «كومهم». وهكذا بهدوء انصرف عبدالمنعم

هيكل تاركا إيانا. مللنا الشمس وصاح لطيف نسيم «برافو يا ولد» وفجأة تبعني صبري راغب وعرفني بنفسه بأنه طالب بالسنة الثالثة وكان يجب أن يتخرج قبل سبع سنوات . وكانت هذه بداية صداقة عميقة بيني وبين صبري راغب. كان صبري راغب بملك مهارة فائقة وسرعة مذهلة تحير الأستاذ أحمد صبري، حتى إنه ذات مرة قال: كيف استطعت ان تنتهي من صورة مقرر لها أربعة أيام في أقل من يوم واحد؟ .

وكانت الصورة «لبورتريه» وجه امرأة فقال صبري راغب «اجلس أنت أرني أين الأخطاء؟» وإذا بأحمد صبري يلقي بالفرشاة قائلا لا أدري لا أفهم ، بعد جلوسه إذ أنه لم يجد خطأ واحدا، وترك المرسم غاضبا. كانت هذه بداية لعداوة رغم احترام صبري راغب لأحمد صبري إذ دائما لم ترتفع درجات صبري راغب عن فوق المتوسط . كانت زياراتنا لبعض أنا وصبري راغب تمتد إلى آخر الليل ونحن نتسكع في الشوارع والمطاعم. كان في الامكان أن يطلق دائما على صبري راغب أنه رجل شيك في تصرفاته وفي معاملاته . لم يدّن نفسه مطلقا في تصرف ولم يثر مرة على أستاذ لأنه وضع له درجة صغيرة . ولم يناقش مرة أستاذا في درجة وضعها له. فالكلية لا تعني له شيئا سوى مرحلة لابد أن ينهيها، وتكسبه خارج الكلية، كان دائما يضمن له مستوى عال من المعيشة من خلال رسم الصور الشخصية.

أذكر في أيام مجد سيد مرعي وكان معجبا بصبري راغب أن أوصى له بوظيفة شرفية مهمة، تنحصر في رسم ضيوفنا من رؤساء الدول الزائرين: مثل سوكارنو وأنديرا غاندي ونهرو وغيرهم. فهو فقط القادر على رسمهم في جلسة واحدة. وكانت أسهم صبري راغب في ذلك الوقت قد وصلت إلى قمتها ورشاقة لسانه على سطح اللوحة لا تبارى.

ولما مرض صبري راغب لم يسأل عنه سوى النذر القليل من الأصدقاء، وفي آخر مرة تحدثت إليه بالتليفون قال لي إنه يريد أن يراني وحين نحدثت إليه ثانية قال لي : «أجلها فأنا لا أستطيع».

مات صبري راغب ولم يذهب إلى جنازته سوى أفراد يعدون على الأصابع ولم يكتب عنه أحد ولم ينع في صفحة الوفيات مثل التجار والسماسرة أو القوادين أو تجار المخدرات لهذا تعجبت. إذ ان صبري راغب لو كان قد توفي في أيامه الأولى لاختلف الأمر تماما!

الويل لمن يبعد عن السلطة. أنا الآن لا أعلم متى سأموت لكني مصر على أن أدفن في مقابر الصدقة. ولا يعلن عن وفاتي فهل أنا أكبر من باخ أو شكسبير أو بيتهوفن أو موتسارت. كلهم دفنوا في مقابر الصدقة ولم يسر وراءهم أحد لكن العمل الفني - إن كانت له قيمة - فسيفرض نفسه على التاريخ وعلى الأجيال وعلى الحياة وعلى الزمن. فمازالت الحضارة تقاس بمقياس الفن .

خضراء الدمن

عند منعطف الطريق إلى أوسترلي من الشارع الرئيسي وأنا في لندن في زيارة لأخي وجدت عربة تفاح، عندما رآني البائع وحياني وجدني مبتسما لأنه يضع قرطا في أذنه وهو في سن الشيخوخة وقد ولي عنه الشباب، كان يظن أنني سأشتري كالإنجليز واحدة أو اثنتين ولكنه حينما عرف إنني سأشتري «كيلو» ابتسم أكثر وحياني باللهجة العامية اللندنية «الكوكني»، وازدادت بشاشته وترحيبه عندما قلت له إنني معجب به وإنني تركت له حرية اختيار الثمار الجيدة لأنه يعرفها جيدا.

أخذ يستعرض لى كيف يختار التفاح وكيف يقذفه فى الهواء وكيف يختبر ثقل كل ثمرة وكيف يطرقها بأصبعه . فجأة وجدت ثمرة كبيرة لونها قاتم وجميل وقد وضعها بعيدا عن التفاح . سألته لماذا استبعدها فقال لى إنها فاسدة. تعجبت وقلت له فاسدة هي وبهذا الحجم وجلدها مشدود؟ وإذا به يشطرها بسكينة ولدهشتى وجدت قلبها قاتما «بنى قاتم» سألته كيف عرفتها؟ فأخذ يستعرض لى معلوماته شارحا كيف أعرف التفاحة الجيدة ، كيف اكتشف ثقل الثمرة وكيف أعرف الثمرة من رنينها، ومن رائحتها ويرينى ثمرة ثمرة، قائلا لى هذه أفضل من تلك . ثم بدأ يشرح لى كيف أعرف من عنق الثمرة وهل هى جذبت بقوة وهذا معناه انها لم تنضج بعد. سألته «وإن لم تستبعد الفاسدة؟» قال ستتلف باقى التفاح. قال لى انظر هل تريد أن تعرف. وإذا به يأتى لى بتفاحة كانت ملتصقة بالتفاحة الفاسدة ويشطرها. فإذا بالنصف الذى كان ملتصقا بالتفاحة الفاسدة قد فسد . قلت له وهل معنى هذا أنه لو تزوجت امرأة من رجل فاسد ستفسد . قال لى «أجل سوف تفسد بالتأكيد ولكن هذا يتوقف على معدنها أليست تشاركه فى الفساد؟ ألم تستقبل معه ضيوفه ؟ ألم تعد لهم الولائم؟ ألم تسمع أكاذيبة وهو يوقع بهم فى حبائله؟ حذارى فقد تكون فتاة طريق أفضل منها».

تلقيت من هذا الرجل درسا لا ينسى وأنا إلى الآن لا يمكن أن يخدعنى فكهانى في ثمرة واحدة وتذكرت وأنا سائر فى طريقى ألم يقل «محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم». «إياكم وخضراء الدمن » و(هى الزرع الزاهى الاخضر الذى ينمو فى مياه عفنة) .

وتساءلت وأنا سائر كيف يستطيع المرء فى مدينة كالقاهرة قوامها يربو على

الثلاثين مليونا وقد يصل قريبا الى ستين مليونا إذ هى تشارف وتقترب من السويس كيف للمرء أن يختار إمرأته وكلهن يقلدن بعضهن فى أزيائهن، وفى طريقة كلامهن وفى سلوكهن وفى ترديد اكاذيبهن التى لا تنتهى . خصوصا فى مجتمع أصبحت فيه الصدارة للصوص وسيئى السمعة والسماسرة. قالت لى الدكتورة هبه حسين استاذة التجميل فى جامعة عين شمس إن هناك رجلا فى نادى الجزيرة سجن لانه اختلس ملايين الجنيهات وحصل على قروض دون ضمانات وحكم عليه بالسجن فنفذ حكم السجن كاملا. وفي اليوم التالي لخروجه من السجن جلس على مائدة فى نادى الجزيرة فإذا بشبان لا حصر لهم مع آبائهم يتقدمون لخطبة بناته - طمعا فى الملايين التى اختلسها .

لم يعد أحد الآن يبحث عن فتاة ذات أصل، هذا يذكرنى بقصة ستاندال عن الفتاة الجميلة ذات الاصل التى كانت تشوه وجهها بأصباغ لأنها كانت تريد الرجل الحق الذى يستطيع أن يكشف حقيقتها! .

زمن النقد

كنت طفلا صغيرا اجلس بجوار جدى في الترام. وفي ميدان العتبة الخضراء وجدنا بائعى الجرائد يندفعون فجأة صائحين «قصيدة شوقى الجديدة» وبدأ كل من فى الترام، حتى جدى، يتهافتون على شراء الجريدة أو القصيدة فلا أدرى إن كانت قد نشرت فى جريدة ما، أم كانت منفردة . كل ما أذكره أن أبى وجدى وخالى وأمى اشتركوا فى نقد القصيدة الجديدة ، ولا أظن أن مثل هذا الزمن الجميل يتكرر ثانية.

وفى اليوم التالى أخذنى جدى إلى قهوة «ركسى» كان النقاش محتدا بين رواد المقهى كلهم عن هذه القصيدة. ولم أكن فى سن يسمح لى بأن أفهم شيئا ، إذ إن همى كله كان منصرفا إلى قطعة الملبن التى طلبها لى جدى، وصاح الجرسون اليونانى «واحد لوكومادس» أتت لى فى طبق أبيض صغير، أذكر جيدا أنها كانت مغلفة فى ورق ذى شمع «ورق القصدير» ولكنى لا أنسى طعمها مدى حياتى إذ كانت بطعم المستكة ومحشوة باللوز واحتفظت بالورقة الخارجية ، التى كتب عليها «لوتس» حتى كبرت . فجأة سألت «مارى» التى مازالت تعمل فى

أجـزخـانة «كـالسكا» قلت لهـا إننـى ذقت «ملبن» لا يمكن أن أنسـاه يسـمـى «لوتس» أجـابتنى أنهـا تعـرف صـــاحب المصنع وأنه أرمنى مـثلهـا وطلبت منه أن يحضـر. لى علبـة من علب التـصـدير الخـشـبـيـة المستديرة.

★★★

لم نكن نشترى الجرائد اليومية كثيرا اللهم إلا إذا كانت توجد مقالة لكاتب كبير فى «البلاغ» أو «الجامعة» أو «الصرخة» أو «الأنصـار» أو «أمـحـتب» أو «كل شىء» و«الدنيـا» أو «الصبـاح» أو «المقـتطف» أو «مجلة مجلتى» لكن الكتب كـثيـرة، وأذكر أننى انتـهـيت كليـة من مـعظم كـتـب طه حسين وباقى الكتاب المصريين المعروفين وأنا فى الثـالثـة عشـرة. وأعتـرف ـ ربما لجهلى ـ أننى لم أفهم العقاد كلية.

كـان جـودة السـحـار صـديقـا لوالدى وكـانا يتـقـابلان فى الفـجـالة وهــو الذى أعطى أبى قــصــة لنجـيب مـحـفـــوظ الأولى أذكـر أنـهـا كـــانت عن الفـراعنة . ولا أذكـر اسـمـهـا الآن وقـال أبى إن جـودة السـحـار يدفع نجـيب مـحـفـوظ ليكتب قصصا عن الطبقة المتوسطة فى القاهرة القديمة الفاطمية. سينشرها له تباعا لكن أمى كانت مـتحمسة لاثنين المازنى وآخر يسـمـى ذهنى .ذهـنى كـان يقطن فى آخـر شارع النزهة بغمرة وكان يعمل مترجما أيضـا كـالمازنى. أظن أن السـيـدة آمـال فهمى تذكر اسمه الأول لأن ابنته كانت من أوائل من عملوا بإذاعـة الشـرق الأوسط. مات ذهنى فى سن مبكرة، أما المازنى فلم يكن جـمـيـلا وكنت من حـمـاسـى له أذهب لأراه يستقل الترام من أمام مدرسة خليل أغـا. كانت أمى متـحـمسـة جـدا للمـازنى لدرجـة أنـهـا فى لحظة من لحظات الهـزل قـال لهـا أخى لقـد تزوجت أبى، لكن من كنت تودين أن تتزوجينه؟ قالت: عبدالقادر المازنى. أقر وأعـتـرف أن كـتـاب خـيـوط العنكبوت وقصة عبدالله الكاتب للمازنى قد كان لهما أثر كبير فى تكوين شخصيتى الفكرية والأدبية، كما أذكر ولازلت أصـر أن المازنى لم يـأخذ حـقه كـامـلا. لقد كان أكثر عمقا وثقافة من جيله وأذكر أنه قد زارنا مرة كاتب قصة لا أذكر اسمه محمد أو مـحـمـود كـامل المحـامـى ، كـان كث الحـاجـبين هذا كل مـا أذكـره عنه. كـان يكتب قـصـصــا عن الطبـقـة المتـوسطة وخـاصــة القـاطنين فى شـارع خـيـرت، ويصف بدقـة انعطاف التـرام والشـرفـات المطلة عليـه.فى ذلك الوقت كـان شـغل الأسـرة الشـاغل هـو الثـقـافـة والكتاب فـلا صـدارة للمـذيـاع ولـم تكن له عـمق الكلمـة المكتوبة .

★★★

وبعـد وفـاة أمـى وجـدت فى أوراقـهـا مـجلات الصـبـاح والجـامـعة وكل المجلات التى ذكـرتهـا من قبل، ووجـدت عـددا من «السياسة الأسبوعية» خاصا بتكريم أحمد شوقى . صـادر فى السبت ٥ سبتمبر سنة ١٩٢٧ مـعنى هذا صـدوره قـبل أن أولد. وجدت به نقدا لقصيدة طويلة لشوقى قد كـتب بـعمق يعـجـز عنه كـتـاب ونقـاد هذا الزمن منهم أحـمد شـفيق باشـا، وشـبل بك

ملاط، وخليل بك مطران، والسيدة إحسان أحمد، والأستاذ المازنى، وأحمد محرم، والأستاذ أحمد زكي أبو شادى، والأستاذ أحمد حسن الزيات، والأستاذ إسماعيل مظهر بك، وأنطون بك الجميل، والشيخ عباس الجمل، والأستاذ علي محمود طه ، لكن المفاجأة الكبيرة جدا هى لناقد معمم اسمه محمد الأسمر، إذ كانت مكتوبة بموضوعية وتحليل عميق جدا ، وكذلك كلمة الأستاذ محمد الههياوى والدكتور محمد صبرى، ومحمد بك كامل الحمامصي والأستاذ كروى علي. والأستاذ الزهاوى والأستاذ معروف الرصافى، وأحمد أفندى الكاشف، ومحمد أمين بك، لكن أضحل هذه المجموعة كانت نقدا لشاب اسمه عباس العقاد. كانت موتورة وكان يهمه فقط الهجوم. لا أكثر ولا أقل للشهرة . كان بعيدا عن الموضوعية كان يرمي كاتبها فقط الشهرة من الهجوم على شوقي.

أظن أن هذا العدد في حد ذاته ثروة أدبية تستحق أن تنشر كاملة فى عدد من أعداد الهلال أو فى كتاب يحذو حذوه النقاد الشبان. كم واحد من هؤلاء يذكره الشبان الآن الذين لا يحدوهم سوى حقد دفين وكراهية لبعضهم البعض حتى صار النقد الآن ضحلا وغير موضوعي؟ . وربما كان هذا لجهلهم باللغات الاجنبية فلم يتقدم النقد خطوة واحدة، منذ مندور ولويس عوض . وكم من هؤلاء الأسماء لايزالون معروفين وبينهم احسن من كتبوا نقدا؟ هل صار الآن زمن النقد القزم؟ هل نحن في زمن النقد الضحل؟ .

لكن الأفضل أن أغلق على بابى وأكتفى بارتجافة زهرة تحت بقعة من الضوء . فبقعة الضوء الشارفة للظلمة هى فقط الوحيدة الباقية للفنان. وارتجافة الزهرة للضوء أفضل بكثير من ارتجافة امرأة كاذبة خادعة بين ذراعى الفنان.

واخيرا

عطشى الذى لا ارتواء له دائما يطاردنى يتبعنى ومع كل خطوة واثق من مداها. وحسبتها جيدا اجد عالما مفقودا محترقا. ومع كل خطوة عمياء من الآخرين اجدهم يصرحون بأنهم سيعيدون بناء البلد بها. ومع كل طلقة مصوبة لطفل فلسطينى أشعر بالعجز يطاردنى.

لم تبق سوى دموعى التى تحجرت من مقلتى. والهواء الذى تمزق حولى . لكن ارجو ان تصيب رصاصة طائشة من الزوابع التى لا وجود لها بعد أن أكون قد اختفيت من هذا الوجود؟ .

ان مع الحب دائما يخطىء المحبون فى تناول كئوسهم وكثيرا ما يأخذ المرء الكأس الخطأ. لذلك لم تعد هناك كأس ترويني وأسأل الجدران عن الحقائق.. أين اختفت، أين ضاعت ، مع أعين متحجرة كتلك الأحجار التى توضع فى تجاويف اعين اقنعة البطالسة . لكنى كنت ارى حماسي للحياة والحقيقة ودفاعى عنها دائما معها وتدفعنى عيناها كى اصرخ فى وجه الظلم عيناها التى أفتقدها.


العلم والرياضة فى
الألعاب الأوليمبية



بقلم : هشام فاروق

كما هو معروف للقاصى والدانى ، ثمة وثبة علمية قوية جبارة ، عادت إلى الإنسان ، وهو يقهر الطبيعة بضرب من التقدم لم يكن معهودا ، ولا مألوفا .

وبدءا من الدورة الأوليمبية بلوس أنجلوس بالتحديد جعل ذلك التقدم ، خاصة فى مجال التكنولوچيا ، كل شىء من أمر الألعاب الأوليمبية غريبا حقا .

فالشىء المحقق أنها أصبحت واجهة للتقدم التقنى الجبار.

ولقد انعكس أثر ذلك على دورة ألعاب سيدنى التى انتهت أيامها الستة عشر فى الأول من أكتوبر لعام ٢٠٠٠ ، بحفل ختام رائع ، غطت فيه الألعاب النارية سماء الميناء، حيث دار الأوبرا ، وكأنها بأشرعتها فلك علي وشك الرحيل، وكوبرى ميناء سيدنى ، وقد ازدانت بأضواء مصابيحه السماء .

والألعاب الأوليمبية الصيفية حدث رياضي عالمي ، لا تقام دوراته إلا كل أربعة أعوام، يعيشها عشاق الرياضة ، بعد انتظاره بفارغ الصبر .

فإذا ما مرت الأيام أعواما بعد أعوام، وعادت تلك الألعاب في دورة جديدة ، عاش عشاق الرياضة ساعات ملؤها السعادة ، لعلها خير تعويض لهم عما عانوه ، أثناء الانتظار الطويل .

وعندما أقول عشاق الرياضة ، أقصد بهم مئات بل آلاف الملايين من البشر ، فى مشارق الأرض ومغاربها .

وهم إذا كانوا موسرين تحملوا مشاق واتعاب السفر إلى حيث تقام مباريات تلك الألعاب ، حتى وان كان المكان المختار لها فى الجنوب الأقصى الموغل فى البعد جغرافيا عن القارات المأهولة بالسكان ، مثلما حدث قبل بضعة أسابيع ، عندما استقل مئات الألوف الطائرات ، الى حيث مدينة سيدنى فى استراليا ، أصغر القارات، حيث اقيمت الدورة الأوليمبية السابعة والعشرين .

من بين تلك الدورات لم تنعقد دورتان، وذلك بسبب الحربين العالميتين الأولى والثانية .

أما إذا كانوا ناسا عاديين ، اكتفوا بمشاهدة ما تيسر لهم من مباريات الألعاب على الشاشات الصغيرة التى انتشرت انتشار عش الغراب . بحيث قدر عدد مشاهدى المباريات عليها بآلاف الملايين.

ولن أعرض بالتفصيل لتاريخ الالعاب الأوليمبية ، كيف بدأت فى اثينا ، قبل الميلاد بحوالى سبعمائة وستة وسبعين عاما .

ولا كيف أخذ زمن مباريات تلك الألعاب ، يمتد شيئا فشيئا ، وبدلا من يوم واحد أصبح سبعة أيام .

ولا كيف تم الغاؤها بموجب أمر من الامبراطور الرومانى «ثيودسيوس الأول» ، وذلك بعد الميلاد بحوالى ثلاثمائة وثلاثة وتسعين عاما .

ولا كيف عادت ، بعد ألف وخمسمائة عاما بفضل البارون الفرنسي بيير كوبيرتان .

الممنوع والمشروع

فذلك شيء يطول ، وانما اكتفى بان اقول أن نساء اثينا كن محرومات من المشاركة فى الألعاب سواء بالمنافسة فيها أو بمشاهدتها اسوة بالرجال . والأكثر مدعاة للدهشة أن العدائين كانوا يتبارون، وهم عراة كما ولدتهم أمهاتهم .

غير أنه عندما عادت الألعاب الأوليمبية، والقرن التاسع عشر على وشك الرحيل ، كان العرى وحرمان النساء من المشاركة قد أصبح كلاهما فى خبر كان.

ومع ذلك ، فما أن اقترب القرن العشرون من نهايته ، حتى كان اللباس الخاص ببعض الألعاب ، قد تقلص بحيث كاد يصبح فى حجم ورقة التوت ، لاسيما إذا كان الأمر متصلا بلباس السباحين .

وحتى كانت نسبة النساء قد ارتفعت الى أربعة وثلاثين فى المائة من مجموع المتنافسين فى الدورة الأوليمبية بمدينة أتلانتا عام (١٩٩٦) .

(ارتفعت تلك النسبة المئوية فى دورة سيدنى الى ثمانية وثلاثين) .

ولاننى مولع بالسباحة ، فقد أخذت

أتابع ، قدر الامكان السباحين ، خاصة الاستراليين منهم الذين جرى اختيارهم لدورة سيدنى ، أتابعهم على شاشة التليفزيون ، وهم يتدربون ، باذلين الجهد الجهيد ، من أجل ضرب أرقام قياسية ، تؤهلهم للفوز فى مباريات تلك الدورة بأكبر عدد من الميداليات .

انحسار العري

وكان أول ما لفت نظرى ، وأثار دهشتى فى آن معا ، أن أجسامهم لم تكن، وعلى غير المتوقع ، عارية الا من ورقة توت تخفى عوراتهم بالكاد .

بل كانت ، بالعكس ، مخفاة بلباس لصيق بها أشبه بلباس رواد الفضاء فى أفلام الخيال العلمى ، لا يكشف منها سوى الوجوه والايدى والأقدام .

وما هى إلا أيام وبعد مفاجأة لباس السباحين ، حتى كانت دورة سيدنى قد بدأت ، وإذا بى أشاهد على شاشة التليفزيون عدائين وعداءات وقد ارتدوا لباسا أكثر اخفاء لاجسامهم من لباس السباحين وهكذا ، فبدلا من استمرار انحسار اللباس عن أجسام اللاعبين رويدا رويدا ، كما كان يحدث له طوال القرن العشرين ، إذا به ، بدلا من ذلك ، يكاد يغطى بالكامل تلك الأجسام .

أما لماذا حدث هذا التحول من النقيض الى النقيض ، من أيام الأغريق القدامى ، حيث كان العداء يعدو عاريا ، الى أيامنا هذه ، حيث نراه مرتديا لباسا، يكاد لا يظهر من جسمه شيئا ما . فذلك لأن العلم أراد للرياضة أن تخضع لحكمه فى جميع المجالات .

هذا ، وقد انعكس أثر التقدم التقنى على كل شيء متصل من قريب أو بعيد بممارسة جميع الألعاب الأوليمبية ، دون استثناء .

وبداية ، فالشركات المنتجة للأشياء الوثيقة الصلة بالرياضة ، لاسيما ما كان منها متصلا بلباس الرياضيين ، تلك الشركات ، كان لها دور كبير فى التحام الألعاب الأوليمبية بذلك التقدم التقنى ، المنقطع النظير .

فلقد وجدت ، ولاشك ، فى دورة سيدنى فرصة ذهبية ، تتيح لها عرض وتسويق منتجاتها الجديدة أمام عدد لا يقل عن خمسة ملايين ونصف من مشاهدى المباريات ، وهى تجرى ، وليس بينها وبينهم سوى خطوات .

وعدد آخر لا يقل عن ثلاثة بلايين ونصف من مشاهديها على الشاشة الصغيرة .

ولأن السباحة وألعاب القوى هى الأكثر شعبية فى الدورات الأوليمبية ، تركز التجديد على لباس السباحين والعدائين والوثابين .

وجرى تسليط أضواء الدعاية المكثفة على اللباس الجديد .

الفلك المفترس

فلباس البحر ، على سبيل المثال ، قيل عنه فى مجال الإشادة به أنه مصنوع من قماش بوليستر – ليكرا ، ومصمم بحيث تكون له فوائد عديدة ، من بينها تخفيض نسبة الاحتكاك والسباح يشق بجسمه الماء ، فضلا عن حسن توظيف عضلاته ودورة دمائه ، على نحو يضمن الاقتصاد فى الاستعمال ، مع تجنب الاجهاد .

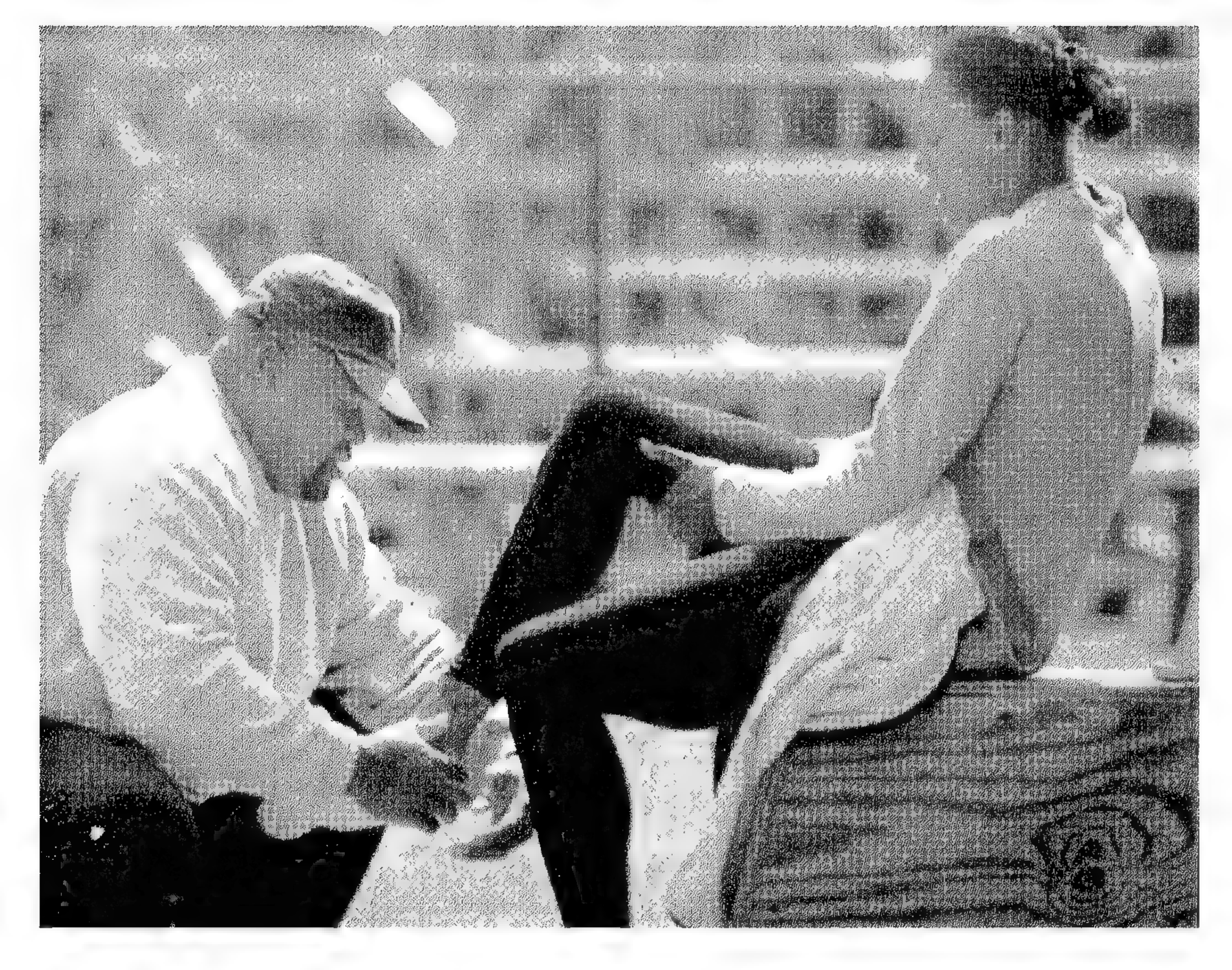
ومن أجل تصميم لباس البحر على



هذا النحو الجديد المفيد ، استشارت شركة سبيدو «أوليفر كريمن» بمتحف التاريخ الطبيعي بلندن ، وذلك بوصفه واحدا من القلائل المتخصصين في نوع من الكائنات البحرية شديدة الافتراس ، اسمها باختصار سمكة القرش .

ومما يعرف عن تلك السمكة أن جلدها يتكون من أسنان ميكروسكوبية ، تشق مجرى، لا تتدفق مياه البحر الا من خلاله، وفوق رأس السمكة بالتحديد .

وذلك التدفق المحدود في الرأس دون غيره من اجزاء جسم السمكة ، عندما انخفض كل من درجة



الاحتكاك والاستعمال للطاقة ، وازدياد سرعة تحرك سمكة القرش ، بطبيعة الحال

طوربيد بشرى

والحق ، أن السباحين الذين ارتدوا لباس البحر الجديد حققوا انجازات كبيرة، من بينها ضرب أرقام قياسية فى السباحة ، والفوز بميداليات ذهبية فى دورة الألعاب الأوليمبية الأخيرة .

ولعل خير مثل على ذلك السباح الاسترالى ايان ثورب الذى ليس له من العمر إلا سبعة عشر ربيعا .

فلقد شاهدناه على الشاشة الصغيرة، وهو يفوز بأكثر من ميدالية ذهبية فى دورة سيدنى مرتديا لباس البحر الجديد .

ونظرا الى سرعته الفائقة فى المسبح اطلقوا عليه اسم الطوربيد !!.

وبفضله ، وبفضل فريق بلده ، فازت استراليا ، وعدد سكانها لا يزيد عن ثمانية عشر مليون ، فازت بالمركز الرابع ، بعدد من الميداليات (٥٨ بينها ١٦ ذهبية) فاق العدد الذى فازت به بلاد كبيرة مثل ألمانيا وفرنسا وايطاليا وبريطانيا واليابان.

وذلك الانجاز الكبير انما يرجع الفضل فيه ، ولاشك ، الى العلم والتدريب.



عائد من كردستان ..
بلاد لا صديق لها

وقائع وتحولات زيارة بين توجيه النصح وتقديم الاعتذار!!

بقلم : صنع الله إبراهيم

كان الهدف المعلن للرحلة المثيرة التى اشتركت فيها مع عدد من المثقفين العرب إلى إقليم كردستان العراق هو التحضير لمهرجان العيد المئوى لشاعر العراق العظيم «مهدى الجواهرى» فى الأسبوع الأخير من أكتوبر، والهدف المبطن هو مد بعض الجسور مع الشعب الكردى الشقيق استجابة لمبادرة من قياداته.

وفى الحالتين بدت الزيارة فى البدء مثل غيرها من الزيارات والرحلات الترويحية أو السياحية التى تحمل غطاء ثقافيا رصينا .

بدأت الرحلة من حلب فى ميكروباص أنيق مكيف ضمنا جميعا : «الناشط السياسى والثقافى العراقى المعروف «فخرى كريم» الذى أقام صرحا ثقافيا فريدا فى دمشق، ثلاث شخصيات لبنانية: المفكر المعروف «كريم مروة» ، الكاتب والأكاديمى «فوار طرابلسى»، الصحافية «ليلى غانم»، الروائية الكويتية الشقراء «ليلى العثمان»، «نبيل زكى» رئيس تحرير جريدة «الأهالى» القاهرية، «مصطفى

الحسينى» صديق صباى القادم من بيروت، المصور الفوتوغرافى العراقى «انتشال التميمى» القادم من هولندا ثم انضم إلينا فى الطريق «كامل شياع» مدير تحرير مجلة «الثقافة الجديدة» العراقية قادما من أوروبا حيث تصدر الآن المجلة العريقة.

وربما كنت أنا و«ليلى العثمان» الوحيدين اللذين يزوران هذه المنطقة من شمال العراق لأول مرة. فالآخرون زاروها فى أوقات مختلفة أولها فى السبعينيات (مثل «مصطفى الحسينى») وآخرها قام بها «انتشال التميمى» المقيم فى هولندا قبل أسبوعين وحسب، ليلتقى لأول مرة منذ عشرين عاما بأسرته التى قدمت خصيصا من بغداد لهذا الغرض. ذلك أن «انتشال»، مثل آلاف غيره من العراقيين المنتشرين فى بقاع الأرض، لا يستطيع دخول بغداد والا استقر فى قصر النهاية. وهو الوضع نفسه بالنسبة لـ «كامل شياع» الذى جاء من أوروبا خصيصا ليرى على أرض كردستان المحررة أمه التى لم يرها هو الآخر منذ عشرين سنة والتى ستأتى من بغداد فى يوم معين.

إلى هنا ومازالت الرحلة فى إطار الاعتيادى والمألوف إلى أن وصلنا مدينة «القامشلى» ثم عبرنا نقطة الحدود السورية العراقية على نهر دجلة» فى قارب بخارى، وصرنا خلال دقائق فوق الأرض العراقية الخارجة على سلطة حكومة بغداد.

قصيدة بدلا من الخريطة!

كان من الطبيعى أن نبحث عن خريطة لكردستان نرى فيها خط سيرنا الذى سيمتد شرقا أكثر من ستمائة كيلو متر بموازاة الحدود الفاصلة مع المنطقة الخاضعة لحكومة بغداد حتى قرب الحدود الإيرانية ، كما نرى فيها بقية الأراضى الكردية الموزعة بين إيران وتركيا . ولم نلبث أن تبينا أن مثل هذه الخريطة غير موجودة وإنما هناك فقط قصيدة نظمها شاعر كردى فى ثلاثينيات القرن الماضى يعين فيها الحدود الجغرافية لكردستان.

والواقع أن الشعب الكردى هو أحد الشعوب سيئة الحظ فى العالم فلم يتح أبدا للأكراد كقومية مستقلة أن تبسط نفوذها على جميع الأراضى التى تعيش بها منذ قبل الميلاد بقرون عديدة. ولم تتمكن من تحديد حدودها الجغرافية السياسية وإقامة دولة مستقلة باسم كردستان. ومن ناحية أخرى فإن الخريطة الموحدة لكردستان ممنوعة فى البلاد التى تقتسم أراضيها وهى تركيا (حوالى ١٥ إلى عشرين مليون كردى) العراق (حوالى خمسة ملايين) إيران (ثمانية ملايين)

وبدلا من ذلك ألصقت الخارطة الجغرافية لكردستان العراقية بالدولة العراقية وفى إيران بالدولة الإيرانية وفى تركيا بالدولة التركية ومن نتائج هذا الوضع على سبيل المثال أن التلميذ الكردى يدرس جميع الأمور المتعلقة بكردستان من مناخ ونفط ومعادن وتوزيع اللهجات وجغرافية المدن والزراعة إلخ.. ضمن الحدود السياسية للدولة التى وجد نفسه داخلها.

أكبرنا سنا ومكانة

كان فى استقبالنا على الأرض العراقية حشد كبير من المواطنين الرسميين وممثلى الهيئات والأحزاب. وأقلتنا السيارات إلى قاعة نقطة الحدود المسماة «فيش خابور» حيث وضعت أمام كل واحد منا صينية حافلة بكافة أنواع المشروبات الغازية العالمية من «السفن» إلى «الكولا». وتحدث أحد مستقبلينا ولعله محافظ المنطقة مرحبا بزيارتنا. وتطلعنا جميعا إلى «كامل مروة» ليتولى الرد فهو أكبرنا سنا ومكانة وأكثرنا خبرة بالخطاب السياسى الملائم للزمان والمكان ، والذى يستجيب للمشترك العام فى قناعاتنا. وتحدث «مروة» منوها بحقوق الأكراد ومعاناتهم. لكنه حرص على أن يؤكد تأييده لهذه الحقوق فى إطار عراق موحد كما لم يفته أن يدعو بشكل غير مباشر إلى رفع الحصار المفروض على الشعب العراقى بوصفه مسئولا أيضا عن معاناة الأكراد. وبدا لى أن كلمته تشتمل على النقطتين الأساسيتين اللتين ستحكمان خطابنا خلال الأيام القادمة. وأن لباس الحكمة التى ارتديناها سترافقنا طوال الرحلة، تحمينا من شرور التورط والانفعال. وكم كنت واهما.

لكن كلمة «كامل مروة» كانت أيضا مؤشرا على طقس مهم فى الأيام التالية وهو «المكلمات». ففيما بعد تناوبنا الحديث بطريقة تلقائية : إذا كنا فى منتدى له علاقة بقضايا المرأة تحدثت «ليلى العثمان»، وإذا كنا فى ملتقى سياسى أو حزبى تحدث «مروة» أو «فخرى كريم» أو «نبيل زكى» أو «مصطفى الحسينى»، وإذا زرنا جامعة تحدث «فواز طرابلسى» (الأستاذ بجامعة بيروت الأمريكية)، وإذا وقعنا فى مصيدة أدبية أو ثقافية جاء دورى أنا أو «ليلى العثمان»، وهكذا.

والمثير فى الأمر أننا جميعا رغم اختلاف خلفياتنا الجغرافية والسياسية والثقافية لم نختلف على المواقف العامة وربما يرجع هذا إلى أن أغلبنا فى العقد السادس من العمر «فيما عدا السيدتين بالطبع) وبالتالى فى سن الحكمة التى تجلت أكثر من مرة.

الخلاف الوحيد الذى نشب بيننا كان بسبب التدخين. فـ «نبيل زكى» و«مصطفى

الحسينى» معديان للتدخين حتى الموت، بينما كان «فواز طرابلسى» و«ليلى العثمان» يدخنان بشكل متواصل. واتضحت أبعاد المشكلة عندما خرجنا من قاعة الاستقبال فى «فيش خابور» واتخذنا طريقنا إلى مدينة «دهوك» على مبعدة مائة كيلو متر . فقد وجدنا فى انتظارنا طابورا من سيارات «تويوتا فورويلز» جديدة ومكيفة ووزعونا كل اثنين أو ثلاثة فى سيارة. ولما كنت مدخنا صرت مرشحا لتحمل إفراط «فواز» و«ليلى». وجاءت «ليلى» من نصيبى بينما وقع «فواز» من نصيب «فخرى كريم» (الذى تحمل الأمر من أجل نجاح الزيارة رغم أنه لا يدخن ويمنع التدخين فى دار «المدى» التى يديرها) . واكتمل حظى بـ «انتشال التميمى» الذى قام بدور المرشد السياحى.

على الطريقة المصرية

أخذتنا السيارات إلى أفخم فنادق «دهوك». مدخل مهيب وخادع. فهو مزخرف على الطريقة «المصرية». أى بزخارف قبيحة وديكور مودرن يخفى عملية نهب واضحة تتجلى فى رهافة الجدران ورداءة المواد والأدوات المستخدمة وخاصة فى شبكات المياه والصرف والتى صنعت أغلبها فى تركيا. وذلك بالرغم من تقدم الصناعة التركية . وهو انطباع أكدته قنوات التليفزيون التركية العديدة التى تسيطر على شاشة التليفزيون فى المنطقة الكردية، والزيارة التى قمنا بها فى اليوم التالى لمفخرة المدينة: سوبر ماركت «ميزى». المكان أنيق والبضاعة كلها أجنبية آتية عن طريق تركيا. المدير يشارك الحكومة فى الملكية. والجميع من عامليه ومرافقينا سعداء بتنوع السلع الأجنبية المطروحة وهى سعادة لم أشاركهم إياها.

لكن سوبر ماركت «ميزى» - لحسن الحظ - ليس المفخرة الوحيدة للمدينة. فهى تفخر أيضا بمكتبة عامة عصرية يديرها مثقف بارز هو «أنور محمد» وتحمل اسما مألوفا للمصريين هو الأمير «بدرخان». والألفة ليس لها علاقة بالإمارة وإنما بالسينما!! فالأسرة المصرية الحالية التى تستمد شهرتها من الفن السابع، هى سليلة للأمير الكردى الذى أعلن استقلال إمارة كردستان فى منتصف القرن قبل الماضى فى ظل الحكم العثمانى. وأحد أفراد الأسرة، «مقداد مدحت بدرخان» ، هو الذى أصدر فى القاهرة أول جريدة باللغة الكردية سنة ١٨٩٨. وليس البدرخانيون المصريون هم وحدهم الذين ينعمون بالأصل الأميرى، فهناك العديد من المصريين الذين يشاركونهم النعمة من أول أمير الشعراء



كات مسعود كما يدعى مسعود البرزانى



السيدة هيرو ابراهيم



وفد الحكماء العرب على شاطىء دجله

«أحمد شوقي» و«عباس العقاد» و«الشيخ عبد الباسط عبدالصمد» إلى كاتب هذه السطور الذي اكتشف جذوره الكردية في اللحظة نفسها التي اكتشفت فيها «ليلي العثمان» أن احدى جداتها جاءت من مدينة «السليمانية».

الإنسان

تضم المكتبة مجموعة ممتازة من المؤلفات التي تحفظ التاريخ الكردي العريق الذي ولج طريق التدوين قبل الميلاد بألف سنة عندما ظهر اسم أجدادهم الميديين في الكتابات الأشورية. وتتابعت بعد ذلك الأسماء والمفاصل التاريخية التي تلاقى فيها الشعب الكردي مع أشخاص وأحداث وامبراطوريات شكلت مأساته: معركة الاسكندر الأكبر مع «داريوس» الفارسي ثم سقوط الامبراطورية الساسانية وانتشار الحضارة العربية الإسلامية، «إبراهيم» و«إسحق الموصلي» و«زرياب» مؤسسو أول مدرسة موسيقية في الإسلام، الإمارة الحمدانية في سوريا ثم الأيوبية في مصر والشام، ومعارك الصليبيين، الامبراطورية العثمانية، الغزو الفرنسي الإنجليزي، موجة الاستقلال الوطني العربية التي رافقتها أكثر المراحل دموية في تاريخ الشعب الكردي.

فما عاناه الشعب الكردي من جانب أنظمة الحكم المتعاقبة في البلدان التي تقتسم كردستان منذ الحرب العالمية الأولى لم يتعرض له من قبل لا في ظل الامبراطورية العثمانية ولا حتى في مرحلة الانتداب الفرنسي والإنجليزي في سوريا والعراق. ففي تلك العهود المظلمة لم يجر تهجير الأكراد بهدف تغيير الطابع الديموغرافي السكاني في مناطقهم ولم يمنعوا من التكلم بلغتهم أو التعلم والكتابة بها. كما لم تمارس بحقهم سياسة التمييز العنصري باقصائهم عن الحياة العامة وحرمانهم من المشاركة في الحكم وإدارة البلاد... إلى رفض كرديتهم وانتمائهم القومي وتغيير أسماء القرى والمدن بل والمواليد الجدد فيطلق على طفل كردي اسم «جاسم» بدلا من «أزاد»، ولم تستخدم ضدهم أسلحة الإبادة الجماعية، كما حدث في حملة الأنفال .

في الطابق الثاني من المكتبة قاعة خصصت لعرض وثائق «عملية الانفال» . وقد أطلق «صدام حسين» اسم الآية القرآنية (التي حضت على قتال الكفار وإبادتهم) على المذبحة التي باشرها في منطقة «الحكم الذاتي» ، الاسم الذي أطلق على الأراضي الكردية في أعقاب اتفاق توصل إليه الأكراد مع «صدام» سنة ١٩٧٠ ونقضه الأخير بعد أربع سنوات . أكثر من مرة .

وعندما تتصفح هذه الوثائق تشعر كأنما انتقلت إلى عالم معسكرات الاعتقال النازية وحملات «الحل النهائى» التى تفنن فيها هتلر لإزالة قوميات بأسرها من أوكرانيين وغجر وبولنديين . فضلا عن معتنقى الدين اليهودى . وعندما تنتهى من فحصها يتكشف أمامك سيناريو كامل لأكثر الصفحات وحشية فى التاريخ المعاصر .

يبدأ السيناريو بتقرير «سرى وشخصى» تتصدره البسملة (التى تتصدر أغلب الوثائق) موجه من مديرية الاستخبارات العسكرية العامة ، منظومة استخبارات المنطقة الشرقية بتاريخ ١٤-٨-١٩٨٦ والموضوع هو «الحصار الاقتصادى» ؛ ويأمر باستمرار الحصار وتشديده على القرى والمناطق «المحظورة أمنيا» وهو التعبير الذى أطلق على المناطق الكردية .. ويمنع كليا «وصول المواد الغذائية وغيرها اليهم..» .

ويأتى الفصل الثانى من السيناريو بعد سنة ونصف فى محضر اجتماع اللجنة الأمنية فى قضاء «شقلاوة» فى ١-٤-١٩٨٧ موقعا من الرائد مدير أمن شقلاوة، والمقدم مدير شرطة شقلاوة ، والسيد أمين سر فرقة شقلاوة ، والسيد قائمقام شقلاوة والعقيد رئيس اللجنة الأمنية لقضاء شقلاوة ، يقترح «ازالة كافة القرى المحظورة أمنيا وبشكل نهائى ...» .

بعد شهر واحد كان العمل يجرى على قدم وساق فى تنفيذ المهمة كما يتضح من خطاب إلى مدير أمن «السليمانية» بتاريخ ١٤-٥-١٩٨٧ يفيد العلم بـ «أمر السيد قائد الفيلق الأول بايعاز من الرفيق على حسن المجيد (ابن عم صدام والذى تولى ملف تصفية الأكراد) باعدام .. المدنيين بعد التأكد من المنظمة الحزبية ودائرة الأمن والشرطة ومركز الاستخبارات مناوئتهم للسلطة والاستفادة من ال....... والبلدوزرات بقلع محلة كاتى عشقان »...

ثم برقية «سرية فورية» بعد أسبوع بتاريخ ٢٢-٥-١٩٨٧ تفيد بأن «عدد العوائل المرحلة من تاريخ ١٢-٥ وحتى الآن (١٥٠٠) عائلة ... » .

الطاقة الاستيعابية للثلاجات الحافظة !

ويبدو أن كل هذه الاجراءات لم تكن فعالة بما فيه الكفاية . فهناك ورقة باسم حزب البعث العربى الاشتراكى ، قيادة مكتب تنظيم الشمال ، بتاريخ ٢٠-٦-١٩٨٧ ، موجهة إلى قيادة الفيلق الأول والثانى والخامس، والموضوع هو (التعامل مع القرى المحظورة أمنيا) توصى «بتنفيذ حكم الاعدام بمن يتجاوز عمره (١٥) سنة داخل صعودا إلى عمر (٧٠) سنة ...» .

تمخضت هذه الاجراءات بطبيعة الحال عن أزمة يعرضها خطاب بتاريخ ٣٠-١٢-١٩٨٧ من مدير أمن «شقلاوة» إلى ضباط أمن المناطق تتصدره بعد عبارة البسملة !! كلمة «سرى» المعهودة وتحتها العنوان «جثث المدنيين» !

يقول الخطاب بالنص أعلمتنا مديرية الأمن العامة الجنائية .. بأنه بينت لها وزارة العمل والشئون الاجتماعية ... بأنه من بين الأسباب الرئيسية لحفظ جثث المدنيين أكثر من الطاقة الاستيعابية للثلاجات الحافظة هو تأخير الأجهزة الأمنية المختصة بتبليغ ذوى المدنيين مما يولد مشكلة أخرى وهى تأخير تنفيذ حكم الاعدام بالمدنيين الآخرين» ... !!

هل تكفى أزمة التخزين لوقف العملية أو تخفيفها ؟ كلا . فبعد أكثر من ثلاثة شهور وجه العميد الركن «بارق عبد الله الحاج» قائد قوات حماية النفط ، خطابا «سرى للغاية» بتاريخ ١١-٤-١٩٨٨ تتصدره البسملة والى يمينها شعار مطبوع «لسنا دعاة حرب وانما دعاة حق» . والموضوع هو «ارسال عوائل» !!

«نرسل لكم العوائل المدرجة أسماؤهم فى القائمة المرفقة والذين سلموا أنفسهم ..

المرفقات : قائمة تتضمن ٣٠٧ اسماء ، » .

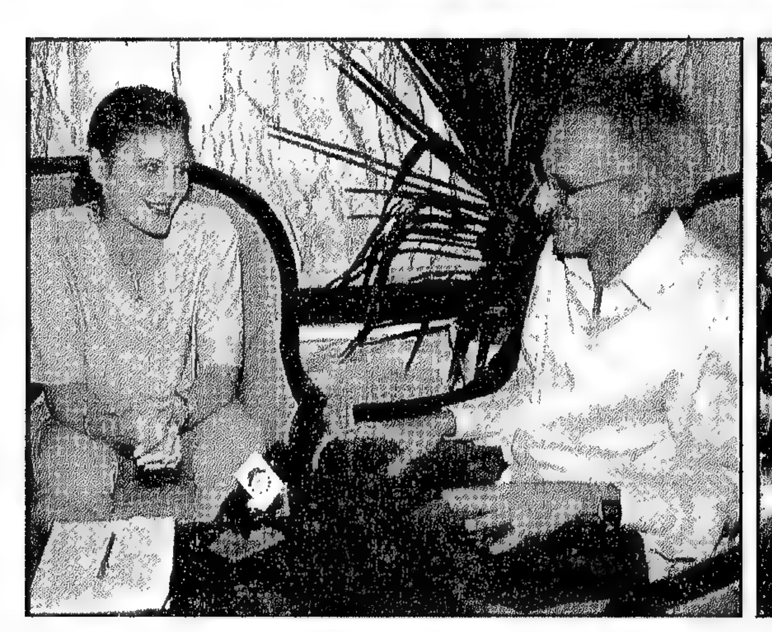
رجاء عدم التلكؤ !!

أما الهدف من هذا الارسال فيتضح من التقرير التالى الذى كتب بخط اليد بتاريخ ٢٦-٤-١٩٨٨ .

«كتاب رئاسة الجمهورية - سكرتير السيد رئيس الجمهورية للشئون الحزبية فى .. المبلغ بكتاب رئاسة أركان الجيش ١٠٦ فى .. المبلغ الينا بكتاب قيادة قوات جحفل الدفاع الوطنى الأول .. المثبت على أصل كتاب ديوان وزارة الدفاع سرى للغاية فى ... المتضمن حصول موافقة الرئيس القائد المناضل أمين سر القطر أمين سر المكتب العسكرى (حفظه الله) بتنفيذ الأمر الصادر من المكاتب والفروع الحزبية بتنفيذ أمر إعدام المدانين وعدم التلكؤ ..» .

عدم التلكؤ فى ماذا ؟ هذا ما أوضحه خطاب «سرى وشخصى» من العقيد «فهمى السيد عادل رشيد» ، أمر قاطع قره داغ ، بتاريخ ٣١-٥-١٩٨٨ . والموضوع ، بعد البسملة طبعا ، هو «إزالة القرى» و «الاسراع بعملية تهديم وازالة كافة القرى والدور المتفرقة أعلاه بأسرع ما يمكن واعطاء الموضوع أسبقية أولى ضمن سقف زمنى لا يتجاوز ١٠ يونيو ١٩٨٨» .

ويكشف التقرير التالى عن الاسلوب الذى كان يتم به تنفيذ أوامر «الرئيس



مام جلال كما يدعى
جلال الطالبانى

نموذج المرأة الكردية الجديدة

القائد المناضل حفظه الله» .

التقرير بتاريخ ٢٦-٦-١٩٨٨ وتتصدره البسملة وتحتها شعار مديرية الاستخبارات العسكرية العامة وهو عبارة عن دائرة حول رأس طائر الهدهد وعبارة: «وجئتك من سبأ بالنبأ اليقين» وفى الناحية اليمنى عبارة عن مأثورات «صدام» فيما يبدو «سيظل الشهداء أكرمنا جميعا» . وفى اليسار عبارة رئاسة الجمهورية وتحتها السكرتير ثم مديرية الاستخبارات العسكرية العامة ثم رقم يشير إلى «قادسية صدام» ثم المعلومات : «خلال شهر آذار ١٩٨٨ قامت طائراتنا بقصف مقرات رمز التخريب فى قريتى سيوان (٩٤٥٩٦ و بلكجار (٤٢٩٤) وتوجيه ضربة كيماوية نتج عنها قتل (٥٠) مخربا وجرح (٢٠) مخربا آخر ..» .

ذراع التعصب القومى الطويلة

وتتجلى الدرجة التى وصلت إليها روح التعصب الأعمى لدى دعاة الرسالة الخالدة من برقية «سرية وفورية» بتاريخ ٣١-٨-١٩٨٨ إلى مديريات أمن الأقسام من مدير أمن محافظة «أربيل» .

جاء بها :

١ - «هناك عناصر التحقق بأفواج الدفاع الوطنى من « الشبك» الذين غيروا قوميتهم من العربية إلى الكردية والساكنين فى محافظة نينوى .

٢ - نسب الرفيق المناضل «على حسن المجيد» مسئول مكتب تنظيم

الشمال بهدم دورهم جميعا ويرحلون إلى المجمعات السكنية فى محافظتنا ولا يعوضون نهائيا ..» .

وبالطبع فإن مصيرهم يمكن التنبؤ به من خطاب «سرى وشخصى» بتاريخ ١٩-٢-١٩٨٩ موجه من حزب البعث ، قيادة مكتب تنظيم الشمال ، إلى منظومة استخبارات المنطقة الشمالية ، بتوقيع «عبد الرحمن عزيز حسن» سكرتير لجنة شئون الشمال : يأمر «بتنفيذ حكم الاعدام بحق جميع المجرمين الواردة أسماؤهم بكتابكم ولا داعى لاحالتهم إلى محكمة تحقيق مديرية الاستخبارات العسكرية العامة» .

أما المحصلة النهائية لكل عمليات التدمير والقتل والتهجير (التى شملت فرار مائة ألف كردى إلى تركيا وايران) فتفضحها وثيقة بتاريخ ٢٤-٨-١٩٩٨ تجمل قرارا بتوقيع «صدام حسين» رئيس مجلس قيادة الثورة ، يعطى للعراقيين العرب الحق فى تملك قطع أرض سكنية فى المناطق الكردية بالإضافة إلى ما يملكونه فى مسقط رأسهم .

والظاهر أن هذا «النضال» الذى حرص حكام العراق على منع وصول تفاصيله إلى مواطنى البلدان العربية . قد تسرب بشكل ما إلى الخارج ولهذا نجد بين الوثائق هذا الخطاب بتاريخ ١٨-١٠-١٩٩٠ ونصه :

«بتاريخ ٢٥-٩-١٩٩٠ أمر السيد المدير المحترم بالتوجيه التالى : تكون عبارة (لم تتوفر لدينا معلومات عن مصيرهم) بدلا من عبارة (وقبض عليهم فى عمليات الانفال البطولية ولازالوا محجوزين حاليا) ، لغرض أن نكون دقيقين فى التعامل مع هكذا حالة» !! .

التعددية

ولعل هذا التاريخ الدموى هو الذى جعل الأكراد حريصين على ممارسة أقصى درجة ممكنة من الديموقراطية وحرية التعبير واحترام التعددية . وقد تجلى ذلك بشكل خاص فى انتشار المراكز الثقافية العديدة للجماعات العرقية والاثنية والدينية المختلفة مثل الكلدانيين والأشوريين الذين يدينون بالمسيحية ومنها مركز خاص بالطائفة اليزيدية التى تتبع مرشدا أو نبيا يسمونه (الطاووس الأكبر) .

ويتدفق كل هؤلاء وبالذات الشباب منهم كل مساء وخصوصا مساء الأحد إلى حى «عنكاو» بمدينة «أربيل» (وهو حى ذو أصل مسيحى) ليتمشوا فى شارعه الرئيسى ، اثنين اثنين أو جماعة متآلفة ، يقطعون الشارع الخافت الاضاءة (بسبب نقص الكهرباء) جيئة وذهابا حتى ساعة متأخرة فى وداعة

ومرح ليتوقفوا لحظات أمام الحانوت الوحيد بالشارع وهو للعصائر أو أمام عربات اليد التي تبيع اللوز والبندق وغيرهما من المسليات .

ولا أغالى إذا قلت أنى قضيت في هذا الشارع ساعة من أجمل ساعات عمرى ، متمشيا فى استرخاء ، مستمتعا بوجوه الفتيات الجذابة وعيونهن الواسعة، سعيدا بجو السلام والطمأنينة والأمن وبالأخوة السائدة وغياب التوتر والعنف والجريمة والمخدرات والضجة والبذاءة ، فرحا بتفتح البراعم وبقصص الحب التى تنمو وتتشكل وبالمودة السائدة بين الجنسين اللذين يتعارفان ويترافقان دون خوف أو عقد . أليس هذا هو جوهر الأمر كله ؟ أليس هذا هو ما تسعى إليه الانسانية منذ الأزل .

لحظة واحدة فقط عكرت صفو الأمسية عندما قررنا أنا و «ليلى العثمان» أن نتحدث مع إحدى المارات فاخترنا فتاة جميلة منهمكة فى حديث جاد مع رفيقة لها . وعندما اقتربنا منها وخاطبناها فوجئنا بها تبتعد فى خوف وتتوارى خلف صديقتها . وتبين أنها قادمة من بغداد لتزور أقارب لها فى «أربيل» وأنها ظنت أننا بعثة تليفزيونية وتخشى أن تظهر صورتها على الشاشة فيعلم أهلها أنها تسير بلا غطاء للرأس وفى هذا الشارع بالذات !.

أعادتنا هذه المقابلة إلى أرض الواقع وأوشكت أن تتلف الأمسية لولا أننا وجدنا أنفسنا مدعوين لحفل خطوبة فى حديقة أحد الأندية . رقصنا الدبكة مع المحتفلين ثم ختمنا الليلة بالاستماع إلى «فريد الاطرش» من شاب كردى يشبهه تماما ويغنى أغانيه على العود .

للتسامح حدود

لكن التسامح والتعددية وحرية الرأى والصحافة والنقد التى يزهو بها قادة الحزب الديموقراطى الكردستانى لها حدود . فإذا كانت صحف «صدام حسين» توزع بحرية هى والصحف التركية فإن صحف الحزب الكردى الآخر (الاتحاد الوطنى الذى يتزعمه الطلبانى) والاسلاميين الأكراد وحزب العمال التركى ممنوعة . وقد عبرنا هذه الحدود الصارمة فى اليوم الخامس من رحلتنا .

أقلتنا سيارات التويوتا فوق طريق مرصوف جيدا تحيط به الجبال الشاهقة من الجانبين إلى النقطة الفاصلة بين المنطقتين الكرديتين · المنطقة التى يحكمها «البرزانى» وعاصمتها «أربيل» والأخرى التى يحكمها «الطلبانى» وعاصمتها «السليمانية» . والفريقان خرجا من عباءة الزعيم الأكبر للأكراد الملا «مصطفى البرزانى» الذى قاد نضال الأكراد منذ

١٩٤٣ حتى وفاته بالسرطان فى عام ١٩٧٨ . وأيا كانت أوجه الخلاف (الذى بدا فى لحظة ايديولوجيا حسب التوجهات الماركسية النى تبناها «الطلبانى» وقتها) فإن الحزبين سعيا إلى هدف واحد هو الحكم الذاتى فى إطار العراق . لكن المواقف تباينت حول السبيل إلى تحقيق هذا الهدف واستغل الحكم البعثى الأمر لصالحه ، ملتجئا إلى مختلف الوسائل لتفتيت الحركة الكردية والقضاء عليها من ترغيب وترهيب إلى الابادة فى حملة «الأنفال» المشئومة .

الهيصة

وليت الأمر اقتصر على هذا . ففى تركيا التف الاكراد حول حزب ثالث هو «حزب العمال» الذى حكم بالاعدام أخيرا على زعيمه «عبد الله أوجلان» وأقام هذا الحزب قواعده فى كردستان العراق فشنت الحكومة التركية حملات وحشية ضد هذه القواعد ووقع أكراد العراق (وخصوصا فى منطقة البرزانى) بين نيران بغداد وأنقرة . واضطر حزب البرزانى إلى معارضة وجود الحزب التركى فوق أراضيه ونشبت المعارك بين الجانبين . وفى الوقت نفسه قام تحالف بين الطلبانى وحزب العمال . ولما كانت أراضى الطلبانى ملاصقة للحدود الايرانية فقد تعين عليه أن يحافظ على علاقات طيبة بايران التى شاركت قواتها «الهيصة» بحملات عديدة ضد قواعد البرزانى .

الفرصة التى ضاعت

وكانت فرصة الأكراد الذهبية عندما هزم صدام فى «أم المعارك» فقام الأكراد بانتفاضتهم الكبرى من أجل الحكم الذاتى وتمكن صدام من قمعهم بوحشية فهربوا إلى الجبال لكن الضجة العالمية التى رافقت ثورتهم أسفرت عن اعتبار الشمال العراقى فوق خط عرض ٣٦ منطقة آمنة لهم تحت حماية الأمم المتحدة بقرار من مجلس الأمن فى أبريل ١٩٩١ . (لم تفدهم ضجة مماثلة أيام مذبحة الانفال لأن الغرب وقتها كان ما يزال يعتبر صدام حليفا مهما ضد ايران الأصولية) .

وفى العام التالى أجريت انتخابات برلمانية فى المنطقة تشكلت على قاعدتها حكومة موحدة لاقليم كردستان تقاسم فيها الفريقان المناصب والمسئوليات ، وبدا المستقبل واعدا .. عاد إلى المنطقة الأكراد الذين شتتتهم المذابح البعثية وتوافدت الكوادر المدربة من جميع أرجاء الدنيا وافتتحت عدة جامعات فى الاقليم . لكن الاعداء كانوا بالمرصاد فقد بذل النظام التركى كل جهوده لاحباط التجربة التى اعتبرها تهديدا لكيانه حيث تضم

تركيا أكبر عدد من الأكراد فى منطقة غنية بكل الخيرات والموارد الطبيعية (النفط والمعادن ومنابع المياه) . وبالمثل سعى النظام العراقى إلى الهدف نفسه كما أن ايران لم تكن بعيدة تماما عن الصورة . ولم تمض سنتان حتى نشب صراع دموى بين الفريقين راح ضحيته أكثر من عشرة آلاف قتيل كردى ارتكبت خلاله فظاعات من النوع البعثى .

ويتهم الطلبانية جماعة البرزانى بأنها أشعلت فتيل الحرب فى مايو ١٩٩٤ باغتصاب واردات جمرك «ابراهيم الخليل» التى تبلغ مليون دولار يوميا . ويقول البرزانية : إن الجماعة الأخرى كانت تسعى لبسط سيطرتها على كل الأقليم وأنها استعانت بالحرس الثورى الايرانى لدعم سيطرتها .

استمر القتال بين الجانبين حتى ٣١ أغسطس ٩٦ عندما اتفق البرزانية مع «صدام» على احتلال «أربيل» بواسطة دبابات الحرس الجمهورى . ولم يتدخل المجتمع الدولى أو مجلس الأمن أو الولايات المتحدة . وتركت دبابات «صدام» تعبر الخط المحظور وتتقدم إلى «أربيل» لتحررها من جماعة «الطلبانى» وفى نفس الوقت تدخلت الطائرات التركية ضدهم بدعوى مهاجمة قوات حزب العمال الكردستانى التركى (القوة الثالثة فى الساحة الكردية) وهى دعوى كاذبة لأن قوات الحزب المذكور تنتشر فى مناطق الحدود التى تبعد اكثر من ١٢٠ كيلو مترا عن المنطقة المقصوفة . واضطرت قوات «الطلبانى» إلى الانسحاب من عاصمة الكيان الموحد «أربيل» .. ومنذ تلك اللحظة تكرس الانقسام إلى إقليمين وبسطت الولايات المتحدة شباكها بدعوى التوسط والتحكيم وتردد الجانبان على واشنطن إلى أن وقعا فى ١٩٩٨ اتفاقا نهائيا لم يطبق حتى اليوم .

العلم الأخضر

سألنا «مهدى» سائق «التويوتا» عندما رأينا العلم الأخضر يرتفع على الجانب الآخر من نقطة الحدود عما إذا كان سيظل معنا عندما ننتقل إلى المنطقة الأخرى فأجاب بالنفى وأنه سيكون فى انتظارنا عندما نعود من زيارتها . وأضاف باستخفاف أننا سنركب هناك سيارات قديمة لا ترتفع إلى مستوى السيارات التى تنقلنا فيها فى المنطقة البرزانية .

غادرنا السيارات وتقدمنا من الحشد الذى انتظرنا على الناحية الأخرى وهمس لى «ريبوار يلدا» أحد كبار المسئولين فى حزب البرزانى ، الذى رافقنا فى كل جولاتنا بمنطقته مع «كريم فندى» و«ابراهيم مصطفى» ، همس لى قبل أن

يسلمنا إلى الجانب الآخر : قولوا لهم أن يعطونا كفايتنا من الكهرباء . وقال إن منطقته عانت من أزمة ثلج فى الشهر الماضى بسبب تقليل وحجب الحصة المتفق عليها من التيار الكهربائى الذى تقع محطة توليده فى منطقة الطلبانية .

لم يكذبنا سائقنا السابق الخبر فبعد استقبال حافل شارك فيه الشاعر الشهير «شيركوه بيك» والملا «بختيار» انتقلنا إلى سيارات «مرسيدس» تبدو عليها آثار الخدمة الشاقة . وخلف الزجاج الأمامى المشروخ جلس سائق ضخم الجسم قاد السيارة كأنه فى معركة . وعلى مشارف مدينة «السليمانية» حظينا باستقبال حافل آخر ثم صعدنا إلى مصيف «سرجنار» حيث استقبلنا «مام جلال» بالملابس الأوروبية فى الفندق الذى خصص لاقامتنا .

العم جلال

«مام جلال» ، أى العم «جلال الطلبانى» ، كما يناديه أنصاره ، رجل ضاحك فى السبعين ، ضخم الجسم خفيف الظل يتمتع بروح مرحة، ويمتلىء حديثه دائما بالنوادر والنكات ، لكنه شديد اليقظة حاد الذكاء. وهو فضلا عن ذلك عاشق للطعام الجيد. قال لنا عندما استأذناه فى أن ندخن : «أنا لا أدخن وزوجتى لا تأكل . أنا آكل بالنيابة عنها وهى تدخن بالنيابة عنى» . ولم نفهم ما يقصده إلا عندما انضمت الينا زوجته «هيرو ابراهيم أحمد» بعد قليل فوجدناها نحيلة ضئيلة الحجم فى منتصف العمر ترتدى بلوزة سوداء وجينزا أسود ذات وجه شاحب ونظرة شاردة وابتسامة رقيقة . وعندما انتقلنا لتناول طعام الغداء حول مائدة حفلت بكل ما يمكن تخيله من أصناف اللحم والسمك مع نوع واحد من الخضراوات هو البامية المطهية على الطريقة المصرية تحققنا من صدق قوله ، فبينما كان مام جلال يتناول أصابع الكفتة باهتمام كانت زوجته تشعل السيجارة من غيرها .

نصير المرأة

صحبتنا السيدة «هيرو» التى لا تخلع السواد منذ وفاة أبيها قبل شهرين (ابراهيم أحمد رفيق الملا «البرزانى» فى الكفاح وشريك «الطلبانى» فى تأسيس حزب الاتحاد الوطنى) إلى مقر التليفزيون الذى تشرف عليه وتنطلق منه قناتان أرضيتان وواحدة فضائية باسم «كردسات» . (يملك الجانب البرزانى أيضا قناتين أرضيتين وواحدة فضائية باسم كردستان تى فى) واستطاعت أن تأسرنا جميعا برقتها وتواضعها . فرغم أنها فى وضع «السيدة الأولى» فإنها لا تسمح لأحد أن يخدمها وتصر على أن تحضر بنفسها منفضة السجائر أو المقعد الذى ستجلس عليه ولهذا لا عجب أن

الجميع يعشقونها . وهى دائبة الحركة شديدة النشاط تشرف على عدد من النشاطات وترعى مركزا كبيرا للشباب يتميز مبناه بحس جمالى رفيع جعلنى أتساءل عما إذا كان قد أقيم بتمويل أجنبى فنفت ذلك وقالت : «دبرنا أمورنا ثم أخذنا الباقى من «مام جلال» . وسمعت تعليقا مشابها من رئيسة تحرير الجريدة النسائية فعندما سألتها عمن يمول الصحيفة نظرت إلىّ بتعجب وقالت : لا أحد . مام جلال هو الذى يعطينا النقود.

وفى إحدى الجلسات جاء مكانى إلى جوار شابة جميلة تغطى رأسها بايشارب عرفتنى بنفسها : إسمها شيرين متزوجة وعندها أطفال وأجبرها الاقتتال هى وزوجها على الالتجاء إلى ايران بعض الوقت . تقوم بمسئوليات رئيسية فى النشاط الحزبى النسوى وتتعلم الانجليزية وتدرس القانون بجامعة السليمانية لتصير محامية وعندما أبديت دهشتى من كل هذا الجهد قالت بافتخار : الفضل لمام جلال الذى يشجع المرأة .

وفى جلسة أخرى وجدت مام جلال ينصت إلى حديث هامس من فتاة شقراء جميلة ثم قال: إنها شاعرة ونشرت بضع قصائد متهورة اعتبرتها الحركات الاسلامية كفرا فعين لها حراسة خاصة لحمايتها .

والواقع أن الحزبين يشتركان فى الموقف المتقدم من قضية المرأة ومن مشاركتها فى الحياة العامة. لكن طبيعة كل منطقة هى التى فرضت نفسها . ف «السليمانية» أقرب إلى المراكز الحضرية فى العراق وايران بينما «أربيل» معزولة فى الشمال وبالتالى أكثر محافظة .

لباس الحكمة الذى ارتديناه

مساء يوم وصولنا إلى «السليمانية» أقلتنا سيارات المرسيدس إلى مقر «مام جلال» الخاص فى «قلاجوالان» – ومقر المكتب السياسى لحزبه فى الوقت نفسه – فوق أعلى قمة جبلية بالمنطقة بلغناها بعد أكثر من نصف ساعة من الدوران بالطريق الجبلى الصاعد . كنا نتحرق شوقا لممارسة دور الحكماء الذى تلبسنا بعد يومين من حلولنا بالأرض الكردية . فمن فرط اعجابنا بالطبيعة والناس وتأثرنا بكرمهم وعواطفهم واشفاقنا على مستقبلهم وتقديرنا للتضحيات التى بذلوها شرعنا نوجه إليهم النصح بالمحافظة على الديموقراطية وتجاوز الخلافات وتحقيق الوحدة . كانوا يستمعون الينا فى هدوء ويؤمنون على أقوالنا فى صمت . وفى احدى اللحظات تخيلت أنهم ربما يسخرون منا فى أعماقهم . بالنظر إلى ما حققناه نحن العرب من انجازات خطيرة فى هذه الميادين .

وأتاح لنا «مام جلال» الفرصة فى

حديقة مقره الخاص وأمام مائدة طويلة صفت فوقها صوانى الموز والبطيخ والعنب ، بينما دارت علينا أسياخ المشويات من دجاج ولحم . وأمدنى «انتشال التميمي» بخبرته فنصحنى بتجنب بعض الأنواع غير المطهية جيدا والتركيز على الأكباد والقلوب، كما نصحنى بألا أفرط فى الأكل لأن العشاء الحقيقى لم يبدأ بعد . وخلال ذلك استمع «مام جلال» إلى نصائحنا الحكيمة ورد عليها باستعراض المبادرات التى قامت بها جماعته من أجل رأب الصدع وتجنب الاقتتال وتحقيق الوحدة. وهو تقريبا نفس الحديث الذى سمعناه عندما التقينا بزعيم الحزب الآخر، «مسعود البرزانى» ، فى مقره ومقر مكتبه السياسى في مدينة «صلاح الدين» .

كاك مسعود

إن «كاك مسعود» أى «الأخ مسعود» كما يدعوه أنصاره رجل قصير القامة فى الرابعة والخمسين من عمره ، له عدد من الأحفاد ، رصين ، شديد الذكاء والتركيز، قليل الكلام، كان دائما محل تقدير أبيه «الملا مصطفى» فخلفه فى قيادة الحزب الديموقراطى .

فى اليوم الذى تحدد لنا للقاء القيادة البرزانية ظهر «نبيل زكى» عند باب الفندق فى قميص أخضر زاه، وسارع إليه «فخرى كريم» محذرا بأن هذا اللون هو لون علم الجانب الآخر وأن إرتداءه سيعتبر استفزازا . آمن «نبيل الطيب» بالتحذير وصعد إلى غرفته واستبدل قميصه بينما كنا نخفى ابتساماتنا . أما «ليلى العثمان» فقد اختارت بالصدفة من أطقم ملابسها العديدة طقما باللون الأصفر . هكذا ذهبنا مهندمين إلى لقاء الزعيم الكردى الذى استقبلنا فى الملابس التقليدية تحت علم الحزب الأصفر اللون .

وكالعادة ، أبدى حكماؤنا قلقهم على وحدة التراب العراقى والوحدة الكردية ذاتها وتخوفهم من تداعيات الدور الأمريكى ودعوا إلى أن ينضم الأكراد للمطالبة برفع الحصار عن العراق . ومن جانبه أكد الأخ «مسعود» أن حزبه لا يفكر اطلاقا فى أى دعوة انفصالية وأنه متمسك بوحدة التراب العراقى ولكن على أساس الفيدرالية وأنه يؤيد الدعوة لرفع الحصار عن العراق بشرط ألا يؤدى ذلك إلى اطلاق يد «صدام» فى التنكيل بهم . وإنه يدرك طبيعة الدور الأمريكى فقد سبق أن تخلت الولايات المتحدة عنهم سنة ١٩٧٤ بعد أن دعمتهم لبعض الوقت كما أن نصف المعونات التى يتلقونها من الغرب حسب برنامج الغذاء تذهب للخبراء الأجانب وموظفى الأمم المتحدة. وتواصل الحديث على مائدة الطعام الحافلة بكل أنواع اللحوم والأسماك

الشهية وطبق البامية التقليدى وتحت النظرات اليقظة من شاب مسلح فى الملابس الكردية التقليدية هو الأخ الأصغر ل «كاك مسعود» ومعاونه الذى لم يشاركنا الطعام وإنما ظل واقفا عند باب القاعة وعينه على أخيه فى انتظار أى اشارة منه .

وبعد حديث طويل عن العلاقات بين الحزبين الكرديين وجمسرك «ابراهيم الخليل» والفيدرالية والديموقراطية والانتفاضة والقرار ٩٨٦ واتفاقية واشنطن وحكم المناصفة «فيفتى فيفتى» .. وجهت إلى الأخ «مسعود» السؤال التالى: من حديثك أفهم أنه لا يوجد أى خلاف بينكم وبين الحزب الآخر بشأن المواقف السياسية فما هى المشكلة إذن؟ أجابنى على الفور دون مواربة : الخلاف فى حقيقته هو صراع على السلطة .

أعجبتنى صراحته ولم أشأ أن أسأله عن الكيفية التى سيحسم بها الصراع فلاشك أنه سيجيب بأنها الانتخابات التى يشترط كل جانب لاجرائها شروطا لا يقبلها الجانب الآخر . وخطر لى خاطر بسيط ومجنون فى الوقت نفسه من فرط بداهته : ماذا لو أعلن أحد الطرفين انسحابه من الصراع وترك الميدان حرا للطرف الآخر فى سبيل المصلحة العليا للشعب الكردى؟.

يا ويلى !

لم تكن رحلتنا كلها مكلمات فقد كانت هناك فرص كثيرة للاستمتاع بمشاهدة جبال شاهقة، وأودية سحيقة ، ومقاه معلقة فى قمم الجبال بين شلالات المياه، ومناظر ساحرة دفعت «انتشال التميمى» لأن يصرخ أكثر من مرة «يا ويلى !» ، تعبيرا عن انبهاره بجمال الطبيعة ورهبتها ولم تخل الرحلة أيضا من أخطار متعددة، عندما وقعت بسبب الظلام فى قناة صرف أمام مقر المكتب السياسى للحزب الشيوعى العراقى فى مدينة «شقلاوة» ، وعندما اعترضنا حاجز عسكرى فى طريق العودة أنبأنا بوجود تحركات المتسللين من أعضاء حزب العمال التركى . وعندما قصفت الطائرات التركية منطقة الحدود فى اليوم التالى لعبورنا إياها وقتلت ١٨ كرديا . كما كانت هناك لحظات الأسى أمام قبور ضحايا القصف الكيماوى البعثى فى «حلابجة» على بعد نصف ساعة بالسيارة من الحدود الايرانية شرقا وساعة كاملة من الحدود البعثية جنوبا .

هيروشيما العراقية

فى ١٦ مارس ١٩٨٨ ظهرت الطائرات العراقية فجأة دون انذار فى سماء البلدة التى يقطنها خمسة وأربعون ألف كردى وقصفتها هى والقرى المحيطة بمزيج خاص من غاز الخردل والسيانيد

وغازات الأعصاب الأخرى . وبدلا من أن يهرع السكان إلى الهواء الطلق لمقاومة تأثير الغازات التجأوا إلى الأقبية والمخابىء فتعرضوا لمصير بشع. وكانت المواد الكيماوية المقصوفة تلتصق بالملابس والجلود والعيون والرئات . وظلت سحابات الغاز تخيم فى سماء البلدة عدة أيام . وتجاوز عدد الضحايا الخمسة الاف .

فى تلك الآونة كان «صدام» يحظى بتأييد الغرب كحليف ضد ايران الاسلامية ولهذا تم اسكات حملات الاحتجاج الدولية على المأساة، أما البلاد العربية فقد كانت مشغولة بقضية فلسطين وواقعة فى فخ العداء لايران، كما أن النظام العراقي نجح فى تضليل مثقفيها بشعار «وحدة التراب» من ناحية وبالاغراءات العديدة من ناحية أخرى والنتيجة أن أحدا لم يتحرك لمساعدة الضحايا. وبعد عشر سنوات أجرى عالم إنجليزى من جامعة ليفربول الكشف على ٧٠٠ شخص من ضحايا القصف فاكتشف أن أغلبهم مصاب بسرطانات عديدة فى الجلد والرأس والرقبة والجهاز التنفسى والهضمى وأن الاصابات امتدت إلى الأطفال الذين ولدوا بعد القصف . كما شكى كثيرون من عجزهم عن استخدام عضلاتهم ومن تكرار حالات الاجهاض والولادات المشوهة . وتبين أن الذين لقوا حتفهم فى القصف ودفنوا فى مقابر جماعية تسللت السموم من أجسادهم المتحللة إلى التربة ولوثت المياه والزرع مما أدى إلى ذبول الأشجار ونفوق الحيوانات . وتوصل العالم الانجليزى فى النهاية إلى أن نتائج القصف تماثل تلك التى ظهرت لدى من كانوا على مبعدة كيلو متر واحد أو اثنين من مركز انفجار هيروشيما .

المكلمة الكبرى

لكن ذروة الرحلة كانت بلاشك «المكلمة الكبرى» التى عقدناها فى مدينة «السليمانية» عشية مغادرتنا لها وأدارها «الملا بختيار» ، أحد قادة الحزب الشبان ذو الأصل العمالى والتاريخ العسكرى والمشرف على اصدار مجلة «مدنى» التى تروج لأفكار المجتمع المدنى .

استهل اللقاء الذى شهده عدة مئات من المواطنين فى القاعة الرئيسية لمركز الشباب ببداية غير موفقة . فبعد أن وقفنا حدادا على شهداء الشعب الكردى بناء على إقتراح من «الملا بختيار» اقترح «مصطفى الحسينى» ، بدافع من حرصه على التنويه بوحدة شعبى العراق، العربى والكردى، واخلاصا منه لرسالة وفد الحكماء ، أن يقف الجميع حدادا على شهداء الشعب العراقى . لكن صوته المنفعل بدا محملا بنبرة بها شىء من اللوم .

ولعله بدا هكذا لبعض الحاضرين مما دفع رئيسة تحرير الجريدة النسوية لأن تطلب الكلمة لتستنكر فى انفعال احتجاز الدكتور «سعد الدين ابراهيم» رهن التحقيق فى مصر واصفة إياه بالصديق العزيز للشعب الكردى .

انبرى «نبيل زكي» للرد وتتابعت الأسئلة وكان أغلبها موجها إلى «ليلى العثمان» وإلى ظروف المحاكمة التى تعرضت لها فى الكويت بضغط التيارات الأصولية . وتحدثت ليلى عدة مرات بطلاقة وبساطة نالتا اعجاب الجميع .

وجاء دورى لأجيب على سؤال عن الحداثة وسقوط نظرية المؤامرة وعما إذا كان الأفضل أن ننسى الماضى . ولم أملك إلا أن أبدأ بالتعبير عن أسفى لما تفضلت به الأخت الصحافية من وصف الدكتور الذى يفخر بجنسيته الأمريكية بأنه صديق للشعب الكردى . وتساءلت : كيف يمكن أن تكون الولايات المتحدة صديقة للشعب الكردى أو لأى شعب فى العالم غير يهود اسرائيل ؟ ثم تحدثت عن بعض مظاهر ارتباط المصالح بين القوى المهيمنة والمصطلحات التى يروجون لها بخبث من أول «قبول الآخر» و «ثقافة السلام» إلى «المجتمع المدنى» .

ولأنى لا أجيد الارتجال فقد عدت إلى مقعدى سريعا ورحت أستعيد ما قلته نادما على ما فاتنى ذكره . ثم شردت أفكر فى حظ هذا الشعب الجميل الذى قسمته «المؤامرة» عدة أجزاء هيمنت عليها حكومات شرسة وخاصة فى العراق حيث يتقصد النظام ابادة أبنائه بشكل كامل متدثرا بعباءة وحدة التراب - التى تستخدمها جميع الأنظمة الرجعية لتبرير وحشيتها وشوفينيتها - ليرفض حقه المشروع فى كيان مستقل . ويخفى هدفه الحقيقى وهو الاستحواذ على موارد النفط الهائلة التى تحظى بها الأرض الكردية . أدركت معنى بيت من قصيدة شاعر كردى يقول فيه أن الشعب الكردى ليس له أصدقاء .

تطلعت حولى فى القاعة الواسعة والوجوه المصفوفة بين أربعة جدران . وأمكننى أن أدرك ما يدفع الانسان عندما يجد نفسه محاصرا من كل جهة كي يبحث عن منفذ ويقبل الحلفاء أيا كانت نواياهم الحقيقية ..

كان يتعين علينا

انتهت المكلمة أخيرا وغادرنا القاعة لنسمع الأنباء . فقد قامت سلطات بغداد بترحيل ما تبقى من أكراد فى منطقة «كركوك» من أجل تعريب المنطقة بالكامل .. وشعرت بأننا - وفد الحكماء - أنفقنا جهدا زائدا فى توجيه النصح بينما كان يتعين علينا أن نقدم - بدلا عنه - الاعتذار !!.

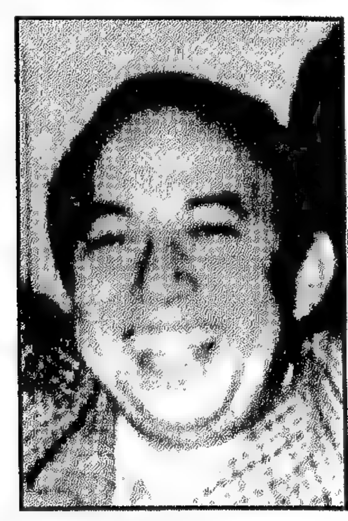


الأهالي صحيفة تحت الحصار

بقلم : حسين عبدالرازق

احتلت تجربة «الأهالى» المساحة الأكبر فى الملف الذى نشر فى «الهلال» فى العدد الماضى تحت عنوان «الصحافة الحزبية: تجارب وشهادات»، وهو أمر طبيعي، حتى ولو تم بالمصادفة نتيجة لأن اثنين من الزملاء الذين أدلوا بشهاداتهم رأسا تحرير «الأهالى» فى فترة من الفترات ، وهما الصديقان «محمود المراغى» و«عبد العال الباقورى» .







حسين عبدالرازق



محمود المراغى



عبدالعال الباقورى

فالأهالي منذ صدورها تثير جدلا واسعا في الساحتين السياسية والصحفية، وربما أكثر من أي صحيفة حزبية أخري. وقد تعرضت في عامها الأول (١٩٧٨) للمصادرة ٨ مرات منها ٧ مصادرات علي يد المستشار «أنور أبوسحلي» (الأعداد ١٦، ١٧، و٢٣ و٢٤ و٢٥ و٢٦ و٢٧ و٣٠) والتعطيل مرتين (العددين ٢٨ و ٢٩) بقرار من غرفة المشورة بمحكمة جنوب القاهرة برئاسة المستشار «أحمد سلطان»، وللمصادرة بقرار من رئيس مجلس إدارة دار التعاون التي كانت «الأهالي» تطبع في مطابعها (العدد ٣١) وبالتالي منعها من الصدور. كل ذلك في فترة لا تتجاوز تسعة أشهر (من أول فبراير ١٩٧٨ إلي ٢٥ أكتوبر من العام نفسه).

وتمهيدا للمصادرة وإغلاق الأهالي، تعرض حزب التجمع «جريدة الأهالى» لهجوم غير مسبوق من رئيس الجمهورية الراحل (أنور السادات) الذى قال فى عيد العمال (أول مايو ١٩٧٨) بشبرا الخيمة .. «لن أسمح أبدا بأن يعبث بمصير هذا الشعب نفر من أصحاب المذاهب والعملاء» ، ووصف صحيفة الأهالى بالغباء وقال إنه لا يعترض على قيام تنظيم يسارى مصرى «لكننا نعترض على وجود عملاء داخل تنظيم اليسار.. الولاء لا يكون لاثنين.. الولاء لمصر فقط»!

وعندما عادت الأهالى للصدور فى ١٩ مايو ١٩٨٢ بعد تولى الرئيس حسنى مبارك للسلطة، تعرضت «الأهالى» - خاصة فى الثمانينات - لعديد من الحملات الحكومية والصحفية وللمساءلة أمام نيابة أمن الدولة وللمثول أمام

المحاكم بمختلف درجاتها ، من القاهرة إلى الإسكندرية مرورا بشبين الكوم ، وصولا إلى أسوان، فى أكثر من ٩٢ قضية.

ولازلت أذكر كيف خصص مجلس الشعب جلسته يوم ٢٣ يناير ١٩٨٣ لمحاكمة جريدة الأهالى لنشرها تحقيقا صحفيا للزميل عاصم حنفى (٢٩ ديسمبر ١٩٨٢) حول طرد «د. محمد على صالح» الأستاذ بكلية الهندسة جامعة القاهرة، ودور رئيس جامعة القاهرة فى عملية الطرد، والذى كان عند نشر هذا التحقيق رئيسا لمجلس الشعب، وقرار مجلس الشعب إحالة مضبطة الجلسة إلى المجلس الأعلى للصحافة للتصرف.

ومن إبريل ١٩٨٣ هددت الحكومة الأهالى بالمصادرة إذا لم توقف نشر فصول كتاب «خريف الغضب» للأستاذ محمد حسنين هيكل، وتعرضت الأهالى لحملة صحفية قادها الزميل الراحل «موسى صبرى» ولحملة أشد داخل المجلس الأعلى للصحافة.

وتعددت المعارك والصراعات والتى يمكن لو عددت بعضها أن أشغل كل صفحات مجلة الهلال وأكتفى - خاصة والتفاصيل كاملة منشورة وموثقة فى كتاب «الأهالى صحيفة تحت الحصار» الصادر فى يونيو ١٩٩٤ والذى أشار إليه د. محمود خليل فى مقاله بالهلال - اكتفى بما سجله «التقرير الاستراتيجى العربى» عن عام ١٩٨٥، الصادر عن مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية.. ومن الموضوعات التى اهتمت بها الأهالى وآثار بعضها زوبعة سياسية أو دينية موضوع دور المؤسسة العسكرية فى المجتمع المصرى، وموضوع التسهيلات العسكرية الأمريكية فى مصر، وموضوع حجاب المرأة فى الإسلام. كما تابعت الأهالى محاولات الحكومة لرفع الأسعار، مثلما تناولت قضايا أخرى كالضرائب والتهرب الضريبى وتزوير الانتخابات، وأيضا دافعت عن مشروع السد العالى . وانفردت «الأهالى» بعدائها لنظام نميرى فى السودان، وأجرت أول لقاء صحفى مصرى مع القيادات السياسية السودانية بعد سقوط النميرى. كذلك انتصرت الأهالى لحقوق المرأة وحذرت من تضررها من تغيير قانون الأحوال الشخصية.

على أن أهم حملات الأهالى قد ارتبطت بموضوعين : الأول هو موضوع التعذيب الذى تعرض له المعتقلون من أعضاء تنظيم الجهاد، والذى جعلته «الأهالى» فاتحة لمناقشة موضوع تعذيب السياسيين فى مصر على وجه العموم ، وكانت حملة ناجحة انخرطت فيها بقية صحف المعارضة وأدت لفتح ملف

الموضـوع بواسطة النيـابة العــامــة. والموضوع الثانى هو القرارات الاقتصادية (عام ١٩٨٥) والتى أيدتها الأهالى ونبهت فى الوقت نفسه إلى ما بها من ثغرات كما توقعت الحملة المضادة لهذه القرارات.

لقد كانت تجربتى التى استمرت منذ الصدور الأول للأهالى (١ فبراير ١٩٧٨ - ٢٥ أكتوبر ١٩٧٨) وعملت خلالها سكرتيرا للتحرير ، وخلال الصدور الثانى وتحملى مسئولية رئيس التحرير (١٩ مايو ١٩٨٢ - ١٨ مايو ١٩٨٨)، تجربة مهمة متخمة بالدروس . وقد لخصت فى نهاية كتابى «الأهالى صحيفة تحت الحصار» مشاكل الصحافة الحزبية قائلا:

«.. نستطيع حصر هذه المشاكل والأخطار فى أربعة مجالات أساسية :

١ - مشاكل عامة .. ويأتى فى مقدمتها افتقار الصحف الحزبية - أغلبها إن لم تكن جميعها - إلى استكمال المقومات الضرورية للمؤسسة الصحفية ، وبصفة خاصة، افتقارها للمطبعة وجهاز التوزيع، وبالتالى اعتماد الصحافة الحزبية فى الطبع والتوزيع على الغير.. واعتماد الصحافة الحزبية على مطابع المؤسسات المملوكة لمجلس الشورى أساسا يجعلها رهينة لقرارات السلطة.. كذلك فالطبع والتوزيع لدى الغير يحرم الصحف الحزبية من جزء كبير من الدخل، يذهب إلى المؤسسات الصحفية، كما يحرمها من عائد الاستخدام التجارى للمطابع فى حالة ملكيتها لها.

ويقودنا ذلك إلى أهم وأخطر مشاكل الصحافة الحزبية ، وهى المشكلة المالية





خالد محيى الدين — د. إسماعيل صبرى عبدالله

والاقتصادية. فالصحف الحزبية جميعا تعانى من غياب أو ضعف مواردها المالية فهى تكاد تكون بلا رأس مال باستثناء الموارد التى خصصتها لها أحزابها عند الصدور. وتعتمد كلياً على عائد البيع، وهو أقل من أن يغطى التكلفة الحقيقية لهذه الصحف. والمصدر الثانى المتاح هو الإعلانات .. ويلاحظ أن توزيع إعلانات القطاع العام لا يتم على أساس توزيع هذه الصحف وانتشارها ، وإنما تدخل فيه عوامل أخرى عديدة.. ولا يمكن إغفال أن الحكومة هى التى تتحكم فى هذه الإعلانات .. وبالتالى تستطيع الضغط على الصحف الحزبية إذا أرادت .. ومن الغريب أن الحكم - يمنع بالقانون - على الأحزاب القيام بأى نشاطات تجارية لزيادة موارد الحزب.. بينما يسمح للمؤسسات الصحفية المملوكة للدولة بمزاولة «التصدير والاستيراد والقيام بأنشطة الوكالات التجارية».

ونتيجة لهذه العوامل فإن جميع الصحف الحزبية تعانى من اختلال فى

أوضاعها المالية والاقتصادية، وتعتمد على الحزب فى تقديم الدعم.. ويزيد من خطورة المشكلة المالية والاقتصادية غياب أو ضعف البناء المؤسسى للصحف الحزبية والضعف البالغ للجهاز الإدارى وافتقاره إلى الخبرة فى إدارة المؤسسات الصحفية.. والمشكلة الرابعة والمهمة هى مشكلة الجهاز التحريرى.. واضطرار الصحف الحزبية للبحث عن كفاءات صحفية من غير المنتمين إليها أو إلى الأفكار التى تدعوها.

٢ - العلاقة مع سلطات الدولة.. هناك قيود وانتهاكات عديدة ، والأهم من ذلك أن هناك قوانين وسلطات تعطى للسلطة التنفيذية امكانات واسعة للعصف بالصحافة الحزبية.

- فهناك القيود الواسعة المفروضة على حق الصحف الحزبية فى الحصول على المعلومات.

- وهناك تعرض بعض الصحف الحزبية للمصادرة وللغلق.

- وهناك التوسع من جانب النيابة العامة فى استخدام حقها فى حظر النشر حول تحقيقات مفتوحة أمامها.

- توسع المسئولين فى المواقع المختلفة فى رفع قضايا قذف وسب ضد صحف المعارضة فى محاولة لتضييق الهامش المتاح للنقد «المباح» .

- لجوء أجهزة الدولة إلى تكذيب كثير من الأخبار التى تنشرها الصحف الحزبية رغم صحتها . وتستمد أجهزة الدولة جرأتها على التكذيب استنادا إلى أن القانون المصرى الذى يجعل المسئولية على الصحيفة (أو الصحفى) فى إثبات صحة الخبر.

- وهناك التدخل الفظ لأجهزة الأمن فى العمل الصحفى.. بما فى ذلك مراقبة بعض صحف أحزاب المعارضة، والتصنت على دور الصحف الحزبية وزرع عملاء فى داخلها .

- وهناك التدخل الحكومى داخل بعض الأحزاب مستفيدة من ضعف هذه الأحزاب والذى أدى إلى فرض رؤساء تحرير بعينهم أو إقصاء آخرين ، أو على الأقل محاولة ذلك بوسائل غير ديمقراطية.

٣ - المشاكل المهنية والنقابية .. تفتقر أغلب الصحف الحزبية إلى أى نظام مؤسسى أو لوائح للأجور والمرتبات بما أثار العديد من المشاكل بين إدارات هذه الصحف والعاملين بها .. والصحف الحزبية أساسا هى ملكية خالصة للأحزاب السياسية، ومهما وضعت لوائح وأنظمة فالحزب - حتى الآن - هو المالك ، وبالتالى تنعكس على الصحيفة كل الأوضاع الحزبية سلبا وايجابا ويتعثر قيام مؤسسة صحفية مستقرة.

٤ - مشاكل الأحزاب .. برزت خلال

الفترة الماضية مجموعة من الظواهر أثرت على الصحف الحزبية من أبرزها ثلاث ظواهر.

- واجهت كل الصحف الحزبية التناقض بين الضرورات الحزبية والضرورات الصحفية. وقد نجح بعضها في إقامة توازن صحيح بين الضرورتين . بينما غلب البعض الآخر الاحتياجات الحزبية المباشرة . مما أثر بالسلب على هذه الصحف . وفي تجارب أخرى تحقق نجاح صحفي، ولكن على حساب الصفة الحزبية، ففقدت بذلك تميزها النوعي.

- أغلب الأحزاب القائمة ، نتيجة لقانون الأحزاب وممارسات الحكم، هي في الواقع جبهات .. ومن الطبيعي أن تواجه هذه الأحزاب خلافات - بل وصراعات - داخلية تحلها بطرق مختلفة، بعضها ديمقراطي صحي وبعضها يقوم على الانشقاقات أو التصفيات. ولا شك أن هذه الأوضاع تضر ضررا بالغا بالصحافة الحزبية التي تخضع مباشرة - في أغلب الأحزاب - للقيادة الحزبية . وقد عانت أغلب الصحف الحزبية من عدم استقرار في قياداتها (وهو أمر غير تجديد القيادات)، فالتغيير في هذه الصحف ارتبط بحسم صراعات داخلية وأحيانا بتغيير مفاجيء في توجه الحزب واختياراته. ووصل الأمر في بعض الأحزاب إلى إصدار صحف مماثلة لكي تجد حلا لصراعاتها الداخلية، مما أضعف من هذه الصحف وتأثيرها في المجتمع، وانعكس على العاملين فيها، سواء أصحاب المواقف أو الذين عملوا كمهنيين فقط..»

لقد ركز الزملاء محمود المراغي وعبد العال الباقوري وجمال بدوي بدرجات متفاوتة على المشاكل الناتجة عن العلاقة بين الأحزاب وصحفها، وأثر الخلافات والصراعات الحزبية السلبي على الصحافة الحزبية، ولهم الحق كل الحق في ذلك .

ولكن وعندما تناول المراغي والباقوري انعكاس الأوضاع الحزبية على الأهالي من خلال التجربة الخاصة ، وردت بعض المقولات التي تحتاج إلى مراجعة.

يقول محمود المراغي.. «رفعت ومنذ اليوم الأول شعار «المعارضة بالمعلومات» فالصوت العالي وحده لا يكفي وأثره مؤقت في كل الأحوال.. وكنت أقول إن الصوت العالي عند البعض «ديماجوجية»، ومن ثم فإن النغمة الصحيحة هي النغمة الهادئة التي تدحض الرأي بالرأي».

وقد سبق عندما تولى الزميل العزيز محمود المراغي رئاسة تحرير الأهالي بعد تركي لها إثر خلاف واضح مع قيادة الحزب ،أن أدلى بحديث للأهرام الاقتصادي ركز فيه على قضية «المعارضة بالمعلومات» ورفضه للإثارة والصوت العالي والصراخ، وان هذا هو الفارق بين الأهالي في ظل رئاسته للتحرير والأهالي قبلها، وقد رددت على هذه المقولة وقتها . فالأهالي خلال السنوات الست التي رأست تحريرها كانت تعارض معارضة جذرية وفي الصميم معتمدة أساسا على الحقائق والمعلومات.

مثلا عندما خاضت الأهالي قضية

تعذيب المعتقلين فى السجون والمعتقلات وأماكن الحجز اعتمدت على معلومات وحقائق ثابتة فى ملفات التحقيق والبلاغات المقدمة وتقارير الطب الشرعى، أى على المعلومات ، وقدمتها للرأى العام بطريقة صحفية سليمة.. فكانت العناوين فى الصفحة الأولى «الأهالى تطالب بإيقاف ٣ من كبار ضباط مصلحة السجون» ونشر الموضوع على الصفحة الثالثة تحت عناوين تقول «الأهالى تفتح ملفات التعذيب - أيها المواطن هذا هو مصيرك إذا استمرت حالة الطوارىء - الضرب بالكرابيج وصدمات الكهرباء والحرق». المنهج نفسه اتبعناه فى الأهالى عند تناولنا القضايا الاقتصادية وقضايا القطاع العام مثل قضية جنرال موتورز والتى نشرنا أحد التحقيقات حولها تحت عناوين تقول :

«لأول مرة الوثائق الرسمية لصفقة جنرال موتورز».

«قبل البحث فى هيئة الاستثمار صدر خطاب سرى من مجلس الوزراء بالموافقة على المشروع».

«الاتصالات السياسية أولا وشركة النصر آخر من يعلم».

«كل ما تقدمه جنرال موتورز (١٢) مليون جنيه وأرباحها (٨٧) مليونا فى ٩ سنوات».

وأتحدى أن تكون الأهالى خلال ٦ سنوات توليت رئاسة تحريرها قد اعتمدت فى أى موضوع - كبير أو صغير - على الإثارة والصوت العالى ، دون أن تكون مستندة إلى معلومات ووثائق مؤكدة، وهو ما أدى إلى أن كل القضايا التى رفعت ضدها كسبتها الأهالى، وأنه لم يحكم عليها أبداً بجريمة نشر خبر كاذب.

الخلاف أننى رفضت وجود خطوط حمراء مفروضة من هنا أو هناك ، وإضفاء قدسية على مؤسسة من المؤسسات ، وهو ما ساد بعد ذلك فى الأهالى فى مختلف العهود.

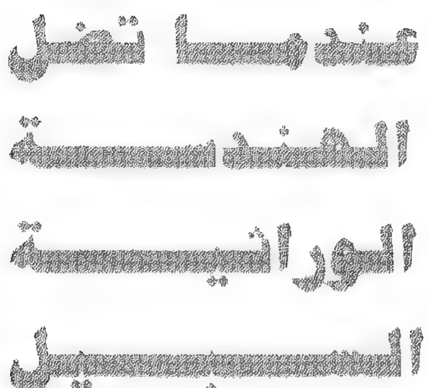
أما التفسير الذى قدمه الزميل محمود المراغى لاستقالته من الأهالى، وقوله إن الماركسيين سيطروا على قيادة الحزب، وإن هذا الفريق «الماركسيين» .. «كان يرى أن من حقه السيطرة على قيادة الصحيفة، ولم يكن مرتاحا لوجود شخصية ناصرية على رأس الجريدة..» فأرجو أن يتقبل منى القول بأن هذا التفسير غير صحيح . فقد وافقت اللجنة المركزية على ترشيح الأمانة العامة لمحمود المراغى لرئاسة تحرير الأهالى بالاجماع. ولم تكن هناك أى قوة فرضت عليهم هذا الاختيار. وقبل طرح اسم المراغى كانت هناك ترشيحات أخرى لاسماء ماركسية تم رفضها ، ومن قيادات ماركسية معروفة فى التجمع،

أذكر منهم د. رفعت السعيد ود. فؤاد مرسي. كذلك فخلال الصراع حول الأهالي والمطالبة بتركي وصلاح عيسى لرئاسة التحرير فقد قاد هذه الحملة ضدي - أصدقاء وأساتذة لي - من الماركسيين أذكر منهم لطفي الخولي وإسماعيل صبري عبد الله وإبراهيم سعد الدين وأبو سيف يوسف وحلمي ياسين.

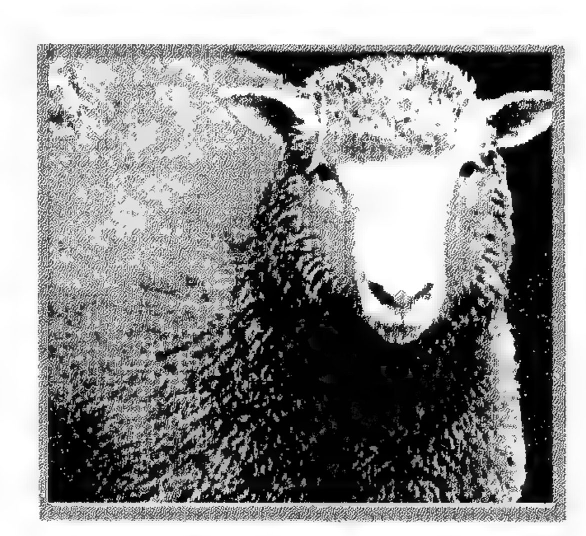
ملاحظة أخيرة حول ماكتبه الصديق عبد العال الباقوري. فلا أظن أن سبب تركه للأهالي هو الخلاف حول أوسلو أو الموقف من الصراع العربي الصهيوني. فهذا الخلاف قائم ومستمر مع عبد العال وعدد من قيادات الحزب منذ البداية واستمر قائما وقيادة الحزب تساند عبدالعال وتتصدى لأي نقد للأهالي في عهده وتستصدر قرارات التقدير للأهالي من الأمانة العامة أو الأمانة المركزية . ولكن المشكلة أن الأهالي شهدت تراجعا غير مسبوق في التوزيع في العام السابق للمؤتمر العام، وتخلق رأي عام في الحزب ناقد للأهالي وللزميلين لطفي واكد وعبد العال الباقوري. ومن خبرتي الطويلة في الحزب لم يكن هذا الموقف مصنوعا أو موصى به من القيادة، بل العكس هو الصحيح فقد دافع خالد محيي الدين ورفعت السعيد عن الأهالي وعبد العال طويلا، إلى حد الوقوع في خطأ تنظيمي عندما تجاهلا ضرورة تقديم تقرير للمؤتمر العام (يوليو ١٩٩٨) عن صحافة الحزب. وضرورة وجود لجنة للصحافة الحزبية في المؤتمر كما حدث في المؤتمرات الثلاثة السابقة. وهو ما أثار انتقادات حادة من أعضاء اللجنة المركزية وأعضاء الحزب ولجان المحافظات. واضطر مجلس الإدارة - بعد طبع وثائق المؤتمر - لإعداد تقرير عن صحافة الحزب (الأهالي خاصة)، واقترح د. رفعت السعيد أن تناقشه اللجنة السياسية بدل تشكيل لجنة خاصة، وطلب مني أن أبذل ما أستطيع من جهد في اللجنة التي توليت رئاستها لتجنب أي هجوم غير موضوعي أو قرارات ضد الأهالي تغضب رئيس تحريرها الزميل عبدالعال الباقوري. وقد حضر عبدالعال مناقشات اللجنة ، وأظنه يستطيع أن يشهد بما بذلته - أنا وآخرون - من جهد لتصدر القرارات الخاصة بالأهالي وصحافة الحزب على الصورة الموضوعية التي صدرت بها من المؤتمر. ومن بين القرارات التي صوّت الزميل عبدالعال إلى جانبها .. «تراجع التوزيع بصورة شبه مستمرة» و«عدم وضوح الهوية الصحفية والسياسية للأهالي وفقدانها للمذاق الخاص الذي يميز أي جريدة في السوق الصحفي. وتركيزها على قضية مهمة - ولكنها ليست قضية الوطن الوحيدة - «وهي قضية الإرهاب المتستر بالدين» . ويبدو أن الفترة التي تلت انعقاد المؤتمر (٢٣ يوليو ١٩٩٨) وانعقاد أول اجتماع للأمانة العامة في سبتمبر ١٩٩٨، كانت حاسمة في اتجاه تغيير رئاسة تحرير الأهالي.

وبالطبع فمازالت الأهالي مفتوحة وستشهد فصولا أخرى لها، أتمنى من قلبي أن تكون تسجيلا لنجاح الأهالي وخروجا من أزماتها المتتالية.

بذور شيطانية



عندما تضل الهندسة الوراثية السبيل



هذا الموضوع فى غاية الخطورة ، ولابد من النظر إليه وقراءته بكل العناية ، بحيث تتحول نظرتنا من نظرة عاطفية إلى نظرة عقلانية ، تقوم على أساس من العلم

الهلال



بقلم :

د. أحمد مستجير

في كل صباح يطلع علينا العلم والتكنولوجيا بتطورات جديدة مذهلة ، البعض منها يثير فينا البهجة والأمل، والبعض الآخر يصيبنا بالدوار. ولقد كانت ذروة الحيرة يوم أعلن عن استنساخ النعجة دوللى فى فبراير ١٩٩٧ ، ولعلنا نذكر تلك الضجة الهائلة التى ذاعت فى مصر والبلاد العربية بعد أن اكتشف الناس أن ما جرى على الأغنام يمكن أن يجرى على البشر. وفى مارس ١٩٩٨ ، بعد مرور عام على الإعلان عن دوللى، صدرت براءة تقنية جديدة لشركة بذور أمريكية، لم تأخذ من اهتمام الجماهير عشر معشار ما أخذته دوللى - لكنها فى حقيقة الأمر كانت أخطر بمراحل على المجتمع الإنسانى وعلى البيئة. كانت تقنية شيطانية لاستخدام الهندسة الوراثية.

ولقد ترددت كثيراً قبل أن أبدأ فى كتابة هذا المقال لأثير قضية هذه البراءة. لقد خلت كل كتاباتى فى الهندسة الوراثية حتى الآن من مجرد ذكر لها، وكان لدى لذلك سبب. فالهندسة الوراثية يُمكن بالتأكيد إذا وجهت التوجيه الصحيح أن تسهم كثيراً فى رفع الإنتاج الزراعى فى مصر وفى العالم كله، ونحن لا نملك فى بلادنا ترف أن نهملها أو أن نتجنبها لمجرد كتابات صغيرة هى فى معظمها غير صحيحة، تخيف المواطن العادى وتجعله يرفضها ويتحمس ضدها لأسباب واهية روج لها المتشددون البيئيون كثيراً.

والكتابة في موضوع «البذور الشيطانية» سيقدم مادة خطيرة ومثيرة يمكن أن تستغل في بث مزيد من الذعر في قلوب الناس من عواقب الهندسة الوراثية. أما وقد تراجعت الشركات عن وعودها بإغلاق ملف هذه البذور ، فقد وجدت أن من واجبي أن أعرض القضية بالصورة الواقعية التي أرى أنها تستحقها.

عندما بدأت الزراعة

بدأت حضارة الإنسان كما نعلم في الهلال الخصيب مع اكتشافه الزراعة منذ نحو عشرة آلاف أو اثني عشر ألف سنة، فارتبط بالأرض، واستقر ، ونشأت المجتمعات. كان يبذر الحب وينتظر حتى يأتي المحصول، فينتخب التقاوى من أفضل نباتات حقله ، ويحفظها ليبذرها في الموسم التالي. ظل الأمر هكذا آلاف السنين، اختار فيها الفلاحون المحاصيل، وانتخبوا فيها ورفعوا غلتها وحسنوا من صفاتها لتلائم بيئاتهم المحلية. كانت الأصناف المتباينة من المحاصيل التي قام باختيارها وانتخابها صغار الفلاحين هؤلاء (والنساء منهم بصفة خاصة) هي المصدر الثرى للتنوع الوراثي الذي يستخدمه اليوم مربو النبات في العالم كله. وعندما نشأ علم الوراثة في بداية القرن العشرين، أخذ المتخصصون من العلماء يطوعونه «لتربية النبات»، أي الانتخاب الوراثي لتحسين الإنتاجية . بدأت هذه المحاولات في الثلاثينات من القرن العشرين وقامت بها أساساً الجامعات ومراكز البحوث الزراعية، ثم وفي مراحل لاحقة، مع عصر تصنيع الزراعة وتكثيفها ، دخلت في المجال شركات مهمتها التحسين وبيع البذور. طبيعي أن يكون هدف الشركات الأول هو الربح. لكن، ماذا تستفيد الشركة إذا هي أنفقت من مواردها واستنبطت «سلالة» جديدة ممتازة من محصول ما ، ثم باعت بذورها للفلاحين مرة؟ سيحتفظ الفلاح كعادته ببذور مما أنتجه هو ليعيد زراعتها في الموسم التالي وما بعده - ولن يعود للشركة ليشترى بذوراً إلا إذا كان ثمة تطوير جديد في المحصول قد حصل. ثم جاء هنرى والاس - أبو الذرة الهجين - فرفع بهذه الذرة إنتاج الفدان من ٢٥ بوشلا في ثلاثينات القرن الماضي، إلى ما يزيد الآن على ٣٠٠ بوشل. كانت الذرة الهجين مجالاً رائعاً مربحاً للمزارع، وأيضا لشركات البذور لأنها تجبر المزارع على العودة في كل عام لشراء بذور هجينة جديدة.

عن الذرة الهجين

في أبسط مشاريع الذرة الهجين يقوم المربي بإجراء التلقيح الذاتي للنباتات لإنتاج عدد من «الخطوط النقية» بحيث تنتخب النباتات داخل كل خط - بجانب صفات أخرى - بناءً على متوسط غلة هجنها مع خط آخر أو أكثر . يستبقى المربي خطوطه النقية، التي ستتباعد وراثيا عن بعضها بعضا مع مرور أجيال

الانتخاب، ليقوم في كل موسم بالتهجينات اللازمة بين الخطوط المتوافقة منها، ويبيع للمزارع بذور الجيل الأول الهجينة الناتجة، لتعطيه عند زراعتها نباتات خليطة متماثلة تتميز بمحصول فائق يتمتع «بقوة الهجين»، ويحمل صفات ممتازة لا توجد في أي من الأبوين من الخطوط النقية. فإذا حاول الفلاح أن يزرع بذوراً من غلة بذور الجيل الأول هذه، فلن يحتفظ الجيل الثاني بالصفات الممتازة للجيل الأول، لأنه سيكون متبايناً في صفاته غاية التباين بسبب الانعزالات الوراثية التي تحدث مع التكاثر الجنسي والتي تقول بها النظرية الوراثية. سيُنتج الجيل الثاني محصولاً، نعم، لكنه سيكون أقل قدراً وأكثر تبايناً، والزراعة الحديثة تتطلب التماثل بين النباتات لتسهيل عمليات الميكنة . على المزارع إذن أن يعود في كل عام ويشترى بذوراً هجينة جديدة . الذرة الهجين تحمل نوعاً من الحماية الذاتية ضد «السرقة»، هذا بالضبط هو ما تريده شركات البذور لتحمي «ملكيتها الفكرية» لما تنتجه من «سلالات». (ينطبق هذا المخطط نفسه على ما تقوم به شركات إنتاج كتاكيت اللحم الهجينة).

الثورة الخضراء الثانية

وفي أوائل سبعينات القرن العشرين اكتشفت الهندسة الوراثية ، وفتحت مجالاً واسعاً جديداً أمام شركات البذور (ومعها شركات المخصبات الزراعية ومبيدات الآفات ومبيدات الأعشاب)، وبدأت ثورة ثانية «خضراء» هي ثورة الهندسة الوراثية أو الثورة البيوتكنولوجية. تختلف هذه الثورة الجديدة عن الثورة الخضراء الأولى ، ثورة الستينات، في طبيعة العلم المستخدم. جاءت الثورة الأولى عن علم «القطاع العام» التقليدى ، عن الجامعات ومعاهد البحوث الزراعية، فاهتمت بمحاصيل الغذاء الرئيسية في العالم – القمح والأرز أساساً – وطورت على منتصف ستينات القرن العشرين سلالات من القمح والأرز تعطى أضعاف أضعاف متوسط السلالات التقليدية القديمة . باستخدام هذه السلالات الجديدة، تضاعف إنتاج الهند مثلاً من القمح ثلاث مرات فيما بين عامى ١٩٦٦ و ١٩٧٩. أما الثورة البيوتكنولوجية الجديدة فقد جاءت عن علم احتضنه القطاع الخاص. كان علم القطاع الخاص سائداً في مجال الدواء والكيماويات، لكنه تحول لأول مرة ليدخل مجال الزراعة، مجال إنتاج الغذاء، وأصبح على العالم، إذا لم ينتبه ، أن يعتمد في غذائه على شركات خاصة. لن يكون الأمن الغذائي لأي شعب مجرد قضية أسمدة ومبيدات ومياه، وإنما أيضاً قضية بذور تمتلكها حفنة من الشركات.

جولة قصيرة داخل خلايا النبات

يبدأ النبات حياته كخلية واحدة جاءت عن إخصاب بويضة زهرة بحبة لقاح. تنقسم هذه الخلية وتنقسم لتشكل الأنسجة والأعضاء في عملية تسمى

«التنامي» تتمايز فيها الخلايا ويختلف بعضها عن بعض، فخلايا الأوراق ليست كخلايا الجذور. تأتي هذه الاختلافات عن تغيرات في نوع وكمية البروتينات التي تصنعها الخلايا، فمعظم ما بالخلايا بروتينات ، ومعظم ما يجرى بها من عمليات حيوية يحتاج إنزيمات، والإنزيمات بروتينات. بالخلية آلاف من البروتينات المختلفة، البعض منها نادر للغاية، وبضع مئات منها يوجد بوفرة معقولة، وقلة منها وفيرة جداً. هناك بروتينات توجد بكل أنواع الخلايا في كل أوقات التنامي، وهناك أخرى لا توجد إلا في أنسجة بذاتها وفي وقت من عمر النبات معين. فالإنزيمات التي تعمل لتزود الخلية بالطاقة توجد بكل الخلايا، وبروتينات الجلوتين (المسئول عن «عرق» عجين القمح) مثلا لا توجد إلا في البذور ، وبكميات وفيرة، وهناك بروتينات لا تصنعها الخلايا إلا استجابة لمنبهات خارجية ، كارتفاع الحرارة.

يأتي التباين في أنواع وكميات البروتين في الخلية عن التحكم في «أي الجينات بها يعمل وأيها لا يعمل»، والبروتينات سلاسل من أحماض أمينية، ولكل بروتين تسلسل متفرد من الأحماض الأمينية، وطول معين، يحددهما جين على كروموزوم بنواة الخلية. والجين هو قطعة من الدنا DNA على موقع محدد من كروموزوم معين تُشفِّر لتصنيع بروتين بذاته.

تحمل كل خلية طاقمين كاملين من الكروموزومات (تصطف على أطوالها كل الجينات)، واحداً من حبة اللقاح وواحداً من البويضة. لكن الخلية لا تشغل إلا الجينات التي تشفر للبروتينات التي تهمها، فتنشطها. أما بقية الجينات فتبقى على الكروموزومات بالخلية صامتة خاملة - لكنها نشطة بغيرها من خلايا النبات نفسه.

يسبق دنا الجين المشفر لأي بروتين تتابع قصير من الدنا يسمى «المعزِّز» Promotor هو الذي يحدد وقت تنشيط الجين ومكان نشاطه بالنبات . عندما يعمل المعزز فإنه يوجه الجين لتصنيع البروتين الخاص به.

الهندسة الوراثية

الهندسة الوراثية هي إضافة جينات جديدة من الخارج إلى المادة الوراثية للكائن الحي، أو تغيير تركيب بعض الجينات بحيث تنتج بروتينات جديدة في أوقات مختلفة أو بكميات مختلفة. ولأن المادة الوراثية «الدنا» واحدة في كل الكائنات الحية (من البكتريا حتى الإنسان) فإن الجين المأخوذ من الفأر مثلاً يمكن أن يعمل في نباتات الذرة إذا ما نقل إليها وأولج في مادتها الوراثية. كما يمكن أيضا أن ينقل معزز جين ويوضع أمام جين آخر، فيتغير وقت ومكان نشاط هذا الجين الأخير إلى وقت ومكان نشاط الجين صاحب المعزز المنقول.

عندما اكتشفت الهندسة الوراثية،

أحس رأس المال بما تعد به من إمكانيات لا تحد، فاندفع يحتضنها ويطورها وينشيء لها المعامل المتخصصة ويشترى «العلماء» من الجامعات والمعاهد ويكوّن مجاميع بحثية مهمتها تطعيم المادة الوراثية للنباتات الاقتصادية بجينات من خارجها تضفى عليها صفات تسويقية مفيدة لم تكن أصلا بها - صفات كمقاومة حشرة أو فطر أو تحمل مبيد للحشائش تصنعه الشركة. وفى عالم يفيض بسكانه ويتزايد فيه الطلب على الطعام، فى عالم وصل تعداده الآن ستة بلايين نسمة ويتوقع أن يصل عام ٢٠٢٠ إلى ثمانية بلايين، أملت هذه الشركات أن تبيع قدراً هائلاً من البذور المهندسة وراثيا المسجلة باسمها، ثم إنها كانت ترمى أيضا إلى أن يظل المزارع فى حاجة دائمة إليها فيعود فى كل موسم ليدفع ثمن بذور جديدة، بل وأيضاً ثمن ما تحتاجه هذه البذور من أسمدة ومبيدات خاصة. لكن الشركات واجهت عند تسويق منتجاتها من البذور المحورة وراثيا المشكلة نفسها: ماذا تفعل إذا ما اشترى منها الفلاح البذور، ثم أعاد زراعة ما نتج عنها فى العام التالى حتى لا يشترى ثانية؟

الشركات وحقوق الملكية

ولقد أصبحت النباتات المحورة وراثيا بالفعل واقعاً تجارياً فى الزراعة، وارتفعت المساحة المزروعة بها من ٤,٢ مليون فدان عام ١٩٩٧ إلى ٢٧,٢ مليون فدان عام ١٩٩٨، ووصلت عام ١٩٩٩ إلى ٦٨,٧ مليون فدان. وتقول وزارة الزراعة الأمريكية إن ٦٥٪ من القطن الذى زرع فى أمريكا عام ١٩٩٩ كان مهندسا وراثيا، فى مقابل ٥٦٪ عام ١٩٩٨ و٢٥٪ عام ١٩٩٧، أما فول الصويا المهندس وراثيا فكان يشكل ٥٧٪ من اجمالى المزروع من هذا المحصول بأمريكا عام ١٩٩٩ بينما كانت نسبته عام ١٩٩٨ هى ٤٢٪. لقد استثمرت الشركات بثقل فى البيوتكنولوجيا خلال العقدين الماضيين، وها هى قد بدأت تجنى أخيراً بعض الأرباح ، وأصبحت شرسة حقا فى حماية منتوجاتها. فى عام ١٩٩٧ نشرت شركة مونسانتو إعلانا يطلب من المزارعين أن يحترموا حقوق ملكية الشركة. يقول الإعلان:

«لقد تطلب الأمر ملايين الدولارات وسنين طويلة من البحوث لتطوير محاصيل البيوتكنولوجيا الممتازة.. والاستثمار فى هذه البحوث فى المستقبل يعتمد على قدرة الشركة على استرجاع بعض من القيمة المضافة التى تقدمها هذه المحاصيل. تصوروا ما يحدث لو أن المزارعين احتفظوا بالبذور المسجلة باسم الشركة ليعيدوا زراعتها فى الموسم التالى.. سيغيب الحافز الذى يدفع أى شركة للاستثمار فى البيوتكنولوجيا لتطوير بذور أوفر إنتاجا وأعلى قيمة.. إن هذه القلة من المزارعين الذين يحتفظون بالبذور المسجلة براءتها باسم الشركة ويعيدون زراعتها يهددون ما يمكن أن يُتاح فى المستقبل

لكل المزارعين من إبداعات تكنولوجية. وهذا ليس عدلاً».

وشركات البذور يهمها بالطبع أن تستعيد تكاليف تطوير بذورها الجديدة، تماماً مثل شركات الأدوية وشركات برامج الكمبيوتر، إذا ما طورت عقاراً جديداً أو برنامجا جديداً. تتراوح تكاليف تطوير واختبار الدواء ، مثلا ، ما بين مائة مليون وخمسمائة مليون دولار، أما تكاليف تصنيع الدواء فتقل كثيراً عن سعره بالسوق، ولدينا المثال في عقار رانيتيدين Ranitidine الذي انخفض سعره إلى العشر خلال ستة أشهر من تاريخ انتهاء حماية البراءة له، مما يعني أنه كان يباع بعشرة أضعاف سعره الحقيقي. وتشير الحقائق إلى أن تكاليف التطوير تسترد عادة خلال ستة أشهر من وصول العقار إلى السوق. أما عن برامج الكمبيوتر فيكفي أن نذكر أن برنامج «ويندوز ٩٥» قد غطى تكاليف إنتاجه من مبيعات الشهور الثلاثة الأولى لظهوره بالسوق. والمعروف أن تطوير صنف من البذور مهندس وراثيا يتطلب ما بين ثلاثين ومائة مليون دولار وأن النظام الحالي للاحتفاظ بالبذور (لدى الفلاح) والذي يسود معظم الدول النامية يجعل من العسير على الشركة أن تكسب عائداً كافياً من استثماراتها، بل إن الخسائر قد دفعت بعض الشركات إلى أن توقف برامج تحسين المحاصيل لديها.

قررت شركة مونسانتو إذن أن يوقع المزارع معها عقداً بألا يستعمل بذورها دون ترخيص منها، ولقد جرت العادة على أن يوقع المزارع العقد حتى دون أن يقرأه أو أن يفهمه!. يدفع المزارع بجانب ثمن البذور «علاوة تكنولوجيا» على كل جوال، ففي ذرة بي تي مثلا (المحورة وراثيا لإضفاء الحماية ضد بعض الحشرات) يكون ثمن الشيكارة ٦٠ دولاراً، وفوقه علاوة تكنولوجيا قدرها ٢٥ دولاراً . يسلب عقد مونسانتو المزارع حقه في أن يحتفظ بأي كمية من محصوله الناتج عن البذور التي «اشتراها» (فالشركة في الحق «ترخص» باستعمال بذورها، لا تبيعها)، ويمنعه من ان يزود بها أي شخص آخر - مما يعني ، ضمنا، عدم السماح لأي عالم بأن يجري على هذه البذور أبحاثاً دون موافقة الشركة. فإذا أخل المزارع بشروط العقد وحفظ البذور لإعادة زراعتها فعليه أن يدفع غرامة قدرها ١٢٠ ضعف رسوم التكنولوجيا (أي ٣٠٠٠ دولار عن كل شيكارة في حالة ذرة بي تي) بجانب أتعاب المحاماة والتنفيذ. على المزارع أيضاً، كما ينص العقد أن يخطر الشركة بموقع الحقل أو الحقول التي سيزرع بها البذور، وأن يتعاون «تعاونا كاملاً» مع مفتشي الشركة فيسمح لهم بالمرور في الحقول للتأكد من أنه قد زرع كل ما حصل عليه من بذور .

قامت مشاكل عديدة عند تطبيق هذا العقد، على الرغم من المخبرين الخصوصيين الذين استأجرتهم الشركة

للبحث عن المزارعين الذين يخرقون الاتفاق ، فلقد اتخذت الشركة بالفعل الاجراءات القانونية لمقاضاة مائة مزارع أمريكى لم يلتزموا بشروط العقد. ثم أن الشركة تطمع في توسيع أسواق بذورها ونشرها في بلدان العالم الثالث، وكم من فلاحى مثل هذه البلدان سيلتزم ببنود العقد؟ كان على العلماء أن يبحثوا عن حل يرفع عن كاهل الشركات تكاليف مراقبة المزارعين وحقولهم، ومشاكل مقاضاة غير الملتزمين منهم. ثم، هناك محاصيل اقتصادية مهمة وعديدة لا تزرع (كالذرة الهجين) ببذور هجينة، ولم يكن لدى الشركات - تاريخياً - اهتمام خاص بها، محاصيل مثل القمح والأرز، اللذين يمثلان وحدهما الغذاء الأساسى لثلاثة أرباع فقراء العالم، ومثل القطن وفول الصويا. جرت عادة المزارعين على أن يحتفظوا ببذور هذه المحاصيل كنقاوٍ، فلا يعودون إلى شركة البذور ربما لبضع سنين لشراء بذور جديدة. ستحقق الشركات أرباحاً لا تخطر على بال لو أنها ابتكرت طريقة تجبر بها من يزرع محاصيلها المهندسة وراثيا على أن يشترى منها البذور كل عام.

وجاء الحل «العلمى» ذكياً جداً، لكنه حل شيطانى. هناك كما نعلم خط دقيق يفصل ما بين العبقرية والجنون، ولقد تعدى العلماء هنا هذا الحد الفاصل إلى مرحلة الجنون، وحققوا حلم الشركات البعيد، فوضعوا خطة هندسية وراثية جهنمية يقتل بها النبات بذوره فلا تنبت إذا زرعت، ولا يستطيع الفلاح أبداً أن يستخدمها لإنتاج محصول جديد، وعليه أن يعود صاغرا إلى الشركة فى كل موسم، تماماً كمن يزرع الذرة الهجين. لكن الأمر هنا ليس تماماً كالذرة الهجين، كما رأينا. فكل جينات الجيل الأول من هذه الذرة ستكون موجودة فى الجيل الثانى لو حدث وزرعه الفلاح، ولكن فى تنويعات لا يمكن التنبؤ بها، ويستطيع المربى إذا أراد أن يستخدم المادة الوراثية لهذه الهجن فى برنامج تربية جديد.

لا، لم يعد العلم جميلاً وبريئاً مثلما كان يوماً ومثلما نود أن يكون، لم تعد تغلفه تلك الغلالة الرومانسية العذبة، فهو يستخدم فى قتل بذور الحياة! لقد لوث المال والجشع العلم، ولوثته التجارة والسياسة فى عصر العولمة، عصر حكم الشركات، العصر الذى ينتقل فيه صولجان الحكم من الساسة إلى رجال التجارة والاقتصاد.

الحل الشيطانى

الهدف أمام العلماء هو إنتاج صنف من النبات الاقتصادى الذى يهم الشركة - القطن مثلاً - ينمو طبيعياً تماماً حتى يكتمل نضج بذوره، وهنا، وهنا فقط، ينشط جين طعم فى مادته الوراثية فينتج سما (توكسينا) يقضى على الأجنة. الأمر يحتاج إلى جين من نبات آخر يشفر التوكسين، وإلى معزز لجين من نبات القطن معروف أنه لا يعمل إلا فى آخر مراحل نمو البذور، يلحق ببداية جين

التوكسين، بحيث لا يعمل هذا الجين الأخير إلا عند اكتمال نضج البذور، ثم إلى طريقة تسمح للشركة بأن تنمى نباتات القطن المزودة بجين التوكسين وفى مقدمته المعزز لتنتج بذوراً حية تباع للمزارعين .

اختار العلماء جيناً من نبات «صابوناريا» اسمه ريب RIB يشفر لإنزيم يوقف تصنيع كل البروتينات فى خلايا النبات. ولما كانت الخلايا تحتاج إلى البروتينات فى كل شىء تقريباً، فإنها تموت بسرعة. ثم أخذوا معززا لجين بالقطن اسمه ليا LEA، وهذا جين من آخر ما ينشط فى نبات القطن من جينات – فالبروتين الذى يشفر هذا الجين له لا يتكون إلا بعد أن تكتمل البذور فى الحجم، وبعد أن تكون قد خزنت معظم ما تحمله من الزيت والبروتين. لو وضع معزز ليا هذا فى بداية جين ريب، ثم أولجا سويا بالهندسة الوراثية فى دنا خلايا القطن، فإن النباتات الناتجة عن هذه الخلايا ستنمو : تورق وتزهر وتثمر وتمتلىء بذورها، وعندئذ ينشط جين ريب، ويفرز التوكسين فتموت الأجنة. ولكن .. ستنتهى أيضا التجربة لأن الشركة لن تجد بذوراً تبيعها للمزارعين.

هنا فكَّر العلماء فى إيلاج قطعة طويلة من الدنا – تسمى الدنا المعوق – ما بين بداية جين ريب وبين معزز ليا، لتمنع الجين (مؤقتا) من العمل. ينتهى كل من طرفى هذا المعوق – الطرف الملتصق بريب والطرف الملتصق بمعزز ليا – بتتابع دناوى قصير يمكن أن يتعرف عليه إنزيم معين، فيبتره – من الطرفين – ليلتصق الجين ثانية بالمعزز ويقوم بإنتاج التوكسين فى الموعد والمكان الذى يمليه معزز ليا.

الأمر إذن يتطلب أيضاً إضافة جين لإنتاج هذا الإنزيم الباتر فى كل الخلايا، يسبقه معزز مكبوح لا يعمل إلا إذا نشط بمعالجة كيماوية من الخارج، بحيث يمكن للشركة قبل بيع البذور (التي هندست وراثيا بإيلاج جين ريب، ومعزز ليا، وجين إنزيم البتر، ومعززه المكبوح) أن تعالجها بهذه المادة الكيماوية، فتفك قيد المعزز المكبوح لينتج إنزيم البتر، فيقطع المعوق من طرفيه، ليتصق جين ريب بمعزز ليا، فينتج التوكسين بعد اكتمال نضج النبات وبذوره، ويقتل الأجنة. كانت المادة الكيماوية الخارجية هى التتراسيكلين، المضاد الحيوى المعروف.

تنقع البذور إذن قبل بيعها مباشرة فى محلول التتراسيكلين، فتتم سلسلة العمليات السابقة الواحدة بعد الأخرى لتنتهى بإنتاج التوكسين إنما بعد أن تتنامى البذور وتورق النبات وتزهر وتنضج بذورها، ليقتل التوكسين الأجنة ويحمى حقوق الملكية الفكرية للشركة صاحبة صنف القطن. يقوم التتراسيكلين بعمل المخبرين، وتنتهى أهمية العقود التى يوقع عليها المزارع عند شراء البذور، ويعود الفلاح مجبراً فى كل موسم ليشترى بذوراً جديدة.

هذه هى التقنية الشيطانية التى بها

حصلت شركة دلتاو باين لاند بالاشتراك مع وزارة الزراعة الأمريكية على البراءة رقم ٥٧٢٣٧٦٥ بتاريخ ٣ مارس ١٩٩٨، للمؤلفين م. ج. أوليفر، ج. إ. كويزنبيرى، ن. ج. تروليندر و د. ل. كايم تحت عنوان «التحكم فى تعبير جينات النبات». عنوان برىء لبراءة تقطر سماً. التقنية كما قال أوليفر فى ٢٨ مارس ١٩٩٨ «هى طريقة للمراقبة الذاتية ضد الاستخدام غير القانونى للتكنولوجيا الأمريكية، إنها تشبه حقوق النشر». ولقد قالت شركة دلتا نفسها عن هذه البراءة :

«تغطى هذه البراءة تغطية عريضة النباتات والبذور العادية وعبر الجينية (أى المهندسة وراثيا) من كل الأنواع النباتية، تحت نظام صمم بحيث يسمح بالتحكم فى حيوية نسل البذور دون أن يضر بالمحصول نفسه. والتطبيق الرئيسى لهذه التكنولوجيا هو التحكم فى الزراعات غير المرخص بها لبذور الأصناف المملوكة للشركة بحيث تجعل هذه الممارسة غير اقتصادية، لأن البذور الناتجة عن النباتات لا تصلح للزراعة إذا احتفظ بها المزارع. لهذه البراءة امكانيات أن تنجح فى فتح أسواق على نطاق واسع بالعالم بأسره، لمحاصيل جرت عادة المزارع أن يحتفظ ببذورها للزراعة فى المواسم التالية».

وتنوى الشركة (دلتا) أن تتيح ترخيص «نظام حماية التكنولوجيا» هذا لشركات البذور الأخرى. والحق أنه ليس ثمة سبب فى ألا ترخص لغيرها باستخدام التقنية، إذ تصبح بذور الشركة بغير ذلك أقل منافسة فى الأسواق. كما تقدمت الشركة بطلبات لتسجيل البراءة إلى ٨٧ دولة.

كلمة عن تقنيات التحكم فى تعبير الجينات

غير أن «رافى» تقول: «إن تقنية البذور الشيطانية قد خطفت الأضواء ، لكننا قلقون أيضاً من تقنيات قريبة جداً منها، هى تقنيات التحكم فى الصفات النباتية بالرش بالكيماويات». والحق أن تقنية البذور الشيطانية - كما يشير عنوان براءتها - هى أحد تطبيقات «الاستعمال الوراثى لتكنولوجيا التحديد (جيرت GURT)» الموجه نحو التأثير فى تنويعة من الصفات الوراثية للنبات، بفتحها أو غلقها باستخدام مواد كيماوية خارجية منظمة تنتجها الشركة ، تُخلط مثلا بمبيد حشائش تمتلكه شركة البذور أو بسماد أو بمبيد آفة - صفات مثل الإنبات والتبرعم والإزهار وإنضاج الثمار.

تقول الشركات إن تكنولوجيا التحكم فى النبات من بُعد، أى من خارجه، ستفيدها كثيراً فى تسهيل عمليات تحسين إنتاجية محاصيلها. تقوم شركة زينيكا مثلاً بتطوير طريقة تمكنها من التحكم فى إنتاج حبوب لقاح نباتات الذرة من سلالاتها، بدلاً من قطع الشواشى، وهذا أمر تلجأ إليه شركات إنتاج الذرة الهجين لتوجيه عملية التلقيح حسب الخطة المرسومة، وهو يحتاج إلى دقة بالغة ومجهود ووقت طويل فى الحقل. سيكون

من الأفضل أن تهندس النباتات وراثيا بجين لإنتاج إنزيم يمنع تكوين حبوب اللقاح، ثم ترش النباتات المختارة كذكور في الوقت المناسب بمادة كيماوية تحث نشاط جين آخر مطعوم أيضاً في النبات يوقف نشاط الإنزيم ويسمح لهذه النباتات وحدها بتكوين حبوب اللقاح بل ولقد تمكنت شركات زينيكا بالفعل من فتح وإغلاق جين بى تى الذى يُضفى على الذرة المقاومة ضد حشرات معينة، وذلك باستخدام حاث كيماوى معين. تهدف الشركة من ذلك إلى التغلب على المخاوف من أن الإنتاج المستمر للتوكسين بى تى يشجع الحشرات على تطوير المقاومة ضده، بل إن الشركة تطمح إلى تطوير نباتات تتسبب إصابتها بالحشرات أو تعرضها للجفاف مثلا فى فتح جينات للمقاومة مهندسة داخل المادة الوراثية لهذه النباتات.

تقنيات التحكم فى تعبير الصفات النباتية، كما يتضح، تقنيات مفيدة جداً للشركات، حتى لتتوقع «رافى» أن تُعالج الشركات بها كل محاصيلها المهندسة وراثيا على عام ٢٠١٠ أو حتى قبله. لكن هذه التقنيات فى الوقت نفسه قد تستخدم ضد المزارعين، ذلك أنه إذا ما نجحت شركة فى هندسة بذور المحاصيل بحيث لا تعبر النباتات إلا عن الصفات التى تسمح الشركات ببيع كيماويات تنشيطها، فسيصبح المزارع أكثر اعتماداً على المدخلات الكيماوية التى تصنعها شركات البذور، سيصبح رهينة لدى الشركة عبداً لها، وسيقع الإنتاج الزراعى بالكامل تحت رحمتها، ويتعرض الأمن الغذائى فى الدولة لأخطار لا حد لها. وتقنية البذور العقيمة كما ذكرنا هى أيضاً احدى تقنيات «جيرت».

القرصنة الوراثية

كانت شركات البذور تدعى حتى الآن أنها تبحث عن رفع الإنتاج وزيادة عائد الفلاح، وحتى عندما تنتج بالهندسة الوراثية أصنافاً تقاوم مبيدات الأعشاب، كانت هناك فكرة غير صريحة بأن المقاومة الفعالة للحشائش ترفع المحصول وتزيد دخل الفلاح. أما الآن فإن الهندسة الوراثية تستغل صراحة من أجل التحكم فى السوق، فهى لا تضيف شيئا ذا قيمة للإنتاج، هى لا تستخدم من أجل رفع الإنتاج أو تحسين نوعيته أو مقاومة آفة أو مرض أو غير ذلك مما تروج له الشركات، وإنما لحفظ «حقوق» شركات البذور ليس إلا، حقوق الشركات التى سطت على الأصناف النباتية التى طورها فلاحو العالم الثالث - العالم الذى يسهم بنسبة ٩٥.٧٪ من الموارد الوراثية بالعالم - والتى أصبحت «بقدرة قادر» الأصناف المملوكة للشركات.

تأخذ الشركة سلالات نباتاتنا التى طورها فلاحونا بجهد آلاف السنين، لتضيف إليها جينا أو بضعة جينات، وتحصل على براءة «قانونية» من الجهة الرسمية فى بلادها، لتصبح السلالات

وجينوماتها بأكملها ملكا خاصاً لها، تحميها قوانين منظمة التجارة العالمية، ويحتاج أصحابها الحقيقيون إلى إذن خاص ورسوم لزراعتها! لم تعد السلالات سلالاتهم، فقد طعمت بجينات من خارجها باستخدام تقنيات غريبة متطورة لا يملكون هم سبيلا للوصول إليها. سلبت الشركات حق الفلاح الأزلي فى الاحتفاظ ببذوره وسلبته دوره التاريخي كمربي نبات .

إنه لأمر يثير الغضب حقاً أن يصبح على الفلاحين في بلادنا أن يشتروا بثمن باهظ بذوراً جاءت أصلاً من مواردهم البيولوجية، لا لسبب إلا أن هذه الشركات قد منحت نفسها الحقوق الكاملة على البذور.

تتسابق الشركات متعددة الجنسية ، لاتزال، فى تصنيع منتجات صيدلية وذراعية جديدة، جاءت معظم مكوناتها من المادة الوراثية للنباتات الطبية ومحاصيل الغذاء الخاصة بالمجتمعات المحلية للعالم الثالث. لقد سجلت براءات دولية للخصائص الطبية لما لا يقل عن ٢٢ نباتاً هندياً كانت تستخدم في علاج أمراض تتراوح ما بين ارتفاع ضغط الدم وبين الحمى الروماتيزمية، ولقد ربح «مالك» براءة مستخلص مصنوع من قلف شجرة بيجيام الأفريقية الملايين، بينما أصبحت الشجرة على وشك الانقراض. تقوم الشركات أيضا بتجميع كائنات حية أخرى – ما بين الكائنات الدقيقة التي تحيا بالتربة إلى الحيوانات، بل ولم تنس أيضا أن تسطو حتى على التراكيب الوراثية لأهالى هذه المناطق، فلقد جمعت – من بين ما جمعت – عينات من الأنسجة الحية لأهالى المجتمعات الإثنية بمنطقة لازون لأنهم معروفون بمناعتهم المتفردة ضد السرطان ومرض السكر، كما أخذت عينات من دم هنود كايابو وسجلت براءات لبعض خصائصهم الوراثية .

تؤكد شركة، كشركة مونسانتو ، أن زيادة أرباح الشركات من البذور الشيطانية ستشجعها على تكثيف البحوث والتطوير فى محصولى القمح والأرز مما سيعود بالخير على فقراء الفلاحين، ونحن نعلم أن شركات البذور هذه عمرها ما طورت بذوراً تلائم حاجات صغار المزارعين وفلاحي الكفاف، ولا هى أنتجت بذوراً ربيت خصيصاً لتصلح لبيئاتهم . بل الحقيقة هى أن معظم البذور المحورة وراثيا لا ترفع المحصول (فصويا راوند آب لمونسانتو مثلا تعطى محصولاً أقل من نظيراتها التقليدية) ذاك أن معظم المحاصيل المهندسة وراثيا لدى الشركات تقع فى فئتين: إما مقاومة مبيدات أعشاب أو مقاومة حشرات. ستكون نتيجة هذه التقنية هى استبدال محاصيل «متفوقة» يقال إنها ذات إنتاجية عالية، بالمحاصيل التقليدية. متفوقة، نعم، اللهم إلا أنها لا تستطيع أن تكاثر نفسها، الأمر الذى سيضع الفلاحين فى العالم كله رهينة فى يد حفنة من الشركات (فهناك عشر شركات عملاقة تتحكم وحدها فى ٤٠٪

من بذور العالم). هذه هى ذروة الرأسمالية ستدمر قدرة الحياة على إكثار نفسها، وعلينا نحن أن ندفع ثمن بذورها «الممتازة» - فإذا ما سقطت شركة البذور فلن يكون بيننا وبين المجاعة سوى موسم واحد لا أكثر! .

بهذه التقنية ستصبح سنبلة القمح وكوز الذرة وقرن الفول ولوزة القطن وحبة الطماطم وثمرة البطيخ نعوشاً تحمل بذوراً ميتة.

لأول مرة نرى النباتات وقد برمجت وراثيا لتنتحر. بخبطة واحدة كسر الإنسان دورة: النبات، البذور، النبات، البذور...، الدورة التى تدعم الحياة على وجه الأرض، الدورة التى تسللت أصداؤها إلى قلم شاعرنا العظيم محمود درويش عندما كتب (وكلما صادفت أو أحنيت سنبلة تعلمت البقاء من الفناء وهذه: أنا حبة القمح التى ماتت لكى تخضر ثانية، وفى موتى حياة ما). لن تخضر «ثانية» هذه البذور الشيطانية، بلا بذور لن يكون هناك طعام ، إلا إذا اشتريت بذوراً جديدة. الإنجاز العلمى العبقرى الذى حققته شركة دلتا ينهى الحق الطبيعى الذى منحه الله للإنسان فى كل مكان: أن يزرع لإطعام نفسه والآخرين. لم يسبق أن ابتكر الإنسان خطة كهذه محكمة بعيدة المدى خطرة للتحكم فى الحياة، فى الغذاء، بل وحتى فى بقاء البشر على وجه البسيطة .

المواجهة

ووجهت هذه التقنية الشيطانية إذن على الفور باعتراضات عالمية واسعة قادتها الهند. ففى ٢٥ مايو ١٩٩٨ أصدر مجلس البحوث الزراعية الهندى قراراً بحظر استيراد مثل هذه البذور، وأعلن أن «لكل دولة الحق فى رفض تسجيل براءة للبذور الشيطانية»، تماماً كما تنص المادة ٢٧ من اتفاقية التربس (حقوق الملكية الفكرية) لمنظمة التجارة العالمية التى تقول: «يمكن لأى حكومة أن ترفض دعاوى الملكية الفكرية لصنف نباتى إذا كان يهدد البيئة أو يعارض المبادىء الأخلاقية العامة فى بلادها». وقامت فى ديسمبر ١٩٩٨ أعمال شغب مهولة فى ولايتى كارناتاكا وأندرا براديش ضد حقول تجارب مونسانتو بعدما أذيع أنها ستشترى شركة دلتا صاحبة البراءة. ثم شنت المؤسسة الدولية لتقدم الريف (رافى) - ومقرها كندا - حملة عالمية هائلة هى الأخرى ضد هذه البذور .

فى حديث طويل بتاريخ ١٤ أغسطس ١٩٩٨ مع الدكتوره فاندانا شيفا عالمة الفيزياء الهندية قالت: «إن البراءات ليست سوى تكرار للاستعمار الذى بدأ منذ خمسمائة عام، إنما بطرق أخرى. عندما أبحر كولومبوس وغيره من المغامرين كانوا يحملون (خطابات براءة) تعطيهم الحق فى ادعاء ملكية الأراضى التى يعثرون عليها فى أى مكان بالعالم لا يحكمه الأمراء المسيحيون البيض. والشىء نفسه يحدث الآن مع براءات الكائنات الحية. قصاصات من ورق تصدرها مكاتب

البراءات تقول للشركة فى واقع الأمر: إذا توصلت إلى معارف لم يعرفها الرجل الأبيض عن المادة الحية أو النباتات أو البذور أو الأدوية، فلتدعيها لنفسك، ولتحصلى على أرباحك منها. إنها القرصنة البيولوجية، فيها تدعى شركة «ابتكارها» لأرز باسماتى الهندى ذى الرائحة الجميلة، الذى رباه الفلاحون الهنود من قرون طويلة، وتدعى «ابتكارها» لشجرة النيم التى وثقها الهنود فى كل المراجع ويستخدمونها من آلاف السنين... وباء القرصنة الجديد لا يشبه إلا القرصنة القديمة التى أطلق عليها اسم الاستعمار منذ خمسمائة عام. إنها دعوة الاستعمار ... كان الاستعمار القديم يستولى على الأرض ، أما الاستعمار الجديد فيستولى على الحياة نفسها.

العالم الثالث هو الجزء من العالم الذى أصبح مستعمرات. هو لم يكن قبل الاستعمار فقيراً، فلقد استعمر لأنه يمتلك ثروات تستحق... لم تكن هذه الدول فقيرة، لكن الاستعمار استنزفها.. لم نَمُتْ بعد على الرغم من أن ثرواتنا قد نهبت فمازال لدينا التنوع البيولوجى. بقيت لدينا لا تزال بذور، ونباتات طبية، ونباتات أعلاف، ننميها ونحيا عليها. ولقد جاء الدور على آخر موارد الفقراء لتستنزفه البراءات. أصبحت البذور التى حفظها الفقراء تعامل على أنها ممتلكات الشركات. صدرت قوانين جديدة كاتفاقية حقوق الملكية الفكرية.. تحاول أن تحرم فقراء الفلاحين فى العالم الثالث من الوصول إلى بذورهم.. لن يبقى (فى العالم الثالث) سوى الحرمان والبطالة والمرض والجوع والأوبئة وسوء التغذية والمجاعات والحروب الأهلية.. إن ما بذره (المستعمرون الجدد) هو جشع الشركات تسرق آخر ما تبقى لدى الفقراء من موارد».

إن ما تطلق عليه الشركات اسم «ابتكارات» ليس فى الحقيقة سوى قرصنة تستهدف الموارد المحلية الوراثية بالعالم الثالث، والمعارف المحلية المتجمعة على مدى القرون عن كيفية استخدامها. ستدمر شركات البذور نظم الزراعة القديمة التى اتقنها فلاحو العالم الثالث الذين ينتجون نحو ٢٠٪ من غذاء العالم، ويطعمون به مباشرة ما لا يقل عن ١٤٠٠ مليون إنسان: مائة مليون فى أمريكا اللاتينية، وثلاثمائة مليون فى أفريقيا، وألف مليون فى آسيا - ستسلبهم حقهم فى الاحتفاظ بالبذور كتقاوى وتحسينها بالطرق التى اعتمدها الزمن. ستدمر الأساس الاقتصادى لحياة أفقر الفلاحين فى ريف العالم الثالث إذ تقيم نظاما جديداً للغذاء هدفه الأوحد هو التحكم الاحتكارى، تسيطر فيه على كل ما يزرع ويؤكل، بينما هى تقدم نفسها على أنها صانعة الحياة ومالكتها! ومن يتحكم فى البذور يتحكم فى مصير الشعوب وحياتها.

يقول مؤيدو التكنولوجيا الشيطانية إن هذه البذور ستعطى المزارع مجالاً أوسع فى الاختيار: ما بين البذور الشيطانية

والبذور التقليدية، وإن زيادة احتمالات الربح ستدفع الشركات إلى زيادة استثماراتها في محاصيل الغذاء الرئيسية: الأرز والقمح وفول الصويا، ومن ثم إلى تحسين إنتاجيتها وزيادة التنوع الوراثي بها، فهذه المحاصيل الثلاثة لم تحظ بما حظيت به الذرة من اهتمام. ستكون البذور أعلى سعراً لكن المزارع يمكنه بالطبع ألا يشتريها ، وعلى ذلك فإنهم يتوقعون أن تتدفق استثمارات ضخمة جديدة إلى مجال تحسين هذه المحاصيل الثلاثة بعد أن توقفت الزيادة في غلتها، بل وحتى تراجعت في التسعينات.

لكن هناك سؤالاً يفرض نفسه : ألن تُسبب هذه البذور أية أضرار لمن لا يزرعها من المزارعين؟ عندما يزرع الفلاح البذور الشيطانية فإنها ستكون بالطبع قد عوملت بالتتراسيكلين، وسيكون إنزيم البتر قد نشط والتصق جين التوكسين بمعزز ليا وأصبح جاهزاً للعمل عندما يكتمل نضج البذور، أي أن النباتات ستنمو وتزهر وتنتج حبوب لقاح تحمل جينات توكسين جاهزة للعمل. فإذا كان الحقل المجاور مزروعاً بصنف طبيعي من النوع نفسه، فستنقل الرياح والحشرات حبوب اللقاح حاملة جين السم إلى أزهار هذا الحقل لتخصب البويضات وتقتل الأجنة في البذور الناتجة، ولن يعرف صاحب الحقل المجاور ما حدث إلا عند زراعة بذوره في الجيل التالي عندما يفاجأ بفشل محصوله، مما قد يدفع فقراء الفلاحين إلى هجر الزراعة أو شراء البذور الشيطانية في كل عام، وهو أمر قد لا يتحملونه طويلاً.

تنتمي كل المحاصيل إلى أجناس نباتية يوجد منها في البرية أعضاء أُخر. يحدث في الطبيعة نقل وراثي عن طريق حبوب اللقاح بين المستأنس والبري، ولمثل هذا التلقيح الخلطي الطبيعي دور مهم في تطوير الزراعة، فلقد أسهم في نقل جينات من البري إلى المحاصيل الزراعية تحسن نوعيتها. كان التفاعل بين المحاصيل الزراعية وأقاربها البرية جزءاً من العملية التي تطور من خلالها الطعام الذي نأكله - ولازالت هذه العملية تجري حتى الآن. فإذا ما انتقلت حبوب اللقاح حاملة جين السم من المستأنس إلى البري فسينتهي الأمر بابتعاد البري (إلى مسافة تزيد على كيلو مترين) بحيث يتعذر حدوث هذا التبادل الوراثي ويضيع ذلك المصدر المهم من مصادر التنوع الوراثي.

ثمة أمور أخرى يلزم أن تؤخذ في الاعتبار لم تتطرق إليها تلك البراءة المشئومة. فالجين الشيطاني يقتل الجنين في وقت متأخر جداً من التنامي. فهل ستكون البذور النعوش حاملة الأجنة الميتة أصعب في التخزين من البذور الطبيعية؟ ألا نتوقع أن تكون عرضة للتلف بالرطوبة والبكتريا والفطريات؟ هل ستكون مأمونة لها نفس الجودة ونفس القيمة الغذائية؟ ألا نتوقع أن تكون أسرع في التحلل؟ هل أجريت التجارب للإجابة على كل هذه الأسئلة الخطيرة، أم أن الأمر لا يهم طالما كانت تضمن للشركات أرباحها؟ ستنقع

البذور فى التتراسيكلين ، المضاد الحيوى، قبل بيعها للفلاحين لزراعتها، والبراءة تقول : «ولما كان التتراسيكلين غير ضار بالنبات والحيوان ، فإن ما يتبقى منه على البذور أو النباتات بعد معالجتها به لن يكون له أثر بيئى جوهرى». قد لا تكون للتراسيكلين حقا آثار ضارة مباشرة، ولكن آثاره غير المباشرة قد تكون بالفعل خطيرة على الكائنات الدقيقة بالتربة، بل وعلى الإنسان والحيوان .

الشركات تتراجع

بعد التصاعد الخطير للحملة ضد البذور الشيطانية أعلنت شركة زينيكا فى ٢٤ فبراير ١٩٩٩ «إننا لن نطور أى نظام يمنع الفلاح من زراعة بذور الجيل التالى، وليس لدينا أية نية لفعل ذلك». كما قامت شركة مونسانتو بإجراء استشارات عديدة مع الخبراء ومع زبائنها، ثم قررت فى ٥ أكتوبر ١٩٩٩ ألا تسوق هذه التقنية، كما جاء على لسان روبرت شابيرو رئيس مجلس الإدارة، إذ قال «على الرغم من أننا لا نمتلك فى الوقت الحالى أى تكنولوجيا للبذور العقيمة، فقد وجدنا من الأهمية بمكان أن نستجيب للقلق الذى ذاع الآن، وأن نعلن بوضوح أننا لن نسوق (نظم حماية الجينات) التى تعقم البذور». أكدت الشركة أنها ستستخدم التقنية فقط فى الأبحاث الداخلية للشركة، وأن الجينات يمكن أن تساعد فى إنتاج نباتات تحمل صفات خاصة يمكن فتحها أو غلقها ، أى يمكن أن تعبر عن نفسها، أو لا تعبر ، حسب الطلب». تعهد شابيرو فى لقاء له من جمهور من حملة أسهم شركته بأن يدخل فى حوار مع المجتمع للوصول إلى حلول لما يشغل الناس من قضايا الأمان ، التلوث الوراثى، الأخلاقيات، سلطة الشركات. قال: «ليس بين هذه الهموم ما هو تافه، كلها صحيح ويحتاج أن نفحصه.. علينا أن نستمع جيداً». ثم أكد أن الشركة مستعدة عند تطوير أى منتج جديد لأن تستمع إلى الناس مبكراً.

هدأت العاصفة. تصورت المنظمات المدنية والاجتماعية والحكومات أن الأزمة قد انتهت. هللت جماعة «أصدقاء الأرض» لهذا القرار ، وقالت إن الشركة قد دفعت إليه دفعاً «استجابة للمعارضة العالمية». وفى فبراير ٢٠٠٠ أعلن جاك ضيوف المدير العام لمنظمة الأغذية والزراعة (الفاو) معارضته لتكنولوجيا البذور العقيمة فى دفاع عن ١٤٠٠ مليون فلاح فقير. وفى مارس ٢٠٠٠ أعلنت حكومات عديدة معارضتها لهذه التكنولوجيا منها بنما والهند وغانا وأوغندا، وفى نفس هذا الشهر قدمت ولاية ماريلاند مشروع قانون يحظر بذور العقم. لكن البعض ظل يتوجس خيفة. اتهمت منظمة «جرينبيس» فى إنجلترا شابيرو بأنه مستأسد، وبأن شركته فشلت فى تفهم التغيرات التى تحدث بالمجتمع. لم يكن خطاب شابيرو إلا محاولة لكسب ود الصحافة... وما الذى يمنع الشركات من نقض وعودها فى أى وقت. تقول مونسانتو إنها لا تملك الآن تكنولوجيا تعقيم البذور، لكن قد يصبح لديها قريباً هذه التكنولوجيا إذا ما ضمت

إليها شركة دلتا حاملة البراءة! .

ونقضت الشركات وعودها

وفجأة ، في يناير ٢٠٠٠، قال هارى كولينز عن شركة دلتا وباين لاند للبذور – التى تتحكم فى أكثر من ٧٠٪ من سوق البذور بأمريكا الشمالية: «إننا نواصل عملنا فى تكنولوجيا نظم (حماية الملكية الفكرية)، أبداً لم تبطىء فى موالاة العمل، لقد حددنا هدفنا ، ونحن نتحرك لتتجيره. أبداً لم نتراجع» ! ثم اتضح أن نفس هذه الشركة قد استصدرت براءتين فى ٢٠ يوليو و ٢ نوفمبر من عام ١٩٩٩ تحملان نفس العنوان ونفس المبتكرين والملخصات كسابقتهما التى صدرت فى مارس ١٩٩٨، الأمر الذى أكد أن الشركة، ومعها وزارة الزراعة الأمريكية، مازالتا تعملان فى تطوير وتحسين تكنولوجيا البذور العقيمة. قامت شركة زينيكا الإنجليزية أيضاً فى عام ١٩٩٩ بإجراء تجارب حقلية على تكنولوجيا «جيرت» بالمملكة المتحدة. وفى ٢ ديسمبر ١٩٩٩ أعلنت زينيكا ونوفارتيس أنهما سيدمجان أقسام الكيماويات والبذور بهما فى أكبر شركة عالمية للأعمال الزراعية (سينجينتا). وفى ١٩ ديسمبر ١٩٩٩ أعلنت مونسانتو أنها ستندمج مع شركة «فارماشيا وأبجون» عملاق صناعة الدواء فى شركة جديدة اسمها فارماشيا. كتبت «رافى» إذن فى أوائل عام ٢٠٠٠ لعدد من عمالیق الشركات التى تمتلك براءات لتقنية البذور العقيمة تطلب إعادة التأكيد على هجر التقنية بعد دمج الشركات. استجاب البعض، لكن الردود لم تؤكد شيئا. أكدت شركة زينيكا مثلا فى خطابها بتاريخ ٢١ فبراير ٢٠٠٠ أن سياستها باقية كما هى، لكنها لا تستطيع التنبؤ بما قد يحدث فى ضوء ما تم من اندماج مع شركة نوفارتيس! .

تصاعدت الدلائل على قرب تسويق تكنولوجيا البذور العقيمة عندما عقد فى نيروبى فى الفترة من ١٥ – ٢٦ مايو ٢٠٠٠ المؤتمر الخامس للفرقاء المنبثق عن مؤتمر التنوع البيولوجي. فشل المؤتمر فى تعضيد تحذيرات معظم أمم العالم من خطر هذه التكنولوجيا. فعلى الرغم من المعلومات التى توفرت عن إصدار ثلاثين براءة جديدة على الأقل لتقنيات يمكن أن تستخدم فى تعقيم النبات وعن تجارب حقلية جديدة، وعلى الرغم من معارضة معظم دول العالم، فقد وافق المؤتمرون على اقتراح ضعيف للجنة الاستشارية العلمية بألا يصدق على إجراء الاختبارات الحقلية أو التتجير إلى أن تتجمع بيانات علمية عن الآثار المحتملة لهذه التكنولوجيا – وكأن مثل هذه الدراسات قد تثبت أن الجينات الانتحارية أقل انتحارية! فشل المؤتمرون في استصدار اعتراف دولى قوى يدفع تقنية البذور العقيمة بأنها تهديد مباشر للتنوع البيولوجي وللسيادة القومية على الموارد الغذائية، بعد أن تخلى عدد من ممثلى الغرب عن مسئولياتهم تجاه الأمن الغذائى العالمى. طالب ممثلو عدد من الدول، من بينها كينيا والفلبين والهند وتانزانيا ومالاوى، باستصدار حظر كامل

على التقنية، ولم ينجحوا . ثم صدر بيان من كل مجموعة الدول الأفريقية بهذا المؤتمر يدعو كل الحكومات وكل المنظمات الدولية إلى أن تحظر على الفور هذه التكنولوجيا فى أراضيها وفى أفريقيا كلها، فهي مرفوضة سياسياً واقتصادياً.

الإرهاب الزراعى

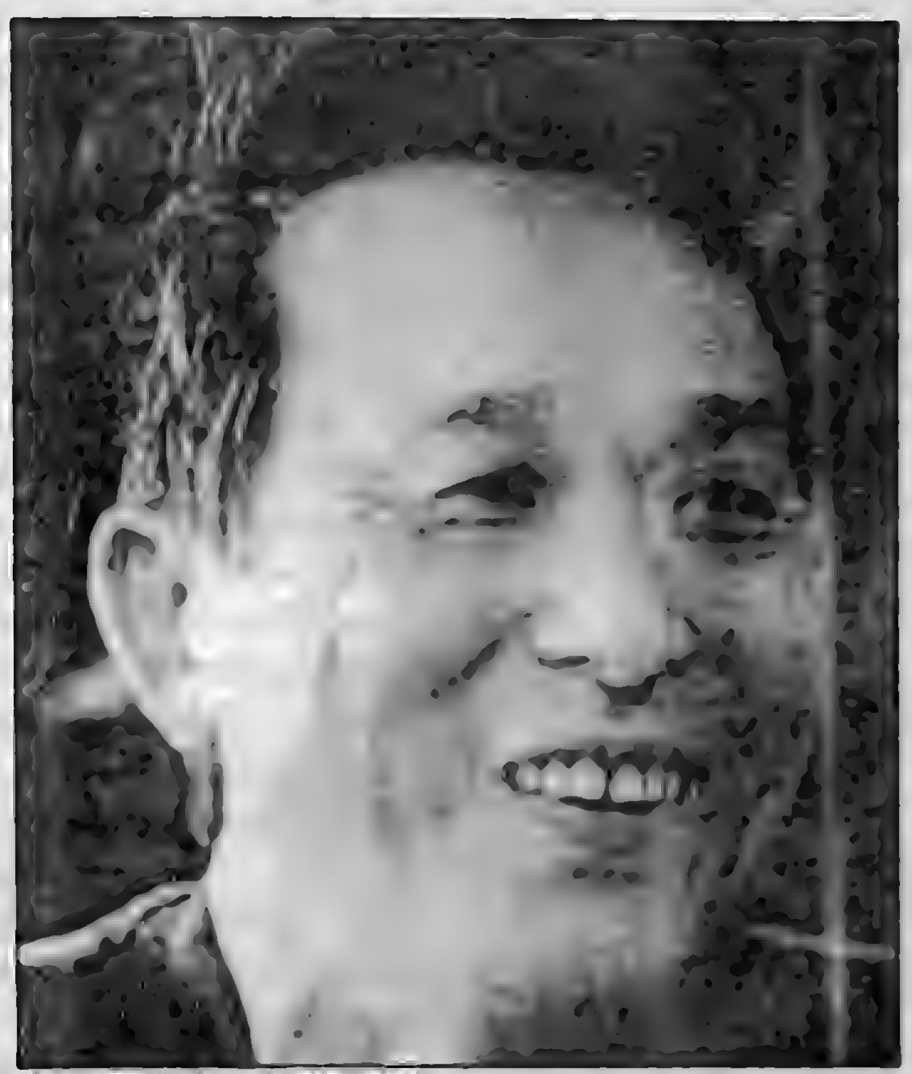
يقول إعلان ريو لعام ١٩٩٢: «لحماية البيئة لابد أن تأخذ الحكومات على قدر طاقتها بمنهج الحذر، فإذا وجدت تهديدات بتدمير خطير يتعذر إصلاحه، فلا يجوز أن تعتبر الافتقار إلى الإثبات العلمى عذراً لتأجيل اتخاذ كافة الإجراءات لمنع التدهور البيئى». وهذا يعنى أنه لا يجوز للشركات أن تتعلل لتسويق منتجاتها أو تقنياتها بعدم وجود بيانات علمية كافية عن تكنولوجيا البذور العقيمة تثبت أنها بالفعل تؤذى البيئة .

والواقع أن مثل هذه التكنولوجيا يمكن أن تستخدم كسلاح بيولوجى للإرهاب الزراعى! صحيح أن الحكومات لا تجرى بحوثاً على هذه التكنولوجيا لتستخدمها سلاحاً بيولوجياً، لكن إمكانيات استعمال تقنيات «جيرت» فى هذا المجال لا يمكن إنكارها - الأمر الذى يشكل سبباً وجيهاً للدعوى إلى خطرها. والمفروض أن تدرس معاهدة «حظر الأسلحة البيولوجية والتوكسينات» قضية اعتبار استخدام تقنيات «الجارت» خرقا للمعاهدة. فى عام ٢٠٠١ سيُعقد مؤتمر عالمى لمراجعة هذه المعاهدة (التى أُبرمت عام ١٩٧٢) ومن الممكن للجنة المشكلة للمراجعة أن تعتبر تقنيات «جارت» والبذور الشيطانية انتهاكاً للمادة الأولى من المعاهدة التى تقول . «إن كل من يوقع على هذه المعاهدة لن يطور أبداً وتحت أية ظروف، أو ينتج أو يخزن أو يمتلك أو يحفظ بشكل أو بآخر (١) أية وسائل ميكروبية أو بيولوجية، أو توكسينات أيا كان مصدرها، أو طُرقا لإنتاجها بصورة أو بكميات ليس لها ما يبررها من أغراض وقائية أو حمائية أو أهداف سلمية، (٢) أية أسلحة أو معدات أو طرق للنشر صممت لاستخدام هذه الوسائل أو التوكسينات لأهداف عدوانية، أو فى الصراع المسلح».

وتطوير هذه التكنولوجيات هو حرب على الفلاحين وعلى الجوعى، وهو على الأقل يناقض روح المعاهدة.

وبعد

إن القضية الحقيقية هى مواجهة الدول الكبرى وشركاتها بشأن قضايا الملكية الفكرية والموارد البيولوجية، حتى لا ننزلق إلى نظام استعمارى جديد أعتى. لقد أصبح الجنس البشرى، كما يقول ميشيل سيجل، فى وضع لا يُحسد عليه، وإذا كان له أن يبقى فلابد أن يكون للعلم والتكنولوجيا إسهامهما الواضح. للعلم أن يقول لنا «كيف» نصنع هذا أو ذاك، لكنه لا يستطيع أن يقول لنا «ماذا» نفعل. من الموجه إذن؟ السؤال المطروح فى الحق هو: هل يمكن لقوى السوق وحوافز الربح أن توجه العلم والتكنولوجيا إلى ما فيه خير البشرية؟.. مسألة فيها نظر ! .



الكاتب الصينى جاو كسينج جيان

نوبل ٢٠٠٠

مفاجأت المجهولين .. والمنشقين

بقلم: محمود قاسم

ما أغرب جائزة نوبل. وما أكثر مفاجآتها..!!
صحيح أنها قد توقفت عن إثارة هذه المفاجآت فى السنوات الأخيرة، وهى تمنح اسمها لكتاب من دول حرمت دوما من نيل شرف اسمها، مثلما حدث للبرتغال عام ١٩٩٨. وأيضا حين منحت فى العام الماضى لجونتر جراس الذى كان عليه أن ينالها منذ سنوات طويلة.
قد يتصور البعض أن الاسم الغريب، المجهول للكاتب الصينى «جاو كسينج چيان» هو سبب هذه الدهشة، لكن السبب الحقيقى أن الجائزة قد تجاهلت الصين طوال قرن بأكمله، ووضعت اسم أشهر أدبائها فى قائمة الانتظار منذ عام ١٩٨٠، انه با - كين (مولود عام ١٩٠٣ والمرجح أنه مات)،وظل الصينيون ينتظرون طويلا أن يتم الانتباه إلى أن آدابهم تستحق الكريم فى صورة با - كين، لكن الرجل انتظر، وأبناء وطنه انتظروا أيضا، دون فائدة..

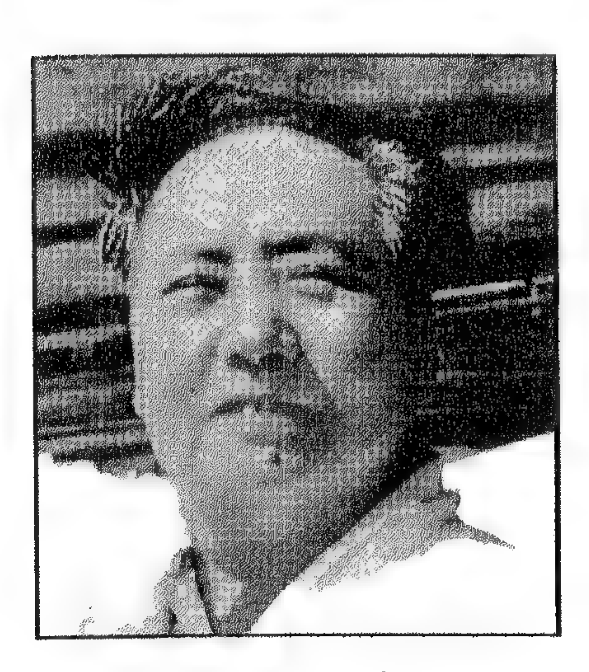
ومن قبل با - كين، كان هناك اسم مدو فى الأدب الصينى، إنها الكاتبة المعروفة هان سوين إحدى أبرز نساء عدم الانحياز، والكاتبة الصينية الوحيدة التى ترجمت كل أعمالها إلى لغات الغرب، وقدمت أعمالها فى أفلام شهيرة مثل «الحب شىء رائع» الذى قام ببطولته ويليام هولدن مع چينفر جونز، وكانت كاتبة أوروآسيوية، أى أنها كانت تمتلك كافة المقومات للحصول على الجائزة، لكن أكاديمية ستكهولم لم تشأ أن تكرم النظام السياسى الذى تناصره، وفضلت أن تقدم الجائزة فى نهاية القرن العشرين لكاتب مجهول انشق على هذا النظام، وطلب اللجوء السياسى للغرب..

نعم، جائزة نوبل عادت لتقدم جائزتها للمنشقين على الأنظمة السياسية التى ليست على هوى الغرب،ومنحتها بقوة لكاتب مغمور، تذكر له رواية واحدة، ضمن ابداع قليل للغاية، يجمع بين المسرحية

والرواية. بعد أن منحت جوائزها دوما لمنشقين أقل أهمية، تاهت أسماؤهم مع الزمن، مثل شيزلاف ميلوش (بولندا عام ١٩٨٠)، وإلياس كانيتى (تشيكى ١٩٨٣)، وياروسلاف سيفيرت (تشيكى ١٩٨٤)، ويوسف برودسكى (روسيا عام ١٩٨٧)، وكلهم، عدا سيفيرت عاشوا فى المنفى، لاجئين يناصرهم الغرب.

كانت الجائزة دوما سياسية، تناصر ايدولوچية الغرب، حتى إذا إنحل الاتحاد السوڤييتى تفكك معه عقد المنشقين، ولم يعد أحد منهم يذكر فى الغرب، باعتبارهم قد أدوا دوراً محدداً لهم، وإذا بأكاديمية استكهولم بعد عشر سنوات من تفكك الاتحاد السوڤييتى، تتذكر أن هناك أدبا صينياً منشقاً، يقف ضد السياسة الصينية، وسرعان ما تم منحه الجائزة رغم أن الكاتب كسينج چيان ليس أول المنشقين، ولا أكثرهم أهمية.

والحديث عن انشقاق الأدب الصينى ليس موضوعاً جديداً، إلا أنه كان مختلفاً، فالصين لا تود تصدير ثورتها إلى العالم مثلما حاول السوڤييت أن يفعلوا، كما لم يدخلوا فى صراع اقتصادى، وبارد مثلما حدث بين الشرق والغرب، والكاتب الصينى المنشق، لم يكن يميل إلى الذهاب للغرب، قدر رغبته فى الرحيل، إذا فعل ذلك فعلا، إلى جزيرة هونج كونج، ليكتب بنفس اللغة، وكى تتسرب أعماله إلى القراء فى وطنه، لكن الأسماء التى رحلت



ماوتسى تونج

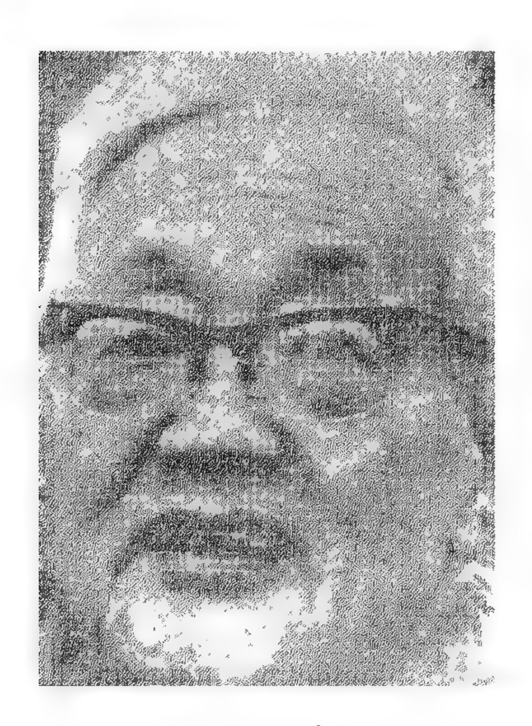
إلى أوروبا، خاصة فرنسا، كانت قليلة، ولم يتم الاحتفاء بها بنفس القوة التى حدثت لأقرانهم المنشقين من الكتلة الشرقية سابقا.

حلم الراية الحمراء

ولعل أبرز حالات الانشقاق الأدبى الصينى، تمثلت فى عام ١٩٥٤ برواية من طراز «حلم الراية الحمراء» للكاتب كاوكسوكن، والتى لم تترجم إلى اللغة الفرنسية سوى عام ١٩٨١. وعرفت هذه الظاهرة باسم «العلم الأحمر»، حيث عرف أن الزعيم ماوتسى تونج كان يؤمن بقوة الكتابات وتأثيرها على الناس. وقد عُرف أن أنشطة أغلب الأدباء إبان الثورة الثقافية قد مارسوا السياسة وكان لهم دور اجتماعى بارز.



شين جو - هسى



با - كين

وعلى مستوى آخر، فان هناك كتاباً آخرين، عاشوا فى فرنسا، لم يعلنوا الانشقاق، ولم يطالبوا باللجوء السياسى، لكنهم لم يودوا إعلان الحرب على أوطانهم، أو فقد النظام السياسى. ولعل أبرز هذه الأسماء هو الكاتب لوسيان بودار (١٩١١ - ١٩٩٦) الذى جاءت به أمه الصينية للحياة فى فرنسا، لكن الاسم الذى يمكن الوقوف عنده بكل احترام هو الشاب يا - دنج، الذى فاز بجائزة أحسن رواية مترجمة، وجاء إلى باريس ليعيش عدة أشهر، وقرر الاقامة هناك، وكتب أول رواية له باللغة الفرنسية نشرت عام ١٩٨٧ باسم «الذرة الحمراء» حول الثورة الثقافية، وهى الرواية التى تحولت فى الصين عام ١٩٩٢ إلى فيلم حصل على العديد من الجوائز العالمية وعرض عام ١٩٩٣ فى نادى سينما القاهرة.

فى مقاله عن جاو كسينج چيان، فى مجلة الاكسبريس الفرنسية (٢٣ نوفمبر ١٩٩٥) كتب الناقد أندريه كلافيل معرفا بالكاتب بأنه «اللاجىء» إلى باريس. ومثل هذا المصطلح مثلا لم يصف به أحد الروائى « يا - دنج» على سبيل المثال. كما أن هذا الأخير قد لاقى من حفاوة النقاد، لمتابعة روايته الأولى أضعاف ما كتب عن الفائز بنوبل عام ٢٠٠٠.

ولد جاو كسينج چيان فى الرابع من يناير عام ١٩٤٠، فى مقاطعة جانز هو بشرق الصين. لأب يعمل موظفا فى أحد البنوك، وأم تعمل ممثلة مسرح، وقد لقنته المرأة حب هذا الفن، فقرأ العديد من

المسرحيات الصينية ، والعالمية، وتاق دوماً إن تكون له بصماته فى هذا الفن الجماهيرى، وتمنى أن يكون كاتباً مسرحياً يشاهد الناس أعماله.

تلقى جاو تعليمه فى المدارس الشعبية بالصين، واتجه إلى الكتابة فى سن مبكرة، درس اللغة الفرنسية وأتقنها، وقرأ المسرح الفرنسى وتأثر بكتابه، وسعى إلى أن يقدم مسرحاً مختلفا، فضمت مسرحياته الكثير من الآراء الانتقادية، وواجه بعض المتاعب مع حكومة دنج تسياو بنج، وفى عام ١٩٨٦ صدر قرار بمنع عرض مسرحيته «الشاطىء الآخر»، فقرر أن يتصرف بسرعة وسافر إلى فرنسا، وطلب اللجوء السياسى إلى هناك، فى تلك الفترة كان الغرب يشن حرباً باردة من نوع خاص على الصين، فيما يتعلق بثورة الطلاب، وما لاقاه المتظاهرون من عنف من قبل السلطات العليا.

لذا، تلقفت فرنسا الكاتب الذى طلب اللجوء، فى عام ١٩٨٧، وكانت نفس البلد قد فتح ذراعيه لزميله يا - دنج الذى تحدثنا عنه سابقا. وتقول المراجع إن الكاتب لم يقدم استقالته من الحزب إلا بعد أن استقر به المقام، أى عام ١٩٨٩، احتجاجا على اضطرابات جديدة بين الطلاب والسلطات، وكتب يندد بماحدث، فما كان من الحزب سوى أن شطب اسمه، وكان ذلك لصالحه، فصار يحمل اسم «منشق» أسوة بكل من سبقوه من الروس، أمثال الكسندر زينوفيف.

ولعل روايته «جبل النفس» هى التى أعطت لاسمه أهمية فى الأوساط الأدبية، فتمت ترجمتها إلى اللغة الفرنسية عام ١٩٩٥، وتم الاحتفال به فى أكثر من ملتقى أدبى، ومعرض كتاب عقدت فى مارسيليا، وستراسبورج، لدرجة أن مجلة الاكسبريس أشارت إلى أن الرواية التى تقع فى ٧٠٠ صفحة تعد بمثابة حصان طروادة وصل إلى فرنسا قادما من الصين. فالعنوان لا يكذب: «جبل النفس»، فهو لرواية تسبب الدوار، بقامتها، والأشواك التى تبرز منها، والأنفاس التى تعبرها. فالكاتب كسينج چيان هو واحد من الأدباء الذين جاءوا من أدب احتضن كثيراً من الثورة الثقافية. فهذا الكاتب، والمسرحى قد عانى من تمزيق مسودات أعماله، ومن شرب أكبر قدر من مياه الدعاية الشيوعية، وفى نهاية أعوام السبعينيات سمح له بنشر أول كتبه. وكان مسرح بكين هو أول من تعرف على اسمه، لكن احدى مسرحياته، «موقف الأوتوبيس»، منعت من العرض عام ١٩٨٣، وكان هدفا لنظام أرسل به إلى دائرة النسيان والرقابة. فترك مسقط رأسه وسافر فى رحلة أوديسية عبر المدن الصينية، وانشغل بترجمة مسرحيات يوچين أونسكو، وصموئيل بيكيت، صار منفياً فى باريس، حيث انتهى من تأليف روايته الأولى «جبل النفس» التى سرعان

ما ارتفعت إلى سماء الأدب المقروء بعد فوز مؤلفها بالجائزة.

نحن فى طرف العالم، فوق ممرات مظلمة تمر من التبت حيث يعيش بطل الرواية يانج - تسو كيانج. وهو مؤلف يعيش فى عصر ماوتسى تونج، يردد أنه لاجيء منذ طفولته. قرر أن يهرب من ضجيج المدينة، حاملا حقيبته فوق ظهره، متجها إلى الجبال والمدن الصينية الصغيرة، والقرى. يتصرف كأنه يعيش فى زمن الحكيم كونفوشيوس. هدفه الرئيسى أن يهجر الحضارة، والوصول إلى بلد لم يسبق لأحد أن بلغه. أو كما يسميه «جبل النفس». تقع عليه بلاد فريدة ليس لها مثيل. يدوس فوق الدروب المتربة، وأهمية الرواية أن الكاتب يصف كل تفاصيل هذه الرحلة، يبدو أشبه بروبنسون كروزو فوق أرض يسكنها مليار شخص، يحاول أن يجد حلمه الخاص، وشعائره المختلفة وأساطيره.

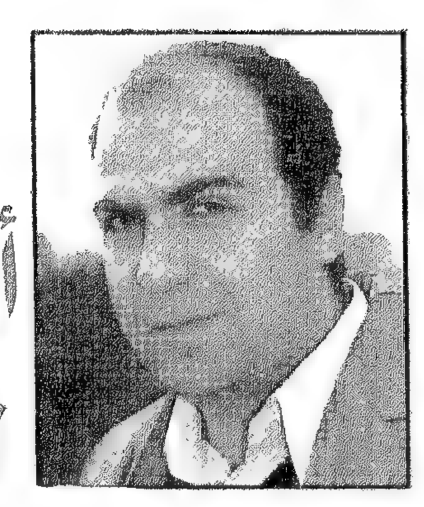
إنه رجل وجد نفسه بين السماء والأرض، بين النهر الأسود، والصخور الأبدية ومملكة الأفاعي، والقرى المختبئة فى الغابات، يستمع إلى الأغنيات الشعبية، ويلتقى بالنساء القدريات. يتعلم فن المسخ. لقد أنهك شبابه فى ممارسة العمل السياسي. إنه سندباد صينى معارض، يصف نفسه بأنه أحسن نموذج للغباء البشرى.

ورغم طول الرحلة فانه لا يستطيع أن يبلغ جبل النفس، أو الروح كما يمكن للتعبير أن يكون أكثر تحديداً. لكنه يشعر بانتصار داخلي، حيث يكتشف طريق السماء.

من أشهر أعمال الكاتب الأخرى «الشاطيء الآخر»، و«هجرة نحو الغرب».

الجدير بالذكر أن مجلة الاكسبريس، أيضاً، قد فتحت ملفا قصيراً عن أبرز أدباء الصين المعاصرين فى عددها الصادر فى ٤ مايو الماضى، بمناسبة نشر روايات جديدة لأربعة من الأدباء المقروئين فى فرنسا، كان جاو كسينج چيان على رأسهم من حيث الحفاوة، أما الثلاثة الآخرون فهم چيا بنجاوا مؤلف رواية «القرية المنزلقة»، وموبان مؤلف «بلد الكحول» ولاو شى مؤلف «أربعة أجيال تحت نفس السقف».

كانت قد صدرت للكاتب جاو ترجمة لروايته الجديدة تحمل اسم «كتاب رجل وحيد» تقع فى خمسمائة صفحة تقريبا، والغريب أن المجلة قدمت الكاتب باعتباره «منشق سابق» دون أى تفسير لهذه التسمية. لكن المجلة، أشارت أن رواية الكاتب الجديدة تدور أيضا فى عصر ماوتسى تونج ولكن فى إطار فانتازى. وأن الكاتب حاول فى هذه الرواية أن يفتح نوافذ أحلامه وآماله، وكأنه أحس بسعادة الحب المختلس، وبهجة السلطة المكتسبة لدى إنسان استطاع أن يفلت من الشرطة. إنها سلطة الإنسان فى مواجهة سلطة الغباء.

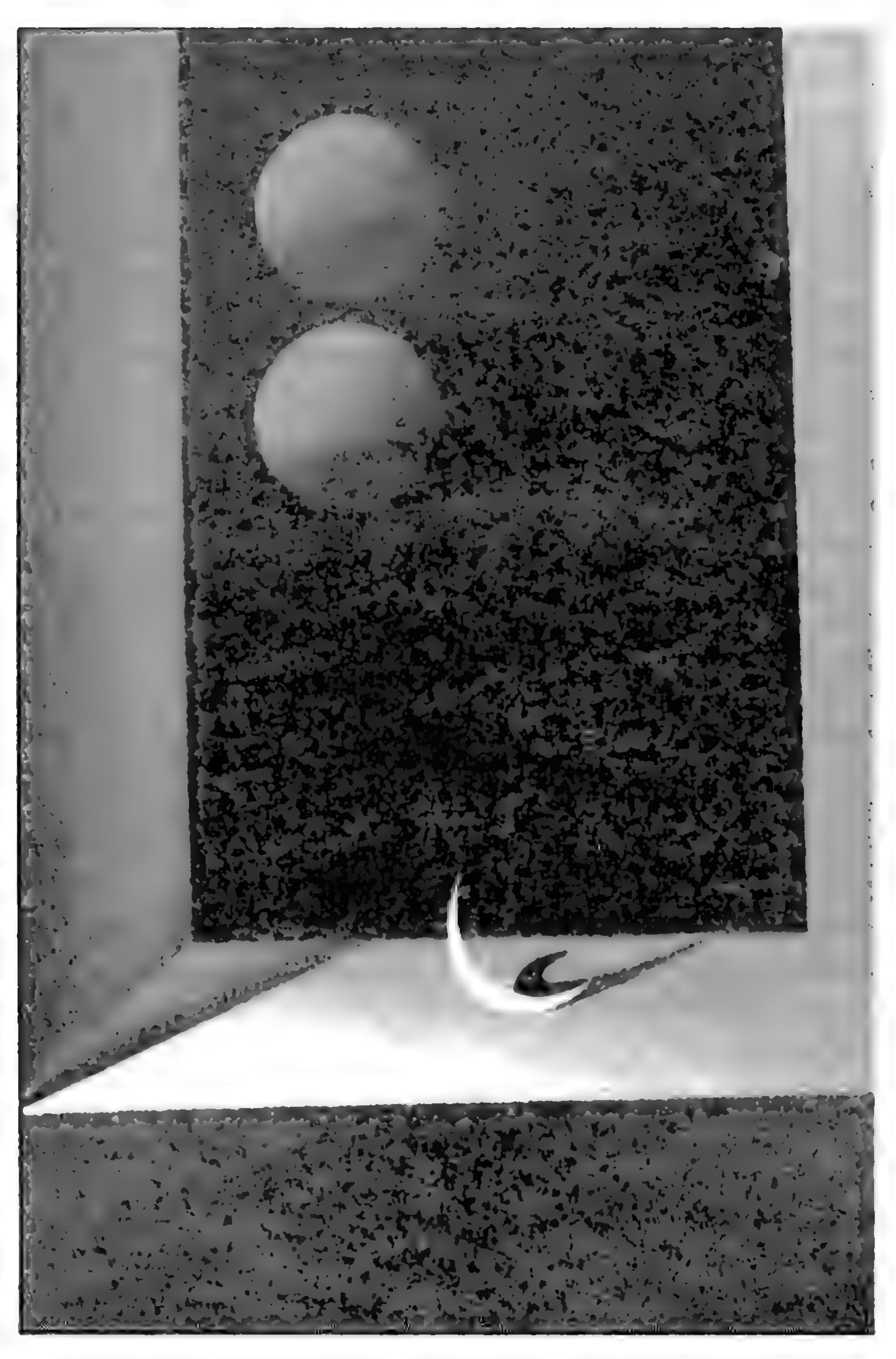


جولة المعارض

أجواء تصويرية للفنان حامد صقر

بقلم : محمود بقشيش

اختار الفنان «حامد صقر» تعبير «أجواء تصويرية» ليكون عنوانا لمعرضه الذى أقامه بقاعة كلية الفنون الجميلة بالزمالك الشهر الماضي.. والعنوان - قبل المشاهدة - يوجهنا إلي الكيفية التي نستقبل بها لوحاته والنهج الذى اختاره لها.. والعنوان يعني فيما يعنيه التركيز علي فن التصوير باعتباره فناً له خصوصيته ويمتلك استقلالاً نسبيا يميزه عن بقية الأنشطة الذهنية المختلفة.. ويشهد معرضه علي دقة العنوان المختار، فلم تستدرجنا لوحاته إلي إيحاءات روائية، مسرحية، مثلما كانت تفعل لوحة عصر النهضة الأوروبية أو تقتفى أثر نص أدبي تحاول تفسيره مثلما يحدث عادة مع الرسوم الصحفية بل دعانا الفنان، مباشرة، إلي تأمل جوهر فن التصوير.. وهو جوهر ثابت، لم يزلزله تعدد المدارس، والأساليب والتيارات الفنية عبر التاريخ، ينهض على دعامتين أصيلتين، يشكلان معاً حواراً مرئيا، يقودان به تفاصيل اللوحة: أعنى حوار الدرجات الضوئية والدرجات الظلية.



الهلال للفنان حامد صقر عام ١٩٨٠ ـ جائزة التصوير الأولى فى الإبداع الفنى

ولا يستطيع فنان - مهما كانت عبقريته - أن يتخلى عنه إلا إذا شاء أن يضحي بعمله الفني ذاته.. قد ترجح كفة إحدى الدعامتين على الأخرى فيعطى الفنان أهمية عظمى لعنصر الضوء ويبالغ فى تهيئة فضاء اللوحة أو مسرحها بالعتامة ليعطى للمسة الضوء تميزها، مثلما فعل «كارافاجيو» و«رمبرانت» - على سبيل المثال.. وبحدوث ثورة التأثريين فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر تحرر فن التصوير من التبعية المباشرة للأدب والفلسفة إلى درجة من درجات الاستقلال النسبى التى تسمح باستيعاب الأحداث العلمية للعصر وتبادل التأثير والتأثر بإنجازات المبدعين فى مجالاتهم المختلفة.. كان من نتائج إزاحة عوائق الحكي - تلك الازاحة التى أسهمت فيها «التأثرية» بنصيب كبير - أن اصبحت اللوحة الحديثة حالة تتواصل فيها روحان: روح الفنان وروح المتلقى عبر جسر الأشكال والألوان والخطوط والخامات المختلفة.

انطباع الوهلة الأولى

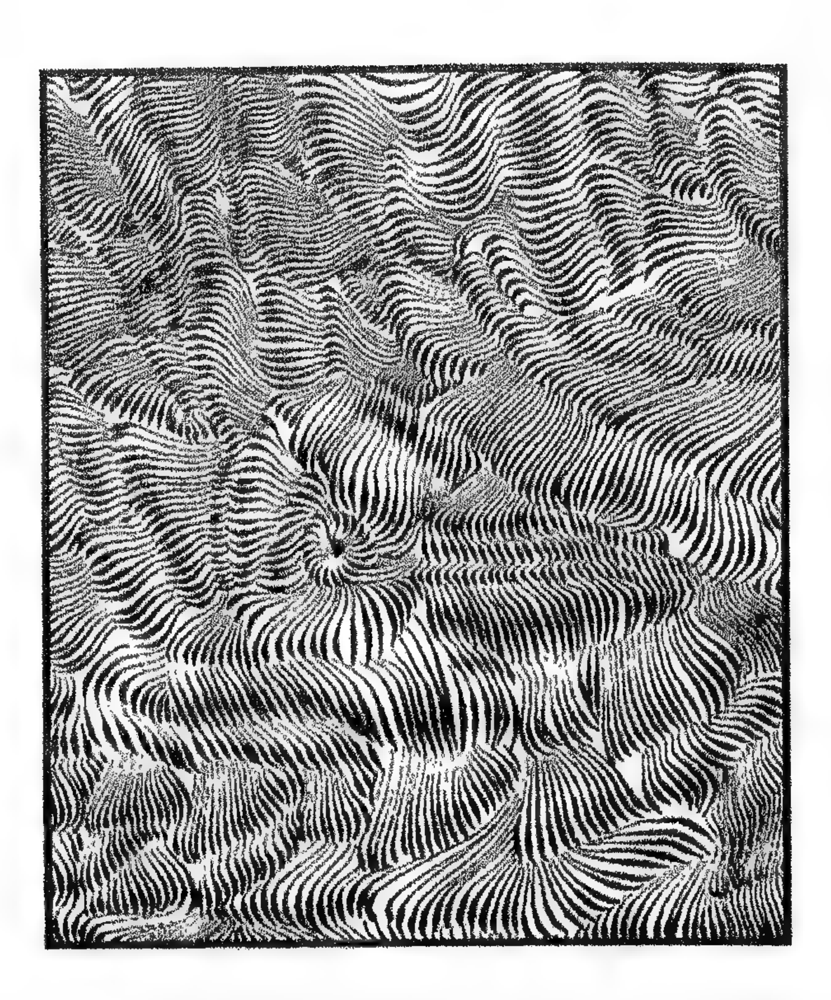
ضم المعرض ثلاثين لوحة بألوان الجواش على ورق «فبريانو» وكانت أداتا التنفيذ هما: الفرشاة ومسدس الرش الذى تعامل معه بمهارة لا نظير لها بين الفنانين المصريين . واختار عنصر «النور» ليكون ركيزته المحورية الأولى فى اللوحات.

وجهّز لكليهما: (النور والعتمة) فضاء سماويا لا شبيه له، بعيداً عن وحدة المكان الأرضى، تلك الوحدة التى كانت تفرض على لوحات عصر النهضة طابعها المسرحي.. وهو فضاء مهندس مصاف، لا تشويه شائبة من خشونة الواقع وفوضاه.

وعلى الرغم من كونه فضاء متخيلاً فإنه لا يقطع خطوط الاتصال بالمألوف من الاشكال الطبيعية، غير أنه لا يستضيفها إلا فى أضيق الحدود.. وعندما يفعل ذلك فإنه يعقّمها أولاً.

ففى لوحة (الاستحمام فى النور) التى أنجزها سنة ١٩٨٧ (٤٤×٥٢ سم) اصطفى من كل ثمار التفاح واحدة ورسمها ببراعته الفذة فى نقل الواقع، وإن أزال عنها كل شوائب المناخ الطبيعى وجعلها تبدو أقرب الى كتلة من «الكريستال» وأحاط ثمرته المنورة بأصداء لها، إتخذت هيئة كتلتها المستديرة وإن ابتعدت عن المشابهة الكاملة معها.

هنا يقيم «حامد صقر» الاتصال بين الموجود الطبيعى الذى ابدعته القوة الإلهية والاشتقاق الذى صنعه الإنسان، وهو فى هذا يبدو متأثرا بأسلوب المذهب «النقائى» فى التصوير الأوروبى الحديث.. ولأن فنه ذهنى فى أساسه فهو يجنح الى التجريد دون أن ينغمس فيه إنغماساً



نغمات قطبية
عام ١٩٧٦

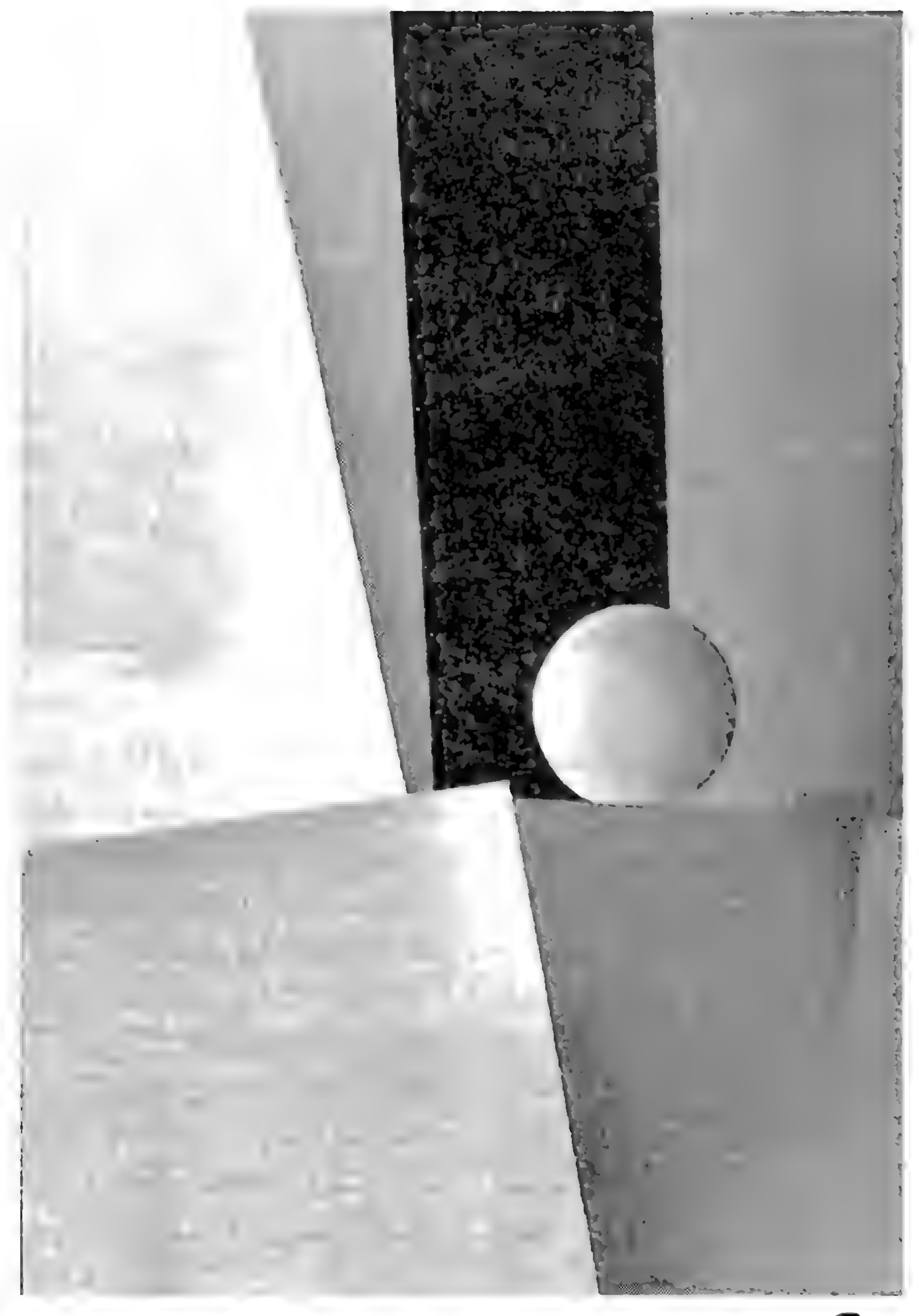
كليا وإن بدا للوهلة الأولى تأثره بهندسية أسلوب «موندريان» الصارمة، غير ان تلك الصرامة «الموندريانية» ترق فى لوحات «حامد صقر» وتميل الى الاسطوانيات العضوية، كما فى لوحة (نغمات) التى أنجزها سنة ١٩٨٥ (٦٢X٦٧ سم).

وهى من مقتنيات متحف الفن الحديث، وتتجلى ثمرة التفاحة فى شكل كوكب كامل الاستدارة يبزغ من جوف فضاء اسود ، كما فى لوحة (تكوين كونى) التى انجزها فى نفس العام (٦٢ × ٦٨ سم).

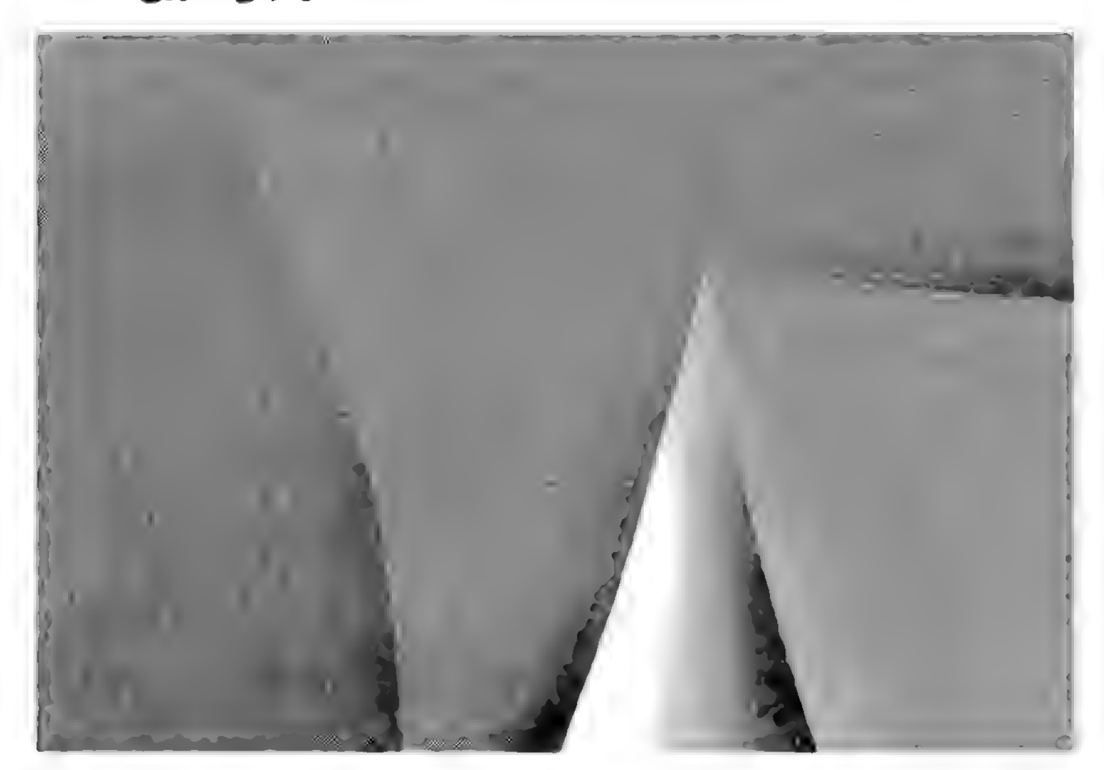
ويواصل هوايته فى ترتيب كون من صنعه، يحدث به المفاجآت ويثير الدهشة ففى لوحة (الهلال) لا نرى الهلال جليلاً مثلما نراه في فضائنا السماوى بل نراه فى اللوحة وقد سقط أرضا وصار شبيهاً بالطبيعة الصامتة، شكل ساكن يلقى ظله على الأرض فيما ظهر كوكبان فى الذروة يسبحان.

فى اللوحة تأثر واضح بالمصورين الميتافيزيقيين، غير أن حرصه على المبالغة فى الأناقة وميله إلى تنسيق العلاقات بين العناصر المجسمة والعناصر

توازن للفنان حامد صقر- ١٩٨٧



١٩٨٧ ـ موسيقى الازرق





١٩٨٥ ـ تكوين كونى

المسطحة تقنعنا بأن ميله الى المباريات الذهنية/ «الشطرنجية» الحرة أكثر من حرصه على الانتماء الكامل إلى اسلوب فني بعينه يتجمد عنده.

استلهام النفايات!

إن كل الموجودات الواقعية، سواء منها «العظيم» أو «التافه»، الحي أو «الجامد» يتقاسمه النور والظل.. وعندما تدخل تلك الموجودات عبر بوابة الفن السحرية تصبح موجودات أخرى، أبدعها خيال الفنان.

قد يصبح الموضوع الواقعي التافه درة نفيسة عندما يعبر تلك البوابة السحرية. لقد استلهم الفنان الكبير المرحوم «زكريا الزيني» نفايات القاهرة المكدسة في شوارع المدينة وأحيائها الشعبية والثرية على السواء في سلسلة من اللوحات تعد من أهم لوحاته واستلهمها بدوره الفنان «حامد صقر»، غير ان حامد بحكم وداعته الطبيعية لم يستلهم تلك النفايات في بيئتها الطبيعية بل استحضرها إلى لوحاته بعد ان نقاها من خشونتها الواقعية وعطرها واكتفى بالنفايات الورقية النظيفة ، أحيانا يصطنع فوضاها اصطناعا واحيانا يمسك بالمصادفات التى احدثتها.. ولأنه رسام فذ فإنه يستطيع ان يرسم اى شيء.. وكان دافعه الى البحث في فوضى العشوائيات تلك هو التحليق حول الجوهر الثابت لفن التصوير - أو بالأحرى - كل الفنون المرئية. حوار النور والظل..

ونجح في أن يصنع من موضوع لا يثير الانتباه لوحات تستحق أن توضع في المتاحف . وتذكرنا لوحاته بشوامخ فناني الضوء ، أمثال « رمبرانت » بإضاءاته الليلية المباغتة وإضاءات «فيرمير » الناعمه ، الحانية وإضاءات «لاتور » الحزينة وإن كان « حامد صقر » قد تحرر من طابع السرد الأدبي وحرر المتلقي ، بدوره ، من الحلم المستحيل في تطابق الإدراك بين « الفنان المرسل » و « المشاهد المستقبل » .

والحقيقة أن المساحة الفارقة بينهما هي التي تمنح العمل الفني فرصته في إعادة قراءته وتجدده بتجدد رؤى الأجيال الناقدة . والمتذوقة . ولقد لمست السيدة «مادلين أور » وكانت عندما ألفت كتابها المهم « أسرار الأعمال الفنية العظيمة » تعمل أمينة لمتحف اللوفر .

وقد عرضت في كتابها الوثائقي صوراً للطبقات التحتية للوحات كبار الفنانين : أمثال « دافنشي »

و « رمبرانت » و «كوربيه» . ومن يشاهد تلك الصور التحتية وصور اللوحات المعروفة يصيبه الذهول ، فالصور المأخوذة بالأشعة كانت تتناقض تناقضاً كلياً أو شبه كلي مع اللوحات

المعروفة . لوحة «رمبرانت » المسماة «عارية فى الحمام» – على سبيل المثال – فأنت تجد أن الفارق هائل بين الأصل والصور الإشعاعية . وقد شاهدت تلك اللوحة بالوفر وأدهشتنى دقة لمساتها ، على النقيض من اللمسات التلقائية التى ظهرت فى صور الأشعة والأوضاع غير المستقرة للموديل . وقد أرادت « مادلين أور » ببحثها القيم أن تبلغنا ببساطة أن مبدأ « كن فيكون » لا يستطيعه إلا الله وحده ، أما « العبقرية » فليست أكثر من درجة من درجات الصحو الإنسانى .

نقل أم استلهام

إن « حامد صقر » لم ينقل فوضى القصاصات الورقية نقلاً حرفياً مع أنه يستطيع ذلك غير أنه يترك لتداعيات النور والظل المتناثرة فى فوضى المادة الواقعية ، فيلتقط ضوءًا مباغتاً هنا ، وظلالاً تتكسر على ظلال هناك وهو يقوم بدور صائد المصادفات الجميلة ، يقوم بتأكيدها أو هندستها . وينتهى من لوحته عندما تصيبه الدهشة!..

إن فن « حامد صقر » – كما قلت من قبل – فن ذهنى ، تأملى ، مسالم .

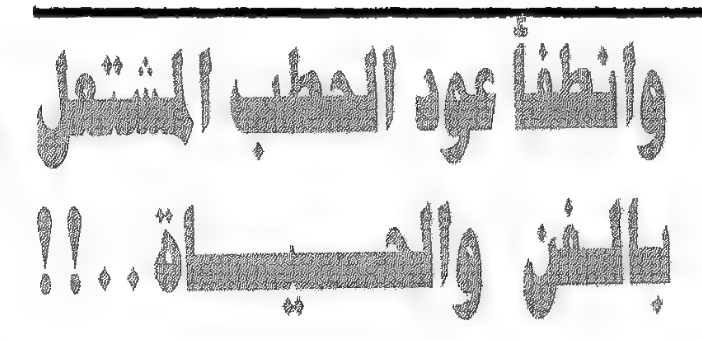
الرسم بالحبر الصينى

تزداد تصميماته إحكاماً فى لوحات الرسم بالحبر الصينى بالريشة وبالسنون المعدنية . وعلى الرغم من أنها كانت الأسبق فى تاريخه الفنى فقد التزمت الطابع الذهنى والميل الصريح إلى التجريد . من تلك اللوحات التى يدل عنوانها عليها لوحة « نغمات خطية » أنجزها سنة ١٩٧١ (السنة التى تخرج فيها فى كلية الفنون الجميلة بتقدير إمتياز مرتبة الشرف) .

واللوحة تصور ، بالفعل ، تنغيمات خطية ، يستعرض الفنان مهارته فى التلاعب بكثافة الخط وطراوته وخلق إيهام بصرى بالحركة والعمق . ويبدو تأثره بأسلوب الفن البصرى ، فى ذلك الوقت ، واضحاً . ويتأكد نفس النهج فى لوحة بعنوان « سيمفونية » أنجزها فى نفس العام . الفارق بينهما هو إنقلاب الخطوط اللينة فى لوحة « نغمات » إلى حزم من الخطوط المستقيمة ، الحادة ، المنفذة بالمسطرة . وقد عمل « حامد صقر » رساماً بالهلال فى مجال رسوم كتب الأطفال وأذكر أننى عندما كنت عضواً بمجلس تحرير مجلة «سنابل» مع الشاعر الكبير « محمد عفيفى مطر » إخترنا لحامد رسماً نشر على غلاف العدد الأول الذى صدر فى ديسمبر ١٩٦٩ وكان وقتها لايزال طالباً فى كلية الفنون الجميلة وأصبح الآن أستاذاً مساعداً بها.



جودة خليفة



صلاح بيصار

جودة خليفة فنان جادت به قرية «البلاشون».. قرية صغيرة خضراء من قري الشرقية.. مثلما جادت قرانا بطول الوادي بالمفكرين والأدباء والكتاب والفنانين من طه حسين ومحمود مختار ويوسف ادريس وصلاح عبد الصبور وعبد الرحمن الشرقاوي إلي كثيرين غيرهم.

كان نحيفا كعود الحطب.. يشتعل بالفن والحياة.. يحمل سحنة الفلاح الفصيح مع ملامح من إخناتون.. عاش الحياة بكل جوارحه من الشوشة إلى القدم واشتهر بضحكته الرائعة المجلجلة والتى كانت صورة لصفاء النفس والعذوبة والسخرية من عبث الأقدار مع تلك الروح المرحة الطليقة.

يحكى الناقد الفنان محمود بقشيش وكانوا ثلاثة يعيشون معا فى حجرة واحدة أثناء الدراسة بالفنون الجميلة بداية الستينات.. هو وهو ومعهم المثال عبد الهادى الوشاحى.

يحكى أن الوشاحى كان يشكل تماثيل من البطاطا التى كانت أرخص من الصلصال وفى كل مرة يأكلها جودة خليفة!! .

من هنا كانت حياته أنشودة للبساطة في السلوك والتصرفات وأيضا فى المأكل والملبس وهى تمثل معادلا لعالمه التشكيلى




من أعمال الفنان جوده خليفة

الذى اتسم بالعمق والغموض يموج بالحزن والشفافية ويضج بالصمت وهذا الحس الميتافيزيقى الذى يعكس حالات درامية عديدة.. كل ايقاع حالة وكل حالة تأخذنا من أعماق الأعماق إلى آفاق الآفاق فى رسوم تبتعد عن الثرثرات والدندشات ولا تشتمل إلا على عنصرين أو ثلاثة من تلك الرموز التى تشكل عالمه والتى لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة.. هذا العالم الذى شكل من خلاله مساحة أصيلة تضاف إلى كشكول الفن الصحفى.مع مساحات عبد السلام الشريف وجمال كامل وحسن فؤاد ومنير كنعان وصلاح جاهين.

أعمال أكثر شعبية

ورغم أنه لم يهتم طوال حياته بإقامة معرض واحد لأعماله فإن معظم تلك الرسوم الصحفية التى امتدت من الموتيفة الصغيرة إلى الرسوم التعبيرية المتسعة وفن البورتريه تعد لوحات مكتملة تألقت على صفحات روز اليوسف وصباح الخير وأكتوبر والهلال وأخبار الأدب مع الأغلفة والرسوم الداخلية لعشرات الكتب.. لكن جودة خليفة اكتفى أن تكون أعماله أكثر شعبية كشخصيته يطالعها آلاف القراء.

ومساحة التشكيل عنده ليست مجرد مساحة تزيينية تصاحب الكلمة المكتوبة وليست أيضا مجرد عامل جذب للقارئ بقدر ما تتوازى تلك المساحة مع النص المكتوب فى القيمة مع اختلاف زاوية الإبداع.

ورموز الفنان الراحل تتكرر من الطائر

إلى الرجل والمرأة والهلال والبدر والديك مع الأغصان التى تقترب فى شكلها من غصن الزيتون ، لكنها تتغير من حالة إلى حالة فطائر جودة خليفة يمثل حالة خاصة وهو نسق وحده فى كل لوحة ينساب فى تعبير جديد.. تارة نطالع فيه غراب قابيل وهابيل وتارة يمامة الغار وربما حمامة الأيك التى تغنى بها شوقى وأحيانا بهيئة عصفور الحقل وفى أوقات أخرى يمثل طائر الليل الحزين الذى يتشبث برأس رجل أو فتاة.

أما الديك فهو يطل بعرف كالهلال وساقين رشيقتين يبدو مشدودا من فرط الصياح فى شموخ وكبرياء! .

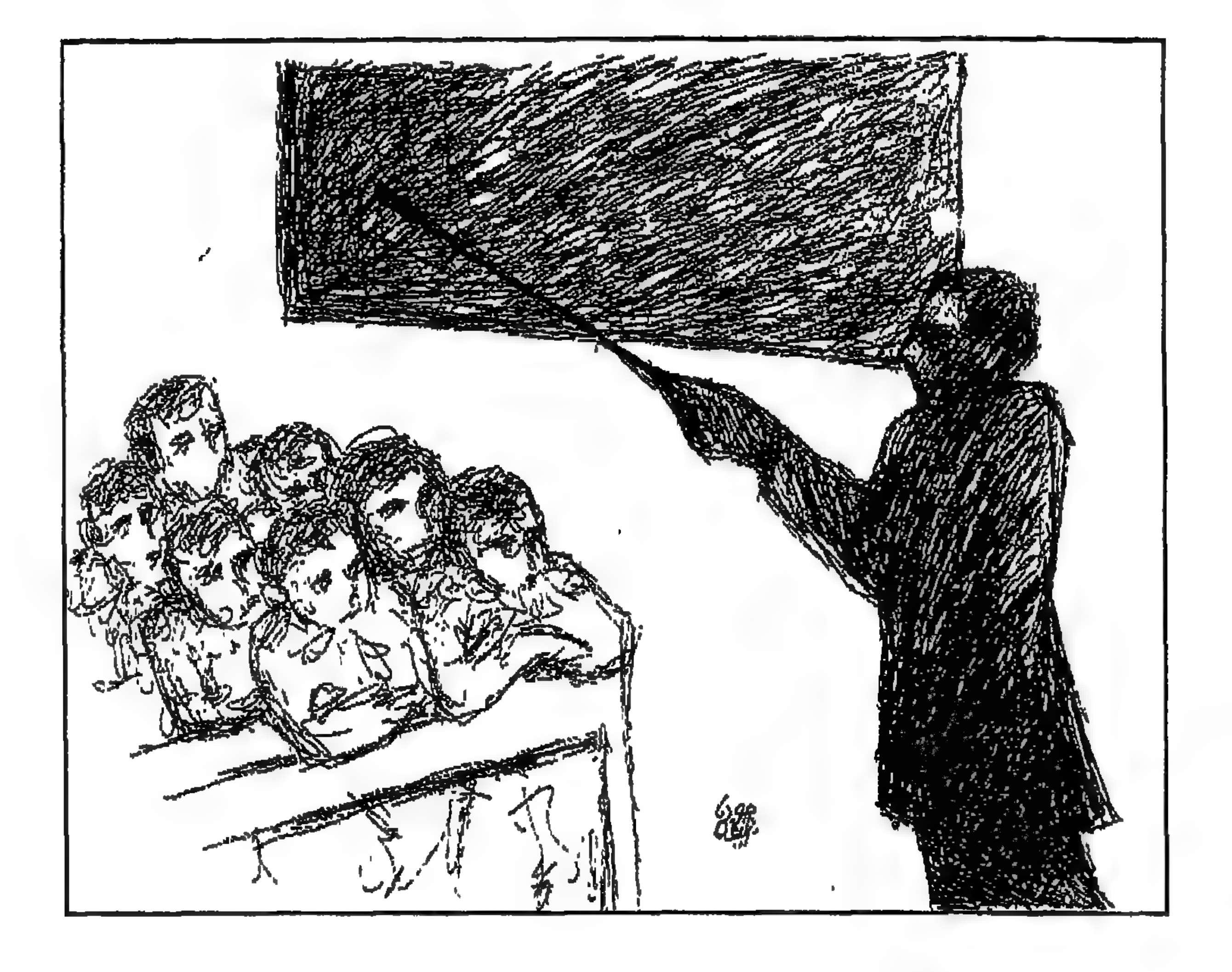
وأعمال الفنان على المستوى البصرى بعضها ينتمى إلى الليل والبعض الآخر إلى النهار وقد تزيد مساحة الأسود وتمتد وقد تتسع مساحة الأبيض.. فيأخذ البعض منها ملامح الليل والنهار معا فيخرج النهار من الليل أو يدخل الليل فى النهار ما بين شبورة الفجر وغبش المساء.. نعيش من خلالها وضوح النور والظلام كما عايشه فى قريته الصغيرة وهى مسكونة بتلك المسحة الميتافيزيقية التى عكستها معايشته الشديدة لتراث الأجداد من الابهاء والدهايز وممرات المعابد والجداريات أثناء وجوده بالأقصر بعد تخرجه.

ورسوم الأبيض والأسود تفوق فى مستواها أعماله الملونة وما اشبهه بعازف الناى الذى اختار أن ينفخ فى عود من البوص فيطربنا ويشجينا ويحتوى العالم بأنغامه.

والشخوص الآدمية فى كل أعماله مسكونة بالصمت والغموض حيث تضيق العيون أو تتلاشى من فرط الظلال وهى عيون لوزية مسحوبة.

وتتنوع أعماله من الرسم بسن القلم إلى الابداع بالريشة واتساع الفرشاة.. وهى تمتد من الإيقاع الهندسى الذى يشتمل على مسطحات سوداء وبيضاء من بينها الدائرة بمثابة البدر مع الهرم الذى غالبا ما يحوى بداخله شكلا عضويا.. إلى ايقاع يتنوع فى تعبيريته يموج بالمشاعر والأحاسيس يتشكل من الخطوط الرفيعة التى تتداخل وتتعانق وتتكاثف تصنع حوارا من الأضواء والظلال إلى المسطحات الشفافة بالفرشاة.

وقد بلغت أعمال خليفة ذروتها فى رواية «حكاية تو» التى نشرت مسلسلة بروز اليوسف للروائى الكبير فتحى غانم وأيضا رواية «سفر البنيان» للروائى جمال الغيطانى والتى نشرت فى سلسلة روايات الهلال حيث رسم غلافها مع الرسوم الداخلية التى تنوعت فيها أساليبه فى الشكل تنقلنا من تعبير إلى تعبير.



كما جاءت الرسوم الداخلية لأناشيد الإثم والبراءة للدكتور مصطفى محمود.. صورة تعبيرية عالية القيمة امتدت بالبساطة والايجاز.. وهى عبارة عن رسمة واحدة للفظ الجلالة تكررت عشر مرات بحجم طابع البريد لكنها محملة بالمعانى والدلالات.

وجودة خليفة كان فى أحيان كثيرة يعمد إلى ترك تكويناته مفتوحة وغير مكتملة كأن يرسم اطارا ينقصه ضلع أو يصور رأسا بلا جسم أو وجها بلا تفاصيل محاولا إشراك المشاهد فى إكمال الصورة النهائية للعمل من خلال تلك الخطوط الوهمية التى تحددها العين.

والصورة الشخصية فى أعماله تنبض بالمشاعر والأحاسيس وهو يصبغ البورتريه بعالمه الدفين الذى يمور بداخله.. وكان آخر ما أبدع صورة شخصية لرائد التعليم الدكتور حامد عمار وقد أشاد بها صديقه الفنان نبيل تاج وقال له إنها من أجمل أعماله كان ذلك وهو بالمستشفى فما كان منه إلا أن أجهش بالبكاء فقد شعر أن ليس فى الإمكان أبدع مما كان.

سلام على جودة خليفة الإنسان والفنان وخالص العزاء لأسرته الصغيرة.. السيدة زوجته وابنته رحاب الصحفية بالأهرام.

كيف تخاف الأزهار؟

قصة قصيرة

بقلم : أيمن الجندى

رسوم : سميحة حسنين



□

لم أعد أبكى ..

فقدت ـ فجأة ـ القدرة على البكاء دون سبب مفهوم .. الفظيع أننى كنت أبكي مرارا فى داخلي دون دمع، صارت عيناى مثل مجرى نهر قديم انقطعت عنه الأمطار واجتاحه الجفاف منذ آلاف السنين .. منذ مئات الآلاف من السنين .. منذ ملايين السنين.

كانت الأعشاب كثيفة والغابات تحفل بالأشجار السامقة والكائنات الحية المتنوعة، وكانت السماء تمطر بغير انقطاع، ورائحة المطر الرطيبة تفوح فى جميع الأوقات ولكن الجفاف قد أنشب مخالبه فجأة، أقفرت السماء من الغيوم دون مبرر مفهوم وامتد اللون الأصفر بالرمال القاسية التى تراكمت على كل شيء .. طمرت جميع مظاهر الحياة فيها .

مكثت وحدى فى الشرفة اتطلع إلى البعيد المجهول، لم أكن وحدى تماما، كان هناك قفص صغير لعصفورين من عصافير الزينة بألوانهما البديعة .. آية من جميل صنع الله فى خلقه، تنسكب الألوان الصافية فى انسجام مذهل كما لم تبدعه ريشة فنان، ولكنهما خلف طلاء الزينة كانا تعيسين تماما، العيون ـ مثلى ـ جافة، لبثا ينقران الحب فى جمود دون أن يفطنا أننى أتطلع إليهما.

....

مضيت إلى طبيب العيون أسأله المعونة وضع المنظار أمام عينى فى الظلام الدامس محركا نور منظاره الفاحص يمينا ويسارا، ثم رفع رأسه نحوى :

ـ ماذا تشتكى :

قلت فى اقتضاب .

– لم أعد أبكى .

قال فى ثقة :

ـ لا شيء البتة، أنت لا تعانى من مرض عضوى .

قلت له فى هدوء .

– معذرة، ولكنكم تجهلون الكثير، هل تستطيع بآلاتك تلك أن تدرك الفارق بين العيون السعيدة والتعيسة؟

قال فى حيرة:

ـ كلا ، كلاهما يتشابهان.

قلت مؤكدا :

ـ وكذلك يتشابه السكر والملح، كلاهما أبيض !

....

فطنت أن عصفورى الزينة لايتطلعان البتة لأعلى، أتراه اليأس المريح أم هو الجهل السعيد.

لست أدرى .

كان عصفورا الزينة هدية فى يوم ميلادى ابنتى، وقد استشعرت المقت صوب هذه الهدية منذ اللحظة الأولى ولكنى لم أقدر على ردها، ألقيت في جفاء بكثير من الماء والطعام ثم أشحت ببصرى بعيدا، كانا يزقزقان نادرا ويأكلان

بشراهة غير مفهومة وكانت عيونهم مستديرة، وقاسية ويتملكني الاشمئزاز كلما تطلعت إليهما.

....

أصغى الطبيب النفسي إلى شكواي الخاصة بعدم المقدرة علي البكاء ثم ضاقت عيناه وهتف في انفعال :

ـ هذا مثير جدا ، إنه يرمز لشيء ما .

قلت في عتاب :

ـ أعلم ذلك ولكن ماهو ؟

اعتدل في مجلسه وقال في صوت واثق:

ـ ليت الأمر بهذه البساطة لست ساحرا ولا أملك ـ للأسف ـ كرة بللورية ! ولذلك فإن جلسات التحليل النفسي ستغدو حتمية، سوف افتش في كهوف عقلك الباطن عن حادثة ما مرت بك وظلت مطمورة في أعماق لا وعيك ثم بدأت تعبر عن كيانها بهذه الكيفية .

همست في حزن :

ـ وحتى هذا الحين أكابد العذاب الأليم !

ـ قلت لك أنني لا أمتلك ترياقا سحريا للسعادة !

ـ ولكني أتألم ألما نادرا .

ـ لا ريب، طالما أثبتت الدراسات الحديثة أن البكاء يطيل العمر .

هززت كتفي في استخفاف :

ـ ياسيدي الطبيب لست أعبأ بطول العمر ولكني اشتقت الى ملمس الوجه الرطيب المبلل بالدموع .

قال الطبيب وهو يبتسم :

ـ يمكنك أن تضع دموعا صناعية تبتاعها من الصيدلية بسهولة ثمة وسيلة أخرى .. ضع عصير البصل في عينيك وسترى!

قلت في جد :

ـ اسمع يادكتور .. أحيانا أخال أنني نواة حبيسة في ذرة تحرسها إلكترونات تطوف من حولها كسجان يقظ، أترى الطاقة الهائلة التي تنبعث من تحطيمها فرحة هائلة تعربد بالخلاص من الأسر الطويل ؟

لم ينبس الطبيب وتشاغل بكتابة الوصفة الطبية، استطردت قائلا :

ـ وأحيانا أخال أنني روح حبيسة في جسد ولكن موعد اطلاقها لم يأت بعد .

أشعر بالأسر ولا أدرى لم؟

كف الطبيب عن الكتابة ورفع عينين متشككتين، قال ووجهه يفيض حبورا :

ـ أنت تفكر في الانتحار يبدو هذا بجلاء.

ـ كلا .. كلا .

ـ لاتقاطعني ، هتف في انفعال، إنهم جميعا ينتحرون يوما ما .

ـ الانتحار هو آخر ما جال بذهني.

تكدر وجه الطبيب نوعا وقال في دهشة :

ـ ولم ؟

لقد تعذبت مرارا ولن أضيف الجحيم لأعبائي .

قال وقد فترت

حماسته :

- منطق معقول، والآن ماهي الوصفة الطبية .

....

طمرت الرمال مجرى النهر القديم تماما .

....

هرعت الى شيخي الروحي ابثه شكواي .

- لم أعد أبكي يامولاي .. رغم ذلك تصرخ الندابات في جنون خلف قناع جلدي السميك، يخمشن وجوههن بأظافرهن ويمزقن شعورهن .

أحيانا أخال أن الدموع مأسورة في أعماقي خلف لوح زجاج غير مرئي، إنها موجودة ياسيدي، الدمع نقي وأمواجه متلاطمة وتسبح فيه عشرات الأسماك التعيسة، ولكن كيف أهشم اللوح الزجاجي وأطلق الدمع الحبيس؟ إنه في صلابة الماس وقسوته أيضا، أخبرني يامولاي هل ثمة ماهو أشد صلابة من الماس؟

قال الشيخ ووجهه يتهلل بشرا .

- الإيمان ياولدي .

- حقا ياسيدي ولكن النهر قد جف تماما، انقطعت عنه الأمطار، وأوشكت على الهلاك من الظمأ .

قال الشيخ في جد :

- «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم، فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا، يرسل السماء عليكم مدرارا» صدق الله العظيم .

....

استغفر الله العظيم، عبدك وابن عبدك وابن أمتك، سائلك وفقيرك ومسكينك.

....

فهمت كل شيء فجأة.

كان الظلام يرخي ستائر دياجيره وكنت أتخبط في الظلام البهيم، ومضى البرق لثوان معدودة لكنها كانت كافية لأجتلي الحقيقة أبصرت سجني وسجاني وأدركت خلاصي .

مضيت إلى الشرفة وأمسكت بباب القفص ففتحته وتراجعت خطوات إلى الوراء ولبثت أرتقب .

لم يبرح العصفوران القفص وتساءلت في أسف أتراهما لايحسنان الطيران؟ هل تحولت الأجنحة الى أقدام من طول الأسر؟

لم يطل تساؤلي .

انطلق عصفور كالسهم الملون خارج القفص، أوشك أن يصطدم بسقف الشرفة ومضى يرفرف في السماء كعاشق مجنون.

ومكث العصفور الآخر لحظات ثم رفع رأسه لأول مرة، ومالبث أن شق طريقه الى السماء حيث رقص رقصة الحرية الأولى.

مضيت إلى داخل المنزل وأنا أترنح، كان الموج يتدافع بصوت صاخب صوت مجرى النهر القديم الذي لم يعد قديما .



بقلم : مصطفي درويش

توقعت ، وأنا مقبل على مشاهدة «امرأة تحت المراقبة» ، وهو فيلم من إخراج «أشرف فهمى» وتمثيل نجمة مصر الأولى «نبيلة عبيد» ، توقعت أن أشاهد عملا سينمائيا ارتقى إلى مستوى فيلمهما معا «اغتيال مدرسة» ١٩٨٨ ، إن لم يكن قد تجاوزه إلى مستوى ارفع ، وذلك بحكم الخبرات التى اكتسبها الاثنان «المخرج» و «النجمة» على امتداد السنوات اللاحقة لهذا الفيلم، وهى اثنتا عشرة سنة بالتمام .

ومما زاد من اطمئناني، حتى كدت اصبح من الواثقين فى صعود فيلمهما الجديد إلى منزلة قد تجعل منه علامة فى تاريخ سينما لها من العمر الآن ثلاثة وسبعون عاما أمران.

أولهما : أن التليفزيون المصرى الذى ولد عملاقا هو ممول الفيلم ، ولايعقل ان تشوب اسهامه بالتمويل شبهة التفريط أو الاهمال ، على نحو يسىء إلى صورته فى نظر ملايين المشاهدين من الخليج إلى المحيط ، اذن فلابد أنه قد احسن الاختيار.

وثانيهما : ان الفيلم قد شاركت فى صنعه كوكبة من مبدعى السينما والتليفزيون ، اذكر من بينهم على سبيل التمثيل ماجدة زكى، وسميرة عبدالعزيز وكاتب السيناريو فايز غالى والمصور سعيد الشيمى والموسيقار عمر خيرت.



قواعد الاشتباك والضابط المتهم ومحاميه



جائزة أحسن ممثلة عن فيلم «امرأة تحت المراقبة»

فضلا عن عبدالمنعم مدبولي الفنان القدير

ثورة الشك

ولكن ما أن بدأ الفيلم ، وتتابعت مشاهده الاولى أمام عيني، حتى أخذ الشك في قيمة ما أرى يتسلل إلى اعماق نفسي ، وشيئا فشيئا اخذ الاطمئنان في التبخر ، حتى صار مع اقتراب الفيلم من نهايته ، في خبر كان.

أما لماذا ثار الشك ، وتبخر الاطمئنان، فذلك لأنني . وأنا حبيس بقايا دار سينما من دور القطاع العام. لم اشاهد على شاشتها الصفراء سوى أحداث قصة مكررة ، مملة تدور وجودا وعدوا حول فساد النظام المصرفي في مصر المحروسة.

وكان إن تساءلت ، وأنا اغادر دار السينما محبطا ، ولا اقول مهموما، ألم يسبق لنا ، نحن المشاهدين التعساء ، أن رأينا فسادا من ذلك النوع في أفلام تعد بالعشرات ، ومن بينها افلام شاركت فيها بالبطولة نجمة مصر الاولى ، لعل اقربها «هدى ومعالى الوزير» واذن لماذا هذا التكرار ، ومؤداه حتما ضياع المال العام مع الاساءة إلى السينما المصرية ، في وقت هى في امس الحاجة إلى روح التجديد؟

وعلى كل ، فلن أعرض شيئا من تفصيل قصة الفيلم ، لأنني لو عرضت تفصيلها لتنقلت من شيء سخيف إلى شيء سخيف ، حتى اصل إلى ختام سعيد، اكثر سخفا وافتعالا.

واخيرا ، فليس عندى ما اقوله عن «امرأة تحت المراقبة» سوى انه سقطة ، ودليل مابعده دليل على استفحال داء الاستسهال .

واكتفي بذلك ، لأنتقل إلى حدثين سينمائيين وثلاثة افلام.

والحدث الاول يرجع إلى أيام أن كنت غائبا عن ارض الآباء.

سر النهوض

وقتذاك طيرت وكالات الانباء خبر خروج الفيلم الايراني «الحلقة» لصاحبه «جعفر باناهي» مخرج البالونة البيضاء ، خروجه من مضمار التنافس في مهرجان فينيسيا الاخير متوجا بجائزته الكبرى «الاسد الذهبي» ، وهي جائزة لاتضارعها في المنزلة سوى «السعفة الذهبية» ، الجائزة التي تمنح لأفضل فيلم في مهرجان كان.

وفيلم «باناهي» تدور وقائعه حول محنة سبع نساء ، خرجن من السجن لا إلى الحرية ، وانما إلى سجن اكبر تتحكم فيه ممنوعات ، جعلت من حياتهن جحيما.

وفكرة الفيلم جاءت المخرج من خبر قرأه ، مفاده ان امرأة انتحرت وقتلت صغيرتيها ، قبل ان تتخلص من حياتها بالانتحار.

والمرأة في فيلمه لاتستطيع ان تسافر بمفردها أو بدون اذن من قريب ذكر ، ولا تستطيع ان تدخن سيجارة في مكان عام.

وقد صور «باناهي» احداث الفيلم ، بدون نجوم ومؤثرات خاصة، ودون اللجوء إلى اى شكل من اشكال الجنس والعنف.

كما عمل على تصويرها في شوارع طهران ، وخاصة في الاسواق المزدحمة ، ومحطات الحافلات.

وما ان عدت إلى ارض الوطن ، حتى كان الحدث الثاني، ألا وهو مهرجان الاسكندرية بأيامه ولياليه ، على وشك الانتهاء .

القردة والبرقع

وكعهدنا به ، كان لابد ان يبدأ بفضيحة ، وينتهى بفضيحة ، يتحدث بها القاصى والداني.

وفضيحة البداية تمثلت في عجز منظمى المهرجان عن عرض فيلم الافتتاح «الشاي مع موسوليني» ، لصاحبه المخرج الايطالي «فرانكو زيفريللي». واضطرارهم إلى استبدال فيلم تركي به، سدا للفراغ المهين . أما فضيحة النهاية، فقد تمثلت في اعلان فوز مخرج فيلم «العاشقان» ، هو وزوجته بجائزتي افضل ممثل وممثلة .

وأغلب الظن ان ذلك الفوز امر غير مسبوق في تاريخ جوائز فن السينما ، ذلك الفن الذي له من العمر مائة عام وازدادت خمسة .

وهنا يحضرني مثل مصرى رائع . اراه مناسبا للمقام «قالوا للقردة اتبرقعي، قالت وشي واخد على الفضيحة» والآن إلى الأفلام الثلاثة .

وابدأ بـ «قواعد الاشتباك» لصاحبه «ويليم فريدكين» ، وهو فيلم شاهدته في احدى دور السينما ، وانا خارج البلاد.

ومما يعرف عن مخرجه ان افلامه تثير من الجدل الشيء الكثير.

ومن بينها اكتفى بذكر فيلمين «الوصلة الفرنسية» ١٩٧٠ و«طارد الارواح» ١٩٧٣.

ولقد فاز «الوصلة الفرنسية» و«فريدكين» بالاوسكار ١٩٧١ ويعتبر «طارد الارواح» واحدا من انجح افلام الرعب.

وحتى يومنا هذا ، لايزال عرضه ممنوعا عندنا، حفاظا على سلامة اعصابنا !!

عنصرية مقيتة

وفي اعتقادى ان «قواعد الاشتباك» ، فيلمه الاخير، لن يختلف حظه عندنا ، عن حظ «طارد الارواح» فالكثير من احداثه تدور على ارض اليمن، وبالذات العاصمة صنعاء ، حيث يحاصر متظاهرون يهتفون بشعارات معادية لسياسة الولايات المتحدة مبنى السفارة الامريكية، المهدد بالسقوط في ايديهم بين لحظة واخرى.

ومن أجل انقاذ أسرة السفير ، ويلعب دوره «بن كنجسلى» الفائز بأوسكار افضل ممثل رئيسى عن ادائه لدور «الماهتما غاندى» فى فيلم «غاندى» ١٩٨٢ من أجل ذلك تحركت حاملة طائرات أمريكية إلى باب المندب، وعلى متنها طائرات محورية، انطلق بعضها إلى سماء صنعاء حيث حط على ارض السفارة.

وفى أثناء عملية الانقاذ التى تمت بنجاح ، اصدر الكولونيل «تيرى شيلدرز» ، ويؤدى دوره النجم الاسود «صاموئيل جاكسون» ، امره إلى جنود البحرية بإطلاق النار ، لا على القناصة اليمنيين ، وانما على المتظاهرين العزل من السلاح ، ويعضهم من الاطفال والنساء.

وكان ان وقعت مذبحة ، راح ضحيتها ثلاثة وستون قتيلا ومئات من الجرحى اليمنيين.

ومما يعاب على الفيلم انحيازه إلى العسكرية الامريكية دون لف ولا دوران.

فالتحقيق الذى اجرى حول المذبحة ، والادلة التى جمعها الجنرال الموكل بالدفاع عن الكولونيل القاتل ، ويؤدى دوره «تومى لى جونز» كل ذلك انتهى إلى القطع بان المتظاهرين كانوا مدججين بالسلاح ، وان الكولونيل برىء من دم الاطفال والنساء براءة الذئب من دم يوسف.

والحق ، ان الفيلم يقطر عنصرية بغيضة ، قل ان نجد لها مثيلا ، حتى فى الافلام ذات الطابع الدعائي التى تنتجها استديوهات هوليوود ، من حين لآخر .

تحريف التاريخ

فاذا ما انتقلنا إلى الفيلم الثانى «الغواصة ٥٧١» لصاحبه المخرج «جوناثان موستو» ، فسنجد انفسنا امام عمل سينمائى يعيد كتابة تاريخ الحرب العالمية الثانية ، بالتحريف له .

هذا ، واحداث الفيلم تدور تحت سطح الماء ، فى اعماق المحيط ، داخل غواصة امريكية ، فى مهمة سرية للغاية ، ارتهن بنجاحها مصير معركة الأطلسى التى كانت دائرة ابان الحرب ، بين اسطول الحلفاء ، واسطول المانيا الهتلرية ، المكون اساسا من الغواصات، اشد وحداته فتكا.

وتلك المهمة كانت تنحصر فى الاستيلاء على جهاز الشفرة المستعملة كلغة تخاطب سرية ، فيما بين القوات الالمانية.

فلقد شاءت الصدف ان تجنح غواصة المانية فى قاع المحيط ، وبها ذلك الجهاز ، وان تعلم البحرية الامريكية بجنوحها ومكانها على وجه التحديد.

وكان ان صدرت الاوامر إلى قائد الغواصة ٥٧١ - يؤدى دوره النجم «ماثيو ماكنوجى» بالتسلل إلى الغواصة الجانحة، والاستيلاء على جهاز الشفرة ، مع اسر جميع بحارتها الاحياء ، ثم تدميرها ، حتى لايعرف العدو بواقعة الاستيلاء ،

صامويل جاكسون ضابط امريكى يقتل ويجرح المئات ويحكم ببراعته



جورج كلونى نجم صاعد



المخرج أشرف فهمى

فيعمل على تغيير الشفرة، ومن ثم تصبح المهمة ، ورغم مخاطرها، هباء .

أصدقاء أعداء

والمعروف تاريخيا ان الاستيلاء على ذلك الجهاز ، وما ترتب عليه من آثار خطيرة ، بعضها تدمير الكثير من قطع أسطول الغواصات الالمانى، انما يرجع الفضل فيه إلى البحرية البريطانية، لا البحرية الامريكية ، خلافا لمزاعم الفيلم.

ونفس التحريف للتاريخ - ظهر واضحا ، جليا ، فى «انقاذ النفر رايان» حيث ارجع صاحبه المخرج «ستيفن سبيلبرج» الفضل فى انتصار الحلفاء فى معركة النزول على شاطىء نورماندى ، ارجعه إلى الجيش الامريكى وحده، منكرا بذلك الدور الكبير الذى لعبه الجيش البريطانى فى ذلك الانتصار.

ولاغرابة فى أن يحدث التحريف للتاريخ صارخا بهذا الشكل ، فهوليوود أدمنت تشويه التاريخ منذ البدايات.

ويحضرنى هنا ، من باب المقارنة ، الدور الذى لعبه المخرج الامريكى «سيسيل دى ميل» فى تحريف التاريخ عندما اخرج «الوصايا العشر» مرتين ، الاولى فى فيلم صامت «١٩٢٣» والثانية فى فيلم متكلم «١٩٥٦» جرى تصوير بعض مشاهده فى الصحراء الغربية بالقرب من الاهرام ، وجرى عرضه ، لاول مرة ، عقب العدوان الثلاثى بأيام .

ففى كلا الفيلمين تناول قصة النبى موسى وبنى اسرائيل ، أثناء وجودهم على ارض مصر ، ثم اثناء الخروج منها فرارا من الاستبداد ، تناولها بشكل مشوه، يراد به باطل، هو تصوير المصريين، وكأنهم أبناء شعب منبوذ ، كتب عليه ذل العيش ، فى اغلال العبودية ، تحت حكم فرعون ، وقومه الظالمين.

وهذه الطريقة التى سلكها «دى ميل» فى فيلميه لاتثير الدهشة فالتاريخ ليس من الامور التى تهتم بتحقيق وقائعه وصحتها استوديوهات مصنع الاحلام.

والآن ، إلى الفيلم الثالث «العاصفة المدمرة» لصاحبه المخرج الالمانى «وولفجانج بيترسون» ومما يعرف عنه انه يعمل حاليا لحساب استديوهات هوليوود.

نقطة انطلاق

وقبل رحيله إلى عاصمة السينما ، كان قد ذاع صيته ، بفضل فيلمه الرائع «الغواصة» ، الذى اخرجه عندما كان فى ألمانيا ، لم يغادرها بعد ، إلى العالم الجديد ، وذلك قبل تسعة عشر عاما.

وفيلمه هذا الذى جعل منه مخرجا عالميا لم يعرض عندنا هنا فى مصر ، حتى الآن.

ولم تتح لى فرصة مشاهدته إلا قبل بضعة اسابيع، وانا فى المانيا، أمكث فيها بضعة ايام، قبل العودة إلى ارض الآباء.

وبطبيعة الحال، لم اشاهده على شاشة

عـريضـة فى احـدى دور السـينمـا، وانما شـاهدته على شـاشـة صـغـيـرة، بفـضل أسطوانة بحـجم الكف «دى . فى . دى» مسجلا عليها الفيلم بعدة لغات، من بينها اللغة الكرواتية، ومعه احاديث مع مخرجه ومبدعيه الآخرين .

وأحداثه تدور فى مـعظمـهـا ، وعلى مدى حوالى ثلاث ساعات، داخل غواصة المانية فى اثناء الحرب العالمية الثانية.

و«بيترسون» فى عرضه لحياة البحارة تحت سطح البحر، فى مكان مغلق ، تحيط به مـخـاطر الحـرب، مع عـدو لايرحم ، لم يحاول تزيين تلك الحياة ببطولة مـفـتعلة ، كما هو الحال فى فيلم «الغواصة ٥٧١»، بالعكس عرض لها بصدق وصراحة ، من النادر توافـرهمـا فى الافـلام الحـربيـة، القائمة فى معظمها على تمجيد الروح العسكرية ، مع التحقير من شأن العدو.

ومن هنا صـعـود فيلمه إلي مـصـاف الاعمال السينمائية المعتبرة علامات فى تاريخ فن السينما.

ورغم انه ليس له من العـمـر سـوى عشرين عاما إلا قليلا، فقد اصبح من كلاسيكيات السينما العالمية.

واى فيلم تدور احداثه فى مكان مغلق وسط امواج البحر ، لابد ان يقاس عليه، أوصل إلى مـستـواه ، أم انحـدر عنه ، ام تجاوزه ان قليلا أو كثيرا.

وفيلمه الاخير «العاصفة المدمرة» تدور احـداثه هو الآخـر وسط امـواج البـحـر المتـلاطمـة ، وبالتـحـديد امـواج المحـيط الأطلسى ، قـريبـا من شـمـال السـاحل الشرقى للولايات المتحدة.

العاصفة المميتة

وسيناريو الفيلم لصاحبه «بيل وتيليف» مـأخوذ عن قصة لسبستيان يونجر ، استوحى أحداثها من مأساة حدثت بالفعل لنفر من صائدى السمك فى اكتوبر ١٩٩١ ، وهم على ظهر مركب صيد فى المحيط، حيث هبت ريح صرصر عاتية ، سرعتها فى الساعة مائة وعشرون ميلا.

وبطريقته المتميزة ، صور «بيترسون» مـأساة الصائدين فى مواجهة العاصفة المميتة ، بأسلوب يجمع بين التشـويق والاعتناء الفائق بأدق التفاصيل.

وكم كان موفقا أولا فى اختياره ممثلى الفيلم، خاصة «جورج كلونى» ، الذى شق اخيرا طريقه إلى النجومية بفضل أفلام ثلاثة اذكرها حسب ترتيب عرضها «ثلاثة ملوك» ١٩٩٩ و«العاصفة المدمرة» ثم «اخي اين انت؟» «٢٠٠٠»

وثانيا فى توظيفه للمؤثرات الخاصة ، على نحـو اشـعرنا بالعـاصـفـة ، وبأمـواج البحر المرتفعة ارتفاع الجبال، بحيث كدنا نحس بالبلل ، وكـأننا فى مـركب الصـيد ، نواجه مع رجالها أهوال موت اكيد.

مسرح

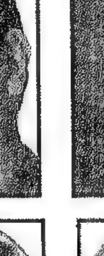


ميخائيل رومان



سمير العصفورى









نهى العمروسى



سلوى خطاب

خالد الصاوى.. مصير ديكتاتور



العصفورى.. والدكتاتورو «حبيبتى يا..»

مهدي الحسينى

والآن.. هل يصدق قول قائل: «سوف أترك هذا المسرح كى يسقط وينهار، ويكشف عن جروحه وقروحه، ويشف عن ضعفه وهزاله، ويفضح خرابه وخواءه، فهو لا يستحق الانقاذ ولا يستأهل المساندة.. ولا حتى مجرد النظر!!!

هل هذه الأقوال صحيحة؟ أم أن البعض منا يتيح الفرصة بل والفرص كى تصبح واقعا محققا لا مراء فيه؟

وهل الأزمة أزمة فن وتقنية وابداع؟ أم أزمة مال وادارة؟ أم أزمة تهيؤ دور العرض؟ أم أزمة جمهور؟ هنا لن نستطيع الاجابة على كل هذه الأسئلة وانما سنعرض إليها كلما واتتنا الفرصة، فنومىء إليها من قريب أو بعيد.

إيزيس حبيبتي

قبل «التجريبي» بأسبوعين تم افتتاح عرض مسرحي جديد على مسرح السلام للمخرج البارز سمير العصفوري من اعداده وتأليف الراحل ميخائيل رومان التى كان قد كتبها منذ ما يزيد عن ٣٥ عاما قبل رحيله فى أكتوبر ١٩٧٣ ببضعة أشهر.. تحت عنوان «إيزيس حبيبتى» والذى أصبح لدى العصفورى «حبيبتى يا..» بضغوط رقابية غير مفهومة في وقت المفروض فيه أنه قد زالت قيود وضبابات وأيديولوجيات الدولة الشمولية التى وضعت قناع الاشتراكية المزيفة ! لتمنع كل شىء وأى شىء الا الشعارات الجوفاء.

وميخائيل رومان كاتب موعود بالرقابة والمنع والمصادرة، رحل ولم يتمكن من التمتع بمرأى أعماله المسرحية على الخشبة إلا قليلا ولماماً، أما هذا النص بالذات، فقد تقدم به العصفورى الى الرقابة عدة مرات، إلا أن مصيره كان المنع بأسباب واهية وغير مقنعة.

حسن النوايا

ولكي لا نخفى أدمغتنا فى التغافل، فنقول إن النص يدين - إدانة عميقة وصادقة - الدكتاتور والدكتاتورية. وعند هذه النقطة المهمة بالذات يلتقى العصفورى برومان ونقاد كثيرين ، فضلا عن أغلبية ساحقة من المواطنين الشرفاء.

ولكننا فى الفن لا نكتفى بحسن النوايا، إن العرض يضم نجوما وممثلين لامعين مثل : سلوى خطاب، وخالد الصاوى، ونهى العمروسى، وفتحى عبدالوهاب، وناهد رشدى، وزايد فؤاد، وعادل خلف، ونخبة من الصاعدين هم : أكرم مصطفى، وأحمد عبدالحميد، وأيمن الجندى، وموسى النحراوى، وجماعة من المخضرمين والقدامى هم : أنور الخوام، وجلال رجب، وجدى محجوب.. وآخرين.. ورغم جهود المخرج الكبير التى بذلها لتجميع واستقرار هذا (الكاست) وترتيب المناظر والأزياء مع الفنانة المصممة البارزة نعيمة عجمى.. والمؤثرات الموسيقية مع سمير زين، والسهر المرهق ليال طويلة لمدة خمسة اشهر فى البروفات والاعداد لافتتاح العرض المسرحى، إلا أن الثمار التى جنيناها كانت أقل بكثير من هذا الكفاح! .

نعم . كسبنا حضورا براقا للنجمة سلوى خطاب واحساسا رفيعا فى أهم وأكبر أدوارها المسرحية، وكذا الأمر بالنسبة لنهى العمروسى التى عشقت التمثيل المسرحى هنا فى هذا العرض

ـ على حد قولها ـ رغم وقوفها على خشبة المسرح عدة مرات قبل ذلك، والتي لو اجتهدت وحافظت على حبها للمسرح لعوضتنا عن العملاقة سهير البابلي، أما خالد الصاوى فقد وقف بجدارة الى جوار يحيى الفخرانى ونور الشريف من كبار نجومنا المسرحيين، وكذا فتحى عبدالوهاب لو تعمق دوره وحافظ على النمو اليومى لأدائه بلا تعاريج أو تردد، كما قدم العصفورى ثلاث مفاجآت هى : أكرم وأيمن وعبدالحميد، أما زايد وناهد وعادل فكانوا ألمع ـ مع العصفورى أيضا ـ فى عروض سابقة. كل هذه مكاسب فنية أخرى، أعنى تلك الثنائيات والثلاثيات المستعارة من فن «الريفيو» ولكنه يقدمها ـ فى دهاء ومراوغة وبساطة تخفى أغوارا ـ وكأنما يقدم لوحات استعراضية للتسلية، رغم كل ماسبق لم يحقق العرض النجاح الجماهيرى والفنى الذى كنا نرجوه ونتمناه ونحلم به .

بناء المشهد

لماذا؟ إن المراجع لنص ميخائيل رومان سوف يكتشف حقيقة مؤكدة، وهى أنه نص يستعصى على فن العرض المسرحى، وليس كما طالب أحد النقاد بضرورة (الالتزام) بالنص ولو كان هذا قد حدث لكانت الخسائر أفدح.. وأفدح، إن ميخائيل لم يستفد هنا فى صياغته للمشهد المسرحى من قراءاته المسرحية الواسعة، كوحدة درامية من وليم شكسبير أو يوجين أونيل أو تنيسى ويليامز أو آرثر ميللر الذى ترجم له الكاتب «وفاة بائع متجول» الى العربية. فالكاتب المسرحى المتمكن يمضى فى بناء المشهد من خلال جمل حوارية تُرى أكثر ما تُسمع، ولا تنوء بحملها الفكرى والمعلوماتى كما هى عند رومان، إنما كلمات وجمل موحية ذات أصل سابق وصدى لاحق، وذات معنى ظاهر قريب على السطح وآخر كامن غائر فى الاعماق، لها مغزى غير مستغلق ويمكن ادراكه فلا يضطر المشاهد أن يسأل من بجواره، تتبادل ـ بواسطتها ـ الشخصيات المواقع ويتغير توازن القوى كل لحظة درامية، تتقارع وتتجاذب وتتقارب وتتباعد، ولكن ايقاعها يسير دوما الى الامام فى خط نامٍ متصاعد، حيث لكل شخصية مسار، ولكل حاضر دور، ولكل غائب حضور، والجميع يتضافرون كى ينجزوا جزءاً أو مرحلة من الصراع، نقطة واحدة فقط، نقطة رئيسية لو تم انجازها فى المشهد الواحد فان هذا يعد كافيا.

إن هذا الأمر فى ظنى راجع الى

ازدحام الافكار في رأسه، احتشاد نوايا التعبير عن واقعنا المؤلم في روحه، الحاح الوقائع اليومية الموجعة على ضميره الادبى والوطنى، وقائع لا يعرفها هو وحده أو قلة قليلة معه، يستطرد في سردها على نحو أضر بالبناء المسرحي، حتى أن أفكاره وشخوصه الدرامية ناءت بما يحمل فسقط متاعه وبضائعه بين قدميه، ذلك أنه أراد أن ينجز أكثر من ٥٠٠ نقطة ـ وهذا من قبيل المبالغة ـ وهذا أمر مستحيل، لذا نجده يتشعب ويدور في دوائر بلا نهاية.

مشاكسة الحكومة!

هناك ـ في النص ـ ركائز درامية كان على المخرج التركيز عليها، بلا زوائد أو حواشي او شوشرة، وهي أن حمدى كان له ماضٍ سياسى ثم أطبق الصمت، وهذه قام المخرج بإلغائها!!، وأنه تبنى طفلة ما (لماذا؟ من أين؟ من؟ أين هي؟) ثم تزوج جمالات التي توافقه أفكاره ومزاجه، لم ينجب منها ولكنهما عاشا معا بهدوء حتى زهدا الصمت والسكون اللذين احاطا بحياتهما لدرجة أنهما ارتابا في الصمت ذاته فاعتبراه أمانا زائفا ومخيفا. فانفجرا،، وقررا أن يحركا هذا الماء الآسن بمشاكسة الحكومة، وأن حمدى يرفض التوقيع على ورقة ـ ضمن عمله الحكومي ـ تساند أحد الظالمين ضد مصالح المواطنين في أمر خاص وعام في ذات الوقت، وهذه مسألة في غاية الأهمية، لم يعطها المخرج المعد عناية كافية فلم ينتبه اليها المشاهدون.

ولما علم (على) أكبر جلادى النظام بما يفعله حمدى كنموذج يوحى بالخطورة، فانه يستدعيه ويستدرجه للتحقيق بعد مراقبة، كى يتأكد من ريبه وشكوكه فيه التي هي ريب (عادية) عند (النظام) تجاه كل المواطنين، هذا بينما يكون على مشتبكا في علاقة غرامية مع فريدة راقصة الستينات التي كان يهوى مثلها رجال النظام، من طرف واحد بالطبع، لها زوج لا نراه (لماذا؟) ولا نعرف له وظيفة مهمة من الناحية الدرامية، إلا اثارة ريبة وغيرة على، فيراقبها ويضع لها أجهزة ومخبرى التجسس، هذا بينما هو مراقب ايضا من قبل الاجهزة التي تستغل فضائحه واستغلاله الجهاز لصالحه الخاص فتصفيه، وبالطبع يكون للفتاة (×) التي استخلصها المخرج من جماعة مندوبى الامن (الضباط المدنيين) دور في الحكاية، إذ تغار من فريدة هي الاخرى، واكس هذه ضحية سقوط اجتماعى جسيم لطبقتها القديمة في قصة ولاء للطبقة الجديدة لعلها تأخذ مكانها في سياق النظام الجديد.

لذا كان من الممكن فقط ترتيب الجمل الحوارية المهمة والدالة وأجزاء من المونولوجات الكثيرة والطويلة والتى يخلط فيها رومان بين الشخصى والخاص والعام، وبين المجهول والمعلوم وبين الجزئى وبين الكلى، فهذه كانت الطريقة المثلى لمعالجة ترهل النص المسرحى الأصلى. كان المطلوب تكثيفه وإضاءته: الأفراد الصغار ينسحقون ويشوهون نفسيا، والافراد الكبار ينسفون أنفسهم بأيديهم أو بأيدى أشباههم اما بالجنون أو بالعزل أو بالانتحار أو بالقتل، وتلك هى مأساة حمدى وجمالات وفريدة من جهة، وعلى والنظام من جهة أخرى. وللمخرج أن يستخدم ما شاء من الأدوات والوسائل الفنية غير المباشرة لطرح هذه الأحوال والقضايا المؤلمة الملتبسة الشائكة.

إن الكتابة المسرحية فى الستينيات كانت (مكتبية) يغلب عليها الكلام والحوار المطول والخطابة والمباشرة والمونولوجات، أما عند رومان (خاصة فى هذا النص) فان الأمر قد زاد عن حده، الى درجة جعل العصفورى يتدخل كل هذا التدخل النازف.

والمفارقة هنا أن العصفورى كان يبحث فى النص عن عناصر لاقامة عرض جميل وممتع يدين الدكتاتور، الأمر الذى لو تحقق لكان نجاحا كبيرا، بينما كان رومان يدبج الأفكار والوقائع الصغيرة والكبيرة والذكريات والشروح والايضاحات والاستطرادات ويسردها كى يثبت نفس المقولة، بغض النظر عن احتياجات خشبة المسرح والجمهور، هذا هو جوهر مشكلة هذا العرض .

ولنا أن نعتب على الناقدين د. فاروق عبدالوهاب وحازم شحاته على الاكتفاء بطباعة ونشر أعمال رومان دون التحقيق الدقيق، اللهم الا ملحوظات عابرة، بينما يحتاج النص الى شروح وايضاحات ونقد فى الهوامش أولا بأول، فهذه بعض المهمة النظرية للدراماتورج وليس كلها .

كان على المخرج أن يحتفظ لنا بماضى حمدى السياسى ويفسره، ويفسر صمته عنه كى يفسر عناده فى سياق العمل بعد ذلك.. بل خروجه عن هذا الصمت، وأن يفسر لنا سبب تبنيه لطفلة بدلا من أن ينجب من زوجته ، إن المخرج لم يقل ولم يوح لنا أن نقول، وكان عليه أيضا أن يفسر لنا سبب اخفاء زوج الراقصة (معروف ان الزوج فى حياة اى راقصة هو شخصية هامشية ولكننا هنا أمام

مسببات وضرورات (درامية) كذلك لم يفسر لنا أسباب وحدة ونوحش وضعف علي، وكذا دوافع السلطة لتصفيته، وكان على المخرج أن يهتم بتصوير عالم الموظفين بدقة ودرامية وجاذبية (ويوجد فى ثنايا النص ما يتيح ذلك) وان يهتم ايضا بتصوير اسرة حمدى وجمالات (ويوجد ايضا فى ثنايا النص ما يتيح ذلك) وأن يهتم بتصوير عالم الشارع بدقة ودلالة بدلا من منظر ذلك المخبر الساذج، أو بمشاهد أضافها تتعلق باعتقال د. لويس عوض (وقد اعتقل فى مارس ١٩٥٩ وليس فى غضون عام ٧٠، ثم اعتقل عام ٨١) أو ترديد غير مبرر لأغنية (مصر يابهية) .. وفى حين يلتزم المخرج بالوقائع التاريخية اليومية، نجده يخرج عنها، وحين يخرج فانه يلتزم بها!!

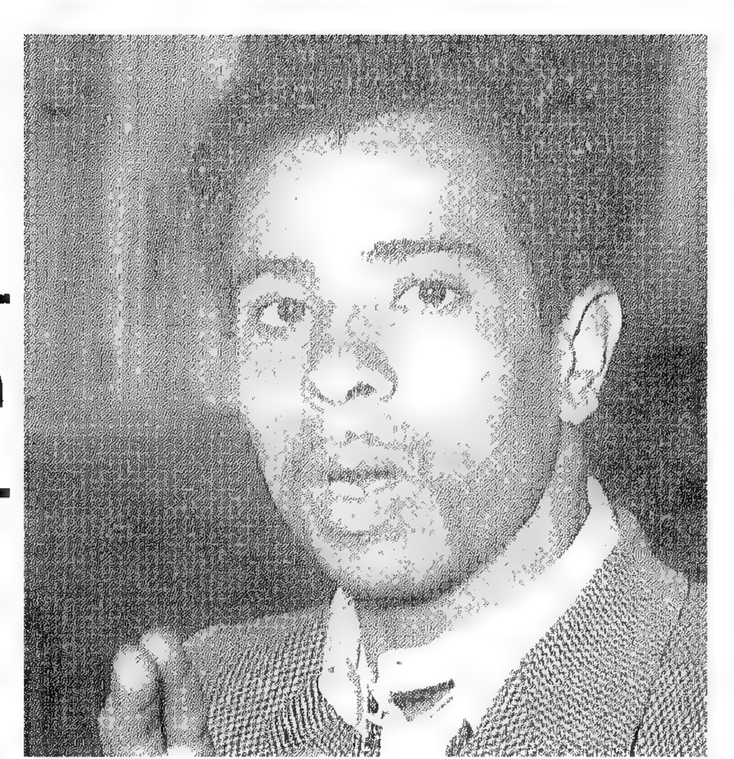
لقد أصابنا بخلط لم نكن بحاجة اليه، ففى حين نعتقد أن المسرحية (تاريخية) نجد انها أصبحت (حالة من الجنون والرعب والرغبة فى التحرر) وكنت أتمنى أن تكون الثانية .

وبهذه المناسبة أذكر للعصفورى تفسيره الصحيح لمسرحية (الجرّة) للايطالى بيرانديللو : إن الصانع الماهر - لفرط مهارته - قد حبس نفسه داخل الجرة رغم نجاحه فى لأم صدعها، ولكننا هنا امام جرار وتصدعات وأحيانا ما نشهد العصفورى حبيسا بها، وأحيانا ما نشهده بعيدا عنها تماما .

ولعل السبب فى ذلك أن العصفورى كان دكتاتورا هو الآخر، وذلك إبان كفاحه للدكتاتورية، فلم يستشر أحدا، بل أخذ يحلم وحده بالمسرحية، ويعدها وحده، ويضع موسيقاها وحده، ويتخيل أثاثها ومناظرها وملابسها وحده، ويختار ممثليها وحده، ويدير بروفاتها وحده وعلى الجميع الاستجابة والتنفيذ، حتى ناله الارهاق والضجر.. بل والألم. ولكن عليه ان يتذكر قول قائل أيضا : ماخاب من استشار .

سيبقى من عمل العصفورى هذا لمحاته الجميلة اللامعة وحسه الفنى الرفيع وغرضه النبيل ، رغم تقول الذين لا يعلمون بأن هذا عمل فاته الوقت!!

وسوف تذهب الفجاجة والمباشرة والتبريرات والحسابات والمظاهرات، واضطراب التساوق، والتزيدات، والمناورات، سيبقى هذا العرض كمسيرته الفنية المثمرة الطويلة منذ ١٩٦٣ عملا يضاف الى رصيده الناصع من كفاحه بالفن من أجل الحرية.



بين دراما الحياة

بين سعيد مهران

«الحب.. إنه الفطنة وقد قتلتها الحماقة»
شكسبير

«وما الدنيا إلا مسرح كبير» عبارة شكسبير الخالد والتى انتحلها راحلنا الكبير يوسف بك وهبى استخلاصا رائعا سديدا، فالحياة بمحنها وبأهوالها تتجاوز فى كثير من الأحيان أى خيال أو تأليف، والدراما كما يقولون على قارعة الطريق، لا تنتظر سوى عين الفنان القدير، لتنفذ الى أعماق أعماقها، ويشحنها الفنان بالضرورة الباطنية العميقة، اللازمة لكل عمل فنى أصيل، لذا كانت الحياة ولاتزال، بمثابة المعين الذى لا ينضب للأعمال الأدبية والفنية. ورائعة أديبنا الكبير نجيب محفوظ اللص والكلاب، مادتها الخام مأخوذة من حياة الشاب المصرى الصعيدى محمود أمين سليمان «١٩٢٨ - ١٩٦٠»، ذلك الشاب الذى ألهبت رصاصاته الطائشة وحياته المثيرة ومصرعه الدامى فى صحراء حلوان، خيال أديبنا الكبير فأبدع اللص والكلاب، ومن يطلع على حياة محمود أمين سليمان، سيجد أن حياته ومصرعه أكثر إثارة وشحنا وثراء من حياة سعيد مهران، فإذا كان نجيب محفوظ هو مبدع اللص والكلاب، فالحياة بكل ثرائها وصخبها وعفويتها، هى مبدعة تراجيديا محمود أمين سليمان.

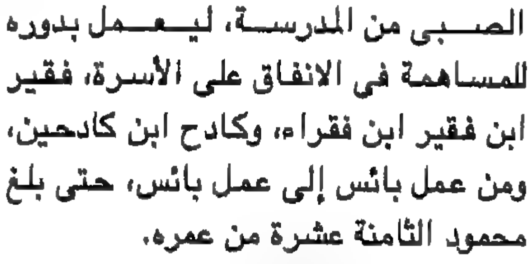
الزمان مطلع القرن العشرين، المكان بر الشام، البطل أمين سليمان العامل المصرى الفقير، لا بطولة ولا تراجيديا ولا اثارة، صعيدى فقير لفظته أرض الصعيد القاسية إلى بر الشام، بحثا عن لقمة عيش مغموسة فى الهوان والشقاء، تلطيم وغربة من مدينة إلى أخرى، حتى استقر به مطاف التلطيم فى بيروت والمهنة عربجى حنطور، وفى عام ٢٨ يرزق عربجى الحنطور بمحمود أكبر الأبناء، لا شىء خارج عن المألوف، الأب الفقير الكثير العيال، الذى يضطر لإخراج



ودراما
يب محفوظ

ومحمود أمين سليمان

بقلم :
د. فهمى عبدالسلام



الصبى من المدرسة، ليعمل بدوره للمساهمة فى الانفاق على الأسرة، فقير ابن فقير ابن فقراء، وكادح ابن كادحين، ومن عمل بائس إلى عمل بائس، حتى بلغ محمود الثامنة عشرة من عمره.

فى عام ٤٦ كان محمود قد بلغ الثامنة عشرة من عمره، وكانت العصابات الصهيونية قد أشعلت المنطقة حقدا وقتلا، وشاء القدر أن تقتحم تلك الأحداث السياسية العاصفة حياة الأسرة الصعيدية، كان خال محمود يعمل فى معرض سيارات فى حيفا، وذات صباح استولت العصابات الصهيونية على حيفا، وبوحشيتهم المعروفة قاموا بطرد العرب وترويعهم، ومنهم خال محمود، وكان ذلك الخال قد تزوج من يهودية عربية تدعى «وداد» ، ولم تكتف العصابات الصهيونية بطرد الخال، لكنها قامت بوضع وداد فى السجن، بإعتبارها خائنة، فلم يجد الخال أمامه سوى الذهاب الى بيروت، وقد فقد بيته وعمله وزوجته وداد التى كان يحبها ، الجميل أن محمود تأثر لأحزان خاله المطرود المهان، فعقد العزم على أن يعيد وداد إلى خاله ، مغامرة كبيرة قام بها، تسلل إلى فلسطين ثم إلى حيفا، واستطاع أن يعلم أن وداد مسجونة في سجن حيفا، وخطط حتى تمكن من دخول سجن النساء وأن يأخذ وداد ويعود بها إلى فلسطين. هذه المغامرة الهائلة كانت نقطة تحول فى حياة محمود، فقد لفتت أنظار فوزى القاووجى قائد جيش الإنقاذ العربى فى لبنان، وقرر القاووجى أن يضم

محمود إلى الميليشيات المسلحة بعد تدريبه على السلاح، وتؤكد المصادر أن هذا الفتى الباسل قام بالعديد من العمليات الجريئة الناجحة ضد العدو الصهيوني في فلسطين، السؤال الآن هو عن كيفية التحول من البطولة إلى الجريمة، الإجابة هي أن الحرب كانت قد وضعت أوزارها عام ٤٨ بالكارثة المعروفة ، وتم حل الميليشيات المسلحة، ذهبت الحرب مبدعة الأمجاد والبطولات، وجاء السلم برخاوته ويلزوجته وبقبضته القاسية على الفقراء والقليلي الحيلة، وجد بطل الحرب نفسه يعود إلى قاع السلم الاجتماعي من جديد، إلى الفقر والعوز، وأضطر للعمل كحارس خاص لعدد من الشخصيات اللبنانية البارزة، مثل رشيد كرامي وعبدالله اليافي.

الوجه الآخر

أغلب الظن أن الوظيفة الجديدة أتاحت لمحمود أن يرى بعينيه ثراء الكبار الفاحش، وأن يطلع على قصورهم ونسائهم ومجوهراتهم وبذخهم . وأن يكتشف أن هذا الثراء هو الوجه الآخر لفقره وفقر ذويه، وكانت الحياة قد لقنته درسها الخالد، أن الحقوق لا يتم الحصول عليها إلا عنوة وأن الحياة لن تمنحه حقه في الحياة الكريمة إلا بإنتزاع هذا الحق من الدولة والمجتمع والطبقية الظالمة له ولأهله بلا ذنب وبلا جريرة، فكان قرار الجريمة ، والسطو على قصور الأثرياء . يخفف بها عنهم ما يثقلهم من مجوهرات ونقود وأوزار، ولم يكن محمود لصا عاديا جاهلا، فلم يحمل في سرقاته سلاحا ولم يطلق طلقة واحدة، فلم تكن أدوات الإنتاج بلغة الماركسية عنده، سوى عدد من المفكات وبطاربة، وكان جسده الرياضي الضئيل خير عون له في مهنته الجديدة الخطرة، فالدخول من النوافذ والشرفات، ولديه من المرونة وخفة الحركة، ما يجعله قادرا على تسلق المواسير والجدران والقفز من سطح إلى آخر، حتى الحوائط الملساء لم تكن لتقف في طريقه، وأتقن محمود مهنته الجديدة إتقانا مدهشا، والإتقان هو الإتقان، حتى ولو في السرقة، وقام محمود بالعديد من السرقات المتقنة التي تشبه الجراحات الدقيقة التي يجريها جراح ماهر بدون قطرة دم واحدة، والزبائن من وزن رشيد كرامي وكميل شمعون.. لكن ولأن لكل جواد كبوة، سقط محمود في قبضة الشرطة اللبنانية، وحكم عليه بالسجن ٤ سنوات، خرج بعدها من بوابة السجن إلى المطار، ليهبط أرض مصر لأول مرة في حياته عام ٥٨.

ولم يضيع لص القصور وقته، كما سرق قصور الأثرياء في لبنان، قرر أن يواصل مهنته الخطرة في مصر، وكانت الأسرة قد سبقته واستقرت بالاسكندرية، وبدأ نشاطه بالسطو على القصور ، وحيدا بلا شريك حتى لا يطلع أحد على أسراره، أدواته البطارية والمفكات، سرقات هائلة لنجوم وأثرياء المجتمع إرتكبها، قصور رجال الثورة وقصور رجال قضت عليهم الثورة، قصر النحاس باشا وفيللا المقدم عبدالقادر عيد مدير مكتب الرجل الثاني في مصر عبدالحكيم عامر، وكرمة ابن هانيء لأمير الشعراء، سلسلة طويلة من

السرقات البارعة لقصور المليونير بولفارا والمليونير سباهى وعبدالحميد عزام أمين عام الجامعة العربية وفيللا كوكب الشرق.. وغيرهم.

وجرت النقود بين يدى صاحبنا، وراح ينتقم من الفقر الدكر الذى آذله وأذل أهله فعاش عيشة الملوك، لاينزل إلا فى أفخر الفنادق ولا يستأجر إلا الأجنحة، عاش محمود حياة أشبه بالقصة المعروفة دكتور جيكل ومستر هايد، فهو نهارا أحد وجهاء المجتمع السكندرى، محمود بك رجل المال والأعمال، صاحب دار الدعاية والنشر والإعلان وصاحب معرض الموبيليا وسكرتارية وإدارة حسابات وإدارة قانونية، فإذا ما جاء المساء، تحول محمود بك إلى لص القصور، يرتدى الحذاء الكاوتشوك ويحمل بطاريته ومفكاته، ويقفز الأسوار ويتسلق المواسير، منفذا جراحاته الاجتماعية الدقيقة.

قديما قال شيشرون «فتش عن المرأة»، كان من الممكن أن تستمر حياة صاحبنا على هذا النحو المدهش، لولا امرأة طلعت له فى حياته فقلبتها رأسا على عقب، لقد عرف محمود عشرات النساء ولم يتزوج سوى ثلاث مرات، تزوج الأولى والثانية، وفى الثالثة كانت نهايته، كانت الثالثة هى نعيمة بنت بحرى، الفتاة السكندرية الشعبية الأميل إلى القصر والبدانة، العاملة الفقيرة فى مشغل ما لمساعدة أهلها الفقراء، رآها محمود فراقت له وخطبها وتزوجها والأهم من ذلك أنه أحبها. وكما يقول شكسبير العظيم أن الحب هو الفطنة، وقد قتلتها الحماقة. فى الحقيقة أن المرء تصيبه الدهشة حينما يتأمل أن هذا الذكاء الفذ وذلك القلب الجسور الذى لم تقف الأسوار أو الشرطة دون تحقيق إرادته، يقع فى حب مشئوم لفتاة بدينة جاحظة العينين، لعبت به بنت بحرى وجعلته يحترق بالغيرة عليها، وحتى ندرك مدى هوس اللص العاشق بنعيمة، أنه وجد نفسه يختبيء تحت سرير الزوجية، كي يتأكد بنفسه كما أقنعته نعيمة، أن والده يراودها عن نفسها.

كان دخول نعيمة إلى حياة لص القصور وغيرته الهائلة عليها تحولا حاسما فى حياته، فالذى حدث أن لص القصور كان قد تم القبض عليه بتهمة سرقة فيللا أم كلثوم، واستطاع بذكائه الحاد وبقدرته الخارقة على قراءة البشر، تمكن من الهروب من السجن، وبدأ يتردد على مكاتب المحامين ليتولى أحدهم الدفاع عنه. وكان وكيل النيابة الذى حقق معه هو طلعت حماد الوزير الشهير فى حكومة الجنزورى، واستطاع المحامى السكندرى الشاب الحصول على البراءة، وتوطدت بين المحامى واللص صداقة عائلية، وانضم إليهما مهندس كيميائى شاب صديق المحامى وراح لص القصور ينفق ببذخ على صديقيه ويجزل لهما العطاء فى أريحية وسخاء.

قتيل مجهول

فجأة وجد محمود نفسه مقبوضا عليه بتهمة السطو على قصر من القصور، وخلال فترة التحقيق فوجيء صاحبنا بالعديد من البلاغات تنهال على النيابة، عن سرقات كانت كلها قد تم تقييدها ضد

مجهول. وتحتوى على أدلة دافعة، وبها تفاصيل لم يطلع عليها أحد سوى نعيمة والمحامى، وامتنعت نعيمة عن زيارته، وأشتعلت النيران فى قلب اللص العاشق المخدوع، ولم يكن بالصعب ان يستنتج أن نعيمة خانته ، فمن له مصلحة فى دخوله السجن فى جرائم سيدان بها، وستحكم عليه المحكمة بعشرات السنين، وترامت إليه الأخبار عن علاقة آثمة بين الزوجة الخائنة والصديق النذل، لقد خططا أن يودعاه فى السجن، أن يزيحاه عن المسرح، وأن يخلو لهما الجو، سيتزوجان وسوف يتمتعان بثروته الطائلة التى تركها عند نعيمة، أحبهما محمود وأخلص لهما وأغدق عليهما، ولم يكن الجزاء سوى الخيانة بوجهها الكالح، ولأن الخيانة حتى بين اللصوص هى الخيانة، لا يملك المرء إلا التعاطف مع اللص العاشق الذى ضاع فى العشق والخيانة . كان الحقد الأسود يأكله وهو قابع داخل الزنزانة، وراح يتخيلهما ينعمان بنقوده، ويشيدان سعادتهما الآثمة على أشلائه، ويرقصان فوق جثته المثخنة بجراح الخيانة، ولم يكن هناك شىء قادر على إطفاء النيران التى تنهش روحه وعقله وقلبه ، سوى دماء الخونة.

وفى السجن تظاهر اللص العاشق المخدوع بأنه رضى بحكم القدر، وكف عن إطلاق التهديدات بقتل نعيمة والمحامى، وراح يدبر فى هدوء للانتقام، لابد من الهروب أولا، وذات صباح فوجىء الحراس باللص يبتلع عددا من أمواس الحلاقة والمسامير معلنا أنه ينتحر يأسا، قامر محمود بحياته كى يتم نقله الى المستشفى، وقد كان. فتم نقله إلى القصر العينى، وأجرت له عملية جراحية وتم إنقاذه ، وراح يقضى فترة النقاهة، وأثناء تلك الفترة أخرج محمود حافظة نقوده وهو جالس على فراشه، وهو يعلم أن الحراس يراقبونه ونظاهر محمود بأنه غير منتبه إليهم، وراح يعد النقود التى تحويها المحفظة بصوت مسموع للحراس. عشرة عشرون ثلاثون.. حتى وصل العد إلى عدة مئات من الجنيهات، ثم وضع المحفظة بهدوء تحت الوسادة، وكان قد تأكد أن الحراس يراقبونه بكل دقة، وبعد عدة دقائق طلب منهم الذهاب إلى دورة المياه ليقضى حاجته، ولم ينس أن ينبه الحراس إلى الانتباه للمحفظة لأنه وضعها تحت الوسادة. هذا ما كان يتمناه الحراس، وذهب اللص إلى دورة المياه، واندفع الحراس إلى المحفظة، والمدهش أن المساكين لم يجدوا بها سوى عدة جنيهات أما بقية الرزمة فلم تكن سوى أوراق عادية، وحينما اندفع الحراس الى دورة المياه، كان اللص قد لاذ بالفرار.

فى سفر أوزوالد اشبنجلر الضخم يفرق المؤلف العظيم بين البطل والقديس، فالبطولة هى احتقار الموت والاستهانة به. أما القداسة فهى احتقار الحياة والاستخفاف بها وبمتعها. وهذه الواقعة تؤكد بطولة صاحبنا، فقد جازف بالحياة حينما ابتلع الأمواس. فإذا ما انتهى دور الشجاعة والبطولة، جاء دور الذكاء الحاد والقدرة الخارقة على قراءة الناس. لقد خدع اللص الحراس بذكاء حاد، مدركا أن جنيهات المحفظة لابد أن تسيل لعاب جنود فقراء، الحقيقة أن حياة محمود أمين سليمان المثيرة والغريبة تدل على موهبة كبيرة، موهبة هى خليط من الدهاء الشديد

والذكاء الحاد الخارق والقدرة الهائلة على قراءة البشر ورباطة الجأش والقلب الجسور الذى لا يجفل ولا يتردد والقدرة الهائلة على الكتمان بالاضافة الى مروءة ما وشهامة اثبتها كثير من الوقائع، كل تلك المواهب والمؤهلات كانت تؤهل لص القصور لدور أكبر على مسرح الحياة، هذه التركيبة الثرية المتعددة المواهب وما أكثرها فى بلادنا، لو تم توجيهها التوجه المناسب لقدراتها، لكسبت بلادنا رأفت هجان جديد .

... مسيرة دامية مشاها اللص العاشق المخدوع ، بدأها بعد الخروج من القصر العينى مباشرة فتوجه على الفور الى مواسير شقة بالدقى. ومن المواسير الى قلب الشقة، وأخذ اللص بغيته. فلم تكن سوى طبنجة ميرى وبدلة شرطة رسمية ، وكتب اللص إلى الضابط صاحب الشقة اعتذارا رقيقا بأنه فى سبيله الى تنفيذ مهمة ولهذا فقد استعار البدلة والطبنجة، ويعد بإعادتهما إليه بعد انتهاء المهمة ومعهما هدية من ثلاث بدل فاخرة وطاقم أقلام ذهبى. واستنتجت الشرطة أن اللص فى طريقه إلى نعيمة بالاسكندرية ، وتم اخطار نعيمة والمحامى بأن غريمهما مطلق السراح، فغادرت نعيمة مسكنها واختبأت فى شقة أحد أقاربها فى منطقة بحري، واستطاع اللص العاشق أن يعرف مخبأ نعيمة، وتم تشديد الحراسة عليها، وانتظر اللص حتى دخل شهر رمضان، واستغل تراخى الحراسة ساعة الإفطار، وأثناء وقوف نعيمة بالمطبخ، فوجئت به يدخل إليها من نافذة المطبخ شاهرا المسدس، كان من المفترض أن يقتلها حتى يريح ويستريح، لكن بدلا من قتلها اذا به بكتم انفاسها كى لا تصرخ، فلاذت بالصمت، وجلست كما أمر، وطلب منها أن تحضر طفليه وراح يدعبهما ويعانقهما، وبعد ربع ساعة دخل صاحب الشقة، فاضطر اللص أن يلوذ بالفرار ، السؤال الآن لماذا لم يقتلها والاجابة هى إنه الحب، هل هناك مانع سوى الحب وما يورثه من ضعف مخز حيال الحبيب الخائن، إنه العاشق، والعاشق هو ذلك المتآمر الأبدى ضد ذاته كما يقول داريل، لاذ محمود بالفرار دون أن يشفى غليله .. والدليل على ذلك أنه انتظر عدة أيام حتى تهدأ الأحوال، وعاد ساعة السحور بعد عدة أيام، ولم يدخل من الشباك فقد طرق الباب، ودخل وراح يبحث عن نعيمة فلم يجدها لانها كانت قد غادرت المكان بعد الحادث الاول وحاول صاحب الشقة أن يمسك به. فلم يجد اللص العاش أمامه سوى أن يطلق عليه الرصاصات فى سيقانه. كى يتمكن من الهرب.

الخائن الثانى

لم يكن أمامه سوى الفرار، الفرار الذى يتجدد فى كل لحظة، ومن الأسكندرية إلى القاهرة متنكرا فى هيئة شيخ معمم أو خواجة أجنبى أو بائع بن أو حتى على هيئة امرأة بلدية بالملاية اللف والبرقع، إذا كانت نعيمة أفلتت هذه المرة ، هناك الخائن الثانى. الصديق النذل، وخلال ٤٨ ساعة ارتكب محمود ثلاث جرائم جديدة، أولها تثبت أن العبث هو أصل هذه الحياة، كان لص القصور قد ارتدى بدلة ضابط شرطة، وكان يعلم أن

المحامي الخائن له صديق بحي المنيل يختبيء عنده، ولتأمين نفسه راح محمود يلف حول البيت حتى يتأكد أنه غير مراقب، وتصادف أن مر أمام نقطة شرطة المنيل.. فأسرع الخطى وهو يلاحظ أن رجلين يرتديان الثياب البلدية يسرعان كي يلحقا به، أسرع محمود فوجدهما يسرعان خلفه، واستنتج صاحبنا أنهما مخبران سيقبضان عليه، فالتفت اليهما وقد عزم أمره، أن يشغلهما بأن يأمرهما بإخراج البطاقات الشخصية، وما أن شرعا في إخراج الأوراق وانشغلا بهذا ، حتى عاجلهما برصاصتين في ساقيهما ولاذ بالفرار، العبث أن هذين المسكينين لم يكونا من الشرطة السرية أو العلنية ، كان احدهما طباخاً والآخر سفرجياً، وكانا مثل محمود متهمين بالسرقة، وكانا مظلومين في الاتهام. لقد اتهمتهما السيدة التي كانا يعملان لديها من باب التأديب ليس أكثر ، وكانا مقبوضاً عليهما في النقطة، وعندما تأخر الليل راحا يستعطفان الضابط بالقسم أن يخلي سبيلهما حتى الصباح، وسيعودان من تلقاء نفسيهما، فوافق الضابط ، وخرجا من باب النقطة وظن أحدهما أن هذا الضابط الذي يسير من ضباط النقطة، فقال أحدهما للآخر أن هذا الضابط الذي يحث الخطى هو فلان بك صديق مخدومهما السابق، وعقدا عزمهما على أن يلحقا به كي يطلبا منه أن يتوسط لهما في مسألة تبرئتهما من التهمة الظالمة!! وشعرا بالدهشة الشديدة عندما أطلق عليهما فلان بك الرصاص. الجريمة الثالثة وقعت في المنيل بعد ٢٤ ساعة من الأولى، ذهب اللص العاشق السيء الحظ إلى شقة صديق المحامي، وطرق على الشباك ساعة الإفطار، فاستنجد صاحب الشقة بالبواب مهدي ، الذي كانت رأسه ألف سيف أو حذاء أن يمسك باللص، وراح محمود يحذر البواب الأحمق قائلا سيبني يا مهدي سيبني يا مهدي مالكش دعوة أنت، إلا أن المهدي البواب زاد تشبثه بمحمود، فأطلق الرصاص كي يتخلص منه، فأتت الرصاصة في بطن المهدي. والغريب أن صاحب الشقة لم ينجد البواب الذي راح ضحية حماقته وسوء حظه.

... أربع جرائم خلال أسبوع، قتل خلالها البواب المهدي، وأصيب الطباخ والسفرجي بالرصاص في سيقانهما، أما الرابع فكان الكيميائي ، الذي فوجيء بالصديق القديم يقتحم الشقة ساعة الإفطار، وامعانا في التعذيب جلس محمود على المائدة والطبنجة في يده وراح يتناول طعام الافطار باليد الاخرى، وأكل في هدوء ، وبعد أن انتهى قال له محمود «لن اقتلك.. لكنني سأتركك لا تصلح للنساء بقية عمرك» ، وأطلق لص القصور رصاصة ما بين فخذى الكيميائي ولاذ بالفرار.

السفاح

انقلبت مصر رأسا على عقب، وهاجت الصحافة على اللص المجنون الذي يضرب الناس بالرصاص بلا سبب. واطلقت عليه لقب السفاح، واعتبرت الدولة الناصرية أن السفاح قد سدد لها طعنة نجلاء أصابت هيبتها، واصبح اسم السفاح على كل لسان، وفي كل جريدة وفي الاذاعة وفي كل مكان ليلا ونهارا، وتم استنفار قوات الشرطة استنفارا اقصى. كمائن ودوريات وتحريات ومرشدين وعقداء ولواءات واجتماعات ، وأعلنت الدولة عن ألف جنيه (رقم فلكي بحسابات ذلك الزمان) ثمنا

لرقبة اللص، حيا أو ميتا، وانطلقت الكلاب.

خلال تلك التراجيديا العبثية الحزينة كانت مطاردة السفاح الشغل الشاغل لمصر آنذاك، وقعت حوادث فكاهية ومنها على سبيل المثال اثناء رقص احدى الفرق الشعبية بالاسكندرية على مسرح ما، بدأت همسات تتم بين المشاهدين وبين الراقصين ان السفاح فى صفوف الجمهور، ولم يمر وقت طويل حتى انهالت الجماهير بالضرب فى السفاح، وبعد فوات الاوان وبينما السفاح المزعوم كان قد اصبح «سطيحة» من الضرب اكتشفوا أن المضروب مواطن صالح جدا جدا، وأنه جاء مثلهم ليشاهد الرقص لا اكثر.. وفى مجلس تحرير جريدة الاخبار.

والاجمل ان مصطفى امين طلب من المحررين القيام بتمثيل جنازة حية، تدور وتلف فى مقابر الامام الشافعى حيث يختبىء السفاح، وقام مصطفى امين بتوزيع الادوار، أن المحررة خديجة بمقالاتها النكدية ستقوم بدور الندابة، وأن المحرر الفلانى سيقوم بسحب الصحف الاستاذ محمود عوض الذى سيقوم بدور مقرىء كفيف ، فإذا ما سارت الجنازة فى مقابر الامام سينضم اليها السفاح للاختباء ، فيقوم مجلس التحرير بالقبض عليه، الاجمل ان الجنازة الوهمية تم القيام بها، وراحت تلف مقابر الامام الشافعى، ولم ينضم لها السفاح، لانه كان فى منطقة الجيزة ، وابلغت تحية كاريوكا الشرطة والصحافة، ان السفاح اتصل بها فى الواحدة بعد منتصف الليل يطلب تجهيز مبلغا ماليا، وانه سوف يحضر ليأخذه فى الثالثة صباحا، واعلنت تحية كاريوكا انها تجلس فى انتظار السفاح كى تقبض عليه بنفسها.

داخل المغارة

خلال تلك الشهور ، انطلق الكثير من الرصاصات ، أصابت الأبرياء ، وظل الخونة ينعمون بالحياة والكلاب المسعورة تنبح اللص العاثر الحظ ، ولم يكن من الممكن أن يستمر هذا الوضع طويلا ، أن تطارد أجهزة دولة شخصاً مهما كان ذكاؤه وألا يتم العثور عليه ، إنها عجلة المصير تتدحرج كى تصل إلى الخاتمة ، الأجمل أن خلال هذه المطاردات كلها ، لم يتوقف اللص عن مهنته الخطرة والسطو على قصور الأغنياء . لقد تم كشف أعوان اللص ، أبناء عمومته من أبو طشت محافظة قنا ، وضيقت الشرطة عليه الخناق ، ووصل إلى صحراء حلوان ، وتعرف عليه أحد الجيران فأبلغ الشرطة طمعاً فى المكافأة ، ووجد محمود نفسه مضطراً للإختفاء داخل مغارة ، ولم يمر وقت طويل حتى ظهرت قوات الشرطة . كانت المغارة تبيح لمن بداخلها أن يطلق الرصاص ، وإذا ما أطلقت عليه الشرطة الرصاص من الخارج فلن يصل إليه ، ولم يكن أمام القوات سوى الاقتحام .

لم يكن أمام محمود سوى حل من أثنين ، أحدهما مر ، الأول أن يسلم نفسه لينتظر حبل المشنقة ، الثانى أن يواجه الشرطة ، واختار المواجهة . ولم تلجأ الشرطة إلى الاقتحام الخطر الذى سيكلفها الأرواح ، فلجأوا إلى الحيلة ، إقناعه بأن يسلم نفسه . وكان الصاغ (رائد) فاروق عبد الوهاب من أفراد القوة، وكان قد حقق يوماً مع السفاح البائس ، وكان الصاغ قد عامله معاملة طيبة ، طلب منه الصاغ أن يسلم نفسه ، ودار الحوار

التالى :

- سلم نفسك يا محمود

رد محمود من داخل المغارة :

- أنا لى طلب لو حققتوهوللى حاسلم نفسى

- عايز إيه يا محمود

- أشوف مراتى ..

- سلم نفسك وحانجيبهالك ..

- هاتوهــا الأول وبعــدين أسـلم نفسى ..

كان يريد أن يظفر بها قبل أن يموت ، وعندما علم أن لا فائدة ، سمع القريبون من فتحة المغارة صوت اللص العاشق ينادى على الصاغ فاروق ، وتجدد النداء ، وقبل أن يجيب الصاغ ، صاح اللص بآخر كلماته فى الدنيا ، فقد سمع القريبون محمود يصيح - الوداع يا فاروق .. وبعدها إنطلقت رصاصة ظنت القوات أن الأمر خدعة ، وفوراً قامت القوات بإقتحام المغارة فى تشكيل جهنمى من كلاب متوحشة وجنود بالرشاشات وبالقنابل المسيلة للدموع وبضابطين ، واندفعت الكلاب وامتلأت المغارة بالغازات ، ودخل الضابطان وسمع من الخارج رخات الرصاص وأزيزه فى الصخور ، وبعد دقيقتين خرج الضابط عاطف ممسكاً بالرشاش وهو يهلل قتلته .. قتلته ، وأخذت له الأحاديث الصحفية عن استهانته بالموت، والرصاصة التى عاجله بها السفاح وكيف زاغ منها ، وكيف تحرك اللص هارباً ، وكيف ناوله أربع رصاصات وكيف وكيف واثبت التقرير الشرعى أن محمود مات برصاصة أطلقها على رأسه ..

فى اليوم التالى نشرت جريدة الأخبار (١٠ ابريل ١٩٦٠) المانشيت كالآتى :

مصرع السفاح . وفى السطر التالى عبد الناصر فى باكستان ، كان من يقرأ الخبر يقرأه كالتالى «مصرع السفاح عبد الناصر فى باكستان» ، لدرجة أن شقيق عبد الناصر إتصل ملهوفاً ليتأكد من صحة الخبر . هذا المانشيت أوغر صدر عبد الناصر على مصطفى أمين ، وفوجىء مصطفى أمين بالأستاذ محمد حسنين هيكل الذى كان مرافقاً لعبد الناصر فى باكستان ، برسالة يحملها هيكل من عبد الناصر إلى مصطفى أمين ، وهى أن عبد الناصر يقول لك أن مصرع السفاح لن يكون في باكستان لكنه سيحدث فى القاهرة ، هذا ما حدث ١٠ ابرايل ١٩٦٠، وفى ٢٤ ابريل (بعد اسبوعين) صدرت القرارات التى عرفت آنذاك بتنظيم الصحافة ، التى هى تأميم للصحف ، وتم نقل ملكية الأخبار إلى الاتحاد الاشتراكى ، بسبب مصرع السفاح كما يذكر مصطفى أمين .

فن البناء

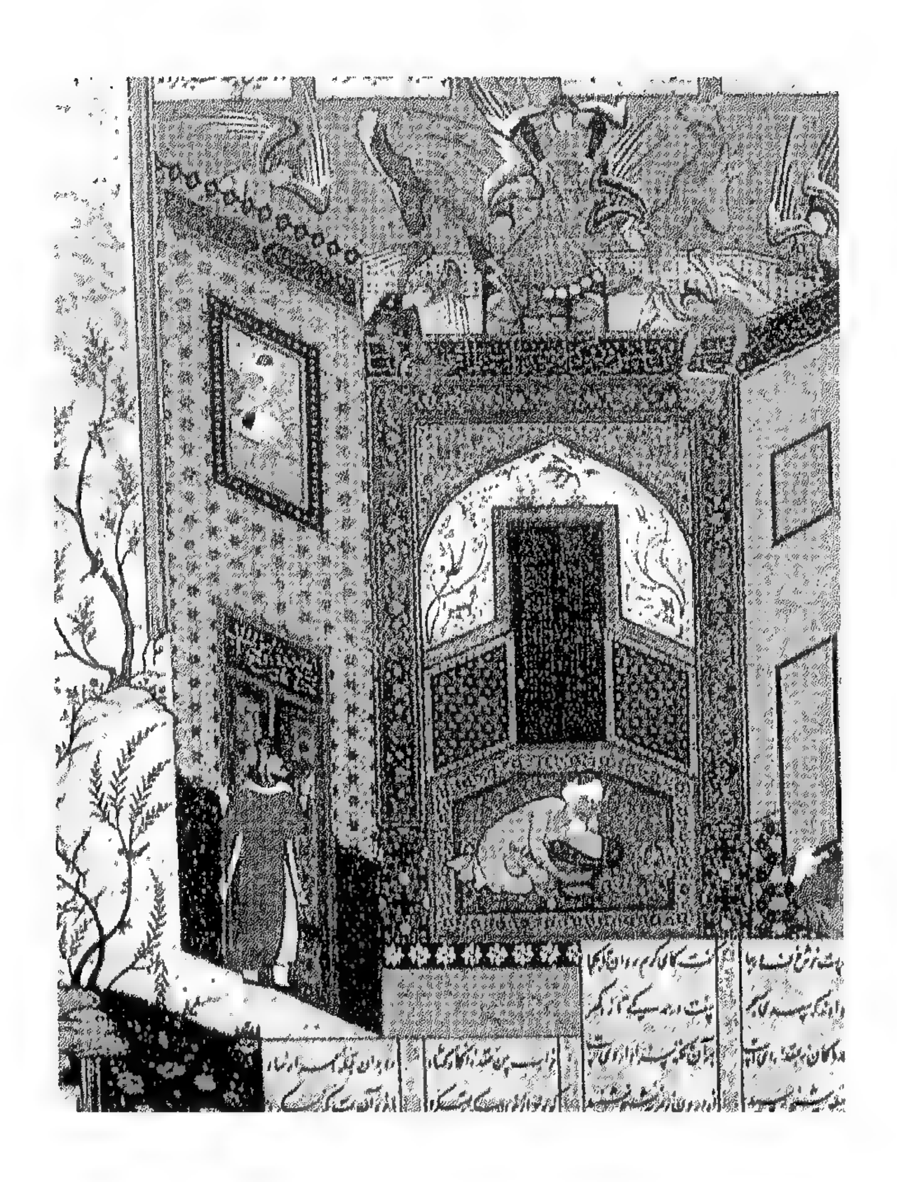
هذه المادة الهائلة المثيرة كانت أمام مبدعنا الكبير نجيب محفوظ ، فماذا أخذ منها وماذا ترك ولأى غرض . بداية الرواية هى فن البناء كما عبر أستاذنا الجليل يحيى حقى ، والبناء هو أولاً وأخيراً إطار ، فلا بناء بلا أطر ، وكان على الفنان أن يبقى على جوهر المأساة وأن يتنازل عن الإثارة كى يوغل فى العمق ، العمق فى هذه الفاجعة هو الأقدار وظلمها ، الظلم الطبقى المهين أولاً ثم ظلم الخونة ، ثم الحظ العاثر فى إصابة الأبرياء ونجاة الخونة ، والمنولوج الداخلى هو شكوى الأنا المتوحدة بآلامها ، وقوة هاملت العبقرية فى منولوجاته ، فلجأ أديبنا الكبير إلى المنولوج ، وأثبت أستاذية

حقيقية بقدرته الهائلة على استبطان الشخصية الدرامية وتقمص أحزانها ، والمقياس فى قدرة الروائى الذى يلجأ إلى المنولوج ، فى نجاح الكاتب أن يجعل القارىء يتوحد مع أحزان البطل ، وأن يراها القارىء معاناة شجية وأحزاناً نبيلة ، وأن يجعلنا نحن القراء نتمنى أن نكابد هذه الأحزان النبيلة نسعد بهذا السمو الروحى الآخاذ ، إذا ما طبقنا هذا على مونولوجات سعيد مهران ، لوجدنا أن الأستاذ وصل إلى ذرى الاكتمال ، فى وضوح الفكرة وعمقها والقدرة الفذة على الصياغة الجزلة الشجية كأنها الشعر المصفي . الموهبة الفذة التى ضاعت فى الجريمة والخيانة .

«من وراء الظهر تبادلت الأعين نظرات مريبة قلقة مضطربة كتيار الشهوة التى يحملها ، كالقطة الزاحفة على بطنها فى هيئة الموت نحو عصفورة سادرة ، وغلبت الإنتهازية ثمالة الحياء والتردد ، فقال عليش سدرة فى ركن عطفة أو ربما فى بيتى «سأدل البوليس عليه لنتخلص منه» ، فسكتت أم البنت ، سكت اللسان الذى طالما قال لى أحبك يا سيد الرجال هكذا وجدت نفسى محصوراً فى عطفة الصيرفى ولم يكن الجن نفسه يستطيع محاصرتى» .

ولا تنقطع مونولوجات سعيد مهران الرائعة ، فيقول وهو فى إنتظاره للمومس نور «وأعجب شىء أننى خدعت به ، وأنا الذكى الذى يخافه الجن الأحمر كنت البطل وكان عابد البطل يحبنى ويتملقنى ويتجنب غضبى ويلتقط فتات العيش من كدى وشطارتى، وآمنت بأننى لو أرسلته مع نبوية إلى الصحراء التى تاه فيها سيدنا موسى لظل يرانى قائماً بينه وبين نبوية فلا يحيد عن الأدب ، وهى كيف تميل إلى الكلب وتعرض عن الأسد ولكن القذارة المركبة فى طبعها قذارة تستحق القتل فى الدنيا والآخرة على شرط ألا يطيش الرصاص الأعمى فيصيب الأبرياء ويعمى عن الأوغاد والسفلة، ويترك قلوباً يمزقها الألم ويحرقها الغضب ويعبث بها الجنون فتنسى كل شىء طيب فى الحياة حتى ليلة الدخلة ولعب الصبيان فى الحارة والحب قبل الفساد ومولد سناء ورؤية وجه سناء لأول مرة وإبتساماتها التى لم أحصها ، وليتنى أحصيتها وسماع بكائها لأول مرة وحملها على الساعدين لأول مرة» .

أبقى نجيب محفوظ على صلب الدراما، وقام برصد خيانات الزوجة والصديق ، ومعهما الخيانة الفكرية للصحفى رؤوف علوان ، الذى تحول من طالب ثورى فقير إلى صاحب «قصر البللور والمرايا» متنكراً لكل ثوريته السابقة. فاللص والكلاب عمل جميل لأستاذ الرواية يعتمد فيه على فن المونولوج الداخلى الهاملتى الرائع ، ولم ير النقد اليسارى فى هذه التحفة سوى أن التمرد الفردى عند البروليتاريا مهما أوتى من قدرات فهو محكوم عليه بالفشل ، هذا التنديد الطبقى يصلح فى الشعارات الثورية ، أما الأدب فهو تجربة روحية وجدانية معقدة مثقلة بحزن الإنسان الكثيف على مظالم الحياة ، أما محمود أمين سليمان صاحب الواقعة ، فهو موهبة فذة من المواهب التى ينبتها شعبنا الطيب ، هذه الموهبة شاء القدر أن يتم إهدارها فى الجريمة والخيانة ، ولو قدر لها أن توظف التوظيف المناسب ، لكان لها شأن آخر .



سعدى الشيرازى وغزلياته

أغانى شيراز

بقلم: محمد ابراهيم أبو سنة

يحتل الشعر الفارسي مكانة خاصة في الأدب العالمي حيث أقبل عدد من كبار الشعراء الغربيين علي ترجمة نماذج من هذا الشعر كان لها دوى عميق وأصداء باهرة في الوجدان الغربى خاصة ترجمة فيتزجرالد لمختارات من شعر عمر الخيام.. وقد ترجم الأستاذ الدكتور إبرهيم الشواربي أستاذ الفارسية مختارات من غزليات حافظ الشيرازى وتمثل الجزء الأول من أغانى شيراز وقدم لهذه الترجمة الدكتور طه حسين.

وقد جمع المترجم بين الشكلين المنظوم والمنثور فى ترجمته لهذه الغزليات فى عبارة مشرقة تتوخى الرصانة والبعد عن التكلف يقول الدكتور طه حسين :

- أقدم الآن هذه الترجمة الجميلة لزهرة الشعر الفارسى .. ديوان حافظ وفى نفسى كثير جدا من الغبطة وكثير جدا من الرضا وكثير جدا من الأمل بل كثير جدا من الثقة، ولكن، ما هى الغزليات بالمفهوم الفنى التى ترجمها الدكتور الشواربى- يقول المترجم :

- والغزل أو الغزلية فى الشعر الفارسى عبارة عن منظومة قصيرة تتراوح بين سبعة أبيات وخمسة عشر غالبا ، وموضوعها الغزل فى أكثر الأحيان ويكون احيانا غرضا آخر من أغراض الشعر ويلتزم الشاعر لقبه الشعرى أو تخلصه كما يقول الفرس والترك فى آخر بيت من الغزل .. إذن فالغزلية بهذا المعنى فى الشعر الفارسى لا تقتصر على شعر الحب أو الغزل فى اللغة العربية .. هو محادثة النساء بهدف التقرب والتودد إليهن .. وهناك فى اللغة العربية التشبيب والنسيب.. فالتشبيب هو غزل يصور أحوال الشاعر مع معشوقته وما وقع بينهما من أمور كاشعار كثير عزة ومجنون ليلى وعمر بن أبى ربيعة وسواهم والنسيب هو غزل يجعله الشاعر مقدمة لما يريد أن يقول من أغراض ، وكأنما يقصد بهذه المقدمة ان يستميل السامع إليه بذكر أحوال المحبوب مع محبه ومغازلة العاشق للمعشوق حتى اذا تنبهت الحواس واستيقظت الأذهان والمدارك دخل الشاعر فى موضوعه مطمئن النفس إلى أنهم يدركون ما يقول . أما حافظ الشيرازى فهو من أشهر شعراء الفرس فى القرن الثامن الهجرى.. واسمه شمس الدين محمد الملقب بلسان الغيب وترجمان

الأسرار. كان أبوه بهاء الدين تاجرا من تجار شيراز وكان الشاعر أصغر ابنائه ولم يلبث والده أن توفي فكفلتـــه أمـــه بالتربية والرعاية الى أن ضاقت بها ذات اليد بعد أن تفرق أبناؤها الآخرون فدفعت بولدها حافظ الي واحد من أهل بلدتها ليتولاه برعايته ، ولكن الرجل ضاق به فهرب الشاعر واشتغل خبازا فكان يستيقظ فى منتصف الليل ليقوم بعمله الى مطلع الفجر ثم يشتغل بالعبادة بعد ذلك الى أن تطلع الشمس فيتوجه الي مدرسة بالقرب منه يتلقى فيها العلم وتحصيل المعارف، وكان يدخر بعض نقوده التي يتقاضاها عن عمله كخباز ليقدمها الى معلمه ، وظل على حاله تلك الى أن حفظ القرآن الكريم حتى لقب بالحافظ وهو اللقب الذى أبقاه لنفسه كشاعر. وحين شب حافظ عن الطوق وبلغ مبلغ الشباب فتنته فتاة اسمها «شاخ نبات» فتعلق بها قلبه ولكنها لم تبادله هذا الحب وأعرضت عنه فاشتد ألمه وتوهجت قصائده ، واختار ضريحا فى شمالى شيراز يعرف بضريح بابا كوهى واختار أن يعتزل الناس فى هذا الضريح ويعكف على العبادة طلبا للسلوى والشفاء من العشق ، ويقال: إنه رأى الامام علي فى المنام يطعمه ويسقيه ويلهمه قصيدة تقول أبياتها « ليلة أمس فى وقت السحر، أعطونى النجاة من الألم والويل، وناولونى ماء الحياة وسط هذه الظلمات من الليل، فأخرجونى عن نفسى بما انبعث من ضياء ذاته.، وناولونى خمرا فى جام يتجلى فيها بصفاته فيا له من السحر مبارك وبالها من ليلة سعيدة ليلة القدر هذه التى منحونى فيها البراءة الجديدة» وبعد الرؤيا تدفق شعره ولانت له معشوقته شاخ نبات ولكنه تذكر قسمه فى الخلوة بأن يكون زاهدا معرضا عن متع الحياة الدنيا.. وبدأ شعر حافظ يجذب إليه أنظار الناس فاعجبوا بهذا الشعر الذى يدور في جوهره حول التصوف والخمر ووصف الأحبة.. وقد اختلف الأدباء حول تأويل أشعاره. فبعضهم رآها غزلا حسيا خالية من الرموز فالحب هو الحب المألوف والخمر هى الخمر العادية والمعشوقة إمرأة من دم ولحم . والبعض الآخر رأى فى هذا الشعر توجها الى الذات الالهية وعند وفاته تردد بعض الرجال فى حضور جنازته الى ان قرأوا بيته الذى يقول فيه :

« لا تؤخر قدمك أو تتردد عند جنازة حافظ.. فهو غريق فى الإثم ولكنه ذاهب الى الجنة»

وعند ذلك آمنوا بأن حافظ مسلم حسن الاسلام فدفن فى «روضة المصلى» وأصبح قبره فى شيراز يعرف باسم الحافظية، وقد توالى الملوك على العناية بضريحه حتى أصبح مزارا . على قبر

حافظ كتبت هذه الغزلية التى يقول فيها الشاعر :

- أين بشرى وصالك حتى أهب من رقادى للقائك.. فأنا طائر القدس أفلت من شباك الدنيا على ندائك. وبحبى لك . لولا إنك دعوتنى الخادم الأمين لصحوت وأنا سيد الأكوان على دعائك/ فيارب ادركتى بغيث من سحب البداية قبلما إذ هبّ حفنة من التراب محرومة من آلائك. وأجلس على قبرى ومعك المطرب والشراب حتى أهب من لحدى طمعا فيك./ راقصا على نغماتك/ ثم قم أيها الصنم الجميل وأرنى قدك وحقة حركاتك فإننى عند ذلك أهب راغبا فى الحياة مصفقا لبهائك/ فان كنت عجوزا فضمنى إلى صدرك وضيق على العناق فاننى في وقت السحر أهب غصن الاهاب من ضمانك/ ثم امنحنى مهلة أراك فيها يوم الممات والرحيل فقد أستطيع كحافظ أن أهب راغبا فى الحياة للقائك . ويقول حافظ الشيرازى فى إحدى غزلياته البديعة:

- الآن يتجدد الشباب مرة أخرى فى البستان فتصل بشرى الورد إلى البلابل الشادية بأعذب الألحان. فيا نسيم الصبا. إذا مررت على شباب الخميلة مرة أخرى فاعرض خدماتنا على السرو والورد والريحان ، وإذا تجلى هذا الطفل المجوسى - ابن بائع الخمر - مثل هذا التجلى جعلت أهدابى من أجله مكنسة الباب ألحان.

فيا من تسحب على القمر صولجانا من العنبر الخالص. لا تجعلنى مضطرب الحال. فإننى دائر الرأس حيران/ ولشد ما أخشى أن يتكلف هؤلاء الذين يسخرون ممن يشرب الثمالة سيتلفون فى نهاية الأمر ما عندهم من إيمان فكن صديقا لرجال الله. فقد كانت فى سفينة نوح حفنة من تراب لم تهتم بأمر الطوفان. واذهب عن هذا المنزل الدائر ولا تجهد نفسك بطلب الخبز فهذه الدنيا البخيلة ذات الكأس السوداء تقتل ضيفها فى نهاية الأمر.

وقل لمن مضجعه فى النهاية قبضتان من تراب

ما حاجتك إلي رفع الايوان إلى الافلاك

وفى الختام يخاطب الشاعر نفسه قائلا:

- أما أنت يا حافظ فاشرب الخمر وعربد

واهنأ بالا. ولكن لا تجعل القرآن مثل الآخرين

شبكة للتزوير والتمويه.

ويمثل هذا الشعر الجميل احتل حافظ الشيرازى مكانته المرموقة فى الأدب العالمي كله.

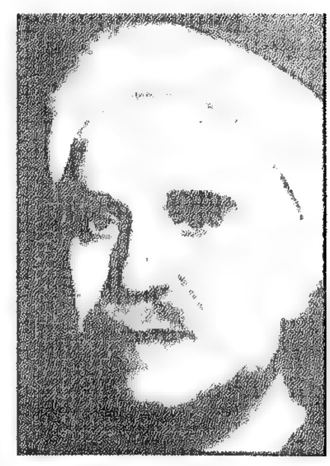
مستخرجات من الجعبة

بقلم : وديع فلسطين

أنبش فى جعبة الذكريات والأوراق القديمة عن صور لم تمحها الذاكرة الخؤون، عساى أستخرج مما حوته مادة تسدّ بعض الثغرات فى الحياة الأدبية المعاصرة، أو تلقى شيئاً من الضوء على وقائع تستحق إماطة اللثام عنها.

الشيخ مصطفى عبدالرازق والجمعية الفلسفية المصرية

فى أوائل عام ١٩٤٥ تلقت الجريدة التى كنت أعمل بها دعوة لحضور حفل يقام فى كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول - وهى الجامعة الوحيدة القائمة فى ذلك الحين- بمناسبة الإعلان عن إنشاء «الجمعية الفلسفية المصرية» بالرياسة الفخرية لسعادة الشيخ مصطفى عبدالرازق باشا «١٨٨٥-١٩٤٧» والرياسة الفعلية للدكتور على عبدالواحد وافى «١٩٠١ - ١٩٩١» وسكرتارية الدكتور عثمان أمين «١٩٠٨ - ١٩٧٨»، وانتدبتنى الجريدة لحضور هذا الحفل. فتوجهت إلى هناك فى الموعد المحدد، وبى هيبة شديدة من الاقتراب من هؤلاء الفلاسفة الكبار الذين ضمتهم جمعية تقتصر على النهوض بالفلسفة والترويج لها على النطاقين الأكاديمى والشعبى. واستشعرت غربة عنيفة وأنا ألج القاعة لأننى لا أعرف أحداً من أساطين الفلسفة الذين احتلوا مقاعدهم حول رئيسهم الفخرى أستاذ الفلسفة الكبير الشيخ مصطفى عبدالرازق باشا، ولكن الذى خفف من وحشتى أننى صادفت بين الحضور محيى الدين رضا، ابن شقيق الشيخ محمد رشيد رضا «١٨٦٥ - ١٩٣٥» صاحب مجلة «المنار» وكان يزاملنا فى «المقطم» فى قسم المراجعة والتصحيح وبعد تناول المرطبات أعلن الدكتور على عبدالواحد وافى قيام الجمعية، وقال إن غايتها تبرير الهيبة التى تنفّر الناس من بحوث الفلسفة، وقال إن من مهام الجمعية تحبيب الناس فى الفلسفة وإشاعة التفكير الفلسفى من خلال نشر مجموعة شهرية من



مصطفى عبد الرازق



د. محمد حسين هيكل باشا



محمد رشيد رضا

كتب الفلسفة المبسطة، ووجّه تحية إلى مصطفى عبدالرازق باشا لقبوله الرياسة الشرفية للجنة. وتحدث بعده الدكتور عثمان أمين سكرتير الجمعية الذى أكد أن الجمعية ولدت قوية وستبقى قوية بفضل همة أعضائها من أساتذة الفلسفة فى الجامعة. ثم تحدث الرئيس الفخرى للجمعية الشيخ مصطفى عبدالرازق باشا فشكر زملاءه على جميل ثقتهم به وتمنى للجمعية النجاح فى أداء رسالتها.

وبعد انتهاء هذه الكلمات انفض الحفل، وهممت بالانصراف لأننى لا أعرف أحدا من الحاضرين، ولكن زميلى محيى الدين رضا رغب فى أن يقدمنى إلى الشيخ مصطفى عبدالرازق باشا لأنه يعرفه ويتردد على بيته فى حى الحلمية الجديدة، فتهيبت الموقف لأننى صحفى ناشئ، وقدرت أن هذا الشيخ الكبير لن يهتم كثيراً بأمرى، وإزاء إصرار محيى الدين، توجهنا إلى رأس المائدة وقدمنى إلى الشيخ الذين رجب بى ترحيباً أبوياً حانياً، وشد على يدى بحرارة، فأدهشتنى هذه الروح التى تنم على تواضع جم، وقلت فى نفسى: لعله أراد أى يحيى فى شخصى الجريدة التى أعمل بها، فالترحاب موجه إليها لا إلىّ.

وبعد فترة قصيرة من هذا اللقاء انتدبتنى الجريدة لحضور اجتماع دعا إليه حزب الأحرار الدستوريين بزعامة الدكتور محمد حسين هيكل باشا «١٨٨٨-١٩٥٦» فى مقره بشارع متفرع من شارع القصر العينى. وعندما دخلت القاعة الصغيرة جلست فى الصيف الثانى من الصفوف المخصصة للصحفيين وأعضاء الحزب، أما زعماء الحزب فجلسوا فى صفين فى مواجهتنا، لمحت من بينهم الشيخ مصطفى عبدالرازق باشا. وكنت أظن أن الشيخ نسينى بعد اللقاء العارض فى الجمعية الفلسفة، ولكننى فوجئت به

يبتسم لى ثم يقف بقامته الفارعة المهيبة ويميل على الجالسين أمامه لكى يصافحنى بحرارة. وفى هذه المرة لم أعْزُ تحيته إلى الجريدة التى أعمل بها، وإنما عزوتها إلى رغبته الأبوية فى التشجيع والحدب علىّ.

وفى نفس هذا العام «١٩٤٥» اختير الشيخ مصطفى عبدالرازق إماماً أكبر وشيخاً للجامع الأزهر، فتنازل عن رتبة الباشوية - وكان الوحيد فى كل التاريخ الذين تنازل عن رتبته بمحض إرادته - وأطلق لحية رمزية وتخلى عن رياسة شرف الجمعية الفلسفية للدكتور منصور فهمى باشا «١٨٨٦ - ١٩٥٩» ، وعندما التقيت به فى مناسبة عامة، تهيبت مصافحة الإمام الأكبر، ولكنه اتجه صوبى وصافحنى بنفسى الحرارة، فشكرته على عنايته وعطفه، وكنت فى جميع المرات التى التقيت فيها بالشيخ مصطفى عبدالرازق أخاطبه بلقب «حضرتك»، فعندما كان باشا لم أخطابه حسب العرف المعهود «بسعادتك» أو «معاليك»، وعندما أصبح شيخاً للأزهر لم أخاطبه بلقب «فضيلتك». وخشية أن يسيئ فهمى قلت له: إننى صعيدى مثلك، وقد عودتنى أمى منذ نعومة أظفارى بأن أخاطب الناس بعبارة «حضرتك» وأرجو ألا تحسب أننى أحاول الانتقاص من أقدارك. فربت على ظهرى، وقال : أهلاً يا ابنى.

رويت هذه الواقعة بهذا التفصيل الممل لأصور كيف كان واحد من باشوات العهد الذى يسمونه بالعهد البائد البغيض، يتعامل مع الناس بروح إنسانية رفيعة وبأريحية فطرية تنم على شرف محتده، لقد كان رجلاً من أعظم شرفاء مصر، وكان على خلق سام وفضل عظيم.

أما الجمعية الفلسفية المصرية، فقد أصدرت للشيخ مصطفى عبدالرازق كتابين هما «فيلسوف العرب والمعلم الثانى» و«الدين والوحى والإسلام» ونشرت نحو ٢٠ كتاباً لأعضائها فى تبسيط الفلسفة ومذاهبها. وكان لولبها المحرك هو الدكتور عثمان أمين صاحب نظرية «الجوانية».

تسجيل الأدب العربى فى المحاكم المختلطة!

من الأوراق التى استخرجتها من جعبتى صفحة واحدة عنوانها «المعين فى تاريخ آداب اللغة العربية» أعدها الخورى يوسف مارون البشعلانى، وقام بتسجيلها فى المحكمة المختلطة بالاسكندرية فى أول مايو ١٩٣١ تحت رقم ٩ ونشرها فى جريدة «البصير» السكندرية وفى جريدة المحاكم المختلطة كيما يحتفظ بجميع حقوق التأليف، وسجل

البشعلانى فى هذه الصفحة الوحيدة كل تاريخ الأدب العربى على هيئة جداول، قدم لها بعبارة: «إذا جاز لنا التشبيه يمكننا أن نشبه آداب اللغة العربية فى عصورها الخالية بروضة غناء، أضاءها قمر الجاهلية، وطلع عليها فجر الإسلام، وسطعت فيها شمس العصور العباسية، وغابت عنها عند سقوط بغداد فساد عليها الظلام ليل عصر الانحطاط، إلى أن بزغ فجر النهضة الحديثة مبشراً بالشمس الساطعة، أو بشجرة غرست فى تربة جيدة، فنمت فى العصور التى تقدمت زمن التاريخ، وأورقت فى العصر الجاهلى، وأزهرت فى العصر الإسلامى، وأثمرت ونضجت فى العصور العباسية إلى أن جاء المغول فقطعوها ورموا بأكثر ثمارها فى نهر الفرات، ولكن الحياة مازالت تدب فى جذورها طيلة عصر الانحطاط، فأخذت تنبت فروعا كثيرة طافحة بالحياة والقوة، فأورقت وأزهرت فى عصر النهضة الحديثة، ونحن الآن بانتظار ثمارها اليانعة».

والجداول الواردة فى هذه الصفحة بعضها مستعرض وبعضها طولى، فالجداول الطولية تتناول عصور الأدب، وهى العصر الجاهلى وصدر الإسلام والعصر العباسى الأول والعصر العباسى الثانى وعصر الانحطاط والعصر الحديث. أما الجداول المستعرضة فتتناول الأمم المختلفة، وقد قسمها إلى قبائل العرب، ثم ظهور الإسلام، والدولة الأموية فى الأندلس، والدولة الفاطمية والشرقية والأيوبية، ثم دولة المماليك والحكم العثمانى والعصر الحديث فى مصر ولبنان والعراق. تلا ذلك الفنون المختلفة، وهى فن الشعر وفن النثر والعلوم. ثم قسم فن الشعر إلى أغراضه وهى الفخر والمدح والوصف والهجاء والرثاء والزهد والغزل والخمر والحكمة، كما قسم النثر إلى الخطابة والنثر الفنى والصحافة. أما العلوم فتنقسم إلى علوم اللغه والأدب والفقه والحديث والتاريخ والجغرافيا والطبيعيات والرياضيات.

وإذا رغب باحث فى حصر شعراء الغزل فى جميع العصور مثلاً، وقع فى العصر الجاهلى على المهلهل وأصحاب المعلقات، وفى صدر الإسلام على عمر بن أبى ربيعة وجميل بن معمر، وفى العصر العباسى الأول على بشار بن برد وأبى نواس وأبى تمام والبحترى وابن عبدربه، وفى العصر العباسى الثانى على أبى فراس وابن هانىء والبهاء زهير، وفى عصر الانحطاط على الشاعر الظريف والبوصيرى وابن نباتة، وفى العصر الحديث على الخشاب والعطار وفكرى والجبرتى وأبى النصر والبارودى وصبرى.

فإذا عنّ لباحث أن يستقصى مسيرة أعلام التاريخ صادف فى العصر العباسى الأول

الواقدى والطبرى وابن البطريق، وفى العصر العباسى الثانى المسعودى والعتبى وابن النديم وابن مسكويه والبغدادى وفخر الدين بن الأثير وياقوت، وفى عصر الانحطاط ابن العبرى وابن خلقان وأبا الفدا وابن بطوطة وابن خلدون والمقريزى والبيرونى والمقرى، وفى العصر الحديث رفاعة وجرجى زيدان والمطران الدبس.

ويستطيع الباحث من هذه الجداول الكاشفة أن يعرف الأغراض، الشعرية التى استأثرت باهتمام الشعراء فى جميع العصور، فإن تميز شاعر بغرضين أو أكثر، ورد اسمه فيها جميعاً.وهكذا يستطيع الباحث أن يقف على ضالته فى ثوان معدودات، فيحدد العصر الذى ينتمى إليه شاعر ما أو الفترة الزمنية التى عاش فيها مؤرخ أو عالم فى الرياضيات وهلم جرا. وأشار البشعلانى إلى أن لديه كتاباً يحمل نفس هذا العنوان، وهو «المعين» وفيه تفصيل لكل ما ورد مركزا أو مضغوطاً فى هذه الصفحة الواحدة.

شاعر ينشر شعره كإعلان مأجور!

أثناء عملى محرراً فى جريدة «المقطم» كنت ألاحظ شيخاً أزهرياً وقوراً يؤم المطبعة فى الحين بعد الحين ويطلب «سلخة» من المطبعة لمراجعة نصها، دون أن يعتمد على المراجعين الدائمين فى الجريدة. فاستفسرت من زميلى الواقف فى المطبعة عمن يكون هذا الشيخ، وماذا يفعل هنا، فقال إن هذا الشيخ هو عم أحمد نجيب الهلالى باشا الذى تولى وزارة المعارف ثم أصبح رئيساً للوزراء، وإن له هواية نظم الشعر، وقد جرب إرسال شعره إلى الصحف فأهملته، ومن هنا قرر أن ينشره كإعلان مأجور فى جريدتنا.. وها هو يراجع قصيدته ليطمئن إلى خلوها من أغاليط الطباعة.

حكايات عن شواهد القبور والأضرحة

كانت لصديقنا الأديب الراحل رضوان إبراهيم «١٩١٩ - ١٩٧٥» عناية خاصة بابن خلدون، إذ عمل على تيسير مقدمته ثم ترجم كتابين عنه من اللغة الروسية التى كان يجيدها.

وقد أخبرنى أن قدميه ساقتاه ذات يوم إلى إحدى مناطق المقابر فى القاهرة، فاكتشف أن من بينها مقبرة الفيلسوف ابن خلدون، وقال إنه كتب مقالاً ينبه فيه إلى عثوره على هذه المقبرة، فلم يحفل به أحد.

وروى صديقنا العلامة التونسى أبو القاسم محمد كرو، أطال الله بقاءه، نقلاً عن سامى الكيالى «١٨٩٨ - ١٩٧٣» صاحب مجلة «الحديث» الحلبية أن المسئول الفرنسى

عن الآثار في سورية في زمن الاستعمار الفرنسي باع بفرنك واحد إلى بعض المسئولين في باريس لوحة منقوشة على ضريح أبي العلاء المعرى المدفون في حلب تحمل بيته الشهير:

هذا جناه أبي عليّ وما جنيت على أحد

وقد اختفت هذه اللوحة ولا يعرف مصيرها في الوقت الحالي.

ويروى الأديب اللبناني مارون عبود «١٨٨٦ - ١٩٦٢» أنه كان يمر بسيارته يومياً بمقبرة مجهولة تقع في أول طريق الشام في بيروت، وذات يوم، أمر سائق السيارة بأن يتوقف عند المقبرة، وترجل من السيارة لكي يكتشف أن هذا الضريح هو للأديب اللبناني أحمد فارس الشدياق «١٨٠٤ - ١٨٨٨» وأن سكان المنطقة كانوا يحسبونه واحداً من أولياء الله الصالحين، ومع ذلك كانوا يعلقون ثيابهم المغسولة على الضريح! ثم قامت دار الصياد في حياة منشئها سعيد فريحة بإنشاء مؤسسة صحفية ضخمة بالقرب من الضريح الذي أصبح مهددا بسبب الضجيج والعجيج الناشئ عن حركة المطابع والسيارات في المنطقة، فطالب مارون عبود بإنقاذ الضريح ونقله إلى مكان آخر. واستجابت السلطات له ونقلته إلى منطقة الحازمية في بيروت دون أن تضع عليه أي شاهد يدل على صاحبه، فكتب عبود مناشداً المسئولين أن يضعوا لوحة عليه تحمل اسمه.

وأخبرني صديقي العلامة الأمير مصطفى الشهابي «١٨٩٣ - ١٩٦٨» صاحب المعجم الزراعي الكبير والرئيس الأسبق لمجمع اللغة العربية بدمشق أنه أوصى بأن ينقش على ضريحه بيت من تأليفه هو:

أم اللغات، قضيت العمر أخدمها فهي الشفيعة في غفران زلاتي

وكنت مرة في زيارة صديقي الشاعر محمود أبي الوفا «١٩٠١ - ١٩٧٩» فرأيت في غرفته لوحة نقش عليها بيت من شعره هو:

حسبي إذا الحب أضناني فمت هوى إذ يذكروني قالوا. كان إنسانا

ولما سألته عن قصده من هذه اللوحة، قال إنه إنما أراد أن يطمئن من الآن على وضعها على ضريحه في قريته «الديرس» بمركز أجا.

وكان ضريح الأديبة مي زيادة «١٨٨٦ - ١٩٤١» في مقابر الموارنة في مصر القديمة عندما زارته وصورته الأديبة السورية سلمى الحفار الكزبرى، أطال الله بقاءها، يحمل

عبارة «هنا ترقد نابغة الشرق، زعيمة أديبات العرب، المثل الأعلى للأدب والاجتماع، المرحومة مى زيادة، صلوا لأجلها - دفنت فى ٢٠ أكتوبر ١٩٤١». فلما هدم هذا الضريح ونقلت رفاتها إلى فجوة فى جدار فى نفس المقابر، اقتصرت اللوحة المثبتة عليها على عبارة موجزة هى «الأديبة مى زيادة نابغة الشرق ١٩٤١».

وكان صديقنا الأديب العراقى جعفر الخليلى «١٩٠٤ - ١٩٨٥» قد أوصى بأن توضع على قبره لوحة نصها: «هنا يرقد جعفر الخليلى الذى لا يعرف لم جاء إلى هذه الدنيا ولم غادرها» ولما توفى فجأة فى دبى أثناء زيارته لكريمته هناك، أعدت الأسرة اللوحة الموصى بها، ولكن السلطات هناك منعت وضعها على المقبرة.

أما أغرب قصص الأضرحة فهى الخاصة بالمليارديرالبنانى أميل البستانى، الذى خشى أن تفاجئه المنون، فأقام لنفسه ولأسرته ضريحا من الرخام الفاخر المستورد من الخارج. ثم رغب فى الاحتفال بتدشين الضريح، ودعا أصدقاءه إلى حفلة كوكتيل ليشاهدوا بأنفسهم البراعة الفنية فى تصميم الضريح الذى سيضمه ذات يوم مع زوجته وابنته، وفى أوائل عام ١٩٦٣ قرر إميل البستانى السفر بطائرته الخاصة إلى لندن، ودعا صديقه الطبيب الدكتور نمر طوقان، شقيق الشاعرة فدوى طوقان والاستاذ بجامعة بيروت الأمريكية، لكى يرافقه فى هذه الرحلة. ولم تكد الطائرة تقلع من مطار بيروت المتاخم للبحر المتوسط، حتى هوت فى البحر واختفت تماما تحت المياه الساحلية، واستعين بأضخم الكراكات والأجهزة والغواصين من شركات مقاولات «كات» المملوكة لإميل البستانى للبحث عن الطائرة وانتشال جثث ركابها، فذهبت جميع محاولاتهم سدى، ولو نطق الضريح الرخامى لقال: وتقدرون فتضحك الأقدار!.

مظهر سعيد ودستور الحياة السعيدة:

عرفت الدكتور محمد مظهر سعيد الذى كان يصف نفسه بأنه «عميد الفلسفة وعلم النفس والاجتماع والتربية» - وهو لقب يستحقه بلا مراء - وعرفت زوجته المربية الوقور نظلة الحكيم وشقيقتها المربية الفاضلة زينب الحكم، وكانوا إذا اجتمعوا مع رواد ندوتهم يفيضون على الحالسين من معين خبرتهم وتجاربهم بما يستعينون به فى حياتهم العملية، والأهم هو انتفاعهم بما يقومّ سلوكهم الخلقى فى التعامل مع المجتمع. وكان مظهر سعيد أول من يلبى أى دعوة لإلقاء محاضرة أو للمشاركة فى ندوة أو للاجتماع فى منتديات

الشبيبة مع الجيل الطالع، يمحضهم الخمير من الآراء والسديد من التوجيهات بعدما دانت له جميع أسباب الحكمة ومبادئ التربية القويمة والأسس النفسية الرشيدة وله طائفة من المؤلفات منها «جمهورية أفلاطون» و«علم النفس الاجتماعي» و«سجين ثورة ١٩١٩»، وكان من دواعي فخري أنني شاركت معه ومع زوجته نظلة الحكيم في ندوات لمعالجة مشكلات الشباب النفسية والعاطفية ولتقييم دور علم النفس في الدراسات الأدبية.

وعندما سبقته زوجته إلى عالم البقاء، قاوم الوحدة المدمرة بالإكثار من التردد على الندوات وقبول الدعوات على الرغم من أن سنه كانت قد شارفت الثمانين، وما أكثر ما نصحته – بحكم الود الموصول بيننا – بالإشفاق على شيخوخته من هذا النشاط الذي لا قبل للشباب باحتماله، فكان يقول لي إن سلواه الوحيدة هي الاجتماع بالناس والتحدث إليهم ومساعدتهم في حل مشكلاتهم النفسية والعاطفية وتوجيه الشباب إلى المحجة السليمة، وكنت أقول له إنك لا تملك سيارة، وتضطر إلى استخدام وسائل المواصلات العامة في تنقلاتك، وتعود إلى بيتك في عتمة الليل، وطرقنا غير مأمونة. فكان يكرر قوله إن حياته موصولة بالناس ولا حياة له مع العزلة والتنسك.

وفي إحدى ليالي عام ١٩٧٠ كان الدكتور محمد مظهر سعيد عائدا إلى بيته بعد مشاركته في ندوة، وترجل من سيارة الأوتوبيس في شارع الجيزة بالقرب من فندق شيراتون القاهرة، وحاول عبور الطريق إلى بيته الكائن في الناحية المقابلة. فافترسته في ظلمة الليل سيارة مسرعة، ثم تلقفته سيارة قادمة من الاتجاه الآخر، وأصبح بجسمه الرقيق الناحل مثل الكرة التي تتقاذفها الأيدي. ولما أصبح الصباح، عثر على جثمانه مفترشاً الطريق، واهتدى إلى شخصيته من بطاقة الهوية التي كان يحملها في جيبه.

وكان مظهر سعيد أديباً مطبوعاً جميل الأسلوب، لا يحاضر إلا ارتجالاً، ولا يلحن في لفظ أو يتعثر في عبارة، وكان إلى ذلك شاعراً مجيداً، وآية ذلك القصيدة الطويلة التي أهدانيها بخط يده وجعل عنوانها «دستور الحياة السعيدة»، وأذن لي في نشرها عندما تحين الفرصة، وبقيت هذه القصيدة، التي تكاد تكون «روشتة للسعادة» جاثمة بين أضابيري إلى أن استخرجتها الآن. وقد ختمها ببيت رائع هو:

هبات الله لا تحصى ولكن حياتك بينها أغلى الهبات

وتحدوني أمانة الوفاء إلى إثبات النص الكامل لهذه القصيدة، لأنها فعلاً دستور يوطئ للحياة السعيدة.

سعيد من يقول بملء فيه: أعيش اليوم فى أوج الحياة

بلا قلق يعكر صفو نفسى   ولا هم انتظار الحادثات

وأترك ما مضى يذوى بعيداً   ليدفن فى قبور الذكريات

فلا يبقى سوى أثر قديم   ملئ بالعظات الملهمات

وأترك ما تجيء به الليالى   غداً أو بعده، من كارثات

فلست بمرجع ما فات منى   ولست بمرجئ ما سوف ياتى

لماذا الهم من هم بعيد   أقدر أنه لابد آت

لماذا الهم من مأساة أمسى   وقد ولت، وراحت فى سبات

وأقصى الهم موت أو فراق   فهل أجدى بكاء النائحات؟

★ ★ ★

فلا تيأس، فإن اليأس سم   يشل العقل عند المشكلات

وبالصبر الجميل تجد عزاء   وصعب الأمر يسهل بالأناة

ولا تهرب من الأحداث خوفاً   من العقبى، وواجه فى ثبات

فبالفكر الرصين تجد حلولاً   ميسرة لكل المعضلات

ولا تتبع مضلاً فى طريق   وسر بالعكس فى سبل الهداة

وخير الأمر أوسطه، فخذه   وحاذر أن تكون من الغلاة

ولا تبن من الأوهام قصراً   تنال به جميع الأمنيات

فلا تجدى الحياة بغير جهد   ولا تأتى المنى بالمعجزات

★ ★ ★

ولا تبك على خير تولى   فما يغنى البكا بعد الفوات

عيون باسمات فى الرزايا   لأجمل من عيون باكيات

ولا تحسد أناساً فى نعيم   فلا تدرى متى النعمى تواتى

تمر السحب مراً بالعطاش   وتهمى فى الصحارى ممطرات

ولا تبغى ولا تظلم ضعيفاً   فإن الله يبطش بالطغاة

ولا تهدم، فما في الهدم خير   وحاول أن تكون من البناة
ولا تعبأ بمدح أو هجاء   ولا تخدع بقول أو سمات

★ ★ ★

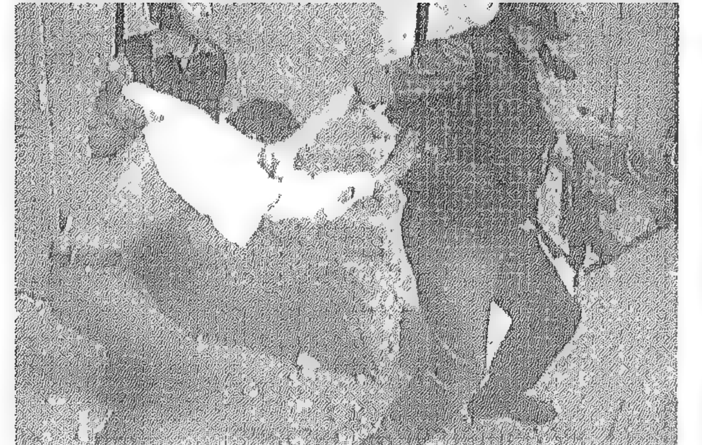
وإن من هم نفسك ضقت ذرعاً   فخفف من همومك بالصلاة
فداء الجسم يشفيه طبيب   وداء النفس عزّ على الأساة
وإن حاقت بل الأخطار فافزع   إلى مولاك، تظفر بالنجاة
وكفك بالندى تزداد خيراً   فزد في رأس مالك بالزكاة
وبر الأهل والأخوان أجدى   لتدعيم الروابط والصلات
فلا تفصم عرى ود قديم   فحفظ الود من خير الصفات
وإن تعتب صديقك فادخره   ولا تصدم حبالك بالهنات
فبالمعروف تأسر كل نفس   وتمحو الحقد من قلب العداة
وإن أخطأت أو أذنبت يوماً   بلا عمد، ومن غير افتئات
فلا تندم على ما فات، واعلم   حساب الناس رهن بالنيات
فإن تزرع بذور الشر تحصد   ثمار الشر من مر النبات

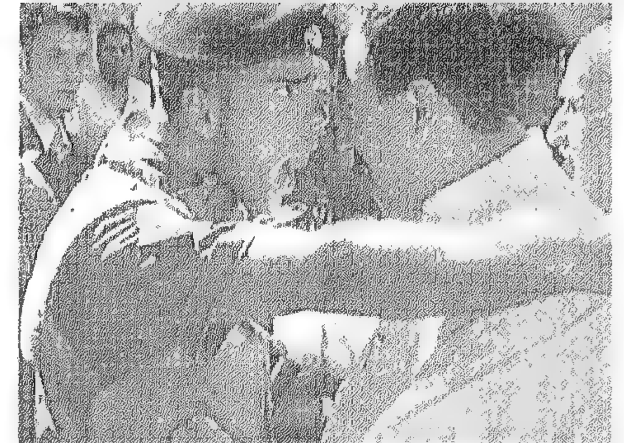
★ ★ ★

وإن تبدأ حياتك من جديد   على ضوء النيات الصافيات
ترى الصحراء، لا قفراً، ولكن   جنانا مزهرات مثمرات
وفي فجر النهار ترى شموساً   بأنوار الطبيعة مشرقات
وتسمع في هدير الرعد لحنا   كتغريد الطيور الصادحات
وفي الليل البهيم ترى نجوما   تتلألأ كالدراري اللامعات
ترى دنيا الجمال، وكل شئ   بهاء، كالغانيات الفاتنات
وتحيا في شباب مستمر   على رغم السنين الخاليات

★ ★ ★

هبات الله لا تحصى، ولكن   حياتك بينها أغلى الهبات





يا قدس انعدمت رؤاى

شعر: عبد العزيز جويده

(١)

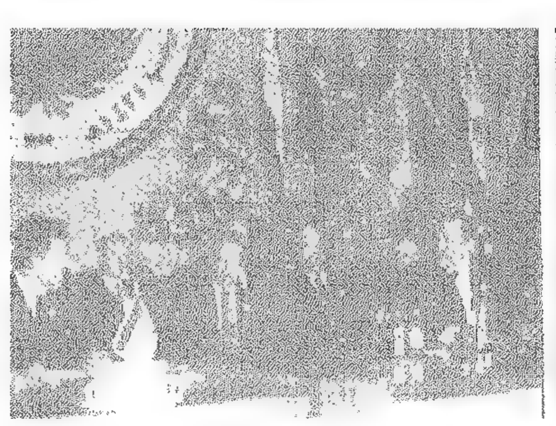
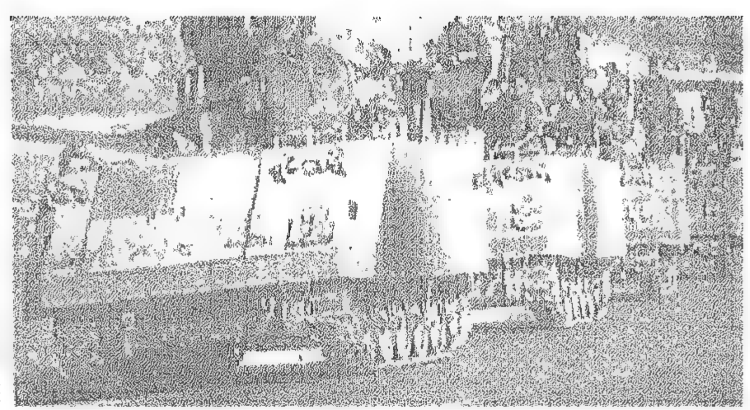
يا قدس انعدمت رؤاى
يا قدس أنت سجينة
والقيد أوله يداى
يا قدس أحلم كل يوم
أن يضمك ساعداى
يا قدس مثقوب أنا
كثقوب ناى
فلتعزفى حزنى لأبكى
ربما هدأت خطاى
يا قدس جسمى طلقة
فلتطلقيها واعلمى
أن البداية منك كانت منتهاى

(٢)

يا قدس قالوا من سنين
أشجار أرضك سوف تزهر ياسمين
عار علينا
كفنى عار العروبة وأدفنى فى
الطين
كل المزارع فيك تطرح لاجئين
فبأى وجه إن سئلنا من صغار
يسألون عن الوطن
فى أي خارطة فلسطين التى
ما عاد يذكرها الزمن
ماذا نقول؟
والطفل يولد فى فلسطين المراثى
فى فلسطين المحن
بيد تشد على الزناد
وفى اليد الأخرى كفن

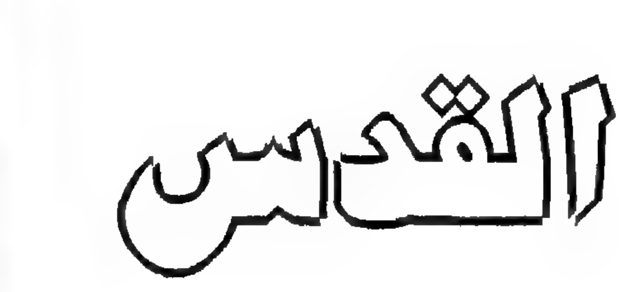
(٣)

يا قدس يا حزنا يسافر فى جوانحنا
ويكبر كالنخيل
من أرض يافا للجليل
فى كل شبر كم قتيل
يا قدس يا جرحا بلون الدم
أو لون الأصيل
أمى على باب المخيم تحتضر
والموت يأكل وجهها الرحب الجميل
أمى تقول وصوتها متقطع
كف يدق المستحيل
جهز خيولك يا بنى
واقتل عدوك قبل أن تغدو قتيل

(٤)
يا قدس يا وطنى الحنون
هل نحن حقا عائدون
أم أنها أكذوبة
كى يستمر الحاكمون
يا قدس مجروح أنا
والجرح ينزف في جنون
يا قدس مذبوح أنا
والذبح ممتد من الشريان حتى
مهجتى
يا قدس طالت غربتى
قالوا محال عودتى
لكننى بعزيمتى
سأشق جسمى خندقا
منى إليك
ثم أعبر جثتى
(٥)
يا قدس يقتلنى التذكر والتفكر
والحنين إلى رؤاك
يا قدس معذور أنا
إن كنت أسجد رهبة
إن صادفتني لفحة فيها شذاك
فالمسجد الأقصى يعيش بداخلى
سبحان من أسرى وبارك فى ثراك
يا قدس مريم لا يزال بحضنها
عيسى
فهزى نخلة
يساقط الرطب الجميل
يا قدس هذا مستحيل
يا قدس حطين انتهت
وصلاح عاد مكبلا فى ظلمة الأسر
الطويل
والعقم داء قد أصاب قلوبنا
وأصاب أشجار النخيل
(٦)
يا قدس أحلم أن أعود
يا قدس ضقت من التسكع
عند شارات الحدود
يا قدس جثة طفلتى
تطفو بعينى كلما دمعى يجود
يا قدس هذا موطنى
وأنا الذى من داخلى مطرود
يا قدس أحلم أن أصلى فى
الرحاب
ولا أعود
وبأن أطهر من دمائى كل أرجاس
اليهود
قسما إذا......
يوما دخلنا المسجد الأقصى
سأفرش جفن عينى للسجود
وأظل أصرخ فى القيام وفى القعود
يا قدس يا عربية
منذ البداية
ولحين ينقض الوجود



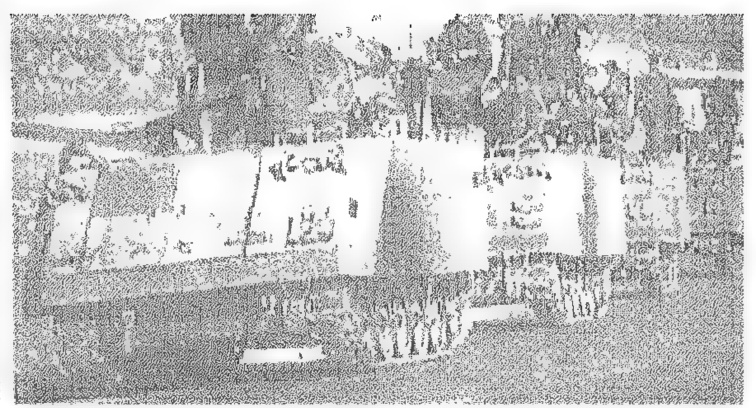


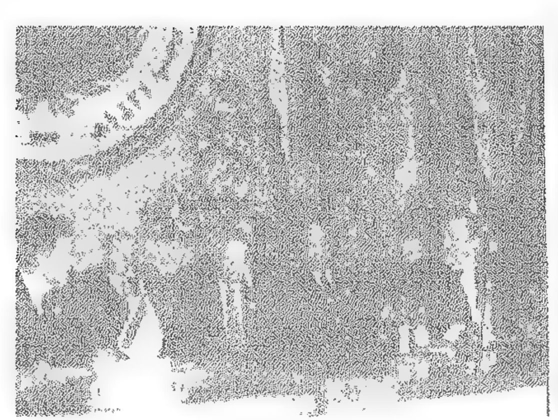
القدس

وثائق

سندع الوثائق تتكلم، وهى وثائق وزارات الخارجية والأمم المتحدة حول مدينة القدس، ولابد أن تدهش من التغيرات في الموقف الأمريكى عندما ترى كيف عارضت وزارة الخارجية الأمريكية نقل مقر وزارة الخارجية الاسرائيلية عام ١٩٥٣ إلى القدس الغربية، وأصدر وزير الخارجية الأمريكى فى الثامن والعشرين من يوليو بيانا أعرب عن أسف بلاده لقرار الحكومة الاسرائيلية نقل وزارة الخارجية من تل أبيب إلى القدس. وأعلن الوزير الأمريكى أن بلاده لاتنوى نقل سفارتها إلى القدس.

وفى يوليو ١٩٦٧، أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة قرارا يتناول وضع القدس بأغلبية ٩٩ صوتا، أعربت عن القلق من الوضع فى القدس والاجراءات التى اتخذتها لتغيير وضع المدينة المقدسة، وأكد فى ١٤ يوليو من نفس العام جولد برج المندوب الأمريكى الدائم معارضة بلاده القيام بأى عمل يتعلق بوضع القدس.





وأعلن أن الولايات المتحدة لا تقبل ولا تعترف بالاجراءات التى اتخذتها حكومة اسرائيل. وفى ذات اليوم أصدرت الجمعية العامة قرارها رقم ٢٢٥٤ دعت فيه اسرائيل لإلغاء كل الاجراءات التى اتخذتها ، وأن عليها أن تمتنع عن القيام بأى عمل من شأنه تغيير وضع القدس .

وفى الرسائل المتبادلة بين الرئيس أنور السادات والرئيس الأمريكى كارتر فى سبتمبر ١٩٧٨ ، يؤكد كارتر أن موقف الولايات المتحدة من القدس هو ذاته ما سبق وأعلنه السفير جولد برج أمام الجمعية العامة.

وفى سنة ٢٠٠٠ يتحول كل ذلك إلى دخان فى الهواء.

بيان جولد برج حول القدس
فى ١٤ يوليو ١٩٦٧

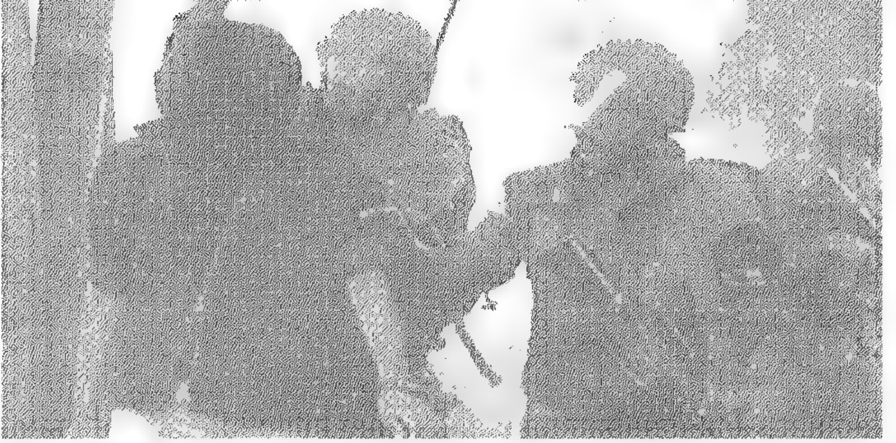
إن آراء حكومتى بشأن القدس عبر عنها رئيس الولايات المتحدة الامريكية ومسئولون آخرون على مستوى عال.

ففى ٢٨ يونيو اصدر البيت الابيض البيان التالى:

قال الرئيس فى ١٩ يونيو انه من وجهة نظرنا «لابد ان يكون هناك اعتراف كاف بالاماكن المقدسة فى مدينة القدس». وهو يفترض بناء على هذا المبدأ أن يسبق القيام بأى عمل من جانب واحد بشأن وضع القدس مشاورات كافية مع الزعماء الدينيين وغيرهم ممن يهمهم الامر بشدة . فالقدس مقدسة لدى المسيحيين واليهود والمسلمين. انها واحدة من مآسى التاريخ الكبرى المستمرة ان تصبح مدينة محورا للصراع بينما هى تمثل إلى حد كبير محورا لأسمى القيم الانسانية. ومرة تلو الأخرى أدت المعتقدات العاطفية لدى عنصر ما إلى استبعاد الاخرين أو عدم انصافهم . وقد كان الامر كذلك/ لسوء الحظ / على مدى العشرين عاما الماضية. وسوف يتفق معى اصحاب جميع الديانات على ضرورة ان نفعل الآن ما هو افضل . وعلى العالم ان يوجد اجابة واضحة ومعترفاً بأنها واضحة..

البيان الثاني صدر فى نفس اليوم من جانب وزارة الخارجية الامريكية وجاء فيه ان:

- الاجراء الادارى المتعجل الذى اتخذ اليوم لايمكن ان يعتبر محددا لمستقبل الاماكن المقدسة أو وضع القدس فيما يتعلق بهم.

- والولايات المتحدة لم تعترف ابدا بأن مثل هذه الافعال احادية الجانب بواسطة اى من دول المنطقة تحكم او تقرر الوضع الدولى للقدس.

نعود مرة أخرى إلي جولد برج فنجده يقول : خلال بيانى امام الجمعية العامة فى الثالث من يوليو قلت ان حماية الاماكن المقدسة وحرية وصول الجميع اليها ينبغى ان يكون مضمونا على المستوى الدولى، ووضع القدس فيما يتعلق بتلك الاماكن ينبغى ألا يتقرر بشكل أحادى الجانب ولكن بالتشاور مع جميع المعنيين.

وهذه البيانات تمثل السياسة المدروسة والمستمرة لحكومة الولايات المتحدة.

وفيما يتعلق بالاجراءات المعنية التى اتخذتها حكومة اسرائيل فى ٢٨ يونيو أود أن أوضح أن الولايات المتحدة لاتقبل أو تعترف بأن هذه الاجراءات تمثل تغييرا لوضع القدس . وحكومتى لاتعترف بأن هذه الاجراءات الادارية التى اتخذتها حكومة اسرائيل فى ٢٨ يونيو يمكن ان تعتبر الكلمة الاخيرة فى الموضوع . ونحن نأسف لاتخاذ تلك الاجراءات ونصر على ان تلك الاجراءات لايمكن اعتبارها الا اجراءات انتقالية ومؤقتة ولا تحدد مسبقا الوضع النهائى والدائم للقدس.

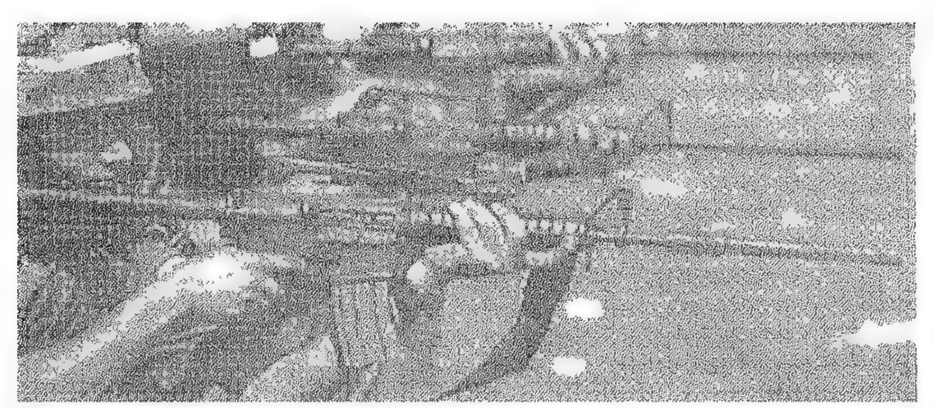
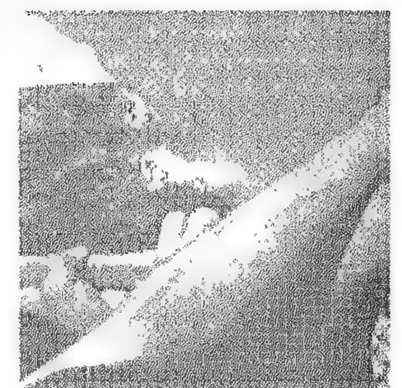
وللاسف ولسوء الحظ فان البيانات الصادرة عن الحكومة الاسرائيلية بشأن هذا الموضوع لم تتناول من وجهة نظرنا هذا الوضع حتى الان بشكل كاف.

وكثير من المندوبين يعلمون اننا كنا مستعدين للتصويت على قرار منفصل بشأن القدس يعلن ان الجمعية العامة لن تقبل أى عمل احادى الجانب كمحدد لوضع القدس، وتناشد حكومة اسرائيل الكف عن اى عمل يفترض منه تحديد وضع القدس بشكل دائم. غير ان الرعاة اوضحوا وقتئذ وهذا حقهم انهم يفضلون المضى فى النص الخاص بهم فى الوثيقة ايه ٢٢٥٣ والآن فى قرارهم اية آل ٥٢٨/ التنقيح ٢.

ومشروع القرار الاخير يتضمن تعديلات نرى انها تمثل تحسينا على النص الاصلى وخاصة من منطلق انها لم تعد تميل إلى عملية اصدار الحكم مسبقا فى مجلس الامن.

ومع ذلك منذ ان كان القرار الذى تم للتو تبنيه مبنيا بشكل واضح على القرار ٢٢٣٥ الذى امتنعنا عن التصويت عليه لاسباب ذكرناها على الملأ.

واتساقا مع ذلك التصويت امتنعنا اليوم ايضا عن التصويت .

وحتى بصورته المنقحة فان هذا القرار لا يتناسب تماما مع وجهات نظرنا وخاصة من منظور اعتقادنا بأن مشكلة القدس لايمكن حلها بشكل حقيقي بعيدا عن الاوجه الاخرى المتعلقة بالقدس وبالوضع في الشرق الاوسط . ولهذا امتنعت الولايات المتحدة عن التصويت.

وقد عبرنا بالطبع مؤخرا عن انفسنا بطريقة اكثر رسمية بتصويتنا على مشروع قرار يتناول مشكلة القدس. وكان ذلك القرار المقدم من دول امريكا اللاتينية وارداً في الوثيقة ايه ال٥٢٣ تنقيح ١. الذى تناول مشكلة القدس باعتبارها احد العناصر المشمولة في اى تسوية سلمية في الشرق الاوسط.

ولم نستطع تأييد القرار رقم ٢٢٥٣ نظرا لانه يعالج وجها واحدا لمشكلة القدس كقضية متفردة منفصلة عن العناصر الاخرى للقدس وعن ايجاد تسوية سلمية في الشرق الاوسط.

والقدس بكل تأكيد وحسبما اوضح كل متحدث على مستوى العالم قضية هامة وفي رأينا يجب بالضرورة ان تبحث في اطار تسوية لجميع المشاكل الناشئة عن الصراع الاخير. وفي القدس هناك مصالح روحية سامية ولكن هناك ايضا قضايا اخرى هامة. ونحن نعتقد ان المنهاج الاجدى والانفع في مناقشة مستقبل القدس يكمن في تناول المشكلة برمتها باعتبارها احد الاوجه المتعددة لترتيبات اوسع يتعين اتخاذها لاستعادة سلام عادل ودائم في المنطقة . ونحن نعتقد اننا ثابتون على مشروع القرار الذى نبدى استعدادنا لرعايته وهو ضرورة ان تتناول الجمعية العامة المشكلة باعلان معارضتها لاى تغيير احادى الجانب في وضع القدس.

قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة
رقم ٥٢/٥٣ في ٩ ديسمبر ١٩٩٧

الجمعية العامة:

إذ تعيد إلى الاذهان قراراتها رقم ٣٦/١٢٠ اى الصادر في ١٠ ديسمبر ١٩٨١ ٣٧/١٢٣ سى الصادر في ١٦ ديسمبر ١٩٨٢ و ٣٨/١٨٠ سى في ١٩ ديسمبر ١٩٨٣ و ٣٩/١٤٦ سى في ١٤ ديسمبر ١٩٨٤ و ٤٠/١٦٨ سى في ١٦ ديسمبر ١٩٨٥ و ٤١/١٦٢ سى في ٤ ديسمبر ١٩٨٦ و ٤٢/٢٠٩ ا- في ١١ ديسمبر ١٩٨٧ و ٤٣/٥٤ سى في ٦ ديسمبر ١٩٨٨و ٤٤/٤٠ سى في ٤ ديسمبر ١٩٨٩ و٤٥/٨٣ سى في ١٣ ديسمبر ١٩٩٠ و ٤٦/٨٢ بى في ١٦ ديسمبر ١٩٩١ و ٤٧/٦٣ بى في ١١ ديسمبر ١٩٩٢ و ٤٨/٥٩ ايه في




١٤ ديسمبر ١٩٩٣ و ٤٩/٨٧ ايه فى ١٦ ديسمبر ١٩٩٤ و ٥٠/٢٢ ايه فى ٤ ديسمبر ١٩٩٥ و ٥١/٢٧ فى ٤ ديسمبر ١٩٩٦ الذى اصرت فيه على بطلان وحتمية الغاء كافة الاجراءات والاعمال الادارية والتشريعية التي اتخذتها اسرائيل سلطة الاحتلال، والتى غيرت أو يفترض ان تغير طابع ووضع مدينة القدس الشريفة وبالاخص ما يسمى القانون الاساسى للقدس واعلان القدس عاصمة لاسرائيل.

واذ تعيد الجمعية العامة إلي الاذهان ايضا قرار مجلس الامن رقم ٤٧٨ لعام ١٩٨٠ الصادر فى ٢٠ أغسطس ١٩٨٠ والذى قرر فيه المجلس ضمن امور اخرى عدم الاعتراف بالقانون الاساسى وناشد تلك الدول التى اقامت بعثات دبلوماسية فى القدس ان تسحب مثل هذه البعثات من المدينة المقدسة.

وبعد دراسة التقرير المقدم من السكرتير العام:

١- تقرر الجمعية العامة ان قرار اسرائيل بفرض قوانينها وسلطانها القضائى واداراتها على مدينة القدس غير قانون وبالتالى باطل ولاغ وليس له اى سند قانونى.

٢- تأسف لقيام بعض الدول بنقل بعثاتها الدبلوماسية إلى القدس منتهكة بذلك قرار مجلس الامن رقم ٤٧٨ العام ١٩٨٠ ورفضها الامتثال لبنود ذلك القرار .

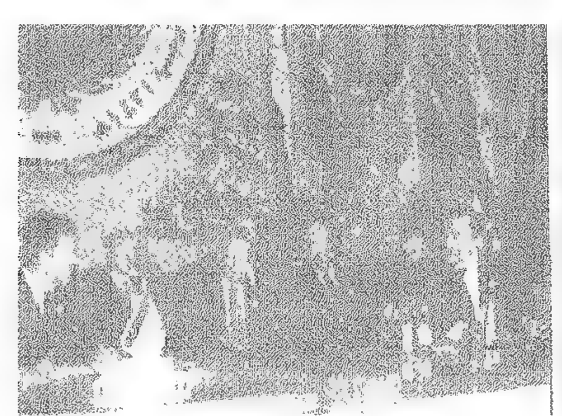
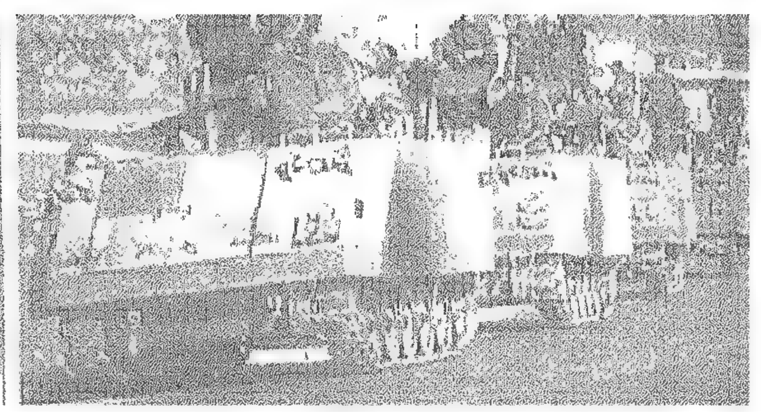
٣- تدعو مجددا تلك الدول الى الانصياع لبنود قرارات الامم المتحدة ذات الصلة تمشيا مع ميثاق الامم المتحدة.

٤- تطلب من السكرتير العام ان يرفع تقريرا إلى الجمعية العامة فى دورتها الثالثة والخمسين بشأن تطبيق القرار الراهن.

الاجتماع الموسع الثامن والستين فى ٩ ديسمبر ١٩٩٧.

نص البيان الذى ألقاه تشارلز يوست المندوب الامريكى لدى الامم المتحدة امام مجلس الامن بشأن القدس فى الاول من يوليو عام ١٩٦٩ .

جرى اليوم توجيه الدعوة لمجلس الامن للانعقاد من جديد للنظر فى عدة اجراءات معينة كانت الحكومة الاسرائيلية قد اقدمت على اتخاذها بشأن القدس حيث ادلي عدد من مندوبى الدول العربية ببيانات اعربوا من خلالها عن استنكارهم لمثل هذه التصرفات.

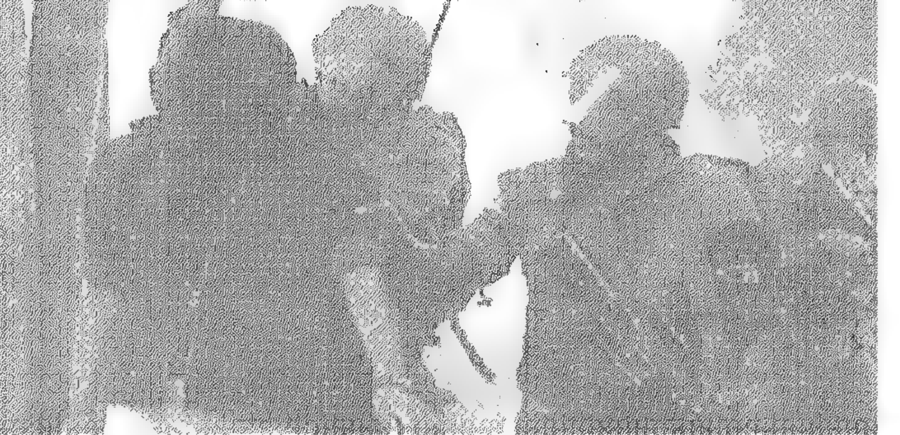



وقد اظهر ذلك النقاش بصورة جلية تماما ان وضع مدينة القدس لا يمثل مشكلة منفصلة بل أنه يعد بمثابة جزء لا يتجزء من مجموعة كاملة ومعقدة من القضايا المتعلقة بالصراع فى منطقة الشرق الاوسط والتى يتعين ان يتم ايجاد حلول لها مجتمعة وفى آن واحد. وقد اعترف مجلس الامن بشكل واضح بهذه الحقيقة من خلال قراره رقم ٢٤٢ الذى يقضى بالتعامل مع الوضع فى الشرق الأوسط كقضية واحدة وهو القرار الذى مازال يعد حتى يومنا هذا بمثابة المنهاج الذى ينبغى اتباعه من اجل التوصل لتحقيق سلام عادل ودائم فى تلك المنطقة.

وانكم جميعا على دراية بالجهود الشاقة التى تبذلها حكومتى من اجل مساعدة السفير يارنج على التوصل إلى تسوية سلمية. وانننى اذ أعترف بأن التقدم الذى تشهده هذه الجهود يسير بخطى بطيئة إلا اننى أصر على ان ذلك لا يعد بالامر غير المتوقع فى ضوء مدى عمق وتغلغل جذور هذا الصراع. غير انه من الاهمية بمكان حقا التأكيد على انه قد جرى بالفعل احراز قدر من التقدم ، وان حقيقة ان هذا التقدم لم يتوج حتى الان بنجاح كبير ينبغى الا تدفعنا للشعور باليأس كما انه يجب ايضا الا يتم استغلال ذلك كذريعة او كمبرر للاتيان بتصرفات قد تصعب بدرجة اكبر من فرص احراز مزيد من التقدم وهو الامر الذى ينطبق بشكل محدد على القدس.

فالقدس فى حقيقة الامر تحتل مكانة خاصة فى عقولنا وقلوبنا جميعا وذلك على اعتبار انها تعد واحدة من اكثر المدن قداسة على مستوى العالم بأسره، كما انها تمثل كذلك مزارا مقدسا لاكبر واقدم ثلاث ديانات سماوية عرفها العالم الا وهى الاسلام والمسيحية واليهودية . وفى ضوء ما سبق ترى الولايات المتحدة دوما ان القدس تتمتع بوضع دولى متفرد، وانه ينبغى الا يتم اتخاذ اى اجراء بشأنها دون ان يراعى ذلك الاجراء التاريخ الخاص بتلك المدينة ووضعيتها المتميزة لدى المجتمع الدولى ككل. غير انه مما يدعو للاسف انه قد جرى بالفعل اتخاذ بعض الاجراءات التى ادت لانتهاك حرمة السلام فى القدس وهو الامر الذى اثار مشاعر قلق عميقة لدى حكومتى بل ولدى المجتمع الدولى بأسره.

سيدى الرئيس.. اننا ندرك طبيعة المشاعر العاطفية المحركة لكافة الاطراف المعنية بالنزاع العربى الاسرائيلى فيما يتعلق بموضوع القدس، غير اننا لا نرى ان ما يحدث حاليا فى منطقة القدس الشرقية على وجه التحديد سوف يساعد على التهدئة من حدة هذه المشاعر

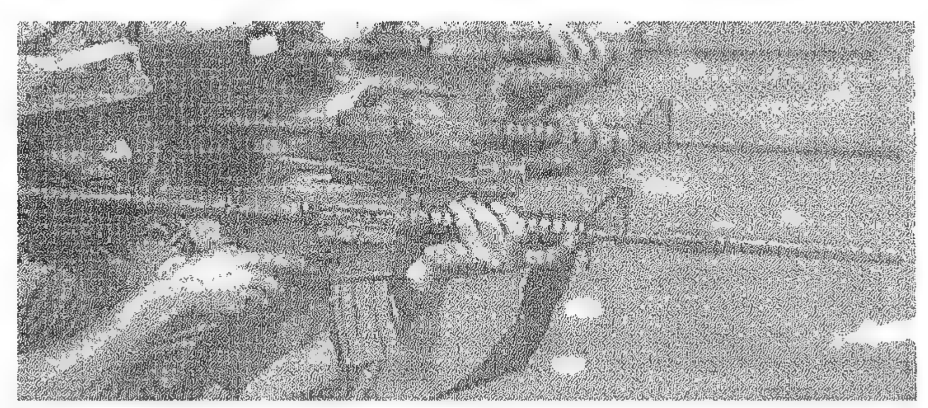
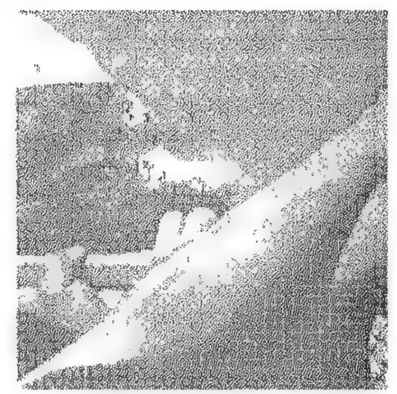
العاطفية المتأججة. وينطبق ذلك على الاجراءات التى يتخذها اولئك الذين يتولون زمام السلطة هناك فى الاونة الراهنة وايضا على التصرفات التى يقوم بها الافراد، الذين يشعرون بأنهم مغبونون ومن ثم فإنهم يعمدون لاستغلال ذلك كمبرر للجوء لاستخدام العنف .

فمصادرة الاراضى وبناء المساكن عليها وهدم المبانى بما فى ذلك تلك التى تتسم بأهمية دينية أو تاريخية فضلا عن تطبيق القانون الاسرائيلى على الاجزاء المحتلة من القدس تعد كلها من الأمور التى تفوض المصالح المشتركة لنا جميعا فى هذه المدينة.

إن الولايات المتحدة ترى ان المنطقة التى تمكنت اسرائيل من السيطرة عليها خلال حرب يونيو شأنها فى ذلك شأن كافة المناطق الاخرى التى احتلتها اسرائيل، تعد بمثابة ارض محتلة ومن ثم فإنها تخضع لكافة بنود القانون الدولى المتعلقة بحقوق وواجبات والتزامات اى قوة احتلال. وتقضى هذه البنود الدولية الملزمة لاسرائيل، مثلما هي ملزمة لاى جهة احتلال اخرى بأنه لا يحق لقوة الاحتلال القيام بأى تعديلات فى القوانين او احداث اى تغييرات فى اسلوب الادارة فى المناطق المحتلة ، عدا تلك التى يتم اتخاذها بصفة مؤقتة فى ضوء الاعتبارات الامنية لذلك الطرف المحتل . كما انه يتعين كذلك على اى قوة احتلال الا تقوم بمصادرة او تدمير الملكية الخاصة. وتنص معاهدة جنيف وسائر الاعراف المعمول بها فى اطار القانون الدولى بشكل واضح على انه يتعين على اى قوة احتلال المحافظة على الاراضى المحتلة، كما هى بدون اجراء أى تغييرات أو تعديلات وايضا دونما التدخل فى اسلوب الحياة السائد فى تلك المنطقة، كما أنه ينبغى كذلك عدم القيام بأى تغييرات قد تترتب نتيجة للاحتياجات العاجلة لسلطة الاحتلال.

غير أنه يؤسفني ان اقول ان التصرفات التى تقوم بها اسرائيل فى الجزء المحتل من مدينة القدس تختلف عن ذلك تماما فهى تصرفات تؤدى إلى اثارة مشاعر قلق ، لها ما يبررها بالفعل بشأن محاولة تغيير وضع منطقة القدس الشرقية فضلا عن ان حقوق ونشاطات سكان تلك المنطقة قد بدأت تتأثر بالفعل من جراء ذلك.

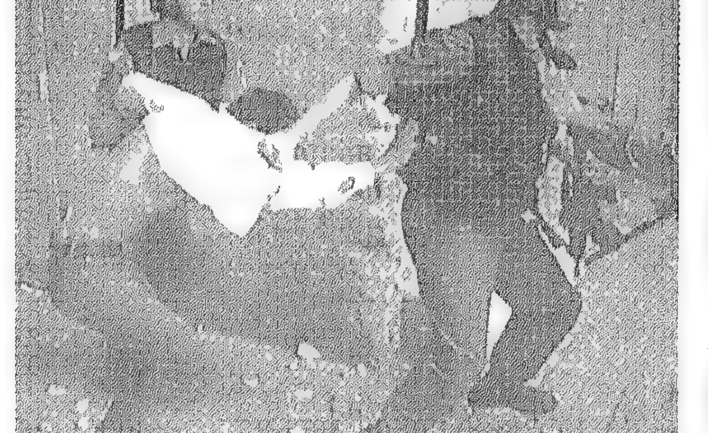
وفى الحقيقة، تشعر حكومتي بالاسف حيال مثل هذه التصرفات كما انها قامت باخطار حكومة اسرائيل بذلك فى مناسبات عدة منذ يونيو عام ١٩٦٧. ونحن نعرب دوما عن رفضنا الاعتراف بمثل هذه الاجراءات حيث نرى انها تعد مجرد اجراءات ذات طبيعة مؤقتة لذا فإننا

لا نقبل ان تؤثر تلك الاجراءات على الوضعية النهائية للقدس.

ولقد قمت بشئ من التفصيل بتفسير ابعاد المعارضة التى تبديها الولايات المتحدة لاجراءات معينة اقدمت الحكومة الاسرائيلية على اتخاذها فى القدس غير انه لايسعنا حسبما اشرت آنفا ، ان نتعامل مع مشكلة القدس بدون وضعها فى اطارها الصحيح الا وهو الوضع في منطقة الشرق الاوسط ككل. ويطيب لى فى هذا الصدد ان اشير إلى ان واحدا من أهم القرارات السياسية التى قام الرئيس نيكسون باتخاذها فى اعقاب توليه السلطة خلال العام الحالى تمثل فى ان تقوم الحكومة الامريكية باتخاذ مبادرات جديدة تهدف إلى المساعدة فى تحقيق السلام فى منطقة الشرق الاوسط. ولقد قمنا بالفعل على مدار الاشهر الماضية ببذل قصارى جهدنا من اجل تحقيق ذلك كما اننا سوف نستمر فى بذل جهودنا فى هذا الصدد ايضا. ولكننى اؤكد ان تلك الجهود لن تكلل بالنجاح فى النهاية الا فى حالة توافر حسن النوايا والتعاون من جانب الاطراف المعنية ذاتها. وفى حقيقة الامر، كان يتعين أن يتم التوصل إلى سلام عادل ودائم فى منطقة الشرق الأوسط منذ فترة طويلة خلت غير انه لن يتسنى ابدا تحقيق هذا السلام المنشود عن طريق الانفجارات او عمليات الارهاب التى تؤدى دوما إلى سقوط ضحايا ابرياء من المدنيين او من خلال المحاولات التى يتم اتخاذها من جانب واحد بهدف تغيير وضع مدينة القدس. ولكن السبيل الوحيد لتحقيق مثل هذا السلام الدائم والعادل يتمثل فى آليات وعمليات التفاوض والتفاهم والاتفاق ، كما انه لن يتحقق الا من خلال التزام الاطراف المعنية بأقصى قدر ممكن من ضبط النفس ليس فقط على امتداد خطوط وقف اطلاق النار او من خلال البيانات العلنية التى تصدرها تلك الاطراف بل ايضا على ارض الواقع في داخل مدينة القدس ذاتها.

وفى ضوء حقيقة اننا نتعامل مع مشكلة القدس فى اطار الاوضاع العامة فى منطقة الشرق الاوسط برمتها اود ان اؤكد ان وفد بلادي سوف يقوم بالنظر فى اى اقتراح يتعلق بالأوضاع فى هذه المدينة ، ويدعو لاتخاذ إجراء حيالها من قبل مجلس الأمن لتحديد ما إذا كان هذا الاقتراح سوف يساعد الجهود الرامية للتوصل إلى تسوية سلمية شاملة، أو انه سوف يعرقلها فعلى سبيل المثال من المحتمل ان يقوم مجلس الامن بمطالبة الاطراف بأن تكف عن تبادل الاتهامات وبأن تحجم عن اتخاذ اى اجراء في القدس او غيرها قد يكون من




شأنه النيل من احتمال التوصل إلى تسوية نهائية شاملة او تحقيق سلام دائم وعادل. ومن ثم ، ينبغي لنا عند التعامل مع مشكلة الاوضاع فى القدس ان نؤكد مرة اخرى انه يتعين على اطراف هذا النزاع المحتدم بشأن اكثر مدن العالم حرمة وقدسية أن تتصرف بشكل يتسم بالمسئولية من اجل حل هذا الصراع بالكامل، كما اننا ندعو تلك الاطراف ايضا لان تحجم عن اتخاذ اى اجراءات قد يكون من شأنها زيادة تفاقم الموقف بدرجة اكبر.

رسالة من الرئيس المصرى انور السادات إلى الرئيس جيمى كارتر فى ١٧ سبتمبر ١٩٧٨

عزيزى السيد الرئيس :

اكتب اليك لتاكيد موقف جمهورية مصر العربية بخصوص القدس:

١- القدس العربية جزء مكمل للضفة الغربية ويتعين احترام واستعادة حقوق العرب القانونية والتاريخية فى المدينة.

٢- القدس العربية ينبغى ان تكون تحت السيادة العربية.

٣- سكان القدس العربية من الفلسطينيين لهم الحق فى ممارسة حقوقهم الوطنية المشروعة باعتبارهم جزءا من الشعب الفلسطينى فى الضفة الغربية.

٤- لابد من تطبيق قرارات مجلس الامن ذات الصلة وخاصة القرارين رقم ٢٤٢ و ٢٦٧ فيما يتعلق بالقدس . كل الاجراءات التى اتخذتها اسرائيل لتغيير وضع المدينة تعتبر باطلة وينبغى إلغاؤها.

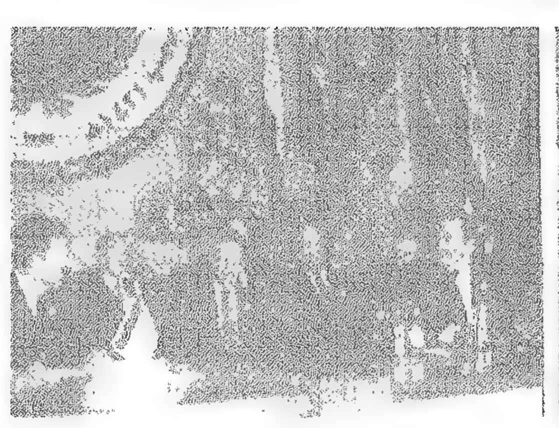
٥- جميع الشعوب يجب ان تتمتع بحرية دخول القدس وان تنعم بحرية ممارسة الشعائر الدينية وحق زيارة والانتقال إلى الاماكن المقدسة بدون تحيز أو تمييز.

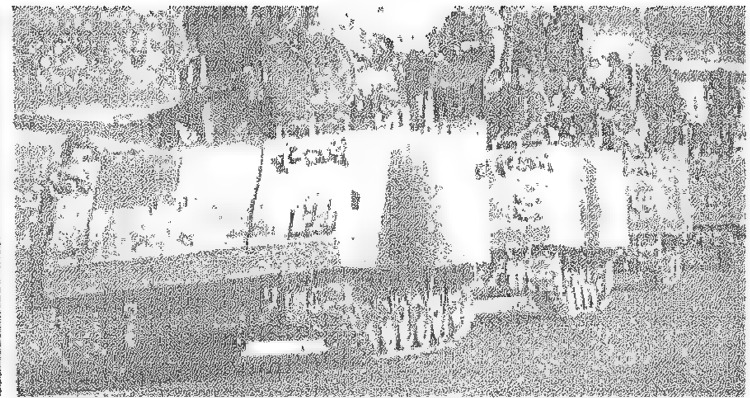
٦- الاماكن المقدسة لكل ديانة ينبغى ان توضع تحت ادارة واشراف ممثليها.

٧- يتعين عدم تقسيم الوظائف الاساسية فى المدينة ويمكن لمجلس محلى مشترك يتألف من عدد متساو من الاعضاء العرب والاسرائيليين ان يتولى الاشراف على تنفيذ هذه الوظائف وبهذه الطريقة ستكون المدينة غير مقسمة.

المخلص

محمد انور السادات





رسالتان من بيجين وكارتر

نص رسالة من رئيس الوزراء الاسرائيلى مناحم بيجين للرئيس الامريكى جيمى كارتر فى ١٧ سبتمبر ١٩٧٨

عزيزى الرئيس

انه ليشرفنى ان ابلغكم يا سيادة الرئيس ان الكنيست الاسرائيلي قام فى ٢٨ يونيو ١٩٦٧ بالتصديق على القانون التالى نصه : يحق للحكومة بمقتضى مرسوم فرض القانون وتحديد الاختصاصات وتصريف امور الدولة فى اى جزء من اجزاء ايريتز اسرائيل/ أرض اسرائيل/ فلسطين وذلك حسبما هو منصوص عليه فى المرسوم.

وعلى اساس هذا القانون قامت حكومة اسرائيل فى يوليو عام ١٩٦٧ باصدار مرسوم مؤداه أن القدس مدينة واحدة غير مقسمة وانها عاصمة لدولة اسرائيل.

المخلص

مناحم بيجين

نص رسالة من الرئيس الامريكى جيمى كارتر للرئيس المصرى انور السادات فى ٢٢ سبتمبر ١٩٧٨

عزيزى الرئيس

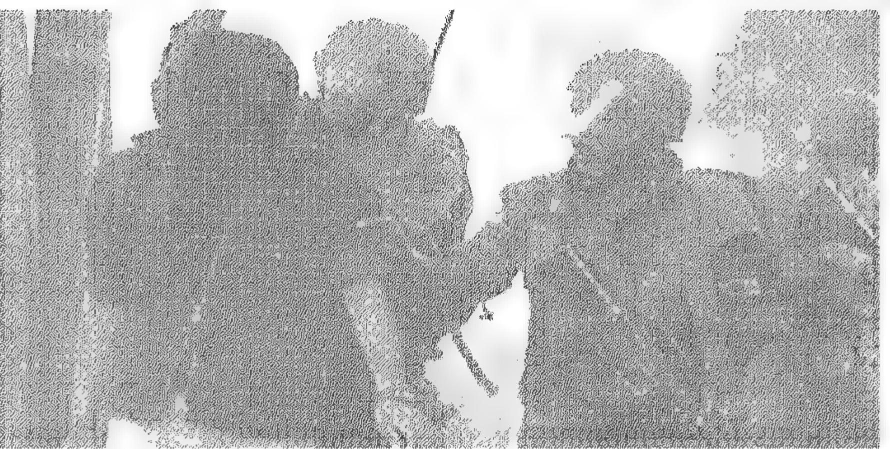
لقد تلقيت رسالتكم المؤرخة بتاريخ ١٧ سبتمبر ١٩٧٨ والتى تحدد ابعاد الموقف المصرى من مدينة القدس، وقد قمت بارسال نسخة من هذه الرسالة لرئيس الوزراء بيجين للاطلاع والعلم.

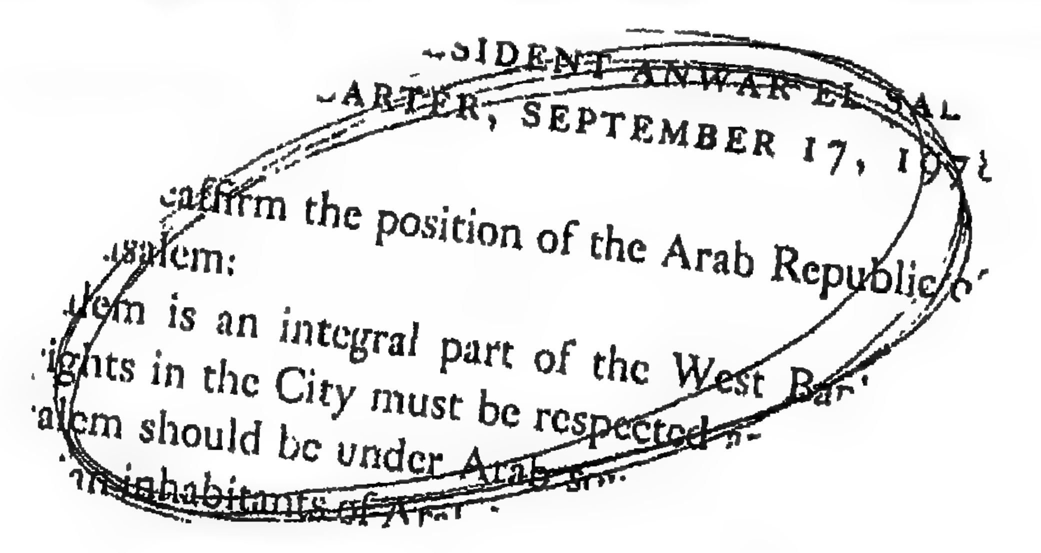
ومازال موقف الولايات المتحدة من القدس يتمثل فيما اعلنه السفير جولد برج امام الجمعية العامة للامم المتحدة فى ١٤ يوليو ١٩٦٧ ثم ما اعلنه السفير يوست امام مجلس الامن الدولى فى ١ يوليو ١٩٦٩.

المخلص

جيمى كارتر







-SIDENT ANWAR EL SAD
-ARTER, SEPTEMBER 17, 197

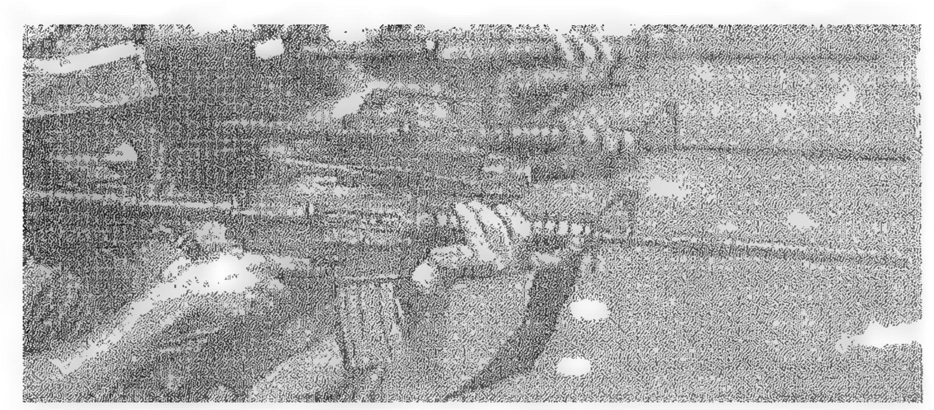
eaffirm the position of the Arab Republic o
usalem:
lem is an integral part of the West Ban
ights in the City must be respected
alem should be under Arab so
n inhabitants of A

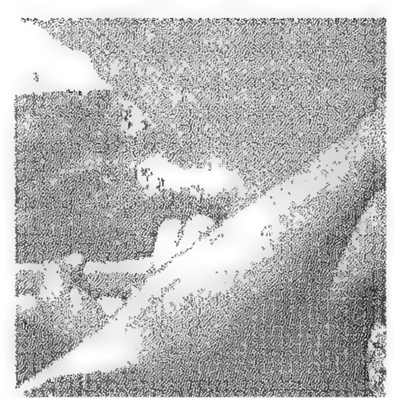
قلز ١٥ ترجمة مصر ٠٢/١٠/٠٠ ١١ : ٣٢ حفظ

اعلان اسوان

فى أول ايام عام ١٩٧٨ وفى اطار الجهود الرامية لحشد التأييد على المستوى العربى للرئيس السادات التقى الرئيس الامريكى جيمى كارتر مع الملك حسين. عاهل الاردن فى طهران، وعلى الرغم من ان الجو العام الذى ساد هذا الاجتماع كان طيبا الا ان الملك حسين ظل حريصا على عدم قطع اى التزامات محددة . وقد اعرب كارتر خلال هذا الاجتماع عن تأييده لان يتم ادخال بعض التعديلات ذات الاهمية الثانوية على خط حدود عام ١٩٦٧ فى منطقة الضفة الغربية فضلا عن منح الفلسطينيين قدرا محدودا من الحكم الذاتى تمهيدا لحصولهم على استقلال كامل.

كما التقى كارتر مع القادة السعوديين بالرياض فى الثالث من يناير حيث اعرب مجددا عن نفس آرائه السابق ذكرها. وقد اظهر السعوديون استعدادا للتوفيق والمصالحة غير انهم ظلوا مصرين على ضرورة ان يكون للفلسطينيين الحق فى أن تكون لهم دولة مستقلة. وذكر الرئيس الامريكى انه سوف يبذل قصارى جهده من أجل حمل رئيس الوزراء الاسرائيلى بيجين على قبول مبدأى الانسحاب وحق تقرير المصير للفلسطينيين، وذلك بالاضافة إلى فكرة ان تكون هناك فترة انتقالية غير ان العاهل السعودى الملك خالد طالب بضرورة الا تكون هذه الفترة طويلة للغاية.





Menachem Begin
...M PRESIDENT JIMMY CARTER TO
...ENT ANWAR EL SADAT, SEPTEMBER
...esident:
...ceived your letter of September 17,
... position on Jerusalem. I am transmi...
... Minister Begin for his information
...position of the United States...
...dor Goldberg in the U...
...subsequ...

وقد أدى هذا الموقف من جانب الرئيس الامريكى الى تورطه فى معركة كبرى مع اصدقاء اسرائيل فى داخل الكونجرس فى نفس الوقت الذى كان يسعى فيه جاهدا من احراز تقدم اطار مفاوضات السلام.

وفى الوقت نفسه سعى وزيرا الخارجية الامريكى فانس والسعودى الامير سعود من اجل وضع صيغة تعرب الولايات المتحدة بمقتضاها عن تأييدها لحق تقرير المصير بالنسبة للفلسطينيين.

وفى اليوم التالى توجه الرئيس كارتر إلى اسوان للالتقاء مع السادات حيث اعرب هناك عن آرائه المعروفة بشأن مدى الحاجة لتحقيق سلام حقيقى وكذا الانسحاب فى ظل اطار تحقيق الامن والعلاقات الطبيعية. وقال كارتر ينبغى ان يكون هناك حل للمشكلة الفلسطينية بكافة جوانبها حيث يجب ان يعترف هذا الحل بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى فضلا عن تمكين الفلسطينيين من المشاركة فى تقرير مستقبلهم.

ولم تحظ هذه التصريحات التى عرفت فيما بعد باسم اعلان اسوان باستقبال طيب من جانب الاسرائيليين كما ان العرب لم يدركوا كيف يمكنهم الاستفادة بها. وعلى الرغم من ذلك حظى اعلان اسوان بقبول فى اطار المحادثات المصرية الاسرائيلية بل انه قد جرى فى نهاية الامر دمجه فى اطار اتفاقيات كامب ديفيد.

أنت والهلال

العدوان السافر على الشعب الفلسطيني يكشف إسرائيل !

كشفت الأحداث الدامية فى الأرض الفلسطينية المحتلة كل الحقائق حول الأوهام التى عاش فيها بعض العرب لفترة طويلة ، حيث تصوروا أن اسرائيل تريد السلام ، وتود عمل تسوية تاريخية بين العرب واليهود .

وظهر خلال هذه الفترة أنها أكاذيب وأساطير وخرافات ! وأساطير ليس أمامها لكى تحقق أهداف الحركة الصهيونية سوى أن تقتل ، وأن تدمر ، وأن تذبح الفلسطينيين .

وثبت أيضا استحالة ذلك ، لأن العالم الآن أصبح قرية صغيرة ، وما حدث دخل كل بيت فى العالم من خلال محطات التليفزيون . وفى خلال الصراع العربى الاسرائيلى الذى استمر ١٠٠ سنة وقيام اسرائيل منذ ٥٢ سنة ، لم يحدث فى يوم من الأيام أن عبىء الشعب العربي والإسلامي والعالمي من اسرائيل كما عبىء خلال الأسبوعين الماضيين .

ولأول مرة يثور عرب ١٩٤٨ ضد سلطات الاحتلال الإسرائيلى ، وتظهراسرائيل على حقيقتها العنصرية ، وتهاجم الشرطة الإسرائيلية العرب فى كل من الناصرة وعكا وحيفا ويافا وتقتل ٢٠ من هؤلاء العرب وتصيب المئات .

د . ممدوح عثمان منصور
القاهرة

●● الهلال :

للقارىء العزيز نقول : إن هناك علاقة مميزة بين عصرين من خلال تلك الأحداث الدموية ، وهذا القتل الوحشى الذى حدث للشعب الفلسطينى .

- عصر ما قبل انتفاضة القدس
- وعصر ما بعد الانتفاضة

ولم يكن العالم العربى ، أو العالم كله كما كان قبل الانتفاضة . لقد أثبتت الأحداث الماضية أن القوة لا تتمثل فى السلاح وحده ، وأن القوة الحقيقية لمن لديهم العلم والمعرفة والقدرة على الابتكار والخلق ، ومواجهة الأزمات .

وهذه هى الأمور الحاسمة فى مستقبل الصراع العربى الإسرائيلى .

القدس

عبثا الزمان عليك تنعقدان … يا أخت مكة من قديم زمان
كلتاكما للفجر أهدت كفها … لتكون للإنسان كف حنان
كلتاكما وهج النبوة فوقها … بالواحد الرحمن تتصلان
كلتاكما من يعرب مدت عرى … لدمائه والضاد تنتسبان
نحن العماليق الألى ملكوا الذرا … بثراك شدنا تالد البنيان
تاريخنا يا قدس أنت سطوره … عربية الآباء والولدان
ولى إليك المسلمون وجوههم … بدءا ومسرى أحمد العدناني
من قمة الأنوار ثم بواسل … سادوا الدنى بالحق والقرآن
وتسابقوا كي يهدموا صنم الهوى … وعبادة الانسان للإنسان
يا قدس فارسك المقدر قد أتى … اسلامه أبداً كتاب أمان
هى دخلة أولى لمسجدنا كما … فى سورة الاسراء فى القرآن
والمرة الأخرى سندخله إذا … خرجت جيوش الله دون توان

شعر: السيد عثمان

نداء القدس

أنادى أمة عملت بدائى … ولكن لم يحركها ندائى
كأنى والعدا تقتات لحمى … وتشرب بالتذاذ من دمائى
بلا حام يذعنى بلاها … ويغضب لى ويبكى من بكائى
مصابى آلم الأحجار حزناً … وناحت منه اقطار السماء
فهل صمت مسامعهم وماتت … ضمائرهم فما حسوا ابتلائى ؟!

* * *

مضت خمسون عاما فى استلابى … فهل من قائد ينهى عنائى ؟!
أما قد حان عودى نحو اصلى … بجيش عارم يعلو لوائى ؟!
وما هذى الملايين الغفيرة … أهانت ؟! إذ أهانت كبريائى
بقبضة غاصبى ارجو فكاكاً … أما من ثائر يحيى رجائى ؟!
ألا يا أمة الإسلام إنى … سأرقبك فكفى عن جفائى

* * *

بلى يا قدس إن دموع قلبى … ونار الجرح زادت اصطلائى
وماذا تصنع الكلمات لما … تقابلنا رصاصات العداء
أرى للفجر إرهاصاً قريباً … برغم الليل أوشك بالزهاء
سنأخذ ثأرنا من كل باغ … ونطعمه مرارات البلاء

فيا صهيون ويلك من جموع ... تحب الموت حبك للبقاء
سيرفع صوتها : الله أكبر ... مدوية بأكناف الفضاء
ويرجع قدسنا المنهوب منا ... ولو سالت سيول من دماء

درهم جباري - سان فرانسيسكو

المقال الأدبي الذاتي بمجلة الهلال

كتب الأستاذ الفاضل الدكتور «محمد رجب البيومي» مقالاً بعدد هلال أغسطس ٢٠٠٠ يتساءل «أين المقال الأدبي الذاتي ؟» ، ونشر بريد الهلال رسالة من القارئة نيڤين الجمل تقول : «أعتقد أن معظم كتاباتي تنتمي إلى المقال الذاتي» ، والحقيقة أنني منذ أن قرأت مقال الدكتور رجب البيومي وأنا أضرب كفاً بكف متسائلا .. ألا يقرأ الدكتور البيومي مجلة الهلال التي ينشر بها مقالاته ؟ ، إذن كيف يتلفت باحثا عن المقال الأدبي الذاتي ، ومجلة الهلال تعج بأفضل كتاب المقال الأدبي الذاتي ؟ أم هو لا يعترف بمقالات الأساتذة المبدعين وديع فلسطين ، وحسن سليمان ، وصافيناز كاظم ، وجلال أمين ، وحسين أمين ، وقبل كل شيء القسم الجميل الذي خصصته مجلة الهلال لكتاب «التكوين» ومعظمهم كتبوا مسيرة حياتهم ممتزجة بالزمان والمكان والأحداث بأسلوب لا يمكن أن يصنف إلا بكونه «مقال أدب ذاتي» ؟ تحية لمجلة الهلال التي تضم بين صفحاتها أرقى نماذج «المقال الأدبي الذاتي» ؟.

فتحي عبد السلام حسن - قارئ متذوق

من وحي القصيد

أنّ الجنين من انتظار في دمي ... واستحكمت كل الدروب إلى الفم
كم ألف قيد دون قيد حاطه ... سحقاً لقيد ما أحاط بمعصم
وأخذت أصرخ دون صوت علّني ... يحبو جنيني للشفاه فيرتمي
ألم على ألم يهز مدامعي ... ويتوه في وسط الزحام تألمي
هزي جناحك يا يمامة رفرفي ... طيري بأحلامي ولا تتوقفي
هزي الجناح وعانقي صدر السـ ... ـحاب المستكين على ذراعي معطفي
ولتصفعي خد السماء بخافقيك ... بغير ذاك الصفع لا لن أكتفي
إني وضعت بمقلتيك أمانة ... صمتي وصوتي وانتفاضة أحرفي

أحمد محمد عبد الحافظ عبده
المنصورة

ملاحظات على مقالات شائقة

هذه بعض ملاحظات على مقالات شائقة نشرت خلال هذا العام فى الهلال أم المجلات العربية .

فى مقال نشر فى عدد يناير من الهلال بعنوان : «بعد أربعين عاما ، جامعة الدول العربية ستصبح غير ذات موضوع» .. بقلم السفير عبد المنعم مصطفى الأمين العام المساعد للجامعة ، وكان قد نشره عام ١٩٥٩ ، وأعادت «الهلال» نشره وأول من استعمل هذا التعبير «غير ذات موضوع» هو أحمد لطفى السيد .

وفى عدد مارس مقال لحسن سليمان عن الفن الشعبى ورد فيه القول المنسوب إلى ونستون تشرشل وهو «ليس لدى ما أقدمه سوى العرق والدموع والدماء» وكان أول تصريح له فور توليه رئاسة الوزارة عام ١٩٤٠ .

أحمد عزيز
عمان - الأردن

● **الهلال :**
نشكر للقارىء العزيز رسالته الضافية ، والتى تناول فيها أيضا ما كتبه الأستاذ وديع فلسطين فى عدد مايو عن حديقة جبران التذكارية ، وما أشار إليه الشاعر محمد ابراهيم أبو سنة فى مقاله عن الناقد د . لويس عوض وأنه أول من قدم إلى الروائى العربى الروائى جيمس جويس ونشكر للقارىء دقته فى التحليل ، وإرساله بعض الصور الضوئية للكتب التى استقى منها معلوماته القيمة .

عن الشاعر عبد الحميد الديب

طالعت فى عدد سبتمبر من الهلال دراسة مطولة بعنوان «شاعر البؤس عبد الحميد الديب المهاجر الأبدى بين أقطار الأسى» بقلم الدكتور فهمى عبد السلام ..

وقد شعرت بسعادة بالغة حينما تصفحت الهلال ووجدت هذه الدراسة - فأنا من المغرمين بالشاعر الديب وبقصائده الفريدة فى بابها وأتتبع كل ما يكتب عنه بلا مبالغة - وقلت لنفسى عسى أن أجد فيها جديداً حيث إنها تغطى أكثر من عشر صفحات من الهلال .. ولكنى صدمت حينما بدأت أطالع الدراسة ، فالأسلوب غير مترابط وأبيات الشعر غير موزونة ويبدو أن الدكتور فهمى قد استشهد بالأبيات من ذاكرته .. والأغرب من هذا كله ؟ أن الدراسة برمتها عبارة عن تلخيص لأشهر كتابين عن الشاعر الديب .

عزت سعد الدين
مذيع بالبرنامج العام

أعجبني مقال عبد الحميد الديب

من الموضوعات التى أعجبتنى بعدد سبتمبر ٢٠٠٠ من مجلة الهلال ، المقال الذى كتبه د . فهمى عبد السلام عن «شاعر البؤس عبد الحميد الديب» .

فقد ذكرتنى هذه الشخصية بمقال آخر كان قد نشر بمجلة الهلال أيضا فى سبتمبر ١٩٩٩ عن الفنان «أمين بك المهدى» تحت عنوان «الفنان وضبط الإيقاع» .

فالشخصيتان متشابهتان من حيث إبداعاتهما ومعاناتهما وتجاهل الآخرين لهما .

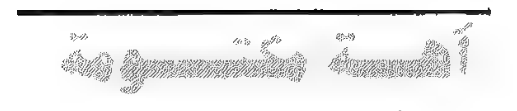
ولقد حاولت أن أبحث عن العامل المشترك بينهما الذى أدى بهما إلى هذه الحالة من البؤس والاخفاق فلم أجد سوى الآتى :

١ - تناول المخدرات والمسكرات - وهى حالة قد يلجأ إليها بعض الفنانين هربا من مشاكلهم ، أو رغبة فى قدح هممهم وإنعاش قراحهم ، فتكون النتيجة عكسية تماما ، حيث ينتهى بهم الأمر إلى الإدمان والقضاء على عبقريتهم وحياتهم معا .

٢ - حب النقد والهجاء اللاذع - وهى طبيعة كثير من الفنانين والأدباء ، ولكنها طبيعة تعود بالوبال عليهم .

فبأسهل ما يكون نجد أن عبد الحميد الديب يهجو أصدقاءه والمتعاطفين معه أمثال كامل الشناوى ومحمد أحمد الصاوى وابراهيم الدسوقى أباظه .

عادل شافعى الخطيب
عضو اتحاد الكتاب



من أين جئت وكيف نبه خاطرى ... ألق على شفة الهوى يتأرج ؟
ألق كأحلام الزهور إذا غفت ... يفتن فى ألوانها ويدبج
ويهدهد الغصن الجديب فينتشى ... ويعود ذابله نديا يبهج
وإذا اشرت ترف أجنحة المنى ... وإذا سكنت فكل قلب يخلج
وإذا نطقت فكل لفظ همسة ... تنساب فى القلب الكليم فيثلج
وتذوبين النور فى العطر الذى ... فتن الرياض فاقبلت تتبرج

فإذا بسحرك هز أكناف الربا   والطير ترتجز اللحون وتهزج
إلا أنا جثم الأسى فى ساحتى   ومضى وخلف حسرة تتأجج
أتراه إذ سكب الغرام بمهجتى   جعل اللظى بدمى يذوب ويمزج ؟
فأحسه ألما يهز جوانحى   مهما شكوت فليس ثمة مخرج

شوقى محمود أبو ناجى
أبو تيج

حالة ولادة

الكل شاخص ببصره ناحية الباب ينتظر خروج الداية بالبشرى .. يمر الوقت سريعا والداية تعافر مع المرأة فيدب القلق فى نفوسهم ، تتحول أنظارهم تجاه قرص الشمس .. مازال فى الوقت بقية .. تطل الداية آمرة .. استدعوا الداية الثانية .. الولادة عسيرة .. يأمر شيخ القبيلة بإحضارها .. يناقش الناس الحدث .. أهل المرأة يبغضون شيخ القبيلة .. المرأة كانت تعشق شيخ القبيلة .. أهلها لا يمتون لشرف القبيلة بصلة .. يقترب قرص الشمس من مخدعه فتتضرب القلوب .. تخرج الداية عابثة .. المرأة ترفض أن تضع حملها .. يزداد شيخ القبيلة غضبا .. يدخل إليها ليناقشها الأمر .

لما تريدين إفساد أفراح القبيلة ومنذ زمن لم يولد لها مولود ؟! .. ألم يعقد عليك زوجك ؟! .. ألم يدخل بك ؟! .. ألم .. الخ ؟!

– قالت لا .. صرخ فيها مستنكراً جوابها

ألم يعقد لكما مأذون القبيلة وكنت أنا أحد الشهود .. ؟!

– قالت بلى .. استرد هدوءه .. لماذا ترفضين ؟!

– قالت .. ألست أنت شيخ القبيلة .. ؟!

رفع رأسه منتشيا .. بلى وأردف ثم ماذا ؟!

– قالت .. إذن فأنت كل شيء .. ؟ يصرخ أحدهم .. الشمس أوشكت على الغروب .. يأمر شيخ القبيلة فلتلد رغما عنها .. تتكور المرأة على نفسها .. تقاوم وتقاوم .. عرف

القبيلة .. إذا أورقت بذرة فى الظلام فهو عار وشؤم على القبيلة .. يتجمع عشرة رجال .. عشرون .. ثلاثون .. ما زالت المرأة تقاوم وعندما تسمع نعيق البوم والغربان تتأكد من حلول الظلام .. تبتسم .. الآن سأكفيكم صعوبة المهمة .. تخرج الداية صامتة لتعلن وبصوت مشروخ .. الولادة تمت والجنين خرج ميتا ..!

عبد الحافظ عبد الحميد سلطان
قصر ثقافة ديروط

مناهج التفكير .. وصناعة المستقبل

ينتشر فى هذه الأيام استخدام عبارات : «إستيراد .. أو تصدير .. أو شراء التكنولوجيا» .

بينما «التكنولوجيا» كما عرَّفها الفيلسوف العلامة د. زكى نجيب محمود هى : «منهج التفكير فى كيفية نقل الفرض العلمى إلى حيز الوجود» .

وبذلك فالربط بين مسمى «التكنولوچيا» وبين الآلات والأجهزة الصناعية من تليفزيونات أو ثلاجات أو سيارات .. الخ باعتبارها أنها هى نفسها «التكنولوجيا» إنما هو خطأ بين .

وإذا تتبعنا العلاقة بين هذا المسمى وبين جهاز التليفزيون مثلاً نجد أن إنتاج التليفزيون قد تم بناء على إعمال منهج للتفكير ، قام مخترعه من خلاله بافتراض إمكان نقل الصوت والصورة لأى متكلم من مكان وجوده إلى مكان آخر يبعد عنه آلاف الأميال .. ثم أتبع هذا الافتراض بخطة متكاملة لتحقيقه من خلال الاستعانة بوسائل أو أدوات من أسلاك أو قطع معدنية أو أدوات كهربائية دقيقة .. الخ والربط بين عمل كل منها وبين بعضها البعض فى ظل بناء علمى متكامل ، بما يحقق الغرض المطلوب إثباته . وبناء مصنع كامل لا يُعد عملاً تكنولوجيا فى حد ذاته ، إلا بقدر ما ينطوى تنفيذه على تحقيق فكرة علمية جديدة تطور الأسس العلمية الموضوعة سلفاً لإنتاج ما .

وبالتالى فإن استقلالية الفكر هى حجر الزاوية فى أى تقدم تكنولوجى يصوغ ويصنع المستقبل الحضارى .

ومن المفيد هنا الوقوف على سير المخترعين العظام ودراسة مناهج حياتهم ، ذلك أن السيرة الذاتية لأى منهم ونهجه الحياتى ، وكيفية تزجية وقت فراغه .. وباختصار معرفة «كيف كان يفكر» ليس بمعزل عما توصل إليه من مخترعات أو اكتشافات .

يحيى محمود حسين
جامعة حلوان

إلى الأصدقاء

** سعيد عبد القوى محمد – بنى سويف

جميل جدا أن تكتب نشيدا للمكتبة تبدأ كلماته :

يا زائرا دارى   شرفت مقدارى

أهـــلا بزوارى   شهود أذكارى

** حاتم عبد المحسن غيث – الدقهلية

نرد لك تحيتك الرقيقة بالشكر والتقدير . والهلال تؤدى دورها فى نشر الثقافة وتقديم ألوان الفكر الذى هو متعة للعقل وفى انتظار قصائدك .

** د . سمير قطامى : رسالتك إلينا حول قصتى «عبور» ، «والرحيل المر» وما جاء بها من تحليل ونقد تدل على حاسة أدبية عالية وتمكنك من ناصية النقد ، فشكرا لك على ما جاء فى هذه الرسالة ..

ونشكر الأصدقاء :

محمد عثمان مصطفى – فريدة العدل بدوى – محمد حسان ابراهيم – عاصم فريد البرقوقى (الصديق الدائم) – د . وليد ربيع عبد الحليم .



لابد من بغداد وإن طال السفر

بقلم : د. عبدالعظيم أنيس

عندما اتصل بي المسئولون عن إعداد رحلة الوفد الشعبي المصرى الذى كان يزمع السفر إلى بغداد يوم ١١ أكتوبر الماضى يسألون إن كنت أرغب فى السفر معهم رحبت على الفور.

وكان تقديرى أنه، وقد طال الحصار الظالم على الشعب العراقى كل هذه السنوات العشر، من الواجب القومي أن تساهم الشعوب العربية في كسر هذا الحصار الذى سبقتنا إليه كل من روسيا وفرنسا. وكان تقديرى أيضا أن واجب مصر أن تكون سباقة وألا تتأخر كثيرا في هذا المضمار بعد أن سبقتنا طائرات الأردن واليمن وسوريا والمغرب.

إن هذا التضامن مع الشعب العراقي وكسر الحصار غير القانوني على رحلات الطائرات المدنية إلى العراق،لا يعنى بالضرورة تطابقا فى وجهات النظر مع وجهة نظر الحكومة العراقية. فقد أدنّا الغزو العراقى للكويت عندما وقع ولم نندم على هذا الموقف أبدا.

لكن الواقع الذى تعيشه دول الخليج اليوم وبعد خروج القوات العراقية من الكويت يبعث على الأسى، إذا استبدل الاحتلال العراقى للكويت باحتلال أمريكي بريطانى لمنطقة الخليج بالكامل، الأمر الذى يهدد شعوبها. ومن قواعد فى دول الخليج تقوم طائرات أمريكية بريطانية بالعربدة فى المجال الجوى العراقى دون أى سند من مجلس الأمن أو الامم المتحدة عموما.

رحبت إذن بالسفر إلى بغداد ضمن هذا الوفد الشعبى للاسباب التى ذكرتها ولأسباب شخصية أخرى، إذ تربطنى صداقات قديمة ببعض أساتذة جامعة بغداد الذين تعاونت معهم فى الماضى فى مشروعات تعليمية عربية بإشراف اليونسكو.

إلا أننى للاسف الشديد لم أسافر إلى بغداد يوم ١١ أكتوبر، وذلك بسبب طارىء صحي عارض ألم بي قبل السفر بيومين. واتصلت هاتفيا بابنتي وفاء - وهي طبيبة أمراض باطنة - التي حضرت على الفور وأجرت اللازم الذى أعادنى إلى وضعى الصحى المعتاد. وعندما علمت منى بنية السفر إلى بغداد اعترضت بشدة خصوصا عندما علمت أن الوفد سوف يعود إلى القاهرة في اليوم نفسه .

وفى النهاية رضخت لرجائها. لكن اسمى كان قد أدرج في قائمة المسافرين التى زودت بها الصحف ، وظن الكثيرون بالطبع أنى سافرت مع المسافرين.

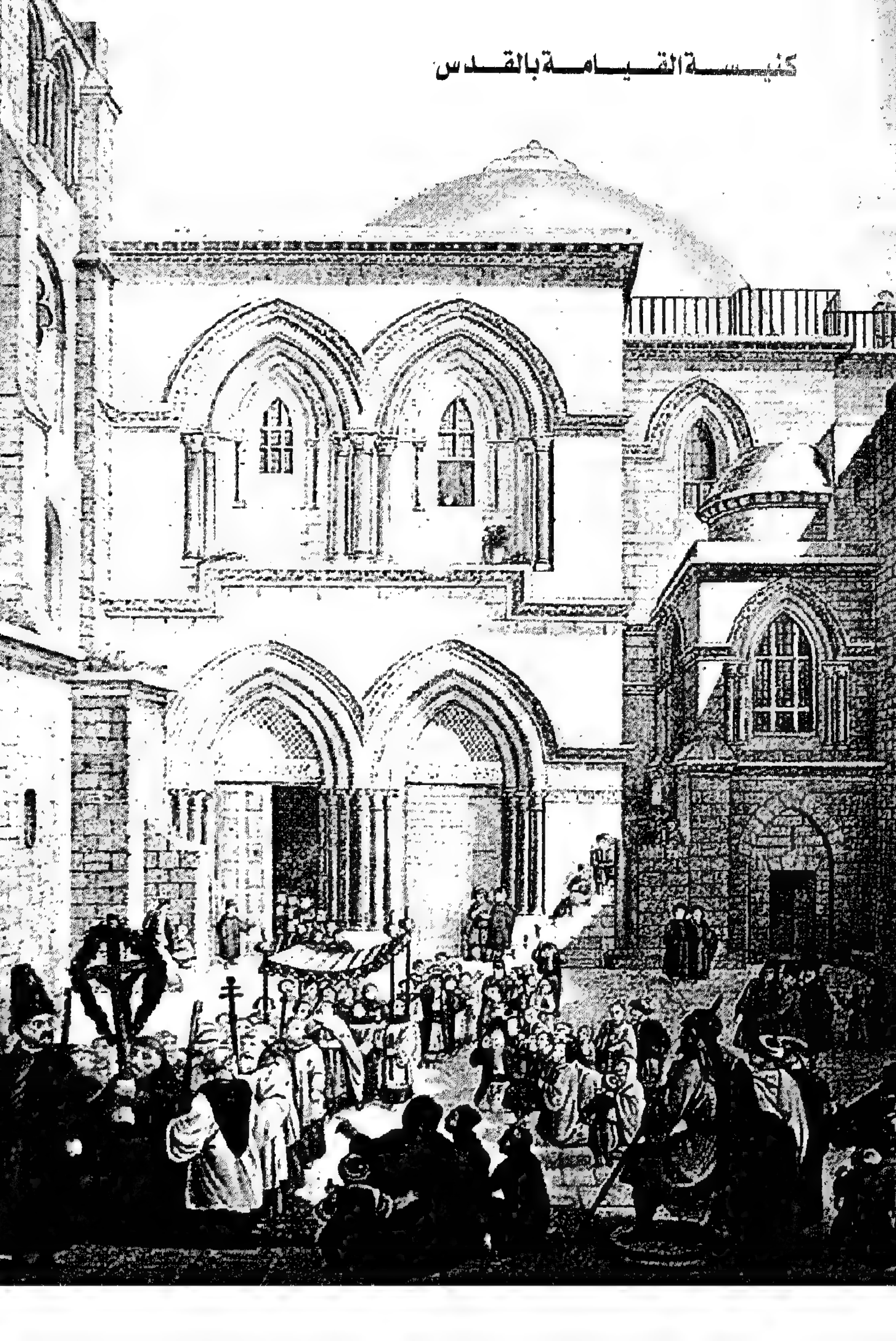
واتصل بى بعد عودة الوفد أكثر من صديق - بينهم مدير تحرير الهلال - يرجوننى أن أكتب لهم شيئا عن انطباعاتى عن تلك الرحلة ، فأصيبوا بخيبة أمل عندما قلت لهم إننى لم أسافر بسبب هذا الطارىء الصحى.

على أن خيبة أملي كانت أكبر لأننى لم أشارك فى هذا العمل الشعبى الجميل.

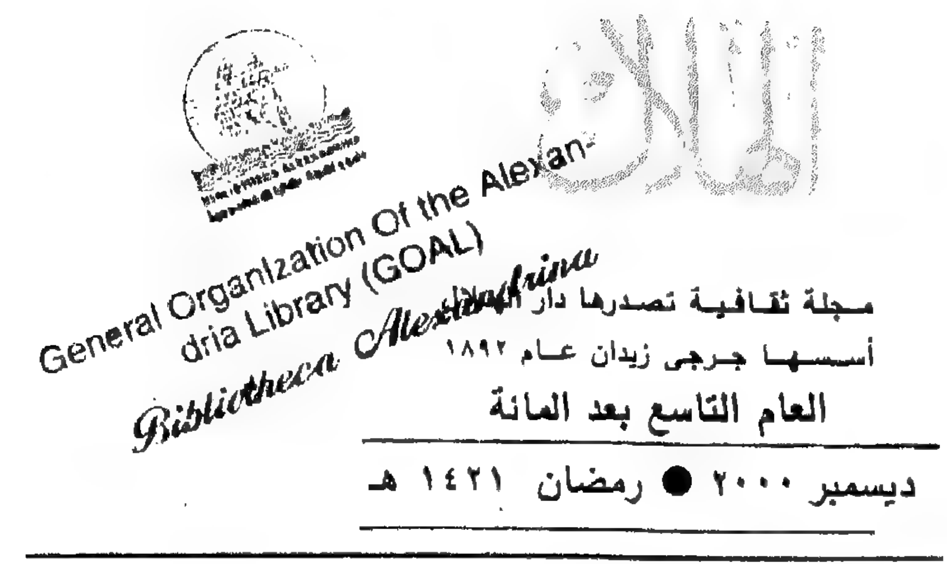

النغمة الجميلة العذبة فى ربوع الوطن العربى من مشرقه إلى مغربه
روايات مصرية للجيب
لفتح آفاق الثقافة والمعرفة فى عقول الأولاد والبنات
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع



الهلال
ديسمبر • الثمن جنيهان
معاني القرآن الكريم



كنيسة القيامة بالقدس



مجلة ثقافية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢
العام التاسع بعد المائة
ديسمبر ٢٠٠٠ ● رمضان ١٤٢١ هـ

الإدارة القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) . المكاتبات : ص.ب : ٦١ - العتبة - الرقم البريدي : ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج. م. ع. مجلة الهلال ت : ٣٦٢٥٤٨١ - تلكس : 92703 Hilal un فاكس : FAX : ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكتروني : darhilal@idsc . gov . eg

ثمن النسخة سوريا ٦٠ ليرة - لبنان ٣٠٠٠ ليرة - الأردن ١٢٠٠ فلس - الكويت ٧٥٠ فلسا، السعودية ١٠ ريالات - تونس ١.٧٥٠ دينار - المغرب ١٥ درهماً - البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبي/ أبو ظبي ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال - الجمهورية اليمنية ١٢٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ١ دولار - إيطاليا ٤٥٠٠ ليرة - المملكة المتحدة ٢.٥ جك

الاشتراكات قيمة الاشتراك السنوي (١٢ عدداً) ٢٤ جنيها داخل ج.م. تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٢٠ دولارا. أمريكا وأوروبا وافريقيا ٣٥ دولاراً. باقي دول العالم ٤٥ دولاراً
● وكيل الإشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيوني زغلول - ص ب رقم ٢١٨٣٣ - الصفاة - الكويت - ت/ 13079 ٤٧٤١١٦٤
القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفي لأمر مؤسسة دار الهلال ويُرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

فكر وثقافة



تصميم الغلاف
الفنان
محمد أبو طالب

الأبواب الثابتة

عزيزى القارىء

ينادى العالم اليوم بالتغيير، وملاحقة العصر، أى الانتقال إلى الأصح والأجمل والأكمل، ونحن نتطلع بأحلامنا إلى العام الجديد الذى تبزغ شمسه فى الأفق القريب.

ولايمكن اللحاق بالعصر إلا بفهمه ومسايرته والتعرف على أبعاده ثم التعامل معه وسيدفع الثمن غاليا كل من يقف فى طريق التطور، وغير مقبول أن نتمسك بالانتقال بالجمال فى عصر الصواريخ، ولايمكن الاكتفاء بالاستماع للإذاعة مع وجود التليفزيون.

ومازال القديم استبدادا ثقيلا يرهق الابتكار ويعطل التجديد، ولكن لايلومن الذى يتخلف عن العصر سوى نفسه.

وحان الوقت لتجديد مجلة «الهلال» وأن تصبح جزءا من مستجدات العصر فى إطار ثورة المعلومات، بعد أن خدمت «الهلال» أجيالا كثيرة من المثقفين والكتاب والقراء منذ العقد الأخير من القرن التاسع عشر وحتى اليوم.

ولايمكن أن تستمر مزدهرة ومتجددة، ولاتوضع مادتها على القرص الإلكترونى (السى. دى) ولاتظهر مقالاتها على الإنترنت.

عندها يكون من اليسير أن يجلس القارىء أمام الكمبيوتر، ويستدعى بأنامله كل ماكتبه كتابها على مر الأيام، وأية سهولة يقدمها القرص المغنط للباحثين والدارسين والمتطلعين إلى معرفة حركة الفكر العربى فى مده وجزره فى نهضته وانحساره.

فإذا كانت الكشافات هى أهم أدوات التوثيق فى الماضى، فالكمبيوتر والإنترنت هما لغة العصر الحديث، وهما الطريق إلى مايحتويه «الهلال»، والذى يقوم بالضرورة على أساس وحدة للتقسيم قد تكون اسما أو موضوعا، واستعادة وإحياء كل ماجاء فيها على مر الزمن.

فالهلال، مجلة الواقع المعاصر، والتراث الحى المتواصل، وهى أيضا مجلة مستقبلية فى نظرتها إلى المجتمع وإلى الحياة.

وعلى الواقع والتراث أن يتكاتفا لصنع المستقبل، ولعل أهم ما يمكن القيام به هو استعادة كل ماجاء فيها وأن تقدم من جديد قرائح الذين أضاءوا صفحاتها بعصارة قلوبهم، ووهج أفكارهم، والذين لولا فضلهم لما أصبحت للهلال حياة تتصل كل هذه السنين، وعندها سيتبين القارىء كيف استطاع «الهلال» أن يبقى عندما عبر عن كل مرحلة تاريخية بلسانها، وكان جديدا مع كل مرحلة، وعاش «الهلال» فى كنف القارىء طوال نحو أحد عشر عقدا من الزمان.

ولاتزال مجلة «الهلال» سجلا أمينا للثقافة العربية منذ نشأتها عام ١٨٩٢ وحتى اليوم، ومنبرا رفيعا لألمع الكتاب، تابعت انجازات العصر فى مختلف المجالات، وتكاد تنطق بالقضايا التى فجرها المثقف العربى، فى محاولة مستمرة للخروج بالثقافة العربية والواقع العربى من وهدة التخلف إلى آفاق النهضة، وتأكيدا وتطويرا للهوية العربية، ولحاقا وتفاعلا مع العصر.

ولايمكن الإجابة على سؤال ماذا يخبىء لنا القرن الحادى والعشرون، ذلك القرن الذى لاحياة فيه إلا للأمم التى تأخذ بأسباب التقدم، وإلا إذا استوعبنا دروس الماضى،

وقرأنا تلافيف عقل الأمة فى اجتهاداته وخبرته ومساهماته السابقة.

وكثيرا ما تصل خطابات إلى «الهلال» من الجامعات ومراكز البحث الأجنبية والعربية تسأل عن أعداد سابقة أو مقال بذاته لضرورته فى بحث أو رسالة، فهى مصدر غنى حافل يزود القارىء والباحث بقدر هائل من الحقائق والأفكار وتقدم صورة للعصور المختلفة التى عاشتها، وسجلا لما يتفاعل فيه من تيارات فكرية، وما يسوده من مفاهيم فى مجالات الفكر المختلفة، وتقدم التاريخ الاجتماعى بآفاقه الواسعة، ومجالاته المختلفة من فكر وفن وأدب، فهى أقدم دورية من نوعها فى عالم الصحافة العربية، وهى تقدم ملامح العهود المختلفة، وترى صورة المجتمع العربى فى تحولاته المختلفة، عندما تقرأ عن استخدام الكهرباء وتسيير القطار والترام، وكيف فكر المصلحون فى التعليم وتحرير المرأة وإنشاء الجامعة.

ولاشك فى أن قراء هذه الأيام سوف يبهرون إذا تصفحوا أسماء كتاب المجلة، فكل قادة الفكر والإصلاح وكبار الأدباء ورواد العلوم والفنون قد ملأوا بثمار عقولهم ومواهبهم صفحات الهلال، ترى على صفحاتها كيف استقبل المثقفون النظريات الحديثة مثل نظرية النشوء والارتقاء، ونظريات فرويد أو فكرة الجامعة العربية أو الإسلامية.

ووضع مادة «الهلال» خلال الأحد عشر عقدا الماضية يساعد على ذلك وتكررت محاولاتنا لإنجاز المشروع.

وسبق واتفقت «الهلال» مع وحدة التوثيق فى كلية الإعلام، بجامعة القاهرة، على القيام بهذا المشروع، ووعد عميدها السابق د. فاروق أبوزيد بإنجازه، لما فيه من خدمة للباحثين والدارسين فى الكلية، ومنذ الاتفاق سنة ١٩٩٨ وحتى اليوم لم ينجز هذا المشروع، وتكررت المحاولة مع مكتب الأمم المتحدة للتنمية فى القاهرة O. U. D. A والذى وعد بالقيام بالمشروع عند حصوله على تمويل(!).

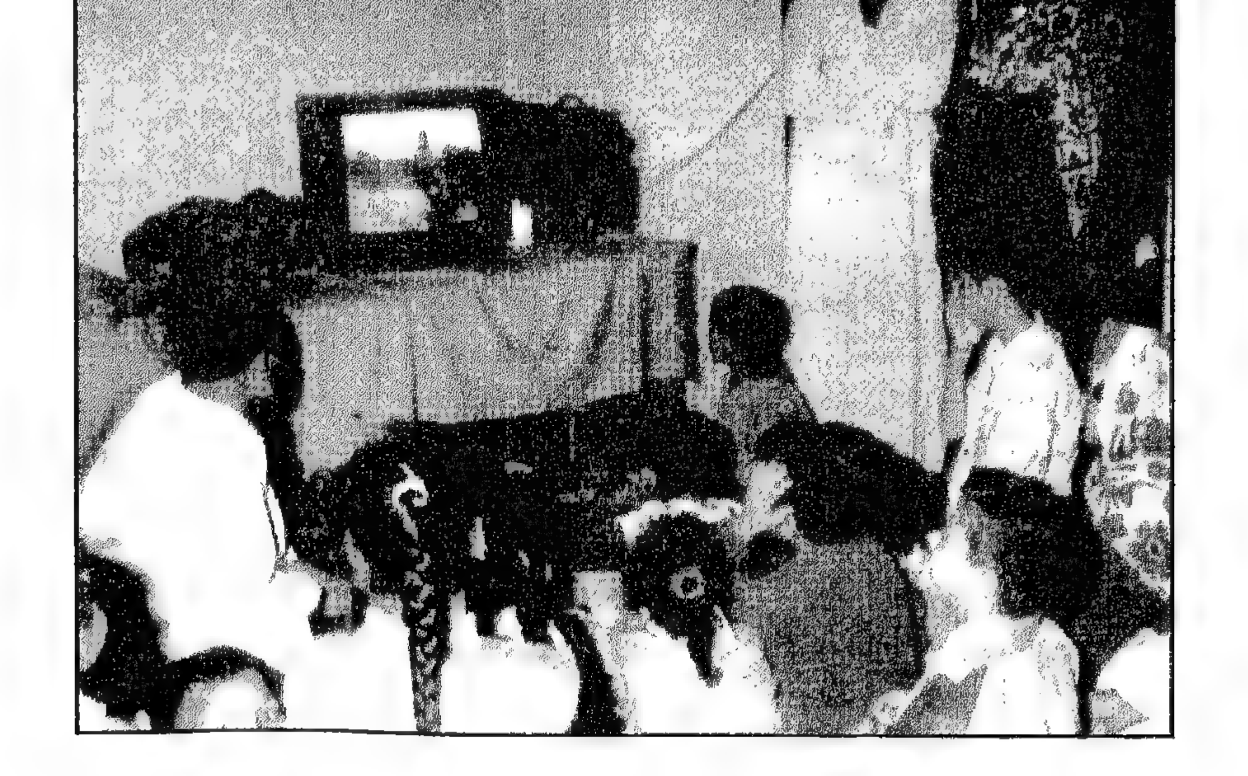
وعندما عرض المشروع على إحدى شركات القطاع الخاص، وافقت على تسجيل الهلال خلال مائة وتسعة أعوام على (السى. دى) وعلى الانترنت، على أن تتولى الشركة التسويق وتتناصف الأرباح مع «الهلال».. وتوقف المشروع!.

ولم ينجز المشروع حتى اليوم رغم أهميته وبحيويته للثقافة العربية، وما أحوجنا فى عصر المعلومات إلى تبويب المادة وتصنيفها وتنسيقها بما ييسر على القارىء الوصول إليها بيسر وسهولة، وسبق لدار الهلال أن نشرت كشافا للهلال توقف عند سنة ١٩٣٦، ويقوم اليوم الأستاذ سمير غريب مدير دار الكتب والوثائق القومية باستكمال كشاف الهلال، ومن نافلة القول التأكيد على أهمية هذا العمل والفائدة الكبيرة له.

ويبقى أن يوجد من يكمل الطريق، ويضع كل مقالات الهلال ومادتها على القرص الممغنط (السى. دى)، ولعل «دار الكتب» تقوم بهذه المهمة فلديها إدارة مركزية مجهزة للمراكز العلمية المتخصصة، وجزء من مهماتها جمع التراث وتسجيله.

وعلى أية حـــال لن نكف عن المحـــاولة.

المحرر



التليفزيون كأداة للقهر

بقلم : د. جلال أمين

فى شهر رمضان يلعب التليفزيون دورا، لا يكاد يلعب مثله فى أى شهر آخر من شهور السنة هل هو حقا أداة للترويح عن النفس والتثقيف أم هو أيضا أداة للقهر؟!..

من الممكن جدا أن يجد مؤرخو المستقبل، عندما يكتبون تاريخ العالم فى القرن العشرين، أن من أنسب الأوصاف التى يمكن أن يطلقوها على النصف الثانى من ذلك القرن (١٩٥٠ - ٢٠٠٠) هو أنه «عصر التليفزيون». ربما كان من الممكن، مع الكثير من التجاوز، أن يصفوا النصف الأول من ذلك القرن (١٩٠٠ - ١٩٥٠) بأنه كان عصر الراديو والسينما، ولكن لا الراديو ولا السينما تحققت لهما قط درجة الانتشار التى تحققت للتليفزيون، ولا «ملأ أى منهما الدنيا وشغل الناس» مثلما فعل هذا الصندوق المدهش.

لم تعرف مصر التليفزيون لمدة تزيد على الأربعين عاما، ولكن حتي فى أوروبا وأمريكا لم يتحقق للتليفزيون هذا الانتشار المدهش بين سائر الطبقات الاجتماعية قبل منتصف القرن. كان ونستون تشرشل فى إنجلترا يعتمد فى إثارة حماسة الإنجليز فى حربهم ضد الألمان حتى منتصف الأربعينات على كلماته النارية فى الإذاعة، وكانت أمريكا تغزو العالم ليس بالمسلسلات التليفزيونية، بل بأفلام هوليوود. ولكن بمجرد أن عرف الناس التليفزيون وخبروه تركوا كل شيء، بما فى ذلك الأهل والأصحاب، وفضلوا الجلوس أمامه، وخصصوا له أفضل مكان فى البيت، وأحاطوه بمختلف أنواع الحماية والرعاية، وركبوا له عجلات ليسهلوا له الحركة من مكان إلى مكان، وصنعوا صوانى خاصة لتقديم العشاء أثناء مشاهدته، أسموها «صوانى التليفزيون»، كما أطلقوا على التليفزيون نفسه مختلف أسماء التدليل أشهرها «تلى»، وبلغ حب الناس له حداً أصبح معه من الصعب انتزاع الزوجة لزوجها من أمام التليفزيون، أو العكس، كما أصبح كثيرون من أطفال الولايات المتحدة يقضون أمامه عددا من الساعات يفوق ما يقضونه فى المدرسة.

ليس من رأى كمن سمع

ليس من الصعب تفسير هذا النجاح الباهر والحب الطاغى، نعم كان للراديو عند ظهوره سحر وشعبية واسعة، ولكن هذا السحر وهذه الشعبية لم يصمدا طويلا بعد أن عرف الناس التليفزيون، ذلك أن من رأى ليس كمن سمع، وحاسة البصر فيما يظهر أكثر تملكا للنفس من حاسة السمع، فما بالك إذا اجتمع الاثنان؟ صحيح أن الشاعر العربى يقول إن «الأذن تعشق قبل العين أحيانا»، ولكن

هذا الشاعر بالذات (بشار بن برد) كان ضريرا، وهو على كل حال لم يكن يتكلم عن القاعدة بل عن الاستثناء. ويبدو أن المرء يجد صعوبة أكبر فى تجاهل ما يمرّ أمام عينيه مما يجد فى تجاهل ما يمر بسمعه من أصوات ، فأنت لا تستطيع أن تقاوم ، أثناء جلوسك مع عائلتك فى حجرة بها تليفزيون، وأيا كانت أهمية ما يدور بينكم من حديث اختلاس النظر كل حين وآخر لترى الصورة المعروضة على الشاشة. وربما كانت هذه هى الحكمة من أن كان للإنسان غطاء للنظر، يفتحه ويغلقه حسب الحاجة، دون أن يكون للسمع غطاء مثله .

هل العين أكثر ديمقراطية من الأذن ؟

بل قد لا يكون من الشطط القول بأن العين قد تكون «أكثر ديمقراطية» من الأذن، ذلك أننا إذا استثنينا الموسيقى، التى تخاطب الوجدان عن طريق الأذن، بأكثر بكثير مما تخاطب العقل، نجد أن التواصل الإنسانى عن طريق الأذن أكثر اعتمادا على العقل من التواصل الإنسانى عن طريق العين. إن المرء، فيما يبدو، يتأثر بما يسمعه بسبب مضمونه ومنطقه، أى بناء على تأثيره فى عقله، بينما يتأثر بما يراه لأسباب واهية الصلة بالمنطق والاقناع. نعم قد يتأثر الطفل الرضيع بصوت أمه بأكثر بكثير مما يتأثر بمنظرها، ولكن هذا لا يستمر على الأرجح لمدة طويلة، إذ ما أن تتفتح عينا الطفل على العالم حتى يغلب أثر ما يراه على أثر ما يسمعه!.

هذا هو ما أقصده عندما أقول إن العين «أكثر ديمقراطية» من الأذن، إذ لا يتفاوت الناس فيما بينهم فى مدى تأثرهم بما تجلبه العين من رسائل ، على الأرجح، بقدر اختلافهم فى مدى تأثير رسائل الأذن.

قد يفسر كل هذا شيوع التعبيرات، فى مختلف اللغات، التى تتضمن رفعا من شأن العين بما يفوق بكثير شأن الأذن. نحن نصف الحبيب بأنه «أعز علينا من العين»، ولا نقارنه قط بالأذن، ونصف الشىء الغالى عندنا بأنه «قرة عيننا». واستخدام المجاز فى اللغة بالاشارة إلى العين أكثر بكثير ، فيما يبدو، من الاشارة إلى أى حاسة أخرى. فأنت تسأل من تخاطبه «هل ترى ما أعنيه؟» وتحول الموضوع لرئيسك أو مرءوسك، إذا كنت موظفا، «للنظر فيه»، ونحن نصرّ على القيام بشىء «بصرف النظر» عما عداه، فضلا عن أننا «نرى» الحلم ولا نكاد نسمعه.

من السينما إلى التليفزيون

لازلت أذكر كيف كان للصورة

الفوتوغرافية جاذبية شديدة عندما اكتشفناها لأول مرة فى طفولتنا، وكيف كنت أرى الفلاحين المصريين الذين كانوا مازالوا حديثى العهد بها يتسابقون للوقوف أمام الكاميرا، حتى الرجال الكبار منهم، أملاً فى أن يروا صورتهم مطبوعة فى أيديهم. كان هذا شأن الصورة الثابتة فما بالك إذا تحركت؟ ثم ما بالك إذا اجتمعت الصورة المتحركة مع الصوت؟.

كان للسينما هذا السحر وهذه الجاذبية الفائقة فى بداية القرن العشرين. حتى الأفلام الصامتة كان لها فى العقدين الأولين من القرن جاذبية لا تقاوم جعلت من شارلى شابلن ولوريل وهاردى شخصيات معروفة فى العالم بأسره.

ولكن السينما تلقت ضربة قاصمة بظهور التليفزيون. كان الفرق بين السينما والتليفزيون كالفرق بين سيارة الأتوبيس والسيارة الخاصة.

إذ تحرر مالك التليفزيون مثلما تحرر مالك السيارة الخاصة من أهواء شركة النقل العام، فأصبح هو الذى يحدد محطة الصعود والنزول ويختار ما يسير فيه من شوارع، بل ويكفيه أن يحرك مفتاحا صغيرا أو يضغط على زر صغير فيبدأ كل شىء فى العمل.

جمهور الثقافة الوسطى

لم يكن من الصعب بالطبع على منتجى التليفزيون أن يخمنوا حجم الربح الذى يمكن أن يعود عليهم من هذا الاختراع المدهش، وقد تحقق لهم ما توقعوه وزيادة، فى البداية، ظل التليفزيون، حتى فى البلاد التى اخترعته، أعلى نفقة مما تتحمله الجماهير الغفيرة. كما واجه بعض المقاومة من بعض الشرائح العليا من علية القوم الذين رأوا فيه أقرب إلى أذواق الطبقة الوسطى وتعطيلا لهم عن قراءة كتاب أو حضور مسرحية، ومن ثم ظل التليفزيون إلى أواخر الخمسينات محصورا فى الطبقة الوسطى، تعجز العشرون أو الثلاثون فى المائة من شرائح الدخل الدنيا عن شرائه، وتأنف الخمسة أو العشرة فى المائة العليا من النظر إليه. ولكن هذا الحال لم يستمر طويلا، إذ لم تأت السبعينات إلا وكان التليفزيون قد أصبح قطعة أساسية من قطع الأثاث فى أى بيت أمريكى أو أوروبى.

خلال تلك الفترة القصيرة من عمر التليفزيون، والتى كان يخاطب فيها نسبة الأربعين أو الخمسين فى المائة من السكان، الواقعة فى شرائح الدخل الوسطى، كانت برامج التليفزيون تتسم بسمات تختلف اختلافا واضحا عما نراه اليوم. كان جمهور التليفزيون فى ذلك الوقت جمهورا أعلى بكثير فى مستوى

الثقافة والتعليم من جمهور التليفزيون اليوم، ومن ثم كان على برامج التليفزيون أن تكون بدورها أعلى مستوى وأكثر ذكاء. إن من لايزال يتذكر نوع البرامج التى كان يقدمها التليفزيون الانجليزى أو الأمريكى فى الخمسينات، ويقارنها بما يقدمه اليوم هذا التليفزيون أو ذاك، لابد أن يستولى عليه العجب من شدة الاختلاف. كانت البرامج قبل خمسين عاما أقل إثارة ، وأقل اعتمادا على الجنس والعنف، وأكثر اعتمادا على الاقناع منها على الايحاء، بل كثيرا ما كانت تخاطب الأذن أكثر مما تخاطب العين. كانت برامج التليفزيون أقرب فى «ارستقراطيتها» إلى ما يذيعه الراديو، وأكثر احتشاما ووقارا مما تعرضه دور السينما. لازلت أذكر مثلا ما كنت أراه فى التليفزيون الإنجليزى فى أواخر الخمسينات من برنامج أسبوعى اسمه (مجمع العقول Brains Trust) حيث كان يجلس أربعة أو خمسة من أكبر المفكرين البريطانيين ، ويدير الحوار بينهم مذيع لا يقل عنهم ذكاء ووقارا، فيتحاورون ساعة كاملة حول أسئلة يرسلها إليهم مشاهدو التليفزيون خلال الأسبوع السابق فى الفلسفة أو التاريخ أو الأدب.. إلخ . لم يكن للصورة شأن كبير فى برنامج كهذا، ومن ثم فإنى لا أحتاج للقول بأن هذا البرنامج قد اختفى تماما من التليفزيون الإنجليزى خلال الستينات، ولم يعد فى التليفزيون الإنجليزى اليوم (ناهيك عن الأمريكى) شىء يشبهه أو يقاربه.

لم يكن سبب هذا التغيير بالطبع، أن المهتمين بالثقافة الرفيعة قد أصبحوا أقل عددا، إذ العكس طبعا هو الصحيح. وإنما كان السبب هو أن هؤلاء المهتمين بالثقافة الرفيعة، على الرغم من ازدياد عددهم ، لم يعودوا قادرين على الصمود فى منافسة الأعداد الغفيرة من الجماهير التى تطلب الصورة أكثر مما تطلب الصوت، والحركة السريعة بدلا من الثبات، وإثارة المشاعر بدلا من إثارة الفكر.

التليفزيون والجماهير الغفيرة

كان العامل الأساسي وراء هذا التحول هو ذلك التطور البسيط جدا والتافه للغاية: وهو انخفاض نفقة إنتاج جهاز التليفزيون إلى مستوى جعله فى متناول هذه الجماهير الغفيرة. وإنما المخيف حقا هو أن هذا العامل البسيط جدا والتافه للغاية الذى جلبه تقدم تكنولوجى صغير، أدى إلى قلب الحياة الثقافية والفكرية رأسا على عقب، لم يقتصر الأمر على أنه مع تغير طبيعة الغالبية العظمى من مشاهدى التليفزيون

كان من المحتم أن تتغير طبيعة البرامج التي تقدمها بحيث تصبح مناسبة لأذواق هؤلاء المشاهدين الجدد. بل الأقدح والأخطر هو ذلك الأثر الذي نجم عن مجرد الزيادة الكمية في أعداد المشاهدين حتى بصرف النظر عن مستواهم الفكرى وطبيعة أذواقهم.

ذلك أن هذه الزيادة الكبيرة في أعداد مشاهدي التليفزيون جعلت فرصة تحقيق الأرباح الطائلة من وراء التليفزيون لا تقتصر على منتجي جهاز التليفزيون وبائعيه، بل امتدت أيضا، وبدرجة أكبر، إلى كل من له مصلحة في ترويج السلع، أى سلع، سواء في ذلك منتجو هذه السلع نفسها أو المشتغلون بصناعة الإعلانات المقصود منها هذا الترويج.

لم تكن للإعلان التليفزيوني أهمية تذكر طوال الخمسينات، حتى في الدول الصناعية الغنية، بل ظلت معظم القنوات التليفزيونية خالية تماما منه حتى انتهاء ذلك العقد. ثم بدأ زحف الإعلانات شيئا فشيئاً حتى أصبحت هي مصدر الربح الأساسي لأصحاب هذه القنوات. وقد توارت إلى جانب أرباح الإعلانات أرباح منتجي جهاز التليفزيون نفسه أو بائعيه، ناهيك عما تحصّله بعض الدول من رسوم مقابل استخدام التليفزيون، وقد ترتب على ذلك النتيجة الحتمية الآتية: وهي أن عرض الإعلانات وتوزيعها على أوقات البث التليفزيوني لم يعد يجرى بما يناسب ما يعرضه التليفزيون من برامج، بل أصبحت موضوعات هذه البرامج وطبيعتها تتحدد، أكثر فأكثر، طبقا لما يريد أصحاب السلع عرضه من إعلانات، هذا التطور المخيف حقا يشبه التطور الذى حدث في العلاقة بين إنتاج الأسلحة ونشوب الحروب. فبدلا من أن تنشب الحرب أولا ثم يجنى منتجو الأسلحة من ورائها الأرباح الوفيرة، أصبح منتجو السلاح وبائعوه يقدمون أحيانا على التشجيع على نشوب حرب، وقد يختلقون أسبابها اختلاقا، من أجل تصريف المزيد من الأسلحة.

التليفزيون في مصر

اتخذ تطور التليفزيون في مصر وفي سائر بلاد العالم الثالث، خطوات مشابهة لما اتخذه في البلاد الأكثر ثراء. مع تسارع هذه الخطوات وفقا لما اعتدنا عليه دائما من أن يستغرق عشرات السنين في الدول المتقدمة تكنولوجيا قد لا يستغرق عندنا إلا بضع سنوات. لقد حدث هذا في تخفيض معدل الوفيات، وفي تضخم حجم المدن، وفي اكتظاظ الطرق بالسيارات الخاصة.. إلخ. ولكن الخطوات هي هي: برامج عالية المستوى نسبيا في البداية تخاطب جمهورا محدود العدد، تليها برامج متدنية المستوى تخاطب جمهورا

أوسع مع تخلل الإعلانات لهذه البرامج، إلى أن وصلنا إلى برامج تتحدد طبيعتها طبقا لمشيئة أصحاب هذه الإعلانات.

فعندما دخل التليفزيون مصر لأول مرة فى مطلع الستينات، كان جمهوره محدودا بحدود شريحة اجتماعية صغيرة هى القادرة على دفع ثمن الجهاز أصلاً، وقد كان هذا الثمن فى مطلع الستينات كافيا لاستبعاد الغالبية العظمى من الشعب المصرى، التى كانت على أى حال، تسكن فى ذلك الوقت بيوتا لم تدخلها الكهرباء أصلا، كان من الطبيعى إذن أن تكون برامج التليفزيون المصرى فى أوائل عهده أكثر وقارا وأعلى مستوى مما شهدناه بعد ذلك ، سواء من حيث المضمون، أو اللغة المستخدمة، أو جدية التناول. فلا كان جمهور التليفزيون فى ذلك الوقت ليقبل هذا المستوى المتدنى الذى نعرفه اليوم، ولا كان حجم هذا الجمهور ليغرى أصحاب الإعلانات ومروجى السلع بغزو هذا الجهاز الجديد.

وقد اقترن دخول التليفزيون إلى مصر، شأنها فى ذلك شأن معظم بلاد العالم الثالث، بتحقيق وظيفة أخرى لم تعرفها بالدرجة نفسها، تليفزيونات العالم الأكثر رخاء، وهى استخدام السلطة السياسية للتليفزيون للترويج لشعاراتها وتثبيت أقدامها فى الحكم ومهاجمة أعدائها. بل لقد استخدم التليفزيون فى بعض دول العالم الثالث حديثة العهد بنظام الدولة الحديثة، ككثير من الدول الأفريقية وبعض الدول العربية، لترسيخ فكرة الدولة القومية وتوحيد القبائل المتفرقة حول أهداف واحدة. ولكن حتى هذا الاستخدام السياسى للتليفزيون كان فى السنوات الأولى أعلى مستوى وأكثر رصانة مما أصبح بعد ذلك، عندما زاد حجم جمهور التليفزيون زيادة كبيرة.

ففى مطلع الثمانينات، أى بعد عشرين عاما من ظهور التليفزيون فى مصر، كان الأمر قد انقلب رأسا على عقب فقد أدى تيار الهجرة الكاسح إلى دول الخليج إلى زيادة القوة الشرائية لدى شرائح اجتماعية واسعة لم تكن أحوالها تسمح من قبل باقتناء التليفزيون ، فإذا بهم يعودون إلى مصر بعد تكوين ثروة صغيرة، ومعهم التليفزيون.

كان من المحتم أن تستجيب البرامج الجديدة للأذواق الحديثة، كما كان لابد أن يسيل لعاب منتجى السلع وبائعيها ومروجيها لهذه الفرصة الرائعة لتوسيع السوق عن طريق شاشة التليفزيون. لقد بدأت الإعلانات فى مصر على استحياء فى البداية، ولم تكن تجرؤ على الظهور إلا بين برنامج وآخر عندما ينتهى الأول تماما وقبل أن يبدأ الآخر. ولكنها شيئا

فشيئا تجرأت حتى أصبحت تقاطع التمثيلية الواحدة والمباريات الرياضية عدة مرات، بل وتجرأت فظهرت بعد ثوان قليلة من أذان المؤذن للصلاة، اكتفاء بعزف لآلة وقورة نسبيا، كالقانون أو العود، بين الأذان والإعلان، كما اختلطت الإعلانات خلال شهر رمضان، اختلاطا مدهشا بشعائر الدين والبرامج الروحية، فإذا بالجمهور المسكين يتلقى الصفعات من مروجي السلع من اليمين واليسار، وفي أي ساعة من ساعات النهار أو الليل، بينما استمر القائمون على إدارة هذا الجهاز في الزعم بأن التليفزيون لا يستهدف إلا تسلية الجمهور وتوعيته وتثقيفه.

التلفزيون والعولمة

على أن التليفزيون دخل عصرا جديدا، في كل أنحاء العالم، شماله وجنوبه، وفي الشرق كما في الغرب، بوصول عهد الأقمار الصناعية والقنوات الفضائية. ففجأة أصبح في قدرة التليفزيون الوصول بالبرنامج الواحد، وفي اللحظة نفسها، إلى الأطراف المترامية للكرة الأرضية، وتضاعف في لمح البصر حجم الجمهور الذي يمكن أن يصل إليه المسلسل نفسه أو المباراة الرياضية نفسها أو نشرة الأخبار نفسها، ومن ثم وبالضرورة، الإعلان نفسه.

إن الأمر يبدو لأول وهلة وكأنه مجرد تطور في الكم، أي مجرد تضخم في حجم الجمهور، ولكن الحقيقة أخطر من ذلك وأدهى بكثير. فتضخم حجم الجمهور الذي يطلب السلعة لابد أن يؤدي، كما سبق أن رأينا، إلى تغير طبيعة السلعة نفسها. إن منتج السلعة يجد نفسه الآن أمام فرصة لتسويق سلعته في العالم بأسره، وهذا لابد من أن يزيد بالطبع من حجم الربح. ولكن الربح لابد أن يكون أكبر كلما كانت السلعة تستجيب للقاسم المشترك الأعظم في هذا الجمهور الواسع، أي للميول والنوازع والأذواق التي يشترك فيها جمهور العالم بأسره.

كيف يمكن إذن تحوير السلعة وتطويرها بحيث تستجيب بالفعل لهذا الجمهور بأسره؟

لابد أولا من التخلص، بقدر الامكان، من الصفات المحلية أو القومية، التي قد يستجيب لها المستهلك الفرنسي مثلا ولكنها قد لا تعجب الصيني أو الكوري. قد تعجب المسيحي ولكنها قد لا تعجب المسلم. الأفضل التركيز على تلك الصفات التي يستجيب لها الإنسان كإنسان، أو حتى، وهذا هو أفضل الحلول، التركيز على تلك الصفات التي يستجيب لها الإنسان بوصفه حيواناً. ذلك أنه ليس هناك ما هو أكثر انتشارا، ومن ثم أكثر ضماناً لتحقيق الربح، من الغرائز

الأساسية التى يشترك فيها الفرنسى والصينى والكورى ، المسيحى والمسلم والبوذى، الجنس الأبيض والأصفر والأسود والبنى. وينطبق هذا ليس فقط على تسويق السلع، بل وكذلك على تسويق البرامج والمسلسلات والأخبار. نعم، إن الفضيحة، أى فضيحة ، تستلفت النظر وتتمتع بشعبية واسعة، ولكن الفضائح ليست سواء. فالأفضل، مادام المراد هو التسويق على نطاق العالم بأسره، التركيز على ما يعتبر فضيحة فى نظر الهندى والأمريكى والعربى على السواء . والمرأة الجميلة يمكن تسويق أخبارها على نطاق واسع، ولكن من المستحسن أن يكون وجهها من النوع الذى لا تختلف بشأنه الأذواق اختلافا شديدا . وقد كان وجه الأميرة المسكينة «ديانا» ، لسوء حظها، من هذا النوع، ومن ثم تلقفه مصورو التليفزيون كنعمة هبطت عليهم من السماء. والبطل الرياضى البارع له بالطبع جاذبية كبيرة ويمكن تسويقه بسهولة، ولكن من الأفضل ، لاعتبارات التسويق أيضا، أن يكون حسن الحديث لطيف المعشر، بل وقد يساعد على تسويقه أيضا أن تكون له خطيبة جميلة يحبها وتحبه، وتلتقط لها بعض الصور من حين لآخر أثناء قيامه بلعب التنس، فيرى الجمهور درجة اهتمامها بشأنه، وأثر الصدمة على وجهها، إذا لم يقدر له الفوز على غريمه.

صحيح أن الشهرة فى حد ذاتها مجلبة لمزيد من الشهرة. فبعد مرور فترة قصيرة يجرى خلالها الحاح التليفزيون على تصوير شخص ما، مهما كان شخصا تافها فى الأصل، يتحول هذا الشخص إلى شخص مشهور، أى يصبح مشهورا بأنه مشهور، ومن ثم يتابع الجمهور أخباره ويسعون للحصول على توقيعه، لا لميزة خارقة فيه، ولكن لمجرد أن الناس جميعا يعرفونه، الأمر الذى يجعل شركات القمصان مثلا على استعداد لدفع بضعة ملايين من الدولارات مقابل قيامه بارتداء قميص يحمل اسمها.

فى عصر العولمة إذن، يجد التليفزيون فى البحث عن فضائح وأخبار ووجوه تجذب اهتمام العالم كله، أو تخيف العالم كله، أو تثير العالم كله جنسيا . فإذا لم يكن فى الشخصية موضوع الخبر ما يمكن أن يثير اهتمام العالم كله بالدرجة الكافية، فلتخلق له صفات ليست له فى الحقيقة. فلا يكفى مثلا أن يكون ذلك الحاكم من حكام العالم الثالث مستبدا وظالما ، بل من الأفضل أن يصور على أنه شيطان رجيم. والمرأة الجميلة جدا قد لا يكفى جمالها، بل لابد أن يحولها

التليفزيون إما إلى قديسة أو إلى امرأة سيئة السلوك. والولد المسكين الذى فقد أمه وهى تحاول الهرب به من أبيه، لا يكفى أن يكون يتيما ووحيدا، بل لابد أن يكون أيضا وسيما وذكيا وشجاعا شجاعة خارقة.. إلخ .

★★★

إطلاق النار على الفيل

ما الضرر فى كل هذا؟ ولماذا لا نبتهج عندما نرى التليفزيون وقد وحد بين الناس على هذا النحو، وقرب بين أذواقهم وأخلاقهم إلى هذه الدرجة؟. لماذا لا نبتهج إذ نرى أفقر سكان العالم، القاطن فى أبعد قرية فى أقصى ركن من أركان الكرة الأرضية، والذى لم يكن له أدنى دراية بما يجرى حتى فى عاصمة بلده، بل ولا حتى بما يجرى فى عاصمة الاقليم أو المحافظة، وقد أصبح يتابع سير كرة التنس وهى تنتقل عبر الشبكة من لاعب لآخر، وأن يرى أميرة إنجليزية وهى تسلم الكأس للفائز فى المباراة، أو يتابع ، لحظة بلحظة، وقائع نزول القوات الأمريكية فى ذلك البلد الآسيوى أو الأفريقى، بتفاصيل وبسرعة لم تكن متاحة له من قبل!.

إن هذا الاتساع الكبير لمجال الرؤية والتأثير هو نفسه مصدر الضرر ومنبع القهر. فالفرق بين أثر التليفزيون الوطنى (أى المحدود بحدود دولة أو أمة) والتليفزيون المعولم، هو كالفرق بين الأثر على نفسية الفرد المشترك فى مسيرة تتكون من خمسة أو عشرة أفراد، وذلك الذى يترتب على اشتراكه فى مظاهرة يقوم بها عشرات الألوف من الناس. فى الأولى سيكون الفرد لايزال يملك القدرة على ممارسة فكره المستقل وعلى اتخاذ قراره بحرية، أما فى الثانية فإنه سوف يجد نفسه يتصرف كجزء من قطيع، إذا انحرف بقية أفراد القطيع انحرف، وإذا هتفوا هتف، وإذا ضربوا أو دمروا ضرب ودمر. هذا الأثر هو ما صوره ببراعة جورج أورويل فى قصته القصيرة البديعة «إطلاق النار على فيل» ، حيث وجد جندى الشرطة ، الذى أرسل لمحاولة السيطرة على فيل هائج بأى وسيلة يراها مناسبة، وجد نفسه مدفوعا بقوة خفية لإطلاق النار على الفيل دون دا ع، ولم تكن هذه القوة الخفية إلا مجرد الرغبة العارمة لدى جمهور المشاهدين، الذين تجمعوا حوله وهو سائر فى طريقه إلى الفيل حتى بلغ عددهم الآلاف، تحدوهم رغبة واحدة لا تقاوم، هى رؤية الفيل ميتا!.

نحن جميعا أمام نشرة التليفزيون أفراد فى هذا القطيع الكبير، ضخم الجثة وصغير العقل، والذى اكتشف منتجو البرامج ونشرات الأخبار التليفزيونية وصاحب الإعلان التليفزيونى، كيف يوجهونه مرة فى هذا الاتجاه، ومرة فى ذاك. وهذا هو القهر بعينه!

العولمة ومستقبل المرأة

بقلم : د. أحمد أبوزيد

في عالم تسوده ثقافة ذكورية تعلي من شأن الرجل على حساب المرأة وترتفع فيه الأصوات بالدعوة إلى العولمة بكل ما يترتب عليها من هيمنة إحدى الثقافات - وهي الثقافة الأمريكية بالذات - على بقية ثقافات العالم ، كما تتردد فيها بعض الدعاوى المتطرفة في الحركات النسوية Feminism وما بعد النسوية Post Feminism تدعو إلى التنكر لكل الأوضاع السائدة والمتعلقة بالمرأة .. يتطلب الأمر من العالم العربي مراجعة الذات وإعادة النظر في أوضاع المرأة العربية في الوقت الراهن وفحص الموروثات الثقافية .. بالمعنى الواسع لكلمة ثقافة .. للكشف عما بها من عناصر سلبية مناوئة لتقدم المرأة وتدعو إلى حرمانها من الحقوق الطبيعية التي ينبغي أن تتمتع بها كعضو فعال ومؤثر في المجتمع ، وأن يتم ذلك في ضوء المستجدات العالمية لاستخلاص المبادىء التي يمكن أن ترتكز عليها أية استراتيجية مستقبلية تضمن للمرأة حقوقها ومكانتها .



قرينة الرئيس خلال الجلسة الافتتاحية لمؤتمر قمة المرأة

وهذا لا يعنى النكوص أو الارتداد الكامل الى الماضى واغفال المتغيرات العالمية أو الانفصال عن متطلبات الواقع المعاصر أو رفض التيارات الفكرية الحديثة . وإنما يعنى ضرورة اخضاع هذه الآراء والأفكار للدراسة الواعية فى ضوء التقاليد العربية الإسلامية حتى لا يحدث تعارض جذرى بين الطموحات والآمال وبين القيم الاجتماعية الأصيلة .

وأعتقد أن شيئا من هذا القبيل كان نقطة الإنطلاق لعقد مؤتمر قمة «المرأة العربية والإعلام» الذى دعت إليه الأمانة العامة لجامعة الدول العربية (الإدارة العامة للشئون الاجتماعية والثقافية - إدارة شئون المرأة والأسرة) والذى عقد بمقر الجامعة بالقاهرة فى الفترة من ١٨ - ٢٠ نوفمبر عام ٢٠٠٠ ، تحت رعاية السيدة قرينة رئيس جمهورية مصر العربية ورئيسة المجلس القومى للمرأة مع الأمين العام لجامعة الدول العربية ومؤسسة الحريرى بلبنان ، وحضره عدد من السيدات الأوليات الفضليات فى العالم العربى ولفيف كبير من القيادات النسائية والمفكرين المهتمين بشئون المرأة بوجه عام وهموم المجتمع العربى القومى بوجه عام .

وقد حدد المؤتمر لنفسه عددا من الأهداف المتكاملة التى تتمثل فى إبراز دور المرأة العربية الفعلى فى المجتمع

ومدى تعبير الإعلام العربى عن هذا الدور - وضع استراتيجية أو أجندة عمل من أجل تفعيل دور المرأة العربية في مواجهة تحديات العصر .. الخروج بخطة إعلامية موجهة نحو وضع المرأة العربية ثم خلق آلية حوار مستديمة للمرأة العربية لطرح ومناقشة قضاياها. وفى ضوء هذه الأهداف تحدد للمؤتمر ثلاثة محاور أساسية .. إلى جانب بعض الموضوعات العامة الأخرى .. وهذه المحاور الثلاثة هى : الموروثات الثقافية وتأثيرها على دور المرأة ومسئولية الإعلام فى تطويرها .. دور المرأة العربية فى قضايا المجتمع العربى ومدى تعبير الإعلام العربى عن ذلك .. ثم وضع استراتيجية عربية لتفعيل دور المرأة العربية من أجل النهوض بالمجتمع ومواجهة تحديات العصر .

دعوات فى صالح المرأة

وليس ثمة شك فى أنه على الرغم من كل ما أحرزته المرأة العربية من نجاح وتقدم فى كثير من المجالات التى أتيح لها أرتيادها فلا تزال الفكرة سائدة فى كثير من قطاعات المجتمع العربى عن أن المجال الطبيعى لنشاط المرأة .. أو ربما المجال الوحيد .. هو النشاط المتعلق بالبيت والأسرة على اعتبار أن ذلك النشاط يحتاج إلى تفرغ كامل كما أنه وثيق الصلة بتكوين المرأة الفسيولوجى والبيولوجى .. ويبدو أن جانبا من هذه الأفكار السلبية انعكس على نظرة المرأة العربية إلى ذاتها بحيث يتقبل الكثيرات منهن الأوضاع الناشئة عن هذه الأفكار والتى من شأنها تهميش دور المرأة فى المجتمع وإهدار قدراتها الذهنية والفكرية الإبداعية التى قد تسهم اسهاما ايجابيا فى تقدم المجتمع .. والأغلب أن مشاعر الرفض لهذه المواقف والأفكار كانت وراء الدعوات التى ارتفعت ولا تزال ترتفع فى صالح المرأة منذ دعوة قاسم أمين بضرورة (تحرير المرأة) وتحقيق فكرة (المرأة الجديدة) على أرض الواقع . ولكن من الإنصاف أن نعترف بأن هذه المواقف السلبية هى فى آخر الأمر محصلة طبيعية ومنطقية لعصور طويلة من سيطرة الثقافة (الذكورية) التى صاغها الرجل ووضع أسسها ودعائمها . فالتنظيمات الاجتماعية

الغالبة على معظم – إن لم يكن كل – المجتمعات الإنسانية المعاصرة والتاريخية تنظيمات ذكورية تضع السلطة فى أيدى الذكور وتميل إلى تهميش دور الإناث والتهوين من شأنهن ، وإن كانت هناك استثناءات من ذلك فى بعض المجتمعات التى يطلق عليها الأنثربولوچيون اسم (المجتمعات الأمومية) كمقابل للمجتمعات (الأبوية) أو (البطريركية) .

وقد يكون من الطبيعى أن (تحابى) الثقافة الذكورية الرجال على النساء وأن تصطبغ النظم الاجتماعية بطابع ذكورى غالب ومتميز بل وأن ينعكس ذلك على اللغة باعتبارها نظاما اجتماعيا وليس فقط أداة للتعبير والاتصال . واللغة العربية تذهب فى ذلك إلى مدى بعيد ، حتى تفرق بين الجنسين حتى فى المثنى والجمع (جمع المذكر وجمع المؤنث) ونون النسوة التى تثير كثيرا من الحساسية لدى بعض السيدات فى العالم العربى) .

بل إن اللغة العربية تميل إلى تغليب الإشارة إلى الذكور على الإناث إذا اجتمعوا معاً فى عبارة واحدة بحيث تتم الإشارة اليهم جميعا بصيغة المذكر حتى وإن لم يكن هناك سوى شخص (ذكر) واحد بين مجموعة كبيرة جدا من (الإناث). وقد حاولت بعض الاتجاهات النسوية الحديثة فى الخارج القضاء على هذه التفرقة فى اللغات الغربية كوسيلة لتحييد الثقافة بوجه عام وليس فقط تحييد اللغة وعلى أمل أن يؤدى ذلك فى وقت من الأوقات إلى قيام ثقافة نسوية متميزة ومستقلة عن الثقافة (الرجالى) وتزاحمها ، وقد تقضى عليها فى آخر الأمر بحيث تحل الثقافة النسوية محل الثقافة الذكورية السائدة الآن . ومثل هذا التفكير يقتضى إعادة قراءة التاريخ وإعادة تفسير التراث بل والدين نفسه من وجهة نظر نسوية .. وفى الخارج بعض المحاولات من هذا القبيل حيث أعيدت صياغة (الكتاب المقدس) صياغة نسوية على أساس أنه ليس هناك ما يشير إلى طبيعة (جنس) الخالق الذى يمكن – فى نظر هذه الاتجاهات – أن تكون أقرب إلى الطبيعة النسوية والتكوين الأنثوى خاصة وأن الأنثى هى التى تهب الحياة وأنها هى أساس الخلق بين

الكائنات الحية . وهذه على أية حال اتجاهات بعيدة تماما عن العقل العربى حتى الآن على الأقل .

الملاحم والمرأة العربية

والواقع أنه على الرغم من (ذكورة) الثقافة العربية - إن صح التعبير - فإن هناك جوانب إيجابية عديدة وواضحة تعلى من شأن المرأة ، وهى جوانب تستحق أن يلقى عليها الضوء لإبرازها والاقتداء بها فى ظروف الثورة الاجتماعية الهادئة والهادفة نحو تحقيق الأفضل بالنسبة للمرأة وبالنسبة للمجتمع القومى ككل «وكثير من هذه النواحى الإيجابية سجلها التراث العربى والموروثات الثقافية بما فى ذلك التراث الشفاهى المتمثل فى الأمثال والقصص الشعبى والملاحم، وما إليها من عناصر تراثية تعبر عن روح الشعب ونظرته إلى الأمور مثلما تعبر عن القيم والمثل العليا التى ينبغى أن تكون عليها الأوضاع . وإذا كانت الملاحم - مثلا - تشير إلى المرأة العربية التى تعتز بحريتها فإنها تستمد هذه الصورة من المجتمع نفسه، وتستوى فى ذلك الحرية المتعلقة بالسلوك الشخصى ولكن فى إطار التقاليد أو الحرية المتعلقة بالنظرة إلى الحياة ، وبذلك تصبح شخوص العمل الإبداعى (الملحمة أو السيرة الشعبية وما إليها) رموزا وأفكارا ومثلا عليا وقيما مجردة يمكن استلهامها والاقتداء بها . والمهم هو أن التراث الشعبى العربى يحمل كثيرا من الصور التى ترمز إلى قيم إيجابية تنعكس فى سلوك المرأة كما تسجلها الإبداعات الثقافية التى تحتاج إلى قراءة جديدة للكشف عن الجانب الرمزى فيها، وتجسيد هذا الجانب الرمزى فى السلوك الأنثوى الذى تحمله الأحداث والذي يصاغ فى قالب قصصى قد يكون وسيلة للترفيه، ولكن يجب أن يؤخذ على أنه أيضا وسيلة للتربية والتعليم وتقويم السلوك .

وعلى أى حال فإن صورة المرأة فى الموروث الثقافى ، وهو موضوع أعطاه المؤتمر قدرا كبيرا من الاهتمام ، صورة مركبة ومعقدة ولا تخلو من التناقضات ، وأنه إذا كانت هناك جوانب سلبية كثيرا ما يحب الناس الرجوع إليها والاستشهاد بها للتدليل على انخفاض مكانة المرأة بالنسبة للرجل، وإعطاء أولوية مطلقة للذكر على الأنثى فإن بهذا الموروث الثقافى نفسه

جوانب أخرى تكشف عن وجود قيم إيجابية تعطى للمرأة العربية ما تستحقه من احترام وتقدير نظرا للخصائص والمقومات الأساسية فى شخصيتها الاجتماعية وللأدوار المؤثرة التى تقوم بها فى الحياة والتى تسجلها بعض الأعمال التراثية . وهذه الجوانب الإيجابية هى التى اهتم المؤتمر بابرازها وتوكيدها . بل والتى يجب العمل على التعريف بها على أوسع نطاق وبخاصة فى المرحلة الحالية التى يمر بها المجتمع العربى وفى الظروف المتغيرة التى تضطرب فيها الرؤية إزاء المستجدات العالمية التى تغزو العالم العربى وتستهوى الكثيرين بحيث يتناسون تراثهم وتقاليدهم وحضارتهم الغنية بالمبادىء الأخلاقية والقيم الاجتماعية التى يتبغى تطويعها عن طريق إعادة قراء تها وتفسيرها في ضوء هذه المتغيرات والمستجدات والاسترشاد بها فى تحديد المسار فى المستقبل .

جهود المثقفين

وإحياء هذا التراث والتعريف به وإبراز متضمناته الإنسانية السامية يحتاج إلى تضافر جهود المثقفين والأجهزة الرسمية المعنية وبخاصة وسائل الإعلام والاتصال الحديثة بكل إمكاناتها التكنولوجية المتقدمة، حيث يمكن تسخير هذه الإمكانات مع جهود المثقفين والمهتمين بشئون المرأة والمجتمع فى إنتاج إبداعات فنية وفكرية جديدة تخاطب العقول (الجديدة) بالأسلوب الذى تفهمه وتستجيب له وتتجاوب معه، مع الحرص على عدم الالتجاء إلى أسلوب الوعظ والإرشاد والتعليم الصريح الذى قد يأتي بنتائج عكسية . ولكن لابد أن يسبق هذا كله دراسة ومعرفة الموروثات الثقافية فى العالم العربى كوحدة ثقافية متصلة ومتكاملة وتبيين الجوانب المشتركة فى هذه الموروثات وذلك للارتقاء بمكانة المرأة وتغيير نظرة المجتمع إليها والنظر إلى المستقبل بعين التفاؤل على اعتبار أن المستقبل هو امتداد للماضى الزاهر العريق ، والذى يفرض فى قدرات المرأة العربية الخلاقة القادرة على الإسهام فى تغيير صورة المجتمع العربى الحالية إلى واقع أفضل وأزهى ، وهذا هو فيما أعتقد ماكان يهدف إليه المؤتمر القومى الأول للمرأة .

الجامعات والتنمية

الاستفادة من الكفاءات الجامعية

بقلم : د. لطفية النادي *

تحرص الجامعات فى معظم الدول النامية على تعميق البحث العلمى والتعليم ، بعيدا عن احتياجات التصنيع فى تلك الدول ، وربما يرجع ذلك إلى أن استراتيچية التصنيع تخضع مباشرة للضغوط السياسية والاقتصادية لهذه الدول بمنأى عن خطط التعليم فيها .

وقد نجد أن معظم الجامعات لديها كفاءات على درجة كبيرة من القدرة على العطاء العلمى فى مجال التصنيع ، إلا أنها طاقات معطلة بسبب عدم الإعلان عن هذه القدرات أو أن الصناعات التى لديها تكون مستوردة ، وبالتالى فإنها تلجأ فى حل مشاكلها بالاستعانة بخبراء أجانب.

وهناك دولتان على جانب كبير من التقدم الصناعى ، هما الولايات المتحدة واليابان يعدان نموذجا للاستفادة من القدرات العلمية بالجامعات ، حيث شكلت عدة منظمات للتعاون المشترك بين الجامعات وبين الشركات الصناعية وهى ما يعرف بـ Corperation Asso-ciates، وتعتبر هذه المنظمات حلقة ربط بين الإدارات الصناعية وبين القيادات الجامعية التى تستطيع أن تقوم بإجراء البحوث المختلفة التى تمثل واقعا مباشرا على خدمة الصناعة وتطويرها .

وأذكر منها على سبيل المثال منظمة التعاون المشترك فى مجال الفيزياء، وهى تجمع بين أعضائها بعض رجال الصناعة من الفيزيائيين ، وتقوم هذه المنظمة بتقديم النصح للعاملين بالجامعات فى مجال الفيزياء عن الدور الذى يمكن أن تؤديه البحوث العلمية بالجامعات لتنمى وتطور الصناعات المتعلقة بهذا الفرع وتقدم الحلول لمشاكلها.

تقوم هذه المنظمة بعقد عدة لقاءات علمية يشارك فيها الباحثون فى الجامعات وفى الشركات الصناعية وتتم هذه اللقاءات فى إحدى الشركات الصناعية . وتختار موضوعات اللقاء طبقا لما تراه هذه المنظمة من أهمية ما تتطلبه الصناعة من تطور فى مجال هادف حيث تتميز هذه اللقاءات .

بتقديم نافذة على عالم الصناعة للباحثين فى الجامعات ، وفى نفس الوقت تهيئ الجو العلمى لتبادل المعلومات والآراء التى تشجع الباحثين بالجامعات على توجيه أبحاثهم لمجالات خدمة الصناعة .

كما تبين للقائمين على الصناعة ما لدى الجامعة من كفاءات علمية وإمكانيات قادرة على تقديم النصح والحل واقتراح نقاط التطوير والتحديث لصناعاتها .

على سبيل المثال استضافت شركة جنرال موتورز فى عام ١٩٨٩ لقاء منظمة

* أستاذة الفيزياء بكلية العلوم - القاهرة







التعاون المشترك فى الفيزياء وكان محور اللقاء موضوع : «التوقعات الاقتصادية للفيزياء فى التصنيع» ، وتناولت البحوث المقدمة والاستفسارات المجالات التالية : تصنيع مواد مغناطيسية جديدة - تخليق ألياف كربونية من الغاز الطبيعى - تصنيع مواد جديدة وسبائك لتتحمل درجات الحرارة العالية - استخدام الليزر فى الميكنة الدقيقة وطرق اللحام - طرق فيزيائية لتصنيع أجهزة استشعار جديدة للاستخدامات الالكترونية - المواد فائقة التوصيل الكهربى - التقدم فى التكنولوچيا الاتوماتيكية - المواد مانعة الضوضاء - المواد الماصة للصدمات - مواد ورقائق ذات خواص صالحة لأجهزة تنظيم السرعة - التشغيل والتحكم فى قيادة السيارات بالعقل الالكترونى - التحكم السريع - والإشارات السريعة .. وغيرها .. ويتخلل هذا اللقاء زيارات على الطبيعة لخطوط انتاج السيارات بدءا بالهيكل وانتهاء بالتحكم والاختبار النهائى للسيارة .

ومن مثل هذه اللقاءات يتبين الباحث الاكاديمى بالجامعة الدور المهم الذى تتطلبه الصناعة ومن هنا يحدث الاهتمام والتوجيه .

والسؤال المطروح الآن هل يكفى ذلك ليترك الباحث بالجامعة بحوثه الأكاديمية واشرافه على رسائل الماچستير والدكتوراه التى يشبع فيها اهتماماته الأكاديمية برصانة البحوث المقدمة فى مجال العلم البحت ؟

الإجابة قد تكون نعم ولكن الاهتمام فى هذه الحالة سوف يرجع للرأى الفردى للباحثين .

ما الذى يمكن أن يحفز هؤلاء الباحثين ذوى الكفاءة على تغيير مسار بحوثهم لخدمة الصناعة ؟

تمت الإجابة على هذا السؤال بأن قامت هذه المنظمات بالإعلان عن إجراء بحوث تخدم الصناعة فى هذه المجالات على أن يتعاقد الباحثون فى الجامعات على إجرائها وتقديم نتائجها لخدمة الصناعة .

ويتمتع الباحث فى ظل هذا بجدية الهدف وبتوفير الإمكانيات التى يضيفها لمعامله من باحثين مساعدين ومن مواد ومن تجهيزات تساعده على إجراء البحث كما يتمتع بحوافز مادية وعلمية عندما ينجح فى تقديم نتائج التعاقد .

وقد تؤدى هذه البحوث إلى ظهور ابتكارات جديدة وهو ما يحدث فى معظم الأحيان تكون حقا للمتعاقد وحقا لجامعته، ومن هنا يظهر دور القوانين اللازمة لحفظ هذه الحقوق .

ونظرا لعدم وجود مثل هذه المنظمات للتعاون المشترك مع الصناعة فإننا نقدم فيما يلى تصورا لإيجاد حلقة ربط بين ما يمكن أن تقوم به البحوث العلمية بالجامعات وما تتطلبه الصناعات المحلية

من تطوير وحلول لمشاكلها لتساعدها على مزيد من الانطلاق والإنتاج الجيد .

ونظرا لأنه تم إنشاء قطاع خدمة المجتمع وتنمية البيئة بالجامعات ومن أهدافه الإشراف على إجراء بحوث تطبيقية تجرى لحساب الشركات والجهات الأخرى فى الداخل أو فى الخارج، وما يحويه هذا الهدف من عظيم المسئولية واحتياجه لمزيد من التنظيم والتدعيم نقترح ما يلى :

– إنشاء قيادة علمية بكل كلية تعمل على تنمية البحوث الأساسية والمتطورة لخدمة الصناعة ، وما يتطلبه المجتمع بين الأقسام المختلفة بالكليات والوحدات ذات الطابع الخاص بها وتشرف على برامج التدريب الفنى والعلمى بها .

– تكون هذه القيادات العلمية مسئولة عن الاتصال المستمر بقطاعات الصناعة ومتطلبات المجتمع وتتجمع لديها احتياجات هذه القطاعات وما تعانيه من مشاكل، وتعمل على نشر برامج التدريب الفنى والعلمى التى تقوم بها الكليات .

– إن يشكل مجلس من هذه القيادات برئاسة نائب رئيس الجامعة لخدمة المجتمع وتنمية البيئة وباشتراك أعضاء من القطاعات الصناعية لدراسة آراء الكليات واقتراح طرق التنفيذ والإشراف عليها .

– أن تعلن الجامعات بناء على توصيات هذا المجلس عن منح تعاقدية لإجراء بحوث محددة لحل مشاكل الصناعة أو تطويرها، يتقدم لها الباحثون ذوى الكفاءة العلمية من الجامعات باقتراحات محددة تشمل دراسة زمنية علميا وفنيا وماليا وتمول من الجامعة والصناعة .

– ينشأ بكل جامعة صندوق للبحوث التطبيقية تموله القطاعات الصناعية وتبرعات والهيئات والأفراد المعنية بهذا المجال وينفق منه على البحوث التعاقدية .

ينشأ بوزارة التعليم العالى هيئة قانونية للحفاظ على حقوق الجامعات تجاه الابتكارات العلمية التى قد تؤدى إليها البحوث التعاقدية وتوثيقها واستثمارها فى تقديم المشورة العلمية للهيئات التى ترغب فى حل مشاكل مماثلة تقدم عن طريق الجامعة المعنية .

وإذا تحققت هذه النقاط مكتملة فإننا نأمل أن نكون قد توصلنا إلى تنظيم مماثل لمنظمات التعاون المشترك بين الجامعات والصناعة، يعمل على عقد اللقاءات العلمية بالمصانع وتيسير سبل الحصول على المعلومات التى تهم الصناعة والتطبيق العلمى، ويقدم للكفاءات العلمية والبحثية بالجامعات مجالا لإظهار قدراتهم على خدمة الصناعة والمجتمع ويدفع عجلة الصناعة لمزيد من الإنتاج والتقدم .

فن اختيار المواهب

بقلم : تيموثى باتلر وجيمس والدروب

ترجمة : هالة حلمى

استخدام الرجل الكفءعملية صعبة ولكن الاحتفاظ بهذه الكفاءة داخل المؤسسة هو أشد صعوبة. وهناك المئات من القصص والروايات التى يرويها المسئولون فى المؤسسات عن الموظف الكفء، الذى يفاجئهم بعد عدة سنوات بأنه قد تلقى عرضاً لا يستطيع رفضه، أو أن تسمع من يقول «لا أحد هذه الأيام يظل يعمل فى مؤسسة واحدة فترة طويلة».

ولقد وجدنا من خلال بحث استمر إثنى عشر عاماً إن هناك حركة مستمرة فى مجال العمل وأن العديد من الموظفين الأكفاء يتركون مؤسساتهم ، لأن مديريهم لا يفهمون سيكولوجية الاشباع والرضا فى مجال العمل ولأنهم يفترضون خطأ أن الأفراد الذين يحققون تفوقاً فى عملهم لابد أن يشعروا بالسعادة فى عملهم ، وهذا قد يبدو منطقياً إلى حد كبير ولكن الحقيقة إن المهارات القوية لا تؤدى بالضرورة إلى الراحة بالعمل. عدد كبير من الموظفين هذه الأيام وخاصة من هم فى سن العشرينات والثلاثينات مؤهلون ومدربون جيداً للنجاح فى أى عمل، ولكن تظل المشكلة هل سيستمر هؤلاء الشباب فى وظائفهم ؟ الإجابة هى نعم إذا كان

هذا العمل يتماشى فقط مع اهتماماته الدفينة وطموحاته الخاصة. هذه الاهتمامات الدفينة تكون جزءاً لا يتجزأ من شخصية الفرد وهى تنمو بداخله على المدى الطويل ولهذا فهى تنشأ نتيجة عوامل مشتركة من الطبيعة والتنشئة.

الاهتمامات الدفينة للأفراد لا تحدد المهارات الخاصة بهم ولكنها تحدد أنواع الأنشطة التى تجعلهم سعداء.

وفى العمل يتم ترجمة هذه السعادة إلى التزام يجعل الموظف مرتبطاً بعمله ويجنبه التفكير فى التخلى عن وظيفته إذا ما أتيحت له فرصة أفضل.

ومن خلال البحث الذى أجريناه استطعنا أن نحدد ثمانية اهتمامات دفينة للموظفين، هذه الاهتمامات تبدأ فى الظهور فى مرحلة الطفولة وتظل مستقرة طوال حياتنا على الرغم من إنها قد تعبر عن نفسها بطرق مختلفة فى أوقات مختلفة. على سبيل المثال إذا كان لدى الطفل الصغير اهتمام خاص بالإنتاج التخليقى، هذا الاهتمام يكون الطفل فى الغالب مولوداً به، وهذا الاهتمام يجعل الطفل يعشق الابتكار أو تجربة كل ما هو جديد أو الاثنين معاً. فهو قد يرسم أو يكتب قصصاً أو مسرحيات وفى مرحلة المراهقة فإن هذه الاهتمامات الدفينة قد تعبر عن نفسها فى هواية ابتكار آلة ميكانيكية، أو ممارسة لعبة رياضية وكشخص بالغ فان الاهتمام بالإنتاج التخليقى يتحول إلى حافز لكى يصبح الشخص مقاولاً أو مهندس تصميمات أو قد يستمر الشخص فى الاهتمام بكتابة القصص مرة أخرى مما قد يدفعه إلى مجال العمل السينمائى. ومن خلال البحث توصلنا إلى أن معظم الأفراد يحركهم ما بين واحد إلى ثلاثة اهتمامات دفينة لنوع معين من النشاط، وهذه الاهتمامات لا تكون مجرد هواية أو تسلية ولكنها رغبات حقيقية تتماشى مع شخصية كل فرد وهذه الاهتمامات لا تحدد نوعية العمل الذى نجيده ولكن العمل الذى نحبه.

وقد قمنا بتقسيم النشاط العملى بشكل عام إلى ثمانية أنواع من الأنشطة التى يحظى أحدها أو أكثر باهتمام خاص من جانب الأفراد وهى كما يلى :

١ - تطبيق التكنولوجيا : هؤلاء الأفراد الذين يتمتعون باهتمام خاص بتطبيق التكنولوجيا يكون لديهم رغبة فى البحث عن أفضل وسيلة لاستخدام التكنولوجيا لحل مشاكل العمل وهؤلاء أيضاً يحبون ويجيدون العمل الذى يتضمن التخطيط والتحليل.

٢ - التحليل الكمى : الموظف الذى يهتم بالتحليل الكمى يتفوق فى التعامل مع الأرقام حيث يرى أنها وحدها القادرة على تقديم الحلول العملية فى مجال العمل.. وهم يستمتعون بالأعمال الحسابية التى يجدها الكثيرون شديدة

التعقيد والملل.

٣ - فرض النظريات والتفكير المنطقى: هؤلاء يبحثون دائما عن إجابة لتساؤل «لماذا»؟ وليس كيف؟ وهم أحياناً ينتهى بهم الأمر إلى المجال الأكاديمى ولكن فى الغالب يفشلون فى تحديد المجال الذى يشبع اهتماماتهم. و ...

٤ - الإنتاج التخليقى : بعض الأشخاص يستمتعون جداً ببدء المشاريع الجديدة خاصة عندما تكون الرؤية أمامهم مجهولة وغير واضحة إلى حد كبير فهم دائماً يسعون إلى «صنع شىء من لا شىء» وهم يبحثون عن الجديد وابتكار الحلول غير التقليدية.

٥ - توجيه المشورة والمراقبة: وهؤلاء يجدون ذاتهم فى توجيه وتدريب العاملين معهم ويشعرون بالرضا والفخر عندما ينجح من يقومون بتدريبهم، وهم دوماً يساعدون غيرهم على التطور والنمو.

٦ - إدارة الأفراد والعلاقات العامة : أصحاب هذا الاهتمام يستمتعون بالتعامل مع الموظفين يومياً ويشعرون بالرضا عن العلاقات فى محل العمل ولكنهم أقل اهتماما بنمو وتطور الأفراد وأكثر تركيزاً على النتائج والأهداف التى يحققها الموظف فى مجال العمل.

٧ - إدارة المؤسسة : هؤلاء الأشخاص يشعرون بالأشباع الكامل والرضا عندما يملكون السلطة النهائية لصنع القرار. وهم كموظفين يسعون دائما للحصول على أكبر قدر من المسئولية داخل مؤسساتهم .

٨ - التأثير من خلال اللغة والأفكار: بعض الأشخاص يشعرون بالاشباع التام عندما يتكلمون أو يكتبون أو الاثنان معاً. وتكون عملية الاتصال مع الآخرين محور اهتمامهم فى الحياة . وهؤلاء قد يعملون فى مجال العلاقات العامة أو الإعلانات لأنهم يمتلكون مهارة فائقة فى اقناع الآخرين.

وقد لاحظنا من خلال البحث أيضاً أن الفرد يمكن أن يكون له أكثر من اهتمام دفين فى حياته. فالشخص صاحب الاهتمام بتطبيق التكنولوجيا وإدارة الأفراد والعلاقات العامة يمكن أن يكون مهندساً أو عالم كمبيوتر ويدير بنجاح فريقاً من العاملين معه .

فن التوفيق الوظيفي

وهذه الاهتمامات الدفينة للفرد غالباً ما تفرض نفسها الأمر الذى يؤدى بالموظف إلى ترك عمله بحثاً عن آخر يشبع هذه الاهتمامات. وفن التوفيق الوظيفى هو الفن الذى يوفق بين الفرد والوظيفة التى تلائمه وتسمح لاهتماماته الدفينة فى الحياة بالتعبير عن نفسها وهو فن يهدف فى النهاية إلى الوصول إلى الأشخاص الموهوبين فى كل مجال. وحتى لا يقع خطأ فإن فن التوفيق الوظيفى يتطلب من المدير أن يقوم بدور المخبر والمحلل النفسى والسبب إن الشخص نفسه يكون فى الغالب غير مدرك تماماً لاهتماماته الخاصة.

فعلى سبيل المثال قد يقضى الإنسان طوال حياته محاولاً تحقيق ما يتوقعه الآخرون منه أو قد يحاول تنفيذ النصيحة الشائعة القائلة «بأن الشخص يجب أن يمارس المهنة التى يتقنها. على سبيل المثال نجد سيدة على أساس مهاراتها فى مجال الكيمياء فى الجامعة ينصحها الجميع بأن تدرس الطب وبالفعل مارست مهنة الطب بنجاح لسنوات طويلة، ولكن عندما بلغت الثانية والأربعين هجرت الطب وافتتحت داراً للحضانة دفعها ذلك فى البداية حبها الشديد للأطفال، ولكن بعد فترة ظهر بوضوح اهتمامها العميق بإبداء المشورة والرقابة وأيضاً تولى مسئولية إدارة مؤسسة. لتعلن فى النهاية إن السنوات الأولى من عمرها التى عملت خلالها كطبيبة ضاعت كلها سدى.

ولكننا على الجانب الآخر نجد أن معظم الأفراد لايدركون اهتماماتهم الدفينة لأنهم عادة ما يسلكون الطريق الأسهل فى الحياة كأن يمارس الشخص نفس المهنة التى يمارسها والده. أو لأنهم فى المرحلة الحاسمة من حياتهم لايدركون تماماً الاختيارات الكثيرة المتاحة أمامهم . وفى النهاية قد ينتهى الأمر ببعض الناس إلى الوظيفة الخاطئة لأنهم اختاروا العائد المادى أو المكانة التى يمكن أن توفرها لهم هذه الوظيفة .

وبغض النظر عن الأسباب فإن الحقيقة المؤكدة إن الغالبية العظمى من الناس لا تستطيع أن تحدد نوعية العمل التى تجعلها تشعر بالراحة والسعادة حتى بلوغهم مرحلة منتصف العمر.

انتقاء الوظيفة

كما سبق أن ذكرنا فإن المدير المسئول قد يفسد عملية التنمية الوظيفية أو يفشل فى الاحتفاظ بالموظف الكفء لأنه يفترض خطأ بأن الموظف يشعر بالاشباع والرضا من الوظيفة التى يتفوق فيها. ولكن هناك أسباباً أخرى تجعل عملية التنمية الوظيفية تسير فى الطريق الخاطىء. السبب الأول هو الطريقة التى تتم بها عادة عملية شغل الوظائف ، ثانياً، ما هو متعارف عليه من قيام إدارة تنمية الموارد البشرية بتولى مسئولية التنمية الوظيفية فترقية معظم الأفراد فى مؤسساتهم تتم تبعاً لجدول ثابت. مثل مهمة جديدة كل ١٨ شهرا مثلاً أو عندما يخلو منصب جديد فى المؤسسة. وفى الحالتين فإن المسئول الإدارى فى المؤسسة يتولى هذه المهمة وهو يضع فى اعتباره ما هى المهارات التى يتطلبها المنصب الشاغر ومن هو الموظف الذى يمتلك هذه المهارات أو يستطيع أن يطورها بسرعة. وفى بعض الأحيان يترقى الموظف فى المؤسسة لأنه يطلب ذلك فالموظف الموهوب على سبيل المثال ، يبلغ مديريه أنه يرغب فى الترقى لمنصب جديد لأنه لم يعد يحقق أى تطور فى منصبه الحالى. والمفترض أن المدير المثالى فى هذه الحالة يدرس مهارات الموظف ويحاول أن يجد وظيفة أخرى فى المؤسسة تلائم

قـدراته. ولكن فى الغـالب لا تتم هذه العملية بإدراك كامل لاهتمامات الشخص الدفينة وهذا قد يؤدى فى أغلب الأحيان إلى شعور الموظف بعدم الارتياح حتى بعد ترقيته إلى وظيفة أفضل، وفى هذه الحالة قد يعزى الموظف هذا الشعور إلى عدم ارتياحه لمديريه أو لسير العمل فى المؤسسة بالكامل، ويبدأ فى توجيه الاتهامات إليهما. ومن هنا قد تبرز لديه فكرة ضرورة مغادرة هذه المؤسسة والبحث عن غيرها ليواجه أيضاً بالشعور نفسه بعدم الارتياح والسبب إن هذا الموظف لم يستطع أو لم يعاونه أحد على الوصول إلى المهنة التى تلائم اهتماماته الخاصة. فهذا مدير من إحدى مؤسسات التكنولوجيا المتطورة يتنقل خلال فترة قصيرة بين ثلاث مؤسسات قبل أن يدرك فى النهاية أن المشكلة تكمن فى أنه ليست المؤسسة هى التى يجب أن يغيرها ولكن المهنة التى يمارسها نفسها. فهو لم يكن أبداً يريد أن يكون مديراً ولكنه وافق على الترقية لأنها تقدم له المال والمكانة البارزة ولكن رغبته الحقيقية أو اهتماماته الخاصة هى العمل كمهندس فى مجال تصميم الآلات الميكانيكية.

●●هذه القصة تقودنا إلى السبب الثانى الذى يؤدى إلى الخطأ فى عملية التنمية الوظيفية. فالمهندس فى القصة السابقة تمت ترقيته بناء على اقتراح من إدارة الموارد البشرية وبشكل عام ثبت لنا إن عملية التنمية الوظيفية إذا ما كلفت بها إدارة التنمية البشرية. فإن المشاكل تبدأ فى الظهور.

فهذه الإدارة تقوم بعملية التنمية وفقاً لاختبارات قياسية ثابتة، مما يجعل نتائجها عامة فى أغلب الأحيان بالاضافة إلى أن المدير المباشر للموظف لا يكون مشاركاً فى هذه العملية على الرغم من إنه قد وجد أنه أفضل طريق للتنمية الوظيفية بشكل عام والتوفيق الوظيفى بشكل خاص تتم من خلال الحوار المتصل بين الموظف ورؤسائه. أما إدارة التنمية البشرية فإن مهمتها يجب أن تقتصر على التدريب ودعم المديرين فى المؤسسة للقيام بدورهم الفعال فى عملية التنمية الوظيفية.

أساليب التوفيق الوظيفى

التوفيق الوظيفى يبدأ عندما يقوم المدير بالتعرف على الاهتمامات الخاصة بكل موظف. فى بعض الأحيان تكون الاهتمامات الدفينة، للموظف شديدة الوضوح. ولكن فى الغالب الأعم يجب أن يقوم المدير بالكثير من البحث والمراقبة للتوصل إلى تلك الاهتمامات.

ويشعر بعض المديرين بالقلق من أن هذه المهمة تتطلب منهم أن يقوموا بدور المحلل النفسى ولكن الحقيقة إن المدير الكفء يجب أن يكون مهتماً دوماً بالحوافز النفسية لموظفيه، والمدير لا يحتاج إلى تدريب خاص للقيام بهذه المهمة عليه فقط أن يكون مستمعاً جيداً لمرؤسيه خاصة عندما يبدأ المرؤوس فى

الحديث حول ما يحبه وما يكرهه فى عمله.

وبجانب الانصات الجيد والاستفسار المدروس أثناء عملية تقييم الأداء الوظيفى يمكن للمدير أن يطلب من العاملين معه المشاركة بأنفسهم فى عملية التوفيق الوظيفى، ففى معظم المؤسسات تتضمن عملية التقييم الوظيفى قيام الموظف بكتابة تقرير عن انجازاته وأهدافه القادمة والمهارات التى تحتاج إلى تطوير . ومن خلال هذا الاستعراض تتم مقارنة تقييم الموظف نفسه بتقييم رؤسائه ويمكن تحقيق أفضل النتائج إذا أضيف إلى التقرير الذى يقوم بإعداده الموظف جزء خاص يتناول وجهة نظر الموظف حول الاشباع الوظيفى أو عن نوعية العمل التى يفضلها .

ولكن لأن الغالبية العظمى لاتدرك جيداً اهتماماتها الدفينة أو أنهم غير معتادين على مناقشة مثل تلك الأمور مع مديريهم، لذلك فلن تتم هذه العملية بسهولة فى البداية ولكنها لا يجب أن تتوقف لأنه حتماً فى النهاية سيبدأ الموظف فى التحدث بصراحة أكبر عما يريده من العمل وما يشعره بالتعاسة أو السعادة. وهذه المعلومات ستساعد إلى حد كبير فى عملية التوفيق الوظيفى وإذا ما نجح المدير أخيراً فى أن يبدأ حواراً مع مرؤوسه للكشف عن اهتماماته الدفينة فلابد أن تبدأ مرحلة التوفيق الوظيفى فوراً فإذا كان الموظف يطلب تغييراً طفيفاً فى نشاطه فيمكن تكليفه بمسئولية جديدة بجانب عمله السابق أو نقله إلى منصب جديد تماماً داخل المؤسسة. المشكلة الكبرى تبرز عندما يفاجأ المدير بأن المنصب الذى يتلاءم مع اهتمامات الموظف الدفينة غير متوفر فى المؤسسة وفى هذه الحالة قد يضطر المدير إلى أن يتخذ قراراً غاية فى الصعوبة وذلك بنصح الموظف الكفء بترك المؤسسة .

على الرغم من التحديات التى قد تواجهها عملية التوفيق الوظيفى فإنها عملية تستحق المحاولة. خاصة إذا علمنا إن أهم الأصول التى تمتلكها أية مؤسسة هى موظفوها. هذا الرأسمال الفكرى يختلف عن الآلات والمصانع لأنه يمكن أن يهجر المؤسسة للعمل فى مؤسسة أخرى منافسة. وحتى يحتفظ المدير وصاحب العمل بالموظف الكفء يجب أن يكون واعياً تماماً بعقل وقلب هذا الموظف وأن يتخذ قرارات حاسمة بشأن عملية التوفيق الوظيفى التى تدخل السعادة على قلب كل من الموظف والمدير.

(عن مجلة هارفارد بيزنس ريفيو: والكاتبان محللان نفسيان ، ومديرا برامج التنمية بمعهد هارفارد لادارة الأعمال فى بوسطن بالولايات المتحدة)



« الحكمة يمانية »

قصة حياة محسن العينى ..
خمسون عاما فى الرمال المتحركة ..

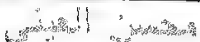
بقلم :مصطفي نبيل

كـتـاب جديد يروى «السيـرة الذاتيـة» لأحـد رجـال اليـمن المرموقين عنوانه.. «خمسون عاما فى الرمال المتحركة»، وهو قصة حياة محسن العينى، وضع فيها عصارة تجربته. وأهمية هذا الكتاب أنه ينقل تجربة جيل عربى بأكمله، داعبت أحلامه الآمـال الكبيـرة، وسـعى فى أن تتـغلب البلدان العـربيـة على التـخلف، وأن تلحق بالعصـر، وأن تقـوم بين بلدانها عـلاقـات متميزة داخل أمة واحدة، وأن تحقق العدل والحرية، وقد ساعد محسن العينى على الإمساك بالحقيقة ، ذكاؤه الحاد ونشأته القاسية.

وحكايتـه عبـارة عن قصـة مـواطن بسيط، وجد نفسـه وسط الأحداث، فتعامل معها بصدق وإخلاص، وهو شخصية من الجيل الذى تلا أوائل الأمـراء اليـمنيـين، وتتلمـذ عليـهم وتعلم منهم، خـاض القسم الأصعب من تلك المحاولة المجيدة والمتعثرة لتحـرير اليمن وتحـديثه وتوحيده، وخـاض عملية مـحاولة تـحقيق ما دعا إليه الحرس القديم، وخـاض مـحـاولته مـن مـواقع الثورة أحـيـانا ومـن مـواقع السلطة أو المعارضـة أحيانا أخـرى، عـاش فى قلب الأحـداث يسـتـوعب بعـقله ويـحلل







بألعيته، استهل ذكرياته بالقول.. «أعرف أنى لم أرض أحدا، بل لعلى أغضبت الجميع..».

ولد الفتى فى قرية الحمامى القريبة من صنعاء لأسرة بسيطة، وكان الخامس بين سبعة أخوة، وتيتم فى سن السابعة، فعمل راعيا للنغم فى بطاح صنعاء، بعدها التحق بمكتب الأيتام، وهى المدرسة الابتدائية الوحيدة فى العاصمة، والتى تخرج كتبة للدوائر الحكومية.

ويصف الكاتب صنعاء فى ذلك الزمن البعيد «نصف قرن» كانت صنعاء محاطة بالأسوار . تقفل أبوابها السبعة عند الغروب، وتعيش فى ظلام دامس بالليل، ولا تفتح أبوابها إلا بعد الفجر، ولم يكن بها فنادق أو مطاعم وحتى عدد السيارات كان محدودا لا يتجاوز أصابع اليدين.. وكانت اليمن عالمنا ، بل صنعاء وحدها، والعالم الخارجى هو عدن وجيبوتى وبر السودان ومصر والعراق، حتى أننا لم نسمع بالحرب العالمية



شواين لاي يستقبل محسن العيني رئيس وزراء اليمن بمطار بكين

الثانية!، رأينا للمرة الأولى سيارات الجيب، عندما وصل وفد أمريكى برئاسة الكولونيل إدى والذى أهدى إلى الإمام محطة إذاعة صغيرة كانت نواة إذاعة صنعاء.

راعى الغنم رئيسا للوزراء

ورغم هذه النشأة فقد دفعته الصدفة وحدها إلى مقدمة المسرح، عندما أتيحت له فرصة التعليم وهو الذكى اللبيب، الذى أصبح أول وزير خارجية لليمن بعد الثورة وسفيرا لليمن فى واشنطن والأمم المتحدة وموسكو وباريس ولندن وبون والذى تولى رئاسة الوزارة أربع مرات.

نعود إلى قصة الفتى.. تم اختيار أربعين طالبا سنة ١٩٤٧



للدراسة في لبنان، حصل هو وأخوه على عضوية البعثة لتفوقهم الملحوظ، وبدأ رحلته في طريق المعرفة، والتقى الفتى في طريقه إلى لبنان بزعيمي اليمن الأحرار النعمان والزبيرى في عدن وكأنه أصابه مس كهربائي فارتبط بهما وبالتطورات التى جرت في اليمن من يومها.

يروى تجاربه الأولى .. «ذهبنا معهما «النعمان والزبيرى» إلى السينما للمرة الأولى في عدن، وشاهدنا فيلم عنتر وعبلة، ولم ننم أياما، إعجابا وذهولا!».

وانتقلوا من عدن إلى القاهرة، ثم استقلوا القطار من القاهرة الى صيدا عبر فلسطين. ولم تكد البعثة تستقر في لبنان ، حتى غضب الإمام أحمد على البعثة، فسحب البعثة من لبنان إلى مصر، على أن تتجنب صخب القاهرة، وما تزخر به من فوران سياسى، واتفق على أن يلتحق الطلاب اليمنيون في بنى سويف في صعيد مصر وطنطا في قلب الدلتا، ولا مانع من حلوان باعتبارها في منطقة صحراوية معزولة ونائية، ورغم ذلك شهدت القاهرة نشاطا واسعا لليمنيين الأحرار، وأيدت ودعمت القاهرة هذه الحركة بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ وكان لليمن نصيب كبير فى إذاعة صوت العرب.

الأكل بالخاشوقة

ولم تمض مسيرة الفتى فى التعليم سيرا طبيعيا، فكثيرا ما توقف التمويل، والانتقال من بلد إلى آخر، وعندما احتفلت الحديدة في فبراير ١٩٥٥ بذكرى انتصار الإمام أحمد على ثوار ١٩٤٨، كان من المتحدثين السيد على عقبات، فهاجم وسخر من الفتى ومن زملائه بملابسهم الإفرنجية والأكل بالخاشوقة «الشوكة والسكين»، وأولئك الذين لا يخفون إعجابهم بثوار مصر«!»، الذين يتشبهون بالأجانب، فرد عليه الفتى.. ونقد سخافاته وأكد أن التغييرآت لا محالة.. وأن العقليات المتحجرة ستلفظ أنفاسها الأخيرة..

وكما أبعد الفتى من صنعاء عام ١٩٥٤ الى القاهرة، أبعد من جديد من القاهرة إلى باريس عام ١٩٥٥، واتخذ القرار بأن يتم ترحيل الطلاب اليمنيين لكل من ايطاليا وبريطانيا وفرنسا وأمريكا حتى يبعدوهم عن العواصم العربية التى تشهد النشاط السياسى للاتحاد اليمنى!

ويذكر الفتى أنه خلال دراسته في القاهرة التى تزخر بالحياة السياسية، انضم ضمن مجموعة من الطلاب العرب إلى حزب البعث العربى الاشتراكى.

وعند قيام الثورة اليمنية فى سبتمبر ١٩٦٢ عين وزيرا للخارجية فى أول حكومة للثورة، ويضيف.. «ولم يعد من السهل استمرارى فى عضوية حزب البعث..».

سكرتير البدر

وتنتهى فترة من حياته وحياة اليمن، ويلاحظ أنه لم يذكر واقعتين مهمتين فى حياته، الأولى أنه عمل فترة من الوقت سكرتيرا للأمير البدر، والثانية أنه على طريقة السير الذاتية المصرية، يتجنب الحديث عن أسرته، رغم أن قرينته كاتبة مرموقة، وهى ابنة الشيخ سنان بولحوم أحد مشايخ اليمن، ولاشك أنها لعبت دورا مهما فى حياته، وفى لقاء قريب ضم كل من محسن العينى وقرينته والصادق المهدى، أخذ كل منهما ينتقد الأوضاع الراهنة، وتدخلت زوجة محسن العيني قائلة .. «لماذا لم تعالجا وأنتما فى السلطة ما تنتقدانه اليوم؟!»

وما أكثر ما تقاطعت قصة حياة محسن العينى مع الكثير من الاحداث التى عشناها..

تعرفت عليه بعد أن أبعدته القوات البريطانية من عدن فى يناير ١٩٦١، وعمل عضوا فى المؤتمر العمالى فى اتحاد العمال العرب فى القاهرة.

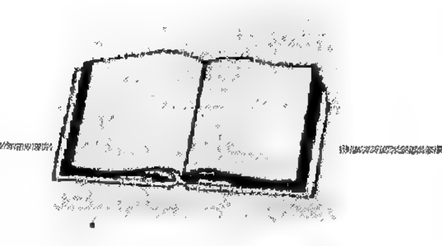
وجاءت الثورة فى اليمن بعد التمزق الحاد فى العلاقات العربية ، والشرخ الذى أحدثه الانفصال، ثم قيام حكم البعث المناوىء للقاهرة فى كل من دمشق وبغداد.

وها هو التغيير يصيب أكثر الحلقات العربية تخلفا، ويأتى من اليمن ويومها سارعت للقاء أحرار اليمن المقيمين فى القاهرة، والذين شردهم الإمام واحتضنتهم القاهرة، وأخذت أجمع أطراف ذلك الحدث الذى بعث الحيوية فى السياسة العربية، وسعيت للإلمام بتفاصيله. فالتقيت بالأستاذ نعمان والقاضى الزبيرى وأخذ كل منهما يقدم تقديراته وتحليلاته.

وكان اللقاء مع محسن العينى وعبدالرحمن البيضانى مميزا.

التقيت يوم الثورة بالبيضانى فى شقته المطلة على النيل فى المنيل ، يصحبنى الصديق محمود عبدالفضيل، ولفت نظرى وجود كمية كبيرة من صورة كتب تحتها «نائب رئيس الجمهورية» ، ولاحظت أنه الوحيد المطلع على ما يجرى فى اليمن، وخلال اللقاء أطل علينا السادات نائب الرئيس فى هذا الوقت، وقال.. «يبدو أنك تحتاج إلى مزيد من الوقت مع الأخوة ، فاسمح لى أن أذهب..» فسارعت بالاعتذار وإنهاء اللقاء.

أما محسن العينى فكان موقفه واضحا فى الاعتراض على حجم دور البيضانى! وأصبح البيضانى بدعم السادات رجل مصر فى اليمن!.



انسحاب مصري وآخر بريطاني!

وفى خريف ٦٧ قمت برحلة صحفية إلى اليمن شماله وجنوبه، لأتابع فى الشمال انسحاب القوات المصرية وقيام انقلاب ضد الرئيس اليمنى عبدالله السلال، وأتابع في الجنوب انسحاب القوات البريطانية.. وشاهدت فى هذه الرحلة العجب العجاب، وتقاطعت هذه الرحلة فى الكثير من أحداثها مع ما يرويه محسن العينى.

وتصادف خلال هذه الرحلة أن عشت أكثر من مشهد تاريخي، ورأيت أحداثا ذات دلالة، فعندما وصلت الحديدة فى الشمال كانت آخر القوات المصرية المنسحبة! وفي الجنوب نجح الكفاح المسلح فى إجبار القوات البريطانية على الانسحاب.

فراعنى الانسحاب المصرى المتعجل تاركين خلفهم كل شيء، والنظام الدقيق لانسحاب القوات البريطانية، رغم ان القوات البريطانية قوات احتلال استعمارية، أذاقت الشعب كل صور القهر والاستغلال ، بينما القوات المصرية قامت بمهمة جليلة فى حماية الثورة ومساندة القوى التى تسعى لإخراج اليمن من ظلام القرون الوسطى.

وكانت القوات المصرية قد بدأت انسحابها بعد الاتفاق الذى تم التوصل إليه بين مصر والسعودية، وبعد القمة العربية التى عقدت فى الخرطوم بعد هزيمة يونيو ٦٧.

سقوط السلال!

وما أن انسحبت القوات المصرية فى صنعاء حتى وقع انقلاب أطاح بالرئيس عبدالله السلال، وتولى محسن العينى رئاسة الوزارة اليمنية.. وعند وصولنا إلى صنعاء ـ مكرم محمد أحمد ومصطفى الحسينى وأنا ـ طلبت مقابلته، فأجاب «أن لقاء معه لن يكون كافيا، وأنه صباح اليوم التالى سيعقد اجتماعا لمجلس الوزراء.. وأننا مدعوون إلى هذا الاجتماع، حتى نسمع من الحكومة كلها.

هذا بعد ان تم تحذيرنا من زيارة صنعاء وأن هناك خطرا يتهدد حياتنا. وعندما أقمنا فى السفارة المصرية، وأشعلنا الأضواء تدفق علينا اليمنيون فرحين، متصورين أن ذلك يعنى عودة المصريين إلى اليمن!.

وتزخر هذه الرحلة بالحكايات ، ليس هذا هو مكان روايتها.

ولكنها فى مجملها تعكس اختلاف الرؤى وتباين المفاهيم. والفجوة الواسعة بين الأهداف والقدرات . وبين موقف الجماهير وموقف القيادات.

ونرجع إلى حكاية محسن العينى بعد تعيينه أول وزير خارجية فى حكومة الثورة

الجديدة، ولم يمض على هذا التعيين سوى أقل من شهرين. وقرأ نقله إلى الأمم المتحدة في الصحف. وسرعان مادب الخلاف في صفوف الثوار، فإذا اتفق الجميع على ضرورة سقوط نظام الإمامة، إلا أن التباين واسع في تصور الأطراف المختلفة نحو المستقبل. وظهرت الأهداف المتعاكسة لكل من الجيش والقبائل والقوى الجديدة من المتعلمين والتجار. وبدأت المنازعات بين سكان الجبال من الزيود وسكان السهل ومزارعيه من الشوافع.

ويروى العيني.. أن اللواء عبدالله جزيلان والطيار عبدالرحيم عبدالله ذكرا له أنه كانت لديهما تعليمات بقتله في صنعاء إذا لم يغادر البلاد صبيحة اليوم التالي لوصوله، وأن السيارة المكلفة بهذه المهمة كانت معدة في ساحة القصر الجمهوري. وأن الطيار عبدالرحيم عبدالله حرص على مرافقته طوال الوقت.. منذ نزوله من الطائرة وحتى عودته إليها. من أجل ضمان مغادرته وعدم بقائه.

ويعلق العيني قائلا.. «أزعجتني الطريقة والأسلوب الذى تم بهما نقلى فليس من اللائق. أن يطلع وزير خارجية على إعفائه في صحيفة وهو في مهمة خارجية، فهل استكثروا إبلاغى برقيا بهذا التغيير.. ويضيف .. اعترف أن أحلامى ببناء دولة اليمن الحديثة قد اهتزت، وأن آمالى فى تكوين الادارة العصرية التى نباهى بها الغير قد تزعزعت ، وأن تصوراتى أن متاعب اليمن ليست إلا عارضة واستثنائية قد ضعفت. وأن الفوضى والارتجال والتهور والطموحات والتنافس والتهافت هى التى تسيطر على مسرح الحياة السياسية في اليمن.

البعث وعبدالناصر

وكما حدث بين القوى داخل اليمن ، وقع مثله بين القوى السياسية العربية.. ويتناول العيني صفحات كثيرة من الصراع بين عبدالناصر وحزب البعث والذى دفع ثمنه رغم تخليه عن الحزب، ولاحقته تهمة الانتماء للبعث ووضع الكثير من العراقيل في طريق عمله السياسي.

وفي جميع الأدبيات التى تتناول الصراع بين عبدالناصر والبعث، وكلما تحدث طرف عن الطرف الآخر، وسرد معارك سابقة، يخيل اليك أنك مازلت تسمع صليل السيوف وقذف المدافع وغبار المعارك!، ويقفز إلى ذهنى القول المشهور عن «البوربون» - أباطرة فرنسا - لا يتعلمون شيئا ولا ينسون شيئا.

وتفوتهم عبرة التاريخ.. وهو أن انفصال مصر وسوريا ثم حرب اليمن هى حلقات متتابعة أوصلت الى المحطة الأخيرة وهى هزيمة يونيو ١٩٦٧ .

فكم دفع العرب ومازالوا يدفعون غاليا نتيجة خلافاتهم وصراعاتهم وانقساماتهم؟!.



العزلة والتواصل عبر الإنترنت

بقلم: د. أحمد محمد صالح ★

● حان الوقت لاستخدام الانترنت لكشف أكاذيب الصهيونية !

● فتوى بتدمير مواقع الكفرة على الإنترنت !

آلات تتكلم مع آلات قبل أن تتكلم مع إنسان، هذه هى حقيقة الحوار الذى يتم بين البشر فى الإنترنت، فمنذ بدء الخليقة، والإنسان يتوق للتعبير عن ذاته عبر التواصل والحوار مع أبناء جنسه، وبظهور الإنترنت زادت فرص الحوار والتواصل الإنسانى بين البشر جميعا على وجه الأرض عبر الفضاء الإفتراضى أو الفضاء الإليكترونى أو فضاء المعلومات Cyberspace وهو بيئة متعددة الجوانب، معقدة بقوة، نشأت من أشكال لا يمكن تخليلها من الحياة الرقمية.

★ - أستاذ بجامعة أسيوط.

وظهرت كيانات اجتماعية مفترضة لم تكن موجودة في السنين القليلة الماضية، فكيف ندرس المفردات الإنسانية الجديدة التي يعبر بها البشر عن أنفسهم؟ كيف نستطيع أن نفهم تلك الأشكال والصيغ الرقمية للحياة الجديدة؟!. والكيانات الاجتماعية الرقمية الجديدة تكونت فى الفضاء الاليكترونى فى هيئة جماعات رقمية يتم تحاور البشر عبرها، من أشهرها خدمة usenet فهى الشريان الأساسى للفضاء الأنترنتى، فمن خلال المشاركة فى المجموعة الاخبارية news group حيث تهتم كل مجموعة بموضوع معين، يمكنك أن تسمع صوتك، وتعلن آراءك على الملايين، لكى يعارضوك أو يجيبوا على استفساراتك أو ينتظروا الإجابة على سؤال طرحته! ، وهناك أيضا البريد الاليكترونى e-mail، لوحة الرسائل message boards، حجرات الدردشة، chat room مؤتمرات الفيديو video conferencing حيث يتم الحوار بين آلاف البشر فى تنظيم الإنترنت، ولاننسى خدمة eCroups، التى تمكننا من إنشاء نواد خاصة للمراسلة، فيستطيع كل منا إنشاء ناد له فى دقائق، وحصر عضويته فى الأشخاص الذين يدعوهم للاشتراك، وتسمح هذه الخدمة، بالإضافة إلى البريد، بتبادل الملفات وبالمحادثات الصوتية المباشرة بين عدة أفراد فى الوقت ذاته.

وهذا يستدعى من علماء النفس والاجتماع التركيز على الكيفية التى تغيرت فيها صيغ وحدود الزمن والفضاء والمثيرات الحسية، وكل ماهو مرتبط بأشكال التعبير الإنسانى فى الحياة الرقمية الجديدة.

ولدراسة تلك الظواهر الجديدة يتطلب الأمر تكاملاً فى منهج دراسة الحالة كمنهج بحثي، تتكامل فيه أدوات البحث من ملاحظة متوارية وملاحظة بالمشاركة، وتقمص وجداني، وفحص الدوافع، ومناقشات جماعة البؤرة، والمعالجات التجريبية الظاهرية للمتغيرات، والاستبيانات القابلة للقياس، والمقابلات البنائية وغير البنائية من خلال الاتصال بالبريد الاليكتروني، وحجرات الدردشة، ولوحات الرسائل، والاتصال التليفونى، والاتصال وجها لوجه.

ومع التقدم السريع فى تكنولوجيات الكمبيوتر، والشبكات خاصة الإنترنت ظهرت بسرعة تجارب إنسانية جديدة، فعندما نفتح أجهزة الكمبيوتر، ونطلق برنامجا، ونكتب فيه خطابا اليكترونيا ونرسله أو ندخله على الشبكة، يلاحظ أن مستعملى الكمبيوتر غالبا ما يشعرون بوعى أو بغير وعى أنهم يدخلون الفضاء الواسع الذى يمتلئ بمعنى وأهداف كثيرة، وكثير من مستعملى الويب يصفون

تجربتهم بأنها إبحار أو سفر أو رحلة إلى مكان ما فى مجرات الفضاء وفى أماكن مجازية مثل عوالم أو ميادين أو غرف، وعلى مستوى نفسى أعمق، غالبا ما يعتبر مستعملو الكمبيوتر جهاز الكمبيوتر بأنه امتداد لعقولهم وشخصيتهم، وفى الفضاء الاليكترونى يعكسون ويعبرون عن أذواقهم واتجاهاتهم واهتماماتهم، وبمفردات للتحليل النفسى نقول: إن أجهزة الكمبيوتر، والفضاء الاليكترونى الواسع أصبحت نمطا من الفضاء الانتقالى transitional space يمتد فيه عالم الفرد وتفسيته، حيث تلتقى فيه نفسا بأخرى منفصلة عنها، وعند قراءة البريد الاليكترونى أو الحوار داخل غرف للدردشة مع رفيق انترنتى أو جماعات الأخبار أو لوحة الرسائل e-mail,newsgroup,or chat message، بعضهم يشعر بالإندماج العقلى والمزج مع الآخر.

العزلة بين الناس

ومع زيادة فرص الحوار والكلام بين مشارق الأرض ومغاربها من خلال الإنترنت، زادت مشاعر العزلة بين الناس، فرغم أن الإنترنت توصلنا مع الكثير من الناس، لكن لا تجعلنا نتقابل معهم أبدا، فعندما اكتشفت الفوائد المهنية للإنترنت، فى الدخول إلى مجموعات مناقشة فورية مع زملاء لهم نفس الاهتمامات العلمية والفكرية فى كافة أنحاء العالم، لاحظت أيضا أننى أصبحت أقضى وقتا أقل فى الكلام مع أسرتى وأصدقائى، وهذا مثل للدور المتناقض الذى تلعبه الإنترنت التى جاءت للعب فى أرواحنا فالتكنولوجيا التى سمحت للناس الاتصال مع أعضاء العائلة البعيدة والأصدقاء، ولإيجاد المعلومات بسرعة ولتطوير الصداقات مع أفراد حول العالم، فهى أيضا حلت محلّ تفاعلات الإنسان اليومية الحيوية، وأصبحت تفاعلات باردة وتواصل ميت، فلا يمكن أن يعطيك مراسل الكمبيوتر عناقاً أو يسخر من نكتك، وبعض العلماء النفسيين قلقون من زيادة شعبية الإنترنت لأنها سوف تؤدى إلى عزلة إضافية بين سكان الأرض، وبالرغم من أن الانجذاب وزيادة التفاعل نحو المجتمعات التخيلية فى السيبرسباس Cyberspace، إلا أن بعض الدراسات النفسية أظهرت أن تعظيم استخدام الإنترنت يقلل من المساندة الاجتماعية، ويزيد فرص الاكتئاب والوحدة. ومعظم الناس يستعملون الإنترنت لخطوط التحاور والبريد الالكترونى، وليس فقط لعزل أنفسهم فى تلال المعلومات الالكترونية. ووجدوا علاقة مباشرة وعكسية بين مستوى استعمال الإنترنت ومدى النشاط الاجتماعى والسعادة.

ومع الاعتراف بأن التكنولوجيات

الجديدة لها سلبياتها وإيجابياتها، فالسيارة سمحت للناس أن يسافروا في راحة لمسافة بعيدة، فنشأت الضواحي والطرق الرئيسية في كل مكان وسببت تغيرات إجتماعية كبيرة وفي الوقت نفسه ظهرت سلبيات مثل اختناقات المرور والتلوث البيئي، نفس الشيء في الإنترنت مثل أي تكنولوجيا، فدراسات أخرى أثبتت أن استعمال الانترنت في الحقيقة يتوسع ويثري العوالم الاجتماعية لمعظم المستخدمين.

وفي معظم حجرات الدردشة والحوار، تضيف البرامج المتعددة الوسائط البعد المرئي الذي ينشيء وهم الحركة والفراغ وphysicality، ويسمح الناس أن يعبروا عن هويتهم ظاهرياً، إلى حد ما، فقط من خلال كلمات مكتوبة. النتيجة عالم جديد تماما للتعبير عن الذات والتفاعل الاجتماعي.

ومواقع الحوار في الإنترنت تعتمد على ساحات الحوار وغرف الدردشة بشكل أو بآخر على البريد الالكتروني، فهو طريقة فريدة ومهمة للاتصال والحوار وتطوير العلاقات بين البشر، وقد يكون أهم وسيلة منذ اختراع التليفون. لأنه سهل الاستعمال. ويجده الناس أيضا مألوفا وآمنا لأنه متشابه في نقاط كثيرة مع كتابة خطابات، إلا أنه يتخلص من مصادر الإزعاج مثل عنونة مظاريف ولصق للطوابع، والذهاب إلى صندوق البريد لوضعه أو استلامه. وهو من أشيع وربما أقوى الطرق لتطوير العلاقات الإنسانية والتحاور على الإنترنت. وبالرغم من أن الصداقات والروايات العاطفية قد تبدأ بحماس في حجرات الدردشة أو في بيئات الحديث المتعددة الوسائط الجديدة، إلا أن هذه العلاقات تقريبا تعتمد دائما على البريد الاليكتروني كطريقة لتعميق الاتصال. هو أكثر خصوصية، وأكثر محل ثقة، ويقلل كثيرا من فوضوية الكلام. حتى عندما تتحسن الطرق الأخرى بصورة كبيرة وتصبح أكثر فاعلية مثل مؤتمرات الفيديو التي تعتمد على البصر والسمع teleconferencing، فإن البريد الالكتروني -e-mail لن يختفي. سوف يفضّله ناس كثيرون لأنه لا بصري ولا سمعي. فكثير من الناس لم تقبل على شراء معدات فيديو لأجهزة تليفونهم ac-cessorize بالرغم من أن تلك التكنولوجيا كانت متاحة منذ مدة.

نص يتكلم!

والبريد الالكتروني ليس فقط مجرد بريد يرسل عبر الإنترنت، بل ينشيء فضاء اليكترونيا سيكولوجيا بين أزواج الناس ومجموعاتهم المتفاعلة عن بعد. وينشيء السياق والحد الذي يمكن أن تتفتح فيه العلاقات البشرية. والسمات الأساسية للتحاور عبر البريد الاليكتروني،

تتركز فى انه نص مطبوع يتكلم (Text-Talk): فالناس تكتب كلمات للاتصال عبر البريد الالكترونى. ومزيد من التكنولوجيا المعقدة تمكنك أن تدرج الصور والصوت فى الرسالة، لكن هناك عمليات أكثر تعقيدا تدمر البساطة والسهولة التى تجذب الناس للبريد الاليكترونى، فبعض الناس لا يميلون إلى البريد الاليكترونى لأنه يتطلب منهم الكتابة على لوحة مفاتيح الكمبيوتر، فإذا كان كل واحد يعرف يتكلم، فليس كل واحد لديه القدرة على الكتابة على الكمبيوتر، وقد لا يشعر بعض الناس أيضا أنهم مرتاحون أو ماهرون فى التعبير عن أنفسهم خلال المكتوب. فالطبع والكتابة على الكمبيوتر بمثابة الفلتر الذى يستبعد بعض الناس من عالم البريد الإلكترونى، ولأولئك الذين يحبون كتابة الكمبيوتر (أنا واحد منهم) يعتبر البريد الإلكترونى جنة لهم. حتى انه يوجد فرق فى الأسلوب المعرفى بين الناس الذين يحبون أن يتصلوا بكلمات مكتوبة وأولئك الذين يكرهون ذلك. وغياب الاتصال وجها لوجه فى النص المطبوع للبريد الإلكترونى، يجعلك لا ترى وجوه الناس الآخرين أو تسمعهم يتكلمون. وتفتقد تماما الاستمتاع بدقة الأصوات ورقتها وتعبيراتها، ونفتقد أيضا التفاعل مع أدلة حركات الجسد، وهذا يجعل الحوار عبر البريد الإليكترونى أكثر صعوبة. لكن الناس هم كائنات إبداعية. قد طوروا فى e-mailers كل الأنواع لاستراتيجيات مبتكرة للتعبير عن أنفسهم خلال نص مطبوع. فالكاتب الماهر قد يكون قادرا على تعميق الاتصال بدقة ورقة الكلمة المكتوبة البسيطة ، على الرغم من نقص أدلة الاتصال وجها لوجه. وأصبح التحدث عن البريد الإلكترونى فنا معبرا ومعقد الشكل. وفى البريد الإليكترونى تختفى الهوية ، فأناس قد لايعرفون من أنت أو أين تكون عندما ترسل لهم بريدا إلكترونيا. إذا أردت يمكن أن تستعمل اسما مستعارا فى الرسالة. وعنوان العودة يحتوى فقط على معلومات عامة قد تبين تقريبا أين أنت. ولا يمكن أن يعرف المستخدم العادى كيف يعثر على أصل وهوية أى رسالة غامضة. وإذا قرر شخص ما الاختفاء ، يمكن أن يرسل بريده خلال خدمة صندوق بريد مجهول الاسم حتى ينزع بعيدا كل المعلوم.

هذه الإمكانية لإخفاء الهوية بالداخل e-mailing disinhibits يجعل بعض الناس. يقولون الأشياء التى لم يكن من الممكن عادة يقولونها، ويزداد أثر إخفاء الهوية غياب الاتصال المواجهى. وفى بعض الحالات يشجع البريد الإليكترونى الانطوائيين والعدوانيين على أن يكونوا أكثر انفتاحا وحناناً وأمانة، فإخفاء الهوية ليس بالشىء السيىء أو الجيد. فهو سلاح ذو حدين. ويتم

خلال البريد الإليكتروني تفاعل لا متزامن Asynchronous – محادثات البريد الإلكتروني لا تحدث في الوقت الفعلي، فلا يجب عليك وأنت ورفيقك أن تجلسا أمام الكمبيوتر في اللحظة نفسها لكي تتكلما. بخلاف اللقاءات وجها لوجه التي تكون متزامنة، فمناقشات البريد الإلكتروني لا تتطلب منك الاستجابة في الحال بل لديك وقت للتفكير، تقيم وتكون إجابتك ويستغل بعض الناس ذلك فيأخذون وقتهم لإسقاط انعكاساتهم السلبية، قبل الرد والبعض لا يستغل ذلك. والسرعة التي يتم فيها البريد الإليكتروني قابلة للضبط فقد تتم المحادثة والحوار عبر دقائق، أو أيام أو أسابيع أو شهور. فالوقت التفاعلي يمكن أن يقصر أو يتمدد، وتعكس التغييرات في مدى تبادل البريد الإلكتروني بين الناس طبيعة ديناميكية علاقتهم. وأيضا حجم المجموعة القابلة للضبط فمعظم برامج البريد الإلكتروني تسمح لك أن تنشيء قائمة للمراسلات ترسل لهم في الوقت نفسه.

كلام العرب في الإنترنت

وإذا كانت العجالة السابقة تعكس الملامح العامة لخصائص الحوار والكلام عبر فضاء الإنترنت، فإن العرب في تحاورهم وكلامهم عبر الإنترنت نقلوا خصائص ثقافاتهم وشخصيتهم في ذلك الحوار وأصبح حوارهم وكلامهم عبر الانترنت له خصائص أخرى غير التي نوقشت في بداية المقال، فرغم برودة الحوار والكلام عبر الإنترنت، فإن العرب جعلوا الحوار والكلام عبر فضاء الإنترنت أكثر سخونة وعصبية وتعصبا. فالعرب يتحاورون في الإنترنت من خلال مجموعة من المنتديات والمساحات الإليكترونية العربية للحوار، وهي منتشرة على الشبكة وتعرف بالإنجليزية باسم mes- saging boards أي لوحة الرسائل، وهي تشبه المجموعات الأخبارية، لكنها تقل عنها في مستوى الإدارة التقنية. وكثرت منتديات الحوار العربية في الإنترنت منذ بداية عام ١٩٩٨، وتزايد روادها بشكل كبير، إذ وفر العديد من المواقع هذه الخدمة لدعم الحوار حول المنتجات المعروضة فيها، وفيما فتحت مواقع أخرى للأفكار الحرة، وتمتاز تلك المنتديات بأنها توفر منبرا حرا. ومنتديات الإنترنت للحوار عالم متكامل قائم بذاته، تعثر فيه على الغالي والرخيص، فيها أفكار في منتهى التفاهة، وأخرى جيدة، فيها خطابات مهذبة للغاية، وفيها أخرى بذيئة، فيها رؤى سياسية وثقافية ودينية وأدبية مختلفة، وتتصاعد فيها حدة المعارك الفكرية والسياسية، وتتسلل فيها كل عقد الكبت فتنتشر الشتائم، والاتهامات بالكفر والعمالة وخيانة القضية، فتجد صولات، وجولات وحوارات، ونقاشات فارغة من كل شيء، إلا التفرقة والتعصب والجهل، الذي

يطفح من كل صفحة فيه. وهناك كثير من الشواهد، على أن كثيراً من النجوم فى مواقع الحوار العربى موظفون فى بعض الهيئات، ويتبعون دولا غربية، أو عربية، متفرغون تماماً للخوض فى الأمور الشائكة، لأسباب كثيرة، فيما كثيرون منا قد يهتفون لهم ويصدقونهم ، وينجرفون وراءهم فى خنادق وساحات جهاد افتراضية، لا طائل من ورائها، إلا التفكك، وتثبيط الهمم وزرع الفتنة والشقاق.. حتى أن كثيرين تجدهم يتحدثون وبكل جد عن الجهاد بواسطة الإنترنت، ليقول أحدهم : هل يمكن الجهاد عن طريق الكمبيوتر، وإحداث نكاية بالروس الظالمين نصرة لإخواننا الشيشان؟! وقبلها كانت الأسئلة نفسها تتكرر عن كوسوفو وأفغانستان!

مخاوف العرب

وكانت تلك المنتديات العربية أمام خيارين ، الرقابة على الحوار أو حرية النقد، لكن تلك المنتديات أميل لفرض رقابة محدودة على الحوار خاصة الكلمات البذيئة والأفكار الجريئة، فمازال التعبير الحر عن الرأى يثير مخاوف العرب. ويلاحظ أن غالبية منتديات الحوار تصدر من دول خليجية فى المشرق، وقليل منها ما يتبع دول المغرب العربى، وتشمل صفحات للحوار وغرفا للدردشة، وبعضها يسمح بالدخول بدون كلمة مرور، وبأكثر من اسم مستعار. واتخذ التنافس بين المنتديات والساحات، أو التنافس أثناء الحوار والدردشة أشكالا مؤسفة فى أحيان كثيرة، للتأثير على نفسيات رواد المنتدى، ودفعهم للهجرة منها إلى مواقع أخرى، وأغلب مواقع الحوار الموجودة تروج إلى أفكارها ومذاهبها، وتتعمد إلغاء الآخر، وعدم قبوله بشكل كبير من الحدة والغلظة، كأنها حربا فى فضاء الإنترنت. وإذا كانت هناك منتديات حوار لها أهداف تجارية، هناك أيضا مواقع للحوار الفكرى المفتوح ، منها ينتمى إلى دولة بعينها رغم المحاولات الكثيرة سواء الناجحة أو الفاشلة للترويج أن منتدياتهم للمسلمين فى كل مكان، بغض النظر عن جنسيتهم أو انتماءاتهم السياسية والمذهبية. ويلاحظ أن التعدد مفقود رغم كثرة منتديات الحوار العربية، فحوالى ٧٠٪ منها ذات اتجاهات سلفية ، ١٠٪ منها فقط تملك اتجاهات علمانية، ٥٪ تتبع المنهج الشيعى، والباقى اتجاهات أخرى، طبعا هناك ندرة فى الحوار الجاد العلمى الذى يدور حول قضايا علمية أو سياسية عالمية أو مشاكل وأحوال المنطقة، كما يحدث فى منتديات الحوار الأجنبية، فبعض المنتديات أغلق بعد أسبوعين من افتتاحه، حيث تراكمت فيه حوارات ومقالات مؤسفة عن الإسلام، ومنتديات حوار عربية أخرى تعتمد على التخريب والترهيب تشترك فيها أقلام مريضة. وتنتشر فى إنترنت العرب

ظاهرة تخريب منتديات الحوار لتصفية الخلافات الفكرية، وهى نتيجة منطقية لأن أسلوب تصفية الآخر هو السائد فى الشارع العربى الداخلى، حيث تسود مفاهيم منع التعددية، ورفض الآخر، وتغييب الرأى. والجديد هنا أن ذلك أصبح يتم علنا ومكشوفا فى الفضاء الإنترنتى، بعد أن كان مستترا فى طيات التعتيم الإعلامى على الشارع العربى. فالانتقال المفاجىء من سجون نظم الحكم العربية إلى البحار الواسعة للفضاء الإنترنتى، جعل العرب تفغر فاها مذهولة، فالعرب يتحاورون فى منتدياتهم الإنترنتيه ، وهم متعودون على نظرة التبجيل إلى رموزهم الحالية والتراثية، ويتفاجأون بدون أى تمهيد أن هناك أشباحا فى الفضاء الإنترنتى الواسع تحمل أسماء مستعارة تتحاور معهم وتتجرأ على رموزهم وينالون منها، ويرمونها بشتى الصفات واللعون وبإدانة كثيرة سواء باطلة أو حقيقية، وبأسلوب أقرب إلى اللامبالاة والسخرية منه إلى الجدية فى النقاش، فماذا تنتظرون أن تكون ردود الأفعال؟! فانتشرت ظاهرة تدمير منتديات الحوار العربية، وتدميرها من جذورها، إما بفعل حكومات أو أفراد، فهكذا يتحاور ويتكلم العرب فى فضاء الإنترنت، وأعرف موقعا معارضا لنظام الحكم فى إحدى الدول العربية المجاورة، فى حالة ترحال مستمر من موقع للآخر، لأن حكومته تتعقبه وتهجم على الموقع وتخربه، فيسرع إلى مواقع عالمية يحتمى فيها ويزاول نشاطه منها: وهكذا هم العرب على الإنترنت. والأدهى من ذلك وأمرّ، أن البعض استفتوا علماء المسلمين عن تدمير مواقع الكفرة والمشركين فى الإنترنت، فأفتوهم بذلك..! أية فتوى هذه، وأى استفتاء معوج هذا؟! هل بلغت بنا السذاجة أن ننظر إلى القشور ونغض الطرف عن الوقائع، التى تقول : إن الفضاء الإنترنتى صناعة أمريكية، وفى إمكان صانع الإنترنت ، أن يمحو جميع المواقع العربية والإسلامية، بمجرد الضغط على زر واحد، هل يستطيع العرب صناعة شبكة إنترنت أخرى تكون من اختراعهم، يتحدثون فيها كما يشاءون؟! هل يستطيع العرب توظيف شبكة الإنترنت القائمة، فى مواجهة قوائم المشاكل التعليمية والاقتصادية والسياسية التى جعلت العرب فى ذيل قائمة الدول فى دورة سيدنى الأخيرة! . هل يستطيع العرب توظيف واستثمار شبكة الإنترنت فى فضح مذابح إسرائيل الأخيرة فى القدس، لماذا لا يرسل كل عربى رسالة احتجاج إلى الهيئات العالمية لشرح استفزاز إسرائيل لمشاعر العرب فى فلسطين ، لماذا لا نقيم المظاهرات فى الإنترنت عبر كافة الأشكال الإليكترونية لتوصيل صوت العرب للعالم، متى نستيقظ نحن العرب من القهر والتخلف؟! متى نتخلص من الجعجعة الصوتية ، وحروب الكلام التى نخوضها يوميا بدون فعل ايجابى ! .



سوسن بدر فى الأبواب المغلقة

حصاد سينما على حافة الهاوية

بقلم : مصطفى درويش

ليس خافيا علي أي مهتم بمصير السينما المصرية ، ومن منطلق اهتمامه هذا ، شاهد كل ما جرى عرضه من أفلامها خلال أولى أعوام القرن الواحد والعشرين ؛ ليس خافيا عليه انها قد أصبحت، أو على وشك أن تصبح سينما منحصرة فى نوع واحد ، وفصل واحد، بمعنى انحصار ما تنتجه من أفلام فى نوع الملهاة ، واقتصار عروض ذلك النوع على الصيف ، دون غيره من فصول العام.

فباستثناء أيام عيدى الفطر والأضحى الماضيين ، حيث جرى عرض حوالى تسعة أفلام، استمر بعضها على الشاشات لبضعة أسابيع بعد انتهاء العيدين، وبعضها الآخر لبضعة أيام، باستثناء ذلك ، خلت دور السينما ، بطول وعرض البلاد ، من أى فيلم مصرى جديد.


أحمد السقا في شورت وفانلة وكاب

وبقيت السينما المصرية على هذا الحال من البيات الشتوى، حتى مجيء الصيف ، حيث عادت أفلامها إلى الشاشات، زمنا لم يزد على ثلاثة أشهر إلا قليلا.

لهو ولعب

وأهم ما لوحظ على هذه السينما العائدة ، أنه لم يعرض من أفلامها إلا ما كان مازحا ، هازلا ، لايستهدف سوى دغدغة حواس جمهور عابر ، قوامه جموع طلبة المدارس والجامعات ، والعاملون المصريون فى دول الخليج العائدون إلى أرض الوطن لقضاء اجازة الصيف ، والاخوة العرب القادمين إلى بر مصر ، لا لغرض سوى اللهو واللعب ؛ دغدغتها بمواقف وقفشات مثيرة للضحك ، وياحبذا لو كان ذلك بصوت عال، وضجة تصم الآذان ، ودون ما حاجة لأن يعمل أحد من ذلك الجمهور الفكر فيما يرى ويسمع.

وما حاجته لذلك ، واغلب ما يراه قذى فى العين، واغلب ما يسمعه لغو أشبه بالهذيان؟

وظاهرة انكماش عروض أفلام السينما المصرية على هذا النحو، إن دلت فإنما تدل على عمق الأزمة الآخذة بخناق صناعة سينما ، كان يحلو للبعض ، حتى عهد قريب ، ان يطلق عليها لقب هوليوود الشرق.

ولا يزال يحلو للبعض أن يعيش مخدوعا بسراب ذلك الزمن الجميل .

ومن علامات ازمتها ان مايجرى عرضه من أفلامها ، وهو جد قليل ، إذا ما قورن بكم انتاجها فى عصرها الذهبى،



فيلم ثقافى بدون نجوم

قبل أربعين عاما، أو يزيد ، من ذلك النوع الصيفى المازح، اللاهى.

المبالغة والاستسهال

وأول ما يؤخذ على ذلك النوع ، هو معاناة أكثر أفلامه من داء الاستسهال، والافراط فى المبالغة ، على نحو لابد أن يصيب المتلقي بما يشبه الغثيان.

ولعل الفيلم الذى يضرب به المثل فى الاستسهال والاستهتار معاً وهو «شجيع السيما».

أما لماذا يضرب به المثل ، فذلك لأن أصحابه نهشوا حلالا بلالا ، وبغير مقابل لحم فيلم أمريكى «الطريق الصعب» (١٩٩١).

وإذا بنا ، من ثم ، لا نرى فيلما ، وانما نرى مسخا منقولا نقل مسطرة ، دون ادنى اختلاف مع الفيلم الاصلى الا فى تدنى المستوى، بطبيعة الحال.

ولم تقتصر المعاناة من ذلك الداء الوبيل على أفلام الملهاة، بل شملت غيرها من أفلام الأنواع الاخرى ، لاسيما ما كان منها موضوعه متصلا بالسياسة من قريب، أو بعيد.

وهنا اخص بالذكر أفلاما ثلاثة هى «الكلام فى الممنوع» لصاحبه «عمر عبدالعزيز»، «الشرف» لصاحبه «محمد شعبان» ، وأرض الخوف» لصاحبه «داوود عبدالسيد».

فهذه الأفلام ، وهى ذات طابع سياسى جاد ، أو من المفروض أن تكون كذلك ، قامت على أفكار ساذجة، كما جرى طرحها باسلوب سينمائي ركيك، على نحو غير معهود ، خاصة بالنسبة لصاحب «أرض الخوف» ، المعروف



هنيدى .. هل هو وراء صحوة السقا !!

برصيده المشرف من الأفلام.

القاعدة والاستثناء

ومع ذلك ، فـمـا يحسب للأفـلام الثلاثة، انها أقل سذاجة، وأكثر وضوحا من الأفلام ذات الطابع السياسى التى جرى عرضها خلال العام الأخير من القرن العشرين ، واذكر من بينها على سبيل التمثيل «فتاة من إسرائيل»، «امن دولة» ، «الكافير» و«الآخر».

واغرب ما اعجب له ان هذه الأفلام المفتقدة للرؤية الواضحة ، الصحيحة ، جميعها ، فيما عدا «فتاة من إسرائيل»، أول فيلم لمخرجه الشاب «ايهاب راضى »، لمخرجين مخضرمين، هم «نادر جلال»، «على عبد الخالق» و«يوسف شاهين».

ومعروف إن رصيد أى واحد من هؤلاء الثلاثة من الأفلام يعد بالعشرات.

واياً ما كان الأمر ، فالأكيد أنه ، فيما عدا أربعة أفلام، هى «جنة الشياطين» لصاحبه «اسامة فوزى» و«المدينة» لصاحبه «يسرى نصر الله» و«الابواب المغلقة» لصاحبه «عاطف حتاته» و«عمر ٢٠٠٠» لصاحبه «أحمد عاطف»؛ فجميع الأفلام الأخرى جادة اكانت أم هازلة ، لم يكلف أصحابها أنفسهم مشقة المحاولة والخطأ، سعياً إلى ما هو صواب.

نكسة التليفزيون

فبعضها مثل «النمس» اداره صاحبه «على عبد الخالق» حول معان تافهة ، مكررة عفا عليها الزمان.

وبعضها مثل «فل الفل» اداره صاحبه «مدحت السباعى» حول أفكار مشوشة ، فيها من التخليط الشىء الكثير.

ويعضها مثل «بونو بونو» اداره صاحبه «نادر جلال» بما يرضى نرجسية «نادية الجندى» ، نجمة الجماهير ويعضها مثل «جنون الحياة» و«امرأة تحت المراقبة» و«ابناء الشيطان» ، والأفلام الثلاثة من انتاج التليفزيون المصرى» ، ادارها أصحابها «سعيد مرزوق» و«أشرف فهمى» و«إبراهيم عفيفى» حول انماط بشرية غير سوية تضلل بتشوهاتها المتلقي كثيراً ، وتعبث بقيمه دائماً.

اذن نحن أمام حصاد سينما آخذة فى الانكماش والانحدار ، وذلك لأن احدا من صانعيها لم يحاول أن يعصمها من التنظير الزائف ، والتبرير المتهافت، والمنطق المعوج.

ومع هذا الحصاد المر ، فليس غريباً أن تكون أكثر أفلام العام نجاحا من نوع الملهاة ، وبالتحديد «هاللو أمريكا» ، و«بلية ودماغه العالية» وكلاهما للمخرج «نادر جلال»، و«الناظر صلاح الدين»، للمخرج شريف عرفة و«شورت وفانله وكاب» للمخرج سعيد حامد.

واضيف إلى الأفلام الأربعة ، فيلما خامسا حقق قدرا من النجاح ، رغم أنه أول فيلم روائى طويل لمخرجه «محمد امين» ، وهو «فيلم ثقافى».

صعود وسقوط

وفيما عداه فالأفلام الأخرى عانت من ضعف فى السيناريو وليد فقر فكر فادح، فاضح.

ولولا اسناد الادوار الرئيسية فيها «لعادل إمام» و«محمد هنيدى» و«علاء ولى الدين» و«أحمد السقا» الذى ارتبط صعوده بصعود «هنيدى» بفضل «صعيدى فى الجامعة الأمريكية» و«همام فى امستردام»، لولا ذلك ، لما حققت الأفلام نجاحا يذكر فأفلام من نفس نوعها، ومع ذلك ، فشلت فشلا ذريعاً، مثل «النمس» و«فل الفل» و«مؤاخذة يادعبس» و«زنقة الستات».

ولعل خير مثل على ذلك «الناظر صلاح الدين» ، فهذا الفيلم يدور وجودا وعدما حول بدانة «علاء ولى الدين» فبدونها ، أى البدانة ، لا يساوى شيئا.

فقصته ، ان كان له قصة لا تعدو ان تكون ترديدا لقصص أفلام، وبالذات قصة فيلم المخرج الراحل «حسام الدين مصطفى» المأخوذة عن مسرحية على سالم «مدرسة المشاغبين».

نفق مظلم

وقد يبدو أمرا غريباً ان الأفلام الأربعة التى حاول أصحابها أن يخرجوا بها من النفق المظلم المحصورة فيه السينما المصرية الآن؛ لم تحقق من النجاح إلا أقل القليل.

«فالمدينة» و«الأبواب المغلقة» كلاهما لم تتوافر له فرصة العرض العام فى مصر، حتى كتابة هذه السطور وان كانت قد توافرت لهما تلك الفرصة فى

أكثر من مهرجان متواضع خارج مصر وداخلها.

ومن بين المهرجانات التى اشتركا فيها اذكر مهرجان الاسكندرية والمهرجان القومى للسينما ومهرجان معهد العالم العربى ومهرجان البحرين ومهرجان جمعية الفيلم، ومهرجان قرطاج.

وفى أى منها كان يخرج فيلم «حتاتة» متوجاً بجوائز تفوق بكثير الجوائز الفائز بها فيلم «نصر الله».

وهنا قد يكون من المفيد ان أذكر ان «المدينة» بعضه متكلم بلغة الضاد، وبعضه الآخر متكلم بلغة الفرنسيس!!

وممن تحمسوا له حماساً شديداً «ادوارد سعيد» المفكر الفلسطينى - الأمريكى الذائع الصيت.

فما أكثر استعماله لكلمة رائع، وكلمات اخرى مماثلة، وهو يعرض لتمثيل بطل الفيلم «باسم سمرة»، أو وهو يعرض لجوانب آخرى فى الفيلم، خاصة ما كان منها متصلا بالبناء الدرامى والايقاع.

سر الفشل

وعكس الحال مع فيلمى «حتاتة» و«نصر الله» كان كل من «جنة الشياطين» و«عمر ٢٠٠٠» أسعد حظا؛ إذ جرى عرض الفيلم الأول فى دور السينما بمصر خلال أيام عيد الفطر الماضى، وجرى عرض الفيلم الثانى قبل شهرين وكلا الفيلمين كان حظه من الايرادات عاثرا.

وابدأ «بعمر ٢٠٠٠»، وهو أول فيلم لمخرجه «أحمد عاطف» المتخرج فى معهد السينما، لاقول أنه لو كان لفيلمه ملمح واحد ينفرد به عن الأفلام الثلاثة الأخرى، فربما كان ذلك فى مجيئه مشوبا بغلو فى الطموح والادعاء؛ مع الجهل والقصور فى استخدام مفردات لغة السينما.

ومنها ضياع كل ما حاول قوله صاحب الفيلم هباء مع الهباء.

وفشل فيلمه فشلا ذريعا.

ويرجع فشل «جنة الشياطين» إلى أسباب أخرى، من بينها ان جديده لم يستسغه جمهور المتفرجين فموضوعه دار حول معان دون أن يقدمها لنا بجلاء، وابطاله هامشيون وتصرفاتهم تثير الإشمئزاز ونجمه «محمود حميدة» جثة هامدة لم تحرك ساكنا من البداية وحتى النهاية.

ورغم ذلك، جرى تتويجه بأهم جوائز المهرجان القومى للسينما المصرية الأخير.

وكان من بينها جائزة أفضل ممثل رئيسى التى فاز بها «حميدة»، عن ادائه لدور لم يظهر فيه إلا جثة هامدة.

وليس من شك ان هذا الفوز العبثى لابد وأن يزيد من اتساع الضرر، ومن قتامة صورة السينما المصرية عام ٢٠٠٠!!.

مســــرح

جيل جديد.. يخترق الحوائط العاليـة

بقلم: مهدى الحسينى

ليس أخطر من حائط برلين سوى أن يمثل هذا الحائط فى ذهنك فيحجب عنك الرؤى والذاكرة والضمير.

وفى مسرح الهناجر كانت البداية عندما تجمع عدد من الشباب فى ورشة فنية لمسرحة المكان والزمان، فإذ بهم يتجهون إلى بؤرة تاريخية درامية وساخنة هى حريق القاهرة فى ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢، يبدأون السير إليها قبل هذا التاريخ بعشر سنين، وتحديداً من حادثة ٤ فبراير سنة ١٩٤٢، فيمضون فى محاولتهم لتحليل هذا التاريخ ولم شعثه وشتاته، فيصلون إلى أزمة مارس ١٩٥٤.

إنها لمسافة طويلة ومضنية ومليئة بالتفاصيل والأسرار والخبائث، حتي أن ممثلاً منهم أفصح فقال: «ماهو إحنا الجيل اللي لا شاف ولا سمع ولا عارف أي حاجة» إنها همسة أو صرخة أو تنهيدة من نفس وعقل يعانيان حريقاً وألما مضنياً.

فيقال لهم إن قبل ٢٣ يوليو كان كل شيء باللون الأسود، وبعدها كانت كل الأيام والليالى بيضاء بلا نقطة دم واحدة!!، ثم يكون المستقبل باللون الأحمر لون دماء المعارك والشهداء لتحرير مصر وفلسطين والعرب، بعد ذلك سوف تصبح الحياة جميلة وردية الألوان، أو كما قال صلاح چاهين!، ولكن شيئاً من هذا لم يكن حقيقيا، فمبادىء «الثورة» الستة ظلت وعوداً لم تتحقق، بل تحقق عكسها، ومعارك ٥٦ واليمن و٦٧ جاءت نتائجها فادحة، وخطط التنمية دمرت الأرض الزراعية على حساب الاقتصاد الفلاحى، فلم نعد ننتج طعامنا بل نستورده، وهيمنت صناعات جميع الدول المشاركة فى الأمم المتحدة على أسواقنا، وشهدت ليمانات طرة وأبى زعبل والحربى والواحات مصرع الحريات، ومع إنكار العلم الأخضر كان مطلوبا أن ننسى أنصع صفحات مجدنا القومى: أحمس ورمسيس وعرابى ومصطفى كامل وسعد زغلول واسماعيل صدقى والنحاس وعزيز فهمى، وأبطال المقاومة الوطنية ضد الاحتلال الفرنسى والاستعمار البريطانى وشهداء المعارك الوطنية الذين سقطوا فى كل بقعة من بقاع مصر والسودان.

ولكن المستحيلات تحدث أحيانا، خاصة إذا أملتها ضرورات التاريخ، فكثيراً ما قابلت – مصادفة – فى بقاع عديدة من أرض مصر وأوساطها الاجتماعية المختلفة، عناصر شابة من البنات والبنين فى أعمار تتراوح بين السادسة عشرة وبين الخامسة والثلاثين، يتساءلون عن أشياء فُرض عليهم ألا يعرفوها، وإذا ما عرفوها، فعلى وجه أوحد مبتسر ومشوه.

وهكذا تجول صانعو (الحريق) فى أماكن وأزمنة شتى: فى سراى عابدين، وقاهرة ٤ فبراير ١٩٤٢، وكوبرى عباس ١٩٤٦، وحريق كفر أحمد عبده بالسويس سنة ١٩٥١، وإلغاء معاهدة ١٩٣٦، والكفاح المسلح فى القناة ١٩٥١/١٩٥٢، وجامعة فؤاد الأول، وفى بيوت العمال وخلاياهم السرية، وفى اللجنة الوطنية للطلبة والعمال ١٩٤٦، فى مواقع الجيش المصرى سنة ١٩٤٨ وفى ثكناته قبل يوليو ١٩٥٢، إن الفجر الحقيقى كاد أن يتجمع. فهل جاء ليل ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بالمجنزرات والدبابات وهدير الطيران المنخفض كى يُحقق فجر الشعب؟

هذا هو مبحث تلك الجماعة المسرحية



لقطة من «الحريق» التي تضمنت جزءا من تاريخ مصر

الحرة الشابة المسماة (أتيليه المسرح) وكاتبها «محمد السيد الغاياتي» وشاعرتها «كوثر مصطفى» وملحنها ومغنيها «أسامة فؤاد» ومصممتها «مها حمدى» وإضاءة «مدحت عزيز» ومجموعة الإبداع الجماعي: بيومي فؤاد. سعيد مصطفى. علاء سالم. ابراهيم غريب. سيد عبد الخالق. نانسي زكريا، أيمن صبحي، تامر رجب، محمود صابر، عبير السيد، هاني عفيفي، خالد النجار، إيهاب حمدى، أُبَى رجائى، سالى أسعد، عصام جاد، ماجد منير، أبو بكر الشريف، محمد حسنى، محمد أحمد، عمرو طلبة، أسامة حسن، عبد السلام كامل، أحمد جامع، عبده السيد، محمد فوزى، غادة محمود، عزت محمد، عمرو سليمان، أبو العلا صابر، نادر مصطفى، محمد البدراوى، هانى عفيفى، خالد سرور، كل هؤلاء ساهموا فى اختراق السور وهدموا الحائط وعبروا الخطوط الحمراء، والأسلاك الشائكة.

أما من أتاحت لهم فرصة تقديم هذا الفعل المهم المثير، فهى أ.د. هدى وصفى التى كتبت تقدم العرض فتقول: «أن يتحمس شباب هذا الجيل للبحث فى ذاكرة الأمة - بالرغم من حداثة هذه الذاكرة بالنسبة لموضوع العرض - فإن ذلك يجعلنا نتفاعل بهذا الجيل الذى أثبت اليوم ومع أحداث الانتفاضة، أنه جاد برغم كل ما يعانيه وكل ما يقال عنه».

وكأنما كانوا يقدِّرون قصور أدواتهم



مصر نسيج واحد من أجل وحدة وطنية

الفنية والتقنية مسبقاً، عن إدراك جوهر حقيقة ما حدث، حين لاحظوا بحق: «أن مقدار التشويه الذى يعانى منه تاريخنا القريب تدعو للأسف الشديد، وإذا كنت لا تستطيع رؤية الأشياء والمسافة بينكم قصيرة، فإما أنك فقدت الإبصار، أو أن الأشياء تراوغك فلا تريدك أن تراها، وإما أن هذه الأشياء ذاتها مغلوبة على أمرها لأن أياد كثيرة تفصل بينك وبينها»، ولكنهم لا يعترفون بالفشل: «ربما يستطيع جيلنا الذى لم ير ولم يسمع ولم يعرف شيئاً - وهو جيل يتميز بالحياد تجاه الجميع - أن يرسم صورة كاملة لهذا الزمن الذى لا يفصلنا عنه سوى خمسين عاما.

إن ما حدث أمر يدعو للدهشة والإعجاب، فقد اخترقت نخبة من هذا الجيل الحصار والبقية تأتى... غير أنه لا مفر لى من المشاركة أيضا بصفتى شاهداً وناقداً معاً:

هذا الحريق.. هذه الحرائق الصغيرة والكبيرة، حريق حرب ١٩٤٨، حريق كفر عبده، حريق كنيسة السويس (لم يرد ذكرها بالعرض)، حريق القاهرة فى ٢٦ يناير ١٩٥٢، حريق مصنع كفر الدوار (لم يصل العرض إليه).. ألا يجوز الظن بأن (الحرق) لغة واحدة... فمن يكون المتحدث؟ هذه الفكرة لو أمسك صانعو العرض بتلابيبها لأنجزوا كشفا عميقا فاضحا، هم لم ينطلقوا من حريق ٢٦ يناير، ولم

يتمحوروا حوله، ولم يمهدوا له، ولم يجعلوه خطاً، دراميـاً أو ملحـميـاً، يمضـون - ذاهبـين إلى الماضى حـاضـرين إلى المستقبل - فينسجون على منواله خيوط عرضـهم، كما لم يتعاملوا مع الأحداث والشخـوص والمواقف مثل حزمة متوازية مترابطة أو يلفها رباط ما، باختصار هم لم يفكروا فى (الشكل) الأمـثل الذى يطرحون فيه أطروحتهم بقدر كاف.

ومن حـادثة فـبـراير ١٩٤٢، وبعـد بوتسدام حيث اتفق الجميع ضدنا، وفى عام ١٩٤٦ مفاوضات مستر سلم Slim مع صدقى والاغتيـالات وابراهيم عبـد الهادى وكوبرى عباس، وحرب ٤٨، وحرب ٤٩، والانتـخـابات ومجىء الوفـد وإلغـاء معاهدة ٣٦، والكفاح المسلح والاسماعيلية ثم الحـريق الكبـيـر، ومن داخل كل هذه الأحداث الجسيمة كان يمكن تتبع خيوط المؤامرة وحصيلة الصراع بين القوى الذى أدى إلى وأد المشروع الديمقراطى الوطنى التنموى القومى المصرى وكشف العناصر الداخلية والعدوان الخارجي، كي نخـرج من العرض بالدرس والرسالة.

مصر بلد عالمى وإمكانية دولة عظمى

كـان على صناع هذا العـرض إدراك هذه الحقيقة أولاً، فمصر ليست جزيرة فى المحيط الهادى، إنما هى بوابة من بوابات التـاريخ والجـغـرافـيـا مـعـا، وهى أم الحـضـارات وأولهـا لهـذا يجـرى ضـدها الحقد والتآمر، وفى أعقاب الحرب الثانية سنحت هذه الفرصة لنا بمنتهى الجلاء، حين تغيرت خريطة المتناقضات العالمية، فـبـدلا من أن كـانت بين دول المحـور من ناحية وبين ما يسمى بالدول الديمقراطية، أصـبـحت التناقضـات بين تحـالف وشيك بين الاتحـاد السوفييتى وجبهته الشرقية وبين أمـريكا والصـهـيـونيـة العـالميـة وإسـرائيل، وذلك ليس فـقط للاسـتـئـثـار بغنائم المهزومين: إيطاليا وألمانيا واليابان وإنما ليستديرا معاً لتصفيـة حلفائهما وعلى الأخص انجلتـرا وفـرنسـا، وإعـادة تقسيم العـالم على نحو جديد من حيث الشكل والمضـمـون، هذا الوضع زاده انهيار حكم الطبقة الجديدة المقنّع بزعم الاشتراكية فى شرق أوروبا والامبراطورية السوفييتية، زاده استقطابا ووضوحا بزوغ الولايات المتحـدة كقـوة كـاسحـة فى كل المجـالات بحـيث يبـدو حلفـاؤها (أوروبا - اليابان، جنوب شرق آسيا غير الصينى - كندا - استراليا) أقزامـا مجـبرين على قبول الشروط الأمريكية فى إدارة العالم استعداداً لمواجهة الصين والهند القوتين القوميتين الدولتين البازغتين.

إن عدم الوعى بهذه الخريطة الدولية/ المحلية/ يوقع الكثير فى خطأ فـهم هذه الأحـداث التى مـرت بنا، وأثرت فى مصيرنا أيما تأثير.

فى هذه الظروف بالتحديد، انتعش الاقتصاد المصرى حين انشغل الأعداء ببعضهم البعض، وخرجت مصر غنية، بزراعة سخيّة قليلة التكاليف، حتى أن تقرير اتحاد المزارعين الأمريكان قال: «إن الأقطان المصرية طويلة التيلة عالية الرتبة تطارد الأقطان الأمريكية فى أسواق العالم»، كما أفلتت مصر بموجة صناعية ثانية بفضل عبود باشا وآخرين بعد موجة طلعت حرب فى أعقاب الحرب الأولى، فضلا عن سيولة نقدية، وبنوك منتعشة، وخبرات تقنية واقتصادية متطورة، وميزان تجارى لصالحنا، دائنين لانجلترا نفسها، كما كنا نملك جامعة تضم كادراً علمياً يرتقى إلى حد الندرة والامتياز، وصحافة مستقلة شبه حرة، وحياة سياسية أهلية، وحركة إبداعية تمضى نحو طفرة.

نعم، كانت مصر مؤهلة للنهضة الشاملة بعد الحرب الثانية وبسببها، شرط أن تملك مقدراتها وفرصها، غير أنها لم تكن لتملك قواها ومناهجها وبرامجها على النحو اللائق، كانت مصر بحاجة إلى مزيد من القوى الوطنية (الحقة) والوحدة القومية، كانت فى حاجة إلى مزيد من الوعي العميق بتراثها وبالعالم، وكانت بحاجة لتنظيمات حزبية جديدة، فالأحزاب الأربعة الكبيرة القديمة التى عاشت مرحلة سنة ١٩١٩ أو تجمت عنها كانت قد أفلست أو تكاد، بما فى ذلك حزب الوفد الذى كان يعانى انقساما داخليا وقصوراً فى الرؤى الاجتماعية والدولية. أما القوى الأخرى فيمكن درسُها فى تيارين رئيسيين: جبهة العملاء أعداء الشعب، وجبهة الاستقلال الوطنى وأهمها الاستقلال الاقتصادى والسعى إلى قيام مصر المتجددة، رغم هذا فهى قوى كانت جد مختلطة ومتداخلة بقدر ما هى متعادية، وبقدر ما هى شعارية أو صادقة.

كان على صناع هذا العرض شديد الأهمية أن يتساءلوا أيضا - وعلى سبيل المثال - عن طبيعة القوى التى شكلت اللجنة الوطنية للطلبة والعمال ضد معاهدة صدقى- بيفن؟ هل كانت حقا معاهدة خيانة وطنية كما رددت الشعارات حينها؟ ألم تدر فى كواليسها مساومات لصالح تجديد الصناعة المصرية وتغيير جوهرى فى تنفيذ اتفاقية الأرصدة الاسترلينية التى عقدها النحاس سنة ١٩٤٢؟

إن مثل هذه الأسئلة وغيرها يجب أن تسلط على كل مفردة من مفردات مادة هذا العرض المسرحى، فإذا لم يكن هناك إجابات، فإنه يجب أن تبقى التساؤلات ماثلة.

إن التعامل مع التاريخ فى التأليف الدرامى يقتضى تجاوزه، الأمر الذى يتطلب الاستهلاك التام للمصادر والمراجع، واستيعابها وتحليلها وتفسيرها وإثرائها بعشرات الأسئلة، هنا يمكن الخلوص إلى (فلسفة التاريخ) ويمكن الغوص فى (روح)

العصر، ويمكن تكثيف الشخصيات بأعماقها دون الاكتفاء بأسمائها أو أفعالها أو ملامحها الخارجية، وهنا أيضا يمكن تقديم الحدث المسرحي Dramatic ac-tion، لا الحوادث Axedents، ولا الوقائع Incedents، هنا يستطيع المبدع أن يخلق زمنا خاصا للمسرحية Tem-po وإيقاعا يخصها Rehtheme، وكذا يتمكن المبدع من (تصوير العالم) الذى تدور فيه المسرحية، لا الركون فقط إلى رسم المناظر والديكورات والأزياء والأدوات، عندئذ يقدم الفنان عملا مختلفا عن عمل المؤرخ، وأن يقول كلمة أبْقى من كلمات صناع الأحداث أنفسهم. إنه يتعامل مع القانون.. مع الجوهر.

الفن .. والحرفة

أفضل ما فى هذا العرض - بعد المجهود الجماعى فى التأليف والإخراج والتمثيل والنوايا الطيبة واختيار الموضوع - كانت القصائد والموسيقى، ولكننى أسوق هنا تساؤلا عن الفرق الواجب اعتباره بينهما فى المسلسل التليفزيونى أو الإذاعى، وبينهما هنا على خشبة المسرح؟ هل يتساويان؟ ألا يحتاج الشعر المسرحى والموسيقى المسرحية إلى حس درامى مسرحى مستقل؟ للأسف فإن (التلفزة) قد استولت على أدائنا الفنى وتصورنا لتقنيات عروضنا المسرحية، إن التمثيلية التليفزيونية والإذاعية تنتمى فى الأغلب الأعم - إلى (المدرسة الطبيعية) فى التأليف والإخراج، أو إلى (المدرسة الواقعية) وإذا ما ارتقت بعض الشىء فإنها تنتمى إلى (الواقعية الشعرية) أو إلى نوع يمزج بين الواقعى وبين الفانتازى، أما فى حالات التجريب فإنها تتنكب التجريد، أما فى المسرح فإن الأمر مختلف، أو يجب أن يكون مختلفا، فالإخراج كان إخراج بلاتوه ڤيديو فى أغلب خطوطه وصوره، والديكور كان مناظر أركان فى ستوديو ڤيديو أيضا، والتمثيل كان طبيعيا خاليا من أى إيحاء أو خيال رغم محاولة البعض أن يكونوا غير ذلك.

والسبب فى ذلك أن صناع العرض لم يحاولوا أن يقدموا مفهوما فنيا وتصوراً مسرحيا لمشروعهم، رغم ما كتبوه فى اليانفلت: «إن الحريق الحقيقى هو تلك النار التى كانت متأججة فى الوجدان المصرى بكل طوائفه، محاولةً إيجاد منفذ للهيبها، كى يشملها ثورة مدينة، يصنعها الشعب المصرى بيده وبوجدانه وعقله، مستفيداً من كل دروس كفاحه الشريف الأزلى، تلك النار التى لم تخف عن أعين الذين عاصروها، يصبها على أعدائه، والتى جاء حريق القاهرة ليطفئها، ومن هنا يصبح حريق القاهرة، حريقا دنساً جاء ليطفىء حريقاً مقدساً».

ولكن - وبكل أسف - لم تغادر هذه الكلمات الواعية سطورها وأحبار الطباعة.. إلى خشبة المسرح.. إلا قليلا.



● «الجيل الحالى من نقاد السينما لايفرق بين الفن والسياسة ، فما يتفق مع فكره السياسي يرفعه إلى أعلى عليين وما يختلف معه ينزله إلى أسفل سافلين».

الأديب نجيب محفوظ

● «لغة نيويورك لا تكف عن تذكير الشاعر بأن المدن التي تغامر بشعوبها باسم الحفاظ على سلطانها، مدن لا تعمر طويلا».

الشاعر السورى أدونيس

● «أجمل ما فى أمريكا أنك تجد انسانا اكثر منك هوسا أو جنونا».

الصحفى البريطانى أندرو ساليفان

● «الحاكم الذى يريد أن يبقى فى موقع السلطة يخترع عدوا».

عالمة النفس دوروثى رو
صاحبة كتاب اصدقاء واعداء

● «أنا سوبر ستار (نجم أعظم) رغم انف الجميع».

علاء ولى الدين
نجم الناظر صلاح الدين

● «فى عالمنا العربى: الأول خائف من الثانى والثانى خائف من الثالث والثالث خائف من الاول والخائف خائف من الخائف».

الروائى الليبى أحمد ابراهيم الفقيه

● «على الكاتب ألا يذّل القيم العليا للادب والفن من اجل الحصول على الرواج».

الكاتب اللبنانى جهاد فاضل

● «التعبير المتقن عن فكرة بسيطة ارقى من الفكرة الجميلة التى تؤديها فى قالب ردئ».

الفنان التشكيلى المصرى محمد شاكر


نجيب محفوظ


ادونيس

عبدالغفار مكاوى ومختارات مترجمة للشاعر الايطالى أنجاريتى

بقلم: محمد إبراهيم أبوسنة

ترجم الدكتور عبدالغفار مكاوى مجموعة مختارة من قصائد الشاعر الايطالى أنجاريتى تحت عنوان «يا إخوتى» مأخوذة من دواوين الشاعر المختلفة وهى «عن الفرح» ١٩١٩ و«عاطفة الزمن» ١٩٣٥ «الألم» ١٩٤٦ «الأرض الموعودة» ١٩٥٣، وهو يواصل بهذا العمل الجهد الكبير الذى بدأه فى كتابه «ثورة الشعر الحديث» وترجم فيه نماذج لأهم شعراء الحداثة والتجديد فى أوربا فى القرن العشرين. وقد جاءت الترجمة ممثلة لهذه النزعة التى تمزج بين الشعر والفلسفة فرغم انها تسبح بين ضفاف الوجود والعدم وتحلق بالقرب من الرؤية الصوفية والميتافيزيقية إلا أن القصائد تعبر عن شخصية الشاعر والمترجم معا..

والدكتور عبدالغفار مكاوى أكاديمى درس الفلسفة وهو من مواليد الدقهلية فى عام ١٩٣٠ تخرج فى كلية الآداب سنة ١٩٥١، وحصل على دكتوراه فى الفلسفة من جامعة فرايبورج سنة ١٩٦٢ وعمل بالتدريس بجامعات القاهرة والخرطوم وصنعاء والكويت قبل ان يتفرغ كلية للابداع الحر.. من أبرز مؤلفاته «مدرسة الحكمة» و«نداء الحقيقة» و «لم الفلسفة»، «البلد البعيد»، «هلدرلين».. «ثورة الشعر الحديث من بودلير إلى العصر الحاضر»، وله عدد من المجموعات القصصية «ابن السلطان» «الست الظاهرة» «الحصان الأخضر يموت على شوارع الأسفلت»..



عبدالغفار مكاوى

ومن مسرحياته «من قتل الطفل» «زائر من الجنة» «بشر الحافى يخرج من الجحيم».. «دموع أوديب» «محاكمة جلجاميش» وله العديد من الكتب المترجمة، وقد تأثرت ترجماته برصانته الاكاديمية ونزوعه الأدبى فهو شاعر قاص مسرحى مترجم. أما انجاريتى فهو من أشهر شعراء أيطاليا فى القرن العشرين، واحد من رواد حركة الحداثة الشعرية التى غيرت لغة الشعر وتكوينه الفني ورؤاه .. لقد عاصر انجاريتى قيام حربين عالميتين هما الحرب العالمية الأولى ١٩١٨/١٩١٤ والحرب العالمية الثانية ١٩٤٥/١٩٣٩، وعبر عن مآسى هذه الحرب وأثرها على روح الإنسان كما عبر عن مآسيه هو الخاصة من اغترابه وفقده الأعزاء من أهله من موت أمه وفقده لابنه الذى كان فى التاسعة من عمره.. ولد انجاريتى فى الثامن من شهر فبراير عام ١٨٨٨ بمدينة الاسكندرية لأب من المهاجرين وينحدر والده من منطقة توسكانيا بجنوب ايطاليا، وكان والده قد حضر إلى مصر للعمل فى قناة السويس ولكن المرض ألم به وأودى بحياته فى عام ١٩٨٩ أى بعد عام واحد من مولد الشاعر الذى شاء له القدر أن يتشأ يتيما، ولكن أمه كانت قوية الإرادة واستطاعت ان تعوضه عن فقد ابيه بقيامها بالعمل الشاق من أجل تربيته.. وظل جوسيبى أنجاريتى يعيش بالاسكندرية حتى سن الثالثة والعشرين من عمره حيث تأثر بالطبيعة المصرية وتعرف بكثير من الشعراء الذين عاصرهم، وعلى رأسهم قنسطنطين كافافيس ورحل فى عام ١٩١٢ إلى روما، ومنها إلى باريس ليستكمل دراسته فى القانون وفى فرنسا ينهمك فى القراءة وفى معايشة الحياة الأدبية والفنية فى باريس ، قرأ اعمال بودلير وملارميه ونيتشه وليوباردى وظل يتردد على المقاهى الأدبية وانعقدت أواصر الصداقة القوية بينه وبين الشاعرين سان جون بيرس وجيوم أبوللنير، ثم تعرف إلى بيكاسو وموديليانى ويعود إلى ميلانو فى عام ١٩١٤ ليعمل بالتدريس ويبدأ فى نشر قصائده ويعود الى باريس فى عام ١٩١٨ ثم يعود إلى ايطاليا فى عام ١٩٢٠ ويصدر فى عام ١٩٢٣ طبعة جديدة من ديوانه الميناء الدفين، مع

مقدمة بقلم موسيلني الذى أصبح زعيم ايطاليا وحالف هتلر إلى ان انهزم وقتل وشنق في روما بأيدى الحلفاء، وفي عام ١٩٣٠ قام انجاريتي برحلة طاف خلالها بالجنوب الايطالي وعاد إلى مصر في عام ١٩٣١ مراسلا لجريدة الشعب وكانت امه قد توفيت في عام ١٩٣٠، وتصدر مجموعته الشعرية الجديدة «عاطفة الزمن» في عام ١٩٣٣ وتضم قصائده التي كتبها في الفترة من عام ١٩١٩ وحتى عام ١٩٣٥ وفي عام ١٩٣٤ يصدر في براغ المجلد الأول من ترجماته الشعرية ومنها نصوص لسان جون بيرس ووليم بليك والشاعر الروسي يسينين والشاعر بولان جونجورا إلى جانب قصيدتين من الأدب الشعبي الافريقي..وفي هذه الفترة كما يقول الدكتور عبدالغفار مكاوى تبدأ مرحلة جديدة من التأمل الفكرى وتصله دعوة لشغل كرسي الأدب الايطالي بجامعة سان جو باولو بالبرازيل، وفي عام ١٩٤٢ عين انجاريتي عضوا بالأكاديمية الايطالية ثم يصدر في عام ١٩٤٣ ترجمة لاثنتين وعشرين سوناته لوليم شكسبير ،ويحصل في عام ١٩٤٩ على جائزة روما للشعر وتصدر ترجمته لمسرحية «فيدر» لراسين وكتابه النثرى عن رحلاته بعنوان «فقير في المدينة»، وفي عام ١٩٥٨ تحتفل قريته لوكا مسقط رأسه بوصوله إلى سن السبعين وتموت زوجته «جان دوبوا» التي قال عنها:

« كانت زوجتي هي رفيقة عمرى التي بلغت الغاية في التفاني والتسامح والصبر حيثما جاءني الالهام الشعرى كانت دائما بجانبي.. لم تتشكك فيّ أبدا.. قاست معي ومن أجلي .. لقد كانت منبع شجاعتي» في عام ١٩٦٢، ينتخب رئيسا للجمعية الأوربية للكتاب ويسافر في عام ١٩٦٤ إلى الولايات المتحدة الأمريكية لإلقاء عدد من المحاضرات في جامعة كولومبيا بنيويورك، وهناك يلتقى بالشاعر ألن جنسبرج وفي عام ١٩٧٠ يكتب آخر قصائده «المتحجر والمخملي» قبل ان يتوفى في الثاني من شهر يونيه في مدينة روما .. يتعرف الشاعر انجاريتي بشاب عربي في باريس اسمه محمد شعيب مهاجر انسلخ عن وطنه وأهله ودينه حتى قتله الضياع والوحدة يكتب عنه انجاريتي قصيدة «في ذكراه» يقول:

– كان اسمه «محمد شعيب»
سليل امراء البدو الرحل
أقدم على الانتحار .. لأنه لم يعد له وطن
أحب فرنسا.. وغير اسمه
أصبح يدعى مارسيل
لكنه لم يصبح فرنسياً
ولم يعد يعرف كيف يعيش في خيمة أهله
حيث ينصتون لتلاوة القرآن

وهم يحتسون القهوة.. ولا عاد يدرى كيف يردد أغنية وحشية.. عشت معه ومع صاحبة الفندق الذى كنا نسكنه فى باريس ويحمل رقم «٥» شارع دى كارم..

الشاحب الضيق المنحدر على جانب التل

إنه يرقد الآن فى جبانة ايفرى

وربما كنت أنا وحدى.. الذى مازال يعرف انه كان حيا.

إن هذه القصيدة تعبير عن قسوة الاغتراب والاقتلاع من الوطن والثقافة والتاريخ .. ويبدو أن كثرة تنقل الشاعر واغترابه قد جعل من تجربة التشرد إحدى لوحاته الشعرية حيث يقول فى قصيدة «شريد»

ما من بقعة.. على الأرض يمكننى أن أحس فيها بأننى فى بيتى

فى كل مناخ جديد أجد نفسى فيه

أحس أننى معذب .. لأننى اعتدت على هذا من قبل

ودائما ما انفصل عنه غريبا..

ولادتى كانت مجرد عودة من عصور

استنفدت منها الحياة

ليتنى أتذوق لحظة وحيدة

من الحياة الأولية أبحث عن بلد برىء.

إنه يحلم بالصفاء والنقاء دائما يقول فى قصيدة صفاء

بعد الضباب الكثيف / تتجلى النجوم واحدة بعد الأخرى

أتنفس النضارة من لون السماء..

أدرك أنى صورة زائلة..

تساق خلف نور خالد

ويقول فى اغنية بدوية وكأنه يحمل فى وجدانه ذكريات الشرق وانطباعاته

- امرأة تنهض واقفة وتغنى

تتبعها تسحرها الريح.. تمددها فوق الأرض

إلى ان ينفذ فيها الحلم الحق

عارية هذه الأرض

هوجاء هذه الريح

وهذا الحلم هو الموت

- أما الألم فهو رفيق الشاعر من البداية إلى النهاية يقول فى قصيدة :

أضعت كل شىء..

- أضعت كل ما كسبته من الطفولة

ولن يمكننى أبدا.. ان اضيع نفسى فى صرخه

- الطفولة دفنتها فى أعماق الليالى وهى تفصلنى عن كل شىء . مازلت أتذكر حالى .

عندما هللت فرحا بحبى لك

وها أنا ذا ضائع فى لا نهائية الليالى

يأس يزداد بلا توقف . لم تعد الحياة عندى وهى حبيسه فى عمق لهاتى غير صرخة من الصرخات ». إن هذا الكتاب «يا إخوتى» يعد إضافة متميزة لحقل ترجمة الشعر خاصة حين تأتى هذه الترجمة بقلم أكاديمى ومبدع هو الدكتور عبد الغفار مكاوى .



بقلم:" د. مجدي القوصى ● رسوم: سميحة حسنين

انت: طبيب، تهوى القراءة، تتلذذ بالطعام، تعشق السينما، تحب المشى، يمتعك السفر، يرعبك الموت. أليس كذلك؟

(١)

بخط واضح، بل وجميل ظهر أول الأسئلة على ظهر مريض كنت أقوم بفحصه. سؤال فى الطب الاخلاقى أو الأخلاق الطبية:

هل يجوز لمريض يعانى من مرض لا شفاء منه أن يتخلص من حياته؟ وهل يمكنك مساعدته على ذلك؟.

بصوت عال وبشئ من العصبية أجبت بلا مرتين. التفت إلى الرجل فى دهشة. كررت الاجابة بصوت أعلى. ازدادت حيرة الرجل وتساءل فى اضطراب عما اتحدث. دفعته دفعا إلى الحائط المعلقة عليه المرآة منعكسا على صفحتها شاهدنا سويا ظهره العريض المغطى بالشعر والشامات والخالى من أية كتابات... اعتقد أنى سمعت عن نوع من الأحبار السرية يزيل نفسه بنفسه بعد فترة قصيرة.

(٢)

على الغلاف الخلفى للكتاب وجدت عنوانا بارزا: خمسون فى المائة خصم من الثمن المطبوع لمن يجد حلا لهذا اللغز: ما هو الذى يسير فى أول النهار على أربع وفى منتصفه على اثنتين وفى أول الليل على ثلاث ثم يذهب للنوم فى آخر الليل بد الأخبار مباشرة؟.. سؤال يليق بأبى الهول القائم على أبواب طيبة أوبب..



أذهب إلى البائع
ممسكا الكتاب بيدى.
حسنا انه الانسان ينظر
إلى الرجل مستوضحا،
أشير إلى الغلاف الخلفى
اشير إلى غلاف خال من
أية كتابات أنظر إلى
الرجل ينظر إلىّ.

(٣)

حسب معلوماتى فإن
الحساء يمكن أن يحتوى
على: أرز، شعرية، بصل،
كرفس، بطاطس، كوسة،
طماطم، جزر، دجاج،
لحم، سمك، كرنب،
قنبيط، ولكن أن يحتوى
على كيس بلاستيكى
فهذا ما لم أسمع به من
قبل... فتحت الكيس
العائم فوجدت بداخله
ورقة مطوية على
أسطرها سؤال: «ما هى
الأطعمة التى يساعد
الإكثار منها على الانتقال

إلى الرفيق الأعلى؟ ملحوظة هناك سؤال آخر فى صينية البطاطس بجوار قطعة اللحم الكبيرة» وفعلا: «هل هناك أطعمة يغطى طعمها على طعم سم الفئران؟». كورت الورقتين وألقيت بهما فى سلة المهملات مع البطاطس والحساء.

(٤)

أطفئت الأنوار، انزويت فى مقعدى. بدأت الأحداث. انزويت أكثر. توالت اللقطات. كدت أختفى مكانى.. تتابعت المشاهد نسيت نفسى أسرع أسرع. اختفيت كلية. استمر الفيلم وأنا مختبئ فيه. الفيلم كانت تدور أحداثه حول طبيب يهوى القراءة، يتلذذ بالطعام، يعشق السينما و.. أشياء أخرى. المهم أنه يتلقى منذ بداية معرفتنا به أسئلة مختلفة

امتحان

تدور كلها حول الحياة والموت. الرجل لا يعرف مصدر الأسئلة، لا يعرف الهدف من طرحها عليه. ولا يعرف إلى أين يقوده كل هذا، يجيب أحيانا ويفشل أحيانا أخرى. ونظل معه حتى النهاية وحتى تضاء الأنوار.

فى الندوة التى اعقبت الفيلم فوجئت بسؤال يطرح على من المنصة هل يسعد الانسان بالأفلام لأنها تأخذه إلى عالم آخر ينسى فيه واقعه، الذى هو غالبا ممل أو مؤلم، أم أنه يسعد بها لأنها تمثل له بكل بساطة وسيلة من وسائل إطالة الحياة أو العيش أكثر من حياة؟... قبل أن أفيق من دهشة طرحهم السؤال علىّ شخصيا فوجئت بسؤال آخر يأتينى من طرف الجمهور: هل الحياة على الشاشة خيال فى خيال أم أنها هى الواقع؟ وهل هذه الحياة التى نعيشها هى الحياة الحقيقية الباقية أم أن الحياة بعد الموت هى تلك الحقيقة؟ ظللت واقفا مكانى عاجزا عن الرد أو الجلوس.

(٥)

تقدمت منى وهى تتكئ على عصاتها. أشارت إلىّ إشارات مبهمة، اقتربت منها مختصرا المسافة ابتسمت فى امتنان. سألتها إن كانت تريد عبور الطريق إلى الناحية الأخرى. أجابت بالنفى. سألتها إن كانت متعبة وتريد الجلوس قليلا على الرصيف، أجابت بالنفى مرة أخرى. سألتها إن كان هناك شئ معيم تريده منى. أجابت وهى تنظر إلى مباشرة: «نعم. أريدك أن تجيب على

سـؤالين، فـهل لديك مانع؟»

أخـذت قليـلا ولكنى هززت رأسى بالموافقة... «إذا عـبـر شـخص مـا الشـارع المزدحم وهو شـارد الذهن فدهسـتـه سيـارة هل يعتبـر ذلك انتـحـارا؟ رددت عليـهـا ببطء الحـقيقة لا أعرف بالضبط فالأمر يحـتـاج إلى بعض التـفكيـر «قـالت»: حـسن فكر على مـهلك ولكن أرجـو ألا تطيل التفكير فى إجابة السؤال الثانى: فإذا فأنا فى عجلة من أمرى» قلت سأحاول ردت قال لى: ما هو رقم الحـافلة التى تذهب إلى المقابر»..

(٦)

فى السـفـر سـبع فـوائد، هكذا قـيل من ناحيتى لم أتعرف إلا إلى اثنتين التمتع بالمشـاهد الجميلة ولقـاء الفتـيات الحسناوات. جـالسـا فى صـالة السـفـر بالمطار أخـذت أحـاول تمضـيـة الوقت باسـتـرجـاع ذكـريات سفرياتى المتعددة. أقول أخـذت أحـاول، لأنه فى مكان مـا بين ذكـريات أولى رحـلاتى وثانيـهـا لمحت لوحـة الإعـلانات المتحـركـة وهى تغـيـير بياناتها، قمت من مكانى واقـتـربت منهـا لارى بصـورة أوضـح.. لندن الحـادية عشـرة وخـمس وثلاثون دقيـقـة.. تأخـيـر خـمس دقـائق لا بـأس تحـركت اللوحـة مـرة أخـرى. وأربعـون دقـيـقـة حسنا، الحـادية عـشـرة وخمس وأربعون دقـيـقـة. مـا هذا؟.. ظهـر اسـمى فجأة تسبقه كلمتى سؤال إلى: «السفر فوائد سبعة، فـهل لـه اخطار؟ وهل هناك أمراض قاتلة يمكن انتقالها إلى المسافر إذا لم يتـخـذ احـتـيـاطات معينة».

حـدقت مندهشـا ثم أجـبت وقـد بدأ العـرق يتصبب منى: «نعم هناك ولكن..» ابتـسـم الرجل الذى فـوجـئت بوجـوده أمامى ثم قال بالإنجليزية وهو يتعد «آسف ولكنى لا أتكلم العـربيـة».. نظرت مرة أخرى إلى اللوحة فى حـيـرة «الحـادية عشـرة وتسع وخمسون دقيقة».

(٧)

تأخر المصعد. هممت بالنزول على السلم فى آخر لحظة سمعته قادما توقف فـتـحـت أبوابه. دخلت بمفـردى إلى المصعد الخالى. ضغطت عى الزر. أغلق الباب. بدأ الصـعـود... فى طرف المرآة لمحـتـه وهو يخـرج سكينا كبيرا لدهشتى لم ألتـفت ولم أتحـرك ومن مكانى أخذت أراقبه، بكل هدوء، وهـو يذبحنـى من الوريد إلى الوريد.

المسجد الأقصى وقبة الصخرة

وماذا يضم الحرم القدسى الشريف

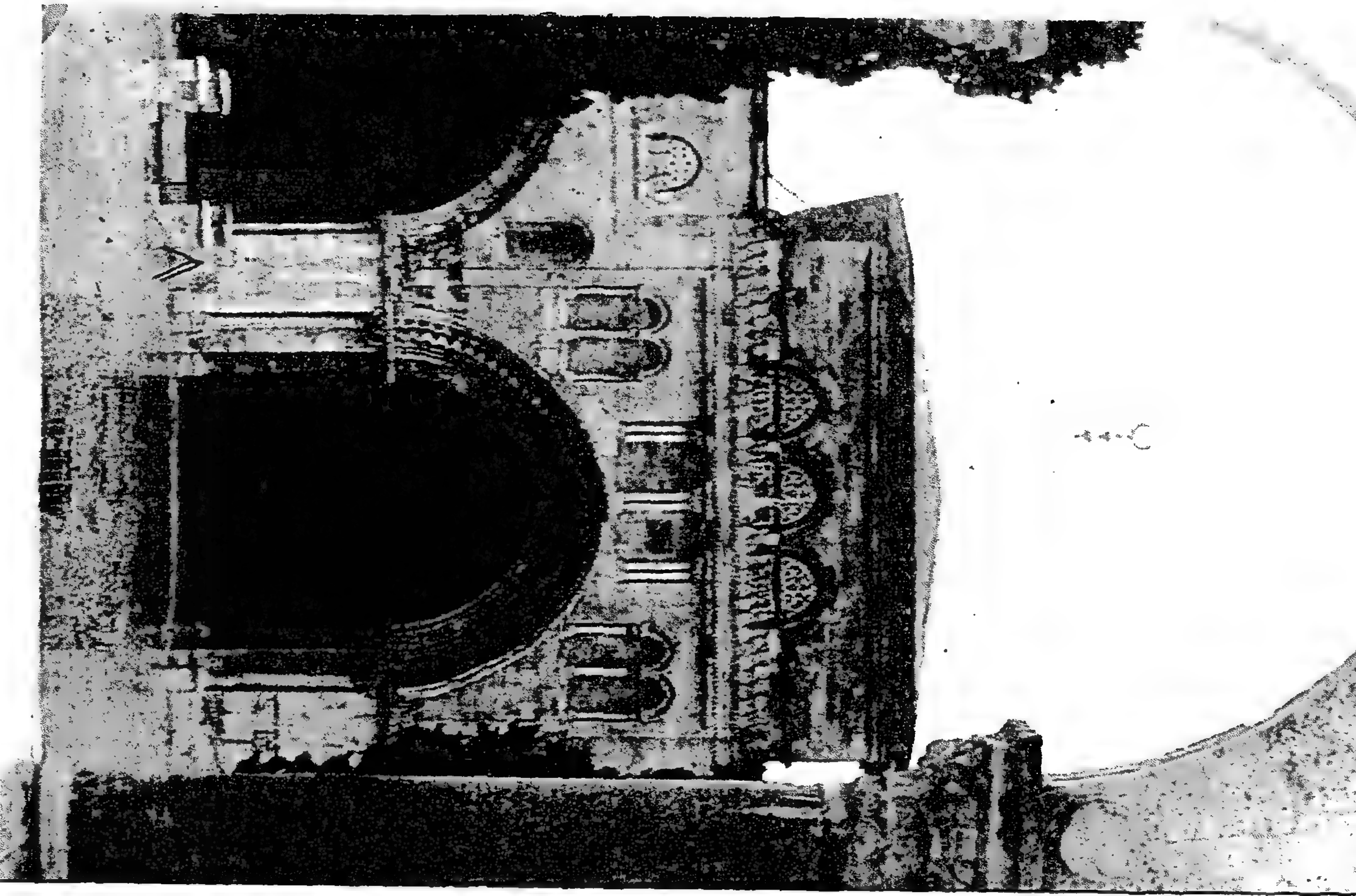
بقلم : أحمد أبو كف

الحرم القدسى الشريف .. يعادل فى محتواه الايمانى الحرم المكى الشريف .

واسرائيل تعرف ما للمسجد الأقصى من أهمية عند المسلمين، فهو أولي القبلتين ، وثالث الحرمين الشريفين ، والذى أسرى برسول الله الكريم محمد بن عبد الله من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى «الآية الكريمة في سورة الاسراء» .

اسرائيل تعرف ما للمسجد الأقصى من أهمية ايمانية عند المسلمين وتعرف كل صغيرة وكبيرة عنه . لكنها نجحت باعلامها أن يتم التركيز على قبة الصخرة واهمال المسجد الأقصى توطئة مبيتة لهدمه لتقيم تحته هيكل سليمان .

الصهاينة يريدون بكل السبل هدم المسجد الأقصى وهدم شعيرة من شعائر الاسلام .. وقد حاولوا احراقه فى عام ١٩٦٩ ليقيموا بدله هيكل سليمان ، الذى كان قد انتهى كله منذ حوالى ٤٠٠٠ عام . وبالفعل منذ أن احتلوا القدس الشرقية القديمة عام ١٩٦٧ حاولوا وحاول معهم كل رجال الآثار اليهود فى العالم العثور على حجرة واحدة من الهيكل لكنهم لم يجدوا شيئا .



المسجد الأقصى وقبته الفضية وعليها الهلال كما يرى القنطرة الجنوبية وقبة الصخرة

● بين بناء الحرم المكى الشريف .. وبناء المسجد الأقصى ٤٠ عاما كما جاء فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الصهاينة يعرفون قيمة المسجد الأقصى فى العقيدة الإسلامية ، ولذلك حاولوا بكل السبل هدمه وهدم شعيرة من شعائر الإسلام . وأخيرا حاولوا بكل السبل التركيز على قبة الصخرة لهدمها فيما بعد الأقصى ، ولكن المسلمين وأهل الحرم القدسى يدافعون عن معتقدهم . حتى حائط البراق الذى احتلوه وجعلوه حائطا للمبكى ويرتبط بالبراق الذى ربطه الرسول بحلقة به .

خمسة أساتذة للتاريخ والحضارة عقدوا ندوة عن «القدس والحرم القدسى الشريف» ، بما فيها المسجد الأقصى وقبة الصخرة ، والآثار الإسلامية هناك . الندوة عقدت بترتيب د. حسن الباشا مقرر لجنة الآثار بالمجلس الأعلى للثقافة ، وهو استاذ العمارة الإسلامية وبرعاية د . جابر عصفور أمين المجلس الأعلى للثقافة . والندوة كان صاحبها صور «سلايدز» بالألوان . واشترك فيها استاذ تاريخ الشرق الأدنى القديم د . محمد ابراهيم بكر الرئيس الأسبق لهيئة الآثار . كما اشترك أساتذة التاريخ والآثار منهم د. رأفت النبراوى عميد كلية الآثار ، ود . أحمد عبد الرازق وكيل كلية الآداب بجامعة عين شمس واستاذ الآثار الإسلامية فيها ، ود . ربيع خليفة استاذ الآثار الإسلامية بكلية الآثار جامعة القاهرة .

الندوة بدأها د. حسن الباشا بالحديث عن الحرم القدسى الشريف وما فيه من آثار اسلامية مازالت ترصع الحرم القدسى ، تحدث عن المسجد الأقصى كما تحدث عن قبة الصخرة ، وتحدث عن جبال مدينة القدس وأهمها جبل موريا .. وتوالت الكلمات ، ثم توالت أسئلة الجمهور المتابعين للندوة .

★ ★ ★

ونبدأ بكلام د . محمد ابراهيم بكر الذى استهله بقوله: إن الحرم القدسى قديم قدم التاريخ ، وأنه عربى أصيل ، عربى المولد . ويعود تاريخ بيت المقدس إلى تاريخ المسجد الحرام فى مكة المكرمة تقريبا . وبهذا شكلت شهادة ميلاد بيت المقدس نسبها العربى وهويتها العربية فيما يلى :

١ - أسست قبيلة اليوبوسيين هذه المدينة التى انحدرت من الكنعانيين ، الذين هجروا موطنهم الأصلى بشبه الجزيرة العربية إلى بلاد الشام حوالى ٤٠٠٠ عام

● لماذا تهتم اسرائيل بتصوير قبة الصخرة فقط وتوزعها في العالم على المسلمين . وتتجاهل المسجد الأقصى ؟
● قبة الصخرة ومعمارها حار فيه المهندسون العالميون بكل اللغات

ق . م. وتركز الكنعانيين فى أرض فلسطين التى صارت أرض كنعان ، على حين استقرت جماعة أخرى من الكنعانيين بالساحل وعرفوا باسم الفينيقيين ، وأخذ الكنعانيون الذين استقروا بفلسطين يؤسسون مدنا لإقامتهم ، كان من بينها مدينة القدس والتى عرفت عند تأسيسها باسم «يبوس» نسبة إلى اليوبوسيين ، وهو اسم كنعاني عربي الأصل .

٢ – اتخذ الكنعانيون من يبوس عاصمة ، لأن أرضها كانت تشتهر قبل نزولهم فيها بأنها أرض مقدسة لقول رسول الله – صلى الله عليه وسلم : «أن الجنة تحن شوقا إلى بيت المقدس ، وصخرة بيت المقدس من جنة الفردوس» وصار هذا المكان يرضى الكنعانيين من عقيدة دينية تقوم على الاعتقاد بالله وحده جل شأنه .

حافظ حكام يبوس على طابعها المقدس على نحو ما يوضحه أول حكامها وهو ملكى صادق ، وهو اسم فينيقى مكون من الملك أو العظمة ، وصادق أى يقوم على الصدق والصلاح والاستقامة . وقد نعمت يبوس فى عهد ملكى صادق بالأمن والسلام ، واضفى عليها اسما آخر صار علما عليها إلى اليوم وهو أوروشالم، أى مدينة السلام .

استقبل ملكى صادق فى عاصمته يبوس سيدنا ابراهيم عليه السلام بعد أن نجاه الله من الحريق ، وقال : مبارك ابراهيم ايمانا منه برسالة التوحيد التى حملها ابراهيم الخليل ، وقدم له كل ما يلزمه من معونة ومأكل ومشرب ، وهذا الكلام جرى من ابراهيم وملكى صادق قبل ظهور الرسالات السماوية وهى حقيقة يؤكدها القرآن الكريم «ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ، ولكن كان حنيفا مسلما» آل عمران «٦٧» .

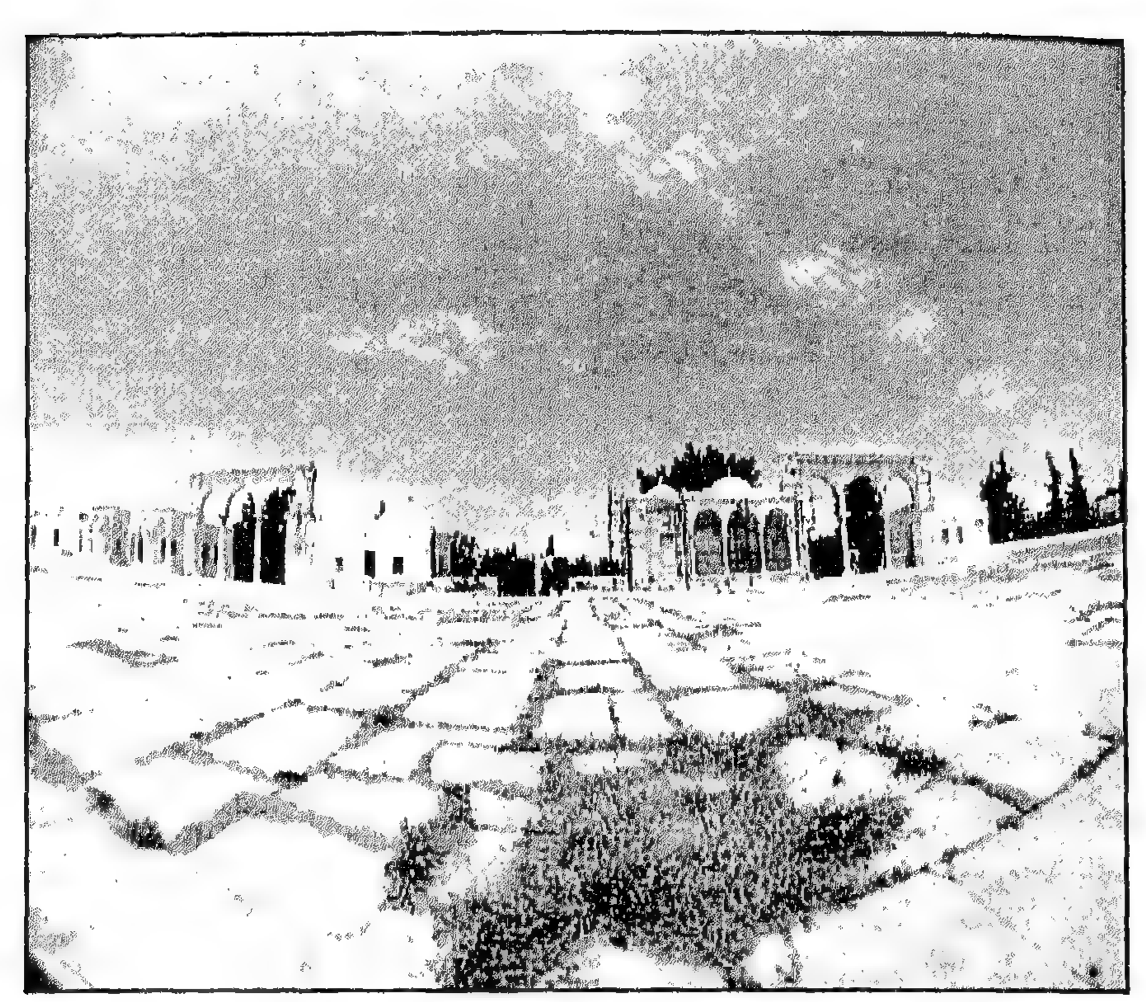
بعدها شهد بيت المقدس حركة عمرانية كان من معالمها بناء أول سور لها للدفاع عن المدينة ، بخاصة ضد غارات القبائل الرحل من العبرانيين ، الذين شكلوا طلائع العدوان اليهودى فى القرن ١٤ ق . م على أرض فلسطين . وقد بعث حاكم بيت المقدس برسائل الى فراعنة مصر يستنجدهم ضد العدوان اليهودى فى أعقاب خروج بنى اسرائيل من مصر ، على نحو ما كشفت عنه الوثائق المصرية القديمة والمعروفة باسم «تل العمارنة» . وكان قد اشتد العدوان اليهودى فى أعقاب



جبل الزيتون

خروج بنى اسرائيل من مصر ، وهو العدوان الذى كانت نتيجته استيلاء النبى داود على بيت المقدس وقيام ابنه سليمان ببناء هيكل على جبل موريا ، وهو أحد جبال القدس .

لكن بيت المقدس تعرض أيام وجود اليهود فيه لمزيد من عدم الاستقرار وجرى ذلك فى ضربات عنيفة اتخذت طابع تشريد اليهود المعتدين وتشتيتهم وهدم هيكلهم بسبب السياسة العدوانية ضد جيرانهم . جاءت الضربتان الأولى والثانية من الشرق ، حين قام سرجون الثانى ملك أشور سنة ٧٢١ ق. م بتدمير مدن اليهود، واتبعه نبوخذ نصر البابلى سنة ٥٧٦ ق . م حيث هزمهم وسبى الكثير منهم فى بابل . ثم جاءت الضربة الثالثة من الغرب على يد الرومان، وكانت تلك الضربة قاصمة لأنها جاءت مزدوجة ومتلاحقة بدأت فى عهد الوالى الرومانى تيطس فى عام ٧٠ الميلادى وقضى على مؤامرات اليهود



الطرف الشمالى للحرم الشريف

فيها ، وتشتيتهم وتدمير معبدهم تدميرا شاملا . واعقب ذلك قيام الامبراطور الرومانى هادريان سنة ١٢٠ م بالقضاء أيضا على ثورات اليهود فى بيت المقدس ، واقتلاع ما كان موجودا من بقايا هيكل سليمان بأن أجرى المحراث على الأرض التى كان يقوم عليها حتى أنه لم يعد يوجد أى أثر يدل عليه .. بل هدم مدينة القدس كلها ، وبنى فوقها مدينة جديدة تنسب لاسمه وتعرف «ايليا كوتيلينا» .

* * *

ظل بيت المقدس يحمل اسم «ايلياء» كما يقول د . رأفت النبراوى حتى ظهور الإسلام والاسراء بالنبى «صلى الله عليه وسلم»ثم الفتح الإسلامى لبلاد الشام حيث تسلم الخليفة عمر بن الخطاب من البطريرك صفرونيوس بنفسه الحرم القدسى واعطاه «العهدة العمرية» ثم قام الخليفة عمر بن الخطاب بنفسه بالتنقيب عن المسجد الأقصى وقبة الصخرة وإعادة عمرانهما موثقا الرابطة بين المسجد

الأقصى والمسجد الحرام التى ذكرها الله فى قرآنه «سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله» .

وعاشت مدينة القدس آمنة مطمئنة فى ظل الإسلام والمسلمين ويسهر على حمايتها الحكام المسلمون فى العهد الأموى والعهد العباسى إلى صلاح الدين الأيوبى بطل «حطين» ومن جاء بعده من الحكام المسلمين ، وظلت على ذلك حتى نهاية القرن التاسع عشر والقرن العشرين حيث بدأ بيت المقدس يواجه مشاكل عديدة مع الصهاينة وتعرض لأخطر عدوان عليها، بعد قيام الحركة الصهيونية التى أخذت تعمل كأداة للاستعمار الغربى لبسط سيطرته على بلاد الإسلام . وكان أخطر سلاح اشهرته الصهيونية هو الالتجاء إلى الاساطير لتأسيس دولة لهم فى فلسطين عام ١٩٤٨ ونالت الاعتراف بها من أمريكا وروسيا فور اعلان دولة اسرائيل واطلقوا عليها زيفا اسم اسرائيل.

لجأ قادة الصهاينة كما يقول د . أحمد عبد الرازق إلى اساطيرهم التى نقلوها إلى التوراة السماوية أيام السبى البابلى بالعمل على النيل من الآثار الإسلامية فى بيت المقدس، واشهرت اسرائيل سلاحا خبيثاً لتستر به تلك الاسطورة التى قامت عليها، وهى التخطيط المتعمد لطمس معالم القدس الإسلامية بما فيها الاثار الإسلامية كالآتى :

١ - غيروا تخطيط مدينة القدس ومعالمها العمرانية الإسلامية حيث وضعوا أساس الكنيست فى ١٤ / ١٠ /١٩٥٨ وبنوه من خمسة طوابق ، فضلا عن نقل أجهزة الدولة المزعومة من تل أبيب إلى القدس ، وأقاموا مستشفى هداسا والجامعة العبرية .

٢ - هدم السور الذى يفصل المدينة القديمة عن المدينة الجديدة ، وذلك فقط بعد خمسة أيام من عدوان ١٩٦٧ وبناء مستعمرة شمال غربى القدس .

٣ - القيام بأعمال حفر وتنقيب حول المسجد الأقصى مدعين البحث عن هيكلهم القديم المزعوم .

٤ - العمل على سلب أحد المقدسات الإسلامية وهو حائط البراق ، حيث أطلق عليه اليهود حائط المبكى زاعمين انه البقية الباقية من هيكلهم القديم ، رغم أن هذا الحائط بنى من حجارة ضخمة طوله ١٥٦ قدما وارتفاعه ٥١ قدما، ويكون جزءاً من سور المدينة القديمة ، ويقع فى الطرف الجنوبى الغربى لبوابة تعرف باسم بوابة النبى ومثبت به حلقة معدنية تأكيدا للاعتقاد بأن النبى صلى الله عليه وسلم ربط براقه فيها عند وصوله إلى المسجد الأقصى ليلة الاسراء والمعراج .

وقد تأكد هذا الحق الإسلامى فى البراق الشريف حين اشتد النزاع حوله .

وشكلت لجنة للتحقيق التى حكمت بأن للمسلمين وحدهم وبعقود ملكية الحائط الغربي ولهم وحدهم الحق العينى فيه لكونه يؤلف جزءا من مساحة الحرم القدسى والتى هى من املاك الوقف الإسلامى ، وللمسلمين تعود ملكية الرصيف أمام الحائط وأمام حارة المغاربة لكونها موقوفة حسب الشرع الإسلامى على أعمال البر والخير .

لكن قام اليهود صبيحة اليوم التالى باحتلالهم القدس الشرقية بهدم ٣٥ منزلا من منازل المسلمين فى حى المغاربة بهدف توسيع منطقة حائط المبكى توطئة لإعادة بناء الهيكل المزعوم .

* * *

لم تكتف اسرائيل بأعمال الحفر المدمرة لكيان المسجد الأقصى ، وإنما ألحقت متحف الآثار الفلسطينية بمصلحة الآثار الاسرائيلية ، ووزعت مقتنيات المتحف المسجلة على متاحف أخرى صهيونية ، فضلا عن اخفاء ونقل مخطوطات البحر الميت من القدس الشرقية إلى أماكن مجهولة ، تكشف عن بعضها وبعضها الآخر تحتفظ به فى أماكن مجهولة مخطوطات البحر الميت تفضح توراتهم التى وضعوها فى بابل . ثم تقوم اسرائيل بنشاط واسع المدى فى بناء المستوطنات الصهيونية داخل وخارج القدس تمهيدا لتغيير طابعها الإسلامى ، وكشف المراسلون الغربيون خطورة هذا التخطيط الصهيونى حيث قالوا : «إن اسرائيل بتغييرها هوية القدس الإسلامية التى عرفها العالم والتى أكدها أحد المسئولين الإسرائيليين : أنها تحاول خلق حقائق للوجود اليهودى فى القدس حتى يمكن القول بأن القدس الشرقية يهودية وحتى نضمها إلى القدس الغربية فى عاصمة موحدة .

وفى هذا الصدد جمعت اسرائيل مهندسين عالميين فى تخطيط المدن بالاضافة إلى مهندسين معماريين لهم شهرة عالمية ، وكونت مجلساً سمى «مجلس القدس العالمى الاستشارى» ليدلى برأيه فى الخطة التى استهدفتها فيما يتعلق بأطماعها فى القدس . ووصل لهذا المجلس فى اجتماعه فى ١٩ ديسمبر عام ١٩٧٠ رسالة وزعت على أعضائه الثلاثين من أشهر مخططى المدن فى العالم ، وجاء فيها : يجب على اسرائيل أن تبحث لها عن مدينة أخرى تؤسس بها عاصمتها غير القدس ، فطبيعة القدس التى تشكلت عبر العصور اعطتها شخصية تسمو على الآمال البائسة فى تأسيس عاصمة صهيونية .

وتقف القدس الآن فى انتظار التعزيزات من علماء الآثار المسلمين للعمل جنبا إلى جنب مع المناضلين المسلمين ، لأن تحرير القدس هو تحرير المسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين . وتحرير المسجد الأقصى هو تحرير لقبة

الصخرة .

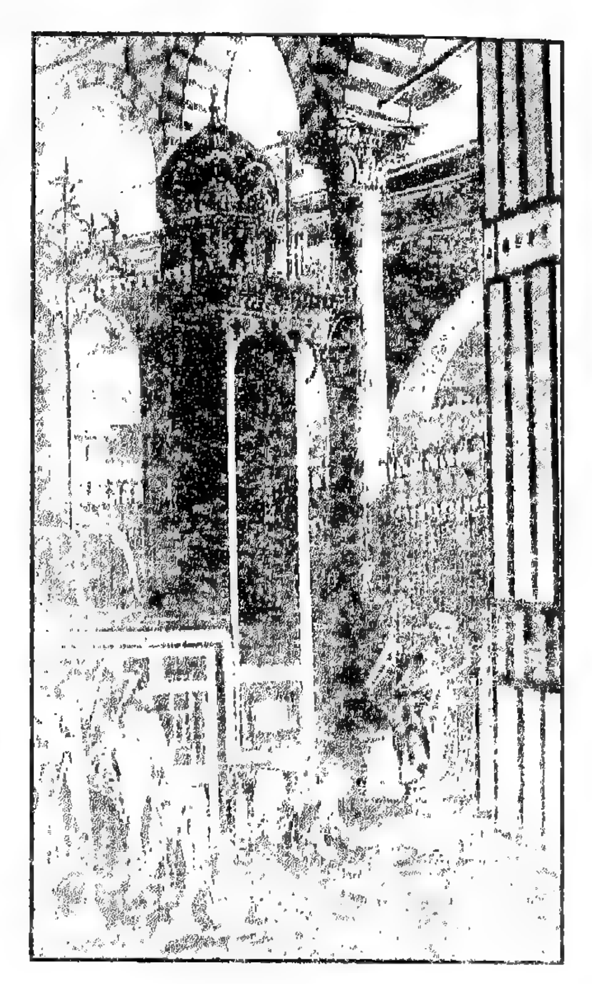
* * *

ويضيف د . رأفت النبراوى أن جذور المسجد الأقصى تتأكد فى قوله تعالى : «سبحان الذى أسرى بعده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله» . تؤكد الآية الكريمة فى سورة الاسراء أن المسجد الأقصى عريق فى القدم مثل المسجد الحرام حول الكعبة المشرفة . والمسجد الحرام حاول الاحباش هدمه حكاية أبرهة ، فأرسل الله عليهم «طيراً ابابيل ترميهم بحجارة من سجيل» وتعرض المسجد الأقصى الآن لمحاولة هدم ولكن ثورة الحجارة تفعل فعلها ، والمسجد الحرام والمسجد الأقصى لهما اصول مقدسة ومقررة فى الدين الإسلامى ، الذى حدده الله جل شأنه فى قرآنه «إن الدين عند الله الإسلام» . وتدل كلمة الأقصى على معرفة العرب به قبل الرسالة المحمدية وكان العرب يشاهدونه فى الشتاء والصيف فى رحلاتهم إلى بلاد الشام فى بيت المقدس والعرب سموه المسجد الاقصى أى المسجد البعيد عن مكة .

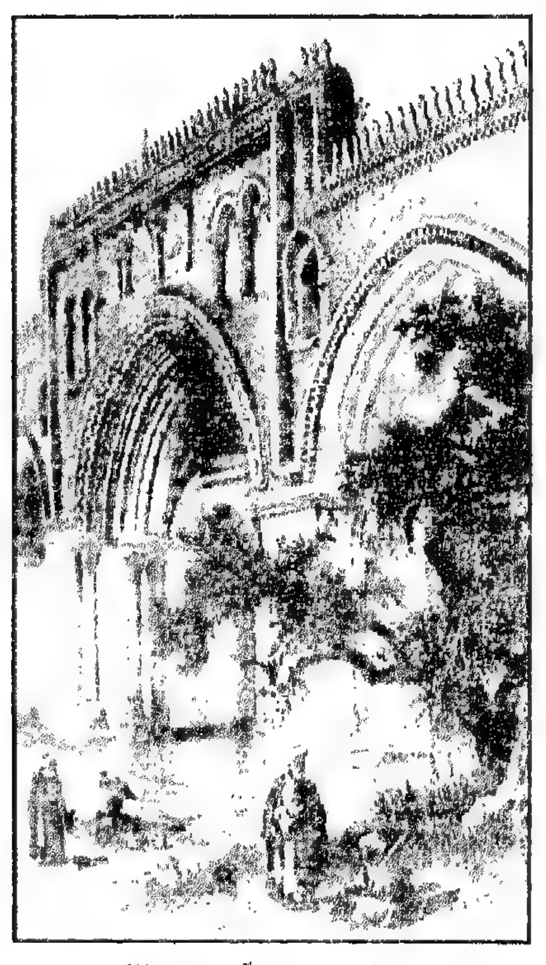
وحدد الرسول الكريم عراقة الأقصى على نحو ما جاء فى الحديث النبوى لأبى ذر الغفارى ، حين قال للرسول «ﷺ» : أى مسجد وضع فى الأرض أولا ؟ قال الرسول : المسجد الحرام. فسأله : ثم أى؟ قال الرسول : المسجد الأقصى . قال أبو ذر : كم بينهما ؟ قال الرسول «ﷺ»: أربعون سنة .

كان الاسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة المكرمة إلى بيت المقدس فى العام السابع من مبعثه . مما يؤكد عالمية الدعوة الإسلامية منذ فجرها . وقد وعت ذاكرة المسلمين الأوائل من الصحابة أقوال نبى الإسلام عن ليلة الاسراء والمعراج إلى المسجد الأقصى وإلى الصخرة المقدسة وعروجه من عندها إلى السموات العلا . حيث صلى عندها بالنبيين . ثم عرج إلى السموات العلا . وتجلى ذلك عند الخليفة عمر بن الخطاب .. رضى الله عنه حين ذهب بنفسه لاستلام المدينة المقدسة . وأظهر الخليفة عمر ايمانه واخلاصه للمسجد الأقصى حين خرج بنفسه تأصيلا واملاء للروابط الدينية بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى .

وقد طلب الخليفة عمر برفع قواعد المسجد الأقصى بنفسه ، عندما طلب من البطريرك صفرونيوس أن يصطحبه فى جولة بمدينة القدس ليرى المشاهد التى حكاها رسول الله ليلة الاسراء والمعراج . وقد سجل زيارة عمر بن الخطاب المؤرخ السيوطى - كما يقول د . ربيع خليفة - فى كتاب وضعه بعنوان «اتحاف الاقصى بفضائل المسجد الأقصى» . اشار السيوطى إلى أن الخليفة عمر تتبع بنفسه عمليات التنقيب عن مكان المسجد الأقصى على ضوء الرواية التى سمعها من رسول الله ليلة أسرى به . فكان الخليفة عمر



مسجد الصخرة.. القدس



مدخل المسجد الأقصى.. القدس

يراجع المرافقين له حين يدلونه على مكان لا يجد أوصافه تنطبق على ما لديه من رواية نبوية قائلا : لقد وصف لى رسول الله المسجد بصفة خاصة ما هى هذه ؟. واستطاع الخليفة بعد جهد شاق أن يصل إلى باب الأقصى ، وكان مطمورا بالأتربة التي تخفي معالمه .

ووصف السيوطى ما قام به الخليفة عمر بن الخطاب من جهد قائلا : أنه انتهى إلى باب المسجد ، وكان قد انحدر ما فى المسجد من الزبالة على المدرج حتى كاد يلتصق بسقف الزقاق ، فقال المرافقون للخليفة ، لا تقدر أن تدخل إلا حبواً . فقال عمر : ولو حبوا . فحبا عمر وحبوا خلفه حتى وصلوا إلى صحن المسجد . ثم نظر عمر وتأمل ، ثم قال : هذا والذى نفسى بيده الذى وصفه لنا رسول الله «صلى الله عليه وسلم» . وأتم الخليفة اكتشافه لمعالم مسجد بيت المقدس «الأقصى» بالعمل على اظهاره وتطهيره مما علق به من أتربه . فقال السيوطى المؤرخ : إن الخليفة عمر قال : أصلى حيث صلى رسول الله ليلة أسرى به . فتقدم إلى قبلة المسجد فصلى . ثم جاء

فبسط رداءه وكنس الكناسة وكنس الناس معه .

وكانت صخرة بيت المقدس عليها أتربة وقمامة كثيرة ترجع إلى إهمال الحكام السابقين على الإسلام لبيت المقدس . وقام الخليفة كذلك بتنظيفها . وكانت هذه الصخرة إلى جانب عروج الرسول عندها إلى السماء ذات قداسة ، حيث خاطب سيدنا يعقوب ربه من عليها ، وصار يطلق عليها «باب السماء» .

وأعاد الخليفة عمر بن الخطاب بذلك على هدى سورة الاسراء ، وما استمعه شخصيا من الرسول الكريم من أحداث الاسراء ، الأصول الدينية لبيت المقدس في الإسلام . واظهر معالمها من المسجد الأقصى وقبة الصخرة بالقرب من المكان الذى تروى المصادر عنه أن نبى الإسلام قد ربط البراق إليه قبل أن يصعد للسماء . كما أمر ببناء مظلة خشبية فوق الصخرة المقدسة نفسها لحمايتها من الماء والزبالة .

ويوم افتتاح عمر بن الخطاب المسجد الأقصى قام بالآذان بلال بن رباح مؤذن رسول الله ، وكان مقيما فى الشام بعد وفاة الرسول ، ممتنعا عن الأذان . ولكن هذه المناسبة الجليلة كانت جديرة بأن يحييها بلال بالأذان موثقاً روابط القربى فى الإسلام بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى .

وكما يقول د . أحمد عبد الرازق : استرعت عمارة المسجد الأقصى التى أقامها الخليفة عمر أنظار الحجاج الأوربيين إلى بيت المقدس فى هذه المرحلة المبكرة من الحكم الإسلامى ، وما نعموا به من رعاية السلطات الإسلامية لهم . وكان ممن وصف تجديد المسجد الأقصى أحد الحجاج الأوربيين واسمه «أركولف» الذى زار بيت المقدس عام ٥٠ هـ (٦٧٠م) قائلا : «فى هذا المكان يتردد المسلمون على مبنى مربع الشكل للعبادة وهو بناء متواضع تم بناؤه من عروق خشبية موضوعة على الجدران مباشرة ، دون عقود . ويقال أن هذا المسجد يتسع لثلاثة آلاف من المصلين فى وقت واحد» وهو وصف يتفق مع ما كانت عليه المساجد الأولى فى الإسلام من بساطة شديدة .

المسجد الأقصى وقبة الصخرة تطورا تطورا معماريا .

* * *

وقال حسن الباشا : قبة الصخرة مبنى فريد فى ميدان العمارة الدينية الإسلامية ببيت المقدس ، انشىء تكريما وتخليدا للصخرة المقدسة التى عرج نبى الإسلام عندها إلى السماء ، وذلك حين اسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى . هذه الصخرة هى قمة بارزة فى أعلا جبل موريا ، وسطح الجبل هو الحرم القدسى الشريف الذى يقوم إلى جانب قبة الصخرة المسجد الأقصى ومشاهد اسلامية أخرى .

وكان الفراغ من المبنى سنة ٧٢ هـ .

(٦٩١ – ٦٩٢ م .) .

وجاءت قبة الصخرة عبارة عن بناء ضخم مسقطه مثمن خارجى ، ثم مثمن داخلى ، وثالث اسطوانى داخلى أيضا . وكله يحيط بالصخرة المقدسة . وتتيح فى الوقت نفسه الطواف حولها حيث تبلغ ابعادها ٥٦ قدما طولا و٤٢ قدما عرضا . وشكلها نصف دائرى تقريبا وصار المبنى عبارة عن قاعة واسعة ترتفع فوقها قبة نصف دائرية جميلة تقوم على هيكل من الخشب ، وداخل البناء مزين بنقوش بديعة وخارجها ملون بماء الذهب .

ويشتمل هذا البناء المثمن الاضلاع على ٤ مداخل محورية تواجه الاتجاهات الأصلية وهى من النوع التذكارى البارز . متوج من أعلاها بسفينة محمولة على عمد من الرخام والسفينة على هيئة نصف دائرية من الخشب المحلى بالذهب والألوان. وأكبر هذه المداخل هو المدخل الحيوى الذى يواجه المسجد الأقصى يتقدمه سقيفة مميزة ويغلق على كل مدخل مصراعان من الخشب يتقدم أمامها سقيفة محمولة على أعمدة . وتكسى كل واجهة من واجهات المثمن الخارجى بكسوة من الرخام حتى منتصف ارتفاع الواجهة يعلوها ترابيع من القيشانى .

واعتمد تصميم الفناء الداخلى على شكل مربعين متقاطعين يشكلان مثمناً ، وضع فى زواياه الاكتاف الجامعة لسقف الممرات المحيطة بمنطقة الصخرة المقدسة، وجعل امتداد رؤوس المربعين إلى الداخل محدداً للمربع الأوسط الذى وضعت فى زواياه الاكتاف الحاملة لرقبة القبة . وقد ترتب على هذا التصميم تشكيل ممرين داخليين أحدهما يحيط بمنطقة الصخرة ، والآخر مثمن مفرغ بواسطة اكتاف . وكان المهندس بارعا فى هذا التصميم حيث وضع الدعامات المحيطة بالصخرة المقدسة . فى وضع ملفوف بعض الشىء حتى لا تحجب الاكتاف رؤية الصخرة . ويحيط بالصخرة سياج من الخشب الخرط .

ويقول د . أحمد عبد الرازق : يوجد بأعلى الجزء المثمن الداخلى شريط كتابى طوله ٢٤٠ مترا مكتوب بالخط الكوفى البسيط من فسيفساء مذهبة على أرضية بيضاء . وقوام الكتابة آيات من القرآن الكريم تنتهى بنص تأسيس «بنى هذه القبة الامام المأمون أمير المؤمنين سنة اثنتين وسبعين» . ويتبين من هذا النص أن تغييرا قد أدخل عليه ، لأن اسم الخليفة المأمون وألقابه مكتوبه بخط يخالف بقية النص المكتوب . كما أن سنة ٧٢ هـ . لا تقع فى حكم الخليفة المأمون ، وانما هى تقع فى عهد عبد الملك بن مروان الذى قام ببناء قبة الصخرة .

وقد تعرضت الصخرة كما اسلفنا إلى عدوان صليبى احتل بيت المقدس ، حيث بنوا عليها مذبحا وزينوها بالصور غير أن المبنى عاد إلى طابعه الاسلامى حين استرد صلاح الدين بيت المقدس الشريف

من الصليبيين . حيث أزال ما أقامه الصليبيون من عدوان ، وغسل الصخرة بماء الورد ، وأعادها حرما اسلاميا مقدسا .

وكما يقول د . ربيع خليفة فإن الحرم الشريف كله ابعاده من الشرق ٤٧٤ مترا ومن الغرب ٤٩٠ مترا ومن الشمال ٣٢١ مترا ، ومن الجنوب ٢٨٣ متراً . ويقع المسجد الأقصى المبارك ذو القبة الفضية المتميزة فى الطرف الجنوبى للحرم الشريف مواجها الكعبة الشريفة فى مكة المكرمة ، وخلفه مدينة القدس العربية . والمسجد الاقصى اكبر مساجد القدس وطوله ٨٠ مترا وعرضه ٥٥ مترا .

وتقع قبة الصخرة فى قلب الحرم الشريف ، وتحيط به ٨ قناطر تسمى الموازين وتختلف هذه الموازين فى عدد أعمدتها وعقودها ، وإن اتفقت فى أنها تواجه الجهات الأصلية الأربع ، طول كل ضلع من اضلاع قبة الصخرة الثمانية ٢٠,٥٩ مترا ، وارتفاعه ٩.٥ مترا .

* * *

فى سفر التثنية الاصحاح الثامن يقول : «عندما قدم هؤلاء العبراتيون على أرض الفلسطينيين الكنعانيين كانت اورسالم يحكمها كنعانى يبوسى امورى عربى باسم ملك القدس» . بمعنى أن هذا موجود فى التوراة ومسجل سنة ٢٦٠٠ ق.م بطن من بطون الكنعانيين أى العرب جاءوا من الجزيرة العربية إلى أرض فلسطين فى الألف الرابعة ق.م ، أى أن عمرهم ٦ آلاف سنة مثل عمر الفراعنة . هذا البطن كان يسمى يبوس وكلمة كنعانى تعنى الأرض المنخفضة ، ويبوس الخشونة ، فهم قوم لا يحبون أحدا يعتدى عليهم، هؤلاء أسسوا عدة مدن فى فلسطين على رأسها أورسالم «القدس» .

والحقيقة أن الارض المقدسة الفلسطينية تضم مقدسات دينية لها أهميتها ، من ذلك المسجد الأقصى ، ومسجد الصخرة المشرفة والمسجد العمرى ، ومحراب صلاح الدين، والحرم الابراهيمى حيث سمى العرب المدينة الخليل ومقامات الأنبياء وزوجاتهم مثل سارة وقبر يعقوب وزوجته ، وفى اريحا جبل صام فيه المسيح ٤٠ يوما إلى جانب وجود مجموعة من الكنائس والاديرة ، مثل كنيسة القيامة والقبر المقدس وكنيسة الروم الارثوذكس وكنيسة القديسة هيلانة التى صارت كنيسة الأرمن ، ودير ابراهيم، وكنيسة المهد فى بيت لحم ودير اللاتين ودير البنات .

ويضيف د . أحمد عبد الرازق يحتل الصدارة ، المسجد الأقصى والحرم الابراهيمى ويضم ذلك كله الحرم القدسى.

وقد اكتسب الحرم القدسى الشريف قداسته من أمور كثيرة ، ففيه المسجد الأقصى الذى كانت إليه خاتمة الاسراء ، وهو المسجد الثانى فى ارتفاع بنائه فى



مدينة القدس

الأرض بعد المسجد الحرام بأربعين عاما كما جاء فى الحديث الشريف .

إذن فقد كان هناك زمان طويل جدا وليس في الأرض مساجد يعبد فيها الله سوى المسجد الحرام والمسجد الأقصى ، وحول المسجد الأقصى عاش أنبياء الله ومارسوا دعوتهم .

وبالاسراء يكون المسجد الأقصى قد دخل فى حـوزة الإسـلام ، ولأنه أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين وأحد المساجد الثلاثة التى لا تشد الرحال إلا إليها ، وهو مسجد له زيارة فى عنق كل مسلم ، والصلاة فيه تفضل الصلاة فى غيره إلا المسجد الحرام والمسجد النبوى ، والمسجد الأقصى مذكور فى آية الاسراء التى افتتحت بها السورة التى تحمل هذا الاسم، وهى آية تحمل بيان معجزة من معجزات الرسول والإيمان بهذه المعجزة واجب على كل المسلمين جميعا .

وإذا كان المسجد الأقصى يتمتع بهذه الخصوصية العظيمة ،فمن واجب المسلمين رعايته ورعاية ما حوله من أرض الله ، وهى حرم بيت المقدس ، أو ما يطلق عليه الحرم الشريف وهذا يحوى القدس القديمة كلها .





القرآن والكون

هل هناك حياة فى كواكب أخرى ؟!

بقلم : د. على حسين عبدالله

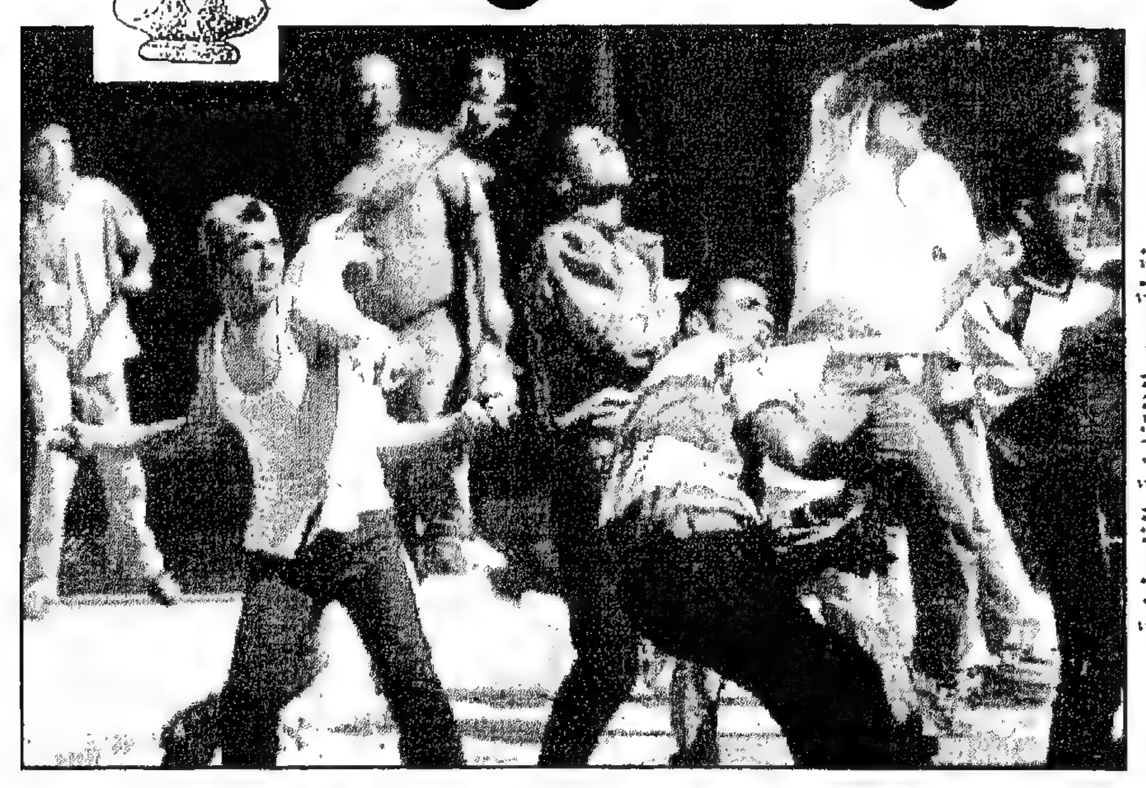
إن عدد النجوم فى مجرة واحدة من مجرات الكون مجرة درب التبانة بين ١٠٠ الى ٢٠٠ بليون نجم أحدها الشمس! ويدور حول الشمس تسعة كواكب ومع بعض هذه الكواكب أقمارها. الشمس نجم ويدور حوله عدد من الكواكب والسؤال ماذا عن بقية النجوم هل لها كواكب مثل الشمس؟ لقد ثبت حديثا أن نجوما غير الشمس تتبعها كواكب مما يعنى أن الكواكب ليست محصورة بالنظام الشمسى. إن اكتشاف كواكب خارج النظام الشمسى أدى الى تجديد الاهتمام بالبحث عن وجود الحياة فى الكون، وان ثبت ذلك فمعنى هذا أن الحياة ليست مقصورة على كوكب الأرض فقط. إن التساؤل عن وجود مخلوقات أخرى فى الكون ليس بالجديد فالفيلسوف اليونانى مترودورس قال إن اعتبار الأرض المكان الوحيد الذى به الحياة فى هذا الفضاء الواسع هو اعتبار مجحف ومناف للعقل فمثله كمثل من يقول إن هناك حقلا قد زرع بحبوب القمح فلم تنبت فيه إلا حبة واحدة !.

البحث عن كواكب خارج المجموعة الشمسية

لقد توجه العلماء للبحث في مجرتنا عن كواكب خارج المجموعة الشمسية (يقدر عدد المجرات في الكون حوالي ١٠٠ بليون مجرة!) وتم فعلا اكتشاف كواكب جديدة، ففي يونيو من سنة ١٩٩٦ وفي اجتماع الجمعية الفلكية الأمريكية أعلن من جامعة بيتسبرغ عن اكتشاف كوكب بحجم كوكب المشترى يدور حول نجمه كل ٣٠ إلى ٣٥ سنة في مدار يشبه مدار المشترى حول الشمس، والنجم المعنى ذو قدر ضئيل في مجموعة الدب الأكبر وتبعد ٨٠٣ سنوات ضوئية عنا. كتلة النجم تساوى تقريبا ثلث كتلة الشمس. حديثا كشف الفلكي Alexander Wolszczan الكسندر ولسكزان عن وجود كوكب شبيه بالأرض يدور حول نجم نيوتروني هذا الكوكب الشبيه بالأرض من بين ثلاثة كواكب سميت بأسماء A,B,C وتبعد هذه المجموعة عن أرضنا مسافة ١٤٠٠ سنة ضوئية!! وما أدرانا لعلها تكون مأهولة بالحياة!.

نتفق جميعا أن القرآن كتاب هداية للانسان في الدرجة الأولى ولكن هذا لا يمنع أنه أشار الى أمور في العلوم المختلفة ،وبسبب تقصير منا كمسلمين لا ننتبه الى إشارات القرآن إلا بعد أن تكتشف الحقائق بعدها نأتي ونقول إن هذا الأمر قد ذكره القرآن قبل حوالى ١٤ قرنا، ويأتينا السؤال أين كنتم يا أمة القرآن عن هذا مادام القرآن بين أيديكم؟ والأمثلة كثيرة ففي القرآن إشارات توحي بوجود الحياة في الكون والمقال طرح لإثبات وجود صور من الحياة في مكان ما في الكون قبل أن يثبته العلم، حيث إنه الى هذا اليوم لم تحسم بعد مسألة وجود الحياة في الكون بالطرق العلمية. الموضوع مطروح على أساس أن القرآن يخبرنا أن الحياة موجودة في الكون على شكل مخلوقات حية من أصل مائي كما هي أصول الأحياء الموجودة على الأرض! . وأسجل هذا الدليل القرآني قبل أن يعلن من جهات علمية حتى لا نأتي بعدها لنقول إن القرآن ذكر ذلك منذ ١٤ قرناً مضت!.

(ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض) النمل ٢٥ من هذه الآية نستنتج أن الله يخرج الخبء فى السموات والأرض والخبء هو النبات لأن الحبة تختبيء فى الأرض ثم تخرج زرعا، أى أن الله كما أنه أخرج النبات فى الأرض كذلك أخرجه فى السماء معنى هذا وجود الحياة النباتية فى السماء كما هى موجودة فى الأرض ! (من كتاب هل نحن وحدنا فى الكون بقلم د. محمد عبده يمانى) هذا عن الحياة النباتية أما الحياة الحيوانية فهناك أكثر من آية تنطق بذلك، فالآية التالية تتكلم عن الدابة، فالله سبحانه أحيا الأرض وبعدها نشر فيها الدابة (فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة) البقرة ١٦٤، وكذلك الآية (وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة) لقمان ١٠ الآيتان تخبران أن الله نشر الدابة فى الأرض وهذه من الأمور الواضحة لنا ولكن القرآن يتكلم بنفس السياق عن الخلق فى السماء!، فالآية التالية وهى بيت القصيد تدل على أنه سبحانه لم يبث الدابة فى الأرض وإنما فى السماء أيضا، تمعن الآية (ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم اذا يشاء قدير) الشورى ٢٩ فكلمة فيهما أى فى السموات والأرض تدل على أن الدابة ليست فقط محصورة فى الأرض وانما فى السماء أيضا!. إن تعريف الدابة باللغة هو كل مايدب على الأرض، ولكن القرآن يعرف الدابة بقوله سبحانه (والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع يخلق الله مايشاء إن الله على كل شيء قدير) النور ٤٥ . هذه الآية تدل أن كل دابة خلقها الله من ماء ومنها أنوا ع فمنها ما يمشى على بطنه كالزواحف وعلى رجلين كالطيور والانسان يمشى على أربع كبقية الحيوانات الأخرى. إن وجود هذه الدواب في السموات والأرض يعنى أن الحياة موجودة فى أماكن أخرى من الكون على شكل دواب كما فى التعبير القرآنى أى مخلوقات مبينة على أساس أن عنصر الحياة هو الماء!.



لقطة من الانتفاضة الفلسطينية

الإسلام وتحديات العصر

بقلم : عبد الرحمن شاكر

أصبحت المواجهة بين «الإسلام» وخصومه ظاهرة لاتخفى على أحد، ولا تقبل أن ينكرها أحد. الإسلام باعتباره عقيدة وحضارة وتاريخا، ثم أقواما تؤمن فى معظمها بتلك العقيدة، وتستضىء بماضي حضارتها، وتعتز بتاريخها وتستلهم أمجاده. والمسئول عن تلك المواجهة، وما آلت إليه، وما يمكن أن تسفر عنه، هو الغرب «العظيم» المتقدم، الذى يسوق «الهبالة» على «الشيطنة»، كما يقول تعبيرنا العامى الشهير، ويصر، أو تصر قوى كبرى فيه، على أن تضع كل ما وصلت إليه من علم وتقدم وتكنولوچيا، فى خدمة أفكار موغلة فى رجعيتها وتخلفها، ولشفاء أحقاد مظلمة كنا نظن أن التاريخ قد طواها، وربما لتحقيق أغراض أشد ظلمة من تلك الأحقاد، تتخذ من نشرها الآن ذريعة لتحقيقها.

منذ أسابيع قليلة ، وبالتحديد فى الثانى عشر من نوفمبر الفائت، اجتمع قادة الدول المنضمة للمؤتمر الإسلامى ، للنظر فى أمر آخر صورة من تلك المواجهة وربما أخطرها ، وهى المذبحة التى تدور الأن على أرض فلسطين ، أو ما تبقى من تلك الأرض ، والتى بدأت منذ ٢٨ سبتمبر الفائت، حينما توجه مجرم الحرب الإسرائيلى إريل شارون، عن سبق إصرار وترصد، لاقتحام المسجد الأقصى فى القدس الشريف ، مصحوبا بألوف الجنود المدججين بالسلاح ، متحديا مشاعر الشعب الفلسطينى، والشعوب العربية والإسلامية على حد سواء .. وكان ذلك هو التعقيب «الشارونى» على انهيار ما كان يسمى بمباحثات السلام فى كامب ديفيد ، بسبب اصرار الجانب الإسرائيلى، بتأييد من الوسيط الأمريكي، على منازعة الفلسطينيين ، ومن ورائهم العرب والمسلمين السيادة على المسجد الأقصى ، الذى يصر كل من الإسرائيليين والأمريكان على الإشارة إليه بتعمير «جبل الهيكل» ، قياسا على تسميتهم الضفة الغربية باسم «يهوذا والسامرة» وأرض فلسطين ذاتها باسم إسرائيل!.

ولأن المفاوض الفلسطينى قد رفض التوقيع على اتفاق يقر السيادة الإسرائيلية على تلك البقعة المقدسة من أرض فلسطين، فكان لابد عندهم من استدراج الشعب الفلسطينى إلى معركة غير متكافئة على الاطلاق ، يواجه فيها أبناء هذا الشعب الأعزل ، أعتى ما توصلت إليه الترسانة الأمريكية من أسلحة، زودت بها إسرائيل ، لمجرد أنهم غضبوا لإهانة مقدساتهم ، ومنذ ذلك التاريخ يسقط منهم عشرات القتلى أو مئاتهم فضلا عن ألوف الجرحى ، ويصر الفلسطينيون على استمرار انتفاضتهم حتى تجلو القوات الإسرائيلية عن الأرض الفلسطينية المحتلة منذ حرب عام ١٩٦٧، بما فيها القدس الشرقية ، وتصر القوات الإسرائيلية ومعها قطعان المستوطنين المسلحين، على ذبح أبناء الشعب الفلسطيني وتدمير مساكنه ووسائط عيشه حتى يخضعوا لآرائهم الوحشية!.

آخر المعارك ضد الاستعمار فى التاريخ المعاصر يخوضها شعب فلسطين، بعد أن انحسر ظله عن المعمورة كلها ، بل هو أشنع صور الاستعمار، لكونه استعمارا استيطانيا، يقوم على إقصاء شعب عن أرضه ، أو إبادته ، لكى يحل محله أناساً آخرين ذوى أصول أوربية ، يزعمون بالمخالفة لكل حقائق التاريخ أنهم من بنى إسرائيل، وأن هذه أرض أجدادهم ، رغم أن علماءهم يقولون غير ذلك ، وتقول دائرة المعارف اليهودية إن يهود روسيا وبولندا وسائر شرق أوربا هم من بقايا قبائل الخزر التى كانت تسكن القوقاز وتهودت فى القرن الثانى الميلادى. ويزعمون أنه لا معنى لدولة «إسرائيل» التى أقاموها اغتصابا، وبمساندة دول



لقطة من قمة المؤتمر الإسلامي بقطر

الغرب المتقدمة ، بدون القدس أو أورشليم، ولا معنى للقدس بدون هيكل سليمان، رغم مايقوله علماؤهم المعاصرون فى إسرائيل ذاتها من أنه لم يثبت وجود هذا الهيكل حيث يوجد المسجد الأقصى حالياً ، بل يشكك بعضهم في صحة رواية التوراة ذاتها عن قيام هذا الهيكل فى العصور الغابرة!.

ويلزم الجانب الفلسطيني والعربي غاية الاعتدال ، حينما يوافقون على أن يستمر اليهود فى إقامة صلواتهم عند الحائط الغربي للمسجد الأقصى، الذى يسميه اليهود حائط المبكى، خصوصا أنهم قد أزالوا حى المغاربة المجاور لهذا الحائط. يبدى العرب والمسلمون كل التسامح فى هذا الموقف رغم أن هذا الحائط هو حائط البراق ، الذى عرج منه نبى الاسلام إلى السماء ، طبقاً للعقيدة الإسلامية ، فإن كان حقا هو من بقايا «هيكل سليمان» ، فعند المسلمين أيضاً ، أن سليمان وكل أنبياء بنى إسرائيل كانوا موحدين على ملة أبيهم إبراهيم ، وأن «معبدهم» هذا كان مسجدا كالحرم الشريف فى مكة سواء بسواء، لذلك أسرى بنبيهم الكريم من هذا إلى ذاك!.

هل هناك حل أكثر عدالة وتسامحا من هذا للمسلمين شرق الحائط ولليهود غربه؟ أم هى المماحكة السخيفة، من جانب من يريدون إذلال الإسلام وأهله ، من اليهود ، ومن يشايعونهم، ليس فى الولايات المتحدة

وحدها ، بل في بريطانيا صاحبة وعد بلفور ومنفذته أيام انتدابها على فلسطين ، وبعض الدول الاسكندناقية، وهولندا ، وألمانيا التي جاء مستشارها مؤخرا إلى المنطقة ، لكي يتوسط في الإفراج عن الأسرى الإسرائيليين عند حزب الله اللبناني ، وقبلها كان قد زود إسرائيل بغواصة نووية ترابط في البحر الأبيض المتوسط ، وتحمل صواريخ مزودة برءوس نووية ، في استطاعتها أن تصل إلى كل بقعة من ديار الإسلام !.

وحجة اليهود في دعواهم أن المسيح لن يجيء إلا بعد أن يعيدوا بناء الهيكل ، وحجة البروتستانت أن المسيح لن يعود حتى يعود شعب إسرائيل إلى أرضه ، ونسي هؤلاء وأولئك أن من يجلبونهم من المستوطنين من روسيا وشرق أوربا هم أدعياء لا علاقة لهم ببني إسرائيل ، وإذا كان هناك من قد تصح نسبته إلى إسرائيل فهم من شعب فلسطين المشرد، الذي ينبغي أن يعود إلى أرضه لكي يكون هناك أمل في أن يعود المسيح !.

الدفاع الإسلامي

في الوقت الذي تتردى فيه الدول الغربية المتقدمة ، وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية في حمأة الخرافات والأساطير ، وتشعل نيران الصراع على هذا النحو الفاحش ، على يدي ربيبتها إسرائيل ، دون أن تقدر مدى التسامح الإسلامي أو تعيه ، فإن القمة الإسلامية المنعقدة أخيرا لم تتردد في احتضان مفاهيم غربية متقدمة عن الديمقراطية ومشاركة الجماهير الشعبية في صنع القرار ، وحل مشاكل الصراع العنصري على أساس المساواة بين جميع الأجناس والعقائد . جاء ذلك على لسان كل من الرئيس السابق لمنظمة المؤتمر الإسلامي محمد خاتمي رئيس الجمهورية الإيرانية ، ورئيسها الجديد الشيخ حمد بن ثاني أمير قطر المستضيفة للمؤتمر في دورته الحالية.

تكلم كل منهما عن ضرورة المشاركة الشعبية في صنع القرار في كافة البلدان الإسلامية ، بالنظر إلى هبة الجماهير العربية والإسلامية واسعة النطاق تأييدا للقضية الفلسطينية وغضبا مما يعانيه شعب فلسطين الباسل إزاء القوى العاتية التي تواجهه . وذلك بالرغم من كون أولهما يحكم دولة لم تكد تخرج من الحكم الامبراطوري الاستعماري حتى تلقفها رجال الدين في ظل نظرية ما يسمى «ولاية الفقيه» ، والثاني منهما يحكم إمارة يقوم فيها النظام السياسي على أساس الملك الموروث .

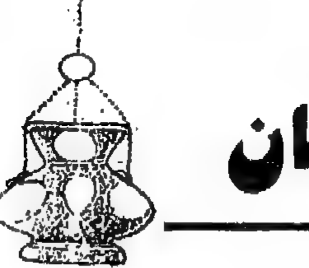
وقد طرح الرئيس الايراني في كلمته حلا قد يبدو مبالغا فيه للقضية الفلسطينية، التي يكتفي أصحابها الآن بالمطالبة بانسحاب إسرائيل إلى حدود عام ١٩٦٧، طبقا لقرارات الشرعية الدولية. فقد اقترح خاتمي في كلمته أن يبدأ الحل بإعادة كل المشردين من شعب فلسطين إلى وطنهم سواء كانوا من

المسلمين أو المسيحيين أو اليهود ، ويقرر السكان الأصليون مصير ذلك الوطن ، وما ينبغي إزاء من وفدوا إليه من غير أهله، وذلك كما هو واضح حل علمانى مثالى ، طبقا للمفاهيم الغربية عن علمانية الدولة ، لو كان أصحاب هذه المفاهيم يعقلون أو ينصفون !.

وأكثر من ذلك ، فقد أشار أمير قطر فى كلمته إلى التجربة الأوربية ونجاحها فى إنشاء السوق المشتركة ، ودعا الدول الإسلامية إلى أن تكون لها مثل هذه السوق، ولم يفته أن يشير إلى أن الديمقراطية التى تسود تلك البلدان ، بما فيها إقامة البرلمان الأوربى ، كانت عاملا مساعدا على توطيد دعائم الوحدة الأوربية، ولعله كان على لسانه مطالبة المسلمين بأن يكون لهم برلمان مماثل ، لولا أنه أدرك أن على العرب أن يبدأوا بأن يكون لهم مثل هذا البرلمان ، وكذلك سوقهم المشتركة . ولم يرد أن يجعل القمة الإسلامية فى وضع سابق أو حتى منافس للقمة العربية التى انعقدت قبل هذه الأخيرة بأيام معدودة .

وبالطبع فإن السوق المشتركة سواء على المستوى العربى أو الإسلامى ، وبمساعدة التوحد السياسى عن طريق برلمان منتخب ، هى الاطار الذى يمكن أن تحتشد فيه جهود الأمة العربية والإسلامية ومواردها للنهوض الاقتصادى القائم على اكتساب المعارف العلمية الحديثة وتطبيقها، على نحو يمكنها من سد الفجوة الهائلة بينها وبين العالم المعادي الذى يهددها ، ويجعلها قادرة على تنفيذ ما تنادى به جماهيرها الغاضبة من مقاطعة من يعادونها أو يدعمون من يعاديها .

أما الجهاد الذى دعا إليه بعض المتكلمين فى القمة الإسلامية ،فهو فى الحقيقة فريضة إسلامية كانت وسوف تبقى . فإذا لم يكن فى طوق الدول الإسلامية حاليا أن تشن الحرب على عدوها أو تقطع البترول عن مسانديه من الدول الغربية ، فإن إمداد الشعب الفلسطينى بالعون المالى هو ضرب من الجهاد ، وهذا يستلزم ، كما تستلزم النهضة الاقتصادية والعلمية المنشودة على المستوى الإسلامى ، التخلص من جانب المترفين من أبناء هذه الأمة عن كثير مما يزاولونه من صور العيش على الطريقة الأمريكية ! ذلك جهاد للنفس غير هين ولكنه أيضا غير عسير . وأولى أن توجه أموال كثيرة مما تملكه هذه الأمة وتبدده إما فى الاستثمارات خارج المنطقة الإسلامية ، أو على بذخ لم تعد تحتمله أوضاع الأمة ويستفيد منه عدوها المباشر، أقول توجه لأغراض من بينها مساعدة من لديه القدرة على أن يعود إلى وطنه من أبناء شعب فلسطين المشردين على هذه العودة ، كيما ينضم إلى قافلة الجهاد والمجاهدين ! .



الشهادة والعقل

بقلم : د. محمد عمارة

إذا كان النموذج الثقافى الإسلامى، بالنسبة لأمتنا ، هو «الذات» .. على حين مثل ويمثل النموذج الثقافى الغربى، بالنسبة لنا، «الآخر» منذ بدء الغزوة الاستعمارية الغربية الحديثة لوطن العروبة وعالم الإسلام- قبل قرنين من الزمان ..فإن الوعى بتمايز «الذات» عن «الآخر» ، فى «مصادر المعرفة» ، هو أمر ضرورى فى اكتشاف منطلقات هذا التمايز بين نموذجى الثقافة الإسلامية والغربية ..

لقد أسس الغرب نهضته الثقافية الغربية الحديثة والمعاصرة على «المذهب الوضعى»، وذلك إبان ثورة فلسفة التنوير الأوربية على الكنيسة والمقدس واللاهوت.. و «الوضعية» Positivisme هى المذهب الذى يرى أن الفكر الإنسانى لا يدرك إدراكا حقيقيا سوى الظواهر الواقعية والمحسوسة وما بينها من علاقات أو قوانين ، وأن المعرفة الحقة، هى معرفة الواقع ، وأن الحق هو ثمرة التجربة ، وليس للعقل من عمل إلا مجرد تنسيق معطياتها وتنظيمها ، وأن العلوم التجريبية هى المثل الأعلى فى اليقين.. أم غير الظواهر المحسوسة فوهم.. وأن تاريخ العقل قد مر بحالات ثلاث: حالة لاهوتية، وحالة ميتافيزيقية وحالة واقعية ، هى الوضعية التى تأسس عليها النموذج الثقافى والمعرفى الغربى الحديث .

فالفلسفة الوضعية- ومن ثم نموذجها الثقافى-قد أقامت المعرفة على مصدر واحد هو الواقع المادى، وحقائق عالم الشهادة، لأنها بنت

التنوير الغربى، الذى أحل العقل والعلم والفلسفة محل الله والدين واللاهوت، ورأى الوضعيون أن العالم مكتف بذاته، ومن ثم فإن واقعه هو المصدر الوحيد للمعرفة الحقة..

لكن التصور الإسلامى، ونموذجه الثقافى لم يقف بمصادر المعرفة عند العالم فقط، والواقع وحده.. بل لقد تحدث القرآن الكريم عن ان هذا المصدر الواقعي . لا يفي وحده بتفسير حقائق المعرفة، عبر تاريخ المعارف الإنسانية فقال :

« ... ولكن أكثر الناس لا يعلمون . يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون. أو لم يتفكروا فى أنفسهم ماخلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى، وإن كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون. أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون. ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوء أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون. الله يبدأ الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون». (الروم ٦-١١) .

فبمعارف ظاهر الحياة الدنيا وعالم الشهادة - الوضعية - وحدها ، لا سبيل إلى معارف وحقائق خلق الله السموات والأرض وما بينهما.. ومعارف لقاء الله، فى الدار الآخرة.. بعد هذه الحياة الدنيا.. ولا سبيل إلى تفسير عاقبة الأمم التى أخذها الله بذنوب تكذيبهم الرسل وظلمهم لأنفسهم، مع ما كانوا عليه من قوة وعمران، لا يفسر هلاكهما بمعارف الواقع المادى وحدها.. لا سبيل إلى تفسير هذه العواقب بمعارف عالم الشهادة وحدها.. فنحن هنا أمام سنن غير معتادة ، لا سبيل إلى معرفتها بحقائق الواقع المادى وحدها ..

ولذلك ، فإن النموذج الثقافى الإسلامي ، فى مصادر المعرفة، وإن لم يهمل عالم الشهادة ، والواقع المادى، كمصدر للمعرفة ، فإنه لم يكتف بهذا المصدر، وإنما أضاف إليه عالم الغيب ، ونبأ السماء ، وكتاب الوحى، والأدلة والمعارف والحقائق السمعية، مصدرا للمعارف التى لا تصدر عن الواقع المادى، ولا يستقل العقل بإدراكها، ولا تخضع لتجارب الحواس .. فأقام هذا النموذج الإسلامى ثقافته على ساقين اثنتين ، واعتمد للمعارف مصدرين : كتاب الوحى المسطور ، وكتاب الكون المنظور، الأمر الذى ضمن التوازن للنموذج الثقافى الاسلامى.. وذلك بدلا

من إقامته على ساق واحدة، كما هو الحال فى النموذج الثقافى الذى أثمرته الوضعية الغربية ..

فإذا كانت ثقافة التنوير الغربى قد أقامت معرفتها على حقائق الواقع المادى وحــــــــدها ، لأن تنويرها واستنارتها قد رأت العالم مكتفيا بذاته عن المدير المفارق لهذا العالم .. فإن للاستنارة الاسلامية آفاقا أرحب ونطاقا اشمل وثمرات مغايرة.. فليس العالم المادى هو وحده مصدر فلسفة التنوير وثقـــافـــة الأنوار ، لأن الله سبحــانه وتعــالى، «نور» (الله نور السموات والأرض).. والقرآن الكريم «نور» (ياأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مــبـينا) والرسول صلى الله عليه وسلم «نور» (يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير ، قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين) فنبأ السماء النبأ العظيم- ليس «الوهم» الذى يمثل طور طفولة العقل البشرى ، السابقة على الميتافيزيقا، وعلى الوضعية- كما تصــورت فلسـفـة التنوير الغـربى نصرانيتها - وإنما هذا النبأ العظيم (برهان من ربكم) و (نور) ، والمستنير به له تنويره الاسلامى، القائم على آيات كتابى الوحى والكون جميعا، وليس على مــعــــارف الواقع المادى وحدها دون سواها..

سبل المعرفة :

وكــمــا مـثل النمـوذج الثـقــافى الاسلامى، فى مصادر المعرفة - عند مقارنته بالآخر الغربى - إضافة أقامته على ساقين، وضمنت له التوازن .. فإن هذا النمـوذج الاسـلامى، فى سبل المعرفة قد صنع ذلك أيضا .

فعلى حين اعتمدت الوضعية الغربية «التجربة» سبيلا أوحد للمعرفة الحقة، جاعلة «العقل» منسقا بين معطيات «التجربة» ومنظما لها .. فإن النموذج الإسلامى فى الثقافة قد اعتمد لسبل المعرفة اربع «هدايات»، هى «العقل» و «النقل» و «التجربة» و«الوجدان»، لا باعتبارها سبلا متجاورة ومستقلا كل منها عن الآخر، وإنما باعتبارها سبلا متعاونة ومتعاضدة ومتفاعلة فى تحصيل معارف وحقائق وسنن وقوانين كتابى الوحى والوجود واكتشاف آيات الله فى الأنفس والافاق..

وهكذا مـثل النمـوذج الثـقــافى الاســلامى - ويمثل - إذا مــا قــورن بالآخر الغربى.. إضافة ، لا انتقاصا، جعلت وتجعل هذا النموذج الثقافى الاسلامى أوفى بتحصيل المعارف جميعها . ومن مختلف مصادرها،

وليس فقط مايدرك منها بتجارب الحواس ..

وعلى حين آله التنوير الغربى «العقل» ، وجعل براهينه النقيض «للنقل» والوحى والدين فدع فلاسفته الى «تحرير العقل من سلطان الدين، وإعمال العقل دون معونة من الآخرين، وجعل السلطان المطلق للعقل، بحيث لا يكون هناك سلطان على العقل إلا للعقل وحده». فجاءت عقلانية التنوير الغربى– ونموذجه الثقافى – وضعية ومادية.. فإن النموذج الثقافى الإسلامى ، الذى سلك العقل كأحد الهدايات، مع «النقل» و «التجربة» و«الوجدان» لم يعرف هذه المقابلة المتناقضة بين العقل و «الايمان الدينى» ، بل لقد قدم هذا النموذج الثقافى «عقلانية – مؤمنة» ، حث عليها الدين ، وجعلها مناط التكليف، والحكم الذى به يتبين الإنسان مافى القرآن من محكم ومتشابه ، بل وسبيل معرفة الذات الالهية ، التى تمثل جوهر الإيمان الدينى ! ..

لقد عقد النموذج الثقافى الاسلامى أواصر الارتفاق بين «العقل» والشرع» والتزمت ذلك أعرض تيارات الفكر الاسلامى، انتشارا وتأثيرا فى النموذج الثقافى الإسلامى حتى قالوا الإمام الغزالى : «إن اهل السنة قد تحققوا أن لا معاندة بين الشرع المنقول والحق المعقول ، وعرفوا أن من ظن وجوب الجمود على التقليد ، واتباع الظواهر ، ما أتوا به إلا من ضعف العقول وقلة البصائر . وأن من تغلغل فى تصرف العقل، حتى صادموا به قواطع الشرع، ما أتوا به إلا من خبث الضمائر. فميل أولئك إلى التفريط ، وميل هؤلاء إلى الإفراط ، وكلاهما ، بعيد عن الحزم والاحتياط .. فمثال العقل: البصر السليم عن الآفات والآذاء، ومثال القرآن : الشمس المنتشرة، الضياء، فاخلق بأن يكون طالب الاهتداء المستغنى إذا استغنى بأحدهما عن الآخر فى غمار الأغبياء ، فالمعرض عن العقل، مكتفيا بنور القرآن ، مثاله : المتعرض لنور الشمس مغمضا للأجفان ، فلا فرق بينه وبين العميان، فالعقل مع الشرع نور على نور» .. !

وهكذا تميز النموذج الثقافى الاسلامى «بالعقلانية – المؤمنة» ، تلك التى أخت بين العقل وبين الشرع ، جاعلة منهما «نورا على نور» وجاعلة منهما لا من واحد منها دون الآخر – أداتي التحسين والتقبيح .. وبعبارة رفاعة الطهطاوى (١٢١٦–١٢٩٠هـ ١٨٠١–١٨٧٣م : «إن تحسين النواميس الطبيعية لا يُعْتَدُّ به إلا إذا

قرره الشارع .. وليس لنا أن نعتمد على ما يحسنه العقل أو يقبحه إلا إذا ورد الشرع بتحسينه أو تقبيحه..» .

وإذا علمنا أن الطهطاوى قد قال ذلك فى معرض نقده للنموذج الثقافى الوضعى الغربى.. نموذج الذين «يقولون إن كل عمل يأذن فيه العقل صواب».. وفى سياق رفضه - بل وإدانته لهذا النموذج الوضعى- حتى لقد قال : إنه «لا عبرة بالنفوس القاصرة، الذين حكموا عقولهم بما اكتسبوه من الخواطر التى ركنوا اليها تحسينا وتقبيحا، وظنوا انهم فازوا بالمقصود بتعدى الحدود . فينبغى تعليم النفوس السياسة بطرق الشرع لا بطرق العقول المجردة» .

إذا علمنا ذلك، أدركنا تميز النموذج الثقافى الإسلامى ، عن النموذج الغربى، بهذه «العقلانية المؤمنة»، التى جمعت بين «العقل» و«الشرع» .. ولم تقف عند العقل وحده - كحال النموذج الوضعى والمادى .. أو عند الوجدان وحده - كحال النموذج «الباطنى» الذى ساد فى فلسفة «الغنوص» و «الإشراق» .

ومكانة المرأة عند الرجل :

فى النموذج الثقافى الاسلامى ، كما صاغه البلاغ القرآنى، وجسده البيان النبوى تجربة حية فى مجتمع المدينة، على عهد رسول الله، صلى الله عليه وسلم ، نجد المساواة بين المرأة والرجل تامة وكاملة فى الخلق.. والتكريم .. والتكليف .. والحساب والجزاء..

(يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا). «النساء ١»

(هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها).

(والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض . يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله اولئك سيرحمهم الله، إن الله عزيز حكيم) . «التوبة ٧١»

(من عمل صالحا من ذكر أو انثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم اجرهم بأحسن ماكانوا يعملون) . «النحل ٩٧»

ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف، وللرجال عليهن درجة، والله عزيز حكيم). «البقرة ٢٢٨»

«كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته.. فالأمير الذى على الناس راع عليهم وهو مسئول عنهم، والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عنهم ، والمرأة راعية على بيت بعلها وولده وهى مسئولة عنهم، وعبد الرجل راع على بيت سيده وهو مسئول عنه. ألا فكلكم

راع وكلكم مسئول عن رعيته » .

لكن هذه المساواة، فى النموذج الاسلامى ، ليست مساواة «الند- المماثل» .. كما هو حالها فى النموذج الثقافى الغربى، وإنما هى مساواة «الشقين المتكاملين» .. مساواة فى الخلق .. والتكريم.. والتكليف .. والحساب والجزاء.. مع مراعاة الفطرة التى ميزت بين الأنوثة والذكورة ليكونا شقين متكاملين ، يحقق تكاملهما سعادة النوع الانسانى .. ولا يكونا «ندين متماثلين» .. فتكون المساواة تناحرا يشقى به الفريقان ، وتمسخ به الفطرة التى فطرهما عليها الخالق، سبحانه وتعالى ..

ذلك هو النموذج الثقافى الاسلامى لمكانة المرأة من الرجل ، الذى تميز عن نموذجها فى الثقافة الغربية.. والذى لا علاقة له بالتقاليد التى ظلمت المرأة ، والتى يحسبها أصحابها ، زورا وبهتانا ، على الاسلام ؟!

«الذات» .. و«الآخر» :

سنة من سنن الله التى لا تبديل لها ولا تحويل .. فإن وجود ، «الآخر» المتميز، عن «الذات» والقبول له ، والتعايش معه هو القانون ..

ولهذه الحكمة، رفض النموذج الثقافى الاسلامى ، ويرفض منهاج الصراع سبيلا لحل التناقضات بين الذات والآخر ، لأن «الصراع» يعنى أن يصرع طرف الطرف الآخر، وينفرد بالميدان فتزول التعددية بين الفرقاء المتمايزين .. هذا هو «الصراع» وتلك هى الدلالة القرآنية لمصطلحه.. «سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية. فهل ترى لهم من باقية ». (الحاقة ٧-٨)

وبدلا من «الصراع» الذى لا مكان معه للتعددية والتعايش بين «الذات» و«الآخر» يزكى النموذج الثقافى الاسلامى ، لحل التناقضات بين الفرقاء المختلفين ، منهاج «التدافع»، الذى هو حراك يعدل المواقف والمواقع، مع المحافظة على بقاء التمايز والتعددية دائما وأبدا .

(ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم) .. بل إن الدفع والتدافع هو منهاج الحفاظ على التعددية حتى فى الشرائع الدينية (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز..)

وكما جعل النموذج الثقافى الاسلامى من وجود «الآخر» السبيل لتميز «الذات» ، ودعا الى تعددية التعايش بين الفرقاء المتمايزين رأيناه يرسم معايير الولاء والبراء بين الذات المسلمة، وبين «الآخر غير المسلم»..

فبيننا وبين «الآخرين» علاقات البر والقسط .. دائما وأبدا اللهم إلا إذا قاتلونا فى ديننا او اخرجونا من ديارنا، او ظاهروا على هذا الاخراج لنا من الديار الاسلامية .. عند ذلك - وعند ذلك فقط، لا «بر» ولا قسط.. مع هؤلاء الآخرين .. وإنما هو الجهاد لهم، على امتداد وتنوع صفوف الجهاد..

(لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم ان تولوهم ، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون) ..

وإذا كان الاسلام عقيدة صبغت حضارة وميزت ثقافة وتاريخا ووحدت امة فإن جوامعه الحضارية والثقافية والتاريخية قد أدخلت غير المسلمين من الذين أظلتهم دولته، فى «الذات المسلمة حضاريا»، فقامت وحدة في الامة ، مع تعددية فى الملل والشرائع وداخل الامة الواحدة ..

التجديد والاجتهاد :

فى علاقة «الحاضر» بـ «الماضى» و«الجديد» بـ «القديم »، هناك نماذج ثقافية ثلاثة فيها طرفا غلو، وبينهما الوسط العدل المتوازن الذى يزكيه الاسلام..

أ - هناك غلو الإفراط الذى يمثله الجمود والتقليد ، ذلك الذى لا يميز فى الاعتصام بالماضى بين الثوابت وبين المتغيرات، بين الإلهى وبين البشرى، بين المناهج وبين التجارب والتطبيقات.. فيضفى القداسة والثبات على الماضى جميعه ، حتى ليكاد اهله يهاجروا اليه مديرين ظهورهم للحاضر والمستقبل والجديد ..

ب- وهناك غلو تفريط «الحداثة» بالمغنى الغربى - وهى التى أثمرتها فلسفة التنوير الغربى اللادينية، والتى أقامت قطيعة معرفية مع الدين، عندما عزلت شرائعه عن ضبط شئون العمران ، وحررت السلوك البشرى من احكامه ، وحالت بين السماء وبين تدبير الارض والعالم .. وكما يقول احد دعاتها «فإن التنوير قد مثل القطيعة الإبستمولوجية الكبرى التى تفصل بين عصرين من الروح البشرية : عصر الخلاصة اللاهوتية للقديس توما الاكوينى، وعصر الموسوعة لفلاسفة التنوير»

حـ - وبين غلوى الافراط والتفريط، فى علاقة الحاضر بالماضى ، والجديد بالقديم - يأتى النموذج الثقافى الإسلامى ، بوسطيته المتوازنة - فيعتمد «التجديد» الذى هو تطور من داخل النسق، يميز بين الثوابت والمتغيرات فى الموروث، فيفتح الباب

للتطور مع الاحتفاظ بالمعالم والسمات التى أعطت وتعطى النسق الحضارى خصوصيته المميزة له عن الانساق الحضارية الاخرى . فيواكب كل المستجدات ، دون أن تتبدل «هويته»، أو يفقد «بصمته» التي تمثل «مبادئه» و«مناهجه» و «حكمه» و«مقاصده» ويعتمد الاجتهاد ، الذى يستنبط احكام الفروع من «المبادىء والاصول» فيمد الأغصان الجديدة لتظلل المساحات المستجدة فى ارتباط بالاصول التى تسرى روحها وتشيع ضوابطها وتتحقق مقاصدها فى كل اجتهاد جديد .. فيتم به «النمو» الدائم، مع الاحتفاظ «بالشخصية» التى يمثلها هذا النسق الفكرى والحضارى ..

وفى النموذج الثقافى الاسلامى يبلغ «التجديد» مرتبة «السنة.. والقانون» لأن تمثيل هذا النموذج للشريعة الخاتمة يستدعى «التجديد» فيه حتى لا ينسخها التطور ويطوى صفحتها .. ولأن «عالمية» هذه الشريعة الخاتمة تستدعى هى الأخرى، «التجديد» الذى يستجيب لجديد الأمم والبقاع والعادات والأعراف.. وعن هذه «السنة .. والقانون».. يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «يبعث الله لهذه الامة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها» .

فبه تتم «أسلمة الجديد» وبه تتجدد المنابع ، عندما تزال عنها طوارىء البدع التى تحد من فاعليتها فى التوليد والإبداع ..

وفى هذا النموذج الثقافى الاسلامى، ايضا يبلغ «الاجتهاد» مرتبة الفريضة، ولا يقف عند مجرد كونه حقا من الحقوق !..

وبجناحى «التجديد» و «الاجتهاد» يحلق العقل العربى والمسلم، عبر الزمان والمكان ، ملتزما المعالم والمنارات التى مثلت وتمثل خصائص النموذج الثقافى الاسلامى - والتى اشرنا إلى نماذج مهمة منها - فيعيش «الحاضر»، ويستشرف «المستقبل»، دون أن يقع فى إفراط الجمود والتقليد، أو تفريط القطيعة مع المنابع والثوابت والأصول ..

وإذا كانت «الحاجة» هى أم الاختراع والضرورة هى الحافز على «الابداع »، فإن الايمان بوجود خصوصية للنموذج الثقافى الاسلامى ، تميزه عن «الآخر» هى الحافز على التوليد والإبداع فى النموذج الثقافى وبدون الايمان بهذه الخصوصية. فإن الكسل العقلى سيغرقنا فى مستنقع التقليد.. تقليد الماضى، والجمود على تجارب اهله.. او تقليد «الاخر» والجمود على نماذجه، والقطيعة المعرفية مع نموذجنا الثقافى العربى الاسلامى وماله من خصوصيات. والله اعلم ..

ماذا نترجم؟

الأدلة العلمية
على جواز ترجمة معاني القرآن إلى اللغات الأجنبية

تأليف

محمد فريد وجدي

مدير مجلة الأزهر

ملحق بالجزء الثاني من مجلة الأزهر سنة ١٣٥٥

(يوزع بالمجان)

(الطبعة الأولى)

القول الفصل

في ترجمة القرآن الكريم

الى اللغات الاعجمية

بقلم المفتقر الى عفو مولاه

محمد شاكر

وكيل الجامع الأزهر سابقا

سنة ١٣٤٣ هجرية ١٩٢٥ ميلادية

معركة علمية حول ترجمة معانى



بقلم: د. محمد رجب البيومي

بحث في ترجمة القرآن الكريم وأحكامها

بقلم

حضرة صاحب الفضيلة

الأستاذ الأكبر الشيخ

محمد مصطفى المراغي

شيخ الجامع الأزهر

طبع بمطبعة الرغائب

كتاب

حدث الأحداث في الإسلام

الإقدام على ترجمة القرآن

بقلم

السيد الإمام الشيخ محمد سليمان

نائب المحكمة العليا الشرعية بمصر

لم يثر في مصر جدال حول جواز ترجمة القرآن أو ترجمة معانيه قبل إبريل سنة ١٩٢٥، حيث فوجىء العالم الإسلامي بترجمة للقرآن كتبها مولانا محمد على الهندي، وهو اسم مشترك بينه وبين الزعيم الإسلامي الكبير مولانا محمد على الهندي شقيق مولانا شوكت الهندي من كبار زعماء الإسلام في الهند، ومصدر الفزع من هذه الترجمة أن من كتبها مسلم يعمل على نشر الإسلام في أمريكا وانجلترا، واستراليا، وله أتباع يقدمون الترجمة على أنها لا تختلف عن القرآن الكريم، فكثر الخوض في هذه المسألة، وكان أول من واجهها برأيه الصريح هو الأستاذ الكبير الشيخ محمد شاكر وكيل الأزهر ووالد الأستاذين أحمد ومحمود شاكر، فكتب أربعة بحوث مسلسلة في جريدة المقطم ابتداء من ١٠ أبريل سنة ١٩٢٥ يعلن فيها أن القرآن لا يترجم إذ لا يوجد من يقدر على الإتيان بإعجازه فيما يترجم، وإن من الجائز أن يترجم تفسير القرآن فقط على أن يعلن صراحة أنه ترجمة لمعاني القرآن لا للألفاظ نفسها، وقد قال فيما قال بالمقالة الرابعة المنشورة بالمقطم الصادر في ٣٠ مايو ١٩٢٤.

«وكذلك أجمع فقهاء الإسلام وأئمة الدين المجتهدون على جواز تفسير القرآن باللغة العربية أو بأية لغة أخرى من اللغات الأعجمية، لا أعلم أحداً فى علماء الإسلام حرم على الناس أن يترجموا إلى غير العربية تفسير الطبرى أو الكشاف.. ثم قال فلا تخلطوا أيها القوم، فالترجمة شىء والتفسير شىء آخر، الترجمة تحل محل الأصل من كل وجه، ولا كذلك التفسير».

وبهذا الحسم الصريح. منع الشيخ الكبير ترجمة النص، وأباح ترجمة تفسيره أى ترجمة معانيه، ثم جمعت مقالات الشيخ شاكر فى كتيب خاص، كان موضع قبول العلماء.

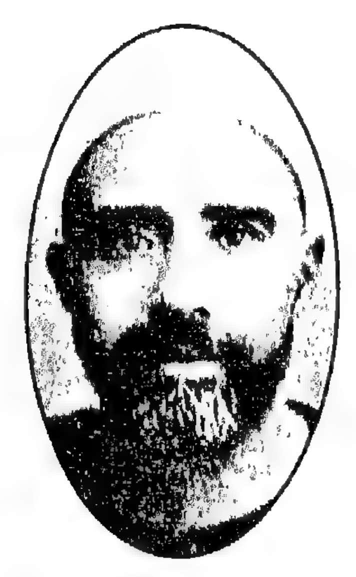
رحلة علوبة باشا

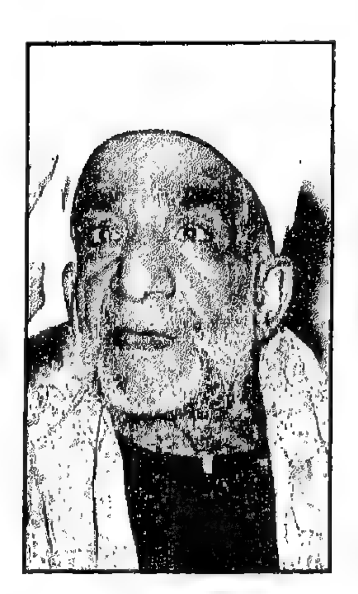
وبعد سبع سنوات قام الأستاذ الكبير محمد على علوبة باشا برحلة إلى الشرق الأقصى فرأى قوما من اليابان ينظرون فى الأديان ليختاروا أيها أقرب إلى نفوسهم، ولم يجدوا عن القرآن إلا ترجمات كتبها المستشرقون والمبشرون صدرت عن جهل وغرض معا، فكان من أمانيه أن تقوم مصر بترجمة دقيقة لمعانى القرآن تحل محل الترجمات المشبوهة، وأعلن ذلك فى الصحف ثم تولى وزارة المعارف فكان أول عمل قام به أن طلب إلى مجلس الوزراء العمل على إصدار ترجمة معانى القرآن ترجمة رسمية وفق ترتيب الآيات والسور فى المصحف الشريف، وبأسلوب موجز واضح، لتكون الترجمة المصرية وثيقة مبينة معانى الكتاب المبين دون لبس، ويكون الغرض منها نشر هداية الإسلام فى الأمم التى لا تتكلم العربية، والقضاء على الأثر السيىء الذى تركته الترجمات المخطئة.

وقد سارع رئيس الوزراء على ماهر باشا بالاتصال بالأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى، فجمع هيئة كبار العلماء فأفتوا بجواز الترجمة للمعانى، وأقر مجلس الوزراء الأمر.

وما كادت الصحف تعلن هذا النبأ، حتى بادر بعض الكاتبين من قضاة المحاكم الشرعية بمعارضة المشروع، وعده حدثاً خطيرا من كبار الأحداث المزعجة فى الإسلام، وتوالت جرائد كوكب الشرق، والمقطم، والجهاد، ومجلة الفتح تفيض بمقالات صاخبة خرجت عن المجادلة بالتى هى أحسن، إلى ما لا يليق بكرامة البحث والباحثين، وكتب بعضهم العرائض الموقع عليها ببصمات من لا يدرى شيئاً لترفع إلى جلالة الملك، وقد تحمس الأستاذ محمد سليمان نائب المحكمة العليا الشرعية فى مصر، فكتب عدة مقالات هجومية ذات نبرة حادة مزعجة، فى مهاجمة الأزهر ومشيخته، وكان من بينها ما نشره فى جريدة كوكب الشرق الصادرة فى ١٩٣٦/٥/٢٣، تحت عنوان (أمانة القرآن فى عنق البرلمان، خطاب موجه إلى أعضاء مجلس النواب والشيوخ) وقد ملأه بعبارة «يا ممثلى


على علوبة باشا


محمد مصطفى المراغي




البلاد» زاعماً أن القرآن العربي السماوى سيصبح قرآنا انجليزياً وأن القرآن لم يترجم في عهد النبي والصحابة فكيف يترجم اليوم، وأنه يتحدى من يقول بأن مذهباً فى الإسلام يبيح الترجمة:

وإذا كان الإمام المراغي صاحب الرأى فى ضرورة الترجمة، وله مناوئوه من زملائه الذين كانوا معه فى محاكم القضاء الشرعي، فقد تركت هذه الزمالة فى نفوسهم ما يشبه الحسد لرجل كان قاضياً مثلهم ثم أصبح شيخ الإسلام فى مصر، وله جهارة علمية ليست لأحدهم! وإلا فما الداعى، إلى استعداء الملك والبرلمان ورجل الشارع، وتأليف بعض الطوائف للذهاب إلى القصر الملكي! .

بحث الإمام المراغي

فى هذه الفتنة العمياء رأى الأستاذ المراغي أن يظهر بحثاً كان قد نشره منذ أعوام عن ضرورة ترجمة المعانى، نشره قبل أن يتولى مشيخة الأزهر للمرة الثانية بعامين، وقبل أن يسافر وزير المعارف محمد على علوبة باشا إلى اليابان، فاقترح ما هداه الله إليه من ترجمة المعانى ! والبحث دقيق يتجلى فيه فكر العلامة الأصولى الفقيه، ومحاولة الإلمام بعناصره فى هذا المجال مما لا يستطاع، ولكنى أشير إلى أهم نقاطه فأقول:

بدأ الإمام بحثه مشيرا إلى نص للإمام الشاطبى يتحدث عن لغة العرب وحقيقتها ومجازها، وما اختص به اللسان العربى من الإيجاز والإطناب، والذكر والحذف ثم انتهى إلى أن أهل الإسلام أجمعوا على جواز تفسير القرآن للعامة، وهذا إجماع منهم على جواز ترجمته كما يريد الشاطبى أن يقول إذا كان القرآن

يفسر للعامة بألفاظ تدل على المعانى، فترجمة هذه المعانى جائزة لأنها من بابها ولا تخرج عنها.

ثم إن القرآن إذا كان معجزا، فإعجازه لا يمنع من ترجمة معانيه، وللقرآن وجهتان، وجهة مقصودة، وهى معانيه التى تشتمل على الأحكام والشرائع والآداب والقصص، ووجهة أخرى تدل على صدق النبوة وهى الإعجاز وعدم إمكان نقل الإعجاز لا يستلزم عدم إمكان نقل المعنى نفسه، وما دام المعنى موجوداً فالترجمة لاتحدث نقصاً فى الدليل ولا هدما، وقد قال الشاطبى: ليس المقصود من القرآن إلا الهداية وأحكام الدنيا والآخرة. وأن السلف لم يخض فى القرآن على هذا النحو الذى فعلوه (من إيضاح ألوان الإعجاز البلاغى) فإذا فاتت معانى الإعجاز اللغة المنقول إليه فهى باقية فى النص العربى ولن تضيع.

وهب أن التراجم قد اختلفت، فهذا الاختلاف لا ينسحب على القرآن لأنه باق، وسيكون الحاكم عند كل اختلاف وهو النص الذى تكفل الله بحفظه، ونحن نؤكد أنه يجب على كل مسلم يعرف العربية، ألا يحيد عنها إلى قراءة النص الأعجمى، ولكن من لنا بأن نعرب الأمم الأعجمية الإسلامية لتنال هذه اللذة، فمن الخير أن نيسر لهم الحصول على ما يمكن الحصول عليه من معانى القرآن إذا فاتهم ما يتضمنه النص العربى من إعجاز.

هذه مقررات أخذها الإمام المراغى بدءاً ليقف بها القارىء على أرض صلبة، ثم انتقل إلى نصوص الفقهاء التى تجيز الصلاة بالترجمة لمن لا يعرف العربية، فنقل عن السرخسى وقاضى خان والزيلعى ما رووه فى مذهب أبى حنيفة، وأفاض فى النصوص إفاضة شافية يتعذر الإلمام بها، وهى مجال لدراسة فقهية يحسن أن يقوم بها باحث متخصص، حيث استغرقت صفحات حافلة بالنصوص لأمثال النسفى، والكمال بن الهمام والصدر الشهيد وغيرهم مع إفاضة شافية فى الفرق ما بين ما يسمى ترجمة وما يسمى قرآنا، وانتهى إلى قوله:

«فكل مسلم عاجز عن أداء القرآن بالعربية، وعن النطق بالعربية، وعن الفهم بالعربية، يستطيع أن يقرأ ترجمة القرآن للعظة والهداية والتدبر ويصلى بها وجوبا، إن لم يعرف شيئاً من النظم العربى»، قائلاً فى ختام بحثه «وسيجد المخلصون فى هذه الترجمة أكبر خدمة لدين الله الذى ارتضاه، وخير معونة تسدى للراغبين فى تفهم حقائق هذا الوحى السماوى والله متم نوره».

حدث الأحداث

لقد كان على الذين انبروا لمعارضة الإمام المراغى أن يقفوا عند النصوص التى سردها، وقفة التأمل، ولكنهم اندفعوا فى خطابيات مضحكة، وأقول مضحكة لأن الأستاذ محمد سليمان نائب المحكمة

العليا الشرعية بمصر قد أبرق وأرعد ثم جمع ما كتبه بالجرائد فى كتاب جعل عنوانه (حدث الأحداث فى الإسلام، الإقدام على ترجمة القرآن) بمعنى أن ما ووجه به الإسلام منذ نشأته إلى الآن من يوم حروب الردة وسقوط الخلافات الإسلامية، وهجوم التتار والصليبيين وضياع الأندلس وفلسطين! كل تلك الأهوال كانت أحداثا دون ترجمة معانى القرآن لأنها وحدها حدث الأحداث!! وهذا التصور أقل ما يدل عليه أنه اندفاع فى الجموح العاطفى إلى مدى لا يعقل، وقد قام من أفاضل الباحثين من دحضوا مزاعم المعترضين بمنطق فصل، ومنهم الأساتذة الكبار محمد عاشور الصدفى، وعبد الرحمن الجزيرى وعبد المجيد سليم ومحمود شلتوت ومحمد فريد وجدى، ولو جمع ما كتبوه - وبعضه جمع فعلا فى كتب مستقلة - لكان ثروة فقهية من ناحية، ووثيقة تاريخية من ناحية أخرى، وإذا كان لابد من الاختيار فسأكتفئ بشذور مما قاله الأستاذ محمود شلتوت والأستاذ محمد فريد وجدى لأنهما عمدا إلى اللباب الدقيق مما تطاول به المعترضون فنسفاه نسفا، رحمهما الله .

بدأ الأستاذ محمود شلتوت بحثه الصادر بمجلة الأزهر (صفر سنة ١٣٥٥ هـ) تحت عنوان (ترجمة القرآن ونصوص العلماء فيها) بدأه بضرورة وضع ترجمة لمعانى الكتاب، وإذاعتها على أوسع نطاق، وتحدث عن معنى الترجمة وأنواعها، مقرراً أن الترجمة إن لم تحتفظ بالإعجاز البلاغى المعجز فإنها تحتفظ بجهات الإعجاز الأخرى، وهى جهات يجب ألا تحرم منها الإنسانية جمعاء، ثم انتقل إلى مثل ما ذكره الإمام المراغى عن الشاطبى فى بيان الدلالتين الخاصتين بالعربية، واستند إلى أقوال صريحة لائمة الدين من أمثال ابن حجر والزمخشرى ومحمود رشيد رضا ومحمد بخيت المطيعى ومحمد حسنين العدوى، وأفاض فى نقل ما يؤيده من كتب التراث ذات الوزن الثقيل تأييدا لا لبس فيه، ثم وفقه الله إلى تفنيد ما آثاره المعترضون فى منطق موجز، وهو على إيجازه مقنع رادع، وفيما نقله ما لا يستحق الرد لوضوح تهافته، ولكنه لم يغفله لأن القراء قد وعوه، وفيهم من قد يتأثر به، وإليك شذوراً مما قال، وأكثره موجه إلى الأستاذ محمد سليمان بطل المعركة الأول:

١ - يقولون إن القرآن معجز وليس فى قدرة البشر أن يترجموا إعجازه، ونحن نقول ذلك ولانزعم أن أحدا يستطيع نقل الإعجاز.

٢ - يقولون لو أراد الله نقله إلى اللغات التى يراد ترجمة القرآن إليها، لأنزله بتلك اللغات، ولكنه لم يفعل وأنزله بلسان عربى، ونحن نقول أن هذا النوع من الحجاج شبيه بما قال المشركون «لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء».

٣ - يقولون إن أصحاب اللغات اللاتى يراد بها ترجمة القرآن إليهم موجودون من قبل أن ينزل القرآن فماذا جد منهم حتى وجب علينا ترجمة القرآن، ونحن نقول لقد جد منهم أنهم أطلقوا لعقولهم عنان البحث فى الأديان وأخذوا يترجمون القرآن إلى لغاتهم حسب قدرتهم فوقعوا فى أخطاء يجب على المؤمنين تلاشيها، وقد أرهقتهم الحياة المادية فذهبوا يتلمسون الخلاص منها، فوجب أن نقدم لهم ما يعينهم على الاهتداء.

٤ - يقولون إن ترجمة القرآن تسليم بآخر حصن من حصون العزة الإسلامية، وإقرار بالتخلى عن مكانة هذا الدين إلى أصحاب اللغات الأجنبية، ونحن نقول: نستحلفهم بالله، أهم جادون أم هازلون؟

أنا لا أشك أنهم فى هذا القول ملبسون، وأنهم يستردون الحق بثوب مهلهل وهم يعلمون.

٥ - يقولون إن القرآن موجود من وقت الرسالة، ويقرؤه المتعربون من أهل الكتاب كما نقرؤه، ولم يؤمنوا به، فما الداعى لترجمته؟ ونحن نقول؟ إذا أخطأ فريق متقدم، فهل نحكم على فريق متأخر بأنه سيكون مثل سابقه، ولابد أن يخطىء!

هذا بعض ما اهتم الأستاذ محمود شلتوت بالرد عليه، أما الأستاذ محمد فريد وجدى فقد كتب مؤلفاً مستقلا فى رد مزاعم المعترضين وضعه تحت عنوان (الأدلة العلمية على جواز ترجمة معانى القرآن إلى اللغات الأجنبية)، وقد ناقش فى صفحات كتابه ما تورط فيه القوم مناقشة مهذبة عالية، ومن أحسن ما كتبه ما جاء تحت عنوان (من أين يأتى المعارضون بأدلتهم) حيث أشار إلى مغمز علمى لدى قوم يتصيدون الآراء التى توافق مشربهم، ويتركون ما يصدمها من الحقائق العلمية، فيخيل للقارىء أنهم قدموا كل شىء، وأن الحجة البالغة لديهم وحدهم، وهذا الاتجاه للأسف شائع ذائع لدى فريق من أدعياء البحث، إذ يتصيدون ما يروقهم وقد ستروا عن القارىء وجه الحقيقة، حين لم يكشفوا الستار عن كل ما قيل، يقول الأستاذ محمد فريد وجدى:

«فترى أصحابنا المعارضين يعمدون إلى جمع الآراء المتعارضة، فى صعيد واحد، ليظن كل من يلقى بنظرة عليها، أنهم يسوقون الفقه كله، بين أيديهم إيهاما للعامة ومن فى حكمهم أن المسلمين الأوائل كانوا يحرمون ترجمة القرآن تحريما باتاً، وأن القائلين بوجوب ترجمته من المعاصرين مبتدعون ليصيبوا هدفهم من إثارة الدهماء على المصلحين، شأن إخوانهم المثبطين فى جميع أدوار النهضات الأدبية والعلمية» ثم بلغ مقطع الرأى حين قال:

«ونحن لوقاية الناس من خطر هذا التلبيس الشنيع، نفتطر هؤلاء المثبطين إلى


محمد رشيد رضا


محمد فريد وجدى

حصر بحوثهم في مجالات محددة بطرح هذه الأسئلة عليهم وهي:

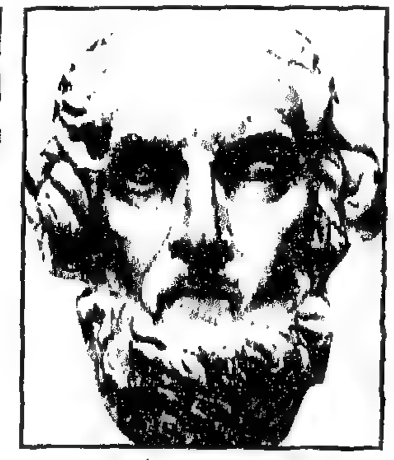
(١) هل قال أبو حنيفة بجواز ترجمة القرآن والصلاة به مترجما للعاجز عن العربية أو لا؟ وهل نصت على ذلك كتب الأحناف قديما وحديثا أو لا . (٢) وهل على مسلم من بأس أن يتمذهب بمذهب أبى حنيفة الإمام الأعظم ويعتبر مسلما سنياً أم لا ؟ (٣) وهل يعتبر ابن حجر شارح البخارى وابن بطال والشاطبى صاحب الموافقات والمقدسى والإمامان محمد بن الحسن وأبو يوسف صاحبا أبى حنيفة وجميع من استشهدنا بأقوالهم فى جواز ترجمة القرآن مسلمين سنيين أم لا؟» وهى أسئلة لا جواب عليها لديهم إلا بالسكوت » هذه سطور تشير إلى معركة علمية استغرقت كتبا مستقلة، وعشرات من الصحف الذائعة فى مصر، بحيث كانت شغل القراء على مدى نصف عام أو يزيد، ثم انجلى الحق الآن عن اتفاق شبه إجماعى على جواز الترجمة للمعانى القرآنية، بل على وجوبها لدى قوم يرون أن يشرق نور الله على الكوكب الأرضى مشرقه ومغربه، وأقول شبه إجماعى إذ لانزال نرى من أدعياء البحث من يستهويه كل الاستهواء أن يبحث عن الرأى الضعيف ليخالف به الجمهور فيحسب من المجددين، وهو ادعاء كاذب يذكرنا بقول القائل

وكل يدعى صلة بليلى... وليلى لا تقر له بذاكا! .

مَاذا أترجم ؟

بقلم : حسين أحمد أمين

سأقتصر هنا على التصدى للسؤال الذى كلفتنى مجلة «الهلال» بالإجابة عنه : «ماذا نترجم ؟» ، دون التعرض لقضايا كان بودى أن أتحدث تفصيلا عنها ، مثل : الأهمية الحضارية للترجمة - ضرورة أن تنهض بالمشروع الضخم للترجمة إلى العربية ، منظمة ضخمة على مستوى العالم العربى كله ، كالمشروع القومى للترجمة الذى يتبناه المجلس الأعلى للثقافة فى مصر ، أو المنظمة العربية للترجمة فى بيروت ، (وهى التى ستشرع قريبا فى النهوض بمهامها بعد نحو عامين من تبنى الفكرة والإعداد للتنفيذ) ، أو المجمع التونسى للعلوم والآداب والفنون (بيت الحكمة) ، أو الهيئة المصرية العامة للكتاب (سلسلة الألف كتاب ثم سلسلة الألف الثانية) .. إلى آخره .


هوميروس


الجبرتي

فرويد

ضرورة التعاون مع المجامع اللغوية في مختلف الأقطار العربية ، للاستنارة بتوصياتها بشأن توحيد المصطلحات المترجمة .. شروط الترجمة المتميزة ، وأهمية وكيفية تربية جيل من المترجمين الحاذقين ، وضرورة توفير المكافآت المجزية لهم عن عملهم ، والتزامهم بأن يبدو الكتاب المترجم وكأنما قد ألف أصلا باللغة العربية .. أهمية توفير المراجعين والمعاجم الجيدة للغات شتى .. ضرورة التوفيق بين التوسع في حركة الترجمة وبين الحاجة إلى تشجيع المؤلفين والمبدعين من العرب على مواصلة إنتاجهم في مختلف فروع المعرفة ، إلى غير ذلك من القضايا المتصلة بنشاط الترجمة .

الاهتمام بالمعارف العلمية

أما فيما يتعلق بسؤال «ماذا نترجم؟»، فإن الشق الأول من الإجابة عليه لابد من أن يكون خاصا بحالة السوق واحتياجاتها . وأعني بالسوق هنا بطبيعة الحال مجتمعنا العربى فى ظل الظروف الدولية التى تسود زماننا هذا ، أو تلك المتوقع ظهورها فى المستقبل المرئى .. هناك على سبيل المثال عولمة قد يرى الكثيرون من محبذيها ومعارضيها أنها تطور حتمى لا سبيل إلى الحيلولة دونه ، ولا مفر من أن يحاول العرب من الآن فهمه ومسايرته .. وثمة في جميع أنحاء العالم اهتمام متزايد بالمعارف العلمية على حساب الآداب والعلوم الإنسانية .. وثمة تسارع مطرد فى نمو تلك المعارف لا نزال فى عالمنا العربى نلهث وراء تحصيل ما قد مضى على سابقاتها زمن طويل .. وثمة خشية من جانب الكثيرين من العرب على تراثهم وتقاليدهم وثقافتهم من جراء تزايد الإنفتاح على الحضارات الأخرى ، وهو ما قد ينجم عن التوسع فى

الترجمة .. وثمة قيود دينية وأخلاقية واجتماعية وسياسية لا نزال نرسف فى أغلالها .. وثمة فى كثير من الأقطار العربية ضائقة اقتصادية تجعل من الكتب - أو حتى الصحف - سلعا كمالية لابد من التضحية بها فى سبيل إشباع الاحتياجات الأساسية .. إلى آخره .

فأما عن المخاوف والاعتراضات والتحفظات فلا شأن لى بها وأنا بمعرض الإجابة عن سؤال «ماذا نترجم؟» ، وهو سؤال يفترض الإيمان المطلق بالأهمية الحضارية للترجمة ، وبالحاجة الماسة لدى مجتمعنا العربى إلى التوسع فيها . بيد أن هناك من احتياجات السوق وظروفها مما أشرت لتوّى إلى بعضها ، وما لم أشر إليه ، وما سيؤثر حتما فى تكييف الإجابة:

أشير أولا إلى حقيقة واقعة يلمسها ويعانى منها المثقفون اليوم ، وسيعانون منها أكثر بمرور الوقت وبازدياد تفاوت الدخول بين الأقطار الغنية والأقطار الفقيرة ، وأعنى بها الارتفاع المتواصل فى أثمان الكتب (والصحف) الأجنبية مما يباع فى بلادنا، وهو ارتفاع لم تعد حتى لميسورى الحال من المثقفين من أمثالى طاقة به .. هذا كتاب أصدرته جامعة كمبريدچ فى مجلدين ألمحه على رف من رفوف مكتبة الجامعة الأمريكية بالقاهرة ، ويهمنى جدا قراءته إذ يتناول موضوعه تاريخ مصر منذ الفتح العربى إلى يومنا هذا ، كل مجلد فى نحو خمسمائة صفحة . أسأل الموظف بالمكتبة عن ثمنه فإذا هو بعد التخفيض خمسمائة وثمانون جنيها ، أى ما يقل قليلا عن قيمة المعاش الشهرى الذى أتقاضاه من وزارة الخارجية المصرية بعد خمسة وثلاثين عاما من العمل فى السلك الدبلوماسى .. وهذه صحيفة «الهيرالد تريبيون» اليومية التى لا أجد فى الصحف المصرية الهزيلة عوضا عن قراءتها لمتابعة ما يجرى فى العالم حول مصر - بل وفى مصر نفسها - تباع فى القاهرة بخمسة جنيهات ونصف، فيستهلك ما سأدفعه شهريا فيها ، إن صممت على شرائها، ربع ذلك المعاش .. مجرد مثال رأيت أن أسوقه لبيان تزايد عجز الراغبين منا فى الاطلاع على ثمرات المطابع الأجنبية عن متابعة ما يدور فى الساحات الفكرية خارج العالم العربى ، فإذا بالفجوة بين ثقافتهم وثقافتنا تزداد اتساعا بمضى الوقت ، وإذا نحن فى واد وهم فى واد، رغم كل ما يقال ويكتب يوميا عن العولمة ، وضرورة التواصل والتلاقح والتفاعل بين الحضارات .

هنا تبرز أهمية توفير الترجمة العربية لأهم ما يصدر من كتب فى

العالم الخارجي ، وفى مختلف ميادين المعرفة ، تباع فى أقطارنا بأسعار أرخص كثيرا مما تباع به فى الخارج ، فتهيىء لنا فرصة الاطلاع عليها .. كذلك تبرز أهمية إصدار مجلات عربية تعنى بتقديم عروض شافية وافية قدر الإمكان لأفضل ما تخرجه المطابع الأجنبية من كتب ، أسبوع بعد أسبوع ، أو شهر بعد شهر ، بأقلام متخصصين فى مختلف الميادين ، توفر لهم إدارة تلك المجلات نسخا من تلك الكتب بلغاتها الأصلية .. وقد كان أملى وقت الإعلان عندنا فى مصر عن صدور مجلة «وجهات نظر» أن يكون ذلك هو الهدف من إصدارها . غير أنها - للأسف - بعد الالتزام به فى أعدادها الأولى ، نراها تتحول شيئا فشيئا عنه ، حتى باتت موضوعاتها اليوم وما من فارق كبير يميزها عن موضوعات سائر المجلات الثقافية .

ستكون هذه إذن إحدى المهام الرئيسية لأية منظمة عربية ضخمة للترجمة : وهى ضمان تجنب أى انقطاع بين الثمرات المهمة للفكر فى العالم الخارجي فى شتى مجالات المعرفة وبين الراغبين من مثقفينا فى الإحاطة بهذه الثمرات والإفادة منها .. قد يضيف البعض هنا أننا فى حاجة أيضا إلى ترجمة بعض الدوريات العلمية المتخصصة التى تعرض لأحدث البحوث والاكتشافات فى مجالاتها حتى يظل العاملون العرب فى تلك المجالات مسايرين للتقدم العلمي . غير أن البعض الآخر قد يعترض بحجة إلمام معظم هؤلاء بلغات أجنبية تمكنهم من الاطلاع على الأصل ، وكذا بحجة القصور الكبير الراهن فى ترجمة المصطلحات العلمية إلى العربية ، وعدم اتفاق العرب بوجه عام على مصطلحات موحدة يفهمها الجميع .

***

كانت دائرة المعارف البريطانية قد أخرجت عام ١٩٥٢ مجموعة من أربعة وخمسين مجلدا تحت عنوان «أمهات الكتب فى العالم الغربى» ، من هوميروس إلى فرويد . وقد ورد في مقدمة المجموعة أن الناشرين كانوا يودون لو أنهم لم يقتصروا على الغرب فتكون المجموعة أكبر وأشمل . غير أنهم رأوا فى النهاية أن يتركوا لأبناء كل حضارة ذات تراث من المؤلفات القيمة مهمة انتقاء تلك المؤلفات وإصدارها فى مجموعة خاصة بها ، ثم ضم كل المجموعات فيما بعد فى مجموعة واحدة عنوانها «أمهات الكتب فى العالم» .

واقتراحى هنا هو أن تقوم المنظمة العربية للترجمة - أيا كانت - بترجمة المجلدات الأربع والخمسين من أمهات الكتب الغربية إلى العربية ، وياحبذا لو

تبع ذلك - أو صاحبه - تشكيل لجنة أخرى من كبار المتخصصين بيننا فى التراث العربى لانتقاء أهم مائة كتاب مثلا من بين كتبه (من ابن المقفع إلى الجبرتى)، وتشكيل لجنة أخرى من كبار المترجمين لترجمتها إلى الإنجليزية ، (أهم لغات العالم فى الزمن الراهن ولأمد طويل بعده) ، كخطوة فى سبيل تحقيق الهدف الذى تحدثت عنه مقدمة ناشرى «أمهات الكتب فى العالم الغربى» . ولا بأس أيضا من أن تتبع ذلك ترجمة مجموعة منتقاة من خيرة ما أنتجته القريحة العربية فى العصر الحديث مما قد يهم العالم خارج الدول العربية الاطلاع عليه ، والاستفادة منه ، أو الاستمتاع به .

***

سيكون على المنظمة أن تخرج إنتاجها فى إطار سلاسل متواكبة . ومن بين سلاسل الكتب التى أقترح ترجمة العديد من مجلداتها (كل مجلد يقع فى نحو مائة وعشرين صفحة) سلسلة الكتيبات الفرنسية الشهيرة الرائعة بعنوان "Que Séis-jes?" (ماذا تعرف؟) فى الفروع التالية من المعرفة :

الفلسفة - الأديان - الأساطير - علم النفس - التاريخ - الجغرافيا - الفنون الجميلة - الأدب - التربية - القضايا الاجتماعية - علم الاجتماع - الاقتصاد - العلوم السياسية - العلوم التطبيقية - العلوم البحتة - الرياضة البدنية والألعاب.

وهى سلسلة يمكن أن يجد فيها بغيته القارىء العربى الراغب فى الإلمام السهل السريع بموضوعات خارج نطاق تخصصه .

كذلك أقترح تخصيص سلسلة لأهم كتب المستشرقين والمتخصصين الأجانب فى مختلف أوجه الحضارة الإسلامية .. صحيح أن البعض عندنا اتهم عددا منهم بالإغراض وفساد النية والرغبة المتعمدة فى الإساءة إلى الإسلام (وهو ما ينطبق على أمثال لامانس وميوير وبرنارد لويس)، غير أن أفضال البعض الآخر على الدراسات الإسلامية لا ينكرها إلا متعصب جاحد ، خاصة فيما يتصل بالنظرة العلمية الموضوعية النقدية ، والمنهاجية التاريخية ، وهو ما يميز مؤلفات أمثال : تور أندريه - كولسون - نورمان دانييل - هملتون جيب - جولد زيهر - يوسف فان إيس - لين بول - نولدكه - جوزيف شاخت - كانتون سميث - سورديل - ڤلهاوزن - مونتجومرى وات.

قد ترى المنظمة أيضا تخصيص سلسلة أخرى لأهم مؤلفات الحائزين على جائزة نوبيل ، لا فى مجال الأدب

فحسب وإنما أيضا فى مجالات الاقتصاد ، والفيزياء ، والكيمياء ، والطب .. صحيح أن جائزة الأدب لا تمنح للكاتب عن كتاب معين بالذات وإنما عن الروح والمناقب التى تميز مجموع أعماله ، غير أن إعلان الجائزة غالبا ما يشير إلى مثال من بين كتبه تتوافر فيه تلك المناقب . هذه الأمثلة هى ما يمكن للمنظمة أن تشرع فى ترجمتها فى إطار تلك السلسلة ، مع عدم التوسع فى ترجمة الشعر الذى يفقد بالترجمة أكثر من نصف قيمته ، مالم يقم بها شاعر كبير لا يقل قدرة كثيرا عن قدر الشاعر المؤلف .

***

عمل آخر بالغ الأهمية لابد من الاضطلاع للمرة الرابعة بترجمته ، وأعنى به «دائرة المعارف الإسلامية» التى أعدها بالإنجليزية والفرنسية والألمانية أئمة المستشرقين فى العالم، وأشرفت مطبعة بريل فى مدينة لايدن بهولندا على الفراغ من إكمال طبعتها الثانية المنقحة المعدلة . فقد تولت عام ١٩٣٣ لجنة مؤلفة من إبراهيم زكى خورشيد وأحمد الشنتناوى وعبدالحميد يونس ترجمة الطبعة القديمة من هذه الموسوعة ، غير أن عملهم توقف عند حرف اللام . ثم عادت «دار الشعب» فى القاهرة عام ١٩٦٩ فشرعت فى إصدارها من جديد بعد إضافة المواد المتاحة وقتها من الطبعة الثانية وهى التى لم يكن العمل فيها قد قطع شوطا بعيدا . أما المحاولة الثالثة فقد نهضت بها الشارقة فى دولة الإمارات منذ سنتين غير أنها جاءت قاصرة ناقصة ومليئة بالأخطاء، مع الإغفال المتعمد للعديد من المواد والفقرات.

ثمة اقتراحات عديدة أخرى لا يتسع المجال هنا لذكرها تفصيلا ، كترجمة كتب للأطفال والناشئة من مختلف الأعمار ، وترجمة موسوعة عالمية محترمة كدائرة المعارف البريطانية مع التوسع فى المواد الإسلامية والعربية فيها ، وتخصيص سلسلة لأهم ما صدر من الكتب الأجنبية فى تاريخ مختلف الأقطار العربية وحضاراتها القديمة وأوضاعها المعاصرة من اقتصادية وسياسية واجتماعية وثقافية .. إلى آخره .

***

ما أريد التنويه به فى الختام أمران :

الأول : أهمية تجنب عشوائية الترجمة، والالتزام منذ البداية بمخطط شامل كامل مدروس بعناية .

والثانى : ضرورة أن نراعى قدر الإمكان تجنب التركيز بصفة رئيسية على الترجمة من اللغتين الإنجليزية والفرنسية، حتى يتاح للمنظمة المضطلعة بالترجمة تقديم ثقافة عالمية حقا على النحو الذى كان الشاعر الألمانى جوته أول الداعين إليه ، والموضحين لأهميته .

حركة الترجمة فى مصر

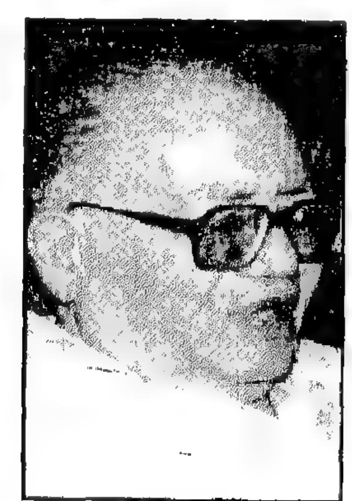
بقلم : د. ماهر شفيق فريد

فلأبدأ برسم الحدود التى ستتحرك فى إطارها هذه المقالة القصيرة، لأن الموضوع كبير. ومجال القول فيه ذو سعة، يمكن أن يستغرق مجلدا بل مجلدات: موضوعى هو حركة الترجمة الأدبية فى مصر من الانجليزية وإليها منذ الستينيات حتى يومنا هذا، مع بعض الدروس التى يمكن استخلاصها منها إذ نستشرف آفاق المستقبل.

من المعلوم أن حركة الترجمة فى مصر قد بدأت، على نحو منهجى، ببعثة رفاعة الطهطاوى الى باريس، ثم تدفقت بعدها موجات المترجمين وبلغت الترجمة الأدبية ذرا عالية على أيدى عدد من كبار الأدباء: طه حسين والعقاد والمازنى والزيات ومحمد السباعى ومحمد عوض وفريد أبو حديد ثم من تلوهم.

ولو أننا نظرنا إلى التغيرات والتحولات التى طرأت على حركة الترجمة منذ جيل طه حسين وأقرانه إلى يومنا هذا لوجدنا أن لها جانبها الإيجابى وجانبها السلبى.

فالجانب الإيجابى هو اتساع دائرة اهتماماتنا بحيث انفتحنا على كثير من آداب العالم شرقا وغربا وشمالا وجنوبا، فأصبحنا اليوم نترجم مثلا آداب افريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية بينما كنا قديما نقتصر على آداب أوربا وأمريكا الشمالية، خاصة المكتوب منها





د . شكرى عياد



د . جابر عصفور



د . سمير سرحان

بالانجليزية والفرنسية وكذلك «بدرجة أقل» الألمانية والإيطالية.

ولاشك أن إنشاء أقسام للغات الروسية والإسبانية واليابانية والصينية فى كليات الجامعة وكلية الألسن قد كان له فضل كبير فى تكوين كادرات من المترجمين على دراية بمختلف اللغات، هذا إلى جانب الترجمات عن اللغات الشرقية كالفارسية والتركية والأوردية والعبرية وغيرها.

ولكن الجانب السلبى هو أن التقدم الكمى لم يواكبه تقدم كيفى، بل لعل العكس هو الذى حدث. فمترجمو الجيل السابق مثل محمد بدران وإبراهيم زكى خورشيد وفؤاد اندراوس ومصطفى حبيب كانوا يجيدون الانجليزية والعربية بنفس الدرجة من الاتقان إلى جانب ثقافتهم العامة الواسعة ومقدرتهم الأدبية واطلاعهم المستمر ، بينما الكثير من مترجمى يومنا هذا لا يكادون يحسنون قواعد العربية أو أسرار اللغة الأجنبية التى ينقلون منها أو إليها.

مشروع الألف كتاب

وقد كانت سنوات الثورة - حتى نكسة ١٩٦٧ تقريبا - فترة نشاط واسع فى حقل الترجمة تمثل فى مشروع الألف كتاب الأول، وكتيبة المجلات الثقافية التى توقف أغلبها عن الصدور فى عام ١٩٧٠: المجلة ، الكاتب، الفكر المعاصر، تراث الإنسانية، الشعر، القصة، المسرح، إلخ.. فضلا عن الترجمات الصادرة عن دور النشر الخاصة مثل مؤسسة فرانكلين ، ودار المعارف، ومكتبة الأنجلو المصرية، ومكتبة النهضة ، ودار الكرنك، وسلسلة روايات الهلال، إلخ..

لكن هذه الصحوة سرعان ما أعقبتها فترة خمول «كان عقد السبعينيات من أسوأ العهود التى عرفتها الثقافة المصرية»

وخفت صوت الترجمة في مصر. وانتقلت مراكز الثقل إلى عواصم أخرى كبغداد ودمشق وبيروت وبلدان المغرب العربي، كان هذا الخفوت راجعا، فى تصورى، إلى عدة أسباب:

فهناك ضعف مستوى الخريجين فى اللغات الأجنبية، وهو ضعف يتزايد للأسف عاما بعد عام نتيجة لتدهور مستوى التعليم، وضخامة أعداد الطلبة في الفصول واتجاه عدد كبير من المدرسين إلى الربح المادى عن طريق الدروس الخصوصية بدلا من أداء عملهم على الوجه الأمثل داخل الفصل.

ثم إن نظام مراجعة الترجمات نظام شكلى فى أغلب الأحيان ولا يتم كما ينبغى مع أن المسئولية الأخلاقية والعلمية للمراجع الذى يقبل أن يوضع اسمه على غلاف الكتاب، إلى جانب اسم المؤلف والمترجم، لا تقل عن مسئولية هذين الاثنين.

وحتى عهد قريب كنا مازلنا نحاسب المترجم على الكلمة بالقرش حسب عدد الكلمات سواء كان يترجم قصة بوليسية رخيصة أو أثراً فلسفيا لأفلاطون مما دفع المترجمين إلى إيثار السهولة وتجنب كل ما من شأنه أن ينطوى على جهد عقلى ووجدانى وتعبيرى.

وهناك الافتقار إلى تخطيط بعيد المدى لحاضر الترجمة ومستقبلها حتى نتجنب التكرار. فهناك أعمال ترجمت أربع أو خمس مرات - قصص موباسان أو تشيكوف مثلا - بينما هناك أعمال أخرى لا تقل أهمية لم يقترب منها أحد وكان القصور أوضح ما يكون فى الترجمة العلمية وترجمة العلوم الإنسانية إلى العربية ، إن أغلب النصوص الكاملة لفلاسفة الإغريق وأعلام الفلسفة الوسيطة والحديثة وعلم الاجتماع وعلم نفس ما بعد فرويد لم تنقل بعد إلى العربية. كذلك هناك نقص ملحوظ فى ترجمة ما يكتب عن الفنون التشكيلية والأدائية والموسيقى وعلم الجمال. وبدون هذه الأطر الفكرية يغدو الأدب - وهو عماد ثقافتنا حتى الآن - مجرد حكايات مسلية خالية من أى مضمون فكرى ومن أى عمق فلسفي.

لكن هذا الوضع بدأ يتغير فى السنوات الأخيرة بفضل جهود الهيئة المصرية العامة للكتاب، وأكاديمية الفنون ، والمشروع القومي للترجمة الذى يقوده الدكتور جابر عصفور أمين عام المجلس الأعلى للثقافة، وبعض دور النشر الخاصة كدار شرقيات. ولا يتسع المجال للحديث عن كل هذه الجهود ومن ثم اقتصر، كمثال على ما أنجزته أولاها - هيئة الكتاب.

ترجمات قديمة

لقد نشرت الهيئة - إلى جانب مشروع الألف كتاب الثاني - ترجمات ذات قيمة أدبية عالية مثل ترجمة د. محمد عنانى للأجزاء الأولى من قصيدة ملتون «الفردوس المفقود» وترجمته لعدد من مسرحيات شكسبير مع مقدمات ضافية. وترجمة د. نبيل راغب لقصيدة إليوت

«الأرض الخـــراب» تحت عنوان «أرض الضياع».

كذلك يحسب للهيئة - إلى جانب اضطلاعها بالعبء الأكبر فى إصدار كتب مهرجان القراءة للجميع برعاية السيدة سوزان مبارك - أنها أصدرت طبعات جديدة من ترجمات قديمة لم تكن الأسواق طوال السنين الماضية مثل ترجمات الدكتور لويس عوض لثلاثية الأورستيا لاسخولوس. و«فن الشعر» لهوراس، و«برمثيوس طليقا» لشلى.

ومن الشعر الانجليزى المعاصر أصدرت الهيئة ترجمة بدر الديب لديوان الشاعر الانجليزى إيان هاملتن «العاصفة».

وإلى جانب قاموس المسرح أصدرت الهيئة فى سلسلة المسرح العالمى ترجمات قيمة مثل مسرحية «البهلوانات» لتوم ستوبارد «ترجمة د. سمير سرحان» و«كوميديتان من عصر شكسبير» «ترجمة د. نهاد صليحة» و«أقنعة الملائكة» «ترجمة د. إبراهيم حمادة».

وفى سلسلة الألف كتاب الثانية ترجمت د. لطفية عاشور قصتين للكاتب البولندى المولد، الانجليزى اللغة جوزيف كونراد وهو من علامات الطريق فى تاريخ الرواية الحديثة.

ولكن ربما كان أكبر إنجاز لهيئة الكتاب فى عهد رئيس مجلس إدارتها الحالى الدكتور سمير سرحان هو إصدارها سلسلة الأدب العربى مترجما إلى اللغة الانجليزية وهى السلسلة التى يشرف عليها د. محمد عنانى . وقد صدر منها حتى الآن قرابة ستين كتابا، وشارك فيها عدد من المترجمين ما بين مصرى وعربى وبريطانى وأمريكي، وكان أغلب المترجمين المصريين من مدرسى وأساتذة الجامعات المتمكنين من اللغات.

ففى ميدان الرواية والقصة القصيرة أصدرت السلسلة ترجمات انجليزية لنجيب محفوظ ويوسف القعيد وصبرى موسى وجمال الغيطانى ومحمد جلال وثروت أباظة وسلوى بكر ومحمود السعدنى وفتحى الإبيارى وطه وادى وعبدالعال الحمامصى وعبد الفتاح رزق وابراهيم أصلان ومحمد جبريل ومجيد طوبيا وعبدالحكيم قاسم وعبدالرحمن فهمى ومحمود تيمور ويوسف إدريس ويوسف الشارونى.

ومن الشعر دواوين لفاروق شوشة ومحمد الفيتورى ومحمد أبو سنة وسعاد الصباح.

ومن المسرح الشعرى والنثرى مسرحيات لأحمد شوقى وصلاح عبدالصبور وألفريد فرج ونجيب محفوظ وجمال عبدالمقصود وعلى سالم وفاروق جويدة ومحمد عنانى وسمير سرحان ورأفت الدويرى وعبدالرحمن الشرقاوى ونهاد جاد وعبدالسميع زين الدين ومحمد سلماوى.

ومن أدب السير والتراجم «هؤلاء الرجال من مصر «للمعى المطيعى ، ومن

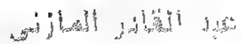
الأدب الفكاهى. «مذكرات صائم» لأحمد بهجت.

ترجمة مختارات من النقد

ولكنى أعتقد أنه قد يكون من الأجدر بالسلسلة أن تترك مؤقتا «كلاسيات» الأدب العربى التى توطدت مكانتها لتصدر ثلاثة مجلدات هى «القصة القصيرة» اليوم و«الشعر اليوم» و«مسرحيات الفصل الواحد اليوم» تدرج فيها أعمال لكتاب الفترة ١٩٦٠ ـ ٢٠٠٠ كما أن ثمة حاجة الى مجلد عنوانه «مختارات من النقد المصرى الحديث» ينتظم نماذج لثلاثة أجيال: جيل طه حسين والعقاد وهيكل والمازنى، ثم جيل مندور ولويس عوض والقط وشكرى عياد والراعى وغنيمى هلال ورشاد رشدى وعز الدين اسماعيل، ثم جيل رجاء النقاش، وغالى شكرى وصبرى حافظ وفاروق عبدالقادر وجلال العشرى. وهناك حاجة إلى مجلد عن أدب «الحساسية الجديدة» يقدم شرائح من أدب إدوار الخراط ويوسف الشارونى وبدر الديب واعتدال عثمان، مع نماذج مما ينشر فى مجلات «الجراد» و«إيقاعات» و«الكتابة الأخرى» و«الكتابة السوداء» و«الفعل الشعرى» . فهذه المطبوعات، مهما اختلف المرء معها. ذات دلالة فكرية وفنية مهمة. إن شعراء مثل كريم عبدالسلام وشريف الشافعى وشريف رزق وجرجس شكرى يكتبون شعرا حيا، بينما أمثال محمد التهامى ود. كمال اسماعيل وأحمد غراب يكتبون نظما ميتا.

هناك أيضا حاجة إلى ترجمة الشرائح الطليعية «لا التقليدية» من أدب المرأة المصرية اليوم. لا نريد ان نسمع شيئا عن سهير القلماوى أو بنت الشاطىء أو أمينة السعيد أو جاذبية صدقى أو صوفى عبدالله، أو حتى لطيفة الزيات «وهى أفضلهن جميعا فنيا» فهؤلاء جميعا قد قلن كل ما لديهن «وهو محدود الرؤية والقيمة منذ زمن طويل» وإنما نريد ان نسمع العالم الخارجى أصواتا جديدة تخفق بنبضات الحياة: علية سيف النصر، هالة البدرى، هناء عطية، منار فتح الباب، ليلى الشربينى، إيمان مرسال، عزة بدر. نعمات البحيرى ، هالة لطفى، غادة الحلوانى، غادة عبدالمنعم، سحر الموجى، نورا أمين، مى التلمسانى، ميرال الطحاوى، سحر سامى، فاطمة قنديل، أمل جمال، علية عبدالسلام، فضلا عن تلك الروائية رفيعة الموهبة والثقافة. د. رضوى عاشور.

قد يثار السؤال، بل هو قد أثير فعلا، هل يتم اختيار الأعمال الأدبية المصرية المترجمة إلى الانجليزية على نحو منظم أم على نحو عشوائى؟ والجواب كما أراه.: منظم إلى حد ما، وعشوائى إلى حد ما. إن اختيار الأعمال التى تترجم إلى لغات اجنبية موضوعى جزئيا وذاتى جزئيا. أعنى انه لا يختلف اثنان على ضرورة ترجمة يوسف إدريس مثلا، ولكن ماذا عن يوسف السباعى أو إحسان عبدالقدوس أو محمد عبدالحليم عبدالله؟ لقد ترجمت



عبد القادر المازنى


د . محمد عنانى


نهاد صليحة

للسباعى «بعناية منظمة التضامن الأفرو ـ آسيوى» مجموعة كاملة من القصص القصيرة إلى الانجليزية تحت عنوان «الاسكافى» وذلك حين كان يشغل بعض المناصب القيادية فى الدولة مما قد يوحى -. صوابا أو خطأ - بأن اختياره للترجمة لم يكن لأسباب موضوعية خالصة.

وفى أى نشاط إنسانى لا نستطيع أن نستبعد العوامل غير الموضوعية مثل الشللية والذكاء الاجتماعى والاتصالات الشخصية والمصالح المتبادلة، وسيف المعز وذهبه، ولكن هذه الأمور كلها لا تكفى لكى تخسف بأديب عظيم الأرض أو لكى ترفع أديبا تافها إلى منزلة عالمية. فالقارىء الأجنبى لن يعنيه أن يكون السباعى وزيرا للثقافة أو كاتب أرشيف فى بدروم يعلوه التراب ويمتد على جدرانه نسيج العنكبوت. وإنما يهمه أمر واحد: هل قصصه جديرة بالقراءة؟ وأعتقد أن فيها قسما صغيرا يستحق القراءة ـ رواية «السقامات»، الثلث الأول من رواية «أرض النفاق» . مجموعة «بين أبو الريش وجنينة ناميش» مسرحية «أم رتيبة» ولكنى أعتقد فى الوقت ذاته انه كان يوجد من هو أجدر بالترجمة: الرائد محمود البدوى مثلا ، خاصة فى مجاميعه الباكرة. إنها مسألة أولويات وحين ننتهى من نقل الأعمال المهمة حقا نستطيع أن نوفر ترف نقل السباعى وعبدالقدوس وأضرابهما الى اللغات الأجنبية.

ومادمنا بصدد الحديث عن ترجمة الأدب العربى إلى اللغة الانجليزية فإن الإنصاف يقتضى أن نذكر أن الهيئة العامة للكتاب قد شرعت فى ذلك منذ الستينيات ، فى ظل ولاية الشنيطى وصلاح عبدالصبور وعز الدين اسماعيل: لقد أصدرت مثلا «أحلام شهرزاد» لطه حسين، و«ابراهيم الكاتب» للمازنى

«وكلاهما من ترجمة د. مجدى وهبة» ومسرحيات لسعد الدين وهبه.

ترجمة الأدب العربي

وأهم هيئة تعنى بترجمة الأدب العربى إلى الانجليزية بعد هيئة الكتاب هى ولا ريب الجامعة الأمريكية بالقاهرة التى أصدرت ترجمات لأعمال نجيب محفوظ والشرقاوى وبهاء طاهر وإبراهيم عبدالمجيد وغيرهم . وهناك جهود أخرى لإدارة العلاقات الخارجية بوزارة الثقافة «وهى تصدر مجلة بالانجليزية «برزم» ودار زويل للنشر، ودار المعارف التى أصدرت مجلداً عن «القصة القصيرة اليوم» و«المسرح اليوم» بتحرير الأستاذ الجامعى الراحل د. محمود المنزلاوى.

كانت هذه صورة مجملة - أغفلت كثيرا من التفاصيل بالضرورة - لحركة الترجمة الأدبية فى مصر عبر أربعة عقود، أريد أن أنتهى منها إلى عدد من النتائج:

النتيجة الأولى هى ان الترجمة بمثابة توتر مستمر بين قطبين مختلفين: الظهور والاختباء أو- إذا كان لى أن أستعير كلمات الدكتور كمال أبو ديب فى سياق آخر - جدلية خفاء وتجل. فالمترجم يتنازعه عاملان: الرغبة فى حجب نفسه وراء النص الذى يتعامل معه بحيث يكون المؤلف وحده هو الذى يشغل مقدمة الصورة وربما وسطها وعمقها أيضاء والرغبة - على الجانب المقابل فى أن ينتج نصه الخاص الذى يسير موازيا للنص الأصلى . قد يقصر عنه فى مواضع وقد يساويه وقد «بمصادفة سعيدة» يتفوق عليه، المنهج الأول - كما قلت فى مؤتمر الترجمة الذى عقدته كلية الألسن فى شهر سبتمبر الماضى بدار الضيافة التابعة لجامعة عين شمس - ينظر إلى النص على أنه زوجة يدين لها المرء بواجب الوفاء والأمانة والأخلاص أما المنهج الثانى فينظر إليه على أنه عشيقة تسود علاقته بها معابثات الغواية والمراودة والشد والجذب والتقارب والتباعد.

من أمثلة المؤمنين بأن يختفى المترجم منكرا ذاته ومفسحا السبيل للمؤلف كثير من الأساتذة الجامعيين فى ترجماتهم : زكى نجيب محمود، غنيمى هلال، محمد فتحى الشنيطى ، نظمى لوقا، جابر عصفور، محمد عنانى، الخ.. ومن أمثلة المترجمين الذين يعيدون كتابة النص . وفقا لأهوائهم الخاصة وربما أيضا وفقا لأيديولوجياتهم ومعتقدات عصرهم: المنفلوطى ، وحافظ ابراهيم، ومطران. والزيات، ومحمد السباعى. وهناك . بطبيعة الحال، درجات لا حصر لها من الظلال بين هذين الموقفين. فمن المترجمين من يلتزم عموما بالأمانة للنص ثم تأخذة فجأة الرغبة فى التفرد والانفصال عن النص الذى يقيده ويلزمه، فيشطح ولو على مستوى جملة أو عبارة أو فقرة أو كلمة، وهناك ترجمات الفنانين المبدعين مثل يحيى حقى وصلاح عبدالصبور وعبدالمعطى حجازى وإدوار الخراط ويوسف الشارونى وشفيق مقار ونعيم

عطية . وهناك مدرسة الأمانة في إطار صياغة عربية مبينة وهي مدرستي المفضلة. أعلام هذه المدرسة هم: محمد بدران، وابراهيم زكي خورشيد، وفؤاد اندراوس ومصطفى حبيب، وعبدالعزيز توفيق جاويد.

من الملاحظ ان أصحاب منهج الأمانة عادة من الأكاديميين أو المترجمين المحترفين - وأنا أستخدم كلمة الاحتراف هنا بأكثر معانيها احتراما. ممن لا يطاردهم شبح الابداع الفني في عملهم الخاص. أما مترجمو النوع الثاني فكثيرا ما يكونون أدباء: شعراء او قصاصين او كتابا مسرحيين او كتاب مقالة، وفي حالتهم كثيرا ما يكون جهد الترجمة بمثابة تفريغ لطاقاتهم الخلاقة الخاصة وافراجا عن افكار ومشاعر واتجاهات واحاسيس لم تجد لها متنفسا، لسبب ما في عملهم الابداعي في ترجمات محمد السباعي لأقاصيص موباسان او تشيكوف قد تجد الشخصية - وهي فرنسية او روسية تعيش في فرنسا او روسيا إلقرن التاسع عشر - تورد أبياتا لابن الرومي او الشريف الرضي، ولا يبدو ان المترجم يجد في ذلك غرابة أو شذوذاً».

نتيجة ثانية انتهيت إليها من رصدي حركة الترجمة في مختلف أطوارها وبكل تعدد مدارسها هي أن الترجمة فعل مسرحي أو ارتداء لمجموعة من الأقنعة يخلف بعضها بعضا، منها الضاحك ومنها الباكي ومنها ما هو بين بين. المترجم مؤدٍ على مسرح نصه هو نص المؤلف، أو هو يلعب دور الممثل الذي يفسر الدور ويعطيه معنى بنبراته وحركاته وانفعالاته وقدرته على التوصيل. جمهور هذا المسرح هو الجمهور القارئ وريبرتوارد هو تراث الترجمات السابقة التي تراكمت عبر القرون. وناقده هو الناقد الذي يكتب عن الترجمة، أو المراجع الذي تعهد إليه إحدى الهيئات بمراجعة النص المترجم، أو كاتب التقرير، الذي يحدد ما إذا كانت الترجمة المقدمة صالحة للنشر أم لا.

على هذا المسرح تتعدد الأقنعة بتعدد عقول المترجمين وتركيبهم النفسي وأمزجهتم ومدى تمكنهم من اللغة الأم واللغة المنقول منها. من المترجمين من يؤمن بالجزالة ويرتد بنا في ترجماته إلى أزهى عصور النثر والشعر العربي في العصر العباسي، ومن أمثلة هؤلاء حافظ ابراهيم مترجم «البؤساء» لهوجو. ومنهم من يحرص على الجزالة ولكن مع قدر من المصطلح العصري كالمازني مترجم «ابن الطبيعة» للكاتب الروسي آرتز باتشيف ، وقد سرق منها بضع فقرات في رائعته الخاصة «ابراهيم الكاتب ، وكالعقاد الذي يترجم عنوان أقصوصة «ادجار الان بو The Cresk of A montilado إلى «باطية النبيذ الشريشي» مفترضا ان القارئ سيعرف ان الباطية هي الزق الذي تحفظ فيه الخمر، وان شريش اسم بلدة مشهورة بأبنيتها هناك ايضا قناع الذي يرمي الى تعريب النص مثلما يفعل

مطران فى ترجماته لشكسبير وكورنى. وهناك من يرتدى قناع لغة القرآن الكريم كالدكتور على حافظ فى ترجماته عن يونانية اسخولوس ديوربديز وكأنما يرمى الى تحويل مؤلفيه من الوثنية، وتعدد الالهة إلى الايمان والتوحيد. وهناك قناع الفنان الذى يبدع نصه الخاص ولكن فى إطار الالتزام بالنص الأصلى ومن أمثلته شكرى عياد فى ترجماته لطاغور وتشيكوف وتورجنيف ودوستويفسكى وديهامل، أو ادوار الخراط فى ترجماته لتولستوى وأنوى وموارفيا وغيرهم. وهناك قناع الشمول او الطموح الى تمثيل كافة المذاهب او المدارس الأدبية كلويس عوض الذى ترجم مختارات من النقد اليونانى القديم وقصيدة فن الشعر لهوراس نموذجا للفن الكلاسيكى، و «الوادى السعيد» (راسلاس) للدكتور صمويل جونسون نموذجا للعقلية الاوغسطية الانجليزية فى القرن الثامن عشر «الكلاسيكية الجديدة» و «بروميثيوس طليقا و«ادونيس» لشلى نموذجا للحساسية الرومانطيقية وصورة دوريان جراى» لأوسكار وايلد نموذجا للوثنية الجديدة او مذهب الفن للفن المتحرر من قيود الدين والمجتمع والقانون والاخلاق فى اواخر القرن التاسع عشر. ورواية «استرز وترز» وقد فقدت ترجمتها منه للاسف . ومن ثم لم تر النور) للكاتب الايرلندى جورج مور نموذجا للنزعة الطبيعية التى انتقلت الى انجلترا وايرلندا بتأثير عميدها الفرنسى إميل زولا ومقتطفات من اليوت وجويس نموذجا للحداثية فى ادب القرن العشرين.

وأخيرا اقول ان حركة الترجمة فى مصر.. رغم كل ما يواجهها من معوقات سائرة على الدرب الصحيح، وأن ثمة عددا من المؤشرات الايجابية تومىء إلى أننا بسبيلنا الى سد الفجوات فيما نقلناه والى رفع القواعد من الترجمة باعتبارها علما وفنا فى آن.

فهناك من كرسوا جل جهودهم للترجمة كطلعت الشايب المشرف على سلسلة «افاق الترجمة» الصادرة عن الهيئة العامة لقصور الثقافة. وثمة اتجاه بين شعرائنا المبدعين (الى ممارسة فن الترجمة، عبدالمعطى حجازى «مدن الآخرين ونماذج من الشعر الفرنسى المعاصر)، محمد ابراهيم ابو سنة «الشعر الأرمنى بالمشاركة ». د. نصار عبدالله «اقاصيص برتراندرسل»

رفعت سلام «ماياكوفسكى، رتسوس» عبدالمقصود عبدالكريم «نصوص فى علم النفس» محمد عيد ابراهيم «بورخيس» محمد هشام «اميلى وكنسن» بدر توفيق «شكسبير ، الخيام، توماس مان».

وثمة كوادر جديدة من المترجمين يخرج اغلبها من بين هيئات التدريس فى الجامعات فى كل عام ومن أمثلتها : د. رشيد العنانى «مترجم محفوظ وألفرد فرج» ونهاد صليحة «مترجمة محفوظ وسعاد الصباح ومحمد جلال وفاروق جويدة وصلاح عبدالصبور» ود. جمال

عبدالناصر «مترجم محمد جبريل» ود. ملك هاشم «مترجمة محفوظ» ود. ايفين هاشم «مترجمة عبدالفتاح رزق» ود. مارى تريز عبدالمسيح «مترجمة القعيد» ود. هدى شكرى عياد «مترجمة صبرى موسى». ود.هدى الصده «مترجمة أصلان وسلوى بكر» ود. هالة البرلسى «مترجمة عبدالعال الحمامصى» ود.نادية الخولى «مترجمة فتحى الابيارى» . فضلا عن ترجمات منى الزيات لبعض أعمال جدها طه حسين.

تفاؤل

ومن الظواهر الداعية للتفاؤل ايضا أن أقسام اللغات فى كليات الآداب ومعهد الدراسات الافريقية وكلية الألسن لا تفتأ تخرج، فى كل عام. متخصصين فى اللغات المختلفة يثرون الحياة الثقافية بترجماتهم عن اللغات الأصلية دون الاستعانة بلغة وسيطة . ومن اهم الترجمات التى صدرت فى السنوات الاخيرة: ترجمات د. محمد حمدى ابراهيم لكافافيس والشعر اليونانى الحديث عن اليونانية الحديثة ترجمة د. مصطفى ماهر د. «بارسيفال» فاجنر عن الالمانية ترجمات مكارم الغمرى لبوشكين عن الروسية، وترجمة د. ابراهيم الدسوقى شتا لمثنوى جلال الدين رومى عن الفارسية. ترجمات ماهر البطوطى ود. محمود السيد ود. طلعت شاهين عن الاسبانية، وترجمات د. ابراهيم البحراوى عن العبرية . وهناك تلاميذ لهم فى طور التكوين العلمى حاليا ستظهر نتائج إعدادهم العلمى والثقافى فى السنوات القادمة.

ومن الإنصاف ان ننوه بالجهد الذى تقوم به جريدة أخبار الادب الاسبوعية تحت قيادة الروائى جمال الغيطانى من أجل تقديم آداب اسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية إلى القارىء العربى ، فلا يكاد يخلو عدد منها من ترجمات عن الفارسية او التركية او الصينية او اليابانية او غير ذلك من اللغات .

ومع ذلك تظل هناك عشرات، بل مئات الأعمال الأدبية التى تنتظر النقل الى العربية أو النقل من العربية إلى اللغات الأجنبية . ان الطريق أمامنا مازال طويلا، . طويلا. أه من وعثاء السفر ووحشة الطريق. ومن لنا برجال يجمعون بين العلم والهمة، والموهبة والقدرة كأولئك الذين شهدتهم الحياة الادبية المصرية فى العقود الاربعة الاولى من القرن العشرين ثم لفترة وجيزة – فى عقد الستينات وهل تجتمع اصدارات المشروع القومى للترجمة، والالف كتاب الثانى. وأكاديمية الفنون على بعث امجاد بيت الحكمة فى عصر المأمون.

مُنىً ان تكن حقا تكن اسعد المنى.

فقد عشنا بها زمنا رغدا.

المشروع القومى للترجمة

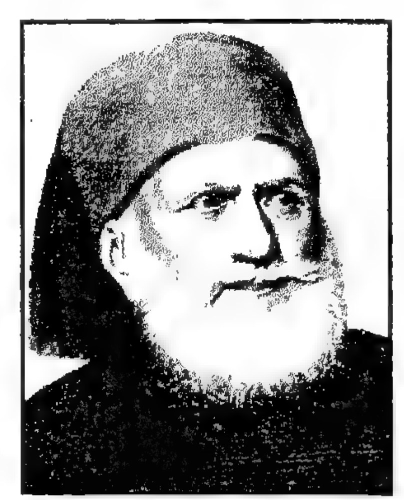
بقلم : د. عماد بدر الدين أبو غازى

منذ مطلع القرن التاسع عشر صاحبت كل محاولات التحديث فى مصر مشروعات طموحة للترجمة، كانت تهدف الى نقل أحدث ماصدر فى الغرب من انتاج فكرى، باعتبار أن الغرب أضحى مركزا لحضارة عصر الثورة الصناعية.

وقد ارتبط المشروع الأول للترجمة بمحاولة محمد على لبناء أسس الدولة الحديثة، وكان مشروعا تأسيسيا رائدا، ساهم فيه المبعوثون الذين أوفدهم محمد على الى أوربا لتلقى المعارف الحديثة، وحمل عبء التخطيط لهذا المشروع وارساء قواعده رائد الفكر المصرى الحديث رفاعة الطهطاوى، الذى أنشأ مدرسة الألسن لتكون أول مؤسسة تعليمية حديثة متخصصة فى اعداد المترجمين وتأهيلهم لنقل معارف الغرب الحديثة الى العربية، وسرعان ما انضم خريجو المدرسة (مدرسة الألسن) الى المبعوثين الأوائل فى القيام بمهام الترجمة.

لكن المشروع لم يقم على أكتاف المبعوثين وخريجى الألسن وغيرهم من مدارس محمد على العليا فحسب بل شارك فيه كذلك بعض موظفى الدولة ممن يجيدون اللغات الأجنبية خاصة التركية التى ترجمت عنها بعض الكتب، بالاضافة الى بعض المترجمين الشوام.

لقد شهد عصر محمد على تحولا لوظيفة المترجمين من الترجمة فى الاعمال الادارية والسياسية والقانونية، أى ترجمة المراسلات والوثائق فى دواوين الدولة المختلفة ومحاكمها، الى ترجمة الانتاج الفكرى فى مختلف مجالات المعارف الانسانية، وهو الأمر الذى يعد وصلا لما انقطع من تراث فى الحضارة العربية، فإذا كانت حركة الترجمة قد ازدهرت ونشطت فى القرون الأولى للهجرة خاصة فى عصور الدولتين العباسية فى العراق والفاطمية فى مصر فنقلت أساسيات الفكر اليونانى والفارسى والسريانى من لغاتها الأصلية الى العربية. وامتلأت بها دور الحكمة ومكتبات القصور ومعاهد



محمد على



رفاعة الطهطاوى

العلم جنبا الى جنب مع مؤلفات الكتاب العرب، فإن انكسار الدولة العربية الاسلامية وتراجعها السياسى والحضارى شهد تراجع وانحسار حركة الترجمة الى العربية، ثم انقطاعها تماما، الى أن جاء مشروع محمد على التحديثى متضمنا فى القلب منه مشروعا للترجمة.

الترجمة من الفرنسية

واذا عدنا للدراسة القيمة التى أنجزها سنة ١٩٤٦ المؤرخ المصرى الكبير الدكتور جمال الدين الشيال حول تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عصر محمد على سوف يتبين لنا من خلال الجداول الاحصائية والرسوم البيانية التى قام باعدادها عدة حقائق أهمها :

- أن مجموع ما ترجم خلال عصر محمد على أو على وجه التحديد خلال ثلاثين عاما منذ بدأت حركة الترجمة سنة ١٨١٩ حتى رحيل محمد على باشا عام ١٨٤٩ كان مائة وواحدا وتسعين كتابا، تسعة كتب منها ترجمت نقلا عن العربية الى اللغة التركية، وواحد وستون كتابا نقلت عن الفرنسية الى التركية معظمها فى الفنون الحربية والبحرية، والباقى وعدده مائة وواحد وعشرون كتابا .

- إن الجزء الأكبر من الأعمال المترجمة نقل عن الفرنسية، حيث ترجم عنها الى العربية ١١١ كتابا ، بالاضافة الى الكتب الواحد والستين التى ترجمت عن الفرنسية الى التركية.

- تحتل اللغة التركية المرتبة الثانية بفارق كبير حيث ترجم عنها الى العربية ستة كتب نصفها فى الفنون الحربية والبحرية.

- تأتى اللغة الايطالية فى المرتبة الثالثة برصيد ثلاثة كتب ثم الترجمة عن الفارسية كتاب واحد .

- تحتل الفنون الحربية والبحرية المرتبة الأولى فى الترجمة حيث ترجم فى هذا المجال ٦٤ كتابا يليها الطب الشرعى

٣٤ كتابا ثم الطب البيطرى ٢٢ كتابا فالتاريخ ١٤ كتابا، والهندسة عشرة كتب، اما باقى ما ترجم فى فروع المعارف الانسانية المختلفة فيتراوح مابين كتاب وخمسة كتب فى كل فرع .

- شملت حركة الترجمة فى عصر محمد على إلى جانب الفروع الرئيسية السابقة اعمالاً للترجمة فى اللغة ، والأدب، والتربية، والمنطق، وتاريخ الفلسفة والجغرافيا وادب الرحلات والجيولوجيا والخرائط والمساحة، والاجتماع ، ونظم الحكم ، والصيدلة ، والطبيعة ، والكيمياء ، والزراعة، والجبر، والحساب، وحساب المثلثات، والميكانيكا، والهيدروليكا .

- طبع من الأعمال المترجمة ١٨٧ كتاباً وظلت أربعة منها كتباً مخطوطة ، وكان النصيب الاكبر فى حركة الترجمة لمطبعة بولاق التى طبعت وحدها ١٧١ كتاباً من الأعمال المترجمة .

- بلغت حركة نشر الاعمال المترجمة ذروتها فى مطلع الاربعينيات من القرن التاسع عشر ، وأخذت بعد ذلك فى الانخفاض .

محاولات جادة

وإذا كان مشروع محمد على للترجمة قد تراجع بانهيار مشروعه السياسى وهزيمته العسكرية، ثم كاد أن يتوقف بعد وفاته ، فقد عرفت مصر مشروعات متعددة للترجمة كانت تبدأ وتختفى من كل محاولات التحديث، ولعل من أبرز مشروعات الترجمة فى القرن العشرين جهود لجنة التأليف والترجمة والنشر، ومشروع الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية ، ثم مشروع «الألف كتاب» ، إلا أن أيا من هذه المشروعات لم يقدر له الاستمرار .

وفى السنوات القليلة الماضية ظهرت على الساحة الثقافية عدة سلاسل للترجمة عن هيئات مختلفة فى وزارة الثقافة مثل سلسلة الألف كتاب الثانى التى تصدر عن هيئة الكتاب، وسلسلة آفاق التى تصدرها هيئة قصور الثقافة وسلسلة أكاديمية الفنون للترجمة... وأخيراً «المشروع القومي للترجمة» الذى يتولى إصداره المجلس الأعلى للثقافة ، واحتفالنا منذ أسابيع قليلة بصدور الكتاب رقم ٢٥٠ ضمن هذا المشروع المتميز، وذلك من خلال حلقة بحثية حول إشكاليات الترجمة ومشكلاتها .

وقد تبنى المجلس الأعلى للثقافة «المشروع القومي للترجمة» منذ خمس سنوات ، وقد بدأ المشروع على استحياء بإصدار آحاد من الكتب فى العام الواحد، لكنه أخذ ينضج ويتطور بسرعة

بفضل جهود عشرات من المترجمين المخلصين وإصرار الأمين العام للمجلس د. جابر عصفور ومثابرته ووقفه خلف هذا المشروع بكل قوة.

خصائص مميزة

لقد وصل عدد الإصدارات إلى مائتين وخمسين كتاباً نقلت من خمس عشرة لغة بعضها لغات يترجم عنها إلى العربية مباشرة للمرة الأولى ، فأحد الخصائص المميزة لهذا المشروع، أن الأعمال التي تصدر فيه، تنقل إلى العربية عن لغاتها الأصلية مباشرة دون النقل عن لغة وسيطة، وقد حرص المشروع القومي للترجمة على كسر احتكار الترجمة عن اللغات الأوروبية الرئيسية الانجليزية والفرنسية ثم الالمانية.

وإذا استعرضنا الاعمال الصادرة في هذا المشروع فسوف نجد من بينها ١٣٧ عملاً مترجماً عن الانجليزية و ٣٥ عن الاسبانية و ٢٩ عن الفرنسية، و ١٥ عن الفارسية ، وتسع عن الروسية، و ٧ عن الالمانية، و ٥ عن العبرية، و ٣ عن اليونانية وعملين عن كل من الايطالية والبولندية والأردية ، وعملاً واحداً عن كل من التركية والسريانية والصينية ولغة الهوسا .

وهكذا فقد اقتحم المشروع القومي للترجمة أسوار لغات يترجم عنها إلى العربية مباشرة للمرة الأولى في الوطن العربي مثل الصينية ولغة الهوسا، وفي الطريق إلى الصدور الآن أعمال مترجمة مباشرة عن اليابانية والأمهرية، ونصوصاً مصرية قديمة تنقل عن اللغة المصرية بخطها الهيروغليفي مباشرة .

وقد شارك في أعمال المشروع القومي للترجمة مترجمون من ٧ جنسيات عربية، وإذا كانت الغالبية العظمى من المترجمين من مصر، فهناك ١٣ عملاً قام بترجمتها مترجمون مغاربة وسبعة أعمال ترجمها عراقيون وثلاثة ترجمها سعوديون وعملان لمترجمين من الاردن وعمل واحد لمترجمين من كل من سوريا وفلسطين، فقد حرص القائمون على المشروع القومي للترجمة على الانفتاح على مختلف مدارس الترجمة العربية، دون الاقتصار على المدرسة المصرية، اثراء للمشروع وتدعيما للتفاعل والتعاون بين المترجمين العرب، ومن الملاحظ أن بعض الأعمال الكبرى الصادرة في اطار المشروع القومي للترجمة شارك في ترجمتها اكثر من مترجم.

والمراجعة الأولية لعناوين الاصدارات المائتين والخمسين تكشف عن تنوع في موضوعاتها، ما بين أعمال ابداعية، من روايات ومجموعات قصصية، ودواوين ومسرحيات ونصوص من الآداب القديمة، ودراسات نقدية ولغوية، وأعمال تندرج تحت مختلف فروع العلوم الاجتماعية،

والانسانيات، بالإضافة الى بعض المؤلفات فى مجال العلوم البحتة والتطبيقية.

ابرز الترجمات

وفي مجال الأعمال الابداعية حرص المشروع القومى للترجمة على تقديم آداب لغات أهملت لسنوات طويلة، فقد صدر فى المشروع عدة أعمال أدبية مترجمة عن الاسبانية وكذلك أعمال من الأدب الفارسي حديثه وقديمه، ولعل أبرز ما صدر فى هذا المجال هو مثنوى جلال الدين الرومى الذى ترجمه الراحل الاستاذ الدكتور ابراهيم شتا فى ستة مجلدات عن الفارسية، وهذا العمل يعد من أروع كلاسيكيات الآداب الاسلامية، وقد كتب فى القرن السابع الهجرى.

أما في مجالات المعرفة المختلفة فيحرص المشروع القومى للترجمة على الموازنة بين نقل أحدث ما يصدر فى الغرب والشرق من أعمال ونقل الأعمال الكلاسيكية أو التأسيسية التى لم تترجم من قبل.

فمما يميز هذا المشروع أن كثيرا مما نشر فيه هو من الأعمال التى صدرت بلغاتها الأصلية فى السنوات الخمس الأخيرة مع عدم اغفال الأعمال الرائدة التى مضى على صدورها سنوات طوال، ومن اللافت للنظر ايضا أن المشروع عنى بترجمة اعمال لبعض المصريين والعرب المغتربين كتبوها بلغات أجنبية .

ومن استعراض قائمة الاصدارات ايضا يتضح أن هناك تركيزا على بعض الموضوعات مثل قضايا المرأة والتى صدر فيها ما يقرب من خمسة عشر عنوانا، والعولمة وآثارها وتزيد عدد عناوينها على عشرة عناوين تتناول الموضوع من زواياه المختلفة المؤيدة للعولمة والمعارضة لها، وكذلك المحللة لآثارها الايجابية والسلبية باعتبارها واقعا معاشا، كذلك يحتل تاريخ مصر بعصوره المختلفة حيزا واضحا فى اصدارات المشروع القومى للترجمة.

إن المشروع القومى للترجمة عمل يشكل اضافة متميزة لحركة الترجمة الى العربية التى بدأت فى مصر منذ مطلع القرن التاسع عشر، وهو مشروع يحتاج لكل الدعم والمؤازرة حتى يستمر ويحقق مزيدا من الانجازات ويتلافى جوانب القصور، لاشك فى أن توفير الدعم المالى من قبل الدولة لهذا المشروع أحد مقومات استمراره فى المستقبل، خاصة ونحن ندخل الى عصر تطبيق اتفاقيات الجات التى تفرض علينا ضرورة شراء حقوق الترجمة الى العربية من الناشرين الاصليين بما يشكله من أعباء مالية على مثل هذا المشروع الواعد.


عبدالوهاب البياتى


شكسبير

خذنى بعارى .. !!

بقلم : حسن سليمان

أمام مقهى «الأمريكين» هناك رجل يفترش أمتاراً من الرصيف بكتب قديمة دينية وجنسية فى آن معاً . إسترعانى كتاب غلفه بالبلاستيك حتى لا يقرأه أحد ، عنوانه «خذنى بعارى» . أظن أن الكاتب ربما إسمه خليل حنا تادرس ، فأخذت أردد بصوت عال هستيرى «خذنى بعارى» ضاحكاً وأنا أعبر الطريق . الكل أصبح يردد «خذنى بعارى» . يبدأ أحدهم العلاقة معك كأنها صداقة ، وحينما يحصل على مرامه يتركك ويخطىء فى حقك صائحاً أن لكل واحد حساباته الخاصة، وهو يعلم بأنه سارقٍ ومرتشٍ وسمسار، وقد سرقك بطريقة خادعة. فمن الممكن أن ينتزع منك أى شىء مدعيا أن هذه هى الواقعية، وأنك أنت الذى تعيش فى عالم آخر مثالى خيالى فاشل غير واقعى .

الكل يكذب على بعضه . الكل يسرق بعضه، والحقيقة أن العلاقات الاجتماعية قد بدأت تتفسخ وتنهار منذ خمسين عاما حتى وصلت إلى ذروتها الآن، وكل ما كان عاراً فى الأعراف الاجتماعية أصبح الآن هو ما يجب أن تفعله .

إنى أذكر أن أمى كانت حينما تزورنا فتاة أو امرأة صغيرة السن تعطينى أجرة التاكسى كى أوصلها إلى منزلها ولا تدعها تسير فى الطريق بالليل بمفردها، وفوجئت وأنا فى ألمانيا أن ابنتى التى تركناها فى «بون» فى ضيافة أستاذ جامعى فى القانون لا علاقة قوية لنا به، جاءت إلى «شيكاغو» مع أبنائه الثلاثة الذين أرسلهم كى يوصلوها إلينا سالمة ، وعندما سألتهم لماذا كل هذا التعب ؟ أجابنى الصغير بأنها تقاليد الفروسية الألمانية . أين نحن من هذا الآن؟ ومن هم المنهارون نحن أم هم ؟ إن الانهيار سببه التساهل فى التصرفات البسيطة حتى أصبحت هناك كلمات شائعة مثل «ياأخى خليك فى حالك!!» «ياأخى اشترى دماغك» ! «ياأخى دعك من هذا التزمت وهل أنت من سيغير الكون» .. !!

الدنيا تغيرت الآن . والوضع القائم فى فلسطين يجب أن نتوقف عنده كثيراً . يجب أن نملك الشجاعة لكى ندين أنفسنا فنحن الذين بدأناه بتفسخنا واستهتارنا وفهمنا الخاطىء للأمور .

فى فرنسا بعد الحرب العالمية الثانية اجتمع الكتاب والمفكرون ، الشيوعيون مع اليمينيين لكى يدينوا أنفسهم هم أولاً ، وأنهم السبب فى انهيار فرنسا السريع أمام ألمانيا. أما أنا فقد دفعت نقوداً لثلاثة من الشبان لكى يذهبوا إلى دار الكتب ويجمعوا لى كم مرة ناقض كاتب أو شاعر أو مفكر مصرى نفسه خلال الخمسين عاماً الماضية . إنهم يغيرون مواقفهم مثلما يغيرون جواربهم .

لقد كانت النتائج الأولية محزنة جداً . هل هذه هى الواقعية ؟! هل هذا أصبح المفهوم الجديد للطبقة المتوسطة الانتهازية حتى فى الفكر ؟ . وافقنا جدلاً على وجود انهيار تام باسم السمسرة والاستثمار والبورصة ، وباسم تشجيع السياحة فهل نوافق على أن يصل هذا الانهيار إلى الثقافة وينعكس كذلك على الاعلام ؟

كيف سيتثقف الشعب؟ . إن المسألة يجب أن تبدأ من تصرف كل فرد ، وإن كل فرد يجب أن يدين نفسه بشجاعة لابد أن يملك الشعب قوة الرفض. بدلاً من أن يكون مكنون كل فرد فى أعماقه يقول «خذنى بعارى» .

* * *



الماجا.. رسمها جويا مرتدية ملابسها!

إن الوعى السياسى لا يمكن أن يتأتى دون وعى اجتماعى سليم، والبياتى مثلاً شاعر لا جدال حوله . لكن وعيه الاجتماعى أقل من أن يذكر . أذكر أنه كان يعرف فتاة نجحت جداً فى جعل كثير من الكتاب والمخرجين يقعون فى حبها بل وعذبتهم . كنت أعرف هذه الفتاة وأرسمها فى مرسمى ، وأظن أن صورة منها فى متحف الفن الحديث والأخرى اشتراها «ڤيتريو دى سيكا» المخرج والممثل الإيطالى ، والثالثة لدى الشاعر الايطالى «الفونس جاتو».

قابلت عبد الوهاب البياتى ، فقال لى إن الآنسة (..) ذاكراً إسمها . فتاة على خلق حميد ، بالحقيقة وحق الحقيقة أدعوها مرة إلى السينما وهى تدعونى إلى السينما ، وأعيرها كتابا وتعيرنى آخر بعد أن ترده لى ، بالحقيقة وحق الحقيقة أنا أشيد بك دائما فى كل مكان ، وأقول ليس بالمنطقة سواك، بالحقيقة وحق الحقيقة أن ابراهيم منصور قال لىّ : بأنك ترسمها عارية كما رسم «جويا» «الماجا» عارية . قلت له : ولكن صورها كلها بملابسها ولم أرسمها عارية ، ولم يصل بنا الأمر إلى قصة حب جامحة كما حدث مع «جويا» و «الماجا» .

وأبدأ من النقطة التى أثارها البياتى وهى رسم «جويا» لـ «الماجا» عارية . بالتأكيد جويا رسمها عارية بعد أن تركته . لكنهم كلهم يتهمونه بأنه رسمها عاريا !!

ولو نظرنا إلى خطوطها الخارجية لوجدنا أنها تضاهى بالضبط حتى تكاد تتطابق مع خطوطها وهى مرتدية ملابسها . أى ثورة ألمت «بجويا» ؟ ما الذى فعلته به هذه المرأة ؟ إنه بالتأكيد رسمها وقد تجمعت الدموع فى عينيه ، رسمها وهو يتطلع لآثار الندوب التى تركتها أظافرها المتقطعة على كتفيه وذراعيه ، فلتنظر إلى حد عينيها بشهوتهما الجامحة لنرى إلى أى مدى كانت نارية .. الكل أدان جويا لأنه رسم دوقه من طبقة راقية أعلى منه - رسمها عارية - لكن لا أحد تعاطف معه حينما دفعته الغيرة مرة كى ينزل إلى الشارع ويتبارز مع آخر بالسكين . الكل يدينه لكنهم لا يدرون أى ألم إجتاحه إلى درجة أن رسم الملك والملكة الأسبان والبلاط كأنهم فئة من بلهاء السيرك .

الطبقة المتوسطة عندنا نتحدث عن «رامبرانت» وزوجته التى ساعدته ونقلته إلى الطبقة الأرستقراطية ولم يحضر حتى جنازتها ، وظل يرسم فى صورته الضخمة «عسس الليل» بينما الجنازة تسير . الكل يتهمه بعدها أنه عاشر خادمته . لكن لا أحد يتحدث عما قدمته تلك الخادمة حتى غيرت كلية طريقة رسمه وكونت شخصيته الكاملة، والمتطلع إلى صورتى خادمته وزوجته فى متحف «ناشيونال جاليرى» بلندن يستطيع أن يميز الفرق، يستطيع أن يلاحظ الزيف والجمود والبرود والزخرفة التى لا قيمة لها فى رسمه صورة زوجته ، والجرأة والحدة ودفء الحياة فى رسمه صورة خادمته .

إن هذا المعيار عن أخلاقيات الفنان الذى لا تزال تناقش به الطبقة المتوسطة الفنانين فى مصر خصوصاً . معيار خاطىء متخلف يدل على الجهل . بينما لابد أن يكون المعيار الحقيقى للفن هو ثورة وانفعال ؛ فرشاة الفنان على سطح اللوحة فهى فقط القادرة على دفع الجموع إلى الثورة وإلى النضج الاجتماعى .

وحينما مات شكسبير ترك خاتمه وقرطه الذهبى لصديقه الوفى وزميله ، وبقية أشيائه كلها لأصدقائه . بينما لم يترك لزوجته سوى حشية، تلك الحشية القذرة التى ضاجعها عليها . لماذا لا تذكر الطبقة المتوسطة ماذا فعلت زوجته بشكسبير حتى وهو على فراش الموت ؟ .. لا يترك لها شيئاً ! فهل شاعر كبير مثل شكسبير نستطيع القول بأنه لا أخلاق له ولا وفاء ؟ .. إنه لشىء محال. أيضا يدين الكل «جوجان» لأنه ترك زوجته وأولاده وذهب إلى «تاهيتى» بينما الذى يقرأ ما كتبه المؤرخون عن حياة «جوجان» لا يخرج عن أن زوجته كانت امرأة سطحية

متسلطة أخرجته عن طوره مراراً بزيفها وسطحيتها ، ودعواتها لأصدقائها التافهين ودفعها له كي يعمل موظفاً في مصرف . بينما لو قرأنا مذكرات «جوجان» في تاهيتي ، وقلق الفتاة التي عاشرها هناك والتي لا تتجاوز الرابعة عشر وذعرها عليه أن غاب خمس دقائق عن المنزل . هذه الفتاة الصغيرة التي لا قسط لها من التعليم، جعلت «جوجان» يدرك ما هي معنى إخلاص المرأة ، وخلقت منه «جوجان» الفنان .

***

هل يمكن دون فهم عميق لعمل فني جاد خالد أن يستطيع المرء أن يكتب مقالاً سياسياً جاداً عنه إن مقالاتنا السياسية كلها لا قيمة لها ومصيرها أن تكون «قراطيس» يباع فيها الترمس واللب والبلح الأمهات ، ولا يقرأها أحد . لأنه من المحال أن يوجد كاتب دون وعي كامل بوظيفة الفن على الاطلاق وأهميته وحقيقته . فهذا هو الذي يكون وعيه السياسي والاجتماعي الكامل ، ومن العبث أن نطلب منهم أكثر لأن فاقد الشيء لا يعطيه .

إن الصحافة الآن لم تعد وسيلة لتوصيل الحقيقة بقدر ما أصبحت أن تمتلك المقدرة على أن تملأ صحيفة دون أن تقول شيئاً ، وهذا تقليد ابتدع منذ



خمسين عاماً .

يبدأ الكاتب بالقول لابد أن نحارب ثم ينتقل إلى أن السلام أفضل ثم ينتهي إلى استحالة الحرب ثم إلى أن السلام أفضل ثم ينتقل إلى استحالة أن يوجد سلام. ثم بعد هذا ينتهي بك الأمر وكأنك في قصر التيه .

حرب أو لا حرب ؟ سلام أو لا سلام ؟ فالكل بالنسبة له مستحيل !! . إذن ماذا يريد الكاتب ؟ . هل المطلوب أن يملأ الصفحات بمثل هذه المتناقضات التي يناقض بها نفسه ؟ النتيجة أن الكل أصبح لا يقرأ .. الكل أصابه الغثيان من كل مأجور موتور . الكل يناقض نفسه ، وانعكس هذا على كل الجماهير ، وأصبحت هذه هي الفلسفة السائدة، وأن يشعر كل فرد في أعماقه أنه يكذب على نفسه، ويكاد أن يصرخ للآخر «خذني بعاري» .. !!

لوحة هبوط مريم

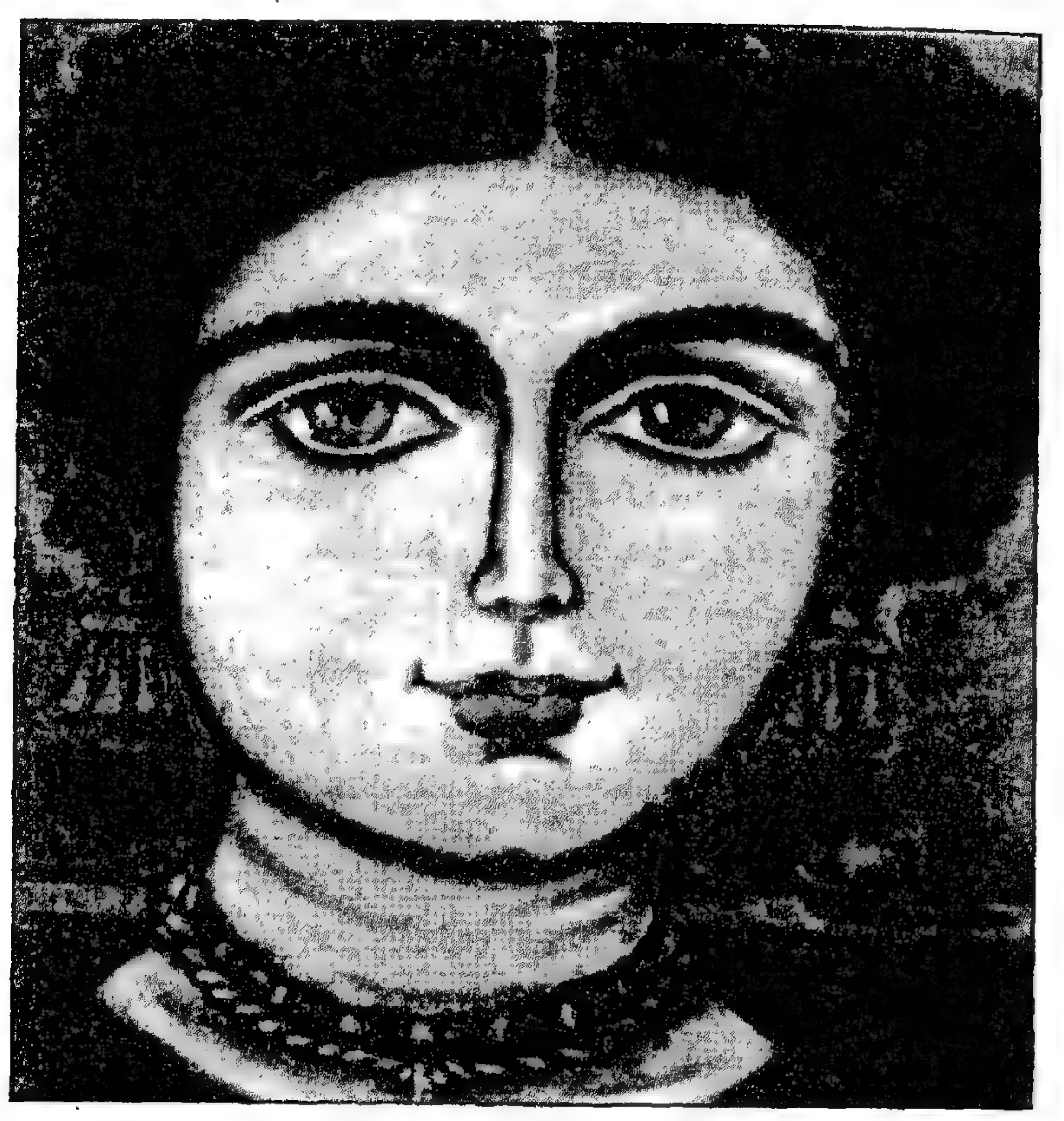


في معرض حلمي التوني:

خطـــاب جمالـــى وأخلاقـــى إلى ذاكرة المصريـــين

بقلم: محـمـود بقشيش

من فاتنات الفيوم للفنان حلمى التونى



تحت عنوان «تحية إلى الفن القبطى» أقام الفنان «حلمى التونى» معرضا بقصر «عائشة فهمى» بالزمالك فى مجال التصوير بالألوان الزيتية. وإذا كان كل معرض من معارض التونى التى أقامها فى القاهرة يختلف مع المسلمات التى تطرحها معارض الفنانين المصريين، فأنا أزعم أن هذا المعرض هو أكثرها أهمية، من حيث موقفه الناقد من حقائق فى حياتنا الثقافية والفنية والسياسية، أهملها المبدعون المصريون أو صمتوا عنها، حرصا علي أمان كاذب. لهذا صاحب المعرض ببيان صريح، يبرر به الدوافع الملحة التي جعلته مصمما على إقامة المعرض.

وحتى لا أتحدث نيابة عن الفنان، أختار فقرات كاملة من بيانه الذى بدأه بقوله: (لازلت أتذكر صورة رأيناها كثيرا اشتهرت منذ ثورة ١٩١٩، تصور المظاهرات والمسيرات الشعبية التى خرجت يتصدرها الشيوخ والقساوسة وهى تحمل الأعلام واللافتات وعليها هلال وصليب متعانقان وتحتهما عبارة: «الدين لله والوطن للجميع» ثم يقول: (مرت ثمانية عقود من الزمان على المشهد المذكور.. وتغيرت أشياء وتبدلت نفوس وإذا بنا نرى فى أواخر السبعينيات مصادمات بين عنصرى الأمة فى بعض مناطق من هذا الوطن.. لعل أشهرها - ويالها من شهرة ! - منطقة، الزاوية الحمراء» وقعت فيها مصادمات دامية ، تعامل معها البعض بتعصب أعمى وأحمق وكأنهم يشاهدون مباراة كرة قدم بين الأهلى والزمالك).. ثم يقول : (ثم فوجئنا فى التسعينيات بأحداث جرت فى صعيد مصر، فى قرية اسمها الكشح) ويستطرد قائلا: (المشكلة فى رأيى المتواضع لها أسباب كثيرة من أهمها إحساس أحد عنصرى الأمة بالكبر واحتكار الصدارة وشعور العنصر الآخر «الأقباط» من أهل مصر بظلم وغبن وتهميش ظلم لا على المستوى الإجتماعى فحسب .. وإنما - وهنا بيت القصيد ومكمن الداء - ظلم حضارى وتهوين ثقافى وتاريخى لدور ونصيب أحد عنصرى الأمة، فى صنع وتكوين ثقافة الامة المصرية.. ولاحظ المستنيرون والمخلصون من أهل هذا البلد تدنى وتناقص المكون القبطى فى الثقافة المصرية، بينما نرى حضور التاريخ العربى الإسلامى، فى كواليس وتحت أضواء المشهد الثقافى والإبداعى، نرى غيابا شبه كامل للحضارة القبطية من المشهد. وفى مجال الفن التشكيلى الذى نحن بصدده هنا، نرى أعمالا فنية تستوحى الأرابيسك والخط العربى فى محاولات لاستكشاف الجماليات الخاصة بهذه الفنون الإسلامية ولا نرى أعمالا فنية تهتم بالحضارة والفن القبطى، رغم أن لهذا الفن متحفا مهما وجميلا يقع على أطراف القاهرة فى حى مصر القديمة . لم نشهد معرضا فنيا جماهيريا واحدا يدعو الناس ويلفت انتباههم بوضوح وعن قصد إلى التعرف على كنوز الفن القبطى والاستمتاع بجمالياته) .

المعرض

يعد هذا المعرض تتمة لسلسلة المعارض الثمانية السابقة من حيث الحرص على استلهام الوحدات الشعبية بأسلوب يحتفى بالتأليف الذهنى، الرمزى، وبالبناء الذى يستعير من المنحوتات المصرية القديمة نقاءها وإيجازها البليغ

ونفورها من الثرثرة. ولأن الفن القبطى فن شعبى مصرى أصيل فقد أتاحت له كل تلك المزايا استدعاء كل الرموز المصرية، سواء ما كان متصلا بالعمارة الأثرية مثل الأهرامات، أو ما كان منها موروثا فنيا مثل الجداريات الكنسية أو موضوعات مستلهمة من الكتاب المقدس أو مستعارة من زخارف أطر الأيقونات، أو مستلهمة من أشكال نباتية ارتبطت بالبيئة المصرية مثل النخيل. وعلى الرغم من أن لوحات التونى فى مجملها تشى بانتمائها إلى تلك المصادر التى أشرت إليها وأشار إليها الفنان فإن اللافت للنظر أن تلك اللوحات تنتمى أيضا وربما بدرجة أكثر وضوحا إلى مبدعها الفنان «حلمى التونى» وهو الأمر الذى يمنح المعرض قيمته الحقيقية . ويكفى أن تلتقى بالمصادفة، بإحدى لوحاته فتكتشف على الفور أنه مبدعها، حتى لو لم تلحظ توقيعه فى الوهلة الأولى.

العذراء والطفل

لأن العذراء تحتل الركيزة المحورية فى الصور الكنسية فقد استلهمها «التونى» بدوره غير أنه أجرى عليها التحولات التى تتسق مع رؤيته : وأول ما يلفت النظر إلى هذا التحول هو اقتراب العذراء المقدسة من الطابع الإنسانى، الأمومى . وهى فى اقترابها من الطابع الإنسانى استعارت نقاء الكتلة فى المنحوتات المصرية القديمة، حيث يتقاسمها، بالعدل، ظل كثيف صريح ونور جلى ساطع. ولا تحدث تلك القسمة من أجل تجسيد الملامح الإنسانية فقط بل تتعداها إلى تجسيم الأشكال الهرمية والأشكال النباتية وأشكال الطيور. ويريد لنا الفنان أن نقتنع بأن هذا الشكل من أشكال التجسيم ينتمى إلى بيئة مشمسة. وهو يعتم الخلفية - أحيانا - ليمنح أجساد قديسيه الطائرة صلابة وحيوية. وهو لا يبالغ فى إسباغ الجلال القدسى على قديسيه وملائكته مثلما كان يفعل «الجريكو» - على سبيل المثال - بل لعل أشكال شخوصه كانت أقرب إلى الهيئة الدميوية وقد يكون للفترة التى انشغل فيها الفنان فى «مسرح الدمى» أثرها فى تلك التجليات، مما أسبغ طرافة جاذبة على شكل المنحوتات المصرية عندما انتقلت إلى فضاءات لوحات «التونى». وقد هدّأت تلك الجمالية المصرية الهادئة من الطابع (الأوكروباتى) على حد تعبير الناقد والمؤرخ الفرنسى الكبير «إيلى فور» عندما أطلقه وصفا لصور القديسين والقديسات، فى اللوحة الدينية الغربية، حيث يبدو الجميع أقرب إلى لاعبى السيرك وهم يطيرون فى الفضاء السماوى، فيما تظهر قديسات وقديسو «التونى» وقد هدأوا الهدوء الذى يسمح بالتأمل، مثلما فعل مع لوحته «هبوط العذراء» فقد أخفى عنها كل

مار جرجس

توتر، مما أتاح لنا تأمل نقـاء الكتلة، وأمتعنا بحالة الدفء بين «العذراء الحاوية» و«الطفل المحتوى». ويجذبنا ببراعة إلى طبق الثمار كاملة الاستدارة، وأطلقنا من جديد إلى السحابات السماوية وهى تتهادى في طريقها المجهول. ويظهر «مار جرجس» فى إحدى لوحات «التونى» وقد نهض على حصانه، جليلا. والواضح أن المشهد يمثله بعد انتصاره على التنين الذى أخفاه الفنان إخفاء كليا، غير أنه وضع مكانه ما أثار دهشتى شخصيا، فقد وضع الأهرامات فى موضع التنين ويبدو أن الناقد أو الرقيب الموجود داخل الفنان «حلمى التونى» ينهض أحيانا ليحّذره من سوء التأويل لرسالة المعرض فرسم لوحة هى أقرب إلى الترجمة الحرفية للآية القرآنية الكريمة رقم ٢٤ من سورة مريم وهى : (وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا).



ولوحة مستلهمة من سورة مريم



الام والطفل للفنان حلمى التونى

الوجوه

نلاحظ أن الوجوه جميعها فاتنة تأسر العيون بسحرها خصوصا تلك الوجوه التى استعارها «التونى» من وجوه الفيوم وأعارها، فى ذات الوقت إلى الفن القبطى، فى حين أن لوحات الفيوم قد أبدعت فى الحقبة الرومانية، قبل ظهور الدعوة إلى المسيحية. ورغم ذلك فإننى أشارك الفنان الكبير فى دعوته إلى أن نكون عادلين حتى نحقق كل أحلامنا فى التقدم والازدهار.

من بلوريات وصعيديات إلى شهادات الغضب !

بقلم : صلاح بيصار

فور عودته من باريس أوائل الثمانينات.. قرر الفنان عدلى رزق الله التخلى نهائيا عن العمل الوظيفى والتفرغ الكامل للإبداع.. مصمما على أن يحيا من اللوحة !!.

كان هذا القرار ومازال حالة استثنائية خاصة.. وكثيرا ما تنتاب الفنان فى العالم الثالث أزمة ميتافيزيقية تجعله لايثق فى جدوى الإبداع فيتوقف أو يتخلى عن عرض أعماله على الجمهور، وذلك ارتباطا بالنظرة السائدة والمعاكسة لمكانة الفن التشكيلى مقارنة بغيره من الفنون.

ولقد جاء معرضه الاستعادى الشامل «عشرون عاما من المائيات» فى ١٠٠٠ لوحة افترشت قاعات قصر الفنون بالجزيرة تأكيدا على اخلاصه الشديد للإبداع ونجاحه أيضا فى تحدى تلك النظرة لواحد من أرفع الفنون. وبالإضافة إلى هذا العدد الضخم من الأعمال تنوعت المساحة من اللوحات الصغيرة إلى الصرحية المتسعة.. مع هذا الفوران الشديد الذى امتد بمراحل عديدة مسكونة بسحر التعبير وشاعرية الأداء.

ومن هنا أغرتنا تجربة عدلى رزق الله بخصوصيتها الشديدة والمتفردة على أن تعود معه إلى بداية الطريق.

فنان الصحافة

فى صعيد مصر، من محافظة أسيوط

ولد ونشأ الفنان عدلي رزق الله وسط مساحات ومسافات خضراء من الريف الدافيء المسكون بالنخيل والقباب والبيوت الصغيرة والنائم في حضن الجبل.

في طفولته كان يتأمل لحظة الغروب حين ينساب الشفق.. يغمر المرتفعات والانكسارات والسطوح الصخرية.. فتذوب الزوايا وتتلاشى ولا يبقى إلا هذا الهمس الشاعرى الأخاذ.

وتتكرر تلك اللحظة في حالة أخرى في أول الطلوع عند الشروق فتنسكب قنينات الضوء بألوانها الطيفية مفعمة بالرهافة والشفافية.

كانت هذه التأملات هي التي هيأت عالم عدلي رزق الله هذا العالم الذي باح به فيما بعد.. وكان قد قرر وهو في الثالثة عشرة أن يكون فنانا تشكيليا.

وعندما جاء الى القاهرة محملا بتأملاته.. التحق بالفنون الجميلة وتخرج فيها عام ١٩٦١، وكان والده قد باع آخر قطعة أرض يملكها في الصعيد.. وكان عليه مواجهة الحياة العملية.. ومن هنا التحق بدار الهلال بعد دخوله في مسابقة أعلنتها مجلة سمير تقدم إليها وتفوق على المتقدمين معه.

وهكذا أصبح رساما للأطفال.. ومن بداية الستينات حمل مع مجموعة من رسامينا من بينهم حجازى وبهجت وايهاب والتونى واللباد ومصطفى حسين عبء



عدلي رزق الله

المشاركة في استكمال الطريق الذى مهده الرائد حسين بيكار والذى تمثل في مجلة سندباد.. طريق التحول من النقل عن النموذج الغربى والاستعانة بالرسامين الأجانب الى الابداع الذى يستلهم الروح المصرية في الخطوط والمساحات والتكوين والتلوين.

وعندما تدق قارعة النكسة عام ١٩٦٧ يختل توازنه ويفقد القدرة على التقييم ولا يعرف ماذا يفعل بنفسه إلى ان يرحل الى باريس أول السبعينات ليتعلم من جديد ويعود ليعلن تفرغه الكامل للفن.

هو والمائيات

بداية تعد الألوان المائية خامة صعبة تحتاج إلى ترويض وتمرس شديدين.. فهى خامة هاربة سيالة.. لكن تتجاوز



الانسان والمقاومة ««من مجموعة المسجد الأقصى»



هنا تتوحد المرأة فى النيل والجبل «مجموعة الأم»

امكانياتها فى التعبير من حيث الرقة والشفافية أى خامة أخرى. ولقد ظلت طوال تاريخ الابداع المصرى الحديث أسيرة المنظر الطبيعى الذى تمثل فى أعمال جماعة «الدعاية الفنية» التى ظهرت فى منتصف العشرينات. وكان اعضاؤها يخرجون الى الطبيعة لتأملها واستلهام مشاهدها وتسجيل انطباعاتهم بطريقة مباشرة وتلقائية بالألوان المائية حتى اطلق عليهم «جماعة الألوان المائية» ومن أعضائها رائد التربية الفنية حبيب جورجى وتلاميذه : شفيق رزق ويوسف العفيفى وحامد سعيد ومحمد عبدالهادى وغيرهم.

وهناك اسماء كثيرة كلها لم تخرج على المنظر الطبيعى منها فنان اسيوط بلديات عدلى بخيت فراج والفنانة فاطمة رفعت.

من هنا جاءت مائيات عدلى رزق الله التعبيرية والمسكونة بالرموز ايقاعا جديدا ولحنا متفردا خرج على الإطار.

ولقد تنوعت مراحله الإبداعية.. كل مرحلة تمثل إضافة تعبيرية.

وفى أعماله الأولى بعد عودته من باريس والتى أطلق عليها «البلوريات» يأخذنا بعيدا عن الصخب والضجيج من طنين الآلة وضغوط المدن المزدحمة الى عالم فنتازى حالم تستحم فيه الفراشات بضوء لانهائى وتتآلف البراعم مغسولة بالندى.. وتنام الوردة ناعمة فى شفافية.. عالم تخف فيه كثافة الأشياء.. بمثابة المشاعر الخاصة أو الانفعالات الذاتية.. دخل من خلالها الفنان الى حديقة الجنس ولكن فى همس خافت.. حين يزاوج بين الطائر وملامح الجسد «الطائر والوردة» فى حلول ناعمة أقرب الى الارتفاقات والتموجات.. كنغمات تتصاعد من خلالها اللون فى بؤرة ساخنة ثم يهدأ كوميض الشفق ليتصاعد فى بؤرة أخرى.. وبدت أعضاء الجسد حديقة من الأوراق والثمار.. تعانق فيها التجريد والتشخيص والرمز والبوح والهمس فى عالم دافىء ينبض بالحيوية واللحظة الدافقة المليئة بالخصب وتجدد الحياة «المعبد».

لكن تدريجيا تخبو جمرة الرموز الجنسية وتتحول الى ثنائية شاعرية وينتقل الفنان من الخاص الى العام ومن الذاتى الى الموضوعى فها هو الهرم فى ايقاع متكرر يتغير من لوحة الى اخرى.. يخبىء مآذن وقبابا ونباتات وزهورا وأحيانا يتغير عنصرا وحيدا يتفجر كنافورة.. أو نبتة فى حالة ولادة أو برعم يشق الفراغ.. ثم يتحول هذا العنصر فى أعمال أخرى فيخرج على ايقاع الهرم الساكن فينبثق من خارجه بعد ان كان محاصرا باضلاعه! وربما كان لتأثير الغربة لفترة طويلة عن مصر دور فى ابراز هذا الهمس الخافت الذى يوحى باشكال جنينية فى بداية تخلقها.

بعد فترة من عودته بدأت تتشكل العناصر تدريجيا في أشكال مكتملة وأخذت أعماله تتماوج بين التجريد والتشخيص محملة بعناصر مصرية واضحة جاءت في قمة اكتمالها في لوحاته «صعيديات» التي يبدو اللحن الأساسي فيها لثنائية حميمة من الاطفال والنخيل.. أطفال الصعيد من جنوب مصر في صفوف من البراءة والمرح في عناق مع النخيل الذي يبدو حانيا رشيقا كراقصات الباليه حيث يتكاثف ويتمايل في اخضرار يتدرج حتى يصل الى اللون الاصفر ثنائية خالية من صور البهجة إلا بهجة الطبيعة، ويبدو الأطفال بملامح من الدهشة والبراءة والحلم في أشكال أقرب إلى المومياوات المصرية.

وينقلنا الفنان من الطفولة الى الأمومة.. حيث تتوحد المرأة مع النخلة والجبل في كائن واحد.. وهي هنا تعكس الرمز المعنوي لمصر من العطاء والخصوبة وقوة التحمل.. وأحيانا تبدو المرأة سابحة في فراغ اللوحة في عناق مع سحاب السماء السخي المحمل بالمطر أو مندمجة في بناء يعكس من خلاله لصور الرسوخ والأصالة.

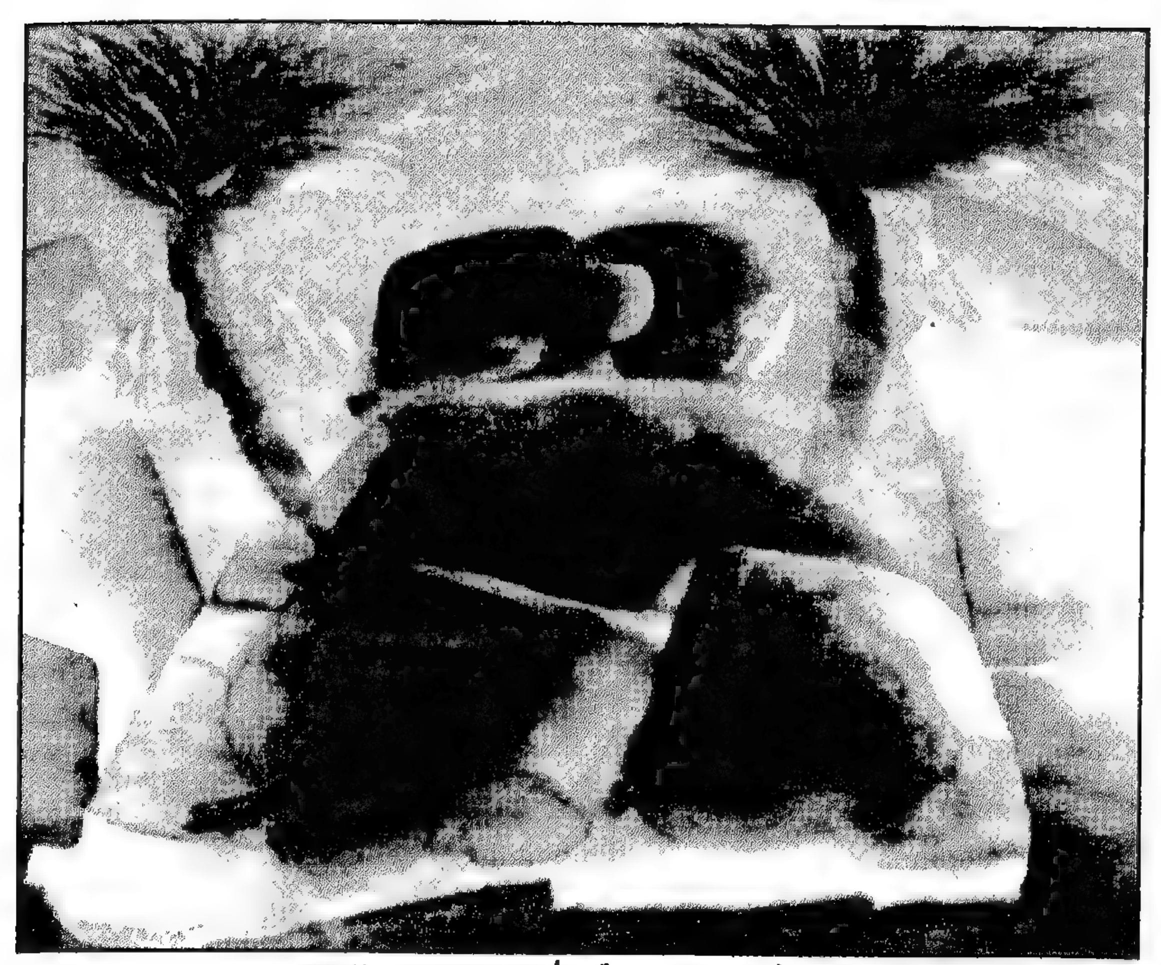
وعلى مساحات صغيرة يقدم عدلي رزق الله مجموعة أعمال تشتمل على عنصر واحد أو اثنين: امرأة نعسانة في ضوء باهر بملابس فضفاضة متأملة كما لو كانت في حالة صلاة.. فتاة في حوار مع وردة.. فراشة تتعانق وزهرة في ايقاع يتغير بتغير الحالة الانفعالية يشمله حس صوفي عميق يعطي أبعادا روحية للوحات.. وتبدو الوجوه بملامح القديسات.

وألوان الفنان في هذه الاعمال تبدو أكثر رصانة.. حيث أخذ من القرية المصرية الأسود والرمادي اللذين يندمجان مع الأزرق المدخن والاحمر الناري والأصفر والاخضر.. في تراكيب لونية أقرب الى البريق المعدني المؤكسد.

القدس وشهادات الغضب

تمثل لوحات عدلي رزق الله «شهادات الغضب» و«القدس» معادلا لعالمه الفنتازي فعدلي الذي صور حديث الفراشة للوردة هو نفسه الذي شكل هذا العالم المأساوي المسكون بقوة التعبير والذي يدين الغشم والجهالة ويؤكد تلك الروح العالية للمقاومة. ورغم ان الاعمال هنا تنتمي لاواخر الثمانينات فإنها تعكس لما نعيشه الان من انتفاضة الاقصى.. واغتيال الطفولة البريئة متمثلة في محمد الدرة وسارة.. وهذا يقودنا الى استشراف الابداع التشكيلي للأحداث.. لقد أبدع لوحاته في هذا الاتجاه بعيون زرقاء اليمامة.

في لوحة الأب والابنة «١٩٨٦» تطل العيون مسكونة بالفزع والخوف وتهرب الابنة الى حضن الاب بذراعين مشدودتين.. هنا يمتزج الوريد بالوريد ويتوحد الاب والابنة في كتلة واحدة تحلقها



لوحة من مجموعة الأم لعدلى رزق الله

حركة الاذرع الدائرية والتى تعكس فرط التماسك والمقاومة.

وفى تكوين من ثلاث لوحات يصور عدلى كيف يحيل الانسان من الألم والخوف فيلد جنينا مشوها يحمله فوق رأسه.. وفى النهاية يحتشد ليقذفه.. هنا يعبر بنا الفنان حاجز الخوف.

وفى لوحات الاقصى تطل الاشلاء فى شموخ .. تقاوم وتقاوم.. هذا الجرم الذى يسد السماء بمثابة آلة الحرب.. ويقف المسجد الاقصى بفتحاته شاهدا على جرائم تظل فى سجل التاريخ لا يغفرها الزمن.

وألوان الفنان يغلب عليها الاسود والرمادى مع الاحمر.. والازرق.. تموج بالمأساة.. مجللة بالحزن والسواد.

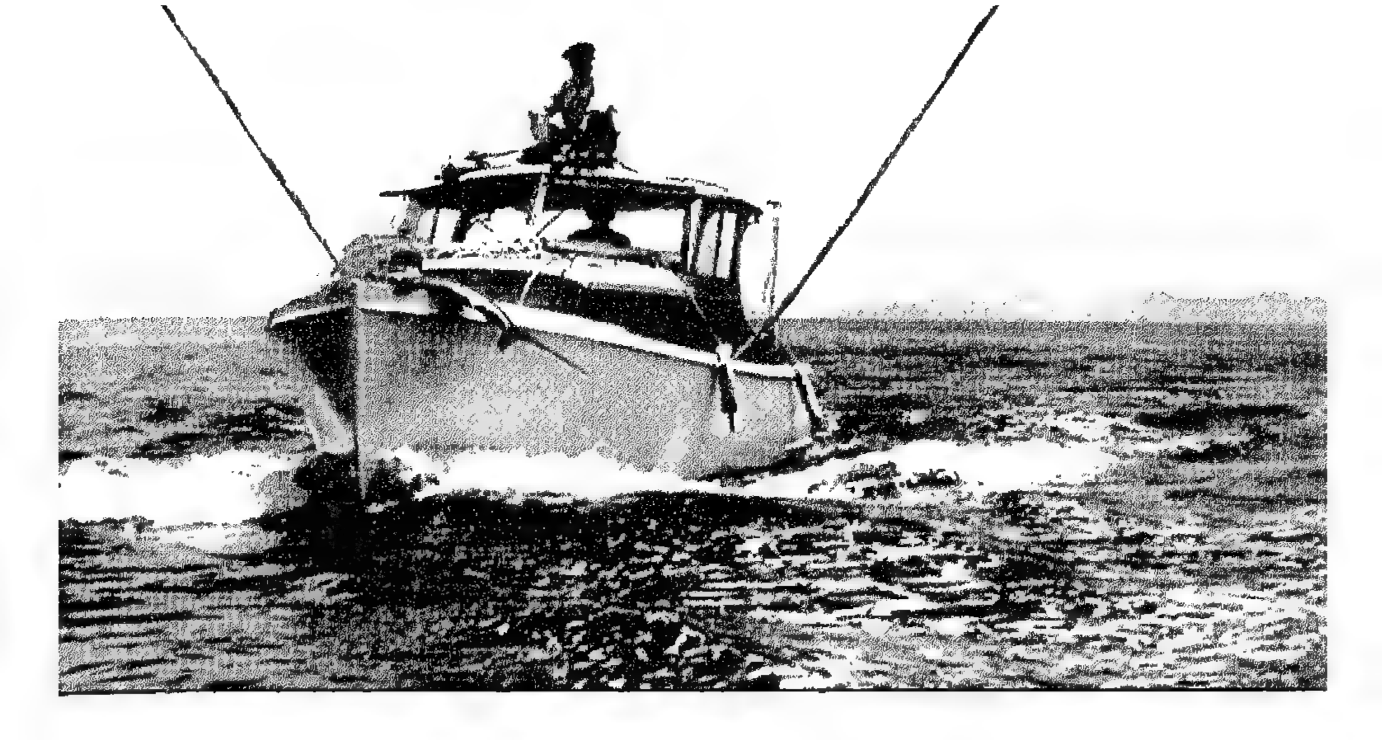
وأعمال عدلى رزق الله فى هذا الاتجاه تمثل وثائق إدانه تتوازى فى دراميتها مع ما نشهده من أحداث الان اضافة لقيمتها التعبيرية والابداعية.

تحية الى تلك السيمفونيات المرئية والتى عبرت بنا من حالة الى حالة.. من مرافىء الحلم الى آفاق الحزن والشجن.

تأملات من وحى الشعر الفارسى

د . عبده بدوى

١ - لا تسلك غير سبيل دراويش الحانه
فهناك جماعات شغلوا بالأسرار الفرحانه
فاذا أبصرتهم فى الحلقات السكرانه
.. قطّره فى بطن الكأس على كفك
تسْعاً ، فإذا أتممت العشرة
فَستنمو فى ساحتك الخضراء الريانة
النشوة ، والأفراح المزدانه
وسيطلق كل فى الوديان حصانه
ويرى رأى العينين جمانه :
٢ - ولتذكر أن الطين يقول لخزاف قد قام ليركله ركلا
يا هذا خفف من ركلك
ولتعرف يا هذا المستعفى جهلا
أنى قد كنت قديماً إنسانا مثلك
ولتذكر رأساً حمل التاج الوهاج
أو جمجمة لفقير محتاج
أو قبلة معشوق سارت خجلى
حتى لا تتدلى
حتى لا أنسى الصحبة والأولى
وكأنى لم أبصرهم قبلا !
٣ - أيها العابس فى وجه الحياة المبتسم
والذى غضّن وجها ، ثم قلبا ، وارتطم
والذى لم يفتح الباب لوجه من نغم
والذى ألقى زقاقا يا نعات فى ألم
.. هل ترى تذكر يوماً سوف تغدو فيه شيئاً من عدم
أو شظايا من كؤوس مترعات حين راحت تصطدم
ثم تلقى فى تراب فوقه ألف قدم !
٤ - لا تقل لى : فيلسوف عاش فى قلب الصفا
وترانى فى الليالى بعض وهم رفرفا
فأنا عمر حزين قال شيئاً ، واختفى .



الأغنياء يقضون علي الثروة السمكية

بقلم: مجدى نصيف

من الأشياء التى تزعج الانجليز، ما قيل عن قرب انقراض الوجبة الشعبية الشهيرة «سمك وبطاطس» FISH & CHIPS فكل ركن فى بريطانيا تجد فيه محل «سمك وبطاطس» تماما مثل محلات الفول والطعمية فى مصر. السبب، هو أن علماء البحار البريطانيين سجلوا تناقص أعداد سمك «الكود» الذى يستخدم فى هذه الوجبة .

هذا هو آخر مقال أرسله لنا الزميل العزيز والكاتب مجدى نصيف قبيل رحيله المفاجئ فى العاصمة البريطانية لنذن .



والحقيقة أن هذا ليس هو حال سمك الكود وحده، بل إن كثيرا من الأنواع بدأ ينقرض من البحار والبحيرات والأنهار فى العالم. ويعود هذا لسببين :

الأول : هو الصيد المكثف للأسماك والكائنات البحرية التى تؤكل بشكل عام .

والثانى : هو تلوث البحار والمحيطات بدرجة مخيفة .

استغلال ثروات افريقيا السمكية

وقد أصدرت «جمعية صيادي الأسماك المستقلة» بالسنغال تقريرا ملفتا للنظر، تقول فيه «إن قرية «مبور» جنوبى العاصمة داكار، والتى تبعد عنها بحوالى ستين كيلومترا، على الشاطىء الغربى لافريقيا ، لاحظوا أن الصيد بدأ يخف الى أن انعدم أخيرا، فبدأوا يتوغلون بعيدا عن الشاطىء، ولكن بقواربهم البسيطة الصغيرة نفسها، وعندما ترتفع الأمواج، يغرقون، والأخطر من الأمواج بكثير هى سفن صيد الأسماك المتطورة التى تطرح في البحر بالشباك الكبيرة. فبعد نقص الأسماك فى أوربا وآسيا، بدأت هذه السفن تصل من فرنسا، وأسبانيا، وايطاليا، واليابان، وتايوان، ومن جمهوريات الاتحاد الفيدرالى السوفييتى السابقة، وبدأت تتجه الى الشاطىء الافريقى الغربى البكر، لتواجه الشهية المفتوحة للشعوب نحو الاسماك، خاصة والتقارير الطبية تقول أنها «أصح أنواع اللحوم» . وأعطت السنغال رخصا لثمانٍ وسبعين «سفينة ترولر» للصيد على شاطئها الغربى، وتدر هذه الرخص دخلا على الحكومة السنغالية يصل الى ثمانية ملايين جنيه استرلينى سنويا، هى أحوج ما تكون اليه. لكن المشكلة، أن سفن الصيد تدخل المنطقة المحجوزة للصيادين السنغاليين، وعندما تصدم أحد قوارب الصيادين الصغيرة، تخفى شخصيتها وتنكر مسئوليتها. وتخفى أسماءها بالطين، وتطفىء أنوارها وهذا يزيد من المشاكل التى يواجهها الصيادون الذين

لايرونها ليلا، وعندما تقع حادثة ما، لا تقف سفن الصيد بل تمعن فى الهرب. وحتى فى حالة الامساك بقارب منها يكون قد قام بحادثة، فان القارب يخرج من المشكلة بقوة المال التى تمتلكها الشركات. ويقول التقرير إن بحارة سفن الصيد يلجأون الى الرشوة، ويفسدون «حراس الشاطىء» وغيرهم .

إن حياة عديدين تعتمد على الأسماك التى انتهت من المنطقة، ويعتمد ٨٥٪ من أهالى السنغال الفقراء على الأسماك الصغيرة «السردين» «البساريا» ، فالملايين يعتمدون عليها ، لأنهم لا يستطيعون شراء اللحم.

ويعمل ٤٠٠ ألف فى الصيد فى السنغال، أى أنهم يشكلون حوالى ١٠٪ من السكان، والمشكلة أن السردين بدوره تنخفض أعداده وبسرعة، بسبب تدفق سفن الصيد الأجنبية على البلاد. فالسردين من الأسماك المهاجرة، أى أنها لا تولد وتنمو على الشاطىء الغربى للسنغال ، بل أنها تذهب وتجيئ مارة بالمياه الاقليمية، وتمر على موريتانيا قبل أن تصل الى شواطىء السنغال.

فى موريتانيا

وقد عقد الاتحاد الأوربى اتفاقية مع الحكومة تسمح لاثنتين وعشرين سفينة صيد، بالصيد فى المياه الاقليمية لموريتانيا، بكميات غير محدودة، والمستفيد الاساسى من هذه الاتفاقية بين دول الاتحاد الأوربى، هى هولندا، إذ قامت بتصنيع اسطول جديد من سفن الصيد الحديثة، طول الواحدة ١٤٤ مترا، وقادرة على أن تحمل سبعة آلاف طن من الأسماك فى ثلاجاتها، وهى تقطع ٣٥ الف كيلومتر . ويعتبر هذا النوع أكبر سفن صيد جابت البحار والمحيطات، وبالاضافة الى ذلك بها أجهزة علمية حديثة للبحث عن الأسماك، والأهم من ذلك أجهزة أوتوماتيكية ترمى شباكا للصيد تمتد الى خمسة كيلومترات فى المحيط.

ويعلن «الاتحاد الاوربى» أنه يحدد للدول الأعضاء كمية «الصيد» التى يستطيع كل منها أن يقوم به، إلا أن التقرير يقول أن شهية سفن الصيد الحديثة لا نهاية لها، إنها مفتوحة لدرجة أن أعداد السردين تتناقص من على السواحل السنغالية، مما يهدد حياة الملايين الذين يعتمدون عليها، صيدا وغذاء .

ورغم أن صيد السردين ممنوع كما تنص الاتفاقيات، فإن السردين «المسكين» الذى تصطاده سفن الصيد الضخمة السريعة الحديثة، يعلّب ويباع علنا بجزر الكنارى، وخاصة فى لاس بالماس. وهذا ما يذكره «التقرير» انه يباع قبل أن تعود سفن الصيد وعلنا فى المحلات.

وهكذا يستمر الغرب فى استغلال ثروات افريقيا . ولا يبدو أن هناك حلا للأسماك التى تتناقص أمام الشواطىء الافريقية . لذا يطالب «مركز بحوث تنمية تقنيات الصيد الوسيطة» ، وهو منظمة غير حكومية أقيمت لحماية حقوق الصيادين الأفارقة فى كل دول غرب افريقيا ، بأن تتبنى كل الدول الشاطئية

بغرب افريقيا سياسة مشتركة متفق عليها، وتعقد اتفاقيات صيد فيما بينها. ويعتقد مدير المركز بداكار، الدكتور يوسف جيبى، أن الطريقة الوحيدة لأن تحمى القارة أهم ثرواتها ، هى «أن نعمل معا على أن يظل «رصيد» الأسماك لاينضب تحت أى ظرف من الظروف» . أما مطالبة حكومات دول غرب افريقيا الشاطئية بأن تنهى عقودها واتفاقياتها مع دول «الاتحاد الاوربى» وغيرها، فمسألة غير واردة. فالسنغال على سبيل المثال مديونة للبنك الدولي بحوالى أربعة ملايين دولار، والأموال التى تأتيها من عقود الصيد مصدر لا ينضب للعملة الصعبة. وقد صرفت السنغال عام ١٩٩٩، كخدمات للديون ٣٢٣ مليون دولار، أكثر من ٣١١ مليون دولار مما يدفعه «الاتحاد الأوربى» للقضاء على واحدة من ثرواته .

وازدادت الضغوط الداخلية على الصيد بشكل غير معقول فى السنوات العشر الأخيرة. فقد استمر القحط لفترة طويلة على منطقة «الساحل» مما أجبر أعدادا كبيرة من سكانها على الهجرة الى الشاطىء بحثا عن عمل وعن الطعام. ولجأ كثيرون منهم الى صيد الأسماك ليسدوا جوعهم، وزاد هذا من الضغط على كميات الصيد .

ولجأت سفن الصيد الأوربية الى المناطق الساحلية الافريقية البكر، لأن الأسماك تتناقص فى بحار العالم ومحيطاته. وتجرى محاولات عدة للسيطرة على الصيد الزائد عن حده، وانقاذ صناعة صيد الأسماك من الانهيار، لكنها فشلت على مدى العقود الثلاثة الماضية. فمئات الآلاف ممن كانوا يعتمدون على صيد الأسماك ، عاطلون الآن ويحاولون تغيير مهنتهم ومهنة آبائهم وأجدادهم ، أما الباقون فى المهنة فيصارعون ويبحثون عن حل لمشكلة تناقص الأسماك كغذاء كان وفيرا. ففى بريطانيا لا يعمل الآن فى الصيد أكثر من ١٨ ألفا، ووصل هذا العدد منذ خمسين عاما الى ما يقرب من ٤٨ ألفا. ذلك فى الوقت الذى تقدمت فيه تقنيات الصيد، وتستطيع اساطيله أن تجوب كل محيطات العالم التى تغطى ثلثى مساحة الكرة الأرضية. وتختفى الأسماك الكبيرة مثل التونا والكود، وهى مع أنواع أخرى، على وشك الانقراض .

وقدمت وكالات الأمم المتحدة المتخصصة تقديرات حزينة عن الوضع منذ سنتين : فقالت إن نصف أسماك العالم قد استغلت بالكامل، وانه اذا أرادت البشرية النصف الآخر أن يستمر، فينبغى أن توقف ثلث سفن الصيد عن العمل، والا انتهى هذا النصف خلال سنوات. وتقول «منظمة الأغذية والزراعة» ـ الفاو ـ بروما ، التابعة للأمم المتحدة، أن ٧٠٪ من المصايد فى العالم فى حاجة الى تجديد وسيطرة.

التلوث

وصف العلماء الأوربيون مصايد بحر الشمال التجارية فى شهر يونيه ٢٠٠٠ (مجلة Nature العلمية الأسبوعية) عدد ١٠ أغسطس ٢٠٠٠) بأنها «خارج حدود الأمان البيولوجى» وان ٧٪ من المصايد فى شمال شرق المحيط الاطلنطى قد انخفض عدد أسماكها، أو أنه يواجه هذا

الخطر».

وتواجه الأنواع الكبيرة من الأسماك، خطر الانقراض بسرعة أكثر من الأنواع الصغيرة، فالأهداف الرئيسية في الغرب للصيد الآن هي السردين والماكريل. لكن معظم الصيد من هذه الأنواع الصغيرة، لايذهب الى المستهلك، وانما الى مزارع الأسماك حيث تصبح طعاما للأسماك التي تربى بهذه المزارع. فمع تناقص الأسماك الكبيرة من البحار والمحيطات، تصبح زراعتها صناعة كبيرة في جميع أنحاء العالم الآن. وفي أسواق السمك بالغرب، تأكل شعوبها أسماك المزارع لأن الأسماك التي تنمو في بيئتها الطبيعية أغلى. ويقدر خبراء المصايد أن استهلاك أسماك المزارع في الغرب، سيصل الى الربع عام ٢٠٠٠. لكن المستهلك في الغرب لن يلتفت الى هذا الأمر. فأسعار الأسماك ترتفع وتصل الى مستويات أغلى من اللحوم بأنواعها. وقد تغيرت الأنواع أيضا. لكن ـ حتى الآن ـ ليس هناك نقص في الأسماك والكائنات البحرية التي يقبل الناس على تناولها .

ويذكر خبراء المصايد أن الأسماك في مصايد أوربا تتناقص بسبب السياسات العلمية الخاطئة والمدمرة للاتحاد الأوربي على مدى العقدين الأخيرين في القرن العشرين. فقد كان علماء البحار والمحيطات الأوربيون ينصحون بروكسيل كل عام، بأن تقوم بترشيد صيد الأسماك لضمان استمرار الأسماك بأعدادها الكبيرة. وكانوا ينصحون بروكسيل كذلك بتخفيض عدد سفن صيد الاسماك في أساطيل صيد كل بلد. لكن بروكسيل تجاهلت هذه النصائح ، فكان ما كان .

ويعترف وزير المصايد البريطاني إليوت موركي(تصريح لصحيفة ذي جارديان اليوميه البريطانيه يوم ١٣ أغسطس ٢٠٠٠) أن السياسيين الأوربيين قد فشلوا في الماضي، في منع تناقص الأسماك من البحار والمحيطات، لكنه أنكر اتهام بروكسيل لبريطانيا بأنها كانت أسوأ من استغل ثروات البحار والمحيطات السمكية. وتقول الأرقام والاحصاءات التي تقدمها بروكسيل ان لندن قد التزمت عام ١٩٩٧، بتخفيض عدد سفن اسطول صيدها بنسبة ١١٪ ، لكن أرقام هذا العام تقول أن هذا الخفض لم يحدث الا بنسبة ١٪ فقط. لكن الوزير البريطاني يقول أن الحكومة البريطانية صرفت ٥٠ مليون جنيه استرليني لتخفيض أسطول الصيد بهذه النسبة. لكن هناك مسائل أخرى تلعب دورا في الحفاظ على أعداد الأسماك منها : التحكم في حجم فتحات شباك الصيد، وعدد أيام الصيد لكل سفينة صيد، واستخدام الأقمار الصناعية لتقديم المعلومات المطلوبة.

لكن قوميسار المصايد ببروكسيل فرانز فيشلر، غاضب لأن المحادثات بين ١٣ دولة من دول «الاتحاد الأوربي» للاتفاق على «كوتا» أسماك لكل منها، قد فشلت. وقال ساخرا :

«تقدم تقنية صيد الأسماك في السنوات الأخيرة جعل من الممكن اصطياد الأسماك المتبقية في البحار

والمحيطات.. بسهولة بالغة» (تصريح لصحيفة ذى تايمز اليومية البريطانية يوم ١٢ أغسطس ٢٠٠٠)انخفض اعداد سمك «الكود» الذى ذكرناه فى بداية مقالنا، فى بحر الشمال، حتى أصبح عشر ماكان عليه من ثلاثة عقود، وهذا النوع مهدد الآن بالانقراض فى أى وقت، ورغم أن المخصص لبريطانيا عام ٢٠٠٠ هو ٣٤.٣٠٠ طن، الا أن الصيادين لم يتمكنوا فى الستة اشهر الأولى الا من صيد ١٣.٣٠٥ أطنان السبب بسيط، وهو أن الصيادين البريطانيين لم يستطيعوا الحصول على هذا النوع من الأسماك، رغم أنه يورد لكل محلات السمك والبطاطس فى بريطانيا.

لكن «الاتحاد الأوربى» - بروكسيل - بدلا من أنه يواجه مشكلة انخفاض عدد الأسماك ويحلها، أطلق تصريحات «بأنه ليس هناك أزمة على الاطلاق» وطلب من أساطيل الصيد الأوربية الاتجاه الى الشاطىء البكر لغرب افريقيا، ليقضى على الأسماك التى تقتات منها الشعوب الافريقية الفقيرة. والاتحاد الاوربى يستمر بذلك فى استغلال الشعوب الأفريقية، فهو لا يحرمها الغذاء الرخيص الذى تعتمد عليه، ولكن يحرمها من فرص العمل أيضاً. أنها تنهى الثروة السمكية.

وسفن الصيد التى قضت على الثروة السمكية فى البحار والمحيطات، التى تملكها البشرية، ليست هى القوارب الصغيرة التى نراها فى الموانىء وعلى الشواطىء، وإنما سفن صيد عملاقة، مصانع - ثلاجات عائمة، مزودّة بأجهزة رادار تساعدها على تتبع الأسماك باستخدام تقنية الأقمار الاصطناعية. فليس للأسماك مهرب .

وبطبيعة الحال يستغل «الاتحاد الأوربى» الثروات السمكية الأفريقية، ولا يضع أية خطة لاستعادتها وتجديدها. ويدفع مقابل ذلك ثمناً بخساً. إذ لا تحصل الدول النامية كلها (الشاطئية) على أكثر من ٧٠ مليون استرلينى (حوالى ١١٢ مليون دولار بالأسعار الحالية) سنوياً للسماح لـ ١٣٠٠ مركب صيد عملاقة - أوربية - لأن تصطاد فى مياهها الاقليمية. ويدفع مبلغ مشابه لأصحاب السفن لملاحقة التطور وبناء سفن أكبر لصيد الأسماك.

وحجة بروكسيل أن هذا الدعم لحماية ٢٠ ألف وظيفة لصيادى الأسماك و٥٠ ألف وظيفة أخرى فى أحواض بناء السفن الأوربية.

المشكلة عالمية

المشكلة عالمية من اليابان إلى الولايات المتحدة. لكن الدول الغنية هى التى تبنى سفن الصيد العملاقة التى تأوى ثلاجات ضخمة، تمكنهم من التوغل بعيداً فى أعماق البحار، ولاتذهب إلى موانىء بلادها إلا لتفريغ حمولتها، ثم تعود مرة أخرى؟ التى تصدر إلى بلاد بعيدة، بل وتباع بأغلى الأسعار فى أسواقها المحلية، لأنه لم يعد من الممكن صيدها فيها.

وتقول أرقام بروكسيل هذا العام ٢٠٠٠، أن نصف الأسماك التى تباع حالياً فى الأسواق الأوربية، مستوردة.

السبب هو تناقص الأسماك فى البحار الأوربية. واشترى الاتحاد الأوربى حق صيد سفن دوله فى ١٤ دولة أفريقية، وتبغى بروكسيل المزيد. ويدخل «الاتحاد الأوربى» الآن فى منافسة شديدة مع أساطيل الصيد الروسية، حول الصيد فى المياه الاقليمية للدول النامية.

وتدعى بروكسيل أن الصيد فى المياه الاقليمية للدول الافريقية، هو امتداد للصيد فى مياه الدول الأوربية. لكن السخط يزداد سواء من الدول الضحايا أو من دوائر معينة فى بروكسيل، وخاصة العلماء الذين يدركون مايحدث ونتيجته، فالمغرب على سبيل المثال ألقت بكل سفن صيد الدول الصناعية، خلف مياهها الاقليمية، بعد سنوات من السماح لسفن الصيد الأسبانية، بالصيد فى مياهها. ودفعت بروكسيل «تعويضات» لأسبانيا، وقالت لأصحاب السفن الأسبان، أنها ستسعى للحصول على حق الصيد فى المياه الاقليمية لدول نامية أخرى! وردت شيلى على طلبات بروكسيل بإغلاق موانيها فى وجه سفن صيد دولها.

ويقول مدير «جمعية حماية الطيور والمصايد» البريطانية، الدكتور أيوان دان: «أن نصدر تناقص الأسماك فى بحارنا، الذى نعانى منه، إلى الدول النامية، إننا نحطم الثروة السمكية التى تملكها البشرية. فبعد أن ننهى الأسماك فى منطقة نتحرك إلى أخرى نقضى عليها. إن سياسة الصيد التى تتبعها بروكسيل غبية وسيئة ومسيئة للبشرية».

ويقول علماء البحار أن الأسماك متى انتهت من أحد المصايد، لا تعود إليها مرة أخرى. والدليل على هذا أسراب سمك الكود التى انقرضت من الضفاف الكبرى لنيو فوندلاند، بعد أن كانت من أغنى المناطق السمكية فى العالم. ورغم تحذيرات العلماء، لم تستجب الحكومات وانهار حال المصايد فى تلك المنطقة، وبدأت ثرواته السمكية تنضب. وصحت الحكومات عام ١٩٩٢، فمنعت الصيد، وتعطّل بذلك ٤٠ ألفا من الصيادين والذين يتعيّشون على بيع الأسماك. وترفض الدول تلك الموعظة.

وعندما ينقرض نوع من أنواع السمك، يتغّير النظام الايكولوچى، ذلك أن هناك سلسلة من الكائنات تعتمد كل منها على الأخرى كغذاء. فعندما انقرضت سمكة «الكود» من بعض الشواطىء البريطانية، ازداد عدد «الجمبرى» لأن سمكة «الكود» تعيش عليها. وكان مصدر رزق للصيادين فى بعض الأماكن حيث يصطادونه بدلاً من «الكود».

بـــول بولــز

طنجة

مدينة لا تكف عن إثارة الدهشة

بقلم : محمود قاسم



ترى هل نعرف الأدباء العالميين، الذين عاشوا بيننا، بشكل يليق بقوة العلاقة بينهم وبيننا..؟

يطرح هذا السؤال نفسه بمناسبة الحديث عن الكاتب الأمريكى بول بولز.. الذى رحل عن عالمنا دون أن يأخذ حقه من المتابعة، باستثناء أخبار متناثرة فى بعض الصحف العربية، مما يتنافى مع قيمته الأدبية وعطاءه الطويل.

وبولز، هو واحد من الكتاب الذين أحبوا المدينة العربية، جاءوا إليها، وعاشوا فى أروقتها، وكتبوا عنها كما شاهدوها، والغريب أن هؤلاء الأدباء لم يصعدوا إلى أسطح البنايات، وشاهدوا السحب الرائعة تمر من فوق المدن، لكنهم توغلوا فى الدهاليز، قابلوا البسطاء، وتلاحموا مع الأماكن، وعزفوا كلماتهم فوق الورق لتكون شاهدة على المدينة.

وقد صارت المدن العربية دوماً بمثابة العشيقة الملهمة لكل من لورانس داريل فى تساعية الإسكندرية (رباعية الإسكندرية، وخماسية أفينيون) وأيضا أجاثا كريستى فى العديد من الروايات والبير كامى فى «الغريب»، و«الطاعون».

إلا أن الكاتب الأكثر التصاقا بمدينة عربية هو بول بولز.. فلم يأت إليها زائراً، أو وافداً لبضع سنوات، بل مقيما أبديا لأكثر من ثلاثين عاما.. سكن فيها، ورقد فى مناماتها، وتركت بصماته الذكريات فوق حناياها، فالهمته رواياته، ومفرداته اللغوية، لدرجة أنه سُمى بـ «الطنجاوى»، المدينة هى طنجة التى صارت قبلة أبرز أدباء العالم فى الستينات، وأصبحت الوطن له.

من بين الأدباء الذين جاءوا إلى طنجة. هناك جور فيدال، وترومان كابوت، وويليام بوروز، وتينسى ويليامز، وجاك كيرواك، وكلهم من الأمريكيين، لكنهم لم يكتبوا عن المدينة العربية بدرجة دهشتهم بها، لكن الأمر اختلف بالنسبة لبولز (مولود عام ١٩١٠) الذى لم يكن له أن يكتب كل هذه الروايات والسير الذاتية دون أن يتفاعل مع المدينة.

وبولز حالة خاصة فى الابداع المعاصر، فهو ليس رجل كلمة فقط، بل ذاعت شهرته كمؤلف موسيقى له العديد من المقطوعات الناجحة، كما ألف موسيقى للعديد من الأفلام والمسرحيات، وهو أيضا كاتب سيناريو، كتب الكثير من النصوص المسرحية وأخرجها، وأيضا كتب سيناريوهات لأفلام أخرجها اورسون ويلز، وجون هيستون.

لكن سحر المدينة العربية شده إليها، كى يترك الموسيقى جانبا، ينزرع فى

داخله الكاتب، الروائى، حدث هذا التغير عام ١٩٤٦ حين وصل إليها لأول مرة، واختارها ملهمته، ومقراً لإقامته. والغريب أنه لم يعرف كتابة الرواية قبل هذا التاريخ، فما أن حطت قدماه هناك ، حتى تفجرت ينابيع الابداع، ويقول الكاتب ان المدينة كانت بالنسبة له أشبه بالجنى الذى يخرج من المصباح. المصباح هنا هو المحيط الواسع، وقد أحدث التأثير نفسه قوته لدى زوجته الثانية جين التى أحبت المدينة وناسها، والتى عاشت بين عامى ١٩١٧، ١٩٥٨. وهى أيضا كاتبة عاشت معه حياته المليئة بالمغامرة، وهى بطلة روايته الشهيرة «شاى فى الصحراء» التى أخرجها للسينما برناردو برتولوتشى عام ١٩٨٩.

ولبولز العديد من المؤلفات المهمة، منها كتابه الأقرب إلى السيرة الذاتية «مذكرات رحالة»، و«كلمات غير مستحبة»، و«يوميات طنجية» ،و«الليمون» ، و«المرآة الكبرى»، و«مقهى البلاج»، و«خمس نظرات»، و«شاى فى الجبل»، «أياديهم زرقاء» ، و« الدغل الأحمر» و«العقرب» و...

وتنبع أهمية بولز فى علاقته بالمدينة، إنه كاتب «حنينى»، يشعر بالهوى الشديد تجاه الأماكن التى عاش فيها، والأشخاص الذين احتوتهم الأماكن.. نحن نحب الأشخاص لأنهم موجودون فى الأماكن نفسها... وهناك ظاهرة بالغة الغرابة بالنسبة لبولز، فقد ارتبط نفسيا، وأدبيا، بكاتب مغربى، لم يكن يعرف أى شىء عن الكتابة أو الأدب قبل أن يتعرف به، وصار كل منهما عين الآخر، وضميره، انه محمد مرابط، كما أن زوجة بولز قد ازدادت ارتباطا بالمدينة، عقب لقائها ببائعة بسيطة، فصارت خزانة ذكرياتها، مما يذكرنا بعلاقة مماثلة تولدت بين الكاتب الفرنسى جان جينيه ، والروائى المغربى محمد شكرى، حيث أقام جينيه السنوات الأخيرة من حياته فى المدن المغربية.

ولم يخف بولز ذلك الخطأ الذى وقعت فيه زوجته عام ١٩٤٧، بل راح يسجل تلك الوقائع في روايته «شاى فى الصحراء»، فالزوج أصابته حمى فى الصحراء، وتعرف على أكثر من عاهرة، أما المرأة، فقد تركته بضعة أيام لتعيش مع سكان الصحراء، وعشقت واحداً منهم ، ثم عادت مرة أخرى إلى زوجها.. ويقول الكاتب إن المرء يرى فى الجبال التى تحوط طنجة سحراً يتدفق فى داخلنا، سحر الليل الذي يبعثه الموسيقيون والطبول التى تقرع، والكيف والرأس التى تدور طيلة الليل حتى يتلاشى كل شىء.

«عندما سمعت موسيّقى الجهجوجا بالمصادفة قررت أن أتتبعهم إينما يعزفون، استغرق منى الأمر عاما كاملا. وأخبرتهم أننى كرست حياتى كى أتتبعهم

.

وعن ذكرياته حول المدينة كتب بولز : «فى عام ١٩٥٨. جاءتنى رسالة هاتفية تقول: أنا آلن جنسبرج . شاعر البوب.

وسـألني صـاحب المكالمة إن كنت أدخن «الكيف» أم أكـرهه. «إذا أردت أن تراه، فـهـو هنا لدى بيل بوروز» وجـمع شاعر البوب كل أصدقاء الكتابة الذاتية. كـانت الأوراق مـتناثرة فوق الأرض منذ عدة أشـهر ، وفي حنايا منزل بيل، رحت أتأمل هذه الأوراق القـادمة من كل أنحـاء الدنيا. وجمعها بيل منذ وقت طويل. لقد جمعتهم طنجة هنا، تيموني لير الذى كان يقـوم بتـدريس أثر عـقـار «ل س د» على الناس وآخرين..» .

وبيل هـو ويليام بوروز واحـد من أهم كتاب تلك الفترة في الولايات المتحدة.

عنوان .. بيت العنكبوت

وقـد اسـتـوحى الكاتب عنوان روايتـه «منزل العنكبوت» من القرآن الكريم «مثل الذين اتـخـذوا من دون الله أوليـاء كـمـثل العنكبـوت اتخذت بيتا وإن أوهـن البيوت لبـيت العنكبـوت لو كـانوا يعلمـون» «العنكبوت (٤١)».

في الرواية هناك رجلان يعيشـان في منزل، يقـومـان ببنائه سـويا، عـمـار . الشـاب العـربى الذى لا يعـرف كلمـة فـرنسـيـة واحـدة، والكاتب الأمـريكى ستنهـام، وهو رجل مـتـقـدم في السن، عـاش منذ سنوات في المغـرب، لا يربط الاثنان أى علاقـة ممنوعـة. تدور الرواية في مدينة فاس عام ١٩٥٤. عندما اندلعت حرب الاستقلال التى شنها المغاربة ضد الاحتلال الفرنسي. «مدينة فـاس موجودة دوما. لكنها كفت فيما بعد عن أن تكون المركز الفكرى والثقافي لشمـال أفريقيا. وصـارت مـجرد مـدينة»، وذلك كمـا كـتب بولز عن المدينة عـام ١٩٨٢، حين نشـر روايتـه . وبطلا الروايـة يسلك كل منهـمـا حيـاته كما يشـاء، كل له طريقه، وعندما يتقابلان معا فيما بعد، يكتشف كل منهما أنه في حاجة للآخر، فالكاتب يشعل جذوة التـأليف لدى عمار، وهو يتعلم كيف يفـهم عـقليـة المغـاربة».. لقـد فـهم أن المغـاربة شـعب يخـتلف عن الآخـرين لكنـهم يتـشـابهـون مع المسلمين في عـقـائدهم وعاداتهم .

وكـمـا هو مـلاحظ، فـان الكاتب هنا يسجل صـداقته الوجدانية، والفكرية مع مـحـمـد مرابط، السـابق الاشارة إليـه، ويردد: «كتابة رواية عن الحيـاة في فاس تثير الشجن. فلأكثر من عقـدين، رحت أتابع نهاية الاستعمار الفرنسي للمغرب، وتابعت كيف تغيـرت عادات الناس بعد حصولهم على الاستقلال. فصارت المغرب بلداً معتدلا . هدفها الأول أن تصبح أكثر تطوراً من أوروبا».

في عام ١٩٨٨، زاد الاهتمام الأوربى بإبداع الكاتب ، كـأنه تم اكـتـشـافـه، مما فتح عينّي برتولوتشى على أهميـتـه، وفي تلك الفترة، ترجمت كتبه المهمـة ، ومنها «الدغل الأحمر»، و«مذكرات رحـالة»، وفي الأول تحدث الكاتب عن حقـائب السـفر التى تلازمـه دومـا. إنـهـا جـاهزة وراء البـاب، مليئة ، متـأهبـة للسـفر، عليـهـا

بطاقات شركات الطيران، وفي احدى هذه الرحلات إلى كوستاريكا، عام ١٩٣٨، التقى بولز بزوجته جين، على رصيف محطة القطار. كان كل منهما محملا بالحقائب. وظلت هذه الحقائب شاهداً على علاقة الاثنين، تنتقل معهما من رحلة إلى أخرى ، حتى استقرا في المغرب، لكنهما لم يكفا عن السفر، ولا يتحدث الكاتب عن الأماكن التي جمعتهما، بل أيضا عن أصدقاء الرحيل الذين التقوا بهم ثم افترقوا عنهم . وقد تميز الكاتب أنه كان يدون وقائع السفر في أوراق خاصة. «كم التقينا بأشخاص يزورون العالم، ولا يفكرون في العودة إلى أوطانهم. وكنت أقول لنفسي أنه لمن الممتع أن أستمع إليهم، وأعيش معهم. ثم أكتب عنهم».

حين نكف عن الدهشة

يتذكر الكاتب كيف تلقى خبر وفاة جون كينيدى عام ١٩٦٣، حيث أخبره شاب مغربى بالأمر، «تصورت أنه يلقى نكتة، فغضبت. لكنني سرعان ما أدركت الحقيقة، وقررت أن أتوقف عن الكتابة، وأن أعود إلى الموسيقى».

وفي «مذكرات رحالة»، يمارس الكاتب هوايته الممتعة، أن يتذكر الماضي، وشخوصه وأماكنه، خاصة هؤلاء الأدباء الذين جمعتهم طنجة ذات يوم ، منهم الرسام الكاتب بريان جيسين الذى أتى إلى هناك لمدة أسبوع، من أجل تسجيل الموسيقى المغربية الطقوسية، ورغم ذلك أقام جيسين فى المدينة طوال ثلاثة وثلاثين عاما إلى أن وافته المنية، أما تينسى ويليامز فكانت طنجة مزاره الصيفى كل عام، كما أتى أيضا كل الأدباء والذين ذكرنا أسماءهم فيما قبل .

وطنجة هى بؤرة العالم لدى بولز، ينطلق منها نحو الصحراء. ونحو مدن العالم الأخرى، خاصة تلك التى تتسم بالكوزموبوليتانية،(العالمية الأجناس)، يؤمها البشر من كل الأقطاب، مثل بانجوك، ولعل هذا يفسر سحر المدينة لدى الكاتب، فهى مدينة «لها هواتفها الداخلية، ويؤمن القادمون إليها بقدرة الشرق على السحر.. فالناس تؤمن أنه كى يعيش الناس سعداء، فإن عليهم التفكير دوما فى الموت».

لذا فان الكاتب راح يؤمن بأن عليه عدم التشبث بالحياة، وأن ينتظر .. فهو سعيد أن الناس ينظرون إليه كأجنبى، حتى يتمكن من البقاء داخل جلده.. وأن يجعله يستمتع بعادات الآخرين، بالدخول إليها، يرقص مثلهم، ويستمع إلى موسيقاهم، ويحضر حفلات طقوس السحر .. ويندهش .. ولا يكف عن الدهشة ...

فعندما يكف الناس عن الدهشة ... يموتون ...

وهكذا مات بولز ، رغم أنه لم يكف عن الدهشة .

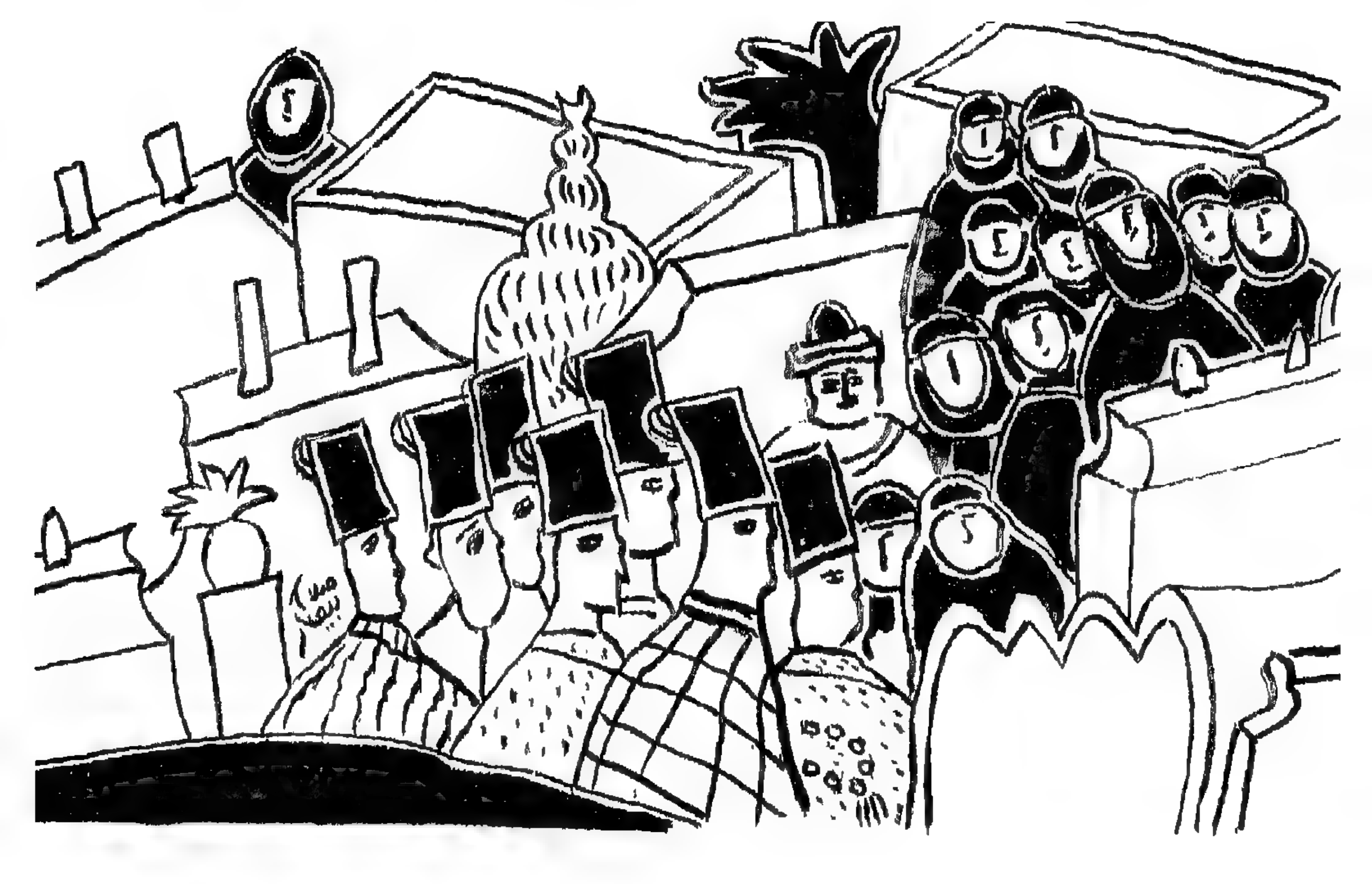


المكان فى الرواية

مدينة الأموات والأشباح أيضا

بقلم : محمود الورداني
رسوم : صلاح بيصار

من بين الفرجات الضيقة للألواح الخشبية المعمول منها الكوخ الصغير مائل السقف، كان بوسعى أن أرى الاشباح وهى تمر، وأسمع الأصوات فى الخارج. كنت أبقى قليلا فى حجرة الرجال حين نزور قبر أبى فى الأعياد، معى أعمامى ومن هم فى حكم أجدادى وربما بعض الشباب . هنا مقبرة النساء حيث يجلس الرجال، وعبر الفاصل الخشبى ذى الباب والنافذة التى كان يبهرنى شكلها الرقيق بمقبض أكثر رقة على كلا الوجهين ومكان مخروط خصيصا لوضع قلتى ماء، عبر هذا الفاصل مقبرة الرجال حيث تجلس النساء .



هذا هو المكان الأكثر بقاءً في الذاكرة والأشد إيغالا فيها. منه تشكلت البدايات الأولى، وكان مسرحا لعدد كبير من قصصى القصيرة، واستمرت علاقتى به حتى سنوات قليلة مضت، وكان مسرحا أيضا لمشاهد عديدة فى بعض الأعمال الروائية التى كتبتها. هنا قرافة المجاورين فى صحراء المماليك. جامع قايتباى ومجموعة السلطان برقوق ومقابر الشهداء معهم الاحياء وهم يتقدمون لغزو مدينة الأموات ويزاحمونهم ويعيشون فوقهم - فوقهم بالفعل ليس من قبيل المجاز.

حكت أمى بعد ذلك أنها كانت تصحبنا - أنا وشقيقى - فى الأعوام الأولى لرحيل أبى ونقضى ليلة أو ليلتين مع أبى فى المواسم والأعياد. ننام بجوار شاهد قبره داخل الكوخ الخشبى الذى يميز مدافن عائلة أبى وسط الشواهد الوحيدة المنتشرة فى المدى.

مشاهد لا أنساها

لا أكاد أذكر هذه الفترة التى تحكى أمى عنها للنسوة من صاحباتها فيما بعد. أما مشهد الرجال الجالسين على الطاولة الخشبية الممتدة على الحائطين الجنوبى والشرقى، بينما تحتل السحارة الناحية الغربية، فهو أول ما أتذكره من المكان، الرجال يجلسون إذن فى الضوء الخفيف يرتدون بدلا وبعضهم مطربشين يدخنون سجائر «نبيل» و«شهير» من علب أنيقة ويتبادلون الحديث فى أدب واحترام. يتحدثون عن موتاهم ويتذكرون نوادرهم.

يكون كل منهم قد دس العيدية في يدى وكلها تقريبا قطع فضية من فئة الريال أو نصف الريال أنا وشقيقى الأكبر، بينما شقيقى الثالث ـ الأصغر ـ هناك مع أمى لايفارقها قط .

قد أغافل الرجال منتهزا فرصة تغيير مقرىء بآخر، واعبر الى الحجرة الأخرى، هى فى نفس مساحة حجرة الرجال، غير أنها بلا مقاعد، لذلك فرشت على أرضيتها حصيرة تجلس عليها عماتى وبناتهن وبعض النسوة وحدهن بلا أطفال. كن يجلسن دائما غير مستريحات «بالجيبات» الضيقة والجوارب السوداء النايلون، يحاولن اخفاء ركبهن أو سيقانهن وعيونهن حمراء يتنهدن بصوت مسموع .

لم يكن هناك أطفال سوانا، فبقية أقربائنا لا يحضرون أطفالهم. أما نحن، فلدينا من نزوره مع أمى، وهو ما حافظت عليه أمى معنا حتى كبرنا وخرجنا عن طوعها، كما أن عمى «أحمد بك» الذى كان حكمدارا للعاصمة قبل التطهير، قد اشترى مقابر جديدة فى «المرج» بعد أن علم أن المنطقة بكاملها معدة للخروج فى التنظيم، وسوف تصبح شوارع، ونقل اليها رفات ابنته التى قضت نحبها شابة ومعها احدى جداتها لتؤنس وحدتها فى القبر. تلك كانت أقسى الضربات التى أصابت مقبرة العائلة، وانقطعنا أنا وأشقائى، ولم يعد أحدنا يوافق على اصطحاب أمى الا كل بضع سنوات، كما أن أغلب رجال العائلة ونساءها راحوا يتساقطون تباعا كأنما نفخ لهم فى النفير.

مقابر لا تنتهى !

أتذكر جيدا ذلك الفضاء الخالى الممتد ترصعه الشواهد الحجرية المحتفظة ببقايا الاسماء، حيث بدت الدنيا كلها أمامى وكأنها مقابر لا تنتهى. وعندما كبرنا قليلا، كنا نهبط من الباص فى الباحة الواسعة مع أمى. نركب أول ميعاد من شبرا ونهبط فى الدراسة أعلى ذلك المرتفع المشرف على الطريق الذى كان تحت الانشاء . فيما بعد، سوف أعرف أنه طريق «صلاح سالم» غير أن النفق والتلال وكل ما يواجهك فى المدى، كان فى الصباحات الشتوية للأعياد ممتلئا تماما بحشود من النسوة والأطفال والرجال المتجهين للمقابر ، بينما بائعات الخوص والورد يتناثرون على طول الطريق .

لا يمكننى أن أنسى مقرئا اسمه «الشيخ عُلما» صوته فاتن رخيم يقرأ لنفسه فى الغالب، فهو لا يهتم بأحد على الرغم من أنه يعرف الجميع، فلا أحد يقرأ مثله، ولا أحد يرتدى عمامة حمراء ملفوف طرفها بمنديل أبيض، نظيفا على الدوام. الرجل يتخاطفه قدامى الزوار الذين يعرفون قدره، وأظل أنا واقفا

أمامه منتظرا انتهاءه لأصحبه معي قبل أن يختطفه الآخرون .

هذا هو المكان الذى استقبلته حواسى أول الأمر . لم يكن هذا المكان يثير حزنا فقط. نعم. كنا نذهب الى أبي. عارفين أن روحه سوف ترانا، وسوف يكون سعيدا، بذهابنا لنعيد عليه. ربما كان يثير شعورا ما بفرحة اللقاء بأبي الذى غابت ملامحه تماما على مر الأيام، وربما كان يثير ايضا بهجة ما بلقاء كل هؤلاء الرجال الأنيقين برزانة والنسوة الجميلات ذوات الجوارب الشفيفة وهن يضممن سيقانهن جالسات على الحصيرة بفساتينهن السوداء الضيقة ووجوههن المحمرة من أثر البكاء .

سنة بعد سنة كان هذا المكان يستكمل ملامحه. شقوا شارع صلاح سالم، وفتحوا نفقا أسفله، وفقد الكثيرون رفات أسلافهم، لكن ما أذكره جيدا أن الأحياء كانوا يزدادون اقتحاما للمقابر. وبعد أن كانوا يحرصون قدر الامكان على التوارى فى سنوات طفولتي الباكرة، أصبحوا يتحركون بحرية ويتجولون هنا وهنا بعد أن ازدادت المحلات وباعة الخضراوات والفاكهة، وكادت تختفى تلك الرائحة الملازمة للموتى .

فيما بعد، وتحديدا فى عام ١٩٧٢ تم تجنيدى ، وبعد عام قامت الحرب. وعندما انتهت العمليات العسكرية كلفت بنقل الشهداء الذين يتوفون أثر جراحهم فى المستشفيات الى مقابر الشهداء .. وهكذا عدت مرة أخرى الى ذات المكان بعد غيابى عنه قرابة خمسة عشر عاما .

× × ×

كان المكان قد تغير بالطبع، وكنت أنا قد تغيرت أيضا، ولم أعد ذلك الصبى الذي كنته، ولم أعد زائرا لروح أبى، بل مصطحبا لشهداء يجرى دفنهم أمامى وكانت مقابر الشهداء تبعد حوالى نصف كيلومتر عن مقبرة أبي. المذهل اننى حاولت عدة مرات أثناء تأدية مهمتى كجندى التعرف على مقبرة العائلة وفشلت فى العثور عليها .

كان ثمة شوارع قد رصفت وعشرات المحلات قد اصطفت ومئات البيوت قد انشئت على نحو عشوائي.. باختصار توحش المكان وفقد ريحه الهادئة على الرغم من أن مجموعة السلطان برقوق وجامع قايتباى ما يزالان رابضين، غير أن التلال الشاهقة التي تشرف على منشية ناصر كانت تبدو أكثر توحشا .

هاهى العشوائيات بكل ما تمثله من تغيرات فى جسد مصر وروحها ايضا قد انتصبت قوية قادرة تمتلك جبروتا وبشاعة أعجز عن وصفه .

وها أنا قد فقدت مكانى الأكثر ألفة واعزازا.

الشيخ طنطاوي جوهري



بقلم :

د.فتحى صالح

- ١٦٤ -

لقد حظيت العقود الأولى من القرن العشرين بوجود العديد من العقليات الدينية والسياسية والأدبية المتفتحة الواعية التى أثرت هذه الفترة بما عرف فيما بعد بعصر التنوير . وقد كان على رأس أسماء هذه الفترة الإمام محمد عبده والزعيم مصطفى كامل والكاتب أحمد لطفى السيد. وقد كان من نتاج هذه الفترة أيضاً الشيخ طنطاوى جوهرى (١٨٦٢ - ١٩٤٠) الذى يعتبر مثالا فريداً للشيخ الأزهرى والعالم الشامل الذى يجمع فى علمه بجانب المعرفة الدينية من فقه وتفسير ، الجوانب الأخرى من علوم طبيعية مثل الفلك والنبات والجغرافيا ، انطلاقا من حبه للتأمل فى الكون وقوانينه كجزء من الدين.

وقد بلغت مؤلفات الشيخ طنطاوى جوهرى ما فوق الثلاثين كتابا ، أهمها تفسيره للقرآن الكريم والمسمى «بالجواهر» وكذلك كتاباه «أحلام فى السياسة» و«أين الإنسان» وهما كتابان يدعوان للسلام العالمى مما حدا بالحكومة المصرية للتقدم باسم الشيخ طنطاوى للترشيح لجائزة نوبل للسلام بناءً على ترشيح الدكتور مصطفى مشرفة عميد كلية العلوم آنذاك والدكتور عبدالحميد سعيد عضو البرلمان ورئيس الجمعية العالمية للشبان المسلمين . إلا أن القدر عاجل أستاذنا حيث أن جائزة نوبل لا تمنح إلا لعبقرى يكون على قيد الحياة.

وقد كانت معرفة الشيخ محمد عبده بالشيخ طنطاوى عن طريق إطلاعه على كتابين نشرهما، أحدهما كتاب «جواهر العلوم» ثم قابله وأثنى عليه وقال : «فلنخرج كتبا شتى لا كتابين اثنين» وأما الزعيم مصطفى كامل فقد طلب مقابلة الشيخ طنطاوى وقال له «بمثلك ترقى الأمة» وهو أول من سمى الشيخ طنطاوى باسم «حكيم».

وفى هذا المقال نتعرض لأحد جوانب شخصية الشيخ طنطاوى الموسوعية عندما ألقى فى عام ١٩١٤ ثلاث محاضرات عن الموسيقى العربية فى الجامعة المصرية التى كان يعمل أستاذا بها ، وقد أوضح فى هذه المقالات إلمامه بقواعد الموسيقى وتاريخها بل والأهم من ذلك علاقة هذه القواعد بالمنظومة الكونية من فلك وميكانيكا ونبات وإنسان، وهو شىء يصعب تناوله إلا من عالم أزهرى متفتح عاش فى عصر التنوير فلنبدأ بنص المقالة

الأولى، والتى اختصرنا بعضاً من أجزائها التى تحتوى على مصطلحات موسيقية متخصصة كتبت للخاصة من علماء الموسيقى.

المقالة الأولى

الحمد الذى أحسن كل شىء خلقه . وأبدع نظامه . وأنق رونقه ووزنه بالتأليف. وزاوج كثيفه باللطيف . وزوق بالحساب تذكرة لأولى الألباب وجمع وفرق ونظم المؤتلفات فى نسق . فسرى حسابه فى الكواكب جاريات فى الغياهب متنزلة فى أضوائها إلى الأشجار فنطقت به الأطيار بنغمات منتظمات وألحان مبتدعات . وحروف وأصوات . على نسب بديعة. وأعداد سريعة. عرفها الفاخت والدراج . وأتبع الطير من الناس أزواج . فنظموا الأشعار مقدرات بمقدار نسب هندسية ومعادلات جبرية كما فى أعضاء الانسان وسقوط الأشجار بميزان والشمس والقمر بحسبان . والنجم والشجر يسجدان . والسماء رفعت ووضع العالم فى الميزان . والظلال تتنبأ بقدر وكل كبير وصغير مستطر وضح الحق وانشق القمر وظهر النور وتجلت العبر . وسرت الموسيقى فى الماء المنهمر . فالتقت المختلفات على أمر قدر . وكل أمر مستقر.

الفلسفة

هى معرفة الأشياء على ماهى عليه فى نفس الأمر بقدر الطاقة البشرية وهى إما علمية وإما عملية.

والعلمية ثلاثة أقسام: رياضيات - وطبيعيات - وإلهيات.

والعملية ثلاثة أقسام: الأخلاق - وتدبير المنزل - وعلوم السياسة.

وهناك نوعان من التعاليم تقدم عليها وهما إما فى الفكر وهو المنطق وإما فى اللسان وهو علوم الأدب.

فعلوم اللغات والآداب من صرف ونحو وشعر وغيرها وكذا الخط وما شاكل ذلك مما يتعلم بالبنان مقدمات للمعارف العقلية وهن المقاصد . ففى الإلهى خمسة أنواع : الأمور العامة - ومبادىء العلوم وإثبات وجود الله وإثبات الجواهر المجردة . وأحوال النفوس البشرية بعد الموت.

والطبيعى ثمانية مقاصد : الأمور العامة للاجسام مثل المادة والصورة والسماء والعالم والكون والفساد - الآثار العلوية - المعادن - النبات - الحيوان - الانسان - ثم العلوم الفرعية وهى عشرة.

والرياضيات أربعة . الارتماطيقى (علم العدد) والهندسة والهيئة والموسيقى . وللهندسة علوم عشرة كعقود الأبنية وعلم المناظر والمرايا المحرقة وعلم جر الأثقال . وعلم الآلات الحربية. وعلوم البنقامات مثل الساعات وعلم الهيئة يتفرع عليه الزيجات-وعلوم التقاويم - وعلوم المواقيت - وعلم الأرصاد وعلم تسطيح الكرة وما شاكل ذلك.

علم العدد هو العلم الباحث عن خاصة العدد فى نفسه وعن نسبته إلى غيره.

علم الموسيقى وله أجزاء (١) النغمات وأحوالها ، (٢) الايقاع وهو اعتبار زمان الصوت، (٣) بيان تأليف الألحان وبيان الملائم منها، (٤) ايجاد الآلات الموسيقية

وتقديرها.

وملخص مايقرأ في الفلسفة واحد وثلاثون نوعاً في المنطق تسع علوم، وفي الإلهي خمسة، وفي الطبيعي ثمانية، وفي الرياضي أربعة، وفي الحكمة العملية ثلاثة، وفروع هذه العلوم تبلغ نحو ٣١ علما وفروع الطبيعي عشرة وفروع الهندسة عشرة وفروع الهيئة خمسة وفروع العدد خمسة كالحساب المفتوح . حساب النحت والميل. حساب الجبر والمقابلة وحساب الدرهم والدينار.

فالأول الحساب العقلي والثاني بما يكتب والثالث معلوم والرابع لما لا يحل في الجبر فهذه الفروع لا يعتبرها الفيلسوف وإنما تعتبر مقدمات للحكمة غير مقصودة فيها لذاتها.

وموضعنا في هذه المحاضرة فن الموسيقى أحد العلوم الرياضية من علوم الفلسفة، وليس الغرض من هذا الفن أن نعرف صنعة الملاهي فقط، كما هو المتداول عند الجمهور، كلا وإنما فن الموسيقى عند فلاسفة الإسلام هو معرفة النسب وكيفية التأليف اللتان بهما وبمعرفتهما يكون الحذق في الصنائع كلها ومنها صنعة الغناء والملاهي التي سنذكرها في هذه المحاضرة ونلوح إلى غيرها . ومن شرف الموسيقى أن كل صناعة تعمل باليدين فان الهيولى الموضوع فيها إنما هي أجسام طبيعية ومصنوعاتها كلها أشكال جسمانية إلا صناعة الموسيقى، فإن الهيولى الموضوع لها كلها جواهر روحانية وهي نفوس المستمعين وتاثيراتها فيها كلها روحانية أيضاً، وذلك أن ألحان الموسيقى أصوات ونغمات ولها في النفوس تأثيرات كتأثيرات صناعة الصناع في الهيوليات الموضوعات في صناعاتهم، فمن أنواع المؤثرات تلك النغمات والأصوات التي تحرك النفوس نحو الاشغال الشاقة ومنها التي تحمل على الشجاعة في الحروب لاسيما إذا كانت بأبيات موزونات كقول القائل:

لو كنت من مازن لم تستبح إبلي
بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا

ومثل قول البسوس المنقيرى :

لعمرى لو أصبحت في دار منقر
لما ضيم سعد وهو جار لابياتي
ولكنني أصبحت في دار غربة
متى يعد فيها الذئب يعد على شاتي
فياسعد لاتغرر بنفسك وارتحل
فانك في قوم عن الجار أموات

فكانت هذه الأبيات سببا لحروب تشيب من هولها الولدان. ولقد استخرج الحكماء من الموسيقى ألحانا تسمى المحزنة وهي التي ترق لها القلوب إذا سمعت وتبكي العيون وتكسب النفوس الندامة على سالف الذنوب واخلاص السرائر واصلاح الضمائر.

ولحناً آخر يكسب النفوس الشجاعة والاقدام يقال له المشجع كان يستعمله قادة الجيوش في الحروب والهيجاء. ولحنا آخر كانوا يستعملونه في المارستان (دار المرضى) وقت الاسحار يخفف ألم الاسقام والأمراض على المريض ويكسر سورتها ويشفى كثيراً من الأمراض

والاعلال. وآخر يستعمل عند المصائب يسكن الحزن، وآخر يستعمل عند الأعمال الشاقة والصنائع المتعبة مثل ما يستعمل البناءون والحمالون ونوتيو الزوارق وأصحاب المراكب . وآخر يستعمل عند الفرح واللذة والسرور والأعراس.

وقد تستعمل الألحان للحيوانات كالحداء للجمال والصفير للغنم والبقر والخيل عند ورودها الماء كلحن يغنى به عند حلب ألبانها. ولحن يستعمل عند صيد الطيور في ظلم الليل ليوقعها المغنى به حتى تؤخذ باليد. وتستعمل النساء ألحانا للأطفال لتسكن البكاء وتجلب النوم.

فصناعة الموسيقى يستعملها كل الأمم ويستلذها جميع الحيوانات التى لها حاسة السمع، وأن النغمات لها تأثير في النفوس الروحانية كما أن لسائر الصناعات تأثيرات في الأجسام الجسمانية.

وعليه نقول أن الموسيقى هى الغناء والموسيقار هو المغنى والموسيقات آلة الغناء والغناء ألحان مؤتلفات واللحن نغمات متوازنة والنغمات أصوات مطربة موزونة والصوت قرع تحدث في الهواء من تصادم الاجسام بعضها ببعض.

النسب الموسيقية

إن من النسب الموسيقية ما هو فاضل وشريف ومنها ما دون ذلك . فمن النسب الفاضلة أن تكون النغمة مثل الأخرى سواء، وتكون النغمة الغليظة مثل الحادة ومثل ثلثها، وتكون مثلها ومثل نصفها، ومثلها مثل ربعها،! ومثلها ومثل ثمنها . فإذا استوت هذه الأوتار على هذه النسب الفاضلة ، وحركت حركات متواترة متناسبة، حدث عند ذلك منها نغمات متواترة متناسبة. حادات خفيفات وثقيلات غليظات . فإذا ألفت ضروبا من التأليف كما تقدم ذكره، صارت النغمات الغليظات الثقال للنغمات الحادات الخفاف، كالاجساد وهى لها كالارواح، واتحدت بعضها ببعض وامتزجت وصارت ألحانا وغناء. وكانت نقرات تلك الأوتار عند ذلك بمنزلة الاقلام والنغمات منها بمنزلة الحروف، والألحان منها بمنزلة الكلمات، والغناء بمنزلة الأقاويل، والهواء الحامل لها بمنزلة القراطيس ، والمعاني المضمنة فى تلك النغمات والألحان بمنزلة الأرواح المستودعة فى الاجساد. فاذا وردت تلك الألحان إلى مسامع النفوس، استلذتها الطباع وفرحت لها الأرواح وسرت بها النفوس ، لأن تلك الحركات والسكونات التى تكون بينها ، تكون عند ذلك مكيالاً للأزمان واذرعا لها ، ومحاكية لحركات الأشخاص الفلكية . كما أن حركات الكواكب والأفلاك المتصلات المتناسبات هى أيضاً مكيال للدهور وأذرع لها . وأن كيل بها الزمان كيلا متساويا متناسبا معتدلا كانت نغماتها مماثلة لنغمات حركات الأفلاك والكواكب ومناسبة لها.

ذكر ملخص ما قاله الغزالى فى الأغانى وتحليلها وتحريمها فى كتاب الأحياء.

حلل الغزالى مسألة الأغانى فأطلق اباحتها وأورد من الأحاديث والآيات على جوازها أو وجوبها أو كونها سنة ما لا محل لذكره هنا ثم أفاد أن تحريمها لا

يكون إلا لعارض ولن يتعدى ذلك العارض إثارة الشهوات نحوها وإبراز ما كمن فى النفوس من حب الفجور وذلك كمثل ما إذا كان المغنى امرأة يشتهيها المستمعون أو إذا كانت الآلة من شعار المخنثين أو أهل الشرب وهى المزامير أو طبل الكوبه كما كان فى زمانهم.

العارض الثالث أن يكون القول محرما كالخنا والفحش والهجو.

العارض الرابع أن يغلب على المستمع الشهوات.

العارض الخامس أن يكون الرجل جاهلا أميا لا يميل به السماع لخير ولا لشر وقد اتخذه ديدنه، فذلك لهو ولعب وضياع وقت فليمنع ذلك فالمواظبة على اللهو جناية.

هذا ملخص ما قاله الغزالى فى الاحياء فى الجزء الثانى صفحة ٣٦.

اراء أفلاطون وفتلون الفرنسى وأحوال الأمة المصرية

قال أفلاطون فى الجمهورية : على الشعراء ألا يذهبوا مذاهب أهل الفجور واللهو لئلا يميلوا بالشعب إلى الخسار والبوار، وأن تكون أشعارهم مجلبة لفخار الشعب والشجاعة والعفة والحكمة وحب الوطن.

وقال فتلون الفرنسى فى كتاب تربية البنات : يجب أن تكون الموسيقى التى تباح للنساء مجلبة للسرور ومدعاة للفضيلة ومحبة الله عز وجل.

ولى كلمة فى الأمة المصرية وأغانيها. من العار أن يرى فضلاء الأمة وعلماؤها العامة يتخبطون فلتنظم الأغانى وليحظر على الشعب الأغانى المبتذلة فأغانى الأمة دليل شعورها وقولها دليل عقولها، وأن جلال موقفى وعظمة الجالسين تمنعنى أن أذكر ما تنفر منه أسماعهم من تلك الأغانى التى يعتادها الجاهلون ويستحلى مرعاها الغافلون. وإذا فرغنا من النغمات وما يلحقها فلنذكر طرفا من الموسيقى فى الشعر العربى.

النسبة الموسيقية فى الخط العربى

أصل الحروف فى الكتابات كلها فى أى لغة ولأى أمة أو بأى قلم وبأى نقش وان كثرت فان أصلها كلها الخط المستقيم الذى هو قطر الدائرة، والخط المقوس الذى هو محيط الدائرة فأما سائر الحروف فمركبة منهما . ألا ترى أن الألف قطر والباء والتاء والثاء ألفات أفقيات. وأجود الخط ما جعلت ألفه مقياسا ويجعل غلظها مناسبا لطولها بحيث يساوى الثمن وأسفله أدق من أعلاه، ويجعل الالف قطر الدائرة ثم تجعل سائر الحروف مناسبة لطول الالف ولمحيط الدائرة التى الالف مساوية لقطرها والباء والتاء والثاء مساويات للألف، وتجعل عرضها ثمن الالف المفروضة وتجعل الجيم والحاء والخاء كل واحدة منها مدته من فوق نصف الالف وتقويسه إلى أسفل نصف محيط الدائرة التى الالف مساوية لقطرها . والدال والذال كل منهما مساو لطول الألف إذا قوس وكل من الراء والزاى مساو لربع محيط الدائرة وهكذا على هذا

النمط .

النسبة الموسيقية في جسم الانسان

إن النطفة إذا سلمت في الرحم من الآفات العارضة ومن فساد الاخلاط وتغيير المزاج خرج الطفل من الرحم صحيح البدن تام الصورة وكل طول قامته ثمانية أشبار بشبره. من رأس ركبته إلى أسفل قدميه شبران . ومن ركبتيه إلى حقويه شبران . ومن رأس فؤاده إلى مفرق رأسه شبران . ومن حقويه إلى رأس فؤاده شبران. وما بين أصابع يديه إذا مدهما يسرة ويمنة كالطائر إذا مد جناحيه ثمانية أشبار النصف من ذلك عند ترقوته والربع عند مرفقيه ومساحة وجهه من رأس ذقنه إلى منبت الشعر فوق جبينه شبر وثمن، والبعد ما بين أذنيه شبر وربع وطول قدمه شبر وربع مساو للبعد مابين الاذنين في الوجه، وهكذا فكل عضو من الأعضاء بنسبة مقياسها الشبر على القدر الأكمل الأفضل فان الثمن والربع ونحوها من النسب الفاضلة وما عداها فردىء في الموسيقى:

النسبة في الحجر ينزل من أعلى إلى أسفل

إذا سقط حجر من أعلى إلى أسفل الفيناء، في الثانية الأولى يقطع ١٦ قدما انجليزيا وفي الثانية الثانية نضرب هذا العدد في ٣ ثم في ٥ ثم في ٧ ثم في ٩ ثم في ١١ ثم في ١٣ وهكذا إلى مالا يتناهى . وهناك طريقة أخرى أن نعد الثواني ونربعها ونضرب المربع في ١٦ فيكون الحاصل ماقطعه الحجر جميعه فإذا مضت ثانيتان ضربنا ٢×٢ = ٤ ونضربها في ١٦ ثم ٩×١٦ ثم ١٦×١٦ ثم ٢٥×١٦ ثم ٣٦×١٦ وهكذا الا لتعجبون من هذا النظام العجيب في العوالم وكيف سرت الموسيقى في الشعر والغناء ونغمات الطيور وجسم الانسان ونزول الحجر .

النسب الموسيقية في رقاص الساعة

إذا كان رقاصان يهتزان وكانا أحدهما ٤ والآخر اثنين فان ذا الأربعة إذا اهتز مرتين اضطرب الآخر (٤) وهكذا ٣، ٩ وهكذا إذا كان أحدهما ٤ والثاني ١٦ فان الأخير يهتز أربعا والأول ١٦ بعكس الجذر في الجميع.

النسبة الموسيقية في الأجسام الطافية فوق الماء من قاعدة ارشميدس

كل جسم يطفو فوق الماء فان مكانه المقعر يسع من الماء بمقدار وزنه وكل جسمين طفو على الماء فان نسبة مقعر أحدهما إلى مقعر الآخر كنسبة ثقل أحدهما إلى ثقل الآخر، وهكذا النسبة في تركيب النبات من شجر ونجم مما يطول شرحه ولا يسع المقام تفصيله.

وهذا مما أرشد اليه فيثاغورس اذ قال أصل العالم الحساب وقيل أيضاً العالم موسيقى وقال الله تعالى (وكل شيء عنده بمقدار) وقال: (وان من شيء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم).

وقال (إن الله سريع الحساب) وقال: (الذى أحسن كل شيء خلقه) وقال:

(وكفى بنا حاسبين) وقال: (.. وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر الا في كتاب مبين) وهذه هي الحكمة العالية.

على نفسه فليبك من ضاع عمره
وليس له منها نصيب ولا سهم

النسبة الموسيقية في الافلاك

ترى حركات زحل والمشترى منتظمة إذ يجتمعان كل عشرين سنة مرة في برج فإذا اجتمعا في الحمل فإنهما يجتمعان بعد عشرين سنة في القوس وبعد عشرين أخرى في الاسد ثم يعود الدور في هذه المثلثة ثلاث كرات، وتكون القرانات ١٢ مرة في ٢٤٠ سنة ثم يجتمعان في مثلثة أخرى وهو الثور والجدى والسنبلة في اثنتي عشرة مقارنة مثل ما تقدم في مدة ٢٤٠ سنة، ثم يقترنان في مثلثة أخرى كذلك في الجوزاء والدلو والميزان وهكذا يتم الدور في ٩٦٠ سنة وهو القران الأكبر ويتكرر أبدا وأمدا من يوم أن خلق الله السموات والأرض إلى أن يفنى العالم.

نوادر الفلاسفة في الموسيقى

يقال إنه اجتمعت جماعة من الحكماء والفلاسفة في دعوة ملك من الملوك فأمر أن يكتب جميع مايتكلمون به من الحكمة فلما غنى الموسيقار لحنا مطربا قال أحد الحكماء.

قالوا إن الغناء فضيلة تعذر على النطق إظهارها ولم يتعذر على النفس إخراجها فاخرجتها النفس لحنا موزونا فلما سمعتها الطبيعة استلذتها وفرحت وسرت بها فاسمعوا من النفس حديثها ومناجاتها ودعوا الطبيعة والتأمل لزينتها لئلا تغركم.

(قال آخر) .

احذروا عند استماع الموسيقار أن تثور بكم شهوات النفس البهيمية نحو زينة الطبيعة فتميل بكم عن سنن الهدى وتصدكم عن مناجاة النفس العليا .

(قال آخر) .

الموسيقار حرك النفس نحو قواها الشريفة من الحلم والجود والشجاعة والعدل والكرم والرأفة ودع الطبيعة لا تحرك شهواتها البهيمية.

(قال آخر) .

إن الموسيقار إذا كان حاذقا بصنعته حرك النفس نحو الفضائل ونفى عنها الرذائل.

(قال آخر) .

حكى أنه سمع فيلسوف نغمة القينات فقال لتلميذه امض بنا نحو هذا الموسيقار لعله يفيدنا صورة شريفة. فلما قرب منه سمع لحنا غير موزون ونغمة غير طبيعية. فقال لتلميذه زعم أهل الكهانة أن صوت البوم يدل على موت انسان فان كان ما قالوه حقا فان صوت هذا الموسيقار يدل على موت البوم.

(قال آخر) .

إن الموسيقار وإن كان ليس بحيوان فهو ناطق فصيح يخبر عن أسرار النفوس وضمائر القلوب ولكن كلامه أعجمي يحتاج إلى الترجمان لأن ألفاظه بسيطة ليس لها حروف تنعجم.

(قال آخر) .

إنما تشخص أبصار النفوس الجزئية نحو المحاسن اشتياقا اليها لما بينهما من المجانسة لأن هذا العالم من آثار النفس الكلية.





ومهمة المحافظة على التراث

أماني عبدالحميد

عقد مهرجان ومؤتمر الموسيقي العربية في أوائل نوفمبر الماضي.. وشاركت فيه ١٤ دولة بفرقها الموسيقيةوباحثيها .
كما قدمت ألوانا من الموسيقي الأصيلة، انطلاقا من إحياء تراثنا الموسيقي.
والمهرجان بدوراته التسع قدم جديدا، حيث بدأنا نري اهتمام الدول العربية بالموسيقي الشرقية من خلال ما يقدم في المهرجان، سواء هذه الأصوات الجميلة التي تكتشف أو هذه الموضوعات المهمة التي تناقش في المؤتمر، من خلال باحثين لهم دورهم البارز في التاريخ العلمي وتطور الموسيقي العربية.



وزير الثقافة ود. رتيبة الحفنى وسمير فرج فى افتتاح مهرجان الموسيقى العربية

فى هذه الدورة تمت مناقشة ثلاثة محاور هى: - الموال فى البلاد العربية أغانى ألعاب الطفل، كتاب الأغانى لابى الفرج الأصفهانى ، وجاءت نتائج المناقشات لتؤكد على توجيه العناية بأغانى الطفل، ودورها التربوى المنشود، وتوظيف المادة الموسيقية العربية ايقاعيا ومقاميا، والتركيز على تشجيع ظاهرة الارتجال الغنائى.

أول مؤتمر للموسيقى

وقد عقد سنة ١٩٣٢ أول مؤتمر للموسيقى العربية كانطلاقة أولى للدراسات الموسيقية على أرض مصر مع بدايات الإذاعتين اللاسلكية الأهلية والحكومية النظامية وبشائر الفيلم الغنائى العربى.. وجاءت توصيات المؤتمر لتؤكد على ترقية الموسيقى العربية والاحتفاظ بطابعها، وحصر المقامات المستعملة فى مصر بوجه خاص وترتيبها حسب اجناسها الأساسية ومقارنة المستخدم منها فى مصر بما يستخدم فى البلاد العربية . وفى عام ١٩٦٨ أى بعد عام

واحد من تأسيس فرقة الموسيقى العربية، عقد المؤتمر الثانى «ببغداد» وأوصى بتنفيذ توصيات مؤتمر ١٩٣٢ وانشاء مجمع للموسيقى العربية على غرار مجمع اللغة العربية، وإصدار معجم لمصطلحات الموسيقى العربية .

وفى عام ١٩٦٩ انعقد المؤتمر الثالث فى مدينة «فاس» بالمغرب ، ثم دعت وزارة الثقافة المصرية إلى عقد مؤتمر رابع فى القاهرة فى العام نفسه يتألف من أربع لجان كبرى تضم مائة عضو .. لجنة التعليم والثقافة الموسيقية ولجنة التاريخ والتراث والفنون الشعبية، ولجنة السلم والآلات والمقامات وضمت ١٩ عضواً منهم عبدالحليم نويره وفاضل الشوا وكمال الطويل ومحمد الموجى وأحمد فؤاد حسن، ولجنة التأليف والموسيقى المتطورة وضمت جمال عبدالرحيم ورياض السنباطى وعلى إسماعيل ومنير مراد ورفعت جرانه.

ثم توقف المؤتمر ليعود وينعقد عام ١٩٩٢ فى مهرجان حافل بمناسبة مرور خمسة وعشرين عاما على انشاء فرقة الموسيقى العربية.

ويسرد لنا الأستاذ كمال النجمى فى كتابه «الغناء المصرى - مطربون ومستمعون» أن محمد عبدالوهاب عندما وجهت له الدعوة لحضور مؤتمر بغداد عام ١٩٦٨ اشترط ألا يسافر بالطائرة على أن ينتقل إلى «اللاذقية» بحرا، ثم تستقبله سيارة كبيرة تتألف من قاطرة ومقطورة تحتوى على سرير ومكتبة ومائدة طعام ودورة مياه وبها راديو وتليفزيون ومكتبه لتنقله برا إلى «حلب» ثم إلى الحدود العراقية ومنها إلى «بغداد». كما اشترط أن يجلس فى المؤتمر صامتا لا يتكلم ويكفى ان يلتقط مصورو الصحف والتليفزيون بعض الصور له ولمن حوله من أعضاء المؤتمر علما بأن ثمن تلك السيارة يصل إلى نصف مليون دولار آنذاك.

دراسات حول الموال

وقد نوقشت عدة بحوث فى المؤتمر حول الموال فى مصر والبلاد العربية. وفن الموال يعد نمطا غنائيا وقالبا موسيقيا ولونا عربيا متميزا ذا عراقة وأصالة كبرى فى تاريخ الفنون العربية، وقد استطاع أن يصل إلى اعماق الوجدان ويمس المشاعر والعواطف ويقدم صورة حقيقية صادقة عن طبيعة أحلام وأفكار الفئات الاجتماعية المختلفة للعالم العربى ، كما أنه يجسد عبقرية عربية فى التأليف الشعرى والموسيقى وفى الأداء الغنائى. وقد شهد مهرجان الموسيقى العربية التاسع عددا من الدراسات تقدم بها باحثون من بعض الدول العربية لتأريخ أصل الموال ونشأته وتطوره . ونحاول أن نلقى نظرة سريعة على أهم ما جاء فيها لمحاولة فهم هذا الفن الأصيل.



واحدة من الحفلات الموسيقية خلال المهرجان

أقدم الانماط الغنائية

فــي بـحـث عـن «المـوال فــي الـغـنـاء العربى» رصـد الأستاذ مـحـمـد الكحلاوى وهو باحث جامعى من تونس صلة الموال بتحـولات المجتمع العربى عبر تاريخه الثقافى والاجتماعى والفنى مؤكداً أنه من أقدم الأنماط الغنائية العربية التى ظهرت فى المجتمع العربى منذ العصر الأموى فى أشكال موسيقية مختلفة متحررة من الأوزان المـحـددة، ويذكـر أن المـوال من العناصـر الضـرورية لتـحـقيق الطرب فى الوصلة الغنائية ، وذلك أن الجمل اللحنية فى إنشـاء المواويل العـربيـة تتـمـيـز بارتكازها على السلم الموسـيـقى فى درجاته المقامية الأساسية .

ظهور الموال ..

أكد البـاحـثون أن أول من نطق الموال هم أهل مدينة «واسط» بالعراق التى بناها الحجاج بن يوسف الثقفى عام ٨٢ هجرية وجعلها داراً للإمارة..

وكـمـا جـاء فى كـتـاب مـحـمـد بن اسماعيل شـهاب الدين «سـفـينة الملك»

المنشور عام ١٨٤٢ بمصر أن أول بيت نطق به أهل «واسط».

منازل كنت فيها بعدك درس

خراب لا يصلح بها لا العزاء ولا العرس

فأين عينيك تنظر فيها القرس

تحكم وألسنة المداح فيها خرس

فن الموال في مصر

ومن العراق انتقل فن الموال الى مصر التي شغفت به واتقنته إتقانها لأشكال الغناء الأخرى كالموشح والقصيدة والدور وليتخذ في اللغة العامية لغة رسمية له.. ويعد القرن التاسع عشر قرن ازدهار له لاقى صدى كبيرا في مجالس الباشوات والاعيان بالسرادقات والمقاهي الفنية .

كما ساهم مغنيون وموسيقيون كبار في تطويره وتوسيع دوائره ابتداء من الشيخ «عبدالرحيم المسلوب» مروراً بعبده الحامولي ووصولا إلى زكريا أحمد وصالح عبدالحي ومحمد عبدالوهاب والسيد مكاوى.

ويؤكد كمال النجمي في كتابة الغناء المصرى مطربون ومستمعون» أن آخر من غنى الموال فأجاده وأطرب المستمعين هو المطرب محمد عبدالمطلب .

وقد برع في غناء الموال الأعرج الذى سمى بهذا الاسم لنظمه من خمس قواف متقابله بينها جناس لفظى تام إلا قافية واحدة منها لا تدخل في هذا الجناس ومن أمثال الموال الأعرج:

ليه الحبيب طال جفاه والحب داعى له

والدمع ع الخد يجرى يوم وداعى له

ياهل ترى الهجر منه فيه دواعى له

حتى رماني بسهم اللحظ في نيران

وبرضه يحمل أساه والقلب داعي له

وفي دراسة الدكتور طارق يوسف بجامعة حلون عن «الموال في مصر» يوضح ان أهل الصعيد قسموه إلى نوعين الأول الموال الأحمر: حول الحماسة والحرب والحكم مثل:

في الوش صاحب حميم وفى الغياب تعبان

يابو براقش بتلبس كل يوم ألوان

توب الخداع انكشف لما المخبى بان

وأظهرت يا نمر انيابك وأظفارك

قالوا الدهان مع الوبر لن ينفع الجربان

والثاني الموال الأخضر ويشمل الغزل والنسب ويمتاز برقة كلماته مثل: -

جاءت بسلة من التفاح قد فاحت

قمحية اللون معها أرواحنا راحت

من حب زمان نهديها اذا ارتاحت

يجيب لها قرطمية.. كلها لاحت

ويرى الباحث أن المصريين ينظمون

الموال على اختلاف مراتبهم سواء المتعلم منهم أو الجاهل ،ولهم من الأمثال والحكم ومعانى الوجد والصبابة روائع ومثال على ذلك.

يا واخد الرد أوعى يخدعك ماله
تحتار فى طبعه وتتعذب بأفعاله
حبل الوداد إن وصلته يقطع أحباله
تقضى عمرك حليف الفكر والأحزان
ويذهب المال ويبقى القرد على حاله

الموال فى سوريا

يرى الباحثون أن أرض الشام لعبت دوراً فى تطوير الموال من صفته الأساسية كفن أدبى يحتمل الاعراب واللحن إلى نوع من الغناء الشعبى الملحون.. ويصنف الموال السورى من حيث الأغراض واللون والصنعة.. فهناك الموال الابيض والزهرى والاخضر والاحمر والعادي . أما الموال السائد فى سوريا هو «الموال الشرقاوى» ويسمى أيضا «بالنعمانى» أو «الزهيرى» ولا يشترط فى كلماته ان تكون فصيحة وأغلبها ينطق ساكنا غير معرب وباللهجة البدوية . ويتم الغناء بمرافقة آلة موسيقية كالناى أو العود والدربكة.. ومثال على ذلك.

يا منية القلب لو عاملت بالقانون
داويت قلبى بما يغنى عن القانون
لك حاجب كلما أنظره ألقى نون
واللفظ أحلى من الطنبور والقانون

الموال فى لبنان

أخذ اللبنانيون الموال وأدخلوا عليه بعض التغييرات واستخدموا لغتهم العامية ولطفوه ورققوه ووسعوا دائرة موضوعاته وأسموه «العتابا» وهى أغان يدور معظمها حول الحب وما يلاقيه المحبوب من عتاب ووصال وصدود وسهر وأرق.

ويروى بعضهم حكاية شعبية حول العتابا تقول إن فلاحا كان يقيم فى جبل الأكراد وكانت له إمرأة جميلة اسمها «عتابا» رآها اقطاعى المنطقة فأحبها وانتزعها من زوجها ولم يستطع الفلاح استردادها أو كتمان غيظه فهجر قريته وغنى وهو فى غمرة الألم:

عتابا بين برمى وبين لفتى
عتابا ليس لغيرى ولفتى
أنا ماروح للقاضى ولا إفتى
عتابا بالثلاثة مطلقا

كما ظهر موال «العتابا» فى فلسطين خاصة المناطق المتاخمة للبنان، كما ارتبط فن الموال بالأغنية الشعبية فى تونس وتداوله الشعراء والمغنيون المنتشرون فى الأرياف للتعبير عن المعاناة والأمجاد والافتخار بالشهامة والحكايات والملاحم والحكم والأمثال..



حرب الثقافة

تأليف: د. سمير سرحان

«حرب الثقافة» يضم الكتاب مجموعة متنوعة من المقالات الصحفية. يتناول بعض القضايا العامة الشائكة بجرأة وفي بعض الأحيان بسخرية لاذعة. للوهلة الأولى يتوقع القارئ الدخول في عالم ملئ بالصراعات الدامية والحوارات المعقدة لما يحمله عنوان الكتاب من دلالات. ولكن الحقيقة أنه ملئ بأوجاع وهموم تثقل قلب كل مواطن مصرى وعربى، وتمس أوتاراً حساسة لواقع مرير أصبحنا نعيشه فى مواقفنا الحياتية. فى البداية يوجه الكاتب هجوماً شرساً على الأنظمة العربية الحاكمة لقيامها بدور فى تفتيت العقل العربى وقتلها حلم المثقف العربى بمستقبل أفضل للأمة العربية وعرقلة قيامه بدوره القيادى الذى طالما لعبه خلال عصر التنوير، مما أدى إلى انعزال الفن والأدب عن حركة المجتمع، ودفع المثقف إلى أن يكون على هامش المجتمع وليس فى مركز القيادة.

ويرصد الكتاب أوجاع أخرى تصيب قلب مجتمعنا، ويلقى الضوء على شخصيات لكل منها دورها المؤثر فى المجتمع بداية بالموظف البسيط المطحون الذى لا يملك من الدنيا سوى التخلف والركود والعجز عن مواكبة ركب التطور السريع لعصر الكمبيوتر والمعلومات، أو عامل البناء العائد من دول الخليج ويحمل فوق كتفه مروحة أو تليفزيون ملون معتقداً أنه حقق المنى.

ثم يرتفع بنا الكتاب إلى مصاف رموز الفكر المعاصر فى مصر ليسرد لنا تأملاته حول شخصيات أثير حولها جدال واسع أمثال يوسف إدريس، وفرج فودة، وغالى شكرى فهو يرى أن «إدريس» حارب «الحال المايل» بأعماله الأدبية الخالدة «وفودة» حارب الإرهاب بدمائه وجرأته، و«شكرى» بإيمانه بالحرية والتسامح إيمانا حقيقيا وقف أمام التعصب وضيق الأفق.

ويرصد الكاتب بعض أنواع التوتر الاجتماعى الذى أصاب مجتمعنا مثل انهيار الطبقة الوسطى وتحولنا إلى طبقة أغنياء يملكون اليخوت ويعيشون حياة البذخ والثراء الفاحش، وطبقة مطحونة تعيش تحت خط الفقر فى المقابر والعشوائيات ودواوين الحكومة.

وفى النهاية يعتبر كتاب «حرب الثقافة» دعوة للقضاء على القيم الفاسدة التى اجتاحت مجتمعنا ولمكافحة فقدان الإحساس بالمواطنين لدى أغلب الشباب وينادى بالتمسك بلحظات البراءة والطهر فى حياتنا.



مواقف النفرى بين التفسير والاستلهام

تأليف :د.يحيى الرخاوى
د. إيهاب الخراط

عن أحد أبرز متصوفة الإسلام «النفرى» جا هذا الكتاب لأستاذ علم النفس الشهير د.يحيى الرخاوى «المسلم» ود.إيهاب خراط «المسيحى» وهى محاولة جديدة وفريدة لاجتماع مؤلفين «قارئين مستلهمين» ينتميان إلى دينين مختلفين لقراءة نص واحد واستلهامه وتفسيره.

ومنهج الاستلهام الذى يطرحه المؤلفان هنا لا يقتربان من جزئيات النص ليحشرها فى قوالب لغوية أو علمية جاهزة مسبقا، قوالب لم تُعد لمفردات مثل هذه النصوص أصلا، ولا بمقدورها أن تستوعب مضمونها.

حيث يقوم الاستلهام بالتعامل مع النص القادر الواعد المفيد كوحى متجدد، باعتبار أن رسالة النص الخالد بمستوياتها المختلفة قادرة على تحريك ما يقابلها فى المتلقى، فى أحواله المختلفة، وأزمانه المختلفة، فيقرأها فعلا، أو قولا، أو إبداعا.

ولكن من هو النفرى، ذلك المتصوف الفريد؟

يذكر أحمد بهجت فى صندوق الدنيا بالأهرام «يناير ٢٠٠٠» أن النفرى عندما ظهر لفه غموض كغموض عصره، فنحن لا نعرف من هو ولانعرف لماذا لم يتحدث عن مصنفاته وأساتذته أو شيوخه، ومن نصوصه قوله:

«إذا ضقت ذرعا بدواعى نفسك فاسكن إلى زوجتك، فإن ضقت فإلى أهل علمك، فإن ضقت فإلى أهل معرفتك، فإن ضقت فسر فى الأرض، فإن ضقت فالزم بابى، فإن ضقت فيه فاصبر، فإن ضقت فيه فاصبر «كررها حتى قال «اصبر ينفتح لك نور».

وإذا كان هذا الكتاب يحتوى على تجربة مثيرة وجديدة فى تناول نصوص لعالم صوفى واستلهامها من قبل هذين الباحثين عن الحقيقة، فإنها تجربة يجب دراستها بعمق واستخلاص نتائجها، والاستفادة منها لجرأتها وجدتها.

وإذا كان هذا الكتاب المشترك الجديد قد ضم إلى أعمال يحيى الرخاوى الكاملة، فإنه بذلك يحمل معنى التكامل مع آخر، وليس فقط تكامل الأعمال مع بعضها البعض.



السطو الصهيوني على الموسيقى العربية

تأليف: فرج العنتري

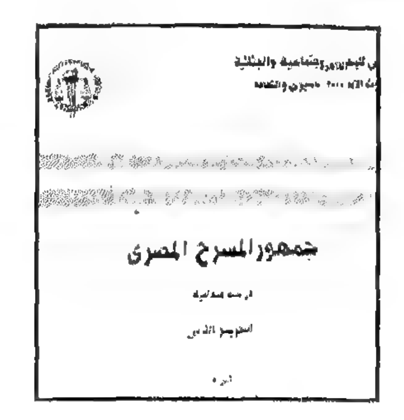
هذه هى الطبعة الثانية عن الكتب المهمة عن الموسيقى العربية، وقد حرص المؤلف على تزويد الطبعة الجديدة بكل ما وجده من معلومات جديدة عن موضوع المحاولات الصهيونية للتسلل إلى تراثنا الفنى عامة والموسيقى بشكل خاص منذ وقت مبكر.

أورد المؤلف دوافع ومبررات الدور الرسمى لإسماعيل صدقى باشا رئيس الوزراء فى فترة حكومته الأولى من ١٩٣٠ - ١٩٣٣، حيث سهل ويسر لعقد المؤتمر الدولى للموسيقى العربية والذى شاركت فيه العديد من الدول الأجنبية والعربية، برغم الظروف السياسية الصعبة التى كانت تمر بها مصر فى ذلك الوقت.

ويرى الباحث أنه كانت هناك خطة صهيونية محكمة للاستفادة من هذا المؤتمر المهم.

وحول تعيين المؤلف فرج العنترى وكشفه للمخطط الصهيونى ضد الموسيقى العربية، جاءت فصول هذا الكتاب والتى اشتملت على:

- التخطيط الصهيونى لمؤتمر الموسيقى العربية سنة ١٩٣٢.
- مسح جنوب سيناء مرتين (عام ١٩٦٨ - ١٩٧١).
- الاختراق الإسرائيلى من خلال التسلل إلى مركز فنوننا الشعبية.
- نوبات الانتحال الإسرائيلى (ويقصد به بالذات انتحال بناء الأهرامات . انتحال تراث داود حسنى - انتحال آلة الهارب الفرعونية - قصة محاولات انتحال الفنانة ليلى مراد فى دنياها وآخرتها برغم اعتزازها بمصريتها وبدينها الإسلامى).
- فى أجندة موسيقى التطبيع يتناول المؤلف حكايات محاولات التطبيع فى مجال الموسيقى فى مصر وإسرائيل .
- روايته لما حدث لبعض فرق الموسيقى العربية وفرقة القاهرة للفنون الشعبية أثناء ذهابها إلى إسرائيل عام ١٩٨٢ وبأسلوب الاستقصاء والبحث عن المصادر والمراجع والأدلة والوقائع يمضى فرج العنترى فى سرد كل المحاولات الصهيونية للسطو على الموسيقى العربية، من خلال الانتحال والتشويه والتداخل منذ الثلاثينيات حتى وقتنا هذا.



جمهور المسرح المصرى دراسة ميدانية

إعداد : نسرين البغدادى

هل المسرح .. نص .. أم جمهور ؟

المسرح نص جماهيرى ... فالجمهور محور أساسى ، حيث يملك استجابات عديدة متاحة . حيث يمكنه أن يقبل على عرض ما ، أو يبتعد عنه .

وحول العلاقة بين الاثنين صدرت دراسة ميدانية باسم «جمهور المسرح المصرى» من إعداد المركز القومى للبحوث الاجتماعية ، أعدته الدكتورة نسرين البغدادى..

أهم ما فى هذه الدراسة هو أنها ميدانية توصلت فيها الباحثة إلى أن أكثر الفئات العمرية ارتياداً للمسرح تقع فى الفترة مابين ٢٠ إلى أقل من ٤٠ سنة . وأن الحالة الاجتماعية لأغلب المشاهدين أنهم غير متزوجين ، وأغلبهم من ذوى المؤهل الجامعى ، ومن أصحاب المهن العليا .

وخلصت الدراسة إلى أن أكثر من نصف العينة من الجمهور يتردد على المسرح بانتظام ، ويفضلون الذهاب للرؤية طوال أيام الأسبوع لاسيما الخميس .. والهدف الأشمل للمشاهدة هو التسلية، ثم حب المسرح .

وفى الدراسة إشارة إلى المعوقات التى تقلل من التردد على المسرح ، منها عدم وجود وقت فراغ ، وأحيانا ارتفاع ثمن التذاكر . وأرجع الجمهور سبب تفضيله للمسرح إلى الرؤية الحية به. بينما لم تجذ الجماهير المعتادة على رؤية المسرح مشاهدة المسرحيات من خلال الفيديو .

وعن أهم عناصر المسرحية التى تعجب بها الجماهير، من خلال العينة صاحبة البحث ، كانت الفكرة التى تعتمد عليها المسرحية، ثم الأداء الجيد هما العاملان الأهم فى نسبة الإقبال على المشاهدة.

وجاءت المسرحية الكوميدية كأفضل نوعيات المسرحيات المفضلة عليها المسرحية الهادفة ، بينما تراجعت المسرحية الاجتماعية والسياسية، وعن أسعار التذاكر ، فإن الغالبية امتدحت فى مسرح الدولة، وكانت مواعيد العرض الملائمة هى أيضا لمسارح الدولة .

وقد طرحت الدراسة سؤالين مهمين :

١ - هل معاصرة جيل ما لأحداث تاريخية بعينها، كفيلة بأن تجعله يتلقى الفكرة بنفس قصد المؤلف..

٢ - هل اختلاف التأويل، يؤدى إلى فشل المسرحية .



فؤاد صروف





انطوان الجميل

صحافة زمان

بقلم : وديع فلسطين

قبل شهرين تحدث عدد من زملائنا الصحفيين - وأقول زملاءنا على الرغم من أننى أنتمى إلى جيل سابق عليهم - عن تجاربهم فى الصحافة، وقد أوحى لى هذا أن أتحدث بدورى عن صحافة زمان التى عاصرتها واشتغلت بها منذ تخرجى فى قسم الصحافة بالجامعة الأمريكية بالقاهرة فى عام ١٩٤٢ وإلى أن وجدت نفسى خارج المهنة فى عام ١٩٥٢ بعد اعتقال لمدة ثلاثة أيام لا أعرف سببه حتى الآن وكان هذا فى حد ذاته كافيا لأنِ يقال لى إننى مغضوب علىَّ من الثورة، مع أننى لم أكتب حرفا واحدا ضدها ، ولا هى مكنتنى من ذلك - حتى لو استطعت مع قوتها الباطشة - لأننى أصبحت فجأة بلا عمل صحفى أمارس فيه مهنتنى التى تخصصت فيها وقمت بتدريس علومها فى الجامعة الأمريكية على مدى عشر سنوات وأصدرت ثلاثة كتب عن الصحافة وفنونها، ولعل فى هذا الحديث مايعرف ناشئة الصحافة بأحوالها فى النصف الثانى من القرن المنقضى .



أمين [illegible]



جورجي زيدان





لويس جريس

الدراسة الجامعية للصحافة

عندما أنشئ قسم الصحافة فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة فى عام ١٩٣٧ كان يمثل وقتها أول معهد لتدريس علوم الصحافة على المستوى الجامعى فى كل الشرق العربى، وارتأت الجامعة وقتها أن تستعين بالدكتور «لايل سبنسر» عميد كلية الصحافة بجامعة «سيراكوز» وله طائفة من الكتب المعتمدة عن استقاء الأنباء وكتابة المقالات، وهذا استعان بصحفى أمريكى محترف هو «لزلى نيكولز» الذى كان يراسل عددا من وكالات الأنباء الأمريكية والذى تولى رئاسة القسم بعد السنة التأسيسية الأولى. وكان من أوائل الأساتذة فيه الدكتور فؤاد صروف محرر مجلة «المقتطف» والأديب الصحفى سامى الجريدينى وكان يحرر فى مجلات «دار الهلال» والدكتور رياض شمس أستاذ القانون والمتخصص فى قوانين الصحافة والحريات عموما. وكان منهاج الدراسة يركز طبعا على جميع فنون الصحافة التحريرية والإدارية، هذا إلى جانب تدريس اللغة الإنجليزية أدبا وبلاغة إلى حد الاتقان، والإلمام بفروع المعرفة التى لا غنى للصحفى عن مواجهتها فى الحياة العملية، كالاقتصاد والمالية العامة والتاريخ وعلم النفس وعلم الاجتماع، إضافة اللغة العربية. وكان الأساتذة لايكتفون بما يلقونه علينا من محاضرات ، بل يضيفون إلى ذلك دعوة عدد من الصحفيين العاملين فى المهنة ليحدثونا عن تجاربهم ، أذكر منهم على سبيل المثال نجيب كنعان سكرتير تحرير الأهرام، وجولد شتين محرر الإجبشيان ميل وإيرل محرر «الإجبشيان جازيت» ومصطفى أمين وكريم ثابت وغيرهم. واهتم القسم بصورة خاصة بالناحية العملية للصحافة، فكان الطلاب يحررون جريدة «القافلة» الجامعية، وهى جريدة أسبوعية مازالت تصدر حتى اليوم باللغتين العربية والإنجليزية ويحررها ويديرها الطلاب. وكأنها جريدة عامة سيارة، فيكلف رئيس التحرير المحررين بتغطية أخبار الجامعة وإجراء أحاديث مع الأساتذة والطلاب بينما يكلف مدير الإدارة مساعديه لكى

يحصلوا على إعلانات للجريدة، وتتغير رئاسة التحرير والمحررون مع مجىء أجيال جديدة من الطلبة. وكنا، إلى جانب ذلك، نقوم بزيارات ميدانية إلى دور الصحف لمراقبة عمليات جمع الحروف وتنفيذ الصفحات والطباعة، وانتفعنا من محاضرة ألقاها علينا الدكتور سيد أبو النجا فى إدارة الصحف .

وطبعا كان عدد الطلاب في السنين الأولى للمعهد قليلا جدا، أولا لأن الناس كانت تجهل وجود مثل هذا المعهد، وثانيا لأن الصحافة لم تكن تشترط للعمل فيها الحصول على شهادة جامعية في التخصص الصحفى، بل لم تكن تشترط الحصول على أى شهادة جامعية . فكان يعمل بالصحافة كثيرون ممن لم يعرفوا طريق الجامعة أصلا.

وكان رئيس الجامعة الأول الدكتور «تشارلس وطسن» يحرص على تدريسنا الفلسفة بنفسه وكان يقول لنا إن الجامعة وإن كانت تغطى فى برامجها جميع متطلبات الصحافة العملية، إلا أننا إنما نقدم إليكم مجرد مفاتيح بها تستطيعون ولوج كل مايعترض حياتكم من مستغلقات أو تحدياتٍ أو مشكلات .

وكانت مدة الدراسة ثلاث سنين، زيدت فيما بعد إلى أربعٍ تنتهى بمنح الطالب درجة بكالوريوس فى الأدب مع التخصص فى الصحافة ولكنها شهادة لم يكن معترفا بها فى مصر، ولا كانت تهيىء حاملها للعمل فى الجهاز الحكومى، وإن كانت الجامعات فى الولايات المتحدة اعترفت بها منذ بدء منحها، وأتيح للدفعات الأولى من خريجيها متابعة دراساتهم العليا فى أمريكا، أما الدفعات التالية التى تزامنت مع الحرب العالمية الثانية - وكنت من اعضائها - فقد تعذر سفرهم بسبب الطوارىء الحربية.

وقد تخرج فى هذا القسم عدد من الصحفيين البارزين الذين شغلوا مناصب قيادية فى الصحف المصرية والعربية والأجنبية . أذكر منهم على سبيل المثال سمير دسوقى الذى عمل محررا فى وكالة «اليونيتدس برس» ثم صار أول مراسل عربى لمجلة «نيوزويك» فى الشرق الأوسط، ومنهم عبد القادر عبد القادر حمزة الذى تولى رئاسة تحرير جريدة «البلاغ» التى أنشأها والده وسميه عبد القادر حمزة باشا، ومنهم المذيعة اللامعة ليلى رستم، ورمسيس نصيف الساعد الأيمن ليوثانت الأمين العام للأمم المتحدة، ولويس جريس رئيس التحرير الأسبق لمجلة «صباح الخير» وأحمد زين ومحمد طنطاوى من مديرى تحرير صحف أخبار اليوم، ومحمد البيلى مستشار وكالة أنباء الشرق الأوسط وإميل سمعان من محررى دار الهلال ومن أصحابها السابقين، وعبد المنعم الزيادى ومشرقى عزيز من أركان راديو صوت أمريكا فى واشنطن والمذيعة المعروفة زينب الحكيم وخيرية خيرى المحررة بأخبار اليوم (وزوجة على أمين) ونوال المحلاوى مؤسسة مركز الأهرام للترجمة والنشر، وأمينة شفيق المحررة بالأهرام وحسن فؤاد من كبار محررى الأهرام وبولس عبد

الملك الذى التحق بالسلك الدبلوماسى الأمريكى وعمل مستشارا صحفيا أمريكيا فى عدد من العواصم العربية، والدكتور حسنى خليفة وهو أول من أنشأ وكالة مصرية للأنباء ومنرفا عبيد محررة مجلة «الطالبة» وغيرهم وغيرهم.

العمل فى توزيع الأهرام

وعقب تخرجى وانتهاء مرحلة الدراسة الجامعية، رغبت فى العمل فى الصحافة فتكرم أستاذى السابق فؤاد صروف بكتابة خطاب تقديم وتوصية إلى فريد بك شقير مدير جريدة الأهرام، وهو قريب له، ولم يكن للأهرام وقتها إلا مدير واحد ورئيس تحرير واحد وفوقهما صاحب الجريدة جبرائيل تقلا باشا، وبمجرد أن وقفت بباب مكتب شقير بك، وحمل الساعى خطاب صروف إليه، استدعانى لمقابلته مرحبا، وكان شابا فى حدود الأربعين من العمر، يوحى إليك بأنه أصغر من ذلك سنا، وهذا أحالنى إلى مدير المستخدمين، وهو شقيق أستاذ الفلسفة الكبير يوسف كرم، فأجرى لى امتحانا فى الترجمة من اللغة العربية إلى اللغة الانجليزية، وبالعكس، وصرفنى على أن يتم اخطارى بالتعيين بخطاب لاحق. وبعد أقل من أسبوع تلقيت من الجريدة خطابا بتعيينى مفتشا بقسم التوزيع وكنت أتوقع أن يكون التعيين فى قسم التحرير. ولكننى اعتبرت أن هذه مجرد خطوة للانضمام إلى صرح الأهرام، أستطيع بعدها الانتقال إلى قسم التحرير .

إدارة الأهرام من الداخل

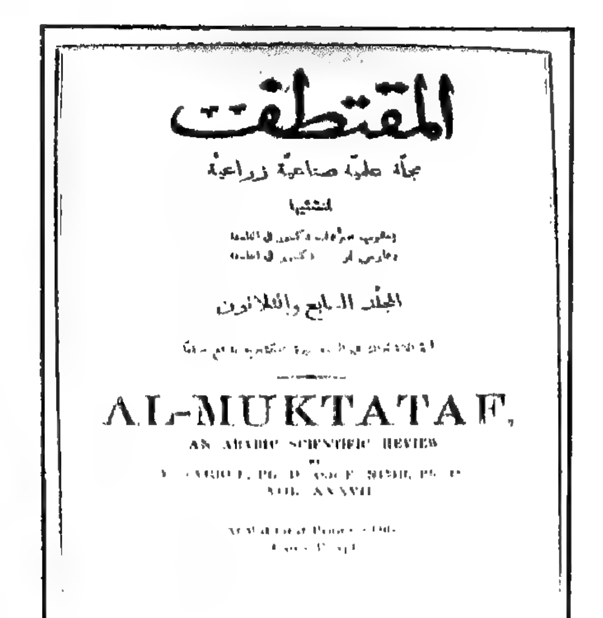
ولكى أعطى القراء فكرة عن إدارة الأهرام فى ذلك الوقت فقد كانت تحتل عمارة بنية اللون فى حين كان التحرير يحتل عمارة رمادية اللون فى شارع مظلوم باشا، وقد هدمت العمارتان أخيرا.

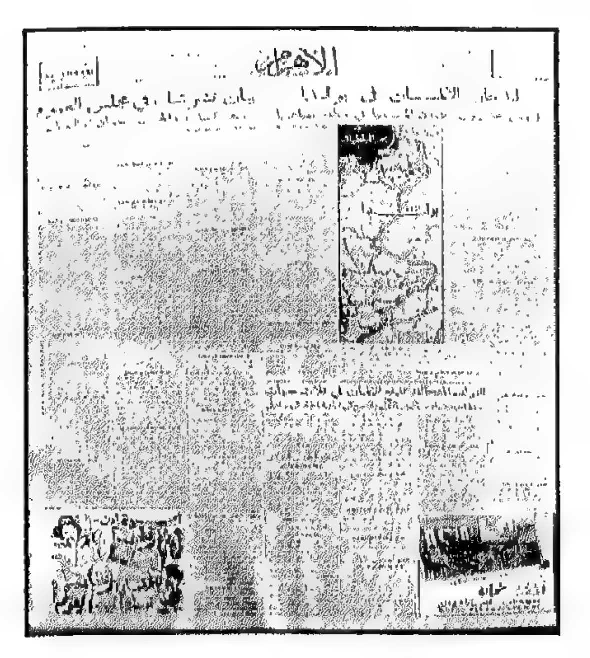
وكان معظم العاملين فى الإدارة من الشوام الذين تخرجوا فى مدرسة الخرنفش . فهناك نقاش وحداد وشادى وضاهر وشدياق وحشيمة وعصفور وأنطى وصيقلى وبحرى وغيرهم . وكان يرأس إدارة الإعلانات يهودى اسم أدجمان، ولم يكن يعمل فى الإدارة من المصريين الذين يحملون درجات جامعية إلا ثلاثة هم صالح جودت وكان يعمل فى قسم الإعلانات «وكثيرون يزعمون أنه كان محررا فى الجريدة» وإسحق يعقوب الذى أصبح مديرا للحسابات وأنا. وحتى قسم التحرير لم يخل من الشوام فرئيس التحرير هو أنطون الجميل باشا، ومساعده عزيز ميرزا بك، وسكرتير التحرير نجيب كنعان ومن المحررين توفيق الشمالى وعادل يوسف وغيرهما.

توزيع الصحف

كنت بحكم عملى مفتشا فى قسم التوزيع مسئولا عن توزيع جريدة الأهرام نفسها وجريدة الجورنال ديجبت الناطقة باللغة الفرنسية لصاحبها إدجار جلاد باشا الى جانب نحو أربعين مجلة وجريدة تصدر باللغات العربية والانجليزية والفرنسية واليونانية.

وقبل إنشاء قسم التوزيع فى الأهرام وفى صحف (تحولت الأقسام بعدها إلى





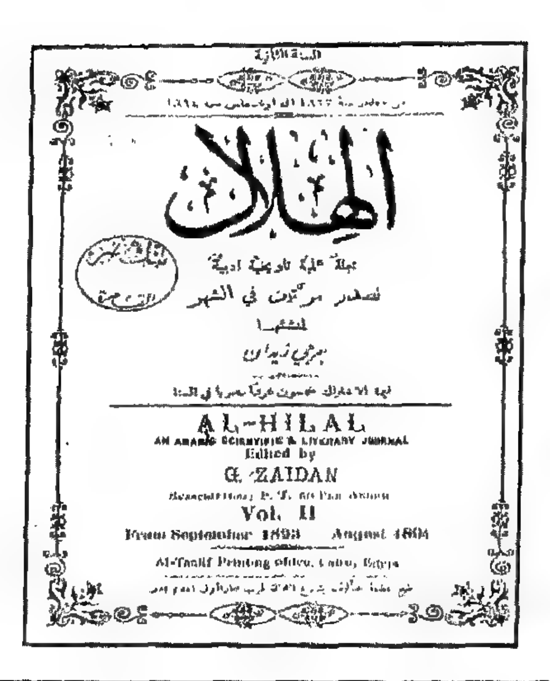
شــركــات توزيع) كــانت عــمليــة توزيع الصــحف تتم من خــلال مــجــمــوعــة من المتعهدين أو المعلمين الذين تضخم نفوذهم بل بطشهم بحيث صار في إمكانهم قتل أي جريدة أو مجلة . ومن الطريف أن من هؤلاء المتعهدين مطربا كان مشهورا وقتها اسـمـه مـاهـر حـسن فـراج. وكـان من أساليبهم المألوفة تخزين كمية التوزيع بكاملهـا من مـجلة من المجـلات، فـلا يعرضونها في السوق ليفسحوا المجال لمجلة منافسة تستأثر بالسوق كلها، وبهذا تموت مجلة وتروج أخرى، وهم يتقاضون الثمن سلفا .

وعندمـا أصـبـحت لهـؤلاء المعلمين إمبراطورية مرهوبة الجانب، قررت جريدة الأهرام ـ وتبعتها بعد ذلك صحف أخرى ـ أن تستقل بعملية التوزيع، فلقيت مقاومة شرسة من المعلمين ونشبت معارك عنيفة انتهت بانتصار أقسام التوزيع، بعدما صـمـدت واسـتطاعت أن تهـزم هذه الإمـبـراطورية ، وبدأت أقسام التـوزيع ترحب بتوزيع الصحف والمجلات الأخرى لتعوضها عن نفقاتها الضخمة ، كما أمكنهـا أن تتـحكم في عـمليـات توزيع «الأهرام» فـلا تتـعـرض لألاعـيب المعلمين لحساب صحف منافسة.

ولوج الميدان الصحفي

وكنت بدافع من حاستي الصحفية أتابع المجلات الكثيرة التي نوزعها، وبدأت أوافيـهـا بمقـالاتي ـ ببـلاش ـ لأن المهم بالنسبة لي هو تنمية هوايتي الصحفية وتحقيق شيء من الشهرة ولو في الوسط الصـحـفي . فكتـبت في مـجـلات منهـا «الشعلة» لصاحبها محمد علي حماد و«رابطة الشباب» لصاحبها الروبي «وقد نسيت اسمه الأول» و«الرسالة» لصاحبها أحمد حسن الزيات و«المقتطف» لمحررها فؤاد صروف و«منبر الشرق» لصاحبها





على الغاياتي و«الراوى الجديد» لصاحبها محمود سمهان وغيرها وغيرها، وكنت إلى جانب هذا أزور أقسام التحرير فى الصحف الأخرى للتعرف على المحررين العاملين فيها، كما كنت أتردد على نقابة الصحفيين فى مقرها القديم بشارع قصر النيل وكان يحتل هذا المكان قبلا مقهى صولت المشهور الذى كان الشاعر أحمد شوقى يتردد عليه، واحتلت المكان الآن عمارة وهبة. إلا أن زياراتى للنقابة لم تلق منى ارتياحا، إذ كنت أرى الاعضاء يتسلون بلعب النرد «الطاولة» ويجلس بعضهم بالجلباب ويلتهمون السندويتشات وهم جالسون فى الباحة، وكان هذا الانطباع السيىء يتفرنى من عضوية النقابة فلم أتقدم لها إلا فى عام ١٩٥١ عندما عرفت أن العضوية العاملة شرط أساسى للاشتغال بالصحافة، مع أنه كان فى وسعى أن أتقدم للعضوية قبل ذلك بسنوات.

فى دار المقطم والمقتطف

وعندما تولى كريم ثابت باشا رئاسة تحرير «المقطم» خلفا لأبيه خليل ثابت باشا الذى استمر يزاول عمله فى الجريدة فيكتب مقالات الصدر اليومية، ويراقب شئونها الإدارية، دعانى للعمل معه، فرحبت بذلك بعدما استيقنت أن دون الانتقال إلى تحرير الأهرام خرط القتاد. فهناك جدار سميك بين قسمى الإدارة والتحرير ولا سبيل إلى عبوره، ولم أكن أعرف كريم ثابت باشا إلا من مطالعتى لمقالاته التى كان ينشرها فى الصحف، كما كنت قد قرأت كتابه عن الملك فاروق فى سلسلة «إقرأ» (وهو كتاب باتت دار المعارف تحذفه من قوائم مطبوعاتها تماما كما كان الشاعر محمود حسن اسماعيل يحذف ديوانه «الملك» من إنتاجه الشعرى) وكتبت وقتها كلمة عن هذا الكتاب فى

«منبر الشرق» .واستقبلني كريم باشا في مكتبه بترحاب ، وقال إنه يود أن يدربني على العمل في جميع أقسام الجريدة، في الترجمة، وفي استقاء الأنباء، وفي مقابلة المسئولين من مصريين وعرب ودبلوماسيين ومن تحقيقات صحفية، ومن حضور المؤتمرات الصحفية وما إلى ذلك. ولكن التدريب لم يشمل النشاط الرياضي أو أخبار الجرائم والحوادث .

ولا بأس أن أصف الحياة في دار «المقتطف والمقطم» في ذلك الوقت فقد كان مقرها يقع في شارع القاصد في حي عابدين، وكان الشارع يعرف قبل ذلك باسم شارع قولة، ثم صار يعرف اليوم باسم شارع محمد محمود باشا، وكان مبنى الجريدة من طابقين، اختار خليل ثابت باشا أن يقيم مع أسرته في الطابق الثاني حتى إذا ما أستيقظ مبكرا توجه إلى آلة «التيكر» لقراءة أخبار العالم ثم متابعة الإذاعات الأجنبية توطئة لكتابة مقاله الافتتاحي . ولكن إقامته في هذا الطابق لم تستمر فانتقل إلى بيته في حي جاردن سيتي، وترك هذا الطابق للمحررين، ولكنه ظل يحضر الى الجريدة في ساعة مبكرة من الصباح ليطالع التلغرافات ويستمع إلى الإذاعات ويعكف على كتابة مقاله. وكان لصاحب الجريدة الدكتور فارس نمر باشا وهو الوحيد الذي بقي على قيد الحياة من أصحابها الأوائل، الدكتور يعقوب صروف وشاهين مكاريوس - مكتب في الطابق الثاني، ولكن مع تجاوزه التسعين من العمر اختار ركنا في مكتب في الطابق الأرضي لأنه لم يكن يشرف إشرافا يوميا على الجريدة ويكتفي بإعداد ملاحظاته على ماينشر فيها ويبعث بها الى المحررين . وعندي مقالات كتبتها وعليها تعليقات من نمر باشا بالقلم الرصاص . وكان مبنى الجريدة يضم في الطابق الثاني غرفة خاصة بمجلة «المقتطف» وهي مجلة علمية شهرية استمرت في الصدور ٧٧ عاما، وتعاقب على رئاسة تحريرها الدكتور يعقوب صروف وفؤاد صروف وبشر فارس وإسماعيل مظهر ونقولا الحداد وسامي الجسري . وكان مكتبي في الطابق الثاني مع زملائي المترجمين، ويشاركنا في الغرفة فريد كامل وهو صحفي دقيق الحجم، كان قد بلغ الثمانين من العمر، يجيد اللغات العربية والانجليزية، والفرنسية إجادة تامة. ولكن إن كتب مقالا بتوقيعه اقتصر على الحرفين الأولين من اسمه «ف.ك» ولهذا بقي مجهولا من مؤرخي الصحافة ومن الأجيال التي جاءت بعد ذلك من الصحفيين.

وكانت في «المقطم» مثل الأهرام مجموعة من الشوام عدا نمر باشا وخليل باشا وكريم باشا ، منهم مكاريوس وقربة واليازجي وجميع الذين رأسوا تحرير «المقتطف» .وكانت الجاليات الشامية في مصر تمثل نسبة محترمة من قراء الجريدة فإذا توجهت إلى النادي الشرقي وهو نادي الشوام الذي كان يقع على ناصية شارعي سليمان باشا ومعروف وتحتل عمارة النصر مكانه اليوم - ألفيت جميع

رواده يحملون معهم «المقطم» التى كانت تصدر فى الثانية مساء لتدرك الموظفين وهم خارجون من مكاتبهم .

وطوال عملى فى هذه الجريدة وفى أقسامها المختلفة، بما فى ذلك اختيارى عضوا فى مجلس تحريرها وإدارتها لم ألمس أى دليل على الاتهام الصارخ الذى يوجه اليها دائما، وهو أنها الجريدة الناطقة بلسان الاستعمار البريطانى، وربما كان هذا الاتهام منصبا على تاريخ مبكر للجريدة، مثل الاتهام الموجه إلى الأهرام فى الفترة نفسها بأنها ذات هوى فرنسى «وكان مؤسساها رعية فرنسية» ومثل الاتهام الموجه إلى صحف الحزب الوطنى بزعامة مصطفى كامل باشا بأنها ذات هوى عثمانى، ولكن الفترة التى عملت فيها فى الجريدة الى أن أغلقت وتوليت كتابة مقالاتها الافتتاحية اليومية بعد تقاعد خليل ثابت باشا، لم يكن للجريدة إلا هوى مصرى عربى . بل لقد كان دفاعنا عن العروبة صارخا لأن استقلال الجريدة عن الأحزاب السياسية جعلها خالصة للقضايا الوطنية والقومية، على خلاف الصحف الحزبية التى كان شغلها الشاغل المعارك الحزبية، وكنا فى ذلك الوقت ندافع عن «العروبة» وليس «القومية العربية» التى أصبحت مذهبا أيديولوجيا مزق العرب تمزيقا وجعلهم ينفرون منها.

إدارة المطبوعات

كانت الصحافة فى ذلك الوقت تابعة لإدارة المطبوعات فى وزارة الداخلية، ولم تكن هناك وزارة للإعلام أو هيئة للاستعلامات وهذه الإدارة هى المسئولة عن جميع شئون الصحافة، بما فى ذلك الرقابة على الصحف ـ عند فرضها ـ ومصادرتها إن نشرت شيئا لاترضى عنه الحكومة، وتعطيلها إن تورطت فى حملات عنيفة على الحكومة، وكنا فى الفترات التى تفرض فيها الرقابة، نجد مندوبا من الداخلية يحضر إلى مقر الجريدة ويطلع على كل مايعد للنشر فيها حتى الإعلانات، ويؤشر بعبارة «لامانع من النشر» على مايجيزه أما ما لايجيزه فإما أن يشطبه أو يحذف منه عبارات أو فقرات، وذلك بناء على التعليمات التى تصدر إليه من رؤسائه فى الداخلية .

وعند حضور الرقيب كنا نسأله عن الممنوعات، بدعوى أننا سنقوم من تلقاء أنفسنا بمحاذرتها ، ولكننا كنا فى الحقيقة نحتال على نشرها، فيتعرض الرقيب للمساءلة أو ينقل من عمله ويؤتى بسواه . وكنا نعتبر الرقيب أبغض شخص فى حياتنا، ولانريد أن نرى وجهه، وعندما عين الصحفى القديم المجاهد توفيق صليب مديرا لإدارة المطبوعات، عرض علىّ أن أعمل فى الأمسيات، الى جانب عملى الصباحى فى الجريدة ـ رقيبا على وكالات الأنباء والصحف الأجنبية، فقلت له: وهل تريدنى أن أصبح أبغض شخصية فى الوجود؟ إننى أمقت الرقابة والرقباء، فكيف أرتضى لنفسى أن أكون رقيبا، ورفضت عرضه.

اختطاف الصحفيين

كانت كل الصحف فى ذلك الوقت

مملوكة ملكية خاصة لأصحابها، وكانت بينها منافسة تصل أحيانا الى حد الضراوة والشدة، ولهذا كان أصحاب الصحف «يختطفون» أى صحفى يعمل فى جريدة منافسة إذا ارتأوا من متابعة نشاطه أنه يعتبر كسبا لها، وهكذا كان الصحفيون ينتقلون من جريدة الى أخرى بإغراء المرتب الأكبر مما أتاح للصحفيين أن يبرزوا بأسمائهم، فقد كانت المنافسة فى اختيار الصحفيين تعتمد على الكفاءة فى المقام الأول، وكان مصطفى أمين أكبر «خاطفى» الصحفيين المرموقين فجمع فى مؤسسته أبرز مجموعة من الشباب، تولت قيادة المؤسسة بعد ذلك.

المصادرة والتعطيل

كانت الصحف تتعرض للمصادرة بمجرد خروجها من المطبعة، فيهاجم رجال البوليس المطبعة وموزعى الصحف ويجمعون مايمكن جمعه، من أعدادها إذا مانشرت خبرا أو موضوعا لاترضى عنه الحكومة، فكانت الصحف تتقدم بمعارضة فورية على هذا الاجراء، وفى صباح اليوم نفسه تنعقد المحكمة للنظر فى أمر المصادرة، وتقرر فى معظم الحالات الافراج عن الصحف لأن المخالفة المزعومة لاتبرر ذلك، فترفع جهات البوليس يدها على الكميات المصادرة، وتنزل الى السوق. أما إذا أقرت المحكمة المصادرة فهى إما أن تقضى بمصادرة المطبوع بكامله أو تقضى بتمزيق الصفحة التى تتضمن الموضوع المعترض عليه، فتعرض الجريدة فى السوق وفيها صفحة ممزقة.

وكان الصحفيون يحتجون على إجراءات الرقابة بأن يتركوا فراغا فى المكان الذى حذفت الرقابة موضوعه، فتظهر الصحيفة وبها مساحات بيضاء حتى يدرك القارىء مدى تعسف الرقابة فى الحذف والتشويه.

أما تعطيل الصحف أى منعها من الصدور لأسابيع أو لأشهر، فهو قرار تصدره المحكمة استجابة لرغبة الحكومة إن وجدت له مسوغا قانونيا، ولكن أصحاب الصحف كانوا يحتالون على تعطيل صحفهم، بأن يستأجروا رخصة من أى صحفى يحمل رخصة لجريدة أو مجلة ثانوية، ويقومون بإصدار جريدتهم بالشكل والنظام نفسه وأسماء المحررين، ولكن تحت اسم آخر. وحدث غير مرة أن عادت الحكومة فعطلت هذا الإصدار الجديد، ولكن لتتكرر الحيلة باستئجار ترخيص آخر وموالاة اصدار الجريدة إلى أن تنتهى مدة التعطيل، فتعود إلى اسمها الأصلى.

ولأن الصحفيين ـ رؤساء التحرير بصفة خاصة ـ كانوا عرضة للحبس والسجن فى دعاوى صحفية، فكان بعضهم يستأجر شخصا لا صلة له، بالصحافة وينشر اسمه باعتباره رئيس التحرير مقابل مرتب يتقاضاه وهذا الشخص هو الذى يدخل السجن إذا ما أدينت الجريدة فى قضية صحفية .

هذه مجرد صفحة من سجل ضخم عن صحافة زمان، ولكن ما أصدق قول شوقى :

لكل زمان مضى آية
وآية هذا الزمان الصحف

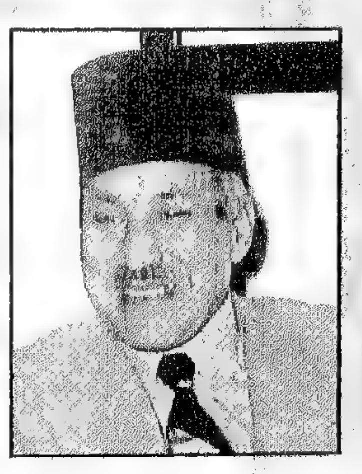
شهادة طفلة من الأمس

بقلم :صافى ناز كاظم

تاريخ محاولة إمتاع الطفل بالقصص والحواديت ، لعله تاريخ موغل فى القدم يصل حد بدء الخليقة. فلاشك أنه كان هناك منذ البداية طفل يبكى وتريد أمه أن تسكته أو تروّح عنه، وكان لابد أن تغنى له أو تهمهم ، أو تدق له على ركبتها إيقاعا يهدهده . ولاشك ، كذلك، أنه كان هناك دائما صبى يسأل ليعرف، ويتمتع بالمعرفة، وتريد أمه أو أبوه أو حاضنه أن يشفى غليله بالحكاية أو القصة أو الحادثة أو الخرافة والأسطورة «المكونة من خيال يضاف إلى الحقيقة - التى قد تكون حبة صارت قبة» . لابد ولابد ولابد، إذن فحكاية أن أدب الأطفال جديد ووسائل إمتاعه لم تكتمل إلا بظهور الكمبيوتر على الساحة سنة ٢٠٠٠ ، هى حكاية من بضاعة الأساطير.



كامل كيلانى



محمد فريد أبو حديد

لا أوافق الذين يقولون إن طفل اليوم أكثر وعيا وذكاء من طفل الأمس، وأن متطلبات تسليته وإمتاعه، بالإضافة إلى تعليمه وتربيته، تختلف تماما عن أطفال ما قبل الكمبيوتر والتليفزيون .. إلخ.. الطفل هو الطفل، لايزال محتاجا إلى الخيال والأحلام والتصورات الناعمة للشعر والمستحيل. وسآخذ نفسي نموذجا لطفل الأمس - «كنت طفلة سعيدة رغم يتمي المبكر بوفاة الأب سنة ١٩٤٤ وعمري ست سنوات» - إزدحمت طفولتي، التي كانت في الأربعينيات، بالمتع الثقافية - «الثقافة هي التغذية اللذيذة بالمعرفة» - وكان من أهم مصادرها حكايات ستي - «جدتي لأمي» - وقصص كامل كيلاني، وكتاب قراءة الأطفال تأليف إحسان أبو زويع - «كانت مدرستي في روضة أطفال العباسية الملحقة» - ومجموعة «أولادنا» وبالذات : أول روايتين في أدب الأطفال العربي من تأليف الروائي الرائد محمد فريد أبو حديد وهما: «عمرون شاه» التي صدرت عن دار المعارف عام ١٩٤٨، و«كريم الدين البغدادي» التي صدرت عن نفس الدار عام ١٩٥٠، ثم «مملكة السحر».

★★★

مع حكايات ستي - التي كانت تجيد الوصف بالكلام والتعبير الصوتي - كنت بخيالي أرى شكل المكان وشبه الأشخاص وطعم الطعام وصوت الأصوات. وكان معيار نجاح ستي في الحكاية هو ذلك الأسف الذي كان يغمرني عند قولها: «.. فرغت الحدوتة». كانت هناك قصص صغيرة في حجم الكف، لا أعلم مؤلفها، لكني تعلمت منها كلمة «فرسخ» في وصف العملاق الذي كان يقطع مسافات البلاد الطويلة بفرسخ أو فرسخين من ساقيه الضخمتين .كانت الكلمة غامضة بما يكفي، لتثير الشعور بالإعجاز، لم أعرف تماما ما هو طول «الفرسخ»، هل هو عشرة أمتار أم مائة أم ألف، ومع ذلك كان هذا الجهل هو بالضبط ما يعطي للكلمة الرنين الشيق الذي تعتمد عليه جاذبية القصة وإثارتها. هل كانت هذه القصص من مكتبة كامل كيلاني؟، لا أدري لأنها لم تكن ملكي ، كانت ملك ابنة عمي التي تكبرني بخمس سنوات، تقرأ وأسمع منها، ولازلت أذكر بريق عينيها وهي تقول: «فرسخ» لم يكن هناك أي رسم مصاحب إلا مصورات صغيرة، لكن أية حاجة كانت بي إلى الرسم وإبنة عمي رسوم متحركة تجسد بشخصها كل شيء بأسلوب عرفت فيما بعد، عند دراستي للمسرح، أنه بريختاوي، أي من تعليمات المؤلف والشاعر الألماني برتولد بريخت. طبعا بريخت كان يأخذ مما هو كائن في خبرته ليوظفه، وهكذا كانت ابنة عمي تفعل من دون ان تعرف بريخت أو غيره في سنها الذي لم يتجاوز الثانية عشرة: كانت تدخل في الشخصية تؤديها ثم تخرج منها

راوية ومعلقة كاسرة لوهمي الذي صورها لحظة عملاقا ولحظه أخرى طفلا يأكله العملاق - بعد سلقه - مع قشة بالخل والثوم، وكنت أفرح عندما تخرج من ثوب العملاق لأنني لحظتها أكون قد إرتحت من الخوف اللذيذ قليلا قبل أن يتحول من لذيذ إلى حراق إلى مؤلم.

★★★

كان الجاذب الذي ينهضني كل صباح لأذهب إلى روضتي هو ذلك الكتاب المهيب ذو الجلدة الخضراء السميكة، وكان يبدو لي ضخما ثقيلا، توزعه علينا المدرسة ثم تعود تجمعه بعد انتهاء القراءة لتحفظه لنا أنيقا نظيفا بعيداً عن عبث أقلامنا وألواننا. كنت أحب فيه صورة عصام الذي لبس طربوش والده وحذاءه والكلام الذي تقرأه: أنا الآن كبير مثل والدي لأني لبست طربوشه وحذاءه. كلما كانت الصورة كبيرة وطريفة، كلما كانت أقرب الى قلبي وأحببت قصة الفارة مكي وأولادها، ولعبة ترتيب حروف كلمة قبل أن نرفع الغطاء الملصق للتأكد من صحة ما توصلنا إليه. كان الكتاب بهيجا طريفا مكتوبا بيد خطاط بخط نسخ كبير جميل «كل هذا في العام الدراسي ١٩٤٤ - ١٩٤٥» أما «عمرون شاه» و«كريم الدين البغدادي» للأديب محمد فريد أبوحديد - «الذي كان يشرف على إصدار مجموعة أولادنا» منذ عام ١٩٤٦، ومنها المؤلف والمترجم» - فقد قرأتهما بنفسي في سن العاشرة وسن الثالثة عشر في طبعيتهما الأولى ذات الورق الخشن السميك واللوحات البديعة للرسام «ديك» والنسق الأنيق، ولم أعتقد وقتها أنني ساجد في الحياة شيئا أمتع منهما. الأسلوب الظريف الشيق الذي يمزج الرقي بالبساطة، يسهب في وصف الطبيعة الخلابة من شجر وماء - وجبال وبشر ومخلوقات طيبة وأخرى مؤذية يرسمها الفنان «ديك» بإتقان جميل يتحدى خيالاتنا حتى أننا لا نعود نذكر القصة منفصلة عن لوحاتها. فعمرون شاه هو عمرون شاه كما صوره «ديك»، وكريم الدين البغدادي، هو الذي رأيناه في الكتاب. والمركب. والبحر. والشجر، والطائر المتوحش الضخم. والحصى والساحر والمسحورين، لم يزعجني في سلسلة «أولادنا» إلا الصور الباردة ذات الزوايا الحادة المدببة في كتاب «آلة الزمان» عن الكاتب الإنجليزي هـ. ج. ويلز. أحيانا كنت في الحياة أقابل بشرا فأقول في نفسي هذا يشبه الساحر في قصة عمرون شاه، وهذه تشبه الرقيقة الجميلة «ميروت» في كريم الدين البغدادي، وتلك تشبه زوجة والد سندريللا القاسية، وأخرى تشبه ابنتيها الأنانيتين كما تم تصويرهن في «مملكة السحر» فكان الواقع هو الذي يشبه الفن، وكان الفن هو ما استدل به لفهم الواقع. إلى هذا الحد كان عمق تأثري بالأدب والفن الذي صاغه الظرف من أجل الأطفال في طفولتي.

ذكريات جامعية



بقلم : د. عبدالعظيم أنيس

على غير ما اعتاد أساتذة الجامعات أتيح لى أن أعمل فى الجامعات الثلاث الأساسية فى مصر: جامعة القاهرة، جامعة عين شمس، وجامعة الاسكندرية .

لقد تخرجت فى كلية العلوم جامعة القاهرة عام ١٩٤٤، وعندما سارعت جامعة الاسكندرية بتعيينى معيداً فى قسم الرياضيات كلية العلوم رحبت بهذا التعيين على الفور، وآثرت البقاء فى الاسكندرية، رغم أنه عرض علىّ بعد ذلك بشهور فكرة تعيينى بعلوم القاهرة لكننى اعتذرت .

كنت مبهورا بمدينة الاسكندرية وجوها، بعد أن زرتها لأول مرة فى صيف ١٩٤٣ مع بعض أقاربى ومكثنا فيها شهرا. وكنت أيضا حريصا على أن أعيش مستقلا عن عائلتى فى القاهرة، معتمدا على نفسى فى تدبير شئون حياتى بدلا من الاعتماد على شقيقاتى اللائى أخذن مسئولية والدتى فى المنزل بعد وفاتها عام ١٩٤٠ .

والأهم من ذلك أننى كنت قد بدأت فى العام الأخير من دراستى بكلية العلوم بالقاهرة أتصل بعدد من المعيدين بالكلية، وعلى رأسهم عبدالمعبود الجبيلى وشكرى سالم وعبدالرحمن الناصر، الذين بدأوا فى تشكيل حلقات ماركسية لمناقشة الأوضاع فى مصر، وعلى وجه الخصوص الاحتلال البريطانى، والإصلاح الزراعى، نقابات العمال وتحسين أوضاعهم، وفى النهاية ضرورة الإعداد للثورة على الأوضاع الراهنة.

وازدادت قناعتى بهذه الافكار وقرأت عددا من الكتب الماركسية فى الاقتصاد والفلسفة والسياسة. وبدأت أنتظم فى حضور ندوات دار الأبحاث بشارع نوبار. وعندما عينت معيدا بالاسكندرية وجدتها فرصة سانحة لبدء حركة اشتراكية مصرية جديدة فى أوساط الطلاب الجامعيين والمعيدين. وأكد لى أصدقائى

من المعيدين أهمية بقائي بالاسكندرية لفتح جبهة نشاط سياسي مصرى فيها. وقد رشحت فى سنوات ١٩٤٦، ١٩٤٧ لبعثات أجنبية، لكنى لم أذهب لأننى كنت آنذاك منهمكا فى العمل السياسى بالاسكندرية وكنت مقتنعا أن الثورة على الأبواب وأن المساهمة فيها أهم من الحصول على درجات علمية مثل الماجستير والدكتوراة.

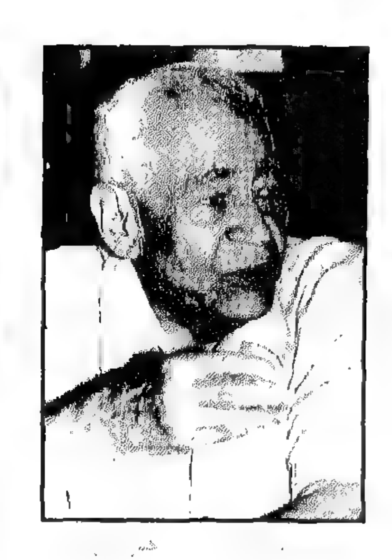
والحقيقة أننى كنت منهمكا فى الاسكندرية فى العمل السياسى فى الفترة ١٩٤٤ - ١٩٥٠، وتعرضت لمحاولة اعتقال فى يوليو سنة ١٩٤٦ ضمن حملة صدقى المشهورة ، لكننى أفلت من الاعتقال وبقيت مختفيا بالاسكندرية حتى أفرج عن جميع المعتقلين بعد شهرين عندما عدت إلى الجامعة .

وفى مايو سنة ١٩٤٨ أصدر النقراشى أمرا باعتقالى ضمن آخرين عديدين، ومع أننى نجحت مرة أخرى فى الهرب إلا أننى وقعت فى المصيدة عندما ذهبت لحضور أحد الاجتماعات فى شقة بسيدى بشر، وكان المقيمون فيها قد اعتقلوا قبلى. وبقيت فى معتقل أبو قير عدة شهور ثم نقلت مع آخرين إلى معتقل الهايكستب (فى طريق الاسماعيلية) ثم نقلت مع آخرين إلى معتقل الطور حيث بقينا فيه حتى الانتصار الانتخابى للوفد فى يناير سنة ١٩٥٠ فأفرجت عنا حكومته الجديدة.

ولست معنيا فى هذا المقال بالحديث عن نشاطى السياسى بالاسكندرية فربما أعود إلى ذلك فى مقال آخر. لقد أردت فقط فى هذا المقال الإشارة إلى أننى عدت إلى كلية العلوم بالاسكندرية فور الإفراج عنى فى أول عام ١٩٥٠، كما عاد الكثير من المعيدين الذين سبق اعتقالهم مثلى، أو الذين كانوا أفلحوا فى الهرب، وأظن أن عددنا كان ثمانية أو تسعة. لكننا أحسسنا أن ثمة تقاعسا بالكلية عن تسليمنا العمل من جديد، ويبدو أن الفكرة التى سيطرت على قيادة الجامعة آنذاك هى نقلنا من الجامعة إلى التعليم العام، وأظن أن هذه الفكرة كانت تدور فى ذهن مدير الجامعة آنذاك صادق جوهر الذى كان معروفا عنه صلته الوثيقة بالسراى الملكية.

لكن طه حسين كان وزيرا للتعليم، وقد نجحت فى مقابلته وشرحت له الوضع، كما نجح آخرون فى عرض قضيتنا عليه، فجاء موقفه حاسما بضرورة عودتنا إلى كلياتنا، وهذا ما تم فى نهاية المطاف.

بعد الإفراج عنى عام ١٩٥٠ كان تفكيرى قد تغير عما كنت اعتقدته عند تخرجى بالتفاؤل المبالغ فيه بقرب قيام الثورة الاشتراكية، قد انتهى بطبيعة الحال. لقد ظلت ثقتى فى أفكارى قائمة كما هى، لكننى أدركت لأول مرة أن الزمن سيطول قبل حدوث مثل هذا التحول الذى كنت أحلم به. وعلى هذا فلا بأس من بقائى فى الجامعة ومن الحصول على شهادة الدكتوراه، وهو شرط البقاء فى الجامعة.







وهكذا سافرت إلى انجلترا فى سبتمبر سنة ١٩٥٠ والتحقت بالكلية الامبراطورية بجامعة لندن، ووفقت فى الحصول على الدكتوراة فى الإحصاء الرياضى فى سبتمبر ١٩٥٢ وعدت إلى مصر بعد قيام ثورة يوليو بشهرين.

وبالطبع لم أنقطع عن النشاط السياسى وأنا فى لندن . فأتذكر أننى أنشأت مع آخرين اللجنة الوطنية المصرية وكان من أعضائها الدكتور فايق فريد والدكتورة حكمت أبوزيد . وقد عقدنا اجتماعا ضخما فى النادي المصرى بلندن حضره مئات من الطلاب المصريين بعد حدوث حريق القاهرة فى يناير سنة ١٩٥٢، وأعلنا احتجاجنا على الأوضاع فى مصر ضد الأحكام العرفية، وضد عزل حكومة الوفد، وأتذكر أن الدكتور عبدالحميد أمين (نجل الكاتب الكبير أحمد أمين) وقف فى الاجتماع مطالبا بتنازل الملك فاروق عن العرش.

كما أيدت هذه اللجنة (بعد دعوة أخرى للطلاب فى يوليو سنة ١٩٥٢) . ثورة الضباط خصوصا بعد قيامهم بإسقاط فاروق والإعلان عن نيتهم فى الإصلاح الزراعى.

عدت إذن فى سبتمبر سنة ١٩٥٢ إلى مصر، وذهبت إلى الاسكندرية لاستلام العمل، لكن جامعة الاسكندرية لم يكن يبدأ العام الدراسى فيها إلا فى أواخر أكتوبر فى تلك الأيام. وهكذا أقمت فى القاهرة حتى تبدأ الدراسة فى الاسكندرية عندما حدث لى تحول مفاجىء.

اتصل بى الدكتور طلبة عويضة، وكان المدرس الوحيد فى قسم الرياضة البحتة بكلية العلوم جامعة القاهرة، وأبلغنى أن رئيس القسم - الدكتور محمد مرسى أحمد (وزير التعليم العالى بعد ذلك أيام السادات) يريد أن يرانى. وكنت أرتبط

معه تاريخيا برباط الود والتقدير منذ أن كنت رئيسا للجمعية الرياضية الطبيعية وأنا طالب فى سنة البكالوريوس. وهكذا ذهبت إلي مقابلته بالكلية بالجيزة فإذا به يفاجئنى بعرض تعيينى فى قسم الرياضة البحتة بعلوم القاهرة فى مكان طلبة عويضة الذى كان سوف يعار لجامعة بغداد. وعندما أبديت له شكى فى أن توافق جامعة الاسكندرية على ذلك ، قال لى: المهم أن توافق أنت واترك الباقى لى.

وبالفعل وافقت وأنا لا أصدق أن هذا سوف يتم، لكن قرارا من وزير التعليم بنقلى من جامعة الاسكندرية إلى جامعة القاهرة صدر بعد هذا اللقاء بأربعة أيام، رغم استياء جامعة الاسكندرية ومحاولتها تعطيل هذا النقل بعض الوقت.

استلمت عملى إذن مدرسا فى قسم الرياضة البحتة بعلوم القاهرة في أكتوبر سنة ١٩٥٢، وكانت سنوات ١٩٥٢ - ١٩٥٣، ١٩٥٣ - ١٩٥٤ صعبة للأحداث السياسية التى وقعت فيها، ويكفى أن أذكر محاكمة خميس والبقرى فى كفر الدوار أمام مجلس عسكرى والحكم بإعدامهما وتنفيذ هذا الحكم الجائر، وأن أذكر الصراع الذى جرى بين رئيس الجمهورية محمد نجيب وبقية أعضاء مجلس الثورة، وموقف خالد محيى الدين فى هذه المعمعة، وكنا بطبيعة الحال نتعاطف معه، ومحاكمات الضباط التى جرت فى تلك السنوات، وما جرى فى أزمة مارس ١٩٥٤ .

ولقد بدا لنا - نحن أساتذة الجامعة - أن الحل الصحيح إزاء كل هذه الأحداث العاصفة هو فى عودة الحياة النيابية وحل مجلس قيادة الثورة وعودة الجيش إلى ثكناته. ووقع عدد منا مذكرة بهذا المعنى لرفعها إلى المسئولين.

وسافرت فى أول صيف ١٩٥٤ إلى انجلترا لاستكمال بعض أبحاثى العلمية التى كانت فى حاجة إلى حسابات لم تكن متاحة بالقاهرة . وفى لندن عرض علىّ أستاذى وظيفة محاضر «أ» senior Lecturer فى كلية تشيلسى للعلوم والتكنولوجيا فاعتذرت لأننى كنت أدرك أن جامعة القاهرة لن توافق على ذلك. وعندما عدت إلى مصر فى أواخر سبتمبر سنة ١٩٥٤ فوجئت بصدور قرار من مجلس قيادة الثورة فى ٢٣ سبتمبر سنة ١٩٥٤ بفصل ٤٢ من أساتذة الجامعات معظمهم ممن وقعوا على المذكرة إياها في مارس سنة ١٩٥٤، وكان من بين هؤلاء محمود العالم، عبدالمنعم الشرقاوى ، توفيق الشارى، لويس عوض، فوزى منصور، وكاتب هذه السطور.

وأبرقت إلى أستاذى الانجليزى بموافقتى على تعيينى فى لندن، وشرحت له فى خطاب خاص ظروف فصلى من الجامعة. وقد استطعت السفر إلى بيروت في نوفمبر سنة ١٩٥٤ ، ومكثت بها أربعة

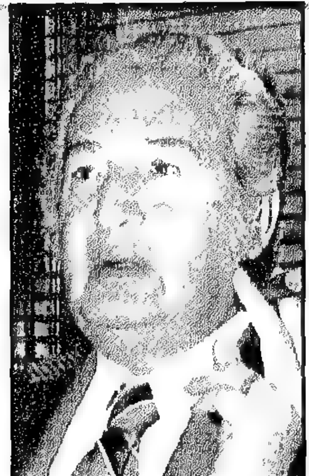
شهور محاضرا فى فرع معهد الإحصاء الدولى ببيروت حتى صدر قرار تعيينى فى لندن فى أول سنة ١٩٥٥ فسافرت إلى انجلترا وبدأت عملى هناك بالجامعة.

كنت – منذ عودتى إلى مصر عام ١٩٥٢ – مواظبا على نشر مقالاتى الأسبوعية فى مجلة روزاليوسف، بل لقد وصل الأمر – عندما التحق فتحى غانم بأخبار اليوم – أن كلفنى الأستاذ إحسان عبدالقدوس بتحرير باب «أدب» فى المجلة وواظبت على هذا شهورا عدة.

ولقد حرصت بعد أن استقر بى الحال فى لندن على مراسلة مجلة روزاليوسف بمقالاتى فى قضايا الثقافة والعلم والأدب. وكتب إحسان عبدالقدوس فى مارس سنة ١٩٥٥ مقاله الشهير (الرجل الذى سرقه الانجليز) دعا فيه إلى عودتى إلى الجامعة فى مصر – ورددت عليه بمقال موجز أرحب فيه بهذه العودة إن وافق المسئولون.

التفرغ للواجب الوطنى

لكن المسئولين لم يوافقوا بالطبع، وهكذا بقيت فى لندن حتى يوليو سنة ١٩٥٦ عندما أمم جمال عبدالناصر قناة السويس. وأحسست بطبيعة الحال أن واجبى أن أدافع عن هذا العمل وأن أشرح


احسان عبد القدوس


د. طلبة عويضة

فى اجتماعات النقابات فى بريطانيا تاريخ المظالم التى وقعت على شعب مصر عند بناء هذه القناة وسيطرة الأجانب عليها.

وحرصا منى على عدم إحراج الكلية التى أعمل بها قررت الاستقالة من عملى والتفرغ لهذا الواجب الوطنى. وبالفعل ذهبت إلى مدن بريطانيا المختلفة حيث كان الطلب شديدا على توضيح وجهة نظر مصر فى التأميم ، وكانت الاجتماعات هى فى الأساس اجتماعات دعت إليها نقابات العمال التى عارضت الحرب ضد مصر. وانتهت الأمور إلى اجتماع الطرف الأغر الشهير الذى خطب فيه نواب حزب العمال كما خطبت فيه شارحا وجهة نظر مصر. ولقد قدر أيامها أن عدد من حضروا هذا الاجتماع الجماهيرى يزيد عن الخمسين ألفاً.

وهكذا عدت إلى القاهرة من جديد فى ديسمبر سنة ١٩٥٦ ، ولم أكن أدرى ماذا سأفعل بالقاهرة. وبعد وصولى بأيام فوجئت باتصال من خالد محيى الدين – وكان قد بدأ فى إصدار جريدة المساء –

يعرض على أن أعمل معه فى الجريدة.

وبطبيعة الحال وافقت لأنه لم يكن هناك عمل آخر. وهكذا أصبحت صحفيا بعد أن كنت مدرسا جامعيا. وبدأت أكتب فى الشئون العربية وساعد على ذلك أن الجريدة أرسلتنى فى زيارات عربية متعددة، منها مثلا أننى كنت أول صحفى مصرى يدخل قطاع غزة بعد جلاء اليهود عنها فى يناير سنة ١٩٥٧، كما سافرت إلى الاردن وسوريا ولبنان والعراق، واجتمعت بعدد من زعماء تلك البلدان، وأدى عملى الصحفى إلى توثيق صلتى بهم.

وقد ظللت فى هذا العمل الصحفى إلى يناير سنة ١٩٥٩ حيث جرى اعتقالى مرة أخرى ضمن حملة اعتقال جميع اليساريين المشتغلين بالعمل العام. ومن أطرف ذكريات تلك المرحلة (مرحلة العمل فى جريدة المساء) أننى كنت قد أرسلت بحثين علميين إلى مجلة بيومتركا «Biometrica» البريطانية وأنا فى لندن. ولم تتيسر الموافقة على نشرهما ونشرهما فعلا إلا بعد تركى بريطانيا والتحاقى بجريدة المساء. ولا أعرف كيف أرسلت المجلة العلمية نسخا من بحوثى على جريدة المساء. وطبعا كنت منهمكا آنذاك فى شئون الصحافة حتى بدت لى هذه الأبحاث وكأنها شىء غريب علىّ مع أننى كاتبها منذ سنتين.

والأغرب من هذا أننى فوجئت ذات صباح فى جريدة المساء بمدير جامعة أسيوط - الدكتور سليمان حزين - يطرق بابى ورحبت به كثيرا وإن كنت لم أدرك سبب الزيارة. وقال لى إنه كان فى زيارة لأستاذى محمد مرسى أحمد، وكان آنذاك وكيلا لجامعة القاهرة يسأله أن يرشح لجامعة أسيوط، أستاذا مساعداً للرياضة البحتة فى كلية العلوم، وأن الدكتور مرسى رشحنى!!

وقلت له أننى غارق لأذنى فى عملى الصحفى بالقاهرة وأنا أفضله طبعا على عملى بأسيوط وعلى أية حال، فقد كان تقديرى أن كمال الدين حسين وزير التعليم آنذاك لن يوافق على عودتى إلى الجامعة.

لكن سليمان حزين كان حريصا على تعيينى بأى شكل، وقال لى أن هناك طائرة يومية بين القاهرة وأسيوط وأن المطلوب فقط هو أن أذهب إلى أسيوط يومين أسبوعيا أحاضر فيهما فى الرياضة البحتة، ولامانع من أن أستمر فى عملى بالصحافة بقية أيام الأسبوع، أما موافقة كمال الدين حسين فقد قال حزين: أترك لى هذا الأمر وأنا كفيل بإقناعه.

وبالفعل أعلنت جامعة أسيوط فى الصحف عن وظيفة أستاذ مساعد فى الرياضة البحتة، وخوفا من أن أكون لم أنتبه للإعلان أرسل لى سليمان حزين نسخة منه وطلبا للتعيين لكى أملأه. وبالفعل أرسلت طلب التعيين إلى جامعة أسيوط بعد أن ملأته. وبقيت منتظرا

النتيجة.

إلى أن فوجئت بدخول سليمان حزين مرة أخرى إلى مكتبى فى جريدة المساء وقال وهو فى أشد حالات الخجل أنه فشل فى إقناع كمال الدين حسين بالموافقة على تعيينى أستاذا مساعدا بجامعة أسيوط.

وهكذا بقيت فى عملى الصحفى إلى، أن جرى اعتقالى فى حملة أول يناير سنة ١٩٥٩ ضمن مئات من اليساريين المصريين. ثم جرى تقديمى إلى مجلس عسكرى برئاسة اللواء هلال عبدالله هلال مدير سلاح المدفعية ، وكان معى فى المحاكمة الدكتور فؤاد مرسى والدكتور إسماعيل صبرى والاستاذ محمد سيد أحمد والأستاذ محمود العالم وآخرون، وربما كان العدد الذى قدم للمحاكمة واحداً وستين.

مع أن هذا المجلس العسكرى حكم ببراءتى إلا أننى بقيت فى معتقل الواحات حتى ٣ أبريل سنة ١٩٦٤ عندما صدر قرار عبدالناصر بالإفراج عن كل اليساريين. لقد بقيت فى المعتقل خمس سنوات وثلاثة شهور، خرجت بعدها وأنا لا أعرف إن كنت سوف أعود للعمل بالصحافة أم لا.

لكننى فوجئت بصدور قرار جمهورى بتعيينى مديرا عاما للبحوث فى وزارة الخزانة فى يوليو ١٩٦٤، وكان وزير الخزانة آنذاك (الدكتور نزيه ضيف) زميلا لى فى الدراسة بالمرحلة الثانوية، وكان هو الذى أبلغ عبدالناصر باحتياجه لى للعمل معه بالوزارة.

ومع أننى لم أكن متحمسا أبدا للعمل بالدواوين الحكومية إلا أننى بالطبع شكرت الدكتور نزيه على مبادرته، وبقيت أعمل معه فى مكتبه نحو عام ونصف العام إلى أن اتصل بى أستاذى الدكتور محمد مرسى أحمد - وكان آنذاك مديرا لجامعة عين شمس - وأبلغنى أن كرسى الرياضة البحتة فى علوم عين شمس قد أصبح شاغرا بوفاة شاغله، وأنهم ينوون أن يعلنوا عن هذه الوظيفة فى الصحف، واقترح أن أتقدم ضمن المتقدمين.

عبدالناصر يوافق على تعيينى

وبالفعل تقدمت بطلب لشغل هذا الكرسى ، وخوفا من أن أواجه معارضة أجهزة الأمن فى عودتى إلى الجامعة- أرسلت خطابا إلى الأستاذ محمد حسنين هيكل أشرح له الموقف وأرجوه التدخل حتى لا يتعطل الموضوع مرة أخرى كما حدث فى جامعة أسيوط. وكان الأستاذ هيكل كريما فى موقفه ، فقد اتصل بالرئيس عبدالناصر فعلا ثم اتصل بى هاتفيا وأكد لى موافقة الرئيس عبدالناصر على عودتى إلى الجامعة إن رأت الجامعة أنها فى حاجة لى.

وقد اختارتنى اللجنة العلمية لشغل كرسى الرياضة البحتة فعلا، وبقيت شهرين بعد ذلك إلى أن أصدر مجلس جامعة عين شمس قرارا بتعيينى.

وهكذا عدت إلى الجامعة فى يناير ١٩٦٦ وبقيت فيها أدرس وأشرف على رسائل علمية حتى اليوم.

حفل بريد أنت والهلال بعشرات القصائد التى عبر أصحابها عن الأحداث المأساوية التى تشهدها الأرض الفلسطينية وانتفاضة الأقصى ، وسقوط شهداء الانتفاضة العزل من السلاح برصاص الغدر الصهيونى .

ننشر بعض هذه الإسهامات التى تعكس مشاعر الغضب والثورة والإصرار على عودة القدس لنا .

صرخة الأقصى

واروا رفاتك فى الرمال مساء ... فصحبت نور الفجر ، حين أضاء
ألق يحيط بنور وجهك ، مشرقا ... ومهابة ، خلعت عليك بهاء
أنت الشهيد على ضآلة مكرهم ... عصفا تركت قلوبهم ، وخواء
وضحية الكف التى قد صافحت ... أعدى عداك ، وقدمتك فداء
أنَّى لهم أن يبصروا بعد العمى ... والقلب أمسى لا يروم شفاء
يا صرخة الأقصى ، ولهفته التى ... صارت بقلبى عزمة ومضاء
أنا لا أريد بأن أظل على المدى ... أروى القصيد ، وأسمع الشعراء
أو أحفظ التاريخ ، إذ يروى لنا ... أصغى ، فأسمع معشرا غرباء
كتبوا لنا تاريخنا ، يا للأسى ... سموه - زورا - أعصرا ظلماء
نحلوا لهيكلهم كيانا مفترى ... وهو الذى ما قام قط بناء
اهتف، بل اصرخ ، ملء صوتك قائلا : ... هاتوا السلاح ، وابعدوا الخطباء
فلقد سئمنا قولكم ، ونصيحكم : ... لا تفصحوا ، لا تذكروا الأسماء
صارت حجارة أرضنا أسيافنا ... والسيف أصدق فى الوغى إنباء
ما حيلة الكلمات لو تغدو لنا ... هدفا ، أتسمع أمة صماء
مزق مواثيق السلام على الملا ... وارفع إلى المولى العلى دعاء
رباه ، أنت حسيبنا ، وحبيبنا ... فأمتنا يارب الورى شهداء

أمانى حاتم بسيسو
الأردن - جامعة مؤتة - كلية الآداب

حماة الحق

تموت بموت خطوتنا الدروب ... فخطوتنا ضحاها والغروب
إذا سرنا تزاحمت النجوم ... وحين غيابنا تترى الخطوب
فإن شئنا جعلناها سلاما ... وإن شئنا تغشتها الحروب
وكم بالأرض من أمم تهاوت ... ومفرق مصر يخشاه المشيب
سل الأمجاد فى كل العصور ... يجبك النيل والهرم العجيب
أليس العلم بعضا من خطانا ... أضاء لوقعها الأفق الرحيب
وكل الفن إن يبغى جذورا ... فذاك الصخر والوادى الخصيب
سل الأيام عن جند العبور ... يفيض الشوق والذكرى تطيب
وتحنى هامها كل البرايا ... لمن يخشاهم الموت المهيب
ويروى عنهم قصص الفداء ... صلاح الدين والقدس الحبيبّ
فما نامت لأعينهم جفون ... وبعض ترابنا يوما سليب
بنو أهرامهم فى كل عصر ... ولم يمسسهم يوما لغوب
حماة الحق - إن يطغى ظلام ... بقلب هلالهم سكن الصليب

عرنوس البراشي
شربين - دقهلية

فلسطين آن الإياب

فلسطين عدى جسور الصعاب ... على كل غدر يعوق الإياب
فبالأمس غدرا طواك العدا ... تعدى عليك اللصوص الذئاب
ونادى بنوك : الغياث الغياث ... فقامت حروب سجال غضاب

●●●

توارى وراء الذئاب الربيب ... يمدُّ الذئاب بأقوى النيوب
وبالدس أودى بحول الصفوف ... فراحت تعانى عميق الندوب
وداوت بكى لتلك الجراح ... وأغفت فأغفى ضمير الشعوب
بجيل الحجارة جيل الإياب ... تعالى صواب .. تعالى الصواب

●●●

صغار .. صغار أمام العيون / كطير أبابيل فوق الدجون
أصابوا برجم جنود اللصوص / تحدوا لأعتى وأقوى الحصون
وقالوا بحق لكل الدنى / صحونا لحق نرد الخئون
أجابت شعوب وكان الجواب / رأيتم صوابا آرانا الصواب

●●●

فهات ميلادا لعهد جديد / يقام لحق بحق أكيد
ونادى على كل ناء بعيد / وقولى تعالوا لأرض الجدود
وأنت كأم وأم رؤوم / خذيهم بحضن .. بشوق وجود
كفاهم ضياع ويكفى اغتراب / بجيل الحجارة آن الإياب

السيد عمر

منشية الرحمن - الفيوم

إلى روح الطفل الشهيد محمد الدرة

يادرة فى جبين الجرح نازفة / من أطلق النار ؟ ماذا كان حين رمى؟
أكان من طينة الإنسان معدنه / أم كان حقدا ، وبغضا شاردا ، وعمى؟
يرميك ، يصرع فيك الفجر مختلجا / فهو الظلام وما أقساه إذ هجما !

●●●

قم يا صغيرا على الآلام ، وجهك لن / ينساب نحو غروب يمطر الظلما
قم فى انتظارك آمال ، وأغصنها / ظليلة ، ووجوه عذبة ، ودمى
قم قل بلادى هنا ، أرضى هنا، وطنى / هنا . قم وحلق وانشر العلما
قم لا تمت وانتظر بشراك . إن غدا / حتما سيسأل عن عينيك : أين هما ؟!
فى الفصل مقعدك الخالى به شجن / أما رفاقك كم من بينهم صدما
ودفتر لم تحل الواجبات به / حتى متى يا صغيرى تهجر القلما ؟!

●●●

أيا محمد يا وجه الطفولة ، يا / براءة النور والنوار مبتسما
كان الرصاص حقيرا حين مر على / لحم طرى فأبلى فيه واخترما
كان الرصاص غبيا حين مزق تك... / ...وينا نديا ، وألقى للثياب دما

كان الرصاص جبانا حين عشش فى   لحم تربى على حب الحمى ونما
وشعرك الناعم المنساب خضبه   هذا الدم الصارخ الدفاق محتدما

●●●

يارقة النور فى عينيك أحسبها   فجرا سيشرق جبارا ومنتقما

محمد محمد السنباطى - شبراخيت

لا عزاء

لا تنصبوا فى كل بيت محزنة
يا إخوتى
عند الصباح ستنجلى عن دارنا
سحب الدموع الساخنة
عند الصباح ترون معجزة الدم
بدلا من السبعين ينبت فى الغد
سبعون ألفا من رجال الملحمة
لا تنصبوا فى كل قلب مأتما
وتعهدوا نبت الحياة القادمة
وابنوا لهم فى كل عين مسكنا
سبعون ألفا فى الغداة
تزهر .. وتنور
يلقون فى رحم التحدى بذرة تتعهد
سبعون مليونا من الغرس العفى ينبت
طوفانهم يجتاح يجتاز الطغاة
محطما ومطهرا
لا تنصبوا بين الجوانح محزنة
لن نظلم
رغم الطغاة وبغيهم
لن نظلم

د. حسنة عبدالحكيم عبدالله
كلية بنات عين شمس - القاهرة

حول المقال الأدبي ومجلة الهلال

قرأت ما كتبه الأديب فتحى عبدالسلام حسن - القارئ المتذوق كما وصف نفسه فى الهلال الصادر فى نوفمبر ٢٠٠٠ عن المقال الأدبى الذاتى مشيرا إلى أن مجلة الهلال تحفل بهذا المقال ويتعجب لأن الدكتور محمد رجب البيومى لم يشر إلى ذلك مع أنه من كتاب المجلة ، ثم ذكر أسماء أساتذة فضلاء من الذين يكتبون فى الهلال باعتبارهم من كتاب المقال الذاتى ، ولهؤلاء فضلهم دون منازع ولكنى وأنا من مريدى الدكتور محمد رجب البيومى وأعد نفسى أحد تلاميذه أعلم أنه جعل للمقال الذاتى سمات خاصة وضرب له عدة أمثلة بما كتبه جبران ، ومى ، والبشرى ، والمازنى ، وهؤلاء هم كتاب المقال الأدبى الذاتى بالمفهوم الذى شرحه الدكتور محمد رجب البيومى فى مقاله وهو يطلب عودة هذا النمط من الكتابة الفنية التى نفتقدها الآن ، ونحن نتمنى أن يعود قريبا على صفحات الهلال .

فرج مجاهد عبدالوهاب - محلج شربين - دقهلية

استعمار جديد !

كنا نتحدث كباحثين عن الملكية الفكرية وهل هى ذات إتجاه واحد أم ذات إتجاهين ؟ بمعنى هل هى ستطبق على الدول النامية فقط أم على الدول المتقدمة أيضا ؟ هل سيكون للدول المتقدمة فقط الحق والقدرة على حفظ ملكية اكتشافاتهم وتكنولوچياتهم تجاه الدول المستخدمة لها فقط أم سيصبح من حق الدول النامية حماية نباتهم ومنتجاتهم وتراثهم أيضا ؟ هل من حق المصريين مطالبة الشركة المنتجة لفيلم Prince of Egypt لاستخدامها رسومات فرعونية دون إذن منا ؟

هل لنا الحق فى مشاركة دخل متحف اللوفر للمشاهدين للقسم المصرى ؟ كان هذا حديثنا عن الملكية الفكرية إلى أن كتب الأستاذ الدكتور أحمد مستجير مقالة عن بذور شيطانية بمجلة الهلال فانزعجنا غاية الانزعاج لفكرة الاستعمار الجديد ليس باستعمار الأرض لكن باستعمار الإنسان عن طريق الغذاء .

هل تدريسنا للطلبة عن الربح وحرية السوق يمكن أن يصل إلى هذا السوء ؟

إذا حدث هذا بالفعل فالحل هو كما فعلت الهند أن نحمى أنفسنا بعدم استيراد البذور الشيطانية هذه نهائيا .

وشكرا لمجلة الهلال وشكرا للدكتور أحمد مستجير لشرحه وتوضيحه لنا لحقيقة المشكلة حتى يتسنى لمصر وافريقيا عامة أن تتخذ إجراء إزاء هذه المشكلة قبل فوات الأوان .

د. سونيا محمد على - أستاذ الاقتصاد الزراعى

القصة الشعرية

القصة الشعرية هى قصيدة قصصية لا يعرف لها مؤلف بعينه وتكتب بقصد الغناء أو الإنشاد وتعبر عن طبيعة وسمات الشعب الذى تنتمى إليه .. تتسم القصة الشعرية بالموضوعية فهى لا تعبر عن انفعالات ولا تنطوى على تأملات خاصة لكنها تذخر بالأمثال الشعبية والكلمات المأثورة التي يتداولها أفراد الشعب .. تقول بعض المصادر التاريخية أن القصص الشعرية اشترك في كتابتها أكثر من مؤلف ، وقد نشأ هذا النوع من القصص من الأغاني والرقصات التي كانت تؤديها جماعة من الناس ، بالإضافة إلى ما كان يضيفه أفراد الشعب أنفسهم إلى القصة الشعرية .. ، وأكثر الشعوب لديها هذا النوع من الأدب ، ففي الأدب الانجليزى وحده أكثر من ٣٠٠ قصة شعرية ترجع إلى القرن الرابع عشر الميلادى .

ظلت كلمة القصص الشعري تطلق على أى قصيدة قصصية وفي القرن السابع عشر الميلادى أصبحت تطلق على القصص التى تروى الأحداث الجارية ، خاصة قصص البطولة الشعبية ، وقد تصاحب القصص الشعرية الموسيقى والأغنيات التى تتسم بالبساطة والعاطفة ، ومن هذه القصص تلك القصائد المهمة التى نظمها كبار الشعراء خاصة في انجلترا ، واستخدموا فيها أوزان القصة الشعرية ومنهم أوسكار وايلد وفي القرن الثامن عشر بدأ الاهتمام بالقصص الشعرى بين فئة المثقفين ثم تزايد الاهتمام به بعد ذلك خاصة عند والترسكوت الذى ألف فيه العديد من الكتب التى ما تزال تتداول حتى اليوم .

محمد أمين عيسوى ـ الاسماعيلية

● الهلال : الصديق محمد أمين عيسوى ، يحرص في كل شهر على تقديم مساهمة يختارها بعناية ، وتحية له على دأبه الشديد ، ومواصلة إرساله لكل جديد نسعد به ويستفيد منه قارئ الهلال ، فشكرا للصديق العزيز .

مع أدب الرحلات

استوقفتنى عبارتان من مقال «خواطر مسافر» للأستاذ مصطفى نبيل المنشور بعدد نوفمبر ٢٠٠٠ من مجلة الهلال هما :

* تعلمت من خلال الرحلات أنه لابد أن ترى الغير بمنطقه لا بمنطقك ، وتتعرف على أفكاره بصرف النظر عن أفكارك .

* من يدرك عظمة التنوع بين البشر من العسير أن يقبل التعصب أو يسمح بالعزلة ، فالسفر كشف للذات وانفتاح على الآخر .

وقد أوحت إلى هاتان العبارتان الذكيتان باستطرادات أخرى أوجز لكم بعضها :

* إذا كان السفر يساعد على فهم منطق الغير والانفتاح عليه فإنه بالضرورة يؤدى إلى الإحساس بالآخرين وقضاياهم ، وبالتالى فهو يزيل العداء بين الشعوب .

* معظم الحروب التى نشبت فى العالم كانت نتيجة لنظرة ذاتية أحادية الجانب من قبل الحكومات تتمثل فى عدم إدراكها لأمانى الشعوب الأخرى .

* بفضل تعدد وسائل المواصلات الحديثة وسهولتها زاد معدل السفر حتى من بين الطبقات المتوسطة ، وازدهرت السياحة الخارجية خاصة فى العقود الأخيرة ، وترتب على ذلك إزالة بعض الفوارق بين الشعوب ، بل انتقلت العادات تلقائيا بين هذه الشعوب وبعضها ، وأزيلت الدهشة من على شفاه المسافرين عندما تحط أقدامهم بلدا جديدا ، وكأن ما يراه السائح ليس غريبا عليه فقد استحضره سلفا فى مخيلته نتيجة لتكنولوجيا الاتصالات الحديثة . .

* لم تعد اللغة حاجزا ، وفى تقديرى أن اللغات تتقلص الآن بين الشعوب ، وليس من المستبعد أن يسود العالم فى نهاية هذا القرن لغتان أو ثلاث فقط .

عادل شافعى الخطيب

عضو اتحاد الكتاب

من المسئول عن ضعف توزيع إنتاجنا الأدبى والشعرى

واقع الحياة الأدبية فى مصر يحيرنا ، خاصة عندما نسمع تلك التصريحات التى يطلقها الروائى والشاعر عن توزيع إنتاجهما فالأرقام هزيلة ، فمثلا الديوان المعجزة يوزع منه فى حدود ٣ آلاف نسخة ، والرواية ليست أحسن حالا على الرغم من أن عدد سكان مصر يزيد الآن على ٦٥ مليونا ، فيما توزع الرواية الواحدة فى أمريكا وبريطانيا على سبيل المثال نصف مليون نسخة ! فمن المسئول عن ذلك ، وهل يعنى هذا أن الأدب يموت فى مصر .

وانتقل أيضا إلى قضية تجاهل السينما المصرية لأعمال كبار روائيينا من أمثال بهاء طاهر وإبراهيم أصلان وادوار الخراط وغيرهم ، فلماذا لا تقدم السينما أعمالهم ونرى أفلاما على مستوى راق ، بدلا من هذا التدنى الذى نشاهده الآن .

ثم نشهد حملة غريبة حول الشعر والقصة والمفاضلة بينهما فهل الرواية الآن هى ديوان العرب ، أم أن الشعر مازال يحمل هذا الاسم ؟

لابد أن نتوقف جميعا عند هذا الخطر الذى يتهدد حياتنا الأدبية ويبدأ الأديب والقاصى والشاعر كل فى مجال إنتاجه فى مراجعة إبداعه ، لكى ننهض بثقافتنا التى تميزنا بها على مر العصور .

إبراهيم شعبان مصطفى - سبك الضحاك - منوفية

● الهلال : إن ما تناولته أيها الصديق هو واقعنا الحقيقى ، وربما ليس دور المبدع أن يقوم بالتوزيع ، فهذه مشكلة كبرى تعانى منها مصر والدول العربية ، فنحن كعرب لا يمكننا قراءة آدابنا المشتركة والمسئول الأول عن ذلك هو شركات التوزيع التى ينبغى أن تراجع من جديد أسلوب عملها .

وفيما يختص بتجاهل السينما لأعمال كبار روائيينا ، فالمنتجون يودون الربح السريع، ولو فكروا قليلا فيما حققته أعمال نجيب محفوظ ويوسف إدريس فى السينما ، لعادوا فعلا إلى النصوص الجيدة المتاحة لهم والتى تمتلئ بها كتب العديد من روائيى مصر المعاصرين .

ردود الأصدقاء

●● الصديق : عاصم فريد البرقوقى - الاسكندرية جليم .

قرأت مقال « أدب الرحلات» وأعجبنى فى المقال تلك الكلمات «ولد الإنسان راحلا ، إن أعجزته الرحلة ، أسعفه الخيال» .

وأقول : نعم إن الكلمة المقروءة لن تموت أمام هذا التقدم التكنولوچى المذهل ، لأنها تخاطب العقل والوجدان ، فمهما وصلنا إلى قمة الاختراعات يحلو لى أن أختلى بمجلتنا الحبيبة «الهلال» لكى أعيش لفترات مع ما تضمه من مقالات متنوعة تحقق لى متعة القراءة والتزود بكل جديد فى مجال الثقافة .

●● الصديق : محمد أحمد حسن - القاهرة

اقتراحك بإعادة طباعة ما كتب عن القدس فى مجلة الهلال مزودا بالصور ، فى كتاب هو الآن قيد البحث ، وهى فكرة طيبة نشكرك عليها .

●● الصديق الشاعر عبدالناصر الجوهرى

قصيدتك « لا تحسبونى قد غفوت» والتى مطلعها

من مكـــة انداحـــت فيوض عقيـــدة تتطلـــع

تنهال من روض السنا تدحوا الرذائل تدفـع

وصلت إلينا ، وسوف ننشرها ، مع شكرنا لك .

●● الصديق محمد السيد بغدادى - الاسماعيلية

وصلت إلينا مساهمتك بعنوان «أرض الشاطئ» وهى بداية جيدة تنبئ عن موهبة لديك فى كتابة القصة القصيرة ، ونرجو مواصلة الكتابة مع الإطلاع المستمر على إنتاج كبار كتاب القصة .

●● الصديق : حسن منتصر - فارسكور

«خدعة حتى الموت» محاولة جادة لكتابة قصة قصيرة ، لكن القصة القصيرة لكى تكتمل تحتاج إلى عمق فى الفكرة والتناول ، وليس السطحية التى قد تكتب بها القصة ، كما لو تناولنا حادثة ، أو جريمة تكتب فى باب الحوادث فى الصحف .. هذه محاولة فى البداية منك ، وواصل الكتابة ليتحقق ما تنشده .





لم استطع أن أدفع عن نفسي شعوراً بالقلق والتوجس وأنا أطالع مقالاً لأحد علماء الأزهر فى أهرام الخميس الثانى من نوفمبر .

وكان مصدر القلق عبارة فضيلته - «أجمع المحققون من أهل العلم أن المؤسس والمنشئ للمسجد الأقصى هو يعقوب عليه السلام» . فليس تحته إذن هيكل سليمان كما يدعى الاسرائيليون. ولقد أراد فضيلته بهذا القول أن يحسم الخلاف بين الفلسطينيين والاسرائيليين . وإذا كان يعقوب هو اسرائيل، كما يعرف الجميع، أفلا نخشى أن يتخذ الاسرائيليون هذا البيان ذريعة للمطالبة بما شيدّ جدهم عليه السلام؟ فربما يكون حجة دامغة تقدّم لهم على طبق من ذهب ولكن ينبغى ألا نغفل أن القضية الفلسطينية ليست نزاعاً دينيا بين العرب وإسرائيل، لأننا، كما هو معلوم، مسلمين ومسيحيين، نؤمن بأنبيائهم، وسبق رسالتهم. وبذلك نسلمهم سلاحاً أخطر وأقوى مما يملكونه بالفعل.

ولا يعنى هذا أننا نستريب فى إيماننا بصحة النصوص الدينية، بل يعنى أننا ننزهها عن الاستخدام فى غير مانزلت بشأنه ، ونستبدل بها خطاباً آخر يلائم معركتنا التى هى سياسية، وطنية، وقومية. لأننا إذا ما لجأنا إلى النص الدينى ليكون وسيلتنا فى رسم أهدافنا السياسية، فلابد إذن أن يكون على رأسها مطالبة الاسرائيليين بالعودة إلى «أور الكلدانيين» فى جنوب العراق حيث ولد ونشأ سيدنا إبراهيم، بدلاً من الهدف القديم وهو إلقاؤهم فى البحر !! كما أن الحديث المسهب عن تاريخ قديم للقدس الكنعانية لا يصلح دفاعاً عن شرعية عروبتها الراهنة وإلاّ لطالب الألمان بفرنسا التى تعنى بالألمانية «دولة الفرنجة» وهى من القبائل الجرمانية، أو انجلترا لأنها تنتمى الى الأنجلو ساكسونيين الذين نزحوا من ألمانيا، وكذلك الأندلس لأنها تعنى أرض «الوندال»، وهم قبيلة جرمانية مخرّبة. وتطالب اليونان بتركيا التى كانت قبل دخول الأتراك جزءاً من دولة الروم المتحدثة باليونانية، وقد نشأت فيها الفلسفة الأغريقية فى «أيونيا» على ساحلها الغربى بل إن لفظ «اليونان» تعريب أو تصحيف لأيونيا!! قضية فلسطين ليس سلاحها النصوص الدينية، أو الهجرة إلى التاريخ البعيد بل قد تستدرجنا النصوص الدينية إلى نزع المواطنة عن غير المسلمين، وكأننا بذلك نعترف ضمنا بحق اسرائيل فى الدولة العنصرية الدينية لأننا، دون وعى، نصنع مثلها.

إن أقصى ما يمكن أن تبلغه النصوص الدينية، عملياً، هو إقناع الرأى العام العالمى بتدويل القدس الشرقية وبذلك نفقدها إلى الأبد، عاصمة وطنية لفلسطين المستقلة.

وعلينا ألاننسى أن الشرط الرئيسى لصلاحية أدوات الصراع هو ألايستخدمها العدو لتنقلب علينا. وحسبنا أن نستل أسلحتنا من الخطاب الوطنى السياسى للتحرير وانتزاع الأرض المغتصبة من العدو المحتل، فهو كفيل باستنفار المناضلين الفلسطينيين، وكذلك استقطاب جميع الشرفاء فى العالم بأسره .

روايات مصرية للجيب

النغمة الجميلة العذبة فى ربوع الوطن العربى من مشرقه إلى مغربه



روايات مصرية للجيب

لفتح آفاق الثقافة والمعرفة فى عقول الأولاد والبنات

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت : ٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٢٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس : ٢٨٦٧٠٠٢